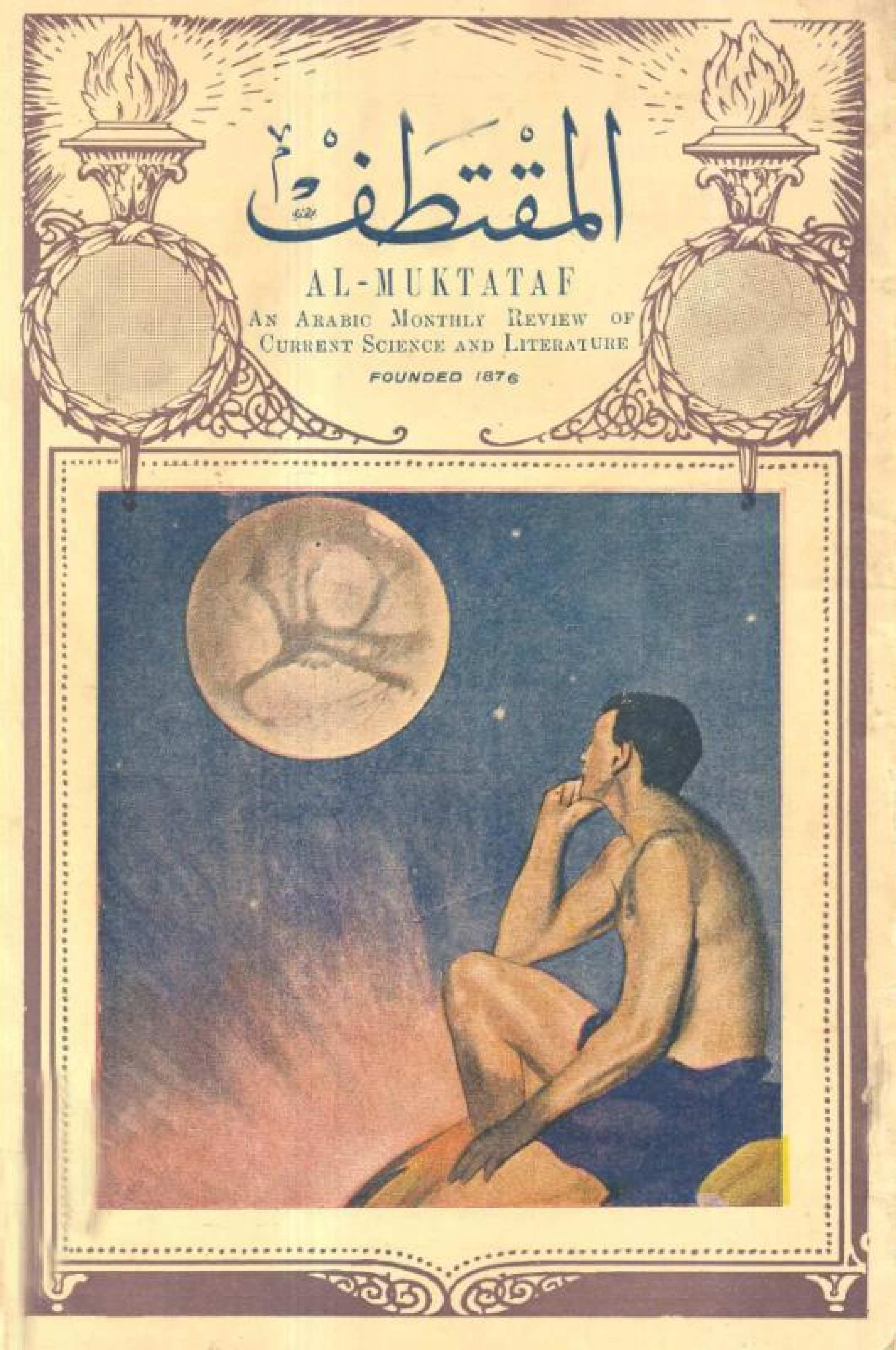


المقتطف
AL-MUKTATAF
AN ARABIC MONTHLY REVIEW OF
CURRENT SCIENCE AND LITERATURE
FOUNDED 1876

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الاول من المجلد السادس والثمانين

١ يناير سنة ١٩٣٥ — ٢٥ رمضان سنة ١٣٥٣

كشف الايدروجين الثقيل

وجائزة نوبل في الكيمياء

صلته بعلمي الكيمياء والطبيعة وأثر الماء الثقيل في الاحياء

لعلَّ كشف العلماء الاميركيين للايدروجين الثقيل والماء الثقيل اعظم اثر علمي لهم بعد تجربة ميكلصن مورلي التي نهضت على اساسها نظرية النسبية ، وقياس ملكن للشحنة الكهربائية على الالكترون ، وبحثهِ هو وكمطن وصحبهما في الاشعة الكونية . بل لعلَّ كشف الايدروجين الثقيل يفوق هذين البحثين الاخيرين لانهُ فتح ميداناً جديداً في علوم الطبيعة والحياة حالة ان قياس الشحنة الكهربائية على الالكترون والبحث في الاشعة الكونية ، مع ما ينطويان عليهِ من ابداع وتدقيق ، لم يكونا الاَّ اضافة جديدة الى موضوعين سبقهم الى العناية بهما غيرهم من العلماء . فمنح جائزة نوبل الكيمائية عن سنة ١٩٣٤ للدكتور هارولد يوري Urey استاذ الكيمياء الطبيعية في جامعة كولومبيا جزاء لهُ على كشفهِ هذا ، بعد فوز طائفة من علماء الولايات المتحدة الاميركية بعدد من جوائز نوبل في الطبيعة والكيمياء (هؤلاء العلماء هم بحسب ترتيب نيلهم للجوائز المذكورة ميكلصن وملكن ورتشردز وكمطن ولنغميور) دليل على ان اميركا التي كانت الى عهد قريب عالة في علمها على اوربا معنية في الغالب بتطبيق مبادىء العلوم التي كشفها الاوربيون ، قد اخذت تقوم بنصيبها في ترقية العلم بالاضافة الى بحوثهِ الاساسية ؛ وتجني ثمرة الاموال التي انفقت في

ربوعها على انشاء الجامعات ومعاهد البحث العلمي في الشركات الصناعية الكبيرة . على ان الاستاذ يوري ليس العالمَ الاميركيَّ الفردَ الذي عني بهذا البحث الجديد بل يجب ان نذكر معهُ الاساتذة برج Birge ومنزل Menzel وبريكود Brickwedde ولوس Lewis ويستطيع القارىء ان يتبين أثر كلٍّ من هؤلاء العلماء في هذا الكشف من خلال هذا المقال

* * *

اطلق على الضرب القديم المعهود من الايدروجين اسم ايدروجين ١ ، وعلى الضرب الجديد اسم ايدروجين ٢ . والرقمان يشيران الى وزن الضربين او الى الوزن النسبي لذرتيهما بالمقابلة مع وزن ذرة الاكسجين . فقراء المقتطف يعلمون ان الايدروجين أخف المواد المعروفة على الاطلاق وان ثقله واحد ، اي اذ اتخذنا الاكسجين اساساً للمقابلة ، وجعلنا وزنهُ الذري ١٦ فوزن الايدروجين الذري على هذا القياس واحد . وهذا الايدروجين هو الضرب الاول المعروف الآن بايدروجين١ اما الايدروجين٢ فثقله اثنان بالقياس الى ثقل الاكسجين . فاذا فرضنا ان ذرة الاكسجين ثقلها ١٦ فذرة الصنف الاول من الايدروجين ثقلها ١ وذرة الصنف الثاني ثقلها ٢ . وقد اقترح المكتشفون اطلاق اسمين يونانيين على هذين الضربين من الايدروجين ، يعنيان ١ و ٢ وهما بروتيوم ودوتيريوم [١]

لا يخفى ان المواد التي تحيط بنا ، المنوعة في أشكالها وأوزانها وألوانها وروائحها وقساوتها ولينها انما هي مركبة اصلاً من موادّ اولية تدعى عناصر وعددها اثنان وتسعون عنصراً . فالعنصر في عرف الكيمياء هو المادة التي لا نستطيع ان نحلها بما نملكه من الوسائل الكيمائية من دون ان تفقد خواصها

وفي سنة ١٨٠٢ قال دلتن الكيماوي الانكليزي ان المادة مركبة من دقائق صغيرة دعاها ذرات Atoms وكان المفروض في نظريتهِ ان ذرات كل عنصر متشابهة جرماً ووزناً وتصرفاً كيمائياً . ثم كشف علماء الكيمياء وسائل تمكنهم من معرفة اوزان هذه الذرات بالمقابلة بينها . وفي سنة ١٨١٥ بين الطبيب پروت Prout الانكليزي ان الاوزان الذرية ليست الاَّ اضعافاً مختلفة لوزن ذرة الايدروجين . فوزن الكلسيوم ٤٠ مثلاً وهو ٤٠ ضعف وزن الايدروجين . فاذا سلمنا بهذا القول وجب ان تكون الاوزان الذرية كلها اعداداً صحيحة ، لان وزن الايدروجين عدد صحيح . واقترح حينئذٍ نظرية عجيبة مؤداها ان ذرات العناصر انما هي مركبة من ذرات ايدروجين محشوكة معاً . ولكن لدى وزن ذرات العناصر بالأساليب المعروفة ، تبين ان اوزان كثير منها ليس بالعدد الصحيح واذاً فلا يمكن ان تكون اضعافاً لوزن ذرة الايدروجين . فصرف النظر عن مذهب پروت في أواخر القرن التاسع عشر . ولكنهُ بعث من مرقده الآن . والقول بأن ذرات العناصر مبنية من ذرات الايدروجين ، له صلة دقيقة بما للايدروجين الثقيل (الايدروجين ٢) من المكانة عند علماء الكيمياء والطبيعة

---

(١) يفضل علماء بريطانيا اسم دبلوجين للايدروجين الثقيل وذرته تعرف عندهم باسم دبلون

لنلتفت الآن الى ناحية اخرى من هذا البحث جديرة بالاهتمام . ففي اواخر القرن التاسع عشر كشف الباحثون عن ظواهر الاشعاع . فوجدوا ان هناك عناصر تتحول من تلقاء نفسها من عنصر الى آخر . فالراديوم يتحول بعد زمن طويل ينقضي عليه الى رصاص . وكانت النتيجة التي أسفر عنها البحث في تحول العناصر بعضها الى بعض ، ان بعض العناصر التي تنتهي اليها العناصر المشعة — كالرصاص مثلاً — تشبه عناصر اخرى في خواصها الكيمائية ولكنها تختلف عنها في وزنها الذري . فالرصاص الطبيعي يشبه الرصاص الناشىء من تحوّل الراديوم بالاشعاع ولكن أحدهما يختلف عن الآخر في وزنه الذرّي . كذلك الراديوم والميزوثوريوم ، لا يمكن ان يفصل احدهما عن الآخر من ناحية الخواص الكيمائية ، ولكن الراديوم يحتاج الى ١٨٠٠ سنة لكي يتحول الى عنصر آخر وأما الميزوثوريوم ، فيحتاج الى سبع سنوات فقط ليتحوّل التحوُّل نفسهُ . ثم ان وزن الراديوم الذري ٢٢٦ واما وزن الميزوثوريوم ، الذرّي فـ ٢٢٨ والذرات التي تتشابه من حيث خواصها الكيمائية ولكنها تختلف من حيث وزنها تعرف بالنظائر Isotopes وقد عثر بين العناصر المشعة على أمثلة عديدة من النظائر

***

والخطوة التالية في تطوُّر هذا البحث انما تمّت لما ثبت ان العناصر العادية كالنيون والكلور وغيرهما مؤلفة من ذرات متشابهة في صفاتها الكيمائية وانما تختلف في اوزانها . ولعلَّ اشهر الباحثين في هذا الموضوع هو الاستاذ استن Aston الانكليزي الذي اثبت ان اكثر العناصر مؤلفة من نظائر . وقد اقتفى الباحثون الاميركيون خطوات استن فأثبتوا ان للاكسجين والنتروجين والكربون نظائر كذلك . وقد ظهر ان اوزان ذرات النظائر تكاد تكون اعداداً صحيحة مما يعيد الى الذهن نظرية بروت ، وهي ان ذرات العناصر مبنية من ذرات الايدروجين وقد حشكت معاً

واذا كان هذا صحيحاً فيجب ان يعثر الباحثون على ذرة مؤلفة من ذرتي ايدروجين فتكون أبسط الذرات المركبة بحسب نظرية بروت وحلقة بين ذرة الايدروجين وذرات العناصر الاخرى المركبة منها . فعني بدرس هذا الموضوع الاستاذ برج Birge أحد اساتذة جامعة كاليفورنيا والدكتور منزل Menzel احد علماء مرصد هارفرد فأقاما الادلة على ان ايدروجين ، يوجد في الايدروجين العادي بنسبة ١ الى ٤٥٠٠ . واذا بلغت ندرة أحد النظائر هذه المرتبة (١ : ٤٥٠٠) تعذّر الكشف عنهُ الاَّ اذا امكن تركيزهُ . لذلك عمد الدكتور بريكود Brickwedde الى تقطير الايدروجين السائل على درجة واطية جداً من البرودة — ٤٦٦ بميزان فارنهيت تحت درجة الجمد . وبذلك زادت نسبة ايدروجين ، الى ايدروجين ، حتى بلغت ١ : ١١٠٠ فتمكن الدكتور هارولد يوري Urey أحد اساتذة الكيمياء في جامعة كولومبيا ومعاونهُ مرفي من كشفهِ بواسطة طيفهِ . ثم كشفت طرق

اخرى لاستحضاره منها طريقة الحل الكهربائي . والمتوقع ان يكون هذا الضرب من الايدروجين مداراً لمباحث خطيرة في الكيمياء والطبيعة ، لذلك نذكر في ما يلي اشهر ما يعرف عن خواصهِ وما قد يفضي اليهِ درسهُ من النتائج العلمية

***

لقد تبحّر العلماء في درس بناء الذرات في العهد الحديث فوصلوا الى ان الذرة مبنية من جزئين. اولاً من كتلة مركزية مشحونة شحنة كهربائية موجبة وحولها دقائق من الكهربائية السالبة تعرف بالكهارب او الالكترونات . فاذا تعيَّن لدينا عدد الالكترونات حول نواة ذرة ما تعيَّنت كذلك خواصها الكيمائية. فاذا كان في الذرة الكترون واحد فهي ذرة ايدروجين . واذا كان فيها الكترونان فهي ذرة هليوم . واذا كان فيها ثلاثة الكترونات فهي ذرة ليثيوم . او اربعة فهي ذرة بريليوم . او خمسة فهي ذرة بور . او ستة فهي ذرة كربون . او سبعة فهي ذرة نتروجين . او ثمانية فهي ذرة اكسجين . او اثنان وتسعون فهي ذرة اورانيوم وهو آخر سلسلة العناصر . والعناصر الباقية متوسطة بين الاكسجين والاورانيوم تزيد ذرة كلٍّ منها الكتروناً واحداً عن ذرة العنصر السابق

ولكن كتلة الذرة مركزة في النواة المركزية ، ووزنها يختلف باختلاف عدد الدقائق التي تتركب منها النواة . فنواة ذرة الايدروجين ، (او البروتيوم) تحتوي على دقيقة واحدة وتعرف بالبروتون .اما ذرة الايدروجين (او الدوتيريوم) فمؤلفة من بروتون ونوترون — والنوترون دقيقة وزنها وزن البروتون مؤلفة من بروتون والكترون ومتعادلة الكهربائية — فذرة الايدروجين الذي وزنهُ الذري ٢ (اسمها دوتون او دبلون) هي بعد ذرة الايدروجين ابسط الذرات المعروفة . واذا شاء العلماء ان ينفذوا الى سر تركيب النوى في الذرات وجب عليهم ان يقفوا على تركيب ابسط الذرات وأبسط النوى ثم ما يليها فما يلي ذلك . ودرس نواتي البروتيوم والدوتيريوم انما هو خطوة اولى في هذه الناحية

ثم ان الليثيوم الذي وزنهُ الذري ٧ يتفاعل مع البروتيوم لتوليد الهليوم . والليثيوم الذي وزنهُ الذري ٦ يتفاعل مع الدوتيريوم لتوليد الهليوم كذلك . وهذا النوع من التفاعل يفيض طاقة عظيمة تفوق مليون ضعف الطاقة التي تسفر عنها التفاعلات الكيمائية العادية . هذا اهم ما يقال عن البروتيوم والدوتيريوم من حيث مكانتهما في علمي الطبيعة والكيمياء

اما من ناحية خواصهما الكيمائية فثمَّة فروق بينهما . فعالم الكيمياء يهمهُ ان يعرف لماذا تتصرف العناصر الكيمائية تصرفها المعروف . كيف يحترق الايدروجين وكيف تحصل التفاعلات الكيمائية في اجسادنا ؟ ونحن نعلم ان الجواب الشافي عن هذه الاسئلة وأشباهها يتناول عوامل كثيرة منوعة . ولكننا نعلم كذلك ان لوزن الذرات في المواد المتفاعلة شأناً كبيراً . او نحس ان ذلك يجب ان يكون . والظاهر ان احساسنا هذا صعب التحقيق فالعلماء يقولون ان وزن الذرات ،

اذا كان لهُ اثر في التفاعلات الكيمائية فانهُ اثر لا يكاد يكشف بالكواشف المعروفة . ولكن الفرق الكيمائي بين تفاعل ذرة البروتيوم وذرة الدوتيريوم يسهل كشفهُ بنسبتهِ الى وزني الذرتين . فالماء الذي يصنع من الايدروجين، يختلف في درجة غليانهِ عن الماء المصنوع من الايدروجين ٢ . ثم ان تفاعلاً كيمائياً يدخل فيهِ احد الصنفين يختلف سرعةً عن نفس التفاعل اذا أبدل فيهِ احد الصنفين بنظيره . وقد يكون هناك فروق بيولوجية ناتجة عنهما . فالفئران التي تحتوي اجسامها على مواد يكثر فيها ايدروجين ٢ في تركيبها قد لا تستطيع الاَّ ان تكون بطيئة او لا تستطيع ان تعيش قط فهو في جسمها بمثابة السم . فهذا الايدروجين الثقيل كأكثر المكتشفات العلمية في استهلالها لا يمكن ان نحكم عليهِ حتى يتعمق العلماء في درسهِ وكشف احواله وخواصهِ

***

لما كشف الايدرجين الثقيل في اميركا ، بدأ العلماء يتكهنون بخواص الماء الذي يصنع منهُ . وقد قال الاستاذ يوري Urey احد مكتشفيهِ ان الماء يهمنا من الناحية الكيمائية لانهُ افضل المواد المذيبة المعروفة . وكثير من التفاعلات الكيمائية تحصل في الماء . ثم ان الايدروجين يلي الكربون في عدد المواد التي يدخل في تركيبها . فالمعروف ان الايدروجين يدخل في تركيب نحو ٣٠٠ الف مركب عضوي او اكثر ، علاوة على الكربون والنتروجين والاكسجين . ولما كانت المواد التي يدخل الايدروجين الثقيل في تركيبها تختلف في خواصها عن نفس المواد اذا كان ايدروجينها عاديًا فاكتشاف هذا النظير للايدروجين يفتح امامنا باباً لتركيبات كيمائية جديدة

وقد ثبت من تجارب جربت في احدى كليات اميركا ان الماء الثقيل (اي المركب من اكسجين وايدروجين ثقيل) يفتك بحياة بعض الحيوانات المائية. ثم ان الخمائر لا تنمو فيهِ بنفس السرعة التي تنمو بها في الماء العادي. ووجد الكيماوي الاميركي الاستاذ غلبرت لوس ان بزور التبغ لا تنتش بعد نقعها في الماء الثقيل . ثم اذا نقعت في ماء عادي ، تنتش انتاشاً ضعيفاً غير سويّ . اما الديدان المسطحة فتكاد تموت اذا نقعت ثلاث ساعات في ماء ثقيل ثم تعود الى الحياة اذا نقلت الى ماء عادي . وقد وجدت طائفة من اساتذة جامعة برنستن ان دعاميص الضفدع الخضراء لا تستطيع ان تعيش في الماء الثقيل اكثر من ساعة

وقد عاد الاستاذ لوس حديثاً الى تجربة اثر الماء الثقيل في حياة الفئران . فأخذ فأرة وسقاها الماء الثقيل بقطّارة لان ثمن الرطل منهُ يبلغ ١٥٠٠ جنيه لندرة الايدروجين الثقيل ولشدة العناء في تحضيره . وسقى فأرين آخرين ماء عاديًا . وكانت النتيجة ان الفأرين اللذين سقيا الماء العادي ظلاَّ يتصرفان تصرفاً سويًّا في اليقظة والمنام . اما الفأر الاول فتصرَّف تصرُّفاً غريباً . اذ جعل يقفز قفزاً عجيباً ويلحس الجدار الزجاجي في قفصه . وكان كلما سقي الماء الثقيل يزداد ظمأ . ولو لم ينفد الماء عند الاستاذ لوس لمضي هذا الفأر يشرب وهو لا يرتوي

مكتبة الاسكندرية ومدرستها

وطرفٌ من آثار بعض علمائها في عهد البطالسة *

اذا ذكرت الاسكندرية بين حواضر العلم في العصر القديم كانت في فريق الطليعة . فلعلمائها في ميادين العلم النظري والعملي مكتشفات ومخترعات كانت ولا يزال بعضها آيةً في الابداع والابتداع. ولأدبائها وفلاسفتها في نواحي الادب والفلسفة القدح المعلّى والذكر الخالد . ولعلَّ مدينة في التاريخ لا تستطيع ان تباهي بكوكبة من العلماء كالكوكبة التي تستطيع ان تباهي بها الاسكندرية وتفوقها . حتى ولا اثينا في اوج عزها [1] . وان مدينة تستطيع ان تنظم في عقد عظمائها ، علماء من طبقة اقليدس وارخميدس وابولونيوس وهيرو وهبارخس وبطليموس وهيروفيلوس واراستسترتس وغيرهم ، ويقرن اسمها في تاريخ العلم بأصول الهندسة المسطّحة وقواعد التشريح ومبادىء الطبيعة المحققة المجرّبة وقياس محيط الارض ومعرفة ميل دائرة البروج ووضع نظام كوني ظلَّ سائداً حتى خاتمة القرون الوسطى ، لمدينةٌ يحقّ بنا ان نلتفت الى تاريخها وأثرها في العمران . ونحن نفعل ذلك الليلة ، لا لنشيد بماضٍ غابرٍ مجيد ، او لنبكي على علم مضاع ، مكتفين بالإشادة والبكاء ، وانما لندلَّ على ان البلاد التي اظلّت اولئك العلماء والفلاسفة وأنجبت بعضهم ، تستطيع اليوم بما تلقاهُ ، من تشجيع جلالة مليكها العالم ، المحبّ للعلم ، ان تعيد من ذلك العهد الزاهي سيرتهُ المجيدة الاولى ، فتنتظم هذه البلاد في الموكب العلمي السائر بقواعد تفكيره ونتاج ذلك التفكير — رغم بعض المساوي التي تبدو في أفقهِ — نحو المُثُل الانسانية العالية

***

بعد وفاة الاسكندر المقدوني الفاتح العظيم ، كانت مصر نصيب القائد بطليموس ، أحد قوّادهِ الاربعة الذين اقتسموا مملكتهُ المترامية الاطراف . وكان لموقع مصر الجغرافي اكبر أثر في بلوغها في القرون التالية ارفع رتبة بين أمم ذلك العصر . ذلك ان بُعدها عن القبائل الاوربية الغازية التي اكتسحت اوربا ، وتحطيم اسطول الفينيقيين بعد حصار صور وافتتاحها عنوة ، جعلها في مأمن من هجمات الاعداء فتمتعت ردحاً من الدهر بسيادة بحرية واتسعت الاسكندرية حتى ساوقت قرطاجنة ونافستها في التجارة غرباً واتصلت ببلاد العرب والهند من طريق البحر الأحمر . وزنع

---

* من محاضرة لرئيس تحرير المقتطف في جامعة القاهرة الاميركية

(١) ولز : موجز التاريخ : صفحة ١٩٧ طبعة كاسل ١٩٢١

أهلوها في بحبوحة من العيش والرخاء ، فتسنى لهم ان ينصرفوا عن الاهتمام بشؤون العيش وامور الدفاع الى إنشاء المدارس والاندية العلمية . فأصبحت الاسكندرية ، الثغرُ التجاريُّ العظيم ، محطاً رحال العلماء والفلاسفة ، ومقرًّا للادباء والكتّاب فأمّها طلاّب المعارف من جميع البلدان المجاورة لبحر الروم . وأصابت فيها المباحث العلمية والطبية والفلسفية قسطاً عظيماً من التقدُّم . وأسبغ على جماعة علمائها اسم مدرسة « الاسكندرية » فصارت علماً لهم في أسفار التاريخ

لما انتهى الاسكندر من أمر الشام ودخل مصر وطرد الفرس منها أراد ان يبني فيها مدينة تقوم مقام صور وتكون محطاً لتجارة المشرق والمغرب . وكان في مقدونية مهندس شهير اسمهُ دينوقراطس كان قد بنى هيكل ارطاميس في أفسس بعد ان حرقهُ هروسترآتس الاحمق طلباً للشهرة وخلود الذكر وإن جاءاه من سبيل التدمير . فلما طبّقت شهرة الاسكندر الخافقين ودوّى اسمهُ في الاقطار رأى هذا المهندس ان يصنع لهُ تمثالاً لم يصنع مثلهُ لملك من ملوك الزمان . فلما مثل بين يديهِ قال لهُ إني عزمت ان أنحت لك جبل أتوس واصنعهُ تمثالاً لك وأبني الى يساره مدينة تتسع لعشرة آلاف من الناس واحوّل جميع الانهار التي تنبع منها الى يمينهِ فتجري منها الى البحر سيلاً متدفقاً[٢] . فسرَّ الاسكندر بهِ وصرفهُ ولعله قال في نفسهِ ان هذا الرجل قد فاقني في حب الشهرة فطلبها من حيث تتعذّر . ولكنَّ الاسكندر تذكره لما أراد بناء تلك المدينة على شواطىء وادي النيل فاستدعاه اليهِ ووكل اليهِ بناءها في سنة ٣٣٢ ق . م

وقد اطلعت في ما كتبهُ ياقوت الحموي عن انشاء الاسكندرية على هذه الرواية[٣] قال : وقيل ان الاسكندر لما همَّ ببناء الاسكندرية دخل هيكلاً عظيماً كان لليونانيين فذبح فيهِ ذبائح كثيرة وسأل ربَّهُ ان يبين لهُ أمر هذه المدينة هل يتمُّ بناؤها أم هل يكون أمرها الى خراب فرأى في منامهِ كأن رجلاً قد ظهر لهُ في الهيكل وهو يقول لهُ ، انك تبني مدينة يذهب صيتها في أقطار العالم ويسكنها من الناس ما لا يحصى عددهم وتختلط الرياح الطيبة بهوائها ويثبت حكم أهلها وتُصرف عنهم السموم والحرُّ وتطوى عنها قوة الحرّ والبرد والزمهرير ويكتم عنها الشرور حتى لا يصيبها من الشياطين خبلٌ وان جلبت عليها ملوك الارض بجنودهم وحاصروها لم يدخل عليها ضرر ... فبناها وسماها الاسكندرية . . . . وفيها قبرهُ . . . . ومن ألطف ماروواه ياقوت ان الاسكندر والفرما أخوان بنى كل منهما مدينةً بأرض مصر وسماها باسمهِ ولما فرغ الاسكندر من مدينتهِ قال قد بنيت مدينة الى الله فقيرة وعن الناس غنيّة فبقيت بهجتها ونضارتها الى اليوم . وقال اخوه لما فرغ من مدينتهِ قد بنيت مدينة عن الله غنية والى الناس فقيرة فذهب نورها . . . .

وقد اشتهرت الاسكندرية في ناحية العلم والثقافة بمكتبتها او بمكتبتها الشهيرة من ناحية وبمدرستها الخالدة الذكر في تاريخ تقدم العلم من ناحية اخرى ولكن قبل ان نأتي على ذكر المكتبة

(٢) المقتطف مجلد ١٧ سنة ١٨٩٣ صفحة ٧١٣ (٣) معجم البلدان ج ١ ص ٢٣٧

والمدرسة ومن اتصل بهما من أعاظم العلماء وأثر هؤلاء في ترقية العلم نريد ان نورد لكم نبذة عن منارتها التي كانت تحسب من عجائب الدنيا السبع

بنيت المنارة في عهد بطلميوس الثاني — ويقال ان بطلميوس الأول شرع فيها — بناها سستراتس الكنيدي وتمت سنة ٢٨٠ ق . م . وكان ارتفاعها على ما جاء في بعض الروايات ٤٠٠ ذراع وهو بعيد الاحتمال . ولكن لا يبعد انها كانت عالية جداً وثيقة البنيان حتى بقي برجها الاسفل الى سنة ١٣٥٠ للميلاد لما جاء ابن بطوطة الاسكندرية وقال انها بناءٌ مربّع ذاهب في الهواء داخله بيوت كثيرة وعرض الحائط (يريد سماكة الجدار) عشرة اشبار وعرض المنار من كل جهةٍ من جهاته ٤٤٠ شبراً وهو على تلٍّ مرتفع . ثم قال قصدت المنار عند عودي الى بلاد المغرب سنة ٧٥٠ هـ (١٣٢٩ م) فوجدتهُ قد استولى عليهِ الخراب بحيث لا يمكن دخولهُ ولا الصعود الى بابهِ

وقال ابن جبير في رحلتهِ سنة ٥٧٨ هـ انهُ قاس احد اضلاع المنارة فوجدهُ يزيد على خمسين ذراعاً وان الارتفاع يزيد على ٥٠ باعاً . اما ياقوت الحموي الذي شاهد المنارة قبل ابن بطوطة بنحو مائة وخمسين سنة فقال انها حصن عالٍ على سنّ جبلٍ مشرفٍ على البحر في طرف جزيرة بارزة في ميناء الاسكندرية بينها وبين الشط نحو شوط فرس وليس اليها طريقٌ الاَّ في ماء البحر وهي مربّعة البناء ولها درجة واسعة يمكن الفارس ان يصعدها بفرسهِ . وقد سُقّفت الدرج بحجارة طوالٍ مركبة على الحائطين المكتنفي الدرجة فيرتقي الى طبقة عالية يشرف منها على البحر(٤)

وقال المقريزي في خططهِ نحو سنة ١٤٠٠ ان منارة الاسكندرية احد بنيان العالم العجيب . . وطولها في هذا الوقت تقريباً ٢٣٠ ذراعاً بعد ان كان ٤٠٠ ذراع فتهدمت من ترادف الامطار والزلازل . . . وقال علي باشا مبارك في خططهِ التوفيقية ان محل هذه المنارة الآن البرج الزفر الذي هو محل طابية قائد بك الذي في النهاية البحرية الشرقية من جزيرة فاروس

***

ان مكتبة الاسكندرية ، في تاريخ المكتبات القديمة ، ليست اقدمها ، ولكنها في الغالب اشهرها على الاطلاق . فلوك الشرق كانوا قد انشأوا المكتبات قبل ذلك بقرون . والاغريق انفسهم كانوا قد انشأوا اول مكتبة للدولة قبل انشاء مكتبة الاسكندرية بقرن على الاقل . انشأوها في هرقلية على الشاطىء الجنوبي من البحر الاسود قبل سنة ٣٥٠ ق . م . لما كان الاسكندر لا يزال طفلاً يحبو(٥)

بل يقال ان ارسطو طاليس معلم الاسكندر ومثقفهُ في الحكمة والفلسفة اول من جمع مكتبة في اليونان ، وان مكتبتهُ اصل مكتبة الاسكندر ، وان كتبهُ جميعاً كانت فيها ، وان البطالسة اكثروا من جمع الكتب اقتداءً بهِ واكراماً لذكره لانهُ هو الذي هذَّب الاسكندر قائدهم الاعظم . ويقال

(٤) تاريخ البطالسة ، المقتطف مجلد ٣١ سنة ١٩٠٦ صفحة ٥٩٠ و ٥٩١

(٥) مجلة Antiquity يونيو ١٩٢٨ صفحة ١٩٦

كذلك انهُ بلغ من غرامهم في جمع الكتب انهم كانوا يستعيرون المؤلفات من اصحابها ويعهدون الى من ينسخها فيحفظون الاصول عندهم ويردّون النسخ الى اصحاب المؤلفات . وكانت المكتبات في ذلك العهد تعتمد على نسخ مكتبة الاسكندرية ، فكان مكتبة الاسكندرية علاوة على كونها خزانة لحفظ المؤلفات وناديًا لمراجعها كانت دارًا للنشر كذلك . بل يقال ان بطلميوس رفض ان يمنح الاثينيين ما يحتاجون اليهِ من الطعام في اثناء مجاعة اصابتهم الا اذا اباحوا له نسخًا معتمدة من مآسي اسخيلوس وصفوقليس ويوريبيدس وانهُ لما فاز ببغيته سخا في توفية ثمنها علاوة على ارسال مقادير الطعام المتفق عليها

ومما يدلك على عناية بطلميوس بجمع الكتب في مكتبة الاسكندرية ان دمتريوس فاليريوس كان امينًا على المكتبة في ذلك العهد — الرواية ليوسيفوس المؤرخ — فطلب الامين الى مليكه في رسالة اثبتها يوسيفوس ان تجمع نسخ موثوق بها من كتب التشريع العبراني لما تنطوي عليهِ من الحكمة الخفية وان تنقل وتفسَّر فامر الملك بارسال رسالة الى اليازار رئيس الكهنة العبرانيين في هذا الصدد . ثم يروي يوسيفوس ان هذه النسخ جمعت ونقلت واطلع دمتريوس الامين على ترجمتها ووافق عليها ثم رفعها الى الملك فاعجب بها وامر بأن توجه اليها عناية خاصة حتى لا يُدخل فيها[6]

ولعلَّ اشهر رجل تولّى ادارة مكتبة الاسكندرية عالم يدعى كاليماخس ، وهو باعتراف اولي الرأي، اعظم امناء المكتبات في العصر القديم . ففي عهده وضع فهرست للمكتبة ملأ مائة وعشرين مجلدًا وكان فهرستًا تامًّا مرتبًا بحسب اسماء المؤلفين وموضوعات الكتب التي كانت ذات قيمة خاصة في نظر كاليماخس . ويجب ان نشير في هذا المقام الى ان الكتب في ذلك العهد لم تكن سوى لفّات من الرق نسخت عليها المؤلفات القديمة ، وكان المطالع يضطرُّ عند المطالعة ان يتناول المؤلفات التي ينوي ان يطالع فيها لفّةً لفّةً ويبسطها ليطلع على محتوياتها ولا يخفى ما في ذلك من الضرر على اللفّة لما يمحى او يتلف منها بالنشر والطيّ . وفطن كاليماخس الى ذلك فقسم المؤلّفات الكبيرة كتاريخ هيرودتوس الى لفات صغيرة ودعا كلَّ لفة منها كتابًا او مجلدًا

وقد اختلفت آراء الثقات اختلافًا كبيرًا في عدد الكتب او المجلدات التي كانت تحتوي عليها مكتبة الاسكندرية . فجورجيوس قدْرينوس يقول انها كانت ١٠٠ الف . وسنكا الحكيم ٤٠٠ الف . ويوسيفوس المؤرخ يذهب الى انها كانت ٢٠٠ الف ثم زيدت حتى بلغت ٥٠٠ الف . وزعم أَولوس غاليوس Gallius انها كانت ٧٠٠ الف . وجاراهُ اميانوس . وفي ذلك اقوال اخرى

ولعلَّ منشأ الاختلاف في التقدير اختلاف الكتّاب في النقل والرواية اولاً وفي حسبان احدهم لفّات المؤلف الواحد كتبًا مختلفة حالة ان الآخر لم يحسبها الا كتابًا واحدًا . فاحد كتب اوفيدوس كان في ١٥ لفة ويروون ان كتابًا لديدموس كان في ٣٥٠٠ لفة . وكذلك الاختلاف ناشئ عن ان مكتبة

(٦) مجلة Antiquity يونيو ١٩٢٨ صفحة ١٩٧

الاسكندرية لم تكن مكتبة واحدة بل ثلاث مكتبات على الاقل الاولى مكتبة الموزيوم (ندوة الادباء والعلماء) وقد جاء في اوروسيوس ان ٤٠٠ الف مجلد منها احترقت لما حاصر يوليوس قيصر الاسكندرية والثانية مكتبة السرابيوم احترق اكثرها في عهد الملك ثيودوسيوس سنة ٣٩١ للمسيح والثالثة مكتبة برغامس اضيفت الى الثانية واحترقت معها وما بقي تلف على تمادي السنين

وهذا يصل بنا الى الرواية التي تتهم القائد العربي عمرو بن العاص بحرق مكتبة الاسكندرية بناء على رغبة امير المؤمنين الامام عمر بن الخطاب

فالمؤرخون متفقون على ان النار شبَّت في مكتبة الاسكندرية غير مرة قبل القرن الثالث الميلاد . ولذلك لا يسع المؤرخ ان يفهم كيف يعزى حرقها الى العرب بعيد فتح مصر . وقد اطلعتُ في جواب عن سؤال في هذا الصدد ورد على المرحوم الدكتور صرُّوف (٧) قال فيه : واما ما قيل من ان الامام عمر امر باتلاف هذه المكتبة فرواية مطعونٌ فيها وعندنا انها كاذبة . وقد ايد البحث الحديث هذا الحكم الذي حكم بهِ الدكتور صرُّوف . بل ان حكمةً كان يجب أنْ يدركه الباحثون عقلاً ، لان ديناً يجري على لسان رسولهِ الكريم « اطلبوا العلم ولو بالصين » لا يمكن ان يستبيح اتلاف ثمرات الحكمة والعلم المتجمعة في مخلـفات العقل البشري

فقد قيل في هـذه الخرافة ان يوحنا النحوي جاء الى عمرو بن العاص بعد دخوله الاسكندرية وتوسل اليهِ ان يقطعهُ نصيباً من الأغنام . فسأله عمرو ايّ نصيب يطلب فأجاب يوحنا كتب الفلسفة في خزانة الملوك اي المكتبة . فقال عمرو انهُ لا يستطيع ان يفصل في ذلك من دون ان يسأل فيهِ امير المؤمنين ، فكتب الى أمير المؤمنين في ذلك فجاءه الردّ : اما الكتب التي تشير اليها فاذا كانت محتوياتها تتوافق وكتاب الله فلا حاجة اليها . واذا كانت على الضدّ من ذلك تعارضهُ فلا فائدة في حفظها وارغب في ان تدمر . فأمر عمرو بأن توزع الكتب في حمامات الاسكندرية وان تحرق . ولم يبق أثر منها بعد انقضاء ستة أشهر على ذلك

بيد ان الحقيقة لا تطمس الى الابد . فما لبث البحّاث ان تبينوا الخطأ الفاضح في الرواية . ذلك ان يوحنا النحوي الذي اسند اليه هذا الحديث الموهوم كان قد توفي قبل تاريخ الحديث المذكور . وقد عني غير واحد من العلماء بتفنيد الخرافة ، ولعلّ احدث وأتم بحث في هذا الصدد للمستشرق المعروف في هذا القطر الاستاذ كازانوفا رحمة الله عليهِ في رسالة تلاها امام اكاديمية الآثار والآداب بباريس في ٢٨ مارس سنة ١٩٢٣ (٨)

***

اما اشهر مدارس الاسكندرية فكانت المدرسة المعروفة باسم الموزيوم . وكلمة الموزيوم في اللغات الاجنبية تعني الآن داراً للتحف والآثار . ولكن معناها الاصلي « هيكل ربّات الفنون »

(٧) المقتطف مجلد ١٧ صفحة ٦٠ (٨) مجلة Antiquity يونيو ١٩٢٨ ص ٢٠٣

والاسم مركب من لفظين يونانيين الاول «موزيون» ومعناهُ هيكل والثاني «موز» ومعناهُ ربّة او إلاهة . فالموزيوم الاسكندري كان داراً للعلم والتعليم وندوة للعلماء والمفكرين وعلى ذلك يمكن حسبانه اول جامعة في التاريخ (٩) . وكان مبنيًّا حيث بورصة الاسكندرية الآن . اي ان الاقدمين من سكان الاسكندرية كانوا يطلبون الغنى العقلي حيث يطلب المحدثون الثروة المادية الآن . ولهذه المدرسة الفضل الاول في حفظ علوم اليونان وبثّها في الشرق والغرب وترقيتها في نواح عديدة . وينقسم العلماء الذين اتصلوا بمدرسة الاسكندرية الى فريقين بوجهٍ عام: فريق المشتغلين بالعلوم الطبيعية . وفريق بالعلوم الطبية

فن الفريق الاول العالم الرياضي الاشهر اقليدس واضع الاصول الهندسية ، التي لا تزال تدرَّس الى عهدنا هذا . ومما يؤسف لهُ ان التاريخ لم يدوّن شيئاً مفصلاً عن سيرته . وكلُّ ما يعرف منها مستمدّ من كتابات بابوس وبروكلوس عنهُ . ويؤخذ من كتابيهما ان اقليدس ولد في الاسكندرية حوالي سنة ٣٠٠ ق . م وعاش في خلال حكم الملك بطلميوس لاغوس . وقد كانت تعاليمه مصدر وحي والهام لطائفة من علماء الرياضيين والطبيعيين جاؤوا بعدهُ (وسيجيء ذكرهم) . ويقول بروكلوس ان اقليدس كان دمث الاخلاق حسن المناقب مقرَّباً من الملك الذي كان يحبُّ العلم ويقرّب العلماء . ويُروى عنهما حكاية طريفة خلاصتها انهُ كان للملك قصر تؤدي اليه طريق سلطانية واسعة ممهَّدة يسلكها هو ورجال بطانته والمقرَّبون اليه . اما عامة الشعب فكان عليهم ان يسلكوا اليه طريقاً وعرة . وكان الملك سائراً ذات يوم مع اقليدس في الطريق المهيع ، فالتفت المليك الى العالم وسألهُ هل ثمة طريق مختصر لتعلم الهندسة غير الاصول التي وضعها ونظمها فكان ردُّ العالم : «ليس للهندسة طريق سلطانية يا مولاي»

ويجب ألَّا يتبادر الى الذهن ان اقليدس اول عالم في التاريخ عني بوضع الاصول الهندسية لان طاليس وفيثاغوراس وأبقراط الكيوسي (وهو غير ابقراط ابي الطب) سبقوه الى ذلك . وانما كتاب اصوله يشتمل على المبادىء التي وضعها هؤلاء مضافاً اليها ما وضعهُ هو ، مرتباً ترتيباً منطقيًّا أُسبغ عليها سمة الكمال وجعلها معتمد الطلاَّب هذه القرون العشرين او تزيد

ومن علماء مدرسة الاسكندرية الاعلام ارخميدس . ولارخميدس في ميادين العلوم الرياضية والطبيعية مكانة تفوق مكانة ارسطوطاليس المعلم الاول . وكثير من الآراء والنظريات التي ابتدعها ارخميدس واقام الدليل عليها بالبرهان والتجربة لا تزال جزءًا لا ينفصل عن التراث العلمي العظيم الذي يدرسهُ الطالب في مدارس اليوم

ولد ارخميدس في سيراقوسة بجزيرة صقلية حوالي سنة ٢٨٧ ق . م . لما كان الملك هيرو ملكاً عليها . وتلقى العلم في الاسكندرية ، وقد لا يبعد انهُ تلقى العلم على اقليدس نفسهِ . وفي هذا وحدهِ

(٩) ولز : موجز التاريخ : صفحة ١٩٧

دليل على مدى الشهرة التي ظفرت بها مدرسة الاسكندرية في ذلك العهد ، لان السفر من صقلية الى الاسكندرية في ذلك العهد لم يكن بالامر الميسّر وخاصّة في طلب العلم . وعاد ارخميدس الى مسقط رأسهِ ، ولكنهُ ظلَّ متصلاً بعلمائها واقرانهِ في مدرسة الاسكندرية ، ولذلك يصحُّ ان يسلك في عداد عظمائها . وقد اشتهر ارخميدس بمباحثهِ في الرياضة المجرَّدة وعلم السوائل والميكانيكا . ولهُ فيها مبتدعات لا تزال معروفة في عصرنا مسندةً الى اسمهِ . ولعلَّ اشهر ما اشتهر بهِ ارخميدس بحثهُ في الاجسام الطافية والغاطسة في الماء والحادثة التي جرت لهُ مع الملك هيرو من ابدع ما يروى عنهُ ولذلك لست اعتذر عن اعادة ذكرها

كان ارخميدس لشدة تفكيره في مسائل الطبيعة التي تسترعي نظرهُ ذاهلاً شارد الذهن . فدعاهُ الملك هيرو في احد الايام وقال لهُ انهُ يبغي ان يقدم للآلهة تاجاً من الذهب وان احد الصوَّاغ كان قد صنع التاج . ولكن الملك يريد ان يتحقق من ان التاج ذهب خالص لم يدخل فيهِ بفضة . وطلب الملك الى ارخميدس ان يحلَّ لهُ هذا المعمى من دون ان يصاب التاج بتلف او اذى

فخرج ارخميدس من حضرة المليك شارد اللب ، ولم يفق الاَّ وهو في حمامهِ . ذلك انه دخل الحمَّام فكان الحوض ملآناً بالماء حتى حافته العليا ، فلما دخل ارخميدس الحوض فاض الماء على جوانبه . فانتبه عندئذٍ الى ان هذا الفيضان يحل مشكلة التاج ، فخرج من حمامهِ عارياً في الشوارع وهو ينادي «يوركا . يوركا» اي وجدتها وجدتها

وكيف حل المشكلة ؟ اخذ كرتين احداهما من الذهب . والاخرى من الفضة . وجعل وزن كل منهما وزن التاج تماماً . ولاحظ ان حجمي الكرتين مختلفان فكرة الفضة اكبر من كرة الذهب لان الفضة اخف وزناً من الذهب . وأتى بحوض مستوٍ ووضع فيهِ مقداراً من الماء ورسم خطاً عند مستواهُ الأعلى . ثم جاء بكرة الذهب وغطَّسها في الماء فارتفع مستواهُ في الحوض فرسم خطاً عند مستواهُ . ثم اخرج كرة الذهب وغطس كرة الفضة فارتفع مستوى الماء في الحوض فوق ارتفاعهِ عند تغطيس كرة الذهب لان حجم كرة الفضة اكبر من حجم كرة الذهب . ورسم خطاً للدلالة على ارتفاع الثاني . ثم اخرج كرة الفضة . واتى بالتاج وهو يقول في نفسهِ اذا كان التاج ذهباً خالصاً وجب ان يرتفع مستوى الماء بقدر ما ارتفع عند تغطيس كرة الذهب . ثم غطس التاج فارتفع مستوى الماء ولكن جاء ارتفاعهُ بين بين ، اي بين ارتفاع المستوى الخاص بكرة الذهب وارتفاع المستوى الخاص بكرة الفضة . فعرف ان التاج ليس ذهباً خالصاً

وقد افضت تجربتهُ هذه — وهي من التجارب العلمية الخالدة — الى بحثهِ في الاجسام الطافية والنواميس المسيطرة على هذه الظاهرة مما هو مثبت في كتب الاصول العلمية

ولما فتحت سيراقوسة عنوةً سنة ٢١٢ في الحرب البونية الثانية اصدر القنصل مارسلوس الروماني الى الجند امراً مشدداً بعدم التعرض للعالم ارخميدس ، اعترافاً منهُ بفضلهِ ونبوغهِ ، مع انه

كان قد استنبط وسائل مختلفة لدفع هجمات الرومان عن مسقط رأسهِ . وكان ارخميدس عند افتتاح المدينة قد رسم دائرة على الرمل وجعل يقلب النظر في مشكلة يحاول حلها فهجم عليه جندي روماني وطلبَ اليه اسمهُ . فقال لهُ ابعد عني فانك تكاد تطمس دائرتي . فطعنه الجندي وكان في الطعنة حتفه

ومن علماء مدرسة الاسكندرية اراتوستين — — وكان أحد امناء المكتبة — الذي حسب محيط الكرة الارضية ، فجاء حسابهُ حينئذٍ لا يبعد الا خمسين ميلاً على التقدير المسلَّم بهِ الآن ، وانشأ مرصداً في الاسكندرية لرصد الافلاك وكشف ميل دائرة البروج

وابولونيوس الذي كتب كتابات رياضية في الطبقة الاولى . وخاصة ما كتبه في المخروطات الهندسية . وهيرو الذي كان عالماً رياضيًّا ومستنبطاً بارعاً في الوقت نفسهِ . فرسائله الهندسية تشتمل على بيان لاستخراج مساحات السطوح الهندسية واحجام الاشكال المجسمة . وقد وضع كتاباً في مسح الاراضي واستنبط لذلك آلة اشبه ما يكون بآلة المهندس الحديث المعروفة باسم « ثيودوليت » ، ولهُ كتاب في السوائل وقد بنى على علمهِ بالسوائل آلات مختلفة تعتمد على قوة السوائل وحركتها مثل السيفون ومضخة الاطفاء وابتدع اساليب لاستعمال قوة البخار حتى لنستطيع ان نقول ان هيرو اول من صنع آلة بخارية في التاريخ . ويروى عن السر تشارلز بارسنز مستنبط التربين البخاري ، انهُ لما ذهب الى مكتب البراءات لتسجيل اختراعهِ ، اسف انهُ لم يرَ فيهِ اسم هيرو مخترع اول آلة بخارية في التاريخ . ولهيرو علاوة على ذلك مباحث في الميكانيكا نقلها العرب باسم « في رفع الاجسام الثقيلة » ورسالة في السطوح العاكسة ، وتعليقات على اصول اقليدس ورسالة في الساعات المائية

ومن علماء مدرسة الاسكندرية هبَّارخس واضع ازياج النجوم وبطلميوس الذي ابتدع نظاماً كونيًّا ظلَّ سائداً حتى عصر كوبرنيكوس وغليليو . وقد كان بطلميوس في نظر اهل عصره والعصور التي تلته بمثابة آلهٍ لذلك دعوا كتابهُ الذي اودعهُ ذلك النظام الكوني « المجسطي » اي « ذو الجلالة » ولا يزال يعرف بهِ الى يومنا هذا في اللغة العربية واللغات الاجنبية على السواء

اما مدرسة الاسكندرية الطبية فقد امتازت بعلم التشريح . ولعل عادة استخراج امعاء الميت بعد الموت عند المصريين لغرض التحنيط شجع على ذلك . وثمة أدلة على ان بعض الاعضاء كانت تشق في اجسام الاحياء بقصد درسها . وكان المجرمون المحكوم عليهم بالاعدام يقدَّمون للعلماء لهذا الغرض . وقد اختلف العلماء في موضوع تشريح الحيوانات الحية في سبيل دراسة تركيب اجسامها. ولكن الدكتور تشارلز سنجر اكبر ثقة في تاريخ العلم القديم يقول انهُ مطمئنٌ الى ان علماء مدرسة الاسكندرية الطبية كانوا يعمدون الى تشريح الحيوانات الحية — واحياناً بعض اعضاء الناس المجرمين — في سبيل توسيع نطاق علم التشريح (١٠)

(١٠) ولز : موجز التاريخ : هامش صفحتي ١٩٧ و ١٩٨

وقد برز في مدرسة الاسكندرية الطبية اسم عالمين عظيمين احدهما هيروفيلس والثاني اراسستراتس

اما هيروفيلوس (٣٣٥ — ٢٨٠ ق . م) فأغريقي من خلقيدون اشتهر بمباحثهِ في التشريح وكذلك في معارفهِ الطبية بوجهٍ عام وبممارسة الطب كذلك . وكان من اتباع ابقراط ولهُ مباحث واسعة النطاق في العقاقير والفصد . مما يؤيد شهرتهُ العظيمة ان اربعة من كبار الاطباء كتبوا عنهُ وعن مؤلفاته ، واليهِ يشير جالينوس باحترام واعجاب . ورأيُ الطب القديم مجمع على جعل هيروفيلوس في المقام الثاني بعد ابقراط

اما اراسستراتس فكان معاصراً لهيروفيلوس وندًّا لهُ . وما يعرف عن حياته نزر يسير لا يروي ظمأً . وانما يعلم انهُ قضى شطراً من حياته في بلاط سلوقس نيقاتور في انطاكية قبل مجيئه الى الاسكندرية وانهُ عني بالتشريح في النصف الثاني من حياته بعد ان توطن الاسكندرية . اما مؤلفاته فقد فقدت جميعها الاَّ بقايا حفظها جالينوس . على ان اراسستراتس بدلاً من ان يجاري ابقراط كما فعل هيروفيلوس كان ينتقصه . ويظهر انهُ كان رجلاً مستقلاً في رأيهِ معتزًّا به ، وكان في خلقه حب المناوأة والكفاح . ويقال انهُ كان يميل الى تفسير الاعراض تفسيراً طبيعيًّا

وعلى ذلك نشأت في الاسكندرية مدرستان طبيتان . الاولى تضم اتباع هيروفيلوس وهم يجلُّون ابقراط ونشأ بينهم علماء كبار في التشريح . والثانية تضم اتباع اراسستراتس فلم يشتهر رجالها اشتهار رجال الاولى في التشريح بل انتبهوا خاصة لاعراض المرضى واستعملوا عدداً كبيراً من العقاقير واخرجوا النظرية التجريبية في الطب القائمة على ملاحظة المريض ودراسة تاريخ مرضهِ والحكم بمقابلة الاصابات المماثلة . وقد ادركوا نجاحاً عظيماً في ممارسة العلاج واستعمال العقاقير

ويلخص اثر مدرسة الاسكندرية الطبية في قول دائرة المعارف البريطانية[١١] : اذا نظرنا الى اثر مدارس الاسكندرية الطبية تحتم علينا ان نسلم بأن التقدم الذي تمَّ على ايدي اركانها كان عظيماً وخالداً . ولعلَّ اعظم خدمة قاموا بها هي درس علم التشريح درساً منظماً . ولكن درس الوظائف لم يجارِ درس التشريح ولعل هذا هو السبب الذي حمل اتباع اراسستراتس على اهمال العناية بالتشريح

وكان يتصل بمدرسة الاسكندرية بستان للنبات تزرع فيهِ النباتات المختلفة الاقاليم وتتخذ العقاقير الطبية منها ، وبستان للحيوان او حديقة للحيوان ، تربى فيها الحيوانات الكثيرة البرية والاهلية وتدرس طبائعها

اما الآن وقد انقضت قرون تليها قرون على مدرسة الاسكندرية ، وتقدم العلم تقدماً عظيماً في جميع نواحيه ، باستنباط الأسلوب العلمي القائم على الاستقراء والتجربة فيجب ان نعترف لاولئك القوم في فجر المعرفة العلمية ، بأنهم فطنوا الى الاستقراء والتجريب[١٢] وأخذوا انفسهم بهما فجاء كثير من علمهم راسخاً على الدهر ، يشهد لعقولهم بالتفوق ولسلاح الاسلوب العلمي نفسهِ بالمضاء

(١١) مادة Medicine (١٢) كتاب Heroic Age of Science

شخصية شهر يناير — ١

پيراندللو ومسرحياته الوجيعة

للآنسة مي

[تفضلت كاتبة الشرق الكبيرة الآنسة « مي » فوعدت ان تتحف المقتطف كل شهر بدراسة شخصية عالمية كبيرة وآثارها الفكرية او الفنية . وقد بدأت بالكاتب الايطالي الكبير لويجي پيراندللو على ذكر فوزه بجائزة نوبل الادبية لسنة ١٩٣٤]

بين ما وضعهُ پيراندللو للمسرح روايات ذات مغزًى خاص . ومن اخص تلك الروايات رواية « ستة أشخاص يبحثون عن مؤلف » (Sei Pe sonaggi in Cerca d'Antore) . فقد مهّد لها — على غير عادته — بمقدمة مسهبة ذات سبع عشرة صفحة بسط فيها بعض آرائه في الانتاج الادبي الفني وكشف عن البواعث التي تستحثهُ على الكتابة . ونستخلص من تلك المقدمة فقرات جوهرية قد تمكننا من ادراك بعض غاية پيراندللو في ما يخطّهُ قلمه . قال :

« ... ايُّ مؤلف يستطيع ان يقول كيف ولماذا تولّدت شخصيةٌ من الشخصيات في مخيلتهِ ؟ إن سرّ الانتاج الفني هو سر الولادة الطبيعية بعينهِ » . . « وعليَّ ان اعترف بأني لا ارضى برسم صورة رجل او امرأة او غلام لمجرد الرسم ، كائنةً ما كانت خصائص تلك الصورة ومميزاتها . ولا استطيع ان اروي حادثة مفرحة او محزنة لمجرد الرغبة في الرواية ، او ان اصف مشهداً لمحض الميل الى وصفهِ

« ... من الكتّاب (وهم غير قليلين) من لهم هذه الرغبات يقنعون بها فلا يبحثون عن غيرها . فهم بطبيعتهم ذوو نزعةٍ تاريخية او تقريرية . وعند كتّاب آخرين — وراء تلك الرغبات — شعورٌ اعمق باحتياج روحيّ يجعلهم لا يكتفون بالصور والحوادث والمشاهد ، فلا يقفون عند معنى محدود خاص من معاني الحياة . وهم ذوو نزعةٍ اقرب الى ان تكون فلسفية . وأنا لتعاستي من هؤلاء . . . من هؤلاء الذين ، في الصورة المحسوسة التي يجب ان تبقى حيةً تتمتع بتمام حريتها الخاصة ، انما يبحثون في صميمها عن معنى آخر ينيلها قيمة ومغزى

« . . . على غير ارادة مني وعلى غير معرفة ، في ازدحام نفسي القلقة الجائشة ، كلٌّ منهم (اي اشخاص الرواية) يردُّ عن نفسه التهم التي يرميه بها الآخر ، بالتعبير عن نكاله وانفعالاته وشهواته العنيفة . امورٌ خبرتها كلها اعواماً طويلة خلال غمومي الروحية : من تبادل التفاهم الخادع لارتكازه على فراغ الكلام السلبي ، الى تعدد الوجدانات في الشخصية الواحدة وفاقاً لممكنات الوجود الكامنة في كلٍ من البشر ، الى العراك المفجع المحتوم بين مادة الحياة التي تتحرك وتتغير في اطراد وبين الصورة التي تتجمد بها مادة الحياة فتجعلها غير قابلة للحركة والتغيّر . . .

« ... كلُّ شبحٍ ، كل مخلوق فنيّ ، ليكون موجوداً يجب ان يكون دراماتيكيـًا ، ذا دراميةٍ يكون هو الشخصية المكوِّنة بها والشخصية المكوَّنة لها في نفس الوقت . الدراما اي المأساة هي علة وجود الشخصية الفنية وهي الوظيفة الحيوية المحتومة لوجود الشخصية ... المأساة اي العراك المحتوم بين حركة الحياة في باطن الصورة وبين الصورة نفسها هو الشرط الذي لا غنى عنهُ ليس في النظام الروحي فقط ، بل في النظام الطبيعي ايضاً . ان الحياة التي — لتضمن لنفسها الوجود — ثبتت في الصورة الجسدية ، انما هي التي تفتك بصورتها شيئاً فشيئاً » . . . « والمأساة المتكررة بتعدد الشخصيات ، ذلك العراك الملازم الذي لا تفلّت منهُ ، انما يجد في الكوميديا (المهزلة) بيانه الا كمل ...

« . . . فان قال قائل ان مثل هذه الرواية لا تظفر بكل قيمتها الممكنة لأن بيانها غير واضح بل هو سديميٌّ مبهم (caotico) يفتقر الى العنصر العاطفي ، فذلك القول يحملني على الابتسام . من هذا الابهام السديمي بطبيعتهِ عليّ أنا ان أخرج وأمثّل (rappresentare) . واخراج الابهام السديمي وتمثيله لا يعني مطلقاً التأليف على طريقة مبهمة سديميـة اي على الطريقة العاطفية (Sentimentale) . وتأليفي ليس مبهماً ، بل هو جلي بسيط متسق يعلن لجماهير العالم ما فيه من التشابك والارتباك وتعدد الطبائع كما يوضح الميادين والاوضاع التي تختلط فيها الخيال والحقيقة والفجيعة والمهزلة . ولمن كان اجلى بصيرة تتكشف القيم الغير المألوفة المستودعة فيه

« ... وبينما تلك الشخصيات تحيا في ذاتها حياة المادة الحيوية العاملة فيها وحياة الصورة التي تجمدت عليها وحياة العراك المستمر بين الروح والصورة ، الشاعر الذي يشهد كل ذلك عن بعد وعلى غير معرفة من الشخصيات إبان نكالها وعنائها — الشاعر الذي انتظر ورأى يكون قد خلق من كل ذلك روايته ... » اه

***

تتحتم مراجعة هذه الفقرات اكثر من مرة واحدة لاستجلاء ما اراد كاتبها بها . فهو ذو نزعة فلسفية كما يقرر ، وهو ذو نزعة علمية كذلك وإن فقدت الاصطلاحات العلمية من كتبه وكانت لغته ـ على ابهامها الفلسفي أحياناً ـ لغةادبية تجردت من الغلو والتفخيم والزركشة . وتجردت في مجموعها من الطلاوة العاطفية ايضاً وان لم تخلُ من العواطف رغم ما يعصف بها من انواء الشهوات والانفعالات وتضعضع الشخصيات بين المأساة والمهزلة والتباس الميول بين تعدد الوجدانات . قال قوم ان بيراندللو كاتب ظريف وصاحب نكتة . وما أبعد هذا الرجل الوجيع عن الظرف والنكتة ! انه لا يرى الاّ المأساة ولا يستهويه غيرها . على انهُ مقتنع بأن فواجع المأساة لا يصدق تبيانها الاّ بما يحسبه الجمهور هزلاً . وذلك منتهى الكآبة . . .

ويلوح لي ان بيراندللو صنع في الشخصية الانسانية بمسرحيّاته ما صنعهُ العلمُ بالمادة . فقد كان

العلم قبل زمننا هذا يجزّىء المادة حتى يصل منها الى الذرّة فيقف عندها كأنما هو قد انتهى إلى الجزء الادق. ولكنهُ اليوم قد جزأ الذرّة الى ما لا نهاية له، إلى ما وراء الإلكترون، فصارت أصال ذريرة قابلة للتجزئة بلا حدّ ولا نهاية. وكلّ جزء من هاتيك الاجزاء التي لا يدرك العقلُ دقتها، إنما هو عالم قائم بذاته، ونواة السلب ونواة الايجاب نامتان فيه مكتملتان

ذلك شأن پيراندللو في الشخصية الانسانية الواحدة التي ألفنا اعتبارها جسداً وروحاً وكفى، وللروح والجسد منها نزعات وعادات يتيسر تثقيفها وتدريبها وتكييفها في صيغ تثبت طول الحياة. فهو قد جزأ الشخصية الواحدة شخصيات متعدّدة كلٌّ منها مطّردة الحركة والتغيُّر وكلٌّ منها مكتملة في ذاتها اكتمالها الشاذ الخاص. ولست أصدّق ان أية مسرحية پيرندلّية تلقى بالتمثيل من النجاح ما يتوازى وقيمتها الادبية الصحيحة. لأن الجماهير تحتاج إلى طلاوة اخرى في الروايات المسرحية والسينمية وإلى ذلك المزيج من الرونق والروعة الذي يسيطر على الوعي الفنّي ويستأثر به. أما حيال روايات پيراندلّو فعليك ان تنتزع، على نوع ما، من خفي وجداناتك وجداناً دفيناً تستطيع به ان تشرف على ذلك العالم الغير المألوف وتدنو قليلاً قليلاً من ذلك الابداع الخاص . هو ابداع خاص، بلا ريب. وان كان پيراندللو في تكوين فنه قد تأثر حتماً بفن إيبسن النروجي وبخاصة برواية «الاشباح» حيث تنقلب شخصية البطل ميداناً لعوامل الوراثة وتياراتها الجارفة. كما تأثر بنظرية العقل الواعي والعقل الغير الواعي عند فرويد وزملائه من علماء هذا العصر، دون ان يقتصر پيراندللو على لغز الغريزة الجنسية التي يستوحيها دون سواها كثيرون من أدباء اليوم عند مختلف الشعوب

وقد باشر حياته الادبية بالقصص الصغيرة، فله منها ما يزيد عن الاربعمائة. وصف فيها الكثير من عادات وطنه، صقلّية، وأساليبه وتقاليده واضطراباته الاجتماعية خلال حرب الاستقلال الايطالي (Risorgimento). وقد اشترك والده في تلك الحرب بالتطوّع في جيش الثوار الجاريبالديين وكانت والدته إبنة أحد زعماء تلك الثورة في صقلية وشقيقة احد المجاهدين. وتعمّد القيام بمجهود خاص في القصص وفي نوع اخراجها فوضع سلسلة منها قصة لكل يوم من أيام السنة، ووسمها في عدة مجموعات متتابعة باسم واحد وهو «قصص لعام واحد» (Novelle per un Anno)

كذلك نشر نحو عشر روايات من أهمها رواية «الشيوخ والشبان» (I Vecchi ei Giovani) و«المرحوم ماتيا بسكال» (Il fù Mattia Pascal) وهذه لفتت النقّاد والجمهور اليه سنة ١٩٠٤. وجرّب نظم الشعر في شبابه. وفصوله النقدية وغيرها في مختلف الموضوعات، كثيرة. ولكن كلّ هذا يتقهقر ازاء فنه الاكبر الذي جعل لطريقته اسماً شائعاً في الآداب العالمية وهي «الپيراندللسمو» (Pirandellismo). وفنّه الاكبر والأوفى هو في تلك المسرحيات التي يجب ان تقرأ

كلاً متباعدة مرّات لتفهم او لتفهم انك لا تفهم ولماذا لا تفهم. أو على الأقل لتفهم ان بعض صنوف الفن يتملّص من قبضة يدك ومن موهبتك النقدية ومن قوتك الروحية جميعاً . وكل ما تستطيعه حياله هو التبصّر في معرض هاتيك الشخصيات البسيطة المألوفة من الناحية الواحدة ، والشاذة التي تضعضع العقل من الناحية الاخرى . وقد اطلق على مسرحياته الاربعين اسماً عامًّا تجده على كلٍ منها فوق اسمها الخاص . وذلك الاسم العام هو «مساخر عارية» (Maschere Nude) . وكلمة « مساخر » جمع « مسخرة » ليست قاموسية فيما أعلم ، ولكنها تؤدي المعنى الايطالي على وجه التمام . وهي مستعملة باللغة العامية في سوريا ولبنان وفلسطين ، تُطلق على الوجوه الصناعية التي تُرى في مهرجانات المرفع (Carnaval) الممهّد للصوم الكبير عند المسيحيين . ولا بدّ ان تكون مقتبسة عن الكلمة الايطالية التي أخذ عنها الفرنسيون كلمتهم Masque

واهاً لتلك المساخر التي يعرّيها پيراندللو ! مساخر الحياة الاجتماعية ، مساخر الأوضاع المحتومة ، مساخر المصادفات والظروف ، مساخر الاقدار التي لا تحصى ! مساخر الاحتياجات التي لم نخلقها ، مساخر الغرائز التي لم نسع اليها ، مساخر القيود والحدود والتبعات التي ما إن ولدنا حتى وجدناها مفروضة علينا ! عبثاً تبحث عند پيراندللو عمّا يُشبع فيك عاطفة او يروي ظمأ أو يُظفرك بمتكأٍ او يُلطف من وقدةٍ او يخفف من لوعة : هناك عالم الاتاويه ، ما إن بلغتَ عتبتهُ حتى صرتَ فريسة الحيرة والتضعضع . . .

***

كيف يصبح الفنان فنّاناً ؟ وما هي العلاقة بين الفنان والعالم المحيط بهِ ؟

المقررون من الكتّاب يعنون بسرد الحوادث والطوارىء في حياة الاديب ويحرصون على تدوين تاريخ مولدهِ واسم بلده واسم أبيهِ وأمه وجدوده وعدد اخوته واخواته ، دون إهمال ذكر اسفاره والبلاد التي هبطها والبقاع التي شاهدها سواء اكتب عنها ام لم يكتب

والواقع ان كل ذلك لا أهمية لهُ الاَّ إذا كان ذا أثرٍ في حياة الشخص الداخلية الخاصة وذا دويٍ في محيط نفسه . والعلاقة كلّها بين الشخص الواحد والعالم المحسوس تتلخّص في الحساسية ، في مقدرة الشعور والتأثر تأثراً إيجابيًّا بما يقع للفنان او يقع حواليه . وانما يصبح فناناً عند ما تصل الحساسية بين قرارة نفسه وبين العالم المحسوس حواليه فيترجم الوقائع والحوادث والاختبارات النفسية بطريقته الخاصة إلى عالم الفن باداة الفنّ ، قلماً كانت أو ريشةً أو وتراً أو إزميلاً

يستهل پيراندللو المقدمة التي ذكرناها في مطلع هذا المقال ، بالبيان التالي : « في خدمة فني منذ أعوام طويلة (وكأني بها منذ البارحة فقط) خادمة جدّ رشيقة وهي غير جديدة في صناعتها . اسمها المخيّلة . هي عائبة بعض الشيء ، وماهرة . ولئن راقها ان تتشح بالسواد أحياناً فليس من ينكر انها إنما تفعل جرياً وراء الغرابة والشذوذ في الغالب . ولا يُظنّن انها تصنع ما تصنع جادّة وعلى

وتيرة واحدة . . . وتتفكّه بأن تجلب اليّ في بيتي احياناً رجالاً ونساء وغلماناً هم اكثر الناس استياء في العالم . اشتبكوا في أحوالٍ غريبةٍ من التعقد والارتباك ولا يجدون منفذاً للخروج منها : قوم منكّدون في امانيهم ، معاكَسون في رغباتهم ، مغلوبون على آمالهم ، والتفاهم معهم من أعسر الأمور حقًّا في أكثر الأحيان . هي تجلبهم اليّ لأستخرج منهم الاقاصيص والروايات والكوميديات » . اهـ

هذا ما يقوله . ولكني اعتقد ان اولى روابطه بالعالم هي حساسية عميقة مضطربة مرهفة تحمله على التوغل في كلّ نفس وفي كل كائن وفي كلّ شيء . تصحبها وتسايرها تلك التي يسميها خادمة ، وما هي في الواقع إلاّ سيدة مسيطرة مستبدّة منوّعة القدرة تتناول تأثيرات الحساسية وخلاصة الملاحظات الدقيقة وسائر تلك المؤهّلات الخاصة فتكيفها لاهية كما تشاء وتخلق منها عالماً جديداً

وكأنّ الظروف التي هيأتها الحياة لبيراندللو إنما تناسقت كلّها وحفزت لتهاجم تلك الحساسية الشاذة بالدغدغة والتعذيب بلا رحمةٍ ولا مهادنة . فقد ولد قبل موعد مجيئهِ إلى العالم باسابيع . ومع ان الحبّ كان الباعث على زواج أبويهِ ، فقد عرف في حياتهِ المنزلية شقاء الوحدة بين والدين متنافرين ، والفضائح الخلقية والاجتماعية والخسائر المالية والانهيار من الأوج إلى الحضيض . وشهد وهو بعد في سن الرابعة عشر ، لجيمة عائلية نجمت عن عنف والده واستهتارهِ كان أثرها في نفسه اثر الحديد المحمي ونجد لها أصداء عدة في مسرحياته . وبعد ان أتم دراسته في روما وبون بألمانيا، اختار له والده زوجةً ،لالعنايتهِ بهِ ، ولكن لانهُ كان في حاجةٍ إلى بائنة الفتاة يدعم بها حالته المالية المتداعية. ولم يطل ان غارت تلك البائنة كلّها في هاوية الخراب فاضطر بيرندللو إلى البحث عن عمل يكفل بهِ حياة زوجته واطفاله الثلاثة . فعين مدرساً للآداب الايطالية في معهد الدراسات العليا بروما ، براتب ٩١ ليرا ايطالية شهريًّا !

ولكان يهون كلُّ ذلك رغم الفاقة والضنك بين العمل العنيف المضني وإرهاق الفكر والجسد ، لولا تلك المصيبة التي جعلت حياته مأساةً لا تنتهي . . . زوجته لم تكن مريضة فحسب بل أخذت تبدو عليها أعراض الجنون . فكانت في بادىء الأمر غيرة صاخبةً ليل نهار . تغار من تلميذاته ، تغار من النساء المارات بهِ في الطريق ، تغار من جميع النساء الموجودات في العالم . فلزم البيت ليطمئنها ولم يكن يخرج إلاّ ومعهُ أحد ولديه . وجرّد نفسه من النقود فكان يطلب منها يوماً فيوماً ثمن السجاير واجرة الترام . فلم يجدِ ذلك نفعاً . ثم صارت تعتقد ان أبناءها يمقتونها ويضطهدونها ويتآمرون على دس السمّ لها فأمست لا تتناول طعاماً أو شراباً إلاّ بعد تناول أحد افراد البيت منهُ قبلاً . ومضت ترمي ابنتها بأشنع التهم فلم تحتمل الفتاة وحاولت الانتحار فأدركت بالعلاج . على انها أبت البقاء قرب والدتها وفرّت إلى الدير تطلب الخلاص . وعندما نشبت الحرب ذهب ولدا بيراندللو إلى القتال فوقع أحدهما أسيراً بيد الاعداء ومرض الآخر مرضاً خطراً . فاذا بوالدة بيراندللو تموت

في صقليَّة واذا بوالده ، وقد أصبح أصمَّ وشبه ضرير ، يقبل عليهِ في روما وينزل في بيته فيملأهُ بأمراضهِ وشكاياته وفظاظته . وپيراندللو المسكين بين زوجته ووالده ، وسط العمل المرهق والغمّ الملازم ، يتنازعهُ القلق على ولديه والحزن على ابنته ...

عندئذٍ ، وللاعصاب حدٌّ تأبى بعده الاحتمال — عندئذٍ شعر الأديب بالاحتياج إلى حياة أخرى يفرّج فيها من كربته ويحيا عندها على هواه . فعمد إلى مسرحياته يخلق بها عالماً جديداً يسبغ عليهِ أطياف مخيلته وصخب انفعالاته ، مثيراً فيهِ النكبات والمحن بالعرض لمناقضات الدنيا وفواجعها واحزانها

وهل استخلص من كل ذلك درساً ما يعينهُ على احتمال الحياة ؟ يخيل إليَّ اني أجد الجواب على هذا كلمة أرسلها في احدى رواياته[1] على لسان شخص يخاطب مدرساً فيقول : « أليس اننا جميعاً في بعض الاحيان نشعر وكأن نوراً يتفتح ويتألق في داخل نفوسنا ،نوراً ينسكب علينا من سماوات أخرى لا نعرفها فيمكننا من النظر إلى أقصى خفايانا باعثاً فينا ابتهاجاً لا نهاية له نشعرُ معهُ لحظةً بأننا نحيا خالدين ؟ تلك اللحظة التي هي أبدية في ذاتها تكفينا . هذا ، يا استاذ ، ما عليك ان تُدرّب تلميذاتك عليهِ : إدراك تلك الابدية في لحظة — »

***

انتهت الحرب فتوفي والد پيراندللو ، وعاد ولداه سالمين ، واضطرته حالة زوجته الى ارسالها الى مستشفى الامراض العقلية وزوَّجت ابنتهُ . وطار اسمه على أجنحة الذيوع واخذت مسارح العالم تعجُّ بنجاح مسرحياته . وتعين عضواً بالاكادمية الايطالية فصار — پيراندللو ! — يرتدي الكسوة المزركشة بالقصب ويحمل السيف الاكاديميّ ويلقَّب بصاحب السعادة (Sua Eccellenza) !

بأرباحهِ الاولى شاد لنفسهِ منزلاً في روما ، ولكنهُ مضى يطلب منزلاً متنقلاً في منفى العالم الرحيب . وهو الذي لم يكن يتغيب عن روما إلاَّ ليتفقد وطنه بصقلية ، أصبح دائم الرحيل من لندن ، الى باريس ، الى برلين ، الى نيويورك ، الى البرازيل ، الى مصر ، ليستقر أياماً في بلاد الشمال حيث يتلقى الآن جائزة نوبل ! ورفيقته في جميع اسفاره ورحلاته هي تلك « الخادم » التي اسمها المخيلة . ورفيقة اخرى لا غنى عنها : آلة الكتابة التي يؤلف عليها مسرحياته الجديدة في غرفة الفندق التي سيغادرها عما قريب . وكأني بهِ عند ما يبعث في عالمه بعثاً جديداً ، إنما يفعل وهو يبارك الله مع بودلير الشاعر الفرنسي ، لانهُ تعالى خلق الالم[2] . . .

---

(١) رواية « ليس الامر بذي بال » (Ma non è una cosa seria)

(٢) Soyez béni, mon Dieu, qui donnez la souffrance
Comme un divin remède à nos impurités,
Et comme la meilleure et la plus pure essence
Qui prépare les forts aux saintes voluptés !
... ...
[Baudelaire]

دقائق الاحياء في قطرة ماء

حيوان كالمبذل — حيوان كالجرس — حيوان أخضر له عين حمراء

﴿ بين النجوم والاحياء الدقيقة ﴾ يجد محب الطبيعة المعني بدرس شؤون احيائها عالماً حافلاً بالغرائب في قطرة من الماء الراكد . فاذا كان من المطبوعين على ريادة المجاهل والبحث عن الجمال وجد في درس هذه القطرة على شريحة المكرسكوب خير ما ينيله بغيته ويفتن لبه

فالعالم ومحب الطبيعة والفيلسوف ، يجدون جميعاً في هذه القطرة ميداناً واسعاً للدرس والتأمل . وبفضل المكرسكوب يتاح لنا ان ننفذ الى عالم كله جمال رائع ولكننا رغم كل قدرتنا وحكمتنا لا نستطيع ان نزور الاماكن السحيقة التي نرودها بعين التلسكوب . بهذه العين الكشافة نرصد الكواكب والسيارات فينتقل العقل من التأمل في روح الانسان الحقير الى ريادة رحاب الفضاء ثم ينكفيء الى الارض فيدخل عن طريق المكرسكوب المركب عالماً عجيباً من الاحياء الدقيقة رائحة جائية في قطرة دقيقة من الماء فيرى نباتات زاهية الالوان تسترعي النظر وفي جمال تنسيقها ما يفوق الجمال الهندسي الأخاذ في رقعة الثلج ويشاهد حيوانات صغيرة لها من عجيب التركيب ما يحير العقل

وكل ما يحتاج اليه الباحث في الرحلة الى هـذا العالم الغريب مكرسكوب مركب وبضع شرائح زجاجية (الواح) وانبوبة دقيقة وزجاجة صغيرة وبركة من الماء الراكد . املأ زجاجتك بماء من البركة وأنا الكفيل لك بأنها تحوي اصنافاً لا تحصى من الكائنات العجيبة

واذ تدخل غرفة البحث حاملاً في يدك ملايين الاحياء الدقيقة لا يسعك الاّ التأمل في « نسبية » الحياة . فقد كنت قبل هنيهة ترى الانسان حقيراً صغيراً اذ كنت تتأمل الكواكب والسدم المنثورة في الفضاء الرحب ثم اذ بك تراه جباراً يحمل في كفه الوف الوف من الكائنات الحية

﴿ حيوان كالمبذل (البانتوفل) ﴾ وتأخذ بأنبوبتك قطرة صغيرة من ماء الزجاجة فتضعها على شريحة المكرسكوب وتحكم وضع الشريحة تحت العين المكبرة وتضبط النور فينجلي أمامك عالم غريب تستطيع مراقبته ولا تستطيع دخوله . واذ تنظر الى هذه الشريحة من قمة المكرسكوب ترى كائناً شبيهاً بالمبذل (Pantoufle) . هذا هو « البراميسيوم » وهو من أبسط الاحياء تركيباً ليس له عظام ولا اعضاء خاصة ولكنهُ خلية واحدة تقوم بجميع الاعمال اللازمة لحفظ الحياة . ان سطح جسمه مغطى باهداب دقيقة تتحرك حركة منتظمة في جهة معينة فتنتقل بها الخلية من مكان الى آخر في قطرة الماء وهكذا تتمكن من الحصول على ما يغذيها .وهذا الغذاء انما هو من الحيوانات والنباتات الدقيقة جداً السابحة في قطرة الماء

والبراميسيوم يتكاثر بالانشطار الى خليتين لا تلبث كل خلية منها بعد الانفصال عن شقيقتها ان تنمو وتكبر حتى تصير مثل الخلية الاصلية في حجمها وهذه العملية — الانشطار فالانفصال فالنمو — قد تحدث من مرتين الى خمس مرات كل اربع وعشرين ساعة فسرعتها تزيد او تنقص بحسب ارتفاع حرارة الماء او انخفاضها . فهذه الاحياء من الوجهة النظرية خالدة لا تموت . وكل شطر يمضي حيًّا الى ان تحل به كارثة فتقتله

﴿ حيوان كالجرس ﴾ ويمر امام عينك احياء دقيقة اخرى تشبه « البراميسيوم » في معظم صفاتها ولكنها تختلف عنهُ قليلاً . هذه ذرات كبيرة من الرمل او قطعة منحلة من ورقة او نبتة . ولدى التدقيق ترى حيواناً غريباً يشبه الجرس معلقاً بساق طويلة تشبه اسلاك العرائش . هذا هو حيوان «الفورتيسلا» وهو احد الحيوانات الدوّارية . فمه واسع يحيط بهِ شعر غزير قوي يتحرك حركة منتظمة فيحدث في فم الحيوان وحلقه تياراً مستمرًّا من الماء . وهذا التيار يحمل طائفة كبيرة من الحيوانات والنباتات الدقيقة الى معدة « الفورتيسلا » لتغتذي بها . واذا لاحظت هذا الحيوان فقد ترى في الماء حركة عنيفة نشأت عن حركة الشعر الذي يحيط بالفم وترى الحيوانات والنباتات وغيرها من محتويات الماء قد حملت قسراً الى الفم المفغور . وحيث ان التيار قوي فان قدراً كبيراً من ذرات التراب التي يحتوي عليها الماء ويصيب جسم « الفورتيسلا » الحساس فتنكمش ساقها فيبتعد الحيوان من منطقة الخطر . فاذا فحصت الحيوان حينئذٍ وجدت ان جسمهُ قد انكمش حتى اصبح مثل كرة وترى ان شعر فمه قد نام وفمه قد اقفل وبعد انقضاء ثوان على هذا ترتخي الساق ثانية ويعود الحيوان الى مكانهِ

﴿ حيوان اخضر ذو عين حمراء ﴾ ثم تحدق قليلاً فترى كائناً اخضر يتصف بصفة تجعله متفرداً بها . وما زال الباحثون في طبائع الاحياء الدقيقة في ريب من حقيقة هذا الكائن أهو حيوان شبيه بالنبات او نبات شبيه بالحيوان . وقد دعوه « يوغلينا » ولكن مكانهُ في شجرة الاحياء لا يزال يحيط بهِ الريب . ان لونهُ الاخضر الأخاذ يضارع لون ازهى النباتات الغريبة الطافية في هذه القطرة من الماء ولكن « اليوغلينا » لا تطفو على غير هدى فان جسمها يدور على محوره الطويل وفي مقدمتها « لسان » طويل يتحرك حركة موجية منتظمة في الماء ليساعد جسم « اليوغلينا » على الانتقال . فاليوغلينا اذا قابلتها بالبراميسيوم تبدو كأنها سائرة دائماً الى هدف معين في خط مستقيم . ونحو مؤخرة الجسم « عين » حمراء زاهية يتبين بهِ الحيوان النور من الظلام . و«اليوغلينا» خصم تركيب جسمه شبيه بتركيب جسمها ، الأ انهُ اقصر جسماً واقتم لوناً ، ورؤيتهما في الماء بجسميهما الاخضرين وعينيهما الحمراوين ولسانيهما الطويلين من اغرب مشاهد الطبيعة

ثم هناك حيوان « الاميبا » وهو حيوان نهم خبيث يسعى الى فريسته في تؤدة وحذر ثم يطوقها باذرعه الممتدة من جسمه ويلتهمها . وهو شبيه بكتلة من الهلام الرخو يستطيع ان يمدّ من جسمه أذرعاً تحيط بالحيوانات والنباتات الدقيقة فلا تفلت

السم

لبشر فارس

جُرْحٌ بَغَى حتى نَمِلْ وسال يُسْكِرُهُ المَلَلْ
لاطَفْتُهُ وكلَّما أتيتُ آسوهُ نَقَلْ
لمَّا عَصَى عليَّ فارْفَضَّتْ أساليبُ الحِيَلْ
شَدَدْتُهُ من فَرْطِ يأسي بِضِمادةِ الأَمَلْ
ثمَّ طَوَيْتُ أمرَهُ حتّى حسِبْتُهُ اندمَلْ

***

واليومَ هبَّتْ ذِكَرٌ الى المُمِضّاتِ رُسُلْ
عاصِفَةً يَهيجُها سمٌّ غوايرِ القُبَلْ
لافِحَةً تزاحَمَتْ بينَ ثناياها شُعَلْ
هَوَتْ على جُرحي فَذابَتْ فوقه ، على مَهَلْ
فانتَفَضَ الجُرحُ وجاشَ في مَطاويه النَغَلْ

ابن شوكتك يا موت!

مينو وصحبه

يقهرون الانيميا الخبيثة بالكبد ومستخلصاتها

قصة رائعة لفتح علمي حديث

لولا انسولين بانتنغ [1] لما عاش مينو حتى استطاع ان يقهر الانيميا الخبيثة الفتاكة ويمدّ في آجال المصابين بها. ففي سنة ١٩٢٥ كانت الاصابة بالانيميا الخبيثة اقوم السبل الى القبر، لانهُ اذا حكم الاطباء بأنك مصاب بها كان ذلك اقرب الى حتفك من توقيع الحاكم على وثيقة اعدامك

ولكن في سنة ١٩٢٦ اعلن الدكتور جورج مينو Minot والدكتور وليم مرفي، انهما عالجا خمسة واربعين مصاباً بالانيميا الخبيثة بادخال الكبد في غذائهم اليومي. كان نخاع العظام في هؤلاء القوم مريضاً لا ينجب كريات الدم الحمر فأصبحوا وهم على حافة القبر ولكن التغذّي بالكبد انقذهم جميعاً من الموت المحتوم. ايصدقهما العلماء والاطباء الذين تعوّدوا ان يأخذوا المكتشفات من معامل البحث الطبي والعلمي، ممهورة بطابع التجربة والامتحان موسومة بسمة الاسماء اللاتينية والاغريقية الطنّانة؟ ان في هذا التصريح من البساطة ما يدعو الى الريب فيهِ. ولو انهُ كان صحيحاً لما خفي عن أعلام البحّاث وبصرهم النافذ. فلا تدهش اذا علمت ان المصابين بالانيميا الخبيثة مضوا يموتون بها حتى بعد التصريح الذي اذاعه مينو ومرفي في سنة ١٩٢٦ [2]

***

اذا تتبعت حياة مينو وهو طالب طب في جامعة هارفرد لم تلقَ فيها ما ينبئك بأن الرجل مقبل على كشف طبي خطير يحتاج الى جرأة في التفكير واقدام على طَرْق السبل غير المعبّدة في البحث والتجريب. فقد كان الشاب مينو من اسرة قديمة ميسّرة الحال في بوسطن جرى اقطابها على دراسة الطب فاشتهر منهم والد مينو وعمه في ممارستهِ وتفوّق ابن عمه في علوم الحياة وصلتها بالنمو والموت. لذلك كانت طريق النجاح المادي ممهدة امام مينو من دون عناء كبير، وليس ذلك مما يستثير النفوس ويحفز الهمم

ولكنهُ كان نحيف البنية ضعيف الصحة، فكان توقّد ذهنه ووفرة نشاطهِ، باعثاً على القول

---

(١) راجع مقتطف فبراير ١٩٣٤ ص ١٤٤ (٢) مما يغتبط له المقتطف انه نشر خلاصة تصريح مينو بعد صدوره فأنقذ نشره سيدة سورية في مجاهل البرازيل من مخالب الموت (راجع مقتطف يناير ١٩٢٩ صفحة ٩٩

بأنهُ لابدَّ ان يصاب قبل قليل بمرض خطير لانهُ

واذا كانت النفوس كباراً
تعبت في مرادها الاجسام

فكيف بك اذا كانت النفوس كباراً والاجسام ضعافاً

ولو انهُ اكتفى بممارسة الطب ممارسة لا ترهقهُ لادرك مقاماً لا بأس بهِ بين اقرانهِ في بوسطن . وانما لسبب ، هو من خفايا اغراض الحياة في الناس، عني هذا الطبيب عناية مفتتن مندفع بامراض الدم على انواعها في الانسان . فاذا رجعنا الى مدوَّنات المستشفى العمومي بماستشوستس حيث كان مينو يمارس سنة ١٩١٢ وجدنا تعليقات كثيرة مكتوبة بخط يده على الاوراق الخاصة باصابة امرأة فقيرة جرفها تيار الموت فيمن جرف . كان مينو يمرُّ بها كل يوم فيرى وجهها شاحباً تعلوهُ صفرة الموت، وما كان طبيبٌ يشكُّ حينئذٍ في انها مصابة بالانيميا الخبيثة وانها سائرة الى حتفها لا محالة. كان رقم هذه الاصابة في المستشفى ١٩٠١٨٢ وقد كتب مينو على هامش الورق الخاص بها ما يأتي :— « مع انها كانت جالسة في سريرها ومع انهُ يبدو عليها انها تتمتع بالهواء والنور خارج الحجرة الأ انها لا تزال ضعيفة ودمها لا يتغير . . . ومن المؤكد ان ما نحتاج اليه هو معرفة علاج للأنيميا الخبيثة »

كان جميع الاطباء يتوقون الى معرفة هذا العلاج . ولكن مينو كان يختلف عنهم في انهُ لم يخطر ببالهِ قط ان تلك المعرفة مستحيلة . فانهُ ماكان يستطيع ان يؤمن بما أُشار اليه ذلك الطبيب العظيم السر وليم اوسلر من ان بعض الامراض مستعصية لا يمكن شفاؤُها

لم يُضِر مينو انهُ لم يحترم رأياً خبيراً كرأي السر وليم ولا حكماً مبنيًّا على الخبرة الطويلة كحكم أُديسن Addison الطبيب المشهور ذلك ان أُديسن نفسهُ كان قد اكتشف قبل ٦٣ اي سنة ١٨٤٩ هذا الداء الذي يعتري دم الانسان فتنقص كرياته الحمر حتى يصبح دمهُ وكأنهُ سائل شفاف او يكاد يكون شفافاً . وقد وصف أُديسن اعراضهُ وصفاً دقيقاً اذ قال: « يشحب الوجه ويصبح بياض العينين لؤلؤيًّا ويتهدل الجسم ويهزل ويحسُّ المصاب رغبة في انفاق الجهد ولكن الاعياء وضيق النفس يصحبان كل جهد يبذله» .

[منحت جائزة نوبل الطبية عن سنة ١٩٣٤ لثلاثة اطباء اميركيين هم مينو ومرفي وهوبل جزاء لهم على بحثهم في الانيميا الخبيثة وكشف علاج شاف لها هو الكبد وما يستخلص منها]

ومن اقوالهِ في وصفهِ :— « يصاب المريض بتراخ عظيم وبالاغماء احياناً وبضيق التنفس لاقل عاطفة عنيفة تنتابه ، ويعجز عن النهوض من سريرهِ ويشرد عقله ثم يصاب بسكرة الموت ويلفظ نفسهُ الاخير »

وتناول الاطباء مدى ٦٣ سنة اعراض الداء من أُديسن الى اوسلر وهم عاجزون عن صدّ شبح الموت عن المصابين بهِ. وكلّ ماكان يعزيهم في ذلك ان الطب لم يكشف عن مرض كهذا المرض

يؤيد فيهِ التشريحُ بعد الموت تشخيص الطبيب قبله . فكأن الاطباء كانوا على ثقة من اصابة المرضى ومصيرهم ولكنهم كانوا عاجزين عن كشف أية وسيلة لانقاذهم . ويشهد اقران مينو في مستشفى ماستشوستس العام انهُ كان يدقق في فحص كل مريض يعهد اليهِ في علاجهِ كأنهُ المريض الوحيد في المستشفى ، وانهُ كان في حالات الانيميا الخبيثة يبحث ويستقصي كأن شيئاً لم يعرف عن ذلك الداء الفتّاك . وكان من العلم حينئذٍ ان تحسب الدم في اولئك المصابين يحتوي على سمٍّ زعاف يبيد كرياتهِ الحمر فيشفُّ الدم ويشحب المريض ويصاب بسائر الاعراض . ولكن مينو لم ينظر الى الداء النظرة العلمية السائدة بل قال ألا يمكن ان يكون الباعث على ذلك اصابة نخاع العظام فلا تنجب كريات الدم الحمر ؟

لم يكن مينو مبدع هذا السؤال ؟ ولكن النظر الى الموضوع من هذه الناحية لم يكن متفقاً مع اتجاه التفكير الطبي في ذلك العهد . وكان مينو لا ينفك عن وخز اذرع المرضى بالانيميا الخبيثة لاستخراج دمٍ من عروقهم وفحص محتوياتهِ بالمكرسكوب فيرى الكريات الحمر اقراصاً صغيرة على شريحتهِ . ولاحظ انَّ المصابين بالانيميا تتحسَّن حالهم احياناً فيرى في نماذج دمائهم كرياتٍ حمراً تختلف عما ألف رؤيتهُ . فصبغها بصبغ ازرق زاهٍ وتبيَّن خواصَّها التي تختلف بها عن سائر الكريات . ثم لاحظ ان هؤلاء المرضى الذين بدأ التحسن في حالتهم الصحية قد اخذوا يضعفون ففحص دماءهم بدقتهِ المعتادة فوجد هذه الكريات التي كشفها عند التحسُّن قد اخذت تقلُّ رويداً رويداً حتى ادركَ الموت المصابين بعد انقضاء سنتين او ثلاث سنوات على ظهور اعراض الانيميا الخبيثة

وسخر بعض الخبثاء في بوسطن من مينو لتدقيقه في دراسة مرضٍ فرغ الطب من تقرير اعراضهِ

وبعد ما قضى مدة في كلية الطب بجامعة جونز هبكنز وقفها في الغالب على دراسة الدم عاد الى بوسطن واتصل بطبيب باثولوجي يدعى ريط . كان هذا الرجل بارعاً في عمله نافذ البصر في الامراض المختلفة وآثرها في نُسُج الجسم . ولكنهُ كان قليل الصبر يغضب لاقل سبب . وكان مينو يفحص كريات الدم الحمر بمكرسكوبهِ ويرهق ريط بالاسئلة يوجهها اليهِ فيفوز منهُ بعبارات قصيرة تتخللها الفاظ القسم واللعن . ولكن مينو فاز من ريط بملاحظات جديرة بالتدبر ، فاز منهُ بقوله ان الكريات التي تظهر عندما تتحسن حالة المصاب بالانيميا الخبيثة ثم تزول بزوال التحسُّن انما هي كريات حديثة السن ، وان نخاع العظام حافل بهذه الكريات ولكن لسبب ما لا تستطيع ان تنمو وتصبح كريات حمراً تامة النمو . فلما سأله مينو ولكن لماذا لا يستطيع النخاع ان يفعل ذلك اجابه ريط : —

لماذا ! لماذا ! يا ليتنا نعلم لماذا !

ولكن مينو لم يقنط فمضى في توجيه السؤال ومضى ريط في الردّ عليه ، مغضباً ، محنقاً ، وفي ردوده كلمات كانت كأنها شذور الذهب في نظر مينو وخاصة اذ قال له ريط في احد الأيام ان نخاع العظام التي لا تستطيع ان تولد الكريات الحمر تامة النمو ، اشبهُ شيء بنمو خبيث او نمو سرطاني .... فتأصل هذا القول في فكر مينو .... الانيميا الخبيثة نموٌّ خبيث في نخاع العظام ..!

وكان مينو قد بدأ يمارس الطب في بوسطن فاشتهر بين المرضى الذين يترددون عليه ، بأنهُ صديق لمرضاه ، مدقق كل التدقيق في ما يصفه لهم من وسائل العلاج او اساليب المعيشة . فكان اذا وصف لاحدهم المشي قليلاً قبل العشاء يعين له المسافة والوقت والسرعة . او اذا وصف لهم الغذاء يتحرّى كل الدقة في اوزان الاغذية التي يصفها . وكان قوي الذاكرة يتذكر ما يبوح به مرضاه عن أفراحهم واتراحهم فيشاركهم فيها جميعاً ولا ينسى ان يسألهم عنها عند ما يلقاهم . ولو انه مضى في سبيل ممارسة الطب لاصبح من اغنى اطباء بوسطن . ولكنه في ساعات فراغه كان يعود الى بحثهِ القديم في الانيميا الخبيثة

وكان المصابون بها يجيئون اليه متوسلين ألا تستطيع ان تفعل شيئاً يا دكتور ؟ كانوا جميعاً في حالة من الضعف والاعياء يرثى لها . فكان يقول : «أترضى يا فلان ان تعمل لك عملية جراحية ؟ ولكننا لا نستطيع ان نعد بشيء . العملية تجربة لك ان تقبلها او ترفضها » . وكذلك ذهب ١٧ مريضاً من مرض مينو الى جراحي بوسطن فعملت لهم عمليات استئصال الطحال . فبدت عليهم على اثرها علامات التحسّن فكثف الدم وكثرت كرياته الحمر مدة من الزمن ... ثم عاد الدم فشفّ والكريات الحمر فقلّت ، وعاد الاعياء والشحوب السمة الغالبة على اولئك المساكين ، في طريقهم الى القبر

وجرب هو وصديقه الدكتور لي Lee حقن الدم من اجسام قوية في عروق اولئك المساكين ، فظهر تحسن في خمسين في المائة من الاصابات التي عولجت كذلك . ولكن التحسن لم يدم اكثر من بضعة اسابيع . وكان الموت نهايتهم جميعاً

ألم يخطىء مينو يوم رفض ان يسلّم من دون وعي باشارة ابقراط العصر الحديث السر وليم اوسلر ، اذ قال ان بعض الامراض مستعصٍ لا يمكن شفاؤهُ ؟ !

***

بعيد ذلك رقي مينو في مدرسة هارفرد الطبية وعهد اليهِ في ادارة الخدمة الطبية في مستشفى هنتنغتن التذكاري حيث عني بدرس المصابين بالسرطان او بامراض الدم الخبيثة . وكان متصلاً كذلك بمستشفيين آخرين علاوة على عيادتهِ الخاصة . ولكنهُ في كل ذلك لم يغفل عن الانيميا الخبيثة ولم ينفكّ يفكر ويتأمل في سرّ نمو الخلايا ، او في سرّ عجزها عن النموّ في بعض الاجسام

وكانت سنة ١٩٢١ سنة خطيرة في تاريخ حياتهِ . اذ احسّ بضعفٍ عام في جسمهِ وبنَهم غير مألوف في غذائهِ ، وبهمة تفوق همتهُ العظيمة العادية في انجاز ما عليهِ . فواجه الحقيقة ذات مساء في عيادتهِ اذ وقف بوجههِ الشاحب الهزيل امام المرآة واخذ في انبوب قليلاً من بوله واضاف اليهِ الكواشف الكيماوية اللازمة وامسك بهِ فوق لهب المشعال ، فثبت له انهُ مصاب بداء البول السكري

كان مينو حينئذٍ في الرابعة والثلاثين من عمره . والرجل في الرابعة والثلاثين اذا اصيب بداء البول السكري كان في حكم المقضيّ عليهِ . فعهد الى احد الاختصاصيين في معالجتهِ فوصف لهُ غذاء

معيّناً ، فاقبل عليهِ مينو ، رغم ما كان يحسُّ بهِ من الجوع الشديد ، يزن كلَّ كسرة خبز وكلَّ قطعة طعامٍ من الطعام الذي سمح لهُ بهِ . كان يعلم انهُ بدأ يتدهور على سلّم الحياة المودي الى القبر رغم العناية بغذائهِ . ولكن ذلك لم يقعدهُ عن مواصلة البحث بهمةٍ فيها سمة من حماسة القديسين

ولكن لم يطل المطال حتى كشف بانتنغ عن الانسولين لعلاج البول السكري . فاقبل عليهِ مينو فنجا من الموت المحقّق ، وعاد اليهِ نشاطهُ وصفاءُ ذهنهِ . ولكن عنايتهُ بغذائهِ قبل الانسولين كانت قد حملتهُ على العناية بتوجيه الاسئلة الكثيرة الدقيقة المختلفة الى مرضاه ، عن غذائهم ، وما يحبون وما يكرهون ، حتى لكان صغار الاطباء في المستشفى الذي يديرهُ يقولون هازئين : « ان الدكتور مينو قد اكتشف اليوم ان السيدة فلانة لم تأكل الاسباناخ قبل ان تبلغ العاشرة من العمر » ثم يقلبون شفاههم إشفاقاً منهم على عقلهِ

ولكن مينو ما كان يدري حينئذٍ انهُ على وشك ان يكشف كشفهُ العظيم من هذه السبيل . وكيف يستطيع ان يدري ذلك ؟ الم يقل احد الحكماء : « كيف تستطيع ان تدعو الكشف كشفاً اذا كنت تعلم ما توشك ان تكشف »

كانت عناية مينو بالغذاء ، وتوجيهه الاسئلة الخاصة بهِ الى المصابين بالانيميا الخبيثة قد هدتهُ الى حقائق مختلفة غريبة عن اولئك القوم

واذا بهِ يجمع في عقلهِ الباطن طائفة متفرقة متناثرة من الافكار تواردت بعضها في اثر بعض من دون رابط منطقي علمي يربطها .... في البلدان الشمالية تكثر الانيميا الخبيثة .... في البلدان الشمالية تكثر منتجات المواشي من لبن وجبن وزبدة وغيرها . . . . ولكن سكان تلك البلدان لا يقصرون طعامهم على منتجات اللبن . . . . الا يمكن ان نعطي المصابين بالانيميا الخبيثة غذاء نصيب اللبن فيهِ قليل . . . هه ! الأنيميا الخبيثة تشبه البلاغرا في اعراضها — التهاب في الفم وتلبك في الهضم واضطراب في الاعصاب ..... ولكن جولد برغر اثبت ان اصل البلاغرا الامتناع عن اكل مقدار كاف من اللحم ، او البروتين . . . . . لقد ذكر احدهم ان غذاء غنيًّا بالكبد افاد في مرض القلاع (وبعض اعراضه شبيهة ببعض اعراض البلاغرا) ..... وهكذا

واذ كانت تتوارد هذه الخواطر على ذهنه متفرقة ومجتمعة ، طالع كتاباً في الغذاء وقع فيهِ على بعض الفوائد التي تجنى من بروتينات الكبد . فالكبد زادت معدل النمو في الجرذان البيض . وكبد الجرذان البيض اذا أعطيت لخنازير الهند المصابة بالاسكربوط زادت مقدار الهيموغلوبين في دمها

وما علاقة الأنيميا الخبيثة بالهيموغلوبين ، ألم يقل الباثولوجي ريط ان مخاع العظم هو النسيج المريض ؟ وكذلك ظلّت هذه الالفاظ وهذه المعاني تتوارد على ذهنهِ متفرقة ومرتبطة — أنيميا خبيثة — مخاع العظم — الكريات الحمر — الهيموغلوبين — الجرذان — خنازير الهند — الكبد — وكانت كلمة الكبد اظهرها وألمعها ، فصار لا يقرأ كتاباً طبيًّا الاَّ ويرى كلمة الكبد مكتوبة أمامهُ

ومضى في قراءة كتاب الغذاء فرأى فيه ان مديري حدائق الحيوانات اذا اكتفوا بتغذية الاشبال باللحم الاحمر ، نشأ الاشبال ضعافاً ونشأت عظامهم لينة ... فقال مينو: ماذا ؟ عظامهم لا تنمو .. .. انيميا خبيثة... كبد . . . ولكنهُ ما أتمَّ القراءة حتى رأى انهُ اذا اضاف مديرو الحدائق الكبد الى اللحم الاحمر في غذاء الاشبال نشأت قوية صلبة العود

ثم اطلع على بحث علمي للدكتور هويل Whipple ومساعديه . ذلك ان هؤلاء كانوا قد فتحوا عروق كلبٍ واستنزفوا مقاديرَ من دمهِ ثم خاطوا الفتحة وغذوا الكلب بالكبد فعاد دمهُ طبيعيًّا . ولكن الانيميا التي تنشأ عن فقد الدم ليست أنيميا خبيثة ، وعلماء الطب يعرفون انَّ شتان بين نوعي الانيميا هذين. وهويل نفسهُ لم يدَّع بعد تجربتهِ العلمية ان الكبد تشفي من الانيميا الخبيثة وان كانت تشفي من الانيميا العادية الناشئة عن نزف الدم. وكل ما قاله هويل انَّ قلب الثور وعضل الثور يشفيان الكلب الانيميَّ . ثم قال : والكبد المطبوخة تشبه العضل المطبوخ في هذا

وكان مينو يعلم من بحثه الدقيق في غذاء مرضاه ان لا قلب الثور ينجح في شفائهم ولا عضل الثور . بل كانوا قد اطعمهم كلَّ هذا ، فلم يدفع عنهم عادية الموت

وكذلك قال في احد الايام لنغذِّ هؤلاء المرضى بالكبد !

***

لم يجرؤ في البدء ان يغذي مرضى المستشفى بالكبد ، فبدأ بأحد المرضى في عيادته الخاصة . ومن حسن الطالع كان هذا الرجل المصاب بالانيمياء الخبيثة ، لا يزال قويَّ الشهية للطعام ، وكان كمينو ، ينفـذ تعليمات الطبيب تنفيذاً دقيقاً كلَّ الدقة

فقال مينو لهذا الرجل في احد الايام ارجوك ان تدخل الكبد في غذائك مرتين او ثلاث مرات في الاسبوع. واشار عليهِ كذلك بأن يكثر من اكل اللحم الاحمر والخضراوات والفواكه وان يقلل من الزبدة والقشدة والنشويات ما استطاع

ولـكنهُ قال بعد ما فرغ من كل هـذا : إيَّاك ونسيان الـكبد . يجب ان تأكل الـكبد مرتين في الأسبوع

وعاد هذا الرجل الى بيتهِ . وكأن يد القدر ارادت ان تجعله المثل الحي على فعل الكبد في شفاء الانيميا الخبيثة ، فجعلتهُ يستطيب الكبد حيث يتقزَّز منها اكثر الناس . فأكل منها اكثر مما طلب اليهِ . ونسيه مينو في خلال ذلك لشدة عنايتهِ بغيره من المرضى الذين كانوا اقرب الى حتوفهم منهُ

وكان مينو في عيادتهِ في أحد الأيام اذ قيل لهُ ان فلاناً ينتظر فقال في نفسهِ ، لا بدَّ ان يكون مصيرهُ مصير سائر المصابين بهذا الداء الخبيث . فأمر بادخالهِ ، وهو يشفق ان يرفع رأسهُ خوفاً من ان يرى شحوبهُ قد زاد وهزالهُ قـد استفحل . ولـكنهُ ما كاد ينظر اليهِ حتى صاح دهشاً

— هالو ! فقال الرجل : لا ريب يا دكتور في انني أحسُّ بنشاط عجيب

فقال مينو : وأنا اعلم ذلك . انني أقرؤه في وجهك

قال مينو ذلك وهو مرتاب مضطرب . لانهُ رأى جماعة من المرضى بالانيميا الخبيثة تتحسن احوالهم خلال فترة قصيرة ، ثم تسوء رويداً رويداً . ولكنه لم يشأ ان يثير مخاوف الرجل بل اكتفى بان قال له « امضِ في الغذاء الذي وصفتهُ لك ولا تنسَ الكبد »

كان ذلك في سنة ١٩٢٣ وفي الخريف جاءتهُ سيدة حالها اسوأ من حال الرجل الذي تقدم ذكرهُ . فوصف لها الوصفة نفسها . وهو يعترف انهُ فعل ذلك وهو لا يؤمن بفائدة الغذاء ، بل كان معتقداً ان هؤلاء القوم مقضيٌ عليهم بالموت قضاءً لا رادَّ لهُ

وجاء بعد المرأة ثالث ورابع وخامس ، فوصف لهم جميعاً الغذاء نفسهُ . واكبَّ هو على مباحثهِ العلمية . فلما عادوا اليهِ بعد شهر وشهرين وثلاثة اشهر ، وفي خدودهم توردُ الحياة ، وفي مشيتهم نشاط الصحة، اخذ نماذج من دمائهم واحصى كرياتها الحمر فوجد الكريات الحمر آخذة في الازدياد ، وعلى اثر ذلك كان يلتفت اليهم ويقول « جربوا ان تأكلوا الكبد كل يوم . زنوا ما تأكلونه منها . وليكن نحو ربع رطل — كل يوم ... » . وعادوا اليهِ بعد اسابيع فقال احدهم لقد عادت شهيتي للطعام . وقال الآخر : لقد زال التقرُّح من لساني . وقال الثالث : احسُّ بالقوة في ركبتي

وكذلك مضى مينو خلال سنة ١٩٢٤ يعالج المصابين بالانيميا الخبيثة ، بغذاءٍ يحتوي على الكبد . . . « تذكر يا فلان يجب ان تأكل ربع رطل من الكبد كلَّ يوم »

ومع ذلك ظلَّ ايمانهُ ضعيفاً بفائدة هذا العلاج فائدة تامَّة ، بل ظلَّ يخشى ان يكون التحسُّن البادي في صحتهم تحسناً وقتيًّا .ولكن جاء شتاء سنة ١٩٢٥ ، فوجد مينو انهم كانوا لا يزالون جميعاً على قيد الحياة ، بعد ما كانوا على شفا الموت ، وان القطرة (ملمتر مكعب) من دمائهم في حالة المرض كانت لا تحتوي على اكثر من ٥٠٠ الف كرية حمراء(وعدد الكريات فيها يجب ان يكون ٥ ملايين) اخذت تعجُّ من جديد بهذه الكريات الحمر . فهذه قطرة من دم فلان تحتوي على ثلاثة ملايين كرية ، وهذه قطرة من دم فلان تحتوي على ثلاثة ملايين كرية ونصف مليون ، بل هوذا قطرة من دم هذا الرابع تحتوي على ٤٥٠٠٠٠٠ كرية حمراء ، فحالة دمهِ تكاد تكون طبيعية

ولكن هذا الظفر لم يبطرهُ فختم على مرضاهُ بان يمضوا في تناول الكبد كلَّ يوم ربع رطل منها ومضى هو في مراقبتهم ، حذراً من التمادي في التفاؤل ، ولم يفهِ بكلمة عن كلّ هذا لاحد من الناس

واتصل مينو في ذلك العهد بطبيب حديث التخرج من مدرسة الطب يدعى مرفي ، كان يعنى مثله بامراض الدم . فاحبهُ . فلمَّح له في احد الايام ان يغذّي المصابين بالانيميا الخبيثة في المستشفى الذي يشتغل فيهِ بغذاءٍ مؤلف من عناصر خاصة ، وذكر الكبد فيما ذكر من عناصر الغذاء

فلقي مرفي في طليعة الامر عقبة كؤوداً في سبيل هذه التجربة . ذلك ان متعهّد المستشفى لم يأتهِ الاَّ باكباد الثيران ، وكانت قاسية جافَّة تعافها نفس السليم ، دع عنك نفس المريض. ولكن

مرفي كان يحب اكل الكبد، ويتلذذ به، فكان في حماسته هذه خير من يحاول اقناع الغير بتناوله. ومضى مرفي ثمانية اشهر يغذي مصابي الانيميا الخبيثة بغذاء خاص يحتوي على الكبد بحسب تعليمات مينو، فلما انقضت الاشهر الثمانية، وشاهد مرفي الذين كان يتوقع لهم الموت، وقد اصبحوا يرتعون في بحابح الحياة، تحمّس للامر حماسة الشباب، وعدته حماسته الى صديقه ومرشده مينو

بيد ان مينو ظلّ لا يفوه بكلمة عن الموضوع، حتى تتجمع لديه الحقائق وتبوّب. ومما يؤثر عنهُ في هذا الصدد انهُ كان عضواً في جمعية من الاطباء تجتمع مرة كل شهر لتناول الغذاء معاً، وفي فبراير سنة ١٩٢٦ كان ميعاد اجتماعهم في دار مينو، فتناولوا العشاء وجلسوا بعده يتحدثون، فالتفت احد الاطباء الى مينو وكان من اقرب اصدقائه اليه وقال اسمعتَ بذلك العمل العجيب الذي يقوم به احد الاطباء في هذه المدينة؟ انهُ يعالج الانيميا الخبيثة بغذاء يحتوي على الكبد .. فصرفهُ مينو عن الموضوع بكياسة حتى تجتمع لديه الحقائق الكافية للتصريح

وفي احد الايام جاءت امرأة مصابة بالانيميا الخبيثة متبرمة بطعم الكبد وسألت مينو في بساطة: ايلزم ان تكون الكبد مطبوخةً؟ الا يمكن ان تهرس حتى تصير مثل الرُّبّ ثم تمزج بعصير البرتقال فيتناولها المريض شرباً؟

وما كاد المصابون بالانيميا الخبيثة يسمعون بأن مينو ومرفي شفيا مصابين مثلهم حتى تقاطروا على المستشفى حيث كان مرفي وعلى عيادة مينو الخصوصية، تقاطروا عليهما ضعافاً هزالاً، دماؤهم تكاد تكون شفافة لقلة الكريات الحمر فيها، وركبهم تكاد لاتقوى على حملهم فجاؤهما محمَّلين فاقدين الرشد أحياناً. فكان مينو ومرفي يلازمان اسرّتهم ويسقيانهم هريس الكبد في عصير البرتقال بأنابيب ومضوا على ذلك اياماً لا يعرف القنوط الى نفسيهما سبيلاً بلغ المريض من ضيق التنفس او ضعف النبض مابلغ .... وفي نهاية اسبوع على الاكثر كانت ترتد ألقة الحياة الى العينين وقبل نهاية أسبوعين كان المريض يستطيع ان يقف على قدميه ويسير . وفي سنة ١٩٢٦ اجتمع مؤتمر علمي في مدينة اتلانتك ستي فبسط فيه مينو كيف انقذ مصابي الانيميا الخبيثة من الموت بالكبد!

اما باقي القصة فمن شأن الاطباء والبحاث الاختصاصيين. لقد استنبطت كواشف خاصة لاحصاء كريات الدم الحمر الحديثة السن فيقاس بعددها مدى التحسُّن الذي يصيبهُ المريض. وابتدعت اساليب لاستخراج مستخلصات الكبد فيتناولها العليل غير متقزز ولا مشمئز. وجرب كاسل تجارب بنفسه اثبتت ان معدة الخنزير المجففة تفعل فعل الكبد في الانيميا الخبيثة. وعمد اطباء شركة بارك دايفس الى تجربة كاسل فبنوا عليها مادة الفنتريكولين التي توازي الكبد على الاقل في علاج الانيميا الخبيثة. والمباحث في هذه الناحية لمّا تبلغ نهايتها

ولكن المهمّ في كل هذا ان رجلاً كمينو استطاع ان يتنكّب الطريق التي رسمها العلم، ببداهة فيها مسحة من الالهام فكشف عن فعل الكبد في شفاء هذا المرض الخبيث — انّ مرفي ولاريب من الروّاد!

مصرع بلبل

لابراهيم عبد الفتاح طوقان

حكاية رمزية تمثل الواقع في حياة المدن الكبرى حين يدخل غمارها الشاب قادماً من البلدة الصغيرة او القرية البسيطة ... هذه الحياة الصاخبة تخلب ذلك الشاب بزخرفها وفنون لهوها والوان عيشها . تجتذبه فيرتمي بين أحضانها ويلقي بقياده اليها ، فتذهب به في مزالق الضلال كل مذهب

ثم تسفر هذه الحياة عن وجه كالح ، وتتقشع نشوتها عن صحو مضى اوانه ... فاذا هنالك افلاس في احد ثلاثة : في المال ، او الصحة ، أو المستقبل ، وكثيراً ما أعلن الافلاس في الثلاثة جميعاً وهناك الفاجعة الأبدية . . . أما (البلبل) في هذه الحكاية فيرمز عن الشاب المخدوع ، وأما (الوردة) فترمز عن بائعة اللهو والعبث . . . . . ، وأما (الروض) فهو رمز الحانة او الملهى

قَدَرٌ ساقهُ فآواهُ روضاً لم يكن طار فيهِ قبلاً وغنّى
فاستوى فوق أيكةٍ ورمى عيـنيه فيما هناك يُسرى ويُمنى
واذا الروض بهجةُ الروح طيباً وظلالاً ، وفتنةُ العين حسنا
وكأنَّ الغدير بين ضلالٍ وهدًى ، كلما استوى او تثنّى
تنحني فوقه كرائم ذاك الدوح منها الجنى ، وكم يتجنّى...
مطمئنٌ يسير تيهاً ، فان رامَ عناق الصخور صدّت فجنّا
هكذا يصبح الحبيب المعنّي بعد حينٍ وهو المحبُّ المعنّى

***

ومضى البلبل الغريب يطوف الروض حتى ازوى محيّا النهار
راح يأوي الى الغصون ولكن كيف يغفو مشرّد الافكار
كان في الروض فوق ما يتمنى من فنون الاثمار والازهارِ
غير أنْ ليس فيهِ طيرٌ يغني أيّ روض يحلو بلا أطيارِ
وسرَت فيه رعدة حين لم يلـق سوى دارسٍ من الاوكارِ
وبقايا نواقفٍ رغم المو ت عليها ، مخضب الاظفارِ
اي خطبٍ اصابكم معشر الطير ...؟ وماذا في الروض من أسرار ؟

***

طلع الفجر باسماً إثرَ ليلٍ دونهُ وحشةً كهوف المنيه

تنزى اشباحه صاخبات عاريات ، اكفها دمويه
ورجوم تفري الغيوم وتهوي كل رجم من الجحيم شظيه
وخسوف تحدث البدر فيه بفم الحوت منذراً برزيه
ذاك ليل قضى على البلبل المنـكود لولا يد تصدت عليه
ملكة عرشها المشارق والتاج سناها ، أعظم بها شرقيه
انقذته فهب يشدو شكوراً مرحاً ، هاتفاً لها بالتحيه :

تحية البلبل للشمس

(١)

مليكة النيرات آلهة المشرقين
الناس في الغابرات اليك مدوا اليدين
وأحرقوا في الصلاة نضارهم واللجين
وقربوا الاعناق
زلفى تراق

*

(٢)

يا ليل ان الصباح رمز حياة الورى
انفاسه في البطاح وروحه في القرى
أما رأيت الأقاح أفاق بعد الكرى
وضوع الآفاق
لما أفاق

*

(٣)

هناك راعي الغنم جذلان ، حي الفؤاد
يرتع بين الأكم يهيم في كل واد
والناي صب النغم وبثه في الوهاد
كزفرة الأشواق
غب الفراق

*

نسي الطير همه حين غنى قلما يستقر هم الطروب
ألف الروض مفرداً وتولى عنه في دوحه شعور الغريب
مستقل في الملك ، لا من شريك طامع يتقى ، ولا من رقيب
مطلق ، يستقر عند غدير تارة او يقيل فوق رطيب

. . . .

واذا (وردة) تفيض جمالاً تتهادى مع النسيم اللعوبِ
قد حمتها اشواكها مشرعاتٍ حولها دون عابثٍ أو غصوبِ
تمنح العين حين تبدو وتخفى من ضروب الإغراء كل عجيبِ

***

كل قلب لهُ هواهُ ... ولكن ليس يدري متى يجيء زمانهْ
وهو إمّا في ظلّ جفنٍ كحيل كامنُ السحر ، راقدٌ افعوانهْ
أو وراء ابتسامةٍ حلوةِ الـــثغر ، نقيّ ، مفلّج أقحوانهْ
أو على الصدر يستوي فوق عر شين . . مكيناً مؤيداً سلطانهْ
فاذا كان لفحة من جحيم الـــرجس ... أملى أحكامهُ شيطانهْ
واذا هبّ نفحة من نعيم الـــطهر ... قامت ركينة اركانهْ
هو ذا الحبُّ فليكن حين يأتيـــك ، بريئاً من كل عيبٍ مكانهْ

***

صارت الوردة الخليعة للبلـــبل همّا ومأرباً يُشقيهِ
حسرتا للغرير أصبح كرباً ما يلاقيه من دلالٍ وتيهِ
شفّهُ السهد واعتراهُ من الـــحب سقام مبرح يُضنيهِ
مَن رآها وقد تمايل يهفو نحوها ، كيف أعرضت تغريهِ
مَن رأى روحهُ تسيل نشيداً لاهباً ، لوعةُ الأسى تُذكيهِ
هي (حوّاء) ذلك الخلد فاحذر لا تكوننّ أنت (آدمَ) فيهِ
لا تهب قلبك الكريمَ لئيماً تحت رجليهِ عابثاً يلقيهِ

***

هل يرى في ظلال وردته الحمـــراء سرّاً بدا وكان خفيّا
هل يرى للطيور فيها قلوباً نبذتهنّ يابساً وجنيّا
هل يرى اليوم ما الذي جعل الروض كئيباً من الطيور خليّا
كم نذيرٍ بدا لعينيه حتى قام شخص الردى هناك سويّا

سامهُ حبُّهُ شقاءً ولكن نعمة الحبّ ان يكون شقيًّا
والهوى يطمس العيون، ويُلقِي في قرار الأسماع منهُ دويًّا
هكذا يسلك المحب طريق الـخوف أمناً ويحسب الرشد غيًّا

***

مَنْ يَرى علّم البخيلة حتى سمحت ان يقبّل الطير فاها
لم يصدق عينيه حتى اطلّتْ واطالت في ختلهِ نجواها
زلزل الروض عند ذاك بالأُلحان ... فاسمع روايتي عن صداها

نشيد البلبل للوردة

أَنشدي يا صَبا وارقصي يا غصونْ
وأسقني يا ندى بين لحظ العيونْ
فيك يا وردتي قد حلا لي الجنونْ
انا مني الهوى انت منك الفتونْ
انشري ما طوت من غرامي السنونْ
كان في أضلعي فروتهُ الجفونْ
أقربي من في لخديكِ شجونْ...

***

ضمّها الطير مطبقاً بجناحيه ، وهمّت بثغره شفتاها
لم يمتّع بنشوة الحبّ حتى اشرعت شوكةٌ تلظى شباها
اوردتها قلباً ، اذا رفّ يوماً خافقاً للهوى فذاك هواها
كرعت في الدم البريء فلما عكستهُ وهّاجةً وجنتاها
نظر الطير نظرة اعقبتها روحه طي شهقةٍ معناها :
وردة ... تبهر العيون ... ولكن... كثرة الشم... قد اضاعت... شذاها

نابلس — فلسطين

١ - ألفاظ الغيوم(١) . . . . للامير مصطفى الشهابي

٢ - الذرة واسماؤها . . . للفريق امين المعلوف باشا

الفاظ الغيوم

اذا تكاثف بخار الماء في الجو انقلب ضباباً او سحاباً. ولا فرق بين الضباب والسحاب الا في كون الاول يكون على مقربة من سطح الارض والثاني يكون في طبقات من الجو مختلفة الارتفاع وكلاهما مركب من ذرات مائية معلقة حجمها صغير جداً قلما يتجاوز قطر واحدتها اثنين في المائة من الملمتر . وربما كان عدد هذه الذرات او النقيطات كبيراً جداً لصغرها . فغراماً منها يكون حجمهما متراً مكعباً، وفيهما نحو نصف مليار ذرة . واشكال الغيم مختلفة كما هو معلوم . وكذا لونه ومقداره وارتفاعه . ومن الغريب ان منظر الغيوم واحد تقريباً في مختلف الاصقاع . ويقول البحارة ان انواعها لا تختلف في اختلاف البلاد . ولهذا تمكن العلماء من تصنيف الغيوم تصنيفاً يصلح اتخاذه في انحاء العالم

ويفيد ، قبل ذكر السحب والفاظها ، تنبيه القارىء الى ان مبحث الغيوم جزء من اجزاء العلم الذي يسمونه بالفرنسية ميتيرولوجيا Météorologie . وهذا العلم قد وضعت له لفظة « الجويات » كالمعدنيات والطبيعيات . ويمكن أيضاً ان نسميه « علم الجو » و « علم الاجواء » واذا اردنا التطويل « علم الاحداث الجوية » . ولكن اللفظة الاولى هي أصلح الالفاظ لانها لفظة واحدة يسهل نعتها والاضافة اليها والنسبة اليها وغير ذلك فيقال « الجويات الزراعية » لما يسمى Météorologie agricole و « موقف الجويات » مقابل Station de météorologie وجوياتي او أجوائي مقابل Météorologiste وهكذا

ولنعد بعد هذا الاستطراد الى الغيوم واشكالها فنقول : أول اشكال الغيوم يسمونه سيروس Cirrus وهي سحب خفاف بخارية المنظر تبدو كأنها مركبة من خيوط بيض قطنية متشابكة ومتشعبة على اشكال شتى . وهي أعلى السحب . فأما كنها اذن باردة جداً تجعل ذراتها قطعاً صغاراً من الجليد . ويتضح ان الصفات البارزة لهذا الضرب من الغيوم هي اولاً ارتفاعه ثانياً لطافته ثالثاً تشابكه . ولهذا رأيت ان اصلح لفظ عربي يقابله هو الطخاف والطخرور . فالأول السحاب المرتفع والثاني السحاب الرقيق . واللفظتان تردان ايضاً بالحاء المهملة

---

(١) هي الالفاظ التي وضعتها لاسماء السحاب الاعجمية في « معجم الالفاظ الزراعية » وهذا المعجم لا يزال لدي مخطوطاً

والضرب الثاني يسمى Cumulus وهي سحائب بيض كأنها مركبة من كرات متتابعة . يشبهونها بزم القطن المعلومة او بالدخان الابيض الذي يتدافع من مدخنة القاطرة في بدء سير القطار . وهي تمحي في شماريخها اي اعاليها بتأثير حرارة الشمس وتزداد في اكفتها أي اسافلها ولهذا يكون اندفاعها قويًّا كما يكون شكلها وحجمها في تبدل مستمر . وقلما يكون فيها مطر بل تظهر في أيام الصحو وفي الخريف . وربما امحت سريعاً بعيد تكوينها . وأسميتُ هذا السحاب القزَع فقد جاء في المخصص ان القزع سحاب صغار يتطاير في السماء وقيل هو السحاب المتفرق ومنهُ قزع الخريف . وأسميته ايضاً الحَبِيَر والنفَّاض لانك تراه يتحرك بعضه في بعض متحيراً ولا يسير

والضرب الثالث يسمونه Nimbus وهي سحائب شهب قاتمة واطئة مَطِرة . وأصلح ماتسمى بهِ بالعربية «مُعْصِرة ودُجُنَّة» ومعناها معروف وهو مقارب لمدلول اللفظة الاعجمية

والضرب الرابع يسمى Stratus وهي غيوم قريبة من الارض كأنها ضباب مرتفع . ويقابلها بالعربية «الرَهَل» و «السديم» قال ابن سيده ، الرهل السحاب الرقيق شبيه بالندى يكون في السماء . وقال السديم هو ما كثُف من الضباب حتى كاد يكون غيماً

هذه هي اهم اشكال الغيوم وهنالك اشكال بَيْنَ بَين أقرها علماء الجويات في مؤتمراتهم منها الآتية :

السحاب المسمى Cirro-stratus وهي طخارير متداخلة بعضها ببعض حتى يكاد يصعب تمييز اجزائها . وتكون كالرداء الابيض لوناً . وهنَّ مرتفعات وكثيراً ما يسبقنَ العواصف والأمطار . ولعل لفظة سَمَاحيق (مفردها سِمْحاق) تصلح للدلالة عليها

ومنها السحاب المسمى Cirro-cumulus ويكون امواجاً طوالاً في السماء شبيهة بأمواج البحر. وكأن تلك الأمواج تحصل من تماس ريحين احداها فوق الثانية كما هي الحال في موج البحر تماماً . ولما كان الهواء الطف من الماء كانت امواجه اطول . فالموجة البحرية التي طولها متر يقابلها موجة جوية طولها كيلو متر . والزبد حاشية موج البحر . اما حاشية موجة الجو فضبابٌ صَقِيع . وعلى هذا يكون هذا السحاب كالبحر الجوي منظراً او كصوف الضأن المتاوج . وهو كالسابق من امارات الغيث . والنَمِرة على ما رأيت اصلح لفظة لهذه السحابة . وفي المخصص النَمِرُ من السحاب قطع صغار متدانٍ بعضها من بعض . وفيهِ : النمرة ان تراها كجلد النمر من غيم صغار تكاد تتصل . وقالوا أرِنيها نمرة أرِكها مَطِرة . قال وقد بلونا ذلك كثيراً فوجدناه كذلك . انتهى

ومنها المسماة Cumulo-nimbus وهي سحائب متراكمة بعضها فوق بعض كالجبال . ويكون لونها ثلجيًّا في اعاليها والى سواد في اسافلها . والغيث والعاصفة من اماراتها . اسميتُ هذا السحاب المكفهرَّ والركام . قال ابن سيده المكفهر الذي يغلظ من السحاب وركب بعضه بعضاً . وقال في مكان آخر المكفهر من السحاب الذي امتلأ ماءً وقيل هو الذي يسوادّ ويصهابّ وتعرف فيهِ المطر . انتهى.

وارى ان لفظة الكَنَهْوَر تصلح ايضاً لهذا الضرب من الغيوم

وثمة ثلاثة اشكال اخرى من الغيوم اقل شأناً مما ذكر لم نذكرها . ومن البديهي ان في العربية الفاظاً عديدة تدل على السحائب في مختلف اشكالها واوضاعها يراها الانسان في المخصص وفي غيره . وليست الغاية من هذه المقالة تعدادها بل الغاية منها ذكر اصلح الالفاظ العربية لاسماء الغيوم العلمية وهو ما عرضتهُ على القراء في هذه الكلمة . ويمكننا اختصارها على الصورة الآتية :

جويّات	Météorologie
جويات زراعية	Météorologie agricolē
موقف الجويات	Station météorologique
جوياني . أجواني	Météorologiste
طُخرور . طخاف	Cirrus
قَزَع . حَبِير . نقّاض	Cumulus
مُغْصِرة . دُجُنَّة	Nimbus
رَهَل . سَديم	Stratus
سِمحاق	Cirro-stratus
نَمِر	Cirro-Cumulus
مُكفَهِر . كَنَهْوَر	Cumulo-nimbus

الذرة الافريقية والذرة الاميركية

اي الذرة البيضاء والذرة الصفراء

في مقتطف اكتوبر الماضي مقالة ممتعة في تاريخ الذرة ونشوء زراعتها وهي تلخيص بحث للاستاذ ايست بجامعة هرفرد وهو يريد بالذرة الذرة الاميركية المعروفة في الشام بالذرة الصفراء وفي مصر بالذرة الشامية وهي دخيلة في الشرق منشأها اميركا الجنوبية كما يقول الاستاذ . اما الذرة المعروفة بهذا الاسم العربي فشرقية نشأت بأفريقية في عهد راسخ في القدم فاذا ذكرنا هذين النوعين من الذرة ارى ان نسمي الذرة المعروفة بهذا الاسم في كتب اللغة العربية بالذرة الافريقية او الذرة البلدية او الذرة البيضاء ونسمي الاميركية بالذرة الاميركية او الذرة الصفراء دفعاً للالتباس. وسيأتي ذكر الاسماء العلمية والاسماء الانكليزية والعامية في آخر هذا البحث وانما نبدأ في ايراد بعض ما جاء عن الذرة في المؤلفات العربية ثم بعض ما جاء عنها في المؤلفات الاوربية

قال ابن سيده ١١ : ٦٣ « الذرة وهذا الحب يسمى الجاورس الهندي وقيل هي التي مثل رؤوس الأرَضة فاذا طالت قيل اخرفت الذرة ويقال لسَبَل الذرة المُطر ويقال للذرة المِحجَن وهو حيث

انحنى من السُّنبول والساق » انتهى . قلت الذرة هي ما يسمى عند العلماء Sorghum وسيأتي ذكره أما قول ابن سيده انها تسمى الجاورس الهنـــدي فهو عين ما يقوله الانكليز على ما جاء في معجم وبستر في مادة Durra ومادة جاورس هندي Indian millet . وأما قوله هي مثل رؤوس الأَرَضَة فان حب الذرة البيضاء مثل رؤوس الارضة المعروفة عند الافرنج بالنملة البيضاء لذلك يسمون الذرة في الشام بالذرة البيضاء تمييزاً لهـــا عن الذرة الصفراء وهي الذرة الاميركية المعروفة في مصر بالذرة الشامية وهذه اميركية الاصل كما تقدم ولم يعرفها العرب . أما قول العامة في مصر ذرة شامية فليس معناه انها شامية الاصل بل لانها نقلت اولاً الى الشام ثم الى مصر .واما تسمية ابن سيده لسبل الذرة بالمطر فيراد سبل الذرة البيضاء لا سبل الذرة الصفراء فسبل الذرة الصفراء لا اسم له بالعربية وعامة أهل مصر تسميه كوزاً وعامة أهل الشام تسميه عرنوساً وهي كلة دخيلة او تحريف عرناس ذكرها دوزي بمعنى ساق الذرة والذي اعلمه ان عرنوس الذرة الصفراء عند عامة أهل الشام هو سنبولها وهو الكوز عند عامة اهل مصر. وقد ذكر العرنوس بهذا المعنى الأمير مصطفى الشهابي في كتابه الزراعة العملية الحديثة اي ان عرنوس الذرة الصفراء هو الكوز في مصر ولا بأس باستعارة المطر له ولكن المطر سنبول الذرة البيضاء . ثم ان قول ابن سيده انهُ يقال للذرة المحجن فلعله يراد بذلك الذرة المعروفة عند العامة بالعويجة وهي صنف من الذرة البيضاء

وقال صاحب التاج «الذرة كثُبَـة حب معروف اصلها ذُرَوٌ او ذُرَيٌ بالياء والهاء عوض كما في الصحاح وفي التهذيب . يقال للواحـــدة ذرة وللجماعة ذرة ويقال لهُ ارزن » . انتهى . قلت اما صاحب التهـذيب فتوفي سنة ٣٧٠ للهجرة وصاحب الصحاح سنة ٣٩٠ اي بعده بقليل اي ان اقدم ذكر للذرة بهذا الاسم في ما وقفت عليهِ هو في القرن الرابع للهجرة اي قبل اكتشاف اميركة بزمن طويل فلا يمكن ان تكون الذرة التي عرفها العرب اميركية الاصل فهذه زرعها المصريون في زمن عريق في القدم كذلك العبرانيون فقد ورد ذكرها في سفر حزقيال باسم الدخن ويرى علماء التوراة انهُ الدخن المعروف بهذا الاسم في ايامنا او نوع من الذرة البيضاء وكلاهما قديم في الشرق

ونقل لاين في معجمه بعض ما ورد عن الذرة في كتب اللغة العربية وقال انها نوع من الدخن اي الجاورس وقال ان اسمها في ايامهِ Sorghum وعند العامة ذرة صيفي وذرة قيظي تمييزاً لها عن الذرة الاميركية وقال هذه اسمها ذرة شامي وذرة كيزان ويريد بقوله العامة عامة اهل مصر لان لاين ألَّف معجمهُ في مصر .وقوله هذا صحيح فانهم يسمون الذرة تارة بالذرة الصيفي وتارة بالذرة الصيفية اما الذرة الصفراء اي الاميركية فيسمونها ذرة شامي او ذرة شامية وليس معنى ذلك انها شامية الاصل ولعلها نقلت الى الشام اولاً ثم الى مصر لذلك يسمونها الذرة الشامية

وللدكتور شوينفورث رحلة في قلب افريقية وصف فيها الذرة وصف عالم خبير وقال عن الذرة البيضاء انها قديمة هناك وذكر اسمها العلمي وذكر اسماءها العربية وسيأتي بعضها في آخر هذا البحث

اما كلمة Corn فيريد بها الانكليز الحب الذي يصنع منهُ الخبز او الذي هو قوام طعامهم واصلح تعبير له بالعربية حبّ او طعام او عيش وجميعه وارد في اللغة فاذا قالها الانكليزي في بلاد الانكليز فانهُ يريد بها الحنطة اي القمح واذا قالها في ارلندة او اسكتلندة فانهُ يريد بها الشوفان واذا قالها في السودان فانهُ يريد بها الذرة البيضاء واسمها في السودان عيش اما الذرة الصفراء فاسمها عيش الريف واذا قالها في اميركة فانهُ يريد بها الحنطة اما الذرة الصفراء فاسمها الانكليزي في اميركة الحب الهندي نسبة الى هنود اميركة الحمر لانهُ طعامهم

ولنذكر في ما يلي الاسماء العلمية لبعض انواع الحب او الطعام وبعض اسمائها الانكليزية والعربية

دُخن . جاوَرس . ذُرَة . ثُمام Millet

نبات من الفصيلة النجيلية يعرف منه اجناس وأنواع كثيرة منها الدخن المعروف بهذا الاسم في البلاد العربية . والدخن هو الجاورس او ان الجاورس نوع منهُ لذلك قالت العرب ان الدخن الجاورس الهندي كما تقدم وهم يسمون الذرة بالدخن في بعض انحاء اليمن

ثمام Panic grass. (Panicum)

جنس من الفصيلة النجيلية يعرف منهُ انواع كثيرة منها الدخن الآتي ذكره

دُخن Panic millet or common millet. (Panicum miliacaum)

حب صغير املس وهو المشهور في البلاد العربية فارسيته جاورس . اما ما جاء في محيط المحيط وغيره من ان الدخن خلاف الجاورس ففيه نظر لان الدخن انواع كثيرة منها الذرة ومنها الحب المعروف في الشام ومصر بالدخن وهو قديم جدًّا فيهما

دخن ايطالي Italian millet or Bengal grass. (Chaetochloa italica)

نوع من الدخن لعله الجاورس وهو من جنس آخر خلاف الجنس الذي تقدم ذكره وكلاهما من حبوب البلاد العربية في ايامنا

Sorghum. Syn. Durra. Indian millet. Guinea corn. Kaffir corn. Millo maize Egyptian rice. Jerusalem corn. Brown corn. Negro cane. Bushel maize. (Andropogon sorghum.)

ذرة نوع من الحب اسمه في العراق والشام وجزيرة العرب ومصر ذرة ولكن العامة تسميه في مصر ذرة بلدية لانها اصلية في مصر وفي الشام ذرة بيضاء فانهم سموها بذلك بعد دخول الذرة الاميركية اي الذرة الصفراء وهذا النوع من الذرة اي الذرة البلدية اصناف او ضروب منها صنف يعرف في مصر بالعويجاء

ذرة اميركية Maize or Indian corn. (Zea mays)

اسمها في الشام ذرة صفراء وفي العراق ذرة مصرية وفي اليمن ذرة رومية وفي مصر ذرة شامية وفي السودان عيش الريف اي مصر وجميعه يدل على انها دخيلة في البلاد العربية فكانت كل بلاد عربية اللسان تسميها باسم البلاد التي يظن انها جاءت منها لأن الذرة قديمة عند العرب واسمها بالعربية ذرة كما تقدم

الرياضة البدنية

عند قدماء المصريين

للدكتور حسن كمال

أخذ شأن الرياضة البدنية ينمو ويعظم في مختلف بلدان العالم حتى صار لها مكانة كبيرة في جميع النفوس . والمعروف ان هــذه الرياضة ظهرت وترعرعت في احضان قدماء المصريين الذين سلموها وديعة الى أهالي اليونان . وهناك ظهرت فائدتها وبدا خطرها ببلدة اولمبيا . ثم انتقلت الى الرومان حوالي عام ١٨٦ ق.م . ثم عمّت اوربا واميركا وسائر انحاء العالم بعد ان نسي القوم منشأها وأصحابها الاصليين . شأنها في ذلك شأن كل عمل جليل اهمله أهله وذووه . فيأتي الغير وينسبه الى نفسه إدّعاء وبهتاناً . ولا عبرة الآن بالقول والمجادلة بل بالرجوع الى المراجع الأثرية التي لا تزال حافظة لنا اعمال أجدادنا وتعاليمهم . تلك الاعمال التي نحمد المولى جلّ وعلا على انها نقشت على الصخور فلم يتمكن الدهر من طمسها ولا الغير من سرقتها . بل بقيت ولا تزال قائمة برهاناً ساطعاً على ما قدمه القديم للحديث من درر ولآلىء

الوجهة الصحية

ان الباحث في هذا الموضوع يتحتم عليه فحصه من الوجهتين الطبية والتاريخية معاً . لأن الرياضة البدنية لها مكانتها الصحية خصوصاً عند ذوي المهن القليلة او العديمة الحركة . لكن هــذا لا يعني ان الرياضة في الصغر وسن الشباب لا تقل فائدة عنها عند البالغين . فالتجارب الحــديثة اثبتت ان الرياضة البدنية اذا بديء بها في سن التلمذة وثابر عليها الشخص بعد ذلك في الحدود الصحية فانها تساعد جسمه على النموّ وتقوي مناعته ضد الامراض . فيجد اللذة في الكدّ والعمل والنعيم في قدح الذهن وبذل المجهود

الرياضة البدنية تحدث انقباض العضلات وانبساطها . وهــذه الحركة تستهلك بعض الانسجة وتتطلب ايجاد أنسجة جديدة بدلاً منها . وكلما استعمل العضل ضخم حجمه . وبديهي ان العضلة اذا انقبضت ضغطت على الشرايين والاوردة الدموية والليمفاوية . واذا انبسطت سببت ارتخاءها . فتزداد بذلك سرعة الدورتين الدموية والليمفاوية . او بعبارة اخرى تزداد سرعة حمل الغازات والمواد المحللة الناجمة من المجهود الى الرئتين والقلب والكليتين فتتنبهها للقيام بنصيب اكبر للعمل كي يتخلص الجسم منها . وبذلك تحدث الرياضة البدنية اصلاحاً عامّاً

ثم اننا اذا نظرنا الى تأثير الرياضة البدنية في الحجاب الحاجز وعضلات البطن نجدها تفيد الكبد والمعدة والامعاء وذلك بالتدليك وبالضغط فيسهل افراز الصفراء من الكبد والكيس الصفراوي . وينعدم تلبك المعدة والامعاء فلا يصاب الشخص بعسر الهضم ولا الامساك المزمن مثلاً

وقدّر بعضهم ان الانسان الذي يزن حوالي ١٥٤ رطلاً يقوم بمجهود يعادل رفع ما وزنه طن الى قمة جبل متوسط الارتفاع . واقل من عشر هذا المجهود تصرفه الاحشاء الداخلية كالقلب وعضلات التنفس والمعدة والامعاء للقيام بوظائفها الطبيعية . وعشر آخر يصرفه الجسم في القيام بأعماله المعاشية . والثمانية الاعشار الباقية تصرف في حفظ حرارة الجسم عند الحد الطبيعي . هذه باختصار نسبة تصريف المجهود في العامل . أما الكتّاب وارباب الحرف الفنية والسراة فلا يقومون بمجهود يماثل مجهود العامل . وعليه فيجب ان يعمدوا الى الرياضة البدنية بشكل من الاشكال حتى يمكنوا اجسامهم من القيام بمجهود يعادل مجهود العامل الاعتيادي

والاحجام عن القيام بالرياضة البدنية يحدث تأثيراً سيئاً في الجسم . ففي الاطفال والشبان تمتنع العضلات والعظام عن نموّها الطبيعي . نعم انهم قد يبلغون احياناً الطول الاعتيادي لكنهم يكونون عادة نحافاً ضعافاً . ثم ان عضلات الظهر تتعب بسرعة فيتقوّس العمود الفقري . ولما كانت الاعمال المعاشية تجعل أحد جانبي الجسم يتعب قبل الآخر فان أحد الكتفين ينحط في مستواه عن الآخر محدثاً تقوّساً بالعمود الفقري الى أحد الجانبين . وعدم تمدد الصدر ينجم من عدم النشاط في التنفس . وهذه الحالة تهيىء صاحبها للاصابة بالدرن الرئوي . وعدم استعمال عضلات خاصة بالجسم كما يشاهد مثلاً في الشلل يحدث تحللاً دهنيًّا في العضلات وتيبساً بالمفاصل المتصلة بها واذا تقدم الانسان في السن وحبا الى الشيخوخة وكان ممتنعاً عن الرياضة البدنية اعتراه الضعف وفقر الدم وعسر الهضم والامساك . والاشخاص الذين لا يروّضون أجسامهم يصابون في متوسط أعمارهم بالبدانة وانحلال عضلة القلب وجدران الاوعية الدموية ورخاوة العضلات

الوجهة التاريخية

والآن وقد ألممنا الى مكانة الرياضة البدنية من الوجهة الطبية يجدر بنا ان نبحث في تاريخها القديم ابتداء من العهد اليوناني لمكانة هذا العهد من وجهة خاصة لان الغربيين ينظرون اليه كمبدأ عهد الالعاب الرياضية لذلك نجدهم ينسبون الى اليونان فخر ابتكار الرياضة البدنية وتشجيعها. وسنرى ان جميع هذه الآراء خطأ . لان الدعاية الكبيرة التي قام بها اهالي اولمبيا باليونان طمست فضل المصريين الذين كانوا قد انحطوا وقتئذ ودخلوا في دور الخمول والاستعباد

وعبارة الرياضة البدنية « يقابلها بالانكليزية Athletic Sports » وهي مشتقة من كلمة Athlete التي تعني الشخص الذي يتبارى في الالعاب الرياضية قصد الحصول على جائزة الشرف . وقد اطلقت

اولاً على كل شخص يشترك في مباراة موسيقية او رياضية او خلافها ثم حصرت بعد ذلك في هواة الرياضة البدنية فقط . واقتصرت الرياضة البدنية اولاً في بلاد اليونان على أهالي الطبقة الراقية والمراكز السامية الذين كانوا يتبارون لا لقصد الحصول على جوائز مادية . لكنها بعد ذلك عممت ثم انحصرت في الطبقة الوضيعة

وكان الفلاسفة والاطباء الاقدمون من يونانيين ورومانيين يمقتون هذه الالعاب ويعتبرونها ضارة بالذهن والجسم كما يستدل على ذلك من كتابة Euripides لمقالاته في Autolycus . وعني اليونانيون وقتئذ عناية عظيمة بغذاء الرياضيين حتى كانوا يقصرونهُ على الجبن والتين المجفف وخبز القمح . وتتلخص العاب القوم حينذاك في التمرينات الرياضية المعتادة ورفع الاثقال وثني الاقواس الحديدية والعدو والقفز والمصارعة والملاكمة . وكان القوم يقومون بذلك وهم عراة ويدهنون اجسامهم بالزيت . قال ليفي (جزء ٣٩ — ٢٢) ان الالعاب الرياضية اليونانية أُدخلت الى روما بواسطة فولفياس نوبلير Fulvius Nobilier وذلك عام ١٨٦ ق . م . وكانت هذه المهن تعتبر ارقى من مهنة التمثيل لكنها كانت معتبرة مشينة لمقام الروماني . والالعاب الرياضية اليونانية والرومانية كانت ممزوجة بروح دينية في اوائل امرها . ويرى الاثريون ان هذه الالعاب كان لها نصيب وافر في تحسين الاجسام والاذهان ببلاد اليونان كما يستدل على ذلك من كتاباتهم وعاداتهم . واستمرت الالعاب الاولمبية مرعية في اليونان الى اوائل تاريخهم القديم . واولمبيا هو اسم لبقعة في سهل باليونان يقال له إليس Elis . والالعاب الرياضية فيها ابتدأت عام ٧٧٦ ق . م .

عند قدماء المصريين

نعود الآن الى قدماء المصريين فنقول ان عناية اليونان والرومان بالالعاب الرياضية لم تظهر فجأة بل كانت نتيجة تلقينهم بواسطة المصريين الذين كانوا شديدي العناية بها منذ اقدم العصور قصد المحافظة على صحتهم وتحسين اجسامهم . فالباحث في آثار عهد الاهرام واواسط التاريخ المصري واواخره يجد ان المصريين اتقنوا منذ اقدم العصور المصارعة والمبارزة بالعصي والحركات الجسمانية الرياضية والعاب الكرة وانواع الصيد والقنص ومبارزة الثيران وغير ذلك . وانهم كانوا يجدون في ذلك لذة وسروراً حتى نقشوها على جدران مقابرهم محافظة عليها للدار الآخرة كما نقشوا الدعوات والصلوات الدينية بالقرب منها جنباً الى جنب . والباحث في هذا الموضوع من الوجهة المصرية يجد فيهِ سروراً كبيراً لانهُ يدلهُ بطريق غير مباشر على كثير من احوال البلاد المعاشية في تلك العصور المتغلغلة في القدم ويظهر له الغامض من جغرافية الاراضي وقتئذ وعادات اهلها وما بلغت معارفهم وفنونهم خاصًّا بالصيد والالعاب الرياضية

ولما كانت مصر تروى بالحياض وكانت ايضاً تحوي الكثير من البرك والمستنقعات الكثيرة الطيور

والاسماك على اختلاف انواعها كما كانت الصحاري تفيض بالحيوانات المفترسة المختلفة فاننا نجد ان المصريين كثيراً ما كانوا يهتمون بالصيد والقنص في الفيافي والمستنقعات ويصطحبون معهم أسرهم كي يشتركوا في ذلك السرور وتلك المغامرات .وسنبدأ بحثنا في الصيد والقنص ثم الالعاب الرياضية التي كانوا يقومون بها داخل منازلهم ثم خارجها

الصيد في البرك

وان تعجب بشيء فاعجب بطباع الانسان الذي كلما زادت حضارته وارتقت مدنيته وكلما زاد في رفاهية حياته ونعيم مسكنه، زاد حنينهُ الى الطرق المعاشية التي تربى فيها اجداده بالرغم مما تتطلبه من ضنى وتقتضيه من نصب . وفي كثير من الاحوال يعمد الانسان وقت سروره وفرحه الى التسلي بألعاب تلك الازمنة القديمة وملاهيها . وليس بين بلدان العالم ما يظهر قيمة هذا الرأي بجلاء اكثر من القطر المصري . فمن اقدم العصور التاريخية نجد السيد المصري مرسوماً على الآثار يصطاد السمك بالحربة ذات الرمحين والطيور بالعصاة الملتوية . هذا بالرغم من ان صيادي تلك العصور كانوا يستعملون في مهنتهم شباك الاسماك ومصائد الطيور . ومعلوماتنا عن مصر القديمة تبدأ من عصر قد وصلت فيه الى درجة كبيرة من المدنية والحضارة . فالغابات الكثيفة المملوءة بالمستنقعات التي اكتظّت بها الوادي قبل ذلك صارت في تلك العصور اثراً بعد عين. واصبحت ترى الحقول الزراعية المنظمة . لكن في كثير من الجهات تتخلف البرك والمستنقعات بعد زوال الفيضان النيلي وهناك ينمو شجر البردي بغزارة ويكثر حصان البحر والتمساح والطيور المائية العديدة . وهذه البقاع كانت دائماً مجال حبور وانبساط لأن جمالها الطبيعي جذب قلوب المصريين فصاروا يذهبون اليها كثيراً للصيد والقنص ولم يقتصر الامر على ذلك بل وضع الشعراء والكتّاب في جمالها وروتقها القصائد الرنانة والنثر الفياض

ففي المستنقعات وبين سيقان البردي الجميلة كان السيد المصري يتروّض في قارب صغير قاطفاً أزهار اللوطس صاعقاً الطيور العديدة بالعصاة الصغيرة الملتوية وقاتلاً بالرمح الطويل حصان البحر او سمك النيل . هكذا كان يحلم السيد المصري في تمضية اوقات سروره

ففي مقبرة رقم ٣ ببني حسن التي يرجع تاريخها الى الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠—١٧٩٠ق.م) من حكم الملك اسرتسن الثاني تشاهد رسوم واضحة واشكالها الآدمية لا تزال محافظة على نسبها — وكذلك صور الطيور والحيوانات . ولا يجد الباحث تعباً في معرفة انواع السمك والحيوانات الواردة بالصورة لدقة الرسام ومهارة الحفار . ويشاهد تحت الافريز بيان باسماء والقاب صاحب المقبرة (خنوم حوتب) رئيس اقليم الوعل ورئيس الامراء . وهذا مكتوب في الجهة اليسرى للصورة . وفي اسفل ذلك يشاهد الامير المذكور يصطاد الطير وهو في قارب صغير مصحوباً

بزوجته وابنه وسيدة اخرى من عائلته وتابع له . ويشاهد (خنوم حوتب) هذا قابضاً بيده اليمنى على العصاة الملتوية وبيده اليسرى على ثلاثة طيور . وفي المياه اسفل القارب تشاهد عدة اسماك وحصان بحر وتمساح. وتحت ذلك تشاهد جماعة من الصيادين يصطادون السمك وحصان بحر بالشباك تحت ملاحظة رئيس الصيادين (منتوحوتب)

اما القسم الايمن للصورة فيحوي نقوشاً اسفل الافريز هذا تعريبها « الامير الجليل الكثير الاسماك الغني في الطيور المحب لمعبودة الصيد » . وتحت ذلك يشاهد منظر يمثل (خنوم حوتب) يصطاد سمكاً وهو في قارب صغير مصحوباً بابنه البكر وخادم وقابضاً بيديه على حربة ذات رمحين اصطاد بهما سمكتين معاً . واسفل ذلك تشاهد اسماك وحصان البحر وتمساح . اسفل ذلك تشاهد جماعة من الناس في قوارب على سطح المياه . واليك ترجمة النقوش فوق (خنوم حوتب) « التنزه في مستنقعات البردي وبرك الطيور البرية والبحيرات والانهر بواسطة (خنوم حوتب) كبير المتنزهين في القوارب بمستنقعات البردي وبرك الطيور البرية يصطاد الطيور والاسماك . وهو يجلس مختبئاً ويطبق الشبكة الطابقة ويصطاد بالحربة ذات الرمحين ثلاثين سمكة. ما احلى يوم صيد فرس البحر بواسطة (خنو محوتب) » . والرجل الصغير امامه هو الخادم (خنوم حوتب) سميه . والذي خلفه هو ابنه الكبير (نخت) كما يستدل عليه من النقوش اعلا كليهما

هذه الصورة تظهر للقارىء الصيد والقنص في المستنقعات والانهر وهي من الذ انواع الرياضة التي كان يهتم بها القوم وقتئذ. والذي شاهد الفلم السينمائي المعروف باسم (اسكيمو) يكون قد حظى برؤية طريقة استعمال الرماح في صيد الاسماك باجلى مظاهرها وايضاً صيد الطيور بالرماح على النمط المتبع عند الاسكيمو سكان منطقة القطب الشمالي والتي تقرب جداً من الطريقة المرسومة بالصورة سالفة الذكر

أما الصيد في الصحارى فيرى بوضوح في الصورة المأخوذة من مقبرة (انتفوكر) بالاقصر (أسرة ١١) وهي مكوّنة من خمسة صفوف وتمثل الحيوانات الوحشية محاطة بالشباك والسهام مصوّبة اليها من الخارج بواسطة صيادين وبعض الحيوانات الحبالى يضعن صغارهن من شدة الولع . ويمكن الباحث معرفة انواع هذه الحيوانات كالظباء والوعول والتيتل والثيران الوحشية . ويشاهد استعمال الكلاب السلوقية في هذا الصيد (شكل ١)

الالعاب المنزلية

اما الالعاب المنزلية فعلى عدة انواع أهمها لعب الكرة . وهذه تلعب ايضاً خارج المنازل ويشترك فيها الاطفال والنسوة والرجال ، لكنها ترسم عادة خاصة بالنساء وتلعب الكرة على عدة طرق كما يشاهد في الرسم المأخوذ من مقابر بني حسن (اسرة ١٢) ، الطريقة الاولى وهي العليا تتلخص في سيدتين راكبتين فوق ظهري سيدتين أخريين تتبادلان ثلاث كرات بسرعة

بالتوالي . والتي تخفق في التقاط احدى هاته الكرات تركع لتمتطيها الاخرى وهكذا ، وهناك طريقة ثانية وهي الممثلة في اول رسم على اليمين من أسفل وفيه سيدة تقذف بكرة الى أعلا على عدة دفعات مع الاتيان ببعض الحركات الى الامام او الخلف . والطريقة الثالثة وهي الممثلة في الطريقة الثانية من اليمين في أسفل الصورة وتتلخص في تقاطع الذراعين وتبادل قذف ثلاثة كرات بالتناوب بسرعة . وهـذا الوضع صعب المراس للغاية . الطريقة الرابعة وتتلخص في قذف ثلاث كرات بالتناوب والذراعان ممدودتان الى الامام . ويشاهد هذا في رسم السيدة الثالثة السفلى من اليمين . ويشترط في هذه الطريقة ان يكون في كل يد كرة والكرة الثالثة في الهواء . الطريقة الخامسة وهي المرسومة في الرسم الأول من اليسار في الصف الثاني وتتلخص في قذف ثلاث كرات بالتناوب الى أعلا والذراعان ممدودان الى الامام واليدان متقابلتان بشرط ان يكون كرتان في الهواء وكرة في اليدين وهذه حركة ليست بالهينة . والطريقة الاولى أخذها اليونان ولعبوها ضمن ألعابهم واطلقوا على السيدة الراكعة «الحمارة الخاضعة لاوامر الفائز» واخذ اليونان ايضاً عن المصريين لعبة قذف الكرة الى أعلى مسافة ممكنة والتقاطها في حركة قفز قبل ان تلمس الرجلان الارض وقد ذكرها (هوميروس) وقال انها لُعِبتْ في اليونان بواسطة هاليوس Haluis ولاوداموس Laodamus

ويلاحظ ان السيدة التي تجلس على ظهر الاخرى في الطريقة الاولى تكون رجلاها مرسلتين الى جانب واحد ، وان الرداء وقتئذٍ يتكوَّن من قميص بدون كمّ . ولا يبعد ان يكنَّ قد خلعْنَ جلبابهنَّ الخارجي خصيصاً للقيام بهذه اللعبة

والكرة وقتئذٍ كانت تصنع من الجلد المخيط رأسيًّا قطباً الى قطب كالكرات الحديثة . وكان حشوها الدقيق او التبن . ويقرب قطر الواحدة منها من عشرة سنتمترات . وهناك كرات اصغر حجماً من هذه اجزاؤها متباينة الالوان كما هي الحال عندنا في بعض الاحيان

***

﴿ لعبة الكوبات ﴾ : تتلخص في وضع كرة تحت كوبة من اربعة كوبات . ويراهن احد اللاعبين زميله على اية كوبة تحتوي الكرة . كما يشاهد ذلك في الرسم الذي اورده (روزلليني)

﴿ لعبة « الجديد » ﴾ هي لعبة قديمة تتلخص في تخبئة حصاة او ما شابهها في احدى اليدين وتخمين احد اللاعبين على اليد الحاوية للحصاة . اما لعبة « الضامة » فكانت معروفة ومنتشرة لكن طريقة لعبها وقتئذ لم يتأكد منها بالضبط

ومن الالعاب التي كان القوم يقومون بها داخل منازلهم وخارجها هي ان يجلس شخصان على الارض ملتصقي الظهرين وان يمد كل منهما احدى ذراعيه الى الامام ويؤخر الآخر للخلف . ثم يبدأ في القيام من الارض بدون لمسها باحدى اليدين والفائز في هذا التمرين هو طبعاً الاول في اتمام هذه الحركة . وتعمل الحركة ايضاً معاكسة بأن يقف الرجلان ملتصقي الظهرين حافظين ذراعيهما

في الوضع نفسه ثم يجتهدان فيمن يسبق زميله في الجلوس على الارض . وقد وردت هذه اللعبة منقوشة على مقابر بني حسن (اسرة ١٢)

ومن اجمل العابهم التي يشترك فيها الجنسان وتجتمع فيها الرشاقة والنظام والسرور هي لعبة الالتفاف وتتلخص في ان يقف شابان احدهما الى جنب الآخر ويمدان احدى الذراعين الى الامام والاخرى الى الوراء . بعد ذلك تأتي غادتان رشيقتا القوام قصيرتا الملبس فتضعان ايديهما في ايدي الشابين ويلقيا بجسميهما الى الوراء بشكل رشيق مستقيم بشرط تقابل ارجلهما بعضها ببعض. وبالطريقة الاخيرة يمنعان انفسهما من الانزلاق . فاذا ما تم هذا التوازن بدئت حركة الالتفاف الدائري اولاً تدريجاً ثم تزداد بسرعة حتى تبلغ لمح البصر . وغني عن البيان ان هذه الحركة تتطلب مهارة من الجنسين لكنها في الرجلين اكثر منها في السيدتين . فالرجلان يحافظان على التوازن بأيديهما ويراقبان حركة الالتفاف فيبدلان ارجلهما بتناوب لا يتعارض مع سيقان السيدتين . وضفائر الشعر في هذه اللعبة تعطي اثناء الوقوف شكلاً بديعاً اذ كلما زاد الالتفاف سرعة ازداد تطاير الشعر عن الرأسين . واساس هذه اللعبة الاستمرار في بقعة واحدة مستديرة مركزها نقطة تقابل رجلي السيدتين

وهناك العاب اخرى منزلية مثل لعبة الضامة وهي قديمة العهد جداً لا يبعد ان تكون طريقة لعبها قريبة من طريقتنا الحديثة . ولعبة اخرى تتلخص في ركوع شخص وقعود آخرين بالقرب منه قابضين بأيديهما على عدد من ظهر الطاولة . وعلى الراكع تخمين العدد الموجود في يد مخصوصة . ويتحتم عليه المكوث في تلك الهيئة الى ان يصيب الحقيقة مرة ما . وهناك لعبة اخرى تتلخص في استخلاص طوق بواسطة عصاة ملتوية يحملها شخصان

الالعاب الخلوية

ولنترك الآن الالعاب المنزلية ونبحث في الالعاب الخلوية التي كان القوم يقومون بها في العراء ويأتون فيها بكل نوع وحركة . وليست هذه الالعاب وليدة عصر مخصوص اهتدينا اليه بل الغريب انها وجدت منقوشة على مقابر عهد الاهرام اي من عهد المملكة القديمة وذلك حوالي ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد او ما يسبق الالعاب الاولمبية بالفي سنة وخمسمائة سنة تقريباً . وسأورد للقراء هنا صورة للحائط من مقبرة الفيلسوف العظيم (بتاح حوتب) بسقارة تلك المقبرة ذات الرسوم البارزة البديعة والنسق الجميل والتي جمعت من مناظر حياة القطر المصري الزراعية والمنزلية ما يأخذ الالباب ويبهر العقول . هذه المقبرة هي ككل مقابر سقارة يرجع تاريخها الى عهد الاهرام وهو العهد الذي بدأت فيه المباني الحجرية تأخذ شكلها الضخم ومتانتها العديمة المثال . ففي الصف الاول او الاعلى من الصورة ترى مناظر جمع البردي من المستنقعات وعبر البهائم للمستنقعات حيث توجد التماسيح في انتظار فرائسها . اما الصف الثاني فتشاهد فيه عدة ألعاب يقوم بها الشبان

يظهر انها كانت تقام في موسم العنب وصنع الخمور . واول هذه الالعاب هو القاء العصي او السهام المدببة الى الارض احتفالاً بالمعبود (شسمو) معبود الكروم على الارجح ثم شابان جالسان على الارض مربعي الساقين وقابضين بيديهما على اقدامهما واسفلهما شاب يحمل فوق ظهره طفلين يمسك كل منهما قدمي الآخر فيشبهان قفصين لحمل المحاصيل . وبديهي ان هذا الشاب يقوم بدور دابة كالحمار . بعد ذلك يشاهد شابان واقفان معاً كلٌّ منهما يطوّق عنق الآخر باحدى ذراعيهِ ويقبض ذراع الآخر بيديهِ . يظهر من امرهما انهما يقومان بحركة دوران متعاكس يتبادل فيهِ كل منهما عنق زميله ثم يده . بعد ذلك يشاهد شاب يحمل معطف على كتفيه يتقدم بخطوات واسعة نحو شابين جالسين على الارض مادين ارجلهما الى الامام وواضعين كعب قدم فوق اطراف اصابع القدم الاخرى . وتشاهد فوق ذلك اليدان في حالة البسط موضوعتين فوق القدمين . ولا يبعد ان تكون هذه الالعوبة هي المتداولة الآن بين اطفال الفلاحين وهي القفز على ارتفاعات مختلفة تبدأ اولاً بارتفاع يعادل قدماً واحدة ثم قدمين ثم قدمين ويد ثم قدمين ويدين . وان الشخص الذي يعدو أمامهما هو الذي يقوم بحركة القفز على الارتفاعات المذكورة بالتوالي . بعد ذلك يشاهد شاب يعدو على الاربع فوق أكتاف ثلاثة شبان يظهر من أمره انهُ يستمر في هذا العدو كلما تخلص الشاب الثالث واخذ محله امام الشاب الاول وبعد ذلك تشاهد حركة الالتفاف الدائري بشكل غير السابق شرحه مع ملاحظة ان هذه النقوش يرجع تاريخها الى القرن الثلاثين ق . م . والصورة السابق عرضها يرجع تاريخهـا الى حوالي القرن العشرين ق . م . وتتلخص هذه اللعبة في عمل دائرة من ستة شبان مثبتين اقدامهم بعضهـا في بعض وملقين بأنفسهم الى الوراء قليلاً ثم قائمين بعملية الالتفاف . وفي هذه الحالة يكون الستة أشخاص مشتركين في حركة الالتفاف غير الحركة السابق شرحها تحت رقم ٧ حيث يقوم بالالتفاف سيدتان دون الشابان . وفوق هذه الرسوم نقوش تعريبها « لف اربع مرات » واخيراً بعد ذلك يشاهد شاب راكعاً فوق الارض يجتهد في القبض على قدم لأحد زملائه الاربعة الذين يشغلونه بوكزه دفعة واحدة في كل الجهات من جسمه . أعلا ذلك نصوص هذا تعريبها : اتركني الكزك . انني اتألم من جانبي . أنا أحسست بك ! »

وفي الصف الثالث يشاهد رجلان يقومان بعملية ري شجرة عنب . وآخران يقتطفان الثمار ويطؤونه بأرجلهم لعصره

وفي الصف الرابع يوضح الصيد والقنص في الصحارى . فالمنظر الاول هو لكلب سلوقي يهجم على كلبين وحشيين . ثم كلب يهجم على وعل . ثم غزالة ترضع صغيرها . ثم سلوقي يقبض على تيتل . ثم غزلان ثم ابن آوى . وفي القسم السفلي يشاهد رجل قابضاً بحبل على كلبين من النوع السلوقي ويشير بيديه الى اسد يفترس ثوراً وحشيّا من انفه . ثم كلب يفترس غزالا وآخر يشد وعلاً . بعد ذلك يشاهد نوع من التيتل وثوران وحشيان اقتنص احدهما رجل بطريقة الحبل والانشوطة

المسماة عند الافرنج Lassso . ويشاهد الحبل مطوقاً للقرنين والجسد . وعلى بعد من هذا المنظر يشاهد غزال جالساً مختفياً . ثم نمس يصطاد . ثم يربوع لاجئاً الى اكمة . ثم قنفذ قابضاً بفمه على صرصار

ويشاهد في الصف الخامس مناظر المعيشة على ضفاف النيل . فالمنظر الاول من اليسار . يمثل شق الاسماك وتجفيفها في الشمس . ويعمل ذلك باستخراج الاحشاء الداخلية ثم القاء السمك على الارض للتجفيف . ثم منظر لرجل وشاب يقومان بلف الحبال اللازمة لصناعة السفن . ثم مناظر صناعة السفن . ويشاهد في الصف السادس صيد الطيور بالشباك الطابقة

الالعاب البهلوانية

اول هذه الالعاب هي الواردة ببني حسن (اسرة ١٢) وتتلخص في ان يحني احد اللاعبين ظهره راكعاً ثم يأتي ثانٍ ويقوم بحركة القفز والانقلاب على ظهر زميله وهذه الحركة موضحة الرسم بمقابر بني حسن وهي عبارة عن رفع الذراعين الى اعلا والتهيؤ للانقلاب ثم حني الظهر الى الخلف بعد وضع اليدين على الارض ثم الانقلاب ثم وضع اليدين على زميل وسط الانقلاب والوقوف على ظهر الزميل ثم القفز الى الارض ورفع الذراع الايسر والقبض على القدم الايمن علامة النجاح وبالقرب من هذا المنظر يشاهد شخص قابض على الجائزة وهي قلادة

وهناك لعبة بهلوانية تقوم بها سيدتان تنحني احداهما الى الخلف وتقبض على جسم زميلتها بيديها بحيث تكون رأس الزميلة مقابلة لرجلي الأخرى . ثم تبدأ حركة الدوران فتطأ الراكبة الارض بقدميها جاذبةً جسم الاخرى معها فينتجم عن ذلك ان يكون رأس السيدة المحمولة الى اسفل وقدماها الى اعلى . ثم تتكرر الحركة تباعاً وبسرعة . واقل ما يقال في هذه الالعوبة انها مدهشة وتحتاج الى كثير مران وقوة عضلات

وكان ثمة لعبة بهلوانية ثالثة يشترك فيها اكثر من سيدة لكنها في الحقيقة قاصرة على واحدة فقط وتتلخص في انحناء الجسم الى الوراء بشكل نصف دائرة بشرط ان يكون مرتكزاً على الارض بقدميهِ ويديهِ على ما هو واضح بالصورة

حركات الرقص البهلواني الرشيق الذي كانت تقوم به السيدات احياناً وهو عبارة عن مزيج من القفز والخيلاء . والصورة المرفقة المأخوذة من بني حسن (اسرة ١٢) تمثل ست حركات لهذا النوع . «الحركة الاولى» تتلخص في القفز الى اعلى مع ثني الساقين على الفخذين والفخذين على الجسم وتحريك الذراعين الى الامام بشكل جذاب ثم «الحركة الثانية» وهي عبارة عن الرجوع الى هيئة الوقوف على الارض في دلال واضح . ويلاحظ ان قامة السيدة في كل حركة حافظة على الاستقامة والنشاط ثم «الحركة الثالثة» وهي حالة الوقوف مع الرقص بالاذرع و «الحركة الرابعة» عبارة عن ثني الساق اليمنى على الفخذ والوقوف على الرجل اليسرى مع تحريك الذراعين الى الامام بشكل تمريجي او

تقوَّمي . و«الحركة الخامسة» وتختلف عن سابقتها بارسال الذراعين الى الخلف بشكل فتان بديع ثم «الحركة السادسة» وهي الختامية وفيها يتجلى الجمال والرقة والخفة فتقف السيدة على القدم اليسرى وتنعطف بجسمها قليلاً الى الوراء ثانية ساقها المحنى على فخذها وباسطة ذراعيها الى الامام بكيفية تظهر بها جمال كل جزء من جسمها الفتان ولعمري ماذا كان ينتجه قلم ذلك الرسام في مثل هذا الموقف اذا كان رسمه على الورق بدلاً من نقشه على الحجر . لكنه رغم ذلك قد تمكن من اثبات رغبته حفراً في جلمود الصخر وأتى لنا بالعجاب فأورد لنا صوراً آية في الجمال والكمال . انظر ايها القارىء الى اللبس التي تلبسه السيدات في هذا المقام فقد روعي فيه اظهار كل محاسن الجسم قدر الطاقة مما يتناسب مع ظروف الحظ والسرور ساعتئذ . فالرداء في كل المواقف ما عدا في الحركة الثالثة لا يصل الى الركبتين بل اعلى منهما بقليل مظهراً جمال الساقين والقدمين العاريتين وهو ملتصق ما امكن بالفخذين والبطن واسفل الصدر ومعلق بشريطين رفيعين بالكتفين . والثديان عاريان والذراعان عاريان املسان والمصاغ قاصر على قلادة بالجيد وخلخال في كل ساق مجيد . اللهمَّ ارزقنا بمختار ثانٍ يظهر لنا بدائع اجدادنا ومفاخر آبائنا مما يطمس بلا شك فخر الغربيين في الرقص واللباس والرشاقة على السواء

ولكن ما لنا ولهذا الرسم فقد اورد لنا هؤلاء الفراعنة رقصاً آخر يقول عنهُ الاستاذان ارمان ورانكه انهُ من ادهش الانواع وأقربها الى الحيوية واجملها منظراً واحلاها رونقاً بل وافتنها للنفس وأجذبها للقلب . هذا الرقص هو الوارد بمقبرة بدير الجبراوي ويرجع تاريخه الى الاسرة الخامسة (حوالي ٣٠٠٠ ق. م.) . قال الأثريون ان هذا الرقص لا يبعد كثيراً بل قليلاً جدًّا عن الرقص المعروف عند الغربيين باسم Ballet . وفي هذا الرقص تشترك النسوة في صف طويل مثنى مثنى او رباعى رباعى . وفيه تحني كل فتاة جسمها الى الخلف وترفع ذراعيها واحدى رجليها الى اعلا بشكل خطوط متوازية . فاذا ما انهت هذه الحركة بدلن الارجل المرفوعة بالاخرى وهكذا والشعر في كل حالة مصنوع بشكل ضفيرة واحدة منتقلة في آخرها بكرة القصد منها جعل الخصلة عمودية ما امكن محافظة على النظام واتماماً للرونق والجمال . وبعد الفراغ من هذا الرقص كنَّ يتقدمنَ الى المتفرجين ويحنينَ اجسامهن برشاقة قصد التحية . ثم يأتي غيرهنَّ للقيام بدورهنَّ كما هي العادة الآن عند الافرنج

﴿ الرقص التوقيعي ﴾ وهو الوارد بمقبرة (خيتي) ذات الرقم ١٧ ببني حسن (اسرة ١٢) ويشاهد فيها ثلاثة رجال يرقصون امام ثلاثة آخرين يصفقون لهم بنظام وتؤدة والرجال الراقصون يقومون بحركات اشبه كثيراً بالحركات الجمبازية التي يلقنونها بالمدارس الآن . وهي اولاً مد الذراعين الى اعلا والوقوف بنشاط ثم ثني احدى الساقين الى الوراء عند الركبة. ثانياً بقاء الذراعين ممدودتين الى الامام والمحافظة على حركة الوقوف السابقة مع مدّ الساق الايمن الى الامام ورفعه الى

مستوى الخاصرة . ثالثاً هو ضم الساقين الى جانب بعضهما وبسط الذراعين بشكل افقي للجسم . بعد ذلك يشاهد ثلاثة رجال يصفقون لزميل لهم يقوم بحركة رقص تتلخص في رفع الذراعين الى اعلا بشكل رشيق مع المشي بشكل مخصوص الى الامام او الخلف

﴿ رفع الاثقال ﴾ هذه الالعاب الرياضية البديعة اول من اسسها بشكل نظامي هم قدماء المصريين. وقد أورد الاستاذ روزلليني صورة لذلك يشاهد فيها شخص يتهيأ لرفع الثقل بيده اليمنى. وهذا الثقل عبارة عن كيس محشو رملاً او ما شاكله . وكمية الرمل بطبيعة الحال تقلل وتزاد حسب البداية او التقدم في المران . وشخص ثانٍ يمثل نفس الحركة ولكن بالذراع الايمن . وشخص رابع يمثل الحركة النهائية في رفع الثقل . ويشاهد رافعاً الثقل الى اعلا باسطاً ذراعه الايمن ما استطاع مراقباً توازن الثقل . بعد ذلك تنوعت الاثقال طبعاً الى ان وصلت في عهدنا هذا الى القضبان الحديدية التي تضاف اليها الاثقال في الاطراف تدريجاً . لكن النظرية واحدة والغرض واحد

﴿ المبارزة بالنبوت ﴾ كان هذا النوع من المبارزة ذائعاً بين المصريين الاقدمين كما هو الحال الآن . وكثيراً ما كانت المشاحنات والمنازعات بين القرى يفصل فيها في تلك العصور بالرجوع الى هذا السلاح العظيم . لكن ذلك لا ينفي انهُ كان يستعمل للرياضة البدنية ايضاً خصوصاً وقد وردت لنا صور كثيرة على الآثار تظهر ذلك بوضوح. منها الصورة المأخوذة من مقابر المملكة القديمة (اي عهد الاهرام) . وفيها تشاهد السفن الصغيرة المصنوعة من سيقان البردي وبعض الملاحين يدفعون القوارب الى بعضها ليتمكن الآخرون من المبارزة . وبعد التغلب على الخصم بالنبوت كان الغالب يقذف بالمغلوب في الماء

قال هيرودوت ان رؤوس المصريين اصلب مادة من رؤوس سواهم من الامم. ولا يبعد ان يكون قد استنتج هذا الاستنتاج بعد مناظرة مبارزة النبوت . والحق يقال ان كل من يشاهد معركة حامية يستعمل فيها هذا السلاح لا يبعد كثيراً من الصواب اذا ما وصل في النهاية لمثل هذه النتيجة . وقد اوردت ذكر الصورة لانها تمثل المبارزة في السفن وهي اشد مراساً من المبارزة على اليابسة كما هو بديهي لمن مارس هذه المهنة

﴿ المبارزة بالعصي ﴾ هذه المبارزة اقرب ما يكون من المبارزة الاوربية المعروفة بالشيش او السيف . وهي الاصل بلا مراء في ذلك النوع من الرياضة . ويشاهد ذلك في صورة ذكرها الاستاذ روزلليني . وفيها يقف الخصمان وقفة المبارزة الغربية التي تتلخص في استقامة القامة والميل بها قليلاً الى الامام مع ثني احد الطرفين السفليين والاتكاء على اطراف اصابع القدم الاخرى استعداداً للكرّ والفرّ مما يتطلبهُ هذا الصراع البديع . ويقبض كل فريق عصاه التي يقرب طولها من السبعين سنتمتراً ويلبس في الساعد الآخر درعاً مثبتة بعدة اوثقة مستعرضة . وهذا الدرع يمتد من مفصل الكوع الى اطراف الاصابع . القصد منهُ توقي الضربات بهِ وحماية الطرف المذكور

والرداء القصير يمنع عرقلة الكفاح . ودلائل الانتباه الشديد تبدو في وجهي المصارعين وتكفل اظهار شدة اهتمام القوم بهذا النوع من الرياضة . ويلاحظ ان اليد القابضة على العصاة لابسة قفازاً او ما شاكله حماية لها ايضاً من اصابات الخصم كما هو الحال في مبارزة الاوربيين

﴿ كفاح الثيران ﴾ ولع القوم كثيراً بهذا النوع من الرياضة واحتفلوا به امام معابدهم الرئيسية كمنف وغيرها وقدموا الجوائز لصاحب الثور الفائز . لذلك كانوا يصرفون زمناً طويلاً ومجهوداً عظيماً في تمرين هذه الحيوانات بما يتعادل مع عنايتهم بالخيل كما رواه استرابون المؤرخ الشهير وكثيراً ما اشترك الرعاة والفلاحون في هذه المهرجانات لازدياد تحمس الناس والاكثار من افراحهم. ولم يرغم قدماء المصريون اسرى الحروب على كفاح الحيوانات الوحشية والقتال معها كما كان يفعل اهل روما مثلاً . ولم يسمحوا للمبارزين بقتل احدهما الآخر لانهم لم يروا في ذلك سروراً ولاجذلاً . بل اعتبروه امراً مخالفاً للانسانية . والصورة الواردة هنا عن هذا النوع من الرياضة تمثل تمرين الثيران لهذا الكفاح ويشاهد فيها المدرّب يشجع دابته على المضي في النطاح تارة بالكلام كما هو واضح بالصورة وطوراً بالضرب والعصاة كما هو واضح بمناظر اخرى

﴿ المصارعة ﴾ كانت هذه الرياضة البدنية من ألذ الالعاب عندهم . وقد وردت بمقبرة (بتاح حوتب) (مملكة قديمة حوالي ٣٠٠٠ ق . م .) مناظر لهذه الرياضة . لكن مقابر بني حسن (اسرة ١٢) تحوي رسوماً لكل وسائل الدفاع والهجوم مبينة اوضح بيان . وزيادة في الايضاح رسم الشخصان المتبارزان بلونين مختلفين (احمر واسود) . ويجد القارىء في الصورة الواردة هنا مصارعة واحدة توضح دقائق الامور تساعده بعد ذلك على تطبيقها على سائر المناظر المماثلة. وعلى كل حال فهذا الصراع لا يقدره تماماً الا المصارعون . ولا يعرف الفضل الا ذووه . في الصورة يرى القرّاء المصارعين عراة الاجسام . اللهمّ فيما يتعلق بوضع منطقة صغيرة حول الوسط . ولا يبعد ان يكون المصارعان قد دهنا جسميهما بالزيت او مادة اخرى مشاكلة قصد ازلاق ايدي الخصم وقت القبض على جسم زميله ولكل مصارع الحق في القبض على اي جزء من جسم خصمه سواء كان الرأس او العنق او الرجلين وان يستمر في الكفاح على الارض مدة كما كانت الحالة عند اليونان . وفي مقبرة ببني حسن لأمير يقال له (باكت) رسم يمثل ثلث الحائط الايسر وهو عبارة عن افريز اسفله القاب صاحب المقبرة ودعوات ثم ستة صفوف عليا تمثل مائتين وعشرين حركة مصارعة بين مصريين احدهما ملون باللون الاحمر الفاتح والآخر باللون الاحمر القاتم تمييزاً لاجزاء جسم كل من الخصمين

واختلف الناس في العالم الحديث في تحديد ماهية المصارعة . واختلفوا ايضاً على المباح من المسكات منها والمحرّم لذلك كثرت انواع المصارعة وتعددت قوانينها . لكن الشائع منها الآن هو الذي تمسكت به اوربا نقلاً عن الاغريق والرومان وهو المعروف حالاً باسم «Greco-Roman» ويستعمل في الدورات الاولمبية لطبقة الهواة . لانه في نظرهم الطريقة التي ينجو بها المصارع من

الخطر لانها تقيد المسك فيما فوق السّرة بشرط عدم مسّ الاعضاء الرخوة التي لا تقاوم الضغط لطبيعتها البشرية

اما آسيا فقد تمسكت فيها اكثر اممها بطريقة عدم التقييد في المسك . وعدّت اليابان والهند وتركيا على الخصوص المصارعة الحرة من ضرورة الدفاع عن النفس . فاطلقت للمصارعين الحرية في كل انواع الضغط واللي وما اليهما بجميع اجزاء الجسم . وقد دعى تمسك اليابان بالاباحة المطلقة وانتشار المصارعة فيها على هذا النحو الى الاجماع على تسمية هذا النوع « بالمصارعة اليابانية » وقد كان يعرف باليابان باسم « Ju-Jutso » وعند الانكليز نوع من هذه المصارعة يعرف باسم « Cornish »

والثابت من الرسوم المنقولة من بني حسن ان المصارعة الحرة بكل اوضاعها وانواعها مصرية الاصل . وان الانصاف تسمية « المصارعة اليابانية » باسم « المصارعة المصرية » والاسم الذي يطلق احياناً على المصارعة وهو « Catch-as Catch-can » لا يحوي معنى النسبة لموطن ابتكار هذه المصارعة

والاوضاع المبينة في رسم مقبرة بني حسن عبارة عن المصارعة الحرة المعروفة بـ Catch as-Catch can ويظهر ان الفوز كان يتم وقتئذ بالقاء الخصم على ظهره فوق الارض بشرط مساس كتفيه لها في آن واحد . وان المصارع وقتئذ كان يستعين برقبته قبل مصارع اليوم في الدفاع عن كتفيه : والحركات المعروضة هي مجموعة لمسكات عدة تتعدى بالتأكيد ما هو موجود الآن مما يدل على ان المصارعة وقتئذ كانت اوسع فنًّا وحرية منها الآن

والآن وقد اتضح للقارىء ما قام به سلفنا المجيد الصالح من العاب رياضية شاملة وحركات جسمانية متباينة اقل ما يقال عنها انها اشبه بالحديث ومنتهى ما بلغه القديم . بدأوها واتقنوها . ثم اتى اليونان فاخذوها وفي اولمبيا عرضوها . فادّعى اهل الغرب ان هذه الالعاب يونانية الاصل ونسوا ما لاجدادنا من فضل . والسر في ذلك اضمحلال القطر وزوال مدنيته بعد زهوّها . وغزو الاجانب له واستبدادهم به بعد نشوته وعزته . فصار للاجنبي اليد اليمنى والكلمة الاولى . وصار المصري مستأجراً مستصغراً فنسى هذا الاخير ثروة اجداده ومخلفاتهم . واخذ هذا الاول لب اخلاقهم واعمالهم . لكن صخور مصر وما تحويه من نقوش جبابرتها صمدت كما صمد ابو الهول حوالى الخمسة آلاف سنة . فلما اكتشفت وفحصت ظهر منها العجب العجاب من مدنية عالية واخلاق فاضلة . وبدا لنا نحن الاطباء عجائب الطب والجراحة بكل انواعها . وفوق هذا وذاك ظهرت لنا شدة ولع القوم بتنمية اجسامهم نمواً صالحاً سليماً لا تشوبهُ علة ولا ينقصهُ كمال . بانت لنا انواع الالعاب الرياضية منزلية وخلوية مما جعلتنا نؤمن ونسلّم بان هؤلاء القوم ما بلغوا تلك الذروة في المدنيـة والحضارة والعلم الا بعد ان اصلحوا اجسامهم واينعوها وعرفوا مقـدار الحيـاة وقيمة الصحة . واثبتوا لنا باوضح صورة صدق المثل القائل بان « العقل السليم في الجسم السليم »

كلمة عن حضارة

جزيرة كريت القديمة

هل هي اطلانتيد الاساطير ؟

لشارل عيساوي

ورد ذكر كريت غير مرة في الالياذة والاساطير اليونانية فقد تحدَّث هوميروس عن « كريت ومدنها البائدة » وكان اليونانيون يزعمون ان الاله زفس نشأ في تلك الجزيرة وأقام ابنهُ مينوس حاكماً عليها فكان يقابل الاله والده مرة كل تسعة اعوام ليأخـذ عنهُ الحكمة ويعود الى رعيتهِ فيسنَّ لهم الشرائع والقوانين. وقد ورد في الاساطير ايضاً ان اثينا كانت ترسل الى كريت سبع فتيات وسبعة فتيان على سبيل الجزية كل تسع سنوات فيبتلعهم مينوتور (الثور الخرافي ذو الجسم البشري) وظلت تدفع هذه الجزية حتى تغلب ثيسيوس البطل الاثيني على مينوتور وقتله

ويقول هيرودوتس ان مينوس (والراجح ان هذا الاسم كاسمي قيصر وفرعون لا يشير الى ملك معين بل كان لقباً يلقب بهِ كل من جلس على العرش) جرَّد على كاميكوس في صقلية اسطولاً كبيراً وجيشاً جراراً فانتهز بعض القبائل اليونانية فرصة غيابه عن كريت ففتحوها واستولوا عليها وانتهت بذلك المدنية الكريتية العظيمة

ويُستَدلُّ مما ذكرناه انهُ كان لكريت تاريخ قديم مجيد غير ان الناس لم يكونوا يعرفون شيئاً عنهُ حتى العهد الحديث لما أخذ هنري شليمان الأثري الالماني الشهير يبحث عن آثار المدنية اليونانية في آسيا الصغرى والموره واخذ غيره ينقب في جزيرة كريت ولعلَّ أشهرهم السر آرثر جون افانس. وقد رفع هؤلاء الأثريون النقاب عن ادوار الحضارة اليونانية القديمة وتحوُّلها فاتضح منها ان المدنية اليونانية التي كان يعتقد كثير من الناس انها قد نشأت فجأة، متصلة بالحضارة الكريتية كما ان النهضة الاوربية Renaissance متصلة بالحضارتين اليونانية والرومانية. وهذا مما يثبت ان الطبيعة لا تعمل قفزاً بل يكون عملها تدريجياً كما يقول الرومانيون

﴿سكان الجزيرة وتاريخهم﴾ كان سكان كريت قصار القامة طوال الرؤوس نحاف الخصور سود الشعر والعيون سراع الحركة وبالجملة كانوا ينتمون الى الفرع الذي تتألف منهُ الشعوب القاطنة حول بحر الروم اي انهم كانوا يشبهون كل الشبه اهالي سردينيا وكورسيكا وبعض اقاليم ايطاليا. واللقب الذي لقبهم به اليونان وهو «الرجال ذوو الجلود الحمر» يدل بكل وضوح على انهم كانوا سمر الالوان

وأما تاريخهم فليس عندنا ما يساعد على شرحه شرحاً وافياً لاننا لما نتوصل الى قراءة كتابتهم التي كانت ارق من الكتابة المصرية . ويرجع ذلك العجز الى اننا لم نعثر حتى الآن على اية وثيقة في اللغتين الكريتية والمصرية او الكريتية والفينيقية وعسى ان نظفر فيها بعد بمثل هذا المستند فنتمكن من الاطلاع على اسرارهم . الا انهُ في وسعنا ان نقول ان الجزيرة لم تخضع لسلطة كنوسوس اكبر المدن الكريتية الا بعد ردح طويل من الزمن يعاصر طرد الهيكسوس من مصر . اما من الخارج فكانت الجزيرة في غاية المناعة . وابلغ دليل على هذا عدم تحصين المدن فيها . ففي كنوسوس مثلاً لم يجد المنقبون سوى برج صغير لا تزيد قيمته الدفاعية عما يكفي لسدّ غارات القرصان . والواقع ان كريت كبريطانيا العظمى كانت تعتمد على اسطولها العظيم وهي اول من اسس دولة بحرية في التاريخ

ولا نعرف حتى الآن كيف انتهت الدولة الكريتية غير ان آثارها تدل على حدوث ذلك عقب كارثة فجائية . والراجح ان « ميكينا » اكبر المستعمرات الكريتية تبرّمت بحكم مينوس المستبد فخرجت عليه وهزمت اسطوله او على الاقل تملّصت منه فاغارت على كنوسوس وحرقتها الا ان مصباح الحضارة الكريتية لم ينطفىء حتى فتح الجزيرة الاغريقيون « الدوريون » في سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد

***

﴿ الزي والنساء ﴾ كانت ثياب الرجال في كريت تشبه ثياب معاصريهم اي انها كانت عبارة عن منطقة للحقوين وحذاء من الجلد ولفة على الساق كلفّة الجنود . وكانوا يرتدون في فصل الشتاء افاعاً واسعاً ويحمون رؤوسهم بعمامة او قبعة تشبه البيرية (beret) . اما النساء فكنّ يلبسنَ ثياباً تشبه كل الشبه ثياب الاوربيات كما يظهر لك في الرسوم التي تصحب هذا المقال

وكان اسلوبهم في البناء يختلف كل الاختلاف عن الاساليب المصرية والاغريقية . فبينما كان المهندسون المصريون والاغريقيون يبنون البيوت طبقاً لطراز معين كان الكريتيون يستغنون عن الانسجام ويتوخون الراحة وكثرة النور والهواء الطلق فلم يكتفوا بطبقة واحدة بل كانوا يجعلون البيت من طبقتين او ثلاث طبقات فيبلغ علوه عشرة أمتار او خمسة عشر متراً . وكانت المنافذ مغطاة بالرق الشفاف

واذا ما تأملنا قصر كنوسوس الكبير الفيناء مؤلفاً من عدة غرف مبنية حول فناء واسع يفصل بينها ممرٌّ مسقوف وعلى ذلك كان البناء شبيهاً بخلية النحل . وكانوا يضيئونه بواسطة مساقط نور (مناور) . وليس هناك ما يدل على ان الكريتيين كانوا يفصلون غرف النساء عن غرف الرجال مما يدل على حرية المرأة واختلاط الجنسين عندهم . ولكنّ هناك شيئاً اجدر بالشرح من اسلوبهم في البناء وهو انتظام مجاريهم الذي دهش له المنقبون لانهُ فريد في نوعه لا في تاريخ الشرق القديم فقط بل

في اوربا حتى القرن التاسع عشر . فاذا فحصنا ارض الطبقات العليا في قصر كنوسوس وجدناها مثقوبة في غير مكان واحد وليست هذه الثقوب الا آبار صغيرة محفورة في الجدران لجمع الماء وصبه في مجارٍ واسعة مبنية من الحجر ومبطّنة بالاسمنت تؤدي الى خزانين كبيري الحجم يسيل الماء منهما الى نهر صغير كان يجري بالقرب من القصر . وكان هذا النظام عينه ينطبق على المراحيض « فكان مينوس يتمتع بميزات صحية لم يعرفها لويس الرابع عشر في فرسايل »

***

وبلغ المهندسون الكريتيون نصيباً وافراً في علم حركة السوائل (الهيدروليكا) بدليل ان الترعة الصغيرة المنحدرة بجانب سلم القصر الكبير ليست مستقيمة بل ملتوية مما يمنع الماء من الجريان بسرعة زائدة والطغيان على السلم . وكانوا ينقلون الماء الى القصر في انابيب من الطين المحروق طرفها الواحد اعرض من الآخر بحيث يمكن ادخال البعض في البعض الآخر . ولكي لا تضغط الانبوبة الضيقة على الواسعة كانوا يلفونها بحلقة خارجية وكانوا يلتقطون طرف الانبوبة العريضة كما (يتضح من الرسم) ثم يلحمونها بالاسمنت

وكانت طرقهم في غاية الاتقان ولم يشهد العالم ما يشابهها حتى ادخل المهندس الشهير مك آدم Macadam طريقته المعروفة في انكلترا ، ويكفي دليلاً على إتقانهم مد الطرقات ان توازن بين الطريق الكريتي الذي يصل قصر كنوسوس الكبير بالقصر الصغير والطريق الروماني على مقربة منهُ . فان الطريق الكريتي يظهر بوضوح امتن واكثر اتقاناً مع ما كان للرومان من شهرة في تعبيد الطرق . ولا تقل شوارع المدن اتقاناً من هذا الطريق اذ كانت محفوفة برصيفين وترعة صغيرة لجمع الماء وتصريفه

﴿ مقام النساء ﴾ كان للنساء مقام سامٍ في كريت وكنَّ يتمتعن بحرية لم تعرفها الافريقيات والرومانيات . وحسبك دليلاً ان الكريتيين كانوا يعبدون الهة وابنها الصغير ويرمزون بذلك الى خصب الطبيعة . وكانت هيا كل هذه الالهة مكتظة بالكاهنات

اما عن حياتهنَّ الاجتماعية فكنَّ يشتغلنَ في الحقول ويمارسنَ الصناعات كالرجال ويخرجنَ معهم الى الصيد ويتنزهنَ في العربات دون رفيق او رقيب . واغرب من ذلك انهنَّ لم يكتفين بمشاهدة الالعاب الرياضية بل كنَّ يشتركنَ فيها فيصارعنَ ويتلاكمنَ ويكافحنَ الثيران مثل الرجال!

﴿ كريت ومصر ﴾ لم تعش مصر منعزلة عن جيرانها — على الضدّ مما يعتقده الجمهور — بل كانت متصلة كل الاتصال ببلدان الشرق الادنى ولاسيما جزيرة كريت

ولعلَّ بعضهم يظن ان المسافة بين البلادين وهي خمسمائة كيلو متر كانت فوق طاقة سفن ذلك العهد . ولكن لا يفوتنا ان فراعنة الاسرة الثالثة ارسلوا اسطولاً الى سوريا وبعثوا حملة تجارية الى الصومال . أوَليس معقولاً اذاً ان شعباً بحريًّا كالشعب الكريتي لا يحجم عن قطع المسافة بين

جزيرته ومصر وعن ممارسة القرصنة تارة والتجارة البحرية الشريفة اخرى . والظاهر ان التجارة بين البلادين ترجع الى عهد قديم جداً فقد وجدت عدة اوانٍ من النوع الكريتي في قبور بعض رجال الاسرة الاولى . ومن جهة اخرى عثر المنقبون في كريت على عدد يذكر من الطاسات المصرية المصنوعة من الحجر القاسي المسمى بالديوريت . والمعروف عن تلك الطاسات انها لم تصنع الا في عهد الاسرتين الاوليين وليس من المحتمل انها نقلت الى كريت فيما بعد لان الشعوب القديمة لم تعلق شأناً كبيراً بتراث اسلافها

وظلت التجارة رائجة بين البلادين حتى انقضاء المملكة المصرية القديمة وابتداء الفوضى التي سادت مصر زمناً طويلاً . ولما زالت الفوضى وجلس ملوك الاسرة الثانية عشرة على عرش مصر استؤنفت العلاقات واخذ كلاهما يتبادل السلع . فقد وجد اناء كريتي في ضريح ابيدوس بالقرب من لوحة عليها اسما «امنمحت» و «سنوسرت» وقد سمع الجميع عن الهيكل العظيم الذي بناه امنمحت والمعروف بالتيه المصري labyrinth ومن دواعي الاسف انهُ لم يبق لهُ أثر فلا نستطيع ان نوازن بينهُ وبين الدور الكريتية بيد ان وصف هيرودوتس وغيره من المؤرخين والسيّاح يحملنا على الظن بأن منشئهُ اقتبس رسمه مما بلغه من وصف التيه الكريتي

ولما اراد امنمحت وسنوسرت ان يشيدا هرميهما أنشآ القرية المعروفة بقاهون واستدلَّ بعض المنقبين من كثرة الخزف الكريتي في بعض احياء هذه القرية على ان عدداً ليس بالقليل من الصنّاع الكريتيين الماهرين كانوا يشتغلون في بناء الهرمين ووجد في كريت تمثال مصري من النوع الذي يوضع في الرموس يدل على وجود مصريين في الجزيرة

ولما فتح الهيكسوس مصر نقص مقدار التجارة بين البلدين الا ان المنقبين وجدوا في كريت غطاء صندوق من المرمر منقوشاً عليهِ اسم « خيان » اشهر ملوك الهيكسوس وزعم بعضهم ان الهيكسوس فتحوا كريت كما فتحوا مصر ولكن هذا الرأي غير معقول ولا ريب لان مصر لم يكن لها أسطول كافٍ لغزو كريت ولا سيما في ذلك الزمن لما كانت دولة مينوس في اوجها

واخذ المصريون في عهد الامبراطورية يكثرون من الاشارة الى اسم « الكيفتي » . وكثيراً ما تساءل الباحثون ما عسى ان يكون الكيفتي ، ويقول العلامة بيكي ان معنى الكلمة « سكان البلاد التي وراء . . . » وان ذلك يرمز الى كريت التي تقع في آخر « الخضراء الكبيرة » كما كان المصريون يسمون بحر الروم . ومما يرجح هذا الرأي ان الكيفتي كما نراهم مرسومين على جدران قبر «سنموت» وزير الملكة حتشبسوت يشبهون الكريتيين كل الشبه ، وخدم الكيفتي طاحوتمس الثالث خدمات جليلة أهمها نقل الخشب السوري الى مصر . ويقول بعضهم ان اسلوب ميناء الفاروس الشهيرة يدل على انهُ كان للكريتيين نصيب كبير في انشائه وانهم اوحوا بهذه الفكرة الى المصريين . بل ان جميع المهندسين والملاحظين كانوا ولا شك من كريت ، وغني عن البيان ان تلك الميناء كانت تعود بالفائدة

على التجار الكريتيين دون غيرهم . لكنهم لم يتمتعوا بها الاّ قليلاً لان كنوسوس حرقت ودمرت في ذلك الحين فانقطعت جميع العلاقات بين مصر وكريت ولم يرد ذكر هؤلاء الأمرة واحدة في التاريخ المصري القديم اذ يقول رعمسيس الثالث انهُ هزم حملة كبيرة وجهت الى مصر وان « الزكارو » — وهم ولا ريب سكان زكرو احدى مدن كريت — كانوا من أنشط العناصر في جيش العدو

﴿ أثر المكتشفات الكريتية في آرائنا ﴾ لقد احدثت التنقيبات التي أظهرت مدنية كريت انقلاباً كبيراً في ما كان العلماء ينسبونهُ الى الفينيقيين من نصيب في تقدم الحضارة اذ كان الجميع يزعمون انهم هم الذين نقلوا المدنية من مصر الى اليونان. ويقول غيرهم ان الفينيقيين استنبطوا الكتابة الحديثة ولم يكن احد يشك انهم اول من صبغ الاقمشة مستندين في ذلك الى ان صبغة مدينة صور كانت مستعملة في جميع بلدان البحر المتوسط . واما الآن فاتضح ان الكريتيين كانوا يزاحمونهم في جميع هذه الميادين . اما فيما يختص بالكتابة فقد ظهر ان دور الفينيقيين لم يزد عن تكييف كتابة الكريتيين وجعلها اسهل واقرب منالاً . وهذا مع أنهُ يستحق التقدير إلاّ انهُ ليس بذي شأن خطير اذا ما قابلناهُ بما كان ينسب اليهم

وقد اكتشف في كريت ثلثة مخازن من الصدف الذي كان الفينيقيون يستخرجون منهُ صبغاتهم مما يدل على ان صناعة الصباغة كانت رائجة في تلك الجزيرة ويستنتج مما سبق ان نصيب الكريتيين في تمدين اليونان كان أكبر من نصيب الفينيقيين فيهِ . وهكذا قلبت المكتشفات الحديثة آراءنا رأساً على عقب

﴿ هل كريت هي الاطلانتيد ؟ ﴾ وقبل ان نختم بحثنا هذا لا نرى بدّاً من الاشارة الى نظرية طريفة لا يستطيع الباحث ان يهملها من دون ان ينظر فيها وفي اسانيدها . لقد سمع الجميع عن القارة المسماة بالاطلانتيد التي يقال انها غارت في المحيط الاتلانتيكي . ويقول افلاطون ان صولون تحدث عنها مع كاهن مصري فوصفها له الكاهن وصفاً دقيقاً ينطبق كثيرٌ منهُ على كريت . فمن قرأ وصف الكاهن لغرف الحمام ومكافحة الثيران الخ يتذكر الحمامات الكريتية والالعاب الرياضية فيها واليك وصف الكاهن لموقع القارة المفقودة : —

« انها كانت تقع بيننا وبين عدة جزائر اخرى واذا ما اجتزت تلك الجزائر وصلت الى القارة التي تحيط بالبحر » فهل يمكن ان يكون وصف كريت ادق من هذا ؟ ولكن يعترض البعض ان الكاهن قال ان الاطلانتيد تقع فيما يلي اعمدة هرقل (اي مضيق جبل طارق) فكيف ينطبق هذا الوصف على كريت

والردّ على ذلك ان كنوسوس زالت من الوجود قبل ان ابتدأ الفينيقيون يرودون البحار ، وقبل ان طاف بحارة «فرعون نكو» حول افريقيا فكانت كريت اقصى ما يعرفونهُ غرباً اذ ذاك . اما في زمن الكاهن اي بعد هذه الرحلات فقد اصبحت أعمدة هرقل اقصى البلاد التي يعرفونها ولما كان اسلافهم يعتقدون ان الاطلانتيد اقصى بلدان الغرب زعموا ان تلك القارة تقع بعد أعمدة هرقل

العلم والسلاح

نظرات في اسلحة الحرب القادمة

نقلها بتصرف : عوض جندي

[عن مجلة العلم العام الاميركية]

صوّر كثيرون من الكتّاب اسلحة الحرب المقبلة وويلاتها صوراً مروعة فتمثّلوا مدناً ضخمة ينهال عليها من الجوّ صيّبٌ من القنابل فيدكها دكاً ، ووصفوا ضحايا الحرب من فريقي المتحاربين وغير المتحاربين على السواء ، يلقون حتفهم بغازات تفوق سمومها مئات اضعاف سموم غازي الخردل والفوسجين(١) . ومثّلوا اهوالها في جراثيم خبيثة تبذر سرّاً وسْطَ جند الأعداء ، وفي دبابات هائلة تسحق تحت اطواقها الدوّارة الوفاً مؤلفة من الخلق

وتخيلوا الاساطيل الجوية الضخمة ، تحسم الحرب قبل ان يتاح لجندي واحد اجتياز الحدود الى بلاد عدوه . وان المتحاربين سيعولون على جنود صناعية (وهي الاجهزة الكهربائية التي تعمل عمل البشر) لكي تقاتل في الخطوط الحربية الامامية بدلاً من الجنود البشرية . ووصفوا الاساحة الكهربائية البديعة التي تدحر المدرعات الضخمة وتسحق الجيوش قبل اطلاق اية طلقة نارية دفاعاً عن انفسها : فهل اذا نشبت الحرب كانت حقيقةً كما يتصورون؟

يندر بين خبراء وزارة الحربية في واشنطون من يؤيد تلك التخيلات ، ولكنهم يزعمون بان الحرب المقبلة ستكون ، أساليبها ومعداتها مختلفة عنها في الحرب العالمية الغابرة ، ممتازة بالسرعة والمباغتة . ويتوقعون ان تكون الجيوش في الحرب المقبلة اصغر منها في الحرب السابقة مع شدة تدريبها وتزويدها بالاجهزة العلمية من أدوات وأسلحة تيسّر لها زيادة السرعة في تنقلها والشدّة في ضرب عدوّها عند هجومها عليه . اما نصيب الطيارات الحربية في الحروب القادمة فسوف يكون عظيماً

وقد تشعبت آراء الخبراء الحربيين الامريكيين تشعباً كبيراً في موضوع الطيارات ، فضباط اركان الحرب في القيادة العليا يقولون ان الطيارات سلاح خطير مفيد جدّاً يحسبانه سلاحاً واحداً من اسلحة حربية شتّى يراد به مساعدة المشاة على الزحف والظفر ، ومع ذلك فان ضباط الطيران الحربي لا يشكّون في كون تحسن الطيارات المطّرد قد احدث انقلاباً تامّاً في مصير الحرب ، وجعل الجيوش والاساطيل بازائها قليلة الخطر وسوف يكون عليها دون سواها فصل الخطاب في الحروب القادمة

وكان للآراء التي اذاعها الجنرال دوهيه الايطالي الجندي العالم الذي توفي سنة ١٩٣٠ بشأن الحرب الجوية صدًى عظيم عند رجال الحرب الاميركيين الذين يعنون بالجو ، كما كانت موضع اهتمام

(١) الفوسجين مزيج من اوكسيد الكربون وغاز الكلور وقد استعمل هذان الغازان في اواخر الحرب الكبرى

غيرهم من اقطاب الحرب في الدول الأخرى . أدرك دوهيه ، لمّا كانت الطيارات لا تزال في دور الاختبار، انها سوف تصير عاملاً جوهريًّا من عوامل الحروب القادمة . وما وضعت الحرب العالمية اوزارها حتى اخذ يبثُّ فكرة استقلال القوة الجوية وتحررها من سيادة القواد البريين والبحريين قائلاً «متى نشبت نيران الحرب ، وجب على كل دولة حشد قواتها الجوية واستخدامها توًّا دفعة واحدة لكي تكفل لنفسها السيادة الجوية . وينبغي تسليح قاذفات القنابل لتستطيع حماية نفسها حينما يهاجمها العدو . أما قوات العدو الجوية فيجب تدميرها بقذف القنابل على حظائرها ومصانعها وهذا خير من مقاتلة طياراته . ومتى احرزت اية دولة السيادة في الجو ، تمكنت من قذف القنابل على مدن عدوها وعلى مراكز تدريب جنوده وعلى طرق النقل فتوهن عزيمة الشعب حتى تحمله على التمرد على الحرب». ومع ان الدول لم تتبع ارشادات دوهيه برمتها . بيد ان ايطاليا وبريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا والمانيا قد نفذت رأيه الخاص باستقلال القوة الجوية عن السلطتين البرية والبحرية . اما الولايات المتحدة واليابان فهما الدولتان الوحيدتان الحربيتان اللتان تخضع قواتهما الجوية لسلطتي الجيش والاسطول وتدل الانباء الواردة من عدة دول على ان خبراءها الحربيين يخشون الهجوم الجوي على حواضرهم . وقيل ان في مدينة لندن مكمناً عميقاً انشىء تحت سطح ارضها في مكان سري محظور البوح به ، لا تؤثر فيه القنابل ولا الغازات الخانقة ، سيجعل مقرًّا لوسائل الدفاع التي تتخذ لحماية الحاضرة البريطانية من هجوم الاعداء . وقد شرعت السلطات الحربية والبلدية في طوكيو وغيرها من المدن اليابانية في اتخاذ الوسائل الكفيلة بصون مصانع توليد القوة الكهربائية وموارد المياه ونحوها من المرافق الوطنية الجوهرية من الغارات الجوية . وتجدُّ فرنسا في اختراع احكم الاساليب لحماية سكانها من الغارات الجوية . ولا يرتاب ضباط سلاح الطيران في كون الغارات الجوية الشعواء على الحواضر ستكون مظهراً من مظاهر الحرب القادمة في مطلعها . ويؤكدون ان باريس وبرلين ولندن وروما وطوكيو جميعاً قريبة المنال ممن يناوئها من قواعده الجوية . ويرون ان اية غارة جوية على مدينة من المدن الكبرى قد لا تدمرها بأسرها بوابل من القنابل الشديدة الانفجار وربما لا تعدو مناطق محدودة . ولكنها تتوخى في الغالب شلَّ الحركات الحربية التي تدور فيها . ويصرّ ضباط أسلحة الطيران على القول ان الغارات الجوية التي من هذا القبيل اذا شُنَّتْ على منطقتين او ثلاث مناطق منعزلة في مدينة كنيويورك او لندن لا بدَّ أن تثبط عزائم السكان تثبيطاً تامًّا ولا يبعد ان تضرم النار في المدينة برمتها وتحرقها حرقاً

وما من خبير حربي يرتاب في امكان حشد الطيارات للغارات الجوية في كثير من الاحوال على المدن العظمى ، ويندر منهم الذي يظن ان ذلك لن يحدث. بيد ان كثيرين من المعنيين بدراسة الحرب الحديثة يستبعدون تحقق نبوءات الخبراء الذين يؤولون التأويلات الخاصة بالحرب الجوية وما يعقبها من الخراب وينكرون شدة تأثيرها في عزائم الجمهور غير المحارب ، تأثيراً يوجب اهتمامهم بها مستندين

في ذلك الى ان الغارات الجوية في الحرب العالمية مع عنفها أثبتت ان غير المحاربين قلما يذعرون منها

ومع ذلك فقد زيدت أحجام القنابل الجوية منذ الحرب العالمية زيادات مفرطة . والمعروف ان أضخم قنبلة ألقيت فيها على مدينتي لندن وباريس لم تزد على ٦٦٠ رطلاً . اما الآن فان خبراء الذخائر الحربية يجربون صنع قنابل زنة الواحدة طنان . وذلك عقب ظفرهم بجعل الوزن القياسي للقنبلة طنًّا واحداً . فاذا سقطت قذيفة منها على الارض فانفجرت ، حفرت فوهة قطرها ٥٧ قدماً وعمقها ١٩ قدماً . ولكنها لا تستطيع التغلغل في المباني الحديثة المشيدة بالفولاذ والبرقاء (الاسمنت المسلح) . على ان الرعب الذي يستولي على سكانها من صدمة القنابل قد يقضي عليهم جميعاً ، وان بقيت الصروح قائمة . ومما لا جدال فيه انهُ ليس لدولة من الدول في الحالة الراهنة طيارات حربية كافية لحمل القنابل الشديدة الانفجار التي تستطيع بها تدمير مدينة كبيرة بحذافيرها . الاّ ان القنابل المحرقة ولا سيما المحتوية منها على « الترميت » اعظم خطراً من سواها . والترميت خليط من مسحوق الاليومنيوم واوكسيد الحديد . فاذا رفعت درجة حرارة جانب صغير من حشوة القنبلة بوساطة الكبسولة التي تشعل البارود في الخرطوشة ، تولد تفاعل شديد يصهر الحديد فيسيل كأنهُ سائل متوهج . واذا خلط الترميت بمادة شديدة الانفجار ، استطاعت القطرات المصهورة المنطلقة منهُ ، اختراق الفولاذ ، فالطيارات التي تلقي قنابل ترميت من زنة ١٠٠ رطل على احدى المدن ولا سيما في يوم عاصف تحدث حرائق شتى تعجز جميع مضخات الحرائق فيها عن مكافحتها

اما استعمال الغاز السام في القتال فمحظور وفقاً للاتفاقات الدولية . فاذا خطر لاحدى الدول نقض عهدها والاقدام على استعماله كان سلاحاً خطيراً جدًّا في الحروب المقبلة

ولكن يظهر ان الفائدة المعزوَّة اليهِ مبالغ فيها ، لان خبراء الحرب في الولايات المتحدة الامريكية يقولون إنهُ لم يخترع غازٌ سامٌ جديد من عهد انتهاء الحرب العالمية الى الآن ، وما زال غاز الخردل اشد انواع الغازات الفتاكة التي يحتمل استعمالها كسلاح كيميائي في ميادين الوغى

ومما لاريب فيهِ أن غاز الخردل سيستعمل في الاغارات الجوية على المدن . فتتمكن طيارة واحدة من حمل مقدار منهُ يكفي مثلاً لقتل سكان مدينة نيويورك على بكرة أبيهم اذا استهدفوا لاستنشاقه وذلك متعذّر بفضل الاحتياطات التي شرعت الدول في اتخاذها على ما جاء بهِ الانباء العامة

وقدَّر الباحثون غاز الخردل الذي استهلك في الحرب العالمية باثنى عشر الف طن ، فقتل بها ٦٠٠٠ نفس واصيب ٣٥٠٠٠٠ نفس باصابات مختلفة . اما الآن فلا يمكن قتل جندي واحد بأقل من طنين من اجود انواع ذلك الغاز الفتَّاك في المتوسط . لأنهُ اذا دُرِّب اهل مدينة من المدن على ملازمة ثبات الجأش عند غزوهم من الجوّ ، واستعمال الوسائل الواقية — والمعروف ان سكان معظم المدن الاوربية يُدرَّبون كل يوم على اساليب توقّيها — كانت نتائج الغاز الخردلي الذي تطلقه الطيارات من قنابلها طفيفة ، وضحاياه يسيرة . وذلك بأن يختبيء السكان في الطابق الثاني من

دورهم لان غاز الخردل يستقر على مقربة من سطح الارض فلا يلحقهم منه ادنى ضرر ولا يخرجوا حتى يُغسَل عن سطح الارض وينزح الى المجاري العامة وذلك بصب المياه الغزيرة

وثمة غول آخر طالما وجف منهُ الكتّاب الذين يبحثون في احوال الحرب القادمة ، ونعني بهِ جراثيم الامراض التي تنثرها الطيارات على عدوها . وفيها يقول اطباء الجيش الذين توفروا على درس هذا الموضوع « ان الدولة التي تتسلح بهذا السلاح لا تجني منهُ سوى نتائج زهيدة لان الحرارة تقتل البكتريا بسهولة فلا يتيسر ادخالها في القنابل او القذائف. ثم ان الوسائل الصحية الحديثة قد تقضي على تلك الجراثيم . واذا اصبحت الامراض وبائية عادت بالوبال على قاذفها لا محالة اذ يستحيل حينئذٍ وقف انتشارها بين قوات الدولة التي سبق أن اطلقتها من عقالها — والجراثيم لا تعرف العدو من الصديق »

وزعموا ان الطيارات في وسعها قذف السموم الزعافة على مدن الاعداء وهذا معقول . وسمّ النقانق (بوتيلينس توكسين) هو من اشدّ انواع السموم المعروفة فيتسنى لطيارة كشافة واحدة حمل مقدار كاف منهُ لقتل كل مخلوق على سطح البسيطة بشرط ان يوجّه وسقها الفتاك الى ضحاياهُ وهذا مستحيل في خلال الحرب لشدة احتياط الاعداء فان اطلق خبط عشواء على احدى المدن كان تأثيره ضعيفاً

ولما كانت دولة الولايات المتحدة الامريكية تبعد ٣٠٠٠ ميل عن اقرب الدول المرهوبة الجانب التي قد تنابذها من ناحية المحيط الاطلنطي و ٦٠٠٠ ميل من ناحية المحيط الهادىء ، فمشكلة دفاعها الجوي عن كيانها بازاء اعدائها الاقوياء اسهل بمراحل منها عند سائر الدول التي يستطيع عدوها الاغارة على حواضرها ومراكزها بعد طيرانه ثلاث ساعات من بلاده . ويرى بعض ضباط سلاح الطيران انهُ ستصنع طيارات تقطع ٧٠٠٠ ميل حاملة طنّا من القنابل . هذا مع العلم بأن اقصى ما تقطعهُ الطيارة الحربية الآن ٩٠٠ ميل . فاذا سوّلت لاية دولة اسيوية او اوربية نفسها مهاجمة دولة الولايات المتحدة الامريكية من الجو، وجب عليها في تلك الآونة نقل طياراتها ببواخر نقالة على مقربة من شواطئها، بيد انها لا تتمكن من ذلك الا اذا تيسر لها تدمير الاسطول الاميركي او حصره على الاقل

ويرى خبراء الخدع الحربية الجوية امكان تعطيل قناة پنَما بغارة جوية بحرية قبيل اعلان الحرب رسميًّا على دولة الولايات المتحدة . وبذلك يسهل ترك اسطولها عاجزاً لتعذر الاتصال بين قسميهِ الغربي والشرقي . وهذا مما جعل ضباط سلاح الطيران في دولة الولايات المتحدة يصرون على انشاء وزارة ثالثة للدفاع الوطني خاصة بالطيران . ويقولون انه يكفي لحماية ساحلي دولتهم من الغارات الجوية ومن اي جيش بري يهاجمهم، قوة جوية مستقلة ذات قاعدة برية تؤلف من ٦٤٠ طيارة قاذفة للقنابل و ٦٤٠ طيارة طوافة (عسس) و ٢٠٠ طرادة جوية مدججة بمدافع ضخمة يديرها عشرة رجال

ومع ان خبراء الجو يكادون يحتقرون الدفاع البريّ ضد الهجوم الجوي ، نرى جنود القوة البرية واثقين بكون المدافع المحسنة التي اخترعت في بضع السنوات الغابرة لمقاومة الطيارات لتسقطنَّ كثيراً من الطيارات عند ما تصوب اليها قذائفها . ومنها احدث انواع المدافع المقاومة للطيارات

وهي من عيار ٣ بوصات وتطلق مقذوفاتها رأسيًا الى ارتفاع ٩٠٠٠ ياردة ، وأفقيًا الى مدى ١٠٠٠٠ ياردة . فاذا وضعت بطارية مؤلفة من اربعة مدافع من ذلك النوع ، وقام بتسديد نارها مدفعي كهربائي robot كان ميسوراً لها اطلاق وابل من النار مؤلف مائة قنبلة في الدقيقة زنة الواحدة ٢٦ رطلاً وتشعل بفتيل ميكانيكي . ومن المرجح ان كل طيارة تحوم في دائرة خمسين ياردة من موضع انفجار احدى هاتيك القنابل ، لا مناص لها من التعطيل — ذلك لأن المدافع آنفة الذكر تسدد مقذوفاتها بالقوة الكهربائية بجهاز بعيد هو كناية عن آلة ستيريوسكوبية stereoscopic (مجسمة للصور المزدوجة) مضبوطة جدًا يتمكن بها المراقبون من اتباع مجرى الطيارات السريعة في كبد السماء . وما على المدفعية (من البشر) الا تركيب القنابل وحشو مدافعهم بقنابلها . فاذا عسعس الليل استعان المراقبون بالمصابيح الكهربائية (الكشافة القوية جدًا) على رؤية الطيارات المحلقة في الجو على ارتفاع ١٥٠٠٠ قدم . ثم ان (اجهزة الاصغاء) تمكن الجنود المناهضين للطيارات من سماع اصداء الطيارات المغيرة عليهم وهي على بعد عشرة اميال عنهم [1] . فتهيء الفرصة لحاملي المصابيح الكشافة والمدفعية لاعداد القوة لمناوأتها . وقد اخترعت مدافع رشاشة (مدافع آلية سريعة الطلقات) كبيرة العيار (قطر الفوهة) للدفاع ضد هجوم الطيارات المنخفضة الارتفاع

ولا جرم ان المدافع العصرية المقاتلة للطيارات تؤثر تأثيراً أشد منهُ في الحرب العالمية التي كانت تصيب الهدف اصابة واحدة من كل ٦٠٠٠ طلقة . وأيًا كان تأثيرها ، فما من دولة يتسنى لها اعداد المدافع الكافية لدحر الطيارات عن كل مدينة تستهدف لغاراتها . لأن معظم تلك المدافع سيخصص للدفاع عن القواعد الجوية الخطيرة وغيرها من مواقع الحركات الحربية المهمة

ويكاد يكون محققاً ان السيادة الجوية هي أولى الغايات التي تتوخاها الدول القوية المتحاربة عند نشوب الحرب ، فان فازت بها ، سهل عليها اطلاق القنابل على مطارات عدوها اطلاقاً عنيفاً وقذفها على مصانع ذخيرته ووسائل نقل جنوده ومعداته ثم على مدنه . فاذا أمكن للعدو اعداد قوة جوية تضارع قوة الدولة المسيطرة على الجو من قبل ، فقامت بينهما ملحمة ، فلا بدَّ ان تكون نتيجتها حدوث هدنة وقتية بين المتحاربين ، يعقبها ادوار القوات البرية حتى تضع الحرب أوزارها

أما ضباط الجيش البري الذين لا يشاركون البتة رجال الاسطول الجوي في زعامتهم القاضية باستقلال الاسطول الجوي فينوهون بفوائد الطيارات كمساعد للجيش البري اذ تقوم بالاستطلاع والدلالة على مواقع نيران مدافع العدو ومهاجمة الطيارات المنخفضة وذلك بالمدافع الرشاشة والقنابل الصغيرة التي تطلقها على الفرق البرية وبقيامها أيضاً بالقاء القنابل على المراكز الخطيرة المواصلات في منطقة مساحتها ٢٥٠ ميلاً

وما من قائد عام لجيش من الجيوش البرية يقتحم القتال الا اذا كان تحت امرته طيارات كافية للهجوم ، واخرى لاقتفاء آثار عدوه ، وغيرها للمراقبة ، وسواها لقذف القنابل

(١) راجع مقالنا «احدث معجزات الصوت» في مقتطف اكتوبر ١٩٣٤

وقد احدثت المحركات الميكانيكية التي يتولد بخارها من احتراق البنزين ، انقلاباً في حرب الجو كما احدثتهُ في غيرها ، فاصبح الخبيرون موقنين بان الحرب القادمة سوف تكون حرباً قوامها السرعة وعتادها المحركات الميكانيكية . فلن تكون فيالقها وئيدة الحركات بل جيوشاً شديدة السرعة بديعة الحركات ، تقلها سيارات سريعة الى ميدان القتال حيث تقوم باطلاق المدافع اطلاقاً عاجلاً مركبات ذات محركات ميكانيكية وحينئذٍ يبطل استعمال مركبات النقل التي تجرها الخيل والبغال . اما الفرسان اذا استخدموا وقتئذٍ — وهذا امر مشكوك فيهِ — فينقلون وخيولهم في سيارة الى المواقع التي يجب ان يمتطوا فيها جيادهم

واذ ذاك يتيسر للجنود مهاجمة بعضها بعضاً مهاجمة أشد منها في الحروب الغابرة لان الاسلحة التي اخترعت أو تم تحسينها منذ سنة ١٩١٨ تمكن الوحدات الحربية الضئيلة من اطلاق نيران حاصدة . وقد اشتهرت في دولة الولايات المتحدة منذ سنوات بندقية (سبرنجفيلد) بكونها اصلح بندقية حربية في العالم . اما الآن فغدت نسياً منسيًّا لانها تطلق على الهدف ١٥ طلقة في الدقيقة . وهذا لا يحسب اطلاقاً سريعاً في الحروب العصرية . ولذلك اخترع الاميركان سلاحاً جديداً لمشاة جيشهم وهو بندقية جرَند وعيارها ٣٠ ./٠ من البوصة وهي نصف اوتوماتيكية وتطلق ٦٠ طلقة في الدقيقة . وقد سلحت سائر الدول جنودها المشاة بمثل هذه البندقية نصف الاوتوماتيكية . وتبذل الدول الآن جهدها في اتمام صنع المدافع الرشاشة الخفيفة التي تبرّد بالهواء لتحل محل المدافع الثقيلة المستعملة للآن التي تبرد بالماء

وقد تبين ان الخبراء الذين تنبأوا بأن الدبابات سوف تصير بمثابة مدرعات برية رهيبة كانوا مخطئين في مزاعمهم خطأً فاحشاً . وكان ثقل الدبابة في الحرب العالمية ٣٥ طنًّا . وكانت سرعتها لا تزيد على ثلاثة اميال في الساعة . وكانت اطواقها الدوارة تتكسر بسهولة وكان ما يضيع منها في الخنادق وتتعطل محركاته اكثر مما كانت تعطله نيران الاعداء . اما الدبابات العصرية فأخف بكثير من العتيقة واقوى منها على اطلاقها للنيران وسلاحها افضل من سابقاتها ثم ان استخدام الراديو مما يجعل قوتها الحربية ذات شأن عظيم . فاذا استعملت الدبابات عجلاتها في سيرها على الارض ، قطعت اربعين ميلاً في الساعة . واذا سارت على اطواقها الدوارة التي يمكن تثبيتها فيها في دقائق قليلة ، كان في مكنتها قطع ٢٥ ميلاً في الساعة في الريف . ولا بدَّ من تسيير الدبابات مسرعة لكي يتاح الانتفاع بها والمعروف انهُ اذا اطلقت الجنود المشاة القنابل التي تزن رطلاً مباشرة من مدفع نصف اوتوماتيكي ، تسنى لها تعطيل اية دبابة من الدبابات المألوفة . وان الرصاص الذي يطلق من المدافع الرشاشة عيار ٥٠ ./٠ من البوصة (وهي ايضاً من سلاح المشاة) يخرق درعها . وما زال الخبراء يتنبئون بأن الاجهزة الكهربائية التي تعمل أعمال البشر ، سوف يكون لها قسط عظيم في الحروب القادمة

[البقية في باب الاخبار العلمية]

السيكلوجية الحديثة

التحليل النفساني — تقدير عام

ليعقوب فام

لقد امعنا في نقد نظريات فرويد حتى انهُ قد يتبادر الى ذهن البعض اننا لا نرى عليها مسحة من الحق والصواب ، والواقع بخلاف هذا على خط مستقيم ، لاننا نزعم ان فرويد من اركان السيكلوجية الحديثة ، وان هذا العلم لا يستقيم لانسان مطلقاً قبل ان يدرس الفرويدية دراسة عميقة منظمة ويضعها في المكان اللائق بها بين المذاهب الاخرى

فكما ان النظرية المسلكية فتحت امامنا الابواب لتربية اطفالنا ، وبينت لنا الطرق التي نتحكم بها في تصرفات الافراد ، كذلك اعانتنا سيكلوجية فرويد على فهم مشكلات الفرد النفسية ، ونشوء التعقيدات في الحياة العقلية ، وكيف نتجنب كل هذا قبل ان يحدث ، ثم كيف نعالجهُ بعد ان يصاب بهِ الانسان

***

قلنا في مقالاتنا السابقة ان التحليل النفساني نبت في الاصل في ميدان الطب ، اي انهُ ظهر على انهُ علاجٌ بعض الامراض المعينة التي لم تنجع فيها الادوية والعقاقير لانها لم تكن تتصل باعضاء الجسم او بوظائف تلك الاعضاء ، وانما هي عقد ومشكلات نفسية انتابت نفس الانسان فافقدته توازنهُ وجعلت سلوكه مغايراً لسلوك الآخرين ، مغايرةً جعلت الناس ينظرون الى ذلك الفرد على انهُ غريب عنهم في تفكيره ، لاينظر الى الاشياء كما ينظرون ولا يستجيب لها كما يستجيبون ، بحيث ان الفرق بينهُ وبينهم لم يكن يعتبر لمزية له بل لنقص فيهِ ، وبحيث ان الناس لا يستريحون الى الجلوس اليهِ ولا هو يستريح الى الحديث معهم ، هو يظن بهم السوء ، ويحمل تصرفاتهم معهُ على غير محملها ، فكل حركةٍ منهم تكون موجهة اليهِ بشكل من الاشكال ، وكل تصرف منهُ لا ينظرون اليهِ على انهُ تصرف انسان مالك لزمام نفسه يقصد ما يقول ويعني ما يفعل

شخصٌ هذه حاله كان من الصعب فهم اصل الداء فيهِ ، هل نشأ من اختلال في احد اعضاء جسمهِ ، او من عجز بعض تلك الاعضاء عن القيام بوظيفتهِ خير قيام ؟ هل مسّهُ جن ، ام اوتيَ

عليهِ مخه ، وانحرف عقله فصار بعيداً عن ان يفهمهُ الناس وبعيداً عن ان يفهم الناس ؟ ومم نشأ هذا المرض ؟ هل هو شيء وراثي منطو في خلايا الجسم يظهر عند سن معينة ، او قد نشأ من الطعام ، او العمل او الاجهاد ؟ ثم كيف علاجه وما السبيل الى التغلب عليهِ ؟

***

ففضل التحليل النفساني على السيكلوجية الحديثة هو انهُ انار لها الطريق في هذا الموضوع بالذات . فوجهها الى السبب الاصلي في نشوء هذه الحالات النفسية المعقدة ، وكيف ان تعدد الدوافع والمنازع في النفسية الانسانية ، وتسابقها الى السيطرة والتفوق ، وكبتها بعضها لبعض ، واستعانة بعضها على البعض بالاوضاع الاجتماعية ، وعجز الانسان عن حفظ التوازن بينها مع مراعاته للعرف ولما تتطلبه منهُ الحياة الاجتماعية ، كيف ان جميع هذه العوامل مجتمعة تفقد الانسان توازنه العقلي ، فيصبح عاجزاً عن وضع كل شيء في موضعه من النظام النفسي ، ويفلت من يده زمام نفسه فتتوزع عواطفه ونوازعه ويمرض وتتناوبه تلك الحالات التي قدمنا ذكرها

وبعبارة اخرى استطاع هذا المذهب السيكلوجي ان يفتح امامنا باباً واسعاً للاحتمالات . نعم قد يخطىء هذا المذهب في تشخيص حالة بذاتها ، قد يأخذ بأسباب وفروض بعيدة الاحتمال متعذرة الوقوع لسبب من الاسباب ، قد يزعم ان الاصل في مرض هذا الفرد شيء معين ، وقد يكون هذا ابعد الاشياء عن ان يكون السبب الحقيقي لمرض ذلك الفرد ، ومع ذلك فان الاتجاه العام لهذه النظرية في تشخيص الامراض النفسية اتجاه سليم قريب من الصواب القرب كله ان لم يكن هو عين الصواب ، وبعبارة اخرى ان التحليل النفساني كشف لنا عن حقيقة ثابتة وهي ان منشأ العقد النفسية انما يكون من الالتواء في النوازع والاختلاط في المشاعر ، وان حوادث معينة في حياة ذلك الفرد هي السبب الاصلي في هذه المشكلات النفسية

***

لقد كشفت هذه النظرية عن اصل الداء بوجه عام ثم تقدمت بالعلاج الصحيح بوجه عام ايضاً . صحيح انها تزعم ان الاصل في هذه الامراض انما هو المسائل الجنسية وصحيح ايضاً اننا نختلف معها في هذا ، ولكنه صحيح ايضاً انها سعت الى الداء في منبت الداء ، اي انها دخلت الى قرارة النفس لتكشف عن علل النفس ، فهي قد اتجهت الاتجاه الصواب وان كانت اخطأت في بعض التفصيلات بعض الخطأ لا الخطأ كله

ذلك لاننا مهما حاولنا لا نستطيع ان نقلل من خطر المسائل الجنسية في حياة الفرد ، لا بل قد نغلو نحن في ثورتنا على هذه النظرية فنقع في شر مما وقعت فيه ، اي اننا نذهب من النقيض الى النقيض فنتعامى عن خطر هذه المسائل في حياتنا جميعاً ، فالاصل في العقد السيكلوجية مشكلات نفسية قد

تكون جنسية قبل ان تكون شيئاً آخر فلا نستطيع ان نعطي حكماً عامّاً شاملاً ينطبق على جميع تلك المشكلات ، وانما نستطيع ان نبحث كل حالة بحالتها ، وقد نرى أثر المشكلات الجنسية في كثير من الحالات وقد لا نجد لها هذا الاثر في غيرها

وملخص القول في هـذا ان هذه النظرية قد خدمت السيكلوجية الحديثة خدمة جليلة . خدمتها في الاتجاه العام الذي اتجهته للكشف عن الاسباب والعلل . ثم خدمتها في توكيدها للمسائل الجنسية ، التي كدنا ان نتعامى عن أثرها تمشياً مع الاوضاع الاجتماعية ، الى حد غير معقول

***

لم تقف خدمة هذه النظرية عند حدّ الكشف عن الاسباب المباشرة في المشكلات النفسية وانما تقدمت ايضاً برأي في علاج هـذه الحالات . علاج أقل ما يقال فيه انهُ صواب في اتجاههِ العام ، وان كان خاطئاً في بعض الحالات بذاتها . وشأن فرويد في هذه المسألة شأن الطبيب الذي يفحص المريض ، ويشخص المرض ويعطي الدواء . قد يخطىء هذا الطبيب في تشخيص المرض وقد يخطىء في وصف الدواء ، ومع هذا كله وبرغم هـذا كله فالنظرية الطبية سليمة في اتجاهها العام ، سليمة في فلسفتها ? وان كانت تخطىء في التفصيلات

اذا اختلطت النوازع النفسية في الانسان ، فقد توازنه الى حدّ معين ، وأصبح عاجزاً عن ان يأخذ بزمام هذه النوازع والدوافع ويوجهها الى مصلحة الكائن كله ، وبمعنى آخر يخرج الأمر في نفسه عن ارادته فيتصرف بنفسه تصرف انسان غير مسئول من جهته وعاجز عن توجيه مشاعره توجيهاً منظماً مقصوداً يرمي الى غاية معينة ، ولا يهم سواء أكان هذا العجز عامّاً ام مقصوراً على ناحية بذاتها من نواحي النفس

هذا الانسان بالطبع مصاب بمرض نفسي ، ووظيفة السيكلوجية ان تكشف عن أصل الداء ، ثم تحصره في دائرته ، وتبين موطنه على التحقيق ، وبعد ذلك تتقدم بالعلاج . فالنظرية التحليلية (الفرويدية) تزعم ان منشأ الداء او موطنه هو المسائل الجنسية في معظم الحالات ونحن بالطبع نعترض على هذا ونزعم ان منشأه قد يكون شيئاً آخر

ثم تصف الفرويدية الدواء على هذا الوضع . من حيث ان الاصل في الداء هو اصطدام الدوافع الجنسية بالاوضاع الاجتماعية ، ولما كان الفرد يسقط أمام هذه التجربة ويستكين ويغلب على أمره ، فالمشكلة لا تنشأ من السقوط وانما تنشأ من الشعور الحاد بالذنب وبالخطيئة وثبات الانسان على هـذا الشعور واستمراره في التشبث بهذا الاحساس — الاحساس بالخطيئة — وأخذه نفسه باللوم والتعنيف ، واحساسه بأنه هالك لا محالة وان السماء والارض تألبتا عليهِ — هذا الاحساس في مجموعه هو منشأ الداء وليس الاستجابة للغريزة الجنسية نفسها

وبعبارة اخرى تزعم هذه المدرسة ان الاوضاع الاجتماعية والخلقية والدينية تضغط على نفس الانسان وتقف في وجه هذه النفس فتزحزحها عن موضعها وتحدث خللاً في توازنها وتفقدها الثقة والاطمئنان بأنها مثل باقي النفوس الآدمية ، والعلاج في هذه الحالة بالطبع يكون في إرجاع الثقة الى النفس وفي تمكينها من استرجاع توازنها والاطمئنان الى انها بخير وانها تستطيع ان تتصرف في شؤونها مثل النفوس الأخرى

***

بغض النظر عن الخلافات في المسائل الجنسية فان التحليل النفساني فتح لنا باب العلاج على مصراعيه ، فأصبح من السهل على كل مدرسة ان تتبع وسائلها في العلاج ، والوسائل جميعها متشابهة وهي الوصول بالمريض الى حالة معها يرى الداء كما يراه الطبيب ، يراه على حقيقته من غير التواء او تشويش في التقدير والحكم . يراه على حقيقته لا كما كان يراه بعين المريض المضطرب المشوش الفكر الموزع القوى

هذه النظرة في ذاتها نظرة سليمة بغض النظر عن منشأ الداء وهل هو من الغرائز الجنسية او من غيرها . المهم في الأمر ان ينظر المريض الى دوافعه النفسية نظرة سليمة ، عاقلة لا تشوبها الاضطرابات النفسية ، فاذا كان سبب الداء حادثة معينة تغيب عن عقله ، يحسن به ان يعرف تلك الحادثة الاحوال المحيطة بها جميعاً ، واثر هذه الحادثة في اضطرابه النفساني

وهنالك خدمة اخرى قدمتها نظرية التحليل النفساني للسيكلوجية في مجموعها وهي انها كشفت لنا عن السبيل الى تجنب الارتباكات النفسية اذا ما اهتم المربون بالتطوّر النفسي في اطفالهم ، فحموا هؤلاء الاطفال من الاختبارات القاسية الشديدة التي تترك اثراً عميقاً في زوايا النفس ، كأن يعرّضوا لما لا قبل لهم باحتماله من الاضطرابات النفسية ، كالخوف الشديد ، او الحزن العميق المكتوم ، او التعرض للحوادث الجسام التي قلما تمضي دون ان تترك وراءها آثاراً لا تمحى

***

وملخص القول ان النظرية التحليلية قدمت للسيكلوجية ثلاث حقائق مهمة لهذا العلم

(١) كشفت عن العلة في كثير من الامراض النفسية ، ووجهت السيكلوجية الوجهة الصحيحة في هذا الميدان

(٢) تقدمت بعلاج نافع لبعض تلك الحالات فتقدم العلم خطوات واسعة في هذه الناحية

(٣) اعانتنا الى حد كبير في الكشف عن طرق الوقاية من بعض الامراض النفسية

اليابان وسياستها الاسيوية
موقف الدول الكبرى وخططها

اعلنت اليابان خطتها الاسيوية الجديدة بلسان احدممثلي وزارة الخارجية فيها في ١٧ ابريل سنة ١٩٣٤ وتلا ذلك تصريحات في هذا الصدد لممثلي اليابان الرسميين في وشنطن وبرلين وجنيف . وهذه التصريحات تنطوي على القواعد الآتية :

اولاً : تعتبر اليابان نفسها الدولة ذات الشأن الاول في المحافظة على السلام في شرق آسيا وبوجه خاص في الصين

ثانياً : لقد انقضى العهد الذي كانت فيه الدول او جمعية الامم تستطيع ان تمارس خططها بقصد استغلال الصين

ثالثاً : ان اليابان تنوي ان تقاوم في المستقبل اي عمل في الصين تحسبهُ ينطوي على خطر وتقرير ذلك يعود اليها وحدها

وطوكيو تعلّق شأناً خطيراً بالقاعدة الثالثة ولذلك عني سايتو سفير اليابان في وشنطن بتفسيرها فقال : «ان اليابان يجب ان تفصل فيما هو خيرٌ للصين» ثم اقترح على اصحاب المصالح الاجنبية الكبيرة في الصين ، «ان يأخذوا رأي اليابان قبل اقدامهم على مشروعات جديدة هناك»

وما كادت هذه التصريحات تذاع حتى اجمع رجال السياسة وكتّابها في مختلف اقطار العالم على انها اهمّ تصريح خاص بالصين صدر من عهد طويل فدهشوا لما انطوى عليهِ من القواعد الشاملة وللقالب الذي افرغ فيهِ

***

وفي ٢٩ ابريل سلّم السفير الاميركي في وشنطن مذكرةً من حكومتهِ في صدد هذه التصريحات الى هيروتا وزير خارجية اليابان . وقد بينت الحكومة الاميركية في مذكرتها ان علاقة الولايات المتحدة الاميركية باليابان ، بل ان علاقة الصين باليابان وبسائر الدول ، خاضعة لمبادئ معترَف بها في القانون الدولي ولاتفاقات خاصة تتضمنها معاهدات مبرمة ، وان هذه المعاهدات تنصُّ على طرق تعديلها او الغائها بوسائل اتفقت عليها الدول المتعاقدة . ثم بيّنت المذكرة الاميركية ان الحكومة الاميركية تتوخى في علاقاتها الدولية ان تحترم حقوق البلدان الاخرى ومصالحها المشروعة وتنتظر ان تفوز من حكومات البلدان الاخرى مثل هذا الاحترام لحقوقها ومصالحها المشروعة

وكانت بريطانيا العظمى الدولة الكبيرة الاولى التي طلبت من اليابان تفسيراً لهذه الخطة الجديدة التي اعلنتها . فاستفسر سفير بريطانيا في طوكيو « استفساراً وديّاً » عن مآل هذه الخطة ولفت نظر اليابان الى ان مبدأ « تساوي الحقوق » في الصين مضمونٌ صراحة في معاهدة الدول التسع ،

وان اليابان وقّعت هذه المعاهدة وأبرمتها ، وان حكومة بريطانيا تنتظر ان تبقى متمتعة بجميع الحقوق التي تتمتع بها سائر الدول التي وقعت هذه المعاهدة . وصرّح سفير بريطانيا لوزير خارجية اليابان ان الحكومة البريطانية لا تستطيع ان تسلّم بحقّ اليابان في ان تحكم بأن عملاً معيّناً — كالمساعدة المالية او المشورة الفنيّة — ينطوي على خطر للصين ووجّه نظر اليابان الى ان المادتين ١١ و ١٧ من معاهدة الدول التسع تفرضان عليها ان تنبه موقعي المعاهدة الى اي عمل فيهِ خطر على سلامة الصين

وقد اقتضى « الاستفسار الودّي » الذي افرغ فيهِ السفير البريطاني ملاحظاتهِ على خطة اليابان الجديدة ، جهداً من الوزير الياباني في الرد عليه ، مع ما هو مشهور عنهُ من البراعة السياسية . ولما كانت اليابان قد قرّرت ان لا تنشر هذا الردّ فيجب ان نعتمد على الخلاصة التي اوردها السر جون سيمون وزير خارجية بريطانيا في خطبة القاها في مجلس النواب البريطاني يوم ٣٠ ابريل ١٩٣٤ . وخلاصة هذا الردّ ان اليابان ايّدت رأي الحكومة البريطانية في حسبانها ان حكومة اليابان لن تعتدي على حقوق الدول الاخرى في الصين ولا تنوي ان تضرب بالعهود التي قطعتها في المعاهدات القائمة عرض الحائط ، ثم اكّدت بأنها تنوي ان تحترم معاهدة الدول التسع وانها سوف تمضي في تعليق اكبر الشأن بسياسة الباب المفتوح . وكذلك استعملت اليابان تأكيد احترامها لمعاهدة الدول التسع ولسياسة الباب المفتوح ستاراً لتغطية مطالبها الواسعة النطاق . ولكن الحكومة البريطانية اكتفت بتصريحات حكومة اليابان لان حكومة بريطانيا ، على ما قال السر جون سيمون في البرلمان — لا يسعها ان تقول لدولة صديقة : « اننا لا نصدق ما تقولين »

اما دول البر الاوربي فقد اختلف موقفها في تصريحات اليابان . فايطاليا استفسرت من حكومة اليابان على نحو ما استفسرت حكومة بريطانيا وفازت بالتأكيدات التي فازت بها بريطانيا . اما المانيا فلم ترَ ان مشكلات الشرق الاقصى تهمها بوجهٍ خاص وان حلّها خاص بالدول ذات الشأن في تلك المنطقة . وأما فرنسا فلم تعن عناية خاصة بموقف اليابان الجديد ، مع اتساع ممتلكاتها في الشرق الاقصى . وأما روسيا فلم تعترض على خطة اليابان ولا طلبت منها تفسيراً لتصريحات رجالها المسؤولين لانهُ سبق لها ان احتجت في مواقف مختلفة احتجاجاً شديد اللهجة فلم يجدِ احتجاجها شيئاً

ولما كانت الصين هي المقصودة بالذات في تصريحات رجال اليابان ، كان موقفها مشوباً بالامتعاض الشديد . وقد اصدرت مفوضية الصين في لندن بياناً قالت فيهِ ان الشعب الصيني الذي يعرف ما له وما عليهِ كدولة مستقلة ذات سيادة لا يسلّم بيسط سيادة اليابان على الصين وانهُ واثق من ان الدول الاخرى لا يمكن ان تساق سوقاً الى التسليم بهِ

***

فبعد التأكيدات التي نالتها بريطانيا وايطاليا ، تفضل الدول المختلفة ان لا تثير هذه المسألة الآن

ولكن الحادثة نفسها كان من شأنها ان ذكرت امم العالم بالاتجاه الملموس في سياسة اليابان الاسيوية

وأول أثر من آثاره تحفز الامم لتعزيز سلاحها ، وخاصة سلاح الطيران . فتقدمت اليابان سائر الدول في تعزيز سلاح الطيران وتبعتها بريطانيا وفرنسا وايطاليا وروسيا . اما حكومة الولايات المتحدة الاميركية فلم تفه بكلمة بعد احتجاجها الاول . ولكن الرئيس روزفلت لم يلبث حتى طلب من الكنغرس ان ينفق جانباً من الاموال المرصدة للاعمال العامة على تعزيز الاسطول الاميركي وحجة الرئيس في ذلك انهُ اذا لم نجد وسيلة لمقاومة اليابان الاّ بالحرب ،وهي حرب لا يرغب فيها احد ، فما علينا الاّ ان ننتظر تطوّر الحوادث وان نعزّز الاسطول في خلال ذلك

وكذلك نرى ان هذه الحادثة افضت الى تنافس في التسلّح لا يعلم احد الى اين ينتهي

ويهمُّ العالم بوجه خاص ان يعلم الى اي مدى تستطيع اليابان ان تحقق خطتها الاسيوية وما تكون النتائج التي يسفر عنها هذا التحقيق

ولا بد لنا في الردّ على هذين السؤالين من ان ندرك ان اليابان ، بعد مهزلة جنيف ووقوف الامم موقفاً ضعيفاً ازاء غزوة اليابان للصين في حرب لم تشهر ، اصبحت لا تعنى اية عناية بالتقريع واللوم او بالامتناع عن اعتراف الدول بدولة منشوكو صنيعتها . فالذي تحتاج اليهِ الدول لقمع اليابان هو حجة العمل لا حجة الكلام . فلننظر الآن في الموضوع نظرة مجردة عن الهوى مقابلين بين العوامل التي تؤاتي اليابان في خطتها والعوامل التي تقاومها

***

يرى الثقات ان روسيا السوفييتية هي الدولة التي تستطيع ان تقاوم توسع اليابان على برّ آسيا الشرقية لانها تعرف خطط اليابان في سيبيريا الشرقية وانها قد اعدت معداتها لذلك . فارسال جيش ياباني عدده ٥٠ الفاً الى سيبيريا سنة ١٩١٩ ، وتأييد اليابان لسيمينوف في اعتراضه تقدم السوفيت سنة ١٩٢٠ ، واحتلالها نيكوليفسك سنة ١٩٢١ ، حوادث اقنعت ولا ريب زعماء الروسيين بأن اليابان لن تقف عند حدود منشوريا وجيهول . فروسيا تعلم ان اليابان بعد ان توطّد قدمها في منشوريا ، وبعد ان تقبض على سكة حديد منشوريا بابتياعها من روسيا او بامتلاكها عنوة ، وبعد ان تنتهي من انشاء السكك الحديدية العسكرية التي تبنيها هناك ، تصبح في مقام عسكري ممتاز يمكنها من محاولة تحقيق احلامها بالامتداد غرباً . وان نظرة واحدة الى الخريطة لتبيّن ان ممتلكات روسيا الى الشرق من شيتا تصبح حينئذٍ تحت رحمة اليابان

ومن الطبيعي ان تمانع روسيا في التخلّي عن ممتلكاتها الواسعة في الشرق الاقصى لانها غنية بالمعادن والحراج وغير ذلك من مصادر الثروة الطبيعية . ولكنها في الوقت نفسهِ تدرك المخاطر التي تتعرّض لها اذا غامرت في حرب مع دولة عسكرية كبيرة كاليابان . وقد لا تكون حكومة السوفيت الآن واثقة من تمام الوحدة الداخلية في بلادها اذا طال امد الحرب علاوة على موقف الدول الاخرى

نحوها ونحو نظامها الجديد . لذلك يبدو للباحث ان زعماء السوفيت يدركون ان التخلي عن ممتلكاتهم في سيبيريا الشرقية لا بدَّ ان تكون ذا اثر سيء في مكانتهم بوجهٍ عام . ولكنهم يدركون كذلك ان هزيمتهم في حرب مع اليابان قد يكون باعثاً على انهيار نظام السوفيت . فهم واقفون بين شرين وقد بدا منهم حتى الآن انهم يفضلون اختيار اهونهما . ولذلك تراهم يحاولون اجتناب الحرب مع اليابان بالغاً ثمنهُ ما بلغ . والاَّ فلسنا نستطيع ان نفسر تفسيراً معقولاً ، صبرهم العجيب على حوادث منشوكو وحدودها وسكة حديد الصين الشرقية ، التي قصدت منها اليابان ، في الغالب ، ان تثير روسيا وتحملها على مناجزتها . بل لما استطعنا ان نفسّر رضا روسيا ببيع سكة حديد الصين الشرقية اللازمة لمصالحها في منشوريا لزوم الرصاص للقلم

والنتيجة التي نخرج بها من هذه الناحية ، ان روسيا لن تقدم على مناجزة اليابان الآن اذا فازت بتأييد دولة اخرى من الدول الكبرى . اما ان تفعل ذلك وحدها فليس محتملاً

اما البواعث التي تبعث الولايات المتحدة على مقاومة اليابان فقوية ، لا تفوقها في ذلك الآن روسيا وقد تتساويان . فاليابان قد اخلّت بمعاهدة الدول التسع وبعهدة كلوج ، وكلتاهما من المواثيق الدولية التي ابدعها ساسة اميركا . فالاخلال بها بعد ابرامها من جانب اليابان طعنة ادبية قوية . ثم ان للولايات المتحدة الاميركية مصالح عظيمة الشأن في المحيط الهادىء . فشواطئها على المحيط الهادي اطول من شواطئها على المحيط الاطلنطي ولها في المحيط الهادي جزائر هواي وهي من ممتلكاتها وجزائر فيلبين وهي تحت حمايتها . والاسكا وهي اقرب الى اليابان من ممتلكات اكثر الدول الغربية . نعم ان الولايات المتحدة قد قرَّرت ان تنسحب من جزائر الفيلبين ، ولكن هذا الانسحاب قد لا يتم قبل بضع سنوات على الاقل ، وفي بضع سنوات قد تقع حوادث كثيرة خطيرة لا يمكن التكهُّن بها الآن . ثم ان اميركا بعد انتزاع جزائر الفيلبين من اسبانيا ، حكمتها حكماً طيباً افاد البلاد فائدة كبيرة فهي لذلك لا يسعها ان تسمح لليابان بالسيطرة عليها بعد خروجها منها . يضاف الى ما تقدم ان تراجعاً كهذا يضعف من هيبتها في الشرق الاقصى ، ويعزز من هيبة اليابان ، حتى لقد تصبح هواي وبعض بلدان اميركا الجنوبية معرضة للخطر . اما شؤون التجارة في بلدان المحيط الهادىء فتهمُّ اميركا بوجهٍ خاص ، وقد قال الرئيس السابق ثيودور روزفلت من سنوات ان مقام المحيط الهادىء لابدَّ ان يفوق مقام المحيط الاطلنطي من هذا القبيل

ولما كانت الولايات المتحدة احدى الدول الكبيرة في المحيط الهادىء فانهُ لا يسعها بوجهٍ من الوجوه ان تسمح بتوسع اليابان المطلق في هذا المحيط . وما اقترح ساستها سياسة الباب المفتوح وحتموا المحافظة على سلامة الصين ووحدتها ، الاَّ بقصد حماية مصالح اميركا السياسية والتجارية . ولما كانت خطة اليابان تهدد هذه المصالح ، فاميركا بحكم الطبع والمصلحة تجد كلَّ مسوّغ في سعيها لمقاومتها وإحباطها . ولكن الخطر الذي يهدّد مصالح اميركا في المحيط الهادىء ، لا يبدو

عظيماً في نظر الجمهور الاميركي ،حتى يسوّغ المخاطر التي تتعرّض لها حكومته في سبيل هذه المقاومة .
ولذلك فالراجح ان الولايات المتحدة ،وهي معنية الآن بتنظيم حياتها الاقتصادية على اسس جديدة ،
تؤثر ان تترك لغيرها من الدول البدء في مقاومة اليابان او مناجزتها

اما مصالح بريطانيا العظمى في الشرق الاقصى فعظيمة وواسعة النطاق . فاموالها وسفنها مسيطرة على الحياة الاقتصادية في وادي نهر البنغنستي وعلى شواطىء الصين وابضائعها القطنية والصوفية ومصنوعاتها الحديدية مكانة ممتازة في السوق الصينية الآخذة في الاتساع . وهذا بصرف النظر عن هنغ كنغ والهند وسائر ممتلكاتها في جزائر البحار الجنوبية . فهذه المصالح البريطانية العظيمة في الشرق الاقصى بوجهٍ عام ، او في الصين بوجهٍ خاص ، تهدّدها خطة اليابان الجديدة . ومن المشهور ان اليابان تستعدُّ لتحلَّ محلَّ بريطانيا في اسواق الشرق الاقصى ، بل ان اتساع تجارة اليابان الخارجية يجعل هذا امراً لا ندحة لليابان عنهُ . وقد فازت حتى الآن بمنافسة بريطانيا في نواحٍ مختلفة في الصين بالرغم عن مقت الصينيين لليابانيين الناشىء عن احتلال اليابان العسكري لمنشوريا . ولا يخفف من وقع هذه المنافسة الآن الأهيبة بريطانيا في الشرق الاقصى التي بنتها في خلال القرن الماضي، وعززتها حديثاً بافعال ساستها امثال اوستن تشمبرلين ولورد ولنغدن ولورد لتون. فاذا ضعفت هذه الهيبة — والدلائل تدلُّ على انها آخذة في هذا السبيل — استطاعت اليابان ان تملي على الصين ممن يحق لها ان تبتاع ما تحتاج اليهِ . وعندئذٍ يصبح اسم لانكشير في الصين نسياً منسيا

ومما يجب ان يحمل بريطانيا على مقاومة خطة اليابان ، ان احترام المعاهدات الدولية بصرف النظر عن ناحيتهِ الادبية ، لا ندحة لها عنهُ . وهي الدولة التي لها ممتلكات ومصالح في جميع انحاء الارض

ولكن يظهر ان طائفة من البريطانيين لم يدركوا حتى الآن خطر خطة اليابان الجديدة ، او انهم على الاقل يرون ان الاخطار التي يتعرضون لها في اوربا اعظم من الخطر الياباني . ولذلك فالمرجح ان تنهج بريطانيا نهج الانتظار لترى ما تفعله روسيا والولايات المتحدة الاميركية في هذا الصدد اولاً

وكذلك نرى ان الدول الغربية التي لها مصالح سياسية واقتصادية كبيرة في الشرق الاقصى قد هالتها خطة اليابان الجديدة وترغب رغبة شديدة في صدّها ، ولكنها لم تحرك ساكناً حتى الآن في هذا السبيل . بل على الضدّ من ذلك نرى بينها تخاذلاً بادياً في موقفها من هذه الخطة ، اذ تميل كلّ امة منها الى القاء العبء على الامة الاخرى . وعلاوة على ذلك كان للحرب الكبرى اثر في نفسية الجماعات الاوربية ، فهي اجنح الى السلم مما كانت ، وخشيتها من الحرب حملتها على الجري على خطة سلبية في التنديد بعمل اليابان في الصين لئلا تشهر اليابان الحرب عليهم جميعاً ! ومن الغريب ان لا تستطيع الدول الغربية ان تتفق في موقفها حيال ازمة الشرق الاقصى ، وبوجهٍ خاص ان اليابان بعد حكم جمعية الامم ونفور الرأي العام الدولي من عملها ، كان يتعذر عليها ان تنال تأييداً في ناحية من النواحي. ومما يخشاهُ الكتّاب السياسيون ان تعجز الدول الكبرى عن ذلك في المستقبل فتستطيع اليابان

ان تفوز بما تريد . وقد ظهرت اليابان في السنتين الاخيرتين بمظهر أُمَّة مقتنعة بان الاقدار تسوقها الى البسطة والتوسع الامبراطوري . وكان غلاة الوطنيين والعسكريين فقط يحسُّون بقوة هذا الدافع من وراء الغيب ، وكان يعارضهم رجال المال والاقتصاد من اليابانيين الذين يرغبون في انتظام اليابان عضواً محترماً في مجامع الدول الاوربية . ولكن هؤلاء اصبحوا يرون الآن ، ان مصير مصالحهم مرتبط بمصير الامبراطورية اليابانية وتبسطها ، ولم يبق امام اليابان حائل يحول بينها وبين تحقيق هذا الحلم الزاهي ، الاَّ مصالح الدول الغربية في الشرق الاقصى

وقد كانت الخطوة الاولى التي خطتها اليابان في هذه السبيل ، احتلالها منشوريا وجيهول . وكان من شأن هذا الاحتلال ان تغلب رأي العسكريين في اليابان حتى اصبح من المتعذر على أية حكومة يابانية الآن ان تفكر في النكوص ذراعاً واحدة ، وحتى ارتدَّ الجمهور الياباني عن تقليد الغرب أي الاقتناع بأنهم أسيويون وانهُ أسهل عليهم ان يفوزوا باحترام الغرب من ان يفوزوا بودّهِ

ومما تحتاج اليهِ اليابان الآن ، هو فترة راحة وسلام تستطيع في خلالها ان ترسخ قدمها في منشوريا وتنظم شؤونها المالية والاقتصادية والعسكرية هناك وتذيع في انحاء العالم رغبتها في السلام وفي ترقية البلاد التي احتلتها وما لرجالها من المآثر فيها . فاذا اتيحت لليابان هذه الفترة — وطولها لا يزيد على خمس سنوات ولا يقل عن ثلاث — فنجاحها في نهايتها لا ريب فيهِ

والعقبة الوحيدة التي تعترض سبيل نجاحها الآن هي ضعفها المالي . فالدين القومي قد زاد زيادة فاحشة . ونفقاتها على السلاح كبيرة جدًّا ، ورجال الصناعة والزراعة متبرمون بفداحة العبء الواقع على عواتقهم . ولكن هذه المصاعب ، على فداحتها لا ينتظر ان تثني حكام اليابان عن عزمهم ، بل قد تكون على الضدّ من ذلك باعثاً جديداً لهم على الاندفاع في مغامرة جديدة محاولين السيطرة على الصين وما وراءها من البلدان ، سيطرة فعلية ان لم تكن سيطرة شرعية ، آملين ان يجدوا فيها منفذاً للتبرُّم في داخل البلاد ، ومصدر قوة لمواجهة الامم الغربية . ولعلَّ عسكريي اليابان يقولون في ذوات نفوسهم ، اذا استطعنا ان نستولي على منشوريا رغماً عن تنديد الدول الكبرى بعملنا وضعف حالتنا المالية ، فاذا يمنعنا بعد فترة الراحة والاستجمام من السيطرة على سوق الصين الواسعة ؟

لابدَّ للصين ان تقاوم ولكن الصين من دون مساعدة الدول الاخرى لا تستطيع ان تقاوم اليابان مقاومة فعالة . والتاريخ يعلمنا ان للهيبة اكبر مقام في الشرق الاقصى فتحدّي اليابان للعالم في جنيف سنة ١٩٣٢ وتحديها له في ابريل سنة ١٩٣٤ لابدَّ ان يرفعا هيبة اليابان في الصين فتستطيع ان تقنعها بأن الدول المسيحية دول مرائية لا تعرف غير الكلام ، وان الصين لا اصدقاء لها بينهم ، وانهُ من الخطأ ان تقاوم الصين اليابان التي تستطيع ان تأمر الدول الكبرى بكفّ ايديهم عن الصين فلا يقاومون

وفي هذا تتحقق نبوءة قائد ياباني قالها سنة ١٩١٥ : متى ادركت الصين انها لا تستطيع ان تفوز بمساعدة ما ضدّنا هرعت الينا وارتمت في احضاننا

ايطاليا الجديدة

بين الانهيار والبعث الفاشي

كنا الى عهد قريب نحسب ايطاليا بلاد مجد قديم واطلال كريمة ومشاهد طبيعية رائعة ، لا دولة من دول العالم الكبار . ولكننا نرى فيها اليوم امة متحدة الكلمة فتيّة العزم مسموعة الرأي في مجامع الدول حتى لقد وصف احد الكتّاب احوال اوربا السياسية ومكانة موسوليني في حسمها او توجيهها بتكريره القول المأثور : « جميع الطرق تفضي الى روما » . ففي الاثنتي عشرة سنة الماضية شهد العالم في ايطاليا بعثاً قوميّاً قد لا يفوقهُ بعث قومي آخر في التاريخ وان ساواهُ في عصرنا بعث الامة التركية على ايدي مصطفى كمال. ولا بدَّ لنا في تلخيص قصة هذا البعث من الارتداد الى سنة ١٩١٤

كانت ايطاليا حينئذٍ امة ملكية دستورية ، على رأسها ملك (هو ملكها الحالي فيكتور عمانوئيل الثالث) ولها برلمان دمقراطي على مثال البرلمان البريطاني . ولكن وحدة ايطاليا السياسية كانت قريبة العهد فلم يكن لها في سنة ١٩١٤ تقاليد يرعاها رجال السياسة او رجال الجيش ، وهذا بطبعهِ افضى الى تقديم المصلحة الخاصة على المصلحة العامة ولذلك كانت حياة ايطاليا العامة قبيل الحرب حياة يشوبها الفساد والارتكاب

فلما نشبت الحرب الكبرى وقعت ايطاليا في مأزق . فقد كانت مرتبطة بالنمسا بمعاهدة ولكن ساستها كانوا لا ينوون الانضمام الى النمسا الاّ اذا تبيّن لهم ان كفة النصر راجحة في جانبها . حتى اذا كانت كفة النصر راجحة في جانب النمسا فماذا تجني ايطاليا من ثمار النصر ؟ ان جلّ ما يمكن ان تتنازل عنهُ النمسا هو مقاطعة الترنتينو . حالة ان دول الحلفاء كانت تمنيها باكثر من ذلك اذا خاضت الحرب في صفوفهم ضد النمسا . وكذلك مضى ساسة ايطاليا يساومون هذا الفريق وذاك مدى شهور . ولكن الرأي العام في ايطاليا كان قد اخذ ينقلب ضد النمسا عدوة ايطاليا التاريخية . وفي اوائل سنة ١٩١٥ طالب احد المحررين في جريدة اشتراكية بان تخوض ايطاليا الحرب ضد النمسا ، فطرد هذا المحرر من الحزب الاشتراكي ومن ادارة الجريدة فانشأ جريدة دعاها الـ « بوبولو ديطاليا » فاحرزت في الحال نجاحاً صحفيّاً عظيماً . وقد كان ذلك المحرر يدعى بنيتو موسوليني

وفي خلال هذا كان رجال الدولة قد اتخذوا قراراً حاسماً . ذلك ان وزير الخارجية البريطانية ، ادورد غراي ، كان قد وعدهم بضم التيرول النمسوية وشواطىء دلماتيا على البحر الادرياتيكي (ما عدا ميناء فيومي) الى ايطاليا اذا هي خاضت الحرب في صفوف الحلفاء . فقبلت ايطاليا ما عرض عليها فوقّعت معاهدة سرية في لندن في شهر ابريل (وتعرف باسم لندن ١٩١٥) وفي مايو شهرت

الحرب على النمسا . وقد ابلى بعض الايطاليين بلاء حسناً في الحرب الكبرى واحرز بعضهم شهرة عالمية بشجاعتهم واقدامهم . وفي مقدمة هؤلاء الشاعر دانتزيو الذي تعلّم الطيران وانتظم في سلاح الطيران وحلّق بطائرته فوق فينا والقى عليها بدلاً من القنابل ، نشرات حث فيها النمسويون على طلب الصلح . ولكن الجيش الايطالي خذل في كابورتو في اكتوبر سنة ١٩١٧ فتقدم الجيش النمسوي على اثره زاحفاً نحو البندقية ولكن لم تنقض سنة على ذلك حتى كانت المانيا قد عجزت عن المضي في الحرب فتراجع النمسويون واقتفى الايطاليون اثرهم ثم اشتبكوا معهم في معركة احرزوا فيها نصراً باهراً

فلما اجتمع مؤتمر الصلح في باريس كان ممثل ايطاليا فيه السنيور اورلندو فقال ان هذا النصر الباهر الذي احرزه الايطاليون جدير بالمكافأة وطلب ان يضاف مرفأ فيومي الى المقاطعات التي قطعت لايطاليا في معاهدة لندن سنة ١٩١٥ . ولكن الرئيس ولسن تصدى لهُ . قال : لتمنح ايطاليا التيرول والترنتينو وشاطىء دلماتيا حتى مدينة تريستا . اما فيومي فميناء سلافي ويجب ان يمنح ليوغوسلافيا (وكانت تعرف حينئذٍ باسم دولة الصرب والكروات والسلوفين) ولما تعذر الاتفاق استدعي اورلندو من باريس فخرج من مؤتمر الصلح غاضباً

وكان في ايطاليا رجالٌ قد وطّنوا العزم على ان ينالوا بالقوة ما عجزت حكومتهم الضعيفة عن نيله بالمفاوضة . وكان في مقدمة هؤلاء جبرائيل دانتزيو الشاعر الجندي . كان شعره الملتهب واقدامه في خلال الحرب ، قد جعلاه الزعيم الطبيعي لجماعة الشبان الايطاليين . ففي سبتمبر سنة ١٩١٩ جمع كلّ طائرة استطاع ان يلقي يديه عليها وطار الى فيومي فطرد منها جيش الحلفاء المحتلّ واعلن فيومي مرفأً ايطاليّاً وحجتهُ في ذلك حجة الشاعر اذ قال : ان فيومي ايطالية بحق المشابهة بين مشاهد الطبيعة فيها ومشاهد الطبيعة في ايطاليا ! وجعل يلقي خطباً نارية على طريقة خطباء الرومان والاغريق القدماء . واعلن ان فيومي دولة دمقراطية على مثال أثينا ، وجعل يجمع الجماهير كل يوم امام داره فيطلّ عليهم من الشرفة ويسأَلهم : ما هي رغباتكم أيها المواطنون . وكان جنوده شباناً غالين بمجد روما القديم ويحلمون بانشاء مستقبل مجيد على غرار المجد الذاهب . وكان بين انصاره رجال قد خاضوا غمار الحرب وخرجوا منها أبطالاً تلهبهم النزعة الوطنية فاقدم احدهم — كلر Keller على القاء قنابل من البنجر على وزارة جيولتي في روما . وكان هناك سفنٌ انفصلت عن الاسطول وانضمت الى دانتزيو في فيومي وفي مقدمتها السفينة المعروفة باسم « دانتي » . فظلّت فيومي ثلاثة أشهر في قبضة دانتزيو وصحبه ، بلاداً خليقة بالابطال . وفي ليلة عيد الميلاد سنة ١٩١٩ ارسل جيولتي الاسطول الايطالي الى فيومي — وهو يعلم ان الصحف تعطل اربعة أيام — فأخذها عنوةً وفرّ دانتزيو واتباعهُ وانتهت على ذلك مغامرتهُ ولكن لما ذاعت الانباء اقفلت ايطاليا مسارحها وارتدت ملابس الحداد

ولكن حكومة جيولتي التي كانت على جانب كافٍ من القوة لطرد دانتزيو من فيومي عجزت عن حفظ النظام في طول البلاد وعرضها . ذلك ان ايطاليا كانت متبرمة بنصرٍ حربيٍ لم يحقق لها جميع

رغائبها فلا هي فازت بجانب من مستعمرات المانيا ولا بشواطىء دلماتيا بل رأت على الضد من ذلك دولة جديدة كبيرة تنهض على شواطىء الادرياتيكي الشرقية تعرف باسم يوغوسلافيا. وكانت الامة تنتظر عودة الرخاء بعودة السلام فخاب فألها. فامتدت الحركة الاشتراكية امتداد النار في الهشيم. وفي يناير سنة ١٩٢٠ اضرب عمال البريد والتلغراف وسكك الحديد. وفي الصيف بدأت مجالس العمال (السوفيت) تحتل المصانع. على ان الجماعة الاشتراكية لم تكن الجماعة الوحدة التي تقاوم الحكومة بل نشأت جماعة قليلة بدت في افق جيولتي السياسي اولاً كغيمة صغيرة لا تزيد عن مساحة الكف. ذلك ان بنيتو موسوليني كان قد انشأ في ميلان حزباً مناوئاً مؤلفاً من ١٥٠ عضواً ودعاه «فاشو» والاسم مشتق من لفظ لاتيني «فاشيس» ومعناه حزمة العصي حول فأس كان يحملها اتباع الحكام (القناصل في روما) عند سيرهم في شوارع المدينة. فكان هذا الاسم رمزاً بديعاً للنهج الذي ينوي موسوليني ان ينهجه. كان موسوليني قد خاض غمار الحرب الكبرى وجرح في احدى معاركها. وكان يدرك الروح الذي حفز الجنود الايطاليين للاستبسال في ميادينها. فقد كان يهمهم انشاء دولة ايطالية جديدة تحتل في الحضارة الاوربية مكاناً في فريق الطليعة اكثر مما يهمهم قهر النمسا. وكان يفهم ان شجاعة الافراد واقدامهم، كشجاعة دانتزيو واقدامه، يعجزان عن مقاومة حكومة منظّمة. ولذلك كان الامل الوحيد في انشاء ايطاليا الجديدة معلّقاً باتحاد الوطنيين حول زعيم قوي وهو ما يمثله الاسم الذي اختاره — عصي فردة محزومة حول فأس

سقطت وزارة جيولتي في ٢٦ يونيو سنة ١٩٢٠ وتلتها وزارة بونومي. فاحتفلت بذكرى الجندي الايطالي المجهول في ٤ نوفمبر سنة ١٩٢١ وبعد يومين اي في ٦ نوفمبر سنة ١٩٢١ عقد الفاشيون مؤتمراً في روما واصبح الحزب الفاشي حزباً سياسيًّا منظماً. وفي العاشر من الشهر نفسه اعلن الشيوعيون والاشتراكيون اضراباً عامًّا احتجاجاً على وجود الفاشيين في روما فتلا ذلك اضطرابات خطيرة قتل فيها خمسة وجرح بضع مئات. وفي اواخر الشهر افلس بنك الخصم فوجّه اللوم الى الحكومة لعجزها عن منع هذه الكارثة المالية واضطر بونومي ان يستقيل في ٢ فبراير سنة ١٩٢٢ لما هجره بعض مؤيديه وانضموا الى المعارضة

فلما استقالت وزارة بونومي تعذر تعيين خلف لهُ حتى يعرف اي حزب او اي فريق يفوز بتأييد الفاشيين. وكذلك انقضت نحو ثلاثة اسابيع قبل ان تألفت وزارة برآسة السنيور لويجي فاكتا. وهو رجل عرف بالنزاهة والوطنية ولكنهُ لم يشتهر بالحزم في الملمات. وادرك موسوليني ان مفتاح الحكم اصبح بيده او كاد، فلبث ينتظر تطور الاحوال وهو يُعدُّ معداته لليوم العصيب. فلما استفحل امر الاضرابات التي اعلنها الشيوعيون والاشتراكيون في مختلف النواحي احتدم النزاع بينهم من جهة وبين الفاشيين من جهة اخرى. فلما اعلن حزب العمال في جميع مرافىء ايطاليا في ١٨ مارس سنة ١٩٢٢ — وكانت الحكومة ميالة الى تأييد مطالب العمال الحمر — وقف لهم الفاشيون

بالمرصاد وفازوا عليهم فاعادوا العمل في المرافىء الى حالته السوية . وفي ٢٥ مايو اعلن اضراب عام في روما وفي يوليو نشر وزير المالية حساب السنة المالية السابقة فاذا فيه عجز على الخزينة يقدر ٤٥٠٠ مليون ليرا وقال الخبراء ان العجز يبلغ ٦٥٠٠مليون ليرا . فأصيب الرأي العام بذعر عظيم وتجددت الاضطرابات وقبض الفاشيُّون على ناصية الحال في مناطق مختلفة ففرقوا جماعات الاشتراكيين والشيوعيين بالقوة . ولكنَّ النواب كانوا في شغل عن كل هذا بالمناورات الحزبية . وفي اوائل اكتوبر ١٩٢٢ أعلن اتحاد العمال اضراباً عامًّا في ايطاليا فوقف العمل في معظم المصانع وأضرب عمال السكك الحديد . ولكن الفاشيين أعلنوا تعبئة عامة وتولوا النهوض بالخدمات الضرورية مثل المواصلات ونقل الطعام وأذاعوا بياناً وجهوهُ الى العمال حثوهم فيهِ ان يخلعوا عن اكتافهم نير المشتغلين بالسياسة وانذروا الحكومة بانهم يمنحونها ٤٨ ساعة لتثبت كفاءتها في القبض على ناصية الحال فاذا عجزت تولوا هم الامر . قالوا : « وعند انتهاء هذه المدة تكون الفاشية حرة في ان تحلَّ محل الدولة » . ولم تنقضِ خمسة أيام حتى كان الاضراب قد خاب في تحقيق غرضهِ وهو نشر الفوضى في البلاد . واصطدم الفاشيون في خلال ذلك بالشيوعيين في مدن مختلفة اهمها مدينة ميلان حيث اسقطوا مجلسها البلدي الاشتراكي الشيوعي . وكانت وزارة فاكتا قد عجزت عن معالجة الحال فطلب رئيس الوزراء الى الملك فكتور عمانوئيل اعلان الاحكام العرفية ولكن الملك ادرك ان اعلانها يفضي الى حرب اهلية لان الفاشيين كانوا قد عبأوا صفوفهم وبدأوا الزحف على روما فرفض . وطلب الى موسوليني ان يشترك في الوزارة فأبى فاستقالت وزارة فاكتا ودخل موسوليني روما على رأس الفاشيين لتقلد أزمة الحكم . وما لبث ان اطلَّ من شرفة دار الرآسة على الجمهور وخاطبهم قائلاً : سوف يكون لكم بعد اليوم حكومة لا وزارة . وخاطب الملك مرتدياً قميصهُ الاسود : عفواً يا مولاي اذا سعيت اليكم بهذه الملابس ولكني احمل اليكم « ايطاليا المنتصرة » . وكان ذلك في ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٢٢.

ولما تولى موسوليني الحكم قبض على ازمتهِ بيد من حديد ، فسار حذراً في البدء لئلاَّ يؤلب عليهِ الاحزاب المعارضة قبل ان ترسخ قدمهُ ولكن حذرهُ لم يخل من الجرأة لانهُ في اليوم الاول الذي تقدَّم فيهِ الى مجلس النوَّاب خطب فيهِ قائلاً « اليَّ مرجع الحكم في هل تحتفظون بمقاعدكم شهرين او سنتين» . فكان لكلامهِ وقع عظيم في نفوس النواب فأولاهُ المجلس ثقتهُ ، واغتبطت الامة بهذا الانقلاب اذ بدا لها انَّ هنا رجلاً يستطيع ان ينقذها من الشيوعية . فلما اغتيل اثنان وعشرون من الشيوعيون في دسمبر سنة ١٩٢٢ هنأ وكيل وزارة الداخلية المغتالين وعفا عنهم القضاة على ان موسوليني جسَّم الخطر الشيوعي ليعظم في نظر الامة جهد الفاشيين في انقاذها منهُ . ولكنهُ لم يكن رجلاً يكتفي بالتنكيل بخصومهِ ، بل كان يرمي الى ان يبعث في جسم الامة الهرم شرارة الحياة والنشاط ونظر بعين بصيرتهِ وخيالهِ الى يوم ينشىء فيهِ ايطاليا الجديدة على

مثال جديد بين الامم ، ويضفي عليها من اسباب القوة المادية والمعنوية ما يحلّها في مجامع الدول المحل اللائق بمجدها القديم وجهدها الحديث . بيد انهُ لم يبغ ان يسلك الى غرضهِ هذا سبيل الثورة بل سبيل التحوُّل الدستوري . وقد كان لموقف الملك فكتور الثالث لما رفض اعلان الاحكام العرفية أثر في خطة موسوليني هذه ، فبقيت ايطاليا مملكة دستورية واحتفظ بمجلس النواب والشيوخ وادمجت سبل التحوُّل الى النظام الفاشيّ في اربعة قوانين اصدرها البرلمان

اما الاول فشمل قانون الانتخاب وقد صدر في سنة ١٩٢٣ ثم عدل في سنة ١٩٢٨ وبمقتضاه تعتبر ايطاليا بأسرها دائرة انتخابية واحدة . فيضع المجلس الفاشي الاعلى قائمة تحتوي على اربعمائة اسم من اسماء تعرض عليهِ . ثم تذاع هذه القائمة وللناخبين ان يقبلوها أو يرفضوها جملة واحدة . فاذا رفضها الناخبون وهو غير محتمل ، توضع قائمة جديدة وتعرض على الناخبين . وقد ثبت من الانتخابات التي جرت في سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٤ ان ٩٠ في المائة من الناخبين في الانتخاب الاول و ٩٦ منهم في الانتخاب الثاني وافقوا على القائمة الاولى التي عرضها المجلس الفاشي الاعلى عليهم . وعلى ذلك يمكننا ان نقول انهُ ما دام النظام الفاشي قائماً في ايطاليا فالمجلس الفاشيّ الاعلى يعين بالفعل اعضاء مجلس النواب . ومجلس الشيوخ مؤلف من امراء البيت المالك واعضاء آخرين يعينهم الملك لمدى الحياة من رجال تخطوا سن الاربعين وامتازوا في ناحية من نواحي الخدمة العامة . وليس ثمة حدٌّ لعدد الشيوخ فتستطيع الحكومة ان تزيد عددهم اذا شاءت ومتى شاءت ولكن الضرورة لم تقتضِ هذه الزيادة حتى الآن

اما المجلس الفاشي الاعلى فمؤلف (اولاً) من اربعة اعضاء يبقون فيهِ مدى الحياة وهم القواد الفاشيونَ الاربعة الذين تقدموا الصفوف في الزحف على روما في اكتوبر سنة ١٩٢٢ (ثانياً) من رجال يشغلون مناصب كبيرة في الدولة مثل بعض الوزراء وسكرتير الحزب الفاشي ورئيس الميليشا الفاشية ورؤساء الاتحادات القومية و(ثالثاً) رجال يعينهم رئيس الدولة جزاء لهم على خدمات عظيمة أدُّوها للدولة ومدتهم ثلاث سنوات قابلة للتجديد . وليس ثمة حدٌّ لعدد هذه الطائفة من الاعضاء

وفي القانون الثاني حدد عمل رئيس الوزارة . فهو مسؤول للملك ولا يمكن ان يحمَل على الاستقالة اذا اقترع مجلس النواب بعدم الثقة بهِ او بوزارتهِ كما يقع في بريطانيا . بل لا يجوز ان يقترحَ اقتراحٌ ما في المجلس من دون رضائهِ . فاذا رفض المجلس أحد مشروعاتهِ حقٌّ لهُ ان يعيد هذا المشروع الى المجلس بعد ثلاثة أشهر وعندئذٍ يقترع عليهِ سرّاً

والقانون الثالث منح الوزارة الحقَّ ان تحكم بمراسيم . وهذه المراسيم لها قوة القانون مدة ثلاث سنوات بعد صدورها سواء اوافق عليها البرلمان او لم يوافق . اما القانون الرابع فهو القانون الذي وضع اساساً جديداً لحياة ايطاليا الاقتصادية وانشاء ما يعرف « بالدولة النقابية » او « الدولة المندمجة » وهو موضوع بحثٍ تالٍ

الكابتن انتوني ايدن

ممثل بريطانيا في جمعية الأمم

[عقد مجلس جمعية الامم في النصف الاول من شهر دسمبر اجتماعاً خطيراً للنظر في استفتاء وادي السار واتهام حكومة يوغوسلافيا لحكومة المجر في صدد جريمة مرسيليا التي صرع فيها الملك اسكندر اليوغوسلافي والمسيو بارتو وزير خارجية فرنسا . وكان جو الاجتماع ملبداً بغيوم الحرب لان اي اضطراب في السار كان يحتمل ان يفضي الى ارسال جيش فرنسي اليه وهذا ينطوي على خطر . ولان تحزب ايطاليا للمجر وفرنسا ليوغوسلافيا كان يهدد بجفاء العلاقات بين الامتين اللاتينيتين الكبيرتين بعد ما مضت في العهد الاخير في سبيل الصفاء والتوثق . فأتيح للكابتن انتوني ايدن ممثل بريطانيا ان يبدد تلك الغيوم اذ اعلن ان بريطانيا مستعدة ان تبعث بفرقة من الجيش البريطاني لحفظ الامن في السار فقبلت المانيا وفرنسا هذا الاقتراح ورضيت ايطاليا ان تشارك بريطانيا في تنفيذ اقتراحها . فلما أحرز الكابتن ايدن هذا النصر في مسألة السار استطاع ان يتدخل في المسألة الثانية تدخلاً أفضى الى الاتفاق على صيغة قرار رضيت به الحكومتان اليوغوسلافية والمجرية]

قلما يتاح لشاب في هذا العصر ، ان يمثل أمة كبيرة ، بل امبراطورية مترامية الاطراف ، في محادثات خطيرة مثل محادثات نزع السلاح أو مفاوضات جمعية الامم . لان رجال السياسة لايكسبون الحنكة إلاّ بالمرانة الطويلة . والمرانة وليدة الذكاء والاستعداد الفطري من ناحية ، واغتنام الفرص واتساع مجال العمل من ناحية أخرى . فالذين ينتظمون في السلك الدبلوماسي ، قلما يبلغون رتبة وزير مفوض أو سفير ، إلاّ بعد مرانة طويلة في مختلف عواصم الدنيا ، ومع ذلك لا يبلغون المقام الاول بين الوزراء والسفراء إلاّ اذا بدا منهم ما يدل على استعداد فطري ، وحنكة طبيعية ، في معالجة الشؤون الخطيرة ، التي لابدّ في معالجتها ، من الاتصال بالرجال المحنكين ، وخوض معترك الارادات القوية والعزائم التي لاتتقهقر

ولكن الكابتن ايدن ، وكيل وزارة الخارجية البريطانية سابقاً ، وحامل أختام الملك الآن ، الذي تعتمد عليه الحكومة البريطانية في ان يمثلها في محادثات نزع السلاح وجمعية الامم ما يزال شاباً في السادسة والثلاثين ، بيد انه أبدى من الاستعداد الفطري والحنكة في المفاوضات الدبلوماسية ، ما حمل بعض النقاد على القول بأنه ، قد يكون زعيم المحافظين المقبل

***

لاسرة ايدن مقام في حياة بريطانيا العامة يرتد الى بضعة قرون . فأحد رجالها في عصر السياسي بت Pitt منح لقب لورد وعين حاكماً للهند . وكان السر وليم ايدن والد الكابتن ايدن من سراة

العهد الفكتوري . اما ابنه الاكبر فقتل في السنة الاولى من الحرب الكبرى . فورث لقبه ابنه الثاني تيموثي . اما ابنه الثالث انتوني — موضوع بحثنا اليوم — فانتظم في الجيش البريطاني وهو في الثامنة عشرة من عمره وشهد الحرب في الجبهة الغربية ونال وسام صليب فكتوريا . ولكنهُ كان من صغره ميالاً الى الدرس والبحث من جهة . والى الحياة العامة من جهة اخرى . فعني وهو في مدرسة ايتون باللغات فاتقن الفرنسية . بيد انهُ ادرك في خلال الحرب انهُ لم يخلق للجندية فلما عاد من ساحتها ، انتظم في جامعة اكسفرد وتوفر على درس اللغات الشرقية ، فبرع فيها ، وعين عضواً في الجمعية الاسيوية الملكية وعرض عليهِ منصب كاتب في وزارة الخارجية فرفضهُ مفضلاً ان يصل الى وزارة الخارجية عن طريق البرلمان . وخاض معركة الانتخابات العامة سنة ١٩٢٢ فخذل فيها ، فرحل رحلة الى الشرق الاوسط وكتب كتاباً يصف فيهِ رحلته . بيد أن وستمنستر (مقر البرلمان) كان يناديه فعاد إلى بلاده وخاض معركة الانتخابات ثانية ، في دائرة ، رشحت لها نسيبته كونتسة وركشير وهي من اشهر سيدات المجتمع الانكليزي ، فانتزعها منها ، ومايزال حتى الساعة ممثلاً لتلك الدائرة في مجلس النواب

***

قضى في المجلس ثلاث سنوات ، قبلما تعلم اساليبه ، فلما عرض عليهِ السر اوستن تشمبرلين ان يكون سكرتيره البرلماني سنة ١٩٢٦ ، رحب بهذه الفرصة ، التي ما زال يترقبها ، لتكون سبيله الى وزارة الخارجية البريطانية . فهو لم ينتظم في السلك الدبلوماسي قط ، وما اصابهُ من النجاح ، في جنيف وباريس وسائر العواصم ، في مفاوضات دبلوماسية دقيقة ، انما يدل على انهُ دبلومامي بالفطرة

وظل الكابتن ايدن سكرتيراً برلمانيًّا للسر اوستن تشمبرلين ، حتى سنة ١٩٢٩ ، فلما سقطت حكومة المحافظين رجع الى مقعده ، كنائب عادي . ولما أنشئت الحكومة القومية سنة ١٩٣١ رفع درجة اخرى في سلم الارتقاء السياسي اذ عين وكيلاً برلمانيًّا لوزارة الخارجية ، واصبح بذلك ثاني السر جون سيمون وزير الخارجية نفسه في تسيير دفة السياسة الخارجية البريطانية . ولا يخفى ان وكيل وزارة الخارجية البرلماني ، له من العمل في البرلمان ما يرهقهُ . بيد ان الارباب كانت تعطف على الكابتن انتوني . فان رئيسه السر جون سيمون ، اصيب بضعف في صيف سنة ١٩٣٣ ، اقتضى غيابه عن الوزارة لاخذ قسط من الراحة ، فوقع عبء المفاوضات الدقيقة الخاصة بنزع السلاح وجمعية الامم وما اليها من المشكلات العالمية ، على كتفي هذا الشاب . وكان من الطبيعي ان يتسلم مكدونلد قيادة الدفة ، وهو الرجل الذي يحب حضور المؤتمرات الدولية والقاء الخطب فيها . وانما يقال ان وجود صديقه القديم وخصمه الحديث المستر هندرسن في رآسة مؤتمر نزع السلاح ، حال دون ذهاب مكدونلد الى جنيف في السنتين الاخيرتين ، فلما عهد الى ايدن في ذلك ، ادهش رجال السياسة الاوربية المحنكين بذكائه وكياسته وحنكته على صغر سنه . لذلك عين في اوائل السنة الماضية (١٩٣٤) في

منصب رسمي ، هو منصب حامل اختام الملك ، على ان يتفرغ لشؤون نزع السلاح ، وجمعية الامم ، ممثلاً وزارة الخارجية البريطانية فيها جميعاً

***

على الوكيل البرلماني لوزارة الخارجية البريطانية ، ان يجيب عن الاسئلة التي يوجهها الاعضاء الى الوزير ، وهو عمل مملٌّ لمن كان من طبع الكابتن ايدن وخلقه ، اذ يتحتم عليه ان يجيب في كثير من الاحيان اجوبة بُلهاً ، كقوله مثلاً : «الجواب عن الشق الاول من سؤال العضو المحترم بالنفي، واذن فلا محل للشق الثاني من السؤال ». بيد انَّ كثرة عمل وزارة الخارجية في جمعية الامم وما يتبعها من الشؤون ، ومرض السير جون سيمون ، او اعياءه ، مهّدا له سبيل تمثيل بريطانيا في محادثات نزع السلاح ، واجتماعات جمعية الامم

واذن ترى ان مكانته في مجلس النواب البريطاني ، قائمة على نجاحه في معالجة ناحية خاصة من الشؤون الخارجية . فاذا سرت الكلمة في دهاليز مجلس النواب — « ايدن يتكلم » — هرع النواب الى مقاعدهم فيرون شابًّا طويل القامة نحيف البنية حسن البزة ، عليه في وقفته ونظرته ولفظه وملبسه ، دلائل الارستقراطية . في خطابته حرارة ، ولكن ليس فيها قوة وعنف ، كلامه رشيق مصقول ، وصوته هادىء متزن ، لا تتبين فيه أثراً للعجلة التي اصبحت داء هذا العصر . فاذا كان عنده ما يقوله في موضوع ما ، قاله ببساطة وصراحة ، يخالطهما شيء يسير من الميل الى الفصاحة الخطابية

وهو يؤمن بجمعية الامم حتى لقد قال فيه احد كبار الكتاب الانكليز ، المشهورين باصابة النكتة البارعة والحكمة العالية او السخرية اللاذعة في عبارة واحدة ، « ان ايدن من اولئك الرجال النوادر الذين يدهشونك لانهم يؤمنون حقيقةً بجمعية الامم » .ولا يني عن الدعاية لها في بريطانيا في الفترات التي تتخلل زياراته الى جنيف فاذا نفخ زعماء حزبهِ في الابواق طالبين زيادة الاسلحة البريطانية في الماء وتحت الماء وفوق اليابسة ، بيَّن ايدن لقومه أن مؤتمر نزع السلاح في جنيف هو البدل الوحيد من تنافس عام في التسلح لا بد ان يفضي الى نشوب الجزرة العالمية من جديد — ألا تذكر انهُ كان في الثامنة عشرة او في التاسعة عشرة لما انتظم في سلك الجيش وشهد فظائع الحرب وأهوالها في الجبهة الغربية مدى اربع سنوات ؟ — بل انك تكاد تحسبه قريباً بعض القرب من آراء الاشتراكيين والعمال . ولكنهُ ينبههم ، اذ يعقدون مجالسهم ، ويقترحون مقترحات مثالية كمالية لحفظ السلام ، بان جنيف وجمعية الامم ومؤتمر نزع السلاح ، هي السبل العملية الوحيدة التي قد تستطيع تحقيق امانيهم . فهذا الشاب الذي تتخلل الفتوَّة والحماسة نظراته السياسية الرزينة اذا قوبل بهم السر جون سيمون وتحليله المنطقي الخالي من الشعور في غالب الاحيان ، يجعل الكابتن ايدن ذا مكانة خاصة في مجلس النواب البريطاني بل في ميدان المفاوضات الدبلوماسية الاوربية

انواع الحب

لحنا فياض

الفتاة : لقد غذّيتَ نفسي يا والدي ، بما امليته عليَّ في « ضامنات الحب » . فهل لك ان تنوّر ذهني في انواع الحب ؟

الوالد : يا فتاتي العزيزة — الحياة ، وهي اكثر شيوعاً من الحب ، لست ارى لها معنى من دون الحب . فالحب هو معنى الحياة . ولكن البلاء هو ان الناس يلوكون كلمة « حب » بألسنتهم ، او يحركون بها اقلامهم ولكن ضياء الحب لم يذرّ على روابي قلوبهم ، فهم يخبطون في ظلام دامس . وفيما هم يزعمون انهم ينشرون الحب اذا هم يطوونه

ف : ان قلبي ليرتاح الى ما تنشر . فتفضل ارني جمال ذلك النسيج الالهي

و : اني اراكِ تلاطفين كلبكِ فتطعمينه ، وتغسلينه ، وتضمينه ، وتقبلينه . افيجوز ان ادعو ذلك حبّاً ؟

ف : بلى . ولكن أهذا ما تريد ان تنشر ؟

و : فاذكري اولّ كل اول حبّنا البهائم ، كالكلاب ، والقطط ، والطيور ، والجياد . ولنحسبْ ذلك نوعاً اولاً من الحب . ثمّ اراكِ تعطفين على خادمتكِ « هدية » . وقد قلت انك تحبينها . أليس كذلك ؟

ف : بلى اني أحبها . على اني اجد فارقاً بين خادمتي وكلبي . فكلبي ملكي ، وليست خادمتي كذلك

و : مع ذلك تحبينها . فهل تساوين بينهما ؟ واذا جاعا ، وعندك رغيف واحد من الخبز فقط ، فايهما تطعمين ؟ واذا ماتا فمن يحزنكِ اكثر ؟

ف : لا اشك في اني احرص على الاثنين . واذا ماتا فلا ادري ايهما يحزنني اكثر. على اني اشعر بميل خاص لكلبي ، لانهُ لي

و : فهل ترين ان حبك الخادمة نوع آخر من الحب !

ف : نعم . واراه حبّ استحسان

و : ولكِ ايضاً صديقة عزيزة هي « سهير » وهي شخص ثالث يتناول رعايتك . فتسهرين عليها ، وتسعينَ في مصلحتها ، فحبُّك لها غير حبك للكلب والخادمة

ف : اني احب صديقتي سهير يا بابا

و : فهل تساوين بينها وبين الكلب والخادمة ؟ ولماذا لا ؟ وما الفرق بين الاثنين في عقلك وقلبك ؟

ف : صديقتي سهير اقرب الى قلبي ،لانها اقرب الى مستواي . وبيني وبينها تفاهم ليس هو بيني وبين الكلب او الخادمة . وطبيعي ان الحب يلد الحب .فهي تحبني حبًا جمًا ، هو غير حب الكلب وحب الخادمة . فاري اني احبها غير حبيهما

و : وكلبك ايضاً يحبك

ف : ان حب الكلب لي غير حب صديقتي، اذ لااختصاص فيهِ . فهو يحبّ ايًّا يكون مالكه . اما سهير فتختصني بالحب دون سواي . ولها عندي منزلة عالية لا يبلغها كلب ولا غزال . فهي حبيبتي بصلة التفاهم الروحي ، والمؤانسة ، ورفعة المقام ، ولانها اغنى واوثق من الخادمة والكلب

و : لحب الصديقة الودود نوع آخر من الحب . ثم ان لك والدة حنون . عرفتها وعاشرتها قبل كل مخلوق. وهي الصق بكِ ، واعطف عليكِ ، من كل مخلوق . فما قولك في حبها ؟ أترين انهُ غير ما ذكرنا من انواع الحب ؟

ف : والدتي فوق كل شخص آخر . لانها احبتني اولاً . ولان بيني وبينها تضامناً ليس هو بيني وبين سواها . وهي مخلصة لي، مضحية في سبيلي باكثر مما يضحي بهِ كل انسان آخر . فانا ووالدتي روح واحدة في جسدين

و : فهذا نوع آخر من الحب

وهل يمكنكِ ان تتصوري شخصاً آخر تحبينه وتلاصقينه اكثر من والدتك ؟

ف : اذا حصل ذلك، وهو الى الآن لم يحصل،فهو نوع آخرمن الحب .واظن انكِ تعني بهِ القرين

و : اياهُ اعني . فترين ان امامنا على بساط البحث خمسة انواع من الحب ١ حبك الكلب ٢ الخادمة ٣ الصديقة ٤ الوالدة ٥ الزوج . وهذه الانواع الخمسة متفرعة عن اصل واحد هو حب الذات . فتحبين ما ذكرنا لانك تحبين ذاتك . والمجنون ، وهو لايحب نفسه ، او انهُ ، بعبارة اضبط ، لا يعرف ان يحب نفسه حبًا صحيحاً ، فهو كذلك لا يحب احداً من الناس

ف : واراك لم تذكر « حب الجمال » الذي لا يبنى على حب الذات غالباً، فانا نحب الجمال لذاته

و : واي جمالٍ تعنين ؟ الجمال الجزئي ام الجمال الكلي !

ف : افهمني الفرق بينهما اولاً

و : اعلمي يا عزيزتي ان الجمال نوعان : مجرّد واضافي :

فالاضافي هو الجمال في الجميل . او هو الشخص الجميل . وهذا لايكون الاّ جزئيًا.كالورد الجميل، والحديقة الجميلة . اما المجرد فهو الجمال بالذات ،كالبياض غير مقيّد بالابيض ، او كالمودّة غير مقيدة بالودود . وقد اختلف الفلاسفة في أيّ الاثنين هو الموجود ، او هو الاصل في الوجود . فذهب افلاطون الى ان المجرّد هو الموجود.وان الاضافي هو ظله وظاهرته . وذهب ارسطوطاليس الى ان الاضافي هو الموجود . والمجرّد تصوُّر منتزع من متعدّد . وعنده انَّا لا نعرف

البياض ، بل نعرف الابيض كالورد الابيض ، والثلج الابيض ، والورق الابيض، والوجه الابيض ، فانتزعنا صفة البياض المشتركة بين هذه الاشياء فقلنا — البياض — ولكنّ البياض في ما ارى لا وجود لهُ لولا الاشياء البيضاء . كذلك رأينا الروض الجميل ، والطاووس الجميل ، والقدّ الجميل ، والوجه الجميل ، والشعر الجميل ، والصنع الجميل ، فانتزعنا الصفة المشتركة من بين هذه الاشياء ، فقلنا — الجمال — على ان الجمال لا وجود لهُ ، في عقولنا ، لولا الجميل . فالجمال والبياض وامثالهما من الكليات ، لا وجود لهما عند ارسطوطاليس الاّ في الموصوفات بهما

وسواء اصحّ رأي افلاطون ، او رأي تلميذه ارسطوطاليس ، أعني سواء اكان المجرّد هو الموجود ، او الاضافي ، فالمجرد أعم من الاضافي ، والكلي اكبر من الجزئي . هذا الجمال هو غرض النفس ، فوظيفة الذوق العقلي فينا ادراكه اولاً ، واختياره ثانياً . والرغبة فيهِ والميل اليهِ هو الحب هذا هو الفن . وهذا هو التدين . فالجمال خالق الحب ، في شرع افلاطون ، وفي من نحا نحو افلاطون . واني من اولئك الناحين

فاذا تناول الحب جمالاً جزئيًّا — فلاناً او فلانة — فهو ما يدعونهُ العشق والهوى . وهو فرع من الحب . وتختاره النفوس الصغيرة المحدودة . واكثر الناس هم من هذا الصنف . وفحوى هذا الحب : اني اريد الجميل : ان أراه : ان اتمتع بهِ : ان امتلكهُ ، وذلك أثرة ، فاحفظي هذه الكلمة « أثَرة » ففيها اعظم اسرار الاجتماع البشري . ان الاثرة هي العامل في اكثر من تسعة اعشار حركاتنا ، ومصدر اكثر من تسعة اعشار بلايانا

اما اذا تناول الحب ما هو مجرد لا ما هو اضافي، فذلك هو الفن والتدين . فالفن يتناول الكلي والمجرد لان الجزئي يؤلف عملاً فرديًّا فلا يحسب العمل الفردي فنًّا. اما المجرد فانساني ويؤلف الفن والفلسفة والدين . وفحوى حبه : اني اريد ان يمتلكني ، ان يلهمني ، ان اتلاشى فيهِ: وهذا هو الايثار . فاحفظي هذه الكلمة « الايثار » فانها ثاني آثار الآلهة فينا . والاثر الاول هو « الجمال » « فالجمال والايثار » تراث الآلهة في الناس

ف : شكراً يا والدي . اني اود ان اكون كليّة، فأحب الجمال اكثر مما احب الجميل . وان اكون من ربات « الايثار » لا من عبيد «الاثرة» . ولكن ما ذا ترى في الناس باعتبار الموقفين ؟

و : لكل انسان وطيء الغبراء اعتباران . اعتبار نظري ، واعتبار عملي . ففي النظري هو سام ، كلي مجرد . أفليس الانسان هو الذي أدرك المجرد العام الكلي ، وآثرهُ على الجزئي الاضافي الخاص ؟ ولكنهُ بالاعتبار العملي هو غيرهُ . خذي لك مثلاً على ذلك داود النبي . فهو قائد، وملك، وشاعر، وتقي . ومن تصفح مزموراته لا يرتاب في عظمة شخصيته ، وجمال نفسه ، وطهارة وجدانه . على ان التوراة التي بين ايدينا ترينا داود عمليًّا غير هذا الذي تراهُ في مزموراتهِ . فقد صعد الى السطح فرأى فتاة جميلة تستحم، فعلقها ، وافترسها ، ثم سعى لقتل زوجها اوريا واختص بها ذاته . فداود

هذا غير داود الشاب الجميل النفس . هناك نراهُ عالي الكلمة ، بعيد النظر ، نزيه العاطفة ، عظيماً محترماً . وهنا نراهُ قصير النظر ، ضعيف الارادة ، يخون الصديق ، ويأتي فعلة السفهاء

ولا أخالك تطمعين في أن نري كثيرين من بني حواء افضل من سيدنا داود — بحسب رواية التوراة — قال باسكال : ليس الانسان ملاكاً ، ولا حيواناً ، ولكن الحيوان متملك فيه

ويؤول ذلك الى استعار حرب روحية في نفس الانسان ، لانهُ يود التحرر من رق الحيوانية . وفي وصف هذا الجهاد ما ليس في الياذة هوميروس ، ولا في الاوديسا . وقد ألمع الى ذلك الشاعر ملتن في كتابهِ الفردوس الضائع والفردوس المستردّ . وفي ملتن نرى مواقف النفس امام الجمال . كما انّا نرى ذلك في كتاب « الاخلاق » لسبينوزا

ف : حسناً جدًّا ! واني احب ملتن واشعار ملتن ، لانها تسوق نفسي الى عاطفة عالية ، وتريني عواقب الاستسلام للهوى . وما قولك يا بابا في العشق او الهوى الشائع في الناس !

و : اقول لك الصدق يا عزيزتي اني لا اؤمن بالعشق والهوى ، بل اراهُ مرضاً في النفس على انهُ في اول اطواره لا يخرج عن النوعين المذكورين . واعلمي يا عزيزتي ان العشق ينشأ عن اصلين اثنين . الاول الوهم . والثاني الامل . فالوهم هو اعتقاد العاشق ان في المحبوب سعادته وهناءتهُ . فيلوذ بهِ دون سائر الناس . وانكِ لترينَ ان ذلك لم يخرج عن « الاثرة » . فاذا كان هنالك امل في الحصول عليهِ عشقهُ . والاّ فلا . فلا يعشق العامي امبراطورة ولا يجنُّ في ما لا امل لهُ في ادراكهِ . فالوهم والامل والدا العشق . وهو مولود سخيف غالباً . والجنون هو انصراف العقل نحو موضوع واحد لا يكترث لسواهُ . فهو عبارة عن الايغال في الوهم والامل ، او التطرف والتمادي . على ان العاشق لو حصل على من جنَّ بهِ لفتر حبه ، وتناسى غرامه . وأرى ان مجنون ليلى ، وامثاله في كل أمة ، وفي كل جيل ، ليسوا الاّ من امثلة هذه السخافة الاجتماعية . واذا ارتقى الاجتماع الانساني تلاشى هذا النوع من الحب ونسجت على تاريخه العناكب فيحذف من سفر الوجود تسعة اعشار الناظمين. ولا يشتري احد شيئاً من الاشعار الغرامية الاّ من باب درس الخرافات والاساطير التي استبدّت بالبشرية في العصور الاشد ظلاماً . وأرى ان كل رواية غرامية لا تخرج عن احد امرين . الاول استغلال اموال المشاهدين — في ردهات السينما مثلاً — الثاني ردع الناس عن الغواية والسقوط وهما الامران المؤديان الى الدمار

ف : وما قولك في الحب والزواج ؟

و : سأتكلم في هذا الموضوع في الفصل السادس من فصول هذا الكتاب

ف : وما قولك في حبي من يحبني !

و : اشرتِ الى ذلك في حبكِ « سهير » وفي حبك الوالدة . وسنتكلم عنه في باب « حوافز الحب » وهو في ما ارى من باب الاخلاق اكثر مما هو من باب الحب

ومن وظائف الذوق فلسفة الفن ، بل فلسفة الفنون وهو حب نزيه سام ، وان مازجهُ الغرض احياناً . واس هذا النوع من الحب هو حب الجمال للجمال لا لعلاقة مادية . فهو الحب بمعنى الكلمة . ودرجاته « المعرفة ، فالتفاهم ، فالميل ، فالائتلاف ، فالمودة ، فالارتياح » . وقد يشتد هذا الحب في مُثُل الفضيلة والاخلاص كحب يوناثان داود . وهو حب ديني . والديانة كالفن من اعمال الذوق العقلي الذي يدرك الجميل ويختاره . وخلاصة التدين انه استسلام القلب للجمال ، او « للجميل » فالتدين هو حب الجميل ، وهو الذي يدعوه افلاطون « الخير » والمثل الاعلى و« الجميل » وهو تعالى ، في متصور العقلاء اجمعين ، « جامعة المثل العليا » فهو الجميل ، النافع ، المؤنس ، الرفيق ، المحسن . ويرتقي التدين في بعض المتصوفين الى درجة الغرام . ترينَ ذلك في اشعار عمر بن الفارض القائل : —

زدني بفرط الحب فيك تحيرا وارحم حشىً بلظى هواك تسعّرا

وقصائد ابن الفارض في علم السلوك — حب الله — مثل في الارض كلها

ومن هذا القبيـــل مزمورات داود . حبيب الجمال . ومناجاة اوغطينوس . وكتابات توما الكمبيزي . وشواعر الغزالي . ومناجاة نخت . واحلام سويدنبرغ . وعواطف محيي الدين بن العربي ، وكشف رابعة العدوية . ونظريات يوناثان اودوردس . واناشيد فم الذهب . وتوسلات انطونيوس ابي الرهبان . يجمع هذا الصف ارق طبقات عشاق الجمال الكلي في كل العصور ، وهم الذين وقفوا حياتهم على أسمى المطالب

***

والخلاصة ان الحب فرعان نفساني وعذري ففي الاول خمسة انواع حب الاشياء والخدم والصديق والقريب والسند . وكله مبني على حبنا انفسنا

وفي الثاني فرعان نفسي « سيكلوجي » وأدبي « اخلاقي »

الاول حب الجميل لانه جميل . او الحب الافلاطوني . والثاني حب المتفضل وهو حب اقتصادي اخلاقي ولا انسى يا عزيزتي ان الفت نظرك الى ان الحب ليس موضوع مقالات صحافية ، بل هو موضوع شعور وحياة . ولا ارى شيئاً في التاريخ اكثر انطلاقاً من الحب . لان الناس يريدون ان يستغلوه ، تخدمهم الحب او تداوُمهم بالحب ، يشبه تصرف النادبات في المآتم ، فانهنَّ يبكين او يتباكينَ استمطاراً للدموع ويأتينَ بعد ذلك لاستيفاء الاجرة . فايغالهنَّ في اوصاف الفقيد وأناتهن وتنهداتهنَّ لا تخرج عن انها تمثل لنا غيرة الصحافيين على الحب ولكن في صورة ابسط ، فالحب فوق مستوى الناس . واعظم الناس حبًّا اقلهم فيه كلاماً . وهو مجهول الحقيقة عند الا كثرين . وليس الحب علماً بل هو فيض الهي ينشأ في النفس ويغيّر أوضاع الكائنات . وأكتفي الآن بما ذكر تاركاً ما بقي من شروح الحب لوقت آخر

قصص الحياة — ٣

خاتمة سعيدة

[في حياة كل امرأة حادثة تفوق سائر الحوادث في حياتها خطراً واثراً في نفسها . وقد شرعت احدى المجلات النسائية الانكليزية تنشر قصص الحياة هذه من دون تنميق او تعديل خلا تغيير الاسم الصحيح ، فرأينا ان نختار لقراء المقتطف ما تحلو قراءته او تجل فائدته ، ففي بعضها فوائد تستطيع نساؤنا ان تقتبسها وفي بعضها مهاوٍ تستطيع نساؤنا ان تجتنبها وفيها على الحالين نواحٍ من حياة المرأة الغربية يحسن بنسائنا الاطلاع عليها]

اجمع كل اصدقائي على ان زواجي مقضيٌّ عليهِ بالخيبة . وجميع الدلائل كانت تدل على ان رأيهم كان في جانب الصواب . اذ كيف تستطيع فتاة مدلّلة ان تسعد في كوخ حقير ، حيث يحتم عليها ان تقوم بجميع اعمال البيت وحدها ، وان تبذل جهدها كل اسبوع من كل سنةٍ لتوفق بين الدخل اليسير والنفقات التي لا مندحة عنها ؟

ولكنهم كانوا على خطإٍ ، بل ان خطأهم كان فاضحاً . وانني لأرثي لهم الآن اذ اتبيَّن مدى جهلهم بالطبيعة البشرية ، لانهم ظنّوا ان الكنس والغسل والطبخ في بيت الرجل الذي احبُّ ، لا بدَّ ان تكون من البواعث على شقائي ونكدي

كان زواجنا غريباً في بابهِ . فقد كنت ابنة ثريٍّ يملك طائفة من المصانع . وكان دونلد عاملاً في احد مصانع والدي . بل ان اسرة دونلد كانت قد قضت في خدمة اسرتنا اجيالاً متوالية

التقيت بدونلد في حفلة رقص اقيمت للعمال والموظفين . وكان ابي رجلاً صلب الرأي شديد المراس ، وكان يحتم علينا دائماً ، انا وشقيقاتي ، ان نحضر هذه الحفلات . واذكر انني كنت مستاءة كل الاستياء لتحتيمه عليَّ الحضور في تلك الحفلة . ولكن استيائي زال بعد الرقصة الاولى ، لانني تعرفت في خلالها الى دونلد . كان شابًّا مديداً قويًّا يختلف عن كثير من الشبان المدلّلين الذين كنت اجتمع بهم في دائرتنا الاجتماعية الخاصة . فاحسستُ في تلك الدقيقة ، ان دونلد هو الرجل الوحيد الذي استطيع ان اقبلهُ زوجاً لي

كان علينا ان نتخطّى حوائل كثيرة اعترضت طريقنا اهمها معارضة اسرتهِ واسرتنا معاً . نعم ! لقد لقينا معارضة من اسرتهِ بقدر ما لقينا من اسرتي . ذلك ان اسرة دونلد كانت معتزَّة باصلها وكان يصعب على افرادها ان يتزوج احد ابنائها من اسرةٍ تنظر اليهِ واليهم نظرة احتقار . وعلاوة على ذلك كانوا يعتقدون انني لست الزوجة التي تصلح لهُ . اذ ما هي مؤهلاتي لذلك ؟ هل اعرف او

ان اطبخ وامسح واكنس واكوي ؟ هل استطيع ان احفظ نفقات العائلة ضمن حدود دخله اليسير ؟ (وهنا لا بدَّ ان اذكر ان والدي رفض ان يزيد اجور دونلد بعد زواجنا).وما كنت املك ردًّا على اسئلتهم هذه الاَّ انني احبُّ دونلد وانني مستعدةٌ ان ابذل جهدي لاكون زوجاً صالحة له ، الزوج التي يرتقبها

ولست اباهي بانني وُفّقت في ما سعيت اليهِ . فقضينا السنة الاولى من زواجنا على خير ما يرتجيهِ الانسان من الهناءة والرغد . فكنت احسُّ بغبطة عظيمة ان عليَّ واجباً اؤدّيهِ ، بعد ما كنت احسُّ في كل ما مضى من حياتي بفراغ لا اعرف كيف املؤهُ . فلما وُلد ابني شعرت بان كأس غبطتي قد امتلأت حتى كادت تفيض

ولكن ذلك لم يدم . فكان دونلد اول من بدت عليهِ امارات القلق .ذلك انهُ كان في بدءِ زواجنا يبذل بعض الجهد في ان يجري على بعض التقاليد المرعية في الدائرة الاجتماعية التي ترعرعتُ فيها . فكان لا يجلس الى مائدة الطعام الاَّ وهو مرتدٍ جاكتتهُ . وكان يعنى بان يعمل بعض ما يبعث السرور في نفسي او ما حسبهُ هو من بواعث هذا السرور . فأعجبت بمحاولتهِ هذه كلَّ الاعجاب.ولكن بعد قليل ، توقف عن كل هذا . ولعلَّ اشقاءهُ ضحكوا منهُ لانهُ حاول ان يقلد قوماً لم يكن هو منهم ارضاء لزوجهِ ، ولعلهم لمحوا له انهُ بدأ يتعالى عليهم لانهُ تزوج ابنة « الرئيس »

وانني لادرك ان ذلك النزاع النفسي الذي عاناهُ دونلد في تلك الفترة من حياتنا كان نزاعاً عنيفاً. فقد كان ممزقاً بين محبتهِ لي واحتقارهِ الطبيعي لمن يحتقر تقاليد قومهِ وطبقتهِ . فكان يقول :« ان ما كان يصلح لابي يصلح لي » ويجلس الى مائدة الطعام من دون جاكتتهِ او من دون ان يغسل يديهِ القذرتين . ومع ان حبي لهُ كان اعظم من ان يدع هذه الصغائر تؤثر في حبنا ، الاَّ انهُ كان يرى نظرة الكآبة والامتعاض وعدم الرضا في عينيَّ عند ما يفعل ذلك فيحسُّ بانهُ قد اخطأ

وبعدها اخذ النزاع بيننا يتجدد كل اسبوع او كل يوم ، مع انهُ كان في الغالب يدور على صغائر لا قيمة لها في الحقيقة

فلما كان ولدنا في الرابعة من العمر بلغت الحال بيننا من الشدة منتهاها

كان ذلك اليوم حافلاً بالحوادث الصغيرة التي لا تبعث على الطمأنينة والرضا . فلما جلست الى مائدة الطعام أنَّبتُ ابننا «بيتر» على سلوكه .فانحاز دونلد الى جانب ابنهِ وقال لي بلهجة شديدة «دعي الولد وشأنه . على ماذا تريدين ان تنشئيهِ ؟ على الدلال ؟ دعيه يأكل طعامهُ كما يشاء . انني لا اقبل ان ينشأ ابني بمجموعة فارغة من قواعد السلوك المصطنع كأخوتك »

فاستأت لما قالهُ دونلد أمام ابننا . ولم تكن تلك المرة الاولى التي خاطبني بها بهذه اللهجة امامهُ . فقلت في نفسي أي نشأة ينشأ عليها هذا الطفل بين والدين في نزاعٍ دائمٍ . فكظمت حنقي ولكنني لم استطع ان اتجاهل خوفي على مصير ولدي

وكنت دائماً أقف موقف المدافعة عن نفسي اذ يزورنا أقرباء زوجي ، شاعرة انهم يوجهون اليّ النقد واللوم فيما بينهم . وكان دونلد يمتنع عن مقابلة اهلي عند مجيئهم لزيارتنا . فكان من شأن هذا التنابذ الدائم ان أثّر في اعصابي . فأصبحت استثار لاقل حادث ، ولا استطيع ان امالك نفسي عن ان استشيط غضباً في وجه ابني

عند ذلك شعرت بأنني لا استطيع ان امضي في الاحتمال ، وانه لا بدّ لي من ان افترق عن دونلد ، لان في هذه الفرقة فائدة لي ولهُ على السواء ، فعزمت ان اعود الى اهلي ، ولو كانت عودتي وقتيةً فقط ، لعلّ ريحاً تهبُّ فتتغير الحال

***

كان اليوم الذي اتخذتُ فيهِ هـذا القرار من ايام دسمبر القاتمة الباردة . فجمعت بعض امتعتي الخاصة ، وكتبت كلمة الى دونلد بينت لهُ فيها قراري والباعث عليهِ ، طالبة منهُ المغفرة . ووضعت الظرف الذي يحتوي على هذا الكتاب في مكان يستطيع ان يراه فيهِ عند دخوله البيت ، وصعدت الى غرفتي لاعدّ ابني للذهاب معي . واذ كنت في سبيل هذا ، سمعت باب البيت قد فتح واقفل وكنت اعلم ان احداً لا يملك مفتاحا للدار غير دونلد . ولكنهُ لم يتعوّد الرجوع الى البيت في مثل هذه الساعة . وسمعت خطواتهِ داخلاً الغرفة التي فيها الكتاب . ولبثت انتظر ما يكون منهُ عند قراءتهِ . فلم اسمع نأمةً . فدفعني فضولي الى النزول اليهِ . فوجدتهُ جالساً على ذراع كرسي ، ينظر الى الفضاءِ نظرة ساهية كئيبة ووجههُ شاحب متعب . فلما سمع وقع اقدامي التفت اليّ وقال بصوت لم اكد أعرفهُ

« إذن هذه طريقتك الى الخلاص . اما انا فكنت قد فكرت في طريقة اخرى . . ولكن ذلك لا يهمُّ الآن »

انني احبُّ هذا الرجل . وكل طريقة يفكر فيها للخلاص مما كنا فيهِ تهمني . بل ان كل طريقة تحول دون افتراقي عنهُ تفضل طريقتي

فجثوت على ركبتي امامهُ وتوسلت اليهِ ان يقول لي ... ان يحول دون افتراقي عنهُ

وبعد قليل اتضح لي انهُ كان قد قضى الاسابيع الاخيرة يفكر في حالنا ، فتحقق انهُ يتعذّر علينا ان نمضي فيما نحن عليهِ ، وانهُ يستحيل علينا ان نحفظ حبنا من ان تشوبهُ الشوائب اذا بقينا في بلدتنا بين اهلنا ومعارفنا . فاستقال من عمله واتفق مع احدى جمعيات المهاجرة على ان نسافر الى كندا واعدّ جميع المعدات لذلك

الى كندا ! هناك ابدأ حياة جديدة مع دونلد وبيتر . حياة لا بدّ ان تكون حافلة بالمصاعب والمغامرات . ولكن ذلك لا يهمني ما زلت معهما . ونحن مسافرون في صباح الغد

الملاحظة والربط والتعبير

في تعليم الاطفال بطريقة دكرولي

لمحمد حسين الخزنجي
الاستاذ بمعهد التربية بمصر (١)

﴿ دروس الملاحظة ﴾ الغرض من دروس الملاحظة هو تعويد الاطفال تدوين مذكراتهم الخاصة عن كل ما يحيط بهم من الظواهر وتشجيعهم على البحث عن اسباب هذه الظواهر والحقائق التي يشاهدونها بأنفسهم والتحقق من نتائجها وآثارها . كما ان دروس الملاحظة تعرض امام الطفل مشاكل الحياة المعقدة ونواحيها المتعددة بشكل عملي ملموس ، كما تقفهُ على التطور فيدرس تطور حياة الانسان والحيوان والنبات

وتكون دروس الملاحظة « عرضية » عن طريق الحوادث وما يقع تحت حس الطفل اثناء العام الدراسي فيلاحظ نمو النباتات في حديقة المدرسة ويترقب ولادة الحيوانات او موتها ، كما يلاحظ التغيرات الجوية اثناء النهار وتعاقب فصول السنة وحركة الشمس والقمر

وليس المقصود من الملاحظة ان يشاهد الاطفال هذه الكائنات وهذه الظواهر ويدركونها ادراكاً حسيًّا فقط ، بل ترمي مدرسة دكرولي الى ما هو اجدى من هذا وأنفع وهو تشجيع التلاميذ على التفكير في كل ما يشاهدونهُ ، والبحث بأنفسهم عن اسبابها ونتائجها والتغلب على كل ما يصادفهم من المشاكل

لذلك تعمل المدرسة الدكرولية على ان تهيء للتلاميذ بيئة طبيعية يجدون فيها الظواهر والكائنات الحية والنباتات وكل ما يجب ان يتعرفه الطفل

وأساس دروس الملاحظة هو التشويق . فعليه كما يقول دكرولي يتوقف انتباه الاطفال ، وهو العامل الاكبر في النشاط والانتاج الفكري . فمهمة المدرّس هي التأكد من معلومات وتجارب الاطفال السابقة حتى يتمكن من ان يوجد لهم مواد وموضوعات شائقة طريفة لم يروها من قبل ويعمل على تشويقهم وجذب انتباههم ، وبعد ان ينجح المدرس في ذلك يشجع التلاميذ على موازنة هذه الاشياء بعضها ببعض وملاحظة اوجه الشبه والخلاف بينها والوصول الى النتائج بأنفسهم بقدر ما تسمح بهِ درجة نموهم العقلي ، فيعرض المدرّس امام التلاميذ كميات مختلفة في الحجم وكرات مختلف الوانها ويطالبهم بموازنة أطوال الاشياء وحجومها وانواعها بعضها ببعض . والاطفال بمدرسة

(١) من كتاب « طرق التربية الحديثة » . راجع وصفه في باب مكتبة المقتطف

دكرولي يزنون الطيور بانفسهم كل يوم ويلاحظون الفرق في وزنها يوماً بعد يوم كما يقوم الاطفال ايضاً بقياس الاطوال المختلفة ويستعملون لذلك ما يرون من المقاييس كطول اذرعتهم أو أقدامهم أو أصابعهم

والغرض الذي ترمي اليهِ المدرسة من مطالبة الاطفال بقياس الاطوال ووزن الاشياء هو تدريبهم وتعويدهم صحة الحكم . أما ما تتضمنهُ هذه من العمليات الحسابية المعقدة كالكسور مثلاً فلا يلتفت اليها التلاميذ ولا يعطيها لهم المدرّس الاَّ اذا كانوا في مرحلة من النمو تمكنهم من فهمها وادراكها

ويستعين الاطفال في كل عملياتهم الحسابية بالمحسوسات التي يبدأ بها الطفل تعلّم العد والحساب فتضع المدرسة بين ايدي الاطفال عدداً من حبّات الفول والفواكه والخرز والاقلام وغيرها : ويضع الاطفال الحبات الواحدة بجانب الاخرى الى عشر حبات ثم عشراً فعشرين فثلاثين الى المائة بعد ان يعدوها بالآحاد . ويستعمل الاطفال في قياس الحجوم وحدات يعرفونها ككوب الماء او زجاجة او ملعقة وهكذا

واثناء قيام الطفل بهذه العمليات والالعاب يوجه نظره الى ملاحظة خواص الاشياء التي يستعملها من حيث الصلابة والحرارة واللون والكثافة وما شا كل ذلك . وينشيء الاطفال مخازن يبيعون فيها ما لديهم من الاشياء ويشترون من زملائهم ما يحتاجون اليهِ واثناء قيامهم بعملية البيع والشراء يقيسون ويزنون ويتعلمون الحساب

ومن دروس الملاحظة ايضاً ملاحظة الوقت اثناء النهار واستخدام ساعة تعلق في الفصل لهذا الغرض ويدرَّب الاطفال على استخدامها ويتعلمون قراءتها ويوزعون بانفسهم اعمالهم على اليوم المدرسي

***

﴿ دروس الربط ﴾ في دروس الربط يشجع الاطفال على تعرف العلاقة بين الحقائق والاشياء التي يشاهدونها وتقع تحت ادراكهم وبين المعلومات والحقائق المودعة في ذاكرتهم وخزانة تجاربهم السابقة . لذلك يعمل المدرسون جهدهم لتوسيع دائرة تجارب الاطفال مستعينين في ذلك بالصور والقصص والوصف وغير ذلك من الوسائل التي تثير خيالهم وغريزة الاستطلاع فيهم وتشجعهم على البحث والتنقيب عن المعلومات المتعلقة بالارض ومن عليها وما فوقها وما في باطنها وما فيها من انهار وبحار وغابات وحراج ، فيصل بهِ بحثه الى معرفة العالم وما فيهِ من اناس واقوام يختلفون عنهُ في العادات والتقاليد فيدرس احوالهم وطرق معيشتهم ويتعرَّف كيف يقضون اوقات فراغهم ويوازن بينهم وبين نفسه وبني جنسه وليس الغرض هو مجرد الحصول على مثل هذه المعلومات لذاتها ، بل المهم ان يربطها التلاميذ بعضها ببعض وان يوازنوا بين هذا وذاك ويسترجعوا معلوماتهم وتجاربهم الماضية ويربطوها ويوازنوا بينها وبين ما يجمعونه من المعلومات المستحدثة والتجارب الجديدة .

فالغرض الاساسي اذاً من دروس الربط هو مساعدة التلاميذ على استنتاج القواعد والأسس التي يمكنهم السير بمقتضاها والتي ترشدهم وتنير لهم الطريق في حياتهم كما انها تشعر الاطفال بواجبهم نحو والديهم ونحو أبنائهم في المستقبل

فهم يتعرفون كيف لاقى آباؤهم الصعوبات وتحملوا المشاق وكيف أعدوا انفسهم لحياة الأبوة وما ينتظرهم فيها من مسئوليات ومتاعب

كذلك يدرس التلاميذ حياة الانسان الأول وهو في حالة الهمجية . وكيف كان يعمل العدد والآلات والاسلحة بنفسه فيقدرون بذلك قيمة الاشغال اليدوية ويوازنون بين حالة الانسان الاولى وحالته التي هو عليها الآن وما ادخل عليها من اصلاح وما اعتراها من تقدم

ولنضرب لك مثلاً لذلك:—

درس على «الخبز» . أخذ التلاميذ حبات القمح وطحنوها بأنفسهم بين حجرين كبيرين . فقد تعلموا أن هذه هي الطريقة التي كان يستخدمها الانسان الاول

شعر الاطفال بتعب شديد وبعد الجهد حصلوا على الدقيق فأضافوا اليه الماء ثم وضعوه قطعاً صغيرة بين حجرين ساخنين جداً ، وبعد ان انتهوا من خبزه بهذه الطريقة الشاقة اكلوا منهُ ما شاءوا وكان ولا شك لذيذاً لانه من صنعهم

***

هذا هو خبز الانسان الاول . وهذه هي معلوماتهم وتجاربهم عنه ، ولكن لا بدَّ من الموازنة بين طريقة صنع الخبز قديماً وبين ما استحدثهُ الانسان الحاضر من الطرق

فيقوم التلاميذ بزيارة لاحدى مخابز المدينة الحديثة حيث العدد والآلات الكهربائية فيدهشون من تقدم هذه الصناعة وسرعة العملية ويوازنون بينها وبين الطريقة القديمة

مثال آخر : في دروس على «المنازل» . بنى الأطفال منزلاً صغيراً بعد ان صنعوا الآجرَّ بأنفسهم واحضروا مواد البناء وحملوها بأنفسهم كذلك . بعد يومين من بناء هذا المنزل الذي استغرقوا فيه مدة لا يستهان بها قامت زوبعة شديدة فلما حضر التلاميذ الى المدرسة في الصباح وجدوا منزلهم قد تهدم واصبح هشيماً تذروه الرياح في حين ان مدرستهم لم تتأثر كما لم تتأثر المباني الاخرى المجاورة فأخذوا يوازنون بين طريقة بنائهم وبناء المباني الاخرى بالمدينة

وهناك أمثلة كثيرة جداً لدروس الربط والموازنة هذه فكثيراً ما يحاول التلاميذ صنع الملاعق بأنفسهم ويوازنون بين نتيجة مجهودهم وبين ما تنتجه المصانع الكبرى في المدينة كما يصنعون القبعات والملابس وغير ذلك

ولدروس الربط هذه قيمة تهذيبية كبيرة فهي تقوي روح التعاون بين التلاميذ وتفنهم

بحاجة الانسان الى اخيه الإنسان وهي كدروس الملاحظة عرضية تأتي عن طريق المصادفات وليست منظمة

***

﴿ دروس التعبير ﴾ يقسم دكرولي أعمال النشاط بالمدرسة التي تساعد التلاميذ على التعبير بأنواعه المختلفة الى قسمين :

التعبير الحسي بعمل النماذج والنقش والرسم والتصوير والاشغال اليدوية والتعبير المعنوي بالقراءة والكتابة والانشاء والمناقشة . وفي نظر دكرولي ان الاشغال اليدوية أهم هذه الاعمال كلها وهي تقسم في المدرسة الى عمل مشروعات متصلة بمواد الدراسة المختلفة وعمل أشياء لحديقة المدرسة يحتاج اليها التلاميذ اثناء قيامهم بتربية الحيوانات والطيور وعنايتهم بها . وتلاميذ مدرسة دكرولي يأتون في كل صباح ومعهم الكثير من الاشياء التي يهتمون بها . فهم يحضرون معهم الازهار والاحجار والصور والمجلات وغير ذلك ويترك اليهم أمر تنظيم هذه الاشياء وترتيبها ، ويرشدهم المدرّس اذا احتاجوا الى الارشاد وينصحهم اذا احتاجوا الى النصح ، حتى يقسموا ما جمعوه الى ثلاثة اقسام قسم للملكة الحيوانية ، وقسم للملكة النباتية ، وثالث للملكة المعدنية . وهم يضيفون الى كل قسم من هذه الاقسام كل ما يقع تحت ايديهم يوماً بعد يوم

ولا يقتصر عمل التلاميذ على جمع هذه الأشياء وترتيبها بل هم بعد ذلك يرسمون ، ويعملون النماذج ، ويصورون بعض ما يجمعون . ويخصصون مكاناً بحجرة الدراسة يضعون فيه ما صنعوه بأنفسهم بنظام وترتيب خاص . وتجمع الصور بنظام معين فيعلق التلاميذ ظروفاً كبيرة على جدران الحجرة ويكتبون على كل منها ما يحتويه . فظرف للملابس . وآخر للطعام ، وثالث للمسكن ، ورابع لوسائل النقل ، وخامس للألعاب ، وسادس للنباتات وهكذا . وبعد ان يوزع المدرّس على التلاميذ صوراً مختلفة يطلب اليهم التمييز بينها ووضع كل منها في الظرف الخاص بها . . . وهم اثناء قيامهم بهذا العمل يذهبون ويجيئون بنظام وهدوء وحرية تامة واهتمام كبير

وهذه العملية تشجع التلاميذ على التفكير كما تدرّبهم على ضبط النفس وتكوّن فيهم الاعتماد على النفس وتعودهم احترام حقوق الغير . ويكلف التلاميذ البحث عن المعلومات بأنفسهم في الكتب والمجلات والجرائد والاعلانات والمحال التجارية ومكاتب السياحة وغيرها . وليست دروس التعبير منفصلة عن دروس الربط بل تتصل بها اتصالاً وثيقاً

ويشجع التلاميذ على جمع الصور والنماذج والأشياء في منازلهم وتنظيمها وتقسيمها كما يعملون في المدرسة تماماً . ولا بدّ من ان يدوّن التلاميذ بأنفسهم ملاحظاتهم وما يحصلون عليه من المعلومات اثناء دروس المشاهدة والربط والتعبير في كراسة خاصة يوضحونها بالصور والرسوم والألوان ، ويعنون بها عناية خاصة فهي عبارة عن ملخص للموضوعات التي يدرسونها جميعاً

الشاعر وكتابه

للشاعرة إدنا سانت ڤنسنت ميلاي

نقلها الشاعر علي محمود طه

إلى الوراء ايها الموت

الى وجرك ايها المتلوّن الختّال

اني استرقُ انفاسي من جذور هذا النبات

أَنشِبْ براثنك ما شئت ، واستتر كل ما فيك من قوة، فستجهد كثيراً ، وستضيق بضجرك لياليَ طويلة ، وستطمر كثيراً من العظام قبل ان تسحق عظمةً واحدةً من هيكلي الرقيق

ومتى يدركني الموت ؟

ومتى يحل بي الفناء ؟

اعند ما يشيع الذبول في هذا الجسد ، ويلفُّ نبات الارض هذا الرأس بضفائره الصُّفر ؟ اعند ما يقف العشاق يعجبون مني ويتساءلون عني مَنْ اكون ؟ ... انا ذلك الراقد تحت اطباق الثرى محتجباً عن ضوء القمر ؟

اهذا فنائي الذاتي ايها الموت ؟ عند ما يقف هذا القلب عن خفقانه فلا يردد شهيقاً ولا يصعد زفيراً ؟

أبهذه النهاية المهينة تلاشي روحي ايها الموت ؟

آه . . عند ما يذوب ثلج الشتاء ، ايها الاصدقاء ، ويساقط ذوبُهُ الرغام والهشيم فلا تبكوا عليَّ ، ولا تندبوني يا اصدقائي . .

ليس في شيء من هـذا معنىً من معاني فنائي . . . بل تحققوا موتي الخالد ، في تلك الساعة التي لا يجد كتابي قارئاً له . . . ساعة تتلقفهُ الارض ، ويطويهِ الخمول ويحجبهُ النسيان ! فلا يضمّهُ صدر ، ولا ترتفع لهُ صيحة معجب بالشيء الذي لم يروَ بعد ، هذا الذي تنطوي عليه صحائفه . . .

وعند ما تُورثُ كثرة العرض نسخةً من اكداسه ، فلا تجدُ من عَرَضِ الناس شارياً بعد طول انتظار ، ينقدها الثمن البخس ، او يأخذها صفقة غبن . وعند ما تلتقي اكواماً مهملةً مركومة في طريقٍ قذر ، تلطخهُ العجلات العابرة بالوحل والدَّنس

ايها المعجب ... قف قليلاً وانظر خلال غبار القرون ، وتناول هذا الكتاب ، ثم قلّبْ صفحاته المهلهلة بيدٍ رفيقة ، اقرأني ولا تكلْني للموت !

تقصَّ هذه الرسائل الذّابلة ، والمس المناعة في هذا الغلاف الحزن ، تجدني ملء قلبك ومحمك ، فقد كنتُ يوماً ذاتَ هذا الكتاب !

عند ما تحول هذه الشرايين اليافاً في جسم الارض ، فانظر الى هاتين المحجرين الغائرتين، تحت هذا الحَبِّ النامي المتوفز لعودة الربيع ، وهو يخترقهما بجذوره المنطلقة انطلاق النيازك المنقضة ، واشهد هذه العروق الورديه ، وهي تهوى الى قرارة هـذا الأصيص[1] الاسود ثم تنفتل لتصوّب صعداً كانما تتنسم المطر !

ايها الصِبْية... ايتها الصبايا ، اذا ، استلقيتم تحت هذا السياج ، واخذتم بأسباب النجوى ، اذكروني ولا تكلوني للفناء ...

ايها الشبان ... ايتها الشابات ، انتم ايها المتخطرون في الغابات محدّقين إلى مَطلع الغار الوردي ، مستغرقين في البكاء والعتاب ، امزجوني بعهودكم ووعودكم

(١) المقصود جمجمة الشاعر

لا تتركوني للموت ، ايها المزارعون الرانحون تحت الغيم الرقيق ، وتحت الشمس المتلألئة ، واذكروني عند ما تهيئون حصادكم، وتجمعون الحبَّ من ذوائب الشجرات اليابسة ، وعند ما يلوّح لفحُ الظهيرة القائظة ثمر الفرصاد[٢] ، فيستحيل جنىً شهيًا .

وانتم ايها الرعاة المتطلعون من اعالي التلال ، حيث المروج الخضر وسنانة تحلم بجلجلة الاجراس ، مُرنةً في اعناق القطيع الأمعط

وانتم ايها الملاحون ، ايها الصارخون في صخب العاصفة ،ايها الصيادون التائهون في صقيع الشتاء وفي بُهر الجليد الأشهب
اذكروني ولا تكلوني للموت

ايها الرجال ، يا من تشتهون الرقاد ، ويا من يشترون باليقظة لحظات من المرح ، اذا ما مرّت اغنية قديمة ، ذات روعة وصفاء ، فاذكروني ، إنها صادرة مني

ايتها النساء المكدودات ، ايتها الملتمسات بعضاً من الراحة ، الى ان يغلي القِدر ، انتزعنَ مني بعضَ السلوى وخذنَ مني مسراتكنّ . وانتنّ ايتها الباكيات في اعماقهنّ حتى لا يكدّرن بالبكاء نوم الرجال ، امزجنني ببكائكنّ . .

ايها الاطفال ، ايها السارقون من مضحكات العجائز ، اتركعوا عند جِذع منقّطٍ بالندى ، او تحت طنف ترويه الاشجار العارية ، لتتندروا بأحاديث القداسة والحب ، واقاصيص الابطال واللصوص ، واساطير المرَدَة . اذكروني ولا تكلوني للموت .

ان الشمس التي تضيء في الليل ، والجبال الراسية على هذه الاودية ، تحملني الى النور حيث اشارفكم من هذه النافذة ، واغاديكم منها كهذه الطيور المرفرفة عليها

وانت ايها الحصّاد !! امض في عملك ، واغمرني بوابل من حصبك ، ثم ثنِّ بهذا المعول ، فستنفرط عقود كثير من الازهار ، وسيصدأ كثير من الاكاليل وضفائر الذهب ، وسأمضي انا في غنائي حيث تطمر هذه الاكوام صلصالاً سافياً في الأرض

(٢) التوت

المساء

للافونس دي لامرتين

نقلها جورج نيقولاوس

المساء مجلبة للهدوء والسكينة ، فكنت آنس بوحشته وافزع اليه في همومي واشجاني ، ملتمساً مقعدي فوق الصخور الجرد ، وانا اتتبع في أرجاء السماء ، مركبة الليل تتقدم ببهائها وجمالها

لقد بزغت آلهة الجمال في الأفق ، وتحت قدميَّ الكوكب العاشق يتطلع اليها بشغف وهيام ، وقد لمع ضياؤها البهي في الفضاء ، فبيَّض على الغبراء ، بساط العشب الاخضر

وكنت اراعي شجر الزان ذا الورق الاكمد الداكن ، وأسمع حفيفه ، والرعدة التي تتمشى بين اغصانه ، فيخيَّل اليَّ ، اني محاط بأجداث عدة ، قد رفرفت حولها ارواح الموتى ، وأشباح الدُفَناء

فانفصل من السماء فجأة ، شعاع من كوكب الدجى . منسلاً على جبيني المغضَّن ، حتى مسَّ عينيَّ بلينه ولُدُونته

ايها الشعاع الزاهي ، لأنت انعكاس فتَّان لنور الكرة الملتهبة ، فماذا تبغي من مجيئك اليَّ ؟ أأتيت لترفِّه عني بعض ما بي؟ ام لتدخل الى قلبي المهدوم نور نفسي المتلألىء ؟

ازلتَ من عل ، لتكشف لي سرّ الحياة الخفي ، وتبدي ما استتر من امور ذلك الكوكب ، الذي يعيدك اليه اول خيط من خيوط الفجر ؟ او ان ارادة مضمرة ارسلتك الى صرعى الشقاء ، لتنير دياجير قلوبهم ، كما ينيرها شعاع الامل ؟

او هل اتيت لترفع حجب الخفاء عن المستقبل المكنون ، فتنفس عن القلوب الكليمة التعبة ، التي تبتهل اليه وتضرع ؟ . . انشدك الله ان تخبرني ، ايها الشعاع السماوي ، هل انت فجر اليوم الذي ليس له إنتهاء ؟

ان فؤادي يتأجج تحت اضوائك ، ومشاعري تفيض من جوانب نفسي ، فالفكر والاسى يقطع نياط مهجتي ، بالذين رحلوا دون عودة ، فهل انت ايها النور الهادىء رسولهم اليّ ؟ او روحهم السارية اقبلت تعطف عليّ ؟

ما يدريني ، قد تكون ارواح الاموات السعيدة عادت الى الارض ، بعد ما هزّها الشوق الى من خلفتهم فيها ، فتزلق على اديمها متغلغلة بين الادغال ، ومتجلببة بصورها الاصلية ، فيخامرني بقربها مني ، هناء يأسر لبي ويستولي على مشاعري

لئن كنتِ انتِ ايتها الاشباح المحبوبة، فعودي كل ليلة ، لتنضمّي اليّ في تأملاتي وأحلامي ، بعيداً عن كل بشر ، وبمعزل عن كل جلبة وضوضاء

ارجعي الطمأنينة والحب الى احضان نفسي المتعبة ، وكوني لها برداً وسلاماً ، كما تكون للارض ، نقطة الندى الليلية ، التي تسقط بعد حمارّة النهار ، ولواذع نيرانه

هلمي اليّ . . ولكن ما هذا ؟ . . غبرة داجنة ، وبخار اسود داكن ، يتصاعد من حوافي الافق واطراف الفضاء ، بشكل مرعب مريع، فيحجب ذلك الشعاع الدرّي اللطيف ، ويعاود الظلام الارض والسماء ، ويتلاشى كل مرئيّ في غياهب الحلك ، كما تتلاشى الحياة في مهاوي الزمن

الحرية

لتنسون الشاعر الانكليزي (١٨٠٩ — ١٨٩١)

جلستْ الحرية في القِدَمْ على الاعالي، وكان الرعد يلعلع عند اقدامها
وكانت السموات المكوكبة ترنُّ فوق رأسها وفي اذنيها صخب اصطدام التيارات

جلستْ هناك مغتبطةً، قنوعاً بعقلها الكشّاف، ولكن مقاطع من صوتها
الداوي جاءت محمولةً على اجنحة الرياح

ثم هبطت الى الحقول والمدائن واختلطت بالبشر وازاحت النقاب رويداً رويداً
واشرقت بوجهها الكامل على الناس

يا أمَّ الاعمال الجليلة الفخمة، الرانية الينا من مذبحها،
يا من تحمل كالارباب الشوكة المثلثة، وتلبس التاج كالملوك

ان عينيك الصريحتين تطلبان الحقيقة. ان فيهما الف سنة من الحكم
يا ليت الشباب الدائم يحتفظ بنورهما متلألئاً فلا تغشيهِ الدموع

يا ليت قوامك الحسن يظلُّ منتصباً لامعاً يضيء ايامنا ويخفف قتام احلامنا
ويحقّر بشفتيهِ القديستين اكاذيب المتطرفين!

باب المراسلة والمناظرة

صورة قلمية

أمين يحيى باشا

بقلم نقولا شكري

اصبحت التجارة اليوم من الاعمال التي لا غناء لها عن تعرف اسرار النفوس ونزعاتها . ونواحي التأثير فيها . وأساليب اقناعها وارضائها ونحن شعب اولي في كل ما يتعلق بالعمل . ولا يزال يعوزنا النشاط العملي الذي نستطيع به ان نكافح القوة التجارية التي يطالعنا بها الاجنبي في الاسواق المالية ، لاننا لا نستطيع ان نجاريه في بسيكولوجية التجارة ونحن نفقد كذلك قوة الاعلان والمزاحمة في متاجرنا ، اذ كنا نقنع منها بالسكون والصمت ، والتجارة من الاعمال التي لا بد لها من الضجة والمناداة والصراخ في آذان الجمهور ، واكتساب البقاء في ذاكرته ، ونحن نفقد الأثرة التجارية التي تجعل الانجليزي لايشتري الآ من اليد الانجليزية والمصنوعات الانجليزية وكل ما هو انجليزي ومن هنا اصبح التاجر الوطني الذي ينجح في وسطنا هذا ويزكو متجره رجلا يحمل ارادة قوية مدهشة . وهو من اكبر العارفين بعلم النفس ، لانه لم ينهزم في السوق التجارية الممتلئة بجبابرة تجار الغرب ودهاته ، وعرف كيف يقاوم العوامل الاهلية العديدة التي تعمل على محاربته وهزيمته . ولهذا كانت البيوتات التجارية العملية قليلة لدينا ، وذلك لأنها فقدت التشجيع الاهلي الذي يعينها على ان تجاري البيوتات الافرنجية المتكاثرة العديد بيننا ، ولأن كل عمل صالح في هذا البلد كبير الأثر في الحياة المصرية لا يجد شيئاً من عناية الشعب واحتفاله والموآزرة له اذ كنا نعيش عيشة مفككة الرابطة ، ليس عليها أثر ما من الظواهر الاجتماعية التي نراها في الشعب الحي المتماسك النشيط . ومن هنا كان خليقاً بأهل الصحف ان يتوفروا على تشجيع البيوتات التجارية ومعاونتها على عملها ، وبث روح التنافس بين اصحابها ، حتى تكون لنا شخصية تجارية صحيحة ، وحتى نحبس الثروة الاهلية في ايدينا ، ونصبح بعد زمن كما يفخر الانجليز اليوم شعباً من اصحاب الحوانيت

ونحن ازاء هذا قد عوّلنا على ان نقدم الى القراء كلمة موجزة عن بيت من البيوتات العملية الكبيرة وهو بيت يحيي باشا والفرد العصامي الاول الذي ترجع اليه شهرة هذا البيت هو المرحوم الحاج احمد يحيي باشا عميد الاسرة وكبيرها وكانت وفاته سنة ١٩٢٣ وقد قضى شيخاً تجاوز الثمانين قطع الحياة عملاً وصلاحاً وبرّاً ، والرجل ذو القوة الرهيبة في الاسرة ، هو عامل من عوامل صلاحها واستقامتها ونجاحها ، لانهُ يرسل في جوّ البيت انفاس الجلال والنظام والهدوء والصلاح ، ويجعل

جميع افرادها يتبعونهُ في مبادئه واخلاقه وجميع شؤونه والاسرات التي يفسد شبابها وفتياتها ورجالها لا يكون فسادها الا عدوى من فساد الرأس الذي يسيطر عليها ، واذا كان ذلك كذلك فلا غرو ان يذهب ذلك الشيخ الجليل المار بهِ تاركاً نسختين كاملتين منهُ . وهما نجلاه امين باشا وعبد الفتاح باشا،وقد قام الاول على اعمال ابيهِ التجارية يزيد فيها ويهذب من امرها ، ويسير فيها على طرائق من حسن المعاملة والاستقامة والشرف . فلم يلبث ان صار في الصفوة البارزة من رجال المال والاقتصاد في مصر ، ونهض مثالاً فريداً نادراً على النبوغ القوي الاخاذ ، خليقاً بموضع الفخار بسعة اطلاعهِ ، وغزير مادته

وأمين باشا مثال الشخصية الوقور المحترمة ، والجنتلمانية البادية على اكملها في المظهر والكياسة ، والتزام المنطق في البحث ، وأدب الجدل والحوار ، ولطف المدخل على النفوس ، بجانب ثقافة ممتازة ، واطلاع واسع وخبرة تلازمه في كل الظروف ، وهو الى هذا كله صريح . طيب القلب ، صافي النية ، رقيق الحاشية ، حر السجايا ، ذو افكار جريئة ، وتعبيرات رقيقة يفيض بها كالسيل الدافق في غير مشقة ولا عناء ، سامي المكانة عند رجال المال ، بارز في الندوات الرفيعة ، والمحافل العالية

وقد ولد امين باشا في الاسكندرية ، وقضى طفولته في بيت الجاه والحسب ، ورأى المرحوم والده ان يأخذ ابنه حظه من علوم الدنيا فألحقه بمدرسة الفرير ، فكانت المعارف الاولى التي اضاءت ذهن امين الفتى هي تلك المعارف التي يعنى ببثها جماعة الفرير باعتبارها عنصر مدنية وحضارة ، فبزّ بذكائه وعقله كل اقرانهِ فيها وقد كان حقًّا ان تتهادى طفولته في افانين من التربية الصحيحة ، فحرص في اثناء دراسته على ان يشبع رغبة نفسه في دراسة آداب اللغة الفرنسية على شيوخها البارزين ، ثم لم يمضِ بعد ذلك غير قليل من الزمن حتى تفتحت حياته للناس جميعاً ، اذ انتظم في سلك موظفي البنك المصري فأحرز في الزمن القصير سمعة طيبة ارتفع بها اسمه وطارت شهرته

ثم اضفى عليه النبوغ حلة من نباهة الصيت في مطلع شبابه . فآثر الاعمال الحرة مع المرحوم والده ، وكان ذلك بداية مجده المادي . واتفق انه زار الماريشال اللورد اللنبي ابان الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وأخذ يدلل له على وضاحة حقوق المصريين وعدالة مطالبهم ويهيب به الا ما عمل لحقن الدماء البريئة . ثم دار الحديث حول النهضة الاقتصادية في مصر فقال له الماريشال انكم معشر المصريين لا تحذقون أساليب التجارة ولا غناء لكم عن الاجنبي وقد كانت هذه الكلمة صيحة قوية داوية اثارت وطنية امين باشا وهزت شعوره القومي فخرج من مجلس اللورد محموماً واخذ يعد العدة لانشاء الشركات وتحقيق المشروعات المالية والاقتصادية فأسس في تلك السنة شركة التجارة في المحاصيل المصرية.وفي سنة ١٩٢٤ اسس شركة المكابس وفي سنة ١٩٢٥ اسس شركة السيكورتاه وفي سنة ١٩٢٩ اسس شركة الملاحة وهي اول شركة وطنية للملاحة انشئت في مصر والى امين باشا ينسب فضل التقدم والابتكار في انشاء هذه الشركات المالية الكبرى على حد قول الشاعر : —

... ولكن بكت قبلي فهيج بي البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدم

وقد يصعب على من يتأمل شخصية امين يحيي باشا ان ينجو من تأثيرات العمق والرزانة التي يكاد يعد رمزاً لها. وهو بطبيعة العمل الذي ينهض به يتمثل فيه التدبير وصدق النظر. ورغم انه قد جاوز الستين فلم يفارقهُ نشاط الشباب بل ان الانسان لا يستطيع ان يستخلص من اعماله غير دلائل القوة والحزم والميل الى الانشاء فان المهمة التي أداها حتى الآن في مضمار الحياة الاقتصادية تدل على المواهب العظيمة التي اوتيها في سبيل تحقيق المشروعات الحيوية

واذا اردنا ان نتكلم عن هذه المهمة فلا بدَّ لنا ان ندرك بادىء ذي بدء المصاعب التي تعترض في الاحايين اولئك الرجال الذين يعملون للنهضة التجارية وهو كما نعلم سبيل شاق يحتاج دائماً الى ذكاء وتدبير وقوة على المغالبة . وقد تمثلت هذه المزايا كلها في شخصيته وفي هذه الدائرة سيظل اسم امين باشا قدوة للنشء الذي يتحتم عليه ان يسير في الحركة الاقتصادية الى الامام فاننا بمقدار ما نخبر الصعاب التي تكون عادة في الطريق المحفوفة بالمنافسة والعراك ونعني بها طريق التجارة والاقتصاد نستطيع ان ندرك القوى العظيمة التي اختصَّ بها رجل عصامي استطاع في وقت وجيز ان يحقق عدة من المشروعات لخير هذه البلاد ونهضتها ويضع في الوقت نفسه قواعد الاشتراك في العمل للمستقبل ويبني بيده تلك القنطرة العظيمة التي ستمر عليها الذريات المصرية الى الشاطىء الجديد لمصر الناهضة

ونرى ان مجرد التفكير في ان مصر بلد زراعي قبل كل شيء وان استعداداته التجارية لا تزال محدودة وان الاجانب ما زالوا يحيطون حياة التجارة والمال بسياج من المنافسة العميقة التي تحميها الامتيازات يوحي الينا بمقدرة امين باشا وذكائه وخبرته وما أوتي من قوة على مغالبة العوائق وان يلعب الدور الذي تقتضيه الظروف لاحياء الاقتصاد الاهلي وان ينحو على المثل الاوربية في انشاء المشروعات التي تستحث النشاط العملي في المدينة وتبعث في الوقت نفسه امجاداً مندثرة وبالاختصار استطاع ان يرسم طريقاً للعمل في تشييد مستقبل جليل للاسكندرية . فهو صاحب الفضل في تأليف الاتحاد السكندري سنة ١٩٢٧ وهو الاتحاد الذي يجمع النخبة المستنيرة من رجال المال والاعمال لتجديد حياة هذا الوطن التاريخي وانهاضه وان يبلغ من الترقي درجة يتفوق بها على سائر حواضر البحر الابيض المتوسط . وقد كانت كفاية امين يحيي باشا لهذه المهمة العظيمة . ومقدرته على تحقيق الغاية مثلاً يخلد اسمه وكان موفقاً الى احراز ثقة الذين استطاعوا ان يدركوا هـذه الحركة النشطة وذلك الذكاء الفذ وكانوا وما زالوا أغلبية كبيرة تثق بعواقب هذه الحركة في مستقبل مصر القريب

ويزداد اهتمام امين باشا بكل فرصة لمنافسة الغربيين ومباراتهم في اقتباس المثل والوسائل التي يتسع بها مدى الترقي وتكمل اسباب النهضة واننا نستخلص الدليل على ذلك من تصريحات ادلى سعادته بها الى مراسل المقطم في باريس عن الغرض من رحلته الاخيرة الى اوربا ويستدل منها على مقدار الازدراء الذي يصدر من رجل الف الاعمال نحو النظريات والاساليب الناقصة وكيف ان

الاشتغال في الدائرة المادية لا يعرقل العمل المبني على العلم والاطلاع وان الذكاء لا يزال القاعدة الرئيسية في بناء الاعمال العظيمة . ونحن اذا واجهنا مشروعات امين يحيى باشا وطريقة اقتباسه للاساليب المستحدثة في التجارة والانشاء نطلع على علم واسع ودراية وخبرة مدهشتين . وجلي ان طبيعة العمل للترقي والعمران لا تخلو من جفاف وانها تحتاج الى مرانة طويلة ومناضلة ومقدرة حقيقية على التحقيق وان توفر ذلك من الحظوظ التي لابد ان تتفق للرجل الطموح الذي يعمل للغايات الانسانية النبيلة . وفي الحقيقة ان نجاح امين باشا في هذه المهمة الحيوية ونتائج علاقاته الواسعة بالاوربيين قد عادت على البلاد بخير كثير وبالاخص من الناحية الانسانية . وحسبنا ان نذكر مشروع مستشفى المواساة الذي لا يزال يحتاج الى كثير من تضامن المصريين وجهود رجال ذوي ثقة كبيرة ومناقب عظيمة . ولاشك ان هذه الجهود التي لا يزال المصريون يجنون ثمارها جديرة بالتأمل وان تظل قدوة للجيل الحاضر وسفراً يحوي كثيراً من مبادىء الاصلاح والعمران. هذا الى العمل الخالد الذي نعده اجل عنصر في حياة امين يحيى باشا وهو رآسته للغرفة التجارية المصرية ومساعيه في سبيل توسيع اعمالها وازدهارها وقديماً كانت الاسكندرية مركزاً يجمع شتى العلاقات الخاصة بالتجارة والملاحة ويلوح لنا ان ثمة سعياً قويًّا مستمداً من تاريخها يدل عليه عمل الغرفة وتوفيقها اخيراً لمضاعفة نشاطها في سبيل النهضة . ولاشك ان اشتراك امين باشا كرجل خبر المسائل التجارية طويلاً يكفل ترقي الغرض الذي انشئت من اجله الغرفة ويرقي الناحية الاقتصادية ويوسع في الوقت نفسه العلاقات ووجوه التعامل بين التجار

هذه الصفحة الخالدة من التاريخ الحديث لمصر تنسب كلها الى مجهودات زعماء الحركة الاقتصادية التي يعد من أتمها امين يحيى باشا . ولا شك في ان مظاهر التقدم الاقتصادي التي تحيى بها هذه البلاد اليوم مدينة في الكثير الى ذلك الاسم ويعظم تقديرنا لمهمة امين باشا عند ذكر الشركات التي أسسها وعلاقتها بحياة مصر المستقبلة من الناحية المادية فان انشاء هذه المؤسسات وحده يمثل نظاماً من احدث نظم الحياة المادية في الغرب المتمدين وكأن سعادته قد اخذ على عاتقه ان يخلي مصر من عبء عظيم فاستطاع ان ينهض بتحقيقه لكي لا يعاب على الجيل الحاضر نقص النظام الاجتماعي . وفي الحق انهُ برهن على ذكاء وجرأة واطلاع واسع في سدّ الحاجات التي لا بدَّ منها لترقي المجتمع وسيبقى اسمه مقترناً بنتائج المهمة التي تؤديها هذه الشركات لمصر . وسيذكر تاريخ مصر الحديث ان احد ابنائها العاملين بعد ان وصل الى القمة في الدائرة التجارية وكان في الوقت نفسه مشاركاً في كثير من المقتبسات المستحدثة لبعث تاريخها اسس لتوسيع نظامها الاجتماعي وتكميل اسباب حياتها المادية عدة شركات تجارية كبرى. ولا شك في ان الاساليب المستحدثة التي اتبعها امين باشا في تكميل نظام العمل في مصر تكفل وحدها تخليد ذكره

على ان من يلاحظ ما خلفه العصر القديم من آثار الخمول وعدم الاطمئنان للمستقبل في طبقات الشعب المصري يدرك مقدار الجرأة التي ابداها سعادته في سلوك هذا السبيل وكيف غاص وظهر على

جميع منافسيهِ ولم يبال بأقوال الذين كانوا يحسدون فيهِ الرجل التجاري العظيم الخبرة الواسع الاطلاع

وبالاختصار نقول ان حياة امين باشا يحيي ستظل عنصراً هامّاً من عناصر تاريخ مصر الحديث

وهناك ناحية اخرى ليست مجهولة في حياة امين باشا وهي تلك الناحية المتعلقة بالحقبة التي ظلّ يدافع فيها عن مصالح الاهلين في القومسيون البلدي وكيف انهُ بقي محتفظاً بثقة تامة فيما يختص بالخبرة وصدق النظر وانهُ عمدة في الرأي وان ثمة حاجة دائمة الى استفتائهِ في كثير من المسائل .

وقد بقي ذلك الى ما بعد تخليهِ عن عضوية القومسيون وإنا لا ننسى موقفهُ في الخلاف الذي نشأ بين البلدية وشركة النور بشأن ثمن الاضاءة وتدخله المحمود في مقاومة جشع الشركة وكيف استطاع ان يجعل قرار القومسيون وقتئذٍ بلا جدوى بعد ان تبين انهُ على نقيض مصلحة المدينة وان ينال بما لهُ من النفوذ والثقة بتأييد الوزارة وترجيح مصلحة الاهلين

وهكذا يحتفظ لهذا الرجل الفذ الى الآن بميزة تدل على خبرته الواسعة وقوة نفسه في الرجوع اليهِ غالباً عند الفصل في المسائل الهامة المتعلقة بالمدينة

ونحن نستطيع ان نستخلص من كل هذه المجهودات الحيوية وطنية حارة واخلاصاً عمليّاً منتجاً لمصر . فقد كان امين باشا ولا يزال حافظاً لهذه الميزة دون ان يحيطها باعلان عن نفسه مطلقاً وهو يعلم انهُ يعمل لاسمى غاية والى غرض هو اشد ما تحتاج اليهِ مصر في حاضرها ومستقبلها . ونرى ان هذه الشخصية التي اقتحمت الحياة المادية بجرأة ولم تبال بالمصاعب ستظل موضوع اعجابنا واعترافنا بالجميل

إرشاد لغوى

فى كل جزء كلمة

للاستاذ عبد الرحيم بن محمود

الوصْفة

وقف القرّاء فى مقتطف ديسمبر سنة ١٩٣٤ على أن القَدَمِيّة هى أجرة الطبيب فعلينا ان نحيها حياة طيبة ونميت ڤزت الانكليزية (visit) وڤزيت (visite) الفرنسية

وفى هذا الجزء أرشد العرب والمستعربين إلى إحلال (الوصْفة) مُحَل رِشتّه التى تداولتها الخاصّة مثل العامة بألسنتهم ويراعهم وهم يعلمون أعجميتها

فى محيط المحيط «وصف الطبيب للمريض وصْفَة يبيّن له ما يتعالج به والاسم — الوصفة —» وقال الحريرى من مقامته العمانية : فإنك ستجد منى عرافاً كافياً ووصافاً شافياً — أى طبيباً ماهراً

ومصادر الهيئة (النوع) من الأفعال الثلاثية مقيسة فلا اعتراض عليّ فيما قلت ولكن لتطمئن قلوبكم أيها القرأة عرضت عليكم ما في محيط المحيط — وقد فشت الوصفة في كتب الطب عند المتقدمين من المستعربين في « تذكرة داود » وكتاب الرحمة في الطب والحكمة وفي غيرها

والعامة يفتحون الواو فيقولون الوَصفة وهم يريدون الهيئة وهو خطأ منهم فإن أرادوا المرة فلا أراهم مخطئين وليس هذا مقامها

ولمستدرك أن يستدرك قائلاً إن تخصيص الوِصْفة بالدواء الذي يصفه الطبيب فيه حجر على حرّية معناها فالوصفة تبيّن كيف يُصنع الطعام والشراب والدواء وكل شيء لإبانة حال كلّ. فأدفع استدراكه بأنه لا مانع من تخصيص العام إذا اتفقنا عليه كما فعلت العرب في هـذا وفي غيره وما صاحب محيط المحيط بمفتر عليهم الكذب لمّا روى في مادة وصف ما روى ونقلته عنه ومن حسن الاتفاق اتفاق الافرنج والعرب على تخصيص العام في هذا المقام فالفعل اللاتينيّ receptare معناه يتسلّم ويأخذ أي شيء ومنه رِشْبِتَا recepta وقد اخذ الفرنسيون منهُ رِست recette والايطاليون ريتشيته ricetta[١] فاستعملوها في الوِصْفة للدواء سواء أكان مركباً ام غير مركب على ان التسلم بلغ الغاية في العموم مع البعد !! والوصف وما أخذ منه كالوصفة عام فتخصيصه بوصف الدواء وإبانة أجزائه التي يتركب منها إن كان مركبًا ليس في الاصل اللاتني فإذا ساغ لكل من الامتين الايطالية والفرنسية الاخذ من اللغة اللاتينية لفظاً تارة بمعنى التسلّم اي الاخذ وطوراً بمعنى وصف الدواء فلم لا يجوز لنا نحن المستعربين ان نخصص الوِصْفة ببيان ما يتعالج به المريض كما قال المؤلف لمحيط المحيط

وقد وهم من قال « الوِصفية » هي الورقة التي يكتب فيها الدواء فاننا في غنية عن هذه النسبة لان الوصفة علم جنس على هذه الورقة التي يكتب فيها الدواء بعد تشخيص هذا المرض لان القلم قام في الدلالة مكاتبة مقام اللسان محادثة . وقول صاحب محيط المحيط (الوصفية حال الوصف) معناه شأن الوصف . على ان الورقة حاملة للوِصْفة قولاً والاوعية حاملة للوصفة عملاً والثانية مسببة عن الاولى وقد يطلق السبب ويراد المسبب كما يطلق الملزوم ويراد اللازم وكذلك العكس بالعكس في كلّ — وهذه من سبل المجاز المرسل وهو من المجاز اللغوي . وإني أرى اللفظ العامي رِشِتّه أقرب إلى الكلمة الايطالية منهُ إلى الفرنسية وقد تقدمتا — ولا يخفى عليك أن الاشتقاق من اللاتينيّة في هذا المقام قد انتقل من طور إلى طور حتى بلغ هذا الغور في تينك اللغتين[٢]

---

(١) ويقال ان ricetta مأخوذة من recipe وتنطق بها ريتشيپه أي الاخذ ايضاً وفعله ريتشيپري recipire وهذان المصدران صحيحان في اللغة اللاتينية لانها مختلفة اللهجات فلا غرو اذا اختلفت فيها الكلمات وان لم يختلف المعنى

(٢) توجيه : زاغ البصر في مقالي السابق بمقتطف ديسمبر سنة ٣٤ عن تحرير الكلمة (تلك) من المثال المطبوع (في تلك اللغتين العربية واللاتينية) والصواب في تينك الخ لان الاشارة الى اللغتين والخطاب للواحد المذكر في السطر التاسع عشر من الصفحة ٥١٠

حول ارشاد لغوى

« قدمية » فى العامية ايضا

لاديب عباسي

قرأت مغتبطاً في المقتطف الاغر ما اعتزم عليه الاستاذ الفاضل عبد الرحيم بن محمود من مطالعة قرّاء المقتطف عند آخر كل شهر بكلمة يحقّق فيها لفظاً لغويًّا مفيداً فيفيد الجاهلَ علمَ ما لم يعلم ويُنَبِّه الغافل الى ما أهمل . وكانت كلمة الشهر الفائت في لفظة «قدمية» التي استعملها اطباء العرب القدماء لمثل ما تستعمل له كلمة « فزيت » الافرنجية هذا اليوم ، ولكن اطباء العصر الحاضر اهملوا استعمالها ، او على الاصح ، لم يهتدوا اليها ليستعملوها ، فاضطروا مرغمين الى استعمال « فزيت » الاعجمية للدلالة على الاجور التي يتقاضاها الطبيب مقابل سعيه الى المريض في بيته او في محل عيادته

قرأت الكلمة وشعرت ، وأنا اقرؤها ، كأن هذا اللفظ الذي انتشله الاستاذ من هوة النسيان ليس بالغريب عن ذاكرتي ولا بالطارىء على وعيي . بل لقد تجاوب في نفسي الالفة والخلو المطلق من الغرابة . فرحت اكد الذهن وأداور الخاطر ، وسؤالٌ على شفتي : متى وأين ؟ وأخيراً فطنت الى ان الامر اقرب مما توهمت وذكرت انه من الالفاظ الشائعة على ألسنة العامة في سوريا الجنوبية (وأعتقد شيوعه في بقية انحاء سوريا) الى حد الابتذال . وعلى كل فقد اتهمت نفسي عندها وقلت ، ايعقل ان يكون العامة احصف من الخاصة واكثر حفظاً لدرر اللغة من الاطباء والمتعلمين؟ ألا يكون ان اللفظ شائع على السنة العامة لغير المعنى الذي يراد من كلمة «فزيت» ؟ وضمني الى رهط من الاصحاب مجلسٌ بعدها بيوم ، فأحببت ان ازيل الشك بطريقة عملية ، فسألت : ماذا تقولون اذا شئتم التعبير عن الاجور التي تدفع للطبيب اذ يزور مرضاكم والمهندس اذ يكشف على بيوتكم المتصدعة وموظف الحكومة اذ تكلفونه الكشف على عقار او خلافه ؟ فكان الجواب بلسان واحد من الجميع : «قدمية» . وعندها ايقنت اليقين كله ان اللفظ دارج على ألسنة العامة مستعمل لمثل ما تستعمل له كلمة « فزيت »

وعبرة هذا ان العامية التي نبالغ في احتقارها والزراية عليها تحتفظ لنا في صدرها بكثير من الدرر الغالية . وما علينا لننالها الا ان نكون مفتحي البصائر والابصار بعيدين عن العجرفة واحتقار كل ما كان عاميًّا او منسوباً الى العامة . اذا فعلناها تيسر لنا ، ولا ريب ، ان نرد كثيراً من اللفظ العامي الى اصوله الفصيحة التي كثيراً ما تكون مهجورة ، فننسمها بذلك نسيم الحياة ونعيدها سيرتها الاولى . وتخدمنا هذه العامية ايضاً اجلّ الخدم اذا اتخذناها دليلاً وهادياً الى كثير من الالفاظ الفنية العملية مما كان سائراً على ألسنة الخاصة حيناً من الدهر ثم غاب — لسبب من الاسباب — من كلامهم ، وظلّ دائراً على السنة العامة كلفظة « قدمية » السابقة ، مثلاً . وفرق كبير بين ان يعمد الباحث الى المعاجم والمظانّ اللغوية يفتش عن اللفظ يراد للتعبير عن معنى من المعاني المحددة ولا دليل له الا صبره وجلده ، وبين ان يعمد الى هذه الامهات ، واللفظ العامي الذي يعبر عن المعنى دليله وهاديه

الموضوع في الفلسفة وعلم النفس

ليعقوب فام

قدمت لقراء المقتطف كتاب الاستاذ مظهر سعيد والسيدة قرينته فردَّ الاستاذ في مقتطف دسمبر الماضي وعرج في ردّهِ على ترجمة كلمة « Subject » فقال « وكنا نرجو كذلك ان لا يترجم كلمة Subject بموضوع لانها تأتي بهذا المعنى في الانشاء ومواد الدراسة فقط اما في علم النفس فتدل دائماً على المجرب او الذات او الشخص او الفاعل اما الموضوع فترجمة object والكلمة لم ترد في كتابنا بهذا النص كما قد يفهم القارىء »

وقد كنتُ اود ان يتنبه الاستاذ الى ان الكلمة Subject لها معان مختلفة بحسب الوضع الذي تستعمل فيه ، فلها معنى في الفلسفة وآخر في الانشاء وثالث في علم النفس

ففي الفلسفة تعني الذات العاقلة المفكرة التي تتصل بالدنيا الخارجية وتحاول ان تتعرف طبيعتها وأصولها وغاياتها . وقد استعرت الحرب في الفلسفة في وقت من الاوقات وما زالت مستعرة الى الآن حول أثر هذه الذات او هذا العقل في مظاهر الكون هل هي كائنة مستقلة عن العقل ام هي مظهر من مظاهر هذا العقل وهذان المذهبان هما (١) Naturalism or Realism و (٢) Idealism or Subjectivism وهنالك استعمال ثان لكلمة Subject وهو في الانشاء او موضوع الدراسة كما جاء في كلام الاستاذ في المقتطف

وأما في علم النفس التجريبي وفي التحليل فكلمة Subject معناها object of study or experiment فالمريض بأي مرض نفسي اسمه Subject والشخص الذي يخضع للتجارب النفسية تجرى عليه اسمه Subject وهذا هو موضوع الدراسة او موضوع التجربة او موضوع العلاج

وما كنت لارى داعياً الى التبرؤ من استعمال هذه الكلمة « موضوع » Subject في كتاب الاستاذ ، وما كنت لارى داعياً الى التنبيه الى انهُ لم يستعملها بهذا المعنى قط ، لان الواقع انه في كتاب الاستاذ بالذات لا يصح ترجمة Subject الأ بكلمة موضوع لأن كل من يحاول ان يقوم بالتجارب المفصلة فيه هو experimenter ومن تجري عليه هذه التجارب هو Subject او هو موضوع الدراسة والتجربة . ولعلَّ استعمال الكلمة في الفلسفة وفي الموضوعات الانشائية حمل الاستاذ على الظن بأن ترجمتها بالفاعل أصح

ثم ارجو أن لا ينسى الاستاذ مظهر ان ثورندايك وبافلوف وطسون وركس وغيرهم من علماء النفس التجريبيين كانوا يجرون تجاربهم على ناس وعلى حيوانات كبيرة وصغيرة وكانت هذه الحيوانات their subject وكانت هذه موضوع دراستهم

مكتبة المقتطف

حول كتاب

الاسلام والحضارة العربية (١)

اللهم اني اسألك السداد ... وبعد فلو ذهبت استقصي للقارىء ما نما بنفسي وأنا اقرأ فصول هـذا الكتاب لخرجت بهِ من حد عرض فكرة الكتاب الى بسط فكرتي عن الاسلام وحضارتهِ والعرب وثقافتهم التي اختبأت في دمائهم وعقولهم وألسنتهم من اقدم عصور التاريخ ثم تنفست بالاسلام كما يتنفس الفجر ضوءاً وحياةً وهمةً وشباباً وأنا هنا اجمع بين الامرين على ما يحفُّ بذلك من عنت ومشقة

والمؤلف الجليل الاستاذ كردعلي يقصُّ على القارىء في مقدمته قصص كتابه فيقول «لما قرر المجمع العلمي العربي « يعني بدمشق » انتدابي الى تمثيله في مؤتمر المشرقيات الذي عقد في مدينة ليدن من بلاد القاع في صيف ١٩٣١ رغب اليَّ اعضاؤه المفكرون ان ألقي فيه جملة اعرض فيها لما لا يزال يسري على اسلات اقلام بعض مؤلفي الغرب ، ولا سيما علماء المشرقيات ، من امور نابية عن حد التحقيق والنصفة ، كلما ذكروا الاسلام واهله والعرب ومدنيتهم » . ثم يقول

« وسبيل هذا الموجز الآن ، تصحيح هفوات من أساؤا وما برحوا يسيئون للعرب ودينهم ورسولهم ومدنيتهم ، وذكر ما أثرته الحضارة العربية في أمم الغرب والشرق ، وما مني بهِ الاسلام ، لما غير اهله ما بأنفسهم ، من خصماء غير رحماء ، نالوا من روحه وجسمه ، فالتاثت أحواله ، وتنكرت معالمه ، والالماع الى ما قام بهِ المسلمون بعد طول الهجعة ، يلوبون على استعادة مجد اضاعوه ، وعلقوا اليوم يقطعون اليهِ اشواطاً ، حتى لم يبق امامهم غير مراحل لبلوغ الغاية »

في هـذا الكفاية لمن يريد ان يكون رجلا عربيًّا من نسل ذلك الشعب العجيب الذي بدَّد جيوش الأمم الطاغية في اول أمر الاسلام ، وانشأ على انقاضها اجتماعاً اسلاميًّا عربيًّا كلهُ محبة وعطفٌ وعدلٌ . وفي هذا الكفاية وفوق الكفاية للذين يتولون أمر التعليم في الامم العربية ليهبّوا من غفلتهم ، وينظروا إلى ما يحاط بهِ مجدهم من كيدٍ وقتالٍ

إن العار أن يقضي الشاب من أول نشأته إلى آخر خروجه من دراسته — أعواماً طوالاً يدرس في اثنائها تاريخ نابليون وأمته ، وفلاناً وفلاناً من افذاذ الامم الغربية ، وهو لا يعرف من ماضي امته العربية الاَّ نتفاً تذهب مع الأيام . هـذا الماضي الذي يصوره الذين يتعرضون للتاريخ من مستشرقين يقولون غير ما يعلمون او يقولون فيما لا يعلمون ، او عربٍ قد فسدت قلوبهم على تاريخهم

---

(١) تأليف الاستاذ كردعلي لجنة التأليف والترجمة والنشر . مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٤ الجزء الاول

فهم يستقيدون لآراء عن تاريخهم كلها بهتانٌ وتدليس . هـذا الماضي الذي يصورون في صورة مسخٍ تاريخي هائل قد خرج على الدنيا كما يخرج الوباء ثم انقشع عنها فأعقبها صحة وعافية او كما يقولون!!

الاّ ان الضلالات التي احاطت بالتاريخ العربي والاسلامي لهي من اسوإ الضلات واشدها واعصاها على العلاج . فاذا لم يتنبه العرب والمسلمون الى تاريخهم تنبه المريد الى ما يريد انماثوا في الامم ذات الهمم كما ينماث الملح في الماء وأضحوا بدداً لا يجتمع لهم شمل ولا يؤول آخرهم الى مجد اولٍ يلوذ به او يستعصم

هذا وقد استوقفني من كلام الاستاذ كرد علي الذي رويته آنفاً قوله يذكر « ... ما قام به المسلمون بعد طول الهجمة يلوبون على استعادة مجد اضاعوه ، وعلقوا اليوم يقطعون اليه اشواطاً حتى لم يبق أمامهم غير مراحل لبلوغ الغاية » !!

اني لاقرأ هذه الكلمات فتتمثل لعيني (خريطة) العالم العربي الاسلامي من اقصى الشمال الى ادنى الجنوب ومن مشرق الشمس الى مغربها ، وأعرض قول الاستاذ على امةٍ امةٍ من بلادنا فلا اجد قوله يرتاح الى واحدة منهنّ . هذه هي السلاسل وهذه هي القيود ، وهذه بعض الامم تمرح في طول من سلاسل الحديد طرفها بيد المستعمر فيخيل الى الناظر ان ما بهذه الامم من المرح والنشاط هو انحلالمن السلسلةوما هو به إن هو الاّ بعض الغفلة التي نحن فيها الى الاذقان مقحمون

ان الاشواط التي قطعتها هذه الامم فيما يسمى حضارة او ثقافة هي غير الاشواط التي يجب ان تقطعها الى الحضارة والثقافة . وان السبيل التي مضينا فيها غير السبيل التي فرض علينا سلوكها ان اردنا ان نبلغ غاية يقال لها « لم يبق امامنا غير مراحل »

أين الأمة الاسلامية العربية التي يريدها الاستاذ على ما فهمنا من فحوى كلامه . . . . ؟ أين الرجل العربي المسلم الذي يرتفع في الجو كما ترتفع الطائرة التي تحمل أسباب الموت ودلائل الحياة ثم ينقض كما تنقضُّ القذيفة من عليائها فلا تذر من شيءٍ الاّ أتت عليه فجعلتهُ هشيماً تذروه الرياح

إن أمامنا مراحل أولها مهد الطفل العربي الرضيع . وآخرها هذا القبر فاغراً فاه يلتقم ما تعضه الحياة من الابدان العربية ذات السيادة والحضارة والاخلاص والعدل

فانظر إلى هذا المهد الذي لا يخرج منهُ الاّ الضعيف والمهزول والاعزل الذي لا سلاح لهُ في الحياة ، وهذا الذي ينام على هدّاتِ الجبال وقصف الرعود وخواطف البروق ، وهذا الذي يمشي حيران ليس لهُ هادٍ ولا دليل ، وهذا العود الخرع الجبل الذي يتثنى ويتبرج «تبرّج الانثى تصدت للذكر » كما يقول ابن الرومي

ثم انظر الى هذه المدرسة التي لا يخرج منها الاّ الادعياء واشباهُ الادعياء ممن استودعوا جماجمهم عقولاً غير عقولهم ، واذهاناً غير اذهانهم ، وصاروا اتباعَ كلّ ناعقٍ

ثم انظر الى هؤلاء وقد ساروا في سبيل الحياة والعمل كما يسيرُ ذوو العاهات فنهم الاعرج

والأكتع ومقطوع الساقين ، والاعمى الذي لا يهتدي والفيلسوف الذي لا يعقل .....!؟

ثم انظر وانظر ... هل ترى الأقوالاً ملفقةقد لبست ملابس الفلسفة والعلم والادب،وتكلمت بها افواهٌ تتعاقل على الناس وليس لها من ورائها عقلٌ مستورٍ قد قرّر معنى المجد او الحرية او الاخلاص او المعنى الذي يتبع الانسان اينما سار او حلّ ، ذلك المعنى العظيمُ الذي لايغفلُ عنهُ الاّ من لا حياةَ فيه ألاَ وهو الموت

اني لأبكي .... وآسي ... و... الخ حين اذكرُ هذا ، واعلمُ اني اتكلم بمثل هذا عن امةٍ انا منها وهي مني ، واني ليحزنني ان لا اجدَ مندوحة عن القول ، ثم لا اجدُ معدًى عن استقصاء التصريح في هذا القول . فان الدنيا كلها تسيرُ وتعدُّ من اسباب القوة والجبروت ونحن لا نجد لدينا من اسباب ذلك الاّ ألسنة .... !! وما تنفع الالسنة في زمن ألسنته غير هـذه التي خلقها الله وسوّاها من لحمٍ ودمٍ

اذا اردنا ان نكتب هذه الكلمة التي كتبها الاستاذ فنقول « قد قطعنا اشواطاً ونحن الى الغاية ولم تبق الاّ مراحل » فان امامنا اهوالاً واهوالاً لا بدّ من ملاقاتها والتمرّس بها تمرّس المصارع المفتول الساعدين بالاسد المصور الجائع الذي يريد ان يملأ معدتهُ ليتضلع من طعامهِ ويبسط اهابهُ المـضِل في ضحى الشمس تماماً لمتاعهِ ولذتهِ

البيتُ العربيُّ الاسلاميُّ الذي يخرج رجلاً يقفُ في مهبّ الريح يملأ رئتيهِ من الهواء النقي استعداداً لطلب العيش الذي هو المجد

والمدرسة العربية الاسلامية التي تخرج رجلاً كالاسطول المدرع بالعلم والفلسفة والخُلُق والقوة البدنية والمكتسبة والتي هي الحرية

والاجتماع العربي الاسلامي الذي يفرضُ على كل رجل ان يعمل ثم يعمل في غير وهن ولاضعف باذلاً روحهُ الفردة في غير شح ولا بخل لتنالَ الارواحُ جميعها الحياة المتوّجةَ بالمجد والمحفوفة بالحرية والتي هي السيادة

ان لكل امة تطلب مجدها وحريتها وسيادتها اسلوباً متبعاً وسبيلاً مقررة لا عوجَ فيها ولا أمْتَ ، فلنطلب لانفسنا اسلوباً وسبيلاً ولننشيء بيوتنا ومدارسنا واجتماعنا نشأة أخرى غيرهذه التي نحن عليها من التقليد المريض الذي ذهب بشبابنا واستهلك مادة الحياة فينا

هذا التاريخ الذي يصححهُ الاستاذ كردعلي في كتابه هو اولُ ما يجبُ على البيت والمدرسة والصحافة والاجتماع ان تصححهُ في اذهان الاطفال والشبان والمثقفين من الرجال والنساء . وهذا الاسلوب الاجتماعي الذي نعيش فيه يجب ان يغير من اوله الى آخره حتى يصبح رجولةً عارفةً متثبتة لا تجهل ولا تغفل . وهذا الموج الزاحف علينا من اقطار الارض بالفتن والبدع لا بد من تقديم الحيطة له في العقول والابدان . والاّ فنحن الى هلاك لا الى غاية لم يبق منها الاّ مراحل

اني لأرى في هذا الكتاب الذي بين يدي انواعاً من الفكر وألواناً من القول كلها يؤدي الى مثل الذي نقول به ونعمل له ، وهو دليل نافع لكل من يريد ان يقف على حقيقة ما يحيط بأمته من الكيد والطمع ... ولا ارى لعربي فضلاً عن متعلم فضلاً عن مثقف وفضلاً عن رجل يطلب المجد والحرية . مندوحة عن الاستفادة منهُ مع التاريخ الذي يردُ شرعته من اصوله وكتبه

ان امامنا المراحل كلها الى غاية المجد فلنبدأ بتكوين ما يؤدي اليها وان في حقائق ما يحيط بنا لحافزاً الى العمل والاخلاص والنهوض والمبادرة الى ما ليس منهُ بُدٌّ . وان في التاريخ العربي لعبرة وان فيه لأمثالاً من المجد والعدل ، وان فيه لصوراً من الحرية يجب ان يتمثلها كل عربي — ما دام حيًّا — بين عينيه أنى سار وحيثما نزل وفي هذا الكتاب أطرافٌ من كل ذلك . فلعلَّ الله يحدث لنا من بعد هذا ذكراً في العالمين محمود محمد شاكر

الشخصيات البارزة التاريخية

بقلم الدكتور أحمد فريد رفاعي — صفحاته ٢٢٧ قطع المقتطف

كان كاتب هذه السطور مولعاً من حداثته بتراجم العظماء . فقرأ اولاً كتاب سرّ النجاح الذي ألّفه صموئيل صميلز ونقلهُ الى العربية الدكتور صرّوف رحمهُ الله . ثم اكبَّ على تصفّح مجلدات المقتطف يطالع فيها التراجم التي انطوت عليها ومنها تراجم لكبار الساسة مثل بسمارك وغلادستون او لكبار القوّاد كالاسكندر وهنيبال وقلب الأسد ونبوليون او لكبار الادباء والشعراء من طراز تنيسُن وكبلنغ وملتن وأبي العلاء ، او لكبار العلماء والفلاسفة امثال طاليس وغليليو ونيوتن وارسطوطاليس وسبنسر ، او لكبار رجال المال والأعمال انداد ركفلر وروتشيلد وكارنيجي وفورد ، او لكبار الروّاد من غرار سكوت وبيري وشاكلتن وامندسن . وقد تركت هذه المطالعة في نفسهِ أثراً عظيماً تحوّل بعد الدرس والاختبار وموالاة المطالعة في كتب التراجم ، الى اعتقادهِ في ان خير الوسائل لعرض المعارف على الشبان والشابات وتشويقهم الى الاستزادة منها ، هي ادماج الحقائق في صلب تراجم العظام والعظيمات . وكذلك يستطيع الطالب ان يستوعبها من دون عناء او كدّ وهو يطالع حوادث السيرة بما فيها من نزاع بين المادة والروح ، وصراع بين عوامل الخيبة وقوة المشيئة ، وترفع عن الصغائر ، وعناية بالاركان ، وخلود الذكر بعد خمول واضطهاد في الحياة على الغالب

وهذا الاعتقاد حفزه الى اصدار بعض هذه التراجم التي نشرها المقتطف مجموعة في كتب «اعلام المقتطف» و «الروّاد» و «رجال المال والاعمال» . وينتظر ان يظهر كتاب «اساطين العلم الحديث» في المستقبل القريب

قدّمنا هذه الكلمة بين يديْ كتاب الدكتور احمد فريد رفاعي ، للدلالة على شدة عنايتنا بهذا الضرب من الادب العالي ، الذي يلخص الحياة في سيرة رجل او سيدة ، وشدة حاجتنا اليهِ كذلك . ففي مدى عشر صفحات او عشرين صفحة يتسع للكاتب ميدان السرد التاريخي القصصي ، والتحليل

النفسي ، واستخراج العبرة الخلقية والاجتماعية . وهذه العناصر في الكتابة « البيوغرافية » رفعت كتب التراجم في الأدب الأوربي والأميركي الحديث حتى كادت تساوي القصص والروايات في رواجها وسعة انتشارها

أما صديقنا الدكتور رفاعي فقد جمع بين دفتي كتاب واحد سير طائفة من الناس قد لا تجمع بينهم جامعة ما ، الا جامعة العظمة الصحيحة والاثر الجليل في فائدة أممهم وأوطانهم . نجد بينهم السياسي بسمارك ، والصحافي بوك ، والصناعي المخترع فورد ، والمحرّرين توسان ولنكان ، والتاجر ولورث ، والمربي بوكر وشنجطن ، والخليفتين العظيمين أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب . فسيرهم في هذا الكتاب اشبه بمراءٍ تعكس نواحي مختلفة من الحياة لا تتم الثقافة الا بتدبرها جميعاً

وليس الغرض الذي توجّه اليهِ المؤلف تصوير العصر الذي نشأ فيهِ كلٌّ منهم وسرد حوادث حياتهم تفصيلاً ، لانهُ لو قصد الى ذلك لما اتسع الكتاب الواحد لاكثر من ترجمة رجلٍ واحد . بل غرضهُ رسم صورة لحياة الرجل واثره لا تحتوي على اكثر من الخطوط البارزة في حياتهِ وعمله . ثم استخراج العبرة من ثناياها . وهو يعمد الى طريقة السرد حيناً والى اسلوب المخاطبة احياناً . فيخاطب القارىء كأنهُ يذكره بشيءٍ يعرفهُ ، ولهذه الطريقة أثرها في استرعاء نظر القارىء واستدراجه . ثم انهُ يعمد في الحين بعد الآخر الى قطع حبل السيرة على القارىء ليلقي عليهِ عظة في العبر الخلقية والاجتماعية التي يقتضيها السياق . والاستعبار بهذه السير مقصد جليل وانما كنا نفضل ان يترك ذلك للقارىء يستخلصهُ بنفسهِ من الحوادث ووقعها واثرها او يشار اليهِ من طرفٍ خفي . اذ لا يستطيع قارىء ان يطالع سيرة فورد الا ويدرك ما للمثابرة والابتكار والمقدرة على التجدُّد من الاثر في نجاح الصانع والتاجر ، ولا يسعهُ ان يقرأ ترجمة لنكان من دون ان يدرك كيف تسخّر الحياة جسماً من لحم ودم في سبيل اغراضها العليا ، فترفعهُ من الكوخ الخشبي الى القمة ثم تضحي بهِ راضية ليكون مصرعهُ ذكرى خالدة لعتق العبيد والاحتفاظ بوحدة الامة الاميركية . والمثل الاميركي يقول « ان صوت اعمالك يصمُّ اذنيَّ فلا اسمع ما تقول » وهو قول ينطبق على فعال هؤلاء العظماء

وخلاصة القول ان كتاب الدكتور رفاعي هو على حدّ قول الاستاذ مكرم عبيد « كتاب ضروري . بل هو ألزم ما يكون لأمةٍ ناشئةٍ كأمتنا ، شعرت بكامن شخصيتها . . . . . . فدراسة الشخصيات البارزة . . . . تنمي الشخصيات الناشئة وتبرز الشخصيات الكامنة . . . . وهي ضرورية لنا نحن المصريين . . . . . لأن سير العظماء والبارزين لا تدرّس في مدارسنا الا بطريقة عرضية ضمن دراسة التاريخ ، ومن الحزن اننا ونحن أغنى امةٍ في التاريخ ندرس التاريخ دراسة جامدة لا روح فيها ولا حياة ، فتراه يدرس في مدارسنا من ناحية الحوادث لا من ناحية الاحياء الذين ينفخون في الحوادث روحاً من روحهم . . . . »

التجارة الدولية

بحوث اقتصادية — للدكتور احمد محمد ابراهيم — استاذ الاقتصاد السياسي — في مدرسة التجارة العليا بالقاهرة صفحاته ٢٧٩ قطع المقتطف — لم يذكر اسم المكتبة ولا ثمن الكتاب

ان القول بأن المباحث الاقتصادية لها مكانة خطيرة في دراسة العمران الحديث ، قول كالاوليات الرياضية لا يحتاج الى دليل . فللانتاج الاقتصادي في كل بلاد من بلدان الارض أثر مباشر او غير مباشر في وضعها السياسي وصلتها بالبلدان الاخرى ، ورفاهة شعبها وثقافته . وليس ثمة بلاد تستطيع ان تبتّ روابط الاتصال الاقتصادي التي تربطها بالبلدان الاخرى وتعيش بمعزل عن الناس . اذ لا نعرف بلاداً — حتى ولا الولايات المتحدة الاميركية — تستطيع ان تستنبط من ارضها جميع الخامات التي تحتاج اليها في صناعاتها ومرافقها العامة . فتبادل مواد الزراعة والصناعة ، على اختلافها وما يقتضيه ذلك من تبادل المال، ركن اساسي من اركان العمران الحديث . وقد اصبح له من الشأن في هذا العصر ، حتى ان جفافاً في اميركا او فيضاناً في الصين او استنباط آلة جديدة في اميركا ، او وقوع فضيحة مالية في باريس ، او إقبال في مواسم روسيا ، يؤثر في الحالة لاقتصادية في مختلف امم الارض ولو لم يكن بعضها متصلاً اتصالاً مباشراً قويًّا بتلك البلاد التي حدث فيها الجفاف او الفيضان او الاستنباط او الفضيحة او الاقبال

فأسلاك الاقتصاد الدولي، الخفية تربط بين امم الارض ربطاً اوثق وأقوى من ربط حبال النحاس وامراس الكتان . وهي لشدة تأثيرها في اتجاهات السياسة العامة والخاصة تسيطر على الاحوال العامة وما يصحبها من اضطراب او استقرار ، من غلاء المعيشة او رخصها ، من فورة النزعات القومية الجامحة او سكونها ، من ميل الى الحرب والفتح ، او رغبة في السلام والوئام

فدراسة التجارة الدولية، دراسة انسانية علاوة على كونها دراسة عملية مادية يحتاج اليها التاجر والمموّل وموظف البنك وتلميذ التجارة العليا

ومن هنا في رأينا فائدة هذا الكتاب . انهُ يجمع بين دفتيه اهم ما تريد ان تعرفهُ عن تاريخ التجارة الدولية وقواعد الربح منها وميزانها الحسابي وتوازنها والصرف الدولي «الكامبيو» وقواعده والعوامل التي تؤثر فيهِ وتسوية ديون الحكومات الخارجية وتدخّل الحكومة في الصناعة والتجارة وحجج اصحاب حرية التجارة وحجج انصار حمايتها

كل ذلك وغيره مما يتصل بهِ تراه مفصلاً احسن تفصيل في ابواب هذا الكتاب . ولكنك في الوقت نفسهِ لا تستطيع ان تطالع هذه الفصول الاّ وتخرج منها وقد قويت فيك النزعة الانسانية ولبُّها ان المصير الاقتصادي في امة من الامم لا يمكن ان يفصل عن المصير الاقتصادي في الامم جميعاً ، وأن نكبة تصاب بها امة لا بدّ ان يكون لها دويٌّ وأثر في سائر الامم ، وان التعاون القائم على اسس من التفاهم والتبادل هو الركن الصحيح للاقتصاد الدولي

والكتاب نفسهُ ينمّ على سعة اطلاع مؤلفهِ وحسن بيانهِ في موضوعات لا تزال في حاجة الى تذليل مصطلحاتها العربية . وفي كل صفحة من صفحاته تقريباً اسناد الى الثقات من كتب الاقتصاد ومجلاته الكبيرة . فاذا قرأه التاجر اصاب فيه فائدة عملية لأنهُ يبسط له معقدات العمليات التجارية والمالية الدولية واذا قرأه غير التاجر اصاب لوناً نفيساً من الوان الثقافة الانسانية العالية

مذكرات

بقلم الامير امين ارسلان صفحاته ١٣٨ — مطبوعة طبعاً متقناً في المطبعة التجارية في بونس ايرس

الامير امين ارسلان سياسي وكاتب ، تولى المناصب العالية في بروكسل وباريس وبونس ايرس فكان فيها مثال الغيرة على المصالح العمومية وسالت براعتهُ بالمقالات الاجتماعية والبحوث التاريخية فبلغ شأواً بعيداً في البلاغة والدقة . يلمّ بالموضوع الذي يتناوله من جميع نواحيه ، ويعدّهُ في الاستقصاء اطلاعه على الحوادث الشرقية في الثلاثين السنة الاخيرة اطلاعاً لم يتح الاّ لقليلين من الناطقين بالضاد لاتصاله الوثيق برجالات العرب والترك البارزين

وهو لبعده الآن عن التأثر بالعوامل السياسية المختلفة ينعم فيما يكتبه — خاصة — بثقة تُنزل كلامه منزلة التاريخ الذي يستطاع التعويل عليهِ

للامير امين مؤلفات عديدة باللغة الاسبانية كان لصدورها الدويّ القمي في الهيئات الادبية العالية في الارجنتين ، وله كذلك مؤلفات باللغة العربية اقبل عليها محبو المطالعة المفيدة اقبالاً يستحقهُ ما سطّر بين دفتيها . وبالرغم عن المهام التي تلتهم وقته فان سلسلة كتبه لم تنقطع ، وقد اصدر مؤخراً الجزء الاول من مذكراته وفيها وثائق سياسية هامة يرجع عهدها الى ايام كان قنصل الدولة العثمانية في عاصمة البلجيك سنة ١٨٩٨ . وهو يصف لك في هذا الكتاب كيفية قطع العلائق السياسية بين فرنسا وتركيا من جراء دين صيرفي ويكشف القناع عن السبب الذي دفع بملك بلجيكا الى رفض قبول سفير عثماني ، ويتناول ذكر خطة سياسية حربية بين اليابان وتركيا لسحق روسيا ، ويطلعك على مقدمات قتل قنصل روسيا في مناستير على اثر انتهاء الحرب الروسية اليابانية ، ويبين لك المصاعب التي اعترضت قنصلية تركيا في عاصمة البلاد الفضية

هذه الفصول الهامة التي كان الامير من ابطالها ،مكتوبة باسلوب سهل لا تعقيد فيهِ ولا ابهام تغلب على معظمها الصبغة الروائية بحيث لا تحمل المطالع — المحدود الثقافة — على الملل منها . والى جانب هذه الميزة — وهي ليست بالضئيلة — نجد اهميتها من الوجهة التاريخية وهي تلقي شعاعاً على حوادث كثيرة تبدو متناقضة في الكتب التي تبحث في الشؤون التركية — العربية الاخيرة

نحيي الامير على هذه الخدمة الادبية القيمة ، آملين ان يبرّ بوعده فينشر في القريب العاجل مذكراته عن « تركيا الفتاة » ولا نشك في انها ستفوق من حيث خطورة شأنها

عاصمة الارجنتين　　　　　　　　الياس قنصل

طرق التربية الحديثة

للاستاذ محمد حسين المخزنجي

تكرم صديقي الاستاذ المخزنجي فاهدى الي كتابه « طرق التربية الحديثة » فقرأتهُ من اوله الى آخره بما في ذلك مقدمته ومراجعه وهوامشه ذلك لان الكتاب يستحق ان يقرأه كل انسان يهتم بشئون التعليم والمدارس ، لا بل يجب على كل المثقفين الادباء والعلماء وارباب الفنون ان يقرأوه لانهُ في الواقع كتاب فذ في اللغة العربية لم يسبق ان وضع مثله بهذه الاستفاضة والتطويل في شرح طرق التربية الكثيرة التي تتبعها المدارس في الغرب . وقد عرض فيهِ الاستاذ النظم التي تتبع في خمسة انواع من المدارس ، وهي طريقة منتسوري ودالتون ودكرولي والمشروع وجيري ، عرضها جميعاً بشكل مستفيض وافٍ يكفي لاعطاء القارىء فكرة صحيحة عن جميع هذه الطرق ، لا بل تكفي لمن ليس له المام قط باحدى هذه الطرق ان يعرف مزايا الطريقة وعيوبها ويستطيع ان يرى لنفسه ايها تصلح لبلادنا

ولا اظنني مستطيعاً ان اوفي هذا الكتاب حقه من المدح والثناء لانهُ يتبين للقارىء لاول وهلة ان واضعه محيط بما يجري في دوائر التعليم احاطة شاملة ؛ يستطيع من يقرأهُ ان يرى ان الاستاذ اكبَّ على دراسة هذه الطرق دراسة وافية ، والواقع اني استطيع ان اقرر من معلوماتي الخاصة ان الاستاذ المخزنجي هو من اكثر شباننا موالاة للدرس والاطلاع ، وانهُ يقف كل اوقات فراغه على هذا الضرب من النشاط دون غيره

ولي نقد على الكتاب ، وهو ان طريقة المشروع فيه لم تنل حظها الواجب لها من الاستفاضة في الشرح والتفصيل ، وكان يجب ان تستغرق معظم فصول الكتاب لانها في رأينا خير الطرق في التربية ، وهي اولى بعنايته من سواها ، ولكنهُ على ما يظهر سئم الاطالة في الكتابة وكلَّ من البحث واراد ان يتعجل ظهور الكتاب وكان من نتيجة ذلك ان خسرنا كثيراً ولم يكسب هو شيئاً

قابلت الاستاذ بعد ان قرأت كتابه ، فقلت « ما هذا يا استاذ ؟ » فقال كفى اني اعرف ما تريد ان تقول ، واعرف موضع العتب ، واعرف اني اذنبت ، واني سأكفر عن هذا الذنب بوضع كتاب خاص لطريقة المشروع ، وسأفعل ان شاء الله » واني اظن انهُ سوف يفعل

واظنني لا اكون مغالياً اذا قلت ان اي مكتبة عربية تكون ناقصة نقصاً معيباً اذا لم يوجد فيها هذا الكتاب ، وارجو من وزارة المعارف ان تضعهُ في كلّ مكتبة تصل اليها يداها ، لانهُ لا يمكن الاستغناء عنهُ بحال من الاحوال

انا لا ازعم مطلقاً ان الكاتب اتى بشيء جديد في موضوع التربية والتعليم ، وانا موقن ان الاستاذ نفسه لن يزعم هذا الزعم ، ولكن هذا الكتاب شيء جديد في اللغة العربية ، جديد على الذين لم يطلعوا على هذه الابحاث في اللغات الاجنبية ، والحق اني معجب بهذا الكتاب ، واني قرأته مرة وسأقرأه مرة اخرى

يعقوب فام

احسن ما كتبت — هدية مجلة الهلال

اجاد محرر هذا الكتاب في وصف المصاعب التي يلقاها من يحاول ان يؤلف مجموعة من هذا النوع قال : —وقد يبدو وضع هذا الكتاب من أسهل الامور وأقرب الاعمال . والواقع ان العناية التي بذلت فيه فاقت كثيراً من المجهود الذي يبذل في غيره . ذلك لان الموضوع دقيق ، يدعو الى الحيرة. وهذه الحيرة هي التي اعترتنا واعترت بعض الادباء الذين اقترحنا عليهم ان يمدونا بأحسن ما كتبوا أو نظموا . فمنهم من عارضنا بقوله : إن افعل التفضيل هذا مستحيل بين الآثار القلمية للكاتب الواحد ، لانهُ يعتبر مقالاته ومؤلفاته كأولاده لايفضل احدهم الآخر . ومنهم من رأى ان احسن ما كتبه لم يكتبه بعد ، لانهُ لم يرض حتى الآن عما كتبه ، وليس لديه أحسن ولا حسن ... ومنهم من اعترض على كلمة «احسن» ورأى ان تغير بكلمة «اصدق» فهو يقترح علينا ان يكون الموضوع « اصدق ما كتبت » لان الكلام لا يكون حسناً الاَّ اذا كان صادراً عن شعور صادق . ومن بين هؤلاء جميعاً طائفة — على الكثرة — اجابتنا الى اختيار احسن ما كتبته في رأيها

ولكن هذه المصاعب لم تحل دون احتواء الكتاب على قطع شعرية ونثرية من ابلغ ما خطه اعلام كتابنا المعاصرين ، وان كان نصفها تقريباً مما اختارهُ المحرّر لا الكتّاب، تنتقل فيه من علم الى ادب الى اجتماع الى شعر عالٍ الى فلسفة وتاريخ فكأنك في روض مونق فيه كل ضرب من الاشجار والازهار تسترعيك الوانها الزاهية وروائحها العطرة ويشجيك تغريد الاطيار في افنانها . انهُ والحق يقال « انثولوجي » بديعة للادب العربي الحديث

مجلتي

طال ارتقاب الجمهور لمجلة الاستاذ الصاوي الموسومة باسم « مجلتي » ، فلما طلعت عليهم في اول دسمبر الماضي لم تخيّب ظنهم في ذوق صاحبها وحسن استعداده لخدمة الادب العربي والاجتماع المصري . فقد وعد في مقدمتهِ الموجزة ان يجعل القصص عمادة مجلته . وقد برَّ بوعده . ففي العدد الاول تلخيص بليغ لقصة شانتكلير بقلم الاستاذ انطون الجميل بك رئيس تحرير الاهرام . وفصل من رواية تمثيلية للكاتب المجيد توفيق الحكيم . وتلخيص قصة « الغيرة » للفنان المجيد ساشا جيتري بقلم صاحب المجلة . وترجمة موجزة للكاتب الايطالي بيرندللو وترجمة احدى اقاصيصه . وفي المجلة عدا القصص شؤون اجتماعية مثل حديث مع هدى هانم شعراوي وصورتها وبحث في هوميروس صاحب الالياذة ومقال في التعاون الاقتصادي الاجتماعي ورأي اللادي اللنبي في السعادة الزوجية

وفيها كذلك صور فنية متقنة الطبع . ولولا ان صفحات الاعلان فيها تتخلل صفحات المجلة لما رأينا عليها مأخذاً . ولكن بعض المجلات الغربية يفعل ذلك ، وقد لا يلام الصحافي المصري اذا التمس من باب الاعلان دخلاً يمكنه من تجويد عمله . فنهنيء الاستاذ الصاوي بـ « مجلتي » ونتمنى لها اطراد النجاح لتقوم بنصيبها في خدمة الادب والثقافة في هذه البلاد

باب الأخبار العلمية

جوائز نوبل السنوية وأصحابها

لم يمنح من جوائز نوبل هذه السنة الأ اربع جوائز ولجنة نوبل الحق في ان تمتنع عن منح اية جائزة من الجوائز اذا رأت بعد البحث ان ليس هناك بحث او كشف او تأليف في السنة السابقة يبلغ الدرجة الممتازة المطلوبة . اما الجوائز التي منحت هذه السنة (١٩٣٤) فقد اصاب الاميركيون اثنتين منها والانكليز واحدة والايطاليون واحدة

فالاميركيون فازوا بجائزة الكيمياء نالها الاستاذ يوري استاذ الكيمياء الطبيعية بجامعة كولمبيا جزاء على كشفه الايدروجين الثقيل وهو ايدروجين خواصه الكيمائية شبيهة بخواص الايدروجين المألوف ولكن وزن ذرته مضاعف وزن الذرة في الايدروجين العادي . وفازوا كذلك بجائزة الطب والفسيولوجيا نالها ثلاثة اطباء هم الدكاترة مينو ومرفي وهويبل لكشفهم عن علاج الانيميا الخبيثة بالكبد وخلاصتها

وقد فاز الانكليز بجائزة السلام (سنة ١٩٣٤) منحت للمستر هندرسن وزير خارجية بريطانيا سابقاً ورئيس مؤتمر نزع السلاح ومساعيه في سبيل السلام وخفض السلاح شهيرة وقريبة العهد فلا داعي الى ذكرها . وللسر نورمن انجل (سنة ١٩٣٣) وهذا ليس اسمه الحقيقي بل اسمه الحقيقي هو رالف لاين وقد كان زميلاً للمرحوم سليم بك مكاريوس في تحرير جريدة الديلي ميل . واشهر ما اشتهر بل قبل الحرب كتابه « الوهم الكبير » الذي اثبت فيه ان الحرب خسارة على الغالب والمغلوب معاً . وهو امر نراه الآن لا يحتاج الى اي دليل ولكن احداً لم يسلم به سنة ١٩١١ لما اصدر السر نورمن كتابه . ومن اشهر كتبه بعد الحرب « ثمار الظفر » بيّن فيه كيف تحققت النظريات التي بسطها في « الوهم الكبير »

اما « لويجي براندللو » الفائز بجائزة نوبل الادبية فمن اكبر كتّاب المسرحيات في هذا العصر وله في كتابته نزعة فلسفية بارعة وتهكم لاذع وروّاد السينما في مصر لا ينسون روايته « كما تريدني » التي مثلتها للستارة الفضية الممثلة الشهيرة جريتا جاربو

تبديد الضباب برذاذ كيماوي

لا يزال الضباب من اعظم الحوائل التي تحول دون سلامة الطيران وبوجه خاص اذا كان ملبداً فوق المطار الذي تحاول الطائرات ان تنزل فيه

وقد حاول المخترعون ان يتغلبوا عليه من هذه الناحية باستنباط آلات تمكن الطيار من الهبوط الى ارض المطار التي كان الضباب يحجبها عنه .

وحاول الطبيعيون الكيماويون تبديده بوسائل كهربائية او كيمائية . وأحدث محاولة من هذا القبيل قام بها طائفة من علماء معهد ماستشوستس الصناعي في اميركا . فقد اعد الاستاذ هوتون رذاذاً كيماوياً اذا رشه في بقعة تلبد فيها الضباب تكثف البخار المائي الذي في الهواء فيسقط مطراً على الارض وينجلي الجو

الضوء الازرق وميل النبات

ظاهرة انحناء النبات او ميله او اتجاه ازهاره وأوراقه الى ضوء الشمس ظاهرة معروفة ولكن الامر الذي كنا نجهله في هذه الظاهرة هو ان الالوان التي يتألف منها ضوء الشمس لا تؤثر نفس التأثير في اجتذاب النبات الى ناحيتها بل ان لوناً ما قد لا يجذبها على الاطلاق

وقد عني العالم ارل جونستون من علماء المعهد السمتصوني الاميركي بدرس هذه الناحية الفتانة من حياة النبات فحلّ ضوء الشمس الى اشعة الالوان المختلفة التي يتركب منها فأدرك بالامتحان تأثير كل طائفة منها في ميل النبات وانحنائه فوجد ان اقواها تأثيراً من هذا القبيل طائفة من الامواج تقع في منطقة اللون الازرق . وان هذا التأثير يضعف بالاتجاه من الازرق الى الاحمر ويعود فيقوى قليلاً عند اشعة اللون الاخضر المزرق ثم يضعف ضعفاً مطرداً بعد ذلك في اتجاهه الى الاحمر حتى يبلغهُ . والنباتات التي جرب بها تجاربه لا تميل ولا تتجه نحو اللون الاحمر قط

الاستدلال بالنبات
على ثروة الارض المعدنية

كان معدنو اليونان القدماء يباهون بأنهم يستطيعون ان يعرفوا المعادن التي تنطوي عليها الأرض من مراقبة النبات النامي على سطحها فكان معاصروهم يهزأون منهم أو على الاقل يضربون بكلامهم عرض الحائط ! فاذا عمدوا الى التنقيب وعثروا على المعادن التي قالوا بوجودها استناداً الى النبات النامي على سطح الارض قال المرتابون أنهم نقبوا في تلك الارض قبلاً فعرفوا ما فيها ثم حاولوا ان يقنعوا الناس بأنهم يعرفون السبيل الى سرها من مراقبة نباتها

ولكن احد علماء التعدين المحدثين يقول ان الادلة متوافرة الآن على ان المعدنين يستطيعون ان يعرفوا طائفة من المعادن المطمورة في الارض من النبات النامي على سطحها وبوجه خاص اذا كان ذلك النبات كثيف النمو في بقعة ما. وكانت النتيجة التي اسفرت عنها هذه المباحث الحديثة ان شرع علماء البلدان المختلفة يعنون عناية خاصة بدرس النباتات المختلفة وعلاقتها بالثروة المعدنية المطمورة في جوف الارض

خذ مثلاً على ذلك مقاطعتي الرور وسيليزيا العليا في المانيا وبعض مقاطعات البلجيك تجد في بقاع منها نباتاً يعرف باسم «خمل (قطيفة) كالامين» . وعند البحث ثبت ان كل بقعة يكثف فيها نمو هذا النبات تحتوي على ركاز الزنك (الخارصيني) وليس من النادر ان يوجد هذا الركاز على بضعة امتار تحت سطح الارض فقط

ويقول احد علماء التعدين انه طلب اليه

مرة ان يحدد نوع المعادن التي توجد في ارض يكثر فيها نمو اشجار الزان فقال «الحجر الجيري» وكان ما قال . وهو يستند في قوله هذا الى ان نوع المعادن المطمورة في الارض يعين نوع التربة ونوع التربة يؤثر في اصناف النبات التي تزكو فيها

قال انهُ كان مرة يجول في مقاطعة دربي في انكلترا فرأى اشجاراً من الفصيلة السماقية فقال لصحبه ان في هذه الارض رواسب غنية بالرصاص قال ذلك من دون ان ينكت الارض بعصاه او يتفرس في حجر من الحجارة التي يدوسها فعجبوا لقوله. وقد وقع له شيء من هذا القبيل في الولايات المتحدة الاميركية ويقول ان اغنى مناجم الرواسب الرصاصية في اميركا قائمة في منطقة تزكو فيها هذه الاشجار السماقية

وثمة شجر يدعى شجر القان او التامول (Birch) يدل على وجود رواسب حديدية في الارض التي ينمو فيها . واغنى مناجم الحديد توجد حيث تكون اشجار القان اشد ما تكون نموًّا

وحدث مرة ان معدناً كان يجول في اسبانيا فاسترعى نظره نوع من نبات المحمودة وكان يعلم ان هذا النبات يتأثر في نموه وزكوه بمعدن الفصفات فقال ان وجوده في تلك البقاع لا بدَّ ان يكون دليلاً على وجود رواسب فصفاتية هناك . فأفضى برأيه الى جماعة تحترم رأيه فاعدوا المعدات للتنقيب وما انقضت بضعة اسابيع على تنقيبهم حتى عثروا على مناجم غنية بالفصفات

والظاهر ان الرواسب الفضية توآتي نمو نبات يعرف باسم «اريغون» والعجيب في هذا ان المعدنين الاميركيين وجدوا انهُ حيث يزكو هذا النبات توجد رواسب فضية غنية

وعثر المعدنون في ولايتي مشيغن ووسكنسن على بجلات (شجيرات) من نبات معين لا نذكر اسمه العلمي لانه غير مشهور فاسترعت نظرهم فاستدعوا بعض النباتيين ليستطلعوا منهم طبائع هذا النبات وخصائص نموه . فقيل لهم انهم قد يجدون في التراب شيئاً من مركبات الكبريت . وعند التنقيب وجدوا رواسب كبريتور الرصاص المعروف باسم غلينا المستعمل في سقي الحديد وغيره من الاغراض الصناعية

آلة سينما عجيبة

صنع المهندس هينز روزنبرجر آلة سينمائية عجيبة يمكن استخدامها لتصوير المشاهد الدقيقة التي تشاهد بالمكرسكوب عند بحث المكروبات اوما هو من قبيلها من الكائنات المكرسكوبية

وزن هذه الآلة ٥٠٠ رطل وتستطيع ان تصور صوراً طول الصورة منها ٢٤ ملمتراً وعرضها ١٨ ملمتراً . وقد صنعت بها افلام علمية بديعة لانقسام الخلايا وعملية ابتلاع الخلايا الغريبة بواسطة لمهات الدم (اي الكريات التي عملها التهام الاجسام الغريبة التي تسطو على الجسم) وصوّر دورة الدم ونمو المكروبات في المزدرعات وغيرها من الظاهرات الطبيعية البيولوجية التي لا تتاح مشاهدتها الاَّ بالمكرسكوب وفي احوال ليست شائعة حتى ولو امكنت مشاهدتها لشوهدت منقطعة

وحبذا الحال لو اتصل اولو الامر عندنا

بمعهد ركفلر في اميركا وطلبوا نسخاً من بعض هذه الافلام لعرضها في المدارس حيث تدرس مبادىء الطبيعة والفسيولوجيا وعلوم الحياة فانها تقرب المبادىء الى الطلاب وتغريهم بالامعان في الدرس والبحث

تأثير الغدد

اتجه علم الطب في العهد الحديث الى دراسة الغدد الصم اي الغدد التي لا قنوات لها لمعرفة تأثيرها في احوال الجسم في الصحة والمرض وقد فاز الباحثون بمعرفة اسرار طائفة منها كالغدة الدرقية وغدد الكلى والغدة الحلوة (البنكرياس) والغدة النخمية. وكانت هذه المعرفة سبيلاً الى شفاء علل كثيرة ظن حتى الآن انها مستعصية لا تعنو لعلم الطبيب وعلاجه

ولكن هناك غدداً ظلت افعالها محاطة بستار كثيف من الجهل الى ان كشف الباحثون سبيلاً الى اماطة الستار عنها ومن هذه الغدد الغدة الصنوبرية والغدة الصعترية

فلنأخذ هذه الغدة الصعترية اولاً وهي غدة مكانها في صدر الانسان. لقد ثبت من البحث انها تؤثر في الجسم فتستعجل افعاله الحيوية والعقلية. فقد اخذ الدكتور رونتري الاميركي وصحبه طائفة من الجرذان واضافوا الى غذائها خلاصة الغدة الصعترية خمسة اجيال متعاقبة. ثم لاحظوا جرذان الجيل الخامس فاذا السرعة في نمو الجرذان نمواً جسميًّا وعقليًّا ستة اضعافها في الجيل الاول. فقد ظهرت الاسنان في جرذان الجيل الرابع في خلال اربع وعشرين ساعة تقابلها تسعة ايام او عشرة في الجيل الاول. وفتحت العينان ونبت الصوف في جرذان الجيل الخامس في اليوم الثاني والثالث بدلاً من اليوم الرابع عشر الى السابع عشر. وفطمت في اليومين الثاني والثالث بدلاً من اليوم السادس. وتقدمت سن البلوغ في ذكور الجيل الخامس الى الفترة الواقعة بين اليوم الرابع واليوم الثامن عشر بدلاً من الفترة الواقعة بين اليوم الخمسين واليوم التسعين. اما في الاناث فتقدمت سن البلوغ فيها من ٧٠ — ٩٠ يوماً الى ٢٠ — ٢٥ يوماً. وزادت قوة الاخصاب كذلك

وهذا اذ تصورنا ما يقابله في البشر كان كما يأتي: اذا اضفنا خلاصة الغدة الصعترية الى غذاء خمسة اجيال من فريق من الناس استطعنا ان نفطم طفل الجيل الخامس اذ يبلغ بضعة اسابيع من العمر ويمكن الطفل نفسه من المشي وعمره نصف سنة وان يبرع ويبرز في الالعاب في الخامسة وان يتخرج في المدارس الثانوية وهو في العاشرة

اما الغدة الصنوبرية فلها عكس فعل الصعترية اي انها تبطىء افعال النمو او انها بالقياس للغدة الصعترية كالفرملة بالقياس الى محرك السيارة

والبحث لا يزال في مستهله ولكنهُ على كل حال يفتح سبلاً جديدة الى دراسة الصلة بين نفسية الانسان وحالته الفسيولوجية. ويحضرنا في هذا الصدد ان العلامة مكلم الاميركي اثبت ان اضافة المغنيزيوم الى الغذاء يميل الى جعل الطباع «حلوة» وانهُ على الضد من ذلك يرى ان طباع «الخلقي» سببها نقص ملح هذا العنصر في الجسم

لودج والسنما العلمية

السر اوليفر لودج شيخ من شيوخ العلم وهو الآن في الثالثة والثمانين من عمره وكان في شبابه من رواد العلم الحديث . فقد كان من اوائل الباحثين في موضوع الاشعة اللاسلكية بحثاً عملياً وفي طليعة العلماء الذين رحبوا بفتوحات علم الطبيعة في عالم الذرة والالكترون وله مباحث طريفة في صلة الضباب الكهربائية ووقاية المباني الشاهقة من الصواعق. وهو من العلماء القليلين الذين لم ينبذوا الاثير بعد ما اثبت مذهب النسبية ان لا حاجة بالعلم اليه بل هو يقول ان الاثير لا غنى عنه لتفسير بعض الظاهرات الاساسية في الطبيعة والحياة والعقل . وعلاوة على كل ذلك يؤمن ببقاء الشخصية بعد الموت وبامكان مناجاة الارواح وقد وضع كتاباً ضخماً ضمنه وصف اتصاله بروح ابنه ريموند الذي قتل في الحرب الكبرى

***

هذا العالم الجليل لبى من ايام طلب شركة سينماتوغرافية انكليزية كبيرة تعنى الآن باخراج سلسلة من الافلام العلمية يتحدث فيها كل عالم من العلماء عن ذكرياته العلمية ثم يرسم صورة للعمران كما يتوقعه في آخر هذا القرن اي سنة ٢٠٠٠ ميلادية

وقد اشار السر اوليفر لودج في الفلم الخاص بهِ الى ايام الكهربائية الاولى وضعف الوسائل المستعملة لتوليد التيار الكهربائي ثم قال انهُ يتذكر اول مصباح كهربائي عرض على المهندسين الكهربائيين وقيل فيهِ حينئذٍ انهُ مصباح يصلح للقراءة ولا يحتاج الى عيدان الثقاب (الكبريت)! وقال انهُ يتذكر زيارة غراهام بل وعرضهُ للتلفون على سبيل التجربة في لندن ثم اشار الى مباحث العلامة هرتز في توليد الاشعة اللاسلكية والتقاطها

***

وبعد ذلك قال ان القرن الحاضر يحاول ان ينكر الاثير . ولكن الاثير في رأيه هو المركز الرئيسي لاشعاع الطاقة وقبل ان ينقضي هذا القرن وعلى الاكثر في مستهل القرن الحادي والعشرين يعترف العلماء بأن الاثير هو السبيل الوحيد للاتصال بين الذرات فيخرج علم الطبيعة من حالة الغموض المستولية عليهِ الآن وتعود للاثير مكانته العليا في نظام الكون من حيث هو المادة الوحيدة التي تربط اجزاء الكون بعضها ببعض ومن حيث هو اداة الحياة والعقل

وقد صرح السر اوليفر بعد انهاء الفلم لمكاتب الديلي اكسبرس ان اجسامنا الاثيرية — اي الاثير الذي يتخلل اجسامنا المادية — هي الاجسام التي تبقى بعد الموت وان مخاطبة هذه الاجسام لا بد ان تتقدم وانهُ لم يفز بعد بمثل هذه المخاطبة ولكن ايمانه بامكانها لم يضعف

استانبول كما كانت قبل محمد الفاتح

في رسالة العلم الاسبوعية ان الغازي مصطفى كمال قد قرر ان يعيد استانبول الى ما كانت عليهِ قبل سنة ١٤٥٣ م وهي السنة التي فتحها فيها السلطان محمد الفاتح . ولكي يعرف الغازي ما كانت عليهِ

استانبول في العصور الوسطى فعل كما يفعل روزفلت في بعض الشؤون الاقتصادية. اي انهُ دعا استاذ تاريخ فن المعمار في اكادمية الفنون الجميلة (مدرسة الفنون والصناعات) وطلب منهُ ان يعدَّ لهُ خارطة تكون مبنية على الصور والخارطات والوثائق المختلفة التي تبين كيف كانت استانبول قبل فتح الترك وان هذه الخارطة قد أعدت فعلاً

هذا المشروع يقتضي هدم طائفة من المباني الجديدة ثم يعاد انشاء الحدائق والميادين البديعة التي انشأها امبراطرة بيزنطية وترميم القصور والمعابد القديمة

السر سعيد شقير باشا

يعزُّ على المقتطف ان ينعى الى قرائهِ رجل الهمة والاقدام . رجل الادارة والادب . رجل المروءة والنجدة . العصاميّ الكبير السر سعيد شقير باشا . وافاه الأجل المحتوم في فجر يوم الاثنين ٢٤ دسمبر بعد مرضٍ قصير ، فكان لنعيهِ رنة حزنٍ واسى في الدوائر الوطنية والاجنبية على السواء . وتساوى في الحزن عليهِ رجال السياسة والادارة ، ورجال الصحافة والادب . فقد كان رحمهُ الله الى جانب اضطلاعهِ بالاعمال الادارية والمالية الكبيرة في حكومة السودان ، أديباً راسخ القدم واسع الرواية ومحدثاً قوي الحجة صائب الحكم سريع الخاطر حلو النوادر ، ولهُ في الكتابة والخطابة نثراً وشعراً جولات صادقات . وسوف نأتي على سيرتهِ في عدد المقتطف القادم لان فيها دروساً للشبان يجب اذاعتها ، ولان بين طرفيها تمتدُّ حقبة من أحفل الحقب في تاريخ الشرق الادنى بالحوادث الجسام، من سياسية وادارية وثقافية وقد كان الفقيد بدٌّ في غير طائفة يسيرة منها رحمهُ الله وعزَّى قلوب اهلهِ الكسيرة

العلم والسلاح

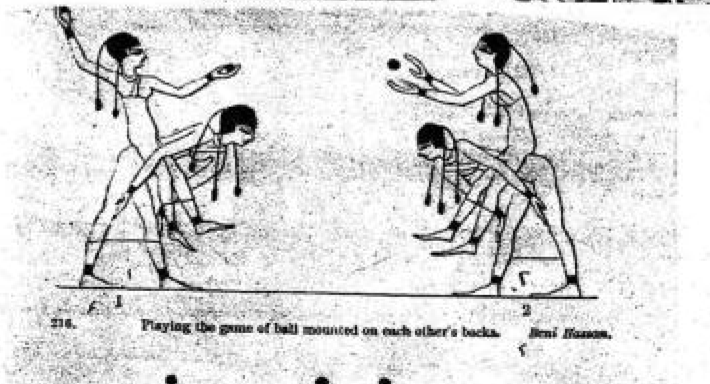
تابع الصفحة ٦٤

ويزعمون ان كل دولة من الدول العظمى تقوم بتجارب سرية في تسيير الطيارات والسفن بالراديو حتى اطلاق المدافع ايضاً. غير انهُ ما من امرىءٍ يعلم يقيناً ان احداها قد اخترعت جهازاً كهربائيًّا يقوم بأشد ما يفتقر اليهِ الجندي العصري من المزايا ، ونعني بهِ التجسس وتسقط أخبار العدو

اما الحرب البحرية القادمة فستكون اساليبها غير مختلفة عنها في الحرب الغابرة . على الضدّ من الحرب البرية .ولكن لا بدَّ ان تضطلع الطيارات باعباء كبيرة منها . ولم يبق الآن يثبت في القتال الحقيقي ان القنابل الجوية تستطيع اغراق مدرعة من المدرعات . وسيكون للغواصات نصيب كبير في الحرب المقبلة اذ يُناط بها تدمير السفن التجارية والاشتراك في القتال . غير ان السائد على الالباب حتى الآن هو ان المدرعات ما زالت دعامة القوة البحرية، وان كان الخطر الناجم عن الغواصات والألغام البحرية يحتم على الاساطيل المحاربة قضاء جل اوقاتها في الدفاع عن المواني الشديدة التحصن

القنص في الصحاري

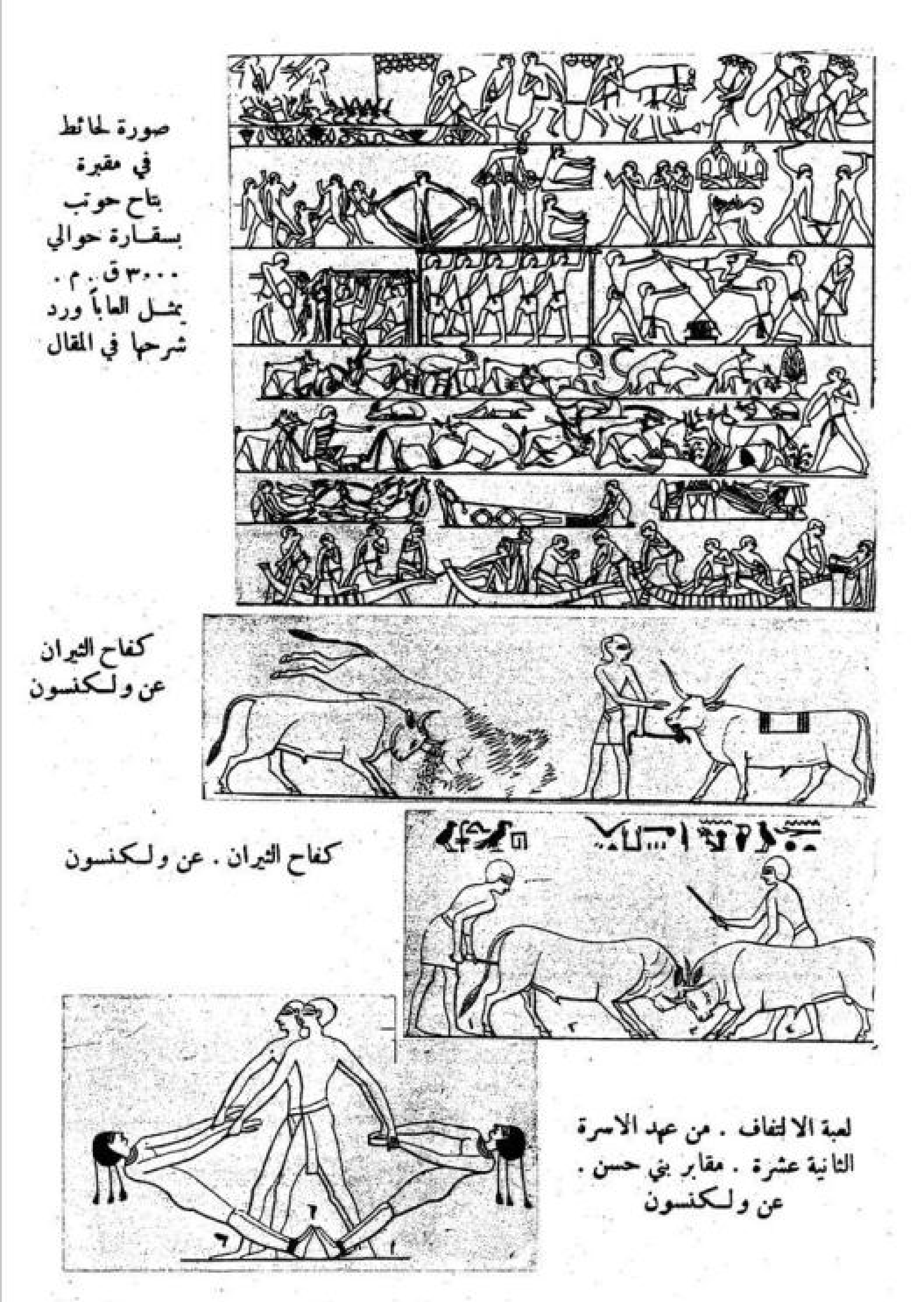
مقبرة (انتفوكر)
بالاقصر . من عهد
الاسرة الحادية عشرة
عن كتاب انتفوكر
لجمعية العاديات
المصرية



218. Playing the game of ball mounted on each other's backs. *Beni Hassan.*

لعبة الكرة
بأنواعها

وهي خمسة ورد
شرحها في المقال



صورة لحائط
في مقبرة
بتاح حوتب
بسقارة حوالي
٣٠٠٠ ق. م.
يمثل العاباً ورد
شرحها في المقال

كفاح الثيران
عن ولكنسون

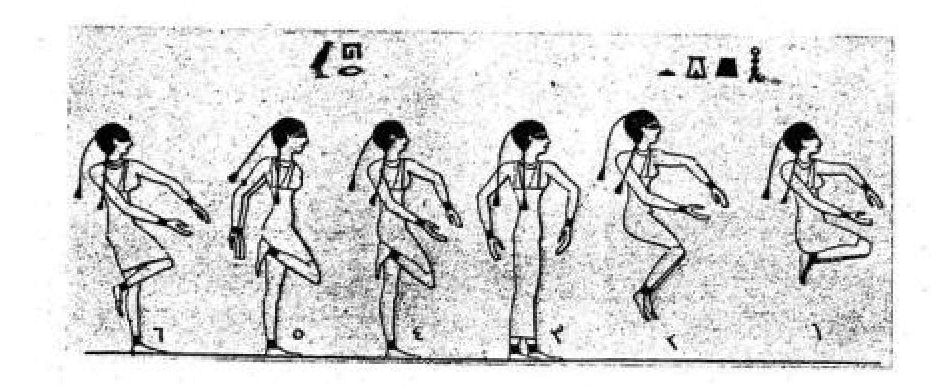
كفاح الثيران . عن ولكنسون

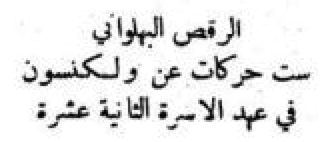
لعبة الالتفاف . من عهد الاسرة
الثانية عشرة . مقابر بني حسن .
عن ولكنسون

المصارعة
عن ولكنسون . راجع شرحها في مقال
الرياضة البدنية عند قدماء المصريين

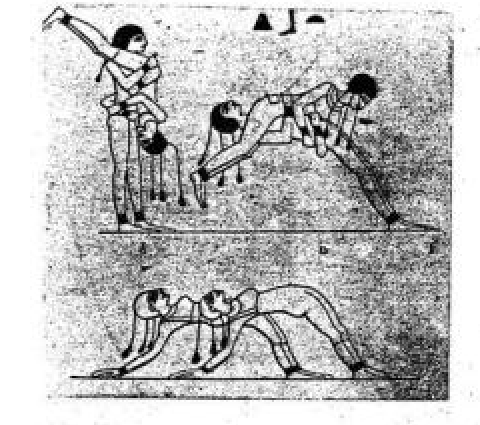


مسكة من مسكات المصارعة عند
قدماء المصريين من رسوم مقبرة باكت
ببني حسن . عن الاسرة الحادية عشرة

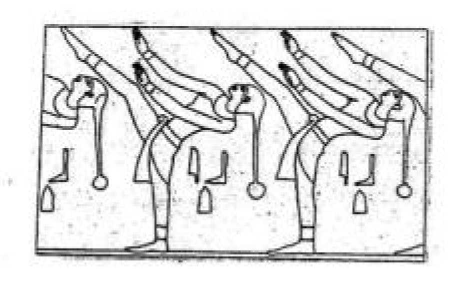


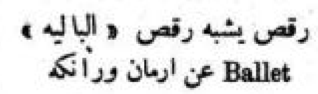


الرقص البهلواني
ست حركات عن ولكنسون
في عهد الاسرة الثانية عشرة



لعبة بهلوانية

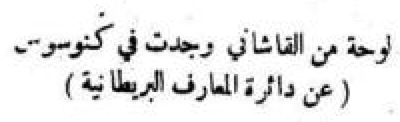




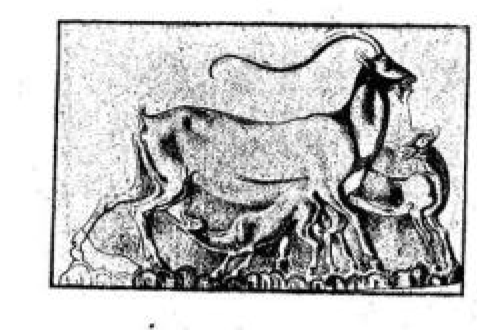
رقص يشبه رقص « الباليه »
Ballet عن ارمان ورانكه



تمثالان من القاشاني للربة ذات الثعبان وجدا
في كنوسوس
(عن دائرة المعارف البريطانية)



بعض آثار الفن الكريتي



لوحة من القاشاني وجدت في كنوسوس
(عن دائرة المعارف البريطانية)

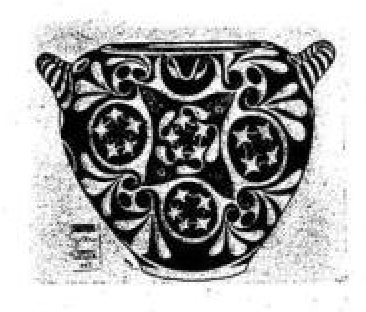


ثوب كريتي قديم للنساء
يشبه ملابس الاوربيات





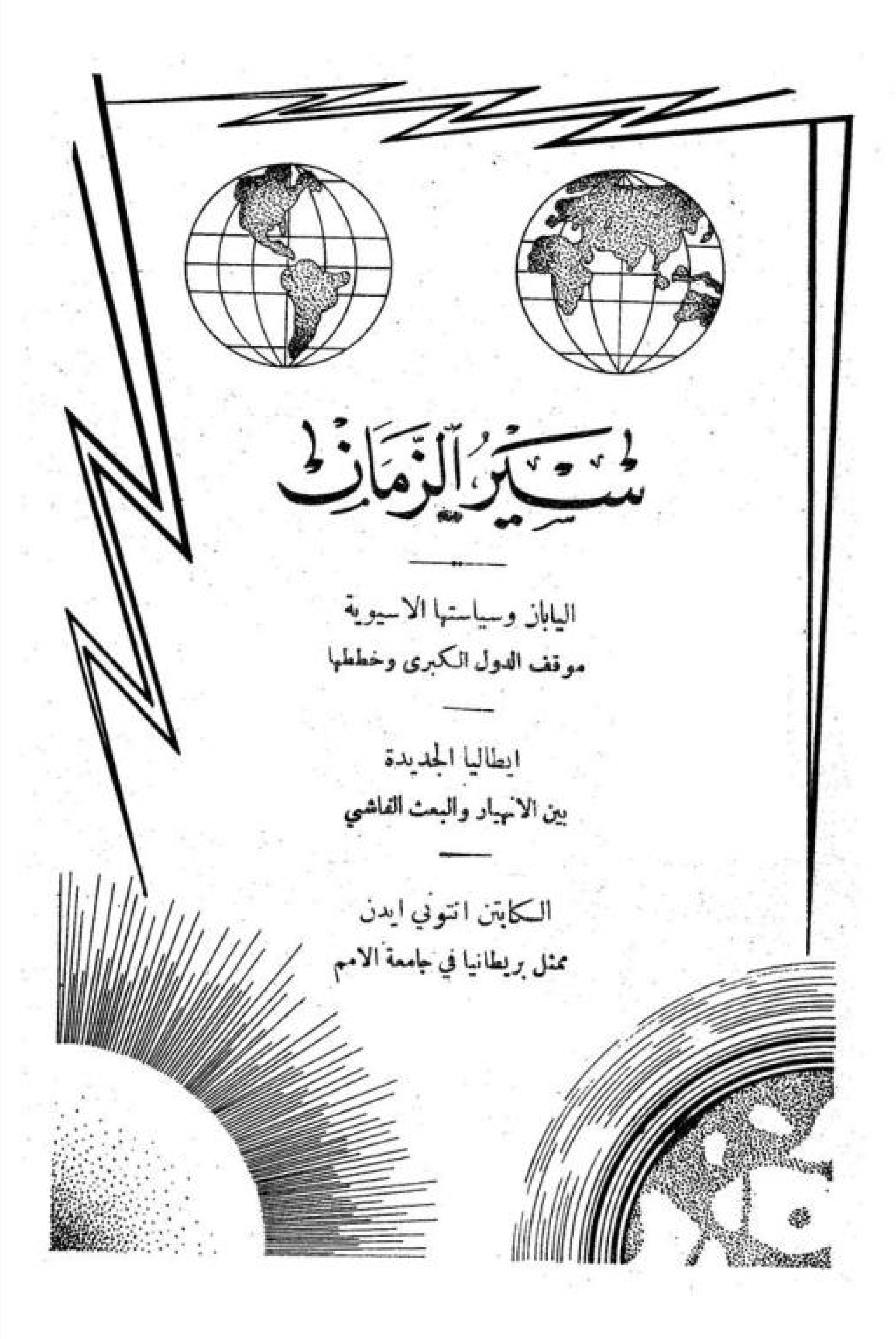
نموذجان من صناعة الخزف الكريتية



وعاء عثر عليه في
كنوسوس Cnossus
(عن دائرة المعارف البريطانية)



وعاء وجد في زكرو Zakro
في كريت
(عن دائرة المعارف البريطانية)


سير الزمان
اليابان وسياستها الاسيوية
موقف الدول الكبرى وخططها
ايطاليا الجديدة
بين الانهيار والبعث الفاشي
الكابتن انتوني ايدن
ممثل بريطانيا في جامعة الامم



صاحب السعادة امين باشا يحيى . احد كبار رجال المال والاعمال في مصر راجع « صورة قلبية » من صدر باب المراسلة

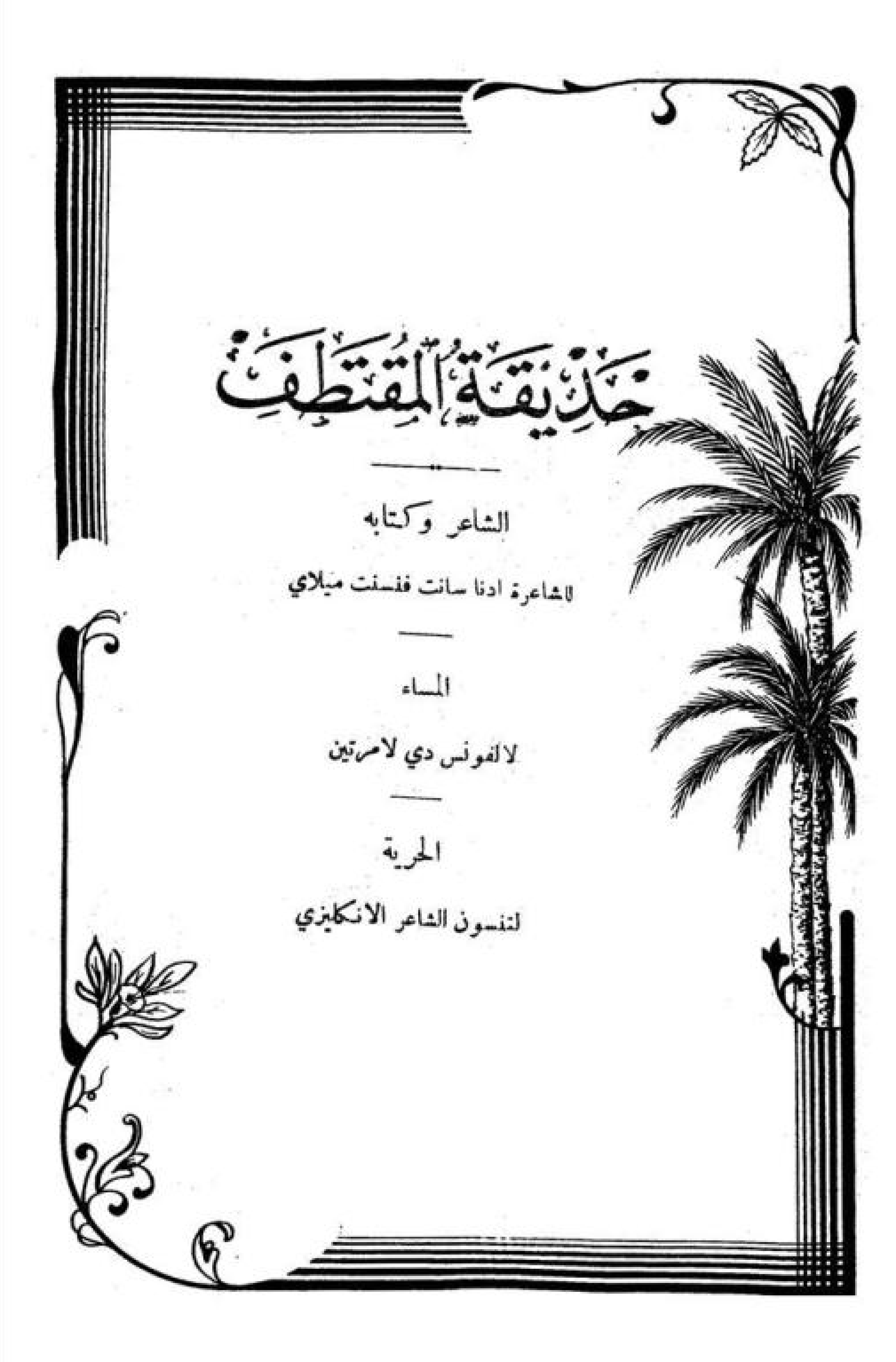
الكابتن كرسويل
صاحب مقالة تأسيس القاهرة في مقتطفي نوفمبر وديسمبر الماضيين




مملكة المرأة
انواع الحب
لحنا خباز
قصص الحياة — خاتمة سعيدة
الملاحظة والربط والتعبير
في تعليم الاطفال
لمحمد حسين المخزنجي



الحق أقول لكم ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الاولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات . . .
ومن أعثر احد هؤلاء الصغار المؤمنين بي فخير له ان يعلق في عنقه حجر الرحى ويغرق في لجة البحر (انجيل متى)



حديقة المقتطف

الشاعر وكتابه

للشاعرة ادنا سانت فنسنت ميلاي

المساء

لالفونس دي لامرتين

الحرية

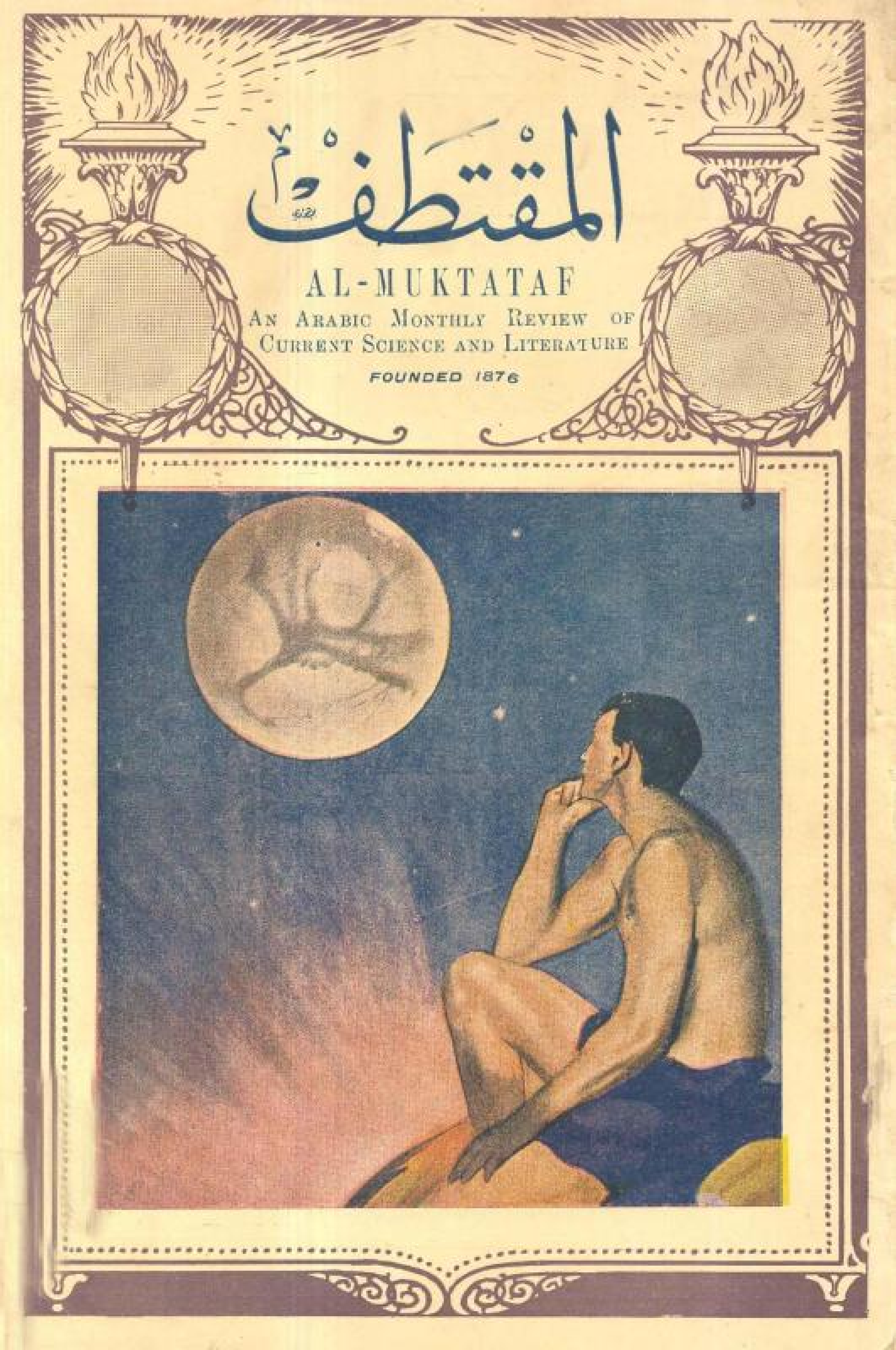
لتنسون الشاعر الانكليزي



التدرج (Pheasant) وهو طائر ارقش
وهذا الصنف منه يقطن شبه جزيرة ملايا وجزيرتي جاوى وبورنيو

الجزء الاول من المجلد السادس والثمانين

صفحة


المقتطف
AL-MUKTATAF
AN ARABIC MONTHLY REVIEW OF
CURRENT SCIENCE AND LITERATURE
FOUNDED 1876

المقتطف
مجلة علمية صناعية زراعية
الجزء الثاني من المجلد السادس والثمانين

١ فبراير سنة ١٩٣٥ — ٢٧ شوال سنة ١٣٥٣

ارتقاء علم الفلك

وتأثيره في التفكير الحديث

الصورة الكونية الجديدة ومقتضياتها الفلسفية

في معرض «قرن التقدم» الذي انشئ في مدينة شيكاغو في السنة الماضية اقترح الاستاذ فرست Frost مدير مرصد يركيس سابقاً، ان تضاء المصابيح الكهربائية في ساحات المعرض بواسطة شعاعة من نجم السماك الرامح. ولما كان سير الضوء من السماك الرامح الى الارض يستغرق نحو اربعين سنة، فالشعاعة التي اضيئت بها المصابيح في معرض سنة ١٩٣٤ تكون قد صدرت من ذلك الكوكب حوالي سنة ١٨٩٢ وهي سنة معرض شيكاغو السابق، فكانت بذلك صلة بين المعرضين استوقفت الانظار. ومما كان ادعى للعجب ان شعاعة من ضوء السيّار زحل، التقطت بواسطة تلسكوب في مدينة فلورنسا بايطاليا، ونقلت نقلاً لاسلكيًّا الى شيكاغو فاستعملت في اضاءة مصابيح المعرض عند الاحتفال بيوم ماركوني فيه وذلك في ٢ اكتوبر سنة ١٩٣٣. هاتان الحادثتان تدلاَّن دلالة واضحة على الصلة الوثيقة بين علمي الطبيعة والفلك

وعلماء اليوم يعترفون بوحدة العلم، مع انهم يقسمونهُ الى فروع تسهيلاً للبحث. وابلغ مثل على هذه الوحدة علما الفلك والطبيعة وعلم الرياضيات المتصل بهما جميعاً اتصالاً اساسيًّا. فايُّ عالم يستطيع اليوم ان يرسم خطًّا ويقول الى يمين هذا الخط ميدان علم الفلك والى يسارهِ ميدان علم الطبيعة؟ بل ان في الميدان المشترك بين العلمين تمَّت اعظم وجوه التقدم الحديث في كليهما

الصورة الكونية الجديدة

فلننظر في علم الفلك . من المتعذر ان تتتبع في مدى مقال واحد نشأة هذا العلم القديم وتطوّرهُ . ولكن قد يجدر بنا ان نبيّن الاتجاهات الجديدة في البحث الفلكي ونموّها واتساع نطاقها . فقد ظلّ علماء الفلك من اقدم العصور الى القرن الثامن عشر ، يوجّهون كلّ عنايتهم او جلّها الى النظام الشمسي . فكانت الارض اولاً في نظرهم مركز الكون . ثم حلّت الشمس محلّ الارض في المركز . وكذلك أُنفق جهد اولئك العلماء في دراسة حركات السيارات ومواقعها واقدارها وما يتصل بها من توابع . وكان من الطبيعي ان يهمل درس النجوم . فالقدماء شاهدوها نقطاً مضيئة في القبة الزرقاء ، ولاحظوا انها ثابتة في مواقعها ولكنهم عجزوا عن الوصول اليها ، لان ادوات البحث الفلكي كانت تعوزهم . فلما استنبط التلسكوب اتجه الفكر اولاً الى فائدة استخدامه في دراسة الاجرام القريبة منا ، والى انتفاء هذه الفائدة من دراسة الاجرام البعيدة المعروفة باسم النجوم الثوابت . عند هذا الحدّ ظهر في ميدان العلوم الفلكية العلامة وليم هرشل . فقد كان هرشل بارعاً كلّ البراعة في صقل العدسات وبناء التلسكوبات . وكانت تحدوهُ نزعة قوية الى سبر رحاب الفضاء ومعرفة مدى الكون ، فحوّل عناية علماء الفلك من دراسة السيارات الى دراسة النجوم

وقد اتسع نظرنا في العهد الحديث حتى امتدّ الى ما وراء الحدود التي بلغها هرشل . ولكن هذا القول لا يعني اننا حللنا جميع المعضلات والمسائل الفلكية التي واجهها في عصره . بل في الواقع ان كشف الآراء الجديدة واستنباط الوسائل الجديدة للبحث والاستقصاء ، ارتدّ بطائفة من الفلكيين من دراسة النجوم والسدم الى دراسة السيارات وما يدور حولها من مسائل كانت تهم علماء الفلك الاقدمين . ولا يسع أحداً ان ينكر ان الشمس لا تزال في نظر علماء اليوم ، ميداناً من أهمّ ميادين البحوث الفلكية على الاطلاق

ومع اننا لا نزال نجهل كثيراً عن أسرتنا الفلكية الخاصة — النظام الشمسي بشمسهِ وسياراتهِ ونجيماته وأقماره — ومع ان العامة لا تزال تهتم بتوجيه السؤال الى الفلكيين عن سكنى السيارات وخاصة عن سكنى المريخ ، نقول انهُ مع ذلك تمتدّ حدود علم الفلك الحديث ، الى ما وراء نظامنا الشمسي ، بل الى ما وراء المجموعة النجمية التي وجّه هرشل اليها الانظار ، وعكف على درسها هو ومن تلاهُ ، نعني المجرّة

فوراء هذه المجموعة النجمية قطع من الكون المادي تعرف باسم السدم . وقد كانت من قبل تعرف باسم «السدم البيض» تمييزاً لها عن بعض سدم داخلة في بناء المجرّة نفسها ، ولكن لون الضوء المنبعث منها ليس أبيض . وكان هرشل نفسهُ قد تبيّن بعض هذه السدم ، فدعاها باسم لا يزال يطلق عليها الى الآن — أي «الاكوان الجزرية» — لانهُ حسبها نظماً متفرقة من النجوم منثورة في

رحاب الفضاء كالجزائر في المحيط ، فكان في ذلك مصيباً . ولكنهُ حسبها اتباعاً لمجرتنا وفي هذا أخطأ ، او أن رأيهُ هذا يخالف على الاقل الرأي السائد الآن

ومما لا ريب فيهِ ان هذه الاكوان ، وعددها ألوف الالوف ، نظم مؤلفة من نجوم او هي سائرة في طريقها الى ان تكون كذلك . ودرس ضوئها بالمطياف (السبكترسكوب) يدلُّ على أنها شبيهة بمجرتنا ، فهي خليط من النجوم واللطخ السحابية (استعمال البستاني)

ونحن مدينون بجلّ ما نعرفهُ عن هذه السدم الخارجة عن نطاق مجرتنا للتصوير الشمسي . فهي بعيدة عنا بعداً شاسعاً والضوء الواصل الينا من معظمها ضئيل لا يمكن تبيّنهُ الاّ بواسطة لوح التصوير الشمسي بعد تعريضهِ لضوئها مدة طويلة . ولذلك لم يستطع العلماء المحدثون ان يدرسوا درساً تفصيليًّا الاّ ما كان قريباً منها . ولكننا نستطيع على كل حال ان نرتبها بحسب أشكالها ترتيباً متدرجاً يدل على اتجاه تطوّرها . فمنها كتل غازية كروية الشكل ، ومنها ما هو مسطّح بعض التسطيح ، ومنها ما هو شبيه بحبوب العدس . وهذا التدرّج في التسطيح يشبهُ الادوار التي تمرُّ فيها كتلة كروية من الغاز كلما زادت سرعة دورانها على محورها . ولكن أغرب هذه السدم شكلاً هي السدم التي انطلقت من كل منها ذراعان في جهتين متقابلتين من النواة المركزية ، فأصبحت لولبية الشكل . وفي بعض السدم التي بلغت أقصى مراتب التطور تلاحظ كتل نجمية منفصل بعضها عن بعض شبيهة بعناقيد Clusters النجوم التي تشاهد في مجرتنا . وفي طائفة يسيرة منها ، تشاهد نقط فردة من الضوء هي في الراجح نجوم مستقلة ، مما يدل على ان تلك السدم التي ظهرت فيها هذه النجوم قد بلغت من مراتب التطور ما بلغتهُ مجرتنا

وقد كان الظنُّ في البدء متجهاً الى حسبان السدم الخارجة عن نطاق مجرتنا ، أصغر حجماً من مجرتنا ، أو هي على الاكثر تماثلها حجماً ، وان كتلة كل سديم منها يبلغ على وجه التقريب الكتلة اللازمة لبناء ألفي مليون او ثلاثة آلاف مليون نجم . ولكن البحوث الحديثة اثبتت انهذا الرأي في حاجة الى التنقيح وان تلك السدم اكبر جدًّا مما كان يُظَنّ

***

هنا يخطر للباحث سؤال وجيه : هل مجرتنا سديم لولبي ؟ كان الفلكي إيستُن Easton اول من ذهب هذا المذهب . وجارتهُ ثلّة العلماء في ذلك . ولكننا في الواقع لا نستطيع ان نتثبت من ذلك لاننا لانستطيع انتشاهد المجرة الاّ من نقطة في داخلها قريبة قرباً نسبيًّا من مركزها . وقد بيّن اورت Oort وغيره من البحاث ان هذا السديم يدور حول مركز واقع في ناحية « الرامي » دوراناً شبيهاً بدوران السيارات حول الشمس ، وان اجزاء السديم القريبة من المركز أسرع دوراناً من الاجزاء البعيدة عنهُ ، وان الاجزاء التي تبعد عن المركز بُعدَ شمسنا لا تتم دورتها الاّ في نحو ٢٠٠ مليون سنة

فلنلتفت الآن الى ما يعرف عن ابعاد هذه السدم . فقد اشرنا في ما تقدم الى ظهور نجوم

فردةٍ في صور بعض السدم اللولبية . ومن هـذه النجوم ما يشرق اشراقاً عظيماً في اوقات دورية نظيمة . وهذا يذكرنا طبعاً باشراق المنائر المشيدة على الشواطىء الصخرية ، اشراقاً دورياً كل بضع دقائق ثوانٍ لهدي السفن . ونحن نعلم ان في مجرتنا نجوماً تشرق هذا الاشراق الدوري المتقطع . وهي تعرف بالنجوم القيفاوية Cepheids [1] . والذي يهمنا في هذا الشبه ، ان العلماء قد تبينوا علاقة وطيدة مطردة بين الفترة المنقضية بين اشراق واشراق ، ولمعان النجم الحقيقي . فكلما زادت الفترة بين اشراق واشراق ، دلَّ ذلك على زيادة لمعان النجم . فاذا صحَّ لنا ان نفرض وجود هذه العلاقة في النجوم المتغيرة في السدم الخارجية تمكنا بالمقابلة بين لمعان النجم الحقيقي ولمعانه البادي لنا ، من معرفة بُعد النجم . ثم ان علماء الفلك يستعينون بالنجوم الجديدة على تحديد بُعد السدم التي تظهر فيها . فاذا حدَّدوا بُعد بعض السدم استطاعوا ان يحدّدوا بعد الباقي ، لأن النظرية السائدة الآن هي ان هذه السدم متماثلة حجماً ، فالفرق في احجامها البادية لنا سببهُ اختلاف بُعدها عنا . ويؤخذ من البحوث الحديثة القائمة على هذه الاسس ان اقرب السدم الخارجية الينا ، سديم المرأة المسلسلة Andromeda وسديم المثلث Triangle ، وكل منها يبعد عن مجرتنا نحو مليون سنة ضوئية (السنة الضوئية هي المسافة التي يجتازها الضوء في خلال سنة سائراً بسرعة ١٨٦ الف ميل في الثانية) . وابعد ما عرف من هذه السدم حتى الآن يبعد ١٥٠ مليون سنة ضوئية . اي ١٥٠ ضعف بعد سديم المرأة المسلسلة عنا . والمتوقع انهُ متى تمَّ صنع التلسكوب الجديد الذي قطر مرآته ٢٠٠ بوصة (قطر مرآة اكبر تلسكوب بني حتى الآن ١٠٠ بوصة وهو في مرصد جبل ولسن بكاليفورنيا) تمكن الباحثون من الكشف عن سدم تبعد عنا نحو ٣٠٠ مليون سنة ضوئية

***

يجدر بنا الآن ان نلتفت الى ناحية تبعث على الدهشة في طبيعة البناء الكوني . ذلك ان العلماء المحدثين وجدوا ان السدم الخارجة عن نطاق مجرتنا آخذة في الابتعاد عنا ، وفي الابتعاد بعضها عن بعض كذلك بسرعات عظيمة . وان أبعدها عنا اسرعها ابتعاداً . أما الحقيقة المشاهدة التي بني عليها هذا الرأي ، فهي حيود الخطوط في طيوف هذه السدم نحو اللون الاحمر . وهذا الحيود يشبَّهُ بصفير قطارٍ آخذٍ في الابتعاد عنا ونحن وقوف في المحطة . فأمواج صفيره ، وهو آخذ في الابتعاد تميل الى الطول . كذلك حيود الخطوط في الطيف نحو الاحمر يدلُّ على أن امواج الضوء الواصلة الينا من هذه السدم يميل الى الطول لان أمواج اللون الاحمر أطول من امواج الالوان التي قبله في الطيف اي البرتقالي فالاصفر فالاخضر فالازرق فالنيلي فالبنفسجي . ولكن سرعة ابتعاد هذه السدم ، التي بنيت على هذه الحقيقة المشاهدة — حقيقة حيود الخطوط الطيفية نحو الأحمر — عظيمة جداً

(١) دعيت كذلك لانها شبيهة بالنجم المعروف باسم « ذات قيفاو » وهو اشهر هذا الطراز من النجوم

وتبلغ الوف الاميال في الثانية . وهـذا يعني ان الكون آخذ في التمدُّد والاتساع بسرعة عظيمة . فاذا مضى على ذلك نحو ١٣٠٠ مليون سنة تضاعف قطره

لا يهمنا هنا ان ننظر في أقوال مؤيدي هـذا الرأي واقوال معارضيهِ . فالكون في نظرية اينشتين الاصلية متصف بالاستقرار وبالتحدُّب فهو كالكرة غير محدودٍ ولكن لهُ نهاية ، فتحدب الكون يمكن تشبيههُ بتحدب فقاعة من الصابون

ولكن ثمة من العلماء من لا يسلّم بأن التحدُّب صفة الكون ، وان ما نعرفهُ الآن لا يسوّغ لنا ان نحكم حكماً فاصلاً في الموضوع . فقد يكون الكون اقليدسيًّا بعد كل ما قيل . وفي طليعة هؤلاء العلماء الاستاذ ملن Milne الانكليزي وقد بنى على هذا الرأي نظرية جديدة . ولكن يظهر ان تفرّق السدم أمر لاشكّ فيهِ وقد أثبت الاب لمِتر ان كوناً مبنيًّا بحسب قواعد النظرية النسبية ، يقتضي هـذا التفرّق . وعليهِ فالكون سائر الآن في سبيل التشتت من حالتهِ الاولى اذ كان حافلاً بالمادة الكثيفة الى حالة جديدة تلطف فيها المادة المالئة الفضاء بتشتتها حتى يصبح كأنه والفراغ سواء . وهذا ما بيّنهُ العالم ده ستر الهولندي قبل وفاتهِ من عهدٍ قريب

فلننظر الآن في بعض الآراء الجديدة التي تقوم عليها نظرتنا الكونية الحديثة . ففي منتصف القرن الماضي أخرجت نظرية التطوّر وتأيدت اجمالاً بالبحث تأييداً قاطعاً للريب في صحتها ، وقد أصابها بعض التعديل ككل نظرية جديدة ، وكان معظم هـذا التعديل في ميدان الفلك . فنظرية لابلاس السديمية لم تثبت على البحث مع ان السر جيمز جينز قد بيّن ان النظرية السديمية هذه قد تصدق على تطوّر السدم الخارجية في بعض مراتبهِ . ولكن ثمة وجوهٌ اخرى في التطوّر الكوني ، نالها التغيير . فالتطوُّر بحسب قول الفيلسوف سبنسر هو التحوُّل من البسيط الى المركب ، ومن المتماثل غير المستقرّ الى المختلف المستقرّ

ولكن هذا لا يتفق على ما يظهر اتفاقاً دقيقاً مع الحقائق المعروفة اليوم . فلا يمكن ان يقال ان التطور الكوني سائر في اتجاه واحد ، كسير قافلة السيارات في شارع وحيد الاتجاه ، لان كثيراً من الافعال الكونية له وجهان . فالشموس تبنى من المادة الغازية المشتتة التي تتألف منها السدم . والعناصر الثقيلة تبنى في الراجح من ذرات أبسط العناصر نعني الايدروجين . ولكن يقابل ذلك انحلال العناصر المشعة الثقيلة الى ذرات عنصر أبسط منها . وثمة كذلك انطلاق مقادير عظيمة من الطاقة من الشموس لا بدَّ ان يكون لهُ أثر في تغيير بناء الكون كما نعرفهُ

خذ مثلاً على ذلك شمسنا . فقد انقضت عليها عصور متطاولة وهي تسكب الحرارة والضوء في الفضاء . ونصيب الارض منهما لا يزيد على جزءٍ من الف مليون جزءٍ من مقدارهما الاصلي . فكيف نعلل مقدرتها على المضي في هذا العمل مدى هذه العصور الطويلة ، وكيف تستطيع ان تمضي فيهِ في العصور المقبلة . قد يكون بعض الطاقة في الكون ناشئاً من بناء ذرات العناصر الثقيلة من

ذرات الايدروجين . وبعضها من انحلال العناصر المشعة الثقيلة الى عناصر أبسط منها . وبعضها ناشىء من تقلُّص أقطار الشموس على أثر انطلاق مقادير كبيرة من طاقتها . ولكنَّ السر جيمز جينز يذهب الى ان معظم الطاقة المنطلقة ناشىء من فناء المادة بتحوّلها الى إشعاع . والمعروف ان شمسنا تفقد ٤ ملايين طن من كتلتها كلَّ ثانية بالاشعاع . علّل هذا الفعل كما تشاء فلا يسعك الاَّ أن تقول بأن الشمس لا تستطيع ان تمضي في هذا الى الابد

***

وهذا يفضي بنا الى الناموس الثاني في علم الحركة الحرارية (الثرموديناميكسْ) ومؤدّى هذا الناموس ان كل عمل (بالمعنى الطبيعي) يقتضي انفاق قدر من الطاقة فتعود هذه الطاقة غير صالحة لاحداث عملٍ جديد . او بكلمة اخرى ان مقدار الطاقة في الكون لا يتغيّر ولكن الطاقة الصالحة للعمل تتحوَّل الى طاقة غير صالحة للعمل . فحين يتحول آخر قدر من الطاقة الصالحة للعمل الى طاقة غير صالحة لهُ تحين نهاية الكون

واذن فنحن لا نعدو الحقيقة اذا شبّهنا اتجاه التطوُّر الكوني بسير قافلة السيارات في شارع وحيد الاتجاه . ولكن الاتجاه في التطور الكوني هو عكس ما كنا نعتقد . اما فكرة سير الكون الى نهايةٍ تعجز فيها طاقتهُ على احداث الافعال الكونية فليست جديدة . ففي كتاب وضعهُ الدكتور فيسُنْ سنة ١٨٩٩ ودعاهُ « التقدم الحديث في علم الفلك » قال في فصل « حياة النجم » : «واذ تتوالى العصور يضعف ما في الكون من الطاقة الفعَّالة . فاذا تملّينا ما يقوله العلم الطبيعي في افعال الطبيعة لم نجد مندحة عن تصوّر الكون في نهايتهِ مجموعة من المادة الهامدة تذكاراً لعوالم الشموس »

نعم ان نهاية الكون على هذا الوجه لا يتوقعها العلماء قبل انقضاء الوف الملايين من السنين . ولكنها مع ذلك ليست مما يستسيغهُ طائفة من العلماء والفلاسفة . لذلك نرى ملكن يذهب الى ان الاشعة الكونية تدلُّ على تولّد العناصر الثقيلة في رحاب الفضاء من ذرّات العناصر الخفيفة وخاصة الايدروجين وان الايدروجين يتولد من الطاقة ، فالكون في نظره يبتدىء حيث ينتهي او يولد ولادة جديدة . ولكن هذا الرأي لم يفز بتأييد علماء الطبيعة حتى الآن

والقى الدكتور طولمن Tolman خطبــة امام الجمعيتين الرياضية والطبيعية باميركا في دسمبر سنة ١٩٣٢ ذهب فيها الى ان علم الثرموديناميكس من الناحية النسبية يبيح لنا ان نتصور الكون يتمدّد ثم يتقلّص في ادوار طويلة متعاقبة وانهُ في تمدّده تضعف طاقتهُ ، وفي تقلّصهِ تعود فتقوى . ولكن الدكتور طولمن حذّر سامعيه من خطاء التسليم بهذا الرأي النظري على انهُ وصف للواقع

بعض مقتضياتها الفلسفية

نقف الآن عن المضي في وصف المكتشفات الفلكية الحـديثة ، لنحاول تبيان تأثير المعارف الفلكية الجديدة في التفكير الحديث . وقد يتردّد الكاتب في الاقدام على هذا العمل . ولكن

التقارب بين العلم والفلسفة من اظهر الميزات التي يتصف بها العهد الحديث . فقد كان من المحتوم ان ينفصل العلم عن الفلسفة في البدء . ولولا انفصاله لما اتيح لهُ ان يسير في معارج الرقي . لان خضوع الفلسفة لاقوال الائمة يضيق الخناق على العلم . وكان لا بدَّ للعلم من التجربة والامتحان رائدين له في طريقهِ الجديدة . لذلك نحن نجلُّ اولئك الروَّاد من العلماء الذين اقدموا اولاً على تنكّب السبيل المطروق فاوذي بعضهم وعذّب ، ولكنهم تعاقبوا ابطالاً في الكفاح فاحرزوا حق تحرر العلم من قيودهِ . ومع اننا نعترف ببعض نقائص الفلسفة في العصور المتوسطة يجب ان نعترف كذلك بأن رجالها وضعوا قواعد التفكير السليم واصولهُ . فالمنطق والترتيب المنطيقي دم العلم وعصبهُ . واذا كان فلاسفة العصور المتوسطة قد حالوا دون تقدم العلوم ، فانهم ولا ريب ابدعوا الشرائط الفكرية التي جعلت ذلك التقدم مستطاعاً . وها نحن أولاء ، نرى العلم يقترب من الفلسفة في عهدنا . وغدت الفلسفة تؤاخي العلم . ففلاسفتنا علماء ، وبعض علمائنا فلاسفة . وعلى عناق العلم بالفلسفة يعلّق أملنا في الوصول الى الحقيقة

فلننظر الآن في ناحية أو ناحيتين من نواحي التفكير الحديث ، محاولين ان نتبين تأثير المكتشفات الفلكية والطبيعية الحديث فيها

كانت عقيدة العلماء حتى أواخر القرن الماضي ، متسمة بسمة « المادية » . فالمادة كانت مؤلفة من دقائق صغيرة صلبة ، قائمة في كونٍ جميع صلاتهِ وقواه مطلقة تسيطر عليها نواميس طبيعية لا تحيد يمنة ولا يسرةً . ولكن نظريتي « النسبية » و « المقدار » (الكونتم) قد عدّلتا معتقداتنا تعديلاً أساسيًّا . حتى الاثير الذي كان في نظر علماء القرن الماضي ، متخللاً جميع الاجسام والرحاب ، قد أصبح صورة ذهنية مجرّدة او هو ليس شيئاً على الاطلاق . وعادت ذرات ديمقريطس ودلتن الصلبة ، كتلاً او مجموعات من الشحنات الكهربائية ، وغدت هذه الشحنات لا تعدو كونها تشويهات أو تجعدات في « الفضاء — الزمن » . ثم ان مقاييس الطول والزمن التي كنّا نحسبها مطلقة لا تتغير أمست تختلف باختلاف المشاهد وحركتهِ . فالمادية بمعناها القديم قد انهارت ، ولا رجعى لها كفلسفة للطبيعة الآ اذا بدّلنا معنى لفظها تبديلاً أساسيًّا . واذا قيل ان المادة لا تزال مادة ، مهما يختلف نظرنا اليها ، قلنا ان المادة نفسها قد أصبحت بعد قيام المذهب الكهربائي في بنائها ، غير ما كنّا نحسبها . فالذرات المادية ليست الاَّ شحنات كهربائية دقيقة بينها فراغ عظيم

ومن الآراء القديمة التي لا تزال تكافح في سبيل البقاء ، الرأي القائل بان الكون آلة حركت في العصور المتغلغلة في القدم وانها سائرة الى خاتمتها المحتومة . لذلك حاول علماء القرن التاسع عشر ان يعلّلوا الطبيعة وافعالها بنواميس الميكانيكا . وقد قال احد امرائهم لورد كلفن في ذلك : « انني لا اكتفي حتى استطيع ان اصنع مثالاً ميكانيكيًّا لرأي ما . فاذا استطعت ان افعل ذلك استطعت ان افهمهُ » . ولكن الاعتقاد في الجبرية المطلقة rigid determinism قد ضعف بعد المكتشفات

الحديثة في الاشعاع وتصرُّف الكهارب داخل الذرّات . وهذا حمل الاستاذ هيزنبرج على اخراج مبدإِ « عدم التثبت » ومؤداه انهُ يستحيل تعيين موقع كهرب وسرعتهِ في آن واحد . هذه المكتشفات والمبادىء الجديدة ، يراها العلماء المحدثون مما يتعذر التوفيق بينهُ وبين الرأي الميكانيكي او السببية المطلقة . وهذا افضى الى تغييرٍ في نظرنا الى النواميس . فاننا عدنا لا نحسبها مطلقة ، وانها تصف وصفاً مطلقاً نواحي الطبيعة ، بل هي في نظرنا الآن لا تعدو كونها ، احتمالات كبيرة او نتائج احصائية غالبة . وانما يجب ان نقول في هذا الصدد ان اينشتين وبلانك لا يسلمان بهذا الرأي كلَّ التسليم . ويذهبان الى ان ريبنا في السببية المطلقة سببهُ جهلنا . ولبعض كبار العلماء اقوال مأثورة في هذا الصدد منها قول السر جيمس جينز : « ان تيار المعرفة متجه الى حقيقة غير ميكانيكية »

وقد افضت هذه المكتشفات والآراء الى نشوء فلسفة جديدة تعرف بالفلسفة « الكلية » Holism زعيماها الاستاذ هوينهد والجنرال سمطس وفكرتها الاساسية ان الكلَّ ليس مجموعة اجزائهِ فقط بل ان لتنظيم organisation هذه الاجزاء شأناً كلَّ الشأن في الصفات التي يتصف بها « الكل »

***

ولا يسعنا ان نختم هذا البحث من دون ان نشير ، الى تحسُّن العلاقة بين العلم والدين . فرجال الدين اليوم ارحب صدراً واكثر استعداداً لدراسة الآراء والحقائق الجديدة ، ورجال العلم غدوا اقل تحكماً واضعف ثقة بأحكامهم الشاملة . ان مفكري العصر الحديث يعترفون بان العلم والدين يمثلان ناحيتين مختلفتين ، غير متناقضتين من نواحي العقل البشري ، ويذهبون الى ان الواجب يقضي على العلم ورجالهِ بوجوب المضي في البحث عن الحقيقة غير مقيدين بالمذاهب الفلسفية والعقائد الدينية بيد انَّ في الحياة اعتبارات روحية لا يستطيع العلم ان يزنها ويقيسها بموازينهِ ومقاييسهِ ، تحملنا على التشوق الى المثل العليا ، والنزوع الى الجمال والحق والصلاح ، فنتصل عن طريقها بذلك العقل المبدع . قال الاستاذ اينشتين : « يرتفع بعض الافراد الممتازين في الامم التي بلغت مرتبة سامية من الحضارة بفكرتهم الدينية . الى مرتبة عالية من الشعور الديني ادعوه «الشعور الديني الكوني» . وليس باليسير تفسيره لمن لا يحسُّ بهِ . لانهُ لا يشتمل على صورة لله صنعت على مثال الانسان . ولكن من يحسُّ بهِ يدرك بطلان الرغبات الزائلة والاغراض الانسانية الصغيرة ، ونبل النظام العجيب الذي يكشف عنهُ في عالم الطبيعة وعالم الفكر

« فكيف نستطيع ان ننقل هـذا الشعور الديني من إنسان الى آخر اذا كان لا يمكننا ان نصوّر لله صورةً حسية ما ولا يأذن بطبيعتهِ في بناءِ فقهٍ دينيّ عليهِ ? ان أسمى وظائف العلم والفن في نظري هي ان تثير هذا الشعور وتغذيهُ وتحفظهُ متقداً في صدور الناس

« ومن هنا نصل الى نظر جديدٍ في علاقة العلم بالدين يختلف كلّ الاختلاف عن النظر المألوف . ولقد صدق من قال بأن الناس المتدينين حقا في هذا العصر هم رجال البحث العلمي . . . . »

شخصية شهر فبراير — ٢

ميجيل دي أونامونو

Miguel de Unamuno

للآنسة « مي »

في ابريل ١٩٢٥ بباريس اصدر الكاتب الاسباني المرحوم ڤيثنتي ڤلاسكو ايڤانييث كتابهُ عن الجمهورية الاسبانية المرجوَّة الذي احدث زلزالاً في دوائر الادب والسياسة . ختمهُ بهذه الجملة التي تخيل ان ابناء وطنهِ سيتخذونها للحكم عليه في المستقبل . قال :

« بلا وجل انظر الى المستقبل لانهُ سيقول عني : كان في وسعه ان يظلَّ على الهامش ولكنهُ خاض المعركة رغم اقتناعهِ بأنهُ لن يربح شيئاً بل يخسر كثيراً . انضمَّ غير متردد الى ميجيل دي اونامونو وادواردو اورتيجا المجاهدين ببسالة في سبيل الكرامة الاسبانية قبل تحقيقها ودون تبصر في هل كان صحبه في الجهاد قليلين او كثيرين . اعطى البقية الباقية من حياته لاحياء اسبانيا ، لنصرة الجمهورية ، ولم يكن لهُ الاَّ طمع واحد : ان يشغل المكان الاول المتطرف البارز في خط الهجوم حيث يتلقى الضربات الاشدَّ هولاً اذ تنقضُّ عليهِ مُحكَمة قاضية ... » (١)

***

مجرد ذكر اونامونو في مستند خطير كهذا يلخص تاريخ نشاطهِ في سياسة اسبانيا خلال الاعوام العشرة الاخيرة . وهو تاريخ كنتُ اود تجاوزه لاهتمامي بالشخصيات الادبية والفنية والفكرية وحدها في هذه الدراسات ولاغفالي الحركات السياسية عموماً ، على اهميتها . غير ان العمل السياسي كان من التمازج بحياة اونامونو الادبية — ومن الانفصال عنها في آن واحد — بحيث يتحتم تسجيله لتنكشف لنا ناحية جدَّ جوهرية من تلك الشخصية الفذة

(١) كتاب Vicente Blasco Ibañez "Por España y contra el Rey"

ان هذا الرجل صاحب المكانة الرفيعة جداً في العالم الادبي الدولي ، ظلّ اعواماً طويلة مديراً لجامعة سلامنكا الشهيرة باسبانيا يدرّس فيها اللغة اليونانية القديمة وعلم المقارنة بين اصول اللغتين اللاتينية والاسبانية ، ويصدر الى جانب ذلك الكتب والابحاث والدراسات والتآليف في شتى الموضوعات. الاّ انهُ ، من عزلته العلمية والادبية ، انبرى يعارض ديكتاتورية بريمو دي ريڤيرا وتزعم حركة سياسية عنيفة ضد ذلك النظام مما عرّضهُ لغضب اولي الشأن يومئذٍ فأخرج من وطنه الى المنفى ... المنفى القريب الجميل في جزر كاناريا وفي هاندي الفرنسية عند تخوم اسبانيا، يقول خصومهُ السياسيون

وفي المنفى ارتبط بايڤانييث بروابط الصداقة ، على ما بين المزاجين من شديد تغاير واختلاف. فأونامونو كله روح وعواطف وانفعال نبيل ، في حين ايڤانييث كله جسد وحواس وشهوة مضطرمة. اولهما الفكر الفلسفي الادبي الشعري جيماً تصفّى وتكرّر وتلطف في شذوذ منطق (ان صح الوصف) خاص وعمق بعيدٍ وعلوّ خارق . والآخر هو عاصفة المغامرة في معامع الارتباك والجلبة وفي مشاكل العشق الذي يتقد جمراً ويقطر دماً وسط ملاعب مصارعة الثيران والمشاهد الدموية العنيفة المحببة الى الجماهير . وقد كتب ايڤانييث كثيراً — وكان كاتباً قديراً خلاّباً — على ان روايته المعروفة عن مصارعة الثيران وعن حياة أحد المصارعين وغرامياته ، انما هي وصف بليغ لمزاج الكاتب نفسه [١] . بيد ان الفوارق بين مزاجيْ الرجلين اختفت حيناً في النضال السياسي لغاية واحدة

وما انهارت الديكتاتورية تخرج دي ريڤيرا يلتمس طريقه الى المنفى حتى انقلب اونامونو يلتمس طريقه من المنفى الى الوطن . فغادر هاندي سيراً على الاقدام مع بعض صحبه السياسيين وعانقه حاكم المدينة مودعاً باسم الحكومة الفرنسية . ومشى في مظاهرة عظيمة لتتلقاه بلاده بحفاوة اعظم وسط الالوية الحمر وصدح الموسيقات ودويّ الخطب والاناشيد الملتهبة وهرج الجموع الزاخرة وتصفيقها . «الكرنڤال الديمقراطي بجذافيره عجّ حول فيلسوف سلامنكا» — على نحو وصف بعض الكتّاب الاوربيين الذين لا يغتفرون لاونامونو آراءه الديمقراطية الجمهورية

***

اعلنت الجمهورية في اسبانيا سنة ١٩٣١ فاذا بأونامونو يصبح عضواً بمجلس النواب ويتولى الاشراف على تنظيم المعارف العمومية . وارتفع صوته عالياً في عديد المسائل الوطنية وبخاصة ضد الحركات الانفصالية في الاقاليم مقاوماً مطالبة قطالونيا بنظام اللامركزية ، للاحتفاظ بمبدإ الوحدة القومية. وشاع في الغرب ان للثورة الاسبانية « فولتيرها » الذي يناضل ويحارب بضربات لفظية متفرقة تتغذى بالتهكم العلميّ البريء والنكتة الفلسفية الساذجة في الظاهر وانهُ لا يجامل في نكتته احداً حتى

(١) رواية "Sangre y Arena" وقد ترجمت الى الفرنسية بعنوان « Les Arènes Sanglantes »

ولا المذهب السياسي الذي يؤيده وهو فيه احد الذين يمثلون الشعب . ومن ذلك انه يوم اجتماع الكورتس الجمهوري لأول مرة وصف النواب بأنهم « أطفال باحذية جديدة »...

اما المقالات التي ما فتىء ينشرها في صحيفة إلسول (الشمس El-Sol) بمدريد ، وقد طالعت بعضها منذ ايام ، فهي تحفٌ في فن الانشاء وفي تنسيق الافكار المفاجئة ، ويصفونها بالشاذة المحيّرة لأنها لا تستقر على اساس من الاسس التي ينعتها اهل السياسة بالوطيدة، ففيها يبدو اونامونو جمهوريًّا ومونوقراطيًّا ، ديمقراطيًّا وارستقراطيًّا ، متدينًا وعلمانيًّا ، متعبداً وملحداً في آن واحد. ولو اراد هذا الرجل لكيّف بلاده كالعجينة بيده . ولكنهُ اصدق نزعة فنية وأعرف بالطبيعة الانسانية واوفر حرية روحية من ان يريد . واونامونو الشيخ الذي يناهز الآن السبعين ، ظل في تعرضه لجميع المؤثرات الروحية وكله معارضات ومناقضات ومغالطات في نظر الذين يسجنون الحياة على ورقة في بنود التشريع

ألثورة اسبانيا فولتيرها ؟ ان اونامونو اصدق موهبة من فولتير وأبعد حكمة واوجع شعوراً واصفى جوهراً لانه اكثر طهارة واقل خبثاً . لاينقصهُ من فولتير سخريته وتهكمه ودعابته ، ولكن ليس فيهِ شيء من مراوغته وتلونهِ ودهائه

انهُ رجل قلق يتعذب . وايمانه الحيّ بالحياة لا يعصمهُ من آلام الارتياب ، وحبه للروح وللجمال لا يحول دون اعترافه بأن المثل العليا تنهار احياناً فاذا بها اجزاء محطمة تتعفر في الثرى عند موطىء القدم ...

بعد قيام النظام السياسي الذي ايدهُ على انقاض النظام الذي دحرهُ وسط مظاهر الحماسة والاكبار من مواطنيه ومن الغرباء المؤيدين ، كتب كلمة ... فقال : «ياجوعي الى الانفراد !» (Che hambre de solitud!) . وهذه الكلمة وحدها تصف الرجل كله . اية علاقة يمكن ان توجد بين الروح المعاني الذي يسبق عصره الى الادراك ويتجوهر فيهِ تكالُ جميع الازمان وجميع الاجيال ، وبين صخب الفرح في الجماهير وتغلب نظام سياسي على نظام سياسي ؟ ان صاحب القلنسوة العلمية الكبرى في جامعة سلامنكا ، الاديب السجين في برج من البلور ، الحكيم المنفي عن بهجات الحياة اليومية العادية ، الشاعر الذي يعرف كيف يبدع من العدم عوالم واكواناً — انه لأكثر عند الحياة مطالب وأعسر رغبات وأبعد مقتضيات من ان يتعزّى بالشهرة الرخيصة ويتغذّى بمظاهر النجاح في طغيان العاطفة الوطنية. أهو يغالط ضميره و ينكر وجدانه ويسمم فنه باستسلامه لما لا يتفق واقتناعه الصميم — كما يتهمه منافسوه ؟ ولكن اين هو اقتناعه الصميم ؟ أهو يعشق الشذوذ للشذوذ نفسه — كما يتهمونه — لاعباً بالآراء والافكار لعب القطمع الفأر فيقبض عليها بقوة ليفرطها في سهولة ثم يعود يجري وراءها يداعبها وعندما لا ينتظر ذلك احد ، يرمي بها ليأخذ بما يناقضها على خطٍّ مستقيم ؟

يلوح لي من كتابات اونامونو انهُ يعالج شتيت التجارب والاختبارات علّه يهتدي الى الناحية التي يجد عندها الراحة لنفسه والمنفعة المضمونة للشعوب وللأفراد . هنيئاً للذين يتشبثون بمذهب أو نظام فيعلنونه الأمثل والأصلح لسعادة العالمين ! اما اونامونو فأرحب من ذلك فكراً او اكثر اخلاصاً ، او اقل نفاقاً ، او اصدق تمكناً من صميم الحياة . . . وقلق روحه الرحيبة انما هو قلق الاجيال الجديدة في هذا العصر وفي جميع العصور . انهُ يدرك استحالة التوفيق بين المبادىء المحبوبة الموروثة وبين الوقائع والمقتضيات المفروضة . اكثر من اي أحد سواه هو يدرك ان تطبيق الحوادث على المبادىء غير ميسور وهو مع ذلك لا يدري كيف يتفلّت من ربقة الحوادث ليتحصّن في استقامة المبادىء . والنفاق الذي يسوّي بين جميع الأمور معلناً اشياء بينا هو يحقّقُ أشياء أخرى ليس من شيمته ولا هو يحذق فنهُ وهو ، بلهجة الدعابة ، يعلن احتقاره للآخذين بهِ

***

وهو بعد ذو رأي آخر في الرقيّ . إنهُ يمقت الكلمات التي يذيعها هـذا العصر عنواناً للتقدم ويصارح بمقته دون مواربةٍ أو مداورة . فيقول :

« عليّ قبل كل شيءٍ ان أعلن اني كلما أمعنت في التفكير اكتشفتُ في نفسي كراهة عميقة لما يعتبرونهُ مبدأً قائداً للروح الأوربي الحديث ورائداً للرشاد العلمي الذي يفرضون اليوم علينا نزعاته وأنظمته . وثمت أمران يذكران كثيراً ، هما العلم والحياة . وعليّ ان اعترف بأن هـذه وذاك إليّ بغيضان (Antipáticos) . ليس من الضروري تعريف العلم الذي ينشرونهُ ليفيلنا فكرة منطقية واكثر انطباقاً على الكون . عندما كنت من أنصار سبنسر كنت أظن نفسي شغوفاً بالعلم ولكني اكتشفت خطإي ، كخطأ الذين يظنون انهم سعداء وهم ليسوا بسعداء . لم أشغف يوماً بالعلم ، بل كنتُ أبحثُ دائماً عن شيءٍ وراء العلم . وعندما حاولتُ تقطيع خيوط النسبية في العلم لأجتلي حقيقتهُ لم انتهِ إلاَّ إلى منطقة « إني اجهل » . وعندئذٍ أدركتُ ان العلم بعث فيَّ دائماً الملل . قد يسألني سائل بماذا أنت تعارض العلم ؟ وقد أجيب : أعارضهُ بالجهل ، ولكن هذا غير مؤكدٍ . وقد أقول مع ملك أورشليم ابن داود ان الذي يجني علماً يجني ألماً وان النهاية الواحدة تنتظر العالِم كما تنتظر الجاهل ، ولكن الامر ليس هو هذا . لستُ في حاجةٍ إلى ابتكار لفظةٍ لأقول ما هي الحكمة (Sabiduria) ، ولكن هل هي تعارض العلم ؟ إني بدافع الاخلاص لخيالي الشارد تقودني شهوتي الروحية ويستحثني نفوري العميق وانجذابي الصميم ، أجيب : أجل ، الحكمة تعارض العلم . أجل ، العلم ينتزع الحكمة من البشر ليتركهم عادةً اشباحاً منتقلة بالمعارف والمحفوظات ...

« أما الشيء الآخر الذي يذكرونهُ في كل حين فهو الحياة . وهذه يسهل الاهتداء الى ما يعارضها ، وهو الموت . غاية العلم الحياة ، وغاية الحكمة الموت . العلم يقول « لا بدَّ من الحياة » ، فيبحث عن

الوسائل لإطالة الحياة وإغنائها وتيسيرها وتوسيعها وتخفيفها وتلطيفها . والحكمة تقول «لابدّ من الموت» ، فتبحث عن جميع الوسائل التي تهيء للموت كما ينبغي . يقول اسپينوثا « الانسان الحرّ هو الذي أقل ما يفكر في الموت ، وحكمتهُ إنما هي تأمُّل لا في الموت ولكن في الحياة » . وأنا أقول ان الحكمة في مثل تلك الحال لا تكون حكمة ، بل هي العلم . ويكون صاحبها الانسان الذي تملّص من الغم المطلق (suprema angustia) ، من القلق الدائم ، وتحرّر من نظرة أبي الهول ، أي الانسان الذي ليس بانسان وهو المثل الأعلى للأوربي الحديث ... وها نحن اولاء نبلغ الآن فكرة بغيضة اليَّ كفكرة العلم والحياة ، وهي فكرة الحرية . إذ ليس من حرية حقة إلاّ بالموت

«وما هو الغرض من كل ذلك ؟ عن أيّ شيء يبحثون وإلى اي هدف يرمي اولئك المتشبثون بالعلم وبالحياة وبالحرية ؟ فيديرون ظهورهم للحكمة وللموت مدركين أو غير مدركين ؟ إنهم يبحثون عن السعادة . ذاك الذي نسميه الأوربي الجديد يقبل على العالم باحثاً عن السعادة لنفسهِ وللآخرين ظنّاً منهُ ان على الانسان ان يسعى ليكون سعيداً . وهذا مبدأ لا أستطيع أن أقرّهُ . وسأطرح عليكم في هذه الاعترافات بقضية تعسفية لأني لا أملك اثباتها بالمنطق ولانها تفرضها عليَّ عاطفة قلبي لا تفكير عقلي . وهذه القضية هي : إما السعادة واما الحب ! فاذا طلبتَ الواحد فعليك ان تتنازل عن الأخرى . لان الحب يقضي على السعادة والسعادة تقضي على الحب . . . وبيان هذا وتفسيره تجده عند أهل الروحانية منا وعند فلاسفتنا الجديرين بالاعجاب الذين شعروا — ولم يفكروا — بالحب والسعادة فأوجدوا كلمات « الالم اللذيذ » (dolore saporosso) و «أموت لاني لا أموت»[1] وغير ذلك مما ينمّ على عمق هذه العواطف. . .»

***

في كل ما كتبهُ وعالجهُ من موضوعات وأقاصيص وابحاث وروايات ومسرحيات وأشعار ، يتجلى أونامونو ذا عبقرية عالية التحليق متعددة الوجوه متوازية القوى في شتيت النواحي . إنه بارع مبدع عالماً ومفكراً وناقداً ومدرّساً ومحاضراً ومؤلفاً وأديباً وشاعراً وراوياً . على ان أهم دراماته هي فيدرا Fedra وأحب كتبه الى جماهير المثقفين في العالم كتابه عن « حاسة التفجع في الحياة » (Sentimiento tragico en la Vida) ، وكتاب « الحقائق المتعسفة » الذي اقتطفنا منه نبذة في الصفحات السالفة . أما الكتاب الذي أذاع شهرته منذ سنة ١٩٠٥ فترجم الى اكثر اللغات الحية وفرض أونامونو على عالم الآداب العالمية كشخصية فذة فهو كتابهُ عن « دون كيخوتي وسانتشو »

(١) « Muero perchè no muero » بيت شهير من نشيد دينيّ للقديسة تريزيا الاسبانية

(Vida de Don Quijote y Sancho) ومعلوم ان خالق دون كيخوتي وسانتشو هو الاديب الاسباني العظيم سرفانتس Cervantès

وأما كتابه « اسبانيا ضد اوربا » فهو ذو وطنية بارعة متلظية منطقية في شذوذها ، حمل فيه على الاساليب الاوربية الحديثة و« مكنزتها » للحياة حتى لتجعلها ما كينة عظيمة تدور بمختلف الادوات والآلات فتقضي بنظامها الآلي على كل ما في الانسان من بداهة ونزوةٍ وخصوبة وشعور. ودافع عن المزاج الاسباني منكراً على الثقافة الاوربية تسميمه وتشويهه ومسخه لتجعله على صورتها ومثالها ، وطالب للفطرة الاسبانية بالبقاء على ما هي فيه من عيوب ونقائص وجهل حتى وعنجهية . فقال فيما قال : « قرأت اخيراً لكاتب مواطن مقالاً حمل فيه على اسبانيا لانها « بلد كئيب » ومضى يشرح . . « جميع منتوجاتنا الادبية والمحسوسة صلبة ، جافة ، مزعجة . النبيذ كثيف ، واللحم رديء ، والصحف سخيفة مملّة . لست أدري أية مصيبة داهمت أدبنا لتجعله حزيناً كما هو . ومن أكآب الامور في اسبانيا اننا نحن الاسبان لا نستطيع ان نكون أهل زهوٍ ورشاقة . . . »

« هذا ما يقوله پيو باروخا [1]. اما في نظري أنا فأكثر الامور كآبةً ان نصبح اهل طيش وزهو ، إذ نفقد عندئذٍ صفة الاسبانية فينا دون ان نصبح حتى اوربيين . وعندئذٍ يتحتم ان نتنازل عن تعزيتنا الوحيدة وعن مجدنا الوحيد المتلخص في كوننا لا نستطيع ان نكون اهل زهو ورشاقة . قد نتمكن عندئذٍ من ان نروي عن ظهر قلب محفوظات جميع الكتب التي ينشرون بها العلم ، غير اننا نرتدّ الى حالة يستحيل عندها ان نتمكن من الحكمة . عندئذٍ قد يصبح نبيذنا أصفى ، وزيتنا مكرراً ، ومحارثنا أجود ولكننا في نفس الوقت نمسي غير جديرين بخلق دون كيخوتي جديد او إيجاد مصوّرٍ مثل فيلاسكيث وغيرهما من الذين لا يوجدون الاّ في جوّ كهذا الجو

« ويختم باروخا قائلاً : « يا للبلد الكئيب الذي يفكرون فيه في كلّ شيء إلاّ في الحياة ! » . وأنا أعارضه هاتفاً : « يا للبلاد الاوربية الحديثة التاعسة التي لا يكتب أهلها الاّ ليفكروا في الحياة ! وحيث الفكرة السائدة عن الحياة تنسي الناس انهم سيفقدون الحياة يوماً ! »

« ان الغرباء لا يدركون منا إلاّ الشيء الذي لا يجرح مزاجهم ، متفقاً والفكرة التي يكوّنونها عنا ، وهي دائماً سطحية . ونحن التعساء نصدق هذا الغرور المضلّل وننتظر من الخارج تصفيق اولئك الذين لا يدركوننا الاّ قليلاً ، ولو أدركونا تماماً ما استطاعوا ان يفهمونا . وحيال هذا

(١) Pio Baroja كاتب اسباني ومن رجال السياسة

الواقع الذي جهلاً أو عمداً يرمي الى مسخ طبيعتنا وتجريدنا مما يجعلنا نحن كما نحن ، ماذا علينا ان نفعل ؟ . . . . « في روح إسبانيا تحيا وتعمل ليس روحنا فقط نحن الذين نحيا اليوم ، بل كذلك وخصوصاً روح جميع أسلافنا . أما روحنا نحن المعاصرين فأقلّ الاشياء حياةً ، لأنها لا تندمج في وطننا الا بعد ان نكون غادرناه بموتنا الزمني . . .

« ... وماذا عسى يجدي التفكير على الطريقة الاوربية العصرية بلغة لا هي عصرية ولا هي اوربية ؟ بينما نحن نرغمها على تبيان معنى ما ، تصرُّ هي على تبيان معنى آخر مساوقة طبيعتها

« ... لاتين ، لاتين ! أنهم لا يفتأون يقذفوننا بحكاية الاخاء اللاتيني . ولست أدري ما اذا كنا نحن ام كانوا هم لاتيناً . اما من ناحيتي انا شخصيًّا فأني مقتنع بأن لا شيء لاتيني فيَّ . فاذا كنا همجيين فعلامَ لا نشعر صادقين بأننا كذلك فنعلن عن انفسنا بصفتنا تلك ؟ فاذا اردنا ان نشدو بما يؤلمنا وبما يواسينا شدونا على طريقتنا الهمجية في الفن ؟ ان عقاب الذي يحاول تقليد غيره هو انه يكفّ عن ان يكون هو نفسه دون ان يفلح في ان يكون ذلك الآخر الذي تمثل بهِ ، وينتهي الى ان يكون لا شيء » ... « ويقيني ان جعل اسبانيا اوربية لن يبتدىء الا عند ما نفرض نحن الاسبان انفسنا على النظام الروحي في اوربا فندمج فيه ما هو جوهري عندنا تبادلاً لما هو جوهري فيه ، اي عند ما نحاول جعل اوربا اسبانية ... »

***

نبرات بديعة ، أليس كذلك ؟ يلهبني منها التلظي والأنفة والصدق وخلوها من كل انتحال وكل رخاوة وكل تمحّل . هي نبرات اونامونو حقّا . واونامونو الذي تلخصت في فطرتهِ عناصر جميع الشعوب التي اجتاحت اسبانيا منذ بدء التاريخ — من الفينيقيين الى اليونان الى المكدونيين الى اللاتين الى القوط الى الفندال الى العرب الى الفرنسيس والانجليز وما يتخلل هؤلاء من شتيت العناصر — اونامونو اغنى من ان يكون ربيب عنصر واحد ، كائناً غنى ذلك العنصر ما كان

شقيق شكسبير في تفجع « هملت » وشقيق جوته في تفطر « فاوست » ، هو ابن اسخيلوس في صلب « برومثيس » على جبل التمرُّد والنكال . بيد ان اونامونو هو من كل اولئك المؤلف والشخصية التي يخلقها المؤلف في آنٍ واحد ....



الزعامة وصفات الزعيم

الدكتور عبد الرحمن شهبندر

الزعيم هو الفرد — من الرجال او النساء — الذي يجمع حوله عدداً من المريدين والانصار هم اهل لأن ينشد بواسطتهم غاية عامة ، وهذه الغاية في نظرهم جميعاً ذات شأن حيوي لهم وللمجتمع الذي يعيشون فيه . وبدهي ان مثل هذا التعريف يقتضي ان يكون ثمة اتصال وثيق بين الزعيم والخاصة من أنصاره في فهم هذه الغاية والاحاطة بجوهرها لان كل تنافر بهذا المعنى يوقف دولاب العمل وينتهي بالاخفاق . فوضع ابن سعود او الامام يحيى على رأس المحافظين او الاحرار في انكلترة هو من الأعمال المتنافرة مثل وضع المستر (بلدوين) او المستر (لويد جورج) على رأس الوهابية في نجد او الزيدية في اليمن . وقد يستطيع هذان ان يكيفا نفسيهما بحسب المحيط فيغيران ويبدلان في مظاهرهما الداخلية والخارجية ليطابقا الهيئة التي انتقلا اليها ولكن تنقصهما حينئذ العقيدة وهي من الزم لوازم الزعيم وأهم شروط نجاحه . فالمتزعم الذي لا يؤمن بالقضية التي يتظاهر بخدمتها هو مثل المتنبيء الذي لا يؤمن بالدين الذي يدعو اليه واقل ما يتهم به التدجيل — والتدجيل والزعامة الصحيحة ضدان لا يلتقيان . على ان هذا الكلام لا يقتضي ان يكون الزعيم وسواد انصاره سواسية في فهم تلك الغاية بل قد يكون البون بينه وبينهم شاسعاً ، فجميع زعماء الشرق مثلاً ينشدون الاستقلال الناجز لبلادهم والشعوب من ورائهم ظهيرة ولكن نوع هذا الاستقلال والغايات الاجتماعية والسياسية والروحية التي يَمُنُّ بها على الناس تختلف كثيراً باختلاف التربية والمستوى العقلي والتهذيبي ، فكم رأينا من يظن ان مجرد اعلان الاستقلال هو الرجوع الى اوضاع القرون الوسطى بتفرعاتها جميعاً حتى ديوان التفتيش لمحاكمة الناس على عقائدهم الدينية . ويكفي ان يكون ثمة خطر يهدد الجماعة لتلتف حول من تعتقد ان في مقدوره ان يسير بها في طريق النجاة فتؤيده بقدر القوة الشخصية التي يزدان بها وبقدر شأن الخطر المتوقع . فلا غرو ان يظهر الزعيم على المسرح السياسي متى كانت الحاجة اليه ماسة كما تظهر البضاعة في السوق متى كان الطلب عليها حثيثاً

﴿ الوطنية والزعامة ﴾ : الوطنية هي في الاكثر مسألة الزعامة ، والزعيم هو مدره القوم المعبر عن رغبتهم وتتجلى صورتهم بثوبها القشيب في مرآته الصافية ، فلا بدّ ان تكون حلقة الاتصال بينهُ وبينهم وثيقة كما قلنا والا لم يعد زعيماً لهم لان الذي يسبق الناس كثيراً او يقصر عنهم كثيراً يقطع اواصر الاتصال بهم ، ولا خطر على الزعيم مثل ان يتنزل في افكاره تنزلاً مفرطاً لاسترضاء الغوغاء واستجلاب الدهماء لانهُ يعرض بذلك نفسهُ لاستخفاف اهل الحل والعقد من العقلاء . على ان هذا

الكلام لا يمنع الزعيم ان يكبح جماح تطرفه تجنباً لاحداث هوة بينه وبين سواد الشعب بعيدة الغور ، بل رأينا جميع الزعماء السابقين لأوانهم ارتضوا ان يخففوا من غلوائهم قليلاً ويقصروا من خطاهم ليسيروا امام الشعب وعلى اتصالٍ بهِ ، وشتان بين من يخفف خطاه لتستطيع العامة ان تلحق بهِ فتمشي وراءه وبين من يتقهقر فيمشي وراء العامة ! ولما كان الوطن صلة معنوية قائمة على التجانس فمن اوائل وظيفة الزعيم تقريب الناس بعضهم من بعض وازالة تلك الحواجز المصطنعة التي اقامتها المصالح البائدة بينهم من غير ان يفادي بشيء جوهري من شؤون القضية التي ترأس الناس من أجلها ، ولن تسمح الوطنية الحقة لمن اتخذوا من تلك الحواجز البالية جدراناً يؤلفون في داخلها الاقليات التي تهدد سلامة الدولة ان ينظموا حكومة خاصة ضمن الحكومة العامة

وتتكافأ التبعة الملقاة على عاتق الزعيم والخدمة العامة التي في مقدوره ان يسديها لامته . وكم سقطت شعوب وارتفعت اخرى بسبب ما زعمائها من الخطايا والمزايا ، وقد تسير امة من الامم بخطى واسعة الى الامام فتصاب بموت زعيمها فجأة فتتراجع ، ويتحول انتصارها في ساحة الجهاد الى انكسار . ومن اعظم البلاء ان تلقى مقاليد الامور الى اناس قلت مواهبهم فتعوضوا من نقصهم الذاتي نسباً شريفاً يطنطنون به دائماً ويزعمون انه يغنيهم عن جميع الفضائل النفسية ، ومثل هذا النسب ولا سيما في الملوك يسهل على الطامح تسلم مقاليد الأمور . وقد قابل الاستاذ (باپندر) بهذا المعنى بين الامبراطور غليوم القليل المواهب وما جره على المانيا من النكبات وبين ابرهيم لنكولن رئيس الجمهورية الاميركية المعروف المتحلّي بأعظم المزايا وما اسبغهُ على الولايات المتحدة من النعم الضافية . وقد استطاع ذاك على قلة نبوغهِ ان يستولي على المانيا بانتسابه الى بيت (هوهنزولرن) اللامع والتصاقه بالمجد العريق الذي خلفهُ الملوك السابقون والسمعة الطيبة التي تركوها وراءهم فلم يكن عليهِ عسراً مع شيء من الذكاء والتآمر وحسن التنظيم ان يحل هذا المحل اللالاء من قلب الامة الالمانية النجيبة وان يستر عيوبه ويخفي نقائصه الى ان اظهرتها الحرب العالمية . في حين ان ابرهيم لنكولن لم يصل الى المقام الذي حله في عين امته الا بمواهبه الذاتية التي ازدان بها فهو الذي رفع عماد البيت الذي نشأ فيه وشرف الاسرة التي نزل من اصلابها . وهكذا نرى انهُ اذا كان على المرء ان يباشر عمله صعوداً من الذيل الى القمة فلا بدَّ له ان يكون قويًّا متحلياً بطول النفس الذي يمكنهُ من هذا الصعود ، ولكنهُ اذا باشر عمله بالعكس نزولاً من القمة الى الذيل فهو ليس بحاجة الى مثل هذه المزايا ويكفيه مظهرها فقط . ينظر العظامي دائماً الى الماضي ويتطلع الى الآباء والجدود فيزول منهُ الاستقلال والاعتماد على النفس بينما ينظر العصامي حواليه ليجد الوسائل النافعة والسبل المؤدية الى تحقيق اغراضه فتقوى عزيمته ويشحذ ذهنه . لاجرم ان يكون الزعيم بعد ما قرع دهره وبزَّ خصومه مظهر الجهود متحدة ورأس القوة منظمة متجهة وهو المخل برفع الاثقال مستمداً طاقته من ارادة الشعب ومستنداً الى عاتقه فاذا ما اخفق فقد يكون السبب واحداً من ثلاثة :

شدة العقبة ، او ضعف الارادة العامة ، او سقم المخل نفسه، وقد تجتمع هذه الاسباب كلها او بعضها

واذا شبهنا الزعيم بالمخل فلا نعني ابداً انهُ مجرد آلة بيد الشعب لرفع الاثقال بل هو آلة ممتازة بقوتها الذاتية المتفوقة وأثرها الباهر في جميع من اتصل بها. وقصارى القول يجب ان يتحلى الزعيم بالخصائص الآتية :

(اولاً) الايمان المطلق بالقضية التي يعالجها فلا يضمر في شأنها شيئاً ويظهر شيئاً آخر كما يعمل المنافقون، ولا نعرف وضعاً من الاوضاع المقدسة اتخذه المنافقون مطية مثل وضع الدين، وتأتي بعده الوطنية، فبانتشارها وبدخولها في الصميم من قلوب الجماعات المضطهدة والمغلوبة على امرها ظهر على المسرح بعض المتزعمين المنافقين الدجالين ممن اتخذوها مطية فساوموا عليها وملأوا بطونهم من موائدها ومحافظهم من نضارها ، ولكن ليس من الصعب على المتتبع ان يفضح الدجل والنفاق لاننا وجدنا من ألزم لوازم الذي يقف موقف المرشد او المصلح او الزعيم من الناس ان يثير احترام الخلص من المتصلين بهِ مباشرة كزوجه واخوته مثلاً وان لم يعتقدوا بصحة دعوته ، لان الاخلاص للمبدأ والتفاني فيهِ يحمل المرء على احترام المتحلي به ولو كان خصماً فما بالك وهو القريب العزيز . وان رجلاً يعجز عن اكتساب الحرمة من اهل بيته والمتصلين به اتصالاً وثيقاً لقمين بان لا يكون محترماً في نفسه بالغاً ما بلغ من التظاهر بالخدمة العامة والتفاني في سبيل القوم . (ثانياً) ان يكون رأي الزعيم في المسائل التي تدور عليها قضية الشعب واضحاً كالشمس في رابعة النهار وكل ابهام في موقفه الاساسي يدعو الى اضطراب انصاره وحيرتهم ويتركهم عرضة للدعايات المناقضة والانحياز الى الآراء المخالفة . (ثالثاً) الثبات على المبدأ ، وهذا يقتضي ان يكون الزعيم بعيد النظر متحلياً بقوة العقل ومتسلحاً بالتربية الصحيحة وتحليل ما يطرأ من الطوارىء حتى لا يرتكب من الخطإ ما يضطره الى تغيير رأيه بصورة تلفت الانظار، ولا يعني هذا الكلام ان الزعيم يجب ألاَّ يخطىء في آرائه ابداً ولا فيما يتوسل به من الوسائل فالخطأ يصح حتى على اكبر الزعماء والقواد اذا كان خطأ معقولاً واما الخطأ المنكر فهو البديهي الظاهر الذي لا يجوز ان يقع فيه العقلاء

والزعيم الذي لا يتمسك بعقيدته تمسك المؤمن بعقيدته الدينية المقدسة ويستعدُّ لبذل الغالي والرخيص في سبيلها يحرم من الثابتين على ولائهِ القائلين بقولهِ ، ويمكن خصومه من تدبير الحملات عليهِ ، ويكون التساهل في العقائد الاساسية التي هي محك النظر ومدار العمل مهلكة له ولمن يلوذ بهِ . فالزعيم الاشتراكي الذي يحاول تمشية الحال مع الرأسمالي المحافظ المتطرف يكون مثله كمثل الداعية الى التنزيه والتوحيد المتساهل مع الشرك وعبادة الاصنام ! على ان التصافي بين المتنازعين والتسوية بين المتخالفين هما من الامور الواجبة في كثير من الاحيان — على شرط ألاَّ تتناول الشؤون الجوهرية التي هي اصل المذهب ومبنى العقيدة

وعلى كل حالٍ فاذا جاز للزعيم ان يغير رأيه مرّة في شأن من الشؤون المهمة — ولن يجوز ذلك في عقيدة من العقائد الجوهرية — فمن المحال ان يغيره مرتين اثنتين ويبقى محافظاً

على سمعته ، فاين هذا الكلام من بعض المتزعمين الذين يلبسون لكل حالة لبوسها ويتقلبون في المبادىء الاساسية تقلب الحرباء ويدورون في العقائد الجوهرية دوران دواليب المطاحن مع الهواء !

ومما لاشك فيه ان عوارض تعرض وعقبات تطرأ تحتم على من بيده زمام المركبة ان يتجنب الصدمة ، ولا غبار على الزعيم في مثل هذه الاحوال والظروف والملابسات التي لا شأن لها في الاساسيات ان يتسامح ويتساهل لان الصلابة في الحق لا تعني العناد المقيم والانكسار على الصخر. ثم ان الكياسة شيء والتشدد الاعمى شيء آخر، والفظاظة والغلاظة في الطباع تدعو الى الانفضاض من حول الزعماء ولو كانوا في مقام الانبياء ، بل اننا رأينا بعض الانصار من غلاظ الطبع سبب نكبة على الزعيم الذي يوالونه ، وقد يرجع الكثير من الحملات التي تحمل عليه الى الخصومة التي يخلقها في الناس هؤلاء الانصار والاتباع . وتطلق في الانجليزية كلمة Crank على المهووس الذي هو في عقيدته اقرب الى الخَوَلَع او المجنون في امر واحد وقد يردد الكلمة الدالة على هوسه كما يردد ذو الجنة الكلمة التي ارتكز عليها جنونه من غير ان يفكر فيها ، وهذا ممنوع على كل رجل متزن دع عنك الزعماء ، لان الجنون حتى في اعمى الامور لا يدل على رجحان عقل ، واذا جاز لبعض المعتوهين من اهل القرون الوسطى ان يلموا حولهم الانصار بترديد بعض الكلمات الجذابة المقدسة من غير ان يفقهوا معناها فزعامة مثل هذه لا تلم في عصرنا وهو عصر التحليل العقلي غير الحثالة من الناس

وكم رأينا في هذا الشرق من يطمع في الاستيلاء على عقول الناس وليس له من رأس مال سوى الصياح «فليحيي الوطن» ومن خطة سوى «القاء الاعداء بقضهم وقضيضهم في البحر قبل كل عمل» وغني عن البيان ان مثل هذه الخطة تجاه العدو القوي المتمكن لا تعني سوى الفوضوية السياسية وترك كل عمل يرجى من ورائه زحزحة الكابوس والخلاص منهُ تدريجيًّا

وعلى ذكر الخولع والمهووس نقول ان الاستاذ (باينذر) قسم العقول الى ثلاثة نماذج فالنموذج الاول هو العقل الذي ليس في مقدوره ان يرى المسألة المعروضة الا من ناحية واحدة فقط ، وهذا هو عقل الرجل البسيط السخيف الاحمق ، والنموذج الثاني هو العقل الذي في طاقته ان يرى ناحيتي المسألة ولكن بالتناوب والتتابع لا في وقت واحد ، والنموذج الثالث يرى النواحي كلها معاً فيزنها بالميزان ويقابل الواحدة منها بالاخرى قبل ان يصل الى حكم نهائي ثابت ، ويدعى هذا النموذج العقل الاستقرائي التأليفي وهو مما اتصف به جميع الزعماء العظام . قال (باينذر) وليس على الزعماء ان يصلوا الى حكم نهائي وثابت فقط بوزن كل وجه من وجوه المسائل ومقارنته بل عليهم ان يطبعوا حكمهم هذا في اهل النموذج الثاني بان يبينوا لهم ان المسألة يجب ان ترى من وجوهها كاملة في آن واحد، وان يقنعوا اهل النموذج الاول بان القضايا لن تحل بالاقتصار على رؤيتها من جانب واحد . وما من امة لم تتحلَّ بهذا النمط من الزعماء استطاعت ان تعمل اعمالاً عظيمة خالدة

ثم لا بد للجماعة في مجموعها من نسبة كبيرة من اهل النموذج الثاني وهم ممن يخاطبون بالعقل

وتسرى عليهم الحجج المنطقية ، واما اهل النموذج الاول فانهم يستسلمون عادة من بعد المقاومة والاصرار على وجهة نظرهم ذلك لان براهينهم ليست من مواليد ادمغتهم بل مستعارة غالباً والمرجح انهم يقبلون البرهان الجديد في نهاية الامر على شرط ان يلقى في روعهم ان هذا البرهان انما هو الشيء الذي يدور في خلدهم ويدينون بهِ . (رابعاً) ان يتحلى الزعيم بشخصية باهرة لها شيء من السحر العجيب في ما حولها من الانصار، ولن يتأتى ذلك في مثل هذا العصر الذي نعيش فيهِ الا بالتربية الصحيحة وما تحتاج اليه عادة من فصاحة وبلاغة وحسن بيان . ومقياس هذه التربية البيئة الذهنية التي يعيش فيها الزعيم فاذا كان الصرف والنحو والاعمال الاربعة وشيء من البيان والاصول والفقه كافياً ليتسلح بهِ الرجل في نجد او اليمن فأن هذا السلاح لا يبهر احداً في مصر وسورية والعراق

وعند الاستاذ (بايندر) ان التربية المطلوبة في الزعماء تعني كبر العقل والاستعداد العام للتقدم وترك الحسن في سبيل الحصول على الاحسن . ولما كانت بعض الصناعات كالحقوق والكهنوت مثلاً تقاوم كل تغيير عادة لانها نشأت على اعتبار ما يقرره السلف مقدساً وكان معظم الحكام والزعماء الذين ظهرو على المسرح السياسي هم من اهل هاتين الطبقتين من الناس فلا غرو ان يزرعوا في ذهن المجتمع كمالاً منشوداً فحواه ألاّ تغيير ولا تبديل للاوضاع القائمة ، ولما كانوا من اهل الطبقة التي تفردت بالتربية والثقافة غالباً لم يتعذر عليهم ان يطبعوا مقاييسهم الخلقية والاجتماعية في سواد الناس مما ادّى الى شيء من الخنوع وزوال الابتكار في الافراد . ان هذه المحافظة الضيقة تقتضي من الزعيم في القرن العشرين ان يكون مؤمناً بامكان التغيير قائماً بأن المجتمع الذي فيهِ قابل للتكامل والارتقاء وان لا شيء في العالم مقدسٌ الاّ اذا كان نافعاً للناس

(خامساً) التحلي بالشجاعة الادبية وهي رأس فضائل الزعيم وربما سترت فيهِ عيوباً كثيرة وعادلت بعض المزايا المهمة الناقصة فيهِ ، والشجاعة الادبية في الزعيم للدفاع عن الحق هي مثل شجاعة الجندي في ميدان القتال فكما ان هذا لا يكون اهلاً لحمل البندقية ومكافحة الاعداء الاّ اذا كان صنديداً كذلك ذاك لا يجوز له ان يرفع علم الوطنية ما لم يكن جريئاً في الدفاع عن حقوق الامة في ادق ساعاتها واخطر ازمانها . ولعل الوضوح الجليّ الذي طلبنا ان يكون في رأي الزعيم يرجع الى هذه الشجاعة الادبية لان الزعيم متى كان ضعيفاً في نفسه يحاول تجنب النزال والطعان بالتستر وراء الايهام والابهام والالتجاء الى التقيّة والموارَبة

على ان امراً وحداً ليس من شأنهِ الاعلان عنهُ ابداً وهو الخطر المحدق بالامة متى كان ذكره يدعو الى القنوط ، فزرع الامل هو من اوجب الواجبات، وكم من زعيم من اكبر الزعماء كان يضع في ساعة الخطر الشديد وسائل النجاة في ذهن الشعب امراً سهل التناول قابل التطبيق . والرجل الذي لا يؤمن بقوة الارادة العامة على ازالة الموانع والعقبات ينقصهُ عنصر جوهري من عناصر الزعامة ، ولولا الامل بالنجاح لبطلت وسائل الكفاح

القصص

في الادب العربي

للدكتور احمد ضيف

الاسلوب القصصي من أشهر أساليب الكتابة الادبية وأوسعها خيالاً وأفسحها مجالاً، لوصف الحياة الانسانية والنفوس البشرية واسرار الاجتماع، وبث شعور الانسان من سعادة وشقاء وحب وبغض، ورسم عقائد الانسان من حقائق وأساطير، وذكر حوادث التاريخ القريبة والبعيدة. ثم هو زيادة على ذلك معرض لفنون الكتّاب ومجال واسع لظهور نبوغهم، وعبقرياتهم الادبية والفنية وأساليب التفكير لديهم. لهذا كانت القصص من أعظم الانواع الادبية في آداب الامم، ونتاج قرائحهم قديماً وحديثاً، بل أبقى تلك الانواع جميعاً وأشدها جذباً للنفوس وأعمها فائدة ونفعاً في تغذية العقول، ونشر الفنون الكتابية

ولقد نجد كثيراً من القصص في الادب العربي، فكتب الادب والتاريخ حافلة بذكر ايام العرب وحروبهم والتحدث عن ملوكهم، وكبار رجالهم، وشعرائهم وعشاقهم، وأخبار الجن وسيرهم، ولكن ذلك ذكر في تلك الكتب على أنهُ احاديث ومسامرات وروايات يذكرها الكاتب او المؤلف على انها قطعة تاريخية لا قصة أدبية فنية — لانها ليست مكتوبة بقلم كاتب واحد ولا من تأليف كاتب معروف امتازت بأسلوبه وعرفت بصبغته الشخصية وشعوره الخاص، بل رواها الرواة وغيروا وبدلوا فيها كما يروي المؤرخ حادثة ثم يرويها مؤرخ آخر بطريقة اخرى، فلا نحسب هذه الروايات من الكتابة القصصية الادبية المعروفة الآن التي تمتاز كما قلنا بأسلوب الكاتب الفني وطريقته في التفكير وصفته العقلية الخاصة بهِ، ونظم الكلام المعروف في كتابة القصص المحتوي على ذكر اشخاص متصفين بأخلاق خاصة، وصفات خاصة يتحدثون ويتجادلون فتظهر في أثناء أحاديثهم وجدالهم خفايا النفوس البشرية، وما تنطوي عليهِ من ميول واهواء وعقائد. ان حوادث التاريخ لا تتغير وطبيعة الانسان واحدة: فالحب والبغض، والطمع والقناعة، والاحسان والاساءة، والتقوى والفسوق، كلها حالات ثابتة في النفوس وفي طبيعة الانسان لا تختلف في اصولها، ولكن الذي يتغير ويختلف هو إدراك الشخص لها وفهمها فهماً صحيحاً أو خطأ، وتصوير الكاتب لها على حسب ما يرى ويفهم، وعلى حسب ما يلبسها من شخصيته وأسلوبهِ، فهذه الشخصية

هي التي تظهر في الكتابة القصصية وتميزها من غيرها ، وهي التي تقلب التاريخ الى أسطورة او الى بحث نفسي او اجتماعي ، وقوة الكاتب او براعته هي التي تلبس الحوادث والحكايات لباساً قد يجعلها خالدة باقية ببقاء الايام ، فعلى هذا لا تحسب الاحاديث التي في الكتب الادبية العربية كالأخبار الخاصة والعامة ، وذكر الملوك والحروب ، وأحاديث المسامرات وغيرها ، من القصص الفنية

وقد جاء الأسلوب القصصي في الاسلوب الفني الى لغة العرب مما نقل اليها من الفارسية أو الهندية أو غيرها ككتاب «كليلة ودمنة» و «الف ليلة وليلة» وغيرهما مما ذكره ابن النديم في باب الاسمار والسير ، كتبت على نمط هذه القصص المترجمة ، وقصص اخرى وحاكى فيها مؤلفوها أساليب التفكير الفارسية أو الهندية — عن ألسنة الحيوان والبهائم — مما أخذه الكتّاب من تاريخ الفرس أو الهنود

قال ابن النديم في كلامه على الكتب التي صنفت في الاسمار والخرافات :

ابتدأ ابو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم . . . واحضر السامرين فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون . . . واختار من الكتب المصنفة في الاسمار والخرافات ما يطيب له — وكان فاضلاً — فاجتمع له من ذلك أربعمائة ليلة وثمانون ليلة وكل ليلة سمر تام . . . وكان قبل محمد يعمل الاسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم جماعة منهم : عبد الله بن المقفع وسهل بن هرون ، وعلي ابن داود . فهؤلاء جماعة من الكتّاب كانوا يؤلفون في القصص ويحاكون الفرس وغيرهم في الأساليب القصصية

انتشار القصص العامية

اما سبب انتشار القصص العامية ولاسيما الاعجمية منها فقد اندسَّ بين العرب أيام الدولة العباسية جماعة من الاعاجم وكان من بينهم من يحمل الاخبار الخرافية والأخيلة الغريبة التي ورثوها عن آبائهم واجدادهم الفرس والهنود اصحاب الاخيلة العتيدة في الاساطير وينبوع كل هذه القصص الخرافية . وكان من بينهم جماعة من التجار الذين يترددون على الهند وفارس وبلاد العرب وينشرون هذه الاخبار في المجالس والمجامع بين الخاصة والعامة . فذاع أمر هذه القصص بين عامة الناس حتى امتلأت باللهجة العامية وعني بالكتابة فيها بعض الادباء واضافوا اليها كثيراً من صور حياتهم الاجتماعية والسياسية وادخلوا فيها شيئاً من الاشعار المعروفة والامثال السائرة والعبارات الصحيحة

وأدخل جماعة من الكتّاب في هذه القصص شيئاً من تاريخ العرب وكبار رجالهم وفرسانهم وحروبهم واخبارهم وسيرهم ونقلوا اليها بعض ما في كتب الادب المعروفة من شعر ونثر وامثال وحكم وجاروا العامة في ميولهم واساليب التفكير لديهم فظهرت فيها حكايات هي خليط من الفارسية

والهندية والحياة الاسلامية العربية ولهجات الخاصة والعامة والحوادث المختلفة للخلفاء والامراء والعلماء والجهلاء والرجال والنساء والكبار والصغار . وقد جاروا العامة في اساليبهم وميول التفكير لديهم كما يجد القارىء ذلك في قصة عنترة وبكر وتغلب وسيف بن ذي يزن وغيرها من القصص العامية المشهورة . وكل هذه القصص أو جلها كتب في مصر بأقلام كتّاب من المصريين على ما يظهر من لهجتها العامية المصرية

ومن اشهر القصص العامية قصة عنترة وهي اقرب الى وصف الحياة البدوية منها الى غيرها وقد احتوت على كثير من اخبار العرب واشعارهم واوصاف حروبهم وعاداتهم واخلاقهم من كرم وشهامة وشجاعة وميل الى الانتقام ، كما احتوت على حبهم للشعر وفنونه وجملة احوالهم الاجتماعية والتاريخية قبل الاسلام

ومما يجدر التنبيه عليه ان هذه القصة وامثالها كتبت في مصر بأقلام كتّاب مصريين ويروون في ذلك : « انهُ نشأ في مصر من افاضل الرواة رجل يقال له الشيخ يوسف بن اسماعيل وكان يتصل بباب العزيز بالقاهرة فاتفق ان حدثت ريبة في دار العزيز ، ولهج الناس بها في المنازل والاسواق فساء العزيز ذلك ، واشار على الشيخ يوسف بن اسماعيل المتقدم ان يطرق ما عساه ان يشغلهم عن هذا الحديث ، وكان واسع الرواية في اخبار العرب ، كثير النوادر والاحاديث ، فأخذ يكتب قصة عنترة ويوزعها على الناس ، فاعجبوا بها ، واشتغلوا بها عن سواها ، ومن تلطفه في الحيلة انهُ قسمها الى اثنين وسبعين كتاباً ، والتزم في آخر كل كتاب منها ان يقطع الكلام عند معظم الامر الذي يشتاق القارىء والسامع الى الوقوف على تمامه ، فلا يفتر عن طلب الكتاب الذي يليه ، فاذا وقف عليه انتهى به الى مثل ما انتهى به في الاول وهكذا .. الى نهاية القصة .. وقد اثبت في هذا الكتاب بعض ما ورد في اشعار العرب المذكورين فيها . واضاف الى تلك الاشعار اشعاراً اخرى يبعد ان تكون صادرة عنهم ، كما اضاف اليها قصصاً واحاديث وحكايات مخترعة قصد بها التسلية والتمثيل »

فعلى هذه الرواية التي وجدت في مقدمة ديوان عنترة تكون هذه القصة كتبت في مصر كما كتب غيرها من القصص الأُخرى التي تظهر فيها المسحة المصرية والصبغة العقلية لأهل مصر من فكاهات وغيرها

نوع القصص العربية

ولقد ظهر في القرن الثالث والرابع وما بعدهما أحاديث او حكايات تدخل في باب القصص من جهة انها منمقة مكتوبة كتابة بليغة ، ولكن كثيراً منها مبني على سرد ووصف شيء رآه

الكاتب ، وسطره تسطيراً مثل ما يحكى عن اهل بغداد ومجالس الرشيد والبرامكة وجانب عظيم من هذه القصص منقول عن اللغة الفارسية وغيرها او محاكاةً لها او مؤلف تأليفاً هو اقرب الى التاريخ منه الى القصص . وبعضها كتب بلغة ملحونة فاسدة لا تحسب من الادب الصحيح مثل القصص العربية المعروفة التي كتب اكثرها بلهجة عامية مصرية . وهناك نوع من القصص التي اخذ الكتاب موضوعاتها من التاريخ العام او الخاص ومن بعض البلدان التي عاشوا فيها ، او من قصص القرآن كقصص فرعون وموسى وعيسى بن مريم ، واهل الكهف وغيرهم ، او انتزعوها من الف ليلة وليلة ، او اخذوها من تاريخ العرب والاجتماع في بغداد مثل حكاية ابي القاسم احمد البغدادي وحكاية الحداد ، وما جرى له مع هرون الرشيد ، وقصة انيس الجليس وما جرى لها مع علي نور الدين ، وهي مأخوذة من الف ليلة وليلة ، ومثل حديث علاء الدين والقنديل المسحور وكالحكايات المنسوبة الى ابي الحسن احمد بن عبد الله بن محمد البكري المتوفى في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري كغزوة الاحزاب وما جرى للامام علي الفارس الوثاب ، وغزوة الامام علي بن ابي طالب مع اللعين هضام ابن الجحاف ، وكفتوح اليمن المعروفة بقصة الغول وغير ذلك من القصص الكثيرة التي كتبت في ازمان مختلفة

المقامات والقصص

وهناك قصص أخرى أدبية مثل رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ومثل التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي ومثل قصة حي بن يقظان الفلسفية ، وهذه القصص اقرب الى الكتابة العلمية او الفنية الخاصة بالنقد الأدبي او الفلسفي .

ومن اسلوب القصص مقامات الهمذاني والحريري وامثالها وهي جارية على غير اسلوب تلك القصص العامية الحافلة بالاخطاء واللحن وليست شبيهة بها من حيث موضوعاتها لان تلك الموضوعات اما فارسية او هندية او عربية مقتبسة من تاريخ الفرسان والابطال ، قد عبث بها الخيال ولعبت بها اهواء العامة

والمقامات ليست على هذا الطراز لأنها كتبت بعبارة عربية صحيحة واخذت حوادثها من مشاهدات الكتّاب واحوال الاجتماع والعصور التي كانوا يعيشون فيها

وقد اشتملت على بعض المسائل الاجتماعية وعلى وصف بعض النفوس وكان الغرض من كتابتها اظهار البراعة في اساليب الكتابة المسجعة وانواع الشعر الصناعي وتنميق الاسلوب

اعلام الطب العربي

اسماء اشهرهم واخطر آثارهم [1]

للدكتور فيليب حتى

الاستاذ في جامعة برنستن الاميركية

لم يكن عند العرب قبل الاسلام طبٌّ علميٌّ فنيٌّ باصول . والقليل من الطب العلمي الذي كانوا يمارسونه انما كان مبنيًّا على الاختبار متوارثاً بالتقليد تعتوره تعاويذ السحرة وطلسمات الدجّال ضد الاصابة بالعين والارواح الشريرة . أما الوصفات فكانت مقتصرة على المداواة بالعسل والفصد والحجامة . وكثير من هذا الطب الساذج المتناقل عن مشائخ الحي وعجائزه نُسب فيما بعد الى النبي دون ان يكون للنبي علاقة بهِ ، على ان ابن خلدون المؤرخ النقدي في الفصل الموسوم «علم الطب» من مقدمته يتعرض لهذا الطب المسمى «طب النبي» ويذكّر القراء « انهُ صلى الله عليهِ وسلم انما بُعث ليعلمنا الشرائع ولم يبعث ليعلمنا الطب ولا غيره من العاديات »

وبعد ان ظهر الاسلام وتغلب ابناء الجزيرة على بلدان الهلال الخصيب موطن المدنية الاشورية والفينيقية القديمة فضلاً عن الفارسية واليونانية المتأخرة تلقّحت عقول ابناء العربية بلقاح علمي جديد اهم مصادره ايران واليونان فأخذوا فيما اخذوه عن الشعوب المغلوبة علم الطب فأتقنوه واضافوا اليهِ نتائج تجاربهم وأبحاثهم وتفقّهوا فيهِ الى درجة لم يبلغوها في سائر العلوم الدخيلة باستثناء الفلك والرياضيات . وفي الحديث المشهور « العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان » دليل على مبلغ الطب من خطر الشأن في نفوس العرب المسلمين

واول طبيب عربي في صدر الاسلام هو الحارث بن كلدة الذي ترجم له ابن ابي أُصيبعة في « طبقات الاطباء » وذكر انهُ تخرّج في مدارس فارس الطبية وهو الذي لقبهُ ابن العبري والقفطي بطبيب العرب . وعملاً بقاعدة تلك الايام نشأ ابن الحارث واسمهُ النّضر طبيباً كوالده ، والنضر هذا ابن خالة النبي

وبانتقال مركز الخلافة بعد العصر الراشديّ من المدينة الى دمشق ازداد اثر الطب اليوناني السرياني في الطب العربي . ومن الملحوظ ان طبيب الخليفة معاوية واسمهُ ابن أثال كان مسيحيًّا كما كان طبيب الحجاج واسمهُ تياذوق ، وهو اسم يوناني . وفي عهد الخليفة مروان بن عبد الحكم نقل عام ٦٨٣م

(١) مقدمة كتاب « معضلة السرطان » . راجع باب مكتبة المقتطف في وصفه

طبيب يهودي اسمهُ ماسرجَويه عن السريانية اوّل كتاب طبي علمي في اللغة العربية . واصل هذا الكتاب يعود الى اليونانية وهو من وضع قسّ في الاسكندرية . اما اول خليفة عُني بشؤون الصحة العمومية فهو الوليد بن عبد الملك (المتوفى عام ٧٠٥ م) الذي على ماروى الطبري وابن العبري منع المجذومين من السؤال الى الناس واقام لهم وللمقعدين والعميان مؤسسة خاصة هي على ما يظهر الاولى من نوعها .وفي خلافة عمر بن عبد العزيز انتقلت مدارس الطب اليوناني من الاسكندرية الى انطاكية وحران واخذت بالازدهار في كنف الخلافة العربية

وعقب العصر الامويّ العصر العباسيّ الزاهر . وفي مستهله وبتعضيد الرشيد والمأمون نقلت معظم الكتب الطبية اليونانية بما فيها مؤلفات أبقراط وجالينوس وبولس الايجيني من اليونانية الى السريانية اولاً ومنها الى العربية مما جعل ابن العربية وريث التقاليد اليونانية العلمية . وتلا دور الترجمة دور التصنيف . فأضاف الاطباء المتكلمون بالعربية الى الذخيرة الطبية القديمة أشياء كثيرة هامة . انما تحقيقهم هذه لم تتعدَّ دائرة الطب العام ولم تتناول علم الجراحة ولا التشريح وذلك لأن الوسائل لدرس تركيب اعضاء البدن لم تكن موفورة في الاسلام . مع ذلك يلذُّ لنا ان نقرأ في ابن أبي أصيبعة (تحرير مولر ج ١ ص ١٧٨) ان طبيباً نصرانياً اسمه يوحنا بن ماسويه (٧٧٧ — ٨٥٧) كان يعمد الى تشريح القرود وفي جملتها قرد ارسله احدهم من بلاد النوبة هدية الى الخليفة المعتصم

قلنا ان تقدُّم العرب في فن الجراحة وعلم التشريح لم يكن مذكوراً ولا بدَّ من استثناء تشريح العين وجراحتها . فان كثرة امراض عضو النظر في البلدان العربية الحارة حملت عدداً من الاطباء على الاختصاص في هذا الموضوع والتبرز فيهِ . وأول تأليف في أمراض العين هو لابن ماسويه المذكور آنفاً ومن كتابه الموسوم « دَغل العين » نسخة خطية في المكتبة التيمورية بالقاهرة وأخرى في لنينغراد . وكان لابن ماسويه تلميذ نابغ هو حنين بن اسحق (٨٠٩ — ٨٧٧) صاحب « العشر مقالات في العين » الذي نشره حديثاً الدكتور ماير هوف (القاهرة ١٩٢٨) ومن الذين لمعوا في القرن الحادي عشر بين الكحالين (أطباء العيون) في بغداد علي بن عيسى الذي كان كأسلافه مسيحياً

ويجمل بنا ان نذكر ان طبيب الاجيال الوسطى كان اكثر من طبيب . فكان فيلسوفاً وعالماً ، ولقبه العربي « حكيم » يدل على مقامه في نظر معاصريه وكان ولا سيما في بغداد والاندلس في الغالب من ذوي الزعامة الادبية والسياسية . ومن هؤلاء من كانت حرفته تدرُّ عليهِ المال الوفير . ومن امثلتهم جبرائيل بن بختيشوع النسطوري طبيب الرشيد والمأمون والبرامكة فلقد ذكر القفطي في «اخبار الحكماء» ان ثروته بلغت ٨٨٨٠٠٠٠٠ درهم (ما يوازي ٥٠٠٠٠٠٠ جنيه مصري) وهو رقم لا ريب في مبالغته . ونشأ في عائلة بختيشوع سبعة أجيال متوالية من الاطباء مما يدل ان الصناعة كانت وراثية يتناقلها الولد عن أبيه

ومن الدوائر الطبية التي امتاز العرب بالتقدم فيها دائرة العقاقير ومعرفة خصائصها واستخدامها لمداواة الامراض . فالاطباء المتكلمون بالعربية هم اول من أسس مدارس الصيدلة ووضع التآليف الممتعة في هذا الموضوع ، وذلك ابتداء من جابر بن حيان الذي زها حوالى سنة ٧٧٦ م والمحسوب بحق ابا الكيمياء العربية . ويستنتج من القفطي (تحرير ليبرت ص ١٨٨ — ٩) ان اصحاب الصيدليات في ايام المأمون (٨١٣ — ٨٣٣ م) كان لا بد لهم من تأدية امتحان والحصول على اجازة قبل معاطاة الحرفة . ثم سرى هذا القانون على ممارسي الطبابة بعد قرن من ذلك التاريخ . فبأمر الخليفة المقتدر تولى الطبيب سنان بن ثابت بن قرة فحص ٨٦٠ ممارساً في بغداد (ابن ابي أصيبعة ج ١ ص ٢٢٢) . وسنان هذا نظم حملة طبية جعلت همها التجوال من بلد الى آخر لمعالجة المصابين وتولى رآسة البيمارستان (المستشفى) في العاصمة بغداد . وهو البيمارستان الذي انشأه هارون الرشيد على الانموذج الفارسي كما هو واضح من الاسم الذي أطلق عليه

ومما يستوقف الانتباه ان جل الاطباء المصنفين بعد دور الترجمة كانوا من اصل فارسي ولكنهم من متكلمي العربية . وفي طليعتهم علي بن ربن الطبري وابو بكر الرازي وعلي بن عباس المجوسي (* ٩٩٤) وابن سينا . وكان الطبري في الاصل مسيحياً كما يستنتج من اسم والده « ربن » السرياني ولكنهُ اعتنق الاسلام لدى دخوله في خدمة الخليفة المتوكل. والطبري هو صاحب « كتاب فردوس الحكمة » الذي نُشر بالطبع في برلين عام ١٩٢٨ . اما الرازي (٨٥٠ — ٩٢٣ م) فاسمهُ يدل على انهُ من مواليد الري في جوار طهران . وهو في نظر مؤرخي الطب اعظم حكيم عربي . ذكر له النديم في « الفهرست » ١٣٣ مؤلفاً منها ١٢ في الكيمياء . واهم مؤلفاته « الحاوي » و« المنصوري » اللذان تُرجما الى اللاتينية في القرون الوسطى وما لبثا ان اصبحا المعول عليهما في تلقن علم الطب في كليات اوربا . ومن جواهر التآليف الطبية العربية رسالة للرازي في الحصباء بيَّن فيها المؤلف للمرة الاولى الفروق بين الحصباء والجدري . ولقد تُرجمت هذه الرسالة في اواسط القرن الماضي الى الانكليزية . ومن ابدع ما ذكرهُ ابن أبي أصيبعة عن الرازي انهُ تحقق النقطة الصحية المناسبة لبناء البيمارستان في بغداد بوضعه قطعاً من اللحم في انحاء مختلفة في البلدة ومراقبة سرعة سير النتانة فيها . وبعد الرازي فابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٧) هو أشهر طبيب عربي. وهو صاحب كتاب «القانون في الطب» المتضمن خلاصة الصناعة الطبية على ما مارسها اليونان والعرب في اوانه . وما لبث « القانون » ان نُقل الى اللاتينية في القرن الثاني عشر حتى اصبح بفضل حسن تبويبه وسهولة مناله الكتاب التدريسي المعول عليه في مختلف الكليات الاوربية حتى القرن السابع عشر . وبذلك ملأ المركز الذي كانت تشغله قبله كتب جالينوس والرازي والمجوسي . اما في العربية فالقانون طُبع في رومة سنة ١٥٩٣ فهو اذن من اقدم الكتب المطبوعة في هذه اللغة . ولقد ترجم بعض « القانون » حديثاً الى الانكليزية

ولنلق الآن نظرة عامة على سير الطب في الاندلس العربية . والذي نلحظه لاول وهلة ان معظم الاطباء المتكلمين بالعربية في اسبانيا كانوا فلاسفة اولاً واطباء ثانياً . ومن امثلتهم ابن رشد شارح ارسطوطاليس وابن ميمون اليهودي طبيب صلاح الدين ودفين طبرية وابن طفيل . وبرغم ذلك فانهم اتحفوا العالم بقسط غير زهيد من العالم الطبي . فابن رشد (١١٢٦—١١٩٨) ذكر في كتابه «الكليات في الطب» ان المصاب بالجدري مرة لا يصاب بها ثانية ومعاصره ومواطنه ابن ميمون (١١٣٥ — ١٢٠٤) واضع كتاب « الوصول في الطب » وجوّد عملية الختان ونسب البواسير الى قبض المعدة واشار بالمأكولات النباتية علاجاً لها

ومن العرب الاندلسيين الذين اشتهروا بالسياسة والادب وقلَّ من عرفهم بصفتهم الطبية الوزير الكاتب لسان الدين بن الخطيب (١٣١٣—١٣٧٤) وهو الذي وضع رسالة في الطاعون الذي كان يجتاح اوربا في عصره اثبت فيها ان انتشار هذا المرض المخيف الذي سماه الاوربيون « الموت الاسود » انما هو بواسطة العدوى ، وذلك في عصر لم تكن فيه العدوى ولا الجراثيم معروفة لدى احد

وثمة فرعان طبيان تفوّق فيهما رجال الاندلس اولها الجراحة وثانيهما علم النبات والعقاقير . في الاول لمع الجرّاحيُّ الكبير ابو القاسم الزهراوي (* ١٠١٣) طبيب الخليفة عبد الرحمن الثالث . وهو واضع « التصريف لمن عجز عن التأليف » وفيه اشارات الى تفتيت الحصاة داخل المثانة والى وجوب تطهير الجرح بالكيّ . ولقد ترجم الجزء الجراحي من هذا الكتاب الى اللاتينية في قرن الترجمات ، القرن الثاني عشر واصبح الكتاب المدرسي في كليات سلرنو ومنبيليه وغيرها . ومن اطباء الاندلس النابغين ابن زُهر المتوفى باشبيلية عام ١١٦٢ ولقد نسب اليه الكثيرون شرف اكتشاف صؤابة الجَرَب على ان التنقيب الحديث يثبت ان احمد الطبري الذي زها في النصف الثاني من القرن العاشر سبق ابن زُهر الى اكتشاف جرثومة هذا المرض وذكرها في كتابه « المعالجة البقراطية »

أما الخطوات الواسعة في تقدُّم علم خصائص النبات الطبية فالذي قام بها انما هو الطبيب القرطبي ابو جعفر الغافقي (* ١١٦٥) صاحب كتاب « الادوية المفردة »[1] . وهو الكتاب الذي بنى عليه مواطنه ابن البيطار (المتوفى بدمشق ١٢٤٨) شهرته الواسعة . فابن البيطار هذا على ما اثبت البحث النقدي الحديث مدين لسلفه الغافقي بالشيء الكثير . ولقد حوى كتاب الغافقي اسماء اهم النباتات في اسبانيا وافريقية الشمالية العربية واللاتينية والبربرية مع وصف علميّ لكل منها . ثم جاء ابن البيطار واضاف اليها في مؤلفه « الجامع في الادوية المفردات » حصة من نباتات مصر والشام وآسيا الصغرى التي ساح فيها . ويجب ان لا ننسى في الختام ان الاندلس كانت المركز الرئيسي لنقل مؤلفات العرب الشرقيين الى اللاتينية بحيث اصبحت مُلكاً لابناء اوربا الغربية وبذلك تمت حلقات سلسلة الاتصال بين الطب اليوناني القديم والطب العربي المتوسط والطب الاوربي الحديث

---

(١) المقتطف شرع في نشره بعنوان جامع المفردات والتعليق عليه الدكتوران مايرهوف وجورجي صبحي بالقاهرة .

ڤيرلين الشاعر

VERLAINE

لعلي محمود طه

كان فتى حالماً ، رقيق البدن ، منبسط الجبهة ، عميق النظرة ، مرح النفس . قذفت به الحياة الى معتركها غمراً ، لم تكشف له تجاربه المحدودة عن طبائع الناس ، ولم يهيئه طبعه الرقيق ، ومزاجه الحاد ، لمكابدة شظف العيش وضنك الحال ، وان هيأته روحه ليكون حيث هو الآن ، من نباهة الذكر ، وسمو المنزلة ، وخلود الاثر

ولو قد عرف « البارناسيون » ما ناطته السماء بمستقبل هذا الصبي الشاعر ، وهو يختلف اليهم من حين الى حين ، ولو قد تبين جماعة « ميلارمي » ما تنطق به مخايل هذا الشاب العابث في أبهاء الحي اللاتيني لحموه احداث الزمن ، ولما تركوه غرضاً للفاقة والتشريد والعذاب ، ولضنوا بصاحب هذه النفس الشاعرة الموهوبة والعبقرية المبدعة الفذة ، ألا يجد وهو في مستهل حياته قوت يومه ، ثم لفزعوا الى القدرة فما صرفت أمه عن العناية به صغيراً ، فشب مطلق العنان ، يرتاد المواخير ، ويدمن الخمر ، ثم لما غادر زوجه وأمه وولده هائماً بين باريس ولندن وبروكسل ليعود الى وطنه ضحية اتهام قاس ، ينال من رجولته ، ويلقي على نجمه المتوقد ، سحابة من الزراية والامتهان . ثم لما ارتفعت من حوله صيحات العار ، تلاحقه من مكان الى مكان ، فغلقت في وجهه أبواب الرزق ، وسدت على ذلك الهارب المسكين منافذ الرجاء والطمأنينة ، فمضى يستنبت الارض في الريف البعيد ، في كثير من اليأس والعناء ، وهو ذلك الروح المرح ، الذي لم يخلق لغير الشعر والغناء . ثم لما تحالف هذا الشر كله على ذلك الضعيف المكدود ، فاستبد به المرض ، فقضى غريباً وحيداً ، منبوذاً الا من امرأة بائسة مثله ، ساهمته حبه الاخير وشقاءه الاخير ، فانفظ في ظل قربها وعطفها انفاسه الاخيرة

حقاً ! ! لقد كانت حياة ڤيرلين فاجعة محزنة ، فمن الحان إلى السجن إلى الماخور الى الهيام في الطرقات ، إلى ملاجىء البر

هذا هو الشاعر الخالد . . . الذي كان ارخم صوت غنائي صدح به الشعر الفرنسي في القرن الذي أنجب هيجو ، لامارتين ، جوتيه ، موسيه ، بودلير ، رامبو ، جول لافورج ، ومالارمي وغيرهم

إن في حياة هذا المتشرد الكبير ضروباً من العبث ، وألواناً من الألم ، ولكنه العبث الذي تستقيم به حياة الفنان البوهيمي ، والذي يتيح للادب في كل جيل فنوناً شتى من الاجادة والابداع . ولكنه الألم الذي يفرض العذاب على القلوب الشاعرة فينطقها بالنغمات الفريدة الساحرة ، ويصل ما بينها وبين السماء ، فتشرب من روعة اللانهاية وصفائها ، وتمنح البشرية الوضيعة المعذبة ، لحظات من السعادة والسمو

ولد بول فيرلين في مدينة « متز » من ولايات فرنسا الشمالية ، في الثلاثين من شهر مارس عام ١٨٤٤ ، أي بعد مولد بودلير الشاعر بعشرين عاماً تقريباً ، وكان أبوه ضابطاً ممتازاً في الجيش الفرنسي ، وعند ما بلغ السابعة من عمره ، رحلت به عائلته الى باريس ، فألحقته بمدرسة خاصة ، ثم بمعهد « ليسي بونابرت » حيث أظهر فيرلين على حداثته ، تفوقاً مشهوداً في اللغتين اليونانية واللاتينية وفي علوم البلاغة والادب ، فنح جائزتها مع درجة شرف Degree of Honour ثم استمر في دراسته قليلاً من الزمن ، حتى ظفر بوظيفة حاسبٍ في احدى دوائر باريس المالية

ولكن حياة فيرلين الشاعر تبدأ عام ١٨٦٦، ففي الثانية والعشرين من عمره ، أخرج اول مجموعة شعرية عنوانها « قصائد عابسة » « Poèmes Saturniens »وبعد ثلاث سنوات نشر مجموعته الثانية «أعياد مرحة» « Fètes Galantes » فأصاب فيرلين من تينك المجموعتين ، حظاً كبيراً من الشهرة والتقدير كشاعر غنائي نابغ ، كما أصاب حظاً من التعاسة والشقاء . وكانت الأيام قد مهدت لهذه المتناقضات ، فقبل نشر ديوانه الأول بعام ، مات والده ، وعاش الشاعر الصغير في رعاية أمه ، فدللته ، وأعانته على عبث الشباب ونزقه ، بما كانت تمدُّه بهِ من المال ، فانغمس الفتى في شهواته، وانطلق يعبُّ من ملذات الحياة كيفما اشتهت نفسه الظامئة ، وشبابه المضطرم

ثم اعانته الاقدار بعد ذلك على الحياة التي بدأ يشغف بها ويستمرئها، حياة الشرود والهيام، فصادف جماعة من الشعراء البوهيميين الذين كانوا يجتمعون كل مساء في مطعم « ريڤولي » بالحي اللاتيني فما لبث ان مال اليهم واندمج في عشيرتهم .كانوا يجتمعون فيتناولون الادب والفن بالدراسة والنقد ، ويتجادلون في شؤون الشعر ، وكان لفيرلين من هذه الجماعة ، حظ كبير من الخير ، فصقلت محاوراتهم طبعه ، وأظهرته على ألوان مختلفة من الجمال والخيال ، ولكن كان لهُ الى جانب هذا الخير حظ كبير من الشرّ ، فقد حببت اليهِ عشرتهم احتساء الخمر اولاً ، وادمانها ثانياً ، وكان فيرلين رقيق البدن ، عصبي المزاج ، حاد الطبع ، وكان الخمر سمّه القاتل

وصار فيرلين بعد ذلك من المترددين على صالون « لويس كسافير دي ريكارد »فاتصل بالبارناسيين « Parnassians »جماعة « ليكونت دي ليل » ولقيت شاعريته المبدعة ، هوى وتقديراً ، من الشعراء والنقاد النابهين في الاوساط الادبية العالية ، والذين تضمُّهم هذه الجماعة ، امثال جوزي ماريا، وسوللي برودوم ، وفرنسوى كوبيه ، وكاتول منيدي وغيرهم

ولعلَّ هؤلاء خير ما صادفه الشاعر في حياته الادبية ، فقد اثبت اتصاله بهم شخصيته كشاعر مرموق الحاضر ، مرجوّ المستقبل ، كما اصبح فيهم بعد ذلك ظاهر الشخصية ، نابه الشأن

كان هذا في الفترة ما بين عام ١٨٦٦ وعام ١٨٦٩ أو ما بين ظهور ديوانيه الاول والثاني

وفي ربيع عام ١٨٦٩ قابل فيرلين فتاة تدعى ماتيلد موت Mathilde Maute اخت احد اصدقائه ، فتحابا للنظرة الاولى ، وزاد شغف فيرلين بفتاته ، كما استمرأت ماتيلد مغازلاته الغرامية ، ففكرا

في الزواج ، ولم يكن امره مستطاعاً فقد كانت ماتيلد فتاة صغيرة ، وكانت حداثة سنها تحول دون الزواج ، واخيراً ظفرا بهذه السعادة ، ولم يكن ثمتَ من سعادة يحلم بها فيرلين بعد ذلك ، فقد كان مُدلَّهاً ، يستغرقه الحب ، وكان يرى في الزواج رابطة مقدسة ، كما كان يرى فيهِ منقذاً له من نقائصه ، مطهِّراً لكلّ آثامه . ولكن هذا الحلم الجميل لم يتحقق

فقد بدأت الحرب السبعينية بين فرنسا والمانيا ، وكان البروسيون يطوقون باريس، فتطوع فيرلين في جيش المواطنين المدافعين عن مدينتهم ، وهكذا فارق فيرلين زوجه ماتيلد بعد شهور قليلة من زواجهما ، وعاشت الشابة الصغيرة في بعض غرف شارع (الكردينال لميوان) تنتظر زوجها الشاب

ووضعت الحرب اوزارها ، وعاد فيرلين الى باريس ، ولكنهُ كان قد تغير ، كان لا يزال على عهده من الحب لزوجتهِ ، ولكنهُ عاد سيرته الاولى ، مستغرقاً ، في حمأة نقائصه ، عاد فيرلين الى باريس ولكنهُ فقد وظيفته الاولى ، وكان الاسراف قد اودى بأمه الى الفاقة والعوز ، فاضطر فيرلين ان يغادر باريس ، مصحبة امه وزوجه الى « شارفيل » لا ليشاركوا والدي (ماتيلد) غرفتهم الوحيدة فحسب ، بل ليعيشوا ايضاً عالة عليهم

ولم يكن هذا كل ما اعدّته الاقدار لفيرلين في (شارفيل) فقد بدأت أخطر دقائق حياته من الاقتراب، وكانت النكبة التي لوثت حياة هذا الشاعر المسكين ، في خطاب تلقاه من شاب شاعر يدعى « آرثر رامبو» Rimbaud ضمنه اعجابه الذي لا حدّ له بأشعار فيرلين كما ضمنه شيئاً من اشعاره هو

وهكذا وجد فيرلين في هذا الخطاب رجلاً يرفعه الى مصاف العبقريين ، كما وجد في هذا الرجل شاعراً مبدعاً ، في شعره قوة جديدة وصوت جديد وخيال جديد

فاندفع فيرلين يدعو صاحبه الى (شارفيل) دون روية أو أمعان ، وحل رامبو ضيفاً على هذا الخليط المزدحم ، يشاركهم نومهم ويقظتهم ويساهمهم زادهم وشرابهم. وكان رامبو شاباً في السابعة عشرة من عمره ولكنهُ كان مخلوقاً غريباً حقاً ! ! ... كان مديد القامة ، قذر الثياب ، وكان عاطلاً ايضاً ، وكان مخبره أحطّ من مظهره ، كان شريراً بكل ما في كلمة الشر من المعاني ، وكان رجلاً سكيراً ، فظاً ، كثير اللجاج ، محبًّا للمشاكسة ، فلم تستطع ماتيلد وأمها صبراً على هذا الضيف وسرعان ما تخلصا منهُ

ولكن رامبو وجد مأوى آخر ، واستطاع أن يتصل بالكثير من الشعراء اصدقاء فيرلين ، فسرعان ما أثر فيهم وتسلط عليهم ، و من ثمّ وقع فيرلين روحاً وعقلاً تحت سلطان هذا الساحر . اما ما انتهى اليهِ أمر هذه العلاقة بين الشاعرين فقد اختلف في اكتناه اسراره الكتّاب والمؤرخون، وإن أجمعوا على أنها العلاقة الشاذة التي يتأثّمُ بها اثنان من جنس واحد . وهو ابهام لم يفرغ النقاد من تحقيقه حتى اليوم [1] . اما الذي لا سبيل إلى الشك فيهِ فهي النتائج المحزنة التي انحسرت عنها

(١) [المقتطف] علمنا من الاستاذ علي محمود طه صاحب هذا المقال ان لدى الدكتور طه حسين بحثاً طريفاً يقوّم ما تواضع عليه النقاد من امر العلاقة بين رامبو وفيرلين. فحبذا لو أتاح الدكتور لقراء « المقتطف » الاستمتاع بهذا البحث الجديد . ونغتنم هذه الفرصة لنحيي الاديب الكبير ونهنىء كلية الآداب بعودته الى احضانها

مأساة هذه العلاقة ، ولا ندحة من ان نمسّها مسّاً رفيقاً ، فقد جعلت حياة ماتيلد مع فيرلين أمراً مستحيلاً فدفعتهُ الى هجرها ، ثم ساقته وصاحبه رامبو الى انكلترا ، ثم الى بروكسل ثم اورثتهُ إدمان الخمر ، فبالغ في نشوته الى حدٍّ نال من صحته ، وأوهن أعصابه ، واوقعه في مرض « الباسومانيا » Pasomania . ثم استمرّت المأساة في عملها ، فدفعت الشاعرين الى الخصام الشديد ، ثم رفعت يد فيرلين بالنار يطلقها على صاحبه مرات ، فاذا صاحبه جريح ، واذا فيرلين رهين سجن « موز » ثم تخلص المأساة من رامبو ، لتتصل بحياة فيرلين وحده ، فيخرج من السجن بعد عامين ويعود الى فرنسا ثم يحصل على وظيفة مدرس بأحد المعاهد ليفقدها بعد زمنٍ قصير ، ثم يضيق به الحال ، فيذهب بأمه الى (إردن) مؤثراً فلاحة الارض ، ولكنهُ لا يصيب حظّاً من النجاح ، فيغادر فرنسا كلها ويعود الى انكلترا للمرة الثانية ، ثم يحن الى وطنه فيرجع اليهِ عام ١٨٧٨ ويظفر بمنصب استاذ في كلية « رتل » Rethal ومنها الى باريس ، واذا بالمتشرد الكبير يظهر مرة اخرى في الحي اللاتيني ، ويتصل بأصدقائه القدماء ، من الشعراء الرمزيين ، روّاد هذا الحي . ثم يبسم له الحظ قليلاً فينشر مجموعة جديدة من شعره وكتاباً آخر في تصوير بعض الشخصيات الادبية ، فيصيب من وراءها بعض المال ، وكثيراً من الشهرة والمجد ، ثم يعبس الحظ له الى الابد ، فيتخطف الموت أمّه عام ١٨٨٦ ويقع فيرلين تحت وطأة المرض هيكلاً محطماً ، ولكنهُ رغم هذا لم يقلع عن إدمانه الخمر ، ثم تذهب بهِ المأساة الكبرى الى نهاية الشوط ، فتأبى ماتيلد الصفح عنهُ ، وترفض لقاءه ، وتستأثر وحدها بطفلهما الوحيد ، وهكذا يقف فيرلين حيال العالم وحده ، ثم تعبر بهِ عشر سنوات أخرى وهو يضرب في هذا التيه الغاص والعذاب المطلق حتى يصادف « اوجيني كرانتس » فيؤلف بينهما البؤس ويصدح بلبل الحبّ فوق طلل هذا القلب الموحش الحزين ، فينتمش قليلاً ولا يكاد يخفق للحياة الجديدة ، حتى تتألب عليهِ الامراض فيعجز عن مقاومتها ، فيصرعهُ الموت ، وبذلك تنتهي حياته او مأساتهُ المفجعة عام ١٨٩٦

كان فيرلين شاعراً غنائيّاً محبوباً ، وقد ظهر ميله الى الشعر ايام دراسته الاولى فاظهر في قرضه مقدرة ونبوغاً لا يتكافأ معهما عمره الصغير . اما ديوانه الاول « قصائد عابسة » فقد كانت عملاً فنيّاً رائعاً ، وكانت كلها شعراً غنائيّاً تضطرد بهِ الموسيقى اضطراداً عجيباً ، تجد في بعضها الاناقة والجمال وفي بعضها الآخر العظمة والرقة . ولعلَّ اجملها قصيدته في الخريف أترجها شعراً وان كانت الترجمة تفقدها اجل ما فيها وهو الموسيقى

تنهدات الرياحِ
رتيبة النواحِ
تجرح قلبي بها قيثارةُ الخريفِ
وثمَّ صوت عابرْ

من السنين الغوابرْ
يهزُّني فأصغي للهاتف المطيفِ
ويستفيض خيالي
بالذكريات الخوالي
انشدها فأبكي بالمدمع الذريفِ
وعند ذا تحملني
كورقةٍ من فَنَنِ
قد ذبلت وانطلقت في العاصف الشفيفِ

وما كاد ديوانه الثاني « اعياد مرحة » يظهر في المكاتب ، حتى اقبل عليه الادباء ، وكان حظه عظيماً من الناقد الكبير « سانت بيف » فبدأ يكتب عن فيرلين الشاعر ، كاكتشاف جديد ، وذخيرة نفيسة في الشعر الفرنسي ، كما كتب عنهُ الكاتب الكبير فرنسوى كوبيه فوصفه بأنهُ خلق شعراً يمتاز بطابعه الفردي ، ويسترعي ارق اهتزازات العصب الانساني ، وان قوافيه واوزانه تجمع بين الحرية والترسل في اسلوب كله قوة وكله عذوبة واستعارات رائعة وموسيقية فريدة

والحق ان ديوانهُ الثاني « أعياد مرحة » كان لهُ من عنوانه نصيب عظيم ، فكانت قصائده اكثر احتفالاً بالبهجة ، وهكذا تكون روح الشاعر ، فغناؤها يترجم دائماً عن شعوره بالحياة ، وتأثره بأفراحها وأتراحها ، فهي في ديوانه الأول تغشاها الكآبة ، وهي في ديوانه الثالث Romances sans Parole الذي نظمه في السجن ، تتجاوب بأصداء الألم الذي تضطرب بهِ روح الطائر الحبيس ، وهي في ديوانه الثاني مرحة تصدح بالفرح ، وتغرد بالأمل الجميل . وكما انطق البؤس فيرلين كذلك انطقهُ الحبُّ ، ولم يكن غرام ماتيلد عبثاً محضاً ، فقد ألهم فيرلين أرقَّ اشعاره وأعذب أغانيه وكشف عن جوهر روحه الصافية ، وإبداع عقله ، فمن العيون الضاحكة ، ومن الشعر الاشقر المتموّج ، ومن هذا الصوت الرخيم ، استمدَّ فيرلين الوان خياله المتلألئة ، ومرح قوافيه ، وروعة انغامهِ ، ولعلك تحسُّ هذا كلّه في هذه القصيدة — :

هذا هو القمر الفضيُّ يملأ الغابة نوراً
وثمَّ صوتٌ ساحر يهتف تحت كل فرع
ومن ذؤابة كل غصن « يا محبوبتي »
هذا هو الغدير الرقراق كصفحة المرآة
يسبح فيه خيال الصفصافة السوداء
حيث تئنُّ الريح
ألا فلنحلم يا حبيبتي فتلك ساعتنا

فالكون يلفه السكون ويهفو به الحنان
كأنما تسلسل اللانهاية المشرقة الوانها
ألا انها الساعة المنتظرة

وليست اشعار فيرلين كلها بهذه البساطة ، نعم ان منها ما يعد من الاغاني الشعبية ، ولكنهُ أيضاً كان شاعراً رمزيًا عميقاً ، ومن الواضح ان فيرلين تأثر في مستهل حياته بالنمط الكلاسيكي ،ايام اتصاله بجماعة « ليكونت دي ليل» ولكنهُ لم يستسغهُ ، ولم يرضَ عنه وجدانه ، فصدف عنهُ الى طبعه الاصيل . ولكن من الواضح جدًّا ان فيرلين تأثر ببودلير الى حد ما ، فقد أسلفنا القول ان بودلير سبقهُ بنحو عشرين عاماً ، ولعلَّ الجانب الرمزي في بودلير هو الذي استهوى فيرلين ، بيد ان الفرق بين الرجلين كان بعيداً جدًّا ، فهما يختلفان في الطبع وفي النظرة الى المرأة ، فقد كان لفيرلين طبع لين ، ونفس رقيقة رغم مزاجه الحاد ، ثم انهُ كان يحب المرأة حبًّا اقرب الى الروحانية منهُ الى الشهوة المجردة ولم تفسد المرأة حياته ولكنهُ الذي افسد حياتها . ولكن بودلير كان شهوانيًّا الى حد بعيد ، وكان ذا فلسفة خاصة فقد رمى القدر في احضانه بنسوة يستمرئنَ متعة الجسد، فراح ينشد من وراء فلسفته «حواء» اخرى لا تتصل بطريدة الجنة. لقد كان بودلير ضحية المرأة اما فيرلين فكان ضحية الخمر

ان أهمية شعر فيرلين في موسيقاه ، تلك الموسيقى التي وصفها النقاد بالموسيقى الموزارية نسبةً لموزار الموسيقي الالماني العظيم ، ففيرلين من هذه الناحية من طائفة فيلون،وهايني،وادجار إلن بو ، ولكنه زاد عليهم تلك اللغة البارعة التي استحدثها في شعره ، فهي لغة لها أهمية موسيقاه . لقد سكب فيها كل ما اضطرم به قلبه من الامل والحماسة والحب والقوة ، وكل ما اضطرب بين جوانحه من الاحلام والكآبة والمرح . ويجدر بي القول قبل ان أختم هذه الدراسة ، ان فيرلين لم يعش خامل الذكر في جيله ، ولا منكور الأثر ، فقد رأى بعينه تألق نجمه في عالم الشعر ، وشهد أشعاره مترجمة الى غير لغة واحدة ،وسمع أغاريده تملأ افواه الشعب الفرنسي ، كما سمع الكثير من إعجاب أعظم كتّاب جيله شأناً وأخطرهم رأياً ،وكان الاعتراف بمكانته من المدرسة الرمزية الحديثة أمراً مسلماً ، ولكن املاً واحداً من آماله الكثيرة الضائعة ، لم يتحقق ، فأضاف إلى عذابه الروحي وشقائه المادي ، شقاءً آخر وعذاباً جديداً ظلَّ يحزُّ في قلبه حتى وقف عن ضرباته . فقد دفعه بؤسه ، وعار علاقته برامبو ، أن يخلص منها ويمحوها بترشيح نفسه «للاكاديمي فرنسيز» ويشير بعض النقاد إلى أسباب أخرى ترجع إلى غروره في ايامه الاخيرة واعتداده بنفسه ، ولكن من المحقق أنه كان يطمح الى الظفر بقوة الاحترام ، وإلى مكافأة الاكاديمية الضئيلة لينعم بالراحة بين دنان الخمر ، وكان يرى في تحقيق هذا الامل مجداً خطيراً يتوّج حياته بالخلود . وقد وصف النقاد ذلك بأنهُ « كوميديا خطيرة» كما عابوا عليه طموحه «لذلك القبر المزخرف البغيض الذي يشد القريحة ويطفىء النبوغ » . ولكن الزمن حقق بعد مماته ما عجز عنهُ في حياته فرفعهُ الى مصاف العبقريين وكتب اسمه في ثبت الخالدين

بين الحياة والموت

عقيدة عالم كبير

للسر أرثر كيث

احسُّ في قرارة نفسي بإحجام عن بسط عقيدتي في الانسان والحياة وما بعد الحياة وقد يكون الباعث على ذلك ولادتي في اسكتلندا ونشأتي الدينية بحسب طقوس فريق «البرسبيتيريان» من شيعة البروتستانت . وقد يكون لهذا الإحجام صلة بعمري ، فقد تخطيت السنة السادسة والستين وأصبت قسطاً يسيراً من الحكمة العالمية . ولكن الباعث الحقيقي على احجامي انما هو الخشية او الخوف . فانا بحكم الطبع احد الناس . واخشى كما يخشون القطيعة الاجتماعية . ولا ريب في انني اسير في سبيلها يوم افكُّ الختم عن حرم نفسي وأبيح للناس المعتقدات المسيطرة على سلوكي ونظري الى الكون . ولا ريب في ان عملاً كهذا ينطوي على خطر . فهذه المعتقدات موسومة بسمة الشعور العنيف ، لانها اصبحت جزءاً منا ، واننا لنعجز عن المناقشة العلنية فيها من دون ان نتهجم على رجال ونساء نحن في حاجة الى الاحتفاظ بمحبتهم وصداقتهم . لذلك يؤثر معظمنا ان يلتزم جانب الصمت في هذه الناحية

ولكنَّ طلب المحرر حملني على ان اخرج على خطتي هذا . وهانذا اكتب وقد وطّنت العزم على ان اصارح نفسي وقرائي معاً . اقول هذا وأنا اعلم ان بعض قرائي قد يمتعض لما اقول ، ولكنني ارجو ان يكون اعترافي هذا سبيلاً الى تعزية آخرين

تباين المعتقدات

انا لست وحيداً في هذا العالم . بل ثمة في هذه الدقيقة نحو ١٧٥٠ مليوناً من الناس ، سائرين في طريق الحياة . ومنهم ملايين ، مثلي ، بدأوا الرحلة بارث مجيد من المعتقدات الصالحة ، ولكنهم بعد ان رأوا ما رأوا وسمعوا ما سمعوا وتعلموا ما تعلموا اخذوا ينبذونها معتقداً معتقداً . اما انا فلم يكن الانقلاب الذي وقع لي انقلاباً فجائيًّا او رؤيا من نوع الرؤيا التي ظهرت لشاول في طرسوس . ولكن توالي اختباراتي وتجاريبي اليومية ، اقنعتني رويداً رويداً بأن العقل دون الايمان هو رائدي في الحياة

ولسنا نجد بين الناس اثنين يقطعان رحلة الحياة في طريق واحدة . فقد تحدث لاثنين او اكثر منهم الحوادث نفسها ، ولكن اجتماع هذه الحوادث وتفرقها ، يختلفان في حالة كل واحد منهم

عنهما في حالة الآخر . فحياة كل انسان انما هي مغامرة فذة تختلف عن مغامرة الآخر . واذا كانت عقائدنا تختلف باختلاف الطريق التي نقطعها في حداثتنا ، فعقائد الناس يجب ان تختلف اليوم اختلافاً بيّناً او يسيراً ، فلا تماثل منها عقيدتان كل التماثل

وما زال الانسان مطبوعاً بطابع السؤال والبحث ، فمن المتعذّر ، ان تصيب اتفاقاً تامًّا في العقائد . وبقدر ما تختلف سبلنا في الحياة تختلف عقائدنا كذلك . ومعظم الناس مقضيٌّ عليه بأن يسير في السبيل الممهدة امامهُ .وهم في الغالب لا يملكون من الفراغ او الرغبة ما يمكنهم من دراسة ما يعرض لهم من ضروب الاختبار وتمثيلها . وقليل من الناس من يتاح لهُ ان يختار طريقهُ ويخططها

لا ريب في ان الكنيسة تستميل الى ناحيتها عقول الاحداث الجادَّة التواقة الى الكشف عن اسرار الكون والحياة . فهي تمهد لهم الطريق الفذَّة الى الحقائق الازلية ، او تبدو كأنها تمهد لهم تلك الطريق . وقد يتاح للكاهن ان يستخلص افضل ما للفكر الانساني عن طرائق الله . بل هو يستطيع ان يتبين في رعيته الطرق التي يسلكها الناس الى الله ، فيقتنع ان قلوب الناس تنطوي على رغبة ملحة في الوصول الى عقيدة راسخة

وقد مضت قرون على الكنيسة وهي تستميل الناس اليها من هذه الناحية . ولكن العلم اخذ ينافسها في ذلك في العصر الحديث ، حتى ليدهش الباحث اذ يرى كثرة الشبان الذين يقفون حياتهم على طلب المعرفة وتوسيع نطاقها . وقد مضوا في كل سبيل يرودون ويستطلعون وعادوا بحصاد غني من الحقائق . ونحن لا يسعنا ان نغضي عن حصادهم هذا لانهم لا يستطيعون ان يتبينوا اسرار الكون والخلق من دون ان يبدعوا نظماً فلسفيةً لتعليل ما شاهدوا وحققوا . ومما لا ريب فيه ان التحوُّل في نظر الرجال والنساء الذين ساروا في هذه السبل الجديدة اعظم من التحوُّل الذي اتى على غيرهم ، وهم لذلك لايستطيعون ان يتمسكوا بالصور الفلسفية القديمة الخاصة بالمادة والعقل

وهذا القول يصدق بوجه خاص على رجال مثلي قضوا الشطر الاكبر من حياتهم في دراسة المادة الحية ، وبوجه خاص اذا كانت تلك المادة مفرغة في قالب الجسم البشري

وقد اتاحت لي الطريق التي سلكتها فرصاً قلّما تتاح لغيري . فقد قادتني الى حيث تمكنت من فحص المكتشفات الخطيرة المرتبطة بنشأة الانسان ومكنتني من دراسة احدث واتمّ ما عرف عن جسم الانسان ودماغه .وحقي الوحيد في ان اعرض فلسفتي الخاصة للقراء ، قائم على ما اصبتهُ من الخبرة في هذا السبيل الذي سلكتُ

ولكن قبل ان ابدأ اعترافي ، اودُّ ان اشير الى مسألة اخرى على سبيل التمهيد . فقد قلت اننا لسنا نجدُ اثنين من ملايين المواليد ، يقطعان رحلة الحياة في طريق واحدة . ومما لاينازع فيه كذلك اننا لسنا نجد اثنين يستهلان رحلة الحياة بزاد واحد من قوى الجسد والعقل .فعلى كلٍّ وجه سمة شخصية خاصة ، عند انبثاقه من الرحم . وكل طفل حين يهلُّ على الارض يهلُّ ببصمة على انامله خاصة به دون

غيره . وما يصدق على وجوه المواليد وبصمات اناملهم يصدق على ادمغتهم كذلك . ففي الدماغ ١٨٠٠٠ مليون خلية عصبية دقيقة لا ترى الا بالمكرسكوب . وهذه الخلايا مقسمة طوائف كل طائفة منها متصلة بالطوائف الاخرى ، وخطوط الاتصال بينها تزري باكبر لوحة تليفون واكثرها تعقيداً . فلست تجد بين هذه الخلايا العصبية خلية واحدة منعزلة عن الاخرى . وجميعها يشترك في تناول الرسائل التي تنهال على الدماغ عن طريق العيون والآذان والاصابع والاقدام وغيرها من اعضاء الجسم

هذا السيل المتدفق من الرسائل يبدأ عند الولادة ولا يقف حتى الموت وهو اساس اختبارنا فاذا تفهمنا هذه الصورة لبناء الدماغ وصلته بخبرة الانسان وتجاريبه ، سهل علينا ان نفهم كيف ان هذه الصورة الجديدة تؤثر في تغيير معتقداتنا او في بعضها على الاقل

هل الدماغ مزدوج التركيب ؟

عُني المشتغلون بالمباحث الطبية عناية خاصة بدماغ الانسان . فوجدوا تركيبهُ معقداً كل التعقيد وطرق تأديته لعمله مبهمة يصعب الكشف عنها . ومع ذلك ثبتت لهم حقيقة عامة ثبوت الشمس في رائعة النهار هي ان تعقيد تركيب الدماغ ومقدرتهُ على تأدية عمله يسيران جنباً الى جنب. فالعقل لهُ اساس مادي . راقب دماغ الطفل من ولادته الى المراهقة تر دماغهُ يكبر حجماً ويزداد تركيبهُ تعقيداً وانهُ كلما نما كذلك اتسع نطاق عمله .فاذا اصيب الدماغ في مرتبة من مراتب النمو بعلة اوقفتهُ عن النمو ظلت مقدرة صاحبه العقلية حيث هي لا تنمو ولا ترتقي . كذلك ترى ان مرضاً من الامراض اذا اصاب هذا الجانب من الدماغ او ذاك عطل الملكة العقلية التي مركزها في ذلك الجانب المريض . فالتهاب الدماغ السحائي اذا اصاب دماغ طالب في المدرسة اوقف نموه العقلي وترك في خلقه اثراً باقياً هو دائماً اثر سيء ولن يكون اثراً صالحاً قط . فانتظام العقل لا يمكن ان يتم الا اذا كان الدماغ صحيحاً في بنائه سليماً من الامراض والآفات . وفي امكان الاطباء ان يخدروا الدماغ فيضعفوا عمل بعض اجزائه فتضعف الملكات المتصلة بها وان يحقنوا بعض الاجزاء الاخرى بمواد مختلفة فيغيروا بذلك عقل الرجل وتصرفهُ . وبكلام آخر ان الدماغ آلة حية تحرق الوقود وتحول القوة التي تنجم عن ذلك الى شعور وفكر وذاكرة وغيرها من الملكات العقلية والنفسية . فاذا امسكنا عن الدماغ مصادر الوقود الذي يحرقهُ — اي الاكسجين — وقف الدماغ عن العمل كما تخمد النار اذا حُبس عنها الهواء او نفد الوقود . ولذلك لا يرى المشتغلون بالمباحث الطبية سبيلاً الى الاعتقاد بان الدماغ عضو مزدوج التركيب مؤلف من مادة وروح . لان كل حقيقة تمكنوا من امتحانها واثباتها تحتم عليهم القول بان العقل والروح انما هما مظهران من مظاهر دماغ حي، كما ان اللهب مظهر من مظاهر شمعة تحترق . فاذا اصاب الدماغ والشمعة ما حلهما الى عناصرهما المستقلة بطل وجود العقل واللهب وجوداً مستقلاً . ومهما تعارض هذا الرأي مع التقاليد والآراء المنقولة فرجال

الطب لا يستطيعون ان يروا غير هذا الرأي اذا صدقوا ما تثبتهُ حواسهم . ولولا ذلك لما كان في امكانهم ان يشخصوا الامراض العقلية وغيرها ويصفوا لها طرق العلاج والوقاية . فالروح اذاً في نظر رجال الطب تقيم في الدماغ والجهاز العصبي المعقد التركيب ولا يمكن فصلها عنهما . على ان هذا الرأي لا يسلّم بهِ طائفة من رجال العلم الذين اشتهروا ببراعتهم في الكشف عن اسرار المادة وبنائها وعلاقتها بالطاقة . وفي مقدمة هؤلاء السر الفر لدج . ان نظره الى دماغ الانسان قائم على الاعتقاد بأن الدماغ اداة مادية لوحدة غير مادية يسميها الروح والروح في رأيهِ متميزة عن الدماغ تميّز الموسيقي عن القيثار الذي يعزف عليهِ . وهو مسوق الى هذا الاعتقاد لانهُ يستطيع ان يفسر بهِ اكثر المظاهر التي يعتقد في صحتها اصحاب المذهب الروحاني . فالروحانيون يعتقدون ان العقل او الروح يجيء من الفضاء فيأخذ بتلابيب البروتوبلاسمة الحية ويجعل منها جسداً حيًّا ثم يستعمل هذا الجسد أداة لمظاهره ثم لا يلبث ان يتجرد عن هيكلهِ المادي ويرجع الى الفضاء . والفرق بين الرأيين ان البيولوجي العصري يقدم الجسم والشمعة على الروح واللهب والروحاني يعكس الأمر ويقدم الروح على الجسد واللهب على الشمعة

خلود الحياة

أنا أرى ان الحياة نسيج خالد . وأرى اني والسر الفر لدج وجميع المخلوقات البشرية على الارض لسنا سوى دقائق لا تُرى لصغرها في هذا النسيج الفسيح . فنسيج الحياة الذي نراه الآن على نول الزمان انما هو القطعة الاخيرة من ثوب سابق متصل الاجزاء بدأ في جوف الزمان المتغلغل في القدم وهو كذلك القطعة الاولى في ثوب لاحق متصل بهِ لا نستطيع ان نرى نهايتهُ . اقول هذا ولا اجهل ان علماء الهيئة الذين درسوا الشمس وعمرها يرون انهُ لا بدَّ ان يحلَّ زمن تصبح فيهِ هذه الارض داراً غير صالحة للاحياء امثالنا . ولما كانت هذه الضربة لن تحلَّ فيها قبل انقضاء ملايين من السنين او عشرات ومئات الملايين فيصح القول بان خلود الحياة الانسانية عليها امر مقرَّر بالنسبة الينا . انا اؤمن بالخلود .. والسر اولفر لدج يؤمن بهِ كذلك . ولكني اؤمن بخلود الحياة الانسانية على المنوال الذي قدمت . فاذا خلدنا فانما نحن نخلد في ابنائنا واحفادنا . وكل انسان يولد وفي جسمهِ عناصر الخلود . ولكن السر اولفر لدج يؤمن بخلود الشخصية المستقلة

على ان السر اولفر لدج قائد مجرَّب له مقام رفيع بين جنود العلم الطبيعي الذين يحاولون ان يسلبوا الطبيعة اسرارها ويسيطروا على قواها . وانا لست سوى جندي في جيش الاطباء الذي يحاول ان يسيطر على الامراض ويديل من سطوتها على حياة الانسان . ونحن نرى اننا لن نفلح في حربنا مع الجراثيم الاَّ اذا درسنا الحياة واساليبها في اعضاء الانسان على اختلافها ودماغهُ واحد منها. ولا ريب في انهُ فرض واجب علينا ان نستعين باخواننا علماء الطبيعة وما كشفوا عنهُ من اسرار

المادة وتركيبها وخصوصاً بناء المادة الحية. الاَّ اننا نرى ان تأليف مجلس علمي للنظر في حياة الانسان لا بدَّ انهُ يحتوي بين اعضائهِ على الاطباء ولا بدَّ ان يكون لهؤلاء كلمة مسموعة فيهِ

طبيعة الموت

اذا فحص طبيب قلب مريض ووجد انهُ وقف عن الضرب وان رئتيه توقفتا عن التنفس حتم بان الرجل قد مات. ولكن الحقيقة انهُ لم يمت في نظر العلم. لانهُ اذا استطاع الطبيب ان يبني اداة تمكنهُ من حقن شرايين هذا الرجل الميت بدمٍ جديد فيهِ عنصر الاكسجين عاد الى الرجل رشدهُ وذاكرتهُ وعقلهُ وتمتع بهما ما زال هذا الدم الجديد يحقن في عروقهِ. ولكن اذا وقف الدم بما فيه من الاكسجين عن الدوران عشر دقائق انتقلت ملايين الخلايا التي يتألف منها الجسم الى هوَّة الموت السحيقة من غير امل في العودة منها

والقلب يبقى حيًّا بعد موت الدماغ — قد يبقى حيًّا ساعتين او اربع ساعات او اكثر من ذلك حتى بعد صدور الشهادة الشرعية بحصول الوفاة. وقد يؤخذ قلب من جسد ميت وتعاد اليهِ الحياة بوسائل صناعية فيعود ينبض كانهُ في صدر صاحبهِ الحيّ. كذلك تبقى اغشية الشرايين تبدي دلائل الحياة اربعين ساعةً بعد موت صاحبها. والجسم الحيّ مكوَّن كما لا يخفى من الوف الخلايا الدقيقة التي لا ترى الاَّ بالمكرسكوب وقد ازال علماء الطب بعض هذه الخلايا من فتى ميت وحفظوها حية في معاملهم الطبية زمناً كان فيهِ الجسم الذي اخذت منهُ قد عاد الى التراب

فالموت لا يحدث في لحظة كخطف البرق. والجسم الميت يموت تدريجاً كما يفنى شعب من الجوع في مدينة محصورة، الضعاف يموتون اولاً ثم يموت الباقون بحسب ضعفهم وقوتهم على مقاومة الجوع. فاذا كان سبب الموت، كما يعتقد السر الفر لدج، خروج الروح من الجسد وجب ان يكون هذا الخروج في لحظة واحدة اي من جميع اعضاء الجسد وخلاياه في آنٍ واحد. ولكنهُ كما رأينا فعل تدريجي. واذا كان اساس الحياة في الانسان روحاً غير مادي فكيف يحتاج الى اشياء مادية كالهواء والماء والغذاء لحفظ الحياة. اذا دخل روح الى بيتي في الليل ووجدت في الصباح انه أكل طعامي وكرع خمري وسرق نقودي حكمت ان هذا الروح مادي لا اثيري. هذا هو المبدأ الذي يبني عليهِ البيولوجي نظره الى روح الجسد البشري. انهُ يرى انهُ يحتاج الى غذاء مادي وانهُ يجب ان ينفق المادة ويحول القوة وان الوعي والشعور والذاكرة والارادة وكل المدارك التي تجملها لفظة العقل تزول من الدماغ الحي اذا حبسنا عنهُ الاكسجين. فالحياة كما نعرفها لها أساس مادي والعالم الفسيولوجي لا يستطيع ان يتصور كيف يمكن وجود الحياة منفصلة عن المادة. فحياة العقل وخلوده لا يمكن ان ينمَّا من غير حياة الجسد وخلوده

الجسد الميت شمعة قد طفئت. فماذا نعرف عن الشمعة المشتعلة المضيئة — ماذا نعرف عن الجسم منيراً بشعلة الحياة؟ اننا نعلم كيف تنار شمعة الجسم الحي اذ يلزم لها نور شمعة اخرى حتى

تنيرها وقد تقدمنا كثيراً في هذا الميدان من ميادين العلم . لقد مرَّ قرن واحد فقط منذ رأى الانسان للمرة الاولى في التاريخ دقيقة من البروتوبلاسمة تدعى البيضة التي منها تنشأ كل حياة انسانية ونحن نستطيع الآن ان نتتبع كل درجة من الدرجات التي تمرُّ بها هذه البيضة حتى تصير رجلاً او امرأة . فقد تتبعنا في رحم المرأة كل تغيير يطرأ على جسم الجنين من بنائهِ البسيط بعيد التلقيح الى هذه الاجسام التي تحير اللب في تعقيد بنائها وغموض الاسرار التي تحتجب وراء افعالها ووظائفها. كلٌّ منا يبدأ خلية من البروتوبلاسمة لا تكاد ترى بالمكرسكوب لصغرها . وكلٌّ منا ينتهي بجسم مؤلف من الوف الوف الخلايا . وفي استطاعتنا ان نرى جماهير من هذه الخلايا مسوقة لتقوم بعمل الجهاز العصبي وجماهير اخرى بنات عم لها تبنى منها الآلات العضلية الحية واخرى تبنى منها العظام واخرى يتركب منها الدم او الجلد او غير ذلك من انسجة الجسم واعضائهِ . كذلك نستطيع ان نراقب نشوء عضوي الحس الدقيقين في تركيبهما ووظيفتهما أعني العين والاذن . حتى في ساعة الموت تكون بعض الخلايا قد اشرفت على الولادة والبعض قد اشرف على الموت والخلايا الاخرى فيما بين هذين الطرفين في مراحل مختلفة بين الولادة والموت . فكأن جسد الانسان يولد ويموت كل يوم . وفي كل ساعة ترى روح الحياة او قوة الحياة تتحوَّل اعمالاً صالحة او طالحة

فكيف نستطيع ان نعلل هذه التغييرات العجيبة التي تطرأ على خلية واحدة من المادة الحية فتحولها الى رجل عاقل؟ أصحيح ما يذهب اليهِ السر الفر لدج من ان وحدة اثيرية ، او روحاً بشرية دخلت هذه الذرة من البروتوبلاسمة وحركت دقائقها وجعلتها تمرُّ في ادوار النمو والنشوء المعقدة لكي تبتني لها داراً ارضية زائلة . انها لا تكاد تشرع في تكوين هذه الدار حتى تدخل عناصر الانحلال تفسد عليها عملها عاجلاً او آجلاً . كلاّ انهُ لأسهل ولأقرب للعقل ان نعلل الحقائق المعروفة عن الحياة بانها افعال وتفاعلات حيوية مادية بدلاً من ان ننسبها الى فعل وحدة خفية غير مادية كالتي يذهب اليها السر الفر لدج

لماذا يبدأ كل من البشر حياتهُ في رحم امرأة؟ إذا صح ما يذهب اليهِ السر الفر لدج من ان الجسم ليس سوى دار للروح فاننا لا نستطيع ان نعلل التلقيح وتكوين الجنين في رحم الانثى . ولكن اذا قبلنا مذهب النشوء — والادلة على وجوب قبوله كثيرة — استطعنا ان نعلل ابتداء حياة كل انسان في خلية الانثى بعد اتحادها بخلية الذكر وكيف ينمو جسم الجنين ويتطور لان مذهب النشوء يقتفي خطوات الانسان منذ ظهور الحياة على الارض . وتاريخ الانسان الجنيني يلخص هذا التاريخ المديد . فالبيولوجيون يحسبون نوع الانسان جزءا من نسيج الحياة الذي تغلغلت اوائله في جوف الزمان. فما يصحُّ على الانسان يجب ان يطبق على الاحياء الاخرى التي تتكوَّن منها اجزاء هذا النسيج فاذا قلنا بروح غير مادي لتعليل حياة الانسان لم نستطع ان نمسك عن تطبيق هذا التعليل على حياة الاميبا وهي ادنى الاحياء وابسطها تركيباً

خليل شيبوب

انشودة الصباح

يا كائنات افسحي ويا دجى تزحزحي
ويا سماء سبحي
الفجر لاح

ويا بحار انشدي ويا طيور غرّدي
ويا مسافر اهتد
هذا الصباح

سلام على الكائنات سلام يجدّد فيها قواها العظام
ويبعث فيها الهدى والسلام

مناظر الجبالِ بالنور والظلام
في باذخ الجلال
تعظم

وغورها المريبُ بعيدهُ قريب
وسحره العجيب
يبسم

تبهرج في الافق الوانه وعاد الى القلب ايمانه
وزالت عن الصدر اشجانه

يا نائمين استيقظوا من نومكم واتعظوا
الكون هبَّ يلفظ
شكر الاله

تنفّس الصباحُ وانطلق المراح
واحمد السراح
الى الحياه

فبعداً لليلٍ قضى وامّحى وقرباً لنور زها موضحا
واهلاً وسهلاً بشمس الضحى

منبر الرسول وتطور المنابر

المقصورة والمحراب المجوف

بقلم جناب الكبتن كرسويل استاذ العمارة الاسلامية بالجامعة المصرية
ونقله الى العربية السيد محمد رجب بوزارة المعارف

المنبر (١)

كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم يخطب وهو مستند الى جذع نخلة (٢) مثبت في الارض ولكنهُ في سنة ٧ هجرية (٦٢٨/٩ م) كما روى الطبري او في سنة ٨ او ٩ هجرية كما روى آخرون اتخذ منبراً من خشب الاثل الذي كانت تنمو اشجاره بوادي الغابة (٣) ويقال ان الذي صنع هذا المنبر رومي يدعى باقوم او باقول (٤)

وكان هذا المنبر كرسيًّا ذا ثلاث درجات (٥) يجلس النبي على الدرجة الثالثة منهُ وهي العليا واضعاً قدميه على الدرجة الثانية . وكان ابو بكر الخليفة الاول يجلس على الدرجة الثانية ثم لما تولى عمر الخلافة صار يجلس على الدرجة الاولى واضعاً قدميه على الارض . وقد كان هذا المنبر الذي نصادفه

---

(١) رغب الينا اخواننا في ان نردف ابحاث جناب الكبتن كرسويل التي نترجمها عنه ببعض النصوص العربية من المصادر المعترف بها عند المسلمين . فنزولاً على رغبتهم قد أضفنا الى هذا البحث بعض النصوص العربية التي وجدنا فائدة في اضافتها . وفي كثير من الاحيان وجدنا هذه النصوص مكررة في كثير من الكتب فآثرنا ان نثبت نصاً او نصين وان نشير الى البعض بذكر الكتاب ومؤلفه ورقم الصفحة والجزء وضربنا صفحاً عن الباقي (المعرب)

(٢) . . عن ابن عمر « كان النبي (صلعم) يخطب الى جذع فلما اتخذ المنبر تحول اليه . . . الخ » صحيح البخاري طبع ١٣١٤ جزء ٤ ص ١٩٥

. . . وعن جابر بن عبد الله قال « كان النبي (صلعم) يخطب إلى جذع قبل ان يتخذ المنبر . . . الخ » مسند احمد بن حنبل جزء اول ص ٢٤٩ وايضا سنن الدارمي جزء اول ص ٣٦٧

. . . وعن جابر بن عبد الله قال « كان جذع يقوم اليه النبي (صلعم) فلما وضع له المنبر سمعنا للجذع مثل اصوات العشار . . . الخ » صحيح البخاري جزء ٣ ص ٩ (المعرب)

(٣) . . . عن سهل بن سعد قال « كان من أثل الغابة يعني منبر رسول الله صلعم » مسند احمد بن حنبل جزء خامس ص ٣٣٥ (المعرب)

(٤) يؤكد آخرون ان هذا الرومي هو الذي وضع للكعبة سقفاً عند ما أعادت قريش بناءها وانه لم يصنع المنبر وانما صنعه نجار آخر من المدينة

(٥) . . . عن سهل بن سعد انه سئل عن المنبر من أي عود هو ؟ قال

« أما والله اني لاعرف من عمله واي يوم صنع واي يوم وضع ورأيت النبي (صلعم) يوم جلس عليه . ارسل النبي (صلعم) الى امرأة لها غلام نجار فقال لها مري غلامك النجار ان يعمل لي اعواداً اجلس عليها اذا كلمت الناس فأمرته فذهب الى الغابة فقطع طرفاء فعمل المنبر ثلاث درجات فأرسلت به الى النبي (صلعم) فوضع في موضعه هذا الذي ترون فجلس عليه اول يوم وضع . . . . الخ » مسند احمد بن حنبل جزء ٥ ص ٣٣٩ وانظر ايضاً صحيح البخاري جزء ١ ص ٩٣ وجزء ٢ ص ٩ وجزء ٣ ص ٦١ و ص ١٥٤ (المعرب)

الآن لاول مرة في الاسلام موضوع دراسة قام بها بكَر Becker نلخصها فيما يلي

اتخذ محمد المنبر حينما عظم شأنهُ وصار يستقبل الوفود من جميع الانحاء . وكذلك كان ابو بكر الخليفة الاول يأخذ البيعة في حفل جام وهو جالس على منبر . وهكذا كان يفعل الخلفاء من بعده عقب انتخابهم للخلافة مباشرة وولاة الاقاليم في البلاد التي فتحها الله على العرب فكان الوالي عقب توليه منصبه يعتلي المنبر . ويشيرون الى ذلك عادة بقولهم « واعتلى فلان المنبر في جهة كذا » . وكان هذا ضروريًّا قبل مباشرته مهام عملهِ (٦)

ويستنتج «بكَر» من ذلك ان المنبر الذي رأيناه كان في اول امره مقعداً ذا درجتين ولم تكن له معنى او دلالة دينية في الايام الاولى للاسلام. فلم يكن سوى المكان الذي يجلس فيهِ النبي صلى الله عليهِ وسلم وخلفاؤه الاولون عند عقدهم المجالس او في ايام الاعياد . فكان بذلك نوعاً من العرش يجلس عليهِ رئيس المجتمع الاسلامي في ذلك الوقت

وكان المنبر معروفاً في العصر الجاهلي ولم يكن في اول امره سوى المقعد الذي يجلس عليهِ رؤساء العرب القدماء . فلما جاء الاسلام اتخذ مقعداً يجلس عليه الحكام المسلمون. ولعل هذا ناشيء الى حد ما من تأثرهم بفكرة اتخاذ العروش وهي فكرة شرقية قديمة . فكان يجلس عليهِ الرسول وخلفاؤه من بعده عند ما ينظرون في الشؤون العامة

وحينما نهى عمرو بن الخطاب عمر بن العاص عن اتخاذ منبر بالفسطاط كان ذلك لما للمنبر في تلك الايام من الدلالة القديمة اذ كان يعتبر العرش المقدس الذي يجلس عليهِ خليفة رسول الله

وكان المنبر والعصا هما علامتا الشرف اللتان يتميز بهما الوالي او القاضي في صدر الاسلام وربما كان ذلك متبعاً ايضاً في عصور الوثنية السابقة . ثم تطورت العصا حتى صارت صولجاناً وساعد على تطورها ما كان عند الفرس والروم من الصوالج وخاصة بعد وفاة الرسول وفي عهد بني امية

ويرى «بكَر» ان تطور المقعد الى منبر قد بدأ حينما أضيف الى المصلي ويعزي ذلك الى معاوية (٦٦١/٦٨٠م) او الى مروان واليه على المدينة . اما عن مصر التي لدينا الكثير من اخبارها وتاريخها فاننا نعلم ان جميع مساجدها في القرى قد اضيفت اليها المنابر في سنة ١٣٢ هجرية (٧٤٩/٥٠ م)(٧)

ومن ذلك يستنتج «بكَر» ان المقعد القديم قد تحول تحولاً تامًّا الى منبر وعم استعماله فى المدة الواقعة بين حكم معاوية وسقوط الدولة الاموية ٧٥٠ م

---

(٦) يرى لامنس Lammens انه بعد الفتح كان للكوفة والبصرة وغيرهما من مدن العراق منابرها . وكذلك كانت توجد المنابر في اجناد الشام . مثال ذلك انه بعد ان انشأ يزيد الاول جند قنسرين مباشرة سمعنا عن وجود منبر هناك . كما ان عمرو بن العاص كان قد اتخذ منبراً بالفسطاط عقب فتحه مصر ولكن عمر بن الخطاب نهاه عن اتخاذه وانكر عليه ذلك (٧) جاء بالمقريزي جزء ٤ ص ٨ ما يأتي : ولم يكن يخطب في القرى الا على العصا الى ان ولي عبد الملك بن موسى بن نصير اللخمي مصر من قبل مروان بن محمد فامر باتخاذ المنابر في القرى وذلك سنة ١٣٢ هـ (المعرب)

اصل كلمة منبر

اما عن اصل كلمة منبر فقد اوضح شوالي Schwally ونولدك Nöldeke انها من اصل اتيوبي (حبشي) وهذا لا يدهشنا كثيراً لانهُ توجد الفاظ كثيرة في القرآن نفسه من اصل اتيوبي اضف الى ذلك ان بلالاً مولى رسول الله كان عبداً حبشياً وان ام سلمه احدى زوجات النبي كانت ممن هاجروا الى الحبشة قبل هجرة الرسول الى يثرب ببضع سنين وان اهل مكة كانت لهم علاقات تجارية دائمة مع الحبشة ومينائها مصوع التي كان الوصول اليها بحراً امراً ميسوراً

تطور المنبر

كان عمرو بن العاص قد اتخذ منبراً فكتب اليهِ عمر بن الخطاب رسالة شديدة اللهجة ينهاه فيها عن اتخاذ المنبر ويعزم عليهِ في كسره[٨] وقد جاء بها (اما يحسبك ان تقوم قائماً والمسلمون جلوس تحت عقبيك) فكسره عمرو وقد سبق ان اشرنا الى هذه الحادثة[٩] . وفي خلافة عثمان بن عفان ظهر المنبر ثانية في مصر وقد روى ابن دقاق والمقريزي وأبو المحاسن ان زكريا بن مرقنى (او مرقنا) ملك النوبة المسيحي اهدى منبراً الى عبد الله بن سعد بن ابي السرح والي مصر من سنة ٢٤ — ٣٦ هـ و (٦٤٤ الى ٦٥٦م) وبعث معهُ نجاراً حتى ركبه يدعى بقطر من اهل دندرة وبقي هذا المنبر في مسجد عمرو حتى ازاله قرة بن شريك ونصب منبراً جديداً سواه[١٠] . ويقول ابن دقاق والمقريزي وابو المحاسن ان هناك رواية اخرى بأن المنبر الذي ازاله قرة لم يكن قديماً وانهُ منبر عبد العزيز بن مروان (٦٨٥ / ٧٠٥ م) ويضيفون الى ذلك عبارة هامة هي ان هذا المنبر حمل اليهِ من بعض كنائس مصر[١١]

وهذا يدلنا على ان الشكل الذي كان عليهِ المنبر في المساجد الاسلامية مستمد من المنبر المسيحي ويؤيد ذلك المنبر ذو الست الدرجات الذي عثر عليهِ كويبل Quibell في سقارة وهو في رأي كويبل النموذج الذي صنع على مثاله المنبر الاسلامي . وبناء على ذلك فنحن نرجح ان المنبر في الاسلام قد اتخذ الشكل الذي هو عليهِ (عدا منبر محمد) من منبر الكنيسة المسيحية الشرقية

المقصورة

يقول ابن خلدون في مقدمته ص ٢٣٤ : « فأما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ سياجاً على المحراب فيحوزه وما يليهِ فأول من[١٢] اتخذها معاوية ابن ابي سفيان حين طعنه

---

(٨) مقريزي جزء ٤ ص٦ (٩) يضيف المعرب انه ورد بمقدمة ابن خلدون ص ٢٣٤ نص هذه الرسالة كما يلي (اما بعد فقد بلغني انك اتخذت منبراً ترق به على رقاب المسلمين او ما يكفيك ان تكون قائماً والمسلمون تحت عقبك فعزمت عليك الا ما كسرته) (١٠) مقريزي جزء ٤ ص ٨

(١١) نصب المنبر الجديد سنة ٩٤ هجرية وقد اشار الى ذلك السيوطي في كتابه حسن المحاضرة جزء ٢ ص ١٣٤

(١٢) جاء بكتاب خطط المقريزي جزء ٤ ص ٧ ما يأتي : ذكر عمر بن شبة في تاريخ المدينة ان اول من عمل مقصورة بلبن عثمان بن عفان وكانت فيها كوى تنظر الناس منها الى الامام . . . . الخ » وعلى ذلك فقد يكون عثمان هو اول من اتخذ المقصورة وليس معاوية بن ابي سفيان ولا مروان بن الحكم

الخارجي والقصة معروفة . او قيل اول من اتخذها مروان بن الحكم[١٣] (٦٨٣/٥ م) حين طعنه اليماني ثم اتخذها الخلفاء من بعدهما وصارت سنة في تمييز السلطان عن الناس في الصلاة . وانما هي تحدث عند حصول الترف في الدول والاستفحال شأن احوال الابهة كلها . وما زال الشأن ذلك في الدول الاسلامية كلها وعند افتراق الدولة العباسية وتعدد الدول بالمشرق وكذا بالاندلس عند انقراض الدولة الاموية وتعدد ملوك الطوائف . واما المغرب فكان بنو الاغلب يتخذونها بالقيروان ثم الخلفاء العبيديون ثم ولاتهم على المغرب من صنهاجة بنو باديس بفاس وبنو حماد بالقلعة ثم ملك الموحدون سائر المغرب والاندلس ومحوا ذلك الرسم على طريقة البداوة التي كانت شعارهم ولما استفحلت الدولة واخذت بحظها من الترف وجاء ابو يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فاتخذ هـذه المقصورة وبقيت من بعده سنة لملوك المغرب والاندلس وهكذا كان الشأن في سائر الدول سنة الله في عباده »

هذا هو التفسير المقبول عادة لاتخاذ المقاصير ولكن لامنس Lammens يعارضه وهو يرى ان المقصورة كانت في مبدإ امرها غرفة خاصة بالحاكم في مسجد الجماعة يقصد اليها للمشاورة او للراحة بين اوقات الصلوات وان ما قيل من انها اتخذت رغبة الخلفاء في العزلة والبعد عن العامة او على سبيل الحيطة لسلامتهم الشخصية فكل هذه ليست من الاسباب المقبولة في نظره

اولاً — لان الخليفة بمكانه على المنبر كان مميزاً تمييزاً كافياً عن العامة وجمهور المصلين

ثانياً — لان الامويين كان لهم حرسهم الخاص في المسجد

وقد اوضح ايضاً ان سنة ٤٤ هـ (٦٦٤/٥م) التي يروي اليعقوبي انه اتخذت فيها المقصورة سابقة في تاريخها لمحاولة الخوارج اغتيال معاوية ولذلك لا يكون تفسير ابن خلدون في نظره تفسيراً مقبولاً . فاذا سلمنا بقول لامنس هذا ، فانه مع ذلك تبقى امامنا تلك الحقيقة التاريخية الثابتة وهي ان ثلاثة من الخلفاء الراشدين الاربعة قد قتلوا ، وان اثنان منهما كان قتلهما بالمسجد . وعلى ذلك فقد كان لدى معاوية من الاسباب ما يسوّغ اتخاذه الحيطة وانشاء المقصورة بالمسجد . اما عن قول لامنس انها كانت غرفة خاصة ، فليس بين المقصورات الآن ما ينهض دليلاً على صحة هذا الرأي ، لانها كانت جميعاً حتى النصف الاول من القرن الحادي عشر عبارة عن حاجز مكشوف من المشربيات كما في القيروان . وكذلك كانت المقصورة التي بالقرطبة مكشوفة وكانت تتكوّن من اعمدة تعلوها حجارة منقوشة بلغت الغاية في جمالها وروعتها

المحراب المجوف

اعادة بناء مسجد المدينة سنة ٨٨—٩٠ هجرية و٧٠٧—٩ م

يقول البلاذري[١٤] « كتب الخليفة الوليد الى عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة يأمره بهدم

---

(١٣) جاء بكتاب فتوح البلدان للبلاذري ص ١٢ عند كلامه عن مسجد المدينة ما يأتي : «وكان اول من اتخذ فيه (مسجد المدينة) المقصورة مروان بن الحكم بن العاص بن امية بناها بحجارة منقوشة . . . — الخ المعرب »

(١٤) البلاذري ص ١٢ وما بعدها (كتاب فتوح البلدان) (المعرب)

المسجد وبنائه وبعث اليه بعال وفسيفساء ورخام وثمانين صانعاً من الروم والقبط من اهل الشام ومصر فبناه وزادفيه وولى القيام بأمره والنفقة عليه صالح بن كيسان وذلك سنة ٨٧ ويقال سنة ٨٨»

وروى اليعقوبي ان الوليد امر عمر بن عبد العزيز ان يهدم المسجد فهدمه وهدم كذلك حجرات زوجات النبي ووسع المسجد باضافة ارض هذه الحجرات اليه . وان امبراطور الروم ارسل مائة الف مثقال من الذهب واربعين حملاً من الفسيفساء وانه فرغ من بناء المسجد سنة ٩٠ هجرية

وروى السمهودي (١٤٨٨) نقلاً عن الواقدي المتوفى (٨٢٣) ما يأتي : —

« عن عبد الله بن يزيد قال : بنى القبط مقدم المسجد وبنى الروم جوانبه ومؤخره »

ذكرنا هذه الروايات لما لها من المكانة في تاريخ بناء هذا المسجد واشارتها الى العمال والصناع الذين اشتركوا في بنائه والجزء الذي بنته كل طائفة منهم . ونتقدم بعد ذلك لمعالجة موضوع المحراب المجوّف . فقد استحدث هذا النوع من المحاريب لاول مرة في المساجد الاسلامية في مسجد المدينة في عهد عمر بن عبد العزيز . وقد روى ابن دقاق والمقريزي [١٥] نقلاً عن الواقدي « ان اول من احدث المحراب المجوّف هو عمر بن عبد العزيز حين اعاد بناء مسجد النبي صلى الله عليه وسلم »

وهذه العبارة مع شيوعها وكثرة اقتباسها والاستشهاد بها فمع الاسف فان النص الذي يشير اليه المقريزي ليس هو النص الذي يعزى اليوم الى الواقدي ولذلك لا يمكننا ان نجزم بصحتها . ولكن نظراً لاهمية الموضوع الذي نحن بصدده فاننا نميل الى الاخذ بها لورودها في كتاب ابن بطوطه (١٣٢٦) وفي الترجمة الفرنسية لكتاب المرتضى [١٦] الذي كتبه مؤلفه بعد وفاة السلطان الكامل بقليل اي حوالي ١٢٤٠ م . على اننا يمكننا ان نرجع الى مؤلفات ابعد عهداً من هذه في القرن الثاني عشر فقد نقل ابن شاكر المتوفي سنة ١٣٦٢ عن ابن عساكر المتوفي ١١٧٦ م انهُ بعد ان فتح خالد بن الوليد دمشق صلّى فيما يعرف الآن بالمسجد الاموي بدمشق وان اصحاب الرسول كانوا يصلون في المكان الذي يعرف بمحراب الصحابة وان هذا المحراب لم يكن مجوّفاً

وهذا يدل على ان المحاريب المجوفة لم تكن معروفة عند ما فتح المسلمون دمشق

فلما بنى المسجد الاموي بدمشق في عهد الوليد بن عبد الملك جعلت به المحاريب المجوفة وفي هذا المسجد الآن اربعة محاريب مجوفة يعرف احدها وهو الواقع بالنصف الشرقي من الحائط الجنوبي باسم محراب الصحابة تيمناً بذلك الاسم القديم الذي كان يطلق على محراب الصحابة عند فتح العرب دمشق

---

(١٥) خطط المقريزي ص ٥ جزء ٤ وحسن المحاضرة للسيوطي ص ١٣٤ جزء ثان

(١٦) يشير المرتضى الى ذلك بقوله : ان عمر بن عبد العزيز هو اول من احدث المحراب المجوف ولكنه لا يذكر المكان الذي احدثه فيه اذا كان بالمدينة او غيرها . ويلاحظ ان كتاب المرتضى هذا قد ضاع ولا يوجد الآن الا ترجمته الفرنسية التي ترجمها فاتييه Vattier من نسخة مخطوطة كانت محفوظة بمكتبة الكردينال مازارين ونشرت بباريس سنة ١٦٦٦ (المعرب)

محراب جامع عمرو

ولما هدم قرة بن شريك (٩٢ — ٩٣ هـ) جامع عمرو بالفسطاط واعاد بناءه ووسعه جعل به محراباً مجوفاً كان يعرف بمحراب عمرو ولو انه لم يكن من عمله (لانه كان في سمت محراب المسجد القديم الذي بناه عمرو) . « وكانت قبلة المسجد القديم عند العمد المذهبة وهي اربعة اثنان منها في مقابلة اثنين وكان قرة اذهب رؤوسها [١٧] » لتكون دلالة على موضع المحراب القديم

ومن ذلك يتضح ان المحراب المجوف لم يكن معروفاً بالمساجد الاسلامية بعصر قبل قرة بن شريك

اصل المحراب المجوف

ان تلك العبارة التي يرويها السمهودي نقلاً عن الواقدي واشرنا اليها من قبل تعتبر في نظرنا ذات شأن اساسي لحل هذه المسألة لان وقوع المحراب في الجزء الذي قام ببنائه الاقباط بمسجد المدينة يحملنا على الاعتقاد انهُ من اصل قبطي مسيحي وهذه النظرية التي تقررها يسلم بها كثير من الكتاب والباحثين وقد نقل لامنس Lammens عبارة هامة عن مؤلف للسيوطي ملخصها انهُ في اوائل القرن الثاني الهجري كانت الصلاة في المحراب المجوف محرمة عملاً بالاحاديث والسنة « لانهُ من شأن الكنائس » وان اتخاذه في المساجد هو من علامات اقتراب الساعة . وقد اشار « بكر » Becker الى مؤلف آخر [١٨] من مؤلفي القرن الرابع عشر كان يقول ان المحراب هو اقل اجزاء المسجد قداسة . وكان ينهي الامام عن الصلاة فيهِ . والجزء الوحيد المجوّف في الكنيسة القبطية هو الهيكل . فاذا اخذنا قليلاً من الامثلة القديمة لذلك وليكن مثلاً هيكل دير الانبا ارميا Apa Jeremias بسقارة فان الشبه بينه وبين المحراب القديم واضح جداً حتى اننا لا نتردد في قبول ما رواه هذان المؤلفان المسلمان اللذان اشرنا اليهما من قبل . ويتضح من ذلك ان المحراب المجوّف قد استمدّ من اصل مسيحي واتخذ في المساجد الاسلامية مع بعض الكراهة وعدم الرضى من المسلمين

اصل كلمة محراب

وردت هذه الكلمة في أشعار العرب قديماً غير انها لم يكن لها معنى ديني في تلك الايام بل كانت تدل على اشياء دنيوية . ويرى نولدك Nöldeke انها كانت تعني بناء الملك او الامير

وقد حاول رودوكوناكيس Rhodokonakis في تعليقه على كتاب نولدك ان يحدد معنى هذه الكلمة وان يوضح الجزء الذي يطلق عليهِ هذا الاسم من بناء الملك او الامير فذكر انهُ هو المكان الذي يخصص لوضع العرش فيهِ (كما في قصير عمرة مثلاً)

فاذا كان هذا صحيحاً سهل علينا ان نعرف لماذا اطلقت هذه الكلمة على المحراب المجوّف الذي انشأه الاقباط الذين كانوا يشتغلون بمسجد المدينة على مثال هيكل كنائسهم !!

---

(١٧) مقريزي جزء رابع ص ٩ (١٨) هذا المؤلف هو ابن الحاج وكتابه يسمى المدخل وقد توفى سنة ١٣٣٧ م (كما اخبرني بذلك جناب المسيو فييت)

السر سعيد شقير باشا

للحياة في ابنائها مآرب ، تعدّ هذا للعلم ، وذاك للفن ، وتهب ذلك للوطن يخوض ميادين السياسة والاقتصاد او معترك النصال والسيوف في سبيله . ولها في تحقيق مآربها اسرار ، نعجز عن اكتناهها او اماطة اللثام عنها ، فنرى الرجال مسوقين في سُبل اذا حاولنا تبيُّن مداها بعقولنا القاصرة ارتدّ العقل كليلاً عاجزاً . ولكنها سبل تفضي دائماً الى ما تريد ان تحققهُ الحياة بواسطة ابنائها ، ولو شطّت الصلة بين الطريق في اولها والغرض في نهايتها . والاّ فكيف نستطيع ان نفهم مثلاً سيرة رجل كنبوليون وُلِدَ في اجاشيو وجزيرة كورسيكا لم تكد تخرج من حكم الطليان ومات منفيًّا في جزيرة القديسة هيلانة، بعد ان دوّخ اوربا وثلّ عروش ملوكها ونصب لنفسه عرشاً ناطه بالنجوم . وكيف يستطيع عقل بشريّ ان يتبين في السبيل الاول الذي طرقه الملازم بونابرت ذلك المجد العريض وتلك النهاية المفجعة ؟ ولكنها الحياة ارادت ان تذيع الاركان التي قامت عليها الثورة الفرنسية فساقت نبوليون الى طولون ومنها الى باريس . ثم لما قضت منهُ لبانتها ، وقام هو يمتهن تلك المبادىء التي نشرها ، خطت لهُ سبيلاً يسير فيهِ من باريس الى واترلو الى جزيرة القديسة هيلانة . والامثلة على ذلك كثيرة قد يتعذر حصرها

ولعلّ أحدثها في شرقنا العربي يتجلى في سيرة السر سعيد شقير باشا رحمهُ الله . فمن كان يدري ان فتىً شقيريًّا وُلِد في بلدة الشويفات اللبنانية في العقد السابع من القرن الماضي ، تسير بهِ الحياة في سبل مختلفة ليس بينها وبين السودان صلة ما ، الى ان تجعل اسمهُ مقترناً بتاريخ السودان الحديث . ثم تدفعهُ في سبيل القاهرة فينال من خديوي مصر وسلطانها الرتب والاوسمة والنياشين ، ففي طريق لندن فيمثل بين يدي جلالة الملك جورج فيقلده وساماً كبيراً من أوسمة الامبراطورية ولقباً شريفاً من القابها . ولو لم تردهُ الحياة لذلك لما حدث ذلك الخلاف بينهُ وبين احد تلاميذه في جامعة بيروت الاميركية – الشيخ يوسف الخازن — مما حملهُ على ترك التعليم الى الابد ، بعد ان تنبأ لهُ رؤساؤهُ بمستقبل مجيد فيهِ . ولو لم تردهُ الحياة لذلك ، لما هيأت لهُ ان يدرّس اللغة العربية المستر ملنر مستشار المالية المصرية (لورد ملنر بعدئذٍ) اذ كان يعمل في قلم التحرير في ادارة المقتطف والمقطم . هذه الصلة بين المستشار الانكليزي ومدرّسهِ الشويفاتي اللبناني مهّدت لسعيد شقير دخول السودان . وهناك وقفت الحياة تنظر من علٍ ، الى خلق سعيد شقير ، وذكائهِ ، وهمتهِ ، وجلده ، ثم الباقي ، في خروجه من منصب مترجم في سواكن ، الى مقام الرجل المسيطر على مالية السودان بعد ان نظمها واقامها على اساس متين

وُلِد الفقيد في الشويفات بلبنان من اسرة عرفت في تلك البلاد بنباهة الشأن وكرم المحتد ونبغ منها افراد في الادارة والسياسة والتجارة والادب . والشويفات معروفة على الساحل اللبناني ، بكثرة المدارس والمعاهد وقد تخرّج فيها طائفة من حملة وحاملات لواء الادب والعلم في الاقطار الشرقية . فترعرع في جوٍّ يحترَم فيهِ العلم ويرفع مقام الادب ، فكان ذلك حافزاً لما انطوى عليهِ خُلُقهُ من ملكات كامنة . فلما كبر طلب العلم في جامعة بيروت الاميركية ، وامتاز في عهد الطلب بالذكاء والنشاط وقوة الشكيمة ، وبعد ما نال شهادتها النهائية سنة ١٨٨٦ دعي الى التدريس فيها فقضى في ذلك ثلاث سنوات ألّف في خلالها كتاباً في الصرف بالاشتراك مع صديقهِ يوسف افتيموس وآخر في النحو وترجم ثالثاً عنوانهُ التقدم الذاتي . وقد وصفهُ احد تلاميذه [1] في ذلك العهد وصفاً بليغاً قال فيهِ :

« عرفت سعيد شقير لما تتلمذت له وهو شاب في مقتبل العمر ومطلع ربيع الحياة تسيل القوة من عطفيه ويسطع الذكاء في عينيه . ويرى ناظره في اسارير وجهه ما ينمُّ على عزم صادق يلطف من حدته ثغر باسم وميل فطري الى بهجة الحياة الصحيحة . فما لبثت هذه الاخلاق ان اخذت تقوى وتعتز وتؤتي ثمرها وصاحبها يتدرج في معارج العمل ويرقى في منازل النجاح والفلاح فيجد في كل منها مجالا متسعاً لمواهبه الكثيرة فلا يزيده النجاح إلاّ اقداماً ولا يخلق فيهِ الفوز سوى توطيد العزم على المضي في هذا الطريق بهمة لا تني ورغبة تدفعها القوة ويذكي نارها الشباب

« كان يدرسنا اللغة العربية وقد احبها حبًّا جمًّا ويسعى ليطبعنا بطابعها فلا يطغى عليها تيار اللغات الاجنبية التي كانت تنافسها في الدروس والفصول فينشيء فينا الميل الى محاسنها وارتياد مجاهلها وكشف مزاياها . . ولطالما استوقفنا ساعات في فناء الجامعة في بيروت يطرح علينا الاسئلة في النحو والاعراب ويذكي فينا نار الحماسة لهذه اللغة وقد ضرب فيها بسهم وافر واصاب منها حظًّا كبيراً وله من كتابه الموسوم باسم « طيب العرف في علم الصرف » وما حبَّر من رسائل وما ترجم من كتب وما خطب في ذلك الحين وما بعده دلائل على شدة عنايته واتجاه ميله وعاطفته »

وجاء الى مصر في سنة ١٨٨٩ واشتغل اولاً محرراً في ادارة المقتطف والمقطم وكان إذ ذاك المستر الفرد ملنر (لورد ملنر بعدئذ) مستشاراً ماليًّا للحكومة المصرية فطلب من أصحاب المقتطف والمقطم ان يرشدوه الى من يدرّسه اللغة العربية فبعثوا اليهِ بسعيد شقير فأعجب ملنر بذكائهِ وسرعة خاطره ومقدرته وكان أول من تنبأ له بمستقبل باهر حافل بالخدمة والاعمال المجيدة

وحدث في أثناء الثورة المهدية بالسودان أن احتفظت الحكومة المصرية بسواكن وسواحل البحر الاحمر وعينت لها محافظاً عسكريًّا فاحتاجت في سنة ١٨٨٩ الى مترجم بارع ليعمل مع المحافظ فأرشدهم ملنر الى سعيد شقير فعيّن مترجماً للمحافظة في أول سبتمبر سنة ١٨٨٩ فتجلّت

---

(١) خليل بك ثابت رئيس تحرير المقطم في المقطم ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٣٤

مواهبهُ ومقدرتهُ حالاً فرقي الى منصب سكرتير للمحافظة في سنة ١٨٩٢ وأنعم عليهِ بالرتبة الثالثة سنة ١٨٩٢ وبالثانية سنة ١٨٩٧

وكان بين الذين تقلدوا منصب محافظ للبحر الأحمر المرحوم اللورد كتشنر (قبل ان يصبح سرداراً للجيش المصري) والسر رجينالد ونجت باشا (قبل ان يصبح مديراً لقلم المخابرات بالجيش المصري) فأعجب كلاهما بهِ واعترفا بذكائه واجتهاده فوسعا سلطته وجعلاهُ المتصرف المطلق بجميع أمور المحافظة ما عدا العسكرية منها. فلما تم فتح السودان واصبح اللورد كتشنر حاكماً عاماً لهُ تذكر ذلك الموظف النشيط فاستدعاه لمصر وعهد اليه في الاشتراك في تنظيم مالية البلاد ووضعها على اساس ثابت. قال له اللورد كتشنر اني قد استدعيت خبيراً مالياً انكليزياً اسمه المستر هرمن ليكون سكرتيراً لمالية السودان انما ارغب في ان يكون معه رجل خبير باحوال البلاد فاذا كنت ترى المقدرة في نفسك والكفاءة لذلك فاني اعينك مساعداً له مع العلم باني سأتكل عليك انت في نجاح العمل واجعلك مسؤولاً مع المستر هرمن عن تنظيم المالية فاذا وفقت الى ما به خير السودان بنيتَ لنفسك مستقبلاً باهراً والاَّ . . . قال كتشنر: هذه مهمتك فاما ان ترفعك واما ان تضعك، فهل انت لها؟ فاجاب سعيد بك انه مستعد ان يضطلع باعباء العمل وانه واثق بالنجاح

وخلف السر رجينالد ونجت اللورد كتشنر حاكماً عاماً للسودان واستعفى المستر هرمن من مالية السودان فلم يرَ ونجت باشا ضرورة لاستدعاء خبير مالي جديد لاعتمادهِ على سعيد باشا فعين احد الضباط الانجليز (المرحوم السر ادجار برنار باشا) سكرتيراً مالياً عالماً ان الامور ستسير على احسن منوال بمقدرة سعيد باشا وهمتهِ وفعلاً لم تمض بضع سنوات حتى برهن سعيد باشا على نبوغه وكفاءتهِ فنظم ايرادات البلاد الجديدة ونفقاتها على احسن ما يرام وشهد بذلك كل من كان له اتصال بمالية مصر والسودان. وظل يدأب على تنظيم هذه المالية من دون ملل او كلال متنقلاً بين مصر والخرطوم من سنة ١٨٩٩ الى سنة ١٩١٢ عند ما وجد ان ذهابهُ الى السودان لم يعد ثمت ضرورياً فبقي مثابراً على عمله بها وهو بفرع المالية في وكالة حكومة السودان بمصر

اما عن نزاهتهِ ونشاطه وثباته على العمل فحدث ولا حرج فانهُ كان اول من يحضر الى دائرة العمل ولا يتركها قبل الساعة الثانية او الثالثة بعد الظهر ثم يعود اليها في نحو الساعة السادسة ولا يغادرها قبل الساعة التاسعة وذلك في ايام العمل العادية اما اذا حان موعد انجاز الميزانية فانهُ كثيراً ما كان يبقى في الديوان الى منتصف الليل او بعده ولم يكن ينقطع عن العمل في يوم عيد او بطالة على الاطلاق. وكان الموظفون يشكون عدم الانتظام في اوقات العمل والراحة وانما كان يحفزهم الى النشاط مشاهدتهم رئيسهم في الطليعة. كما ان عطف سعيد باشا عليهم واهتمامه الدائم بمصلحتهم كانا ينسيانهم ما قد يعانونه من إرهاقٍ في العمل

ولم يكن خافياً على كل من كان له اتصال بحكومة السودان ان جميع المشروعات والتقارير والمذكرات

المالية ذات الشأن بدون استثناء كانت من عمله ولذلك كان رؤساء المصالح والمديرون الانكليز في السودان يتصلون رأساً بهِ في جميع الامور التي كان يهمهم انجازها وكانوا يسعون الى ارضائهِ بجميع الوسائل فاذا سافر هو او احد افراد اسرتهِ على سكك حديد الحكومة او سفنها كانت تصدر الاوامر من رؤساء هذه المصالح بالاعتناء التام براحتهم . وكان اذا مرض هو او أحد افراد اسرتهِ يبادر رئيس المصلحة الطبية بنفسه الى عيادتهم . وقد حاز بجده وباستقامته ونزاهته ومقدرته احترام جميع موظفي حكومة السودان ومحبتهم من انكليز ومصريين ووطنيين . ونال في اثناء خدمته رتبة المتمايز في سنة ١٩٠٢ ورتبة الميرميران والباشوية سنة ١٩٠٩ والنيشان المجيدي الثالث سنة ١٩١٣ والنيشان المجيدي الثاني سنة ١٩١٤ ونيشان النيل الثاني سنة ١٩١٧

وكان الفقيد مصطافاً في لبنان سنة ١٩١٣ فدعاه متصرف لبنان يوهانس قيومجيان باشا الى بيت الدين وطلب اليه ان ينظر في ميزانية لبنان ويضع له تقريراً عنها ، فنزل هو وقرينته الفاضلة ضيفين على المتصرف في سراي الحكومة اياماً تفرغ فيها سعيد باشا للبحث في الموضوع ووضع تقريراً نفيساً فيها . وندب في سنة ١٩١٩ لمراقبة مالية حكومة المرحوم الملك فيصل لان وزارة الحربية الانكليزية في ذلك العهد أمدّت الملك فيصل بمبالغ جسيمة من المال لتساعده على استقرار حكمه في سوريا ولم تجد من يقوم بمهمة مراقبة المصروفات وتنظيمها افضل من سعيد باشا . ولما احيل على المعاش سنة ١٩٢١ انعم عليهِ بنيشان الامبراطورية البريطانية من درجة فارس مع لقب سر

ورغبت حكومة السودان في الانتفاع بخبرته فجعلته مستشاراً لها بمصر فمضى في القيام بعمله الى اليوم الذي أصيب فيهِ بالضربة القاضية التي اودت بحياته الثمينة خمسة ايام بعد ذلك [1]

قلنا ان سعيد باشا نشأ نشأة علمية ادبية وقد ظلَّ الى آخر حياتهِ الحافلة كلفاً بالادب والشعر واللغة ، حريصاً على الدرس والمطالعة يحفظ من جيد الشعر طائفة من خير ما جادت بهِ قرائح الشعراء المتقدمين والمتأخرين وكان المتنبي اقربهم الى نفسهِ . وما برح يشجيهِ الشعر العربي كما يطربهُ الغناء الشرقي مع انهُ الف العيش في الاوساط الغربية بحكم عملهِ وصلاتهِ

وقد قرن الصحافة الى الادب فاشتغل في تحرير المقتطف والمقطم قبل انتظامهِ في خدمة حكومة السودان بسواكن ، وفي اثناء اقامتهِ بسواكن كان يكاتب شركة روتر فيوافيها باخبار الثورة المهدية ، وكان اول من طيَّر الى اوربا خبر انتصار الاحباش على الجيش الايطالي في معركة عدوة الشهيرة . فذاع الخبر في اوربا قبل ان يبلغ الحكومة الايطالية رسميًّا ، فاستاءت حكومة ايطاليا وارسلت تطلب من حكومة انكلترا ان تنشر شركة روتر تكذيباً لما نشرتهُ . ولكن في اليوم نفسه ورد على الحكومة الايطالية خبر الهزيمة ، فكان في ذلك الحادث الصحافي مفخرة لروتر ولمكاتبهِ بسواكن

اما بصره في الادب العربي فكان بصر العالم المصقول الطبع النافذ النظر القويّ الحجة . وكثيراً

(١) معظم الحقائق عن عمل سعيد باشا في السودان مبني على مذكرة اعدها صاحب العزة صموئيل بك عطية

ما كان يطلب الى كاتب هذه السطور ان يقرأ لهُ شيئاً مما يكتب فكان يقف في الفينة بعد الفينة ويقول اظن ان صحة هذا اللفظ كذا وينهض من ساعتهِ الى المعجمات في خزائنهِ العامرة يراجع مطولاتها ، وقد كان دائماً في جانب الصواب . ومما يشهد لهُ بثقوب البصر في الادب ان المغفور لهُ شوقي بك كان قد بعث الى المقتطف في دسمبر سنة ١٩٢٣ بقصيدتهِ الفلسفية البليغة في «النفس» معارضاً فيها قصيدة ابن سينا التي مطلعها «هبطت اليك من المكان الارفع» فقرأ المرحوم الدكتور صرُّوف القصيدة معجباً بمعانيها الفلسفية وصورها الشعرية ، ولما عاد ذات يوم الى داره لتناول الغداء اخذ تجربتها معهُ « ليريها لسعيد » . وبعد تناول الغداء صعد الى « بيت سعيد » وراجعا القصيدة معاً معجبين بها كل الاعجاب . الاَّ انهما ما كادا يصلان الى البيت الذي يقول فيهِ شوقي

ما بال احمد عيَّ عنك بيانهُ بل ما لعيسى لا يقول ويدَّعي

حتى توقف سعيد باشا وقال هذا لا يستقيم معنىً لان المقصود نفي القول والادعاء معاً عن عيسى ، وهنا يفهم انهُ لا يقول ولكنهُ يدَّعي . فاضطرب الدكتور صروف وقال ما العمل المطبعة ملزمة في المطبعة والوقت ضيق ما العمل لتصحيح الشطر ? فتناول سعيد باشا التلفون وخاطب شوقي بك في داره مبيناً له رأيهُ فوافق شوقي بك عليهِ وقال بحضور ذهن عجيب : طيب ياسيدي « قول كده »

ما بال احمد عيَّ عنكِ بيانهُ بل ما لعيسى لم يقُل او يدَّعي

وهذا هو النصُّ الذي ظهر بهِ البيت في القصيدة في الصفحة السادسة من مقتطف يناير سنة ١٩٢٤

ولهُ قصيدة عصماء في الانقلاب الدستوري الذي وقع في تركيا سنة ١٩٠٨ . فقد كان سعيد باشا من الذين تحمسوا لاعمال جمعية الاتحاد والترقي لانهُ اعتقد حينئذٍ ان عهد الظلم في سوريا قد انقضى وقام على انقاضهِ عهد نورٍ ومساواة ، ولما احتفل اللبنانيون بالانقلاب احتفالاً عظيماً في عاليه في صيف تلك السنة نظم هذه القصيدة السياسية فكان لها وقع عظيم في النفوس ومما قاله فيها

اذا دعا الموت فرداً هبَّ كلهم حتى كأن المنايا الكأس والحببُ
ظنَّ الطغاة سكوناً منهمُ جزعاً لكنهم سكنوا حيناً لكي يثبوا
ما قدَّموا حذراً او ردَّهم خطرٌ وان يكن في جبين الليث ما طلبوا
ولا اشترتهم وعود ملؤها ذهبٌ ولا تنائم وعيد ملؤهُ الغضبُ
ولا استمالهمُ مجدٌ يكون بهِ ظلم العباد ولا غرَّتهم الرتبُ
قالوا وقد شهروا الصمصام واندفعوا كالرعد يقصف في احشائهِ اللهبُ
للشعب حقٌّ اتينا اليوم نطلبهُ اما نذوق الرَّدى او يصدق الطلبُ
عشنا بعصر عجيبٌ ان يعاش بهِ لو لم نعش فيهِ قلنا انهُ كذبُ
فالحرُّ مضطهد والامن مضطربٌ والعرض مُنتهكٌ والرزق منتهبُ
فاستلَّ سيفاً نيازي كلُّهُ لهب وقال انور قولاً دونهُ الذهبُ

الدين لله دينوا كيف شاءكم أما لدين هوى الاوطان فاعتصبوا
هذي يدي اننا والله اخوتكم وليس يفرقنا دينٌ ولا نسبُ

وقد كان في السنوات الاخيرة يعدُّ المعدّات لشرح ديوان أبي تمام ، ووضع جدول وافر بالالفاظ العربية التي استعملت لاغراض جديدة وبيان تطور استعمالها قديماً وحديثاً وتقديمه الى المجمع الملكي للغة العربية . وكان شوقي وفوزي المعلوف أحبّ الشعراء المحدثين اليهِ . ثم انهُ علاوة على عنايتهِ بالادب العربي ، كان يعنى عناية خاصة بالزجل اللبناني ولهُ فيه « مطالع » جيدة ، نذكر ما علق بالذاكرة من احدها

يا جفن عيني ليش فايض مدمعك ويا قلب مالك في خفوق شو بيوجعك
اوعى تكون وقعت في نار الغرام علي بأنك تبت شو عاد وقّعك

اوعى تكون وقعت في نار الغرام ظنيت إنّا نور ما فيها ضرام
ورحت حايم حولها حوم الهوام تخمين نسيت قديش كانت تلذعك

تخمين نسيت يا قلب شو قضّيت سقام تا وقعت وقعه ما بقاش منها قيام
مش كل مرة ترجع الجرّه بسلام وخايف بهـا المرة تلاقي مصرعك

. . . . .

من مرحمي شو بيمنعك تا تنطفي ناري وعيني من البكا ما تكتفي
ان كان قلبي بحفظو تا تكون فيهِ وان كان عيني بصونها تا تقشعك

ان كان عيني بريدها تا تشوف سناك هي وقلبي وكل شيء بملك فداك
انت ماشي وما بهمك في سماك ونفسي على كبرا ذليلة بتتبعك

نفسي على كبرا السبب في ها الفشل حطت بوكدا البدر كيف بدّا تصل
واللي جهل ها الحب شو بيعمل عمل خليه يجي ويشوف شو صار لي معك

خليه يجي ويشوف شو قضيت عذاب ما نالني في محبتك الاّ التعب
وفي اللي بقي في العمر لي عندك طلب انك تجيني بس مرّة تا قشعك

ولم يحل انهماكه باعماله الرسمية دون الاتصال والالتفات الى كل ما يهم الجالية السورية في مصر والسودان . فكان رئيس شرف للنادي السوري في الخرطوم في خلال اقامته بالسودان . ولما مرَّ المستر روزفلت رئيس الولايات المتحدة السابق في الخرطوم سنة ١٩١١ الف وفداً من كبار السوريين فقابلوا المستر روزفلت في قصر الحاكم العام وقدَّم له خطاباً شكر فيهِ بلسان السوريين حكومة الولايات وشعبها لما يلقاه السوريون هناك من الحرية والرعاية . وكان رئيساً للنادي الشرقي في القاهرة وأميناً عامّاً لصندوق جمعية متخرجي الجامعة الاميركية ببيروت . ولهُ في الجمعيات والاندية خطب كثيرة جمعت الى الحكمة الاجتماعية البلاغة الادبية وحسن المحاضرة . رحمة الله عليهِ

بحث علمي لغوي

ألوان الخيل وشياتها

للأمير مصطفى الشهابي

يهم هواة الخيل والغواة بسباقها الذين يربونها لهذه الغاية، او يترددون على ميدان السباق في عين شمس مراهنين على المجلي او المصلي منها، ان يعرفوا الوان الخيل وشياتها مما تتحلى به الصافنات الجياد، ومما يكون لها علامات يتميز بها بعضها عن بعض. وكثير من الذين درسوا هذه الموضوعات بلغات اجنبية لا يعرفون الالفاظ العربية المختصة بها، او لا يعرفون وضع اللفظة العربية مقابل اختها الفرنجية. ولما كانت دارنا لا تخلو من فرس او اكثر، كنت حققت هذه الالفاظ تحقيقاً علمياً ونشرت معظمها منذ عشر سنين تماماً في مجلة مجمعنا العلمي العربي بدمشق. وقد رغب اليَّ اليوم أحد الاختصاصيين بالزراعة في مصر ان أنشرها في مجلة المقتطف شيخة مجلاتنا العربية لكثرة تداول الايدي لها بين طبقة المثقفين من الناطقين بالضاد، ولأن تلك الالفاظ ضرورية لأساتذة مدارس الزراعة والبيطرة وتلامذتها ولكل من يهتم بتربية الخيل من أرباب الزراعة أو من هواة هذا الحيوان الذكي النافع

***

﴿ الالوان ﴾ يراد بالوان الخيل الوان الشعر النامي على جلدها عدا العُرف والسَّبيب والثُّنَن [1] فهي كثيراً ما يكون لونها مخالفاً للون سائر شعرات الجياد. وليس لون الخيل (اي ثوبها) من الصفات المرفولوجية الثابتة بل هو يتحوّل بالانتخاب والبيئة والسن وطرز التربية وغيرها من المؤثرات. ويكون لون المهر خلاف لونه الاساسي بعد ان يكبر. ويندر في المهر الشعر الابيض واذا وجدت فيه شعرات بيض حوالي عينيه وصدغيه دلت على ان لونهُ سيكون مشتقاً من اللون الابيض. ويكون لون الذكور ازهى من لون الاناث. ولفصول السنة تأثير في الشعر فتراه في الشتاء اطول وألمع منهُ في الصيف

يقسم ثوب الخيل الى قسمين بسيط ومركب. فالاول ما تخلص شعراته بلون واحد والثاني ما تجمع شعراته لونين او اكثر. ومن القسم الاول الشُّقرة والدُّهمة والبياض والكُمتة. فالشقرة

---

(١) شعر الرقبة والذنب ومؤخر الارجل على الترتيب

حمرة ضاربة الى صفرة . والفرس الاشقر يدعى بالفرنسية Alezan وتكون اطرافهُ شُقْراً . وكذا العرف والذنب . وفي الشُقْر الوان منها الأشقر المذهب Alezan doré والسِّلْغَدُ A. clair اي الذي خلصت شقرته والأمغر A. cuivré وهو الذي تعلو شقرته مُغْرة

والدهمة هي السواد يقال إدهامَّ الفرس يدهامُّ ادهيماماً . وتكون اطراف الأدهم وعرفه وذنبه سوداً من لون شعره . والأدهم الغيهب Noir de jais هو الشديد السواد الذي يلمع من فرط سواده. والأدهم الشاحب Noir mat هو الذي لا يلمع . ويسمي بعض العرب البياض شهبة كما يدعون السواد خضرة . وللفرس الابيض الوان منها الابيض الشاحب والابيض الفضي

وأحب الألوان الى العرب على قول الأصمعي هي الكمتة ولا ريب انها من أحب الألوان في يومنا هذا . والكُمَيْت Bai أشد حمرة من الأشقر وبينهما الوَرْد (ج وِرَاد) . ويكون عرف الكميت وذنبه اسودين وكذا القوائم في الغالب. يقال إكماتَّ الفرس يكماتُّ اكميتاتاً وجمع الكُمَيْت الكُمْت.وفي الكمتة ألوان منها الكميت الأحمّ Bai foncé وهو الذي يعلو حمرته سواد والكميت المُدَمَّى B. cerise وهو الذي تشتدُّ حمرته وأشد منهُ الأحمر . والكميت المذهب B. clair وهو الذي تعلوه صفرة

***

وفي القسم الثاني من الألوان شُهْبة وحُوَّة وصُفْرة وبُلْقة

فالأشهب يدعى بالفرنسية Gris وهو الفرس الذي تكون شعراته على لونين ابيض واسود على ان تتفرق فلا تجمع واحداً من اللونين شعراتٌ تخلص بلون واحد كقدر النكتة فما فوقها . ويعرف الاشهب ايضاً بقولهم انهُ الابيض الشعرة ليس بالبياض الصافي وسببه اختلاط الشعرات السود بالبيض. وفي الشُهْب الوان فقد يكون الأشهب قليل الشعر الأسود ضارباً الى البياض Gris clair او على العكس من ذلك G. foncé ويكون حديدي اللون G. de fer او أبرش G. saler وهو الأشهب الذي فيهِ لُمَع بياض أو أرمد G. cendré وهو الذي على لون الرماد . اوأغبر G. rouanné وهو الذي شملت شهبته شقرة

والحُوَّة صفرة الى سواد او شقرة الى سواد Robe louvet يقال فرس أحوى وفرس حوَّاء . اما الصفرة Robe aubère فهي في الخيل اختلاط شعرات بيض باخرى ضاربة الى الحمرة وفي المخطوطات القديمة بياض تعلوه حمرة ويقول الاصمعي لايسمى الفرس اصفر حتى يصفرَّ ذنبه وعرفه . والبُلْقة Robe pie هي ان يكون في جسد الفرس بقع كبار مخالفة للونه . او هي اجتماع مختلفين فالفرس أبلق او مُلمَّع او أبقع او أشيم والبلقة في اللغة مختصة بالسواد والبياض وهي بالفرنسية Pie-noi او Noir-pie حسب قلة السواد او كثرته . واذا كان الفرس احمر او اشقر وعليه بقع بيض فهو احمر أبقع Rouge-pie او اشقر ابقع وهكذا

﴿ الشيات ﴾ — هي كل لون يخالف لون معظم الفرس . وهي على نوعين عامة وخاصة . فالأولى تكون في جزء ما من ثوب الفرس اما الثانية فتكون في اجزاء معلومة

فمن الشيات العامة ان يكون الفرس مُدنَّراً اي ان يكون في شعره نُكَت تخالف سائر لونه كالاشهب المدنر فهو بالفرنسية Gris pommelé اي الذي يخالط الشهبة فيه نُكَت سود . وهو لون كثير من الخيل العراب في بلاد الشام ولا سيما الاشهب الذي يكثر السواد في اطرافه (ازرق مبقج) ويقول كثير من علماء الغرب ان هذا اللون هو اللون الاصلي للخيل العربية وهو في نظري اجمل الالوان وان خالفتُ بذلك قول الاصمعي

وقد يكون اللون الابيض او الاشهب ارقط Moucheté اي ذا رقطة وهي نقط سوادٍ مبعثرة في الثوب . واذا ضرب اللون الى السواد وتخلله نكت بيض فاللون ثلجي

وتكون الشيات الخاصة في رأس الفرس وقوائمه وفي غيرها

فبياض الجبهة هي الغُرَّة والفرس أغرّ Marqué en tête . واذا صغرت الغرَّة فهي قُرْحة والفرس أقْرَح Légèrement en tête واذا سالت الغرة على قصبة الانف وعرضت في الجبهة فهي سائلة Liste en tête واذا دقت وسالت في الجبهة وعلى قصبة الانف ولم تبلغ الجحفلة فهي شِمراخ Petite liste . واذا سال البياض على قصبة الأنف دون ان يبلغ العينين فهو اليَعسوب Liste incomplète . والرُّثمة ان يصيب البياض الجحفلة العليا . اما اذا اصاب الجحفلة السفلى فهي اللُّمظة . واذا اسودَّ رأس الفرس دون سائر اعضائه فهو أدْرَع Cap de Maure

والبياض في قوائم الفرس هو التحجيل Balzanes قلّ او كثر فالفرس مُحَجَّل . واذا كانت له يد على لون البدن مثلاً فالفرس محجل بثلاث طليق تلك اليد او طَلْقها او مُطْلَقها . اما اذا اصاب البياض القوائم كلها فالفرس محجل الاربع

ووضح القوائم اي تحجيلها على انواع . فاقله الخاتم وهي شُعيرات بيض Principe de Balzanes واذا جاوز ذلك حتى يكون البياض واضحاً فهو إنعال Trace de Balzanes اما اذا جاوز الارساغ فهو تخديم Petite Balzane واذا صعد البياض في القوائم ولم يبلغ الركبتين والعرقوبين فهو التجبيب Grande Balzane والفرس مجبَّب فاما اذا بلغ التجبيب الركبتين والعرقوبين فهو مُسَرْوَل B. haut-chaussée حتى اذا خرج من الذراعين والساقين فالفرس أخْرَج

***

هذا قليل مما وضعه العرب في ألوان الخيل وشياتها مع ما يقابله بالفرنسية وفيه فائدة يستفيدها الذين يعنون بشئون الخيل في البلاد العربية والذين يعنون بالمصطلحات العلمية من فقهاء اللغة

الفلاحة الفرعونية

الحرث والبذر

للدكتور حسن كمال
وكيل القومسيون الطبي

﴿تقسيم الاراضي﴾ يبدأ الفلاح بعد زوال الفيضان في تنقية حقله من الاعشاب والاحجار المتخلفة عادة من الفيضان النيلي . وكثيراً ما يرسم الفلاح منذ اقدم الأسر قائماً بهذا العمل الجليل الشاق كمقدمة لزراعة الارض . والمعروف ان هذه العناية كانت محصورة بادىء ذي بدء في مساحات تكفي سكان القطر فقط . لكن لما زاد تعداد هؤلاء وبلغ السبعة ملايين نسمة ثم زادت ايضاً صادرات القمح المصري الى بلدان البحر الابيض المتوسط تحتم على اهالي القطر الانتفاع بكل بقعة في وادي النيل تحقيقاً لهاتين الغايتين الهامتين . وهذا هو سر استئصال الغابات في القطر المصري

وقد اخبرنا ميتن (Meten) من عهد الاسرة الثالثة [1] انهُ حوّل جميع اراضي والده الى ارض زراعية . والباحث في الآثار يجد ان عملية تطهير الاراضي من الاعشاب وخلافها استمرت حتى عهد الاسرة الثانية عشرة كما يشاهد ذلك في نقوش زاوية المتين التي اوردها لبسيوس (دنكمايلر ج ٢ لوحة ١٠٨ — ١٢٦) . واستعمل الفلاح في هذه العملية الباطلة واستعان على ابادة الاعشاب بالغنم

وتشاهد النباتات المائية مرسومة بوضوح في بعض مقابر طيبة فمقبرة (نخت) تمثل نهر النيل والاعشاب نامية على شاطئيه والفلاح المصري يقتلعها بالفأس . قال هيرودوتس (ج ٢—١٤) وديودورس (ج ١—٣٦) ان الفلاح بعد ما يستأصل الاعشاب والنباتات البرية من ارضه يعمد الى تسميدها باطلاق الخنازير فيها . لكن هذا القول قوبل بالنقد الشديد من الأثريين خصوصاً اذا لاحظنا ان مصاطب المملكة القديمة لم تحو رسوماً لهذه العملية للآن . لكن يوجد في مقبرة بطيبة (نب امون Rec. de trav. tix pl. 98) منظر لقطيع من الخنازير يسبق فلاحاً يقلب الارض بفأسه

﴿طريقة استعمال الفأس﴾ سبق ان ألمعنا في مقال آخر الى طريقة استعمال الفأس في العهد السابق لعهد الفراعنة واوردنا رسماً لذلك . ثم تكلمنا في التحسينات التي ادخلت على هذه الآلة العظيمة التي تعتبر بحق رمز مصر والتي حافظت على وجودها مدى التاريخ . واكثر استعمال هذه الآلة كان في الاحوال التي تتطلب تفليق الارض بدقة دائمة . لذلك كثيراً ما نجد رسوم الفلاحين على الآثار تمثلهم قابضين على الفؤوس الواحد تلو الآخر قائمين بعملية الحفر المطلوبة . وذلك

(1) Meyer II. transl. Moret p. 216.

في عهدي المملكة القديمة والامبراطورية . وكثيراً ما يكتب اعلاهم عبارة معناها « ازل بهِ » — اي احفر بالفأس (مقبرة تي بسقارة) وقد اورد ماريبت في كتابه عن المصاطب (ص ٣٤٦) رسماً لامرأة تحفر الارض بنشاط وشجاعة

وفي مقبرة (تي) المذكورة حفر الحفار منظراً لثلاثة رجال يستعملون الفأس في حفر الارض بهمة وفوقهم نقشت انشودة كانوا ينشدونها وقت قيامهم بهذا العمل الشاق اليك ترجمتها : « الحفار في المياه وسط الاسماك يناجي سمك الصلور ويتبادل التحية مع سمك العبيدي — ايها الغرب ان حفارك هو حفار الغرب[1] » . والتمثال الصغير الذي عثر عليهِ جهة مير يفسر هذه الانشودة اوضح تمثيل . لانهُ يمثل الفلاح يحفر الارض بفأس باخلاص بين كما يستدل من غور قدميه في الطين حتى كعبيه ولما كان وقت الحفر بالفؤوس هو في اليوم التالي لزوال الفيضان كان السمك حينذاك يغدو ويروح حول القائمين بهذه العملية على ما يدلُّ نصُّ الانشودة

﴿ استعمال المحراث ﴾ يشاهد استعمال المحراث في فلاحة الاراضي بنسبة تفوق كثيراً استعمال الفأس وذلك منذ عهد الاسر الاولى . ومنه يستدل على ان الاراضي كانت تزرع بانتظام منذ تلك العصور . وصغار الفلاحين الذين كانوا لا يمتلكون بهائم لجرّ المحاريث كانوا يقومون بذاتهم بهذه العملية (مقبرة باحرى) والعادة ان المحراث كان يجرّ بثورين او ببقرتين وذلك بواسطة ناف مستعرض مثبت في قواعد القرون بوثاق قوي . لكن هناك مقبرة بعنف تمثل الناف مثبتاً في اعناق الثيران[2] . وهناك عدة قراطيس بردية تحوي رسوماً تمثل تثبيت الناف في الاعناق . واورد بريس Prisse[3] رسماً لمحراث يجره جوادان . وهناك مقبرة ببني حسن (لبسيوس ودنكمار ٢ — ١٢٧) تحوي نقوشاً يستدل منها على ان ثيران صاحب المقبرة كانت مدربة احسن تدريب حتى انها كانت تقوم بعملية الحرث بمجرد ربطها في المحراث واعطائها الاشارة للبدء بالعمل . والعادة ان هذه البهائم كانت لا تحتاج الى ارشاد وقت الحرث الأ ساعة ادارة الآلة وتغيير خطة السير . وبديهي ان محاريث هؤلاء القوم كانت لا تشق الأ الطبقة السطحية للحقول كما يستدل من طبيعة محاريث تلك الأزمنة وكما هو وارد ايضاً في رواية ديوسقورديس (جزء ١ — ٣٦)

والباحث في صور المحراث الواردة على الآثار يجد ان هذه العملية تمثل برسم محراثين او ثلاثة محاريث الواحد خلف الآخر . والقصد من رسمها بهذه الصورة هو ايضاح طريقة استعمال عدة محاريث على حذاء واحد وفي بقعة واحدة . لكن رسام تلك الصور عسر عليهِ رسمها رسماً مجسماً فاضطر ان يوضح مراده برسم المحاريث بعضها تلو بعض. وهناك احتمال آخر في تفسير تعدد المحاريث في مناظر حرث الاراضي يتلخص في ان الارض التي كانت تزرع كتاناً او فولاً كانت تحرث مرتين او

(1) Maspero Etude egyptienne t. II p. 74 trad. (2) Descrip. de l'egypte. Ant. V. p. 17
(3) Mon. Egypt. pl. 35

ثلاثاً قبل زرعها قمحاً . وهـذه العادة اتبعها اليونانيون في فلاحتهم [1] . فهل كان الحراث يقصد بتعدد رسم المحراث اثبات مرات حرث الارض ؟ هذا السؤال تصعب الاجابة عنهُ اجابة قاطعة

ويلاحظ في بعض المقابر مثل مقبرة (نخت) بالاقصر ان الرسام اوضح طريقة تجزئة الاراضي الى حقول متعددة بالطريقة التي كانت متبعة في عهده . فهناك ترى حقلين تفصلهما شجرة صغيرة كما تشاهد ايضاً المحراث الذي يستعمل في حراثة احد الحقلين مقابلاً لمحراث ثان لحراثة الحقل المجاور والبقرتان الجارتان لكل محراث تتقابلان مع بقرتي المحراث الآخر عند الحد الفاصل للحقلين . ويضطر الفريقان بحكم تقابلهما من تولية ظهورهما بعضهما لبعض والرجوع بالتالي الى الجهة المضادة

والمحراث المصري القديم (وهو لا يزال مستعملاً الى الآن) يتطلب عناية كبيرة من الفلاح فعلى هـذا الاخير قبل استعمال المحراث ان يضغط عليه بكل قواه ليرسل حده في التربة الى أبعد مدى ممكن وان يستمر في ضغطه هذا طول مدة الحرث متكئاً على زاوية المحراث بيديه حانياً ظهره طول الوقت . وقد يقوم فلاح واحد بهذه العملية . لكن الغالب ان فلاحين يقومان بهذا العمل احدهما يضغط على المحراث وآخر يسوق البقر من الامام او الجنب بحسب ما تقتضي الاحوال (مقبرة تي) وثمة في مقبرة (باحري) انشودة كان الفلاحون ينشدونها وقت الحرث ترجمتها : « انهُ ليوم بديع ! ويوم سعيد . فالثيران تجر المحاريث . والجو باق على مرامها ، ونحن نؤدي واجبنا نحو سيدنا ! »

وبعد الفراغ من الحرث يبدأ الفلاح في تكسير الكتل الطينية الناجمة من المحراث . فيعمد بالفاس او العصى الغليظة او القادوم فيفتت هذه الكتل الى قطع صغيرة ممهداً بذلك الحقل لعملية البذر ومسهلاً في الوقت نفسه طريقة الري

﴿ السماد ﴾ معلوم ان مياه الفيضان تحمل مقداراً كبيراً من الغرين الذي هو سماد طبيعي . قال بلينيوس (١٩ — ٥) ان قدماء المصريين كانوا يوزعون على اراضي حقولهم مادة آزوتية بقصد التسميد للنباتات المتأخرة النضوج . وروى الاستاذ ولكنسون في كتابه عن عادات المصريين (جزء ٢ — ٣٩٥) انهم كانوا يضيفون الرمال لتلطيف تربة بعض الحقول وجعلها صالحة لنمو بعض النباتات كالعنب

﴿ طريقة البذر ﴾ وبعد الفراغ من عملية الحرث يبدأ الفلاح في بذر حبوبه ثم تغطيتها بالتراب قال هيردوتوس (جزء ٢ — ١٤) ان الاراضي التي كانت تغمرها المياه معظم السنة كانت تبذر فيها الحبوب حال زوال الفيضان منها بدون حرث على الاطلاق بشرط ان تكون هذه الاراضي قد سبق زرعها . وليس هذا بمستبعد لان شمس مصر المحرقة وخصوصاً في صعيدها تجفف الارض بعد زوال الفيضان عنها في مدة لا تتجاوز عدة ساعات

أما الاراضي التي تحرث حرثاً اصولياً بقصد زراعتها قمحاً مثلاً فان الفلاح كان يتتبع ساعتئذ سلاح المحراث واضعاً الحبوب في مجراه كما هو واضح في قصة الاخوين من أن « الارض حالما تخلصت من مياه

(1) Iliade XVIII, 547.

الفيضان اخذ الاخ الاكبر قيادة المحراث وكلف اخاه الاصغر الاسراع في الحضور الى الحقل مصحوباً بالحبوب لبذرها » . وتشير هذه القصة ايضاً الى طريقة توزيع اعمال الفلاحة بين افراد العائلة والى الاقتصاد في الحبوب وقت البذر حيث ورد فيها ان الكمية الاولى من الحبوب تفدت فأرسل الاخ الاكبر أخاه الاصغر مرة ثانية الى مخزن الحبوب حيث وجد زوجة أخيه فناداها قائلاً «هيا اسرعي واعطيني الحبوب لأن أخي طلب مني الاسراع في ذلك وقال لي لا تكن كسولاً » فاعتذرت اليه السيدة وقالت « يتعذَّر عليَّ القيام الآن لأنني اسرح شعري واخشى ان يتلبك قبل الفراغ منه . فاذهب انت وخذ البذور المطلوبة» . فدخل الصبي الاهراء وملأ زلعة كبيرة من الحبوب لانهُ كان في نيّته ذلك . وكانت الحبوب قمحاً وشعيراً . وحملها على كتفه . فلما همّ بالخروج بادرته زوجة اخيه سائلة — ما هي كمية الحبوب التي تحملها على كتفك ؟ — فاجابها — ثلاثة مكاييل من الشعير ومكيالان من القمح فيكون الكل خمسة مكاييل . هذا هو ما أحمله على كتفي » — (راجع قرطاس اوربيني لوحة ٢ — ٩ ، لوحة ٣ سطر ٥) . ومنه يستدل على شدة حرص السيدة في معرفة الكميات المأخوذة من الشونة محافظة على المقادير اللازمة للمنزل

ودلتنا النقوش البارزة بمقابر سراة القوم وكبار الموظفين ان الحكومة كانت تحافظ جداً على عدم التبذير في الحبوب ومحصولات الاراضي . لأن مرتبات العمال والموظفين كانت تدفع شعيراً او قمحاً وجرت العادة على ان الاهالي كانوا يستدينون بعضهم من بعض ما تتعادل قيمته مع مقادير معينة من الحبوب لان الحبوب وقتئذٍ اصبح لها قيمة مالية تضارع قيمة النقود في عصرنا هذا [١] وكانت هناك طائفة كبيرة من الكتّاب تقوم بتسجيل الصادر والوارد في شون الحكومة من الحبوب . واعتاد الرؤساء ان يرسلوا مفتشين لجرد محتويات هذه الشون وذلك لكيل محتوياتها وتسجيلها في سجل خاص تحت اشراف كاتبين . يقوم احدهما بمراقبة عملية الكيل ويقوم الآخر بقيد مقاديرها (راجع مقبرة الشيخ سعيد للاستاذ ديفيز . ص ١٩٠ ومقبرة اورارنا لوحة ١٦) . واورد لبسيوس في (الدنكمايلر ج٢ لوحة ٥٦ مقبرة نوفر بيوپتاح) نقوشاً يستدلُّ منها على طريقة اخذ الحبوب من الشون بواسطة الفلاحين القائمين بعملية البذر . ومنها يتضح ان هؤلاء كانوا يملأون اكياسهم حبوباً من فتحة الشونة السفلى ويحملونها على اكتافهم تحت اشراف كتبة يقومون بعملية القيد لكل صغيرة وكبيرة . وجاء في عدة قراطيس بردية من العهد الصاوي (٦٦٠ — ٥٢٥ ق . م .) ما يشير الى ان بعض فلاحي ذلك العصر كانوا يقترضون كميات التقاوي اللازمة لهم من متيسريهم على ان يردوها من محصول الارض عند الحصاد

وقد حافظ كيس التقاوي على شكله من عهد الاسرة الاولى (٣٤٠٠ — ق م) [٢] . وكان هذا

(1) Revue egyptologique 1813 3o année, Revillont, Les prête de blé p 25.

(2) Wilkinson, Manners etc. Vol. II p. 369

الكيس يصنع من الصفصاف (water-willow) ويحمل عادة فوق الكتف اليسرى ويقف حامله جوار الحراثين او الحفارين . فاذا ما بدأ الاخيرون عملهم تبعهم الشخص القائم بعملية البذر قابضاً على الكيس بيده اليسرى ومالئاً قبضته اليمنى حبوباً ليبذرها في الشقوق المتخلفة من الفؤوس اوالمحاريث (مقبرة تي لوحة ٣)

وجاء في ميدوم رسم لفلاح يقوم ببذر الحبوب مزين بأوراق النبات وحامل لكيس مربع الشكل تقريباً له يد مجدولة مثبتة بمنطقة الكتفين ومرسل الى خلف الابط الايمن . ويعتبر هذا الرسم الوحيد من نوعه على الآثار للآن

وجاء بمقبرة (پاحرى) رسم لعملية البذر يتلخص في شخص تابع لحفار او حراث يبذر الحبوب على طول باعه . ولما كانت العادة عند القوم وقتئذ اذا ارادوا ان ينقشوا عملية البذر على مقابرهم أن يرسموا الرجل القائم بهذا العمل ثانياً ذراعه . لذلك استنتج بعضهم ان الحبوب المقصود بذرها بمقبرة (باحرى) المذكورة هي غير حبوب القمح وانها لا يبعد ان تكون حبوب الكتان (راجع كتاب مقبرة (نخت) لديفيز لوحة ١٨)

واهتم الرسامون كثيراً بتلوين مناظر البذر اهتماماً فاق اهتمام الحفارين في نقش هذه العملية[١]

﴿ تغطية الحبوب ﴾ ولما كانت احوال القطر الطبيعية تحتم على الفلاحين تغطية حبوبهم بعد بذرها منعاً لتعرض احد جانبيها للارض الرطبة والآخر لاشعة الشمس المحرقة ومحافظة عليها من الطيور والحشرات كما يستدل على ذلك من النص الوارد بقرطاس انسطاسي (٥ لوحة ١٥) من « ان الفراشات تأكل اعشاب الحديقة . والحيوانات الاخرى تأتي على بقية الزراعة » . وتعمل التغطية في الارض الرطبة بجذع نخلة يجره ثوران لكن في مقابر المملكة القديمة (تي لوحة ٣) كانت هذه العملية تؤدى بسوق الغنم او الخنازير التي تغرز الحبوب في الوحل مغطية اياها في الوقت نفسه .وكان الفلاح يشجع احياناً هذه الحيوانات على هذا العمل بترغيبها بحفنة حبوب في يده وطوراً يرغمها على ذلك بالعصى والسياط (تي لوحة ٣ — الشيخ سعيد لوحة ٨) . وقد نسب هيرودوتس هذه الطريقة الى اهالي الوجه البحري (٢ — ٢٦)

اما عملية تغطية التقاوي في الارض الصلبة فكانت تؤدى بتكرار الحرث (پاحرى) كما يستدل ايضاًمن نقوش واردة فوق محراث بمقبرة بالجيزة ترجمتها: «اضغط على المحراث لتغرز الحبوب في الارض» (دنكابلر ٢ — ٥١) . وفي عهد الاسرة الثامنة عشرة انتشرت هذه الطريقة بين القوم فكانوا يحرّ رون حد المحراث على الريشة القائمة بين كل شقين فيشطرها السلاح شطرين يغطي كل منهما الحبوب في الشق المجاور . ووردت على الآثار رسوم تبين استخدام العبيد في جر المحاريث للقيام بهذه العملية (پاحرى)

العلم يكشف عن

ضمائر المجرمين

النفوذ الى ضمير المجرم وحمله على الاعتراف بفعلته كانا ولا يزالان غرض المحاكمات الجنائية في العصور القديمة والعصور الحديثة على السواء. وقد كان المجرم يعرّض في العصور القديمة لالوان من التعذيب يقشعرّ لها الجسم لما تنطوي عليه من قساوة ووحشية، ولا يزال بعض هذه الوسائل شائعاً في بعض البلدان بعد تعديله تعديلاً يسيراً. بل ان المجتمع الانساني نفسهُ لايكاد يصدّق ان هناك وسائل لاستلال سر المجرم من بين شفتيه، اشدّ رأفة به وافعل أثراً من وسائل التعذيب المشهورة. ولكن العلم اختطّ طريقاً في ميدان ظنهُ الناس ممتنعاً على العلم، فاستنبط العلماء اساليب جديدة ارأف بالمجرمين، وهم ناس يتألمون ويتعذبون، واهدى الى الغرض المقصود في أقصر وقت وعلى أيسر حال. ومع ان القوانين الجنائية، لم تعترف بعد بهذه الاساليب، نرى رؤساء دوائر التحقيق الجنائي يعتمدون عليها في بعض البلدان، ويبلغون في الاعتماد عليها نتائج باهرة، وهذا كفيل بأنهُ لا ينقضي وقت طويل عليها حتى تصبح سلاحاً مشروعاً من أسلحة رجال البوليس والنيابة

ولعلّ أشهر هذه الاساليب العلمية الجديدة وأفعلها آلة تعرف باسم «بوليغراف كيلر» وهي آلة غرضها الكشف عن كذب المجرم وامترائه عند التحقيق. والمبدأ الذي بنيت عليه هذه الآلة هو قياس ضغط الدم. فهي لا تختلف في أركانها عن الجهاز الذي يستعمله الطبيب لقياس ضغط الدم عند مريض يخشى تصلّب الشرايين. ولكن بدلاً من الابرة المتحركة في الجهاز الخاص بضغط الدم، هناك ريشة ترسم خطّاً على ورقة منسابة من لفة ورق متحركة. فيجلس المتهم وهذه الآلة ملفوفة على ذراعه، فيوجهُ اليه الباحث الاسئلة في صوت طبيعي لا تجهّم في وجهه ولا تهديد في نبراته. فيجيب عنها المتهم بما يراه، وكلما أجاب كذباً ارتفع ضغط دمه وظهر أثر هذا الارتفاع في الخط الذي ترسمهُ الريشة على الورقة المنسابة

ولكنك قد تسأل: لماذا يرتفع ضغط الدم عند مايقول كذباً. او لماذا يؤخذ ضغط الدم دليلاً على ان المتهم يمتري في جوابه؟ ان سرّ الجواب عن هذا السؤال في التغيرات الفسيولوجية التي تطرأ على الجسم عند ما يكون متأثراً او منفعلاً انفعالاً عنيفاً. فالانسان اذا واجه خطراً ما، استعدّ جسمهُ من الوجهة الفسيولوجية لدفع الخطر، فتنطلق الكريات الحمر من الطحال الى مجرى الدم حيث تتصل بالمفرزات التي تفرزها الغدد الكلوية وغيرها من الغدد، وغرضها جميعاً ان تبعث في الجسم

النشاط للكفاح او للفرار . فكأن أعضاء الجسم تبعث في الجسم نشاطاً غريباً عند ما يواجه خطراً يهدده . فينشأ من هذا كله زيادة خفقان القلب وارتفاع ضغط الدم في الشرايين

فاذا واجه الانسان خطراً ، متمثلاً في سؤالٍ موجهٍ اليهِ عن جريمة من الجرائم ، كان الأثر الاول الذي يحس بهِ الخوف من الكشف عن صلتهِ بتلك الجريمة ، لان هذا الكشف يفضي الى معاقبتهِ بالغرامة او بالسجن او بالتشهير او بالاعدام . فتستعد جميع أجهزة جسمهِ للدفاع عن الجسم وهذا الدفاع يتخذ في هذه الحالة شكل محاولة التستر على فعلتهِ او الكذب في الرد على السؤال

ولكن مهما يبرع المجرم في كبْت انفعالهِ ، حتى لاتبدو آثاره في نظرهِ وكلامهِ وحركاتهِ ، فانهُ لا يستطيع ان يمنع احتشاد قوى جسمهِ الداخلية لهذا الدفاع . وهذه الآلة الجديدة تستطيع ان تتبين أثر كل هذا في ضغط دمهِ ، فترى الريشة ترسم خطاً متعرجاً شديد التعرج . عند ذلك يبادر المحقق اليهِ فيطلب منهُ ان يفسر هـذا التقلب الغريب في ضغط دمهِ كما يبدو في الخط المتعرج على الورقة المنسابة . وفي ٧٥ في المائة من الحوادث ، ينصرف المتهم عن محاولة الانكار الى الاعتراف عند ما يرى الدليل الماديّ قائماً على انهُ يخفي شيئاً . فاذا أصرّ على الانكار وجهت اليهِ أسئلة اخرى متفرقة ومنوّعة ، ومن أثرها في ضغط دمهِ يستطيع الباحث ان يهتدي الى بيِّنات تقوده الى الحقيقة ، فالآلة تبين صدق المتهم وكذبهُ . وقد جربت حتى الآن في ١٥٠٠ حادثة فأصابت فيها جميعاً

لم تدخل هذه الآلة الى الدوائر القضائية رسميًّا ولكنَّ طائفة كبيرة من البنوك والمنشآت العامة تستعملها لتتبيّن صغار المختلسين ومن اليهم من عمّالها وموظفيها . فقد استعمل احد بنوك شيكاغو « بوليغراف كيلر » هذا في امتحان ستة وخمسين من موظفيهِ لاستكشاف من اختلس منهم مبلغ خمسة آلاف ريال ، فكشف عن الرجل ، ولما كشف عنهُ اعترف. واهتدى اصحاب البنك الى تسعة من الموظفين كانوا قد اختلسوا مبالغ يسيرة من المال لا علم للمديرين بها ، وهم يمتحنون الآن جميع الموظفين بهذه الآلة مرة كلَّ سنةٍ

وثمة طريقة اخرى استنبطها الاب سمرز احد اساتذة جامعة فوردهام الاميركية تدعى « سيكوغلفانومتر » اي المقياس الكهربائي النفسي . وهي مبنية على اساس كهربائي . فيمسك المتهم بقطعة معدنية بيدهِ ثم يسري في جسمهِ تيار كهربائي ضعيف مستمدٌّ من بطرية واحدة . واذ يكون في هذه الحالة توجه اليهِ الاسئلة المطلوبة ، بعضها لا صلة لهُ بالموضوع المطلوب البحث فيهِ ، وبعضها لهُ صلة وثيقة بهِ . فاذا سئل سؤالاً لهُ صلة بالموضوع ، وكان على علم بذلك ، يحدث شيءٌ غريب في جسمهِ . فاذا كانت صلتهُ اجرامية حفزت غدد العرق فيهِ الى افراز العرق متأثرة باستعداد قواهُ الداخلية لدفع الخطر عن جسمهِ . وهذا العرق الذي يفرز قليل ، ولكنهُ كافٍ لتغشية القطعة المعدنية القابض عليها فتقلُّ مقاومتهُ للتيار الكهربائي الساري في جسمهِ ، فيظهر ذلك على جهاز خاص . ومن المستحيل ان تحتال على هذه الآلة لانهُ اذا رفض المتهم ان يجيب عن السؤال الموجَّه

اليهِ ، يعجز عن السيطرة على غدد العرق فيهِ ، فلا يستطيع ان يمنعها من افراز عرقها ، فكأن افرازها صوت صارخ في وجههِ وشاهد على فعلتهِ

وقد ذهب احد الكتّاب العلميين الى الإب سمرز وطلب اليهِ ان يجرّب آلتهُ هذه فيهِ . فجرّبها بان اتى بمجموعةٍ من ورق اللعب وطلب اليهِ ان يختار احدى ورقاتها وان يعيد الورقة الى المجموعة. ثم اختيرت تسع ورقات اخرى وضمّت الى هذه الورقة وعرضت على الكاتب، وسئل عن كل ورقة منها هل هي الورقة التي اختارها فاجاب « لا » على الورقات العشر . واعيدت هذه التجربة ثلاث مرات . وهو يجيب « لا » اجابة مطّردة . فدلّت الآلة على الورقة التي كذب في الاجابة عنها ، بزيادة سريان التيار الكهربائي في جسمهِ . واخيراً اعترف الكاتب بكذبهِ فقال لهُ الاب سمرز : اذا كان هذا مبلغ فعل الآلة ، في حالة الكذب عن ورقة لا شأن لها فكيف بها والمتهم يحاول ان يخفي جريمة او فعلةً شنعاء

وهناك طريقة ثالثة استنبطها الاستاذ كروسلاند وهي عبارة عن ساعة دقيقة لقياس اجزاء الثواني ، واسئلة توجه الى المتهم تحتوي على كلمات بعضها لا علاقة لها بموضوع البحث وبعضها لهُ علاقة وثيقة بالموضوع . وهذه الطريقة لا تكشف عن كذب الكاذب ، بل تكشف عن شعورهِ بالاثم الذي اقترفهُ . وقد جرّب الاستاذ كروسلاند طريقتهُ في سبع حوادث ، فحصل على اعتراف اصحابها جميعاً فاعترف خمسة منهم بالسرقة وواحد بالتزوير والخامس بالغش في الامتحانات

ولنفرض ان الوزر الذي نريد ان نبحثهُ هو سرقة محفظة تحتوي على عشرة جنيهات ، من جيب احد الموظفين في مكتب تجاري . فيؤتى بجميع موظفي المكتب وتتلى على كل منهم بحضور الآخرين قائمة من الكلمات فيما يلي : — شارع . لبن . محفظة . مجلة . مكتب . جيب . ثلاثة أمتار . محرر . حاسب . عشرة جنيهات . قلم وهكذا . فبعض هذه الكلمات لا صلة لهُ البتة بسرقة المحفظة . والبعض الآخر له صلة كل الصلة بها . ويطلب الى كل واحد ، ان يذكر اول كلمة تخطر على بالهِ عند ذكر كل كلمة من هذه الكلمات امامهُ على حدة . ولما كان الوقت السوي الذي يجب ان ينقضي على ذكر الكلمة وذكر الكلمة التي تدعوها في ذهن المسؤول ثانيتين ونصف ثانية ، فكل تأخير عن هذه المدة يعني ان المسؤول يحاول ان يختار الكلمة التي يجيب بها ، بدلاً من ان يقول الكلمة التي تخطر لهُ بداهة ، او ان هناك اضطراب نفسي حملهُ على التأخر . وتعين المدد التي يستغرقها كل فرد في الاجابة بواسطة الساعة الدقيقة ، ثم يوضع جدول بها فيطلق سراح الابرياء وتعاد الكرة في سؤال الذين تقوى الشبهة عليهم . وقد استعملها الاستاذ مورتيمر احد اساتذة جامعة كولومبيا في فرقة مؤلفة من خمسين طالباً فلم تخطئ

وثمة طريقة اخرى مبنية على قاعدة بسيكولوجية تعرف باسم طريقة « حجرة المرايا » . فجدران هذه الحجرة مصنوعة من مرايا يجلس المتهم في وسطها وتوجه اليهِ الاسئلة من حجرة مجاورة عن طريق ثقب في

الجدار . وفي اثناء توجيه الاسئلة اليهِ ، تحولُ انوار الحجرة حتى يصير لونها ضارباً الى الخضرة . فينظر المتهم يميناً ويساراً فلا يرى الاَّ وجهه في المرايا التي حولهُ وقد علاهُ لون شاحب كأنه ممتقع. فيظنُّ اذا كان مجرماً ، ان لون وجهه قد نمَّ عليهِ فيعترف في الغالب . وقد اصابت هذه الطريقة قسطاً كبيراً في النجاح في سؤال المجرمين العصبيين او الجهَّال . اما العصبيون فلأنهم يعجزون عن الصمود لسمة الاجرام تعلو وجوههم فيعترفون ، واما الجهال فلأنهم لايستطيعون ان يفهموا سرَّ هذا اللون فيقعون في فخهِ . ومن الآلات التي لم تتقن بعد آلة استنبطت لقياس سرعة التنفس وهي تستعمل في الغالب مع مقياس ضغط الدم المعروف باسم « بوليغراف كيلر »

ذكرنا حتى الآن الاساليب العلمية التي تمكن البحاث من تبيُّن الشعور بالاثم او بالاجرام . ولكن بعض علماء الاجرام يسلمون بان اتم هذه الوسائل قد لا يكفي لانتزاع الاعتراف بالجريمة من فم المجرم المجرَّب . ولذلك استنبط العلم لهذا الطراز من الجناة مركب « السكوبولامين » المعروف بمصل الحقيقة وهو دواء يفعل فعلاً خفيًّا في الدماغ فيعترف المجرم بالحقيقة

والسكوبولامين هذا عقار مستخرج من السيكران او الحشيشة الفارسية اكتشفه الدكتور هوس R. E. House احد اطباء ولاية تكساس في عملية جراحية نسائية . فتبين لهُ انهُ يخدّر او يفعل فعلاً مخدراً في بعض مناطق الدماغ ، ولكنهُ لايضعف ذاكرة من يتناولهُ ولا سمعهُ ولا مقدرتهُ على النطق. وبعد موالاة البحث تبين ان منطقة الدماغ التي تتأثر بهِ هي المنطقة التي تمكننا من اختلاق الاقوال في سبيل الدفاع عن النفس . وكذلك كشف ان الانسان الذي يحقن بالسكوبولامين يظلُّ محتفظاً بجميع حواسهِ ولكنهُ يفقد المقدرة على الاختلاق والكذب

وقد جرَّبهُ العالم الاجرامي الاميركي المشهور — الكولونل كالفن غودرد — فتبين فعله العجيب . ذلك ان الكولونل غودرد طلب الى احد زملائهِ ان يردَّ على عشرين سؤالاً بسيطاً وجهها اليه . مثلاً : هل تلعب البردج ? هل تتكلم الفرنسية ? ثم حقن هذا الزميل حقنة تحت الجلد بجرعة من السكوبولامين ، فلما فعل العقار فعله في الجسم ، وجهت الاسئلة نفسها الى الرجل . فتبين انهُ كان صادقاً في ١٩ سؤالاً منها . واما السؤال العشرون فكان « هل قبض عليك لمخالفة ارتكبتها بسيارتك » ? فكان جواب اليقظة التامة عليه « لا » واما الجواب والرجل تحت فعل العقار فكان : « نعم لما كنت طالباً في المدرسة التجهيزية في فرجينيا » . ولما استيقظ وسئل عن هذا التناقض صرح انهُ كان قد نسي كل النسيان تلك الحادثة ، الى ان نبشها السكوبولامين من خبايا الذاكرة . وقد استعمل وكيل نيابة برمنغهام بولاية ألاباما هذه الحقنة في التوصل الى سر سلسلة من جنايات الاغتيال بلغ عددها خمساً وعشرين . فضبط عصابة مؤلفة من اثني عشر رجلاً واستعمل هذا العقار في الاهتداء الى حقيقتهم . ولما كانت المحكمة لا تسلّم بدليل من هذا القبيل اعتمد على الحقائق التي انتزعها منهم وهم تحت فعل العقار في الفوز باعتراف صريح منهم

اساطين العلم الحديث

فردريك وهلر

Friedrich Woehler

الكيماوي باري الحياة

من نحو مائة سنة حدث حادث خطير ، في معمل كيماوي الماني ، كان لا يزال في العقد الثالث من عمره . ذلك ان فردريك وهلر كان قد عاد حديثاً من استوكهلم عاصمة السويد حيث تتلمذ للكيماوي السويدي العظيم برزيليوس [1] . وفي خلال طلبه للعلم في المانيا والسويد كان قد سمع في الدوائر العلمية التي زارها ، بحديث قوة حيوية خفية تتخلل الاجسام الحية ، فحمله ذلك على التفكير . وها هوذا في منصبه الجديد ، يدرّس في مدرسة التجارة الجديدة ببرلين ، وفي ثنايا ذهنه فكرة ، كأنها بذرة في تربة خصبة تستعد الانتاش

كان الرأي السائد حينئذٍ ، ان في اجسام النبات والحيوان ، شعلة قوة حيوية خفية ، تمكن هذه الاجسام من بناء مركّبات معقّدة كاصناف السكّر والنشاء والزلال ، من مواد بسيطة التركيب ، وان هذه القوة الخفية لا أثر لها في الجوامد . وكان الناس يعتقدون ان الموادّ التي تتركب منها النباتات تختلف عن المواد التي تتركب منها الاجسام المعدنية في ان الاولى لا يمكن تركيبها تركيباً صناعيًّا في معامل الكيماويين . واذن كان من المستحيل في رأي ذلك العصر ، على الانسان ان يجاري هذه القوة الحيوية في ابداعها . حتى لقد ظنّ بعضهم ان هذه المركبات العضوية ، لا تخضع لنواميس الكيمياء . ذلك كان رأي الدوائر العلمية في سنة ١٨٢٨

بل كان برزيليوس نفسهُ ، قد اشار في بعض ما كتب وحاضر ، الى الهوة التي لا يمكن ردمها بين المواد العضوية والموادّ غير العضوية . وكان ليوبولد جملين [2] ، استاذ وهلر في جامعة هيدلبرج ، ثابت اليقين في ان المواد العضوية لا يمكن تركيبها تركيباً صناعيًّا . ولكنّ وهلر كان شابًّا وفي اندفاع الشباب شكّ في ما يقال . ولذلك فضّل ان يجاري قول الكيماوي الفرنسي شفرول [3] في ان القول بوجود فارق مطلق غير قابل للتغيُّر مناقض لروح العلم . بل كان في قرارة ذهنه يعتقد ان عبارة « القوة الحيوية » ليست الأ ستاراً لما نجهل ، وان التسليم بها تسليماً مطلقاً يعيق الكيمياء عن الارتقاء

---

(١) جونز جاكوب برزيليوس كيماوي سويدي Berzelius (١٧٧٩ — ١٨٤٨) (٢) ليوبولد جملين فرد من اسرة المانية كبيرة اشتهر رجالها بالكيمياء والطب. وكان هذا استاذ الكيمياء في جامعة هيدلبرج (١٧٨٨ — ١٨٥٣) (٣) كيماوي فرنسي (١٧٨٦ — ١٨٨٩)

فمضى وهلر يبحث ويجرّب في معمله ، وهو لا يكلّ ولا يملّ . وكأنهُ كان يقول في نفسهِ : آه لو تمكنت من تركيب احدى هذه المواد التي لم يؤثر تركيبها قبلاً الاّ في الجسم الحيّ ! انهُ لو استطاع ذلك لضرب الفكرة السائدة ضربة قاضية ، اقوى من الضربة التي دالها لافوازيه[1] لفكرة الفلوجستون !

***

كان فردريك وهلر قد طالع مؤلفاً جديداً لشفرول اثبت فيهِ ان كثيراً من الادهان التي تتكوّن في أجسام النبات تماثل الادهان التي في أجسام الحيوان . وكذلك أزال الحاجز الفاصل بين النبات والحيوان من هذا القبيل . وكان ملمّاً بمباحث رول Rouelle[2] معلم لافوازيه في كيمياء أجسام الحيوان

كان الغرض الذي وضعهُ نصب عينيه جليلاً أخّاذاً يستهوي الافئدة . فمضى يجرب تجربةً أثر تجربةٍ وهو لا يبلغ منها لبانةً ما . ولكنهُ مضى في تجاربهِ اربع سنوات متوالية . وفي ذات مساءٍ حدثت الاعجوبة !

تصوّر دهش هذا الباحث الفتى ، وقد وقع بصره على مركّبٍ صنعهُ في انبيقٍ من مواد غير عضوية . هاهوذا يرى في انبيقهِ ما وزنهُ غرام من بلورات بيض مستطيلة كالابر ، كان رول معلم لافوازيه قد وجدها قبل خمسين سنة في البول ودعاها فوركروي « يوريا »[3]. لم يعرف من قبل ان هذا الملح الابيض يمكن ان يركّب خارج الجسم الحيّ !

ولم يكن غريباً ان يتبين وهلر طبيعة هذه البلورات عند مشاهدتها . ذلك انهُ كان قد بدأ دراستهُ العلمية طالباً للطبّ . واذ كان يكتب رسالة عن نفايا الجسم في البول اتصل علمهُ «باليوريا» فتحمس لما شاهد . بل أنهُ رأى نفسه بعين خياله واقفاً على عتبة عصر جديد في الكيمياء وقد قضى بتجربتهِ على نظرية جميلة ولكنها لا تقوم على أساس . انهُ ادرك في الحال ، انهُ كان أول من صنع مادة عضوية خارج الجسم الحي . فتمثل لنفسهِ الميادين الواسعة والآفاق الجديدة التي يمهّد السبيل اليها هذا المركّب الصناعي . ولكنهُ ظلّ محتفظاً برباطة جأشهِ لان معلمهُ برزيليوس كان قد حذّره من التعجل . فحلل المادة التي بين يديهِ ليتثبت من انها وبلورات اليوريا التي تركبها « القوة الحيوية الخفية » في الجسم ، شيء واحد

فلما تثبت من ذلك كتب الى برزيليوس فقال : يجب عليّ ان انهي اليك انني استطيع ان اركب «اليوريا» من دون ان احتاج الى كليتي انسانٍ او كلب» . فتحمس السويدي لهذا النبإ الخطير وأخذ يذيعهُ في الدوائر العلمية ، فسرت رعشة كهربائية فيها . ولما تناهى النبأ الى شفرول رحّب بهِ أعظم ترحيب . ها هو ذا وهلر قد ركّب «اليوريا» من مواد غير عضوية . فماذا يمنعهُ او يمنع غيره من العلماء ان يركبوا السكّر او الزلال او حتى البروتوبلازمة نفسها أساس الحياة العروي ؟ ولكن دعاة

---

(1) كيماوي فرنسي قتل في الثورة الفرنسية (١٧٤٣ — ١٧٩٤) (2) كيماوي فرنسي (١٧٠٣ — ١٧٧٠) (3) مادة بيضاء يمكن بلورتها توجد في البول والدم واللمفا . وهي المادة النتروجينية الرئيسية في البول

المذهب «الحيوي» اعترضوا على كل ذلك ، فقالوا لعلَّ «اليوريا» مادة متوسطة بين المواد العضوية والمواد غير العضوية . ثم ان تركيب اليوريا يقتضي استعمال الامونيا . والأمونيا من أصل حيوي. فانكار القوة الحيوية خطأ ، لانها كامنة في الأمونيا التي صنعت « اليوريا » منها . ولكن همس الحيويين ضاع بين صيحات التهليل المرتفعة من كل حدب وصوب ، بأن عصراً جديداً قد أهلَّ على عالم الكيمياء

نشر وهلر مذكرتهُ عن تركيب اليوريا سنة ١٨٢٨ وبعد انقضاء قرن كامل عليها ، فاز الاستاذ بيكته Pictet وهاز فوغل من اساتذة جامعة جنيف بتركيب سكر القصب . فأخذ بيكته الايدروجين وثاني اكسيد الكربون وصنع منهما الكحول الخشب ثم حوَّل هذا الالكحول الى مادة الفورملدهيد [1] ، ومن هذه المادة استخرج الغلوكوز ومن الغلوكوز [2] استخرج السكروز وهو قصب السكر . فلما تمَّ لهُ ذلك كان قد انقضى نصف قرن والعلماء يبحثون عن اسلوب لصنع قصب السكر بالتركيب الصناعي

كان السر جيمز كولوهون ارفين وكيل جامعة سانت اندروز الاسكتلندية قد قضى عشرين سنة يعالج هذا الموضوع وكاد يفوز ببغيتهِ . فلما اتاهُ نبأُ فوز بيكته قال لتلاميذه . « يؤسفني ان لا يكون هذا التركيب قد تمَّ في معامل جامعتنا . ولكن يسرّني ان يحوز بيكته هذا الفخر . انهُ لنصرٌ عظيم ، وانهُ لخطوة كبيرة في الكيمياء العضوية والكيمياء الحيوية»

ما احفل القرن الذي انقضى بين « يوريا » وهلر « وسكروز » بيكته ، بالعجائب ! لقد تمَّ تركيب ٤٠٠ الف مركب جديد في هذا الفرع من الكيمياء ، والعلماء يضيفون اليها ما متوسطه ٤٠٠٠ مركب جديد كل سنة !

***

ولد فردريك وهلر في مستهل القرن التاسع عشر على مقربة من مدينة «فرنكفورت اون ماين» وكان والدهُ اوغست متفقهاً في العلم والفلسفة . فتلقى فردريك مبادىء العلم من والدهِ ، فحبب اليهِ درس الطبيعة ونشأهُ على الميل الى الرسم وجمع نماذج من المعادن . فكان فردريك يتبادل مع رفاق صباه نماذج المعادن كما يتبادل بعضهم طوابع البريد . وحافظ على هذه الخطة مدى حياتهِ . وقد لقي بفضلها غوته في شيخوختهِ اذ كان الشاعر العظيم يفحص بعض حجارة معدنية في دكان بفرنكفورت يختلف اليهِ وهلر

ثم ما لبث ان اضاف الكيمياء الى الامور التي يهوى متابعتها . واتصل عن طريق ابيهِ بصديق للاسرة يملك خزانة كتب غنية ومعملاً كيماوياً خاصاً ، فاذن لهُ في ان يختلف الى الخزانة للمطالعة

---

(١) غاز مركب من الكربون الايدروجين والاكسجين (ك يد٢ اك) يصلح للتطهير محلوله سائل طيار لا لون له

(٢) سكر العنب ويوجد في الدم واللمفا وفي بول المصابين بداء السكر

والى المعمل لتجربة التجارب . فبنى اعمدة كهربائية ڤولطائية من الواح من الخارصيني (الزنك) وبعض النقود الروسية النحاسية التي جمعها . واهدى اليهِ مدير ادارة سك النقود بالمانيا ، فرناً ليستعمله في تجاربهِ فحرق اصابعهُ بالفصفور مرة ، وكاد يقضي عليهِ مرة اخرى لما تحطم بين يديه وعاءٌ زجاجي يحتوي على غاز الكلور السام

بعد ذلك ذهب الى جامعة ماربورغ حيث تلقى ابوهُ العلم. فانتظم في سلك طلاب الطب ونال جائزة على رسالة وضعها في «نفايا البول» . ومما يؤْثر عنهُ انهُ جرَّب تجارب خطيرة في كلبهِ وفي نفسه وهو معنيٌّ باعداد تلك الرسالة . ولكن الكيمياء كانت لا تزال الموضوع الذي فتن لبَّهُ . فابتنى معملاً كيائيًّا صغيراً خاصًّا بهِ ، وحضَّر فيهِ «يودور السيانوجن» فكان اول من حضَّرهُ . فلما جاء بهذا المركَّب الى استاذه ڤرزر أنَّبهُ لانهُ يضيع وقته في التجارب الكهربائية بدلاً من الانصراف الى دروسهِ الطبية . فامتعض الفتى لهذا التأنيب ولم يحضر بعد ذلك محاضرات استاذهِ

وكان في جامعة هيدلبرج عالم مشهور يدعى ليوبولد جملين Gmelin فرغب في ان يتلقى العلم عليهِ ، فانتظم في جامعة هيدلبرج حيث اتمَّ دروسهُ الطبية ونال شهادتهُ فيها ، واعدَّ معداتهِ لزيارة اشهر المستشفيات في عواصم اوربا قبل ممارسة صناعة الطب . ولكن جملين كان قد راقبهُ يجرّب التجارب في المعمل الكيمائي . فقال لهُ في احد الايام انهُ من العبث ان يحضر دروسهُ لان البحث في المعمل الكيمائي اجدى عليهِ . ولما قدَّم التلميذ لمعلمهِ رسالتهُ في تحضير « الحامض السيانيك » قرأها هذا معجباً بها ولكنهُ لم يخطر لهُ حينئذٍ ان هذه الرسالة ستفضي بعد بضع سنوات الى تركيب اليوريا فتفتح عهداً جديداً في علم الكيمياء . بيد ان جملين عزم حينئذٍ ان ينظم وهلر في سلك خدمة الكيمياء . فحدَّثهُ في الموضوع باسطاً ما في عمل الكيماوي من اللذة . وكان وهلر لا يحتاج الى بلاغة للاقتناع بذلك لانهُ كثيراً ما أغري بترك الطب لكي يتفرغ لدراسة اسرارها . وذكر لهُ استاذهُ اسم برزيليوس وما احرزهُ من شهرة في دوائر اوربا العلمية . فتحمَّس وهلر ، على امل ان يقبلهُ برزيليوس في عداد تلاميذه ومساعديه . فكتب الالماني الى السويدي في ذلك فردَّ برزيليوس وفي ردّهِ تتجلى وداعة العلماء الحقيقية فقال : « ان من درس الكيمياء على جملين قلما يستطيع ان يتعلم مني شيئاً . ولكنني ارغب في معرفتك فتعال متى شئت» . فطرب وهلر لذلك . وخفَّ الى استاذه ليطلعهُ على كتاب برزيليوس وشرع لدقيقته يعدُّ المعدات للسفر الى عاصمة السويد

فلما وصل الى ثغر لوبك على بحر البلطيق قيل لهُ ان لا بد من الانتظار ستة اسابيع قبل اقلاع السفينة الى استوكهلم فضاق صدرهُ بذلك ، ولكنهُ تمكن بواسطة صديق له كان يتبادل واياه نماذج المعادن، من الاتصال بمعمل كيائي هناك حيث حاول ان يكشف اسلوباً متقناً لتحضير مقادير كبيرة من البوتاسيوم وهو العنصر الذي كان السر همفري دايفي [١] قد استفردهُ قبيل ذلك

(١) كيماوي بريطاني (١٧٧٨ — ١٨٢٩)

ولما نزل من الباخرة الى البر السويدي ، وعرف مأمور الجوازات انهُ قادم من المانيا لتلقي العلم على برزيليوس رفض ان يأخذ منهُ الرسم المألوف وقال : « ان احترامي للعلم ولمواطني الممتاز يأبى عليَّ ان آخذ مالاً من رجل حملهُ حبهُ للعلم ان يرحل هذه الرحلة الشاقة للدرس عليهِ »

وصل الى استوكهلم ليلاً ، فما صدَّق ان طلع الصباح حتى هرع الى بيت برزيليوس . قال : « وفي الصباح وقفت وقلبي خافق امام بابه اقرع جرسه ، ففتح لي الباب رجل سمينٌ قوي البنية ، وكان الفاتح برزيليوس نفسهُ فلما تقدمني الى معملهِ تصورَّت انني في حلم »

وفي الحال اعطى الاستاذ تلميذه الجديد بوتقة من البلاتين ، وزجاجة ، وميزاناً ، وعهد اليهِ في دراسة بعض المعادن . فلما تعجل وهلر في العودة الى استاذه ليطلعه على النتائج التي حصل عليها قال لهُ الاستاذ محذراً « اسرعت يا دكتور ولكنك لم تُجِد » . فلم ينسَ وهلر هذا التحذير طول حياتهِ . وبعد تحليل المعادن عاد فعني بالحامض السيانيك فحضر منهُ « سيانات الفضة »

كان في خلال ذلك الوقت شابٌ الماني آخر يدعى ليبغ ، منتظماً في معمل غاي لوساك[1] الكيمائي بباريس ، ومنصرفاً الى البحث في المفرقعات الكيمائية

وفي خلال بحثهِ ركَّب مادة كيماوية غريبة كانت العناصر التي ركبت منها هذه المادة نفس العناصر التي ركبت منها مادة « سيانات الفضة » التي ركَّبها وهلر وفي نفس المقادير . ولكن مركَّب ليبغ كان يختلف في خواصهِ الطبيعية والكيمائية عن مركَّب وهلر . فظنَّ اولاً ان وهلر على خطإٍ في ما قال ، ولكنهُ بعد الامتحان الدقيق ثبت لهُ انهُ ووهلر على صواب . فكتب اليهِ في ذلك مستطلعاً رأيهُ ، فسأل وهلر استاذهُ برزيليوس ، فكان هذا السؤال مهداً للكشف عن ظاهرة « الايسومتري » في الكيمياء وهي ما يمكن ترجمتهُ « بظاهرة النظائر » اي المواد الكيماوية التي تتشابه تركيباً كيماوياً ولكنها تختلف في خواصّها

وقد اجتمع وهلر وليبغ بعد عودتهما الى المانيا وتوثَّقت اواصر الصداقة بينهما ، وكثيراً ما كانا يجتمعان ويتناقشان في الموضوعات الكيمائية التي تدور عليها بحوثهما ، واشتركا في بحث بعض المسائل واصدرا مذكرات علمية باسميهما معاً . وبلغ الاخاء العلمي بينهما اعلى ما يمكن ان يبلغهُ الاخاء الحقيقي ، فلم يضنَّ ليبغ على صديقهِ باسناد كل الفضل اليهِ في جميع بحوثهما المشتركة . قال : « يعود الفضل في بحثنا الحامض البوليك وزيت اللوز المرّ اليهِ . سرنا معاً يدي بيده ، لا غيرة ولا حسد . وكثير من المسائل التي حملت اسمينا معاً كانت من عملهِ وحده »

وفي ١٨٣٠ توفيت زوجة وهلر ، بعد انقضاء سنتين على زواجهما . فحزن حزناً شديداً حتى ظنَّ ان حزنهُ قد يحول دون مضيهِ في بحوثهِ . ولكنهُ ما لبث ان وجد في معمل صديقهِ ليبغ بلسماً لجرحه . فاكبَّا معاً على بحث زيت اللوز المرّ ، وبعض المركَّبات المؤلفة من كربون وايدروجين

---

(١) كيماوي فرنسي (١٧٧٨ — ١٨٥٠)

واكسجين ، واتجها خاصة الى درس خاصتها الغريبة وهي انها لا تتغير بتغيُّر المواد التي تدخل هي في تركيبها . فأطلقا عليها اسم «بنزويلات» (جمع بنزويل Benzoyl) فلما قرأ برزيليوس بحثهما هذا رأى انهُ جريوم جديد في علم الكيمياء فأطلق على هذه الطائفة من المواد اسم بروينات (جمع بروين Proin) ومعنى اللفظ المفرد « الفجر »

بعد ذلك عاد وهلر الى مسقط رأسهِ ، حيث تزوّج ثانياً ، ولكن شهرته كانت قد ذاعت فلما توفي الاستاذ « شترومير » كاشف عنصر الكدميوم ، اختير وهلر ليحلَّ محلّهُ استاذاً للكيمياء في جامعة غوتنجن . وكان ليبغ من الذين ذكروا لهذا المنصب ، فلما عين صديقهُ فيهِ بعث اليهِ بتهنئة حارّة

وشيّد وهلر في غوتنجن معملاً كيمائيًّا كبيراً ، فطارت شهرته في جميع الآفاق ، وهرع طلاّب الكيمياء الى تلقي العلم عليهِ . ومن هؤلاء اميركيٌّ يدعى جوت Jewtt استاذ الكيمياء في كلية اوبرلين الاميركية . فلما عاد جوت الى اميركا حمل معهُ نبأ الكشف عن معدن الالومنيوم الفضيّ الخفيف الوزن . وكان جوت يميل الى التحدُّث مع طلاّبهِ عن هذا العنصر العجيب ، والمقادير الكبيرة منهُ في صخور الارض ، والثروة العظيمة التي يمكن جنيها من استنباط وسيلة رخيصة لتحضيره . واذ كان يقول هذا القول في أحد الايام، نغز أحد الطلاّب رفيقهُ وقال : «سوف يكون تحضير الالومنيوم بغيتي» . كان هذا الطالب تشارلز مارتن هول . وفي ٢٣ فبراير سنة ١٨٨٦ أتى الفتى هول الى استاذهِ بحبةٍ من معدن الالومنيوم المحضر بطريقة كهربائية رخيصة كان قد استنبطها . فكان ذلك مفتتح استعمال معدن الالومنيوم في مئات الاغراض الصناعية ، وجنى هول الثروة العظيمة التي تنبأ بها استاذه جوت ووهب مليوني جنيه منها في وصيتهِ ، للمعاهد الاميركية في الشرق الادنى

وكذلك ربط سلك العلم بين وهلر الالماني وطلاّب العلم في الشرق الادنى ، عن طريق جوت وهول الاميركيين !

ومن الغريب ان ليبغ ووهلر انصرفا عن ميدان العلم الجديد الذي فتحاه ، بعد ان أحرزا انتصاراتهما العظيمة الاولى . فاتجه ليبغ الى كيمياء الزراعة وتبعهُ في ذلك السر جون لوز الكيماوي الزراعي البريطاني ، واسس محطة روثامستد للتجارب الزراعية ، وهي اشهر محطة في العالم من هذا القبيل . وانصرف وهلر الى دراسة المعادن التي استهوتهُ في حداثتهِ فاستفرد البريليوم والاتريوم بعد استفراده الالومنيوم في صباه . وكاد يكشف الفناديوم ولكن الباحث سفستروم سبقه اليهِ فكتب اليهِ برزيليوس في هذا الصدد « . . . ان الكيماوي الذي استنبط طريقة لصنع مادة عضوية لم تصنع قبلاً الاّ في جسم حيّ ، يسهل عليهِ ان يتنازل عن شرف السبق الى كشف عنصر جديد . فمن المستطاع كشف عشرة عناصر جديدة من دون الاحتياج الى ذرة من العبقرية »

وفي خلال ذلك كانت الكيمياء العضوية تسير بخطوات الجبّار الى الامام . فذهب مرسيلان

برتيلو الفرنسي الى النملة وتعلَّم سرها ، اذ ركّب في معمله الحامض النمليك formic acid وهو من المواد العضوية. وحضر كولب[١] Kolbe الحامض النمليك من دون الاستعانة بالبكتيريا التي تحدث التحميض الخلي. وصنع بركن[٢] الانكليزي صبغ «الموف» فكان الاول في سلسلة من الاصباغ العجيبة المستخرجة من قطران الفحم الحجري . وكشف كيكوله[٣] عن تركيب البنزين . ونفذ فون باير الالماني الى سر الصبغ النيلي فركبهُ تركيباً صناعيًّا ولما شرعت شركة البادِش في صنعهِ صنعاً تجاريًّا قضت على زراعة النيلة في الهند

واطرد هذا التقدُّم واتسع بعد وفاة وهلر في سنة ١٨٨٢ . بل ان وهلر عاش حتى شاهد بأم عينيهِ بعض العجائب في تركيب المواد العضوية التي تلت التركيب « اليوريا ». وحديث هذا التقدم شبيه بصفحات منتزعة من غرائب الف ليلة وليلة . ففي المانيا قام اميل فشر ، بعد ان رفض العمل في تجارة الخطب بحسب طلب ابيهِ ، وركب عشرات من المواد العضوية المعقدة في معملهِ الكيماوي. وقد كتب فشر عند ما فاز بجائزة نوبل الكيمائية ، معرباً عن اسفهِ ان والدهُ لم يعش ليرى ابنهُ الخيالي ، فائزاً بهذه الجائزة

وفي سنة ١٩١٠ عرض كيماوي الماني في نيويورك نموذجاً من « مطاط » ركبهُ تركيباً صناعيًّا ولكن صنع المطاط صنعاً تجاريًّا لم يتمّ بعد . ولا تزال الجائزة التي عرضتها حكومة السوفيت في سنة ١٩٢٨ لمن يستنبط طريقة تجارية لصنع « المطاط » بالتركيب الصناعي ، محفوظةً في خزينتها

ولم يحجم الكيماويون العضويون عن التقدُّم الى مجاراة الاعضاء الحية في تركيب مفرزاتها. فدرسوا مفرزات بعض الغدد الصم وركبوا الابينفرين (الادرينالين) سنة ١٩٠٦ والثيروكسين (افراز الغدة الدرقية) من قطران الفحم الحجري ، والانسولين (افراز الغدة الحلوة البنكرياس) الذي كشفهُ بانتنغ ومكلود في جامعة تورنتو سنة ١٩٢٢ وعشرات بل مئات من العقاقير الجديدة التي كان صنعها وقفاً على اجسام الحيوان والنبات

ان العقل ليقف حائراً امام مبدعات الكيمياء العضوية . فقد كانت الكيمياء قبل وهلر وخلال حياتهِ وبعيدها وصيفة الصناعة ، فاصبحت سيدة الطب ، وقد تكون سبيلنا للنفوذ الى سر النمو بل وسر الحياة نفسها

وقد توفي وهلر في السنة الثالثة والثمانين من عمرهِ ، بعد مرض دام ثلاثة ايام فدفن في غوتنجن ، ونقش على قبرهِ ، وفقاً لرغبته هذه الكلمات : « فردريك وهلر : ولد في ٣١ يوليو سنة ١٨٠٠ وتوفي في ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ » . وقد كان مصاب العلم في تلك السنة مزدوجاً لان تشارلز داروين صاحب مذهب النشوء والتطوُّر كان قد سبق وهلر الى دار البقاء قبل خمسة اشهر

---

(١) كيماوي الماني (١٨١٨ — ١٨٩٤) (٢) كيماوي انكليزي (١٨٣٨ — ١٩٠٧)
(٣) كيماوي الماني (١٨٢٩ — ١٨٩٦)

محاكمة ماتا هاري

الجاسوسة الكبيرة تواجه المحكمة العسكرية الفرنسية

فصل من تاريخ التجسس في الحرب الكبرى

لعل « ماتا هاري » أشهر جواسيس الحرب الكبرى على الاطلاق . بل هي حتماً أشهر الجواسيس الذين كشف أمرهم وحوكموا واعدموا . ولدت في هولندا سنة ١٨٧٦ وبدأت حياتها العملية راقصة في باريس . وكانت ترقص في احد مسارح برلين قبيل الحرب الكبرى لما انتظمت في سلك التجسس الالماني ووسمت برقم (H 21) والراجح ان أشهر فعالها تنكرها بلباس ممرضة في الصليب الاحمر وذهابها الى فيتل حيث اتصلت بطياري الحلفاء وانتزعت منهم أنباء عن الطرق التي كانوا يعمدون اليها في انزال جواسيس الحلفاء وراء خطوط الالمان . ثم أصبحت حظية بعض الضباط الفرنسيين في باريس فاطلعت بواسطتهم على المعدات التي يعدها الحلفاء لهجوم كبير على الجبهة الغربية . ثم كشف الجواسيس الفرنسيون انها استعملت بريد السفارة الهولندية الدبلوماسي لارسال معلومات الى رؤسائها الالمان . وبعد ذلك طلب اليها ان تكشف اسماء جواسيس الحلفاء في البلجيك فاقدمت بجرأة نادرة على ان تنتظم في سلك التجسس الفرنسي وطلبت ان تتصل بجواسيس فرنسا في البلجيك ، فأعطيت قائمة فيها اثنا عشر اسماً لم يكن الا واحد منهم جاسوساً فرنسياً . فلم تنقض الا ثلاثة أسابيع حتى قبض على هذا الرجل واعدم رمياً بالرصاص . وفي خلال ذلك كانت قد غادرت فرنسا الى انكلترا ناوية ان تذهب الى هولندا ولكن البوليس الانكليزي وضعها على باخرة مسافرة الى اسبانيا فأصبحت في مدريد حظية الملازم فون كرون رئيس الجواسيس الالمان في عاصمة اسبانيا . ولكن رؤساءها أمروها بالعودة الى باريس . ولما كانت في حاجة الى المال بعث فون كرون برقية لاسلكية الى امستردام يطلب فيها ان يرسل الى (H 21) مبلغ ١٥ الف فرنك بواسطة السفارة الهولندية في باريس . فالتقطت هذه البرقية وحلت رموزها ولما وصلت ماتا هاري الى باريس قبض عليها وحوكمت وحكم عليها بالاعدام . وفيما يلي وصف المحاكمة . وقد اودعت بعض حوادث حياتها فلماً مثلته جريتا جاربو

... واخيراً ازف الوقت لتقديم ماتا هاري للمحكمة العسكرية لمحاسبتها على فعالها . وكانت المحكمة مؤلفة من ضباط فرنسيين كانوا اخوان الضباط والجنود الذين ساقتهم الى الموت الزؤام بما افشت من اسرار حركاتهم العسكرية لقيادة الجيش الالماني . في هذه المحاكمة كشفت ماتا هاري عن عقلها وروحها كما كانت تكشف عن جسدها في ابهاء الرقص في الحواضر الاوربية . وكان لا ندحة عن ان تسبقها شهرتها الى منصّة القضاء ، لان بعض قضاتها سمع بها حتماً اذ كانت كوكباً متألقاً على مسارح الرقص حيث اشتهرت بانها امرأة لا تقيم وزناً لاحكام الشرف والفضيلة . ولا ريب في انهم احسّوا بسحر انوثتها كما احسّ بهِ غيرهم من الرجال الذين انقادوا لها ، والراجح ان كلاً منهم تعجّب في ما بينهُ وبين ذات نفسهِ ، سائلاً اي المقادير ساقت هذه المرأة الفتانة الى الانتظام في سلك التجسس . بيدَ ان

ظلال التفكير التي تقيم وزناً للاعتبارات الادبية في سلوك الانسان لم يُقم لها وزن في محاكمتها . فاعضاء هذه المحكمة كان يهمهم ان يصلوا الى حقائق حياتها وصلة تلك الحقائق بمتابعة الحرب واحراز النصر فكان هذا ديدنهم في استطلاع خفاياها

ولا يظننَّ احد ان قضاتها وقفوا منها موقف الظالم المستبدّ ، لما تناهى اليهم من انباء فعالها في التجسُّس على فرنسا لحساب المانيا ، فعاملوها في خلال المحاكمة معاملة قائمة على كرم النفس وادب السلوك . فاذا رأيت في خلال وصف المحاكمة انهم وجّهوا اليها اسئلة تتعلّق بحياتها الخاصة وعلاقتها بالرجال الذين فتنوا بها ، فاذكر انها اختارت ان تبني دفاعها على كونها امرأة حظيّة . ولكن القائمين بالبحث لم يسمحوا الحائل ما ان يحول بينهم وبين الحقيقة ، وانما لسنا نجد فيما كتب عنها ، قولاً واحداً يؤخذ منهُ ، ان ماتا هاري او المحامي عنها ، احتجّا في خلال المحاكمة على ان القضاة والبحّاث حادوا عن جادّة العدل . نعم انها توسّلت الى قضاتها في بعض ادوار المحاكمة ، ولكنهُ كان توسل سيّدة تطلب ان تعامل كسيدة لا كجاسوسة . وقد أثار مورنيه Mornay — السيف المصلت في خلال الحرب فوق رؤوس الجواسيس — غضبها احياناً ولكن ثورتها جاءت من ادراكها انهُ استروح الحقيقة التي حاولت اخفاءها في كلام غامض فاهت بهِ ، لا من اتسام اساليبهِ بروح الظلم والعدوان

وكان قد تقدم للدفاع عنها الاستاذ كلونه Clunet وهو من كبار المحامين الفرنسيين وقد تعدّت شهرته حدود بلادهِ . طلب الاستاذ كلونه ان يعهد اليه في الدفاع عنها . وكان هذا غير مألوف في محاكمات الجواسيس . اذ قلما فاز جاسوس بمحام كبير من طبقة كلونه في الدفاع عنه . ولكن لاسباب خاصة قبل طلبه . فقد كان كلونه رجلاً كيساً على اساريره جلال الشيخوخة ، ويعلو رأسه شيبة صالحة ، وعلى صدره وسام الحرب السبعينية . فكان كل ذلك من البواعث التي تحمل المحكمة العسكرية على احترامهِ . ثم ان كلونه كان قد عشق ماتا هاري ، لما كانت في اوج عزها وجمالها . وظلت الصلة بينهما صلة وثيقة بضع سنوات متوالية ، فهذه الصلة القديمة بين المحامي وموكلتهِ ومقام الرجل في سلك المحاماة يضمنان لموكلته ابرع دفاع يستطيعهُ محامٍ على الاطلاق

جلست المحكمة العسكرية الثالثة ، في دار محكمة الجنايات . وكان الرئيس جنديّاً قديماً محترماً ، يدعى الكولونل سمبرون ، رئيس الحرس الجمهوري سابقاً . وعقدت الجلسات في غرفةٍ مقفلة الابواب لان طبيعة الاقوال التي قيلت في الاتهام والدفاع ، كانت تقتضي بقاءها في طي الكتمان . حتى حراس حجرة المحكمة لم يسمح لهم بالدنو منها . ولم تحتوِ الحجرة الاّ على اعضاء المحكمة وممثل الاتهام والمحامي كلونه وضابط آخر وحارس المتهمة ، وهذا بحكم الطبع علاوة على الشهود الذين دخلوا الى حرم المحكمة لسماع اقوالهم

اما ذلك « الضابط الآخر » ، فكان الكولونل ماسار Massard من ضباط اركان الحرب . ومعظم الحقائق عن محاكمة ماتا هاري منتزعة من كتابه الذي عنوانه « جواسيس باريس »

هنا في حجرة بعيد عن صخب الحياة الباريسية ، وقفت ماتا هاري تواجه التهم الموجهة اليها بأنها كانت على «صلة اخبارية بالعدو» : وهذه العبارة هي العبارة الرسمية التي يراد بها «التجسُّس».
ويقول الكولونل ماسار ، انها وقفت هناك طويلة القامة نحيفتها ، زرقاء العينين نجلاويهما ، انيقة الثوب والقبعة ، ولكن شفتيها كانت تعلوهما بسمة ترفُّع وسخرية وفي عينيها قساوة لا تحد . على ان الكولونل ماسار لم يأخذ بقولهم انها امرأة فاتنة ، بل وصفها بقوله انها كانت المانية قلباً وقالباً

بيد ان كلَّ من رآها ، اعجب بالحزم والثبات اللذين قابلت بهما قضاتها ، والذكاء الخارق الذي كشفت عنهُ في اقوالها وردودها . فقد كانت تملك جواباً جاهزاً لكل سؤال . فكانت تسلّم بكل ما تتهم بهِ من الفعال ، ولا تنكر الاَّ ما تتهم بهِ من البواعث التي حملتها عليها. ولما شبَّهت «بمسالينا»[1] لم تثر ثائرتها ، بل باهت باستسلامها للشهوة . سلَّمت بانها حظية . ولكنها انكرت انها جاسوسة . ذلك كان خطة دفاعها. وتمسَّكت بهذه الخطة الى نهاية المحاكمة . اما تصرُّفها تصرفاً يحيط بهِ الغموض ويثير الريب في بعض الاحيان فسببهُ — بحسب قولها — انهُ كان محتوماً عليها اخفاء شخصيات الرجال الذين كانوا من عشاقها . فماتا هاري لم تكن صريحة وحسب . بل كانت تفاخر بان عشاقها من اصحاب اكبر المقامات في فرنسا ، وانهم كانوا كراماً واسخياء في معاملتها

— قال رئيس المحكمة : في اليوم الذي شهرت فيهِ الحرب الكبرى تناولت طعام الغداء مع مدير بوليس برلين وبعد ذلك صحبتهِ في جولة في المدينة حيث حيتكما الجماهير

— فقالت ماتا هاري: هذا صحيح . وفسَّرتهُ بقولها ان مدير البوليس كان قد جاء الى المسرح لشأن خاص بثوب الرقص لان ثوبها هذا كان يكشف من الجسد اكثر مما تسمح بهِ القوانين

— فاستأنف الرئيس : وبعيد ذلك انتظمت في قلم الاستخبارات الالماني . فارسلك رئيس ذلك القلم في مهمة سرية الى باريس واعطاك ٣٠ الف مارك ووسمك بالرمز (H21)

—فقالت: الواقع انني اعطيت اسماً رمزيًّا لاستعملهُ في مراسلاتي مع صديقي. ولكن الثلاثين الفاً من الماركات لم تكن اجري كجاسوسة ، بل هدية لي كحظية رئيس قلم الاستخبارات الذي تشير اليهِ

— نحن نعلم ذلك . ولكن يظهر ان سخاء هذا الضابط كان فوق ما يتوقع

— ثلاثون الف مارك ! أهذا ما تدعونهُ سخاء ؟ ان عشاقي قلما اهدوا اليَّ مبلغاً اقلَّ من ذلك

ولكنها ناقضت نفسها بنفسها حين سئلت في موضوع تراسلها مع الاعداء . وغرضها من ذلك ان تستفيد من اقوالها المختلفة في تطبيقها على الاحوال المختلفة التي تعرض لها . ثم شدَّد الرئيس الوطأة عليها عند ما اتهمها ، بانها تنكرت بلباس ممرضة وانتزعت من الضباط الفرنسيين كيف ينزلون الجواسيس الفرنسيين وراء الخطوط الالمانية

— الواقع انني كنت أُراسل مع عشيقي الذي كان قد انتقل من برلين الى امستردام . وليس

(١) الزوجة الثالثة للامبراطور كلوديوس اشتهرت بالفسق والطموح والتسلط على زوجها وقد أعدمت

الذنب ذنبي في انهُ كان رئيس قلم الاستخبارات الالماني . اما أنا فلم أبعث اليهِ شيء مما تقول

— لما كنتِ في جبهة الحرب ، اتصل بعلمك نبأ معدات تعَدُّ لهجوم كبير

— علمت من بعض الضباط أصدقائي ان معدات تعد . ولكن لو أردتُ إنباء الالمان بذلك لما استطعت . فأنا لم أنذرهم بما كان واقعاً لانني لم استطع الى ذلك سبيلاً

وقد كان قولها غريباً في بابهِ ، بعد ان صرّحت قبيل ذلك بأنها كانت متصلة بالمراسلة بمدير قلم الاستخبارات الالماني . ولكن الواجب والكذب في نظرها كانا مترادفين . فهذا التناقض لم يكن ذا خطر في نظرها ، ولعلها ظنت انهُ لم يكن ذا خطر في نظر قضاتها ، فأخطأها الظنّ . بعد ذلك نظر اليها الرئيس ، وهو يعلم انهُ اوشك ان يصل في التحقيق الى الادلة القاطعة فسألها في شيء كثير من الاهتمام عن تراسلها مع ابنتها عن طريق البريد الدبلوماسي الخاص بسفارة دولة محايدة في باريس

فقالت : اسلّم بأني كتبت . ولكنني لم اضمن كتبي انباء ما عن شؤون عسكرية

الرئيس : ولكن عندنا الدليل على انك ضمنتها تلك الانباء : بل ونعلم الى من بعثت بها

كان في هذه العبارة أول اشارة الى مدى ما يعلمه البوليس الفرنسي عن فعالها . فشحب لونها ولم تحاول ان تفيض في نزاهة البواعث التي حملتها على ذلك . ثم سئلت عن البواعث التي بعثتها على التطوع في خدمة قلم الاستخبارات الفرنسي ، فدلت أجوبتها على انها لم تجد رادعاً من نفسها لخيانة أصدقائها سواء اكانوا ألماناً او فرنسيين . قالت : لست أجد ما يستغرب في عرضي ان اخدم فرنسا . وقد كانت صلاتي الخاصة مما يمكنني من هذه الخدمة . وعلاوة على ذلك كنت في حاجة الى المال .

فقال الملازم مورني : ولكن أصدقاءك بعثوا اليك بعشرة آلاف مارك عن طريق سفارة دولة محايدة . فقالت : كان ذلك المال من صديقي

ومما يجدر ذكره هنا التناقض في اقوالها عن اتصالها بصديقها . فهي تستطيع ان تراسله او لا تستطيع ان تراسله بحسب مقتضيات الحال . ولكنها لما أجابت الملازم مورنيه بقولها « كان هذا المال من صديقي » بدت في كلماتها امارات الغضب ، ولعلّ ذلك نشأ من كونها قالت قبل لحظة من الزمان مباهية بأن صديقها لم يهبها مبلغاً ما اقل من ٣٠ الف مارك . فرد مورنيه ردّاً جافياً : من صديقك رئيس قلم الاستخبارات السرية في الجيش الالماني . ثم اصبحتِ جاسوسة في خدمة فرنسا . فماذا فعلتِ ؟

— أعطيت رئيس المكتب الثاني من قلم الاستخبارات السرية الفرنسية اسماء الاماكن التي تلجأ اليها الغواصات الالمانية على شواطىء مراكش وقد كان للمعلومات التي قدمتها فائدة كبيرة

— ومن اين حصلت على هذه المعلومات — قال رئيس المحكمة — فاذا كانت صحيحة ، دلّ ذلك على انك كنت على صلة مباشرة بالعدو . واذا كانت كاذبة دلّ ذلك على انك تخدعيننا

هنا تضعضعت ماتا هاري وطاش صوابها . فلما حاولت ان تعلل ما لا يعلّل فاهت بأقوال لا تستقيم على معنى . قالت انها سمعت اسماء هذه الاماكن في مأدبة دبلوماسية كانت قد دعيت

للرقص فيها . ولكنها لا تذكر اين كان ذلك ولا ممن سمعته . ولما ادركت ماتا هاري ان ارتباكها وتلجلجها اخذا يؤثران تأثيراً سيئاً في نفوس قضاتها، استشاطت غضباً وقالت مخاطبة الكولونل سمبرون :

— على كل، بذلت لفرنسا ما استطيعه . وقد كانت للانباء التي افضيت بها قيمة تذكر . لست فرنسية . ولست مدينة لفرنسا بشيء . انني امرأة مسكينة ، وانتم كضباط يعوزكم كثير من الكرم والشهامة . فانحنى مورنيه امام ماتا هاري انحناءة الاجلال يشوبه شيء من السخر وقال: — لتصفح عنا سيدتي . فنحن ندافع عن بلادنا ليس الا . ومما لا ريب فيه ان الجاسوسة اضطربت لهذا الهجوم ولكن بعد هنيهة من التأمل رأت ان تخفي اضطرابها ، تحت ستار قولها الآتي وقد فاهت به بلهجة المتكبر : لست فرنسية ولا المانية بل انا من بنات دولة محايدة . انتم تضطهدونني . وفي عملكم ظلم . بل اعيد ما قلته وهو انه يعوزكم كثير من الكرم والشهامة . ثم نظرت الى مورنيه دقيقة بشفة مقلوبة اعربت بها عن احتقارها له ثم قالت متمرمرة : — ان هذا الرجل كريه

فقال الكولونل سمبرون : هدئي روعك يا سيدتي . وبعد فترة قصيرة جمعت فيها امرها المتفرق قال لها : — اعطاكِ الكابتن ليدو وثيقة عهد اليك في ايصالها الى مندوبينا في البلجيك . فما فعلت بتلك الوثيقة . فلم تجب

فأعاد السؤال مشدداً في وجوب الحصول على جواب قائلاً : اتذكرين ماذا فعلت بالورقة التي عهد اليك في نقلها الى وكيلنا ؟ فقالت لا . وكان جوابها جافياً

ويقول احد اعضاء المحكمة العسكرية ، ان ماتا هاري لم تكن قد تحققت مدى الخطر المحدق بها حتى انتزعت من بين شفتيها تلك اللفظة النافية ، ولو انها قالت انها تذكر ما فعلت بها ، لانهالت عليها الاسئلة الخاصة بها . ولكن المحقق — وكان هذا معروفاً عند المحكمة العسكرية الفرنسية — انها كانت قد بعثت بها الى الالمان في امستردام قبل ان غادرت فرنسا . وفي هذه الحالة ، كان النسيان اقوم عذر تعتذر به . ولكن الرئيس لم يقف عند هذا الحد ، بل شرع في اسئلته يهدي ذاكرتها الى الحوادث التي غابت — او ادّعت — انها غابت عنها . قال : ان وكيلنا الذي أمرتِ بالذهاب اليه في البلجيك قبض عليه الالمان في بروكسل بعد ما انقضت ثلاثة اسابيع على مغادرتك باريس ، ثم اعدم رمياً بالرصاص

ومن الواضح ان القضاة كانوا،عند بلوغهم هذه المرتبة من المحاكمة،قد اصبحوا مقتنعين بصحة التهمة الموجهة اليها . ولتأييد اعتقادهم هذا رأوا السيدة المتكبرة الواثقة من نفسها ، وقد تضعضع صوابها ، فصارت تتعثر وتتردد وتتلعثم ، كلما حاول الرئيس او مورنيه ، ان ينتزعا الحقيقة من شفتيها بالاسئلة الموجهة اليها المنطوية على ما يعلما . ولكنهما مع ذلك عجزا عن ان ينتزعا منها اعترافاً صريحاً

ثم وجهت اليها المحكمة الاسئلة عن مقامها في مدريد عاصمة اسبانيا : قال احدهم : —

— نزلت في الفندق بمدريد في غرفة محاذية لغرفة رئيس التجسس الالماني في تلك المدينة

— هـذا صحيح

— هذا المندوب البرليني نقدك مالاً لزيارات كثيرة متوالية — وهذا صحيح كذلك

— وتلقيت هدايا منهُ — بكل تأكيد. لانهُ كان عشيقي. قالت هذا وفي كلامها شعور بالثقة

— انتِ تعلمين ونحن نعلم ان رسائلك الى عشيقك في امستردام كانت ممضاة بامضاء (H 21)

— فكان جوابها السريع : ليس هذا القول صحيحاً

ويذكر القراء ان ماتا هاري كانت قد سلّمت قبلاً بانها استعملت رمزاً لمراسلة حبيبها ، الذي اتفق انهُ كان مدير قسم التجسس الالماني ، وان ذلك ليس ذنبها

— أستميح سيدتي عذراً، ولكن ما تنفينهُ صحيح . والدليل على ذلك هذه الرسالة البرقية التي بعث بها المندوب الالماني في مدريد الى زميله في امستردام طالباً مبلغاً من المال لـ(H 21)عن طريق سفارة دولة محايدة . عند ذلك كاد يغمى عليها . فانها لما أدركت ان الفرنسيين يملكون نصَّ هذه البرقية ، انهار دفاعها من أساسهِ . ولكنها تمالكت نفسها ثم صاحت : أقول لكم . . . أقول لكم . . . ان ذلك كان ثمن .... ثمن اتصالي الوثيق بهِ ..هذا هو ثمني . . . آه يا أسياد فرنسا . . . صدقوني . . . كونوا كراماً . فذعر الاستاذ كلونه لاضطراب موكلتهِ وارتجافها ، فنسي عمله كمدافع عن جاسوسة ، واصبح الرجل الكريم الذي يجبُ ان يدفع عن امرأة جميلة ما يهدّدها ، فقدّم لها زجاجة من الأملاح العطرة وصندوقاً من الشكولاته

فصاحت ماتا هاري في وجههِ : لا حاجة بي الى هذا . لستُ طفلة . . . سأعتصم بالشجاعة

ثم التفتت الى المحكمة وفي عينيها وانفها المرفوع معاني التحدّي

فقال الرئيس : ولا تستطيعين ان تنكري انك ذهبت الى السفارة وقبضت المال الذي كان الملازم فون كرون (رئيس التجسس الالماني في مدريد) قد وعد بهِ

— واية فائدة من انكار ذلك ؟ فالملازم فون كرون لم يشأ ان يوفّي ثمن هذا التقرُّب بماله الخاص مفضلاً ان يوفّيهُ بمال حكومتهِ

— المحكمة تقبل تفسيرك هذا..فانتِ تعترفين بان المال جاءَ من رئيس قسم التجسس الالماني في هولندا ؟

— لا ريب في ان المال جاءَ من عشيقي في هولندا الذي سدّد من دون ان يعلم دين عشيقي في اسبانيا

فاضطرب الاستاذ كلونه لهذه الاجوبة المضطربة . كيف يستطيع ان يوفق بين قولها ان فون كرون وفى دينهُ لها بمال الحكومة ، وقولها ان عشيقها الالماني كان يسدّد دين زميله في اسبانيا

عند هذا الحد رفعت الجلسة . وفي خلال فترة الاستراحة، طاف المحامي الشيخ مستطلعاً موقف موكلتهِ في رأي القضاة . فلم يسمع ما يحملهُ على التفاؤل . ولكنهُ لم يقنط . ولما سأل الماجور ماسار قال هذا انها مقضيٌّ عليها . ولكن المحامي ردَّ عليهِ : تريَّث قليلاً حتى تسمع اقوال الشهود . او تريث حتى تسمع دفاعي

فلما اعيدت الجلسة لسماع الدفاع وعرفت ماتا هاري ان بعض اصدقائها من ذوي المقام قد قبلوا ان يدلوا باقوالهم دفاعاً عنها ، استعادت ثقتها بنفسها واخذت تمارس فنون فتنتها . فاخرجت من كيسها القلم الاحمر ودهنت بهِ شفتيها ، واخذت من محاميها طاقة من الزهر قدّمها اليها . ها هي ذي تبسم كأنها تغذي في قرارة نفسها رجاءً خفيًّا . وها هي ذي تفتح صندوق الشكولاته وتأكل منها بشهية

والشهود كان في مقدمتهم جول كامبون اول عشاقها عند قدومها الى فرنسا، ورئيس الموظفين الدائمين بوزارة الخارجية الفرنسية. كان دبلوماسيًّا محنكاً ممتازاً في سلوكه واثقاً من اقواله بارعاً في الاخذ والرد

فقال الرئيس : ولماذا دعوتم هذا الشاهد

فقالت ماتا هاري ، من دون ان تنظر اليهِ ، ولكن بلهجة كلها اغراء : انهُ يشغل منصباً من اكبر المناصب في الحكومة الفرنسية . انهُ على اتصال بجميع اغراض الحكومة واعمالها الحربية المتوقعة . لقد قابلتهُ بعد عودتي من مدريد . وقد كان اول عشاقي بعد طلاقي . فكان من الطبيعي ان اقابلهُ وان اغتبط بهذه المقابلة . ولقد صرفنا معاً ثلاثة ايام بلياليها قبل القاء القبض عليَّ. وليس عندي اليوم الاَّ سؤال واحد اوجههُ اليهِ : هل طلبتُ منهُ في حالة من الحالات ، او وقت من الاوقات ، ان يطلعني على شيءٍ مما يعرف . هل توسلت اليهِ بالصلة الوثيقة بيننا الى افشاء اي سرّ يكنهُ

فردَّ كامبون قائلاً : ان السيدة لم توجه اليَّ اي سؤالٍ من هذا القبيل

فقال المحامي: ترون اذن انها ليست جاسوسة . ولو انها شاءت ان تستطلع الاسرار فما كان عليها الاَّ ان تمدَّ يدها ، فتميط عنها اللثام . فقال الرئيس: ولكن ما كان موضوع حديثكما خلال ثلاثة ايام، والبلاد في حرب الموت والحياة ؟ ان ذلك لا يكاد يصدق

فقالت : لا يكاد يصدق ! ولكنهُ مع ذلك هو الواقع . لقد تحدثنا في موضوع الفنّ الهندي

فقال مورنيه : لنسلّم بذلك . ولكن يجب ان تعترفوا بان المتهمة كانت على جانب وافر من الذكاء مكنّها من ان تفهم انهُ يتعذر انتزاع المعلومات السرية من الساسة المجرّبين ، انتزاعها من صغار الضباط السكارى بخمر الحرب ونشوة الحبّ . ويجب ان تعترفوا كذلك بان صلتها بكبار الموظفين مما يرفع مقامها في اعين الالمان . وقد قيل ان بعض الاوراق التي كتبت ماتا هاري رسائلها عليها لاصدقائها في مدريد وامستردام كان من ورق « وزارة الخارجية — مكتب الوزير » . ولا ريب في ان هذه الصلة كانت سبيلها للحصول على الاجر العالي الذي فازت بهِ . وبمجرد ظهورها في صحبة السياسي الممتاز الماثل امام المحكمة احاطها بهالة من السلطة والنفوذ مكنّها من التشدّد في مطالبها

ولما سئل الشاهد هل عندهُ ما يضيفهُ الى اقواله قال : لم يحدث ما يحملني على تغيير رأيي في هذه السيدة . بيد ان امارات الارتياح بَدَتْ على وجههِ لما توقف مورنيه عن الكلام ، كأنهُ كان يخشى ان يتوسع في حديث ليس متصلاً كل الاتصال بعلاقة الصداقة التي كانت تربط بينهما. ومع ذلك ظلَّ السيد الكريم لانهُ عند نزوله من موقف الشهود انحنى لها باحترام وخرج

وكان الشاهد الثاني الجنرال مسيمي وزير الحربية سابقاً . وقد كان واحداً من ضحايا فتنتها وجمالها. ولما كانت تبعاتهُ العسكرية تقضي ببقائهِ في مقرّهِ العسكري ، بعث بشهادتهِ مكتوبة بعد ما اقسم امام قاضي الجهة التي كان فيها بصحتها ، وفيها صرّح ان المتهمة لم تسأله مطلقاً اي سؤال لهُ صلة باعمال الحرب ، او يثير ايّ شبهة في نيتها

ومن المتعذّر ان نسوق الى القراء هنا كلّ ما جاء في اقوال الشهود . بل ان بعض ما قيل سوف يظل مجهولاً الى الابد لانهُ لم يدوَّن لاتصاله بمقام كثيرين من اصحاب المقام

بيد ان المجمع عليه ان جميع الشهود الكبار الذين دعوا للشهادة ، لم يؤخذ عليهم مطلقاً افشاء اسرار الدولة . ولكن صداقتهم كانت على كل حال — كما قال مورنيه — ذات أثر عظيم في مقام ماتا هاري كجاسوسة المانية ومقدار المال الذي نقدتهُ جزاء لها على عملها

وبعد ما سمع الشهود شرع الاستاذ كلونه في دفاعه . فالادلة التي تجمعت ضد المتهمة في خلال المحاكمة كانت مما لا يمكن نقضه . والاستاذ كلونه لم يحاول ان ينقضه . بل اقتصر في دفاعه ، على التوسل الى القضاء ان يرأفوا بامرأة بارعة الجمال سيقت الى التضحية بجمالها ومواهبها في سبيل الاجرام . فصوَّرها اولاً ، ببلاغته الخلاَّبة ، زوجاً شقية ، وكيف كان زوجها يضطهدها ويعذبها ومحاولتها ان تكسب رزقها من طريق الرقص . ولكن معرفة احوالها الخاصة لم تكن سبيلاً الى الغفران في نظر اعضاء المحكمة . فلما اتم المحامي دفاعهُ اتجه رئيس المحكمة الى المتهمة وسألها هل عندها ما تضيفه الى ما قيل فأجابت سلباً وقالت : — ان محاميَّ قد قال لكم الحقيقة . لست فرنسية . وليس لي حق ان اتصل بصلة الصداقة بأحد من ابناء البلاد الخائضة غمار الحرب ضد فرنسا . ولذلك بقيت على الحياد . ولذلك انا اعتمد على طيبة قلوبكم ايها الضباط الفرنسيون

واختلت المحكمة عشر دقائق فقط . ولما كانت العادة في المحاكم الفرنسية ان لا تقرأ المحكمة الحكم على المتهم ، خرجت ماتا هاري من حرم المحكمة ، عند ما عادت الى الاجتماع . عندئذ اتجه الرئيس الى اصغر الضباط سنّاً وسأله رأيه ، لئلاَّ يتأثر برأي الاعضاء الذين يتقدمونهُ . قال : في قرارة نفسك وخفايا ضميرك ، هل انت مقتنع ان هذه المرأة ارتكبت اثم نقل الاخبار والوثائق الى العدو ، وانها كانت سبباً في موت كثير من جنودنا . فأجاب كلٌّ من اعضاء المحكمة بدوره « نعم »

ولما اتم الاعضاء توقيع الحكم ، رمى احدهم الريشة من يده وقال : كريه عليَّ الحكم بالاعدام على من كان يملك هذا الجمال ، على مخلوقة على هذا الجانب من الفتنة والذكاء ، ولكن لو اتيح لي لأعدمتها رمياً بالرصاص عشرين مرة . وفي اثناء ذلك كان المحامي الشيخ قد ادرك حقيقة الموقف فقال لموكلته ان تعتصم برباطة الجأش . ولما قرىء الحكم بكى الشيخ من دون خجل . وماتا هاري ! هل بكت او اغمي عليها ؟ كلاَّ . بل وقفت هناك هادئة الروح وعلى ثغرها بسمة . فصاح احد ضباط الحرس : يا آلهي . انها تعرف كيف تموت !

مشكلة وادى السار

تاريخها وملابساتها السياسية والاقتصادية

[في ١٣ يناير ١٩٣٥ تم استفتاء السار فاختار ما يزيد على ٩٠ في المائة من المقترعين من ابنائه ان يعودوا الى الريخ. وينتظر ان يتم ذلك في أول مارس أو قبله بحسب القرار الذي يتخذه مجلس جامعة الامم]

ما هي مشكلة السار

طلب الفرنسيون في سنة ١٩١٩ ان يعوَّضوا من التدمير والتخريب اللذين بليا بهما في شمال فرنسا على ايدي الالمان في الحرب الكبرى. فانشأ ممثلو الحلفاء، مقاطعة حول نهر السار، لا شك في المانيتها، ومنحوا مناجمها لفرنسا تحقيقاً لرغبتها. ونصُّ هذه المنحة يجعل الدولة الفرنسية مالكة مطلقة دائمة لمناجم هذه المقاطعة. ثم عهد الى جمعية الامم في الاشراف على حكمها وتعيين لجنة من قبلها لهذا الغرض. واتفق اصحاب هذا القرار على ان يستفتى اهل السار، بعد انقضاء خمس عشر سنة على النظام الجديد، فيختاروا اما البقاء على حالتهم الراهنة او الانضمام الى الريخ او الانضمام الى فرنسا. وهذا هو الاستفتاء الذي تمَّ في ١٣ يناير سنة ١٩٣٥ وعرفت نتيجتهُ

ولكن الباحث يسأل عن الباعث على نشوء مشكلة كمشكلة السار. والجواب عن ذلك السؤال مطويٌّ في نزعة الانسان الى الحرب والكفاح. فاذا أحرز النصر طمع في الاسلاب. وقد تتغير طبيعة الانسان من حيث نظرهُ الى الاسلاب، فيطلبها في عصر نساء وحظايا وفي آخر ذهباً او موارد للثروة كالمناجم والمصانع. ولكنها اسلاب على كل حال يطمع الظافر في الحصول عليها اذا رأى الى ذلك سبيلاً. ووادي السار من البقاع الاقتصادية التي ترنو اليها الابصار في غرب اوربا. فهو يتاخم المانيا من جهة ومقاطعتي الالزاس واللورين من جهة اخرى ولا تزيد مساحتهُ على ٧٢٦ ميلاً مربعاً. اما سكانهُ فحوالي ٨٠٠ الف نسمة فهو من اكثف المناطق الاوربية سكاناً لانَّ متوسط سكان السار في الميل المربَّع الواحد ١٠٨٦ نسمة، يقابل ذلك ٩٠٠ نسمة في الميل المربَّع في اكثف مناطق فرنسا سكَّاناً. والباعث على ازدحامهِ بالسكان كثرة مناجم الفحم فيهِ ومصانع الحديد والزجاج والخزف. فقبيل الحرب الكبرى استخرج من مقاطعة السار وحدها فحم يعدل نصف ما استخرج من مناجم فرنسا قاطبةً. فالصناعات السارية المختلفة نشأت بحكم الطبع حول مناجم الفحم. حتى اننا لا نجد من جميع سكانهِ الاَّ نحو خمسة آلاف فقط يعنون بحراثة الارض وزراعتها

وعلى ذلك كانت مقاطعة السار لقمةً شهيةً طمع بها الفرنسيون الظافرون في سنة ١٩١٨ — ١٩١٩ بيد ان الفرنسيين لم يشيروا مطلقاً الى السار في التصريحات التي صرحوا بها في خلال الحرب . فتصريحات الحلفاء في دسمبرسنة ١٩١٦ وينابر ١٩١٧ وقرار البرلمان الفرنسي في يونيو ١٩١٧ وبنود ولسن الاربع عشرة ، تنصُّ جميعها على وجوب اعادة مقاطعتي الالزاس واللورين الى فرنسا ، ولكنها خلوٌ من اية اشارة الى السار . ولكن هذا لا ينفي ان الفرنسيين كانوا قد بدأوا يفكرون في ضمّ السار اذا آتاهم الله النصر في الحرب . فالمعاهدات السرية التي عقدت بين الحلفاء في خلال الحرب اشدُّ كشفاً عن حقيقة اغراضهم من تصريحات رجالهم الرسمية . ففي فبراير ومارس سنة ١٩١٧ عقدت فرنسا وروسيا اتفاقاً سريًّا ، منحت بمقتضاه الاستانة لروسيا ، والالزاس واللورين ومنطقة الفحم في السار لفرنسا . وقبل ذلك بشهر واحد كان الوزير بريان Briand قد كتب الى السفير الفرنسي في لندن في هذا المعنى . قال انهُ لا بدَّ من اعادة الالزاس واللورين الى فرنسا بحدودها سنة ١٧٩٠ وهي حدود تجعل وادي السار جزءا منهما . بل ان طائفة من الرجال غير الرسميين تمادوا في الطلب فقالوا ان فرنسا خسرت فحم السار في سنة ١٨١٥ وحديد اللورين في سنة ١٨٧٠ ففقدت بذلك مكانتها الاقتصادية ، وانهُ في سبيل استعادة هذه المكانة لا بدَّ من مدّ حدود فرنسا حتى نهر الرين نفسهِ

فلما التأم مؤتمر السلام كان رائد الفرنسيين مطالبهم السرية لا تصريحاتهم العلنية . وفي مارس سنة ١٩١٩ اطلق كلنصو قنبلتهُ الاولى على مؤتمر فرساي اذ طلب ان تجعل حدود فرنسا ما كانت عليهِ سنة ١٨١٤ (وهذا يعني دخول السار ضمن هذه الحدود) وان تمنح حق الارتفاق من مناجم الفحم وراءها . لذلك نرى ان مشكلة السار كان لها وجهان من يوم ولادتها . أما الوجه الاول فمصير المناجم وأما الثاني فحالة المقاطعة السياسية

فخشي لويد جورج وولسن ، ان يفضي التسليم بطلب كلنصو ، الى انشاء مشكلة جديدة كمشكلة الالزاس لورين ، تكون من البواعث على الحرب في المستقبل بين المانيا وفرنسا ، فعارضا في مقترحهِ . قالا انهما لا يريان مانعاً يمنع استيلاء فرنسا على مناجم الفحم ، ولكن السار يجب ان يمنح استقلالاً سياسيًّا على الاقل . فلما عجز المؤتمر عن حلّ العقدة عيَّنت لجنة لدرس الموضوع ووضع حلٍّ وسطٍ .وكان ممثل فرنسا في هـذه اللجنة أندريه تارديو ، ابن كلنصو الروحي ، وكان ممثل بريطانيا رجل يدعى هدلم مورلي . أما ممثل الولايات المتحدة الاميركية فكان الاستاذ هاسكنز أحد اساتذة جامعة هارفرد المعروف بنزعتهِ الفرنسية . فاستقرَّ قرار اللجنة على ان حق استغلال المناجم يجب ان يمنح لفرنسا . وأما حكم المقاطعة فيجب ان يعطى لمجلس محايد أو دولي

فلما صدر قرار اللجنة استعمله كلنصو في سبيل الغرض الذي يرمي اليهِ . ذلك ان ولسن لم يكن يشاطر الاستاذ هاسكنز حماسته في سبيل منح السار لفرنسا ، ولكنهُ كان معنيًّا شديد العناية

بانشاء جمعية الامم ، وكان كلمنصو يدرك هذا ، فاقترح في الحال ان يعهد الى جمعية الامم في حكم السار فأرضى بذلك ولسن وفاز بموافقته

فلما كتبت معاهدة فرساي ، نص فيها على ان فصل مقاطعة السار عن المانيا لن يكون مطلقاً ، بل يجري استفتاء فيها سنة ١٩٣٥ يتقرر مصير البلاد بحسب نتيجته التي يسفر عنها، وتكون السيادة على البلاد في خلال هذه المدة ، لجمعية الامم . وتباشر جمعية الامم عمل السيادة عن طريق لجنة مؤلفة من خمسة اعضاء تكون مسئولة امام جمعية الامم دون غيرها ولا يمثل سكان السار في الريخستاج في خلال ذلك . هذا من الناحية السياسية . اما من الناحية الاقتصادية فان مناجم المقاطعة ، وكانت من قبل ملكاً في الغالب للدولة الالمانية، فتمنح ملكاً مطلقاً من اي قيد للدولة الفرنسية . فاذا استقر قرار الشعب الساري في استفتاء سنة ١٩٣٥ على العودة الى الريخ وجب على الريخ ان يبتاع المناجم من فرنسا وان يدفع الثمن ذهباً

بواعث المشكلة الاساسية

قامت سياسة فرنسا الخارجية في سنة ١٩١٩ وما بعدها ، على وجوب السعي الى ضمان سلامة البلاد من غزوة المانية تالية . والسلامة يمكن ان تضمن باساليب مختلفة ، لم يكن ضم السار اهمها. وسوف يرى القارىء في صفحة اخرى من هذا المقال ان مناجم السار منحت لفرنسا ، لأن الاساليب الاخرى المقترحة لم تحقق الغرض المنشود. ولكن فرنسا تطلب ضماناً لسلامتها. وهو طلب قائم على الرغبة في التحصّن ضد الغزو لا على الرغبة في بسط سيادة فرنسا على اوربا . ففي ربيع سنة ١٩٣٤ وقف المسيو دومرغ — رئيس وزارة فرنسا حينئذ — يطلب ان تزاد الاعتمادات الخاصة بالدفاع القومي. فأشار في خطبته ، من دون تكلف او كبرياء الى ما خبرتهُ فرنسا من ويلات الحرب اذ قال « لقد شهدت في حياتي حربين » . فكانت هذه الاشارة كافية لفوز المقترح بأكثرية الاصوات . وثمة طائفة كبيرة من الفرنسيين تستطيع ان تقول قول دومرغ ، ذاكرة ان الالمان غزوا فرنسا في خلال حياتهم مرتين . وهذه الذكرى جانب اساسي من تفكير فرنسا السياسي . فتجاهله في نظرهم ليس سخاء وكرماً بل هو حمق ما بعده حمق

وقد كانت بريطانيا ترى رأي فرنسا في هذا الصدد ، فطلبت ما يضمن لها عدم تجدُّد الخطر الالماني الذي كان يهددها قبل الحرب . ولكنها حصرت مطالبها في ما يختص بالاسطول والمستعمرات ، ففازت باهم المستعمرات الالمانية ، ودمّرت كذلك اسطولي المانيا الحربي والتجاري من دون ان تلقى مقاومة ما

ولكن فرنسا لم تكن في المقام الجغرافي الذي يمكنها من تحقيق مطالبها من دون ان تثير ضجة حولها . فالضمانات التي طلبتها كانت محصورة في منطقة نهر الرين ، ولهذه المنطقة مكانة كبيرة في

السياسة الدولية. يضاف الى ذلك ان بريطانيا حققت مطالبها اولاً ، وبعد ذلك صار يصعب على المانيا ان تسلم بأكثر مما سلّمت بهِ ، من دون ان تقاوم وتعترض . وادرك كلمنصو هذا ، ولكنهُ ادرك في الوقت نفسهِ ، انهُ اذا نكثت المانيا عهودها ، وجب على فرنسا دون غيرها ، ان تتحمل مغبّة ذلك . ومن هنا تشدّده في وجوب حصول فرنسا على الضمانات الكافية لسلامتها . وقد افرغ طلب هذه الضمانات اولاً في اقتراح مؤداه انشاء دولة محايدة مستقلة استقلالاً ذاتياً على ضفة الرين اليسرى تمتد من الجنوب الى الشمال على حدود فرنسا ولكسمبورج وبلجيكا وهولندا. ونحن نجد نواة هذا الاقتراح في المعاهدة السرية التي عقدت بين فرنسا وروسيا في خلال الحرب وفي مناقشات لجنة الشؤون الخارجية الفرنسية وفي مقترحات المارشال فوش. ولكن لويد جورج وولسن رفضا ان ينظرا في المشروع . فلما شجر الخلاف ، كان الاتفاق وسطاً بين الرأيين فتقرر ان تحتّل البلاد الواقعة على ضفة الرين اليسرى مدى خمس عشرة سنة ، وان تنزع جميع الاستحكامات الحربية منها علاوة على نزعها من منطقة عرضها ٥٠ كيلو متراً على ضفة الرين اليمنى . ووعدت المانيا ان لا تحشد ذخيرة الحرب مطلقاً في هذه المنطقة

***

كان طمع فرنسا في السار مطويًّا في اقتراحها انشاء دولة مستقلة محايدة على ضفة الرين اليسرى . فلما اخفق هذا الاقتراح اصبح لوادي السار شأن خاص بحد ذاتهِ . لأن الفرنسيين رأوا ان ضمّ السار يضعف الى مدى بعيد من قوة المانيا ، لأن قوة الدول الصناعية الحديثة مرهون بثروتها الطبيعية وفي مقدمة هذه الثروة مناجم الفحم والحديد . ولا يخفى ان فرنسا فقيرة بمناجم الفحم . فعودة مقاطعة اللورين اليها — واللورين غنية بمناجم الحديد — تجعل حاجتها الى الفحم اشد مما كانت ، لان مقاطعتي الالزاس واللورين تستهلكان ما متوسطهُ ١٨ مليون طن من الفحم في السنة ولا تنتجان الاّ اربعة ملايين طن. فرأت فرنسا الفرصة سانحة لزيادة ثروتها على حساب العدوّ المقهور ، فطلبت مناجم السار كما طلبت بريطانيا ضم مستعمرات المانيا وتدمير قواها البحرية

والبواعث الاقتصادية في طلب ضم السار ، متصلة اوثق اتصال ببواعث السلامة والرغبة في ضمانها . فقد وضعت معاهدة فرساي على قاعدة تفوُّق الناحية الاقتصادية في الحياة القومية والدولية . وعلى هذا الاساس سوّغ طلب ضم السار . فمنطقة الالزاس واللورين والسار ، وحدة اقتصادية لا يمكن فصم عراها . في السار فحم وفي اللورين حديد وليس بين البلادين الاّ ثلاثون ميلاً . ففصل احداها عن الاخرى ، ليس في مصلحة هذه ولا في مصلحة تلك . ثم ان السار منطقة صناعية لا يعنى من سكانها بالزراعة الاّ ستة في الالف. واما الالزاس فغنية بالمحصولات الزراعية . فالتبادل التجاري بين البلاد طبيعي مرغوب فيهِ . نعم ان منطقة الالزاس واللورين كانت مفصولة عن منطقة السار قبل سنة ١٨٧٠ ولكن ذلك كان قبل ان دخلت الصناعة الى وادي السار اذ كان سكانهُ ربع

ما هم الآن وجل اعتمادهم في رزقهم حينئذٍ على حرث الارض وزرعها. فلما دخلت الصناعة هذه البلاد كانت الحرب البروسية الفرنسية قد انتهت واصبحت منطقة السار جزءاً من الوحدة الاقتصادية المؤلفة من الالزاس واللورين والسار . فالتقدم الاقتصادي الذي اصابتهُ هذه البلاد بين سنة ١٨٧٠ و١٩١٤ اصابتهُ كوحدةٍ غير متجزئةٍ . ولذلك طلب الفرنسيون — وقد اعيدت اليهم الالزاس واللورين — ان تبقى هذه الوحدة غير مجزئةٍ كذلك . ففحم السار سواءٌ اكانت السار جزءاً من المانيا ام جزءاً من فرنسا ، يحتاج الى حديد اللورين وحديد اللورين يحتاج الى فحم السار

***

ثم ان للمسألة وجهاً ثالثاً . ذلك انَّ سنابك الالمان اجتاحت شمال فرنسا في خلال الحرب الكبرى وشمال فرنسا من اهم المناطق الصناعية فيها . فاجتياح الالمان له دمَّر معظم مصانعهِ ومناجمهِ ، وقد قدِّر المال الذي انفقتهُ حكومة فرنسا على ترميم هذه المنطقة باربعة آلاف مليون جنيه . اما المانيا فاعترفت بانها دمَّرت المصانع والمناجم عمداً وسلَّمت بمدل التعويضات . وقد اتفق الفريقان على مبدإِ التعويضات ، ولكنهما اختلفا على المبلغ وطريقة التوفية نقداً وعيناً . كان لابدَّ لالمانيا من توفية جانبٍ من مال التعويض بالذهب . ولكن فرنسا طلبت ان تكون توفية الجانب الآخر عيناً اي بمنح البلدان التي يحق لها التعويض مقادير من الفحم والحديد وغيرهما من الوان الثروة الطبيعية . وعلى هذا الاساس طلبت فرنسا ان تمنح مناجم السار . وقد اثبت الاختبار ان تعويض العين كان اجدى من تعويض المال . ذلك ان فرنسا كانت قد ضمنت لابنائها كلَّ خسائرهم التي نشأت من الحرب نفسها . ففي سنة ١٩٢٢ كانت الحكومة الفرنسية قد اعطت ابناءها المستحقين نحو مائة مليون جنيه لترميم ما دُمّر من املاكهم في المنطقة التي اجتاحتها الجيوش. ولكنها حتى اول مايو سنة ١٩٢١ لم تكن قد استوفت شيئاً من مال التعويض . وفي سنة ١٩٣١ الغي نظام التعويض بتاتاً . فكأنَّ فرنسا انفقت على ترميم اراضيها المجتاحة من مالها الخاص

يضاف الى ذلك الباعث التاريخي ، وهو ان فرنسا ترغب في جعل نهر الرين حدَّها الشرقي ، فاحرزت اقساطاً متفاوتة من النجاح في تحقيق هذا الغرض على ايام ريشيليو ولويس الرابع عشر ونبوليون . وها هوذا كلمنصو يحاولهُ من جديد . ألا ترى اليهِ وقد خاطب ولسن قائلاً : « انك تحاول ان تنزع من المباحثات السياسية الشعور والذاكرة . فالعالم لا يحكَم بالمبادىء المجرَّدة دون غيرها . . والمصالح الاقتصادية ليست كلَّ شيءٍ ... ان المسألة التي قيد البحث ليست مسألة التعويض المادي فقط .. لان الحاجة الى التعويض المعنوي لا تقل عنها خطراً ..» . وادعى كلمنصو ان ١٥٠ الفاً من الفرنسيين في السار يطلبون ضمَّ هذه المقاطعة الى فرنسا مع ان المتكلمين باللغة الفرنسية في السار في سنة ١٩١٠ كانوا لا يزيدون على ٣٤٢ نسمةً . وقد اثبت الاستفتاء الاخير ان ٤ في الالف فقط اقترعوا في جانب الضمِّ الى فرنسا

السار بعد المعاهدة

كان شعور الساريين ، بعد وضع المعاهدة ، شعور الاطفال انتزعوا من حضن امهم فاعتقدوا ان حكم جمعية الامم او حكم لجنتها ليس الاَّ ستاراً لحكم فرنسا . ومع ما اصابوه من الاقبال والرخاء الاقتصادي بين المعاهدة والاستفتاء ، لم يسلموا بهما ولم يجهروا الاَّ بتبرّمهم

ومما يؤسف لهُ ان طريقة الحكم في بضع السنوات الاولى بعد عقد المعاهدة ، مكنت هذا الشعور في نفوس الساريين. ففي الفترة التي انقضت بين نوفمبر ١٩١٨ وفبراير سنة ١٩٢٠ — وهو التاريخ الذي تسلمت فيه الجمعية مقاليد الحكم في السار — كانت المقاطعة محتلة احتلالاً عسكريًّا فرنسيًّا فالغيت في خلال ذلك الحقوق المدنية والسياسية وحدثت عدة حوادث بين اهالي البلاد وبعض الجنود. فلما تسلمت اللجنة الحاكمة الاولى مهام الحكم في فبراير سنة ١٩٢٠ انتهى الاحتلال الفرنسي ولكن ظل شبح السيادة الفرنسية مبسوطاً على البلاد . كان رئيس اللجنة فرنسيًّا يدي رو Rault وكان معظم اعضاء اللجنة يميلون الى فرنسا . وكان لبنوك باريس حصص كبيرة في معظم صناعات البلاد . ولما كانت فرنسا تملك المناجم اضطرت الصناعات المختلفة ان تعنو للسيادة المالية الفرنسية الاَّ صناعتان منها . واذن كان شعور الساريين حينئذ في محلهِ وهو ان حكم جمعية الامم ليس الا ستاراً لسيطرة فرنسا

وعلاوة على ذلك كانت المعاهدة قد نصَّت على ان السار بلاد مستقلة عن المانيا . فالغت اللجنة الحاكمة العلَم الالماني وصنعت علماً جديداً خاصًّا بالمقاطعة، وبدلت الختم الامبراطوري الالماني بختم جديد، وطبعت طوابع بريد جديدة لتستعمل محل الطوابع الالمانية. فلقي كل ذلك معارضة شديدة من الاهلين . لان هذا الابدال كان في نظر اعضاء اللجنة مجرد تغيير شيءٍ بآخر واما في نظر الساريين أنفسهم فكان بترًا للصلة بينهم وبين المانيا . فالساريون كانوا ألمانًا وكانوا يباهون بهذا . فكل محاولة رَمَت الى احاطة البلاد بمظاهر الاستقلال الذاتي لم تخرج في نظرهم عن كونها محاولة لجعلهم فرنسيين او ايطاليين . ولو ان اللجنة كانت مؤلفة من ملائكة لما رضي الساريون عنها لانهم ملائكة غير المان

هذا الشعور المتغلغل في نفوس الساريين واذهانهم ، حملهم على اغفال الفوائد التي جنوها من حكم جمعية الامم . ففي الربع السابق للحرب ، كان المقام الأول لفحم الرور لا لفحم السار . وكان السبق لمنتجات وستفاليا لا لمنتجات السار في الاسواق الالمانية . ولكن الفرنسيين ادركوا من البدء انهم لا يستطيعون ان يفوزوا بولاء الاهلين الاَّ اذا مهّدوا للسار سبيل الرخاء . لذلك ازيلت العقبات التي تحول دون رواج فحم السار ومنتجاتهِ في المصانع الفرنسية والاسواق الفرنسية . ومع ان الازمة العالمية أثرت في رخاء الاهالي في بضع السنوات الاخيرة، الاَّ أنهم جنوا فائدة تذكر من دخولهم ضمن النطاق الجمركي الفرنسي . ومما لا ريب فيهِ ان الازمة كان لها أثر في المانيا اعظم منهُ في فرنسا . فكأن هذا الضمّ الجمركي كان جزيل الخير على الساريين

يضاف الى ذلك ان نقابات العمال ازدهرت في عهد جمعية الامم . مع ان انشاءها كان ممنوعاً في عهد الامبراطورية ، وعاد ممنوعاً بعد تسلّم هتلر لمقاليد الحكم . ومن الفوائد التي اصابها السار ان نقدهم بعد الحرب كان على أساس الفرنك وتقلّب الفرنك كان أقلّ جدًّا وأيسر من تقلّب المارك

فالساريون قلّما أشاروا الى ما جنوا ولكنهم كثيراً ما جهروا وجأروا ببواعث تبرّمهم . وفي مقدمتها استعمال الجندرمة الفرنسية . نعم ان جيش الاحتلال الفرنسي نقص رويداً رويداً بعد سنة ١٩٢٠ ولكنهُ لم يسحب تماماً ، ومن بقي منهُ اطلق عليهِ اسم «بوليس سكك الحديد» . ذلك ان اللجنة الحاكمة الاولى تلكأت في استمداد رجال الجندرمة من الساريين نفسهم لأن رو Rault رئيسها كان يرى انهُ من المتعذر وجود بضعة ألوف من الساريين موالين لنظام الحكم الجديد يمكن الاعتماد عليهم . فساء هذا الساريين واضافوا اليهِ تبرّمهم بالنفقات الطائلة التي لا قبل لهم بها . ولما كانت اللجنة الحاكمة تحمل تبعة المحافظة على الامن العام رفضت ان تغامر مغامرةً قد تسوء عقباها . على كلّ كان لبقاء بعض الجنود الفرنسيين أثر غير محمود في نفوس السكان

ومما شكا منهُ الساريون عدم اشتراكهم اشتراكاً فعليًّا في الحكم ، مع ان نصيبهم فيهِ بعد الحرب ، كان أعظم جدًّا من نصيبهم فيهِ قبلها . ذلك ان معظم كبار الموظفين في السار قبل الحرب كانوا ألماناً من برلين . فلما تولّت لجنة جمعية الامم الحكم استغنت عن خدمات هؤلاء لاضعاف النفوذ الالماني من جهة ولارضاء الساريين من جهة ثانية بتعيينهم في المناصب الشاغرة . ولكنهم ما كادوا يعطونَ هذا حتى طلبوا المزيد . فلما رأت اللجنة انشاء برلمان استشاري لهم مؤلف من ثلاثين عضواً ينتخبون بالاقتراع العام ، كان اول طلبٍ طلبهُ البرلمان حق اقتراح التشريع ، واستجواب الحكومة ، والتمتع بالحصانة النيابية

وبلغت المرحلة الاولى في حكم السار بحسب النظام الجديد ، ذروتها في سنة ١٩٢٣ اذ استفحل التبرم وكان الباعث المباشر عليهِ احتلال فرنسا للرور ، فاضرب عمّال مناجم السار اضراباً دام مائة يوم ، عطفاً على اخوانهم في الرور . فاتخذ رو رئيس اللجنة الحاكمة وسائل شديدة لمعالجة الحالة فضيّق على الحريات وقرّر ان يستدعي الجنود الفرنسية اذا اضطرب حبل الامن

هذه الحوادث نبهت بريطانيا الى ما هو جارٍ في مقاطعة السار ، وكانت حتى ذلك الوقت مرخية العنان لفرنسا فيها . فطلبت الحكومة البريطانية تعيين لجنة للتحقيق في اعمال اللجنة الحاكمة في السار فظهر ان جمعية الامم لم تمارس في خلال السنوات الثلاث التي انقضت على لجنة «رو» ايّة سيطرة على اعمال اللجنة وان رو نفسهُ كان مسيطراً على اللجنة ، بل انهُ قرّر تنفيذ خطط جديدة احياناً من دون ان يستشير زملاءهُ . فكان من أثر هذا التحقيق ان جعل رو يستشير زملاءهُ في كل اعمالهِ . وقد ظلّ في منصبهِ هذا الى سنة ١٩٢٦ لما عين ستيفنز الكندي رئيساً ثم تبعهُ المستر جفري نوكس الانكليزي وهو لا يزال رئيساً الى الآن

وقد كان الجانب الاخير من رآسة رو ورآستي ستيفنز ونوكس عهد سلام واقبال . ففي الناحية الواحدة كان الساريون قد تعوَّدوا نظام الحكم الجديد ومع ان معارضتهم لم تضعف الاَّ انها فقدت لذعها الاول . ثم ان اللجنة نفسها فقدت رويداً رويداً خضوعها للنفوذ الفرنسي ، لان الرئيسين اللذين خلفا رو كانا انكلوسكسونيين . وضعفت في هذا العهد الدعاية الفرنسية في المدارس ونقص الجنود الفرنسيون الباقون في البلاد رويداً رويداً حتى خرج آخرهم من البلاد في سنة ١٩٣٠ وفي بداءة سنة ١٩٢٧ بدأ الماليون الفرنسيون يبيعون حصصهم في الصناعات السارية فمهدوا بذلك السبيل ليكون الحكم حكماً محايداً على قدر المستطاع . وفي خلال هذه المدة حلَّ التقارب بين فرنسا والمانيا الذي عقده بريان وتشترزمان في لوكارنو . وفي سنة ١٩٢٩ اخذ تشترزمان وبريان يبحثان في امكان بيع مناجم السار لالمانيا ، ولكن ارباب الصناعة في الرور لم يرقهم هذا فكان الثمن الذي عرضهُ تشترزمن على فرنسا اقل كثيراً مما يمكن قبولهُ

فلما تسلم هتلر مقاليد الحكم في المانيا ، تعقدت الحالة ، لان حلَّ هتلر لنقابات العمال حمل الاشتراكيين الساريين على التفكير في الدعاية الى ابقاء الحالة الراهنة . وظنَّ بعض الكتَّاب ان النزاع الديني في الريخ ، لا بدَّ ان يحمل الكاثوليك من الساريين ، وهم اكثرية ، على مقاومة العودة الى حظيرة الريخ . وبلغت المسألة اعقد ما يكون في صيف ١٩٣٤ اذا اشتدت الدعاية النازية في السار فطلب رئيس اللجنة قوة دولية للاشراف على حفظ الأمن في البلاد . فأفضى هذا بعد مفاوضات طويلة الى انشاء القوة الدولية وانتظام بريطانيا فيها . فكان هذا القرار خير مخرج للدول من مسألة كادت تتفاقم حتى رأى بعضهم شرر الحرب متطايراً منها

بعد الاستفتاء

لما اقترب ميعاد الاستفتاء أفتى كثيرون من الكتَّاب المطلعين على دقائق الحالة في السار ان المانيا لا بدَّ فائزة باكثرية كبيرة . ولكن احداً منهم لم يبلغ في تقديرهِ حدَّ التسعين في المائة او تزيد التي نالتها المانيا حقيقة في الاستفتاء . وهذه الاكثرية الكبيرة تهوّن على جمعية الامم اتخاذ القرار النهائي في اعادة السار الى الريخ . ذلك انهُ لو كانت نتيجة الاستفتاء مثلاً ٦٠ في المائة في جانب المانيا و٤٠ في المائة في جانب الحالة الراهنة ، لاضطرَّت جمعية الامم ان تقيم في القرار الذي تتخذهُ وزناً لهذه الاقلية الكبيرة ، وقد يحملها ذلك الى شطر السار ، وهذا لا ريب يقيم المانيا ويقعدها وهو مما لا يطرب لهُ محبٌّ للسلام . ففوز المانيا بهذه الاكثرية الساحقة كان في مصلحة السلام وقد اعترف المسيو فلاندان رئيس وزراء فرنسا بذلك فقال « ان نتيجة استفتاء السار اقتراع للسلام » . وردَّد الهر هتلر من ناحيتهِ ما قالهُ قبلاً وهو انهُ بعودة السار تصفَّى آخر المسائل المعلقة بين فرنسا والمانيا مما يخص الحدود بين البلادين . وينتظر ان يسلَّم السار لالمانيا في اول مارس ١٩٣٥

الدولة المندمجة

الدولة الفاشية وعلاقة المال بالعمال

ليس مثل الازمات كاشفاً لمواطن الضعف في النظام الديموقراطي . ان حسناته تبدو جلية بهية في ايام السلم والرخاء اذ يسهل حفظ الشعب مكتفياً قنوعاً بحكومته راضياً عن حاله . ذلك ان الرخاء يفحم النقاد ويحمل المنتخبين على تأييد اية زعامة ، او القناعة بغير زعامة على الاطلاق . ولكن اذا وقفت امة وظهرها الى الجدار — على حد تعبير الانكليز — تدفع عن كيانها في حرب ، او عن وحدتها في ثورة ، او اذا ارتجَّ كيانها الاقتصادي وتقلقل حتى كاد يهوي ، بدت مواطن الضعف حينئذ في الفلسفة الديموقراطية كأساس للحكم

لذلك نرى ان الديموقراطية في اوربا بعد الحرب ، في دور جزر ، ولا تفسير لذلك الاّ ان الاضطراب والقلق اثقلا كاهل النظام الرأسمالي ، فضاق الناس به ذرعاً ولا مفرَّ الاّ الى الشيوعية والاشتراكية حتى جاء موسوليني فأدخل الفكرة الفاشيّة رويداً رويداً ، وهو يتطور معها ويطورّها بحسب حاجة البلاد محتفظاً بتمثيل الشعب ، ولكن محولاً معنى التمثيل ، من معنى الى معنى . فقد كان في البدء المثل الذي ترنو اليه الديموقراطية ، هو اطلاق حق الاقتراع ، لجميع البالغين والبالغات ، واما « الدولة المندمجة » او « الدولة النقابية » التي يرنو اليها موسوليني ، فلا يلغى التمثيل من نظامها ، وانما يكون تمثيلاً لاصحاب المصالح الاقتصادية في البلاد

وقد عني موسوليني من يوم تقلده لازمّة الامور في بلاده ، ببيان انفصاله في نظامه الجديد ، عن صورة الدولة التي كان يرسمها الاحرار في القرن التاسع عشر . فالاختلاف بين الاحرار والاشتراكيين كان اختلاف « كمّ » اما الاختلاف بينهما من ناحية وبين الفاشية من ناحية اخرى فهو اختلاف « نوع » . ذلك ان الاحرار كانوا في القرن التاسع عشر يعتقدون ان الدولة يجب ان لا تتدخل في ميدان الاعمال الاّ اذا كان لا بدّ من ذلك ، لاضطراب الحالة وتفاقم الاضطراب ، وان على الحكومة ان تترك ميدان الاعمال حرّاً ، لتزاحم القوى القومية وتنافسها تنافساً حرّاً ، وان هذا التنافس الحر هو سرّ التقدم القومي والباعث على الرخاء . اما الاشتراكي وهمّهُ الاول متجه الى العامل اليدوي ، فيرى ان الدولة نفسها يجب ان تدير الاعمال والمرافق العامة وانها يجب ان تعمد في استعمال سلطتها الى القوة اذا لزم الامر ، في مصلحة طبقة خاصة دون غيرها من طبقات الشعب

وكلتا المدرستين — مدرسة الاحرار ومدرسة الاشتراكيين — تحسب الدولة فكرة مجردة لا نظاماً يحسّ فيه رجل الشارع والعامل البسيط والفلاح الساذج ، بانهم اجزاء منهُ

وليس من السهل او اليسير ان تضع تعريفاً جامعاً مانعاً للفلسفة الفاشيّة ، وانما يمكن اجمالها بقولك « كل فرد للدولة والدولة للجميع » . فليس ثمة عمل من اعمال الدولة في نظر موسوليني لا يصحُّ ان يكون موضع عناية كبيرة عند الدولة الفاشية ، بل يجب على الدولة ان تنظم اعمال ابنائها لكي يجنوا اكبر قدر يمكن جنيه من جهودهم ، ولكي تتجه جهودهم في النواحي التي تفيد الامة جمعاء . فالفاشية ترمي الى اندماج الدولة حتى تخرج الامة من البوتقة وحدة مندمجة كأنها جسم حي . انها ترمي الى ان توحد بين الامة والفرد ، وان تضم تحت جناحي الدولة كل فرد وكل عمل

فالفاشية تنكر وجود كائن دولي وراء الدولة . والدولة القومية هي في نظرهم الوحدة العليا ولها الحق في ان تطلب وتنتظر من كل فرد من ابنائها ولاءه التام . والطبقات في هذه الدولة لا يعترف بها الاَّ اذا كانت تقوم بوظيفة من وظائف الدولة اي انها تمثل او تقابل العضو في جسم الانسان . ولما كانت اعضاء الجسم مندمجة متحدة متناسقة في عملها ، ومتجهة نحو غرض واحد هو اتساق الحياة الفردية ، كذلك الطبقات في الدولة يجب ان تندمج وتتحد وتتجه في عملها نحو غرض واحد هو اتساق الحياة القومية . والبرلمان الذي يمثل هذه الطبقات ، هو البرلمان الذي يرمي موسوليني الى انشائه

ان الدولة الفاشية تعترف بوجود نقابات العمال . ولكنها تنكر علاقة اية نقابة بالمذهب الماركسي ، لان كل نقابة يجب الاَّ تتعدى في ولائها حدود الدولة . وهي تعترف في الوقت نفسه بجماعات اصحاب العمل ، اعترافها بنقابات العمال ، كما تعترف بكل الجماعات القائمة على اساس من وحدة العمل . واعترافها هذا ليس مطلقاً بل لهُ شروط اي انها لاتعترف بنقابة عمال او بجماعة تجار ، ن لهذه النقابة او لتلك الجماعة حقوقاً ضد الدولة ، بل هي تعترف بها الى مدى حاجة الدولة اليها في بناء نظامها المندمج . لذلك ترى النقابة المعينة ، والجماعة الخاصة ، من ابناء الامة اجزاء حية ، او اعضاء حية على الاصح ، في جسم الدولة ، وعلى كل منها تبعة خاصة ، خاضعة لسيطرة الدولة وتنظيمها

فالنقابة قد تسعى الى رفع اجور العمال وتحسين احوالهم المعاشية ، وجماعة اصحاب العمل ، قد تميل الى خفض الاجور ، ولكن كلتا النقابة والجماعة ، يجب ان تخضع لحكم الدولة ، التي لاتسمح ببلوغ النزاع بين الفريقين مبلغاً يهدد سلامة الدولة . فالتحكيم الاجباري في شؤون الصناعة ، فكرة اساسية في الدولة الفاشية

***

من اغرب مظاهر الموقف الذي يقفهُ الاغراب نحو موسوليني ونظامهِ الجديد ، تباين النظر واختلاف الرأي في حكمهم عليهِ . فطائفة من المحافظين الغلاة في محافظتهم ، يحترمونهُ ويحاولون ان يسيروا في أثرهِ . وهم لو عاشوا في ايطاليا لانحوا في الغالب على حكومتهِ واتهموهُ بالاشتراكية . فكأنهم لا يدرون مثلاً ان صاحب مصنع في ايطاليا لا يسعهُ ان يستغني عن عامل ما الاَّ اذا ثبت لمكتب « تخديم العمال » ان اخراجهُ ضرورة اقتصادية . او انهُ مقصّر . ثم هناك طائفة من اتباع

الاشتراكية وزعمائها ، والاشتراكية معتقدهُ القديم ، لا يجدون من عنيف القول ما يكفيهم في تصوير مساوىء النظام الفاشي . وهم لو دروا لوجدوا ان معظم المقترحات العملية في برنامجهم الاقتصادي، قد تناولها موسوليني وطبقها في الدولة الفاشية . فموسوليني رجل عملي ، ولا يرهب الالفاظ التي توسم بها الاحزاب ، ولذلك تراهُ اخذ من اليمين ومن اليسار كلَّ ما رآهُ صالحاً لغرضهِ ، ويسهل نقلهُ من حيز الفكر والامكان الى حيز الفعل والتطبيق

وقبل ان نذكر اهم ما اشتمل عليهِ « دستور العمل » في ايطاليا الفاشية لا بدَّ من ذكر كلمة عن حالة ايطاليا ، لما اقدم موسوليني على تنفيذ خططهِ الجديدة ، التي اضافت ولا ريب ، شيئاً جديداً الى فلسفة الانظمة السياسية ، بجمعها بين السياسة والاقتصاد في صعيد واحد

فنحن اذا نظرنا الى ايطاليا من الوجهة الاقتصادية وجدناها امة الزارع الصغير، والصانع الصغير، وصاحب الدكان الصغير . ففي الاعمال التجارية قلما تجد المخازن الكبيرة التي تجدها في لندن وباريس ونيويورك ولا الشركات التي تدير سلسلة من المخازن الكبيرة في العاصمة وسائر المدن الايطالية . بل قلما تجد رجلاً واحداً يملك مناطق واسعة من الارض الاَّ في الجنوب . ومعظم الملاك لا يعدو ما يملكه أحدهم ان يكون حقلاً أو بستاناً صغيراً . فشعب يتسم نظامهُ الاقتصادي بهذه السمة ، قلما يكون مرتعاً خصباً للرأسمالية او للشيوعية . فهذه الناحية من حياة الامة الايطالية ، كانت تربة صالحة للفاشية ، فأرسلت جذورها في الارض وفروعها في السماء . ذلك ان الفاشية ترمي الى تعزيز الجهد الفرديّ الصغير ، من دون ان تسمح للنزعة الفردية بالاستفحال حتى تهدّد وحدة الدولة بالانفصام . ولا ريب في ان تحقيق أغراض موسوليني ، قد مهّدت سبيلهُ هذه « الفردية » الشائعة في البلاد الايطالية

يضاف الى ذلك ان اقبال ايطاليا على الصناعة الحديثة قريب العهد ، واسباب تأخرها كثيرة معظمها قلة الوقود ، فحماً كان او نفطاً . أما وقد بدأت تبني المحطات لتوليد الطاقة الكهربائية من مساقط المياه ، فالمرجح ان تتمكن ايطاليا من منافسة الدول الصناعية بعد انقشاع غيمة الضائقة العالمية . بل هي تنافسها منذ الآن . ثم ان العامل الايطالي ، يحبُّ الطبيعة ، ويفتنهُ جمالها ، فمن فقد منهم عمله في مصنع ، يستطيع ادماجهُ من دون عناءٍ في جمهور الزرّاع والحصّاد . اما المناطق الصناعية فمحصورة في بقاع معينة فيمكن معالجة ما ينتابها معالجة اجمالية ، وهذا متعذر لو انتشرت في طول البلاد وعرضها

ومع كل هذا عجزت الرأسمالية قبل الحرب وبعيدها عن معالجة الحالة . فسادت فوضى في حياة ايطاليا الصناعية حملت طائفتي اصحاب العمل والعمال على التوق الى اي حلٍّ مرضٍ ، يستتبُّ على أثره السلام والوئام بينهما . ففي سنة ١٩٢١ حدث في ايطاليا ١١٣٤ اضراباً ، اشترك فيها ٧٢٣٨٦٢ عاملاً وخسرت بها المصانع ٨١١٠٠٦٣ يوماً من ايام العمل والانتاج . وكان جليّاً ان فوضى من هذا

القبيل، تخرب البلاد اذا استمرت سنة اخرى . فتدمر المصانع وتفضي الى فقد الاسواق . ولذلك بدا لاصحاب الرأي ، ان النظام الرأسمالي قد افلس في ايطاليا وان الرأسماليين والاشتراكيين سواء في عجزهم عن الوصول الى علاج . وهذا كله مهد الطريق لتجربة نظام جديد في جسم الدولة الاقتصادي

***

كان موسوليني الرجل الامثل ، لخلق النظام الجديد . لانه مهما يقل فيه ، فانهُ غير متحكم . انهُ يدين بكثير من آرائهِ الاقتصادية الى سورل الفرنسي ، ولكنهُ لا يتقيد بهِ . فلما دخلت الفاشية ميدان السياسة احجم موسوليني عند اتخاذ اي موقف حاسم في موضوع العلاقة بين الرأسماليين والعمل ، لانهُ كان قد ادرك ان الحالة الاقتصادية في تغيُّر وتبدُّل مستمرين . كان غرضهُ وحدة الامة ، وقطع دابر الشقاق والنزاع بين طبقاتها . اما السبيل الى ذلك فلا ينيرهُ الاَّ الاختبار . وكذلك أنشأ رويداً رويداً النقابات والاتحادات الاقتصادية التي يقوم عليها نظامهُ للفصل في موضوعات الشقاق ، بوسائل سلمية

وكان قد حدَّد موقفه نحو طبقة العمال في خطبة فاه بها قبل تقلده الحكم قال فيها : — « ان الذين يعملون سوف يكونون في مقدمة الامة ، لان امة الغد سوف تكون امة منتجين لا امة طفيليات » . وفي دسمبر سنة ١٩٢٣ قال في خطبة اخرى « لما كنت في العشرين من العمر كنت اشتغل بيدي . اشتغلت عاملاً وبنَّاء طوبٍ . وانا لا اذكر هذا ابتغاء عطفكم عليَّ ، وانما لأبيّن انني لا استطيع ان اكون عدوًّا لطبقة العمال » . وفي الخطبة ذاتها قال ايضاً : « ان الحكومة التي اتشرف بتولي رآستها ليست حكومة ضد العمال ولن تكون كذلك »

وفي السنوات الثلاث الاولى من الحكم الفاشي اعدت نظم مختلفة لوضع العلاقات بين العمال واصحاب العمل على اساس من الوئام والنظام ولكن صرف النظر عنها . وهذه العلاقات يحكمها الآن القانون الذي صدر في ابريل سنة ١٩٢٧

ونستطيع ان نحسب هذا القانون مرحلة على طريق عظمة ايطاليا كما يحسب الانكليز « الماجنا كارتا » الذي منحوه في سنة ١٢١٥ فكان فاتحة الحرية المدنية التي بنيت عليها عظمة الامة الانكليزية

من المتعذر الموازنة بين الاثنين ، فكلٌّ منها أخرج في زمن يختلف عن الآخر كل الاختلاف . « فالماجنا كارتا » الانكليزي صدر نتيجة للنزاع بين الاعيان والملك ، ولما ساد الحياة العامة الانكليزية من الظلم والفساد . واما القانون الايطالي فصدر نتيجة للمبادىء التي قررتها الفاشية واذاعتها في سبيل « الدولة المندمجة » من جميع عناصرها . فالقانون الايطالي لم يعرض لتقرير الحريات العامة من سياسية وفكرية ودينية ، لان هذه الحريات كانت مما تحتمهُ قوانين البلاد ويضمنهُ دستورها

وانما المشكلة التي عرض لها هذا القانون هي مشكلة علاقة الرأسمال وأصحابهُ بالعمال ، وما ينجم عن ذلك من الاصطدام الاجتماعي ، مما يجعل هذه المشكلة من اعقد المشكلات التي انتابت الاجتماع الحديث

وهذا القانون ليس قانوناً بالمعنى المألوف وانما هو تصريح ينطوي على المبادىء التي تقوم عليها «الدولة المندمجة» . وهو يحتوي على ٣٠ مبدأ ، العشرة الاولى منها ادمجت في قانون النقابات . وبموجب هذا القانون ، يحقُّ للمشتغلين بالفنون والصناعات والحرف المختلفة ان يؤلفوا نقابات واتحادات ، وبه عيّنت حقوق كل من فريقي العمال واصحاب العمل وما عليهم من التبعات ، وحدّد حق الدولة المطلق في السيطرة على انتاج الامة بغية خيرها الاعظم . وفيها كذلك تقرّر ان الرأسمال والعمل في مستوى واحد من المقام من حيث علاقتهما بالدولة ، وبه منعت الاضطرابات التي تشلُّ الصناعات واصبحت تحسب في عداد الجرائم ، وبه جعل العمل اليدوي مساوياً للعمل العقلي من حيث ما لهما من الاثر في رخاء الدولة وحسن مآلها . والغرض الاسمى من كل هذا هو السموّ بجميع العمّال الى اعلى مراتب الكفاءة والانتاج والفائدة . وقد نصّ في هذه المبادىء على ان ايّ خلاف بين المتمولين والعمال لا يفضُّ عن طريق النقابات يجب ان يحال الى مجلس العمال الاعلى ، للحكم فيه حكماً منصفاً نهائياً

أما المبادىء العشرة التالية فتعيّن ما يلزم لانشاء العقود بين اصحاب العمل والعمال . ولهذه العقود قيمة القوانين ، ويجب ان يحترمها المستأجرون والعمال على السواء . وفيه حدّدت الطرق التي بموجبها تعيَّن الرواتب والاجور ، عند حدٍ يمكّن العمال من العيشة في مستوى يتلاءم وحاجاتهم العصرية . وفيه كذلك ذكرت القواعد التي تمنح بموجبها اجور اضافية عن العمل الاضافي ، نهاراً وليلاً ، والتعويض الذي يدفع للعامل اذا اعلن باخراجه من العمل لغير تقصير منهُ ، والاحوال التي فيها يحقُّ لصاحب العمل ان يستغني عن عامل من دون ان يحتم عليه دفع تعويض لهُ ، وكذلك الاحوال التي يحق لهُ فيها ان يفرض غرامات على العمال

ويلي ذلك قواعد «مكاتب التخديم» والتأمين في وجوهه المختلفة الاجتماعي والصناعي والصحي هذه هي القواعد ، وعلى اساسها وضعت قوانين مختلفة تنفّذ الآن ، مهّدت السبيل لسن اخرى متى اقتضت الحال بما تقضي به التجاريب

ومما هو حريٌّ بالذكر ان نحو عشر سنوات انقضت منذ صَدرَ هذا التصريح ، ولم يحدث في طول ايطاليا وعرضها اضراب واحد . وكل خلاف نشأ بين الرأسماليين والعمال قد فضّ بطريقة سلمية جرياً على قواعد هذا التصريح والقوانين التي بنيت عليه

وقد تمكن بعض اصحاب العمل ، في بعض الصناعات ، من رفع أجور عمالهم ، من دون ان يطالبهم العمال بذلك . وقبل العمال في صناعات وحرف اخرى ، النقص في مرتباتهم ، كلما اقتضت الحال ذلك . وفي احوال اخرى طلب العمال انفسهم خفض أجورهم رغبة في تمكين اصحاب العمل من زيادة عدد العمال ، لكي لا يحرم زملاء لهم منهُ

وقد تمكن موسوليني من الحصول على هذه النتائج الباهرة في ايطاليا ، باذاعة مبادىء التعاون والاشتراك في كل الطبقات ، وما على كلّ منها من التبعة نحو الامة

الدكتور شاخت

دعامة الريخ الاقتصادية

تمكنت المانيا ، بالسعي المستمر ، مدى عقد كامل من السنين ، تهدد تارة وتغضب طوراً وتلين اخرى ، من أن تخفف عبء التعويضات رويداً رويداً حتى خلصت منهُ في مؤتمر لوزان سنة ١٩٣٢ الاّ مبلغاً يحسب يسيراً اذا قوبل بالارقام الاولى . وهي تحاول الآن ، بالعزم الحاسم نفسه ، ان تتخلص من قيود معاهدات الصلح ، وخاصة ما كان منها مرتبطاً بالتسلح وتبعة الحرب ، بل قد وجهت أنظارها كذلك الى تخفيف أعباء الديون التجارية الخاصة التي اقترضت معظمها من اميركا وبريطانيا وسويسرا وهولندا وغيرها من البلدان

فأنت ترى ان المانيا سائرة سيراً حثيثاً في سبيل التفلت من القيود العسكرية والمالية التي فرضت عليها نتيجة لهزيمتها في الحرب الكبرى ، وأخذت تستعيد مكانتها الاولى في قارة اوربا . وقد كان للدكتور شاخت مدير بنك الريخ (الريخسبنك) سابقاً مكانة خاصة وأثر كبير في هذا العمل العظيم. فالدكتور شاخت هو العقل المرشد للنظام النازي في الناحية الاقتصادية ، كما كان للحكومات الجمهورية التي سبقته .فهو في المانيا دليل على استقرار النظام الاقتصادي والمالي ، أو هو حائل يحول دون القيام بتجارب اقتصادية ونقدية تخالف الاصول المرعية عند علماء الاقتصاد كما يفعلون في اميركا. فوجوده في الريخسبنك او في وزارة المالية او وزارة الاقتصاد يمكن ان يؤخذ ضماناً على ان المانيا لن تحاول على الأقل فيما يختص بنظام البنوك ان تخرج على التقاليد ، لانهُ بعد ما ثبت سعر المارك لن يرضى بأن يقلقله مقلقل أيًّا كان

نعم أن موقفه هذا ، قد يغضب بعض المتطرفين من أنصار هتلر ، المعارضين للفلسفة الرأسمالية لأن هؤلاء كانوا يظنون أنهم يستطيعون ان يقنعوا الهر هتلر ، بأن الريخ الثالث يجب ألاّ يثقل نفسه ، ببقايا حضارة رأسمالية كالنقد القائم على قاعدة الذهب . ولكن الدكتور شاخت معروف بشدة الاخلاص في نزعته الوطنية ، ولذلك لا يستطيع أحد أن يتهمه بما اتهم به أنصار النظام السابق . ومع انهُ من المنضمين حديثاً الى الايمان بالدكتاتورية الاّ أن نضاله الشديد ، قبل قيام النازي ، في سبيل الوحدة الالمانية ، والبعث الالماني ، يجعل له مقاماً خاصًّا في المانيا النازية . فقد ندد من قبل بمعاهدة الصلح ، وباحتلال بلاد الرين ، وقاوم مشروع يونغ ، وهو الآن يوجه عنايته الى حماية الاقتصاد الالماني ، من التدهور ، والى نقص الدفعات التي تسدد الى دائني المانيا التجاريين ، حتى لا ترهق هذه الدفعات استقرارها المالي المنشود

والدكتور شاخت ، بخلاف منتاغو نورمان مدير بنك انجلترا ، والمسيو موريه مدير بنك فرنسا ، لا يكتفي ، ولم يكتف من قبل ، بحصر جهاده في ميدان المال والاقتصاد ، بل كانت له مواقف وطنية مشهودة ، وخطبٌ سياسية ، يرضى عنها جميعاً ، أشد النازي تطرفاً وعنفاً في الوطنية. فالمستر منتاغو نورمان اذ يعبر البحر الى اميركا، يفعل ذلك متخفياً تحت اسم مستعار في الغالب . أما الدكتور شاخت ، فلا يخفي اسمه ولا يمسك عن ابداء آرائه ، بل ان بعض رحلاته الى الخارج كانت حملات عنيفة من الدعاية لالمانيا . ففي خلال احتجاجات لجنة دوز في باريس كان الدكتور شاخت على ميعاد مع رئيس الوزارة الفرنسية المسيو بوانكاريه ، فلما طال انتظاره خمساً وعشرين دقيقة قام وانصرف احتجاجاً على هذا التأخر ، فلحق بهِ رسول واقنعهُ بأن الانتظار كان لسوء تفاهم في ضرب الميعاد . ولما سافر البلون Z. R. 3 من المانيا الى اميركا — وكان قد بني في المانيا لاميركا وفقاً لمعاهدة الصلح وكان آخر بلون يحق لالمانيا بناؤه — انفطر قلب الدكتور شاخت غضباً وقال « ان هذا مثال مخيف لبغضهم وحسدهم وطلبهم للثأر » !

ولما تطورت الحال في المانيا ، وزاد تبرمها بالحالة الناجمة عن معاهدة فرساي ، حتى كاد يصبح التبرم ثورة ، زال من ميدان السياسة الالمانية ، رجال امثال بروينننغ وكرسيوس ، وقام مقامهم رجال من نوع هتلر وجوبلس وجورنج ، وهم رجال يتصفون في مقدمة ما يتصفون به بوطنية ملتهبة، وخطابة نارية ، ومقدرة نادرة في الدعاية . وهذا الانقلاب لم يكن يختلف اختلافاً عظيماً عن طبيعة الدكتور شاخت ونشأته . بل انهُ ، والحق يقال ، من الرجال الذين مهدوا له السبيل ، لانهُ من الوطنيين الالمان القلائل ، الذين ثاروا من البدء على معاهدة الصلح ، وخاصة ما كان مرتبطاً منها بالتعويضات وذلك قبل ان يتقلد النازي زمام الامر ، ويبثوا هذه الروح في صفوف الامة الالمانية

وللدكتور شاخت آراء حاسمة ، وطبع لا يقبل الهوادة . ثم انهُ ليس رجلاً يصرف همه الى الادارة ، والاختصاص بمسائل المال والنقد فحسب ، بل هو ادرك من معالجتهِ للشؤون الاقتصادية الاخطاء التي تتعرض لها المانيا اذا ظلت سائرة على الخطط الاقتصادية التي وضعت في معاهدة فرساي . لذلك لم يكتف بكتابة المذكرات الفنية والاقتصادية والمالية لدولته ، بل كان يلقي الخطب ويكتب المقالات معرباً فيها ، في المانيا وخارجها ، عن آرائهِ الحاسمة في هذه الموضوعات

وهو من اصل سكسوني وضيع ، ولد في شلزوج هولشتين سنة ١٨٧٧ — كانت هذه المقاطعة خاصة بالدانمارك فضمها بسمارك الى المانيا ، ثم ضمَّ شطر منها الى الدانمارك بعد الحرب الكبرى — وكذلك نشأ في احدى المقاطعات الواقعة عند حدود المانيا ، فنشأت نزعته الوطنية قوية عنيفة . وعاش والده في اميركا ، وهو حدث ، فغرست في نفسه الاصول الديموقراطية وقد ظل مؤمناً بالديموقراطية واساليبها الى عهد قريب . ففي سنة ١٩٢٩ القى خطبة في مونيخ — مدينة البيت الاسمر مقر حركة النازي — فقال فيها : يخطىء الذين يظنون اننا نستطيع ان نعالج هذا الارث

المرهق—قيود معاهدة فرساي—بوسائل دكتاتورية . وانني ما ازال ارجو ان يقف الرجال الذين يهمهم مستقبل المانيا موقفاً مشرفاً يستند الى المبادىء الديموقراطية ، لأن من هذه المبادىء دون غيرها ، ينبع العمل الجدي لانقاذ المانيا »

ترى ما كان رأي هتلر يومئذ في هذه الكلمات !

ولكن الحوادث ايدت هتلر ، ولم تكن شجرة الديموقراطية الالمانية التي قام هتلر لاقتلاعها ، الا غرسة ضعيفة ، وقد دبَّ اليها النخر قبل ان تشتدَّ ، فلم تثبت في وجهه

بعد سنة من القاه خطبته في مونيخ ، انفصل الدكتور شاخت ، عن وزارة الدكتور برونتغ — وقد كانت آخر حكومة جمهورية صميمة في المانيا — باستقالته من الرخسبنك وتنديده بمشروع يونغ لتسديد التعويضات . ذلك ان غضبهُ على التعويضات وحنقه على قيود معاهدات الصلح ، كانا اقوى في نفسه من تعلقه بالمبادىء الديموقراطية . وبعد سنة اخرى انضم الى ما كان يعرف حينئذ (١٩٣١) بالجبهة الوطنية ، وهي ائتلاف من النازي والملكيين لاسقاط الجمهورية

وما لبث النازي حتى خرجوا من هذا الائتلاف بأكليل الظفر ، ومن الاركان التي يعتمدون عليها ، في ظفرهم هذا، الدكتور شاخت نفسه ، ولعله ادرك حينئذ ، ان امله في الديموقراطية قد انهار ، وان المانيا ، يجب ان تتحد ، « بالدم والحديد » . حتى في ايام ديموقراطيته ، اذ كان عضواً في الحزب الديموقراطي الالماني ، كان ينقد نقداً عنيفاً سياسة الحكومات الجمهورية ، وكان لا يخفي انهُ عدو للاشتراكية . فقد حذر تلك الحكومات ، من التضخيم النقدي ، ومن التمادي في اقتراض القروض القصيرة الآجال . وكثيراً ما وجه النظر الى الصعاب التي تعاني ، في مسألة نقل البضائع والمال ، تسديداً للتعويضات . وكذلك ترى انهُ مع كونهِ قبلاً ، من غير الدعاة للدكتاتورية ، كان يشاطر هؤلاء الدعاة تبرمهم بالحالة السائدة في المانيا ، وغضبهم على اعدائها السابقين

بعد عودتهِ من اميركا درس بين سنة ١٨٩٥ —١٨٩٩ علوم الاقتصاد ، في جامعات مونيخ وليبزج وبرلين وكيل ، ثم تقلب في المناصب المالية والاقتصادية العالية ، الى ان كانت الحرب الكبرى ، فعين مستشاراً اقتصاديًّا للادارة الالمانية في البلجيك ثم لما عاد الى المانيا عين مديراً «للناشونالبنك» وفي سنة ١٩٣٢ عين قوميسيراً للنقد ، ومديراً لبنك الرخ . ثم جاءت استقالتهُ من بنك الرخ في عهد الوزير برونتغ وعاد اليهِ سنة ١٩٣٣ بعد قيام الحكم النازي

ان شاخت وتيسن Thyssen هما الركنان اللذان يستند اليهما النظام النازي من الناحية الاقتصادية وكلاهما قد خدم امتهُ وبلادهُ أحسن خدمة . ومن الطبيعي ان يكونا غير ميالين الى الاشتراكية . وهذا قد يثير عليهما بعض اعضاء الحزب النازي لان هذا الحزب ، ليس وطنيًّا فقط بل اشتراكيًّا كذلك واسمهُ الرسمي الحزب الوطني الاشتراكي . ولكن المانيا الآن لا تستغني عن شاخت ، لانهُ جمع فضيلتي العلم والخبرة من ناحية والاخلاص في الوطنية من ناحية اخرى

اعمدة التلغراف

للكاتب البولوني غلواكي

زارت احدى الاميرات ملجأ لليتامى . فعرض لها مشهد كان غاية في الندرة والغرابة . فأنها رأت اربعة صبيان في عراك شديد آخذاً كل منهم بتلابيب الآخر ، وهم يوسعون بعضهم بعضاً لكماً ولطماً ، نزاعاً على كتاب ممزّق بين ايديهم فاستفظعت عملهم هذا وصاحت بهم صيحة الزجر والانتهار قائلة : — على مَ هذا الصراع ايها الاولاد الحمقى ؟ فأقل عقاب تستحقونهُ عليهِ ان تحرموا نصيبكم من الكعك وتوضعوا ركعاً في الزاوية

فاجابها واحد منهم ، معتذراً عن ذنبه ومشيراً الى صبي آخر :

— انهُ اغتصبني كتاب روبنصن كروزو

فقال ذاك : هذا كذب وبهتان ! انهُ هو الذي اغتصب الكتاب .

وقال صبيٌ ثالث : لله ما اشد افتراءك ! افلست انت من انتزع الكتاب مني ؟

وكانت ناظرة الملجإ قد بادرت الى تدارك الأمر فوضعت حدّاً لصراعهم ونزاعهم . ثم خلت بالاميرة وقالت لها ان ما شهدتهِ اليوم في الملجإ كثير الحدوث ، مع اتخاذ كل ما يمكن اتخاذه من وسائل المراقبة التامة . وذلك لان الاولاد مولعون بالمطالعة ولعاً يفوق الوصف والملجأ في اشد احتياج الى الكتب

فهاج هذا النبأ في قلب الاميرة شرارة شعور غريب لم يخطر من قبل ببالها . لكنها رأت انّ مواظبتها على الافتكار فيه مجلبة للعناء والقلق فأغفلتهُ وبذلت جهدها في نسيانه الى ان زارت ذات يوم رئيس المستشارين وتناول الحديث بعض الشؤون

الدينية واعمال البرّ والصدقة فتذكرت حادثة ملجإٍ اليتامى وقصتها عليهِ واعادت ما قالتهُ لها ناظرة الملجإِ

ولما فرغت من كلامها طرأ على المستشار ما كان قد سبق فطرأ عليها من الشعور بامرٍ غريبٍ غير مألوف . فأعارهُ جانباً من عنايتهِ واهتمامهِ واستصوب ان يبعث ببعض الكتب الى اولئك اليتامى . وتذكَّر انهُ كان قد اشترى ، منذ وقت طويل ، طائفة كبيرة من الكتب لاولادهِ وهي الآن مودعة رفارف المكتبة وبعض الصناديق يغشاها الغبار وتعبث بها ايدي الدثور والبلاء . ولكنهُ لم يشأ ان يتحمل عناء البحث عنها ومشقة جمع شتاتها وارسالها الى الملجإِ

وفي مساء ذلك اليوم زار المستشار صديقاً لهُ كان عنوان المروءة والاريحية وكانت حياتهُ كلها وقفاً على انشاء الملاجىء والمتصدقات ومساعدة لجان البر والاحسان . فروى لهُ ما شاهدتهُ الاميرة في ملجإِ اليتامى وما قالتهُ لها ناظرة الملجإِ وزاد على ذلك تصريحهُ بعزمهِ على ارسال بعض الكتب ووجوب التضافر على معونة اولئك اليتامى وسدِّ عوزهم الادبي . فقال لهُ صديقهُ :

— الخطب سهل الى الغاية ! غداً صباحاً اذهب الى مكتب جريدة « الكورير » واوجه فيها نداءً الى ذوي النجدة ليبادروا الى ارسال الكتب التي يحتاج اولئك اليتامى اليها

وفي صباح اليوم التالي خفَّ ذلك الأريحي الى غرفة مدير هذه الجريدة وحدثهُ بما سمعهُ من صديقهِ المستشار والح عليهِ باسم الانسانية ان ينشر في جريدتهِ النداء المطلوب

واتفق لحسن الحظ ان الجريدة كانت يومئذٍ في حاجة شديدة الى خبر رائع طريف يستوقف نشره انظار قرائها ويشغل ما كان باقياً فيها من الفراغ . فجلس مخبرها من فوره — وانشأ مقالة رنانة في هـذا الموضوع عنوانها : « جوع النفوس : بضعة اولاد : في ملجإٍ يتامى — يعضُّهم ناب الاحتياج الى الكتب — إن شوقهم إليها اعظم من ان يوصف — لا تنسوا نفوسهم الجائعة ! »

وبعد بضعة ايام ذهب المخبر الى مكتب الجريدة ومعهُ واحـد من اصدقائه وكان

استاذاً للفلسفة الطبيعية . فلقي عند الباب رجلاً رثّ الملبس وسخ اليدين وبجانبه فتاة صغيرة صفراء الوجه نحيلة الجسم وعليها اطمارٌ بالية تكاد لا تكفي لستر عريها وهي حاملة رزمة كتب قديمة . فسأله المخبر :

— ماذا تريد يا سيدي ؟

فرفع الرجل قبّعتهُ واجاب بخشية واحتشام

— جئنا يا سيدي ببعض الكتب للاولاد ذوي النفوس الجائعة الذين كتبتَ عنهم . وحنت الفتاة الناحلة رأسها وصبغ الحياء محياها المغشى بصفرة فقر الدم. فتناول المخبر الكتب منها وسلمها الى خادم المكتب . وسأل اباها :

— ما اسمك ياسيدي ؟

فاجابهُ بحيرة وارتباك :

—لماذا تروم ياسيدي ان تعرف اسمي ؟

—لابدّ لنا من معرفة اسم المتبرع بهذه الكتب لكي نعلنهُ في الجريدة

—لا ارى اقلّ ضرورة تدعو الى ذلك . فارجو ان تغض النظر عنهُ ولا تعيرهُ شيئاً من الاهتمام . اني رجل بائس ومسكين وواحد من عمال مصنع القبعات . فلست بمستحق ان يعنى بأمري وينوّه باسمي

قال هذا وانطلق ذاهباً بابنتهِ الصغيرة النحيفة

وبعد ذهابهِ التفت المخبر الى صديقهِ الذي كان بمرأى ومسمع من كل ما حدث وقال له : — ان وقوع هذه الحادثة في اثناء وجودك معي — وانت استاذ الفلسفة الطبيعية — أخطرَ ببالي فكر المخاطبة التلغرافية بطريقة جديدة . فالمكتب الرئيسي لهذا التلغراف كان ملجإِ اليتامى . والمكتب الذي تسلمهُ كان العامل في مصنع القبعات. فلما اشار الاول مسترعياً الانتباه لبّاهُ الثاني من فورهِ . وعند ما صرّح ذاك بحاجتهِ بادر هذا الى قضائها . اما نحن الباقين فكنا — جميعاً — اعمدة التلغراف !

الحب : لشلي

قالت علامَ أرى الغدير
أبداً على عجل يسير
موصولة أنّاته
وشجية نغماته
أفليس يأخذه الملال
أفليس يرزحه الكلال ؟

***

فأجبتها لا تذهلي
من سيره المستعجل
النهر صب حائر
نحو البحيرة سائر
اذ يهفوان ويشدوان
وبغبطة يتمازجان

***

قالت واغصان الشجر
تبدو حجاباً للنظر
فعلام تشتبك الغصون
فتصون تجوال العيون
لا الريح تخرقها ولا
تضطرها أن تفصلا ؟

***

فأجبتها لو تعلمين
ما بالغصون من الحنين
لجلست في ظل السكون
تذرين أمواه الشؤون

يا فتنتي إن الغرام
أدّى بها للانضمام

***

قالت ولمْ تبدو النجوم
محمومة فوق الغيوم
للبدر تنظر ساهيه
فتعود عنهُ باكيه
وتصعد الزفرات نار
حتى يوافيها النهار ؟

***

فأجبتها ان النجوم
تطوي النفوس على كلوم
قد أصبحت تهوى القمر
امسى يبرحها السهر
هي تبتغي منهُ النوال
فيصدها عزُّ الجمال

***

قالت فان كان الغدير
من فرط صبوته يسير
والغصن برّحه هواه
فأقام ملتزماً اخاه
والنجم برّحه السهر
مذ راح ينظر للقمر
اني لذات حشىً خفق
فلنعتنق .. فلنعتنق...!!!

[نقلها رئيف الخوري]

المعبد

لالفونس دي لامرتين

ما أحَيْلَى ما يبدو للانسان في المساء، عند ما يرتفع ببطءٍ، في قُبَّة السماء الكوكبُ الفَرِد، متقدّماً محفّة الليل الصامتة، وقد تنازع الارضَ الضياءُ والظلام،

بل ما احيلى ما يشعر بهِ، عند ما ينقُل خطواتهِ المقدسة، في مُستَقَرِّ الوادي، ميمماً صوبَ المعبد الخلوي، وقد غطى الطُحْلُبُ رواقه البسيط، حيث السماء لم تزل بعدُ، تخاطب القلوب التقيّة

سلاماً ايتها الغابة المقدسة! سلاماً ايتها المفازة المحزنة! انتِ الامينة على مقابر القرية البسيطة، اني اباركِ، حينما امرُّ بكِ آثاركِ الخالية من كل زخرُف، والويل لمن تحدّثه نفسه، بتدنيس تراب الموتى، فاني لأجثو خاشعاً، تجاه انصابهم التي لا رُواء لها، واعفّر خدي بثراهم، الذي هو اجسادهم الباقية

ما اشدّ رَوْعَةَ الليل في جَوْف الهيكل! وما ارهب ذلك السكون الشامل! والعين لا تكاد تميّز في الظلام، نورَ ذلك القنديل المرتَعِد، المُشتَعِل قُبالة المذابح المقدسة، انهُ يتلألأ وحيداً والخليقة جمعاء نائمة، فهو رَمْزٌ مُعَزٍّ للعناية الساهرة، تتقبّل في هذا المكان، تنهدات الانام وتأوهاتهم

لنتقدم، لا يطرق أذُني صوت حيٍّ، فالسكوت شامل، والفِناء وحده يرتعد تحت خَطَواتي الموزونة، فقد تعدّيت درجات المذبح، وها انا واقف، والمهابة تتملّك كل مشاعري، فقد سموت بروحي الى عَلْوٍ، مشتغلاً عن دنياي بديني، فيا أيتها الحيطان المُهيبة في وَحشتها، وأيتها الهياكل الناطقة في سكوتها،

اني لديك وحيدٌ منفرد ، ونفسي الحزينة تتشدّد في تقربها خشيةً ورهبةً ، لتسكب أمامك آلامها ، وما تفيض به جوارحها ، وتسرّ الى السماء بمكنون سرها ، الذي تطلع عليه وحدها ، ولا يسمعهُ أحدٌ سواك

ولكن ماذا ! أأجرؤ على الدنو من هذه المذابح دون خوف ولا وجل ، أأجرؤ يا الهي ان اقدّم في هذه الحظيرة المبجّلة ، قلباً ما فتئ مشتعلاً بالالم والحب ؟ دون ان تأخذني الرعدة ، ويتملكني الهلع ، مخافة ان تنتقم جلالتك المقدسة ، للاحترام الواجب لمقرّك السامي ؟

ولكن لا ، اني لا احمرُّ خجلاً من النار التي تتأكّلني ، فالحب يكون طاهراً نقيّاً ، اذا ما اضرمته الفضيلة ، طاهراً كالذات التي تيّمني هواها

ان حبي يشغل فؤادي ، ولكن بنارٍ مقدسة ، فالثبات يدعمه ، والمصائب تنقّيه من كل شائبة ، فأبوح بهِ للأرض وللطبيعة بأكملها، وامام هيا كلك المقدسة ، اردّده دون خوف ولا حياء ، واذهب الى ابعد من ذلك فاجترئ ايها الاله القدير ، على ذكره بحضرتك العليّة ، فرغماً عن الرعب الذي يوحيه اليّ معبدك ، فقد نمّ في بخفوت اسم مالكة فؤادي ، وهذا الاسم الذي انتقل صداه من قبر الى قبر ، قد عكر هدوء الفلاة الحزينة ، كأنه انّة شكيّة لشبح يتأوه

وداعاً ايتها الآثار الباردة ، وداعاً ايتها المساكن المقدسة ،لقد ردّد الصدى الليلي الساعات مرتين ، وانا واقف امامك خاشعاً ذاهلاً ، ابكي بعين سجوم ،وقلب كليم ، واني أغادرك متأسياً معزّى ،لان السماء رأت عبراتي ، وابصرت ذلي وإماتة نفسي

وقد تكون تلك التي اندب فقدها ، ساهرةً في هذه اللحظة ، على شاطىء آخر ، مع صورتي وقد جثت على درج هيكل ، والدموع تنهمر من مآقيها ، لتبوح بذات صدرها ، وتسرّ بآلامها وأشجانها

[نقلها جورج نيقولاوس]

روزا بونور

حياة مصورة عظيمة

تعلق الشهرة بيننا في الغالب باسماء الملوك والرؤساء والوزراء والعلماء والادباء . وفي النادر يخطر ببال بعضنا المصوّرون والمثالون ونحوهم من الذين نبغوا وبرعوا في تمثيل الاشياء الطبيعية والصور الخيالية. لكن أهالي اوربا وبعض أهالي المشرق مثل الايرانيين والصينيين واليابانيين يحسبون للتصوير والنحت شأناً كبيراً . والظاهر ان اسلافنا من مصريين وفينيقيين واشوريين وعمانيين كانوا مثل الاوربيين من هذا القبيل . ولولا ذلك لما تقدمت صناعات التصوير والبناء والنحت في عصرهم . ولا أباحوا للبنّاء ان يحفر اسمهُ الى جانب اسم الملك الذي يشيّد البناء لهُ

والظاهر ان صناعة رسم الصور ونحت التماثيل اتقنت اولاً على يد شعب قديم كان منتشراً في المسكونة ولا تزال رسومهُ وتماثيله تمثل بعض الحيوانات التي انقرضت منذ عهد طويل دلالة على انها كانت عائشة في ايامهِ ، وعلى توغله في القدم . ثم انقرض ذلك الشعب او بقيت بقايا منهُ في البلدان التي احتفظ اهلها بعمل الصور والتماثيل ، وقام اليونان فأتقنوا هذه الصناعة ولا سيما صناعة نحت التماثيل ، وبلغوا في اتقانها حداً لا غاية وراءه ، وانحطت صناعتهم بعد انتشار الديانة المسيحية ، ثم عادت الى رونقها الاول بعد القرون الوسطى ولا سيما صناعة التصوير . وقد بلغ من احتفاء الاوربيين بالتصوير والمصورين ان صاروا يشترون الصورة بعشرة آلاف جنيه او اكثر الى مائة الف جنيه . ويزيد دخل المصوّر الذي أصاب الشهرة على دخل الوزير او القائد ، وعلى ضعفي دخل الاستاذ الكبير في جامعة كبيرة

***

من نحو قرن من الزمان او يزيد خرج شاب اسمهُ ريمون بونور من باريس الى بوردو ، ليقيم فيها مع والدتهِ وكان على شيء من المهارة في فن التصوير . فجعل يعلّم هذا الفن للراغبين فيهِ ، وكان بينهم فتاة دقيقة النظر صناع اليدين . فأحبها واقترن بها ، وسكن معها في بيت والدتهِ فرزق منها بابنين وابنتين. وكانت روزا صاحبة هذه الترجمة كبرى الابنتين . فقد كانت ولادتها سنة ١٨٢٢ وتوفيت أمها وعمرها عشر سنوات فعاد بها أبوها الى باريس

ولم يكن يهتم بتربيتها لانهُ كان مشغولاً بالسعي وراء معيشتهِ وقد وكّل بتربيتها عجوزاً شكسة

الاخلاق فكانت تنهرها دواماً ولاسيما انها كانت غريبة في اطوارها اذا رأت قطيعاً من الغنم او البقر تبعته ودخلت الى وسطهِ وجرت معهُ ولو أبعد عن المدينة . وكانت تلك العجوز تفتش عنها فتجدها بين الكلاب والقطاط او بين المواشي والقطعان . ولم تتعلم شيئاً من الصلوات التي كانت تحاول تعليمها اياها . بل لم تتعلم حروف الهجاء الا من درّة كانت تردّدها على مسمعها . فتوسلت العجوز الى ابيها ليضعها في مدرسة عند راهبات شيلو فارسلها الى هذه المدرسة الاّ انها كانت تعرّج في طريقها على غابة بولون وتقيم فيها الساعة بعد الساعة كأنها تستقي من مناظر الطبيعة ما تجعله ذخراً لمستقبلها

ولما بلغت الخامسة عشرة من العمر وهي لم تتعلّم شيئاً رأى ابوها ان لا بدَّ لهُ من ان يعلمها صناعة تعيش بها وسأل اولئك الراهبات رأيهنَّ في ذلك فقلنَ لهُ انها لا تستطيع ان تتعلم شيئاً من العلوم فالاصلح لها ان تتعلم الخياطة فوضعها عند خياطةٍ لتتعلم منها وتقيم عندها دائماً . ثم زارها بعد اسبوع فرآها مريضة ولما وقع نظرها عليهِ اعتنقتهُ وجعلت تتوسل اليهِ ليخرجها من ذلك المكان فاخرجها وعاد بها الى بيته وهو غائص في بحار الهموم يفكر فيما عسى ان تؤول اليهِ حال هذه الفتاة وهي ليست بالجميلة فتتزوج ، ولم تتعلم شيئاً لتعيش بعلمها او بعملها

ولو كانت زوجتهُ حية لعرفت بزكانتها ميل ابنتها وكفتهُ مؤونة هذا الهم

ودعي الوالد لتعليم الرسم في مدرسة داخلية فعرضَ على اصحاب المدرسة ان يعلم فيها بلا أجر اذا قبلوا ابنتهُ تلميذة من غير مرتب يدفعهُ عنها . فتمَّ الاتفاق على ذلك وجعل يعلمها الرسم مع رفيقاتها فلم تمضِ ايام حتى دهش لبراعتها في هذا الفن . ولما انقضت السنة طلبت منهُ ان يسمح لها بالرجوع الى البيت والانقطاع لفن التصوير . وكان قد رأى منها ما اقنعهُ بانها ستبرع في التصوير فلبيَّ طلبها وعكف على تعليمها وكانت اكثر تلامذتهِ مزاولة واشدَّهم رغبة بل كانت لا تكل ولا تملُّ من مزاولة عملها شأن جميع اصحاب المواهب الطبيعية والقرائح الوقـادة

الاّ انها هي لم تفهم ميلها الطبيعي تماماً، فتاقت نفسها الى الامور الخيالية ، وجعلت تنقل صور كبار المصوّرين التي في متحف اللوفر . فان جمال تلك الصور سلب لبَّها وحملها على الترفُّع عما دونها فكانت اذا رأت صورة من صور المواشي تنظر اليها شزراً او تغضُّ الطرف عنها كأنها لا تستحق التفاتها . قال لها مدير اللوفر مرةً «اني لم ارَ مثل هذا الاجتهاد مطلقاً» .ورآها أحد وجهاء الانكليز فوقف امام صورة كانت تصوّرها وقال لها « ان تصويرك بديع خالٍ من كل عيب . فواظبي على ما أنتِ فيهِ فتصيرين من النوابغ »

وظلّت تحاول تقليد ارباب الفنّ في هـذه الموضوعات العالية الى ان رأت انهُ لم يبقَ لها مكان فيها ، فأسقط في يدها وجعلت تلوم نفسها وقالت لعـلَّ العناية الالهية لم تقسم لي ان اكون مصوّرة ، كما لم تقسم لي ان اكون خيّـاطة وبينما هي غائصة في بحار اليأس ، تذكرت الايام الماضية

حينما كانت تجول في غابة بولون ، وارتسمت امام صور الطبيعة، فاخذت قلماً ورسمت صورة من تلك الصور كما تخيلتها ، فرأت حالاً انها وجدت ضالتها . وقامت في اليوم التالي فولّت اللوفر ظهرها وخرجت الى ضواحي باريس تصوّر المناظر الطبيعية

قال غوته الشاعر والحكيم الالماني العظيم : ان كل سبيل يؤدي الى الصواب صواب . وهذا كان شأن روزا بونور . فان مراقبتها الاشياء الطبيعية في الطبيعة وتحديها صور كبار المصورين في اللوفر كان صواباً في الوسيلة والغاية، فلم يذهبا سدًى

***

ولما جاء فصل الشتاء وتعذّر عليها الخروج الى الخلاء جعلت تتردد على زريبة المواشي خاصة بأحد الجزارين وتصوّر ما فيهِ من الغنم والبقر ، وربت خروفاً في المسكن الذي تقيم فيهِ مع انهُ في الدور السادس ، لكي تدخل صورتهُ في صورها . وعرضت اول صورة من صورها سنة ١٨٤٠ وكان عمرها ١٩ سنة وهي صورة أرنبين . ثم عرضت صورة الضأن والماعز سنة ١٨٤١ وكانت صورتها تباع بثمن معتدل يكفي لنفقاتها ، والمصورون يشهدون لها بالبراعة فيها ولو لم يرَ الجمهور فيها شيئاً غير عادي . الى ان كانت سنة ١٨٤٩ فخرجت من سجنها في باريس الى مقاطعة الاوفرن وصورت هناك صور ثيران كنتال وارسلتها الى معرض التصوير فشهد لها المسيو هوراس فرنه أنها أحسن صورة من نوعها في المعرض . واجتمع المشاهدون حولها وكلهم معجب بها . وأهدى اليها المسيو هوراس باسم الحكومة كأساً بديعةً من معمل سفر والوسام الذهبي الذي يعطى لأحسن صورة واشترى تلك الصورة رجل انكليزي بستمائة جنيه . وهي تمثل ثيراناً ترعى وقد بدت عضلاتها ومفاصلها وانعكست أشعة الشمس عن ظهورها واسنمتها وخرج الزبد من أشداقها ، والقبة الزرقاء فوقها تسبح فيها غيوم الصيف والارض حولها تمثل الطبيعة بأبهى مجاليها

وصوّرت تلك السنة صورتها الكبيرة ، صورة ثيران تحرث في حقل بالاوفرن وعرضتها في المعرض الدولي العام سنة ١٨٥١ فادهشت الذين رأوها . وقد حفظت الحكومة الفرنسية هذه الصورة في معرض لكسمبرج

وفي سنة ١٨٥٦ عرضت صورتها المشهورة « بسوق الخيل » فدهش لها المصورون جميعاً وغالى الناس في ثمنها ، وتداولتها الايدي الى ان وصلت الى نيويورك ، واقرّ ذوو الشأن في فرنسا ان روزا مصوّرتها تستحق اللجيون دونور ولكن نبوليون الثالث خشي ان يقلدها اياه لانهُ لم يسبق ان قُلّدتهُ مصورة من قبل . واتفق انهُ غادر باريس في سياحة وجعل الامبراطورة نائبة عنهُ فذهبت بنفسها الى منزل روزا بونور وقلدتها النيشان بيدها . وصورة «سوق الخيل» هذه تحسب من الامجاد الفنية التي تفاخر فرنسا باخراجها وبها حسبت روزا بونور في الطبقة العليا بين المصورين

العناية بالحامل

للدكتور مصطفى الخالدي (١)

ان المدنية الحديثة مع ما هي عليهِ من حسنات وبركات ، تفرض على كل انسان في هذا الوجود جزية،ان في جسده اوفي عقله ، ثمناً تتقاضاه منهُ عما تقدمهُ اليهِ .فاجدادنا الذين عاشوا في محيط بسيط اقرب الى الطبيعة من محيطنا ، كانوا يبلغون العمر المديد لا يعرفون لوجع الضرس معنى . اما الآن فعيشتنا المترفهة وسط المدنية الحديثة لا تساعدنا على حفظ تلك الاضراس سليمة ، فكان فن طب الاسنان وكانت المعالجة فيهِ . والبدوية التي تعيش في الصحراء المحرقة وتقاسي شظف العيش وخشونة المحيط تلد كما يخبرنا الكثيرون على الطريق—ولم لا وهي لا تزال في حضن الطبيعة تعيش عيشتها بعيدة عن رفاهية المدنية وبالتالي بعيدة عن الجزية التي تتطلبها منا لقاء هذه الرفاهية التي تقدمها لنا

ان الحمل يصدم كل عضو من اعضاء الجسم صدمة قوية يتطلب معها ذلك العضو كل ذرة من قواه للقيام بوظيفته . فاذا ما كان فيهِ اي خلل ،ظهر ذلك مجسماً بتأثير تلك الصدمة ولذا وجب على الحامل ان تتقدم الى الفحص الطبي عند ما تشعر بالحبل . واهم ما يتطلبه جسمها وما تحتاج اليهِ صحتها العمومية ان تكون الكبد فيها والكليتان والجلد والأمعاء والرئتان على الخصوص صحيحة سليمة قادرة على القيام بوظائفها حق القيام

﴿ الالبسة ﴾ والعناية بالملابس اول ما احب ان اوجه اليهِ الانظار في اثناء الحمل اذ يجب ان تكون بسيطة دافئة وان تتجنب الحامل الثقيلة منها والتي تضغط على الجسم كالمشد اي « الكورسيت » والافضل ان تكون متدلية من كتفيها فيتحول الضغط بذلك من البطن الى الكتفين . والسر كل السر ان لا يكون هنالك ما يسبب ضغطاً على الرحم من الأعلى الى الاسفل كما انهُ من المفيد جداً في الاشهر الاخيرة ان يعصد البطن مسداً لطيفاً جداً فيفقد الجنين بذلك وضعاً قد لا يكون مستريحاً فيهِ . اما المشد الاعتيادي فيجب الاعتياض عنهُ منذ الشهر الثالث بزنار بسيط وصدرية للثديين . وفي النصف الأخير من مدة الحمل يستحسن استعمال حزمة خصوصية من الجهة السفلى تساعد العضلات البطنية على حمل ثقلها الزائد آنئذٍ لا سيما اذا كانت الحامل ولوداً ، متذكرين انهُ لا يجوز بوجه من الوجوه احداث اي ضغط من السرة فما فوق تاركين بذلك مجالاً لنمو الرحم صعداً

---

(١) استاذ فن التوليد والامراض النسائية في جامعة بيروت الاميركية . مقتطفة من فصل مسهب في كتابه الحديث «على عتبة الامومة» . راجع وصفه في باب مكتبة المقتطف

اما الاحذية فمن المحتم ان تكون كعوبها قصيرة لان الطويلة منها تسبب للحامل آلاماً في الظهر وانحطاطاً في القوى . فالحامل بطبيعة الحال ولنمو الجنين في الرحم يبرز بطنها الى الامام فيرتد رأسها وكتفاها الى الوراء حفظاً للتوازن فتتغير كيفية سيرها تغيراً محسوساً ظاهراً للعيان . فاذا ما لبست احذية ذات كعوب عالية ازداد انحناء رأسها وكتفيها الى الخلف زيادة تؤثر في الظهر فتتولد من جراء ذلك الآلام ويصير من المتعب جداً عليها ان تسير سيراً طبيعياً مستقيماً فتكون بذلك قد ضحت بصحتها وراحتها في سبيل «الموضه»

***

﴿ المحافظة على بهاء الجسم ﴾ — من البديهي ان تميل المرأة ميلاً شديداً الى المحافظة على بهاء جسمها واعادته الى ما كان عليه من رواء وخفة وليونة قبل الحمل والولادة ، فهما يؤثران في عضلات الجسم عموماً وخصوصاً في العضلات البطنية فيحدث من جراء الضغط المتواصل وآلام المخاض ارتخاء فيها وهبوط في البطن والثديين مما يفقد المرأة مزية القامة الهيفاء المنتصبة وهي فتاة. وليس للمشدات فائدة في منع هذه النتائج لأنها تسبب اضراراً جمة . انما جل ما يمكننا ان نقوله في هذا الموضوع هو انهُ على الفتاة ان تزاول انواع الرياضة البدنية المفيدة منذ حداثة سنها وان تظل مثابرة عليها الى ما بعد الزواج فتتقوى بذلك عضلاتها فتعود قادرة على احتمال صدمات الحمل والولادة وباكتسابها المتانة والمرونة الرياضية تصبح اكثر قابلية للعودة الى نحو ما كانت عليه قبل ذلك

ومما لا مفر منهُ ظهور الخطوط البيض على البطن واحياناً على الثديين بسبب تمدد الجلد ابان الحمل . وهذه اذا كانت خفيفة تمكن ازالتها بالمسد بالزيت واستعمال الألبولين . واذا ما حدث تورم في الرجلين ناشئ عن توسع في الاوردة وبالتالي عن احتقان الدم فيها يحسن استعمال جوارب من المطاط في الحوادث الخفيفة

***

﴿ الطعام ﴾ : — من المحتم ان يكون طعام الحامل بسيطاً غير محدد وان لا تتناول اللحم والمرق اكثر من مرة واحدة في النهار مع الاقلال من المواد النشائية المقلوة بالدهن والزيت والحلويات المشبعة سمناً .وفيما عدا ذلك يحسن اطلاق الحرية في المأكولات والاكثار من شرب الماء والحليب وتناول الاثمار والخضر والحبوب لتليين الامعاء الاّ ان الكثيرات من الحوامل يقللن الاكل في الاشهر الثلاثة الاخيرة رغبة منهن في تقييد نمو الطفل في الاحشاء لتسهل الولادة . فاذا ما افرطنَ في الامر كانت النتيجة وخيمة . والبعض ينصحون للحامل بتناول انواع من المأكولات تقلل نمو العظام في الجنين فتسهل بذلك الولادة وهذا ايضاً ينبغي معهُ الرويّة والحيطة لانهُ كثيراً ما يضر بالام والجنين معاً وربما سبب لهُ مرض الكساح . والكثيرات من الحوامل يضاعفنَ مقدار اكلهن

اعتقاداً منهن بأن هذا من الضروري للقيام باعالة الجنين والام معاً . وهذا ايضاً من الضرر بمكان وأصدق نصيحة يمكننا اسداءها بهذا الصدد هي اننا لانستطيع ابداء رأي جازم في هذه الامور وامثالها لأن نتائجها غير موثوق بها فتتوقف على عوامل شخصية عديدة . انما الافضل ان تظل الحامل مثابرة على عادتها قبل الحمل مع التحفظات التي ابديناها في صدر هذا المقال وان تتجنب عسر الهضم بتناول المأكولات التي تعرف بالاختبار انها لا تولد ذلك فيها ، وان تؤمن في طعامها وجود المقادير الكافية من المواد الفيتامينية والكلسية فللاولى منها أثر بين في حفظ مناعة الجسم وتقوية بنية الجنين وللثانية مقام عظيم في تكوين العظام وانمائها ولذا وجب تناول الحليب والزبدة والبيض والخضر كالخس والملفوف (الكرنب) والبندورة (الطماطم) والبزلا والجزر وغير ذلك من انواع الاثمار وخصوصاً ما كان منها فيهِ مواد حمضية

ومما يجب تجنبه في اثناء الحمل تعاطي المسكرات على اختلاف انواعها لتأثيرها السيء في صحة الام والجنين معاً . كما وانهُ يجب الاكثار من تناول السوائل كالماء والليمونادة وعصير العنب وغير ذلك في النصف الاول من مدة الحمل . والاقلال منها وخصوصاً عند تورم الرجلين في المدة الاخيرة . ولعلَّ من الخير ان نذكر انَّ ما اوردناه قبلاً من المأكولات الواجب اتباعها ان هو الاَّ على سبيل التمثيل دون ان تكون الحامل مقيدة بها كل التقيد . فالجسم البشري يختلف باختلاف الاشخاص والبيئة والمحيط وليس ثمت من قاعدة عمومية يمكن تطبيقها على الاجسام المختلفة تصح في كل زمان ومكان ، انما اوردنا ما اوردناه وغايتنا في ذلك اتخاذه مثالاً قابل التغيير والتعديل لينسج على منواله

***

﴿ الرياضة البدنية ﴾ — من الواجب في اثناء الحمل ترويض الجسم في الهواء الطلق دون ان يسبب ذلك للحامل تعباً اذ انهُ من الخطأ أن تتخذ من الرياضة سبيلاً الى تقوية عضلاتها لتسهيل مهمة الولادة ، فان ذلك في غير اوانه ، وكان الاولى الاهتمام به قبل الحمل . ولعل أفيد انواع الرياضة لها المشي الوئيد في الهواء الطلق والتعرض لنور الشمس مع تجنب التعب . فان ذلك يزيد نشاط الدورة الدموية والتنفس ويساعد على الهضم وازالة الافرازات الجسدية مقوياً الاعصاب وباعثاً على النوم ومنشطاً للجسم عموماً الاَّ انهُ يجب الامتناع بتاتاً عن التنس والغولف والرقص وما شاكل مما يجهد القوى

ولا يحظر على الحامل الامتناع عن ارتياد امكنة اللهو والاجتماعات العامة انما يجب الحذر من الزحام الشديد خوفاً من الاضرار بها . كما وانهُ يجب عليها الاقلال من السفر . واذا ما اضطرت اليهِ فبكل راحة وتؤدة ، الاَّ اذا كانت ممن اسقطن قبلاً او لوحظ فيها استعداد الى الاسقاط فيجب عندها الامتناع عن السفر بتاتاً . ولا يمكننا قبل ترك هذا الموضوع الاَّ تكرار التشديد على ما للهواء

النقي من الشأن الكبير في حياة الحامل ، فعليها ان تصرف لا اقلّ من ساعتين يوميًا في الهواء الطلق وان تتخذ ما يلزم لتبديل الهواء ليلاً ونهاراً في مسكنها كفتح النوافذ وغير ذلك

﴿راحة البال﴾ وكما ان عليك لجسمك واجباً ابان الحمل كذلك للعقل عليك واجب آخر لا يقل شأناً عن ذلك ، فراحة البال والسعادة والطمأنينة هي من متوجبات الحياة ويزداد شأنها وتبلغ شأواً بعيداً عند ما تكونين حاملاً . ولذا وجب تجنب كل ما من شأنه الازعاج واقلاق الراحة وعدم التفكر بيوم الولادة او الاصغاء لاحاديث الزائرات وسواهن ممن يطيب لهن تعداد المشاق التي عانينها، متذكرة بعد قراءة ما كتبناه بهذا الصدد ان هنالك يد الطبيعة تساعدك على عملك ، وانك اذا ما اتبعت نصائح اهل الخبرة والاخصائيين واتخذت وسائل الحيطة اللازمة التي يشير بها طبيبك ، انك اذا فعلت كل هذا وتركتِ عناء الغد الى حينه كان لك من راحة البال والطمأنينة خير نصيب يحفظك قوية سليمة للقيام بعملك الهام . واذكري دائماً ان هنالك يداً فوق يدكِ ويد الطبيب ، هي التي شقت لك هذه الطريق وهي التي تقودك فيها وترعاكِ بعنايتها

***

﴿الامعاء﴾ ومما يجب الانتباه له اشد الانتباه ابان الحمل الاعتناء بالامعاء لتكون لينة يسهل خروج السموم البدنية منها مع البراز كي لا يزيد عمل الكليتين فوق ما تتحملانه وكي يبقى الجسم نشيطاً معافى . ويظهر ان التسعين في المائة من الحاملات يصيبهنّ الامساك ولذا وجب تلافي الامر والاهتمام بهِ وبذل الجهد في حفظ الامعاء لينة . كما وانهُ يجب تجنب اخذ المسهلات واذا لزم ذلك فبعد استشارة الطبيب. وافضل الطرق لمكافحة الامساك ابان الحمل وفي الحالات العادية هي ما يلي:—

١— عيني وقتاً محدداً ثابتاً كل يوم تذهبين فيهِ الى بيت الخلاء ، وافضل وقت بعد طعام الافطار صباحاً . فاذا ما تعسر خروج الغائط فلا تستثيريهِ بالشد خوفاً على الجنين بل الافضل استثارة المستقيم بواسطة تحميلة من الغليسرين او المحقنة ، فاذا ما سهل الامر بعد ايام امكن الاستغناء عن هذه الوسائل الميكانيكية

٢ : — مما يساعد على تليين الامعاء شرب كأس من الماء البارد صباحاً بعد الاستيقاظ ومساء قبل النوم مع تناول الاثمار كالتفاح والليمون وغير ذلك وشرب الماء بكثرة في اثناء النهار

٣ : — اكثري من تناول الخضر والفاكهة وخصوصاً السبانخ والبازلا واللوبيا والبندورة (الطماطم) والحبوب وما شاكل وامتنعي عن شرب الشاي بتاتاً لانهُ يسبب الامساك

٤ :— استعملي كل مساء قبل النوم حقنة من زيت الزيتون العادي في المستقيم تحتوي نحواً من ٢٠٠ جرام فيظل الزيت طول الليل في المستقيم فيلطف غشاءهُ المخاطي ويمنع تقلصه او تشنجه فيسهل خروج الغائط ، ولا سيما اذا استعملت حقنة ماء عادي في صباح اليوم الثاني ولا تنسي ان الرياضة البدنية والحركة تساعد على تحريك الامعاء وبالتالي على تليينها

﴿ الكليتان ﴾ للكليتين وظيفة هامة في الجسم وهي فرز المواد السامة في الدم كالحامض البولي وغيره . فاذا ما أعيقتا عن القيام بوظيفتهما لامر ما نتج من جراء ذلك تسمم امتصاصي غير محمود العاقبة وهما أبان الحمل مركز الضعف ونقطة الخطر ولذا وجب الانتباه لهما . وهذا يتم بفحص البول مرة كل ثلاثة اسابيع او اكثر اذا لزم الامر للتثبت من مقدار الزلال والسكر والثقل النوعي والحامض البولي والبوريه. ومن الضروري ان لا يتجاوز مقدار البول المدرور في اثناء اربع وعشرين ساعة ١٥٠٠ سنتيمتر مكعب ، وان لا يقل عن ذلك بكثير . وعلى كل الاحوال يجب اعلام الطبيب بالنتائج ليتخذ الحيطة اللازمة لاسيما اذا حدث تورم في الرجلين واليدين والجفون

***

﴿ النظافة ﴾ تزداد حيوية الجلد ويكثر نشاطه ابان الحمل اكثر من المعتاد فتغزر افرازاته ولذا وجبت العناية الخاصة بنظافته آنئذ لتسهيل افراز المواد السامة من مسامه ، زد على هذا ان النظافة بالاغتسال تنشط الغدد الدهنية والعرقية وتزيل المواد المتجمعة عليهِ فينتعش ويزداد نشاطه وتزول الرائحة الكريهة عنهُ . ولذا وجب الاستحمام اليومي في اثناء الاسبوع اومعظم ايامه بماء فاتر تتراوح درجته بين ٣٧ و٣٧ ١/٢ سنتيغراد . ويمكن ايضاً الاستحمام بالماء البارد أيام الصيف وفي البحر الا انهُ يجب تجنب الشاطىء حيث تكثر الامواج خوفاً من الاسقاط

وقبل ميعاد الولادة بشهر يجب الامتناع عن استعمال المغطس خوفاً من التلوث بعدوى الاوساخ والاعتياض عنهُ بحمام المرشة (دوش) . ويحسن احياناً عند ما تكثر افرازات الجلد الاستحمام بالماء الفاتر وفرك الجسم بعد ذلك بمنشفة غطست في الماء المالح وعصرت جيداً

***

﴿ العناية بالثديين ﴾ منذ البلوغ تجب العناية بالثديين كي يكونا أهلاً للقيام بوظيفة الارضاع وكم تخسر الام ويخسر ولدها معها عند ما لا تستطيع القيام بهذه الوظيفة لخلل في ثدييها تاركة بذلك اياه لحليب المرضعات . ولذا وجب حفظهما منذ البلوغ سليمين ينموان نموهما الطبيعي ، وان يمنع عنهما أي ضغط مقصوداً كان أم غير مقصود ، وان تهتم الفتاة ابان الرياضة البدنية او اللعب بعدم الاضرار بهما وان تعتني الامهات بصحة الاعضاء التناسلية في بناتهن كما يعتنين بانماء عقولهن وزيادة معارفهن واذا ما كبر الثديان ابان الحمل وجب استعمال الصدرية وغسلهما بالماء يومياً بالماء الفاتر والصابون مع بذل الجهد في تنظيف الحلمتين من القشور العالقة بهما بزيت الزيتون النقي أو « كولد كريم » ويجب الحذر كل الحذر من استعمال المواد الكحولية وما يشاكلها لغسل الثديين لأنها تسبب تصلب الحلمتين اللتين يجب ان تبقيا ناعمتين طريتين . وبكلمة موجزة يجب تجنب كل ما من شأنهِ الاضرار بهما خوفاً من ان يسبب ذلك فيما بعد التهاباً فيهما

مكافحة الرمد

في البلاد المصرية

للدكتور فريد مسعود

﴿ شدة انتشار الرمد ﴾ للرمد في البلاد المصرية معضلة تعترض كل من يعني ببحث مسائل الصحة العامة فليس الرمد احد الامراض المتوطنة فحسب بل هو بحق اكثرها انتشاراً واعظمها شراً وابعدها أثراً فلانتشاره يكفي ذكر النسبة المئوية الهائلة ٩٥ ./· ودليل شره نسبة العميان التي هي ٨ ./· واما أثره البعيد فيظهر من تغلغله في جميع الاوساط وتسربه الى مختلف الطبقات . فتجده عند الغني في قصره . بينما هو ملازم للفقير في كوخه وهو مزمن شديد الازمان قد تمر على المريض سنون وكلما ظن انهُ قد تخلص منهُ بعد علاج طويل فاذا هو باق في عينيه يطل منهما من آن لآن

ولعلّ شر مصائبهِ وجوده بأثقل وطأتهِ في عيون الاطفال فالمشاهد والمحقق هو ان الاطفال اكثر عرضة للاصابة بالرمد من الكبار بل ان الطفل كلما كان اصغر سناً كان تعرضهُ للرمد اشد واكثر حدوثاً

وعلى هذه الملاحظة بنوع خاص يبنى مشروع مكافحة الرمد عن طريق رعاية عيون الاطفال

***

﴿ بدء الاصابة بالرمد ﴾ ومن المحقق ان اصابة الطفل بالرمد ترجع في بدئها الى جهل الام بأبسط قواعد الصحة العامة كنظام التغذية ونظافة الجسم ويضاف الى هذا ما اعتاده السواد الاعظم من الطبقات الفقيرة من التصرفات التي تسبب وصول مواد مؤذية لعين الطفل اما عفواً او قصداً مما هو راجع في مجموعه الى مخلفات الجهل وخرافات عصور الظلام فترى الطفل الذي يولد بعينين سليمتين لا يلبث بضعة ايام أو اسابيع حتى تبدأ اصابته بالرمد فيظهر احمرار في العينين مع تورم وافراز وقد تزيد هذه الاعراض او تنقص بحسب شدة الاصابة او بساطتها

ومن هذا الحادث او بالحري قبل ذلك بمدة ما يبدأ تاريخ حافل بالآلام والمتاعب هو تاريخ الرمد وقد ينجو منهُ الطفل بعينين سليمتين بعد مكابدة الرمد زمناً طويلاً او يقل البصر بسببه ان لم يضع تماماً

والذي يستنتج من كل هذا حقيقة لا تحتاج الى تعليق وهي اننا اذا حافظنا على عيني الطفل من

الاصابة بالرمد في بدأ حياته وهذا ممكن عمليًا فقد وضعنا سدًا مانعاً في طريق انتشار الرمد وبالتالي خطونا خطوة موفقة في طريق مكافحة الرمد

﴿ لزوم تعميم رعاية عيون الاطفال ﴾ وليست رعاية عيون الاطفال من الرمد شيئاً مجهولاً بل هي امر واقع يباشر فعلاً في مراكز رعاية الاطفال وفي مستشفيات الرمد الحكومية وغيرها فهذه المنشآت تقوم بقسط وافر من علاج عيون الاطفال المصابة بالرمد ولكنها في مجموعها بالنسبة لانتشار الرمد لا تفي من الحاجة الا بالشيء القليل . او ما يقدر بعشر معشار ما هو لازم للحالة الواقعة . ولا شك انهُ ليس من حسن تدبير الامور ان يترك الحال على ما هو عليه الآن وهناك الآلاف بل الملايين من المصابين بالرمد . وممن سيصابون به حتماً . وليس من الجائز عقلاً ان نكتفي بالقليل الموجود . اذا كان في مقدورنا زيادتهُ بغير مشقة حتى نصير اقدر على منع المصاب او على تخفيف البلاء

***

﴿ مراكز مكافحة الرمد ﴾ والواقع ان مكافحة الرمد يمكن ان تعود بالفائدة المطلوبة في اماكن صغيرة متعددة ربما كانت اصلح لهذا الغرض من المنشآت الكبيرة الكثيرة النفقة . وخاصة من ناحية المرضى الذين يكلفون الآن مشاق الانتقال لمدد طويلة فلا يضطرون عندئذ الى اضاعة الكثير من الوقت وتحمل المتاعب والنفقات في الذهاب من منازلهم الى المستشفيات الكبيرة البعيدة عنهم

هذا الى ان اكتظاظ المنشآت القائمة الآن بالمرضى لا يسمح بازدياد عددهم هناك عما هو عليهِ الآن . فضلاً عن ارهاق الاطباء بالعمل وما يتبع ذلك من عدم تحقيق الفائدة المطلوبة للجميع ومتى كان الغرض الاقتصار على علاج الرمد فقط وهو ما ترمي اليه مكافحة الرمد فيكفي ان يكون هناك مكان صغير نظيف مكوّن من غرفتين متسعتين احداهما لعيادة المرضى والاخرى للانتظار . وهذا ما يطلق عليهِ اسم مركز لمكافحة الرمد فتقوم هذه المراكز في انشائها وتأثيثها بالاقتصار على ما هو لازم وضروري من حيث المعدات بل ومن حيث المكان والعمال

وكل هذا واضح ومعروف بل ومقبول ومتبع فعلاً في كثير من المنشآت الصغيرة الحكومية وكذلك مسألة تدبير الاطباء والعمال اللازمين للعمل بهذه المراكز . فهي لا تصعب على الادارة العليا لأن نظام العمل المتبع لمكافحة الرمد بسيط لايحتاج الى غير القليل من التمرن لاتقانه . وليست مكافحة الرمد في مهارة العلاج بمقدار ما تتوقف على اتباع نظام خاص معظمه تعليم وارشاد

﴿ تنظيم رعاية عيون الاطفال ﴾ نقول ان كل ما ذكر قبلاً ليس فيهِ شيء خاف على علم القائمين بأمور الصحة العامة في هذه البلاد . فقد درست هذه المسائل . وتكرر بحثها واتبعت فعلاً فليس

فيها شيء جديد سوى تنظيم رعاية عيون الاطفال بطريقة تضمن ان يبدأ بها من وقت ولادتهم وتستمر الى زمن معلوم من سنة الى سنتين الى ثلاث سنوات او اكثر حتى يجوز الطفل هذا الدور الخطر الذي هو في الواقع دور الاصابة بالرمد لكل مصاب تقريباً

﴿المال اللازم لمراكز مكافحة الرمد﴾ واذا روعي ما ذكر قبلاً من ابواب الاقتصاد في النفقات وكانت مراكز مكافحة الرمد متعددة وقريبة من المرضى ففي الامكان تدبير كل المال اللازم لها او معظمه بفرض اجر زهيد على علاج الكبار من المرضى على أن لايزيد هذا المبلغ على قرش صاغ واحد في المتوسط للزيارة الواحدة

ومما سبق لنا من التجارب يمكن ان نعطي مثلاً لمركز صغير . معدله كما يأتي :

عدد المرضى يومياً مائة علاجهم مجاناً و ثلاثون علاجهم بقرش لكل شخص . فيكون الايراد السنوي ٩٠ جنيهاً ينفق منها ١٢ جنيهاً ايجار المكان و١٨ جنيهاً مرتب المساعد و ١٠ جنيهات نفقات مختلفة ويبقى ٥٠ جنيهاً تزيد او تنقص هي مكافأة للطبيب الذي يقوم بالعمل في مدة تستغرق نحو الساعتين يومياً

﴿وصف النظام المتبع﴾ عند ما يحضر المريض يكتب اسمه في دفتر الحضور ويعطى النمرة المسلسلة وتذكرة تخولهُ الحضور للعلاج يومياً

يكتب على هذه التذكرة من الوجه الواحد النمرة والاسم وعمر المريض واسمه والتاريخ وحالة العينين من حيث الرمد ويؤشر عليها يومياً بالتاريخ والعلاج مع ذكر نمرتها في دفتر الحضور اليومي. ويدوَّن على الوجه الآخر تعليمات يطلب من المرضى اتباعها بشأن النظافة والغذاء والصحة العامة . تعطى هذه التذكرة للمريض في اول يوم وثمنها قرش صاغ وتبقى معهُ دائماً وهي تخول حق الدخول للعلاج بدون مقابل للاطفال من وقت ولادتهم لغاية سنتين من العمر ويمكن تجديدها من وقت لآخر واما المرضى الذين يزيد عمرهم عن سنتين وتذكرتهم كالسابقة ما عدا لونها فيؤخذ منهم قرش صاغ عن علاج مرة واحدة او خمسة قروش عن علاج اسبوع او ١٥ قرش عن علاج شهر

في احد المراكز التي تسير فعلاً على هذا النظام زاد عدد المرضى الجدد في مدى السنتين الماضيتين على ٣٥٠٠ مريض

***

والخلاصة ان الفرصة سانحة الآن للقيام بتعميم رعاية عيون الاطفال والتعجيل بانشاء المراكز الرمدية اللازمة لذلك والانتفاع بما هو موجود منها الآن ، ان كانت حكومية او تابعة لهيئات أو افراد تجتمع كلها تحت ادارة هيئة عليا ، حتى تسير جميعها على اكمل نظام الى الغرض المنشود وهو استئصال الرمد من البلاد المصرية

وهذه الهيئة العليا تستمد المساعدة اللازمة من ولاة الامور مع حصولها على معاونة وتعضيد الجمهور الذي هو في الحقيقة العماد الذي يستند عليهِ نجاح هذا العمل

باب المراسلة والمناظرة

إرشاد لغوى

في كل جزء كلمة

للأستاذ عبد الرحيم بن محمود

المُسْتَشْفَى

احتلت فرنسا مصر سنة ١٧٩٨م ثم احتلتها انكلترا سنة ١٨٨٢م احتلالاً سياسيًا ولكنها محتلة من الدول الغربية والشرقية احتلالاً اقتصاديًا ولغويًا فكان من آثار الاحتلال الاجنبي احتلال الالسنة والأقلام في مصر حيناً من الدهر فتسربت ألفاظ من فرنسا التي رحلت عن بلادنا في لغتنا العربية وكذلك ألفاظ انكليزية تتزايد بإقامة الإنكليز بمصر ـ واللاتينيون في وادي النيل قبل الإسلام فمن هـذه الألفاظ الدخيلة في غير حاجة إليها (اسْبِتَاليه) وهي لفظة لاتينية في الأصل (Hospitalia)[1] والحرف الاول صامت فينطق بالكلمة هكذا (أسْبِتَاليا) وقد وضع بعض الأدباء في عصر النهضة الحديثة لفظاً عربيًا فصيحاً عذباً سائغاً للناطقين والكاتبين وهو مستشفي اشتقه من استشفى عند الكوفيين أو من الاستشفاء عند البصريين ـ واستشفى أي طلب الشفاء لأن السين والتاء هنـا للطلب ولا ريب أن من يدخل هذا المكان يطلب الشفاء من الله عز وجل على أيدي الأطباء مداوى بأدويتهم على وفق وصفاتهم

فلله در هذا الاديب اللغوي الذي أحيا لفظاً عربيًا صميماً ليميت لفظاً أجنبيًا غريباً . ولو اشتق المشفى أي مكان الشفاء من الفعل شفى أو من المصدر شفاء لكان هذا المشتق مقبولاً أيضاً وليس كل من يلجه من المرضى يحقق الله شفاءه ولكن كل من يدخل في هذا المكان يطلب الشفاء فالمستشفى أولى بتسمية هذا المكان من تسميته بالمشفى لهذه النظرة التي توجه الى فؤاد الحقيقة اللغوية المنطقية المرادة

وليت الاديب الألمعي الذي تخير الاسم (مستشفى) لهذا المسمى قد جمعه لأن علمه وذوقه يعصمانه من الخطإ في جمعه كما أخطأ فيه المتأدبون في عصرنا هذا فقالوا المستشفيات جمع مستشفى وقد وهموا في جمعه جمع مؤنث سالماً لأن ألفه وهي لام الكلمة ليست للتأنيث إذ أن مستشفى بوزن

---

(١) أسبتاليا اللاتينية (Hospitalia) كان عاماً فخصص فيما أخـذ منه الى اللغات الانكليزية — هسبتل (Hospital) والفرنسية — أوبتال (Hôpital) والايطالية (Ospedale) — أسبدالى — فهذه اللغات الثلاث خصصت المشتق من الاصل اللاتيني بمكان الاستشفاء أي دار المعالجة والاصل اللاتيني يشمل هذا والملهى والفندق والملجأ للاطفال وللعجزة ولتعليم أبناء الفقراء بالمجان كما يشمل دار معالجة الحيوان الى غير أولئك

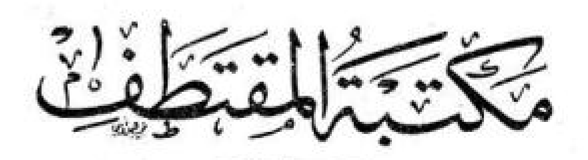
مستفعل لأننا نقول بهذا المستشفى صديقنا أو أخونا أو طبيبنا ولا نقول بهذه المستشفى فلان. فان قيل ما المانع من إرادة بقعة الاستشفاء فيقال هذه مستشفى. قلت إذا صح ذلك فلك أيها المستدرك الواهم ان تقول هذه منزل مريداً بقعة النزول ولا يوافقك على هذه الاشارة إلى المنزل أحد وما نطق بهذا الاسلوب عربيٌّ ولا مستعرب فقد قالوا جميعاً «هذا منزل» كما قال تعالى في كتابهِ الكريم «وقل ربِّ أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين» فقولهُ مباركاً دليل على تذكيره كما لا يخفى على المبتدئين لغة

فالواجب علينا جميعاً أن نجمع المستشفى على المشافي بوزن المفاعل من أوزان صيغة منتهى الجموع فإن قيل كيف تجمع المشفى قلت أجمعه على المشافي أيضاً والصيغة في الجمع لا تستطيع حمل ثلاثة أحرف زيادة على الأصول فيجب حذف حرفين زائدين من المفرد عند الجمع وهما السين والتاء ويجب إيثار الميم بالبقاء لان لها ميزة اكثر من الحرفين المذكورين لأن اسماء المكان من غير الثلاثي تبدأ كلها بالميم. وللمستدرك أن يستدرك على هذا الجمع الذي يتحقق لجمع مفردين مختلفين في بعض المبنى وبعض المعنى «مستشفى ومشفى» لما قدمنا فأقول ما قاله علماء الصرف واللغة إنه لا يعول على هذا اللبس إن كان. وللكلام قرائن تفهم من السياق فإذا قلت زار كبير الاطباء في مصر المشافي فهمنا أنهُ زار مستشفى العينيّ ومستشفى الملك ومستشفى دمنهور ومستشفى الاسكندرية إلى غير أولئك لأن المفرد المتداول الذي يعرفه الناس هو المستشفى لا المشفى. ورب قائل يقول ما المانع من جمعه جمع مؤنث سالماً بمقتضى القاعدة إن كل خماسي لم يسمع له جمع تكسير يجمع جمع مؤنث سالماً كما قالوا حمامات واصطبلات في جمع حمام واصطبل فالجواب ان مستشفى ليس بخماسيّ بل هو سداسي وإن عاملت ما زاد على الخمسة معاملته في الجمع فليكن ذلك في غير ما أشبه هذا. ولا يخفى عليك أن جمعهم المستوصف (أي مكان طلب الوصف) على مستوصفات خطأ أيضاً لما قدمنا والصواب جمعه على مواصف[1] وصواب مهجور خير من خطأ مشهور

هذا — وإني لشاكر للاستاذ البحاثة (أديب عباسي) لكلمته التي أسداها إلى قراء المقتطف وأبناء العرب والمستعربين جميعاً بمقتطف الشهر الفائت حيال (قَدَمِيَّة) التي يستعملها عامة العرب والمستعربين من أبناء سورية اليوم — ولست بمستحق منهُ ثناء عليّ بما في إرشادي اللغوي بالمقتطف فإنه هو الجدير بالثناء والشكر وأجدر بهما منا من يذيع الكلمات العربية استعمالاً بدلاً من الكلمات الدخيلة — وعندي ان الرجوع إلى اللفظ العامي إن كان عربيًّا أو محتاجاً الى تهذيب إن كان قريباً من اللفظ العربي الصميم خيرٌ من عرض ألفاظ عربية مهجورة تغني عنها الالفاظ العامية المهذبة أو التي لاتحتاج الى تهذيب إن طابقت ما نطق بهِ العرب مثل قَدَمِيَّة بدلاً من (فزت) الانكليزية أو (فيزيت) الفرنسية وعلى هذا النحو ننحو جميعاً. وان في كلمتي الموجزة إرشاداً للمجامع اللغوية العربية.

---

(١) مستشزرات في قول امرىء القيس «غدائره مستشزرات الى العلا» جمع مستشزرة لا مستشزر بدليل (غدائره) جمع غديرة كضفيرة وزناً ومعنى وما ختم بالتاء مقيس جمعه جمع مؤنث سالماً. ومعنى مستشزرات مفتولات او مرتفعات جمع مفتولة او مرتفعة كما في الشروح وللاغي. والضمير في غدائره يعود على شعر صاحبته الموصوفة



معضلة السرطان

تأليف الدكتور باينبردج — ترجمة الدكتور يوسف حتي — والاستاذ شاكر نصار — المطبعة الاميركية ببيروت صفحاته ٢٢٦ قطع المقتطف بنط ٢٠ — ثمنه ليرا سورية او نحو ٢٥ قرشاً مصرياً

« السرطان مرض عضال وشفاؤهُ مشكلة من المشاكل التي تهمُّ الجنس البشريّ باسرهِ. وقد بذل الاقدمون جهوداً جبّارة محاولين حلّ المشكلة فتمكنوا تدريجاً من درس الامراض التي كانوا يظنونها من اصلٍ خبيث ، والتي تقع تحت اسم السرطان عامة فقسموها الى انواع ثم وجّهوا اهتمامهم الى حلّ كل نوع منها على حدة . . . . ان امرأة من كل سبع نساءٍ ورجلاً من كل احد عشر رجلاً فوق الخامسة والثلاثين سنًّا يصابان في وقت ما من حياتهما بمرض من هذه الامراض الخبيثة . . . »

هاتان العبارتان المنتزعتان من الصفحة الاولى في مقدمة المؤلف تجملان للقارىء معضلة السرطان ومداها . اما البيان الواضح ففصول الكتاب كفيلة بهِ. ولعلّهُ افضل ما كتب باللغات الفرنجية في بابهِ من حيث جمعهُ بين الاحاطة والايجاز الذي لا يخلّ ، من تاريخ المرض في العصور القديمة الى احدث الآراء في تعليلهِ وعلاجهِ ومدى انتشارهِ في انواع النبات والحيوان علاوة على الناس . فالاجمال المنسّق وهو الصفة البارزة في هذا الكتاب ، حمل العلماء في مختلف الامم على ترجمتهِ وطبعهِ مراراً . وقد ترجم حتى الآن الى الفرنسية والاسبانية والايطالية والبولونية وغيرها من اللغات الحية

فنحن نوجه الشكر الى الدكتور يوسف حتي والاستاذ شاكر نصّار ، ونهنئهما باخراج الترجمة على اوفى ما يكون طبعاً وحسن بيان

في الامكان قسمة الكتاب الى جزئين . اما الاول فيشتمل على بحث تاريخي في اقوال المتقدمين في السرطان من اقدم العصور الى عهدنا هذا .فقد « ذكرهُ الاقدمون في كتاباتهم الطبية التي يرجع تاريخها الى الفي سنةٍ على الاقل وقد اشاروا اليهِ بطريقةٍ صريحة لا تترك مجالاً للشك ، بالرغم مما كانوا يستعملونهُ للدلالة عليهِ من الاسماء المختلفة المتنوعة المشوشة » . وقد جاء ذكره في المعاجم العربية المطولة كما يلي : « والسرطان ورمٌ سوداويٌ يبتدىء مثل اللوزة واصغر فاذا كبر ظهر عليهِ عروق حمرٌ وخضر متشعّبة شبيهة بارجل السرطان ويقال انهُ لا مطمع في برئهِ وانما يعالج لئلاّ يزداد على ما هو عليه» . وقد قسم البحث في تاريخ السرطان الى تاريخهِ في العصور القديمة ففي العصور الوسطى ففي عصر النهضة العلمية الحديثة ففي القرن العشرين

ويلي ذلك فصل في حدوث الاورام في النبات والحيوان وهو بحث طريف يدخل في باب العلوم

العامّة وتلذُّ مطالعتهُ للطبيب وغير الطبيب على السواء ، فيعلمان ان الاورام المختلفة التي تصيب المملكة النباتية هي لا شكّ مشابهة من عدة وجوه للاورام الخبيثة وغير الخبيثة في المملكة الحيوانية . وان سرطان الثدي كثير في الفارة الولود لان ثديها معرض للاحتكاك مدة طويلة لارضاعها عدداً كبيراً من الصغار . وان الكلاب اكثر الحيوانات الداجنة تعرضاً للسرطان . وان الهررة تقرب كثيراً من الكلاب في الاستعداد للاصابة بالاورام السرطانية . وان الخنازير والغنم والماعز اقل استعداداً للاصابة بها من الحيوانات الزراعية اللبونة . وغير ذلك من الحقائق الطريفة

اما القسم الثاني من الكتاب فيتناول السرطان في الانسان . وفي اول هذا الباب يجمل المؤلف الصعاب التي يصادفها العلماء في تحديد السرطان فيقول : « ان صعوبة وصف السرطان من الوجهة الهستولوجية مستقلاً عن باقي الاورام لا تقلُّ عن صعوبة تحديده من الوجهة السريرية . ولا يخفى ايضاً ان الاورام والانتفاخات ليست كلها من النوع الخبيث ، فقد يكون السرطان في بعض الاحيان خالياً من الورم بل بالعكس قد يكون هناك نقص في الانسجة ... كالسرطان اليابس في الثدى . فمن هذا تتضح لنا صعوبة تحديد السرطان والاورام على العموم لا سيما والاسباب الحقيقية لظهور هذه الاورام لا تزال مجهولة والفوارق بين الاورام الخبيثة والسليمة غير مميزة ولا معروفة »

ومن هنا يمضي المؤلف في بيان اساليب درس السرطان المختلفة وانواع الاورام من الوجهة العلمية . ففي الفصل الخامس يقيم الدليل على ان نجاح البحاث في نقل السرطان ليس برهاناً على ان الداء معدٍ ، وان توليد السرطان بالتطعيم يسوغ مداواتهُ بالجراحة

ويلي ذلك فصل في سير المرض وتشخيصه والوقاية منهُ وعلاجهُ بادوية وصفها بقوله « ما يسمونهُ ادوية السرطان الشافية ! » ورأيهُ فيها ان الاتكال على طرق المعالجة بغير الجراحة يضر غالباً لانهُ يضيع الوقت ...... وقولهُ « لا نرى افعل من الجراحة في معالجة السرطان — بحسب معلوماتنا الحاضرة — فانها الى الآن الوسيلة التي يجب ان نعلق عليها الآمال »

وهو كذلك غير قوي الثقة بفائدة العلاج بالاشعة فيقول في الصفحة ١٤٢ « ان استعمال النور يخفف الالم ولا تأثير لهُ البتة في شفاء السرطان . اما اشعة رونتجن فنها بعض النفع اذ تبعث في المريض روح الامل لان مفعولها في تلطيف الالم يدوم مدة طويلة من الزمن وفي بعض الاحيان تذيب النتوءات السرطانية الجلدية السطحية ويتوقف نمو البعض منها وغالباً تذيب الاورام الراجعة بعد العمليات الجراحية غير ان فائدتها كثيراً ما تكون عقيمة في الاورام الداخلية .... الخ »

وعندهُ ان المعالجة البيولوجية اي بالمصل والتطعيم وخلاصات الغدد لن تحقق الآمال قبل ان يتوفق العلماء الى معرفة حقيقة الخلية السرطانية من الناحية البيولوجية وعلاقتها بالمصاب الذي تفتك به

والكتاب مختتم بفصل يحتوي على احصاءات السرطان في مختلف بلدان العالم وفيه نبذة خاصة

بسوريا ولبنان وضعها الدكتور فيليب اشقر . ومسك الختام فصل في تهذيب السكان وتدريبهم على مقاومة السرطان آيتهُ ان نزع الخلايا السرطانية نزعاً جراحياً باكراً يكفل الشفاء التام

وحبذا الحال لو اضاف المترجمان الى جهدهما الكبير الموفق في نقل الكتاب جهداً يسيراً آخر في وضع جدول بالالفاظ العلمية التي استعملاها في الترجمة وما يقابلها في الاصل الانكليزي ، وكذلك رسم اسماء العلماء في هوامش الصفحات بالحروف الفرنجية لان الحروف العربية لا تساعد على ضبط الاسم عند التلفظ بهِ ولا تهدي المنقب الى صاحب الاسم عند ما يحاول البحث عنهُ في المعجمات والموسوعات الفرنجية

جبران خليل جبران

حياته — موته — أدبه — فنّه

بقلم ميخائيل نعيمه ـ ٣٠٧ صحيفة من الحجم الكبير ـ مطبوع طبعاً متقناً بغلاف جيل بمطبعة لسان الحال ببيروت

كتبُ التراجم عندنا ليست الاّ سجلّ حوادث في أسلوب خبري جاف لا تستطيع أن تستشف من ورائهِ صورة المترجم له الاّ اذا أردت ان تزيل الغبار وترسم الصورة بيدك من جديد . وطالما تمنيت ان أرى في العربية ترجمة كتراجم لدوج مثلاً حتى وجدت خطوة جريئة من الاستاذ ميخائيل نعيمه في كتابهِ (جبران خليل جبران) وهي خطوة موفقة كل التوفيق دون مغالاة ، فلقد استطاع في لباقة ومهارة أن يعرض لقارئهِ حياة الشاعر الفنان جبران كما تعرض أفلام السينما قصة تاريخية متعمقة الى أبعد دقائقها ، ولقد يكون في أبسط هذه الدقائق ما يزيح ستاراً كثيفاً عن سرّ عميق

وقد استطاع الاستاذ ميخائيل نعيمه — وأسلوبه معروف لأدباء العربية كما أشرت الى ذلك من عامين عند الكتابة عن كتابه (المراحل) — أن يمزج روحه بروح جبران وأسلوبه بأسلوبه فتحس في كتابه بوحدة تامة لا تدري أمامها إن كنت تقرأ جبران أم تقرأ ميخائيل

واستطاع الى جانب ذلك أن يجعل من حياة صديقه رواية مسرحية تامة مرتبطة الفصول والمناظر لا تفقد حبكتها ودقتها . ومن كلمته (اعتذار) التي قدّم بها الكتاب نفهم الدقة التي أخذ بها المؤلف نفسه إذ يقول : « وعندي ان كل ما يرويه الناس عن الناس باسم التاريخ ليس الاّ رغوة متطايرة فوق بحر الحياة الانسانية . أما اعماق الانسان وآفاقه فأبعد وأوسع من ان يتناولها قلم أو يستوعبها بيان . فنحن حتى اليوم لم نكتب تاريخ انسان ولا تاريخ شيء على الاطلاق . ولو أننا كتبنا تاريخ انسان واحد لقرأنا فيهِ تاريخ كل الناس ، ولو أننا دوّنا تاريخ شيء واحد لطالعنا فيهِ تاريخ كل شيء . ثم ان في حياة كل انسان اسراراً يكتمها عن الناس ، وأنا قد وقفت على البعض من أسرار جبران وفاتني منها الكثير . فهل يليق بي أن أبوح ولو ببعض البعض الذي أعرفه ؟ وان أنا كتمته فما معنى الذي أكتبهُ ؟ أأخون نفسي والقارىء وجبران بكتمان ما ليس مكتوماً في سجل

الحياة الكبرى — وان يكن مستوراً عن أعين الناس — فأصوّر صورة لا وزن بين ظلالها وانوارها ، لأرضي بعض من لا ذوق لهم في الفن ولا رأي لهم في الحياة ، وأجور على ذوقي وأدفن رأيي في التراب ؟ »

والواقع ان في حياة جبران مجموعة من الاسرار كانت في حاجة الى من يزيح عنها الستار او يفتح مغاليقها ، ولا يستطيع ذلك الاّ رجل عرف جبران حق المعرفة من كل نواحيه ، له بصيرة قوية تصل الى أعماق هذه النفس التي انطمست في روحانيتها وتلاشت في صوفيتها فتنتشل منها بعض الذكريات القديمة التي تمهد السبيل لمعرفة تطور هذه النفس الانسانية ، وببصيرة قوية نقادة يعطي المؤلف الصورة الصادقة عن جبران — ما لهُ وما عليهِ — لا يخفي من أمره شيئاً فهو يحدثنا عن جبران قائلاً : « كان لا يتوصل الى معرفة رجل او امرأة أو عائلة على أسمائهم شيء من اللمعان الادبي أو الفني أو المادي أو السياسي أو الاجتماعي الاّ اخبرني عن ذلك بلسان من لا يكترث لمثل ذلك اللمعان . ولكن بقلب من يكبر في عين نفسه اذا ما تقرب من الذين يراهم العالم كباراً . وكأنهُ كان يخشى من ان أعيب عليه التناقض بين نفوره من تقاليد الناس ومفاخرته بها فكان يطرح على كل علاقاته ستاراً من السرّ وجلباباً من الفن والادب . كأن يقول لي مثلاً : « البارحة كنت مدعواً الى الشاي عند مسز كورين روبنسن » ثم يضيف بفخر ظاهر : « هي أخت ثيودور روزفلت » ويعقب ذلك بقوله : « وهي شاعرة تعجبك يا ميشا » . أو ان يخبرني عن سهرة عند مستر فلان « وهو مدير البنك الفلاني ، ولهُ ذوق في التصوير جميل » . أو عن زيارة لبيت فلان « وهو من أخص اصدقاء رئيس الجمهورية وهو وزوجته من أقدم العائلات الاميركية وأوفرها ثروة وثقافة » ... هكذا كان جبران يصفع الناس بيد ويصافحهم بالاخرى ، يثور عليهم عند ما يثوب الى روحه المتألم من كل شناعة وقساوة وظلم ، ويسالمهم عند ما تثور عليهِ نفسه الطماحة الى المجد والعظمة والمتوجعة من قبضة الفاقة الماسكة بخناقها ، يحفر لها قبوراً في الليل ، وفي النهار ، عند ما تلحدهم الاقدار في قبور غير التي حفرها لهم يهتف بقلب دامع : « مات اهلي وأنا قيد الحياة أندب أهلي في وحدتي وانفرادي »

***

بدأ المؤلف كتابه بصورتين تتلاطم على شاطئها حياة جبران بل حياة كل الناس ، تبدأ أولاها حيث تنتهي الثانية ، فالصورة الاولى هي غرغرة الموت في مستشفى القديس فنسنت في الساعة الاخيرة من حياة جبران حيث شهد المؤلف افول حياة صديقه ، والصورة الثانية هي وعوعة الطفل جبران عند ولادته في بشرى . ثم يبدأ المؤلف في استعراض جميل لحياة بطله وحياة عائلته حتى رحيلها الى بوسطن ، ثم يرسم الصورة الجميلة لجبران الحالم الذي يريد بناء المجد وان يسمع العالم اسمه ، ومن ثم يرسم الاستاذ ميخائيل الصور المتعددة فهنا غرام جبران الاول ، وهنا شقاء عائلته ووفاة اخته

واخيه وأمه وسخطه وبرمه وحيرته واهتداؤه الى ماري هاسكل التي قادته الى طريق العظمة بعطفها وحنانها مستعرضاً في خلال ذلك غراماً قوياً آخر هو غرام جبران بميشلين الفرنسية ثم حياة جبران في فرنسا وأثر الشاعر الفنان وليم بليك في حياته ثم اندفاع جبران في محيط المدينة العظيمة بنيويورك . وقد طالع قرّاء المقتطف في عدد ماضٍ تحت عنوان « تمخضت الفأرة فولدت جبلاً » تلك الصورة الرائعة التي مهّد بها الاستاذ ميخائيل نعيمه للكلام عن مغامرة جبران في ذلك المحيط وفي هذه الصورة رسم دقيق للمدينة الاميركية . وقد لاحظت ان للمؤلف قدرة على رسم حياة المدن رسماً دقيقاً فقد أعطانا صورة بارعة عن مدينة بوسطن واحياء المهاجرين فيها

ثم ينتحي المؤلف ناحية اخرى حيث يحلل بعض آثار جبران الادبية والفنية، ولعل اهمها تحليله للنبيّ من كتبه الانكليزية وللمواكب وصورها من مؤلفاتهِ العربية . ثم يتناول صلة المؤلف بهِ ، وانشاء الرابطة القلمية الى غير ذلك في اسلوب روائي فلسفي أخّاذ يكفي انهُ اسلوب ميخائيل نعيمة

ولعلّ هذه الخطوة الجريئة الموفقة من الاستاذ ميخائيل تحفز غيره من الكتاب الى ان يخطوا كما خطا فتتغير أساليب التاريخ والتراجم ، وتعيش بين اذهاننا حياة عظمائنا وفنانينا وادبائنا حياة خالدة في إطارٍ ساحر جميل

القاهرة حسن كامل الصيرفي

اغلاط اللغويين الاقدمين

للأب أنستاس الكرملي

يطالعنا العالم الباحث الأب « أنستانس ماري الكرملي » — في كرّ الاحيان — بما يمليه بحثه على قلمه ، وكان آخر ما حظيت بهِ العيون من ذي قلمه ، كتاب « اغلاط اللغويين الاقدمين » فقد قام شاهداً جديداً على ما يملكه الاب « انستاس » من غزارة في البحث ، وقدارة على النظر وفيض من التفكير البعيد

والأب أنستاس عالم اختارته اللغة التي كادت تضيع من لسان الزمن ضيعة الراء من لسان الالثغ، فصحب اللغويين في كتبهم خمسين سنة او تزيد ، حتى خبرها وسبرها ، وفتح من ابوابها ما عييت بهِ مفاتيح كثير من الباحثين ، وضم العربية الى اسرة اللغات لتعرف امها وبنتها وقرابتها فيها ، فكان من خير من نهض الى لغة الضاد فنهض بها

ولقد جاء كتاب « اغلاط اللغويين الاقدمين » عيناً نافذة لاحظة ، يحس القارىء من نظراتها الروح اللغوية القوية في صاحبها ، كما يحس من الزئير اسداً ، او من اللجّة بحراً

واذا كان الاب انستاس قد ابتغى في كتابهِ بغية التحرير والكشف لما رآه مظلماً في كتب اللغة ، وما يتصل بها من ادب وتاريخ ، كي ينهض عليها صبحاً تقاعد فلقه ، فان ذلك يقدمنا لمساجلة العالم الباحث في بعض نقده ، عسى ان نجلو ما يأخذه من غيم رقيق

فأول ما يفجأ القارىء عنوانٌ شديد اللهجة ، وحسبك ان تقرأ «اغلاط اللغويين الاقدمين» لتمتلىء نفسك بالسخط والمغضبة ، وتهز اغلة البرم بالمعاجم اللغوية ، وقد كان جديراً بالمؤلف ان يبدل من «الغلط» لفظاً اخف على السمع ، وأبعد للقلق ، وأجمل بذكرى علماء اللغة ، وشهداء تحقيقها

على ان الأب انستاس لم يجعل كتابه كله تغليطاً ، فانك لاتجده مغلطاً في مواضع مما يجعله الكتّاب في عدد الاغلاط ، مرقوماً برقمها (انظر ٧ ص ١٠١ ، ٤٨ ص ١٧٣ و ٤٩ ص ١٧٤ ... الخ)

وفي العنوان لفظ «الاقدمين» ، وهو معدود في دلالته الاشتقاقية من صيغ التفضيل ، مع ان الكتاب قد غلب عليهِ المتأخرون من اللغويين ، واحتلوا اكثر صحائفه .. افلم يكن هناك لفظ خير من هذا ؟؟

ولنترك هذا ، لنذكر ما يفجأ القارىء في نظام الكتاب ، واسلوب البحث فيهِ ، فانهُ لا يرى فيهِ ترتيباً بين الكلمات المنتقدة (انظر مثلاً لهذا ص ٨٤ — حيث يقول «والآن نعود الى اتمام مقالتنا» ونجد هذه المقالة قد انقطعت ص ٩ !) فيلاحظ القارىء هذه الثلم الكبيرة التي يثلمها المؤلف بين موضوعات كتابه، وحسبنا ان يعترف الاب انستاس نفسه بهذا في قوله (ص٦): اننا لا نتبع نظاماً سويًّا

ولن ننسى ان نذكر هذه الثلمات التي قطعت نظام البحث في الكتاب ، وفرقت اجزاءه ، فانها قد خرجت — كثيراً — من باب النقد والرد لتدخل باباً آخر !

ولنعرض الآن — بعض العرض — لموضوعات الاغلاط بشيء من النظر :

١ — يقول الاب انستاس (ص٨٤): جاء في لسان العرب «تتوا الفسيلة: ذؤابتاها ، ومنهُ قول الغلام الناشد للعنز : وكأن زغمها تتوا فسيلة ، والله اعلم» والظاهر ان ابن مكرم لم يفهم ما كتب ، وجاء في تاج العروس «تتوا القلنسوة ، هكذا في النسخ ، وقد اهمله الجوهري ، والصواب تتوا الفسيلة : ذؤابتاها ، ومنهُ قول الغلام ...» قلنا والصواب : تتوا القَلَنْسية او القلنسوة او القليسة او القليسية ، اما سبب هذا التصويب فهو ان ليس تتوان للفسيلة ، وهي — ان صحت الرواية — النخلة الصغيرة، انما التتوان تثنية تتو والتتو ذؤابة القلنسوة، وهي ما انحدر منها سائلاً على الكتفين: والظهر، فهم يجعلون ذؤابتين للعمامة او للقلنسوة في اغلب الاحيان . . . الخ ونحن نقول للمؤلف: انك جعلت للقلنسوة — كالعمامة — ذؤابتين ، ولم تذكر لذلك شاهداً فأين هو ؟

وقد خطأ المؤلف لسان العرب وتاج العروس ومن نحا نحوهما في قولهم «تتوا الفسيلة» بحجة واحدة — اذا صحت تسميتها حجة — وهي ان ليس تتوان للنخلة ، لان ، التتو الذؤابة ، وليس في النخل ذوائب .. ونحن نقول له : لماذا لا يكون للنخلة ذؤابة ، او ليست ذؤابة كل شيء اعلاه ؟ اوليس الشعراء قد شبهوا ذوائب المرأة بذوائب النخل في مثل قول امرىء القيس :

وفرعٍ يزين المتن اسود فاحم ... اثيث كقنو النخلة المتعثكل
غدائرهُ مستشزرات الى العلا ... تضل العقاص في مثنى ومرسل

على ان هناك تصريحاً يجعل الذوائب للنخل، في قول ابن منظور (ص ٣٦٦ ج ١) وصاحب التاج (ص ٢٤٩ ج ١) : واستعار بعض الشعراء الذوائب للنخل ، فقال :

جم الذوائب تنمى وهي آوية ولا يخاف على حافاتها السرَق

ويقول ابو نواس :

لنا خمر وليس بخمر خل ولكن من نتاج الباسقات
بدا بين الذوائب في ذراها نبات كالأكف الطالعات

ويقول الاب انستاس في تلك الكلمة ايضاً «والذي عندنا (كذا) ان اعتذق لغة في اعتذب ، اي لغة من يعتقب في كلامهِ القاف والباء»

ونحن نلاحظ ان هـذا الذي « عند » المؤلف مذكور بنصه في التاج (ج ٧ ص ٦ س ١٥) على أننا نحب ان ندل على أن كلمة « الناشد للعنز » قد ذكرها كلها أبو علي القالي في أماليه (ج ١ ص ٣٤ و ٣٦) لجاء فيها « تنوا القلنسية » وكنا نود لو يذكرها المؤلف

٢ — ويقول الاب أنستاس (ص ١٠٠) : قال ابن الاثير « والذباب جنس من الفأر لا يسمع لعلها (أي لعلَّ الضبع) تأكلهُ كما تأكل الجراد» وهكذا نقل هذه العبارة أصحاب المعاجم كالتاج واللسان وكل من أخذ عنهما فقد ذكر جميعهم «الجراد» وزن سحاب والمشهور أن الضبع لا تأكل الجراد انما تأكل «الجرذ» الذي يشبه الفأر في خلقه . الاّ انهُ أعظم منهُ ، اذن قولهم « جراد » هو في غير موطنه

ونحن نقول : قد ذكر صاحب التاج هـذه الكلمة صحيحة فقال (ج ١ ص ٢٨٥ س ٢٣) . والذباب جنس من الفار لا تسمع ، لعلها (أي الضبع) تأكله كما تأكل الجرذ (كذا) . فلا عيب ...!

٣ — ويقول الاب انستاس (ص ١٣٣) : قال في تاج العروس « قال الاصمعي : التفة دويبة كجرو الكلب ، قال : وقد رأيتها ، أو كالفأرة ، وهذا نقلهُ ابن دريد وقد أنكره الاصمعي » قلنا : والذي نراه ان الفارة أو الفار هنا يجب ان تقرأ بالقاف ، أي القار أو القارة ، والقارة الدبة ، والذي يرى هذا الحيوان يظنه دبة صغيرة ، فابن دريد صادق في كلامه ، فالتفة كالقارة ، والظاهر انهذا التصحيف قديم حتى أنكر هـذا المعنى الاصمعي ، فالملوم هنا ابن دريد لأنهُ تشبيهاً للتفة وهو اسم غير مألوف ؛ ولو قال « كالدبة » لما صحف من ابعد الازمان في القوم ، ولما قام عليهِ الاصمعي

ونحن نقول : لم يكن ابن دريد بعيد الزمن عن اللغويين بعداً يجعلهم يخطئون فيصحفون كلمته « من ابعد الازمان » . . . وعجيب ان يظن المؤلف أن كلمة ابن دريد قد صحفت على الاصمعي حتى « قام على ابن دريد » فان الاصمعي قد مات قبل ان يولد ابن دريد ، وابن دريد يروي عن تلاميذه ، فهل قام عليه من القبر ؟!

ونودع الآن الاب أنستاس الكرملي شاكرين له جهده النافع في تحصين اللغة العربية وتخريجها في تحرير وتحقيق

رفعت فتح الله

على عتبة الامومة

تأليف الدكتور مصطفى الخالدي — استاذ فن التوليد والامراض النسائية — في جامعة بيروت الاميركية

صفحاته ٢٠٥ — طبع بمطبعة طباره ببيروت — ثمنه ٥٠ قرشاً سورياً

هذا كتاب مفيد . فهو في الناحية العلمية ، يشرح التناسل في النبات والحيوان على اختلاف مراتبهما من الرقي ، ثم يصف تركيب الاعضاء التناسلية في المرأة ، ويوضح كلَّ ذلك بصور ورسوم كثيرة . ويلحق بهذا الجانب من الكتاب فصل في الحمل والتغيُّرات التي تطرأُ على الحامل في اثنائهِ ، والاشتراكات او الاختلاطات التي تصاب بها الحامل مثل الغثيان والتقيوء وتورُّم الاطراف وما الى ذلك

ويلي ذلك فصول تحتوي على فروع الناحية العملية من الموضوع مثل العناية بالوليد والعناية بالحامل والعناية بالنفساء وقد لخصنا في باب مملكة المرأة فصل العناية بالحامل ومنهُ يتبين القارىء اسلوب الكتاب

وقد وقف الجانب الاكبر من الفصل العاشر على بيان « من هم اهل للزواج » ، وهو بيان له شأن اجتماعي عظيم يجب ان يقرأه كل والد وكل والدة ، وكل شاب وكل شابة ، لان الاقدام على الزواج قبل التثبت من خلوّ الجسم من بعض الآفات ، يجرُّ في ذيوله فواجع على نحو ما بيَّنا غير مرة في المقتطف . فعلاوة على الامراض الزهرية ، هناك علل كثيرة يجب التأكد من شفائها اذا كانت من الادواء التي تخضع للمعالجة ، او من انتفائها اذا كانت من الامراض الوراثية قبل الاقدام على الزواج.

ومن اغرب الادواء الوراثية داء الهموفيليا او النزف الوراثي . وقد وصفهُ المؤلف بقوله :

« هو داءٌ غريب يلازمهُ نزف متكرر لا نستطيع التحكم بهِ في اكثر الاحيان الاَّ بصعوبة شديدة قد تكون عديمة الفائدة . يحدث لدى اقل جرح او صدمة او صفعة . ومن غرائبهِ انهُ وراثي يصيب الذكور دون الاناث في معظم الاحيان ولكنهُ لا ينتقل الاَّ بواسطة الاناث ..... فالذكور المصابون بهذا الداء لا مانع من زواجهم البتة لانهُ لا يحتمل ان ينقلوه الى اولادهم (مع انهُ من المحتمل ان يموتوا بهِ كما حدث لاحد ابناء ملك اسبانيا من عهد قريب وامرأتهُ مصابة بهذا الداء) اما الاناث اللواتي هذا الداء وراثي في عيالهنَّ فيجب ان لا يتزوجنَ لانهُ من المحتمل ان ينقلنهُ الى الذكور من اولادهنَّ واذا تزوجنَ فالافضل ان لا يلدنَ »

***

وفي آخر الكتاب لحق خاص بالاطفال لتدوين كل ما يتعلق بهم من تواريخ الولادة وقياسات الوليد وعلاماتهِ الفارقة ، وما قد يذكر عن ولادتهِ في الصحف والتهاني التي توجه الى والديه الخ

ايام بغداد

وصف شامل لنهضة العراق الحديثة ولمعالمه التاريخية

وضع هذا الكتاب حضرة الاستاذ امين سعيد بعد ما زار العراق وتنقل في عاصمته ومدنه التاريخية المشهورة مثل النجف وكربلا والموصل وسامرا فاسهب في وصف النهضة العلمية والعسكرية والعربية واختلط بعظماء العراق وقادته وشاهد قصور الملوك فوصف سماط الملك غازي وموكبه وبلاطه ووصف جلالة الملك علي وشباب العراق والوحدة العربية وزار المساجد الأثرية ووصف مشاهدها كمشهد الامام علي في النجف ومسجد الحسين في كربلا. ومسجد الكاظم وصاحب الزمان وعني بوصف الحالة الاقتصادية في العراق ومنابع النفط وآباره في كركوك. وكانت مسألة الاشوريين في ابانها فزار منازلهم ووصف حياتهم وما هم عليه. وافاض في وصف انتشار الصحافة العراقية ومزاحمة الصحف العربية والسورية لها. ونسبة توزيع الصحف في العراق ووصف النفوذ البريطاني والمطارات البريطانية في العراق والاقليات في العراق كل ذلك باسلوب عربي فصيح اشتهر به الاستاذ امين سعيد في كتبه ومقالاته يجعل القارىء يشعر كانه مع الكاتب يشاهد آثار العراق ومجتمعاته وانديته ولزيادة الفائدة نشر في كتابه صوراً كثيرة جلية واضحة تزيد القارىء شوقاً الى مشاهدة ذلك القطر العربي الناهض والانس باهله وعشيرته

والواقع ان الاستاذ امين يمتاز على كثير من الكتّاب بقلمه السيال وقريحته الوقادة وذهنه الحاضر وسعة معلوماته ولذلك نرى له في كل ميدان من ميادين الكتابة فضلاً وأثراً وقد احسن صنعاً بدخوله ميدان التأليف فغذى المكتبة العربية بكتبه التاريخية النفيسة مثل كتاب « ملوك المسلمين المعاصرون » وكتاب « تاريخ الثورة العربية الكبرى » وها هو ذا يطبع كتاباً جديداً في تاريخ الاسلام السياسي

***

وايام بغداد هذا يقع في ٢٤٥ صفحة بالقطع المتوسط وهو مطبوع طبعاً متقناً في مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه ويطلب من مكتبتها بجوار سيدنا الحسين بمصر فنوجّه اليه الانظار. فسيجد فيه القرّاء معلومات نفيسة عن مملكة العراق الفتية لا يتيسر له العثور عليها في غيره فضلاً عما فيه من لذة يشعر بها قرّاء كتب الرحلات لان القارىء ينتقل من قطر الى قطر وهو في مجلسه ببراعة الكاتب ولا سيما اذا رزق قلماً مثل قلم الاستاذ امين سعيد فنهنىء حضرتهُ بتفوقه بعد ما هنأه جمهور من كرام الكتّاب والادباء والامراء

محيي الدين رضا

باب الأخبار العلمية

متفرقات علمية

[اختارها ونقلها : عوض جندي]

اسلحة الحرب القادمة

أعلن عالم فرنسي أن اسطوانات الفونوغراف يتاح استعمالها لطبع الحركات الميكانيكية عليها كما يُطبعُ الصوت سواء بسواء ، فيكاد يتحقق بهذه الوسيلة ، الحلم الذي حلمهُ العلماء بأنهُ سيأتي يوم يستطيعون فيهِ تطيير الطائرات وتسيير الدبابات بقوة لاسلكية تسيطر عليها من بعيد

وقد عرضت هذه الطريقة امام الجمهور في باريس من عهد قريب فجيءَ بدبَّابة كهربائية وأُطلقت في ميدان التجربة ، فكانت تغير طريقها وتتقهقر ، فتعكس اتجاهها ثم تقف في مكانها وقوفاً تامًّا دون أن تمسها أية يدٍ بشرية . فتبيَّن ان اسطوانات الفونوغراف التي توسلوا بها الى اتمام التجربة يمكن بوساطتها تسيير الطوربيد الى ميناء منيع لكي يدمّر احدى مدرعات الاعداء ، وتسيير دبابة ايضاً الى مكامن مدافعهم الرشاشة فتطلق عليها النيران ثم تعود الى خنادقها الخاصة

ومن الميسور حينئذٍ احصاء تنقلات الطوربيد او الدبابة احصاءً مضبوطاً قبيل الهجوم وذلك بجهاز مسجل ذي ذراع يدور فيولد نبضات كهربائية تطابق توقيت الحركات الحربية المعقدة المبتغاة حيث يقوم جهاز كهربائي ملتقط بتحويل هاتيك النبضات الى طاقة ميكانيكية على حين تطبع ابرة الملتقط النبضات على الاسطوانة ويودع في جوف الدبابة آلة ناسخة (مؤلفة من محرك كهربائي وصوانٍ دوارة لكل منها ملتقط كهربائي) ولأبر الملتقط عقارب ذات زنبركات تتبعها في خطوطها المرسومة بالاسطوانة . وتستعمل لتلك الغاية اربع اسطوانات . احداها لتحريك الدبابة ووقفها . والثانية لقيادتها . والثالثة للتحكم في سرعتها . والرابعة لتسديد نيران المدفع الرشاش واطلاقها . وتقوم الاجهزة الكهربائية الملتقطة بملاحظة الاوامر المرسومة على الاسطوانات فتحولها الى طاقة كهربائية ثم تبعث بها الى المفخمات والاجهزة المتممة للدورة الكهربائية فيتقوى التيار الكهربائي جدًّا ، على ذلك النمط ، فيتيسر نقلهُ بالاسلاك الى مغناطيسات كهربائية تدير الفرملة وزمام البنزين وتروس الادارة في الدبابة ثم تطلق مدفعها الرشاش . وبهذه الوسيلة يتسنى للطائرات الخالية من الطيارين ، اذا جهزت بامثال ذلك الجهاز ، الطيران مُقلة البريد بين شاطئيْ المحيط الاطلنطي في بضع ساعات . ويركب فيها جهاز موازنة اوتوماتيكي ليقوم بموازنتها فتطير في طريق مستقيم باقصى

سرعتها ثم تتمكن من الهبوط الى الارض بوساطة مظلة واقية وذلك عند بلوغ الغاية السابق تحديدها اذ يقف محركها وتنفتح مظلتها الواقية فتهبط الطائرة الى الارض سليمة عند نهاية رحلتها

سيارة تصغي للصوت البشري

والشيء بالشيء يذكر فقد عرضت في مدينة نيويورك حديثاً سيارة لا سائق لها . وانما يقودها سائق كهربائي ، وفقاً للصوت البشري كما لو كان سائقها انساناً جالساً في مقعدها الامامي وذلك بأن يعمد امرؤ الى تليفون قريب من موقف السيارة فيلقنها بالتليفون بصوت خافت ، التعليمات المرغوب في تنفيذها . فلا يكاد يفرغ من التفوه بأوامره ،حتى يرى السيارة تزايل مكانها وتتابع سيرها حتى يقفها هو بأمره ايضاً . ثم يأمرها بالتقهقر فتلبي الطلب . ومتى اراد وقفها وقفت مرة اخرى .واذا رغب في اضاءة مصابيحها انيرت . ومدار تسييرها بذاتها على ذلك النمط ،بطارية كهربائية حساسة بالنور تعمل فيها طبقاً لاشعة الضوء التي يسيطر عليها ذلك التليفون بحيث ان كل كلمة يلقيها المتكلم في ثغر التليفون تتولد منها شعاعة نور من مصباح مستكن في شجرة صغيرة قريبة من مستودع السيارة

وتختلف الشعاعات التي تؤثر في البصاصة الكهربائية من شعاعة واحدة الى اربع شعاعات فتحرك الاجهزة المجددة للدورة الكهربائية التي تتحكم في تنقلات السيارة . وقد تستمر هذه السيطرة ما دامت السيارة قريبة من المصباح المختفي في الشجرة بحيث يتسنى القاء اشعته على البطارية الحساسة بالنور الآنفة الذكر وتأثيرها فيها التأثير المرغوب

العث واختبار المنسوجات

أُنشيء في مدينة فيلادلفيا ، من اعمال دولة الولايات المتحدة الامريكية ،مبحث علمي يعدُّ فريداً في العالم . أسسهُ مصنع من مصانع المنسوجات الصوفية هناك ليختبر بهِ الوسائل المختلفة التي يتذرع بها الى مناهضة العثّ الذي يلحس الثياب الصوفية فيفنيها

ويعتاض العلماء في ذلك المصنع من الارانب الرومية التي تستخدمها كل المختبرات العلمية في مباحثها بالالوف المؤلفة من العث فيحبسونها ويستعينون بها في تجاربهم . وذلك بوضع اجهزة منظمة للحرارة الكهربائية Thermostat تجعل الغرف ذات حرارة ملائمة للعث ثم يغذونهُ بقطع من نماذج تؤخذ من المنسوجات المستعملة للمفروشات التي تعالج بالمواد المضادة للعث ، فيتاح لأرباب المصنع اختبار اصناف المواد المختلفة التي تمنع العثّ عن التهام المنسوجات ومتى قلّ عدد العث في ذلك المبحث العلمي عن القدر الذي يحتاج اليهِ في تجاربهِ قام بشراء ما يلزمهُ منهُ بسعر الواحدة خمسة سنتات اي قرش صاغ (عند اعتدال اسعار المصارفة الدولية) وذلك من الغلمان الذين يصيدون العثّ لاجلهم

دبابة جديدة تطلق حجاباً من الدخان

اخترعت رآسة الجيش في جمهورية ولايات اميركا المتحدة دبابة تطلق حجاباً كثيفاً من

الدخان قدام طلائع الجيش المشاة وقاية لها من نيران عدوها قبيل هجومها عليهِ وتحسب هاتيك الدبابات احدث انواع الاسلحة ، اذ تستطيع سرعة التنقل (على الاراضي التي مزقت اديمها القنابل) محتوية على جهاز يولد الدخان. فتتقدم المشاة وتطلق سحابة كثيفة من دخان ابيض ، حيال خط الاعداء . فتتمكن المشاة من الهجوم تحت ذلك الستار الدخاني دون التعرض للقذائف التي يصوبها اليهم جنود الاعداء . ومتى قامت الدبابات باطلاق ذلك الحجاب ، اخذت في مباشرة اعمالها الاعتيادية وهي مهاجمة مكامن المدافع الرشاشة

ويزعم العليمون انهُ من الميسور ان تقطع الدبابة عشرين ميلاً في الساعة سائرة على اطواقها المحيطة بعجلاتها فوق الارض

مطعم تشيكوسلوفاكي اوتوماتيكي

فتح حديثاً في مدينة براغ وهي براغ سابقاً عاصمة تشيكوسلوفاكية مطعم مجهز باحدث الاجهزة الكهربائية التي تقوم بخدمة الوافدين عليهِ ، خدمة تامة عوضاً عن الندل . فاذا ما دخله الجائع ودفع الثمن المحدد للاكلة وقف في موقف مرقوم بحسب دوره عند مائدة مستطيلة ، حيث يضغط زرًّا كهربائيًّا مسلطاً على سير دوّار تحت وسط تلك المائدة ، فيقدم لهُ السير الصنف الاول من اصناف الطعام فيأكله . ثم يضغط ذلك الزر مرة اخرى فيقدم له نوعاً آخر من الغذاء وهلم جرًّا وفي ذلك المطعم سيور اخرى تدور بعكس دوران السير الاول ، تحت طرفي المائدة يضع عليها الشباعى الصحون الفارغة فتنقلها الى المطبخ

نهر من المداد

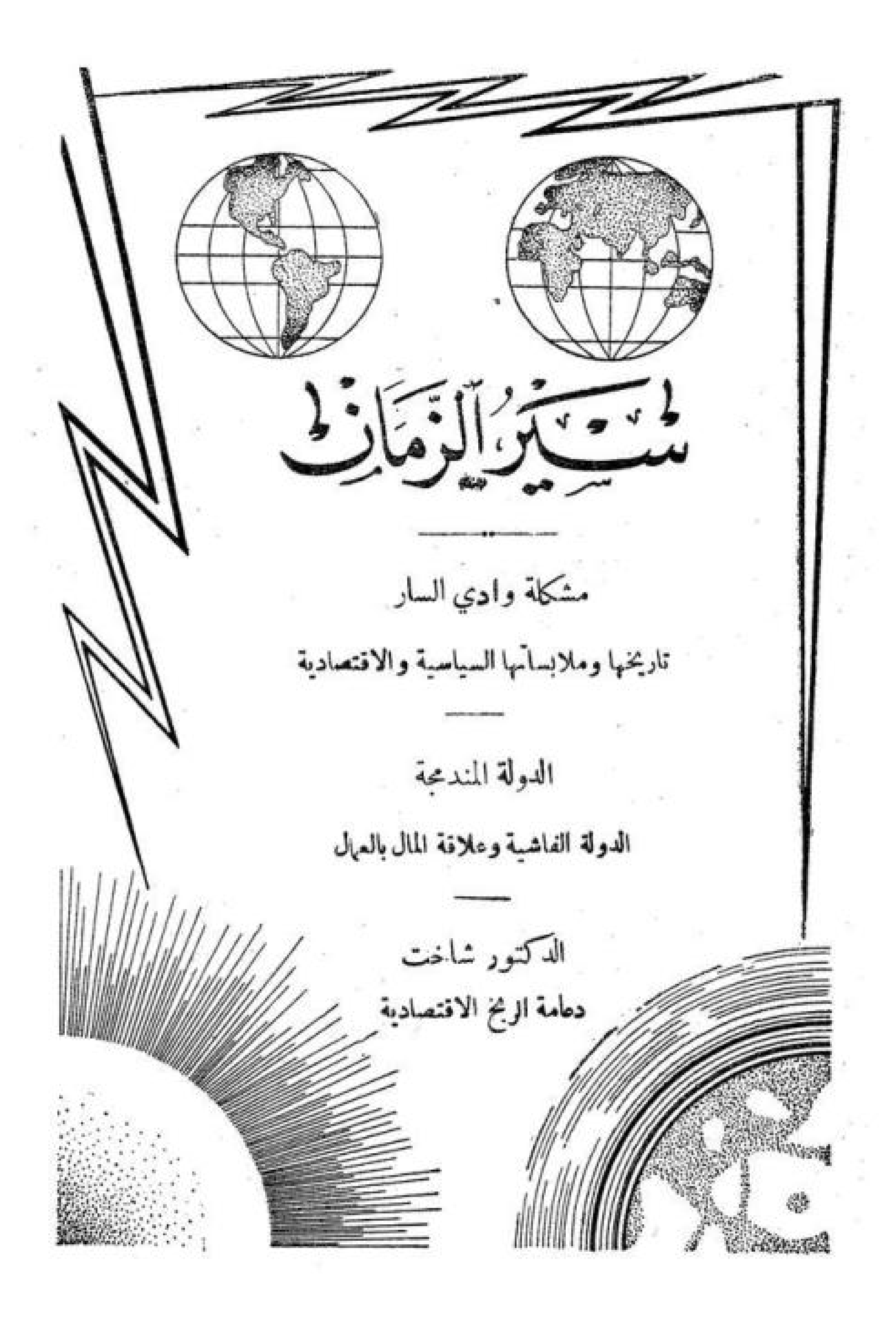
في ولاية الجزائر بشمال افريقية نهر يسمّى (نهر المداد) مؤلف من جدولين تكثر في أمواههما المواد الكيمائية المتولدة من أملاح الحامض التنيك — أي المداد الحديدي . وذلك لان احد ذينك الجدولين ينبع من تربة مشبعة بالحديد ، والآخر ينبع من مستنقع مملوء بالفحم الحجري النيء المشبع بمادة التنين — الحامض التنيك

السمك الرامي

في جزائر الهند الشرقية ضرب عجيب من السمك يسمى (السمك الرامي) ومرماهُ بندقية نخاخة !! اذ انهُ يستطيع قذف رميَّته بقطرة ينخُّها من شدقيه الى بعد اربع اقدام ، نخًّا محكماً على الحشرة التي يشتهيها فيصرعها توًّا ويلتقمها من سطح الماء (وقد وصفت ذلك السمك باسهاب في مقالي : الطبيعة رائد المخترعين الذي نشر في جزء فبراير سنة ١٩٣٤)

تصحيح خطاء

جاءنا من الأمير مصطفى الشهابي بعد الشروع في طبع مقالهِ « الوان الخيل وشياتها » ان ضبط السلغد صفحة ١٧٩ سطر ٢٠ هو كما يلي « السِلْغَدُ » فضبطناها فيما تيسر من الورق الذي لم يطبع واشرنا الى ذلك هنا للبيان



سير الزمان

مشكلة وادي السار

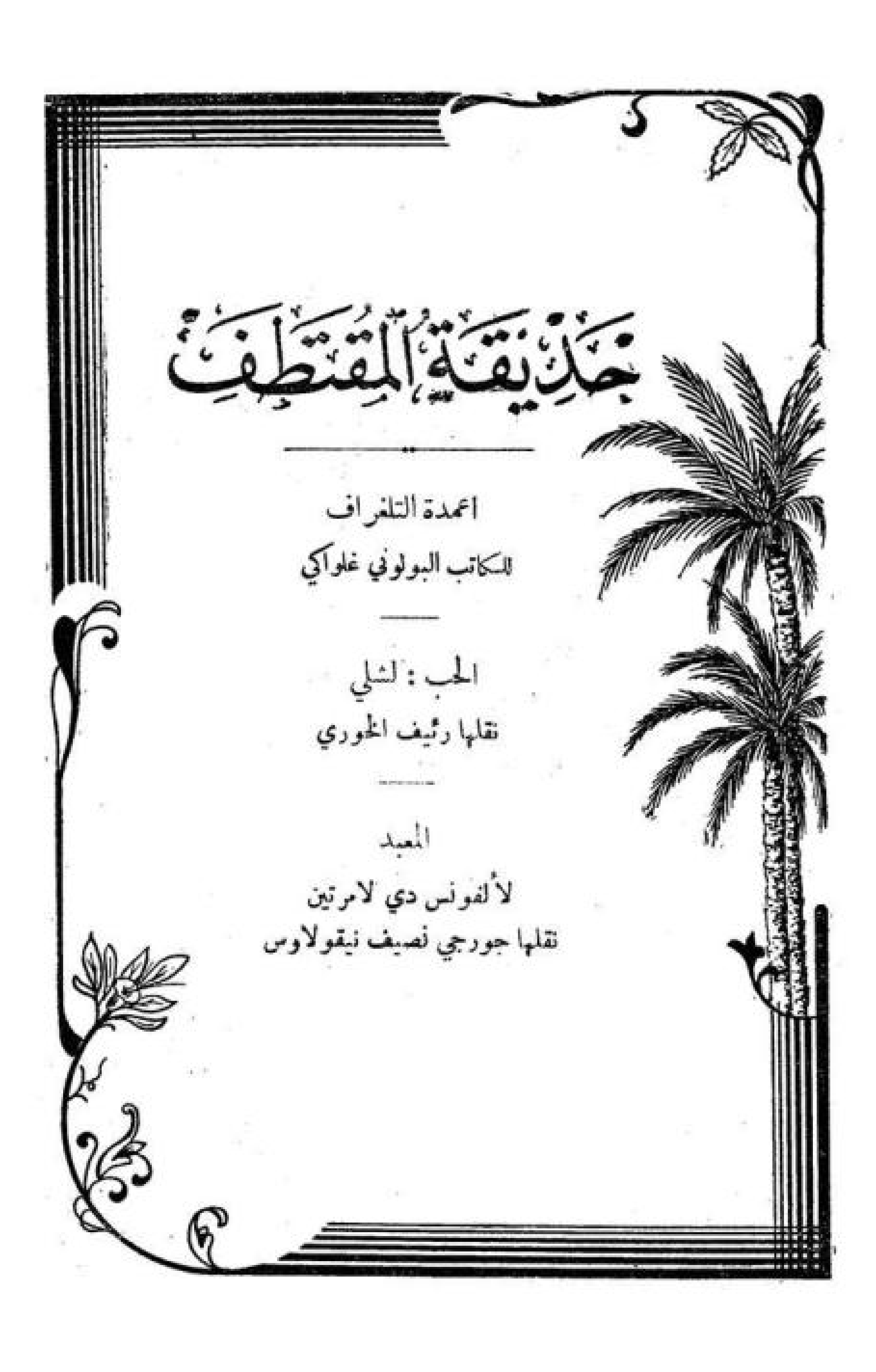
تاريخها وملابساتها السياسية والاقتصادية

الدولة المندمجة

الدولة الفاشية وعلاقة المال بالعمال

الدكتور شاخت

دعامة الريخ الاقتصادية



حديقة المقتطف

اعمدة التلغراف

للكاتب البولوني غلواكي

الحب : لشلي

نقلها رئيف الخوري

المعبد

لألفونس دي لامرتين

نقلها جورجي نصيف نيقولاوس



مملكة المرأة

المرأة والفن

المصورة روزا بونور

العناية بالحامل

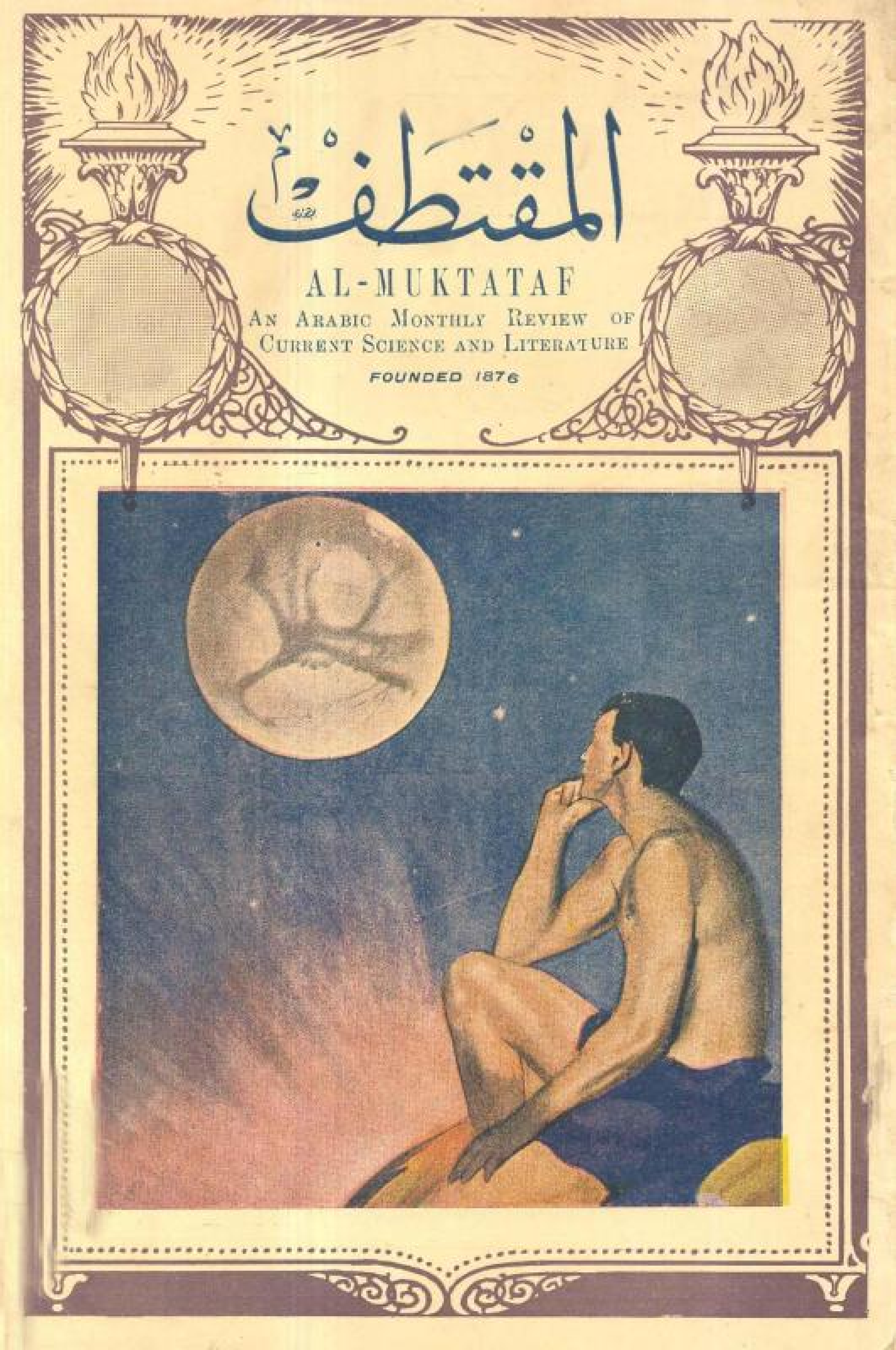
للدكتور مصطفى الخالدي

مكافحة الرمد في مصر

الدكتور فريد مسعود

فهرس المجلد السادس والثمانون

صفحة



المقتطف
AL-MUKTATAF
AN ARABIC MONTHLY REVIEW OF
CURRENT SCIENCE AND LITERATURE
FOUNDED 1876

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الثالث من المجلد السادس والثمانين

١ مارس سنة ١٩٣٥ — ٢٥ ذو القعدة سنة ١٣٥٣

السيارات : اجواؤها

ومسألة الحياة على سطوحها

المشتري وزحل والزهرة والمريخ في ضوء الارصاد الحديثة

من عهد طويل ، يقاس بألوف الألوف من السنين ، اقتربت شمس عظيمة من شمسنا ، فاشتدَّ جذب الضيفة لمضيفتها ، فانتزعت من سطحها قدراً كبيراً من كتلتها امتدَّ في شكل ذراعٍ بين الشمسين ، فلما أبعدت الشمس الزائرة ، ماضية في طريقها الكوني المرسوم ، تكتلت مادة الذراع كراتٍ من المادة هي السيارات التي تدور حول الشمس ومنها الأرض . هـذا هو أصل النظام الشمسي بحسب الرأي السائد في دوائر العلم

على ان العلاّمة ادنغتن أستاذ علم الفلك في اكسفرد ، يرى ان احتمال اجتماع شمس بأخرى ، على النحو المتقدم ، بعيد جدًّا ، لا يزيد على واحد في مائة مليون . ولذلك يذهب هو وطائفة غيره من علماء العصر ، الى ان النظام الشمسي ليس نموذجاً للسبيل التي تسير فيه الشموس في تطوّرها . بل ليس ضرباً مألوفاً في قبة الفلك . وانهُ فلتة من الفلتات لا اكثر ولا أقل (It is a freak)

وثمة بواعث كثيرة تحمل الباحث على الاعتقاد في أن نظامنا الشمسي تكوَّن بالطريقة التي تقدم ذكرها . ولقد أشار السر جيمز جينز في ما كتبهُ عن أصل النظام الشمسي، الى أن قواعد التجاذب تقتضي أن تكون الذراع المؤلفة من المادة المنطلقة من شمسنا بفعل جاذبية الشمس الاخرى ، على اكثفها وأثخنها عند منتصفها ثم تستدقُّ رويداً رويداً حتى تبلغ طرفيها . فاذا أخذنا السيارات

ورتّبناها بحسب بُعدها عن الشمس محتفظين ببعدها النسبي أحدها عن الآخر ، ثم رسمنا خطًّا حولها يمس النقط العليا والنقط السفلى في كراتها ، كان الرسم الذي نحصل عليه أشبه ما يكون « بالسيجار » . وهذا يؤيد رأي جينز ، فالمشتري وزحل في الوسط وهما أكبر السيارات ، ثم تصغر السيارات حجماً كلما بعدت عن الشمس او اقتربت منها ، فالسيارات تتدرج صغراً من المريخ الى الارض الى الزهرة الى عطارد في ناحية الشمس ، ومن أورانوس الى نبتون الى بلوطو في الناحية المقابلة

فاذا مضينا في البحث ، متأثرين نظرة الاستاذ ادنغتن وجدنا أن كلّ سيّار من السيارات فلتة على حدة . فليس بينها اثنان متساويان حجماً أو كتلةً أو متماثلان في طول يوميهما أو حالة جوّيهما أو انحرافهما على مستوى دائرة البروج . ومع ان جميع السيارات تمتُّ الى أصل واحد ، الاَّ أن الاختلاف بينها أعظم من الاختلاف بين الاولاد المتحدرين من أب واحدٍ وأم واحدة

فالصفات التي تفردت بها الارض بين السيارات جعلت الحياة على سطحها فلتة كذلك او اقرب الى الفلتة منها الى الحالة السوية . انها في الواقع معلّقة بخيط اوهي من نسيج العنكبوت كما يقول الشاعر العربي . زد انحراف مدار الارض على مستوى دائرة البروج ، اوقصّر يوم الارض بضع ساعات او زده بضع ساعات ، او ازل من جوّها الاكسجين وبخار الماء ، او غيّر مقدار قوتها الجاذبة بتغيير كتلتها ، او انقص بعدها عن الشمس — افعل ايًّا شئت من هذا تقضِ على كلّ نباتٍ وحيوانٍ على سطحها

ان تألّب طائفةٍ من الاحوال المعروفة وغير المعروفة على سطح الارض مهّدت لظهور قطعة البروتوبلاسمة الاولى ، وتطورها من اسفنج ، الى سمكٍ ، الى زحّافات ، الى طيرٍ ، الى ثدييات ، الى بوذا وليوناردو وبيتوفن . بيد ان بعد الاحتمال في تأليفها يحمل المتأمل على الظن بأن قصد الطبيعة ، هو تجربة التجارب بالشموس العديدة ، للحصول على كرة صغيرة ، تصلح لظهور البروتوبلاسمة القادرة على التطوّر والتحوّل والظهور في الوف من الاشكال المتباينة من نبات وحيوان

هذا نوع من التأمل ، يدفعنا اليهِ ، الاطلاع على البحوث الحديثة في اجواء السيارات الكبرى . فعلماء الفلك الطبيعي ، ينتقلون بوساطة المطياف (السبكترسكوب) ، الى عوالم تبعد عنا الوف الاميال وملايينها . في هذا الميدان نجد الدكتور سلايفر Slipher والدكتور آدل Adel والدكتور ولت Wildt في انحاء مختلفة من اميركا واوربا يكتشفون حقائق جديدة عن المشتري وزحل واورانوس . والدكتور ادمز Adams والدكتور دُنهام Dunham في مرصد جبل ولسن بكاليفورنيا يجلوان ما غمض من امور الزهرة ، والدكتور كوبلنتز والاستاذ رسل ما خفي من شؤون المريخ

وقد يقول معترض ان المطياف كان معروفاً عند العلماء من خمسين سنةً تقريباً ، فلماذا لم يستعمل قبل الآن في الكشف عن الحقائق التي تقولون انها كشفت حديثاً ؟ والردُّ على هذا السؤال هو ان العلماء كانوا في حاجة الى استنباط الطرق والاساليب لاستعمال هذه الآلة ، وهذا لم يأتِ الاّ بالمزاولة وبالاعتماد على مكتشفات مختلفة في العلوم الاخرى . ذلك أننا اذا نظرنا الى ضوء الشمس او ضوء أحد

النجوم ، تعذّر علينا ان نتبين العناصر التي تولدهُ من مجرد النظر اليهِ . فنحن نحتاج الى مصفاة ، تمكننا من التفريق بين الاشعة المختلفة التي يتألف منها ذلك الضوء . فاذا استطعنا ان ندرس كل ضرب من الاشعة على حدة فقد تتمكن من معرفة المصادر التي تنطلق منها

والمصفاة التي تمكن الفلكيّ او الطبيعيّ من هذا هي المطياف . فالضوء اذا اخترق موشوراً من الزجاج فرّقهُ الى عناصره التي يتألف منها . ولا يخفى ان قوس قزح، ليس الا ضوء الشمس وقد تفرق الى عناصره بعد اختراقهِ لقطيرات المطر . وسواء أحُلّ ضوء الشمس بموشور من زجاج ام بقطيرات من الماء ، فالالوان التي تظهر عند حلّهِ هي هي — الاحمر فالبرتقالي فالاصفر فالاخضر فالازرق فالنيلي فالبنفسجي . على أن المكرسكوب الحديث يمكن الباحث من أن يحلّ كل لونٍ من هذه الالوان ، الى مناطق أو خطوط تظهر في أماكن معينة محدودة ؛ ودراسة هذه الخطوط تفضي بهِ الى معرفة العناصر المتوهجة في الشمس التي صدر منها النور المحلول ، وفهم شيءٍ غير يسير عن حالتها الطبيعية. فاذا رأى الفلكي الطبيعي خطاً معيناً في منطقة اللون الاصفر في طيف نورٍ صادرٍ من شمسٍ ما، عرف ان في هذه الشمس صوديوماً ، واذا رأى خطاً معيناً في منطقة اللون الاحمر، عرف ان هناك ايدروجيناً. وما يصحّ على هذين العنصرين يصحّ على الاكسجين والنتروجين وغيرها من العناصر

ويظهر من البحوث الحديثة في أجواء السيارات ان هذه الخطوط الطيفية المنبئة عما وراءها ، توجد في الغالب في منطقة اللون الاحمر ومنطقة الاشعة التي تحت الاحمر ، وهي حقيقة جديدة في دراسة السيارات من الوجهة الطيفية . لذلك كان البحث في منطقة الاشعة التي تحت الاحمر، متعذراً الى عهد قريب، لما استنبط الكيماويون مستحلباً غروياً فوتوغرافياً يتأثر بالاشعة التي تحت الأحمر، ففتحت بهِ عيون الفلكيين ، على أمور كانت خافية عنهم ، أو كأنهم كانوا يحدقون في جسم يحيط بهِ ستار كثيف فازيح الستار وظهر الجسم . ولكن هذا لا يعني ان البحث في طيوف السيارات من الهنات ، فالسيارات بعيدة ، ولا يظهر أعظمها حجماً ، في أقوى التلسكوبات ، الاّ كقطعة صغيرة من النقد . ثم ان الخطوط ومناطق الألوان المختلفة ، مبهمة غير جلية ، ولعلّ بعضها لا يزال خفياً لان المستحلبات الفوتغرافية لم تبلغ بعد درجة وافية من الاتقان

بيد ان العلماء لاحظوا بعيد اكتشاف المطياف مناطق برتقالية اللون في طيفي المشتري وزحل. وفي سنة ١٩٠٥ لاحظ الدكتور سلايفر — وكان يشتغل في مرصد فلاغستاف باريزونا مع الاستاذ برسيفال لول الذي تنبأ بوجود السيار بلوطو — ان المناطق البرتقالية في طيفي اورانوس ونبتون كانت أجلى وأوضح مما يقابلها في المشتري وزحل ، وان في طيفي المشتري وزحل مناطق اخرى ضئيلة جداً لم يرَها أحدٌ قبله . فلما درس الاستاذ ولت Wildt (جامعة غوتنغن) الصور الفوتغرافية التي صوّرها سلايفر نشر رسالة في سنة ١٩٣٢ قال فيها أن المناطق البرتقالية هذه ، ناجمة من غازيّ الامونيا والميثين methane (ك يد ٤) ، ولكن قولهُ لم يكن قاطعاً . فما السبيل الى القول الفصل ؟

يعمد الطبيعي في هذه الحالة ، الى الامتحان في معمله الضيق الجوانب . ولكن اذا دخلت قدس هذا المعمل لم تجد فيه السيارات مصغرة ، بل تجد آنية من الصلب تحتوي على الامونيا أو الميثين أو الايدروجين ، ثم تجد أنبوباً طويلاً من الزجاج يحتوي على خليط منها يمثل جو السيار الذي تُرام دراستهُ ، بمقادير عناصره ودرجة الضغط عليها . ثم تجد أمام الأنبوب مطيافاً وأمام المطياف لوحة خاصة . وعند الامتحان تبعث شعاعة من النور من مصدر وراء الانبوب فتخترق خليط الغاز الذي فيه ، ثم تحلُّ بالمطياف ، فترتسم على اللوحة التي أمامهُ مناطقها الملونة المختلفة . هنا تتضح الخطوط المبهمة في طيوف السيارات . وتظهر الخطوط الخفية . وخاصة ما كان منها في منطقة الاشعة التي تحت الاحمر . وقد اعتمد الدكتور دُنهام Dunham احد علماء مرصد جبل ولسن على هذه الطريقة في دراسة جوَّي المشتري وزحل ، فثبت لهُ ان في جوّيهما عنصر الايدروجين ومركَّب الامونيا . وبالاعتماد على الطريقة نفسها اثبت الدكتور سلايفر والدكتور آدل ان المناطق التي تبدو على سطح المشتري وزحل سببها غاز الميثين او الغاز الطبيعي

وقد تلتفت الى محدثك في المرصد وتقول لهُ اذ يشير الى المشتري او يريكهُ في عدسة التلسكوب : اذاً هذا هو المشتري ؟ فيردُّ عليك في الغالب : كلاَّ ليس هذا الاَّ جوَّهُ اذ لم يفز احد حتى الآن برؤية المشتري او زحل . وما شوهد منهما ليس الاَّ غيومهما

هذا النوع من البحث ، يبدد الوهم السائد بأن المشتري لا يزال محمرًّا — لشدة حماوته — فقد انفصل عن الشمس من نحو ٥٠٠٠ بليون سنة ولا يخفى ان الحماوة الى درجة الحمرة تمني حرارة كافية لحلّ غازي الامونيا والميثين . فلو صحَّ ان المشتري حامٍ الى درجة الحمرة لما استطعنا ان نرى المناطق التي اثبت البحث الحديث ، انها هناك وان سببها وجود الامونيا والميثين في جوّ المشتري

واذن يجب ان نتصور كلاًّ من هذين السيَّارين — المشتري وزحل — مؤلفاً من جسمين مختلفين او من جسم صلب وغلاف غازي . فالجسم الصلب مؤلف من مادة جامدة كثيفة لعلَّها صخر او حديد نيكليٌّ . ثم خارج هذه الكرة غطاءٌ كثيف من الجمد مضغوطاً ضغطاً شديداً سببه قوة جاذبية السيَّار نفسه الناجمة عن عظم كتلته . ويحيط بهذا كلهِ جوٌّ غازي مضغوط ضغطاً شديداً كذلك ، فيهِ قدر كبير من الايدروجين والامونيا والميثين . وقد يسأل القارىء ما الباعث على الضغط الشديد في الجوّ وطبقة الجمد ؟ والردُّ على ذلك في المقاييس المعروفة عن كتلتي هذين السيارين . فهما اكبر السيَّارات واذاً فقوة جذبهما للاشياء التي على سطحهما كبيرة لأنها تزيد بزيادة الكتلة . فاذا انتقل رجل من ابناء الارض الى سطح المشتري تعذر عليهِ رفع ذراعه لحك رأسهِ وسبب ذلك ان شدَّة جذب المشتري لذراعه تجعلها اثقل من ان يسهل عليهِ رفعها . ولا يخفى ان الارض قد خسرت معظم الايدروجين في جوها لصغر كتلتها . ولكن المشتري وزحل لا يزالان محتفظين بهِ لكبر كتلتيهما ولا بدَّ للباحث من قياس درجات الحرارة في اجواء السيارات لاستيفاء ما يعرفه عنها . هذا الفرع

من البحث اختص به الدكتور پتي Pettit والدكتور نيكولسن Nicholson من علماء مرصد جبل ولسن . فانهما استنبطا وسيلة لقياس الحرارة تدعى الترموكپل Thermo-couple وهما يستطيعان لشدة احساسها ان يقيسا بها فرقاً في الحرارة يبلغ ثلاثة اجزاء من مائة الف جزء من الدرجة المئوية $\frac{٣}{١٠٠٠٠٠}$. وكل ما فيها ان ضوء نجم بعيد يجمع على قطع دقيقة جداً من البزموت وخليط القصدير فيولد فيها تياراً دقيقاً من الكهربائية . وقياس هذا التيار يمكن الباحثين من تعيين درجة الحرارة . ولا يزيد وزن الجزء الخاص بهذا القياس على رأس دبوس صغير

والنتائج التي وصل اليها الدكتور پتي ونيكولسن تدل على ان البرد شديد على سطحي المشتري وزحل ، حتى تتجمد الامونيا التي في الجو . ان درجة البرد تبلغ ٢٢٠ درجة تحت الصفر بميزان فارنهيت على سطح المشتري (١٤٠ تحت الصفر بميزان سنتغراد) و ٢٨٠ درجة تحت الصفر بميزان فارنهيت (١٧٤ تحت الصفر بميزان سنتغراد) على سطح زحل . اما العلماء دنهام وسلايفر وولت فقد انتهوا — على حدة — الى ان السيارين الكبيرين مغطيان بغيوم من بلورات الامونيا . وان هذه الغيوم قد بلغت من الكثافة درجة تحول دون رؤية ما تحتها حيث يجب ان يكون غاز الميثين كثيراً . ولو كان هناك اكسجين ، واشعل عود ثقاب لالتهب جو السيارين ، بل لحصلت فيه انفجارات عظيمة

وتنزلق غيوم الامونيا على سطحي السيارين محدثة عواصف وأعاصير سرعتها من ٤٠٠ ميل الى ٦٠٠ ميل في الساعة على سطح زحل و ٢٥٠ ميلاً على سطح المشتري . ما سبب هذه الاعاصير ؟ اننا لا نعلم حتى الآن . فالرياح تهب على سطح الارض لان حرارة الشمس تحدث اختلافاً في حرارة الهواء في مناطق مختلفة . ولكن الشمس ابعد من ان تؤثر حرارتها في ايدروجين المشتري وزحل او في بلورات الامونيا في جويهما . هنا يجد القائلون بأن المشتري وزحل لا يزالان حاميين الى درجة الحمرة ، حجتهما الكبرى . وقد اعتمد الباحثان ادمز ودنهام على طرق البحث التي تقدم ذكرها ، فتبين لهما ان جو الزهرة مؤلف في الغالب من ثاني اكسيد الكربون . ولا يخفى ان هذا الغاز لا ندحة عنهُ لحفظ الحياة على سطح الارض . فان ضوء الشمس يفعل فيه فيولد ان معاً في الاوراق الخضر في النبات ، مواد نشوية وسكرية . فاذا سلمنا بوجود نبات اخضر وجب ان نسلم بوجود الماء والاملاح المعدنية اللازمة لحياته ، وبوجود الاكسجين الذي يزفرهُ النبات في خلال عملياته الحيوية . ولكن ثاني اكسيد الكربون وحدهُ لا يكفي للحياة

فاذا التفتنا الى المريخ ، تذكرنا ان علماء الطبيعة كانوا الى عهد قريب ، مختلفين في درجة الحرارة على سطحه . ولكن الدكتور كوبلنتز الاميركي ، قد جلا كلَّ ريب يحيط بالموضوع . فانهُ استعمل جهاز « الترمو كبل » لقياس حرارة الاشعة الواصلة الينا من مواقع مختلفة على سطحهِ ، فثبت لهُ ان حرارة الصيف عند قطبه الجنوبي تتباين من ١٠ درجات مئوية تحت درجة الجمد الى عشر درجات فوق درجة الجمد وان حرارة المنطقة المعتدلة الجنوبية في الفصل نفسه تتباين من نحو ١٨ درجة مئوية الى

نحو ٢٤ درجة مئوية . واما حرارة المنطقة الاستوائية فتختلف من ١٨ درجة مئوية الى نحو ٣٠ درجة مئوية . وتختلف حرارة المنطقة المعتدلة الشمالية في الشتاء من ثلث درجة تحت الصفر الى ١٥ درجة فوق الصفر . وعلى ذلك ظهر ان حرارة سطح المريخ اعلى مما كان يُظَنُّ . والراجح ان برد الليل في منطقتهِ الاستوائية شديد جدًّا ولكنهُ قد لا يفوق برد مدن عظيمة مأهولة اشتهرت ببرد شتائها مثل مدينة نيويورك

ولكن ماذا يقال في جوّ المريخ ؟ ان فيهِ اكسجيناً وبخاراً مائيًّا وكلاهما من العناصر اللازمة للحياة كما نعهدها. وقد كان بعض البحّاث الفلكيين يعتقدون ان البقعتين البيضاوين على قطبي المريخ ليستا ثلجاً بل ثاني اكسيد الكربون متجمداً ، فثبت الآن ان البقعتين ثلج او جمدٌ يذوب في الربيع والصيف وان ذوبانهُ مصدر البخار المائي في الجوّ . وقد صوّر الدكتور رَيط بمرصد جبل ولسن جوّ المريخ بالوان مختلفة فاكتشف غيوماً مائية صفراً سابحة على ارتفاع ١٥ الف قدم فوق سطحه

على ان الاستاذ رسل — استاذ علم الفلك في جامعة برنستن — يرى ان المناطق الحمر على سطح المريخ لها تعليل آخر. فهو يقول: تأملوا الاكسجين في جوّ الارض فهو ليس كل نصيبها من الاكسجين الاصلي في مادتها. ومعظم ما تبدَّد منهُ يبدو في المواد التي تدخل اكاسيد الحديد في تركيبها. وهي حمراء في الغالب . فالاكسجين شديد الالفة للحديد. ولا بدَّ في النهاية من ان يزول الباقي من اكسجين الهواء بهذا التفاعل الكيماوي . فاذا اردنا ان لا يموت الانسان اختناقاً لشدة حاجتهِ الى الاكسجين ، وجب علينا ان نبتدع طريقة نطلق بها الاكسجين الداخل في تركيب الصخور والمعادن وما اليها . والاستاذ رسل يرى ان المريخ في حالة تشبه حالة الارض من هذا القبيل . ويرجح ان معظم اكسجينهِ قد اتحد بصخورهِ . وما نراهُ من البقع الحمر على سطحهِ قد يكون مناطق تكثر فيها المواد التي دخل الحديد والاكسجين في تركيبها وهي حمراء مثل المغرة والحجر الرملي والصدأ الحديدي وغيرها

اما وقد اجتمعت هذه الادلة لدى العلماء ، فليس ثمَّة شكٌّ في ان احوال المريخ الجوية تصلح للحياة كما نعهدها، في ابسط مظاهرها فقط. واذن يجب ان ننتزع من اذهاننا صور الاحياء العاقلين الذين يبنون الاقنية المستقيمة للري ، وهم الاحياء الذين تصوَّرهم الاستاذ لول يقطنون سطح المريخ . فاذا شبهنا المريخ برجل قلنا انهُ اخذ ينحدر من دور الفتوة الى دور الهرم

ثم اذا التفتنا الى السيارات الاخرى وجدنا ان عطارد قريب جدّ القرب من الشمس حتى ان حرارة سطحهِ تكفي لصهر الرصاص . اما اورانوس ونبتون وبلوطو ، فبعيدة كل البعد عنها ، حتى لا تبدو الشمس في نظر مشاهد على سطح أحدها الاَّ نجماً كبيراً كما تبدو لنا الشعرى او اكبر قليلا . فنهارها لا يفوق شفقنا اشراقاً ، وطول الفصل من فصولها يقاس بسنوات من سنواتنا ، ودرجة البرد على سطوحها تفوق درجة البرد الشديد على سطحي المشتري واورانوس . فسطوحها قاحلة مجدبة لا تصلح مثوًى لشكل من أشكال الحياة التي عهدناها

حركة الرواد

تجربة اجتماعية خطيرة في مصر

كانت المحاضرات التي القيت في المؤتمر السنوي السادس الذي عقده المجمع المصري للثقافة العلمية (٧ — ١٤ فبراير) مثابة نخبة مختارة من فضلاء القوم وكبارهم وشبابهم المثقف . فقد القى فيه الدكتور علي باشا ابراهيم خطبة علمية تاريخية في « السجاد » والدكتور مشرفة خطبة « في الجسيمات المكتشفة حديثاً في علم الطبيعة » والدكتور شخاشيري في « التأمين على الجنين » ورئيس تحرير المقتطف في « الاشعة الكونية » والدكتور جورجي صبحي في « اللهجات العربية العامية في مصر ونشوئها »

وكان مسك الختام خطبة لصاحب العزة احمد محمد حسنين بك موضوعها « اتجاهات جديدة في الاصلاح الاجتماعي في مصر » وصف فيها حركة اجتماعية خطيرة الشأن بالغة النفع تعرف بحركة الرواد . فرأينا ان نثبت هنا ما قاله في وصف هذه الحركة المباركة

من منا لم يعش حيًّا بلديًّا من أحياء القاهرة . ماذا اذن في مثل هذا الحي نرى . انا لنقع على حياة رخيصة زرية . مظلمة منحطة . نرى طرقاً ضيقة قذرة . أزقة مبتلة متسخة . فضلات ملقاة على الجانبين . مساكن كالكهوف ضيقة ضئيلة منكمشة . مآوٍ متداخلة بعضها في بعض كأنها أعدت لطائفة من الاشباح ، ليس فيها منفذ لشمس أو مسرب لهواء . رجال خائرون كأنما يستبطئون مقدم الموت . العاطل فيهم أداة سقيمة صماء . لا رأي له في شيء ولا يفكر الا في أفق أولي غاية في الضيق . والمعطل منهم لائذ بالمقهى . يقضي يومه بين أن يسمع شراً أو يأتي شراً أو يفكر في شر . رجال قُنَّع خاملون نهشت المخدرات في هياكلهم نهشاً . ماتت فيهم كرامتهم . وضاعت منهم كبرياؤهم وانتفى فيهم كل معنى من معاني القومية . لا نخوة لهم ولا خلاق . يضيع حقهم فيستنيمون . يُغفل من عزتهم فلا يشعرون . ما أيسر أن يضيمهم مضيم وما أسهل ان يستهين بهم مستهين . لايدركون انهم شيء يجب ان يحسب له حساب . ولا يقدرون لانفسهم وزناً في نظر الناس . لانهم لايقيمون لاشخاصهم هذا الوزن في نظر أنفسهم . اولئك هم رجال الحي . أما نساؤه فقد طمس عليهن الجهل . فشاعت القذارة في أنفسهن . وبيوتهن . وأولادهن . في هذا المحيط المظلم . وفي تلك البيئة التي أفسدها الجهل والامية . ينشأ الطفل مهملاً متأثراً باخلاق هذا الوسط . وتنشأ البنت محملة تراث هذا العرف الاجتماعي السيء . والاطفال الذين تتولى أمرهم وهم صغار . هم الذين يتولون أمر أبنائهم وهم كبار . وبنت اليوم هي أم الغد . والام هي الامة

أتممنا جولتنا في جوانب الحي . ورأينا في ما رأينا سوءاً في السيرة وضعة في المعاملات . اسفاف في كل مرفق من مرافق الحياة

تلك جولة قصيرة في حي من أحيائنا البلدية . وهـذا رسم اولي عام لناحية من حياته العادية والذهنية والنفسية . ولئن فرضنا أن حال القرية ليست بأسوأ من هـذا الحي حالاً ، وان مآلها ليس بشرٍّ منهُ مآلاً . استطعنا ان نرسم رسماً مكبراً لافق المجتمع المصري ، وان ندرك في ضوء هذا الرسم المتسع مدى ما ينتهي اليهِ هذا المجتمع من فساد وضعف . فما صدى ذلك كلهِ في أنفسنا نحن المتعلمين . دعاة الاصلاح . نمضي ننتقد ونعيب ونعدد المساوي . وقد نقسو في النقد . ونسرف في التنديد . وكأنما بهذا قد أدَّينا واجبنا ، فلا نصنع من بعده شيئاً . بل أنا لنشتطُّ في تصوير الامر ، فنوهم أنفسنا ، ويلذ الوهم ، بأننا قد أصلحنا ، وان ما سقنا من نقد وسرد معايب . وقدمنا من نعي وتنديد . وكلنا من قدح وتشهير . منة كبرى يجب ان يشكرها لنا أولئك البؤساء المساكين ، وخدمة جلّى يجب ان يقدرها لنا أبناء هـذا المجتمع الوضيع . ولقد يحلو ان نتحزن ونتفجع ، ونندب حظنا ونتوجع ، ان نكون طليعة شعب هذا بعض أمرهِ . وان نكون نحن ، المتخرجين في المدارس العليا والجامعات،الطبقة الراقية لناس هذا شيء من سيرتهم . ولقد راقنا ان نضع الامر هذا الوضع ، ونصوّر صلتنا بالمجتمع ، هذه الصورة النظرية . أما الواقع ، فان هذا الافق المتأخر المنحط انما هو الافق الطبيعي الذي يجب ان نعد نحن المتعلمين من أرقى طبقاته . واذا كنا نحن المغرقين في نقدهِ لم نعمل عمـلاً في سبيل رفع مستواه . فما عليهِ اذن من حرج في ان يهبط بنفسه وبنا الى أدنى ما يسف فيه

نعود نتساءل من منا يرضيه ان يتهم بأنهُ لا يحب ان يخدم بلده . من منا يرضيه ان يتهم بأن الوطن آخر ما يصح ان يفكر فيه . مع ذلك فمن منا بسط في سبيل النهوض بهذا المجتمع يداً . من منا من بذل شيئاً من وقته أو ماله أو متاعه من أجل نفر مهمل منسي من أبناء هذا البلد . من منا من وقف من حي بلدي من أحياء القاهرة موقف المصلح العامل . فمد يده النظيفة اللينة الى يد من تلك الايدي المتسخة الجافة . ومست بدلته الانيقة الفاخرة جلباباً قذراً بغيض المنظر . من منا من لقن هذا الخامل المستهين بنفسه محاسن الخلال . لقنه الصدق وشجاعة النفس . والاعتماد على الذات ، وأشعره ان هذه الصفات الفطرية هي التي تخلق منهُ رجلاً جديداً ذا كرامة

***

نبتت فكرة الروّاد في الايام الاخيرة من عام ١٩٢٩ ، وبدأت تعمل في حيز شخصي محدود ، اساسه الرياضة ، وسبيله القيام بالرحلات وانشاء المعسكرات ، وغايته ترويض النفس على ان تألف حياة الخشونة والتقشف ، فقد نالت منها مناعم المدنية الحديثة ، وأثرت فيها تأثيراً سلبيـاً ، هو بعض ما يشيع في نفوس ابناء هذا الجيل من ضعف وتراخ ، وطراوة ولين . غير ان الفكرة ما

لبثت ان اتسعت اذ ادرك الروّاد ان هذا السبيل الذي اخذوا انفسهم به ، وحرصوا على ان يصلحوا من شأنهم على هديه ، ان هو الاّ نوع من الأَثَرة الممقوتة . فهم يذكرون انفسهم وينسون سواهم ، وهم احق منهم بالاصلاح ، وهم يخدمون اشخاصهم ويهملون الغير وهم اولى منهم بالخدمة . على ضوء هذه الفكرة الجديدة سجلوا دستورهم ، وضمنوه مبدأ العمل على رفع مستوى الاخلاق والحياة الاجتماعية في مصر . ولقد تفرّع لهم في هذا الصدد سبيلان ، ورأوا انهم مطالبون بنوعين من الجهود ، يفترقان في منحيهما ويلتقيان في الغاية منهما جميعاً . اما الاتجاه الاول فيقتضي جهوداً تبذل في الطبقات غير المتعلمة طبقات العمال والفلاحين ومن اليهم . واما الاتجاه الناشيء فيقتضي جهوداً تبذل في الاوساط المثقفة المتعلمة اوساط الطلبة وشباب الموظفين المستنيرين. هذا ايها السادة بعض الاتجاهات الجديدة التي يمضي فيها الروّاد ابتغاء الاصلاح الاجتماعي .ولئن بدأ الروّاد بالنوع الاول من الخدمة العامة ، فلأنهم رأوا ان حاجة الطبقات غير المتعلمة الى الاصلاح اشد مساساً من الطبقات التي تهيأت لها وسائل التهذيب ، وتفتحت ابواب التثقيف

ولما كانت مذاهب الاصلاح في تلك الطبقات الفقيرة كثيرة متشعبة ، رأينا ان نحصر تفكيرنا في دائرة محدودة ، وان نوجه جهودنا وجهة مضمونة الثمر ، وانتهينا الى ان اصلح نواة نبدأ بغرسها في حقل الاصلاح الاجتماعي هي المحلات . فهي ملتقى نشاط الروّاد ، يجد فيها اولئك الغلمان الذين لم تهيؤهم الاحوال الى ان يرقوا الى المستوى الاجتماعي المنشود ، جوّاً مشبعاً بروح الاخاء والود ، ووسطاً مهذباً يحرص على رفع مستواهم الاجتماعي . يجدون رجالاً ينظمون لهم اوقات الفراغ ، فمنها ما يتصل برياضة الجسم ، ومنها ما يتصل بتلقين المعرفة ومنها ما يتصل بتهذيب النفس . رجال يأخذونهم باللين ، يعالجون امراضهم الخلقية بالمعروف . ييسرون لهم سبل المعرفة العامة . يغرسون في اذهانهم انهم ناس عليهم واجبات ولهم كرامة . وهذه احدى سبل التضامن الاجتماعي التي لم تسبق مصر ان عرفتها

صحّ الحلم اذن . وافتتح الروّاد في العشرين من نوفمبر سنة ١٩٣١ اول محلة بحي الطيبي ، وهو ناحية من حي السيدة زينب ، وفي تلك المحلة ، يلتقي في مساء كل يوم نفر من ابناء هذا الحي ، بعد ان يفرغوا من عملهم اليومي . وهنالك يجمعهم بالروّاد جمع واحد ، وهم رجال مثقفون فمنهم اساتذة بالجامعات والمدارس العليا . ومنهم اطباء ومهندسون . ومنهم محامون وطلبة من الجامعة . شباب نزّاع الى الخدمة العامة . مؤمن بقدسية هذا الواجب . فيتصلون بهم اتصالاً يشعرونهم فيه بأنهم قدوة يجب ان يأخذوا بها ، وانهم اجمعين بنو وطن واحد لا يسمو أحد عن اخيه الاّ بسمو نفسه . ولا يعجز عن صاحبه الاّ بقوة الاخلاق

واحب هنا ان اصرّح في صوت مسموع ان رسالتنا الادبية التي نعتمد عليها في هذه الخدمة العامة ليست في حشو الرأس بألوان العلوم ، بل في بثِّ اصول الفضائل في نفوس هذا النشء . ذلك

لانا نعتقد اعتقاداً ثابتاً ان التعليم قبل التهذيب غرس في غير منبتهِ . وان حاجة هذا المجتمع الى تهذيب النفوس ، امس من حاجته الى تثقيف العقول . الا ان العلم مناهله سهلة والثقافة سبلها ميسورة ، اما الخلق اذا اعوجَّ فكالعود اذا اعوجَّ ،يظل ابداً معوجًا ، يصعب ان يقوَّم

اثمرت التجربة ايها السادة ، وافلح المسعى فتأثر هذا النشء الذي نتعهده بالتربية الخلقية والرياضة الجسمية ، واستطعنا حيناً بعد حين ان نصل الى قلوبهم ونملك عليهم مشاعرهم حتى لقد غدوا يرون انهم قطع منا ، وانا لهم آباء ، أو اخوة كبار أعزاء ، واذا قابلنا بين حال هؤلاء الغلمان اليوم ، وحالهم بالامس حين شرعنا في هـذا الجهاد الاجتماعي ، وجدنا في الحق فارقاً كبيراً . فلقد جاؤونا بالامس بأخلاقهم الاولية ، وطباعهم النزّاعة الى الشر والعبث والفوضى . وكان تعهد عنصر من هذا النوع أمراً معنتاً مجهداً. أما اليوم فقد تقوّم عوجهم وصفت سرائرهم، وأصبحنا نلمس في أعمالهم ظاهرة خلقية نبيلة . قد لا نراها في بعض من أوساط المتعلمين

***

لقد جاء احد ابناء المحلة اول ما جاء متأثراً بالشيء الكثير من الخلق السيء فلما يئسنا منهُ ، وابعدتهُ المحلة عن ابوابها ، امطرها وفريق من صبية الحارة مقداراً وفيراً من الطوب والحجارة . ولقد يأخذكم عجب اذا سقت اليكم من امره انهُ اليوم فتىً من خير فتية المحلة ، حسًا وسلوكاً وادباً

كان غلمان المحلة من قبل ، اذا تفوق احدهم على زميله في لعبة من الالعاب الرياضية كال المغلوب للغالب من الشتائم ، وابى ان يبسط يده الى يد خصمه يصافحهُ مهما أريد على ذلك ، وأفهم نبل الروح الرياضي . اما اليوم فان هذا المغلوب ليقبل على غالبه يصافحه ويحييه ، ويهنئهُ بتفوقه شاعراً انهُ قد بذل جهده وأدى واجبه وان خصمه ليس غريماً ولكنهُ أخ

لقد كانوا يرون في المحلة من قبل رأياً غريباً يرون ان كل ما فيها من ادوات يصح ان يتناولوه بالتلف وان كل ما غنم من هذه الادوات انما هو ربح حلال لهم . اما اليوم فانهم يرون انهم قوَّم على كل ما تحتوي المحلة ، وانهم مسئولون ادبيًا عما يفقد منها فاذا وقع شيء من ذلك فانهم يبادرون بالاتيان بمثله او بخير منهُ

توفي احدهم فاشتركوا جيعاً في التعبير عن شعورهم الاسيف ، وتعاونوا بكل ما يملكون من قروشهم القليلة،على زيارة قبر اخيهم،ومعهم ما يحملون من الصدقات المعروفة في مثل هذه الاحوال

كنا نعطيهم من مكتبة المحلة مجلات يطالعونها فاذا ما انتهوا منها ردوها الينا ، فكان بعض هذه المجلات لا يعاد ، وكان بعضها الآخر يعاد مشوهاً مبتورة منهُ صحائف ، او منزوعة منهُ صوره . اما اليوم فقد استقام امرهم ، ولم يعد شيء من ذلك يقع . بل لقد بلغت بهم دقة الحس ان اصبحوا يمدون المحلة بمجلات ،ويرقبون بانفسهم صيانتها في ايدي اخوانهم القارئين

كان عسيراً ان يذعنوا لمن يقوم عليهم . اما اليوم . فاذا اتفق ان تغيب القائم بسكرتارية شئون

المحلة عن دارهم ، فانهم يختارون من بينهم عليهم وليًّا ، ويبذلون في سبيل طاعته مايبذل أخ اصغر في سبيل طاعة اخيهِ الاكبر المحبوب

وانما نضرب في هذا الشأن الامثال لنرى كيف أفلح الروّاد في تهيئة هذا التطور النفسي ، وكيف أثمرت رسالتهم الخلقية ثمرتها المرجوّة . وكيف انا لم نكن مسرفين في الظن حين قطعنا بان غرائز هؤلاء الغلمان لم تكن تخلو من عناصر الخير وان في مستقرّ انفسهم حسًّا لطيفاً ووجداناً عامراً ، وانهم انما كانوا مفتقرين الى تلك اليد الخيرة البيضاء تمسهم برفق فتوقظ فيهم فضيلة نائمة وتخرجهم الى النور من ظلام المجتمع . ولقد زادنا ذلك يقيناً بان نظام المحلات اوفق ما يكون نظاماً يبدأ بهِ في سبيل تهذيب البيئة وأصلح ما يكون نواة يستهل بغرسها من اجل الاصلاح الاجتماعي

***

تبدأ سن غلمان المحلة من الثانية عشرة وتنتهي في العشرين . وليس معنى ذلك ان مبدأ المحلة في صدد الخدمة العامة لا يسمح بتجاوز هذه السن ، او بقصر الجهود على امثال هؤلاء الغلمان. ان نظام المحلة ومبدأ الخدمة العامة فيها يتسعان لغير ذلك . يتسعان للشيوخ كما يتسعان للصبية ، يتسعان للنساء كما يتسعان للرجال . فجمهورنا المصري في حاجة الى الاصلاح . لا فرق بين عنصر وعنصر او جنس وجنس . لكن صعوبة التأثير في كبار السن وضعف الامل في اخضاعهم لنظريات التربية العلمية الحديثة — لكن مجابهة هذه الظاهرة من جانب ، ومجابهة الظروف الاجتماعية في مصر من جانب آخر ، وضرورة الحرص والحذر في بدء مثل هذه الحركة ، لكن ذلك كله الجأنا الى ان نبدأ بهذه السن . فاتسعت الخطوة . واثمرت الجهود . وانتجت آخر الامر ما سميناه بالاخوة الكبار

فلقد قسمنا ابناء المحلة اقساماً راعينا فيها التجانس الخلقي . وأوثقنا بينها عرى التواصل . وأقمنا على كل قسم رائداً . يتعهد شئون اخوته الصغار ويسعى ما يستطيع في سبيل حل مشكلاتهم وتسوية امورهم . وقد راق ابناء المحلة هذا النوع من الصلة . فشغفوا بهؤلاء الاخوة الكبار واخذوا يبثونهم ما في صدورهم. حتى انهُ ليصرحون باشياء ما كانوا ليصرحوا بها لولا هذه الصلة الروحية. وما اثمرت في النفوس من ثقة بهم واطمئنان اليهم ولقد بلغ من نجاح فكرة الاخوة الكبار ان تمدى النشاط جوانب المحلة الى بيوت هؤلاء الغلمان انفسهم . فهم يختلفون اليهم فيها بين حين وحين . ويتصلون في ذلك باهلهم وذوي قرباهم . ويوفقون من ذلك الى دراسة عملية حقة لهذه البيئة تمكن لهم ان يلمسوا مكامن الداء فيها . وتمكن لهم من بعد ان يشقوا في سبيل الاصلاح طرقاً واضحة النهج . قائمة على اساس مشاهد ملموس

على ضوء هذه التجربة العملية ايها السادة. وامام هذا الاثر الذي اثمرته جهود المحلة في تلك المدة القصيرة ، نرانا اليوم اعمق ايماناً بوجوب تعميم المحلات في سائر نواحي القطر. ولو ان موارد الروّاد تتسع لذلك لكان لهم اليوم محلات عدة . ولكان جهادهم ارحب افقاً مما هو عليهِ اليوم . لكن

الموارد ضيقة محدودة . ورأس مال الروّاد يعتمد حتى الآن على ما يبذلون منهُ في سبيل مثلهم العليا من مالهم الخاص . وهم في هذا يقفون عند حد طاقتهم . وهي طاقة ضعيفة لا تحتمل الارهاق

تلك جهود المحلة في الطبقات الفقيرة غير المتعلمة. ولما كان الروّاد يرون ان اجدى سبيل يستكملون به رجولتهم سبيل الرحلات والمعسكرات . واستغلال اوقات الفراغ . فقد قاموا برحلات وانشأوا معسكرات ودعوا الى الاشتراك في هذا العمل الطلبة وشباب الموظفين المثقفين

وتقسم اوقات هذه المعسكرات الى اقسام ثلاثة

القسم الاول منها : يحتوي على دراسات منظمة لنواحي المجتمع المصري. يتكلم فيها فريق يعرفون بتعمقهم في الشؤون الاجتماعية

والقسم الثاني منها : يخصص لرياضة الجسم والاخذ بسبب من اللهو البريء

والقسم الثالث منها : يمس حياة المعسكر. اذ يعتمد المشتركون فيه على انفسهم فهم الذين ينظمون مضاجعهم ويعدون مأكلهم ومشربهم

هذه هي الاسس التي توزّع عليها اوقات المعسكرات التي تقيمها ولعلكم تلمسون ان الروّاد لم يدعوا جانباً من الجوانب التي يتطلبها الكمال الانساني الاّ حاولوا ان يأخذوا بسبب منهُ. فهم يحاولون ان يكسبوا الجسم سلامة وقوة. والنفس صفاءً وسموّاً. والعقل ثقافة ومعرفة. والخلق استقامة وصلابة

نريد ان نروّض الشباب المتعلم على التخشن والتقشف وممارسة المصاعب والاستهداف للمخاطر. نريد ان نغري الشباب المتعلم قليلاً عن التأنق في هندامه والاستسلام الى اللين والطراوة . فاللين والطراوة ليسا من شيمة الرجال . نريد ان نغري الشباب المتعلم بتذوق المشاق في سبيل المثل العليا . هذا بعض ما نرمي اليهِ من اقامة الرحلات وانشاء المعسكرات . ولعلّ معسكر القناطر الخيرية الذي انشأناه في منتصف الشهر الماضي والاسس التي قام عليها فاتحة طيبة لتحقيق هذا الحلم الذي نعمل له : تكوين جيل من الشباب . قوي في جسمهِ . صلب في خلقه . نزاع لكل فضيلة : جيل يصح ان يسمى جيل الاشبال

ايها السادة : لدينا في المحلة الآن ثمانون صبيًّا او نحو ذلك. هم ثمرة مجهود الرواد منذ انشأوا محلتهم حتى اليوم ولقد يستضئل بعضكم هذه الثمرة . ويرى ان مجهود الرواد بطيء او انهُ متثاقل بليد . اما نحن فلا نرى في تلك الثمرة هذا الرأي . فهي من جانب ثمرة طبيعية نضجت في اوانها . وهي من جانب آخر ليست برهاناً على كل الرواد ولكنها آية على شدة يقينهم في هذا الشأن . القياس عندنا بالعمل في حد ذاته وليس بكثرة الثمر كائناً ما يكون . وان عملاً يؤدّى على مهل ويسير على اسس ثابتة وينتج نتاجاً ناضجاً قليلاً خير من عمل سريع يؤتي نتاجاً كثيراً غير ناضج . لم يضرنا اذن على عنت المسعى وطول الزمن ان نجني مثل هذا القطف اليسير . فالبحر الفياض في اصله قطرة . والبناء الشاهق في اصله لبنة

بحث تاريخي نقدي في

ألف ليلة وليلة

للدكتور احمد ضيف

هذا الكتاب هو أشهر الكتب القصصية في لغة العرب بل في جميع اللغات . فلقد قال بعض الباحثين من الاوربيين أنهُ لم يفقه في شهرته غير « التوراة » لانهُ اكثر الكتب قراءة وأوسعها خيالاً وأعظمها غرابة وأحفلها اسطورة وخرافة . لذلك ذاع امره في عالم الادب في الشرق والغرب فهو المثال الذي سار على نهجه كتّاب العرب في قصصهم وشغف بهِ الفرنجة فحاكوه في بعض حكاياته الأدبية

ولكن أدباء العرب ومؤرخيهم وصفوهُ بأنهُ كتاب « غث بارد » كما ذكر ذلك « ابن النديم » في « الفهرس » و « المسعودي » في « مروج الذهب » . ذلك لأنهم نظروا إلى عبارته واسلوبه فوجدوا فيهما كثيراً من الخطإِ اللغوي والبياني فلم يرقهم ذلك . ثم رأوا ما فيهِ من مجون وأساطير مما لا يتفق مع التهذيب العقلي والنفسي فلم يُعْنَ أحد منهم بالبحث عما فيهِ من مسائل فنية أدبية او صور نفسية او اجتماعية منبثة في كل ناحية من نواحيهِ ولا بما يظهر خلال اساطيره ومجونه من الحقائق الانسانية وسجايا الانسان وأخلاقه . فانصرفوا عن دراسته انصرافاً كليًّا

ولم يكشف لنا عن غوامضه غير المستشرقين من الاوربيين فقد كتبوا فيهِ الكتب الكثيرة والرسائل القصيرة والطويلة . وترجمهُ الادباء منهم الى لغاتهم . وقد ذكر كلَّ ما كتب عنهُ وترجم منهُ البحاثة البلجيكي فيكتور شوفان Victor Chauvin في كتابه فهرس الكتب العربية Bibliographie des Ouvrages Arabes فملأ من ذلك اكثر من مجلد من هذا الكتاب . والمباحث التي كتبت في « الف ليلة وليلة » كثيرة مذكور جلها في « دائرة المعارف الاسلامية » عند الكلام عليها . وقد كتب هذا البحث العالم الدانمركي « أستروب » — Oestrup » الذي عني عناية عظيمة بدراسة هذا الكتاب وكتب فيهِ رسالة تقدم بها لامتحان الدكتوراه في « كوبنهاج » وطبعها باللغة الدانمركية عام ١٨٩١ . وهذه الرسالة تحسب من المباحث الجليلة . فقد ناقش فيها المؤلف الباحثين قبله في آرائهم . وقد ترجم ملخص ما فيها الى اللغة الفرنسية وطبع في مذكرات المجمع الفرنسي الشرقي للمباحث الأثرية بالقاهرة ضمن الجزء السابع والعشرين عام ١٩١٢ Memoires publiés par les Membres de l'institut Français d'archeologie Orientale du Caire, Tome vingt-septieme ومن المباحث الجليلة ايضاً رسالة « فيكتور شوفان » المسماة

La Rècension Egyptienne des Mille et une nuits المطبوعة في مدينة بروكسل سنة ١٨٩٩

ومنها البحث الممتع الذي كتب في «دائرة المعارف الاسلامية» و«دائرة المعارف البريطانية» وهناك مباحث كثيرة لبعض العلماء من الانكليز والالمان والفرنسيين والروسيين وغيرهم مما لا يسع المقام ذكره فقد كتب بعضها في مجلات وبعضها في رسائل صغيرة وكلها او جلها مذكور « في دائرة المعارف الاسلامية » . وقد كان للمجادلات التي دارت بين « شوڤان — واستروپ » فضل عظيم في الكشف عما تحتويه « ألف ليلة وليلة » من مسائل تاريخية وفنية دوّنت في الكتابين السابقين

﴿ أصل الكتاب وآراء الباحثين فيه ﴾ عند ما ذاع ألف ليلة وليلة في اوروبا اقبل على دراسته علماء الادب والتاريخ من المستشرقين وغيرهم واول بحث ظهر في ذلك كان للمستشرق الفرنسي الشهير «سلفستر دي ساسي Sylvestre-de-Sacy » في سنة ١٨١٧ وقد استمرّ في بحثه الى سنة ١٨٣٣ فكتب كثيراً من المباحث في موضوع هذا الكتاب واصله وسار على أثره في ذلك غيرهُ من المستشرقين

وقد استرشد الباحثون في مباحثهم بعبارة المسعودي الواردة في كتابه « مروج الذهب » اثناء كلامه على « ارم ذات العماد » اذ قال : « وسبيلها سبيل الكتب المنقولة الينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية» .وسبيل تأليفها ما ذكرنا مثل كتاب « هزار افسانه » وتفسير ذلك من الفارسية الى العربية الف خرافة . والخرافة بالفارسية يقال لها افسانه . والناس يسمون هذا الكتاب «ألف ليلة وليلة» وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتهما . وهما « شيرا زاد ودينا زاد » . ومثل كتاب « مرزة وشيماس » وما فيها من اخبار ملوك الهند والوزراء . ومثل كتاب السندباد وغيرها من الكتب في هذا المعنى »

واعتمد الباحثون ايضاً على عبارة « ابن النديم » التي قال فيها : « اول من صنّف الخرافات وجعل لها كتباً واودعها الخزائن وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان الفرس الأوَّل ثم اغرق في ذلك ملوك الاشغانية وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس . ثم زاد ذلك واتسع في ايام ملوك الساسانية ونقلتهُ العرب الى اللغة العربية وتناوله العلماء والبلغاء فهذبوه ونمّقوه وصنفوا في معناه ما يشبههُ واول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب « هزار افسانه » . وكان السبب في ذلك ان ملكاً من ملوكهم اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد فتزوج بجارية من اولاد الملوك ممن لها عقل ودراية يقال لها « شهر زاد » فلما حصلت معه ابتدأت تخرفه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ويسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى أن أتى عليها ألف ليلة والى ان رزقت منهُ ولداً أظهرته وأوقفته على حيلتها عليه فاستعقلها ومال اليها واستبقاها »

هكذا يروون السبب في أصل هـذا الكتاب . ولكن الباحثين اختلفوا في ذلك لعدم وجود برهان قاطع على ما في كتابي « المسعودي » و « ابن النديم » . ولقد اضطربت أقوالهم في ذلك حتى لقد كان يرى أحدهم الرأي ثم يرجع عنهُ كما فعل (دي ساسي) في مباحثه فقد ظنّ أولاً أن

هذا الكتاب كتب بقلم كاتب واحد في العصر العباسي الاول ثم رجع عن هذا الرأي وقال انهُ كتب بعد ذلك . ثم زيدت عليهِ حكايات وأنه عربي صميم ليس فيه شيء هندي ولا فارسي ورأى المستشرق الالماني «همر von Hammer» غير ما رأى «دي ساسي» واعتمد قول «المسعودي» من ان أصل الكتاب فارسي ثم ضمت اليهِ حكايات هندية ويونانية وعربية وان الحكايات العربية دخلت ضمن القصص الاخرى حول اسم « هارون الرشيد » ومن عاصرهُ وان البدء في تأليف هـذا الكتاب كان في زمن الخليفة «المنصور» ورأى بعضهم أنهُ كُـتِـبَ زمن العباسيين على أثر انتشار أخبار الفرس وحكاياتهم على ألسنة العامة ثم زيدت عليهِ قصص اخرى في أماكن وأزمان مختلفة وقد بلغ الاضطراب في آراء هؤلاء الباحثين ان نفى بعضهم كل أثر فارسي أو هندي في هذه القصص كما رأى ذلك العالم الانكليزي « لين Lane » الذي قال أنهُ كتب بقلم كاتب واحد بين سنة ١٤٧٥ — سنة ١٥٢٥ ميلادية . بل رأى بعضهم أن بعض قصصه مأخوذ من «الأوذيسى » لهوميروس الشاعر اليوناني القديم وضرب لذلك مثلاً بقصة « السندباد البحري » (راجع :

Homére et les Mille et une nuits, par Victor Chauvin, extrait du Musée belge. Revue de philologie classique.

وقسّم « مولر Müller » الألماني الكتاب أقساماً : قسماً منه كتب في بغداد والقسم الاكبر كتب في مصر . وتوسع في هذا التقسيم « نولدك Noldeke » وحدد كل قسم منها وجاء البحاثة استروب فجعل أقسام الكتاب ثلاثة : الاول يحتوي على القصص التي أخذت عن الاصل الفارسي «هزار افسانه» . والثاني قصص كتبت في بغداد . والثالث قصص اضيفت الى ذلك وكتبت في مصر . وقال ان هناك حكايات أخرى عربية أُدخلت في الكتاب مثل حكاية « عمر بن النعمان و أولاده »

وقد بحث هذا التقسيم وتوسع فيه المستشرق البلجيكي شوفان الذي سبق ذكره في كتابهِ السابق . وقال : « ان ما كتب في مصر كتب قسماً منهُ جماعة من الاسرائيليين الذين اعتنقوا الاسلام ؟ وقسم كتبهُ مسلمون »

ولا يسعنا ان نذكر كل آراء الباحثين ذكراً مفصلاً لكثرتها وتشعبها . ولا شك في أن لهذا الكتاب أصلاً فارسيًا وهنديًا نقل الى اللغة العربية في القرن الثالث الهجري كما يقول الباحثون فقد لاحظوا عند مقابلة الكتاب العربي بالكتاب الفارسي «هزار افسانه» أو ببعض القصص الهندية المعروفة أن كثيراً من القصص العربية هي عينها تلك القصص الاصلية مع تغيير ضئيل اقتضاه النقل وعبث الرواة والكتاب والناقلين من العامة والخاصة . وان ما حصل من اختلاف كان في بعض الصور والاسماء القديمة التي استبدل بها غيرها من الصور والاسماء العربية . هذا فيما عدا ما كتب في مصر وبغداد

فمن علامات القصص الفارسية أو الهندية التي ترجمت الى العربية احتواؤها على اسماء فارسية مثل « شهر زاد » و « شاه زمان » وغيرها ، ومثل الكلام على النساء وخيانتهن لأزواجهن وما في ذلك من المكر والخداع والحيل الغريبة والاساطير الكثيرة والاخيلة العجيبة التي تحسب من صور العقل الفارسي أو الهندي . مثل ما جاء في حكاية قمر الزمان : «ثم دقت بكفها الارض فطلع منها عفريت أعور أحدب أجرب وعيناهُ مشقوقتان في وجههِ بالطول وفي رأسه سبعة قرون وله أربع ذوائب من الشعر مسترسلة الى كعبيهِ ويداهُ مثل المداري ورجلاهُ مثل الصواري ولهُ أظفار مثل أظفار الاسد وحوافر مثل حوافر الحمار الوحشي » ص ١٨٨ طبعة بيروت ج ٢ ومثل هذا كثير في هذه القصص . ويظهر أنها لم تنقل الى العربية بنصها الاصلي بل أدركها تغيير وتبديل وزيادة وحذف فدخلت فيها عبارات إسلامية وآراء دينية كما جاء في قصة الملك شهرمان وابنه من مثل العبارات الآتية : « فقال له ذلك الوزير لعلَّ الله يحدث بعد ذلك أمراً . فتوكل على الله أيها الملك وابتهل إليهِ . فقام الملك وتوضأ وصلى ركعتين ودعى الله تعالى بنية صادقة». وكما جاء في هذه القصة : «ثم قام وتوضأ وصلى المغرب والعشاء وجلس على السرير يقرأ القرآن فقرأ البقرة وآل عمران ويس والرحمان وتبارك الملك والاخلاص والمعوذتين وختم بالدعاء » (حكاية قمر الزمان والعفريتة الميمونة الجزء الثاني طبع بيروت) وفي هذه الحكايات ما يشبه ما في القصص الهندية في أسلوبها وموضوعاتها مثل حكاية التاجر العارف بلغة الحيوان ومثل قصة الوزراء السبعة والتاجر والجني وقصة الصائغ والجني. قالوا ومن أساليب القصص الهندية تسلسل الحكايات ودخول بعضها في بعض وذكر القصة لالهاء السامع ومنعه من الوصول الى غرضه وذكر العبارات الآتية : « يلزمك ألاَّ تفعل هذا حتى لا يحصل لك مثل ما حصل لفلان». وكالعبارة المكررة كثيراً في هذه القصص وهي سؤال رجل لآخر « فكيف كان ذلك ؟ » فهذه أساليب هندية يقولون أنها في القصص المنتشرة بين العامة . ويستدلون على ذلك بأن أصل هذه القصص المنقولة الى العربية هندي أو فارسي زيدت عليهِ صور أخرى من الحياة العربية الاسلامية

﴿القصص المصرية﴾ قد يجد القارىء المصري لبعض قصص « ألف ليلة وليلة » تشابها بينها وبين ما هو مألوف من اسلوب احاديث العامة او الخاصة وما هو معهود من اخلاق وعادات مصرية : سواء كان ذلك في الاحوال الاجتماعية ، او النفسية . ولقد تكون هذه القصص مكتوبة بأسلوب عربي مصري ، او لهجة مصرية ، وهذا ما يحمل على التصديق بأن هذا الكتاب قد احتوى على قصص مصرية ، كتبت في مصر ، بأقلام كتّاب مصريين وتمتاز هذه القصص بصفات منها ان موضوعاتها ليست خيالية بحتة ، بل مأخوذة من الحياة العامة المصرية وان ليس الغرض منها جذب القراء اليها بما فيها من الغرائب والعجائب التي لا يصدقها إنسان عاقل كما في القصص الفارسية او الهندية المملوءة بالاساطير والخرافات

ومنها ان الكاتب يعتمد فيها على ما في نفسه من أثر الحوادث التي شاهدها في حياته ورسم الاشخاص الذين عرفهم ورآهم وانهُ اذا وجد شيء من الاساطير فأنهُ يكون بقدر الحاجة

ومن صفات هذه القصص ان الاشخاص الذين فيها هم جميعاً ممن يعيشون بكدهم ولا تكاد تجد بينهم من ساعدهم الحظ فأصبحوا من الاغنياء او نكبتهم الايام فصاروا من الاشقياء لأنهم يعتمدون على المصادفات. لهذا تجد الكاتب كثيراً ما يتكلم عن الصناعات. ويذكر رجالاً من التجار يتكلم عن تجاراتهم وسلعهم كما في قصة «الاحدب» وكما في الكلام على «ابو قير» ومصبغته «وابو صير» وحمامه وغير ذلك. ومن هذه القصص قصة «معروف» الاسكافي المشهورة. وبمناسبة ذلك قال بعض الباحثين ان غير القصص المصرية مملوء بالخيال والمبالغة والأثرة او حب النفس وانها عبارة عن حلم شعب خمول يود ان يعثر في اثناء فسحه على المعادن والجواهر ليصبح من الاغنياء

ومن صفات القصص المصرية ان شخصية الكاتب فيها ظاهرة تمثل نفسه وكأنهُ يدرس موضوعاً شاهدهُ فهو يتوسع في شرحه

ومنها ان اكثر هذه القصص قصيرة وان الصبغة المصرية ظاهرة فيها: من فكاهة ونقد حلو وخفة روح

ومن اعظم مميزاتها ان كاتبها عارف بالافتنان والاساليب القصصية عالم بكيفية سرد الحوادث كما قال العالم الالماني «كرامر» وكما يرى في قصة معروف الاسكافي وعلي الجوهري وقصة التاجر علي المصري والتاجر حسن الجوهري وقد لاحظ الباحثون ان القصص المصرية كثيراً ما تتشابه في الحوادث والموضوعات ووجدوا ان في بعضها اطراء المرأة المصرية كما في الكلام على قمر الزمان

وهناك مميزات اخرى تظهر للقارىء في اثناء قراءته فيشعر بأنها كتبت بأقلام مصريين وعقول مصرية

﴿القصص الاسرائيلية المصرية﴾ تمتاز القصص الاسرائيلية التي كتبها اسرائيليون مصريون قد يكون بعضهم اعتنق الاسلام بأشياء

منها: ذكر الاسماء والاماكن العبرية كسليمان وداود وآدم وبيت المقدس وذكر المسائل التاريخية العبرية كوصف الارض وارتكازها مما اخذ من كلام وهب بن منبه وكمحاربة العفاريت بعضها بعضاً وتحول الانسان الى رماد وكحكاية الشرير الذي اختطف رجلاً وطار في الهواء فأصابته ضربة من حربة ملتهبة ارسلت اليه من الملائكة. وكالقصة التي ذكر فيها: ان اعرابيًّا زار هاروت وماروت اللذين كانا مسجونين في بئر في بابل. فلما رأى طولهما العظيم العجيب فزع من هذا المنظر فذكر الله تعالى فانطوى جسمهما وصار على شكل مربع وكان يرافق العربي في هذه الزيارة يهودي. وقد رأى بعض الباحثين ان الغرض من امثال هذه الحكايات التهكم بالمسلمين

ومن اشهر الحكايات الاسرائيلية: حكاية «بلوقيا» المذكورة ضمن قصة «حاسب كريم الدين

ابن دنيال الحكيم» اذ يظهر ان كاتبها وقف على قسط وافر من الاساطير الاسرائيلية كذكر الحياة وأرها والسعي في الحصول على خاتم سليمان وذكر الغرائب والعجائب . فمن امثال ذلك ان الله خلق جبلاً قدره مسيرة خمسمائة عام وهو من الثلج والبرد وهو الذي رد حر جهنم عن الدنيا : ولولا ذلك الجبل لاحترقت الدنيا من حر جهنم وان الارض سبع طبقات يحملها ملك وتحت الملك صخرة وتحت الصخرة ثور وتحت الثور حوت والحوت في بحر تحته هواء وتحت الهواء نار وتحت النار حية عظيمة ولولا خوف الحية من الله تعالى لا بتلعت جميع ما فوقها وان الحية فتحت فاها فأدخلت جهنم في بطنها وقيل لها احفظي جهنم الى يوم القيامة . فاذا جاء يوم القيامة امر الله الملائكة ان يأتوا ومعهم سلاسل يقيدون بها جهنم الى المحشر (راجع القصة في الجزء الثالث من ألف ليلة وليلة صفحة ١٢٠ من طبعة بيروت)

ومن اساطير هذه القصص الاسرائيلية انهُ لما توفى سليمان عليهِ السلام وضعوه في تابوت وعدَّوا بهِ سبعين بحراً وكان الخاتم في اصبعهِ ولا يقدر احد من الانس ولا من الجن ان يأخذ هذا الخاتم... وانهُ وجد في بعض الكتب ان بين الاعشاب عشباً كل من اخذ منهُ شيئاً وعصره واخذ ماءه ودهن بهِ قدميه فانهُ يمشي على اي بحر خلقهُ الله تعالى ولا تبتلّ قدماه ولا يقدر أن يحصل انسان على هذا العشب الاّ اذا كانت معهُ ملكة الحيات . . . . وثمة كثير من هذه الاساطير الاسرائيلية . ومن الادلة على انها اسرائيلية وان كاتبها اسرائيلي مصري انهُ جاء في هذه القصة ان « بلوقيا » عندما دخل بيت المقدس كان يقرأ في التوراة وقد سئل عن اسمه فقال « بلوقيا» وانهُ من مدينة مصر

هذا ورغم كل هذه الجهود التي بذلها العلماء في البحث في هذا الكتاب لا يزال اصله مجهولاً ومؤلفه مجهولاً والزمن الذي كتب فيهِ مجهولاً ايضاً

ولقد يلتمس الانسان عذراً لبعض الباحثين الذين قالوا ان الكتاب حديث العهد بالتأليف فان حكاياته على اختلافها في الموضوعات متشابهة الاسلوب في جلتها حافلة بروح العامة من الكتّاب المسلمين خاصة بلهجاتهم . وقد يكون اكثر هذا الروح انتشاراً هو الروح المصري

والغالب على ظننا ان « هزار افسانه » الذي يقولون انه اصل هذا الكتاب ذاع امره بين الخاصة في العصر العباسي ولم تنتشر النسخة الاصلية منهُ كما نشرت « كليلة ودمنة » وغيره

ثم اعجب الناس بما نشر من تلك الاحاديث لغرابتها وانتشرت في المجالس والمحافل وزاد عليها الفرس وابناؤهم من التجار وغيرهم فجمعها بعض العامة او الخاصة كما فعل الجهشياري الذي كتب كتاباً « اختار فيهِ الف سمر من اسمار العرب والعجم والروم وغيرهم . واحضر السامرين فأخذ عنهم احسن ما يعرفون ويحسنون »

ولعلَّ الكتاب كتب اولاً بعبارة صحيحة ثم تناوله الناس وغيروا وبدلوا فيهِ واضافوا اليهِ كثيراً من احاديثهم وحكاياتهم العامية ليكون اوقع في نفس العامة فظهر على ما هو عليهِ الآن

شخصية شهر مارس — ٣

ليون دوديه

LÉON DAUDET

لِلآنسة « مي »

جزنا بالموضوع السابق حدود اسبانيا الى هاندي فسار بنا السبيل السوي والجوار الجغرافي الى أدباء فرنسا . وكنتُ في شاغل من التخيُّر بين ذوي الشأن الأدبي الخاص عندما رأيت برقية بتاريخ ٢٦ يناير تنبيء بأن المحاكم الفرنسية العليا أيدت الحكم الابتدائي بتغريم ليون دوديه خمسين الف فرنك تعويضاً للجنرال ديلانج والكولونيل كولومبو اللذين كان اتهمهما بقتل ولده فيليب

أليست هذه الشخصية تفرض نفسها في هذا الظرف على نوع ما ؟ وهي وان لم تكن ذات نزعة متفردة في الادب الا انها من اغرب الشخصيات وأغناها ومن اوفرها تنوعاً وانتاجاً ، ولصاحبها موقف خاص بين كتّاب فرنسا من الوجهة السياسية ، وصبغته السياسية كثيراً ما تتسرب الى مختلف كتاباته ولكنها بوجه عام لا تحدُّ من حريته الفكرية ونزعاته الانسانية . فكأن السياسة كلما تحاشيتُها تعمدتْ النكاية بي فامتزجتْ بالشخصية التي أقلبها . كذلك اغرتني المفارقات بين اونامونو ودوديه الذي هو ، عدا العقيدة السياسية ، اقرب الى ابقانييث . ولئن كان دوديه ايضاً في سن السبعين او يزيد قليلاً فهو مع ذلك في تطور مستمر وعلى مرونة عقلية وعاطفية دونها مرونة الشباب احياناً : « كلما تقدمت في السن زدتُ ابتعاداً عن الاساليب المألوفة وأمعنت في الاستعداد لتقبل الصيغ الجريئة وتعرُّف المواهب الصادقة مع العطف على الذين يبحثون فلا يجدون ... »

***

هو زعيم حزب الملكيين بفرنسا . وهذا الحزب ضئيل العدد الا انه كثير الجلبة وصيحات « مرَبّحة الملك » (Les Camelots du Roi وهو الاسم الذي يطلق على انصاره من طبقة العمال والفقراء والباعة المتجولين) تدوي عالية ويتناقل البرق انباء صولاتهم ومغامراتهم ومظاهراتهم في كل ظرف سياسي مؤاتٍ . وأهمية الحزب في اقلام زعمائه وبينهم ، مع دوديه ، نفر من امهر الكتاب . وليون دوديه هو صاحب جريدة « لاكسيون فرانسيز » ، لسان حال الحزب ، ومناصرة

الدين الكاثوليكي لأنه دين ملوك فرنسا . فهي تحمل الحملات العنيفة على سياسة الجمهورية عموماً وبخاصة لانها تفصل بين الدولة والدين ، وقد اضطهدت المدارس الدينية ورجال الدين في وقت ما. فكان المنتظر ان تكون الكنيسة ذات عطف خاص على تلك الجريدة التي تخدم مصلحتها في نزاهة واخلاص وتجرد من المنفعة . ولكن لا ، وذلك بعض الوقائع الغريبة في شؤون دوديه ! لان الكنيسة التي تجامل حتى مضطهدي رجالها ، تناهض جريدة « لاكسيون فرانسيز » وترشقها بالحرم الاكبر وتحظر على الكاثوليك مطالعتها والاَّ كانوا خارجين عن حظيرة المؤمنين !

لا يتسع المجال لذكر الاسباب الداعية الى هذه المقاطعة . والذي يهمنا من الامر هو قول دوديه : « تلك الاضطهادات لم تؤثر في لحظة ولم تزعزع من ايماني . بل بالعكس تبدو لي كتجربة من العناية الالهية تعدنا للظفر النهائي بعودة الملك الى عرشه ... يجب ان لا نحنق . فقد قال موراس ان الحنق والغضب والازدراء ليست من اللباقة السياسية في شيء »

وشارل موراس رئيس تحرير « لاكسيون فرانسيز » من ابرع الكتاب ومن القليلين الذين يعجب بهم دوديه ويتعصب لكرامتهم . فمن تحدّاه او اساء اليه فقد أثار سخط دوديه عليه ونبه بداهة السخرية والهجو التي لا تحتاج عند دوديه الى تنبيه . من ذلك ما يتصل باعلان رأيه في الاكادميا الفرنسية مع اعترافه اولاً بأنهُ كأبيه (الكاتب القدير الرشيق المرحوم الفونس دوديه) لايطمع في عضوية الاكادميا ولن يكون يوماً في عداد متسولي المناصب والوظائف والاوسمة . ولئن قبل عضوية اكادميا جونكور فلصداقة صميمة بينه وبين مؤسسيها ولأن أحد الاخوين جونكور جعله قيّماً على تنفيذ وصيته بعد وفاته

« الاكادميا الفرنسية لا تقبل إلاَّ كلَّ مدكوك من متقني المعرَّ واللحس حيال أولي الامر . لم يكن لها بلزاك ، ولا بودلير ، ولا برودون ، ولا ميشليه ، ولا ألفونس دوديه ، ولا فلوبير ، ولا جونكور ، ولا ميسترال كيلا نذكر غير اولئك الثمانية . الاَّ أنها حوتْ أمثال إيكار ، واميل لوليڤييه ، وبوانكاره ، وبارتو ، وهانوتو — وما هم الاَّ مرقة غزَر ماؤها جديرون بغسيل أواني الصفيح ، عصابة الشعراء الملفقين ، ديدان (larves) المحابر وساسة أغبياء من الذين يُربّلون و... وقد آثرت الاكادميا أخيراً خردة من خرداوات باخرة «السويس» ، سليستان جونار الذي لم يكن له ذكر في لغة من اللغات ، على شارل موراس صاحب العبقرية العالمية ... انها لا تقوم بخدمة ولا تمثل شيئاً . . . وبعض ذوي الحيثية الذين جندلوا في مقاعدها لا يعوضون عن فناء الآخرين وانتفاخهم ، هؤلاء حُطام الصالونات والجمعيات والسكريستيات والمحاكم ومجالس الادارة . . . غبار المحابر والحصر والدهاليز ...

« والاكادميا تغصُّ من الشخصيات ... فاذا رغب فيها رجل فلا تردُّهُ عنها حقارة وصارت عنده

فكرةً ملازمة وهوساً . وقد تمليتُ من أميل زولا عند ما كان فريسة ذاك الداء الغريب . . . . تلقيت عن والدي عدم الاكتراث بما يسمونه «مجداً» وأنا في سعةٍ من العيش نلتها بكدّي فأتاح لي ذلك الاعراب بحرية عن عقائدي وآرائي وبما أشعر به من ميل أو نفور فلا يهمني أأرضيت هـذا أم اغضبت ذاك . فكرة التوسل لنيل غرض ما بغيضةٌ اليَّ . احترم الاشخاص او احتقرهم وفاقاً لمقياسهم (الادبي) لا لهندامهم او وظيفتهم او ثروتهم »[1] ...

***

وهـذا موقفه حيال الأموات ايضاً . فهيبوليت تين مثلاً الذي هو عند الكثيرين إمام في دراسات النقد ذي الصبغة الفلسفية والعلمية في الادب والفن والاجتماع ، ليس في نظر دوديه سوى «مؤرخ حاذق وكاتب في الدرجة الثانية واستاذ ولكنهُ ليس بفنان ، فهو لم يفهم شيئاً من الأدب الانجليزي وكتابهُ في هذا الموضوع عجز فاضح» . أما الامة الانكليزية وبلادها وآدابها واخلاقها وجمال نسائها واصناف المآكل في مطاعمها فتثير كلّها تطلعهُ واعجابهُ . فيفسر عادات الانجليز والبريطانيين عموماً وميلهم الى الكآبة والسآمة (Spleen) وحبهم للنكتة تفسيراً علمياً. على نقيض الالمان الذين يرى فيهم جيراناً لا يركن اليهم . وفي الرسالة التي نشرها ابان الحرب[2] دعا الى مقاطعة الروح الالماني واللغة الالمانية والفلسفة الالمانية التي انتشرت في الشبيبة الفرنسية بعد حرب السبعين والتي لا تتفق في نظره والنفسية الفرنسية

وقد كتب في منفاه ببلجيكا قبل سبعة اعوام : « لا اريد بعد اليوم ان ارى المانيًا ولا ان اتحدث مع الماني، وان كنت احبُّ الشعر الالماني والعلم الالماني واللغة الالمانية وكنت احفظ عن ظهر قلب من قصائد جوته ولیناو وهاينه بقدر ما احفظ من قصائد بودلير وميسترال واوبانيل وهوجو » . والداعي الى ذلك النفور هو استنكاره لمـا اقترفهُ الالمان ابان الحرب . كأن الحرب ليست كلها آثاماً وكأن الالمان وحدهم يأتون فيها بالفظائع ! وقد نسي دوديه ان الشعوب جميعاً في ذلك سواء تكشف عن الهمجية المرعبة في الانسان وتفاخر بأعمال الوحشية متغنية بالكلمة المأثورة « كل شيء مباح في الحبّ والحرب» ...

أما ما يهمهُ هو فمصلحة فرنسا أولاً . ويبتّ بضرورة الحرب وينفي مكان السلام : « قرأت في جريدة «الطان» التي لديها ورق تنفقهُ ، كلاماً عن خيرات العلم الباهرة .. ان العلم لا يبالي بالخير ولا بالشرّ . هو بصير في تجاربهِ وظنونهِ ولو الى وقت ما ولوسط فكري ما . ولكنهُ كفيف عن

(١) الجزء الثاني من كتاب (Paris Vécu) (٢) كتاب (De Kant à Krupp)

نتائجه التي قد تجيء حسنة وقد تجيء سيئة . تلك المدمرات البشرية القنابل ، والمناطيد الحربية ، والغازات المهلكة تكوّن جميعاً جزءاً من العلم العالي شأنها شأن الكرسي الكهربائي ... في منطقة الاختراع الميكانيكي كما في منطقة الكيمياء العضوية ، كل سم يمكن تحويله الى دواء . ان الانسان ليخجله التذكير بهذه الحقائق الاولية...عندما المساكين المتحدثون عن نزع السلاح يذهبون الى جنيف او لندن او غيرها لعرض هـذا الوهم المتبق كالعالم على الجمهور الطائش ، هم لا يفكرون ان نزع السلاح يفرض نسيان مختلف العلوم المستخدمة لتسليح الشعوب ويفرض اهمال جميع الصناعات الثقيلة التي تدعم الحركة المالية خصوصاً في المانيا . التخلي عن التسلح الفتاك يعني اغفال صناعة الغازات والقنابل والطيارات والسيارات والقطارات وكل ما يعتبر مظهراً للتقدم خلال المائة الاخيرة من الاعوام

«وفي هذا الكفاية للدلالة على سخافة هذا الرجاء . وتبقى بعد ذلك الانصل والحراب والسهام المسمومة وغير المسمومة والبنادق القديمة والحصى وأسقاط (bric-à-brac) أرخميدس التي اصطنعتها الشعوب في القتال منذ اكثر من عشرين قرناً . حقاً ان الطفل الذي يشيد قصراً على الرمل لرد اقتحام الامواج ، ليماثل ادراكاً عصابة جامعي شمل «اليوتوبيات» من اهل الشذوذ الذين خرجوا من الحرب خروج الحلزون من صدفته بعد المطر . . . ويبقى شيء اكيد ، وهو ان الذي يبدأ بنزع السلاح يسارع جاره الى الدخول عنده كما في السمن . فيضطر عندئذٍ الى التسلح بعد المجازفة بخسارة نصف قومهِ وثلاثة ارباع اراضيه ...»[1]

***

لم اذكر الى الآن ان دوديه طبيب ولهُ خطير الابحاث في العلوم الطبية ، لا شك ان الموهبة الادبية اوسعتها دقة وحذقاً . وقد اسهب في الكتابة عن ايام دراسته ووصف اساتذته وزملائهِ واصحابه بطريقته الموفورة الحياة فأغدق على هؤلاء الثناء ونال من غيرهم بالسخرية والهجو . ومن هؤلاء الطبيب العالم « شاركو » الذي اشتهر بأبحاثه في الأمراض العصبية ، ابحاث لم تسفر في نظر دوديه الا عن « خرائب مذهبة » . وذكر حوادث انتحل فيها المرضى الاعراض العصبية لتضليل شاركو ، فكان ذلك افكوهة الاطباء والممرضات وطلبة الطب . وتقرأ في مذكراتهِ في المنفى :

« لا أصدق ان العمل غاية الانسان ، غاية الانسان هي بذل النفس لذويهِ ولوطنهِ في مستوى النشاط الارضي ، أما في مستوى النشاط الروحي فبذل النفس لله . غير أن العمل منفذ ضروري لمختلف الغموم التي تنتابنا في هذه الدنيا . وفريضة كسب الخبز بعرق الجبين خير ممهّدٍ لذلك المنفذ . .

(١) كتاب (Vingt-Neuf-Mois d'Exil)

عند ما انشأ سخطي يفور حمدت الى النشاط العقلي أصرفهُ في النقد العام وفي الادب الوجداني وفي الطب . لأني منذ اربعين عاماً أبحث اولاً عن علاقة الامراض بعضها ببعض . ثانياً عن طبيعة الاورام الخبيثة الحديثة التكوّن ووسائل معالجتها ... وفي مطالعاتي وتأملاتي واجهت داء السرطان على ضوء جديد وبخاصة من حيث علاقته بداء السل ... وقد تلقيت عديد الردود على مقالاتي عن السرطان منها الموافق ومنها المعارض ومن كثيرين من الاختصاصيين . وهذا ما كنت أتوقعه ، لان في الطب كما في الفن لا بدّ من التدرّب على الممارسة لدك الاصنام وقلب القيمات ، كما كان يقول نيتشه . وبديهي في مغامرات كهذه حدوث فترات نشاط وفترات إهمال ... معركة حامية مستمرة حيث الباحثون والمغامرون يلاقون النكبات ويقاسونها على غير استحقاق : نظرية جذابة تنهار فجأة . اختبار ذو شأن يفضي الى نتائج سلبية ... إن ذلك الداء المفجع قد روقب وحوصر ولكنهُ لم يُقهر بعد ... »

أو ليس الطبيب الصالح منهُ هو الذي يكتب : « بقي لي في الحياة مسرة ، وهي مساعدة زميل شيخ أو شاب لم ينل المكافأة الواجبة على جهوده ومواهبه ، وقد أغفله النقاد الرسميون وشبه الرسميين بفعل الغباوة أو بقصد الأذى . رجال الأدب مفكّهون . فكل مقال نوهتُ فيهِ بكاتب من هذا النوع وردت عليَّ بعده الرسائل تقول : كيف تثني على من يبغضك ، أو من هو يهودي ، أو من هو جمهوري أو غير ذلك . كثيراً ما فكهني هذا القسم من بريدي قبل ان يطرح في سلة المهملات ... »

وهذا الرجل الرحيب القلب بعينهِ هو الذي اتّهم مالڤي وزير الداخلية بفرنسا مدة ثلاثة اعوام خلال الحرب ، بتهمة الخيانة في خطاب وجههُ إلى مسيو بوانكاره في ٣٠ سبتمبر ١٩١٧ . « وقد حُكم على المتهم بالخيانة وجاءت اكثر حيثيات الحكم تؤيد ما ورد في خطابي » على قول دوديه

وانتخب في تلك الآونة نائباً عن باريس تحت راية الحزب الملكيّ فأثار عنفه وقوة حجته في مجلس النواب عديد المشكلات والمناقشات . وها هوذا يتحدث في ذلك :

« مجلس النواب ! دار كجميع الدور يجب ان تسكنها لتعرفها . وقد سكنتُها أربعة أعوام ونصف عام من دسمبر ١٩١٩ إلى ١١ مايو ١٩٢٤ فاحتفظتُ منها بذكرى مفكهة قلقة : مفكهة لان المجلس « كلوب » تتحاذى فيهِ وتتلامس شتى الآراء والعقائد ، وقلقة نظراً لعجز الجهود ومستقبل البلاد ... أدركت ولمستُ الفناء (néant) التام والغرور الاساسي في هذا النظام ... في المجالس النيابية رجل موهوب لا يستطيع إظهار كل قيمتهِ إلاّ في ظروف استثنائية ليست ميسورة التحقيق . مناورات الاحزاب والشيع ، والاطماع الحقيرة والدسائس من كل صنف ولون تسدُّ الطريق على الارادة الصالحة والعاطفة الوطنية والمصلحة العامة . أجل ، أذكرُ قول كافور انهُ يفضل المجالس النيابية على قاعات الانتظار في بلاط الملوك . وأذكر كزازة بسمارك في آخر عمره من جراء وشايات

البطانة والاعوان في القصور . ولكن نظام الملكية الفرنسية بجميع عيوبه البشرية والأرضية ، أثبت على العصور قدرتهُ في التكوين القوميّ بفضل جدّه المتواصل واجتهاده وفطنتهِ وفنائه »

هكذا زعيم الحزب الملكي يتحين الفرص للاشادة بمحاسن الملكية . وعندما تقبض على قلبه وحشة المنفى يذكر المنفيين من امراء فرنسا : « لا شيء يوازي الاختبار الشخصيّ ، قبل ان أقضي إسبوعين في السجن . لم اعرف ما هو السجن رغم عديد زياراتي للمسجونين . وقبل عامين ونصف عام في المنفى لم يكن لديّ من المنفى سوى فكرة مشوّشة ... مع اني اقتربت من الدوق دورليان الشهم الذي ربث في المنفى ٤٠ عاماً

« وكلما غادرتُ ذاك الامير العظيم كنت أطالعُ في عينيه كآبةً عميقة رحيبة مريرة كالأوقيانوس .. وحشة المنفى اضطراب في المزاج ولوعة ، فهي صنف من السُكْر الأدبي لا العقلي . لأن العقل يظل على صفاءٍ تام ورؤى الاستقراء والاستنتاج فيه أشد جلاءً . ولكن في أعماق الوجدان شيء مترجرج غير مستقر ، شيء يستاء ويزبئر . وكان المنفي المبجل الدوق دورليان يعبر عن ذلك الشعور بطريقة موثرة في تكتم ملوكي خاص بهِ ، وهو انهُ يحمل دائماً في جيبهِ كيساً صغيراً مُلىءً من تربة الوطن ... أنا طبيب بطبيعتي ، ولكن ليس لوحشة المنفى من دواءٍ ناجع ... »

***

وعلام السجن والمنفى ؟

ليس بين قراء الصحف في الاعوام الاخيرة من يجهل فجيعة ليون دوديه بولده فيليب في أحوال مثيرة للشبهات ، فقيل ان الفتى انتحر في حين الوالد اتهم البوليس الفرنسيّ باغتياله . ثم حوكم الوالد بتلك التهمة وحكم عليهِ بالسجن خمسة أعوام ونصف عام ، فعمد أنصاره بعد اسبوعين إلى تدبيرات شيطانية فاختطفوهُ من السجن واخفوه خمسة اسابيع ثم هرّبوه إلى « منفاه » في بروكسل التي كتب فيها كثيراً وأحبها واحبَّ أهلها والامة البلجيكية عموماً — كثيراً . وأبى الاصغاء إلى موضوع التوسط لاستصدار العفو عنهُ . غير ان جمعيات الكتّاب وصحف فرنسا وبلجيكا وسويسرا والاصدقاء والانصار لم يكفوا عن السعي والمطالبة . فتوسط لدى مسيو دومرج نفر من كبار رجال السياسة وفي مقدمتهم مسيو هيريو الذي طلب ان يردَّ إلى وطنهِ ذاك الذي هو « خصمٌ » لا عدو » . فكتب دوديه :

« صدق هيريو . لا أعداء لي غير أعداء وطني من ابناء البلاد ومن الغرباء ، وغير قتلة ولدي والذين شاؤوا تبرئة ساحتهم . كنت في شبابي راديكاليًّا مثل دالادييه وهيريو وشببت في الوسط الراديكالي . وفي ١٩٠٤ فقط بتأثير موراس وفوجوا صرتُ من الخصوم في قضية دريفوس ووقفت

مواطن النباتات الزراعية

للامير مصطفى الشهابي

نشر المقتطف في عدد تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٣٤ بعنوان « الزراعة والحضارة : كيف نشأت زراعة الذرة وأين » مقالاً قال إنهُ ملخصهُ عن بحث للاستاذ ايست بجامعة هارفرد . والمقال ثمين طلي يستلذه هواة النباتات ولا سيما هواة ما كان منها عظيم الفائدة كالذرة الاميركية . هــذا من حيث الموضوع أما من حيث نسبة البحث الى الاستاذ ايست بجامعة هارفرد فليعذرني صديقي محرر المقتطف اذا ذكرت له انني لم أجد في مقاله كله فكرة واحدة لم ترد في كتاب « المنابت الاصلية للنباتات الزراعية » تأليف دوكندول A. de Candolle العالم النباتي السويسري المشهور الذي يعد واضع تاريخ النباتات الزراعية بلا مراء . وقد ألف كتابه المذكور في أواخر القرن التاسع عشر فترجم الى معظم اللغات الحية . وفي خزانة كتبي نسخة بالفرنسية من طبعته الخامسة طبعت سنة ١٩١٢ . وأظن ان الاستاذ ايست نقل عنه بحثه أو زبدة بحثه (١)

ولما كانت معرفة المهد الأصلي للنباتات الزراعية تفيد الزارع والنباتي والفيلسوف والمؤرخ وكل من يتحرى أصل المدنية وفجر الانسانية ، رأيت ان ألخص بهذه العجالة رأي دوكندول في الوسائل التي تتبع لمعرفة المواطن الاصلية للنباتات الزراعية ولا سيما المهم من تلك النباتات كالحنطة والشعير وانواع الذرة والتبغ والبطاطس وامثالها من المزروعات المفيدة

﴿ طرائق البحث ﴾ اذا أراد العالم معرفة منشأ النبات الزراعي وتاريخه عمد الى طرائق أربع يبلغ باتباعها غايته وهي : اولاً تحري البلاد التي ينبت فيها ذلك النبات الزراعي طبيعيًّا أي بريًّا دون ان يكون للانسان يد في زراعته . فوجود نوع زراعي نابت نباتاً طبيعيًّا في أرض ما دليلٌ قوي على ان تلك الأرض هي مهده الأصلي . مثاله اننا اذا عثرنا على حنطة برية تنبتها الطبيعة في الشام والعراق رجحنا كون هذين القطرين هما مهد الحنطة الاصلي او أنهما في جملة البلاد التي تعد مهدها الاصلي وهكذا . لكن اتباع هذه الطريقة لا يخلو من صعوبة فقد تنقل الطيور أو الرياح مثلاً بزور نبات زراعي الى ارض بعيدة فتنبت فيها بريةً فيظن النباتي الذي يعثر على تلك النبتات أنها هنالك نابتة نباتاً طبيعيًّا منذ القديم فيخطىء ويضل سعيه

---

(١) المقتطف : اذا كان الغرض من البحث ذكر بسائط الموضوع — وهو ما نرجح — فلا ينتظر من الاستاذ ايست أن يأتي بشيء جديد . والغالب انه ذكر اسم دوكندول عند الكلام على طرائق البحث فلم نشر نحن اليه في التلخيص . اما الجانب الأكبر من بحث الاستاذ ايست فقد كان مصبوباً على الذرة الصفراء وهو ما أوجزنا كثيراً في تلخيصه

وقد تختلط البزور ببضاعة المراكب التي تمخر البحار الى بلاد بعيدة فتنبت وتتكاثر في تلك البلاد فيذهب النباتي الى ان ذلك النبات قديم فيها وهو ليس بقديم . فيتضح من هذا ان على النباتي ان يكون فطناً حاذقاً قادراً على تفريق النبات الوطني عن النبات المجلوب ، ولا شك انهُ لا يطلب منهُ في هذا الباب معرفة البلاد الأصلية للنبات الزراعي قبل ان بدأ الانسان يزرعه في فجر الانسانية، فذلك يذهب بهِ بعيداً الى ما قبل التاريخ في الحقب الجيولوجية الخالية. وهنالك قواعد عامة لتطور الانواع في الاحياء لا يهمنا ذكرها

أما المهم فمعرفة مهد النبات منذ ما أخذ الانسان يزرعه . وفي هذا الصدد قواعد عامة يجب على النباتي والمشتاب معرفتها ، كأن يكون النوع النباتي كثيراً شائعاً في قطر من الاقطار وقليلاً متفرقاً في قطر آخر بعيد جداً عن الاول ، ففي هذه الحال يرجح ان المهد الاصلي لذلك النوع هو القطر الاول . وكذلك اذا كانت الانواع النباتية التي هي من جنس واحد متأصلة في قطر ما فان وجود أحد تلك الانواع متفرقاً في قطر آخر بعيد يدلُّ على ان هذا النوع قد يكون مجلوباً الى هذا القطر البعيد لا أصليًّا فيهِ . وتفيد الجغرافية النباتية كثيراً في هذا الموضوع ولا بدَّ لمن يتحرى تاريخ النباتات من ان يراجعها . وعلى كل يظهر ان العدس والحمص زالا بتاتاً في الطبيعة أي كفت الطبيعة عن إنباتهما بريين . أما الحنطة والفول والقرطم وغيرها فقد قلَّ إنباتها طبيعيًّا وصارت نباتاتها البرية على وشك الانقراض

والطريقة الثانية لمعرفة المهد الاصلي للنبات الزراعي تحريه او تحري صوره أو متحجراته في المصانع والهياكل والاضرحة القديمة او في الطبقات الجيولوجية ، وذلك كالثمار والحبوب وغيرها من اعضاء النباتات التي وجدت في المقابر المصرية القديمة ، وكصورها في جدران الاهرام وقبورها . ولا بدَّ هنا ايضاً من الاحتراز لئلاَّ تكون هذه الحبوب او الثمار وضعت حديثاً في أضرحة المحنطات القديمة كالذرة الاميركية مثلاً فان وجود حبوبها في تلك المقابر لا يدل على انها قديمة . ولا شك ان من وضعوها هنالك (وربما كانوا افراد قبائل بدوية) يعيشون في القرون الأخيرة لا في ايام الفراعنة . وقد وجدوا في المساكن المائية القديمة في انحاء اوربا بقايا نباتات كانت تزرع في تلك العصور السحيقة. واستدلوا بوجودها فيها على منابت تلك النباتات . أما الطبقات الجيولوجية فعهدها أقدم بكثير من عهد الزراعة ، ولم يعثروا فيها على متحجرات نبات من النباتات الزراعية التي تزرع في أيامنا هذه لكنهم عثروا على متحجرات نباتات غير زراعية كما هو معروف

والطريقة الثالثة مراجعة كتب التاريخ لمعرفة استعمال الاقوام القديمة لاحد النباتات الزراعية او لمعرفة انتقال ذلك النبات مع الفاتحين والمهاجرين في الموجات البشرية المختلفة . وهنا ايضاً ربما أخطأ المؤرخون في ذكر المهد الأصلي للنبات الزراعي . فالروم واليونان مثلاً كانوا يسمون الدرَّاق (الخوخ في مصر) تفاح ايران لانهم رأوه يزرع في بلاد فارس على حين أن مهده الأصلي

في الصين . ونحن في الشام نسمي الذرة الاميركية ذرة صفراء . والمصريون يسمونها ذرة شامية ، والعراقيون ذرة مصرية والجنيون ذرة رومية (انظر مقال العلامة أمين باشا المعلوف في عدد يناير ١٩٣٥من المقتطف) . فيتضح من هذا الاختلاف في التسمية ومن هذه البلبلة أن النبات المذكور جديد ما كان يعرفه أجدادنا العرب الاقدمون ولم يضعوا له اسماً . والحقيقة ان مهده في أميركا كما اتفق عليه علماء النبات . والادلة على ذلك كثيرة حاسمة

ومن المعروف ان اقدم البلاد بحضارتها وباستعمالها للنباتات الزراعية الصين وغربي آسيا ومصر ثم الاقاليم الاستوائية في أميركا . فالصين ازدهرت فيها الزراعة من ألوف من السنين . وتدل بعض الوثائق التاريخية الصينية على ان بعثة المسمى شنغ كيان Chang-Kien نقلت من آسيا الغربية الى الصين في القرن الثاني قبل الميلاد الفول والفصفصة (برسيم حجازي) والخيار والسمسم والاسباناخ والبسلة والجوز والقرطم وغيرها من النباتات التي كانت مجهولة في الصين . وعمل هذا السفير الصيني لا يستغرب فقد ذكروا ان أحد ملوك الصين كان احتفل بزراعة بعض النباتات احتفالاً عظيماً قبل عهد المسيح بألفين وسبعمائة سنة . أما الدرّاق (الخوخ في مصر) والمشمش فمهدها الأصلي في الصين ومنها نقلا الى غربي آسيا

هذا في الصين أما البلاد الواقعة غربي آسيا فقد حدث فيها موجات بشرية كثيرة بين الشعوب الطورانية والآرية والسامية . فتاريخ هذه الاقوام في بابل وآشور ثم أسفار الفينيقيين وحروب الفرس واليونان وغزوات الاسكندر الكبير واستعمار الرومانيين وانتشار الاسلام والحروب الصليبية كل ذلك جعل لمراجعة التاريخ قيمة لا تنكر في تحري انتقال النباتات الزراعية وانتشارها في غربي آسيا وفي اوربا وشمالي افريقية

ولما كشفت اميركا سنة ١٤٩٢ نقلت منها نباتاتها الزراعية الى أنحاء العالم كالبطاطس والذرة الصفراء والتبغ والصبّار وغيرها كما نقل الى اميركا عدد كبير من زروع العالم القديم . ثم لما كشفت جزائر البحر المحيط الهادي في القرن الثامن عشر من الميلاد وسهلت سُبُل المواصلات انتشرت النباتات القابلة للزراعة في جميع اقاليم الارض الزراعية

والطريقة الرابعة التي يرجع اليها النباتي تحري اسم النبات ووصفه في اللغات القديمة ، فيستدل بذلك على كون ذلك النبات معروفاً ومستعملاً عند الشعوب التي كانت تتكلم بتلك اللغات . وهذه الطريقة كالتي سبقتها لا تخلو من صعوبة ، لأن اسماء بعض النباتات قد تتبدل لدى الشعب الواحد في اللغة الواحدة ، ولأن وصف النبات ما كان شيئاً علمياً لدى كثير من الشعوب القديمة ولذلك ليس من الهين تعيين نوع النبات الذي كان يُسمى بكذا او كذا من الأسماء . هذا عدا ان اسماء بعض النباتات قد تكون واحدة لدى شعوب مختلفة فيكون من المتعذر معرفة الشعب الذي اقتبس تسمية النبات عن الثاني . ومهما يكن فالعالم النباتي لا يعوّل في هذا الصدد إلاّ على الاسماء

الواردة في كتب النبات القديمة ككتب دسقوريدس وتيوفرسطس في اليونانية وكاتون وبلينيوس في اللاتينية وابن البيطار وابن سينا في العربية . فهؤلاء وبعض الصينيين الأقدمين وصفوا الانواع النباتية وصفاً لا بأس بهِ يتمكن بهِ العالم النباتي من معرفة تلك الانواع والاستدلال على انهم كانوا يزرعونها في تلك الايام . وتأتي في الدرجة الثانية لغات قديمة ليس في كتبها علم ولكن فيها شعراً وأدباً واموراً دينية وردت في تضاعيفها اسماء بعض النباتات وصفاتها كالسنسكريتية والعبرانيـة والآرامية . وفي مصاف الدرجة الثالثة لغات لا آداب فيها ولا علوم كالطورانية والآرية القديمة والصقلبية القديمة واضرابها . فهذه اللغات لا يعتد بألفاظها الا باحتراز وعلى وجه التقريب . ويجب الاحتراز من اسماء النبات العامية فهي كثيراً ما تكون مغلوطة كتسمية الذرة الاميركية باسماء مختلفة في انحاء البلاد العربية وهو ما سبقت الاشارة اليهِ .وكتسمية النبات نفسه في الفرنسية Blé de Turquie اي حنطة تركيا على حين ان الذرة المذكورة ليست حنطة وان مهدها في اميركا لا في تركيا. ومن هذا القبيل شيء كثير في جميع اللغات الاوربية

***

﴿ الخلاصة ﴾ ليست طرائق البحث الاربع التي مرَّ ذكرها على درجة واحدة . فأهمها واعظمها شأناً الدلائل الأثرية اي العثور على النبات او على صوره او نقوشه في المصانع والهيا كل الأثرية والقبور القديمة .فهذا دليل لا غبار عليهِ يدل على ان النبات المذكور كان يزرع في ايام الذين حفظوه او صوروه او نقشوه . ويليهِ الدليل النباتي اي العثور على افراد برية من النبات الزراعي. فهو دليل لهُ شأنهُ. اما ورود ذكر للنبات في الكتب القديمة فدليل يأتي في الدرجة الثالثة . واما الاسماء العامية للنبات فدليل ضعيف الشأن لا يعول عليهِ الاَّ نادراً . ولا شك أن كل دليل من هذه الادلة ناقص وحده . اما اذا اجتمعت الادلة وتضافرت اقترب بها العالم النباتي من حقيقة مهد النبات الاصلي او بلغ تلك الحقيقة . وتاريخ النباتات الزراعية هو بعد كتاريخ الشعوب فمؤرخ الشعوب الثقة لا يدوّن فكرته ما لم يراجع ما كتبهُ الاقدمون في تواريخهم وما هو محفوظ في السجلات القديمة او مرقوم في الاحجار الأثرية او مدوَّن في الجرائد والمجلات والمذكرات والكتب الخاصة . وبعد ان يزن كل ما يجده في هذه المراجع يحكم بما يراه صحيحاً. هكذا يفعل العالم النباتي الذي يتحرى مهد النباتات الزراعية فانهُ يرجع الى كل الطرائق التي تكلمنا عليها . وبهذه الطرائق تمكن دوكندول من كشف الغطاء عن مهد النباتات على وجه الضبط في بعضها وعلى وجه الترجيح في بعض آخر . وقد سهّل عمله توافر الادلة الأثرية والنباتية واللغوية مما خلفهُ العلماء منذ اواخر القرن الثامن عشر الى اليوم الذي الف فيهِ كتابه الخالد

***

﴿ مواطن بعض النباتات الزراعية ﴾ اذا اردنا سرد الادلة التي تثبت موطن كل نبات من هذه

النباتات والتي تُرينا تاريخ زراعته لدى الشعوب القديمة والحديثة وجب تأليف كتاب برأسه . لذلك نقتصر على ذكر بعض النتائج التي حصل عليها دوكندول ودوّنها في كتابه المذكور . واهم النباتات الزراعية الحنطة فهي تزرع منذ فجر الانسانية وقد وجدت حبّاتها في اهرام مصر وفي بحيرات سويسرا. وورد ذكرها في كتب الصينيين والعبرانيين ولها اسم في كل اللغات القديمة والحديثة وموطنها الاصلي في العراق وفي الشام الجنوبية لانهُ عثر على نباتها البري قديماً في العراق وحديثاً في الشام

والشعير قديم ايضاً . وقد وجد الشعير ذو الحرفين بريًّا في آسيا الغربية ومنها جزيرة العرب وسيناء . اما الذرة اي الذرة البيضاء في الشام والبلدية في مصر فالارجح كون بلادها الاصلية مصر العليا وجزيرة العرب واما الذرة الصفراء في الشام والذرة الشامية في مصر فهي اميركية الاصل كما قلت وهي لم ترد في مفردات ابن البيطار وما كان اجدادنا يعرفونها . والرز او الارز من اقدم النباتات الزراعية . فقد كان مبذولاً في الصين منذ نحو ٢٨٠٠ سنة قبل الميلاد . ومهده الاصلي في الهند على الارجح . والعرب هم الذين نقلوه الى الاندلس . ومهد القطن العشبي في الهند . وربما كان موطن القطن الشجري في مصر العليا . والى العرب يرجع فضل اذاعة القطن وزراعته في الغرب. والاطريفل السكندري اي البرسيم مهده الاصلي في الشام والاناضول . والشام ايضاً موطن الفستق والخرّوب والتين والزيتون . ومهد الكرمة آسيا الغربية وشواطىء بحر الروم وكذا السماق . والشاي من الصين ومنشوريا ، والقهوة من افريقية الاستوائية ، والتوت الابيض من الهند وبلاد المغول اما التوت الاسود اي الشامي فمن ارمينيا وايران . والنخل الذي عُرف بنا وعرفنا بهِ تمتد بلاده الاصلية من جزيرة العرب والعراق الى المغرب الاقصى وجزائر كناريا . ولاشك انهُ كان موجوداً في شمالي افريقية قبل عهد العرب والاسلام ببضعة الوف من السنين . ولم يعرف اين كان مهده الاصلي على الضبط قبل عهد الفراعنة اي هل كانت كل هذه البلاد موطناً له ام كان ينبت نباتاً طبيعيًّا ويزرع في قسم منها لا فيها كلها . ولعلّ العثور على متحجراته يكشف الغطاء عن ذلك في يوم من الايام

والهند موطن الكبّاد (أترج في مصر) والنارنج والأنبج (منجا) والقرفة والفلفل والخيار كما ان الصين موطن البرتقال والمندرين والدرّاق (خوخ في مصر) والمشمش . اما النباتات الزراعية التي منابتها الاصلية في اميركا فكثيرة منها الكينا والذرة الاميركية والأناناس والفليفلة والبندورى (طماطم في مصر) والبطاطس والصبّار والجوافة والقشطة والتبغ الخ . وقد كنت بينت بأدلة ساطعة ان التبغ غير الطُبّاق (انظر عدد ابريل ١٩٣٠ ص ٤٥٥ من المقتطف) . وأقول إن الصبّار اي التين الشوكي ما كان معروفاً قبل كشف اميركا . فلفظة الصُبّار (بالضم) إذن التي وردت في المعاجم العربية وفي مفردات ابن البيطار لا تدل على هذا النبات بل تدل على التمر الهندي فينبغي لعلمائنا ان يُنتبهوا الى ذلك

الشعبية والشعوبية

العالم يهجر الاولى ومصيره الى الثانية

Internationalism Versus Nationalism

بقلم نقولا الحداد

من المشكلات المشكيات انا نضطر أحياناً الى تفسير لفظ عربي بلفظ أعجمي مصطلح عليه لمعنى حديث ، لظننا ان الجانب الاوفر من القراء يعرفون احدى اللغات الاوربية المشتركة بذلك الاصطلاح لفظاً ومعنى

فضلت لفظ شعب مرادفاً للفظ Nation لانه يعبر عن أهل وطن واحد يكثر فيهم اختلاف السلالات وامتزاجها ولا سيما في عصرنا حيث لا تجد أمة بقيت محافظة على عصبيتها أو سلم دمها من الامتزاج بدماء سلالات أخرى . فالامة في عرفنا الحاضر تحد بحدود جغرافية اكثر مما تحد بحدود سلالية تاريخية (اثنولوجية) . ولذلك نستعمل لفظ « شعبي » مرادفاً للفظ National ولفظ شعوبي مرادفاً للفظ International الى ان يقرر المجمع العلمي لفظين آخرين اذا لم يقر هذين اللفظين . وبهذا الاصطلاح نتخلص من اللبس في لفظة « أمية » نسبة الى امة ، لان الشائع ان الامية تعني جهل القراءة والكتابة

متن الموضوع

العالم صائر حتماً الى الشعوبية Internationalism أي تآلف الشعوب وتضامنها وتعاملها على قاعدة الخضوع لقوانين عمومية عادلة منصفة . ليس العالم صائراً الى هذا النظام الاجتماعي من تلقاء نفسه بل بحكم العوامل العمرانية والاجتماعية ، ولا باختياره ولا بارشاد « العقل الاجتماعي » الواعي بل بغريزة اجتماعية غير واعية . هذه العوامل محتمة على المجتمع ان يسير في هذا الطريق بالرغم من العقول الفردية الواعية — عقول الساسة والاداريين والاقتصاديين وجميع أهل السلطات — المقاومة لهذا المصير بكل ما أوتيت من قوة وحيلة . هذه العقول تقاوم مؤتمرة بأمر التقاليد المتحجرة التي تصر على بقاء القديم على قدمه . ولكن بالرغم من جهادها في سبيل الحرص على التقاليد يندفع تيار الغريزة الاجتماعية (غريزة التطور والتجديد الراضخة لاحكام العوامل العمرانية المتجددة) مجتاحاً أنظمة الشعبية وقاذفاً بها الى بحر النظام الشعوبي

نظام الشعبية جعل كل شعب مستقلاً بنفسه مطلق الحرية . وهذان الاستقلال والحرية يفضيان الى احتكاك الشعوب فتصادمها فتنازع الحدود الجغرافية والاقتصادية . وأما نظام الشعوبية فيحاول

ان يدك هذه الحدود والاستقلالات ويوحّد الامم في شبه أمة واحدة أو في تحالف واحد عام فيما بينها

في هذا المتن الاجمالي نقط قليلة الوضوح . فلا مناص لايضاحها من الشرح والتمثيل بالأمثلة التي يعلمها الجمهور. ولا بدّ ان يكون قد لاح لقارىء السطور الآتية ان يسأل الاسئلة الرئيسية التالية

١ً — ما هي العوامل العمرانية القاضية حتماً بمصير العالم الى الشعوبية ؟

٢ً — ما هي الأدلة على ان العالم مهاجرٌ الشعبية المتنازعة الى الشعوبية المتحالفة ؟

٣ً — لماذا تتحكم التقاليد بالعقول الفردية الواعية وتضطرها الى مقاومة العوامل العمرانية والاجتماعية المسيرة العالم في طريق الشعوبية ؟

٤ً — كيف تتغلب الغريزة الاجتماعية على العقل الفردي الواعي . وبعبارة أوضح : كيف تنهزم تدابير الساسة واضرابهم أمام تيار النظام الشعوبي خائبة المسعى ؟

٥ً — واخيراً كيف يستقيم نظام الشعوبية وبأي شكل يتم ؟

في الشرح التالي الاجوبة عن هذه الاسئلة

كيف اشتبكت العلائق الشعوبية

لا بدّ من نظرة عامة الى النُظُم العمرانية المتقادمة العهود لكي نعلم كيف نشأت العوامل الاجتماعية المتنوعة التي تسيّر العالم في طريقه بالرغم من ارادة العقل الاجتماعي وحريته

في العصور السابقة أيام كانت المعرفة سقيمة كانت اسباب تحصيل الرزق بسيطة جدًّا ، وبالتالي كانت الحياة ساذجة والمعيشة قشفة وانواع الترف قليلة جدًّا . وكذلك كانت الاقوام أو الأمم محصورة في حدود جغرافية طبيعية . فقد يكون الفاصل بين أمة واخرى سلسلة جبال صعبة المرتقى أو صحراء شاسعة أو بحر خضم . ولذلك كان الاتصال بين الامم ضعيفاً جدًّا . كانت كل أمة تقتصر في أساليب معيشتها على ما تجود به أرضها من الرزق وما تستطيعه عقولها الساذجة وعضلاتها من اصطناع الادوات والسلع . كانت مستقلة في اقتصادياتها فلم يكن ينقصها نتاج أو متاع موجود عند غيرها لكي تقايض به نتاجاً عندها وهو ليس عند غيرها . ولهذا كان التعامل بين الامم حتى المتجاورة بطيئاً ويسيراً . فندر جدًّا ان تحتاج الى عهود وقوانين (كالقوانين الدولية) بينها تحفظ السلم . بل بالعكس كان يغلب الغزو بينها بسبب الحاجة قليلاً وبسبب الطمع كثيراً

والعقل البشري الذي برز من صميم الحياة هو انشط ظاهرات الحياة حركة. فما فتىء منذ ظهوره يتفاعل مع حركة الطبيعة المادية ويستنبط منها نواميسها ليستغلها فمنذ استتم العقل وعيه جعل يخترع وكان الاختراع الواحد يمهد السبيل الى اختراعات اخرى ، الى ان بلغت اختراعاتهُ العجب العجاب الذي نراه الآن

مع تقدم العقل في طريق الاختراع كان بفضل اختراعاته انهُ : — ١ً — توافرت أسباب

المعيشة ووسائل تحصيل الرزق وانواع الترف والبذخ الى ان بلغت شأنها الحالي : ٢ً — جعلت الصناعات تتنوع . وبتنوعها صارت تتوزع مختصة بأفراد وفئات ، الامر الذي وسع دائرة المقايضة فالتجارة : ٣ً — تقدمت وسائل الاتصال بين الأمم تقدماً عجيباً جعل الكرة الارضية كأنها « متمركزة » في أي نقطة في سطحها : ٤ً — هذا الاتصال العجيب هدم كل ما كان يعتبر حداً فاصلاً بين الأمم . أصبحت الأمم جميعها كأنها تعيش في اقليم واحد صغير : ٥ً — هذا الاتصال وسّع دائرة التعامل بين الامم على تباعدها الجغرافي بالسرعة العجيبة : ٦ً — هذا التعامل الشامل السريع زاد أسباب تحصيل الرزق واساليب المعيشة وانواع الترف والبذخ أضعاف الأضعاف : ٧ً — هذا التنوع في أساليب المعيشة والترف وفي وسائل تحصيل الرزق ، جعل كل قطر من أقطار المعمورة مختصاً بانتاج أنواع من النتاجين الزراعي والصناعي دون أنواع اخرى : ٨ً — هذا الاختصاص جعل كل شعب محتاجاً حتماً الى مقايضة غيره من الشعوب الاخرى فلم يعد في طوق أية امة اخرى ان تستقل اقتصادياً استقلالاً مطلقاً مهما بذلت من الجهد في ان تنتج كل ما تحتاج اليه بنفسها لنفسها : ٩ً — و اخيراً ان اضطرار كل شعب الى استيراد شيء من نتاج غيره واصدار منتجاته الى غيره زاد حدة التنازع بين الشعوب الى حد شبوب الحروب فتحاً واستعماراً والقارىء يعلم جيداً تفصيلات هذا البند التاسع

أليست هذه البنود التسعة عوامل عمرانية واجتماعية كانت قاضية حتماً ببلوغ المجتمع البشري الى اشتباك العلائق بين اممه كما نرى الآن ؟ وهل كان للعقل البشري حرية في اختيار مصير آخر غير هذا المصير ؟ أليس ان هذا التطور مقتضى غريزة اجتماعية هي من صميم طبيعة الحياة والعقل ؟ واذا كان لا بد للمجتمع البشري ان يسلك هذا الطريق الى هذا المصير فهل يبقى شك بانه مطلّق نظامُ الشعبية رويداً الى نظام الشعوبية ؟

الادلة على هجوم نظام الشعوبية

الحقيقة ان النظام الاجتماعي الآن هو نظام شعوبي بحت لا ينقصه الاّ ان يؤيد السلم فيه النظامُ الادبي Ethics . النظام شعوبي برغم انوف الشعوب . وانما الشعوب — او بالاحرى قادة الشعوب — ينتفضون ضمن هذا النظام انتفاضاً جنونياً كما تنتفض الاسماك المتزاحمة المحصورة في شبكة ضيقة عليها . ولكن بالرغم من هذا الانتفاض هي مضطرة ان تستسلم لهذا النظام الشعوبي تفادياً لآلام الاصطدام العنيف . واليك الادلة على استسلامها وفيها الاجابة عن السؤال الثاني بكل اختصار

يمكنك ان تقول ان العالم طفق يدخل في نظام الشعوبية منذ نشأت القوانين والمعاهدات الدولية . وكان انهُ كلما اشتبكت صلات الامم الاقتصادية اشتد احتكاكها بعضها ببعض وحمي وطيس تصادمها فاضطرت الى تلافي آلام الاصطدام بعقد المعاهدات والمحالفات . وكان احترام المعاهدات يتوقف على

توازن قوى المتعاهدات ،حتى اذا اختلَّ هذا التوازن ورجحت قوة على اخرى ضعف ذلك الاحترام الى حد التلاشي لان قوة المجتمع الادبية — وبعبارة اصح — الضمير الاجتماعي ضعيف

وعندنا ادلة تحملنا على الظن ان هذا الضمير الاجتماعي صار الآن اقوى منهُ قبلاً ولو قليلاً . لاننا نرى بعض الدول تحترم اليوم عهودها بعضها تجاه بعض حتى تجاه التي هي اضعف منها تحترمها الى ان يطرأ طارىء يجعل العهود خطراً على حيويتها فعندئذٍ تعدها قصاصة ورق . ولكن ليس احترام العهود هذا كل الدليل على استقواء الضمير الاجتماعي لان هذا الاحترام لايكون دائماً ناجماً عن فضيلة تقيه بل يكون احياناً كثيرة لاستدراك عواقب سيئة . وانما هناك ادلة اخرى عديدة على ان الضمير الصالح اخذ ينتعش حتى في وسط شياطين المطامع . ولا مجال في هذا المقال لشرح هذه الادلة . فيكفي هنا ان نوجه نظر القارىء الى المؤتمرات الدولية المتعددة — لا اعني المؤتمرات السياسية ، لان هذه لا تزال تعقد في دار الشيطان — وانما اعني المؤتمرات الاجتماعية المتنوعة التي يقصد بها الاصلاح والتفاهم والتعميم الخ . فمنها (المؤتمرات العلمية المختلفة المواضيع واهمها المؤتمرات الطبية والصحية . والمؤتمرات الاقتصادية العديدة الانواع من انتاجية زراعية وصناعية الخ . والمؤتمرات الاصلاحية— كمؤتمرات المخدرات والمسكرات الخ .والمؤتمرات الفنية العديدة الصنوف الى غير ذلك مما لا يستطاع احصاؤه— جميع هذه المؤتمرات تدل على ان الشعوب شعرت بضرورة التفاهم والاشتراك معاً في مهمات الاصلاحات وفي اجتناء ثمراتها . فهي اذاً قوى ادبية تعمل لتطابق نظام الشعبية والدخول في نظام الشعوبية

ليست هذه المؤتمرات التي سردنا رؤوسها كل الادلة على انتعاش الضمير الاجتماعي الذي يكبح جماح التنازع الاممي ويرشد الى محامد تحالف الشعوب ووئامها وسلامها . فهناك ايضاً جمعيات واتحادات شعوبية (دولية)عديدة متنوعة تنتشر في الممالك المتمدنة انتشاراً دولياً ينتظم فيها فروع من ممالك مختلفة ولا محل لسردها . فهي ترمي الى نفس الغاية التي ترمي اليها المؤتمرات المارُّ ذكرها

اضف الى ما تقدم انتشار الثقافة الحديثة على سطح الكرة الارضية — ثقافة راقية تطبع عقول الامم المختلفة بطابع واحد تقريباً وتسبكها في قوالب متماثلة . فهي اهم عامل من عوامل تفاهم الامم وتخلُّقها باخلاق متشابهة تسهّل تآلفها وتحالفها وتعاونها . وفيما تقدم كفاية للتدليل على ان العالم داخل الآن في دائرة النظام الشعوبي . فلا موجب للتفصيل الذي لا يؤذن بهِ المجال

تأثير التقاليد المتصلبة

نأتي الآن الى بيان العوامل التي كانت دائماً تقاوم تيار النظام الشعوبي المسوق بحكم الطبيعة الاجتماعية ولا تزال

لم يبق اقل شك عند سواد الناس ان الوسيلة الوحيدة لتلافي الحروب وتأييد السلم العام هي

تأليف حكومة دولية تطرح الدول سلاحها لديها وتخضع لاحكامها واوامرها . فقد اصبح إمكان تحقيق هذه النظرية بالفعل عقيدة عامة عند كل طبقة من طبقات الامم وكل فئة من فئاتها . فما هو الحائل دون تحقيقها ؟

بتحليل المسألة نصل الى ثالث الاسئلة التي تصدّر بها هذا البحث — نصل الى شيطان التقاليد المتصلّبة التي تعتد لقاء كل تطور اجتماعي . فالتقليد العنيد الذي يحاول صد تيار الشعوبية مصدره الغريزة الحيوانية التي لم تزل قوية في الحياة الانسانية — غريزة الأثرة — الأثرة النفسية التي تبتغي التمتع بثمرة عمل الغير . نشأ من هذه الغريزة فرعان : نزعة الى الاستئثار بالمال الذي هو مبلول عرق العامل ، ونزعة الى السؤدد والجاه . وكلتا النزعتين متعاونتان متضامنتان . ولا محل لتفصيل نشوئهما . بتحريض هاتين النزعتين كان رؤوس القبائل والامم والشعوب يغزون بعضهم بعضاً . ولما كان المقاتلون يتوانون عن القتال حين يرون ان نصيبهم من الغنائم ضئيل وان النصيب الاوفر ذاهب الى الرؤوس صار هؤلاء يستفزون فيهم النعرة الدينية ويحرضونهم باسم الدين على الجهاد . والقارىء يعلم جيداً كم من الحروب اثيرت باسم الدين ، ولم تكن الآلهة راضية ، لان الجهاد كان لاشباع شهوات الرؤوس لا لان الآلهة جائعة للغنائم . وكان الله غاضباً لانهُ لا ينحاز الى جانب واحد من بنيهِ دون الآخر

اله الوطن

بقيت الحروب تثار باسم الدين والدين براءٌ منها ، حتى العصر المنصرم حين بدأت العامة تفهم مخادعة الرؤوس هذه . فاستنبط الساسة من فئة الرؤوس اخيراً الهاً جديداً للبشر وهو « الوطن » وجعلوا يمجدونهُ ويعظمونهُ في نظر العامة حتى صار هؤلاء يرونهُ اعظم من الله (اللهمَّ غفرانك) بل اصبح الله ثانويًّا عنده اذ انطلقت ألسنتهم بالقول « الدين لله والوطن للجميع » . وأصبح التعصب للوطن اضعاف ما كان للدين . وارتفعت رايات الوطن وتنكست رايات الاديان وصار الجهاد لأجل الوطن مبرَّة والتفاني في الجهاد له مفخرة وشرفاً وجزاؤه اكاليل توضع على قبر « الجندي المجهول » . وفعل « اله الوطن » من فظائع الحروب وويلاتها اضعاف ما فعله « اسم الدين » . والحقيقة الناصعة ان ابليس الرجيم لم ينجح في ما اخترعه لإفساد البشرية عشر نجاحهِ في اختراع « تأليه الوطن » و « عقيدة الوطنية » . بهذا الاختراع الهائل صدَّ ابليس تيار « الشعوبية » المتدفق اكثر مما يصد خزان اصوان تيار النيل

ألا تقول ان « اله الوطن » هذا سحر عامة الامم او اسكرهم بخمرة حبه ! ولا يزالون حتى اليوم سكارى لأن شيطانهُ اخترع الرأسمالية الهاً للمفتونين بإدخار الذهب او ما يمثله ، واخترع البروقراطية الهاً للمشغوفين بحب السيادة والجاه . وجعل ارباب الاموال يسكبون الخمرة في كؤوس في ايدي ارباب السؤدد وهؤلاء يديرونها على العوام كلما اوشك هؤلاء ان يستفيقوا من سكرتهم . والى هذه الساعة لا يزال سواد العامة سكارى بخمرة اله الوطن

منذ ظهر اله الوطن جعل يسمّم نفوس الناشئة الحديثة بحب الجندية وبالغرام بالثوب العسكري والحسام والبندقية، وبالحماسة للنضال وبالنخوة للقتال، حتى اذا اوشكت حمى الحماسة ان تهبط استنبط «اله الوطن» طقساً جديداً لعبادته. فلما قاربت حرارة «البتريوتزم» الفرنساوية التي هبت على اوروبا في القرن الماضي — لما قاربت تهبط استنبط اله الوطن الفاشستية والنازية ونحوهما لتحل محل البتريوتزم. وكادت الفاشستية تجتاح كل اوروبا. وما هي الا صنم من اصنام الوطن

ولكيلا تفتر النخوة الجهادية او لكي تثار في صدور الاحداث الذين كان يجب ان يتربّوا على المحبة والاخاء الانسانيين اخترع اله الوطن نظام الكشافة شاملاً للجنسين. وهو شر نظام تسمم به نفوس الاحداث لاثارته روح العداء بين الجنسيات الوطنية بالرغم من الدعوى الكاذبة في انهُ يراد به تربية الشرف النفسي والنشاط القلبي الى غير ذلك من اساليب التربية العسكرية المصطنعة، ووراء هذه الدعوى المزيفة تحريض نعرة التعصب للوطن وحض النخوة للقتال لأجله. ووراء هذا التعصب الوطني ابليس يثير العداء بين وطن ووطن ليجعل نار القتال دائمة الاستعار بين الاوطان. وهو يستخدم لهذه الغاية الهي المال والسؤدد

لا ريب ان عقيدة «الوطنية» جاءت اعظم نكبة على الجنس البشري في تاريخه لانها ليست الا تحريضاً على الحروب وعداء للسلم العام. لماذا؟ ولأجل من؟ — لاشباع شهوات ذوي الأثرة وذوي السؤدد. ردّت نظام الشعوبية - تآلف الامم وتضامنها - الى الوراء شوطاً كبيراً. وكان من اهم نكباتها: اولاً الامعان في التسليح بالرغم من مؤتمرات الدول العقيمة لتخفيض السلاح، لتخوّف الامم بعضها من بعض وإيجاسها من مكايد بعضها للبعض. وثانياً تعليته الحواجز الجمركية في كل مملكة انتقاماً وسوء مظنة. وثالثاً تسييج الممالك بسياج قوانين ضد المهاجرة. ورابعاً اهباط قيمة العملة تنافساً في الاحتيال على اغتيال حقوق الغير. وخامساً اضعاف عصبة الامم سياسيًا وأدبيًا — هذه العصبة التي تعد الجرثومة الاولى لنظام الشعوبية

واخيراً ماذا كانت نتائج هذه المكايد؟ — عرقلة النظام الاقتصادي الى حد الجمود. وكان من اهم مظاهر هذه العرقلة ويل، واي ويل، لجانبي الرأسمالية والعمل على السواء. فدولاب العمل سكن وملايين العمال يتضورون جوعاً وصروح الاعمال انهارت. وانهارت معها صروح الثروات التي كانت مرتكزة على عواتق العمال حتى صار كبار المتموّلين ينتحرون هرباً من هذا الويل. هذه كانت آخرة نتائج عقيدة الوطنية التي دسها ابليس في الحياة الانسانية

اتأسف ان المجال لايتسع للجواب على السؤالين الاخيرين. ولابد ان القارىء يستطيع استنتاج جوابيهما مما تقدم. وربما عدت اليهما في مقال آخر. ولا يخفى ان هذا الموضوع الخطير متشعب الاطراف جدير بكتاب او كتيب لا بمقالة او بمقالتين. فعسى ان يبدو من اهتمام القراء به ما يشجع ايّ الاكفاء على الخوض فيه

لعلي محمود طه

الى موسيقية عمياء

إلى عزّافة حان ألقتيا

إذا ما طافَ بالأرضِ شعاعُ الكوكبِ الفضّي
إذا ما أنّت الريحُ وجاشَ البرقُ بالومضِ
إذا ما فتّح الفجرُ عيونَ النرجسِ الغضّ
بكيتُ لزهرةٍ تبكي بدمعٍ غيرِ مرفضّ

* * *

زواها الدهرُ لم تسعدْ من الاشراقِ باللمحِ
على جفنينِ ظمآنينِ للأنداءِ والصبحِ
أمهدَ النورِ ما لليلِ قد لفّكَ في جنحِ ؟
أضيءُ في خاطرِ الدنيا وصبُّ النورَ في جرحي

* * *

أري الاقدارَ يا حسناءُ مثوى جرحكِ الدامي
أريها موضعَ السهمِ الذي سدّده الرامي
أنيلي مشرقَ الأصباحِ هذا الكوكبَ الظامي
دعيه يرشفُ الأنوارَ من ينبوعها السامي

* * *

وخلي أدمعَ الفجرِ تقبّلُ مغربَ الشمسِ
ولا تبكي على يومكِ او تأسيْ على الأمسِ
اليكِ الكونَ فاشتفّي جمالَ الكونِ باللمسِ
خذي الازهارَ في كفيكِ فالاشواكُ في نفسي !

* * *

اذا ما أقبلَ الليلُ وشاعَ الصمتُ في الوادي
خذي القيثارَ واستوحي شجونَ سحابهِ الغادي
وهزّي النجمَ اشفاقاً لنجمٍ غيرِ وقّادِ
لعلَّ اللحنَ يستدني شعاعَ الرحمةِ الهادي

اذا ما سقسق العصفور في اعشاشه الغَنِ
وشقّ الروض بالألحان من غصنٍ الى غصن
أتتك خواطري العزّا فة الرقّافة اللحن
تغنّيك بأشعاري وترعى عالم الحسن

* * *

إذا ما ذابت الانداء فوق الورق النّضر
وصبّ العطرَ في الاكمام إبريقٌ من التبرَ
دعوتُ شواديَ الاطياف من فردوسها السحري
تذيبُ اللحنَ في جفنيكِ والاشجان في صدري

* * *

عرفتِ الحبَّ ياحوا ء أم ما زال مجهولا !
ألمّا تحملي قلباً على الأشواق مجبولا !
صفيه ، صفيه ، فرحاناً ومحزوناً ومخبولا !
وكيفَ تعارفَ الروحان عند النظرة الأولى ؟

* * *

ومَن آدمك المحبوب أو ما صورةُ الصبَّ ؟
لقد أُلهمتِ والالهامُ يا حواء بالقلب
هو القلبُ ، هو الحبُّ، وما الدنيا لدى الحبِ
سوى المجلوّة الأسرار والمهتوكة الحُجُبِ

* * *

سلي القيثارَ بين يديكِ أيَّ ملاحنٍ غنّى
وأيَّ صبابةٍ سالت على أوتاره لحنا
حوى الآمال والآلام والفرحة والحزنا
حوى الآبادَ والأكوان في لفظٍ وفي معنى !

* * *

تعالى الحسنُ يا حسناء عن إطراقِ محسورِ
أيشكو الليلَ في كونٍ من الأنوار مغمور !
وما جلاهُ من سواهُ غيرَ إلاهة النورِ ؟
وما سمّاهُ إذ ناداهُ غيرَ الأعينِ الحور !!

الطرائق المتبعة

في الإشباب واطالة الحياة

عمل الخصية في الانسان وأثرها في جسمه وعقله

للدكتور شوكت موفق الشطي

عمل الانسان على إطالة الحياة منذ تكامل ادراكه ورأى الموت امامه يفغر فاه في كل يوم فيبتلع العدد العديد من ابناء هذه البشرية فكان يعمد الى امور شتى لا يلبث المستقبل ان يبين فسادها واذا تصفحنا تاريخ هذه القضية التي نحن بصددها واعني بها محاربة الشيخوخة رأينا ان عدداً من النوابغ استلوا سيف الجهاد وتركوا آراً لم تلبث ريح التحقيق ان عصفت عليه فعفته ولا يزال الناس يتساءلون هل ثمّة من الوسائل ما يجعل أمد الحياة طويلاً وهل وجد العلماء لتجديد الشباب والتفتية [1] سبيلاً ؟

يصعب في حالة العلم الحاضرة ان يجاب عن هذين السؤالين لان كنه الحياة لم يحلّ بعد وامر الروح ما زال سرّاً غامضاً وسوف يبقى في اعتقادنا لغزاً ما دامت الحياة على وجه الكرة كما جاء في القرآن الكريم : « ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي »

على أن حل قضية الاشباب المعقدة وسبر غورها مرتبطان بجواهر الحياة والروح لذلك كان البحث في هذا الامر والتنقيب فيه والاجابة عن هذين السؤالين امراً معقداً. ولما لم يستطع البحاثون ايضاح ذلك وجّهوا ابحاثهم شطر الاسباب التي تحدد عمر الانسان وتؤجل ظهور امارات الهرم وقد اشرنا في المقالين السابقين عن الإشباب الى العوامل العاملة في تنظيم عمر الانسان وابنّا ان منها ما كانت باطنية ومنها ما هي خارجية . اما العوامل الباطنية فلا سلطة لنا عليها اليوم وقد يكشف في الغد ما ليس في الحسبان على ان العلماء بعد ان عرفوا ما للغرويات من الشأن في حفظ قوة الانسان سعوا الى ايجاد وسائل تجدد الغرويات في الخلايا الشيخة وقد توصلوا الى ان يهبوا الخلايا وسيلة تساعدها على التكاثر وما ينشأ عنه من اكتساب النسج والاعضاء الشيخة قوة ونشاطاً يفتيانها

وقد توصل العلماء الى تحقيق شطر من هذه الفكرة بطرائق خاصة يستند معظمها الى تضريج

---

(١) التفتية بمعنى الاشباب ولم ترد هذه الكلمة ايضاً في كتب اللغة غير ان قول ادهم بن محرز الباهلي دليل على صحة هذا المعنى والقصة أن عبد الملك عابه على بياض رأسه وكان كالثغامة وقال له لو غيرت هذا الشيب فذهب فاختضب بسواد ثم دخل عليه فقال له يا امير المؤمنين قد قلت بيتاً لم اقل بيتاً قبله والا اراني اقول بعده قال هات فأنشأ يقول

ولما رأيت الشيب شيناً لاهله　　تفتيت وابتعت الشباب بدرهم

لجسم برسل (هورمونات) تفرزها الغدد التناسلية ومن هذه الطرائق طريقة براون سيكار وعمليات فورونوف وشتيناخ ودوبلر الجراحية

﴿ طريقة براون سيكار ﴾ — اجرى العالم المذكور سنة ١٨٨٩ اختباراً على نفسه كان لهُ دويٌّ هائل في الاندية الطبية والصحف العلمية والجرائد اليومية فأسال المداد وسوَّد كثيراً من الصفحات واصبح في حين من الزمن شغل العلماء الاحيائيين الشاغل . وخلاصة هذا الاختبار ان براون حقن نفسه لما كان لهُ ٧٢ سنة من العمر بعصير الخصى فشعر اثر ذلك بنشاط في قواه وفي غريزته الجنسية وقد ذكر في محاضراته ما توصل اليهِ فأعقب ذلك ذيوع هذه الطريقة بين عدد كبير من الشيوخ ولجأ الى الاستشفاء بها رهط عظيم منهم غير انهم لم يجدوا فيها ما يسلي عزاءهم فأهمل شأنها وعادت نسياً منسيًّا. هذا وان كان اختبار براون سيكار لم يحقق الغاية ولم ينل الارب الاَّ انهُ نبه الفسيولوجيين والاطباء الى عمل الغدد الصم الحيوي فاتجهت الافكار الى الاستعضاء [1] وبعثت من جديد هذه الوسيلة التي كان لها شأن كبير في القرون الوسطى ومقام في الطب القديم وقيل منذ ذلك الحين بالافراز الخصوي الداخلي . على اننا نرى ان فكرة تأثير الخصية في نشاط الجسم ومظهر الذكورة ليست حديثة العهد بل عرف الاطباء الاقدمون الشيء الكثير عن ذلك

ذكر هذا التأثير اطباء العرب وعلماؤهم في كتبهم حتى ان الجاحظ بحث في كتابهِ الحيوان عن الخصاء وما يعتري الانسان وبعض الامم (اجناس الحيوان) بعده بحثاً مسهباً ننقل طرفاً منهُ

كل ذي ريح منتنة وقيل ذي دفر [2] وصنان وكريه المشمة كالنسر وما اشبههُ فانهُ متى خصي نقص نتنه وذهب صنانه غير الانسان فان الخصيَّ يكون انتن وصنانه احدُّ ويعم ايضاً خبث العرق سائر جسده حتى لتوجد لأجسادهم رائحة لا تكون لغيرهم فهذا هذا وكل شيءٍ من الحيوان يخصى فان عظمه يدقُّ فاذا دق عظمه استرخى لحمه وتبرأ من عظمه وعاد رخصاً رطباً بعد ان كان عضلاً صلباً والانسان اذا خصي طال عظمه وعرض تخالف ايضاً جميع الحيوان من هذا الوجه وتعرض للخصيان ايضاً طول اقدام واعوجاج في أصابع اليد والتواء في اصابع الرجل وذلك من اول طعنهم في السن وتعرض لهم سرعة التغير والتبدل وانقلاب من حد الرطوبة والبضاضة وملاسة الجلد وصفاء اللون ورقته وكثرة الماء وبريقه الى التكرش والكمود والى التقبض والتحدد والى الهزال وسوء الحال

والخصي لا يصلع كما لا تصلع المرأة واذا قطع العضو الذي كان بهِ فحلاً تامًّا أخرجه ذلك من اكثر معاني الفحول وصفاتهم واذا أخرجهُ من ذلك الكمال صيره كالبغل الذي ليس هو حماراً ولا فرساً تصير طباعه مقسومة على طباع الذكر او الأنثى وربما لم يخلص لهُ الخلق ولم يصف حتى يصير كالخلق من اخلاق الرجال ويلحق بمثله من اخلاق النساء ولكنهُ يقع ممزوجاً مركباً فيخرج الى ان يكون مذبذباً لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء

(١) تأويل opothérapie عملية العلاج بمفرزات اعضاء الجسم (٢) الدفر من دفر الشيء دفراً انتنت ريحه والدفر على وزن فلس اسم منه

ثم قال وللانسان قوى معروفة المقدار وشهوات مصروفة في وجوه حاجات النفوس مقسومة عليها لا يجوز تعطيلها وترك استعمالها ما كانت النفوس قائمة بطبائعها ومزاجاتها وحاجاتها وباب المنكح من اكبرها واقواها واعمها ويدخل في باب المنكح ما في طبائعهم من طلب الولد لما طبع الله تعالى بني آدم عليهِ من حب الذرية وكثرة النسل

وعامة اكتساب الرجال وإنفاقهم وهمهم وتصنعهم وتحسينهم لما يملكون انما هو مصروف الى النساء والاسباب المتعلقة بالنساء[1] ولو لم يكن الاَّ التنمص[2] والتطيب والتطرز والتخضب والذي يعدلها من الطيب والصبغ والحليّ والكساء والفرش والآنية لكان في ذلك ما كفى ولو لم يكن لهُ الاهتمام بحفظها وحراستها وخوف العار من جنايتها والجناية عليها لكان في ذلك المؤونة العظيمة والمشقة الشديدة فاذا بطل العضو الذي من اجله يكون اشتغال النفس بالاصناف الكثيرة من اللذة والالم فباضطرار ان تعلم ان تلك القوى لم تبطل من التركيب فاذا صرفت من وجه فاضت من وجه ولا سيما اذا جمت ونازعت ولا بدَّ اذا زخرت وغزرت وطغت وطمت من ان تفيض او تفتح لنفسها باباً وليس بعد المنكح باب لهُ موقع كموقع المطعم فاجتمعت تلك القوى التي كانت للمنكح وما يشتمل عليهِ باب المنكح الى القوة التي عنده للمطعم فاذا اجتمعت القوتان في باب واحد كان ابلغ في حكمه وابعد غاية في سبيله ولذلك صار الخصي آكل من اخيهِ لأمهِ وابيهِ وعلى قدر الاستمراء يكون هضمه وعلى قدر حاجة طبعه وحاجة الحرارة المتولدة عن الحركة يكون الاستمراء لأن الشهوة من اثنتى ابواب الاستمراء والحركة من اعظم الحرارة ودوام الأكل في الاناث اعم منهُ في الذكور وكذلك النساء في البيوت دون الرجال وما اشك ان الرجل يأكل في المجلس الواحد ما لا تأكل المرأة ولكنها تستوفي ذلك المقدار وتربي عليه مقطعاً غير منظوم وهي بدوام ذلك منها يكون حاصل طعامها اكثر وهنَّ يناسبنَ الصبيان في هذا الوجه لأن طبع الصبي سريع الهضم سريع الكلب قصير مدة الأكل قليل مقدار الطعم فللمرأة كثرة معاودتها ثم تبين بكثرة مقدار المأكول فيصير للخصي نصيبان نصيبه من شبه النساء ثم اجتماع قوى شهوتيه في باب واحد اعني شهوة المنكح التي تحولت وشهوة المطعم

ويعرض للانسان عند قطع ذلك العضو تغير الصوت حتى لا يخفى على من سمعه من غير ان يرى صاحبه انهُ خصيٌّ وان كان الذي يخاطبه ويناقله الكلام اخاه او ابن عمه او بعض اترابه من خؤولة جنسه. ومتى خصي قبل الانبات لم ينبت واذا خصي بعد استحكام نبات الشعر في مواضعه تساقط كله الاَّ شعر العانة فانهُ وان نقص من غلظه ومقدار عدده فان الباقي كثير ولا يعرض ذلك لشعر الرأس فان شعر الرأس والحاجبين واشفار العينين يكون مع الولادة وانما يعرض لما يتولد من فضول البدن وتكون مقاطع شعر رأسه ومنتهى حدود قصاصه كمقاطع شعر المرأة ومنتهى قصاصها. ثم يقول والخصيان مع جودة آلاتهم ووقارة طبائعهم في معرفة ابواب الخدمة وفي استواء حالهم في باب

(١) أليس في ذلك ما يشير الى مذهب فرويد (٢) التنمص نتف الشعر في سبيل الزينة على ما تفعل النساء الآن بحواجبهن

المعاطاة لم نرَ احداً منهم قط نفذ في صناعة تنسب الى بعض المشقة وتضاف الى شيء من الحكمة مما يعرف بيمد الروية والغوص بادامة الفكرة الاّ ان الخصي من صباه يحسن صنعة الدبوق ويجيد دعاء الحمام الضواري وما شئت من صغار الصناعات. ورأيت ان الخصاء جذب الخصي الى حب الحمام وعمل التكك والهراش بالديوك وهذا شيء لم يجر منهُ على عرق وانما قاده اليه قطع ذلك العضو وتعرض للخصي سرعة الدمعة وذلك من عادة طبائع الصبيان ثم النساء فانهُ ليس بعد الصبيان اغزر دمعة من النساء وكذلك بالشيوخ الهرمين ويعرض للخصي العبث واللعب بالطير وما اشبه ذلك من اخلاق النساء وهو من اخلاق الصبيان أيضاً ويعرض لهُ الشره عند الطعام والبخل عليه والشح العام في كل شيء وذلك من اخلاق الصبيان قال الشاعر

كأن ابا روماق قيساً اذا غدا خصي براذين يقاد رهيص

لهممدة لايشتكي الدهر ضعفها وحنجرة بالدورقين خوص

ويعرض للخصي سرعة الغضب والرضا وذلك من اخلاق الصبيان والنساء ويعرض لهُ حب النميمة وضيق الصدر بما اودع من السر وذلك من اخلاق الصبيان والنساء . ومن العجب انهم مع خروجهم من شطر طبائع الرجال الى طبائع النساء لا يعرض لهم التخنث وقد رأيت غير واحد من الاعراب مخنثاً متفككاً ومؤنثاً يسيل سيلاً ولم ار خصياً قط مخنثاً ولا سمعت به ولا ادري كيف ذلك ولا اعرف المانع منه ولكن كان الامر في ذلك الى ظاهر الرأي ولقد كان ينبغي ان يكون ذلك فيهم عاماً وما اكثر ما يعرض للخصيان البول في الفراش وغير ذلك ولا سيما اذا بات أحدهم ممتلئاً من النبيذ ويعرض لهم ايضاً حب الشراب والافراط في شهوته وشدة النهم ويعرض للخصي شدة الاستخفاف بمن لم يكن في سلطان عظيم او مال كثير أو جاه عريض

لقد اكثرنا من أقوال الجاحظ أمام الاديب والعالم ولنا في ذلك عدة غايات : أولها لنثبت أن علماء العرب وادباءهم وصفوا ما يعتري الانسان بعد الخصاء من اضطراب حالتيهِ الروحية والجسدية وصفاً مسهباً لا نجد في الكتب المتداولة بين أيدينا ما يماثله ولو اكتفينا بالتلميح الى ذلك تلميحاً بسيطاً لشك الكثيرون في هذه الدعوى ولكان من يناهضها لا من المؤلفين الاجانب فحسب بل من الكتّاب الوطنيين ايضاً . ثانيها لنظهر ان الطريقة المستحدثة في الكتابة العلمية التي وسموها بعناق العلم والادب هي طريقة قديمة جرى عليها الجاحظ وغيره من علماء العرب وذلك لانهم تذوّقوا الادب والعلم معاً. على ان اكثر أدبائنا كما يقول العالم والاديب اسماعيل مظهر لم يتذوّقوا العلم ومعظم علمائنا لم يتذوّقوا الأدب في الغالب . ثالثها لنبين ان مذهب فرويد ليس من مبتكرات المؤلف المذكور بل قال به الجاحظ من قبل كما أشرنا الى ذلك في هذا المقال

فلو تبصرت أيها القارىء الكريم بعد ذلك في كتب الجاحظ وفي بعض ما نقلته لك من كلامهِ ونقبت عنهُ تنقيباً رأيت انهُ قد استهلَّ بعضه بقوله زعموا فذكر اموراً غريبة رغب في نقلها ليجيء

كتابةُ جامعاً بين الادب والعلم والرواية لم يفرط في شيء مما قيل في عهده وانهُ استهل البعض الآخر بقوله قالوا وكأني به يقصد أموراً لا يبعد وقوعها ويقول لك تارةً ورأينا ويعني به ما اختبره بنفسه

أرجع بك الآن أيها القارىء الكريم بعد ان بينت لك أقوال هذا الامام ونقلت لك ما ذكرهُ عن صلة الخصية بالنشاط والصفات الجنسية الى بعض الطرائق الحديثة وهي تستند كما بينت لك في صدر هذا المقال الى عمل الخصية وأثره في الجسم

﴿ طريقة شتيناخ ﴾ : بحث انسل وبوان منذ ربع قرن عن بناء الخصية النسيجي فوجدا في باطنها خلايا مفرزة خاصة سموها الخلايا الخلالية وقد عرفا ان هذا الافراز يحفز الصفات الشقية الثانوية والغريزة الجنسية على الظهور ثم بحث شتيناخ عن هذا الافراز وأثره في الوجود فاتضحت لهُ حقيقته واطلق أثر اقتناعه بوجود هذا الافراز على الغدة الخلالية اسم غدة البلوغ . ثم نقَّب هذا الاستاذ عن اختبار براون سيكار فلم يجده عارياً عن الصحة .ففكر حينئذٍ في ايجاد وسيلة لايقاظ الغدة المذكورة وتأجيل فسادها الشيخي فوجد ان خير وسيلة لذلك هي قطع الأسهرين[1] لأن قطعهما ينبه العناصر الخلالية ذات الشأن في هذا الافراز ثم جرَّب هذه الطريقة في الكلاب الهرمة فكانت نتائجها حسنة ثم حقق اختباره كثير من الفسيولوجيين وذكر كنود ساند Knud Sand من كوبنهاغن ما طرأ على كلب اجريت لهُ هذه العملية فقال : اخذت كلب حرس عمره اثنتا عشرة سنة وكان نشيطاً قويًّا حتى سنته العاشرة ثم اخذت علائم الهرم تدبُّ فيهِ فصار ضعيفاً هازلاً مغمض العينين كسولاً ، متناثر الشعر، جاف الجلد، مجعده وعادت حركاتهُ صعبة لا يمسك بوله وبرازه . ولم يكن لضعف الحيوان من سبب آخر غير هرمه لانهُ كان سليماً من جميع الأمراض العضوية فكان بذلك خير حيوان للاختبار. اجريت العملية لهذا الحيوان وقطع اسهراه فتحسنت حالته بعد اربعة اسابيع وعادت اليهِ قواه الخائرة وشهوته للاستمراء . وكان قد راقب الاستاذ هنسن Hansen هذا الكلب وفحصه قبل العملية ورأى عجزه فكتب عنهُ ما يأتي : لقد تبدَّل طرف (اسم الكلب) تبدلاً عظيماً فصارت نظراتهُ حادة وعيناه يقظتين ونما شعره وعاد دهنيًّا لامعاً وزالت البقع المرد من جسده واصبح جلده ليناً وصار اغتذاؤه طبيعيًّا كأن الحياة قد دبَّ دبيبها فيهِ

وذكر أيضاً فالديمير برغاور (Valdimir Bergauer) نتائج اختباراته في الكلاب الهرمة فكانت مطابقة للاختبار المار الذكر . وكان الكلب المخبور مصاباً بساد[2] مركزي في عينه اليسرى فشفي منه . وقد شاهد هذه الحادثة هارمس (Harms) وشتيناخ (Steinach)ثم اختبر العلماء تأثير هذه العملية في الجرذ . فجاءت النتائج مؤيدة لما تم في الكلاب. ولما تحقق العلماء أثر هذه الطريقة الطيب في الحيوان جربوها في الانسان ولكنهم لم يحصلوا على نتائج مشجعة . وقد شاهد ليختنشتين Licktenstein بعض آثار التفتية في ثلاثة من مبضوعيه [للبحث تتمة]

(١) تأويل Canal déférent (٢) تأويل Cataracte

الفـارابي

احوال العصر العامة — حياته وأخلاقه —

كتبه ، اسلوبه ، قيمة كتاباته

لاديب عباسي

أحوال العصر

عاش الفارابي في القرن الرابع الهجري ، وهو عصرٌ لاتميّزه من الوجهة السياسية مأثرة ، فهو حلقة من تلك السلسلة الواهنة من تاريخ الاسلام التي يمسك طرفها الواحد الخليفة المتوكل وطرفها الآخر هولاكو . غير انهُ لابدَّ من الأشارة الى ان هذا الوهن كان على اشدّه في هذه الفترة من تاريخ الاسلام . وقد تألّبت شتى العناصر على إحداث هذا الوهن والاضطراب . فالخليفة امسى ولا شأن لهُ في الخلافة الاّ شرف الانتساب اليها ، ونيط بهِ بدل شؤون الخلافة الخطيرة يديرها ، تصدُّر الاحتفالات والقيام بالصلوات وخلافها من الشؤون الثانوية . ولم تأت سنة ثلاثمائة واربع وثلاثين حتى كان ضعف الخلفاء قد بلغ مداه الأبعد ، فتمّ لآل بويه ان يؤسسوا في بغداد ملكاً لهم منهُ جسمهُ وللخليفة رسمه فقط . ثم لقد كان القرن الرابع الهجري قرن ظفر للروم بينما كانت الدول الاسلامية تمزقها مطامع الأمراء والقوّاد فكان هذا — مضافاً الى ضعف الخلفاء — من أدعى الاسباب في تقويض بنيان الامبراطورية الاسلامية . ومما يزيد الباحث شعوراً بفساد الحياة السياسية اذ ذاك هذه الجمعيات الهدّامة التي امتدّ شرُّها الى اكثر انحاء العالم الاسلامي ، كالاسماعيلية والحشاشين والقرامطة ، خصوصاً هؤلاء الآخيرين الذين ظلوا زهاء قرن ينشرون الرعب والتدمير اينما حلّوا وحيثما توجهوا

وفي الناحية الاقتصادية يلحظ المتتبع لاحوال العصر مثل ما يلحظهُ في الناحية السياسية ، وهناً على وهن وسوءاً الى سوء . ولا عجب ان تكون هذه حال العصر ، فالامن غدا والعدم سواء لذهاب هيبة الحكومة وانصراف اولي الشأن الى قمع الفتن ومشاغلة شتى الخصوم في الداخل . والسلم لم يكن اسعدَ حالاً ، فان هذا العصر — كما اسلفنا — كان عصر ظفر للروم ، كثرت فيهِ مغازي الافرنج وغاراتهم على البلاد الاسلامية مما لم يدع للسلم سبيلاً . والعدل كذلك آل الى اسوأ الدرك لاستبداد الامراء بالأمر دون الخلفاء واسرافهم في تحميل العامّة ما لا قبل لهم به . كل هذا وخلافه قسّم المجتمع الاسلامي الى قسمين : قسم تكاد تقتله التخمة وقسم تكاد تفنيه المجاعات . ومما زاد

الشؤون الاقتصادية سرعاً ما حدث من انسلاخ كثير من الولايات من جسم الامبراطورية الاسلامية فقلّت بذلك موارد الخزينة واضطرّ الخلفاء والامراء ، سدّاً للعجز، الى فرض الضرائب الباهظة على الفلاحين مما اثقل كاهلهم ودفع بالكثيرين منهم الى احضان الثورة على الحاكمين . وفي رأي كثيرين من المؤرخين ان ثورة القرامطة كانت ثورة اقتصادية قبل ان تكون شيئاً آخر . ويؤيد هذا الرأي ان السواد الاعظم من القرامطة كانوا من فلاحي العراق الذين ارهقهم عسف الحكام واضطرهم الى الثورة وامتشاق الحسام

وامتدّ الفساد في نواحٍ اخرى من شؤون الاجتماع ، ولم يسلم على هذا الفساد الا الناحية العقلية ، على الرغم مما كان من اغراء شديد بالفلاسفة والمفكرين ، وظلّ درس الفلسفة في بغداد والبصرة وخلافهما من الحواضر الاسلامية حيّاً نامياً يؤتي اكله الشهي الحين بعد الحين

واهم مصادر الفكر الاسلامي في هذا العصر كانت الافلاطونية الحديثة والفلسفة الفيثاغورية ومذهب وحدة الكون (البانثيزم) وفلسفة افلاطون وارسطو والزرادشتية واليهودية والمسيحية وغيرها من المذاهب الشرقية . واشهر من تأثر بهذه المذاهب الفلسفية والدينية هم الشيعة ومن جرى مجراهم كالاسماعيلية والفاطميين والقرامطة والحشاشين واخوان الصفا . فنظرية الحلول عند الشيعة ومن ذهب مذهبهم مقتبسة من الافلاطونية الحديثة لتفسير نظرية الامام المنتظر ، وفلسفة فيثاغورس تشغل القسم الاول من رسائل اخوان الصفا ، وارسطو يشغل قسماً آخر منها ، والمدينة الفاضلة للفارابي تأثر بها مؤلفها بعض الشيء جمهورية افلاطون ، ومذهب وحدة الكون يظهر في آثار الفارابي اجمالاً وفي شطرٍ كبير من رسائل اخوان الصفا وفي مذاهب الاسماعيلية والفاطميين والحشاشين

وقد امتاز هذا العصر عن غيره ظاهرتان عامتان كل العموم ، وهما شيوع الجمعيات السرية الفلسفية وذيوع النزعة « الانسكلوبيدية » بين المفكرين . فمؤلفات الفارابي وابن سينا واخوان الصفا ، والجمعيات الفلسفية والفلسفية السياسية كجمعيات اخوان الصفا والاسماعيلية والحشاشين هي اوضح دليل على تفشّي هاتين النزعتين وتمكّنهما من نفوس القوم يومئذٍ . وذلك — في رأينا — ناشئ من التضييق على الفلسفة اشدّ الضيق حتى اضحت كتبها من الندرة بحيث لا تطولها ايدي جميع الراغبين فيها ، فقام الفارابي وابن سينا واخوان الصفا وامثالهم وجمعوا للناس اشتات العلوم والمعارف على نحوٍ قريب من دوائر المعارف والموسوعات الحديثة ، فسدّوا بذلك حاجة العصر وسهّلوا على الدارسين دراسة الفلسفة والعلوم والفنون . ولم يستطع الفلاسفة والجامعون ان يقوموا باعمالهم من دراسة وجمع وتأليف الا بالتكتّم الشديد ، فنشأت هذه الجمعيات السرية التي نقرأ اخبارها معجبين بما كانت تصرفه من جهدٍ وتبذله من اخلاص في دراسة الفلسفة وتيسيرها للدارسين

في مثل هذه البيئة الاجتماعية والفكرية نشأ الفارابي . وسوف نرى عند تحليل فلسفة الفارابي ان قد كان لعناصر هذه البيئة آثار ملحوظة في فلسفته وفي نسق تفكيره

حياة الفارابي واخلاقه

هو ابو نصر محمد بن اوزلغ بن طرخان من مدينة فاراب . ولد في عائلة تركية اواخر القرن التاسع الميلادي في بلدة واصدي من اعمال فاراب ، وهي ولاية تركية في خراسان . ويقال ان والده كان قائداً من قواد الجيش . والراجح انهُ من عائلة تركية مع ان كثيراً من المؤرخين يلحقونهُ بالامة الفارسية

والفارابي — ككثير من العصاميين — لا يعرف تاريخ ولادتهِ بالضبط ولا الاحوال التي مرّت عليهِ في طفولته وشبابه . وقد توفي عن ثمانين سنة او ما هو دونها (سنة ٩٥٠ ميلادية) ويدلك على انهُ بلغ هذا العمر او ما يقاربهُ ان تلميذه ابا زكريا يحيى توفي عام ٩٧١ ميلادية عن ٨١ سنة اي ان الفارابي حينما توفي كان عمر تلميذه نحو ستين سنة . وهذا يعني — في الراجح — ان الفارابي كان اكبر منهُ بعشرين سنة . وهي نسبة معقولة بين سن المعلم وتلميذه . على ان هذا لا يعدو باب الترجيح والاحتمال ، اذ ليس بعيداً ان يكون الفارابي وتلميذه من سن واحدة

والذي يعلم علم اليقين من حياة الفارابي انه رحل في صباه عن مسقط رأسه الى بغداد ، مدينة العلم والنور اذ ذاك ، ودرس فيها على الطبيب يوحنا بن حيلان . واشتمل تعليمه هناك على الادب والرياضيات واللغات . وقد نسب اليهِ اهل زمانه الالمام بجميع لغات العالم ، على انهُ لم يقم على هذا الزعم دليل . بيد انهُ يتضح من كتبه انهُ كان يعرف التركية جيداً ويعرف اليونانية بعض المعرفة . وقبل ان يدرس الفارابي على يوحنا بن حيلان كان قد تتلمذ لابي بشر يونس الحكيم المشهور ، وهو شيخ كبير . وكان الناس يقرأُون على هذا الاخير كتب ارسطو في المنطق ويستملونه شروحه عليها . ذلك انهُ كان يستعمل في تصانيفه وطريقة شرحه ، البسط والتذليل حتى قال بعض علماء هذا الفن : « ما أرى ابا نصر الفارابي اخذ طريق تفهيم المعاني الجزلة بالالفاظ السهلة الا من ابي بشر » . وكان الفارابي يجتمع ايضاً بأبي بكر السراج في بغداد ، فيقرأُ عليهِ المنطق . ويقال ان كتاب النفس لأرسطو وجد وعليهِ بخط الفارابي « اني قرأت هذا الكتاب مائة مرة » . ونقل عن الفارابي ايضاً قوله : « قرأت السماع الطبيعي لأرسطو الحكيم اربعين مرة واری اني محتاج الى معاودة قراءته » ويروى عنهُ انهُ سئل : من اعلم انت ام ارسطو ؟ فأجاب : لو ادركته لكنت اكبر تلاميذه . يريد انهُ كان لا يفارقه ولا يرى انهُ يستطيع الاستغناء عنه مهما تقدمت بهِ سنه وسما علمه

ولم يزل ابو نصر في بغداد مكبًّا على الدرس والتحصيل الى ان برّز في جميع العلوم . وفي بغداد ألّف معظم كتبه ، واكثرها شرحٌ لكتب ارسطو . ومن هنا دعاه العرب المعلم الثاني

ثم انتقل الفارابي من بغداد الى حلب لفتنة حدثت هناك ، والحقه سيف الدولة برهط الادباء والفلاسفة الذين كانوا ينوّرون بلاطه ويكسون مجتمعات القصر حللاً زاهية من مختار القول ومصطفى

الفكر ، وظلَّ يعيش هناك عيشة الزهد والتقشف الى ان وافاه اجله المحتوم في دمشق . وقد مكث الفارابي بقية حياته في حلب مكرَّماً معززاً . وذلك ان سيف الدولة كان الى اجلاله للعلم وحدبه على الأدب شيعيًّا كالفارابي الذي كان شيعيًّا ايضاً . ويدلك على مكانة الفارابي عند الامير انهُ لما توفي قام سيف الدولة في مسوح الصوف خطيباً على منبره

ويؤثر عن الفارابي الهدوء والانصراف الشديد الى العلم دون غيره من شهوات النفس . ويذكر المؤرخون انهُ لم يكن يتناول من سيف الدولة الا اربعة دراهم في اليوم ، وهذا لم يكن شحًّا من سيف الدولة انما كان استجابة رغبة الفارابي نفسه عن اعراض الدنيا . ولم يكن الفارابي يعتني بهيئته ، وكان لباسه لباس الصوفية الخشن . ويدلك على عفة الفارابي عما يتهالك عليه الناس من حطام الدنيا واعراضها أبيات أثبتها له ابن أصيبعة قال فيها :

لما رأيت الزمان نكساً　　وليس في الصحبة انتفاع
لزمت بيتي وصنت عرضاً　　له من العزَّة اقتناع
اشرب مما اقتنيت راحاً　　لها على راحتي شعاع
واجتني من حديث قوم　　قد اقفرت منهم البقاع

وقد اورد له المؤرخون غير هذا المقطع من الشعر ، وكلها على العموم ، لا تنطوي على كبير شاعرية الا انها في معظم الاحوال ناطقة بمتانة خلقه وسمو نفسه

وروي عن الفارابي اخبار كثيرة أحقُّ بالخرافة منها بالواقع : منها انهُ حضر ذات يوم مجلساً لسيف الدولة ولعب على آلة موسيقية معه ، فبكى كل الحاضرين . ثم فكها ولعب عليها لحناً آخر فضحك جميع الحاضرين . ثم فكها وركبها من جديد ولعب عليها لحناً ثالثاً ، فقام عليهِ الجميع

كتب الفارابي

﴿ أسلوبه — قيمة كتاباته ﴾ الكتب التي ألفها الفارابي تربي على المائة كتاب . والترتيب التاريخي الذي تعاقبت عليهِ هذه الكتب غير معروف تماماً . ولكن الراجح ان كتبه التي كتبها وهو تحت تأثير المتكلمين « Dialectics » والطبيعيين « Naturalists » من الفلاسفة كانت اسبق كتبه الى الظهور . أما كتبه التي يظهر فيها نضوج الفكر فيرجح انها كتبت في زمن متأخر ، وهي الكتب التي لقب من أجلها بالمعلم الثاني ، وجلها شروح لمنطق ارسطو وفلسفته في السياسة وما وراء الطبيعة . وكتبه ، على العموم ، تقع في ثلاثة أقسام : الكتب المنطقية ، وكتب ما وراء الطبيعة ، وكتب الفلسفة العملية — أي فلسفة الأخلاق والسياسة . واكثرها محفوظ في المكاتب الاوربية . ومن هذه الكتب المطبوع باللغات الافرنجية ومنها المطبوع باللغة العربية ، ومنها

لا يزال مخطوطاً . ومن أشهر كتبه ما يلي :

١ — التوفيق بين رأيي الحكيمين ، افلاطون وارسطو

٢ — فيما ينبغي الاطلاع عليهِ قبل قراءة فلسفة ارسطو

٣ — رسالة في ماهية الروح

٤ — آراء أهل المدينة الفاضلة

٥ — رسالة في المنطق (خطية) في اوربا

٦ — رسالة في القياس

٧ — احصاء العلوم (خطية)

٨ — السياسة المدنية

٩ — مجموعات كتب في موضوعات متفرّقة

ومن اهم ما صنّفهُ الفارابي ويذكر له مع الشكر والتقدير كتابهُ في احصاء العلوم والتعريف باغراضها وقد قسَّم الفارابي العلوم في هذا الكتاب المختصر الى ستة فروع : ١ — علوم اللغة : ٢ — علم المنطق : ٣ — الرياضيات : ٤ — العلوم الطبيعية : ٥ — العلوم المدنية : ٦ — علم الكلام وما وراء الطبيعة . وهذا التقسيم قريب من التصنيف الحديث للعلوم والفنون

ويذكر المرحوم جرجي زيدان ان الفارابي كتب كتاباً في الاقتصاد السياسي سبق فيهِ جميع علماء الغرب الى هذا البحث الجليل

***

هـذا من حيث مادة الكتب التي صنفها الفارابي ، اما اسلوبه فيعتوره شيءٌ من التناقض والارتباك في كثير من الاحيان . على ان عبارته عربية لا غبار عليها ، انما يؤخذ عليهِ كثرة الترادف المعنوي مما ينأى بهِ احياناً كثيرة عن الدقة الفلسفية ويحمله على التوسُّع في المعاني . ومن خصائص اسلوب الفارابي ايضاً طول العبارة وكثرة المعترضات . على ان هذا ليس مما انفرد به الفارابي دون غيره من الفلاسفة . والواقع ان طول الجملة وكثرة الاعتراض ضرورتان تلازمان الكتابات الفلسفية والعلمية في اللغة العربية واللغات الاجنبية على السواء . وذلك ان بسط الفكرة العلمية او الفلسفية الدقيقة يقتضي الكاتب ، في كثير من الاحوال ، تطويل العبارة وايراد المعترضات موارد عديدة من الجمل

ويصطنع الفارابي في بعض الاوقات صيغاً وتعابير غير فصيحة كبنائه الفعل للمجهول مع

ايراد الفاعل مجروراً بحرف الجر او الاضافة . وهذا لا شك راجع الى دراساته في اللغات الاجنبية وتأثره باساليبها

وقد كلف الفارابي نفسه فوق وسعها في محاولة التوفيق بين الفلسفة والقرآن من جهة وبين افلاطون وارسطو من جهة اخرى ، فجاء كثير من كتبه مضطرباً متناقضاً وفي كثير من الاقتسار والتعقيد . يقول ما كدونلد : « في الحق ان النظام الذي تسلمهُ الفارابي كان نظاماً معقداً . ولم يكن هذا النظام اقل تعقيداً من النظام الذي خلّفه هو . ان فلاسفة المسلمين ابتدأُوا فلسفتهم بما يأتي: القرآن حق والفلسفة حق ، ولكن الحق واحد «لا يتجزَّأ» ، لهذا وجب ان يتفق القرآن والفلسفة » . وقد كان ايمان الفارابي بافلاطون وارسطو ايماناً لاحدَّ له مما جعله يقبل قضاياهما وفروضهما الفلسفية من دون مناقشة ولاحساب . وهذا في الحق من اكبر عيوب الفلسفة العربية ومن آكد الاسباب في وقوفها عند حد الاحتذاء والتقليد دون ان تتعدَّى ذلك الاّ في القليل الاقل . ودليلنا على ذلك من الفارابي ما أوردناه له من قوله انه قرأ كتاباً لارسطو مائة مرة وكتاباً آخر اربعين مرة وهو لم يزل في حاجة الى معاودة قراءتها !! و يروى مثل هذا القول عن ابن سينا ايضاً . وقد أخذ الفارابي على نفسه فضلاً عن شرح الفلسفة اليونانية — التوفيق بين فلسفتي افلاطون وارسطو ، وجاهد في ذلك جهاد الجبابرة حقّاً ، ولكنهُ في ذلك كله كان ادنى الى الخيبة منه الى النجاح . وذلك ان افلاطون غير ارسطو وارسطو غير افلاطون ، وكل سعي للتوفيق بين الاثنين هذا نصيبه . وقد كان الفارابي يلقب افلاطون وارسطو بالامامين ويقول أن اتباعهما اولى من اتباع امام واحد . وذلك — في رأيه — ان الثقتين اذا اتفقا على امرٍ فحكمهما اصح واولى ان يُتّبع ، والشاهد الواحد يجوز الشك في شهادته ، اما الشاهدان الثقتان فلا يصح الشك في شهادتهما . بل لقد ذهب الفارابي الى ابعد من هذا المذهب في تقدير الفلسفة اليونانية ممثلة في أئمتها ؛ فكان يقول ان الفلاسفة القدماء هم على العموم انبياء يصلح اطلاق لفظ الامامة عليهم فيقال : الامام فيثاغورس والامام افلاطون والامام ارسطو كما يقال الامام علي والامام الحسن والامام الحسين . والكتب التي ألفها الفارابي في محاولة التوفيق بين آراء الفلاسفة القدماء عديدة ، منها كتاب التوفيق بين افلاطون وارسطو ، والوسيط بين ارسطو وجالينوس ، ومقاصد ارسطو وافلاطون وخلافها . وجميع هذه الكتب تشهد على مقدار ما عاناهُ الفارابي في محاولة التوفيق بين آراء الفلاسفة اليونان . وهذا المسلك الوعر الذي سلكه الفارابي كان من اهم الاسباب في التناقض والاضطراب اللذين يكتنفان فلسفتهُ في كثير من المواطن [1]

(١) — سنعمد في مقال تال الى تحليل نواح من فلسفة الفارابي في بعض شؤون الاجتماع والنفس وفي فلسفة التكوين والاخلاق

سرُّ النواة

العلماء يفتتحون المعقل عنوةً

ليس تشبيهُ نواة الذرَّة بالمعقل الحصين تشبيهاً مبتدعاً . فقد اشرنا اليهِ في المقتطف مراراً وعقدنا لهُ فصلاً في كتابنا « فتوحات العلم الحديث » متأثرين بذلك علماء الغرب الاعلام . ولكنهُ على كل حالٍ تشبيه مفيد ، لانهُ يقرّب مكان النواة في الذرَّة من الاذهان . فاذا اعتبرنا الذرَّة الكاملة حصناً كانت الكهارب اشبه ما يكون بالقلاع والطوابي الخارجية ، وكانت النواة بمثابة قلب الحصن او معقله المركزي . فلما تهاوت القلاع الخارجية بين ايدي العلماء — اي لما علموا كثيراً مما يريدون ان يعلموهُ عن طبيعة الكهارب — وجَّهوا قوائم الى قلب الحصن يبغون افتتاحه ، والجوس خلاله ، لانهم عرفوا بالتجربة والامتحان ، ان سرّ المادة فيهِ ، بل وسرّ الطاقة كذلك ، وفي ما يلي بيان موجز لما احرزوا من النصر في هذه الحرب العلمية

منشأ البحث

كان لابدَّ للعلم من بصر شديد الثقوب ، لكي يتبيَّن « الذرَّة » في كتل المادة المتنوعة الاشكال . ولكن علم الطبيعة الحديث امدَّ ابناءهُ ببصر يخترق الذرَّة ، ويكتشف العناصر التي تتركب منها ، وتصرَّف بعضها . والرأي الحديث ان الذرَّة اشبه ما يكون بنواة صلدة مندمجة تحيط بها طبقة هشَّة . فالذرَّة من هذا القبيل ، كالخوخة . فنواة الخوخة تقابل نواة الذرَّة . وجسم الخوخة الريان يقابل جوَّ الذرة الكهربائي المؤلف من كهارب ومجال كهرطيسي

كان العالم الفرنسي بكرل اول من عني بنواة الذرة . وذلك في سنة ١٨٩٦ . ولكن رذرفورد كان اول عالِمٍ تصوَّر الصورة الحديثة السائدة للذرَّة وبنائها . على ان الصورة التي تصوَّرها رذرفورد لم تكن حزراً اطلقهُ في الظلام ، يصيب بهِ اذا كان موفقاً ولا يصيب اذا اخطأه التوفيق . ولكنها كانت مبنية على النتائج التي اسفرت عنها تجاربهُ العديدة الدقيقة . كان بكرل قد اكتشف ظاهرة الاشعاع ، فعنيت بها مدام كوري وزوجها ، ووسعا نطاقها وبوجهٍ خاص بعد ما كشف الراديوم . واثبت رذرفورد في سنة ١٩١١ وبضع السنوات التي تلتها ، ان الاشعة المنطلقة من الراديوم وغيره من المواد المشعة ، انما تنطلق من نواة الذرَّة لا من جوّها الخارجي . فلما ثبت ذلك اصبحت

خواص هذه الاشعة — طبيعتها وقوتها وسرعتها — اشبه بالرسل تحمل انباء عن المصدر الذي انطلقت منهُ

وقد دلّت البحوث الطبيعية ان هنالك ثلاثة ضروب من الاشعة . اشعة موجبة تدعى دقائق الفا . واشعة سالبة تدعى دقائق بيتا . واشعة لا هي موجبة ولا سالبة بل من قبيل الاشعة السينية (اشعة اكس) تدعى اشعة غما . فالاولى تنطلق بسرعة ١٢ الف ميل في الثانية . والثانية تسير بسرعة الاشعة السينية اي سرعة الضوء ولكن لا تبلغها تماماً . والثالثة تسير بسرعة الضوء اي بسرعة ١٨٦ الف ميل في الثانية

وعند التعمق في البحث ظهر ان دقائق الفا هي نوى ذرات الهليوم . وان دقائق بيتا هي الكهارب والعجيب في كل هذا ان نوى الذرات نفسها تبرعت بهذه الحقائق للعلماء اي انها اطلعتهم على انها مؤلفة من كهارب ودقائق الفا . ولكن البحث لم يقف عند هذا الحد . ففي تلك الآونة عني السر جوزف طمسن والاستاذ أستُن بوزن الذرات بطريقة عجيبة . وكان رذرفورد قد اثبت ان وزن الكهارب شيء لا يعتدُّ بهِ في وزن الذرات . فكأنَّ طمسن وأستن كانا يزنان نوى الذرات فعلاً اذ كانا يزنان الذرات . فلما عرفت اوزان النوى ، اصبح في وسع البحّاث ان يعلموا هل النوى مؤلفة من دقائق الفا وكهارب دون اي شيء آخر . ولكن ذلك لم يكن في البدء مستطاعاً لان جدول الاوزان الذرية الكيمائية يعين لذرة الهليوم وزن ٤ حالة ان هنالك ذرات وزنها واحد ، او ٦ او ٧ او ٩ . فكيف يمكن ان تتألف هذه الذرات من وحدة وزنها ٤ على القياس نفسه ، واذن لا بدَّ من وحدة يكون وزنها رُبع وزن دقيقة الفا اي واحد ، لتكون اساساً لبناء نوى الذرات جميعاً

هذه الوحدة هي نواة ذرة الايدروجين المعروفة باسم « بروتون » Proton ولما كانت دقيقة الفا (أو نواة ذرة الهليوم) تزن أربعة أضعاف وزن البروتون ، بل لما كانت نوى العناصر المختلفة ليست الاّ أرقاماً مضاعفة للرقم واحد — وهو وزن البروتون — كان من الطبيعي ان يعتقد علماء الطبيعة ان نوى الذرات مركبة من بروتونات وكهارب ليس الاّ . ولكن الامتحان يدل على أن دقائق الفا تدخل في تركيب نوى بعض العناصر . لذلك اعتقد العلماء ان البروتونات تنحشك أحياناً فيتألف من انحشاك اربعة منها ، دقيقة الفا واحدة

بيد ان هذا كلهُ جاء عن طريق الاستنتاج ، ولم يقم عليهِ دليل علميٌّ تجريبيٌّ واحد . ذلك ان ذرات العناصر المشعة ، لم تطلق في خلال اشعاعها الذاتي ، بروتوناً واحداً . ومما جعل هذا البحث محدوداً مقيداً ، ان الوسائل التي توسل بها العلماء حتى ذلك الوقت ، لتهشيم الذرة اخفقت جميعها . فالاشعة المنطلقة من المواد المشعة لم تخضع لاي فاعل من فواعل الطبيعة التي في متناول البحاث كالحرارة والبرد والضغط ، ولذلك عجزوا عن حمل نواة الذرة على البوح باسرار تركيبها

ولكن في سنة ١٩١٩ ابتدع رذرفورد طريقة عجيبة تمكنهُ من ذلك . فبيَّن انهُ متى استعمل

دقائق الفا المطلقة من الراديوم ، كمقذوفات أو قنابل يطلقها على ذرّات النتروجين ، أصاب بعض قنابله نوى بعض ذرّات النتروجين وقذف منها بروتونات مفردة ، هي نفس البروتونات التي تصوّر العلماء أنها الوحدة الاساسية في بناء نوى الذرّات . وكذلك أصبح رذرفورد العالم الاول في التاريخ الذي استطاع ان يحوّل العناصر ، لأن انطلاق بروتون واحد من نواة ذرة النتروجين جعل النتروجين عنصراً آخر

ومما كان يقيم الصعاب في وجه علماء يجربون تجارب من هذا القبيل ، ان عدداً يسيراً جداً من المقذوفات التي يطلقها العالم ، يصيب احدى الذرات المقصودة ويفوز بتهشيم نواتها . فقد يطلق العالم ما متوسطهُ ٥٠ الف مقذوفة على طائفة كبيرة من الذرّات قبل ان يفوز باصابة احداها وتهشيمها . أما الصعوبة الثانية فهي أن الراديوم — مصدر هذه المقذوفات اي دقائق الفا — عنصر نادر ثمين وما حضّر منهُ يعدّ بالغرامات . لذلك تعذَّر التوسع في اجراء التجارب التي قبيل تجربة رذرفورد المتقدمة

الجسيمات الجديدة

ثم انقضى ما يزيد على عشر سنوات والعلماء يعتقدون انوحدات المادة الاساسية هي الكهارب والبروتونات . ولكن في سنة ١٩٣١ اكتشفت وحدة أساسية جديدة هي «النوترون» — المحايدة أو المحايد — فبدا للعلماء عند اكتشافها ان قصة الذرّة ونواتها لم تتمّ . ذلك ان الاستاذ شدك وهو من أعوان رذرفورد ، تبيّن نوعاً جديداً من الأشعة منطلقاً من نوى الذرات . فقد وجد ان هذا النوع الجديد من الاشعاع ينطلق من ذرات بعض العناصر الخفيفة مثل عناصر البريليوم عند ما تقذف بدقائق الفا . وأشعة النوترون هي في الواقع دقائق او جسيمات . ولكنها دقائق غير مكهربة ،مثل دقائق الفا أو مثل دقائق بيتا . هي محايدة الكهربائية ، أي لا هي سالبة ولا هي موجبة ولذلك دعيت « نوترونات » أي « الجسيمات المحايدة »

وفي سنة ١٩٣٢ اكتشف الاستاذ اندرسن احد اعوان ملكن في باسادينا بكاليفورنيا ضرباً آخر من الاشعاع ينقذف من نوى الذرّات عند ما تصدمها الأشعة الكونية . ثم ثبت حديثاً ان بعض المواد المشعة تقذف مثل هذه الدقائق ايضاً . ووحدة هذه الدقائق لا تختلف عن الكهرب في شيء الاّ في شحنتها الكهربائية . فالكهرب سالب الكهربائية ، ووحدة هذه الدقائق موجبة الكهربائية ، ولذلك دعيت الكهرب الموجب او البوزيترون

وكذلك نرى انهُ يجب علينا ان ننقح قائمة اللبنات التي تبنى منها الاجسام المادية . كنا قبلاً نعتقد ان هذه اللبنات تقتصر على الكهارب والبروتونات فأصبحنا نرى انها كهارب وبروتونات ونوترونات وبوزيترونات . فهذه المكتشفات الجديدة غلبت الطبيعي على امره ، في محاولته ان يجعل

لبنات الكون الاساسية ، صنفين بسيطين من الدقائق. ولكن بعد البحث ثبت ان البروتون ليس وحدة نهائية ، بل هو مؤلف من نوترون وبوزيترون . واذن فلبنات الكون الاساسية هي ثلاث الآن — اي الالكترون (سالب) والبوزيترون (موجب) والنترون (محايد)

اطلاق طاقة الذرة

والبحث متجه الآن الى معرفة ترتيب هذه الدقائق في بناء النوى . والطريقة التي يعمد اليها العلماء هي الطريقة الساذجة التي عمد اليها رذرفورد اولاً ، اي تحطيم الاشياء وتهشيمها لمعرفة سرّ تركيبها

ولكن الوسيلة تغيَّرت. فقد كان رذرفورد يحتاج الى دقائق الفا لتهشيم نواة النتروجين . ودقائق الفا كما قلنا عزيزة المنال ، لان مصدرها نادر ثمين . بيد ان علماء اليوم قد بنوا اجهزةً كهربائية قوية الضغط الكهربائي ، يستطيعون ان يسرعوا بها ، نوى الايدروجين (البروتونات) ونوى الهليوم (الهليومات او دقائق الفا) ثم يستعملونها كمقذوفات يطلقونها على الذرّات التي يريدون تهشيمها

خذ مثلاً على ذلك ما فعلهُ كوكروفت Cockroft وولطن Walton وهما من اعوان رذرفورد ايضاً فإنهما بنيا جهازاً كهربائيًّا يمكنهما من اسراع البروتونات اسراعاً عظيماً . ثم اطلقوها على قطعة من عنصر الليثيوم . والليثيوم عنصر مركب من نوعين من الذرات (اي لهُ نظيران 2 isotopes) نوع وزنهُ ٦ ونوع وزنهُ ٧ في جدول الاوزان الذرية الكيمائي . وفي خلال هذه التجربة لاحظا ان الليثيوم يطلق اشعةً اعظم طاقة من البروتونات المسدّدة اليهِ . وبعد البحث ثبت ان هذه الاشعة العظيمة الطاقة ، المنطلقة من الليثيوم مؤلفة من هليومات او دقائق الفا (اي نوى ذرات الهليوم) وبعد موالاة التجربة ثبت ان هذه الدقائق تنطلق من الليثيوم ازواجاً وان طاقة حركتها تعدل ١٥ مليون فولط — هذه حقائق جديدة تنطوي على مغزى عظيم

ويظنُّ ان ما يحدث في هذه التجربة كما يلي : يصطدم بروتون احياناً بنواة ذرة ليثيوم من الوزن ٧ . فيحدث تفاعل داخلي تتحوَّل فيهِ النواة بعد ان يلتصق بها البروتون المقذوف عليها ، الى دقيقتين من دقائق الفا . ثم ان هذه الدقائق تنطلق بطاقة اعظم جدًّا من الطاقة اطلقت بها البروتونات على النواة . واذن فالطاقة الكامنة في الذّرة قد انطلقت من عقالها في هذه التجربة البسيطة

ولا يخفى ان الطاقة الكامنة في الذرة عظيمة جدًّا ، حتى لقد قيل انهُ اذا استطعنا اطلاقها من عقالها ، لكفتنا الطاقة الكامنة في ذرات كوب من الماء ، لتسيير باخرة كبيرة بين اوربا واميركا ذهاباً واياباً

حسن كامل الصيرفي

موت فنان

رثاء فنان يموت بينما الافق يردد صدى أغانيه

غناؤك العذبُ في الظلامْ   يرنُّ في مسمع الزمنْ
وأنتَ في قبضة الحِمامْ   كالحُلْم في قبضة الوسنْ

***

أأنتَ يا صامتاً تؤوبْ   أيامُهُ للصدى البعيدْ
الصادحُ المرقِصُ القلوبْ   الساحرُ الفاتنُ النشيدْ ؟!

***

أأنت ؟! لا ، أنت غيرُهُ   فأين لي شدوُكَ الجميلْ
قد فارقَ العشَّ طيرُهُ   وهامَ كالحائر الضلولْ

***

كم خيّمَ الحزنُ في رحابكْ   ونامَ في ساحكَ الرنينْ
تمزّقُ الليلَ بانتحابكْ   وترعشُ النجمَ بالأنينْ ؟!

***

يامُغرقَ الكونِ في الاغاني   الكونُ يشتاقُ للهزارْ
غرقتَ في لُجّة الزمانِ   فهل تعمّقتَ للقرارْ ؟

***

هجرتَ الحانكَ العذابْ   وعشتَ في صمتك الحزينْ
تجرع اليأسَ والعذابْ   وتشربُ السقم والمنونْ

أأنتَ مَنْ حرَّكَ النفوسْ بصوته الساحر الرؤومْ ؟ !
أأنتَ من أرقص الكؤوسْ أأنت من أرّق النجومْ ؟ !

***

أأنت ؟ ! لا ، أنت غيرُهُ فأين لي صوتُكَ الحنونْ ؟
قد بان لِلَّيلِ لجُرُهُ وأنتَ مُسْتَسْلِمُ الجفونْ !

***

أصمتُكَ الموحشُ الكئيبْ يا هاتف الأمس سخريهْ
بعالمٍ مغرمٍ يذوبْ على ترانيم أغنيهْ ؟

***

قد غالك السُّقمُ واستبدّ وأنت في ميعة الشبابْ
سلَّمتَ قيثارة الأبد لجاهلٍ لحنُهُ اضطرابْ

***

يطوف في ساحك القدَرْ مجعَّد الجبهة اكتئابا
يضمُّ من كوكبك الزَّهرْ ويحطمُ الفنَّ والشبابا

***

قد مرَّ في صمتك المنون بِرُوحك الحيةِ الصَّدَى
فتَّ في الليل ، والسكون يكفكف الطلَّ والنَّدَى

***

غناؤك العذبُ في الظلامْ رنَّ في مِسْمَعِ الزَّمنْ
وأنت في قبضة الحِمامْ كالحُلْم في قبضة الوَسَنْ

فصلان عراقيان (1)

لامين الريحاني

— ١ —

— وكان الكهان في معبد عِنليل بِأور ونِبور يألهون ملوك سُومير الدولة الاولى في وادي الرافدين (٣٥٠٠ قبل المسيح)

— وما الذي صنع اولئك الملوك والكهان لخير السواد من الناس ؟

— وسرجون الاول ملك أكاد اكتسح السومريين ، وفتح بلادهم ومدّ ملكه جنوباً الى الخليج ، وشمالاً الى الجبال (٢٧٥٠ ق . م .)

— وما الذي قام بهِ سرجون وخلفاؤه لخير السواد من الناس ؟

— ومن الجبال في الشرق والشمال انحدر بجيشه كدُور ناخُنستا ملك عيلام ، فغزا بلاد سرجون واكتسحها ، وحمل تماثيل آلهتها الكلدانيين الى أشمونا عاصمة عيلام (٢٢٨٦ ق . م.)

— وما الذي صنع كدور هذا وما الذي شاد خلفاؤه العيلاميون لخير السواد من الناس ؟

مدنية القصور والمعابد للملوك والكهان ،

والجهل والفقر والعبودية للسواد من الناس

— وكان كهان عشتروت بنينوه ، وكهان مردوخ ببابل ، يتعطون السحر والشعوذة ، ويملأون بطونهم من ضحايا الهيكل ، بينما ملوك بابل وآشور يحتربون ويتطاحنون من اجل السيادة والمجد

— السيادة والمجد للكهان والملوك ، والسحر والنير للسواد من الناس

— وحورابي اول المشترعين ، وآشوربنيبال اول المحبين للعلم والعلماء —

— واحتان في البادية ، مصباحان في الليل الدامس

— وسنحاريب الفاتح ، ونبوخذ نصر المصلح —

— ناهب فينيقية ، ومذل اسرائيل

من جبال الشمال تدفق التثيون ، ومن جبال الشرق انحدر اكزارس يقود جنوده الماديين ، ومن السهول في الجنوب سارع جيش بابل الى نجدة جيش مادي ، وقد حالف النهران المحاصرين — طغى الفرات ، وطغى دجله

(١) من كتاب « العراق » تأليف الكاتب الكبير امين الريحاني وينتظر صدوره قريباً

طغيان الجيوش الفاتحة — وصاحوا كلهم قائلين : لتسقط نينوه ! سقطت نينوه (٦٢٥ ق . م .) وبعد ست وثمانين سنة (٥٣٩ ق . م .) سقطت بابل

— دول تدول ، ومجد بعد مجد يحول ، مجد سوس وعيلام ، ومجد بابل وآشور . ثم ينتقل صولجان الملك من يد الساميين في وادي الفرات الى يد الآريين من الملوك

— وما الذي صنع الآريون من اجل السواد من الناس ؟ أفي سبيل المجد تُشيَّد الدول ام في سبيل الانسان ؟ انهم لظالمون، الساميون والآريون جميعاً . انهم النهابون الفاسقون . شيدوا المعابد والقصور ، وسخّروا لها العباد . ألّهوا انفسهم ، وكانوا قساة عتاة ، وكانوا عبيداً للشهوات

— ومن مهد الثقافة الغربية جاء تلميذ ارسطو ، الشاب العجيب اسكندر المقدوني . اجتاز البحر الى الشاطىء الاسيوي . قاد الوفه الثلاثين ، وكان ظافراً في كل مكان . هزم الفرس في واقعة الغرانيق وفتح فينيقية ، واستولى على مصر ، وتعقب الملك دارا الى بلاد الرافدين ، فأدركه قرب اربيل ، وكانت الوقعة الفاصلة بين الشرق والغرب (٣٣١ ق . م .)

— في اربيل أبدل نيرٌ من حديد عتيق بنيرٍ من حديد مصقول . راح الفرس وجاء الاغريق

— كان الاسكندر فاتحاً باسم العلم والنور

— كان الاسكندر مصاباً بداء الصرع . غزا الشرق باسم الآلهة، وعاد منهُ ناقماً على الارض والسماء

— ولكنهُ في بابل كان مجدداً

— شاء الاسكندر ان « يُأغرق » العالم ، فكانت بابل النهاية لصرعة — لسكرة — مفجعة ، وكانت النهاية لحلم ذهبي

— قد تحقق قسم من ذلك الحلم ، فبدت بعد الاسكندر دلائل التآخي بين الشرق والغرب بدت ثم ردَتْ . فقد تغلب البرثيون التورانيون على السلوقيين الاغريق (١٢٦ ق . م.) يوم كان ذاك التآخي في ازدهاره الاول ، فقضوا عليهِ

زُرعتْ بذوره في ارض طيبة في الشرق الادنى

— فجاءت رومة بجيوشها تدوسهُ وتسحقه سحقاً . وما كانت رومة ممن يحلمون الاحلام

— ومع ذلك فقد كان للرومان فضل يذكر في الرقي والعمران

— عمروا المعابد لآلهتهم ، وعبّدوا الطرق لجيوشهم . وكانت الآلهة ، مثل الجيوش ، تستولي على الشعوب والامم باسم رومه ، ومن اجل رومه ، بل من اجل القياصرة في رومه

— مدنية المعابد والطرقات هي خير من مدنية القصور والمعابد . القصور للملوك والطرقات للملوك والصعاليك

— ولكن السواد من الناس في عهد الرومان كان كالسواد في عهد بابل وآشور — عبيداً للكهان والملوك ، وحطباً للحروب

وما افلح الرومان في وادي الرافدين . بعد مائتي سنة من الاغارات والحروب سلمت رومة الى سلوقية . وما خلا الجو لسلوقية طويلاً . عاد الفرس الى العراق (٢٢٦ ب.م.) فاستولوا عليه ، واستمرت فيه الدولة الساسانية اربعمائة سنة

— والنزاع بين الشرق والغرب ، ذلك النزاع الذي كاد ينتهي بعد واقعة اربيل ، تجدد بشكل ديني بين المسيحية والوثنية . وما الذي أثمر جدالُ ارباب الدين ، المتنطعين والمتعصبين ، لخير السواد من الناس ، بل لخير الناس جميعاً ؟

وفي ظلمات الجاهلية ، في سماء الحجاز ، سطع نور النبوّة ، نورُ دينٍ جديد . ومشى المؤمنون مكبرين ، وسلاحهم الاسلام وكلمة التوحيد ، فاجتازوا البوادي الى الارض الخضراء يرومون الفتح لله ، والخلاص للناس . فحملوا على الروم في سورية ، وعلى الفرس في العراق . فكسروا جند هرقل في اليرموك (١٢ هـ ٦٣٤ م) وبددوا جنود فارس في القادسية (١٤هـ ٦٣٦ م) وبعد عشر سنوات من وفاة النبي رُفعت اعلام العرب فوق قصور فارس ، وفوق حصون دولة الروم

— هي نار النزاع بين الشرق والغرب تزداد اضطراماً . وهي كذلك اول شعلة من نزاع يجدّد بين الساميين والآريين ، بين العرب والعجم

— ولكن الاسلام دين التوحيد ، ودين العدل والاخاء والمساواة

— المساواة والاخاء في الحروب بين السنّة والشيعة ! والاخاء والمساواة في الحروب بين التتار والترك والمغول والعرب من السنّيين !

— انما الحكام المسلمون ، وخصوصاً العرب منهم ، يفوقون سواهم في العدل والانصاف ، بل في كرم الاخلاق والمبرّات . فقد كانوا على الاجمال اكثر حلماً وعدلاً من اكثر ملوك الفرنجة

— يصح هذا في الخلفاء الراشدين ، وفي بعض الخلفاء الامويين والعباسيين . اما الدولة العباسية في العراق (١٣٢ — ٦٥٦ هـ ، ٦٢٦ — ١٢٥٨ م) فما كانت ، على الاجمال ، المثل الاعلى في العروبة ، ولا كانت المثل الاعلى في الاسلام . اول خلفائها « السفاح » وآخرهم العاجز المستعصم بالله

— وهرون الرشيد ؟ شخصية باهرة اجتمعت فيها الاضداد . فقد كان هارون ورعاً تقيّاً ، وخليعاً اثانيّاً . وكان كثير المبرات والبدوات ، عادلاً يوماً ، ويوماً ظالماً . تارةً حريصاً على ابهة الملك ، وطوراً يرمي بها الى الصيادين . . . ولا اذكّر بنكبة البرامكة . . .

— والمأمون ، ما تقول في المأمون ؟ المأمون ، غفر الله ذنبه في اخيه ، هو مثل حمورابي في آشور . المأمون نجم العباسيين الساطع ، ونورهم اللامع على الدوام

— وجاء هولاكو بجيشه الجرار صائلاً فاتحاً

— هولاكو من كبار القواد المسلمين الذين وقف الاسلام على شفاههم ، وما دخل الى قلوبهم . فهو الذي اكتسح بغداد (٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م) — ودمرها ، وأعمل السيف باهلها

— وحكم التتار في العراق نحو مائتين وخمسين سنة ، فعاد الفرس (٩١٤هـ — ١٥٠٩ م) فنزعوا السيادة منهم . ثم جاء الترك ، بعد ربع قرن ، فنزعوا السيادة من يد الفرس واستولوا على البلاد (٩٤٠ هـ — ١٥٣٥ م) وظلوا اسيادها اربعمائة سنة

— اربعمائة سنة مظلمة ، يبدو الى جانبها العهد التتاري عهداً سعيداً . ولو استطاع الترك ان يحكموا النهرين ، دجلة والفرات ، لكانا اليوم اجف من رمل البادية ، واقفر من ارض الحماد

وفي السنة السابعة عشرة من هذا القرن العشرين جاءت الجيوش من الغرب — رجالٌ زُرق العيون ، متحدرون من الفريد الكبير السكسوني ووليم الفاتح النورمندي — فحملوا على الترك وانتصروا بمساعدة العرب عليهم . وقد قرأ قائد الجيوش على اهل البلاد مادةً من عهد مقدس يضمن للناس حقوقهم ، العامة منها والخاصة على السواء . ولاول مرة في تاريخ العراق ، الاسلامي وغير الاسلامي ، يؤسس في البلاد مجلس نيابي ، ويجلس على العرش ملك دستوري . اجل ، انها المرة الاولى في تواريخ دول هذا القطر كلها — الدول الآرية والسامية والتتارية والتورانية — التي تُعلن في البلاد ، وتضمن في دستورها ، حقوق الانسان

— ٢ —

كنت احمل في ذهني ، عند ما أقدمت على رحلتي العربية ، صورة تصوَّرتها ، مما قرأت وسمعت ، لكل مدينة زرتها . وما تغير في الصورة بعد الزيارة شيء مهم . بل شاهدت في الصفة البارزة لكل مدينة ، فوق ما تصوَّرت . فكانت صنعاء اكثر عمراناً وحسناً ، والحديدة اكثر خراباً وقبحاً ، وعدن اكثر تجارةً واقل عروبة ، وجدة اكثر عتقاً ورثّة ، وجيزان اشد وحشة ، والرياض اعجب قداسةً ، وعنيزة بين ضعوصها الذهبية اصفى جمالاً ، والهفوف اكثر غباراً وذباباً مما كنت اتصور او اظن . فما كذَّبت هذه المدن ما سمعت ، ولا افسدت ما قرأت

اما بغداد فأمرها غير ذلك . قد جئت بغداد من افق كان في قديم الزمان كثير الانوار والالوان . جئتها وفي القلب أثر شديد مما لا يزال من تلك البهجة في كتب التاريخ والشعر . بل جئتها من عالم الاحلام المدبجة حواشيه بالذهب والارجوان ، وبكلمة اخرى لقد جئت بغداد من عالم « الف ليلة وليلة » . فهل يُعجب اذن لخيبتي ، وهل يُستغرب غمي ؟ بيد ان تباين الحقيقة والخيال هو في يومنا هذا كما كان في الماضي ولكن الزمان يلبس الاثنين ثوباً من التقليد والتقديس ، ويرفعهما في عيون الناس الى منزلة الوحي المنزل . يحق لنا اذن ، ونحن في هذا الزمان نعرض للبحث حتى الوحي المنزل ، ان نبحث وننتقد ما يجيئنا به التاريخ قبل ان نقبله مصدقين معجبين ، او نرفضهُ مستنكرين

وليس هذا بالامر السهل . فمن ذا الذي يستطيع ان يجيب مثلاً على هذا السؤال : اين تنتهي الحقيقة في عهد العباسيين الذهبي ، واين يبدأ الخيال ؟ اني اسأل سؤالاً آخر . ولكني اقول قبل ذلك اني اصدق فرضاً كل ما قاله المؤرخون والروائيون في ذلك العصر الذهبي . ثم اسأل : هل كانت

اسباب تلك المدنية منتشرة شاملة ؟ هل كانت بغداد كلها ، او هل كان جُلُّها ، على طراز ما كان من بناء وهناء الخلفاء والامراء والاعيان ؟ وبكلمة أخص : هل كانت المرافق مثلاً واحدة في المدينة ، وهل كانت عامة ، على انواعها ، كما هي في هذا الزمان ؟

وما هي الحقيقة في عصر هرون الرشيد؟ وما هي الحقيقة في بغداد هرون؟ هل ننكر ما جاء بخصوصها في «الف ليلة وليلة» وفي التواريخ كثير مما في تلك الحكايات ؟ لا شك ان بغداد كانت كالقاهرة او كدمشق او كانت تفوقهما في عمرانها وبهجتها . ولا شك ان الرشيد كان يفتخر بها ، ويفاجئها من حين الى حين بطرائفه وغرائبه . ولا شك ان الصيادين كانوا ينعسون بل ينامون على شاطىء دجلة ، وهم يرمون بشباكهم للاسماك . اني اصدق كل ذلك لانه الحقيقة بعينها حتى في هذا الزمان . فهناك بغداد تزين البلاد ، وهناك مليك مثل هرون من صميم العرب، وله مثل ذلك العباسي رغبة في التنكر فراراً من أبهة الملك ، وحباً باستطلاع اخبار الرعية . وهناك كذلك الشعراء والصيادون

أما تلك الصلة الاخوية ، الرشيدية ، « الالفليلية » بين الملك والصياد فانك لا تجدها . قد يكون الملك دمقراطيًا ، وقد يكون الصياد فيلسوفاً سقراطيًا . ولكنهما يسيران كلٌّ في سبيله ، في خطٍّ مستقيم أو معوجّ ، ولا يلتقي الخطّان حتى يجيء صاحب (اعـذبهُ أكذبهُ) أو صاحب الحكايات الشهرزاديات ، فيرى ذات يوم ظلّ الملك قريباً من ظلّ الصياد ، فيلفق القصة ، او يؤلف الاسطورة ، التي يتذبذب فيها الخطّان — الظلاّن — ويدنو الواحد من الآخر ، ثم يتلامسان ، ثم يلتفان ويشتبكان ، ويتلوّنان بألوان قوس قزح ، ويتكونان اشكالاً فنية ، رومنتيقية « ألفليلية » تبهر الابصار ، وتسحر ألباب الصغار والكبار . لست أنكر سحر الآيات ، وأعاجيب الحياة ، حتى في هذا الزمان . فالصياد البغدادي موجود كما قلت ، والملك كذلك من حقائق الوجود ، ولا يُستغرَب اذا أمعن الصياد في الاحلام ، ووَدَّ ان يكون ملكاً من ملوك الزمان ، ولا يستغرب اذا اشتهى الملك في بعض الاحايين ، ان يكون من الصيادين . وقد تتحقق رغبة الاثنين ، فيهتف الشعراء قائلين : لا حقيقة ثابتة غير حقيقتنا . الحقيقة الشعرية فوق كل الحقائق

واني اسأل سؤلاً آخر : كم كان حظ عامة الناس من تلك المدنية العباسية الباهرة ؟ هل كان يتمتع الصياد والملاح والاسكاف والفلاح بشيء من تلك النعمة التي كانت تبسط أجنحتها الذهبية في البلاط وفي قصور البرامكة ، وفي كل مكان قريب من ظلال القصور الملكية والاميرية ؟ هل كان للسواد من الناس بعض ما للخاصة من الثروة والثقافة والسعادة ؟ هل عم بغداد ذلك الترف والتأنق في العيش ، وذلك الزهو والسرور ، وذلك المجد والعز والتهذيب ؟

لا يلزم ان نعود الى التاريخ لنجيب عن هـذا السؤال . فان لدينا في الحاضر الدليل والبرهان . ان في شرقنا اليوم — في المدن التي لا تزال شرقية ، او لم تمسّ بغير القليل من مدنية الغرب في البناء وفي المرافق العامة والخاصة — ان فيها من ظلمات الأسواق ومقاذرها ، ومن ازدحام الحياة

ومرابقاتها ، ومن النتانة والعفونة والامراض ، ما لا تجده في مدن اوربا الاَّ في بعض أحيائها التي تدعى Slums وهي مهد الاوبئة الادبية والاجتماعية والروحية والجسدية . أما الفرق بين المدينة الغربية والمدينة الشرقية فهو انه مثل هذا الحي في الاولى جزء صغير منها، وهو في الثانية الجزء الاكبر

وهذا الجزء الاكبر هو المدينة . أما الدور والقصور وإن كانت في قلبها فليست هي منها . في الدور والقصور المرافق والاثاث والاعلاق، وفي غيرها الفقر والقناعة والاقذار، والورع والاستسلام بين الاقذار . هناك أقلية تستمتع بخيرات الارض وطيبات الحياة ، وهنا السواد من الناس وهم قانعون بالنعيم المنتظر ، وعا تعدهم بهِ الكتب المنزلة . هناك المدنية ، وهنا المدينة

ولما كان السواد من الناس يعيشون محرومين في الدنيا تراهم شغفين اكثر من سواهم بالقصص والاساطير التي تمثل النعيم المنشود

حقيقة النعيم ، او بعض حقيقته ، للامراء والاغنياء . وحديثٌ عنه — حكاية أو اسطورة او قصيدة — للسواد من الناس . ومع ان السينما تغزو اليوم بلاد القصّاص ، فيتهافت العرب عليها ليروا ويسمعوا شهرزاد هذا الزمان — الشاشة البيضاء وما وراءها من سحر النطق والتصوير — فان القصّاص لا يزال مالكاً سعيداً ، وله عرشه في القهاوي . وهذا الشغف بالحكايات والآيات والمعجزات ، هذا التعظيم للخيال ، هذا التقديس للمحال ، لا يزال في الشرقي من الخلال البارزة. فهو يقنع بظل الحقيقة . ويقبل متورعاً مجبوراً ما يحاك من الظلال كما لو كان حقائق دينية . ثم يعلل النفس بلحم تلك الحقيقة ودمها ، بجسمها المادي . كذلك كان الشرقي ، ولا يزال على الاجمال كذلك

وقد شحذت هذه المخيلة منه ، فأصبحت بعامل الوراثة شقيقة العواطف في السيطرة على نفسه — في عقائده واحكامه ، وفي آرائهِ واهوائهِ . ولا عجب اذا خضعت كلها للخيال ، واعتصمت بالمحال . فمن يستمتعون بطيبات الحياة لا يضيعون الوقت في أحاديثها . ومن يحرمونها يسترسلون في الاحلام التي تزينها المخيلة وتذهّبها الاهواء . فتتمثل أمامهم ، اذ يسمعون القصاص أو يجلسون اليوم أمام الشاشة البيضاء ، صوراً مستغربة ، وصوراً خلاّبة . ومن هذه الصور صورة بغداد في عهد العباسيين الاول . وحسب اللبيب الاشارة الى ما يولده الشغف بالخيال ، والتلذذ بالمحال من حب المبالغة والغلو ، حتى في النظر الى حقائق التاريخ ، وحقائق الحياة اليومية . فالمؤرخ من هذا القبيل شاعر، والشاعر مؤرخ ، والقصاص مؤرخ وشاعر معاً . بل هم ثلاثة أقانيم لشخص واحد عجيب

وكلهم مجمعون على ما كان من عظمة بغداد ومدنيتها . فقد كان فيها ، كما يقول المؤرخون، عشرة آلاف حمام ، وثلاثون الف مسجد ! فاذا كان عدد سكان المدينة مليوني نفس ، كما جاء في التواريخ يكون لكل مائتي شخص حمام ، ولكل ستة وستين من السكان مسجد واحد . والمائتان يقيمون في ثلاثين بيتاً ، والستة والستون في عشرة بيوت . فهل يُعقل ان يكون لكل ثلاثين بيتاً حمام عمومي ولكل عشرة بيوت مسجد ؟

العربي يرى ولا يعد . وهو في التقدير ، اذا كان ما يراه كثير العدد ، يعوّل على الخيال دون العقل . وهاك المثل . اذا دخل اعرابي الى بغداد اليوم من الجهة الغربية يرى في ناحية الكرخ ، عند الجسر ، الى الجانبين ، عدداً من القهاوي . ثم يرى صفين آخرين في ناحية الرصافة كذلك عند الجسر ، بينه وبين شارع الرشيد ، واذا ما مشى في شارع الرشيد الى جامع مرجان يرى بين كل مائة متر واخرى جماعات من الناس يدخنون الاراكيل ويلعبون الطاولة والدومينو . فاذا سئل بعد ذلك ماذا رأى في بغداد يقول : القهاوي القهاوي في كل مكان . فيحدث عنه من يسمعه ويقول : ليس في بغداد غير القهاوي . فيحدث الثالث ويصفها بالمئات . فاذا سمعه المؤرخ يحدد المئات ، وقد يتجاوزها الى الالف او الالفين . . ولكن الشاعر يفضل عليها لفظة الالوف لانها في الشعر اعذب من مائة ، وابلغ من الف . وعند ما يسمع القصّاص الشاعر ، ويطفق يلفق الحكايات ، لحدّث عن قهاوي بغداد ولا حرج . كذلك تجيئنا الاحصاءات وقد بلغت عشرة آلاف من الحمامات ، وثلاثين الفاً من المساجد[1] وعشرات الالوف من القهاوي . وليس في بغداد اليوم ما يتجاوز الاربعمائة قهوة ، اكثرها في الشارع الجديد ، شارع الرشيد . وليس فيها من الجوامع اكثر من خمسين ، اضف اليها ضعف هذا العدد او ضعفيه من المساجد

ويَلي من الارقام . فسينبري لي غداً احد أرباب التاريخ المحققين المدققين ويوبخني قائلاً : ان في بغداد خمسة وخمسين جامعاً واربعمائة وعشر قهوات . فينبري له محقق مدقق آخر ويقول: القهاوي هي ثلاثمائة وتسعون عدّاً ، والجوامع تسعة واربعون . وتحتدم بعد ذلك المناقشة ، فيخرج من أحد القهاوي جاحظها ليعدّها . ويتبرع أحد الائمة او المؤذنين باحصاء الجوامع والمساجد

وعندئذ يتبين اننا كلنا في خطأ معيب ، وان كان الفرق ، صاعداً او نازلاً ، لا يتجاوز العشرة او العشرين . بيد ان ذلك في علم التاريخ ارتقاء يذكر . والفضل فيه لمن وجه السؤال ذات يوم الى أحد الصيادين الذي كان يطبخ السمك المسقوف على شاطىء النهر، تحت القهوة، بالقرب من جسر مود الى جانب الكرخ . سألته : وهل تعرف كم ببغداد من القهاوي ؟ فأجاب : بقدر ما في دجلة من السمك . فقلت : وكم تظن عددها في طرف هذا الشارع ؟ فقال : كله قهاوي ، ولا يحصيها الا الله

فرحت أعدها — أحصيها — فاذا هي ، من تمثال الملك فيصل الى الجسر ، تسع قهوات لا غير

ويلي من الارقام . فقد يتعطل الفونوغراف في احدى هذه القهاوي ، فيولي « ابناء الدومينو والشيشة » وجوههم شطر قهوة اخرى ، فونوغرافها عامر ، والحانه صياحة — كردية تركية مصرية — فيضطر صاحب القهوة المعطل فونوغرافها ان يقفل بابه ، ويودع أصحابه . او قد يجيء كردي بفونوغراف جديد ، وينصبه تحت النخيل ، ويضع حوله طاولتين وديوانين من الخشب العادي

(١) عدد الجوامع التاريخية في القاهرة نحو خمسين . اضف اليها ضعف هذا العدد او ضعفيه من الجوامع الجديدة والمساجد . وفي مدينة نيويورك من الكنائس والمعابد الكبيرة ، المسيحية والاسرائيلية ، مائة وخمسون عدّاً . وجميعها الكبيرة والصغيرة لا تتجاوز الثلاثمائة

المسوّس ، فيزداد عدد هذه القهاوي أو ينقص ، قبل ان يصدر هذا الكتاب قهوة واحدة أو قهوتين

أعوذ بالخيال من الارقام . واعيذك ، أيها القارىء العزيز منها . تعال اذن نعتصم بالخيال الشعري . وعندي منه الآن ما لا ينكره العقل ، ولا ينفر منه التاريخ

هاك دجلة ، وهاك القُفة فيه . تلك القفة التي صنعت بعد الطوفان في مرفأ أور الكدانيين . وهي اليوم ، كما كانت في زمن العباسيين على الاقل ، تصنع من الخوص ، وتطلى بالقار داخلاً وخارجاً . فلو عاد الى هذا الوجود أحد نوتيي بغداد القديمة لكان يهلل للقفة ، ويحمد الله انها لا تزال على شكلها الاول ، وان الف سنة لم تغير شيئاً فيها . وقد يكون النوتي البغدادي الذي يحرك مجذافها اليوم من سلالة صياد الرشيد ، وقد يكون الجد كذلك لسلالة مقبلة من الصيادين تستمر الف سنة اخرى . فيجيء رحالة القرن الواحد والثلاثين ، ويقف فوق دجلة على جسر معلق من حديد ، فيرى القفة ، ويعثر بعد ذلك على نسخة من هذا الكتاب ، فيستشهد مؤلفه على الف سنة في الاقل من عمرها

وما هذا كل ما في القفة . فبين صاحبها يجذف من حين الى حين ، ليحفظ خط سيرها في مجرى النهر ، يبدو لك كنز آخر من الكنوز التي لا تمسها يد الفناء ، ولا تعبث بها يد التغيير . هناك ، على وجه دجلة ، في صباح يوم شمسه كريمة ، ترى اللؤلؤ في نقط الماء التي تتساقط من المجذاف ، وهو يرتفع فوق الموجة ، وترى حول الموجة ، وهو يغطس فيها ، ذوب اللجين وقد تخلله الذهب الوهاج . فلو عاد الى هذا الوجود شاعر من شعراء نينوه ، او بنت من بنات بابل ، او كاهن من كهان أور لهلل — لهللوا جميعاً — لهذه الشمس الشارقة ، المقيمة على عهدها ، الثابتة في خيرها ، النائرة على دجلة ، حتى حول مجذاف « القفاف » لؤلؤ الذكريات ، وذهب الآمال — الذكريات والآمال التي تنعشنا اليوم وتحيينا ، كما أنعشت اهل أور ، وابناء بابل وآشور

وفي هذه الأرض المنبسطة ارض العراق تجيء الشمس في الشروق والغروب لطيفة النور ، ناعمة الوهج ، لا تحمل الكنانة ، كما يصورها الشعراء ، لتطارد النجوم ، وترمي بسهامها القباب والابراج

هي شمس الأم تحضن الارض في الصباح ، وتتغلغل حبًّا وحنيناً في قلب العراق وابنائه

هي شمس الفنان ، تلمس اللازورد في قباب الجوامع ، فيستحيل ياقوتاً اصفر ، وتكسو المآذن البيض بحلل من الدمقس المعصفر

هي شمس المحسن الاعظم ، تسير فوق السطوح المسوّرة ، ولا تكشف سرها ، وتقف فوق الجفون النائمة ، فتبشرها بعودة الحياة

ساعة في الصباح من السحر المبرور

ساعة من نعيم الحرارة والنور

أيقال: اكتشف الشيء ؟

للعلامة الأب انستاس الكرملي

عضو مجمع اللغة العربية الملكي

١ — مقدمة البحث

كان الكُتَّاب — قبل نحو مائة سنة خلت — يستعملون في كتاباتهم « اكتشف الشيء » بمعنى وجدهُ ووقف عليهِ وكان مجهولاً او خفيًّا على اغلب الناس . ثم جاء بعض حملة اليراع من ابناء وادي النيل وقالوا : هذهِ الكلمة لا وجود لها في معاجم اللغة ، فتجنبها المتفصحون ونبذوها نبذ النواة ، واذا جاءت على اسلة قلم احدِ الادباء ، رموه بالجهل واستعمال كلام المولدين او العوام الذين لا يعرفون من الكلام الصحيح الفصيح شيئاً مذكوراً

٢ — فصحاء الكتاب الذين استعملوها

اشتهرت هذه اللفظة « اكتشف الشيء » في القرن الماضي حتى استعملها الشيخ السيد ابراهيم ابن علي الاحدب صاحب فرائد اللآل ، والشيخ يوسف الاسير والشيخ الجليل فارس الشدياق اللغوي الشهير والشيوخ ناصيف اليازجي وابناه ابراهيم وخليل والمعلم بطرس البستاني وابنه سليم وغيرها من البستانيين ، الى كتاب آخرين لا يحصى عددهم ومن بينهم الدكتور يعقوب صرّوف ولا يزال يتخذها فريق من حضنة العلم وحملة اليراعة الفصيحة الى عهدنا هذا . وكان ابراهيم اليازجي ممَّن استعملها في مجلته الضياء الى آخر سنة منها اي الى سنة وفاته . وليس الشيخ ابرهيم ممن لا يعتدُّ بكلامه ، بل هو الحجة العظمى والثبت الأكبر

والمعلم بطرس البستاني ذكرها في ديوانه (محيط المحيط) اذ يقول : « اكتشف الشيء بمعنى كشفه . ومنهُ الاكتشافات لما يكشف من الامور الطبيعية والصناعية » . ولعلك تقول : ان البستاني ليس بحجة وهو كثيراً ما أخطأ في محيطه وادخل كلماً عاميًّا واعتبره فصيحاً ووضع الفاظاً لا صحة لها ولا وجود . — قلنا : « ونحن ايضاً على رأيك . لكن اذا قال شيئاً ووافقهُ عليهِ غيره اصبح حجة . وهذه الكلمة استعملها فصحاء الكتبة في القرن الماضي ، اذن لابدَّ من استعمالها وعدها مولدة ألَم نقل فصيحة »

٣ — أنكرها ثم استعملها

وممن أنكرها المرحوم اسعد خليل داغر في كتابه (تذكرة الكاتب) فقد قال في ص ٣٦ منهُ ما هذا نصهُ : « ومما يجب على المجمع ان يوجه التفاتهُ اليهِ هو [1] الكلمات الكثيرة المستعملة الآن في غير ما وضعت لهُ . وليس في كتب اللغة ما يُجَوِّز استعمالها هذا ، الا على ضعف وتكلف . ولكنها شاعت وذاعت حتى بين بلغاء الكتّاب وليس من السهل ان يستبدل بها كلمات اخرى . فمنها ... الافعال « تفرج » و « تطوَّر » و « اكتشف » وغيرها » اه .

ومع انكاره هذا الفعل ووضع « كشف » في مكانه (راجع ص ١١٣) يقول في ص ٢٣ : ... « وما يجدّ كل يوم من المكتشفات والمخترعات اه »

٤ — ما وضع في مكان اكتشف

لما اطلع بعضهم على انكار استعمال « اكتشف » لعدم وجوده في دواوين اللغة ، اتخذوا في مكانه « استكشف » وهذه لاتؤدي ابداً معنى اختها . فمعنى « استكشف » طلب او سأل ان يكشف لهُ عنهُ . فأين هذا من ذاك ، ولهذا اصاب صاحب تذكرة الكاتب في قوله : « ويستعملون استكشف بمعنى كشف فيقولون : « يتصرفون في استكشافها والكلام [2] عن الآثار المصرية والصواب كشفها » اه .

لكننا نقول ان كشف واستكشف لايحويان معنى اكتشف ولا يؤديان معناه الا ببعض تكلُّف . اذ في معنى الاكتشاف شيء لايرى في اخويه . فالاكتشاف يكون من بعد ان يزاول الباحث كشف الخفيّ عنهُ ، فيبلغهُ بعد العناء والمعالجة . وهذا سرُّ استعمال الكتبة لهُ وعدم اكتفائهم بالفعلين السابقين . فقد خصّصوا « الكشف » بالأمور المادية المرئية و « اكتشف » بالامور العلمية والطبيعية والصناعية

---

(١) قوله « هو » بعد ان قال : ومما يجب على المجمع ... هو الكلمات الكثيرة ، زائد لا محل لها هنا والافصح حذفها كما لا يخفى

(٢) قوله « والكلام عن الآثار » غير فصيح ، لانه يقال : تكلم عن فلان أو عن كذا ، اذا كان وكيلا « عنه » أو مدافعاً « عنه » أما اذا كان الكلام بمعنى مجرد القول فيقال : « والكلام على . . . » أو « والكلام في ... » ونحن نذكر شواهد على كل من هذه الاستعمالات الثلاثة . قال الجاحظ (في الفصول المختارة في حاشية الكامل للمبرد ١ : ١٩٥) : « الذين لا يتكلمون عن الكتب المدونة » — وقال ابن النديم الوراق في كتابه الفهرست (ص ٧ من طبعة الافرنج) : « فتكلم عن رسومه وقوانينه » اه — وقال في تاج العروس في مادة (س ل ع) : « ثم رأيت العلامة الشيخ عبد القادر بن عمر البنداري قد تكلم على البيت الذي أنشده الجوهري » وشواهد تكلم فيه ما جاء في لسان العرب في مادة (ك ل م) : « وكأن الكلام في هذا الاتساع انما هو محمول على القول

وشواهد تكلم عنه ما ورد في صحاح الجوهري ومثله في كتاب العين لليث : « عبرت عن فلان تكلمت عنه » . وفي المصباح : « دره عن القوم : اذا تكلم عنهم ودفع » — وفي التاج : « مدره القوم . . . . المتكلم عنهم » الى غير هذه الشواهد وهي لا تكاد تحصى لتدفق سيلها

٥ — رأي اللغوي فارس الشدياق في تأويل اكتشف

لاحظ الكتّاب منذ بدء استعمالهم «اكتشف» ان فيها بعض التأويل . قال صاحب الجاسوس على القاموس ص ٦١٩ : «اكتشفت لزوجها بالغت في التكشف لهُ . وعندي ان المفعول هنا محذوف تقديره : «نفسها» وان الزوج مثال . وهذا الحرف ليس في الصحاح ولا التهذيب ولا المحكم» اه كلام الفارس اللغوي

وانا ازيد على ذلك ان صاحب الجاسوس مصيب في قوله . والدليل ان اكتشف ورد هنا للتمثيل والتنظير لا غير ، اذ قد ورد مستعملاً لغير النساء . قال الطبري في تاريخه الكبير (١ : ١٣١٦ من طبعة اوربة) ما هذا نقلهُ بحروفهِ في حوادث السنة الثانية للهجرة (فتكون الكلمة معروفة في عهد الجاهلية وليست خاصة بالنساء) : «فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف ثم صرّخ . واعمراه ! واعمراه ! لحميت الحرب ... »

وكان الاقدمون من السلف يفعلون مثل ذلك في المصيبة العظمى او لبثّ التحمس في صدور الشهود . وراجع في كتب اللغة المطولة معنى شوّر بهِ ، ونجتزىء بالاشارة اليهِ عن ايراد النصوص حُبًّا للإختصار

اذن اصاب فارس الشدياق في اعتبار اكتشف من الافعال المتعدية بعد حذف المفعول بهِ . ولاسيما انهُ ادخلهُ في احصاء امثلة «افتعل» المتعدي

٦ — رأي الشيخ عبد القادر المغربي

كان الامير شكيب ارسلان استفتى الاستاذ المغربي في مجلة المجمع العلمي العربي التي تنشر في دمشق في سنتها ١٣ : ١٤٠ في الفعل اكتشف اذ قال (ص ١٣٩) : «يا أخي ، لفظة (اكتشف) لا توجد في كتب اللغة ، افرأيتها انت في مكان ؟ ومثلها ...» فأجاب الاستاذ الكبير المغربي بقوله (ص ١٤٠) ما هذا نصابهُ بحروفهِ :

« (اكتشف — جاء في كتب اللغة ان للاكتشاف معنى غير المعنى الذي يستعملهُ فيهِ الكتّاب المعاصرون . فالاكتشاف في اللغة ان تبالغ المرأة في الكشف عن نفسها في خلوتها مع زوجها . فهو فعل لازم . اما اكتشف في استعمالنا اليوم فتعدٍّ . تقول : اكتشف كولمبوس بلاد اميركا سنة كذا . واكتشف المخترع الفلاني البارود سنة كذا . واذا اعتبرنا لفظ (المرأة) في تفسير الاكتشاف قيداً غير لازم ، بل كما يقال : اكتشفت المرأة لزوجها ، نقول : اكتشف الرجل للخوض في النهر ، واكتشف المريض للطبيب على معنى انهما بالغا في حسر ثيابهما . وفي هذا الحسر ظهور ما كان خافياً — اذا اعتبرنا هذا كان قولنا اليوم (اكتشف) صحيحاً فصيحاً بشرط ان نستعمله لازماً قاصراً على فاعله ،

فتقول : (اكتشف البارود سنة كذا) برفع بارود على الفاعلية ، اي ان البارود ظهر سرُّهُ للناس تمام الظهور بعد ان كان خافياً . وكذا (اكتشفت بلاد اميركا)و(اكتشف سرُّ المسألة)وهكذا ولكن لا اظن ان الناس اليوم يقدرون على هذا الاستعمال بعد ان فشا على لسانهم استعمال(اكتشف) متعدّياً . وعلى هذا يكون فعل اكتشف المتعدّي (مولّداً) ، هدي اليهِ المعاصرون بنابل من ذوقهم . فهو مثل (تفرج)و(تنزه) و(احتار) و(خابر) وكلها من الصنف الرابع (من الاصناف السبعة للكلمات غير القاموسية)وهذا الصنف افتى بجواز استعماله خمسة عشر عضواً من اعضاء المجمع وانكر جوازهُ ثلاثة منهم . راجع مجلة المجمع (مجلد ١٢ ص ٥٣٠) فالفتوى اذن على استعمال فعل الاكتشاف » . الى هنا كلام الاستاذ المغربي

وزاد على ما تقدم ما يأتي وهو نتيجة البحث (في ص ١٤٦) : « (اكتشف) كلمة مولدة يجوز استعمالها عملاً برأي خمسة عشر من علماء اللغة والادب المعاصرين » اه كل ما ورد في هذا المعنى في مجلة المجمع العلمي العربي الدمشقية

٧ — انا والدكتور يعقوب صرُّوف

في ٢١ (حزيران) يونيو من سنة ١٩٢٥ زرت الدكتور يعقوب صرُّوف في مكتب المقتطف فقال لي: ان فريقاً من الادباء وحملة الاقلام يأخذون عليَّ استعمال (احترم)و(اكتشف) في مقالاتي ،فقلت لهم : اني اراجع محيط المحيط من كتب اللغة لسهولة ظفري بضالتي عند انشادي اياها فيهِ . والكلمتان مدونتان في هذا المعجم . وكانوا يقولون لي : محيط المحيط غير حجة في اللغة . فالكلمتان غير موجودتين في القاموس ولا في لسان العرب ولا في تاج العروس ولا اساس البلاغة الى غيرها من معاجم الاقدمين والمحدثين كالاوقيانوس ومنتهى الارب في لغة العرب الى آخر ما هناك

ثم قال لي : وما رأيك في هاتين المفردتين ؟ . فقلت له : انهما من افصح كلام العرب ولا غبار عليهما . فقال لي : واين تريان ؟ قلت : اما (احترم) فمدوّنة في اساس البلاغة في غير مظنتها لكن في مادة (م ل ح) قال : « الملح : الحرمة وان معناه انهُ يحترمك ما دام جالساً معك ، فاذا قام عنك رفض الحرمة » . وذكر الزمخشري ايضاً (احترم) في مقدمة كتاب الادب في ص ٢٣٩ وجاء في المصباح : الحرمة المهابة وهذه اسم من الاحترام مثل الفرقة من الافتراق » اه — وقال البوصيري:

حاشاهُ ان يحرم الراجي مكارمهُ   او يرجع الجار منهُ غير محترم

وفي شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (٢ : ٢٠) «ولولا ان اباها الذي كان بينها يحترم ويصان لاجله» الى غير ذلك من النصوص الكثيرة

فلما رأى الدكتور صرُّوف جميع هذه الشواهد قال : «حسبي شهادة الزمخشري في الاساس وهو

اعظم الحجج . ثم قال بقي علينا ان نثبت وجود «اكتشف» عند الفصحاء . فقلت له : « يا ايها الدكتور ، ايذن لي ان لا اذكر لك شواهدي على ذلك الآ بعد عشر سنوات ، لأدع الكتاب ينكرونها ويتألبون على هذا الانكار ، الى ان يقوم احد اللغويين المصريين ليثبت لهم صحته اما اذا لم يجيء احد ليوضح لهم هذه الحقيقة فآتي حينئذ ببراهيني المبيّنة فصاحة الكلمة » . اما الآن وقد مضى على حديثي نحو تسع سنوات ودخلنا في العاشرة، وقد انتقل الدكتور صرّوف الى دار البقاء فاجيء بما يؤيد صحة استعمال (اكتشف) التي لا يقوم مقامها (كشف) ولا (استكشف) ولا اي فعل كان

٨ — فصاحة اكتشف الشيء

اكتشف الشيء من افصح كلام العرب ومن اقدمهِ اذ هو من باب المجاز فمعنى اكتشف الشيء الهجوم على الحقيقة او على الشيء الخفيّ وإلقاحهُ وانتاجهُ وإعلاؤُه وبثّهُ في العالم للانتفاع بهِ . وهو من قول السلف : اكتشف الكبشُ النعجة نزا عليها » . (اه عن اللسان في آخر مادة كشف) وراجع ايضاً القاموس وتاج العروس وسائر المعاجم المطولة كالقادوس والاوقيانوس والبابوس وكتاب العين ومعيار اللغة الى غيرها

وقد قال صاحب الجاسوس لما رأى كثيرين من اللغويين يقدمون المجاز على الحقيقة مع ان المجاز من اقوى دعائم اللغة (في ص ١١ من جاسوسه) : « ومما احسبهُ من الخلل ايضاً تقديم المجاز على الحقيقة او العدول عن تفسير الالفاظ بحسب أصل وضعها ... » وقال في ص ٦٢ : « ان المصنف (أي صاحب القاموس) كثيراً ما يهمل الحقيقة ويذكر المجاز الذي لم تعرفهُ العرب ..... » اه — قلنا : لان من المجاز ما عرفهُ السلف ومنهُ ما لم تعرفهُ والشدياق يشير هنا الى هذا الاخير

وقال الزمخشري في كتابهِ أساس البلاغة في مادة (ا س ر) : « ومن المجاز : اسروهُ، ويسروا ماله . وتياسرت الاهواء قلبهُ . قال ذو الرمة :

بتفريق أظعانٍ تياسرن قلبهُ وخانَ العصا من عاجل البَيْنِ قادحُ

وهو من فصيح الكلام وعاليه وما فصّحهُ وأعلاه الآ الاستعارة » اه

قلنا : انظر كيف انهُ قال في الاول : « ومن المجاز . . . . » ثم قال في الآخر : « وما فصحهُ وأعلاه الآ الاستعارة » فاعتبر المجاز استعارة وبالعكس وذلك من باب التوسع ولأن المجاز والاستعارة من مصدر واحد . وكذلك يتوسع فيهما أبناء الغرب

ونحن أيضاً نقول : ان اكتشف الشيء (والفعل متعدٍ) ما فصّحهُ وأعلاهُ الآ المجاز أو الاستعارة . وبهذا القدر ما يثبت ان لغويي المائة الماضية من مسلمين ونصارى كانوا قد وقفوا على أسرار استعمال الكلمة في الاكتشافات العلمية والذين ينعونها اليوم يختلف ذوقهم عن ذوق العرب الصميم ، وعلم ربك فوق كل ذي علم

ما أقرأ من الكتب

سيرة ولز بقلمه

Experiment in Autobiography by H. G. Wells.

ليعقوب فام

عند ما تقرأ احدى السير تشعر باحدى عاطفتين ، اما ان الكاتب متحيز لصاحب السيرة يحبه الحب كله ويرى انهُ من خيرة الناس جميعاً ، قد ارتقى الى الذروة برغم الاحوال التي كانت تحيط بهِ ، وبرغم النظم الاجتماعية التي كانت تقيم الصعاب في وجهه وتضطهده اضطهاداً وتنغص عليهِ عيشه

اما انك تشعر بهذا او تشعر ان الكاتب متحامل على صاحب السيرة يظن بهِ السوء ويترجم نوازع نفسه على غير ما يمكن ان تترجم بهِ ، ويرى ان تصرفاتهِ في بعض مراحل الحياة او في كثير منها تصرفات معيبة ذلك لأن فلسفة الكاتب ومنازعه النفسية ومثله الاجتماعية والسياسية قد تغاير فلسفة صاحب السيرة ومنازعهُ ومثله بحيث لو كتبت سيرة موسوليني مثلاً لرأيت العجب ، فبعض الكتاب يحمل عليهِ وبعضهم يدافع عنهُ ، وبالطبع تختلف مراتب الكتّاب في الهجوم والدفاع فمنهم من يقسو كل القسوة ومنهم من يتلطف في نقده ولكنهُ ينقد ويذم على كل حال

قرأت مؤخراً اربع تراجم ، واحدة عن ماري انطوانيت، وواحدة عن مصطفى كمال ، والثالثة عن فورد، والرابعة عن ه. ج. ولز ، وهذه السير الاربع تدعم وجهة نظري التي تقدمت بها الآن ، فسيرة ماري انطوانيت عبارة عن دفاع مجيد شائق عن هذه السيدة البائسة خرجت منهُ اعطف عليها وارى ان الزمن ظلمها بوضعها في المكان الذي ولدت له، واما سيرة مصطفى كمال فهي عبارة عن اتهام للرجل بانهُ اناني ممعن في الانانية منهتك مدمن السكر، وكل ما له من الفضائل انهُ يحب تركيا باخلاص، وهاتان السيرتان كتبهما شخصان بعيدان عن صاحبي السيرة فكنت تستطيع ان ترى ميول الكاتب ومشاعره وتلمسها

اما فورد فقد كتب السيرة بنفسه ، وليست في الواقع سيرته هو وانما هي تاريخ حياة مصانعه واغراضها ونظمها . وفي سيرة ولز التي كتبها عن نفسه لا تستطيع ان تتبين تلك المنازع الحادة العنيفة التي سبق ان ذكرناها فليست هي اتهام وتعنيف لولز لانهُ هو الذي كتبها ولا يعقل ان يكتبها ليقول للناس « انظروا يا ناس ما بلغتهُ من الرداءة والشر » وليست هي مدح على طول الخط لانهُ لا يعقل ان رجلاً مثقفاً مثل ولز يكتب الفصول الطوال في مدح نفسه ، وانما هي سرد لحياته سرداً هادئاً متئداً ، بعيداً عن المنازع القوية العنيفة ، لا بل هي سرد لتطور شخصيته وعقليته وكيف تدرّجتا من حال الى حال من دون ان يتورط في التظاهر بالبطولة او بالتضحية

ولد هربرت جورج ولز في سنة ١٨٦٦ في هاي ستريت بروملي بمقاطعة كنت من والدين فقيرين

من طبقة الخدم الراقية ، اعني ان امه كانت رئيسة خادمات احدى القصور في يوم من الايام ، وكان ابوه صاحب متجر فخار اسمهُ Atlas House لم يكن يدرّ عليهم كفايتهم من القوت والكساء ، وكانت امهُ امرأة متدينة متعبدة مثلها الأعلى المسيح اولاً ثم رسله وكتبه ثم الملكة فكتوريا « الملكة العزيزة الصغيرة » . وكانت الملكة العزيزة الصغيرة هذه على لسان امه صباح مساء ، فالملكة حضرت والملكة ذهبت والملكة عملت ، حتى اشمأزت نفس هربرت جورج ولز ونبتت في قرارات نفسه بذرة الكراهية للملكية ، والى هذا يعزو ولز نفسه تمسكه بالجمهورية ومهاجمته للملكية في جميع اطوار حياته

كانت أمه متدينة وتلح على ابنها هربرت ان يتناول بعض الجرعات الدينية ، فكانت تجعله يصلي ، ويحفظ عن ظهر قلب أصول العقائد المسيحية ، ثم ألحفت عليهِ بالمسائل الدينية الحافاً جعله يهرب بمشاعره بعيداً عن هذا العدوان . كان في الجسم جالساً أمامها يستمع لها تصب على رأسه هذه العقائد صبًّا وكان من نتيجة هذا أيضاً أنهُ بعيد عن الاديان والعقائد بعداً كبيراً

كان يرى أمه تجاهد جهاد الأبطال في تدبير الشئون المادية للمنزل ، من دون ان يكون لهذا الجهاد الأثر المادي المحسوس ، ثم كانت تصلي لالهها حتى ييسر أحوال المعيشة لهم ولم يكن الله يستمع لهذا الدعاء ، وكان ولز يسجل هذا في ثنايا عقله تسجيلاً ليحاسب الله عليهِ حساباً عسيراً عند ما يبلغ أشده ، ولكن الحرارة الدينية فترت نوعاً في والدته عند ما شاء الله ان يأخذ أختاً لولز ، وسجل ولز في نفسه هذا الفتور عند والدته دون ان يتحدث بهِ

ثم كسرت ساق هربرت جورج ولز وهو بعد طفل . وكانت هذه الحادثة بدء حياة ولز الفكرية وهو يشكر طالعهُ أنْ كسرت ساقه ، (وقد يكون لامه رأي بخلاف هذا) فقد تمدد على كرسي طويل يدفعونه من مكان لمكان وهو منبسط عليهِ لا يتحرك ، وقضى أياماً طوالاً على هذه الحالة بعيداً عن الحركة والنشاط البدني ، فكان أبوه يحضر له الكتب من مكتبة البلدية ليقرأ قتلاً للوقت . ولم يكن الوالد يدري بالطبع ما هو فاعل ، اذ أنهُ في الواقع قد وضع الاسس التي سوف تبنى عليها حياة رجل من أعظم مفكري العالم ، كان من نتيجة هذه المطالعات البسيطة ان أخذت نفسيته تتجه الى المعرفة والى الكتب وصار يشعر ان خير ما تستطيبه نفسه هو ان يقرأ من غير انقطاع ، ونشأت بينهُ وبين الكتب صلة قوية نمت بنموه واتسعت باتساع عقله

وفي دور آخر من أدوار حياته نهشت احدى كليتيه وهو يلعب بالكرة . ثم أصيب بذات الرئة فعكف على كتبه وانزوى في سريره . وولز شاكر لهذين الحادثين لانهما أوجدا الصلة بينه وبين الكتب تلك الصلة التي وضعته حيث هو الآن في المقام الاول من المفكرين

كان فقيراً جدًّا ، وكانت أمه ككل أم حريصة متكبرة تمنعهُ ان يخلع سترته أمام الصبيان في المدرسة لئلاً تنكشف تحتها الملابس الداخلية المهلهلة المرقعة . كانت هذه الملابس الداخلية نظيفة حقًّا ولكن احترام النفس يقتضي عدم اظهار الناس عليها

لا يمكن ان تمرّ كل هذه التقديرات العقلية والاسرار النفسية دون ان تترك اثرها في الطفل. فأقل ما فيها أنها لا تترك الطفل على سجيته ، فلا يشعر معها بالحرية والانطلاق والبراءة في الدوافع والنوازع النفسية ، لان من عناصر هذه الحالة ان الطفل يحيا حياتين احداها لنفسه ولامهِ وأبيهِ والاخرى للدنيا الموضوعية ، للناس وللاوضاع الاجتماعية . هناك ناحية من حياته يخجل ان تظهر الناس على حالتها دون مداراة او مداورة . ثم عند ما يستريب الناس في تصرفاته لا يستطيع ان يتقدم بالاسباب الاصلية لهذه التصرفات ، فيضطر ان يداري ويداور ويتخابث ، او يعرض نفسه للشك والريبة . لست أنكر ان كلاً منا يحيا حياتين احداها خاصة والاخرى عامة ، ولكن الاحوال التي تضطر طفلاً في الخامسة الى العاشرة ان يعيش على هذا الوضع، احوال قاسية على نفسية الطفل لا بدّ ان تترك أثرها المستديم في حياته الروحية والعقلية والعاطفية

عجزت عائلة هربرت جورج ولز عن ان تقوم بمطاليبه المدرسية، واضطرت لاستغلاله اقتصاديًّا ليعين العائلة في كفاحها للحياة والعيش . فأدخلتهُ أمه صبيًّا في متجر للأقمشة ، لينظف الدكان ، ويرتب البضاعة ويناولها للبائعين لعرضها على الزبائن ، فحاول جهده ان يوطن نفسه على هذه الحياة ولكنها حياة لا تروق أمثال الصبي هربرت ، انهُ يفكر ويغرم بالكتب والمطالعة ويكره هذه الحياة التي اضطرَّ اليها اضطراراً ، فينشب نزاع حاد في نفسه لا قبل له بتسكين نفسه أو بترويضها على الخضوع لنوع الحياة الذي وجد فيه ، فيهرب ويذهب الى المدرسة ، ويكافح ويشتغل ليلاً ونهاراً وتواتيه الظروف فينجح

قلت في مقدمة هذا الكلام ان ولز لا يدافع عن نفسه ولا هو معنيٌّ باظهار نواحي العظمة في نفسه ، وانما هو يسرد الاطوار العقلية والنفسية التي مرَّ فيها ويترك للقارىء ان يخرج بالنتيجة التي تروقهُ ، ومن المسائل التي تناولها دون تعليق لتبرير نفسه او تعنيفها ، مسألة طلاقه من زوجته الاولى ، ابنة خاله . معروف للجميع الآن ان ولز من المتطرفين في التفكير وبخاصة في العلاقات الجنسية كما يتبين من كتاباته الكثيرة ، ولقد اتهم بالاباحية في الاخلاق وهوجم في نيَّاته واغراضه ، وكان منطق الحوادث مما يعين مهاجميه وناقديه ، ذلك لأنه ترك زوجته والتصق بامرأة أخرى وعاش معها بعيداً عن زوجته في منزل مستقل ، ولا يلام انسان بالطبع يزعم ان ولز اباحي لأن الحوادث شاهد على هذا الزعم

انسان يدافع عن الحرية الجنسية ، ويدعو الناس الى التحرر من قيود الاجتماع في الشئون العائلية وفي نفس الوقت يترك امرأته ليلتصق باحدى الطالبات اللاتي كنَّ يدرسن عليهِ في المدرسة — يصعب على الناس الاَّ يتهموه في نيَّاته واغراضه ، والناس يحكمون بالظواهر وبالتصرفات الواقعية ويستقرئون النيَّات والاغراض من السلوك . حقًّا ان هذا الاستقراء خطأ ، وان الصواب ان تستقرأ التصرفات من النيَّات والدوافع النفسية ، ولكن هذه تخفى على الجماهير في معظم الحالات او في كلها ،

ولا تظهر الا للسكلوجيين الباحثين واذن فكانت للتهم التي تكال لولز اسس تقوم عليها في منطق عامة الناس ، وكان ولز اباحيًا هدامًا للاخلاق والفضائل ولولا ان الانكليز متعصبون لحرية الرأي يقدسونها من قديم لما نجا ولز من السجن والتشريد

الواقع ان هربرت جورج ولز لم يكن اباحيًا ثائرًا على الاخلاق والفضائل ، لم يزعم هو ذلك لانهُ لم يكن بسبيل الدفاع عن نفسه ، وانما يقوله كل من يقرأ سيرة حياته دون تعنت او تزمت . ترك ولز زوجته الاولى والتصق بامرأة اخرى، ثم جيء به الى القضاء وتطلق من زوجته الاولى ، ومع ذلك فقد احاطها بعنايته كل حياتها وقام بجميع مطاليبها ، وابتنى لها بيتًا بعد ان تزوجت من غيره ، ثم تكفل بها بعد وفاة زوجها، ثم تزوج خليلته حالما اصبح حرًا طليقًا وعاش معها على اتم وفاق وانجب منها اولادًا احدهما الاستاذ ولز استاذ علم الاحياء Biology ومعينه في انتاج بعض اعماله العلمية الكبيرة

سرد ولز هذه الوقائع سردًا بسيطًا دون تعليق او تعقيب ودون ان يدفع عن نفسه شيئًا من التهم التي تكال له بالحق وبالباطل ، لا بل لم يسردها بالتفصيل لانهُ خشي على ما يظهر ان يفيض فيها فيودي بالمسحة العلمية لكتابه وانما ترك للقارىء حريته فيقرأ السطور ويخرج بالنتيجة التي تروقهُ ، دون ايحاء او تأثير ، ودون ان يهتم بتأثيم نفسه او بتبرئتها مما لحقها. فلمن شاء ان يتهمهُ بالاباحية ولمن شاء ان يبرئه منها وولز في الحالين قانع راض . ومن يقرأ سيرة ولز يلاحظ ظاهرة غريبة ، وهي ان كل كتاباته الادبية مؤسسة على قطع من اختباراته في الحياة ، فكان عند ما يعرف شخصية ما ينقلها من الحياة الى الادب في قصة يحوك اطرافها في خياله يدعو فيها الى نوع من الفلسفة التي يدعو اليها في حياته الواقعية ، وبعبارة اخرى كان يأخذ شخصياته من الحياة ويضع على السنتها فلسفته في الاقتصاد والاجتماع ثم يطلقها تبشر برأيه بين جمهور القراء ، فهو لا يعنى بتزويق اللفظ، او حبك الجمل . لم يكن يعنى بالقالب الادبي او بالمقاييس الادبية في كتاباته وانما يحرص على ان يكون علميًا في اعماله الادبية ، فهو علمي النزعة بعيد عن الفن الخالص كما يفهمهُ ارباب الفن ، فقد تخيل الطيارات والسفر بها قبل ان تخترع ، وتخيل الدبابات وعاش الى ان رآها تعمل مع الجيوش في الحرب العظمى ، ثم كتب عن القمر وعن المريخ وعن الارض بعد الوف السنين ، كل هذا كتبهُ بطريقة علمية في قالب القصص

وفي هذه السيرة أيضًا تقرأ رأي ولز في طائفة كبيرة من الادباء والعلماء ورجال السياسة الذين عاصروه، تقرأ عن لنين وستالين وروزفلت وجراي وبلفور ومكسيم جوركي وكبلنج وشو ورسل ، وهو جريء في التحدث عن هؤلاء، لا يداريهم ولا يتملقهم ، ولا يحمل عليهم من غير ضرورة أو مسوِّغ، وانما هو يسرد شئونه معهم في هدوء ووقار ، وتخرج أنت من هذا السرد برأي في كل منهم

بالطبع لا أستطيع ان ألخص سيرة ولز ولا أظن أن أحدًا يستطيع ذلك وانما كل ما يمكن أن يضطلع بهِ انسان هو أن يستعرض بعض نواحي هذه السيرة كما استعرضتها أنا ، ثم يعلق عليها كما علقت ولا يغني هذا عن قراءة سيرته أي غناء

مسجد المنصور ببغداد

بقلم جناب الكبتن كرسويل استاذ العمارة الاسلامية بالجامعة المصرية

نقله الى العربية السيد محمد رجب بوزارة المعارف

﴿ وصف المسجد ﴾ ليس لدينا وصف لهذا المسجد الا ما ورد في كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي [1] وقد جاء فيه : —

« كان ابو جعفر المنصور جعل المسجد الجامع بالمدينة ملاصقاً قصره المعروف بقصر الذهب وهو الصحن العتيق . وبناه باللبن والطين ومساحته على ما اخبرنا محمد بن علي الوراق واحمد بن علي المحتسب قالا اخبرنا محمد بن جعفر النحوي اخبرنا الحسن بن محمد السكوني اخبرنا محمد بن خلف قال وكانت مساحة قصر المنصور اربعمائة ذراع في اربعمائة ذراع ومساحة المسجد الاول مائتين في مائتين واساطين الخشب في المسجد يعني كل اسطوانة قطعتين [2] معقبتين بالعقب [3] والغراء وضبات الحديد الاخمسا اوستا عند المنارة فإن في كل اسطوانة قطعاً ملفقة مدورة من خشب الاساطين [4] . قال محمد بن خلف قال بن الاعرابي تحتاج القبلة الى ان تحرف الى باب البصرة قليلا وان قبلة الرصافة اصوب منها [5] . فلم يزل المسجد الجامع [6] بالمدينة على حاله الى وقت هرون الرشيد فأمر هرون بنقضه

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي طبعة Salmon النص العربي ص ٥٩ ـ ٦١ وترجمته الفرنسية لسالمون ص ١٤٥ـ٧ وترجمته الالمانية لهرتسفلد في كتاب البعثة الاثرية ج ٢ ص ١٣٥ ـ ٧ و Streck ص ٦٣ — ٤ وبغداد تأليف لسترينج Le Strange ص٣٣—٧

(٢) يرى هرتسفلد ان معنى قوله (قطعتين معقبتين بالعقب) ان القطعتين متصلتان احداهما بالاخرى من طرفيهما اي ان العمود كان يتكون من قطعتين احداهما فوق الاخرى . وهناك امثلة لذلك في الاعمدة الرخامية بسر من رأى فان كلا منها يتكون من ثلاث قطع

(٣) فسر لين Lane قوله بالعقب بأنه الاوتار العضلية التي تصنع منها اوتار الاقواس

(٤) حذف ستريك Streck (ص ٦٣) هذه العبارة الغامضة . وفسرها لسترينج Le Strange في كتابه بغداد ص ٣٤ بقوله « كانت اكثر الاعمدة مكونة من قطعتين او اكثر من الخشب متصلتين احداهما بالاخرى من طرفيهما بالغراء وضبات الحديد الا خمسة او ستة اعمدة وهي التي كانت قريبة من المئذنة فان كلا منها كان يتكون من جذع واحد من جذوع الشجر وكانت جميع الاعمدة تعلوها تيجان مستديرة من الخشب » . ويقول هرتسفلد « ان الفرق بين الاعمدة التي كانت عند المنارة والاعمدة الاخرى هي ان الاولى كانت تتكون من قطعة واحدة من الخشب بينما يتكون كل عمود من الاعمدة الاخرى من قطعتين » . وان قوله (في كل اسطوانة قطعاً ملفقة مدورة من خشب الاساطين) هو وصف الاعمدة جميعها . وانه يفهم من قوله « ملفقة الخ » انه يريد تاج العمود . وان هذه التيجان كانت مكونة من عدة قطع متصلة بعضها ببعض كما يشاهد ذلك الآن في التيجان الخشبية الحديثة ببلاد ما بين النهرين وفارس

(٥) انظر أيضاً الطبري جزء ٣ ص ٣٢٢ والمقدسي ص ١٢١ سطر ٧ ، وجاء في ابن الاثير جزء ٥ ص ٤٣٩ سطر ٧ — ١٠ ان انحراف القبلة نشأ من بناء المسجد ملاصقاً للقصر بعد ان تم بناء القصر « وكان القصر غير مستقيم على القبلة »

(٦) البناء الذي خط مسجد المنصور هو الحجاج بن ارطاة . راجع الطبري جزء ٣ ص ٣٢١ ومعجم ياقوت جزء اول ص ٦٨١ سطر ١١ وابن الاثير جزء ٥ ص ٤٣٩ سطر ٧

واعادة بنائه بالآجر والجص ففعل ذلك وكتب عليهِ اسم الرشيد وذكر امره ببنائه وتسمية البنّاء والنجّار[٧] وتاريخ ذلك . وهو ظاهر على الجدار خارج المسجد مما يلي باب خراسان الى وقتنا هذا . انبأنا ابراهيم بن مخلد اخبرنا اسماعيل الخطبي قال وهدم مسجد ابي جعفر المنصور وزيد في نواحيه وجدد بناؤه واحكم وكان الابتداء به في سنة ثنتين وتسعين والفراغ منهُ في سنة ثلاث وتسعين . فكانت الصلاة في الصحن العتيق الذي هو الجامع حتى زيد فيهِ الدار المعروفة بالقطان وكانت قديماً ديواناً للمنصور فأمر مفلح التركي ببنائها على يد صاحبه القطان فنسبت اليهِ وجعلت مصلى للناس وذلك في سنة ستين او احدى وستين ومائتين ثم زاد المعتضد بالله الصحن الاول وهو قصر المنصور ووصله بالجامع وفتح بين القصر والجامع العتيق في الجدار سبعة عشر طاقاً منها الى الصحن ثلاثة عشر والى الاروقة اربعة . وحوّل المنبر والمحراب والمقصورة الى المسجد الجديد . انبأنا ابراهيم بن مخلد اخبرنا اسماعيل بن علي قال واخبر امير المؤمنين المعتضد بالله بضيق المسجد الجامع بالجانب الغربي من مدينة السلام في مدينة المنصور وان الناس يضطرهم الضيق الى ان يصلوا في المواضع التي لا يجوز في مثلها الصلاة فأمر بالزيادة فيهِ من قصر امير المؤمنين المنصور فبني مسجد على مثال المسجد الاول في مقداره او نحوه ثم فتح في صدر المسجد العتيق ووصل بهِ فاتسع بهِ الناس وكان الفراغ من بنائه والصلاة فيهِ في سنة ثمانين ومائتين . قال الخطيب الحافظ وزاد بدر مولى المعتضد من قصر المنصور المسقطات المعروفة بالبدرية في ذلك الوقت »

يستخلص مما رواه الخطيب انهُ كانت هناك ثلاثة عهود في تاريخ بناء هذا المسجد

١ — البناء الاول في عهد المنصور ١٤٩ هـ (٧٦٦ م)

وكان مربعاً طول كل ضلع من اضلاعه ٢٠٠ ذراع (وذلك يساوي ١٠٣٫٦٠ متر باعتبار ان طول الذراع = ٥١٫٨ سم) . وكان مبنيًّا باللبن والطين وعمده من الخشب، يتكوّن كل عمود منها من جذعين متصلين احدهما بالآخر من طرفيهما . وكان سقفه من خشب الساج (كما روى ذلك ابن رسته[٨]) مستوياً ومرتكزاً على هذه العمد الخشبية مباشرة

٢ — البناء الثاني في عهد هرون الرشيد ١٩٢ — ٣ هـ (٨٠٨—٩ م)

وكان يشبه الاول ويساويه في ابعاده مبنيًّا بالآجر والجص وبهِ كتابة في الجانب الشمالي الشرقي منهُ . وكانت نواة هذا البناء هي الصحن العتيق (الذي هو الجامع)

٣ — وبعد عودة الخلفاء من سرّ منْ رأى سنة ٨٩٢ م اصبح المسجد يضيق بالمصلين حتى

---

(٧) يلاحظ هرتسفلد — ص ١٣٦ من كتاب البعثة الأثرية — ان الجدران المحيطة بالمسجد وحدها هي التي أعيد بناؤها بالطوب والمونة وان الاعمدة الخشبية بقيت لو لستعيض عنها بغيرها من مثيلاتها كما يتضح ذلك من ذكر النجار على مدخل المسجد . ونحن نرى ان ذكر النجار وتسميته لا يستنتج منه حتماً ما استنتجه منه هرتسفلد لان النجار قد احتيج اليه على كل حال في عمل السقف كما انه من المحتمل ان المسجد الجديد كالمسجد القديم كانت أعمدته من الخشب

(٨) ابن رسته ص ١٠٩ سطر ٣ و ٤ يصف ابن رسته هذا المسجد بقوله « انه بني بالآجر والجص ورفع على اساطين الساج وسقف بالساج المرصع باللازورد »

لقد كانت مساحة مسجد سر من رأى اكثر من اربعة امثال مساحته[٩] فاخذ الناس يصلون في بناء مجاور للمسجد . لذلك أمر المعتضد بتوسيع المسجد والزيادة فيه (في سنة ٢٨٠ هـ و٨٩٣ م) فبنى على جزء من ارض قصر المنصور المتهدم مسجد ثانٍ ملاصق لصدر المسجد العتيق على مثال المسجد الاول في مقداره او نحوه وسمى صحنه بالصحن الاول تمييزاً له عن صحن المسجد العتيق

أما الجدار الذي كان يفصل المسجدين فقد هدمت منهُ اجزاء فتحت فيها طاقات توصل بين المسجدين . وقد اشار الى ذلك هرتسفلد نقلاً عن المقدسي — الذي كتب بعد ذلك العهد بقرن — فقد روى المقدسي عن مسجد مدينة فسا بمقاطعة فارس « ان له صحنين كمسجد مدينة السلام بينهما سقيفة » . اما المحراب القديم والمنبر والمقصورة فقد نقلت جميعاً الى المسجد الجديد

ويرى هرتسفلد «ان الصحن الجديد ليس وحده الذي اضيف الى المسجد بل اضيفت اليهِ ايضاً في الوقت نفسه دار القطان التي كانت قد اتخذت مصلى من ٢٦٠ او ٢٦١ . ولذلك لا يمكننا ان نعرف بالدقة مقدار المساحة التي اضيفت »

واضافة دار القطان التي يقول بها هرتسفلد . لم يرد ذكرها في جميع المراجع التي اشارت الى هذا المسجد . وسنرى عند مناقشتنا هذا الرأي استحالة التسليم بهِ

ونظرية هرتسفلد في تصميم بناء هذا المسجد هي كما يلي : —

ان فتح سبعة عشر طاقاً في الحائط الذي كان يفصل بين المسجدين — ثلاثة عشر منها الى الصحن واربعة الى الاروقة الجانبية — يدل على ان المسجد القديم لا بد كان يحتوي على سبعة عشر رواقاً من اليسار الى اليمين . وان الاروقة الجانبية كانت اربعة بكل جانب رواقان . وهذا يساعدنا على امكان تصميم هذا البناء وتقسيم الـ ٢٠٠ ذراع وهي طول ضلع المسجد كما يأتي : —

جدران وابراج مستديرة ٢	٧٫٥ × ٢ = ١٥
١٧ مسافة بين الاعمدة كل منها ٩ اذرع	١٧ × ٩ = ١٥٣
١٦ عموداً كل منها ذراعان	١٦ × ٢ = ٣٢
الجملة	٢٠٠ ذراع

غير أن عدد أروقة الايوان الكبير بالمسجد يبقى مجهولاً . ولكن نظراً لان الايوانين الجانبيين يحتوي كل منهما على رواقين فلا يمكن ان تقلَّ اروقة الايوان الكبير عن اربعة . ويرى هرتسفلد انها لا بد كانت خمسة كمسجد الكوفة الذي كان هو الآخر مربعاً . ولان النسبة ١٧ : ٥ توجد ايضاً بمسجد ابن طولون بمصر

(٩) كانت مساحة مسجد سر من رأى ٢٥٠ × ١٦٧ = ٤١٧٥٠ متر مربع بينما مساحة مسجد بغداد ١٠٣٦٦ × ١٠٣٦٦ = ١٠٦٧٣٣ متر مربع أي ان مسجد سر من رأى قدر مسجد بغداد اربع مرات وقد ذكر هرتسفلد (في الجزء الثاني ص ١٣٧) سهواً ان مساحة المسجد الاول قدر مساحة المسجد الثاني ٢٥ مرة والحقيقة أنها اربعة فقط

ويقول هرتسفلد « أما عن ازالة الاروقة الشمالية الغربية فأمر لا يزال قيد البحث . فالخطيب يروي في تاريخه ان ثلاثة عشر طاقاً فتحت الى صحن المسجد وهذا يفهم منه ان الاروقة قد ازيلت. الا ان وجود السقيفة التي يشير اليها المقدسي بين صحني مسجد فسا يجعلنا نرفض هذا الرأي وخاصة لان المقدسي قد ذكر الشبه بين مسجد فسا ومسجد المنصور في نفس العبارة »

وعلى ذلك فقد رسم هرتسفلد هذا المسجد وما ادخل عليه من التعديلات كما هو موضح بشكل (١) وتتلخص نظريته في ان المسجد بني ملاصقاً للجانب الجنوبي الغربي من سور القصر وان الجزء الذي اضيف اليه وهو الصحن الاول قد اضيف الى صدر المسجد وهو يريد بالصدر الجانب الشمالي الشرقي — وان سبعة عشر طاقاً فتحت في الحائط لايصال المسجدين احدهما بالآخر وان دار القطان اضيفت في الوقت نفسه الى المسجد من ناحية القبلة وان سبعة عشر طاقاً اخرى فتحت في حائط القبلة لايصال دار القطان بالمسجد والى هذه الزيادة الاخيرة نقل المحراب والمقصورة والمنبر

ورسم هرتسفلد للمسجد الاول مقنع الا في نقطة واحدة مثيرة للدهشة هي ان جدار القبلة بالمسجد ليس ملاصقاً للقصر لتمكين الخليفة من الذهاب من القصر الى المقصورة بالمسجد مباشرة والدخول من الباب الذي كان يوجد عادةً في جدار القبلة كما كان ذلك متبعاً منذ القرون الاولى للاسلام [١٠] وهذه الملاحظة وان كانت بالطبع لا تكفي لتسويغ رفض رسم هرتسفلد ولكنها على كل حال تدعو الى الشك فيه

على اننا اذا عالجنا الموضوع بدقة فاننا نجد عيوباً أخرى في هـذا الرسم . فان دار القطان التي كانت من الاماكن التي لا تجوز في مثلها الصلاة . والتي وسع المسجد وزيد فيه تجنباً للصلاة فيها قد اضافها هرتسفلد في رسمه الى المسجد . ومن الواضح ان ذلك استلزم فتح صفين من الطاقات في جداري المسجد العتيق كل منهما سبعة عشر طاقاً يصل اولهما بينه وبين الصحن الاول وثانيهما بينه وبين دار القطان . مع ان الخطيب قد ذكر ان الذي فتح هو صف واحد فقط من هذه الطاقات . ويتضح من الرسم ايضاً (شكل ١) ان المحراب والمنبر والمقصورة قد نقلت الى دار القطان بينما يروي الخطيب انها نقلت الى المسجد الجديد . فاذا كانت دار القطان قد اضيفت فعلاً الى المسجد (وابيحت الصلاة فيها) فلماذا اذن اضيفت الزيادة الاخرى الى المسجد في الوقت نفسه؟ لاشك انهُ من المتعذر تعليل ذلك

على اننا لانجد مطلقاً في جميع المراجع التي لدينا اية اشارة الى أنَّ دار القطان قد اضيفت فعلاً الى المسجد بل ان الغرض من الزيادة في المسجد انما كان للاستغناء عنها . اذن فلماذا أضافها هرتسفلد ؟

اننا نعتقد انهُ اضطرَّ لذلك ليتغلب على الصعوبة التي قامت في وجه نظريته بسبب ما رواه الخطيب عن نقل المحراب والمنبر والمقصورة الى المسجد الجديد . وان هذا يثبت ان المسجد الجديد لا بدَّ

(١٠) انظر كتاب العمارة الاسلامية للكبتن كرسويل جزء ١ ص ١٨ — ١٩

قد أضيف الى المسجد القديم من جانب القبلة لان المحراب لا يمكن نقله بطبيعة الحال الى جانب آخر بالمسجد سوى جانب القبلة

ولكن هرتسفلد في الوقت نفسه قد اوضح في رسمه ان المسجد الجديد لم يضف الى جانب القبلة بل الى الجانب الآخر المواجه له وهذا بطبيعة الحال لا يستلزم نقل المحراب والمنبر والمقصورة

فتغلباً على الصعوبة التي اعترضت هرتسفلد ازاء رواية الخطيب عن نقل المحراب الخ اضطر الى القول بأن دار القطان قد ادخلت ايضاً في المسجد في نفس الوقت ونقل اليها المحراب والمنبر والمقصورة

اما نحن فلا نقر هذه النظرية بل اننا نؤكد ان كل ما ذكره الخطيب في هذا الشأن هو قوله « ان المسجد بني ملاصقاً للقصر » دون تحديد الجانب الذي بني فيه وبناء على ذلك قلنا ان نختار الموضع الذي نعتقد انهُ أكثر ملاءمة والذي يرجح انهُ بني فيهِ ثم لننظر الى اي حد يمكن ان يتفق هذا الوضع مع الحقائق التي نعلمها عن هذا المسجد

ونحن نرى ان المسجد الجديد بني ملاصقاً لجانب القبلة[11] ويعزز رأينا هذا ما يأتي :—

اولاً — قول الخطيب « وكتب عليه (اي المسجد) اسم الرشيد وذكر امره ببنائه وتسمية البنّاء والنجّار وتاريخ ذلك وهو ظاهر على الجدار خارج المسجد مما يلي باب خراسان »

وهذه الكتابة كانت بلا شك على المدخل الرئيسي للمسجد الذي كان يقع بالجانب القريب من باب خراسان اي في الشمال الشرقي

ثانياً — يقول الخطيب عن الزيادة التي ادخلت في المسجد

(ا) «فبنى مسجد على مثال المسجد الاول في مقداره او نحوه ثم فتح في صدر المسجد العتيق ووصل بهِ فاتسع بهِ الناس الخ » . والصدر هنا هو المكان المواجه المدخل او البعيد عن المدخل او هو في الحقيقة ما يجب ان نسميه مؤخر المسجد (او الايوان الكبير)

(ب) ويقول ايضاً « ثم زاد المعتضد بالله الصحن الاول وهو قصر المنصور ووصله بالجامع وفتح بين القصر والجامع العتيق في الجدار سبعة عشر طاقاً منها الى الصحن ثلاثة عشر والى الاروقة اربعة وحوّل المنبر والمحراب والمقصورة الى المسجد الجديد »

فاذا فتحنا الطاقات في حائط القبلة واضفنا الى المسجد العتيق مسجداً على مثاله في مقداره او نحوه — عدا الرواق الشمالي الشرقي الذي ليس ثمة حاجة اليهِ — ونقلنا المحراب والمنبر والمقصورة الى هذا المسجد الجديد ، فاننا نجد ان هذا يتفق تماماً ورواية الخطيب ، ويتضح ذلك جلياً في الشكل رقم (٢) ولا تكون ثمة حاجة الى القول باضافة دار القطان الى المسجد في حين ان الغرض الاساسي من الزيادة في المسجد انما كان هو الاستغناء عنها

(١١) يضع لسترينج هذا المسجد في الجانب الجنوبي الشرقي وهو رأي لا نقره عليه (بغداد ٣٥)

وقد روى ابن رسته ان مسجد المنصور كان مزخرفاً ومرصعاً باللازورد [١٢] وهو بالطبع يشير بقوله هذا الى المسجد الذي رآه في سنة ٩٠٣ م والذي لا يرجع اقدم جزء فيه الى ابعد من عهد هرون الرشيد

﴿ التاريخ اللاحق للمسجد ﴾ ورد ذكر هذا المسجد كثيراً في قرون تالية : فقد أشار اليه Benjamine of Tudela [١٣] سنة ١١٦٠ بقوله « وكان الخليفة يغادر قصره مرة واحدة في السنة حين كان يذهب في حفل رسمي الى المسجد الجامع عند باب البصرة »

كما ذكره ابن جبير سنة ١٨٤ [١٤] ويظهر انهُ لم يصب بسوء عند ما حاصر المغول بغداد وهاجموها ونهبوها سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) مع ما تعرضت له بغداد من التخريب وما عانته من اهوال . ويستدل على ذلك بعدم ورود اسمه بثبت المساجد والاضرحة التي احرقت بسبب الحرب ثم اعيد اصلاحها بامر هولاكو خان [١٥] وذكره ابن بطوطة [١٦] بصريح العبارة سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧م) عند وصفه للشاطىء الغربي وقال عنهُ انهُ مسجد ابي جعفر المنصور وانهُ كان بحي باب البصرة

ويرى لسترينج [١٧] Le Strange ان تيمورلنك استولى على بغداد (٧٩٥ هـ ١٣٩٣م) وانهُ امر بعد عام باعادة بنائها وان المسجد قد يكون هدم اثناء ذلك الا اننا نجد بدرو تايكسيرا [١٨] Podro Teixeira سنة ١٦٠٤ يقول « ولا نزال نرى في بغداد اطلال المباني الرائعة التي خلفتها عصور الحضارة الفارسية كالمسجد الذي يطلقون عليه اسم مسجد الخليفة والآثار الاخرى في الجانب الآخر من النهر والمدرسة التي كانت مستشفى الخ »

ويظهر ان « مسجد الخليفة » هذا هو مسجد المنصور الذي نحن بصدده . وخاصة لقوله عن الآثار الاخرى انها « في الجانب الآخر من النهر كالمدرسة التي كانت مستشفى » ونظراً لاننا نعلم ان المدرسة المستنصرية كان بها مستشفى وكانت تقع على الشاطىء الشرقي . فيستنتج من ذلك ان المسجد كان يقع في الجانب الغربي للنهر . وهذا بالضبط هو موقع مدينة بغداد المدورة التي بناها المنصور وبنى بها مسجده العتيق . ويظهر ان هذا المسجد قد تخرب وامحت آثاره نهائياً بعد زيارة تايكسيرا بغداد بعشرين عاماً لان مرتضى نظمي زاده [١٩] يقول : — « وبعد ان استولى الفرس على بغداد سنة ١٠٣٣ هـ ١٦٢٣ — ٤ م عملت فيها يد التخريب والتدمير فهدمت المدارس والمساجد وغيرها من آثار الخلفاء العباسيين واصبحت اطلالاً ينعق بها البوم او اتخذت حظائر للحيوانات بعد ان شهدت حضارة العباسيين وحفلت بذكراهم » . لذلك لانجد ذكراً لهذا المسجد فيما كتبهُ نيبوهر [٢٠] Neibuhr عن بغداد سنة ١٧٦٥ مما يدل على انهُ لم يكن له أثر ببغداد عند زيارة نيبوهر لها

---

(١٢) ابن رسته ص ١٠٩ سطر ٤ (١٣) Benjamine of Tudela ترجمة Asher جزء ١ ص ٩٦ — ٧
(١٤) ابن جبير طبعة Wright ص٢٢٧ و ٢٣٠ وطبعة دجويه ترجمة شيا باريللي Schiaparelli ص ٢١٤ و ٢١٧ (١٥) لسترينج ص ٣٧ (١٦) ابن بطوطة جزء ٢ ص ١٠٧ (١٧) لسترينج ص ٣٧
(١٨) ترجمة سنكلير ٦٤ — ٥ (١٩) ترجمة هوارت في كتاب تاريخ بغداد في العصور الحديثة ص٥٩
Histoire de Baghdad dans les temps modernes,59
(٢٠) رحلة في بلاد العرب جزء ٢ ص ٢٣٩ Voyage en Arabie

روح الروّاد

الاميرال رتشرد برد الاميركي

يقضي الشتاء القطبي وحيداً في محلة نائية

نقلت الينا الانباء البرقية في خلال شهر فبراير الماضي ان بعثة الاميرال برد، الرائد القطبي الاميركي، اكتشفت في الاصقاع المتجمدة الجنوبية ارضاً مساحتها ٢٠٠ الف ميل مربع، اطلقت عليها اسم « ارض ماري برد » ورفعت عليها العلم الاميركي. والواقع ان رجال البعثة اكتشفوا هذه الارض في خلال اقامتهم هناك في السنتين الاخيرتين، وارتادوا بعض مجاهلها. وبعد ما حققت البعثة البرنامج الذي وضعته لزيارة تلك الاصقاع، جمعت معداتها وعادت الى اميركا فبلغت عند كتابة هذه السطور مرفأ دونيدن بزيلندا الجديدة

وفي ما يلي وصف لأهم ما قام به رجالها وعلماؤها من المباحث النفيسة وقصة الشتاء القطبي المظلم البارد الذي قضاه قائدها الاميرال برد، وحيداً في محلة نائية، رغبة منه في دراسة الظواهر الجوية في تلك البلاد. وهي من أروع القصص في تاريخ الريادة الحديثة والقديمة على السواء

البعثة وأغراضها العلمية

الاميرال رتشرد اقلين برد Byrd أول رجل طار الى القطبين. فقد طار الى القطب الشمالي في سنة ١٩٢٦ بطيارة صحبهُ فيها زميله وصديقهُ فلويد بنِت. قام من سبتسبرجن متجهاً الى القطب الشمالي فبلغهُ وحوّم فوقهُ ثم عاد الى سبتسبرجن بعد ١٦ ساعة من الطيران. وقصة هذه الرحلة مدوّنة في كتابنا « الروّاد ». ثم نظّم بعثة الى الاصقاع المتجمدة الجنوبية سنة ١٩٢٨ و ١٩٢٩ كان من أهم فعالها طيران برد وبعض صحبهِ الى القطب الجنوبي، وتحدثهم لاسلكيًّا وهم محلقون فوق القطب، مع محطة لاسلكية خاصة بمدينة نيويورك. بيد أنهُ لم يقتنع بكل هذا. فعمد من نحو ثلاث سنوات الى اعداد بعثة جديدة لزيادة الاصقاع المتجمدة الجنوبية، بالطيارات والسيارات والمزالق تجرُّها الكلاب. ووضع لبعثتهِ الجديدة برنامجاً يستغرق تحقيقهُ سنتين وغرضهُ العام، البحث في احوال تلك البلاد من النواحي الجغرافية والجوية والبيولوجية وما اليها. وكانت معدات البعثة مؤلفة من سفينتين احداهما من الصلب والثانية من الخشب، واربع طيارات، وست سيارات نقل، و١٥٠ كلباً، وكان رجالها نحو ١٢٠ رجلا، منهم نصفهم او نحو النصف من رجال البحث العلمي

وقد كتب الاميرال مقالاً في جريدة النيويورك تيمس، افتتحهُ بقولهِ: — كثيراً ما يوجَّه اليَّ السؤال عن الفائدة التي يمكن ان تجنى من ريادة الاصقاع الجنوبية المتجمدة، وانفاق بدرات

الاموال وتعريض ارواح الناس في سبيلها . والردُّ على هذا السؤال ان كشف الاراضي الجديدة اقل هذه الفوائد شأناً . بل هو ليس الاَّ وسيلة الى مكتشفات ابعد غوراً واعظم شأناً . فالريادة الحديثة لا تبلغ مستوى الكرامة العالية التي تتسق مع همم اصحابها وجهودهم ، الاَّ متى تحررت من قيود خطوط العرض والطول . فبين البحوث التي اعددنا لها المعدَّات نجد علوماً مثل الفلك والظواهر الجوية والنبات والحيوان والمعادن والاوقيانوغرافيا (علم المحيطات) والآثار المتحجرة والجولوجية الاقتصادية والجولوجية الطبيعية والمغناطيسية الارضية والعلوم او فروع العلوم الخاصة بالجمد والثلج وعلم مواقع النفط وغيرها . فالكشف عن مناطق مجهولة في تلك البلاد ليس الاَّ غرضاً واحداً من اغراض عديدة يتجه اليها الروَّاد في هذا العصر

والبعثة الثانية التي نظمها الاميرال برد كشفت كما قلنا « ارض ماري برد » واستطلعت احوالها الجغرافية فعرفت السهل منها والجبل والشاطئ ، ويتوقع رجال البعثة ، ان يرسموا لها خريطة على جانب وافر من الدقة ، عند وصولهم الى اميركا ، مستندين الى الحقائق التي دونوها والصور التي صوَّروها في خلال الطيران فوقها او عند ريادتها بالمزالق تجرُّها الكلاب

وقد عني هينز وغرمنغر من علماء البعثة بتدوين الارصاد الجوية ، ولم يكتفوا بالارصاد على سطح الجمد بل اطلقوا البلونات في الجوّ ، تحمل الآلة المدوّنة من تلقاء نفسها ، لمعرفة احوال الجوّ في طبقاته العالية . ومن الخطإ ان يظنّ ان احوال الجوّ حول القطب الجنوبي لا صلة لها بالاحوال الجوّية في سائر الاقطار . فاحوال الارض الجوية لا يمكن ان تقسم الى اقسام مفصول بعضها عن بعض كأنها حُجَرٌ بينها جدران كثيفة فاصلة ولكن ليس بينها ابواب

وقد حملت البعثة الى تلك الاقطار النائية ، احد الاجهزة التي اعدَّها الاستاذ آرثر كمطن لقياس الاشعة الكونية ومعرفة هل هي جسيمات دقيقة او فوتونات اي امواج قصيرة نفاذة من قبيل اشعة اكس واشعة غمَّا ولكنها اقصر منها امواجاً واقوى نفوذاً للمواد . ونتائج القياسات التي قامت بها البعثة في هذا الصدد اميل الى تأييد الرأي بانها من قبيل الجسيمات . ولم يكتفَ بقياس الاشعة الكونية على سطح الجمد ، بل ارسلت الآلة في طيارة الى علو ١٢٥٠٠ قدم

ووجَّه علماء الحياة من رجال البعثة وهم اربعة جلَّ عنايتهم الى دراسة الاحياء المختلفة من حيوان ونبات مما يعيش على سطح الارض مثل الطيور واخصها طير البطريق والفقمة او مما يعيش في اغوار الماء من الاحياء المكرسكوبية . وقد ظلَّ العلماء ونتر وبركنز وسترت ينزلون شباكهم في مياه خليج الحيتان لاخراج نماذج من هذه الاحياء حتى تجمَّد سطح الماء ، واصبحت تدلية الشباك في الماء متعذرة

ومما يسترعي النظر في مباحث البعثة العلمية ، ابتداع طريقة جديدة ، تعتمد على قياس سرعة امواج الصوت في الاجسام الصلدة لمعرفة ما تحت الغطاء الجليدي في تلك البلاد . فقد كان الرأي السائد بين العلماء ان الغطاء الجليدي في الاصقاع المتجمدة الجنوبية عند رِيف رُس Ross Shelf قائم

على الماء فاثبت البحث بهذه الطريقة ان الغطاء الجليدي قائم على دعامات من اليابسة بعضها جزائر قائمة في الماء يغطيها الجمد فلا يمكن ان تكشف حقيقتها الا بالاعتماد على هذه الطريقة العلمية . ومن هذه الدعامات جزيرة قمتها تعلو ١٠٠٠ قدم عن سطح البحر ويغشاها غطاء من الجمد كثافته ٤٠٠ قدم . والحقائق التي كشفت بهذه الطريقة تمكن العلماء من تقدير الجمد في القارة المتجمدة الجنوبية ، تقديراً قريباً من الحقيقة . وبالطريقة نفسها اثبت رجال البعثة ان القارة المتجمدة الجنوبية ، ليست قطعتين من اليابسة بينهما مضيق متجمد ، بل هي قطعة واحدة لا فاصل يفصلها

هذا يسير من النواحي العلمية التي عنيت بها بعثة الاميرال برد الثانية الى الاصقاع المتجمدة الجنوبية . ولكن الغرض الاول من هذا المقال ليس ذكر النتائج العلمية فحسب لانها على خطرها ليست الا نتائج اولية للمباحث المنوعة التي قام بها رجال البعثة ، وانما القصد ، ان نروي قصة تتجلى فيها روح الرواد عامرة بفضائل الاقدام والصبر والتضحية في سبيل العلم

برد وعزلته العجيبة

ما قول القارىء في رجل يبتني لهُ حجرة في ابرد بقعة سكنها انسان على الاطلاق ، لا تبعد الا قليلاً عن القطب الجنوبي ، ثم اذا اقبل الليل القطبي بظلامه الدامس الذي يستمر اربعة اشهر او تزيد ، يودع الرجل رفاقهُ ، ومقرهم يبعد عنهُ مئات الاميال ، ويأوي وحيداً الى حجرته ، بعد ان يقطع كل صلة لهُ بالحياة . هناك تكر الايام والشهور لا يرنّ في اذنيه الا عصف الرياح وزئير العواصف الثلجية ، ولا يطالعهُ من الاحياء وجه ولا يبهجه من الشمس شعاع . فلو انهُ قضى الاربعة اشهر هذه ، على وجه القمر المعرض عن الشمس ، لما كان اشدَّ عزلةً مما كان ؟

كان روّاد الاصقاع المتجمدة الجنوبية قد اكتفوا بتدوين ارصاد الظواهر الجوية ، على شواطىء تلك القارة في الغالب . ولكن الاميرال برد أدرك أن الوصول إلى رأي علمي في الموضوع يصح الاعتماد عليهِ ، يقتضي انشاء محطة للظواهر الجوية في الداخل على مقربة من القطب ، وموالاة رصد تلك الظواهر فيها في خلال الليل القطبي الدامس . فبنيت المحطة واختار ان يكون هو الراصد الوحيد ، فعانى من الصعاب والاهوال والآلام في خلال ذلك ، ما تنخذل أمامهُ مشيئة الانسان العادي . ولكنهُ غالب الصعاب والآلام ، وغلب ، بباعث من حسن التدبير وصلابة النفس وقوة الايمان

والظاهر أنهُ كان في خلال الاسابيع الاول من عزلتهِ ، متمتعاً بنوع من البهجة لا تبلغها الا نفس الفيلسوف في الوحدة التامة . وكان يرحب بالصعاب ، على أنها امتحان لقدرتهِ على مواجهتها . فلما توالت عليهِ الايام والليالي ، متشابهة في ظلامها وبردها وانقطاعهِ فيها عن كل سبب من أسباب الحياة التي ألفها ، بدأت غيوم الفاجعة تتلبد في أفقهِ . فقد أصيب بتسمم من استنشاقهِ لدخان البترول الذي يحرقهُ في موقده ، ومن بنزين الآلة التي كان يستعملها لتجهيز آلته اللاسلكية بالطاقة التي تحتاج اليها

كان قد فضّل البترول على الفحم ، لانهُ لما شرع في اعداد معداتهِ ، كان الليل القطبي قد اقترب وأصبح متعذراً على رجالهِ أن يأتوا بالقدر الكافي من الفحم من مقرّهم الى هذه المحلة النائية

كان قد انقضى عليهِ بضعة أشهر وهو يستنشق هذا الدخان ، وهو لا يحس بأثرهِ في جسمهِ . فلما كان يوم ٣١ مايو سنة ١٩٣٤ ، أنهى اذاعته اللاسلكية ، ودخل النفق الجليدي ، ليوقف المحرك الخاص بالجهاز اللاسلكي فوقع مغشيًا عليهِ . ولما أفاق كان خائر العزم ، فأدرك أن حالتهُ تنذر بالخطر . هل فكّر عندها في نفسهِ ؟ هل خطر على بالهِ أن يبعث باشارة لاسلكية يطلب بها النجدة ، فيهب فريق من أعوانهِ الى نجدتهِ ؟ كلاّ . انهُ كان يعلم ان الرحلة من المقر الرئيسي الى هذه المحلة النائية ، في ظلام الليل القطبي عمل محفوف بالاخطار . فلماذا يعرّض رجالهُ للموت في سبيل انقاذه ؟ أوى في تلك الليلة الى فراشه ، مريضاً ، ضعيفاً ، وحيداً تواجههُ ثلاثة شهور من الظلام الدامس لا تزال امامهُ . البرد الشديد داخل حجرتهِ وخارجها فاذا اصطلى بالموقد استنشق دخانهُ السام . واذا اطفأ الموقد هرئت اطرافهُ ومات برداً . ماذا يفعل ؟ أوى الى فراشه واخذ القلم بيد خائرة مرتعشة وكتب تعليماته لرجال البعثة كتابة مفصّلة وختمها بقولهِ : لا تقلقوا ولا تضطربوا . امضوا في عملكم . لا تنوا في تحقيق برنامجكم العلمي . ابذلوا ما تستطيعون في سبيل مساعدة « الزورث »[1]

وبعد ما اتمّ كتابتها لفّها وربطها وعلّقها بمسمار على الجدار ، حيث يستطيع كل احد ان يراها . وكانت لا تزال هناك ، لما اقبل عليهِ صحبهُ ، بعد انقشاع الظلام القطبي الدامس

بعد انقضاء يومين على هذا ، اتصل بالمقرّ الرئيسي المعروف باسم « اميركا الصغيرة » اتصالاً لاسلكيًا ، ولكنهُ لم يفهُ بكلمة واحدة عن حالتهِ . وكذلك قضى اسابيع معلقاً بين الموت والحياة وهو لا يعلم هل يستطيع هذا الجسم الانساني ، ان يتغلّب على بواعث السقم ، ولكنهُ كان يعلم أن الروح الانسانية تستطيع ان تتغلّب على بواعث الضعف . كان عليهِ ان ينقر على آلتهِ اللاسلكي « S. O. S. » طلباً للنجدة فيفوز بها ، ولكنهُ لم يفعل

بل انهُ فعل اكثر من هذا ! كانت قواه الجسدية على أضعفها . وكان في حاجة الى كل دقيقة من الراحة . بل كان يجب عليهِ ان يضنّ بأيّ عمل يقتضي انفاق الطاقة ، لعلّ الراحة والضن بالنشاط يمكنانهِ من التغلب على السقم . ولكنهُ كان يعلم أنهُ اذا توقف عن الاتصال « باميركا الصغرى » في المواعيد المقررة ، يظن رجالهُ السوء فيهبون الى نجدتهِ ، معرضين أرواحهم للخطر . فكان في المواعيد المقررة للاتصال اللاسلكي يزحف زحفاً ، الى المحرك يحملهُ الى النفق ليذيب الجمد عنهُ بدفء الموقد . وكان وزن هذا المحرك ٣٥ رطلاً فقط ، ولكن « برد » كان لا يتم نقله بضعة أمتار الاّ في ساعات ، لشدة ما كان يعانيه من الضعف والالم والبرد . والادهى من ذلك ، أنهُ كان يقطّع كلامهُ عن ارصاده العلمية ، بمُلَح تثير مرح أصحابهِ

(١) رائد اميركي آخر كان يستكشف ناحية اخرى من القارة المتجمدة الجنوبية

ارصاده العلمية ! نعم ارصاده العلمية ! ذلك ان برد ، مع كل ما عانى، لم يهمل ارصاده العلمية يوماً واحداً ، كلفهُ ذلك من المشقة والالم ما كلف . فكان يخرج خمس مرات في اليوم ، لمراقبة الشفق القطبيّ وتدوين وصفهِ واتجاههِ وعلوهِ وقوة ضوئهِ . وكان الشفق يطول احياناً ، فيظلُّ برد مدى نصف ساعة او اكثر ، وهو يدوّن ما يطرأ عليهِ من التغير الاخاذ في شكله ولونهِ . وهذا عدا الارصاد المتيورولوجية المختلفة . ويقول الدكتور پولتر رئيس علماء البعثة ، انهم لما اقبلوا عليهِ ، وجدوا ارصاده مدوّنة احسن تدوين . وعنده ان ما تنطوي عليه هذه الارصاد من الحقائق لابدَّ ان يكون ذا أثر كبير في ترقيه علم الظواهر الجوية

فظلَّ برد على هذه الحالة شهراً من الزمان يرى الموت امامهُ ولكن ارادتهُ لم تخنه في يوم من الايام . ادرك ان العقل يقضي بتوفير نشاطهِ للاعمال التي لا بدَّ منها كالاتصال اللاسلكي برفاقهِ وتدوين الارصاد الجوية . فتوقف عن ادارة الفونغراف لما تقتضيه تعبئته من الجهد . وتوقف عن اشعال الموقد البترولي ١٤ ساعة كل يوم ، مرتباً ذلك حتى يكون الاطفاء عند ما يكون آوياً الى كيسهِ ، بحيث يستطيع ان يصيب قليلا من الدفء من دون ان يتعرض كل التعرض للدخان السام . وقد كانت درجة البرد خارج الحجرة ، تبلغ سبعين درجة تحت الصفر ، وبلغت مرة واحدة ٨٠ درجة تحت الصفر . وكانت درجة البرد داخل الحجرة ٣٠ درجة تحت الصفر ، مع اختلاف قليل . وتوقف عن طبخ طعام ، مكتفياً بالطعام المقدد المحفوظ تحت سريره ، توفيراً للذهاب والمجيء لغير داع ضروري . وقد كان من أثر ذلك ان اضطرب هضمهُ وصارت نفسه تعاف الطعام ، مع أنهُ كان في اشد الحاجة الى كل ما يغذيهِ ويقويهِ . وتوقف عن القراءة والكتابة ، جهد طاقتهِ ، وكان يزاولهما في بدء عزلتهِ . وكذلك استطاع ، بعزيمة تفلُّ الحديد ، وعقل يدرك الحقائق ويواجهها ويختطُّ الطرق للتغلب عليها ، أن يقتصد في نشاطهِ ، فما انقضى شهر يوليو (١٩٣٤) عليهِ حتى استردَّ قواه رويداً رويداً ، فنجا من الخطر المحدق بهِ . فلما وصل صحبهُ اليه في اغسطس ، كان لا يزال ضعيفاً شاحباً ولكن المعركة بين الطبيعة ورجل فرد كانت قد انتهت بانتصار الرجل ، فحياهم وعلى ثغره بسمة قائلا : «اهلا بالصحب»

ومن أقوالهِ بعيد اتصالهِ برفاقهِ وعودتهِ الى المقرّ الرئيسيّ : «لا يستطيع رجل عاقل مثقف ان يقضي عدة أشهر في حجرة صغيرة ، لا يكتنفهُ فيها الا الظلام الدامس والبرد الشديد ، من دون أن يكتشف شيئاً جديداً في نفسهِ ، فكأنني كنت شجرة ارسلت جذورها في تربة لم تألفها ، أو كأنني كنت رجلا انتقل من الارض الى سيّار آخر . ومع ذلك فقد أتت عليَّ فترات أحسست فيها بطمأنينة وغبطة أعجز عن وصفهما . ولا أذكر أنني سعدت في حياتي قدر سعادتي في الشهرين الاولين من اقامتي هناك »

اننا — والحق يقال — لا نعرف في قصص الحياة ولا في مبتدعات الخيال قصة اروع من هذه القصة !

الثورة

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

— ١ —

اذا ضاق بك ثوبك وأصبح خلقاً أكلت جدّته الايام وذهبت برونقه الطبيعة فزقتهُ وخلعتهُ عن جسدك والقيتهُ في الأرض فأنت في شرعة الألبسة ثائر ، ولك في عالم الحياة الطبيعية أشباه ونظائر فان بعض الحشرات تنمو في غطاء قرني قاس الى ان يضيق بها فتمزقهُ بانتفاضة فجائية وتخلعه عن بدنها ثم تعود فتفرز غطاء آخر أوسع منهُ ولكنها تنمو ثانية في هذا الثوب الجديد حتى يصير ضيقاً فتخلعهُ كالاول لتكتسي بأوسع منهُ وهكذا تتبدل ثوباً من ثوب الى ان تبلغ رشدها ، وليس كابوس الاوضاع الاجتماعية السياسية والدينية والاخلاقية والاقتصادية متى ضاقت أو هرمت أقل ارهاقاً واضناء من هذا الثوب أو الغطاء

حدث لي في حدود سنة ١٩٢٨ ان زارني في مصر صحفي من خيرة أبنائنا في الولايات المتحدة وهو الاستاذ حبيب كاتبه فأخذ مني حديثاً لينشره في أميركا عن سورية وحالتها الحاضرة فتطرقنا الى ذكر الثورة السورية الكبرى وأسبابها ودواعيها فرأيت منهُ شيئاً من الوجوم والتردد في ذكرها أو تدوينها فسألتهُ فقال « ان في الولايات المتحدة نفرة منكرة من الثورات جميعها ومن ذكرها وليس من المبالغة في شيء ان أقول لك يكاد يكون (غاندي) معبود الاميركيين لانهُ لا يتوسل الى اغراضهُ بالعنف والشدة » . وغني عن البيان ان مثل هذا الكلام الذي تفضل بهِ الصديق يدل على الذهنية التي يكون عليها الآمن فينسى كيف يكون الخائف، والشبعان فينسى كيف يكون الجوعان، والحصين فينسى كيف يكون المهدد . فأميركا كانت يوم جرى هذا الحديث تتمتع برأس مال وبرخاء ونفوذ لا تشق غباره سائر الدول وهي الدولة الدائنة واوربا المدينة ، وكانت الأموال الأجنبية تتدفق على أسواقها لشراء أسهمها ومحصولاتها والاشتراك في المشروعات الصناعية القائمة في بلادها بينما كانت سورية على شفا الهاوية تتجرد من أموالها ورجالها وتهدد في صميم حياتها وقوميتها ولا يكاد يبلغ الصادر منها الخمس من الوارد اليها ، فلا عجب ان تكون سورية ثائرة وأميركا راضية وان ينفر أبناء هذه من سماع أحاديث تلك عن الثورات والانقلابات لان الذي يتمتع بالصحة لا يشعر بآلام المرضى . وفي التاريخ ان الملكة ماري انتوانت لما أتاها الشعب المتظلم يشكو فقد الخبز استغربت فقالت لِمَ لا تأكلون الكعك ؟ !

ومن العجيب ان اخواننا الاميركيين الذين ينفرون اليوم من سماع أحاديث الثورات طلباً للحرية والاستقلال كانوا أول من ثار للخلاص من حكم الانكليز مع أنهم أهلهم وعشيرتهم ، وأول

من سنّ قاعدة لا ضرائب من غير تمثيل ، ولا يقل اعجابهم بواشنطن واخوانه الميامين من رجال الثورة عن اعجاب الفرنسيين بجان جاك روسو ومن وضع نظرياته في الثورة الفرنسية موضع العمل . وقد رأيت في الاميركيين نفرة خاصة من تلك العادة الصينية الهمجية وهي وضع أرجل البنات في قالب لضغطها وابقائها صغيرة ضمن نطاق من الحديد فكانوا يثيرون شعور التلاميذ الصينيين لتحطيم هذه العادة ورضخ هذه القوالب الضيقة حتى تتمكن الارجل من النموّ الطبيعي ، أفليس عجباً أن يدعوا الى الثورة العلنية دفاعاً عن حجز حرية الارجل وينفروا من الثورة للدفاع عن حرية الجماجم ؟ وهل قالب من الحديد في الارجل طوله وعرضه ووزنه يقاس بالقراريط والدراهم أثقل على الطبع من مدرعة منيخة على الرؤوس طولها وعرضها ووزنها يقاس بمئات الاذرع وألوف القناطير ؟

ولندع الآن المشاعر التي لا ضابط لها وأسباب الحب والبغض القائمة على الاوهام ولنلق نظرة عامة على ما يجري تحت سمعنا وبصرنا في البيئات البسيطة وبين الجماعات الساذجة لان درس الاوضاع في مثل هذه الاحوال يزوّدنا بالملاحظات القيمة

منذ نحو عشر سنوات غزت قبائل نجد بلاد الحجاز وكانت الدعاية التي أثارت الحماسة في هذه القبائل ان أهل الحجاز مشركون مرتدون لأنهم يزورون القبور ويعظمون القباب ويرتكبون من الجرائم المنكرة تدخين التبغ وغير ذلك فبدأت الغارة على مدينة الطائف شنها الوهابيون فقتلوا النساء والرجال والاطفال وكان من بين القتلى شيوخ شهد الجميع بحرمتهم والعلوم النقلية التي امتازوا بها ، ولكن الغزاة المتشددين المتحمسين لم يرحموا أحداً لان المرتدين في نظرهم ليس لهم أمان ولا تجوز عليهم الرحمة ولا الشفقة ، ومن بعد ما فتحوا البلاد قبضوا على ناصية الحكم فيها بيد حديدية وطبقوا اجتهادهم الديني عليها تطبيقاً دقيقاً فمنعوا زيارة قبور الاولياء وهدموا القباب ودرسوا معالم الآثار وحتموا على الافراد حضور صلاة الجماعة خمس مرات في اليوم فمن تغيب لغير ما عذر نفذت فيه الحدود ومن وجد يحمل لفافة تبغ سيق الى السجن ، أما الفنون الجميلة فقد أصيب الغناء منها خاصة بأعظم الاضطهاد حتى أن صفائح المقول منع استيرادها منعاً باتاً ومن وجدت في بيته كسرت على رأسه ، ولولا حكمة الملك عبد العزيز بن سعود لقطع علماء نجد اسلاك الهاتف لأنها في حسابهم بدعة من عمل الشيطان ، وقد اقنعهم بخطئهم في الاجتهاد ان اسمعهم آيات الذكر الحكيم بالتلفون ، واجتماعها هي والشياطين على صعيد واحد مستحيل طبعاً

فلنفرض الآن يا معاشر الغربيين عامّة والاميركيين منكم خاصة ان افراداً من اهل الطائف تعلموا في مدارسكم على الطريقة الحديثة فغضبوا للدماء المهراقة ولم يصبروا على هدم الآثار وحمل الناس على عقيدة خاصة بالقوة وكانوا ممن أولعوا بالفن وقدروا قيمته الاجتماعية فحاولوا بواسطة التنظيم وبث الدعاية وجمع القوى المتفرقة احداث انقلاب كائنة ما كانت الوسائل المؤدية الى تنفيذه فهل تصمون آذانكم ايضاً عن سماع صياحهم ؟ ام حدوث مثل هذه الفتنة بسبب التعاليم التي تبثونها في بلاد الشرق يرضيكم عن

القائمين بها ؟ وليثق اعداء الانتقاض على الغرب واصدقاء الفتنة في بلاد الشرق ان الوضعة التي عليها الأقوام المستعمرة لا تختلف عن الوضعة التي عليها اهل الطائف الاّ في ان الغزاة في الاستعمار اجانب وهمهم الاول استثمار المال واستنزاف الثروة الموضعية واحتكار المرافق على انواعها ، واذا ما التفتوا الى شيء من العقيدة والدين فانما يلتفتون الى ما يزرع بذور التفرقة بين الاهلين ويقوي الدواعي المؤدية الى التنافر والتناحر في افرادهم . ومهما قيل عن الربح المادي في الغزوة الوهابية فان الغاية عند مؤسس المذهب هي على التحقيق مثل الغاية في الاسلام معنوية روحية اخلاقية . ولا عبرة مطلقاً بما يدعيه المحتل المستعمر من انهُ جاء البلاد للأخذ بناصر اهلها وتدريبهم على المدنية وتشجيعهم على الاخذ بأسباب النجاح لأن في افريقيا الشمالية وفي سورية الردّ الملجم على مثل هذه الدعاوي الباطلة

﴿الثورة﴾ «متى كان الشعب مستاء متنكراً انتهز الفرصة الملائمة فثار في وجه الحكومة» هذه صفوة آراء الكتّاب في القرن السابع عشر في اسباب الثورة ودواعيها ، وقد ايدت العلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية هذا الرأي تأييداً كليّاً ولكنها اضافت اليهِ عظة بالغة وحكمة جامعة فحواها ان الحكومة التي لا تتصل بالشعب اتصالاً وثيقاً يمكنها من فهم الحالة الذهنية التي هو عليها تكون عرضة للثورة والانتقاض . فقد حدثت مثل هذه الثورة لما كان السلطان عبد الحميد يرتع في قصر (يلدز) لاهياً بين الخطايا غافلاً عما يغلي في صدور الرعية من مراجل النقمة ولا يصل الى يده من الاحاديث والأخبار الاّ ما جادت بهِ قرائح الجواسيس الوقادة . وحدثت مثل هذه الثورة ولكن على عيار اوسع وبدماء اغزر وبانقلاب ابعد مدى لا يعلم نتائجه العالمية احد وذلك لما كان القيصر نقولا الثاني واهل بلاطه يقيمون حاجزاً كثيفاً بينهم وبين الشعب الفقير المتظلم المستعبد ويسدون آذانهم دون صراخ الاحرار في اعماق السجون ومجاهل سيبريا وهم في بهجة ورخاء يستمعون لخزعبلات (راسبوتين) ويحتمون بتمائم القديسين والتعاويذ من الشياطين والادعية من الدجالين المقربين . وعلى مثل هذا الاساس يجوز للقارىء ان يبني رأيه في تفسير الثورة العراقية في سنة ١٩٢٠ يوم كانت دفة السفينة في الرافدين بأيدي رجال من الجيش لا يفقهون الشيء الكثير من الادارة الملكية وما تتطلبهُ كما قالت (المس بل) من حسن اصغاء الى الرغائب الشعبية الجوهرية . وما الانقلاب الخطير الذي حدث في هذا القطر العربي منذ ذلك الحين الاّ شاهد عدل كيف يكون ارضاء الشعب في شؤونهِ الحيوية واستيفاؤه من مطالبه الاساسية مدعاة الى هدوئه وانتشار الوية السلام في ربوعهِ . ولو حصل في فلسطين مثلما حصل في العراق من مراعاة السيادة العربية ما تلطخت سمعة بريطانيا السياسية الى هذا الحدّ ولا حدثت تلك الثورات المحلية . وقس بالثورة العراقية الثورة السورية الكبرى

ومن اهم شروط الثائر في نجاح دعوته الى الانتقاض ألاّ يكتفي بما يرى في الحكومة من منكر واعوجاج بل يتحتم عليهِ ان يقنع الشعب ايضاً ويستميل اليهِ الرأي العام استجماعاً للقوى فيقف الجميع جبهة واحدة والاّ ضاعت الجهود عبثاً ولم تثمر الثورة غير الانقلاب المؤقت ، لان الشعب

اذا لم يشعر بالمظالم شعوراً صادقاً كانت حركته اقرب الى البرودة والتصنع . ومع اثارة روح الاستياء وزرع بذور الامل لا بدَّ ايضاً من تعيين الهدف امام الرماة حتى تجتمع نبالهم فلا تتفرق من غير طائل ، والدهماء من الناس كما قال احد الاجتماعيين يعرفون الشيء الذي لا يريدون واما الشيء الذي يجب ان يريدوا فيتوقف على الزعماء المفكرين — يعني ان سواد الشعب سلبي في غايته والسلبية المجردة لا تأتي بغير الخراب فاذا ما اريد الانتفاع بسيل السلبية الجارف فلا بدَّ من وضع الآلة الايجابية عليه وتركيبها بحيث تأخذ من قوة الجريان اعظم قدر مستطاع . وتكون هذه الآلة من صنع الزعيم والخاصة من العاملين . وقد قلنا عن الغاية التي ينشدها الزعماء لا يجوز ان تكون من مسارح الخيال الشعري المجرد لا تقبل التطبيق ولكنها كذلك لا يجوز ان تكون مبتذلة حقيرة تجعل اصحابها والقائلين بها صغاراً حتى في نظر انفسهم . فطلب دولةٍ عربية مركزية كبرى في الآونة الحاضرة تمتد من خليج فارس الى بحر الظلمات لا يختلف عن الاقتصار على حكومة تقام في جبل العلويين حياتها ومماتها بجرة قلم من المندوب السامي . الاول خيال يليق بقصص الف ليلة وليلة والثاني اهانة لدم الشهداء الذين ذهبوا الى المشانق باسم القضية العربية العامة

على ان الاستياء المجرد وتعيين الهدف لا يضمنان الحركة الا على شرط واحد هو الامل بالحصول على الاصلاح المنشود لان العبث شبيه بانتطاح الصخر يدعو الى الشلل والقنوط . ومما ارويه بهذه المناسبة عن ثورتنا السورية الكبرى ان بعض الموظفين الاجانب المسؤولين في بيروت حاولوا ان يدفعوا تبعة الاضطراب في البلاد عن عاتقهم باتهام الحكومة الانكليزية بأنها سبب تلك الثورة وان دسائسها وذهبها يلعبان بعقول الثوار ، ولكن فاتهم ان هذه التهمة وان اوجدت لهم بعض الانصار المصدقين في باريس الا انها زادت في الحريق لهباً وساعدت العاملين السوريين في ميادين الثورة اذ اخمدت انفاس النافخين في ابواق القنوط من جهة وشددت عزائم الفاترين من جهة اخرى بما توهموه من حرص الانكليز واهتمامهم بالقضية السورية العربية مرة اخرى

وقد سبق لمثل هذه الدعاية ان اثرت اثرها في سورية ايضاً بطريقة احيت الهمم الخامدة ، فقد حدث في ابريل سنة ١٩٢٢ ان زار (المستر كرين) دمشق الشام على حين غرة — والمستر كرين هو رئيس اللجنة الاميركية التي امت تلك البلاد في صيف سنة ١٩١٩ لاستفتاء اهلها في مصيرهم — فاتخذ العاملون من هذه الزيارة فرصة سانحة ليوهموا الناس ان عناية الولايات المتحدة بقضيتهم قد تجددت وان لهذه الزيارة مغزًى سياسياً ذا قيمة دولية خطيرة ، فانتعشت القلوب من بعد تلك الصدمة القاسية التي لاقتها من دخول الجنرال غورو وجيوشه عاصمة الامويين قهراً وضربه الغرامات على الاهلين وتوزيعه الجنود السنغاليين على البيوت ، فتجمهر الخلق على سيارة (المستر كرين) وورائها حين وداعه متظاهرين بشكل ازعج المحتلين كثيراً وآل الى ثورة محلية سفكت فيها الدماء وامتلأت منها السجون ، ولولا وميض من الامل برق في الافق السياسي يومئذٍ لتأخر فجر النهضة كثيراً

الرئيس ماساريك

رجلان أعزلان بنيا دولة من دول اوربا الحديثة ، بنياها في قلوب القوم وفي حجر المدارس ، قبل أن يرسماها على الخرائط الجغرافية ويعينا حدودها ويقيما لها برلماناً ووزارة . الأول شيخ في الخامسة والثمانين من العمر ، جمع بين حكمة الفيلسوف وصدر الوطني العامر بأعلى الأمثلة الوطنية التي أصبحت أعصاراً مكتسحاً في القارة الاوربية . والثاني تلميذ الاول ، تلقى عليهِ العلم في حجر التدريس ، واقتبس منهُ شعلة من تلك النار المقدسة التي تؤجج في صدره ، فكان له خير معوان ، في حمل تلك الشعلة ، والكفاح في سبيلها ، ثم تولى معه مقدرات الدولة الجديدة التي بنياها ، فسيَّرا دفتها في بحر مضطرب عجاج ، من السياسة الاوربية ، الى أن بلغا شاطىء السلامة

الاول هو الرئيس توماس ماساريك الذي انتخب في السنة الماضية رئيساً للجمهورية التشكوسلوفاكية للمرة الثالثة وينتظر ان يحتفل ببلوغهِ الخامسة والثمانين في ٧ مارس (١٩٣٥) . والثاني هو الدكتور ادوارد بنش وزير خارجية تشكوسلوفاكيا الذي بلغ الخمسين من العمر وقد مضى عليهِ ست عشرة سنة وهو يدير سياسة بلاده الخارجية في براعة وحكمة شهد لهُ بهما العدو قبل الصديق مع أنهُ كان يوم تقلدها لا يعدو الرابعة والثلاثين من العمر . فهو عميد وزراء الخارجية في اوربا بل في العالم لانهُ تقلد هذا المنصب تقلداً مستمراً مدة تفوق مدة أي وزير خارجية آخر

ودستور الجمهورية التشكوسلوفاكية يحظر انتخاب رجل لرآسة الجمهورية ، اكثر من مرتين ومدة كل رآسة سبع سنوات . ولكن الدستور استثنى ماساريك من هذا القيد ، ونصَّ على امكان انتخابه رئيساً مدى الحياة ، احتراماً لجهاد هذا الشيخ الجليل ، واعترافاً بما لهُ من أياد بيض على انماء الشعور القومي في قومه ، ثم عدم اقتصارهِ على الناحية النظرية فلجأ الى الحلول العملية يجاهد في سبيلها حتى غنم الاستقلال ، ثم قام على دفة السفينة يوجهها التوجيه الطيب . وكذلك بنش تلميذه. لقد قامت وزارات في تشكوسلوفاكيا وسقطت وزارات ولكن بنش كان وزيراً للخارجية في كل منها ، وليس هذا لقلة الرجال الذين يستطيعون شغل هذا المنصب في الجمهورية الفتية ، بل لأن استعداد بنش العقلي والثقافي وجهاده الصحيح في سبيل الاستقلال ، والمقام العظيم الذي فاز بهِ بين وزراء الخارجية في مجامع الدول، تجعل منهُ الكفء الذي تود أعظم الدول لو كان وزراء خارجيتها من مكانته

أنشئت الجمهورية التشكوسلوفاكية في عواصم الحلفاء ، في باريس ولندن ووشنغطن ، قبل أن تنشأ في براها (براج) . ذلك ان الاستاذ ماساريك ـ وكان قد مضى عليهِ وهو يرعرع الشعور القومي نحو ٣٠ سنة من كرسي الاستاذ في جامعة براج لانهُ كان يرمي الى إعداد الشعب من فلاحهِ الى عامله الى موظفه الى تاجره الى أعلى طبقاته الاجتماعية الاعداد الوافي للنهوض بالحكم الدمقراطي المستقل

عندما تسنح الفرصة — كان قد فرَّ من بلاده في خلال الحرب الكبرى ، لاشتداد وطأة الحكومة النمساوية ، وكانت بلاد ماساريك جزءا منها حينئذٍ ، على الاحرار في بلاده ، ولكنهُ لم يفر فرار جازع يطلب العيش الرغد والفراش الوثير ، بل فرار رجل يطلب الحرية لقومه ، ويعرف — وهو الاستاذ الذي نفذ الى مغازي التاريخ — ما قد يلقاه دونها من العقبات والمتاعب . فبذل هو وتلميذه السابق ، وزميله في الجامعة بعدئذٍ ، الدكتور بنش ، كل جهد وكل سعي في سبيل اقناع الحلفاء المنصرفين حينئذ الى امورهم العسكرية والسياسية المرتبكة ، ان في قلب اوربا ، وفي قلب امبراطورية النمسا والمجر بلاداً تدعى تشكوسلوفاكيا يقطنها شعب يطلب الحرية ، شعب لهُ ماض مجيد ، وله ثقافة عالية ، ومستعد ان يبذل في سبيل حريته ارواح ابنائه في تأييد الحلفاء

قرعا كل باب وخاطبا رجال الصحافة ورجال السياسة ورجال الحرب حتى استرعيا العناية بمطالبهما بقوة ارادتهما ، وتوهج وطنيتهما ، فنظّما فرقاً من التشكوسلوفاكيين المقيمين خارج بلادهم لتخوض غمار الحرب الى جانب الحلفاء . لذلك قلنا ان الجمهورية التشكوسلوفاكية انشئت خارج براج اولاً ، لأن استقلالها اعلن ، وبراج عاصمتها ، ما تزال مدينة من مدن امبراطورية النمسا والمجر

اما بنش التلميذ والوزير والزميل في الكفاح ، واليد اليمنى في الحكم ، فولد من نحو خمسين سنة ، وطلب العلم في بلاده اولاً ثم في باريس ، فلقي في العهدين مصاعب ومشاق ، كانت لولا ارادته الصلبة تغلبت عليهِ . ثم عاد الى بلاده للتدريس . وكان اجتماعه الاول باستاذه ماساريك قد حرَّك في نفسه الشعور الوطني ، ونفخ فيهِ حب الجهاد في سبيل تحرير وطنه من نير النمسويين . فكان يلقي المحاضرات في الجامعة ويكتب الفصول في المجلات ، وهو في خلال ذلك كله يستعد ليومه العتيد . فلما نشبت الحرب الكبرى ، بدأ الظلام ينقشع عن آماله التي وراء الغمام . ولكن أمته كانت في موقف حرج جدًّا ، لان النمسا وحليفتها المانيا ، أحرزتا الانتصارات الأولى في معارك الحرب الكبرى ، فبثّت الحكومة النمسوية العيون والارصاد تراقب حركات زعماء التشكيين وسكناتهم

أما هؤلاء فكانوا في حيرة وارتباك . فاذا انتصرت المانيا وحلفاؤها في الحرب ، فوّت هذا الانتصار عليهم ما يطلبون من حرية واستقلال . واذا كان النصر حليف الحلفاء ، فيجب عليهم كزعماء ، ان يسرعوا الى وضع خطة رشيدة يسترعون بها انظار الحلفاء ، قبل ان يفوت الوقت

ولكن بنش لم يتحير ولم يرتبك . كان في خلال تقلده منصب الاستاذ ، قد اشترك في جمعية سياسية سرية في بلاده ، وجازف بحياته غير مرة ، في مطلع الحرب ، لكي يذهب الى سويسرا لمفاوضة الاستاذ ماساريك وكان ماساريك مقيماً هناك بعد فراره في مطلع الحرب ، فكان بنش بذلك صلة بين الزعيم البعيد عن وطنه ، والزعماء المتخلفين . ولما علم في احد الايام ان البوليس في أثره ، غادر بلاده في ليلة ليلاء وجاء الى باريس

قد يصعب الآن ان ندرك ما عاناهُ بنش من المصاعب في البدء ، لان اكثر الساسة والصحافيين ،

كانوا يجهلون ما هي الأمة التشكية التي تطلب الاستقلال، وكانوا لا يدركون قيمة انضمامها الى الحلفاء وما أثر ذلك في سير الحرب ، لان الانظار كانت متجهة في الغالب الى الميدان الحربي في الجبهة الغربية . فمن هو هذا الشاب ، في الثلاثين من العمر ، الذي يجرؤ على قرع الابواب، طالباً الدخول الى مجالس الحلفاء ، حيث القواد تعلو جباههم سمات اليأس وحيث رجال السياسة مبلبلو الافكار مضعضعوها ؟

ولكنهُ مضى في الكفاح ، هو واستاذه ماساريك ، واخيراً فازا بمقابلة بريان ، فأسفرت المقابلة عن وعده بالنيابة عن حكومة فرنسا ، بمد يد المساعدة الى الامة التشكية التي تطلب الاستقلال

***

كان الحلفاء قد اعدوا هجوماً عظيماً في منطقة « الصوم » فأسفر عن خيبة . وإذ الحلفاء يضربون أخماساً لاسداس ، ظهر كتاب في باريس فاسترعى عنوانه نظر الساسة لان موضوعه كان « اضربوا النمسا » . وكان مؤلف الكتاب صاحبنا بنش ، وقد بسط فيه خطة حربية جريئة ، قال: « اطعنوا المانيا في اضعف مقاتلها ، انهضوا الشعوب الصقلبية في اوربا الوسطى ، اقيموا حاجزاً بين المانيا وحلفائها، افصلوا المانيا عن بلغاريا وتركيا وكذلك يبيد الحُلم التوتوني كما يتبدد الدخان في عاصفة »

فأقبل ساسة الحلفاء على الخطة . وزالت المصاعب من وجه المكافحين الوطنيين التشكيين ، وفي اواخر سنة ١٩١٧ اعترف الحلفاء بالمجلس الوطني التشكي اعترافاً رسمياً

ان فكر ماساريك هو الفكر الذي نظم الحركة ، وروحهُ هي التي بثت في صدور الشعب التشكوسلوفاكي — وهو مظلوم مرهق — بارقة الرجاء ، واشعلت نور الامل، ولكن السيف الذي فتح امامها الطريق كان سيف بنش ، فانتخب ماساريك رئيساً للجمهورية، وبنش وزيراً لخارجيتها . كانت الفوضى ضاربة أطنابها في اوربا الوسطى حينئذٍ، وكان شبح البولشفية يحوّم فوقها ، والنعرات القومية تهدد بالانحلال والتفرقة ، ولكن تشكوسلوفاكيا امة منظمة اليوم ، لم تفرقها النعرات ، وقد أصبحت ولها اعوان وحلفاء، ولوزير خارجيتها كلمة عليا في شؤون اوربا الوسطى ، ومحافل السياسة الدولية ، كجمعية الامم ومؤتمر نزع السلاح ومجلس الاتفاق الصغير

بل هناك ما هو ابعث على الامل . ان هذه البلاد الفتية ، بفضل الاستعداد الطويل للحياة الديمقراطية ، لا تزال من البلدان القليلة في اوربا المحتفظة بالنظام الديمقراطي . ولعل فلسفة رئيسهن الشيخ الجليل تلخص في قوله « لقد كثر الحديث في العهد الاخير عن عجز النظم الديمقراطية . ولكن الديمقراطية لم تخفق . بل هم الرجال الذين اخفقوا . ويجب ان لا ننسى ان الحكومات الملكية والدكتاتورية نفسها قد لقيت من المصاعب ولا تزال تلاقي منها، ما يجعل الحكم على الديمقراطية بالعجز سائراً عليها كذلك » وقوله : « ان اوربا تجتاز فترة مريضة في حياتها العامة ولا تلبث الامم ان تخرج من ظلماتها الى وضح الحياة الدستورية السليمة »

امدَّ الله في عمر الشيخ الجليل فان في كلماته انعاشاً للنفوس الحرة التي تأبى الارهاق والاستبداد

نظرة حكيم مجرِّب في

الحالة الاوربية

ملخّص مقال للجنرال سمطس

الجنرال سمطس أحد زعماء اتحاد افريقية الجنوبية ، معروف في دوائر العلم والسياسة على السواء . فقد ترأس مجمع تقدم العلوم البريطاني من ثلاث سنوات وله كتب فلسفية ويحسب من أعلام فلسفة جديدة تعرف بالفلسفة الكلية Holism. أما في السياسة الدولية ، فقد كان من كبار أقطاب الحلفاء في الحرب الكبرى وعضواً في الوفد البريطاني في مؤتمر الصلح وقد اشترك في وضع دستور جمعية الامم وله مكانة عظيمة بين دعاتها

اذا قلّبنا النظر في الحالة الأوربية اليوم تبيّنا طائفتين من القوى تتنازعان في الخفاء لتوجيه الخطط السياسية الدولية . فالطائفة الواحدة تنبع من الشعور بالخوف والاخرى من الشعور بالذلّ والحرمان. وكلا الشعورين أعراض مرض لا دلائل نموّ سليم . فاذا لم يعالجا بالحكمة أفضيا الى نتائج خطيرة في حياة العالم العامة

وقد يكون هذا الاعتراف منا اعترافاً بالخذلان ، ولكن يبدو لي أن الشعور بالخوف والجزع هو المحرّك الاساسي في صلات الدول الاوربية بعضها ببعض . الخوف ! أخسّ البواعث الانسانية على الاطلاق يسود الحضارة الاوربية الآن . فالدول التي أحرزت النصر في الحرب الكبرى ، أبعد ما يكون عن الشعور بالطمأنينة التي تصحب النصر، يثيرها ويقلقها خوف عصيٌّ على مستقبلها . أما الدول التي خذلت في الحرب الكبرى فغير راضية عن التسليم بالحرمان الذي كان نصيبها وترفض قبول مكاناً غير الصدر في مجامع الامم المتحضرة . فالدول المنتصرة يحركها الخوف من الدول المخذولة . والدول المخذولة عازمة العزم كلهُ على استرداد مساواتها بالدول المنتصرة . فالحالة الذهنية والنفسية الناشئة عن هذين الباعثين، جعلت ميدان العلاقات الدولية الاوربية مضطرباً كل الاضطراب ، وهي تسير بأوربا على طريق الفوضى. لذلك نرى العقل مكبوتاً والمشاعر الانسانية العالية مشلولة ، والسيادة الآن للدوافع التي تحول دون الارتقاء المنتظم القائم على التفاهم والتعاون . ولذلك نرى كل مسألة من المسائل الخطيرة مستعصية على الحلّ في هذا الجوّ المضطرب . فالسعي الى نزع السلاح أو خفضهِ قد أخفق أو كاد ، حالة أن كل عاقل في الدول المختلفة يرى أن لا ندحة عنهُ . والتعاون الدولي مهدّد بالخطر مع أن كل مصلحة من المصالح الدولية الاوربية وغير الاوربية تقتضيهِ

فاذا شاءت اوربا ان تعود الى الطريق القويم ، وجب على أممها ، غالبة ومغلوبة ، ان تستشفي من

هذه العُقَد الفرويدية، أن تستعيد سلامة النظر وصحة الحكم، أن تنظر الى علاقاتها بعضها ببعض نظراً سليماً غير مشوّه ولا مضطرب . وليس ثمة عالم بالتحليل النفسي يستطيع أن يعالجها كما يعالج علماء التحليل النفسي ما يصاب به بعض الناس من العقد النفسية . ولعلّ السبيل الاقوم الى ذلك هو أن تعترف دول اوربا جميعاً بأنها اتبعت في أفعالها حتى الآن طريق الحمق لا طريق العقل

من مظاهر الشعور بالخوف هـذا الحديث المستفيض في الصحف والدوائر عن الحرب . يقال أننا على عتبة حرب جديدة ، وان الحرب قاب قوسين منا أو أدنى . هذا التحدُّث بالحرب يخلق جو الحرب ، وقد يكون أقوى البواعث على نشوبها . وهو عندي خطأٌ كبير وشرٌّ عظيم . والغريب في كل هذا أن دعاة السلام ، هم أعلى الناس صوتاً في هذا الحديث . انهم يرغبون في تصوير ويلات الحرب للسواد من الناس لتنفيرهم منها ، فتحملهم رغبتهم هذه على خلق الذهنية التي تفضي الى الحرب . ثم هناك صناع الأسلحة وهؤلاء يعرفون انهم يجنون ربحاً عظيماً من التحدُّث بالحرب وقرب وقوعها ووجوب الاستعداد لها . لذلك أناشد رجال السياسة ورجال القلم ، أن يضعوا حدًّا حاسماً لهذه الدعاية الخطيرة

ان توقع الحرب في الغد أو في المستقبل القريب ، ضرب من السخف . وهذه حقيقة يعرفها كلُّ مطلع على بواطن الامور . فالاحوال اليوم غير ما كانت عليه سنة ١٩١٤ اذ كانت الحرب في المستقبل القريب خطة مرسومة حينئذٍ ، وكانت الدول تستعدُّ لها على أنها واقعة لا محالة . بل أن أركان الحرب في كل منها ، كانوا قد وضعوا الخطط وعينوا المواعيد ليومها المشهود . أما اليوم فقلما نجد أمة ترغب في الحرب . وكل رجل من رجال السياسة يدرك أن في الحرب دمارَ أمته وخاتمةَ لحياته العامة اذا كان هو من مثيريها . ولعلنا لا نجد بين الامم الاَّ أمة واحدة مستعدة لها الاستعداد كلهُ . ومع ذلك فالسواد في هـذه الامة يطلب السلام . ولا ريب عند أصحاب الرأي في ان نشوب الحرب يكون في الغالب ايذاناً بانطلاق ثورات داخلية على الحكام

ولكن الشؤون العسكرية أقل شغلاً لافكار الساسة من الشؤون الاقتصادية . ان بعض الكتّاب لا يني عن تذكيرنا بما هو واقع على ضفة الرين الشرقية ، من تسلُّح خفي ، وتمرين عسكري . وقد يكون كل هذا صحيحاً ، والغالب ان جانباً كبيراً منهُ صحيح ، ولكنهُ ليس في الراجح إلا أثراً من آثار ذلك الشعور بالحرمان . ليس هذا نزعة عسكرية صحيحة . إن هو إلاَّ نوع من التخدير العسكري . فهذه الافعال ، التي تنطوي على صنع السلاح ، والتمرين العسكري ، تنشىء شعوراً بالرضا والطمأنينة في أذهان قوم يحسون أنهم أذلوا وحرموا وعوملوا معاملة المسود . ان روح الحرب ، تختلف عن هذا كل الاختلاف . وقد تستيقظ روح الحرب ثانية ، اذا تركت الامور تسير في أعنتها ، ولكنها الآن ، مدفونة تحت ركام الحرب الكبرى . أنا لا أصدق أن الالماني الآن يبغي الحرب حقيقة ، وانهُ فعلاً يستعدُّ لها ، إلاَّ اذا كان صوابهُ قد طار . فلنضع حدًّا حاسماً لهذا الحديث . ولست أعني بما أقول

ان الحالة لا تنطوي على مخاطر تقلق النفوس ، ولكنها على كل حال لا تسوّغ التحدث بالحرب ، ومنع التحدث بالحرب سبيل الى معالجتها

والعلاج لهذين الشعورين ليس إلاَّ الطريقة الفرويدية نفسها ، أي إستخراج الدفائن من الاعماق ، وتعريضها لضوء النهار . وهذه هي طريقة جمعية الأمم . قد لا تكون الجمعية وسيلة لضمان السلامة ، وقد ينقصها عنصر القوة لتأييد ما تتخذه من الاحكام ، ولكنها على كل حال منبر للمناقشة بين الامم « ومائدة مستديرة » يجلس حولها رجال السياسة ، فينفسون عما في صدورهم بابداء آرائهم والدفاع عنها . والواقع أن جمعية الأمم انشئت لتكون أولاً وآخراً « مائدة مستديرة » للأمم ، تصلح لمعالجة شعور الخوف وشفائه بالاساليب العلمية والانسانية معاً

ولكن هناك من يقول ان هذا وحده لا يكفي ، وانهُ ما ظلّت جمعية الامم ، مكاناً للمناقشة والمناظرة ، غير مؤيدة بضمانات القوة لتنفيذ احكامها ، يظل الشعور بالخوف سائداً ، مسيطراً على العلاقات الدولية . بل يقال ان عجز جمعية الامم عن تعزيز النظام المشترك بالقوة اذا اقتضى الامر ذلك ، قد اضعف من هيبتها وسار بها على طريق الانحلال . ويشيرون الى حادثة اليابان ومنشوكو التي كشفت عن ضعف الجمعية واقامت الدليل على أن الجمعية مقضيٌّ عليها اذا هي لم تعزز بقوة مسلحة لتحقيق خططها وفرض احكامها فرضاً

ان جوابي على هذه الاعتراضات جواب مزدوج . ففي المقام الاول لا استطيع ان اتصوَّر جمعية الامم وهي شاكية السلاح . ان فكرتها الاولى لم تقم على مبدإ القوة ، ودستورها لم يوضع لهذا الغرض . فاذا حوّلت ، الى قوة مسلّحة ، الى نظام غرضهُ خوض الحرب لمنع الحرب ، قضي عليها قضاءً مبرماً . ذلك إنني لا استطيع ان اتصوَّر بلدان « الدومنيون » — في الامبراطورية البريطانية — باقية اعضاء فيها متعهدة ان تخوض غمار الحروب الاوربية مثلاً . فاذا خرجت منها بلدان « الدومنيون » لم يطل المطال على انكلترا حتى تقتفي أثرها . ولست اعرف ايّ عمل آخر ، يكفي لصدّ الولايات المتحدة الاميركية عن الانتظام فيها صداً نهائياً مثل تحويلها الى اداة عسكرية من شأنها ان تنفذ احكامها بالسلاح . ويجب ان تذكروا ان الجمعية لا يتمّ تأليفها قبل ان تنتظم فيها الولايات المتحدة الاميركية . فقد انشئت الجمعية على زعم ان الولايات المتحدة الاميركية عضو فيها ، فانسحاب اميركا من عضويتها فوّت على الجمعية حتى الآن معظم اغراضها . ولكن ضمّ الولايات المتحدة اليها يجب ان يبقى هدفاً يسعى اليه ، اصدقاء الجمعية ودعاة السلام . ولا ريب عندي في انهُ لا بدَّ من مجيء وقت تنتظم الولايات المتحدة الاميركية فيها او في جمعية هي اشبهُ ما يكون بمؤتمر دوليّ . ولكنها لن تنتظم في وزارة حربية دولية . وانني لواثق أن تحويل الجمعية ، الى عصبة مسلحة ، منافٍ لغرضها الاساسي . بل ان حلّ المشكلات الناشئة عن شعور الخوف والجزع ، لا يلتمس من هذه الطريق

وفي المقام الثاني ، احبُّ أن أقول ، ان التجاريب ، قد علمتنا منذ انشئت الجمعية ، كيف الخروج من

المأزق . فمعاهدة لوكارنو، قد أُدمجت في النظام المشترك تحت اشراف الجمعية . ومعاهدة لوكارنو هذه ابتدعت في السياسة الاوربية مبدأ الضمانات الخاصة في منطقة محدودة من الارض تشترك فيها دول معينة غرضها الدفاع المتبادل عن سلامتها تحت اشراف الجمعية وسيطرتها . فهذا الاتفاق لا يحتم على جميع اعضاء الجمعية من دون تفريق بينهم ، استعمال السلاح في حالة خاصّة معينة ، بل هي تربط بين الدول التي لها مصلحة في ذلك وترغب في الانضمام والتعاون على هذا الاساس . والميثاق الشرقي المقترح ، المعروف باسم « لوكارنو شرق اوربا » اتفاق آخر من هذا القبيل ، وكذلك ميثاق أوربا الوسطى الذي وضعت قواعده في روما عند اجتماع لافال بموسوليني في اوائل السنة الجديدة. فاذا كان شعور الخوف في اوربا ، لا يزول الاّ بضمانات من هذا القبيل ، فلتكن ضمانات محدودة مقتصرة على امم معينة ، تهمها هذه الضمانات ، في منطقة خاصة من سطح القارة الاوربية . ان القوى المسلحة التي تستعمل لتأييد السلامة ، يجب ان تكون قوى قومية تحرّك وفقاً لاتفاقات ومواثيق موضوعة ، لا قوى تابعة لجمعية الامم وخاضعة لسيطرتها

اكتفيت حتى الآن بالاشارة الى شعور الخوف وطريقة علاجه . ولكن الشعور الآخر شعور الحرمان متصل به أوثق اتصال . فاذا كان السلام بغيتنا حقيقة لم نجن فائدة ما من معالجة الشعور الواحد دون الآخر . ذلك ان الخوف يستفحل باستفحال الشعور بالحرمان وتلظيه . والشعور بالحرمان يستفحل باستفحال الشعور بالخوف واعتماد اصحابه على زيادة السلاح للذب عن حياضهم وإدخال الطمأنينة على نفوسهم . فالشعور الواحد يغذّي الشعور الآخر، وكلاهما يفضي الى خطة التسلح بغرض الدفاع عن النفس . فاذا لم يعالج الشعوران معاً ، انتهينا الى حلقة مفرغة آيتها زيادة السلاح . فازالة شعور الحرمان المتغلغل في نفوس الشعب الالماني لازم لتعزيز السلام لزوم ازالة شعور الخوف من نفوس الشعب الفرنسي . وكلاهما لا ندحة عنهُ لنجاح اية خطة غرضها نزع السلاح أو خفضهُ

فكيف نزيل شعور الحرمان الذي يسم ذهن المانيا ونفسها ؟ ليس لذلك الاّ سبيل واحدة وهي الاعتراف لها بالمساواة التامة بالدول الاخرى، وان يكون هذا الاعتراف صريحاً ومن دون تحفظ. وما لم نعمد الى الجرأة والسرعة في اتخاذ هذه الخطوة يظل الجرح الاوربيُّ منطوياً على دغل

ان الباحث يفهم المخاوف التي تقلق صدر فرنسا ، ولكنهُ في الوقت نفسهِ لا يسعهُ الاّ أن يفهم كذلك ما تحسُّ بهِ المانيا لانها لا تزال في مكان ثانوي بين الامم ، وقد انقضت ست عشرة سنة على انتهاء الحرب . ان بقاءها على الحالة التي نصّت عليها معاهدة فرساي ، أصبح امتهاناً لضمير اوربا وخطراً على السلام . أن شرعة الانصاف ، بل والحكمة العملية ، تقتضيان تحطيم القيود التي قيدت بها ، فتجني اوربا عند ذلك حصاد الطمأنينة والرخاء . يظن بعض الناس أن النخوة والشهامة لا مكان لها في السياسة الدولية . ولكنني رأيتهما في بلادي ، تبدلان حالة منطوية على اخطار عظيمة ، بصداقة محكمة بين الغالب والمغلوب . هذه طبيعة الانسان. واذا صحّ أن لا مكان في السياسة الاوربية

للنخوة والشهامة ، فلا ريب أن فيها مكاناً للمصلحة والحكمة . وكلتاهما تقضي بمواجهة الحقيقة قبل أن يفوت الأوان ، فنستأصل شعور الحرمان الذي يوغر الصدور

منحت المانيا مبدأ المساواة في دسمبر سنة ١٩٣٢ ، لما اتفقت الدول الكبرى في مؤتمر نزع السلاح على ذلك . ولو أن المؤتمر خطا الخطوة العملية نحو تحقيق هذا المبدإ لكانت المانيا اليوم عضواً في جمعية الامم ، لا باعثاً من بواعث الاضطراب والقلق خارجها ، ولقبلت في الغالب الاتفاق على خفض السلاح خفضاً كبيراً على اساس مقترحات الحكومات البريطانية . ولكنها اليوم خارج حظيرة الجمعية ، وموقفها من التسلّح المخالف لمعاهدة فرساي ، محوط بالريب منطوٍ على الخطر . هوذا شعور الحرمان يستفحل فينشئ شعور الخوف ، وشعور الخوف يتفاقم فيقوّي شعور الحرمان . والنتيجة نوع من التنافس في التسلّح لا يعلم احد مداهُ وعواقبه

قد تكون مبادئ النظام النازي مما لا يسيغهُ رجال السياسة في بعض الدول الاوربية . ولكن ذلك يجب ألاَّ يكون حائلاً دون الاعتراف لألمانيا بالمساواة . فيقضى بذلك على الشعور الذي يعتمد عليهِ النازي في اثارة كوامن الصدور . وهاهي ذي روسيا ، رغماً من شيوعيتها ، قد أصبحت عضواً نافعاً في مجامع الأمم ، ولا ريب عندي في أن الضرورة التي تقتضي عودة المانيا الى مجامع الأمم ، لا تقل عن الضرورة التي اقتضت عودة روسيا اليها

أعلنت ألمانيا في آخر سنة ١٩٣٣ أنها اذا منحت مبدأ المساواة في الحقوق ، رضيت مختارة أن تجعل سلاحها الدفاعي ضمن حدودٍ معينة ، بحيث لا يكون خطراً على جيرتها . وقد اعترف أهل الخبرة ، في هذه البلاد على الاقل (انكلترا) بأن مقترحاتها معقولة وتصحُّ أن تكون أساساً للبحث . هذا قرار وضع من نحو سنةٍ ولكنهُ لا يزال حبراً على ورق . ان روح الخذلان متفشية في مختلف البلدان والشعوب تهزُّ أكتافها قاطعةً حبل الأمل في النجاح . وهذه روح ليست جديرة بالذين تلقنوا في الحرب الكبرى درس الصبر والثبات ، كائناً تلبد الجوّ بغيم الخيبة ما كان . ولا يزال ثمة مكان لمحاولة حازمة غرضها اعادة المانيا الى جمعية الأمم ومؤتمر نزع السلاح . بيد ان ساسة اوربا يجب أن ينقوا عقولهم ، من أثار السموم — سموم الخوف والحرمان — ويجب أن يستنهضوا شجاعتهم لاتخاذ الخطوة الحاسمة ، واعلان مساواة المانيا بالدول الأخرى . فانهم اذا لم يفعلوا ذلك بالاتفاق ، تمَّ ما يخشونهُ رغماً عنهم . ولكن الفرق بين الحالين ، ان المانيا في حالة الاتفاق لا تكون خطراً يهدد جيرتها ، أما اذا بلغت المساواة من دون اتفاق ، كان عملها تحدياً لنظام المعاهدات ، وتسلّحها مطلقاً من القيود ، فلا يعلم مداهُ ، فيتمُّ حينئذٍ في موضوع التسلّح ما تمَّ في موضوع التعويضات . عند ذلك تكون السياسة قد أفلست ، ويبقى الحكم للحوادث وحدها [1]

---

(١) وقف الجنرال سمطس بقية مقاله على الشرق الاقصى ، وهو موضوع سوف نفرد له بحثاً مستقلاً في عدد تال

المعادن في اللبن

وحاجة الجسم الى الكلسيوم والنحاس والحديد

اسباب لين العظام وفقر الدم

ان الذين يشربون اللبن الحليب يعلمون انهُ طعام طبيعي مغذٍ ولكنهم قلما يدرون انهُ يحتوي على ٢٥ صنفاً من المعادن المتباينة . قد يعلمون مثلاً انهُ من افضل المصادر لاملاح الجير مثل فصفات الجير ، ولكنهم ولا ريب يدهشون اذا علموا ان في اللبن معادن مثل الليثيوم والسترونشيوم والفناديوم والروبيديوم والتيتانيوم والجرمانيوم وجميعها من العناصر النادرة

ان المواد الجامدة في سائل اللبن لا تزيد على جزء من ١٢ منهُ . والمواد المعدنية لا تزيد على واحد في المائة . ولكن هذا المقدار اليسير يشمل نحو ثلث العناصر المعروفة . وليس في وسع الانسان ان يرى هذه العناصر ، لانها اما معلقة فيهِ في دقائق صغيرة جدًّا ، او مذابة فيه ، او داخلة في تركيب بعض المواد التي يحتوي عليها سواء أكانت عضوية ام غير عضوية . وبعض هذه المعادن توجد منهُ مقادير كبيرة — نسبيًّا — والبعض الآخر لا يوجد منهُ الاَّ آثار يسيرة جدًّا ، لا يمكن قياسها ولا كشفها الاَّ بالكواشف الكيماوية الدقيقة او بالحل الكيماوي

واهم المعادن فيهِ بحسب ترتيب مقاديرها هي الكلسيوم والبوتاسيوم والفصفور والكلور . ثم يليها الكبريت والمغنزيوم والحديد . ويلي هذه السلكون والبور والعناصر النادرة التي تقدم ذكرها وليس فيهِ منها الاَّ آثار قليلة . واحياناً يعثر الكيماوي عند حل اللبن بالوسائل الكيماوية على آثار لعناصر الباريوم والكروم والقصدير والفضة

ولما كانت المعادن في اللبن لا تزيد على واحد في المائة منهُ ، فبقية مركباته ، من المواد العضوية وهي مركبة من الايدروجين والاكسجين والكربون والنتروجين ، ومنها تتركب القشدة والمواد البروتينية وسكر اللبن . والكبريت يدخل في تركيب اهم المواد الزلالية (البروتينية) التي في اللبن واهمها الجبنين اي المادة الجبنية واسمهُ العلمي « كاسيين »

واهم المعادن في اللبن عنصرا الكلسيوم والفصفور ،لانهُ لا ندحة عنهما في بناء العظام . فاذا كان غذاء الاطفال يعوزه الكلسيوم تأخر نموهم ، فاذا استمرَّ هذا النقص في الغذاء او اذا كان الجسم تعوزه المواد اللازمة لتمثيل الكلسيوم ، اصيب الاطفال بلين العظام وتقوسها ، والمتقدمون في السن يحتاجون الى الكلسيوم ولكن حاجتهم اليه ، اقل من حاجة الاطفال ، وتزداد حاجة النساء اليه عند ما يكنَّ حوامل

وقد اثبتت التجارب ان الجسم النامي يحتاج يوميًّا الى غرام من الكلسيوم ، ولما كان مقدار

الكلسيوم في اللبن يبلغ ١٢ في الالف ، فيحتاج الجسم النامي الى تناول كيلو غرام من اللبن يومياً للحصول على ما يحتاج اليهِ من الكلسيوم ، اذا اعتمد على اللبن وحده . ومما يحسن ذكره ، ان الكلسيوم في اللبن ، مركب تركيباً يجعل خزنه في الجسم سهلاً ، واستعماله ميسوراً . واما الكلسيوم الذي في النبات فلا يجاريه من هذا القبيل

ثم ان كيلو اللبن ، يجهز الجسم بمقادير حسنة من الفصفور والمواد البروتينية والفيتامين وهي كلها مما لاندحة للجسم عنه. والجسم يحتاج الى فيتامين (د) لتمثيل الكلسيوم. واللبن يحتوي عليهِ، ولكن ما فيه لا يكفي فيجب الحصول عليهِ من المواد الغنية به مثل زيت السمك وصفار البيض . ويمكن زيادته في لبن البقر باضافة الخميرة التي عرضت للاشعة الى طعامها

ومن فوائد الكلسيوم تأثيره الطيب في الجسم تأثيراً يمكنهُ من تمثيل الحديد . نعم ان مقدار الحديد في اللبن قليل جداً لا يزيد عن مليغرامين في الكيلو غرام ولكن هذا المقدار اليسير ضروري للنمو التام

وقد أثبت البحث الحديث ان النحاس ضروري للجسم لان تمثيله مع الحديد لا ندحة عنهُ في تكوين بعض عناصر الدم المهمة — أي الهيموغلوبين وهو المادة الاساسية في كريات الدم الحمر — وقلة الهيموغلوبين تسبب الانيميا أو فقر الدم ، والنحاس في الدم قليل وبوجه خاص اذا قوبل بما يوجد منهُ في الكبد والجوز واللوز والخضراوات والحبوب — فغذاء يحتوي على خبز القمح واللبن يكفي لتجهيز الجسم بما يحتاج اليهِ من الحديد والنحاس ، بل انهُ يكفي لتجهيز الجسم بكل ما يحتاج اليهِ من جميع الوجوه ويصلح لحفظ الحياة مدى غير محدود

العبقرية

بين البنات والصبيان

قرأ الاستاذ « وتي » مدير العيادة النفسية التهذيبية بجامعة نورث وسترن الاميركية رسالة امام مجمع تقدم العلوم الاميركي بدد فيها الوهم القائل بأن الذكور يفوقون الاناث عقلاً ، وان عدد النوابغ والعباقرة بينهم اكثر منهُ بينهن

قال الاستاذ وتي : ومما ايد هذا الوهم تفوق عدد كبير من الرجال في الموسيقى والعلم والادب . والتجارب التي اجريت على طائفة صغيرة من الاطفال المتفوقين

على ان هذه التجارب تسير الى عكس النتيجة الاولى اذا اجريت على طائفة كبيرة من البنات والصبيان . وقد اجرى هو تجاربه على ١٤١٤٩ صبياً و١٣٤٩٣ فتاة فوجد ان نسبة المتفوقين في الصبيان الى المتفوقات في البنات ليست ٢ الى ١ كما كان يقال بل ١ الى ١ تماماً

المرأة الفرنسية

وحق الانتخاب

في فرنسا اليوم حركة عظيمة الغرض منها منح النساء الفرنسيات حق الانتخاب وكذلك حق دخول البرلمان وقد كانت الصحف في طليعة من اشترك في هذه الحركة طبعاً فاتفق معظمها على وجوب منح النساء هذين الحقين بعد ما اعترف لهنَّ بهما السواد الاعظم من شعوب الارض

ويؤخذ مما جاء في الصحف الفرنسية ان المسيو لويس لوران وزير المستعمرات الفرنسية وهو من اكبر انصار المرأة خطب في مؤتمر عقد اخيراً لتأييد حق النساء الفرنسيات في الانتخاب فقال :

« ان قضيتك عادلة قانوناً ومنطقاً وعندي ان الذين يحاربونها لا يعترضون عليك الاَّ بأسباب واعذار تافهة واهية »

وقد كانت جريدة « الطان » في مقدمة الصحف المتحمسة للمرأة الفرنسية فعقدت لذلك فصلاً افتتاحيًّا استهلّته بتعداد المهام التي كانت الاجيال الماضية ترى انها هي وحدها المهام التي يجب ان تلقى على عاتق المرأة ويعني بها مهام البيت والاسرة فلما نالت نساء بعض البلدان الاخرى حق الانتخاب وطالبت النساء الفرنسيات بمساواتهن قال بعضهم ان المرأة ضعيفة وعصبية المزاج فلا يليق بها ان تشتغل بالسياسة وبالتالي لا يجوز منحها حق الانتخاب . وذهب آخرون الى القول ان المرأة سخيفة

« غير ان كل هذا انقضى عهدهُ وقد تحول العالم حتى أصبح في استطاعة الكاتب ان يقول ان الحرب قضت على تلك العبارات بعد ما أثرت في النفوس زماناً طويلا

« ومما لا شك فيه ان المرأة تظل حارسة البيت عند ما يكون لها بيت ولا ريب كذلك في انها تظل نور هذا البيت ولكن كم من امرأة تضيف الى هذه المهمة مهمة القيادة وكم من امرأة تعمل الآن خارج البيت وتنهض بأعباء كانت حتى في عهد غير بعيد من اختصاص الرجال وحدهم . غير ان الايام عززت شخصية المرأة وقيمتها فتفوقت احياناً على شخصية الرجل وقيمته

« ولماذا نخشى ايجاد فرقة من النساء السياسيات ؟ فهل افضى تمتع الرجال بحق الانتخاب الى صيرورة جميع الرجال ساسة ؟ بل على الضد من ذلك ان اشتغال المرأة بالسياسة قد يساعد على ازالة بعض الظلم الذي ما برح قائماً فيما يختصُّ بالطفل بل فيما يختصُّ بالمرأة ذاتها

« ويعترض بعضهم على منح النساء حق الانتخاب بحجة انهُ يؤدي الى نشوء اضطرابات سياسية عظيمة . فهل وقعت انقلابات كالتي يخشونها في البلدان التي منحت المرأة هذا الحق الذي لم يعد في ميسور احد ان ينازعها فيه ؟ وعلى ذكر هذا نقول اننا لا نعرف بلاداً ما تأثر نظام الحكم فيها من جراء تمتع النساء بحق الانتخاب

« بل اننا نخشى أن يفضي عدم الاعتراف للمرأة الفرنسية بحقها في الانتخاب الى وقوع

اضطرابات لانهُ ليس معقولاً أن تظلّ في بلاد دمقراطية كفرنسا ، فئة مهمة من الشعب كفئة النساء مبعدة الى الابد عن الاعمال العامة من دون أن يضر ذلك بالدمقراطية ذاتها

ولا ينازع منازع في أن نظام الحكم الحالي يعوزه دم جديد وفي كل مكان يلهج الناس بضرورة تحقيق وجوه من الاصلاح لا يبعد أن يساعد على تحقيقها الاعتراف للنساء بحقوقهنَّ

« ومما هو جدير بالذكر أن الذين يعارضون في حق المرأة الفرنسية في الانتخاب هم أنفسهم الذين يعارضون في كل إصلاح وتحوُّل في الدولة

« وعندنا أن قانون الانتخاب لا يستوفى اصلاحه الاَّ اذا نصَّ على حق المرأة في الانتخاب كناخبة وكمنتخبة يجوز لها أن تجلس في البرلمان جنباً إلى جنب مع الرجال » اه مقال الطان

الحب والمغازلة

في روسيا السوفيتية

يقول كاتب اوربي عاد حديثاً من روسيا ان الحكومة السوفيتية « الغت الحب » من بلادها لانها تراه مجرد عبث واضاعة وقت فيما لا طائل تحته

وترى هذه الحكومة ان تقاليد الخطبة القديمة لم يعد ثمة ما يسوّغها وانهُ من السخف ان يمضي المرء شهوراً وأياماً في صداقة فتاة قبل ان يجرؤ على طلب يدها او الاباحة لها بما يكنُّه فؤاده

ويقضي النظام الجديد في روسيا على الفتى الروسي طالب الزواج ان يذهب الى الفتاة التي يريدها زوجة له ويقول لها :

—انا عامل اعمل في مصنع النسج (مثلاً) ورقمي كذا (ويذكر رقمه) وقد علمت انك تشتغلين في المحل الفلاني ويذكر اسمه فهل تريدين ان نتزوج ومجموع اجرتي واجرتك الاسبوعية يكفينا

—هل لك غرفة خاصة تقيم فيها — كلاَّ ولكن لك انت غرفة فلماذا لا نسكنها

فاذا تم الاتفاق بينهما قصدا الى مكتب التسجيل حيث يوزن كل واحد منهما على انفراد ثم يكشف عليهما الطبيب ايضاً فاذا قرر سلامتهما ذهبا الى موظف خاص ووقَّعا امامه ورقة يعترفان فيها بأنهما زوجان ثم يذهبان الى غرفتهما من دون ضجيج ولا احتفال

ويتعلم شباب روسيا ان الحب مضيعة للوقت والمغازلة هباء والقبلات والعواطف عبث وانهُ جدير بالروسي ان يستعيض من هذا كله بالبحث عن الزوجة السليمة القوية القادرة على العمل والانتاج

وللزوجة في روسيا ما للزوج من الحقوق فهي تذهب معهُ في الصباح الى العمل وتشتغل كما يشتغل والذي ينهض منهما قبل الآخر من النوم يعد الطعام لرفيقه اي ان الزوجة فيها لا تكلَّف ما تكلَّفهُ الزوجات في البلدان الاخرى

مقومات الجمال

سئل جماعة من النساء المشهورات بجمالهن اللواتي بلغن سن الكهولة اوكدن يبلغنهُ : « كيف بلغتنَّ هذا السن ولم تزلن جميلات الوجه معتدلات القوام ؟ » فكتبن الاجوبة التالية

قالت الاولى : — الصحة ألزم اللوازم اذا اريد الاحتفاظ بالجمال رغماً عن التقدم في السن .وقد اراني الاختبار ان راحة البال ضرورية لحفظ الصحة وان جمال المنظر احدى نتائجها فتتمتع صاحبتها بالصبا الدائم

لكن هذه الراحة لا تنال بالادوية ولا بالمسكنات والفضل في ابتعادي عن الادوية لطبيبي فانهُ يحتقرها كلها ولقد طالما قال لي انكِ تفكرين بنفسكِ فتتعبين فاجتهدي لكي تنسي نفسكِ بالرياضة. فاتبعتُ مشورتهُ فوجدت سرّ السعادة في الرياضة فانها تجعل الجسم خاضعاً للعقل فلا يبقى حملا ثقيلاً عليه بل لايعود يشعر بهِ بل يصير العقل يأمر والجسم يفعل ما امرهُ بهِ خاضعاً مطيعاً . ومتى خضع الجسم للعقل فهناك الصحة والسرور وما السرور الاّ راحة البال وهو ابو الجمال وامهُ . هناك طلاقة الوجه وحسن المحيا وبهجة الشباب ولو في سن الشيخوخة . افتكري بشيء يسرُّكِ حتى تبرق اسرَّتكِ وانظري حينئذٍ في المرآة فترى ان قد ابرقت عيناكِ واحمرَّت وجنتاكِ وعاد اليكِ صباكِ

والحزن يفعل ضد ما يفعله الفرح . تغور بهِ العينان ويمتقع الوجه وترتخي المفاصل . واذا توالى على المرأة رسخت آثارهُ في وجهها وقامتها . المسرور يطفح وجههُ سروراً والحزين يخيم الحزن على وجههِ وعلى كل ما يحيط بهِ . المسرور يسرُّ الذين حولهُ والحزين يحزنهم .وطلاقة الوجهِ ليست من المزايا الطبيعية بل هي صفة مكتسبة، هي جوهرة ثمينة تكتسب بالتمرين والممارسة

اذا لم يكن القوام على ما يراد فالرياضة تصلحهُ فاذا كان الصدر ضيقاً فالتنفس المستطيل يوسّعهُ وقد يصحبهُ شيء من الدوار في اول الامر ولكن هذا الدوار يزول بالتكرار ويتسع الصدر رويداً رويداً ويظهر اتساعهُ جليًّا في شهر من الزمان

لكن انماء الجسم وتجميلهُ لا يكفيان من غير انماء العقل وتجميلهِ بالمعارف فعلى مَن تريد ان تكون جميلة جسداً وعقلا ان تطالع انفس الكتب التي وضعها ابرع المؤلفين . ولا داعي للاكثار من المطالعة فان في قراءة صفحة واحدة من كتاب نفيس ما يغذي العقل ويصرفهُ عن الهموم والغموم . والمرأة التي تواظب على مطالعة الكتب المفيدة النفيسة لا يمضي عليها سنتان حتى تشعر كأنها صغرت عشرين سنة عمّا كانت ولو لم تقرأ الاّ بضع صفحات كل يوم لان العقل اسرع نموًّا من الجسد . والخلاصة ان صحة العقل والجسد هي سر السعادة والشباب والجمال .

وقالت الثانية : — اني على يقين تام ان الاكثار من الرياضة في الهواء لازم لحفظ الصحة والشباب والجمال . اما الوسائل التي تستعمل لتحسين الوجه فلم اعبأ بشيءٍ منها وكل ما استعملهُ من هذا القبيل مادة دهنية نقية فانها افضل ما يكون لتليين الجلد . اما لون الوجه فيتوقف على الصحة وهي شيءٌ داخلي لا خارجي . وعندي ان قضاء ساعتين او ثلاث كل يوم في الرياضة البدنية افضل لحفظ الصحة والجمال من كل العلاجات والمحسنات

والعمل الشاق لا ينهك الجسم الاَّ اذا عملهُ الانسان عن اضطرار لا عن اختيار وعن كرهٍ لا عن رغبة اما الذي يحبُّ عملهُ ويرغب فيهِ فلا ضرر عليهِ منهُ مهما كان شاقًّا . وحبُّ العمل سرٌّ من اسرار حفظ الصحة وطلاقة الوجه وجمال المنظر . لكن الاستمرار على العمل يضني الجسم اخيراً فلا بدَّ من الراحة آونة بعد اخرى ، وابدال الشغل العقلي بالرياضة البدنية، ولتكن في لعب يسرُّ بهِ المرء كالتنفس فان اللعب الجسدي المسلي خير من الاقتصار على المشي

ولا بدَّ من صرف الغم عن القلب . ولقد كان الغم والهمُّ نصيبي فكنت اغتمُّ لكل فائت واهتمُّ لكل آتٍ فوجدت ان ذلك اضنى جسمي واسرع بي الى الشيخوخة فختمت على نفسي ان لا اغتم لفائت بعد ان اكون قد بذلت جهدي فيهِ ولا اهتم لآتٍ مهما كان

ثم ان كثيرين من الناس تراهم مرضى خوفاً من المرض وما مرضهم الاَّ الوهم اما انا فقد عوَّدت نفسي الاعتقاد باني صحيحة الجسم ناعمة البال وان كل الاشياء تعمل معاً للخير

واخيراً اقول انني لا استحسن ان يضع الانسان لنفسهِ قواعد يجري عليها وحدوداً لا يتعداها في كيف يقضي كل يوم من ايامهِ لان هذه القواعد والحدود تصير عبئاً ثقيلاً عليهِ . والعبء الثقيل شقيق الهم والهمُّ يميت الصحة التي هي ام الشباب والجمال

***

وقالت الثالثة : — لا يليق بي ان اقول كيف احفظ جمالي لاني لست جميلة ولكنني اقول كيف احاول ان احفظ صباي . وعندي ان حفظ الصبا اهم من حفظ الجمال لان الصبية لا تموت مرتين كالجميلة . وسن المرأة يتوقف على شعورها واذ اني لا اشعر بالتقدم في السن فانا لا ازال في سن الصبا وزد على ذلك اني ما دمت مواظبة على عملي فانا مواظبة على صباي . وسر الصبا هو سرور العامل بعمله ومن يريد ان لا يفارقهُ صباهُ فعليهِ ان يواظب على العمل ما استطاع الى ذلك سبيلا

اما الطعام فيختلف باختلاف الاشخاص لان ما ينفع الواحد قد يضرُّ الآخر لكن الاختبار الطويل قد علمني ان البساطة في المآكل تحفظ الصبا والجمال . اما حفظ الصبا الذي هو حفظ الجمال فيقوم بالرياضة الكثيرة في الخلاء حيث الهواء النقي

وخلاصة المقال ان حفظ الصبا والجمال يقوم ببساطة المآكل وانتظام الرياضة والانصباب على العمل وصرف الهم عن القلب. وقد قضت الضرورة ان استشير الطبيب احياناً ولكنني لا اعمل بمشورتهِ

زيت كبد الحوت

للدكتور عبده رزق

لا يخفى ما لزيت كبد الحوت وصفار البيض النيء والدهن المستخرج من الجوز الهندي من الخواص المفيدة ضد الخثل أو الكساح. كذلك من جهة اخرى لنور الشمس ولا سيما أشعتهُ التي فوق البنفسجية فائدة كبيرة على ما أثبتتهُ التجارب العلمية في السنوات الاخيرة. فهذا التشابه في التأثير حمل بعض العلماء على التساؤل هل هناك علاقة وثيقة بين زيت السمك ونور الشمس، كعوامل من ناحية العلاج، وهما كما ترى من عناصر مختلفة جداً

ويؤخذ من الاختبارات العديدة والبحوث المتواصلة التي يواليها العلماء من سنة ١٩٢٢ حتى الآن ان العلاقة المذكورة قائمة فعلاً بشكل يبعث على الدهشة والعجب. اذ قد لاحظ أنهُ اذا اخذنا مثلاً طائفة من الارانب أو الجرذان، وأعطيناها أصنافاً معينة من طعام تسبّب عادة داء الكساح، تبقى سليمة من هذا الداء عند ما نعرّضها للأشعة التي فوق البنفسجية. كذلك تبقى متمتعة بصحة تامة عند ما نضع معها في أقفاصها جرذاناً أو أرانب أخرى كانت قد تعرّضت قبلاً لذات الاشعة. فهذا النوع من المناعة يحصل على ما يظهر بطريق غير مباشر ويحتمل أن يكون حدوثهُ بواسطة براز تلك الحيوانات بعد تعرّضها للأشعة المذكورة

فهذه النتائج غير المنتظرة مهدت السبيل اذ ذاك للبحث عما يمكن أن يكون العنصر الموجود في أعضاء تلك الحيوانات، الذي يمنع ظهور الكساح. وقد اتضح بعدئذٍ ان هذا الفعل لا يقتصر على الجرذان أو الأرانب التي تقتات من أصناف معينة من طعام يولد فيها الكساح ولكنها تبقى سليمة من هذا الداء متى أضفنا الى طعامها هذا الكبد أو العضلات من جرذان اخرى قد تعرضت قبلا لتلك الاشعة، بل انها أيضاً لا تصاب بالكساح اذا اعطيت الدقيق بعد تعريضه لنفس الاشعة

فاذا أضفنا الى هـذا الحادث الخطير ما هو معروف الآن عن زيت كبد الحوت جاز لنا أن نعتقد ان خواص هذا الزيت المانعة للكساح يجب أن يكون مصدرها النور الشمسي، وانهُ ممكن ولا شك إكساب تلك القوة للزيوت الاخرى بتعريضها للأشعة التي فوق البنفسجية. وفي الواقع قد عرّضها زيت الزيتون وشحم الخنزير وزيت القطن فاكتسبت نفس الخواص التي اشتهر بهما زيت كبد الحوت وبنفس الدرجة — على شرط أن تكون هـذه المواد طازجة ومدة تعرضها للأشعة قصيرة. وعلى نقيض ذلك كانت دهشة العلماء عظيمة لما تبين لهم أن زيت كبد الحوت والدهن المستخرج من الجوز الهندي مع الزيوت الاخرى، تفقد خواصها الطبيعية المانعة للكساح عند ما تعرّض مرة ثانية للاشعة ذاتها

فخواص زيت كبد الحوت، مع الزيوت الاخرى، ضد الكساح، تكتسب اذاً والحالة هذه الصفات من أول تعرّض للنور الشمسي سواء أكان ذلك بطريق مباشر وقت تحضيرها أم بطريق غير

مباشر كما هي الحال مثلاً في زيت كبد الحوت . لان الحيتان كما هو معلوم تقتات بالاسماك التي في المياه الصافية وهذه تتغذى ببعض النباتات البحرية التي تخزن نور الشمس كما تفعل النباتات على سطح الارض . والذي يؤيد هذه النظرية الصائبة هو أن دهن الجوز الهندي الذي يستخرج فور وصول هذا الجوز الى المعامل يكون دائماً عديم المفعول وليس لهُ أي تأثير ، بعكس دهن الجوز الهندي التجاري المجفف في الشمس الشديدة . وما تقدم ذكره عن الزيوت والادهان يقال أيضاً عن كافة أنواع الاطعمة : كالحليب والزبد واللحم وأنواع الدقيق والبقول والأثمار حتى الاطعمة المركبة من هذه المواد — على شرط أن تكون نقية ، فتحوز حينئذٍ تلك الصفات المانعة للكساح وتزيد مقادير الفوصفور الذي في المصل الدموي وبالتالي تساعد على تكلّس العظام

وعدا ذلك فهذه الاطعمة التي اختزنت الاشعة الشمسية بفضل تعريضها للاشعة التي فوق البنفسجية تبيد الجراثيم الفتاكة وتؤثر في خلايا الجسم فتزيدها مناعة وقوة

فهذا الاكتشاف الذي لا يزال اليوم في مهده ، أو في أدواره الاولى من الاختبار ، سيكون على ما يظهر عظيماً بنتائجه وقد يحدث انقلاباً مهمًّا في علم العلاج . وعلى كل فهو يؤيد لنا مرة أخرى وجود تلك الغريزة التي تسوق الانسان منذ أبعد الازمنة الى تجربة استعمال الادوية ، كزيت كبد الحوت ، الذي لم يكن أحد يشك في منافعه الخاصة ضد المرض الذي يستعمل لأجله

عادة شرب الشاي

كتب طبيبان انكليزيان — هما الدكتور مايل والدكتور سُكت طبيبا شرف في مستشفى فكتوريا — مقالاً في جريدة اللانست الطبية قالا فيه انهما لا يفهمان الحكمة من العادة الشائعة وهي عادة تناول الشاي في الساعة الرابعة والنصف الى الساعة الخامسة مساء . وقد بنيا رأيهما على دراسة طول المدة التي يلبث فيها الطعام في المعدة بعد تصويرها مراراً باشعة اكس . فقد ثبت لهما أن الطعام يبقى في المعدة بعد تناوله من ٣ ١/٢ ساعة إلى ٤ ١/٢ فالذي يتناول طعام الافطار في الساعة الثامنة والنصف صباحاً تكون معدته قد خلت منهُ في الساعة الثانية عشرة والنصف الى نحو الساعة الواحدة واذن فيكون تناول طعام الغداء في الساعة الواحدة بعد الظهر عملاً معقولاً من الناحية الطبية

ولكن المدة التي تنقضي بين تناول الغداء (الساعة ١ — ٢ بعد الظهر) وشرب الشاي — أو أكل الشاي كما يقول الانكليز لانهم يأكلون معهُ قدراً لا بأس بهِ من الخبز والزبد والكعك — في الساعة الرابعة والنصف ، لا تكفي لهضم طعام الغداء في المعدة وخروجه منها . ولذلك يفضلان أن يقدم طعام العشاء الى الساعة السادسة أو السادسة والنصف على أن يمتنع عن اكل الشاي في الساعة الرابعة والنصف فتصيب المعدة قليلاً من الراحة قبل العشاء . وهذا يمكن الذين يسهرون من تناول شيء من الطعام حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً

سلامة الاطفال

لوجوب الاعتناء بالأطفال أسباب دينية وأدبية معلومة . ولهُ سبب اجتماعيٌ عظيم الشأن ، تقيم لهُ بعض الدول الآن وزناً كبيراً ، على ما نراهُ في ايطاليا الفاشستية وألمانيا النازية من الحث على وجوب الزواج واخلاف النسل . ذلك أن الشعوب الكبيرة القوية تكون في عزة ومنعة واطمئنان أكثر من الشعوب الصغيرة الضعيفة . وإننا لنرتاب جداً في تمكن المؤتمرات والمواثيق من ضمان الاستقلال والأمن والسلامة والراحة للشعوب الصغيرة الضعيفة مهما بذلوا في هذا السبيل من السعي والجهد ، لان تنازع البقاء قد يتغلب على جميع الحقوق الأدبية والاجتماعية ، إذ انهُ سبب طبيعي . والطبيعة قلما تقهر بمثل هذه السرعة

وسواء كان حفظ حياة الاطفال مبنيًّا على أساسٍ ديني أو على اساسٍ أدبي واجتماعي ، فالقول بوجوبهِ يقول بهِ كل أحدٍ ، وقلما يجرؤ أحد أن ينقضهُ عمداً اذا عرف الاسباب التي تميت الأطفال أو تجعلهم يعيشون مرضى ضعافاً والوسائل التي تقيهم من ذلك

ويمكن قسمة هذه الاسباب الى قسمين كبيرين . الاول الاسباب التي تؤثر في الطفل وهو جنين ثم في الايام الاولى بعد ولادتهِ . والثاني الاسباب التي تؤثر فيهِ في السنوات الاربع الاول من حياتهِ

قبل الولادة وبعيدها [1]

الراسخ في الاذهان أن حياة الجنين من حيث قوته وضعفه متوقفة على صحة أمهِ فقط ، والحال أنها متوقفة أيضاً على صحة أبيهِ . فاذا كان أحد والديهِ مصاباً بالزهري مات جنيناً قبل أن يولد ، أو ولد ضعيفاً سقيماً . فلا يجوز للوالدين أن يزوّجوا ابنتهما برجل الاَّ اذا كان معهُ شهادة من طبيب تقرُّ بأنهُ خالٍ من هذا الداء الخبيث : ومن اصيب بهِ وعولج العلاج الواجب قبل تغلغله في الجسم فقد يشفى منهُ تماماً وحينئذٍ يحلُّ تزوجهُ

ويظنُّ أن حالة الحامل البدنية من حيث كونها تغتذي الغذاء الكافي أو لا تغتذي لا تؤثر في صحة جنينها . ولكن هذا الظن غير صحيح . فقد ظهر بالاحصاء . ان الحوامل اللواتي لا يغتذين الغذاء الكافي يكثر اسقاطهنَّ لأجنتهنَّ . فان الأجنة الذين يموتون في بطون أمهاتهم اكثر بين الفقراء الذين لا يغتذي نساؤهم الغذاء الكافي ، منهم بين الاغنياء ، واذا لم يتأثر الأجنة من قلة تغذية أمهاتهم فانهم يتأثرون بعد ما يولدون من قلة لبن امهاتهم

---

(١) نرجو قارئات المقتطف ان براجعن فصل العناية بالحامل الذى نشرناه في مقتطف فبراير الماضي صفحة ٢٣٠

وقد ظهر حديثاً ان بعض العناصر لا ندحة عنها في غذاء الحوامل . وفي مقدمتها اليود . وهو يوجد في بعض الاطعمة في مقادير قليلة جدًا ، ولكنها مع ذلك لا ندحة عنها لسلامة الجنين . وقد جرّبت التجارب في بعض الحيوانات الولودة فتبين ان اليود عنصر ضروري لسلامة الجنين ومنع الاجهاض

وما يقال عن قلة غذاء الحوامل والمراضع يقال عن تشغيل الحوامل بأعمال عنيفة في الأشهر الاخيرة من شهور الحمل فان الاعمال العنيفة قد تفضي الى اسقاط الجنين

وقد لا يموت الجنين من السببين الأولين ، بل يولد حيًّا ثم يموت في الأسبوع الأول بعد ولادته . اما لان احد والديهِ مصاب بمرض خبيث او لأن بدن والدته لم يغذهِ الغذاء الكافي لجعل جسمهِ يحتمل العوارض التي تعرض لهُ بعد ولادتهِ

بعد الولادة

العناية بالطفل بعد الولادة من الناحية الصحية من اوجب الواجبات على الوالدة لانهُ قد ظهر بالاحصاء في البلاد الانكليزية ان وفيات الاطفال في الشهر الاول بعد ولادتهم تكون في المدن اكثر منها في الارياف . وفي بعض المدن اكثر منها في غيرها . وفي بعض الاحياء في المدينة الواحدة اكثر منها في احياء اخرى . ويستدلُّ من ذلك على ان لكثرة الوفيات اسباباً يمكن منعها لأنها ممنوعة في بعض الأماكن . واظهر ما وضح من ذلك ان وفيات اطفال الفقراء تكون مثل وفيات اطفال الاغنياء في الأسبوع الأول بعد الولادة ثم تزيد وفيات الفقراء على وفيات الأغنياء الى اربعين في المائة في الشهر الأول .ووجد مدير الاحصاء في بلاد الانكليز سنة ١٩١١ ان وفيات الاطفال الذين سنهم أقل من شهر تختلف باختلاف اعمال الوالدين من ٣٠ في الالف اذا كان الوالدون موسرين الى ٤٦ في الالف اذا كانوا معسرين

وقد قابل الدكتور ستيفنصن بين ٨٤٣٢٩٣ طفلاً ولدوا في وقت واحد سنة ١٩١١ وبين وفياتهم فوجد ان الذين كانت وفياتهم في الشهر الأول بعد ولادتهم اقل من ٢٥ في الألف ، كان والدوهم تجاراً واطباء ومصورين ونقاشين وصناعاً والذين كانت وفيات اطفالهم اكثر حتى ٤٥ في الالف كانوا ندلاً وكناسين وفعلة وحفاري ترع وغسالين وخمّارين . والغالب ان هؤلاء يسكرون فيهملون نساءهم واطفالهم فلا يغذّى الاطفال التغذية الكافية

وعرفت اسنان ١٠٥١٣٠ طفلاً ماتوا في انكلترا ومقاطعة ويلز قبلما اتموا السنة من العمر فاذا ٣٢٩٣٦ منهم ماتوا وعمرهم اقل من شهر و ١٩٦٤٧ ماتوا وعمرهم بين شهر وثلاثة اشهر و ٢٠٩٨٨ ماتوا وعمرهم بين ٣ اشهر وستة اشهر ، و ٣١٥٥٩ ماتوا وعمرهم بين ستة اشهر و ١٢ شهراً اي ان نحو ثلث الوفيات يقع في الشهر الاول

على باب الهيكل [1]

لجبران خليل جبران

قد طهرت شفتيّ بالنار المقدسة لأتكلم عن الحب ولما فتحت شفتي للكلام وجدتني أخرس

كنت أترنم بأغاني الحب قبل ان أعرفهُ ولما عرفتهُ تحوّلت الالفاظ في فمي الى لهاث ضئيل ، والانغام في صدري الى سكينة عميقة

وكنتم أيها الناس فيما مضى تسألونني عن غرائب الحب وعجائبه ، فكنت أحدثكم واقنعكم ، أما الآن ، وقد غمرني الحبُّ بوشاحهِ ، جئتُ بدوري أسألكم عن مسالكه ومزاياه فهل بينكم من يجيبني ؟ جئت أسألكم عما بي واستخبركم عن نفسي فهل بينكم من يستطيع ان يبين قلبي لقلبي ويوضح ذاتي لذاتي ؟

ألا فاخبروني ماهذه الشعلة التي تتقد في صدري وتلتهم قواي وتذيب عواطفي وأميالي ؟

وما هذه الايدي الخفية الناعمة الخشنة التي تقبض على روحي في ساعات الوحدة والانفراد وتسكب في كبدي خمرة ممزوجة بمرارة اللذة وحلاوة الاوجاع ؟

وما هذه الاجنحة التي ترفرف حول مضجعي في سكينة الليل فأسهر مترقباً ما لا اعرفهُ ، مصغياً الى ما لا اسمعهُ ، محدقاً بما لا اراهُ ، مفكراً بما لا افهمهُ ، شاعراً بما لا أدركهُ ، متأوهاً لأن في التأوه غصات احبُّ لديّ من رنة الضحك والابتهاج ، مستسلماً الى قوة غير منظورة تميتني وتحييني ثم تميتني وتحييني حتى يطلع الفجر ويملأ النور زوايا غرفتي فانام اذ ذاك وبين اجفاني الذابلة ترتعش اشباح اليقظة وعلى فراشي الحجري تتمايل خيالات الاحلام

***

وما هذا الذي ندعوه حبًّا ؟

اخبروني ما هذا السر الخفي الكامن خلف الدهور المختبيء وراء المرئيات الساكن في ضمير الوجود ؟

ما هذه الفكرة المطلقة التي تجيء سبباً لجميع النتائج وتأتي نتيجة لجميع الأسباب ؟

---

(١) نعيد نشر هذه القصيدة النثرية على ذكر الكتاب الذي ظهر حديثاً بعنوان Prose Poems of Kahlil Gibran محتوياً على ترجمة بعض قصائده النثرية العربية باللغة الانكليزية

ما هذه اليقظة التي تتناول الموت والحياة وتبتدع منهما حلماً أغرب من الحياة وأعمق من الموت

اخبروني أيها الناس — اخبروني هل بينكم من لا يستيقظ من رقدة الحياة اذا ما لمس الحب روحه باطراف أصابعه ؟

هل فيكم من لا يمخر البحر ويقطع الصحاري ويجتاز الجبال والاودية ليلقى المرأة التي اختارتها روحه ؟

أي فتىً لا يتبع قلبه الى أقاصي الارض اذا كان له في اقاصي الارض حبيبة يستطيب نكهة انفاسها ويستلطف ملامس يديها ويستعذب رنة صوتها ؟

أي بشريٍ لا يحرق نفسه بخوراً امام إله يسمع ابتهاله ويستجيب صلواته ؟

***

وقفت بالامس على باب الهيكل اسأل العابرين عن خفايا الحب ومزاياه

فر امامي كهل مهزول القامة كاسف الوجه وقال متأوهاً « الحبُّ ضعفٌ فطري ورثناه عن الانسان الاول »

ومرَّ فتىً قويٌّ الجسم مفتول الساعدين وقال مترنماً : « الحبُّ عزمٌ يلازم كياننا ويصل حاضرنا بماضي الاجيال ومستقبلها »

ومرَّت امرأة كئيبة العينين وقالت متنهدةً : « الحبُّ سمٌّ قتال تتنفسهُ الافاعي السود المتقلبة في كهوف الجحيم فيسيل منتشراً في الفضاء ثم يهبط مغلفاً بقطرات الندى فترتشفهُ الارواح الظامئة فتسكر دقيقة ثم تصحو عاماً ثم تموت دهراً »

ومرَّت صبية موردة الوجنتين وقالت مبتسمة: « الحبُّ كوثرٌ تسكبهُ عرائس الفجر في الارواح القوية فيجعلها تتعالى متمجدة امام كواكب الليل وتسبح مترنمة امام شمس النهار »

ومرَّ رجل ذو ملابس سود ولحية مسترسلة وقال عابساً : « الحبُّ جهالةٌ عمياء تبتدىء ببدء الشباب وتنتهي بنهايته »

ومرَّ رجل ذو وجه صبيح وملامح منفرجة وقال فرحاً : « الحب معرفة علوية تنير بصائرنا فنرى الاشياء كما راها الآلهة »

ومرَّ اعمى يجسُّ الارض بعكازه وقال منتحباً : « الحب ضباب كثيف يكتنف النفس

من كل ناحية ويحجب عنها رسوم الوجود ويجعلها لا ترى سوى اشباح اميالها مرتعشة بين الصخور ولا تسمع غير صدى صراخها آتياً من خلايا الوادي »

ومرّ شابٌ يحمل قيثارة وقال مترنماً : الحبُّ شعاعٌ سحريٌّ ينبثق من اعماق الذات الحساسة وينير جنباتها فترى العالم موكباً سائراً في مروج خضرٍ والحياة حلماً جميلاً منتصباً بين اليقظة واليقظة »

ومرّ هرمٌ منحني الظهر يجرُّ قدميهِ كأنهما خرقتان وقال مرتعشاً : « الحبُّ راحةُ الجسم في سكينة القبر وسلامة النفس في اعماق الابدية »

ومرّ طفلٌ ابنُ خمسٍ وهتف ضاحكاً : « الحبُّ أبي والحبُّ امي ولا يعرف الحبَّ سوى أبي وأمي »

***

وانقضى النهار والناس يمرون امام الهيكل وكل يصور نفسه متكلماً عن الحب ويبوح بأمانيهِ معلناً سرَّ الحياة

ولما جاء المساء وسكنت حركة العابرين سمعت صوتاً آتياً من داخل الهيكل يقول : « الحياة نصفان نصف متجلد ونصف ملتهب فالحبُّ هو النصفُ الملتهب »

فدخلت الهيكل اذ ذاك وسجدت راكعاً مبتهلاً مصلياً هاتفاً « اجعلني يا رب طعاماً للهيب — اجعلني ايها الاله مأكلاً للنار المقدسة . آمين »

ترجمة المقطع الاول

I purified my lips with the sacred fire to speak of love,

But when I opened my lips I found myself speechless.

Before I knew love, I was wont to chant the songs of love,

But when I learnt to know, the words in my mouth became naught save breath,

And the tunes within my hreast fell into deep silence.

In the past when you would question me concerning the secrets and the mysteries of love,

I would speak and answer with assurance.

But now that love has adorned we with vestments,

I come in my turn, to question you of all the ways of love, and all its wonders.

Who among you can answer me ?

الفتاة والوردة

لتوماس مور

ايتها الزهرة الشاحبة الذابلة

اي فن يستطيع ان يعيد اليك ما فقدتهِ من لون وزهوٍ وحياة !

اي فن يستطيع ذلك وقد فُصِلت عن الغصن الذي غذّى نفسك الطاهرة !

عبثاً تسكب الشمس اشعتها لتدفع الحرارة في خدك البارد والقوة في عنقك الملتوي

فقطرات الندى التي كانت تتقطر عليك نضرةً وأريجاً

غَدَت الآن دموعاً تصبّها السماء لوعةً على موتك الباكر

***

كذلك تذوي الفتاة التي عبث بها مناط املها وموضع ثقتها

يدفعها من ذراعيهِ فتهيم في فيافي الحياة ورياضها منبوذة مهجورة .

عبثاً يبسم لها الاهل والاصدقاء ، وعبثاً يجربون ان يخففوا من لوعتها القاسية .

اي عطف يعيد الى قلبها الكسير سلامه الداخلي !

اي بسمة ترجع الى نفسها المسحوقة اجنحتها الخفاقة !

والبسمة الوحيدة التي تستطيع ان تبعثها من غيبوبة الموت وترفعها قليلاً لرؤية

نور الحياة — اجل هذه البسمة السموية ، تنتشي بها الآن أخريات

باب المراسلة والمناظرة

إرشاد لغوى

فى كل جزء كلمة

للأستاذ عبد الرحيم بن محمود

« الأطبّاء »

(١) الطِّبّ — علاج الجسم والنفس يقال رجل طَبّ وطبيب أى عالم بصناعة الطِّبّ وكذلك يقال امرأة طَبَّة وطَبيبة — ومن آيات التقدم فى هذا العصر أن الفتيات قد أقبلن على تعلّم الطب وأحرزن الإجازات العالية فى التطبّب من الجامعات ومدارس الطب فى أوربة وأمريقا واليابان وتركيا ومصر — ولا أريد بالطبيبات المولّدات اللائى حصلن ويحصلن على إجازات فى التوليد ويلقبهن العامة بالحكيمات أو الطبيبات ولكنى أريد من قطعن ويقطعن مراحل التعلّم الأولى والابتدائى والثانوى والعالى وفيه توفّرن على تعلّم الطب فى نوع منه ولاسيما علاج الأمراض النِّسْوِيّة (١) أكثر الله منهن لربات الخدور حتى يتوفر الاطباء على علاج الذكور والطبيبات على علاج الاناث مهما تتنوع الأمراض

(٢) والمتطبب هو الذى يتعلم صناعة الطب ويتعاطاها وكذلك المتطببة اى التى تتعلم وتتعاطى صناعتهُ

(٣) وطبّ الطبيبُ المريضَ يطُبّه طَبًّا داواه فالاسم الطب والعامل يقال له طبيب او طَبّ إن كان رجلا وجمع الأول أطبّاء وأطِبّة وجمع الثانى طبوب كنفوس جمع نفس وبكثرة الاستعمال تستأنس آذاننا بالطبوب كما استأنست بالنفوس. والى القراء أنواع الاطباء

(ا) النِّقْرِيس هو الطبيب الماهر النظّار المدقق وهو أليق بالمتوفر على الطب فى حذق من النطاسىّ الذى شاع استعماله فى هـذا العصر لأن معناه الحاذق بالطب وغيره . والنُّطُس بضم النون والطاء الاطباء الحذّاق

(ب) الكحّال هو (طبيب العيون) والكحل كل ما وضع فى العين يُستشفى به فالكحّال هو الذى يداوى العيون واذا أذعنا الكحال فقد غنينا بهذا اللفظ العربى الصميم عن لفظتين عربيتين مضافة أولاهما إلى ثانيتهما أى (طبيب العيون)

---

(١) ينسب الى كل من النساء والنسوان والنسوة نسوى لا غير كما فى لسان العرب — ومن الخطأ الذائع بألسنة الخاصة وأقلامهم نسائى نسبة الى نساء كما هو المتبادر للذهن من حيث القياس ولكن المسموع قد هدمه — قال صاحب مختار الصحاح فى مقدمته (والسماع مقدم على القياس فلا يصار الى القياس الا عند عدم السماع) انظر الى الصفحة الثامنة من الكتاب المطبوع بالمطبعة الاميرية سنة ١٩٠٥م — والمواد اللغوية فى اللاغى مظاهر السماع من العرب

(ج) المجبّر هو الذي يجبر العظام وهو من الأطباء

(د) الجرّاح أو الآسي هو الذي يداوي الجراحات يقال أسا الآسي الجُرحَ يأسوه أسْواً داواهُ وجمع الآسي أُساة كقضاة جمع قاضٍ وقد يطلق الآسي أيضاً على كل طبيب سواء أكان جراحاً أم غير جرّاح

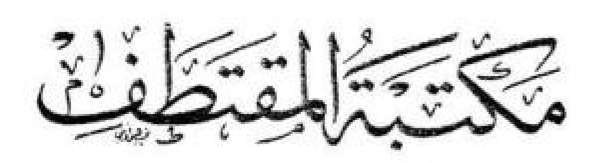
وأبصِرْ بإسماعيل صبري باشا المصري في هذا المقام إذ أنه فطن الى ما ذهبنا إليه من قبل وإن تأخرت إذاعته فقال :

يا آسي الحيّ هل فتشت في كبدي وهل تبينت داءً في زواياها

فقد اختار للطبيب الجراح لفظة (الآسي) فانه هو الذي يفتش في الكبد فيتعرف الداء في زواياها والاستفهام في البيت خرج عن معناه الاصلي الى معنى آخر هو الامر فكأنه قال يا جراح الحي فتش في كبدي — وتبين داءً في زواياها — ولا غرو فان اسماعيل صبري باشا من نوابغ الشعراء البلغاء العلماء الذين تأخذ عنهم اللغة في طرائف آدابهم فانهم افهم لأسرار الضاد من سواهم . فخذوا لغتكم عن نوابغ أدبائكم فقد حذقوها فهماً فأحسنوا تطبيقاً

(هـ) البَيْطار أو البَيْطَر هو معالج الدواب — والبيطرة صناعته فمن الخطأ الشائع (طبيب بيطري)والصواب طبيب بَيْطَري على أننا في غُنْيَة عن الصفة والموصوف بلفظ مفرد وهو بيطار أو بيطر واستعمل العرب الفعل بيطر والمصدر بيطرة[1] ولا يألم حضرات الأطباء البيطريين من اطلاق البَيْطَار أو البَيْطَر على كل منهم إذا كان سبقهم بهذا اللقب كل من كان يحذو الخيل والحمير في مصر أيضاً فإنهم يلقبون بالحدّائين جمع حذّاء على أنهم كانوا قبل إنشاء مدرسة البيطرة العالية يعالجون الخيل والحمير على قدر علمهم وتجاربهم كما كانوا يحذونها — والحرف تتشرف بالمحترفين فهم الذين يشرفونها كالمـداره أي المحامين فقد شرفوا حرفتهم في هذا العصر بمعلوماتهم وبراعتهم وأخلاقهم وقد كانوا غير محترمين في مصر منذ خمسين سنة كما قال المرحوم سعد زغلول باشا في حفل نقابة المداره سنة ١٩١٠م عقيب تأليفها واعاد المرحوم هذا المقال في فجر إعادة الحياة النيابية إلى مصر في عهد الملك فؤاد . على ان الحذّائين والبياطرة لهم الاجلال عندي فإنهم من أصحاب الحرف الشريفة مع التفاوت في المعلومات والمؤهلات وإذا كان أطباء النفوس وهم المهذبون وأطباء الأجسام البشرية والحيوانية يؤدون ما يجب عليهم للمجتمع الانساني والحيواني فلا تفاضل بينهم — إنما الأطباء إخوة . ومن مظاهر المساواة أن يجل الطوائف بعضها بعضاً على أن العمال الآن هم السائدون غيرهم في كثير من ممالك أوروبا وسيسودون العالم كله مدّ الزمن إن شاء الله فمن يحصل على قوته بالعمل خير ممن يحصل عليه بالمسألة وغيرها مما يخمش وجه الأدب وفي هذه الاشارة بلاغ والسلام

(١) أليس الاجدر بالحكومة ان تسمي مدرسة الطب البيطري بمدرسة البيطرة لان لفظاً واحداً يغني عن لفظتين لمدلول واحد وليست التسمية الاولى بخطأ



تآليف المستشرقين

صرتُ هذا الصيف الى بلاد الشمال ، واتفق لي أن أقيم بفنلندا أربعين يوماً . فاجتمعت هنالك بمستشرقين[1] أحدهما الاستاذ (ا . ج تالجرين — توليو) والآخر الاستاذ (آيلي سارسَلو) فعجبت للامر كل العجب . وقد دفع كل منهما تآليفه اليّ

١ — فنلندا وسائر البلدان البلطية الشرقية

مستخرج من جغرافية الادريسي

Idrisi--La Finlande et les autres pays baltiques d'Orient (Géograhpie, VII,4)

Edition critique par O. Y. Tallgren—Tuulio et O. M. Tallgren

هذا الكتاب على بابين : أما الأول فيعرض للناحية اللغوية ، وأما الثاني فيبحث في الناحية التاريخية . والكتاب يشمل النصّ العربي مرسوماً بالحروف اللاتينية مع تصوير جميع المخطوطات المعروفة ، وترجمة ذلك النصّ وبحثاً في الخطط ، ونظرة تاريخية ، وخرائط ولواحق

وهذا الكتاب مشحون بالفوائد مشبع الفصول . ثم انهُ غاية في التدقيق العلمي ، الاَّ أني استأذن الأستاذ (تالجرين — توليو) في أن أتتبع بعض أوهام وردت في النصّ العربي المرسوم بالحروف اللاتينية . فمن هذه الاوهام : اسقاط عين «عرض» في حاشية الصفحة الاولى — واغفال رسم الهمزة (صفحة ٣٠ سطر ١٥ و ص ٣٤ س ٨) — ورسم همزة الوصل بصورة همزة القطع (ص ٣٥ س ٥) — ثم اني اظن أن الوجه في ص ٣٤ س ٨ ان يقرأ : والجزيرة الثانية فيها «النساء» (لا «النساو» كما ورد) ولا رجل «معهنّ» (لا « معهم » كما ورد)

هذا وان تمنيت شيئاً سألت الاستاذ (تالجرين — توليو) أن ينشر النصّ العربي من تآليفه المستقبلة بالحروف العربية فلا يرسمه بالحروف اللاتينية ، وليس هذا عليهِ بمتعذر

---

(١) أشكر للمسيو سورافو Soravuo — الملتحق بالوزارة الخارجية الفنلندية — حسن لقائه لي حين هبطت فنلندا . ولا يفوتني ان أقول انه الذي أرشدني الى اولئك المستشرقين

٢ — أغاني الدروز

Songs of the Druzes with an Arabic Appendix by Aapeli Saarisalo

هذه مجموعة أغانٍ للدروز أصابها الاستاذ (سارِسلو) في أثناء رحلتهِ الى سيناء طلباً للآثار والعاديات . وهؤلاء الدروز ممن يقيم بالبقاع والبصة . وتلك الاغاني بين «عتابة» و « مواويل » و « قصايد» و «مطالع» و « تناويح» و «رناني» . وهي مدونة بالحروف العربية واللاتينية جميعاً ، منقولة الى الانجليزية نقلاً صحيحاً في الغالب . ثم لها لواحق في اللغة وفهرست شامل

ومما لا بدَّ أن اصرّح بهِ هنا أن جمع مثل هذه الاغاني عمل جليل الشأن من ناحية ما تسميهِ الفرنجة Folklore أي فحص عادات الامم . وعسى أن ينهض رجالنا الى جمع الاغاني المصرية والشامية والعراقية وما اليها جمعاً علمياً ، فها هي ذي تحتضر على حين ان بعلماء الاجتماع حاجة ماسة اليها

٣ — صكٌ في الوقف

A Waqf—Document from Sinai

ومما عثر عليهِ الاستاذ (سارِسلو)—فوق هاتيك الاغاني الدرزية — صك وقف « حُرّر » في سيناء سنة ثمانٍ وثمانين وتسعمائة . وقد نشر الاستاذ (سارسلو)هذا الصك مصوراً بالفوتوغرافية ومطبوعاً بالحروف العربية ثم نقلهُ الى اللغة الانجليزية وعمل لهُ مقدمة وعلّق عليهِ

فهل أدلُّ الاستاذ (سارسلو) على مآخذ هذا النصّ :

ورد ص ٢ س ٨ « المعلوم ذلك لهما العلم الشرعي » ، واظن الوجه « المعلوم ذلك لها (اي المشتري والبائع) ... » — ص ٢ س ١٠ « بتقابل فيما على ذلك » ، واظن الوجه « بتقابل فيهما (اي المشتري والبائع) ... » — ص ٢ س ١٣« وبيده (اي البائع) وحوزة وتصرفه » ، واظن الوجه « .. وحوزه . . . » — ص ٤ س ١٠« مويد شريعة سيد المرسلين » والصواب «مؤيد...» — ص ٧ س ٩ « يتول من قابل بالازوم » والصواب « يتولى .... (قارن ص ١٦ حاشية ١) »

على ان هذه الهفوات التي اذنتُ لنفسي ان انبه عليها هيهات ان تغضَّ من نفاسة كتب المستشرقين الفنلنديين ، وعسى ان يقيما على ميلهما الى فحص احوال العرب والمسلمين ورفع شأن اللغة العربية والحضارة الاسلامية في جامعة هلسنكي (عاصمة فنلندا)

٤ — فن التصوير الاسلامي

١٢٤ ص و ٢٠٠ صورة ، من القطع الكبير

Musulman Painting by E. Blochet translated from the French by Cicely M. Binyon with an introduction by Sir E. Denison Ross, C. I. E. Methuen & Cie, London

اعرف الاستاذ (بلوشيه) صاحب هذا الكتاب لست سنوات خلت ، اي منذ العهد الذي فيهِ كتب الله لي ان اختلف الى دار الكتب الفرنسية (قسم المخطوطات) . ولم يتفق لي ان احادث الرجل

على انهُ « حافظ » المخطوطات العربية . ثم مضت السنون وها انذا أتي الاستاذ بلوشيه كل يوم فنفيض في اخبار العرب والفرس فيأبى شيطانهُ وشيطاني الآ ان يعدلا بنا عن القراءة الى المحادثة زمناً

ان الاستاذ بلوشيه ملمٌّ باللغات السامية واللغة الفارسية واللغة التركية ، فضلاً عن تضلعه من اليونانية واللاتينية . ثم ان له مؤلفات عدة منها هذا الكتاب الذي اصفه لك

هذا الكتاب يبحث في تاريخ فن التصوير الاسلامي وتحوله ويفحص عن ظواهره وخصائصه . وتاريخ هذا الفن ينبسط فيه من مستهلِّ القرن السادس للهجرة حتى القرن الثاني عشر ومما يزيد في نفاسته ان صاحبه نشر مائتي صورة ارادة ان يزين بها بحثه وفحصه ، وهذه الصور مستخرجة من خزانات دار الكتب الفرنسية والمتحف البريطاني والجمعية الاسيوية البريطانية وجامعة ادنبره ومجموعة المستر (تشستر بيتي)

وميزة الكتاب ان صاحبه انحرف عما يذهب اليهِ المستشرقون عامة . فلم يقل قولهم بأن الفن الاسلامي مقتبس من الفن الصيني ، بل دلّ على ان هذا الفن كان منشؤهُ في بغداد ، فان رجعت مصادره الى فن معيّن فانما ترجع بعض الشيء الى الفن البيزنطي

ولا سبيل لمن يقرأ الكتاب عن ان يشعر بطرافة آراء صاحبه ، وقد عطف على ذلك دِنِسُن رُس في مقدمته . غير ان صاحب الكتاب يميل الى الاستطرادات ميلاً شديداً : انهُ من ذوي البسطة في العلم من ادب وفن وتاريخ ودين

وصفوة القول ان الكتاب ذو شأن وان جالت بين سطوره طائفة من الآراء المعترضة ، ولكن الفن الاسلامي — على شتى الوانه — ما يزال موضع نظر ومجال جدل والحكم الفاصل فيما يأتي من الزمان

٥ — مصادر الاخبار الاسلامية

في القرآن وسيَر الانبياء ١٦٨ صفحة من القطع المتوسط

Les Origines des Légendes Musulmanes dans le Coran et dans les vies des Prophètes par D. Sidersky, Editions Geuthner, Paris

يزعم الاستاذ سيدرسكي ان جانباً عظيماً مما ورد في القرآن والتفاسير والسير من الاخبار يرجع الى « الاجاده اليهودية » والاناجيل والتوراة الموضوعة

يورد المؤلف النص القرآني او نص التفسير الى ما يلي ذلك ثم يعارضه بنصوص مستخرجة من الكتب التي تقدم ذكرها . واعتماده في الكتب الاسلامية على تآليف الطبري والزمخشري وابن الاثير والكسائي . وتعويله في كتب العهد القديم والحديث الموضوعة على كتاب « هنوخ » وكتاب « اليوبيل » و « حكاية يوسف النجار » و « انجيل الطفولة » و « انجيل توما » الى ما يجري مجرى ذلك عند نقاد تاريخ الاديان . وأما « الاجاده اليهودية » فاعتماده فيها على النوادر المبثوثة في التلمود البابلي والتلمود « الهيوروزلمي » ثم على التآليف « المدرسية »

وبعد فهذا الكتاب منحدر من رأي قال به المستشرق الفرنسي (كليمان هُوار) لثلاثين سنة خلت او تزيد . وللمستشرقين من بعده ومن قبله مؤلفات عدة في هذا الباب ، بل ازيد على ذلك ان من مبتدعي هذا الرأي Marraci و Sale (في القرن السابع عشر والثامن عشر)

والتحقيق ان هذا الكتاب لا يثبت على النقد ، ذلك ان بين النصوص الاسلامية والنصوص اليهودية والمسيحية مسافات وان إتفق لبعضهنَّ ان تتقارب فهل غاب عن المؤلف ان النصوص الاسلامية واليهودية والمسيحية الأُوَل انزلت او كتبت لقوم ساميين ، والساميون يعتمدون على وجه واحد من القبول الذهني ويستقيمون على عمود واحد من التفكير

بقي ان اسأل المؤلف لماذا اردف نصوص التلمود بترجمة فرنسية قويمة ثم لم يردف نصوص التوراة ولا نصوص «موضوعات» جوزيف بالترجمات المتداولة . ثم اني آخذ عليهِ استناده الى ترجمة القرآن للمستشرق السويسري Montet فالمعلوم ان ترجمة الرجل لم يُرزق حظها من التثبت والتدبر

٦ — ابن السعود ، ملك الجزيرة

٢٤٨ ص و١٩ صورة فوتوغرافية ، من القطع المتوسط

Ibn Séoud roi de l'Arabie par Antoine Zischka, Editions Payot, Paris

هذا كتاب رحالة فرنسي انطلق الى الجزيرة فاجتمع فيها بابن السعود ثم جاءنا يسوق قصة الملك الوهابي ، فبسط منشأ ابن السعود ونضاله ونصره راوياً ما دار بين الرجل والانكليز وما وقع له من امير اليمن . ولا حاجة بي ان افصّل هذا لقراء المقتطف . الاَّ ان في الكتاب ثلاثة فصول يحسن بي ان اشير اليهما . اما الاول فحكاية ابن السعود مع (جوهرة) تلك المرأة الشاعرة الفطنة التي شدَّت من ازر الملك وما فتئت حياتها تنصح له وترشده وتعينه على قضاء اوطاره وتستميله وتتحبب اليهِ حتى انهُ حزن لموتها حزناً شديداً . والفصل الثاني سياقة سيرة ابن السعود بما هي عليهِ من التقشف والبساطة والدعة مقرونةً جميعاً بالغليان القومي والتحمس الديني . واما الفصل الثالث فوصف رقيّ الجزيرة على يد ابن السعود اجتماعيًّا واقتصاديًّا وعمرانيًّا ، ولهذا الفصل ذيل ينبّه الى المكانة التي وصل اليها ابن السعود عند الدول الاوربية امثال روسيا وتركيا واليابان فضلاً عن انكلترا وفرنسا وايطاليا

وبالجملة ان هذا الكتاب يكاد يكون موقوفاً على الناحية السياسية . فما ضرَّ المؤلف لو حدثنا عن العادات الوهابية وشرح لنا انتقال الذهنية الحجازية من حال الى حال دينيًّا وخلقيًّا . بقي ان في مقدمة الكتاب (ص ١١) عبارة لا يخفَّ محملها على السمع . ودونكها : « ان فرنسا — وهي ملكة الاسلام Reine de l'Islam — لا تستطيع ان تعرض عن الاضطرابات الاسلامية مهما كانت » . فان رضي المغاربة لفرنسا بذاك اللقب فما اظن جماعة المسلمين وبالتالي جماعة العرب ينشطون له

برلين بشر فارس

الجزء الاول من مدخل فن الجراثيم

تأليف الطبيب الجراثيمي احمد حمدي الخياط من تلاميذ معهد باستور في باريس
واستاذ فن الجراثيم وعلم الصحة في المعهد الطبي العربي بدمشق — طبع في مطبعة الترقي بدمشق

انه يتعذر على الناقد أن ينقد كتاباً علميًّا مثل هذا الكتاب في صفحات قليلة . فالكتاب علمي بحت جعل لتلاميذ المعهد الطبي العربي في دمشق فلا شأن فيه لعامة القراء وانما سأكتب فيه شيئاً اجعلهم يهتمون بمثله لاننا في بدء نهضة علمية تهمنا كثيراً فكتب الطب التي تبحث في علم الجراثيم كثيرة ولكن الكتب العربية قليلة جدًّا ومنها هذا الكتاب . فهل وفق المؤلف في الغاية التي الف كتابه لاجلها : أقول لقد وفق كثيراً لذلك سيكون نقدي لهذا الكتاب في كونه كتاباً عربيًّا في علم الجراثيم اي انقده من هذه الوجهة دون غيرها

بدأ المؤلف قوله كما يرى في ما نقلته عنه انهُ طبيب جراثيمي بلا زيادة ولا نقصان فانه لم يقل انه حلَّ في كتابه جميع المسائل المختلف فيها او انه فاق الاوائل والاواخر او أنه مستعد لمناقشة علماء الجراثيم في ما قالوه أو انه تحدى باستور أو تلامذة تلاميذ باستور فانه لم يقل شيئاً من · بل جعل كتابه مثال التواضع شأن العلماء الحقيقيين . ذكرت ذلك ليكون هذا الامر دستو جميعاً عليه في ما نكتبه . فالكتب العلمية وغير العلمية ينبغي ان تكون خالية من مدح الذ ما نراه في كثير من مؤلفات هذا العصر . فقد حان الاوان لان نرى انفسنا كما يرانا غير:

ثم ان الكتاب خال من تقديمه الى رئيس الجمهورية أو الى المندوب السامي أو الى رئيس الجامعة أو الى أحد الاعيان او الاغنياء فما شأن هؤلاء على شدة احترامنا لهم في كتاب علمي مثـ هذا الكتاب . فالذي يحترم نفسه ينبغي ان يترفع عن جميع هذه الامور . وقد ذكرت ذلك لعل المؤلفين في المستقبل يحجمون عن هذه العادة السيئة . أما الآن وبعد هذه المقدمة الوجيزة فلنبحث في جوهر الكتاب

ألبس المؤلف كتابه لباساً عربيًّا بحتاً فلا شيء فيه من العجمة مع أن معظم المصطلحات العلمية التي فيه اعجمية الاصل وقد احسن في قوله في مقدمة الكتاب « تأييداً لقول من يقول بأن اللغة التي تساعد على أن تخرج أبلغ الاقوال فصاحة (القرآن) لا تضيق عن أن تحتوي بعض كلمات تليق بايضاح بعض مصطلحات علمية حديثة وان انكر ذلك المتنطعون في التجدد » . واليك مثالاً من لغة الكتاب فقد قال في الجراثيم : الجرثوم والجرثومة لغةً أصل الشيء واصطلاحاً هي تلك الاحياء الدنيا التي تكون سبب بعض الامراض وهي التي يسميها علماء الافرنج بالاحياء الدقيقة. ثم أخذ يشرح الجراثيم ويقسمها ولا ابالغ في قولي ان جميع الالفاظ التي ذكرها عربية الاصل ولو جئت لاضرب الامثال على ذلك لضاقت بي هذه الاسطر القليلة ولكنني اقول ان المؤلف نجح كل النجاح في بلاغة مؤلفه وفصاحته وسهولة تعبيره . ولا بأس هنا من ذكر بعض المصطلحات التي اوردها وهي كثيرة جدًّا فنها ما يأتي :

المكوَّرات البنية والمكورات السنانية والمكورات العنقودية والضمات والانبوبيات والراجبيات وانتاش البزيرة والعصيات المتألقة والعصيات المحبة للحرارة والتألق وذيفان الجراثيم والذيفان المنتشر والزعامين وحمة الجرثوم وضمخ الدم والبلعمة والبلعمات وغيرها وهي كثيرة وجميعها مفسرة بما يقابلها بالافرنجية حتى يرسخ في ذهن القارىء ما يراد بها تماماً فلا يمضي زمن حتى تصير المصطلحات العربية ملكة في النفس . وقد وعد المؤلف انه عند انجاز كتابه يضم اليه معجماً يذكر فيه جميع هذه الالفاظ وهي همة يشكر عليها

على انني اؤاخذه في الفاظ قليلة جدًّا منها قوله فن الجراثيم واظن الصواب علم الجراثيم فالفن خلاف العلم وقولهم في استانبول دار الفنون خطأ والصواب دار العلوم . اما وقد أخذ الترك ينظفون لغتهم من الالفاظ العربية فأولى بنا أن ننظف لغتنا من الفاظ تركية أو عربية الاصل استعملها الترك في غير معناها العربي . ومثله كتابة « ته رلخ » على الطريقة التركية وأفضل كتابتها ارلخ . هذا وقد بقيت هفوات قليلة جدًّا مثل قوله الكريات البيضاء والكريات الحمراء والصواب بيض وحمر ولا يجوز غيرها . وقد ذكرت هذه الهفوات لكي يكون ما يخرجه لنا في المستقبل خالياً من جميع ذلك وجل من لا يخطىء

وصفوة القول ان هذا الكتاب نفيس جدًّا فعسى ان يتحفنا اساتذة المعهد ولا سيا المؤلف بكثير مثله . هذا وان مرضي حال دون قيامي بنقد هذا الكتاب وهو عندي منذ شهرين فالتأخير مني لا من رئيس تحرير المقتطف امين المعلوف

ضحايانا الاطفال

تأليف اجنس دي لما وترجمة الاستاذ محمد عبد الواحد خلاف

قدمت للقراء كتاب الاستاذ محمد حسين الخزنجي في طرق التربية الحديثة لاني مؤمن بانهُ من خير ما ظهر في اللغة العربية في موضوع التعليم والآن ابادر الى تقديم كتاب آخر عظيم الشأن في نفس الموضوع . وانني لاشعر بعد ظهور هذين الكتابين اننا على ابواب انقلاب كبير في نظم الدراسة عندنا وعلى وشك خلق رأي عام يولي اطفالنا العناية الواجبة ويطالب بتوفير اسباب نوع من الحياة يتمشى مع طبيعتهم ويكون من شأنه أنْ يمهّد لهم اسباب النماء الصحيح

وكتاب الاستاذ خلاف هو الاول من سلسلة تنوي ان تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر في التربية والتعليم ويشرف على اصدارها الاستاذ اسماعيل محمود القباني . هذا الكتاب يتناول بالشرح والوصف كثيراً من النظم الدراسية في الولايات المتحدة الاميركية من قديمة وحديثة ، ما يتمشى منها مع قوانين السيكلوجية التعليمية الحديثة ، وما لا يتمشى مع هذه القواعد ، فبعضها يبدأ بطبيعة الاطفال وميلهم الغريزي الى التطلع والمعرفة ، ومنها ما يساير سنة الحياة من معالجة البيئة

القريبة جداً الطفل ، والبعض الآخر يسير على التقاليد الموروثة من قديم الزمان كما نعرفها نحن حق المعرفة في هذه البلاد

والنزاع بين انواع المدارس في هذا الكتاب — كما هو في معظم الحالات في حياة الطفل المدرسية — هو نزاع بين الطفل والمادة ، وبين الدرس والحفظ والاستذكار من جهة وبين الحياة من جهة اخرى . هل الوظيفة الاساسية للمدرسة هي تعليم الاطفال طائفة معينة من الحقائق ، ام هي توفير اسباب الحياة والنشاط لهم ، ثم توجيه هذا النشاط الى ما يفيد الاطفال في حياتهم الراهنة. بالطبع تتفاوت درجات هذا النزاع ، من الدعوة الى جعل المدرسة سجناً او ما هو اشبه بالسجن ، الى جعلها فوضى لا ضابط لها . ولست اعرف بين ارباب التربية من يدعو الى جعلها سجناً بأدق معاني الكلمة ، ولا من يدعو الى الفوضى ، وانما ترى وأنت تقرأ كتاب الاستاذ خلاف ان هذين الطرفين موجودان الى حد ما ، وان النزاع فيه يدور حول اطلاق حرية الطفل وتقييده بأثقل القيود

لا استطيع في هذه الكلمة الموجزة ان اشرح ما تناوله هذا الكتاب من الفروق والخلافات بين هذه النظم جميعاً ، فعلى من يريد زيادة الايضاح ان يقرأ هذا الكتاب الذي لا يمكن ان [illegible] المعلمون من دون ان يتعرضوا اللوم وانما أوجه نظر القراء خاصة الى مطالعة الفصل الثاني منه [illegible] الفصل علاوة على انه قطعة فنية جميلة ، فانه ايضاً وصف دقيق للمدرسة التقليدية مع تغيير يسير تستدعيه الاختلافات في البيئة الاقليمية والاجتماعية ويستطيع القارىء ان يقرأ هذا الفصل على انه وصف لأحسن المدارس عندنا

لا يملك من يقرأ هذا الفصل الا ان يشعر بأن هذه المدرسة التي يصفها عبارة عن مصنع (فابريقة) تتحرك الآلات فيها بالضغط على بعض الازرار الكهربائية ، يقف العامل على مكان مرتفع وأمامه لوحة عليها بعض الازرار ، وأمامه طائفة من الآلات مرصوصة رصًّا محكماً على قواعد هندسية محكمة ، كل منها تتحرك لتؤدي نوعاً معيناً من الاعمال دون غيره ، لا دخل لها بما يحيط بها من الآلات بل يحرم عليها ان تتصل بشؤون جارتها ، والا فسد النظام واختلَّ العمل وكانت الطامة الكبرى ، لان كلاًّ منها تتصل بالعامل وحده فتتحرك متى اراد وتسكن متى شاء

هذه هي المدرسة ، وهذا هو المعلم ، وهؤلاء هم الاطفال . يقف المعلم على منبره فتتجه اليه ستون عيناً ، ترقبه وتلاحظ حركاته وتنتظر اوامره ، يطلب فتح الادراج ، فتتحرك ستون يداً ، وينفتح ثلاثون درجاً ، ويخرج منها ثلاثون كتاباً ، ثم تقفل الادراج وتوضع الكتب ، وتتجه الستون عيناً الى المعلم

يصف الكتاب هذا الضرب من المدارس ، ويصف النوع الآخر ، ثم يشير الى الفلسفة التي ينبني عليها هذان النوعان ، ثم يتناول اثرهما في حياة الاطفال بعد ان يغادروا المدرسة الابتدائية الى المدارس الثانوية والعليا ، ويبين بالارقام مبلغ النجاح في هذين النوعين

والحق اني لا استطيع ان اوفي هذا الكتاب حقه من التعليق والنقد فكل هذا لا يغني عن قراءته مرات وتدبُّر معاني كل ما ورد فيه ، ولا أملك الاَّ ان أشكر لجنة التأليف والترجمة والنشر ثم الاستاذ اسماعيل محمود القباني المشرف على طبع هذه السلسلة . وأما الاستاذ محمد عبد الواحد خلاف ، فقد حق له شكر المعلمين والآباء جميعاً ، ولا يكون هذا الشكر على اتمه الاَّ اذا اعاروا عملهُ هذا ما يستحقه من العناية الواجبة له

يعقوب فام

الطرق الاوربية المتبعة

في تحسين المزروعات وانتاج التقاوي

تقرير أصدرته الجمعية الزراعية الملكية بقلم الدكتور محمد عزيز فكري والمسيو ا . سباجيناتي من موظفيها عن نتيجة درسهما في بعض البلدان الاوربية التي تنتج القمح وطرائقها في تحسين انتاجه وتقاويه في ٨٦ ص

عانت بعض البلدان الاوربية أثناء الحرب العظمى وما تلاها من الانقلابات الاقتصادية وغيرها صعوبات ومخاطر في استيرادها من خارج بلادها لما ينفعها من بعض المواد الغذائية الرئيسية وأهمها القمح فنهضت بما فيها من عزم وقوة وحسن استعداد للاستكثار من انتاجها وتحسينها باستخدام افعل الوسائل الزراعية والتعاونية والميكانيكية والاقتصادية التي هدتها اليها حقائق العلم ونتائج التجارب كما تراه مذكوراً في هذا التقرير الذي وضعه مؤلفاه عقب درسهما ما صنعته ايطاليا والمجر وفرنسا في هذا الموضوع الخطير ببيان موجز مفيد

واننا نحن الذين الفنا البطء في اعمالنا الحكومية المثمرة ندهش اذ نقرأ ان ايطاليا في مدى ١٢ سنة أحْيت من اراضيها الموات ٥،٨٠٠،٠٠٠ فداناً انفقت عليها ٥٠،٠٠٠،٠٠٠ من الجنيهات وزاد ما تغله مزارع قمحها ٨٦ ./. فبعد ان كان ٢٩ مليوناً من الارادب في سنة ١٩٢٢ صار ٥٤ مليوناً في سنة ١٩٣٣ وبعد ان كان متوسط ناتج الفدان ٣،١٧ اردب صار ٤،٣ اردب بما في هذا متوسط ناتج الفدان من الارض المستجدة فضلاً عن تحسين نوع القمح عما كان عليهِ

اما الوسائل التي اتبعت للوصول الى هذه النتائج فهي (١) اصلاح الارض الموات (٢) الحماية الجمركية (٣) انشاء جمعيات التعاون الزراعي وترقيتها (٤) تأسيس معاهد انتخاب الحبوب وجمعيات انتخاب التقاوي وترقيتها (٥) نشر التعليم الزراعي والدعاية اليهِ بالمنابر المتنقلة وباللجان المحلية وبمدرسة عملية للميكانيكا الزراعية (٦) وسائل التشجيع باعانة جمعيات التعاون والمسابقات الزراعية وجوائزها وباقامة المعارض والاسواق الزراعية والصناعية

ومما جاء في التقرير ص ١٥ — ١٧ عن معاهد الانتخاب وجمعيات انتاج التقاوي ما يأتي :

ولما كانت التقاوي وهي العمدة في الزراعة لا يمكن تحسينها مقداراً ونوعاً الاَّ باستخدام تقاوٍ منتخبة تناسب الحالة الخاصة بالبلاد فان الحكومة الايطالية لم تغفل قط هذا الاعتبار فانبرى رئيسها بنفسه

في الجلسة الاولى من جلسات لجنة القمح يطرح على بساط البحث مسألة نوع التقاوي التي يراها مقدمة على سواها . ومن اهم معاهد الانتخاب في ايطاليا نذكر : —

(١) المعهد الاهلي للوراثة خاص بزراعة الحبوب ومقره في روما وله فرع في ريتي

(٢) معهد للوراثة خاص بزراعة الحبوب في بولونا Bologna

وهذه بعض توضيحات عن المعهد الاول

كان مبتداه في ريتي سنة ١٩٠١ تحت ادارة البروفسور استرامبلي ولما نشطت حركة ترقية الزراعة صار اول معهد في ايطاليا ويديره مجلس ادارة مؤلف من سبعة اعضاء تحت رآسة مندوب من الحكومة ويبلغ مقدار الاعانة التي يتناولها من الحكومة ٨٠٠٠٠ من الجنيهات المصرية ويغطى هذا المبلغ بضريبة مقدارها من ٣٥ — ٥٠ مليماً مفروضة على كل ١٠٠ كيلو من القمح تشتريه الدولة

وقد تمكن المعهد بفضل هذه الميزانية الضخمة من انشاء ثلاث محطات للتجارب وتمهدها و... منها حقلها الخاص بالتجارب ، اما الاعمال التي تمت في هذه الحقول لتوليد التقاوي واستكثارها ... يد المعهد الاهلي للوراثة في روما فقد ادت الى ايجاد انواع جديدة تفوق الانواع القديمة بم...

ولهذا المعهد علاقات مستمرة بمحطات التجارب الاخرى وبمنتجي التقاوي وبجمعيات ... الزراعي وبهذا تمكن من ان يراقب عن كثب انتخاب التقاوي ومضاعفتها ويقوم بهذه الر... يسمون فنيون . (الى ان يقول التقرير) وعند ما تسلم الجمعية لزراع البذور التي ثبتت جودتها بالامتحان تأخذ من كل (لوط) مقداره ٢٠ كيساً على الاقل اربع عينات يرسل احداها الى معهد التربية في بور... واخرى الى معملها والثالثة الى حقولها لتزرع فيها وتكون كشهادة عند حصول اي شكوى او انتقاد من جهة الزراع الذين زرعوا هذا النموذج وتوضع العينة الرابعة في مجموعة العينات بمتحف الجمعية الخ

وفي ص ٦٦،٦٧ من التقرير جاء تحت عنوان التنظيف والانتخاب الآليَّان لحبوب القمح بمصر ما يأتي : — اما في مصر فان هذا المجال المهم موكول الى مشيئة التجار والزراع ويتأتى من ذلك ان الحبوب تعالج في اغلب الاحيان علاجاً مختصراً ساذجاً وتطرح في السوق فوضى وهي اخلاط من انواع واصناف شتى . واذا كان حقاً ان وزارة الزراعة اهتمت بأن تنشىء لها مؤسسات للتنظيف والانتخاب فان هذه المنشآت لم تتخذ الا لانتاج صغير محدود او لمقاصد تجريبية . ومما يذكر منها معمل التنظيف في قسم البساتين بالجيزة ومنشآت الدومين والاوقاف الملكية

اما الجمعية الزراعية الملكية فقد اقامت على ارضها بالجيزة معملاً جهزته بالآلات البالغة الاتقان لتنتج التقاوي المنتجة انتاجاً واسع النطاق . ويستطيع هذا المعمل نظراً لكبر مقطوعيته ان ينتج ٣٦ اردبًا في الساعة او نحو ٣٠٠ اردب في اليوم واذا قوبل بامثاله في البلدان التي زرناها صح القول بأنه من خيرة المؤسسات المتقنة التجهيز لا لتنظيف الحب فقط بل لانتخاب التقاوي على وجه خاص وقد يبلغ محصول هذا المعمل في موسم لا يعدو خمسة اشهر من اول يونيو الى ٣١ اكتوبر

٥٠،٠٠٠ اردب وتقسم اعمال المعمل الى ثلاثة اقسام رئيسية (١) التنظيف (٢) التقسيم اي تقسيم الحبوب بحسب احجامها (٣) الانتخاب وقد شرح كل قسم شرحاً واضحاً . الخ الخ . والتقرير جدير بأن يقرأه كل مزارع للانتفاع بمعلوماته وارشاداته احمد الالفي

قصائد جبران المنثورة

Prose Poems of Kahlil Gibran. Translated by Andrew Ghareeb. Published by Alfred A. Knopf. Inc. Price $2.50

هذا هو الكتاب الثاني الذي نشر بالانكليزية بعد وفاة جبران . واذا كنا لم نشر الى الاول فلأنَّ الناشر نسي على ما يظهر ان جبران كان يخصنا بنسخة من كل كتاب جديد يخرجه

الكتاب الذي بين ايدينا يحتوي على مجموعة مختارة من قصائده العربية المنثورة ، نقلها الى الانكليزية الاديب اللبناني الاميركي اندرو غريب ووضعت مقدمته الشاعرة الاميركية بربارة يَنغ وهي الوصية على تركة جبران الادبية

اما القصائد المترجمة فمعظمها مشهور متداول بين قرَّاء العربية ومنها « وعظتني نفسي » و « يوم مولدي » و « اسكن يا قلبي » و « مدينة الاموات » و «الشاعر» و «الارض» الخ مما نشر قبلاً في مجموعة « العواصف » او « دمعة وابتسامة » او بعض المجلات

ولا يخفى ان الترجمة من اشقِّ الاعمال ، وبوجه خاص اذا كانت ترجمة لأثر ادبي ، لا يمكن ان يفصل فيه بين الاسلوب والمعنى . وقد اشار جبران الى ذلك في عبارة افتتحت بها المس ينغ مقدمتها قال : « الترجمة فن قائم بذاته . هي عمل الابداع الثاني في تحويل سحر لغة الى سحر لغة اخرى » . وقد قالت المس ينغ كذلك ان جبران على تفوقه في الكتابة باللغة الانكليزية حتى كان يحسب احد امراء البيان فيها، كان يقول لها : «لست الا ضيفاً على لغتكم فعليَّ ان اعالجها باحترام، ولا يجوز لي ان اتصرف في استعمالها تصرف ابنائها » : وعندها ان هذا الاحترام الذي كان رائد جبران عند كتابته باللغة الانكليزية يجب ان يكون رائداً كذلك لكل من يحاول ان ينقل قصائد جبران من العربية الى الانكليزية . بل هي تعترف ان ترجمة اي كان لا يمكن ان تبلغ من الدقة والصفاء ما كانت تبلغهُ ترجمة جبران نفسهِ لو استطاع ان يقوم بها . ولكن تشبُّع اندرو غريب بروح جبران وامتلاكه لناصية اللغة الانكليزية وقيام المس ينغ على تنقيح ما نُقِل — بعد ما سمعت جبران مراراً يترجمهُ عفواً — يجعل صفحات هذا الكتاب تنبض بروح جبران وتتسم بسمة من اسلوبه

فنشكر للاديب الناقل وللمس ينغ عنايتهما بعرض صفحة مجيدة من الادب العربي الحديث على ابناء اللغة الانكليزية . وحبذا الحال لو عني احد الناشرين في البلدان العربية باخراج مجموعة كاملة من آثار جبران ، ما كُتِب منها بالعربية وما نقل عن الانكليزية، على ان يتولى الاشراف على اخراجها الاستاذ ميخائيل نعيمه . وقد نشرنا في باب حديقة المقتطف احدى قصائد جبران العربية التي عنوانها « على باب الهيكل » ومعها ترجمة مقطع منها نموذجاً لاسلوب الكتاب

نهضة الشعر الحديث

١ — الشاطىء المجهول — لسيد قطب ٢ — ديوان صالح جودت
٣ — أغاني الكوخ — لمحمود حسن اسماعيل

من الحق عليَّ ان ارحب بالفرصة التي مهّدت لي النظر في هذه الكتب دفعة واحدة . فهذا الثالوث يمثل نهضة الشعر الاخيرة في اعتدالها وتطرفها في ضعفها وقوتها ، أصدق تمثيل

والواقع ان استعراض هذه الكتب هو استعراض اجمالي ونقاش ضمني لأهم المبادىء التي يتفق عليها ويختلف فيها النقاد في نهضة الشعر الحديث

يتفق النقّاد على أن النهضة الشعرية تسير في اتجاهها الصحيح وأن الروح التقليدي اختفى أو كاد ولكن هؤلاء النقاد مختلفون جد الخلاف في مسألة خطيرة كل الخطورة هي مسألة من هو الشاعر الصحيح

فالفريق الاول من الأدباء يقول ان الشعر يجب أن يكون من قوة التأدية بحيث لا تقل ديباجته اشراقاً وجرساً عن ديباجة الشعراء من أمثال المتنبي والبحتري وأبي تمام وشوقي . كما يجب في الوقت ذاته أن يكون هذا الشعر من قوة المعاني بحيث يكون محيطاً باتجاهات العلوم الحديثة والفلسفة

ومن أخص خصائص هذا الفريق أنهُ لا يتسامح في نبوة لفظية ولا يعفو عن كبوة معنوية ولا يغضي عن نشزة موسيقية ولكنهم بهذه الدقة يقيسون الشعر وبتلك العين ينظرون الى الشاعر كما يجب أن يكون . فإذا حلَّق شاعر الى موضوع ما وقصرت بهِ خوافيهِ أو قوادمهُ عما ينبغي للشاعر أن يعطو لهُ في جوّ هذا الموضوع فهو ليس بشاعر صحيح في نظر هؤلاء

أما الفريق الثاني فيقول لسان حالهم ان الشعر فن يجب أن يكون لهُ من قوة ذاتيته ما يجعله في غنى عن ملازمة أو معاونة أي فن آخر حتى الموسيقى . أجل حتى الموسيقى ! فهي لا تلزم لمعاونة الشعر وإذن فن باب أولى عند أصحاب هذا الرأي أن الشعر مستغنٍ عن بقية علوم اللغة وأدواتها من معانٍ وبيان وبديع واشتقاق وغير ذلك . فالشاعر في نظر هؤلاء لا يعيب شاعريته جهله أو عدم مبالاته بالموسيقى الشعرية . كذلك لا يغض من شاعريته خطؤه في الاعراب أو غلطه في الاشتقاق أو كبوهُ في استعمال الكلمات والجمل بعضها في مواضع بعض . فاذا أصيب واحد من شعراء هذا [illegible]يق بضعف في ملكته الموسيقية فخلط هزج الشعر بخببه وبسيطه بخفيفه فلا بأس عليهِ من ذلك [illegible]د خلق شاعراً ولم يخلق موسيقياً واذا كانت موسيقية أحدهم ثقيلة الظل مضطربة الجرس [illegible]ه أيضاً فإن هذا الضعف علامة القوة في الشاعرية وهو آية مناعتها لا رخاوتها أو مياعتها

هذان الفريقان المتفاعلان في هذه النهضة ولعلك قد لمست ان خلفهما على مسألة [illegible]ح راجع في الحقيقة الى خلفهما على مسألة الأداء الشعري فهذا الفريق الثاني

يرى أن الشعر هو الطلاقة الفنية كائناً ما كان حظها وقدرتها على التعبير عكس الفريق الاول الذي يرى أن هذه الطلاقة الفنية لا يمكن استغناؤها عن أدوات التعبير

ونحن هنا لا نقصد الى ترجيح أحد هذين الفريقين . وكل ما نقصد اليه هنا هو استجلاء آثار هذين الفريقين كليهما بمقدار ما تعطينا هـذه الكتب الثلاثة من نماذج فنية تتمثل فيها ضعفاً وقوةً نهضة الشعر الحديث

١ — الشاطيء المجهول

فأنت ترى في ديوان الشاطيء المجهول محاولات طيبة تقربك الى حد كبير من نظر الفريق الاول الى الشاعر الصحيح . أجل اقول محاولات وقد يغضب صديقنا الشاعر سيد قطب من هذا التعبير ولست أبالي ان غضب . فصديقنا الناقد سيد قطب[1] زعيم بإنصافنا من صاحبه الشاعر فهو يقول ان له من مصاحبته زهاء عشر سنوات وإذن فهو أدرى بمواطن ضعف شمشون. ومهما يكن من مناصرة صديقنا الناقد سيد قطب لنا على صديقنا الشاعر سيد قطب واخذنا عليه بعض أنواع الضعف والخطإ أو ما يشبه الضعف والخطأ فان في ديوان الشاطيء المجهول قصيدة السر — وناهيك من قصيدة هي ديوان في ديوان . فأنت في هـذه القصيدة تنظر الى الطلاقة الفنية كيف تخدمها علوم الادب وألوان من الثقافة العامة كما يخدمها فن الموسيقى والتصوير والرسم . وليس ذلك وحسب بل فن القصة وفن التخريج الروائي أيضاً. كل هذه الفنون والعناصر في هذه القصيدة قد جمعت بعضها الى بعض بنسب موزونة بمنتهى الدقة . فليس ثمة لعنصر أن يطغى على الآخر ولا لفن أن يتطاول على أخيه . ولم يكن أحب لنفسي من نقل هذه القصيدة كلها اذ لا سبيل لنقل بعضها ليستمتع بها القرّاء معي لولا ضيق هـذه الصفحات . ومن الغريب أن يلاحظ على الروح الموسيقي في ديوان الشاطيء المجهول الشحوب العام حتى في أعظم مواطن الفرح للشاعر فيجيء هذا اللون من الضعف مساعداً كبيراً على زيادة التوفيق في هـذه القصيدة بالذات حيث لا يليق فيما بين المقابر الا هذا اللون الشاحب من التلحين . ويصرح الشاعر ان موضوع هذه القصيدة اختمر في عقله الباطن ستّ سنوات ولا شك أن هذا التصريح يكشف عن سر يظهرنا على هذه الاجادة المقطوعة النظير — ومع اعجابي بهذه القصيدة معنىً ومبنىً ولفظاً فليس في وسعي اذ أمرّ عليها دون أن أقف فيها على هـذا البيت حيث يقول :

وغشاه روع الموت والموت روعة تغشى فيعنو كل نكس وقادر

فقد وددت ان يكون شطره الثاني هكذا (تغشى فيعنو عاجز مثل قادر) اذا صح " قطب أن يسترعي ذوق الشاعر سيد قطب لجمال هذه المقابلة . وكذلك أود ان استرعي معاً الشاعر والناقد الى قولها في قصيدة الشاطيء المجهول

(١) انظر ما يقوله الناقد سيد قطب في تقديمه للشاعر سيد قطب في مقدمة الشاطيء

لقد حجب العقل الذي نستشيره حقائق جلت عن حقائقنا الصغرى

فالأفضل ان يقال حقائقنا الكبرى بدل حقائقنا الصغرى لانك اذا قلت ان الكبير يجلّ عن الصغير فما في هذا غرابة امتياز في التعبير. ولست اجهل النكتة في تعبيره بالصغرى بدل الكبرى فهو يريد ان يقول انه لا يرى في هذه الحياة الدنيا حقيقة واحدة يصح ان توصف بالكبرى وهذا اعتبار فلسفي بليغ حقًّا ولكني ألاحظ ان هذا البيت من حقه ان يجري مجرى المثل ومن حق الامثال ان لا تقف في الآذان بطلب الاستئذان فهي من اجل هذا تفضل القول الفصيح على القول البليغ. وايضاً وددت لو ان الشاعر في هذا البيت نفسه أراحنا من لفظ (نستشيره) وقال نقتدي به او نهتدي او غير ذلك مما يحلو له فان السين والشين بينهما تاه في لفظ (نستشيره) هذا تذكرنا بمثلها في قول بعضهم: غدائره مستشزرات الى العلى. وهذه هي الكلمة التي ضربتها كتب البلاغة مثلاً في تنافر الحروف

٢ — ديوان صالح جودت

اما ديوان صالح جودت ففيه من خفافة الظل ما يحبب القارىء في صاحبه ولا سيما حين يرى جودت يعتمد على طبعه المصري ووجداناته الظريفة فهو حينئذ زعيم ان يعيد الينا نكهة خفيفة الروح من مصر الشاعرة في زمن ابن معتوق وابن مطروح وأمثالهما من شعراء عصر الظرفاء فاسمع اليه وهو يخاطب حبيبته فيقول:

ايها القاتل اني مشفق لك ان تلقى الردى من ملكيك

فوصم الحبيب بالقاتل وتحذيره حين يلقى الردى من ملكيه كل هذا هو من اسلوب شعراء ذلك العصر وليس جودت هو الذي يقول بسؤال الملكين وانما هذا هو شعاع من غلبة حب النكتة على طبعه المصري الظريف. وانما جودت ابن عصرنا هذا هو الذي يقول في المهزلة الكبرى:

والذي اودى بسكان الجحيم هو ما امسى ثواباً في النعيم
حكمة قد حيرت عقل الحكيم غمرت بالشك اذهان الملا
ايكون الذنب في الاخرى ثواب

لاشك ان صاحب هذا مستحيل ان يكون من القائلين بسؤال الملكين. ثم اصغ اليه حين يقول:

يا شقيق الزهر والطير اما ساءلت نفسك عني اخويك
انا في روضك ارويه بما فاض من عطفي مدى العمر عليك
أزرع الآمال في روض هواك وارويها بدمعي ودمي

او في قوله في جسم فتاته صاحبة الهيكل المستباح

جعلت منهُ الليالي سلعة ما للبيالي غير تجار الرقيق

فهذه الاستعارات والتشبيهات التي تجعل الحبيب شقيقاً للزهر وللطير وتجعل الهوى روضاً يزرع

فيهِ الآمال كل هذا هو الخيال المصري الذي تحس فيه نكهة قوية من انفاس شعراء مصر من عصر الشاب الظريف . ثم ألا ترى في قوله : (ماللبالي غير تجار الرقيق) قرينة تصدق ما نذهب اليهِ من ان خيال جودت يستوحي الروح المصري الذي لم ينس بعد عصور الرقيق وتجار الرقيق وها هو مجاراة لابن معتوق واشباههِ يأبى الاَّ ان يخترع دموعاً لها ثغور وهذه الثغور تقبل خدي حبيبته زينب فهو يقول :

فاني رأيت ثغور الدموع   تقبل خديك يا زينب

تأمل. فلعله في مرة ثانية سيخلق لدموع زينب اسناناً تأكل بها او تعض ! وجملة ما في صاحبنا أنهُ عذب سائغ ما استمد من طبعه فاذا استمد من مطالعاته ولاسيما الغربية ورغب في محاكاة شعرائها فهنالك يشعر بالحاجة الى ما يعينهُ على التعبير فاذا استخفَّ بذلك فهو لا محالة شاعر بالكلال فن امثلة ذلك قوله في المهزلة الكبرى :

غنني انشودة الوادي الوسيع (هكذا)   حيث لا اسمع للدنيا رجيع (هكذا)
ثم جفف ساعة جفني الدميع   وارد نوق الحزن واهتف حيهلا
يا كراز السحر يا كاس الشراب

فلفظ (ساعة) في قوله ثم جفف ساعة هو في علم صناعة النظم حشو ناهيك بالاشتقاق في قوله جفني الدميع. أما ضعف التعبير في قوله وارد نوق الحزن الخ فما لا يحتاج الى بيان . واليك ايضاً قوله في احد مطالع قصائده في الرثاء

هل رأيتم فجيعة الآفاق   كيف اودت بأدمع الآماق

لا جرم ان هذا البيت يذكر الادباء ببيت ابي العتاهية : مات الخليفة ايها الثقلان . الخ على ان قول جودت كيف اودت بأدمع الآماق فيهِ تفوق عظيم على ابي العتاهية . ومن هـذا القبيل بيت لحافظ عند ما شبه ثوران البحر في عاصفة عاتية بفوران القدور

ومن هذا القبيل قول جودت في رثاء شرقي

انا في مصر سامع لوعة الشرق   وداري بهجتيه الدويا

فهذا تعبير عامي تقريباً . وقوله في رسالة الحب :

حكمت قلبك بيني وبينك   لكن حكمت فلم تنصف

فصناعة البيان العربي تنكر مثل هذا الاستدراك في قوله لكن حكمت الخ . كذلك يقول :

حرك الحسناء في صمت الدجى   همسات رددت في صومعه

وكان خيراً له ولهذا النظم الجميل لو قال آنس الحسناء بدلاً من قوله حرك لانهُ تعبير سقيم والديوان بهذه الامثلة التي يدل على روح الاحتياج الى الثروة البيانية العربية وان حفل برغم هذا بروح يتوثب ضمين بالاعتماد على نفسه محاولاً التخلص من كل ألوان المحاكاة . ويتجلى لك هذا الروح كثيراً في المقاطيع ذات البيتين او الثلاثة الى الخمسة ومن أحسنها قوله يخاطب الآلهة

ما رونق البدر الاّ اشعة من عيونك
هدَّ يتني لالهي فنوره في جبينك
وحيرني فيه بعضٌ من حيرتي في شؤونك

هذا روح يحاول ان يكشف عن نفسه بدون شك وفي امكانه بقليل من العناية ان يصل الى ما يصبو اليهِ

٣ — اغاني الكوخ

واخيراً نقدم على كتاب اغاني الكوخ وانت حين تمسك نفسك على قراءته ستلقاك الوان كثيرة من اخيلة الطلاقة الفنية ممتدة بحشد لا بأس بهِ من الثروة اللفظية التي تساعد على التأنق في تأليف الجمل ولكن بجانب ما يستهويك من ذلك ومن عناوين قصائد القيثارة الحزينة وثورة الضفادع الخ وبجانب ما يسترعيك من اناقة طبع الكتاب لا تكاد تمضي في قراءته حتى تصطدم باغاليط شتى في النحو او في اللغة او في العروض بله الاخطاء في الاسلوب المنطقي في التفكير وسوء استعمال وصايا علم البيان . فمن اخطائهِ النحوية قوله في قصيدة القرية الهاجعة

وسدتها الاضواء من لحنها الضافي وساد الطبيعة العبقري
بهرة للعقول تملي على الكون نشيد الهناءة السحري
ناح في جنة يلقن شاديها نداء الطبيعة العلوي

فهو في هذه الابيات الثلاثة خضوعاً واذعاناً لحكم القافية يجر ما حقه ان ينصب وجوباً بحكم الاعراب. ويشهد الله انا حاولنا ان نقرأ قصيدته بالسكون في رويها وفي العروض متسع ولكننا وجدنا المؤلف ذاته عمد الى قوافي القصيدة وضبطها بكسر الرويّ . ومن أغلاطه اللغوية قوله يشير الى ثورة الساقية وسائقه

يتلو على آذانه سورة من قسوة السيد على عبده

باسكان الياء في السيد ليستقيم له وزن البيت وهذا غلط شنيع لا يمكن قبوله الاّ في الازجال ومن افواه العوام ومن خطئه اللغوي ايضاً قوله :

وقد ود النخيل قامات غيد ساكرات من خمرة الطل ميد

فاستعمال ساكرات من الخمر غلط لغوي وساكرات بهذا الاشتقاق انما تستعمل بمعنى ساكنه لا غير فاستعمالها في سياق هذا البيت غلط واضح لاقل المتأملين

وقوله : فاذ الهوى يرخي ذوائبه كأنَّ العفاف لبابة في الطهر

فكلمة لبابة هنا لامعنى لها لغويّاً باي حال ولعله اراد نقاية فوهم . اما اغلاطه العروضية فمنها قوله

ورنا الدوم للشعاع كلهوف صبا الى نهره الفضي

والشطر الثاني من البيت مكسور لانهُ من الخفيف ووزنه معروف. وقوله من قصيدة بعنوان في المحراب

الطهر في لألائها والسحر في اضوائها والنور في صهبائها والنار في اعصابي

في هذا البيت قد زاد وزنه العروضي تفعيلتين لأنهُ من الكامل (وهو وزن باقي القصيدة) وهو متفاعلن ست مرات ولكنهُ في هذا البيت ثمانية. وهناك قصيدة بعنوان تبسمي لم اعرف لها وزناً مطلقاً ولعلي لم اعرف لها طعماً ايضاً وانا اتحدى انساناً ما ان يضبطها على ميزان عروض معروف او غير معروف. ومن اغلاطه في السياق المنطقي للافكار قوله يشير الى الريف

هنا خبايا النفس مطمورة غشى عليها الزمن الجائر

لو لابن سينا خطرة بينها ما قال نفس لغزها قاهر

فلم ادر من الذي قال ان الريف وحده هو موطن النفس المطمورة واي مانع يمنع من وجود الانفس المطمورة في الحضر كما هي في الريف واي قيمة اذن لكلام يصح ان يقال هنا كما يصح ان يقال هناك وادهى من البيت الاول قوله في البيت الثاني لو لابن سينا خطرة بينها الخ فلست افهم لماذا كان ابن سينا يمتنع عن قوله في النفس انها لغز قاهر لمجرد خطرته في الريف اكان لغز النفس الانسانية المعقدة يحل لابن سينا اذا رأى الانفس المطمورات في الريف؟ ما شاء الله على هذا التفكير وعلى هذا المنطق. أما سوء استعماله لوصايا علم البيان فالكتاب طافح بالاستعارات الغامضة وبوجوه الشبه المعيبة عند البيانيين فمن هذه الاستعارات الغامضة قوله يصف زهرة القطن

ذات كاس أترعت شمس الضحى ريقها من خمرة النور المشاع

فهذه الاستعارات الكثيرة في بيت واحد تحتاج الى (رمّال) ليكشف لنا ما فيها من غموض ومع كل ما ذكرنا من تلك الامثلة للتنبيه لا اكثر ولا اقل على انك برغم هذه الاغاليط ستقع في هذا الكتاب على ابيات تستحسن. فمن ذلك قوله في سنبلة تغني

من له في الارض ملك مثل ملكي في الكثيب

موردي النيل وزادي من ثرى النيل الخصيب

الخ هذه الاغنية التي يعجبني على الاخص قوله في آخرها

وتحطمتُ فأحيا الناس عيش من رفاتي

انا في غرسي وحصدي وحيـــاتي ومماتي

مثلٌ أعلى ورمزٌ خالص للتضحيات

ومن امثلة لباقته في التوليد قوله في قصيدة (النعش)

هذا الذي ضاقت الدنيا بمطمعه نصيبه كان منها عشر أشبار

فهذا النظم مُولَّد من قول بعضهم

فالشرق نحو الغرب اقرب شقة من بُعد تلك الخمسة الاشبار

وهذا البيت هو من قصيدة هي بعض محفوظات المدارس ومطلعها: حكم المنية في البرية جار

وجملة القول انهُ شاعر يحاول الاندماج في المدرسة الحديثة ومحاكاة اتجاهاتها الفكرية الحديثة

الاستغراب دون المام باللغة التي تتيح له ذلك وهذا مستغرب من شاعر يتلقى العلم في دار العلوم وهي معقل اللغة والادب الحصين . فأعراض الضعف التي نراها في أغاني الكوخ لا نلحظ لها أثراً في ديوان جودت فهو وان كانت ثروته اللفظية أقل من صاحبه الا أنهُ يعتاض عن ذلك ويعتصم بلغة أجنبية تقف به على أفكار مدرسته وتسهل عليه الاندماج فيها مباشرة ولهذا كان اكثر من زميله اندماجاً في موضوعاته واتجاهاً نحو الاستقلال . أما ديوان الشاطيء المجهول فهو متأثر بالقائلين أن الطلاقة الفنية لا تكفي وحدها في تكوين الشاعر فهي لا بدَّ لهـا في تكوينه وانضاجه من استخدام ألوان شتى من سائر الثقافات والعلوم والفنون وعندي ان هذا الرأي الاخير هو افضل المذاهب لتخريج الشعر الصحيح واظن ان هذا هو ايضاً مذهب الحياة

محمود ابو الوفا

قصص جغرافية للأطفال

تكون سعادة الأمة موفورة كاملة على قدر وفرة عناصر السعادة فيها وأهم تلك العناصر هي انتشار العلم الصحيح بها والثقافة التي تكفل لأبنائها التربية الحسنة ثم كمال الصحة وكثرة المال والنشاط والدأب في العمل ، هذه هي أهم وسائل السعادة ، واذا كان المال لا يحقق للأمة سعادة الأ بالعمل الذي لا يستقيم ولا ينتظم الأ بالعلم الصحيح والتربية الحسنة لجدير بكل امة ان تطرب سروراً وتغتبط انساً وحبوراً عندما يبرز فيها اديب كامل او عالم فاضل ينفعان الامة بعلمهما وادبهما. فما اجدرنا والحالة هذه ان نقدر الاستاذ كامل كيلاني حق قدره ونعرف له اياديه البيض ومآثره الغرّ على العلم والادب معاً فالاستاذ الكيلاني لم يقتصر في علمه وادبه على تهذيب الشبان والكهول بما نهلهم وعلهم به من تلكم الموارد العذبة الصافية التي درّتها عليهم سحب فكرته الوقادة (شرح ديوان ابن الرومي وابن زيدون ورسالة الغفران) . وناهيكم بتلكم الكتب دلالة على ما بذل من مجهود وتجشم من مصاعب

قلنا ان الاستاذ لم تقتصر مواهبه على اصلاح الفكرة الشابة والمكتهلة بل عني عناية لم يسبق اليها فوضع مدرسة للأطفال تسايرهم من ابان تكوين الفكرة الى حين نضوجها وانها لمدرسة فوق كونها متنقلة يحوزها الطفل في بيته ويتلقى دروسه فيها فوق سريره وحيث يرتاض وحيث يسرح فهي فوق ذلك شائقة طريفة لا يكاد طلابها يشعرون بملل او يحسون بنصب وما بالكم برجل يعرض دروس الجغرافية الطبيعية على اذهان الأطفال بصورة قصصية تنقشها في اذهانهم نقشاً أثبت وأروع مما ينقشهُ القلم على القرطاس . ولسنا بصدد استقصاء مآثر هذا الأديب فهي فوق وسعنا وانما نعني فقط ان نبرز لاعجابنا به صورة تتفق ومجهوداته النادرة الغريبة التي برهنت على ان الرجل قد ضحى بصحته ووقته في سبيل خدمة المصريين خاصة والامم الشرقية عامة

علي طاهر

استدراك ـ وقع خطأ في الصفحة ٣٤٤ (بالحدائيين) والصواب بالحدائين . عبد الرحيم بن محمود

في صفوف الوطنيين وكان ذلك سبيلي الى حزب الملكيين . فقد نطق هيريو بالحق بقوله اني خصمٌ لا عدوّ . هو أزرق وأنا أبيض ، وهذا كل ما في الامر

«... وفي اول يناير ١٩٣٠ وقد صدر العفو — سريحة الملك الذين اختطفوني واخفوني ثم هرّبوني ،حضروا الى بروكسل لتسلم طريدهم «ليون»، وفي طليعتهم زعماء الحزب...فتوجهنا الى باريس في صباح الغد . كان قلبي يقمز في صدري فأقول لهُ : رويدك يا هذا ، فالناس ينظرون الينا والمصورون حاضرون ... وجاء الاصدقاء إلى محطة بروكسل يشيعونني بصورةٍ مؤثرة ... وفي محطة أخرى مشيعون غيرهم يحملون طاقات الازهار وينشدون اناشيد النصر . فأزجر دموعي قدر المستطاع . وجاءني موظف يخبرني في تأدّب بأن دومرج يخوّلني حق الدخول في وطني ان لم يكن حق مشاركته في طعامه ... ثم كان الوصول الابيكي الى محطة الشمال بباريس وزوجتي المحبوبة تتكىء على ذراعي ...... فكأني هبطتُ منطقة الأنواء في البحار بين عشرات الالوف من الملكيين والمواطنين وكانوا ينبحون نباحاً ، فتخيلتُ نفسي فلّينة تتقاذفها رؤوس الامواج ... وبعد دقائق قليلة رأيت في مدفن «پير لاشيز» بعد كلّ تلك الشهور قبر فيليب مزداناً بالأزهار فكان لي أن أصلي قرب ولدي ...»

لغة دوديه تستحيل ترجمتها ولا يتيسر فهمها كلها الاّ للمتشبع من روح الأدب الفرنسي والشعب الفرنسي . لان تعبيراته بديهية غير منتقاة . ومع جمال انشائهِ وضلاعتهِ ، فهو لا يتورّع عن استعمال الالفاظ الزقاقية وتعبيرات غلمان باريس ، ويكتب كثيراً من الكلمات مقلداً لفظ قائليها، وفي هذا ما فيه لاثارة الضحك . على ان هذا الانشاء بجملته من الحياة والحركة والتشويق ونشاط الذهن ووفرة المعلومات بحيث يسيطر عليك من جميع النواحي . ويحفز فيك شتى القوى النفسية من غضب وانفعال واستياء ورغبة في المقاومة — أو من حنين ولذة واعجاب ورغبة في الاستفادة . وهو في كل ما يكتب يرسم من شخصيته خطوطاً واضحة بألوان زاهية مشبعة و— مهاجمة عنيفة...

كذلك هو في ما لا يحصى من مقالاته في الصحف والمجلات وفي كتبهِ السبعين أو تزيد : عشرون منها روايات ، والباقي أبحاث في النقد والأدب والاجتماع والتاريخ والفن ووصف رحلات وأسفار ودرس أخلاق الشعوب وعاداتها وتحليل ميولها ، وأبحاث علمية ولغوية وطبية . فهو في الواقع يجمع بين الضلاعة العلمية والقدرة الخيالية . وذكرياته من أشهى وألذ ما يقرأ ، رغماً عن — او ربما بسبب طريقته في النقد والمهاجمة واللذع والهجو . وبعد فما أصفى مجالي الصفاء في بيانه !

ومع تدينه فهو مغرم بأحاديث الغرام ويتلذذ بمرأى العشاق متناثرين في امساء الربيع بين متنزهات بروكسل وميادينها « حيث لا ترى الاّ العناق ولا تسمع سوى الهمس والزفرات . لا تغضب ايها

الرقيب القاسي ! إذا أنت أردت كثرة المواليد وجب التسليم بما يمهد لها ، والطبيعة تحسن صنع ما تصنع . في بروكسل كما في باريس ومرسيليا يتبادل العاشقون القبل علناً في الطريق ، وليس من يجد في ذلك ما يقال ... » .

وكما يفاخر بذكرى والده يفاخر بذكرى والدته (وهي اديبة ايضاً) وبنوه بتأثيرها في مواهب والده ومواهبه . ويذكر فضل زوجته في مثل ذلك ومبلغ تأثيرها في حياته وما أنالته من السلوى والهناء . ويمكن إدماجه بين كبار أنصار المرأة وان ضحك من فكرة « المساواة السياسية » وأبى للمرأة الترجل والتخشن في الاعمال الشاقة خارج البيت وفي غير الدوائر المتناسبة وأنوثتها . الا انهُ يطالب بجميع حقوقها الادبية والاجتماعية لان حياة المرأة في الحب وسحرها في الحب « والحب يرد المرأة الى جوهرها » . . . « الرجل هو العراك والمجازفة وانتزاع الغنيمة وهو احياناً التوازن الفظ . والمرأة هي اللذاذة والعذوبة وانسياب القطة وهي احياناً الحكمة والصفاء . . عندما يصدر الرجل حكمه ، المرأة تتوسط وتتوسل . . . اللانهاية التي نبحث عنها في الله تمثلها المرأة على الارض . . . هي مدًى لا حدود لها . . . هي قابلية رحيبة للحياة . . . ونحن الرجال نقيدها ونحدها . . . »(١)

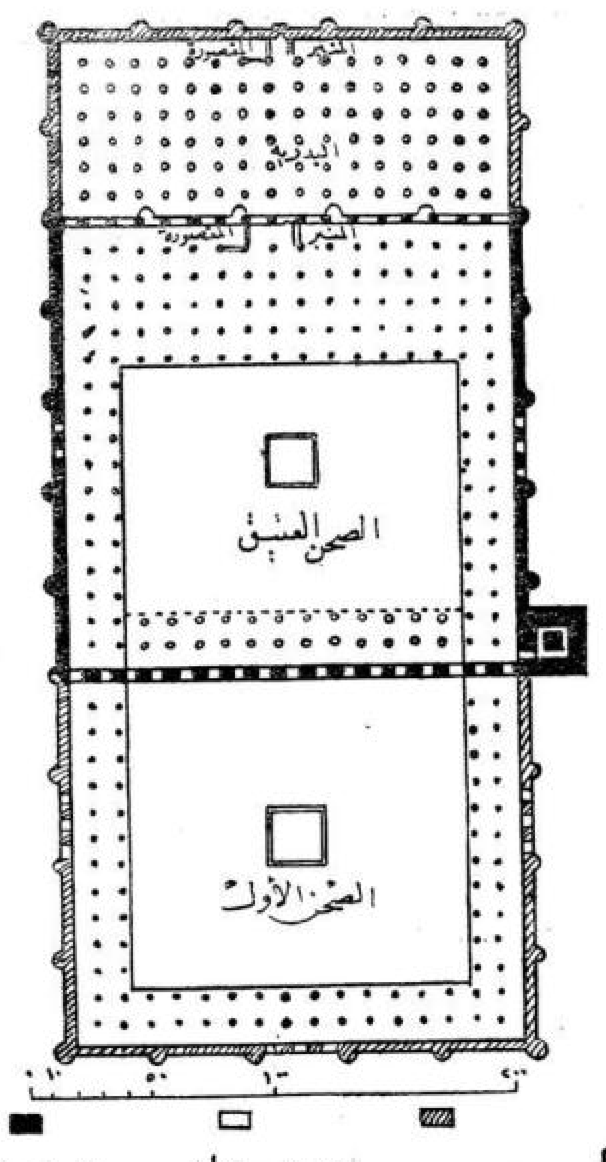
***

منذا الذي يبتُّ في الحكم على مزاعم المنجمين ؟

في حسابات المنجمين ان المريخيين اي الخاضعين لتأثير المريخ ، يكونون عادة بدنيين اقوياء شرهين شغوفين بالهيكل النسائي . وهم اهل عنف وشراسة مغرمون بالمهاجة والتعدي وان كانوا على مقدرة عظيمة للانصاف . هم سريعو الغضب سريعو التأثر ، وان استطاعوا احياناً التغلب على النفس بقوة . هم قساة وأريحيون في آن واحد . شجعان في الحرب وفي كل مغامرة واقتحام ، متطرفون في الصراحة وفي العناد ، لا يبالون بالمال ولا بالفخار في المعنى المألوف لأنهم يأخذون بالمثل العليا ويستنهضون الآخرين للاخذ بها . يحبون اللذة حبهم للتقدم . لهم ثقة بنفوسهم وتعنت لآرائهم ويتزعمون كل حركة يشتركون فيها او يكونون على الاقل بين النابهين . موهوبون بسلطان الادراك والقلم والبيان ومنهم كبار رجال العلم والجراحة والطب . لا تندر الفواجع في حياتهم ، وقد تنجم بعض مصائبهم عن تهيجهم وتهورهم واستهجانهم للملاينة والمداورة ... في كل مجهول هم الروّاد المغامرون ...

انظر الى صورة ليون دوديه ، واقرأ ولو في هذا البحث فقط نتفاً من كتاباته ، ثم قل لنفسك رأيك هلاَّ توافقت شخصية دوديه وشخصية المريخي كما زعمها المنجمون ؟

(١) La Femme et l'Amour



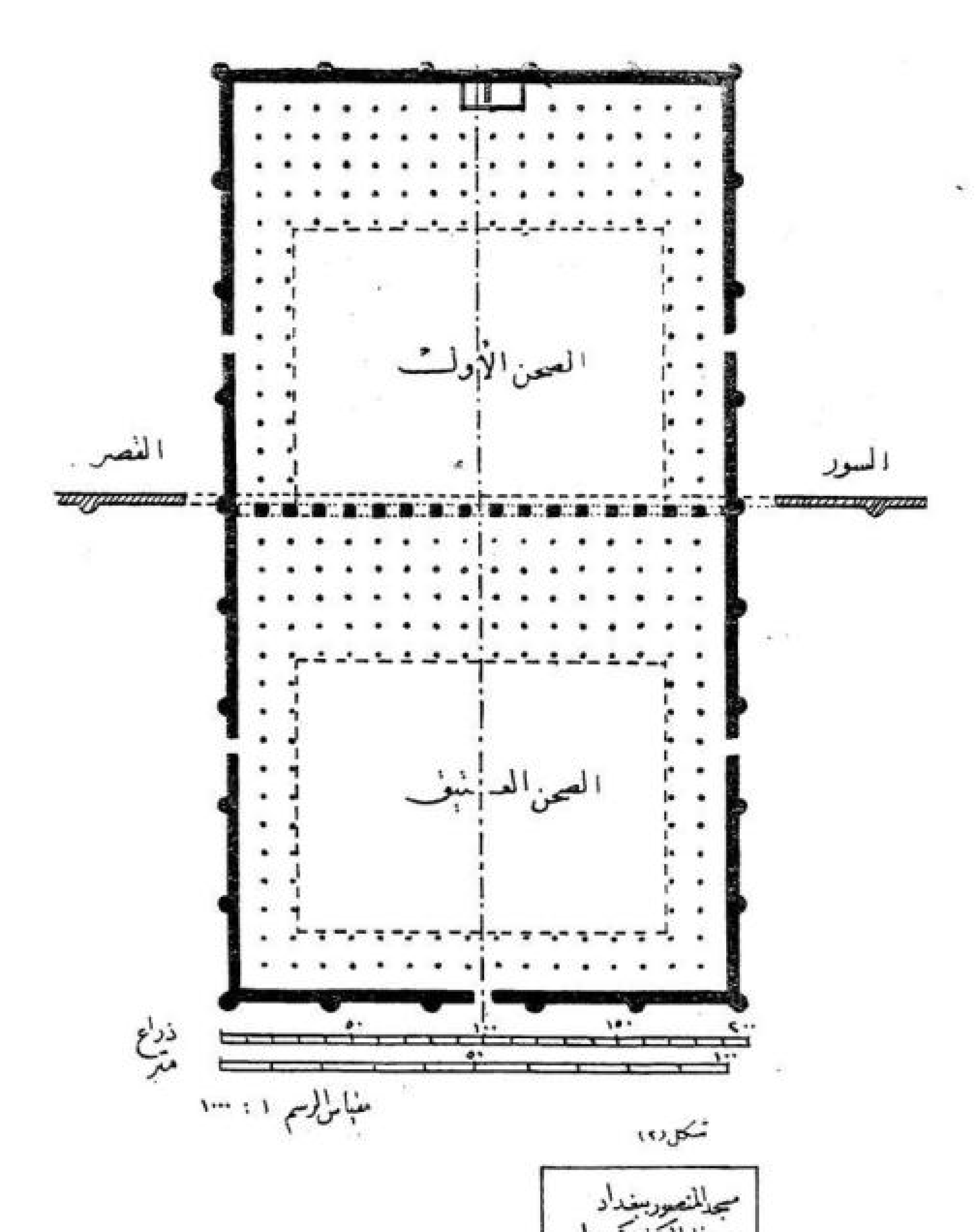
شكل (١)

مسجد المنصور ببغداد
برسم هرتسفلد

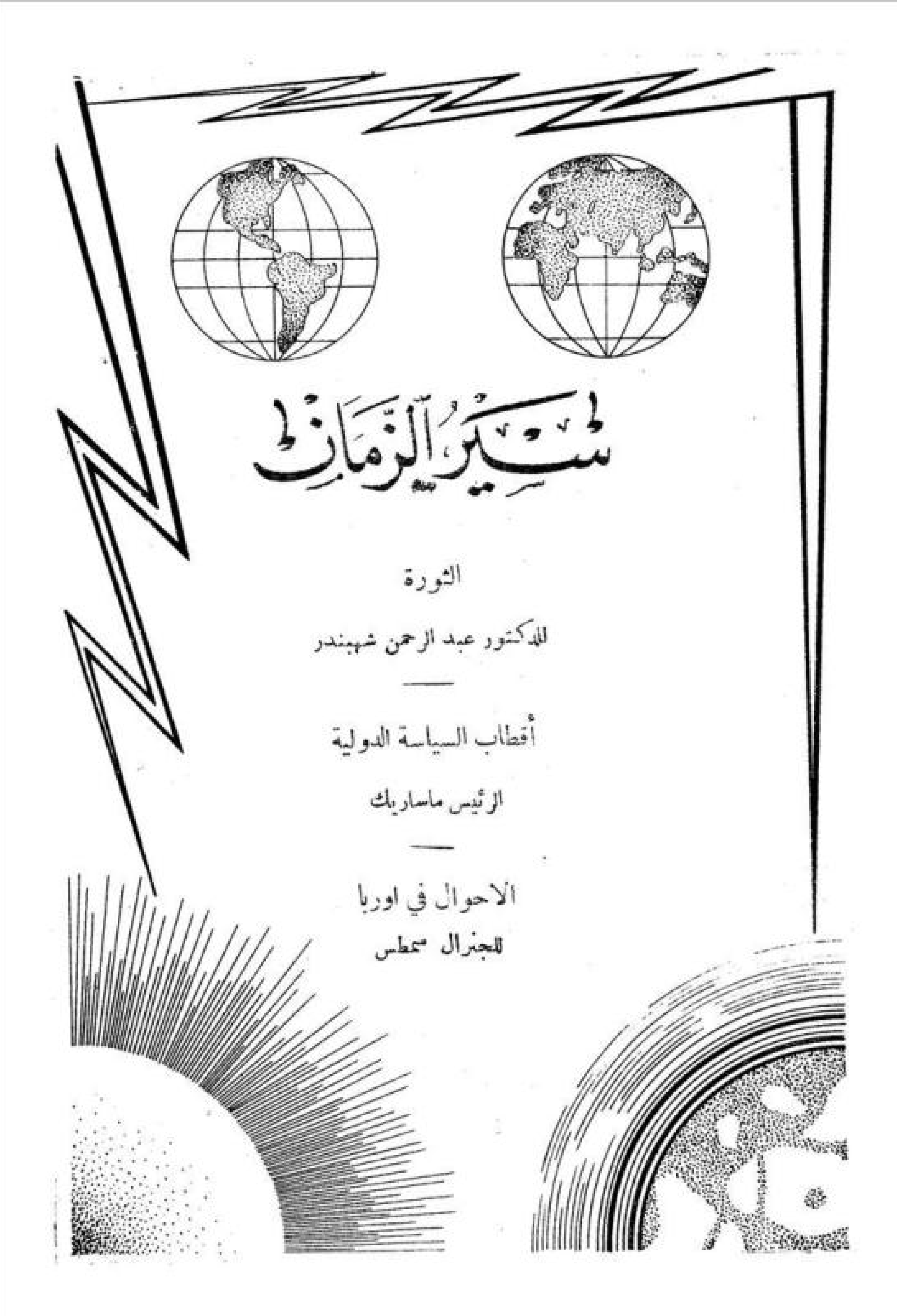
العهد الثالث
المعتضد وبعد ٢٨٢ هـ

من بناء العهد الأول
وأزيل في العهد الثالث

العهدان الأول والثاني
المنصور ١٤٩ وهرون الرشيد ١٩٢ هـ



مسجد المنصور ببغداد
رسم جناب الكبتن كرسول


سير الزمان
الثورة
للدكتور عبد الرحمن شهبندر
أقطاب السياسة الدولية
الرئيس ماساريك
الاحوال في اوربا
للجنرال سمطس



ليون دوديه الكاتب الفرنسي المشهور

Leon Daudet

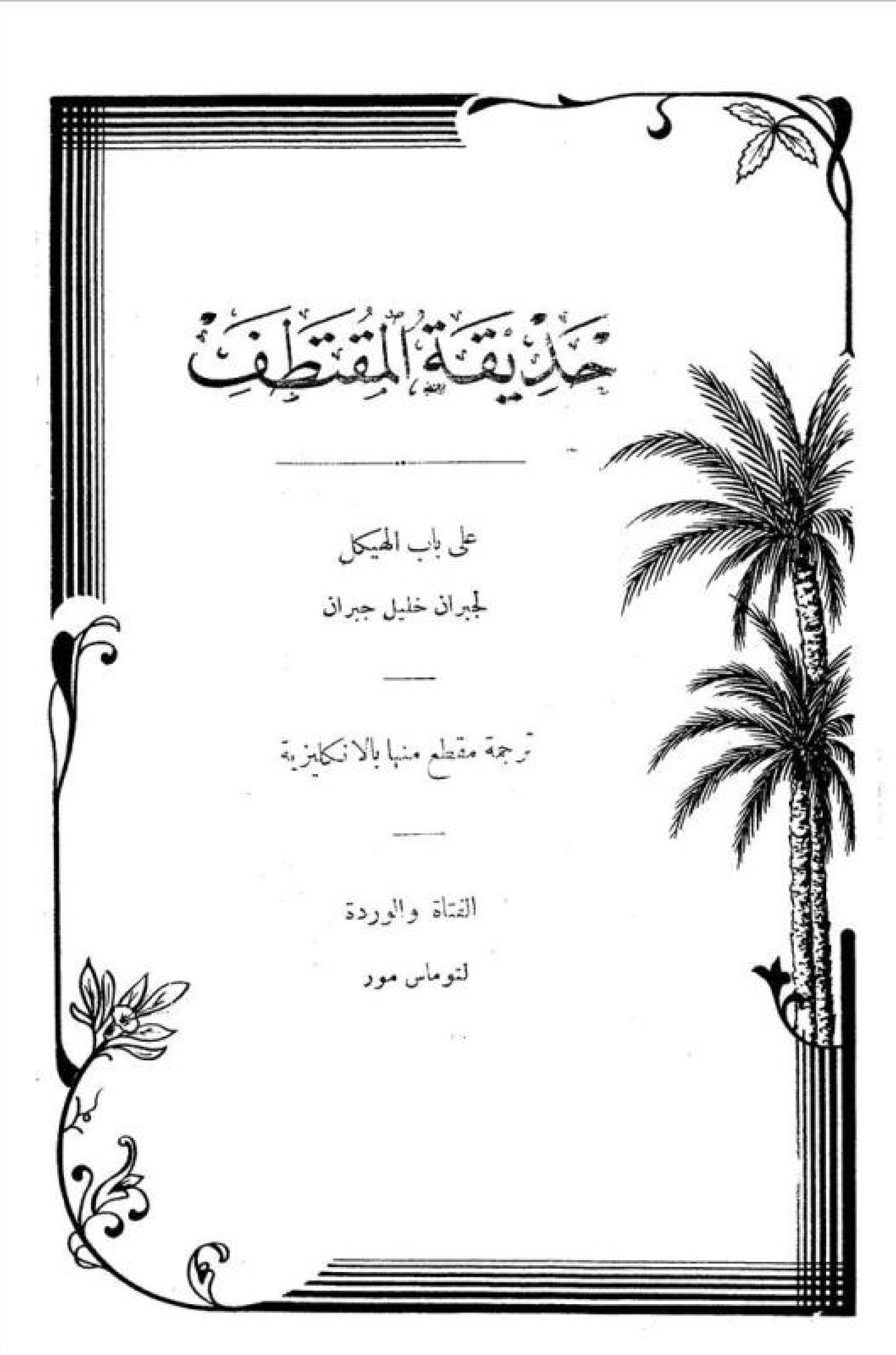
(انظر مقالة الآنسة مي صفحة ٢٧١)


مملكة المرأة
المعادن في اللبن
المرأة الفرنسية وحق الانتخاب
الحب والمغازلة في روسيا السوفيتية
مقومات الجمال
زيت كبد الحوت وفعله
للدكتور عبده رزق
سلامة الاطفال



رأس فتاة

صورة قديمة للمصور الهولندي جان فرمير — كشفت حديثاً



حديقة المقتطف

على باب الهيكل

لجبران خليل جبران

ترجمة مقطع منها بالانكليزية

الفتاة والوردة

لتوماس مور

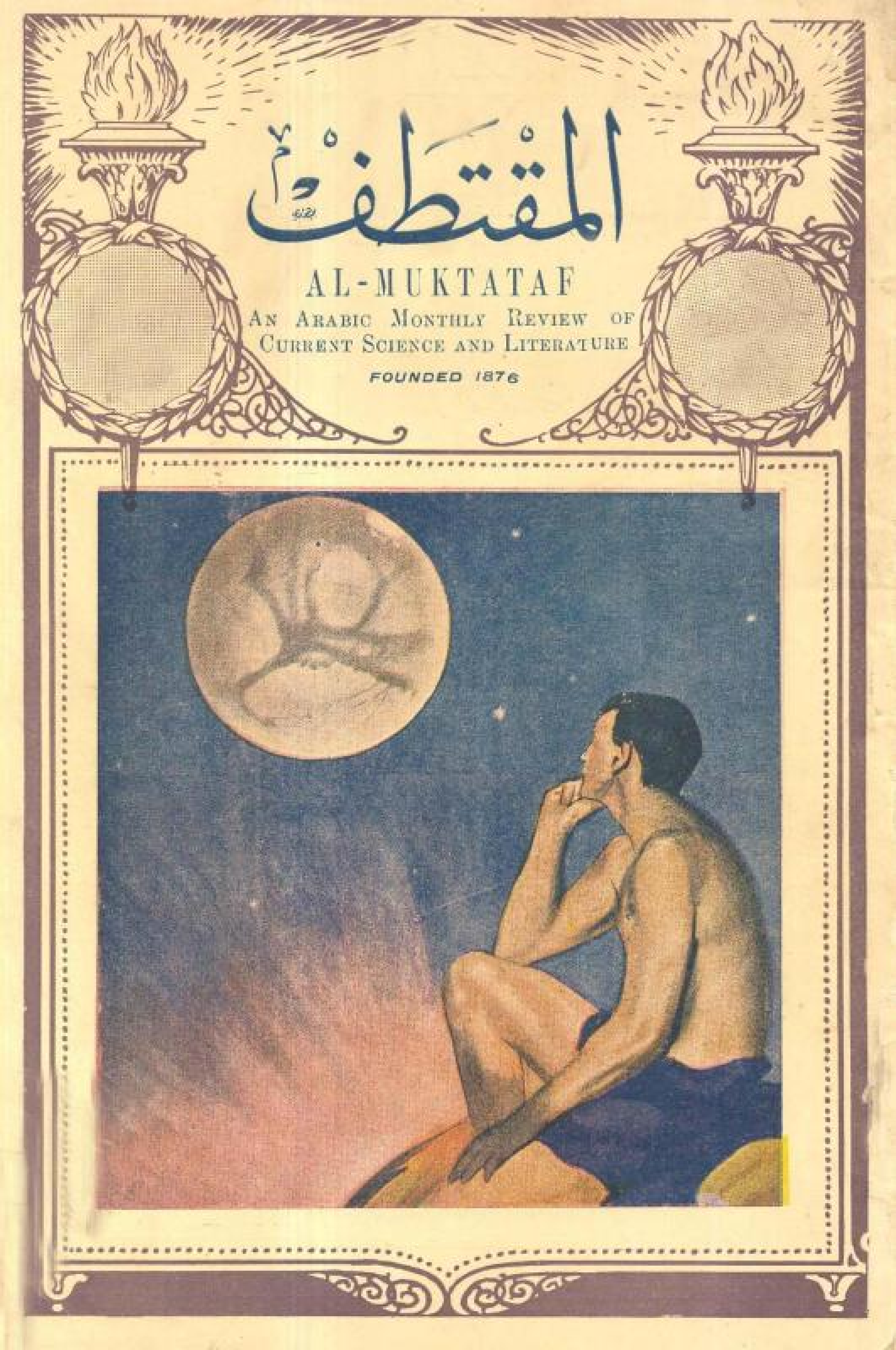


ولز الكاتب الإنكليزي المشهور

H. G. Wells

(أنظر مقالة عنه صفحة ٣٢٠)

فهرس الجزء الثالث من المجلد السادس والثمانين



المقتطف
AL-MUKTATAF
AN ARABIC MONTHLY REVIEW OF
CURRENT SCIENCE AND LITERATURE
FOUNDED 1876

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الرابع من المجلد السادس والثمانين

١ ابريل سنة ١٩٣٥ — ٢٧ ذو الحجة سنة ١٣٥٣

النفوذ الى سر الحياة

صلة مظاهر الحياة المختلفة بضروب الاشعاع

بين الخلية والكوكب

علم الحياة علمٌ واسع النطاق متشعّب الفروع ، يتصل من ناحية بالفلسفة ، ومن الناحية الأخرى بعلوم الطبيعة والكيمياء . فالجنرال سمطس السياسي والفيلسوف يذهب الى ان الحياة ليست وحدة مستقلة بل نظام معيّن . والانسان في نظر احد الفلكيين ليس الاّ مركّباً من مركّبات الايدروجين [١] في حالته الغروية وقد اضيفت اليهِ اخلاط اخرى . اما الكيماويون فيحاولون ان يحلّلوا المادة الحية الى العناصر التي تتألف منها ، فيقيسون المقادير اليسيرة من المعادن التي تدخل في تركيب جسم من الاجسام ، وغرضهم ان يضعوا للجسم الحيّ تعريفاً كيمائيًّا كما يكتب كبار الطهاة وصفة لكعكة معينة او لضرب من الحلوى ، ثم يعلنون ان المواد الكيمائية في جسم الانسان لا يزيد ثمنها على ١٨ قرشاً صاغاً !

ولو ان الكيمائيين يستطيعون ان يركبوا من هذه المقادير المختلفة جسماً حيًّا ، لكانت الاجسام الحية ارخص من بعض اصناف الكعك والحلوى !

هنا مكمن السرّ ! اننا نعلم بوجه عام مما تتألف الاجسام الحية . ولكننا نجهل الوصفة ، التي ركّبت بمقتضاها هذه الاجسام . ولا بدَّ ان تبقى بعض الظواهر الغريبة في حياة الانسان كالبله والسرطان خفيةً مستسرَّةً ، حتى يتاح لنا الكشف عن هذه الوصفة

---

(١) اسم هذا المركب العلمي اوكسينيترو كاربيد النتروجين oxynitrocarbide of hydrogen

فالجبلة (بروتوبلاسمة) اقرب مظاهر الطبيعة الينا وابعدها عنا . فهي قريبة الينا ، لان اجسامنا مبنية منها . وهي بعيدة عنا ، لاننا اذا حاولنا الكشف عن اسرارها والتغلغل في فهم خفاياها ، وجدناها انأى من النجوم . فثمّة نجوم لا نراها ولو استعملنا نظارة مرصد جبل ولسن العظيمة . ولكن المطياف وما يتصل بهِ من الواح التصوير الشمسي ، يكشف لنا عما يتصل بها من الحقائق فنستطيع ان نعرف شيئاً غير يسير عن حالة باطنها . بل ان الفلكي ادرى بالنجم ، في بعض النواحي الاساسية ، من البيولوجيّ ببناء الخلية

نعم ان تسعين في المائة من مادة الكون مفرغ في اجسام النجوم والسُدُم . والنجوم والسدم على عظمتها ، مركبة من مادة في حالة توهج شديد يستطاع تفسيرها وتصوّرها وفقاً لمبادىء الطبيعة والكيمياء . ولكن الخلية الحية على صغرها ، مركّبٌ معقّد من السوائل والغازات والاشكال الغروية ، وهي على برودتها اذا قيست بدرجات الحرارة العادية لا بحرارة الشموس ، مقرٌّ لتفاعل ذريّ وجزيئي خفيّ تنشأ منهُ شعلة الحياة

إن الحيّ ، في ما نعلمهُ عن الحياة ، لا ينشأُ الاّ من الحيّ . ولكنّ الاحياء تعتمد كلّ الاعتماد على ما يحيط بها من الاشياء غير الحية . بل ان تغييراً تحدثه في بيئة الحيّ ، الطبيعية والكيمائية ، قد يفضي الى نشاط الحياة وتكاثرها ، او قد يفضي الى انحطاطها وانقراضها

خذ مثلاً على ذلك العلامة كارِلّ Alexis Carel فانهُ كسر في سنة ١٩١٢ بيضة دجاجة توشك ان تنشقّ ليخرج منها صوصٌ ، واستخرج من جنين الصوص ، تلك القطعة النابضة فيهِ — قلبهُ — ووضعها في انبوب فيهِ محلول معيّن . في هذا الانبوب ، وجد قلب الصوص بيئة مثلى للحياة . فهو مصون فيها ، من فعل الجراثيم والسموم ، وتأثير البرد والحرّ ، ومجهّز بمصدر لا ينفد من المواد اللازمة للحياة ، مثل الاكسجين والسكّر وغيرهما . وقد انقضى على هذا القلب ثلاث وعشرون سنة ، وهو حيّ وافر الحياة ، لا تبدو عليهِ اية إمارة من إمارات الهرم والشيخوخة . بل ان جميع الدلائل تدلُّ على انهُ يستطيع ان يعيش ، اذا ظلّت بيئتهُ الطبيعية كما هي ، مائة سنة او على قول الكاتب العلمي جورج غراي ، « حتى تبرد الشمس »

ان في تجربة الدكتور كارِلّ هذه ، دليلاً ناهضاً على ان الاحياء تعتمد على غير الاحياء كل الاعتماد ، وهي حقيقة ليست بالجديدة ، ولا بالمبتكرة ، ولكن اقرارها على هذا الوجه ، يتصل باصول البحث عن سرّ الحياة ، لانهُ متى حلّ الكيماوي الاجسام الحية الى عناصرها الاولى ، ووجد انها لا تحتوي على شيءٍ جديد ، لم يعهدهُ قبلاً في الصخور والنجوم ، يخطر ببال الباحث والقارىء ، السؤال الآتي وهو : متى او في اي دور من ادوار تطورها تتحول المادة الجامدة الى مادة حية ؟

ولا يخفى ان خارج الخلية مركبات مؤلفة من الكربون والايدروجين والنتروجين والاكسجين ، وجميعها عناصر لا حياة فيها ، تتألف منها الارض وما عليها والبحار وما فيها . هذه المواد تتخلل

اغشية الخلايا وتتحوَّل فيها الى غذاءٍ . ثم تتركب هذه الاغذية في جسم الخلية تركيباً جديداً فتنتقل من طبقة المواد الجامدة الى طبقة المواد الحية كخضوب النباتات Chlorophyll وحمور الدم Haemoglobin وكذلك تسير الحياة في طريقها تصنع الحيَّ من غير الحيّ محوّلة مادة النجوم الى مادة الخلايا ، متحركةً بقوة خفية هي القنطرة بين الجمود والحياة

فالبحث عن هذه القنطرة ، قد اصبح في العصر الحديث ، كما كان في العصور السابقة ، غرضاً تحدى اليهِ الركائب وهدفاً تتقطع دونهُ الاعناق

عجيبة التركيب الضوئي

ليس بين وسائل العلم الطبيعي الحديث ونظرياتهِ المبتكرة ، ما هو أجدى في نظر الباحثين عن سرّ الحياة ، من نظرية المقدار (الكونتم) في الطاقة ، والوسائل المستحدثة لتوليد ضروب الاشعاع وقياسها

فالضوء الذي كان سبيل الفلكي الى بواطن النجوم ، وسبيل الطبيعي الى قلب الذرَّة ، أصبح أدق وسيلة يعرفها الفسيولوجي لفهم التركيب الدقيق في الخلية الحية . بل أن الضوء في مقدمة الموضوعات التي يتناولها البحث الحيوي كذلك

ذلك ان الضوء هو المحرّك الاكبر في الطبيعة . وقد اقترح الاستاذ دُنَن أحد علماء الكيمياء في جامعة لندن من بضع سنوات تحديد يوم معين كلَّ سنة ، لعطلة رسمية عامة ، يخرج فيهِ سكان المدن الى الحقول والمراعي الخضر ، عند ما تهبُّ نسمات الربيع الاولى ، لتقديم فروض الشكر الى الشمس على ما تهبنا اياه من نعمة الضوء ، وهو ما نفعلهُ في مصر يوم شم النسيم . فالانسان ينفق الطاقة ، ومعظم الطاقة التي ينفقها مستمدٌ اصلاً من طاقة الشمس ، ولكنهُ يتناولها من خلية نباتية خاصة لها القدرة على التقاط طاقة الشمس وخزنها وهو ما يعرف بالتركيب الضوئي Photosynthesis

وموضع الخطر في فعل الخلية النباتية هو انها تصدُّ تيار الطاقة المنحدر . فالانسان — وسائر الحيوانات — عاجز عن ذلك . وقد اثبت العلم لنا ان تيار الطاقة ابداً سائر في سبيل الانحطاط . تخرج الطاقة من بواطن الشموس قوية الفعل قصيرة الأمواج ، ثم تنحدر رويداً رويداً في خلال اختراقها رحاب الكون ، تضعف قوة وتطول امواجاً ، ولكن النبات الاخضر يقف في سبيل هذا الانحدار سدّاً منيعاً . فليس من الغريب أن يرى بعض علماء الحياة ، ان دراسة التركيب الضوئي ، يجب ان تكون الخطوة الاولى في البحث عن سرّ الحياة . وليس من العجيب ان يكون ثلاثة من حائزي جوائز نوبل العلمية ، ممن عني بهذه الناحية من البحث وهم رتشارد فلستاتر Wilstatter واوتو فربورغ Warburg وهانس فشر Fischer

فالخضوب — أي المادة الخضراء في النبات Chlorophyll — هو الهدف الذي تتجه اليهِ جهود

الباحثين في عشرات من معامل البحث البيولوجي في مختلف انحاء العالم ، وجميع بحوثهم تستند الى التجارب الدقيقة التي قام بها فلستاتر من نحو ثلاثين سنة في جامعة زوريخ . فقد اثبت حينئذٍ ان كريات الخضوب في الاوراق الخضر تحتوي على مقادير معينة من الصبغ الاصفر ، علاوة على صبغها الاخضر . واثبت كذلك ان الخضوب خضوبان ، يحتوي كلٌّ منهما على عناصر الايدروجين والنتروجين والاكسجين والمغنيزيوم ، ولكن ترتيب ذراتها في الخضوب الواحد يختلف عنهُ في الخضوب الآخر . وقد تتبع الخضوبين الى أصلهما الكيمائي ، فوجد انهُ مادة شبيهة بمادة الدم الحمراء المعروفة باسم هيموغلوبين . وكذلك توصّل هذا العالم ، في خلال بحثهِ عن استعمال النبات لضوء الشمس ، الى تبيُّن صلةٍ بين النبات والحيوان . فالهيموغلوبين في الدم ينقل الاكسجين في ثنايا الجسم الحي . أما الخضوب فيستخرج الاكسجين من ثاني اكسيد الكربون. فعمل الواحد يختلف عن عمل الآخر . ولكن أصلهما واحد . وكذلك تبينّا شاهداً على وحدة الطبيعة حيث لم يطلب العلم شاهداً من هذا القبيل

***

والمسألة الاساسية في كلّ هذا ، هي أن نفهم كيف يستطيع الصبغ الاخضر في اوراق النبات ، ان يجمع بين الماء وثاني اكسيد الكربون ، فيبني منهما مادة تنطوي على طاقة كامنة كالسكر — وهو التركيب الضوئي Photosynthesis . ومهما تكن الطريق فاننا نعلم نتيجة التركيب وعبارتها الكيماوية كما يلي : ثاني اكسيد الكربون + ماء + طاقة الشمس = سكر + اكسجين

كذلك يبنى السكر في اوراق النبات ، ويعاد جانبٌ من اكسجين ثاني اكسيد الكربون والماء الى الهواء . أما السكر فيخزن في النبات ، ومنهُ تبنى المواد النشوية والادهان والمواد الزلالية . فهو غذاء الحياة الاساسي . وهو يحترق باتحاده بالاكسجين فتخرج منهُ المواد التي دخلت في تركيبهِ ، أي الماء وثاني اكسيد الكربون والطاقة

وكلُّ حيّ يستعمل السكر ، يحولهُ في جسمهِ بالاحتراق ، الى طاقة وماء وثاني اكسيد الكربون. ولكن ليس في الطبيعة على ما نعلم الاَّ الخضوب ، يستطيع ان يفعل الفعل المقابل ، اي يستطيع ان يبني من هذه العناصر الثلاثة مادة السكر المنطوية على طاقة كامنة

وقد عني الاستاذ اوتوفربورغ ـ احد علماء المعمل البيولوجي في معهد القيصر فلهلم ببرلين ـ باستنبات بعض الفطائر البحرية الخضر ، في ضوء ضعيف . فتولد في الفطائر كريات قاتمة اللون كثيرة الخضوب يسهل عليها تركيب السكر . ثم ثبت له بالتجربة انهُ اذا زادت قوة الضوء نقصت مقدرة الخضوب على توليد السكر . اي ان توليد السكر ينقص بزيادة قوة الضوء . فكانت هذه الحقيقة اشبه ما يكون بالمفارقة . وظلت كذلك الى ان اخرج فربورغ نظريته التي بيّن فيها ما يحدث داخل الخلية لجزيئات الخضوب — بحسب رأيهِ — تمتصُّ الضوء . ولكن هذا الامتصاص لا يتمُّ الاَّ في جانب

يسير من الثانية . بل ثبت ان هذا الامتصاص في بعض التفاعلات لا يتعدى جزءاً من مليون جزء من الثانية . واذن فاستعمال تلك الطاقة — كائناً ما كان — يجب ان يتم في ذلك الجزء اليسير من الوقت. والمفروض انهُ يمكن استعمال الطاقة في هذا الجزء اليسير من الثانية ، اذا كانت حبة الخضوب متصلة حينئذٍ بثاني اكسيد الكربون. فتوليد السكر عند بدء هذا الاتصال يكون كاملاً . فاذا زادت قوة الضوء اسرعت فعل التركيب . فيزداد بناء السكر . ولكن لا يلبث ان يصبح بناء السكر أسرع مما تستطيع الخلية ان تتصرف فيهِ . عندئذٍ يفصل السكرُ المحشود ، بين ثاني اكسيد الكربون وحبة الخضوب . على ان اتصال هذا الغاز بالخضوب لا ندحة عنهُ حتى يتم بناء السكر، لذلك يبطىء بناء السكر بعيد الزيادة في قوة الضوء

وقد عمد فربورغ في اخراج هذه النظرية الى نظرية « المقدار » فطبقها على فعل التركيب الضوئي . فالضوء بحسب هذه النظرية ليس تياراً متصلاً من الطاقة، بل هو اشبه ما يكون بتيار من الماء منقذف من فتحة انبوب ، مؤلف من دقائق او قطيرات صغيرة متوالية . او هو اشبه بتيار من الرصاص المنقذف من فوهة مدفع رشاش . فالطاقة التي تلطم جزيء الخضوب ، تكون في مقادير صغيرة . فينشأ عن تصادم مقدار من الطاقة بجزيءٍ من الخضوب ، ان يحلّ مقدار الطاقة محلّ كهرب من كهارب الجزيء . فاذا عاد الكهرب الى مكانه ، بعد ان يزول فعل الاصطدام ، ينطلقُ مقدار الطاقة ثانية فيستعمله الخضوب ، في بناء السكر ، لأن بناء السكر يقتضي، كما بينا في العبارة الكيمائية ، وجود الماء وثاني اكسيد الكربون والطاقة اللازمة والخضوب ، والخضوب هو العامل الاساسي في التركيب الضوئي

ولكن مقادير الطاقة تختلف . فمقادير الضوء الازرق اقوى فعلاً من مقادير الضوء الاحمر . ومع ذلك يظهر ان الخضوب يفضل مقادير الضوء الاحمر على مقادير الضوء الازرق في صنع السكر . بل انهُ يستعمل مقادير الضوء الاحمر في الغالب لهذا الغرض

فكيف يعلل فربورغ هذا ؟ عمد الى احصائيات تجاربهِ : فوجد ان فعل التركيب الضوئي يحتاج الى خمسة مقادير من الضوء الازرق لاستخراج الاكسجين من جزيء ثاني اكسيد الكربون. ولكنهُ يكتفي بأربعة مقادير من الضوء الاحمر لانجاز الفعل نفسهِ . وقد قام عالم الماني آخر اسمهُ شمكه Schmucke بتجارب من هذا القبيل معتمداً اساليب غير اساليب فربورغ فوصل الى النتيجة نفسها . والظاهر ان الصبغ الاصفر في الخضوب — وحجمهُ في حبات الخضوب خُمْس حجم الصبغ الاخضر — يمتصُّ الضوء الازرق بسهولة . ولكن مقادير الضوء الازرق التي يمتصها لا شأن لها في بناء السكر فهي طاقة ضائعة من هذا القبيل . وهذا يفسر لنا السرّ الذي سبق ذكره . وهو ان مقادير الضوء الازرق وان كانت أنشط فعلاً من مقادير الضوء الاحمر ، اضعف أثراً في تركيب السكر في اوراق النبات

ولكن ما هي وحدة التركيب الضوئي ؟ اهي جزيء واحد من الخضوب او عدة جزيئات ؟
هذه المسألة موضوع بحث دقيق قام به عالمان اميركيان — احدهما روبرت امرسن في معهد كاليفورنيا التكنولوجي والثاني وليم ارنولد في جامعة هارفرد — فأثبتا ان نزع الاكسجين من جزيء واحد من ثاني اكسيد الكربون يقتضي وجود ٢٤٨٠ جزيئاً من الخضوب . وهذا لا يعني ان ٢٤٨٠ جزيئاً من الخضوب يجب ان تتألب حتى تنتزع الاكسجين من جزيء واحد من ثاني اكسيد الكربون ، لان جزيء الخضوب كبير مؤلف من ١٤٦ ذرة وجزيء ثاني اكسيد الكربون صغير مؤلف من ثلاث ذرات فقط . ولكنهُ يعني ، انهُ كلما اتصل جزيء الخضوب بجزيء ثاني اكسيد الكربون لنزع اكسجينهِ منهُ ، كان ٢٤٧٩ جزيئاً من الخضوب قاعدة عن العمل

وقد تكون وحدة التركيب الضوئي جزيئاً كبيراً . فقد بين هارولد مستر احد علماء معمل جالك لوب ان الخضوب الحي في خلية النبات يختلف كل الاختلاف عن الخضوب الذي نستخرجه ونحله بأساليبنا ووسائلنا الكيمائية . فالبحث الطيفي في الخضوبين يدل على انهما مختلفان ، والخضوب خارج النبات لا يستطيع ان يبني السكر . ولكن التركيب الضوئي في النبات ، يمكن اسراعه بوسائل صناعية . وقد استنبط امرسن وارنولد لذلك طريقة تمكنهما من حمل النبات على صنع خمس دقائق من السكر حيث كانت تصنع دقيقة واحدة من قبل

والظاهر ان التركيب الضوئي ، ليس فعلاً واحداً ، بل هو فعل دوري . ففي دوره الاول تتأثر جزيئات الخضوب بالضوء في جزء من الف جزء من الثانية . والدور الثاني دور التركيب الكيمائي وهذا يمكن ان يتم في الظلام ويستغرق من الوقت اربعة آلاف ضعف ما يستغرقه الفعل الاول

الاشعة وموت الخلايا

بيد ان عالم الاشعاع لا يقتصر على ضروب الاشعة التي تراها العين . بل ان الاشعة التي نراها ضعيفة الطاقة اذا قوبلت بالاشعة التي تملأ رحاب الفضاء وتعجز العين المجرَّدة عن تبيّنها مثل الاشعة التي فوق البنفسجي والاشعة السينية واشعة غما والاشعة الكونية . ثم ان الهواء حافل بدقائق صغيرة مكهربة تنطلق بسرعات عظيمة تقرب في بعض الاحيان من سرعة الضوء نفسها مثل دقائق الفا ودقائق بيتا (الكهارب) والايونات المختلفة

في هذه البيئة المضطربة ، من الانطلاق والاصطدام والتفتت والتألف ، نشأت الجبلة (Protoplasm) ونشرت نسيج الحياة فوق سطح الارض . فهل فعلت ذلك رغماً عن اصطدامها بضروب الاشعاع والدقائق المكهربة المختلفة ، او انها استمدت منها عوناً على بلوغ ما بلغت ؟ او ماذا يقع عندما تصطدم احدى هذه الدقائق بخلية من الخلايا الحية ؟

مضى على العلماء ثلاثون سنة وهم يعلمون ان اشعة الراديوم واشعة اكس تفتك بالأنسجة الحية .

ويرجع هذا الاكتشاف الى الاستاذ بكرل اذ لاحظ اتفاقاً انهُ بعدما وضع قليلاً من املاح الراديوم في انبوب بجيب صدرته ، اصيب جلده تحت ذلك الجيب بقرحة . فكان هذا الاكتشاف الخطوة الاولى في استعمال الراديوم لاتلاف النسج المصابة بنوامٍ سرطانية . وقد مضت سنوات والعلماء المجربون يجمعون الحقائق التي يتعلمونها بالاختبار فثبت لهم مثلاً ان الخلايا الفتية اشد تقبلاً لفعل الاشعة من الخلايا الهرمة، اي ان الاشعة افعل في اتلاف الخلايا الفتية منها في اتلاف الخلايا الهرمة . وثبت لهم كذلك ان النسج والاعضاء تختلف في مقاومتها لفعل الاشعة . واقلها مقاومة هي الدم والطحال ونخاع العظام والخلايا اللمفاوية أو الشبيهة باللمفاوية

على ان علماء البيولوجيا الطبيعية ، يصبون الى ما هو أدق من ذلك . وقد توصلوا الى نتائج باهرة في هذه الناحية في معاهد اوربا واميركا ، نضرب مثلاً عليها بسلسلة من التجارب قام بها العالم ويكوف Wyckoff في معهد ركفلر الطبي . فقد تخير ويكوف البكتيريا موضوعاً لمباحثه وجعل يطلق الدقائق الصغيرة على البكتيريا ، بسرعات مختلفة ثم يقيس ما يموت من البكتيريا وما يسلم

ففي التجربة الأولى التي جربها مع الأستاذ رفرز استعملا تياراً من الكهارب منطلقة بسرعة ١٤٨٠٠٠ ميل في الثانية . ولما كان الكهرب ايوناً ، أي جزءاً مكهرباً من الذرة ، فهو شبيه بالايونات الكثيرة المنطلقة ذهاباً واياباً في الهواء . ثم نشر عدداً معروفاً من باشلس القولون في طبقة واحدة على لوح من مادة « الاغار » واطلق الكهارب عليها فلما انقضت ١٢ ثانية كان عدد الاحياء من باشلسات القولون ٣١١ باشلساً . وبعد انقضاء ٢٨ ثانية على الشروع في التجربة نقص عدد الباشلسات الحية الى ٣٦ باشلساً فقط ، ثم اجريت تجارب اخرى من هذا القبيل بانواع اخرى من البكتيريا فأفضت الى نتائج مماثلة

والمعروف انهُ اذا انطلق كهرب بهذه السرعة واصطدم بدقيقة من دقائق المادة ، قذف من الدقيقة ايونات كثيرة في مساحة يسيرة . فكأنَّ اصطدام الكهرب بالدقيقة يحدث فيها انفجاراً قوياً . وقد أثبتت الامتحانات ان كهرباً منطلقاً بهذه السرعة يطلق من الدقيقة التي يصطدم بها ١٠٠٠٠ ايون في مساحة $\frac{١}{١٠٠٠٠}$ من الملتر المكعب . فاذا اصابت الكهارب دقائق جسم البكتيريا احدثت فيها نوعاً من العاصفة بانطلاق الايونات العديدة منها ، فيختل توازن الجبلة الحيوي فتموت

وثمة طائفة اخرى من التجارب قام بها ويكوف وكان مدارها الاشعة السينية . فاداة الاصطدام في هذه التجارب ليست دقيقة مكهربة ، اوشحنة كهربائية تفعل فعل الدقيقة كالكهرب ، بل مقدار من الطاقة الشديدة النفوذ للمواد كمقادير الاشعة السينية . ولا يخفى ان طاقة اشعة اكس ، كطاقة امواج الضوء المرئي ، ليست في طبقة واحدة بل تختلف ، باختلاف طول امواجها . وكذلك اطلقت الاشعة السينية من خمسة ضروب مختلفة على باشلسات القولون فكانت النتيجة كما يلي :

مرت ملايين من « مقادير Quanta » الطاقة من خلال البكتيريا من دون ان تؤذيها . وامتصت

الخلايا ملايين اخرى من دون ان يحدث فيها الموت . فلما حدث الموت كان نتيجة لامتصاص مقدار واحد Quantum . وكان متوسط الكهارب الفتاكة في الاشعة السينية العالية الطاقة ١ : ٤ اما في الاشعة السينية الضعيفة الطاقة (الضعف نسبي طبعاً) فكان المتوسط ١ : ٦٠ وقد جعل مقياس الموت في جميع هذه الخلايا وقوفها عن التكاثر بالانشطار

وقد تبين ويكوف من تجاربه هذه ان في الباشلس الواحد ، منطقة صغيرة شديدة التأثر بفعل الأشعة السينية ، حالة ان سائر جسمها ليس كذلك . فهي تقابل انساناً لا تقتله الرصاصة الا اذا أصابته في القلب . وقد حسب ويكوف حجم هذه المنطقة فاذا هو يقدره بنحو جزء من مائة جزء من حجم الباشلس . ولا يخفى ان باشلس القولون خلية واحدة اسطوانية الشكل طولها $\frac{١}{٢٠٠}$ من المليمتر وقطرها $\frac{١}{١٠٠٠}$ من المليمتر . اقسم حجمها هذا على ١٠٠ تعرف حجم المنطقة الخاصة فيها التي تتأثر بفعل الاشعة السينية الفتاكة

أما في الطائفة الثالثة من هذه التجارب فقد استعملت الاشعة التي فوق البنفسجي . وهي أشعة لا ترى بالعين المجردة ، وانما نتبينها بفعلها الكيمائي في الواح التصوير الشمسي . ثم هي أضعف طاقة من الاشعة السينية . ويمكن قسمتها الى مناطق تتدرج قوة او ضعفاً بحسب تدرج امواجها قصراً او طولاً . فهي أقصر امواجاً وأقوى فعلاً في ناحية الأشعة السينية من الطيف ، واطول امواجاً واضعف فعلاً في ناحية النور البنفسجي من الطيف . وقد استعمل ويكوف خمس طوائف مختلفة من هذه الاشعة فأطلقها على البكتيريا فوجد ان البكتيريوم الواحد يمتص مقداراً Quantum واحداً من ٤١٩٠٠٠٠ مقدار من طاقتها . فاذا حاولنا أن نفسر مقدرة الامتصاص على اساس الجزء الحساس في الباشلس الواحد كما فعلنا في التجربة السابقة كان الجزء الحساس للأشعة التي فوق البنفسجي ، لا يتعدى مساحة جزيء واحد من جزيئات البروتين . وهو استنتاج يرفض ويكوف ان يسلم به الآن لصغر جسم الجزيء من البروتين ، ويقول في تفسير ما حدث ان بعض الخلايا اشد تعرضاً بطبيعتها للتأثر بهذا الضرب من الاشعاع من الخلايا الأخرى

وكذلك نخرج من هذه التجارب بالنتائج التالية : ان مقداراً واحداً من طاقة الاشعة التي فوق البنفسجي يكفي لقتل خلية اذا كان في الخلية استعداد طبيعي لذلك . وان مقداراً واحداً من طاقة الاشعة السينية يكفي لقتل خلية اذا اصاب تلك المنطقة الصغيرة فيها حيث تنبض القة الحياة . ولكن هذا لا يعني ان المقادير الاخرى التي تمتصها الخلية من دون ان تموت بامتصاصها لا تفعل افعالاً بطيئة لا نعلم الآن شيئاً عنها [1]

---

(١) مما يتصل بهذا البحث اثر الاشعة السينية والاشعة الكونية في التطور والتحول الفجائي وكذلك الاشعة التي يقال انها تنطلق من الخلايا الحية وتعرف بالاشعة البيولوجية . ونحن لم نتعرض في مقالنا لهذين الموضوعين لاننا ذكرنا معظم ما يعرف عنهما في كتابنا « فتوحات العلم الحديث » صفحة ٢٧٢ وصفحة ٢٧٥

المقتطف

نصف قرن

على ضفاف النيل

مضت خمسون سنة منذ حضنت مصر المقتطف ، ورحّبت بهِ ، وعطفت عليهِ ، يوم كان سيف الاستبداد مصلتاً فوق رقاب الاحرار من أبناءِ سورية ولبنان ، فنزل المقتطف الديار المصرية ، على الرحب والسعة ، واتصلت اصولهُ بتربتها الغنية تستمد منها القوة والغذاء ، وامتدّت فروعهُ في جوّها الصافي ، تتسامق الى أفسح الاجواءِ ، تأخذ من الحياة المصرية وتعطيها ، حتى غدا بتعضيد حكامها وعلمائها وأدبائها منارة تبسط من عاصمتها أنوار العلم الصحيح والادب العالي على أرجاءِ الشرق

خمسون سنة من التاريخ ! والحضارة سائرة سيراً حثيثاً الى الأمام . ففي الآراءِ والافكار تنبه وتحوُّل ، وفي الآداب والأخلاق والمعتقدات ثورة وانقلاب ، وفي أمور المعيشة تقدُّم لا يضاهيهِ تقدم في كلّ ما سبقهُ من عصور التاريخ ، وفي مختلف فروع العلم وأبواب البحث إكباب على كشف المجهول ، واستقصاءِ الاسباب الاولى. والعلماءُ من كل قطرٍ ، منبثّون في كل صقعٍ ، يبحثون ويمتحنون ويكتشفون ، وموكب العلم سائر الى الامام وفي كثيرٍ من الاحيان على اشلاءِ مبدعيهِ

وقد كان المقتطف في خلال كلّ ذلك رسولاً أميناً بين حضارة الشرق وحضارة الغرب. في ميدانهِ الرحب التقت أقلام العلماء والكتّاب من أبناءِ الحضارتين ، ومنشئو المقتطف واقفون للعلم بالمرصاد ، يقتطفون كل طارف وكلّ تليد ، حتى غدا المقتطف بمثابة مدرسة جوّالة ورابطة تضمُّ أبناء الشرق في وحدة متينة أساسها الثقافة العالية

وانا لنفاخر اليوم ، وقد انقضت خمسون سنة على المقتطف في مصر ، بأن نحلّي جيد هذا العدد بثلاث رسائل تاريخية ، لثلاثة من عظماءِ مصر الراحلين هم المغفور لهم شريف باشا ورياض باشا وسعد زغلول باشا

رسالة شريف باشا

« ان الذين خبروا حال العالم واستقصوا سنن الهيئة الاجتماعية واستقروا اسباب ترقية البلدان واتساع نطاق الحضارة في كل مكان اجمعوا على ان العلم اعظم ركن في بناء التمدن والمعارف اوثق رباط لحفظ الامم وتعزيز شأنها ولذلك عظمت قيمة العلماء عند ارباب

العقول واعتبرت الوسائط التي من شأنها بث العلوم وتعميم المعارف في البلدان . ولما كان المقتطف خير ذريعة لنشر المعارف بين المتكلمين بالعربية فلا عجب اذا نال ما نال من رفعة المقام في اعتبار الخاصة والعامة معاً وقد بلغني في هذه الاثناء خبر نقله الى القطر المصري بعد ما خبرته وخبرت معارفكم زماناً فاستحسنت ان ابدي مسرّتي بذلك لما فيه من الفوائد التي لا تستغني عنها البلاد . ولا ريب عندي ان عقلاء مصر ونبهاءها لا يغفلون عن تعميم فوائده ولا يتقاعدون عن السعي لنشر علومه بينهم لا سيما وقد علموا ان انارة الاذهان وتثقيف العقول اقوى واسطة لحفظ الامة وشد عرى اتحادها»

مصر — مارس ١٨٨٥ محمد شريف

رسالة رياض باشا

« اخبرت انكما عزمتما على نقل جريدتكما الغراء الى الديار المصرية فسرني ذلك لما تحويه من الفوائد الجليلة والنفع الدائم لكل بلاد رفعت راية علومكم فيها وقد اغتنمت هذه الفرصة لأُبدي بها نصيحتي لابناء هذا القطر بمطالعتها واجتلاء فوائدها فان للمقتطف عندي منزلة رفيعة وقد ولعت بمطالعته منذ صدوره الى اليوم فوجدت فوائده تتزايد وقيمته تعلو في عيون عقلاء القوم وكبرائهم . ولطالما عددته جليساً انيساً ايام الفراغ والاعتزال ونديماً فريداً لا تنفد جعبة اخباره ولا تنتهي جدد فرائده سواء كان في العلم والفلسفة او في الصناعة والزراعة التي عثرت فيها على فوائد لا تثمن هذا علاوة على ما فيه من المباحث الآيلة الى تهذيب العقول وجلاء الاذهان وتفكيه القراء فلذلك ترحب مصر بالمقتطف الاغر وتحله محل الكرام الذين اشتهر فضلهم وعمت فواضلهم »

مصر — مارس ١٨٨٥ رياض

رسالة سعد زغلول باشا

« يمثل «المقتطف» في الشرق عموماً ، وفي مصر خصوصاً ، ثمرة المعارف الواسعة والفنون النافعة ، والجد المتواصل ، والود الصحيح ، والتعاون الدائم ، والرغبة الصادقة في تقويم الافهام وتثقيف الاذهان . فالاحتفال بعيده الخمسيني ، انما هو احتفال بملاك هذه الفضائل ، ومشرق انوارها . وكنت اود ان اشترك بشخصي ايضاً في هذا الاحتفال الجميل ولكن انحراف صحتي حال دون رغبتي . فأبدي لحضراتكم وحضرات أعضاء اللجنة الكرام وافر شكري على هذه الدعوة الكريمة ، وأرجو قبول عذري ، وأتمنى لهذا العيد الجليل نجاحاً كاملا ، وللمحتفل به عمراً أطول وانتشاراً أعرض ، ولاصحابه الفضلاء دوام الصحة والاقبال» مصر — ابريل ١٩٢٦ سعد زغلول

بين الفاتيكان

وجريدة « لاكسيون فرانسيز »

للآنسة « مي »

نحن في شهر ابريل الذي عُرف يومهُ الأول باجازة تهادي السمكة التقليدية . فهل أنا بتغيير موضوع الحديث هذه المرة ، أبغي توجيه سمكة أبريل إلى قرّاء « المقتطف » ؟

كلاّ . فالموضوع أهم وأجلّ من أن يكون وسيلةً للتراشق بطريف الأكاذيب والافتراءات . إلاَّ ان بعض القراء يرون اني أوجزتُ كثيراً في الإلماع إلى هذه القضية ، قضية التنافر بين الفاتيكان وجريدة « لاكسيون فرانسيز » ، خلال حديث الشهر المنصرم وأن عليَّ — وأنا التي أثرت ذكرى هذه القضية — ان أوضحها بعض الشيء أو أزيل عنها بعض الغموض على الاقل ، نظراً لغرابتها

أمَّا ان ذلك مفروض عليَّ ، فلا ! واما اني مستعدة للارضاء في حيّز مقدوري ، فنعم . ولكن النية الطيبة والاستعداد للارضاء ليسا كفيلين بتقديم ما يُرضي . عند ما أكتبُ عن شخصية أدبية لستُ أعنى كثيراً أو قليلاً برأي الآخرين فيها وبما كالوا لها من قدح أو أغدقوا عليها من ثناء . إنما أعنى بأثرها فيَّ وبالصورة التي رسمتها هي من كتاباتها في نفسي . ولا شأن لي في غير ذلك

اما موضوع الخصومة السياسية أو الدينية أو الأدبية فليس لي من رأي شخصي فيهِ ، وبخاصةٍ لأني أجهل مجموعة تفاصيلهِ وخفايا الامور التي كوّنتهُ . وكل ما استطيعهُ لا يزيد عن طاقة أيّ أحد قرأ شيئاً في هذا الموضوع دون ان يجد من نفسه حافزاً لمشايعة هذا الفريق أو ذاك . هذا مع العلم بأن على الكاثوليك جميعاً ان يحترموا كل قرار موسوم بتوقيع قداسة البابا ، دون مناقشةٍ أو جدال

وعلى ذلك ، أتناول هنا أقوال كاتبين اثنين ليسا من أعداء الكنيسة بل على النقيض هما من أعداء أعدائها وهما يدافعان عن عقيدتها . أولهما دوديه نفسه ، صاحب جريدة « لاكسيون فرانسيز » ، والآخر هو رينيه دي بلانهول [١] الذي يُعدُّ في طليعة كتاب فرنسا المعاصرين في النقد السياسي

(١) René de Planhol

والاجتماعي والأدبي والفنيّ . ولستُ أعرف بالضبط قيمة رأيهما في هذا الموضوع ، وكل ما في الأمر اني ألخص ذلك الرأي تاركة تبعته على صاحبيه

***

سبق أن أشرت في حديث الشهر الماضي الى كلمة مقتضبة من ليون دوديه في موضوع الخصومة. وهنا أورد تلك الفقرة كلها :

« أما الاضطهادات التي يوجهها إلى جريدة « لاكسيون فرانسيز » الفاتيكان المستسلم لذي الهوس الجرماني (germanomane) سكرتير الدولة (الفاتيكانية) جسبارّي (الكاردينال) ، الفاتيكان الذي يضلّلونهُ في أهمية حركتنا ومبلغ تأثيرها — تلك الاضطهادات أثارت سخطي لأجل أصحابنا المؤمنين أمثال روجر لامبلان وتريستان لامبير، ولأجل أصحابنا غير المؤمنين ولكنهم من أنصار الكنيسة أمثال شارل موراس . بيد أنّ تلك الاضطهادات فيما يختصّ بي لم تؤثر فيّ ولم تزعزع من عقيدتي . بل اكثر من ذلك ، إنها بدت لي كامتحان من العناية الالهية يعدّنا للنصر النهائي بعودة الملك . إن طبيعة تلك الاضطهادات الشاذة الغبية اللاغية والتمرد السليم الذي أثارته ، كان لها الوقع المناقض الذي كثيراً ما نجده في التوسطات الالهية . الاقدار تضربنا بطريقةٍ مباشرة . أما العناية الالهية فتضربنا بطريقة منحرفة ، ملتوية . . . وقد أتيح لي ان ألاحظ ذلك غير مرة (صفحة ٢١٧ من كتاب "Vingt-Neuf Mois d'Exil")

ويقول صفحة ٢٢٢ و٢٢٣ من الكتاب نفسه :

« كثيرون من رجال الاكليروس الذين أسخطتهم إجراءات روما المتعددة عبثاً ضدنا من رشق بالحرم ومن تعذيب ضمائر المحتضرين ، طالما طرقوا بابي فاستقبلتهم دائماً بسرور وامتنان ورأيت فيهم تلك الشجاعة التي يحتاج اليها الكثيرون من أصحاب المقامات في الكنيسة ، شجاعة نجدها في هذا الموقف كما في غيره ، حليفة طريقة عكسية في تدرّج المراتب — عدا الاستثناء الجليل الشأن . في جميع الأنظمة البشرية ، حتى الأنظمة المتصلة بحظوظ النفس ، نلحظ التناقض في الهمم وفاقاً للرقيّ الاداري . هو المجتمع الذي يريد ذلك . يجب ان نعرف ذلك مع حسب حساب الاستثناءات السامية — وان لا نحنق من جرائه . فقد قال موراس ان الحنق والامتهان ليسا من المهارة السياسية في شيء »

ويقول في كتاب « Paris Vécu » [1] : « ولما وجب قول الحقيقة فاني أضيف ان الاضطهادات الرومانية الموجهة ضد « لاكسيون فرانسيز » منذ سنة ١٩٢٦ لم تزعزع لحظة واحدة من إيماني .

---

(١) صدر هذا الكتاب سنة ١٩٣٠

كثيراً ما يحدث في الواقع ان يضطهد المدافعين عن قضية وان ينكرهم اولئك الذين يتفانى المدافعون في خدمتهم، اذ يرى المضطهدون من مصلحتهم ان يتضافروا مع الاعداء على حساب المدافعين، لحين انتصار هؤلاء على الاقل. هذا امر جد بشري . . . » (صفحة ٥٩ — ٥٨)

عرفنا مبلغ اعجاب دوديه بموراس، وهاك شواهد اخرى على ذلك الاعجاب العظيم. فهو يقول في مذكراته (Paris Vécu) عند وصفه الحي اللاتيني في باريس: «انما ذلك المزيج من الكد والتفاهم والانصاف والشباب ايضاً، ومن الاستحثاث والحب (اجل الحب، حب المرأة وحب المعرفة) والدعابة التي لا تحمل غمًّا، هو ما كان يكوّن وما زال يكوّن جو الفتنة العميقة في الحي اللاتيني. غير ان في الوقت الذي اكتب فيه ترى الروح السياسي قد تبدل تماماً. في عهد دراستي كان الحي اللاتيني جمهوريًّا راديكاليًّا ومضاداً للجنرال بولانجه. اما اليوم فالحي ملكيّ ولا يحلف الا بموراس. وكون موراس من كبار رجال العلوم الادبية (un très grand humaniste) مما ينشر الحماسة له من الصفة السياسية الى صفة الثقافة العامة. ان الاعجاب كالحب، ينزع الى الكمال والى المطلق . . . »

وفي مكان آخر: «انهزمت اليعقوبية (Jacobinisme) فحلت محلها النابوليونية (Napoléonisme) الطاغية العاملة على التمركز. وما فتئت تنيخ بكلكلها على كلية الطب في باريس، ولكن يقال لي انها الآن أخف وطأة منها في عهد دراستي. ذلك لانهم ادركوا ان الكثيرين من الاطباء والجراحين اخذوا ينضمون منذ بضعة اعوام الى عقيدة موراس والى الملك. للامم كما للافراد، اطباء امثال ريشليو، وكافور، وبيزمارك، وموراس، يسمونهم رجال الدولة ولكنهم في حقيقة الامر أطباء. وقد بذل موراس جهده ليشفي فرنسا ومن خلالها اوربا، من عديد العلل التي خلقتها الثورة والامبراطورية. فأدركت ذلك هيئة الطب الفرنسي كالشبيبة الفرنسية ويمكن ان يقال كصفوة الامة كلها. ومن المحزن ان البابا بيوس الحادي عشر، على نقيض سلفه بيوس العاشر، لم يفهم ذلك ولم يحسه. لقد ضلل قداسته، بلا ريب، الكاردينال المهووس بنزعته الجرمانية، جسباري. ولولا ذلك لوفر على نفسه اخفاقاً لاذعاً، نحن اول من يأسف له». (صفحة ٥٨—٥٧ من "Paris Vécu")

***

أما في نظر رينيه دي بلانهول فجريدة «لاكسيون فرانسز» في طليعة الصحف الفرنسية نزاهة واستقامة

وهو معجب بليون دوديه، يفصح عن اعجابه هذا غير مرة ويحلل له، نظراً لصدق مواهبه، ما يستهجنه عند كثيرين من ذوي الشهرات التي شادها الغرض أو المال او الدسيسة او الطموح السخيف. وفي كتابه (Le Monde à l'Envers) الصادر سنة ١٩٣٢ حيث يحمل على

فرنسا الراهنة ويتناول بالنقد حتى انظمتها الفنية والادبية ، هو يسخر من وفرة ما تصدره المطابع لانحطاط نوعه الثقافي والفني في نظره ويلوم الذين يزعمون نفوسهم كتّاباً ومؤلفين لكثرة ما يسوّدون من لغو الكتب رغبة في الربح المالي وفي توطيدشهرات لا دعامة لها . ولكن تراه في صفحة ٢٠٠ من ذلك الكتاب يبرر كثرة الانتاج من ليون دوديه . فيقول :

« ان اكثر صانعي الكتب يندفعون وراء محنة التصنيف بما يفوق مقدرتهم ، لان مقدرتهم هي محور الموضوع . ليس الغرض حمل الكتّاب على الاقتصار على قاعدة متشابهة وفرض كمية الانتاج عليهم جميعاً بطريقة متماثلة . عندما رجل كليون دوديه يخرج المؤلفات بوفرة فهو في ذلك يخضع لمزاجه اكثر مما يطيع مقتضيات العصر . وقد كان يفعل ذلك في عصر غير هذا العصر ، شأنه شأن بلزاك او ڤولتير . ولكن حيال هؤلاء الكتّاب الذين ترى عندهم الافكار والخيالات في تفجر مستديم ، يوجد آخرون عبقريتهم اقل خصوبة وهم موهوبون لانتاج كمية محدودة من الصفحات تتجمع فيها كل ماويتهم « الادبية » — (Toute leur sève) »

غير ان اعجابه بدوديه ليس هو الذي يقود قلمه في شرح قضية « لاكسيون فرانسز » مع الفاتيكان ، على ما يبدو لي . وقد افرد في كتابه المذكور آنفاً ، فصلاً خاصاً لموضوع « الكنيسة بين اعدائها والمدافعين عنها » . وهو الفصل السادس ويبتدىء صفحة ٢١٧ . فيسجل في مطلعه ان « الكنيسة نفسها — كائناً ما كان الالم الذي ينتابنا من تعرف ذلك — الكنيسة نفسها لم تتفلت مما يلازم هذا العصر من تشويش وارتباك » . « ليس المراد بهذا الكنيسة من حيث هي تثبت نفسها نظاماً الهيًّا وانها بصفتها تلك تحتفظ بالعقيدة الدينية وتعلمها . . . وانما المراد في هذه الصفحات هو عملها البشري والسياسي والاجتماعي خصوصاً في فرنسا اليوم ...

« تأسست الجمهورية في فرنسا منذ ستين عاماً ومن غاياتها الاساسية الثابتة محاربة الكنيسة والعمل على هدم العقائد والتعاليم المسيحية . . . فما هو سلوك الكنيسة حيال هذا النظام ؟ لقد ابت الكنيسة دائماً التحزب لأي سلطان زمني وهي تسلم بأن جميع صنوف الحكم مباحة مشروعة . فلم يكن لها ان تنكر الجمهورية من حيث هي نظام حكم . بل على النقيض ، لتتملص من انظمة كانت تخيل انها تنكر الشعب الفرنسي وكانت الكنيسة لا تراها ضرورية وقد كان ذكرها يظهر الكنيسة بمظهر المغرضة — كان على الكنيسة ان تحمل المؤمنين على قبول النظام الجديد بنزاهة » . . . «ولئن باشرت الجمهورية حملتها ضد الكنيسة فان الزمن لم يكن ليثبت بعد ان هذا التعصب ضدها ضروري . فأعرب البابا لاون الثالث عشر عن رجائه بأن كاثوليك فرنسا بقبول الديمقراطية انما ينجحون بتجريدها من صفتها المضادة للمسيحية ، لأنهم بذلك يكفون عن تقديم السبب السياسي لمحاربة الدين . فيسّر اتحاد الفريقين (LeRalliement) اختباراً كان يومئذ مغرياً ، ولكن في وسعنا اليوم ان نقدر نتائجه » . وتلك النتائج في نظر المؤلف لم تكن الاّ الإخفاق التام

ويستأنف في نفس الفصل فيوصلنا الى صميم الموضوع :

«باستثناء اصحاب عـدم المبالاة في الموضوع الديني ، ومنهم العدد الاكبر ، يوجد بين الذين لا يؤمنون فريقان : الفريق الاول يتكوّن من الموظفين الرسميين في الجمهورية ، وهم فريق الذين لا يؤمنون ويمقتون الذين يؤمنون » ... « والفريق الآخر يتكوّن من الذين لا يؤمنون لانهم لم يتلقوا في نفوسهم نعمة الايمان ، ولـكنهم يكبرون الايمان كحسنة من اعظم الحسنات التي تغني النفس ، ويجلّون في الـكنيسة ان لم يكن النظام الالهي فأعلى الانظمة البشرية . بينهم وبين الايمان تقوم اعتراضات عقلية لم يتمكنوا من التغلب عليها . ولـكن بدلاً من ان يجعلوا عجزهم مثالاً فيستخرجون منهُ تعليماً ، هم يتحرزون من تحقيق اي تحزُّب ضد الايمـان الذي يتمنون سعادته لجميع النفوس . . .

« تلك كانت عاطفة موريس باريس . وهذا هو شعور شارل موراس وغيره من الذين لا يؤمنون المتحدين بقوم كثيري العدد والاهمية من الـكاثوليك الموالين لحركة « لاكسيون فرانسيز » . وهذا الاتحاد كان منطقيّـا وطبيعيّـا . لم يكن مدهشاً ان ينضم الذين لا يؤمنون الى الذين يؤمنون في الميدان السياسي ما دام هؤلاء وأولئك على اتفاق ليس فقط فيما يتعلّـق بضرورات الدولة ، بل كذلك فيما يتعلق بحقوق الكنيسة وهي ذات الحقوق التي تطالب بها الكنيسة . او لم ينصح البابا بيوس العاشر باتحاد جميع الاشخاص المستقيمين للدفاع عن الحريات الدينية ؟ . . .

« ... والامر هو انهُ بينما الڤاتيكان يحاسن انصار العلمانية ويسمح للكاثوليك بمناصرتهم ، ترى الڤاتيكان يدخر لموراس ولاصحاب موراس اشد الجفاء. هؤلاء الناس الذين يخدمون مصلحة الكنيسة بعناء وبتجرد تام من الغرض ، يصب عليهم الڤاتيكان اللعنات ويعاملهم معاملة الموبوئين ويهددهم بأقسى العقوبات وبحرمانهم من الأسرار الكنسية ، كما يحظر على الـكاثوليك الانضمام إلى جماعة « لاكسيون فرانسيز » وتداول صحيفتهم وتأييد حملاتهم السياسية

« — لماذا ؟ إننا نجهل السبب . لقد كتب شارل موراس في الماضي كتباً لا يسع الكنيسة الاّ إستنكار بعض صفحاتها . ليس من يجادل في ذلك حتى ولا المؤلف نفسه . ولكن في مؤلفات دومرج وبوانكاره وبريان وتارديو يمكن استقاء بيانات اخرى كثيرة لا يسع الـكنيسة الاّ مصادرتها.. وما تتقصده الـكنيسة ليس كتابيّ موراس « طريق الجنة » و« آنثينيا » ، ولـكنها تتقصد عمـل موراس السياسي وبخاصة العمل الذي يصطنعه منذ تأسيس « لاكسيون فرانسيز » اليومية . ان علماء اللاهوت الاكثر اطلاعاً يرون ذلك العمل في دائرته الخاصة وليس فيه ما يستوجب اللوم ، وإن هم أسفوا لانهُ لا يقوم على دعائم الحقيقة المنزلة . حتى الـكاردينال آندريو (Andrieu) نفسه كان يرتئي هذا الرأي عند ما كان يثني على قلم موراس ، قائلاً ان ذلك القلم يوازي سيفاً

«... بينما امثال بريان وتارديو لا ينفكون عن العمل ضد الايمان فان موراس لم يعمد يوماً

الى تحويل نفس عن الايمان او الى هدم الوسائل الطبيعة التي تمكن الايمان من النمو وتحفظه. بل على النقيض ، كثيرون هم الذين ارتدوا الى العقيدة حواليه بفعل تأثيره ليس بسبب ما يعلنه نحو الكنيسة من اعجاب وصداقة فحسب ، بل بفضل شتيت المقارنات التي أوضحها للكثيرين بين القوانين السياسية والاجتماعية التي ينادي بها وبين التقاليد الكاثوليكية . ومع ذلك فالذي يحكم عليه ليس بريان وتارديو، بل هو موراس. فبأي الضلالات تراه اوحى الى اصدقائه المؤمنين؟ لقد توسل هؤلاء ليُكشف لهم عن ذلك ، ولكن عبثاً : العقوبة تطبق عليهم دون ان توضح لهم خطيئتهم »

« . . . ان النص الوحيد الثابت رسميًا من الفاتيكان وفيه البيان عن الحادم هو خطاب الكاردينال آندريو ، ذلك الخطاب الذي يُشرّد الالباب ، وفيه ينسب الى موراس القول المشكوك في صحته : « محرم دخول الله الى مراصدنا » . من هذا الخطاب ادرك كاثوليك « لا كسيون فرانسز » انهم يصطنعون العبودية ويأخذون بأسباب الالحاد . وقد احتجّ هؤلاء الكاثوليك على غير جدوى معلنين انهم حياتهم لم يفكروا في اعادة تجارة الرقيق وانهم يؤمنون بكل ما تعلمه الكنيسة . فلم يصغ اليهم احد . وفي مجرد بقائهم على وفائهم لموراس الكفاية للاثبات انهم يفكرون في كل ذلك حتى ولو كانوا واثقين من انهم لا يفكرون ! وبينما كان الفاتيكان يعلن على هذه الصورة مناهضته للملكيين مقاومي الانظمة العلمانية ، هذه الانظمة العلمانية ممثلة في ساسة يباركهم الفاتيكان من امثال ميللران وبريان ، كانت سارية تشيع في البلاد الفرنسية الروح الذي لا هو ديني ولا هو اخلاقي

ويختم دي بلانهول هذا الفصل بهذه الكلمات . « هذه هي المناقضات المحيطة بالكنيسة في ايامنا » ... « لست احنق . اني ارقب واحاول ان افهم ، ولكن عبثاً . فافهموا انتم اذا استطعتم »

***

أفهمتَ ، انت الذي يقرأ ؟

اما انا فأعترف بأني كلما توسعت في مطالعاتي في هذا الموضوع امعنت في الجهل له وزدت عجزاً عن إدرك لبابه. قد يكون ان مطالعاتي لم تتناول الا النواحي الثانوية والاضافية وانها هي التي وزعت من فكري باقصائي عن الفكرة الجوهرية الصميمة التي تفيض على المشكلة نوراً وتجلوها اتمّ الجلاء . فهل بين القرّاء من يهديني ؟

وبعدُ او ليست هذه الحالة هي الواقعة حوالينا في اكثر الشؤون حتى اقربها الينا والصقها بحياتنا ؟ نرى من الامور المظاهر والنمو والترامي ، ونطّلع على الكثير او اليسير من التفاصيل والاجزاء ، ولكن منذا الذي يستطيع ان يزعم انه ملك الباعث الاساسي وتمكن من المصدر ؟

وفي هذا الموضوع الذي تتنازعنا منه الفروض ، كيف يتسنى ان نبتّ في الحكم صادقين ؟

الديموقراطية والتعليم

للدكتور امير بقطر

الجانب الاول من محاضرة القيت في ردهة يورت التذكارية في جامعة القاهرة الاميركية . وينتظر ان تجمع مع اخواتها في كتاب يعالج الدمقراطية من نواحيها المختلفة

مبادىء التعليم الديموقراطية، كغيرها من المسائل التي تتعلق بالديموقراطية، كالسياسة ، والاجتماع والاقتصاد ، ونظام الحكم ، يَرْجعُ تاريخها الى الثورة العلمية ، وحرية التفكير ، والنهضة الصناعية ، والاصلاح الديني ، وغيرها من الحركات الفكرية النظرية والنهضات التجريبية العلمية ، التي تتصل منذ نشأتها باسماء مؤسسيها الابطال ، الذين أطلقوا الافكار من معاقلها ، وحرّروا الانسانية من آلامها

— ١ —

﴿ معناها ﴾ معنى الديموقراطية في التعليم ان تهيأ الفُرَص ، وتمهّد السُّبُل والوسائل، لجميع ابناء الامة على السواء ، الفقير منهم والغنيّ ، الصغير والكبير ، الخادم والسيد ، الذكر والانثى ، القروي والمدنيّ . ولا نقصدُ بتهيئة الفرص ، وتمهيدِ السبل والوسائل ، ان تقدم للجميع تربية واحدة متجانسة نوعاً وكمية . حاشا ، لاننا اذا فعلنا ذلك كان مثلنا مثل من يفصّلُ نوعاً واحداً من الثياب لالوف من الافراد ، زيّاً ، ولوناً ، وحجماً ، بغض النظرِ عن اعمار لابسيها ، وقاماتهم ، والوان بشرتهم ، واختلافهم ، سمناً ونحافة ، ودمامة ورشاقة ، وميلاً وذوقاً ، ومناخاً وأقليماً . فمن ابناء الامة الواحدة من لا يصلح للدروس العالية ، ومن ابناء الامة الواحدة ، من لا يتسنى له هضم المواد التي تقدّم لطلبة المدارس الثانوية ، ومن ابناء الامة الواحدة ، من لا يستطيع الانتقال من السنة الثالثة الابتدائية ، ولو بقي فيها محروساً بعناية الدولة كلّ حياته . ومن ابناء الامة من يأفل نجمهُ في المواد الثقافية النظرية الكلاسيكية ، وتتألق شمسهُ وتسطع في الدروس الصناعية العملية . ومن ابناء الامة من يخذل امام الجبر والهندسة والحساب ، وينتصر في معارك التاريخ والاقتصاد والعلوم الاجتماعية . ومنهم من يخفق في هذه وتلك ولكنهُ ينبغ في الرسم او النحت والتمثيل او الغناء او الموسيقى

ومن أبناء الامة الواحدة من تتطلب تربيته الاكثار من الدروس الصحية ، والالمام بمبادىء امراض معينة ، تتفشى في الاقليم الذي يعيش فيه . ومنهم من تتطلبُ تربيته العناية التامة بصناعة خاصة تمتاز بها مدنٌ خاصة ، كالمنسوجات القطنية في شبين الكوم واخميم والحريرية في دمياط والخزف

في قنا والخراطة وشغل الابنوس في اسيوط ؛ والسجاجيد في عدة مدن مصرية . وقد تتطلب تربيتهُ التدرب على القتال والدفاع عن النفس من غزوات الانسان او الحيوان. كما يفعل البدو ورجال القبائل بأبنائهم ، وكما تفعل بعض بلدان اوربا واميركا اليوم كايطاليا والمانيا وبعض الولايات المتحدة . ومنهم من تتطلب تربيتهُ لوناً من الوان الرياضة ، كالرماية وركوب الخيل والسباحة او ضرباً من ضروب اللهو والتسلية ، كما في اوربا واميركا فكثيراً ما يشمل المنهاج المدرسي الشطرنج والبردج والرقص وفي بعض الكليات لا يمنح الطالب درجة بكالوريوس ما لم يجز امتحاناً في العوم والغطس وانقاذ الغرقى . وقد تتطلب احياناً الالمام بالوقاية من الافاعي السامة كما في الهند حيث يموت بسببها سنويًّا عشرون الفاً من السكان ، ومن العقارب كما في مديريات اصوان وقنا وجرجا واسيوط ، ومن البلهارسيا والانكلستوما والرمد الحبيبي (٩٠ ٪ من سكان بعض الاقاليم المصرية مصاب بهذه الامراض) . وقد تتطلب التربية ان يلمّ الطالب بقيادة السيارات واصلاحها كما في اميركا حيث توجد سيارة لكل اربعة من السكان ، والوقاية منها كما في انكلترا حيث يموت قتلاً بالاوتومبيل سنويًّا سبعة آلاف ، ويجرح ١٩٢ الف (حوادث السيارات على ارصفة لندن وحدها بمعدل ثلاث يوميًّا) ، والولايات المتحدة حيث يموت سنويًّا في حوادث السيارات ٣٠ الفاً ويجرح نحو ٧٠٠ الف ، وفي نيويورك وحدها نحو ١٥٠٠ نفس تموت سنويًّا بسبب السيارات

يتضح من هذا أن التربية الديمقراطية ، تؤمن بالفروق الفردية ، التي تتكلم عنها علماء النفس ، وتعتقد أن الناس يولدون متساوين أمام القانون ، متساوين الى حدّ محدود في الحقوق والواجبات ، ولكنهم لا يولدون متساوين في الذكاء والعقول ، لا يولدون متساوين في القدرة على مزاولة الاعمال ، في الاستعدادات والكفايات . لذلك أمكننا أن نقول إن من أهم مبادىء الديموقراطية أنها لا تفصل لكل فرد من أفراد الامة الثوب الذي يلائمه ، وتهيىء له من الطعام اللون الذي يتنبه شهيته ، ويتفق ومزاجه ، ولا يسبب له التخمة أو عسر الهضم

﴿ الموضوعات التي تتناولها ﴾ الديمقوقراطية في التعليم لا تنحصر في السياسة العامة . بل تتناول الادارة والمنهاج ، وأساليب التدريس ، والنظام ، وتوزيع الميزانية على درجات التعليم على اختلاف أنواعها ، ونسبة الميزانية المخصصة للتعليم ، الى ميزانية الدولة العامة أولاً . ونسبتها للدخل القومي ثانياً . وسنتكلم بايجاز عن بعض هذه الموضوعات واحداً فواحداً : —

— ٢ —

﴿ المركزية في السياسة العامة ﴾ من أظهر المسائل التي تتعارض مع روح الديمقراطية ، وتعطيل سيرها هي المركزية ، خصوصاً الجامدة المتطرفة . ويقصد بالمركزية ، أن تخضع النظم المدرسية في مجموعها ، في طول البلاد وعرضها ، الى سلطة عليا واحدة . ولعلَّ من أشدّ الانظمة المركزية مغالاة وتطرفاً في العالم ، هي مركزية التعليم في بلادنا المصرية فإن مدارسنا من ساحل البحر الأبيض

المتوسط شمالاً الى النوبيا جنوباً ، ترجع في كل كبيرة وصغيرة في جميع شئون التعليم الى السلطة المركزية ، ومقرُّها وزارة المعارف العمومية في القاهرة . فلا يملك المفتش او الناظر او المعلم في اية مدرسة كانت ، ان يتصرف في اصغر المسائل شأناً ، فيما يختص بالمنهاج ، او طرق التأديب ، او الامتحانات ، او مواعيد الدراسة ، الاَّ بعد مصادقة الديوان . ومما يؤسف له ان مراقب التعليم وهو المشرف العام على نوع التعليم الذي يقع في دائرة اختصاصهِ لا يتسنى له في كثير من الاحوال ان يخاطب مدارسهُ مباشرة او ان تخاطبه تلك المدارس رأساً بل لا مندوحة من أن تعرض الاوراق على سلطةٍ أعلى من المراقب . ومما يؤسف له ان سكان الاقليم لا يملكون حق المطالبة بنوع خاص من التعليم ، او منهاج خاص يلائم اقليمهم ويتفق وحاجاتهم . ومما يؤسف له ان هذا النوع من المركزية ، يؤدي في كثير من الاحايين الى ضياع الزمن في مكاتبات ومراسلات جافة رسمية في مسائل تافهة كان يستطيع الناظر البتَّ فيها من تلقاء ذاته وقد لا يصله من الديوان جواب شاف قبل ان تصبح المسألة من حوادث التاريخ القديم . ومن المعلوم ان المركزية في فرنسا ، التي قد نسجنا على منوالها ، ليست في هذه الدرجة من الشدة واليبوسة . فمن بواعث الأسف ان مصر كمعظم البلدان العربية قد اقتبست جسم هذا النظام وتركت روحه ففات عليها اهم ما في التربية الفرنسية وأعمهُ وأعزه ، وهو تهذيب النشء بتراث ما تركه السلف الصالح من الدراسة الثقافية وما يعمل على تقوية الناحيتين العقلية والنفسية باقتباس العلوم والوسائل الحديثة . وفرنسا مع مركزيتها تعنى كل العناية بالتفكير والمنطق ولا تدع المركزية تدفعها الى تنمية الذاكرة وحشو الاذهان بالمعلومات . بل بالعكس توجه همها الى تربية الذوق السليم والحكم الصادق والاعجاب بالجمال . ولا يقاس نجاح الطالب هناك بكمية المعارف والمعلومات التي يستوعبها بل بمقدرته على استعمال الآراء المجردة ورؤية العام في الخاص

ان من نتائج المركزية في مصر هو انحدارنا بالتعليم العام الى هوة سحيقة من الحفظ والاستذكار وعدم العناية بالجوهر والتفكير والتربية الحرة . وهذا ليس من الديمقراطية في شيء . حقيقة ان مصر وبلدان الشرق الادنى لا تستطيع الغاء نظام المركزية في التعليم الغاء باتاً نظراً الى حداثة عهدها بالانظمة الديموقراطية . فليس من الحكمة ترك الحبل على الغارب واتباع نظرية laissez faire غير ان ما نحتاج اليهِ مزيج من السلطة المركزية والسلطة المحلية والاعتماد على بعض المدارس الخصوصية الراقية كما هي الحال في انكلترا . ان البلدان الشرقية لا تحتاج الى تلقي كل كبيرة وصغيرة في التعليم من سلطات عليا فان الحياة فيها مرتبطة بطبيعة الحال بمراجع لا عدد لها ومقيدة بسلطات من تقاليد وعادات اجتماعية ودينية واضاليل وخرافات وليس ثمت حاجة الى مزيدها

نقول اننا نحتاج الى عناية شديدة بالابتكار والاعتماد على الذات والاستقلال الفكري كما هي الحال في المدارس الانكليزية وغيرها ولكن انى لنا ان ننمي هذه الصفات ونغرس بذورها في جوٍ مدرسيٍ غير مشبع بالحرية ، ومقيد بسلسلة اوامر وسلطات ومراجع ؟ ان نظام التعليم في انكلترا يؤيد النظرية

التي نتكلم عنها الآن وهي انهُ من المستطاع ان تكون هناك سلطة مركزية للتعليم بغير ان تحتكر الحكومة المركزية امره وبغير ان تصبح المدارس ونظارها ومعلموها آلات صُمّاً في يدها تهيمن عليهم وتقصُّ اجنحتهم فلا يستطيعون الى المعالي سبيلا

كان من المحتمل ان تكون المركزية اخفَّ وطأة مما هي الآن، وكان من المحتمل ان يعلق الآمال على اصلاح عيوبها تدريجاً، فيما لو كانت وزاراتنا التي تقبضُ على السلطة بيدٍ من حديد، ثابتة، طويلة الاعمار. اما وهي عرضة للعواصف السياسية، وزوابعها، فأنها لا تعمر طويلاً، ولا تكاد «تتبلور» سياستُها — اذا صحَّ هذا التعبير — حتى تهبَّ عليها ريح صرصر فتذوب. وقد قال لورد كرومر مرة في احد تقاريره عن حالة التعليم في مصر «انهُ بين سنة ١٨٦٣ و ١٨٩٢ تعاقب الوزراء على المعارف تباعاً حتى اصبح عددهم ٢٩ وزيراً» واردف ذلك بقوله «وقد جرت العادة ان يقلب كلُّ وزير سياسة سابقه رأساً على عقب، ويبني على انقاضها سياسة اخرى تخالفُها، حتى اذا ما قارب البناء التمام، سقطت الوزارة، فجاء الوزير الجديد بمعوله وهدمه، وهكذا دواليك»

يقولون ان المركزية ضمانٌ للتجانس القومي، اي انهُ اذا تُركت الهيئات المحليـة، والمدارس الاهلية، تبثُّ نوع التعليم الذي تبغيه، فان شطراً من ابناء الامة يولُّون اتجاهاتهم الفكرية والثقافة نحو الشرق، وآخر نحو الغرب وآخر نحو الشمال وآخر نحو الجنوب. وفي هذا من المغالطات مالا يخفى على الباحث. اولاً لان تنويع التعليم لا يُفرِّق بين ابناء الامة، طالما، كان في حدود الاصول المعقولة، فانَّ التنويع في كل شيء سنة من السنن التي تجري عليها الطبيعة، في عالمي الاحياء والجماد. وثانياً لأننا كما قلنا نستطيع ان نتقي التطرف والمغالاة في هذا التنويع، بالجمع بين السياستين، المركزية والمحلية

ومن هذا يتبين انَّ سلاح المركزية مسلول على رؤوس القائمين بالتعليم، فلا يستطيعون حراكاً. وفي هذا اشدُّ ما يمكن من الافتيات على حرية التعليم التي هي ركن من اقوى اركان الديمقراطية

— ٣ —

﴿ المنهاج ﴾ نستطيع ان نتكلم طويلاً عن المناهج الدراسية، وما ينبغي ان يتوافر فيها حتى يقال عنها حقاً انها ديمقراطية، بيد اننا نقتصرُ الكلام على شرطين اساسيّين

الشرط الاول، هو ان المناهج لا يمكن ان تكون ديمقراطية مالم تتمشَّ مع العصر الذي هي فيهِ. لم يمض على العالم عصرٌ كعصرنا هذا، تعدو فيهِ المخترعات والاكتشافات عدواً سريعاً، فاذا لم تتعهد مناهج الدراسة بالتغيير والتعديل والحذف والزيادة والتبديل بغير انقطاع كان تفكير المدرسة في عالم[1] وتفكير الناس في عالم آخر. لانه ما معنى المناهج الدراسية؟ المناهج الدراسية ما هي الا وسيلة

(١) ويقول جون ديوي ان التجديد كالتوالد والغذاء لازم للحياة فكما ان التوالد والغذاء لابد منهما للحياة الفزيولوجية، فان التجديد المستمر كذلك لابد منه لحياة الجماعات

نستطيع بواسطتها الالمام بالحضارة وتطوّرها ، ومظاهر الحياة ، المادية منها والروحية ، السياسية والاجتماعية . المناهج الدراسية لا يمكن ان يقال عنهـا ديمقراطية ، ما لم نتوصّل بها الى تفهم البيئة التي نعيش فيها ، ما لم نتوصلْ بها الى كسب الرزق ، ما لم نتوصّل بها الى بناء نظام الأسرة على اساس متين من الراحة والطمأنينة والصحة والخلق الكريم ، ما لم نتوصّل بها الى المحافظة على سلامة ابداننا وعقولنا ، ما لم نتوصل بها الى الانتفاع بالمدرسة والحضارة الحديثة ، ما لم نتوصّل بها الى قضاء اوقات الفراغ في غير ما يضر بأجسامنا ويخلُّ بميزان وجداننا ، ما لم نتوصل بها الى خدمة اوطاننا

انني لا ابتعد عن الصواب كثيراً اذا صرحتُ برأيي الخاص في ان المناهج المدرسية في بلادنا وفي كثير من البلدان الاخرى ، اقلُّ ديمقراطية من الجرائد اليومية ، والمجلات الاسبوعية والشهرية ، ومن الراديو ، ومن دور التمثيل ، ومن دور الصور المتحركة ، مهما قيل في هذه كلها ، مهما وجه اليها من سهام النقد ومهما عددنا فيها من عيوب . وفي اعتقادي ان هذه الصحف والمجلات واذاعات الراديو ودور السينما والتمثيل ، اشدُّ اثراً من الناحية الديمقراطية من المدارس في حالتها الحاضرة . وأنها اقدر على تعليمنا مبادىء الحضارة الحديثة وشرح المبادىء الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأدبية والاخلاقية ، كما يفهمها القرن العشرون ، وذلك لأنها تتمشى مع هذا العصر وتنشر الثقافة العامة من غير تردد او تحفظ . ونستطيع ان نضرب مثالاً بالاشرطة السينمائية المصرية الناطقة ، فانها على حداثة عهدها وما تحتاج اليه من وجوه الاصلاح ، أحدث من كثير من المعاهد العلمية التي انشئت منذ خمسين عام الى مائة عام او اكثر ، ولا تزال ادواتها وتخت جلوسها ومناهجها لا تختلف كثيراً عما كانت عليه يوم انشائها

ونصيحتي للآباء ان يعوّدوا ابناءهم قراءة بعض الصحف والمجلات ، والكتب غير المدرسية ، وغشيان دور السينما ، وزيارة المعارض الفنّية ، لان المدارس على حالتها الراهنة لا تزال بعيدة عن الحياة الحقيقية ، وحاجات هذا الزمن

ولا يغرنّكم ما يهمس بهِ البعض الآن من تبذل بعض الصحف والمجلات ، وتهتك بعض الروايات ، فان الحكيم يتخيّر الصالح منها ، كما يتخيّر لأبنائه الجيّد من الطعام ، والحشيم من الثياب ، رغم ان الاسواق والمخازن ملأى بالاطعمة الفاسدة ، والثياب الزاهية الالوان ، المهتوكة الازياء ، التي يحمرُّ لها الجبين خجلاً

كثيراً ما نقرأ عن إخفاق التعليم الالزامي ، ونتحي باللائمة على المدارس التي أنشئت من أجله ، وزعم أن من شأنها ان تفسح مجالاً لهجرة سكان الأرياف الى المدن . سنرجىء الكلام عن التعليم الالزامي الآن ، ولكنا نريد أن نقول ان المنهاج الديموقراطي الذي يتمشى مع حاجات السكان ، لا يعمل على هـذه الهجرة المزعومة . ما الذي يجب ان يشمله منهاج المدارس الالزامية ؟ أبسط المسائل في مبادىء جغرافية مصر ، والعالم المتصل بها — المبادىء الزراعية — معلومات أولية

صحية — شيء عن البيع والشراء واعداد الحاصلات للاسواق العمومية — مبادئ صناعة اولية تمكنهُ من اصلاح آلاته الزراعية وأدواته المنزلية — الوقاية من الامراض المحلية الفتاكة (هذا بشرط ان تقوم مصلحة الصحة العمومية ووزارة الاشغال وغيرها من القيام بما عليها من اعداد أنابيب الماء ، والاكثار من النماذج القروية ، واقامة المستشفيات وغير ذلك) — شيء عن حقوق الفرد وواجباته — شيء عن الناس الذين يعيشون معهم ؛ عن طبيعتهم الانسانية ، عن هفواتهم وما هم عرضة له من الزلل والخطأ

يلاحظ انني لم اذكر شيئاً عن القراءة والكتابة والحساب ، لأنني اريد أن تكون هذه الموضوعات وسيلة لاغاية . وهذه الغاية هي فهم الموضوعات الكثيرة التي عددناها الآن . ان المنهاج يفرض فيهِ أن يكون مشوّقاً ، مرغباً ، متصلاً بحاجات التلميذ ، الى حدّ يجعله يقبل من تلقاء ذاته على تعلم القراءة والكتابة حتى يستعين بها على فهم هذه الموضوعات الجذّابة المتصلة بحياته

قال لي صديق انتدب لتفتيش المدارس الالزامية انهُ رأى التلاميذ وهم لا يكادون يعلمون شيئاً عن النظافة وطرد الذباب من عقد اجتماعاته فوق العيون ، لان هؤلاء يدرسون بالتطاويل مطولات الجغرافيا

ماذا يريد القروي من الحساب سوى القواعد الاربع البسيطة ، مع الكسور البسيطة المعتادة كال ½ و ¼ و ⅛ و ٣ قراريط من ٢٤ وكفى

والشرط الثاني الذي ينبغي ان يتوافر في المنهاج حتى يكون ديموقراطياً هو مراعاة الفروق الفردية . قلنا ان الناس لم يخلقوا سواءً في قواهم وكفاياتهم ، ومراتب ذكائهم واذا كان الامر كذلك فليس من الحكمة في شيء ان نجرّعهم جميعاً شراباً واحداً ؛ ومقادير منها متساوية . ففي المدارس الثانوية ، ليس من الديموقراطية في شيء ان يدرس كل طالب من طلبة الكفاءة فوق اللغة العربية الانكليزية والفرنسية ، والجبر والهندسة والحساب ، والنبات والحيوان والطبيعة والكيمياء والتاريخ والجغرافيا .. الخ من الطلبة من لا يستطيع القيام بهذه كلها دفعة واحدة . من الطلبة من يكفيه درس الحساب بدلاً من الموضوعات الثلاثة في الرياضة ، ويكفيهِ درس الطبيعة مع استثنائهِ عن الكيمياء

ومراعاة الفروق الفردية تؤدي بنا الى تخفيف المناهج للضعاف من الطلبة ضعفاً طبيعياً وتقويتهِ للاقوياء منهم فوق طبيعتهِ

مراعاة هذه الفروق تؤدي بنا الى انتقاء النابغين من تلاميذ القرى الذين تكلمنا عنهم وتعليمهم على حساب الدولة تعليماً عالياً وهذا لا يخيفنا بتاتاً فانها فئة قليلة لا تكاد تؤثر في الميزانية

وسأنقل ما اقترحهُ اخيراً مدير معارف العراق على حكومته فيما يتعلق بالتعليم في الارياف وستجدون في عباراته اشارة الى الشرطين اللذين تكلمنا عنهما ، وهذه هي العبارة : —

« ينبغي أن يكون التعليم (في الارياف) ذا قيمة اقتصادية ، متصلاً بحاجة الريف ، منوّعاً . فالبنت يجب ان يتناول تعليمها الانتاج في مواد الطعام على اختلاف انواعها . والصبيُّ يجب ان

يتناول تعليمهُ المبادىء الزراعية الصناعية ، وان يشمل شيئاً عن زراعة الخضروات ، وتربية الحيوانات والطيور الداجنة ، وتحسين نتاجها . اما القراءة والكتابة والحساب ، وان كان لامندوحة من ادراجها ضمن المناهج الدراسية ، الا انهُ يراعى ان تكون «وسيلة» لغاية لا غير اي ان يكون الغرض منها الاستعانة بها على تفهم المبادىء الزراعية والصناعية المشار اليها لا لمجرد القراءة والكتابة وحل المسائل مجردة عن العلاقة بهذه المبادىء . اما البنات فيجب ان يشمل منهاجها التفصيل والخياطة ، والطهي وصناعة الزبدة والجبن ، وأن يكون ذلك بأبسط طريقة ممكنة »

يمكن ان نلخص هذه الناحية من الموضوع من قولنا ، ان المنهاج الديمقراطي يمهد لنا سبل الحضارة والعيش في ابسط صورها ، لا ان يكون وسيلة من وسائل الزينة والحلية الخارجية مع كراهية العمل ايًّا كان نوعه ، كما انه يعنى بالعبقرية والنبوغ ، في الارياف والمدن على السواء ، ويفصل لكلٍّ الثوب الذي يلائمه

— ٤ —

﴿ طرق التعليم ﴾ من اهم اركان الديمقراطية في التعليم الطريقة التي يتخذها المعلم في تربية النشء . فاذا كانت الطريقة اوتوقراطية ، فان المعلم يكون الحاكم المستبد ، دكتاتوراً ، يملي ارادته على التلاميذ مملية ، يتقبل التلاميذ كلامه وحلوله وآراءه بغير مناقشة . يطبع لهم المذكرات و يؤلف الكتب ، وعليهم هم ان يوافقوا على كل ما جاء بها ، وأن يجيبوا عن اسئلة الامتحان ، طبق ما قاله المعلم ، وطبق ما جاء في مذكراته او كتبه ، والويل لهم اذا ابدوا آراءهم الخاصة المبتكرة . والويل لهم اذا صارحوه القول انهم على رأي مؤلف آخر . واذا اردتم الايقان مما اقول فسلوا طلبة المدارس الثانوية والعالية . ان هذه الطريقة الاتوقراطية المستبدة ، تدرب الطفل ، كما يتدرب الحيوان ، وتروّض الطالب ، كما يروّض عمال « السرك » القردة وسائر الحيوانات

اما الطريقة الديمقراطية فتترك الطالب يبحث عن الحقيقة العلمية في جو فسيح من الحرية ، وتجعل التلميذ عاملاً ، لا عاطلاً ، فاعلاً لا مستقبلاً ، متكلماً لا مصغياً . اما المعلم فيكون كمدير المسرح في دور التمثيل ، يدير العمل وراء الستار ويشد الحبال اذا استدعت الحاجة ، ولكنه لا يظهر بتاتاً على المسرح امام الحاضرين . ولعلّ ما قاله مرة امرسون في هذا الشأن ابلغ ما جاء به كاتب في الموضوع : « احترم الصغير فانهُ بشر مثلك وافسح له مجال التفكير ، والتعبير عن رأيه ، ولمس الحقيقة بيده . واذا كنت والداً فلا تكن له والداً فوق ما يجب ان تكون ، واذا كنت معلماً فلا تكن له معلماً فوق ما يجب ان تكون »

﴿ المعلم والديمقراطية ﴾ قلنا ان الطالب في الديمقراطية ، ينبغي ان يحاط بسياج من الحرية غير ان هذا لا يتم طالما كان المعلم مقيداً بأوامر ونواه وقوانين تأديبية لا حد لها ، وطالما كمّ فمه فلا يستطيع ان يناقش طلبته في كثير من الموضوعات العلمية او الاجتماعية او الاخلاقية ،

بدعوى انها تمس السلطات العليا ، او تقلب النظم الاجتماعية او تهدم العادات والتقاليد

اذا كان المعلم يحرَّم عليه مناقشة الطلبة في مادة التاريخ فيما يتعلق بظلم الحكام واستبداد الولاة خشية ان يعد هذا تطاولاً على سلطة او سلطات — واذا حرّم عليه في مادة التربية الوطنية او علم سياسة الدول بحث دستور وموازنته بدستور آخر خشية الاخلال بالنظام العام — واذا حرّم عليه ان يناقش طلبته في مادة الفيزولوجيا او علم النفس في العاطفة الجنسية وما يتعرض له النشء من الاخطار في جهاده العنيف مع هذه العاطفة ، بدعوى ان هذا مفسد للاخلاق ، — واذا حرم على المعلم في مادة الاخلاق ان يبحث في الانظمة القائمة في الزواج والطلاق ، بدعوى ان هذا خروج على التقاليد — واذا حرّم عليه ان يبحث في اضرار الفاشية او الهتلرية او البلشفية ومزاياها ، عيوبها ومنافعها ، ما لها وما عليها بدعوى الخوف من القلق والانقلاب الاجتماعي — واذا حرم على المعلم في مادة البيولوجيا بحث نظرية داروِن وارجاع الانسان الى اصله من ذوات الاربع او أي حيوان آخر ، بدعوى ان هذا مخالف لهذا وذاك — اذا حرّم على المعلم ان يستعمل حكمته في تدريس المناهج المقررة ، نظراً لعدم مرونتها ، او ان يقوم فيه بأسلوب غير الاسلوب المألوف الذي تسير عليه المدارس ، ويقره المفتشون — اذا حرّم على المعلم كل هذا ، وقيد بهذه السلاسل والاغلال ، فكيف يتسنى لنا ان يمرح الطالب في جو من الحرية ، وأنى له ان يترك المدرسة وهو تواق للحرية يسير على مبادىء الديمقراطية ؟؟

في عهد السلطان عبد الحميد رأى مفتش احد معلمي الرياضة يكتب على السبورة امام طلبته هذه المعادلة الجبرية وهي ع + خ = صفراً ، فأمر بالقاء القبض عليه وأودعه السجن بزعم ان تفسير ع + خ = صفراً ، هو عبد الحميد خان يساوي لا شيء

في اميركا تترك الحرية للمعلم في اتباع الطريقة التي يريد ، وله ان يختار من مواد المنهاج ما يراه ملائماً لمقتضيات الاحوال . ولست استطيع ان اقول ان المعلم الاميركي يبلغ من الحرية منتهاها غير انه في معظم الولايات يتمتع بحرية يحسدها عليه زملاؤه في كثير من انحاء العالم وقد جرت الديموقراطية بمعظم الولايات ان لم اقل كلها بالغاء كلمة مفتش inspector واستبدالها بكلمات اخرى منها كلمة « مساعد المعلم »

وربما يستغرب القارىء اذا علم ان المدرسة الاميرية في اصوان مثلاً لا يستطيع المعلم فيها ان يعلم التلاميذ نشيداً ، او يمثل التلاميذ رواية ، قبل ان يصادق عليها الديوان في القاهرة . ومن الغريب ان منشوراً بهذا المعنى صدر في يونيه سنة ١٩٢٦ وتبعه آخر بالمعنى ذاته في ابريل سنة ١٩٢٨

والديمقراطية في التعليم فوق هذه الحرية التي يجب منحها للمعلم ، تؤدي بنا الى احترام المعلم مهما كانت درجة التعليم التي يشتغل بها ، سواء أكان في المدارس الاهلية أم الاميرية . يذكرني هذا بواقعتي حال . الاولى لا بد ان نذكرها وهي التي طلب فيها احد اعضاء مجلس النواب منذ

ثلاثة اعوام ان يكون مرتب المعلم في المدارس الالزامية لا يزيد عن جنيهين ، والواقعة الثانية هي ان احد الوزراء السابقين دعا نظار المدارس الاميرية والاهلية منذ سنوات قليلة مضت ، فاستدعى اولاً نظار المدارس الاميرية ، وما علينا انهُ نسي ان نظار المدارس الاهلية ضيوف كان واجب اللياقة يقضي ان يعطى لهم حق الاولوية . غير أن ما يعنينا من المسألة ان نظار المدارس الاهلية ما كادوا يجلسون في اماكنهم في حضرة الوزير حتى قابلهم بكل عنف وهددهم بأشياء لا أذكر تفاصيلها فيما اذا اشترك احد تلاميذهم في مظاهرات ، ثم امرهم بالخروج فخرجوا فهل في هذا من روح الديموقراطية وحرية المناقشة واحترام المعلم في شيء ؟

— ٥ —

﴿ المدرسة والامة ﴾ الديمقراطية في التعليم تعاون بين المدرسة ووحدة السكان الذين انشئت المدرسة لأجلهم فعلى هذه الوحدة كالقرية او الكفر او العزبة ان تشيد بناء المدرسة ، وتقوم بعمداتها ، وتتكفل بمرتب المعلم كله ، او تستعين ببعضه من وزارة المعارف ، وان يكون للمستنيرين من الافراد في هذه الوحدة رأي في ادارتها والاقتراح بشأن مناهجها ، والتفاخر بنجاحها . ومن جهة الطرف الآخر يجب على المدرسة ان تكون مركزاً لاجتماعات القرية العامة ، وسماع النصائح الصحية والاخلاقية والادبية فيها ، وان تكون بعد انصراف التلاميذ مركزاً علميًا يجتمعون فيه لسماع الخطب والاناشيد والموسيقى ومشاهدة الصور الرمزية والخرائط بارشاد المعلم . وبذلك يشعر الاهلون ان على المدرسة لهم حقًا ويغارون على نجاحها ، وقد يستغنون عن مساعدة الحكومة لها[1]

تحتم الديموقراطية ان تكون المدرسة الثانوية مفتوحة الابواب لوالدي الطلبة واولياء امورهم وغرفة مدير الجامعة في اميركا مكتوب عليها ادخل بغير استئذان . اما في مصر فغرفة الادارة حصن حصين يحرسهُ الكاتب والباشكاتب ، والضابط والفراش . وقلما تستعمل الحجر الواسعة والقاعات الفسيحة لغير التدريس ، في حين ان من المستطاع استخدامها لالقاء المحاضرات واقامة حفلات السمر للحي الذي توجد المدرسة فيه

(١) في اميركا كليات زراعية تبعث مندوبها للفلاحين وتعينهم على قتل الحشرات الزراعية وانتقاء النوع وتحسين نسل المواشي وتتبع مزروعاتهم وتبعث لهم بالنشرات . وكليات التربية المنزلية (home economics) تساعد الاسر في كل ما يتعلق بالمنزل من العناية بالطفل والنظافة وترتيب الاثاث

زرنا مرة مدرسة قروية واردنا ان نعلم مقدار الارتباط بين المدرسة وسكان القرية . فقادتنا تلميذان الى عدة منازل لمشاهدتها ، والاطلاع على ما تقوم به المدرسة من الخدمات في المنازل كترتيب الاثاث والستائر والعناية بالمريض . وفجأة في احدى المنازل جلسنا جميعاً وكنا خمسين وجاءت ربة الدار وكانت مشغولة بغسل الملابس واخذت تحاضر فينا مستدلة على ما كان للمدرسة القروية من الاثر في منزلها ومزرعتها من تربية الدواجن وتحسين نسلها والعناية بطفلها وتحسين طرق الغذاء في الاسرة

طريقة فورونوف

وتأثيرها في الجسم والعقل

للدكتور شوكت موفق الشطي

﴿ طريقة فورونوف ﴾ (١) يقول فورونوف ان رسل الغدد التناسلية تؤثر في معظم اعضائنا أو بالاحرى في البنية جميعها ويزعم ان الغدة المذكورة توزع القوة وتنشط جميع اعضاء جسدنا الذي تعمل فيهِ الوف الملايين من الخلايا بلا انقطاع ولكل منها عملها الخاص . فالخصية تفرز الحييوينات المنوية لإلقاح البييضات والتناسل غير انها في الوقت نفسه تفرز مفرزاً متى سار في الدم حمل الى جميع النسج القوة والنشاط والشباب فقد وضعت الطبيعة في هذه الغدة وحدها مصدر الحياة وينبوع تجدد النسل . ويدعي فورونوف ان شيخوخة الإنسان هي شيخوخة خصيته وفتوته هي خصب خصيته او تطعيمه بخصية جديدة تفرز مفرزاً جديداً تقوى بهِ الاعضاء السائرة في الجسد . وقد اورد فورونوف لإثبات نظريته كثيراً من الشواهد فقد درس الامر اولاً في الحيوان ثم عاد الى درسه في الانسان فاذا خصي الديك ذبل عرفه وامتنع عن الصياح وفقد نشاطه وحماسه وخمدت غريزة السيطرة فيهِ واذا خصي كلب الصيد خسر كثيراً من صفاته الحسنة الدالة على ذكائهِ وانحط عن الكلاب الاخرى والامثلة كثيرة على ذلك يطول بنا عدها . اما الإنسان فلا تجيز القوانين خصاءه لدرس العوارض والتبدلات التي تطرأ عليهِ بعد الخصاء غير ان درس المخصيين في مصر واستانبول كان امثولة كافية لمعرفة هذا الأمر .وقد استفاد فورونوف اثناء اقامته في مصر من احتكاكه بهذه الفئة ودرس طباعها والتبدلات التي كانت تطرأ على اجسادها وعقولها بعد الخصي الفائدة الكبيرة فأوحى اليهِ هذا التأمل طريقته وكشف له الطريق الذي سلكه فقد لاحظ ان المخصي اذا خصي بعد البلوغ يتأثر شعر وجهه ويترهل خداه ويشابه منظره منظر النساء المسنات ويسمن بدنه ويجسم ثدياه او تضعف عضلاته ويسترخي قوامها ويلطف صوته ويقل نشاطه ويشيخ باكراً ويتجعد جلده في

(١) من محاضرة القاها استاذنا الفاضل امس وزميلنا اليوم العالم الاديب الدكتور مرشد بك خاطر موضوعها فورونوف والمجتمع البشري

الأربعين او الخمسين ويتوسف وتظهر على قرنيته دائرة الشيخوخة ويفقد دمه وبكلمة واحدة تضعف قوى اعضائه الجسدية جميعها وتخمد ذاكرته وينقص ذكاؤه وتخشن عواطفه ويستولي عليه الخوف فيفقد الجرأة

ولنا امثلة اخرى في الانسان يستطاع درسها اعني بها الاشخاص الذين يفقدون خصاهم لطوارىء تطرأ عليهم او لأمراض تصيبهم فتستدعي استئصال غددهم فان هؤلاء تعتريهم التبدلات المذكورة آنفاً . وكذلك القول في من يولدون وخصاهم ضامرة وفي الحياة عدد عديد من هؤلاء . ألسنا نرى من آن لآخر رجالاً مرط الوجوه مجعدي الجلود لطفاء الاصوات تبدو عليهم الشيخوخة الباكرة فهؤلاء جميعهم قد ذبلت خصاهم ونضب افرازها الداخلي او قلّ

ويستطاع اثبات الامر بضده فمتى كانت الخصيتان كبيرتين او احداها جسيمة او متى ولد الولد بثلاث خصي كان منظره معاكساً للمشهد الاول والمجلات الطبية تورد لنا آونة بعد اخرى مشاهدات من هذا النوع

فقد ذكر الاستاذ مارو Marro حادثة ولد في التاسعة من عمره نبتت لحيته وذرّ شارباه وكان منظره منظر شاب له من العمر عشرون سنة على الرغم من قصر قامته وكان نشاطه شديداً وعضلاته مفتولة وعقله يفوق عقل ابناء سنه وما ذلك الا لأن احدى خصيتيه كانت جسيمة للغاية فهال امره ابويه فذهبا الى من استلّ له تلك الخصية فلم تمر بضعة اشهر عليه حتى تناثر شعر وجهه وصغر حجم عضلاته وخفت قوى عقله وعاد ولداً مناسباً لابناء سنه . كل هذا يبين لنا ان الخصيتين لا يؤثر مفرزها الداخلي في الصفات التناسلية فقط بل في القوتين الجسدية والعقلية ايضاً . وما يقال في غدة الرجل التناسلية يقال ايضاً في غدة المرأة التناسلية او المبيض فاذا نزع المبيض والمرأة فتية شاخت بسرعة واذا كان المبيضان جسيمين سرعا نمو الابنة واحدثا اعراضاً شبيهة بما تحدثهُ الخصيتان الجسيمتان

وقد نشرت المطبوعات الطبيـة منـذ بضع سنوات صورة ابنة عمرها ثلاث سنوات واحد عشر شهراً كان منظرها شبيهاً بمنظر ابنة لها من العمر اربع عشرة سنة لان احد مبيضيها كان جسيماً . والشيخوخة في عرف فورونوف نوع من الخصاء لان الطبيعة تخصي الرجل والمرأة وتعاقب السنوات يصلب الغدد التناسلية فيعود منظر الشيخ شبيهاً بمنظر المخصي بما يتعلق بصفات جسده وعقله . بعد ان عرف فورونوف كل ما ذكر فكر في ان يعيض عن الخصيين اللتين تصلبتا وذبلتا وفقدتا وظيفتهما المجددة للشباب بخصية مأخوذة من خليقة فتية ولما كان الامر متعذراً في الانسان لان القوانين لا تجيز له التصرف باعضائه وهبتها ولو اراد ، فكر في الحيوان الاشد قرباً من الانسان بتركيب جسده وكريات دمه ، فكر في بعض انواع القرود ولاسيما البَعام (الشمبنزي) وبدأ يطعم الانسان بخصية هذا القرد فكان له ان دفع عن الانسان وقر الشيخوخة

نتائج طريقة فورونوف

بقي علينا الآن ان نبين نتائج هذه الطريقة اولاً في الجسد ثانياً في العقل ثالثاً في اطالة الحياة

يؤثر التطعيم في الجسد تأثيرات عديدة تبين بجلاء ما للمفرز الخصوي من الفعل العجيب فهو اولاً ينبه القوة التناسلية : وليس هذا بالامر الذي يرغب فيهِ الانسان عادة متى هرع الى الاختصاصي سائلاً اياه ان يطعمه بخصية قرد فتي لان الشيخ بعد ان يكون قضى حياة طويلة واكمل بها دوره التناسلي ينظر اعباء هذه الحياة التي تثقل كاهله فيرغب في زحزحتها عنهُ وقلما يفكر في التصابي والعودة الى مغازلة الحسان . واذا طالعنا الاحصاء الذي وضعه فورونوف رأينا ان الذين طعموا بغية استعادة القوة التناسلية لايتجاوزون ثلاثة في المائة على ان التطعيم لا يعيد هذه الخاصة الاَّ متى كانت خصيا الشيخ لم تبلغا من التصلب حدًّا اقصى لأن التطعيم لا يحيي الميت بل ينبه الحياة الذابلة

على اننا لانؤمن بدعوى فورونوف هذه تماماً ونعتقد ان الشيوخ يخفون رغبتهم الثانية وقلما نجد من يجاهر بها اذا استثنينا بعض الشعراء الذين يظلون يتغنون بما يخالج قلوبهم من الحب والتصابي والشاعر الفرنسي العبقري فيكتور هيغو اكبر مثال على ما نقول فان زهرة الحب لم تذو في قلبه حتى الثمانين من عمره

ويؤيد هذا القول ما جاء في كلام الجاحظ حيث يحدثك عن محمد بن عباد فيقول لك سمعته يقول « وجرى ذكر النساء ومحلهنَّ من قلوب الرجال فقال لمخاطبيهِ ألستم تعلمون اني قد اربيت على المائة فينبغي لمن كان كذلك ان يكون وهن الكبر ونفاد الذكر وموت الشهوة وانقطاع ينبوع النطفة قد أمات حنينهُ الى النساء وتفكيره في الغزل وينبغي ان يكون من عوَّد نفسهِ تركهنَّ مدداً وتخلى منهنَّ سنين ودهراً ان تكون العادة وتمرين الطبيعة وتوطين النفس قد حط من ثقل منازعة الشهوة ودواعي الباه

«وينبغي أن يكون من لم يذق طعم الخلوة بهنَّ ولم يجالسنَّ ولم يسمع حديثهنَّ وخلابتهنَّ للقلوب واستمالتهنَّ للاهواء اذا تقدم له ذلك مع طول الترك أن لا يكون بقي معه من دواعيهنَّ شيء وينبغي أن يكون من دعاة الزهد في الدنيا وسنحت نفسه عن السكن والولد وعن أن يكون مذكوراً بالعقب الصالح أن يكون قد نسي هذا الباب كله ان كان قد مرَّ منهُ على ذكر . ثم قال فإني بعد جميع ما وصفت لكم لأسمع نغمة المرأة فأظن مرة ان كبدي قد ذابت وأظن مرة أنها قد تصدعت وأظن مرة أن عقلي قد اختلس وربما اضطرب فؤادي عند ضحك احداهنَّ حتى أظن انهُ قد خرج من في فكيف ألوم عليهنَّ غيري» . ودليل آخر نقدمه ردًّا على دعوى فورونوف هو ما شاع عنه من أمر زواجه بفتاة في ريعان الصبا

لذلك نعتقد أن الشيوخ الذين عالجهم فورونوف لم يكاشفوه الاَّ بأمنية واحدة من أمانيهم فجعلوا

طلب النشاط الحيوي هدفاً أولاً لاعتقادهم بأنهُ متى تم لهم ذلك تحققت في الغالب اغراضهم الاخرى وقد أورد فورونوف شواهد عديدة بيّن فيها ان القوة التناسلية قد تنبهت تمام التنبه أثر التطعيم في أشخاص كانوا قد فقدوها منذ زمن طويل وكثيرون منهم تزوجوا في الثمانين من عمرهم ورزقوا أولاداً بعد هذه السن

﴿ خفة الانفضاج وأعني بهِ فرط السمانة ﴾ نرى حيث سرنا أشخاصاً يتجاوز وزنهم مائة كيلو يحملون حيث ساروا هذا الحمل الثقيل ولا يجدون الى القائه عنهم سبيلاً . ان هؤلاء تكون مفرزات غددهم الداخلية قد قلّت أو اختلت ولا سيما مفرزات خصاهم فطمت الخلايا الشحمية في أجسادهم على الخلايا الشريفة وحلت محلها فاذا جددنا فيهم هذا المفرز الخصوي بأن طعمناهم بخصية جديدة ترسل الى دمائهم هذا السائل المنبه خفت وطأة تلك الشحوم وفقدوا كثيراً من وزنهم وطرحوا عنهم ذلك الحمل الثقيل الذي القته الطبيعة على اكتافهم فان أحد مطعّمي فورونوف فقد في بضعة اشهر عشرين كيلو من وزنهِ والامثلة على ذلك عديدة

﴿ انقاص التوتر الشرياني ﴾ شرايين الانسان مرنة لينة غير ان مرور السنوات يصلبها ويقسيها وكذلك القول في الكليتين فتى صلبتا ارتفع توتر الدم في الشرايين واضطرَّ القلب الى مضاعفة عمله للقيام بارسال الدم في شرايين صلبة لا تساعده بمرونة جدرانها على عمله فيضخم ويتسع ويرتفع التوتر الشرياني وبعد ان يكون في الشاب المرنة شرايينه ١٣ يبلغ ٢٠ سنتمتراً ويتجاوز هذه الدرجة احياناً وهذا الامر لا مناص منهُ لأن العمر اشبه شيء حسب تشبيه بعضهم بالصدإ الذي يعلق بتلك العروق الدموية ، فاذا ما طعم الشيخ المتصلب وبعث ذلك الطعم بمفرزه المحيي في الدم ونبه الخلايا الشريفة دبت فيها روح الحياة والتجدد فلانت العروق وانخفض توتر الدم وهذه الحادثة التي لا يدركها غير الطبيب ولا يعبأ بها المرضى لأنهم لايفقهون مالها من الشأن اكبر دليل على ما للطعم الخصوي من التأثير في اعادة قوة الشباب لأن الانسان بشرايينه فاذا ما صلبت شاخ ولو لم يتجاوز الاربعين واذا ما كانت لينة بقي فتيًّا ولو تجاوز السبعين فاذا لم يكن للطعم من تأثير سوى هذا لَحقّ لنا ان ندعوه المنقذ الأكبر للشيوخ

﴿ قوة العضلات ﴾ الطعم يجري في العضلات روح الحياة فينشط الجسد ويقوى ويعود الشخص الى حياة الكهولة

﴿ تحسن حالة المصابين بضخامة الموثة (البروستاتة) والتهابها ﴾ — متى شاخ الانسان تضخم موثته وتعتريه اختلالات بولية قد تفضي الى السمامة فوته أو تضطره الى اجراء عملية جراحية تستأصل بها هذه الغدة ولا يخلو هذا العمل الجراحي من خطر

والتطعيم الخصوي يحسن حالة الموثيين تحسيناً شديداً ويزيل الاختلالات البولية التي تعتريهم ويخفف عنهم وطأة هذه الحالة المزعجة التي قد تتغلب في بعض الشيوخ على جميع الاضطرابات التي تصيبهم

أما تأثير الطعم في العقل فلا يقل عن تأثيره في الجسد لا بل يفوقه لأن خلية الانسان عقله فاذا كان مقعداً وبقيت له قواه العاقلة وظلّ نور دماغه مضيئاً يبعث بأفكاره الوضاءة التي اكسبها الاختبار الطويل سداداً فانهُ يظل سعيداً ولو حرم حياة المشاركة لأنه اذا تعذر عليه ان يشارك بني جنسه بجسدهِ الضعيف تمكن من مشاركتهم بعقله النير وكتاباته وافكاره والسواد الاعظم من الذين يطلبون الطعم على رأي فورونوف يطلبونه لهذه الغاية فاما أن يكونوا قد فقدوا الذاكرة فيأملوا أن يعاد اليهم ما فقدوه وأما ان يكونوا قد خسروا توليد الافكار وإحكامها وترتيبها فيرجوا ان يستعيدوا ما خسروه واما ان يكونوا قد عجزوا عن الاتيان بأخف الاعمال العقلية لأن خلايا دماغهم تكون قد عجزت عن الإنتاج فيهرعوا الى الطعم ليستعيدوا مقدرتهم على الاعمال العقلية . وفعل الطعم في هذه الحالة عجيب غريب فكم من المحامين عادوا الى كراسي المحاماة بعد ان كانوا قد اعتزلوا مهنتهم الحرة لتبدد افكارهم ولعجزهم عن المرافعة ولضياع ذاكرتهم . وكم من الاطباء الذين هالهم ما هم فيهِ من وهن القوى العاقلة وعجزهم عن استجماع افكارهم لتشخيص امراض مرضاهم وتوجيه المعالجة الفعالة اليهم فقبعوا في بيوتهم واعتزلوا مهنتهم واذا بهم بعد التطعيم يعودون الى مسرح الطبابة كأن حياتهم قد تجددت وكأن الشباب قد عاد اليهم . وكم وكم من الشعراء الذين نضبت قرائحهم وخشنت عواطفهم بعد ان كانت اشعارهم ترنح سامعيها وتسكر منشديها فاذا بهم يستمدون وحياً جديداً وينظمون شعراً طريفاً لم ينظموا اجمل منهُ وهم في زهرة حياتهم . وكم من المؤلفين والعلماء الذين اوقفهم وهن قواهم العقلية عن متابعة عملهم فكسروا القلم وقطعوا كل صلة بالكتابة والتنقيب فاذا بهم يعودون الى تدبيج المقالات الشائقة ووضع المؤلفات النادرة وكشف الكشوفات العجيبة . ولا عجب فاننا اذا القينا نظرة على حياة كل فرد من المتفردين النابغين رأينا ان اعظم الاعمال التي قام بها قد تمت في الزمن الذي كانت بهِ غدتاه التناسليتان نشيطتين ويقول متشنيكوف ان النابغة يفقد كثيراً من نبوغه متى خسر وظيفته التناسلية

فاذا ما اعيد الى الشيخ الحكيم الذي خبر الدهر وحنّكته السنون نشاطه المفقود الذي فقده كانت له قوة الشباب وحكمة الشيوخ وصفوة القول ان قوى العقل والجسم جميعها تتبدل تبدلاً غريباً بفعل الطعم

هل تطيل الحياة

لم يبق سوى الامر الاخير من هذا البحث وهو اطالة الحياة . اذا كان المفرز الخصوي الداخلي يؤثر هذا التأثير الحسن واذا كان المخصيون يشيخون قبل الاشخاص الاصحاء فانهم ولاشك يموتون قبلهم ايضاً واثبات الاول مستصعب على الانسان لانهُ يستدعي وقتاً طويلاً لم تجتزه بعد طريقة التطعيم الحديثة غير انهُ سهل على الحيوانات لأن حياتها اقصر من حياة الانسان

اما في الحيوانات فقد دلت الاحصاءات البيطرية على ان حياة الحيوانات المطعمة تطول . فقد طعم فورونوف كبشاً في سنته الثانية عشرة فعاش وهو ممتلىء نشاطاً حتى العشرين والسنة العشرون من حياة الكبش تعادل في الانسان المائة والستين لان شيخوخة هذا الحيوان تبتدىء في السنة التاسعة واقصى حياة يصل اليها لا تتجاوز الرابعة عشر فيكون الطعم قد اقصى الشيخوخة عن الكبش لانهُ بقي الى آخر ايام حياتهِ نشيطاً يقوم بوظيفتهِ التناسلية حتى الموت واطال حياته في الوقت نفسه زهاء خمس سنوات . والاختبارات من هذا النوع عديدة نضرب صفحاً عنها غير انها تبين بجلاء ان الطعم يطيل الحياة ايضاً

ذلك ما يقوله فورونوف عن طريقته غير ان المنقبين ابانوا ان النتائج ليست واحدة في جميع المبضوعين وانها تختلف من شخص لآخر

وقد ذكرت حديثاً الصحف الطبية والجرائد اليومية ما شوهد في شيخ طعم على طريقة فورونوف نثبته هنا للتفكهة ليكون بحثاً كاملاً . على اننا لا نعتقد بأن تطعيم خصية القرد الفتية تكسبه صفات هذا الحيوان كما اشاع اخصام فورونوف . ذكرت جريدة كورييري ديللا سيرا التي تصدر في ميلانو تفاصيل حادث عجيب وقع للاستاذ المتقاعد جان ساندور وكان له ٧٦ سنة من العمر . وجد الاستاذ المذكور ان بلوغ هذه السن يجب الأ يكون حائلاً بينه وبين الاستمتاع بما يتمتع بهِ الشباب وخطر له ان يُطعَّم بخصية القرود بحسب طريقة فورونوف في الاشباب وقد اجرى له هذه العملية الدكتور رينمس . وخيل بادىء ذي بدء انها نجحت الى ابعد حدود النجاح . الآ انهُ اتفق ذات يوم ان زار الاستاذ ساندور حديقة الحيوانات في بودابست ورأى القردة فيها فاصفرَّ لونه فجأة وأغمي عليهِ وخف الناس لاسعافه فلما افاق اخذ يصرخ ويصيح قائلاً ان حياته ستصبح كحياة هذه القرود وكانت دهشة القوم عظيمة حين شرع يقلد اصوات القرود وحركاتها . وعاش منذ ذلك اليوم ساندور عيشة القرود فلم يكن ينام في فراش بل يقضي الليل جالساً القرفصاء في احد اركان غرفته ولم يكن يأكل غير الخضر وتجلى ميله الى جوز الهند بنوع خاص . واقبل بعض العلماء يفحصونهُ وخيل الى بعضهم ان ما طرأ على الرجل ليس سببه الجنون وانما سببه الغدة التي ادخلت على جسده بالتطعيم

***

﴿ طريقة دوبلر Doppler ﴾ — بُحث عن هذه الطريقة في مؤتمر الاطباء الالمانيين الذي عقد سنة ١٩٢٨ في براغ والغاية منها استئصال الودي (السمباتي) بالطرائق الكيماوية بدلاً من الطرائق الجراحية التي لجأ اليها لوريش (Leriche) وتقوم هذه الطريقة بتخريب الالياف الودية حول الشرايين بمادة كيماوية كالكحول والنشادر . غير ان هاتين المادتين مؤذيتان ولذلك استعاض عنهما دبلر بمادة الايزوفنول (Isophénol) . ينتج من ملامسة هذا السائل لنسيج من النسج الحية

تقبُّض موقت في العروق يتبعه اتساعها اتساعاً شديداً في البيئة المجاورة . يبقى هذا التمدد ثلاثة اسابيع تقريباً فيطلي دوبلر عروق الحبل المنوي والغدد التناسلية بهذه المادة فتتوسع عروقها ويفضي ذلك الى نشاط الغدة ويؤول هذا الامر الى الإشباب. وطريقة العمل سهلة للغاية فيجرى شق مائل حذاء ثقب القناة المغبنية الظاهر ويجرد الحبل المنوي ثم يضرج بقطن أو شاش مبلل بمحلول الايزوفنول . ثم يفتح قيص الصفن المصلي وتجذب الخصية الى الخارج وتبزغ بزغاً دقيقاً ثم تطلى بالمحلول المذكور . ويطلى في المرأة الرباطان العريضان . وقد لوحظ أن النتائج في طريقتي فورونوف ودوبلر تكاد تكون واحدة وتفضل الثانية الاولى بكثير لانها أيسر عملاً وأقل مصرفاً. وقد جرّب الأستاذ سيمون من بطرسبرج (لننغراد) هذه الطريقة فاتضح له حسن تأثيرها . واليك ما شاهد في مبضوعيه: تحسنت الرؤية وزالت الكدورة الناتجة من الساد (الماء الازرق في العينين) ، ونقص من البصر الشيخي ونشطت الحالة العامة بعد أسبوعين من يوم البضع واستمر هذا النشاط شهوراً عديدة استعاد فيها الجسم صحته وعافيته وعادت الغريزة الجنسية الى الظهور بعد طول الغياب وقد استمرت هذه التفتية ثلاث سنوات

***

﴿ طريقة كاوازي Cawazz ﴾ تقوم هذه الطريقة بحقن باطن جلد الشيوخ بـ ٢—٣ سنتمترات مكعبة من مصل الدم الصادر من خصي حيوانات فتية وسليمة وتستند الى كثرة المرسل في الدم النازح عن الخصية ويمكن في هذه الحالة ان يؤخذ مصل دم أي حيوان كان على شرط أن يكون فتيًّا في أول البلوغ وسليما .وهذه الطريقة حديثة قال بها كاوازي من بولونيا سنة ١٩٣١ واجراها في باريس تحت اشراف ابن شارل ريشه وغوتيه وغي لاروش وغلاي لخمسة شيوخ من مأوى العجزة في ايفرى فاتضح للمراقبين أن مصل دم الخصية الراجع يعيد القوى والشبق ويحسن الوظائف العضوية ويزيد وزن الهزالى وغير ذلك من مظاهر الشباب . لم تدرس بعد هذه الطريقة درساً كافياً غير أن سهولتها وسرعة ظهور النتائج المستحصلة منها واستمرار النشاط اثرها قد يجعل لها مقاماً سامياً بين الطرائق المتبعة في الإشباب

ومن الوسائل المستعملة في تجديد الشباب والمستندة الى رسل الخصية وحفزها على النشاط تسليط الاشعة المجهولة على الخصيين لتنبيه خلاياها على الانقسام أو معالجتهما بالاستحرار (diathermie)

تلك هي الطرائق المستندة الى عمل الخصية وأثره في الوجود أثبتناها في هذا المقال الا ان ايسكولندسكي ينتقدها انتقاداً مرًّا ويقول ان تأثيرها لا أثر لهُ الا في مخيلة موجديها وان لا صلة لدعواهم بالحقيقة . وسوف نذكر في المقال أو المقالات القادمة طريقة ايسكولندسكي والوسائل الاخرى المشهورة اليوم

اساطين العلم الحديث

أينشتين

ALBERT EINSTEIN

أجمع اهل الرأي على ان اينشتين عبقريٌّ من الطبقة الاولى . وقد سلكهُ برنارد شو في نفر قليل من عظماء التاريخ وصفهم بقوله « بُناة الاكوان » . ويرى الكاتب العلميّ الانكليزي صليفن انهُ احد ثلاثة او اربعة فقط في تاريخ العلم ، يجلسون على القمّة مع الارباب

ان اينشتين عالِم طبيعيّ والركنان اللذان تقوم عليهما البحوث الطبيعية ، هما ركنا الرياضة والتجربة . والبحث في تاريخ العلم يسفر عن رياضيين ابرع من اينشتين ، ومجربين اكثر لباقةً وإبداعاً . ولكن الصفة التي رفعتهُ الى القمّة ، هي هذا الخيال الوثّاب الذي قلب بهِ نظرتنا الكونية رأساً على عقب . ان نظرية النسبية ، وهي اعظم آثارهِ ، هي كذلك اعظم المبتدعات في تاريخ العلم

ومما يدلك على صفة الابتداع او الابتكار فيها originality تهجّم طوائف من العلماء عليها ، في مراحل مختلفة عن تاريخها ، على حدّ قول الشاعر العربي « كفى المرء نبلاً ان تعدّ معايبهُ » . فبعضهم عارضها لانهُ لم يدرك مقتضياتها كلّ الادراك . وبعضهم نقم على رجل رأوا فيهِ عقلاً لا يتّسق وعقولهم . فنظرة اينشتين المبتكرة الى الكون لم تحيرهم فقط ، بل اغضبتهم ايضاً . خذ مثلاً على ذلك اعتراضاً نشرتهُ جماعة من علماء الالمان وفلاسفتهم قالوا فيهِ :— « ان موقعي هذه الرسالة يعتبرون ان اذاعة نظرية معرّضة اشدّ الاعتراض للنقد ، امر لا يتفق وكرامة العلم الالماني ، وانهُ لمن الهون أن تستخدَم جمعية العلماء والأطباء الألمان لتعزيز هذه المحاولة » . وفي هذا ما يدلّنا على ان وجوه الاختلافَ التي تمسّ شعور الانسان ، لا تقتصر على الآراء المتعارضة في الدين وادب النفس

ولكن الاعتراض الذي من هذا القبيل قد سكنت عاصفتهُ الآن . واصبحت نظرة اينشتين المجرَّدة الى الكون كلون الزجاج في المناظر يلوّن جميع المرئيّات ، وغدا علماء الطبيعية الرياضية ينظرون الى الكون نظرة اينشتين اليهِ . ولسنا نغالي اذا قلنا ان اينشتين بتغييره النظرة الكونية ، قد ادخل تعديلاً كذلك على طبيعة التفكير العلمي . وهذا أثر لا يستطيع ان يحدثهُ الاّ عبقريٌّ من الطبقة الاولى

ما اشد الوحدة التي يشعر بها عبقريٌّ من طبقة اينشتين ! انهُ لا يكره الناس ولكن المجتمع الذي يتجنبهُ ، هو المجتمع ، الذي يودُّ كل عاقل ان يتجنبهُ ، لو كان ذلك في وسعهِ . على ان الذين كانوا على صلة باينشتين في حداثته ، رأوا فيهِ هذا الميل الظاهر الى العزلة والعكوف على نفسه . تراهُ الآن يقف لمصوّري الصحف في رحلاتهِ العديدة ولا يبخل عليهم احياناً بالردِّ على اسئلتهم وممازحتهم ،

ولكنَّ هذه الملاءمة بينهُ وبين البيئة الاجتماعية ، في اوربا واميركا ، اقتضت منهُ جهداً عظيماً
كان في طفولتهِ بطيء النمو ، فتأخر نطقهُ ، عن العمر المعتاد بين الاطفال . فظنَّ والداهُ ان في عقله ضعفاً . يقابل ذلك ، انهُ — على ما يقال — لما رأى بوصلة وهو في الرابعة من عمره ، ارتجف واصيب بقشعريرة . فلما كان في السادسة من العمر انتظم في مدرسة اولية في مونيخ ، حيث كان النظام صارماً بل وحشيًّا في صرامته . هنا احسَّ للمرة الاولى في حياتهِ بالفروق بين الفقراء والاغنياء ، ولمسَ ما اوغرت بهِ بعض الصدور على الساميين — اي اليهود — فتضافر كل هذا مع بطئهِ في النمو العقلي وحيائهِ الطبيعي على توسيع الهوَّة بينهُ وبين الناس . فظلَّ طول حداثتهِ ، بعيداً عن ابناء جيله ، غير مختلط بغيرهم ممن يتقدمونه سنًّا ، فكأنهُ احسَّ من صغرهِ ، ان العالم دار لا تؤاتيه سكناها

***

تنبَّهت فيهِ حاسة الشعور بعظمة الطبيعة وجمالها ، على اثر زيارة جماعة من ابناء عمومتهِ الى جنوى . وصفوا لهُ عند أوْبتهم شمسها المشرقة ، ومشاهدها الطبيعية الفخمة ، ومرفأها والسفن فيهِ ، فاصغى الى وصفهم وكأن كلماتهم تحتوي على رؤيا رائعة لعظمة الله . فمال الى التعليم الديني ، وتاق الى ان يعيش معيشة الرهبان والنسَّاك . فازداد شعورهُ بالوحدة ، لانهُ لم يجد في بيتهِ من يفهمهُ ويعطف عليهِ
وكان والدهُ على جانبٍ من الثروة ، يفاخر بانطلاقه من قيود العقيدة اليهودية وشعائرها ، مجارياً عصرهُ في قبول الفلسفة المادية السائدة في اواخر القرن التاسع عشر . فحمل كلُّ هذا ابنهُ اينشتين على نظم اناشيد في مدح العزة الالهية . ثم وقَّع هذه الاناشيد ، وجعل ينشدها في بيته او في الشارع . وكذلك جعلت الموسيقى ، تحتلُّ رويداً رويداً ، مقاماً سامياً في نفسه . ولكن شوقهُ للتوقيع على الكمان لم يحفز الأ وهو في الثانية عشرة من العمر ، مع انهُ بدأ يتعلم التوقيع عليهِ قبل ذلك بست سنوات
الاَّ ان عبقرية أينشتين لم تتجلَّ في الموسيقى ولا في الادب ، بل في العلوم الرياضيَّة ، حيث ابدع الابداع كله . كان في صغره قد حل القضية الفيثاغورية وحده ، وقبل ان يبلغ في دراسته النظامية علم الهندسة المسطحة ، وقع كتاب فيها في يديهِ ، فأكب عليه . فقال في نفسه ، هنا مفتاح الحقيقة ، متمثلاً في اشكال كلها اتقان وجمال . ومن الهندسة انتقل الى فروع اخرى في العلوم الرياضية . وقد وصف هذه الفترة من حياته ، بأنها الفترة التي اصاب فيها اكبر قسط من النعيم . فلما كان في الرابعة عشرة من عمره ، ثبت لمعلميهِ ولرفاقهِ في الدراسة ، ان هذا الفتى الحالم عبقريٌّ رياضيٌّ . هنا اخذ الوهن يتطرق الى عقيدتهِ الدينية ، وبدأ احساسهُ بالرياء الذي يقوم عليهِ المجتمع يزداد دقة وإرهافاً
واذ كان في هذه السن ، انتقلت اسرتهُ الى سكنى ميلان ، فظل بضعة اشهر مطلقاً من قيود

الدرس . فوجد في ايطاليا فردوسهُ المنشود . كان يطالع ما طابت لهُ المطالعة ، ويختلف الى متاحف الفنون ، ويتنزه في الحقول وأرباض الجبال يكرع من خمرة الجمال الطبيعي ، فازداد فيهِ شروده الذهني ، وتعززت نزعتهُ الى الابتعاد عن ميدان الحياة العملي . هنا تخلى عن رعويتهِ الالمانية ، ورفض ان يتقيد بمذهبهِ الاسرائيلي .كان لا يطمع في المجد والشهرة ولا يبغي «النجاح» الدنيوي . كان مثلهُ الحرية المطلقة من جميع القيود ، والابتعاد كل الابتعاد عن العمل، والانصراف عن حمل أي تبعة الاَّ تبعتهُ نحو نفسهِ

ولكن ثروة الاسرة كانت آخذة في النقصان فاقتضى الدهر من اينشتين ان يتمَّ دروسهُ النظامية لـكي يعمل عملاً ما يرتزق منهُ . وكذلك بعث بهِ الى سويسرا ليحاول الانتظام في اكادمية زوريخ. فأخفق في الامتحان واضطر ان يبقى سنة في مدرسة تجهيزية يستعدُّ فيهِ لدخول الاكادمية ، وبعد سنة فاز بأمنيته

***

هنا اتى على اينشتين تحول ذهني غريب . فالبطء في نمو ملـكاتهِ الذهنية ، تحوَّل اقبالاً شديداً على المطالعة في مختلف العلوم ، فالتهمَ حقائق الطبيعة والبيولوجيا والجيولوجيا التهاماً ، واقتنع أن المشاهدة والتجربة هما مفتاحا الحقيقة . ولـكن موجة من الريب في العلوم الرياضية طغت عليهِ . فعجز كل احدٍ عن اقناعهِ بحضور الدروس الرياضية . فلما انقضت عليهِ ثلاث سنوات او اربع ، ادرك ان حشد الحقائق لا يفضي بهِ الى الحقيقة التي ينشدها ، وان ما يحتاج اليهِ ، انما هو البصيرة النفَّاذة . فوقف عند ذلك ، من المحاولات العلمية المختلفة موقف المشكك المرتاب . وظلَّ على ذلك بضع سنوات ، أقبل في خلالها على درس الفلسفة مفضلاً المرتابين منهم ، وفي مقدمتهم الفيلسوف الانكليزي هيوم Hume

في هذه الفترة من حياتهِ ، عاش عيشة انفرادٍ وعزلة ، مقتنعاً بالكفاف من الرزق ، وعمد الى نقص غذائهِ حتى يكفيهُ دخل يسير ، فأدَّى هذا الى اضطراب معدتهِ في ما تلا من حياتهِ . ولم يكن يجد سلوى لهُ الاَّ في الموسيقى

كانت نية والدهِ ، أن ينتظم ابنه في مكتب هندسي ، ولكن تحقيق هذا الاقتراح ، كان يقتضي أن يتصل اينشتين بالناس في ميادين العمل والمال ، فانصرف عنهُ . لذلك لما تخرج من اكادمية زوريخ جعل يردُّ على الاعلانات التي يطلب اصحابها معلمين للتدريس في معاهد مختلفة . وعين فعلاً في غير منصب واحـد ، ولـكنهُ عجز عن القيام بما طلب منهُ ، لهذا النفور الأصلي في طبعهِ ، من الناس . فلما كانت سنة ١٩٠٤ عين في خريفها ، وهو في الثالثة والعشرين من العمر ، في منصب صغير ، بمكتب «الپاتنتة» في برن عاصمة جمهورية سويسرا

كان اينشتين ولا يزال ، يرى رأي الفيلسوف سپينوزا ، ان العبقرية يجب أن تصان ، من

عواصف الحياة المالية . ولكنهُ يرى كذلك ان العلماء الشبان يجب أن يتقلدوا عملاً لاصلة له بعلمهم يرتزقون منهُ . لان شغل المناصب في معاهد التدريس مرهقٌ وقلما يفسح للعالم الوقت والمجال للتأمل والابتكار . والظاهر أن عملهُ في مكتب الباتنتة ، كان من نوع العمل الذي يطلبهُ . بل أنهُ في خلال عمله هناك أخرج للعالم سنة ١٩٠٥ نظريته في النسبية الخاصة . كانت المسألة التي ابتدع هذه النظرية لحلّها ، قد خطرت لهُ وهو في السنة الثانية في اكادمية زوريخ ، ولكن الحلّ ظل متعذراً عليهِ بضع سنوات . وليس هذا بالأمر العجيب ، متى عرفنا أن الحلّ الذي اقترحهُ ، كان عملاً قليل النظير في تاريخ الخيال العلمي وتطورهِ ، لا يقابله في العصر الحديث ، الاَّ ابتداع الهندسة غير الاقليدسية قبل مائة سنةٍ تقريباً

أما المسألة التي خطرت فكانت كما يلي : — ان المباحث التجريبية تثبت ان سرعة النور لا تتغير ، سواء اكان المشاهد ساكناً أم متحركاً . فكيف ذلك ؟

وقد وصل الى الحلّ الذي اقترحهُ عن طريق تحليل فكرة « التواقت » . فأدرك أن « التواقت » ليس مطلقاً . أي أن حادثتين تحدثان في وقت واحد ، في نظر مشاهد ما ، قد تسبق احداهما الأخرى في نظر مشاهد آخرٍ ، متحرك والاول ساكن ، او متحرك حركة تختلف عن حركة الآخر . وهذه الحقيقة ، تفضي حتماً ، الى تنقيح نظرنا في الزمان والمكان . فاذا افرغ هذا التنقيح في القالب الرياضي الملائم ، ظهر أن سرعة الضوء ثابتة لا تتغير

هذا هو المبدأ . ولكن مقتضيات المبدأ ، تفضي الى نتائج خطيرة جدًّا ، منها ان كتلة الجسم تزداد بازدياد سرعتهِ ، وان الكتلة تتحول الى طاقة ، والطاقة تتحوَّل الى كتلة

نشرت هذه النظرية سنة ١٩٠٥ فنبت لطائفة من اكبر العلماء المعاصرين ، أمثال لورنتز وبوانكاره وبلانك ، ان نجماً من القدر الاول قد لمع في القبة العلمية . الاَّ أن هذه الرسالة لم تستنفد قوة الابتكار في صاحبها . فما لبثت حتى تلتها رسائل اخرى في « الحركة البرونية » و « نظرية المقدار (الكونتم) » . فكأن تلك السنوات التي قضاها اينشتين ، متأملاً متحيراً ، مرتاباً ، آناً يؤمن وآناً لا يؤمن ، قد اعدّته حتى يطلَّ على العالم العلمي ، عبقريًّا كامل العبقرية . وقد وصف اينشتين تلك الفترة من حياته بقوله : — « كأن عاصفة قد انطلقت في رأسي »

قبل ذلك بسنتين كان اينشتين قد تزوج فتاة سربية الاصل تدعى ميليفا ماريك كانت زميلة له في الدرس وفي سنة ١٩٠٤ رزق منها بابنٍ . فاضطرهُ ذلك ان يرضخ لحكم الواجب عليهِ والرضا بعمله في مكتب الباتنته بدلاً من ان يطلق لنفسه العنان يطالع متى شاء ويفكر فيما يشاء . وفي سنة ١٩٠٩ قبل ان يشغل منصب استاذٍ من الطبقة الثانية في زوريخ . ولكن مهامّ هذا المنصب اقلقت باله لكثرتها وقد وصف محاضراته في تلك السنوات بانها « اعمال بهلوانية على المائدة » وانها ليست بصلةٍ ذهنية حقيقية بينهُ وبين تلاميذه كما يجب ان تكون . فندم ندامة شديدة على تركهِ مدينة برن ومكتب الباتنتة فيها

سارت حياتهُ في هذه الفترة سيرها المألوف بين رجال العلم. لقد اصبح معروفاً في الدوائر العلمية وها هي الدعوات تترى عليهِ لالقاء المحاضرات في معاهد مختلفة في اوربا، بل لقد عرض عليهِ غير منصب واحد يفوق منصبهُ في زوريخ، فقبل منصب استاذ في براغ ولكنهُ بعد سنة ونصف سنةٍ عاد استاذاً من الطبقة الاولى الى اكادمية زوريخ، فاذا شهرتهُ قد اجتذبت الى زوريخ طوائف كبيرة من الطلاَّب لتلقي العلم عليهِ، فكانت مهام منصبهِ مرهقة كلَّ الارهاق، وبوجهٍ خاص لانهُ كان ينفق ساعات الفراغ متأملاً في تعميم نظريتهِ النسبية الخاصة

بيد ان جامعة برلين كانت ترقب هذا النجم اللامع في سماء العلم، يزداد سنىً وتألقاً، فدعتهُ الى ان يتقلَّد فيها منصب استاذ من دون ان يعمل فيها عمل استاذ. اي انها عرضت عليهِ ان تقلّدهُ منصباً وتمنحهُ مرتباً وافياً للمضي في بحوثهِ. فقبل اينشتين ما عرض عليهِ وانتقل الى برلين في ربيع سنة ١٩١٤، فلم تنقض عليهِ سنة واحدة حتى اخرج نظريتهُ الثانية وهي المعروفة بنظرية النسبية العامة

***

قضى عشر سنوات يعدُّ المعدَّات لاتخاذ هذه الخطوة الجديدة الجريئة. كان قد احسَّ بأنها خطوة محتومة لامندحة عنها بعيد اصدار رسالتهِ في النسبية الخاصة سنة ١٩٠٥. ففي تلك الرسالة بيَّن اينشتين ان نواميس الطبيعة مستقلة تمام الاستقلال عن حركة الشاهد القياسية. فاذا تراءى للمشاهد تغيُّرٌ في ظاهرات الطبيعة شاذ عن نواميسها فليس ذلك لان تغيُّراً طرأ على الناموس بل لان التغيُّر طارىء على حركة المشاهد. ولذلك فالظاهرات البصرية (النور) والظاهرات الكهرطيسية تتغير بتغير مكان المشاهد المتحرك وبتغير اتجاه حركته ولا سيما بتسارع حركته. وقد كان قولهُ هذا غير مألوف فاقتضى تنقيح نظرنا الى الزمان والمكان

ثم خطر على باله ان هذا القول لا يكفي. اي انهُ لا يشمل كلَّ ما يجب ان يكون مشمولاً بهِ. فلماذا لا يطلق مثلاً على جميع انواع الحركة. وقد لا يدرك القارىء مقام هذا السؤال في تاريخ العلم الحديث. ونحن لا نعلم هل خطر على بال احدٍ من معاصري اينشتين. وانما نعلم انهُ اذا كان قد خطر فعلاً على بال أحدٍ، فانهُ ولا ريب قد أهمل كلَّ الاهمال، اذ لا نجد أثراً لهُ في بحث أحدهم. لان الردَّ عليهِ كان يقتضي نظرة جديدة الى الكون، والجاذبية، تختلف عن النظرة المألوفة السائدة. ولم يكن عند اينشتين أركان يبنى عليها الاَّ الحقائق المعروفة. فانه لم يجرِّب تجارب في الخفاء. بل لعلهُ لم يجرب تجارب على الاطلاق. ثم ان الاساليب الرياضية التي احتاج اليها في بحوثهِ لم يبتدعها كما فعل نيوتن بحساب التمام والتفاضل. بل تعلمها شأنهُ في ذلك شأن سائر الطلاَّب. ورسالتهُ التي نشرها سنة ١٩٠٥ فهمها سائر العلماء كما فهمها هو

ولكنهُ كان يختلف عن سائر معاصريهِ في خيالهِ الألمعيّ الوثَّاب

في هذه الرسالة الثانية، التي قرَّر اينشتين فيها فيما قرَّره، أن الجاذبية ليست الاَّ صفة هندسية

من الكون الزماني المكاني space-time continuum قفز اينشتين الى المكان الاول بين علماء عصره ، حتى أصبحت الصحف ، التي لا تعنى بعويص المسائل العلمية ، تذيع كلَّ ما يتصل بهِ في صفحاتها الاولى . فانهُ ما لبثت ان وضعت الحرب أوزارها ، حتى أعلن انجماعة من علماء الانكليز قد أعدَّت المعدَّات لامتحان أقوال اينشتين في أثناء كسوف الشمس في ٢٩ مايو سنة ١٩١٩ فذهب وفد منها الى شمال البرازيل وآخر الى غرب افريقية . فأيد الرصد ما قالهُ اينشتين . وأصبح من يومئذٍ على المسرح العلمي العالمي في ملتقى الانوار . ومع هذه الشهرة الواسعة لا يستطيع الكاتب ان يقول ان نظريتهُ قد فهمت فهماً واسع النطاق لان صعوبتين تحولان دون ذلك . أولاهما فنية وهي وجوب الالمام بالرياضة العالية لفهم رموزها . وثانيا أن الصورة الكونية التي ترسمها غير مألوفة

لقد تغيرت نظرة اينشتين العلمية . فهو في سنة ١٩٢٠ غيره في سنة ١٩٠٠ لما كان في زوريخ لا يعتمد في العلم الاّ على التجربة . بل أنهُ صرح في محاضرة القاها سنة ١٩١٨ ان الشأن الاول في الاكتشاف العلمي للبداهة . فعندهُ ان بداهة العالِم ، في اكتشاف نواميس الطبيعة هي من قبيل بداهة الفنان . ثم تقابَل الحقائق التي تستنتج من هذه النواميس بالحقائق المشاهدة ، وبذلك تمتحن بداهة العالم . فأما ان تؤيد وأما أن تنهار . والأصل الذي تنبع منهُ عملية الابداع والخلق في العالم والفنان هو الشعور الديني

انهالت على اينشتين بعد ان وضعت الحرب اوزارها الدعوات لحضور المآدب والحفلات والقاء المحاضرات ومقابلة الصحافيين والمصورين ، واتسع نطاق بريده اتساعاً عظيماً . ومع ان هذا لم يتفق ونزعته الخاصة التي ظهرت في حداثته في مظهر ميله الى العزلة ، الاّ انه لم يتجنبه كل التجنب لسببين : فهو يعتقد ان رجالاً مثله ، لا تعرف بحوثهم الحدود القومية ، لا بد ان يكون لهم شأن عظيم في التقريب بين الامم المتعادية ، فهم سفراء السلام والصداقة بين الشعوب . كانت « دولية العلم » في نظره غاية ، يقضي عليه الواجب نحو الانسانية ، ان يبرزها للناس . وقد كان اول العلماء الالمان الذين زاروا عواصم الدول التي كانت معادية للالمان في الحرب . وقد لقي في لندن عند ما زارها سنة ١٩٢١ ترحيباً عظيماً على لسان السر ارنست باركر في حفلة الترحيب بهِ في جامعة لندن

وعلى ذلك سلم اينشتين بنصيبه من الارهاق والسآمة في هذه الحفلات والدعوات خدمةً لهذا الغرض النبيل . أما السبب الآخر فهو اقتناعه بوجوب خدمة القضية اليهودية . ففي سنة ١٩١٩ اجتمعت طائفة من مفكري اليهود في مطعم ببرلين للبحث في عقد مؤتمر يهودي ، فحضر اينشتين الاجتماع ، وجلس مصغياً كل الاصغاء لما قيل فيه . فاقتنع بما قيل . وزال ما كان معروفاً عنهُ من التعالي ، عن الخوض في سبيل جنسه . وأصبحت النزعة اليهودية ، في نظره حقيقة حية ولكنهُ رأى ببصيرتهِ النفاذة ، المخاطر التي تنشأ عن تشجيع النزعة اليهودية ، كنزعة قومية . فكان جلُّ عنايته موجهاً الى الناحية الثقافية

وعناية اينشتين بهذه المسائل العامة تعلل لنا حبه للسفر . فقد زار حتى الآن معظم بلدان اوربا وأميركا الشمالية وأميركا الجنوبية والشرق الادنى . وهو يعلق شأناً خطيراً ، بفهم الفروق بين حضارات الشعوب المختلفة وثقافاتها . وله يومية دوّن فيها في خلال اسفاره ، ما استرعى نظره من المشاهد الطبيعية والاجتماعية وأثرها في نفسه

وهو بعد كلّ هذا الثائر الحقيقي . نعم هذا الرجل المسالم ، المحبّ السلام ، الداعي اليهِ ، ثائر كبير . ثائر في ميدان العلم . بل هو يعيش في ثورة دائمة على الصور الكونية القديمة ، على الحقائق المعروفة ؛ بل على نظرياتهِ هو ، وهو ادعى ما يكون للعجب. اخرج نظريتهُ في النسبية الخاصة هادماً بها بعض الآراء والاوليات القديمة الراسخة ، ولكنهُ لم يقنع بهذه الثورة الصغيرة ، فاخرج نظريتهُ في النسبية العامة التي تناولت في نتائجها الفلك والطبيعة ، وبنى بها كوناً يختلف عن الكون النيوتوني وهدم بها في نظر بعضهم، بعض ما اثبتهُ في نظريتهِ الاولى . كان الكون في نظريتهِ الاولى كوناً ساكناً ينتهي ولكن لا حدود لهُ . فما كاد الاب لمتر يخرج نظريتهُ في «الكون الآخذ في الاتساع» حتى تخلى عن فكرة السكون والاستقرار في الكون مسلماً بفكرة الحركة والاتساع . ولكنهُ لم يقف عند هذا الحد . فنسبيتهُ العامة فسرت تفسيراً معقولاً الجاذبية . ولكنها لم تفسر « المجال الكهرطيسي » فابتدع اينشتين نظرية جديدة لتوحيد الظاهرتين . ولتحقيق هذا نقح المعادلات التي انطوت عليها نظريتهُ الاولى

من الثورات ثورة تفيد وثورة تضر . ولكن طالع اينشتين كان مرتبطاً بكوكب السعد . ففي التاريخ علماء كبار لم يفوزوا بشهرتهم الاّ بعد جهاد عظيم ودهر طويل . ومنهم من لم يعرف قدره الاّ بعد مماته . على حدّ قول الشاعر العربي « لا يعرف القوم الفتى الاّ متى مات فيعطى حقهُ تحت الثرى » . ما اكثر العلماء الذين ماتوا مجهولين ! ولكن اينشتين فاز هو ونظرياته بالشهرة ، وهو لا يزال في مستهلّ كهولتهِ . ففي خلال عشرة أعوام ، رفع هذا العالم الشاب الى مستوى الاعاظم — الى مستوى كوبرنيكوس وغاليليو ونيوتن . بل هو في نظر بعضهم نصف اله . فكيف نعلل كلّ هذا !

لا تعليل وافي لهُ الاّ بطبيعة عبقريتهِ . عبقرية اينشتين المؤلفة من عناصر مختلفة ومتناقضة :— ثورة على التقاليد وعدم التقيّد بها — ملكة للنقد الصائب وبوجه خاص، لنقد نفسهِ ونظرياته — عدم اكتفاء دائم — حبّ الهدم والعناية بالبناء — نظرة شاملة تتناول جميع نواحي الموضوع وترمي الى تفسير عام شامل بتصريح علمي واحد ، تخدمها مقدرة عجيبة في الرياضة العالية . انهُ لا يسمح لحائل ما أن يحول دون استرسالهِ في تفكيره الرياضي الطبيعي مع انه يعترف انه في مباحثه الاخيرة ، قد بلغ منطقة للاعتبارات الفلسفية والفنية شأن كبير . هنا حدود التكهن العلمي . وسواء خرج اينشتين من هذا التيه ، بآراء تساوي نظرياته السابقة ، او لم يخرج الاّ باحكام اقرب الى الصوفية منها الى العلم كما نفهمه ، فان له من مباحثه السابقة وأثرها في توجيه الفكر العلمي الحديث ما يجعله من جبابرة الفكر في التاريخ

التربية والتعليم

عند قدماء المصريين

للدكتور حسن كمال

ان موضوع اليوم وافر المادة كثير التشعب يصعب الالمام به في مقال واحد لكن رغبةً في حصره والاحاطة بأهم نواحيه رأيت ان اقسم بحثي الى فصول تمكن القارىء الكريم من الالمام بالموضوع بكل سهولة وسرعة . . وهي نظام التدريس في العهد الفرعوني ثم الادوات الكتابية ثم نصائح القوم التي كانوا يوجهونها الى تلاميذهم ثم الخطابات التي كانت تدرّس كنماذج تحتذى لتعاليم القوم بشأن اكرام اساتذتهم واخيراً الآثار العلمية التي تركها لنا قدماء المصريين

ومعظم معلوماتنا عن التربية والتعليم عن هؤلاء القوم يرجع الى ما ورد في نصوصهم في القراطيس البردية والالواح الكتابية والشظايا الحجرية التي كتب عليها تلاميذ المدارس مقتطفاتهم لاساليب الكتابة الرسمية standard والتعليمية didactic وذلك على الاخص في عهد المملكة الحديثة (١٥٥٥ — ٩٤٥ ق . م .) ونحن نتقدم بالشكر الى هؤلاء الطلبة الذين كتبوا ونقشوا مراراً وتكراراً تعاليمهم المدرسية فوصل الينا جانب كبير منها استدللنا به على كثير من معلومات القوم اللغوية والعلمية واستعرفنا بوجه التقريب على مناهج التعليم التي كانت متبعة عندهم

نظام التدريس في العهد الفرعوني

يظهر ان الدراسة كانت مقسمة وقتئذ الى قسمين دراسة اولية ويقابلها عندنا دراسة الكتاتيب ودراسة اعدادية او تخصصية . اما الدراسة الاولية فتتلخص في تعليم القراءة والكتابة وبعض الآداب القديمة وقد استعمل القوم لتمريناتهم الكتابية في الكتاتيب كِسَر الفخار وشظايا الاحجار لانها عديمة الكلفة متجنبين بذلك القراطيس البردية الغالية الثمن

ومعلوماتنا عن كتاتيب تلك الازمنة قليلة لكنها تفوق غيرها نسبيًا . وقد اكتشفت بقايا لاحدى هاته الكتاتيب او المدارس الاولية ملحقة بمعبد رمسيس الثاني بالاقصر المعروف بالرماسيوم والواقع على شاطىء طيبة الغربي . وهذا الكتّاب كان ضمن ادارات رسمية ملحقة بالمعبد المذكور تحيط به من ثلاث جهات . وبالقرب من الكتاب عثر على تلٍّ وشظايا حجرية استدللنا بالنقوش

المكتوبة عليها ان طلبة ذلك المعبد كانوا يتعلمون على الشظايا المذكورة طريقة الكتابة والقراءة ثم يلقونها جانباً . وبفحص عبارات تلك النقوش وجدت عبارة عن مجموعة لآداب قديمة وحديثة . ن الآداب القديمة نصائح الملك امنمحعت الاول (١٩٥٥ — ١٩٦٥ ق . م) وحكم العالم دواوف Duauf (حوالي عام ٢٣٠٠ ق.م) ومدحة النيل .. ومن الآداب الحديثة الشيء الكثير

ووردت منتخبات الآداب القديمة المذكورة مدونة بنصها الكامل في كتابين مدرسيين يعرفان الآن باسم قرطاس ساليير وقرطاسي انسطاسي [١] كانا يستعملان بمدارس منف على الارجح ويكونان الجزء المهم من منهج التعليم الاولي وقتئذ . والشظايا الحجرية المذكورة كانت تحوي مقتطفات من هذه القطع . ولا يبعد ان هذه المنتخبات كانت تدرس كمحفوظات لكل طفل وقتئذ

وبعد الفراغ من الدراسة الاولية او الكتاتيب ينتظم الطالب في التعليم الاعدادي . وهذا يتلخص في الاندماج بشكل « كاتب » في لغتهم او « مساعد » في عرفنا وذلك في بعض الادارات . وهناك يتلقى الطالب علومه الاعدادية من موظف قديم يتعهد بالاشراف عليه اشرافاً تاماً ويتكون التعليم في هذه المرحلة من كتابة لنماذج موضوعات انشائية مسهبة خلافاً للمختصرة التي كانت خاصة بالمدارس الاولية . وقد عثر على بعض من هذه القراطيس التي كان المدرس يصحح على هامشها الاخطاء الهجائية دون التعبيرية التي كانت احياناً ركيكة التركيب خالية من المعنى . ومنه استنتجنا ان هذه الكتابات كانت تمرينات في الخط ليس الا . ولكن هناك قراطيس مدرسية اخرى عديدة يستدل منها على ان الطالب كان يتلقى العلوم من جهة ويتمرن على المخاطبات التجارية ومادة الهجاء من جهة اخرى ومعلوم ان مادة ضبط الهجاء ليست بالهنة الهينة اذ لا توجد طريقة كتابية يسهل الوقوع في اخطائها مثل الخط الهيرغلفي . وتتجسم في قرطاس هود [٢] وموسكو الدقة العظيمة التي كان الاساتذة يتبعونها في تلقين الطلبة لمعرفة اصول الكتابة المصرية ولا بد ان امثال هذين القرطاسين كانت موجودة في المدارس الاخرى التي من طراز معبد الرماسيوم . واليكم ترجمة عنوان احد الكتب المدرسية المعروف بقرطاس هود والخاص بمادة ضبط خط الهجاء : — « طريقة التعليم التي تثقف العقول وتنور الجاهل وتفهم الطالب جميع الكائنات التي خلقها (بتاح) وكتبها ؟ (تحوت) من سماء ونجومها وارض ومحتوياتها وما تتمخض عنه الجبال وما ينهمر من البحار وكل ما تضيئه الشمس وتنبته الارض « تأليف » كاتب الكتاب المقدس في منزل الحياة (امنمؤب) بن (امنمؤب) »

« ومنزل الحياة » عبارة اطلقوها على المدرسة او دار التعليم . وهي توضح عظم منزلة العلم عند هؤلاء القوم لانهم شبهوه بالحياة تمييزاً له من الجهل الذي اعتبروه كالموت . وعنوان الكتاب المذكور يشعر بان محتوياته تشمل جميع العلوم مع انها لا تحوي سوى قوائم مطولة لاسماء دارجة واخرى غريبة

---

(١) Pap. Sallier II & Pap. Anastasi VII

(٢) (Pap. Hood) Maspero Etudes Egypt. II. 88

مقسّمة تقسيماً اصوليًّا فهي تبدأ بالسماء وما تحويه مثل « سماء شمس قمر نجم برج الجوزاء الدب الاكبر الجبّار سحاب عاصفة فجرٌ دجى شمس ظلٌ .... شعاعُ الشمس » وتلي ذلك اسماء المياه والحقول ثم ستّ مجموعات لاسماء الافراد تشمل احداها الفاظاً كالآتية : « معبود . معبودة . ميت . ميتة ملك . ملكة » وغير ذلك . وقائمة اخرى تحوي الفاظاً « للوظائف الكبرى والقاب كبار رجال الدين واساطين العلم ثم قائمة بأسماء الوظائف الصغيرة والحرف المختلفة ثم مجموعة بالطوائف الآدمية . ثم قائمة بأسماء رتب الجيش ثم جدول بالاقوام الاجانب واسماء الاماكن والبلدان

والقصد من وضع هذا الكتاب هو افهام الطالب ستة وتسعين اسماً لمدن مصرية واثنين واربعين اسماً للمباني واجزائها . كذا عدة مصطلحات للارض والحقول ومأكولات الانسان ومشروباته ومن هذه ثمانية واربعون اسماً للحوم المشوية واربعة وعشرون اسماً للمشروبات وثلاثة وثلاثون نوعاً للحم . وبالرغم من تلف الجانب الاخير من هذا القرطاس امكننا ان نعرف انه كان يشمل قوائم باسماء الطيور والأنعام وغيرها . ومنهُ يتضح ان هــذا الكتاب هو في الحقيقة أقدم معجم للغة المصرية القديمة جمع وصنف بعناية كبيرة بواسطة الكاتب (امنموﭖ) ليظهر للعالم محتويات الكون مقـدماً بذلك تشكراته الى المعبود (پتاح) و (تحوت) بأسلوب بسيط متواضع قصد ارشاد الطالب الى معرفة طريقة كتابة كل كلمة على حدتها

واعترضت طلاّب العلم الاولي والاعدادي عقبة معرفة الالفاظ الاجنبية الدخيلة في المصرية القديمـة والتي تنتمي الى اصل أسيوي وبربري (أي من شمال افريقيا) وسوداني . خذ مثلاً ما أوردهُ الأستاذ « ماكس مولر » أن احـد التلاميذ في عهد الاسرة الثامنة عشر (١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م) كان يجهد نفسه كثيراً على السبورة في معرفة أسماء قبائل الخفتيو Kheftiu [1]

واهتم القوم بتعليم أطفالهم أسلوب الكتابة الرشيد فألزموهم بنسخ نماذج كثيرة لخطابات متباينة الموضوعات وكذا خطابات تحوي نصائح وتحذيرات خاصة بالعلم في شكل مراسلات متبادلة بين طرفين وأطلق القوم على هذه الكتابات اسم « علم الانشاء » . وعليه فالمصريون هم أول من أوجد هذا العلم وأجاده . وكثيراً ما حوت هذه الخطابات اسم الطالب ومعلمه باعتبارهما طرفين متساويين في المنزلة والثقافة . وفي بعض المراسـلات نرى ان الطالب يصف نفسه بالكسل والفساد ويقدر لنفسهِ قصاصاً يعادل المائة كلمة مثلاً

ومدرّسو التعليم الاعدادي موظفون متباينو المناصب من كاتب مالية الملك الى « كبير مسجلي الملك » الى « كاتب المصنع الملكي » وهكذا . وجاء عن أحدهم انهُ عُهد اليهِ في القيامُ بأعمال بمقبرة رمسيس التاسع (حوالي ٩٥٠ ق . م) ومع ذلك تمسك بمهنة التدريس فكان يلقن تلاميذهُ العلم بذمة صادقة وضمير حيٍّ . وشظايا الاحجار المتخلفة عن صخور ذلك القبر دلتنا على أن تلميذاً نقش

(١) Max Muller, Mitt der Vordreasiat gesh V. pp 88

عليها وقتئذٍ خطاباً أنموذجيًّا وقصيدة عتيقة من عهد رمسيس الثاني (١٢٩٢ — ١٢٢٥ ق . م) ودعاء لمظلوم . وان المدرس صحّح اخطاء ذلك التلميذ حيثما وجدها

***

ومنذ أقدم العصور الفرعونية يجد الباحث عناية شاملة بالعلم في جميع فروعه على مدى الدهر . فمنزلة الكتّاب — وهؤلاء يقابلهم عندنا الموظفون المتعلمون — كانت دائماً رفيعة بدليل قولهم « ان الكتابة والكتب تجلب السرور والثروة » . وكانت المدارس اولاً تابعة للسرايات الملكية وأورد الأستاذ (سيته) ان أحد ملوك مصر الأول كان عالماً بالكتابة [1] . أما مدارس المملكة الحديثة (١٥٥٥ — ٩٤٥ م ٢ ق.م) التي وصلنا منها الشيء الكثير فيظهر انها كانت على نظام مختلف لان تعدد دواوين الحكومة وضخامتها وقتئذٍ تطلبت موظفين فنيين لادارة شؤونها وعلى الاخص الشؤون المالية . وللحصول على مثل هؤلاء الموظفين كان يتحتم تعليمهم اولاً بالمدارس الاولية ثم الحاقهم بعد ذلك تحت التمرين مع موظفين اكفاء . وأخبرنا رئيس كهنة آمون المدعو (بك نخونس) انهُ مضّى من السنة الخامسة الى السنة السادسة عشر من عمره يتعلم من « رئيس اسطبلات جلالة الملك » بعد ذلك التحق بمعبد آمون في منصب كهنوتي وضيع وعبارة « اصطبلات جلالة الملك » تعني هنا على الارجح « مدرسة تدريب الخيل » — « او مدرسة السواري » وعليهِ فالكاهن المذكور اضطرّ ان يمضي حوالي الاحدى عشرة سنة في التعليم الاولي والاعدادي بذلك المعهد كي يتمكن من النهوض بأعباء عمل كهنوتي [2]

والآن نذكر ان صفة الكاتب التي تتردد دائماً في التاريخ المصري القديم تتفق في اوصافها واستعمالها مع «الموظف المتعلم» .ولا بد ان الرغبة في التوظف كانت شديدة كما هي الآن لان المتعلمين كانوا يعفون من الخدمة العسكرية والسُّخرة .ولفظة « كاتب» تطلق على كل موظف من مسجل بسيط للحيوانات الى العالم والشاعر العظيم مثل بتاؤر . والترقي من وظيفة الى اخرى كان بالكفاءة والامانة والذمة .لذلك كثيراً ما نشاهد ان الموظف بعد اختباره ككاتب بسيط يرتقي تدريجاً حتى يصبح حاكماً لقرية (او عمدة في عرفنا) ثم حاكماً لقريتين ثم مديراً لمديرية وهكذا حتى يصل الى المرتبة التالية لمركز فرعون .كما يستدل على ذلك من ترجمة حياة الكاتب (امتن) Ameten الذي عاش في حكم الملك سنفرو (اسرة ٤ — حوالي ٢٧٢٠ ق م) ومقبرة امتن هذا كانت في ابي صير ثم نقلت الى دار تحف برلين . وعليهِ فطائفة الكتاب كانت تمثل طبعاً الموظفين المتعلمين المثقفين . واشترك النسوة في هذا الشرف فصار منهنّ الموظفات كالرجال مما يشير الى الدرجة العالية التي بلغها مستوى التعليم في مصر القديمة . ولا يُعهد مثل ذلك الآن الا في ارقى امم الغرب مدنية وحضارة

ولا بدّ ان النظام بالمدارس كان شديداً . فلم يكن يحتمل من أي طالب ان يطيل مدة بقائه بالمدرسة

(١) Urk I 60. 8. (٢) Inscriptions of Statue of Becknechons Mus. Munich.

عن الحد المعتاد . وقد جاء بقرطاس ساليير [١] ما يفيد ان الطالب كان يتحتم عليهِ ان يلزم مكانه وان يهتم بكتبه وملابسه وحذائه

والمعتاد ان التعليم كان لا يتعدى في الزمن نصف اليوم فقد جاء بقرطاس ساليير المذكور ان الاطفال كانوا يتركون كتابتهم وقت الظهيرة . فكان غذاء الطفل بسيطاً ويتكوَّن عادة من ثلاثة أرغفة واناءين من الجعة [٢] كانت تأتي له بها والدتهُ يوميًّا . ولم يشمئز القوم من العقاب البدني لاطفالهم لانهم قالوا « ان للطفل ظهراً اذا ضرب عليهِ سمع » [٣]

أدوات الكتابة

﴿ المحبرة ﴾ تتكوَّن هـذه من لوحة خشبية صغيرة تحوي حفرتين صغيرتين واحدة للمداد الاسود واخرى للمداد الأحمر . وحفرة ثالثة لوضع الماء فيها لتنظيف القلم . وتحوي المحبرة أيضاً جراباً صغيراً لحفظ الاقلام فيهِ . والعادة في الحفر المذكورة ان تكون مستديرة الشكل لكنها قد تكون مربعة . وعثر على محبرتين من هذا النوع مصنوعتين من العاج بمقبرة (توت عنخ آمون) واخرى من خشب مموَّه بالذهب في نفس المقبرة وعلى غيرها من المرمر والصوَّان كما عثر على محابر للحبر خاصة دون الاقلام وعلب خاصة للاقلام دون الحبر

﴿ الأقلام ﴾ كانت تصنع من نبات الأسل الذي تعمل منهُ الحصر ويقال لهُ باللاتينية Juncus maritimus — وليس من الغاب كما يقال عادةً — وذلك بتجزئته قطعاً صغيرة متناسبة الطول ثم تفصل خيوط أحد الطرفين كي يشبه الفرشة الصغيرة . ولما أتى العهد اليوناني استعيضت هذه الفرشة بالبوص أو الغاب الذي كان يقطع بطول الأقلام الحديثة ثم يُبرى أحد الطرفين مثل أقلام البسط تماماً . ونبات الاسل لا يزال موجوداً بمصر بكثرة في المستنقعات أو البحيرات المالحة. أما كيفية صناعة الاقلام منه فبقطعه قطعاً يرفع أحد طرفيها بالمدية ميلاً ثم يعالج بالاسنان تدريجاً حتى تنفصل خيوطه بعضها عن بعض وتتكوَّن منهُ فرشة رفيعة . ويبلغ متوسط طول أقلام الاسرة الثامنة عشرة (١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م) عشرين سنتيمتراً ومتوسط قطرها ١ر٥ ملليمتر ومنهُ يتضح ان أقلام هؤلاء القوم لم تكن أقلاماً بالمعنى المعروف بل فرشاً دقيقة لا غير . أما القلم الحقيقي فلم يستعمل الأ من العهد اليوناني أي حوالي القرن الثالث قبل الميلاد وهذا الاخير أسمك كثيراً من القلم القديم ومصنوع كما أسلفنا من البوص أو الغاب المصري المعروف باللاتينية باسم Phiragmites aegyptiaca وهو موافق لكتابة الخط اليوناني ، وكثيراً ما كان يعاد بري هذا القلم

---

(١) Pap. Sall. II 10.2

(٢) Pap. Sall II 10. 6 (٣) Pap. Anastasi V 8. 6.

كلما تطلبت الحالة فيقصر تدريجاً حتى يبلغ الستة سنتيمترات تقريباً طولاً . وقد بيّن الاستاذ وينلوك أن أحد هـذه الأقلام الكثيرة الاستعمال اوصل بقطعة خشبية لابلاغه الطول المعتاد . ولا تزال هذه الاقلام تستعمل في الارياف الى وقتنا هذا

﴿ المداد ﴾ كان المداد يحفظ بشكل دوائر صغيرة اشبه باقراص الالوان المائية الحديثة . وهذه الاقراص او الدوائر كانت تصنع على الارجح بمزج مسحوق المداد مع الصمغ والماء ثم تجفيف ذلك المزيج . اما طريقة استعماله فأشبه تماماً بالتلوين المائي — اي بغمس الفرشة في الماء وتمريرها فوق قرص المداد — والمداد الاسود كان يصنع من هباب الدخان (او الكاربون). اما الاحمر فمن ملح الحديد المعروف باسم المغرة أو تراب الحديد red ochre

والكاربون هو اقدم مادة استعملت للمداد وذلك من العهد السابق للاسرة الاولى (اي قبل سنة ٣٤٠٠ ق . م) وقد عثر الاستاذ بتري على مقدار كبير من هذا المداد داخل اوانٍ صغيرة من عهد الاسرة الاولى

﴿ المواد التي استعملت للكتابة عليها ﴾ تتلخص هذه في العظام (مثل لوحة الظهر) والالواح الطينية السوداء . (وذلك في عهد الاسرة الحادية عشرة وهذه تنقش في بعض الاحيان ويكتب عليها بالمداد في ما دون ذلك) ثم الالواح الطينية المحروقة (وكانت تستعمل في المكاتبات الرسمية بين مصر وآسيا في عهد الاسرة الثامنة عشرة) ثم العاج والجلود والكتان والمعادن كالبرنز والرصاص ثم البردي والفخار والبوص والحجر والشمع والخشب الطبيعي والمدهون وهذا الاخير كان يستعمل للكتابة عليه بالمداد او الطباشير مدة قصيرة ثم تزال الكتابة عنهُ بسهولة . واهم مادة للمكاتبات هي البردي المصنوع من النبات المسمى كذلك والمعروف باللاتينية باسم Cyperus Pap yrus ومنهُ اشتق لفظ paper بالانكليزية و papier بالفرنسية

نصائح القوم لتلاميذهم

ووجه القوم الى تلاميذهم كثيراً من نصائحهم الغالية التي استرعت اهتمام الأثريين لاشتمالها على كثير من المعلومات التاريخية والاجتماعية

واساس هذه النصائح ترغيب الطالب في العلم دون الحرف الاخرى لذا يجب على الباحث ان لا يتأثر كثيراً ببعض النصائح لانها متحيزة في الغرض ومبالغة في التعبير . من هذه ما جاء بقرطاس انسطاسي [١] وترجمته

« ايها الكاتب لا تكن كسولاً ! لا تكن كسولاً . والاّ فستعاقب عقاباً صارماً . لا تتبع الهوى فتهوى . اكتب بيديك واقرأ بفمك . واسأل النصيحة ممن يفوقك في العلم .

(١) Pap. Anastasi III 3, 987

اتخذ لنفسك خطة اكابر القوم علك تبلغ مستواهم اذا ما تقدمت في السن . ما اسعد الكاتب اذا لقب باستاذ . ثابر على العلم يومياً فالمثابرة تسود. حذار ان تترك يوماً يمر سدًى والاّ فستنال جزاءك من القصاص . ألا فاعلم ان اذني الطفل على ظهره اذا ضرب عليهما فهم النصيحة. استمع لي بكل جوارحك فكلامي يفيدك مستقبلا . ان من وحش السودان ما يجبر على الرقص ومن الخيل ما يرغم على المؤالفة ومن الحدأة ما يسجن في القفص ومن النسور ما توثق جناحاه — والمقصود بهذه العبارة ان كسر شوكة هذه الحيوانات سهل وأسهل منه كسر شوكة التلميذ العاق

وجاء بقرطاس انسطاسي [١] ايضاً ما ترجمتهُ : — بلغني انك هجرت الكتابة واتبعت الهوى فأصبحت تترنح في الطرق تتنسم رائحة الجعة لتحتسيها فتردى . ألا فاعلم بأن الجعة (البيرة) تنفر منك الرجال وترمي بنفسك الى الهلاك فمثلك في ذلك كمثل دفة مكسورة لا تملك توجيه السفينة الى احدى الجهتين وكمثل ناووس خال من الصنم وأيضاً منزل خال من الخبز . انت لا تشاهد الاّ متسلقاً لجدار . واذا رآك الرجال تجنبوك خوفاً من اذاك وما تحدثه فيهم من جراح . اما آن لك ان تعلم ان النبيذ مكروه وان تحلف اليمين بالامتناع عن تعاطي مشروب (قدح) وان لا تقترب من زجاجة المسكر وتتناسى مشروب (تلك Telek) . لقد بدأت تتعلم العزف على الناي والمزمار وتجلس في المنزل محاطاً بالغادات . . . . وتقعد امام الفتاة مطيباً جسمك بالعطر ومطوقاً جيدك باكليل الزهر ومطبلاً على جوفك ثم تتمايل فتسقط على بطنك فتتلوث بالقاذورات . . .

وجاء بقرطاس ساليير [٢] صورة خطاب من والد لتلميذه يرغبه في العلم ويزهده في الفلاحة نقتطف منه ما يأتي : — بلغني انك هجرت الكتابة واتبعت الملذات ووجهت همك نحو الفلاحة ووليت ظهرك نحو كلام الله (اي الخط الهيرغليفي والنصوص القديمة) الم تفكر ملياً في احوال الفلاح اذا ما حل به ميعاد الحصاد . حينئذ تجد الديدان قد التهمت نصف حبوبه وحصان البحر اتى على النصف الآخر والجرذان عمت الحقول والجراد نزل على المزارع ، ثم تأتي البهائم فتفترس المحصول ويحلق العصفور فيقتنص كل ما يمكنه فواحسرة على الفلاح ! لان ما يتبقى له من المحصول بعد درسه تسطو عليه اللصوص فتسرقه . زد على ذلك ان خيوله كثيراً ما تموت وقت الحرث والدرس وعندئذ يأتي الكاتب ليسجل المحصول مصحوباً بالصرافين القابضين على العصي ورجال الشرطة العبيد المسلحين بجريد النخل قائلين « ورِّد ضريبة القمح » فيجيبهم بقوله «ليس عندي قمح ! » وفتشدُّ يداه على الأرض ويجلد ويرمى في الترعة . . . . أما زوجه فكبلة أمامه وكذا أطفاله . وأما جيرانهُ فيهجرونهُ ليهتموا بجمع القمح اللازم لضريبتهم — هكذا يسيطر الكاتب على أعمال الناس طراً . فضلاً عن أنهُ لا يدفع الضرائب لانهُ يؤدي ضريبته كتابة فهو لذلك خالٍ من الديون . اذن استمع لذلك جيداً

(١) Pap. Anastasi IV. II 8. (٢) Pap. Sallier I 5-11 88.

وهنـاك خطابات حقيقية كان يطلب من التلميذ كتابتها مراراً للتثبت منها والاقتداء بها ومعظم هذه يخص أموراً مصلحية والبـاقي أموراً شخصية . ولدينا مجموعـة من هـذه المراسـلات حسنة الأسلوب جيدة اللغة . وهي مختارة من مراسلات لأفراد عائلية او مكاتبات رسمية

وسأورد خطاباً كان يدرس مثلاً لموضوع انشائي يحوي كثيراً من المعلومات الهامة عن الحياة الرسمية وعن طريقة المخاطبة بين دواوين الحكومة وشـدة اهتمام الحكومة بالجزية وحرصها على رضى فرعون وقتئذ . وهو مرسـل من حاكم مستعمرة الى احد مديريهـا ووارد بقرطاس كولر Pap. Koller 3. 3. وترجمته : —

« حامل المروحة الواقف على يمين الملك وحاكم أراضي أثيوبيا الاجنبية (باسر Paser) يقول :

الى مدير مديرية — أبعث اليك بهـذا الخطاب . أما بعد . حالما يصلك خطابي هذا يجب عليك أن تجمع الجزية على اختلاف أنواعها من مواشٍ وعجولٍ وثيران ذات القرون القصيرة وغزلان ووعول وتياتل ونعام وأن تجهز السفن لشحن الخيرات والحيوانات ببحارتها وعمـالها بحيث يكونون جميعاً على أهبة السفر . ولا تنسَ مقادير الذهب العظيمة المصنوعة بشكل أطباق . كذا الذهب الناعم الموضوع داخل الأشولة . وكذا تراب الذهب الجميل المستخرج من الصحراء المحفوظ داخل اكياس الكتان الأحمر . وتذكر العاج وخشب الابنوس وريش النعام وغيرها ... من راتنج وأحجار كريمة وبلور وقطاط ونسانيس وقردة .... ولاحظ العدد الغفير من رجال قبيلة (ارمي Irmi) الذين يتقدمون مهرجان الجزية ومعهم عصيهم الغليظة والمذهبة ... وعمالق قبيلة (تيرك Tire) حاملين المراوح الذهبية ولابسين الريش العظيم والدمالج المزركشـة وكثيرين من العبيد من كافة الأنواع

زد في الجزية عاماً بعد عام واحتفظ برأسك واترك الكسل .... أشرف على الجزيـة بنفسـك واعرهـا اهـتمامك وتعهدها بحرصك . وتذكـر دائمـاً يوم وصـول الجزية يوم تمر اسـفل النـافذة الملكية امام جـلالة الملك ومستشـاريه المصطفين على جانبيـه ، ورؤسـاء البـلاد الاجنبية وسفرائها والـكل واقفون يتفقدون الجـزية ويعجبون بهـا . حينئـذٍ يدخلك الوجل .... وتسقط في يدك . فلا تدري ايكون نصيبك الموت او الحياة . وليس امامك الا التوسل بالمعبودات فتناجيهم بقولك: —

« خلصوني ارحموني ايتها الآلهة هذه المرة فقط ! »

نشرنا في هذا العدد الجانب الاول من هذه المحاضرة النفيسـة وفي العدد التالي تتمتها وهي تشتمل على البحث في أكرام الاساتذة وحكم الفلاسفـة وآثارهم في النثر والشعر والقصص والعلوم المختلفة

عودة الملوك

الى المدينة

[للمستر كرستوفر سكايف استاذ الادب الانكليزي في كلية الآداب بالجامعة المصرية مقام عال بين أدباء الانكليز المعاصرين وشعرائهم ، وله مجموعة من الشعر الانكليزي (Towards Corinth, O Englishman) يبدو فيها شاعراً دقيق الحس بليغ العبارة مبتكر التشبيه . وقد سمعناه يلقي بعض قصائده ، فأعجبنا بما يتزاحم فيها من الصور والمعاني ، وهزنا ما أفرغت فيه من قالب يأخذ النفس بايقاعه المطرب ، مع ان معظمها من الشعر المرسل. وقد تفضل فأهدى الينا نسخة من مجموعته فاخترنا ان ننقل الى العربية قصيدة بليغة منها في موضوع مصري عنوانها « عودة الملوك الى المدينة » محافظين جهد الطاقة على معانيها ومراميها الاصلية ، معترفين ان الترجمة لا تجاري الاصل في فخامة العبارة وجرسها]

ها هم الموتى الماشون قد اقبلوا من قبورهم

وطفوا على لجة النهر كالاوراق المُغبرّة

فبكى الفلاحون ما شاهدوا .

لقد سُلّت جواهرهم ، ونصلت جلالتهم ،

اجل لقد امتهنت كرامتهم ودنست قداستهم ،

ولكن جلالة المعرفة والسنين

ما برحت تُضفي عليهم جلالها السامي .

واذ مروا قافلة صامتة اثر قافلة

رأيتُ أشباح الملايين تعمر ضفات النهر.

ملايين وراء ملايين من الموتى طال عليهم الموت

وفي عيونهم التي عرفت العالم اسى ودموع

وفي رؤوسهم العريقة حسرة واطراق .

ووقفت تلك الامة المجيدة بأسرها

ترقب موكبهم الحزن وتشيعه بالنظرة الكئيبة .

عبروا خفافاً كالغيم فوق الجبل

واختفوا كالرياح المتبددة في اغوار الكهوف

تاركين قبورهم العظيمة تنعاهم

وتلقي الى الارواح العابرة بنبأة صداها المشجي

انها اقفرت . انها اقفرت .

اوزيريس ! ايزيس ! هوروس !

اين أنتم الآن ؟

لقد مضى ذووكم كالاوراق الطافية في تيار النهر

وليس ثمة أثر لكم .

يا من تتحركون بين العوالم

يا من تطأون المجرات

وتسبحون على متون المذنبات

ماذا صرتم ، حتى عاد امتهان اسمائكم

لا يثيركم ؟

اهبطوا وأسبغوا السلام على احبابكم .

او انتم كذلك اوراق طفت على لجة النهر !

تقدم الطيران ومستقبله

ضروب الارتقاء في ثلث قرن

وما ينتظر في المستقبل

« نبوءة شاعر وتحقيقها » للشاعر البريطاني العظيم ، الفرد لورد تنيسون في قصيدته المشهورة « لُكسلي هول » مقطع ينطوي على نبوءة من أعجب النبوءات الحديثة في هذا العصر الحافل بالعجائب

قال ما ترجمته : « وحدقت في المستقبل الى مدى ما تستطيعهُ العين البشرية فشاهدت رؤيا العالم وما تنطوي عليهِ من العجب العجاب . رأيت الجو حافلاً بالتجارة . رأيت أساطيل الجو ذات الاشرعة السحرية . وطيارات الشفق القرمزي المثقلة بالبالات النفيسة . وسمعت الصياح يدوي في السماوات العلى . ثم هطل ندى مروع من اساطيل الامم الهوائية تتصارع في كبد السماء . . »

نشرت هذه القصيدة في العقد الخامس من القرن الماضي على ما نذكر وها هوذا كل حرف من حروفها يتحقق . فالطيارات العظيمة الخاصة بالنقل والتجارة تحلق في الفضاء ناقلة من بلاد الى بلاد « البالات النفيسة » اذا قصدنا بالبالات كل ما يحمل لغرض تجاري . انها تنقل الناس والبريد ، وبعض البضائع الخفيفة الثمينة ، بل ان الراكب اذا شاء ان يدفع الثمن يستطيع ان ينقل معهُ حقائبهُ جميعاً في طيرانهِ بين العواصم الاوربية . ويذكر كاتب هذه السطور انهُ اصطحب حقيبتين كبيرتين في رحلات رحلها بين لندن وباريس في سنتي ١٩٢٧ و١٩٢٨

وها هي ذي ، كذلك ، الطيارات الحربية ، منوعة الاشكال والاغراض ، من السابقات المستكشفات ، الى الطيارات الضخمة قاذفات القنابل من الجو ، تدمر المدن وتهلك الزرع والضرع . ان خيال تنيسون الشعري أسبغ على مقذوفاتها صورة « الندى » . ولكنهُ أي ندى ؟ ندى مروع ! ومن يدري فقد تكون مقذوفات الطيارات الحربية في المستقبل من الغازات السامة والمكروبات ، اذا مضى الانسان في عتوه وعناده ، أشبه شيء بقطرات كبيرة من الندى ، تنفجر وتنتثر وتبيد !

ثم هناك الطيارات المائية ، التي تطير من سطح الماء وتحط على سطح الماء ، وقد تبلغ سرعة بعضها من الخاص بسباقات السرعة ٤٤٠ ميلاً في الساعة او يزيد . وهناك الطيارات الامفيبية (القوازب) التي يصنعها سكورسكي الروسي في اميركا ، وقد دعيت امفيبية Amphibian تشبيهاً لها بالحيوانات الامفيبية كالضفادع التي تعيش في خلال حياتها في الماء وعلى اليابسة ، لان هذه الطيارات لها عجلات فتستطيع ان تحط على الارض ، ولها اطواف فتستطيع ان تنزل على سطح الماء . والغرض منها ان تكون مستعدة لكل طارىء . فهذا الجهاز يقيها اخطاراً كثيرة . فاذا تعطل محركها على مقربة من

مدينة بها مطار ، وليس بقربها نهر او بحر لم يتعذر عليها النزول على الارض . واذا تعطل محركها وهي قرب بلدة او فوق ريف ، ليس فيهما مطار او ارض ممهدة، وانما يخترقهما نهر وسيع ، لم يتعذر عليها كذلك أن تحط على صفحة النهر سالمة

ثم هناك الطيارات ذوات السطح الواحد ، والطيارات ذوات السطحين، والطيارات ذوات المحرك الواحد، وذوات المحركين او المحركات الثلاثة ، او المحركات العشرة ، كالطيارة الالمانية الجبارة المعروفة بطيارة دوكس DOX . والطيارات التي لا تتسع الا لسائقها او لسائقها وراكب آخر، والطيارات التي تتسع لعشرة او عشرين او اكثر من الركاب . فالطيارات التي قطع فيها كاتب هذه السطور المسافة بين لندن وباريس ذهاباً واياباً ، كانت تتسع لثمانية عشر راكباً وأمتعتهم ، وفيها بوفيه تتناول منه ما ترغب فيه من المشروبات وألوان الغذاء . ولا تندر الطيارات التي فيها اسرة للنوم شبيهة بأسرة السكك الحديدية . وهناك الطيارات المجهزة بالآلات اللاسلكية — بل هي جميعها كذلك الآن — حتى يبقى السائق في خلال الطيران ، متصلاً بالمطار ، الذي قام منه وبالمطار الذي يتجه اليه ، وبالمطارات التي يمر فوقها ، تعلنه في كل دقيقة من دقائق الطيران ، بأنباء الجو والضباب ، حتى يكون نزوله الى الارض سالماً من الاصطدام بالحوائل والعثرات . بل اذا تلبد الجو بالضباب ، وتعذر على السائق ان ينزل الى الارض ، لانه لا يراها ، ارشده مديرو المطار بالاذاعة اللاسلكية الى ذلك

﴿ الرائدان ! ﴾ كل هذا كان حادث في سنة ١٩٣٥ ولكنه لم يكن كذلك سنة ١٩٠٢ بل لم يكن الناس يظنون في مطلع هذا القرن ان الطيران بآلة اثقل من الهواء امر مستطاع

والفضل الاول في كل ما تقدم يرجع الى الاخوين ولبر واورڤيل ريط الاميركيين فهما رائدا الطيران الحديث بآلة اثقل من الهواء

ولد ولبر ريط في ٦ ابريل سنة ١٨٦٧ في بلدة ملفيل بولاية انديانا من اعمال الولايات المتحدة الاميركية . وولد اخوه اورڤيل سنة ١٨٧١ وبعد ما تلقيا علومهما الثانوية فتحا دكاناً لاصلاح الدراجات «العجلات» ثم اتجهت افكارهما الى العناية بشؤون الطيران ، فدرساها درساً علمياً وعملياً وفي ١٧ ديسمبر ١٩٠٣ طار احدهما بطيارة من صنعهما مسافة ٢٦٠ ذراعاً . فلبث في الجو ١٧ ثانية، فكان بذلك اول انسان طار بطيارة اثقل من الهواء ، وفي ٥ اكتوبر سنة ١٩٠٥ طار اورڤيل ريط على مقربة من بلدة ديتونا الاميركية بولاية اوهايو فاجتاز مسافة ٢٤ ميلاً في ٣٨ دقيقة

ومع ما اصابه الاثنان من النجاح لم يقدم احد من المتمولين على تعضيدهما بالمال . فذهب ولبر ريط الى فرنسا سنة ١٩٠٨ وفي يوم ٢١ سبتمبر فاز بجائزة ميشلن بعد ما طار مسافة ٥٩ ميلاً فذاع صيته بين ليلة وضحاها . وفي شهر ديسمبر من السنة نفسها طار مسافة ٧٧ ميلاً في ساعتين وثلث ساعة . وفي سنة ١٩٠٩ طار فوق مدينة نيويورك مسافة ٢١ ميلاً في ٣٣ دقيقة و٣٣ ثانية

وفي تلك السنة ضرب مجلس الامة الاميركية وساماً خاصاً منحه للشقيقين الرائدين . ثم اشترت

منهما الحكومة الاميركية طيارتهما الاول بستة آلاف جنيه

﴿ تقدم عجيب ﴾ ما أقصر الشقة بين ١٧ ديسمبر سنة ١٩٠٣ واول ابريل سنة ١٩٣٥ وما اطولها ! استغرقت الرحلة الجوية الاولى بالطيارة ١٧ ثانيــة . ومن الطيارات الآن ما يبقى محلقاً في الجو أياماً ، لا يحط على الارض بل يستمد في خلال الطيران ، البنزين من طيارة اخرى ، بأنبوب ممتد بين الطيارتين . وقد بلغت سرعة طيارة الايطالي آجلي التى ضرب بها الرقم القياسي في سرعة الطيارات ما يزيد على ٤٤٠ ميلاً في الساعة

واستطاع طيارون بريطانيون أن يطيروا من لندن الى قبيل جنوب افريقية ، وطيارون اميركيون من نيويورك الى اسطنبول ، وطيارون فرنسيون من نيويورك الى رياق في سهل البقاع في سوريا ، وكل من هؤلاء الجماعات قطع المسافة في مرحلة واحدة . وطار الطيار ولي بوست وحده حول الارض في سبعة أيام — وبلغ القومندور برد الاميركي القطبين الشمالي والجنوبي بالطيارة . بل اعجب من ذلك انهُ تحدث وهو طائر فوق القطب الجنوبي بالآلة اللاسلكية التي تحملها طيارته ، مع جريدة النيويورك تيمس على مسافة نحو عشرة آلاف ميل منهُ ، وكان الصوت واضحاً والكلام جليّاً مفهوماً

***

كان الناس في بدء عهد الطيران هذا يسمعون اخبار رواد الطيران ولا يصدقونها لغرابتها ، ولاعتقادهم الراسخ ان مجاراة العقبان في الجو امر متعذر على الانسان

اما الآن فنرى الطيارات تطير في مواعيد معينة وتصل في الغالب الى طلبتها في مواعيد معينة تحمل على متنها الرسائل والركاب وامتعة الركاب . ونرى الرواد يستقلونها لاجتياز البحار والصحارى ولارتياد القطبين وما يحيط بهما من الاصقاع المتجمدة ، ولتصوير مواقع الحضارات القديمة ، ومكافحة المهربين وآفات الزراعة ، وبذر البزور ، وما الى ذلك من اغراض السلم والعمران . ثم اننا نرى الدول تهب الى انشاء اساطيلها الجوية كما كانت تعنى في الماضي ولا تزال باعداد جيوشها وبناء اساطيلها البحرية ، استعداداً للمعارك فوق اطباق الغيوم وكانت فواجع الطيران يتلو بعضها بعضاً فصارت بعض الشركات تمنح راكبيها تأميناً مجانيّاً على حياتهم في خلال الطيران ، لشدة ثقتها بسلامة الذهاب والاياب

كل هذا التقدم تم بين يوم ١٧ ديسمبر سنة ١٩٠٣ ، لما فاز والبر ريط باجتياز مسافة ٢٦٠ ذراعاً بطيارته في ١٧ ثانية ويومنا هذا . فالتاريخ الاول يجب ان يصبح بعد اليوم حدّاً من حدود التاريخ التي ينتهي عندها عصر ويفتتح عصر جديد

من الجور والخطإ ان ننسب كل الفضل في هذا التقدم الى الاخوين ولبر واورفيل ريط . وهما آخر ما يدعي هذا الفخر ، لان تاريخ الطيران مكتوب بدماء الرواد والشهداء الذين استخفوا ثمن الدماء في سبيل الفتح العلمي المجيد . .

﴿ نظرة الى المستقبل ﴾ اكتفينا حتى الآن بالاشارة الى ضروب الارتقاء التي اصابها الطيران

في ثلث القرن الماضي . فيهمنا الآن ان نبين بعض الاتجاهات التي ينتظر ان يسير فيها الطيران في المستقبل . وفي وسعنا ان نقسم هذه الاتجاهات الى بابين الاول : ما يتوقعه العلماء المستنبطون من ضروب الاصلاح والاتقان في الطيارات كما هي الآن ، وتنظيم خطوطها . والثاني : ما ينتظر من ابتداع او تحقيق اسلوب آخر للطيران قائم على مبدأ آخر غير مبدأ المحرك ونعني مبدأ الصاروخ

الباب الاول

﴿ ازالة صخب الطيارات ﴾ أثبتت المباحث الحديثة ان ما يصيب ركّاب الطيارات من الدوار سببه في الغالب اهتزاز الاجزاء المعدنية في الطيارة . ولذلك نرى طائفة كبيرة من الناس لا تزال تؤثر قطار السكة الحديدية والسفينة على الطيارة . ولولا ان الضرورات العسكرية تقتضي ازالة صخب الطيارات ، لكان من المتعذر ان نتوقع تحقيق هذا الغرض قبل خمسين سنة من الزمان . فقد يجد البحاث ، ان مسألة ازالة صخب الطيارة ، في داخل الطيارة نفسها ، ليست بالمسألة الصعبة ، اذا شاء اصحاب شركات الطيران ان يبذلوا المال الكافي للتجارب والبحوث يقوم بها الاخصائيون . ولا ريب انهُ متى زالت روعة الجدة التي يحس بها المسافرون في الطيارات ، يشرعون في المطالبة بكل ما يمهد لهم أسباب الراحة وفي مقدمتها عدم ازعاجهم بصخب يصم الاذنين . أما مسألة ازالة الصوت الخارجي الذي يحدثه هدير الطيارات وما يطلقه محركها من الغازات ، فقد تكون اعقد من مسألة الصوت الداخلي . ولكن لما كانت الضرورة العسكرية تقتضي ان تكون الطيارة « صامتة » في خلال طيرانها ، فالراجح اننا نبلغ هذه الامنية قبل انقضاء زمن طويل . وقد ذكر الاستاذ لو الانكليزي ، ان العلماء قد شرعوا يجربون التجارب ، في تغطية المحركات بأغطية تخفف من صخبها

﴿ السلامة في الجو ﴾ ان الاقبال على استعمال السكك الحديدية لم يكن مستطاعاً في عهدها الاول ، لو لم يتمكن اصحاب شركات القطارات من المباهاة والاعلان ، بأن السفر فيها امين الجانب ، كالسير في شارع — قبل استنباط السيارات — او الصعود على سلم . وكذلك الطيارات لن تصبح اسلوباً عامًّا من أساليب الانتقال ، الاّ اذا تمكن اصحابها من جعل السفر بها أمين الجانب ، واقناع الناس به . بل ان سكك الحديد نفسها تستطيع ان تنافس الطيارات ما زالت سكك الحديد تدعي انها أمينة الجانب وأصحاب الطيارات لا يستطيعون ذلك . وهذا لا يعني ان الطيران التجاري الآن محفوف بالمخاطر . ولكن الاقبال عليه سوف يظل محصوراً في دائرة ضيقة من جماهير المسافرين مازالت نكبات الطيارات مما تتناقل انباءه اسلاك البرق وامواج الاثير . ولعل الحكومات التي ادركت هذا تشتد في منح الرخص للطيارين من جهة . وتحول بعض الشيء دون المغامرات التي تنتهي احياناً بفواجع تطبل لها الصحف وتزمر . فيرسخ في اذهان الناس ان الطيران كله من قبيل هذه المغامرات والراجح ان « المظلة » او « البراشوت » سوف تكون في مقدمة الوسائل التي تتقن حتى يصبح

استعمالها ميسوراً في الاحوال الخطرة ، او عند وقوع الحوادث التي تتعطل فيها محركات الطيارات وهي في الفضاء . ويظن الاستاذ « لو » أنهُ من المستطاع ان تبنى الطيارات اجزاء يمكن فصلها بعضها عن بعض عند وقوع مثل هذه الحوادث ، ويكون لكل جزء منها مظلة خاصة فيسقط الى الارض براكبهِ من دون ان يتعرض الراكب للخطر

ثم هناك ناحية المحركات . فاذا كانت الطيارات ذات محرك واحد كان التعرض للخطر فيها كبيراً . لان المحرك بالغاً ما بلغ من الاتقان فقد يتعطل . ولكن اذا كانت الطيارة ذات محركات عديدة وكان بعض هذه المحركات كافياً للنهوض بها او حفظها في الجو او نزولها سالمة الى الارض، فتعطيل محرك او اكثر في وقت واحد ، لا يعرض الركاب للخطر . وهذا الاتجاه مشهود في هذا العصر في طائفة من طيارات الشركات الكبرى العالمية

ثم انهُ لابد لعلماء الظواهر الجوية، من توسيع نطاق معارفهم بتقلبات الجو. لان مايعرف الآن نزر يسير لا يكفي لجعل الطيران التجاري منتظماً . جُل ما نستطيعهُ الآن هو ان تأتي الاخبار من محطات الظواهر الجوية منبئة بهبوب عاصفة في ناحية معينة فيتأخر قيام الطيارات ، حتى تأتي الانباء بخمود العاصفة وسكونها . ولو كانت السفن البحرية مضطرَّة الى تأخير سفرها عند ما تعلم ان عاصفة تهبُّ في طريقها ، لما بلغ السفر البحري الشأو الذي بلغهُ الآن

والتقدم في هذه الناحية ، قد يجيء من ناحية زيادة قوة الطيارة ، واستنباط وسائل جديدة للملاحة الجوية وتعديد المطارات ، وتقريبها بعضها من بعض ، حتى يسهل نزول الطيارة التي يحدق بها خطر الجو في مكان يسهل النزول فيه

يضاف الى ذلك وجوب اقامة منائر على الارض ، في الخطوط التي تسير فوقها الطيارة فتهتدي بهديها . ولما كان الضباب من أعدى عداة الطيران، ولما كانت الاشعة التي تحت الاحمر تخترق الضباب ويستطاع تبينها بأجهزة خاصة ، فلا بد من بناء منائر تذيع الضوء تحت الاحمر ، في الاماكن التي يخشى فيها من الضباب على الطيارات

وقد استعملت الاشعة اللاسلكية لهدي الطيارات عند ما تحاول النزول في مطار ملبد بالضباب الكثيف فيستطيع سائق الطيارة ان يهبط سالماً الى الارض مهتدياً بهدي هذه الاشعة ، ولو كانت الارض محجوبة عن انظاره. ولا بد في المستقبل من التوسع في استعمال هذه الوسيلة البارعة الفعالة

﴿ الطيران الليلي ﴾ لا تستطيع الطيارة ان تبلغ اقصى نفعها في توفير الوقت الاَّ اذا اصبح الطيران الليلي مستطاعاً وميسَّراً . فلا تستطيع الطيارات ان تجاري البواخر والسكك الحديدية الاَّ اذا تمكنت من الطيران في الليل والنهار على السواء . لذلك اتجهت الانظار الى الناحية العملية لحل هذه المشكلة . فأنشيء خط طيران ليلي بين لندن وباريس ، وبين نيويورك وسان فرنسسكو ،وبنيت منائر قوية الضوء في هذين الخطين وغيرها ، يراها السائق وهو محلق في الجو كأنها خط واحد من

النور فيسير فوقهُ كأنهُ سائر في طريق معبَّد. ثم التفت اولو الامر الى ساحات الطيران والمباني المجاورة لها وانشأوا لها مصابيح ملونة اصطلح عليها لكي يعرف الطيار ما حوله ، اذا اضطر الى النزول وكل هذا مما ينتظر تعميمهُ ، ولا بد من تعميمه قبل ان نصيب تقدماً يذكر في الطيران التجاري

﴿ طيارات الاوتوجيرو ﴾ من اكبر مواطن الضعف في الطيارات كما عهدناها حتى الآن عجزها عن الطيران ببطء اذا اقتضى الامر ذلك ، وعجزنا عن السيطرة عليها كل السيطرة متى حطت على الارض . فانها لا بدَّ ان تبقى سرعتها عند مسّها سطح الارض نحو خمسين ميلاً في الساعة . وهذا يعني ان اثر العقبات التي تصادفها في طريقها يجسم تجسيماً عظيماً . ثم ان هذه السرعة تضطرها ان تسير مسافة طويلة قبل ان تقف وهذا يقتضي ان تكون ميادين الطيران متسعة الارجاء فانشاؤها في مناطق قريبة من مراكز المدن الكبيرة متعذر . والاحصاءات التي جمعت للذين قتلوا في الطيران تدل على أن نسبة الذين قتلوا في نكبات نشأت عن سرعة الجري على الارض ، أو عن صغر مساحة المطار ، أو الاصطدام بعقبات فيه ، نسبة كبيرة جداً

كل هذا حدا ببعض المستنبطين الى محاولة ابتداع وسيلة تمكنهم من التغلُّب عليهِ . والظاهر أن المستنبط الاسباني ده لاشيرفا كان حتى الآن اعظمهم حظاً من النجاح . فانهُ بنى مروحة مؤلفة من أضلاع ، مثبتة في عمود قائم فوق مقدم الطيارة ، وتدور دوراناً أفقياً . فاذا حدث عطل ما للطيارة في الهواء ، كان من أثر هذه المروحة أن تجعل هبوطها الى الارض بطيئاً ، فلا تهوي الى الارض وتتحطم وتحترق . ثمَّ أن هذه المروحة تمكنها من أن تصعد في الجو من دون أن تجري مسافة طويلة في أرض المطار[1] ، وأن تنزل الى الارض وتقف في البقعة التي تهبط عليها . فلها من هذه الناحية فائدتان جليلتان ، الاولى حيلولتها دون النكبات المروعة التي اشرنا اليها ، والثانية ان المطار الواسع الارجاء يصبح غير ضروري . واذاً يمكن اقامة المطارات في قلب المدينة بل على سطوح الدور الكبيرة . وهذا يقرب الطيران من مقتضيات الحياة كوسيلة من وسائل الانتقال . ولا تزال الاوتوجيرو وما هو من قبيلها في طور — وان كان قد أصاب بعض النجاح — لا يصح أن نقول اننا بلغنا فيه الامل المنشود . ومما لا ريب فيه ان جانباً عظيماً من تقدم الطيران في الجيل المقبل سوف يكون في هذه الناحية

﴿ تجديد الوقود في الجو ﴾ ان الطيارات التجارية التي تسير بسرعة ١٥٠ ميلاً في الساعة ، تفقد جانباً كبيراً من ميزة سرعتها ، إذ تضطر أن تقف في الليل — وقد أشرنا الى موضوع الطيران الليلي في فقرة سابقة — وأن تجعل مراحلها قصيرة لا تتعدى المرحلة الواحدة منها ٥٠٠ ميل في الغالب . ذلك أن الطيارة التجارية اذا أخذت في أحواضها قدراً كبيراً من البنزين يمكنها من اجتياز مرحلة

---

[1] بعد كتابة هذا المقال حملت الينا الانباء البرقية ان ده لاشيرفا استطاع أن ينهض بطيارته نهوضاً عمودياً أي من دون أن تجري على سطح الارض اولا

طويلة تبلغ ألفاً من الاميال او ألفين ، تقص ما يمكن ان تتسع له من الركاب والبضائع وهي التي تسدد نفقات الخطوط الجوية التجارية بالاشتراك مع اعانات الحكومة في الغالب

وإذن فالطيارات لا تستطيع أن تحتفظ بميزة سرعتها الا اذا استطاعت أن تقطع الرحلات الطويلة في مراحل قليلة ، وهذا يقتضي استنباط طريق لتجديد وقودها وهي في الجو

فمن بضع سنوات استطاع بعض الطيارين الاميركيين أن يبقوا اسبوعاً كاملاً في الجو بطيارة ، كانوا يجددون وقودها وهم على متن الهواء . ذلك ان طيارة اخرى كانت ترتفع في اوقات معينة أو تلبية لاشارة لاسلكية ، الى ما فوق الطيارة المحتاجة الى الوقود ، ثم يمدُّ منها انبوبٌ من المطاط ، يلتقطهُ احد الطيارين ويضعهُ في حوض البنزين فيجري فيهِ البنزين من الطيارة المغذية الى الطيارة الاخرى

ولا بد من السير في اتقان هذه الوسيلة حتى يستطاع استعمالها استعمالاً يصح الاعتماد عليهِ في الخطوط الجوية المنتظمة . فتقوم الطيارة الكبيرة من لندن ولكنها لا تحط في باريس وجنوى ومرسى مطروح مثلاً ، بل تلاقيها في جميع من هذه الاماكن طيارة تغذيها بالوقود في خلال نصف ساعة من الزمان او أكثر وتمضي هي في طريقها ، فتزداد سرعة الانتقال الجوي بهذا التنظيم ثلاثة اضعاف أو اربعة ، من دون ان تزداد سرعة الطيارة الذاتية . اما الخطوط الجوية الطويلة التي تجتاز البحار الشاسعة ، فلا يمكن ان يعتمد في قطعها على طريقة تجديد الوقود التي تقدم ذكرها ، ولذلك يرجح بناء جزائر طافية في اماكن معينة ، على طريقة جزائر ارمسترونغ وما اليها ، تصلح لنزول الطيارات عليها وتجديد وقودها ، وتكفل راحة الركاب ، من دون ان تكون عرضة لفعل العواصف والامواج . وهذا الامر الاخير يتحقق بجعلها قائمة على اعمدة ، تتخللها الامواج المتلاطمة ولا تلطمها . أما استقرارها فيحقق بجعل مراكز الثقل في اعمدتها ، تحت المستوى الذي اثبت العلم ان مياه البحر لا تضطرب تحته بل تبقى ساكنة مستقرة

ولا ريب عندنا في ان هذه النواحي من تقدم الطيران ، أو ما هو من قبيلها لا بدَّ ان تدرك في خلال العشرين السنة القادمة

الباب الثاني

نريد ان نوجز الكلام في هذا الباب كل الايجاز . فالمجال أمامنا قد ضاق ، والتحقيق العملي للمبدأ الذي ينطوي عليهِ البحث ، قد لا يأتي قبل جيلين على الاقل

من المسلم بهِ ، ان أشد خصوم الطيارة ، المندفعة الى الامام بفعل محركها هو مقاومة الهواء . فاذا زدنا قوة المحرك حتى يقتحم هذه المقاومة ويتغلب عليها ، زاد ما ينفق من الوقود زيادة عظيمة تجعل تسيير الطيارة لا يتفق بحال ما ، وقواعد العمل الاقتصادي ، بل ان المقاومة تزداد

كمربع السرعة، وهي زيادة عظيمة جداً. وقد بذل المستنبطون مساعي عظيمة لتقليل المساحة المعرضة من جسم الطيارة لمقاومة الهواء بجعل شكلها منساباً ، وهذا ما يعرف باسم streamlining ولعل لفظ الانسياب أصلح الالفاظ العربية لتأدية معناه

على أن الخبراء يرون ، ان التحليق في الجو الى علو ٣٠ ميلاً والطيران على هذا العلو حيث الهواء لطيف كل اللطف ، يقلل المقاومة ويزيد السرعة زيادة عظيمة ، من دون زيادة مقابلة في انفاق الطاقة . فالطيارة على هذا العلو تستطيع أن تطير بنفس الطاقة بسرعة تبلغ ٣٠ ضعف سرعتها على علو ألف متر مثلاً ، وعند ذلك تستغرق الرحلة من نيويورك الى لندن ساعة واحدة بدلاً من ثلاثين ساعة

ولكن الطيران يتوقف على دوران المحرك في الهواء ، فاذا خفت كثافة الهواء حتى يقرب من الفراغ اصبح المحرك وكأنهُ دائر في الفراغ ، او ما كان قريباً منهُ ، فلا يستطيع ان يدفع الطيارة الى الامام . وقد يتغلب على هذه الصعوبة بعض التغلب بوسائل مختلفة ، ولكنها في الغالب لا تحل المشكلة

وإذن يجب البحث ، عن مبدإ آخر لدفع الاجسام في الهواء اللطيف ، غير مبدإ المحرك ، وهذا المبدأ هو مبدأ الصاروخ . فالصاروخ ينطلق في الهواء بقوة ما ينفجر في مؤخره . ويمكن التمثيل عليهِ ، بأخذ بيضة ونقرها نقرين صغيرين في مقدمتها ومؤخرتها وتفريغ محّها وزلالها ، ثم يسد النقر في المقدمة ، وتملأ قشرة البيضة الى نصفها ماء . ثم خذ قطعة من الخشب رقيقة ، ودق فيها أربعة مسامير وضع عليها البيضة بحيث تبقى مرتفعة عن سطح الخشب نصف بوصة او نحو ذلك ، وضع تحت البيضة ذبالة مشتعلة . ثم ضع الخشبة والذبالة والبيضة جميعاً في حوض صغير من الماء . فلا تلبث ان ترى البيضة والخشبة تسيران في الماء كباخرة من البواخر . وتعليل ذلك ان بعض الماء داخل البيضة يتبخر فلا يجد منفذاً يخرج منه الا النقب الخلفي فيندفع منه بقوة ، فيدفع الخشبة والبيضة في جهة مناقضة لجهة اندفاعه هو

فاذا صنعت طيارات ، في مؤخرتها انابيب تحتوي على مواد متفجرة قوية التفجر ، امكن ان تندفع الطيارة الى الامام بقوة الغازات المنطلقة من الانابيب التي في مؤخرتها ، فهي لا تحتاج الى كثافة الهواء في الطبقات العليا ، كما يحتاج اليها المحرك المألوف ، واذاً تستطيع أن تسير بسرعة عظيمة في طبقات الجو العليا ، وتتوقف سرعتها على قوة المواد المنفجرة التي في آنابيبها

وقد قام بعض العلماء والمجربين ببحوث وتجارب عديدة في هذه الناحية ، ويعتقد بعضهم ان هذه الطريقة قد تكون في المستقبل وسيلة تمكننا من الانفلات من جاذبية الارض والسير في رحاب الفضاء ، ولهم في ذلك اقوال وتنبؤات ليس هذا مكان التبسط فيها [1]

(١) راجع فصل « السفن السهمية » صفحة ٢٣٧ من كتابنا « فتوحات العلم الحديث »

تاريخ المآذن ومأذنة القيروان

بقلم جناب الكبتن كرسويل استاذ العمارة الاسلامية بالجامعة المصرية

نقله الى العربية السيد محمد رجب مدرس بمدرسة العباسية

﴿ الأذان ﴾ لم تكن المآذن معروفة في زمن النبي صلى الله عليهِ وسلم وقد روى ابن هشام ان النبي حينما هاجر الى المدينة كان يصلي هو وأصحابه من غير أذان . ولكن لما سمع أن اليهود يستعملون قرناً ينفخون فيه ، والمسيحيين ناقوساً أحسَّ المسلمون بحاجتهم الى شيء مماثل لذلك يستعملونه هم أيضاً . ويؤخذ من بعض الاحاديث ان الدعوة الى الصلاة اقترحها عمر على النبي صلى الله عليهِ وسلم ولكنهُ علم حينما أخبره بذلك أن الوحي قد سبقه الى ذلك في تلك اللحظة . ويؤخذ من حديث آخر ان عبد الله بن زيد أوحي اليهِ ذلك في منامه فأخبر النبي بهِ فوافق عليهِ واقرَّه وبناء على ذلك أمر مولاه بلالاً أن يؤذن داعياً الى الصلاة فكان بذلك بلال أول مؤذن في الاسلام . وكان من عادة بلال أن يؤذن من أعلى سطح يجاور المسجد الذي كان الى ذلك الوقت فناء منزل النبي

﴿ مقدمة عن المآذن ﴾ وذكر المقريزي عند تكلمه عن اعادة بناء مسجد عمرو بالفسطاط (أن الخليفة معاوية أمر مسلمة أن يبني صوامع للأذان فبنى مسلمة أربع صوامع لهذا المسجد في اركانه الاربعة فكان بذلك أول من بنى هذه الصوامع بهِ ولم يكن هناك قبله شيء منها وكان السلم الذي يصعد عليهِ المؤذنون يقع بالطريق حتى حوَّله خالد بن سعيد الى داخل المسجد) وفي الوقت نفسه اضيفت المآذن (المنارات) الى مساجد الخطط عدا مساجد خولان وتجيب

هذه أول اشارة الى المآذن . وقد كان مسجدا الكوفة الاول والثاني ومسجد البصرة الأول وربما الثاني أيضاً من دون مآذن كما أن مسجد عمرو الاول بالفسطاط لم تكن بهِ هو الآخر مأذنة . وقد جاء في شعر الفرزدق وهو أحد شعراء العصر الاموي ان الأذان كان يلقى من اسوار المدن

﴿ ماذا كانت هذه الصوامع الاربع ؟ ﴾ ان الخليفة الذي أعطى هذه الاوامر هو معاوية بن ابي سفيان أول الخلفاء الامويين وكان مقر حكمه دمشق حيث كان المسلمون يصلون بداخل السور الذي كان بهِ المعبد الوثني القديم وهذا السور الذي نعنيه هو الذي يشغل مكانه الآن المسجد الاموي بدمشق

ولما فتح العرب دمشق كان لهذا السور اربعة أبراج ليست كبيرة الارتفاع في كل جانب من جوانبه برج . ولا شك في أن هذه الابراج كانت المآذن الأولى لان ابن الفقيه (٩٠٣ م) يشير اليها بقوله مئذنة مع انهُ كان يعلم انها ترجع الى ما قبل الاسلام .

ولدينا من الاسباب ما يحملنا على الاعتقاد أن الابراج الاربعة بسور المعبد الوثني بدمشق هي الاصل الذي بنيت على مثاله الصوامع الاربع التي انشأها مسلمة وان هذه الصوامع كانت أبراجاً صغيرة مربعة ويؤيد هذا الرأي ان كلمة (صومعة) هي الاسم الذي يطلق على المآذن في شمال افريقية وان هذه المآذن هي في الغالب أبراج مربعة في هذه البلاد

وعلى أي الاحوال فن الواضح ان هذه الصوامع الاربع كائناً شكلها ما كان، كانت المآذن الاولى في مصر لان المقريزي يقول بصريح العبارة انهُ لم تكن هناك مآذن بمصر قبل مسلمة

ولم تكن فكرة بناء اربع مآذن بأربعة أركان المسجدمقصورة على دمشق والفسطاط. فانالخليفة الوليد بن عبد الملك حينما وسّع مسجد المدينة جعل مأذنة في كل ركن من اركانه. وليس من الغريب أن نجد ان الحرم الشريف بالقدس كان بهِ أربع مآذن منذ سنة ٣٠٠ هجرية (٩١٣ م) على الاقل. أما ما رواه مجير الدين من وجود اربع مآذن بهِ في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان فهو في نظرنا بعيد الاحتمال للاسباب التي ذكرناها

﴿ اصل الاصطلاحات العربية للمأذنة ﴾ استعملت في العربية ثلاث كلمات للدلالة على المأذنة (١) مئذنة او ميذنة (٢) صومعة (٣) منارة. وتنطق الكلمة الاولى في بعض الاحيان مأذنة (بفتح الميم) وهي مشتقة من الأذان وهو الدعوة الى الصلاة. ومعناها المكان الذي يلقى منهُ الأذان. أما الصومعة فالظاهر أنها الاسم الذي اطلقه العرب على ابراج الزهاد، فانا نقرأ مثلاً ان برج كنيسة يوحنا المعمدانفيدمشقكان يقيم بهِ راهب وانهذا الراهب رفض أن يتركه حينما بدأ الوليد فيهدمه عند الشروع في بناء الجامع الاكبر. ويتكلم ابن جبيرعن زهاد من المسلمينكانوا يشغلون المئذنة الغربية في الجامع المذكور وقت زيارته لهُ. وكانت الكلمة المستعملة في جميع الاحوال هي كلمة صومعة

وقد كانت جميع الابراج السورية والمآذن التي بنيت قبل القرن الثالث عشر الميلادي مربعة ومما هو جدير بالملاحظة في هذا الصدد أن هذه الكلمة (صومعة) هيالاصطلاح المستعمل في شمال افريقية حيث كان معظم المآذن من هذا الطراز

اما الاصطلاح الثالث (منارة) فكان يطلق اول الامر على المكان الذي تشعل فيهِ النار ثم على الشيء الذي ينبعث منهُ الضوء وقد استعمل بهذا المعنى في اشعار العرب للدلالة على مصباح الزيت او المشكاة التي كان يستعملها الرهبان المسيحيون في خلوتهم وللسبب نفسه أطلق على منارة جزيرة فاروس pharos بالقرب من الاسكندرية ثم على الفنارات عامة ثم اطلق بعد ذلك على ابراج المساجد لمشابهتها للنارات ومنه اشتقت الكلمة الانكليزية Minaret. وقد ذكر فان برشم عند بحث اصل المأذنة ان لهذه المسألة ثلاثة اوجه تجب العناية بدراستها

١ — الغرض منها اي استخدامها للاغراض الدينية ٢ — دراستها من الوجهة المعمارية ٣ — دراستها من الوجهة اللغوية. وقد تناولنا الآن النقطتين الاولى والثالثة ونذكر فيما يلي التاريخ المعماري للمآذن

مئذنة مسجد القيروان

تاريخها : — يقول البكري (١٠٦٨ م) وهو اقدم مؤرخ نعتمد عليهِ في هذا الصدد : —

انشأ محراب مسجد القيروان لاول مرة عقبة بن نافع وقد هدم المسجد جميعه عدا محرابه واعيد بناؤه بامر حسن وهو الذي نقل اليهِ من كنيسة قديمة العمودين الاحمرين المرقشين بالاصفر اللذين يمتازان بجمالهما الذي لا يضارع

ولما ولي هشام بن عبد الملك الخلافة (شعبان ١٠٥ هـ . يناير ٧٢٤ م) وصلته رقعة من والي القيروان وكان في ذلك الوقت بشر بن صفوان يقول فيها ان المسجد اصبح لا يسع المصلين وان في شماله مباشرة حديقة متسعة يمتلكها بنو فهر فاجاب الخليفة على هـذه الرقعة بان امر بشراء هذه الارض وضمها الى المسجد وقد اطاع ذلك الوالي وانشأ بصحن المسجد مستودعاً للماء يقع غرب الاروقة . ثم بنى مأذنة فوق البئر التي كانت بتلك الحديقة وضعت اسسها في الماء . ومن غريب المصادفة انهُ وجد ان هذه المأذنة كانت تقع في منتصف الحائط الشمالي بالضبط وكان المؤمنون المخلصون يمتنعون عن الصلاة في الجزء الذي اضيف للمسجد مسوّغين سلوكهم هذا بقولهم ان الوالي قد اكره مالكي الحديقة على بيعها ولا تزال المأذنة حتى اليوم كما بناها حسن . يبلغ ارتفاعها ٦٠ ذراعاً واتساعها ٢٥ ذراعاً ولها بابان يواجه احدهما الشرق والآخر الغرب جوانبهما وسا كفاهما من الرخام المزخرف المنحوت. فقول البكري «ولا تزال المئذنة حتى اليوم كما بناها حسن» يناقض — كما لحظ ذلك ريفويرا Revoira التفاصيل التي سبق ان ذكرها البكري بقوله ان المئذنة التي كانت في عصره كانت تلك التي بناها والي القيروان بشر بن صفوان بامر الخليفة هشام . وفي الحقيقة فقد توضح بجلاء ان الجزء الذي كان يشغله القسم الشمالي من المسجد والمنارة قد اشتري فقط في ذلك العهد ولذلك فذكر اسم حسن لا بد ان يكون جاء سهواً من البكري او قد يكون من اخطاء النساخ . فقد كان بشر والياً من ١٠٣ هـ (٧٢١ — ٢ م) الى ١٠٩ هـ (٧٢٧ — ٨ م) الاّ ان تلقيه امراً من هشام في هذا الصدد يجعلنا نرى ان التاريخ المحتمل لهذه المئذنة هو من شعبان ١٠٥ هـ (يناير ٧٢٤ م) الى ١٠٩ هـ

هل المئذنة الحالية هي التي بناها هشام ؟

يقول ريفويرا « يبدأ الطابق الثاني من النقطة التي يرتد عندها جدار البرج . وان مواد البناء اذا حكمنا عليها من ذلك الجزء الصغير الذي يمكن ان يرى من الداخل فاننا نجد انها تختلف عن المواد التي بني منها الطابق الاسفل للمئذنة» الخ

ولـكن الحال ليست كذلك في هذه الايام فان بناء جوانب السلم وقلبهُ يمكن ان يرى بوضوح كلما صعدنا الى اعلى وهي متماثلة تماماً ومن نوع واحد وليس هناك اقل شك في ان الطابقين الاول والثاني قد بنيا معاً في وقت واحد . اما الطابق العلوي فهناك ما يدعو الى الاعتقاد في انه يرجع الى النصف الاول من القرن التاسع عشر . ونحن نرى مع مارسيه Marcais ان المئذنة الحالية تنطبق

عليها تماماً جميع التفاصيل التي ذكرها البكري. فهو يقول ان المئذنة التي كانت في عصره كان يبلغ كل جانب من جوانبها ٢٥ ذراعاً والآن نرى ان متوسط طول كل جانب من جوانب المئذنة الحالية = ١٠ امتار و٦٣ سنتمتراً اي ان الذراع الذي يتكلم عنه البكري = ٤٢٫٥ السنتمتر. ويقول البكري ان ارتفاع المئذنة ٦٠ ذراعاً فاذا ضربنا عدد الاذرع وهو ٦٠ في طول الذراع الواحد الذي قررنا آنفا انه = ٤٢٫٥ السنتمتر لكان الارتفاع = ٢٥٫٥١ المتر بينما يبلغ الارتفاع كما قسته بنفسي ٢٥ متراً و٣ سنتمترات حتى قمة شرفات الطابق الثاني. وهذا تطابق مدهش في النتيجة التي وصلنا اليها. من ذلك يتضح ان الطابقين الاول والثاني من المئذنة هما اللذان وصفهما البكري (١٠٦٨م) وان الطابق العلوي قد اضيف بعد ذلك العهد ونظراً لان البكري مؤرخ قديم وقد روى لنا بالتفصيل تاريخ بناء مئذنة القيروان فان لنا كل الحق في ان نرى ان هذه المئذنة يرجع تاريخها الى ٧٢٤ م وهي السنة التي ولى فيها هشام الخلافة

واني وان كنت مقتنعاً بأن المئذنة الحالية هي بذاتها التي وصفها البكري فانني اذكر هنا التحفظ الآتي على سبيل الحيطة. فان بناء المئذنة يشبه تماماً بناء الجزء المكشوف من الدعامات التي بالجانب الجنوبي الشرقي من المسجد وهذه الدعامات لا يمكن ان تكون قد بنيت قبل سنة ٢٣١ هـ (٨٣٦ م) وان هذه المئذنة التي ينطبق عليها ما رواه البكري ربما كانت حقيقة جزءاً من المسجد الجديد الذي بناه زيادة الله في تلك السنة (٢٢١هـ) ولهذه المناسبة يجب ان نتذكر ان البكري نفسه لم يزر شمال افريقيا ولكنه صنف كتابه معتمداً على مؤلفات كتّاب آخرين كان اغلبهم في النصف الاول من القرن الحادي عشر وعلى التقارير الرسمية التي كان يكتبها المعاصرون من عمال الدولة الاموية باسبانيا وقد عزا مرة الى زيادة الله ٢٢١ هـ اعمالاً يظهر انها لم تكن من عمله بل من عمل ابي ابراهيم احمد الذي خلفه في سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٢م). على اننا حتى لو عزونا هذه المئذنة الى زيادة الله فانها مع ذلك اقدم مئذنة في الاسلام موجودة الى الآن اذا استثنينا مئذنة قصر الحير

﴿ الاصول المعمارية ﴾ ان اهم ما يستوقف النظر من التفاصيل المعمارية في هذه المئذنة هو معالجة مدخلها الذي يذكرنا بمدخل البرج الذي يقع شمالي حماه بنحو عشرة اميال كما يشبه مدخل الجزء السفلي القديم من المئذنة الجنوبية الشرقية بالمسجد الكبير بحماه. ونظراً لان مئذنة القيروان قد انشئت بأمر الخليفة الاموي الذي كان مقر حكمه سوريا فلذلك نجد أثر العمارة السورية واضحاً فيها. فاذا اردنا مواصلة بحثنا وجب علينا معالجة التطور المعماري للمآذن

﴿ التطور المعماري للمآذن ﴾ رأينا فيما سبق ان المئذنة التي بناها عمر بن عبد العزيز ٩٩ — ١٠١ هـ (٧١٧ — ٧٢٠ م) بالرملة، لا بد انها كانت برجاً مربعاً وانهُ من الطبيعي جداً ان تكون كذلك لان ابراج الكنائس قبل الاسلام كانت من هذا الطراز ويمكن ملاحظة ذلك في كثير من الكنائس التي بقيت الى يومنا هذا والتي نذكر منها الامثلة الآتية : —

١ — (قصر البنات). دير ذو برج مربع يبلغ ارتفاعه ٢٣ قدماً بناه كيريوس Kyrios وربما كان هذا الاسم هو اسم المهندس الذي وجد منقوشاً على اربع كنائس اخرى في كتابات يختلف تاريخها من ٣٩٠ الى ٤١٨ م

٢ —(أم السرب) في حوران الجنوبي . كنيسة للقديس سرجيوس Sergius وباخوس Bacchus وبها برج عال مربع الشكل لا يزال سليماً — عدا سقفه فقد تهدم — وقد بني سنة ٤٨٩ م

٣ — (سما) في حوران الجنوبي . دير القديس جورج وبه برج مربع يبلغ ارتفاعه حوالي ١٢ متراً ولا يزال سليماً وقد بني سنة ٦٢٤ — ٦٢٥ م

٤ — (ام الرصاص) وبها برج مربع طول كل ضلع منه ٢٫٥٠ المتر وارتفاعه حوالي ١٢ متراً وبجانبه بقايا بناء يعتقد ترسترم Tristram (١٨٧٢م) انه كان كنيسة نظراً لانهُ استطاع أن يميز بها بقايا هيكل كنيسة . أما فنسنت Vincent فيقرر أن هذا البناء كان حصناً ويقول برونوف Brunnow وفون دوماس زويسكي Von Domaszewksi ان هذا البناء المتهدم كان كنيسة . وفي الحقيقة يوجد هناك بناءان متجاوران أحدهما يظهر أنهُ كان برجاً محصناً (قد يكون كل ما تبقى من سور المدينة) والآخر وهو اكثر تهدماً لكنه متصل تماماً بالبرج ونحن نرى أن هذا البناء كان كنيسة لان هناك صليباً يونانيًّا محفوراً على الواجهتين الشرقية والغربية للبرج

٥— (جرادة) . يضاف الى الامكنة السابقة البرج ذو الخمس الطبقات الملاصق لاروقة كنيسة جرادة فان هذا البرج لا يزال في حالة جيدة

يتضح اذاً ان المئذنة المربعة بالرملة ومئذنة القيروان هما مثالان من امثلة استمرار الاخذ بالتقاليد المعمارية السورية التي كانت بسوريا قبل الاسلام وليس بهذه المآذن طبقات مثمنة او مستديرة كما ان الطابق العلوي لم يكن اساسيًّا كما رأينا . ولا يمكن ان يدعي احد — كما فعل ثيرش — Thiersch ان كل مئذنة ذات طبقات مربعة ومثمنة ومستديرة على التوالي قد اشتقت من الفنار ثم يدعي هذه الدعوى نفسها في مئذنة اخرى كل طبقاتها مربعة على ان النسب التي لحظت في جميع الطبقات السفلى في كل حالة غير متشابهة كما يدعي تيرش . مثال ذلك : ان نسبة قاعدة الطابق السفلى للفنار الى ارتفاعه تساوي ٥ الى ١٢ بينما نجد النسبة في مئذنة القيروان حوالي ٥ الى ٩ اضف الى ذلك ان مئذنة القيروان هي اشبه بابراج الكنائس في سوريا منها بابراج الفنارات

﴿ الخلاصة ﴾ يمكننا الآن ان نقرر — ونحن واثقون — ان فكرة بناء المئذنة نشأت بسوريا في عهد الخلفاء الامويين وان المآذن الاولى كانت هي الابراج المربعة القديمة بسور المعبد الوثني بدمشق . وان المآذن التي بناها المسلمون اشتقت معماريًّا من أبراج الكنائس السورية . اضف الى ذلك ان التقاليد المعمارية السورية في بناء المآذن قد بقيت عدة قرون بل أنها نفذت الى الجانب الشمالي من بلاد الجزيرة (بين النهرين) كما يلحظ ذلك في مآذن الرقة وحران وديار بكر

اله القدر

للدكتور رمزي مفتاح

[قد يعتقد المرء بالقوة الالهية اعتقاداً موروثاً او اعتقاد علم يقين ، ومع هذا الاعتقاد قلما يخطر له أن الناس هم قضاؤه هو وقدره] .

كم شكونا سطوةَ الأقدارِ كمْ تسلبُ النُّعمى وترمي بالالمْ

***

يا حبيبي ! حينما فارقتني ذَبُلَ الزهرُ وزهرُ الناس لمْ
فأرى العيشَ وما كنتُ أرى عابساً وهو لغيري يبتسمْ

***

حكمُ ربي أو قضاءٌ عابثٌ يرفع الوغدَ ويزري بالاشمّ
يرفع الرأس افتخاراً بالذي نالَ دون الحرِّ من تلك النِّعمْ
نَقِمَ القلبُ عليه فَخُرُهُ لو تساوى الناسُ يوماً ما نَقَمْ

***

وعزيزٍ غادرَ الدنيا فهلْ قد سلا قلبي عزيزاً في الرمْ ؟
وصديقٍ هاجرٍ هل بعدهُ غير حقدٍ أو حنينٍ أو ندمْ ؟

***

سطوةُ الاقدارِ في اهوائها ! كم شكونا سطوةَ الاقدارِ كمْ
لا تقلْ حكمُ الهٍ عادلٍ انما الاقدارُ من لحمٍ ودمْ ...

اسماء النجوم

للفريق الدكتور امين باشا المعلوف

نشرتُ في سنة ١٩٢٩ في مجلة المجمع العلمي العربي اسماء بعض النجوم بالانكليزية وما يقابلها بالعربية وكتبت قبل ذلك الى العلامة احمد تيمور باشا استفتيه في الامر فاشار عليَّ رحمهُ الله ان ارسل الجداول برمتها الى العلامة السيد عبد الحميد البكري ففعلت وبعثت اليه بالجداول كلها كما وردت في معجم وبستر مع ما يقابلها بالعربية فتفضل حفظهُ الله واجابني على الفور واستحسن ما كتبتهُ وخالفني في الفاظ علّق عليها تعليقاً يدل على سعة علمهِ ودقة بحثهِ . ونشرت هذه الجداول في مجلة المجمع العلمي العربي كما تقدم . ثم عدت الى مصر فلقيت يوماً صديقي الاستاذ محمد مسعود فاعطيتهُ نسخاً منها ليعلق عليها . وقد رأيت الآن ان اعيد نشر هذه الجداول بعد اضافة ما عثرت عليهِ اثناء مطالعتي . وفي ما يلي صورة الجزء الاول منها اما المجموع فسينشر على حدة بعد العثور على حروف يونانية لانها ضرورية جدًّا في مثل هذا البحث . وكان جملة ما نشرتهُ في مجلة المجمع نحو مائة كلمة بلغت كلها نحو ٢٤ صفحة من قطع الربع وقد اضفت اليها الآن سائر المصطلحات الفلكية فصارت كانها معجم فلكي يقع في ما يقرب من مائتين و خمسين صفحة

انحراف النور — Aberration of Light

تغيير في مكان جرم سماوي حادث من حركة الارض في فلكها. وكنت اود ان اسميهُ زَوَغان النور او زَيَغانهُ ولكن الفلكيين من العرب قالوا انحراف النور (فانديك ونلّينو) وانحدار النور (نلينو)

امتصاص النور — Absorption of Light

نقص يظن انهُ يقع في لمعان النجوم البعيدة

التسارع — Acceleration

زيادة بطيئة في سرعة القمر في دورانه حول الارض . ويقال التسرُّع ولكن التسارع افضل.

آخر النهر الظليم — Acamar. Theta Eridani

آخر النهر الظليم — Achernar. Alpha Eridani

يسمى الافرنج هذا النجم والذي قبله آخر النهر ويُظن ان الاول منهما رصده الصوفي وسماه آخر النهر او الظليم وكان في ايامه من القدر الاول اي انهُ كان آخر النهر اما الآن فنير النهر هو هذا اي الثاني منهما (انظر كلمة اريدانوس في المعلمة البريطانية) . وكتب اليَّ السيد البكري في تعليقه على الاول منهما ان الكلمة تصحيف آخر النهر فكأنهم قرأوا Acarnar و Acamar وهذا غير بعيد وسيأتي في ما يلي انهم صحفوا الكلمات العربية اكثر من ذلك كثيراً

الماصح Achromatic

اي مزيل اللون يقال نظارة ماصحة وبلورة ماصحة

اللصيق Acolyte

نجم خفيّ قرب نجم آخر اشد منه لمعاناً كالسُّها في الدب الاكبر فهو كوكب خفي قالوا انهُ ملاصق للعَناق وكنت اود ان اترجم هذه الكلمة بالتابع لكن العرب سموا الدبران تابعاً وهو ليس من الكواكب الخفية بل من اشدها لمعاناً . كذلك الاقمار فان المحدثين سموها التوابع Satellites لذلك ارى ان تترجم هذه الكلمة باللصيق

See Alcor

انور الاكليل او اكليل الجبهة . بيتا العقرب Acrab. Beta Scorpii. Called also Iklil or Iklil al Jebha

لا يخفى ان العقرب عند العرب اسم صورة يقال لنيّرها قلب العقرب وسيذكر. اما هذا فليس النير بل كوكب آخر في الاكليل او اكليل الجبهة فاكليل الجبهة ثلاثة نجوم هي بيتا وذلتا وبي اوخمسة هي رو وبي وذلتا وبيتا وابسلون فيكون انور الاكليل هو المرموز له بحرف بيتا اليوناني . وينبغي ان يشار هنا الى الاكليل فهو صورة شمالية واخرى جنوبية لا علاقة لها بالعقرب فاكليل العقرب غير الصورة [See Scorpio, Antares, Corona]

أُفولي Acronical, Achronical

يقال عن جرم سماوي اذا شرق او غرب عند افول الشمس. والافولي عن النجاري بك

نيّر نُعَيم Acrux. Alpha Crucis

ونعيم هو الصليب الجنوبي كما سيجيء

[See Crux]

نيّر السرطان . الزُّباني الجنوبي Acubens. Alpha Cancri

يقول لاين في معجمه المشهور ان نير السرطان هو الطرْف ولكن هذا الكوكب ليس الطرف

بل في الزباني الجنوبي من السرطان والطرف عند الافرنج Altarf وسيأتي ذكره . ويقول وبستر ان الكلمة من زباني العربية وهو من اغرب ما رأيت في التحريف

See Cancer

Adara. See Adhara

ضفيرة الاسد Adhafera. Zeta Leonis.

وتسمى ايضاً الهلبة ولها اسماء اخرى غير هذه

See Coma Berenices

كبرى العذارى Adhara, Adara. Epsilon Canis Majoris

هي عند الافرنج إبسلون الكلب الاكبر والعذارى عند العرب خمسة كواكب على كتف الكلب الاكبر وذنبه وفخذه وهي حسب رواية فانديك ابسلون وذلتا وايتا وأُميكرون و٢ الكلب الاكبر فالاول منها اي ابسلون هي كبرى العذارى اما الثالثة اي ايتا فاسمها العذرة وسيأتي ذكرها

See Aludra, Canis Major

الذيخ Adib, Thuban. Alpha Draconis

سمى الفلكيون من العرب هذا الكوكب بالذيخ منهم الصوفي والقزويني. قال القزويني في وصف التنين وفي اصل الذنب كوكب يسمى الذيخ وهو ذكر الضباع فاخذ الافرنج قولهم لكنهم تركوا الذيخ وبقيت كلمة الضباع فقالوا Adibà ثم جعلوها Adib فصار اسم هذا الكوكب Adib (انظر هذه الكلمة في معجم وبستر) . وفي نسخة الصوفي التي اطلعت عليها الذيح بالمهملة والصواب الذيخ بالخاء المعجمة وهي كذلك في القزويني طبع اوربة وفي الفيروزابادي وفي جميع كتب اللغة واظن هذا يفسر كلمة Adib التي نجدها عند الافرنج

اما كلمة ثعبان وهي الكلمة الثانية التي اُطلقها الافرنج على هذا الكوكب فسببها ان العرب سموا التنين بالثعبان ايضاً والدليل على ذلك انهم سموا كوكباً في التنين برأس الثعبان Rastaban وسيأتي ذكرهُ . فالذيخ كوكب في ذنب التنين اي الثعبان والآخر في رأسهِ وهو من الكواكب المعروفة بالعوائذ . وقد كنت حائراً في امر هذا النجم لذلك لم اذكره باسمه هذا في ما نشرته في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق بل قلت انهُ لا يعقل ان العرب لم يذكروا نجماً من القدر الاول في التنين باسمه. اما الآن فقد اهتديت اليهِ وهو الذيخ وليس الثعبان فان العرب لم تذكر نجماً اسمهُ الثعبان في ما اعلم . ثم ان الافرنج قد سموا هذا النجم El Asich ذكره استاذنا الدكتور صرُّوف في كتابهِ بسائط علم الفلك

حجر جَوّي Aerolite

نوع من الرجوم ليس فيه الاَّ قليل من الحديد

الأيثر — Aether. See Ether

مادة يقال أنها تملأ الفضاء

الوزن . بيتا قنطورس — Agena. Beta Centauri

هذا عن السيد عبد الحميد البكري

الدب الاكبر — Aish. An ancient name for the Great Bear

والكلمة الانكليزية عبرانية الاصل وهي عيش بالعبرانية

الاظفار . أظفار النسر الواقع . ايتا الشلياق — Aladfar. Eta Lyrae

هي الشلياق في فانديك وأظنه مصيباً فهي ليست السلياق المهملة

سعد بالع . سعد بُلَع — Al Bali. Eta Aquarii

وهو المنزل الثالث والعشرون من منازل القمر

See Aquarius

البياض — Albedo of a Planet

ويراد به نسبة النور المنعكس عن سطح سيار الى ما يأتيه من نور الشمس والكلمة ليست عربية ولكنها شبيهة بالعربية

منقار الدجاجة — Albireo. Beta Gygni

والكلمة الاعجمية ليست عربية الاصل بل هي تصحيف ما ورد في المجسطي

See Gygnus

الخباء.منقار الغراب.نيّر الغراب.والخباء كذلك الصورة كلها — Alchiba. Alpha Corvi

See Corvus

السُّها . السهى — Alcorag Ursae Majoris

نجم خفي ملاصق للعناق من بنات نعش في الدب الاكبر كان الناس يمتحنون به أبصارهم ومن أسمائه الصيدق والصيدوق . والكلمة الافرنجية من خوّار العربية فقالوا في وصفه كوكب خوار أي ضعيف وقد تكون الكلمة من حَوَر العربية والحور كوكب آخر من بنات نعش الكبرى وهو رأي الاب لامنس ولكنني ارجح قول وبستر وهو ما تقدم

See Ursa Major

الذراع اليمنى . الفا قيفاوس — Alderamin, Alpha Cephei

والاسم عربي من الذراع اليمين أي اليمنى

نير الثريا . وَسْط الثريا — Alcyone

ويقال له الكيوني أو القيوني وهذه يونانية

الدَّبَرَان . نيّر الثور — Aldebaran. Alpha Tauri

ومن أسمائه عين الثور وثاني النجم والتابع وتالي النجم وسائق الثريا وتابع النجم أي الثريا وحادي النجم والمِجدَح والمُجْدح والفنيق . وقد سمي بالدبران لاستدباره الثريا . أما النجم فمن أسماء الثريا

See Taurus, Pleiades

Aldhafera. Same as Adhafera

الذئبان . ايتا وزيتا التنين — Aldhibain. Eta & Zeta Draconis

See Draco

نيّر الفكّة — Alfeta. Alpha Coronae Borealis. See Alphecca

الفِرق . بيتا قيفاوس — Alfirk. Beta Cephei

Algedi. See Geidi & Dabih

جبهة الاسد . جمّا الاسد — Algeiba. Gamma Leonis

See Leo

جنب الفرس . جناح الفرس — Algenib. Gamma Pegasi

هو أحد كواكب مربع الفرس ويسمى مع سرة الفرس الفرغ الموخر أو الفرغ الثاني

See Pegasus

مَرْفِق او مِرْفَق الثريّا — Algenib. Alpha Persei. Called also Mirfak

جنب فرساوس أي من أسمائه جنب فرساوس

Algiba. Same as Algeiba

رأس الغول — Algol. Beta Persei

نجم مشهور متغير

الغراب . جناح الغراب الشرقي أو الايمن — Algorab. Delta Corvi

جناح الغراب الغربي — Algores, or Gienah. Gamma Corvi

المَيْسان . انور الهنعة — Alhena. Gamma Geminorum

الهنعة كوكبان زاهران في المجرة بين الجوزاء أي الجبار ورأس التوأمين أنورها الميسان والآخر الزر وهما المنزل السادس من منازل القمر . فأطلق الافرنج اسم الهنعة على أنورها أي الميسان أما الزر فأطلقوه على كوكب آخر هو إكسي التوأمين

See Gemini

الحَوَر . الجَوْن . الأَلْية — Alioth. Epsilon Ursae Majoris

كوكب من بنات نعش الكبرى وهو الثالث منها قرب المغرز . أما كلمة الأَلْية فعربية قال الاستاذ محمد مسعود في تعليقه على هذا النجم ما نصه: سماه الأَلْية اذفونش العاشر ملك قشتالة وقد تلقى علم الفلك على عرب الأندلس في قرطبة وألف الزيج المعروف باسمه . أما الحور فقد قال الفيروزابادي الحور من بنات نعش وسماه عبد الرحمن الصوفي بالجون لانهُ يكوّن مع المغرز والفخذ تجويفاً يشبه الخليج الصغير وتابعه على هذه التسمية ألغ بك ابن تيمورلنك

ابرة العقرب — Al Ibret. Lamda & Upsilon Scorpii

أي شولة العقرب مع اللسعة

See Scorpio, Shaula, Lesath

القائد. قائد بنات نعش — Alkaid. Eta Ursae Majoris. Called also Benatnasch

كوكب في بنات نعش الكبرى هو طرف بنات نعش الكبرى ويسمى القائد هذا قائد بنات نعش ويسميه الانكليز أحياناً بنات نعش باسم نجوم الذنب جميعاً See Ursa Major, Benatnasch

القَطْرَبوس . في العواء أو الصياح — Alkalurops. My Bootis

هو كوكب في رمح العواء قال السيد البكري تعليقاً على هذا النجم لعله كما ذكر فانديك تصحيف لاسم عصا الراعي باليونانية

القفزة الثانية في الدب الأكبر — Alkaphra. Chi Ursae Majoris. See El Kophra

هي تصحيف القفزة الثانية فقرأوا الزاي المعجمة راء مهملة

نير الكاس او الباطية — Alkes. Alpha Crateris

See Crater

عناق الارض — Almach, Almack, Almak, Gamma Andromedae

ويقال الماق والموق ورجل المسلسلة . جنا المسلسلة

المجسطي . كتاب في الفلك الفهُ بطلميوس ونقله العرب الى لغتهم — Almagest

والميم في بطلميوس قبل الياء فيقال بَطلميوس لا بطليموس والمجسطي بكسر الطاء فلا يقال المجسطى بل المجسطِي

المتقدِم للقطاف . المقدّم للقطاف — Almuredin. Epsilon Virginis. Called also Vindemiatarix

أبسلون السنبلة او العذراء اما الكلمة الانكليزية فمن الموردين العربية

See Virgo. Vindemiatrix

المحاضرة الاولى — الفن الفارسي

بنيون الفنان

بين التصوير والشعر

للدكتور احمد زكي أبو شادي

(١)

شهدت مصرُ في السنوات الاخيرة من النجوم المتألقة في عالم الأدب — على تفاوتٍ في القدر وتباينٍ في الاشعاع — ما شغلها أو بالأحرى ما شغلَ انديتها الأدبية المحترمة بالحديث عنهم أسابيع متوالية. وآخرُ من أتيح لي الاستمتاع بأدبهم عن كثبٍ من أولئك الزائرين الأعلام الشاعر الانجليزي المخضرم لورنس بنيون (Laurence Binyon) وقد ألقى بدعوةٍ من الجامعة المصرية بضعَ محاضرات في ردهة الجمعية الجغرافية الملكية عن التصوير الفارسي والتصوير الصيني، وعن التقليد والثورة في الشعر الحديث، وعن التعاليم الروحية للشاعر وليم بليك، كما قرأ نماذج مختارة من شعره. ولم يفته أن يلقي محاضرة عامّة عن معارفه من شعراء الانجليز في كلية الآداب بالجامعة، وكانت هذه اخرى محاضراته التي دُعيتُ الى سماعها في ١١ مارس الماضي، كما كانت أُولى محاضراته في الثامن عشر من فبراير المنصرم. وكان موفّقاً كلَّ التوفيق فيها جميعاً، وقد اجتذبَ اليه الأدباء العارفين بالانجليزية من شتّى الطبقات. لذلك لم اعجب لاهتمام صديقي محرر (المقتطف) بهذه المحاضرات التي يسرّني أن أُلبّي رغبته وغيرته الأدبية في التعليق عليها، معرّفاً بهذا الشاعر المجيد المجهول لدى من لا يطالعون الأدب الانكليزي.

لقد عاصرَ لورنس بِنْيون الشاعر تينسون والشاعر سونبرن وغيرهما من كبار الشعراء في أواخر العصر الفكتوري وللامبراطورية الانجليزية ما لها من العظمة المتألقة والطمأنينة الشاملة والثقة الكبرى مما كان له أثرهُ البالغ في مَرائي الشعر الانجليزي، كما صاحب تطوّر الشعر الانجليزي في عصرنا الحاضر وله ما له من صلات الصداقة بهاردي وبردجز وماسفيلد ودي لامار وغيرهم، ولا يزال يُستجب من الشعر الناضج الكلاسيكيّ الصياغة غالباً العصريّ الروح ما يسترعي به عناية الأدباء عشّاق الشعر المتسامي. فهو شخصية فذّة جامعة الى الشيخوخة في السن فتوّة في الروح الشعرية ولكنها فتوة أنضجتها التجربة الطويلة وتأملات الحياة والثقافة. ولم يزدني تعرفي الشخصيُّ له الا اقتناعاً بذلك، فقد وُلد هذا الشاعر الكبير في العاشر من اغسطس سنة ١٨٦٩ ومع هذا فان مظهره

وقوته الخطابية وحضور بديهته وروحه الشعرية الغلابة مما لايعز هذه السن . وقد درس بنيون في مدرسة سانت يول بمدينة لندن ثم في جامعة اكسفورد وأظهر منذ صباه نبوغاً جليًّا في الشعر فنال سنة ١٨٩٠ (اي في الحادية والعشرين) جائزة نيود جيت لقصيدته الموسومة (پرسيفون) ، والتحق بالمتحف البريطاني في سنة ١٨٩٣ وعهد اليهِ فيما بعد بادارة قسم المطبوعات والنقوش الشرقية فبرع في دراستهما بما لهُ من حب الفن وقدرة النقد الحصيف . والى همته وخبرته يرجع الفضل في اخراج فهارس المتحف البريطاني عن الصور الانجليزية والتصوير الخشبي الياباني (وهي في اربعة اجزاء) ، الى جانب مؤلفاته المتعددة عن الفن الصيني والياباني والهندي ، وعن تصوير الشاعر الفنان ولبم بليك وحفره . فنال بجدارة شهرة عظيمة كناقد فنان ومؤرخ عظيم للفن الشرقي ، الى جانب سمعته المحترمة كشاعر جهير صادق الشاعرية كما شهد لهُ السير جون اسكواير الناقد الشاعر الانجليزي العظيم ومحرر مجلة (عطارد) اللندنية . وأول دواوينه الشعرية أخرجهُ سنة ١٨٩٤ ، وآخر شعره المجموع ظهر سنة ١٩٢٧ في صورة مختارات للشاعر نفسه . وهو يعنى الآن بعمل شعري جليل يقدر لاتمامه — كما اخبرني — نحو سبع سنين ، وقد اكتفى بما قدمهُ لخدمة التصوير الشرقي بعد ان اعتزل خدمة المتحف البريطاني سنة ١٩٣٣ وتفرغ للشعر ، كما انهُ يُعنى بترجمة دانتي الى الانجليزية. ولعلَّ اهمَّ محاولاته الشعرية حركتهُ العظيمة لاعادة الدرامة الشعرية المرسلة النظم الى المسرح الانجليزي ، وهذا يُشعرنا بروحه الفنية الطليقة حيثما تحبِّذ الطلاقة الكاملة

هذا هو الشاعر الناقد الفنان الذي حفلت بدعوته الجامعة المصرية لالقاء محاضراته القيِّمة الجامعة بين التصوير والشعر والنقد الفني ، فكانت هذه المحاضرات غنماً عظيماً للأدباء في مصر ، كما كان الاحتكاك بشخصيته الجهيرة غنماً أجل . ولعل اكبر المزايا لمحاضراته تفسيره المشترك للفنون ، فهو حيثما يتكلم عن التصوير الفارسي او الصيني شاعرٌ فيلسوف ، وهو حيثما يتناول الشعر بالدراسة مصورٌ ساحرٌ ، وهو حيثما ينقد الآثار الفنية خبيرٌ يهدم ويبني ببراعة فائقة . لذلك لم أدهش لاعجابه بالشاعر بردجز لدقته التصويرية والتأملية ، ولا لاعجابه بالأديب الشاعر الناقد إبحرام بريان الذي فسَّر الادب الانجليزي تفسيراً فنيًّا فاتناً . فهذه هي هي روح بنيون نفسه موزعة على من قدَّرهم وأحبهم وهي أظهر لديه منها لدى جون درنكووتر فيما لحظتُ وقدرتُ ، وقد قرأت لكلا الشاعرين الناقدين واستمعت لهما . وهــذا الأسلوبُ الطريفُ الجميل في المحاضرة كان في الواقع خلاَّباً لألباب المستمعين وأنا بينهم ، فان لتوحيد الفنون من الجاذبية النفسية ما له ، ولا ينافي هذا التصريح ما ندعو اليهِ من تحديد استقلالها أولاً من باب التنمية لعناصر كلّ منها ، فان التمازج بينها تأليفاً أو تفسيراً شيء وارضاخ أحدها ارضاخَ الضعف لغيره شيء آخر

إذن ليس الحديث عن لورنس بنيون بالحـديث السهل ، فهو متعدد النواحي في نبوغه ، عظيم الايمان برسالته الفنية التي يعبر عنها في دقة وحرص مع البعد عن الثرثرة بعده عن الابهام ، فهو

فصيح رائع محبوب ، له بساطة العظمة ، وله الروح الانجليزية السمحة التي يفهمها من عاشر مفكري الانجليز وأدباءهم في بلادهم حيث يتنفسون في جو الحرية والديمقراطية

(٢)

يعتبر فن التصوير الفارسي كما نعرفهُ فنًّا اسلاميًّا إذ لم يبق شيء يذكر من آثاره قبل القرن الثالث عشر للميلاد . وقد بدأ بصورة تجريبية مختلفة العناصر متأثرة بالفن الصيني في القرن الرابع عشر حتى اذا جاء القرن الخامس عشر أخذ الروح الفارسي المستقل يتجلى فيهِ . وقد ظهر في ذلك القرن فيما بعد الرسام الفارسي بهزاد زعيم مدرسة نابهة وأشهر الرسامين الفرس وقد أمضى معظم حياته في هرات ، وأشهر صوره الموثوق من اصالتها في دار الكتب الملكية بمصر . وفي القرن السادس عشر في عهد الاسرة الصافاوية ظهرت مدرسة فخمة للفن الفارسي نهضت بهِ الى غاية الرونق الفاخر . ولكنهُ أخذ في الاضمحلال بعد ذلك وان يكن الفنانون الفرس الذين أنشأوا حينئذٍ المدرسة المغولية في الهند

بهذه المقدمة مهّد الشاعر لورنس بنيون لمحاضرته الاولى منبهاً المستمعين الى أن الفن الفارسي محدود الطاقة فانه لم يستطع أن يبرز لنا من الخواطر الدينية مثل ما أبرز الفن المسيحي أو البوذي ، ولو أن الفن الفارسي قد أبدع أحياناً في تصوير اسراء النبي (صلعم) كما نشاهد ذلك في أثر الفنان الفارسي نظامي المحفوظ بالمتحف البريطاني في لندن . كذلك لا نجد فارس أنجبت شيئاً من فن الطبيعة الخالص ، وكان شائماً حينئذٍ في الصين كما لم تتجنب تصوير الأشخاص في إبداع صحيح بل كان تصوير الأشخاص نادراً . ولكن بالرغم من حدود الفن الفارسي في التصوير فانهُ كان في بعض صفاته عديم النظير . فقد كانت لهُ القدرة الممتازة على استعمال أزهى الالوان وأنقاها ومزجها مزجاً فنيًّا بديعاً . وكان أداةً فذّةً في التعبير عن عظمة الدنيا ، متفرداً تفرّد الجوهرة المتألقة ولكن في غير بهرج . ولم تكن هـذه الروح الفنية وقفاً على التصوير الملوّن فان الرسم الخطي أيضاً كان قويًّا في التعبير

وقد عرض المحاضر الالمعي في لغته الشعرية كثيراً من الألواح المصورة بالفانوس السحري منبهاً الى أن تلك الصور — بالرغم من قيود التقاليد — نابضة بالحياة الفنية ولها جوُّها الخاص ، فنكاد نشعر بمرور الريح بين الأشجار ونحس بالحياة فيما حولها ونسمع خرير المياه المتسلسلة وان يكن هذا الابداع أقوى ما يكون في الفن الصيني الاصيل الذي تأثر بهِ الفن الفارسي . وبين الصور البديعة التي عرضها صورة يونس في الحوت وصورة اسكندر المقدوني جالساً بين حكماء اليونان السبعة وفي مقدمتهم أرسطو وأفلاطون ، وهذه الصورة من مظاهر اهتمام الفرس بأعمال الاسكندر التي سارت بحديثها الركبان في ذلك الوقت . ولعلّ من أجل هـذه الصور وأشدّها بروزاً صورة

النبي (صلعم) صاعداً الى السماء السابعة (المعراج)، وهي صورة فذة في تصميمها الفني وفي تكوينها. ومن ألطف الصور التي عرض لها المحاضر صورة ملك في احدى غزواته وقد اعترضته عجوز شاكية من تصرّف جنوده. فسألها الملك أن تخلي له السبيل لانهُ متعجل الغزوة. فقالت لهُ العجوز: أليس الاولى بك أن تسيطر على رجالك بدل ان تفكر في غزو الآخرين؟!

والواقع أن مركز البلاد الفارسية جغرافياً وسياسياً أهّلها لهذه الالوان المختلفة من الثقافة فظهرت في فنها بجلاء، وإن احتفظ الفن الفارسي بشخصيته بحيث لا يصعب تمييزها في جميع آثاره، وهي شخصية مستمدة من صميم الواقع مع احترام للتقاليد وعناية بالحدود المرسومة له عناية توجب الحرص على التناسق والزخرفة الدقيقة واجتناب الترسّل

ومما عرضهُ المستر بنيون صور شتّى تمثل مأساة مجنون ليلى التي قوامها البحث عن المثل الأعلى في الحب بدل قبول الواقع في الحياة، وكانت صورة المجنون بين الحيوانات الآبدة أوقعها في النفس. ومن الصور الخلاّبة صورة شاعر جالس في الحديقة وخلفه الأزهار المتفتحة الناطقة بتعابير الجمال الرمزي، ومع أن الصور الشخصية في ذلك العهد كانت نادرة فانّ ما صُنِعَ منها كان آية في الاتقان الممثّل لمرائي الحياة وعواطفها، بيد أن فنّ التصوير الفارسي في جملتـه كان تصويراً مصغراً للتصانيف الأدبية ومآلهُ للكتاب قبل المتاحف

ومعروف انّ الثقافة الاسلامية الفنّية تأثرت كثيراً بالفنّ الفارسي وبأعلام الفرس، فقد كان للفرس الفضل في ابتداع الخط النسخ والخط الثلث كما نعرفهُ الآن، وعنهم تلقّى ابن مقلة فن الخط، وهو الذي عمّم استعمال الخط النسخ بدل الخط الكوفي. وكان الفرس أول من عُني بالاخراج الفني للكتب ولا سيما للمصحف الشريف. ولكن أثرهم في التصوير كان أبلغ وأعظم وان كانت الآثار التي بين أيدينا من العهد الساساني القديم ضئيلة للدلالة على الذوق الفارسي في تصوير الطبيعة والحيوانات والجمال الانساني في الراقصات وغادات الصيد ونحو ذلك، ومن بين هذه الآثار الخاضعة للنفوذ الفارسي بعض التصاوير على حيطان قصر الخلافة في (سر من رأى)[1] التي أظهرتها الحفريات الحديثة. والمعتادُ في عرض الفنّ الفارسي التكلم على مدارس بغداد وتبريز واصفهان من باب التمييز والتقسيم للعناصر الفنية ولعناية أرباب الفنون وأذواقهم

(٣)

لقد أوجد الاسلامُ روحَ الأخوة عند الامم المختلفة التي ارتبطت بهِ وصهر حضاراتها المختلفة في بوتقة واحدة فلا عجب اذا قلّد العربُ الفرسَ في مظاهر مدنيتهم من ضرب النقود الى التصوير على المنسوجات ومختلف الأثاث والأواني وعلى حيطان الحمامات والقيشاني وفي التصوير التفسيري

(١) يرجع الى كتاب (التصوير عند العرب) تأليف المرحوم احمد تيمور باشا، وهو من مؤلفاته المخطوطة وقد نشرت نماذج منه في مجلة (الهلال). تراجع كذلك دراسات الدكتور زكي محمد حسن الامين العلمي لدار الآثار العربية

لكتب الأدب ودواوين الشعر والمؤلفات الطبية والعلمية مثل كتاب (عجائب المخلوقات) للقزويني و (مقامات الحريري) وكتاب (كليلة ودمنة) وقد كان للعرب اسوة في ذلك بتصوير (الشاهنامة) للفردوسي و (بستان) سعدي و (كلستان) سعدي وديوان حافظ الشيرازي وقصائد (نظامي) الخمس وغيرها من الآثار الأدبية الشهيرة . ولما كانت بغداد مركز الحضارة الاسلامية في القرن الثاني عشر للميلاد فقد صارت مركزاً لمدرسة فنية قوية متأثرة الى درجة ما بالروح الفارسي ومتأثرة كذلك بأهل الفن من مسيحيي الكنيسة الشرقية

وترجع مدرسة بغداد هذه في تقاليدها ومزاجها الى أبعد من القرن الثاني عشر وتستمر الى القرن الثالث عشر حافلة بتصوير مؤلفات الاغريق المترجمة الى العربية وما نسج على منوال تلك المؤلفات القديمة . ولم يكن لقصص بيدبا التي نقلت عن الهندية في كليلة ودمنة ولا لنوادر أبي سعيد السروجي في مقامات الحريري نصيبٌ يسير من عناية مدرسة بغداد التي خدمها اولئك المسيحيون المنتسبون للكنيسة الشرقية كما خدمها الفرس لان روح الاسلام كانت متقبلة للحضارة غاية التقبل، ومن أولئك المعلمين أخذ العرب صناعات فنية مختلفة ليس أهونها شأناً صناعة الفسيفساء والعمارة . ولهؤلاء النصارى فضل على الفرس انفسهم حتى ان الفن الفارسي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد ظهر وفيه ما فيه من بذور هذا التأثر الى جانب العوامل المؤثرة من الشرق الأقصى والأوسط بعد الفتح المغولي

والملحوظ في تصاوير مدرسة بغداد الدقة في مزج الالوان والقوة في التعبير الى درجة مدهشة والثروة البالغة في معاني التظليل اجمالاً وتفصيلاً ، مع الأمانة للطبيعة . ولئن ضاع الكثير من آثار هذه المدرسة فالباقي منها بأيدينا هو مثالٌ للمفقود منها ، لان الفنانين انصرفوا الى تكرار تلك الصور في تفسير المؤلفات الشهيرة وعلى الأخصّ في مقامات الحريري ، حتى صارت مدرسة بغداد مدرسة عربية اكثر منها فارسية في الاختيار وفي تصوير الاشخاص بسماتهم العربية وفي نشاط وقوة خلافاً لما عرف به الفن الفارسي الخالص من الدعة والرشاقة

ومن العجيب أنّ بعض هذه الصور العربية الاسلامية تحيط برؤوس أصحابها هالات من النور على مثال المألوف في التصاوير الكنسية ، وهذا كاف لاشعارنا بمبلغ تأثير أولئك الفنانين المسيحيين ، إن لم يكونوا هم انفسهم مبدعي تلك الصور . كذلك يبدو أثرهم في كيفية رسم الملائكة بأجنحة مدببة وفي تصوير الطبيعة نفسها في بساطة تقليدية وفي العناية بزركشة الملابس ، فكأن مدرسة بغداد في روحها مزيج من التعاليم البيزنطية والساسانية مطبقة على احوال العروبة والاسلام ، ولا نجد الفن العربي المستقل بعض الاستقلال الآ في المؤلفات العلمية مثل كتاب (خواص العقاقير) الذي كتبه وشرحه رسماً المصور العربي الشهير عبد الله بن الفضل سنة ١٢٢٢ م . ومع ذلك نجد التأثير البيزنطي الزخرفي واضحاً في زركشة الملابس والاستهانة بالبساطة الطبيعية . ومن الفنانين

العرب المبدعين يحيى بن محمود بن يحيى بن الحسن الواسطي فقد برع في تصوير مقامات الحريري (سنة ١٢٣٧ م.) تصويراً فنياً جامعاً لم يترك كبيرة ولا صغيرة الا سجلها، فكانت صوره سجلاً حياً للتقاليد والعادات الاجتماعية في عصره. ولولا هذا التغالي الزخرفي بتأثير الفن البيزنطي لوجب الاعتراف بأن مدرسة بغداد صادقة التعبير عن الطبيعة والحياة، ترسم الاشياء كما هي في غير تكلف

وغير خاف أن الورق حل محل الرق في كتابة التآليف بل وفي كتابة القرآن نفسه، وقد بدأت صناعة الورق في تلك الاصقاع بمدينة سمرقند ثم انتشرت الى الاقطار الاسلامية. وأخذ صناع الورق يتفننون في اخراج أجود أصنافه، كما اخذ التخصص في زخرفة الكتب (ولا سيما القرآن الشريف) يزدهر ويصير فناً مستقلاً له جماله وروعته كما استقل الخط وصار فناً يعتز به. والى غير قليل من الروح الفارسي والفن الفارسي يرجع كل هذا التطور الفني في الذوق والانتاج بمدرسة بغداد

(٤)

كيفما كان حكم التاريخ على غزو المغول لايران وبلاد الجزيرة متأثراً بشتى الاعتبارات، فما من شك في ان له حكماً واحداً بالنسبة لفن التأليف التصويري، فقد نشأ عن هذا الغزو ظهور المدرسة الفارسية التترية العظيمة، اذ لم يكتف هولاكو وخلفاؤه بتشجيع هذا الفن حيثما وجد بل غذوه بالفن التتري الزاخر بالهامات الشرق الاقصى وتعاليمه مما فتح آفاقاً جديدة للفنانين في الاقطار المغزوة فقد أدهشتهم الطلاقة الفنية التي امتاز بها المصورون الصينيون مبدعين في التعبير عن العواطف وفي ابراز المشاهد المختلفة بدقة وحرية معاً مستلهمين الطبيعة في ثقة وقوة، فتأثروا بهم واستمدوا من فنهم

وقد استولى المغول على بغداد في سنة ١٢٥٨ م. فكانت احدى العواصم الثلاث الكبرى التي حفلت بعنايتهم الادارية والفنية، اما العاصمتان الاخريان فهما تبريز وسلطانية. ولم يكن الفن التتري غريباً عن العرب فان العلاقات التجارية بين الشرق الاقصى والممالك الاسلامية ترجع الى قرون سابقة كما ان استيلاء المغول على مقاليد الحكم في الصين وخلقهم تلك الامبراطورية العظيمة جعل العرب على اتصال مباشر اخيراً بكل من الفن الصيني والفن المغولي، بعد ان كانوا قانعين من قبل بالتحف الفنية التي كانوا يظفرون بها عن طريق المبادلات التجارية. وهكذا ازداد النفوذ الصيني في الفن الفارسي العربي الى جانب تأثره بالفن المغولي، ومن هذا المزيج القوي نشأت المدرسة الفارسية التترية. وحتى بعد اضمحلال أو زوال العوامل السياسية والحربية بقيت للعوامل الادبية والتجارية نفوذها العظيم في حياة الفنون بسبب الاحتكاك المباشر بأهل الفنون من المغول. وكانت التصاوير في بداية ذلك العهد منوعة: فنها ما كان محتفظاً بتقاليد مدرسة بغداد، ومنها ما جاء متأثراً بالفن الصيني الى درجة كبيرة، ومنها ما ظهرت فيه الروح الفارسية الخالصة قوية، وهذا هو المنتظر في فترات الانتقال من عهد الى عهد. والمعروف أن صور هذا العهد على أي حال لم تكن

كثيرة ، وذلك بسبب كثرة الغزوات والحروب في مدى سبع وسبعين سنة (١٢٥٨ — ١٣٣٥م)
ولكن هذه الروح الحربية ذاتها أدت الى العناية بالتآليف التاريخية الحربية ، فاتجه التصوير الفني
الى ابراز الحوادث التاريخية العظمى وقصص البطولة بل التاريخ العام في مجال فسيح من البيان
التصويري، وكان من الاتصال بآثار الفنانين في العهد السُّنجي الحفاوة بمرائي الطبيعة ومناظر الصيد

وكل هـذا محسوس منذ بداية القرن الرابع عشر ، حيث تمتزج المؤثرات الأجنبية بالتقاليد
الموروثة لدى المدرسة البغدادية حتى ظهرت المدرسة المغولية الفارسية أو الفارسية التترية كما ألمعنا

واذا كانت الصور الفنية في ذلك العهد المضطرب تلوح عليها مظاهر العجلة والارتجال بسبب
حالة الحروب والفتوحات التي كانت الشغل الشاغل للمغول زمناً مديداً ، فلم تنل التشجيع الكافي
للتأني والاتقان ، الاّ انها جميعاً كانت من الطرافة بمكان فأدهشت بغرابتها اضعاف ما أعجبت بحظها
المحدود من الدقة أو الاتقان ، خلافاً لحالة الفن في العهد العباسي وفي أزمنة الهدوء والاستقرار .
وكان من آثار التحرر الفارسي في الفنّ أن يظهر الخطّ الفارسي الصميم بدل الخطين الثلث والنسخ .
كما أن صور التآليف اخذت تتفرّس خصوصاً عند ما ظهرت الآثار الفارسية الكبرى كالشاهنامة
للفردوسي وآثار الشاعرين نظامي وكرماني في نسخ مصوَّرة عديدة . فسمح هذا للفنانين المصورين
بالابداع المنوّع في تصوير مشاهد البطولة من الشاهنامة والموضوعات العاطفية في خسرو وشيرين
وفي مجنون ليلى وغيرها من القصص الشرقي بما لم يعهد من قبل

كان من آثار تيمورلنك ترعرع الفن في سمرقند لا في التصوير البارع الملوّن فحسب بل في
الرسم الدقيق المذهّب بالمداد أيضاً ، وهـذا بتأثير الثقافة الاسيوية . ولم يكن للمؤلفات العربية
حينئذٍ نصيب كبير من هذا الفن الجديد ، ولكن القرآن الشريف نال عناية الفنانين الفرس بالزخرفة
المزدادة في كل من تبريز وسمرقند . واشتهر وزير تيمورلنك المدعو الامير محمد بدر الدين التبريزي
ببراعة خطه وكذلك اثنان من حفدة هذا الامبراطور المغولي وهما ابراهيم ميرزا وبيزنكور ميرزا ،
وقد أسس الاخير قبل وفاته المبكرة (وقد كانت في سنة ١٤٣٤م) معهداً فنياً لاخراج الكتب بمدينة
هرات ، الى جانب مكتبته الفخمة ، وكان يعمل في ذلك المعهد أربعون خطاطاً الى جانب الكثيرين
من المتخصصين للزخرفة والتصوير . وكان المصورون على شغف عظيم بتصوير الموضوعات الوطنية
فكان هذا دافعاً اكبر الى إبداعهم . فأولعوا بمشاهد وطنهم وسحرها الريفي كما اولع المصوّرون
الغربيون بالفنّ القوطي . ولـكن استمرّ في الشرق الروح الزخرفي العام حينما تحول الفن الغربي
تحولاً آخر تحت تأثير التصوير الخاص للحيطان والالواح ونحوها . ولكن من الحق الاعتراف بما بلغته
المدرسة المغولية الفارسية من الكمال في التوفيق بين موضوعات التأليف وتصويرها الفني حتى أننا
نجد براعة المصوّرين ماثلة في الصور الدقيقة التي كانت أحجامها الصغيرة تفرض عليهم فرضاً من
النسّاخ ! وكانت أرضية هـذه الصور حمراء اللون في بداية القرن الرابع عشر ، ثم شاع بعد ذلك

استعمال لون أزرق واضح لأرضية الصور ، واخيراً في نهاية ذلك العهد شاع استعمال الأرضية السوداء المذهّبة ، ولكن الألوان الأخرى المستعملة كانت زاهية غالباً ونابضة بالحياة . وكانت مناظر الطبيعة المختارة شبه مدرّجة ممثلة لأشجار منعزلة وصخور منثلمة وجداول رقراقة بين الحصى تحفها الأزهار ، وهذه الصورة أصبحت تقليدية مألوفة في جميع المشاهد الريفية وقلما كان يُضاف اليها ما يُشعر بروح الريف أو الغابة أو البساتين . وكثيراً ما كانت ترسم صورة شجرة مزهرة في المشاهد المصغرة ، وهذه من آثار الفنّ الصيني في العهد المِنْجي بعد أن صار الاتصال بالشرق الأقصى سهلاً مباشراً

وقد عيب على المدرسة التترية الفارسية التصوير الكروكي الاصطلاحي للاشخاص ، ورسم رؤوسهم في غير تمييز لنفسياتهم ، وانعدام التعبير في حركاتهم بعكس المصورين الصينيين الذين كانت براعتهم تخضع الطبيعة لريشتهم وكانوا يتجنبون اي وحدة معينة . وفي الحقيقة انهُ لم يحدث أي تقدم في هذه الناحية بعكس التقدم في النواحي الفنية الأخرى للتصوير الفارسي ، الى أن ظهرت عبقرية الفنان بِهْزَاد الذي يُعَدُّ أعظم مصوّر فارسي . وقد عرف بهزاد حتى في صوره المزدحمة العامرة بالمناظر والشخصيات كيف يميز كلّ شخصية من الأخرى في الشكل والتعبير ، وكان بارعاً كل البراعة في مزج الألوان وابتداع ما لا حدّ له من الأصباغ والظلال للملابس والآدميين ، كما انهُ كان مصلحاً في تصوير الطبيعة الريفية التي تلوح أقرب الى الحقيقة في صوره منها في صُوَر مَنْ تقدّموه فقد كان أقرب الى الفنان الصيني في استيعاب المسافات وفي احترام الطبيعة والحرية الفنية ، كذلك اختيار موضوعاته كان اكثر توفيقاً من اختيار سابقيه بالنسبة لحقائق الحياة . وليس غريباً بعد هذا اذا ثارت عبقرية بهزاد على تحكم الخطاطين في تحديد الفراغ للمصورين وذهب الى عكس ذلك فكان لا يسمح الا بسطور قليلة في الصفحة المصورة ، او كان لا يسمح بشيء ما من الكتابة مصاحباً لصوره !

***

وُلد بهزاد قبل سنة ١٤٥٠م . وتوفي بعد سنة ١٥٢٠ . وهو يمثل الدولة المغولية في اوجها الفني وافتتاح عصر الاسرة الصفوية . وقد كان على رأس أكاديمية هرات حتى سنة ١٥٠٦ م . الى ان استدعاه الشاه اسماعيل الى تبريز فجعله امين مكتبته وأغدق عليه النعم وامارات الشرف . ولم تبق من آثاره الصحيحة الا اعمال قليلة مثل تصوير (تاريخ تيمور) الذي قام به في سنة ١٤٦٧ وهو مودع الآن بأميركا وتصوير (بستان) سعدي في سنة ١٤٨٧ وهذا الاخير مودع في دار الكتب الملكية بالقاهرة ، ومثل تصوير مجنون ليلي وهو مودع الآن في لينغراد . وقد تتلمذ عليه كثيرون في هرات وتبريز فنشروا تعاليمه في انحاء فارس وغرب تركستان وفي الهند . وبقي صيته داوياً حتى في القرن السادس عشر إذ كان الفنانون يقلدونه في كل مكان ويقلدون امضاءه على شتى الصور !

(٥)

أما عن الجيل التالي من المصورين الفرس فهو الذي يمثل مدرسة تبريز بزعامة الفنان الموهوب سلطان محمد الذي كان عظيم النفوذ في عالم الفن إذ ذاك نظراً لصلته بالشاه طهماسب . وقد تعاون مع بعض زملائه النابهين في تصوير النسخ الفخمة من الشعر الحماسي الفارسي وقد سلم عدد منها من الضياع الى زمننا هذا . ولكنه كان يؤثر الموضوعات العامة وصور الاشخاص ، وكان يخرجها من اوراق مستقلة صالحة للتجديد في اجزاء مع نماذج من خطوط مشهوري الخطاطين . وقد فتح ميادين جديدة للفنانين مثل تصميم السجاجيد وزخرفة الانسجة الملبوسة والمعلقة ، وقد ظفرت الاخيرة بصور بديعة فنية للصيد ومجالس الشراب ونحو ذلك . واشهر هذه النماذج التي ترجع الى القرن السادس عشر رسمت في مرسمه الخاص ، وعنه صدرت ابهج الانسجة الحريرية المشجرة والمخمل المزدان بدقيق الصور التي تضارع في جمالها نظائرها المشهورة في الكتب

ومنذ القرن الخامس عشر حفلت تبريز بتحلية نسخ القرآن الشريف الى أقصى الغايات من التحلية بالنجوم والزهر والعقد ونحوها ، وفي عصر بهزاد نبغ كثيرون من الخطاطين وامتد صيتهم الى القسطنطينية وهناك أسسوا مدرسة للخطوط وزخرفة الكتب بتشجيع السلاطين وكانت على مثال مدرسة تبريز الفخمة

وفي الواقع ان تبريز كانت مثابة قوية للفن حتى قبل ذلك العهد ، وإن ننس فليس لنا ان ننسى الوزير المؤرخ رشيد الدين وقد نبغ في أواخر القرن الثالث عشر واوائل الرابع عشر وأسس بجوار تبريز مدرسة صناعية باسمه كانت كعبة لرجال الفن ، وهو مؤلف كتاب (جامع التواريخ) الحافل برائع الصور لحوادث الانجيل وحياة بوذا وتاريخ الصين والسيرة النبوية وتاريخ الاسلام . ويتجلى في جميع هذه الصور أثر الفن الصيني في التصوير الفارسي الذي لم يكن قد استوعبهُ بعد ، فكان ذلك الاثر أثر المحاكاة وإن لم يخل من صور عربية صرفة كصورتي سيدنا علي وسيدنا حمزة . وهذه الصور على غاية من الأهمية في تحليل الذوق الفني في ذلك العهد الجامع بين نزعات الشرق الأقصى ونزعات العرب ، كما أنها بمثابة مرشد أمين للفنانين في عصرنا الحاضر اذا ما أرادوا تصوير حوادث التاريخ في تلك القرون الغابرة تصويراً جديداً . ونسخ هذا الكتاب النفيس موزعة بين لندن وادنبرة وباريز

(٦)

وفي اواخر القرن السادس عشر تجمعت العناصر الفنية القوية في عاصمة فارس الجديدة (اصفهان) ، وثمة تحت الرعاية القوية التي بسطها الشاه عباس الكبير نشأت في اصفهان مدرسة جديدة زاهرة لفن انتاج الكتب بجميع أشكالها . وكان يتنافس في الخط الفني الجيل

مير عماد الحسني وعلي رضا عباسي اجتذاباً لرضاء الحاكم ، وكان غيرهما يُعني بالصور الرمزية للحيوانات ؛ بينما كان الاستاذ محمدي يتفنن في التصوير الحرّ بالمداد غير معتمد على مرجع من مراجع التأليف . وكان خليفته في هذا الفنّ الجديد الفنّان رضا عباسي . وكثيراً ما نجد امضاءه على صور من هذا القبيل وإن كان من الصعب ان نحكم على انها جميعاً من ريشته . ولرضا عباسي العديد من الصور للحياة اليومية ولمألوف المناظر بالطباشير الاحمر ، وغيرها بألوان زاهية ، وفي جميعها يتجلى ثبات الفنّان الواثق من قدرته . فلا عجب اذا تضاءلت امامه شهرةُ الفنان بهزاد زمناً غيرَ قصيرٍ ، ولا غرو اذا أُولع بآثاره محبو الفن الفارسي وانتشرت في مجموعاتهم النفيسة ، ولم يقتصر فنُّ رضا عباسي (ولم يُعرف الى الآن على وجه التحقيق اذا كان هو نفس الخطّاط البارع السالف الذكر ام شخصية اخرى) على هذا التصوير العام البديع، بل شمل كثيراً من وسائل الزخرفة للألواح والأبواب والحدائق في قصور اصفهان ، فكان فنّهُ طليقاً في الموضوع والمادة والتعبير على السواء

وكان ابرع تلاميذ رضا عباسي الفنّان مُعين وقد اصطفاهُ بصداقته ، ومن آثاره الخالدة صورة استاذه الذي بقيت تعاليمهُ حيةً قويةً حتى نهاية القرن السابع عشر متجلية في آثار الفنانين محمد قاسم ومير محمد علي ومحمد يوسف وكثيرين غيرهم

وبعد القرن السابع عشر اخذ الفنّ الفارسي يضمحلّ في اهميته لان الفنانين الفُرس عمدوا الى تقليدالأوربيين في التصوير والحفر تقليداً اعمى ، وان كانت ارساليات نادر شاه الى الهند قد ادخلت وقتيًّا بعض الأثر السابق من المدرسة المغولية وفي بداية القرن التاسع عشر اخذ المصورون الفرس يعنون بالزخرفة التجارية على شتى المصنوعات ، ثم كان لعناية محبي الصور الفارسية القديمة أثر مشهود في تقليد الفنانين القدماء، وأصبحت هذه حرفة جديدة لعدد وافر من اهل التصوير في إيران ، كما يقلّد بعض المصريين آثار الفراعنة حبًّا في التجارة ، ولكنّ الابتكار الفني لم يتجدد بعد ، وإن كان من الصعب الحكم على المستقبل بالنسبة للنهضة الفارسية الجديدة وأثرها في الثقافة عامة وفي الفنون خاصة

(٧)

بأمثال هذه المعارف العامة أتحف الشاعر لورنس بنيون مستمعيه في محاضرته الاولى . ومادتها ميسورة في دوائر المعارف وفي مؤلفات أمثال مارتن وأرنولد وشولتز وغيرهم ، ولكن بنيون اعتمد على عشرات الصور التي عرضها بالفانوس السحري ، فكان له من كل صورة قصيدةٌ وشاهدٌ نقديٌّ تحليليٌّ على تطوّر الفنّ الفارسي وتأثره بالعناصر المختلفة من الشرق والغرب . وللأسف ليس من المستطاع اخراج هذه الصور مع هذا المقال مع انها لباب محاضرته، وتتبع عناصرها المتفقة والمختلفة رياضة ذهنية نفسية بديعة . ولئن فاتتنا بعض التفاصيل وذلك الاندماج الفني المتوالي في تلك

القرون — وهو ما تهيؤه متابعة الصور وحدها — فلا ينبغي ان يفوتنا الاطمئنان الى الحقائق الآتية بصفة خاصة :

(١) لقد كان الفن الفارسي بالاجمال محدود التقاليد ملتزماً للتناسق بين اجزائه وترتيب بعضها ازاء البعض الآخر متجنباً الشرود ، ولكنهُ مع ذلك كان ذا جاذبية ساحرة وروعة خاصة قوامها الابداع في حدود القيود ، مستشفاً للحقيقة من خلال الطلاسم ، وللشملة من بين اسداف الظلام ، وللصواب من بين عوامل الضلال كما يستخرج التبر من التراب

(٢) كان فتح العرب لفارس حادثاً من اتساع الفن الفارسي ولكنهُ لم يكن قاضياً عليهِ بل كان واسطة نقل الثقافة الغربية من شعوب البحر الابيض المتوسط الى فارس . وقد كان الفن الاسلامي قائماً قبل ذلك بقرون ، فاكتسب من الاتصال بالفرس كما تجلى ذلك في مدرسة بغداد وبالمثل استفاد الفرس منهُ . ولم يقتصر ذلك على التصوير بل تناول الهندسة المعمارية وصناعة الخزف وزركشة الانسجة وغير ذلك

(٣) استفادت فارس فنيًّا من موقعها الجغرافي بين امم شتى ومن تقلب الدول الحاكمة عليها ، فتأثرت بثقافة الاغريق والبيزنطيين والهنود والصينيين . ولئن بكى الفرسُ انقراض الدولة الساسانية ورضخوا لنفوذ العرب من القرن السابع الميلادي الى القرن السابع عشر ، فانهم قد غنموا فنيًّا من الاتصال بشتى الامم وما لبثت روحهم الوطنية ان تجلت ثانية في الأعمال الفنية بعد ان هضمت جميع العناصر الاجنبية ، من مسيحية واسلامية ، من غربية وشرقية . وفي هذا دليل كاف على ان الفنون يحييها الاختلاط ومن عادتها ان يهضم بعضها بعضاً وبهذا الغذاء الجديد يترعرع كل منها . وقد كان الشعر اكثر تأثراً بهذه العوامل من التصوير

(٤) قد تستنكر بعض الفتوحات من الوجهة الوطنية او الدينية او الانسانية او من وجهة حضارة خاصة كما يستنكر فتح المغول وما صحبه من التدمير الكثير . اما حكم الفن فقد يختلف كل الاختلاف عن ذلك ، فان هؤلاء المغول انفسهم كانوا حريصين على حياة الفنانين واهل الحرف والصناعات في الاقطار المغزوة وان جنوا ما جنوا على غيرهم وان أساءوا تقدير آثار العرب الأدبية فجنوا على المكتبة العربية شرَّ جناية !

وقد كان المحاضر موفقاً كلَّ التوفيق للأسباب الآتية :(١) تناوله موضوعاً شرقيًّا فنيًّا بذلك الشغف العظيم الذي ابداهُ في عاصمة شرقية وفي بيئة متثقفة تقدِّرهُ ، (٢) اظهاره المحبة الوافية للأعمال الشرقية المجيدة وتأييده لعالمية الفنّ الذي يجب ان يُقدَّر ويُخدم من جميع عارفيه على اختلاف الامم ، كما ان الفنّ نفسه لا يحجم عن تناول عناصره المفيدة من شتى الامم ، (٣) طلاقته البيانية في اسلوب فصيح جزل وفي لهجة شعرية تتطلع الى ما وراء الصُّوَر من روح فنية هي روح الجمال في هذا الوجود

العلم واحياء الموتى

هل يفوز العلماء بذلك ؟

[عن مجلة العلم العام : نقلها عوض جندي]

وقف في كليفورنيا ثلاثة رجال مرتدين ثياباً قشيبة ، حول منضدة للعمليات الجراحية ، في مختبر من المختبرات العلمية . ورُقِد أمامهم كلب صيد سليم الجسم كل السلامة ، على غطاء من الجوخ فوق المنضدة ، فوضع احد اولئك الرجال كمامة على فم الكلب وأدار الآخر صمام صهريج محتوٍ على نيتروجين ، فانقطع الاوكسيجين عن الكلب ، ولم يستطع النيتروجين وحده القيام باسباب الحياة . فما لبث الكلب ان سكنت حركتهُ فتراخت عضلاته ثم مات وخُيِّلَ للجمع أن موته أزلي

وحينئذٍ جاؤوا بمحاقن للحقن تحت الجلد ، وسوائل مجهولة التركيب ، محفوظة في قوارير محكمة السدّ . وكان قد انقضى على موت الكلب اربع دقائق . فأخذ احدهم ينظر في ساعتهِ ، والآخر يملأ المحقنة من احدى القوارير ثم يغرزها في صدر الكلب الميت حتى تنفذ سنها في قلبه . وغطى الرجل الثالث كمامة الكلب بقناع محتو على اوكسيجين فتقوت اعصابه حينما زال عنهُ ذلك العبء فوضعت على صدره مستقصية صدرية ، وما كادت تحس بنبضهِ حتى صرخ واضعها قائلاً « لقد جعل القلب يخفق » وبتلك الوسيلة تسنى لهم احياء الكلب وقد قضى اربع دقائق ميتاً . ثم قضى يومين تيسر لهُ في خلالها استئناف تناول الطعام . ولم تنقض اسابيع قليلة حتى تسنى له المشي والعدو واللعب واطاعة الاوامر التي تلقى على مسامعه

فتحقق على ذلك الاسلوب ، حلم طالما شغف بهِ الناس من قرون . ونعني بهِ اعادة الحياة الى الموتى !! أجل ان الذي جربت فيهِ التجربة ، كلب ، بيد ان الدكتور روبرت إ . كورنيش العالم الكليفورني الشاب الجريء ، الذي تمكن بتلك الوسيلة من التغلب على الموت ، زعم بأنهُ سوف يستطيع بتلك الطريقة احياء الموتى من البشر اذا ماتوا موتاً اسود [1] . وقد حذا حذوه في ذلك الاعتقاد جماعة من علماء بلتيمور وكليفلند وروسيا وسويسرا . فأصبحوا يقولون ان بعض معجزات العصور الغابرة سوف تتكرر يوماً ما بوساطة العلم الحديث

ومن هذا القبيل ان فئة من الباحثين المحققين ، أتيح لهم في مستشفى جونس هوبكنز في بلتيمور إحياء بعض حيوانات كانت الكهربائية قد صعقتها فنفقت ، فدهشوا اذ تبين لهم حقيقة غير مألوفة ،

---

(١) الموت الاسود — هو الموت خنقاً

وهي ان الرعدة الكهربائية ذات التيار الوئيد ، قد تهلك من تصيبهُ . على حين ان الرعدة القوية في الغالب لا تحدث اكثر من اضطراب وقتي في سير القلب . فلما استعجم عليهم ذلك الامر ، أخذوا يتفحصون عنهُ ، فثبت لهم ان الرعدات الكهربائية الخفيفة تحل نظام افعال عضلات القلب وتفسدها فتعجز عن القيام بمهمتها متحدة فلا تدفع الدم في مجاريه

واثباتاً لذلك جاءُوا بقطبين كهربائيين يحملان نحو امبير واحد (وحدة لقياس التيار الكهربائي) وسلطوهما مباشرة على قلب كلب فاقد الشعور ، فأحدثا رعدة وقفت اضطراب القلب ، فاستأنف خفقانهُ الطبيعي فعادت الحياة الى الكلب

واستعمل الباحثون المحققون في روسيا قلباً صناعيًّا اخترعهُ الدكتور سرج بروكهاننكو فنجحوا من عهد قريب في اعادة « شبه الحياة » الى امرىءٍ كان قد شنق نفسه وذلك بعد ان قرر نطس الاطباء موته فبلغ بثلاث ساعات فجاءُوا بجثتهِ عاجلا الى المعمل الكيميائي حيث يضع الجراحون بضيعة مستطيلة في شريان وعرق من عروقهِ وادخلوا في كل منهما انبوباً متصلا بالقلب الصناعي ثم أداروا مجرى كهربائيًّا لجذب انبوبهُ (القلب الصناعي) الدم القاتم من العرق فسرى الدم في الرئتين الصناعيتين اللتين في الجهاز حيث تطهر الدم مما يشوبهُ وتشبع بالاوكسجين وقام انبوب آخر بدفع الدم المنقى في الشريان ، فما لبثت خلايا الجسم ان امتصت الاوكسجين حتى انتعشت ففتح الرجل عينيه وأخذ يشخص ببصره الى الاطباء المحدقين بهِ كأنهُ قد أفاق من سباتهِ . ولكن تلك الشعلة الحيوية انطفأت بعد دقيقتين

وحدث من ثلاثة اشهر ان جيء بسيدة الى غرفة العمليات الجراحية في مستشفى جامعة بلتيمور وما كاد احد المساعدين يجس نبضها حتى صرخ مذعوراً قائلاً « ان القلب قد بطل عملهُ » وكان الجراح قد سبق ففتح تحت حجابها الحاجز فتحة فلم يسعهُ وقتئذٍ الاَّ ان مدَّ يدهُ منها وقبض بأصابعه على قلبها الساكن وجعل يضغطهُ تارة ويطلقهُ اخرى فأخذ القلب يطلق الدم في جسم المريضة . وكرر الجراح تلك العملية حتى تمكن القلب من القيام بأفعالهِ الحيوية من تلقاء ذاتهِ ثم تمت العملية وشفيت المرأة

وفي جنيف بسويسرا عالمٌ دأبهُ احياء الموتى الذين يموتون غرقاً او صعقاً بالكهربائية ، وذلك حين يبطل النبض من اجسادهم وينعدم كل دليل من ادلة حياتهم . فيقوم ذلك العالم بتدليك قلب الميت تدليكاً خفيفاً يستمرُّ من عشر دقائق الى ربع ساعة . وقد أفلح في عدة حوادث اذ استطاع اعادة الحياة الى الموتى بتنشيط قلوبهم لأداء افعالها الحيوية

ونسج على منوالهِ طبيب فرنسي فجرب التجربة نفسها غير انهُ لم يقم الميت بل تناول طفلاً فاضت روحه قبل ٢٤ ساعة واخذ يدلك قلبه حتى شرع ينبض من تلقاء نفسه . وفي اليابان طبيب آخر نحا نحوه في معالجة قلب صبي ميت . وبحث المسألة الاستاذ ويلدر بنكروفت (المدرس في جامعة

كورنل بالولايات المتحـدة) وذلك من جهة اخرى اذ توخى تأجيل الوفاة فقرر رأيه على رودانات الصوديوم (Sodium rhodanate) وهي مادة كيميائية مجردة تطيل حياة الانسان سنتين على الاقل . فاذا اعتاد المرء تناولها بعد بلوغه الخامسة والاربعين من العمر حالت دون تصلب نسيج العصب والمخ وزادت في متناولها قوة مقاومته للمرض

بيد ان اعادة الحياة لانسان ثبت انهُ مات ، لما يظفر بها أي عالم . ولكن اغتباط الدكتور كورنيش بنجاحه في التجارب التي جربها في الكلاب حمله على الرغبة في تجربتها في أجساد الناس ايضاً فأخذ يسعى لدى ولاة الامور ليسمحوا له باجراء تجاربه في مجرم اعدم الحياة بالغاز السام . فاذا أباحوا له ذلك ، أوثق الجثة في أرجوحة (مكونة من عارضة خشبية تصعد وتهبط) ودعم الجثة بمساند كهربائية ليدفئها ثم يحقن العروق بمادة كيميائية وهي صبغ ازرق الميثلين لكي توقف تأثير الابخرة السامة التي كانت علة الموت . ثم يدخل الاكسجين النقي في الرئتين بوساطة قناع فيتمكن من تسيير حركة الدم بهز الارجوحة هزًّا وئيداً

وكانت آخر وسيلة توسل بها العلماء الى اعادة الحياة الى الموتى ، حقن سائل منعش في عرق كبير على أن يكون معظمه دماً بشريًّا محتوياً على مادة الادرينالين او مادة epinephrine الاپنيفرين (الاسم الذي يسمى بهِ الادرينالين في الكشف الرسمي الخاص بالمقاقير الطبية) وهي مادة ذات تأثير سحري ، تجعل القلب يتقلص تقلصاً شديداً فيعود نبضه الى حالته الطبيعية ولو كان قد وقف بنفسه

ويعتقد الدكتور كورنيش اعتقاداً وطيداً أن الميت يمكن احياؤه بتلك الطريقة ، مخالفاً غيره من العلماء الذين يرون أن مخ الانسان الذي تعود اليهِ الحياة ، يصبح عاطلاً عطلاً لا يرجى شفاؤه . ويرى أحد ثقات الاميركيين أن خلايا المخ تأخذ في الوهن متى كف القلب عن عمله أو قبيل ذلك حينما يضعف النبض ضعفاً شديداً . وحدد أحد علماء فرنسا الوقت الذي يتم فيه ذلك بعشرين دقيقة عقب الوفاة . ولذلك يؤكد كثير من العلماء ، بناء على ما تقدم من الاسباب ، ان الانسان الذي تعاد اليه الحياة يصير أعمى او مشلولاً شللاً كليًّا أو جزئيًّا أو ضعيف العقل

فأثبت الدكتور كورنيش بتجاربهِ التي جربها في الكلاب ، ان الخوف من عواقب اعادة الحياة لا أساس لهُ البتة ، لان كلب الصيد المسمى « لزاروس الخامس » الذي باشر الدكتور نفسه إماتته موتاً اسود « خنقاً » ثم أعاد اليهِ الحياة بعد اربع دقائق ، قد استعاد ذكاءه الطبيعي

ومن الآراء في هذا الصدد ان القوة التي يكتسبها المخ بعد اعادة الحياة انما هي أثر من القوى الغريزية . وان الكلاب التي نزعت من أدمغتها المادة السنجابية المؤلفة للمخ ، أمكن تدريبها على اجابة بعض الاشارات . وان الكلب «لزاروس الخامس» فاق أقرانه في كل ما أبداه من أدلة الذكاء الفطري اذ استطاع بعد احيائه النباح وتناول طعامه والوقوف بلا معين والعرجان

وفي سنة ١٨٥٥ وضع اتفاقاً طبيب لندني اساس الوسائل التي يستعملها الآن الدكتور كورنيش

ونعني به الدكتور توماس أديسون Addison احد اطباء مستشفى الملك وكان مولعاً بابتداع علاج لمرض غريب سمي فيما بعد باسم (مرض أديسون) وهو داء يؤثر في القلب وينحس البشرة ويضعف النبض ويحدث فيه اضطراباً ويسمى ايضاً المرض النحاسي . وقد تكشف لاديسون ان ذلك المرض يحدث من عجز الغدة التي فوق الكلية عن قيامها بفعلها الحيوي . وهي غدة صماء يبلغ طولها بوصتين فوق الكلية . ولمفرزاتها تأثير عظيم في القلب وأنابيب الدم . وكان المعروف بشأنها وقتئذ قليلاً . وسرعان ما نجح الباحثون في استخراج خلاصة تلك الغدة ، وتبين لهم ان تلك الخلاصة ايضاً ذات مفعول رائع في منع نزف الدم فاستخدموها في الجراحة لذلك القصد . ولكنهم ما عتموا ان ظهر لهم عدم ثبات ذلك التأثير لان الخلاصة الآنفة الذكر كانت تفسد عاجلا اذا تعرضت للهواء فتفقد خاصيتها . وحينئذ طفق كثيرون من العلماء في ارجاء المسكونة لايدخرون وسعاً في استخراج العنصر الفعال من تلك الغدة كما فعل زملاؤهم فيما بعد اذ استخلصوا الفيتامينات من الادهان وغيرها من المواد التي في زيت كبد سمك القد

وفي سنة ١٩٠٠ نجح في ذلك العمل عالم ياباني كان قد هبط اميركا وأخذ يمارس عمله فيها . وكان نجاحه عرضيًّا اذ كان قدم اميركا قبل ذلك بعشر سنوات ليدخل فيها طريقته الخاصة بصنع الويسكي فاستبقاه هناك احد معامل تقطير المسكرات في مدينة بيوريا بولاية الينوي فثارت عليه ثائرة حسد ارباب معامل التقطير والجعة في تلك الجهة فأحرقوا معمله ذات ليلة ، فحزن حزناً شديداً اضعف صحته ، فقصد الى مدينة نيويورك حيث زيَّن لاحد صناع الادوية الاستنباط الذي سبق ان امتهنه مقطرو المشروبات . فاهتم ذلك الصانع اشد الاهتمام بموضوع خلاصة الغدة التي فوق الكلية ، فعهد الى ذلك العالم الياباني في استخراج العنصر الفعال في الغدة السابقة الذكر . فأنشأ معمل تحليل كيميائي في الطبقة الارضية من مسكنه في نيويورك وأخذ يباشر اعماله حتى تمكن في غضون بضعة اشهر من استخلاص مسحوق ابيض متبلور محتوٍ على الخواص الفعالة للغدة التي فوق الكلية وهي مادة طفيفة المرارة ، تبيض الاغشية المخاطية توًّا ، ومستنبطها الدكتور يوكيشي تاكامين Jokichi Takamine فسماها ادرينالين ومن نحس طالعه انه توفي سنة ١٩٢٢ قبل ان يعلم ان الادرينالين وبعض مركباته ذات الاسماء المختلفة ستقوم يوماً ما بالمعجزات

ولم تعرف خواص الادرينالين المدهشة الا في سنة ١٩٢٣ وذلك في احد مشافي مدينة سانت لويز اذ وفد عليه شيخ اشيب مدنف فأدخل توًّا الى غرفة العمليات الجراحية حيث عملت له عملية مستعجلة . ثم عقبتها عملية اخرى بعد اسبوعين غير انه بعيد تخديره وقف تنفسه ، ففحص بآلة electrocardiograph المصورة نبضات القلب وهي شديدة الاحساس ، فأظهرت وقوف حركة القلب فاستعانوا على احيائه بالتنفس الصناعي فلم يجد نفعاً ، فقرر الجراحون اتخاذ الوسائل الدالة على اليأس اذ ركبوا محلولاً من جزء واحد من مادة الابينفرين مذاباً في الف جزء من الماء ثم حقن المصاب

مباشرة بحقنة من ذلك المحلول في بطينه الايسر فأثر فيه توّاً فلم تمض ثلاثون ثانية على حقنه حتى اخذ يتنفس وقلبه يخفق

ومن ذلك الحين غدت تلك العجائب امراً مألوفاً . فتمكن الاطباء والجراحون من انقاذ حياة مئات من المرضى بالادرينالين بعيد استهدافهم للاغماء الكلي حين اجراء العمليات الجراحية في اجسامهم . ومنهم اطفال ولدوا ولادة مبتسرة (اسقاط) وأشخاص صعقتهم الكهربائية . واصبحت الطريقة التي تستعمل لتلك الغاية قاعدة مرعية في المشافي . واستخدمت احياناً لاغراض مدهشة وذلك في مدينة ديترويت من عهد قريب

وتفصيل الحادث أن عصابة من اللصوص هجمت على مصرف مالي فأطلق الشرطة عليها النار فأصابت أحدهم في اثناء فرارهم فأردته قتيلاً ، فنقل الى أقرب مستشفى حيث حقن بحقنة من الادرينالين فأفاق حتى استطاع انباء ولاة الامور باسماء شركائه . غير ان الاطباء ليس في مقدورهم في أية حالة من الاحوال التي تعاد فيها الحياة الى الميت ، ان يقرروا كونه مات حقيقة ، وهذا ليس مستغرباً لانهُ ما من أحد يتاح لهُ تحديد الزمن الذي يموت فيهِ الجسد ، لان الموت الفجائي لا وجود لهُ

وكثيراً ما قيل ان الموت يحدث بغتة كما ينطفىء المصباح الكهربائي اذا قطعت الدائرة الكهربائية بمفتاحها . والوجه ان الموت حادث تدريجي بطيء بمثابة تفرق مملكة ذات مستعمرة مترامية الاطراف ، فتموت اولاً الحواضر ممثلة في المخ والقلب . أما الخلايا وهي أشبه بالمستعمرات في سائر الجسم ، فلا تموت في الحال بل تبقى زمناً طويلاً بعد ذلك وحينئذ لا تصل اليها مؤونة كافية من الاكسجين من تلك الحواضر ، ولا تتلقى امداداً لمساعدتها على مكافحة البكتيريا والتقلبات الكيميائية المهلكة واذا غُذيت الخلايا نفسها قد تعيش بل يتضاعف عددها . وقد تحقق العلماء ذلك من عشرين سنة في معهد روكفلر اذ وضعوا فلذة من قلب فروج في سائل من سوائل التربية الكيميائية وما زالت حية حتى اليوم

ووضع عالم آخر من علماء انكلترا فلذة دقيقة من نخاع احدى الضفادع في مخبار محتوٍ على محلول من النوع نفسه فعاشت الفلذة ٥٨ ساعة وتضاعف حجمها مئات المرات . واحدث من ذلك ان اثبت علماء انكلترا ان الخلايا الحية التي تؤخذ من جلود الحيوانات وتوضع في محاليل صالحة للتربية قد ينمو فيها الشعر او الصوف نمواً غير محدود .

فن العسير اذن تحديد الزمن الذي تنقطع فيهِ حياة الجسم البشري فيبدأ الموت ، لان الكواشف المعتادة العاجزة عن فتح الشريان لا تخلو من الخطأ . وكذلك وقوف القلب وانقطاع التنفس ، وهما الظاهرتان اللتان تصحبان الموت دائماً ، ليسا دليلين قاطعين عليهِ في جميع الاحوال . ومما يؤيد قولنا حادث وقع في لندن يدل على ان بعض الامراض والاصابات مثل التخشب cataiepsy او تصلب العضلات « مرض عصبي اعراضه فقد الارادة وسببهُ مرض الجهاز العصبي المركزي » وكذلك الفواجع

المثيرة للاشجان تجعل المرء اقرب الى الميت منهُ للحي فلا يستطيع الفحص الطبي احياناً اثبات وجود الحياة . ومن هذا القبيل ان صبيًّا كان يطوف في احد متنزهات لندن فغشي عليهِ ، فظنهُ الذين شاهدوه على تلك الحال ، ميتاً ، فنقلوه الى أقرب مستشفى حيث فحصهُ الاطباء وايقنوا انهُ قد فاظت نفسه « مات فجأة » فاصدروا له شهادة الوفاة وحملوه الى معرض الجثث المجهولة . وما عتمت ان قدمت امه وما رأت الجثة وعلمت من الخدم ان ابنها قد مات ، حتى استاءت جدًّا وسخرت منهم . وما لبثت ان عرضت عليهم ثلاث شهادات وفاة سابقة لولدها نفسه المزعوم موته ، فسقط في ايديهم ، ولم يسع الاطباء الاَّ اعادة فحصه وافاقته حتى دبت فيهِ الحياة فعاد مع والدته راجلاً الى دارها

وقد يتصنع الموت بعض الناس الاصحاء ، ومثال ذلك أن ناسكا هنديًّا اسمهُ هارو داس أسبت سبوتاً اختياريًّا في معرض مشهور في مدينة لاهور في الهند حتى اقتنع مشاهدوه انهُ قد مات حقيقة فادخلوه في كيس وخاطوه عليهِ ثم وضعوه في نعش ودفنوه في مقبرة عمقها عدة اقدام ووقف الحراس حولها يحرسونها اربعين يوماً ثم اخرجوا الجثة من قبرها وجعلوا يبلون عينيه وفمه بالماء فلم يلبث ان انتعش وانتصب فطلب طعاماً

واخترعت وسائل كثيرة لتحقيق الموت ، ومنها الجهاز الكهربائي الحساس جدًّا المعروف باسم مصورة نبضات القلب . اذا وضع على الصدر دلَّ على أخفت خفقة من خفقان القلب ، واخترع الدكتور جورج كريل احد اطباء كليفلند بولاية اوهيو من ثلاث سنوات كشافاً كهربائيًّا آخر وقد أثبت ان الخلايا البدنية تكن شحنة كهربائية تتولد من التفاعل الكيميائي وتنخفض طاقتها عند الوفاة الى الصفر . والدكتور ايكار الفرنسي يحقن الشخص المزعوم موته بصبغة صفراء في عروقه ، فان كان في غيبوبة ، نقلت الدورة الدموية الضعيفة التي تبقى في جسده ، تلك الصبغة الى الغشاء المبطن للأجفان فيصفر

وكان الناس قبل اختراع تلك الوسائل الكشافة المحققة للموت يذعرون دائماً من الدفن قبل التحقق من الوفاة . ومنذ ربع قرن سردت جريدة الفيغارو الباريسية اربعمائة حادثة لوفيات اشخاص دفنوا قبل ثبوت موتهم موتاً حقيقيًّا وحملت حملة شعواء على ولاة الامور لاتخاذ أشد الاحتياط لتلافي ذلك الخطأ . وفي سنة ١٩٠٧ جمع أديب انكليزي ٧٠٠ حادثة من ذلك القبيل

وعندي انهُ يحسن وضع جثث الموتى في غرف خاصة بالمدافن ، بعد فحص القلب ، قبل الدفن لكي يسهل على من يفيقون منهم التخلص من الاكفان . وتوصيل هاتيك الغرف والنعوش باجراس كهربائية قوية توصل الى حجرة حارس المقبرة لتنبهه الى أية حركة تبدو من الميت . وهذا ما فعلتهُ فرنسا والمانيا وغيرهما من نحو ثلاثين سنة وسلكت منهاجه اسرة الطبيب الذكر جورجي بك زيدان صاحب الهلال حين وفاته اذ ابقوا جثته يومين بالكنيسة بعد الصلاة ليتحققوا أنهُ قضى نحبه ، رحمة الله عليهِ

ابن حمزة المغربي

واضع اصول اللوغارتمات

لقدري حافظ طوقان

﴿ مقدمة ﴾ قلنا ولا نزال نقول ان هناك طائفة كبيرة من نوابغ العرب والمسلمين لم يعط لهم حقهم في البحث والتنقيب ، وان التراث الاسلامي في حاجة ماسة الى من يكشف عنهُ ويظهر نواحيه المحاطة بسحب الابهام . نقول هذا مع اعترافنا بما بذله المستشرقون من علماء اوربا واميركا في البحث عن مآثر أسلافنا وفي الكشف عن غوامضها . وتدفعنا الصراحة العلمية الى القول أنهُ لولا هؤلاء لما عرفنا شيئاً عن تراثنا وعما وصل اليهِ المسلمون في العلوم والفنون . ونرى واجباً ان نصرح ان الفضل في اظهار جهود العرب الفكرية في ميادين المعرفة المتنوعة يرجع فقط للمنصفين من علماء الفرنجة ، لا لنا . ولكن رغم كل ذلك فلا تزال هناك نواح في حاجة الى التنقيب وفي حاجة الى من يعنى بها . واذا اطلعت على كتب الفرنجة في تاريخ الرياضيات لسمث وكاجوري وبول وغيرهم وجدت ان عدداً من علماء العرب قد أهمل ذكرهم فنسجت على أسمائهم عناكب النسيان من كل جانب . وقد يكون هذا ناشئاً عن عدم عثور علماء اوربا على آثارهم ، وقد يكون عن غير ذلك . وثمة طائفة غير يسيرة من علمـاء العرب والمسلمين من الذين عُرفت أسماؤهم ولم تُعرف آثارهم . ولقد صرفت وقتاً طويلاً في البحث عن العلماء المغمورين واستطعت بعد لأي ان آتي على ترجمة بعض من هؤلاء في مقالات نشرتها في هذه المجلة ومجلة الرسالة . ولدى مراجعة كتاب « آثار باقية » وبعد قراءتي لفصول كتاب « تحفة الاعداد لذوي الرشد والسداد » ظهر لي أن ابن حمزة المغربي هو من علماء القرن العاشر للهجرة ومن الذين اشتغلوا بالرياضيات وبرعوا وألفوا فيها المؤلفات القيمة التي أفضت الى تقدم بعض النظريات في الاعداد . وسيظهر للقارىء ان ابن حمزة من الذين مهدوا لاختراع اللوغارتمات وان بحوثه في المتواليات كانت الاساس الذي بني عليهِ هذا الفرع من الرياضيات . وهو جزائري الأصل أقام مدة في استانبول حيث درس العلم ثم عاد في أواخر القرن العاشر للهجرة الى بلاد الجزائر ومنها توجه الى الحجاز بقصد أداء فريضة الحج . ويظهر من مؤلفاته انهُ استفاد من كتب ابن الهائم وابن الغازي

﴿ اللوغارتمات ﴾ من الغريب أن تجد في أقوال بعض علماء الفرنجة ما يشير الى عدم وجود بحوث او مؤلفات مهدت السبيل الى اختراع اللوغارتمات الذي أتى العالم عن طريق نابيير . قال اللورد مولتون « ان اختراع اللوغارتمات لم يمهد له وان فكرة نابيير في هذا البحث جديدة لم ترتكز على بحوث سابقة لعلماء الرياضيات وقد أتى العالم بها من دون ان يستعين بمجهودات غيره . . » هذا ما يقوله

اللورد مونثون ولكن اسمع الآن ما يقوله العلامة سمث في كتابه تاريخ الرياضيات : « يظهر أن هناك من المسلمين من فكر في ايجاد معادلات يمكن بواسطتها تسهيل الضرب والاستغناء عنهُ بالجمع . . . » وقد سبق وأشرنا الى ذلك في مقال لنا نشرناها عن ابن يونس . أما المعادلة التي توصل اليها ابن يونس فهي : جتا س جتا ص = ½ جتا (س + ص) + ½ جتا (س − ص)

ويقول سمث من المحتمل ان نابيير توصل الى اختراع اللوغارثمات عن طريق هذه المعادلة فقد تكون هذه هي التي اوحت اليهِ بفكرة اللوغارثمات . ويقول العلامة سوتر « وكان لهذا القانون اكبر شأن قبل اكتشاف اللوغارثمات عند علماء الفلك في تحويل العمليات المعقدة «لضرب» العوامل المقدرة بالكسور الستينية في حساب المثلثات الى عمليات «جمع» . . . »

يظهر مما مرَّ ان فكرة تسهيل الاعمال المعقدة التي تحتوي على الضرب واستعمال الجمع بدلاً منها قد وجدت عند بعض علماء العرب قبل نابيير . وزيادة على ذلك فقد ثبت لنا من البحث في مآثر ابن حمزة المغربي ومن بحوثه في المتواليات الهندسية والعددية ان هذا العالم المغربي قد مهد السبيل للذين أتوا بعده في ايجاد اللوغارثمات . يقول ابن حمزة « ان أس الاساس لاي حد من حدود متوالية هندسية تبدأ بالواحد يساوي مجموع أسس اساس الحدين اللذين حاصل ضربهما يعدل الحد المذكور ناقصاً واحد . ولما كان في هذا الكلام بعض الغموض فاننا نوضحه بما يلي .

خذ المتوالية الهندسية الآتية : ١ ، ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ٣٢

وخذ السلسلة العددية الآتية : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦

وقد اعتبر ابن حمزة ان حدود المتوالية الثانية أسساً للاساس في حدود المتوالية الاولى ١ . واذا نظرنا الى المتوالية الهندسية وجدنا ان الاساس هو ٢ . والآن لنأخذ العدد ١٦ فيكون العدد الذي يقابلهُ في المتوالية العددية هو ٥ . ولنأخذ الحدين اللذين حاصل ضربهما يساوي ١٦ وهما ٢ ، ٨ فالعدد ٢ في المتوالية الهندسية يقابله ٢ في العددية والعدد ٨ في الهندسية يقابله ٤ في العددية . وعلى هذا فان خمسة تعدل ٢ + ٤ − ١ = ٥ وهذا يطابق ما قاله ابن حمزة . ولو ان ابن حمزة استعمل مع المتوالية الهندسية المذكورة اعلاه المتوالية العددية التي تبدأ بالصفر واتخذ الحدود في هذه الاخيرة اسساً لاساس نظائرها في حدود المتوالية الهندسية لكان اخترع اللوغارثمات او على الاقل لاخترع اهم قانون يسود بحث اللوغارثمات الذي اوجده نابيير وبركز بعده (اي بعد ابن حمزة) باربع وعشرين سنة . ومعنى هذا ان نابيير وبركز اتخذا متوالية هندسية تبدأ بالواحد تقابلها سلسلة عددية تبدأ بالصفر وبيّنا ان اس الاساس لاي حد من حدود المتوالية الهندسية يساوي مجموع اسس الاساس للحدين اللذين حاصل ضربهما يعدل الحد المذكور ، ولايضاح ذلك نقدم المثل الآتي :

المتوالية الهندسية : ١ ، ٥ ، ٢٥ ، ١٢٥ ، ٦٢٥

السلسلة العددية : ٠ ، ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

فاساس السلسلة الاولى هو ٥ واس الاساس للحد ٦٢٥ (مثلاً) هو ٤ واس الاساس للحد ٥ هو ١ وللحد ١٢٥ هو ٣ فعلى ذلك يكون اس الاساس للحد ٦٢٥ يعدل اس الاساس للحد ٥ واس الاساس للحد ١٢٥

والحقيقة التي اود الادلاء بها انهُ ما دار بخلدي اني ساجد بحوثاً كهذه لعالم مسلم كابن حمزة هي في نفسها الاساس والخطوة الاولى في وضع اصول اللوغارتمات . قد يقول البعض ان نابيير لم يطلع على هذه البحوث ولم يقتبس منها شيئاً . قد يكون ذلك . ولكن اليست بحوث ابن حمزة في المتواليات تعطي فكرة عن مدى التقدم الذي وصل اليه العقل العربي في ميادين العلوم الرياضية ؟ اليست هذه البحوث هي الطرق الممهدة لوضع اساس اللوغارتمات ..؟

﴿ محتويات كتاب تحفة الاعداد ﴾ والكتاب الذي يحتوي على هذه الموضوعات هو كتاب تحفة الاعداد . وقد قال عنه العالم الرياضي صالح زكي انه من اكمل الكتب وهو موضوع في اللغة التركية . ويقول عنهُ كتاب كشف الظنون «تحفة الاعداد في الحساب تركي لعلي ابن ولي (وهو ابن حمزة) الفه بمكة المكرمة ورتبه على مقدمة واربع مقالات وخاتمة في عصر السلطان مراد خان بن سليم خان .. » اما المقدمة فتبحث في تعريف الحساب واصول الترقيم والتعداد واستعمل ارقاماً على اشكال مخالفة للاشكال التي كانت منتشرة في عصره وقد سماها الارقام الغبارية . وتحتوي المقالة الاولى على اعمال الاعداد الصحيحة من جمع وطرح وضرب وقسمة . وتبحث المقالة الثانية في الكسور والجذور في مخارج الكسور وفي جمعها وطرحها وضربها وقسمتها واستخراج الجذر التربيعي للاعداد الصحيحة وكيفية اجراء الاعمال الاربعة للكميات الصُمّ واستخراج جذور الاعداد المرفوعة الى القوة الثالثة والرابعة . اما المقالة الثالثة فتتناول البحث في الطرق المختلفة لايجاد قيمة المجهول وذلك باستعمال التناسب وطريقة الخطأين وطريقة الجبر والمقابلة . واما المقالة الرابعة وهي الاخيرة فتبحث في مساحات الاشكال والاجسام كالاشكال الرباعية والمنحنية وبعض انواع الجسوم . وفي الخاتمة اتى المؤلف على عدد كبير من المسائل التي يمكن حلها بطرق مختلفة ولم يكتف بذلك بل اتى على ذكر بعض المسائل الغريبة الطريفة وقد حلها بطرق لم يسبق اليها . ويجد القارىء ادناه مسألة غريبة لها حل طريف فيه فكاهة فكرية وقد سماها ابن حمزة (المسألة المكية)

﴿ المسألة المكية ﴾ : يقول بخصوص هذه المسألة ان حاجًا هنديًا سأله هذه المسألة في مكة وقد عجز عن ايجاد حل مرض لها عند علماء الهند اذ لم يستطيعوا ان يجدوا قاعدة لحلها ، قاعدة يمكن اتباعها في الاعمال التي تكون على نمطها . ولا يظنن القارىء ان حل هذه المسألة هيّن ولا يحتاج الى تفكير عميق . وسيجد القارىء واخص بالذكر الذي يعنى بالرياضيات بعض الصعوبة في حلها وسيجد ايضاً ان ايجاد حل مرض مقنع يسير على قاعدة مخصوصة يحتاج الى اجهاد الفكر وصرف القوى العقلية مدة من الزمن . واظن ان البعض قد يرغب في الوقوف على منطوق هذه المسألة الهندية ، ولذا اعطي المنطوق كما وجدته في كتاب « آثار باقية » مع بعض التصرف في استعمال بعض الكلمات . والمنطوق كما يلي

ترك رجل تسعة اولاد وقد توفي عن احدى وثمانين نخلة تعطي النخلة الاولى في كل سنة ثمراً زنته رطل واحد والثانية تعطي رطلين والثالثة ثلاثة ارطال وهكذا الى النخلة الواحدة والثمانين التي تعطي احدى وثمانين رطلاً . والمطلوب تقسيم النخلات على الاولاد التسعة بحيث تكون انصبتهم متساوية من حيث العدد ومن حيث الانتفاع من الثمر اي ان يكون لدى كل ولد تسع نخلات بحيث تعطي عدداً من الأرطال يساوي العدد الذي يأخذه الثاني من نخلاته التسعة ويساوي العدد الذي يأخذه الثالث وهكذا . وقد يجد القارىء لذة في سرد الحل الذي وضعه ابن حمزة ولذا نضعهُ كما يلي:—

	الولد الاول	الولد الثاني	الولد الثالث	الولد الرابع	الولد الخامس	الولد السادس	الولد السابع	الولد الثامن	الولد التاسع
ارطال النخل	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
	١٨	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧
	٢٦	٢٧	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥
	٣٤	٣٥	٣٦	٢٨	٢٩	٣٠	٣١	٣٢	٣٣
	٤٢	٤٣	٤٤	٤٥	٣٧	٣٨	٣٩	٤٠	٤١
	٥٠	٥١	٥٢	٥٣	٥٤	٤٦	٤٧	٤٨	٤٩
	٥٨	٥٩	٦٠	٦١	٦٢	٦٣	٥٥	٥٦	٥٧
	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	٧٠	٧١	٧٢	٦٤	٦٥
	٧٤	٧٥	٧٦	٧٧	٧٨	٧٩	٨٠	٨١	٧٣
عدد الارطال	٣٦٩	٣٦٩	٣٦٩	٣٦٩	٣٦٩	٣٦٩	٣٦٩	٣٦٩	٣٦٩

هذا هو الحل الذي وضعه ابن حمزة ولدى التدقيق نجد انه اتبع الطريقة الآتية التي تدل على مقدرته العلمية وقوة عقله في حل المشكلات الرياضية . يلاحظ ان الاعداد في السطر الاول مكتوبة من الواحد الى التسعة وانه في السطر الثاني كتب ١٠ في العمود الثاني وهكذا الى ١٧ وهو العدد الذي في العمود التاسع . ثم نجد في العمود الاول في السطر الثاني العدد الذي يلي ١٧ وهو ١٨ . وفي السطر الثالث ترك ابن حمزة العمودين الاولين وبدأ بالعدد ١٩ فوضعه في العمود الثالث الى ان وصل الى ٢٥ فوضعه في العمود التاسع ثم وضع في العمودين الاولين العددين اللذين يليان الى ٢٥ وهما ٢٦ و ٢٧ . وفي السطر الرابع ترك الاعمدة الثلاثة الاولى وسار على نفس الترتيب الذي سار عليهِ في السابق وهكذا

هذه لمحة موجزة عن حياة عالم اشتغل في العلوم الرياضية وبرع في الكتابة فيها وكان له فيها بحوث مبتكرة وطرق خاصة في حل العويص من مسائلها لم يُسبق اليها . فعسى ان تكون هذه الترجمة قد نجتهُ من طوفان النسيان الذي كاد أن يبقيه مغموراً وكاد ان يبقي بعض مآثره مبعثرة هنا وهناك في بطون الكتب القديمة وفي زوايا المخطوطات النادرة

عقم المؤتمرات الدولية

أين مصدر العدل المطلق ؟

بقلم نقولا الحداد

في الجزء الاسبق من المقتطف فصل ملخص من محاكمة ماتا هاري الجاسوسة الشهيرة التي كانت تتجسس في فرنسا في اثناء الحرب لحساب المانيا . كانت تدافع عن حياتها ببذل عرضها . كانت تدعي ان كل صلة بينها وبين من احتكت بهم من رجال الحرب من الجانبين صلة عشق وغرام ، وانها كانت عشيقة وخليلة لا جاسوسة . ولكن هذا الدفاع الخسيس لم يقنع المحكمة ببراءتها فحكمت عليها بالموت ، في حين أن قضاة هذه المحكمة كانوا يعلمون جيداً ان لفرنسا جواسيس في المانيا وان حكومة فرنسا تكافىء خدمهم مكافآت كبيرة ممتدحة عملهم

أفليس غريباً أن محكمة عدل تعد عملاً ما جريمة عظمى اذا عمل في بلادها وحكومتها تعده محمدة اذا عمل لاجلها في بلاد اخرى ؟

تحكم محكمة العدل على ماتا هاري بالموت بحجة ان تجسسها أفضى الى قتل كثيرين من الجنود الفرنسيين في الحرب . فما هو رأي هذه المحكمة في تجسس الجاسوس الفرنسي الذي أفضى الى قتل كثيرين من الجنود الالمان في الحرب ! فلماذا هذا القتل يعد حقاً وعدلاً ؟ ولماذا ذاك القتل يعدّ جريمة

تجسس ماتا هاري سبّب قتل جزء من الجنود . ولكن سياسة السياسيين القابضين على أزمة الامور سببت قتل جميع الملايين الذين قتلوا في الحرب . فما رأي محكمة العدل في سياسة هؤلاء ! ألا تعدها جريمة عظمى ؟ أليس من غار هذه السياسة فن الجاسوسية الدنيء ؟

اذا تحولنا الى المانيا وجدنا محكمة العدل هناك تسلك نفس مسلك محكمة العدل الفرنسية. ولكن احكام المحكمتين متناقضة على خط مستقيم . فما تعدّه هذه خيانة عظمى تعده تلك محمدة تستحق المكافأة . والعكس بالعكس . ومعنى هذا ان ما هو رذيلة في ناحية يحسب مبرّة في ناحية اخرى . فكأنّ للعدل وجهين متناقضين تمام التناقض وكل وجه منهما حق وباطل في وقت واحد . فما هو العدل الحقيقي اذاً ؟ وما هو مصدره ؟

قد تقول ان لكل دولة عدلها الخاص . مصدره الحرص على سلامتها . فقبل النظر في هذا القول نورد بعض الامثلة الكثيرة في المجتمع البشري التي نرى فيها العدالة ذات وجهين متناقضين حتى في نفس المملكة الواحدة

في العام الماضي اكتشفت في المانيا مؤامرة محكمة التدبير لقلب حكومة هتلر واقامة حكومة اخرى من خصومها . فبادر هتلر وأعوانه لخنق هذه المؤامرة في مهدها بحا كمة رؤوسها واعدامهم في ليلة واحدة . فبحسب قانون الدولة اعتبرت تلك المؤامرة جريمة « الخيانة العظمى » واستحق ذووها الحكم بالموت ، وعدَّ الحكم عدلاً

لو نجحت تلك المؤامرة — وكان ممكناً أن تنجح — وقلبت الحكومة الهتلرية ، ثم حاكمت جميع مقاوميها وعدتهم مرتكبين جريمة « الخيانة العظمى » وحكمت عليهم بالموت وفي طليعتهم هتلر نفسه — أفما كان بحسب هذا الحكم عادلاً ؟ طبعاً . اذن للعدالة وجهان متناقضان في البلد الواحد

الثورة اليونانية الناشطة الآن حين كتابة هذه السطور تجعل العدل في كفتي ميزان مضطرب لا ندري الى الآن أيتهما ترجح . وانما ندري ان مصدر العدل في مثل هذه الحال هو حيث ترجح القوة[١]

وفي الثورة التركية التي أفضت الى خلع السلطان عبد الحميد مثل آخر أوضح . اعتبر خلع عبد الحميد عقاباً عادلاً بحسب قانون الدولة لأن هذا السلطان حاول القضاء على الدستور وعلى مجلس المبعوثان . ولكن لو نجح عبد الحميد في قمع الثورة وعاقب زعماءها بالاعدام بتهمة الخيانة العظمى ، أما كان بحسب هذا الحكم عدلاً بحسب قانون الدولة ؟ اذن أليس للعدل وجهان متناقضان في دولة واحدة . فأين هنا الحرص على سلامة الدولة الذي هو مصدر العدالة كما تقول ؟

اذن . فلنبحث عن مصدر العدالة في مقام آخر غير سلامة الدولة . بالبداهة نفهم ان العدالة المطلقة ذات وجه واحد لا يتلوّن مهما تغير المكان أو الزمان والاَّ فما هي عدالة بل هي أثرة أو استبداد أو انتقام . فأين نجد هذه العدالة ؟ أو ما هو مصدرها ؟

أين مصدر العدل المطلق

اذا تبحرنا في مصدر العدل غير المتلوّن لا نجده الاَّ في فلسفة « أدب النفس » Ethics

ان العدل الذي مصدره سلامة الدولة يفترض ان الاقوام من طينات مختلفة ولكل قوم الحق الاعلى الذي ليس لغيره . ولذلك تبقى سلامة الدولة تحت خطر . ولكن العدل الذي مصدره « ادب النفس » يفترض ان الاقوام جميعاً من طينة واحدة . جميعهم بشر، تجمعهم الانسانية ، والحقوق موزعة عليهم بالتساوي . فاذا روعي هذا الادب النفسي فلا تبقى سلامة الدولة في خطر البتة بل بالعكس تصبح في ضمان وأمن

فالعدل الذي مصدره الحرص على سلامة الدولة عدل مزيف خطِر قتّال . واندفاع الدول وراء اطماعها بدعوى الحرص على سلامة الدولة ونجاح الامة الاقتصادي ورفاه الشعب هو الذي سوّغ به الساسة جميع وسائل التقتيل والتنكيل الشريرة والخبيثة ، وهو الذي سوّغوا به الجاسوسية الدنيئة

(١) قمت الحكومة الثورة اذكان هذا المقال تحت الطبع وقررت الغاء مجلس الشيوخ لان اكثريته من حزب الثورة فكيف يتفق هذا الالغاء مع الحكم الجمهوري واذا كان مجلس الشيوخ يمثل الامة فأي الحزبين يعد مغتصباً او ثائراً ؟

وسخروا العدل لتبريرها هنا وتجريمها هناك . وهو الذي برروا به النفاق السياسي والكيد الدولي الى غير ذلك من الوسائل الشيطانية للحرص على سلامة الدولة — واخيراً هو الذي جعل الجهاد الحربي لاجل « الوطن » فرضاً مقدّساً . فالتنازع الذي تثيره المطامع جعل الشر فضيلة والقتل محمدة . فهل ازيف من عدل هذا مصدره ؟

قد تقول : سلمنا ان فلسفة « ادب النفس » هي مصدر العدل الحقيقي على افتراض ان جميع الامم من طينة واحدة لا امتياز لاحداهنّ على الاخرى بل هنّ متساويات في الحقوق . والعدل الحقيقي هو تمتعهنّ جميعاً بهذه الحقوق بحيث لا تفتئت احداهنّ على الاخرى وتهضم حقها. ولكن قيام هذا العدل بينهنّ بالفعل ، اي عمليًّا لا نظريًّا فقط ، يستلزم وجود سلطة منفذة للعدل . وليس ذلك فقط بل يستلزم ايضاً وجود سلطة قضائية تفسر العدل او تطبقهُ على مبادىء ادب النفس . فاين مصدر هاتين السلطتين ؟

قد يتعمق المفكر في البحث عن مصدرها الى ان يجدها في الله تعالى الحاكم الاعلى المقيم في الضمير الانساني . ولكن هل لجميع الانام ضمائر صالحة لاقامة الله العادل فيها ؟ ان تصرفات الافراد والامم تدل على ان معظم البشر خالون من هذه الضمائر الصالحة . بل تدلُّ بالاحرى على ان ضمائرهم تحتلها المصلحة الذاتية . لذلك قامت الدول والحكومات مقام الله . اذن فلنحاول ان نكتشف مصدر تلك السلطة المزدوجة : سلطة القضاء وسلطة التنفيذ في مصلحة الجمهور التي تُستمد منها مصلحة الفرد : تلك المصلحة العليا التي اذا روعي فيها العدل المطلق ضمنت سلام الجماعات والامم والسلم الدولي العام. فاذا بحثنا عن مصدر هذه السلطة وجدناها في قرار الاكثرية . فما يُقره الحزب الاكبر يكون حقًّا. وما يحكم به ويقضي يُعدُّ عدلاً . فالعدل الحقيقي البشري يصدر من محكمة الاغلبية . اذن لا حيلة في اقامة العدل الاَّ في الاذعان لقرار الاكثرية . ولكن هذا القرار قد يحتمل عيباً يفسده . لان المراد من اي قرار اجتماعي ان يكون صالحاً للمجتمع برمتهِ او اصلح له من اي قرار آخر . افلا يحتمل ان يكون قرار الاقلية اصلح من قرار الاكثرية ؟ ألا يحتمل ان تكون العقول الاصوب سياسة في جانب الاقلية والعقول الساذجة الغبية في جانب الاكثرية ؟ هذا محتمل جدًّا . ألا يحتمل ان يكون معظم قادة الاقلية ابراراً ومعظم قادة الاكثرية اشراراً ؟ هذا محتمل ايضاً . فاذاً . العدل المطلق والحق المطلق غير مضمونين دائماً بقرار الاكثرية . ففي اي شكل من اشكال الاجتماع نجد مصدر الحق والعدل المطلقين اللذين يبنى على اساسيهما بنيان المجتمع المتين ؟

مهما حاولنا ان نجد ضامناً للعدل في شكل سلطة بشرية غير الهية نجد اننا لا نستغني عن الضمير الصالح الذي يوحي بالعدل المطلق من غير تحيز لمصلحة ذاتية او حزبية . ولذلك يستحيل ان نجد العدل النزيه الطاهر الاَّ في مجتمع تمكن في افراده او في معظمهم « ادب النفس » — الفضيلة . حينئذٍ يقل جدًّا او يندر ان يكون قرار الاكثرية غير سديد . وان ظهر انهُ خاطىءٌ فلجهل لا لسوء قصد .

وثمة يصلح جانب الاكثرية خطأه من تلقاء نفسه بعد اختباره ، بلا ثورة ولا نزاع خطير يهدد سلامة المجتمع

اذن . سبب ان للعدل وجهين متناقضين كما رأيناه في الامثلة السابقة هو ضعف «ادب النفس» في البشرية . واذا تيقنا صحة هذا السبب علمنا سرًّا تحار فيه الافهام الآن . وهو سر اخفاق جميع المؤتمرات السياسية العديدة التي عقدت على التوالي بعد الحرب (وقبلها ايضاً) لفض المشاكل الدولية المختلفة وتسويتها ولنزع السلاح وتلافي الحروب

ان تدابير ساسة الدول منذ صارت السياسة انظمة مقننة تصدر من ضمائر تمثلها شياطين المطامع والمصالح المتضاربة المتلاعنة . ضمائر خلت من روح العدل المطلق الحقيقي . ضمائر مجردة من «ادب النفس» العالي . ضمائر دساسة كائدة ماكرة . لذلك يستحيل ان يسفر اي مؤتمر دولي عن اتفاق سلمي عادل خالٍ من الضغائن والاحقاد . وبالتالي يستحيل ان تقوم للسلم العام قائمة ما دام زمام الامر في ايدي ذوي هذه الضمائر ...

ان شيطان المطامع والمصالح المتنافسة يزين لكل فئة من ساسة الدول ان مصلحة شعبها تستحل اهتضام حقوق الامم الاخرى في الحياة ، وتحلل للامة القوية استعباد الامة الضعيفة ، وتسوغ لها انتهاز الفرص للتحكم بأمة اخرى منكوبة بضعف او بأزمة او بمشكلة داخلية او خارجية . هذا اساس كل سياسة دولية الآن وعلى هذا الاساس تأتمر الدول فيما بينها وكل منها « تشد اللحاف الى ناحيتها » . فكيف يمكن ان تتفق فيما بينها وتعقد معاهدات محترمة نظيفة من شوائب الضغينة والحقد

واذا كان مصدر العدل الدولي مصلحة الدولة او الامة كما ترى فلا مناص من ان يكون هذا العدل متلوناً بألوان مطامع الدول او الامم انفسها . فالاستقلال مثلاً الذي هو حلال للامة الواحدة حرام في نظرها على امة اخرى . والحق الذي لهذه هو مغنم لتلك . والرزق الذي تحصله هذه تستغله تلك وهلم جرًّا . لان القوة ، لا « الادب النفسي » المطلق ، تملي ذلك العدل وتعين للحق صاحبه بحجة ان مصلحة الامة القوية تقتضي هذا الاملاء . بحسب هذا التشريع الدولي « المصلحي » احتلت انكلترا مصر لكي تأمن على طريقها الى الهند . واحتلت فرنسا سوريا لكي يكون لها موقع حربي يعزز قوتها البحرية في البحر المتوسط ، الى غير ذلك من الامثلة العديدة المتنوعة

فلو كان للمجتمع الاعظم تشريع واحد يقيم عدلاً واحداً مطلقاً غير متلون لكانت الحقوق الامية في الاستقلال والاسترزاق ، و (بعبارة شاملة) في الحياة ، موزعة على الامم بالتساوي . وحينئذٍ يحفظ هذا العدل لكل امة نصيبها من الحقوق ويتدارك التنازع فيما بينهما . ولكن تشريعاً عادلاً كهذا لا يزال نظرية تجول في العقول ولمّا تبرز الى حيز المفعول ، لان الامم بالرغم من انها اصبحت مشتبكة في المصالح والمعاملات والعلائق لا تزال في فوضى جنونية ، لا نظام ينظمها ولا

تشريع عام يقيدها، وليس ثمة قانون دولي متين مبني على العدل المطلق الذي يوحيه «ادب النفس» يرشدها.

اجل ان العلائق الدولية في فوضى مطلقة بلا نظام ولا قانون لان المصالح الذاتية والمطامع الدولية فوق كل قانون ونظام بل هي تدوس كل قانون دولي (وتتمرد على عصبة الامم) . وما تلك المعاهدات التي تعقدها الدول الا شعوذات تضحك بها بعضها على ذقون بعض . لانه متى اقتضت المصلحة الذاتية نقضها عدّتها قصاصات ورق : لذلك اقول ان العلائق الدولية في فوضى بلا نظام ولا قانون. وبالتالي لا عدل فيها على الاطلاق

وهنا لا بد ان يسأل القارىء نفسه : الى متى تبقى علائق الدول في هذه الفوضى في حين ان انسان اليوم بلغ من المعرفة والعلم ما يقنعه بسهولة ان النظام اساس كل نجاح وسعادة ؟ أما حان لقادة الامم ان يفهموا ان السلام لا يتأيد الا بنظام عادل ! أما اقنعتهم حوادث التاريخ القديم والحديث ان جعل المصالح الذاتية فوق كل نظام وقانون لهو مدمر للمصالح نفسها ، وان نتائج الحرب الكبرى الاخيرة كانت البرهان الساطع على ان تصادم المطامع دكّ اركان سعادة الامم الى الحضيض ؟ اما حان ان يتوبوا عن هذه الفوضى الدولية ويجنحوا الى نظام دولي وطيد مقيد بقوانين عادلة ؟ فاين العلم واين المعرفة واين العباقرة ؟ وما نفع هذه المدنية الجديدة التي نحن فيها ؟

أين بؤرة هذه الفوضى الدولية

الجواب : ان مدنية هذا العصر فاقت المدنيات الغابرة بالعلم فقط وقصرت بالادب النفسي تقصيراً عظيماً . لا تزال منحطة ادبيًّا كما كانت منذ الفي قرن . لذلك بالرغم من ان اشتباك العلائق الأممية يستلزم نظاماً دوليًّا قانونيًّا متيناً لا تزال المطامع الفردية والشعبية تحول دون كل تنظيم وتقنين دولي . فبؤرة هذه الفوضى هي هذه المطامع

تنحصر هذه المطامع في نوعين رئيسيين وفي فئتين من الناس : هما فئة الرأسماليين الجهلة العميان، وفئة الساسة الماكرين المغرمين بالسؤدد . اولئك استعبدهم اله المال . وهؤلاء استعبدهم اله الشهرة والجاه . غرام اولئك ادخار الثروة ولو نهباً . وغرام هؤلاء الاستعلاء الى المناصب ولو على عواتق الجمهور . وكلا الفريقين متعاونان — كلاهما مجردان من «أدب النفس» . لا عدل مطلق يقيم في ضمائرهما

لذلك يزين الساسة للشعب ان هناءهُ وسعادتهُ في الفتح والاستعمار . ويزين الرأسماليون للشعب ان تثمير المال في المشاريع الكبرى التي تستلزم التوسع الاستعماري ، يفتح ابواب العمل لملايين العمال . بهذا التزيين الذي يغترُّ بهِ هؤلاء العمال على اختلاف طبقاتهم ويطمعهم بانفراج ازماتهم كانوا يُستفزُّون للتجند والقتال . ولكن جاءت نتيجة الحرب العظمى عكس ما أغروا بهِ وكانت تجربتها (الاخيرة في ظننا) اقناعاً لسواد العامة ان نتائج الفتح والاستعمار ليست الا مغانم لفئتي الرأسماليين والمنصبيين ، ومغارم القتل في الحرب والعطلة بعدها لملايين العمال . لذلك لما ارسل موسوليني اول بعثة

جندية الى حدود الحبشة كان الشعب الايطالي يشاهدها ساعة فراقها متبرماً ويقول : لماذا يذهب اولادنا الى الهلاك ؟ واما ما ذكر بعدئذٍ من هتاف الحماسة الوطنية للفرق النازحة لم يكن الاَّ ذرَّ رماد في العيون، او كان حماسة مصطنعة

فبالله كيف يتوطد السلم اذا كان العدل الدولي الكاذب يسوّغ لموسوليني ان يختلق خلافاً بين الحبشة وايطاليا لكي ينتهزهُ فرصةً لغزو هذه المملكة . ولكل دولة من دول اوروبا في كل يوم خطة كخطة موسوليني كما يعلم القارىء

ان جميع ساسة الدول بلا استثناء هم من اضراب موسوليني . قانون كل منهم السعي الى تفوّق أمته تفوقاً اقتصاديًّا على حساب غيرها عن طريق الرأسمالية . وغايته اقناع الشعب بأنهُ جدير بمنصبهِ وبتقلد زمام السلطة والنفوذ . وما دام هذا التفوق هو هدف كل دولة فلا مناص من تضارب مصالح الدول . وبالتالي فلا أمل في اسفار المؤتمرات الدولية عن اتفاق وطيد يؤيد السلم التام الشامل

سيبقى العالم مقاسياً الضيق الذي هو فيهِ الآن ما دامت أزمّة الامور في ايدي الرأسماليين الاغبياء والساسة الافاكين . ولا رجاء بالفرج الاَّ اذا ثاب العالم الى رشده وأقام نظاماً دوليًّا موطداً على دستور دولي عادل . ولا أمل بنظام كهذا الاَّ اذا قلب العالم تينك الفئتين عن عرشيهما واقام مكانهما زعماء من اهل العلم الصحيح الذي احيا علمهم فيهم ضميراً صالحاً مشبعاً بالادب النفسي

العلم الصحيح هو دين الانسانية القويم الذي وضع مبادىء علم « ادب النفس » على قواعد طبيعية اجتماعية ليكون اساساً لنظام اجتماعي عام يجمع الامم كلها تحت راية واحدة ويمتعها جميعاً بحقوق متساوية مصونة بقضاء عام عادل حاسم لكل نزاع بينها وكافل لها سلماً خالداً

لذلك يعتقد هذا الضعيف ان اهل العلم الصحيح هم اجدر من ساسة اليوم الذين هم مطايا الرأسماليين — أجدر منهم بقيادة الامم وتسلّم ازمّة السياسة الدولية العامة ، لان معظمهم أنقياء الضمائر حريصون على العدل المطلق . فاذا ولتهم الامم سياسة امورها جعلوا عصبة الامم حكومة الحكومات وقضاءها محكمة المحاكم وسلطتها فوق كل سلطة وقوتها فوق كل قوة بحيث يتسنى لها أن تحسم كل نزاع بين الامم على قاعدة العدل المطلق الحقيقي . كذا تتلافى الحروب والثورات التي كانت ولا تزال تتدهور فيها الثروات ويحرم من التمتع بها العاملون في انتاجها

قد تقول ان هذا الانقلاب الذي يتحول فيه زمام السياسة الدولية من أيدي الرأسماليين والمنصبيين الى أيدي العلماء الصالحين الزاهدين بأبهة المناصب لهو حلم جميل ولكنهُ بعيد التحقيق. فأقول : اذن لا تستغرب اخفاق المؤتمرات السياسية مهما توالت ولو بلغت الملايين عدًّا

بعد البيان السابق لم يبق عندك شك في أن سياسة هذا العصر الدولية التي تمليها ارادة الرأسمالية وتتحذلق بها عقول المنصبية لهي سياسة عقيمة مستحيلة الانتاج . وسيذوق العالم معانياً الضيق بسببها الى أن ينفضها عن عاتقه مختاراً او مضطراً . ولكن متى يفعل ؟ — من يدري ؟

الثورة

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

(٢)

« الثورة والديموقراطية الصحيحة » دلّ التتبع على ان الدول التي رسخت قدمها في الطريقة النيابية فاصبحت ديموقراطية حقاً كالدولة البريطانية لا تجد الثورات فيها مرتعاً خصيباً، وذلك لا لانها مبرأة من كل عيب بعيدة عن مواقع الزلل ولا يشعر ابناؤها بشيء من الغبن الفاحش وخيبة الامل بل لان طريقتهم النيابية الراسخة تمكنهم كما قلنا في الفصول السابقة من الخلاص من هذه الحكومة بطرق الانتخاب القانونية ومن غير التجاء الى العنف والشدة ، ولعل ذلك اعظم ميزة تتحلى بها الطريقة الديموقراطية الصحيحة الموفقة ومعظم ما قيل من قبل عن غير ذلك من الميزات دلّت الوقائع على انهُ فاسد غالباً

واما تلك الدول التي لم ترسخ لها قدم في الاصول النيابية كمعظم جمهوريات اميركا المتوسطة واميركا الجنوبية فالدستور فيها يكون بيد الحكومة المتسلطة ألعوبة تقسره وتمدخه وتمسخه كما يتراءى لها من غير خوف ولا وجل لان الشعب الذي يجب ان يقوم هذا الدستور على قوته المادية والمعنوية هو شعب لم يختمر له رأي عام ولم تنتظم له ارادة حازمة

ولا يعني هذا الكلام ابداً ان الشعب متى استاء من الحكومة ثار في وجهها وقلبها دائماً بل ان للحكومة من الاجهزة ولاسيما في ايامنا هذه ما يمكنها من منع بوادر الثورة او من قمعها متى وقعت، ولكن قمع الثورة شيء وقمع الافكار شيء آخر — تستطيع الحكومة بقوة الحديد والنار ان تمنع هيئة وطنية اخرى ان تحل محلها مهما تذرعت هذه الهيئة بزرع الآمال الوهاجة والاحلام الذهبية البراقة ولكنها لن تستطيع ان تصادم سيل الافكار المستجدة ولاسيما متى كانت مبنية على العلم الصحيح والتجربة المضبوطة ومتفقة مع المصلحة والعاطفة ؛ فمثل هذا السيل جارف لا تقف في وجهه السدود بالغة ما بلغت من الثخانة والاحكام

وذكر الاستاذ (كونارد جل) ان الفلاحين والعمال المحجوزين في قفص من جهل وفقر لا يثورون في وجه اسيادهم ما لم يكونوا قد تعلموا ان في طاقتهم الوصول الى غرضهم بالثورة ؛ فما يستوقف الانظار ان الفلاحين الفرنسيين الذين ثاروا في سنة ١٧٨٩ كانوا اخف حملا من غيرهم من الفلاحين في بعض البلدان الاوربية الاخرى وهؤلاء لم يتوسلوا بشيء لتحرير انفسهم ، لكن الفرنسيين كانوا

قد قتبوا شيئاً من الديموقراطية مجهولاً عند غيرهم لحفزهم الى العمل ، ولا تقوم ثورة من الثورات ما لم يختمر في عقول الناس حلم او امل بتحسن في الحياة — او على اقل تقدير بما يحسب تحسناً فيها — مما يعد هذه العقول للانقلاب المنشود، والامل لا الخوف هو الذي يحدث الثورات المتكللة بالنجاح [١]

﴿ التنظيم ﴾ الاستياء والامل والغاية التي يضعها الزعيم نصب العيون هي عوامل ثلاثة جوهرية في حدوث الثورات ولكنها لا تحقق الغرض وتأتي بالانقلاب المنشود الأمتى دخلت فيها يد التنظيم، فلتحقيق الثورة لا بد من ايد قوية مارست أمزجة الناس وعرفت كيف تستولي على لبهم وتدير دفة السفينة التي يركبونها . وجميع الانقلابات الخطيرة التي قامت في العالم انما قامت بالتنظيم على كف الزعامة القوية . وغني عن البيان ان القوة التي نشير اليها هنا ليست قوة الابدان اذ ليس من الضروري ان يكون الزعيم مصارعاً ، ولا شدة الصياح وانتفاخ الاوداج فالسوقة من أهل الشوارع يمارسونها ويجيدونها خيراً منهُ ، وانما نريد العقلية الروحية التي ترفع المتحلي بها على هام الرجال . وعلى قدر هذه القوة في الزعامة يكون النجاح في المقاومة

ثم ان الحكومة التي يترتب على الثورة ان تزحزحها عن العرش تتمتع بقوة الجيش في البر والاسطول في البحر واسراب الطائرات في الجو وسائر ما استحدث من آلات الهلاك والدمار على عيار واسع ، وفي قبضة يدها المحاكم والسجون والمرافق الاقتصادية وما يضاف الى ذلك من حثالات نفعيين مأجورين واذناب لا هم لهم الا ان يسبحوا بحمدها آناء الليل واطراف النهار ولو خرب الوطن والساكنوه ونضبت منابع الحياة فيه ، فلا بدَّ للزعامة والحالة هذه من جمع شتات القوى الناشئة عن الاستياء وتنظيمها بحيث يكون في مقدورها ملاقاة هذا العدد العديد المتحصن وزحزحته عن مكانه

هذه هي العوامل بالاجمال من ناحية زعماء الثورة والقائلين بقولهم فإلى أي حدّ تستطيع الحكومة يا ترى أن تقاومها ؟ وليس الجواب عن ذلك متعذراً اذ قد جرت في الشرق الاوسط ثورات متنوعة تزود الباحث بالاجوبة المقنعة ، فحيثما كان الشعب حيًّا نشيطاً شاعراً بظلاماته مدركاً الغرض الذي ينشده عارفاً رجاله بعيداً عن التوسخ بالإرادل المنحطين ومنظماً تنظيماً يوحد جهوده ويجمل الضربة التي يكيلها تنزل على الرأس المقصود في الساعة المعينة ولا يفسح مجالاً للدجالين الصفقاء ان يندسّوا بين أفراده وكانت الحكومة جبانة ضعيفة لا سلطة لها على الجيش والاسطول وسائر منابع القوة وكانت يابسة لا تلين للمقتضيات الزمنية الملجئة التي استجدت فالنتيجة الانقلاب السياسي حتماً . بل قد لا تكون الامة على الشيء الكثير من تلك الشمائل ولكن خصمها الجالس على منصة الحكم فيها يكون ضعيفاً جباناً غير مزود بغير الملاحظات التي تزيد وساوسه فتقع الواقعة ويتم الانقلاب بين عشية وضحاها كما حدث في المملكة العثمانية سنة ١٩٠٨ ، فان ثورة محلية دبرها افراد من الجيش في

(١) Conard Gill, P. 265

الروملي وكبر من شأنها بعض صغار الموظفين في البرق والبريد لجازت على السلطان عبد الحميد وقواده وانتهت بانقلاب سياسي غاية في الابداع، وزحزحت كابوساً من كوابيس الاستبداد تربع على صدر الامة عشرات السنين فكاد يقطع الانفاس ، وثلت عرشاً من العروش يحكم في رقاب العباد فعلّم الناس الذلّ وعوّدهم الصغار

***

وفي درس الثورة العربية الكبرى والبحث عن اسباب هبوبها وخمودها والنتائج التي تولدت عنها ما ينطبق على هذه الملاحظات التي قدمناها ، فقد ألمعنا الى الانقلاب العثماني في سنة ١٩٠٨ وكان من أهم عواقبه ان اتجه الرأي العام بين فتيان الترك الى تتريك سائر العناصر في الدولة العثمانية خشية ان تتغلب هذه العناصر في آخر الامر على الترك أنفسهم . ولحظ رجال العرب في الاستانة منذ تلك الايام الاولى المبادىء التي يسير عليها مصطفى كمال باشا اليوم من اضطهاد العربية وقطع الصلة بثقافتها وهذا أدّى بطبيعة الحال الى ايقاظ القومية العربية من سباتها العميق وانتباه العرب الى حوزتهم المادية والمعنوية ، فعدّ الترك هذا العمل خروجاً على الدولة وانشقاقاً عنهم حتى اذا اعلنت الحرب العالمية انتهزوها فرصة فأرسلوا الى سورية وهي دماغ النهضة العربية المفكر طاغيتهم احمد جمال باشا وزبانيته ومن انضم اليهم من المأجورين فأتوا في البلدان العربية من الاعمال ما يعيد الى الخاطر ذكريات جنكيز خان وهولاكو خان وتيمورلنك فنصبت المشانق وسيق اليها رجالات العرب الافذاذ باحكام مزورة مصطنعة حتى ان احد الاعلام المرحوم عبد الوهاب بك المليحي كان الحكم الذي صدر عليه بالموت انهُ لا يحب الدولة — يعني يحكم على الناس بالموت والحياة بمجرد الحب والبغض على طريقة ديوان التفتيش في القرون الوسطى !

فأثارت هذه المظالم والمغارم بما بثهُ الزعماء من دعاية استنكاراً عامًّا لان الدم الزكي المهراق كالشاشة الحمراء بيد المستفزين اللاعبين في المنطح يهيج الثيران ويدفعها الى الغضب . أضف الى هذه الجنايات السياسية اعمال الموظفين ولا سيما رجال العسكرية منهم وما كانوا يحدثونهُ في الرعية من المنكرات باسم اعانة الجيش ولو بجمع زجاجات (الكولونيا) وغيرها من العطور . ولم تعدم مثل هذه الفرص السياسية دولة تنتهزها فتكشف عن ساقيها البضتين الناعمتين وتلوّح للعرب بذيلها الحريري الفتان فتفتح في خيالهم أبواب جنة طالما حلموا بها وظنوا فيها السعادة المنشودة ، وقد عاب على العرب بعض المتنطعين قبولهم المعونة التي عرضتها عليهم الدولة البريطانية وفاتهم ان ظلم السفاحين من الاتحاديين بلغ بالناس درجة ان لو نادتهم دولة (هايتي) او قبائل (نيام نيام) للبوها وهرولوا اليها فما بالك والملوّح اعظم دولة على وجه الارض — هي انكلترا مليكة البحار وقارون المال

اما عيوب الثورة العربية الكبرى فهي كبيرة على نسبتها . فمنها ان الزعامة على ما تحلّت بهِ من وطنية صادقة وعزيمة ثابتة كانت عتيقة بالية في تصوراتها ووسائلها « حميدية » في نزعتها طافحة بالكبرياء

على غير اساس تكاد تكون فكرتها ابتدائية ، ومنها ان الرأي العام كان لا يزال في كثير من الانحاء تحت كابوس الفلسفة التي اناخت بكلكلها على عقول القرون الوسطى ، فكان الناس يتأثرون بكلمة خلافة وامامة اكثر مما يتأثرون بكلمة وطن وشعب ، ومنها نقص التربية السياسية .. ومنها .. ومنها . ولكن على التحقيق اعظمها فقد التنظيم بين ابنائها فكانت مقاومتهم للسفاحين اشبه شيء بالاعمال الانعكاسية الفطرية ليس للرأي فيها كبير شأن ، ولم تتجاوز في عيارها الهبَّات الموضعية المتقطعة فكانت اذا اشتعلت في جهة بفعل المهيجين لا يعدم الاتحاديون من يساعدهم على اخمادها من ابناء البلاد انفسهم في جهة اخرى ، وقد بقيت بعض الاقطار العربية متعلقة بأهدابهم واهداب خلافتهم الى النفس الاخير وذلك لا قنوطاً من عقلية الملك حسين واستيحاشاً من فوضى البدو وخوفاً من طمعهم الاشعبي الذي لا حدَّ لهُ ، او تعمقاً في فهم الخطط الاستعمارية التي تتهددهم من الغرب واحاطة بدسائس الافرنج بل خضوعاً لنظريات عتيقة انقبرت مع القرون الوسطى وزالت بزوال السلطة الاكليريكية السياسية

ومما اذكر هنا من غرائبها ان نحو ثلاثة آلاف اسير من ابناء العراق الاقحاح كانوا اسرى في (صمربور) من بلاد الهند فبث بعض الضباط العرب بينهم فكرة القومية العربية والجهاد في سبيل الاوطان لانقاذ اخوانهم من مظالم جمال باشا في سورية وخليل باشا في العراق فقبلوا الانضمام الى الثورة وفيما هم على الطريق انبث بينهم بعض الافراد المستتركين ففتنوهم عن قوميتهم ولفتوهم عن وطنهم فلما وصلوا الى (جدة) ونزلوا الى البر يتأهبون للذهاب الى ميادين الجهاد نكصوا على اعقابهم فجأة وصاحوا بأعلى اصواتهم يحيون السلطان في القسطنطينية بقولهم « پادشاهم چوق ياشا » فليت (كمال اتاتورك) مطلق العربية والاسلامية والشرقية يصغي الى صياح العرب هذا فيترفق بالبقية الباقية من ابناء الخلفاء العثمانيين واحفادهم ويدفع عنهم وصمة التشرد وذل الحاجة

وهذه الثورة السورية التي اندلع لهيبها في سنة ١٩٢٥ قد اتت من اعمال البطولة ما يسجل لسورية بمداد الفخر لكن البطولة شيء والتنظيم شيء آخر ، فقد الجأتنا سيرة الكابتن (كاربيه) في جبل الدروز وخفة الجنرال (سراي) في بيروت الى انتهاز الفرصة المبتسمة من السخط الناشيء عنهما فباشرنا العمل وخضنا غمار الثورة قبل ان يتم تأليف (حزب الشعب) ويتم لنا بتأليفه تنظيم البلاد من اولها الى آخرها حتى اذا اقتضت الحال ان نضرب ضربتنا شددنا المطرقة واوحيناها على التوالي بالاوامر المنظمة لتقع الضربة على الرأس المقصود ، فكان اسراعنا الاضطراري هذا سبباً لحرمان الوطن من اقتطاف ثمار جهوده بما يتكافأ مع البذل الغالي الذي بذله بالمال وبالرجال ، ذلك لان سورية ويا للاسف لم تثر كلها بل الذي ثار جزء صغير منها وفي اوقات متقطعة

***

﴿ الثورة وقابلية الشعوب لها ﴾ وتقسم الاقوام بالنسبة الى الثورة كما قال الاستاذ (كونارد جل)

الى درجات ، فالدرجة الاولى وهي احطها قوم يأكلون الصفع على رؤوسهم وتشن عليهم الغارات في عقر دورهم ويساقون الى الذل والصغار من مخاطمهم فلا تبدر منهم بادرة بالتذمر بل تجدهم فرحين بالنير على اعناقهم فرح السيد الحر بالانطلاق حتى ان الذي يستعبدهم لا يرى حاجة الى استرضائهم بأكثر من الوظائف الحقيرة يمن بها على رجالهم وكسر الخبز يقيها لابنائهم وابتسامات الغدر يظهرها لبنائهم ، وهؤلاء كما قال الاستاذ قد بلغوا من الانحطاط انهم لن يثوروا

و (الدرجة الثانية) قوم حازوا المقدار الكافي من الامل والنشاط للاقدام على الثورة وعرفوا ان لهم حوزة مادية ومعنوية لا قيام لهم الا بالدفاع عنها والتعلق بأهدابها فثاروا لكنهم غلبوا على امرهم وقهروا في الميدان فما عليهم الا ان ينتظروا سنوح فرصة اخرى ملائمة وهذه الفرصة قادمة حتماً اذا هم تذرعوا بالصبر واحتفظوا بقواهم الحيوية

و (الدرجة الثالثة) قوم عرفوا كيف تؤكل الكتف فنظموا ثورتهم واختاروا خير الاوقات لاعلانها فنجحوا في تنفيذها وفازوا بتحقيق غاياتها وتمكن الشعب من بعدها ان يسير في الحياة على السبل التي تسير عليها الامم الحية المستقلة

وثمة درجة رابعة هي في نظر الاستاذ ارقى الدرجات واكملها وهي قائمة على التدرج في الانقلاب والتحول بالطريقة السلمية المجردة من العنف والشدة . وفي وسع الباحث ان يتصور ان مثل هذه الدرجة هي في حيز الامكان في الشعوب المستقلة ذات التربية السياسية السمحة في داخليتها الآمنة على حوزتها من التعدي الخارجي الذي يهددها في اقدس مقومات حياتها. واما المستعمرات والمحميات والممتلكات على الطريقة التي رأيناها او سمعنا بها فانتظار خلاصها بالطريقة النشوئية التدرجية الهادئة معناه منح القوة المحتلة الفرصة المديدة لامتصاصها وتمثيلها . والنجار مهما كان جاهلاً ومنشاره كليلاً فمتى منحته الزمن الكافي فهو واصل الى قطع الشجرة حتماً

***

ولا مراء أن الحصول على الانقلاب المنشود بالطريقة السلمية — متى كان ممكناً — لا يرغب عنهُ الى الطريقة الثورية الا الحمق ، وهل يترك السهل ويسلك الوعر الا مضطر ألجأتهُ الحوادث الى ركوب متن الخطر ؟

ودلَّ التتبع في الشؤون الحاضرة على ان معظم الاعتراضات على الثورة كتب في تقبيح الانتقاض على الانظمة الاجتماعية والاقتصادية التي خضعت لها الجمعية البشرية حتى الآن ، وفازت الثورة الشيوعية من هذه الاعتراضات بالنصيب الاوفر ، فقد حمل عليها النقاد في بعض البلدان حملة شعواء منكرة تنفيراً للخلق منها ومن زعمائها والقائلين بها ، ونمقت هذه الانتقادات وحبّرت بصورة خاصة في البلدان المتطرفة في رأس ماليتها مما سنبينهُ في مقالنا الآتي

المارشال بلسودسكي

منشيء بولونيا الجديدة

[جاء في انباء بولونيا البرقية ان مجلس نوابها قد وافق على مشروع القانون الخاص بتعديل دستورها باكثرية ٢٦٠ صوتاً على ١٣٩ . وقد خول رئيس الجمهورية بمقتضى التعديل الجديد سلطة عظيمة . منها حق تعيين الوزراء وقائد الجيش العام ورئيس المحكمة العليا وحق عزلهم ، وحق تعيين ثلث مجلس الشيوخ اي ٤٠ عضواً من ١٢٠ ، وحق دعوة البرلمان وفضه ، وحق مفاوضة الدول في المعاهدات الخارجية وامضائها وتقرير السلم وشهر الحرب . والراجح ان المارشال بلسودسكي يرضى الآن ان ينتخب للرآسة فقد رفض ذلك قبلا (سنة ١٩٢٦) محتجاً بضعف سلطة الرئيس]

لسنا نتوقع عادةً ان تكون حياة السياسي حافلة بألوان المغامرة والحوادث ، كأنها منتزعة من صفحات قصة رومانطيقية . ولكن حياة المارشال بلسودسكي من هذا القبيل . فقد قضى خمس سنوات من حياته منفيًّا في سيبيريا . وسجن في امنع السجون وأشدها احكاماً ، في فرسوفيا (وارسو عاصمة بولونيا) ولم ينجو منهُ الاَّ باصطناعه الجنون . وانشأ صحيفة ثورية سرية (روبتونيك اي العامل) كانت امرأته تغني في خلال طبعها حتى لا يسمع البوليس صوت الآلة الطابعة وهديرها وكان هو يحررها ويطبعها ويوزعها . وحارب في خلال الحرب الكبرى في جانب الدول المركزية (المانيا وحلفائها) اولاً ثم انقلب عليها وحاربها وقبض عليه الالمان واعتقلوه في حصن منيع . ثم انهُ في فترة من حياته اشتغل بالتشرد وقطع الطرق في سبيل استقلال بولونيا ؟

***

لبولونيا تاريخ قومي مجيد حافل بآثار الادب والفن والعلم ، ولكنها بلاد مشؤومة لوقوعها بين ثلاث امبراطوريات عظيمة ، فكانت تتقاذفها وتتشاطرها . هذه الامبراطوريات هي المانيا والنمسا وروسيا . وقد شطرت غير مرة ، فجزء اخذته المانيا وآخر روسيا وآخر النمسا . فظهور بولونيا الآن بمظهر الامة الموحدة المستقلة درس يلقيه علينا التاريخ ، بأن الشعور القومي في امة ما لا يمكن تخمده بالضغط والظلم بل هو كالشعور الديني يتقد ويقوى في ظلال الارهاق والاستعباد

***

ولد يوسف بلسودسكي (سنة ١٨٦٧ في الجانب الروسي من بولونيا) ونشأ في جو حافل بأحاديث استبداد الروسيين وبطشهم في محاولتهم خفت كل صوت بولوني حر واخماد شعور

الاستقلال الذي يعمر صدور البولونيين . وكان قد مضى على بولونيا نحو قرن وهي مقسمة مجزأة ولكن القرن كان غير كاف لاخماد الشعور القومي . وكانت والدة بلسودسكي ، واحدة من الامهات اللواتي كنَّ يقرأنَ لابنائهنَّ ، او يقصصنَ عليهم، حكايات وأشعاراً تنطوي على عظمة بلادها التالدة وأمجادها العجيبة

***

كان بلسودسكي في العشرين من عمره لما حوكم بتهمة اشتراكه في دسيسة ضد القيصر فحكم عليهِ بالنفي الى سيبيريا مع ان المحاكمة اثبتت براءتهُ واعراضه عن وسائل الارهاب

في سيبيريا ، جمع بلسودسكي أفكاره ونظمها ، وكان معظم المسجونين الآخرين من الاشتراكيين الروس ، فأصبح اشتراكيًّا ، ولكن من نوع خاص . اصبح اشتراكيًّا كموسوليني ، يستعمل الحزب ، لانهُ حزب ثوري لغايته أي ليفوز باستقلال بلاده . وفي سنة ١٨٩٢ ، عاد من المنفى فأنشأ الحزب البولوني الاشتراكي وأسس جريدة تدعى « الروبوتنك » — وهي الآن اكبر جريدة اشتراكية في بولونيا — ولا يخفى ان تحرير جريدة ليس عادة بالعمل الحافل بالخطر والمغامرة ، ولكنهُ يصبح كذلك إذ تضطرُّ أن تخفي مطبعتك الصغيرة في خزانة ، وان تهرّب كل نسخة تهريباً لان اكتشافها يفضي الى السجن . وكان بلسودسكي وزوجته يقضيان نحو اسبوع في طبع ٢٠٠٠ نسخة منها لصغر الآلة الطابعة ، ومع ذلك ظل رجال البوليس يبحثون عن مطبعتها في مدينة لودز ، سبع سنوات قبلما اكتشفوها ، فسجن بلسودسكي ثانية . وجاء بعده من أصدر عددين منها في لندن ولكن زعيم الحركة كان في السجن ، بل في امنع السجون

في هذا السجن اصطنع بلسودسكي الجنون لكي ينقل الى مكان آخر يستطيع ان يفرَّ منهُ . ولكن حكام السجن وولاة الامر لم ينقلوه الى مستشفى الامراض العقلية ، حتى كاد تصنع الجنون ان يصبح حقيقةواقعة ، فنقل الى مستشفى في العاصمة الروسية — بطرسبرج — فمهد لهُ احدالاطباء سبيل الفرار لابساً بدلة عادية . ثم تزيّى بزي موظف جمارك روسي وفر من بطرسبرج ، فجاء الى لندن وقطن في الحي الذي يكثر فيهِ الثوار الروس والبولونيون ، وكانت لندن حينئذٍ مباءة لهم ، بعد ما رفضت كل بلاد أوربية ان تؤويهم ، وكان غرضهم جميعاً ثل العرش الروسي . فلما نشبت الحرب الروسية اليابانية سافر بلسودسكي الى طوكيوعاصمة اليابان لكي يقنع اليابانيين بمنحهِ الاعتمادات اللازمة لانشاء فرقة بولونية للمحاربة في صفوف اليابانيين . وكان نجاحه مؤكداً لولا أن زعيماً آخر يدعى دنفسكي لم يسبقه الى اليابان ، وكان دنفسكي لا يعتقد ان استقلال بلاده ينال بالقوة والثورة بل بالحجة والعقل . وخيبته هذه وسعت شقة الخلاف بين هذين الفريقين من البولونيين ، وكانت مصدر حيرة واضطراب لما استقلت البلاد بعد الحرب الكبرى

فقال بلسودسكي في نفسه : اذا لم أستطع ان اكون زعيماً حربيًّا فلأكوننَّ قاطع طريق فجمل

ينشىء العصابات في بولونيا الروسية لاطلاق سراح المسجونين بالقوة ، ومهاجمة الموظفين وسرقة البريد لكي ينفق ما يسرقه في سبيل القضية البولونية ، وقد فازت احدى عصاباته مرة بسرقة ما قيمته ثلاثة ملايين روبل

ولكن هذه الفترة في حياته كانت قصيرة ، لانهُ أدرك ، ان العصابات لا تحدث الاثر المطلوب ، فقال اذا كانت اليابان لا تساعده على انشاء فرقة حربية بولونية فقد تساعده دولة اخرى فتحوّل الى النمسا ، فكنه رجالها مما يبدو كلا الفريقين يضمر عداء للآخر ، فلما أعلنت الحرب العامة خاض غمارها ضد روسيا في جانب المانيا والنمسا ، خاض غمارها وهو يعلم حق العلم ، انه لابد ان ينقلب يوماً ما عليهما ، اذا كسرتا روسيا فيحارب النمسا نفسها ، لان كلتيهما عدو لاستقلال بولونيا . ولما انقلب فعلاً بعد خروج روسيا من ميدان الحرب سنة ١٩١٧ القى الالمان القبض عليه ، وسجنوه في حصن منيع في مجدبرج . فلما انهاوت الامبرطورية الالمانية اطلق الثوار الالمان سراحه وعاد الى بلاده بطلاً كالابطال يخرج مائة ألف بولوني الى استقباله في محطة فرسوفيا في ٤ نوفمبر ١٩١٨ . واستقال مجلس الوصاية الذي انشأه الالمان ورضيت السلطات العسكرية ان تخضع لزعامته فمنح سلطة دكتاتورية وانتخب بالاجماع رئيساً للدولة وعينه الجيش مارشال بولونيا الاول

***

وما لبث بلسودسكي ان رأى بولونيا مشتبكة في حرب مع روسيا الحمراء ، وفي نزاعات بين رجال السياسة فيها وكان بعضهم يضنُّ على بلسودسكي بالفضل الذي يحق له ، فجمع جيشاً وسار به نحو « كيف » في أوقرانيا ، ولكن الجيوش الروسية ارتدت اليه بعد ما تغلبت على كولشاك ودنيكين وما زالت تتوغل في بولونيا حتى اصبحت على ميل او ميلين من عاصمتها . اما بلسودسكي فتراجع الى عاصمته ، وجمع فلول الجيش البولوني بعد تداوحار وجههُ الى الامة ، ودحر بهم الجيش الروسي في معركة وارسو التي تحسب من العجائب ، وكذلك انتهت الحرب مع روسيا وعقد الصلح في مدينة ريغا سنة ١٩٢١

بعد ذلك اعتزل بلسودسكي الحياة العامة فترة قصيرة من الزمن ولكن البرلمان البولوني ، ظل يضيع الوقت في الامور التافهة ، فوصفه المارشال ، وصفاً بديعاً اذ قال انهُ « كالقاطرة التي تحاول ان تجر قشة » . وفي سنة ١٩٢٦ زحف على العاصمة ، وطرد الرئيس — وكان هذا الرئيس في يومٍ من الايام زميله في تحرير الجريدة الثورية السرية — وتقلد منصب وزير الحربية ، رافضاً ان ينتخب رئيساً للجمهورية ، بل انهُ انتخب ورفض لان سلطة الرئيس محدودة

***

وهو يقيم الآن في قصر بلفدير ، وليس لهُ أي نصيب في الحكم الا من وراء ستار . ولكن العيون تتجه اليه في الملمات لانهُ الرجل الذي لم يساوم ضميره في أي شيء يتعلق باستقلال بولونيا

بعض عوامل الضعف

في تكوين الفرد

وطرق علاجها في الاسرة والمدرسة

لبهي الدين بركات بك وزير المعارف الاسبق

[جاءتنا هذه الخطبة النفيسة لصاحب السعادة بهي الدين بركات بك وزير المعارف الاسبق وكان معظم ملازم المقتطف قد طبع ، فضننا بما احتوت عليه من الفوائد ان تتأخر الى الشهر القادم فنشرناها في هذا الباب لان الوالدين والمعلمين أجدر الناس باستيعاب معانيها والعمل بها]

سادتي : بينما كنت اطالع منذ أيام احدى المجلات الزراعية استرعى نظري ما قرأته لخبير زراعة القصب من قوله ان الفلاح المصري وصل في بعض الشؤون الزراعية بفضل مثابرته وارتقابه لزراعته درجة من الاتقان لم يصل اليها العلم الحديث فالتجربة علمت من طرق الزراعة ما يأتي بأحسن الثمرات

قد يدهش المرء لتلك العبارة ولكنهُ اذا فكر أن الحاجة تفتق الحيلة وان الضرورة أم الاختراع عرف كيف تستطيع الجهود المتجمعة أن تصل الى ما لا يستطيعهُ العلماء أنفسهم

هذه شهادة العلماء عن نتيجة ما وصلنا اليهِ بفضل عنايتنا بنباتنا وزراعتنا فهل نحن وصلنا الى بعض تلك النتيجة فيما يتعلق بتربية أبنائنا وبناتنا ؟

بالأسف كلاَّ !

اغشَ أي مجلس من مجالس الفلاحين تجدهم يبحثون في أوان الزراعة الملائم لنجاحها وفي طرق ريها وأساليب معالجتها وأحسن الوسائل لاكثار الانتاج وطرق مكافحة الآفات الزراعية وغير ذلك . واغشَ بعد ذلك مجالس القاهرة تجدهم يتناقشون في السياسة وفي الدرجات وفي أسباب تفضيل زيد على بكر وغير ذلك من المسائل التي تشغل الرأي العام . ولكنك يندر أن تجد مجلساً يتناقش في طريقة معاملة الأطفال وفي أحسن السبل لتربيتهم وتقويم المعوج فيهم وكثيراً ما تسمع الناس ينسبون العيب الى المدرسة والتقصير الى الحكومة ويندر أن تجد من يذكر أن الاسرة هي المدرسة الاولى للطفل وان للطفل ذاكرة كالمرآة ينعكس فيها كل ما يراه وينطبع أثره في نفسه وينتج نتيجة في أخلاقه وتكوينه اذا ما بلغ شاباً ثم رجلاً

فهل فكرنا نحن في تربية أولادنا ان نحجم عن ارتكاب النقائص أمامهم وأن يكون الأبوان نموذجاً حسناً لهم ؟ أظن لا

ولعلَّ جمهرة الآباء والأمهات عندنا لا يشعرون بأن عليهم واجباً لأولادهم ولا بأن الأمثلة السيئة التي يراها الطفل ستلازمهُ حتماً مدى الحياة

ألسنا نرى كثيراً من الآباء والأمهات يلقنون أولادهم الكذب ويطبعون فيهم روح الغيرة والحسد بما يقصون أمامهم من الأحاديث ويلقنونهم من الأوامر ؟

فكم من الآباء والأمهات يتنبهون إلى أن كثيراً من القصص العائلية والمشاحنات الفردية لا يصح ذكرها أمام أبنائهم وبناتهم حتى لا يفقدوا روح العطف نحو أهلهم وحتى ينشأوا طاهرين مما يثقل ماضي أهلهم فيبدلوا حياة أسعد من حياتهم ويعملوا بروح من المحبة بعيدة عن البغضاء والشحناء وعن الأثرة والأنانية

هل فكر أحد منا في ذلك وعمل عليه في تربية أبنائه ؟ أو لسنا في كثير من الاحيان نستحث أولادنا وبناتنا الى العمل من طريق بث روح الغيرة والحسد نحو الآخرين ؟ بل من طريق بذر بذور عدم الثقة والكراهة بين الاخوة . فكم من والد يقول لولده (أنا أحبك اكثر من أخيك — أخوك بطال — كلْ هذه القطعة ولا تخبر أخاك عنها أو اخفيها منهُ) وغير ذلك مما يعوّد الطفل منذ نعومة أظفاره الاثرة والانانية ويغرس في نفسه الغيرة والحسد حتى من اخوته

***

كذلك كان من نتائج عدم تفكيرنا في طرق معالجة أطفالنا أنهُ بينما يفكر كل منا في رفاهية اولاده المادية اذا به يهمل الجهة المعنوية اهمالاً تامًّا . فلقد كنا في ماضٍ ليس ببعيد نسمع أن الولد لا يصح لهُ أن يجالس أباه وان الزوجة لا تأكل مع زوجها وان الطاعة واجبة على كل منهما نحو رب البيت وما درى هؤلاء انهم كانوا بذلك يغرسون روح الذل والاستبداد في أبنائهم وبناتهم ويعطلون فيهم جميع الصفات الضرورية لجعلهم أفراداً أحراراً في مجتمع يحميهم ويعملون هم على رقيه

حقًّا لقد تغيرت تلك الحالة الآن ولكن تغيرها كان في الشكل أما في الجوهر فلا يزال كثير من الآباء والأمهات يتصورون ان الطفل يجب أن يربى على الادب والطاعة

فالأدب في عرفهم ، ان يجلس الطفل جلسة مخصوصة . وان لا يتحرك في مجلسه واذا ضرب فلا يبكي

وأما الطاعة فهي أن يتلقى الاوامر فيخضع لها مهما كانت وما دروا أن الطفل محتاج دائمًا الى الحركة وان السكون في الطفولة الاولى علامة المرض والخمول وان من يضرَب ولا يبكي فانما ينشأ ذليلاً حقيراً ، وان من يحرم حق التفكير لا يمكن أن يكون حرًّا ، وان النظام والطاعة غير الخضوع والخنوع ، وان الوالد لو فكر في حق ابنه عليه لما جعل لتفوقه المادي على ذلك الطفل ولا للنعرة الوقتية التي تأخذه باللائمة اذا ما اعترض الولد على أمر من أوامره ، اي أثر فيه ، في تربية ولده ولكن للأسف نجد الحالة الفكرية في أذهان الناس على الضد من ذلك

فهم يطلبون من الولد أن يكون أداة طبيعية لهم من غير أن يفكروا فيما لتلك الحالة من الآثار العميقة في تكوين الطفل وما لها من نتائج بعيدة المدى

اذ ان من يربى على الخنوع لا يكون عاجزاً فقط بل ينقلب طاغية مستبداً اذا ما ولي الامر بدوره وأني لا ازال اذكر اني في المناصب التي شغلتها كنت احتاج الى كثير من التشجيع حتى يستطيع غالب الموظفين الذين كانوا تحت رآستي ان يبدوا رأيهم بحرية لانهُ انطبع في اذهان كثير من رؤسائهم ان الاحترام معناه ان يفنى المرؤس في الرئيس وان الشخص الذي يعارض رأيك لا يمكن ان يكون محلاً لرضاك وان طاعة الرئيس معناها شلّ كل رأي يخالف رأيهُ . فلعمري كيف يمكن التعاون والحالة النفسية على ما قدمنا بل كيف يرقى مجتمع تلك حالة افراده

ولا أزال اذكر كذلك اني عندما كنت وزيراً للمعارف لاحظت عدم وجود اداة اتصال بين رجال التعليم ليبحثوا نظم التربية والتعليم ويعملوا على ترقيتها واصلاح ما فيها من العيوب ففكرت في انشاء مجلة لتكون اداة لتلك الابحاث وفعلاً دعوت بعض رجال المعارف لمباحثتهم في الامر فسألني احدهم وهل يكون لتلك المجلة حق نقد النظم الحاضرة فقلت له نعم لان سبيل التقدم والرقي هو معرفة عيوب الحاضر ولا يمكن ان نصل الى ذلك بغير النقد وما دامت الابحاث محصورة في الحدود العلمية والفنية من غير ان تتعدى الى الاشخاص اوالسياسة او الدين فمجالها حرٌّ للباحثين. فاجابني وقد شعر بغرابة وقع سؤاله من نفسي بانهُ انما اراد الاستفسار لان الفكرة عرضت في عهد احد الوزراء الذين تولوا امر الوزارة قبلي ببضع سنين فاعترض عليها ذلك الوزير وقال كيف اسمح لرجال التعليم ومهمتهم الدفاع عن الوزارة ونظمها بنقد نظم التعليم

ايها السادة : ارجو ان لا يدهشكم هذا القول فلقد كان الوزير الذي اشير اليهِ معروفاً بين الناس بالحكمة وحسن التدبير وهو ممن تركوا في نفوس الكثيرين اثراً طيباً ولكن الامور اشتبهت علينا وتربية الاسرة فينا اضلّتنا السبيل حتى صرنا لا نحس بآثار تلك التربية وما تركته فينا من الخنوع والرضى بالاستبداد فالتبس علينا الامر وصرنا نرى حسناً ما ليس بالحسن

***

وثمت نتيجة اخرى من نتائج تلك الحالة في الاسرة وهي ان ما يسمعهُ اطفالنا من احاديث ابويهم وأهليهم ومن عرض الخلافات الصغيرة والحقيرة امامهم ساعدنا على ان نغرس في نفوسهم روح الغيرة الخبيثة والحقد مما يضعف فيهم روح التعاون والعمل المشترك . ذلك انهُ انطبع في الاذهان من اثر الحياة المنزلية وما نراه فيها من شحناء وبغضاء ، والتعلق بكثير من سفاسف الامور ، والميل الى المناظرة الوضيعة ، واثارة الحقد الدفين في النفوس ، مما جعل الناس ينتقدون بعضهم بعضاً بسبب ومن غير سبب . ومما جعل الكثيرين يظنون انهم لا يستطيعون ان يجعلوا لانفسهم مكانة او احتراماً الا اذا اضعفوا من قيمة غيرهم وشوّهوا اعمالهم . فكم سمعنا عن المديرين في الاقاليم والرؤساء في المصالح والوزراء في الدواوين انهم يجعلون همهم تشويه ما عمله اسلافهم حتى يكون لهم وحدهم الفخر. وكم سمعنا عن خيبة دبّت بين جماعات انشئت لتعمل متحدة . ذلك لان الاشخاص ربوا على

القطيعة والحقد فلا يفهمون روح التعاون . ولست اود ان اذكر امثلة ما نراه في مصر فليس من موضوعي الليلة ان اتعرض للحياة العامة ولكني اذكر اني كنت في تركيا عام ١٩٢٩ وذهبت لمشاهدة مباراة كرة القدم بين الفريق التركي والفريق المصري ولقد كان افراد الفريق المصري متفوقين على زملائهم الاتراك ولكن للاسف كان الكثيرون منهم اذا امسك بالكرة حاول ان يصل بها الى الهدف لينال هو فخر الانتصار وحده . اما الفريق التركي فكان الواحد منهم يأخذ الكرة فاذا احس بان هجوماً يدبَّر ضده مررها الى زميل له وهكذا حتى انتهى الامر بانتصار الفريق التركي على المصري ونالت تركيا فخر الانتصار مع ان افرادها كانوا اقل كفاءة من افراد الفريق المصري ولكنهم عرفوا سرَّ النجاح في الحياة خفي علينا ألا وهو ان التعاون يزيد القوى قوة ويخلق سبباً جديداً للنصر تعم فائدته الافراد

فالطفل عندنا متروك لمحض الصدفة فهو اشبه بنبات الغابة واحواشها ينمو فوضى لا نظام لها ويقتل قويها ضعيفها ويتغلب خبيثها على طيبها . ولو شئنا له نجاحاً وللانسانية فلاحاً لتعهدناه كما يتعهد النبات او الاشجار المثمرة التي نحرث لها الارض ونتعهدها بالسقيا ونطهرها من الحشرات والنباتات الخبيثة ونعمل على تلقيحها باحسن الثمار واجود الاصناف . ولا شك ان هذا عمل شاق يحتاج الى النشر والدعاية والمثل الصالح وبالجملة ان رمنا فلاحاً وجب ان نعنى بحالة اولادنا الفكرية والمعنوية كما نعني بحالتهم المادية والصحية

لقد شعر كثير من الناس بنتائج تلك الحالة السيئة فارادوا معالجتها من طريق معاملة اولادهم معاملة طيبة وغرس روح الاستقلال فيهم ولكن تغلبت فيهم روح الزهو فنظروا الى اولادهم لا نظرة الامين على فلذة كبده بل نظرة المفاخر بجمال ولده . ولذلك اسرفوا في طريقة لباسهم . فكم من الاطفال عندنا يلبسون الحرير والملابس الثمينة بينما ثروة الوالدين لا تسمح بشيء من ذلك . وكم من الامهات يباهينَ بان ابنهنَّ يلبس احسن من لبس ابن فلان الثري وكم منهنَّ بلغ بهنَّ الزهو ان لا يشترينَ ملابس الاولاد الا من اوربا غير عابئات بالاثر السيء الذي ينطبع في ذهن الطفل فيركز اهتمامه في تلك الناحية حتى اذا ما شبَّ وجد والديه غير قادرين على ان يحفظا له من النعيم ما عوَّداه في نشأته الاولى فيقع الخلاف في الاسرة ويغلو الولد في طلباته وهكذا تكون الاسرة ضحية صراع داخلي وفريسة تبذير ينتهي بخرابها

ومن الاسف أن هذا الضعف قد ينشأ بطرق شتى خصوصاً في تربية البنت فان كثيراً من السيدات يضعنَ مسئلة الزي في المرتبة الاولى من تفكيرهنَّ ولا يحسبنَ لثروتهنَّ أو ثروة ازواجهن اي حساب فتنشأ البنت في هذا الوسط ضعيفة مبذرة لا تستطيع ان تقوم بواجبها نحو منزلها ولا نحو اولادها وترى الثروة التي لديها قليلة حتى ولو كانت واسعة ؛ لانها لا تستطيع لنفسها تدبيراً وبذلك ينتقل الآباء من خطإٍ الى خطإٍ آخر. ذلك أن معالجة أمور الطفل من أدق المسائل واعقدها

وهي اجدرها بالعناية والاهتمام ولا يصح للانسان ان يأخذ برأي من غير ان يقلب الامور على جميع وجوهها وأن يبحث عن ذوي الرأي والتجربة للاسترشاد بهم في معالجتها . ومع ذلك فلا يظن انسان ان التربية والوسط هما كل شيء فان للطبيعة نفسها ولميراث الطفل من الاجيال العديدة التي ركزت فيه أثراً فعالاً في تكوينه فنحن بصناعتنا انما نساعد الطبيعة او نمدها ولكننا لا نستطيع ان نخلقها خلقاً جديداً . وما الاسرة الا صورة مصغرة للمجتمع الذي نعيش فيهِ فاذا رمنا لهذا المجتمع صلاحاً وجب ان نبدأ بالاسرة اولاً فاذا ما صلحت الاسرة عملت هي على اصلاح المجتمع

* * *

والآن وقد عرضت لاحد عوامل الضعف في تكوين الاسرة للفرد انتقل الى عامل من عوامل الضعف في تكوين الفرد في المدرسة

كلنا نسمع الشكوى المرة من حالة التعليم ونسمع الصرخة العالية ضد نشر التعليم في الارياف لانهُ يحول بين المتعلمين والغيط فالولد الذي يدخل المكتب او الكتّاب يرفض بعد ذلك ان يتولى عملاً من اعمال الزراعة وكثيراً ما نقرأ في الجرائد عن العاطلين من حملة الشهادات وما يجب لهم من التشجيع ونقرأ الاقتراح تلو الاقتراح عن وسائل تفريج تلك الازمة وما يجب على الحكومة ازاءها . وبعد ان كان الناس يقدسون العلم ويرونه خطوة نحو الكمال في الانسانية اصبحوا الآن يشكون في فائدتهِ ويرونه خطراً على المجتمع الانساني ، ومما يجب ان نحتاط من تناوله الا بالقدر الضروري . وبعد ان كان الشك في فائدة العلم قاصراً على طبقة الجهلة من الناس اصبح حديث الجميع ففي ارقى المجالس العلمية نسمع كثيراً من الناس يقولون بوجوب حصر التعليم حتى لا تزداد طبقة المتعلمين الذين لا يجدون وظائف في المجتمع فينقلبون خطراً عليهِ ويكونون اداة اضطراب في البلاد

واذا ناقشت هؤلاء القائلين اجابوك على الفور ، الا ترى كيف ان حملة الشهادات اصبحوا عالة على الامة ، الا تراهم في كل يوم يأتون اليك طالبين وظائف حكومية ، وكيف يكون الحال اذا نحن ظللنا مستمرين في تلك السياسة . اليس الاجدر بنا ان نعترف بالامر الواقع ونواجه الحقائق كما هي ونترك الافكار النظرية لنكون عمليين وندرأ خطر الفوضى عن البلاد قبل استفحال الخطب

فهل حقيقة ان الامور انقلبت رأساً على عقب الى هذا الحد ؟ وهل اصبح العلم الذي كنا نفاخر به وكنا نباهي بالحكمة الجارية « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » و « اطلبوا العلم ولو في الصين » أصبحت خرافة من الخرافات

لا يا سادة ! لم تنقلب الحقائق ولكننا رأينا حالة شاذة ورأينا اضطراباً في المجتمع كان مظهره حملة الشهادات ومتخرجي المدارس ودور العلم فربطنا ظاهرتين احداها بالاخرى واختلَّ بنا المنطق فاعتقدنا بأن الخطر ناشيء من العلم ونادينا بوجوب الحد منه بتقليل عدد طلابه ولكننا لحسن الحظ لم نؤمن بذلك المذهب كل الايمان فليس منا من يرضى بأن يعمل بتلك النظرية بالنسبة لاولاده واذا طبقت على احدهم كان اول ساع الى المطالبة بالاستثناء الملحّ في الدفاع عن وجوب فتح ابواب

التعليم لجميع الناس والاّ اضطروا ان يرسلوا اولادهم الى اوربا . فالحمد لله الذي جعل غريزة الدفاع عن النفس اقوى الغرائز فهي تتغلب على جميع النظريات وكثيراً ما تصل من طريقها الى الحل الصحيح غير عابئة بما ينسجه المتفلسفون من النظريات وما ينادي به السفسطائيون من المبادىء

فالحق ايها السادة ان العلم لا يزال هو هو له من القداسة ما كان له في الماضي ولكن نظم التعليم والمدرسة عندنا فيها من العيوب ما جعلنا نشعر بتلك الازمة الشديدة التي نشكو منها اليوم فضل كثير من الباحثين ونسبوا الى العلم ما هو راجع الى نظم التعليم والمدرسة . فليس يحتاج الى دليل او برهان ان العلم زيادة في المعرفة واذا زادت معرفة الانسان كان اقدر على مكافحة الحياة وأكفأ على استثمارها واستدرار خيراتها فاذا ظهر لنا خطر من حالة من نسميهم متعلمين فانما يكون ذلك لعيب في تعليمهم وضلال في طريقة تنشيئهم فالتعليم الاولي والابتدائي بل والثانوي لا يمنع الولد من ممارسة اي عمل من الاعمال البدنية في اوربا بل يزيده استعداداً للعمل ويفتح له مجالاً من التقدم فيه اكثر من غيره . اما نحن فبمجرد ان يصل الولد الى الشهادة يعتبر نفسه كفئاً لتولي وظيفة حكومية ولا يرضى بمزاولة عمل ابيه من تجارة او برادة او طهي او غير ذلك

فما السر في هذا ؟ لقد استعرضت امامي عوامل عديدة لتلك الحالة منها ان المتعلمين عندنا لا يزالون قليلي العدد فمن تعلم منا يعتبر نفسه انتقل الى طبقة ارستوقراطية تعطيه حقوقاً اكبر من حقوق زميله الاوربي تفسر له وجاهته ولكن كيف لم تستطع الازمة الشديدة التي مررنا بها ان تخفف من غلواء هؤلاء الناس بل كيف لا يغير تلك الحالة ما نراه عليه حملة الشهادات من الفقر والعوز ! الجواب على ذلك ان هذا كان من شأنه ان يغير تلك الحالة تماماً لولا ان لدينا في تعليمنا عنصراً يبدو في ظاهره بسيطاً ولكنه في الواقع عميق الأثر في نفسيتنا وطريقة تفكيرنا. ذلك العنصر هو اللباس الذي يرتديه الصبية في المدارس . فلقد قضى النظام المتبع عندنا في المدارس الابتدائية ان ملبس الولد الملابس الافرنجية فهو منذ صغره يلبس لباساً مخالفاً تمام المخالفة للباس والديه فيثبت في ذهن الولد ، بل وفي ذهن والديه ، انه صار من طبقة غير طبقتهم ، فهو من الحكام ، وأهله من المحكومين ، فلا يصح له منذ تلك الساعة ان يعمل عملهم ولا ان يساعدهم في مهنتهم فهو لن يكون نجاراً ولا براداً ولا طاهياً بل ولا يصح له ان يكون ناظر زراعة ولا بائعاً ولا تاجراً ويجب ان يكون افنديًّا في الديوان ! هذا هو السر في تلك الازمة المريعة ، وفي ان المتعلمين من الاوربيين يقبلون تلك المهن ويباشرونها بأنفسهم وقد يتدرجون فيها الى ان يكونوا اصحاب ثروة وجاه عريض. أما نحن فلا نتولاها ولا نصل فيها الى درجة ما ذلك انهم لا يأنفون العمل مهما كان نوعه بل يحبونهُ ويحترمونه ويباهون به . اما نحن فنراه مرتبة اقل من مرتبة المتعلم

ولقد شعر بعض رجال التعليم بهذا الضرر في المدارس الابتدائية وتلافوا جانباً منه في الكتاتيب ولكن تصرفهم ظل ناقصاً فلم يقضِ على ذلك الشعور في نفس الطفل فظل ولد الكتّاب مخالفاً لأبويه

وانف من المزرعة التي يعمل فيها والده عاري القدمين معرضاً للطين والتراب يلوث ملابسه وجسمه

اما علاج تلك الحالة فهو ان يكون المكتب صورة لحياة الولد المنزلية بحيث لا تخرجه عن حالة الوسط الذي يؤهل للعمل فيه وبهذا العلاج تمنع الفوضى الفكرية التي تلازم الآن كل من دخل المكتب . اما في المدرسة فيجب ان يلبس الصبية لباساً بسيطاً متيناً . ومن الغريب ان مدارس البنات حتى ارقاها من المدارس المصرية والاوروبية هنا تنحو هذا النحو فتلبس البنات جميعهن مراويل من نوع واحد مصنوعة من قماش قليل الثمن . اما الاولاد فيلبسون اربطة الرقبة الحريرية والاقمصة الغالية الدقيقة الصنع والاحذية الرشيقة القد . فما هذا ايها السادة ! وكيف ننتظر لهذا الولد ان ينشأ رجلاً قوياً يشتغل بساعديه ولا يبالي بمجهود الرجال الجثماني

نشئوا الاولاد تلك النشأة وسترون منهم رجالاً يحبون العمل وينهضون به ويفاخرون بنجاحهم فيه فيكونون ملوك الصناعة والزراعة والتجارة كما هو الحال في اوروبا وامريكا . أما تلك المعيشة الناعمة فليست من شأن الرجال الناهضين

جربوا هذا وقدروا تأثيره الادبي والنفسي في الاطفال وذويهم ثم قدروا ما يدره من الخير على تلك الطبقة المتوسطة من الامة التي رزقت من الصفات الخلقية ومن حب العمل والاجتهاد والمثابرة ما نغتبط له اشد الاغتباط بما يقلل من تكاليف اولادهم ما يجعلهم يستطيعون الاقتصاد في معيشتهم لان تربية اولادهم تصبح في متناول ايديهم فينشئونهم نشأة صالحة تزول معها اسباب كثيرة من الخلاف الذي يترتب على كون الآباء غير قادرين على اجابة اطماع اولادهم في الملبس والمعيشة لان المناظرة فيها ستزول لارتداء الاولاد جميعاً رداء واحداً

***

هذه ناحية من نواحي الضعف في المدرسة وهناك ناحية اخرى ترتبط بها اذ اننا كما نسمع الشكوى عالية من اصحاب الشهادات كذلك نسمع الشكوى عالية من جانب الجامعة ورجال التعليم العالي من ان مستوى الثقافة في الشهادة الثانوية اقل مما يؤهل للدراسات العالية ولذلك طالب الكثيرون بقصر من يدخلون المدارس العالية على عدد محدد او نسبة مخصوصة من النجاح في الشهادة الثانوية

ونحن من جهة أخرى نسمع صيحة داوية لآباء الشبان الحائزين للشهادة الثانوية الذين لم يقبلوا في المدارس العالية قائلين لنا ماذا نعمل بأبنائنا وقد وصلوا الى درجة من العلم هي باقراركم كافية لتدرجهم في التعليم العالي

وبين هذين الرأيين نرى وزارة المعارف تتذبذب في تطبيق المبادىء فهي طوراً مع الفريق الاول وطوراً مع الفريق الثاني فاذا ما اتبعت الرأي الاول كثر عدد العاطلين واذا ما اتبعت الرأي الثاني انحط مستوى التعليم ونال الشهادات العالية من ليسوا اهلاً لتولي الاعمال التي يجب ان يؤهل لها ذلك النوع من التعليم . فاذا لم يجدوا عملاً صرخوا هم بدورهم صرخة طلاب البكالوريا الذين لم

يجدوا محلاً في المدرسة وبذلك تكون الازمة انتقلت من حائزي الشهادة الثانوية الى طلاب الشهادات العالية او حائزيها

ولو انا واجهنا الامور على حقيقتها لكان علاجها ميسوراً . ذلك اننا نرى ان المدارس العالية تشترط نسبة النجاح هي ٦٠ في المائة بينما يمرُّ الطالب في الشهادة الثانوية اذا حاز الامتحان بنسبة اربعين في المائة والبون شاسع بين الدرجتين في التحصيل . ومن الواجب ان يكون الطالب في الشهادة الثانوية مؤهلاً حقيقة للدراسة العالية وان تكون مقدرته على التحصيل قريبة من الدرجة المطلوبة للدراسة العالية وبذلك يزول الابهام الموجود في النظام الحاضر ويرى الآباء والابناء ميزاناً صحيحاً يمكن ان يقيسوا به استعداد الابناء ويكون الحاصلون على الشهادة الثانوية قادرين على الاستمرار في الدراسة العالية ويحق لهم حينذاك ان يطالبوا وزارة المعارف بأن تعمل على ايجاد الامكنة الكافية لجميع المتعلمين الذين وصلوا الى درجة معينة لمتابعة دراستهم العالية . وسينتهي الخطر الحاضر لان العدد سيقتصر بمجرد تطبيق هـذا النظام على من يكونون صالحين حقـا لتلقي التعليم العالي والذين تؤهلهم كفاءاتهم للاعمال المنتجة بعد ذلك

وهذا الذي أريده في المدرسة العالية هو نفسه الذي يرشدني الى الحل الصحيح في بعض مشكلة الدراسة الثانوية فشهادة الكفاءة أو شهادة الدراسة الثانوية قسم اول يجب أن يكون على درجتين احداها يعد للدراسة الثانوية فالعالية وبالتالي تعد لمستوى الثقافة والتعليم النظري والعملي العالي والاخرى تعد للمدارس الصناعية والزراعية والتجارية المتوسطة

أما الشهادة الابتدائية فلعمري لست أدري ما هو المسوّغ لبقائها سوى تحميل الوزارة والمدرسين والممتحنين عبئها وتضييعهم الوقت على غير جدوى لاجراء امتحاناتها

وهذا فضلاً عما هو ثابت في أذهان الناس جميعاً من أن الشهادة تؤهل صاحبها لعمل وتعطيه حقـا على الدولة والمجتمع فمن حاز شهادة رأى لنفسه هذا الحق وتركز في ذهنه المطالبة بمستوى معين من الوظائف والاعمال فما الداعي لابقاء تلك الحالة سوى مساعدة العوامل التي تتعاون على اشتداد الازمة وخلق طبقة غير القانعين في البلاد

لذلك نرى علاجاً لتلك الحالة ان تكون المرحلة الاولى هي شهادة الكفاءة

على أن يجعل الناجحون فيها فريقين : الفريق الممتاز الذي يكون برهن على استعداد لمتابعة الدراسة الثانوية فالعالية . والفريق الاقل استعداداً الذي يصلح لمتابعة دراسته في المدارس الصناعية والزراعية وغيرها واذا نحن جعلنا الوسط المعاشي في المدارس الابتدائية الى الكفاءة على ما قدمنا فان الاولاد لا ينفرون عند ذلك من مزاولة مهن آبائهم وأهليهم وبذلك نساعد على ايجاد طبقة نالت حظـا من التعليم تعمل بنشاط على رقي البلاد الصناعي والزراعي ونتلافى ازمة من اشد الازمات التي تهددنا في مستقبلنا ونغرس في نفوس الامة وشبيبتها ان العلم وحده عصب الحياة ومفخرتها

التربية ولغة الاطفال

لزكي المهندس استاذ التربية بدار العلوم

[اخرج احمد عطية الله المؤلف المعروف بالتعاون مع مطبعة عيسى البابي الحلبي مكتبة للاطفال تحتوي على ٢٥ كتاباً متباينة الحجم والشكل والموضوع . وجعل احدها توطئة بعنوان « الطفل الحديث » ضم فصولا نفيسة لطائفة من اعلام التربية في مصر ، فنقلنا منها هذا الفصل لما احتوى عليه من المبادىء العملية في تربية الاطفال]

قد يخيل الى كثير من الناس ان التحدث الى الاطفال امر سهل المنال ولكنهم في الحقيقة واهمون ، فان قليلا منا هم الذين يوفقون الى استمالة الاطفال حين يتحدثون اليهم . ولقد يستطيع كثير من الناس أن يسوقوا المعاني الى نفوس الاطفال كرهاً ، ويدفعوها الى اذهانهم غصباً ولكن المربين — آباء او معلمين — لا يستطيعون ان يفخروا بهذا النوع من الاساليب، لانهم يعلمون ان للاطفال لغة خاصة بهم ، واسلوباً يكاد يكون مقصوراً عليهم ، وليس من السهل على كثير من الناس ان يعرفوا هذه اللغة او يحذقوا هذا الاسلوب

هذا هو السبب في ان كثيراً من الآباء يعجزون عن افهام اطفالهم كل ما يريدون ، وهذا هو السبب كذلك في ان كثيراً من المعلمين يخفقون في ايصال الحقائق الى اذهان الاطفال وهم لا يشعرون

ومثل هذا يقال عن تلك الكتب التي توضع للاطفال . فقد رأينا المطابع المصرية في السنوات الاخيرة تخرج مئات الكتب ، التي يفرض مؤلفوها أنها تعين الاطفال على فهم دروسهم بأسلوب شائق ممتع ، ولكن نظرة واحدة في هذه الكتب خليقة ان تبين لك ان عدداً كبيراً منها يقصر دون هذه الغاية ، لا لخطإ في مادة الكتاب ، ولا لعيب في طبعه ، ولا لخفاء في صوره ، بل لان المؤلف لم يوفق الى اختيار لغة تلائم الاطفال ، أو اسلوب يشوقهم ويستهويهم

والواقع ان التحدث او الكتابة للاطفال فن لا يحذقه الا قليل من الناس ، وهو ككل فن يقتضي علماً واسعاً ودربة مستمرة . واذا كان استهواء الكبار بالحديث او الكتابة في معظم الاحيان عسراً شاقاً فاستمالة الاحداث قد تكون أشق وأصعب لانها تتطلب دراية واسعة بطبائع الطفولة ونزعاتها وأسلوب تصورها كما تتطلب معاناة طويلة وتجارب واسعة ومراناً متوالياً ، ومن اجل ذلك ترى ان هؤلاء الذين يعجزون عن التأثير في الاطفال في احاديثهم ومؤلفاتهم انما يخفقون لانهم لا يفهمون لغة الاطفال ، ولا يحذقون الاساليب التي تلائم نفوسهم وتستهوي أفئدتهم . ومن الخطإ ان يعمد المحدث او المؤلف الى لغة الكبار فيختصرها وينقص من اطرافها ويغير من

ألفاظها وعباراتها ثم يلقيها بعد ذلك الى الاطفال واهماً بأنها اصبحت ملائمة لهم قريبة المنال من مداركهم ، فقد علمت ان للاطفال لغتهم واسلوبهم وان الطفل ليس رجلاً صغيراً ولا الرجل طفلاً كبيراً ؛ فلكل عالمه وعقليته واسلوبه ولغته ، فالتفاوت بينهما في النوع لا في الدرجة

ولقد أبان العلم ودلت التجارب على ان لغة الطفل وثيقة الارتباط بحياته العقلية وانها تنمو — كما ينمو عقله وجسمه — على التدريج ، خاضعة في هذا النمو لقوانين نفسية ثابتة ، ممثلة في نموها مراحل التطور التي سلكتها لغة الانسانية من بدء الخليقة الى الآن . ولسنا هنا في مقام يسمح لنا ببيان تلك القوانين النفسية التي تسيطر على لغة الاطفال ولكن يكفي هنا أن نبين لك في ايجاز أظهر الصفات والخصائص التي تمتاز بها هذه اللغة وأهم القواعد التي يجب أن نراعى في أسلوب التحدث اليهم أو الكتابة لهم

﴿مميزات لغة الاطفال﴾ تمتاز لغة الاطفال فيما بين الخامسة والعاشرة تقريباً بمميزات أظهرها ما يلي :

(١) ضيق نطاق هذه اللغة ، فنطاق الاطفال اللغوي لا يكاد يتجاوز عشرات من الالفاظ العبارات ولكن الذي يسترعى الانتباه في هذا المحصول اللغوي ، هو الكثرة المطلقة للأسماء دون الافعال والحروف والواقع أن أسماء الذوات تكوّن الشطر الأول من مادتهم اللغوية ، أما الأفعال فنطاقها محدود جداً لا تكاد تتجاوز تلك التي يستعملها الطفل في حاجته الطبيعية الاولية من مثل أكل وشرب ونام وجلس ، ولا تكاد الحروف التي يستعملها الاطفال تتجاوز من الى على ثم واو العطف

(٢) يبدأ الطفل بعد ذلك يشوقه العمل والحدث فيأخذ في معرفة الافعال ؛ وينهض من هذا المستوى الطبيعي الى مستوى أرق ، فهو يلعب ويتعلم من طريق اللعب الانكسار والالتواء والضغط والوثب والعضّ ، وما الى ذلك من أنواع الحدث التي تعرض لهُ في ألعابه ويدرك أثرها ، ومن ثم يأخذ في استعمال هذه الافعال التي يزداد بها قاموسه اللغوي

(٣) يكوّن الاطفال مما عرفوه من الاسماء والافعال جملاً يتحدثون بها الى رفاقهم وآبائهم ، ولكن هذه الجمل في مجموعها قصيرة المدى مستقل بعضها عن بعض ، وجلها جمل اسمية لان الاسماء وبخاصة أسماء الذوات تشوق الاطفال وتستهويهم . ومما يلاحظ أن حديث الاطفال لا يكاد يجاوز المحسوسات فليس لاسماء المعاني مثل « واجب وفضيلة وصدق وأمانة » مكان في محصولهم اللغوي حتى انهم لا يستطيعون ان يفهموا في الدور الاخير من طفولتهم هذه المعاني الا بتجريدها من المعاني والباسها ثوباً محسوساً يحس ويلمس ، فهم يفهمون من الفضيلة رجلاً فاضلاً ومن الصدق تلميذاً يقول الحق

(٤) فلا اسماء المعاني ولا الالفاظ الكلية تشوق الاطفال وتستهويهم الا في نحو السنة الثالثة عشرة من أعمارهم ، حينئذٍ تعينهم تجاربهم في المحسوسات على عقد الموازنات والمقابلات ، واستنزاع الصفات المشتركة وتجريدها من الذوات ولادراك الصلات والعلاقات بين الاشياء ؛ ويومئذٍ ينزعون الى المعقولات والالفاظ الكلية واسماء المعاني والحروف والادوات التي وضعت للتمني والترجي والاستدراك وما اليها . هذه صورة مكملة لما تكون عليه لغة الأطفال . أما القواعد التي يجب

مراعاتها عند التحدث اليهم أو الكتابة لهم فيمكن ادماجها فيما يلي :

(١) مراعاة ما قدمناه لك من الخصائص والصفات ، بحيث يكون كل اسم مقروناً بمسماه أو على الاقل بصورة تمثل مدلوله ، وأن يكون كل حدث أو فعل مصحوباً بتصوير معناه . هذا واجب في جميع أدوار الطفولة ، وهو في الدور الاول منها أوجب . اما الجمل فيجب أن تكون قصيرة تعبر كل منها عن معنى مستقل بالفهم . فاذا كنت بصدد التعبير عن معنى طويل وجب أن تقسم هـذا المعنى الكلي الى معان جزئية وتعبر عن كل معنى بجملة قصيرة في مبناها محدودة في معناها

(٢) اختيار الالفاظ الشفافة التي تنم على معانيها في وضوح وجلاء ، معتمداً في ذلك على المعاني الحقيقية الوضعية للألفاظ والعبارات ، فان الطفل لا يستطيع أن يدرك المعاني والعبارات الملتوية المملوءة بالمجازات والاستعارات والكنايات او ما اليها من المحسنات اللغوية ، وقد يضطر المحدث او المؤلف احياناً الى عقد التشبيهات لايضاح المعاني ، ولكن شرط ذلك ان يكون المشبه به واضحاً جليًّا في أذهان النشء ، وان يكون وجه الشبه مما تستطيع عقولهم ادراكه

(٣) مراعاة الوضوح التام في الحديث او الكتابة ، وفي هذا تتفاوت اقدار المعلمين والمؤلفين فكثير من هؤلاء لا يستطيعون ان ينزلوا الى مستوى الطفل ويدرجوا معهُ في اخيلتهِ واسلوب تصوره فتجيء عباراتهم نابية عن ذوقهِ متنافرة مع طبعهِ ، ومن ثمَّ وجب ان يتبسط في وضع الحقائق او ألقائها تبسطاً تامًّا ، بحيث تستطيع ان تجد سبيلها الى ذهنه في غير عنت او اكراه ، وقد يقتضي هذا بعض التكرار والاعادة للمعنى الواحد ، ولكن في أثواب مختلفة ، وصور شتى وقد يكون هذا واجباً اذا استعملت ألفاظاً أو عبارات لا عهد للاطفال بها

(٤) مراعاة التأثير والروعة في نفوس الاطفال ، وبخاصة اذا كان موضوع الحديث أو الكتابة قصصاً ، فالمحدّث أو المؤلف فنان ، وهو بهذه الصفة يجب أن يعطي الفن حقه من التأثير في نفس السامع أو القارىء . والاَّ كانت عباراته ميتة لا حياة فيها ؛ وليس كل الناس يستطيعون أن يكونوا فنانين . ولكن هناك بعض أفراد وهبوا خصوبة في الخيال ولباقة في أسلوب الوضع ومرونة في التعبير ، بحيث يستطيعون أن يبلغوا من نفوس السامعين أو القارئين ما لم يطمح فيهِ العلماء والباحثون . وقد رأينا بيننا من مهرة المعلمين من يستطيع أن يجعل من أشد المعاني تجرداً صوراً محسوسة ملموسة اذا تحدث أو كتب

(٥) وغني عن القول أن محدّث الاطفال يجب أن يكون «ممثلاً» حاذقاً فصوته ونغمته ونبراتهُ وتشخيصه للمعاني وحسن ادائه للعبارات ، كل هذا مضافاً الى حسن بيانه ، مما يؤثر في نفوس الاحداث تأثيراً كبيراً . هذا مجمل ما يجب على المحدّث او المؤلف مراعاته ، سردناه لك في ايجاز من غير ان نعرض للاصول النفسية العلمية التي يستند اليها . وحسبك منها ان ترى ان التحدث او الكتابة للاطفال ليس من الهنات الهينات ، كما يخيل الى كثير من الناس



إرشاد لغوى

في كل جزء كلمة

للأستاذ عبد الرحيم بن محمود

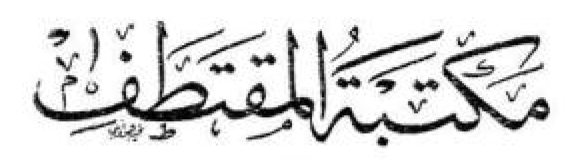
« الساعُور »

كانت الأقطار العربية ، فى عهد الدولة العثمانية ، تستعمل « حكيم باشى » للطبيب الاول اى رأس الاطباء فى كل فرع من الطب . وبين ايدينا كتب الاطباء المصريين التى ألفت فى هذا العهد وعليها أسماؤهم مصحوبة بألقابهم التركية مثل «رشدي بك حكيمباشي محافظة مصر »

والحكيم عند الترك معناه الطبيب و« باشى» معناهُ رأس او رئيس او مقدّم . ولهم استعمال آخر بهذا المعنى وهو أكثر تداولاً في تركيا من الاول . وهو « سر طبيب » وقد شاع في فجر العهد الجمهورى التركى . ولكن الترك فى هذا العام لا يبقون على طبيب لانهُ عربى صميم . حتى إنهم غيروا أعلامهم العربية التي اشتهرت أكثر من نظائرها الأعلام مثل مصطفى كمال فسمي «أتاتورك»

واذا قيل فلان هو الطبيب الاول فى الجراحة فى مستشفى كذا كان هذا خيراً من اللفظ التركى السابق . وخيرٌ منهما استعمال كلمة واحدة عربية صميم بهذا المعنى وهى (الساعور) . وقد أطلعنى عليها فى محيط المحيط للبستانى ، صديقى محمد عبد الحميد بك مدير مستشفى الملك وساعور جراحيه ومعناها فى هذا الملغى (اى محيط المحيط) مقدّم النصارى فى معرفة الطب . وقد ظهر لى أن البستانى « أحسن الله إليه » نقل هذا المعنى فى محيطهِ من القاموس المحيط للفيروزبادى ، وهو من معانى الساعور . ولا يضيرنا تخصيص المقدم فى الطب بكونهِ نصرانيًّا ، فان العباسيين أخذوا الطب عن أساتذتهم الاطباء فى فجر حضارتهم وكانوا من نصارى اليونان ، كما لا يخفى على القراء . فوضعوا هذا النص اللغوىّ فى ملاغيهم (كتب اللغة) . ثم نقله صاحب القاموس المحيط وعنه أخذ صاحب محيط المحيط

وباذاعة هذا اللفظ كتابةً ونطقاً تذهب وحشته ويصير مألوفاً كما ألِفنا غيره . ولو ألفينا لفظاً سواه فى الملاغى لدفنّاه ولم نتقدم إلى أبناء العرب والمستعربين باحيائهِ والسلام



انقاذ السودان

The Winning of the Sudan by Pierre Crabitées Routledge, London 12/6—

هذا الكتاب هو ثالث ثلاثة كتبها القاضي كرابيتس في نواح تاريخية من شؤون مصر والسودان . اما الاول فكان كتابه «عن غوردن ومكافحة الرقيق الابيض» وقد انتهى فيه عند مصرع غوردن في الخرطوم واما الثاني فكتابه عن « اسماعيل الخديوي المفترى عليه » وقد رد فيه على بعض ما عزي الى الخديوي اسماعيل رداً قائماً على تحليل الوقائع والموازنة بين اقوال المؤرخين

وهذا هو كتابه الثالث يتتبع فيه المساعي التي بذلت لاسترداد السودان وسير احواله من سنة ١٨٩٩ الى يومنا هذا

ويلوح لنا ان التنقيب التاريخي الذي نقبه القاضي كرابيتس تمهيداً لتأليف كتابيه الاولين ، مكنه من حقائق الموضوع ، فبرز لنا في كتابه الثالث كاتباً ألمعيًّا ومؤرخاً محققاً في وقت واحد . فقد كانت المادة التاريخية في « غوردن » و « اسماعيل » متسلطة على اسلوب الكاتب فاذا اسلوب الكاتب في « انقاذ السودان » متسلط على مادته التاريخية يتصرف فيها تصريف الخزاف البارع بصلصاله . فاذا شرعت في قراءة الكتاب استهواك موضوعه وطريقة معالجته، فتمضي في قراءته كأنك تطالع قصة فاتنة مع انك لا تخرج في كل صفحة من صفحاته ، عن اسناد الى ثقة من المؤرخين، او رجال السياسة، في ما نشروه من كتب او بعثوا به من التقارير الى وزارة الخارجية البريطانية

والغريب في امر هذا الكتاب ، ان المؤلف وهو قاض مدقق قد نفذ الى الناحيتين السياسية

والعسكرية من تاريخ السودان الحديث تفوق فهم وادراك . تطالع في كتابه اخبار الوقائع العسكرية وتفصيلاتها الحربية ، فلا تنبو بك الارقام الجافة عن الاورط والسفن وانباء الكر والفر . لان القاضي كرابيتس ادرك الناحية الانسانية في كل هذا . فتراه اذ يكون في سبيل وصف معركة او الاستعداد لمعركة ، يطالعك بصور قلمية ، لشخصيات بارزة من الانكليز او المصريين او السودانيين ، وفي هذه الصور القلمية على الاخص، يتجلى لك ما سبق ان اشرنا اليهِ ، وهو ان اسلوب الكاتب سيطر في هذا الكتاب على مادة المؤرخ فاندمجا اندماجاً يملك اعجاب المطالع

***

ليس في فصول الكتاب الاولى مكتشفات تاريخية ، ولكن فيها اتزان في عرض حوادث التاريخ يجعل الكتاب في هذه الناحية مرجعاً يصح الاعتماد عليه . فالتراجع من قلب السودان بعد مصرع غوردن واستفحال امر المهدي واشتداد انصاره في شمال السودان وشرقه ، واعداد العدة لانقاذ السودان كل ذلك مبسوط بسطاً وافياً ، مخدوم خدمة تاريخية صحيحة . مؤيد بشواهد لا تنفد من أقوال الكتاب والتقارير الرسمية ، مما يشهد للمؤلف بسعة الاطلاع وحصافة الرأي ورجاحة الحكم

وانك لتعجب وانت تطالع هذه الفصول لمقام الاقدار في احوال الامم . فكتشنر الذي كان ابرز شخصية في استرداد السودان بعد كرومر ، انما اتصل اتفاقاً بالقائمين من الانكليز على شؤون مصر. فقد كان ضابطاً في القسم الهندسي في الجيش البريطاني وعهد اليهِ في الاشراف على مسح جزيرة قبرص فلما نشبت ثورة عرابي طلب اجازة مرضية وأتى مصر وكانت اجازته المرضية لا تتعدى اسبوعاً ولكن يظهر ان الضابط المهندس عجز اتفاقاً (!) عن اللحاق بالسفينة التي كان عليه ان يعود بها الى قبرص . ويظهر انهُ في خلال اقامته بالاسكندرية اتصل باحد ضباط « الاستخبارات العسكرية » فلما تأخر عن عودته الى قبرص ابرق اميرال الاسطول البريطاني الى حاكم قبرص يطلب تمديد اجازة كتشنر فرفض هذا طلب الاميرال مصراً على وجوب احترام النظام . والخلاصة ان كتشنر عاد الى قبرص . ثم جاء طلب من الجنرال ولزلي في مصر الى حاكم الجزيرة بان يسمح لهُ بكتشنر وكذلك كان

ومن محاسن الصدف ان كتشنر كان مهندساً . فان الحملة التي جردت لاسترداد السودان كانت محتاج الى عمل مهندس تنظم لها جميع وسائل التقدم ويكفل لها اسباب الشرب والغذاء والوقاية من الامراض وقد كان كتشنر بطبيعة نشأته اقدر من يقوم بهذا العمل فأصابت الحملة النجاح التام

***

ومن الفصول التي تستوقف النظر في الكتاب فصل بعنوان « تمويل الحملة »

لما تقرر ايفاد الحملة لاسترداد السودان نشأت مسألة المال الذي ينتظر انفاقه في هذا السبيل . فلندن ذهبت الى ان استرداد السودان مسألة مصرية بحت وانه من العدل ان تنهض الخزانة المصرية

بالنفقات المطلوبة وان ذلك في وسعها . ولكن يظهر ان لندن لم تلق بالها حينئذ الى ان مفتاح الخزانة المصرية ، كان في ايدي لجنة دولية هي لجنة صندوق الدين

هنا نشأ صراع بين لورد كرومر وطائفة من أعضاء صندق الدين على مسألة استعمال جانب من مال الحكومة المصرية في تمويل حملة السودان . ذلك انه بعد ما قر القرار على «حملة دنقلة» طُلب من صندوق الدين ان يمنح ٥٠٠ الف جنيه من الاحتياطي العام لهذا الغرض فأقرّ الصندوق ذلك باتفاق اربعة اصوات على صوتين وكان المعارضان مندوبي فرنسا وروسيا ، فأقاما قضية في محكمة القاهرة المختلطة . ثم تلي صفحات حافلة بحسن الاستشهاد ودقة التحليل يرد فيها القاضي كرابيتس على ما عزاه لورد كرومر في كتابه الى قضاة المحكمة المختلطة من عجزهم عن التجرد من «تأثير الكهربائية السياسية التي حفل بها جو مصر حينئذٍ» وعلى قول المستر تشرشل في كتابه «حرب النهر» اذ قال ان المحاكم المختلطة اصدرت حكمها على اساس الاعتبارات السياسية . والحق يقال ان القاضي كرابيتس يخرج من اصطدامه بكرومر وتشرشل في هذا الصدد والحق في جانبه

***

أما تفصيلات تقدم الحملة الى ان بلغت غرضها فتأخذ بلب القارىء لانها تاريخ ينطوي على مغامرات ، كأنها منتزعة من كتب الابطال القدماء . وتليها حكاية فشودا والتقاء كتشنر بمارشان الفرنسي ، وكيف ان النظرية البريطانية فازت على النظرية الفرنسية بحجة ان فشودا داخلة في حكم الخديوي اصلاً وان انتزاعها منه موقتاً بقيام الحركة المهدية لا يعني انها اصبحت ارضاً مشاعاً لا ملك لها ، واذاً فاعادة احتلالها انما هي من قبيل اعادة الملك الى مالكه . وفي صدد هذه الحادثة يجد القارىء تفصيلات المفاوضات السياسية بين دلكاسه ولورد سلسبري وهي من الذ ما يطلبه المطالع عما يحدث وراء ستار في الشؤون الدولية

ويلي ذلك تفصيل الاتفاق على حكم السودان حكماً ثنائيًّا باسم سمو خديوي مصر ، وتحول ذلك بعد مصرع السردار سنة ١٩٢٤ وتفصيل السعي لوضع اتفاق خاص بمياه النيل ومواد ذلك الاتفاق من ناحيتيها النظرية والعملية ورأي الخبراء فيها . وقد بسط المؤلف بعد ذلك وجهة نظر مصر في مسألة السودان بسطاً شافياً وكذلك وجهة نظر بريطانيا

وفي آخر الكتاب ثلاثة فصول بيَّن فيها ان اهم ما يهم متمولي الانكليز في السودان زراعة القطن فيها ، وان هذه الزراعة غير ناجحة ، وان العامل الفاصل في مستقبل السودان ، من ناحية بريطانيا هو مستقبل مشروع الجزيرة . فهل يستحق هذا المشروع كل هذا العناء ؟ هل هو جدير بتأخير الاتفاق مع مصر على حسابه ؟ ويختم القاضي كرابيتس كتابه بعبارة من غوردن مؤداها ان السودان لن يكون من الوجهة العملية البريطانية عملاً رابحاً

كتاب البلهارسيا

تأليف الدكتور رمسيس جرجس

Schistosmiasis (Bilharziasis) by Dr. Rameses Girges

John Bale, Sons & Danielsson Ltd. London. 25/—

منذ أمد بعيد وأنا مشتاق توّاق الى قراءة هذا المؤلف النفيس . ذلك لأني عرفت عن هذا المجهود من سبع سنوات مضت حظيت فيها بمعرفة زميلي الدكتور رمسيس وشاهدت بعيني وراقبت بنفسي في خلال هذه المدة مبلغ ما تطلبه منهُ هذا الكتاب من مجهود الجبابرة في البحث الطويل المرهق وجمع النماذج المرضية وتحضير الشرائح الباثولجية وتطبيق هذه المعلومات على أدوار المرض الاكلينيكية والدرس الطويل لتاريخ حياة الطفيلية ورسمها برسوم متقنة ومن نماذج جميعها أصلية ، وما بذله من بحث للطرق المعملية التي سهلت عليهِ ما اكتشفهُ من نوعي البلهارسيا المنسونية وايجاد سبب لتضخم الطحال المصري وغير ذلك من الاكتشافات التي لم يضارعه فيها أحد من الباحثين السابقين في أمراض الطفيليات . . .

حصلت على هذا الكتاب فلم أدعه من يدي حتى أتيت على آخره وما انتهيت منهُ حتى زدت اعجاباً بمجهودات المؤلف الكبيرة التي أثبتت للعالم الطبي مبلغ نبوغ هذا الزميل الكريم وعبقريتهِ

ولا يمكنني في هذه العجالة وصف كل ما أعجبني من هذا الكتاب . . . ولهذا سأجعل كلمتي قاصرة على مجمل الموضوعات التي كان للدكتور رمسيس فيها الفضل الاول في البحث أو الاكتشاف واليك ملخصها : —

١ — كان المؤلف أول من جمع شتات موضوع البلهارسيا وجعلها في مجلد واحد يستطيع الباحث الرجوع اليهِ في وقت قصير

٢ — وهو أول من قسم المرض الى ادوار محددة تنطبق على التقسيم الباثولجي والاكلينيكي

٣ — بعد درس طويل وبحث مستفيض عن التولد المرضي للبلهارسيا والعوامل المرضية لها كان المؤلف أول من قال بوجود مناعة عند المرضى ضد عدوى جديدة . . .

٤ — وفي الباب الاول من الكتاب نجد تاريخاً ممتعاً عن أدوار البحث العلمي بيَّن فيهِ الكثير من المفاجئات وبهِ آراء جديدة للمؤلف عما يجب على الباحث اتباعه احتفاظاً بمكانته العلمية في الحال والمستقبل . . .

٥ — وفي الباب الثاني وصف دقيق للطفيلية والبويضة والسركاريا ولا يوجد في هذا الوصف من جديد غير أن جميع الرسوم التي عملها لتوضيح هذا الوصف أصلية ومن نماذج أصلية عملها هو بنفسه . . . .

٦ — وفي الباب الثالث الوفود (Epidemology) وهو موضوع كلهُ جديد في ما كتب عن البلهارسيا وبحث شامل لها

٧ — وفي الباب الرابع طرق معملية مستحدثة فيها كثير من الطرق الجديدة التي أدخلها المؤلف لدراسة هذه الطفيليات

٨ — وفي الباب الخامس بحث نفيس في البلهارسيا الدموية اضاف اليهِ كثيراً من المعلومات عن الباثولجيا والتولد المرضي كما أثبت فيهِ أنهُ ليس لشوكة البويضة أي عمل في سيرها في النُسُج إذ هو يتوقف كلَّ التوقف على العمل الهضمي للجنين . وفي هذا الباب عن البلهارسيا الدموية فسر المؤلف كثيراً مما كان غامضاً عن العوارض الاكلينيكية كعلاقة المغص الكلوي بالبلهارسيا ووجود اعراض معوية تشبه البلهارسيا المنسونية . وفيهِ قسم عن الانذار كلهُ آراء جديدة للمؤلف

٩ — والباب السادس عن البلهارسيا المنسونية وهذا الباب هو الذي خصَّه الدكتور رمسيس بأعظم جانب من العناية وبذل في درسه مجهودات عنيفة استغرقت زمناً طويلاً . وكان من نتائج ابحاثهِ الطويلة انهُ اول من فرَّق بين فرعي البلهارسيا المنسونية : المعوي والحشوي . أما المعوي وفيهِ تصاب الامعاء وحدها او مع الكبد والطحال قليلاً فذكر أنها تنتج عن عدوى الديدان الذكور والاناث بمدد متساوٍ تقريباً بعكس النوع الحشوي الذي فيهِ يزيد عدد الذكور عن عدد الاناث زيادة كبيرة . ولقد قسم سير المرض في هذا القسم المعوي الى أدوار اربعة محدودة وكان وصفه للوجهة الاكلينيكية أحسن ما كتبهُ في هذا الموضوع واكثرها تفصيلاً . كذلك كان قسم الانذار مشفوعاً بآرائهِ الجديدة

١٠ — الباب السابع وهو عن « تضخم الطحال المعوي » أو « النوع الحشوي من البلهارسيا المنسونية » وهو الباب الفذ في الكتاب كله والخطوة الجريئة والبحث المستفيض التي عالجهُ الدكتور رمسيس وقد توصل بعد فحص اكثر من ثلاثين كبداً ومائة طحال فحصاً باثولجيًّا وهستولجيًّا الى أن سبب تضخم الطحال المعوي هو وجود عدد زائد من ذكور ديدان البلهارسيا عن عدد الاناث او وجود الذكور وحدها (كما تبين لهُ ذلك في ٣٠ ٪ من الحالات) . ويعلل الدكتور رمسيس سبب خفاء علة هذا المرض على من سبقهُ من الباحثين الى نقص عدد الاناث أو غيابها من المريض أو بمعنى آخر صغر عدد البويضات أو غيابها . . . والباحثون لم يتصوروا وجود بلهارسيا بدون بويضات .. وعندما نشر الدكتور رمسيس رأيه هذا لاول مرة منذ ثماني سنوات تقريباً وجد له معارضين كثيرين غير ان احداً منهم لم ينشر للآن أثباتات عملية تناقض رأيه. ولقد جاهر الدكتور رمسيس غير مرة بانهُ على استعداد لسماع اقوال المعارضة اذ يقول . . « اني اول من يمدُّ يدي لمن يثبت لي خطأ رأيي واعتقد ان العلم ليس ملكاً لفرد بل مشاع للجميع وخير لي الرجوع الى الصواب من التمادي في الباطل ... » . وهذا القول يدلنا على مبلغ ثقة المؤلف بنظريته وتمكّن الروح العلمية من نفسه التي تبحث عن الحقيقة والحقيقة وحدها ... غير انني اعتقد ان هذه النظرية لا تزال في حاجة الى مواصلة الدرس والبحث وفحص الكثير من عينات باثولجية وهستولجية

أخرى حتى اذا ما ثبت ان خمس هذه المئات من النماذج الاخرى يؤيد النتائج الاولى زال كل مجال للشك يحوم حول هذه النظرية . . ولا اخال المؤلف الا فاعلاً ومواصلاً درسه وجهوده

١١ — الباب الثامن عن البلهارسيا اليابانية : ولقد درس المؤلف هذا الباب درساً عميقاً وكان اول من قسم المرض الى معوي وحشوي ايضاً بانياً هذا التقسيم على مشابهته للبلهارسيا المنسونية وقد عرض هذا الفصل قبل طبعهِ على الاستاذ الدكتور فوست Faust استاذ علم الطفيليات بجامعة (تولين) واعظم ثقة في هذا الموضوع فكان هذا رده على المؤلف : « لقد كان دهشي عظيماً لما اظهرته من درس عميق مستفيض في هذا الباب كما اني معجب كل الاعجاب بما توصلت اليهِ من معلومات دقيقة عن هذا المرض مبنية على ابحاثك القيمة على البلهارسيا المنسونية ... »

١٢— الباب التاسع : وهو العلاج النوعي وتأثير الانتمون في الجسم وفيهِ كثير من اختبارات المؤلف الشخصية التي تخالف الآراء المألوفة وهي جديرة بالاهتمام الكلي للاسترشاد بها عند معالجة المرض

١٣ — أما الباب العاشر والاخير: فقد خصه بآرائهِ عن طرق الوقاية في مصر ويدهشك ما دوَّنهُ المؤلف من معلومات عن احوال المجاري وطرق الري المختلفة في الوجه القبلي والبحري وتأثير ذلك في انتشار مرض البلهارسيا بنوعيهِ . . ولقد ذكر المؤلف في هذا الباب ان من أهم طرق الوقاية هو تعميم المستشفيات لتكون امكنة للعلاج والتعليم والتهذيب

وبعد . فلا يسعني الا ان اردد ما جاء في المجلات الطبية الاوربية وغيرها ولاسيا مجلة اللانست اكبر المجلات واوسعها انتشاراً من عبارات التهنئة للزميل الكريم لنجاحه الموفق في معجمه النفيس الذي يُعد بحق اعظم مرجع لمرض البلهارسيا يرجع اليه الطلبة والاطباء في انحاء العالم على السواء

الدكتور ابولس بولس

بني سويف

الاطلال

مجموعة أقاصيص مصرية — تأليف محمود بك تيمور

«الاطلال» كـ «الايام» صورة لمجتمع آيل الى الفناء ومثال من حياة مصرية مألوفة لها في النفوس وقع عميق عذب كأنهُ رجع لصوت صديق بعيد نذكرهُ ويذكرنا ويسرهُ ويسرنا ان نتلاقى بين الفينة والفينة في شوق وحنان يزيدان عذوبة كلما بعد العهد بيننا وان نتخافت ما فعلت به وبنا الاحداث . و« الاطلال » عالم صغير له افراحه وأتراحه ، له بيئته وتقلباته ، قد نسقته وأبرزته يد مرنة معتدلة تحسن النحت وتميل اليهِ اكثر مما تميل الى الرسم والتلوين فهو يؤثر فيك حيناً ويعجبك حيناً آخر وهو يوقظ شعورك تارةً ويبعثك على التفكير طوراً ولكنهُ في هذا وذلك لا يدفعك ولا يصدمك لانهُ سهل وئيد منتظم تعلوهُ الحكمة ويسوي بينهُ الاعتدال حتى اذا ما أمعنت فيه شعرت بأن ذاكرتك تتوالى عليها ذكريات بعيدة واسماء قديمة فانَّ هذا التجنب لكل ما هو تغلغل في الحياة النفسية وهذا الامعان في تدقيق الوصف الخارجي يذكرك بالآداب القديمة عموماً وبنوع خاص من

هذه الآداب. وهذه الدقة في التصوير الشاملة لكل صفحات «الاطلال» تكسب شخصياته حيوية ظاهرة وتصبغهُ بواقعية ملموسة ولكنها تغلو حيناً حيث لا يستحسن الغلو وتخفق حيناً آخر حيث لا مناص لها من الاخفاق . فلقد نذكر مثلاً وفاة «حماده» ونذكر دار الحزاوي وهي تموجُ بالحركة والاضطراب اذ يطرق الحزن النفوس وتقبض هيبة الموت الافئدة فنتوقع من «سامي» مثل هذه المظاهر ان لم نتوقع ما هو أعظم منها ونراه فعلاً يندفع نحو غرفة المتوفي وينكبُّ على يده يبللها بالدموع ولكننا نشعر فجأة بأن المؤلف يحذر التمادي ويتوقف حتى في تلك الساعة الرهيبة الحرجة ليصف لنا وجه المعيشة ويحرم الموقف من أثر بليغ هو منطوٍ عليه

ولقد نذكر أيضاً تلك الصور النسوية التي تمرُّ بالقارىء وتنزل في نفسه آثاراً متباينة ولكنها صادقة لان المؤلف لم يكن وهو يذكرها ويصفها الاَّ راسماً لا غير . نذكر صورة أم خضر وفتحية ونهاني وما يحيط بهنَّ من ملابسات وظروف هي على ما أظن خاصة هذا الكتاب والصلة التي تربطه بالحقيقة التي نحياها. « فالاطلال» اذا أردنا أن ننظر اليهِ من حيث موضوعه، من حيث الفكرة التي تضمُّ أوصاله يدور حول مشكلة خطيرة هي في الواقع مشكلة هذا القرن ومرض هذا الجيل، مشكلة أعقد من المشاكل السياسية والمالية تتسرب الى كل الميادين وتظهر في ثنايا كل الأفكار وترتسم بطابعها الوخيم على وجوه شباب اليوم وعماد المستقبل أعني مشكلة العلاقة والاتصال بين نصفي المجتمع فلا يزال منا من يعتقد أن خير الوسائل للذود عن الفضائل والشرف هي وئد الفضائل والشرف نفسها ولا يزال منا من يرى أن خير وسيلة لصون عفاف النساء هي ابعادهنَّ عن صنف الرجال

سامي بطل « الاطلال » مثل من الشباب المصري الذي لا يرى عادة من النساء الاَّ من هنَّ على شاكلة أم خضر ممن حبسنَ في شبابهنَّ باسم الطهارة فوقفنَ حياتهنَّ العقلية والجسدية على ما هو عكسها تماماً، أو من هنَّ على شاكلة فتحية ممن يشعرنَ بعاطفة الحب الملازمة لسن الشباب ولكنهنَّ لا يفهمنَ ما يشعرنَ بهِ ويخشونهُ وينطلقنَ بالغريزة ، او منْ هن على شاكلة نهاني ممن زال عنهن كل طابع خاص فصرنَ ما بين اجنبيات ومصريات

ولهذه الانواع الثلاثة من النساء مكانة وانتشار متباينا الدرجات في الحياة المصرية تظهر كل الظهور فيما هي على صور ام خضر وفتحية ونهاني من كمال او نقصان في كتاب « الاطلال » فاننا نلاحظ دون شك ان الصورة التي تبقى في مخيلتنا لفتحية هي صورتها وهي طفلة صورتها بجدائلها السود في تلك الحديقة الفسيحة ولا وجود لصورة لفتحية في سن النضوج وفي حقبة الحب الحقيقي لان فتحية في هذه الحال شخصية نادرة لا توجد باستمرار في الحياة المصرية قد يصادفها الشاب المصري وقد لا يصادفها وكثيراً مالم يصادفها ومن هنا هذا النقصان الذي لا يوجد في صورة فتحية الطفلة اذ ان المؤلف بلا الطفولة وهو يذكرها ولكنك لا تتبيَّن هذا النقصان في صورة ام خضر اذ انها من نوع منتشر انتشاراً كبيراً في المجتمع المصري

بقيت صورة نهائي وهذه هي الصورة التي يحفظها كثير من الشبان لنوع بعينه من النساء المنتشر بين الطبقة المتوسطة صورة مبهمة من تلك الصور الجسدية التي تتسلط على العقول الفتية الضائقة بخشونة الحياة المحرومة من كل عطف أو حنان فهي غلاف رقيق وساق بض وصدر ممتلىء وهي صورة بهيمية تتردد على المخيلة وقد يحسها الجسد ولكنها لا تهز العواطف ولا تتراءى للعيون والذي أقصده من هذا هو أن صورة المرأة التي تحب وتحَب في «الاطلال» هي الصورة التي تستقر في مخيلة الشباب المصري صورة غير محدودة صورة جنسية لا نوعية، أعني صورة المرأة غير معينة فهي ليست بهذه المرأة أو تلك ولكنها المرأة فقط، المرأة مجردة من كل طابع خاص معنوي أو عاطفي تعرف به

هذا هو سر واقعية «الاطلال» وهذه هي الصلة التي تجمع بينه وبين الحياة التي نحياها

بقي شيء آخر لا يمكن اغفاله وهو ذلك الأثر الهادىء العميق الذي تثيره فيك احياناً ريشة المؤلف من غير تعمد او اسراف فأن هذه الصورة الاخيرة مثلاً، صورة الاب وهو يحدث ولده اليتيم عن المستقبل والحياة تترك في النفس أثراً عميقاً تشعر معهُ وكأنك خارج من الظلام الى النور ومن الركود الى الحركة الجادة النشطة بعد حقبة بلوت فيها لذة عذبة نادرة قد تعود اليها مرة اخرى «حسونة»

مدينة الاحلام

قصص ومحاضرات للدكتور ابراهيم ناجي، طبع بمطبعة التوفيق بمصر، في ١٠٥ صفحة بقطع المقتطف

للدكتور ابراهيم ناجي روح شاعرة وقلب حساس وذهن متوقد مطلع، ومن هذه العناصر تتكون شخصية الشاعر والقاص والطبيب، ومن هذه الشخصية نحس العاطفة جياشة ملتهبة في شعره وفي قصصه وفي حنوه على مرضاه. فلا عجب اذا اخرج اليوم كتابه (مدينة الاحلام) يعالج به سأم النفوس بعد ان اخرج ديوانه (وراء الغمام) فضمد به جراح القلوب، ومجلته (حكيم البيت) فداوى بطبه فيها آلام الاجسام

(مدينة الاحلام) قد تكون أقرب الى قرّاء (المقتطف) من غيرهم. فهي قصة نشرها ناجي في هذه المجلة منذ ثلاثة أعوام. وفي هذه القصة ترى صوراً من حياة ناجي مبعثرة خلال بعض مواقعها التي يتحدث فيها عن رجل آخر. وناجي يغمس قلمه في قلبه عند ما يكتب، ويستعير من عواطفه ما يسكبه على شخصياته. وترى قلم رسّام فنّان يرسم بالالفاظ صوراً جميلة فتانة للحياة الاجتماعية في هذا البلد، وتجد الى جانب ذلك تحليلاً نفسيًّا دقيقاً للشخصيات التي يستعرضها امامك

و «مدينة الاحلام» ليست هي كل الكتاب فقد جمعت صفحاته الى جانب ذلك قصصاً اخرى ألفها ناجي أو نقلها ولخصها وضمَّ اليها بعض محاضراته في الأدب والاجتماع

ولقد يذكر قرّاء هذه المجلة ايضاً من موضوعات هذا الكتاب محاضرة المؤلف عن «ولز الاديب»، وكيف استطاع ان يشرح حياة هذا الرجل ومميزات أدبه واهتمامه بالفرد والعالم، ثم انتقاله الى قصصه، وعرضه بلباقة ملخصات بديعة لطائفة مشهورة منها

ولناجي في هذه المجموعة غير قصة «مدينة الاحلام» قصة «الحرمان» وهي من اروع قصصه

وفيها تتجلى شخصية المؤلف بعناصرها جميعاً ، وتتغلغل في صميم النفس فتصور خوالجها واحاسيسها تصوراً رائعاً تعمل فيه الشاعرية عملاً قويًّا . وله الى جانبها قصة صغيرة اسمها « النوافذ المغلقة » لا تقل في روحها عن سابقتيها ، أما قصصه الملخصة والمترجمة من محاسن الأدب العالمي فقصة « المنبع » لتشارلز مورجان ، و « الليل » للويجي بيراندللو ، و « النواقيس » لجبريل دانونزيو

على انني أذكر أن صديقي ناجي كان في استطاعته ان يجمل اسلوب الحوار ما دام بين متعلمين، باللغة العربية البسيطة السليمة كما كان يفعل في بعض الاحايين حتى لا تخدش العامية الصور الشعرية الجميلة التي رسمها على القرطاس . ولقد صدر المؤلف كتابه هذا بكلمة نثرية هي في الواقع قطعة من الشعر العاطفي، ولون قاتم من تفكير ناجي الآن في هذا البلد الذي يغمر المجحود بطاحه، ولعله يغير من رأيه، فلئن نسي اليوم شيئاً فالغدُ لن ينسى ولن يمحو من سجله شيئاً يشقُّ الى الخلود طريقه . وليس أثر ناجي في الشعر والقصة بالذي يمحى وينسى

الصيرفي

رسالة العلم

هي صحيفة علمية تخرجها جماعة خريجي كلية العلوم بالجامعة المصرية ، وهي بكل ما يحتمل العلم من معنى في التصور الحديث حقيقة بأن تدعى رسالة العلم ، والقائمون بأمرها جديرون بأن ينعتوا بأنهم من رواد نشر الثقافة العلمية في هذا العصر

بدأت نهضتنا الحديثة بنشر الآداب شأن كل نهضة فكرية . ولكن كان لطغيان الادب على جميع مرافقنا الثقافية أثر جعل كثيرين ممن يعنون بالعلم ويعرفون ماله من أثر في توجيه الفكر نحو المثاليات العملية وفي توسيع نطاقه والرجوع به الى تاريخ الكون منذ نشأة العوالم ، يفكرون تفكيراً جديًّا في ان يحولوا دون طغيان الادب على الفكر بجهد يصرف نحو البحوث العلمية الجدية لتتوازن الخطا وتتساند الجهود في الوصول الى الغاية المرجوة من تجمع اطراف الفكر في بؤرة واحدة تشع منها مختلف الاضواء ويرى في كل ظل من ظلالها الشتيتة لون من الوان المعرفة

ورسالة العلم تحقيق عملي لهذه الغاية . وهي بعد عمل من اعمال الشباب ، محوطةُ الجامعة بالعناية ورعاه الحكومة بالمدد المالي ، وتمده همة الشباب بما في الشباب من امل جياش يضطرم في صدور اولئك الذين ارتووا من مناهل العلم بين جدران جامعة مصرية صميمة . ولا شبهة في ان هذا الأثر العلمي من اخص الاعمال التي يجب على المصريين جميعاً ان يرعوه بالتشجيع والعطف . وليس في هذا العمل كلهِ من وجه للنقص الا قلة العناية بأمر اللغة العربية . واظهر ما يكون ذلك في بعض الاساليب وفي اختيار المصطلحات . ولا شبهة مطلقاً في ان هذا العمل العلمي انما يتجه بكليته نحو غرض رئيسي هو نشر الثقافة العلمية في اللغة العربية . فاذا عدمنا هذا الغرض في مثل هذا العمل ، فكأنما عدمنا بهِ الغاية الاولى منهُ لانَّ العلم قد يطلب لذاته في اية لغة وفي اي كتاب وانما يجب ان يتجه مثل هذا العمل الى احياء اللغة العربية لتكون لغة علم كما هي لغة ادب .

والغرض من هذا القول ان تصبح اللغة العربية قادرة على تأدية رسالة العلم الى ابنائها باساليب ومصطلحات عربية . اما انهُ تؤدي هذه الرسالة باساليب ومصطلحات اعجمية مرسومة بحروف عربية ، فكأننا خرجنا عن القصد وعدمنا الغاية التي من أجلها نخرج مثل هذا العمل العلمي

ولم يقتصر الامر على استعمال مصطلحات لم يضعها المترجمون مقابلاً في اللغة العربية بل تعدى ذلك الى مصطلحات انتهى من امرها الواضعون واستعملها الكتاب في الصحف وكتب العلم من اكثر من قرن مثل كلمة « كون » Cosmos فقد استعملتها رسالة العلم « كوزمس » حتى يخيل اليك ان ذلك انما يقصد بهِ إحياء الرطانة اللاتينية في اللغة العربية لاخدمة الاسلوب العلمي في اللغة العربية

ولا يخفى ان اكثر المصطلحات التي استعملها كتاب القرن الماضي واوائل القرن العشرين كلها مثبتة فيما عندنا من معاجم تكفي على قلتها حاجة من يريد الفحص عن مختلف الاستعمالات العلمية التي وصلنا اليها في نهضتنا الحاضرة . اما ان نصاب بالكسل العقلي حتى يظهر أثر ذلك الكسل في استعمال مصطلحات لاتينية بنصها الاعجمي بمدان تذيع لها ترجمات عربية صحيحة ، وفي مؤلفات علمية متداولة ، فظاهرة يجب ان يقضى عليها في نفس المهد الذي يحملها ***

جولة أثرية

في بعض البلاد الشمالية — تأليف احمد وصفي زكريا — صفحاته ٤٠٠ قطع المقتطف

ساح الاستاذ احمد وصفي زكريا سياحات عديدة في بعض المدن الشامية ولا سيما في انحائها الشمالية ثم الف هذا السفر النفيس واصفاً مدنها وقراها ومعاهدها ومغانيها وآثارها التاريخية بأسلوب شائق طلي وعبارة سهلة جزلة ونحا في كتابته نحو المحققين من رجال التاريخ والعلم فلم يدع شيئاً من اخبار البلاد التي زارها الا استوعبه استيعاباً يدل على غزارة المادة واستنفاد الجهد في التحقيق والتدقيق فسد كتابه فراغاً كبيراً في المكتبة العربية وقد اشار الى ذلك في مقدمته قال :

« وكان مما يشجيني انني لم اجد كتاباً عربياً يصف احوال بلادنا وصفاً يعرف به المتجول الكوائن الطبيعية من جبال وانهار ونجود واغوار وعمران المدن والشعوب في العهود الغابرة والحاضرة وحالة المصانع القديمة والاماكن الاثرية وسبب بنائها وكيفيته ومسافة الطرق والمسالك واتجاهاتها الى غير ذلك من الابحاث التي تدعى في عرف الافرنج الطبوغرافيا التاريخية فجغرافيو العرب القدماء وضعوا مؤلفات جديرة بكل اجلال وإطراء عامة لا خاصة وليس فيها من الابحاث التي كنت انشدها بالقدر الذي يفي بحاجتنا في هذا العصر بعد ان تغيرت البلاد ومن عليها وكتب الجغرافية الحديثة الخاصة بالبلاد الشامية جعلها اصحابها وجيزة ان وفت بحاجة المدارس لا تنقع غلة الباحثين . اما الافرنج فقد احاطوا علماً بكل اصقاعنا فلم يغادروا مدينة من مدننا ولا قرية من قرانا او بادية من بوادينا الا وجاسوا خلالها واستقرؤا صامتها وناطقها واجادوا وصفها والفوا فيها مجلدات تفوق الحصر بعددها »

ويبدأ المؤلف الفاضل رحلته من بلاد كيليكية فيصف طرسوس وادنة ويسير الى مسيس وسيس

وبياس والاسكندرونة وجبل اللكام وبيلان وقلعة بغراس وقرق خان وسهل العمق وانطاكية ودفنه وجبل القصير ودركوش وجسر الشغر وسهل الروج وجبل الزاوية واقضية كردطاغ واعزاز والباب وجبل سمعان ومنبج وقلعة النجم والمعرة وسهل الغاب وقلعة المضيق وخربة أفاميا وقلعة شيزر ومحردة وحماة وسلمية والحمراء وقصر ابن وردان والاندرين وجبل البلعاس والرستن وحمص وضواحيها وحسية والنبك والقطيفة وما حولها من قرى قلمون الاعلى والاسفل وينتهي عند ابواب دمشق

وفي الكتاب ايضاً ٢٥ رسماً فتوغرافياً للامكنة التي ورد ذكرها وهو مطبوع طبعاً نفيساً متقناً ويطلب من مؤلفه في دمشق الشام وثمنه ٧٥ قرشاً سورياً مع اجرة البريد للخارج امين سعيد

بيرون

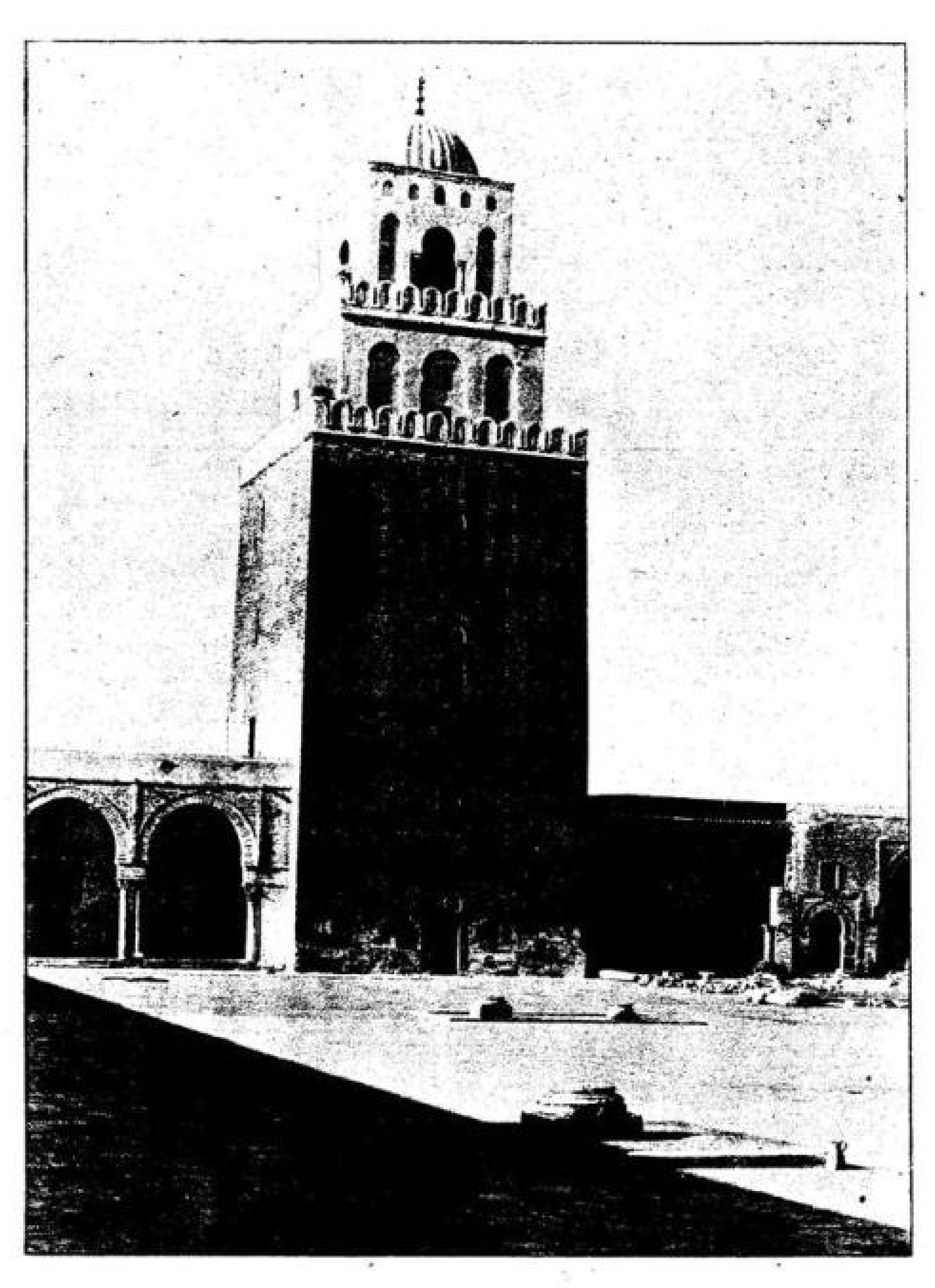
تأليف نظمي خليل — صفحاته ٢٨٧ — طبع بمطبعة الاعتماد

اللورد بيرون عَلَم من اعلام الشعر الانكليزي في اوائل القرن التاسع عشر بل من اشهر اعلامه في جميع العصور . بلغ في حياته ذروة من المجد والشهرة لا يطمع بأعظم منها عظيم في الارض . حتى غوته شاعر الالمان العظيم قال ان شكسبير وبيرون ذروتا الادب الانكليزي السامي

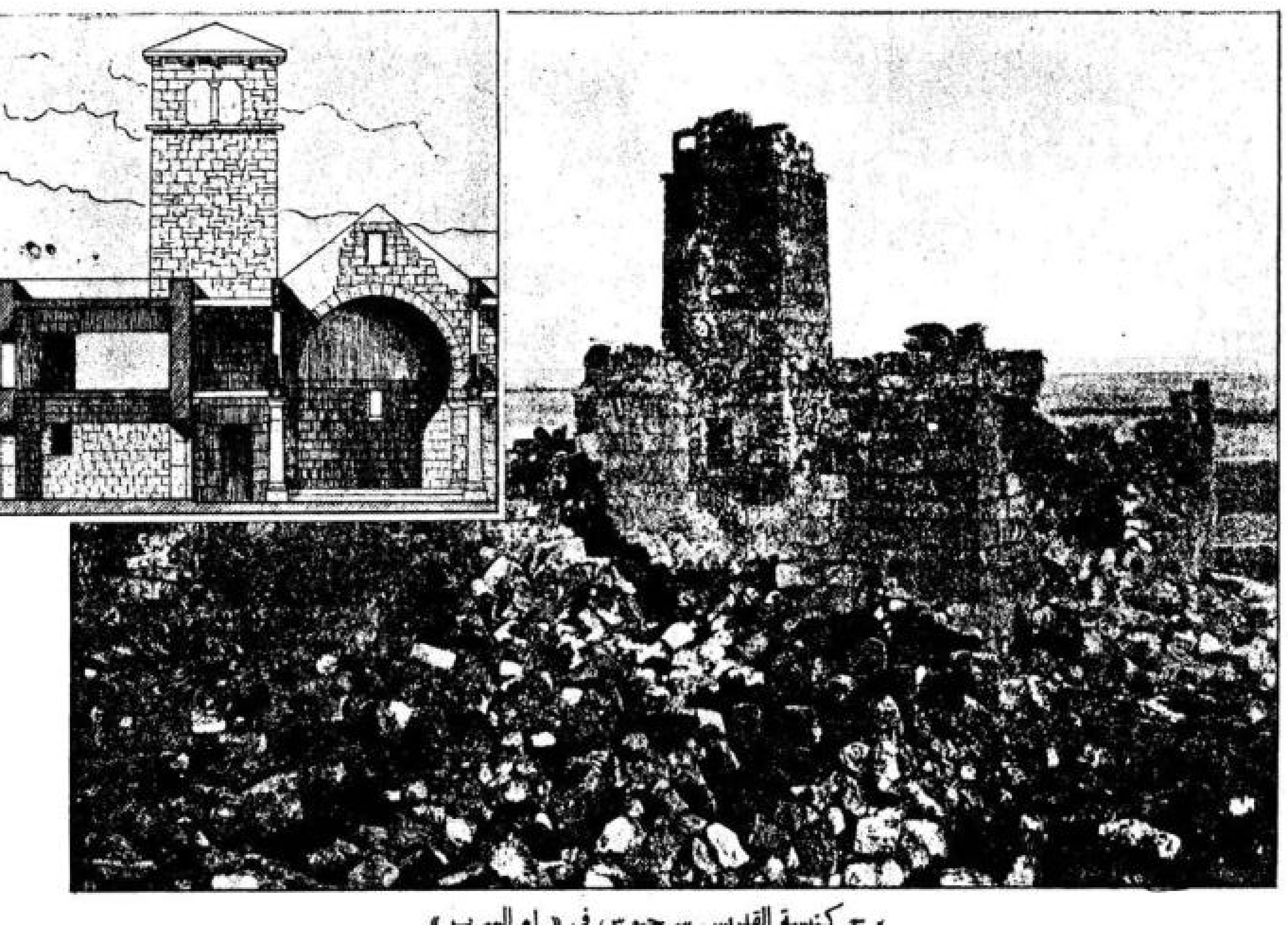
والواقع انه من اصعب الامور ان تعين لبيرون مقامه بين شعراء الانكليز وادبائهم — لا يميل النقاد الانكليز الى وضعهِ في الطبقة الاولى من شعرائهم — لانه ليس منهم حقيقة . ويذهب الناقد البرنس مرسكي الى ان بيرون جزء من الادب الاوربي الذي لا يختصُّ بشعب من الشعوب ومن اعلامه فولتير وغوته وتولستوي وولز . فمقام بيرون في الادب الاوربي لا يكون رهن الحكم الذي يحكم به نقاد الانكليز بل رهن الحكم الذي تحكم به اوربا نفسها . وقد كتب ماكولي سنة ١٨٣٠ فقال «لا شك في ان اشعار بيرون سوف تغربل وتنخل فينبذ منها ما كان يحسب افضلها في زمنه . على اننا لا نرتاب ايضاً في انه بعد التمحيص يبقى كثير من شعره خالداً بخلود اللغة الانكليزية » . وكتب بعده الناقد متيو ارنولد فقال انه متى نزعت شمس القرن العشرين اتضح ان بيرون ووردزورث اعظم شعراء الانكليز في القرن التاسع عشر على أن بعض النقدة يضيف اليهما اسمي تنسون وبروننغ . واكثرهم يضع شلي وكيتس فوق هؤلاء جميعاً . ولكن ليس ثمة من ينازع في أن مقام بيرون بين الخالدين

فنحن نرحب بهذه الدراسة العربية ، لاهم النواحي ، في عصر بيرون وحياتهِ وشعره . وهي تمتاز بأمرين أولهما تحليل بعض قصائد بيرون المشهورة مثل تشايلد هارولد ومانفرد ودون جوان وغيرها . وثانيهما نقله مختارات رائعة من شعر بيرون الى العربية . والاصول التي بني عليها تحليله ، مما تلقاه على أستاذ الأدب الانكليزي في كلية الآداب ، أو مما طالعهُ في كتب النقاد الانكليز أنفسهم . فيصحُّ أن تكون أساساً لفن النقد الأدبي عندنا ، القائم على قواعد أهمها ربط الشاعر بالوسط الذي نشأ فيهِ وتياراتهِ الفكرية والاجتماعية وربط قصائدهِ بأطوارهِ النفسية المختلفة

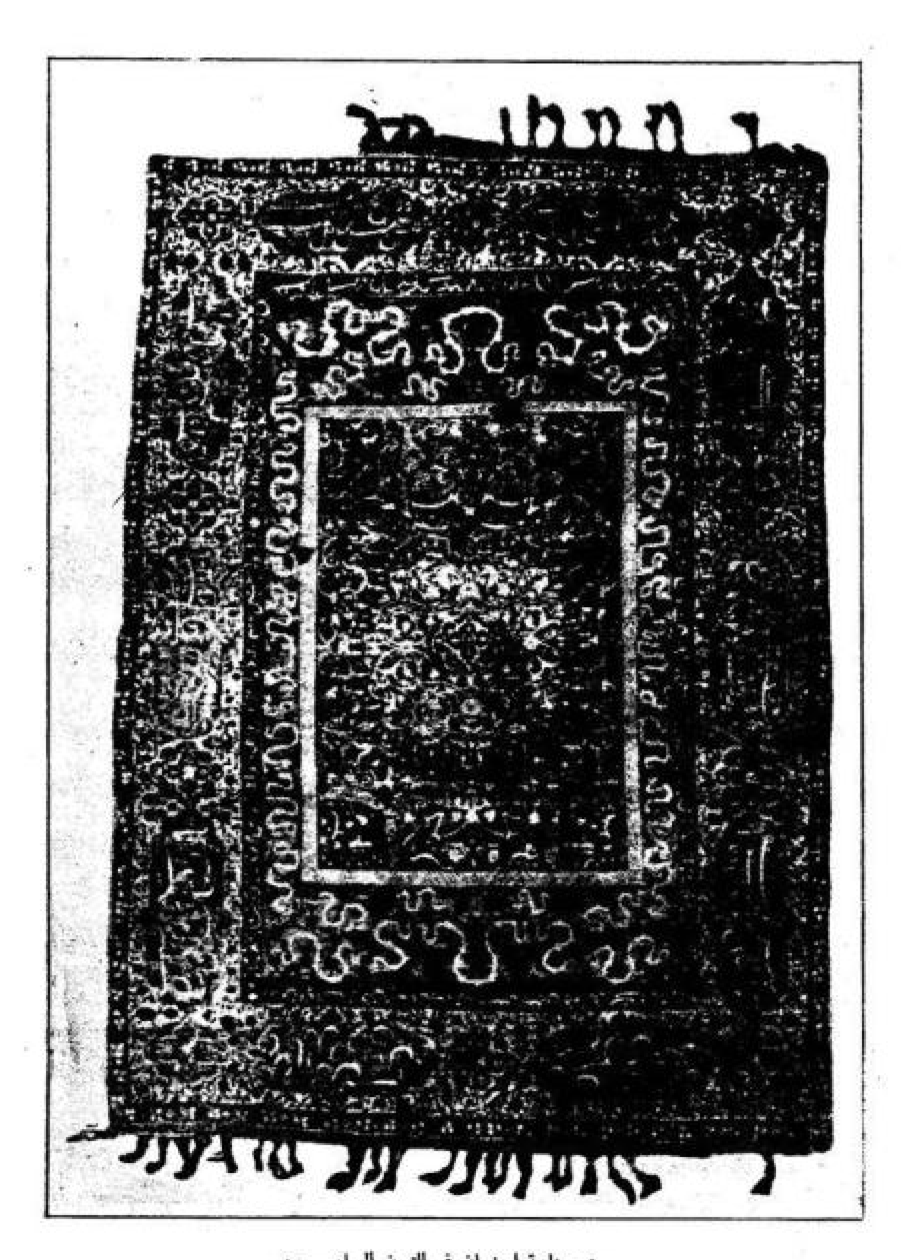
فالكتاب من حيث تناولهِ لحياة بيرون الحافلة لا يشفي غليلا ، لان المؤلف كان أعظم عناية في الغالب بدراسة شعره وقد أصاب في هذا قسطاً وافراً من النجاح



مأذنة جامع القيروان



برج كنيسة القديس سرجيوس في « ام السرب »



من صناعة اصفهان في القرن السادس عشر

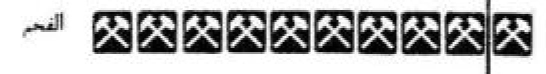
سجادة من الحرير مشغولة بالذهب والفضة وباطارها الخارجي جامات مستطيلة عليها كتابات وفي وسط السجادة زخارف من الازهار وفيها ايضاً خطوط متعرجة تدل على ما بها من تأثر بفنون الشرق الاقصى وكانت هذه السجادة في كنوز كاتدرائية بلنسية وآلت الى صاحب السمو الامير يوسف كمال فاهداها الى دار الآثار العربية . وقد عرضت في معرض الفن الفارسي بالقاهرة — (زكي محمد حسن)


سير الزمان
عقم المؤتمرات الدولية
لنقولا الحداد
الثورة — ٢
للدكتور عبد الرحمن شهبندر
اقطاب السياسة الدولية
المرشال بلسودسكي
الصور : تمثل نواحي من حياة
اليابان الاقتصادية

منتجات اليابان ووارداتها

منتجات اليابان — وارداتها

الفحم



ركاز الحديد

البترول

الارز

القطن

المطاط

تجارة اليابان والولايات المتحدة الاميركية

واردات اليابان من سائر البلدان — واردات اليابان من اميركا

البترول

القطن

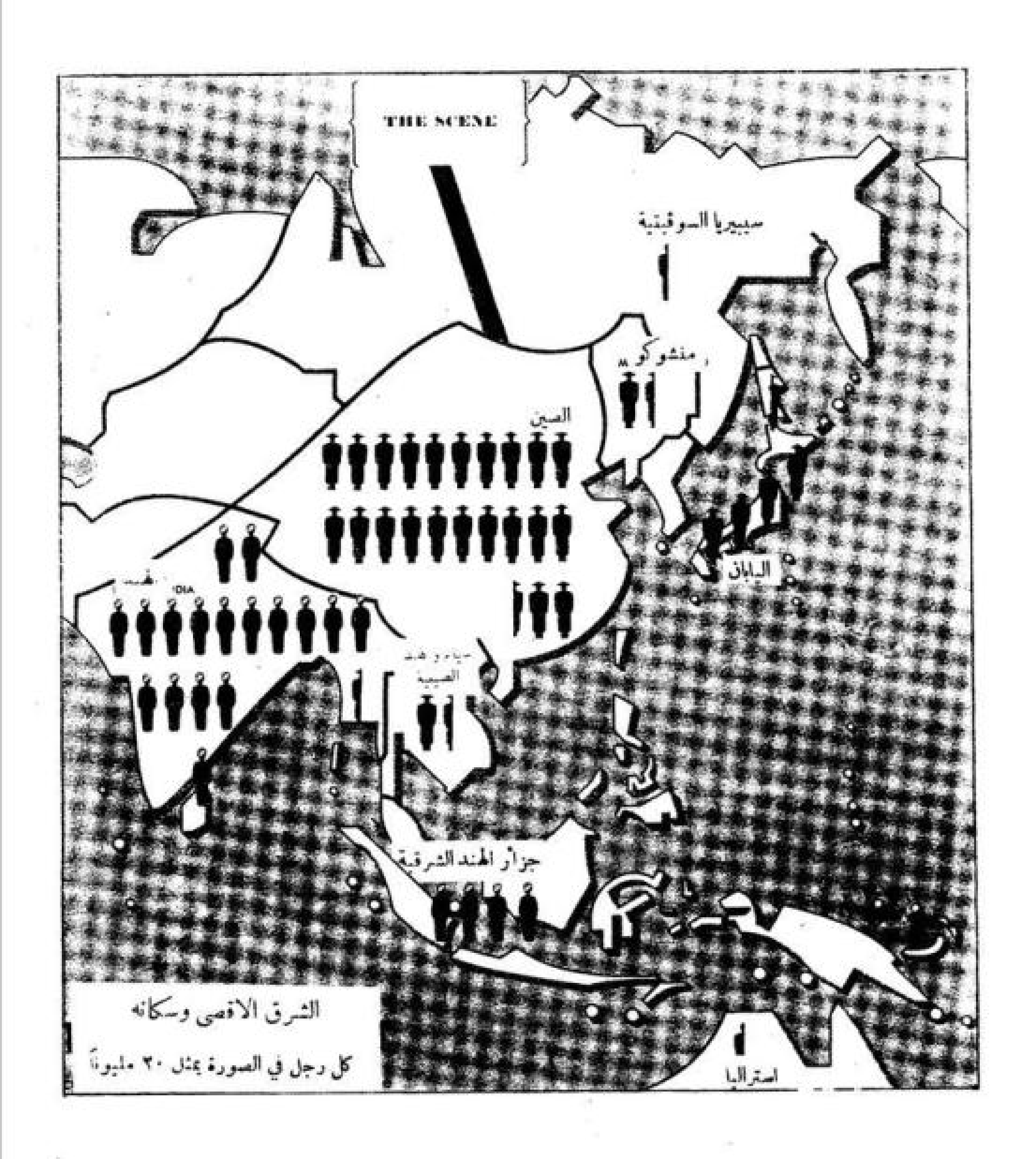
الحديد والفولاذ

الحرير

الشاي

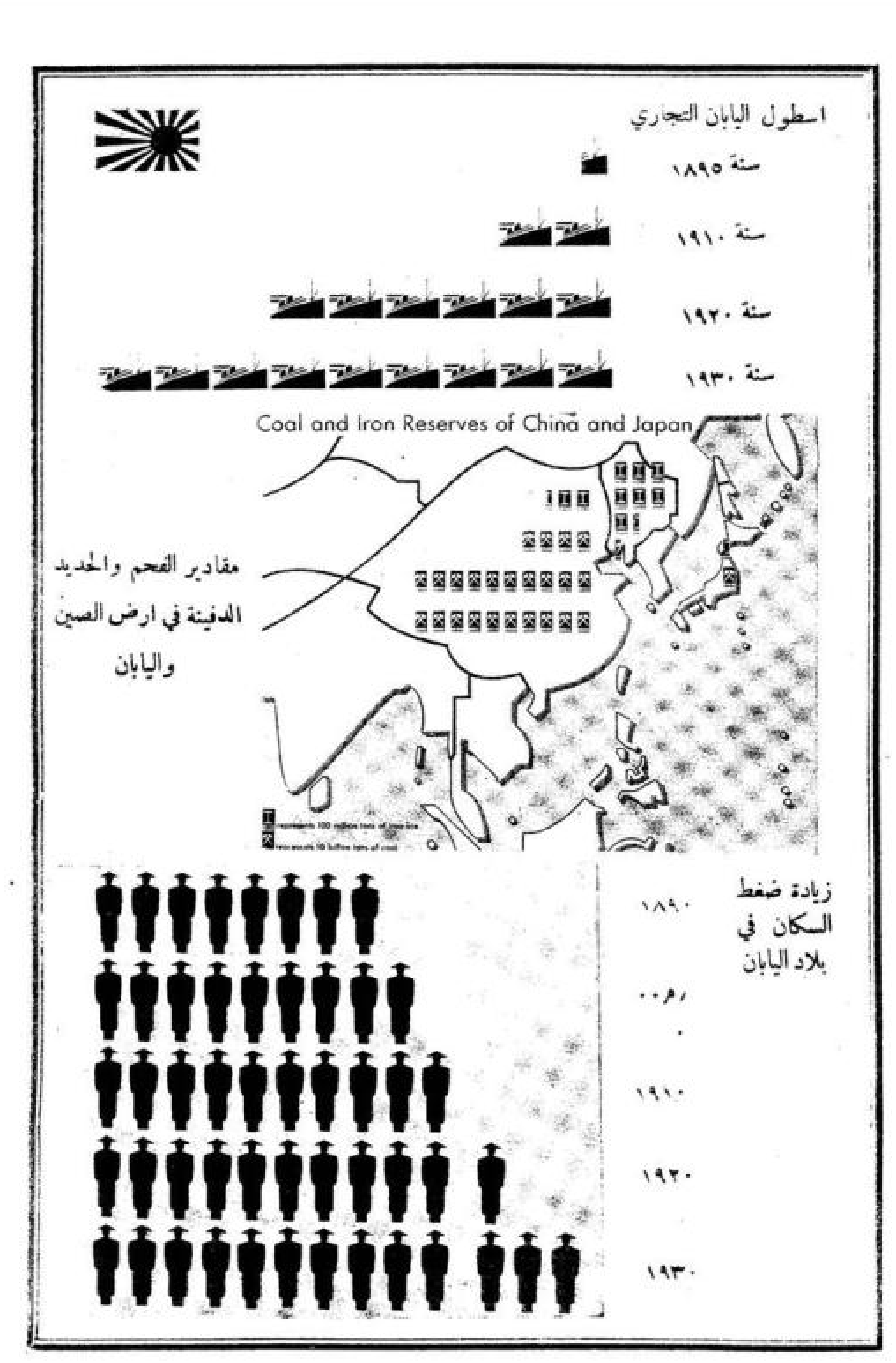
الخزف

صادرات اليابان الى سائر البلدان — صادرات اليابان الى اميركا



الشرق الاقصى وسكانه

كل رجل في الصورة يمثل ٣٠ مليوناً



اسطول اليابان التجاري
سنة ١٨٩٥
سنة ١٩١٠
سنة ١٩٢٠
سنة ١٩٣٠
Coal and Iron Reserves of China and Japan
مقادير الفحم والحديد
المدفونة في ارض الصين
واليابان
زيادة ضغط
السكان في
بلاد اليابان
١٨٩٠
١٩٠٠
١٩١٠
١٩٢٠
١٩٣٠



باب التربية

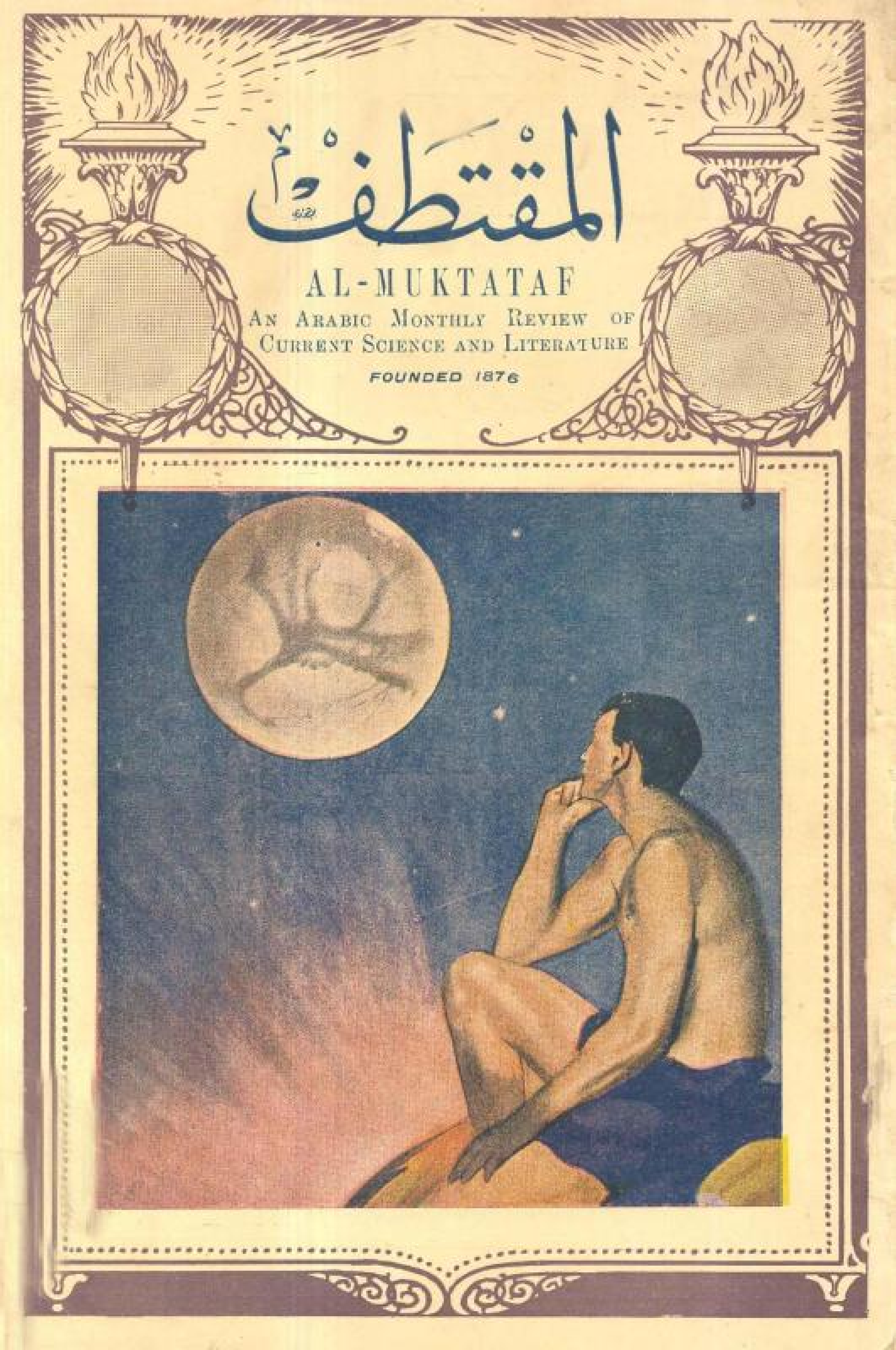
بعض عوامل الضعف في تكوين الفرد
للدكتور محمد بهي الدين بركات بك

التربية ولغة الأطفال
زكي المهندس
استاذ التربية بدار العلوم



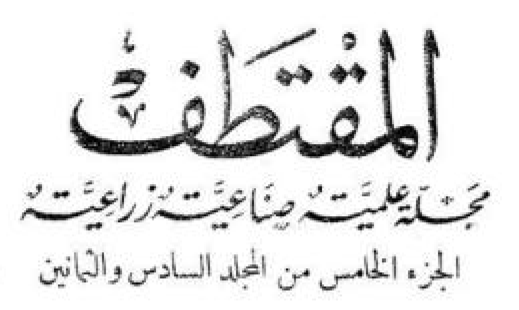
فهرس الجزء الرابع من المجلد السادس والثمانين

صفحة



المقتطف
AL-MUKTATAF
AN ARABIC MONTHLY REVIEW OF
CURRENT SCIENCE AND LITERATURE
FOUNDED 1876





مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الخامس من المجلد السادس والثمانين

١ مايو سنة ١٩٣٥ — ٢٨ محرم سنة ١٣٥٤

الطبيعة في ربع قرن

مآثر العلماء البريطانيين في عهد الملك جورج الخامس

تحتفل الامبراطورية البريطانية في شهر مايو بانقضاء ربع قرن على ارتقاء الملك جورج الخامس أريكة الملك . فيجدر بنا ان نقف بضع صفحات من المقتطف على تلخيص اهم ما حفل به ربع القرن الماضي من المآثر العلمية التي تمت على ايدي العلماء الانكليز . وقد يتوهم بعض القرّاء ان البحث خاصٌ لا يصحُّ ان يكون موضوع مقال مستقل في المقتطف ولكنَّ الواقع ان مباحث العلماء الانكليز وخاصة في الطبيعة الحديثة ، من الاركان التي قام عليها علم الطبيعة الجديد فاجمالها بمثابة عرض سينمي لاشهر المكتشفات في العلوم الطبيعية في ربع القرن الاخير

كان حكم الملك جورج[١] الخامس حافلاً بنشاط عجيب في ميدان العلوم ، امتاز بطائفة من المكتشفات العلمية الاساسية ، كان لها اكبر الاثر في توجيه الفكر العلمي في هذا العصر . ومن محاسن الاتفاق ان معظم وجوه التطوُّر في العلم الحديث ، نشأ من مكتشفات ونظريات برزت للعالم في مطلع عهد الملك جورج ففي سنة ١٩١١ اخرج الاستاذ رذرفورد نظريتهُ في الذرة ونواتها ، وقام السر جوزف طمسن بمباحثهِ في الاشعة الموجبة فأفضت الى مكتشفات الاستاذ استن في النظائر isotopes — وكان الاستاذ صدي قد سبق الى فكرة النظائر وتسميتها في سنة ١٩١٠ — وصوّر الاستاذ ولسن C. T. R. صورتهُ الاولى بطريقة الغرفة الغائمة التي كانت اكبر معوان لعلماء الطبيعة في بحوثهم . ونشر الاستاذ غولند هبكنز نتائج مباحثهُ الاولى في الفيتامينات . وفي سنة ١٩١٣ نشر السر

(١) انطوت حقائق هذه المقالة في فصل للدكتور اندريد استاذ الطبيعة في جامعة لندن نشرته مجلة انباء لندن المصورة

وليم براغ وابنهُ الاستاذ وليم براغ رسالتهما الاولى في اصول البناء البلّوري واستعمال الاشعة السينية لتبيّنهِ، واذاع الاستاذ مكلود (قسيم بانتنغ مكتشف الانسولين) نتائج دراستهِ في البول السكري

لقد اثبت البحث، ان نظرية رذرفورد في بناء الذرّة ونواتها، كانت من اخصب النظريات العلمية واكثرها ثمراً في مختلف البلدان والمعاهد العلمية. فقد بين رذرفورد سنة ١٩١١ ان النتائج التي حصل عليها باطلاق دقائق الفا من احد مركّبات الراديوم، يمكن ان تفسر اذا فرض ان كتلة الذرّة، مركّزة في جسم صغير، موجب الشحنة الكهربائية، دعاهُ النواة. وان النواة تحيط بها غيمة من الكهارب، وهي جسيمات سالبة الشحنة الكهربائية، فتعدّل كهربائيتُها السالبة، كهربائية النواة الموجبة، وتصبح الذرّة محايدة او متعادلة الكهربائية. وبعيد ذلك فاز الاستاذ نيلز بوهر، وهو عالم دنماركي كان يشتغل في معمل رذرفورد، بتطبيق نظرية الذرة الجديدة، على ظاهرة خاصة في خطوط الطيف، ففسّر بها، ما كان لغزاً مستسرّاً عن افهام العلماء. وحوالي ذلك الوقت ابتدع موزلي — وكان في معمل رذرفورد كذلك وقد قتل في خلال الحرب في حملة الدردنيل — ان قدر الشحنة الكهربائية على النواة لا وزن العنصر الذرّي، هو الشيء الاساسي في تعيين طبيعة العنصر. وبيّن ان الشحنة الكهربائية على نوى الذرات، تتدرج صعوداً واحداً واحداً، وانهُ وفقاً لهذه الاعداد يمكن ترتيب العناصر من ١ الى ٩٢ فدعيت هذه الاعداد او الارقام بالاعداد الذرّية. وهي من اهم المكتشفات العلمية الحديثة في ميداني الطبيعة والكيمياء على السواء. ومن جملة ما افضت اليهِ، تمهيد السبيل الوعر، الى الكشف عن عناصر الهفنيوم والرينيوم والمازوريوم والالينيوم

ثم اثبت الاستاذ فولر بالتجربة، ان العنصر الواحد قد يحدث اكثر من طيف واحد، وانَّ ذلك يتوقف على فقد ذرتهِ لكهرب واحد او اكثر من كهاربها عند تهيجها واطلاقها للضوء. فجاء تفسير الطيوف الخاصة بهذه الذرات المؤيّنة inoized atoms (اي التي فقدت كهرباً او اكثر من كهاربها) مطابقاً كلَّ المطابقة لنظرية رذرفورد وبور في بناء الذرة

ولما وضعت الحرب اوزارها، وجّه رذرفورد نظره الى نواة الذرة، وجمع حوله في معمل كافندش بجامعة كمبردج طائفة من العلماء الشبان ما لبث ان طار ذكرهم كل مطار. ولا يخفى ان نواة الذرة اصغر من جزءٍ من مليون مليون جزءٍ من البوصة. فاذا اخذت ورقة رقيقة من الذهب (والذهب يمكن تطريقه حتى تصير ثخانة بضع مئات من اوراقه تساوي ثخانة ورق السيكارة) وضخّمتها حتى تصبح سماكتها ميلاً كان علو الذرة فيها ذراعاً وحجم النواة في الذرة لا يزيد على حبة من الغبار. ومع ذلك اسفر بحث رذرفورد وصحبه في النواة عن نتائج كان لها أثر عظيم في تمهيد السبيل الى سر البناء المادي

من النواحي التي تسترعي النظر في بناء النواة مسألة تحويل العناصر بعضها الى بعض، وهو أمر طالما حلم بهِ أصحاب الكيمياء القديمة. ولما كانت الشحنة الكهربائية على النواة، هي التي تعيّن خواص الذرّة من الناحية الكيميائية، فنحن اذا استطعنا أن نغير تلك الشحنة بوسيلة من الوسائل

استطعنا أن نحوّل العناصر بعضها الى بعض . ولكن الصعوبة ، ان النواة أشبه بالحصن تحيط بهِ المعاقل ، وهي الكهارب . علاوة على كون الحصن نفسه متين البناء بفعل الطاقة العظيمة التي تشدُّ وثاق الدقائق التي يتألف منها . فاستعمل رذرفورد دقائق الفا واطلقها على هذا الحصن فاخترقهُ . ثم استعان بمساعده الدكتور شدك فكانت النتيجة ان استطاعا احداث هذا التحويل في بعض الذرّات ، وقد تبيَّنا آثاره بكواشف غاية في الدقة

والصعوبة في استعمال دقائق الفا قلة مصادرها . فهي تنطلق من الراديوم في خلال تحوله الذاتي ومن غيره من العناصر المشعة . والمقادير التي نملكها من هذه العناصر قليلة . على انهُ في إمكاننا ان نصنع مقذوفات قوية ، بتعريض الذرّات لطاقة كهربائية عالية الضغط . ولما كانت طاقة بضعة ملايين من الفولطات لا تجعل طاقة هذه الذرّات الا من رتبة طاقة دقائق الفا ، فالمظنون أن الضغط الكهربائي اللازم لجعل طاقة هذه الذرّات يفوق طاقة دقائق الفا ، سوف يظلّ بعيداً عن متناولنا

على أن الباحثَين كوكروفت وولطن رأيا أن يستعيضا عن النقص في طاقة مقذوفاتهما ، بزيادة عددها . فكأن النواة حصن فيهِ ثغرات أو مواضع ضعف . فاذا استعمل عدد كبير من المقذوفات ولو لم تكن على جانب عظيم من الطاقة ، كان من المحتمل الرياضي ان يصيب بعض المقذوفات هذه الثغرات ، فيفعل العدد ما لا تفعله القوة . وكذلك استعمل كوكروفت وولطن ضغطاً كهربائية يقلُّ عن مليون فولط ، فاستطاعا أن يحوّلا عدداً من العناصر الخفيفة ، وفازا بنتائج على أعظم جانب من الخطر في فهم البناء الذرّي . وقد استعمل رذرفورد نفسهُ طريقتهما هذه بعد أن حسَّنها

ومن الاساليب الجديدة التي كان لها أثر كبير في ارتقاء علم الطبيعة ، اسلوب الغرفة الغائمة الذي استنبطهُ الأستاذ ولسن (C. T. R.) ومبدؤها ان الهواء الرطب اذا تمدّد ، وبرد بتمدُّدهِ ، تتقلّص قطيراتٌ من الماء على الذرّات والجزيئات المكهربة فيهِ . فاستعمل الاستاذ ولسن هذا المبدأ لتبين مسارات الذرّات والكهارب ، مع أن الذرّات والكهارب نفسها لا تُرى ، وليس في وسع الباحث المطلع على نواحي التقدم في علوم الطبيعة الحديثة أن يغالي في مقام هذا المعوان المبتدع على البحث

وقد اعتمد العالمان بلاكيتْ واوكياليني ، وهما من أعوان رذرفورد في كمبردج ، على طريقة ولسن هذه فأثبتا وجود جسيم مادي دقيق مشحون شحنة كهربائية موجبة وهو صنو الكهرب . وقد دعي هذا الجسيم بالكهرب الموجب (البوزيترون) وأول من قال بوجودهِ الاستاذ اندرسن من علماء معهد كاليفورنيا الذي يرئسهُ العلامة مِلِكنْ . ومن الجسيمات المادية الجديدة التي كشفت النوترون (أي الحايد) كشفهُ الاستاذ شدك وهو مثل البروتون كتلةً ولكنهُ لا يحمل شحنة كهربائية ما واسمهُ يدلُّ على ذلك

ومن المباحث العلمية العظيمة الشأن ، لاتصالها أوثق اتصال بتحويل العناصر ، مباحث الاستاذ

أستن في النظائر (Isotope) . فقد استنبط طريقة عملية تمكنهُ من معرفة وزن الذرات معرفة دقيقة بإمرار تيار من الذرات في مجال كهربائي ثم في مجال مغنطيسي ، فتبين لهُ أن بعض العناصر خليط من نوعين من الذرات ، أو اكثر ، تتشابه في الخواص الطبيعية والكيمائية ولكنها تختلف في وزنها الذري . فوزن الكلور الذري ٣٥،٤٦ وهو في الواقع خليط من صنفين من الذرات أحدهما وزن ذراته ٣٥ والآخر وزن ذراته ٣٧ وقد ثبت بعد ذلك أن ذرات طائفة كبيرة من العناصر هي خليط من هذا القبيل . وأحدثها ما عرف عن نظائر الايدروجين ، واهمها النظير المعروف باسم دوتيريوم في اميركا ودبلوجين في انكلترا ومنهُ يتركب الماء الثقيل (Heavy water)

وقد اتجهت مباحث الاستاذ أستن في السنوات الاخيرة الى مقدار ما تفقده الذرة من كتلتها عند اندماج اجزائها بعضها في بعض وهو بحث متصل بنظرية الاستاذ اينشتين في تحول الكتلة الى طاقة

ولا ريب في أن البحث في الذرة الذي تمَّ معظمهُ في جامعة كمبردج على ايدي طمسن ورذرفورد واعوانهما من الامجاد العلمية التي يمتاز بها عصر الملك جورج الخامس

فاذا انتقلنا من الذرة ، الى البحث في الدقائق المادية التي تفوقها حجماً اي البلورات المؤلفة من ذرات وجزيئات ، وجدنا القدح المعلى فيه للسر وليم براغ ونجله الاستاذ وليم براغ . فقد استعملا معاً قبيل نشوب الحرب الكبرى الاشعة السينية ، لتبين انتظام البناء الذري والجزيئي في البلورات . ذلك ان الدقائق المادية الصغيرة ، اصغر من امواج الضوء التي نبصر بها الاجسام فلا تنعكس عنها ولذلك لا نستطيع رؤيتها ، لاننا انما نرى الاجسام التي تعكس امواج الضوء . ولكن الاشعة السينية اقصر جداً من اقصر امواج الضوء ، ولذلك يمكن ان تنعكس عن الاجسام الدقيقة التي تتألف منها البلورات . ولما كانت الاشعة السينية مما لا نستطيع ان نحس به بعيوننا فاننا لا نستطيع ان نرى الذرات والجزيئات بها ، فنستعمل طريقة التصوير الشمسي لتبين انتظام البلورات الداخلي . وقد تناول السر وليم براغ وشبله طائفة كبيرة من المواد ، بطريقتهما هذه ، منها المركبات المعدنية ، وهي بلورية صريحة في بلورتها ، ومنها مواد بلورية التركيب ولكنها لا تبدو كذلك مثل الزبدة والياف القطن والكتان والصوف . وقد استنبط الاستاذان طمسن (نجل السر جوزف طمسن) ورامان (الهندي) اسلوبين جديدين لاستعمال الضوء في تبين صفات الكهارب والذرات والجزيئات ، واحرز ثانيهما جائزة نوبل العلمية جزاءً له على اكتشافه

اما في ميدان الكيمياء فقد كان جانب كبير من العناية موجهاً الى دراسة الجزيئات الكبيرة المعقدة التركيب التي لها شأن بأفعال الحياة . ولعلَّ اهمها شأناً من الوجهتين الكيمائية المحضة والحيوية العملية ، صنع الاستاذ ورنغتن لمادة الثيروكسين بالتأليف الصناعي ، وهي مفرز الغدة الدرقية ومؤلفة من جزيئات كبيرة معقدة التركيب . فكأن انساناً يفقد غدته الدرقية ، او طفلاً ينشأ ضامرها ، يستطيع الآن ان يستعيض من مفرزاتها بمركب كيمائي صناعي

من أندية العلم

أنباء وآراء

[لم يتسع لها باب الاخبار العلمية]

﴿ سرعة الطيران الجديدة ﴾ جاء في المجلات العلمية الاميركية ان خطوة عظيمة الشأن في ارتقاء الطيران تمت لما استقل الطيار الأميركي ولي بوست — وهو الذي طار وحده حول العالم في أقل من سبعة أيام — طائرته القديمة « ونى ماي » من لوس انجلوس متجهاً الى شيكاغو . فقد حلق هذا الطيار ، الى ارتفاع ٣٥ الف قدم او اكثر قليلاً حيث الهواء لطيف كل اللطف ، وليس ثمة تيارات هوائية تعيق الطائرة عن التقدم ، فبلغ متوسط سرعته بهذه الطائرة القديمة ٣٥٠ ميلاً في الساعة مع أن اقصى سرعتها على بضعة آلاف قدم فوق سطح الارض لا يزيد او قلما يزيد على ١٥٠ ميلاً في الساعة

وبعد ذلك نشط المستنبطون ومهندسو الطيران الى صنع طائرات تتوافر فيها الاجهزة اللازمة للطيران على هذا العلو او فوقه قليلاً — مثل أجهزة تكفل للسائق والركاب الدفء اللازم، ومقداراً كافياً من الاكسجين للاستنشاق حيث الاكسجين قليل هناك ، والضغط الكافي على المحرك — وعندئذٍ يمكن أن تبلغ سرعة الطائرات الطائرة على هـذا العلو ما متوسطه ٤٠٠ ميل في الساعة ، من دون تغيير يذكر في تصميم الطائرات الحالية فتجتاز المسافة بين نيويورك وباريس في نحو سبع ساعات فقط . مع أن لندبرغ اجتازها في ثلاث وثلاثين ساعة ونصف ساعة

***

﴿ قلاع في الهواء ﴾ يرى الاستاذ لو المستنبط والعالم الانكليزي ، ان بناء القلاع في الهواء لا بدَّ أن يكون صفة من الصفات البارزة في الحروب القادمة . وقد يسأل القارىء كيف تبنى القلاع في الهواء والاصل في القلاع بناؤها المتين الراسخ في الارض بحيث لا تهزها القنابل ولا تزعزعها . فيردُّ الاستاذ لو ان الحروب المقبلة سوف تكون في الغالب ، حروباً في الجو ، وان المدن الكبيرة لا بدَّ ان تحتاج الى اسراب من الطيارات ، ترتفع من مطاراتها ، لمقابلة اسراب العدو . ولكن هذا وحده لا يكفي . فلا بد من ان يبنى في الجو ما يقوم مقام القلاع والحصون على الارض . وهذا يتم بينله جهاز ، يستطيع ان يطلق القنابل من مدافع خاصة اطلاقاً افقيًّا واطلاقاً عموديًّا او نصف

عمودي ، فيسددها الى الطيارات التي تحاول ان تحوم فوق المدينة لرمي قنابلها المحتوية على الغازات والمكروبات . والطيارات لا تستطيع ان تفعل ذلك لانهُ لا بد لها من الحركة الدائمة والا سقطت على الارض . وعنده ان هذه القلاع الجوية يجب ان تقام على اكياس صغيرة مملوءة بالهليوم. والهليوم خفيف ، يكاد يقترب من الهيدروجين في خفته ، وقد ملئت به بلونات اميركا لانه غير قابل للالتهاب. على ان الاكياس يجب ان تكون صغيرة ، لانه اذا كانت كبيرة ، وأقيمت القلعة الجوية على بضعة اكياس منها، ثم اصيب احد الاكياس بقنبلة اختلَّ توازن القلعة وهوت الى الارض. اما اذا كانت اكياس الهليوم ، صغيرة وعديدة فانثقاب احدها او بعضها لا يكون لهُ هذا التأثير

***

﴿ اوراق الكوكا والكوكايين ﴾ جاء من بونس ايرس عاصمة الجمهورية الفضية (الارجنتين) ان الحكومة ارصدت في ميزانيتها مبلغاً من المال غرضهُ ان ينفق في مكافحة مضغ اوراق الكوكا بين هنود البلاد . فأوراق الكوكا هذه مصدر المخدر المعروف بالكوكايين وهنود اميركا الجنوبية اعتادوا مضغها فتخدرهم ويعودون لا يحسون بالحر ولا بالبرد ولا بالتعب

بل ان اوراق الكوكا اروج بضاعة بينهم من جنوب بلاد كولومبيا الى الولايات الشمالية في جمهورية الارجنتين ومعظم محصول هـذه الاوراق تنتجهُ بوليفيا وبيرو . بل ان الكوكا في بوليفيا — كالقطن في مصر — محصولها الزراعي الرئيسي

واسم هذا النبات العلمي معقد ولكن لا بأس بايراده فهو « اريثرو كسيلون كوكا » وقد تعوَّد هنود تلك البلدان مضغه وهم سائرون وراء قوافلهم او وهم حاملون على ظهورهم اعباء ثقيلة يقطعون بها مسافات طويلة . بل انهم يستعملون ورقه في شكل مكمد لكل جرح او رض او الم يصابون بهِ . وعند ما يمر احدهم بمزار لاحد آلهة « الانكاس » الاقدمين يقدم له تقدمة مؤلفة من ورقة او ورقتين من نبات الكوكا

ويقول الكاتب الاميركي جون هوايت انهُ وقف مرة على نجد جبال الاندس على ارتفاع ١٣ الف قدم مرتدياً اكثف الملابس الصوفية ومع ذلك احس بالبرد ينخر عظامه . ولكنه رأى احد الهنود غير متأثر بالبرد مع انهُ كان يرتدي قميصاً من القطن . فكانت قطعانه تكسر الجليد الذي يغطي جدولاً من الجداول وهو يخوض في ماء الجليد وراءها وسبب ذلك ادمانه مضغ اوراق الكوكا فتردد المادة الغروية التي فيها ضعيف الاحساس بالبرد

***

﴿ البذر بالطيارات ﴾ في سنة ١٩١٩ استعملت الطيارات في بذر البذار في الحقول وفي سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٢٦ وسنة ١٩٢٧ زرع العشب الخضير في الولايات المتحدة الاميركية وجزائر هواي

بالطيارات كذلك . وفي سنة ١٩٢٩ بذرت بزور الرزّ في كاليفورنيا بها . ولكن هذه التجارب جميعها كانت محاولات متفرقة لم تتعدَّ مساحات محدودة من الحقول . ولا يعلم ان الطيارة قد استعملت لهذا الغرض في غرب اوربا

اما في روسيا السوفيتية فقد استعملت الطيارة لبذر البذار في مساحات واسعة من الارض في سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١ وقد اتسع نطاق استعمالها لهذا الغرض في تلك البلاد اتساعاً مطرداً بعد ذلك فبذرت بها البزور سنة ١٩٣٢ في مناطق مجموع مساحاتها ١٧٠ الف فدان . وفي سنة ١٩٣٣ في مناطق مجموع مساحاتها ٣٣٢ الف فدان . وفي سنة ١٩٣٤ في مناطق مجموع مساحاتها ٣٧٠٥٥٠ فدان

وميزات البذر بالطيارة كثيرة . فبذر البزور باليد في منطقة مساحتها ٢٥٠٠ فدان يقتضي ٣٠٠٠ ساعة عمل . وبذرها بآلة يجرها حصان او بغل يقتضي الف ساعة عمل . وبذرها بآلة سيارة يستغرق ٢٠٠ ساعة عمل . اما بذرها بالطيارة فلا يستغرق اكثر من ٦٠ ساعة عمل . ثم ان محصول الفدان الواحد المبذور بالطيارة اكبر من المتوسط المعتاد لان الطيارة في البلاد الباردة تمكن اصحاب الارض من بذر ارضهم عقب ذوبان الثلج مباشرة . ومن اقوالهم المأثورة ان البذر في الطين يزيد المحصول زياده كبيرة تبلغ احياناً ٥٠ في المائة . ولكي يتمكن الفلاح من التبكير في بذر بذاره تجرب الآن تجارب غرضها اسراع ذوبان الثلج بذر مسحوق اسود على سطحه الابيض اللامع فيكثر امتصاصه لحرارة الاشعة الشمسية ويسرع ذوبانه

***

﴿ ثمن بعوضة واحدة ﴾ في فصل من فصول هذا الجزء قصة العلامة فون يورغ الطبيب النمسوي الذي كشف عن طريقة استعمال الحمى الملارية لعلاج الشلل العام الناشىء عن الاصابة بالزهري . وقد قرأنا في السينتفك اميركان ان حكومة اميركا عهدت الى طبيب يدعى ماين في توليد البعوض الخاص بالملاريا ليستعمل في لسع المصابين بهذا الضرب من الشلل لادخال الملاريا في اجسامهم . ولكنهُ عمل حساباً فوجد ان توليد البعوض ونقله من مكان الى مكان يحتاجان الى نفقة كبيرة تبلغ نحو ٤٠ جنيهاً للبعوضة الواحدة فارتأى ان يفعل ما يأتي : — يولد البعوض ويلوث بجراثيم الملاريا ثم يستعمله في لسع المصابين بهذا النوع من الشلل في منطقة ما ثم تنزع غدده اللعابية وهي الغدد التي تحتوي على جراثيم الملاريا ويبعث بها الى المراكز المختلفة فتستعمل جراثيمها في حقن المصابين بالشلل بعد معالجتها بطريقة خاصة وهذا يوفر على الحكومة نحو عشرين جنيهاً لكل بعوضة لان اجرة نقل الغدد اقل جداً من اجرة نقل البعوض في اقفاص خاصة ، ولان ستين في المائة من البعوض الحي كان يموت في خلال النقل واما الغدد فلا تصاب بتلف ما

نشأة الفن الأسلامي

والجامع الكبير بالقيروان[1]

لأحمد فكرى

تكاد تكون المساجد التونسية مجهولة لعلماء الآثار جهلاً تامًّا ، فهي مغلقة في وجوههم لا يسمح لهم بزيارتها ، ولم يظهر من المسلمين من يعنى بقيمتها الفنية فيدرسها ويكتب عنها . ولكن احوالاً خاصة تركت جامع القيروان مفتوحاً لزواره من الأجانب ، وتساهل المسلمون من سكان القيروان فلم يحولوا دون زيارة معابدهم كما فعل سكان المدن الاخرى في تونس . ومع أن كتباً ظهرت حديثاً عن هندسة هذا الجامع وتأسيسه وبنائه وتاريخه فقد تبين لنا ان ما كتب عنه إما غير واف وإما لا يطابق الحقيقة أو يشوّهها . والسبب الاول في هذا أن جميع من تناولوا هذا الجامع بالبحث كانوا يجهلون المساجد التونسية الاخرى مع ما لها به من صلة وثيقة ، فهي تفسر ماغمض منه ، وتجلو ما كان فيه موضعاً للشك . وقد اتيح لنا ان نكون أول من دخل هذه المساجد منقبين عن آثارها باحثين عن قيمتها الفنية . ولما كان لجامع القيروان شأن كبير، لانهُ اكبر الآثار الاسلامية في تونس وأقدمها ، فقد جعلنا من دراستنا له الجزء الاول من كتابنا الفن الاسلامي في تونس

وقد أسفرت دراستنا هذه عن نتيجتين : الاولى تاريخية . والثانية فنية

اتفقت آراء علماء الآثار الاسلامية على أن الجامع الذي اختطه عقبة بن نافع سنة خمسين للهجرة تهدم ولم يبق اليوم منه أثر . بل كان المتفق عليه أيضاً انهُ لم يبق شيء من الجامع الذي أمر ببنائه هشام بن عبد الملك على انقاض جامع عقبة . وأن جامع القيروان القائم اليوم هو من آثار زيادة بن ابراهيم الاغلبي وانه يرجع الى عام ٢٢١ هجرية . ويصعب على الكابتن كرسويل — وهو آخر من كتب عن القيروان — ان يقرر أن مأذنة القيروان ترجع الى أوائل القرن الثاني للهجرة ويقول ان الوثائق التاريخية وحدها هي التي حملته على الاخذ بهذا

واذا كان مؤرخو العرب نقلوا الينا تاريخ هذا الجامع مشوّهاً ببعض التشويه او بالغوا كثيراً فيما نسب الى بعض الامراء من الاصلاحات والزيادات فيه ، الا ان ابحاثنا التي تتبعناها على ضوء القواعد الحديثة لعلم الآثار قد أوصلتنا الى أن نجد بقية للجامع الذي اختطه عقبة بن نافع ، وأن

---

(١) تعمق الدكتور احمد فكري استاذ تاريخ الفن بمدرسة الفنون الجميلة في دراسة فن المعمار الاسلامي وطاف بلداناً عديدة باحثاً ومنقباً وقد وضع كتابين باللغة الفرنسية أحدهما في المسجد الكبير بالقيروان أحرز مقاماً عالياً بين الثقات وهذا ملخصه وقد وضع بارشاد المؤلف وأجري على لسانه

نحقق بناء محرابه القديم ، كما أوصلتنا الى أن نثبت ان أسوار الجامع ترجع في بنائها الى عصر هشام بن عبد الملك في عام ١٠٥ هـ . لا إلى زيادة الله بن ابراهيم . وإلى هذا العهد يرجع ايضاً بناء بيت الصلاة ، واذن فجامع القيروان يعود في مجموعه الى اوائل القرن الثاني للهجرة وهو لهذا يمكن ان يعتبر من اقدم جوامع الاسلام القائمة ان لم يكن اقدمها جميعاً .وليس هذا معناه ان السنين التالية لم تترك فيهِ اثراً او لم تمسه بتغيير ، فقد افسح بلاطه الوسط ، وادخل على محراب عقبة محراب آخر جديد ، واقيمت امامه قبة عالية ، وكان ذلك في سنة ٢٢١ هـ اي ٨٣٦ ميلادية في حكم زيادة الله . وبعد هذا التاريخ بأربعين عام في حكم ابراهيم بن احمد اضيفت الى الصحن زياداته ، واقيمت فيه قبة ثانية مواجهة للقبة الاولى على انتهاء البلاط الوسط . ولكن جامع القيروان احتفظ بعد هذا التاريخ بشكله النهائي فلم تؤثر فيهِ الاصلاحات الطفيفة التي ادخلت عليهِ في العصور التالية

واوصلتنا ابحاثنا من الوجهة الفنية الى ان نحدد الفضل الذي يعود الى المسلمين في نشأة الفن الاسلامي ونهضته وتطوره . ولما كان لا يسع البحث في دقائق هذا الموضوع الا مجلدات ضخمة واعوام طويلة فقد قصرنا بحثنا على بعض نواحي هذا الفن الهامة

ان شكل الجامع وهندسته هما اول ناحية يتشخص فيها الفن الاسلامي . وقد كان المتفق عليهِ بين علماء الآثار المستشرقين ان ليس للمسلمين فضل في وضع هذا الشكل . وهم يجمعون على هذا الرأي الذي يعبر عنهُ الاستاذ ڤان برشم حين يقول : « لم يكن لرجال الفن المسلمين ولمهندسيهم الاولين وسائل للتعبير غير تلك التي كانت متبعة وقائمة في الفنون البيزنطية او القطبية او الساسانية او الهندية ولم يكن لمعابدهم الاولى انظمة واشكال غير تلك التي اشتقت او نقلت عن الآثار القائمة حينئذٍ في الممالك التي انتشر فيها الدين الجديد بعد الفتوحات الاسلامية »

غير ان التاريخ والدين والسنة وعادات المسلمين وحالة جوهم وطبيعة بلادهم ، غير ان هذا كله يتعارض مع اقوال المستشرقين ، ويدل دلالة واضحة على ان شكل الجامع يعبر عن فكرة اصيلة غير مشتقة ، بل ان وجوهاً عديدة تثبت اختلافه عن اشكال المعابد التي سبقت الاسلام

فمسجد الرسول في المدينة هو اول مسجد بني في الإسلام . ولم يكن هذا كما ادعى (كيتاني) وكما قال الكابتن « كرسويل » منزلاً خاصًّا ولكنهُ كان بيتاً للعبادة اقيم لهذه الغاية ، وليكون فيهِ للمسلمين مأوى من الشمس والمطر والرياح ، ومعزلاً من الطريق والضوضاء . واذا كان في بعض اجزاء شكله ما يدعو الى الظن في مشابهتهِ لما سبقه من الآثار ، فا هذا التشابه الا صوري لا يتفق مع الواقع ، ولا يظهر الا على الرسومات التي وضعها علماء الآثار بأحجام مختلفة ، يتضخم عليها ما كان ضئيلاً غير ملموس من الدقائق ، او يصغر عليها ما كان في حقيقته كبيراً

وهكذا استطاع مثلاً العلامة ديولافوى ان يقرب ما بين محراب جامع قرطبة ومحراب الكنائس فانك ترى محراب هذا الجامع اوسع حجماً في صورة مكبرة وضعها لجزء منه ، حالة انهُ لا يكاد

يظهر في القطاع المادي الكبير للجامع اذ ان عمقه لا يتعدى جزءاً من خمسين جزءاً من طول الجامع ، اذ به يتضخم في هذه الصورة المضللة ويصبح جزء من عشرة اجزاء

واذا ضربنا مثلاً آخر يتصل بجامع القيروان فقد يكفينا ان نعيد ما ادعاه كثير من علماء الآثار في اشتقاق صورة البلاط المتوسط فيه من كنائس افريقية البيزنطية .وقد يكون لهم حق في هذا الادعاء لو أنا رسمنا صورة لجامع القيروان يظهر فيها البلاط الاول مكبراً والمسكبة الاولى متسعة ، ونجرد هذه الصورة من ثلاثة ارباع بلاطات الجامع ومن صحنه ومن مأذنته ومن ابوابه وزياداته واسواره . فنخرج من هذا كله بشكل قد يتفق مع شكل احدى الكنائس . وهذه عملية تسهل على صحيفة من الورق او في خيال أحد المفكرين ولكنها لا تطابق الواقع ، ولا تجوز او لا تصلح ولا يمكن ان تتم في بناء قائم حي كجامع القيروان . واذا عدنا الى الحقيقة وجدناها صريحة لاتقبل النقض ولا تتحمل الشك . فقد بحثنا في جميع كنائس الارض علنا نعثر فيها على مسكبة طولها ٧٧ متراً، او نسبة طولها الى عرضها كنسبة طول المسكبة الاولى الى عرضها في جامع القيروان او ١٣ الى واحد فلم نجد اثراً لهذا ، او لما يقرب من هذا ، بل ولا لما يقرب من نصف هذا . وما سمعنا يوماً بكنيسة من الكنائس يراد ان تتسع فيزاد في طول مسكباتها ، وانما المتبع هو ان يزاد في طول صحنها ، فالكنيسة بناء لا يقبل زيادة من اية جهة كانت ، اما الجامع فعلى عكس ذلك ، ان شئت زدته اتساعاً من جنوبه او من شرقه او من غربه او من شماله

بين الجامع والكنيسة اختلاف في الشكل ، وبينهما اكثر من هذا اختلاف في الفكرة . ولا يقتصر الامر فيما نحن بصدده على تنظيم شكل او على ابتكار فكرة ، ولكن الذي يعنينا هو اخراج هذه الفكرة الى حيز العمل ، هو هذا البناء القائم عليها . ولا شك ان بناء جامع القيروان نفسه هو اكثر ايضاحاً واشد حجة من كل ما كتبه عنه المؤرخون وعلماء الآثار

وكما ان الحاجة لا تدعونا الى وثيقة تاريخية نثبت بها ان اعمدة هذا الجامع وتيجانه رومانية قديمة أخذها العرب عن آثار مندثرة — فهي وحدها تنطق بذلك — فكذلك لا تدعونا الحاجة الى مثل هذه الوثيقة لنثبت بها الابتكار الاسلامي لما يعلو هذه الاعمدة من حدارات (impostes) وقُرم (tailloirs) وأقواس ، اذ لم يسبق ان استعملت هذه العناصر في تاريخ فن العمارة في مثل الوظائف التي تؤديها في القيروان ، ولم تتخذ قبل ذلك مثل الاشكال التي اتخذتها فيه . اما اوجه الشبه التي رآها فيها علماء الآثار مع اشكال اخرى كانت موجودة قبلها فهي لا تتفق مع روح الفنون ولا تطابق تطوراتها ، إذ لا يمكننا ان نقبل ادعاء يقول بأن القوس المتجاوز — ذا حدوة الفرس — كان مستعملاً في الهند وفي سوريا قبل استعماله في الفن الاسلامي لم تكن لبناء جامع القيروان غاية زخرفية عند ما فكر في اقامة هذه الاقواس والعقود وانما كانت كل عنايته متجهة الى تذليل الصعاب المعمارية التي ظهرت أمامه من دفع للقوى وضغط للاثقال ومقاومتها، ومن اضاءة بيت الصلاة، ومن اقتصاد في مواد البناء. كل هذه مسائل كانت تشغل فكره ولم يقابلها مجتمعة بناءٌ قبله . كانت جديدة

في حدوثهـا وكانت الفكرة التي حلت صعابهـا جديدة أيضاً . فلم يسبق في تاريخ فن العمارة ان استعملت مثل هذه الأقوس المتجاوزة على جدارات مرتفعة . وهي وعناصرها تؤدي في جامع القيروان وظائف عملية عديدة منها اقتصاد في مواد البناء ، وزيادة في اضاءة بيت عميق خال من كل الفتحات الأ تلك التي تصل اليه من الصحن ، وضغط أقل على الاعمدة ، ومقاومة اكثر بطرد الانحناءات

ويجب أن لا ننسى انهُ من الخطأ أن نحكم على أثر من الآثار من ناحية واحدة فقط ، سواء كانت هذه الناحية في قطاعه السطحي وتنظيم رسمه ، أم كانت في بنيته الداخلة واقامتها ، أم كانت في كتلته ، أو في بنيته الخارجة ، أم كانت في زخرفته ومؤثرات اجزائه . واذا نحن اردنا أن ندرس أثراً من الآثار فلن تكون دراستنا مجدية ان نحن فرقنا بين ناحية وبين اخرى ، أو ان لم ندرسها باعتبار الواحدة منها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمجموع النواحي الاخرى . فاذا نحن أخرجنا منارة القيروان من الجسم التي هي عضو فيه ، فقد تتصل في شكلها الخارجي بالابراج السورية ، وقد تكون مأخوذة عنها ، كما قد تكون لقباب القيروان صلة بالقباب الفارسية ، ولدعامات أبوابه علاقة بدعامات الحصون البيزنطية ، ولكن هذه الصلة وهذه العلاقة لن تبقى قائمة اذا نحن أعدنا هذه الاعضاء إلى الجسم الذي كانت تعيش فيه ، ولن يجوز وجه للشبه بعد هذا ، وسرعان ما تتلاشى ذكرى هذه العناصر

ليس جامع القيروان عبارة عن مجموعة من الأعمدة والعقود ، ولا هو قبة ، أو منارة ، أو مدخل ، أو اسوار ، بل ليس هو كل هذه العناصر متمشقة ، ولكنهُ جسم حي وما هي الآ اعضاء فيه ، اذا هو عاش بها فهي تستمد حياتها من جسمانه ، وبيانها المعنوي من كتلته

وكيف لا نشعر بذلك اذا وقفنا امام مدينة القيروان ، فكأنها تمتد فسيحة مبطحة ليظهر فيها الجامع اكثر جلالاً وأسمى عظمة . بل ان المدينة كلها تكتسب عظمتها من هذا الجامع . وهل لا تتضاءل بعد هذا ذكرى الابراج السورية امام هذه المنارة المنيعة الاساس ، القوية التوازن؟ وكم تستبهم القباب الفارسية أمام خفة قباب القيروان ورشاقة صورتها . وكم تتثاقل وتغلظ الدعائم البيزنطية اذا قوبلت بدعائم القيروان التي تمد أسواره بقوة فيها كثير من الجمال ، وتحيط مداخله برونق يحفه الجلال . لم تكن غاية دراستنا لجامع القيروان ان نصفهُ وصفاً دقيقاً في جميع اجزائه بل اردنا ان نثبت بها ان هذا الجامع كتلة واحدة لا تنفصل اجزاؤها وفكرة واحدة لا تتشعب عناصرها وان هذه الفكرة جديدة تهيأت في وسط ديني اسلامي وخضعت للبيئة الاجتماعية التى نشأت فيها ، وللوسائل المادية التى تكونت منها . وأردنا ان نحدد ايضاً الفضل الذي يرجع في ابتكار هذه الفكرة وفي اخراجها ، الى رجال الفن من المسلمين . فدلنا البحث على ان بنَّائي القيروان كانوا مهندسين على علم واسع بكل دقائق الفن ، وذوق متسع لكل نواحي الجمال ، وتقدير منطقي لكل وظائف البناء وحاجيات بيت الصلاة والمصلين . وكفاهم فخراً وكفى عبقريتهم فضلاً انهم تركوا في تاريخ المدنيات صفحة جديدة باهرة ، فأقاموا أثراً معمارياً اصيلاً في شكلهِ وبنيتهِ وكتلتهِ ومؤثراتهِ

احتضار الغرب

أو فلسفة القدر الحديثة (١)

لعلي حسن الهاكع

ليست الثورة الفكرية التي أحدثها شبنجلر بالتي تتسع لها مجالة صغيرة ، وهي التي هزّت الفكر والفن منذ سبعة عشر عاماً ، وصدمت المألوف حتى في اكثره بداهة وجلاء

ولقد فرغتُ من قراءته للمرة الثالثة وبلغتين احداهما لغة المؤلف . وهي اللغة التي لا مفرّ منها للوصول الى معاني شبنجلر الدقيقة وفهم العبارات والالفاظ التي صاغها لتأدية المعاني الجديدة التي ابتدعها

ومهما يكن في آرائه الفذة من الشذوذ الا انها في مجموعها تقصرك على النظر الى الكون والحياة وتاريخ الانسانية والفنون والمجتمعات والمدنيات والثقافات نظراً كله جدة وغرابة ، ولا يخلو من لذة ليس بعدها لذة

حقاً أن شبنجلر هو ذلك الفكر الذي حلق في آفاق لم يكن الخيال ليحلم باحتمال ولوجها . إذ صدع فيه معاقل كانت لبداهتها وألفتها في مأمن حريز من النقد والاعتراض . نعم لقد قام بثورة قلبت أوضاع البحث الفلسفي والفنون وسائر الاتجاهات العلمية والأدبية . وعلى رأس ذلك البحث التاريخي نفسه . وكفاك دليلاً على ثورته الهائلة أنهُ اكتسح هياكل فكرية وفنية حمتها القداسة مئات بل آلافاً من السنين . من المحتمل أنهُ تاه قليلاً أو كثيراً في ميادين بحثه الجديدة . ولكن يلتمس العذر لمن غزا فردوس عقلياً لم يطأه مفكر من قبل . يعذر أن فلت منهُ خاطر هنا أو هناك . اذ لن يمسّ ذلك عظمة ابحاثه . وكفاك أنهُ نزع عن المنطق سلطانه المتين وعرّاه من أسلحته التي مكنت لهُ في الميادين العلمية . وأرانا كيف أن القدر هو المحرك الوحيد لاعظم الحوادث وأصغرها . كما أبان كيف أن الحضارات والمدنيات تسير في أدوار مرسومة لا مفرّ منها ، وأن الحضارة الغربية التي تشهد احتضارها الآن لا مناص لها من السقوط الذي قد بدأ . ومن العبث الانخداع بمظاهر القوة من اسلحة فتاكة واستعمار . فذلك — وهنا احد أوجه الغرابة — شأن السقوط في المجتمعات. ويستخرج لك شبنجلر من بطون الحوادث التاريخية القديمة والحديثة ما يقطع برأيه ويدعمهُ

وأن عظمة شبنجلر لا تقتصر على هذه الثورة الفذة من الآراء الهادمة . بل أنها لتتجلى ايضاً في تلك المقدرة الاعجازية التي جعلت ذهنه الجبار يتسع لتلك الجبال الضخمة من المعلومات التي ضمها

---

(١) كتب بعد قراءة Der Untergang des Abendlandes وهو مترجم الى كل اللغات الحية Oswald Spengler

ونسقها وتناولها في خفة وحذق . فهو يكاد يُلمّ بكل شيء . بمعظم اللغات الحديثة والقديمة . ثم بتاريخ كل أمة وحضارة — ثم بالعلوم والرياضيات بجميع أنواعها — ثم بالفنون الجميلة من بناء وتصوير وموسيقى وشعر وأدب — ولكل أمة وحضارة . حتى الدين والفلسفة — وفي الهند والصين والازتيك (احدى حضارات امريكا المتوسطة القديمة) — ثم — وهنا الاعجاز — قد هضم كل ذلك بقوة حتى أصبحت هذه المعلومات شطراً من نفسه وفكره . واخذ يتلاعب بتلك الكنوز ويقتنص بينها علاقات لم تخطر لذهن بشر — علاقات وارتباطات كلها طرافة وطلاوة — فيستعرض الحادث في مصر القديمة ، ويعطيك مقابله تمثالاً معيناً في مدنية اليونان القديمة ، ثم قطعة موسيقية في الحضارة الغربية الحديثة ، أو بستاناً نضراً في زمن معين من تاريخ الصين

وهو يفيض في عبارته كأنما قد عاش بين تلك المدنيات ، ثم يستقرىء سرها المدفون — كأنهُ — استغفر الله — مبدع تلك الفنون وخالق تلك الحوادث والاشخاص التي غيرت مجرى التاريخ. وهو في كل ذلك يرجع الى المنطق ليهدم المنطق . ويلجأ الى ذهنه الجبار وطريقته العلمية ليهدم بها الاسلوب العلمي المألوف

وهو قد أرغم التاريخ على أن يبوح بسره لأول مرة . فتتجلى لك أروع الحوادث بلون جديد لا أثر فيه للسببية القديمة التي تخرج من الاسباب الى النتائج وتتجاهل الالهام والصدفة والعناية الالهية

لحذار من قراءة شبنجلر ان لم تكن واسع العلم ، عميق الاطلاع . فانهُ غير مفهوم للضحضاح من المتعلمين ، والاّ فانك مضطرٌ للرجوع الى المراجع والمظان بين كل سطر وآخر ، بل بين كل كلمة واخرى ، والى ذلك يرجع احد الاسباب في عدم ذيوع آرائه ذيوعاً يتفق وعظمتها ، وكان يصح ان يؤلف كتاب شبنجلر في عشرة آلاف صفحة بدل الألف التي حصره فيها

واني اخشى ان يؤخذ شبنجلر على انهُ رجل فكر وخيال فحسب ويظن فيهِ عدم اتصال آرائه بالناحية العملية كالخلقية Ethical والاقتصادية والسياسية . فذلك وهمٌ ، اذ انهُ ضرب في كل ذلك بسهم وافر . فهو كما علمنا كيف نقرأ التاريخ فانهُ هدى الملحد الى الايمان بالله . وعلمنا كيف نفكر ونتأمل ونثق بالواقع اكثر من ثقتنا بالمعقول . وكشف لنا عن الميادين التي لا مناص من حصر المباحث العلمية والاجتماعية والفنية فيها . واليك احدى نواحيه وتحذيراته : ذلك ان الفلسفة والفن والالهام قد نزلت في هذا العصر عن عروشها . وان الفنان الآن انما يحاول المستحيل لاحلال الروح الفنية من جسم الحضارة . وانهُ اولى بالتوجيه في العلم والتربية ان يتجه الى الناحية المادية والسياسية التي هي طابع هذا الدور في المدنية الغربية الحالية كما سنبين ذلك بعد

وقد طعن الداروينية في احد اسسها الهامة وهو التطور التدريجي مطابقة للبيئة . واثبت أن الانقلابات الهامة في تطور الكائنات والمجتمعات والانظمة والفنون والعلوم بل والعقائد انما كانت فجائية املاها القضاء المحتوم كما يمليها على نمو الفرد من الكائنات في تشكيل جسمه الى ان يصير تام الشكل

والتكوين . وأثبت بأدلة جلية أن هذا القضاء هو الذي فصل فجأة وطفرة لا تطوراً وتدرجاً بين الجماد والحياة وبين النبات والحيوان وبين كل نوع والآخر وأن القضاء هو الذي حدّد حياة كل فرد وكل نوع وكل حضارة . وفسّر بذلك عجز علم الخفيات عن الاهتداء الى هيا كل بشرية تثبت التدرج بين الانواع السفلى للانسان وبين ظهور الانسان فجأة . وعجز علم طبقات الارض عن الاهتداء الى السر في وجود تلك الطبقات المحدودة من التكوينات الارضية وكان أولى بها بناء على النظرية القديمة التدرجية ان تكون الطبقات المذكورة ذات تدرج غير محسوس عكس الواقع [1]

وإن ما حصل له في كيفية وضعه مؤلفه التاريخي لدليل على صدق ما اتى بهِ من ان الناس والمجتمعات مسوقة بدورة محتمة لا تدبير فيها للارادة الذاتية والاجتماعية اذ انهُ لم يكن يرمي الى ذلك الفتح الذي اتى بهِ والذي يُقر شبنجلر نفسه بأنهُ فلت منهُ عن غير قصد او تدبير . اذ كان في عام ١٩١١ يُفكر في وضع بحث عن الموقف السياسي واحتمالاته وكان يُحسُّ دنوَّ الحرب العظمى بناءً على التقديرات . ولكن أفق البحث أخذ من تلقاء نفسه وبعصا ساحر يتسع امامه حتى خرج بهِ البحث من ميدان العوامل المحيطة الى العوامل المشابهة في العصور الاخرى ثم تشعب (حتى اتصل بحضارات اخرى) واذ ذاك (تكشفت له علاقات بين الحضارات) ومشابهات في دوراتها لم يحلم بها الفكر من قبل .فأخذ يدرس العصور والحضارات بفنونها واديانها وآدابها وانقلاباتها السياسية والاجتماعية مهتدياً بضوء جديد ارسلتهُ العناية الالهية ، حتى نما شيئاً فشيئاً ذلك الصرح السحري الذي شيده شبنجلر والبناء الجديد الذي بنتهُ فلسفتهُ وابحاثه للكون بعد ان قضى على البناء القديم والاسلوب القديم الذي بنتهُ بهِ الفلسفة المألوفة

وكي تفهم شبنجلر لابد من معرفة مدلول الفاظ ابتدعها لمعنى خاص يغلب عليها المقابلة والتضاد — اي ازواجاً متضادة منها الكينونة وبالالمانية Sein والصيرورة وبالالمانية Werden . ويرى في الحالة الاولى رمزاً للجمود والتصلب والموت وفي الثانية رمز الحركة والالهام والحياة . والفراغ في نظره عنوان الجمود والزمن عكسه — فهناك منطق الفراغ الصامت الجامد وهو المنطق المألوف ومنطق الزمن الحي النامي وهو منطق شبنجلر الذي يتصل بالقضاء والتعاقب الزمني . وفي تدليل عجيب واستعراض لحوادث التقدم العلمي والفني يُريك الادلة الناصعة على ذلك . فالقدر في نظره يتغلغل في الديانات الميثولوجية والالهام الفني بعكس المنطق المألوف الذي تحجّر في اللغة الرياضية

وجوهر بحثهِ يدور على محور الحضارات لا الشعوب ولا الامم ولا اللغات كما بحث هربرت سبنسر من قبل وضلَّ في بحثهِ . اذ اثبت شبنجلر بالادلة القاطعة عدم وجود الفوارق الرئيسية التي ينص عليها علم الشعوب الحديث . ويرى ان (وحدة التاريخ انما هي الحضارات) ودلّل على ان لها حياة محدودة

---

(١) اكتشف النباتي De Vries الهولندي في تجاربه النباتية ظهور نباتات بصفات جديدة لا مناسبة لها (فجأة) في حقل تجاربه . وكان ذلك دافعاً له الى تسجيل النظرية الغريبة التطورية التي سماها The Mutation Theory

وادوار معينة من ميلاد الى شباب ثم شيخوخة وموت محتم. وقد حدد حياة كل حضارة بالف سنة ، مثبتاً ذلك بأدلة قاطعة مطبقاً نظريته على سائر الحضارات المطروقة وغير المطروقة كالمصرية القديمة والهندية والصينية والعربية واليونانية والغربية (الحالية) حتى الامريكية القديمة (الازتيكية) . فقد رأى شبنجلر ان المؤرخين درجوا على سنة تقسيم التاريخ الى قديم ومتوسط وحديث متأثرين بالزمن الحاضر والمكان القريب واللغة والقومية ، قاذفين بالماضي البعيد الى نصيب ضئيل من العناية. فكان مؤرخو العرب مثلاً يرون في حاضر بلادهم من خطر الشأن ما دفعهم الى تقدير تاريخ البلاد الاخرى والماضي البعيد للبلاد العربية نفسها تقديراً ثانوياً . وكذلك مؤرخو الفرنجة في العصر الحديث . فانهم يجمعون تاريخ الامم القديمة جميعها في حيز ضئيل تحت عنوان العصر القديم ثم يبحثون تاريخ الامم الوسطى ناظرين اليه نظرتهم الى المجتمعات غير الناضجة ، ثم يتناولون التاريخ الحديث كأنه الكل في الكل . وقد تأثرت بهذه الوجهة النظرية جميع الابحاث والمناهج الموضوعة للتدريس . كما حصل في مصر من تخصيص دروس السنة الاولى الثانوية لتاريخ الامم القديمة جميعها

***

لم يكتف شبنجلر بهدم هذا الاساس بالنسبة للماضي والحاضر بل تخطى ذلك الى معجزة التنبؤ بالمستقبل قياساً على الماضي ، لا كنتيجة لاسباب حاضرة فعالة ، بل كمراحل محتمة شأن الكائنات الحية تماماً اذ تستطيع ان تقدر ما يصيبها من تغيرات في تكوينها في اوقات معينة بحسب نوعها

ويطلق شبنجلر كلمة اوقليدسي على التقسيم التاريخي المألوف نسبة الى اوقليدس Euclid الرياضي الشهير حالة انه اطلق كلمة كوبرنيكي على نظامه نسبة الى كوبرنيكوس Copernicus واضع النظام الفلكي الحديث الذي فيه الكرة الارضية ذات شأن ضئيل في المجموعة الشمسية والنظام الفلكي عامة . وكذلك ابان شبنجلر ان العالم الانساني يصوره في تطوره حضارات متسلطة على كل العناصر الاجتماعية وان هذه الحضارات تخضع لناموس عام من النمو لا يفرق بين حضارة واخرى الا في الطابع الخاص الذي يميز كل حضارة عن الاخرى كما تتميز انواع الكائنات وافرادها بعضها عن بعض . فقضى بذلك على مكانة الحاضر والتأثر بالتاريخ القومي ، تلك المكانة التي سيطرت على الابحاث التاريخية في كل العصور. وعلى هذا الاساس او قل على هذا البناء الجديد الذي شيده شبنجلر للتاريخ استطاع ان يقوم بمعجزة وضع الوان العمران بانواعها المختلفة في مكانتها الطبيعية ، فكشف لنا عن سر تقدم الفنون الجميلة في عصور معينة وانحطاطها في عصور اخرى ، كما ارانا سر التطورات السياسية والاجتماعية والعلمية غير تارك ظاهرة دون ان يزيل عنها ذلك الغموض والخلط اللذين تسلطا على الابحاث الى عصرنا هذا وهي مما لا يطمئن اليه الحكم والتدليل . وبذلك تكشف لنا التاريخ عن مظهر جديد ، فاذا بتاريخ الامم المنفصلة والفنون والعلوم المستقلة بعضها عن بعض اوهاماً ، وأصبح هناك فن وعلم ورياضة « Mathematics » وفلسفة خاصة بكل حضارة . وأصبح القول بتاريخ فن النحت او التصوير او

الموسيقى او البناء خرافة من الخرافات اذ لكل منها في كل حضارة روح خاصة غير متصلة بروح الحضارة الاخرى

وقد اتى باكتشاف رائع اساسه تحديد جلي للفظين لا يزالان مختلطين في ميادين البحوث وهما Culture و Civilization ودعنا نسمي الاول حضارة والاخير مدنية . فالحضارة « Culture » هي الاصل . وهي التي يطلقها على الدورة جميعها . وهي التي تُينع وتبلغ عز إزهارها في شباب الدورة كالمصرية القديمة في عهد الاهرام والحضارة الغربية في القرون الوسطى . اما ذلك التقدم المادي الحالي الذي يخدع المؤرخ فيتصوره اوج الحضارة ، ألا وهو العمران العظيم والتقدم الاقتصادي والاستعماري والآلي فقد دلل شبنجلر على انهُ رمز الموت والفناء وهو الذي اطلق عليهِ شبنجلر كلمة مدنية «Civilization» وهي المرحلة الاخيرة للحضارة كالحالة التي بدأت تسيطر على الحضارة الغربية من القرن التاسع عشر وستفنيها حتماً . فالحضارة الشباب، والمدنية الكهولة والشيخوخة

وفي الحضارة تزدهر الروح الفنية وتكون على اشد خصوبتها فتظهر روح الفن الاصيلة ويتجلى طابع الحضارة وتتخذ رموزها شكلها الخالد الذي يختلف بين كل حضارة وأخرى . ويكون المجتمع محوره المدن الريفية الصغيرة التي تسيطر عليها حياة الاشراف ورجال الدين مثل الرها وانطاكية في المدنية العربية وبروج ونورنبرج في الغربية . وفيها تنشأ الفنون لا كحِرَف شأن المدنية بل ينطق بها الفنانون الملهمون . أما المدنية ففيها يجدب الفن ويصبح عقيماً منحصراً في افتراض الرموز والاساليب والزخارف التي انحدرت من عصر الحضارة بعد ان فقدت روحها واصبحت هياكل ميتة . وفي الوقت نفسه تتقوى الناحية العقلية Intellectual وتسيطر على المدنية . فتنشأ الوان المذاهب الاجتماعية المبنية على تنظيم جديد للمجتمع اساسه المصالح المادية كالاشتراكية والدولية والشيوعية . وهنا يأتيك شبنجلر من تاريخ مصر القديمة وبلاد الصين والهند بما يثبت وجود ذلك كما هو واقع الآن في المدنية الغربية . وفي هذه المرحلة تنشأ المدن الكبيرة الهائلة « Megalopolis » وتصبح الأخـلاق مادية ويضعف الايمان وتضمحل سلطة الاديان ويقضي على الميزات القومية في الفن والحياة

ويخضع شبنجلر تاريخ الامم العبرانية والعربية والفارسية والبيزنطية وسائر امم الشرق في القرون الاولى قبل الاسلام وبعده الى حضارة واحدة اطلق عليها الحضارة العربية . كما وضع تاريخ روما في مكانه الطبيعي كمرحلة المدنية Civilization المتحدة للحضارة الاغريقية التي بدأت في المدة الواقعة بين ٨٠٠ و ١٠٠٠ قبل الميلاد . وفيها نشأت الالياذة . ورأى في تاريخ روما الاخير وبيزنطة روحاً عربية . وابان كيف كان الامبراطرة الرومان والبابوات في القرون المسيحية الاولى يأتون بصناع وفنانين من الشام وبخاصة بيروت ليبنوا الكنائس في روما والقسطنطينية وبعض المدن الاخرى في ايطاليا وجنوب فرنسا وهي كنائس متأثرة بروح المساجد ذات القباب اي خاضعة للفن

العربي . وكذلك عند تحول كنيسة اياصوفية الى مسجد لم يحصل اي تغيير وانما وجدت المدنية العربية ابنها المفقود !

ويرى شبنجلر ان الحضارة الغربية قد اجدبت وافرغت جعبتها الفنية كما تمخضت الحضارة المصرية عن الطريق المرسوم والمومياء وغيرها من رموز الاستمرار والخلود. كذلك تمخضت الحضارة اليونانية عن التمثال العاري، والحضارة العربية عن الكيمياء والجبر والقباب . والحضارة الصينية عن البستان والجمال في الطبيعة كرموز لروحها . ولم تكن هذه الرموز مجرد اتفاق وانما هي تعبير جلي للروح التي تغلغلت في الحضارة ونطقت عن لسانها . فهو يرى ان الحضارة المصرية حضارة بناء تسيطر عليها روح شاعرة بالزمن متجهة في خط مستقيم الى غاية معينة متشبثة بالخلود ورمزها التحنيط والهياكل الخالدة . وعلى الضدّ من ذلك الحضارة اليونانية والهندية التي تجاهلت الزمن فقضت بأعدام الاجسام حرقاً بالنار في طقوسها الدينية عند الموت ، ولم تكترث للعناية بالتنقيب عن الآثار المدفونة في بقايا اثينا عقب احراق الفرس لها ولم يعنَ باستخراجها الاّ ممثلو الحضارة الغربية في العصر الحديث . اذ ان الحضارة الغربية الحالية كالمصرية من حيث استيعاب الزمن واحترامه. ويرى شبنجلر في حضارة الغرب الاولى المتجلية في كاتدرائياتها المحلقة في الفضاء واللانهاية موسيقى متحولة الى البناء بتأثير بقايا المدنية الكلاسيكية « اليونانية القديمة » المحيطة بوطنها . وعلى ذلك يرى في الموسيقى طابع هذه المدنية الحالية وانها لم تتمكن من الانطلاق الطبيعي « اي الى الموسيقى » الاّ في أخريات حضارتها على يد الفنانين العظاء كموزار وبيتهوفن وآخرهم فاجنر . ولا يتصور احد مقدار الروعة لهذه الموسيقى لو تمكنت من الانطلاق في شبابها بدل الاختناق في ذلك الرسم البنائي Architectural

أما الفنون في عصر المدنية فانما هي حِرَف ، ان كان لها جمال فهو جمال مصنوع او مركب اقرباذيني عديم الروح والسحر شأن البناء والموسيقى والادب في العصر الحالي . فلا تجد طابعاً خاصاً يميز انتاج الفنان وانما هو تشكيل من سائر الاساليب التي انتجتها الحضارات الاولى بما فيها الحضارة الحالية . خذ بناء من الابنية الشهيرة التي تشيد او قطعة موسيقية حديثة فانها تثبت ذلك وهي لن تبقى وتخلد . ومن ذا الذي يطمئن الى هذه الفلسفة التي قسرت ذلك الانتاج المتحول الذي طغى علينا في هذا الاوان وهو انتاج عقيم لا روح ولا خلود ولا قيمة فيه ، شأن الادباء الحاليين الذين غمروا الاسواق مسوقين بدوافع الكسب والدعاية وتعروا من سموّ الالهام والعبقرية

وتتأثر الحضارات في ميلادها واثناء دورها بالحضارات المحيطة تأثراً مادياً لا روحانياً . وكثيراً ما تدثرت بزي غريب مأخوذ من المدنيات القائمة كما تأثرت الحضارة العربية بالمدنية الرومانية «التي هي المرحلة المتممة للحضارة اليونانية كما سبق الذكر »

ولذلك كشف شبنجلر عن سرّ قد خفي الى الآن . هو ذلك التناقض الذي وقع فيه فلاسفة الحضارة العربية بعد دراستهم الفلسفة اليونانية . ذلك أن روح المدنية العربية القائلة بالازدواج

والخفاء والروحانية لم تكن تتصور الفلسفة اليونانية الفردية المجسمة تصوراً اميناً . ولذلك كان عبثاً من الفارابي وابن رشد وغيرهم التوفيق بين آراء افلاطون وارسطو من ناحية والفلسفة العربية المحضة من ناحية اخرى لانهما لغتان غير قابلتين للترجمة . وكذلك المدنية الغربية منذ عصر النهضة الى الآن فانها لا تدرس المدنية اليونانية وانما تدرس روحاً غربية في شكل أكلاسيكي

وكما تتدثر الحضارة بزي حضارة اخرى في احدى مراحلها كذلك قد تقتل قتلاً او تبقى بحالة جامدة لا حياة فيها . فالحضارة الازتيكية كانت في عنفوان شبابها ابان اكتشاف اميركا وغزوة الاسبان لها ، ولكن جاءت تلك الغزوة فسحقت تلك الحضارة ولم تبق لها على أثر . اما تحجر الحضارات اي بقاؤها جامدة لا حياة فيها بعد عمرها المحدود فهو يصيبها في اواخر ايامها على هيئة النظام الامبراطوري اي عقب انتهاء المدنية كما اصاب المدنية الهندية والصينية والعربية التي ظلت مئات السنين في مواطنها

ويرى شبنجلر ان لكل حضارة رياضة خاصة « Mathematics » . وان الرياضة — وهنا العجب واللذة — انما هي تحجّر للصور التي تمخضت عنها الحضارة وانها لا تتكوّن وتستقر في صورتها الثابتة الاّ في اول عهد المدنية . فالرياضة من رموز الموت ويرى في العدد رمز الحضارة اليونانية والهندية ، وفي الجبر — اي العدد غير المحدود — رمز الرياضة العربية ، وفي حساب التفاضل والتكامل « Calculus » اي الوظيفة العددية رمز الرياضة الغربية بروحها اللانهائية

وعلى اساس هذه الابحاث اصبح شبنجلر يطلق « المعاصرة » على معنى جديد يتخطى الازمان والاحقاب وينصبُّ على مكان المعاصر في مرحلة تطور الحضارة . فهو يرى ان بوذا في الحضارة الهندية يقابل سقراط في اليونانية والكندي في العربية وروسو في الحضارة الغربية . ويحذرك من التشابه السطحي كما بين الاسكندر واغسطس قيصر اللذين يختلفان اختلافاً كبيراً . كما انه يجعل افلاطون معاصراً للفارابي في المدنية العربية وجيته Goethe في الغربية

وليس من الممكن التعرض لكل ما اتى به شبنجلر من آراء فذة في مقال بسيط كهذا . ولكن ما يمكن استخلاصه من قراءته هو انه رجل هادم لأمتن العقائد والمذاهب الفلسفية . لم يُبق على علم أو فن الاّ اتصل بأعمق اغواره ثم اخذ معوله الجبّار وانقضَّ تهشيماً وتحطيماً فلم يترك فلسفة ولا عقيدة ولا علماً الاّ وعراها . ونزع عن المنطق سلطانه على الابحاث بعد ان اكتشف في القدر لغز الوجود ، وابان كيف يلعب القدر بالعقول والاحكام ، وكيف ان النظريات التي اتت بها الفلسفة متقيدة بالمكان والزمن ان هي الاّ اوهام . كما بين ان القوانين العلمية والاخلاقية والرياضية ايضاً اوهام تبرز في عصر المدنية . اذ ان لكل شيء بداية ونهاية يمليهما القضاء والقوة الخفية التي تحرك الكون . وكذلك بعد ان فرغ شبنجلر من تحطيم كل شيء استطاع ان ينتحي ناحية من هذا الكون المحطم وان يستضيء بالهامه فيبني كوناً آخراً على نسق لم تألفهُ العقول البشرية

تاريخ الديموقراطية

في الصحة والعلاج

للدكتور محمد خليل عبد الخالق بك[1]

اريد في مستهل الكلام ان ازيل لبساً قد تعلق بمعنى الديموقراطية عند استعمالها مقرونة بتاريخ الطب والصحة العامة . فقد وضعت كلمة الديموقراطية في الاصل للتعبير عن « حكم الجمهور » . ثم تغير المقصود منها على تعاقب العصور وبحكم الاحوال حتى صار يقصد به « المساواة » في العرف الشائع . فاذا استعملنا هذا الاصطلاح في بحثنا هذا فانما نقصد به « حق التمتع بالصحة والعلاج »

ولا ينكر ان المساواة المطلقة في الصحة والعلاج تكاد تحسب في جملة المستحيلات . اذ اننا نولد على درجات مختلفة من الاستعداد الصحي ومتانة التركيب . وعلى ذلك يكون المقصود من معنى الديموقراطية هو توفير الوسائل الضرورية للعلاج وصون الصحة لمختلف افراد الشعب . وبالطبع لا يتعارض هذا مع قدرة البعض على استشارة اكفإ الاطباء واغزرهم خبرة وعلماً ، ودفع نفقات العلاج بأحدث الآلات وأنجع الوسائل في التطبيب والسكنى في اصح الجهات مناخاً وفي افخم المنازل بناء مما لا يتيسر لعامة الناس .

ان حق التمتع بالصحة هو في الواقع جزء لا يتجزأ من الحرية الشخصية التي تعتبر في عصرنا هذا من الحقوق المطلقة لكل انسان . لم يتمتع الانسان الاول في فجر التاريخ بالصحة ، ولم ينعم بحق المعالجة من غير مقابل ، كما ينعم بالهواء ونور الشمس ، بل كان هذا مقصوراً على من يحبوهم رئيس القبيلة بعطفه ويخصهم برعايته وايثاره ، فقد كان هو الطبيب المعالج كما كان المتصرف في الادوية . ولا يزال هذا شأن رؤساء القبائل في مجاهل افريقيا . ثم انتقل الطب من دائرة اختصاص زعيم القبيلة الى طبقات رجال الدين ، فكان هؤلاء يضمون الى معالجة الارواح معالجة الابدان والعناية بصحتها . وكانوا يبذلون خدماتهم الطبية والصحية لقاء ما يقدم اليهم من قربان وهدايا . وعلى هذا لم تكن فرص العلاج تتاح الا للاغنياء واصحاب السلطة والنفوذ بقدر ما كانت بعيدة عن متناول الجمهور

وفي هذا العهد كان الطب ضرباً من الشعوذة والتعاليم الدينية الساذجة وخليطاً من الصلوات والتعاويذ والتبرك بالآلهة والاصنام وتقديم القربان وما هو على سبيل ذلك

وما زلنا في وقتنا هذا نرى في الشعوب الهمجية ان التطبيب يدخل في اختصاص رجال السحر

---

(١) استاذ علم الطفيليات بكلية الطب ومدير معهد الابحاث ومستشفى الامراض المتوطنة بمصلحة الصحة . وما نشرناه هنا هو الجانب الاكبر من احدى المحاضرات التي القيت في ردهة يورت بجامعة القاهرة الاميركية

والشعوذة ... وما تزال آثار هذا العهد ملحوظة في اعرق الامم مدنية ، ففي برلين وباريس ولندن افراد يعالجون اليوم بالتمائم والتنجيم ويقصدهم افراد من ارقى الطبقات كما هو الحال في قرى مصر وفي القاهرة ، وتلك بقية من عهد بائد كان المرض فيه منظوراً اليه على اعتبار انهُ روح شريرة استولت على الجسم ، ولا يخرج هذه الروح الخبيثة غير السحر ، وبعد ذلك اتيح للطب في مصر الفرعونية ان يخرج من الظلام الى النور وينتقل من ايدي الكهنة الى رجال يحترفون مهنته ، ووضعت لهم اسس علمية ما زال الكثير منها قائماً الى اليوم . ومن مصر الفرعونية القديمة انتقل الطب الى اليونان فالرومان . وفي القرن الخامس قبل الميلاد كان نفر من الاطباء المتجولين يجوسون خلال القرى في اليونان ويعالجون من يشاء . ولعلَّ هذا اشبه بالحركة الجديدة التي فشت في السنوات الاخيرة في كثير من الممالك على صور مستشفيات متنقلة وسيارات مجهزة كأنها عيادات متحركة

وحدث ان الجماعات الممتازة الغنية في اليونان القديمة كانت تحتكر طبيباً يقيم بينها ويختصُّ بها دون سواها . لكن الى ذلك العهد كان التطبيب مقصوراً على الاغنياء القادرين على دفع الثمن . اما الفقراء فكانوا يعالجون بطب الركة او الوصفات البلدية التي هي مزيج من التعاليم الطبية والشعوذة

واهتم الرومان بصحة عبيدهم لانهم كانوا مصدر ثروتهم . فحرصاً على دخلهم اقاموا مستشفيات خاصة بالعبيد. وقد كان سيدنا موسى عليه السلام واضع الاساس في الطب الوقائي عندما شرَّع بأن الراحة والطعام والماء والامراض المعدية هي من أهم واجبات المملكة. ثم بزغ نجم السيد المسيح عليهِ السلام ، ومن تعاليمه التي بثها « ان المرض علامة على رضى الله على عبيده » ومن اجل ذلك تبارى الاتقياء من المسيحيين في ايواء المرضى والانفاق عليهم بسخاء في معاهد خيرية

وعلَّمت البوذية معتنقيها ان العطف على المرضى من صفات البررة واهل الورع . واوصى الاسلام وحثَّ على العناية بالمرضى وبذل المعونة لهم وايوائهم ومؤاساتهم . فكان من اثر هذه التعاليم المباركة من جانب جميع الاديان ان كثرت المعاهد الخيرية كما نرى في الاوقاف المحبوسة على صنوف البر والاحسان والتكايا والمستشفيات المجانية. وسار الحال على هذا المنوال متروكاً لاريحية الاتقياء البررة من اهل الديانات المختلفة الى سنة ١٨١٨ . ففي هذا العام بدأت حركة لتعميم الانتفاع بخدمات الاطباء لكافة السكان بلا تمييز . وشرح ذلك ان دوقية (ناسو) في المانيا سنت قانوناً يقضي على الاطباء ان يرتدوا ملابس خاصة تميزهم عن بقية السكان حتى تسهل الاستعانة بهم ويتيسر الانتفاع بطبهم . ثم بدأ العلامة الباثولوجي رودلف فيرشو في سنة ١٨٤٨ حركة واسعة النطاق لاصلاح الطب ، وبلغ من حماسته لفكرته ان أصدر مجلة باسم « اصلاح الطب » واساس هذه الحركة هو الديمقراطية في الطب ، أي حصول كل فرد على نصيبه في العلاج كحق وليس كاحسان ، وللاسف كان الاخفاق نصيب هذه الحركة

وفي سنة ١٨٧٨ حدثت مؤامرة في المانيا على حياة غليوم الاول ادت الى حل الحزب الاجتماعي

الديمقراطي . لكن بسمارك رأى بحصيف رأيه ان تيار الاصلاح الاجتماعي لا تكفي الشدة وحدها لصده . فأصدر قانون التأمين الصحي الاجباري في سنة ١٨٨٣ ، فلم يصادف ما يستحقه من حسن القبول لصدوره من الهيئة الحاكمة . اذ ظنّ الجميع ان هذا القانون اريد به مقاومة نقابات العمال . لكن سرعان ما حذت الدول الاخرى حذو المانيا

وهذا القانون يضمن للعامل المعالجة وان يتقاضى مرتباً يومياً اثناء المرض او عندما يتعذر عليه ايجاد عمل . على ان هذا القانون لم يجعل تنفيذه الزامياً الاّ في سنة ١٨٨٩ . وفي سنة ١٨٨٨ سنت النمسا قانوناً يشبهه ، والمجر في سنة ١٨٩١ ، وبريطانيا العظمى في سنة ١٩١١

والقانون البريطاني يطبق على العمال بين سن ١٦ وسن ٦٥ سنة ممن يقل دخلهم عن ٢٥٠ جنيهاً في العام، على ان يكونوا غير موظفين في الحكومة او في هيئات تدبّر لهم معاشاً للتقاعد وعلاجاً اثناء المرض . ويدفع العامل ٣٦ مليماً في الاسبوع ، وتدفع المرأة العاملة ٣٤ مليماً في الاسبوع ، وصاحب العمل ١٨ مليماً في الاسبوع ، وتدفع الحكومة تسعة مليمات عن كل عامل وعشرة مليمات عن كل عاملة في الاسبوع ، وبمقتضى هذا النظام يتمتع العامل بالفحص والعلاج مجاناً ، ويتقاضى ٧٥ قرشاً في الاسبوع اثناء مرضه في حدود مقررة ، وتأخذ المرأة ٥٢ قرشاً في الاسبوع

ويتقاضى الطبيب ٤٥ قرشاً عن كل شخص مؤمن عليه ، ومعدل ايراد الطبيب من هذا المشروع في انجلترا يبلغ ٢٥ جنيهاً في الشهر ، اذ ان عدد هؤلاء الاطباء بلغ ١٥٧٦٤ طبيباً في سنة ١٩٣٢ ، وبلغ عدد الاشخاص المؤمن عليهم ١٥٨٠٣٠٠٠ شخص

واذا درسنا الحال في اكثر البلاد ديمقراطية من الوجهة الطبية — مثل امريكا والمانيا وانجلترا — وجدنا ان هناك عناية شديدة بأفراد الجمهور على مختلف طبقاتهم ، وكان ذلك نتيجة للتطور الاجتماعي الحديث وشعور الطبقات العاملة بمكانتها في المملكة . اما في الممالك الاخرى — كالتي لم تبلغ حركات العمال وطبقات الشعب الفقيرة فيها شأواً بعيداً في المطالبة بالاصلاح الاجتماعي — فنجد ان هذه الممالك نفسها حذت حذو البلاد السابقة ، فوفرت للعامل والفقير الكثير من وسائل العلاج والمحافظة على الصحة ، ويرجع هذا الى الامور الآتية : —

اولاً — ان العناية بصحة الافراد الفقيرة من الشعب لها اكبر التأثير في كثرة السكان ، وبالتالي في قوتها الدفاعية في الحروب وغيرها ، وهذا موضع عناية القائمين بالحكم في اكثر الممالك

ثانياً — ان الامراض التي تتفشى بين الطبقات الفقيرة لا يمكن حصرها بينهم ، ولذلك فالطبقات « الحاكمة والغنية » تقاوم الامراض خوفاً من انتشارها واصابتهم بها ، ومن ذلك المحافظة الصحية على حدود المملكة حتى لا تتسرب اليها الامراض المعدية الوبائية

ثالثاً — توفير سبل العلاج للطبقات الفقيرة قبل ان تطالب به عملٌ حكيم لتهدئة الحركات الاشتراكية والشيوعية قبل ان تستفحل وتؤدي الى ثورة على النظم تخرج بها عن الحدود المعقولة

فالعناية بالصحة في جميع الممالك المتمدينة سارت شوطاً بعيداً في طريق الديموقراطية الحقة ، وذلك ما يتميز بهِ القرن الماضي والقرن الحاضر في تاريخ المدنية . ويتبين ذلك على الخصوص في توفير الماء الصالح للشرب ، والتخلص من الفضلات ، وتحسين المساكن ، ومراقبة الاغذية ، ومقاومة الأمراض المعدية

فالماء الذي نشربه من أهمّ مصادر العدوى اذا لم يكن نقيًّا جدًّا . فمياه النيل في مصر وكذلك مياه الترع ملوثة جدًّا ببراز الانسان والحيوان من آلاف الفلاحين الذين يشتغلون في المراكب فهم يتبوّلون ويتبرزون فيه عدا ما يغسل على الشواطيء من الأواني والملابس القذرة الملوثة ببول وبراز الانسان المريض والسليم ، ومن يتبولون ويتبرزون على الشاطيء ويستحمّون فيهِ ، فاذا شُربت هذه المياه على حالها كانت مصدراً كبيراً للعدوى بالأمراض خصوصاً الحمى التيفودية والزحار (الديسنطاريا) والكوليرا . . الخ فاذا ما تفشى أحد هذه الامراض في منطقة انتقل بسرعة الى جميع من يشربون هذه المياه الملوّثة

ففي المدن الكبرى في القطر المصري وفي جميع المدن والقرى في اكثر الممالك الأوربية ينقى الماء تنقية ميكانيكية وكيمائية بحيث يكون خالياً من شوائب الامراض ويوزع على جميع افراد الجمهور من دون تمييز بينهم بأجر قليل أو بالمجان ، ومن الخطأ ان يكون الماء احتكاراً للشركات التي تستغله للكسب بل يجب أن يكون من الاعمال التي تقوم بها الحكومة من الضرائب العامة

ولعلّ الرجل العادي في مدينة القاهرة لا يدرك ان الماء الذي نشربه الآن لم يتمتع بمثله الملوك والامراء في العصور السابقة ولا يتمتع بهِ الفلاح في القرى المصرية بعد . ولعلكم تعرفون ان هناك بعض الجهال في مدينة القاهرة يذهبون الى النيل لاحضار مياه الشرب مفضلينها على مياه الحنفيات ويقولون انها (مياه بخيرها) ولا يدركون ما بها من المرض ، وهذا يشاهد كثيراً في شهر رمضان حيث تباع الزلع الملأى بمياه النيل على العربات في الاحياء الوطنية ، وهذا مثل من فرض الديموقراطية على الجمهور الذي لا يقدّر فوائد هذه الاعمال

والقانون في البلاد الانكليزية يحرّم السكنى في منزل لا توجد بهِ المياه الجارية من الحنفيات فيسمّى في عرف القانون « بيت لا يمكن سكناه » وأما في القاهرة فهناك منازل كثيرة محرومة من المياه الجارية وذلك لان قيمة اشتراك المياه اكثر مما يسع الفقير دفعه

وأما القرى المصرية فلا تزال محرومة من المياه الصالحة للشرب الذي يقي السكان غائلة كثير من الأمراض

والتخلص من الفضلات له المقام الثاني في المحافظة على صحة السكان بدون تمييز بينهم ، وهذا أيضاً من الاعمال التي تقوم بها الحكومات أو البلديات لصالح جميع أفراد الجمهور ، وخير تلك الطرق اما بنقل المواد البرازية في الحال من المساكن الى حيث تعالج حتى تستحيل الى مواد غير ضارة

أو نافعة في الزراعة أو الصناعة ، وهذا ما يشاهد في عملية المجاري

أما فضلات الأكل وما يتخلف عن كنس المنازل والطرقات فيزال بجمعه ونقله بسرعة ، وما زالت القرى المصرية محرومة من كل هذا ، فالفلاح يعيش بين فضلاته وفضلات المواشي في جو لا يطاق ، عدا خطره على الصحة ، ومن الديموقراطية الحقة ان لا يترك على هذه الحال

واما تحسين المساكن فقد جرى شوطاً بعيداً في الامم الحديثة ، فقامت الحكومات ببناء آلاف من المنازل الصحية وآوت اليها الفقراء باجر قليل فوقتهم ووقت باقي افراد الامة شر الامراض العديدة والضعف الصحي الذي ينتج عن المساكن الغير الصحية

وقد عملت تجربة من هذا القبيل في القاهرة ، فبنيت مساكن للعمال في مكان تل معمل البارود بالقرب من كلية الطب ، ولكن تبين فيما بعد ان العمال لا يمكنهم اداء ايجارها المرتفع ، فسكنها الآن بعض الموظفين ، وذلك لان العامل في البلاد الاوربية يمكنهُ ان يسكن في منزل صحي وان يدفع ايجاره باعتبار الفوائد المعقولة بالنسبة لرأس المال الذي تقتضيه ، ولكن العامل في مصر لا يمكنهُ في الوقت الحاضر ان يقيم في منزل صحي ويدفع فوائد رأس المال الذي يتكلفهُ ، فهو لا يكسب في المتوسط اكثر من خمسة قروش في اليوم ، اما في القرى فالعامل يشتغل في الوقت الحاضر بقرشين ونصف القرش ينفق منها على جميع ضروريات الحياة له ولزوجته واولاده الصغار فلا يمكنهُ ان ينفق على المسكن اكثر من نصف القرش في اليوم اي ١٥ قرشاً في الشهر او ١٨٠ قرشاً في العام ، وهذا المبلغ يعتبر فائدة لرأس مال قدره ٦٠ جنيهاً باعتبار ٣ في المائة اذا ضربنا صفحاً عن القدر اللازم لاصلاح المنزل والمحافظة عليه ، ولا يمكن في الوقت الحاضر اقامة مسكن صحي بهذا المبلغ ، ولذلك لا يرجى اصلاح في مصر ما لم تُزَد اجور العمال ، ومن الخطأ اعتبار هذه المساكن منحة لساكنيها بل هي مساعدة لهم ودفعاً للاستغلال الغير المشروع عنهم

واما مراقبة الاغذية واعدام غير الصالح منها فهو عمل اساسه منع الضرر عن جميع الافراد من دون تمييز بينهم ، ومن الاسف ان تنفيذ القوانين الخاصة بذلك لا يلقى للآن العناية الواجبة في مصر وذلك لان الافراد انفسهم لا يقدرون قيمة هذا العمل بل يقبلون على شراء الاشياء التالفة من المواد الغذائية طمعاً في قلة ثمنها ولكن فاتهم مقدار الفائدة العظيمة التي تعود عليهم اذا كانت المواد جيدة خصوصاً في المواد السهلة التعفن مثل اللبن وهو قوام حياة الاطفال والمرضى والناقهين

ومقاومة الامراض المعدية والاوبئة من اجل الخدمات الديموقراطية التي تؤدى في الوقت الحاضر ، فقد اصبح الجدري مرضاً نادراً ، وقد كان الى عهد قريب لا تغيب ذكراه عنا لكثرة الافراد الذين تظهر على وجوههم آثاره والتي لا تزول حتى الممات ، وكذلك الكوليرا التي كانت تودي بحياة الالوف من السكان ، فكثيرون من الحاضرين لم يروا اهوالها ، وكل ذلك بفضل الاحتياطات الصحية ومقاومة الاوبئة في مبدئها بدون تفريق بين افراد الامة ، فالمرض بطبيعته لا يفرق

بين الافراد . فهناك المحافظة الصحية على الحدود وفي الموانئ وفي المطارات وفي مديريات القطر وهي على استعداد دائم للعمل حالما تظهر حالة مرض وبائي . فيتغلبون على الداء قبل استفحاله . وهناك عدد وافر من المنازل الصحية ومستشفيات الحميات والكوردونات لعزل مثل هذه الحالات والعناية بها والمحافظة على سائر الافراد من انتشار العدوى بينهم . وعلى هذا نرى ان تعاليم سيدنا موسى القيمة من الوجهة الصحية قد صار تنفيذها على شكل ديموقراطي واسع النطاق في عصرنا الحالي وقد تكللت باكبر قسط من النجاح . فكان من تأثير الاعمال الصحية الكبرى في الامم المتحضرة ان طال متوسط عمر الافراد جميعاً سنوات عديدة بدون تمييز بينهم وقلّت نسبة الوفيات بين الاطفال جميعاً لا فرق كبير بين مختلف الطبقات في ذلك ، وهذا اكبر دليل على ديمقراطية الصحة في العصر الحالي

وآخر ما وصلت اليه الحال في أرقى البلدان الأوربية من هذه الوجهة ان العناية بصحة أفراد الشعب تبدأ عند التفكير في الزواج ، فلا يصرح به الا اذا كان الزوجان خاليين من الأمراض التي يمكن أن تنتقل الى الذرية، بل قد شرعت المانيا اخيراً في تعقيم افراد الشعب المصابين بأمراض تؤثر في نسلهم تأثيراً كبيراً وقاية للمجموع من انتاج نسل شرعي أو غير شرعي مصاب بآفات تجعله حالة أو مصدر خطر على باقي أفراد الشعب . فاذا حملت المرأة فقد أعدت لها مستوصفات للعناية بها ودرء ما يحدث للحامل من المضاعفات أو الحوادث . فاذا جاءها المخاض تولى أمرها قابلات أو اطباء على حساب المملكة حتى يتم الوضع وتنهض الام . أما الطفل فيتولى أمره مركز رعاية الطفل حتى يبلغ الخامسة من عمره . فيجبر على الانتظام في مدرسة، وهناك يكون تحت رعاية اطباء المدرسة وهم عديدون على حسب اختصاصهم في مختلف فروع الطب خصوصاً الأمراض الباطنية المعدية وامراض الأنف والأذن والحنجرة والاسنان . ويستمر هناك الى أن يبلغ السادسة عشرة من عمره فيندمج في سلك العمال وهناك يكون ملزماً بالاشتراك في التأمين الصحي . الاَّ اذا كان ممن يزيد ايرادهم على ٢٥٠ جنيهاً ، فهؤلاء بطبيعة الحال يمكنهم الحصول على العناية الطبية والصحية ببذل الاجور المقررة لذلك

وعلى ذلك نجد أن الديمقراطية الطبية والصحية متوفرة تماماً في هذه الممالك . فهي تفكر في افراد الشعب قبل ان يكونوا أجنة في ارحام امهاتهم ولا تزال ترعاهم حتى يتوارون في المقابر ، ولكن الوسائل المتبعة في هذه المنشآت الطبية والصحية من الوسائل الضرورية فقط ، ولا يمكن مقابلة طرق العلاج المتبعة بما يمكن ان يحمل عليه الاغنياء ، وليس معنى هذا ان هناك نقصاً من الوجهة الفنية . بل الذي ينقص هو وسائل الراحة والترف والتنعم ، ويمكن ادراك هذا من حالة مريضين بالتهاب الزائدة الدودية أحدهما في عنابر مستشفى قصر العيني والآخر في الدرجة الاولى في مستشفى خصوصي . فالعملية في كلا الحالين تعمل بالطرق العلمية الصحيحة ، ولكن الحجرة والغذاء والخدم و. و . الخ تختلف تمام الاختلاف في الحالتين[١]

(١) وقد وقف المحاضر الجانب الاخير من محاضرته على مشروع الالتزام العلاجي القروي وقد نشرنا فصلا وافياً فيه في مقتطف مايو ١٩٣٤ . فليراجع هناك

الفاظ التصنيف

في الحيوانات الدنيا

للامير مصطفى الشهابي

— ١ —

بينتُ في عدد شباط (فبراير) ١٩٣٤ من المقتطف اصلح الطرائق الواجب اتباعها في نقل المصطلحات العلمية الى لغتنا العربية. ومن جملة ما ذكرتهُ في ذلك المقال ان الالفاظ التي تدلُّ معانيها على صفات بارزة في النبات او الحيوان تترجم الى العربية بمدلولات تلك المعاني. فالفاظ التصنيف في الحيوانات الدنيا كلها او معظمها لها معانٍ. فينبغي اذن الرجوع الى اصلها اليوناني او اللاتيني وبعدئذٍ توضع لها ألفاظ عربية تفيد المعاني المذكورة إما تماماً او على وجه التقريب عند الحاجة الى الإختصار. وهذا ما قمت بهِ في هذا المقال الموجز. وقد سبقني الى بعض الالفاظ الواردة فيهِ اصحاب مؤلفات الحيوان والمعاجم (أو المعجمات) العلمية. ولكن نصف تلك الالفاظ على الأقل هي من وضعي او مما لي فيهِ نظر يختلف عن نظر المؤلفين المشار اليهم. ومن البديهي ان هذا البحث انما كتب لمن يشتغلون باللغة العربية والفاظها ولاساتذة الحيوان في مدارس التجهيز والجامعات. اما غيرهم فربما ملُّوا قراءته

***

يقسمون دوحة الحيوان (مملكة الحيوان) بادىء بدءٍ قسمين كبيرين كل منهما ردف دوحة (ردف مملكة) وهما اولاً الحيوانات التي يكون فردها خلية واحدة. ثانياً الحيوانات التي يتركب فردها من خلايا عدة

فالاولى تسمى Protozoaires واصلح لفظة تقابلها « حُيَيْوينات » وسماها بعضهم دُوَيبات وأوَّليات. والثانية تسمى Métazoaires ومعناها العديدة الخلايا وقد يفيد التعبير عنها بلفظة واحدة هي « الخَلَويَّات »

الحييوينات

تقسم الحييوينات ثلاث شعب (قبائل ، قُبُل برأي من درسوا بالانكليزية خاصةً) ففي الاولى يوجد حييوينات مجهرية خليتها خالية من غشاء يحيط بها. ويكون لها نواغض تسعى بها او تلتقط بها. ويسمونها Rhizopodes اي جذرية الاقدام. فاذا لزم ان نطلق عليها لفظة واحدة قلنا

« الجَذريّات » . وفي الشعبة الثانية تكون الجبلة الاولى من خلية الحييوين محاطة بغشاء كما يكون لتلك الخلية أهداب تتحرك بها في الماء . وهي تسمى Infusoires اي « النقيعيّات » . اما الثالثة فهي شعبة الطفيليات المسماة Sporozoaires اي « الغُبَيريّات » سميت كذلك لانها تتكاثر بواسطة غُبَيرات Spores (ولا تقل بزوراً) . وتكون خلايا بعض الغبيريات محاطة بغشاء وبعضها لا غشاء لها . وجميعها خالية من اهداب تتحرك بها

***

﴿ الجذريات ﴾ تقسم شعبة الجذريات قسمين . ردف شعبة « الجذريات الفصّية » Rhizopodes lobés وردف شعبة « الجذريات الشبكية » R. réticulés وفي الردف الاول صفان (طائفتان) وهما اولاً صفّ « الغضاضات » او « المتحوّلات » Amiboides وفيه ابسط الحييوينات المسماة Amibes ومعناها الغضاضة او المتحوّلة او المتبدلة . ثانياً صف « الشمسيات » Héliozoaires وجميعها حييوينات مائية لها نواغض دقاق تشع حول الخلية ولذا سميت الشمسيات

اما الردف الثاني ففيه ايضاً صفان اولهما « النقبيّات او « المثقبات » Foraminifères وثانيهما « الشعاعيات » Radiolaires ولكل منهما صفات ليس ذكرها من متناول هذا المقال

***

﴿ النقيعيات ﴾ في شعبة النقيعيات Infusoires صفان الاول تتحرك حييويناته بأهداب طوال غلاظ قليلة العدد يندر ان يتجاوز عددها ست هدبات في الحييوين الواحد . ويسمون هذه الاهداب اسواطاً ولذا اطلقوا على هذا الصف اسم « النقيعيات السوطية » او « السوطيّات » Flagellés . اما الصف الثاني فله اهداب مهتزة صغار دقاق كبيرة العدد ربما بلغت ٢٥٠٠٠ هدبة في حييوين واحد . واسم هذا الصف « النقيعيات الهدبية » او « الهُدْبيات » I. ciliés

وفي كلٍّ من صفي السوطيات والهدبيات أربع رتب . فرتب السوطيات هي أولاً « السوطيات الجذرية » Rhizoflagellés وهي ببساطتها تقرب من الجذريات . ثانياً « السوطيات الأصلية » Euflagellés وفيها أهم خصائص السوطيات . ثالثاً « السوطيات المُطوّقة » Choanoflagellés ويكون سوطها محاطاً بطوق . رابعاً « السوطيات المثانية » Cystoflagellés وفيها حييوينات تشتمل أجسامها على فصفور مشع

أما صف الهدبيات فتقسيمه رتباً يقوم على شكل الاهداب في تلك الحييوينات . ورتبه الاربع هي : اولاً « كاملة الهُدب » Holotriches سميت كذلك لان أهداب الحييوين تكسو كل جسمه. ثانياً « مختلفة الهدب » Hétérotriches ويكون في أهدابها ضرب يختلف عن الاهداب الاصلية . ثالثاً « قرصية الهدب » Discotriches ولها أهداب تقوم على صفيحة كالقرص . رابعاً « تحتية الهدب » Hypotriches وأهدابها قد زالت اجمالاً الاّ حوالي الفم

ويقسمون السوطيات والهدبيات الى فصائل عدة يطول بنا نفس الكلام اذا ما رحنا نستقصيها

***

﴿ الغُبَيريات ﴾ جميع الغبيريات طفيليات تعيش في أجسام غيرها من الكائنات . واسمها مشتق من الغبيرات لأنها تتكاثر بها . وفي هذه الشعبة صفان مهمان . اولاً « الحُبَيبيّات » Coccidiens وجميعها كروية الشكل صغيرة القد تعيش واحدتها في خلية من خلايا مضيفها من الفقاريات والرخوة خاصة . وفيها أشكال كالغبيريات الدموية Hémosporidies و« الغبيريات اللحمية» Sarcosporidies و « الغبيريات المخاطية » Myxosporidies و « الغبيريات الدقاق » Microsporidies

أما الصف الثاني فهو يسمى بلفظة Grégariniens لم اهتد الى أصلها فيما حوته خزانة كتبي من المراجع

الخلويات

اختلف علماء الحيوان في كيفية تقسيم الخلويات الى شعب ، وقد اتبعت أحد هذه التصنيفات فكان على الصورة الآتية : يقسمون الخلويات بادىء بدء قسمين كبيرين كل منهما فوق شعبة وهما « الحيوانات النباتية » Phytozoaires و «الحيوانات المتناظرة أو المتناظِرات» Artiozoaires ففي القسم الاول ثلاث شعب معروفة وهي « الإسفنجيّات » Spongiaires و « المُجوَّفات أو مجوفات البطون » Coeulentérés و « الشوكيّات أو شوكيات الجلد » Echinodermes . أما القسم الثاني ففيه شعب « الديدان » Vers و « أشباه الديدان أو وحيدة الشعبات » Vermidiens ou monomérides و « الرَخوة أو الهُلاميّات » Mollusques و « المَفصِليّات » Arthropodes و « الحبليات » Cordés

***

﴿ الاسفنجيات ﴾ تعيش معظم الاسفنجيات في البحر لاصقة بالصخور شأن كثير من الحيوانات النباتية . وفي أصقالها شبكة من ألياف متشابكة يسمونها « سُنَيبلات » Spicules . وتختلف مادة هذه السنيبلات . وعلى اختلافها يبنون تصنيف الاسفنجيات فيجعلونها على صفين : « الاسفنج الكلسي » Eponge calcaire و « الاسفنج الرملي » E. siliceuse كما أنهم يبنون على شكل تلك السنيبلات تصنيف الاسفنج الرملي وتقسيمه الى رتب مثل « سداسية الفروع » Hexactinellidés و «رباعية الفروع» Tétractinellidés و«وحيدة الفروع» Monactinellidés . وهنالك رتبة « الاسفنج القرني » Cératospongiés لها اصقال مؤلفة من الياف قرنية متشابكة واليها ينسب الاسفنج الشائع

﴿ المُجَوَّفات ﴾ الجوفات أو مجوفات البطون من أكثر الحيوانات عدداً وانتشاراً في المياه . ومعظمها بحرية . ويسمونها زهر البحر لما لها من الاشكال الجميلة والالوان الزاهية ، واليها ينسب العُدَّار Hydre (عن معجم الحيوان) ورئة البحر أو فرج البحر Méduse واضرابهما

وتقسم هذه الشعبة الى أربعة صفوف وهي اولاً « العُدارات الرئوية » Hydroméduses ثانياً « المرجانيات » Coralliaires ثالثاً القُرَّاصيَّات Acalèphes رابعاً « المِشْطِيَّات » Cténophores

فصف العُدارات الرئوية يحتوي على ثلاثة روادف وهي ردف صف « العُدَّاريَّات » Hydroïdes وردف صف « الرئويات الخشنة او رئويات البحر الخشنة » Trachyméduses ثم ردف صف « المِمْصَّيَّات » Siphonophores (من السيفون وهو المِمَصّ)

وفي العُداريات ثلاث رتب : « العُدارات » Hydraires و« الجُرَيسيات او الجُلجُليات » Campanulaires والعدارات المرجانية » Hydrocoralliaires

وفي صف المرجانيات بعض من الرتب وتحت الرتب مثل المُشيمَّات Actiniaires وغيرها

***

﴿ الشوكيات ﴾ تشتمل شعبة الشوكيات على حيوانات متجانسة كبيرة العدد تعيش في البحار وتتركب من جسم له شكل نجمة ذات خمس شعب إجمالاً . تقسم الشوكيات خمسة صفوف وهي اولاً « النَجْميات » Stellérides وفيها نجم البحر المعروف وغيره من الحيوانات تتجلى فيها خصائص الشوكيات المهمة . ثانياً « قُنفُذيات البحر » Echinides واليها تنسب قنافذ البحر التي لا تكون فيها الشعب الخمس جلية كما هي في نجوم البحر . ثالثاً « الصِلِّيَّات او أذناب الحية » Ophiurides سميت بالاسم الأخير لأن شعبها الخمس تشبه الحيات في حركاتها حول مركز الجسم . رابعاً « قِثَّائيَّات البحر » Holothurides وفيها خيار البحر او قثاء البحر وغيره من الشوكيات التي تشبه النبات المسمى بهذا الاسم . خامساً « النُوريَّات » Crinoïdes وشكلها ابعد الشوكيات عن شكل نجم البحر او قنفذ البحر فهي تشبه ازهاراً قائمة على اعناقها ولذلك سميت بما ذكر

***

﴿ الديدان ﴾ الدود او الديدان حيوانات لافقار لها ولا مفاصل حتى عندما يكون جسمها مركباً من اجزاء متصلة . وثمة اختلاف بين العلماء في تصنيفها شأنهم في تصنيف كثير من الحيوانات السائرة . ونحن نذكر احد هذه التصنيفات وقد لا يكون اصلحها لان غايتنا من هذا المقال وضع الالفاظ العربية لاقسام المصنفات ليس غير . تقسم شعبة الديدان ثلاثة اقسام كل منها ردف شعبة وهي « المُفَلْطحات » Plathelminthes و« الحَلَقيات » Annelés و« الخَيطيات » Némathelminthes

فالدود المفلطحات سميت كذلك لاشكال معظمها المفلطحة وان كان بعضها غير مفلطح . وليس لجهازها الهضمي مخرج او فتحة . وليس لها جهاز للتنفس ولا جهاز لدوران الدم . ومعظمها خناث

طفيليات . وفيها ثلاثة صفوف « المُهْتَزّات » Turbellariés ولها اهداب مهتزة تكسو جسمها وهي تعيش في الماء الحلو او الملح . و« المُتَقطّات » Trématodes وتشتمل على دود مفلطحة قصار لا أهداب لها بل لها افواه كالمحاجم . و« الشَريطيّات » Cestodès وهي طفيليات مركبة من قطع متتابعة منها الدودة الوحيدة (تينيا) المعروفة التي تعيش في جوف الانسان . وهنالك جماعة من الدود مفرطة في طولها ربما بلغ طول واحدتها ثلاثين متراً بعرض خمسة مليمترات فهي اذن اطول الحيوانات على الاطلاق ولذا سميتها « السَلْسَبيات » ويسمونها بالفرنسية Némertiens وهم يلحقونها بالمفلطحات وبعضهم يلحقها بالمهتزات مع ان لجهازها الهضمي مخرجاً ومع ان لها جهازاً لدورة الدم ومع ان فيها ذكوراً واناثاً

اما الدود الحلقيات فلها اجسام طوال مجزءات قطعاً تفصل بينها حواجز . وهذه القطع او الحلقات تشتمل على زوائد يتحرك الحيوان بها وأظهرها زغب شائك . وللحلقيات صفوف ورتب منها « الهَلْباء » Polychètes وهي دود بحرية في الغالب يكثر فيها الزغب ولذا سميت الهلباء . ومنها « المعْراء » Oligochètes وهي على العكس من الاولى تقطن اليابسة او المياه الحلوة . زغبها قليل واليها تنسب دود الارض أي الخراطين Terricoles ودود المناقع Limicoles . ومن الحلقيات ايضاً « العَلَقيات » Hirudinées نسبة الى العلق المعروف وفي هذا الصف رتبتان « الخُرطوميات » Rhynchobdellidés و« الحنكيات » Gnathobdellidés

واما الخيطيات فلها اجسام مستطيلات او اسطوانيات او مغزليات . وهنّ خاليات من الاهداب المهتزة . ولهنّ رداء او جلد شفاف قاس شبيه بالذي يكون في الحشرات . ولهذا يفصلها بعض علماء الحيوان من شعبة الديدان ويجعلونها شعبة مستقلة هي اقرب الى المفصليات منها الى الديدان . وفي الخيطيات صفان مهمان وهما اولاً « الاسطوانيات » Nématodes واكثرها تعيش طفيلية في اعضاء الانسان كالصَفَر او الصَفار او الصُفار Ascaride والمعقوفة Ankylostome والهُدابة Filaire (سماها الدكتور حبيب صادر عرقة في كتابه « الامراض المعدية في البلاد العربية » ولم اجد في جملة معاني العرقة معنى لصفات الدودة المذكورة) . ثانياً « شائكات الرأس » Acanthocéphales وفيها دود تعيش في جوف الخنزير وبعض الطيور

***

﴿ اشباه الديدان ﴾ يسمونها ايضاً وحيدة الشعبات . وهي حيوانات لها اشكال مختلفة وصفات بعضها قريب من صفات الديدان ومنها حيوانات صغيرة هي اصغر الخلويات . وصفوفها ثلاثة . « الدَوّارات او الدولابيات » Rotifères و« الطُحْلُبيات » Bryozoaires و« عَضُديات الاقدام » Brachiopodes

﴿ الهلاميات ﴾ يسمونها ايضاً الرخوة . ومن ابرز صفاتها وجود المحارات او الصدفات الكلسية فيها . واجسامها رخوة بلا اعضاء قاسية ولا اجزاء مفصولة . وليس لجلودها شعر ولا شوك . وهي منتشرة في انحاء الارض في البحار والانهار والأحواض والمناقع . وعدد انواعها عظيم لكن صفوفها المهمة ثلاثة وهي اولاً « مزدوجات الصدف او ذوات الصدفتين » Bivalves ou Pélécypode ثانياً « المعديات او معديات القوائم » Gastéropodes ثالثاً « الرأسيات أو رأسيات الارجل » Céphalopodes

فذوات الصدفتين تشتمل على رتب منها « مختلفة العضل » Anisomyaires و « متساوية العضلتين » Dimyaires . والى صف ذوات الصدفتين تنسب الميدية والاستريدية ومحار اللؤلؤ وغيرها كثير

أما صف المعديات ففيه ردف صف « قُدّامية الخياشيم » Prosobranches ومنها رتبة « وحيدات الأُذَين » Monotocardes ورتبة « مزدوجات الأُذَين » Diotoçardes ورتبة « مختلفات الأذين » Hétérocardes

وفي صف المعديات ايضاً ردف صف « خلفية الخياشيم » Opisthobranches وفيها الرتب الآتية:

مستورة الخياشيم أو مغطاة الخياشيم Tectibranches

جُرابية اللسان أو زقية اللسان Ascoglosse

عريانة الخياشيم Nudibranches

جناحية الارجل Ptéropodes

وثمة ردف صف ثالث للمعديات وهو « الرئويات أو المعديات الرئوية » Gastéropodes pulmonés وفيه رتبة « ريشية الاعين » Stylommatophores ومنها البزاق المعروف . ورتبة « دُعامية الاعين » Basommatophores وفيها أنواع كثار تشبه البزاق

واعلى صفوف الهلاميات في التصنيف صف الرأسيات المار الذكر . وأعضاء هذه الحيوانات متكاملة تشبه أعضاء الفقاريات في بعضها . وجميعها بحرية . وكثير منها يصاد ويؤكل . وفيها رتبتان « رباعية الخياشيم » Tetrabranches ومزدوجة الخياشيم Dibranches . والرتبة الثانية تشتمل على « الأخطبوطيات » Octopodes وهي ثمانية الاقدام وعلى « عُشارية الأقدام » Décapodes ومنها الحَبار أو السَبيدَج وهو باللسان العلمي Sepia وبالفرنسية Sèche

هذا ما رأيت درجه في هذا المقال من أهم الالفاظ المستعملة في تصنيف الحيوانات الدنيا . ولا أدعي العصمة فيما وضعته ولا فيما عدلته من الالفاظ العربية . وانما هي محاولة حاولت فيها القاء دلوي بين الدلاء فيكون امام المسئولين عن وضع معجم المصطلحات العلمية المرتقب مادة جديدة ينظرون فيها اذا شاءوا وشاء لهم مبلغ علمهم بهذه الامور . وبقي لاتمام هذا البحث الصغير ان اذكر الالفاظ المختصة بالمفصليات وأخص منها الحشرات . ولما كان عدد هذه الالفاظ كبيراً وكان يوجد منها لدي شيء كثير مما خلت منه المعجمات الاعجمية العربية المعروفة ارجأت ذكرها للعدد القادم

اذا استشفيت من داء بداء

حمى تشفي من الشلل الجنوني

بطلُ هذه القصة ، رجلٌ يُدعى فاجنر يورجْ . اذا نظرتَ اليهِ حسبتهُ أُستاذاً مسالماً ، لا ثائراً في نفسهِ روح الحرب والنضال ، التي مكنتهُ بعد كفاح ثلاثين سنة من انْ يضع في ايدي الناس،وسيلة ، تقهرشلل المجانين الناشيء عن الاصابة باكره الامراض وأشدّها فتكا نعني الحلَق[1]

ان الميكروب الحلزوني المخيف الذي يسبّب هذا الداء من افتك الميكروبات بالانسجة ، ومن ابرعها في ابتداع الوسائل للاختفاء عن النظر ، والابتعاد عن وسائل الاطباء في مطاردته . والداء الذي يحدثهُ هو والسرطان من اعظم اللعنات التي اصيبت بها الانسانية . ولكن طائفة من الرجال ، الشجعان ،وقفوا حياتهم على هذا الكفاح ، وفي مقدمتهم شجاعة وصبراً وابتكاراً صاحبنا فاجنر يورجْ

كان عملهُ مقتصراً على التطبيب النفساني ، وهو من جميع فروع الطبّ ، اقلّها فائدة في دفع الموت . ولكن هذا الرجل المسالم ، البعيد عن عمل الطب الحقيقي ، قلب ناحية من تعاليمهِ رأساً على عقب ، فأثبت ان الحمّى ، وقد كانت تحسب اعدى عداة الانسان ، ليست الا ناراً يشوى في أتونها ، هذا الميكروب المخيف ، باعث الشلل الجنونيّ في الانسان

ان عملهُ يبعث على الدهش والاعجاب ؟ فلقد استعمل داء عياء لمعالجة داءٍ عياءٍ . بل انهُ مهّد السبيل لرجلٍ لا صلة لهُ بالطبّ ، فاستنبط وسيلةً لهذا النوع من العلاج ، لا تنطوي على المخاطر التي تنطوي عليها معالجة داءٍ بداءٍ

***

انقضت عليهِ ثلاثون سنة وهو يتقلّب بين الامل واليأس ، بين النجاح والاخفاق ، الى ان كان يومهُ العظيم في ١٤ من يونيو سنة ١٩١٧ . في ذلك اليوم التاريخي ، جمع فاجنر يورج شجاعتهُ ، وحقن في وريد ممثل مصابٍ بشلل الحالق ، قطيرات من الدم تعجُّ فيها جراثيم البرداء (الملاريا) . كان في الستين من عمرهِ ، حينئذٍ ، وكان عملهُ اقرب الى الخيبة منهُ الى النجاح ، وكان قد انقضى عليهِ ثلاثون سنة ، مذ ألهم ، ان نار الحمى ، تطرد من ادمغة المصابين بهذا النوع من الشلل ، غيوم الجنون

(١) الحلق استعمله امرؤ القيس ويقول الباحثون ان القرائن تدل على أنه عنى به ما يدعى في عصرنا بالسفلس

ارتدَّ بنظرك اليهِ ، وهو واقف في منتصف العقد التاسع من القرن الماضي ، امام سرير امرأةٍ لا تزال في السابعة والعشرين من العمر ، وقد تحوَّل فيها اضطراب الاعصاب ، عقب ولادتها ، الى جنون لا يشفى . كان يعلم ان جميع الاساليب في جعبة طبهِ النفساني ، لا تجديها نفعاً

وكان قد قضى ست سنوات يدرس علوم الطب ، حتى فاز بشهادةٍ ولقب . ولكن التنافس في الخفاء حرمهُ من منصب وُعد بهِ . فتألم ولكنهُ انطوى على ألمهِ . وقرَّر ان يهجر بلادهُ ويجيء مصر . بيد ان ضميرهُ القى اليهِ بهمسة ، مؤداها ان استزد علماً قبل ذهابك الى مصر . فلم يجد امامهُ الآ عيادة للمجانين يقوم عليها طبيب شيخ يدعى ليدسدورف . فاتيح له ان يقف الى جانب سرير هذه المرأة

هنيئاً لها انها مقبلة على الموت ! كانت قد اتت العيادة ، وهي تقول ان الشياطين تزعجها . ثم اشتدَّ بها الجنون الهائج تلتهُ فترة من الحرد والانكماش عن الناس . وها هي الآن وقد انقضت عليها خمسة اشهر وهي لم تكلم احداً . ان وجهها صفحة لا يرتسم عليها اي اثر من آثار العقل والذكاء ، فهي والحيوان سواءٌ ، بل هي دون الحيوان في ذلك

ثم اتفق ان اصيبت المرأة بالحمى التيفودية . وكانت اصابتها حادة ، فصارت تتشنج تشنجاً عنيفاً ، وفاجنر يورج ، ملازم سريرها ، منتظراً وفاتها . ثم وقف تشنجها ، وتراخت اعضاؤها في غيبوبة ، وهو يجأر الى الله ، ان ينقذها من الألم قبل ان تفيق . ولكن المرأة افاقت ، فشفيت من الحمى ، وشفيت كذلك من الجنون

فعدل فاجنر يورج عن السفر الى مصر ! أَلَمْ يتسرَّع في اتخاذ هـذا القرار ؟ ألم تكن عجيبة شفاء المرأة من الحمى والجنون اشبه بالقشة الطافية على سطح البحر ، يتعلق بها المشرف على الغرق ؟ ألم يكن رجلاً قد تلقى أساليب العلم ، فدلهُ علمهُ على أن شفاء المرأة من اصابتيها جاء اتفاقاً ؟ حتى اذا كان شفاء الشلل الجنوني مصاحباً للاصابة بالحمى التيفودية ، فمن يأذن لهُ في اقامة الدليل على ذلك ؟ من يسمح له بتعريضه عمداً للموت بالتيفودية ، على أمل شفائه من الشلل والتيفودية معاً ؟

ولكن حادثة المرأة التي تقدم ذكرها ، تركت اثراً في نفسهِ لا يمحى . فاكبَّ على كتب المتقدمين من الحكماء . بل رجع الى ابقراط المعروف بأبي الطب . فوجد في بعض ما يعزى اليهِ من الكتب انهُ رأى مصروعين يشفون من صرعهم بعد اصابتهم بالبرداء ثم قرأ في مجلد آخر قديم ان الكوليرا في فرنسا اكتسحت احد البيمارستانات ففتكت بمعظم قاطنيهِ ، ولكن الذين نجوا منها ، استعادوا نعمتيْ العقل والاتزان

قصص اذا ألقيتَ عليها ضوء العلم ، حكمت بأنها الى الاساطير والخرافات اقرب . ولكن فاجنر يورج ، كان يقضي نهاره يجول في اجنحة المجانين في المشافي ، وليله مكبًّا على هذه الكتب القديمة يحاول ان يتبين بين سطورها طريقاً هادياً

واذ كان يجول في احـد الأيام ، رأى امرأة ، كانت أمًّا لها تسعة اولاد ، ولكنها جنَّت ،

فأتي بها الى المستشفى وهي حاملٌ . واصيبت بعد الولادة بالحمرة ، وما انقضت عليها اربعة أشهر حتى كانت في دارها ، سليمة الجسم والعقل معاً

فعاد الى كتب الطب الحديثة ، لعله يستشف في صفحاتها شعاعاً يهديه ، او يفسر له ما يرى بأمّ عينه . فوجد حوادث متفرقة فعلت فيها الاصابة بالتيفوس او بالنزلة الصدرية ، فعل الحمى التيفودية أو الملاريا او الحمرة . بل انهُ عثر على تجربة لرجل يدعى لودوج مايَر . فقرأ أن هذا الرجل اخذ مرهم الانتيمون ، وجعل يفرك بهِ شواة (جلد الرأس) المصابين بشلل المجانين فتقرحت واصيبوا بحمى فشفي بعضهم من الحمى ومن الجنون . فضحك العلماء من لودوج ماير وتجربتهِ ، ونسجت عناكب النسيان ستاراً كثيفاً حولها

وكتب ڤاجنر يورج مذكرة بما رأى وقرأ ، واقترح ان يُحقَن المصابون الذين لا يرجى لهم شفاء بالحمرة والملاريا فلم يصغ اليهِ احد في اوربا . اما في اميركا فيقول الدكتور ده كروف انهُ ذهب في سنة ١٩٣٠ الى اكادمية الطب في نيويورك لمطالعة هذه المذكرة فوجد ان صفحاتها لم تُقَصّ !

***

ولكن الرجل اذا اندفع بشعلة من الايمان لم يَصدّهُ حائلٌ ما . بل قد تكون المعارضة والمقاومة ، مما يذكي في الرجل الحماسة ، فيندفع في سبيل غرضه ، لاخام المعارضين وكبت اصوات المقاومين . ولكن ڤاجنر يورج لم يلق من يعارضهُ ، ولا من يقاومهُ . وكان الاهمال نصيب ما يقول ، والاهمال على كل حال ليس من بواعث النشاط والحماسة في الغالب

ولكنهُ حاول ان يحقن بعض المصابين المُشْفين بمكروب الحمرة فلم يصابوا بالحمى ولا شفوا من الجنون . ورغب في تجربة الملاريا فلم يرَ احدٌ من الحكمة انشاء عيادة في قلب فينا ، تكون بؤرة تنتشر منها الملاريا . كان ذلك قبل ايام رُسْ وغراسي الذين كشفا كيف تنتقل الملاريا وكيف تعالج

وكذلك مضت عليهِ ثلاث سنوات ، وهو عاجز عن التقدُّم ، حتى وجد طريقة تمكنهُ من احداث الحمى في اجسام المصابين من دون ان تكون سبباً لتفشي الاوبئة في العاصمة . ذلك ان اوربا كانت معنية سنة ١٨٩٠ كل العناية ، بمادة التوبركولين ، التي استخرجها روبرت كوخ ، اعظم غزاة الميكروب ، من باشلس الدرن . وكان الامل الذي بعثتهُ هذه المادة في النفوس قد تحوّل الى خوف من المخاطر التي يتعرّض لها من يحقن بها ، لان مئات من الوفيات حدثت على أثر ذلك واصبح استعمالها يُنظر اليهِ بعين الريب

ولكن ڤاجنر يورج اقبل عليها . فقضى عشر سنوات يجرب التجارب بها ، حتى بعد ان رُقّي الى منصب استاذ في معهد فينا الطبي . جرّب مئات التجارب ولكنهُ لما اهلّ القرن العشرون ، راجع نتائج هذه التجارب ، فحكم بأنها الى الاخفاق اقرب . نعم كان قد شفي بعض الذين حقنوا بهذه المادة ، من جنونهم . ولكن تجاربهُ لم تكن قائمة على اساس علميّ . ذلك انهُ حاول ان يعالج بها

جميع ضروب الجنون ، على اختلافها ، وهو لا يدري ، ان نوعاً خاصّاً منها فقط يعنو لهذه الحمى

وكان فاجنر يورج رجلا لا يخدع نفسه . كان في وسعهِ ان يذيع النجاح العظيم الذي اصابه في بعض الاصابات فلم يفعل . بل اعترف فيما بينهُ وبين نفسه ، انهُ اخفق . فجلس يتأمل في ضروب الجنون واسبابها فتبين ان اسباب معظمها مجهولة ، الاّ ضرب واحد اتفق الثقات على تعريفه وهو الشلل العام الجنوني ، وهو مرض لا يشفى بل يدوم سنوات ثم يفضي الى العَتَه والموت

فقرر في تلك الليلة التاريخية ، انهُ لن يحاول بعد الآن ، ان يعالج بالحمى ، الاّ المصابين بهذا النوع من الجنون — أي الجنون الناشيء عن الشلل العام الذي سببهُ الحلق (السِفِلِس) . وكذلك استعان في سنة ١٩٠١ بطبيب يدعى « بلكز » Pilcz فجعلا يحقنان بالتوبركولين جماعة من المجانين في بيمارستان شتينوف . كان بعضهم مصاباً بالعته وآخرون بالمالنخوليا فكانوا على وشك الانتحار ، وغيرهم بجنون العظمة والعبقرية او اضطهاد الناس لهم . لم يعرَفْ من قبلُ ان مجنوناً دخل هذا البيمارستان وخرج حيّاً لان الموت كان محتوماً على جميع المصابين طالت حياتهم او قصرت

***

ومضت بضع سنوات كشف في خلالها عن سبب الشلل الجنوني العام . كان العلماء قد ظنّوا قبل ذلك ان هذا النوع من الشلل سببهُ ، مكروب الحَلَق الحلزوني . ولكن في سنة ١٩٠٦ طبق اوغست فون ڤاسرمن الكاشف الذي استنبطه بورديه البلجيكي ، لاكتشاف مكروبات الحلق في ثنايا الجسم . وهو كاشف ڤاسرمن المشهور . وفي السنة نفسها طبق ڤاسرمن هذا الكاشف على سائل الحبل الشوكي في المشلولين (الكلام في المقال خاصٍ بالمصابين بهذا النوع الخاص من الشلل ولذلك نكتفي بذكر المشلولين) فتبين له ان مكروبات الحلَق مختفية في الدماغ . وفي سنة ١٩٠٨ تأكد فاجنر يورج ان ٩٩ في المائة من هؤلاء المشلولين ، يخفون في ثنايا دماغهم هذه المكروبات

وفي سنة ١٩٠٩ عقد مؤتمر طبي دولي في بودابست فقرأ فاجنر يورج رسالة امامهُ ، بسط فيها نتائج معالجة المشلولين بالتوبركلين . كانَ قد اخذ تسعة وستين مصاباً وحقنهم حقناً متوالية بالتوبركلين . وترك تسعة وستين آخرين من دون حقن . فكانت النتيجة ان ثمانية من الفريق الاول وخمسة من الفريق الثاني ، ظلوا على قيد الحياة . وهي نتيجة ضئيلة لا يمكن ان يبنى عليها حكم عام ولكنهُ لم يقنط . فمضى في تجاربه ، كأنه يجري وراء سرابٍ . والانكى في كل هذا ان بعض المصابين كانوا يشفون بهذا العلاج ، فيغتبط فاجنر يورج ، ثم تمضي شهور ، واذا هم يعودون اليهِ ، فيتبين فيهم انهم على طريق القبر . فيأسف اشدَّ الاسف ، من دون ان يسمح للقنوط والوهن ان يتطرقا الى نفسهِ

فلما كانت سنة ١٩١١ تبيَّن شعاعة من الامل . ذلك ان ارلخ كان قد صنع حقنته المشهورة المعروفة برقم ٦٠٦ وبعد التجربة ثبت انها تفتك بمكروبات الحَلَق في ادواره الاولى ثم ظهر انهُ اذا

طال الزمن على هذه المكروبات وهي معششة في جدران الاوعية الدموية ، اصبحت منيعة حتى على حقنة ارلخ الفعالة . فاذا هيجت استفاقت وهي افتك ما تكون ، فيكون في استفاقتها موت المصاب

فلما خاب امل فاجنر يورج في حقنة ارلخ مضى يستعمل التوبركلين . ولكنهُ حاول الآن ان يستعمله في المراتب الاولى من الشلل الجنوني . وفي سنة ١٩١٤ تتبع ٨٦ مشلولاً كان قد عالجهم في سنة ١٩٠٧-١٩٠٩ فوجد ان واحداً وعشرين منهم كانوا لا يزالون على قيد الحياة وان سبعة من هؤلاء يقومون بأعمالهم على اوفى وجه

ومن غرائب البله الانساني ، ان نتيجة كهذه لم تحدث أي اثر في دوائر الطب العالمية ، مع ان جميع الاطباء كانوا يعلمون ان اقصى مدة يعيشها مصاب بالشلل الجنوني العام قد لا تعدو سنتين!

***

واخيراً جاء يومه المشهود . كان يوم ١٤ يونيو سنة ١٩١٧ لما جاءه احد معاونيه واسرّ في اذنه ان في المستشفى جندياً مصاباً بصدمة القنابل وبالملاريا ، وسأله هل يعالجون الملاريا بالكينا . فتوقف فاجنر يورج قليلاً . كان قد اشرف على الستين وهو يعلم ان علاج التوبركلين اشبه بالسراب ، جرى وراءه ثلاثين سنة ، حتى اكتشف انهُ سراب

هاهي اساريرهُ تنقبض وتنفرج . لقد وصل الى قرار حاسم . ولكن هل يجرؤ على تنفيذه ؟ انهُ يعلم ان الملاريا انواع منها ما هو حميد ومنها ما هو خبيث . وهو على كل حال ليس خبيراً بالملاريا . على ان الفرصة اثمن من ان تفوّت . فأسرّ شيئاً في اذن مساعده ، فانطلق هو واخوان لهُ يستخرجون من اذينة الجندي قطيرات من الدم ، حافلة بجراثيم الملاريا

ولكن ما العمل اذا اخذت الملاريا تنتشر في فينا وأحوال المعيشة فيها في السنة الثالثة من الحرب الكبرى اعسر من ان يضاف اليها وبالا مخيف ؟ ألا تلقى التبعة على كاهله ؟ ألا تسلقه الصحف بألسنة حداد ؟ ألا يحسب قاتلا عمومياً ؟ ولكن فاجنر يورج لم يفكر في تلك الساعة في شخصه . بل رأى بعين الذاكرة ، مواكب المشلولين المجانين ، يمرّون امامهُ موكباً اثر موكب ، خلال ثلاثين سنة من الممارسة الطبية وهو يعالجهم بالتوبركلين ، فلا يقضي لبانة . اين هم الآن ؟ معظمهم قد لقي حتفه واقلهم قد شفي . أما كيف شفوا فلا يعلم الاَّ الله

لذلك صمم فاجنر يورج في ١٤ يونيو سنة ١٩١٧ ان لا يعالج الجندي المصاب بالملاريا بالكينا . ولكنهُ مبالغةً في الحيطة ، بعث بطائفة من معاونيه يبحثون في جوار المستشفى عن البعوض الناقل للملاريا فلم يجدوه . عند ذلك اخذ الدم المستخرج من عروق الجندي ، ووضع قطيرات منهُ في خدش ممثل مصاب بالشلل الجنوني ، وقطيرات اخرى في خدش احد موظفي البريد . وأعيدت التجربة سبع مرات في خلال الشهرين التاليين . وانقضت عشر سنوات فماذا احدث في خلالها ؟ في سنة ١٩٢٧ كان ثلاثة من المصابين التسعة الذين حقنوا بجراثيم الملاريا ، يزاولون اعمالهم ،

ويكسبون رزقهم بعرق جباههم وهم اوفر ما يكونوا صحة عقلية وجسدية . كانت جراثيم الملاريا قد رفعت حرارتهم الى ما فوق الاربعين بالميزان المئوي ، وكانت القشعريرة التي تصيبهم ، تجعلهم ينتفضون في السرير انتفاضاً ، حتى لتحسب ان جنونهم قد ثار واشتدّ ، وكانت صيحاتهم تتعالى فترنُّ اصداؤها مزعجة مخيفة . ولكن ثلاثة من تسعة خرجوا من هذا الاتون وقد صهروا فيه الادران التي جعلتهم الى الحيوانات اقرب منهم الى الانسان العاقل . ولكن ماذا حدث للباقين ؟ مات احدهم — موظف البريد — في خلال تشنج عنيف اصيب بهِ عند حلول دور القشعريرة الملارية. واما الاربعة الآخرون ، فكانوا قد حقنوا على ما يظهر بجراثيم نوع خبيث من الملاريا ، فمات ثلاثة منهم وانقذ الرابع باعطائه جرعات كبيرة من الكينا . وكذلك تعلم ڤاجنر يورج انهُ اذا حُقِن المصابون بالشلل الجنوني ، بجراثيم الملاريا الحميدة ، شفتهم حمّاها من اصابتهم الاولى ، ثم تشفيهم الكينا من اصابتهم الثانية . وهذه حقيقة جديدة في كفاح الانسان ضد المرض والموت

***

بيد ان الشيء الوحيد الذي عكّر على ڤاجنر يورج صفو انتصاره ، كان انَّ ثلث الذين عولجوا بالملاريا شفوا واما الثلثان الباقيان فلقيا حتفهما . ولكن لا غرابة في ذلك لان نسيج الدماغ اذا هرأهُ مكروب الحلَق لا يستطيع ان يُرمّم نفسهُ كما يفعل العظم اذا كسر او كما يفعل نسيج العضل او الكبد او غيرها من نُسُج الجسم . فكأن الثلثين من المصابين الذين عولجوا بالملاريا ، جاءهم العلاج بعد فوات الاوان

هنا شرع هذا المكافح الشديد الشكيمة ، يفعل ما يقضي بهِ المنطق . شرع يعالج المصابين بالشلل الجنوني العام ، عند ما تبدأ الاعراض بالظهور عليهم ، اي عندما تبدو عليهم اعراض الاعياء ، وتثبت الكواشف ان مكروب الحلق مختفٍ في ثنايا ادمغتهم ولكن قبل ان يفتك بنسيجها . فكانت نتيجة هذه التجربة ، وقد وضحت له معالم الطريق ، ان ثلاثة وثمانين من مائة مقضيٍ عليهم بالموت المحتوم ، شفوا وعادوا يزاولون اعمالهم وهم على احسن ما يكون صحة ونشاطاً

ولكنهُ لم يكتفِ بهذا . والطبيب اذا اكتشف اسلوباً من العلاج ، ينقذ بهِ ٨٣ في المائة من الموت المحتوم ، ميال في الغالب الى التحكّم والقول بان طريقتهُ خير الطرائق . الا ان ڤاجنر يورج لم يفعل ذلك بل مضى في تجاربهِ وامتحاناته . وبعد قليل صرّح في رسالة علمية ، انهُ اذا تبعت المعالجة بالملاريا ، حقن كبيرة من مركب ارلخ (٦٠٦) كانت النتائج اوفى ما يمكن ان تكون . وجعل شعارهُ في رسالتهِ هذه ما معناهُ : ليست المسألة مسألة تفضيل طريقة من العلاج على اخرى بل الوصول الى اوفى طرائق العلاج والشفاء

اما كيف تحوّل الملاريا ، حقنة ارلخ ، في هذا الدور من العلاج ، من شيء لا يفيد الى شيء يفيد ، فلا يزال من الاسرار . يقال ان حمّى الملاريا لا تشوي جميع المكروبات كل الشيّ . فهل

تضعف ما لا تشويه ؛ فتعدُّهُ لفعل مقذوفات الحقنة ؟ او هل تنشئ الحمى في جسم الانسان ، مكافحاً جديداً للميكروب فيجهز عليه ؟ او هل هي تحوّل النسيج الحائل degenerate في دماغ المصاب الى نسيج سليم ، فتعدُّ الطريق لمقذوفات ارلخ الزرنيخية لتكتسح الميكروبات المختفية في ثناياه ؟

وفي سنة ١٩٢٧ كان هذا الرجل المحسن الى الانسانية ، قد بلغ السبعين . وكان على وشك ان يعتزل منصب الاستاذ في معهد فينا الطبي . فاجتمعت طائفة من تلاميذه واعوانه وغيرهم ممن كان مديناً لهُ بالحياة والعقل للاحتفال به . وكان العالم قد اعترف بيدهِ على الانسانية لما منحتهُ لجنة نوبل جائزة نوبل الطبية . ولكنهُ كان شارد الفكر في ذلك الاحتفال ، لانهُ وحده كان يدري ، ما يزال امامهُ من الكفاح مع انهُ في السبعين !

وهل تحول السبعون دون الكفاح ؟ ان في هذا الرجل نفحة من بيتوفن ، الذي مات في التسعين من العمر ، متحدياً العاصفة الثائرة خارج داره ، وهو يلفظ نَفَسهُ الاخير

ان الملاريا تشفي من الشلل الجنوني العام ، اذا كان المرض لم يبلغ من فتكه بنسج الدماغ مرتبةً بعيدة . ولكن الطبيب الجنديَّ ، يبغي ان يمنع الشلل العام . وفي هذا الميدان يرى الفائدة الصحيحة لطريقة العلاج بالملاريا . لماذا لا يعالج بها ، الذين يثبت وجود مكروب الحَلَق في اجسامهم ، قبل ان يصابوا باعراض الشلل الجنوني الاولى ؟ لماذا لا يحال بينهم وبين الشلل الجنوني على الاطلاق ؟

وكان كيرل Kyrle ، احد كبار الاطباء في قسم الحَلَق بعيادة الدكتور فنجر بفينا من الذين اصغوا اليهِ ، وهو يتحدَّث بهذا ، ولكنهُ لم يأنس من نفسهِ اندفاعاً الى تجربة ما يقول . بيد انهُ في احد الايام في سنة ١٩٢٢ ، كان يتنزه مع ڤاجنر يورج فقال له انهُ قد بدأ التجربة ...

استعمل كيرل جميع وسائل الاغراء والاقناع ، ليحمل هؤلاء المصابين ، وهم لا يزالون في الظاهر في عنفوان صحتهم ، ان يقامروا هذه المقامرة ، بالرضوخ لهذا العلاج . فحقنهم اولاً بحقنة ارلخ الجديدة — ٩١٤ بدلاً من ٦٠٦ وهي تدعى نيوسلفرسان — ثم ادخل جراثيم الملاريا في اجسامهم وتركهم يتقلبون في نار حمّاها وارتجاف قشعريرتها ، ثم شفاهم من الملاريا بالكينا ثم حقنهم بالنيوسلفرسان ثانية . والنتيجة ... ! كانت النتيجة ان واحداً من المئات الذين عولجوا بهذه الطريقة لم يصب بالشلل الجنوني العام ، وقد انقضت نحو تسع سنوات على ذلك . بل هناك ما هو اغرب من الحيلولة بينهم وبين الشلل الجنوني . فقد اثبتت هذه التجارب ، ان هذه المعالجة . تعدُّ الجسم ، لمساعدة حقنة ارلخ الزرنيخية على قتل المكروبات . وبذلك تفسّر عجزها السابق الذي حيَّر العلماء

فلما حصل كيرل على نتائجهِ الاولى ، اندفع من غير ان يحثَّهُ صديقهُ الشيخ ، ووجد كما وجد ڤاجنر يورج قبلاً ، ان التبكير في اشعال نار الملاريا في اجسام الملوَّثين بهذا المكروب الخاتل ، اهدى الى النجاح . كان كيرل قد عالج ٢٥٠ مصاباً بهذه الطريقة ، وها هم قد فحصوا جميعاً ، وامتحنت دماؤهم فثبت ان دماءهم جميعاً — الاَّ ثلاثة — خالية من ميكروب الحَلَق ، على قدر ما يستطيع

العلم الحديث ان يتبيّنهُ بأدق الكواشف . ومات كيرل في سنة ١٩٢٦ ولكن المشعال الذي سلّمهُ اياه فاجنر يورج ، انتقل الى يد مهندس كهربائي في اميركا يدعى هوتني

***

القِ نظرة على احد معامل البحث في الشركة الكهربائية العامة تَرَ فيه انابيب الراديو تمض وتظلم . ولكنك لا تسمع محادثة دائرة بين قارتين ، بل تشهد طائفة من الاطباء ومساعديهم وقد ارتدوا ملابسهم البيض ، وهم يحاولون ان يمتحنوا آلة جديدة الغرض منها استعمالها في علاج بعض الامراض . ذلك ان الامواج اللاسلكية القصيرة التي تنقل الاصوات بين البلدان النائية ، تؤثر كذلك تأثيراً غريباً في جسم الانسان والحيوان اذا جمعت ووجّهت اليه ، فترتفع حرارته عند اختراقها له ويصاب بحمى عالية

افلا يمكن ان تستعمل هذه الطريقة الطريفة في معالجة الشلل الجنوني بدلاً من الملاريا ؟ فالطبيب ليس معصوماً عن الخطاٍ . والملاريا اصناف منها الحميد ومنها الخبيث . فالخبيث منها يميت في الغالب . بل ان الحميد منها قد يستعصي احياناً ، يظهر آناً ويكمن آخر . والاصابات الملارية المتعاقبة تنهك الجسم وتفقر الدم . أفلا يستطيع الاطباء ان يستعملوا هذه الحمى التي تحدثها الامواج اللاسلكية ، لما استعملت له حمى الملاريا ، وتكون في الوقت نفسه خاضعة لسيطرتهم كل الخضوع ؟

جاءت الاشارة الاولى ، الى امكان استعمال الاشعة القصيرة في هذا السبيل من الدكتور ولس هوتني ، مدير قسم المباحث في الشركة الكهربائية العامة في سكنكتدي نيويورك . ذلك انه وجد ان العمال المشتغلين بآلات الاذاعة اللاسلكية التي تستعمل امواجاً قصيرة ، يصابون بحمى لم يعرف لها سببٌ طبي . فوجّه طائفة من الباحثين الى البحث عن وسيلة تمكنهم من ضبط هذه الامواج ، وتحقيق اثرها في الجسم ، ومعرفة تفصيلات فعلها في احداث الحمى ، لعلّ الاطباء يهدون السبيل الى استعمالها في معالجة بعض الامراض

فبنيت الادوات الكهربائية اللازمة في معامل الشركة المذكورة وعهد الى الدكتورة هلن هُسمَر من كلية ألبني الطبية في امتحانها . فوجّهت اشعتها في احد امتحاناتها الى ضفدع صغيرة فارتفعت حرارتها ١٢ درجة . ثم جربتها في حيوانات مختلفة فارتفعت حرارة اجسامها . ثم وجهتها الى محلولات ملحية مختلفة فارتفعت حرارتها أيضاً . وللحال اصدرت تحذيراً يقضي بمنع توجيه الاشعة اللاسلكية القصيرة الى اجسام الناس قبل ان يزداد الباحثون معرفة بخصائصها وأثرها

وقد عني الدكتوران تشارلز كاربنتر والبرت بايج بصنع آلة متقنة لهذا الغرض وافلحا بواسطتها في رفع حرارة الجسم الانساني الى درجة تفيد في معالجة بعض الامراض من دون ان يصاب المعالج بضيق ما . وبعد تجارب كثيرة جرّبا آلتهما ورائدهما الحذر العظيم في معالجة بعض المصابين فوجدا ان بقاء حرارة المصاب مدة طويلة لا يعقبها أي ضرر

والآلة أشبه شيء بآلة لاسلكية عادية ولكن بدلاً من ان يكون لها سلك هوائي تنبعث منه الاشعة القصيرة في الفضاء لها لوحان من معدن الالومنيوم يدعيان « لوحا المكثف » Condenser Plates فتجمع بهما القوة الكهربائية داخل الآلة وتستعمل لرفع حرارة الجسم . وللآلة صندوق تحفظ فيه طوله ست اقدام وعرضهُ ثلاث اقدام وهو قائم على عجلات ليسهل نقله من مكان الى آخر في حجرة الامتحان

يُلقى المريض على ظهره على رباطات قطنية متشابكة معلقة من هيكل خشبي جدرانهُ من نوع من السلولويد فكأنَّ الصندوق تحت المريض غرفة مملوءة هواء . ويغطى المريض بلوح من السلولويد هو غطاء للصندوق فيحكم اقفاله فلا يظهر الاَّ رأس المريض من احد طرفيهِ وكأنَّ المريض فيه معلق في غرفة محكمة السد . ويوضع لوحا التكثيف على جداري الصندوق كل منهما على جدار حتى تخترق جسم المريض الامواج التي تنبعث منهما . وسرعة التذبذب في هذه الامواج تتباين من عشرة ملايين موجة الى اربعة عشر مليوناً في الثانية . والمسافة بين اللوحين تتغير ولكنها تكون نحو ثلاثين بوصة عادة . ويغشى اللوحان بالمطاط منعاً لتطاير الشرر منهما . وللآلة اجزاء اخرى ولكنها ثانوية لا محل للتبسط فيها هنا . وقد تمكن الدكتور كاربنتر والدكتور پايج من رفع حرارة الجسم ٥ درجات او ست بميزان فارنهيت فوق درجة الحرارة الطبيعية وذلك في مدى ساعة الى ساعة وثلث . وبلغت درجة الحرارة في احدى الحالات ١٠٦٫٥ بميزان فارنهيت ويستطاع رفعها الى اعلى من ذلك . ولكن الباحثَيْن ظنَّا صواباً ان الحذر يجب ان يكون رائدهما في بدء مباحثهما هذه خوفاً من تعريض الارواح لهذه الاشعة الفتاكة

ومتى بلغت حرارة الجسم الدرجة المطلوبة احتفظ بها اما بتخفيض قوة التيار او بابعاد لوحي التكثيف او باستعمال منفاخ يحرك الهواء الذي يحيط بالجسم ثم تأخذ الحرارة في العودة الى درجتها الطبيعية تدريجاً اذا ترك المعالج في الصندوق ملتحفاً بعلايات من الصوف

***

فرتز شودِنْ الالماني وبورديه البلجيكي وقاسرمن الالماني كشفوا عن ميكروب الحلق الفظيع واعدّوا الكواشف لتبينه في ثنايا الجسم . ثم جاء ارلخ فأخرج قنابله الدقيقة في محلوليه ٦٠٦ و٩١٤ لاطلاقها على ميكروباته ، فأفادت بعض الفائدة ، وتلاه فاجنر يورج ، فامدَّ الميكروبات بفعل الحمى العالية في الجسم فصارت اتمَّ فتكاً . وها هوذا هوتني وصحبه يجربون التجارب ، لوقاية الجسم من حمى الامراض ، مستعينين على ذلك بالامواج اللاسلكية العجيبة

ان واحداً من كل تسعة يموتون بين الاربعين والستين من العمر في نيويورك يموتون بالشلل الجنوني العام . فهل يدري مكافحو المرض والموت ، ان هؤلاء الروَّاد قد وضعوا في ايدينا الوسيلة الفعَّالة للقضاء على هذا العدوّ الخاتل

الزمكان

أو اندماج الزمان بالمكان والبعد الرابع

بقلم نقولا الحداد

لكي نفهم البعد الرابع الذي كشفت عنهُ المباحث العلمية الجديدة وأخصها مباحث «النسبية» يجب أن نفهم معنى اندماج الزمان بالمكان كما يعبّر عنهُ علماء اليوم بلفظ واحد Space-time ونحن نترجمه بلفظ عربي واحد «الزمكان» مختصر «زمان — مكان» ولكي نفهم هذا الاندماج الذي يستهجنه المفاجأون بهِ ويتعذر عليهم تصوُّره يجب أن نفهم ما هو المكان وما هو الزمان أو ما هو المعنى المراد منهما ؟

ما هو المكان

حتى أوائل هـذا القرن كان المعنى المراد بلفظ « المـكان » الحيز الذي تشغله المادة المحسوسة أو يمكن أن تشغله . مثال ذلك هذا الكتاب الذي في يدك هو مجسم طوله ٢٥ سنتيمتراً وعرضه ١٥ وسمكه سنتيمتر واحد فقط . فالفراغ الذي يملأه هذا الكتاب بهذا المقياس يعتبر مكاناً له . فاذا أخذت الكتاب من موضعه وأبعدتهُ الى مكان آخر فهل يبقى ذلك الحيز الذي اشغله معتبراً مكاناً ؟

لا بدَّ أن تقول : طبعاً . يعتبر مكاناً ، اولاً لأنهُ يحتمل أن يشغله ذلك الكتاب كما كان يشغله قبل أن ننقله منه أو يشغله جسم آخر بحجمهِ . وثانياً لاني أستطيع أن أتصوره مشغولاً بذلك الكتاب أو بأي جسم آخر مثله . وبناء على هذا القول جميع رحاب الفضاء التي نحسبها خالية تُعتبر أمكنة ، لأن اجرام المادة تنتقل فيها من حيز الى حيز على التوالي ، ويمكننا تصوُّرها مشغولة بالاجرام والأجسام المادية جنباً الى جنب وان كان حدوث هذا بالفعل مستحيلاً — يمكننا تصور الاجرام مالئة الفضاء هكذا بالرغم من أنها منثورة في الفضاء ومتفرقة فيه تاركة فيما بينها رحاباً سحيقة المسافات

ولما كنا نستعين بالتصور — حتى تصور المستبعد أو تصور بعض المستحيلات — في تفهُّم المكان نوغل في التصور لكي نفهم كيف يمكن أن نتصور المكان . فلنتصور اذن أن المادة اضمحلت تمام الاضمحلال من الوجود ولم يبق لها أي أثر ، ولم يبق في الوجود الأ عقلنا فقط يتصور ، فأي صورة تكون فيهِ للمكان ؟

قد تقول : بالرغم من تصوري اضمحلال المادة لا أزال أتصور الفضاء الخالي مكاناً يحتمل أن تشغله مادة اذا عادت المادة المضمحلة الى الوجود — أجل تتصوره كذلك لان صورة المادة ، قبل اضمحلالها ، مطبوعة في ذهنك . فيتعذر عليك أن تمحو من ذهنك صورة مطبوعة فيهِ كما فرضنا محقها من الفضاء . ولكن اذا طلبنا اليك أن تتعمق في تصور الفضاء خالياً من المادة خلوًّا

مطلقاً فهل تستطيع أن تتصوره فراغاً مطلقاً ؟ وان قلت : أستطيع أن أتصوره هكذا ، فهل تستطيع أن تتصوره بلا حدود مهما كان رحيباً ؟

هنا أراك واجماً . أراك في حيرة . لانك ان كنت تتصوره ذا حدود فالحدود هي مادة أو شبه مادة . فأنت إذن لم تفرغه في تصورك ، من المادة افراغاً تامًّا كما فرضنا . بل لا تزال تتصوره محاطاً بمادة . وحينئذٍ يمكنك أن تقيسه بين حدوده ولو كما يقيس الفلكيون الابعاد والرحاب السحيقة بواسطة سرعة النور . وحينئذٍ يمكنك أن تتصور هذه الحدود متنقلة فيه كتنقل الاجرام والاجسام . وان كنت تزعم أنك تستطيع أن تتصوره خالياً من كل شيء حتى من الحدود فأنت تتصوَّر العدم . وتصوُّر العدم عدم . فاذاً أنت لا تتصور شيئاً . بل أنت غير متصوِّر . أنت ساكن الذهن . والاَّ فما هو العدم ؟ أو ما هو الفرق بين الفضاء الخالي والعدم

اذن ، لا تستطيع أن تتصور الفضاء خالياً من المادة . أزل المادة من الوجود — أعدم الاجرام بتاتاً ، ينعدم الفضاء أيضاً . ينعدم المكان . واذن لا معنى للمكان بلا مادة تشغله . لا معنى للفضاء بلا أجرام تحد رحابه — واذن ، منطقيًّا ، لا وجود للمكان بتاتاً لولا وجود المادة . وجود المادة قرَّر وجود المكان . المادة خلقت الحيز الذي أشغلته . فاذا قلنا « المكان » أو « الحيز» أو «الفضاء» (Space) كنا نعني مادةً تشغل حيزاً وتتنقل من حيز الى حيز . فذكر المكان يستلزم وجود المادة . وذكر المادة يستلزم معنى المكان . أعني أن معنى المكان مستمدٌّ من وجود المادة . وتفسير الفضاء بالحيز الخالي خلوًّا مطلقاً خطاء محض

لذلك ما نسميه فضاء هو فضاء محدود بالمادة . متناهٍ . لأن المادة متناهية أي أن لها قدراً معيناً . والفضاء محدود بها . لهُ أول ولهُ آخر . ولا تسل عما قبل الاول وعما وراء الآخر . فهذا مستحيل على العقل البشري تصوُّره . دعه لعقل الالوهية . ولذلك أيضاً ، يكتسب الفضاء أو المكان أو الحيز طبيعته من طبيعة المادة نفسها . فاذا قال العلم الحديث أن الفضاء متحدّب Curved فلأن المادة التي تشغله متحدبة . وهذا بحث دقيق لامتسع له هنا . فنرجئه

فيما تقدَّم فرضنا الرحاب بين الاجرام خالية . والحقيقة انها ليست خالية الاَّ من المحسوس . بل هي مملوءة من أنواع مندثرات الاجرام المشعَّة الثلاثة : ١ : امواج الفا وهي بروتونات ايجابية الشحنة الكهربائية : ٢ : امواج بيتا وهي الكترونات (كهارب) سلبية الشحنة : ٣ : امواج جمَّا وهي في عرفهم فوتونات بلا شحنة . — (وفي رأي هذا الضعيف ليست الامواج نفس البروتونات والالكترونات والفوتونات ، بل هي امواج أثيرية صادرة من اندفاع هذه الوحدات المادية المتدفقة في بحر الاثير المالىء رحاب الفضاء) فالرحاب ليست خالية كما تتراءى لنا بل هي مملوءة تشععات مادية . وامتلاؤها بها جعل لها قيمة المكان أو جعل للمكان قيمة بها ، أو جعل له طبيعته . هذا اذا ضربنا صفحاً عن الاثير ، (أوقيانوس المكان) الذي ، وان كان لا يزال فرضاً بلا برهان امتحاني

ممعلي ، يعد أفضل فرض لتعليل الظاهرات الطبيعية ، ولا سيما ظاهرات التشعع الموجي . ولا مجال هنا للاسترسال في هذا الموضوع . نعود الآن الى « الزمان »

ماهو الزمان ؟

خرجنا من البحث الآنف بنتيجة صعبة التصور . ولكنها نتيجة منطقية لا مناص منها . وهي ان المكان لا وجود حقيقي له . هو العدم . وانما المادة اوجدته . فما قولك بالزمان ؟

اذا كان المكان — مستقلاً عن المادة — عدماً ، فالزمان بالاحرى عدم ايضاً . او بابلغ عبارة هو أشد عدمية . المادة اوجدت المكان . وحركة المادة اوجدت الزمان . ان انتفت الحركة انتفاء مطلقاً — ان سكن كل متحرك في الكون — انتفى الزمن معها

قد يتراءى لك هذا القول مستهجناً . ولكن اغرب منهُ القول بان الزمن (او الزمان بمعنى واحد) منتحلٌ من المكان الذي هو منتحل من وجود المادة كما سترى فيما يلي : —

كيف تفهم الزمن ، او الوقت الذي هو في اصطلاحنا جزء من الزمن ؟ — مضيت صباحاً الى عملك . ثم عدت عند الظهر الى منزلك . فكيف عرفت ان الوقت صار ظهراً ؟ — قد تقول : رأيت الشمس تكبدت كبد السماء . صارت في السمت . تقلص ظلي حتى صار تحت قدمي . وقد كانت حين مجيئي الى عملي في الافق وظلي اطول مني . فكان الوقت صباحاً ، ثم صار ظهراً

فما معنى الصباح والظهر عندك ؟ أليس معناهما ان الشمس سارت من الافق الى كبد السماء — وبعبارة فلكية ان الارض أتمت ربع دورتها على محورها . فاذاً . انت قست الوقت بحركة الارض على محورها ، او بانتقال الشمس المجازي من الافق الى السمت

قد تقول : ليس ضرورياً ان ارقب الشمس لكي اعلم مواقيت النهار . ارقب ساعتي فأعلم مواقيت النهار والليل جميعاً . حسنٌ . استغنيت عن حركة الارض او مسير الشمس . ولكنك استعضت عن حركتهما بحركة عقرب ساعتك . فانت تقيس الزمن بحركة عقرب الساعة . ابدلت حركة بحركة . وهو امر يثبت لك ان الزمن ليس الاَّ قياس حركة المادة فقط . وقد تقول: اني استغني عن مراقبة الشمس وعن مراقبة عقرب الساعة فأعرف ميعاد الظهر من احساسي بمجرى عملي العمومي . اعرف اني قضيت من الاشغال ما يستغرق ٦ ساعات . فاقول بنفسي : صار الوقت ظهراً

اذن . في مقايسة الوقت او المدة لجأت الى حركتك في عملك الذي اعتدت ان تنجزه في برهة ٦ ساعات (علمتها من حركة الارض) طالما قستها بحركة عقربي ساعتك . فاذاً لا مناص لك من قياس الوقت بالحركة

قد تقول متعنتاً : يمكنني ان انقطع عن كل عمل وألجأ الى غرفتي بعد ان اقفل جميع نوافذها وتصبح ظلاماً وابقى مدة في هذه الحالة . ومع ذلك احس بمرور الوقت . وقد استطيع ان اخمّن المدة التي مرّت عليَّ في هذه الحالة

اقول ان فكرك في هذه المدة كان متنقلاً من موضوع الى آخر . وبهذا التنقل قست الوقت

قياساً تقريبياً . فتنقّل فكرك هو نوع من الحركة . اذن الزمن الذي احسست به هو هذه الحركة.
ولنفرض اننا خدرناك بالكلوروفورم او بأي مخدّر آخر بحيث لا تعود تشعر بشيء وبحيث تقف كل حركة فكرية لك . وبعد مدة منعنا عنك فعل المخدّر فصحوت . فاذا سألناك :منذ متى غفوت؟ لا ريب ان تجيب : اشعر اني كنت صاحياً منذ بضع دقائق ثم غفلت هنيهة قصيرة ثم صحوت . واذا قلنا لك انهُ مرت ساعة على نومك تندهش لانك تعتقد ان وقت غفلتك كان قصيراً جدًّا ولانك لم تعد تشعر بحركة خارجية ولا داخلية ولا فكرية . فهل يبقى عندك شك بعد هذه الفروض بان الزمن لا وجود حقيقي له ، وان ما نسميه زمناً ليس الاَّ توالي الحوادث بعضها اثر بعض ؟ فلو توقفت كل حركة في الكون لم يعد للزمن معنىً بتاتاً . فكما ان وجود المكان مكتسب من وجود المادة ، كذلك وجود الزمن مكتسب من حركة المادة . وحركة المادة هي انتقال الجسم المتحرك من حيز الى حيز آخر في المكان. اذن فترات الزمان منتحلة من فسحات المكان . ولذلك نقيس الزمن والمكان بقياس واحد

نقيس المسافة المكانية بقياس اصطلحنا عليهِ كالمتر مثلاً وكسوره السنتي والملّي متر، ومضاعفه الكيلو متر الخ . والمتر هو طول رقاص Pendulum يخطر ٨٦٤٠٠ خطرة كلما دارت الارض على محورها دورة كاملة . وهذا العدد هو عدد ثواني اليوم . ولذلك خطرة الرقاص المتري تساوي ثانية . فقياس المكان وقياس الزمان منتحلان معاً من حركة الرقاص

والغريب اننا نستهجن القول ان الزمن لا وجود له البتة وانهُ ليس الاَّ مقداراً معيناً من الحركة ، في حين اننا في اعمالنا اليومية نقيس الزمن تارة بالمسافة المكانية واخرى نقيس المسافة المكانية بالمدة الزمنية . فنقول مثلاً : ان القرية تبعد عنَّا مدة تدخين سيكارة ، وان المسافة بين القاهرة والاسكندرية ٣ ساعات بالسكة الحديدية . واغرب من ذلك ان بعض الناس في الولايات المتحدة يقيسون المسافة بالعملة فيقولون ان فيلادلفيا تبعد عن نيويورك ريالين ونصف ريال، يعنون ان اجرة السكة الحديدية بينهما هذه القيمة النقدية

وحاصل القول ان الزمن او الوقت هو تعبير مجازي عن انتقال جسم من حيز الى حيز آخر بالنسبة الى انتقال جسم آخر من حيز الى حيز . جعلنا انتقال الشمس من افق الشرق الى افق الغرب ثم عودتها الى الافق الاول مقياساً للوقت سميناه يوماً . ثم قسمنا اليوم الى ٢٤ قسماً سميناها ساعات . ثم قسمنا الساعة الى ٦٠ جزءاً سميناها دقائق وقسمنا الدقيقة الى ٦٠ جزءاً سميناها ثواني . وجعلنا الثانية القياس الادنى لكل حركة اخرى . وما الثانية الاَّ جزء من ٨٦٤٠٠ من دورة الارض على محورها . اي ما يقطعه هذا الجزء من محيط الارض في الفضاء . وبعبارة اخرى هو انتقال اي نقطة من خط الاستواء الارضي في الفضاء ٤٣٠ متراً تقريباً (وهو الخارج من قسمة ٤٠٠٠٠ كيلو متر محيط الارض على ٨٦٤٠٠ ثانية) . فانتقال هذه النقطة الارضية الاستوائية في الفضاء ٤٣٠ متراً يوافق انتقال الارض في فلكها حول الشمس ٣٠ كيلو متراً . وانتقال المريخ في فلكه ٢٤ كيلو متراً

وانتقال المشتري ١٣ وزحل ١٩ وكورس ونبتون ½ ٥ تقريباً . ويوافق انتقال النور في الفضاء ٣٠٠ الف كيلومتر ، وانتقال النظام الشمسي كلهُ في قرص المجرَّة ٢٠٠ كيلو متر وهلمَّ جرًّا — كل هذه الانتقالات تتم معاً في هنيهة واحدة نسميها ثانية

اذن الحقيقة اننا نقيس الزمن او الوقت بمسافة مكانية كما نقيس المكان نفسه بمسافة مقرَّرة منهُ . فالقياس للاثنين واحد مقياس مكاني[1] . اذا تصورت الكون ساكناً سكوناً مطلقاً لا حركة فيهِ البتة فلا تعود تستطيع ان تتصور مجرى الزمن . لا يبقى ماض ولا مستقبل . واذا قلنا ان الارض ولدت من الشمس منذ مليون مليون سنة عنينا ان الارض دارت حول الشمس مليون مليون مرة

كيف يندمج الزمن بالمكان

بجمل ، ما عرفت مما تقدم ان المكان هو الحيز الذي تشغله المادة ، وان الزمن هو تعبير عن قياس حركة المادة في المكان ، وان هذا القياس هو مسافة مكانية ، ومقياسه الاصطلاحي انتقال اي نقطة في خط الاستواء الارضي مسافة ٤٣٠ متراً في اثناء دورة الارض على محورها ، او هو خطرة رقاص طوله متر . وقد سمي ثانية — اما وقد عرفت ذلك فصار سهلاً عليك ان تفهم كيف ان الزمن مندمج في المكان بسبب تحرك المادة

هل تستطيع ان تنتقل في المكان من غير ان تنتقل في الزمان ؟ مستحيل . لماذا ؟ لان انتقالك هو خطوات متتابعة الواحدة بعد الاخرى ، وكل خطوة هي عبور مسافة مكانية . فعدد الخطوات هو تعبير عن الامتار التي عبرتها وتعبير عن الثواني التي امضيتها ، لانه يوافق خطوات الرقاص المتري او انتقال نقطة استوائية مسافة ٤٣٠ متراً في الفضاء — اعني اذا فرضنا كل خطوة هي متر في ثانية فالمتر هو خطوة والثانية هي خطوة ايضاً . وكلاهما تعبير عن حركة الانتقال

قد تقول : اذن يمكننا ان نستغني عن القياس الزمني للحركة ونقتصر على المقياس المكاني فنقول مثلاً ان اليوم هو ٨٦٤٠٠ خطوة (او متر) لان دورة الارض على محورها مرة واحدة توافق هذا العدد من الخطوات وبتقسيم اليوم نجعل الساعة ٣٦٠٠ خطوة والدقيقة ٦٠ خطوة والثانية خطوة واحدة . نتكلم بالخطوات ومجموعات الخطوات بدل الثواني والدقائق والساعات

اقول : نعم ونحن فاعلون مثل هذا . وما سمينا ما يوافق الخطوة ثانية والستين ثانية دقيقة الخ الا اصطلاحاً . ولابد من هذا الاصطلاح لتحديد المقاس الزمني لاختلاف سرعات الاجسام . فاذا قلنا ان

---

(١) يؤيد هذا القول الحساب الرياضي : م المسافة = ت الوقت مضروباً بالسرعة س هكذا م = س ت ومنه ت = م / س اي ان الوقت يساوي المسافة مقسومة على السرعة : مثال ذلك : المسافة بين القاهرة والاسكندرية ٢١٥ كيلو متر او سرعة الاكسبرس ٧٥ كيلو بالساعة اذاً ٢١٥ / ٧٥ = ٣ ساعات و ٣ × ٧٥ = ٢١٥ كيلو متراً . أترى كيف دخل الوقت مع المسافة بالحساب فهما من طبيعة واحدة

النور يستغرق منذ صدوره من الشمس الى ان يصل الينا (٨ دقائق) ٤٨٠ خطوة عنينا انه كما خطوت انت خطوة (متراً) خطا النور ٣٠٠ الف كيلومتر أي ان خطوة النور تساوي ٣٠٠ مليون خطوة كخطوتك. فترى اننا نستطيع ان نصرف النظر عن اصطلاح الثواني والدقائق الذي تعودناه كرمز زماني ونعبر عن حركة الانتقال بالامتار لان الثانية والدقيقة الخ رمز مسافة مكانية كما تقدم . فلا يمكن ان نعزل الزمن عن المكان عزلاً يجعله مستقلاً . ولذلك اكرر القول ان الزمن هو مسافة مكانية كالمكان تماماً

ولكن لان سرعات الاجسام والاجرام مختلفة عظيم الاختلاف نحن مضطرون ان نجعل اصطلاحاً خاصاً للتعبير عن هذه السرعات لكي نميزه عن الاصطلاح الخاص بالمسافات . فجعلنا الثواني والدقائق الخ لنعبر بها عن سرعة الانتقال (الحركة) وجعلنا الامتار والأميال الخ لنعبر بها عن مسافة الانتقال. ولكننا في حين تعبيرنا عن السرعات بالثواني والدقائق لا نستغني عن ذكر المسافة المكافية فنقول مثلاً ان سرعة القطار بالثانية ١٥ متراً وسرعة الارض بالثانية في فلكها ٣٠ كيلومتراً وسرعة النور بالثانية ٣٠٠ الف كيلو متر وهلم جراً . استنبطنا هذا الاصطلاح لقياس السرعات

رأيت مما تقدم كيف ان ما نسميه زماناً يندمج تمام الاندماج بالمكان لانه يعبر عن تحرك المادة في الحيز. كما أن المكان يعبر عن وجودها في الحيز. وبعبارة اخرى ليس الزمن الا وسيلة للتفرقة بين وجود المادة وتحركها . وكلاهما في المكان

معنى البعد الرابع

بعد هذا البيان الواضح يسهل عليك ان تفهم المراد من قولهم « بالبعد الرابع » فأنت تعلم ان أي جسم او ذرة في الكون يتحدد موقعها في الفضاء بثلاثة ابعاد متعامدة فيها — ابعاد عن اجسام او ذرات اخرى . أي لا يكفي لتحديد موقعها بعدها عن جهة واحدة فقط ، ولا بعدها عن جهتين متعامدتين عندها فقط ، بل لا بد من اتجاه ثالث معامد للاتجاهين الآخرين وهي في نقط تعامدها جميعاً . هناك ينحصر موضعها . فاذا فرضنا انها سائرة (في خط مستقيم او خط منحن) فالمسافة التي تعبرها هي البعد الرابع . لانه لما كنا نعبر عن عبورها هذا بالاصطلاح الزماني (الذي ينوب عن الاصطلاح المكاني للتمييز بين وجود الجسم في المكان وسرعته فيه) كما علمت صح القول بأن الزمن بعد رابع مكاني ايضاً[1] وختام الكلام : الوجود هو مادة متحركة ، من خواصها «الزمكان» وفي مقتطف ابريل ١٩٣٣ مقال ضاف شرحت فيه قضية الابعاد الاربعة شرحاً وافياً فليراجع

---

(١) يؤيد هذا القول المعادلة الرياضية . هكذا : —

اذا رمزنا عن الابعاد الثلاثة بالاحرف ط (طول) ض (عرض) ع (علو او عمق) م (المسافة) التي يعبرها الجسم متنقلاً بابعاده (الثلاثة معه) كان لنا بحسب قضية فيثاغورس $م^{2} = ط^{2} + ض^{2} + ع^{2}$ باعتبار ان المسافة هي وتر الجسم ذي الابعاد الثلاثة . والجسم هنا هو الحيز الذي يسير به الجسم المتحرك. وقد علمت في الحاشية السابقة ان $م = ت س$ اذاً $ت^{2} س^{2} = ط^{2} + ض^{2} + ع^{2}$ فترى ان الوقت دخل في حساب المكان كفضلع فيه (ت س) ولذلك عد بعداً رابعاً

لا انكر ان هذه العملية الرياضية الصغيرة تحتاج الى شرح مسهب لكي يفهم القارىء العامي المراد منها . ولكن بكل اسف ان خطة المقتطف لا تسمح بهذا الشرح الذي قد لا يلذ الا لنفر معدود من القراء

الغفران

نشيد من ملحمة له عنوانها غلواء

مضت أشهرٌ نُذِرَت للمطرْ وأظلم فيها المسا والسَّحَرْ
وأقبلَ نوّارُ — عرسُ الطبيـعة — يضحكُ في ورقاتِ الشجرْ
يدغدغُ بالطلّ عشبَ الحقول ويطبع ألوانهُ في الزهَرْ
ويبني على الهضبات متاحفَ تسخر من هذيان البشرْ
كأنَّ عباقرةَ الجنِّ فيها سكنّ وعلّقن تلك الصورْ
نخفّ الشبابُ نديَّ الحياة يستقبل الحُلُمَ المنتظرْ
على ثغرِهِ بَسَماتُ الربيع وفي قلبه بَسَماتٌ أُخرْ

***

وفي يومَ عيدٍ نقيِّ السماء كأنّ السما صفحةٌ من سُوَرْ
اطلَّ شفيقٌ على الهضباتِ فراءَ الشبابَ عليها انتشرْ
وأبصرَ غلواءَ بين الزهور كحوّاءَ بين شهيِّ الثمرْ
تسرحُ في عدنها نظراتٍ عرفنَ ازاهيرَ خيرٍ وشرْ
وقد لبست ثوبها الزنبقيَّ عليهِ نسيج بلون الخِضَرْ
وألقت على العشب جسماً هزيلاً كغصنٍ من الياسمين انكسرْ
نخفّ اليها وفيه عذابٌ بدا منهُ في مقلتيه أثرْ
وأثبتَ فيها عيوناً سكارى تجمّد فيها رحيق الخدَرْ
وقال: « لقد خلعَ الحقلُ عنهُ رداءَ الشتاء وغطى الحجرْ
وألقى عليه الربيعُ وشاحاً جمالُ الطبيعة فيهِ انحصرْ
فهلاّ خلعتِ رداءَ الليالي والبستِ روحكِ ثوبَ البُكَرْ
وهلاّ تشبهتِ بالياسمين فما كاد يحجُبُ حتى ظهرْ
لقد غسلت بسماتُ الزهور ذنوبَ الشتاءِ الكثيف البصرْ
وعاد العفافُ الى الهضَباتِ ففي كلِّ غرسٍ فؤادٌ غفرْ »

فقالت : « أُحاول أن أتناسى زماناً مضى وخيالاً عَبَرْ ... »
فقال : « وماذا يمثّل هذا الخيالُ ؟ »
فقالت : « غراماً عثَرْ ! »
فقال لها : « أوضحي ، بالسماء ! ... وهذا الغرامُ ؟ »
فقالت : « ذعَرْ ! »
فقال ، وقد جحظت مقلتاه : « وهذا ؟ »
فقالت : « حبيباً هَجَرْ ! »
— وهذا الحبيبُ ؟ !
— غفرتُ له ... ويعفو إلهك عمّا بَدَرْ

غَفَرتُ كما غفرَتْ في الربيع زهورُ الربى لشتاءٍ كَفَرْ
ولكنْ بي ندماً كاللهيب يريني الحياة خلالَ الشررْ !

. . . .

وكان النسيمُ يهزُّ الغصونَ فينشر في الجوّ عِطرَ الزهور
كأنّ العطورَ خطايا عذارى حلَمْنَ بأثمارها في الخدورْ
ولمّا أفقْنَ اعترفنَ بها وقد هزّهنّ الضميرُ الطَّهورْ
وكان المساء على الهضباتِ يَنفثُ اشباحهُ في فتورْ
وشمس المغيب تعيرُ الظلالَ ألوانها في مطاوي الصخورْ
فقال شفيقٌ ، وفي قلبهِ رجاءٌ يموتُ وحبٌّ يثور
« عشقتكِ ، يا غلوَ ، عشقاً غدا شقيَّ الرؤى في شواطيء صورْ
وكنتِ من الداء في نشوةٍ تُريكِ الحياةَ ظلاماً ونورْ
ظلاماً تلمّستِ فيهِ الفناءَ ونوراً تنشّقتِ فيهِ الغرورْ
وما ذاكَ إلاّ لأنَّ فؤادكِ ما ذاق في الحب صدقَ الشعورْ
جهلتِ حقيقةَ وجهِ الهوى نخالتِ الهوى وجهَ مينٍ وزورْ
ولما سكرتِ بكذبِ الأغاني وعوّدتِ قلبكِ تلك الخمورْ
أفقتِ فلم تجدي في الكؤوس إلاّ قذارةَ خمرِ الثغورْ

جهلتِ الهوى فنكرتِ الربيعَ وقد تنكرينَ نمو البُذورْ
ومن لم يقدَّرْ لهُ أن يَشمَّ بنكرُ حتى أريجَ العطورْ ! »
فقالت : « صدقتَ ولكنني أحسُّ بقلبي جفافَ الجُذورْ
فأنتَ ترى في الربيع الجمالَ وأُبصرُ أزهاره كالبثورْ
وتُبصر في الزهر لونَ الحياةِ وأُبصر في الزهر لونَ القبورْ ! »
فقال : « ترينَ بعين القنوطِ الجمالَ الذي أيدته الدهورْ
فهذا الربيعُ سيبقى ربيعاً وهذي الزهور ستبقى زهورْ
ولكنَّ في أعينِ اليائسينَ زجاجاً يريها نواحي الشرورْ
لئن كنتِ دنَّستِ تلك العيونَ وذاكَ الفؤادَ بماء الفجورْ
ولم تسمعي نغماتِ العفافِ ولم تنشقي في العفاف البَخُورْ
فقد كفَّرَ الدمعُ عمَّا جنيتِ وصادفتِ بالغفو قلباً غفورا ! »

***

وأهوى على صدرها باكياً وأهوت على رأسهِ باكيهْ
وما هي إلاَّ دقايقُ حتى تلاشت رؤى نفسِها الداميهْ
فأدنت الى ثغرهِ ثغرها على مشهدٍ من تُقى الرابيهْ
على مشهدٍ من نقاء الزهور العذارى ومن عفَّة الساقيهْ
فأحرق ثغرُ شفيقٍ على مراشفها القُبلَ الماضيه !

***

وإذ صعدَ البدرُ خلف الجبالِ وذابَ على الربوةِ العاليهْ
وهوَّمت الطيرُ بين الغصون لتحلمَ أحلامَها الصافيهْ
ولم يبقَ يُسمَعُ في الحقلِ إلاّ تنهُّد شبَّابة الراعيهْ
أفاقَ الحبيبانِ من سكرةِ الدموع الى سكرةٍ ثانيهْ
وظلاَّ من السُكر في نزَواتٍ تطهِّرها عِفَّةٌ باقيهْ
الى أن دنا موعدٌ للفراقِ واصفرَّتِ الأنجمُ الساهيهْ
كأنَّ النجومَ الضئيلةُ في الأفْقِ رشحُ خمورٍ على خابيهْ
كأنَّ النجوم زفيرُ خطايا تصعِّده ليلةٌ زانيهْ !

بنيون الفنان

بين التصوير والشعر

للدكتور احمد زكي ابو شادي

(١)

بلغت حماسةُ بنيون الغايةَ من الاندماج الأدبي في محاضرته الثانية واسترعى اعجابَ المستمعين الى درجةٍ جعلت أحدَ أدباء الانجليز يقول لي مداعباً « إنّ بنيون يتحمّس للفنّ الشرقي وللفنّ الصيني خاصة تحمُّسَ صفوةِ ابنائهِ المثقّفين حتى كاد تذوُّقهُ له يحيله صينيًّا في سِماتهِ ! »

استهلّ بنيون هذه المحاضرة بأسلوب دراميّ فقال : في سنة ١٢٩٥ بلغ وطنَه (البندقية) سائحٌ من الشرق ، وكان قد تغيَّب في صميم آسيا مدَى ستٍ وعشرين سنة قضى معظمها في الصين في خدمة الفاتح المغولي كوبلا خان . وكان هذا السائح ماركو بولو ، وقد استُقبل في وطنه بارتيابٍ اولاً ثم بتهاليل العجب والدهشة . وقد تزعَّم بعد ذلك بقليل إحدى السفن في معركة بين البندقيين والجنويين انتهت بأسره ، فلما كان في السجن أملَى بياناً عن رحلاته وهو المشهور الآن باسم (كتاب ماركو بولو — The Book of Marco Polo) وكان هذا الكتاب الذي اثار احلام كولومبوس ليلاً ونهاراً وألهبهُ بخواطر الوصول الى الجُزر الهندية عن طريق المحيط الغربي — كان هذا الكتاب اول كشفٍ عن الصين والصينيين لاوربا

كان الرومانيون في عهد الامبراطورية يستوردون الحرير الصيني ، ولكنهم لم يعرفوا عن أهل الصين الاّ ما نقلتهُ الروايةُ عن انهم شعبٌ ظريفٌ عجيبٌ في الجانب الاقصى من آسيا . ولكن ماركو بولو كان مبعوث سيده الى جميع انحاء الامبراطورية الصينية ، وهو بفضل ذلك يضمّن كتابه أدقّ التفاصيل عن كلِّ ما شاهد وقد كان مشاهِداً اريباً

وكانت مدينة هانج شو عاصمة الصين حينئذٍ في مبدإ انحطاطها لمّا رآها ماركو بولو ، ولكنها مع ذلك خطفت بصره وأذهلتهُ ! وهو الذي عرف البندقية والقسطنطينية يصف هانج شو بأنها اجمل وأفخم مدينة على الارض بمحيطها الفسيح وبجسورها الصخرية التي بلغت الألفين فوق قنواتها العديدة ، وبحماماتها العامة ذات الماء الساخن وقد بلغت الثلثمائة ، وبرجال شرطتها البارعين ، وباسواقها الكثيرة الحافلة بشتى المحصولات من كلّ مقاطعة ، وبأمرائها التجار الذين كانوا يعيشون ناعمين كالملوك ،

وبتلك الكائنات الانيقة الملائكية : زوجاتهم ! وكانت شواطئ البحيرة التي قامت عليها العاصمة مزدحمة بالقصور والمعابد والاديرة . وقد احتشدت في الماء القواربُ والصنادلُ كما ازدحمت الطرقاتُ بمواكب لا آخر لها من العربات

وما هو حالُ السكان في هذه المدينة العجيبة ? يحدّثنا ماركو بولو انهم ما كانوا يحملون الأسلحة ولا يحتفظون بها في بيوتهم — وهذا هو المظهر الخارجي لحالة من المدنية الصادقة — وقد لاحظ بصفة خاصة أدبهم نحو الاجانب ورغبتهم في معاونتهم . فهذه هي جميع الامارات لا لحضارة عالية فقط بل لما نسميه عهداً «عصريًّا» ، وفي الواقع وصف حديثاً أحد كتّاب الفرنسيس ذلك العهد بأنهُ من فترات الانسانية الكاملة

(٢)

كان ذلك العهدُ الذي انقرض اثناء إقامة ماركو بولو في الصين عهدَ الدولة السّنجيّة . وسأكلم بصفة خاصة عن الفن في ذلك العهد لان العبقرية الصينية عُبّر عنها فيه كما يلوح لي أوثقَ التعبير . فأولاً يجب عليّ ان اقول كلمةً عن السّمة الفنية للتصوير الصيني : فما عدا التصاوير الحائطية التي اندثرت جميعها تقريباً (وإن كان عددٌ منها نُقِلَ اخيراً الى اوربا واميركا ، ويوجد نموذجٌ فاخرٌ منها في المتحف البريطاني) نجد ان التصاوير الصينية منقوشةٌ عادة على الحرير أو بعدد اقلّ على الورق ، وتُستعمل لها الصبغات المائية أو الحبر . ولم يُستعمل التصوير الزيتي الاّ بتأثير اليسوعيين ولكنهُ لم ينل حظوة لدى الصينيين

وقد أخذ المستر بنيون بعد هذا التمهيد يعرض ألواحه المختارة بالفانوس السحري تمثيلاً لخصائص الفن الصيني وتطوُّره . فوجّه الانظار الى ان التصوير كان معدوداً فرعاً من الكتابة ، وكانت الحروف الصينية تكتب بالفرشاة ، وإجادة كتابتها كانت تستدعي مرانةً فائقةً و «استاذية» لم يظفر بمثلها الاّ القليلون من المصورين الاوربيين

وكانت الصورةُ الاولى عبارة عن رسم خيزران نامٍ على صخرة وقد نُقشت في القرن الثالث عشر للميلاد . فوجّه المحاضرُ الانظار الى الجمال في ضربات الفرشاة ، والى درجات التعبير والتظليل من أعمق السواد المصقول الى الاشهب الباهت الى السنجابي الفضّي . وقد ذكر المحاضرُ انهُ كان يُطلب كثيراً الى النقّاش الشاب على سبيل التمرّن في استعمال الفرشاة ان يقلّد بنقشه ظلَّ الخيزران في ضوء القمر على ستار ، وكان على النقاش ان يرسم ذلك من مخيلته

وكانت الصورة الثانية عبارة عن رسم تقليديّ الموضوع وهو مشهدُ القمر فوق الأمواج الصاخبة ، وقد ذكر المحاضر انهُ عرضها ليظهر وجهاً آخر من اوجه الفنّ الصيني ، خلافاً للمصورين الغربيين الذين قد يحاولون نقل المنظر الواقعي نجد ان المصوّر الصيني عُني بالخصائص الجوهرية اكثر من عنايته بالمظاهر الخارجية للاشياء . ففي رسمه البحر ، كانت محاولتهُ موجّهةً الى نقل حركة

الماء الى المُشاهد للصورة اي التفعيل النظمي (الرَّذْم) الذي خُلِقَتْ منهُ الأمواج . وهذا ما يطابق النظرية الصينية في الفن ، فمنذ القرن السادس الميلادي عُرفت في الصين المقاييس الستة للحكم على اي عمل فني كما وضعها احد رواده ، فكانت نهاية البراعة الفنية تلك التي يهبُ وحيُها الحياة. وكان من المعترف به ان حركة الحياة إذا لم تعرقلها الظروف — رتيبة رذمية (منتظمة التفعيل او التوقيع) ، وانَّ الواجب في العمل الفني الحقيقي ان يشمل الرَّذْمَ او التوقيع المثالي للحياة

وعرض المستر بفيون بعد ذلك عدداً من الصور المنسوبة الى الفنان كُوكاي تشي الذي عاش في القرن الرابع ، وكانت هذه الصور بمثابة رسوم شرحت بها رسالة وجيزة أُلفت في القرن الثالث بعنوان (تنبيهات قهرمانة القصر) ، والدفتر الحاوي هذه الصور محفوظ بالمتحف البريطاني . ونحن نلحظ في صورة هذه القهرمانة او المربية ذلك الثبات المنسجم الذي ينتسب الى المدنية الصينية والذي يُعبر عنهُ كونفشيوس بقوله : « اعتمد في الحكم على التعليم والآداب الرضية اكثر من الاعتماد على القوانين والعقوبات. واذا وجدت كلمة يمكن ان تهدينا عملياً أثناء حياتنا كلها فربما كانت (الاحسان) » . كان كونفشيوس يبشر بدين الفرد في كل شيء الى المجتمع والدولة . وقد خلبت تعاليم لاو تزو Lao-tzu في ذلك القرن الرابع نفوساً كثيرة . ومعروف في السياسة المصرية تياران فكريان متعارضان : فثمة الفكر الذي يعتبر النظام أثمن شيء في الدنيا ، وثمة الفكر الآخر الذي يعتبر الحرية أغلى شيء ، ولكنَّ أتباع لاو تزو كانوا يطبقون نوعاً من المقاومة السلبية ، فلم يكونوا في كفاح مع الدنيا وانما انسحبوا منها . كان لاو تزو يقول . « لا تفعل شيئاً . وكلُّ شيء يُفعل ! إنَّ (لاشيء) أنعم واضعف من الماء ، ولكن لمهاجمة الاشياء الصلبة القوية لا يوجد شيءٌ في قوته مثل الماء . . . » وبمثل هذه الخواطر الذهنية ثار كثيرون من الرجال البارزين على نمط الحياة الرسمية ، وحتى على فكرة الخدمة العامة ، وانتحوا أماكن بعيدة منعزلة في الجبال لغرس الاقحوان ، ولشراب النبيذ في ظلِّ الأشجار ولعزف الموسيقى !

هكذا أظهر لنا المستر بفيون ذلك التجرُّد الرمزي وذلك البحث عن المطلق ، وهو ما كان يعدُّ على ما يظهر لبَّ الطاوية taoism أو كان قريباً من عقيدة استمدَّها من الهند طائفةٌ من البوذيين وهي طائفة زِنْ Zen — طائفة التأمليين — وامتزاج هذين التيارين الفكريين صبغ بلون خاص كثيراً من الفن في العهد السُّنجي . وعرض المحاضر بعد ذلك صورة تمثل بوذا في سِمات أبولو . وهذا الطراز ماثلٌ في متحف لاهور . وقد تعرَّض لهُ كبلنج في قصته كِمْ — Kim

(٣)

انتقل المحاضر بعد ذلك الى الحديث عن انتشار البوذية انتشار المظفر الغلاب من الهند الى الصحراء الاسيوية الوسطى ، الى الصين ، الى كوريا ، الى اليابان ، والى شواطىء المحيط الهادىء . وكانت تمتدُّ خلال آسيا جميعها الطرق العظمى للتجارة حيث كانت البضائع الصينية الحريرية تنقل

الى البحر الأبيض المتوسط ، وكان التجّار من كل صنف يغدون ويروحون بين اوربا والشرق الاقصى والهند . ولكن نظراً لخذلان الجوّ والسُّقيا انقرضت حول القرن الثامن تلك الواحات التي كانت كعقد منظوم في ذلك الطريق التجاري المظيم ، وقد جاءت الحفريات الحديثة بكثير من المكتشفات الرائعة عنها ، فمثلاً في مدينة تَنْنج هُوَانج — وهي مدينة مسوَّرة في احدى الواحات واقعة في نهاية الحدود الغربية للصين — وجدت سلسلة من الكهوف المحفورة في الصخر وقد ملئت بالتماثيل البوذية وبنظائرها من التصاوير الحائطية . وفي احدى هذه الخزائن المقدسة اكتشف السير أورال استين في سنة ١٩٠٨ قبواً مخبوءاً كدّست فيه مخطوطات وتصاوير حريرية بعدّ الآلاف. وقد كومت بعضها فوق بعض كوماً عمقها عشر اقدام ، معرّضة للتحطيم ، ويظهر انها خبئت هكذا في وقت ذُعرٍ عند احدى الغارات البربرية منذ ألف سنة مضت . وكثير من هذه الصور مودع الآن في المتحف البريطاني حيث استدعت سنين من الجهد العظيم لتنظيفها وتنسيق أجزائها ثم لصقها على نظامها الاول بعد ان كانت في حالةٍ من التمزّق والتناثر تبعث على اليأس

***

وأردف المحاضر هذا البيان بعرض طائفة من هذه الصور وكلها ذات مناظر بوذية : فظهرت في احداها صورة بوذا راكباً عربة يصحبها الجنُّ من الكواكب السيّارة ، وفيها يلوح بوذا هنديّ الطراز بينما يلوح الجنُّ صينيين . وفي صورة اخرى منقولة عن عَلم صغير نرى مشهداً من الاسطورة البوذية اذ يُرى بوذا يلتقي لأول مرة برجلٍ مريضٍ ، وفي هذه الصورة نجد كلَّ شيء مترجماً الى الصينية — النماذج ، والملابس والتركيب الهندسيّ

(٤)

بدأ عهد الدولة التَنْجيَّة العظيم في القرن السابع وهو أول العهود الفنية التي تعنينا. أما العهد الثاني فالعهد السَّنْجي ، وأما الثالث فالعهد المِنْجي . وقد بقيت كلٌّ من هذه الدول حول ثلثمائة سنة ، فكأن الحياة الفنية الخطيرة في الصين شغلت تسعة قرون تقريباً ، اذ كان العهد التَّنجي من القرن السابع الى القرن العاشر ، ومكث العهد السَّنْجي من القرن العاشر الى الثالث عشر ، وامتدَّ العهد المنجي من القرن الرابع عشر الى القرن السابع عشر . وبين الدولة السنجية والدولة المِنجية قامت دولة قصيرة العهد هي دولة اليوانيين أو المنغول وهي عهد كوبلا خان

ومن نماذج التصوير النادرة للدولة التنجية عرض المستر بنيون صورة « القديس » وهي نموذج صادق النسبة الى ذلك العهد الذي ضاعت معظم آثاره الفنية ، ولذلك يشق علينا أن نحكم حكماً جازماً عن حالة الفن في ذلك العهد اعتماداً على الآثار الفنية الضئيلة التي بين أيدينا . ولكننا اذا اعتمدنا على ما سجله المؤرخون فاننا نميل الى الاعتقاد بأنهُ كان أعظم عصور النهضة الصينية في

القوة والسؤدد ومن أعظم عصور الفن في تاريخ الدنيا بأسرها . كانت الصين حينئذٍ في أوج سلطانها وكان حكمها ممتداً غرباً حتى بحر قزوين ، وكان ذلك العصر أيضاً عصر أرقى الشعر الصيني

أما عن اعظم آثار التصوير البوذي فيرى المستر بنيون أنها بلا شك آثار الفنان وو ـ تاو ـ تزو (Wu Tao—zu) اشهر الاساتذة الصينيين . وثمة قصة عجيبة متواترة عن نهاية هذا الفنان ، فقد رسم منظراً عاماً كبير الحجم على حائط في القصر الامبراطوري . وقد أسدل عليه ستار أعِدّ لينزعهُ الفنان الى جانب لكي يرى الامبراطور ذلك المنظر الجامع لمشهد الجبال والغابات العظيمة وسيول المياه المنعطفة ولجماعة المرتادين للهار الصخرية والطيور السابحة في الفضاء . فدهش الامبراطور أيْ دهشة لهذا المنظر الرائع . وشخص اليه مبهوتاً ! فقال الفنان : « ولكن داخل المنظر أجمل من خارجه ! » ثم صفق بيديه فانفتح باب كهف بين الصخور الأمامية ، وحينئذٍ خطا الفنان الى داخل عمله وأغلق الباب خلفه . وبينما الامبراطور يحملق مشدوهاً كان هذا الرسم الفني العظيم يبهت ويغيب عن الحائط دون أن يبقى أي أثر منهُ . فلم يُرَ بعده وو — تاو — تزو مرة أخرى ! وهذه الاسطورة الرمزية البديعة السامية المغزى تحدثنا بأن الفنان يستحيل الى ما يخلقه ، وأن روحه تنتقل الى عمله

والمعروف أن جميع الثلثمائة من التصاوير الحائطية التي نقشها وو — تاو — تزو قد فقدت ، ومع أن قليلاً من التصاوير الحريرية تنسب اليه فن المشكوك فيه كثيراً أن هذه التصاوير أصيلة ، ولعلنا نقترب من حقيقة القوة الفنية والحيوية العظيمة المنسوبة الى وو — تاو — تزو عند ما نتأمل مجموعة من الرسوم الخطية المأثورة عنهُ ، وهذه موجودة بين احدى المجاميع الخاصة في اوربا ، وهي مصداق افتتان النقاد والمؤرخين بحذقه العظيم . وليست هذه الصورة مع ذلك من ريشة ذلك الاستاذ العبقري ، وانما هي نُسَخٌ من الصور الاصلية صنعها أحد الاساتذة البارعين في القرن الحادي عشر ، وربما كانت الصور الأصلية المفقودة صوراً حائطية . وهي تمثل بعض الاساطير الشعبية القديمة عن المَرَدة التي تصارع الحيوانات ، ولم يعرف عن صور اخرى فاقتها في قوة الرسم الخطي وفي التعبير عن القوة في الحركة . في ذلك الوقت نشأت مدرسة عظيمة للتصوير العام للطبيعة ، وكان أحد زعماء هذه المدرسة الفنان وانج وِي (Wang Wei) وقد كتب بحثاً في ذلك ، وسجلات هذا التصوير هي أشبه ما تكون بسجلات الموسيقى في اوربا الحديثة حيث تتناول موضوعات متقاربة ومتقابلة وتعرضها بعضها إثرَ بعض . وليس لهذا للطراز من الرسم مثيلٌ في الفن التصويري

(٥)

انقضت الدولة التَّنجية العظيمة في سنة ٩٠٥ م ، وبعد نصف قرن من الحكم بواسطة دول

قيصرة العصر دخلت الامبراطورية في عصر جديد من المجد الذهبي — ذلك هو العصر السُّنجي الذي استمرَّ كالعصر الاول الزاهر ثلثمائة سنة

وروح التصوير في هذا العصر الجديد روح التنبيه القوي ، مثال ذلك أن نرى الازهار تغطس من الخارج في داخل إطار الصورة ، وأن نجد خيال نوَّارةٍ محجوبة عن أعيننا مائلاً فوق الماء ، فيخلق هذا لخواطرنا دنياً من الاخيلة عَبْثرَ ما نرى !

كان الجمال ينشد لذاته ، وكان يلحظ في اهون الاعمال وأحقر الحرف والصنائع كما نرى في صورة الناسك الذي يقطع الخشب . وكان مشهد النوار لشجرة البرقوق مثلاً ، او مشهد الخطمية وهي ترتعش في مجرى الريح لا يقل في دلالته المعنوية والفنية لروح الفنان عن صورة احد المعبودات او احد الملائكة !

نبغ هذا العصر اذن في فن التصوير الطبيعي العام ، وفيه وجد العصر اسمى الادوات لتعبيره الفني . فكان الجبل والضباب والجدول للفن في العصر السنجي بمثابة ما كان الجسم الانساني العاري للفن في العصر الاثيني . وهذا ما يجعل للفن في ذلك العصر شأناً عديم النظير ، اذ لم يعرف في اي عصر آخر ولا في اي مكان آخر ان المناظر الطبيعية العامة اكتسبت مثل هذا الشأن بحيث تصير موضوعاً رئيسيًّا خلاباً حتى كأنما رتشن وروبنز ورمبرانت قد وهبوا جميعاً اعمق طاقاتهم الفنية وأقوى جهودهم لا لتصوير النماذج الجسدية بل لتصوير هذه المناظر الطبيعية ! وكانت الواح الصور التي عرضها المستر بنيون أثر ذلك شاهداً صادقاً على ان هذا الشعور العميق بروعة الطبيعة وحبها مما ميز الشعب الصيني منذ اقدم العصور . كان المصور الصيني بغير تعمد يكشف في تلك الصور عن ذهنيته وعن اسلوبه في النظر الى الدنيا والى الحياة . فاذا اردنا ان نفهم عقلية الفنانين في العصر السنجي فمن الميسور ان نلج اليها عن طريق شعر وردزورث . وقد يدهش البعض لهذا القول ، ولكن في اشعار الطاويين «taoists» الصينيين واقوالهم نجد تطابقاً عجيباً حتى في دوران التعابير لشعر وردزورث ، فنقرأ لهم امثال هذه التعابير « ان الدنيا شغلتنا اكثر مما يجب » و « السلبية الحكيمة » و « الباصرة الداخلية التي هي نعيم الوحدة » و « اني اعتقد ان كل زهرة تتمتع بالهواء الذي تستنشقه » و « ان نفحة من غابة الربيع قد تعلمك عن الرجال وعن الشر والخير الادبي اكثر مما تتعلمه من جميع الحكماء » !

أليس غريباً حقًّا ان يتفق هكذا في التفكير رجلٌ من وهاد كمبرلاند منذ مائة سنة ، واولئك الناس في الطرف الآخر من الدنيا منذ مائة والف سنة ! ؟ أليس هذا بمثابة شهادة مدهشة على تماسك الانسانية ؟ !

وقد عرض المحاضر بعد ذلك صوراً توضيحية لهذه العناية الفائقة برسم الطبيعة ، ووجه الانظار بصفة خاصة الى احداها حيث يبدو الاهتمام بالمنظر العام فوق الاهتمام برسم الاشخاص .

وفي الواقع كان الصينيون في العهد السنجي يعتبرون الخلوات الجبلية والسيول المتدفقة رفقاء الروح ، وهذا ما نلمحه مثلاً في صورة الجبل الذي يشمخ حتى يغيب في الضباب قمة بعد قمة كأنها الأوج بعد الاوج من مقاطيع ملحمة شعرية عظيمة ، حتى لنحس بأن الطبيعة صارت مرآة الذهن الانساني ! ومثل آخر صورة «عودة الصياد» فكأننا حين نتأملها نتأمل كورو (الرسام الفرنسي الشهير للطبيعة : ١٧٩٦ — ١٨٧٥) وقد وصفت صوره بأنها عبارة عن قصائد شعرية منقوشة الواناً ، كما عدت من اسمى النماذج في تآلف الاصباغ وانسجامها وفي روحانيتها الفنية

ولعل الروح الصادق للفن الصيني هو ما رمز اليه احد كتاب الصين في القرن الثامن حين نعت نفسه بأنه « صائد السمك المسن في الضباب والمياه » ! لقد انفق وقته في صيد السمك ، ولكن هذا نوع من الانفاق الرمزي ، اذ انهُ لم يستعمل طعماً ولم يصطد سمكاً ! وقد سأله بعضهم : لماذا يتجول هكذا شريداً ، وعرض عليه سكناً مريحاً بدل الزورق الحقير الذي يعيش فيه . ولكنه اجابه قائلاً : «ماذا تعني بجولاني وتشردي حينما السماء العلى بيتي ، والبدر الساطع رفيقي ، والبحور الاربعة اصدقائي الذين لا ينفصلون عني ! ؟ اني لأوثر ان اتبع زمّج الماء الى وطن السحب على ان ادفن نفسي السرمدية تحت تراب الدنيا ! »

ومن انفس الصور التي عرضها المستر بنيون صورة من ريشة — ما يوان Ma Yuan — ولعله اشهر مصوري الطبيعة عند الصينيين — وهي شبيهة من بعض الوجوه بصورة رمبرانت المشهورة « الطاحونة » ، ففي كلتيهما يبرز من الجانب شكل قائم هو اظهر ما في تركيب الصورة ، ولكن بينما وضع رمبرانت طاحونته القديمة تجاه الافق عند الغروب الباهت ، نزع ما — يوان الى شجر الصنوبر تلفحه الريح وقد شمخت فوقه بروج الصخور لمعر نهر . وصورة اخرى استرعت الانظار لانها — كما قال المحاضر — شبيهة في موضوعها بصورة «جرس التبشير (Angelus) للرسام الفرنسي الشهير ميليه [1] ، وهي واحدة من ثماني صور طبيعية في روحها ومراميها مما كان يرسم مثيله كل فنان صيني على ما يظهر في وقت ما من اوقات حياته الفنية . وموضوع هذا الرسم الصيني هو « جرس المساء من الهيكل البعيد » . وهو عبارة عن رسم تقريبي بالمداد يمثل الساعة حينما يخطو السائح نحو التلال التي تمثل آخر غاية رحلته فيسمع عن بعد جرس المساء ، ويتطلع الى اعلى فيرى النهار قد انتهى ورؤوس التلال آخذة تعتم في الغسق . ولكن الفنان الصيني لا يلجأ الى رسم الاشخاص لبيان قصته ، وحتى الجرس لا يبدو في الرسم ، وانما يكتفي بالرمز اليه باظهار قبة الهيكل بعض الشيء من بين اشجار الغابة فوق التل ، مكتفياً بهذه الاشارة

ولما تقدم الفن الصيني واستكمل نضوجه ابتدع طريقة في تقسيم فراغ الصورة لم يكن لها مثيل

(١) هو غير سميه المولود في انتورب (١٦٤٢ — ١٦٧٩) وان كان كلاهما فرنسي الدم . ورسامنا الشهير مولود في جروش بفرنسا في سنة ١٨١٤ وتوفي سنة ١٨٧٥م ، فبينهما يفصل قرن ونصف القرن

في عالم التصوير ، تلك هي طريقة « الموازنة » وهذا النوع من « التفريغ » الذي يبدو غريباً للعين الاوربية كان يبدو لاول وهلة هوائياً ، ولكنه في الواقع ناجم عن نظام فكري للطاوية (واشهر ائمة هذه الديانة الصينية كان لاو — تسي Lo-Tse في القرن السادس قبل الميلاد ومن تعاليمه ان التأمل والتفكير المنطقي واجتناب العنف واغفال الشعائر المجردة هي وسائط التجدد) ، وهكذا اصبح الفراغ لا الامتلاء وحده ذا قيمة في التعبير الفني

وعرض المحاضر جملة صور لتمثل كيف انجب الخيال الصيني الرمزين الرائعين للتنين والببر ، وهي في تأليفها مثال للاستاذية البارعة . وكانت الصور الختامية جميعها ممثلة لمشاهد الطبيعة . قال بنيون : « ان خلف جميع هذا الفن الصامت تكمن العقيدة الثابتة بأن الفن في جوهره اتصال ما بين ذهن وذهن ، واتصال خواطر وعواطف صهرت في مزاج واحد ومجال التعبير عنها لغةً . وفي طاقة المشاهد ان يبلغ الى صميم ذهنية الفنان بواسطة الاثر الفني الصادق ، ثم عن طريق هذا ايضاً الى العمق والفراغ ، الى الافق غير المحدود للحياة العالمية ، وما لم تكمل هذه السلسلة من الارتباطات فان الصورة تعد كأنها غير موجودة او غير مستكملة الوجود . وهي لا تكتسب حياتها الكاملة الا في اذهان من يتأملونها منا ، ولن يزهر تفكير الفنان الا فينا ، ولا يولد عمله الجليل الا في نفوسنا . ومن هذا تظهر قيمة التوكيد للنصيحة النقدية التي توجه دائماً عن اهمية استعداد الناظر وتهيئة نفسه للتأمل في العمل الفني ، وذلك باخلاء ذاته ليملأها كل الاثر الفني ، طارحاً من ذهنه جميع الفروق المتخيلة ، بحيث يدخل فكر الفنان دخول ضيف في غرفة هيئت للترحيب به »

ازاء هذه الخواطر الفياضة يمكننا ان نفهم كيف ان هذا الفن استحال شيئاً فشيئاً الى جهد لقمع المادة واذابتها في فكرة ، وللتعبير بالاشارة عن المعنى الرواغ وعما لا يمكن وصفه . والشيء الوحيد الذي عدَّ ضرورياً للعمل الفني هو ان يجاب معه بذرة اللقاح بحيث يزهر في ذهن من يتأمله

(٦)

يتضح مما تقدم ان الهام التصوير في العهد السنجي يتنقل ما بين سر لم يبح به كاملاً ، وعواطف وخواطر لا نعرف مصادرها وانما تأتي الينا في حالات خاصة واماكن خاصة ، وذلك الامتلاء الحيوي الوقتي الذي يبدو كالاسترداد لانسجام مفقود بين الانسان والطبيعة

وحول اواخر الدولة السنجية اخذ التصوير يتحول تحولاً مدرسياً . والتقليد المدرسي في التصوير الغربي يعنى بالاشخاص وبموضوعات البطولة (كما توصف) وهي موضوعات معرَّضة لان تصير جد متعبة ، وأما الروح المدرسية في التصوير الصيني فقد لجأت الى تحويل الرسم التقريبي التأثري بالمداد الى طابع مألوف خاو وهكذا استحال الى مجرد تسلسل واطراد

وفي الدولة اليُوانيـة التي جاءت بعدُ ثم بالاكثر في الدولة المِنجية (من القرن الرابع عشر

الى القرن السابع عشر) — بالرغم من وجود فنانين بارعين — أخذت النزعةُ الفنيةُ العامةُ تتحوّل تحوّلاً بطيئاً غير محسوس الى التعلّق بالمظاهر وبالزخرفة وبالصبغة بدل ان تكون عميقة وبسيطة. بيد اننا نجد في ادوار الفنّ الصيني الاخيرة — جنباً الى جنب مع التقليد المدرسيّ الذي تتكرر معهُ الطرائق القديمة والأغراض القديمة — نزوعاً الى الثورة

وختم المستر بنيون محاضرتهُ النفيسة بقوله : « ولكني اريد أن أختم بشيء مثاليّ للعبقرية الصينية في مظهرها المدرسيّ (الاكاديمي) ، فلنعدْ الى العهد السنجي » . وهنا عرض صورتهُ الأخيرة التي تمثّل طائفةً من البلشون (مالك الحزين) ثلجية البياض مستولية على شجرة صفصاف وفيها يتجلّى جمال الفن الصيني في طلاقتهِ وفسحتهِ وحركتهِ وانسجام فراغهِ ، قائلاً : « وكأننا نشارك حياة تلك الطيور وهي تخرج من الصورة وتدخل فيها ! ولو حاولت أن تقتطع بعض ذلك الرسم لشعرت فوراً بالتخلخل فيه كأنما شيءٌ حيٌّ قد شُوِّهَ ! وكيفما كان قصورُ الفن الصيني — واني لم أتعرّض الاّ لوجهٍ او اثنين من وجوهه — فلا يستطيع أحدٌ ان ينكر صفته الفنية كفن خالص . ولكن الفن الصيني لا يعيش لزخرفته الجميلة فقط فانه مثل دنيا لم يكشف بعد الاّ عن نصفها ، حينما نظلُّ دائماً نعجب بنضارة خواطرها ومشاعرها التي تزهر منها ، هي الإيحاء والإلهام اللذان تمنحهما لأنفسنا اليوم » !

***

ولا نزاع في أن موضوع الفن الصيني موضوع مشوّق جداً لانهُ مشبع بدراسات متنوعة متعددة ، وقد اقتصرت محاضرة المستر بنيون على ناحية التصوير في أسلوب عرضيّ قصصي مقارن ، ولا يجوز لعارف اللغة الانجليزية أن تفوته مقالة بنيون نفسهُ في الجزء الخامس من الطبعة الرابعة عشرة لدائرة المعارف البريطانية (ص ٥٧٥ — ٥٧٩) ولا كتابه المسمى (المصورون في الشرق الاقصى Painters in the Far East) فضلاً عن اهم المؤلفات الممتعة في هذا الموضوع واخصها بالذكر كتاب جايلز Giles في التقديم لتاريخ الفن الصيني التصويري Introduction to the History of Chinese Pictorial Art وكتاب أمورا S. Omura عن المصورين الصينيين (Chinese Painters)

لقد كان بنيون بمثابة رسول يبشر لنا بجمال الفن الشرقي ، فما احرانا بالتطلع الى روعة الشرق وان كان للغرب سحره وجاذبيتهُ [1] ، فان من ينشد متعة الجمال الفني يتقصاه في الاقطار والاجيال على تباين اللغات والاديان كما ضرب لنا المثل الحي على ذلك شاعرنا المحاضر الفنان

(١) راجع ما تنشره مجلة (آسيا) Asia بين وقت وآخر من بحوث عن الفن الشرقي . انظر مثلاً عدد يونيه سنة ١٩٣٤ وما ذكر فيه عن مدرسة بالك الروسية وتأثرها بالفن الصيني وعدد ابريل ١٩٣٦ عن الفن الياباني

اعظم الرحلات الجوية الحديثة

التحليق بمنطاد

الى علو ستين الف قدم

تنزل قصة غزو الانسان لطبقات الجوّ العليا من كتاب المغامرة في صفحة من اعجب الصفحات. فمن نحو ثلاثين سنة حلّق رائدان المانيان بسلٍّ مدلّى من بلونٍ الى علو ٣٥٤٢٠ قدماً بحسب تحليقهما من العجائب. ولكن الانسان لا يستطيع العيش طويلاً حيث مقدار الاكسجين في الهواء قليل، وهذان الرائدان كادا ان يلقيا حتفهما فظلَّ عملها هذا لا ندَّ له مدة عشرين سنة

ولكن ارتقاء الطائرات، واستنباط اسطوانة خاصة تجهز الطيّار بالاكسجين عند ما يقلُّ هذا العنصر الحيوي في الهواء، مهّدا للانسان طريقاً جديدة لغزو طبقات الجوّ العليا. فحلّق الطيار الفرنسي لوكوانت Lecointe سنة ١٩٢٣ بطيارة الى علو ٣٦٥٢٠ قدماً. ومن ثم مضت الامم تتبارى في هذا الميدان فاحرزت امم مختلفة قصب السبق فيه الى ان كانت سنة ١٩٣٤ اذ حلّق دوناتي Donati الايطالي الى علوّ لم يبلغهُ احدٌ قبلهُ ولا بعدهُ، بالطيارة، وهو ٤٧٣٥٠ قدماً. وكان غراي الاميركي قد حاول ان يفوق من تقدمهُ مرتين باستعمال المنطاد فاضطرّ في الاولى ان يقفز بمظلته بعد ان بلغ ارتفاع ٤٢٤٧٠ قدماً ووجد في الثانية ميتاً في سلّ المنطاد وقد تعطّل جهاز الاكسجين

فلما استنبط الاستاذ بيكار البلجيكي الكرة المعدنية المحكمة الاقفال، المدلاة من البلون بامراس، تغيّر وجه هذا الضرب من المغامرة او الرياضة. ذلك ان الطيار يستطيع ان يجلس الآن داخل الكرة، بمنجى عن هبوط الحرارة وقلّة الاكسجين خارجها، معتمداً على اجهزة في الداخل تجعل جوّ الكرة جوّاً طبيعيّاً، فثمة مادة كيمائية تمتص ثاني اكسيد الكربون الذي يزفره واخرى لامتصاص الرطوبة واسطوانات خاصة لتجهيزه بالاكسجين. فاصبح الارتفاع الذي يبلغهُ غزاة الجوّ بعد استنباط بيكار لا يتوقف على جلد الطيار، بل على حجم البلون الذي تتدلّى منهُ هذه الكرة العجيبة

بلغ بيكار في مغامرته الاولى (سنة ١٩٣١) ارتفاع ٥١٧٧٥ قدماً وفي رحلته الثانية (سنة ١٩٣٢) ارتفاع ٥٣١٥٠ قدماً وهما ارتفاعان لم تبلغهما اية طيارة بعد. وتلت محاولتي بيكار محاولتان في روسيا ومحاولة في بلجيكا وثلاث في الولايات المتحدة الاميركية. وقصب السبق في هذا الضرب من التحليق للكومندور ستل Settle والكابتن فوردني Fordney الاميركيين احرزاه في سنة ١٩٣٣ اذ حلّقا بمنطاد «قرن التقدم» الى ارتفاع ٦١٢٣٧ قدماً. ومما يؤسف له ان الطيارين الروس بلغوا في

تحليقهم الى علو ٧٢ الف قدم ولكنهم لم يعودوا احياء الى سطح الارض وعودة الطيارين احياء الى سطح الارض شرط أساسي في احراز قصب السبق

الا ان التحليق الى أقصى ارتفاع مستطاع لم يكن بحد ذاته الغرض الذي رمت اليه المحاولات المختلفة في بلجيكا وروسيا واميركا بل كان المنطاد في كل حالة قد جهز بأدوات علمية متباينة غرضها الكشف عن بعض الاسرار الطبيعية التي يمنعنا عن كشفها الدثار الهوائي الكثيف المحيط بالارض

ولعلَّ القارىء يدرك ما تقتضيه محاولة من هذا القبيل وما تتجه اليه من الاغراض من وصف رحلة قام بها المنطاد الاميركي (اكسپلورر Explorer) في صيف السنة الماضية

كان الغرض من هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر ، الكشف العلمي . ولذلك كانت الادوات العلمية التي جهز بها — وبعضها صنع له خاصة — تزن اكثر من طن . فكرة المنطاد كانت في الواقع معملاً علميًّا محلقاً في الجو . ولما كان الهواء في طبقات الجو العالية لطيفاً كل اللطف ، وضغطه هناك لا يزيد على جزء من ١٥ جزءا من ضغطه على سطح الارض ، كان لا بد من جعل كيس المنطاد كبيراً حتى يستطيع ان يحمل بعد انتفاخه ، كرة من المعدن فيها ثلاثة طيارين عدا الادوات العلمية

فالمنطاد الذي حلق به بيكار كانت سعته ٥٠٠ ٠٠٠ قدم مكعبة من الغاز . والمنطاد الذي حلق به «ستل» و « فوردني » كانت سعته ٦٠٠ ٠٠٠ قدم مكعبة . ومنطاد الروس كانت سعته ٩٠٠ ٠٠٠ قدم مكعبة . اما هذا المنطاد—الاكسپلورر — فكانت سعته ٣٠٠٠ ٠٠٠ قدم مكعبة

وكانت الجمعية الجغرافية القومية الاميركية بالاشتراك مع سلاح الطيران الاميركي ، قد عينت لجنة من العلماء لوضع برنامج علمي لرحلة المنطاد فحصرته في اربعة اغراض : —

(اولاً) دراسة الاشعة الكونية — (ثانياً) تحديد مكان طبقة الاوزون في الطبقة الطخرورية (Stratosphere) — (ثالثاً) تركيب الهواء على مرتفعات مختلفة من الطبقة الطخرورية — (رابعاً) المقابلة بين اقيسة الارتفاع المعيَّنة بطريقة التصوير الفوتوغرافي لسطح الارض من علٍ ، والاقيسة المعينة بالاعتماد على ضغط الهواء (البارومتر)

وقد اشتركت طائفة كبيرة من علماء اميركا في إعداد أفضل الأجهزة العلمية لتحقيق هذه الاغراض . بل أن هذه الرحلة من أولها الى آخرها آية من آيات التعاون في سبيل العلم . فالجمعية الجغرافية القومية تعهدت بتسديد نفقات الرحلة ، وسلاح الطيران الاميركي بانتداب ثلاثة من ابرع طياريه للقيام بها ، وقد اشتركت السلطات العامة والمحلية في اختيار ميدان لملء المنطاد بالغاز واعداده وتجهيزه بوسائل الاضاءة والحراسة والمخاطبة السلكية واللاسلكية والمعالجة والوقاية من النار والإنباء بحالة الجو

ولما تمت المعدات في ٢٣ يوليو سنة ١٩٣٤ ووردت الانباء من رصَّاد الجو ان الحالة الجوية على خير ما يمكن ان تكون ، أخرج كيس المنطاد من مخبأه ، وبدأ ملؤه بغاز الايدروجين في الساعة

الثامنة مساءً فلما كان منتصف الليل كان كيس المنطاد يحتوي على ٢٠٠ الف قدم مكعبة من الغاز مع أن سعته ثلاثة ملايين قدم مكعبة . وتفسير ذلك انهُ اذا أخذ المنطاد في الارتفاع ، تمدَّد الغاز . فاذا بلغ الغاز مدى سعة المنطاد من التمدُّد ، اخذ يخرج من صمامات خاصة بذلك . وكان المقدَّر أن يرتفع هذا المنطاد الى ٦٥ الف قدم . وعند هذا العلو يكون الغاز الذي فيهِ قد بلغ في تمدُّدهِ سعة المنطاد الكاملة فيشرع في التسرُّب منهُ . لذلك اكتفي بملئهِ بما مقداره ٧ في المائة من سعته التامة . ويقول الذين رأوا المنطاد عند أول تحليقهِ أنهُ كان يشبه علامة كبيرة من علامات التعجُّب !

ولما تم فحص معدَّات المنطاد جميعها ، صعد الماجور كبنز والكابتن ستيفنز والكابتن اندرسن الى الكرة ، وكان قرن الغزالة قد ذرَّ ، فأصدر الماجور كبنز أمره باطلاق المنطاد من القيود التي تقيده بالارض . فهتف عشرون الفاً من الاميركيين كانوا قد احتشدوا هناك لمشاهدتهِ

كانت الخطة ان يتريث الطيارون قليلاً في تحليقهم عند ما يبلغون ارتفاع ٤٠ الف قدم للقيام بالارصاد العلمية ثم يتوقفون ثانياً عند ما يبلغون ارتفاع ٦٠ الف قدم . ثم بعد ذلك يرتفعون الى أقصى ما يمكن ان يبلغه المنطاد وهو ٦٥ الف قدم . وقد تمت المرحلة الاولى بحسب البرنامج المتفق عليهِ . ثم مضوا في التحليق رويداً رويداً ، حتى أتموا المرحلة الثانية ، وكان كيس المنطاد قد انتفخ فاصبح كرة عظيمة وقد تدلت منها كرة صغيرة . فتطلع أحد الرجال من ثقب في أعلى الكرة المعدنية الى الكيس الكبير ، فوجد فيهِ شقوقاً دلَّت على أن الحيطة تقضي بالاستغناء عن التحليق الى علو ٦٥ قدماً لئلا يتسع الخرق بازدياد انتفاخ الكيس . ولذلك بعد أن قضوا نحو نصف ساعةٍ على ارتفاع ٦٠ الف قدم ، اخذوا يهبطون رويداً رويداً الى ان بلغوا ارتفاع ١٨ الف قدم فخرج الرجال من الكرة — لان التنفس على هذا العلو طبيعيٌّ لطيارين مجرَّبين — الى سطحها وقد لبس كلٌّ منهم مظلته الواقية ، وراقبوا الشقوق في كيس المنطاد ، فرأوها قد اتسعت . ثم ما لبث القسم الاسفل من نسيج الكيس ان سقط على الكرة واصبح في مستطاع الرجال أن ينظروا الى داخل المنطاد ، فاذا هو أشبه ما يكون بمظلة (باراشوت) الكبيرة . ولكن وجه الخطر في ذلك ان ايدروجينهُ كان قد أخذ يختلط بالهواء ، وخليط الايدروجين والهواء ، خليط متفجر ، فلما كان المنطاد على ثلاثة آلاف قدم فوق الارض حدث انفجار نسف الكيس ، واخذت الكرة المعدنية تسقط كأنها جلمود صخرٍ منقضٍّ . ولكن الرجال كانوا متأهبين للخطر ، فقفزوا في الهواء معتمدين على مظلاتهم الواقية ، وسقطت الكرة في حقول الحنطة ووصل الرجال سالمين الى الارض

وكان الظن في البدء ان الادوات العلمية تحطمت جميعها ، وان الشرائط السينمية التي دوّنت عليها الارصاد تدوينًا فتوغرافيًّا قد تلفت لتعرضها للضوء بعد السقوط ولكن المجلة العلمية الشهرية تقول ان جانباً كبيراً من الارصاد قد حفظ ، والمعدات تعدُّ الآن لرحلة اخرى في الصيف المقبل بمنطاد تكون سعتهُ ٣٧٠٠٫٠٠٠ قدم مكعبة ويملأ كيسه بالهليوم بدلاً من الايدروجين منعاً لخطر الانفجار

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الدمياطي

[اجتمع لي طائفة من أسماء المفردات النباتية وحررت ما يقابلها في بعض اللغات الاجنبية لترتيبها في معجم والآن عنّ لي أن أنشرها تباعاً في مجلة المقتطف الغراء في بيان موجز اذكر فيه المفرد ووصفه وموطنه واستعماله مشيراً الى بعض فوائده في الزراعة او الصناعة أو التغذية أو الطب عسى أن يكون في ذلك بعض الفائدة — الدمياطي]

شجر الأراك

وهو شجيرة ملساء اوراقها متقابلة كاملة الحافات ثخينة ولها ملمس الجلد مستطيلة . واذا مضغت كان طعمها كالخردل فلا عجب اذا سماها الانجليز في لغتهم بشجرة الخردل. وزهرها صغير جداً ابيض مخضر يوجد في عناقيد باطراف الاغصان او في آباط الاوراق . وثمرتها اكبر من الحمصة قليلا [(١)]

اسمهُ العلمي (Salvadora persica, L) (سالفادورا پرسيقا) وفصيلتهُ الاراكية (Salvadoraceae) (سالفادوراسية) وبالانجليزية (The mustard-tree) وبالفرنسية (Salvadore)

وهو بري نادر في الصحاري المصرية في الارض الكلسية ولكنهُ ذائع في السودان وفلسطين وبلاد العرب وغيرها

واهل السودان يستاكون بالفروع وهذا ما يعرف عند العرب وعندنا بالسواك . ويعتصرون من البزور زيتاً اخضر. ويستعملون خلاصة ما يغلى من قشرة الشجيرة طبيًّا لامراض الجلد. ويأكلون الثمار ويقال ان الشجيرة تنتج نوعاً من الراتنج او الصمغ نافع لصنع (الورنيش)

***

شجر الأثل

ويقال له (العبل) و (الحطب الأحمر) . في بلاد النوبة والسودان (الفارق) و (العبل) و (الطرفا)

---

(١) في تاج العروس انها عند العرب الجهاض او الجهاد او البرير او المرد او الكبات

وهو شجر تتصل فروعه بعضها ببعض اتصالاً مفصليًّا وورقه ضئيل تبدو الطائفة من اغصانه الصغيرة كنفضة الريش المعروفة وزهره مبعثر بلا نظام في سنابل رفيعة طويلة

اسمه العلمي (Tamarix articulata, Vahl.) (تاماريقس ارطيقولاتا) وفصيلته الطرفائية (Tamaricaceae) (تاماريقاسية) وبالانجليزية (Tamarisk) وبالفرنسية (Tamaris)

والاثل موجود في مصر في الأراضي الرملية والملحية وفي السودان وفي جنوب المنطقة الاستوائية وشمال افريقية والشرق الادنى الى الهند

ينتفع بخشبه للوقود ويصنع منهُ فحم وخشبه أبيض متوسط الصلابة واذا احرق وهو أخضر تصاعدت من دخانه رائحة كريهة

وفي السودان يستعمل عفصه في الصباغة والدباغة ويسمونه (البِجْنم) وهو بالفارسية (كَزْمازك)[1] ونقل الى العربية (جَزْمَازج) أو (حَبّ مَازج) أي ثمرة الاثل

ويوجد من الأثل أنواع اخرى أهمها نوعان بمصر والسودان وبلاد العرب وسوريا وهما (T. nilotica, Ehrb.) (تاماريقس نيلوتيقا) وهو شجرة توجد في الأراضي الرملية وعلى ضفاف الترع اوراقها كقشور السمك وفروعها دقيقة قائمة وزهرها أبيض أو أبيض قرمزي مكتنظ في عناقيد بأطراف الفروع . والثاني (T. mannifera, Ehrb.) (تاماريقس مانيفرا) شجرة تنمو على الشواطىء البحرية أوراقها كما في النوع السابق وزهرها في سنابل كثيفة

ويوجد في الهند (T. indica, Rox. v. T gallica, L.) (تاماريقس انديقا أو تاماريقس غاليقا) وفي بلاد العرب وبلاد البحر الابيض المتوسط أيضاً وينتفع طبيًّا بما يفرزه من السكر المعروف (بالمن العربي) قيل إن افرازه ناتج عن وخز حشرة (Coccus manniparus) (قوقوس مانيباروس) وهو غير (الترنجبين) أو (التره نيابن) أو (الترانجلين) أو (المن الفارسي) الذي يفرزه نبات آخر اسمه (الحاج) المعروف في مصر (بالعاقول) أو (شوك الجمال) من الفصيلة البقلية وهو غير (الشيرخشت) أو (المن الخراساني) الذي قيل إنهُ من نوع شجر من الزيتون وغير (المن الصقلي) الذي يفرزه نوعان من شجر (لسان العصافير أو الدردار) من الفصيلة الزيتونية وغير (المن الصمغي الاسترالي) الذي يفرزه نوع من شجر (الاوكالبتوس) من الفصيلة الآسية وغير (المنّ الكردستاني) الذي يقال بأنهُ من نوع شجر من البلّوط من الفصيلة البلّوطية الى غير ذلك من انواع المن المختلفة. هذا وكثيراً ما تسمى جميع انواع المن (بالشيرخشت) وهي كلمة فارسية نقلت الى العربية

اما المنّ الذي انزل على بني اسرائيل فقد قيل فيهِ ان كلمة (manna) الافرنجية ويقابلها (منٌّ) بالعربية اصلها مشتقة من كلمة (man-hu) العبرية ومعناها بالعربية (ما هي ؟) للاستفهام او التعجب

(١) قال الرئيس بن سينا في القانون الكزمازك حب الاثل وهي كلمة فارسية اي عفص الطرفاء ومازك بالفارسية هو العفص وكز تعريب كج وهو الاعوج وكأن تفسيره العفص الاعوج

فاذا صح ذلك فهي دلالة على ما كان عليه بنو اسرائيل من الدهشة والجهل بحقيقة تلك المادة اثناء وقوع المعجزة

وعليه فالقول بأن منّ بني اسرائيل كان من المن العربي افتراضي محض خصوصاً وقد قيل في وصفه في بعض المراجع انهُ (كان ابيض شبيهاً ببزور الكزبرة)

وتقول بعض المصادر العربية إنهُ طل كان ينزل من السماء على شجر او حجر ويحلو وينعقد عسلاً ويجف جفاف الصمغ كالشيرخشت والترنجبين. وفي الصحاح المن كالترنجبين. وفي المحكم طل ينزل من السماء وقيل هو شبه العسل كان ينزل على بني اسرائيل. وقال الليث المنّ كان يسقط على بني اسرائيل من السماء اذ هم في التيه وكان كالعسل الحامس (الشديد) حلاوة. والمعروف بالمن عند الاطباء ما وقع على شجر البلوط

وقال الآلوسيُّ والمشهور ان المن الترنجبين وهو شيء يشبه الصمغ حلو مع شيء من الحموضة كان ينزل على بني اسرائيل كالطل من طلوع الفجر الى طلوع الشمس في كل يوم الاّ يوم السبت وكان كل شخص مأموراً بأن يأخذ قدر صاع كل يوم او ما يكفيه يوماً وليلة ولا يدخر الاّ يوم الجمعة فان ادخار حصة السبت كان مباحاً فيهِ وقيل المراد بهِ جميع ما منّ الله تعالى به عليهم في التيه وجاءهم عفواً بلا تعب واليه ذهب الزجاج ويؤيدهُ قوله صلى الله عليهِ وسلم الكمأة واسمها بالانكليزية (Truffle) من المن الذي منّ الله تعالى بهِ على بني اسرائيل

***

نبات الفوة

الفوة عشب اخضر برّاق له ساق زاحفة تكون قصيرة احياناً وله سوق هوائية منتشرة قد تتسلق بأشواك قصيرة توجد على حافات الاوراق وعروقها او على زوايا الساق الرباعية الضلوع وعروقه الجذرية قرمزية اللون تقريباً شحمية وامتدادها في الارض اطول من السوق. وأوراقه في دوائر بكل منها اربع او ست. وورقته بيضية مستطيلة طولها من ٢ — ٣½ سنتيمتر ولها ذنيب (عنق) قصير جدًّا او جالسة تقريباً. وزهراته صغيرة مصفرة تميل الى الاخضرار في عناقيد ابطية او طرفية غير مكتظة اطول بكثير من الاوراق. وثماره صغيرة سودٌ. وهو من الاعشاب المعمرة

اسمه العلمي (Rubia tinctorium, L.) (روبيا تنقتوريوم) وفصيلته الفوّية (Rubiaceae) (روبياسية) وبالانكليزية (Dyers' Madder) وبالفرنسية (La Garance)

والعرب يطلقون الفوة على العروق (الجذور) وهي التي تستعمل في الصباغة للحصول على اللون الأحمر وذلك من قبيل اطلاق اسم الكل على الجزء فهم يسمون عروق النبات باسمه كما ورد في المعجمات

والفوة تزرع في بلاد البحر الابيض المتوسط وفي الهند وقد كانت تزرع في مصر ابتداء من سنة ١٨٣٣ من النباتات التي ادخلها محمد علي باشا ثم ابطلت زراعتها بعدئذ

والجذور تجفف وتسحق وتستعمل في الصباغة ويطلق عليها (فوة الصباغين) او (العروق الحمر) أو (عروق الصباغين) وتدخل في صناعة المداد المسمى (اليزارين) (Alizarin) وقد استعيض عنه بالاليزارين الصناعي المستخرج من قطران الفحم الحجري

وللفوة استعمالات في الطب ويوجد منها انواع مختلفة عديدة باوربا وآسيا وامريقة وافريقية

***

كوكب الوعر

عشب معمر اغصانه ترتفع ٢٠ سنتيمتراً وأوراقه بيضية الشكل مستطيلة تكون دوائر على الساق في كل منها ٨ اوراق وزهراته ذكية الرائحة جداً بيضاء اللون مجتمعة في نورة مشطية ثلاثية الشعب .

اسمه العلمي (Asperula odorata, L.) (اسپرولا اودوراتا) وفصيلته الفويّة (Rubiaceae) (روبياسية) وبالانجليزية (Woodruff)

وبالفرنسية (Asprule odorant, hépatique etoilée; reines de bois).

وتحوي زهراته زيتاً طياراً فيه كثير من مادة (القومارين) (Cumarin) يحضر منها شراب قرمزي اللون بألمانيا يسمى (مترانق) (Maitran'c) له استعمالات في الطب

وهو ينبت في الغابات الجبلية بأوربا وآسيا وشمال افريقية

***

الغاليون الاصفر

ساقه قائمة او صاعدة خشنة اسطوانية وأوراقه منعكسة رفيعة ملساء خضراء اللون لامعة من اعلاها ومائلة الى اللون السنجابي من اسفل ووبرية وتكون دوائر على الساق في كل منها من ٦—١٢ ورقة وزهراته صفر فاقعة تكون سنبلة متفرعة طرفية . اسمه العلمي (Galiumverum, L.) (غاليوم وروم) وفصيلته الفويّة (Rubiaceae) (روبياسية) وبالانجليزية (Cheese-Rennet) وبالفرنسية (Caillet-lait jaune)

ويطلق عليه (عشب الانفحة) من قديم لأن بعضه يخثر اللبن (يجعله جامداً) اذا وضع فيه وله استعمالات في الطب ويوجد من الغاليون انواع مختلفة عديدة باوربا وآسيا وافريقية

التربية والتعليم

عند قدماء المصريين

للدكتور حسن كمال

اكرام الاساتذة

والآن ننتقل الى موضوع اكرام اجدادنا لاساتذتهم وشدة احترامهم اياهم ومنهُ يتضح عظم تقديرهم للعلم وشدة ولعهم بالتعليم ومعاهده. ولا ادلّ على ذلك من ايراد خطاب كتبه طالب الى استاذه ورد بقرطاس انسطاسي [1] وفيه يتجلى الشعور الرقيق والاحترام والحب الذي كان يغمر قلوب التلاميذ نحو معلميهم . واليكم تعريبه : —

« الى الاستاذ . . لقد تعهّدت تربيتي في طفولتي وكنت تضربني على ظهري حتى دخلت تعاليمك في اذني . انني الآن اشبه بالجواد المرح فلا نوم يأتيني نهاراً ولا نعاس يغشاني ليلا وكل همي ان اقوم بما يرضي سيدي كما يخدم الخادم سيده

« اتمنى لو اشيد لك قصراً فخماً ببلدتك تحيطهُ الاشجار من كل الجهات . به زرائب مملوءة بالمواشي وشونٌ ملآنة شعيراً وقمحاً .. وبهِ القمح والفول والعدس .. والكتان والخضراوات .. وفواكه تكال بالسلال واتمنى ان يكون لك مع القصر اغنام يتضاعف عددها وكذا بقرات حبالى . وان ازرع لك خمسة افدنة بالخضراوات في جنوب بلدتك من خيار وغيره وخيرات كعدد الرمال . . . .

وجاء بقرطاس انسطاسي [2] ايضاً خطاب من تلميذ الى معلمهِ نقتطف منهُ ما ترجمته : —

«سيدي العزيز : اطال الله عمرك ووهبك الخيرات كل يوم . واسبغ عليك السرور والفلاح والرضى مرات لا تعدّ ولا تحصى . وجعل الفرح والسرور ملازمين لك والصحة من نصيب اعضائك . انت تزداد شباباً بمرور الايام ولا يعتريك الاذى وتدور احياناً بمخيلتي فأتذكر جمالك الفذ الذي لا يضارعه جمال . عيونك تتلألأ كل يوم واذنك تنصت (لكل ما يقال) . سنونك جميلة جداً . واشهرك مقرونة بالنعيم . وايامك ملآنة حياة وساعاتك كلها صحة وسلامة . الآلهة راضية عنك راغبة في كلامك . . . »

الآثار العلمية

﴿ الخط الهيروغليفي ﴾ يعتبر استنباط الكتابة في ذاته اهم ما انجبه الذهن المصري القديم من الوجهة العلمية . فبهِ تمكن اجدادنا من اثبات معلوماتهم واخبارهم نقشاً على الحجر او كتابةً على الورق .

(١) Pap. Anastase IV. 8. 7 ff (٢) Pap. Anast. III 4, 4.

فسجلوا بذلك مباحثهم الفنية واثبتوا سبقهم لسائر الامم في كل العلوم ولعمري كم من السنين صرفها القوم في ابتكار هذا الخط في احوال معاشية اقلما يقال عنها انها فطرية. وكان الخط الهيرغليفي في مبدئهِ صوريًا . وبالرغم من التحسينات التي طرأت عليهِ قد حافظ على صوريته الى آخر عهده . ونسب القوم ابتكار هذا الخط الى معبودهم (تحوت). وحوالي عام ٣٠٠ بعد الميلاد زال كل أثر للخط الهيرغليفي فبقي مجهولاً حتى عام ١٧٩٩ ميلادية لما اكتشف حجر رشيد . ومنهُ عرفنا ان الاحرف المصرية القديمة نوعان صوريٌّ وصوتيٌّ . وان الاحرف الصورية قسمان هجائي ومركب . وتمثل الاحرف الصورية الاشياء التي تعنيها . ويكتب الخط الهيرغليفي من اليمين الى الشمال او من الشمال الى اليمين او بهيئة اعمدة رأسية . ويقرأ من الجهة التي تتجه اليها اوجه الحيوانات والطيور . ولا يخفى ان هذا الخط هو مجموعة لحيوانات واشجار وادوات ذات الشكل الجذاب . لذلك استعمل كثيراً لزينة المعابد والمنازل والادوات المنزلية كالصناديق والحلى وادوات الحرب وغير ذلك . ومن هذه المصادر استنتجنا شيئاً كثيراً من معلومات هؤلاء القوم . والجزء الباقي وصل الينا عن طريق القراطيس البردية وروايات المؤرخين

ومن أقدم الازمنة المعروفة اختزل هذا الخط الى الخط الهيراطيقي الذي اعتاد القوم ان يكتبوهُ على الادراج البردية والتوابيت الخشبية . ويكتب عادةً من اليمين الى الشمال ووجد هـذا الخط على بعض قصاصات بردية من عهد الاسرة الرابعة (٢٧٢٠ — ٢٥٦٠ ق . م) بجزيرة الفيل باسوان واقدم سجل هيراطيقي هو المعروف باسم قرطاس (بريس Prisse) الذي يرجع تاريخه الى الاسرة الحادية عشرة (٢١٠٠ — ٢٠٠٠ ق . م) وهو محفوظ بالمكتبة الاهلية بباريس Bibliothèque Nationale واستمرَّ استعمال الخط الهيراطيقي حتى القرن الرابع بعد الميلاد

واختزل الخط الهيراطيقي في عهد الاسرة الخامسة والعشرين حوالي (٧١٢ ق . م) واطلق عليهِ اسم الخط الديموطيقي الذي بطل استعماله حوالي القرن الرابع بعد الميلاد

﴿علم الفلك وتقسيم الزمن﴾ من سنة ٤٢٤٢ ق.م. استعمل المصريون السنة الشمسية في توقيتهم وقسموها الى ٣٦٥ يوماً . وقد رسموا السماء وعرفوا اهم نجومها وابتدعوا الآلات التي تعرفهم مواقع النجوم . وهناك رسوم لمواقع النجوم لكل خمسة عشر يوماً على طول السنة . وأهم مراصدهم كان في طيبة ودندرة ومنف وعين شمس . وقسم القوم سنتهم الى ثلاثة فصول زراعية وكل فصل الى اربعة اشهر فصارت بذلك السنة اثنى عشر شهراً . ولم يستعمل المصريون في زمنهم وحدة اطول من السنة ولم يستعملوا الاسبوع وقسموا الليل والنهار الى اثنى عشر ساعة . وابتكروا ساعات الظل والمزاول والساعات المائية

﴿الزراعة﴾ اهتم المصريون بالزراعة منذ اقدم العصور فقسموا سنتهم الى ثلاثة فصول فصل البذر وفصل الحصاد وفصل الفيضان . وابتكروا مقاييس النيل وفرضوا الضرائب على المساحة

المزروعة . وشادوا خزاناً بالفيوم يحجز مقداراً من الماء يكفي لري الدلتا بعد هبوط النيل. وابتكروا الشادوف والفأس والمحراث والمدراه والمنجل ومساحة الاراضي وأنشأوا الترع والجسور . واعتنوا بالحيوانات الداجنة واستوردوا الاشجار والحيوانات من البلدان المجاورة . وتفننوا في الصناعات الزراعية . ونقشوا كل ذلك على جدران مقابرهم

﴿ الهندسة والحساب ﴾ اهم ما عثر عليه من هذين العلمين هو قرطاس (Rhind) المحفوظ بمتحف لندرة وهو قرطاس يرجع تاريخه الى حوالي ١٦٠٠ ق . م. وجميع المسائل التي فيه عملية وتتطلب معرفة كبيرة في علمي الحساب والهندسة

مثال (١) (عملية ٣٩) مطلوب قسمة مائة رغيف على عشرة رجال بحيث يكون نصيب ستة رجال خمسين رغيفاً ونصيب الاربعة الباقين الخمسين رغيفاً الباقية

تحل هذه المسألة بايجاد العدد الذي يضرب في ٤ كي يصير حاصل الضرب ٥٠ وهو في هذه الحالة ١٢ ½ ثم ايجاد العدد الذي يضرب في ٦ كي يصير حاصل الضرب ٥٠ وهو في هذه الحالة ⅓ ٨

مثال (٢) مطلوب معرفة مساحة مثلث ارتفاعه ١٠ (خت) وقاعدته ٤ (خت). الحل : قسم ٤ على ٢ فتكون النتيجة ٢ وهو طول ضلع المستطيل الذي مساحته تساوي مساحة المثلث : اضرب ١٠ خت (وهو ارتفاع المثلث) × ٢ فيساوي ٢٠ خت مربع وهو المساحة المطلوبة

ولا يخفى على القارىء ان المقام لا يتسع للتفصيل لذلك اكتفيت بذكر ابسط مثال حسابي وآخر هندسي مشفوعين بطريقة حلهما . لكن زيادة في الايضاح سأورد بياناً ببعض الاسئلة التي كانت توضع للطلبة للاجابة عليها للاستئناس بها فقط

(١) ما هو الكسر الذي يضاف الى ⅔ + ١/١٥ كي يصير المجموع ١ صحيح (عملية ٢١)

(٢) قسم ستة ارغفة على عشرة رجال (عملية ٣) : قسم تسعة ارغفة على عشرة رجال (عملية ٦)

(٣) ما هو العدد الذي اذا اضيف اليه ربعه يكون المجموع ١٥ — الجواب ١٢ (عملية ٢٦)

(٤) ما هو العدد الذي اذا اضيف اليه نصفه وربعه يكون المجموع ١٠ — الجواب ٥/٧ ٥ (عملية ٣٤)

(٥) ما حجم المكعب الذي يبلغ طول كل ضلع فيه ١٠ — الجواب ١٠ × ١٠ = ١٠٠ × ١٠٠ × ١٠ = ١٠٠٠ (عملية ٤٤

(٦) هرم طول ضلعه ١٤٠ ذراعاً ونسبة ميله ¼ ٥ قبضة فما هو ارتفاعه ؟ الجواب ⅓ ٩٣ (عملية ٥٧)

(٧) ما مساحة قطعة ارض دائرية قطرها ٩ (خت) (عملية ٥٠)

(٨) هرم طول ضلعه ٣٦ ذراعاً وارتفاعه ٢٥٠ ذراعاً والمطلوب نسبة ميله (عملية ٥٦)

﴿ الطب ﴾ : برع القدماء المصريون في الطب وخلفوا لنا الاوراق البردية والنقوش الطبية العديدة وأثبتوا لنا بأجلى صورة طول باعهم في هذا العلم . فهم أول من اعتبر القلب مركزاً للاوعية. وأول من اكتشف النبض وعلاقته بالقلب . ثم أنهم أوردوا لنا رسوماً واضحة لعملية الختان وذلك

بمقبرة بسقارة ورسوماً اخرى لتجبير العظام في المقبرة نفسها. وأوضحوا لنا وجود مرض السل بالعمود الفقري ولين العظام وأمراض العظام الاخرى وذلك في صور الاشخاص المنقوشة على جدران المعابد أما معلوماتهم عن التحنيط فحدث عنها ولا حرج فهم أول من أوجد هذه الطريقة وأتقنها واستعملوا لذلك العقاقير المتباينة والاجراءات الجراحية الفنية المختلفة. وقد أخذ الغير عنهم هذه الصناعة حتى انتقلت الى آسيا وأمريكا وغرب افريقيا واليهم يرجع الفضل في استعمال العقاقير الكثيرة في العلاج حتى عهدنا هذا. من ذلك: زيت الخروع. وقشر الرمان والحنظل. وكبرتات النحاس. والافيون وغير ذلك

التعاليم الدينية والفلسفية

﴿ التعاليم الدينية ﴾ هي اقدم ما عرف من علوم قدماء المصريين. وجدت مدونةً في عدة جهات من اهرام وتوابيت وصفائح قبور وادراج بردية وغير ذلك

واهم هذه التعاليم هي المعروفة بنصوص الاهرام [١] التي يرجع تاريخها الى الاسرتين الخامسة والسادسة (٢٥٦٠–٢٢٧٠ ق. م) وهي خاصة بنعيم الميت وتحوي التعاويذ الكثيرة لراحته في الآخرة وكذا الدعوات التي كانت ترتل وقت تقديم القرابين. ومن عهد الاسرة التاسعة (٢٢٤٠ ق. م) حتى الاسرة الحادية والعشرين (١٠٠٠ — ٩٤٥ ق. م) نقش الامراء هذه النقوش على توابيتهم من الداخل. وهناك تعاليم دينية اخرى وجدت مكتوبة على توابيت الموتى خاصة بالرعية القصد منها ضمان الغذاء والشراب والراحة لصاحبها والتمكن من الظهور بالشكل الذي يرغبهُ كي يتابع سروره وملذاته وتعرف هذه النصوص باسم نصوص التوابيت Coffin Texts[٢]

وهناك نصوص دينية اخرى تعرف باسم كتاب الموتى Book of The Dead هي مجموعة دعوات وصلوات وتعاويذ متنوعة وردت مدوَّنة بكثرة على الورق البردي حتى العهد الروماني

ثم كتاب الآخرة Book of what is in the underworld [٣] وكتاب ابواب الآخرة Book of Gates [٤] ودعاء الشمس Litany of the Sun [٥] وقصة ابادة البشر Destruction of Mankind E. Naville Recherche 4. I. 12 ومدائح المعبودات Hymns to the Gods مثل مدحة النيل Hymn to the Nile Maspero 1912 ومدحة امون رع Hymn to Amen Re A. Mariette Pap. Mus. Bouloque 1871—II ومدحة اتون Hymn to Aten Vol 4,6 Davies Rock tombs of El-Amarna

ولكي أظهر ما تحويهِ تلك التعاليم من معانٍ سامية وآداب راقية أورد هنا بعض عبارات جاءَت في كتاب الموتى يقولها المتوفي أمام الآلهة في الآخرة هذه ترجمتها: —

---

(١) Kurt Sethe Die Altaegyptichen Pyramiden texte 4 vols Lepzig 1901—22

(٢) P. Lacau Sarcophage anterieur au nouvele enpire, 2 vols 1904. 6 also Cat. General des musie du Caire

(٣) E. Lefebure Annales du Musée Guimet vol. 9, 16

(٤) Naville La litanie du Solleil 1875

لم استعمل القسوة مع انسان . لم أسرق . لم أقتل رجلاً أو امرأة . لم أخسر المكيال . لم أرتكب الغشّ . لم آخذ لنفسي حاجات الآلهة ، لم أكذب ولم اهرّب الغذاء ولم أتلفظ بألفاظ جارحة . ولم اهجم على انسان . ولم اقتل الوحوش الخاصة بالمعبودات . ولم ارتكب رياءً . ولم أترك الأراضي الزراعية بوراً ، ولم اوقظ فتنة . ولم أغتب أحداً . ولم أترك نفسي ضحية الغضب . ولم أتعرّض لزوجة بمكروه . ولم ارتكب ذنباً ضدّ العفة . ولم اسبب رعباً . ولم أتعدّ حدود الأزمنة والأمكنة المقدسة . ولم أكن غليظ الخلق . ولم أتصنع الصمم وقت سماع الحق والعدل ولم أشعل نار ثورة . ولم أسبب البكاء لانسان . ولم أرتكب الموبقات . ولم أكن أحمق . ولم أسيء الى انسان . ولم أتبع سبيل الرهبة . ولم أتسرع في اصدار حكم . ولم أنتقم لنفسي من معبود . ولم أزد في كلماتي عن الحقيقة . ولم أخن أحداً . ولم ألعن ملكاً . ولم ألوّث ماءً ، ولم أتكبر . ولم أشتم معبوداً . ولم أكن سيء الخلق . ولم أسع لترقية . ولم أزد في ثروتي الاّ بالحلال . ولم أقصر في احترام معبود مدينتي

ومنها يتضح أن هذه العبارات التي اطلق عليها القوم اسم «الاعتراف السلبي» لم تك في الحقيقة سوى تعريف مطوّل لما نسميه «مكارم الاخلاق»

﴿ حكم الفلاسفة ﴾ أقدم هذه هي حكم الفيلسوف (بتاح حوتب) حوالي ٢٥٠٠ ق.م تقتطف منها ما يأتي ترجمة المرحوم كمال باشا : اذا كان لك حاجة عند منازع . وكان يفوقك في المهارة فابسط له يديك واحن ظهرك ولا تغضب منهُ لانهُ لا يمكنك من نقض حديثه بل يسوؤك كثيراً لو ناقشته في الكلام وحينئذٍ يظهر عدم كفاءتك . الزم الحزم متى حدثت لك مناقشة . اذا كان لك حاجة عند شرس وكان شاذًّا في الشراسة فكن كالذي لا يتحرك لتكون أفضل منهُ (لا سيما) لو التزمت الصمت وهو في سباب . ولقد قيل في المثل خير انسان من التزم الحياد . من الصواب التعرّف بالكبار

اذا كنت رئيساً تحكم في أمور كثيرة بين العالم فابحث عن اكمل شريعة لتكون غير ملوم . ما أعظم العدل الثابت الاركان الذي لم يكدَّر صفوهُ من عهد المعبود ازوريس . التعرّض في سبيل القوانين مسلك الظلم . لا ينال الوضيع رفعة ما لم يهتد الظالم الى مسلك العدل . حدود العدالة ثابتة . هذا التعريف يأخذه كل انسان عن أبيه

لا توقع الرعب (في قلوب) الناس فان الله يجازيك . وان ظن انسان أنهُ يعيش بذلك ينزع الله العيش من فمه . وان تراءى له أن يغتني بسببه يقول له الرب استرد لنفسي (غناك) . اذا تعدّى انسان على آخرين لقتالهم انتهى أمره الى أن يصير عاجزاً . يجب ان لا يبثّ الخوف بين الناس . هذا أمر الله كما يجب وصل عيشهم في حال السلم وليقبل منهم ما يعطونه عن رغبة ولا يدعي عليهم لشيء لاخذه بالرهبة . اذا أكلت مع اناس جالسين عند أمير وكانوا اكبر منك فخذ ما يعطونهُ اياك باحترام وتواضع وانظر الى الذي أمامك ولا تحدث فيه لان الانسان يكون مذموماً ان لم يتجنب هذه الخصال . ولا تتكلم بأكثر مما تسأل اذ أنك لا تعلم ما يحتمل استقباحه . تكلم حينما تسأل .

وليكن كلامك مقنعاً . الكبير الذي عنده مؤونة لمعيشته يسلك في سيره حسبما يهوى فيفعل ما يشاء . فان قصد الراحة فعل ذلك . لان الكبير متى بسط يده فعل ما لا يتوصل الناس اليهِ . لكن لما كانت وسائل المعيشة متعلقة بارادة الله فليس من الممكن عصيانه

كن نشطاً مدة وجودك وفعّالاً لما يقال ولا تضرّ بوقت نشاطك . فالانسان المذموم هو الذي يستعجل بأوقاته استعجالاً قبيحاً . لا تضيع الفرصة اليومية لتزداد ما تمتلكه في بيتك . فالاجتهاد يأتي بالغنى والغنى لا يدوم متى (فارقه) النشاط

﴿ آراء الفلاسفة في العلم ﴾ وردت في ذلك كتابات كثيرة كلها دررٌ ولا تجيء منها ما ورد بقرطاس الفيلسوف (آني Ani)(١) الذي يرجع تاريخه الى الاسرة الثانية والعشرين (٩٤٥—٧٤٥ ق م) نقتبس منهُ ما تعريبه :—

« اذا كنت عالماً اطاعك الخلق اجمع . فهب نفسك للعلم واملأ قلبك بهِ حينئذٍ لا يلفظ لسانك الاّ كلاماً بليغاً . ألا فاعلم ان كل موظف ذي مركز علمي لا غنى له عن الرجوع الى مصنفات العلم . ان وزير المالية لا يملك تنصيب ابنه في مركزه من بعده ولا قائد القلعة يمكنهُ تعيين وريثه محله . . . . .

ويفهم من ذلك ان المناصب الكبيرة لا تقلد الاّ للاكثر علماً وامتن ثقافة

الآثار الادبية

﴿ الشعر ﴾ وردت عدة قصائد رنّانة ضمن آداب اللغة المصرية القديمة حافلة بالمعاني السامية الخيال الرائع . نقتطف منها ما يأتي : —

قصيدة قيلت في سيزستريس الثالث (اسرة ١٢) مقسمة الى ستة أقسام منها القسم الآتي :—

أنت عظيم أنت عظيم يا مليك مدينته وأنت كالسد العظيم الحاجز لتيار الفيضان
أنت عظيم أنت عظيم يا مليك مدينته أنت الملجأ الذي يستريح فيه الانسان متى يسطع ضوء النهار
أنت عظيم أنت عظيم يا مليك مدينته أنت كالحصن المشيد جدره من أحجار حادة من مدينة قسم
أنت عظيم أنت عظيم يا مليك مدينته أنت مأوى اللاجئين اليك من عبث قطاع الطريق
أنت عظيم أنت عظيم يا مليك مدينته أنت حامي الضعيف الخائف من عدوه القوي
أنت عظيم أنت عظيم يا مليك مدينته أنت مظلة القيظ وخضرة النيل في فصل الحصاد
أنت عظيم أنت عظيم يا مليك مدينته أنت الركن الدافىء الجاف في زمن الشتاء
أنت عظيم أنت عظيم يا مليك مدينته أنت الصخر الحامي من ويلات العواصف

واليكم ترجمة أنشودة كان يترنم بها عازف القيثارة في ولائم الوجهاء : —

«ما أسعدك أيها الامير . لعلك تعلم أن هذه الحياة محتم عليها الفناء ، فالاجساد تموت وتنعدم ثم يأتي بعدها آخرون يحلون محلها. انظر الى الآلهة (أي الفراعنة) الموجودين في الاهرام من قديم

الزمان . والى الامراء والحكماء الذين دفنوا فيها تجدهم مطروحين في الحادثم (ولا غرابة) فكل من شيَّد منزلاً (قبراً) زال أثره من الوجود . استمع لي فسأخبرك بما آل اليه أمر هؤلاء القوم . لقد سمعت حكم (امحوتپ) و(خرزوزف) الدائمة الصيت ولكن أين هما الآن . لقد تحطمت بيوتهم وانعدمت آثارهم. فلا خبر يأتينا من ناحيتهم ينبئنا عنهم ويطمئن قلوبنا قبل أن نرحل الى ذلك المكان

تناسى تلك الأمور واصرف همك فيما ينفعك. اعمل كل ما تطلبه نفسك. عطر رأسك بالمر واكس نفسك بالكتان الجميل المعطر بالروائح الذكية المقدسة واكثر من الفرح والسرور حتى لا يحزن قلبك

اتبع شهواتك ومسرتك وسير الامور كما تشتهيها حتى يأتيك يوم الحزن وهو اليوم الذي لا يسمع فيه قلبك الساكن ما يدور حوله من النحيب

البكاء لا يعيد للميت الحياة . فتنعم اذاً في هذا اليوم الجزل . ولا تهمله يذهب سدًى . فلا أحد يأخذ من الدنيا شيئاً معه كما أنه لم يرجع الى هذه الدار من ذهب الى الدار الآخرة

« القصص والروايات » وصلنا منها عدد كبير نقتطف منها ما يأتي :—

روي أن اميراً شابًّا حكمت عليهِ المعبودات وقت ميلاده ان يموت بتمساح او بثعبان او بكلب فسافر الى سوريا حيث وجد قصراً تسكنه ابنة ملك النهرين وحوله الشبان يحاولون تسلقه وذلك لان والدها وعد ان يؤهلها لمن يتسلق جدار القصر . فحاول الامير المصري ذلك ونجح وبلغ الاميرة لكنه ادعى اولاً انهُ ابن ضابط مصري مخفياً بذلك حقيقتهُ . فلما علم ملك النهرين بخبره اغتاظ وامتنع عن اعطائه ابنته حتى كاد يقتله حينئذٍ اقسمت الاميرة انها تنتحر اذا أعدم الامير فتكدر والدها من هذا القسم واخيراً سمح لها بالاقتران بهِ. وجاء ان الامير نجا من الموت من تمساح ثم من ثعبان وفقدت بقية القصة بعد ذلك والمظنون انها انتهت بموت الامير من كلب يتبعه من مصر طول رحلته الاسيوية ويلاحظ ان هذه الرواية تحوي اقدم مثال للعقيدة العالمية بأن كل شاب يتحتم عليهِ قبل الاقتران بزوجتهِ ان يظهر لها ضروب الشجاعة كي يستميل قلبها

ومن قصصهم ايضاً ما تناولت امور الفلاحة وهي تعرف بقصة الاخوين تتلخص في ان اخوين عاشا معاً في كوخ بأحد الحقول وكان اكبرهما متزوجاً قابضاً على زمام البيت . اما الاصغر فكان عائشاً معه كابن له فصبت نفس زوجة الكبير الى الصغير فرفض طلبها . عندئذٍ ارادت ان تكيد له فوشت في حقه عند اخيه الكبير فصمم على الاقتصاص من اخيه واراد قتله خلسة . فتحفز له وراء الباب . وفي مساء اليوم عاد الاخ الصغير بالبهائم ليدخلها اصطبلاتها فلحظت احدى هذه الحيوانات الامر واسرّت الى راعيها بما يضمر له اخوه الكبير فلما علم بذلك فرَّ هارباً خوفاً من القتل ثم حصلت بين الاثنين حوادث خرافية لا تتمشى مع ما جاء اولاً من مطابقتها للواقع . وبالتأمل في هذه الحكاية يجد القارىء في جزئها الاول شبهاً لقصة سيدنا يوسف الغرامية التي رواها لنا بنو اسرائيل وجاء شرحها بالذكر الحكيم والتوراة

القانون والقضاء

جرت العادة ان يرفع كل متظلم او مدَّعٍ دعواه الى الوزير كتابة ويستحسن حضور صاحب الطلب بنفسهِ . ولذلك كان قصر الوزير ملجأ يجيء اليهِ المدعون والمتظلمون كل يوم . وكانت تعقد في هذا القصر كل يوم جلسة لاصدار حكمها في تلك الدعاوي. ودلتنا الآثار ان هذه الجلسات كان يؤدي نظامها حجَّاب وكتبة . وكان الناس يدخلونها بالترتيب بعد ما يصفون استعداداً لمثولهم بين يدي الوزير . وحتم القانون على الوزير اصدار حكمه في قضايا الاراضي المتعلقة بطيبه في ثلاثة ايام من تاريخ رفع الدعوى . اما قضايا الاراضي الخارجة عن طيبة فالنطق فيها كان لا يتأخر عن شهرين . هذا كان النظام القضائي مرعيَّ الجانب لما كانت المملكة تحت اشراف وزير واحد . لكن لما عين وزير ثانٍ للشمال قُسم النفوذ والسلطان بين وزيري الشمال والجنوب وكل جرائم طيبة كان ينظرها الوزير شخصيًّا . اما المجرمون فيحجزون في سجون خاصة ما داموا في التحقيق فاذا صدر الحكم عليهم ارسلوا الى سجون اخرى ينفذ فيها العقاب . ولكل قضية اوراق تحفظ في السجلات الرسمية كما هو الحال الآن . ويتحتم على كاتب الوصية ان يسجلها شخصيًّا في قصر الوزير . وتحفظ صور لجميع المستندات وحدود الاراضي والعقود في ادارتي وزيري الجنوب والشمال . وكل طلب يقدم للملك يتحتم عرضه على الوزير اولاً

وزيادة على قصري الوزيرين انشئت بالارياف محاكم فرعية من رجال الادارة المتمرسين على تطبيق القانون ويعرفون برجال المجلس المحلي والقضايا الكبيرة الخاصة بالاسر الرقيقة كان يتحتم فيها ارسال مندوب من مجلس القضاء الاعلا لينفذ قرار ذلك المجلس بمعرفة رجال اقرب مجلس محلي

وكان القانون الذي يلجأ اليهِ الفقير غاية في العدالة . وجرت العادة ان ينسخ في اربعين درجاً رديًّا ويوضع على منضدة القاضي وقت انعقاد المحكمة للمراجعة وزيادة الايضاح وكان يسمح لكل شخص ان يقرأ القانون ويستفسر الغامض. ومن دواعي الاسف اننا لم نعثر على نسخة من ذلك القانون الذي لا نشك لحظة في عدالته فقد جاء في الآثار ان الوزير كان يحكم بالعدل بدون محاباة حتى كان يخرج المتخاصمان من حجرته مجبوري الخاطر . وجاء أن احد الملوك قال امام احدى المحاكم بأن « القانون ثابت لم احدث فيه تغيير . لذلك التزمت خطة السكوت خوفاً من احداث الفرح والسرور » وبلغت العدالة حدًّا لا يكاد يصدقه العقل . من ذلك انه لما ظهرت مؤامرة لاغتيال حياة ملك لم يكتف الملك بتحقيق مختصر واصدار حكم الاعدام على الجناة بل اصدر امره بتشكيل محكمة للنظر في القضية بشرط ان لا تصدر حكماً بعقاب المتهمين الاَّ بعد ثبوت اجرامهم

واليكم مادتين من قانون حور محب

(١) كل موظف او كاهن يقال عنه انه عين في القضاء ليحكم بين القضاة وهو يجني على القانون يحاكم بتهمة الخيانة العظمى » (ب) كل شرطي علم عنه انه دخل المساكن لاجل سرقة الجلود يحكم عليه ابتداء من هذا اليوم بمائة جلدة ويجرحه في خمسة مواضع ثم تسترجع منه الجلود المذكورة »

الديمقراطية والتعليم

[تابع ما قبله]

للدكتور امير بقطر

— ٦ —

﴿ الميزانية العامة للتعليم ﴾ من اركان الديموقراطية في التعليم ان تكون نسبة ميزانية التعليم الى ميزانية الدولة الباقية ، متفقة مع حاجة البلاد . ولا نستطيع ان نشرح هذه النقطة بغير ان نبين هذه النسبة في بعض بلدان العالم ومنها مصر

البلد	نسبة ميزانية التعليم لميزانية الدولة	البلد	نسبة ميزانية التعليم لميزانية الدولة
الصين	١٠ ٪	جنيڤ	٣٠٫٠ ٪
رومانيا	١١٫٤ ٪	بورتيريكو	٤٥ ٪
بلغاريا	١١٫٧ ٪	جزائر الفلبين وغيرها	٥٠ ٪ (سابقاً)
نروج	١٣٫٧ ٪		و ١٨ ٪ اليوم
دانمرك	١٤٫٢ ٪	مصر	٧٫٣ ٪
هولندا	١٩٫٣ ٪		

يقول الاستاذ الدكتور بول منرو صاحب دائرة المعارف (في التربية) ورئيس اللجنة التي نيط بها درس حالة التعليم في العراق ، ان كثيراً من البلدان خصصت في بعض السنوات ٥٠ ٪ من ميزانيتها العامة للتعليم ... كما يرى من الجدول السابق

وليس في هذا غرابة اذا علمنا ان الامية والجهل والانحطاط في مستوى العيش كالحمى والطاعون والهواء الاصفر يحتم على الامة قطع دابرها واستئصال شأفتها في اقرب فرصة ممكنة ، لان تأجيل القضاء على هذه الاخطار عشرين سنة مثلاً يؤخر الامة مئات من السنين

ويقول علماء التربية ان مجموع ما ينفق على التعليم يجب في الحالات المعتادة (لا في حالة الجهل والامية الضاربة اطنابها) ألاّ يقل عن ٤ ٪ او ٣ ½ ٪ من مجموع الدخل القومي او دخل مجموع الافراد . وعلى هذا الحساب يكون هذا الرقم من ١٠ ½ الى ١٢ مليون جنيه لان دخل مصر بحسب التقدير الذي عمله حديثاً دكتور ليڤي هو ٣٠١ مليون جنيه في العام

﴿ توزيع ميزانية التعليم على درجاته ﴾ مصر تنفق على التعليم الاولي ١٫١٥٥٫٧٣٧ من الجنيهات

من الميزانية العامة للتعليم وقدرها ٣٢٠٧٥٢١٦٠ عن سنة ١٩٣٤ — ٣٥ وحتى نعلم هذه النسبة في بعض البلدان الاخرى اقول ان مستر مان الذي انتدبتهُ وزارة المعارف سنة ١٩٢٩ لدرس حالة التعليم في مصر ذكر ان في انكلترا كل جنيه واحد ينفق على التعليم غير الاولي ، يقابله اربعة جنيهات تنفق على التعليم الاولي ، في حين ان في مصر كل جنيه يصرف على التعليم الاولي يقابله ٢ على غير الاولي

في كندا وسكانها نحو عشرة ملايين نسمة اي ⅔ سكان القطر المصري تبلغ الميزانية العامة للتعليم ٣٣ مليون جنيه مقسمة كما يأتي : —

العالي ٤ مليون جنيه والثانوي ٧ مليون جنيه والاولي ٢٢ مليون جنيه المجموع ٣٣ مليون جنيه . اي ان ما ينفق على الاولي ضعف ما ينفق على الثانوي والعالي مجتمعين

وفي ولايات اميركا المتحدة يوجد في المدارس الاولية ٢٥ مليون تلميذ وتلميذة ، وفي المدارس الثانوية ٥ ملايين وفي العالي مليون واحد . هذا مع العلم ان عدد تلاميذ المدارس الثانوية يزيد في مجموعه عن مجموع تلاميذ المدارس الثانوية في جميع ممالك اوربا وآسيا

والتعليم الأولي أهم بكثير من التعليم الثانوي والعالي كما يشاهد من الميزانية المخصصة له لأن التعليم الثانوي من الكماليات في حين ان الأولي من الضروريات ، لأن الأولي عادة يشمل السواد الاعظم من السكان في حين أن الثانوي لا يشمل الاَّ أقلية صغيرة منهُ . وربما تستغربون اذا قيل لكم ان التعليم الثانوي في انكلترا في يد المدارس الخصوصية (الاهلية) ومجلس الولايات

انظروا ما يقوله دكتور كلاباريد الخبير السويسري الذي انتدبتهُ الوزارة سنة ١٩٢٩ عن التعليم الثانوي في مصر

« شاهدنا في المدارس الابتدائية والثانوية في مصر ما تحسده عليها الدول الاوربية في الاثاث والمعدات ، وشاهدنا طبقة من النظار والمفتشين والمعلمين من الدرجة الاولى »

نعم هذا صحيح — معامل وأجهزة وبنايات فخمة ومرتبات وكماليات luxe في المدارس الثانوية والابتدائية والعالية ولكن على حساب الفلاح البائس » على حساب المدارس الاولية التي يتمثل فيها الانحطاط والفقر في المعلمين والمعدات والاثاث . أقول في الاثاث والمباني ولا أريد أن اقول أن كبير أطباء وزارة المعارف يقول في تقريره أن التلاميذ القرويين يقضون حاجاتهم في أثناء وجودهم في المدرسة في الاماكن التي تقول مصلحة الصحة انها مرعى خصيب للبلهارسيا والانكلستوما ، لانه لا توجد بها مراحيض . ثم ارجو أن تقارنوا معلم المدارس الاولية بالمدارس الثانوية والعالية

نسبة مرتبات المعلمين في درجات التعليم

في مصر المدارس الاولية : الابتدائية من	١ : ٣ — ١ : ٦
« اوربا ١٠	النسبة واحدة

في مصر نسبة الأولية الى الثانوية من	١ : ٣—١ : ١٠
« اوربا « « « «	١ : ١½—١ : ٢
« مصر نسبة الأوليـة الى الجامعة من	١ : ١٦
« اوربا	١ : ٣ — ١ : ٤

ولا غرابة اذا كان التعليم الاولي متأخراً فأنا حديثو العهد به . ففي سنة ١٩١٨ — ١٩ انفقت مصر ٤ ٪ لا غير من ميزانية التعليم على المدارس الاولية في حين أن فرنسا في تلك السنة انفقت ٧٢ ٪ من ميزانية التعليم على التعليم الاولي

وانظروا الى هـذا الجدول الذي يبين ما كانت تنفقه الممالك المختلفة على كل تلميذ أولي سنة ١٩١٣ — ١٤ مقارناً بين ما كانت تنفقهُ مصر : —

أسماء البلاد	للتعليم الاولي عن التلميذ الواحد قرشاً مصرياً	اسماء البلاد	للتعليم الاولي عن التلميذ الواحد قرشا مصرياً
اليابان	٦٠	بلجيكا	١٨٧
انجلترا	١٤٠	سويسرا	٢٠٠
بروسيا	١٤٣	ولايات اميركا المتحدة	٢٢٢
فرنسا	٧١٠	استراليا	٣٠٧

مصر ١٤ مليماً في العام عن التلميذ في الابتدائية والاولية (الوزارة ومجالس المديريات معاً)

***

﴿٧—الامية والديموقراطية﴾ من العبث اصلاح القرية، او تعويد السكان النظافة والوقاية من الامراض الرمدية والطفيلية بغير ان يتمشى التعليم الالزامي وزوال الامية مع سائر الاصلاحات الاجتماعية في آنٍ واحد . وربما كان مناسباً هنا ان نعلم شيئاً عن الامية وتاريخها في مصر وغيرها

في اوربا سنة ١٥٠٠ كان الملوك والامراء اميين — اذا استثنينا القليلين كالفريد الكبير وسنة ١٥٠٠ م كان عدد الذين يقرأون ويكتبون اقل من ١٠ ٪ وسنة ١٥٠٠ — ١٧٠٠ لم تزد النسبة عن ١٠ ٪ الاّ قليلاً وسنة ١٨٠٠ أخذ التعليم يكون الزامياً تدريجياً وسنة ١٨٧٠ اصبح ٧٥ ٪ من بريطانيا وفرنسا والمانيا متعلمين

وفي المانيا كانت النسبة سنة ١٨٤١ ٩٠ ٪ وسنة ١٨٨١—٩٧ ٪ (قبل الاحتلال بسنة) وسنة ١٨٩٥ — ٩٩٫٧ ٪ (اي قبل عباس الثاني بثلاث سنين)

وفي فرنسا من سنة ١٨٧٥ اصبح عدد القراء كثيراً جداً حتى ان كلاًّ من الـ Petit Journal والـ Petit Parisien كان يوزع من النسخ يومياً مليوناً

وهذا الجدول يبين لنا تفصيل سير التعليم في شتى البلدان

البلد	النسبة المئوية للذين يقرأون ويكتبون		
	١٨٣٠	١٨٥٠	١٨٨٠
انكلترا	٥٥	٦٤	٨٤
اسكوتلندا	٧٧	٨٣	٨٨
ارلندا	٤٦	٥٥	٦٧
فرنسا	٤٢	٥٧	٧٨
روسيا	١	٢	١١
النمسا	٢٨	٣٤	٤٩

البلد	النسبة المئوية للذين يقرأون ويكتبون		
	١٨٣٠	١٨٥٠	١٨٨٠
ايطاليا	١٦	٢٨	٤١
اسبانيا والبرتغال	٩	١٨	٣٤
سويسرا	٨٧	٨٠	٨٨
اسوج ونروج	٨٠	٨٢	٨٧
الولايات المتحدة	٨٠	٨٤	٩٠
مصر	١	٣	١٠

ولننظر الى هذه النسبة اليوم ١٩٣١ — ١٩٣٢

البلد	النسبة المئوية للاميين
بريطانيا العظمى	من صفر الى ½ ٪
المانيا	» ٪
اليابان	» ٪
ولايات اميركا المتحدة	٤ ٪
فرنسا	٨ ٪
بلجيكا	٩ ٪

البلد	النسبة المئوية للاميين
اسبانيا	٥٤ ٪
الصين	٨٠ ٪
سوريا	٨٠ ٪
فلسطين	٨٠ ٪
مصر	٨٨ ٪

خاتمة

﴿ النظام الدكتاتوري والتعليم ﴾ من الغريب ان الانظمة الدكتاتورية التي لا تتفق في الاصل والديموقراطية ، بل هي والديموقراطية على طرفي نقيض — من الغريب ان النظام الدكتاتوري الذي نراه ينتشر اليوم في كثير من بلدان العالم ، اكثر ديموقراطية في التعليم (في معظم النواحي) من البلاد العريقة في الديموقراطية . ففي تركيا ، يدير مصطفى كمال دفتها بيد من حديد ويسير بخطوات واسعة نحو نشر التعليم بين الكبار والصغار البنين والبنات ، ولا تمضي سنوات حتى تصبح تركيا من ارقى بلدان العالم في التعليم ، لانها تتبع احدث الانظمة ، وقد دعت جون ديوي منذ سنوات للانتفاع بآرائه الفلسفية الحديثة . وفي ايطاليا التي تحكمها يد الفاشزم الفولاذية وعلى رأسها الجبار موسوليني يتناول التعليم جميع طبقات الامة ، والمدارس الثانوية مثلاً سبعة انواع حتى تشمل جميع الافراد في سن التعليم الثانوي وتقوم بسداد حاجات الامة على الوجه الكامل

وفي روسيا البلشفية ، وهي آخر ما كان ينتظر ذكره من البلدان التي تراعي روح الديموقراطية في التعليم ، هذه البلاد اكثر ديموقراطية من جميع بلدان العالم من هذه الناحية ، لان ١٠٠ ٪ من جميع التلاميذ بنات وبنين بين سن ٣ و ١٤ في رعاية الدولة تعنى بغذائهم ولباسهم وتعليمهم وكثيرون من رجال التربية يسافرون كل عام الى تلك المملكة لدراسة نظم التربية هناك

انطاكية وآثارها الفخمة

ارض حضارة ضائعة

بقلم نقولا شكري

اشارت الصحف الى ان الجنود عثروا في جبل سلبيوس المطل على مدينة انطاكية على آثار رومانية نفيسة كانت مغطاة بطبقة ترابية حتى جاءها السيل فاكتسح الطبقة وجلاها . وتعد الآثار الجديدة من اخر ما خلفهُ الرومان ويقال انهُ لا مثيل لها في جميع متاحف العالم الاخرى . والى القارىء بيانها المفصل وفاقاً لما اشارت اليهِ الصحف

١ — تمثال نصفي من الرخام الابيض يمثل قنصلاً رومانيًّا بزتهِ الرسمية وهو دقيق الصنع سليم من التشويه كأنهُ صنع حديثاً والرأس والصدر والقاعدة منفصلة بعضها عن بعض وتتصل بركائز حديدية . وسبب هذا الاتصال هو انهُ كان من عادات الرومان نصب تمثال لكل قنصل جديد يتولى شؤون الولاية او المدينة ولما كانت البزّة الرسمية معروفة لا تتبدل قط بشاراتها ورموزها ونقوشها كانوا يكتفون بتغيير الرأس فقط وركزه فوق التمثال الجسمي وهناك في المتاحف العالمية كثير من مثل هذه النصب التامة ويفضل هذا لان صاحبهُ معروف ومتصل بهِ كما ان ما عليهِ من صور الاشكال البارزة والنقوش البديعة رائعة وجيلة جدًّا

٢ — تمثال يوناني للآلهة : فينوس (الزهرة) .. وهي نصف حاشية من الرخام الابيض ايضاً عديم الرأس وبعض الساعدين ، اما التكوين الجسمي فهو آية فنية للجمال في المرأة من الكتفين الى الصدر والعنق والنهدين والفخذين حتى والقدمين وكأن ذلك الجمال الذي سئم الدفن بين طيات الثرى فشق الارض وظهر للعيان فتنة للناظرين

٣ — تمثال نصفي لاحد آلهة اليونان او جبابرتهم ذو لحية مسترسلة وعيون تنبعث منها الهيبة والوقار وهو اضخم القطع الموجودة وسليم من التشوه ايضاً وملابسهُ بطياتها وثنياتها وتجعداتها تنم على دقة الصنع ومهارة المثالين القدماء لعدم وجود الوسائط الفنية الحديثة لديهم لنحت مثل هذه الدقائق

٤ — تمثال بارز فوق قطعة مستديرة من الغرانيت الاسود يبلغ قطرها ٨٠ سنتمتراً تقريباً يمثل امرأة عارية ونصفها السفلي يمثل حيواناً جاثماً وهي سليمة كاملة

٥ — رأس للاله باخوس بابتسامته الهازئة الساخرة وشعره المشوش وهو اقدم الآثار الموجودة بحسب رأي العارفين

٦ — تمثال طير يشبه فرخ النسر منحني العنق الى الجانب وهو جاثم فوق قاعدة من الرخام وكل ما فيهِ من ريش وتكوين بديع الصنع

٧ — رأس سيدة رومانية هو مثل الجمال الروماني بتقاطيع الوجه وتكوين سائر اعضاء الرأس خصوصاً اسلوب تنظيم الشعر وجمعهُ فوق الرأس بهيئة تاج جميل حسب الزي الروماني

٨ — رأس رجل من الغرانيت الاحمر الوردي تظهر عليهِ كل ملامح الرجولة والقوة والبأس

٩ — تمثال رجل شيخ مستند الى جدار بحزن وكآبة وهو مرسل الشعر واللحية

ويقول بعض العلماء ان هذه النفائس كانت ملكاً لعظيم خاف عليها فطمرها في الجبل وظلت فيهِ لم تمتد اليها يد حتى جاء السيل لجرف ما كان يغشاها فظهرت الوجوه فتنة للناظرين

* * *

وبعد فقد كتبت في عدد سابق من المقتطف مقالاً مستفيضاً اشرت فيهِ الى الآثار القديمة الموجودة في انطاكية واهمها الجسر الروماني وبقايا القصور والهياكل والحمامات وميادين السباق واقنية المياه والقبور والتماثيل الرخامية والسور الروماني القديم الذي يحيط بالمدينة فلا حاجة بي للعودة الى هذا الموضوع . على انني ارى لمناسبة الاكتشافات الاخيرة ان اذكر باختصار كيف نشأت حضارة انطاكية وترعرعت ثم ضاعت

وقد لا يكون من الاستطراد الخارج عن الموضوع ان اؤيد لمناسبة الاكتشافات الاخيرة ان اشهر الآثار الرومانية في انطاكية الطرق والجسور القديمة وقد اكتشفت في سنة ١٥٠٧ خريطة رسمت عليها الطرق والدروب العسكرية في الامبراطورية الرومانية القديمة من بريطانيا الى الهند والمظنون انها وضعت في القرن الرابع للمسيح وانها نسخت عن خريطة اقدم منها بكثير

وترى الطرق في بعض ضواحي انطاكية محفوظة حفظاً عجيباً كما في الطريق الممتدة بين انطاكية وكلس فان عرضها عشرون قدماً او اكثر وهي مبلطة ومن البلاط ما طوله اربعة أقدام وعرضهُ ثلاثة وسمك الواحدة منها ثلاثة اقدام ايضاً

وفي انطاكية وضواحيها جسور رومانية كاملة وكثير من الجسور التي عقدت في القرون الوسطى وأهمها الجسر القائم عند مدخل المدينة واتفق اني رأيت هذا الجسر بعد مطر غزير سالت بهِ الاودية وجرف السيل جسرين حديثين بناهما المهندسون الفرنسيون فوقع منظر هذا الجسر وقعاً عظيماً في نفسي لثباتهِ على مقاومة العناصر الطبيعية هذه القرون الطوال واثنيت الثناء الطيب على المهندسين الرومانيين وطأطأت رأسي امام اشباحهم اجلالاً لقدرهم واعترافاً بتفوقهم في صناعتهم

واذا سأل سائل من كان سكان تلك البلاد الذين مدوا هذه الدروب المتقنة وشيدوا الهياكل وبنوا المسارح التمثيلية واعلوا القصور وزخرفوا الحمامات زخرفاً نادر المثال وسكنوا بيوتاً لا ينقصها شيء من اسباب الراحة في هذه الدنيا وثووا فاحتوتهم اضرحة رحبة لا تقل فخامة عن بيوتهم وقصورهم. اذا سأل سائل هذا السؤال قلنا له ان هذا الوصف الوجيز الذي ينطوي عليهِ سؤالك كاف للدلالة على ان حضارة انطاكية بلغت شأواً رفيعاً في ذلك العهد . وهناك ما يدل ايضاً على ان تلك الحضارة كانت في ذلك العهد لا تزال في أوجها وانها لم تكن قد مالت الى الزوال او دبَّ اليها شيء من الانحلال لما

دهمتها قوى خارجية غير منظورة ودرستها كأن لم تكن شيئاً مذكوراً

وكان لاهل البلاد فنون خاصة بهم أثرت فيها الفنون اليونانية الى حين ثم نفضت عنها ذلك التأثير واستعادت رونقها الاول كصورها الاصلية ولكنها استبقت من الأثر الغريب ما زادها بهجة وطلاوة واتخذت لها طرازاً يفوق طراز سائر الفنون في ذلك الزمان . وظاهر من درس فنون اولئك السكان التي اكتشفت في آثارهم وعادياتهم ان معظمهم كانوا اذكياء واغنياء واذا قيست الحضارة بمقياس المنازل ظهر لنا ان حضارة انطاكية القديمة كانت رفيعة وان كان كثير من الكتابات التي تركوها والنقوش التي احتفروها على الآثار كثير الخطأ في التهجئة والتركيب النحوي فما ذلك الا لان الكتاب كانوا يكتبون بلغة اجنبية يعرفها العلماء المحدثون الآن اكثر مما عرفها اهلها اليونان في عصرهم

اما قولنا ان سكان تلك البلاد كانوا اغنياء في الثروة فمبني على كتاباتهم ونقوشهم التي تركوها لنا وهي تدل على انهم كانوا اهل كفاف من العيش ينفقون عن سعة وتبقى عندهم فضلة موفرة . ففي تلك النقوش ان فلاناً اهدى الى مدينته حماماً عمومياً وآخر بنى كنيسة او ديراً على نفقته الخاصة وهكذا . ومن كان اقل غنى اهدى الى قريته هدية على مقدار حاله . وكانوا اهل مسالمة ونظام ومحافظة على الامن في مجتمعهم بدليل ان كثيراً من قصورهم كانت تبنى ولا جدار او سياج حولها لحمايتها من الاعتداء . على انهم لم يكونوا من كبار اصحاب العقار بدليل قرب مدنهم بعضها من بعض وبالتالي لم يربوا قطعاناً كبيرة من الماشية ولكنهم كانوا يزرعون شجر الزيتون والكروم ويعصرون الزيت والخمر على قدر كبير بدليل كثرة المعاصر في القرى المحيطة بانطاكية . وكانت تجارة القوافل بين انطاكيه والبلاد الجنوبية ومصر وفارس واسعة النطاق ففي بعض الكتابات ان تاجراً خرج بقافلة الى نهر السند او الهند وآخر سافر بمهمة سياسية الى رومه

وربَّ سائل يسأل : متى كانت آخرة خصب تلك البلاد وآخرة مدنيتها الزاهرة وكم دام عمرانها وما هو سبب زواله ؟

ليس من ينكر ان بعض هذه المسائل يتعذر الجواب عنه ، وبعضها لا يكون الجواب عنه شافياً ولست اقصد محاولة الجواب عن تلك المسائل وانما اقصد وصف البلاد كما هي والاستدلال بالحاضر على الماضي وسيرى القارىء ان هذا الوصف يسهل السبيل الى الجواب عن بعض تلك المسائل على قدر الامكان . وتدل الآثار والنقوش والكتابات التي وجدت في تلك البقاع انها لم تكن آهلة بالسكان بعد اوائل القرن السابع للمسيح ويخيل الينا ان سنة ٦١٠ كانت تاريخ آخر مدنية الجزء الاكبر منها وهذا التاريخ يوافق تاريخ الفتح الفارسي الكبير سنة ٦١٠ — ٦١٢ واوائل الفتح الاسلامي الذي بدأ بعده بنحو عشرين سنة . ويستدل من اقدم الكتابات التي وجدت في البلاد ان العمران بلغ فيها شأواً رفيعاً في اوائل التاريخ المسيحي كذلك تدل الآثار والتاريخ دلالة قاطعة على ان ذلك العمران بدأ هناك قبل التاريخ المسيحي بنحو مئتي سنة او ثلاث مئة سنة على القليل ولكن هناك آثاراً أخرى يؤخذ منها

ان تلك البقعة اقدم عهداً ولو لم نعرف الآن القليل عن تلك المدينة القديمة. وتاريخ البلاد كما يؤخذ من التوراة وكتابات المصريين والآشوريين القدماء تدل دلالة صريحة على انه كان في تلك البلاد حضارة راقية في اوائل مدنية الانسان

ومن يسيح الآن في شمال انطاكيه ويهبط وادي العاصي الخصيب يرى في ذهابه شرقاً سلسلة غير منتظمة من الآكام الكلسية ممتدة الى الشمال الشرقي ومتوسط علو هذه الآكام ١٥٠٠ قدم ومنها ما علوه ٣٠٠٠ قدم الى ٣٥٠٠ فوق سطح البحر وهي آكام رمداء جرداء لا يرى فيها أثر يد الانسان من طرق مرصوفة وجدران تفصل الحقول بعضها عن بعض وارصفة هائلة الكبر ثم يشاهد خرائب مدن صغيرة مهجورة فيها ابنية كبيرة وصغيرة مبنية من حجارة كلسية بديعة النحت واذا صعد الى مرتفع هناك رأى حواليه خرائب مثل هذه الخرائب ممتدة في كل جهة واذا كان بعيداً عنها لا يصدق أنها خرائب مهجورة وبعض هذه المباني لا يزال قائماً ولكن سقوفه منزوعة عنه على مر الزمن . وقد يسير المرء اميالاً كثيرة في تلك البقعة ولا يرى فيها انساناً ولا خضرة ما سوى بعض شجر البطم هنا وهناك ولا ارضاً ترابية تصلح للزرع الا في اماكن بين الصخور وحول كل خربة بقايا معاصر لعصر الزيت وصنع النبيذ . اما البناء في هذه الخرائب فيمثل كل طراز معروف عند الامم العريقة في الحضارة من ذلك ابنية تدل الدلائل على انها قديمة جدًّا وان لم يكن عليها كتابة وهي على شكل كثير الاضلاع ولها افاريز غليظة حول سطوحها وأبوابها ومنها ابنية بنيت في القرن الاول والثاني للمسيح بينها هياكل بديعة البناء ومعظمها خرائب لان الناس جعلوا يسطون عليها لاخذ حجارة البناء منها وفي جميع تلك الانحاء بيوت جميلة بنيت في القرنين المذكورين وكنائس كبيرة وصغيرة وحمامات ومخازن واسواق وأضرحة على اشكال شتى لا عداد لها . اما كنائس القرن الرابع فأبنية خالية من الزخرف وأما كنائس القرنين الخامس والسادس فأكثر زخرفاً من جميع الابنية التي تمثل العهد المسيحي قبل العهد القوطي في اوربا . والآكام التي في اقصى الشمال غير آهلة ولكن يقصدها في بعض فصول السنة طوائف من التركمان يضربون خيامهم فيها وينزل بعض جوانبها بضع عائلات من الاكراد . وفي التلال الكلسية الى شرقي العاصي قرى صغيرة يسكنها قوم من الفلاحين يتكلمون التركية وبينهم قليل من النصيرية وهم يعتمدون في حرث ارضهم وزرعها على مطر غزير يرويها والآ امحلت وفي الشمال كثير من قرى الشراكسة في سفوح الآكام وقد جاء بهم السلطان عبد الحميد اليها وسلحهم وملكهم اغزر عيون تلك البقعة ليكون منهم حاجز حصين بينه وبين العرب

اما القرى التي تكتنف انطاكية فآهلة بالعلويين وهم امة مستقلة على صغرها ولغتهم العربية وهم يتزوجون زوجة واحدة وديانتهم سرية ولهم زعماء اصحاب مكانة عظيمة عندهم وسلطة كبيرة عليهم ومنازلهم كبيرة رحبة فيها جميع اسباب الراحة

بقي انه ليس من السهل ان نعرف لاول وهلة سبب انقراض حضارة انطاكية الزاهرة هذا الانقراض السريع وكل ما يخبرنا به التاريخ انه طغى على البلاد سيلان من الغزاة سيل الغزاة الفرس من الشرق وسيل الغزاة العرب من الجنوب في الثلث الاول من القرن السابع بعد المسيح وكانت عادة الفرس أنهم اذا غزوا بلاداً ، ولم يقووا على البقاء فيها جلوا عنها ودمروا جزءاً كبيراً منها يفصل بينهم وبينها فيأمنون بذلك قيام البلاد المغزوة للاخذ بالثأر فلا يبعد والحالة هذه بعد اجتياحهم تلك البلاد ان يكونوا قد قطعوا ما فيها من غابات الزيتون والكروم وخربوا المعاصر وهدموا جدران الحقول ولكن حربين تسيل فيهما الدماء انهاراً ويكثر فيهما التخريب والتقتيل والاسر لا يحولان بلداً خصيباً قفراً جديباً في مثل هذا الزمن الوجيز فلا بد فوق ذلك من اضافة العوامل الطبيعية كالزلازل التي قربت البعيد وعجلت النتائج

وانطاكية موطن اميانوس مرشكينوس وارشياس الشاعر الفيلسوف الذي كان شيشرون من تلاميذه وليبيانوس والقديس لوقا والقديس يوحنا فم الذهب . وينسب اليها جماعة كثيرة من اهل العلم وغيرهم من المسلمين . وفي القرن الخامس لقب اسقف انطاكيه بطريركا ويطلق لقب بطريرك انطاكيه على بطريرك الروم الارثوذكس وثلاثة من بطاركة الكنيسة الكاثوليكية وهم بطريرك الموارنة وبطريرك الروم الكاثوليك وبطريرك السريان الكاثوليك وما من أحد من هؤلاء يقيم في انطاكية

***

وقد ازدهرت النصرانية في انطاكية ازدهاراً كبيراً . وليس في العالم كله مدينة غير القدس مرتبطة اكثر من انطاكية بتاريخ الكنيسة الرسولية . ومما يذكر هنا اشتراك المدينتين في كثير من المسائل المتعلقة بانتشار النصرانية من ذلك أن احد الشمامسة السبعة الذين انتخبهم الرسل لخدمة الموائد كان من انطاكية (اع . ٦ : ٥) ولما تشتت النصارى من اورشليم بعد قتل اسطفانوس سار قوم منهم الى انطاكية وبشروا فيها بالانجيل (اع . ١١ : ١٩) وانحدر اغابيوس وغيره من الانبياء من اورشليم الى انطاكية وانبأوا بالمجاعة (اع ١١ : ٢٧و٢٨) ومنها ارسل برنابا وشاوول الى اورشليم للقيام بأعمال خيرية (اع ١١ : ٣و١٢ : ٢٥) واليها انحدر قوم من اليهودية وألقوا في كنيستها رجساً (اع ١٥ : ١) وبها لام القديس بولس القديس بطرس لنهجه طريقاً ساقه اليها رسل من اورشليم (غلا : ٢ : ١١و١٢) ومعظم أهمية انطاكية دينيًا ناشىء عن استظهار النصرانية فيها على الوثنية فقد قامت بها أول كنيسة للامم (اع ١١ : ٢و٢١) وبها دعي التلاميذ مسيحيين اولاً (اع ١١ : ٢٦) وقام القديس بولس بأعماله الاولى التبشيرية (اع ١١ : ٢٢ — ٢٦) وسافر منها في بدء سياحته الاولى للتبشير (اع ١١ : ١—٣) واليها رجع (اع١٤ : ٢٦) وبعد ان عقد المجمع الرسولي الذي انفذت أوامره الى الأمم المرتدة في انطاكية خاصة (اع : ١٥ : ٢٣) بدأ سياحته التبشيرية الثانية وانتهى اليها (اع ١٥ : ٣٦ و١٨ : ٢٢) ثم خرج منها حين بدأ رحلته

الثالثة (اع ١٨ : ٣٣) التي انتهت في اورشليم وقيصرية وما من شيء يدل على انهُ رجع اليها بعد ذلك غير أنها بقيت بعده مركزاً مهمًّا لتقدم النصرانية

أما بطرس الرسول فهو أول اسقف سيم لكنيسة انطاكية سنة ٤٤ فبعد أن أقام فيها سبع سنين عين افوديوس خلفاً له وقصد الى روميه . أما كنيسة القديس بابيلاس اسقف انطاكية الذي مات في اثناء الاضطهاد الذي قام به داكيوس فقد كانت في « دفنه » بجوار انطاكية واستطالت شهرتها حتى أنست الناس عظمة هيكل ابولون المقام هناك . ولما قدم بوليانوس الجاحد دفنه ليقدم قرباناً لابولون دهش جد الدهشة لانهُ لم يرَ في الهيكل الاحتفالات المعتادة وشكا في بعض كتاباته من أنهُ لم يرَ من القرابين الاّ طيراً من الاوز قدمه رجل فقير بدلاً من التقدمات السابقة التي كان كل منها مؤلفاً من مائة ذبيحة وحملته غيرته الدينية على الاخذ بثأر ابولون فهدم كنيسة القديس بابيلاس واصدر أمره الى النصارى بنقل موتاهم المدفونين في « دفنه » الى انطاكية مع بقايا القديس بابيلاس فوضعت عظامه في مركبة ونقلت محفوفة بالنشائد والترانيم والناس من حواليها يهللون ويضجون بحماس كبير . وفي الليلة التالية اضرمت النار حول تمثال ابولون في « دفنه » فسقط وقد نسب يوليانوس ذلك الى نصارى انطاكية فعاقبهم على ذلك عقاباً أليماً وفي سنة ٣٠٣ حدث الاضطهاد الذي قام بهِ ديوكلتيانوس على انطاكية فجرى فيها من الفظائع ما تقشعر لهُ الابدان هولاً ورعباً وجرى بين الكاثوليك والآريوسيين من الشقاق ما كاد يفضي الى خراب المدينة . وفي النصف الثاني من القرن الرابع اضطربت أحوال كنيستها لتكاثر فرق الهراطقة فيها والتأم في انطاكية عشرة مجامع مسيحية من سنة ٢٥٢ الى سنة ٣٨٠ وفي أواسط القرن السادس للميلاد فتح كسرى ملك فارس انطاكية بعد ان كان يوستنيانوس قد بذل جهده في ترميمها واعادة الابنية التي هدمتها الزلازل فاضرم فيها النار فاحترقت ما عدا منطقة « ستراتيوم » والكنيسة الكبرى الاّ أن الفرس سلبوا منها كثيراً من النفائس وكان القيصر قد انفذ الى ملك فارس سفيرين يدعى احدهما يوحنا والآخر بوليانوس فتمكنا من مقابلته وعقدا معه معاهدة صلح تقرر فيها أن يؤدي القيصر الى ملك فارس مبلغاً سنويًّا على سبيل الاعانة وعلى سبيل الجزية

وقد اتفق المؤرخون ان يوستنيانوس ساعد أهالي انطاكية مساعدات كبيرة تمكنوا بها من بناء حمامات جيلة وانشاء قصور جديدة غاية في الابداع وكنيستين كبيرتين احداهما للعذراء والاخرى للقديس ميخائيل وحولوا مجرى النهر ووسعوه وبلطوا اسواق المدينة تبليطاً حسناً وجروا المياه الصالحة للشرب بأقنية ووسائل اخرى كثيرة ووزعوها على الاحياء المختلفة وحفروا آباراً خاصة للمنشآت القائمة على التلال والاماكن المرتفعة واقاموا لمياه الشتاء سدوداً متينة لوقاية البلد من أذاها. كذلك انشأ يوستنيانوس ثلاثة مستشفيات احدها للنساء والثاني للرجال والثالث للمرضى من السياح والغرباء

وفي آخر سبتمبر سنة ٥٨٩ حدثت زلزلة شديدة في الساعة الثالثة صباحاً فتساقطت الأبنية في

بضع دقائق وهدم جزء كبير من الكنيسة الكبرى غير ان قبة الكنيسة انفصلت من أصلها وسقطت على بعض الجدران فارتكزت عليه ولم تحل عنه لأنها توازنت ولم تنفصم انها كانت من المعدن والخشب ولم يعقب هذه الزلزلة من الاضطرابات ما عقب الزلزلة التي حدثت سنة ٥٢٦ غير أن شوكة سوريا كانت قد مالت الى الزوال لان الفرس كانوا يدنون من الفرات وينهبون آسيا الصغرى وفي اثناء هذه الأخطار أخذ فوكاس المغتصب يضطهد اليهود ويهددهم بالفناء ان لم يعدلوا عن شريعة موسى فثارت ثورتهم وانقضوا على انسطاسيوس الاسقف واحرقوه بالنار حيًّا فجرّت عليهم قساوتهم هذه قصاصاً مرعباً وذبحهم فوكاس شر ذبحة وفي سنة ٦٣٨ للميلاد فتحها المسلمون صلحاً على يد ابي عبيدة بن الجراح في ايام الخليفة عمر وذكر المؤرخون الافرنج ان الذي مكنهُ من ذلك خيانة يوقنا احد قواد الروم ولم يدخلها الاَّ بعد حصار شديد . وذكر ياقوت ان ابا عبيدة سار اليها من حلب . ثم انتقل اليها قوم من اهل حمص وبعلبك منهم مسلم بن عبد الله بن حبيب بن النعمان بن مسلم الانطاكي وكان مسلم قد قتل على باب من ابوابها فهو يعرف بباب مسلم الى الآن . وفي سنة ٩٧٥ استرجعتها الامبراطورية البزنطية وذكر ياقوت ان الروم استرجعوها سنة ٣٥٣ للهجرة الموافقة ٩٦٤ للميلاد بعد ان ملكوا طرسوس واظنه غير ان الرواية الاولى هي الاصح واستمرت انطاكية في ايدي الروم الى ان استولى عليها منهم سليمان السلجوقي جد ملوك آل سلجوق في سنة ٤٧٧ للهجرة وفي سنة ١٠٩٧ للميلاد حاصر الصليبيون انطاكية ولم يكن لها حينئذٍ من القوة ما كان لها في عهد الرومانيين لان عدد سكانها تناقص غير ان مساحتها كانت لا تزال ثلاثة فراسخ وكانت اسوارها منيعة جداً وكان فيها ٣٦٠ برجاً للقتال وقلعة مبنية على صخر وخنادق عميقة وفي احد جانبيها نهر وفي الآخر اجمة والتلال من حواليها تقيها الهجمات . وكان المحاصرون مؤلفين من اربع امم من الافرنج فتمكنوا من فتحها سنة ١٠٩٨ للميلاد ويقال ان الذي سهل لهم ذلك خيانة رجل ارمني يدعى فيروز كان قد أسلم . وذكر ياقوت ان الافرنج استولوا عليها بحيلة وقد جعل الصليبيون انطاكية قاعدة اميرية باسمها واول من ملكها بوهيموند الترنتي وكانت مدة ملكه من سنة ١٠٩٨ الى ١١٠٨ ثم ضمت الى مملكة اورشليم واعيدت بعد ثماني سنوات الى بوهيموند الثاني سنة ١١٢٦ وفي سنة ١٢٦٨ حاصرها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري ففتحها بعد حصار استمر اربعة ايام واحرق كنائسها بالنار وقتل من اهلها نحو ١٧ الف نفس وأخذ منهم مئة الف اسير . وقد انحطت قواها بعد ذلك وزال ما كان لها من الرونق والبهاء وفي سنة ١٥١٦ استولى عليها الاتراك . ومن الزلازل التي اصابتها وهي في حوزة الدولة العثمانية الزلزلة التي حدثت سنة ١٦١٥ وكادت تهدم المدينة برمتها وقد قتل فيها عدد وفير ثم الزلزلة التي اصابتها سنة ١٨٧٢ وقد بدأت في ١٣ ابريل واستمرت عدة ايام فهدمت قسماً من الاسوار وانشق الجسر الروماني القديم في عدة اماكن وتساقطت كنيسة الروم الارثوذكس وهلك الوف من الاهلين

حب الام

في أنابيب التجارب العلمية

ان حب الام في نظرنا هو روح الامومة ومجلاها لذلك نسبغ عليهِ في الناس والحيوانات على السواء، مسحة من الالوهة، ومع ذلك يقول الكاتب « رتشي كالدر » في كتابه الجديد « ولادة المستقبل » انهُ رأى حب الام في انبوب المختبر !

ذهب هذا الكاتب الى الدكتور ويسنر في معهد الوراثة الحيوانية بادنبره فعرض عليهِ انبوباً فيهِ سائل قال انهُ يحتوي على سرّ الحب في الام . فاحسَّ الكاتب عندئذٍ برعشة في يديه حتى كاد ان يفلت الانبوب منهما ويتحطم على الارض . فقد أثبت الدكتور ويسنر أنهُ يستطيع أن يولد في اناث الحيوان غريزة الامومة وفقاً لرغبته . وليس السائل الذي يحتوي عليهِ الانبوب المذكور ، الأ غريزة الامومة هذه ، وقد أفرغت في قالب مادي . فقد استخرج الدكتور ويسنر هذا السائل من الغدة النخمية المؤلفة من ثلاثة فصوص في مخفض صغير داخل الجمجمة عند القذال . ثم أثبت انهُ عندما تحقن بهِ الفئران التي لم تلد تتصف بجميع مظاهر الامومة ومنها حب الام . فكأ نهُ خلق غريزة الامومة بحقنة ابرة !

والمظاهر التي تجلت في تصرف الفئران تستوقف النظر ، فالامومة في الفئران تستغرق خمسة عشر يوماً بعد الولادة ، تبالغ الوالدة في خلالها ، في العطف على مواليدها ، فتحملها وترأمها وتبني لها العشوش وتدافع عن كيانها ، ثم اذا انقضت الايام الخمسة عشر ، تركتها وشأنها ، منصرفة عن كل عناية بها ، فلا يبدو عليها بعد ذلك اي مظهر من مظاهر عطف الام على فلذات مشتقة من كبدها . الأ ان حقن الخلاصة المستخرجة من الغدة النخمية ولد في اناث الفئران مظاهر الامومة مع انها كانت غير قريبة العهد بالولادة . وهذا السائل يحتوي على هرمون (رسول) خاص مستخرج من الفص الامامي في الغدة النخمية ، فاذا توصل العلماء الى معرفة بنائه الكيمائي ، اصبح في وسعهم ان يصنعوا « حب الام » في المعمل

ان الدكتور ويسنر واعوانه معنيون الآن بالبحث في أسرار الولادة والتناسل ، وقد وجهوا جانباً كبيراً من عنايتهم الى استكناه اسرار الهرمونات (الرسل الكيمائية التي تطلقها الغدد الصم) المسيطرة على العمليات الشقية (الجنسية Sexual) المعقدة في الجسم ، ويؤخذ من هذه البحوث ان أعمال التناسل والولادة خاضعة لسيطرة الغدة النخمية ، وان هذه الغدة بمثابة المركز الرئيسي أو مقر أركان الحرب لنظام الغدد في جسم الانسان ، منها تنطلق الرسل (الهرمونات) في مجرى الدم حافزة بعض الغدد للعمل أو لنقل الاوامر الى ما يتصل بها من الغدد الاخرى

ومن هذه الغدد ما يصد الرسل عن سيرها ، ولا يطلقها من عقالها الأ متى حان الوقت الموافق ، والعمل كله قائم على أساس عجيب من التضافر والاتساق

روح اليابان ورسالتها

زعيمها الحربي يتحدث

«كنوزنا المقدسة ، هي المرآة رمزاً للعدل ، والجوهرة رمزاً للرحمة ، والسيف رمزاً للشجاعة . هذه الفضائل هي سر روح اليابان» [الجنرال اراكي]

لما دعي الجنرال اراكي من نحو ثلاث سنوات ونصف سنة ، من قيادة فرقة محلية ، الى تقلد وزارة الحربية ، كانت الحملة المنشورية في بدئها . ولكن مكانة وزير الحربية حينئذٍ وشأنهُ الكبير في الوزارة اليابانية ، كانا مستمدَّين من خطورة الحملة في منشوريا ومن معرفة زملائه أنهُ يستطيع أن يسير فيسير الجيش الياباني وراءه . ذلك أن الجيش كان قد دبَّ فيهِ دبيب الخروج عن الطوق ، إذ رأى الدبلوماسية اليابانية في مسألة منشوريا مترددة خائفة لا تقف من الحالة موقفاً حازماً . وكان الضباط الشبان يقرأون لبعض متصوفة اليابان بأن الله لا بدَّ معيد لليابان عهد ازدهارها على يد الجيش والقواد والضباط ، فينقضي عندئذٍ عهد المتمول وعهد خادمه السياسي . وبدأ القوم يسمعون في أندية اليابان ودوائرها همساً باحتمال وقوع انقلاب في نظام الحكم ، يقوم بهِ الجيش المتمرد ، فيطرُدُ السياسيون من منصات الحكم وتنشأ حكومة عسكرية قومية

وكان التقلقل السياسي حينئذٍ على أشده ، فالوزارة السابقة كانت قد استقالت على أثر خروجها عن قاعدة الذهب ، وكانت الجمعيات السرية قد دوَّنت في قوائمها أسماء بعض الوزراء وكبار المتمولين لكي تتخلص منهم ، لأن في الخلاص منهم فائدة — في رأيها — للوطن ، وكان الضباط يمدون رجال هذه الجمعيات بالمسدسات وقنابل اليد

كانت الحالة في اليابان على ما ذكرنا ، لما دعي الجنرال اراكي لتقلد وزارة الحربية . والجنرال اراكي يحبه الشبان من الضباط ويحترمونه ويثقون به . وهو من ناحية يشاطرهم آراءهم ويعطف على ما يشكون منهُ . وكان ، وهو في منصب مدير المدرسة الحربية ، قد بسط ايمانه برسالة اليابان ووجوب تحقيقها بالحديد والنار . ففي اراكي رأى الجيش زعيماً يجدر بهم أن يتبعوه . فالى أين يقودهم . . . ؟

أما الجيش في منشوريا ، فوجد في اراكي وزير الحربية الامثل ، لانهُ لما تقلد المنصب ، أصبحت الامبراطورية اليابانية بجميع مواردها وقواها ، تؤيد الجيش الياباني في مغامرته المنشورية . فاراكي كان لسان الجيش ، والمعرب عن مشيئته . وفي ذلك ، كاد يكون مستقلاً كل الاستقلال عن الوزارة يستمد سلطته من الامبراطور مباشرة ، والامبراطور هو قائد الجيش الأعلى ، بل هو بمثابة الاله في اليابان ، والسلطة التي منحها الامبراطور للجنرال اراكي ، استعملها اراكي الى أقصى حدودها

لذلك رأينا الجيش الياباني في سنة ١٩٣٢ . بعد فترة من التردد والأحجام ، في منشوريا

وقد اتخذ خطة الهجوم ، تنفيذاً للمشيئة الوطنية . فلما سارت الاعمال الحربية سيرها المرسوم ، عجز رجال السياسة عن التدخل في السيطرة عليها، فكان اراكي وأركان حربه ، والقواد الذين في الميدان ، أصحاب الحلّ والربط الفعليين في كل ما يتعلق بمنشوريا

ويذكر القرّاء انهُ قبلما يقدم تقرير لتون الى جمعية الامم — وهو تقرير اللجنة التي ذهبت الى الصين برآسة لورد لتون من قبيل جمعية الامم لتحقيق مسألة اعتداء اليابان على الصين — اعترفت حكومة اليابان بدولة منشوكو — وهي الدولة التي أقامتها اليابان في منشوريا وأقامت عليها آخر امبراطورة المنشو الصينيين — فأعلنت بهذا الاعتراف انها اتخذت قراراً حاسماً فيما يتعلق بخطتها في شرق اسيا . وفي سبيل هذا القرار خرجت من جمعية الامم متحدية الرأي العام الدولي

والجيش الياباني الآن يعتقد انهُ قد فاز بحل المشكلة المنشورية (أو هو يظن انهُ قد فاز) بانشاء دولة منشوكو ، فاتسع المجال أمام اليابان لتعيش اذ كفل لها هذا الحل موارد زراعية ومعدنية تحتاج اليها ، وأسواقاً لبيع بضائعها ومجنّا تردُّ بهِ روسيا . فالجيش قد اختصر الطريق الى هذا الغرض ، وصرم حبال السياسة الطويلة ، بفعل الحديد والنار ، وحقق خطة معينة في السياسة الخارجية تعتقد الأمة اليابانية عن بكرة أبيها ، انها خطة لا ندحة لها عنها اذا أرادت اليابان أن تعيش

والجنرال اراكي اليوم[1] هو رجل الساعة في اليابان ، عُيّن في وزارة الحربية ليمتطي النمر المهتاج — أي الجيش — فامتطاه على ما يهوى النمر نفسه . وفسح له المجال لتحقيق الاماني التي يرنو اليها وهو في رنوّه اليها انما يعبر عن مشيئة الامة اليابانية بأسرها

وكان بعض المشتغلين بالسياسة يتوقعون أن يقوم اراكي بعد فوزه هذا ، بقلب الحكم في اليابان ، وخصوصاً بعد الخطأ الذي ارتكبه بعض الشبان من الضباط في قتل رئيس الوزارة اينوكاي . ولكن آمالهم خابت فيما يتوقعون ، لان وزير الحربية — اراكي — لم يلبث بعد وقوع الحادثة ان أصدر أمراً قال فيه « ان الجيش افراداً وكلاً مندمجاً ، لا يتحرك الا وفقاً لأمر الامبراطور ، وان كل انحراف عن هذه القاعدة خيانة » . فأثبت انهُ دستوريٌّ ، وقضى الشهور التالية ، محاولاً أن يعيد الى اليابان استقرارها واتزانها ، وكانت قد فقدتهما على أثر التجارب والمغامرات التي هزّتها هزّاً . ثم ان اراكي رجل لا ينتمي لحزب ، ولا هو صديق للنظام البرلماني ، ولكنهُ بذل كل ما في لكي يمكن اليابان من استئناف نمو الانظمة النيابية فيها

كان قبل تقلده وزارة الحربية ، مجهولاً عند السواد من الشعب الياباني . انتظم في سلك الجيش وليس له ما يميزه من عزوة أو مال أو نفوذ . كان والداه فقيرين وبدأ هو حياته في منصب كاتب في معمل « صلصة » . وغنيٌّ عن البيان أن رجلاً بدأ حياته كاتباً بسيطاً في معمل « صلصة » ثم أصبح

(١) استقال اراكي من وزارة الحربية لما رأت الوزارة ان لا تمنحه كل ما طلبه من الزيادة في ميزانية الجيش ولكنه لايزال من أصحاب الحول والطول في توجيه سياسة اليابان ، وانما من وراء ستار

وهو في السابعة والخمسين « وزير الحربية » وزعيم الجيش الياباني ، كان فتىً طموحاً . ولكنهُ لم يطلب الشهرة ولا سعى اليها . فلم يظهر في ميدان الشؤون العامة في بلاده ، حتى اقتضت ذلك حوادث ما لهُ فيها يد

وليس في سيرته ما يستدعي النظر وانما في ذهنه ما يستدعي العناية . فبصفة كونه جنديًا يابانيًا ، شعر بوجوب وضع مبدإ جديد ، يسير بمقتضاه الجيش الياباني . ففي الايام القديمة اي في أيام الاقطاع كان الساموري يطيع أميره طاعة عمياء . فلا بدَّ اذاً ، من وضع مبدأ ينظر اليه الجندي الياباني كما كان الساموري ينظرون الى أمرائهم في العهد القديم . واليك ملخص هذا المبدأ : —

ان الطبيعة والقدر وضعا الشعب الياباني موضعاً تحيط به المخاطر والمصاعب من كل ناحية . تصيبه الزلازل والاعاصير والنيران وتضيق به جزائر اجداده . ولكن الشعب لا يسلم للمخاطر التي تزجيها اليه الطبيعة ، ولا يجب ان يقف دون العراقيل التي تقوم في سبيل توسعه مكتوف اليدين . فالحياة « حياة خطرة » وهي مصير اليابان المحتوم . وفي دولة هذه حالتها ، تعظم التبعات الملقاة على عاتق الجيش نحو الامة

وهو يضحك من اولئك الكتاب الذين يشبهونه بكبار رجال السياسة من الاوربيين ويقول « ان اليابان لا تحتاج الى هتلر ولا الى موسوليني » ولكنه لا ينكر انها تحتاج الى اراكي . ليس في مظهره ما يدلُّ على انه قائد عظيم او امير من امراء الحرب ، فهو قصير القامة هزيل الجسم تدل اساريره على التقشف والحياة البسيطة ؛ ولكنهُ شديد العناية بالآراء التي تطرح عليه ، ويسرُّه كل السرور ان يناقشها ويجادل فيها

قابله احد الصحفيين وبادره بالقول : يا جنرال انني اريد ان أُفهم العالم من انت ، فالناس خارج هذه البلاد يعتقدون انك دكتاتور ، وكثيرون يظنون انك تمثل خطة السطو والبسطة في حياة اليابان الخارجية والنزعة الفاشستية في حياتها الداخلية ، فما هو « ركن الروح اليابانية » التي تتحدث عنها .

فقال الجنرال : ان ركن الروح اليابانية كنوزنا المقدسة : هي المرآة تمثل العدل ، والجوهرة تمثل الرحمة . والسيف يمثل الشجاعة . ان ركن الروح اليابانية هو هذه الفضائل ممثلة في البيت الامبراطوري من بدء تاريخنا : هذه هي حكومتنا المثلى . ان مثلكم الاعلى في الحكومة هو قيام الحكومة على رضاء المحكومين . اما نحن فمثلنا هو وحدة الحاكم والمحكوم . فنحن ننظر الى الامة نظرنا الى الاسرة . ونحسب فن الحكومة تعاون الشعب والامبراطور على تحقيق ما فيه الخير العام . هذه الروح مناقضة للنزعة الدكتاتورية . ولما كان مثلنا السلم والوحدة في داخل بلادنا فلا بد من ان يكون روحنا الهادي مناقضاً لنزعة السطو والبسطة في الخارج . وقد مضى على الشعب الياباني ، عائشاً في ظل حكومة الامبراطرة ، القائمة على هذا الروح ، نحو الفي سنة ولكن في العقود الاخيرة تقلقلت افكارنا ، متأثرة بمثل الغرب ، وأخذ بعض شعبنا يميل الى نسيان الاغراض السامية التي وضعها

أجدادنا . فأنا لا امثل خطة خاصة بي . بل ادعو الى العودة الى مبادئنا ومثلنا القديمة

الصحفي — لقد بينت في كتابك الذي جعلت عنوانه « رسالة اليابان » ان كل آسيا تقريباً ما عدا اليابان ، إما ضاربة فيها الفوضى او هي محكومة من سلالات اجنبية وقلت ان « رسالة اليابان القومية هي رسالة بناء وفسرتها بقول الحكيم : اقيموا هذه الارض الطافية على اساس مستقر » فهل هذا يعني انه من الواجب على اليابان ان تعيد النظام الى نصابه في بلاد الصين ؟ »

الجنرال — لما استعمل ذلك الحكيم الالهي الكلمات التي اشرت اليها كان ينادي اليابانيين الى جعل اليابان بلاد نظام وسلام . وانك ولاشك تقر باننا حاولنا ، ان نحول الفوضى في بلادنا الى نظام. فاذا كنا نستطيع ان نمد يد المعونة الى الصين او الى اي بلاد غيرها حيث الانسانية تتألم وحيث الناس يقتلون بعضهم بعضاً ، فالواجب علينا يقضي بأن نفعل ذلك . ان مثلنا الاعلى النهائي هو سلام العالم ، قائماً على العدل والرحمة . واود ان تفهم ، اننا في سبيل الوصول الى هذا الغرض انتظمنا في جمعية الامم

الصحفي — ان مغوليا بلاد شاسعة مترامية الاطراف ، يقطنها نحو اربعة ملايين من السكان في مليون ميل مربع من الارض . فهل تعني يا حضرة الجنرال ان اليابان تستطيع ان تجد في هذه البلاد سعة لسكانها الفائضين ، من دون ان تعتدي او تسطو على احد ؟

الجنرال — للنوع الانساني الحق ان يعيش على وجه الارض فلنفرض ان السكان في بلاد ما كانوا قلالاً اذا قيسوا بمساحة البلاد وغنى مواردها الطبيعية . ولنفرض ان السكان في بلاد اخرى كانوا كثاراً جداً اذا قيسوا بمساحة البلاد وضآلة مواردها الطبيعية . وان البلاد الاولى تقفل في وجه سكان البلاد الاخرى الباب وتمنع تبادل البضائع بالحواجز العالية . افلا يكون هذا العمل حداً لحرية الحياة وانطلاقها . وهل يمكن تحقيق السلام العام ، والرخاء العام بهذه الوسائل ؟

أنا لا اعتقد ان السلام يمكن ان يعزز ، بالاحتفاظ بالحالة الراهنة بين الامم . فالعالم ليس شيئاً مستقراً ، والامة اليابانية ، مثل سائر الامم ، لها الحق في ان تسعى الى الفردوس على الارض

على انني اشارك الاقتصاديين في ان الهجرة لا تحل مشكلة زيادة السكان . فنحن نطلب ميداناً حيث نستطيع ان ننمو نمواً طبيعياً بمقتضى القواعد العلمية (وهذه اشارة لاريب فيها الى منشوريا)

الصحفي — ان الصين في حالة يرثى لها من الفوضى ، وتضعضع أسباب النظام . فاذا سلمنا ان على الدول جانباً كبيراً من التبعة في مساعدة جاراتها ، أفلا تكون رسالة اليابان في الصين ان تخرج بها من الفوضى الى النظام

الجنرال — ان السلام في الشرق الاقصى يجب ان يقوم على وحدة الصين القومية ، وعلى تعاون اليابان والصين ، وقد كان هدف سياستنا الخارجية من ايام الميجي (١٨٦٠ و١٩١٢) العمل على ترقية الصين والتعاون بين الصين واليابان ، وحتى الآن لم نلق جزاء لنا على صنيعنا . والصينيون من

دون تفكير وتروٍّ في اعمالهم ، هبطوا بالصين الى الدرك الاسفل من الفوضى ، ونحن جيران الصين نأسف اشد الاسف على هذه الحال السائدة هناك ، ولكننا لن نيأس ولن يدب القنوط الى نفوسنا ، وسوف لا نضن بجهد لمساعدة الصين على توطيد الامن والنظام في ربوعها

الصحفي — وكيف تعيدون الصداقة بين اليابان والصين ؟

الجنرال — إن وجود الامة الصينية ووجود الامة اليابانية يجب ان يكون وجوداً متسقاً فالامتان ليستا خصمين ولا متنافسين . والصلة بينهما يجب ان تكون وثيقة كصلة العجلة بمحورها . يجب ان يتقدما معاً والاَّ فانهما يتألمان معاً . وقد عكر صفو الصلات الودية بينهما ، أن رجال السياسة وامراء الحرب في الصين مكبُّون على نزاعاتهم الخاصة ومصالحهم الذاتية ولا يعنون حقيقةً بالواجب الوطني وهو تعزيز بناء النظام في انحاء البلاد وإقامته على اساس راسخ

والاساس الذي تقوم عليه صداقة الصين واليابان يقتضي ان يتجه الضمير الوطني المستيقظ في الصين الى الحق والعدل . ويجب على الصين ان تتخلى عن خطتها القديمة باثارة دولة ضد اخرى . فاذا ادرك الصينيون مصلحتهم الحقيقية واتجهوا الى عمل البناء والتشييد ، صفت في الحال صلاتنا بهم مما يشوبها فنستطيع ان نتعاون حينئذٍ معاً على تعزيز السلام في الشرق الاقصى

الصحفي — في جزائر الفيلبين ١٢ مليوناً من السكان . ويظن المستر هوفر ان جزائر الفيلبين تتسع لستين مليوناً . فهل تقول ان اليابانيين وبلادهم شديدة الازدحام بهم يحقُّ لهم ان يهاجروا الى الفيلبين

الجنرال — الشعب الياباني شعب مجتهد . منظم . امين . فنحن ندعي اننا نصلح من الناحيتين الجسدية والعقلية ، للمهاجرة الى الفيلبين ، بل والى اي بلاد من بلدان العالم ، اذا وازنت بيننا وبين سائر الامم . وانما نحن لا نريد ان نكون ضيوفاً ثقالاً غير مدعوين . بل نطالب ان نعامل معاملة خالية من التحزب والظلم ، ونحن نأمل من البلدان غير المزدحمة بالسكان التي ترضى ان ندخلها على قدم من المساواة والحرية ، ان تفتح لنا صدرها في اول فرصة

الصحفي — وما مقام الجيش الياباني في الدولة ؟ ألا يصح ان نقول ان الجيش في اليابان ليس اداة من ادوات الحكومة ، وانما هو الابن الاكبر في الاسرة القومية — اي الامة اليابانية ؟ وقد يكون الواجب على الابن الاكبر احياناً ان يتصرف في الاحوال الاستثنائية تصرفاً تقتضيه الاحوال ويمليه عليه عقله وضميره ، فيكون في تصرفه هذا نائباً عن الاسرة ؟ أكانت هذه الروح روح الجيش اذ تقلد زعامة المغامرة المنشورية ؟

الجنرال — ان الواجب على الجيش الامبراطوري محاربة الشيطان بفضيلة الشجاعة الممثلة في السيف ، وهو احد كنوزنا المقدسة الثلاثة ، فالجيش ليس اداة في يد الحكومة ، ولا هو الابن الاكبر في الاسرة القومية ، انما هو جانب من الفضائل العظيمة التي يتصف بها الامبراطور ، اي العدل والرحمة والشجاعة . فهو في الواقع ينفذ مشيئة الامبراطور

فلما تقلد الجيش الزعامة في منشوريا لم يكن الجيش الاَّ سيف الامة ، والمعبر جميع في افعاله عن مشيئتها ، فقوة البلاد وعزمنا على توطيد السلام الدائم في الشرق الاقصى — كل ذلك يبدو في الجيش الياباني في منشوريا

الصحفي — هل يقبل الجيش اوامر الحكومة المدنية ، او يدَّعي الحق في تقرير الخطط السياسية في بعض الامور

الجنرال — ليس على الجيش من واجب الاَّ الدفاع عن البلاد ، واظهار الهيبة الامبراطورية . فقيادته العليا في يدي الامبراطور . ومقامه في الدولة يختلف عن مقام الجيوش في الدول الاخرى التي تنفذ اغراض الحكومات القائمة . فالجيش الياباني يتصرف في صغائر الامور او كبائرها ، اذا وجب اظهار الارادة الامبراطورية و « الاودو » اي رغبة الامبراطور . فمن البداهة ان يشترك الجيش في تقرير السياسة الوطنية في ما يتعلق بالدفاع

الصحفي — أتعتقد ان الجيش يجب ان يظل مبتعداً عن السياسة ، واذا فسد السياسيون وأصبحوا مرتكبين ، وعرضوا الامة ، بحكومتها الفاسدة الى الخطر ، فهل يظل من الواجب على الجيش ان يقف مترفعاً عن الشؤون السياسية

الجنرال — لا يمكن للجيش ان يظل مترفعاً عن سياسة تنطوي على الارتكاب والفساد ، ولا يسعه ان يسكت عن انتشار الآراء الخفيفة والمتطرفة . ولكن الجيش لا يتحرك الاَّ بأمر الامبراطور ، ورئيس اركان الحرب مستشار الامبرطور في ذلك

الصحفي — سمعنا كثيراً في السنة الماضية عن اثر « الضباط الاحداث » في السياسة ، ونحن لا نستطيع ان نفهم كيف يؤذن للضباط وخصوصاً الشبان منهم ، ان يتدخلوا في الشؤون السياسية . فهل تستطيع ان تفسر لي كيف فازوا بهذا النفوذ في الجيش الياباني

الجنرال — الضباط الشبان هم زهرة الجيش الامبراطوري وذخره . ان شجاعتهم في منشوريا وشنغهاي تبعث على النشوة . على ان الجنود اليابانيين لا يسمح لهم ان يتدخلوا في الشؤون السياسية وانما ينظرون الى الامبراطور كزعيمهم الاعلى . هم جنود الامة وحراسها . والجيش وحدة . والضباط الشبان ليسوا طبقة فيه منفصلة عن الطبقات الاخرى . ولكنهم لشبابهم وشجاعتهم يسترعون عناية الناس اكثر مما يسترعيها غيرهم

الصحفي — ان العالم يعجب بنظام الجيش الياباني ، لذلك صدم الناس صدمة عنيفة لما سمعوا ان ضباطاً لابسين البذلة الجندية الامبراطورية قتلوا رئيس الوزراء اينوكاي

الجنرال — عمل فظيع ! ولكن يجب ألا تحكم على الاقليم بالاعاصير والعواصف التي تثور احياناً . فلا تحكم على الجيش الياباني بهذه الحادثة التي اسفنا لها جميعنا اسفاً عظيماً

ستانلي بولدون

السياسة بين الذكاء والخلق

رجل في السابعة والستين ، ربعة القوام حليق العارضين والشاربين ، ازرق العينين احمر البشرة ، يرتدي من الملابس ابسطها الى حدّ الرثاثة ؛ وفي يده او فمه غليون لا يكاد يفارقهُ

هذا هو بولدوينْ في مظهره الخارجي . بولدوين الذي تقلّد رآسة الوزارة البريطانية مرتين وزعامة المحافظين من يوم تخلّى عنها بونارلو قبيل وفاته من نحو اثنتي عشرة سنة . هذا هو الرجل الذي أُلقي على كتفيهِ وشاح دزرائيلي وساليسبري وروزبري وبلفور . تراهُ وهو يدخن غليونهُ فتحسبهُ من عامة الشعب او رئيساً من رؤساء نقابات العمال لا زعيم المحافظين البريطانيين

وقد تخطئهُ عند النظرة الاولى ، فشكلهُ اقرب الى شكل مقاول معماريّ منهُ الى اي شيء آخر . ولا يصعب عليك ان تتصورهُ واقفاً على الجدار وحواليهِ العمال على الصقالة ، وفي اذنيهِ رنين المطارق وفي جيبهِ لفّة بارزة هي رسوم المهندس . قد لا يوافق هذا المقاول المهندسَ في كل ما رسم وصمّم ولكنهُ يمضي في عملهِ من دون ان يبدي اعتراضاً ، لان الاعتراض على تصميمات المهندس ليس من شأن المقاول

على ان النظرة الاولى كثيراً ما تخطئ ، لانّ وراء سكون المستر بولدوين وهدوئهِ صفات عظيمة هي زينة الصفات التي يمتاز بها المشتغلون بالسياسة ، نعني حسن التقدير ورحابة الصدر . والواقع ان هـذا « المقاول » السياسي مزيج انكليزي عجيب من السريّ والمتموّل الصناعي في ناحية ، والخيالي والشاعر في اخرى . فيهِ تلتقي النزعتان، الواقعية ، وقد تلقاها من اشتغال اسرته بصناعة الحديد ، والرمانطيقية وقد اخذها من ناحية والدتهِ . اليس رديرد كبلنغ الشاعر والروائي ابن خالتهِ ؟ اولمْ يقل كبلنغ في بولدوين « انهُ اديب اسرتنا » ؟ وهاتان النزعتان تخرجان منهُ رجلاً يمثل الطبع البريطاني الاصيل اصدق تمثيل

***

يختلف بولدوين عن اكثر الزعماء المحافظين الذين اشتهروا في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين في انهُ اتى السياسة من ناحية الصناعة . ولا يخفى ان اتجاه حياة الامم القومية والدولية الى العناية بمشكلات الاقتصاد والصناعة والنقد والتبادل والعمل والعمّال ، يفسح في الصفوف المتقدمة من الاحزاب السياسية مكاناً خاصاً لهذا الطراز من الزعماء

ولكنَّ بولدوِن يختلف عن زملائهِ من رجال السياسة حتى الناشيء منهم في الاوساط الصناعية في انهُ لا يجري على المعهود المألوف من اصول التفكير السياسي. فأيُّ سياسيٍّ يفكر تفكيراً سياسيًّا بالمعنى المألوف يمنح خزينة دولته خمس ثروتهِ الكبيرة ، ثم يرفض ان يذاع ذلك عنهُ. ولو لم يعرف خبر هبتهِ اتفاقاً لظلَّ اسم بولدوِن واهبها مطويًّا عن السواد من الناس لا يعرفهُ الاَّ احصاة الخزينة . انهُ فعل ذلك وهو يأمل ان يقتدي بهِ اثرياء الامة الانكليزية فيمحوا بهباتهم للخزينة الف مليون جنيه من ديون انكلترا . وهذا في الواقع عمل شاعر اكثر منهُ عمل سياسيٍ.

بل اي سياسيٍ يقدم ،وهو في مستهل حياتهِ العامة، على القاء خطبة يقاوم بها لويد جورج وصحبهُ امثال بركنهد وتشرشل وتشمبرلين وهم سادة بريطانيا حينئذٍ — ١٩٢٢ — واصحاب الحول والطول فيها ، بل يقاوم بها السواد من حزبهِ ، حزب المحافظين ، طالباً انفصالهم عن الوزارة الائتلافية القائمة حينئذٍ . كان من الممكن ان يفضي هذا الخطاب الى اخفاقهِ في ما طلب ، فيقضى على آماله السياسية في مهدها ، ولكن المستر بونارلو ايدهُ ، وخرج من عزلتهِ رغم مرضهِ ، لتقلّد زعامة الحزب ،فهوى لويد جورج من ذروة مجدهِ ، وتفرّق ائتلافهُ ايدي سبا

***

والواقع ان ارتفاع بولدوِن من مقعدٍ خلفيٍّ في مجلس النواب البريطاني ، الى اعلى منصب في البلاد سوف يبقى من اخفى خفايا السياسة البريطانية في السنوات التي تلت الحرب الكبرى ، وهذا القول يذكرنا برسم كاريكاتوريٍ رسمهُ الرسّام بيربوم مثّل فيهِ بولدوِن الفتى واقفاً امام بولدوِن الكهل وهو يقول لهُ دهشاً : — « أنت رئيس وزارة ! يا الهي ! »

***

ولد في سنة ١٨٦٧ وتلقى العلم في جامعة كمبردج وتولى أعمال ابيهِ الصناعية نحو عشرين سنة ثم انتخب عضواً في البرلمان البريطاني سنة ١٩٠٨ فخطب خطبته الاولى فيهِ في موضوع يفهمهُ أدقَّ الفهم وهو « مناجم الفحم » . ولكنه ظلَّ على القواعد الخلفية ، أي من النواب الذين لا شأن لهم ، حتى كانت سنة ١٩١٦ فعين سكرتيراً لبونارلو ، ومن ثمَّ تقلّب في المناصب حتى عين وزيراً للمالية سنة ١٩٢٢ في وزارة بونارلو — بعد سقوط لويد جورج — وعقد مع الولايات المتحدة الاميركية تسوية على الدين الاميركي البريطاني . وبعد وفاة بونارلو تقلد زعامة المحافظين وما يزال زعيمهم مع أن فريقاً منهم حاول أن يتحدى زعامتهُ في موقف الحزب نحو مشكلة الهند طالباً تغليب النزعة الامبراطورية الاستعمارية على نظام الحكم فيها . ولكنه ردّهم خاسرين واحتفظ بزعامة الحزب وبوحدتهِ كذلك . وقد رأس الوزارة مرتين . وينتظر أن يتولى رآسة الوزارة القادمة اذا كانت الاكثرية للمحافظين وهو الغالب

والمرجح ان سرَّ المقام الذي احرزهُ والثقة التي فاز بها ، ان أبناء قومهِ يعلمون انهُ لا يسعى

وراء مصلحة مالية او نفع خاص . وكثيراً ما يشبهونهُ في ذلك بوزيرهم العظيم وليم بت . كان بت فقيراً فلما عرض عليهِ منصب ذو مرتب كبير رفضهُ ، فأثبت لاهل وطنهِ ان المال ليس بغيتهُ . أما بولدوين فغنيٌّ ، ومع ذلك لم يتعذر عليهِ ان يقيم الدليل على تجرده عن طلب المصلحة الخاصة في خدمة بلاده فتخلى سرًّا سنة ١٩١٩ عن ١٥٠ الفاً من الجنيهات للخزينة ولم تعرف هذه الحقيقة الاَّ اتفاقاً

***

وكأننا اذا تأملنا في مكانة بولدوين بين ساسة بلادهِ نراه دخيلاً على السياسة ، اقتحمها من دائرة بعيدة عن السياسة ، ليست هي دائرة الصناعة فحسب ، بل اذا أنت تأملتهُ وهو داخل البرلمان ظننت انهُ قادم من جولة في الريف ، بندقيتهُ في كتفهِ وغليونهُ بين شفتيهِ ، فلما اقبل على قصر وستمنستر ترك بندقيتهُ وغليونهُ في حجرة « الفستيير » ومشى بملابسهِ البسيطة الى مكان الاجتماع كأقل النواب شأناً لولا انهُ زعيم المحافظين

اقتحم ميدان السياسة من قبل ، رجالٌ أتوها من الخارج . فبلفور جاءها من عالم الفكر الفلسفي ، وغراي من عالم الطيور ، بل يقال أن بلفور كان ينظر الى شؤون السياسة ، كأنهُ يطلُّ عليها من المريخ . وان غراي فلما حضر جلسة من جلسات مجلس النواب الاَّ واسرع بعدها الى حدائقهِ في « صري » ليعنى بدراسة الطيور وضبائعها العجيبة . ولعلَّ كتابهُ فيها أبقى على الزمن من سيرة حياتهِ السياسة الموسومة « خمس وعشرون سنة »

ولكن بولدوين دخل حلبة السياسة من ناحية الريف ، حيث يحبُّ التجوُّل والتحدُّث الى الفلاحين والعمال ، كأنهُ جارهم وخدنهم ، فيستمدُّ من أحاديثهِ هذه الافكار والآراء العملية التي يبني عليها خطتهُ السياسية . وهذا من جانبهِ — مع انهُ خريج جامعة كمبردج وصاحب المصانع الكبيرة — طبيعيٌّ لا كلفة فيهِ . ذلك انهُ من طبقة الحكام الذين ينظرون الى الصلة بين طبقتهم وطبقة العمال على انها صلة عائلية ، تهمهُ بنوع خاص ، ويوجه اليها عنايتهُ ، ولا يعرف معنى لكلمة الاحتقار فيما يختصُّ بها

بل انهُ لا يفهم القول بالعداء بين الرأسمال والعمل . فالصناعة في رأيهِ عمل عائلي ، يدار بإشراف رب العائلة . فلا العامل يطرد منهُ بوجه من الوجوه ، ولا يضرب فيه عاملٌ عن العمل ، بل انهُ يكره لفظة مستأجَر ، ويقول ان علماء الاقتصاد يخترعون لنا الفاظاً سمجة منها هذا اللفظ . فهو في انكلترا التي خرجت من الحرب الكبرى ، يمثل « جون بول » بفضائله ونقائصه ، بأمانته واستقامته وحسن معاملته وتراخيه وضعف خياله

***

ولعل مؤرخي المستقبل اذا جاءوا يكتبون سيرة بلدوين ، حكموا بأنهُ امتاز بتلك الصفات العالية التي تنبع من القلب وتسند الى الشعور ، دون الصفات التي مردها الى الذكاء والعقل . فلم يعرف في

ميدان السياسة البريطانية رجل اكثر تجرداً منه عن المصلحة الخاصة ولا اكثر بذلاً في خدمة الدولة

ولكن الناس يختلفون في المقابلة بين الذكاء المتوقد والخلق الطيب وأثرها في الحياة العامة . وكل ما يمكن ان يقال في هذا الموضوع يلخص في كلمتين : كان الاجماع الذي اشرنا اليه في مطلع المقال لما ثار بلدوين وبونارلو على وزارة لويد جورج الائتلافية سنة ١٩٢٢، وكان ان بلدوين وبونارلو تمكنا من الفوز بتأييد صفوف المحافظين لهما فتنبأ بركنهد وهو من اعضاء الوزارة ومن اشد الانكليز ذكاء بأن البلاد تسعى الى حتفها اذ تتخلى عن ادمغتها التي من الطبقة الاولى . فردَّ عليه اللورد روبرت سسل في الحال وكان في الرد فصل الخطاب : « ان الادمغة التي من الطبقة الثانية تفضّل على الاخلاق التي من الطبقة الثانية »

وفي هذه الجملة يلخص موقف الانكليز نحو كبار رجالهم . انهم لا يؤمنون بمجرد الذكاء والتوقد والالمعية ، ولا يمنحون ثقتهم في الغالب الاّ لصاحب الخلق المتين

***

على ان الاخلاق والذكاء لا يجديان السياسي الاّ اذا كان ذا مقدرة على الاقتناع بفكرة معينة واكتساح كل شيء في سبيل تحقيقها . وما عرف عن بلدوين حتى الآن ، يشير الى انه مقصر في هذه الناحية ، لان نزعة الشاعر تتغلب عليه احياناً ، فيميل الى التراخي . ولعل للطبقة التي نشأ فيها اثراً في ذلك . فرجل مثل المستر مكدونلد نشأ من الحضيض ، كان مضطرًّا في خلال حياة الكفاح ان يعتاض بزوجته عن سكرتير له ، فهو بحكم نشأته يهتم بتفاصيل كل شيء . ولكن المستر بلدوين الذي قضى عشرين سنة ، مديراً لاعمال صناعية كبيرة قبل ان يخوض ميدان الحياة العامة ، لم يعن في حياته قط بالتفاصيل ، فهو لا يهتم بها في منصب زعامة المحافظين فيكتفي بأن ينظر في المسائل السياسية الكبرى التي لها صلة بخطة الحزب . وقد يستطيع ان يعود المستر بلدوين ، رجلا قوي الشعور مضطرم الاحساس كأنهُ صليبي يكافح في سبيل عقيدة ، أو قد يصبح صاحب خطة معينة غير مفككة ، ولكنهُ لا يستطيع أن يوضع في مصاف الكبار من رجال السياسة ، الاّ اذا ملك القوة المكتسحة التي تمكنهُ من تحويل خطة سياسية منسقة الجوانب ، الى حرب صليبية في سبيل الاغراض العليا

قد يجيء ذلك اليوم ، فيخرج بالحزب من سباته الحالي ، لانهُ لما حاول بعض خصومه أن يملوا عليه مشيئتهم وجدوا فيه خصماً عنيداً يستطيع أن يتلقى الضربات ويكيلها أشد مما يتلقاها . ولكن ما لم يخرج « بولدوِن » جديد شديد الحماسة قوي الكفاح ، يعنى بمشكلات البلاد العامة ، أكثر من عنايته بمشكلات الحزب ، يظلُّ مكانه في تاريخ بريطانيا السياسي متراوحاً بين النجاح والخيبة . قد تخلقه أيام الضيق التي تجتازها بريطانيا خلقاً جديداً ، ومن دون انتظار ، وإلاّ فلا بدَّ من أن يخلي مكان الزعامة لغيره أو انتزعت الزعامة من الحزب بأسره

المساكين

[مختارات من قصيدة لفيكتور هوغو — وقد احتفل بانقضاء نصف قرن على وفاته — تتلو علينا قصة رجل من الصيادين مضى كعادته الى البحر يصطاد ليحمل الى عياله القوت . وبينما كان يصاول اهاويل اليم وينافح عاصف الريح، كانت امرأته تأوي في كوخهما طفلين لجارة لها من المساكين ماتت بالليل عنهما، فتبوؤهما فراشاً وثيراً ما وجد الصبا ليك فراشاً وثيراً. ثم جعلت ترقب أوبة بعلها وجلة تساورها الهواجس تسأل نفسها ماذا عسى يكون رأيه في صنيعها هذا]

مناجاة الشاعر لنساء الصيادين

وارحمتاه لكُنّ يا نساء الصيادين ! ما افظع ان تتناجَي تقولين : « هناك ارواح لي . أب ، حبيب ، اخوة ، ولد ، كل عزيز عندي ، هناك في هذه الفوضى ! — قلبي ، دمي ، جوارحي » . يا لله ! ان من كان فريسة الامواج كان فريسة الوحوش . يا ويلتا ! إذ تتصور ان جميع هذه الرؤوس يلهو بها اليم ويلعب ، من الولد الذي يتعلم الملاحة الى الزوج المعلم ، وأن الريح الهوجاء النافخة في ابواقها قد ارسلت من فوق رؤوسهم شعورها المفدودنة [1] المتشعثة . وان نظل دائماً لا نعلم تمام العلم ما هم يفعلون ، وأنهم، اذ يصاولون ذا الخِضَمّ الذي لا قرار له ، وكل مهلكات الظلام حيث لا نجم فيها يضيء ، لا يجدون سوى حزة [2] لوح وقطعة قماش ! هم بغم ! تنطلق بين الجنادل ، ويقبل المدّ فنخاطبهُ ونصرخ في وجههِ : « ويحك ردهم الينا ! » ولكن وا أسفا ! ماذا عسى يقول بحر لا يبرح ملتطماً ، لذي بال لا يبرح في هم وحسرة ؟

وحنة ايضاً اشد حزناً وكمداً . إن بعلها لوحيد ! وحيد في هذا الليل الأليل ! وحيد تحت هذا الستار الاسود ! لا وليّ ولا نصير . انما الاولاد جد صغار — ايتها الام ! انك تقولين : « ليتهم كانوا كباراً ! ان اباهم لوحيد ! » اوهام واضاليل ! غداً حين يمسون بجانب ابيهم وينطلقون تقولين باكية : « ويلاه ! ياليتهم كانوا صغاراً ! »

في بيت الجارة الميتة

فولجت . واضاء داخل البيت سراجُها . بيت مظلم لا تسمع فيهِ ركزا [3] ولا نبأة [4] عند شاطىء الامواج القاصفة قد ثوى [5] وكان الماء من السقف يسيل ، كأنما من عيون غربال يسيل

(١) الطويل الناعم (٢) قطعة (٣) الصوت الخفي (٤) الصوت ليس بالشديد (٥) اقام

في الصدر كان سواد يبعث الهلع مستلقياً . امرأة ساجية[١] منقلبة والقدم منها عارية . بصر منطفىء ، وهيئة مرعبة هائلة . جثة ، — من قبل أمٍ مرحة شديدة ؟ — شبحٌ ذاتِ بؤس هلكت محلولة الشعر . ما يبقى من المسكين بمد طول عراك وجهاد ، وكانت قد تدلت منها بين قش الفراش البالي ذراع صفراء باردة ويد يعلوها اخضرار : وكان الذُعر جاثماً بين هذا الفم المنفهق[٢] الذي كانت الروح ، وهي مولية منهُ حسرى كئيبة ، قد صرخت صرخة الموت الكبرى التي تسمعها الابدية !

بجانب الفراش الذي كانت الام فيه منطرحة ، كان طفلان جد صغيرين ، ذكر وانثى ، في مهد واحد نائمين يبتسمان ، وكانت امهما ، إذ احست بدنو الموت ، قد القت على ارجلهما إتبها[٣] وعلى بدنهما ثوبها ، لكي لا يشعرا ، ساعة الاحتضار اذ الموت يتناشنا[٤] بالحرارة تفترُ ، وليجدا الدفء بينما هي تبرد

***

ما أشد نومهما في مهدهما الذي يضطرب ! انفاس هادئة واسارير وجه راغدة ، وكأن لا شيء يوقظ هذين اليتيمين النائمين ، حتى نفخ الصور في يوم البعث ، اذ ، وهما الطاهران ، لا يخافان الحساب ولا الديان

والقطر في الخارج كالطوفان يهدر وينهمر . ومن السقف العتيق المتهتك الذي تنبعث منهُ الريح ، تقع أحياناً على هذا الوجه الميت قطرة تسيل منهُ على الخدين فتستحيل عبرة ودمعة . والموج له دويٌ كدوي جرس الاستغاثة ، والميتة مصغية الى الموت لا تفقه ! إذ كأن البدن ، حين تزايله الروح المشرقة ، ينشدُ الروح وينادي مَلَكه ، وكأنما تسمعُ هذا الحوار العجيب بين الفم الذي ذبل والعين الرائغة : ما صنعت بانفاسك ؟ — وانتِ ببصرك ؟

يا أسفا ! احبوا ، واحيوا حياتكم ، واقطفوا زهر الربيع ، وارقصوا ، واضحكوا واحرقوا قلوبكم ، واجرعوا كؤوسكم ، فكما الى البحر الخضم غاية كلِ نهر ، كذلك كتب القدَرُ ان غاية الوليمة ، والمهد ، والامهات الوالهات بأطفالهن النشء الصغار ، وقبلات البدن التي تبهتُ النفسَ وتُذهلها ، والاغاني ، والابتسامة ، وجديد الحب وحلوه ، غاية كل اولئك برودة الجدث المحزنة !

(١) ساكنة (٢) المفتوح الواسع (٣) قيص المرأة او ثوب لها بلا اكمام (٤) اتناش. تناول اختطف

فُتح الباب بغتة على المصراعين يصرُّ صريره فولج منهُ الى الكوخ شعاع أبيض وبدا الصياد على العتبة جذلاً يجر شبكة تنضح بالماء وقال : « هـذه هي الملاحة ! وقالت حنة : أو أنت ! » وعانقت بلهفة بعلها ولثمت رداءه لثمة الوله بينما كان الملاح يقول : « هاءنذا يا امرأتي ! » فتري منهُ على جبينه الذي كان أتون النار يلقي عليهِ نوره ، قلبه الطيب الراضي الذي تلقي عليهِ حنة نورها. وقال : «لقد سُلِبت وضاع كدحي . انما البحر غابة — وكيف كان الجو ؟ — عاصفاً شديداً — والصيد ؟ — خاسراً رديئاً ولكن هاءنذا معانقـك وتقرُّ عيني . ما أصبت وشَلا . لقد تخرقت شبكتي. لقد كان الشيطان رابضاً من وراء الريح التي كانت تهدر. يا لها ليلة ! لقد ظننت لحظة مع كل هـذا القصيف والعجيج ان السفينة تضطجع وان المرسى قد انقطع . وما صنعتِ أنت خلال ذلك ؟ »

فمرتْ حنةَ في الظلام هزة واضطربت وقالت : «أنا ؟ عمر الله ، لا شيء خطتُ كالعادة ، وكنت اسمع البحر كالرعد وكنت خائفة — أجل ، ان الشتاء كلِب شديد ولـكن سيان» . حينئذٍ قالت ترتجف كحال من يركبون المعصية : « والحـديث ذو شجون ، ان جارتنا قد ماتت . أمس قضت نحبها . وبعد ، فسيان وانما اذ مضيت أنت عشاء ، تركت هي طفليها ، وانهما لصغيران يدعى أحدهما غليوم والثاني مادلين. واحد لا يمشي والآخر لا يكاد يتكلم. لقد كانت المسكينة الطيبة فقيرة عائزة . »

فاتخذ بعلها هيئة الجد، والقى في أحد الاركان قلنسوة مكدود شقي بأسلها الإعصار وقال وهو يحك رأسهُ : «يا عجباً ! يا عجباً ! لقـد كنا بخمسة أطفال فهاهم سبعة . لقد كنا من قبل في هـذا الفصل الرديء العاتي نتجاوز عن العشاء أحياناً ، فكيف بنا الآن ؟ ... انهما والله لصغيران ! لا يمكن ان يقال لهما : اشتغلا . يا امرأة هلمي فأتي بهما . لئن كانا قد استيقظا فلا بد يخافان مع الميتة وحدهما . ها هي امهما تقرع بابنا فلنفتح للطفلين . إنا نخلطهم جميعهم معاً وكل مساء ينشبان بحجورنا وسيعيشان معاً ويكونان أخاً وأختاً للخمسة الآخـرين . . . وأشرب انا المـاء صرفاً واضاعف جهدي وكدي. قضي الامر . هلمي فاحضريهما. ولـكن ما بك ؟ أساءك هذا ؟ عادتك في مثل هذا الاعجال والمبادرة .

فقالت وقد شقَّت عن الاستار . انظر . ها هما !

الفتاة الاجنبية (١)

[يعني صديقنا الدكتور بشر فارس الآن بدراسة اللغة الالمانية وآدابها في برلين. وهذه القطعة من بواكير ما نقله عن الشعر الالماني وهي للشاعر الالماني الابداعي شلر (١٧٦٩ — ١٨٥٠)]

في غُرَّة كل سنة ، أوّلَ ما تصفِر القنابر ، كانت فتاة جميلة فتّانة تبرز في وادٍ الى رعاةٍ مُقِلّين

لم يكن الوادي مَسْقَطَ رأسها ، ولم يَدْرِ أحد مأتاها ، وكانت متى انصرفت عفا أثرها

السعادة كانت بين يديها ، فما انفكّت القلوب تفرح بها ، غير أن جلالةً لها ، من الطَرْفِ والـكفِّ جعلت تصونها

كانت تأتي بأزهارٍ وفواكه : هذه نضجت وتلك تَفتَّحت في قرى أخر ، في أقاليم أخرى ، عند طبيعةٍ أوفرَ حظّاً

كانت تصل الرعاة واحداً واحداً : فتنيلُ هذا فاكهة وتَهَبُ ذاك زَهْراً . فكان كلّهم — فتاهم وشيخهم المتوكىء — ينطلق الى داره وبين يديه تحفة

وكانت ترحب بالضَيْف جميعهم . الاّ أن عاشِقَين دَنَوا منها ، فنحتهما الطفَ الهدايا إذ جادت لهما بأتمّ الازاهر حُسْناً

الدمعة

[نقل هذه القصيدة من الادب البرتغالي الاديب الياس زعرور ونشرتها مجلة « العصبة » التي يصدرها في سان بولو الكاتب المعروف حبيب مسعود ويعاونه فيها طائفة من اكبر ادباء العربية في البرازيل]

في صباح يوم من ايام الربيع الدافئة ، ذرفت مقلة الفجر دمعة صافية ، اصابت ورقة من تينة يابسة على جانب طريق موحش في سبسب مقفر . دمعة نقية متلألئة تظهر للقريب كماسة براقة وللبعيد كنجمة لماعة

---

(١) Das Maedchen aus Jer Fremde ، وبها يرمز الشاعر الى الشعر نفسه

مرّ بها ملك يحف به الجند والاتباع ، فقال وقد راقه منها ذلك الاشعاع ، إن في تاجي من الجواهر ما لا يثمن ، وفيه من لآلىء الشرق الساحرة ما يزري بدموع غوان صورها الحب الدفين . ولكنني اتخلى عنها كلها مسروراً لو يتاح لي ان اعتاض منها بهذه الدرة اليتيمة لاجعلها شعاراً لملكي العظيم ومجدي الاثيل

سمعت الدمعة السماوية ما قال الملك وظلت شامخة ولم تحفل بتاجه ودرره

ومرّ بها صليبي مدجج بسلاحه وعلى جسمه درع ذهبية الزرد فقال وحق الصليب المقدس لا يليق بدرة كهذه الاّ مقبض حسامي فأسير بها في ساحات الجهاد من نصر الى نصر حبًّا بفادي الانام ومتى رجعت اجعلها قلادة في عنق حبيبتي فتكون عوذتي في جهاد الحروب ونصيري في امتلاك القلوب

سمعت الدمعة السماوية ما قال الصليبي وظلت صامتة يعنيها الرجاء ولم تعبأ بوعوده وعظمته

ومر بها يهودي شيخ بقافلة تحمل ما خفّ وغلا من الكنوز فصاح يا لاسرائيل ما كنت احسد ملكاً على ما حشد من اموال ولا بحراً على ما حوى من لآلىء ولكنني تجاه هذه الدرة الفريدة ارى يديَّ الشحيحتين تجودان ولا اسف بكل ما املك من كنوز وتحف

سمعت الدمعة السماوية ما قال اليهودي ولم تأبه لكنوزه وتحفه

وكان تحت التينة عوسجة صغيرة ذاوية تشرئب مدلة بحقها من رحمة الله فقالت تعالي ايتها الدمعة السماوية روّي جفاف تربتي بحق الاله فكلما ضرعت اليه تزيدني شمسه جفافاً وانا بين الصخور لم اسمع زقزقة العصافير ولا لامست نعومة الاعشاش اغصاني اذ لا غصن لي يجثم عليه العندليب ولا ظلّ لي يؤمه بحبيبه الحبيب فأغيثيني ايتها القطرة السحرية ان لي بكِ غنى عن كل مال

سمعت الدمعة السماوية ما قالت العوسجة فاختلجت وسقطت منعمة صامتة

وبعد قليل من الزمن رأى الناس معجبين ان الحياة قد عادت الى تلك العوسجة الذاوية فأورقت وأزهرت زهوراً كجراح المصلوب وجاء النحل يمتص الشهد منها كما يجنيه من ازهى الورود

الخريف

لالفونس دي لامرتين

[نقلها عن الفرنسية : جورجي نصيف نيقولاوس]

سلاماً أيتها الغابة ، المتوّجة ببقية من الخُضْرة ، سلاماً أيتها الاوراق الصفر المبعثرة على العشب ، سلاماً أيتها الايام الأخيرة ذات الروعة والبهاء ، فحُزنُ الطبيعة يحلو في نظري ، ويتردّد صداه في جوِّ أحزاني

اني لاسلك ممرَّ الغابة الموحِش مفكـراً مهموماً ، ويحسن في قلبي ، ان أرى للمرة الأخيرة ، هـذه الشمس الشاحبة ، وضياؤها الضعيف لا يكاد يخترق ، تحت قدميْ ، ظلام الغابة

أجَلْ ، في أيام الخريف هـذه ، حيث تقضي الطبيعة نحبها ، أجد في نظراتها المحتجبة بهاءً وجمالاً ، فهي وداع صديق ، هي آخر ابتسامة للشفتين ، اللتين سيغلقهما الموت الى الأبد

هكذا ، وقد اوشكتُ ان اغادر افق الحياة ، باكياً من ايامي الطويلة الاملَ الضائع التفتُ ورائي ، ملقياً نظرة اسىً وحسرة ، على تلك النِعم التي لم يُتَحْ لي التمتع بها

ايتها الارض ، ايتها الشمس ، ايها الوادي ، ايتها الطبيعة الجميلة الوديعة ، اني مَدِيْن لكِ بدمعة على حافة قبري ، فالهواء معطر الأريج ، والنور صافٍ زاهٍ ، وما اجملَ الشمس في عين الراحل المائت !

اني لأتوق الى شرب الكأس حتى الثُمالة ، تلك الكأس الممزوجة بالرحيق والمرارة ، فقد يتبقى في ذلك القدح ، الذي اشرب فيهِ الحياة نقطة واحدة من الكوثر اللذيذ

قد يخبىء لي المستقبل بين ثناياه ، عوداً الى الهناء الذي فقدتُ من الامل ، وقد اجد بين الملا ، روحاً لا اعرفها الآن ، تفهم روحي ، فتتآلفا وتمازجا

ان وداع الزهرة عند سقوطها ، تسليمها عبيرها الى النسيم والشمس والحياة ، وأما انا فاذا قضيتُ ، تصاعدت روحي كلحنٍ حزينٍ مُشجٍ

في معرض ايمي نمر

اتيحت لي مشاهـدة آثار السيدة الفنانة إيمي نمر في المعرض الخاص بصورها ، فسرني اني لم أحرم مشاهدة هـذا المعرض الفذ وعددت من حظي الكبير ادراكه قبيل انفضاضه

فهذه سيدة شرقية ذات نصيب وافر من الثقافتين العامة والفنية تبرز آثارها القوية للعيان فتسترعي حفاوة النقاد الخبيرين وبينهم ولديمار جورج وبول فيرز وماريشال وأندريه سالمون وأندريه وارنود ولورنس بنيون ، وتثبت جدارتها بالعرض في لندن وباريز قبل العرض في القاهرة . وقد بلغت الآن بعد جهود عشر سنوات أو أكثر درجة عظيمة من الشخصية المتميزة في فنها قوامها ذوقها الخاص الى جانب نضوجها في التعبير المستقل ، فكيف لا نأبه لفنها وكيف لا نفخر به ؟

لقد بدأت إيمي نمر في تصويرها الاول بالمشاهد المنبسطة والصور السطحية مع شغف بالألوان الزاهية كتصويرها لليهود في فلسطين ، ثم أخذت تتحول عن ذلك رويداً الى أن صار فنها أخيراً بمثابة رد فعل لنزعتها الاولى ، فاذا به الآن يعنى بالحجم والمتانة والضخامة ، واذا بالألوان الهادئة أو القاتمة تحل محل الألوان الزاهية القديمة ، واذا بالشخصية المرسومة من انسان وحيوان ونبات هي المسيطرة على المظاهر ، واذا بالروح وقوة التكييف غاية ما يرمي اليه فنها وليست الصبغة أو الشكل . فتحس إزاء هذه العوامل بأن التعابير المرسومة التي تتجلى لك مبعثها من داخل الصور وليست مستمدة من مظاهر عرضية ، فهي تعابير ثابتة مصورة ذات روحانية محسوسة . وهذه الموهبة ليست بارزة في صورها القديمة ولكنها ملموسة ناطقة في صورها الحديثة . وقد يلوح التشابه في كثير من موضوعاتها ، ولكنها ككل فنان أصيل تهمها كيفية التعبير قبل أن يهمها الموضوع ، وقد يصدف غير الخبير بالفن عن موضوعاتها البسيطة في تصويرها الفاكهة مثلا وان يكن تصويراً كله قوة يكاد يجعلها تلمس وتشم وتتذوق ، ولكن سيزان Cézanne العظيم تجلى فنه الرائع في تصوير الفاكهة بقدر ما تجلى في موضوعات أخرى . وقد يتمعض بعض النظارة لتجرد الصور من الرمزية ، ولكن من عادة الفن النقي تصويراً كان أم شعراً الابتعاد عن الرمزية ، فلن يعيبها ذلك

في هذا المعرض البديع عشرات من الصور وقد قسمت الى أربعة أقسام مختلفة :

(١) صور لرؤوس آدمية (٢) صور لفاكهة (٣) صور لجموع مختارة (٤) رسوم قلمية . ولكن الروح فيها جميعاً واحدة ، فان ايمان صاحبتها بما للاشعة والظلال من قوة خالقة جعلتها تترك لها تكوين الاشكال وتجسيمها ولم تفكر لحظة في اعتبارها اعتباراً ثانوياً فهي عندها بمثابة الروح الذي يكيف المظهر . وإيمان صاحبتها بتجسيم الفكرة جعلها تتعلق بالضخامة في التصوير ، ثم ان ارتياحها الآن الى الالوان القاتمة جعلها تبدع في اختيار الالوان المعبرة سواء للفاكهة أو للوجوه الآدمية بازاء الارضية القاتمة وليس هـذا أمراً سهلاً بأي حال . ولعل من أبرع الشواهد على ذلك صورة

« الإعياء » في وجه السيدة المطرقة بلحظها فقد أبدعت في اختيار اللون الاخضر القاتم بصفة خاصة لإبراز معنى «الأعياء» في ما يوحيه تركيبُ الصورة . ومن الصور الفريدة تلك التي تمثل معنى الأنفة والازدراء ، فقد ظهر النور الخافت في جانب منها في قوس ممدود وقابله الظلُّ في الجانب الآخر مقابلة طبيعية جميلة فكان النور والظلُّ هما المكيفين للصورة ولمعناها ، ولم يكن ذلك من أثر رسم آليّ هو أبعد ما يكون عن طبيعة فنانتنا في نضوجها الحاضر وما من شك في أن الرسوم القلمية في مجملها ناطقة بحذقها ، وكأنها في بعضها تتلمذ على تجاريب ميخائيل أنجلو ، ولا عجب فان نزعتها كلاسيكية صميمة.

وليس لنا أن نحاسبها على ذلك فنزعات الفنانين — لاعتبارات سيكولوجية — تختلف جد الاختلاف ، وانما تعنينا طاقتها الفنية وقوة تعبيرها الصادق . واذا كانت ايمي نمر مقتصدة في استعمال الالوان اقتصاداً كبيراً لأنها لا تحفل الآن بالزخرفة بل بالروح وقوة التعبير فقط ، فان مذهبها هذا كان ضميناً لعنايتها بالتشريح وبالجسم الانساني كما ترى بصفة خاصة في صورتين تمثلان النوم ففيهما جراءة مع صدق في التعبير وسلامة وتناسبٌ في أجزاء الصورة ، وان لحظنا الميل الى الضخامة العضلية وهو ذلك الميل المشهود في الفن الكلاسيكي . بيد أن هذه النزعة الكلاسيكية في الروح لم يصحبها عادة الاهتمام بالتفصيل ، ولو عنيت بالتفصيل البالغ لحدّت من استثارة خيال الناظر وتأملاته

الفنُّ الجميل جميلٌ والاتقانُ اتقانٌ مهما تباينت الاذواق ، والتثقيف الشخصي كفيلٌ بأن يلهمنا مواطن الجمال حتى فيما لم نتعوده ، فليس الاعتراف بالجمال وقفاً على رضانا ، وليس عزوف ايمي نمر عن الروح الرومانطقية مما يجعلنا نبخسها حقها في صدق التعبير الفني والشخصية الفنية . وقد رسمت مشهداً في «درب الاربعين» (طريق قوافل الرقيق قديماً بين دنقلة وأسيوط) حيث العبيد وجماجم الضحايا ، وهو رسم تجريبي غير كامل ومع ذلك فهو يسترعي الاهتمام بتركيبه وغرابته وبالاعتبارات النفسية العميقة التي اوحته . وقل مثل ذلك عن شغفها بصور العبيد والسود ، فقد لا نعشق هذه الصور لاعتبارات مختلفة ، الاّ اعتبار الفن الخالص الحافل بالجهامة وظلام الحياة وآلامها ووحشيتها فانه كفيل باجتذاب عنايتنا بها . ومع هــذا ألم تستخلص لنا ايمي نمر معنى الحنان الخالص في صورة النوبية وطفلها ثم ألم تحفل ببعض الموضوعات الانجيلية بروح جميل من الايمــان ؟ فهي اذن لا تقصر فنها على تلك الموضوعات المكتئبة الغريبة لعجزها ، عن غيرها ، ولــكن اختياراً لما توحيه ظروفها ، ورد فعل لنزعاتها القديمة وتعلقاً بالنماذج القوية التي تفسح المجال لبراعتها في تكييف الانوار والظلال . وكثير من الصور الكلاسيكية نُسيت ظروفها التفصيلية ومناسباتها الفكرية والعاطفية ولــكن يبقى منها بعد ذلك الروح الفني المعبر الكشاف عن اسرارها الحيوية ، ومن اجله نمجدها

ولا نزاع في أن أمام فنانتنا القديرة ميادين كثيرة لبراعتها في المستقبل ، ولها من اقدامها وثقتها بمذهبها وبشعورها وتفاسيرها ما يكفل لها التقدم المطرد والاعتراف بألمعيتها

احمد زكي ابو شادي

الصحة والزواج

اجمع الاطباء على وجوب منع المصابين بالامراض الزهرية المزمنة من الزواج . ذلك أن فتك هذه الامراض بالمتزوجين لما يقصر عنهُ الوصف . فهي من اعظم اللعنات التي تنتاب الازواج وتذهب بهناءتهم . وكثيراً ما تضيع بهجة الحياة وتزول مسرات الزواج لما قد ينشأ منهُ من الاثر في صحة المتزوجين ونسلهم وفي قوائم العقلية كذلك

فسلامة الزوجين من هذه الامراض شرط لازم . وعلى الذين يقدمون على الزواج أن يلزموا جانب الصراحة ويعترفوا بحقيقة حالتهم الصحية على وجه الاجمال سلامتهم من كل محظور ومحذور . ومن المستحسن تأييد هذا الاعتراف بشهادة من حكيم الاسرة . وفي الواقع ان القانون في بعض البلدان ينص على وجوب فحص طالبي الزواج ، لاثبات صلاحهم له من الوجهة الصحية . ومثل هذا القانون يجب نشره في جميع البلدان المتمدنة ، بحيث لا يباح لمن كان مصاباً بعاهة جسمية طارئة او وراثية او بداء السل ، او ضعف القلب او ما اشبه ان يتزوج من دون ان ينذر زوجهُ والاَّ عُدَّ خادعاً وكان زواجه عرضة للالغاء . فاذا اعترف كل من طالبي الزواج للآخر بحقيقة حاله ولم يكتم عنهُ شيئاً ثم اتضح انهما مع ذلك لا يحجمان عن الزواج فذلك شأنهما وليس لاحد ان يتعرض لهما ، مع ان بعض دعاة اصلاح النسل يرون ان هذا من شأن الامة في الامراض الوراثية ، لامن شأنهما الخاص ويجب على الامة ممثلة في الحكومة ان تمنعهُ لتمنع تكاثر المرضى والمصابين بالعاهات

ومن بواعث الاغتباط ان الامراض التي ثبت ثبوتاً قاطعاً أنها وراثية ليست كثيرة . ومن فساد الرأي ان يحجم المرء عن الزواج خيفة ان يورث نسله الديابيطس (البول السكري) او حسر النظر او ضعف الاعصاب لان هذه الامراض ليست وراثية . ولكن عدد الامراض الجسمية والعقلية كثيرة جداً ومن المستحسن ان يستشير المقبل على الزواج طبيباً في امرها وان يبحث عن مصدرها ، وهل هي موروثة او طارئة . وقد يكون من الحكمة في بعض الحالات تعمد احداث العقم والامتناع عن النسل بحيث يكتفي كل من الزوجين بأن يعيش مع زوجهِ محروماً لذة النسل ومعتاضاً عنها ببهجة العيشة المنزلية الراضية

***

اذا طلب شاب ان يؤمن على حياته فحص فحصاً طبيًّا دقيقاً قبل ذلك . كذلك تطلب الحكومة مثل هذا الفحص ممن يطلب الانتظام في مصلحة من مصالحها . وهو عمل القومسيون الطبي هنا . وبعض الشركات الاجنبية في القطر المصري ، ومعظمها في بلدان اوربا واميركا تطلب من كل من يرغب في الانضمام اليها ان يعرض على طبيب الشركة . وليس يجد احداً في كل ذلك غضاضة او اهانة . وكذلك يجب أن يكون في امر الزواج

المرض امتحان

لقوة الرابطة الزوجية

المرض امتحان عظيم يكشف مواطن الضعف او القوة في العقد الزوجي . فاذا كان الحبُّ الذي يربط الزوجين حقيقيًّا فالمرض يقويه ويزيل جميع عوامل الخلاف والشحناء . واذا لم يكن كذلك ، اي اذا كان مؤسساً على الشهوة وحب الذات ، فان المرض يبرزه في حلتهِ الحقيقية . ومن الازواج من قد لا يكون الحب عندهم كثير الظهور ، وفي هذه الحالة يكون مرض احد الزوجين بركة لانهُ يعين على اظهار ذلك الحب الكامن . وليس غريباً ان يكون الحبُّ كامناً وان لا يقوى صاحبه على التعبير عنهُ فكأنهُ يقيم حول عواطفهِ اسواراً تحول دون الوصول اليها . وهذه الحال توهم المراقب عن كثب ان الحبَّ ميت بين الزوجين ، فينشأ من ذلك شيء من النفور الذي يسميهِ الافرنج «سوء تفاهم» . فاذا اصيب احد الزوجين بمرض وقام الآخر بالعناية بهِ واظهار الحنان عليهِ ، ازال ذلك ما بين الزوجين من نفور وفتور

بل ان الاشخاص الممتازين باظهار ما تكنُّهُ جوانحهم من الحب ، والذين يغالون في الاعراب عنهُ قد يوثق المرض اواصر حبهم ويزيد كلاًّ منهم تعلقاً بالآخر . ولقد يتفق ان تتوالى الامراض والمحن على اسرة من دون ان يكون ثمة سبب ظاهر . فينشأ عن ذلك شيء من الضيق قد يزيد في سوء حالة الاسرة ومصائبها . فمثل هذه الحالة قد تزيد في ارتباط الزوجين وتوثيق اواصر الحب بينهما ، اذ عند الشدائد تعرف الاخوان . واذا مرض الاولاد واحتاجوا الى العناية في الليل والنهار واشتدَّ الخطر ولاح حبل الرجاء ضعيفاً ، فحينئذٍ يبرز الحب من مكمنهِ وتتجلى العواطف على اجلها . ثم ان الجهد الذي يبذل في تربية ولدٍ مصاب بعاهةٍ او علةٍ ورثها من احد والديهِ تقوّي روابط المحبة بين الوالدين . على ان الاهتمام بالولد العليل يجب ألاَّ ينقلب الى ما يشبه الشفقة . وكذلك التعاطف الزوجي يجب ان يفصل بينه وبين الشفقة . وكثيراً ما تكون المؤاساة رباطاً قويًّا بين الزوجين واما الشفقة فانها تفصل احدهما عن الآخر لانها تشعر بوجود تفاوت بين المشفق والمشفق عليه . وليس اشق عليك من ان تكسب ودَّ من اشفقت عليهِ

على ان المرض لا يقوي بالضرورة الرابطة الزوجية ، بل قد يضعفها احياناً . ولاسيما اذا كان ذلك المرض مزمناً يقضي بعزل المصاب وخدمته خدمة خاصة . وقد تكون هذه الخدمة عبئاً ماليًّا ثقيلاً على الاسرة يستنزف قواها . فضلاً عن ان مرض احد الزوجين قد يحول دون اشتراكهما في الاعمال والزيارات التي تقتضيها الحياة الزوجية . وهذه الحيلولة توسع شقة الفصل بين الزوجين فيستسلم المريض منهما الى مرضهِ ويلتمس الصحيح مناهج الحياة من غير طريقة الزوجية وهذا قد يفضي به الى ادمان المسكر والميسر لالتماس القوة الكاذبة وما يليها من العواقب

هواجس فتاة جميلة

بعد اصابتها بصدمة شوهت جمالها

بين جمال الوجه وشجاعة النفس

ترى ماذا يكنُّ لي المستقبل ؟ كنت من شهر فتاة جميلة هائمة ارقص للحياة . وكنت قد فزتُ بالدعوة الى تمثيل دور صغير في شريط سينمي . لم يكن دوراً يباهى به . ولكن الكفاح الذي كافحته والجهاد الذي جاهدته قبل الفوز به جعلاه في نظري تحقيقاً لحلم من احلامي وخطوة اولى نحو هدفي وهو ان اصبح كوكباً متألقاً في عالم التمثيل السينمي . فكنت سعيدة به السعادة كلها

ولكن انظري اليَّ الآن . انني لا ادري ما اصبح وجهي بعد حدوث ما حدث. لانهم لم يسمحوا لي بعد ان انظر الى وجهي في المرآة . ولكنني اعلم ان ثغري الذي كان رطباً احمر كورقة الورد اصبح معوجّاً مشوّهاً . وفي خدي الايمن ندبة جرح عميق احسها بانامليّ

كنت في سيارة مع صديقي جفري عائدة من حفلة راقصة . وكنت متهللة طروبة . واذا بالسيارة تصطدم فجأة بمصباح قائم في وسط الطريق . فسمعتُ وكأنني في غيبوبة تأوه صديقي وما افقت الاّ وانا في مستشفى ورأسي مضمد بضمادات أكاد لا ارى من خلالها الاّ سقف الغرفة الابيض

ولعلي اغبط لان ساقي سليمتان فاستطيع ان امشي. ولان والديَّ حيّان فاستطيع ان اقضي دور النقه في بيتهما الريفي . ولانني ما زلت حية على كل حال

حياتي ! ما اشد الاختلاف بين حياتي بعد الصدمة وقبلها . في السنة الثالثة عشرة من عمري بدأت اعنى بشؤون الجمال . فعليَّ الآن ان انسى جميع هذه السنين وان انشأ نشأة اخرى

قال لي الطبيب الذي عالجني : يا ابنتي مضت عليك سنوات وانت تنظرين الى الحياة من نافذة ضيقة . وقد سحرك جمال ما رأيت لانك كنت في مقتبل العمر وعلى جانب عظيم من الجمال . والعالم يغدق عطاياهُ على المتصفين بالجمال لان الجمال بلسم في عالم يكثر فيه القبح والقتام . ولكن العالم يغدق كذلك على من اتصفوا باللطف والشجاعة والدماثة ولو لم يتصفوا بالجمال

فقلت محتجة : ولكن يا دكتور ، لم اقض ما مضى من حياتي كالفراشة متنقلة بين اطايب الروض. معتمدة على جمالي في الفوز بكل ما اريد . بل كافحت كفاحاً عنيفاً في سبيل تحقيق ما اصبو اليه

كنت لا ازال في السابعة عشرة لما تركت المدرسة بعد ان فزت بجائزة الجمال فيها . وانتظمت في معهد التمثيل لتعلم فنونه واساليبه . ياما وقفت ساعات متوالية امام مكاتب التوظيف اطلب عملاً . ما اكثر الساعات التي قضيتها في البرد القارس انتظر دوري لافوز بمقابلة المسيطرين على شؤون السينما وكنت عند عودتي وقد انهك البرد والانتظار قواي ، اذهب توّاً الى دروس الرقص الكلاسيكي لتكون عدتي وافية متى اتيحت لي الفرصة . فما كاد الحظ يرمقني بنظرته فيتيح لي تمثيل دور صغير في

شريط سينمي حتى نكبت هذه النكبة. هنا اضطرب صوتي واغرورقت عيناي بالدموع. فقال الطبيب: أنا اعلم يا بنتي انك كنت على اعظم جانب من الشجاعة في مواجهة الحياة وأملي ان تبقى هذه الشجاعة عدتك حتى تفوزي بالغلبة وربت على يدي ومضى في سبيله يزور سائر المرضى. فأحسست عندها بشيء من الغبطة في نفسي. قال «املي ان تبقى هذه الشجاعة عندك حتى تفوزي بالغلبة» واعتقد انهُ عنى ما قال. أعتقد أنهُ اسف لوتر المرارة الذي ضربت عليهِ في كلامي معهُ كما آلمه ان يراني متألمة من أثر الصدمة والجروح التي اصبت بها. ولكن بوارق الامل والشجاعة تتراجع في الغالب أمام بواعث اليأس. وانني لا ازال عاجزة عن أن اتصور كيف استطيع أن أتحمل كل هذا. كيف استطيع أن اصبر على نظرات الاشفاق في عيون صحبي اذ أخرج من المستشفى أو كيف احتمل تفرس الناس في وجهي عند ما أمشي في الشارع او أذهب في طلب عمل ما؟ اذ لابدَّ لي من العمل والاَّ طار صوابي

سهلٌ على الطبيب ان يقول لي أنهُ يجب عليَّ ان اكون طروباً. ولكن هناك فرق بين طرب نفس تبذل وسعها لتدرّع درع الشجاعة، وذلك الطرب الذي يصدر عفواً كتغريدة العصافير. ما أجمل الحياة اذ كنت أتلقى ثناء الشبان وازاهيرهم، اذ كنت أستطيع ان أضحك معهم وأمازحهم، من دون أن أنسى ان الحياة في الحقيقة أمر جدي وجميل معاً

يغمرني أحياناً ضياء هذه الصور الباهرة ثم أفيق فأدرك كابوس الواقع

قد اتغلب على كل هـذا. فانني ما زلت في الثانية والعشرين من العمر. ولكنني اقلب رأسي الآن ذات اليمين وذات اليسار واقول يا ربي كيف استطيع ان أحمل كل هذا؟ كيف؟

نصيحة لفتاة تخشى الحياة

كتبت فتاة الى محررة احدى المجلات النسائية ما يلي: انني اخشى الحياة. مات والدي من سنتين وكان اصدق اصدقائي علاوة على كونه والدي. وما كدت اتغلب على حزني حتى منيت بوفاة والدتي من نحو ستة اشهر. وأنا الآن مخطوبة لشاب ممتاز، وليس لي غيره في الدنيا. وهو يريد ان يقترن بي حالاً ولكنني اخشى ان اقبل لانني اخشى ان يسلبني الموت اياه. انا اعلم ان هذا الكلام يحملك على الضحك مني، ولكنني خائفة وجلة فماذا افعل؟

فردت المحررة ما يلي: كثير من الناس تأتي عليهم فترة في الحياة يحسون فيها بمثل ما تحسين. ويطلق الكتاب الدينيون على هذا الاحساس «ليل النفس الحالك». ولكنني واثقة بأنك سوف تخرجين من ظلام الليل الى وضح النهار. ان والديَّ كل انسان مصيرهما الى الموت عاجلاً او آجلاً. ولكن الاحصاء يثبت ان الزوجين يعيشان معاً مدة طويلة في الغالب قبل ان يدرك الموت احدهما. فيجب ان تتعلمي الثقة بالحياة، وان تتطبعي بروح المغامرة، وان تعيشي في الزمن الحاضر بدلاً من ان تحصري فكرك وهمك في مخاطر المستقبل. إنسي الماضي ودعي المستقبل لله

الاعمال المنزلية

وما تقتضيه من الطاقة والعناء

عنيت جماعة من علماء اميركا بقياس الجهد الذي تقتضيه أعمال المرأة في تدبير شؤون بيتها من غسل ومسح وكنس وكي وخياطة وغير ذلك . ومقابلة كل عمل من هذه الاعمال بالآخر . وبحالة المرأة وهي مستريحة . وصنعوا لذلك آلة سموها مقياس حرارة التنفس أو مقياس الحرارة البدنية اذا اريد المعنى العام . وهو بالانكليزية Respiration Calorimeter

والآلة مؤلفة من غرفة ارتفاعها متران وطولها متر وخمس وعرضها ٧٥ سنتيمتراً وجدرانها لا ينفذها الهواء . وفيها عدة أجهزة صغيرة منها جهاز لحفظ مجرى هوائي في الغرفة يجتمع فيه بخار الماء واكسيد الكربون اللذان تخرجهما المرأة التي تجرب التجارب بها . وفيها جهاز لمقياس مقدار الحرارة التي تتولد في الغرفة عند اجراء التجارب

وقد اختير لهذه التجارب فتاة نحيفة سنها ٢٢ سنة وطولها ٥ اقدام و٤ بوصات وثقلها بملابسها ١١٠ ارطال . وقد عرضت هذه الفتاة لثلاث وخمسين تجربة وكانت توزن عند انتهاء كل تجربة ولا تتجاوز مدة التجربة ساعتين كل يوم

وقد ظهر من هذه التجارب ان الفتاة كانت تنفق من جسمها وهي تعمل الاعمال الخفيفة كالخياطة والرفء ٩ وحدات حرارية في الساعة زيادة عما كانت تنفقهُ وهي في حال الراحة . وأنها كانت تنفق ٥٠ وحدة حرارية في الساعة في الاعمال التي تستدعي تعباً كالغسل والكنس وتنظيف الغرف زيادة لما كانت تنفقه في حال الراحة

***

ومن غرائب هذه التجارب انهم لما جاؤا الى تجربة الغسل أمرت الفتاة ان تجري حركات الغسل جميعها ولكن من دون استعمال الماء لان وجود البخار في الغرفة يوقع الخلل في القياس . ومثلها غرابة عند محاولتهم قياس ما تبذله المرأة من الطاقة عند العناية بطفل من حيث ارضاعه وتغيير ثيابه وغسله . فانهم استكبروا وضع طفل رضيع معها في غرفة ضيقة خيفة ان يلم بهِ مكروه فأعاضوها منه دمية تشبه في حجمها طفلاً محولاً اي ابن سنة . فظهر ان العناية بالطفل تقتضي من زيادة انفاق الطاقة نصف ما تقتضيه أعمال الغسل والكنس أي ان الزيادة كانت ٢٣ ½ وحدة حرارية مقابل ٥٠ وحدة حرارية في الحالة الاخرى

وعلى ذكر الاعمال العديدة التي يجب على المرأة عملها نذكر قول الشاعر : « الرجل يعمل من الشروق الى الغروب أما المرأة فعملها لا يفرغ »

بين طفل وعنكبة

[قطعة مختارة من الجزء الثاني من قصص علمية للاطفال تأليف كامل كيلاني وينتظر ان يصدر قريباً]

الطفل :

قد تأكل العنكبةُ العنكبا وتهلك الزنبارَ والعقربا
وكم بعوض في حبالاتها راح اسيراً يبتغي مهربا
تخدَّرت بالسم أعصابهُ وأنشبت — في جسمه — المخلبا

***

وقد يصيد الضفدع العنكبا كما تصيد البومة الأرنبا
وتهلك القطةُ فأراً ، ولا تبقي على فرخ صغير حبا
وقد ألفنا كل هذا ، فلم ندهش له ، مهما بدا مُغربا
لكنّ ما حيّر البابنا ان تأكل العنكبة العنكبا

العنكبة

ان تأكل العنكبةُ العنكبا أو تأكل الام ابنها الأنجبا
أو تأكل الآباء أبناءها أو تأكل الاخت أخاً أو أبا
أو تأكل الزوجات أزواجها فليس هذا حادثاً مُغربا
أما ترى الاسماك قد شابهت في اكل ما تنجبه — العنكبا
تلتهم الكبرى صغيراتها ويأكل الحوت ابنه الاقربا

***

وانتم الناس — على رشدكم — صرتم — لأمثال الاذى — مضربا
لم ترحموا طيراً على غصنه رتل لحناً شائقاً معجبا
ولم تغيثوا بائساً معدما ولم تقيلوا عاثراً مذنبا
وكم اكلتم لحم اخوانكم ميتاً ، ولم تَرْعَوهُمْ غيَّبا
فلا تعيبونا بأدوائكم فقد غدا مَنْ عابنا أعيبا

كامل كيلاني

تنظيم حياة الطفل

مبادىء جوهرية (١)

هناك عاملان جوهريان لتكوين خلق الطفل

اولاً : — يجب ألا تكبت ميوله وغرائزه ، بل يطلق له كل حرية لتنميتها وتقويتها

(ثانياً) يجب أن تساس وترشد وتدرب على كل عمل صحي يساعد على نمو الطفل . فاذا تركت هذه الميول حرة بغير قيد فان الطفل يصبح شهوانيًّا عنيداً ، واذا سحقت وتلاشت يصير عرضة لأمراض عقلية ، واذا ضبطت وارشدت يصير رجلاً ذا خلق قوي الدعامة . والأخلاق المتينة ما هي الا ثمار تهذيب الطبيعة وضبط العواطف . أما اذا حبست هذه الميول الاولى عند ظهورها فتفسد الأخلاق وتشوه ، كالقدم اذا وضعت في قالب فانها تفقد شكلها الطبيعي وتشوهه . واذا أنكرنا على الطفل حبنا وحمايتنا له في الطور الأول ، استولت عليهِ الكآبة وانقباض النفس (مالينخوليا) في حالة الكبر ، والطفل الذي تسحق ارادته ربما تنتابه نوبات مؤذية مثل الخوف من الأذى أو القتل . واذا حرم من العطف الابوي فانهُ قد يصاب بالهستريا أو الشلل أو الألم . وأخيراً اذا سحقت الأنانية فيهِ وانكر عليهِ استقلاله الذاتي فانهُ يصير انساناً جافاً بغير ارادة أو أخلاق . ومن ناحية اخرى اذا لم يوجد ضابط ورادع صار الطفل شهوانيًّا وظل على طوره الاول، وفي الطور الثاني يصير عنيداً لا يكبح جماحه ويكون ضحية لشهواته وأهوائه . وفي الطور الثالث يكون ضحية الامزجة والاهواء وعبداً لارادة الآخرين. وأخيراً تتكون فيهِ صفات خاطئة واهواء ضارة يكتسبها من الاوساط البذيئة . امثال هؤلاء الاولاد يصيرون مجرمين واشقياء

وفي هذه المقالة نريد ان نبين كيف انهُ لو اعطيت الحرية الحقيقية مع ضبط النفس فان هذه الميول الاولية تظهر وتترعرع لانها المادة الخام التي منها تتكون وتنشأ الاخلاق . اما اذا كبتت فاننا فضلاً عن تعرضنا لامراض عصبية فاننا نفتقر الى الاخلاق افتقاراً شديداً

وها كم بعض المبادىء :

اولاً — تقوية روح الطاعة والاستسلام للوالدين

كل طفل خليق بالرعاية والعناية والعطف . انما الافراط في الحنان والتدليل يترك أثراً في النفس فيبقى طفلاً (حتى عند ما يصير رجلاً) في تصرفاته واعماله اليومية ، ولا يقدر على مواجهة الصعوبات التي تصادفهُ ولا تحمل المسؤوليات التي تلقى على عاتقه . كما ان انكار مثل هذا العطف على

(١) وهو جانب من مقال مسهب كتبه الاستاذ هدفيلد استاذ علم النفس في كلية الملك بلندن ونقله ميلاد كدواني في كتابه الموسوم (اسرار الطفولة وخفايا الشباب)

الولد (اما لانه غير مرغوب فيهِ او لتفضيل آخر عليهِ) يبقى أثره في العقل الباطن وربما يؤدي الى كآبات مضنية عند ما يصبح رجلاً . واما تربية ميول الطاعة والثقة بالوالدين تربية صحيحة فانها تؤول الى ميزات في الاخلاق ذات قيمة عظمى . وهذه الميول هي التي تتحول بعد حالة العناد الى حالة الايحاء ثم الى حالة الاستسلام . وهو ليس استسلاماً جثمانيًّا بل نزولاً على اهواء والديهِ وخططهم العقلية وعندما يكبر يسر ويغتبط بلعبه مع الاولاد الآخرين وباشتراكه معهم في رغباتهم . سواء خارج البيت او في المدرسة مع الرفاق . وبعد سن البلوغ يزج بنفسه في وسط الجماعة خاضعاً للقوانين التي تربطها ماديًّا وادبيًّا

وعند ما يكبر فان هـذا الميل الاستسلامي يشعره بالنقص الذي لا يكمل الاّ في محبة الغير وفي حياة الاسرة . وأخيراً يرشده الخضوع والاستسلام الى المثل العليا التي تشاد عليها دعائم الاخلاق الفاضلة كالولاء للحق وللانسانية وللدين . وما كل هذه الميول الأ ّغار الاستسلام الذي يعزى الى شعورنا بالضعف وحاجتنا الى الآخرين . ومما هو مشاهد في هذا الميل في الطور الاول انهُ أناني ، قوامه حماية الذات أما الطور الثاني فيتخذ شكلاً آخر هو الغيرية . ولذا يجب أن نفهم ان ميول التضحية وخدمة الغير في الطفل ليست نتيجة التدريب على الاستقلال الذاتي ، وانما هي اشباع ميوله للاستسلام والمحبة ، فاذا اهمل اشباع هـذه الميول في الطور الاول فلا تتاح لها الفرصة للظهور في الطور الثاني وعليهِ يبقى الطفل أنانيًّا

مثال لذلك ، أب لهُ ابن وحيد يريد أن يجعل منهُ رجـلاً . فانهُ بتربيته له تربية جافة واهمال مخاوفه واعتبارها خيالية لا صحة لها ، وانكاره عليه حتى العطف والمحبة والحماية التي هي من حقوقه الطبيعية ، يحرمه من الشعور بالطمأنينة وتتربى فيه صفات الخجل والخوف من الحياة ويتصف بالجبن

أما الولد الذي تتغذى روحه بالاستقلال الذاتي وتتوافر ثقته بأبويه واستسلامه لهما، فانه يحمل معه هذه الثقة في حياته العملية عند ما يشب ، ويكون قادراً على مواجهة الصعوبات والمشاكل حتى الموت

ثانياً — تنمية الميل الى ارضاء النفس

يؤول ارضاء النفس الى فرح والفرح الى سعادة لما يأتي : —

يبدأ اشباع النفس في الطفل في طوره الاول في النشاط والحركات الجثمانية مثل الرضاعة وعملية الهضم وازالة الضرورة وحركة أعضاء الجسد وبعـد ذلك — في اثناء تكوين الارادة — يشعر بفرح في التعبير الحر عن النزعات الغريزية ، المصارعة وحب الاستطلاع والبناء . وأما اذا تجاوز الاشباع الى الحد المعقول في سني الطفولة الاولى فانه يصير شهوانيًّا عصبيًّا عند ما يكبر ، وعبداً للانفعال ، ومع ذلك فان لاشباع الميول والمشاعر في الطفولة قيمة جوهرية ، لان في اشباع هـذه تكوين الوظائف الجسدية كالعادات وغيرها والفرح في النشاط الذي هو لذة الحياة . وكما أن رغبة ارضاء الحواس والمشاعر في دور الطفولة الاولى تنقضي ليحل محلها لذة التعبير عن العواطف والميول

في الدور الثاني ، فكذلك تتطور هذه الرغبة في السنة الثالثة أو الرابعة الى سعادة تتولد عن اتزان العقل وتناسقه . والسعادة — وشتان بينها وبين اللذة — تنتج عن اداء مجموعة الوظائف كاملة وليس عن هذه العاطفة او تلك . هي ثمار الشخصية كلها عاملة بكل عواطفها وميولها الى الغرض أو المثل الاعلى الذي تختاره النفس . ومن الجهة الاخرى اذا ضغطنا على ميول الطفل وعواطفه واحساسه وعودناه اللوم والتعنيف نشأ في موقف الزاهد الكاره للحياة الذي لا يشعر بأية سعادة حقة ، وفي احسن الحالات يكبر طفل كهذا انساناً كئيباً مغموماً لا يفعل شيئاً الا مدفوعاً باداء الواجب ليس الا . وأما في اسوأ الحالات فيكبر انساناً شاذاً شهوانياً ضالاً تسوقه تلك العواطف والميول المكبوتة إلى الانغماس في الضلالات الجنسية

ثالثاً — تنمية الارادة

يقصد بالارادة هنا طلب اشباع كل عاطفة غريزية ، مثال ذلك :

انهُ اذا اراد الطفل الحصول على شيء فلا بد ان يناله ، واذا اراد رؤية شيء او عمل شيء ما فلا مناص من تنفيذ فكرته ورغبته . ونحن نعلم حالة الطفل في السنتين الاولين . واذا كان عنيداً بطبيعتهِ وخلقه فقد يكون سبب يأس لكثيرين من الوالدين . ومع هذا كله فلا حاجة لليأس والفزع ، ولا داعي يدعو الى معاملة الطفل بقسوة لا يستحقها ، لان هذه الحالة يتبعها الايحاء الذي يكون فيهِ مستعداً للاذعان ، وقبول رغبات والديهِ واهوائهم . والواجب في هذه الحالة ان يعامل الطفل بحزم وصبر وان تعطى البواعث والميول الطبيعية الفرص الكافية للتعبير عنها . واطلاق طفل كهذا على هواهُ يجعلهُ معتداً بذاتهِ عنيداً . وسحق ميوله يصيره عاصياً متمرداً ظاهراً او باطناً . وإنما الذي يفتقر اليهِ هو تنمية ميوله ودوافعه القوية . واذا اراد ان يعمل عملاً لا يليق فلا ينبغي ان تستعمل معهُ طريقة النهي كقولك « لا تعمل هذا او ذاك » لان هذه الطريقة تزيده رغبة في عمل الشيء ، بل يلزم ان تعلمهُ كيف يفعله فاذا اراد طفل في الثانية من عمره ان يستعمل سكيناً حادة علمه كيف يستعملها بان تقطع شيئاً امامه في الصحن . واذا اراد ان يتسلق شجرة ليأخذ ثمراً منها فخذهُ الى شجرة لا خوف عليها من التلف ودعه يتسلقها . ففي فعل ذلك اشباع لرغباته . ولو اراد اشعال ثقاب الكبريت علمهُ ذلك . وعلى العموم دعه يعبر عن رغباته بشرط ان تعلمه الحيطة والحذر والتمييز بين المسموح وغير المسموح وبين الضار والنافع . وتكون انت في هذه الحالة قد تجنبت الخطر واعطيته فرصة لاشباع دوافعه وميوله القوية

وقد يفعل اشياء لا نستحسنها كأن يضرب الارض برجليه في حالة غضب او يتلف لعبة اخيه او اختهِ او يلحق بهما ضرراً بدنياً . فلعلاج ذلك إبحث اولاً عما اذا كان محقاً في ذلك او مخطئاً وربما اخته الوديعة تستحق ذلك . ولكن لنفرض أن ذلك شقاوة منهُ فكيف نطبق مبدأنا ؟ ان الطريقة الرئيسية لرفع الطفولة والصعود بها الى المستوى الاعلى انما تتأتى بطريقة اللعب . لان اللعب هو التعبير

الطبيعي لدوافع الطفل الذي سيتحول الى عمل جدي عندما يكبر . ان الطفل يريد اللعب ولكن ربما يستعمل ميوله بشدة كما مثلنا قبلاً فعلينا ان نحولها الى اللعب . خذ لذلك مثلاً : اذا اراد الطفل ان يعض اخته قل له : هاك الأسد — بدلاً من ان تقاصه — وتظاهر بالهرب من امامه عندئذٍ يتحول غضبه الى حالة اللعب . واذا نكث الارض برجله خذه من يده وارقص معهُ . واذا قلب ما شاده أخوه للعب واللهو فتظاهر بالوقوع أمامه وامرح . وفي هذه الحالة تكون قد اعطيت شعوره بالقوة فرصة للعب بدلاً من الكبح والضغط . ولكن لا بد لهذه القاعدة من شواذ فيجب مثلاً أن يحدد وقت نوم الطفل . وعند ما يحين ذلك الوقت يجب أن يترك اللعب ويذهب لفراشه . ويستعمل معهُ الحزم والجد . وأيضاً في حالة نزول المطر الغزير لا يجب ان يخرج من البيت . في هذه الحالات وغيرها الصرامة والحزم والشدة لازمة لتربيته والأفالاين والتساهل وعدم الصرامة تنشيء فيهِ عدم ضبط النفس وعدم الاذعان لارادتك ، لانهُ كما تكون أنت معه في الصغر ، هكذا يكون هو في الكبر . وتكون ارادته من ارادتك . فلنكن على حذر مع أطفالنا

تعليم البنات في انكلترا

في سنة ١٩٠٢ كان عدد مدارس البنات التابعة لمجلس المعارف ٩٩ مدرسة زادت الى ٤٠٥ مدارس سنة ١٩٢٥ وفي المدة عينها زاد عدد المدارس التي يتعلم فيها الذكور والاناث معاً من ١٨٤ مدرسة الى ٣٦١ مدرسة وزاد عدد التلميذات من ٣٣١٥٩ تلميذة الى ١٧٣٢٧٣ تلميذة اي خمسة امثال (والكلام هنا مصبوب على المدارس الثانوية)

***

أما تعليم الصبية والصبيان معاً فتلك مسألة لا تزال موضع نزاع ومثار جدل بين الكثيرين فبعض المدارس التي يعلم فيها الجنسان قامت على اسس اقتصادية فقط في حين ان هناك مدارس اخرى يعتقد المشرفون عليها اعتقاداً راسخاً في وجوب تعليم الجنسين معاً منذ نعومة اظفارهما . وعلى كل فان الشطر الاكبر من المعلمين والمعلمات ويشاركهم في ذلك معظم الشعب الانكليز مجمعون على انهُ وان صلح تعليم الذكور والاناث معاً في سني دراستهم الاولى ، ثم بعد ذلك في الجامعات ، فانهُ من مصلحة الجنسين معاً ان يعلم كل منها على انفراد في السنين تتخلل التعليم

[عن كتاب الانكليز في بلادهم]

باب المراسلة والمناظرة

إرشاد لغوى

فى كل جزء كلمة

للأستاذ عبد الرحيم بن محمود

« لفيفٌ من الأمراض بزنة فُعَال »

أهيب بحضرات الأطباء فى الأقطار العربية أن يتحفظوا الأسماء العربية للأمراض الآتية بدلاً مما يرادفها باللغات الافرنجية وأن يعملوا على إذاعتها بوسائل الإذاعة بمؤلفاتهم وبوصفاتهم وبتقريراتهم وبمجلاتهم وبمحادثاتهم وبالصحف السيارة وبالمجلات ليحيوا أوطانهم العربية بإحياء لغتهم العربية — والمجامع اللغوية تشد أزرنا وأزرهم كما نشد أزرها فلنتعاون جميعاً على إغناء لغتنا بألفاظنا التى نبعثها من رمسها اذا أحسنَّا التطبيق والمطابقة . ويعاوننى على بحثى هذا العلماء الأعلام مثل ابن سيده الاندلسى «صاحب المخصص» والشيخ ابراهيم اليازجى «صاحب نجعة الرائد» والثعالبي «صاحب فقه اللغة» وأخواى الاستاذان « عبد الفتاح الصعيدى وحسين يوسف موسى» (صاحبا الافصاح) والملاغى للفيروزبادى وابن منظور والرافعى (وهما مصريان) والزمخشرى والجوهرى ثم البستانى ولويس معلوف وجرجس همام الشورى وهم سوريون وأصدقائى الأطباء مثل محمد عبد الحميد بك وسامى إلياس وشكرى مشرق وإبراهيم ناجى فى القاهرة

﴿ الثُّبات ﴾ مرض يمنع الانسان الحركة [1] وهذا المرض يعرفهُ الاطباء باللغة الانكليزية باسم كَتَلِبْسِى (Catalepsy)

﴿ الذُّباح ﴾ وهو ورم حارّ في العضلات من جانب الحلقوم وتلك العضلات تساعد على بلع الطعام [2] أى خُرَاجة حول اللوزة وترجمتها الى الانكليزية (Peri-Tonsillar Abcess) وينطق بها هكذا : بَرِى تُنْسِلَرْ أَبْسس

﴿ الصُّفار ﴾ دود في البطن يصفرّ منهُ الوجه [3] وهو يُحدث الصَّفَر المعروف عند الاطباء باسم (أنكلستوما) والصفر أعدى من الجرب — ويصيب المصريين في القرى كثيراً ولذلك بُنيت له المشافى فى أمهات القرى ومن الواجب أن نطلق على كل منها مستشفى الصَّفَر بدلاً من «مستشفى الانكلستوما»

---

(١) كما فى نجعة الرائد للشيخ ابراهيم اليازجى السورى (٢) كما يؤخذ من معجم الطالب لجرجس همام الشويرى السورى والخراجة كل ما يخرج بالجسم كالدمل وجمعه المكسر خراج بضم الخاء وفتح الراء فيهما وجمعه السالم خراجات (٣) كما يؤخذ من المنجد للقس لويس معلوف السورى

﴿ العُطاش ﴾ عرض (٤) يصيب الانسان فيشرب الماء فلا يُروى ويرادف هذا بالانكليزية (ديبسومانيا Dypsomania) . ﴿ السُّلاق ﴾ بثر صغير عند أصول اهداب العين تحمرّ له الأجفان وتتقرح أشفارها (٥) ويرادف هذا كله بالانكليزية (Ulcerative-Blepheritis)

﴿ الزُّحار ﴾ وهو المعروف عند المصريين والأطباء عامة باسم (دوسنتاريا) وقد أذاع صديق الطبيب محمد عبد الحميد بك مدير مستشفى الملك وساعور (٦) جراحيه هذا اللفظ العربي في مؤلفاته الطبيّة منذ ثمان وعشرين سنة في صباح حياته الطبيّة حينما كان طبيب مستشفى قليوب

﴿ القُلاع ﴾ داء يصيب الانسان يتنفّط منه اللسان والشفتان وهذا الداء يعرف بالانكليزية بأسم (أفث) « Aphthe »

﴿ الهُدام ﴾ دُوار البحر وهو داء يصيب مركز الجهاز العصبي فلا يعي الانسان كأنه مُغمى عليه يصحبه قيء — وأكثر ما يصيب الذين يركبون البحر أول مرة أو الذين لا يكثرون من ركوبه

﴿ الخُناق ﴾ داء يعسر منه نفوذ النفس إلى الرئة ويصيب الانسان وغيره كالإبل وهو المعروف بالدفتيريا . ﴿ الكُزاز ﴾ داء يصيب الانسان فيرعد حتى يموت وهو المعروف بالتِّتَنُس Tetanus والعامة تقول عنه تتنوس

﴿ الجُحاف ﴾ مشي البطن عن تخمة وهذا اللفظ العربي المفرد يغني عن لفظتين عربيتين يحققان معناه وهما النزلة المعويّة وقد تحدث عن تخمة كما قال الطبيب النطاسي سامي إلياس

﴿ القُلاب ﴾ وجع القلب ويقال للطبيب المتوفر على علاجه طبيب قُلابي بضم القاف مثل الطبيب القلابي أنيس سلامه ومثل الطبيب القلابي جرجس جرجس الضبع بك

﴿ الكُباد ﴾ وجع الكبد . ﴿ الرُّعاف ﴾ دم يسيل من الأنف

هذا وأرجو أن نتعاون على إذاعة هذه الاسماء العربية بدلاً من الاسماء الافرنجية المرادفة لها حتى تشتهر كما اشتهرت أسماء اخرى لأمراض مثل (الكُساح) و(السُّعال) و(السُّلال) و(الصُّداع) و (الجُذام) و (الطُّحال) و (النُّكاس) وهو معاودة المرض بعد البرء منه

﴿ توجيه ﴾ قال الرافعي المصري صاحب المصباح المنير (المرض حالة خارجة عن الطبع ضارة بالفعل ويعلم من هذا أن الآلام والأورام أعراض عن المرض ثم قال : قال الاصمعي : قرأت على ابي عمرو بن العلاء — في قلوبهم مَرْض — فقال لي مرْض يا غُلام) بسكون الراء فعلى هذا يكون مرْض القلب بسكون الراء وغيره بالفتح ولكني أرى ان القراءتين متواترتان والفتح أكثر تواتراً (قراءة حفص)

---

(٤) أخطأ اللغويون في جعل العطاش مرضاً أي داء . والصواب انه عرض كما يرى الطبيب النطاسي شكري مشرق بالقاهرة فان العطاش يحدث من امراض — واني انتهز هذه النهزة فأقول ان كتبنا اللغوية في حوجاء الى تحرير فني من الاطباء فيما يتعلق بالطب ومن النباتيين فيما يتعلق بالنبات ومن المعدنيين فيما يتعلق بالمعادن (٥) كما يؤخذ من معجم الطالب لجرجس همام الشويري (٦) ساعور يعدل اللفظ التركي البائد حكيم باشي كما قلنا في المقال السابق وقد استعمل هذا اللفظ الامام أحمد فارس الشدياق في كتابه الساق على الساق ص ١٨ فقال « ان العمامة الضخمة تخفي محاسن الوجه الكبير وتشوه الوجه الصغير فضلاً عن كونها توجع الرأس وتمنع صعود الابخرة من مسامه كما نص عليه الساعور الأكبر »



الانجليز في بلادهم

تأليف الدكتور حافظ عفيفي باشا — طبع بمطبعة دار الكتب المصرية صفحاته ٤٦٧ قطع المقتطف — ثمنه اربعون قرشاً

من المأثور ان اللورد برِيس (Bryce) — وقد كان سفيراً لبريطانيا في وشنطن مدة طويلة — وضع أفضل كتاب عن جمهورية الولايات المتحدة الاميركية ونظمها السياسية وحالتها الاجتماعية بوجهٍ عام . ذلك أن من كان مثل بريس مفكراً عميق التفكير ، ومؤرخاً ينظر الى التاريخ وحوادثه والنظم السياسية وتطورها بعين الفيلسوف الاجتماعي ، وفي الوقت نفسه غريباً عن البلاد التي يكتب فيها وانما تربطه بها روابط اللغة والثقافة والفهم ، يستطيع ان ينظر الى حضارتها نظرة عميقة ومجردة عن الهوى في آنٍ واحد

قد لا يكون كتاب حافظ باشا عن الانكليز ، خير كتاب أُلف فيهم ، ولكن الامر الذي لا يداخله الريب هو ان هذا الكتاب افضل كتاب عربي في موضوعه ، وجدير بأن يوضع الى جانب المؤلفات الغربية ، فيظهر عند المقابلة انها لا تبزهُ في شيءٍ في الناحية التي اخذ بها الموضوع . ولا بدع في ذلك . فقد قضى حافظ باشا سنوات وزيراً مفوضاً للمملكة المصرية في بلاط سانت جيمس ، وخالط الانكليز مخالطة الصديق للصديق ، علاوة على مخالطة الوزير المفوض لرجال الحكم في البلاد التي يمثل مليكهُ فيها . وهو الى هذا رجل كامل الثقافة ، واسع الاطلاع ، دقيق الملاحظة ، متوقد الذهن ، فرأى ان اجل خدمة يستطيع ان يؤديها لقومه ، الى جانب الدفاع عن مصالحهم في بلاد الانكليز ، ان يكون رسول صداقة وفهم بين مصر وانكلترا . فأخرج كتابه هذا لقومهِ ليقرأوه وينفذوا من خلال صفحاتهِ الى نظم الانكليز ونفسيتهم وطبائعهم في الحياة العامة . وحبذا الحال لو اكمل هذا العمل الجليل بالاعراب عن ضمير مصر في كتاب انكليزي يطالعهُ الانكليز فيكون حلقة اخرى في صلة التفاهم والصداقة بين الامتين

الكتاب ستة ابواب حافلة بحقائق التاريخ المتصلة بتطور الحياة السياسية والتجارية والفكرية في بريطانيا ، وقد جمع شتاتها من ملاحظاته الدقيقة ومطالعاته الواسعة النطاق . فقد اشار سعادة المؤلف في نهاية كتابه الى اكثر من ثلاثين كتاباً معظمها بالانكليزية وبعضها بالفرنسية ، طالعها وتمثلها في خلال دراستهِ للانجليز في بلادهم

فالباب الاول موضوعهُ الدستور البريطاني وهو بحث جامع بين الوصف الحالي والعرض التاريخي

جماً متزناً . وعندنا ان هذا الفصل هو محك الكتاب . ومطالعتهُ تثبت ان المؤلف اجاد اجادة قليلة النظير . ذلك ان الدستور البريطاني ، لا يمكن ان يفهم الاّ اذا عولج من ناحيتي التاريخ والوصف في وقت واحد . فهو ليس دستوراً مكتوباً في وثيقة واحدة ، قائماً على قواعد جامدة ، بل هو جانب من حياة الامة البريطانية في ناحية تدبير شؤونها العامة ، تسلسل محها على مر العصور وتطور بتطور حاجاتها وذهنيتها ومقتضيات العصر والحياة . فاذا حاول كاتب ان يقول لك ان القاعدة في نظم بريطانيا هي كيت وكيت فقد تستغربها وقد تستهجنها وقد تستبعدها . ولكنه اذا ارفق قوله ، بذكر مراتب التطوُّر التي مرّت بها تلك القاعدة ، وصلة ذلك باحوال العصر ، اصبح الدستور في نظرك شيئاً حيًّا ، واصبح لما تراهُ فيهِ من المفارقات مغزًى يعينك على الفهم

راجع صفحة ٤٨ وما يليها في موضوع « فصل السلطات » في الدستور البريطاني . فقد أشار المؤلف اولاً الى ما كتبهُ مونتسكيو وبلاكستون في هذا الصدد وكيف اعتبر الدستور الانكليزي احسن مثال لفصل السلطات في وقتها . ثم بيّن ان هذا المبدأ اخذ يضعف بنموّ مبدإ المسؤولية الوزارية . ولذلك خالف « باجهو » الفيلسوف منتسكيو في نظرية فصل السلطات وقال ان آثارها ضعيفة في الدستور البريطاني الآن

خذ مثلاً استقلال القضاء عن السلطة التنفيذية . فقد اثبت ذلك سنة ١٧٠١ بقانون . ومبدأ استقلال القضاء معمول بهِ من ذلك التاريخ ولكن قانون سنة ١٧٠١ قانون عادي ويملك البرلمان تغييرهُ كما يملك اقالة اي قاضٍ من القضاة ولو انهُ لم يستعمل هذا الحق الى الآن . بل للبرلمان ان يصدر قوانين مخالفة لاحكام المحاكم . ثم ان مجلس اللوردات وهو جزء من السلطة التشريعية ، هو كذلك السلطة القضائية العليا في البلاد . ورئيس مجلس اللوردات هو رئيس الهيئة القضائية اي وزير الحقانية فهو اذن احد اعضاء الهيئة التنفيذية . او خذ موضوع صلة السلطة التنفيذية بالسلطة التشريعية . فقد اتجهت سياسة البرلمان الانجليزي في السنين الاخيرة ، نظراً الى كثرة اعماله وتشعبها وتعقدها ، الى تحويل جانبٍ من سلطتهِ التشريعية الى الوزارة وهو ما يسميه الانكليز « السلطة بالوكالة » Delegated Powers ثم بيّن المؤلف بعضاً من نواحي هذا التحويل وما يوجه اليه من النقد . ثم ذكر كيف اعطيت السلطة التنفيذية بعض السلطة القضائية مثل حق مصلحة الجمارك النظر في القضايا الخاصة بالتهريب . وهذه جميعها حقائق قد تربك القارىء وتشوّش ذهنه ولكن اسمع تعليق حافظ باشا عليها ، وتأمّل فيهِ تخرج من تشويش هذه الحقائق اتساقاً ييسّر لك الفهم : قال

«لهذه الاسباب يرى ان السلطات في بريطانيا ليست منفصلة انفصالاً تامًّا في الوقت الحاضر ، ولكنه ينبغي الالتفات الى ان ذلك الامتزاج التدريجي انما حصل تحت ضغط الحوادث القاهرة . لا رغبة في العدول عن مبدإ فصل السلطات . والواقع انهُ لم يحصل الى الآن في انكلترا طغيان من سلطة على اخرى مع ان الباب مفتوح على مصراعيه لاعتداء كل سلطة على حقوق الاخرى ، ويرجع

هذا من جهة الى تلك الفضيلة البارزة في اخلاق الانكليز السياسية وهي الشعور بالواجب واحترام حقوق الغير . ومن جهة اخرى الى استعداد رأي عام متيقظ لوضع الامور في نصابها . وقد كان من نتائج هذه المرونة في اساليب الانجليز السياسية ان زاد التعاون بين السلطات المختلفة وقلّت الشكوى من تعطيل المشروعات وتراكمها أمام مجلس العموم ومجلس اللوردات ، كما هو حاصل في جميع البلاد الدستورية الاخرى ، بعد ان صار لمجلس العموم الحق في ان يكل الى الوزارة تحت اشرافه عمل تشريع لاية مسألة فنية او مستعجلة . وان استمرار البريطانيين على احترام هذه التقاليد الدستورية قد جعل من هذا الدستور العتيق آلة ديمقراطية على احدث طراز لانها دائمة الاصلاح تتحرك باستمرار بدقة وانتظام فلم تقف عن العمل في اي دور من ادوار حياتها »

وحبذا الحال لو اتسعت هذه الصفحات لبيان حسنات هذا الكتاب النفيس في ما تناوله من شؤون الصحافة والتعليم والاعمال من وجوهها المختلفة . ولكننا سقنا ما تقدم مثالاً ناهضاً على ما حفلت به صفحاته من الدراسات التاريخية والسياسية والاجتماعية التي نرى ان لا مندحة لنا عن فهمها وتمثلها، نحن الشرقيين، وقد اخذنا نتطلع الى النظم الديمقراطية الصحيحة لنبني على قواعدها حياتنا القومية الجديدة . وكتاب حافظ باشا في هذا الصدد دليل هادٍ

اسرار الطفولة وخفايا الشباب

تأليف ميلاد كدواني — طبع بمطبعة المجلة الجديدة — ثمنه ٨ قروش
يطلب من المكاتب ومن المؤلف بالجامعة الاميركية بالقاهرة

نشرنا في باب مملكة المرأة جانباً من فصل نفيس احتوى عليه هذا الكتاب المفيد . ولعل افضل كلمة نقدمهُ بها للوالدين والمدرسين ما قاله الدكتور امير بقطر في مقدمته :— خيل اليَّ وأنا اتصفح هذا السفر الصغير انني التمس جوهر الحقيقة في دياجير اغواره كحجر الماس لا يلتقط الاَّ في ظلمات المناجم . وهل في هذا ما يدعو الى الغرابة ? اليست الطفولة جبارة عتية ? اوليست الشبيبة متضاربة النواحي ، متشعبة المعارج ? وكيف يتسنى لامرىءٍ ، درس الطبيعة الانسانية واختراق حجب اسرارها بغير ان تقطع عليهِ وعورتها السبيل ?. . . ان الموضوعات التي طرقها المؤلف في هذا السفر الصغير ان هي الاَّ نظرة عجلى القاها على الطبيعة البشرية ، وليست الاَّ جولات صغيرة في ميدان الطفولة ، والشبيبة . . . . فهي ترغب من له اتصال بجماعات الاطفال والشبان في التعمق في مثل هذه الابحاث ، واستيعاب بعض ما وصلت اليهِ الجهود العلمية من احدث النتائج وتطبيقها تطبيقاً علميًّا محمود العاقبة يتفق وطبيعة الافراد ، واختلاف نزعاتهم وميولهم . . . . »

ومن الموضوعات التي طرقها المؤلف عارضاً آراء علماء النفس فيها . الغيرة والبكاء واغلاط الاطفال والخوف والتأديب واختلاط الجنسين وغير ذلك من الموضوعات التي تهمُّ جميع المربين سواءٌ الوالدين منهم والمعلمين

تاريخ الصحافة العراقية

معجم مفصل لجميع الصحف والمجلات والنشرات الدورية التي صدرت في العراق منذ عهد مدحت باشا حتى أواخر سنة ١٩٣٣ . عني بتأليفه الاستاذ السيد عبد الرزاق الحسني ، صاحب المؤلفات والمباحث المعروفة في شؤون العراق .. وكتب مقدمته الاستاذ الفيكونت فيليب طرازي مؤلف كتاب « تاريخ الصحافة العربية » ووصف الكتاب ومؤلفه في هذه المقدمة فقال :

«اما الكتاب الذي نحن بصدده فهو خليق بالثناء من وجوه شتى ، لانهُ جمع بين دفتيهِ خلاصة اخبار « صاحبة الجلالة العراقية » بدقة وافرة . وتضمن على صغر حجمه عناوين جميع الصحف التي ابصرت النور في تلك المملكة الفتاة مع اسماء منشئيها ومكان طبعها وتواريخ صدورها »

وافتتح المؤلف كتابه ببيان ما لقيه من عقبات في سبيل بحثه لقلة المراجع واهمال الحكومة واصحاب المطابع تدوين اسماء المطبوعات الدورية

ويؤخذ مما اوردهُ في مقدمته انه لم يكن في العراق قبل اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ غير ثلاث صحف كانت تنشرها الحكومة باللغتين التركية والعربية مرة في الاسبوع في كل من مراكز الولايات الثلاث : بغداد ، والبصرة ، والموصل

فلما اعلن الدستور ، انتعشت الافكار وانتشرت الصحافة في الامبراطورية العثمانية انتشاراً عظيماً فكان العراق احد الاقطار التي شم شذاها واقبل عليها اقبالاً كبيراً . فصدرت فيهِ خلال ثلاث سنوات زهاء سبعين جريدة بين سياسية وادبية وهزلية

ثم ضيَّق الاتحاديون الخناق على الكاتبين والمحررين والمفكرين فقلَّ عدد الجرائد والمجلات العراقية

ولما استولى الانكليز على العراق اخذوا ينشرون في البلاد بعض الصحف التي تروج مباديهم وتحسن للناس سياستهم . فاصدروا جرائد : الاوقات العراقية ، والاوقات البصرية في البصرة ، العرب ودار السلام في بغداد والموصل والنادي العلمي في الموصل ونجمه في كركوك وسليماني وبيشكوتن في السلمانية الخ الخ

وبلغ عدد المجلات التي صدرت في العراق قبل الحرب العامة ٢٠ مجلة والمجلات التي صدرت بعد الحرب العامة الى نهاية سنة ١٩٣٣ — ٤٨ مجلة والصحف التي صدرت بعد الحرب وفي اثنائها ٦٩ جريدة بين ادبية وسياسية

والصحف التي صدرت بعد الحرب ١٤٤ منها ٦٠ جريدة اسبوعية و٨٤ ادبية . والكتاب على ما فيهِ من اجمال وابتعاد عن التفصيل لتاريخ الصحافة العراقية والمشتغلين بها والقوانين التي سنت للصحف في الوزارات المختلفة ، يعد وثيقة لها قيمتها عند من يعنون بتاريخ الادب الحاضر والصحافة العربية في انحاء العالم . وثمن النسخة من هذا الكتاب ٥٠ فلساً . ويطلب من مؤلفه ومن ادارة مجلة الاعتدال في النجف الاشرف

توفيق حبيب

بحث في الطائفة الاسلامية في فنلندا

بقلم الدكتور بشر فارس

نشر الدكتور بشر فارس في مجلة البحوث الاسلامية الفرنسية بحثاً جليلاً طريفاً عن الجماعة الاسلامية في فنلندا لم يطرقه باحث عربي من قبل لذلك رأت المجلة الفرنسية الكبرى نشر هذا البحث على حدة بعد نشره في صلبها فأصدرته بشكل كراسة هي التي نعالجها الآن

يبدأ الدكتور بشر فارس بحثه بذكر تاريخ هجرة المسلمين الى فنلندا فيقرر ان اصلهم من الاتراك والتتر غادروا روسيا على أثر الثورة البولشفية وهاجروا الى الشمال فأقاموا في فنلندا وكانوا قبلاً يعرفون هذه البلاد لاتصالهم التجاري بها

ويحصي الباحث عدد هؤلاء المسلمين الذين يبلغون ٦٤٨ اي نحو من ١٠٠ عائلة موزعة في سبع عشرة مدينة وقد اعترف مجلس الشورى بتاريخ ٢٤ ابريل ١٩٢٥ بالطائفة الاسلامية رسميًّا . وتخضع الطائفة الاسلامية للشريعة القرآنية الكريمة في الاحوال الشخصية فالزواج مثلاً يعقده الامام والوفيات تسجل في دفاتره وما زال هؤلاء يعملون بالعادات الاسلامية كدفع المهر في الزواج ولوحظ ان بعضهم قد يتزوج من نصرانية ولكن بنيهم يقيدون في دفتر المسلمين . ويدرس صغار المسلمين في فنلندا القرآن الشريف باللغة العربية ويطالعون تاريخ الاسلام وتاريخ تركيا على الاخص باللغة التركية. اما اللغة العربية فلا يحسنون منها الاّ المبادىء الاولى والاّ التجويد . ولهم مدارس في القرى ويقيم ادباؤهم المحاضرات بين حين وحين . وهم متثقفون بالثقافة التركية وملتفتون نحو انقرة يعيّدون عيد استقلال تركيا ويعلقون رسم الغازي في منازلهم

وفي فنلندا ثلاثة مساجد وحيث لا مسجد لهم يجتمع المؤمنون في دار احدهم للصلاة يوم الجمعة وليس في فنلندا سوى امام واحد مأجور من المسلمين وحيث لا امام يتولى الصلاة اعرفهم باصول الدين ويقيمون الاعياد الدينية ويوزع الاغنياء العطايا والحسنات على الفقراء . والصيام عندهم غير اجباري في ايام يونيو ويوليو الطويلة ولكن يصوم من يريد في شهر آخر

وقلما حج مسلمو فنلندا الاّ واحد منهم . وتنعم المسلمة في فنلندا بالحرية نظير اختها الفنلندية ولكنها لا تراقص مثلاً فنلنديًّا وقد قال لي واحد : ان هذا الامر لن يطول

بمثل هذه التفاصيل القيمة يشرح الدكتور بشر احوال هذه الجماعة التي اكتشف مقرها وأبان ظروفها وموقفها الرسمي ازاء الحكومة وقليلون الذين كانوا يعلمون ما كتبه الدكتور عنها . وفي الكراسة رسوم وصور الاسر الاسلامية ومدارس المسلمين وانديتهم الرياضية والاجتماعية

ويزيد هذا البحث فضلاً ان صاحبه زار فنلندا بنفسه وخالط هذه الجماعة الكريمة ونزل بينها اياماً يبحث ويدقق ويتفهم ولا شك ان كشف الدكتور هذه « المستعمرة الاسلامية » في اطراف

اوربا عمل جليل يستحق من اجله كل الشكر لانه سهل للمؤرخين الذين يعنون بشؤون الاسلام مهامهم ووضع بين ايديهم وثيقة جديدة مكتوبة بصدق وامانة وعلم . وعلى ذكر ذلك نقول ان مجلة البحوث الاسلامية التي عنيت بنشر بحث الدكتور بشر فيها ثم بنشره على حدة هي لسان حال المستشرقين الفرنسيين يديرها حضرة المستشرق الكبير الاستاذ ماسيفيون

قصص للاطفال

١ — قصص جغرافية — لكامل كيلاني — تولت طبعها ونشرها المكتبة المصرية بمصر
٢ — قصص علمية — لكامل كيلاني —

الحمد لله اننا بدأنا نلمس أثر الجهود التي بذلها روّاد مطالعات الأطفال في ما تنشره المطابع العربية الآن من قصص منوعة الموضوعات والاشكال غرضها ان تبعث النشوة والسرور في نفوس الصغار وتحبب اليهم المطالعة العربية : ولا تزال كتب كامل كيلاني — وقد كان سباقاً في هذا الميدان — من خيرة ما تخرجه المطابع للاطفال ، شكلاً وموضوعاً واسلوباً ، وقد سبق لنا أن اشرنا الى بعض ما صدر منها في حينهِ . وأمامنا الآن قصص جغرافية للأطفال وفيها قصة رحلة لفنجستون الى قلب افريقيا . ومن حسنات المؤلف في هذه القصة ، انهُ عمد ، وقد تقدّم الأطفال الذين طالعوا قصصه السابقة في المعرفة والفهم ، الى تقطيع حديث الرحلة الأخاذ بفصول تفسيرية بديعة تناول فيها بعض الحقائق الجغرافية والتاريخية والأدبية المقترنة بالأنهر والجبال والغابات والشلالات وغيرها مما ورد ذكره في خلال القصة . وهو اسلوب مفيد اذا احسن المربي استعماله

أما كتاب القصص العلمية فيتناول فيهِ المؤلف حقائق معروفة ومشهورة ، وهي مع ذلك لا تخلو من غرابة، في التاريخ الطبيعي من حياة الحيوان والنبات في اسلوب قصصي . وفي آخر هذا الكتاب معجم لغوي للالفاظ العربية الصحيحة الخاصة بنسل الحيوانات المختلفة واجناسها ، وفصل وقفهُ على حياة النحل ويليه الالفاظ العربية الخاصة بالنحل ثم هناك معجم آخر لاعلام الحيوان ، وهذه المعاجم مما يكفي المربي مؤونة التفتيش في المطوّلات ساعات طويلة احياناً رغبة في العثور على كلمة واحدة

ومما لا ريب فيهِ ان لمؤلف هذه القصص فضلاً كبيراً على تنشئة الاطفال المتكلمين اللغة العربية ولذلك سرّنا صدور كتيب في ٩٥ صفحة يحتوي على ما قيل في حفلة تكريمه وعلى مختارات مما نشرته الصحف والمجلات الكبيرة في وصف مؤلفاته . ولكننا والحق يقال لم نستحسن عنوان « نقيب الادباء ومنشىء الجيل» . وليس شعورنا هذا مصبوباً على هذا العنوان بحد ذاته ولكنهُ يتناول كل ما كان من قبيله من اسباغ الالقاب العامة على المؤلفين والكتّاب بحيث اذا مضينا في ذلك سنة اخرى او سنتين ، اصبحنا وكل كاتب او اديب اميراً او نقيباً او ما الى ذلك من الالقاب التي لكثرتها قد تضيع معناها ومغزاها فتختلط الاحكام وتضطرب المقاييس

شعر ابي شادي الجديد

١ — فوق العباب
٢ — الكائن الثاني

اذا تثقف عقل الشاعر من دون أن تطغى الثقافة على الشعور الدقيق والحسّ المرهف ، جلا لنا من عجائب الكون والحياة صوراً تغذي العقل وتهزّ النفس معاً . وهذا شأن ابي شادي ، في الغالب في ديوانيهِ الاخيرين . فالشاعر فيهما لم يكتف بترديد المعاني المطروقة في الغزل والنسيب وغيرهما من أغراض الشعر ، ولكنهُ ارسل القوافي تبحث عن الجمال الاعلى في عجائب الحياة ورحاب الكون متأثراً بالنظرات العلمية الحديثة ، حتى لترى بين قصائد السفرين موضوعات تحسبها عنوانات لكتاب علميّ . ولكن أبا شادي لم يكتف — وأي شاعر يكتفي — بسرد الحقائق العجيبة التي كشف عنها العلم او انطوت عليها النظريات العلمية الحديثة ، بل دمج ذلك في الاعراب عما تركتهُ تلك المعاني في نفسهِ الشاعرة من الاحساس بالجمال والعظمة والتصوف ومعاني الانسانية السامية ، ولعلَّ قصيدة « الأشعة الكونية » التي تفضل فأهداها الى رئيس تحرير هذه المجلة بعيد صدور كتابهِ «فتوحات العلم الحديث» من أبلغ الامثلة على ما ذكرنا . فقد أشار الى نظرية مليكِن في تولد هذه الاشعة بقولهِ

امن الهواء اتيت منح عناصرٍ تُبنى فكنت لها شهود عيانِ
ام من فناء الايدرجين تحوّلاً فيعود في النترون ذاك الباني

ولكن هذا التقرير لا يكفي الشاعر فيقول

من أين مصدرك الكريم الباني يا مأمل الأحياء والانسانِ
من نفخ خلاق الحياة فروحهُ روح الحياة وشعلة الايمانِ
ليست رحاب الكون غير رحابهِ والكون غير فتونهِ الفنانِ
جعل التفجر مبدأً لفنونهِ كتفجر الأطياف بالألوانِ
فاذا انبثاق الكون يوم اول (١) واذا المجرّة منهُ يوم ثانِ
واذا نظام الشمس يوم ثالث خلقتهُ صدفة ساحرٍ فتّانِ (٢)
واذا الحياة قصيدة علوية من هذه الأيام والأوزانِ

ومن هذا القبيل قصيدتاه في بلوطو (السيار التاسع الجديد) وما وراء المجرّة فقال في الثانية عن السدم التي خارج المجرّة

عوالم لا تحصى ولا هي تعرف ويا ربما المجهول منها المعرَّفُ

(١) هنا الاشارة الى رأي ليمتر ودِه ستر وغيرهما في تفجر الكون وتمدده (٢) الاشارة الى اقتراب شمس من شمسنا فاحدثت فيها مدّاً وان بعد احتمال اقتراب مثل هذا يجعل ما حدث من قبيل الاتفاق او الصدفة

تناهت تناهت في الفضاء الى مدًى يقصر عنهُ العالِم المتلهِّفُ
فما قنصتها بؤرة[١] العلم مرةً وان لم يفتها الشاعر المتصوِّف
رأى من وراء الكون آيات غيره بخطّ من النور الالهي يخطف الخ

ثم قال

تشتت هذا الكون حتى فضاؤه ومن خلفهِ عقل دقيق ومنصف
كأن رحاب الكون وجدان شاعر فكلّ فضاءٍ فيهِ حيٌّ مثقَّفُ
وفيها «كونتات»[٢] الحياة أجنةً وفيها من الذرّات ما لا يؤلَّف
ولكنما للشعر من لبناتها عوالم باللحن السماويّ تعزف

ولم يقصر الشاعر عنايته بهذه الموضوعات على الطبيعة والفلك الحديث بل تناول نواحي فتانة من التاريخ الطبيعي لايتسع هـذا الباب لدراستها جميعاً دراسة وافية . ومع ان الاندماج بين تقرير الحقائق العلمية والتعبير عن الشعور الذي توحي بهِ الى النفس لم يبلغ بعد ذروتهُ في هـذا الضرب من شعر ابي شادي ، الاّ ان الظاهرة في الشعر العربي جديدة تستوقف النظر فيسرنا أن نسجّلها

نشأة الدولة الاسلامية

تأليف أمين سعيد . مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاهُ . سنة ١٩٣٥

التاريخ الاسلامي كله لا يزال مادةً مبعثرةً منثرة ما بين كتب التاريخ التي ألفها سلفنا الامناء على الرواية في غير تبديل ولا تحريف وبين كتب الحديث والادب والشعر والمحاضرة وكتب الفقهِ الاولى كالامّ للشافعي وكتب الرجال الكثيرة . هذا على ان اكثر كتب التاريخ العربي لم تطبع بعد ككتاب التاريخ الكبير للمسعودي صاحب مروج الذهب وهو اكبر من تاريخ الطبري بكثير وفيه تفصيل الحوادث الكبرى في تاريخ الاسلام ثم ان كثيراً من امهات الكتب العربية قد ضاع كله او بعضه ككتاب أنساب الاشراف للبلاذري وغيره

أجملنا هذا لتعلم قدر ما يقاسيه طالب التاريخ وكاتبه من المشقة في تأليف مادة الحوادث التي يريد ان يجمعها ثم ينقدها ثم يؤلف بينها ثم يصل بين بعضها وبعض حتى يستوي له الوجه الذي يكتب عليه اعظم تاريخ واحفله وأروعه . ولا تنسَ ان مؤرخي العرب قد خفي عليهم ان يكتبوا كتباً مفردة في الاجتماع العربي والاسلامي من اول عهده الى عهودهم فعلى الكاتب ان يتتبع ذلك في كل كلمة وحادثة من كتب اللغة الى كتب الفقه الى كتب التاريخ وغير ذلك حتى يكتب التاريخ كما يجب لا كما يتخيَّل

ونحن احوج الامم في هذا العصر الى الكتّاب الذين يتولون نشر الكتب في تاريخنا الاسلاميّ

---

(١) أي عدسة النظارة المقربة (٢) مقادير الطاقة بحسب نظرية بلانك

العربي ، فان كل كاتب يؤلف من المادة التي تجتمع له كتاباً مهذباً يؤدي الى كل من يأتي بعده يداً واحساناً ، ويمهد له سبيلاً مهما اختلفت الآراء وتباعدت المذاهب بل ربما كان هذا الاختلاف هو مهد الحقيقة الثابتة فيه تنمو وتمتدُّ حتى تتكامل على الصورة البينة التي لا لبسَ فيها ولا ابهام

وهذا الكتاب الذي ألفه الاستاذ امين سعيد هو من طلائع المؤلفات الجيدة في التاريخ الاسلامي فقد رتبه فأحسن ترتيبه واستخلص من امهات كتب التاريخ مادته كما انتقاها واختارها وجرى فيه على مدًى غير مضطرب يصل اول الامر بآخره على نسق واحد متجنباً ذكر اختلاف الرواة لئلا يشق بذلك على القراء الذين يريدون ان يتعرفوا الى التاريخ الاسلامي كما تعرفوا الى غيره من التواريخ في غير اضطراب ولا مشقة

***

بدأ المؤلف تاريخه كما يجب ان يُبدأ بمختصر وافر لسيرة رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وغزواتهِ وبعوثهِ وما أحدثتهُ الدعوة الاسلامية في نفوس الامة العربية . ولم يخلُ هذا الباب في السيرة النبوية من رأي صائب قد تفرد بهِ الاستاذ وأضافهُ الى الحقائق التي تعتمد فيما بعدُ في كتابة تاريخ مفصل لهذا العهد الاول وهو عهد الرسالة

ثم انتقل من ذلك العهد بفصل جيد ذكر فيه تأثير وفاة الرسول صلى الله عليهِ وسلم في جزيرة العرب حتى كان اختيار أبي بكر الصديق رضي الله عنه للخلافة ، وهنا بدأت الطامة الكبرى التي كادت تودي بالمسلمين ألا وهي حرب الردة لولا حزم ابي بكر وعمرٍ وائمة الصحابة رضوان الله عليهم . وقد استوفى المؤلف الكلام على حرب الردة وبين وقائعها واحدةً واحدةً وبخاصة ما اتى بهِ خالد بن الوليد من دقة التدبير الحربي الذي أهله فيما بعد ليفتح العراق ثم الشام . وبعد ان فرغ من حرب الردة أزمع أبو بكر رضي الله عنهُ ان يفتح العراق فأرسل جيشه . وهنا يبدأ جزء مهم من الكتاب هو فتح العراق وفارس استقصى فيه المؤلف ما وصل اليه من علاقة العرب بالفرس في ايجاز جميل يوضح تاريخ هذا العهد بعض التوضيح . وقد كان قطب هذا الفتح القائد العربي النابغة (خالد بن الوليد) الذي مهد للمسلمين اسباب النبوغ الحربي ، وكان كما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم (سيفاً من سيوف الله) وقد أحسن المؤلف في افراده ترجمة موجزةً لخالد في هذا الموضع من الكتاب فان خالداً بعد ان استقرَّ به القرار وانذر كسرى فارس بالهجوم في موقعة فاصلة انتقل الى حرب الشام بجزء من جيشه بعد ان استخلف على بقية جيش العراق وذلك في خلافة عمر ابن الخطاب امير المؤمنين رضي الله عنه . وعلى هذا النسق يستمر الاستاذ امين في عرض تاريخ الاسلام عرضاً صحيحاً حتى آخر عهد عمر وقد كان عهده عهد الفتح الاكبر في دولة الخلفاء الراشدين

وننبه القارىء الى فصل جيد في آخر الكتاب فيه تلخيص أمهات المسائل التي تعرض لها المؤلف وتعليقٌ عليها « يساعد ايرادهُ على فهم كثير من حقائق التاريخ ويميط اللثام عن بعض خفاياهُ »

الادب العربي في آثار اعلامه

تأليف الاساتذة «فؤاد أفرام البستاني» و «واصف بارودي» و «خليل تقي الدين»

هــذا كتاب ألفه الاساتذة بعد تدبر وتمحيص لخير الطرق المؤدية الى تثقيف الطالب العربي وتعريفه بأدب امته ، وقد وضع وفقاً لمنهاج البكالوريا اللبنانية فيه نصوص من الادب منتخبة للجاهلية وصدر الاسلام اي آخر دولة بني امية ، وقد اختاروا في القسم الاول منهُ قصائد لامرىء القيس والنابغة وطرفة وزهير وعنترة ومن حسن الصنيع انهم اختاروا لهؤلاء الشعراء قصائدهم تامة الاَّ ما كان لامرىء القيس من الفجور في القول ، ثم اختاروا بعد ذلك قصائد في عصر صدر الاسلام للاخطل والفرزدق وجرير وعمر بن أبي ربيعة من الشعراء وقد قسّموا ما اختاروه لكلّ شاعر على الابواب المعروفة من المدائح والاوصاف والهجاء ثم اختاروا من النثر في هذا العصر بعض خطب الحجاج ورسائل عبد الحميد الكاتب

ولقد احسن الاساتذة كل الاحسان في اختيار هذه الطريقة لتدريس الادب العربيّ في مدارسهم فان الشاعر من الشعراء لا يجدي في معرفتهِ بيتٌ او بيتان وانما يعرف الشاعرُ حين تقرؤ قصائده بأكملها على وجهها مشروحة مفصلة فحين ذاك يرجى ان يقدر الشاعر ويفهم شعره ثم يرجى ان تستقيم فطرة الطالب على السليقة العربية في التعبير الدقيق عن الاغراض التي يتناولها حين يكتب او ينظم

من حيّ الى ميت

بقلم توفيق حسن نادر الشرتوني ، طبع بمطبعة المعرض ببيروت ، ١٤٦ صفحة من قطع المقتطف

هذا الكتاب ، احساسات نفسية وخواطر وتأملات في الحياة والموت ، في الدنيا والآخرة ، جاشت بنفس مؤلفه على اثر صدمة عنيفة هي مصابه بفقد اخيه طانيوس حسن نادر الشرتوني فأرسلها قطعاً من الشعر المنثور في اسلوب رقيق يلونه الاسى بلون من التأمل والتفكير ، وتسكب عليه لوعة المؤلف ووفاؤه لاخيه حناناً وهدوءاً يشعر بهما من يطالع هذه الرسائل كقوله: «يا اخي! يخيل اليّ ان الانفس سواء أكانت محرّرة من المادة او مقيّدة بها تعمل على الدوام مجدّة وراء رقيها وكالها تعثر تارة وتنهض احياناً ولا تنفك متجهة نحو غايتها ، وما غايتها سوى رجوعها الى اصلها لانها فرع وكل فرع يعود الى اصله . فكما يحمل السحاب مياه البحر ويقذفها فوق الجبال والسهول والاودية ثم تعود المياه بحكم طبيعتها الى البحر ، هكذا الى مصدر الروح ترجع الروح ، والى منبع الحياة ترجع الحياة . اني امثل النفس كالكهرباء تشتغل مقيدة وبلا قيد . وكالرائحة العطرية تعمل في الفضاء وفي قلب الزهرة على السواء . فكما ان الارض لا تهدأ دورتها والكهارب لا تقف حركتها ، هكذا الانفس لا يبطل عملها ، ومجال الحياة العمل»

مفتاح العقول

انشأه وجمعه واختصر اغلانه — نجيب نجم كرم — طبع في بيروت وثمنه ١٠ غروش سورية

حوى هذا الكتاب طائفة مختارة من حقائق العلوم والتاريخ والاجتماع واقوال وحكم مأثورة مفرغة في قالب شذور طريفة يسهل تناولها على طالب العلم الناشئ، فتحبب اليه المطالعة من جهة وتوسع نطاق معارفه من جهة اخرى . والشذرة من هذه الشذور لا تتعدَّى في الغالب عشرة اسطر ولكن كل كلمة في كل سطر منها لازمة لاستيفاء المعنى . فهي مثال على وضوح الفكر المقصود والايجاز في التعبير عنهُ . فتحنا الكتاب اتفاقاً عند الصفحة العاشرة فقرأنا ما يلي بعنوان «الكوبلت» :— الكوبلت معدن ابيض يضرب الى الحمرة سريع الانقصاف يقبل التطرُّق والصقل لا يصهر الاَّ بحرارة شديدة جدًّا ولا تفعل بهِ الحوامض الخفيفة الاَّ قليلاً ويذوب في الحامض النتريك بسرعة ولهُ مركبات كثيرة تستعمل في الصناعات لاجل التلوين واكثر ما يوجد في الطبيعة مختلطاً بالنكل الآتي ذكره وبالكبريت والزرنيخ . وفتحناه عند الصفحة ١٥ فوجدنا نبذة عن أعظم عظماء العالم كما اختارهم احد الكتَّاب وهم ارسطو في الفلسفة وارخميدس في العلم ونيوتن في الرياضيات وميخائيل انجلو في التصوير والنقش وبيتوفن في الموسيقى ودانتي وشكسبير في الشعر ثم بضعة سطور عن كل منهم تشمل اهم ما عرف عنهم . فالكتاب من أصلح كتب المختارات التي اطلعنا عليها لمطالعة تلاميذ المدارس

مجلة اوريان — باريس

اصدر حضرة الصحفي البارع توفيق وهبه مراسل المقطم في باريس مجلة باللغة الفرنسية سمَّاها اوريان باريس وقفها لخدمة الشرق في اوربا واظهار فضائله ونشر ثقافته وتعميم انباء حضارتهِ القديمة ونهضته الحديثة . ويعاونهُ في تحريرها نخبة من كتاب الغرب الذين وقفوا على روح الشرق ونفذوا الى صميمه في دراساتهم عنه خلافاً لاولئك الكتاب الذين المُّوا به الماماً فجاءت احكامهم مغلوطة خاطئة . ومن محرري هذه المجلة الراقية المطبوعة طبعاً جميلاً بعض وزراء فرنسا ونوابها وشيوخها مما جعل لها مكانة عالية في الاوساط السياسية والادبية

ويروقك فيها تنوع موضوعاتها ودقة بحوثها كما يستفزك منها حسن دفاعها عن الشرق وبلاؤها عن العرب وتمجيدها لحضارتهم السالفة وتنبيهها الغربيين لوجوب معاملة الشرقيين معاملة حسنة تضمن حسن التفاهم بين الجانبين . ومن موضوعاتها الاخيرة . وزارة نسيم باشا والسياسة المصرية . المرأة المسلمة وكتاب الغرب . الوفد المصري . تاريخ الصحافة المصرية . الحروف العبرانية . لمحة من تاريخ جامع باريس . الفن المصري في فرنسا . الكتب العربية . الشرق قديماً وحاضراً . ابن السعود والوهابية الخ . والخلاصة ان هذه المجلة رمز الذوق الصحفي والاطلاع العام والاندفاع المحمود والوطنية الصادقة الحكيمة

باب الأخبار العلمية

انباء زراعية مفيدة

[نقلها عوض جندي]

﴿ آفة الصدإ ﴾ تنتاب الحبوب طائفة من النباتات الطفيلية الدقيقة ، من فصيلة الفطريات فتحدث في محصولاتها عجزاً كبيراً . وأخص الحبوب التي تصاب بها ، القمح والزمير والشعير وقد ينجم عنها أيضاً آفات شديدة في الجويدار والفول والبرسيم والذرة المصرية والذرة العويجة «الدخن» وبعض الثمار ذات العجم « النوى » وتسطو على الخشب عند قطعه من الغاب فتحدث فيه تلفاً شديداً

ولا مراء في القول ان آفتي الصدإ والخميرة قد عمتا العالم بأسره . وهما تتولدان من جراثيم على هيئة أجسام ترابية دقيقة جداً لا تراها العيون المجردة ، وانما يتاح للمرء رؤيتها بالمجهر . وتتغذى جراثيم صدإ القمح ، في اطوارها المختلفة بصنفين من النبات يسميهما علماء النبات بالنباتات الآوية للجراثيم . ومنها الحنطة والبرباريس

ولو فحصت ورقة من اوراق البرباريس لوجدت جانبها السفلي يكنُّ جماعة من جراثيم برتقالية اللون ، تختفي في شقوق صغيرة يسميها علماء النبات كؤوس العناقيد . ولما كانت تلك الجراثيم أخف من ذرات العثير ، فتستطيع الريح نقلها ، شذر مذر الى مواضع نائية حيث تسقط على سيقان القمح وهي غضة فتستكنّ هناك بين الخلايا الحية وتشرع في التفريخ فتنتج جماعات خيطية الشكل تعرف باسم جراثيم الفطر وهي تشبه البذور . ومتى احتلت تلك الجراثيم سيقان الحنطة واتخذتها مراعي خصبة لها ، رأيت هاتيك الخويطات (الديدان الثعبانية) تترعرع بينما نبات القمح النافع يقف نموه الطبيعي ويذوى . ثم يظهر محصول الجراثيم الصيفي ، قبيل زمن الحصاد كأنهُ خطوط أو نقط صدإ . وذلك على اوراق القمح عادة ، وقد تظهر على سوقه أيضاً . وهذا هو المرض النباتي المعروف باسم الصدإ الاحمر للقمح . ولما كانت الريح تبثُّ تلك الجراثيم في كل مكان فانها تسقط على ما يصادفها من النباتات المتاخمة لها حيث تأخذ في التفريخ عاجلاً وتتفشى عدواها تفشياً ذريعاً في ابان فصل النمو ، حتى اذا اوشك الصيف على الانتهاء ظهر الصدأ الاسود على سوق القمح كجماعات من جراثيم الشتاء القاتمة اللون

ومتى حلَّ فصل الربيع الثاني ، شرعت تلك الجراثيم في التفريخ فيتولد منها خويطات تنتج جراثيم اكثر عدداً تطيرها الريح الى أوراق

نبات البرباريس وهي مستعدة على الدوام لاستئناف كرّتها القتالة

﴿ آفة الخميرة ﴾ تتولد خميرة القمح والزمير والشعير من تلك التقاوي بجراثيمها عند بذرها فترى تلك الفطريات تسطو على النباتات الصغيرة حالما تنبت على سطح الارض وتتبعها في نموها فتختلس غذاءها فتحول دون قيامها بتكوين بذورها . وحينئذٍ ترى النبات عاجزاً وتأوي اليهِ جماعات كثيرة من جراثيم الخميرة الملوثة التي تعد بالملايين فتتحد بعضها ببعض وتعلق بالحبوب السليمة عند عمليتي درس القمح والتصرف فيهِ وهذا مصدر الضرر الذي يلحق المحصول التالي

اما خميرة الذرة الهندية فيختلف منشؤها عما تقدم وصفه لانها لا تتولد من التقاوي الملوثة بل من الجراثيم نفسها التي تكون قد انقضى عليها فصل الشتاء كامنة اما في باطن التربة واما في السماد التي تسمد بهِ الارض . ومتى حل فصل الربيع انتجت تلك الجراثيم جراثيم اخرى تنشرها الريح في ارجاء الحقول حيث تتخلل النباتات الغضة . وهناك تتكون نوامي كأنها بثور كبيرة يسودُّ لونها شيئاً فشيئاً حتى تتولد « كسرى الخميرة »

﴿ اصناف الخمائر النباتية ﴾ تنقسم الخمائر النباتية الى ثلاثة اقسام وهي : اللينة والخفية والجلية . فاللينة تجعل السنابل الصغيرة مثل كتلة قاتمة اللون تعبث بها الريح فتبعثرها وتترك عيدانها مجردة . اما الخميرة الخفية فتؤثر في السنابل ولكنها تبقيها على سيقانها حتى زمن الحصاد — والخميرة الجلية تؤثر في جنين القمح وهي افتك الآفات التي تعتري القمح لانها قد تتلف نصف محصوله ، وتجعل رائحتهُ كرائحة السمك المنتن . ويعلق خبراء الزراعة آمالاً وطيدة على وقاية المحصولات من آفة الصدإ باستيلاد اصناف جديدة من الحبوب تقوى على مناوأة الفطر

وقد يساعد تناوب المحصولات على علاج التربة المصابة بالصدأ كما ان فرط الازوت او الرطوبة يسهل التعرض للاصابة به . وثبت من التجارب التي جربها العلماء في هذا الموضوع ان بيئة البرباريس ليست من مستلزمات الاصابة بالصدإ على الدوام ولكنها تزيد انتشار الطفيليات

ويرى العارفون ان آفة الخمائر ايسر من آفة الصدأ استئصالاً بالوسائل العلمية الحديثة المستعملة لوقاية المزروعات . وسبب ذلك ان جراثيم الخميرة تتعلق بظواهر الحبوب فتسهل ابادتها بالمواد المطهرة قبل البذر ، وذلك بثلاث وسائل : وهي الماء السخن ، والفورمالدهيد ، وكبريتات النحاس

ثم ان البذر المبكر احتياط مفيد للوقاية من آفتي الخميرة والصدأ

﴿ الطلق يبيد خميرة الشعير ﴾ الطلق هو المادة الاساسية التي تدخل في صناعة الذرور — البودرة . وقد ظهر بالامتحان الذي قام به معهد التجارب الزراعية التابع لحكومة آيوى ان للطلق شأناً عظيماً في ميدان مكافحة الآفات الزراعية كالذي له في ميدان التبرج الصناعي اذ جعلوه قواماً لمسحوق سام مكوَّن من بيكربونات الصودا وكبريتيت الصوديوم وغيرها من المواد الكيميائية



ستنلي بولدوين زعيم المحافظين البريطانيين

Stanley Baldwin



قصر « ايزولا بلا » القائم على جزيرة في بحيرة ماجيوري امام بلدة ستريزا حيث عقد مؤتمر ستريزا في ١١ ابريل الماضي بحضره موسوليني ومكدونلد وفلاندان ولافال والسر جون سيمون



فكتور هوجو في حداثته

Victor Hugo

(١٨٠٢ — ١٨٨٥)



المستر لورنس بنيون

Laurenc eBinyon

وقد صورت في حديقة منزله الريفي بانجلترا



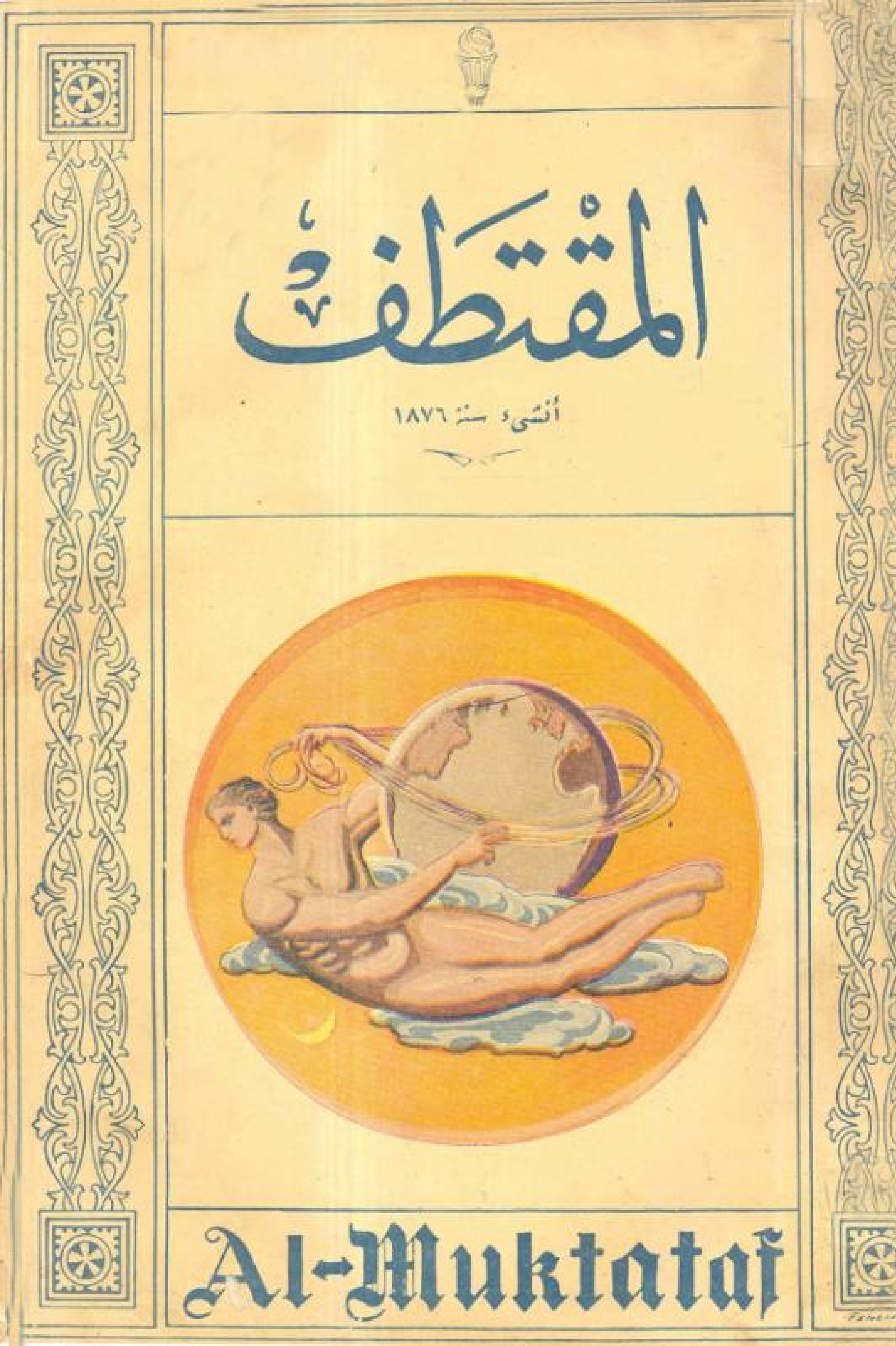
طفل يبتسم للحياة

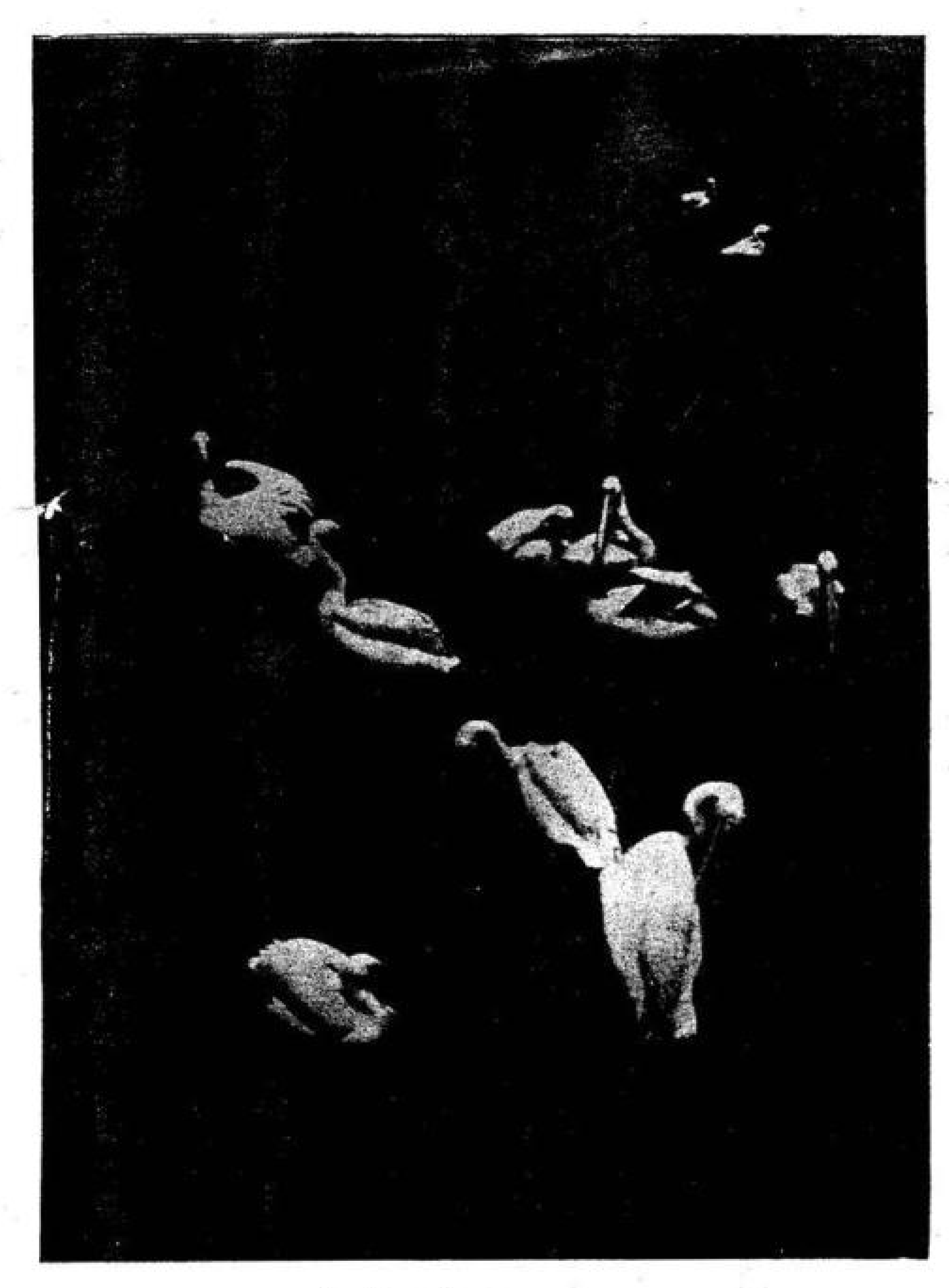


رأس فتاة

(تصوير ايمي نمر)

الجزء الخامس من المجلد السادس والثمانين


المقتطف
أنشئ سنة ١٨٧٦
Al-Muktataf



مشهد بديع في حديقة الحيوانات بالجيزة

تمثل طائر السقاء او بجع مصر

[تصوير الدكتور حسن كمال]

المقتطف
مجلة علمية صناعية زراعية
الجزء الاول من المجلد السابع والثمانين

١ يونيو سنة ١٩٣٥ — ٢٩ صفر سنة ١٣٥٤

اثبات الابوّة

العلم يكاد يحل مشكلة قديمة
كواشف الدم الحديثة ومغزاها

اعترف المشترعون من قديم الزمان بالصعاب التي تحول دون اثبات الابوّة . فجاء في القانون الروماني ان « ان الوالد مشكوك فيهِ دائماً » Pater semper incertus وورد في التلمود انهُ لا يجوز باي حال لرجل ما ان يقسم بانهُ والد طفل معيَّن، وان المرأة فقط لها ان تقسم فتقول « هذا ولدي » من اقدم الوسائل المستعملة لاثبات الابوّة — ومحاكم بعض الامم لا تزال تعتمد عليها الى يومنا هذا — وسيلة اثبات التشابه بين الوالد وولدهِ . وفي اكثر الاحيان يعتمد على التشابه العام في الهيئة والقامة ، ولكن في بعض الحوادث ينظر في تفصيلات هذا التشابه في جميع الملامح . وقد اشار شكسبير في فقرة له اوردها في رواية « حكاية الشتاء » اذ قال « ... نسخة من الأب ، العين والانف والشفة ، لفتة العبوس ، والجبهة ، بل منخفض الذقن والوجنتين ، بسماته وقالب يده وظفره واصبعهِ .... »

في هذه الفقرة وما تقدمها وما تلاها من عبارة شكسبير حاولت بَوْلينا ان تقنع ليونتس ان زوجة هرميونيز كانت امينة على عهده وان الولد الذي رزقت بهِ انما كان ولدهُ ، وهي تشبه ما تنطوي عليهِ مرافعات بعض المحامين في قضايا من هذا القبيل في عصرنا هذا

ويجدر بنا في هذا الصدد ان نذكر ان قضية نظرت في مقاطعة فايت في ولاية بنسلفانيا الاميركية سنة ١٩٣١ ادعي فيها ان رجلاً ايطاليًّا كان والداً غير شرعي لولد امرأة بيضاء ، فلما استعملت كواشف الدم الحديثة ، قطع الدكتور هيز Heise بان ذلك الرجل لا يمكن ان يكون والد الطفل .

ولكن لما كان المحلّفون قد اقتنعوا بما جاء في مرافعة المدعي العام وهو ان الطفل يشبه الرجل المدّعى عليهِ في ملامحهِ ، ادانوا الرجل غير ملتفتين لشهادة الطبيب

من المعروف ان الاقارب يتشابهون في بعض الملامح ، ولكن ليس من المستغرب ان يتبيّن الناس شبهاً ما بين اثنين لا تربطهما صلة دم . ثم انهُ لما كانت الملامح متغيرة ابداً، وخاصة في دور الانتقال من الطفولة الى البلوغ ، فمحاولة الحكم استناداً الى التشابه او عدم التشابه امر لا يصحُّ الاعتماد عليهِ . لذلك لا تسلّم القوانين في بعض الولايات — كولاية نيويورك الاميركية — بعرض الطفل على المحلّفين بقصد اثبات الابوّة او نفيها . وفي رواية « حكاية الشتاء » التي اشرنا اليها في الفقرة السابقة، لم يقتنع ليونتس بخطبة بولينا وما جاء فيها من الادلة على ان ولد هرميونز هو ولدهُ . ومع ذلك نرى محلفين في مطلع العقد الرابع من القرن العشرين يقتنعون بادلة من هذا القبيل — كما حدث في قضية الايطالي المذكورة سابقاً — ولكن القاضي لحسن الحظ كان رجلاً حكيماً ، فلما رأى الحكم مناقضاً للادلة ، اعلن ان المحاكمة لم تستوف جميع الشروط . وكان من شأن الزوجة المدعية على الايطالي، انها لم تطلب محاكمة اخرى، ثم لم تنقض مدة طويلة، حتى اخذت ملامح الطفل في التحوّل. ويبدو عليهِ الآن ، وقد انقضت ثلاث سنوات ، ان ملامحهُ قريبة كلّ القرب من ملامح الزوج

وعلى كل حال من الخير، ان محاكم اليوم في بعض البلدان ، لا تعتمد على هذا النوع من التدليل الى المدى الذي كانت تعتمد عليهِ المحاكم في العصور القديمة . فقد روى المؤرخ استرابون ان الاطفال كانوا اذا بلغوا الشهر الثاني من العمر ، يعرضون على لجنة خاصة للفحص فكانوا اذا لم يبد على ملامحهم شبه كبير بملامح والديهم ، يعدمون

فليس من الغريب ان يعمد الناس في مختلف العصور الى ابتداع وسائل اخرى لاثبات الابوّة وقد كان الاقدمون يسندون الى الدم قوى خفية ، ولا يزال اثر هذه المعتقدات ماثلاً في لغاتنا في هذا العصر .ففي اللغة الانكليزيةعبارة مشهورة مؤداها الدم يكشف الحقيقة blood will tell وغيرها كثير . وللدلالةعلى هذه المعتقدات نذكر الوسائل التالية لتبيين صلة الدم بين فردين او اكثر من الناس منتزعة من كتب صينية ويابانية يرتدُّ عهدها الى القرن الثالث عشر

تؤخذ قطرة من دم كل من الشخصين اللذين يُظَنّ ان بينهما صلة قرابة وثيقة ، بوخز اصبع كل منهما ، ثم توضعان في اناء فيهِ ماءٌ . فاذا كان الشخصان قريبين امتزجت قطرة الدم الواحدة بقطرة الدم الاخرى . فاذا كان الوالد او الوالدة قد مات توضع قطرة الدم على عظمة من عظام الميت فاذا اخترق الدم العظم حتى لا يمكن غسله عنهُ ثبت ان بين صاحب قطرة الدم وصاحب العظم صلة دم وثيقة

اما في بلاد البوسنه فقريب العهد بازواج من الشبان، يأخذ طفله اذا ولد قبل تمام الشهر التاسع ويضعهُ على عتبة الباب فاذا وقع الطفل الى داخل البيت اثبت ذلك في رأي الزوج انهُ ابنهُ لا ريب فيهِ ، واذا وقع الى خارج البيت فهو ليس ابنهُ وينكره

وكثيراً ما يستشهد بحكاية الملك سليمان والطفل الذي ادَّعتهُ امرأتان ، ويقال ان الطريقة التي عمد اليها كانت الهاماً من السماء . ولو ان الملك سليمان فعل الآن ما فعلهُ حينئذٍ لقيل عنهُ انهُ سيكولوجيّ بارع . ومما يحسن ذكرهُ ان الصحف الاميركية اشارت من سنوات الى حادثة يصحّ ان تكون الطبعة الحديثة لقصة الملك سليمان القديمة . فقد جاءت امرأتان الى قاضٍ ، وادعت كل منهما انها والدة طفل معيَّن . فقال القاضي انهُ لما كان لا يملك وسيلة تمكنهُ من معرفة من هي امهُ حقيقة ،فقد قرَّر ان يبعث بهِ الى أحد الملاجىء العامة .فارتاحت احدى المرأتين الى هذا القرار وقالت كذلك ، لانها تفضل ان يبعث بالطفل الى ملجإٍ عام على أن تحوزه المدعية الاخرى . ولكن السيدة الثانية قالت انها تتنازل عن ابنها لخصيمتها لأنهُ يحرم في الملجإ محبة الأم وعنايتها . فحكم القاضي للسيدة الثانية بالطفل

ولكن هناك طريقة اقرب الى المبادىء العلمية قد يمكن الاعتماد عليها أحياناً في اثبات الابوَّة . فقد يكون في أحد الوالدين او في كليهما خواص تشريحية معينة غير سوية تظهر في بعض اولادهما او في جميعهم . ومن أبرز هذه الصفات التشريحية التي تنتقل بالوراثة ما تصاب بهِ الأصابع من تشويهٍ . وللدلالة على دقة انتقال هذه الصفات بالوراثة نثبت هنا خلاصة قضية رفعت سنة ١٩٢٦ . فقد كان الوالد متميزاً بقصر غير سويٍّ في الاصبع الثانية والاصبع الثالثة والاصبع الرابعة في اليدين والقدمين ، سببهُ عدم نموّ العظام الخاصة بها ، وكان ابهاما اليدين سويين . ولكن قاعدة ابهام القدم كانت قصيرة . فلما فحص الطفل وظهرت هذه الصفات التشريحية فيهِ ، حذوك النعل بالنعل ، حكم في القضية بأن الرجل والد الطفل لا ريب فيهِ

ولما كانت بعض هذه الصفات التشريحية غير السوية تنتقل بالوراثة على انها صفات مغلوبة لاغالبة (recessive) فقد تظهر في اولاد والدين يبدو لنا انهما سويّان . وقد ظلَّ الناس يسندون هذه الصفات، حتى عهدٍ قريب، الى بعض ما تراه الامُّ او تحسُّ بهِ في اثناء الحمل .والاعتقاد قديم في ان الحامل اذا شاهدت مشهداً مخيفاً أو قبيحاً يبدو اثر ذلك في طفلها . وقد استعمل الكتّاب والشعراء أمثال شكسبير وغوته ودكنز هذه المعتقدات في كثير من مؤلفاتهم . بل ان آرثر شنتزلر وهو من مؤلفي العصر الحديث ، قصَّ قصة امرأة ولدت طفلاً زنجيّاً على أثر زيارتها ملهى من الملاهي في ڤينا كانت جماعة الممثلين فيهِ من الزنوج . ولما كان زوجها يثق كل الثقة بها ، اقتنع بأن الحادث يفسر بالاعتقاد المتقدم . وعمد الى جمع ما ذكر عنهُ في كتب الادب . ولكن في رواية شكسبير التي عنوانها « تيطس اندونيكوس » تحاول الزوجة تامورا ان تقتل طفلاً اسود ولدتهُ لانها تعلم ان زوجها لا يقتنع بما يقال في تفسير ذلك . وقد روى العالم طمسن Thomsen من عهد قريب حادثة وقعت في بلاد الدنمارك ، خلاصتها ان امرأة ولدت ولداً غير شرعيّ ، كانت اصابعهُ متصفة بصفات تشريحية خاصة تمتاز بها اصابع مخدّمها . فعرضت المسألة على المحكمة فرفضتها ،

وعللت المحكمة ذلك، بقولها ان مشاهدة المرأة الدائمة لتلك الصفة في اصابع مخدّمها أثرت فيها فظهرت في طفلها . وهذا يبين لنا مقدار ما نلقاهُ من الصعوبة في تبديد بعض الأوهام العامة العالقة بالأذهان

***

لم يحلّ العلم حتى الآن مشكلة اثبات الابوّة حلاً تامًّا . ولكن بعض الوسائل الحديثة ، القائمة على حقائق علمية لا تقبل الجدل ، تمكن الباحثين الآن من الحكم حكماً صريحاً في بعض هذه القضايا . وهذه الوسائل وليدة فرع جديد من فروع الطب يعرف بعلم المصول serology

فالدم مؤلف — في حدود موضوعنا — من الكريات الحمر وهي التي تلونهُ بلونهِ الأحمر و«البلاسمة» (يعرف السائل المصفرّ الصافي الذي يبقى بعد تخثر الدم بالمصل serum والمصل بعض البلاسمة) . ففي الكريات الحمر في دم الانسان مادتان تدعى كلٌّ منهما «أغلوتينوجين» [١] احداها توسم بحرف (A) والثانية بحرف (B) . فاذا كانت هاتان المادتان في دم انسان ما قيل انهُ من فريق (AB) فاذا كان دمهُ خالياً منهما قيل انهُ من فريق (O) فاذا كان يحتوي على مادة (A) فقط قيل انهُ من فريق (A) واذا كان يحتوي على مادة (B) قيل انهُ من فريق (B)

وفي مصل الدم مادتان تدعيان «اغلوتينين الفا» و «اغلوتينين بيتا» [٢] . فاذا مزج مصل محتوٍ على مُلبّد (اغلوتينين) الفا بكريات حمر محتوية على اغلوتينوجين A (اي اذا كان من فريق A او من فريق AB) تلبدت هذه الخلايا ، وظهرت كتلاً كتلاً ، أو هي قد تتلاشى. ولكن ملبّد الفا لا يؤثر مطلقاً في خلايا حمر لا تحتوي على اغلوتينوجين A (اي انهُ لا يؤثر مطلقاً في كريات حمر من دم رجل في فريق O او فريق B) . وعلى المنوال نفسهُ يؤثر ملبد بيتا في تلبيد الكريات الحمر المحتوية على اغلوتينوجين B (اي اذا كان من فريق B او فريق AB) ولا تؤثر مطلقاً في خلايا دم من رجل في فريق O او فريق A

ومن الطبيعي ان رجلاً من فريق A لا يمكن ان يحتوي دمهُ على ملبّد الفا والاّ تلبدت كرياتهُ الحمر ومات خنقاً لعجز الكريات الحمر عن القيام بعملها وهو نقل الاكسجين من الرئتين الى الاعضاء ونقل ثاني اكسيد الكربون من الاعضاء الى الرئتين . وكذلك نرى ان رجلاً من فريق B لا يمكن ان يحتوي دمهُ على ملبد بيتا للسبب عينهِ فبحسب هذه القواعد يمكن تقسيم الناس على اختلاف سلالاتهم والوانهم الى اربعة فرقٍ متميز احدها عن الآخر

***

أما طريقة استعمال هذه الحقائق في اثبات الابوّة فعلى جانب من السهولة . فكل ما نحتاج اليهِ

(١) معنى اللفظ مولد الملبد والتلبد أو الالتباد ترجمة لـ agglutination وهو التصاق بعض الجسمات العضوية كالكريات أو المكروبات الدقيقة بعضها ببعض فتتألف منها كتل (٢) ترجمة «ملبد» لانه اذا اجتمع بالمادة الاولى لبدها . وقد احتفظنا بالحروف الفرنجية في الدلالة على هذه الفرق لانها أصبحت بمثابة أعلام

هو بعض الكريات الحمر المأخوذة من دم الطفل الذي يراد اثبات ابوّته ، ومزجها بمحلول ملحي خاص . ثم يؤخذ مصلان ، احدهما يحتوي على ملبد الفا (اي من دم رجل من فريق B) والثاني يحتوي على ملبد بيتا (اي من دم رجل من فريق A) . ويمكن الحصول على هذا المصل بأخذ مقدار من الدم وتركه حتى يتخثر فينفصل المصل عن سائر محتويات الدم

ثم تمزج قطرة من محلول الدم بقطرة من احد المصلين ثم تمزج قطرة اخرى من محلول الدم بالمصل الثاني . فاذا تلبدت الكريات الحمر في محلول الدم بالمصلين فصاحب الدم من فريق (A B) . واذا لم تتلبد على الاطلاق فهو من فريق (O) . واذا تلبدت بالمصل المحتوي على ملبد الفا فهو من فريق (B) واذا تلبدت بالمصل المحتوي على ملبد بيتا فهو من فريق (A)

ثم يمتحن دم الرجل الذي يراد اثبات ابوته او نفيها ، بالطريقة نفسها . فاذا ظهر ان دم الطفل من فريق (O) وان دم الرجل من فريق (A) فالرجل اذاً ليس والد الطفل . وهذا الحكم قاطع . اما اذا ثبت ان دم الطفل ودم الرجل من فريق واحد من الفرق الاربعة فعندئذٍ يحكم بأنه من الممكن ان يكون الرجل والد الطفل . وهذا كل ما يقال الآن استناداً الى هذه الكواشف

ومما يسهّل الاعتماد على هذه الطريقة في اثبات الابوة او نفيها ، في نطاقها المحدود ، ان مكان الطفل من فرق الدم يمكن تعيينه بعيد الولادة ، وانه لا يتغير بعد ذلك مدى الحياة ، وانه يتوارث بحسب قواعد مندل في الوراثة . وهذه حقائق اثبتها العلماء ولا تقبل الريب الآن

ويروي الدكتور الكسندر وينر (كاتب هذا المقال في عدد ابريل من المجلة العلمية الشهرية) انهُ من عهد قريب اتهمت سيدة من مقاطعة نيوهايفن رجلاً بأنه والد ابنها غير الشرعي . فانكر المتهم التهمة الموجهة اليه ، ولكن الرأي العام كان ضد الرجل . فبعث بدم الرجل ودم السيدة ودم الطفل الى كاتب المقال وهو من قسم الباثولوجيا في احد المشافي الكبيرة بنيويورك فامتحنها جميعاً وثبت له من الامتحان ان الرجل المتهم من فريق (A) والمرأة من فريق (O) والطفل من فريق (B) ولما كان كريات دم الطفل تحتوي على اغلوتينوجين (B) وهو غير موجود في كريات دم الام ، فوالد الطفل يجب ان يكون من فريق (B) او فريق (A B) والمتهم ليس منهما . ولما واجهت المحكمة المدعية بهذه الحقائق استردت تهمتها وبرئت ساحة الرجل . فخال امتحان الدم في هذه القضية دون انحراف العدالة

ولكن لنفرض ان امتحان دم الرجل المتهم اثبت انه من فريق (B) او فريق (A B) كما يجب ان يكون والد الطفل . فهل يثبت هذا ان الرجل والد الطفل حقيقة ! كلاّ . اذ اي رجل من فريق (B) او فريق (A B) يمكن ان يكون ذلك الوالد . ففائدة هذه الطريقة انما تنحصر في ابعاد الشبهة عن رجل متهم اذ ثبت انه من فريق غير الفريق الذي تتوافر فيه الشروط المطلوبة ، ولا تمتد الى اثبات الابوة بالمعنى الدقيق

الاّ ان العلم يأبى التسليم بالخذلان ، وفي جعبته فراغ ومالٌ للبحث وذكاء للابتداع . وكذلك

والى العلاّمة لاندشتينر بحثهُ بالتعاون مع طبيب آخر يدعى لڤين Levine فوجدا سنة ١٩٢٧ مادتين جديدتين في الكريات الحمر بدم الانسان تولدان الملبدات (اي من قبيل اغلوتينوجين A و B) فدعيا الواحدة اغلوتينوجين M والثانية اغلوتينوجين N وكان قد فات الباحثين كشفهما لانهُ لا توجد مادة ملبدات في مصل دم الانسان وبعض الحيوانات تؤثر فيهما . ولكن بحقن هاتين المادتين في عروق الارانب والهررة والماعز يمكن الحصول على الملبدات الخاصة بها . وهاتان المادتان والملبدان اللذان يقابلانهما لا صلة لهما مطلقاً بالمواد A و B والملبدين الفا وبيتا . فيمكن اذاً تقسيم الناس تقسيماً آخر بحسب المادتين M وN وملبديهما الى ثلاثة فرق جديدة احدها فريق M في دمهِ اغلوتينوجين M فقط والثاني فريق N ودمهُ يحتوي على اغلوتينوجين N فقط والثالث فريق M N ودمهُ يحتوي على المادتين معاً .وقد فُحِص حتى كتابة هذه المقالة ٣٠ الف رجل وامرأة وطفل فلم يوجد ان دم احدهم خالٍ من احدى هاتين المادتين M وN

وفي سنة ١٩٢٨ اثبت لاندشتينر ولڤين ان هذه الخصائص الدموية الناشئة عن وجود مادتي N وM تورث بحسب قواعد مندل واذن صار من الممكن الاعتماد عليها في اثبات الابوَّة

قلنا في ما تقدم انهُ اذا نوزع في ابوة طفل وكان دم الطفل يحتوي على اغلوتينوجين A وجب ان يكون والده من فريق A او من فريق A B. فاذا كان الرجل المدعى عليهِ من فريق B أو O فلا يمكن ان يكون والد الطفل . وكذلك يبرأ . أما اذا كان المدعى عليهِ من فريق A اوفريق A B وكان زوج المرأة الشرعي كذلك ،فلا يمكن بحسب هذه الكواشف ان يعين من والد الطفل وكل ما يمكن ان يقال ان الرجلين من فريق الرجال الذين يمكن ان يكون احدهم والد الطفل فبإضافة الكواشف الخاصة بمادتي N وM اللتين تقدم ذكرهما يمكن الوصول الى تحديد أدقّ في هذا الصدد

خذ مثلاً على ذلك القضية التالية . كان محورها نزاعاً على ابوّة طفل . وكان زوج الوالدة مستعداً ان ينفق على الطفل بصرف النظر عمَّن كان أباه . ولكن المرأة اصرّت على انها لا تسا كن الاّ والد ابنها الحقيقي . وكان الرجلان من فريق A وكذلك الطفل . فتعيين الواحد دون الآخر لم يكن ممكناً بحسب الكواشف الاولى . فلما امتحنت دماء الاربعة لتبين ما فيها من مادتي

الزوج A ، M العشيق A ، N الزوجة B ، M الطفل A ، M

فتبين ان الزوج هو والد الطفل، لانه لا يمكن ان يرث الطفل مادة (M) من والد ليس في دمه الاّ مادة (N) . ولكن الزوجة خرجت على قرارها الاول واختارت ان تلحق بعشيقها . وفي حادثة اخرى كان النزاع على ثلاثة اولاد . فنكتفي بنتائج بحث الدم للمادتين (A وB) والمادتين (N و M)

الزوج M N, O [١] العشيق N, A الزوجة M N, O الولد الاول M N, O الولد الثاني M N, O الولد الثالث N, A

(١) أي ان دمه لا يحتوي مادتي A ولا B ويحتوي على مادتي M و N

ولما كان الوالدان اللذان من فريق O لا يمكن ان يلدا الاّ اولاداً من فريق O فالطفل الثالث لا يمكن ان يكون ولدهما بل قد يكون ولد العشيق

اما البلدان التي تعتمد على كواشف لاند شتينر لاثبات البنوة في اوربا فهي النمسا والمانيا والدنمارك وايطاليا والسويد . ولكن الإعراض عنها في اميركا يكاد يكون عامًّا لولا حوادث متفرقة في ولايات كونكتكت واوهايو والينوي وبنسلفانيا . ومع انه من الحكمة التريث قبل استعمال المكتشفات العلمية في الاوضاع القانونية الاّ ان الثقات يذهبون الى ان كواشف الدم لاثبات البنوة في النطاق المحدود الذي رسمناه قد خرجت من دور التجربة ويصح الاعتماد عليها

***

ويجدر بنا في هذا الصدد ان نذكر ان اول من كشف فرق الدم ، كما بيّناها في ما تقدم كان الطبيب لاندشتينر النمسوي وهو الآن من اطباء معهد روكفلر الطبي في نيويورك وقد احرز جائزة نوبل الطبية من سنوات

وقد كان لاندشتينر كذلك اول من اقترح الاعتماد على هذا التقسيم في عمليات نقل الدم من سليم الى مريض . ولهذا الاقتراح ، شأن خطير في تقدم بعض ضروب العلاج الحديث . ففي العمليات الاولى التي عولج بها بعض المرضى بنقل الدم اليهم استعمل دم الحملان (دنيس سنة ١٦٦٧). فتلا ذلك ردٌّ فعل مميت . وظلَّ الاطباء في حيرة من هذا الامر الى ان ثبت لهم ، ان مصل دم الحيوانات يلبّد الكريات الحمر في دم الانسان او يلاشيها . وان مصل دم الانسان يلبد الكريات الحمر في دم الحيوانات كذلك (لاندوى سنة ١٨٧٥) . فعدل عن هذه الطريقة الى طريقة نقل الدم من انسان الى انسان ، وحجة القائمين بها حينئذٍ ، انهُ ما زال الناس من نوع واحد ، فهذه الطريقة يجب ان تكون سليمة . ولكن بعض الحوادث التي نقل فيها الدم من انسان سليم الى انسان مريض عقبها ردٌّ فعل مميت . وظلَّ الامر سرًّا مكنوناً عن افهام العلماء حتى جاء لاندشتينر وبيَّن ، ان الناس اربعة فرق من حيث بعض خواص الدم وانهُ اذا نقل الدم من رجل سليم من فريق B الى رجل مريض من فريق A عقب النقل ردٌّ فعل مميت لان ملبّد الفا في دم الرجل السليم يلبد الكريات الحمر في دم الرجل المريض

واعتماداً على اكتشاف لاندشتينر هذا يمكن الآن القيام بعمليات نقل الدم من سليم الى مريض على اهون سبيل ومن دون تعريض المريض لخطر الموت على شرط ان يفحص دما الرجلين قبل العملية للتثبت انهما من فريق واحد . واذا علمت ان عشرة آلاف عملية من هذا القبيل تعمل كل سنة في مدينة نيويورك وحدها ادركت مقام هذا الاكتشاف في الطب الحديث

رجلٌ كاد ان يكون نبياً

لورنس

العسكري والرجل والثورة العربية

Lawrence of Arabia (١)

كان غرضهُ من ساعة دخولهِ الميدان مزدوجاً — ان يبدّد ما أحاط بعقام بلاده من الغيوم في الشرق الادنى بانشاء دولة عربية تتكىء عليها بريطانيا في خطتها الحربية ، وان يحرّر العرب من نير الاتراك فيفسح لهم المجال لتحقيق آمالهم . وقد تحقق هذا الغرض على يديهِ أبدع تحقيق . فأعمال العرب التي تمت باشراف لورنس في خلال الحربِ، كان لها شأن كبير في شلّ قوى الاتراك ونفخ روح الحياة في حركة البريطانيين . فكانوا بذلك عاملا حيويًّا في هزيمة الاتراك ونصر الانكليز. ثم ان تيار الثورة العربية الذي امتدَّ من مكة الى دمشق انتهى الى انشاء دولة عربية في سورية

أما بعد الحرب فقد تعارضت مصالح حليفة بريطانيا الكبرى مع مصالح حليفتها الصغرى فتغلبت عليها ، فهدم بناء الدولة السورية الجديدة . وما كان للورنس حيلة في دفع هذا الانحراف ، ولكنهُ خرج في سنة ١٩٢١ من عزلتهِ في اكسفورد فوجه سياسة دولتهِ توجيهاً كان من شأنه ان منح فيصل مُلكاً جديداً بعد أن سلبهُ الفرنسيون ملك الشام . وأُقيم أحد اشقائه أميراً على الدولة العربية الجديدة في شرق الأردن

كانت الحركة العربية التي غذّاها لورنس وارشدها وهي في مهدها أهم حركة ظهرت من بلاد العرب في خلال القرون العشرة الاخيرة . وليس ينقص من قيمة نتائجها ان بعض قبائل العرب فقط اشترك فيها اشتراكاً فعالاً . اذ لا ريب في ان العرب اصبحوا بعد انقضاء قرون، عاملاً قويًّا في ميدان السياسة يجب ان يحسب حسابهُ . فاتصال العرب بالشعوب الاوربية هذا الاتصال الجديد ،يسوّغ من الناحية التاريخية تلقيب لورنس — وقد كان العامل الفعال في هذه الصلة الجديدة — لورنس اوف ارابيا

ولكن هناك تسويغ اهم شأناً وابعد اثراً وهو التسويغ النفسي . فالالقاب الجغرافية ، تنزل في مكانها الصحيح ، عند ما تعرب عن اندماج بين الشخصية الانسانية والحقيقة الجغرافية . فالصحراء كانت في دم لورنس ، وقد كان الاندماج بين روحه وروح الصحراء اندماجاً تامًّا

كان لورنس يحبُّ التجوُّل من حداثتهِ ، ويميل الى العزلة بفطرتهِ . فكان يقضي ساعات فراغهِ في حداثتهِ بتتبع الجداول الى منابعها او الى مصابها ، او يجمع قطعاً من الخزف الروماني القديم او

---

(١) ملخص فصل انشأه ليدل هارت Liddel Hart اكبر النقدة العسكريين الانكليز في «كتاب العظماء المعاصرين» الذي نشره محل كاسل في اوائل هذه السنة ومؤلف افضل كتاب حديث في سيرة لورنس

يرود وحده الكاتدرائيات والقصور القديمة معنياً بتفصيلات هندستها المعمارية

وفي حداثته كذلك تجوّل في فرنسا ، ثم قبل تخرجه من الجامعة جاس خلال سوريا مشياً على الاقدام ، في حرارة العطلة الصيفية ، باحثاً في قصور الصليبيين منقباً عن آثار الحثيين . ثم عاد اليها في السنوات السابقة للحرب ، لممارسة اساليب البحث الاثري . فلما توقفت اعمال التنقيب في قرقميش جال في العراق وفلسطين ومصر واسيا الصغرى واليونان . وكان يصحبهُ في بعض رحلاته احد ابناء البلاد . وكان يرتزق في خلالها من القيام ببعض الاعمال كسوق الابل او جمع الحصاد بل انهُ اشتغل مرة مع زمرة العمال في بور سعيد في تعبئة احدى البواخر بالفحم . وقد اشار الى ذلك في بعض كتاباته فقال: « كنت دائماً رائحاً وغادياً حيث كان الرواح او الغدوّ رخيصاً » . وقال ايضاً : « حملني فقري على الاتصال بالجماهير ، حيث السائح الغني ينفصل عنها بماله ومَن يتولى خدمته ». وكذلك افلح لورنس ، بتخليه عن تقاليد الحياة المدنية ، في صيرورته مستعرباً بدلاً من ان يظل زائراً اوربياً لبلاد العرب . فكانت لا تهمهُ مظاهر الاحترام ، التي يطلبها ويتوقعها الزوّار الاوربيون وبوجه خاص الزوار الانكليز . وقد مهّد له هذا السبيل انعتاقه من قيود الشعور بان الناس طبقات فاندمج في العرب وصار احدهم بالانتساب

ولكي يسهل الامر عليه ، مال الى لبس الثوب العربي في خلال تجواله . وحجتهُ في ذلك « انهُ اذا ذهب بعض العرب الى وغن (وهي بلدة صناعية في لانكشير) بأثوابهم العربية فالغالب ان اولاد وغن يرجمونهم بالحجارة »

فالاختلاط بالاطفال يقتضي ان تجردهم من نوازعهم الخاصة التي تقصيهم عنك . ولعل هنالك من يقول كيف استطاع لورنس ان يفعل ذلك ، بشعره الاشقر ، وذقنه الحليق ، وبشرته التي تحمرُ من وقع الشمس بدلاً من ان تسمرّ ؟ بيد انّ هناك ما يدل على ان العرب قبلوه واحداً منهم وان كانوا لم يخطئوه . وهو يقول ان ذلك لم يكن صعباً في سوريا ، حيث افضى اختلاط السلالات الى كون بعض ابناء البلاد شقراً ، والى كون بعضهم لا يعرف العربية الاّ معرفة ناقصة . قال : « كان من المستحيل علي ان أُحسَب عربياً ، ولكنه كان من السهل ان احسب احد ابناء البلاد الذين يتكلمون العربية »

ولكن لورنس تخطّى في كلامه هذا التفسير الصحيح لنجاحه وهو مقدرته على فهم العرب . فقد كان هذا الفهم ميسوراً له لان روحه كانت مطبوعة بما طبع عليه العربي من حب للحرية المطلقة . وكان مثلهُ مجرداً من اية رغبة في حيازة الممتلكات المادية في سبيل الرفاهة ، بعد ان يدفع ثمنها غالياً بخضوعه للقيود التي تفرضها على الانسان . وكان العطف سرّ فهمه للعرب . فبهذه الملكة استطاع ان يتبين انه لا توجد بينهم فوارق طبيعية او تقليدية ، الاّ فارق القوة التي يمتاز بها شيخ من الشيوخ نتيجة لعمله . قال: « وقد علموني انه ليس ثمة رجل يستطيع ان يصبح زعيماً لهم الاّ اذا اكل

طعام السواد ولبس ملابسهم وعاش في مستواهم على ان يكون له من قوة نفسه ما يميزه عنهم » .
هذه المعرفة عند التطبيق كانت سرّ نجاح لورنس في صلته بالعرب

وله في هذا الصدد كلام واف افرغه في قالب تعليمات وزعت على الضباط البريطانيين الذين تبعوه الى المنطقة العربية في خلال الحرب الكبرى . فهذه التعليمات كانت بمثابة وصفة للنجاح في اتصال البريطانيين بالعرب ، ولكنها كانت كذلك منطوية على تحذير من المصاعب وبيان لما تقتضيه من الجهد

ومن اقواله فيها : « اذا لبست ملابس العرب امضِ في الطريق الى نهايتها . أترك اصدقاءك الانكليز وعاداتهم على الشاطىء واتبع عادات العرب بحذافيرها . . . . على ان جهد المعيشة في جو غريب ، والتفكير بلسان غريب لا تفهمهُ الا نصف فهم ، وأكل الطعام البدوي ، ولبس الملابس الغريبة ، واتباع الاساليب الغريبة ، والتنازل عن كل انعزال وسكون ، واستحالة تراخيك في مراقبة نفسك وأنت تقلد غيرك شهوراً متوالية ، كلُّ ذلك مضافاً الى المصاعب العادية في معاملة البدو والترك ، والتعرض لحالة الجو المرهق ، تفرض على الانسان عبئاً ثقيلاً ، فعليه ألاَّ يختار هذه الطريق الاَّ بعد تأمل وتفكير عميق

«ان الالف والياء في سر الاتصال بالعرب هما عدم الونى عن درسهم . فكن دائماً على حذر . لا تقل قولاً لا تقتضيه الضرورة . راقب نفسك ورفاقك دائماً . اسمع كل ما يقال وابحث عما يجري وراء الظواهر . اقرأ اخلاقهم . اكتشف ما يلذُّ لهم ، وتبيّن مواطن الضعف فيهم ، واحتفظ بكل ما تكتشفهُ لنفسك ، . . ونجاحك يكون على قدر الجهد الذهني الذي تبذله في هذا السبيل »

في هذه العبارة الاخيرة ، مفتاح لفهم عمل لورنس بوجهٍ عام ، بل مفتاح لفهم نجاحه في القيادة الحربية وفي قيادة العرب في الحرب . ولعل أهم ظفر اوتيه لم يكن استنفار العرب للحرب ، بل فرض مقدرتهِ كزعيم عسكري ، على اخوانهِ الضباط الانكليز الذين اتصلوا بهِ اتصالاً وثيقاً . وليس ثمة أبعث على الدهشة من استعداد هؤلاء الضباط الذين كانوا يفوقونه ، رتبة عسكرية ، لاتباع قيادتهِ . كان هذا دليلاً على انهم كانوا رجالاً ممتازين ، يستطيعون ان يسموا فوق تقاليد الطبقة التي ينتمون اليها ، فهو برهان كذلك على صفاتهِ العسكرية الممتازة

ولعلنا نستطيع ان نفسّر مقامهُ هذا بعض التفسير بايراد العبارة التي قالها ڤولتير في القائد مولبورو : كان يمتاز عن سائر قواد عصرهِ بشجاعتهِ الهادئة في وقت الصخب ، وبطمأنينة نفسه في زمن الخطر ... وهما أعظم ما تهبهُ الطبيعة للقائد »

ولكن لورنس امتاز بشيء اكثر مما تقدم . فالبريق الذي اقترن باسم لورنس واللمعان الذي أضفي على شخصيته ، اخفيا عن بعض العيون ، القوة التي نبعت من معرفته العميقة بفنون الحرب . وفي هذه المعرفة نجد الرسالة التي تستمدُّ من عملهِ العسكري ، لان لورنس كان في الواقع ، أعمق معرفة بقواعد الحرب من أي قائد في الحرب الكبرى

قد يكون قولنا الاخير باعثاً على الاستغراب عند النظرة الاولى . ولكنهُ في الواقع قول صحيح. فلا ريب في ان طائفة كبيرة من قواد الحرب الكبرى كانت اعرف بالجيش من لورنس . ولكنهُ كان يمتاز عليهم في كل ناحية اخرى. وقد ساعده على ذلك شبابهُ . كان معظم هؤلاء القواد قد قضوا الشطر الاكبر من حياتهم في سبيل الارتقاء من الصفوف الى مناصب القيادة . كانوا في شبابهم اما ضباطاً في « المدفعية » ، او في « المشاة » اوغيرها ولكن خبرتهم في نوع السلاح الذي اختصوا بهِ فقدت أكبر جانب من قيمتها بارتقاء وسائل الحرب . فالمدفع الرشاش الذي كان مسيطراً على ميادين القتال في الحرب الكبرى ، كان سلاحاً جديداً ، اتقن استعماله بعد ما تخطوا هم دور الشباب . ولكن لورنس توفر على جميع هذه الآلات الجديدة ، توفراً يستغرب حتى من شابٍ متحمسٍ ذكيٍّ ، ثم إنهُ لم يكتف بذلك بل اضاف الى استعمالها شيئاً من ابتداعهِ الخاص

ليست معرفة ادوات الحرب معرفة وثيقة مما لا يستغني عنهُ القائد ، ولكنها معرفة لها قيمة عظيمة . ونحن اذا نظرنا الآن الى سير الحرب الكبرى ، نرى انهُ لو كانت معارف القواد الكبار بادوات الحرب الجديدة اتمّ مما كانت ، لساعدتهم على اجتناب كثير من الاخطاء التي وقعوا فيها

كان لورنس في حداثتهِ قد وثّق معرفتهُ بالتاريخ وبنظرية الحرب العليا . والواقع انني لا اعرف قائداً يضاهي لورنس في سعة مطالعاتهِ في هذا الموضوع. بدأ وهو في السادسة عشرة بمطالعة ما كتبهُ كرسي ونابيير وماهان وهندرسن في هذا الصدد وهؤلاء كانوا في الغالب جهد ما يبلغهُ القائد البريطاني في دراستهِ العسكرية . ثم ارتقى بعد ذلك الى مطالعة كلوز ولتز وجوميني وجولتز وفوش. ولما لم يكتف بما تقدم عزم على تصفح رسائل نبوليون التي تملأ اثنين وثلاثين مجلداً وهذا حمله على دراسة الكتب التي بنى عليها نبوليون قواعد خططهِ العسكرية فانكبّ على دراسة جيبر وبورسه وساكس . وكذلك نرى هذا الطالب الفتى يتتبع الخطط النبوليونية الى مصادرها في زمن كانت فيهِ هذه المصادر مجهولة من معظم العسكريين . ومع ذلك لم تكن مطالعاتهُ في التاريخ العسكري ، الا ناحيةً واحدة فقط من مطالعاتهِ الواسعة النطاق ، حتى لقد قيل انهُ قرأ كل كتاب في مكتبة اتحاد اكسفرد . ولكن الصحيح انهُ قرأ كل كتاب لذّت له قراءتهُ فكان يجلس في المكتبة ويبدأ في مطالعة رفّ من الكتب في موضوع يهمهُ ، فيتصفح بعضها ويأخذ معهُ الى دارهِ ما يهمهُ انعام النظر فيهِ . فكان يطالع كذلك نحو ثلاثة كتب رزينة في اليوم ورواية بعد الظهر انتجاعاً لراحة الذهن . وكان في جميع مطالعاتهِ يعمد الى المراجع ولا يكتفي بالنتف والملخصات

ومما كان له أثر عظيم في نفسهِ مطالعتهُ لمؤلفات مفكري القرن الثامن عشر الذين مهّدوا للثورة الفرنسية . فهذه الثروة العظيمة من المعرفة التاريخية مؤيدة بمعرفة عامة في جميع الموضوعات المتصلة بالحرب جعلتهُ فذاً بين قوّاد عصرهِ . فلما جمع الى معرفته النظرية خبرتهُ وعناصر شخصيته القوية حوّل معرفته العسكرية النظرية الى عبقرية عسكرية عملية نادرة

مكنتهُ عبقريتهُ هذه من التغلّب على حوائل لم يتعرّض لها كبار القوّاد في الحرب الكبرى . كان عليهِ ان يكون قائداً من دون قيادة. وزعيماً لا يسعهُ الاّ افراغ أوامره في قوالب النصح والارشاد. وكان جيشهُ مؤلفاً من رجال عرفوا بنزعتهم الفردية المستقلة وقد جمعوا من قبائل مختلفة ومتنافرة أحياناً. أما وسائل الحروب الحديثة ، التي درسها لورنس وعرف مزاياها ، فكانت غير متوافرة لديهِ فاضطرَّ ان يعتمد على قوة ابتداعهِ ، لابتكار الخطط التي تمكنهُ ، رغم كل هذا من تحقيق الغرض الذي وضعه نصب عينيهِ . بل انّ اكبر العوائق التي قامت في سبيله كانت اقناع رؤسائهِ بقيمة هذا الجيش في الصحراء ، مع شدة اعراض هؤلاء واحتقارهم لأية مساعدة عسكرية غير نظامية

ان تاريخ السنتين التاليتين ، مقياس للنجاح العظيم الذي أصابه في هذا المسلك الوعر. ان ما تمّ على يدي لورنس والعرب من أعجب ما يرويه التاريخ العسكري . فقد نظمت الثورة العربية ، وتحوّل احتلال الاتراك للجزيرة الى حامية محصورة ، لم تلبث ان سقطت في أيدي أعدائها ، كما تسقط التفاحة الناضجة عند هبّة الريح. وقدكان احتلال العقبة وحده من نوادر الظفر الحربيّ . فقد احتلها العرب بقيادة لورنس بعد خسارة رجلين من الفريق المهاجم مقابل ١٢٠٠ قتيل وجريح وأسير من الاتراك . فكان هذا الظفر ملافياً للخذلان الذي اصيب بهِ الجيش الانكليزي في غزة ، وتفويتاً لاضرارهِ ، وأزال كلّ خطر يهدد مواصلات الجيش الانكليزي في فلسطين ، والمواصلات الامبراطورية البريطانية في قناة السويس . ولكن انتشار الثورة في بلاد العرب ، كان لهُ الى جانب هذه النتائج السلبية ، نتائج ايجابية ، لان عدد الاتراك الذين عهد اليهم في حماية سكة حديد الحجاز ، والبلاد التي الى جنوبهِ ، كانوا اكثر من الاتراك الذين واجهوا الانكليز في فلسطين

وفي المرحلة الثانية من غزوة الانكليز لفلسطين ، أي بعد احتلال القدس ، كانت القوات العربية ، كالمجنّ يحمي مؤخرة الجنرال اللنبي ، ويستوقف نظر الاتراك فيضطر هؤلاء الى توزيع قواهم بين فلسطين والصحراء . وقد بدأت خدمة العرب هذه ، بعناية لورنس بتدمير قطارات سكة حديد الحجاز ، ذاهباً في عمله هذا الى الشمال ما استطاع، حتى لقّبه المعجبون بهِ من العرب «بمدمر القاطرات» . ولما كانت ذخيرة الأتراك من القاطرات أقلّ من ذخيرتهم من الرجال ، كان تدمير القاطرات افعل في اضعافهم من قتل الرجال . ثم قطع العرب موارد الاتراك من منطقة القمح شرق البحر الميت بالسطو على القوافل المحملة قمحاً . وكذلك استطاع لورنس والعرب ان يسترعوا عناية الاتراك في النصف الاول من سنة ١٩١٨ لما كان جانب كبير من جيش اللنبي قد نقل الى فرنسا لتعويض خسائر الحلفاء في ميادينها

ثم انهُ باعماله هذه حال دون تجميع الاتراك لقواتهم ، وتنظيم مقاومتهم للجيش البريطاني، فمهد خير تمهيد ، لضربة اللنبي القاضية في خريف سنة ١٩١٨ . وقد اعترف الجنرال ليمان فون ساندرز انهُ تخلّى عن فكرة مقاومة الانكليز لانهُ عجز عن صدّ الثوّار العرب في مؤخرة الجيش التركي

وفي سبتمبر كان اللنبي مستعداً للهجوم. وكان نصف الجيش التركي، المرابط الى جنوب دمشق مضطراً ان ينصرف عن مقاومة اللنبي خوفاً من تهديد بضعة آلاف من العرب في الصحراء. وكذلك استطاع اللنبي ان يهاجم الاتراك بقوة تفوق قوتهم خمسة اضعاف. وكان لورنس في الشهر السابق قد خدع الاتراك بسلسلة من المناورات، فحملهم على الظن ان هجوم اللنبي سوف يجيء من الشرق من ناحية عمان بدلاً من الشمال من ناحية الجليل. وفي الايام الثلاثة الاخيرة من الاستعداد للمعركة الفاصلة، خرج العرب من مكامنهم ونسفوا خطوط السكة الحديد الى الشمال من درعا والى جنوبها وغربها، وكانت هذه النقطة ملتقى مواصلات الاتراك. فضعضعت هذه الضربة الاتراك اذ كان اللنبي مستعداً للانقضاض عليهم فسحقهم في المعركة التي تلت سحقاً واجهزت الطيارات البريطانية وفصائل الفرسان البريطانيين على الذين لاذوا بالفرار. ولما يبق امام البريطانيين الا الجيش التركي الرابع، وهو اقوى وحدات الاتراك. فاقدم لورنس بفصيلة من العرب على الزحف الى مؤخرة الجيش فلم يلبث الجيش الرابع حتى تفرق بدداً فانهكه التراجع، وعند ابواب دمشق التقى العرب باكبر شرذمة منه فاجهزوا عليها، ودخلوا دمشق امام الانكليز

لم يكن احتلال العرب لدمشق، تزكية لثورتهم فقط، بل تزكية كذلك لفكرة قامت في ذهن لورنس، وتأييداً لنظرية عسكرية مضى عليه زمن وهو يطبقها. واذا كانت بزور هذه النظرية قد زرعت في ايام المطالعة اذ كان لا يزال طالباً في اكسفرد، فان ميعاد القطاف جاء في خلال سنة ١٩١٧ لما كان لورنس على فراش المرض في وادي قيس، وامامه من الوقت متسع للتفكير والتأمل. فعلى فراش المرض تدبر لورنس كيف يستطيع ان يعالج القوة التركية في الحجاز، وكانت حينئذٍ مجتمعة في المدينة. فالخطط الحربية المتّبعة كانت تقضي ببذل الجهد لاخراجهم من المدينة. ولكن هذا الحل لم يبد بسيطاً في نظره وخاصة في نظر من يعرف نفور العرب من قتلى الحرب. واذ هو يفكر هبط الجواب عليه، كأنهُ نفحة من الالهام. فقال: ولماذا نهتمّ هذا الاهتمام بالمدينة وحاميتها. ان افتتاحها الآن متعذر. ولكن ما الفائدة من افتتاحها على اية حال. بل اليس من الضرر ان نفتتحها؟ واليك ما كتبهُ في هذا الصدد

«ان الاتراك فيها مدافعون لا يتحركون، يتغذون بلحم الحيوانات التي يجب ان تستعمل لنقلهم الى مكة. انهم وهم مرابطون في المدينة لا يستطيعون ان ينالونا باذى. فاذا اسرناهم كلفونا غذاء وحراسة في مصر. واذا اخرجناهم من المدينة ودفعناهم امامنا الى الشمال انضموا الى الجيش التركي المرابط لنا في سيناء. فالافضل ان يبقوا حيث هم. هم يهمهم البقاء في المدينة. فليبقوا فيها»

على ان لورنس لم يكتف بهذا. بل قال في نفسه، ولماذا لا نعمم هذه الخطة، فنطلقها على جميع الاماكن التي يمكن حصر الترك فيها. « فالاتراك يحتاجون عندئذٍ الى ستمائة الف محارب لحماية المدن والمناطق المختلفة من غضب العرب. وليس عندهم الا مائة الف»

ثم هناك ناحية اخرى. كانت ذخيرة الحرب في الجيش التركي غير كثيرة التيسير وكان المحاربون

في الجيش التركي اكثر من الادوات الحربية اللازمة للنزال . فلذلك يجب ان يكون غرضنا تدمير ذخيرة الحرب لا قتل المحاربين . فتدمير جسر تركي ، او قاطرة تركية ، او مدفع تركي ، او مفرقعة تركية ، اكبر فائدة من موت جندي تركي . ان حربنا يجب ان يكون حرب انفصال . اننا نستطيع ان نتفوق على العدو ، بالتهديد الذي تمانه صحراء لها اول ما لها آخر . اما نحن فلا نظهر في الميدان الا في ساعة الهجوم . وهذا الهجوم ليس من الهجوم المألوف في شيء ، لانه يجب ان يوجه الى مواد الحرب لا الى المحاربين . ولذلك يجب الاّ نبحث عند الهجوم ، عن مواطن الضعف او القوة في جيش العدو ، بل يجب ان نبحث عن مادته الحربية التي تكون اقرب ما يكون الى متناولنا »

هذا الابتداع في الخطط الحربية ، اذ درس مقترناً بنتائج الحرب الكبرى ، اصبح لاعمال لورنس في بلاد العرب مغزى جديد . فالتاريخ العسكري لا يسعه ان يقول ان لورنس كان قائد قوة غير نظامية ويكتفي بذلك . فهو ليس زعيماً من زعماء حروب العصابات . بل انه ذو عبقرية فذة في تدبير الخطط العسكرية ، وقد استشف بثاقب بصيرته ، الميل في الحروب الحديثة والمقبلة الى هذا النوع من الخطط ، الناشىء عن زيادة اعتماد الامم على مراكزها الصناعية . رأى ذلك أولاً في صحراء بلاد العرب ، وها نحن نرى الامم العسكرية اليوم تضع خططها الحربية ، واول اهدافها تدمير المراكز الصناعية قبل افناء المحاربين . وقد اثبت ليدل هارت بكتاب ورده من لورنس ، ان لورنس نفسه كان يدرك كل الادراك مغزى خططه هذه في تطبيقها على الحروب بوجه عام

***

فلما تُحجب الحقيقة المنطوية في القول المأثور « ان التاريخ يعلمنا اننا لا نقيم وزناً لعبر التاريخ » عن رجل كلورنس درس التاريخ ونفذ الى عبره . فكان ادراكه هذا باعثاً لهُ على الشعور بوجوب الانفصال عن الدنيا والتفرغ لمطالب الروح العليا ، فانتظم « نفراً » في سلاح الطيران الجوي البريطاني ولم يقبل الاّ ان يكون « نفراً » فيهِ . وانفق ساعات فراغهِ في دراسة الآداب القديمة وقد اخرج للناس من سنتين ترجمة جديدة لالياذة هوميروس

ان شهوة العظمة والسلطان منبع أعظم الشرور ، فاذا لم تضبطها الحكمة ضبطاً تامًّا — وقلما تجتمع الحكمة وشهوة السلطان — افضت الى اخفاق الرجل او الى تعرضه لحرية غيره من الناس . ونتيجة اطلاق العنان لهذه الشهوة ، كان من شأنه في جميع ادوار التاريخ ، أذية أصحابها وخلفائهم والقضايا التي نهضوا لتأييدها . وقد حال بين لورنس والانتظام في سلك هؤلاء الرجال صفاء ذهني كاد ان يكون حكمة خالصة

كان في شبابه يطمح الى بلوغ مقام العظمة في ميداني العمل والتأمل . ولكن خبرتهُ اثبتت لهُ تنافرهما . فأطبق « فرامل » التأمل على « عجلات » العمل وقال لنفسهِ الى هنا وكفى

كان في السادسة والعشرين من عمره لما خاض ميدان الحرب وهدفه أن يصبح جنرالاً وان يحرز

لقب « فارس » قبل ان يبلغ الثلاثين ، ولكنه طرح هذه المطامح جانباً قبل بلوغ الثلاثين اذ كان تحقيق هذه الاغراض في متناول يده . ولكن المطمح الذي ظلّ قائماً في نفسهِ وهو في طريقه الى دمشق ، كان العمل دون الابهة التي تصحبه . فلما وصل دمشق قذف حتى بهذا المطمح الى الرياح . اقام في دمشق ثلاثة أيام وهو حاكمها المطلق من وراء ستار . فلما كان اليوم الرابع ، ادرك خطر السلطان على حكمتهِ وحريتهِ فارخى العنان . ذلك ان رداء السلطان كان قد أُلقي على كتفيهِ عند ما نضجت في نفسهِ ثمرة الحكمة المبتغاة . فطرح الرداء ولاذ بالحكمة

كان الطموح آخر قيد يغلّ حريتهُ الروحية ، فطرح القيد ليبلغ الانعتاق التام . وكأنَّ الطبيعة قد أعدتهُ خاصة لذلك فجردتهُ من شهوات معظم الرجال . فليس لشهوة الطعام والشراب اثر في حياتهِ . انهُ يستطيع ان يتمتع بكل عشاء كامل الالوان وان يتمتع بلذاذتهِ، الاّ انه يفضل اكلة واحدة في اليوم، وافضلُ الطعام ابخسهُ . ويظهر انهُ كان كذلك مجرداً من الشهوة الجنسية . وما على المرء الاّ ان يقدر ما تشغله هاتان الشهوتان من حياة الانسان ، وكيف تكبلانهِ بقيود منظورة وخفية، حتى يعرف مدى الحرية التي ادركها لورنس بتجرده منهما

ثم هناك قيد آخر تقيّد بهِ الروح الحرة ، ولكنهُ قيد خفي ، وهو النزوع الى المنافسة . فهذا النزوع لازم لحث معظم الناس وحضهم على العمل . ولكنهُ يقوم حجر عثرة في سبيلهم كلما خطوا بضع خطوات . اما لورنس فقد تجرد منهُ فكان في حداثتهِ يرغب عن الالعاب المدرسية القائمة على المنافسة ، ويروى انهُ من سنوات اهمل العناية بحديقة صغيرة عزيزة عليهِ ، في محطة الطيران ، لما اعلن ضابط الفرقة انهُ يمنح جائزة لمن تتفوق حديقتهُ على حدائق اخوانهِ

فقد كان همُّ لورنس في خلال حياتهِ، ان يبلغ مستوى معين من الرجولة اقامهُ في ذهنهِ، لا ان يتفوق على احد . وكذلك ازال من حياتهِ ، مصدراً من اهم مصادر النزاع بين الناس

ثم ان غريزة الامتلاك ابعد اثراً في تكبيل النفس من نزعة المنافسة. وقد حاول لورنس جهدهُ ان يقطّع جميع حبالها . ولكن كيف يستطيع ذلك وهو انسان . ها هي تظهر في كتاب يملكهُ او في قطعة موسيقى يحوزها . حاول لورنس ان ينقص مطالبهُ الى المادية الى اقل حدٍّ مستطاع، ومحاولاتهُ في التفلّت من بعض قيودها وَسمت بعض افعاله بسمة الشذوذ. قال : « لو كان في وسعي لوهبت كل شيء ولتنازلت عن كل شيء » . ولكنهُ لم يستطع ذلك ، من دون ان يتعرض لاخماد رغباتهِ الروحية ، او رغباتهِ الحسية المتصلة بالروح . فالجمال لا ينفصل عن الحق . والحكمة نفسها تحول دون بلوغ الحرية المطلقة

لقد فاق لورنس كل رجل آخر اعرفهُ في اقترابهِ من الحرية المطلقة . ولكنهُ لم يستطع بلوغها . كان روح الحرية مجسماً في عالم مكبّل بالاغلال ، ولكن تجسيم هذه الروح ، في قالب انساني، يقضي بالخضوع لبعض القيود ، ولو كان خفية عن عين الانسان العادي

سوريا في زمن الصليبيين[1]

لنقولا زياده

حالة سوريا السياسية

سهل ساحليّ ضيق في الشمال ، متسع في الجنوب ، تحدب عليه من الشرق سلسلة من الجبال الجميلة ، وقد يقوى عطفها عليه ، فتعانق البحر مرات رأفة به ، وتسند هذه الجبال سلسلة اخرى الى الشرق منها ، فتدفع عنهما غائلة البحر الرملي المنبسط شرقاً الى حدود العراق . وبين السلسلتين سهول منخفضة ، يشتدّ بها الانخفاض والضغط حتى تفقد الحياة في البحر الميت . في شمالها جبال طوروس الوعرة المسالك ، وفي جنوبها صحراء سيناء القديمة السبل — هذه هي سوريا

تتوسط الشرق الادنى ، وبذلك كانت قلب العالم المتمدن الخفاق . تقوى مصر فترنو اليها ، وينشط العراق فيتطلع نحوها ، وتقوم قائمة آسيا الصغرى فتفكر فيها . ويدفع البحر المتوسط باقوامه وسفنه فيجدون في شواطئها الملجأ . وتقسو الصحراء على اهلها ،فيهرعون اليها، ليستمتعوا بخيراتها ، وليستوطنوا اديمها . ويسود السلام انحاء العالم ، فيعنى بالتجارة ، وفي موانىء سوريا تتبادل سفن اليمّ وسفن الصحراء اثقالها

من الصحراء جاءها اكثر سكانها ، قرناً بعد قرن ، حتى كانت خاتمة المطاف هذه الحملة الاخيرة العربية ، التي وحدت — الى درجة كبيرة — لغة السوريين ، وثقافتهم ، وعقليتهم ، وتفكيرهم ، ودينهم ، منذ ثلاثة عشر قرناً

خضعت سوريا للراشدين ، وحمت الامويين ، وتبعت العباسيين ، وتقربت من الفاطميين . وطالعها القرن الحادي عشر الميلادي (القرن الخامس الهجري) وهي نهب مقسم بين المتغلبة على الاطراف من اتباع العباسيين وخصومهم . فالفاطميون في القاهرة ، والسلاجقة في ظلال الخلافة البغدادية ، والامراء المحليون والقبائل التركمانية والروم والقرامطة والمماليك ، يتنازعونها . وكلّ يستميل ويسترضي ، ويهب ويمنح ، ويقاتل ويفتح ، لقاء خضوع يرجوه ، او مال يزجى اليه ،من غلال الفلاح ، او رسم يفرض على تجارة تهبط البلاد

اما السلاجقة فقد شغلوا بامر انفسهم واطماعهم الخاصة ، فلم تكن لهم دولة بل دول ، وما كانوا يمتنعون عن اللجوء الى خصم اجنبي ليتفوقوا على آخر شرقي ، خصوصاً بعد وفاة كبيرهم ملكشاه (١٠٩٢ م) ، فصار الامر الى الاتابكة الذين شغلوا الناس في القتال دون مطامعهم

---

(١) القيت في نادي الشبيبة الارثوذكسية يافا (فلسطين)

واما الفاطميون فمع ان سلطانهم السياسي قد دفع عن اكثر سوريا، فقد بقي لهم في المدن الكبرى وفي الضياع اتباع يدينون برأيهم حتى ان السلاجقة الامراء كانوا كثيراً ما يترضونهم [١] وما تغلب السلاجقة الا لانهم سنيون واكثر السكان من مذهبهم [٢]، ولان المصريين اساءوا السيرة مع هؤلاء [٣] ثم انهم لم يعيروا السكان التفاتاً لما دهمهم الخطر الافرنجي . فقد ذكر النويري ان السبب الذي دعا اهل طرابلس الى التسليم انهم بينا كانوا ينتظرون وصول النجدة بحراً من مصر جاءهم رسول الخليفة الفاطمي على مركب يطلب منهم، لاسم الخليفة ، جارية جميلة كانت في طرابلس وخشب مشمش يصلح لعمل عود وغيره من آلات الطرب [٤] اضف الى ذلك انهم (اي المصريين) لما دهشوا لغزو الفرنج الشام ، لم يريدوا ان يثيروا حفائظهم خشية ان يهاجموا مصر ، فكان انجادهم للشام ضعيفاً

والخلافة العباسية كانت في نجوى عن كل ما في الشام اوغيره . فالضعف مستحوذ عليها وامرها بيد غيرها . فلا خير يرجى منها ولا أمل . فهذا ابن عمار، صاحب طرابلس ، يشتد به الأمر (١١٠٧م و ٥٠١ هـ)فيذهب الى بغداد مستنجداً ، ويطول مقامه هناك على غير طائل [٥] . وهذا هاشمي من حلب، يذهب الى بغداد (١١١١ م و ٥٠٥ هـ) يصحبه صوفية وتجار وفقهاء ليستنجدوا، فلا يؤبه لهم حتى يدخلوا جامع السلطان ، فينزلون الخطيب من المنبر ، ويكسرونه ، ويصيحون ويبكون ، لما أصاب سوريا من غزو الفرنج ، ويمنعون الناس من الصلاة جمعتين متتاليتين ، حتى يوعز السلطان— وهو صاحب الأمر والنهي في الخلافة — الى رؤساء الاجناد ، بالتأهب للسير الى دار الجهاد [٦]

وفي غمرة هذا النزاع ، ينشىء الامراء العرب أماراتهم الخاصة في سوريا . فطيء [٧] في شرق الاردن ، وعقيل في اطراف العراق ، وكليب في حلب ، وبنو عمار في طرابلس ، وبنو منقذ في شيزر [٨] . هذا الى عدد كبير كانت له سيادة خاصة [٩]. كما ان غيرهم من متغلبة الامراء ، صرفوا همهم في لهو وعبث ، وترف وبذخ [١٠] . والأمير يرث ابناؤه ملكه ، كما يرثون مزرعته وبيته ، فتنقسم الامارة الواحدة ، وتصبح حرباً على نفسها [١١]

ويتراءى لنا أن سكان البلاد كانوا راضين بهذا الذي أصابهم ، من خصومة تستمر ، ونزاع يستحر ، بين الدول والامراء والزعماء والمتغلبة . ولكن الواقع أن هؤلاء هم الذين كونوا مادة الدول وقوتها ، وكانوا هشيم القتال وناره ، وكان لهم من ثمَّ ، نفوذ في شؤون بلادهم ، وخشيهم حكامهم الاتراك ، كما استماتوا في الدفاع عن نفوسهم ضد الصليبيين [١٢] . وكانت جبال لبنان مأوى الموارنة ، وشماليهم النصيريون (العلويون) وجنوبهم الدروز وشيعة جبل عامل ، وقد استطاع

(١) Gibb 16--17 (٢) الخطط ١ — ٢٦٣ (٣) الخطط ١ — ٢٤٩ و ٢٥٨ (٤) نقله كرد علي الخطط ١ — ٢٩٢
(٥) الخطط ١ — ٢٩١ (٦) الخطط ١ — ٢٩٦ (٧) اسامة ١٢ (٨) راجع مقدمة الدكتور فيليب حتي لكتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ (٩) Gibb 17—18 والخطط ١ — ٢٤٦ و ٢٤٩ (١٠) الخطط ٢ — ٥٢
(١١) الخطط ٢ — ٤٨ (١٢) Gibb 26—27

هؤلاء ان يتمتعوا باستقلالهم المحلي الى مدىً بعيد [١] . وفي القلاع الحصينة القوية كان الاسمعيليون [٢] الثوار، ينظمون شؤونهم، ويوفدون رسلهم ليغتالوا كل من يحاول النيل منهم أو التعرض لهم وكل من هؤلاء الامراء كان يعنى بتحصين قلاعه وتضخيم أسواره ضد سيده أو جاره [٣]

وباختلاف هؤلاء القواد كانت تختلف أجناس الجند، فأكثرهم أتراك من اواسط آسيا، ولكن بينها السلافيون من شرق اوربا، والروم، والارمن، والكرج [٤] (الشراكسة) والديلم [٥] والتركمان (الغز) [٦]، والمغاربة [٧]، والاكراد [٨]، والخوارزمية [٩]، والخراسانية [١٠]. فقد اجتمع في الجيش الصلاحي، مثلاً، من الجموع والألسنة، من لا يحصر معدوده، ولا يتصور وجوده [١١]

والجيوش التي جيّشها مختلف الامراء تفاوت عددها كثيراً . فقد كان جيش ملكشاه (٤٠٠،٠٠٠) ولهُ (٤٦،٠٠٠) من العبيد [١٢]، وجيش كربغا الذي قاده لحصار انطاكية (٥٠،٠٠٠) [١٣]، وفي سياحات مندقل أنهُ من السهل على ملك مصر أن يجيش (٥٠،٠٠٠) [١٤] أما جيش صلاح الدين في حصاره لعكاء (١١٨٩ — ١١٩١) فنستطيع ان نتصور عدده اذا اطلعنا على ما جاء في السلوك عن « السوق الذي في عسكر السلطان » [١٥] . فقد روى المقريزي نقلاً عن البغدادي « كان السوق الذي في عسكر السلطان على عكاء عظيماً جداً، ذا مساحة فسيحة . فيه مئة واربعون دكان بيطار . وعددت عند طباخ واحد ثمانية وعشرين قدراً، كل قدر تسع رأس غنم . وكنت أحفظ عدد الدكاكين لأنها كانت محفوظة عند شحنة السوق، وأظنها سبعة آلاف دكان، وليست مثل دكاكين المدينة، بل دكان واحد مثل مئة دكان، لان الحوائج في الاعدال والجواليقات . ويقال ان العسكر أنتنت منزلتهم لطول المقام، فلما ارتحلوا غير بعيد . وزن سمان اجرة نقل متاعه سبعين ديناراً . وأما سوق البزّ العتيق والجديد فشيء يبهر العقل . وكان في العسكر اكثر من الف حمام، يغسل الرجل فيه رأسه بدرهم أو اكثر » وكان أصغر الامراء له على الاقل الف جندي [١٦]

---

(١) Gibb 28، الخطط ٢ — ٤ و ١٤ و ٣٢ و ١٢٢ و ١٣٥ و ١ — ٢٥١ والكلية ١٨ — ٢٠٩ و Lamb ١٨٧ والحريري ٧٦ ولعل بعض الموارنة انضم الى الصليبيين كما ساعدهم بعض شيعة جبل عامل (٢) ابن جبير ٢٢٩ والمقريزي (السلوك) ١ — ٦١ (٣) مثل تحصين انطاكية — راجع Kugler 45 و Lamb 106 (٤) Gibb ٢٩ و ٣٣ و Kugler 7 و Lamb 166 والخطط ١ — ٢٨٠ واسامة ١٠٣ و ١٠٦ و ٢٠١ وتاريخ الكنيسة ٧٥ (٥) Gibb 35 (٦) Gibb 19, 25, 36 والخطط ١ — ٢٥٣، ٢٦٢، ٢٦٣، والفتح ١٥٦ (٧) Gibb 37 (٨) اسامة ٣٧ و ٤٧ و ٤٨ و ٤٩ و ٦٦ و ٩٥ و ١٢٢ و ١٤٩ (٩) تاريخ الكنيسة ٨١ و ٨٢ والخطط ٢ — ١٠١ (١٠) اسامة ٧٣ و ٧٤ و ١٠٦ و ١٥٨ . والظاهر ان مهمتهم كانت نقب الاسوار (١١) أبو شامة ٢ — ١٨٥ والفتح ٢٤٩ — ٢٥٠ (١٢) Gibb 36 والخطط ١ — ٢٧٥ (١٣) Kugler 50 (١٤) Early Travels 146 (١٥) المقريزي «السلوك» ١ — ٩٤ . والمقريزي يقول انه نقله عن عبد اللطيف البغدادي، ولعل المصدر الذي يشير اليه هو الذي يسميه البغدادي الكتاب الكبير المذكور في كتابه المطبوع . والكتاب الكبير هذا لم يصل الينا (١٦) Gibb 36

ومن ملاحظة ما ذكرناه عن الجند نستطيع أن نقول أن سكان سوريا في العصر الصليبي كانوا مجموعة من الشعوب ، اكثرهم عرب ، ومعهم هذه القبائل التي مرت بنا ، وفيهم النساطرة واليعاقبة واليونان والموارنة من النصارى [١] ، والباقون — وهم اكثر السكان طبعاً — المسلمون . وفي كثير من المدن كان اليهود ، وبأيديهم الصناعات [٢] . ولعلّ عددهم لم يتجاوز العشرة آلاف [٣] . وكانت اللغة العربية اللغة الجامعة لهم جميعاً ، ولهم لغاتهم الخاصة . والعلاقات بين أهل سوريا ، مع اختلاف المذاهب ، كانت حسنة [٤]

وقد أناط الحكام بالنصارى واليهود أعمالاً رسمية كثيرة من ذلك ان العادل ولى (١١٨٣ م و ٥٧٩ هـ) الانشاء وما يتعلق بأمور السر « الصنيعة بن النحال » وكان نصرانيًّا — ثم اسلم على يد العادل — فولى أبن النحال الوظائف لجماعة منّ النصارى ، وفي ذلك يقول الشاعر :

فاق دين المسيح في دولة الـــعادل حتى علا على الأديان

ذا أمير وذا وزير وذا وا ل وذا مشرف على الديوان [٥]

كما أن مستوفي دار حلب كان نصرانيًّا [٦]

الحالة الاقتصادية

هذا الوضع السياسي الشاذ الذي كانت فيه سوريا ، ترك في كل نواحي الحياة فيها آثاراً سيئة ، فهذه الاحداث المستمرة أثرت في احوال البلاد الاقتصادية ، زراعتها وتجارتها وصناعتها . واذا ساءت الادارة ساء معها كل شيء . وهذه دمشق ينقص عدد سكانها من نحو نصف المليون الى ثلاثة آلاف بسبب ادارة الفاطميين السيئة (١٧٠٥ م) [٧] . أما حلب فتنمو وتتقدم بحسن ادارة اق سنقر [٨]

فأما الزراعة فلم يولها السلاجقة عنايتهم ولا رعايتهم. وكان أصحاب الاطراف أشد وطأة منهم [٩] وتضررت البلاد من الاحداث . فلم تينع الثمار ، وتكثر الزروع ، وتستغل الأرض ، الاّ في الأماكن الممتازة بحسب تربتها وكثرة مائها كغوطة دمشق واطراف يافا وقيسارية وانطاكية وطرابلس . ولعلّ سبب ذلك شيوع التملك الفردي [١٠] . وفي زمن احتلال الصليبيين للبلاد لم يكن للفلاحين حرية في استثمار الارض بله امتلاكها ، وتأخرت الفلاحة السورية وبقيت اراض كثيرة مواتاً [١١] . ومن هنا كانت كثرة حدوث المجاعات في سوريا أبان القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر [١٢] . على أن بعض التحسن طرأ على الحالة الزراعية بعد ان استقرّ الفرنج في البلاد ، واطمأن اليهم الفلاحين ، واطمأنوا هم الى الفلاحين

---

(١) Gibb 29 و Kugler 11 و Lamb 127 وتاريخ الكنيسة ٧٥ و ٧٧ واسامة ٧٩ و ٨٠ وأبو شامة ١ — ٣٢ (٢) الحسني ١١٨ (٣) Prutz 8,151—152 و Early Travels 78—98 (٤) ابن جبير ٢٦٨ ؛ ابن بطوطة ١ — ٩٤ (٥) ابو شامة ٢ — ٥٢ (٦) الخطط ٥ — ٧٢

(٧) Gibb 27 عن سبط ابن الجوزي (٨) نفس المكان (٩) الحسني ١٠٠ (١٠) الحسني ١٠١ (١١) الحسني ١٠٥ (١٢) نفس المكان

وأما الصناعة فقد قامت في المدن الكبرى قوية على العموم . وقد كانت سوريا مناطق ، تجيد كل منطقة منها صناعة . ففلسطين تصنع المرايا المعدنية والزجاجية وقدور القناديل والابر والخرز ، وصور تصنع الزجاج ، ودمشق تصنع الديباج والانسجة ودهن البنفسج والورق ، وبعلبك وحلب تحيك الاردية وبيروت تتقن تربية الحرير ونسجه [١] . وتشارك طرابلس تكرير السكر ونسج الحرير [٢] ، وفي طرابلس وحدها كان المشتغلون بالحرير نحو اربعة آلاف [٣] واشتهرت مدن اخرى بالمينا والصيني . هذا الى الاسلحة المتنوعة المموهة بالذهب . وقد وصلت المُدى الشامية جاوه في جزر الهند الشرقية [٤]

***

وفي زمن الحروب الصليبية احتاج الجنود الكثيرون الى الثياب والعُدة والسلاح ، فقوى ذلك الصناعات المختلفة . وقد ترك لنا ابن جبير الرحالة المغربي وابن بطوطة والادريسي والمقدسي وجوانفيل ومندفيل [٥] وغيرهم ممن اقام في سوريا او ساح فيها في تلك الازمنة صوراً حية قوية للتقدم الصناعي الذي كانت عليه سوريا ، وانواع الصناعات التي كانت فيها ، ومدى اتقانها . فالحرير والزجاج والصابون والاسلحة والصيني والسكر والدبس السوري كان في درجة المصنوعات الرومية والاصفهانية والعراقية والمصرية [٦]

وقد احتفظت سورية بقيمتها التجارية ، سيما وان المدن الايطالية كانت لا تعرف غيرها طريقاً للشرق الاقصى ، وخصوصاً بعد ان ضيق ملوك بزنطية الخناق عليهم خوفاً من منافستهم . وهذا الاتجاه الجديد في اتخاذ موانىء سوريا مراكز للاتجار مع الشرق الاقصى قام به الجنويون والبيزيون والبنادقة والاملفيون [٧] والنابليون ، فصارت عكاء واسكندرونة وطرابلس وصور محط رحال القوافل ، ومستودعاً لحاصلات الصين والهند وبلاد العرب ، وموزعاً لاسواق ايطاليا وفرنسا . وقد كان اول قنصل في التاريخ بندقياً تعين في عكاء في اواسط القرن الثاني عشر الميلادي [٨] وفي اثناء الحروب اعان تجار الاوربيين الصليبيين على الفتح ، وكان جزاؤهم على ذلك اسواقاً وخانات خاصة بنوها لتجارتهم وتجارهم ، مع انهم لم يهتموا ببناء كنيسة حتى في القدس . وزاد في العصر الصلبي اشتراك اهل جنوب فرنسا مثل سكان مونبليه ومرسيليا ونربون . في هذه الاسواق السورية كانت تلتقي الثمار والفواكه والمصنوعات المحلية بالبهارات والجواهر والمسك والتمر والنيلة واليشب وبقية

(١) الحسني ٩٢ — ٩٣ و ١١٦ (٢) الحسني ٩٤

(٣) الحسني ١١٧ عن هايد (٤) الحسني ٩٤ (٥) رحالة انكليزي زار سوريا في القرن الرابع عشر راجع اخباره في Early Travels 127—282 وعن الصناعة ١٤٣ (٦) الحسني ١١٦ — ١٢٠ (٧) كان لاملالفي المدينة الايطالية مستعمرات تجارية في بزنطية وانطاكية والقدس. راجع Kugler 8 - 9 و Prutz 46,47 108-9,358

(٨) فيليب حتي — الكتاب الذهبي ليوبيل المقتطف ١٤٩

منتجات الشرق الاقصى ، وبالاجواخ والانسجة الملونة والكتان والخيوط الذهبية والخمور الفرنسية والايطالية [١]

ولعل خير شاهد على التقدم التجاري ، غير ما مر بنا ، الخانات التي كانت بين المدينة والاخرى ينزل فيها التجار . فبعضها كان كأنه القلاع امتناعاً وحصانة وابوابه حديد ، وهي من الوقاية في غاية [٢] حتى ابان المعارك ، ما كانت تقف التجارة ولا تمتنع . يقول ابن جبير [٣] ومن اعجب ما يحدث به ان نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . وفي مكان آخر [٤] ان قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين » . وقد شاهد هذا هو بنفسه . وكانت الضرائب معينة متفقاً عليها بين الافرنج والمسلمين ، يدفعها تجار كل قوم في بلاد الآخرين [٥] وكانت هناك ضرائب على الجسور وعند مداخل الاودية وامام الحصون [٦] اماكن دفع الضريبة منها تبنين وبانياس وكان بين مصر وسوريا مركز جمركي في قطيا (حول العريش) حيث يفتشون التجار والامتعة والجواز عليها من الشام الى مصر وبالعكس ببراءة ، ومجباها كل يوم الف دينار من الذهب [٧] على انه لما خضعت مصر والشام لدولة واحدة ، واشتدتا في مقاومة الصليبيين ، قويت التجارة بينهما وزالت الحواجز الجمركية [٨]

الحالة العلمية

قبيل الحملة الصليبية الاولى كانت سوريا مركزاً قوياً من مراكز الحضارة الاسلامية . ذلك لان الثقافة الاسلامية ، التي اقتصرت قبلاً على بغداد وما إليها ، وجدت الآن في كل مدينة كبيرة تربة خصبة . فتنقل العلم في المدائن ، وانتشرت المكاتب الكبرى ، ووضعت الموسوعات ، وتعدد انواعها كما تنوعت الابحاث العلمية والسياسية والاقتصادية ، واصبحت المعرفة موزعة على كثير من الكافة بعد ان كانت وقفاً على الخاصة . وشجع الامراء المحليون هذه النزعات الادبية ليتم لهم مجال الفخر على اقرانهم ، والتفوق على أندادهم ، أو حرصاً على نشر التعاليم الاسلامية أو رغبة في العلم نفسه [٩] فأدى هذا الى نضوج الفكر [١٠] في كل ما درس من علوم الرياضة والفلك والطب والفلسفة والمنطق . ومع أن الاوضاع السياسية والحربية في العصر الصليبي كان من شأنها ان تصرف الناس عن العلم ، فقد احتفظت سوريا بالكثير من علمها ، وكانت المدارس منتشرة [١١] ، وحلقات التدريس في المساجد

---

(١) الحسني ١١٢ والمقريزي «السلوك» ١ — ١٨٦ (٢) ابن جبير ٢٣٣ — ٢٣٤ (٣) ابن جبير ٢٦٨
(٤) ابن جبير ٢٨٠ و٢٨٢ (٥) ابن جبير ٢٦٨ (٦) الحسني ١١٢ (٧) ابن بطوطة ١ — ٣١ (٨) المقريزي «السلوك» ١ — ٩٩
(٩) تاريخ الموصل ٢ — ٨٩ — ٩٠ (١٠) زيدان — آداب اللغة العربية ٢ — ٢٣١ (١١) زيدان — آداب اللغة العربية ٣ — ١٢

معقودة ، ودور القرآن بالطلاب عامرة ، والمعاجم التاريخية والجغرافيا موضوعة بين أيدي الناس . والذي وصل الينا من أمهات الكتب التي ألفها العلماء في الابحاث المختلفة ، منذ أواسط القرن الرابع الهجري الى أواسط القرن السابع أربى على السبعمائة غير ما فقد منها وهو كثير [١]

وأول من أنشأ ابنية خاصة للمدارس هو نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي ، في القرن الحادي عشر للميلاد ، ثم حذا الاتباع حذوه . وكانت قبله دور العلم هي المساجد وحدها . وقد زاد عدد المدارس السورية الكبرى ، في امهات المدن ، عن المائة والخمسين بين القرن الخامس والقرن السابع الهجري [٢] . وكان في دمشق وحدها ثلاث مدارس عالية للطب [٣] ومدرسة للهندسة [٤] . وهذا صلاح الدين لا يكاد يفتح القدس (١١٨٧م و ٥٨٣ هـ) حتى يؤسس فيها مدرسة [٥] ، ويفعل مثل ذلك في عكاء [٦] وقد عني الامراء بانشاء دور للقرآن [٧] ودور العلم والحكمة ، كالتي انشأها ابن عمار في طرابلس ، فاصبحت طرابلس بها مباءة علم ودرس ومباراة في التعليم ، وجهز هذه الجامعة بمائة الف مجلد [٨] وكانت فيها مدرسة اليعاقبة [٩] ولعل طرابلس كانت اول مدينة علمية بالشام لما استولى عليها الصليبيون [١٠] وكذلك كانت مدن كثيرة في سوريا مشحونة بالعلم ككفر طاب وقرى دمشق [١١] والقدس . وكان الانفاق على التعليم يتوافق مع العناية بالمدارس ، لان لكل مدرسة اوقافاً تحبس عليها ، فلا تصرف في غير هذه السبيل . وقد كان ارزاق ارباب العمائم في دولة صلاح الدين تتجاوز مائتي الف دينار بشهادة الله [١٢] وكان للسلاطين وكبار القواد والامراء مجالس ادب يحضرها العلماء والفقهاء ، والمحدثون والشعراء ، فتكون سبيل ارشاد وافادة [١٣] وهذا صلاح الدين كان ينفق من صدقاته على ستمائة من فقهاء دمشق [١٤] والملك المنصور صاحب حماة كان يصحبهُ نحو مائتين من النحاة والفقهاء والمشتغلين بالعلم [١٥] وكان في سوريا ، وفي مدنها الكبيرة فقط . نحو عشرة مستشفيات مع ما يتصل بها من صيدليات ومدارس طبية [١٦]

هذه العوامل المختلفة ساعدت على نشر التعليم بين عدد كبير من الناس كما قدمنا ، ولم تحصره في عدد قليل من الخاصة . ولعلّ من الخير ان نشير هنا الى ان تعاليم اخوان الصفا الفلسفية كانت منتشرة بين الاسمعيليين [١٧] . وقد عثر على كثير من نسخ رسائلهم في القلاع الاسمعيلية [١٨] . وقد كانت أشهر الكتب تداولاً في نهاية القرن العاشر للميلاد رسائل اخوان الصفا ومفاتيح العلوم والفهرست لابن النديم [١٩] ، وهي كتب لها خطرها في الحياة العقلية

---

(١) راجع زيدان ــ تاريخ آداب اللغة العربية ــ الجزء الثاني والثالث وأيضاً Prutz 53—4
(٢) الدكتور خليل طوطح ١٤٤ ــ ١٦٣ والخطط ٦ــ ٦٨ ــ ٧٠ وتاريخ الموصل ٢ــ٩٠ــ٩١ (٣) الخطط ٦ــ١٠٢ (٤) الخطط ٤ ــ ٤٩ (٥) Prutz 54
(٦) الفتح ٧٣ (٧) الخطط ٤ــ ٧ و٣٨ « اول دار انشئت للقرآن سنة ٤٤٤ هـ » (٨) الخطط ٤ ــ ٣٨
(٩) منها ابو الفرج العبري المؤرخ . راجع الخطط ٤ــ٣٩ (١٠) الخطط ٤ــ٣٨ عن فان برشم (١١) ابن النديم في الخطط ٤ــ٣٨ (١٢) القاضي الفاضل في الخطط ٤ ــ٣٩ (١٣) الفتح ١٢١ والنوادر السلطانية ٧ (١٤) الخطط ٤ ــ ٣٩ (١٥) الخطط ٤ ــ ٤٤ (١٦) الخطط ٦ ــ ١٦٢ــ١٦٣ (١٧) الكلية ١٨ مقال للسيد طيباوي عن « اخوان الصفا » (١٨) نفس المكان (١٩) نفس المكان

جبال النور

لصبحي جلبي

بمصلحة السكك الحديد المصرية

ان العمل بالمراصد الفلكية الرئيسية في أنحاء الكرة الارضية قائم الآن على قدم وساق لوضع خريطة مساحية لتخطيط السماء (Great Star Map) فآلة التصوير تعمل مضافة الى المرقب (التلسكوب) بجد ونشاط والمديرون يديرون دفة الاعمال بهمم عالية ومساعدوهم يدأبون أثناء الليل واطراف النهار . ومع ان هناك صعوبة تذكر في تصوير النصف الجنوبي من السماء لقلة عدد المراصد الفلكية في نصف الكرة الارضية الجنوبي وعدم انتظام مواقعها الجغرافية بالمقابلة مع نصف الكرة الارضية الشمالي ، فقد بلغ عدد النجوم التي تمّ تصويرها فعلاً حوالي عشرين مليون نجم ، ولا تستغربنَّ فمسألة تسجيل عددِ النجوم أصبحت سهلة الآن بفضل استعمال الجهاز المسمى (Billiard Marker) المستعمل عادةً عند كبار هواة البلياردو فبينما الفلكي يحرك لوحاته تحت المرقب بأحدى يديهِ وهو « سهران يعد النجوم » يمكنه باليد الاخرى أن يضغط على زنبركات الجهاز ضغطات تسجل كل منها عدداً معيناً من النجوم التي يكون قد عدّها من دون أن يحوّل نظره البتة عن لوحاته فيتم العمل على هذا الوجه بسرعة وضبط مقطوعي النظير . ويقول اولو الامر أن تلك الخريطة المساحية العامة ينتظر أن تقع في جملة لوحات (Charts) لا يقل عددها عن ٣٠٠٠٠ لوحة لو وضعت بعضها فوق بعض لبلغ ارتفاعها اكثر من تسعة أمتار ولبلغ وزنها طنّين كاملين

وهنا ربما سأل سائل ما هو مجموع عدد النجوم التي ينتظر ان تحويها تلك الخرائط المكدسة بعضها فوق بعض في النهاية يا ترى ؟

يعتقد الفلكي الشهير الدكتور شابلي الاستاذ بجامعة هارفرد ومدير مرصدها Dr. Shapley أن عدد نجوم المجرة وحدها Milky Way — ونظامنا الشمسي جزء منها — يبلغ مائة الف مليون نجم ويعتقد وغيره من الفلكيين أن عدد نجومها يربي على ثلاثة أمثال هذا الرقم . وليست مجرتنا هي المجموعة النجمية الفردة في الكون لا بل من المسلم بهِ أن بواسطة تلسكوب مرصد جبل ولسن — وقطر مرآته العاكسة مائة بوصة — يمكن الوصول الى نحو مليوني مجرة كمجرتنا منثورة كالجزر في بحر الفضاء . فمجرتنا اذن كما قال الفلكي العظيم السر جيمز جينز Sir James Jeans ما هي الاّ منزل واحد من ملايين المنازل وأسرة واحدة من ملايين الأسر النجومية (السدم) ، فلو قلنا بعد ذلك أن مجرتنا تحوي أكثر نجوم السماء كان مثلنا مثل من قال أن منزلاً واحداً يحوي سكان بريطانيا العظمى بأسرها

والآن دعنا نضرب صفحاً عن عدد المجرات التي سوف نراها اذا ما تمّ بناء التلسكوب الجديد الذي سوف يكون قطر مرآته ٢٠٠ بوصة والذي قيل أن من المنتظر الوصول بهِ الى ١٦ مليون مجرّة ٠ودعنا نتساهل الى أبعد حد ممكن ونعتبر فرضاً ان ليس في فضاء هذا الكون الفسيح الرحيب سوى مجرتنا العظيمة والمليوني مجموعة من المجموعات النجمية التي ترى بواسطة تلسكوب مرصد جبل ولسن فكم يكون مجموع النجوم التي ينتظر أن تحويها صحائف مجلدات الخريطة النجومية الكبرى الجاري وضعها الآن ؟

ان مجرتنا كما قال الدكتور شابلي تحتوي على مائة الف مليون نجم اما كل مجرّة من المليوني مجرّة الاخرى فتتكوّن على الارجح من الفي مليون نجم في المتوسط فيكون المجموع هكذا :

مائة الف مليون نجم + ٢ مليون مجموعة × الفي مليون نجـم = ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠

+ ٢ ٠٠٠،٠٠٠ × ٢ ٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ = ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠

+ ٤ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ = ٤٠٠٠١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ نجم !

هنا دعنا نسلّم جدلاً ان تلك النجوم والكواكب والشموس التي يفوق حجم كثير منها حجم شمسنا مئات المرّات قد تضاءلت وانكمشت حتى اصبح حجم الواحد منها لا يزيد عن حجم البرتقالة العادية ودعنا ايضاً نصدّق ما لا يمكن لعقولنا تصديقه من ان تلك البرتقالات اللوامع قد هبطت جيمها بسلام على سطح كرتنا الارضية فكم يكون حجم تلك البرتقالات اذا ما تراكمت بعضها فوق بعض او قل معي كم يكون حجم «جبال النور» المتلألئة التي سنراها يا ترى ؟

اننا لو قدّرنا ان قطر البرتقالة العادية يساوي ثمانية سنتيمترات لكانت هذه البرتقالات الساطعة اللامعة مجتمعة بعضها فوق بعض على شكل مكعب متساوي الاضلاع تساوي ما يأتي : —

٤٠٠٠١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ × (٨ × ٨ × ٨) = ٢٠٤٨٠٥١٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠٠٠٠ س م٣

اي ٢٠٤٨٠٥١٢٠٠ ٠٠٠ متراً مكعباً اي اكثر من ٢٠٤٨ كيلو متراً مكعباً.

اي ان « جبل النور » هذا يبلغ طوله ١٢،٧٠٠ كيلو متر وعرضهُ ١٢،٧٠٠ كيلو متر وارتفاعه كذلك ١٢،٧٠٠ كيلو متر . فتأمل !!

واذا تراصّت هذه البرتقالات على شكل هرمي لبلغ حجم هذا الهرم ما يأتي :— نفرض ان عدد صفوف هذه البرتقالات اللوامع المتراصة على شكل هرمي هو «ن» فيكون ٤٠٠٠١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ برتقالة = ⅙ ن (ن + ١) (٢ ن + ١) قانون ومن هنا ينتج أن « ن » اكبر من ٢٢٨٩٤٤ واصغر من ٢٢٨٩٤٥ اي ان الصف الاخير عند قاعدة هذا الهرم البرتقالي يحتوي على ٢٢٨ ٩٤٤² برتقالة ولما كان قطر البرتقالة هو ثمانية سنتيمترات فرضاً

فاذن : طول ضلع القاعدة المربعة لهذا الهرم الموهوم يساوي : —

٢٢٨ ٩٤٤ × ٨ = ١٨٣١٥٥٢ سنتيمتراً اي ١٨٣١٥ متراً

[التتمة في الاخبار العلمية]

عالم المستقبل العجيب

مستقبل الحرب والملبس والمأكل

[أهم ما جاء في محاضرتين أذاعهما رئيس تحرير المقتطف من محطة الاذاعة اللاسلكية المصرية في شهري مارس ومايو الماضيين وحقائقهما منتزعة في الغالب من كتاب « ولادة المستقبل » لرتشي كالدر و « عالم المستقبل العجيب » للاستاذ لو و « شكل الاشياء القادمة » للكاتب الانكليزي ولز. وقد نشر الجانب المتوسط الخاص بمستقبل الحروب في مجلة الراديو المصري]

١ — الانباء بالمستقبل

اذا تصفحنا برامج التعليم بوجه عام تبينا لدراسة التاريخ فيها مقاماً عالياً . ولكننا قلما نجد ذكراً لدراسة المستقبل . بل لو قال أحد المتحمسين ان المستقبل ، يجب أن يدرّس في المعاهد لقوبل قوله بالازدراء والاشفاق على عقله ولقيل في الرد عليه: « ان كل صبي يقرأ أقاصيص الروائيين أمثال قصص جول فرن وحكايات ولز العلمية وما هو من قبيلها ولكننا لا نستطيع أن نقيم وزناً لدراسة هذه الموضوعات ولا أن نعني بها عناية جدية . أما دراسة التاريخ فتختلف عن دراسة المستقبل لانها تتناول حوادث معينة نعلم حق العلم أنها وقعت في الماضي

الا أن طائفة كبيرة من المفكرين أصبحت ترى رغم هذا الاعتراض أن المستقبل يمكن أن يدرّس في المعاهد . وان دراسته لا تقل في دقتها عن الدقة في دراسة الماضي . وانها على كل حال أجدى وانفع . فنحن اذا عجزنا عن تغيير الماضي فالاهتمام بالمستقبل قد يكون ذا شأن يسير في تحويل مجراه

ولرب معترض يقول : كيف تستطيع أن تعرف ما قد يقع في السنة القادمة ، دع عنك ما قد يقع بعد خمسين سنة أو بعد مائة سنة ؟

والرد على ذلك انهُ أيسر على العلماء ان يعرفوا ما ينتظر حدوثه بعد خمسين سنة من أن يعرفوا ما قد يحدث في السنة القادمة . وما يصح على دراسة المستقبل من هذا القبيل يصح كذلك على دراسة الماضي . فكتابة تاريخ السنة الماضية أشق من كتابة تاريخ لعهد الملك ادورد مثلاً . فقد يكون الحادث الاهم في السنة الماضية حرباً نشبت بين دولتين كبيرتين . ولكن اذا كتب تاريخ السنة الماضية

بعد خمسين سنة ، فقد لا يقرأ حفدتنا عن هذه الحرب الا بضعة سطور . وقد يكون المقام الاول في تاريخ السنة الماضية حينئذٍ، لاكتشاف وسيلة وافية لخزن الطاقة الكهربائية. فقربنا لحوادث السنة الماضية يحير نظرنا ويجعل وزن الامور بميزانها الحقيقي من أعسر الاعمال بل من الاعمال المتعذرة

وقد كانت دراسة التاريخ الى عهد قريب تتناول الحروب وتتويج الملوك في الغالب . ورب تاريخ فتح أو غزوة او تتويج يتعلمه جميع طلاب المدارس على انهُ من حوادث التاريخ الخطيرة لا يقابل من حيث أثره في العمران بمكتشفات فرادي الكهربائية بل لا يقابل بأحدها . فنحن نعلم ان أحد ملوك فرنسا قطع رأسه في الثورة الفرنسية ، ولكن حادثاً اخطر شأناً من هذا الحادث ، وهو اعدام لافوازييه الكيماوي ، قلما نراه مذكوراً في تواريخ الثورة الفرنسية او اذا ذكر فانه يذكر عرضاً أو في الهامش

فالكتابة عن المستقبل يسهل فيها اجتناب مثل هذه الاخطاء . فلست تجد عاقلاً يجرؤ ان يقول لك من يكون رئيساً للولايات المتحدة الاميركية بعد خمسين سنة ، ولا هو يستطيع ذلك . ولكن من المستطاع أن نتصور كيف تكون معيشة الناس بعد قرن من الزمان او بعد عشر قرون. في وسعنا ان نعرف على وجه من الدقة ، الطعام الذي يأكلون والملابس التي يرتدون والسيارات التي يمتطون ، وهذا كله وما هو من قبيله أخطر شأناً من تتويج الملوك وسقوطهم وانتخاب الرؤساء او اخفاقهم في الانتخاب . ان لافوازييه اخطر شأناً من الملك لويس السادس عشر . واقليدس وارخميدس أبعد اثراً في العمران من جميع الملوك والقواد في عصرهما

ان الكتابة عن المستقبل ليست حزراً يوفَّق او يخطئه التوفيق . فاذا قلت لك انك سوف تربح الجائزة الاولى في نصيب المؤاساة في السنة القادمة او اذا قلت لكِ انكِ سوف تتزوجين رجلاً مديد القامة أسمر اللون كان عملي من قبيل الحزر . وفي بعض القوانين في بعض البلدان ما يعاقب على هذا العمل . ولكن اذا اكدت لكم انهُ بعد انقضاء قرنين من الزمان لا تجد قطع الفحم الا في دور الآثار وان الناس في سنة ٣٠٠٠ ب م قلما يعرفون ما هو الدخان المتصاعد من المصانع لا أبني قولي على الحزر . بل اكون عارضاً رأياً مبنيًّا على دعامتين من الحقائق المعروفة المؤيدة الآن وما يرجح ترجيحاً علميًّا اننا سوف نبلغه في المستقبل. وهذا هو صميم الاسلوب العلمي . خذ مثلاً على ذلك تزايد سرعة الطائرات في سباق شنيدر . فاذا نحن دوّنا سرعة الطائرات التي فازت بالكاس في العشرين السنة الاخيرة ، والسنوات التي فازت فيها استطعنا أن نعرف على وجه من الدقة ما قد تبلغه سرعة الطائرة الفائزة في السباق المقبل اذا تم هو او ما كان من قبيله ، وقد جربت هذه الطريقة في السباق الاخير وعينت سرعة الطائرة الفائزة قبل السباق على هذا الاساس فلما عرضت سرعة الطائرة الفائزة فعلاً ظهر أن التقدير اخطأ ٢ في المائة فقط

ويمكن استعمال هذه الطريقة في جميع نواحي الحياة فنبني على النتائج التي تسفر عنها صورة

المستقبل . ومن الواضح أن التقدير في مسائل يشوبها شيء من الغموض مثل ملابس الناس ولغاتهم لا يمكن أن يكون دقيقاً في تفصيلاته فيكتفى فيه بالخطوط العامة

٢ – الحروب

يقول بعض الكتّاب ، ان حروب المستقبل ، سوف تكون اشد ترويعاً ، واكثر اهوالاً من حروب الماضي . ولكن طائفة العلماء ، بوجه عام ، لا توافق على هذا الرأي . لا ريب في ان الحروب المقبلة سوف تكون فتاكة ، شديدة الفتك — وقد كانت الحروب جميعها كذلك — ولكن العلماء يقولون ، ليس الموت طعناً بالرماح ، اسهل من الموت اختناقاً بالغاز . على ان هذا ليس بالامر المهم . بل المهم ان واضعي الخطط الحربية في المستقبل ، سوف يدركون ان الظفر في حروب في المستقبل لن يكون بتقتيل بعض الجنود في الخنادق . لذلك ينتظر ان تتجه انظارهم اولاً وقبل كل شيء الى العقد العصبية في جسم الامة ، الى المصانع التي تجهز الجيش بل وسائر طبقات الامة ، بالغذاء من جهة وبوسائل الكفاح من جهة اخرى . وعلى ذلك لا بد ان يزول الفرق في الحروب المقبلة ، بين فريق المحاربين من الامة الواحدة ، وفريق غير المحاربين

فاذا قلنا وما ذنب غير المحاربين حتى يعرّضوا لوسائل التقتيل ، قيل لنا لان غير المحاربين عليهم العمدة في تجهيز المحاربين بالقنابل والطيارات والغذاء ، فهم والمحاربون سواء . فاذا منعنا غير المحاربين عن صنع الاسلحة والغذاء ، تعذر على المحاربين ان يحاربوا

ولذلك ينتظر ، في مفتتح حروب المستقبل ، ان تتجه وسائل الهجوم — وهي الطيارات في الغالب — الى العقد العصبية في جسم الامة ، ترميها بالقنابل المنفجرة ، فتدمر المصانع ، وبالقنابل المحشوة بالغازات والجراثيم ، فتميت الاهلين . والدليل على ذلك الاتجاه ، ان بعض الدول التي تخشى الحروب ، اخذ يمرن ابناءه على استعمال الكمامات التي تقي من الغاز . هذا من حيث خطة الحروب المقبلة بوجه عام

***

أما من حيث وسائلها فمن المتعذر تعيينها الآن ، لأن وسائل الحروب تتأثر الى حد بعيد بالاختراعات التي تكون سائدة عند نشوبها . في سنة ١٩٠٠ مثلاً ، كتب أحد الكتّاب فقال إنه من المنتظر أن يكثر استعمال العجلة (البسكليت) في الحروب القادمة . ولكن قبلما نشبت الحرب الكبرى كانت قد استنبطت السيارات والطيارات واتقن صنعها الى حد ما ، فكانت في مقدمة الوسائل التي اعتمد عليها في الحرب الكبرى وقلما استعملت العجلات الا ما كان يسير منها بآلة شبيهة بآلة السيارة (الموتوسيكل)

ولما كانت هذه الوسائل تحتاج الى البنزين في تسييرها ، كان للبنزين اكبر مقام في الحرب . لذلك لما قلّ البنزين في فرنسا في خلال الحرب بعث كلمنصو الى الرئيس ولسن تلغرافاً يناشده فيه العناية بالامر ، فقال — ولم يكن مبالغاً من الوجهة العسكرية — «ان كل قطرة بنزين بمثابة قطرة من الدم»

ولكننا قد لا نحيد عن حدود المنطق العملي اذا قلنا ان الطيارات سوف تكون من أهم وسائل الحروب المقبلة . والصورة المروعة التي يرسمها الكتّاب لاستعمال الطيارات ، هي كما يلي في الغالب : لا تكاد تنشب الحرب ، حتى تتجه أساطيل الطيارات حاملة قنابل منوّعة ، فمنها ما يكون محشوًّا بالمواد المتفجرة فتدمر ما تقع عليه ، ومنها ما يكون محشوًّا بالغازات والجراثيم فيفتك بالناس. ويرجح بعض العلماء ان المخترعين يكونون قد تمكنوا في المستقبل من اختراع وسائل لتخفيف ازيز الطيارات ، ووسائل اخرى تمكنها من الارتفاع اسراباً الى علو عشرين الف قدم ، ابتعاداً عن المدافع الخاصة باطلاق النار على الطيارات ، ومن ذلك العلو الشاهق تلقي قنابلها المختلفة على المراكز الصناعية المهمة

ولا ريب في ان طيارات الدفاع تكون قد اتقنت كذلك . فتستطيع ان تحلق تحليق طيارات الهجوم ، وان تسرع إسراعها ، وان تجهز بنوع جديد من القنابل على مثال الطوربيد الذي تطلقهُ الغواصات على السفن ، لترمي بها الطيارات الضخمة المهاجمة

والمرجح ان يكون لاشعة الراديو ، اي الاشعة اللاسلكية ، أثر في هذه الناحية من نواحي الحرب . فقد جرب بعضهم التجارب لتسيير البوارج والطيارات من بعيد بواسطة الاشعة اللاسلكية . ذلك ان البارجة تكون خالية من الربان والبحارة ، والطيارة تكون خالية من السائق ومعاونه ، ولكن كلتيهما تحتوي على جهاز خاص ، يتأثر بنوع معين من الامواج اللاسلكية . فتطير الطيارة من ارض المطار بتوجيه هذا النوع المعين من الاشعة اليها ، ثم اذا ارتفعت الى علو معين استطاع الرجل الجالس في غرفة على الارض ان يسيّرها يميناً او شمالاً ، الى ان تبلغ مكاناً معيّناً على الخريطة امامهُ ، فيضغط حينئذٍ على زرّ امامه ، فتلقي الطيارة قنابلها من تلقاء نفسها

وما يصح على الطيارة يصح كذلك على البارجة

هذه الاعمال لا تزال في دور التجارب الآن . ولكنها في الغالب تصبح من الوسائل العملية بعد خمسين سنة على الاقل ، ان لم نقل قبل ذلك

ويقول أحد العلماء ان من وسائل حروب المستقبل حصوناً تبنى في الهواء . وهنا قد يعترض معترض فيقول وكيف يكون الحصن في الهواء ، والاصل في الحصن ان يكون راسخاً في الارض ، متين البناء لا تزعزعه القنابل ولا يدمره وقعها عليه

والواقع ان الأصل في الحصن هو الذي تقوله المعترض . فاعتراضه في محله . ولكننا أشرنا الى ان أهم سلاح في المستقبل سوف يكون سلاح الطيارات تلقي قنابلها من الجو ، واذاً تحتاج كل

مدينة كبيرة ، أو كل مركز صناعي ، الى وسيلة تمكنها من صد إغارات الطيارات . لذلك يقترح بعض العلماء أن تبنى حصون تحمل في الجو على اكياس صغيرة من الهليوم . والهليوم غاز خفيف لا يلتهب اذا مستهُ النار . أما الاكياس فيجب أن تكون كثيرة وصغيرة ، لانها اذا كانت كبيرة وقليلة ثم خرقت أحدها رصاصة ، مال الحصن الهوائي وفقد توازنه . أما اذا كانت صغيرة فاختراق كيس هنا وكيس هناك، لا يؤثر هذا التأثير في فقد توازن الحصن . وينتظر أن يجهز الحصن الهوائي الذي من هـذا القبيل ، بمدافع لها قنابل تمزق ما تصيبه وتحدث فيه لهيباً ، فاذا اقترب الأسطول الجوي المهاجم من احدى المدن ، كان هذا الحصن على علو كاف يمكن رجاله من اطلاق القنابل على الطيارات المهاجمة ، حالة ان المدافع في الحصون الارضية لا تستطيع أن تبلغها

ومن القنابل التي ينتظر أن تستعمل في مدافع هذه الحصون الجوية قنابل تحتوي على الغاز . ولكنهُ ليس بالغاز السام ، لأن طياري الاعداء يكونون لابسين على أفواههم وأنوفهم كمامات تقيهم منهُ ، ولكنه يكون غازاً يلتهب بشرارة صغيرة . فتطلق القنابل على الطيارات ثم تشعل بشرارة خاصة فتلتهب ، والتهابها يعرقل عمل الطيارين المهاجين أولاً ، ثم ان تمدد الهواء بالتهاب الغاز يقلقل الطيارات نفسها

ومن أسلحة الحرب القادمة جهاز جهنمي يجمع بين مبدإ الدبابة (التنك) ومبدإ الغواصة . فتبنى دبابات ولهـا حجر لا يخترقها الماء ولها كذلك محركات كمحركات السفن . فاذا اعترض الدبابة نهر عريض اجتازته عوماً كأنها سفينة من السفن . ثم إذا بلغت الضفة الاخرى ، استأنفت سيرها على عجلاتها والسير الذي يحيط بالعجلات

بل قد جمع بعض المستنبطين بين الغواصة والطيارة. واليكم ما كتبه أحد الكتّاب الحربيين قال :
رؤي من عهد قريب منظار غواصة فوق سطح البحر كأنه كرة صغيرة على وجه المـاء . ثم ما لبثت الكرة ان كبرت رويداً رويداً حتى أصبحت برجاً من الابراج التي ترى فوق دكات الغواصات . وبعـد بضع ثوان ظهرت الغواصة على سطح الماء، ثم فتح البرج وخرج منه بعض الضباط واخرجوا طيارة مطوية الجناحين . فنشروا جناحيها ووضعت على رأس منحدر فجرت عليه قليلا ، واذا هي في الهواء فيها سائق يديرها ووراءه ضابط المراقبة . فحومت نحو نصف ساعة حول الغواصة ثم عادت ورست قربها . ثم رفعت وطوي جناحاها وأعيدت الى مخبئها . وبعد ذلك غاصت الغواصة تحت الماء فغابت بغتة عن النظر كما ظهرت بغتة »

وهم الآن يجربون تجارب خاصة في صنع طيارات ضخمة لمكافحة الغواصات وهي غائصة في الماء ، بواسطة قنابل فعالة تعرف بقنابل العمق ، حتى اذا رأى رجال الطيارة غواصة تحت الماء ، اطلقوا هذه القنابل عليها فتستطيع ان تمزق دروعها ولو كانت غائصة

وقد تصور المستر ولز ، الكاتب الانكليزي المشهور ، وسيلة فعالة عجيبة ، يرى انها سوف

تكون من وسائل الحروب المقبلة . ومع ان ما تصوره مبني على الخيال في الغالب ، فليس ثمة ما يمنع تحقيقه من الناحية النظرية . فقد تصور المستر ولز مركباً كيماوياً تنثره الطيارات كرشاش الماء فوق بقعة من الارض ، فيصيب أجسام الاحياء من نبات وحيوان وانسان ، فتصاب بالعقم اي تصبح عاجزة عن التناسل ، فاذا انقضت بضع سنوات ، اصبحت المنطقة التي رش فوقها هذا الرشاش قاعاً صفصفاً . ومن الصفحات المروعة في كتابه (شكل الاشياء القادمة) وصفه لحملة الجراثيم ، التي بثت فيها جراثيم الاوبئة المختلفة : كالانفلونزا ، وانواع الحميات ، والكوليرا ، والطاعون

***

على ان بعض الكتاب يرى ان الحكومات في حروب المستقبل ، لن تكتفي بأساليب الفتك المادية كالقنابل ، والغازات والجراثيم ، بل سوف تعمد الى الوسائل النفسية السيكولوجية التي تقوم عليها فنون الدعاية . فتبني احدى الحكومات مثلاً ، محطة راديو عظيمة القوة ، تذيع بها دعاية قائمة على اصول نفسية ، غرضها ان تضعف القوى المعنوية في ابناء الامة التي تحاربها . وقد تعمد الى اساليب التلفزة — اي الرؤية عن بعد بالامواج اللاسلكية — فتمثل في « استوديو » خاص بالسينما ، مشهد انخذال اصيب به جيش العدو ، وتذيعه بآلة التلفزة ، على انهُ مشهد واقع ، فتفتُّ في عضد الشعب الذي خذل جيشه .

ومما لا ريب فيه ، ان تاريخ الحروب قد أثبت ، ان كل اسلوب جديد للهجوم ، يقابله ويماشيه اسلوب جديد للدفاع . فزيادة القوة في قنابل المدافع ، تقابلها زيادة السمك في الدروع . واستعمال الغاز يقابله استعمال الكمامات التي تقي من الغاز . والطيارات المهاجمة ، تقابلها طيارات الدفاع السريعة ، والدعاية اللاسلكية ، تقابلها دعاية مثلها او طريقة علمية لتشويش الدعاية المذاعة وعدم فهمها

اشار الفلاسفة وبعض الساسة الى الحرب التي تقضي على الحرب . ولكننا لن نفوز بحرب تقضي على الحرب ، ما زلنا كلما اخترع اسلوب للهجوم والفتك ، اخترع اسلوب يقابله للوقاية والدفاع . ليس يقضي على الحرب الاَّ التعليم والتثقيف ، والاَّ البيان للناس بأن مصلحتهم افراداً وجماعات تقتضي السلام والوئام

٣ — الملابس

لا يختلف اثنان في أن اللباس والغذاء من ضرورات الحياة . ولعلَّ بعض النساء يرى أن اللباس مقدَّمٌ على الغذاء ، في خطورة الشأن وعلو المقام . فكتاب الغرب يحدثوننا ، انه لا يندر في حواضر البلدان الاوربية والاميركية ، ان تستغني الفتاة العاملة عن الغذاء الوافي ، لتشتري بما توفره من ثمن الطعام ، جوارب حريرية تكسو ساقيها ، أو ثوباً على آخر طراز . وليس يندر بيننا في الشرق ان يضطرَّ ربُّ البيت الى الكدح ، أو ربّة الاسرة الى التقتير ، لكي تهيأ للسيدة فرصة

مجاراة اخواتها اللواتي هنَّ أيسر حالاً منها ، في ملابسهنَّ . بل لعلَّ موضوع الأزياء في الفصل القادم أو السنة القادمة ، واللون الغالب ، والنسيج المفضَّل ، من الموضوعات التي تستغرق اكبر جانب من عناية السيدات ووقتهنَّ . والعالِم يهتمُّ بالازياء كذلك . ولكنه يهتمّ بها من ناحية ما ينتظر ان تكون عليهِ ، بعد مائة سنة أو خمسمائة سنة . ويهتم كذلك بالمواد التي تصنع منها الملابس ، من حيث نسجها ولونها ودفئها واجتماع الشروط الصحية فيها ، رغبة في توفير كل ما يجب ان يتوافر فيها ، على أيسر حال

***

كان الغرض الاصلي من الملابس ، تجهيز الجسم بالدفء ووقايتهُ من تقلُّب الجوّ . ومن المحتمل ان تعود الملابس في المستقبل ، الى مكانتها الاولى في حياة الانسان ، فيصبح غرضها الدفء والوقاية فقط ، لا الزينة ، اذ لا يخفى انهُ انقضت قرون تليها قرون ، كان في خلالها الغرض الاول من الملابس الزينة لاستيقاف نظر الجنس المقابل . ولكن رأي الناس في المستقبل سوف يطرأ عليهِ تحوُّل وانقلاب . فالريش الثمين في قبعة سيدة ، أو على صدر فستانها ، وقطع التخريم الملونة الزاهية ، في اماكن ظاهرة من الملابس ، وتلوين الاظافر أو تفضيضها أو تذهيبها ، سوف ينظر اليها في المستقبل ، على انها طِعمٌ جنسيٌّ ، لا اكثر ولا أقل . فتوضع المرأة التي تستعملهُ ، في طبقة واحدة ، مع الطيور والفراش ، التي تعتمد على أمثال هذه الاساليب ، لمثل هذا الغرض البيولوجي

والراجح أن مبتكري الازياء ، يكونون قد زالوا من الوجود حينئذٍ ، بعد أن اصبح الزيُّ واحداً في كل مكان للنساء والرجال ، لأن الغرض من تفصيل الملابس ، في ذلك العهد البعيد ، سوف يكون الفائدة لا الزينة وجمال المظهر . هذا على الاقل ما يقولهُ العلامة الانكليزي الاستاذ لو في كتابهِ عالم «المستقبل العجيب» . ولما كان محدثكم ، انساناً ، تحركه رؤى الجمال فانهُ يرجو الاَّ تصح نبوءة الاستاذ لو في حياتهِ ، ولو كان ذلك على حساب الاقتصاد والفائدة

والفائدة في تفصيل الملابس تقتضي اموراً يحتمها العلم ، منها حسن التهوية للجسم المقمَّط لحفظ الجلد سليماً ، ومنها سهولة اختراق الاشعة لنسيج الملابس ، من فساتين وبدلٍ ، حتى نستفيد ونحن مرتدون الثياب ، الفائدة التي ينشدها طلاَّب الرياضة على الشواطىء البحرية ، في ضوء الشمس والهواء الطلق . أما الضعف المستكنُّ في الطبيعة البشرية ، الذي يسهل على مشعوذي الخياطين والخياطات ، أن يملوا على الجماهير ، أزياء الفصل المقبل ، ويفرضوا عليهم ما يجب أن يلبسوا وكيف يجب أن يلبسوه ، فنكون قد تغلبنا عليهِ ، بالتعليم والتثقيف ، لانهُ قد لا يصعب ان نقنع الجنس اللطيف في المستقبل ، بأن استعمال الملابس لما يستعملنها لها ، أي للزينة واستيقاف نظر الرجال ، يضعهنَّ في صفٍ واحدٍ مع بعض الحيوانات والنباتات ، وانَّ كرامتهنَّ لا تحتمل الموازنة من

هذا القبيل ، مع الحيوانات والنباتات ، لأن بعض الأزهار ، أو جميع الأزهار ، تظلّ تفوقهنّ اضعافاً مضاعفة في ابتكار الوسائل العجيبة لاجتذاب النحل والطير

***

يرجح العلماء ان اتساع معرفة الانسان باسباب تقلُّب الجوّ ، سوف تمكنهُ من السيطرة ، عليهِ بعض السيطرة ، وعندئذٍ يصبح من الضروري جعل الملابس ، من نماذج قليلة ، متماثلة ، رغبة في التوفير والاقتصاد . اذ لا يصحّ أن يكون في متناولنا ، جعل الحرارة في غرفةٍ ما موافقة لسيدة مرتدية أوهى الحرير ، حالة أن زوجها في الغرفة نفسها يرتدي بذلة من الصوف الكثيف . فملابس الناس فيالعصر الحاضر لم تصنع لتكون ذات صلةٍ ، بحالة الجوّ على الاطلاق . فملابس الرجال تزهق النفوس فيأيام الحرّ ، وتضيق أطواقهاعلى رقابهم ، وتشدّ أحزمتها على معدهم.ثم أنها ليست صحية على الاطلاق في أيامالبرد ، فبضع قطرات من المطر ، تحوّل القميص المكوي والياقة المكوية الى خرق مبللة ، والطربوش القرمزي الجميل،الىسطح قرمزي مجدور.حتى فيايام الشمس الطالعة،تحجب ملابس الرجال عن أجسامهم الاشعة المفيدة ، المنطوية في ضوء الشمس ، الاّ عن ايديهم ووجوههم ، وهذا يمهد سبيل الثروة لبعض الاطباء الذين يعالجون الناس بأشعة مصنوعة او مولدة في المعمل ، وهي نعم الفضاء مباحة للصالحين والطالحين على السواء . اما النساء فأفضل حالاً من الرجال من هذه الناحية لكثرة ما يكشفنَ في ايام الدفء أوالحر عن سيقانهنّ وأذرعتهنّ ونحورهنّ

من المحتمل ان يوفق علماء الكيمياء في المستقبل الى صنع نسيج شفاف للاشعة التي فوق البنفسجي فيضوء الشمس . فزجاج شبابيكنا ، شفاف للضوء ، ولكنهُ يحجب هذه الاشعة المفيدة. اي اذا كشف احدنا عن صدرهِ ، وجلس في ضوء الشمس وراء زجاج نافذة مقفلة ، لا يجني من ضوء الشمس الفائدة التي يجنيها لو تعرض له في العراء على شاطىء البحر . ولكن العلماء تمكنوا في العهد الاخير ، بعد البحث والامتحان ، من صنع زجاج يأذن للاشعة التي فوق البنفسجي ، في اختراقهِ . وهو زجاج غالي الثمن ولا يستعمل الآن الاّ في المصحات . ولذلك فليس من المستحيلات صنع نسيج للملابس من قبيل هذا الزجاج العجيب

عندئذ يصبح غرض الذين يعهد اليهم في تصميم الملابس الصالحة الموافقة للحياة في المستقبل ان يصنعوها على ابسط مثال ، حتى يسهل خلعها وتعقيمها ، على اهون سبيل . لان ناس المستقبل، رجالاً ونساء ، لن يسلموا بانفاق ساعتين او ثلاث ساعات كل يوم ، في لبس الملابس المؤلفة من قطع كثيرة صغيرة ، وخلعها . وهي في تعدد طياتها من اصلح ما يكون لتجمع الغبار في ثناياها وما يحمله الغبار من المكروبات . اذ لا يندر حتى في عصرنا هـذا من يدعي ان وقته من ذهب وان كل ساعة من وقته تعدل جنيهاً او بعض جنيه او اكثر من جنيه . أفيدري من يدعي هذا الادعاء ، انهُ ينفق كل سنة ما متوسطه خمسمائة جنيه الى سبعمائة جنيه على الاقل في لبس الملابس

وخلعها ، اي انه ينفق ما متوسطهُ نحو ساعتين في اليوم على شؤون اللبس ومقتضياته

ويتخيل الاستاذ لو ثوب المستقبل مؤلفاً من قطعة واحدة ، لا احزمة فيهِ ولا ازرار ولا كشاكش ولا ياقات ، يحكم اقفاله عند المعاصم والكواحل والنحور ، لمنع القذر من التطرق الى داخله . ويكون الثوب فضفاضاً ، لانه ليس من حسن الادب في شيء ان يكشف الانسان لجيرانه عن شكل جسمه ، على نحو ما تفعل بعض بنطلونات الرجال الآن وبعض ملابس النساء

وعلاوة على ذلك يكون الناس قد تعلموا حينئذٍ ان الهواء نفسهُ خير مدفيءٍ للجسم ، وان الملابس تلبس لا لتدفئ الجسم ، بل لتحفظهُ دافئاً

ثم ان لبس البدلة الواحدة في المستقبل ، يومين متواليين ، من دون تعقيمها ، سوف يحسب عملاً افظع من الجلوس الى مائدة الطعام من دون غسل الايدي ، بعد ان يكون صاحبها قد لوثها بضروب الاقذار في خلال قيامهِ بعملهِ اليومي . وقد لا يبعد ان يعمد والدو المستقبل الى المكرسكوب ، فيرون اولادهم ، جوارب هذا العصر واحذيتهُ وقمصانه ومعاطفه ، او قطعاً من هذه كلها على شريحة المكرسكوب . فعندئذٍ يرى الاولاد هذه الملابس ، وسطوحها تعج بضروب المكروبات فاذا هي اقذر من القاذورات نفسها في نظر العلماء او مثلها على الاقل . وعندئذٍ يتعجب ابناء العصور القادمة ، كيف كنا نحن ، في هذا العصر ، في القرن العشرين ، نلبس ملابس هذا شأنها

ولذلك لا يبعد ان يستنبط في المستقبل ، معقم ، في شكل خزانة كبيرة ، توضع فيها الملابس مساء عند خلعها ، فيطلع عليها الصباح ، فاذا هي نقية من المكروبات ، لان المكروبات تكون قد قتلت في المعقم ، على نحو ما يميت الطبيب المكروبات على ادوات جراحتهِ عند ما يعقمها

***

وقد يكون من الخير ، اذ نبين ان المشي باحذية عالية الكعوب ، يضعف عضلات البطن ، ويجعل أصابع القدمين ، قرنية مشوهة وتبعث على كثير من الالم وعلى الاشمئزاز كذلك عند ما تطل من احذية الصيف الخاوية . فاحذية النساء في المستقبل لن تكون عالية الكعوب . ثم ان الفراء على اختلاف انواعها سوف تفقد قيمتها متى ادرك العلماء والصناع ، كيف يصنعون الفرو بالتركيب الصناعي على نحو ما يصنعون الحرير الصناعي الآن . فاذا مضى العلماء في مباراتهم للطبيعة في صنع الحجارة الكريمة فقد يكون العاج في المستقبل ، افضل ما يتزين بهِ ، حتى يكشف عن سر تركيبهِ في المعمل . ولما كان من المرجح ان استعمال النظارات على العيون ، سوف يزداد انتشاراً ، حتى لقد يصبح عامّاً في المستقبل ، فالمرجح ان استعمال المظلات في الصيف او في الشتاء يصبح حينئذٍ امراً ممنوعاً بقانون ، لان استعمالها ينطوي على خطر عظيم في الشوارع والميادين المحتشدة بالناس . ولما كان الصلع كذلك آخذاً في الانتشار — حتى لقد يصبح عامّاً بين الرجال على الاقل — فلا بدَّ من استنباط لباس للرأس يقيهِ من الشمس والمطر . وقد يكون هذا اللباس في البلدان الباردة

مما يدفئاً داخله بالكهربائية باسلاك دقيقة ممتدة من بطرية صغيرة في الجيب . اما عادة رفع القبعات للنساء عند الالتقاء في الشوارع او في المركبات العامة ، فسوف تبطل ، لانهُ علاوة على مطالبة النساء بمساواة الرجال ، يتعرض رفع القبعة للاصابة بزكام حاد ، عند تعريض مساحة كبيرة من الجلد الحساس للهواء

ومما لا ريب فيه ، ان قيمة الانسان في المستقبل ، سواء اكان سيدة او رجلاً ، سوف تعين بما يفكر فيه ، لا بما يرتديه ، ولا يمكن حينئذ ان يخفي الانسان جهله وسخفه طويلاً ، تحت مظهر رشيق ، ويبقى فائزاً باحترام معاشريه

٤ — الغذاء

اما عن الطعام ، فيقال ان الممثل البريطاني المشهور ، المعروف باسم كين ، كان يختار طعامه ، وفقاً للدور الذي ينتظر منه تمثيله على المسرح . فكان يأكل لحم الخنزير قبل ان يمثل دور طاغية ، ولحم البقر قبل ان يمثل دور قاتل ، ولحم الضأن الغض قبل ان يمثل دور عاشق ولهان . والعلماء يقولون انهُ في الامكان جعل هندي ، مثلاً ، متصفاً ببعض الصفات المميزة للياباني ، بتغيير طعامه. ويذهب آخرون الى ان الصفات المميزة لقوم ما ، انما منشؤها الطعام الخاص الذي يأكلونهُ . وعلى ذلك ، فقد يكون كبار الطهاة في المستقبل ، اعظم بناة لصرح السلام العام . وقد أثبت علماء العصر الحديث ان لمفرزات الغدد الصم أثراً اي اثر في أطوارنا النفسية على اختلافها . واذن فلا بد لعلماء المستقبل من التعمق في دراسة العلاقة بين الطعام وهذه الغدد حتى يستطيعوا ان يسيطروا بالطعام على أحوال النفس

قلنا ان الاختصار في اللباس ، سوف يكون آية المستقبل ، كذلك الاختصار في الطعام . فالناس لن يكتفوا في المستقبل ، بانفاق ربع ساعات اليقظة حول موائد الطعام والشاي . بل انهم ليدركون حينئذ ان الاتخام بالبفتيك ، والثمل بالشمبانيا ، ليسا من ضرورات البحث في الاعمال ، كما يدعون الآن ، بحثاً معقولاً

ومما لا ريب فيه ان ناحية من نواحي الاكل التي ينتظر ان تفوز بقسط كبير من عناية العلماء في المستقبل ، هي ناحية المواد الكيمائية اليسيرة التي لا بد منها للجسم السليم مثل بعض العناصر المعدنية كالكلسيوم والمغنيزيوم والحديد واليود وغيرها . والمرجح ان نحذف من قوائم طعامنا ، المتبلات والمشهيات كالخردل والفلفل ، لانها تهيج الاغشية الحساسة في الجهاز الهضمي . وقد قال احد العلماء ، ان تناول قليل من كلوريد المغنيزيوم ، يساعد على منع السرطان . ولكن اذا اراد الناس ان يأكلوا كل ما من شأنهِ ان يمنع السرطان أو ان يكفوا عن كل ما يسببه ، اضطروا

—لكثرة الآراء واختلافها — ان يلازموا، موائد الطعام أو ان يموتوا جوعاً

ولكن لا شبهة في ان مقادير الطعام في المستقبل سوف تكون قليلة جدًّا . فما نأكله الآن يفوق كثيراً ما نحتاج اليهِ لاغراض التغذية . ومن هنا كانت السجون اصح من الفنادق . واذن فسوف يكتفي الناس في المستقبل بأقل قدر من الطعام يحتاج اليه الجسم . فقد كانت العادة في الماضي ولا تزال في بعض البلدان ، ان يمضي الانسان في الاكل حتى يعجز عن النهوض . واصل هذه العادة عدم اطمئنان الانسان الى حصوله على الغذاء الوافي في ساعات الجوع او في مواعيد معينة . فكان الصياد اذا اصاب طريدة بعد بضعة أيام من الجوع يأكل منها ما يستطيع ، لانهُ لا يدري متى يصيب طريدة اخرى . ولكن هذا عاد غير ضروري الآن . بل أننا اذا مارسناه عاق نمونا العقلي . ولكن من سوء الحظ أن معدة الانسان تعودت من قرون متطاولة ، أن تتلقى اقداراً كبيرة من الطعام . فاذا استطاع العلماء في المستقبل أن يحصروا القدر الوافي من الغذاء في بضع حبّات يتناولها الانسان في اليوم — وهـذا منتظرٌ تحقيقهُ — وجب كذلك أن نخترع اشياء اخرى تملأُ المعدة ، ولو لم يكن فيها غذاءٌ ما ، حتى تكتفي المعدة هذا الاحساس الذي تعودتهُ في الماضي .
وتبقى الحال على هذا المنوال ، حتى يتحقق ، ما يتخيلهُ الاستاذ لو وهو من أغرب ضروب الخيال

فالاستاذ لو يتخيـل انهُ سوف يأتي يوم يصبح الانسان فيهِ غير محتاج الى المعدة التي عملها هضم الطعام حتى يصبح في شـكل يسهل معهُ انتقالهُ الى الامعاء فيُمتَصّ من جدرانها . فاذا تم صنع الغـذاء في حبوب صغيرة كما قدمنا ، استغني عن المعدة وعملها ، وعندئذٍ تصبح عملية استئصال المعدة ذائعة ذيوع استئصال الزائدة أو ذيوع التطعيم والتلقيح ضدَّ الأمراض المعدية .
وعندئذٍ نعود لا نحتاج الى تناول الأشياء التي غرضها ملء المعدة فقط لمجرد ملئها . ويتبع كل هذا ، ان الوقت الذي ينفقهُ الناس حول موائد الطعام والشاي يوفَّر حينئذٍ كلهُ ، أو على الأقل تسعٌ وتسعون في المائة منهُ ، وتنفق الساعات التي توفـر كل يومٍ ، من وقت اللبس والأكل، في العمل أو في مطالب الروح والعقل العليا

وسوف يبحث الكيمائيون عن أفضل المشروبات للتناول اليومي . فالمشروبات الشائعة الآن هي الكحول ،كما في الوسكي والكونياك والزبيب (العَرَق) ،أو القهوة والشاي وعنصرها الفعال متشابه ، أو التبغ (وقد حسبناهُ مشروباً تجوزاً) وعنصره الفعـال هو النيكوتين . ولكل مادة من هذه المواد اخطارها . ولا ريب في أن تناول الكحول سوف يمنع منعاً عامًّا باتًّا في المستقبل . وليس سبب ذلك لان استعمال الكحول خطر على السواد من الناس ، بل لانهُ خطرٌ اذا حفلت به رؤوس الاقلية منهم .فالمسدسات ممنوع استعمالها أو حملها الاَّ برخصة . وليس ثمة من ينكر أن للمسدسات فائدة في بعض الاحوال . ولكن الخوف من أن تقع في أيدي اناس اختلَّ فيهم ميزان العقل والشعور ، أفضى الى منعها ، لئلاَّ تصبح في أيديهم خطراً عامًّا . واذن فالكحول في المستقبل لا يمنح

الاَّ برخصةٍ ، لمن يقرُّ الرأي العلمي ان الكحول ضروريٌّ لهم . عندئذٍ يختفي الشبان السكارى المترنحون من الاماكن العامة . لانهُ من غرائب هذا العصر ، ان يحسب التقيؤ في مكانٍ عام على أثر الافراط في الاكل ، عملاً سمجاً ، ولا يحسب الترنح بأنفٍ محمرٍ وعينين زائغتين على اثر الافراط في الشرب ، عملاً سمجاً كذلك

***

ولعلَّ المشروب الجديد الذي يستنبطهُ الكيماويون ، يكون من اثره ، تمكين الناس من البقاء مستيقظين مدة طويلة من دون ان يصابوا باعياءٍ او بردّ فعل سيءٍ بعد زوال اثر المشروب . والواقع ان مركباً من هذا القبيل امتحن في بعض مناجم لمانيا في خلال الحرب الكبرى فثبت انهُ يمكن العامل من ان يعمل اثنتي عشرة ساعة متواصلة بسهولة ولم يشعر العمال الذين جرب فيهم باي رد فعل سيءٍ بعد مداولة استعماله اثنتي عشرة شهراً

والمرجح ان المنبهات التي يتناولها ناس المستقبل ، لا يكون من اثرها تخدير الدماغ ، وخلق صورة غير حقيقية للحياة في اذهان من يتناولها . بل على الضد من ذلك سوف يكون من شأنها ان ترهف حواسه ، فيصبح الصناعي الذي يتناولها اقدر على متابعة الآلات السريعة ببصره او سمعهِ . او قد يبلع المصور مشروباً يرهف فيه الاحساس بالالوان ، ولكن الاعتراض على ذلك ان كل من رغب في مشاهدة صورتهِ يجب ان يتناول هذا المنبه كذلك حتى يرى الصورة على ما يجب ان ترى

ويرى المفكرون ان ارتقاء الصناعة الآلية ، سوف يفضي من تلقاء نفسه ، الى نشر الاعتدال في تناول المنبهات . فاستعمال السيارة كان افعل في هذه الناحية من عشرات من جمعيات الاعتدال لان سائق السيارة يفهم انهُ اذا لم يكن مالكاً زمام عقله واعصابهِ ، عرّض نفسهُ وعرّض غيره للخطر . نعم الحوادث كثيرة وتبعث على الحزن والاسى . والذين كانوا سبباً لها يجب ان يعاقبوا اشدّ العقاب . ولكن الواقع ان العلم الصناعي ممثلاً في السيارة كان افعل في هذه الناحية من وعظ الواعظين وارشاد المرشدين . كذلك صانع المستقبل ، فانهُ اذا ادرك عظم القوة التي رهن سيطرتهِ ، امتنع عن كل ما من شأنهِ ان يحول بينهُ وبين هذه السيطرة الكاملة عليها ، لان في ذلك كرامتهُ الفنية

اما من حيث التبغ فيرجح انهُ سوف يُسنُّ قانون ينصُّ على انه من المحرم بيع السجاير قبل ان تستخرج منها المواد الضارة التي فيها باشراف علمي يضمن ذلك

هذه خواطر تجمع بين العلم والخيال والفكاهة ، فيها العملي الذي يمكن تحقيقهُ قريباً ، وفيها النظري الذي قد لا يتحقق الاَّ بعد قرون ، وفيها السخيف ، او ما نحسبهُ سخيفاً ولن يتحقق على الاطلاق . ولكنني ارجو ان تكونوا قد اصبتم في بعض ما قلته شيئاً من الفكاهة ، وارجو كذلك ان يكون البعض الآخر مما يحملكم على التفكير في نواحٍ من الملبس والمأكل تحتاج الى الاصلاح

الفاظ التصنيف

في الحيوانات الدنيا

للأمير مصطفى الشهابي

— ٢ —

المَفْصِليّات ARTHROPODES

قلت في آخر المقال السابق ان المفصليات من شعب الحيوان الكبيرة وان من ضمنها الحشرات التي لا يحصيها العد . ولاشك ان عدد انواع الحيوانات المفصلية يزيد وحده على انواع الحيوانات السائرة . وهي تعرف بتفاصُل اعضائها وجسمها يكون مغطى بجلدة تقسو أحياناً وتسمى « شيتين » اي الغطاء وبخصائص اخرى لا يفيد تناولها في هذا المقال لانها مفصّلة في كتب الحيوان

ومن المفصليات ما لها خياشيم تتنفس بها في الماء وهي المنسوبة الى ردف شعبة « الخَيْشوميّات» Branchiates ومنها ما لها قصبات تصلح للتنفس في الهواء وهي « القَصَبيّات » Trachéates . وفي هذه ثلاثة صفوف : « العنكبوتيات » Arachnides و« كثيرات الأرجل » Myriapodes و« الحَشَرات» Insectes . اما الاولى ففيها صف مهم واحد وهو صف «القشريات » Crustacées

***

« القشريات » هي كما قلت حيوانات مفصلية مائية لها غطاء رقيق شفاف في بعضها وكلسي حجري قاس في بعض كما في السرطان والكركند . ويقسمون القشريات ردفَي صف وهما «مشرومة الغشاء » Entomostracés و« رخوة الغشاء » Malacostracés وفي ردف الصف الاخير حيوانات متناسقة في اجزائها اي يكون فيها ١٩ زوجاً من الاجزاء دائماً . واليها تنسب القشريات الكبيرة . اما ردف الصف الاول ففيه حيوانات يتفاوت عدد اجزائها . وهي قشريات دنيا

وفي مشرومة الغشاء اربع رتب وهي « وَرَقية الاقدام » Phyllopodes و« ذَيْلِيّة الصَدَف» Ostracodes و« مِجْذافية الاقدام » Copépodes و « هُدّابية الأقدام » Cirripèdes وفي كل من هذه الرتب حيوانات كثيرة لا يمكننا ذكرها في هذا المقال الموجز

اما رخوة الغشاء فيقسمونها باديء بدء قسمين كبيرين وهما « لاطِئة الأعيُن» Edriophthalmes و« زَنْدية الأعين » Podophthalmes وفي القسم الاول رتبتان مهمتان وهما « متساوية الاقدام » Isopodes و« مزدوجة الاقدام » Amphipodes وكذلك في القسم الثاني ثلاث رتب وهي «مشقوقة الاقدام » Schizopodes و« فية الاقدام » Stomatopodes و « عُشارية الاقدام » Décapodes

وعشارية الاقدام اعلى القشريات منزلة واتمها تركيباً وفيها ثلاثة اقسام كل منها ردف رتبة وهي اولاً الذيّالة «عن معجم شرف» Marcoures وفيها الإرْبيان والروبيان (قُرَيْدِس في الشام وجمبري في مصر Crevette) والكَرْكَنْد او سَرطان البحر Homard والكركند الشائك Langouste. ثانياً « قصيرة الاذناب » Brachyoure، وفيها السرَطان المعروف ثالثاً « شاذة الاذناب » Anomoures

***

﴿ العنكبوتيات ﴾ هي مفصليات تتنفس في الهواء لا في الماء. وتتركب من جزئين احدهما يشتمل على الرأس والصدر والثاني هو البطن. وتكون جميع الزوائد والاقدام في الجزء الاول. ويحتوي هذا الصف على الرتب الآتية: « العَقْربية » Scorpionides و « اشباه العقربية » Pseudoscorpionides « وقدَمية اللوامس » Pédipalpes « والشَبَثيّات » Solifuges و « الرُتيليّات او الحِواصد » Phalangides « والعناكب » Aranéides و « القَمْلية او القُرادية » Acariens و « البطيئات » Tardigrades

﴿ كثيرة الاقدام ﴾ يحتوي هذا الصف على الحيوانات المعروفة المسماة ام اربع واربعين ويسمونها الحَرَيْش. وثمة رتبتان وهما « شَفَوية الاقدام » Chilopodes و « شفوية الاحناك » Chilognathes

***

﴿ الحَشَرات ﴾ قال احد علماء الحيوان ان الانواع الحيوانية اذا قدرت بنحو ٢٧٢٠٠٠ نوع فان منها ٢٠٩٠٠٠ نوع تنتسب الى شعبة المفصليات. ومن انواع هذه الشعبة ١٨٠٠٠٠ نوع تنتسب الى صف الحشرات وحده. والحشرات اجمالاً متسقة التركيب فلها دائماً ثلاثة اجزاء واضحة: رأس وصدر وبطن. وفي الرأس العيون والفم والزُبانيان « القرنان ». وفي الصدر ثلاث حلقات عليها ثلاثة ازواج من الارجل لا تزيد ولا تنقص ولذلك اطلق بعضهم على الحشرات اسم سداسية القوائم Hexapodes. وتكون الاجنحة (وعددها زوجان) قائمة على حلقتي الصدر السفليين. اما البطن فليس فيه زوائد في الاعم. وهو ينتهي بثقب للافراز وآخر للتناسل

ومن المعلوم ان تقسيم الحشرات يقوم على الاجنحة واشكالها. فهنالك اولاً ردف صف « المجَنّحات » Ptérygogènes وردف صف « عديمات الاجنحة » Aptérygogènes والى هذه تنتسب رتبة « المُذَنَّبات » Thysanoures اما المجنحات ففيها ثماني رتب معروفة وهي :

(١) أصْلية الاجنحة	Archiptères	(٥) مُغْمَدة الاجنحة	Coléoptères
(٢) مستقيمة الاجنحة	Orthoptères	(٦) غِشائية الأجنحة	Hyménoptères
(٣) نصفية الأجنحة	Hémiptères	(٧) حَرْشَفية الأجنحة	Lépidoptères
(٤) عَصَبية الأجنحة	Névroptères	(٨) مزدوجة الجناح او ذوات الجناحين	Diptères

﴿ المُذَنّبات ﴾ — هي اقدم الحشرات وابسطها . سميت كذلك لأن لمعظمها خيوطاً كالاذناب في مؤخرها . واليها تنسب فصيلة « اللاحسات » Lépismides ومنها حشرة كالعثة مبذولة في البيوت تلحس المواد السكرية والصوف والكتب احياناً ولها حراشف لامعة ولذا يسمونها بالعامية « السمكة الفضية » Poisson d'argent واسمها العلمي Lepisma saccharina اي لاحسة السكر او عثة السكر

***

﴿ اصلية الاجنحة ﴾ — هي اقدم المجنحات من الحشرات . وأهم فصائلها : « الأرَضيّات» Termitides و « اليَعْسوبيات » Libellulides و « بنات اليوم » Ephémèrides (عن لغة العرب)

***

﴿ مستقيمة الاجنحة ﴾ — تتحدر من الرتبة السابقة . ولها مثلها استحالات غير كاملة وأفواه صالحة للسحق لكن جناحيها الاماميين يقسوان . وكثيراً ما يصيران غير صالحين للطيران . وأهم فصائل هذه الرتبة « ثاقبات الاذن » Forficulides و « بنات وَرْدان » Blattides و « الجَرَاديات » Acridides و « الجُدْجُديات » Gryllides و « اشباه الجراد » Locustides وهي الجراد الطويلة القرون و « السُرْعُوفيات او فصيلة السراعيف » Mantides (لغة العرب) و « العَصَويات » Phasmides

***

﴿ نصفية الاجنحة ﴾ — اهم خواصها كون افواهها معدة لمص السوائل وكون استحالاتها غير تامة . وفيها ردف رتبة « مختلفة الاجنحة » Hétéroptères وردف رتبة «متشابهة الاجنحة» Homoptères . والى الردف الاول تنسب الفصائل الآتية « فصيلة بَقّ البساتين » Pentatomides و « فصيلة بَبْر الكمثرى » Tyngides و « فصيلة البقّ » Acanthides وهو بق الفراش ، و « فصيلة ذارعات الماء » Hydrométrides و « فصيلة عقارب الماء » Népides

اما الردف الثاني فاليه تنسب « فصيلة الزِيزان » Cicadides و « فصيلة براغيث النبات » Psyllides و « فصيلة الأرْق او حشرات المنّ » Aphides و « فصيلة قمل النبات او حشرات المغَافير » Coccides (الارق والمغافير عن معجم الحيوان)

***

﴿ عصبية الاجنحة ﴾ — انسلاخاتها تامة وبهذا تفترق عن اصلية الاجنحة مع انها متحدرة منها . واهم فصائلها « فصيلة ليث عِفرّين او ام عُوَيف » Myrméléonides (معجم الحيوان) و « فصيلة حشرة اللؤلؤ » Hémérobides

﴿ مغمدة الاجنحة ﴾ — يمكن عدها متحدرة من مستقيات الاجنحة . ولها استحالات

تامة وهي اعظم رتب الحشرات واكثرها عدداً. وأفواهها جعلت للسحق. وجناحاها الاماميان استحالا غمدين قاسيين يختبيء تحتهما الجناحان الخلفيان. ويعمدون في تفريق معمدة الاجنحة بعضها عن بعض الى ارساغ اقدامها. فالتي يكون رسغها خمسة اجزاء تسمى «خماسية الاجزاء» Pentamères وهكذا تتفوق «رباعية الاجزاء» Tétramères و«ثلاثية الاجزاء» Trimères و«مختلفة الاجزاء» Hétéromères وكل من هذه الاقسام الاربعة ردف رتبة

وفي خماسية الاجزاء الفصائل الآتية: «فصيلة الخنافس البيشرية» Cicindélides و«فصيلة حشرة السرطان» Carabides و«فصيلة الدرقة» Silphides و«فصيلة العثّ» Dermestides و«فصيلة أبليلية التأشير» Lucanide و«فصيلة الدودة البيضاء» Mélolonthides و«فصيلة الجُعلان» Scarabéides و«فصيلة الزقانب» Buprestides و«فصيلة الدودة الصفراء» Elatérides و«فصيلة اليراعة او الحُباحب» Lampyrides

وفي رباعية الاجزاء ما يأتي: «فصيلة القنتع» Scolytides و«طويلات القرون» Cérambycides uolongicornes وسميت «القرنبيات» في معجم الحيوان والارجح استعمال هذه اللفظة لفصيلة Coprides لان صفات القرنبي في الكتب العربية اقرب الى صفات انواع هذه الفصيلة وهي في الحقيقة تحت فصيلة الجُعلان. ومن رباعيات الاجزاء ايضاً «فصيلة السوس» Curculionides و«فصيلة ذوات السَبَبية» Bostrichides (الاب انستاس)

وفي ثلاثية الاجزاء «فصيلة الدعاسيق او بنات العيد» Coccinellides (معجم الحيوان).

وفي مختلفة الاجزاء «فصيلة خنافس الدقيق» Ténébrionides

***

﴿ غشائية الاجنحة ﴾ — أعلى الحشرات قدراً واكثرها فطنة وذكاء. كثير منها تعيش مجتمعة ويكون افرادها على طبقات ولكل طبقة عمل خاص في سبيل المجموع. ويتجلى ذلك في حياة النحل والنمل وغيرها. وتقسم هذه الرتبة ردفي رتبة وهما: «ذوات المِثقب او لاطئات البطون» Térébrants ou cessiliventres و«ذوات الحمة او معلاقيات البطون» Porte-aiguillon ou pétioliventres

وفي الردف الاول «فصيلة زنبور الحنطة» Céphides و«فصيلة الذباب المنشاري» Tenthrédinides

وفي الردف الثاني العفصيات Gallicoles ou cynipides. وورد في معجم الحيوان عن مجلة لغة العرب انها الاوابر مفردها آبرة وقنفش واحدتها قنفشة. قلت أما انا فأرجح اطلاق الاوابر على فصيلة Chalcidides لان اليها ينسب الذباب الذي يأبر التينَ البستاني وهو مشهور

ومن هذا الردف ايضاً «فصيلة الذباب المهتز» Ichneumonides و«فصيلة النحل» Apides و«فصيلة الزنابير» Vespides و«فصيلة النمل» Formicides وقريب منها فصيلة «جبابرة النمل» Camponotides و«فصيلة نمل البساتين» Myrmicides

﴿ حرشفية الاجنحة ﴾ — هي رتبة الفراش . سميت حرشفية الاجنحة لوجود حراشف دقاق ملونة على اجنحتها الغشائية . وأفواهها تصلح للمص واستحالاتها كاملة . وهي تقسم ردفي رتبة فالردف الاول « دبوسية القرون » Rhopalocères والثاني « مختلفة القرون » Hétérocères وفي الاول فصائل منها «الفراشية» Pa pilionide و «فصيلة فراشة الملفوف» Piérides و «فصيلة الفراشة الطاووسية » Nymphalides

ومن فصائل الردف الثاني «الدودية» Bombycides ومنها دود الحرير وغيرها . و « فصيلة قتع الحراج» Cossides و «فصيلة دودة الراهبة» Liparides و «فصيلة فراشة الجُنْجُل» Hépialides و «فصيلة طاووس الليل او الفصيلة الزُحلية» Saturnides و «فصيلة الذارعات» Géométrides ou phalénides و «فصيلة أبو الهول او فصيلة فراش الشَفَق » Sphyngides و « فصيلة فراش الليل أو اللَيْليِّات » Noctuellides و « فصيلة فراشة الحصاد » Agrotides و «فصيلة فراشة غمّا او الدودة المُقَوَّسة » Plusides

وهنالك مجموعة من الفراش يسمونها « دِقاق حرشفيات الاجنحة» Microlépidoptères تنسب اليها « فصيلة سوس الثياب » Tinéides و « فصيلة دودة التفاح » Pyralides و « فصيلة الفاتلات » Tortricides

***

﴿ ذوات الجناحين ﴾ ليس لها سوى جناحين كما هو ظاهر في اسمها . والجناحان الخلفيان هما اللذان فقدا . وفمها خرطوم المص . واستحالاتها تامة . وفيها ثلاثة اقسام كل منها ردف رتبة . فالردف الاول « قصيرة القرون » Brachycères والثاني « خيطية القرون » Némocères والثالث « عديمة الاجنحة Aphanipteres ومن قصيرات القرون « فصيلة النُعَر» Tabanides و« فصيلة النَبار او ذباب النَغَف » Oestrides (معجم الحيوان) و «فصيلة الذباب » Muscides و «فصيلة العَنْتَر » Asilides (معجم الحيوان)

اما خيطية القرون ففيها « فصيلة البَعُوض » Culicides و« فصيلة القِرْش » Simulides و « فصيلة السُوَيْكِتَة » Psychodides (تصغير ساكتة . هكذا تسمى في لبنان ووادي التيم . وتسمى السِكَّيْت في بيروت . وهي مبذولة في انحاء الشام تلسع على صغرها لسعاً مؤلماً دونما صوت) و « فصيلة طوال البعوض » Tipulides و « فصيلة ذباب الحنطة » Cécidomides

واما عديمة الاجنحة فهي البراغيث Puliciens ومنهم من يجعلها رتبة برأسها

هذه اهم الفاظ التصنيف في الحيوانات الدنيا . اما الحيوانات العليا فالفاظ تقسيمها معروفة الاَّ قليلاً . ولا اظن ان العلامة صاحب معجم الحيوان او البحاثة صاحب معجم الالفاظ الطبية والطبيعية قد اغفلا كثيراً منها

من شعر الاساطير

البعث الاول

[انشأ الشاعر علي محمود طه ملحمة كبيرة عنوانها «البعث الاول» تقع في نحو ثلثمائة بيت من الشعر وموضوعها الفن بين الرجل والمرأة. ننشر منها هذه القصيدة التي ساقها الشاعر على لسان ملك يتحدث الى حواء عن الفنان الاول]

هنالكَ حيث تَشبُّ الحياة وحيثُ الوجودُ جنين العَدَمْ

وحيث الطبيعةُ جبَّارةً تشقُّ الوهادَ وتبني القممْ

وحيث السعادةُ بنتُ الخيالِ ولذَّتُها من معاني الألمْ

وحيث الطريدانِ شجْا الكؤوس وعجّا صُبَابتها من قِدَمْ

***

رنا والطبيعةُ في حَلْيِها وحواءُ عاريةٌ كالصنمْ

فمن أين سار وأنّى سرى تصدَّتهُ مقبلةً من أممْ

هنالك أولُ قلبٍ هفا وأولُ صوتٍ شدا بالنغمْ

وأول أغنيةٍ صوِّرتْ وخطّتْ على اللوح بعد القلمْ!

***

فما لكِ حواءُ أنكرتِهِ وأعقبتِهِ حسراتِ الندمْ

لقد كان راعيكِ المجتبي فأصبح راميكِ المتّهمْ

ولولاكِ ما ذرفتْ عينُهُ ولا شامَ بارقةً فابتسمْ

وعاش كما كان آباؤه يُغنّي النجومَ ويرعى الغنمْ!!

مصر قبل ٤٥ قرناً تحمل :

لواء الأدب القديم

حكم الفيلسوف « بتاح حتب » ونصائحه

[لاحمد يوسف : بالمتحف المصري]

قد يجد الدارس لتاريخ مصر القديم سجلاً حافلاً بالعظمة ، طوت صفحاته السنون ، وكاد الاهمال والنسيان يضربان عنه صفحاً ، والواقع أن جميع اسباب الثقافة والعلم كان قد ضرب فيها أجدادنا بسهم وافر ، وان المصريين الاقدمين لم يخلفوا لنا أحجاراً نشاهدها . وقبوراً نسرح الطرف في أبنيتها ، معجبين ، أو مستغربين انهم صرفوا هممهم وبذلوا كل تلك العناية في اقامتها . فهم ، الى جانب ما تركوا لنا فيها من فن نابض ناطق ، بهر الدنيا بهاؤه ، وأعجزت صنعته ، قدموا الينا وثائق من ثقافتهم وعلمهم تشهد بالفخر لهم ، وتقيم الدليل الناصع على مدنيتهم العالية

وهذا الادب ، الذي هو بضاعة الذهن العالية، وخير ما تفخر به حياة هذا الجيل ، كان لهم فيه المجال الواسع اذ سبقوا هذا العالم بأسره ، الحديث والقديم ، الى غرس بذوره وقطف ثماره الناضجة لم يطرقوا سبيل الأدب من ناحية واحدة ، بل مارسوه كتابة وشعراً وقصصاً ، وتباروا في أسلوبه كما نتبارى اليوم ، وكان منهم الفلاسفة ، والكتّاب النوابغ ، وكان منهم الشعراء والناثرون وكان منهم الروائيون أو القصصيون ، وقد تفننوا في أساليب فن الادب وابتكروا ، فجعلونا نقرأ لهم ما يفيض بعواطفهم ، وجعلونا نمتع أعيننا وأذهاننا بالبديع من أفكارهم وآرائهم

والمجال متسع لاثبات كل ذلك . نرى ان نبدأه اليوم بهذه الحكم العالية لأحد فلاسفتهم وكبار كتابهم ، ويدعى «بتاح حتب» . كان وزيراً للملك «إسّي» ، من الاسرة الخامسة ، الذي كان حاكماً في نحو سنة ٢٦٧٥ قبل الميلاد . أي ان العبارات التي سنعرضها يرجع تاريخها الى حوالي ٤٦٠٠ عام قبل وقتنا هذا . ولا شك انها أقدم ما عرف من آثار الأدب في الوجود . ولهذا الوزير مقبرة كبيرة بديعة النقوش ولا تزال تشاهد في جملة ما يشاهد من آثار سقارة . وكانت هذه الحكم التي دوّنها ذلك الفيلسوف مما يدرس في المدارس المصرية القديمة ، كأنموذج للأدب الناضج ، يتثقف به النشء ، وظلت الاجيال تتناقلها للانتفاع بمعانيها وأسلوبها حتى عهد الاسرة الثامنة عشرة

وقد عثر على نصائح « بتاح حوتب » هذه في أوراق بردية كثيرة ؛ أهمها عبارة تلك المعروفة ببردية بريس — نسبة الى صاحبها — وهي محفوظة بباريس

وهاك نص هذه النصائح ، ننقلها اليك مترجمة حرفيًّا من دون أي تعديل. ولا ندفعك الى أن تضعها والادب الحديث في كفتي ميزان ، لتقابل بينهما . بل يجب ان لا تنسى ملاحظة قدم عهد ذلك الذهن الذي دوّنها . ومع ذلك فاني على يقين من أنك ، أيها القارىء العزيز ، ستعجب بها كل الاعجاب ، وستقدرها قدرها اذ ترى انها لا تقلُّ عما في يديك من الحكم اليوم . بل إنك ستلحظ ان كثيراً من المعاني التي تحويها قد نقلتها الايام عن ذلك العهد الغابر ، وان المصريين القدماء قد سبقوا الى معناها ، أو وضعوا بأيديهم وافكارهم أساس ثقافة العالم

والآن فاسمع ماذا كتب ذلك الفيلسوف . وسننقل اليك ما نتخيّره من العبارات لكيلا نطيل عليك

- يتحدث الفيلسوف «پتاح حتب» بهذا الاسلوب :

يقول «پتاح حتب» لجلالة الملك «إسّي» : إن الشيخوخة أتت ، والهرم قد حلَّ . وقد وهنت المفاصل ، وفاجأتنا حالة الكبر بالظهور ، وخذلت القوى ، واستبد بنا الضعف . وأصبح الفم صامتاً لا ينطق ، والعينان غائرتين ، والاذنان صماوين . وغدا القلب كثير النسيان ، لا يذكر حتى أمسه . والعظم مرهقاً بالشيخوخة . والأنف خاملاً لا يستنشق . (كان الأنف معتبراً عندهم كأساس الحياة البشرية) . سيان في صورة الضعف الوقوف أو الجلوس . انقلب الخير شرًّا . وانعدمت حاسة الذوق . ولم يؤد الكبر للانسان اكثر من أن جعله ضعيفاً في جميع احواله

« إذن فدع الخادم الواقف هناك — يقصد نفسه ، وهو يخاطب الملك ، وهذا تعبير متواضع يدلّ على الادب الجم — يلتمس ان يجعل نفسه شخصية في تلك السن الكبيرة . وان يجعل ولده يجلس في مكانه ، حتى يتهيأ للنصيحة ، وهو في اذن اولئك الذين يسمعون ، وفي ذهن اولئك الذين غبروا قبلنا ، اولئك الذين خدموا السلف في الزمن الماضي — والمعنى الظاهر انهُ يتمنى ان يكون ولده نافعاً للملك منفعة من مضوا لملوكهم . اما المعنى الخفي فهو فكرة حكيمة متأدبة دار حولها بشكل يشهد له بالقدرة والمهارة في اعداد الناس لقبول نصائحه بطريق مؤدب غير مباشر . وهذا هو غاية الحكمة في مخاطبة الملوك ، او ما اصطلح عليه بأدب الملوك — هل يفعل اولئك لك على مثل ما فعلوا لغيرك حتى يزول التنازع بين الناس ، ويصبح شاطئا النهر (النيل) في خدمتك

« قال جلالته : نعم . انصحه (أدّبه) في محاورات . (وهنا جملة مفقودة من الاصل الذي ننقل عنهُ) حتى يكون قدوة لاولاد العظماء . وليت الطاعة تلازمه ، ويستوعب كل رأي سديد تطرحه عليه . فليس هناك من ولد يمكنه الفهم من نفسه »

وبدأ الفيلسوف نصائحه فقال : « يمكنك ان تتعلم من كل انسان . لا تغترَّ بعلمك . ولا تعتقد بأنك عالم . بل خذ النصح من الجاهل كما تأخذه من المتعلم . فان حدود العلم بعيدة المنال . وليس من احد حاز غاية العلم . والعلم الصحيح (التام) اعز من الحجر الكريم الاخضر . وهل

انت تجده مع الخادمات فوق احجار الطواحين — اي افقر الفقيرات — ؟ »

﴿ الآداب ازاء الخطيب ﴾ : « ان وجدت خطيباً لبقاً وأحسن منك براعة ، فاثنِ ذراعك له واحنِ ظهرك (علامة الاحترام عند المصريين القدماء) . وان كان يتحدث عن جهل فلا تحجم عن ان تردَّه الى الصواب ، حتى يقول الرجال له « انت جاهل »

« اما اذا كان يوازيك علماً ، وأخطأ في الحديث ، فاظهر نفسك بالصمت ، حتى تكون افضل منهُ . ولن يحمد هو من السامعين ، بل تعد انت من زمرة العظماء . وان كان وضيعاً ، ولا يوازيك علماً ، فلا تحمق عليه اذ تعلم انه حقير . (وهنا جملة مفقودة) . بل غض عنه الطرف ، فيعاقب نفسه بنفسه . ان من الخطل ان يؤلم المرء حقيراً . (وهنا جملة مفقودة) . قد تقتله بعقاب العظماء » — ربما يقصد من ذلك ان يلزم الصمت ويتجاهله كما يفعل العظماء —

﴿ قد تفوز بالخير في حياتك باعتمادك على الحق والصدق ﴾ اذا كنت قائد قوم ، وكان لك الامر فيهم ، فاسع وراء العمل الطيب حتى لا تبقى هناك خطيئة في اخلاقك . الصدق جميل وجزاؤه دائم . لم تتبدل قيمة الصدق يوماً منذ خلقه خالقه (منذ الخليقة) — وفي عقيدة القدماء ان الاله رع هو الذي جلب الصدق الى الدنيا — على ان من ينكر شريعته — اي الصدق — يحق عليه العقاب . انهُ الطريق المستقيم امام ذلك الذي لا يعرف شيئاً — اي الجاهل — والعمل السيء لم تصل الميناء بضاعته — يقصد انهُ لم ينجح مطلقاً — حقاً ان السيئات قد تكسب الجاه . ولكن الجاه يبقى بقوة الايمان . وقد يقول الرجل الصادق «هذا ملك والدي» — ومعنى هذه الترجمة الحرفية هو ان تأديب والده له عن طريق الصدق هو خير ما ورثه له »

﴿ كن اميناً في توزيع الرسائل ﴾ اذا كنت احد من يعتمد عليهم عظيم من العظماء ليوفده الى آخر ، فأدِّ الوفادة كما يجب . بلغ الرسالة كما يشير عليك . لا تكتم خبر ما يقال لك . وحاذر ان تقع في النسيان . تمسك بالصدق ولا تعدُ حدوده . حتى وان كنت مضطراً ألاّ تقص شيئاً مفرحاً . حاذر كذلك من الكلام التافه الذي يسقط بقدر الرجل العظيم ، من طريق الاسلوب الدارج . وان اصبح العظيم خاملاً فهذا ما تمجه النفس — والمعنى من كل هذا أنك لا يجب أن تسوغ تعبيراً وضيعاً محل اللغة التي تخيرها سيدك . فانهُ يكون مخزياً للرجل العظيم اذا كانت لغته هراء — »

وهنا عبارة لم يضع لها الناسخ القديم عنواناً . يقول فيها « بتاح حتب » :

« اذا أنت حرثت الارض ونما حقلك وأغدق الله عليك بذلك ، فلا تشبع فمك وحدك دون ذوي قرباك »

﴿ لا تحقر اولئك الذين ارتفعوا ﴾ « اذا كنت شخصاً وضيعاً ، وكنت في رعاية رجل من أهل النعمة ، يؤدي كما يجب فروض الله ، فتناسَ كل شيء عن سابق شأنه . لا ترفع قلبك دونه — اي لا تتعاظم عليه — على حساب ما تعلم عنهُ في الماضي . بل احترمه من أجل ما صار اليهِ .

لان الثروة لا تأتي من نفسها — اي جزافاً — (وهنا جملة مفقودة) ولكن الله هو الذي يهب النعمة . (وهنا جملة مفقودة ايضاً) »

﴿ امنح نفسك فرصة للنزهة ﴾ « إتبع قلبك — اي سر نفسك — طالما انت تعيش . ولا تعمل اكثر مما يجب. لا تختصر الوقت الذي تمنحهُ لقلبك فان من البغيض للنفس ان يختصر الوقت الذي لها »

﴿ واجبك نحو ولدك ﴾ « ان كنت ذا مكانة ، وكان لك زوجة . وانجبت لك ولداً يرضي إلهَهُ بعمل الحق — اي ولداً صالحاً — ويشب على خلقك . ويصغى إلى نصائحك . وكانت اعماله تصلح بيتك . وكان يرعى كما يجب مالك . فزوّده منك بكل ما هو خير

« انهُ ولدك الذي وهبتهُ روحك . فلا تحجبّ عنهُ قلبك

« اما ان كان يسيء . ويتطاول على آرائك . ولا يتبع نصائحك . وكانت اعماله في بيتك غير صالحة . ويعارض كل ما تقوله . (وهنا جملة مفقودة) . فاقصه اذن عنك. لانهُ ليس ولدك — يقصد انهُ عاق — انهُ لم يولد لاجلك (وهنا جملة مفقودة ايضاً) »

﴿ تحذير من النساء ﴾ « ان كنت افرغت صداقتك في بيت كان لك الحرية في دخوله ، اذ كنت فيهِ سيداً او شقيقاً او صديقاً ، او اي صفة اخرى يسرك ان تكونها ، فحاذر ان تقرب النساء — ويقصد مغازلة من ليس له فيهن حق — فان المكان الذي هنّ بهِ ليس صالحاً

« قد تضيع بسببهنّ الألوف . وينجذب الرجال ببريقهنّ الخلاب ، وقد جهلوا ان ذلك البريق ما يلبث ان يصبح كالحجارة المحروقة — اي انها نشوة قصيرة الامد ، ما تلبث ان تزول — شيء تافه . ضئيل . كالحلم . تأتي بعده الحسرة »

﴿ تحذير من الحقد ﴾ « ان رغبت ان يكون خلقك حميداً ، وان تجرد نفسك من جميع المساوىء ، فاحذر من الحقد . فهو مرض وبيء لا يشفى . ان الاخلاص يستحيل بوجوده . انهُ يجعل الصديق المحبوب بغيضاً . ويغير ثقة الرئيس في رجله . ويقبح حقيقة الوالد والوالدة ، واشقاء الوالدة بالمثل — اي الاخوال — ويطلق الرجل من زوجه . انهُ حزمة من جميع انواع المساوىء . وحقيبة مملوءة من كل شيء بغيض . قد يطول بقاء من كان خلقه كريماً ، ومن يسير بحسبما يأمره الخلق الكريم . انهُ يربح من ذلك الغنى . اما الحقود فيفقد كل شيء

﴿ ميزة الزواج ﴾ ان كنت رجلاً كاملاً فأسس لك بيتاً ، واحبب زوجتك فيهِ . اشبعها واكسها . واعلم ان العطر شفاء مفاصلها — اي إرضها بالعطر — سرّ قلبها طالما تعيش معك . انها الحقل الصالح لصاحبها — وهذا يوافق ما جاء في الآية الشريفة : « نساؤكم حرثٌ لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم »

خدمات العرب للكيمياء الحديثة

نشوء الحركة العلمية في البلاد العربية

لحسن السلمان

قال رودول في كتابه « ظهور الكيمياء »: «عند ما أخذت العلوم القديمة في الانحطاط واوشكت معالم الحضارة اليونانية على الاختفاء ، كانت البلاد العربية مزدهرة بحضارتها الجديدة ، التي بنى اركانها الدين الجديد — الاسلام — فشيدت الجامعات والمراصد والمكتبات العامة والمتاحف ودواوين الاستنساخ وجمع الكثير مما كتبهُ اليونان والفرس ونقل الى العربية. وازداد شأو هذه الحضارة بعد ما اكتسح المسلمون بلاد المغرب والاندلس . اذ لم ينقضِ زمن طويل حتى تمكن اولئك البدو من احياء بلاد الاسبان وجعلها كعبة العلم ، ولم يمضِ على الفتح الاسلامي قرن أو قرنان حتى تأسست بها أعظم الجامعات يوم ذاك »

ويعتقد الاستاذ رودول ان يوستنيانوس لما أمر باغلاق مدارس أثينا والاسكندرية ، وعند ماأخذ يعذب أهل العلم ، فرّ عدد غير يسير من هؤلاء الى بلاد فارس وشمال ما بين النهرين حيث أسسوا مدارسهم ثانية ، وعادوا لبثّ معارفهم . فلما وقعت فارس وما بين النهرين في أيدي العرب ، واتخذوا بغداد حاضرة لهم شعروا بضرورة ترجمة الكتب الفارسية اليونانية مستقدمين أمهر علماء النساطرة لنقل ارسطو وديوسقوريدس وغيرهما من فلاسفة اليونان وعلمائهم

وكتب عن هـذه الحركة العلمية الاستاذ ستلمان ما خلاصته : عند ما بدأت الحركة العلمية في ما بين النهرين وأسس الخلفاء دواوين الترجمة في قصورهم ، ترجم كثير من كتب اليونان الى اللغة العربية اما نقلاً عن الفارسية أو مباشرة من اليونانية . ومن اشهر ما ترجم رسائل ديموقريطوس وكتب زوسيموس ، فاتخذت هذه الكتب أسساً للدرس والبحث العلمي في دور العلم ببغداد وفي غيرها من حواضر البلاد الاسلامية ، مما جعل النظريات اليونانية في أصل المادة وما وراء المادة ، واصل العناصر وكيفية تكونها ، وعلاقة بعضها ببعض ، والبحث عن حجر الفلاسفة والاكسير ، ان تنتقل الى دور العلم وتسيطر على اذهان الباحثين والمتعلمين . وكما ان كلياتنا اليوم لا تبحث الا في النظريات الحديثة امثال النظرية الكهربية ونظرية الكونتم والنظرية النسبية ، كذلك كانت جامعات بغداد وكليات قرطبة وغرناطة تبحث في النظريات اليونانية وتعتبرها أُسساً لعلومها

وحديث الكليات والمكتبات التي أسست في بغداد وفي بلاد الاندلس طويل اكتفي بان اورد هنا بعضاً مما قاله مؤرخو العلم بهذا الصدد : قال رودول «اسس الخليفة ابو جعفر المنصور مدرسة

بغداد فكانت نواة لجامعة بغداد ، التي اصبحت كعبة العلم بعد ذلك . وفي القرن التاسع اضيف اليها كثير من المؤسسات كالمستشفى والمدرسة الطبية وغيرها . وفي عصر المأمون ادخل عليها من التحسين الشيء الكثير فبنى مرصدها المشهور . وقيل ان عدد طلابها بلغ ستة آلاف طالب . ولكن ما ان نشب الانحلال في جسم الخلافة العباسية حتى ضعف شأن جامعة بغداد واسست على اثرها بضع مدارس في حواضر البلاد الاسلامية المتفرقة . وفي هذا العصر ازدهرت دور العلم ببلاد الاندلس ، وصارت محط رحال أهل العلم في الغرب والشرق

وكتب درابر في الجزء الثاني من كتابه « تاريخ تكون الفكر الاوربي » ما خلاصته : « ما كاد المسلمون يستقرون في اسبانيا حتى شادوا لهم مدنية جديدة . فكان الأمراء انفسهم من رجال العلم ومن قادة الفكر وكان لا يشغل فكرهم غير أمر واحد هو رفع المستوى العلمي في بلادهم . فبلغت قرطبة بفضل اهتمامهم المكانة العليا بين مدن العالم : وعلى منوالها سار كثير من مدن الاندلس ، حتى كان لكل امير من امراء الاندلس مكتبة خاصة يباهي بها اقرانه بما يضمه اليها من كتب نفيسة ومخطوطات غالية . فمثلا احتوت مكتبة الحكم من الكتب عدداً كبيراً جداً ، قيل ان فهرستها بلغ اربعين مجلداً . وقيل ايضاً ان الحكام شيدوا لكل مسجد مدرسة عامة يؤمها اولاد المسلمين ليتعلموا اللغة والقرآن والفقه

أما العوامل التي ساعدت على نشوء الحركة العلمية في البلاد الاسلامية فهي مساعدة الخلفاء لأهل العلم اولاً ، وتسامحهم الديني ثانياً . فلقد كان كثيرون من الاساتذة بجامعة بغداد وغرناطة وقرطبة من النساطرة واليهود . وكان المسلم يوم ذاك ، يأخذ العلم على أيدي هؤلاء وهو مطمئن واثق ان لا صلة بين العلم والاختلافات الطائفية وان العلم أسمى وأشرف من البحث فيها . ومما يذكر عن الخلفاء ان الواحد منهم كان اذا دخل عليه استاذ من اساتذة العلم قام اليه وأجلسه بجانبه ، ولا يجب ان ننسى حلقات العلم التي كانت تعقد في بلاط المأمون وكيف كان الخليفة نفسه يقضي اكثر وقته يساجل العلماء ويجادلهم ، ويبحث في العلوم الدينية والفلسفية وفي علاقتها بالمادة والطبيعة

الكيمياء العربية

ومن اظهر الحركات الفكرية في عصر ازدهار المدنية العربية نشوء الكيمياء أو ما ندعوها اليوم Alchemy . اما نشوءها فيعزى الى عقيدة سادت في تلك العصور وهي امكان تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب . ففي نظر الباحثين الاقدمين ان من يتوصل الى « حجر الفلاسفة » يستطيع ان يعرف سر الحياة . تلك الخرافات والألغاز كانت النواة الأولى للكيمياء الحديثة . واولئك الكيماويون هم أول من قصد البحث عن الحقيقة النسبية من هذا السبيل . والى مثل ذلك اشار الكيماوي الكبير لايبج عند ما قال « ان العلم في نظر رجل ما كالآلهة التي يخصص حياته لها ، وفي نظر الآخر كالبقرة الحلوب التي يعيش مما تدره عليه »

اما متى بدأ تاريخ الكيمياء العربية ، وكيف ظهرت واين ظهرت اولاً فأمور لا نعرف عنها شيئاً وكل ما في وسعنا ان نجزم به انها ظهرت قبل القرن الثاني عشر ولربما ظهرت في القرن التاسع او العاشر للميلاد . فالكتب التي كتبها الرازي تحتمل ان تكون مكتوبة في القرن التاسع وكتاب « الشفعة » لابن سينا ، وهو من الكتب التي يوثق بتاريخها والتي كان لها شأن كبير في الشرق والغرب ، يرجع تاريخه الى القرن العاشر . ولقد اثبت البحث التاريخي ان العرب في القرن العاشر والقرن الحادي عشر لم يكتفوا باجراء التجارب وكتابة الرسائل العلمية فحسب بل بحثوا في النظريات الكيمائية التي لم نبحث في بعضها الآ في القرن الماضي ، حتى ان بعض باحثيهم اتبع مبدأ الشك في البحث عن الحقيقة المجردة . ويكفي هذا وحده ان يجعل مستوى فكرهم العلمي اعلى كثيراً من مستوى الفكر العلمي عند الشعوب الاخرى

لم تقتصر صناعة الكيمياء على البحث عن حجر الفلاسفة او صناعة الذهب بل شملت الكثير من المركبات الكيمائية المستعملة في الطب والصيدلة . فقد استحضرت العقاقير المختلفة بتقطير النباتات والاعشاب او بتفاعلها تفاعلاً كيائياً بمواد اخرى . وكان الكيماوي هو الطبيب وهو الصيدلي فابن سيناء الذي لقب بجالينوس العرب والرازي والزهراوي كانوا من امهر اطباء العرب الآ انهم كانوا ايضاً من اعلام الكيمياء ، وابو المنصور الموفق وان عرف بتحضير العقاقير وبيعها الآ ان كتبهُ تنطق بسعة علمهِ بالكيمياء العملية

ويؤمن الاستاذ سارتن مؤلف كتاب « مقدمة في تاريخ العلوم » ان كيماويي القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر لم يزيدوا على ابحاث من تقدمهم شيئاً مهماً وانما اشتغل بعضهم في دحض نظريات من تقدمهم . فالطغرائي مثلاً كتب بضع رسائل بحثت في الكيمياء ، سمي احداها وهي اهم رسائله « حقائق الاستشهاد » وكانت غايته من تأليفها الرد على شك ابن سيناء . وهناك طائفة اخرى تسرب اليها الشك فيما جربه وكتبهُ ثقات اهل الكيمياء ويمثل هذه الطبقة عبد اللطيف الجوباري الذي ضمن آراءه في رسالتهِ « اهل الكيمياء الذين عرفوا ثلاث مائة طريقة لغش الناس »

نظريات الكيمياء العربية

يستخرج كثير من المعادن او قل معظمها اما بشكل اكاسيدها او كبريتيداتها او مزيجاً من اكاسيدها وكبريتيداتها . فاذا ما احرقت هذه الكبريتيدات وحدها او مع مادة خازلة كالفحم او الخشب مثلاً تبدلت اولاً الى اكاسيد ومن ثم الى معادن صرفة . على ان هناك من المعادن ما يمكن الحصول عليه نقياً بعمليتي التكلس والتصعيد فقط . فكبريتيد الزئبق مثلاً اذا ما احرق وجمعت غازاته امكن الحصول على الزئبق نقياً

ليست هذه بالتفاعلات الصعبة الحدوث التي تحتاج الى جهود كبيرة بل على العكس فهي من ابسطها واكثرها وقوعاً . وقد اثبتت الكتب القديمة ان هذه التفاعلات الاولى التي عرفها العرب

واستعملوها لتحضير الحديد والرصاص والنحاس والزئبق وغير هذه من المعادن . ولا ندري كيف استنتجوا من تحضيرهم لهذه المعادن ان هناك عنصراً شائعاً بين الاجسام على انواعها . ويعزى اختلافها الى مقدار المواد العرضية — الشوائب — الممتزجة بهِ . وهذا ما جعلهم يسعون الى تنقية المواد مما امتزج بها من شوائب ، معتمدين في ذلك على النار وحدها لانها في عرفهم خير مطهر ومنقٍّ . ففي ظنهم ان بتكرار عمليات التكلس والتصعيد والتقطير تحترق المواد العرضية ويبقى الجسم نقياً . وما ذلك الجسم الا حجر الفلاسفة !!

ولقد شاعت ايضاً نظرية اخرى في كثير من دور العلم وخاصة في مدارس بغداد ، خلاصتها ان عناصر المواد جميعاً ثلاثة ، الزئبق والكبريت والملح . اما الاول فيمثل المعادن القابلة للطرق . واما الثاني فيمثل المواد القابلة للاشتعال . واما الاخير فيمثل المواد الترابية المالحة الطعم غير القابلة للطرق وللاشتعال . جاء في رسائل اخوان الصفا ما يأتي : « ان الاجسام من جنس واحد ، من جوهر واحد وهيولى واحد . وانما اختلافها بحسب اختلاف صورها ومن اجلها صار بعضها اصفى من بعض واشرف منهُ . . . وكلها اجسام طبيعية يستحيل بعضها الى بعض ، وذلك ان النار اذا اطفئت صارت هواء والهواء اذا غلظ صار ماء والماء اذا غلظ وجمد صار ارضاً . وليس للماء ان تلطف ولا للارض ان تغلظ فتصير شيئاً آخراً ، بل اذا تركبت اجزائها يكون منها المولودات ، اعني المعادن والنبات والحيوان . لكن يكون بعضها اشرف تركيباً من بعض وذلك ان الياقوت اصفى من البلور واشرف منهُ والبلور اصفى من الزجاج واشرف منهُ . . . وكذلك الذهب اشرف من الفضة واصفى منها والفضة اصفى من النحاس واشرف منهُ . . . وكلها احجار معدنية اصلها الزئبق والكبريت والزئبق والكبريت اصلهما التراب والماء والهواء والنار . فهيولاها واحد ، وصورها مختلفة ، وصفاؤها وشرفها بحسب تركيبها واختلاف صورها . . . »

وجاء ايضاً في رسالة المعادن « . . . واذا كان الزئبق صافياً والكبريت نقياً واختلطت اجزاؤهما وكانت مقاديرها على النسبة الفضلى واتحدت وامتصت الكبريتية رطوبة الزئبق ونشفت نداوته ، وكانت حرارة المعدن على اعتدال في طبخها ونضجها . ولم يعرض لها عارض من البرد واليبس قبل انضاجها انعقدت من ذلك على طول الزمن الذهب الابريز . وان عرض لها البرد قبل النضج انعقدت فصارت نحاساً احمر يابساً . وان عرض لها البرد قبل ان تتحد اجزاء الكبريت والزئبق قبل النضج انعقد فيها رصاص قلعي — معدن ينسب اليهِ الرصاص الجيد — وان عرض لها البرد قبل النضج وكانت الاجزاء الترابية اكثر صار حديداً اسود . وان كان الزئبق اكثر والكبريت اقل والحرارة خفيفة انعقد بها الاسدب وان افرطت الحرارة فاحرقتهُ صار كحلاً . . . »

ومن النظريات التي اعتقد بعضهم صحتها ان لأوجه القمر ومواضع السيارات السبعة علاقة بالمعادن وبطرق تنقيتها فمثلاً ان المعادن السبعة تمثل السيارات السبعة . فالذهب يمثل الشمس والفضة تمثل القمر

والقصدير المشتري والرصاص زحل والحديد المريخ والنحاس الزهرة والزئبق عطارد . وقد نشأ كثير من الخرافات من هذا الرأي . فمن خرافاتهم انهُ اذا اريد اجراء عملية على النحاس مثلاً وجب ان تكون الزهرة في الموضع المناسب من السماء والاّ اخفقت العملية

هذه بعض من النظريات التي دان بها العرب . ومن الواضح الجلي ان الفكر اليوناني ظاهر فيها اتم ظهور . وهذه النظرية وان كانت خالية من الحقائق الكيمائية الحديثة كان لها شأن كبير في تاريخ الكيمياء افليست هي حلقات من سلسلة طويلة بدأت في الكيمياء اليونانية وانتهت الى الكيمياء الحديثة ؟ ومهما قيل عنها فلا يمكن نكران تأثيرها في تطور الفكر الكيماني خاصة وان الكثير من التجارب التي اجريت في سبيل تحقيقها ما زالت مستعملة مع شيء يسير من التبديل والتعديل

كيماويو العرب

والآن من هم الذين اشتغلوا بالكيمياء من العرب ؟ ان عدد كيماويي العرب كبير جداً فقد احصى الاستاذ فون لبمان Von Lippman ستين كيماويًّا عاشوا بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر ، وكلهم اشتغل بالكيمياء وكتب عنها . لكني لم استطع ان اعرف من ذلك العدد الكبير سوى الآتية اسماؤهم :—

(١) الحسن الرماح (٢) عمر بن العظيم (٣) جابر بن حيان (٤) الرازي (٥) الطغرائي (٦) ابن ارفع رأسه (٧) عبد اللطيف الجوباري (٨) خالد بن يزيد (٩) ابو المنصور الموفق (١٠) ابو القاسم العراقي (١١) الكاثي . وفي هذه العجالة المامة باعظمهم اعني بهم ابن حيان والرازي وابن سيناء والعراقي

اشتهر جابر بن حيان كمؤلف كما اشتهر ككيماوي ، فما ألفه عدد كبير من الرسائل الكيمائية التي ما زالت مبعثرة في مكتبات اوربا والهند ومصر . ومما هو جدير بالذكر ان هذه الرسائل لم يطبع منها ولم يترجم الاّ القليل ففي عام ١٨٩٣ ترجم الاستاذ Houdas تسع رسائل ، طبعها بعد ذلك الكيماوي المشهور برتوليه Bertholet في كتابه La Chimie au Moyen Agé . ولقد وجد الاستاذ المذكور من بين المخطوطات اللاتينية مخطوطاً بالعنوان التالي :

Liber de Septuaguila Translatus a Magistra Renolds Cremoneusi

فظنه من المخطوطات المترجمة عن جابر ولكن لم يستطع تقرير شيء ما لان النص العربي كان مفقوداً يوم ذاك . ومن محاسن الاتفاق ان اكتشف الاستاذ Max Meyerhof عام ١٩٢٦ مخطوطين لجابر احدهما في مكتبة نور الدين بك مصطفى والآخر في مكتبة احمد تيمور باشا وكل منهما اصل لتلك المخطوطة اللاتينية

واشهر ما كتب ابن حيان كتاب الرحمة وكتاب الجوهر الاصلي وكتاب السموم وكتاب الدولة وكتاب الموازين . ومع ان جميع هذه الكتب لا تتضمن ابحاثاً كيمائية صرفة بل خليطاً من الابحاث الطبيعية والكيمائية والفلسفية ومزيجاً من الخرافات والرموز والالغاز الاّ ان قيمتها العلمية لا تقدر . وخليق بابن حيان ان يدرس دراسة علمية حقة لانهُ بنى ما كتبه على ما جرَّبه بنفسه

وان كانت استنتاجاته غير علمية ، وعلاوة على ذلك لانهُ الواضع لنظرية تكون المعادن من عنصري الكبريت والزئبق تلك النظرية التي بقيت مسيطرة على كتب الاقدمين حتى فجر النهضة العلمية الحديثة . ففي نظر جابر ان المعادن تختلف باختلاف نقاوتها واذا ما كملت نقاوتها استحالت الى ذهب ابريز . وهذا ما جعل هدفه الأعلى تنقية المعادن لتحضير الذهب . على ان هناك أشياء كثيرة اشتغل بها ونجح في تحضيرها اهمها صناعة الحديد الصلب ، واصباغ الملابس، واصباغ الجلود ، وصنوف الدهان المختلفة خاصة منها تلك التي لا ينفذ الماء خلالها . وقد استطاع ان يطلي الحديد بطبقة معدنية اخرى لكي تقيه من التأكسد . والمعروف انهُ أول من استعمل ثاني اكسيد المنغنيز في صناعة الزجاج وكبريتيد الحديد الخام في صناعة التذهيب ، وتمكن من تحضير الحامض الخليك المركز بتقطيره الخل ، وكاربونات الصودا والبوتاس من رماد بعض النباتات والصودا الكاوية بغليه كاربونات الصودا مع الجير الحي . وهو اول من نقى ملح الطعام من المواد الممزوجة به . وطريقته في ذلك انهُ كان يحمي الملح لدرجات حرارة عالية فتزال جميع المواد العضوية فيه . ومن ثم يذيبه بالماء ويرشح المحلول ويبخره فيبلوره . ومما جاء ذكره في معظم رسائله انهُ اشتغل بنترات البوتاس وكلوريد النشادر والشب والبوركس وكبريتات النحاس وكبريتات الحديد . وله طريقة مبتكرة في تحضير ماء النار — الحامض النتريك — فانهُ كان يحمي كبريتات النحاس مع نترات البوتاس والشب ويجمع الغازات المتصاعدة في الماء . وقد حضّر هذا الحامض لاذابة الفضة والذهب بعد ان يمزج برادتهما مزجاً تامًّا بكلوريد النشادر

أما أبو بكر الرازي فيعد في مقدمة الأطباء الكيماويين . قيل عنهُ انهُ اول من استعمل الكيمياء في الطب ، ولكن ابحاثه في الكيمياء ما هي الاَّ تجارب مؤسسة على الخيال ومستمدة من السحر والشعوذة ، ففي عقيدته ان النحاس والفضة شيء واحد وما النحاس الاَّ فضة كامنة وبمجرد ازالة اللون الاحمر منهُ يستحيل فضة . وقد جاء في بعض المخطوطات انهُ استعمل الكحول لاذابة بعض المركبات العضوية التي لا تذوب في الماء

وثالث المشهورين بالكيمياء هو ابن سيناء ولكنه ايضاً كالرازي طبيباً اكثر منهُ كيماويًّا . وآراؤه الكيمائية كثيرة الشبه بآراء ارسطو فهو يعتقد ان الهواء قوت النار . وان المعادن جميعها تتركب من مادتين احداها لزجة والاخرى ترابية وبعملية التكلس Calcination يمكن فصل المادة الاولى عن الثانية . ويقسم ابن سيناء المعادن الى اقسام اربعة (١) المعادن غير القابلة للانصهار (٢) المعادن القابلة للانصهار والطرق (٣) المعادن الكبريتية (٤) الاملاح

وآخر من اشتغل بالكيمياء العربية هو ابو القاسم محمد بن احمد العراقي السماوي الذي عاش في القرن الثالث عشر والذي صنف بضع رسائل اشهرها كتاب «العلم المكتسب في صناعة الذهب» و «عيون الحقائق في السحر» و «الكنز الدفين» . والاستاذ سارتن يعتبر ابا القاسم من اعظم

كيماوي العرب شأناً لانهُ سار على مبدأ الشك في جميع ما كتبه اسلافه . فقد كان لا يؤمن بما بين يديه من النظريات والفروض الا بعد تجربته . فهو من هذه الناحية يعد من الكيماويين المجددين وقال عنه الجلداقي في كتابه « نهاية الطب » ان ابا القاسم صرف سبع عشرة سنة في دراسة الكيمياء وجالس الكثير من علماء العراق ومصر والمغرب وسوريا والحجاز واليمن ودرس كتب من تقدمه وبحث في الطرق التي استعملت في تجاريبهم . وقد ادى به بحثه الطويل الى الاعتقاد بأن من تقدمه من العلماء اوجد نظريات مضطربة تخالف بعضها بعضاً . فلذا من واجبه ان يكتب رسالة تشرح النتائج التي وصل اليها في ابحاثه . والى فكرته هذه اشار في مقدمة كتابه « العلم المكتسب » . والفكرة السائدة في كتابه هذا ان المعادن من اصل واحد واختلافها ناجم عن صفات عرضية يمكن ازالتها ، وبزوالها يصبح المعدن ذهباً ابريزاً

﴿ خدمات العرب ﴾ يعتقد بعض مؤرخي الكيمياء امثال برتوليه وفون ليمن وكوب ان العرب لم يزيدوا شيئاً على ما اخـذوه من علوم اليونان ، ولم يصب الكيمياء اي تقدم في زمنهم وكان مجمل عملهم انهم ادوا الرسالة التي اخذوها من اليونان الوثنيين الى اوربا المسيحية . لكن هناك طائفة اخرى امثال شلمان وجيبون وسارتن وغيرهم ممن تخالفهم . ولم تتردد في تفنيد ما زعمه الأولون واعلان الكثير مما قام بهِ العرب من الخدمات الجلى سواء بابحاثهم او بتجاريبهم مما عجل بزوغ النهضة العلمية الحديثة . والحقيقة ان مقام الكيمياء العربية كبير جداً ، فقد كان العرب عاملاً مهماً من عوامل ترقية الصناعة الكيمائية ، وكانوا في مقدمة من استعمل العلم النظري في امور الحياة العامة

ولتلخيص خدمات العرب نقسمها الى قسمين . الخدمات المباشرة والخدمات غير المباشرة . اما الاول فتتكون من العمليات الكيمائية الأساسية التي استنبطها العرب والمركبات التي استطاعوا تحضيرها والصناعات التي اقتبسوها من شعوب اخرى واذاعوها في الشرق والغرب كتحضير الكحول بتقطير المواد المخمرة ، والبوتاسا الكاوية بغلي كربونات البوتاس مع الجير الحي ، وروح النشادر — غاز الامونيا — والفصفور من البول . والعرب اخذوا البارود من الصينيين لكنهم حسنوا نوعه واستعملوه في الحرب وفي الالغام . واكتشفوا دهاناً يقي الخشب من الاحتراق . وهم اول من كتب عن العمليات الكيمائية ودونوا وصفها في كتبهم ورسائلهم . ولا يجب أن يغفل فضل استعمالهم للاوعيـة الخزفية والزجاجية في التقطير وفي التجارب الكيمائية الاخرى ، واليهم ينسب اكتشاف طريقة التقطير الجزئي Fractional Distillation اما اشتغالهم في فن الصيدلة ووضعهم للاقرباذين واستخدامهم المركبات الزئبقية كعلاج للامراض الجلدية فما لا نريد ان نتطرق اليهِ في هذه العجالة

واما الخدمات غير المباشرة فهي جمعهم العلوم من مصادر شتى ، وتأليفهم بين اجزائها ، ثم نقلها الى الغرب الذي اتخذها أساساً لتشييد النهضة الحديثة . ولولا هذا العمل لتأخرت النهضة العلمية الحديثة بضعة اجيال . افهل يعد هذه خدمة للعلم اعظم ؟

البصرة

الپاپاز: ثمر عجيب

Papayas or Papaws

[عن السينتفك اميركان : نقلها عوض جندي]

الپاپاز أو قاوون الاشجار، ثمر لذيذ لشجرة تشبه النخلة شكلاً، تنمو في أراضي المنطقة الحارة، فيها شفاء للناس . وشجرة الپاپاز بديعة الشكل، مختلفة الثمار . وتحمل ثمرها على ساقها الباسقة فتبرز الثمار مباشرة من الساق، على مقربة من أوراقها العليا التي تجلل رأس الشجرة . ويصنع لحاؤها حبالاً . وتستخرج من جذورها عصارة فاخرة مقوية للأعصاب . ويستعذب الوطنيون في البلاد الحارة بزورها فيمضغونها كثيراً إرواءً للظمإ . ويحلّ ثمرها اليفيع الشهي جداً محل القاوون العادي المضلع «وهو المعروف في القاهرة وضواحيها باسم السنطاوي» ويؤكل ثمرها نيئاً، ويطبخ كما تؤكل الخضراوات وتطبخ، واذا عقمت شجرة الپاپاز في أواخر السنة الثالثة من عمرها . قطعت وجُمِّرت[1] وبُشِر جُمَّارها اللين، كما يبشر النارجيل للأكل، وطعم جمارها يختلف قليلاً عن طعم بشارة[2] النارجيل، ولكن هيئته ومميزاته العامة تجعل ناظره يكاد يظنهُ نارجيلاً مبشوراً. ولذلك ترى الأميركيين يشرّحونه ويخلطونه بالقشدة المخفوقة فيصير من ألذ أصناف الحلوى التي تؤكل عقب الطعام . ويصنعون من بشارة الجمار سلطة لذيذة مغذية مؤلفة من الخس والخيار المشقّق . ويصنع من ثمر الپاپاز مُربى وهلام لذيذان . ويدخل الپاپاز في صنع الشطائر Sandwich والقراقيش والشربات والمخللات، فيجعلها شهية جداً . وتصنع من ثمر الپاپاز كعوب مبلورة، وهي من أفضل انواع الحلوى الملبسة بالسكر، التي تحضر من ثمار المنطقة الحارة

وشجرة الپاپاز سوقاء[3] جوفاء دقيقة الرأس . ويبلغ طول ثمرها عشرة قراريط . وقشر الثمر صفيق كقشر البطيخ، ولونه برتقالي . ويسلق الپاپاز الفج ويؤكل كالخضراوات . ويستعمل أهالي المنطقة الحارة عصارة ثمر الپاپاز الفج، بحالتها الطبيعية، وهي لبنية الشكل، علاجاً للأكزيما والثآليل والقرح والديدان المعوية والدفتيريا ولغيرها من الادواء المختلفة . ويتخذ الثمر اليانع من الپاپاز بمثابة مثاث[4] للوجه والشعر، بأن تؤخذ شريحة منهُ وتدلك بها البشرة فتزيل منها النمش وغيره من العيوب الجلدية . وكذلك يستخرج من الپاپاز ذرور للوجه وغسول لعلاج الجلد ويجعل ثمره البغو[5] وورقه الأخضر كصابون لتنظيف الثياب

---

(١) جمر النخلة — قطع جمارها — (٢) البشارة على وزن فعالة، بضم الفاء . الجوز المبشور وغيره (٣) السوقاء — طويلة الساق (٤) المثاث — دهان الوجه أو الشعر (٥) البغوة — بفتح الباء الثمرة قبل نضاجها . وهـذا اللفظ العربي الفصيح مستعمل عند الفلاحين في الوجه البحري ويطلقونه على قرون الفول الأخضر الغض

وتستخرج منهُ مادة البابائين[1] وهي عقّار مشهور في الطب وتستعمل عصارة الباباز ملينًا للحم اليبيس. فاذا دهنت قطعة لحم تارز[2] بشريحة خضراء من ثمر الباباز ، غزيرة العصارة ، او اذا غمرت اللحم في تلك العصارة بضع دقائق ، لان وسهل مضغه وتيسر هضمه . واذا وضعت قطعة من ثمر الباباز في الماء المزمع سلق اللحوم فيهِ ، عجلت إنضاجها . واذا لففت اللحم اليبيس بورق الباباز الاخضر لان . وتُغذّى الخنازير بثمار الباباز ، فتلين لحومها اكثر مما هي عليهِ ، فيقبل الناس على شرائها وأكلها . وسبب تلك الميزة الغريبة في الباباز ، الملينة للحم الصلب ، أيًّا كان نوعه ، تشبع عصارة الباباز بمادة البابائين . وهي مادة تهضم الاغذية البروتينية مثل اللحوم وبياض البيض واللبن الجبن وما شاكلها . ومثلها في ذلك مثل خميرتي المعدة البشرية المشهورتين وهما الببسين والتريبسين. ولذلك تستعمل البابائين في عالم العقاقير بديلاً من الببسين

وطريقة استخراج مادة البابائين النفيسة هي كما يأتي : — يجفف اللبن الذي يسيل من لحاء ثمر الباباز الاخضر . وأفضلهُ ما يستدرُّ من الثمر الاخضر الموشك على النضج، الجيد الحجم، فيخدش لحاؤهُ خدشًا سطحيًّا بسكين عاجيٍ، او خشبي او عظمي . لان الثمار الصغيرة جدًا تدرُّ لبنًا ضئيل التأثير في الهضم ، على حين ان الثمر اليانع يدرُّ لبنًا قليلاً جدًا أو لا يدرُّ البتة . ويجمع العصير الذي يسيل من ذلك الشق الذي يشق في الثمرة ، في اناء زجاجي او خزفي نظيف جدًا . ولا تلبث الثمرة المخدوشة ان تكف عن الادرار لان اللبن يتجمد في شقها . فاذا انقضت بضعة أيام ، اندمل شقها . وتكاد خاصية الثمرة لا تتأثر بتلك العملية . ويمكن خدش الثمرة نفسها مرة كل اربعة أيام او خمسة أيام حتى تبدو عليها اعراض النضج . وينبغي ألاَّ تستعمل المدى الفولاذية للخدش في أية حال من الاحوال لئلاَّ تنتج مادة البابائين قاتمة اللون ، طفيفة النفع . وتبدأ عملية الخدش في الغداة على ان تتم قبيل الساعة العاشرة صباحًا لكي يترك وقت كاف للثمرة لتجف في اليوم نفسه

وسرعان ما يتجمد العصير المجموع، فيصير كتلة بيضاء نقية فتجفف عاجلاً لئلاَّ تتعفن فتفسد المادة كلها . ويقوم التجفيف بتعريض ذلك اللبن المتجمد سريعًا لاشعة الشمس على ألواح زجاجية

اما في جزيرة سيلان، حيث تكون الاحوال الجوية شديدة التقلب ، ولا سيما في الجنوب الغربي منها ، فلا يستطاع تجفيف العصير في الخلاء ، فتستعمل أجهزة خاصة للتجفيف في تلك الآفاق وفي غيرها من المزارع الكبرى في انحاء العالم . ومتوسط ما يُستغلُّ من مسحوق البابائين من كل فدان يزرع بابازًا هو ١٧٥ رطلا كل سنة . وقال احد مشهوري خبراء الصحة في البابائين ما يأتي —

توفرت على البحث فيما يحويه البابائين من الفيتامين ، فاستدللت ، مما قمت بهِ من التجارب ، في

---

(١) البابائين . خميرة تستخرج من ثمر الباباز الفج ، ذات خواص هاضمة مثل البيسين وتؤثر في المحاليل القلوية . وهي مسحوق أبيض يحضر من عصير الباباز مقو للقلب، خافض للحرارة ، مذيب لاغشية الدفتيريا اذا استعمل مسًا مخففًا (٢) التارز — الصلب—

جزائر هونولولو والهند الشرقية الهولندية ان الپاپاز غاصٌ بفيتامين C وهو الفيتامين الذي يحويه البرتقال فيجعله مفيداً للصحة . والپاپاز ايضاً حافل بفيتامين A الذي يندر وجوده في الثمار . ويكون دائماً مصحوباً بفيتامين D أنَّى وجد . وفيتامين D يمنع كساح الاطفال . وحسب الپاپاز هذه الفائدة الطبية وحدها التي تجعله مفيداً فائدة لا تقدر لشعوب العالم . وكذلك قوته المساعدة على هضم الاطعمة . وهي نعمة عظيمة للذين يشكون سوء الهضم على اختلاف انواعه

وقد شرع العلماء يدرسون الپاپاز من وجهة منافعه الصحية ، وذلك مع معرفة خصائصه الطبية من زمن بعيد عند سكان المنطقة الحارة ، حيث ينمو ذلك الثمر نمواً فطريّاً . فاستدلوا على ان الپاپاز يمكن ان ينفع سكان الولايات المتحدة الاميركية منافع جليلة »

والپاپاز من فصيلة ذات عشرين نوعاً تنبت في المنطقة الحارة باميركا وفيما يليها من الاقطار وتسمى شجرته علميّاً باسم كاريكا پاپايا Carica Papaya وتوجد في جنوب فلوريدا . وقد انتشرت زراعة الپاپاز في ارجاء العالم حتى كاد يصبح معروفاً في جميع الاقطار الحارة . واصنافه كلها سريعة النمو ، غير مفرعة . وتبسق الى ثلاثين قدماً ، ذات منظر بارع الجمال ، وورق كبير ، وثمر جزيل ، شبيه بالبطيخ ، مما يجعل تلك الشجرة فريدة الشكل وتحمل الشجرة ثلاث سنين او اربع سنين . ويختلف حجم الثمرة من قدر الكوارت الى حجم كوز الماء الكبير . وتزن من ثلاثة ارطال الى خمسة عشر رطلاً . وكثير من انواعه مستدير الشكل ، وبعضه مستطيله وهذا الاخير هو الاصلح احياناً للتصدير الى البلاد الخارجية . تمَّ ما قالتهُ السينتفك اميركان

وجاء في مجلة العلم العام الاميركية ما يأتي : —

تنمو في مفاوز المنطقة الحارة باميركا الجنوبية شجرة مدهشة ، ذات منافع اقتصادية وطبية . وهي شجرة الپاپاز . وهذه تختلف اختلافاً طفيفاً عن اختها التي تزرع في الاقاليم الوسطى والجنوبية بالولايات المتحدة التي تمتُّ الى فصيلة اخرى . وهي شجرة أنيقة الشكل وقد يبلغ طولها ثلاثين قدماً وتفرز عصارة غريبة اذا دهنت بها لحماً قصيداً [1] جدًّا كلحم البقر مثلاً ، رَخُص [2] فصار كلحم الغزال . ويستعمل اهالي البلاد ، التي تجزل فيها اشجار الپاپاز ، عصارته لتلك الغاية . ويجعل اهل باراجواي ورق الپاپاز بديلاً من الصابون . ومن غريب امر عصارة شجرة الپاپاز انها تحتوي على ليفين (فيبرين) وهو بروتين كيميائي لا يوجد الاَّ في المملكة الحيوانية . وعصارة الپاپاز لبنية ، حريفة الطعم ، ذات منافع طبية . وتستعمل بزور الپاپاز كدواءٍ فعَّال طارد للديدان ، قاتل لها . وثمر الپاپاز لذيذ الطعم ، دسمه ، كبير الجرم ، مستطيل الشكل ، وقشره ثقيل ، فعسى وزارة الزراعة ان تعنى بزراعة شجر الپاپاز في مديرية اصوان . كما جُرِّبت زراعته في السودان فنجحت . وقد رأينا ثمره في المعرض الزراعي الصناعي السابق

(١) القصيد اليابس (٢) رخص — لان ونعم

الشعر الحديث

بين الثورة والتقليد

للدكتور احمد زكي ابو شادي

— ١ —

« أيُّ شيءٍ في الماء الجاري له ذلك السحر الوثيق بالذهن الانساني ؟ » — هذا هو السؤال الذي استهل به المستر بفيون محاضرته الثالثة عن (التقليد والثورة في الشعر الحديث) . وجوابه عن هذا السؤال « ان خرير الماء السلس ليس وحده الذي يلطف المشاعر القريرة ، بل شيءٌ من فوره ينبه التصور ويرضيه ، وينقلنا خارج ذواتنا كأنما نحن على مجرى حركة تشاطر في الخاطر دون جهدٍ منا . ان سر ذلك السحر هو اعترافنا بأن هذا الشعور بالحركة الهنيئة الطليقة هو عنصريٌّ واصيلٌ في ذواتنا . ان الحياة هي الحركة ، وهي تشمل تحوُّلاً مستمرّاً ، وسواء شئنا ام لم نشأ فأجسامنا في تحول مستمر من المهد الى اللحد ، متغيرة ومتجددة من لحظة الى اخرى . فهل كذلك حال اذهاننا ؟ لست أدري . ولكنني واثق من اننا في خطر دائم من تركّ المادة الميتة تتجمع في اذهاننا ، ومن قبول الاطراد للآراء المتناولة ، ومن صيرورتنا الى عبودية ألفاظ وعادات . ان البركة الآسنة وقد طفحت عليها الجفالة وغصّت بالاعشاب هي صورة ما يمكن ان نحيل اليه اذهاننا بالاستسلام المهين . ولكننا غالباً نشفق في تفحصنا في هذه الناحية ونؤثر ان نعيش مجهولين لانفسنا ، كأن سقطاتنا الخلقية فقط جديرة احياناً باهتمام الضمير المنقّب . ان الفنان الصادق يعرف بالنقاء والتشبث والنجاح في جهده ليبلغ ما هو اعظم من الحدة والدقة والقوة في التعبير عما في نفسه وعن خبرته للحياة . انه يريد ان يعمل طليقاً من كل ما هو ميت او نصف حي مائقاً او موهناً تعبيره بمادة رثة او قالب عتيق ليس وفقاً له ، أو سُلِّمَ بهِ دون عقيدةٍ من حُرمةِ زمنٍ سابقٍ ، أو كان ثمرةَ تراخيهِ وعجلتهِ . إنّ القوةَ الدافعةَ خلف جميع الحركات في الفنون التي يُسْمَعُ عنها كثيراً اليومَ واحدة : فهي في أصلها رغبةٌ في الوفاء الأصدق للذات الداخلية ولحقيقة العالم الخارجية ، وفي التعبير عن علاقة الرُّوح الانساني بالكون بصدق واستيفاءٍ أبلغ . لا توجد سوى حركةٍ واحدةٍ تجاه حياةٍ أحدٍ ، ولكنّ احتمالات الخبرة فسيحةٌ غاية الفسحة حالة ان الطاقةُ الانسانيةُ محدودةٌ ، بحيث تتجلى هذه الحركة في الواقع كضغط غير مبذول بمثابرةٍ الى غاية واحدة بل تارة في هذه الجهة وحيناً في تلك ، فيبدو في الوقت طريقٌ معيّنٌ أحب من غيره .

وكثيراً ما تلوح كمحاولة لاحياء حركةٍ سابقة كأنما النوع الانساني في عجلتهِ أو في تشعب اغراضه افتقد شيئاً في الطريق واحتاج الى تعقّبِ خطواتهِ ليلتقط دليلهُ المنسيّ ! »

— ٢ —

ثم تكلم المحاضر عن « الحركات الفنية » فقال إنّ هذه « الحركات » نشأت عادةً بمثابة ردّ فعل للتقليد أو فُهِمَتْ كذلك عند منْ بدأوا بها . واذا نجحت « الحركات » سميت « تقاليد » ، ولكنْ من النجاح ما يمكن أن يعني فقدان الحياة !

قال بنيون في اسلوبه الدسم المركّز : « لنبدأ بتمييز في التعريف : لسنا نستعمل كلمة « تقليد » بمعنى واحد تماماً ، فعندما نتكلم عن التقليد العظيم في الشعر الانجليزي نفكّر في سمطٍ مديدٍ من الشعراء الأصيلين ، ولا نفكّر في اولئك الادباء الذين عاشوا على تقليد التفوّق السابق بل نغفلهم وننساهم . إنّ « الأصالة » التي تظهر في كل عصر أو جيل هي التي تخلق « التقليد » وهو « تقليد الحياة » . وقد جلب كلٌّ من اولئك الشعراء جدته النيرة معهُ ، ولو انّ كلاً منهم كان مرتبطاً بأسلافه برباط الوراثة أو التفاعل أو غالباً بكليهما معاً . وكلُّ تقليد حيٍّ في الفنون عرضة دائماً للخطر ، إذ لا بدّ ان يتحرك وإلاّ صار راكداً وتعفّن . إن مجد شعرنا انما هو في كونه يمثل تياراً نشيطاً دائم التغير ولكنهُ مطّردٌ »

وانتقل المحاضر الى بيان المعنى الآخر لكلمة « تقليد » فقال : « ولكن ثمة معنى آخر لكلمة « تقليد » إذ نعني مجموعة قواعد وعادات مرعية نتناقلها على انها شيء مقدّس راسخ . وثمة أذهانٌ تتعلق بهذه المبلورات لما كانت دوافع سائلة في زمن ما ، كأنما تتعلق بصخور او قلاع في دنيا من التقلب والكفر ! ثم ينسون أن الحصون المنيعة تؤخذ دائماً في النهاية ، فليس الظفر سوى الجيش المتحرك . وهناك أذهان ذاتُ مزاج آخر يدعوها التفكير في كل ما صنعتهُ تلك الخرافة الذهنية ، تلك المادة الميتة في العقل ، لعرقلة الرّوح الانساني وتشويههِ ، وفي الحماقات والقساوات التي أنتجتها ، يدعوها ذلك التفكير الى فصم علاقاتها بالماضي فصماً تامّاً والى دخول عالم طليق من الوهم معتمد على نفسهِ ، وحرٍّ . ولكننا نعلم جيداً أن النفس الانسانية لا تستطيع ان تفصل نفسها عن ماضيها . ومع ان التغيُّر من لُبّ الحياة ، فلا بدّ ايضاً من دوامٍ حي لا بدّ من استمرارٍ ، إذ بغير الاستمرار لا يوجد نموٌّ . وهذا « الاستمرار » كائن في « تقليد » الشعر الانجليزي . واما عن التقليد بالمعنى الآخر ، اي مجموعة القواعد والقوالب الجامدة ، فما اقلّ ما انحدر منها مع التيار ! وحتى قبل الحرب وما صحبها من رجفة مادية للعالم ، كان ملحوظاً في كل مكان روح القلق والحيرة ثائراً في الفنون متجلياً على اتم وضوح في التعبير الجابل (plastic expression) وفي التعبير التصويريّ ولكنهُ مشهود كذلك في الأدب ، وهو ضربٌ من الحمّى ، وحنين الى البدائي ، الى الهمجي ، الى الهمة وتوكيد الذات باي ثمن . وأصبحت « الرجولة » و« الحيوية » الكلمتين الاصطلاحيتين للاطراء في النقد ،

فاستعملنا في إبهام تام كما هو حظ أمثالها من الكلمات . فهل كان في ذهن اوربا إلهام أو توقع للانفجار المقبل في عالم الحركة ، من القوى البدائية والغرائز التي كُبِتت زمناً طويلاً ؟ كيفما كان ذلك فان علينا ملاحظة هذه الحقيقة . وان سبب هذا الروح المحموم المضطرب في الفنون ليوجد أعمق من اي مذهب جمالي (aesthetic) ، وأرى انه مشتبك معا كتظاظ الحضارة الذي نحن جميعاً عرضة للشعور به . اننا لا نزال مأخوذين بذلك الخلط القديم عن جمال الحياة البدائية ، مع اننا نعلم ان المتوحش الذي نحسده محتبَل في شبكة من المخاوف الباطلة والموانع عند كل خطوة يخطوها ، مما يستعبده اكثر من المدنية الكاملة »

وانتقل المستر بنيون الى التحدث عن « الوان السخط الغامض والرغبات المضطربة التي ظهرت في الفنون وكان أدعى الى ظهورها ، أنهُ حول بداية هذا القرن بدىء باكتشاف ما للفنون الابداعية (creative arts) في القارات الاخرى خارج اوربا وبخاصة آسيا ، من الجمال والخطورة وتقدير ذلك . ومن ثمة بدىء بتحدي تراث الاغريق والرومان والقواعد المؤسسة على الفن الكلاسيكي . وكانت نتائج هذه المكتشفات اظهر ما تكون — بطبيعة الحال — في الفن التصويري والفن الجابل ، ولكن التفاعلات المؤثرة اليوم في الشعر هي الى درجة ما صدى لتفاعلات في عالم النقش حيث كانت الحاجة اعظم الى التبديل . وذلك لان التصوير الاوربي كان قد انغمس في مسألة التمثيل الشكلي انغماساً تامًّا وجعل غايته التحقيق الشامل للحقيقة المنظورة ، بينما الشعر لم يرتبط مطلقاً بمبادىء الطبيعيين . وفي الوقت ذاته يجب ان نلحظ ان الترجمات الوفيرة للشعر الصيني فتحت لشعرائنا عالماً جديداً وتطورات جديدة لفنهم ، وارى ان ترجمات المستر والي (Waley) كان لها أثر بعيد . اذن اجتمعت الظروف لتنشىء في الشعر كما انشأت في جميع الفنون حالة من الغليان والاضطراب . ولا مناص في مثل زمننا السريع التحول المديم النظير من ان تصير صيغ الفن غير ثابتة وتجريبية » . وشرح المحاضر الحركات المتوالية بين صعود وهبوط كأنها امواج العباب فتشرئب ثم تنبسط : فمن رمزيين (symbolists) الى رسامين (imagists) الى دوّارين (vorticists) [1] الى تصريحيين (expressionists) وهلمّ جرًّا

— ٣ —

ثم أخذ المستر بنيون يتحدث عن اساليب التعبير فقال « انهُ لا مناص من ان يؤدي التغير في المزاج أو في الآراء الاساسية الى محاولة ايجاد صيغ جديدة للتعبير . ولاولئك الذين تعوَّدوا التقاليد القديمة للشعر الانجليزي ، وعلى الاخص تقاليد القرن التاسع عشر ، يتجلى الاسلوب الذي

---

(١) ترمي الحركة الدوارية في الفن الى اظهار الحركة الايقاعية في الاثر الفني ولو جاء بمعزل عن تفاصيل المشابهة بالاصل . ومن أهم اعلامها هنري جوديه برسكا في فرنسا ووندهام لويس في انجلترا ولا يزال الاخير من كبار نقدة الفن في انجلترا

يعبر به الشعر الحديث عن نفسه ، مرتبكاً . وثمة امران يدعوان الى الحيرة أو الاستياء : وهما الغموض والصياغة أو العجز في الصياغة — هذا الغموض الذي يظهر الآن بدعة سارية (fashionable) يرجع غالباً الى استعمال أخيلة مرسومة من مصاحبات الشاعر الخاصة ، وهي بالضرورة غامضة لآخرين . وقد راد ت . س . إليوت (T. S. Eliot) [١] الطريق لاستعمال هذا النوع من الصور : ويتبعه في ذلك المستر أودن (Auden) وآخرون . وهناك أمثلة كثيرة لقصائد كانت تظن غامضة عند صدورها — مثل ملحمة تنيسون « الذكرى » (In Memoriam) [٢] ثم لم ير جيل آخر أية صعوبة في تفهمها . ولست أدري هل سيقع هذا في حالة شعراء اليوم المحدثين . وعلى أي حال لا يبدو أن هناك شيئاً ضرورياً في هذا الغموض ، فاننا لا نجده مثلاً عند المستر استيفن اسبندر (Stephen Spender) . ان موضوع الصياغة يثير مسائل بعيدة المدى ، فاننا عند ما نتحدث عن الصياغة في الادب نكون عرضة للتفكير فيها بعبارة هندسية فيتمثل في اذهاننا التشييد قبل النمو ، وتقوم في أذهاننا صورة بناء قبل ان تقوم صورة نبات . ليست صياغة القصيدة عبارة عن مجموع أجزائها فحسب ، ولنذكر بيت سبنسر :

ان الصياغة روح مكوّن للجسم

The form is Soul and doth the body make

ولنا أن نقول إن لكل قصيدة صياغة داخلية وصياغة خارجية . ويخيل الي أن الناس يميلون الى اطالة النظر كثيراً في الصياغة الخارجية ، وعلى الاخص إذا كانوا قد أضلوا بالمثال الاعلى الكاذب عن الدقة . وربما لا يزال يوجد أناس يتصورون أن المثل العالي لصياغة الشعر أن تكون في تناوب النبرات ، وليس الانحراف عن ذلك إلا من الضرار الشعرية المسموح بها . ومع ذلك فمن البديهي ان على الاختلافات في الصياغة الداخلية يتيسر وجود الحياة الايقاعية لوزن الشعر . وهذا يمثل عبادة الصياغة الخارجية في منتهى سخافتها »

— ٤ —

أخذ المحاضر بعد ذلك يوجه عناية المستمعين الى مكانة ما نعته بالصياغة الداخلية أو الصورة الباطنة لوزن الشعر وتأليفه فقال : « أرى أن شعراء الحركة العصرية يرمون بصدق الى بلوغ الصياغة الداخلية قبل الخارجية . ومن ثمة كانت الحركة قابلة لان تعتبر الوزن والقافية مجرد أغلال أو عوائق وخزعبلات رثة . ومع أن ذلك التقرير لا يصدق الآن كما كان يصدق منذ سنوات قليلة

(١) من شعراء انجلترا المجددين وهو من أصل أميركي وجامع بين ثقافة السوربون واكسفرد ومن مأثور شعره الجيل « أغنية ج . ألفرد بروفرك الغرامية » The Love Song of J. Alfred Prufrock (أنظر كتاب Recent Poetry 1922—1933)

(٢) نقلها الى العربية الاديب الشهير أنيس الخوري المقدسي استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية ، وبذل فيها جهداً عظيماً استغرق سنوات . وقد نظم تنيسون هذه الملحمة في سبع سنين وفاء لذكرى صديقه الحميم أرثر هنري هلام Arthur Henry Hallam وجعل موضوعها الموت والخلود مستوحياً حياة صديقه الفقيد

مضت ، فما من شكٍّ في أن قيمتها صارت متحداة » . وأخذ المستر بنيون بعد ذلك يشرح أنهُ كيفما كان الرأي الذي نريد أن نتخذهُ فان هناك خيراً حقيقياً لا بدَّ من نشوئه عن هذا التحدّي للتقليد ، يجب أن يجعلنا ندرك أن الاختراعاتِ التي من طراز الوزن والقافية هي وسيلةٌ وليست غايةً . ان القافية أداةٌ للتقويم والتوكيد . فلها قيمتها في (المهزلة الإلهية) لدانتي لأنها تشعر بتسلسل النظم ، ولها قوةٌ كدقات المطرقة في البيتين الاخيرين من « السونيتة » الشكسبيرية [١] أو في بعض الاغاني الدّارجة (ballads) القديمة » . وعاد المحاضر الى موضوع الوزن فشرح كيف أن نظرية الشعر الحرّ (free verse) قائمةٌ على أن التعبير يكون أدقّ اذا ما أطاع الشعر كل تغيرٍ دقيق للفكر والشعور عند ما ينشأ في ذهن الشاعر ، وقال متسائلاً : من فرضَ الوزن أصلاً ؟ يقيناً تم الشعراء أنفسهم وكما أن القواعد اخترعت للألعاب الرياضية فكذلك الحال في الشعر . إن الفنانين يعملون محسنين داخل حدود مقررة ، وهم عرضة لأن يُشَلُّوا بالحرية الكاملة . وليس الالتجاء في ذلك للعلم النظري ولكن للخبرة »

مِنْ رأي المستر بنيون أن الوزن يقابل شيئاً في الطبيعة الانسانية هو نسيج الحياة ذاتها . فيمكن أن توجد داخل الوزن مرونة لا حدَّ لها ، كأنما هي التجاوب بين الباعث والعادة أو انما هي الحرية في داخل قيود المجتمع الانساني . وأخذ يستشهد بشعر فيه روح الغناء والخطابة وحتى الحديث:

I sang the dancing stars,
I sang of the daedal earth,
And of Heaven, and the giant man,
And Love, and Death, and Birth.
And then I changed my pipings,
Singing how down the vale of Maenelus
I pursued a maiden and clasped a reed.
Gods and men, we are all deluded thus,
It breaks in our bosom and then we bleed;
All wept, as I think both ye now would,
If envy of age had not frozen your blood
At the sorrow of my sweet pipings.

واليك ترجمتها الحرفية وان ذهبت بمعظم الروح الغنائية التي تصونها التفاعيل النظمية :
« تغنّيتُ بالنجوم الراقصة ، تغنّيتُ بالارض الحيّرة ، وبالسماء ، وبالانسان الجبّار ، وبالحبّ والموتِ والميلاد ، وبعد ذلك بدّلتُ زمري مغنّياً كيف في مهبط وادي ميناليس تعقبتُ صبية فلم اضمّ إلاّ قصبةً . وهكذا نُضَلُّ جميعاً نحن الآلهة والرجال . إنهُ ينفذ الى صدورنا وحينئذٍ ندمى . انهم جميعاً بكوا كما أظن أنكما الآن تبكيان اذا لم يكن حسدُ العمر قد أصقعَ دمكما لدى الأسى في زميري العذب » . قال بنيون « كذلك بيرون في الفصلين الاخيرين من ملحمة (تشايلد هارولد) يبدو لنا خطيباً مصقعاً . إنهُ يشعر بمستمعيه ، ولكن ليس ذلك كأنهم شيءٌ خارجيٌّ عن

(١) تتألف السونيتة الشكسبيرية من ثلاث رباعيات تتبعها ثنائية ، ونظام قوافيها هو (على سبيل المثال) : أ ب أ ب ، ج د ج د ، ه و ه و ، ز ز وكانت السونيتات مقصورة أصلاً على الشعر الغنائي ولكن اتسع مجالها فيما بعد

نفسه يريد تنبيهه أو مداجاته لغاية خفية ، وانما يشعر انهُ كليمٌ ، (spokesman) لتفوهِهِ صبغةً عامةً اكثر منها خاصة . هو رجلٌ طرازي (representative)،وهو يعرف ذلك . وهذا يعطيه سمة في الخطاب ونوعاً من الفسحة في الاسلوب . وليس هـذا بأنخر الشعر ، ولكن أدبنا يكون أفقر كثيراً من دونه . ان شكسبير ممتلئٌ بالفصاحة البيانية ، ولكنهُ حتى عند ما يستعمل تعابير طرماذية (bombastical) فمن العسير أن نجده قائلاً شيئاً فارغاً . ربما كان معربداً في براعتهِ الذهنية أو في سيطرتهِ على اللغة ، ولكننا نجـد دائماً عقلاً داهيةً نشيطاً خلف كلماتهِ . وفي نماذج الخطاب النبيل نجد بيانهُ مغموراً بالخيال مما يجعله في أية لحظة متسامياً الى الشعر كما في هذه المقطوعة من خطاب (جون أوف جونت) (١) :

This royal throne of kings, this sceptred isle,
This earth of majesty, this seat of Mass,
This other Eden, demi--Paradise...
This happy breed of men, this little world,
This precious stone set in the silver sea.

هذا العرش الملكيُّ للملوك ، هذه الجزيرة الصولجانية ، هذه الأرض للجلال ، هذا الكرسي للقُدّاس ، هذه عدن الاخرى ، نصف الفردوس...هذا النسلُ القرير من الرجال ، هـذه الدنيا الصغيرة ، هذا الحجر الكريم الثمين منضداً في البحر الفضي»

واستطرد المستر بنيون في حديثه عن الخيال الشعري فقال إنهُ كان يتألقُ متمشياً مع الفطرة السمحة في أحاديث تشوسر ، وفي حوار شكسبير الخفيف ، وفي ملحمة (دون جوان) لبيرون ، وفي فرديات (monologues) برونتج ، وفي قصائد معينة لروبرت بردجز وييتس . ومن رأي بنيون أن صياغة الشعر تكون في أجمل صورها الطبيعية حينما يكون كنوع من الخطاب السماوي وهو شيءٌ يُبعَدُ الصوتُ الانساني، الصوتُ المتكلمُ، أتقنَ أدواته ، فان لهُ حركةً ناشطةً بهجةً ممتائةً حرةً ، حتى ليبدو كأنهُ نوعٌ من التحرر لشيء في نفوسنا الداخلية » . وتفسيراً لذلك أنشدَ بنيون الوصفَ البديع الذي وصفَ بهِ ثيسياس (٢) (Theseus) كلاب الصيد ، ثم قال :

« عند ما يهجر الشعر هذه السجية وهذا النطقَ ، عند ما يستعمل ضرباً من النظم لا يمكن تقديره في الصوت المتكلم ولا يعظم بهِ ، إما بسبب حركتهِ أو بسبب عبارتهِ ، فحينئذٍ يفقد شيئاً من صفتهِ الأصيلة . هـذه الصفة يفقدها عند ما تُدفَع الكلمات قهراً في وزن بغير إحساس بقيمتها الطبيعية في الكلام . والنظم الانابستي (الرجعي) anapaestic verse (٣) عُرضةٌ بصفةٍ خاصة لهذا العيب ، وحتى كيتس في صباه كان يقول مثل هذا :

(١) John of Gaun : هو دوق لانكستر (١٣٤٠ — ١٣٩٩) والابن الرابع للملك ادوارد الثالث والملكة فيليبا . وكانت له جهود حربية في اسبانيا وفرنسا ، وفي أواخر حكم الملك أدوارد الثالث (والده) تعاظمت قوته في انجلترا ، وقد نال فيما بعد لقب دوق اكويتين وحكمها . وهو من الشخصيات التي لم تغفلها عبقرية شكسبير

(٢) ثيسياس أو تيسس بن أغيس . بطل أثيني ، وقد ذكر في (الالياذة) أنظر ص ٢٢٥ من الترجمة العربية لسليمان البستاني (٣) يرجع الى أحد كتب العروض الانجليزي للوقوف على تفاصيل الوزن

What though while the wonders of nature exploring
I cannot your light, mazy footsteps attend
Nor listen to accents that almost adoring
Bless Cynthia's face the enthusiast's friend.

ويمكن الاستشهاد بأمثلة أخرى أشدّ عيباً لشعراء آخرين [١] . ويلاحظ أن في هذه الاناشيد الشعرية تكون ضربة النغمة واقعة في البيت الاول وتُترَكُ الكلماتُ لتتمشى معها على قدر طاقتها ولو أن نطقها في الانشاد قد يختلف كثيراً

ولكن الشعر قد يفقد صلته بالحديث فقداناً طبيعيًّا لاسباب عميقة حينما ينظم الشاعر وهو يفكر عن غير وعي في الكلمة المكتوبة قبل الكلمة المنطوقة ، كما تدلّ على ذلك براعة تنيسون في شعره المرسل blank verse الاخير وفي سونيتات روزيتي التي تغلب عليها الصناعة . وهذا مشهود بصفة خاصة في درامات سونبرن [٢] ذات الشعر المرسل بما لها من الرونق والتأثير الكلاميّ العام ، ولكنها قلما تؤثر تأثيراً عاطفيًّا لانها تهمل الوقفات الطبيعية للتنفس في أثناء الكلام ، وبناء على ذلك تكتسب ما يكاد يكون جرساً أجنبيًّا يشق اتباعه عند التكلم به . وردُّ الفعل لهذه الكتابة النظمية التي تعلّق بها شعراء العصر الفكتوري كان بذل الجهد لتقريب النظم نحو الحديث الطبيعي ، وهذا يذكّرنا بتوفر وردزورث على تحرير الاسلوب تحريراً طبيعيًّا فعُني بالدعوة الى استعمال اللغة الطبيعية في المواقف العاطفية بدل التعابير التقليدية المحفوظة في لغة الشعر منذ القرن الثامن عشر . ولكنهُ لم يلازم نظريته هذه ملازمة دقيقة بل كان احياناً يمسخ غايته هذه ، ولم يفعل شيئاً ليعيد الى النظم الايقاعات الكلامية speech—rhythms التي كانت للشعر الانجليزي الاول ولكن غطّى عليها النظم الكلاسيكي . بيد أن احد معاصريه — وهو شيلي — توسّع في ألحان الشعر الليريكي وأغناها بما لم يستطع غيره ان يفعله [٣] ويظهر ان قليلين نبّهوا الى ذلك ، لأنّ شيلي لم يكن يبتدع عن وعي ، ونادراً ما كان يذكر الامور الصناعية في كتاباته أو في أحاديثه المدوّنة . استمع الى هذا الشعر :

Ah, Sister, desolation is a delicate thing.
It walks not on the earth, it floats not on the air
But treads with killing footstep and fans with silent wing
The tender hopes which in their hearts the best and gentlest bear;
Who soothed to false repose by the fanning plumes above
And the music—stirring motion of its soft and busy feet
Dream visions of aerial joy and call the monster Love
And wake and find the shadow Pain, as he whom now we greet. (٤)

فيا للتموّجات الساحرة ، ويا للتنويع في النغم ومداه ، ويا للتراوح في الحركة المبهجة ! »

---

(١) لم نترجم أبيات كيتس هذه لان الغرض من سردها في الاصل تبين عيب الصياغة التي لا تتمشى مع سلاسة التعبير

(٢) اشبه شعراء الانجليز بأحمد شوقي بك عندنا في حلاوته الموسيقية . وقد كان له شأن كبير في عهد الملكة فكتوريا وسحر الادباء بحلاوته هذه كما سحرهم تنسون بشاعريته القوية (٣) لعل من أظهر الامثلة في شعره على هذه المقدرة الفائقة قصيدته « السحابة » The cloud فان سلاسة البحتري وبديعيات أبي تمام وأخيلة ابن الرومي مجتمعة تقف مشدوهة أمام ثروتها للدهشة على شدة اعجابنا بشعرائنا

(٤) يرجع الاستشهاد في هذه الابيات الى صياغتها الانجليزية ولذلك لم نترجمها ولا ما يماثلها

— ٥ —

وأخيراً ختم بنيون محاضرته بقوله : « إنَّ المسائل التي بحثناها كافيةٌ لتشويقنا ولكن يمكننا مطمئنين أن ندع للزمن تمحيصها والحكم في شأنها . اما المسألة الحقيقية فهي بين هذين : ما هو الشعر الجيد ؟ وما هو الشعر الرديء ؟ وليست بين التقليديين والعصريين ، ولا بين حزب اليمين وحزب اليسار . ألا يمكننا أن نُبصر الاشياء في نور أعمّ ؟ ألا يمكننا أن نرى في الشعر روحاً مستمراً للنوع الانساني محاولاً بغريزة المقاومة المتحمسة أن يحرر في هذا الاسلوب تارة وفي ذلك الاسلوب تارة اخرى تجاوُبنا كآدميين للعالم الذي نعيش فيه ، والمشهدَ الشامل والمعنى الكامل لهذه الدنيا ذات العظائم والاهوال والعجائب والافراح ؟ إن حبور المشاعر وعذابها، إنَّ الصيحة من اعماق القلب ، إن سياحات العقل ، إنّ تلهفات الرُّوح الحرّة — إن كلاً من اولئك بدورها ربما استوعبت حفاوة الشاعر . ولكن في اعظم الشعر ، وفيه وحده ، يبدو القريض كأنهُ امتص — كما تمتص الاسفنجةُ الماء — جميع العناصر المتنوعة والغامضة للطبيعة الانسانية واذاعها في صورة الفن . واني لأذكر الإصرار الحماسيّ الذي كان يبديهِ الشاعر وليم بليك على الوحدة المثالية للذكاء الانساني ، مما كان يُعَدُّ في عهده دليلاً على عدم الاتزان العقلي بل على جنونه ! كان يعتقد بليك أنهُ اذا اغتصبَت احدى المواهب الانسانية — ولتكن العقل او المشاعر أو العواطف — السلطةَ وسيطرت على بقية المواهب ، فان الانسان يصبح في حالة سقوط . وكذلك الشعر ، إذا صار مُفعَماً بالمنطق او بالعاطفة أو بالحساسية الى درجة المغالاة سقط الى مستوًى دون مستوى ذاتيته الحقيقية . ولكننا نحن الذين وُلدنا في عصر يلوح فيه ان العلم بخطواته الفسيحة قد سبق جميع قوى الذكاء الانساني الاخرى، وحيثما يوجد ضرب من العطل الذهني في حياتنا ، وحيثما لا نزال نعيش بجزء من انفسنا في آراء الماضي ليس لها الآن من صحة ، بينما نمضي بجزء آخر من أنفسنا كمخلوقات عوالم لم تحقق بعد ، فما أشق علينا ان نبلغ ذلك النقاء المنشود ! ولكن ها هي دنيانا المعاصرة التي استبدلت الى حد كبير نظرةُ الاطمئنان اليها من عصر سابق ، بالشك والحيرة وفقدان الامل الكاذب ، فما علينا إلاَّ ان نحسن الحياةَ فيها ما استطعنا . ولا بدّ أن هذا الجوّ الغائم يخضب الشعراء الذين نشأوا فيهِ ، فاننا جميعاً أطفالُ عصورنا ، ولا بدّ ان يكون الشاعرُ ابن زمنهِ إذ ليس في وسعِ الافلاتُ من ذلك مهما حاول أن يموّه الحقيقة ويُخفي نفسَهُ . ولكن المحاولة عن شعور وعمدٍ لتنصيبِ الانسان نفسه كمرآة تعكس الشكّ والاخفاق هو في نظري تسليمٌ حقيرٌ . فاذا كان هذا هو روحُ العصر ، فإذنْ يكون روح الشعر ضدّ روح العصر ، لان الشعر يتغذّى من ينابيع أعمق من هذه المُثبّطات ، ويتذكر الاشياء التي هي أجلُّ من أنفسنا »

موسى بن ميمون (1)

حكيمٌ في حكمته رسالةٌ لابناء العصر الحديث

في عصر مزقتهُ الحروب ، وساد فيه رجال الدم والحديد ، نشأ حكيمٌ من اعظم حكماء التاريخ هو موسى بن ميمون المولود في قرطبة قبل ثمانية قرون

كان يهوديًّا ورعاً ذكّر ابناء قومه بمشترعهم الاول، وكان حكيماً طالما خاض في اغوار الفلسفة الارسطوطالية ، وكان انسانيًّا يجد نصيباً من الخير في كل ثقافة ،وكان طبيباً خاصًّا لبلاط صلاح الدين ولكنهُ مع ذلك لم يصرف المرضى المساكين عن بابه .فن الطبيعي ان يقرن قومهُ اسمهُ الى اسم موسى الكليم مشترعهم العظيم وزعيمهم الذي خرج بهم من مصر الى ارض الميعاد

اطلَّ موسى بن ميمون على الحياة ، اذ كانت اليهودية مضطهدة من المسيحيين والمسلمين على السواء ، بل كانت في خطر من ان تفقد ذاتيتها وتتحجر في مذهب جامدٍ ضيق النطاق . فبعث في ابناء قومه نشاطاً جديداً ، وكسب لهم في مصر وبلاد العرب ، مكانة عالية ، بفضل خلقه القويم وذهنه الجبَّار ، فبسَّط لهم مبادىء شريعتهم الموروثة وفسَّر لهم ديانتهم القديمة تفسيراً جديداً نبيلاً

ولكن حسَّهُ المنطقي السليم ، وبحثهُ الجريء عن الحقيقة ، حملاهُ على الخروج من نطاق مذهب واحدٍ الى رحاب الانسانية والحكمة . فقد صارع الرِيَبَ والاسرار التي تساور ذهن الانسان وقلبهُ في جميع العصور .ومع ان ابناء العصر الحديث ، من غير الطائفة الاسرائيلية لا يعرفون عنهُ الّا قواعد الاحسان الثمان ، الّا ان تفكيره كان ذا أثر عميق في القرون الوسطى التي نشأ منها عصرنا الحديث

فن الطبيعي ان يحتفل اليهود وغير اليهود بالذكرى المئوية الثامنة لمولده في هذا العام ، ابتداء من ٣٠ مارس ولكن من المصادفات التي يؤسف لها ان نرى العالم اليوم مضطرباً كما كان في عصر بن ميمون وان نشاهد بوادر الحروب والصعوبات الدولية تبدو كما بدَتْ في ايامه . ومما تجدر ملاحظته ان روح ابن ميمون ، بل نظرياته ذاتها ، ما زالت ثابتة قوية كما كانت عليه لثمانمائة سنة خلت

***

لقد مرت بابن ميمون في حداثته تجاريب مُرّة لا تختلف كثيراً عن تلك التي يجتازها الشباب الذي نشأ غداة بداية العصر المضطرب الذي نعيش فيه . رأى نور الحياة عشية عيد الفصح من عام ١١٣٥ ، في مدينة قرطبة القديمة ، التي كان يحكمها وقتئذٍ الخلفاء وكانت الثقافة الاسلامية قد نمت

---

(١) [نشر اصل هذه المقالة في مجلة النيويورك تيمس بقلم كاتب اميركي معروف اسمه دوفوس Duffus وقد تفضل فنقلها لنا الدكتور الفريد يلوز المحرر والمترجم بوزارة المالية وسكرتير جمعية المباحث التاريخية الاسرائيلية المصرية]

وازدهرت ، فبلغت شأوها من العظمة ، حتى بزَّ العربُ معاصريهم من علماء المسيحية ، خصوصاً في الطب والعلوم والفنون وتفوقوا عليهم تفوقاً كبيراً . نشأ ابن ميمون في هذا الوسط المخصب في ظل تسامح العرب نحو اليهود ، ذاك التسامح الذي مهد لليهود فرصة الانتفاع من علوم العرب ، فعمت الفائدة كليهما . كان والد موسى من العلماء المشار اليهم بالبنان ، محترماً بين رجال عشيرته ، لما تحلى بهِ من العلوم الدينية وادب الكتابة . وتلقى الولد علومه على يدي ابيهِ فاظهر نبوغاً في الدرس والتحصيل . (لقد ذكر بعض المؤرخين انهُ كان كسولاً في صباه لكن هذا الادعاء يكذبهُ الواقع)

وما كاد موسى يبلغ الثالثة عشرة من عمره ، حتى انقضى الحلم اللذيذ . اذ نشبت في قرطبة اضطهادات قامت بها شيعة الموحدين النازحة من افريقيا الشمالية (المغرب الاقصى) والتي قضت قضاء مبرماً على عهد قرطبة الزاهر ، وحصدت في طريقها الفنون وروح التسامح والاخاء

لم ير ميمون مندوحة عن الرحيل ، محافظة على حياته وحياة اولادهِ . وها هي الاسرة تحيا مدة اثنتي عشرة سنة تارة في الاندلس ، وطوراً في المغرب الاقصى ، دون ان تستقرَّ في موطن واحد . وقد اضطر موسى خلال تلك المدة ان يهمل دراسته ، لكثرة اسفاره . لكنهُ كان اذا استقر في مدينة ، عمد الى تحصيل العلم آونةً بعد اخرى ، وقد نشر اول مصنفاته خلال تلك المدة المضطربة وهو تقويم عبري ما زال مستعملاً حتى الآن كمرجع من المراجع ثم اعقبه ببحث في علم المنطق

هاجرت الاسرة الى فاس في سنة ١١٦٠ فقضت فيها خمس سنوات . وكانت تلك الايام اشد ايام ميمون بن يوسف (والد موسى) قسوة وحيرة . اذ ان فاس ظلت ردحاً من الزمن مركزاً للموحدين ولنفوذهم . اعتنق اكثر اليهود الدين الاسلامي خشية على حياتهم . وقد قيل ان ميمون واسرته حذوا حذوهم . لكن كليهما دفعا تلك التهمة في كتاب ارسله موسى الى احد الحاخامين الذين الصقوا بهِ زوراً هذه الوشاية . وقد امتاز هذا الكتاب بقوة البيان والبلاغة ، فأدى نشرهُ الى احياء روح الشجاعة في يهود المغرب الاقصى

كادت الاضطهادات ان تودي بحياة موسى بن ميمون . فأخذت الاسرة تبحث عن موطن جديد . ذهبت اولاً الى فلسطين . فما كاد يستقر بها المقام حتى شدت رحالها الى الفسطاط ، اذ لم تستطع الحياة في بلاد خربتها الحرب القائمة بين العرب والصليبيين

قضى موسى بن ميمون المدة الباقية من حياته في مصر . وكم لاقى من الصعاب في اوليات سني نزوحه اليها . فقد توالى عليهِ مصابان كاد ينوء تحت حملهما . مات اخوه الاكبر داود غريقاً في المحيط الهندي ، اثناء سفره في مهمة خاصة بتجارة الاحجار الكريمة التي كان يزاولها ، ولم يمض زمن طويل حتى لحق الاب بابنهِ . وقد ظل موسى مريضاً سنة كاملة من جراء احزانه

عاد شيئاً فشيئاً الى الاهتمام بشؤون الحياة . فانكب على دراسة الطب . وما كاد يتمها حتى شرع في مزاولة مهنته ، معتمداً على علوم العرب وعلى ذكائه ومواهبه في تطبيقها وتعديلها . لم ينقطع

موسى عن التطبيب ، بل ظل يقوم به ، اولاً بين اليهود ، ثم احرز شهرة بين غيرهم من ابناء مصر ، حتى ذاع صيته فبلغ السلطان صلاح الدين بن ايوب . وقد دلت الاسانيد التاريخية على ان موسى بن ميمون كان طبيباً يشار اليه بالبنان . لكن هناك باعثاً آخر حمله على مزاولة الطب . وهو انهُ كان زعيماً دينيًّا ثم اصبح رئيساً للطائفة الاسرائيلية بمصر . ولما كان يستهجن اتخاذ الواجبات الدينية وسيلة للكسب ، رأى اتخاذ التطبيب مورداً لرزقه

كان موسى بن ميمون في حياته الخاصة ، متواضعاً ، مجتهداً ، متفانياً في خدمة الانسانية . ويستدل على ذلك من الكتاب الذي ارسلهُ الى احد تلاميذه في سنة ١١٩٩ اي خمس سنين قبل وفاته حيث وصف عمله اليومي كما يلي : « ان واجباتي نحو السلطان ثقيلة جدًّا . ذلك لانني مضطر الى زيارته يوميًّا ، في الصباح المبكر ، فاذا مرض هو ، او احد اولاده ، او احدى سيدات الحرم ، لازمت القاهرة ، وبقيت الشطر الاكبر من النهار في السراي . وكثيراً ما يمرض واحد او اثنان من رجال الديوان ، فاظلُّ بجانبهما حتى يبرأ »

« والقاعدة العامة هي أن اذهب الى القاهرة في ساعة مبكرة من النهار ، وحتى في حالة عـدم حدوث شيء غير عادي ، لا اعود الى الفسطاط ، الاّ ساعة العصر ، وانا اكاد اموت جوعاً . هناك اجد في حجرة الانتظار ، فوجاً من الناس ، يهوداً وغيرهم ، اشرافاً وعامة ، قضاة وحجاباً ، اصدقاء واعداء ، كلهم ينتظرون ساعة ايابي

« اقفز من مطيتي ، واغسل يدي ، ثم اذهب الى مرضاي ، وارجوهم ان ينتظروني حتى احتسي شيئاً من المرطبات ، وهو الطعام الوحيد الذي اتناوله خلال الاربع وعشرين ساعة . ثم اعود الى مرضاي وا كتب لهم تذا كر الدواء ، والتعليمات الخاصة بالطعام . والمرضى يذهبون ويفدون الى ساعة الغروب ، بل اؤكد لك انهم يستمرون وافدين الى ما بعد الغروب بساعتين او اكثر . اتحدث معهم واصف لهم الدواء وانا مضطجع من شدة التعب ، واذا ماجاء الليل ، امسيت منهوك القوى ، لا اكاد استطيع الكلام »

وكان لا يلتقي بافراد الطائفة الاسرائيلية الاّ في يوم السبت ، حيث كان يقضيه في التعليم الديني ، والدرس ، والعبادة ، والصلاة . فكيف استطاع ان يحرر رسائله العديدة ، حتى أخريات ايام حياته ، دون الالتجاء الى كاتب سر ؟ . ثم كيف وجد وقتاً لانجاز مؤلفاته الفلسفية العديدة؟ حقًّا انها لمعجزة ! قضى حياته عاملاً مجدًّا مجتهـداً . وانتقل الى الرفيق الاعلى في ١٣ ديسمبر سنة ١٢٠٤ اي قبيل بلوغه السبعين

ليس من الميسور استعراض جميع نواحي حيـاة موسى بن ميمون ، فهي عديدة متشعبة . لقد استطاع وحده ، دون مساعدة اي انسان ، ان ينهض بثقافة اليهود وايمانهم . وكانت الخدمات التي اداها الى السلطان صلاح الدين ، بمثابة خدمات لشعبه ، اذ ضمن لليهود السلامة والامن ، في

البلاد الشاسعة التي امتد عليها سلطان صلاح الدين. والواقع ان اليهود تمتعوا بعد فتح صلاح الدين لمدينة القدس في سنة ١١٨٧ ، بحرية أوسع من تلك التي نالوها تحت حكم الصليبيين . اما الخدمات التي قام بها موسى نحو الانسانية فانها أجل شأناً . كان يعتقد ان هناك ثقافة عالمية تستطيع استخراج المبادىء الطيبة من جميع الاديان والحضارات . وقد بذل جهده في محاربة التعصب أيّاً كان مظهره. وفي المجادلات التي جرّ اليها رغم ارادته ، اتخذ موقفاً مملوءاً بالتعقل وانكار الشخصيات ، بل طالما تجنب ذكر خصومه باسمائهم

فلما وقع الشقاق بين يوسف بن عقنين — احد تلاميذ موسى المخلصين — وصمويل بن علي ، رئيس المدرسة اليهودية ببغداد ، كتب موسى الى تلميذه ، يحذره من الوقوع في الجدل الشديد ، حيث قال له : « علّم ولا تسب ، تذكر انك أسأت الى هذا الرجل، وانك آذيته في اسباب معيشته . فكيف يمكن أن يتحمل المرء هذه الاساءة دون ان يشكو ؟ تذكر انهُ شيخ مسن ، وانهُ يشغل مقاماً محترماً ، وانك لا تزال شاباً فيجدر بك ان تحترمهُ لمقامهِ وسنه »

ومما قالهُ موسى بن ميمون في « درجات الاحسان الثمان » ما يأتي: « ان ارفع درجات الاحسان ، وأحسنها جزاءً هي السبق في الاحسان ، بمنع الفقر قبل وقوعه »

ليس من السهل الايجاز في تحليل فلسفة موسى بن ميمون . فهي لا تقل تشعباً عن فلسفة افلاطون ، وارسطو ، وكانت ، وهيجل . ولا تزال ثلاثة من درر تصانيفه باقية الى يومنا هذا . نذكر منها اولاً تفسيره لكتاب « المشناه » الذي بدأه ولم يتجاوز الثالثة والعشرين وانتهى من وضعه بعد عشر سنوات . و « المشناه » هي مجموعة الشرائع والسنن والتقاليد الدينية الاسرائيلية التي تناقلتها الاجيال ، عن طريق الحديث ، من وقت موسى الكليم ، ثم اضيفت اليها اقوال الحكماء ، المتناقلة عن طريق تلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم . وقد استعرض موسى بن ميمون في تفسيره ، جميع انحاء الثقافة اليهودية . ومما قاله الدكتور مونز (Munz) واضع تاريخ حياة موسى ابن ميمون ، ان كتاب تفسير « المشناه » ليس عمل رجل يهودي فحسب بل هو عمل احد العلماء العالميين . لانه استطاع ان يستند في ابحاثه الى نصوص علمية عدا نصوص التوراة . وقد لخص النقط الاولية لمبادئه في ١٣ مادة دعاها « اقوال التوراة » ولا يزال اليهود الى يومنا هذا يكررونها في الصلاة ويترنمون بها ترنماً رائعاً

وبعد اتمام كتاب « مشني توراة » ، شرع موسى بن ميمون في تبويب الشريعة الاسرائيلية وسننها وتقاليدها فانتهى منها في سنة ١١٨٠ بعد جهد دام عشر سنوات . وقد ظهر مؤلفه هذا في ١٤ جزءاً تشمل الف فصل . ويعد هذا الكتاب بمثابة المرآة التي تنعكس على صفحتها الصافية تفسيراته المنطقية وآراؤهُ الجلية

لكن موسى بن ميمون لم يدرك الغرض الذي كان يرمي اليه من هذا المصنف الاخير ، وهو

جعل الشريعة الاسرائيلية واضحة جلية ، في متناول كل انسان . ذلك لان الشروح والتفسيرات التي شملها كتاب « مشني توراة » لم يستطع فهمها الا المتبحرون في العلوم الدينية . ومع ذلك فقد اصبح بحثه ، في ما تلا من الايام ، اساساً للتطور الديني

واخيراً كتب موسى بن ميمون « دلالة الحائرين » وهو بحث لم يقصر فيه المؤلف جهده على الفلسفة الاسرائيلية فحسب ، بل تجاوزها الى دراسة اسس الفلسفة العالمية . وقد بذل موسى قصارى جهده في سبيل التوفيق بين العلم والدين ، بين العقل والنقل . ونستطيع القول بأن موسى ابن ميمون قد نجح في تصوير الخالق عز وجل ، في صورة روحية ، ليس فيها شيء من المادة او الشكل ، في صورة القوة الكاملة التي لا يحدها حد ، والقادرة على كل شيء

ان تصوير الخالق عز وجل بهذه الصورة ، يوافق كل الموافقة العقيدة اليهودية ، من دون ان يتعارض مع التفكير العلمي . فقد قال موسى بن ميمون في وصف الله : اذا حاولنا مشاهدة عظمته اصيب نظرنا بنور ساطع يفقدنا قوة البصر ، واذا عمدنا الى تقدير قوته ، اصبح علمنا جهلاً ، واذا اجتهدنا في وصف حبه للانسانية ، تلعثم لساننا كلسان الاطفال »

اذا كانت تلك هي صفات الله ، فكيف يظل الشر موجوداً على وجه الارض ؟ وقد اجاب ابن ميمون على هذا السؤال قائلاً ان الشر ليس بالشيء القائم بذاته ، بل هو حالة عدم وجود الخير . وقد ذهب موسى الى مدى ابعد ، اذ اعتبر ان امراض النوع الانساني واحزانه ، ناتجة من الطبيعة ذاتها ، وان حالة النزع والموت هما الثمن الذي يدفعه المرء نظير تمتعه بالحياة ولولاها لاصبحت الحياة امراً مستحيلاً

عمد موسى بن ميمون الى طرق التدليل اليونانية تارة ، والى المنطق الشائع في العصور الوسطى تارة ، حتى وصل الى اليقين والاستقرار . وقد بدا له الانسان مخلوقاً واهياً وعنصراً هاماً في آن واحد . اذ مع صغر شأن المرء في الكون ، تراه هو وحده ، دون سواه ، فاهماً لاسرار الكون ملماً بوحدته . وهي النظرية الفلسفية القائمة حتى الآن

ان اثر موسى بن ميمون في الفلاسفة المسيحيين ثابت لا ينكر . فقد اخذ عنه كثيرون منهم امثال اسكندر اوف هيلس ، والبرت ماجنوس ، ودون سكوتوس ، وآ كويناس . بل لقد كان اثر موسى بن ميمون عظيماً جداً في الفلسفة الحديثة ، بواسطة المفكر اليهودي سبينوزا . وهكذا اشترك في تكوين اجيال فلسفية جديدة ، لا تمت الى دينه بأية صلة

فلا غرو اذا احتفلت جميع الشعوب والاجناس بالذكرى المئوية الثامنة لمولده . ومن دواعي السرور حقاً ان تشترك الحكومة الاسبانية رسمياً في المهرجان الوطني الذي سيقام لاحياء ذكراه بمدينة قرطبة ، مسقط رأسه . ففي الوقت الذي طوى النسيان اعمال محاكم التفتيش ما زال اسم موسى بن ميمون حياً في الاذهان

عيد بنك مصر

وخدماته الاقتصادية والاجتماعية

[احتفل بنك مصر في الاسبوع الثاني من شهر مايو الماضي بانقضاء خمسة عشر عاماً على تأسيسه ، فكان الاحتفال عيداً قومياً عاماً اشتركت فيه جميع طبقات الامة ، حكاماً ومحكومين ، رجالا ونساء ، كباراً وصغاراً ، وطنيين واجانب على السواء . وفي الجانب الاول من هذا المقال وصف للرسالة الروحية التي تمثلها حياة قطب من اقطاب العمل مثل طلعت باشا وصحبه الكرام . ويلي ذلك مقتطفات من خطبة طلعت باشا النفيسة المسهبة تبين تدرج ارتقاء البنك من الناحية المالية ، وتصف الخدمات الاجتماعية الجليلة التي اداها للامة المصرية الكريمة في غمار نهضتها الحديثة]

— ١ —

أتخلق الظروف الرجال او تخلق الرجال الظروف او ينتهز الذين يؤتون مقام الزعامة والقيادة والسير في طلائع الجماعات ما يسنح لهم من فرص وما تهيئه الحوادث من شعور فيقدمون على اعمالهم ومشروعاتهم ويحققون ما يجول في خواطرهم وهم يرنون الى المستقبل بعين الرجاء المبني على صحة القصد وصدق العزيمة

وقد تتعذر الاجابة عن هذه الاسئلة الثلاثة بالضبط الذي يتوق اليه المعجبون بالمفلحين والابطال وقد لا يكون الجواب — اذا تيسر — واحداً في جميع الحالات

غير ان المحقق هو ان من آيات عناية الله بخلقه ان ينفحهم في ثنايا الزمان برجال — ونساء — يجدون لذة الدنيا وهناءة العمر في ارتياد مجاهل الحياة لخدمة المجموع — هؤلاء هم بناة الحضارة ومرشدو الشعوب وارباب الزعامة في ما ينفع الانسان من مدنية وثقافة وهناءة ويسر مادي

وما كان الله ليحرم كنانته في ارضه مما حبا به سواها فقد تجملت نهضة مصر الحديثة بظهور رجال ابوا القعود في غير مرفق واحد من مرافقها وتمردوا على المذاهب التي علقت بالاذهان ورسخت في النفوس فتوسلوا بما يتوسل به كل بصير صبور وتم لهم الفوز وقيض لبلادهم الربح والظفر

ولقد كان شهر مايو من الشهور المذكورة في اعوام هذه النهضة لما بدا من شعور امة بأسرها وقد اتيح لها اظهاره فكان اغتباطها هذا واشتراك جميع طبقات الامة اسطع دليل على ان الذين اسسوا بنك مصر والذين اعدوا مشروعه وبنوا الامل بل اليقين بنجاحه وحققوا الامل وأيدوا اليقين اصابوا من هذه الامة الكريمة اقصى ما تصبو اليه نفس المواطن ونالوا عطفها وقدرها وشكرها وهو اعظم جزاء يحفل به عظيم النفس وكبير الفؤاد

ان طلعت حرب وبنك مصر ليسا شخصاً ومؤسسة بل هما عنوان ورمز — الاول على الرجولية الكاملة ووقف الحياة والقوى على الخدمة العامة. والثاني الى ما تتمناه هذه الامة وما هي بالغتهُ باذن الله وبصدق خدمة ابنائها الممتازين واقطابها المختارين وتعاونهم على ما فيه خيرها وصلاحها

ولطالما وددنا لو ان طلعت حرب باشا يكتب مذكراته ولاسيما ما يختصُّ منها بمشروع البنك وكيف خطر له وكيف كيفهُ واعده وما لقي من تشجيع وتنشيط وما قابل من معارضة وتثبيط همة وان يذيع ما يستطاع اذاعته من ذلك الآن ليكون منهُ بيان للناس وقدوة ومثال للشبيبة المتعلمة ولاسيما التي لا تعرف كيف تهتدي الى طريق العمل لنفع الشبان ولخدمة وطنهم

فان في هذا السفر المكتوم حتى اليوم عبراً ودروساً قد تذاع وقد تظل مكتومة الا عن الذين عاصروها واطلعوا عليها لاسباب شتى

***

ولكن الآية الكبرى ستظل ماثلة للعيون والاذهان في استمرار هذا العامل العظيم واخوانه الذين يضارعونهُ في شوقهم للخدمة العامة واجتهادهم ونشاطهم واخلاصهم ونزاهتهم — واستمراره واستمرارهم في العمل المنتج وابتكار المشروعات التي تغتبط بها الأمة والبلاد وتعزيز ما أسس وتحسينه

ان عمر بنك مصر الآن ستة عشر عاماً من عمره الطويل المبارك ولكن متانة مقامه في النفوس وعمره الادبي اذا صحَّ هذا التعبير لا يقلان عن اهرام الجيزة العظيمة مع مراعاة الفرق في ما يجنى من النفع من مؤسسة المدافن الملكية ومؤسسة الحياة الشعبية

ولم يترك الشعراء والخطباء والصحافيون والكتّاب لكاتب ما يقال سوى مشاركتهم في ترديد الحمد على هذه النعمة التي اسبغتها العناية على مصر والدعاء باستمرار نجاح هذه الجماعة الكريمة المختارة

***

ولكن للمقتطف اقتراحاً يعرضه على المفكرين والمعجبين — فقد اقترحوا نصب تماثيل وتسمية شوارع وكلا الاقتراحين جميل وجدير بأن يوضع موضع التنفيذ

فلماذا لا يعزَّزان بعمل ثالث قد يكون اتم في دلالته على المعنى المنشود والقصد المقصود

وذلك بأن يصاغ كتاب تهنئة وشكر ودعاء لطلعت حرب باشا واخوانه ويكتب بأجمل خط على رق غزال ثم يطبع منهُ الوف من النسخ على ورق متين وفي كل ورقة مكان لمائة امضاء وتعرض هذه الاوراق بصيغة كتاب التهنئة ليمضيها الذين يقدرون بنك مصر ورجاله واعماله قدرها وقدرهم ثم تجمع هذه الاوراق في مجلدات وتهدى الى بنك مصر ويوضع الكتاب الاصلي في اطار شرقي نفيس ويقدم الكل هدية وتذكاراً الى طلعت حرب باشا واخوانه تنويهاً بفضلهم ودليلاً على اعتراف أمة بأسرها بجليل خدمتهم

— ٢ —

انشاء البنك وبرنامجه

في اليوم السابع من شهر مايو سنة ١٩٢٠ — بشّر الناس بميلاد بنك مصر واضيف الى تاريخ النهضة المصرية صفحة جديدة لتسجيل هذا الحادث التاريخي السعيد . وان خمسة عشر عاماً ، تمر تباعاً على بنك صميم في مصريته ، لم يألف المصريون مثله من قبل ، ليس بالقليل . بل ان مرور هذا الزمن على عمل ما دليل حي على قوة هذا العمل ومتانته، وبرهان ساطع على ثباته وحيويته بل وضرورته

وبنك مصر الذي انشيء للمصريين جميعاً ولخدمة المصريين جميعاً قد برهن طوال حياته على انهُ عمل نافع ثابت الدعائم متين الاساس وبرهن ايضاً على انهُ قوة مصرية كانت كامنة في القلوب والخواطر فاظهرتها الامة بالعزيمة والثبات وانكار الذات

وبرهن كذلك على انهُ ضرورة لم يكن من وجودها بد لاشباع حاجة كانت تحس بها الامة ولم يكن عنها محيد لتصوير الناحية الاقتصادية، بعد ان ظلت صدراً من الزمان عاطلة عن التصوير والبيان

كان تأسيس بنك مصر سنة ١٩٢٠ مفاجأة ادهشت الجميع . واقبل بعضهم على بعض — من فرط ما دهشوا — يتساءلون عن مستقبل هذا المشروع ، وعن كفاية الذين يتولون اموره ، ويهيمنون على شؤونه ، وهل من المستطاع استعمال لغة البلاد في اعماله ، او هل يجد حاجته من ابناء الامة الذين يستطيعون ان يحملوا اعباءه بسهولة، وما مدى تأثيره في الناحية الاقتصادية المصرية، وما مبلغ حظه من التوفيق في انشاء فروعه في الداخل والخارج واتصاله بامثاله هنا وهناك

وتلهف الناس في كثير من الاهتمام على ما عسى ان يكون الرد على امثال هذه الاسئلة فما كان جواب البنك الآ ان قال : — « هاؤم اقرأوا كتابيه . ثم احكموا بالعدل والقسطاس المستقيم... »

ونحن اذ نتحدث بنعمة الله علينا ، لا نرى ابلغ في التدليل على توفيق الله الآ ان نعرض ما كان المؤسسون قد ارتضوه واقروه برنامجاً للبنك منذ سنة ١٩٢٠

جاء في برنامج البنك « انهُ يعمل كل ما يعمله بنك تجاري مثله لا فرق فيمن يعامله بين ان يكون مصريًّا او غير مصري فالمصرية لم تشترط الا في رأس المال، اما فيما عدا ذلك فابوابه مفتوحة لكل عميل »

« وان في البلاد اموالاً كثيرة مخزونة ومعطلة وظيفتها في الاصل التداول بين الناس ولها في كل حركة بركة ، وفي كل دورة ربح لرابح . ففي خزنها وقوف هذه الحركة وضياع لهذا الربح والفائدة التي تعود على البلاد من زيادة ارباح بنيها فضلاً عن تعرض هذا المال للضياع بالسرقة او الحريق او ما اشبه . وفي البلاد ودائع وامانات كثيرة مثمرة معظمها في بلاد غير البلاد . ولو ثمرت هذه وتلك في الشؤون المصرية وسوعدت بهما التجارة والصناعة والزراعة المصرية لزادت الثروة المصرية

اضعافاً مضاعفة ولكان ذلك عاملاً قوياً على اصلاح حالنا الاقتصادية وايجاد الكفاءة المالية التي هي الاساس المتين للرقي المطلوب »

وان البنك « سيشجع المشروعات الاقتصادية المختلفة التي تعود عليه وعلى البلاد بالربح العظيم ويساعد على ايجاد الشركات المالية والتجارية والصناعية والزراعية وشركات النقل بالبر والبحر وشركات التأمين بانواعها ويتعهدها حتى تنمو وتقوى ويشتد ساعدها . وبالجملة يعمل على ان يكون لمصر صوت مسموع في شؤونها المالية ويدافع عن مصالحها كما تدافع البنوك عن مصالح بلادها »

« وسيؤدي بنك مصر لجميع عملائه كل الخدمات المالية . وسيعمل بالاتحاد مع حضرات التجار على تنظيم الحالة التجارية وانشاء الغرف التجارية والنقابات والشركات التعاونية وغيرها للدفاع عن مصالح اعضائها ودرس انجع الطرق لترقية شؤونهم »

« وسيعمل على بث روح العمل والتعاون والتضامن والنظام في الشبيبة وانماء ملكة الاقتصاد والتجارة فيهم والحث على وضع اساس التربية الاقتصادية العملية في البلاد وجعل تعليم الحساب والنظام الحسابي اساساً في مناهج التعليم فيها »

هذه خلاصة برنامج البنك : فهل قام بنك مصر بجميع ما وعد به في مدى الخمسة عشر عاماً الماضية ؟ اننا نترك لعملاء البنك الجواب عن ذلك . ونظن انهُ لا يخرج عن ان بنك مصر قد ابلغ الرسالة وقام بواجبه خير قيام بقدر ما استطاع . وهذه تقارير البنك السنوية التي احاطت بكل الارقام والاحصاءات الدالة على مدى تقدم البنك ومبلغ ما قام بهِ من خدمات للزراعة والصناعة والتجارة والتعاون . ومن هذه التقارير يتضح لكم ان بنك مصر أصبح يحتل المكان الاول بين البنوك التي ترد باسمها الاقطان في الاسكندرية . كما أصبح الاول — بعد البنك الاهلي المصري — بالنسبة لمقدار الودائع والامانات

رأس المال والودائع

بدأ بنك مصر صغيراً ، كما يبدأُ كل شيء . فقام في عام ١٩٢٠ برأس مال متواضع قدره ثمانون الف جنيه . ثم سجلنا مغتبطين ، في ٢٦ يناير سنة ١٩٢٥ وصول رأس المال الى نصف مليون جنيه . كما سجلنا مغتبطين ايضاً ، في ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٢٧ بلوغه المليون الكامل

وقد بلغ عدد المساهمين في البنك ٩٣٥٦ مساهماً في ٣١ ديسمبر ١٩٣٤ بعد ان كان ١٢٦ مساهماً في السنة الاولى . وبلغت قيمة الارباح التي وزعت على المساهمين مدى الخمسة عشر عاماً ٨١٤٩١٦ جنيهاً خص السهم الواحد منها منذ سنة ١٩٢٠ مبلغ ٤ جنيهات و٤٣٠ مليماً اي بنسبة ١١٠ ٪ من قيمة السهم الاسمية وهي اربعة جنيهات

هذا عدا احتياطات البنك المقتطعة من ارباحه وقد بلغت في ٣١ ديسمبر ١٩٣٤ كما يأتي : —

جنيه مصري

٧٣٢ ٣٧٥	احتياطي قانوني
٠٠٠ ١٨٠	احتياطي فوق العادة
٠٠٠ ٢٣٥	المال المخصص لتأسيس واغاء الشركات الصناعية والتجارية
٧٣٢ ٧٩٠	خلاف مبلغ ٥٠٦٣٢ قيمة المجموع المرحل من الارباح للسنوات المقبلة

واذا اردنا تقدير رأس مال البنك على حقيقته ، وجب ألاّ نغفل شهرة البنك في مصر وغيرها . ومقدار تأثيره في المحيط المصري المالي . وقيمة كلمته المسموعة في كل مكان. وعظم الثقة التي منحتها له الامة، حكومةوشعباً . وكذلك رضا الجميع عن اعماله وجهوده المختلفة — فان كل هذا له قيمته . وله تأثيره ، وله وزنه ، عند ضبط رأس مال البنك على وجهه الصحيح

واذاً فلا يصح ان نعتبر رأس المال مليوناً واحداً من الجنيهات وهو في الحقيقة اضعاف مضاعفة انه يربي في غير مبالغة على عشرات الملايين ... !

أما الودائع فقد كان امرها ملحوظاً بعناية عند انشاء البنك ، وكان الاكثار منها هو اعتمادنا في تحقيق ما نصبو اليه من اصلاح اقتصادي شامل . ونحن نحمد الله على ان الودائع قد انهالت على البنك من جانب الافراد ، ثم من جانب الحكومة لحسابها ولحساب مجالس المديريات والمجالس البلدية والمحلية والحسبية ولحساب السلف الصناعية والجمعيات التعاونية والزراعية

وبعد ان كانت هذه الودائع في نهاية سنة ١٩٢٠ مبلغ ٩٦٠ر٢٠٠ جنيهاً اطردت الزيادة سنة بعد اخرى حتى بلغت عام ١٩٢٧ اكثر من خمسة ملايين ونصف مليون من الجنيهات في نفس الوقت الذي بلغ فيه رأس المال مليوناً واحداً من الجنيهات .واستمرت الودائع تزداد وتزداد وهي تحمل معها ثقة اصحابها من الافراد والهيئات ، بادارة البنك وانظمته وانتاجه ، حتى لقد بلغت في نهاية عام ١٩٣٤ اكثر من ١٠ ملايين جنيه عدا ودائع صندوق التوفير التي بلغت في نهاية السنة المذكورة مبلغ ٠٠٠ر٨١٠ جنيه . وهذه الارقام مظهر لهذه الثقة الغالية

قلنا ان بنك مصر بدأ صغيراً كما يبدأ كل شيء ، ولكنه ما زال يتدرج في النمو والاتساع رويداً رويداً وانتشرت فروعه في الاقاليم حتى زاد عددها على العشرين فرعاً ومكتباً وحتى امتلك داره الحالية ودوراً وشوناً اخرى في الاسكندرية والاقاليم

كان البنك ، اول نشأته ، قد استأجر داره الاولى بشارع الشيخ ابي السباع، وما زلنا نوسعها تبعاً لزحام الاعمال وازدياد الموظفين باستئجار بعض المحال المجاورة حتى رأينا ألاّ بد من تهيئة مكان آخر يكون اوسع وأرحب ، فاشترينا قطعة ارض بشارع عماد الدين مساحتها ١٥٣٧ متراً مربعاً وبنينا فوقها داراً لاعمال البنك وبعض الشركات ، مؤلفة من ست طبقات انتقلنا اليها في ٥ يونيه سنة ١٩٢٧ بعد ان احتوت الدار الاولى طفولة البنك سبعة اعوام سويًا

ثم لاحظنا ان اتساع الاعمال يسبق بل يفوق ما يتوقعه الظن ويطوف بالخيال فرأينا ان نأخذ عدتنا ونحتاط لحاجة الحاضر القريب والمستقبل البعيد فتعاقدنا مع وزارة الاوقاف على استبدال الارض الواقعة خلف عمارة البنك والبالغة مساحتها ٢٦٤٨ متراً مربعاً ، وشرعنا فعلا ، ولم نزل ماضين ، في تنفيذ الضروري من التصميم الموضوع لتوسيع الدار توسيعاً ، يجعل مساحة الدار كلها حول فدان تقريباً ويدل على بركة العمل الصالح بلا جدال

مهمة بنك مصر

تختلف اعمال المصارف باختلاف وجهات النظر عند مؤسسيها والقائمين بها

فهناك بنوك اصدار البنكنوت . وبنوك الخصم والايداع . وبنوك الاعمال . والبنوك الزراعية . والبنوك الصناعية . والبنوك العقارية . فلكل عمل من الاعمال المالية الكبرى بنك خاص يقوم به او بتشجيعه او بالاشراف عليه

والتخصص في الاعمال لدى البنوك يأتي عادةً بعد ان تفارق الامة حالة البداءة الاولى . لانه في البداءة ، لا توجد اعمال ، من كل وجهة ، تكفي للتخصص . فكان بنك واحد يقوم بجميع الاعمال . حتى اذا ارتقت نواحي الحياة في الامة ونضج شعورها بكل ما يهمها ، وتحقق لها فعلاً كل مشروعاتها المالية والزراعية والصناعية والتجارية ، واتسعت دوائرها ، وتشعبت اطرافها — جاء دور تقسيم الاعمال على البنوك — التي تكون حينئذ قد كثرت وانتشرت — كلٌ والعمل الذي يتفق مع الغرض الذي أسس له

وهناك بعض دول في اوربا تفكر الآن فقط ، بنوكها الوطنية في تقسيم الاعمال عليها

وانتم تعرفون ما هي دول اوربا من حيث رسوخ القدم في الصناعة والتجارة

ومصر كانت ولا تزال في حاله بدائية ، غشاها ما غشى من ليل الظروف والمحن ، وظلمات الجمود والركود ، فظلت واقفة في اول الشوط ، معصوبة العين ، لا تدري اي طريق تسلك مع السالكين ، حتى سبقها السابقون ، وتركوها وحيدة في ذيل المتأخرين

ولقد هال « بنك مصر » بلا شك يوم بدأ حملته ، ألا يجد — في الارض أو في السماء ، وفي البر أو البحر — اثراً لعمل مصري صميم ، الأ النادر، يدرأ عن الامة سخرية الساخرين . .

وكيف كان ميسوراً أن يجد ذلك وبلاغ كل عمل رجال ورؤوس أموال ... ؟

أما الرجال — رجال الاعمال — فان التعليم العام ظلَّ بعيداً للأسف عن تخريج أمثالهم الا من وهبهم الله الاستعداد الفطري لذلك . واولئك قليل !

وأما المال ، فان أغنياءنا ايضاً ظلوا منكمشين عن المجازفة بأموالهم فيما يهم البلاد

كذلك ظلَّ أبناؤنا محرومين من المرانة على أعمال البيوت المالية والشركات المختلفة الاجنبية ، بالرغم من كرم الضيافة التي سارت عليها بلادنا بكل سذاجة منذ عهد طويل

فكان لزاماً على بنك مصر أن يظهر في الميدان ، وأن يبدد هذا الظلام الذي اكتنف الأمة وأحاط بمرافقها من كل ناحية ، وأن يعمل اولاً على أن يستحوذ على « الثقة » وهي ملاك كل أمر تمنح ولا تغتصب، وأن يجذب اليهِ فريقاً من شباب البلد يربي فيهم الكفاية الشخصية وملكة القدرة على القيام بأعماله الجديدة باللغة العربية التي كانوا يحسبونها عقبة في سبيل البنك — حتى إذا همَّ أن يقف وحده على قدميه أخذ في تحقيق مهمته الكبرى أو بالاحرى في تنفيذ برنامجه القومي — وقد سبق تلخيصه — وهو يتكيء اولاً وأخيراً على أن يقوم بكل شيء وان يفعل للامة كل شيء وأن يسد ما استطاع النقص الظاهر في مرافق البلاد الاقتصادية المختلفة وأن ينير الطريق ويفسح السبيل لاخوانه في الوطنية وان يحمل الأمة على جناح السرعة لكي ينهض بها وان يخطو وإياها خطوات واسعة ليعوض عليها ما فاتها من الزمن سدى .. وهو اليوم يفخر بأنهُ انتهى من عامه الخامس عشر وبهِ من الشبان المصريين المتدربين ٦١٦ شابًا بعد أن بدأ في مستهل أعماله بعشرين فقط

نعم لم نرض أن يكون بنك مصر مجرد بنك كالبنوك الاجنبية الكثيرة في البلد وهي بنوك تستوحي في الغالب سياستها من أمهاتها في الخارج . وقد رأى بنك مصر العبء الذي تركته هذه البنوك فادحاً وثقيلاً ولكنهُ لم يتردد في أن يحمله بحمله وحده بشجاعة وأمانة معتمداً على الله

وسرعان ما لاحت للبنك تباشير النجاح وصادفه التوفيق وطالعه الحظ الحسن فثبَّت الله اقدامه وعبَّد الطريق امامه والتفت لحاجات الامة يصورها في صور شركات مساهمة مصرية واحدة أو اخرى مستقلة عنه في رأس المال وفي الادارة تحمل جميعاً اسم « مصر » برًّا بوعده ووفاء بعهده

شركات البنك

ولم يكن للبنك مفرٌّ من « الاسراع » في تأسيس المشروعات الهامة الضرورية لا سيما وعصرنا الحاضر عصر « سرعة » بكل ما يحتمل معنى هذه الكلمة

وقد يكون هناك بعض الذين يخشون هذه « السرعة » التي جرى عليها البنك في تأسيس مشروعاته ولكن امثال هؤلاء لا يلبثون ان يقتنعوا بأن استمرار تطفل الامة على موائد غيرها يعرض كرامتها للتجريح الاليم

لقد كان من الخير فيما نعتقد ان نسارع الى عمل شيء من صنع ايدينا وقد وفقنا الله في ذلك فكان لنا في هذه الفترة القصيرة — فترة الخمسة عشر عاماً — ان ركز البنك — في السهل والجبل وفي الشرق والغرب وعلى الماء ومتن الهواء — علم البلاد . . . يخفق تحت الشمس باسم بنك مصر وشركات مصر بل باسم « مصر » كلها بعد ان طال احتجابه بين الظلام عهداً طويلا

ومهما يكن من شيء فان (السرعة) التي قد يأخذها على البنك بعض الناس قد آتت أكلها باذن ربها واتضح من نتائجها الكبرى ان البنك قد نجح نجاحاً لا شك فيه حتى ليمكننا ان نقرر

باطمئنان انه لم يعش فقط هذه الخمسة عشر عاماً التي نحتفل اليوم بمرورها، بل انهُ قد عاش في الحقيقة وعلى اقل تقدير خمسين سنة اذا قدرنا ما قام به من الاعمال

وهذه شركات مصر ماثلة امامكم نستميحكم ان نسرد اسماءها عليكم ، وان كانت هذه الاسماء قد أصبحت من الشهرة والذيوع بحيث تجري على كل لسان (١) وهي :

عدد	الشركة	عدد	الشركة
١	مطبعة مصر	٨	شركة مصر لمصايد الاسماك
٢	الشركة المصرية لصناعة الورق	٩	شركة مصر للكتان
٣	شركة مصر لحلج الاقطان	١٠	شركة مصر لاصدار الاقطان
٤	شركة مصر للنقل والملاحة	١١	شركة مصر للطيران
٥	شركة مصر للتمثيل والسينما	١٢	شركة مصر لعموم التأمينات
٦	شركة مصر لنسج الحرير	١٣	شركة مصر للملاحة البحرية
٧	شركة مصر للغزل والنسج	١٤	شركة مصر للسياحة

لم يكن بعيداً ، ايها السادة ، لولا بنك مصر ، ان تتخذ رؤوس اموال هذه الشركات سبيلها خارج بلادنا سرباً ، فيستفيد بها من لا يعطف على مصر ، ومن لا يتصل بها بنسب أو سبب ... ولكان هؤلاء الالوف من العمال وانصاف المتعلمين عاطلين يزيدون الخطر الاجتماعي الذي يهدد البلاد

بل إننا لنزعم ان تأسيس هذه الشركات كان حقيقة — كما يقول الناس — عملاً صالحاً ، فقد كان لها جميعاً ابلغ الأثر في بث روح الادخار والتوفير في نفوس الشعب من حيث لا يشعرون

ودليل ذلك انهُ حينما توجد منتجات شركة من شركات مصر بجانب منتجات مماثلة اخرى — تهبط الاسعار ويحل الرخاء . ولسنا نزكي منتجات شركاتنا بشيءٍ من الدعاية والترويج ، اذ يغنينا عن ذلك كله ما حازته معروضات شركات مصر من المداليات الرفيعة الشأن في المعارض العامة ، سواء داخل القطر او في البلاد الاوربية ، اعجاباً واستحساناً وتقديراً

***

وبعد ، فبنك مصر وشركات مصر ليست الاّ معاهد للتربية الاستقلالية يكمل فيها الشباب المتعلم علومه بالعمل ، والمرانة عليهِ ، حتى لقد تكونت منهم طائفة صالحة يمكن ان تمد ذخيرة للوطن

ومن نافلة القول ان نذكر مقدار ما ساهمت به هذه المعاهد في قص اجنحة العطلة ، على قدر المستطاع ، وافتداء البلاد من شرورها الوبيلة

[المقتطف : تمشياً مع تقدم البلاد الاقتصادي سوف يعنى المقتطف بوصف هذه الشركات من الناحيتين الصناعية والاقتصادية في اعداد متوالية . ولذلك اجتزأنا من خطبة طلعت باشا بما تقدم عن شركات بنك مصر مع انه وقف نحو ثلث خطبته النفيسة عليها]

ويسرنا كثيراً أن ننوه في هذا الصدد بما قام به بعض المصريين الذين اقتحموا الميدان ، وثبتوا فيهِ ، ورسموا خطى البنك وشركاته ، فأسسوا مصانع وبيوتات تجارية وشركات نغتبط بها كما لو كنا نحن انفسنا الذين اسسناها ، ونرجو لها دوام المزيد والثبات والتقدم والنجاح...

وكل يوم نرى جديداً في نهضتنا الصناعية والتجارية التي دب دبيبها في نواحي البلاد واصبح الكل مهتمًّا بالمساهمة فيها . ومما يدعو للفخار ان في البلد الآن روحاً قوميًّا لتشجيع كل ما هو مصري حتى انقلب الحال واصبح بعض من لاخلاق لهم يحتمي بالمصرية لبيع سلعه الاجنبية باعتبار انها مصرية . وقد اهتمت مصلحة التجارة والصناعة بصالح التجار فاعادت تنظيم الغرف التجارية وانشأت « السجل التجاري » لفائدة التجار وتمييز انواع تجاراتهم وليكون مرجعاً محترماً يمكن الرجوع اليهِ بين البيوتات التجارية . ونحن نرجو من ورائهِ ان يكثر في مصر « التاجر » الذي يعرف قيمة الورقة التجارية والذي يحرص كل الحرص على الوفاء حرصه على الاعتبار والشرف . بل هناك اهتمام آخر بالحياة الاقتصادية فان مصلحة التجارة والصناعة التي كانت في اوائل الحرب لجنة صغيرة اوشكت ان ترتقي الى وزارة وتنتظم في عقد الوزارات المصرية

تأثيره في الحياة الاجتماعية

نعيد هنا ما سبق ان قلناه وهو ان البنك لا يريد ان يحتكر القيام بالمشروعات الصناعية او غيرها ويود دائماً ان يظهر بجانبه مصريون يخففون عنهُ الحمل . ويضطلعون مثله بالمسؤولية وهو على استعداد لان يمد لهم يد المساعدة بكل ما يستطيع ويكفي البنك فخراً انهُ فتح الطريق لكل من يريد ان يسير فيهِ من المصريين

كما يكفي البنك فخراً ان وجوده بين سمع المصريين وبصرهم ، ساعد على تغيير بعض الافكار الشائعة فمثلا بعد ان كانت الجمهرة من ابناء البلاد يستغلون اموالهم في ناحية واحدة من نواحي الاستغلال وهي شراء الاطيان أو يودعون عفواً اموالهم في بنوك اجنبية تذهب ارباحها في جيوب الاجانب التفت الكثيرون الى ناحية اخرى فاستغلوا بعض اموالهم في مرافق بلادهم وساهموا في السندات التي رفعت من ثروتهم واصبحوا يتيهون بها ويفخرون . بل ومنهم الكثيرون ألفوا اقتناء سندات الدين المصري العام واوراق الشركات الاجنبية . ووجدوا في ذلك مصدراً جديداً للايراد والثروة . وزادت هذه الحركة نشاطاً بدخول المجالس الحسبية في هذا المضمار تثمر اموال عديمي الاهلية بشراء القراطيس المالية المختلفة وخاصة سندات الدين المصري العام

ولا يفوتنا في هذا المقام ان ننوه هنا بملاحظة جديرة بالذكر : وهي انهُ لو كان المصريون افراداً وجماعات تنبهوا فيما مضى الى حصر سندات الدين المصري كلها او معظمها بين أيديهم لكنا الآن حكومة وشعباً في غنى عن مشاكل كثيرة ... !

ونعود فنذكر لكم أن خزائن حفظ الأوراق المالية بالبنك ، تضم في جدرانها من قراطيس الدين العام وأوراق الشركات والبنوك الاخرى سواء لحسابه أو لحساب عملائه من الافراد والهيئات ما يقدر بعشرات الملايين من الجنيهات . وفي هذا دليل على التقدم والتطور وليس ذلك فحسب ولكنْ هناك اثراً لا يخفى لبنك مصر وشركات مصر فان كثيراً من الناس قبل انشاء بنك مصر لم يكونوا ليعرفوا طريق البنوك ولا التعامل معها بل كانت حدود التعامل بعضهم مع بعض حدوداً ضيقة لا تسمح للثقة ان تقوم بدورها المهم فكان وجود بنك مصر وشركات مصر كافياً لاجتذاب كثير من عملاء البنوك الاخرى اليه وكافياً ايضاً لتشجيع غيرهم على الخروج إلى معاملة البنوك

وفي يقيننا أنهُ كلما كثر عدد الطبقة التي تعامل البنوك وانتشرت هذه العادة عادة التعامل مع البنوك بين العامة والخاصة انتشرت الثقة بين الافراد وقام على الثقة ما يقوم عليها من تنظيم سبل الانتاج في كل نواحي الحياة . بل ان لبنك مصر وشركات مصر اثراً آخر . فقد دعا الناس مجرد وجود هذه المؤسسات وانتشارها في انحاء القطر الى ان ينظروا الى العمل الشريف غير النظرة التي كانوا قد تعودوا ان ينظروا بها اليه من قبل . وهي نظرة الترفع والاشمئزاز ولا سيما اذا كان العمل يدويًا او آليًا غير انيق كل الاناقة او جذاب كل الجاذبية . ولكن هذا الاعتبار العتيق وذاك المقياس المريض بدأ استبدالهما والحمد لله بنظر صحيح هو نظر الرجولة الى كل عمل شريف منتج نافع

وليس بعيداً ان تعم هذه العقلية الجديدة وان تغمر كل شيء . كما انه ليس بعيداً ان يتأثر بها جانب حيوي كبير من الخلق المصري فترى كثيراً من شبابنا المتعلم تعليما فنيًا او عاليًا يتقدم الى العمل الآلي في المصانع المصرية التي ستنتشر وفقاً لحاجات البلاد فينزع عن نفسه راضياً لباسه الانيق وزينته من الحلى ويستبدلها عن طيب خاطر برداء العمل والعمال

***

ان التطور الذي ستقبل عليه البلاد لا شك فيه وسيكون لنا من ورائه ان شاء الله رصيد من الاخلاق القويمة والخير الكثير والانتاج الكبير

ونريد ان نشير هنا بوجه خاص الى ما كان من الاثر الفعلي في تعويد عامة المصريين خصلة الاقتصاد في الانفاق تلك الخصلة التي يعتبر نقصها ثغرة فسيحة من ثغرات التربية المصرية عامة

ومهما يكن من شيء فان كل قرش يدخل في ارباح بنك مصر او شركات مصر انما يبقى في البلد لا يتزحزح الى الخارج فاذا تحرك ثانية فحركته بركة للمصريين وفائدة للمصريين

فضلا عن ان هذه المؤسسات تعتقد فوق خصائصها المادية والكسبية انها مؤسسات وطنية لا يغرب عن بالها لحظة ان عليها نصيباً في الاصلاح القومي المنشود

بنك مصر والاجانب

كان هم بنك مصر اولاً واخيراً ان يكون رأس ماله خالصاً للمصريين وحدهم لكى تكون ادارته مصرية دائماً توجه سياسته لما فيه مصلحة مصر اولاً وقبل كل شيء

وفيما عدا ذلك فان بابه ظل مفتوحاً للجميع فهو يخدم المصري والاجنبي سواء بسواء

والبنك كما جاء في خطبة افتتاحه سنة ١٩٢٠ انهُ لا يضمر عداء لاحد فهو بعيد كل البعد عن فكرة الانانية والتعصب . بل هو استعان في الواقع بخبرة الاجنبي . واشرك معه بعض الاجانب الذين يتفقون مبدأ وغاية مع مصلحة مصر ، في بعض شركاته كشركة مصر للطيران . وشركة مصر لعموم التأمينات . وشركة مصر للسياحة . وشركة مصر لاصدار الافلام . وليس هناك عيب ، فيما نعتقد ، في الاستعانة بالاختصاصيين من الاجانب ما دام في الامكان ، دائماً وفي كل وقت ، جعل هذه الاستعانة عند حدودها من الخبرة والارشاد والخدمة الصادقة لمصر اولاً واخيراً

ونحن نذكر بالفخر ان علاقاتنا مع البنوك الاخرى ومع الاجانب كانت في الداخل والخارج على ما يرام . كما كانت كذلك علاقاتنا مع مراسلينا في جميع انحاء المعمورة وكان ذلك سبباً في تشجيعنا على انشاء ما يعزز هذه العلاقات ويزيدها وثوقاً ومتانة فاشتركنا في تأسيس بنك مصر — فرنسا في باريس وبنك مصر — سوريا — لبنان في بيروت ودمشق وطرابلس وحمص

ولا يخفى ان فروعنا سواء كانت في مصر او فيما وراء البحار ، انما هي كالسفير بين المصري واخيه المصري وبين المصري وغيره . وما السفير الا رسالة طيبة ودعاية حسنة لو عرف كيف يؤدي عمل السفير . وبنك مصر نفسه اصبح والحمد لله رسالة يقرأ فيها الناس معنى الصدق والحق والثقة . حتى انه لا تؤلف لجنة ، او هيئة ، او مجلس في الحكومة وغيرها الا دعي اليها احد رجال مجلس ادارة البنك . وحتى انه لا يفكر اجنبي أو مصري في مشروع مالي أو اقتصادي بمصر الا خطر له ضرورة الاحاطة برأي بنك مصر فيه ، ثم لا يلبث ان يبادر توّاً الى عرضه عليه

البنك واللغة العربية

هذا اول بنك قومي مصري تأسس بأموال مصرية بحتة . وبادارة مصرية محضة . وقد قررنا ان تكون المراسلات فيه ، بينه وبين عملائه باللغة العربية ، وان تكون حساباته باللغة العربية فهزأ بنا الهازئون وقالوا « ان المحاسبة من واردات الغرب . وانها فنٌّ من فنونه غير قابل للانتقال الى الشرق بغير لغة من لغات الغرب » . ولكننا اهملنا استهزاءهم وأجرينا مراسلاتنا وكتبنا تقاريرنا باللغة العربية . وانا اؤكد اننا ما وجدنا صعوبة في ترجمة معنى من معاني هذا الفن او في تعريب اصطلاح من اصطلاحاته . وكان مما ساعدنا على سهولة التطبيق في العمل ان كانت قد انشئت قبيل الحرب مدرستان للتجارة تكونت فيهما طائفة من الشبان تلقوا العلم فيها باللغة العربية فسهل قيادهم في حياة البنك العملية » (١)

(١) هذه الفقرة الاخيرة مقتطفة من خطبة سابقة لطلعت باشا نشرت في مجموعة خطبه التي صدرت سنة ١٩٢٨

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الدمياطي

[اجتمع لي طائفة من أسماء المفردات النباتية وحررت ما يقابلها في بعض اللغات الاجنبية لترتيبها في معجم والآن عنّ لي أن أنشرها تباعاً في مجلة المقتطف الغراء في بيان موجز أذكر فيه المفرد ووصفه وموطنه واستعماله مشيراً الى بعض فوائده في الزراعة أو الصناعة أو التغذية أو الطب عسى أن يكون في ذلك بعض الفائدة — الدمياطي]

شجر السَّنْط

معروف باسم (السَّنْط) في مصر والسودان أو (الصَّنْط) قال الصاغاني هو معرّب (چند) بالهندية وقد يطلق عليه اسم (الشَّوْكة المصرية) و (امّ غيلان) و (القَرَظ) وعاميته (القَرَض) والقرظ برمة[1] السنط أي ثمرته فاطلاق القرظ على الشجر تسمية الشيء ببعضه

وشجرته كبيرة اوراقها من نوع الريشية المركبة المضاعفة في كل ورقة من ٣ — ١٢ زوجاً من الوريقات الريشية في كل واحدة من هذه من ١٠ — ٣٠ زوجاً من وريقات أصغر غير ريشية وشوكها مستقيم قد يبلغ طول الواحدة منهُ ٥ سنتيمترات . أما أزهارها فمكتظة في رؤس كرية صفراء . وثمارها قرون ضاربة الى البياض عليها شعيرات قصيرة ملساء وكل قرن مجزأ بأشباه فواصل تفصل الحبة عن الحبة

اسمه العلمي (Acacia Arabica, Willd·) (آقاسيا عرابيقا) وفصيلته السَّنْطية أو المستحية (Mimosaceae) (ميموزاسية) وبالانجليزية (Gum Arabic Tree) وبالفرنسية (Acacia d'Arabie) ينبت في بلاد السنغال والسودان والديار المصرية والجنوب الغربي من آسيا ولاسيما في بلاد العرب والهند يؤخذ منهُ الصمغ العربي فيتجر بهِ في السودان وغيره ويستعمل قرظه في الصباغة والدباغة وخشبه مرغوب فيه لصناعة الزوارق وادوات الزراعة ويصنع منهُ فحم جيد . وأهل السودان

---

(١) جاء في الجزء الثاني من كتاب الفلاحة لابن العوام ان الوصف الوارد عن الثمرة والزهرة يذكرنا بما نقل عن ديسقوريدس فيما يختص بزهر السنط وثمره . والآقاسيا ورا (acacia vera) وهي الاقاقيا (akakia) في اليونانية كما جاء في كتاب لينيوس وفي رأي شبرنجل وابن البيطار هي البرم وهو زهر شجرة من نوع السنط

يستعملون الخشب في البناء ايضاً ويستخرجون الياقاً من قلف الشجرة الحديث ويستعملون القلف في الدباغة كما يستعملون مغليه في علاج مرض الديسنطاريا

ويقال إن حشرة اللك (lac-insect) تعيش على أغصان الشجر في السند وتفرز من جلدها صبغاً احمر يصبغ به يسمى (اللك) ويحصل من القرظ قبل نضجه على عصير يسمى (أَقاقِيا) (١) يستعمل في الصباغة والدباغة

***

شجر الهَشَاب

نوع من السنط معروف في السودان مشهور بصمغه ويقال له (الصباحي) ايضاً وشجرته صغيرة او متوسطة الحجم . اوراقها من نوع الريشية المركبة المضاعفة في كل ورقة من ٣ — ٥ ازواج من الوريقات الريشية في كل واحدة من هذه من ١٠ — ١٥ زوجاً من وريقات اصغر من السابقة وشوكها قصير غليظ حاد السن اسمر قاتم كل ثلاث منهُ مجتمعة معاً ثنتان مستقيمتان وواحدة متقوسة . أما أزهارها فبيضاء مجتمعة في سنابل اسطوانية متدلية . وثمارها قرون مستقيمة رقيقة طول الواحد منها ٧ سنتيمترات تقريباً

اسمه العلمي (Acacia Verek, Guill. & Perr.) (آقاسيا ورك) وفصيلته السنطية أو المستحية (Mimosaceae) (ميموزاسية) وبالانجليزية (Verek gum-arabic Tree) وبالفرنسية (Gommier blanc ou acacia à gomme arabique)

وهو ذائع في بلاد سنغمبيا الى السودان وخشبه ابيض يحتمل المؤثرات ويحصل منهُ على اجود انواع الصمغ العربي الابيض فيتجر بهِ ويدخل في المركبات الطبية والصناعية

***

شجرة الباأُوبَاب (٢)

من اشجار الحبشة والجانب الغربي من افريقية ولاسيما بلاد السنغال والسودان ويسمونها فيهِ (التَّبِلْدِي) او (الحُمَيْرا) او (الحَمَر) (٣) وهي شجرة يمكن للانسان معرفتها من ضخامتها لا ترتفع اكثر من ٢٠ متراً ولكن جذعها يبلغ من الغلظ اكبر ما عرف بين الاشجار الى الآن فقد يكون قطره من ٨ — ١٢ متراً ويتفرع من ثلثها السفلي فروع عديدة اغلبها افقيًّا لا رأسيًّا فتبدو الشجرة باغصانها كأنها قبة تشغل فضاء قد يكون عظيماً . وقلفها (قشرها) أبيض برّاق . واوراقها من نوع الاوراق المتساقطة مسننة الحافات ووضعها على الاغصان متخالف

---

(١) جاء في بعض المراجع ان العرب اطلقوا كلمة (أقاقيا) على العصير المذكور وعلى الشجر نفسه

(٢) ادخلت الى مصر من السودان في القرن الماضي ثم اندثرت

(٣) الحمر بوزن قمر كما سمع وفي القاموس الحمر كصرد التمر الهندي

وللواحدة منها من ٥ — ٧ فصوص كالاصابع وأزهارها بيضاء كبيرة إبطية متدلية عرض الواحدة منها من ٥ — ٧ سنتيمترات . وثمرتها بيضية الشكل مستطيلة طولها من ٢٠ — ٢٥ سنتيمتراً تشبه كوز اللوف الجاف وبها تجاويف ممتلئة الياقاً ولُبّاً كالدقيق المعجون مُزّ الطعم في داخله بزور كبزور التمر الهندي المعروف قيل إن النسانس تحب اكل الثمرة فسماها البعض (خبز النسانس) ويسميها عرب السودان (القُنقلوس)

اسمها العلمي (Adansonia digitata, L.) (ادانسونيا ديجيتاتا) نسبة الى مكتشفها (ادانسون)[1] وفصيلتها البا أوبابية (Bombaceae) (بومباسية) وبالانجليزية (The Baobab Tree) وبالفرنسية (Baobab)

واهل السودان يستعملون جذعها كصهريج فيدخرون فيه الماء ويزودون منهُ قاصدي دارفور في اسفارهم وقد يستعملونهُ قبوراً لموتاهم ويصنعون من الياف القلف حبالاً وسلات ويتخذون من لب الثمر المُزّ شراباً ،رطباً باضافة الماء اليهِ او غذاء

وفي بعض الكتب الطبية ان الاوراق والقلف يستعملان للتداوي من امراض منوعة

وفي رأي (ادانسون) ان هذه الشجرة قد تعمر الى ستة آلاف سنة وهي مقدسة عند الزنوج

***

الخُرشُوف [2]

معروف وفي الشام يسمى (أرضي شوكي) ولعل هذه التسمية من الافرنجية (Artichaut) والعرب يسمونه (حَرْشف) وفارسيته (كنكر)

نبات عشبي معمر ولكنهُ يزرع سنوياً يرتفع متراً الى متر وربع وساقه شحمية مخططة طولاً تتفرع من اعلاها على هيئة حزمة واوراقه عريضة جداً طولها اكثر من متر ريشية خشنة بيضاء من وجهها السفلي . ونوراته كبيرة قد يزيد عرضها عن ٦ سنتيمترات تشتمل على أزهار زرقاء محاطة بقشور غشائية كثيرة . وبزوره سنجابية عليها خطوط سوداء وتحتفظ بقوة النبت فيها من ٥—٦ سنين

اسمه العلمي (Cynara Scolymus, L.) (سينارا اسقوليموس) وفصيلته المركبة (Compositae) (قومبوزيتية) وبالانجليزية (The Artichoke) وبالفرنسية (Artichaut) يزرع في جنوب اوربا وشمال افريقية وقد دخل الى مصر من بلاد اليونان في القرن الماضي

---

(١) هو (ميشيل ادانسون) (Michel Adanson) النباتي الفرنسي ولد في مدينة ايكس وعاش من (١٧٢٧— ١٨٠٦) ميلادية وهو اول من حاول تقسيم النباتات تقسيماً طبيعياً

(٢) وجاء في كتاب الفلاحة لابن العوام ان من اسمائه (القنارية) و(الطرية) و (الكنجر) وبالفارسية (كنكر) وان منه نوعين بستاني وهو المعروف في مصر بالخرشوف وبري يسمى (الحرشف) (Carduus silvestris alter) ومن رأيه قصر اسم (كنكر) على النوع المسمى (قردون) (Cynara Cardunculus)

وجاء في عمدة المحتاج للرشيدي ان أصناف الحرشف كلها تسمى بالعربية (هيشر) وقيل هو اسم للبري فقط

والذي يؤكل منهُ رءوسه قبل ان تشيخ ولا سيما التخت والقلب وقواعد الحراشف وهو من الخضر الغذائية المحبوبة . واوراقه اذا وضع منها في اللبن الحليب خثّرته ولذلك يستعاض بها عن الإنفحة المعروفة في صناعة الجبن

***

القردون[١]

نوع من الخرشوف معتبر من النباتات المعمرة ولكنهُ يزرع سنويًا ترتفع ساقه متراً ونصفاً الى مترين وهي ضاربة الى البياض مخططة طولاً واوراقه ريشية كبيرة ذات ذنيبات شحمية طرية خضراء ضاربة الى السنجابية من وجهها العلوي والى البياض من وجهها السفلي . ونوراته كبيرة طرفية مكونة من أزهار زرقاء محاطة بقشور غشائية . وبذوره طويلة متوسطة الحجم سنجابية اللون

اسمه العلمي (Cynara cardunculus, L.) (سينارا قاردونكولوس) وفصيلته المركبة (Compositae) (قومبوزيتية) وبالانجليزية (The cardoon) وبالفرنسية (Cardon)

يزرع في بلاد البحر الابيض المتوسط الى جزائر كنارية او الخالدات في المحيط الاطلنطي ودخل مصر من جزيرة كريد في القرن الماضي. وتؤكل منه الذنيبات من الاوراق وجذوره الغضة . واوراقه اذا وضع منها في اللبن الحليب خثرته ولذلك يستعاض بها عن الإنفحة المعروفة في صناعة الجبن كما في الخرشوف

***

الكرفس

معروف في مصر وفي بلاد العرب و (بالكرفج) في لغة اهل غزنة من بلاد التركستان ولذا قيل إنه دخيل معرّب

والكرفس نبات عشبي متفرع يعمر عامين ويرتفع الى ٦٠ سنتيمتراً املس وجذره ليفي او درني مغزلي الشكل وساقه مجوفة عليها اخاديد في طول الساق . وأوراقه شحمية على نوع ما عريضة ريشية الشكل خضراء ضاربة الى السمرة ذات ذنيبات . ونورته صيوانية تشتمل على زهرات صغيرة صفراء مخضرة . وثماره (البذور) صغيرة ذات رائحة تحتفظ بقوة النبت فيها سنين

اسمه العلمي (Apium graveolens, L.) (آپيوم جراڤيولنز) وفصيلته الصيوانية (Umbelliferae) (امبليفرية) وبالانجليزية (The celery) وبالفرنسية (Céleri) يزرع باوربا وشمال افريقية وشمال آسيا ووسطها وادخلت زراعته من اوربا الى مصر في القرن الماضي . والذي يؤكل منه اعناق (ذنيبات) الاوراق والقلوب . وقد تستعمل بزوره من قبيل التوابل وهي معروفة في العطارة

---

(١) وهذا يطابق ما جاء في بعض المراجع التركية من انه (الخرشوف الياباني) والقردون يسمى عند العرب (العكوب) كما جاء في عمدة المحتاج للرشيدي

الثورة

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

— ٣ —

الاعتراضات على الثورة

يرى أهل التتبع التاريخي ان الثائر نوعان اثنان ثائر تحلى بالميزات التي تجعله فوق البيئة التي يعيش فيها وهو مع ذلك ليس منها بالمكانة التي تمكنهُ من العمل النافذ فيها ، وثائر تلطخ بالمعايب والادران التي تجعله دون هذه البيئة ولكنه يطمع ان يحصل بواسطة الثورة على ما يحسبهُ حقاً له ضائعاً . ومن خير من استوفى هذه الاعتراضات حقها الكاتب الاميركي المعروف في العالم الاسلامي المستر (لوثر وب ستودارد) في كتابه «الثورة على المدنية» فقد سمى النوع الاول من الثوار «الرجل الاعلى» وهو في نظره فرد متفوق ممتاز بما تحلى بهِ من الخصائص ولكنهُ ويا للاسف مضلَّل مخدوع . وسمى النوع الثاني «الرجل الادنى» وهو فرد ليس فيه من بواعث الاحترام والتجلة باعث . قال (ستودارد) فالرجل الاعلى المخدوع هو ظاهرة من الظواهر الغريبة فقد وضعته الطبيعة في مقدمة المدنية وأحلتهُ في الصدر منها الاَّ انهُ انضمَّ الى اعدائها ، ويلوح للقارىء ان مثل هذا الموقف الغريب لا يحتمل التعليل ولكن ذلك خطأ فالرجل الادنى من المدنية يثور عليها لانها ارفع منهُ كما ان الرجل الاعلى يثور عليها لانه أعلى منها ، يفعل ذلك اذا ما داخله القنوط من تقدمها البطيء وغشيته الرعشة من اخطائها المتكررة ، ومتى ما زعم ان العوامل الباعثة في قلوب الناس على العمل هي ذات العوامل النبيلة السامية التي تجيش في صدره فان أحلامه الذهبية النبيلة الهائمة بطلب الكمال تختصر لها طريقاً قريباً تقطعه الى عصر السعادة المنشود فتنضمُّ الى القوى الاجتماعية الثائرة من غير ان تعلم ان غايات هذه القوى تختلف عن غاياتها اختلافاً جوهرياً وان هما اتفقتا في الذرائع بعض الاتفاق . وربما كان الرجل الاعلى المخدوع اعظم شخصية محزنة في التاريخ تثير العطف ، فاننا نراه وقد وقع في ملق الاشرار الاوغاد المبيتين واصبح أداة لتجويز الخطط المشؤومة وارتفع على الاعناق في أوائل الانقلاب باعتباره زعيماً لا يلبث أن يصل بهِ فوز الثورة ونجاحها الى نهاية فاجعة . وهو عند ما يتولاه الذعر من رؤية التوحش عارياً يحاول ان يوقف سيله الجارف ولكنهُ عبثاً يحاول ، فيصول عليه الرجل الادنى مزمجراً من بعد ما اتخذه درعاً يحتمي بها ويلقيها في الوحل تحت قدميه ، ولكن هذا الرجل الادنى ان عاجلاً أو آجلاً يغلب على أمره فتستجد الضوابط الاخلاقية ويستقر النظام الاجتماعي مرة اخرى

ولكنه أي نوع من النظام الاجتماعي يا ترى ؟ فقد يكون هـذا الجديد أحطّ من القديم .
ولا شك انها نادرة تلك الثورات التي هي شر محض ، فطبيعتها الهدّامة نفسها تنطوي على بعض ازالة المساوىء القديمة المنتشرة وجرفها للخلاص منها ، ولكن ما هو الثمن ؟ هو الثمن المقوّم بالدم الغالي الذي يُسفك في الثورة وبالتدمير والهلاك ، وليس ثمة طريقة ذات تكاليف باهظة مرعبة مثل الثورة ، فالخسائر الاجتماعية والانسانية الناشئة عنها مخيفة عادة وكثيراً ما يستحيل تداركها واصلاحها
وفي الفرصة القصيرة التي تسنح للرجل الادنى نجده يعمل عمله ويشفي غلته غير ملتفت الى العواقب مهما كانت خطيرة . أما وهو لا يكره المدنية فقط بل يكره المتمدنين انفسهم ايضاً فتراه يوجه جنونه ويلقي جام غضبه على الافراد كما يلقيه على الاوضاع ، ويكون الرجال الاعلون المتفوقون هدفه الخاص . وفلسفته المستولية على لبه في فهم الحياة هي بالاختصار المساواة دائماً وهو يسعى لتحقيقها بقطع جميع الرؤوس البارزة التي ترتفع عن رأسه ارتفاعاً بيناً . وقد تكون نتيجة هـذا « الانتخاب الاجتماعي المعكوس » نقصاً فادحاً في الرجال المتفوقين بحيث يصاب الجنس البشري بفقر في الافراد دائم كما اصيبت اوربا عقب ديوان التفتيش الديني فيصبح عاجزاً عن تزويد المجتمع بالموهبة والنشاط الضروريين لاصلاح ما خربته يد الثورة ، وتكون المدنية قد اصيبت في مثل هذه الاحوال بالضربة القاضية فتتدنى الى أحطّ مما كانت عليه بصورة دائمة

هذه خلاصة رأي (لوثر وب ستودارد) ومن قال بقوله في الثورات ممـا ينطبق على الثورة الفرنسية اجمالاً والثورة الشيوعية خاصةً ، وفيها ولا شك من الحقائق ما لا يماري فيه أحد ، غير ان هذه الثورات السياسية الاجتماعية الداخلية نوع والثورات لرفع النير الاجنبي الخارجي وانقاذ البلاد من ربقة الاستعمار نوع آخر . واننا ليس في وسعنا ان نتصور أحداً بالغاً ما بلغ من بيع وجدانه وايجار عقيدته يجرؤ على الحط من قدر تلك الجهود الجبّارة التي يقوم بهـا المظلومون للخلاص من ظالميهم ، واذا صحّ قول (بورك) ان في كل ثورة شيئاً من الشر فلم لا يصح قولنا يا ترى ان في كل ثورة شيئاً من الخير ؟

على ان اعجابنا بالثورة الوطنية واشادتنا بالبطولة القومية لايمنعاننا أن نعترف هنا ببعض عيوب للثورة اختبرناها بأنفسنا ورأينا نتائجها بأم العين وهي تحتاج الى الايضاح . فقد يندس بين الرجال العاملين افراد لا قيمة لهم في ميزان الرجولة والاخلاق يتظاهرون بالحرص على المصلحة العامة اكثر منهم وبالبذل في سبيلها اعظم من بذلهم وهم ينقصهم كل شيء من ميزات « الرجل الاعلى » الا الطموح الذي لا ينتهي بهم عند حد ، بل رأينـا اسوأ من ذلك ، رأينا الخادم الرقيع العامي في تصوراته المتبذل في حركاته وسكناته ، الذي لايكاد يؤلف جملة صحيحة التركيب والذي ينخر جمجمته مرض الخُنـزُوانية أو (الميغالومانيا) ويُقرّح لسانه مرض البذاءة أو (الكوبرولاليا) لا يحجم أن يحشر نفسه بين العاملين من مجاهدين وعلماء وحكماء وحضوره مجالسهم ، وقد يغضون الطرف عنه

خشية سفهه وقلة أدبه ، وفاتهم أن السكوت عن السفه هو مثل الصدقة في غير موضعها تشجيع للاشرار وان ترك الحبل على غارب أمثاله هو فتح المجال لمن يدنس بسوء سمعته ويلطخ بقذارته الاوساط الوطنية التي يجب ان تبقى مقدسة . وغني عن البيان ان الذين هم على هذا النمط هم الذين حملوا الكاتب العبقري الكبير (صموئيل جونسون) على القول « ان الوطنية هي الملجأ الاخير للرجل السافل » (١)

اننا نعترف ان هـذا كله عيب في الثورة ولكن ماذا يضير النهضة العظيمة ان يندس فيها الضعفاء ؟ ألم يتظاهر المنافقون في صدر الاسلام بالدخول في الاسلام ؟ وماذا يعيب الشمس ان يشاهد الناظر على وجهها سفعاً اذا كانت هـذه السفع لا تحول دون بثها حرارتها المحيية وارسالها أشعتها اللامعة ؟ ثم ان ظهور الطفح على الجلد في بعض الحوادث التي يعطى فيها المصل الشافي من الامراض الخطيرة لا يمنع الطبيب الحاذق من استعمال المصل الواقي من الدفتريا مثلاً

ويضاف الى ما تقدم ان بعض الوصوليين المستفرصين النفعيين الخالين من جميع الوسائل التي تمكنهم من الحصول على الكسب بالطرق المشروعة الشريفة يجدون في الثورة باباً للرزق فينضمون الى صفوفها ولا يزالون ينفخون في نارها ما دامت مصالحهم مضمونة غير مبالين بالمصلحة العامة التي من اجلها اعلنت الثورة ، وشر من هؤلاء على التحقيق قوم يجعلون انفسهم وسطاء بين الثوار والسلطة العاتية لا لمصلحة البلاد وتقريبها من غايتها السامية بل لضمان مقاعد يجلسون عليها ومصالح خاصة يقبضون على ناصيتها وهكذا لا يتعففون ان يتخذوا من اشلاء شهداء الوطن سماداً لاراضيهم ومن دمائهم رياً لبساتينهم

اما اولئك الذين يتحينون اخفاق الثورة للنيل من كرامة الثوار واقصائهم عن حظيرة الوطن فليس في المعجم الذي تعلمناه مفردات تدل على التدني الاخلاقي الذي بلغوه

ومن الاعتراضات التي يوجهها انصار التدرج السلمي الدائم الى الثورة انها تؤدي عادة الى الرجعى ورد الفعل وبرهانهم على ذلك ان ما من حكومة تقف عثرة في سبيل التقدم الا قاومت بالشدة كل انقلاب ، بيد انها اذا لم تبلغ من القوة شأواً يمكنها من سحق الثورة واخماد انفاسها فان عاقبة المقاومة التي تبديها تكون اضرام نار الحقد والقسوة في قلوب الثائرين واخراج الامر من يد المعتدلين والمتئدين الى المتطرفين المتعجلين . ففي اوائل الثورة الفرنسية مثلاً كانت الاضطرابات قليلة غير ان اعلان ملوك اوربا الحرب على فرانسة ادى الى ظهور حزب « الجيرونديين » الخياليين على مسرح السياسة الفرنسية اولا ، ثم ظهور « اليعقوبيين » القساة الشرسين بعدهم مما كان السبب الاكبر في احداث عصر « الهول » المشهور . بل ان انهيار النظام القائم كاف وحده لتخويل اشرس الزعماء

---

(١) "Patriotism is the last refuge of a scoundrel." (Remarks, by Samuel Johnson)

الشعبيين اعظم فرصة للاستبداد حتى لو لم تكن ثمت مقاومة محسوسة من الحكومة السابقة . اضف الى شراسة هؤلاء الزعماء الحافلة بانواع التحدي ان المصانع والمتاجر في ابان الشدائد والاهوال تقف فتقل البضائع وترتفع الاسعار ويلوح شبح المجاعة على الآفاق ، وقد لا تؤثر هذه الشدائد في الزعماء القابضين على ناصية الحال ولكنها شديدة الأثر في الدهماء ، فالبؤس والاضطراب والتقلقل تفعل فيهم فعلاً كريهاً لان معظمهم يتوقع من الحكومة ان يتمتع بالأمن والنظام علاوة على سائر تلك الخدمات المطلوبة منها . لا جرم ان هؤلاء الدهماء ينقلبون على نافخي بوق الاضطراب ومسببي الاهوال فتنبت الرُجعى وينشط رد الفعل من عقاله ويأخذ الرجعيون في تنظيم امرهم حتى ينالوا التأييد الكافي فتهب ريحهم الصرصر على الثورة وزعمائها فتكتسح من تكتسحه ولا يلبث الموظفون القدماء المطرودون ان يعودوا الى مناصبهم ويعتلوا عروشهم مرة اخرى

الى هنا نحن نجاري خصوم الثورة فيما نقلناه عنهم ونعتقد ان براهينهم تنطبق في الاكثر على الازمنة الماضية وعلى الثورات التي ادار دفتها ضعفاء العزيمة قليلو الثقة بانفسهم وبالعاملين معهم امثال (كرنسكي) في روسيا ولكن متى كان على رأس العمل اناس من اهل الحزم والعزم قد قنعت البابهم بوجوب انقاذ امتهم من الصغار ولعنة الاستعمار امثال (جورج واشنطن) في الماضي و(دي ڤاليرا) و (مصطفى اتاتورك) في الحاضر ، او اناس رأوها ينخرها سوس الشقاق الداخلي والمذاهب السياسية البالية امثال (موسوليني) و (هتلر) او اناس آمنوا بالاصلاح العالمي الذي يجلبهُ مذهبهم ويؤدي اليهِ انقلابهم امثال (لنين) و (تروتسكي) فدسائس الظالمين المستكبرين وخزعبلات القياصرة والسلاطين وشعوذات الدجالين لا تغني فتيلاً

الثورة والتطور العضوي

مهما حاول الكتّاب اظهار البون الشاسع بين الجسم الحيواني او الكتلة العضوية وبين المجتمع الانساني او الجمعية البشرية فان في التشابه بينهما ما يفتق الذهن ويؤدي الى ادق الاستنتاجات الصحيحة . فمن ذلك ان (داروِن) بعد ما وضع مذهبه في النشوء والترقي ونشره في الاوساط العلمية ترجحت فكرة النمو البطيء عند علماء الحياة حتى صاروا يزعمون ان كل تدرج انما يتم بتغيير بطيء يطرأ على الكتلة العضوية نباتية كانت ام حيوانية في حقبة من الزمن تحسب بالوف السنين الى ان يتم هذا التغيير فيصير ملموساً يؤدي الوظيفة الحيوية المستحدثة التي يتطلبها المحيط الجديد . فاذا صح ان الجمعيـة البشرية كتلة عضوية او جسم حيواني كما يذهب اهل النظر البيولوجي من الاجتماعيين تنطبق عليه قواعد الحياة فان كل تغيير فيها يحتاج على هذا القياس الى الوف السنين كي يصير ملموساً لذلك تكون الثورة بهذا المعنى ليست عبثاً فقط بل غير ممكنة لان الطفرة كما كانوا يقولون الى اجل قريب محال. ولكن الطفرة صارت في علم الحياة قاعدة من قواعد العلم وما كان محالاً

بالامس اصبح لازماً اليوم لان التتبع الدقيق دلّ على ظاهرة في علم الحيوان والنبات من اهم الظواهر وهي حدوث ما يدعى Mutation اي التحول الفجائي وهذا هو الطفرة بعينها وتعريفها ان يحدث في النسل الطبيعي المعتاد من حين الى آخر ولادة مخلوق يختلف عن جنسه في صفة او اكثر اختلافاً عظيماً بيّناً ، ثم اذا ما توالد هذا المخلوق العجيب يحفظ في نسله تلك الصفات التي ظهرت فيه فجأة . ويجوز لنا ان نعبر عن هذا الحادث الحيوي المفاجيء بالعبارة الاجتماعية السياسية الآتية وهي حدوث ثورة في بناء سلالة هذا المخلوق حوّلتهُ فجأة من حال الى حال

والآن فاذا كانت الجمعية البشرية جسماً حيوانيًّا تنطبق عليه قواعد الحياة الاساسية فالثورة فيه ليست جائزة فقط بل ضرورية ايضاً لان البيولوجيين كما قلنا يعتدّون بالتغير الفجائي وهو الطفرة كما يعتدون بالتغير البطيء . وكما يحدث الانتقال الفجائي في السلالة من ولادة مولود جديد ذي خصائص مغايرة لسلفه ينقلها بالتوالد الى خلفه ، كذلك يحدث الانقلاب الاجتماعي الفجائي من حدوث ثورة تقلب النظام رأساً على عقب وتحتفظ بالتغير الطارىء وتنقله للاجيال القادمة . وعلى لنين وتروتسكي وستالين وكمال اتاتورك وعصمت ان يزوّدوا علمَ السياسة والاجتماع بتجاربهم الثورية الدالة على امكان الطفرة وان الرجعى بالمعنى العلمي مهما كانت عظيمة لن تعود بالروس والترك الى ما يشبه عهد القياصرة من آل رومانوف والخلفاء من بني عثمان

وفي مقدمة البراهين التي يوردها أعداء الثورة والقائلون بعقمها البرهان المأخوذ من الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر ، فان الفرنسيين في نظر هؤلاء النقاد قد عادوا الى الشيء الكثير مما سفك الثوار دماءهم للخلاص منه والقضاء عليه ، ولكن فاتهم ان المبادىء التي اعلنتها تلك الثورة للخلاص من الظالمين على انواعهم تعمل اليوم كالسحر حتى في البلدان الخاضعة للحكم الفرنسي نفسه ، والوطنيون في المستعمرات ينظرون بلهفة وشوق الى انهيار النظام السياسي الجائر المتصرف في اموالهم وارواحهم واقدس مقدساتهم نظرهم الى انهيار (الباستيل) في اليوم الرابع عشر من يوليو سنة ١٧٨٩ ناهيك بتلك الآراء التي بثتها الثورة في كل دولة حية وسلطتها على كل قلب شاعرٍ من ابطال تلك الامتيازات الجائرة التي كانت تتمتع بها الطبقات المظامية وتحقيق حرية اللسان وحرية القلم وحرية الوجدان وتأييد ارادة الشعب . اما اذا اخفقت الثورة في عاجلها وآجلها ولم تأت بالنتيجة الطيبة التي توقعها منها الزعماء فقد تكون العلة كل العلة في الامة نفسها لان الامة اذا كانت عقيمة فقد يضيع سيل ثورتها الغزير في رمالها القاحلة ، والزعيم مهما كان عظيماً يعجز عن احياء الميت من الجماعات كما يعجز الطبيب مهما كان حاذقاً عن احياء الميت من الافراد

ومن الاعتراضات التي يوردها اعداء الثورة قولهم ان كل انقلاب تحدثه الثورة بالعنف يمكن الحصول عليه بالطرق السلمية وذلك بمجرد قرار يصدر في مجلس النواب او بتعديل طفيف في دستور البلاد لذلك تكون الشدة وما احدثته من دمار وسفك دماء فضلة زائدة ما اغنى الناس عنها .

ولعمري ان في هذا البرهان شيئاً من الوجاهة والحق في البلدان التي تتمتع باستقلالها ولها رأي عام خمير يبدو على ألسنة نوابها المنتخبين انتخاباً حرًّا وأما حيث يكون الشعب اداة مسخرة لاقرار مطالب الغالب ، وارادته تنمحي بجرة قلم يجرها الحاكم الاجنبي ، او حيث تكون الامة طبقتين اثنتين طبقة الاقلية من الغالبين الانانيين النفعيين الذين استعانوا بالتقاليد العتيقة الهرمة والعقائد التي من شأنها اماتة الطموح واطفاء شعلة النبوغ كما كان الحال في زمن السلطان عبد الحميد في الدولة العثمانية ، وطبقة الاكثرية من المحرومين المسخرين عمالاً حقيرين عند اسيادهم حيث — تكون حالة الشعب كما وصفنا فربما كانت الثورة السبيل الوحيد للنجاة

ويقول خصوم الثورة ان الثورة مهما عظمت وبلغت من الشدة فليس في وسعها ان تغير الشعب نفسه وانما تغير الدستور والحكومة فقط وهذا كلام يجب ان نتلقاه باحتراس شديد لان تاريخ الانقلاب لا يطابق هذه النظرية دائماً فالاسلام مثلاً كان من بعض الوجوه ثورة دينية اجتماعية سياسية وهو يختلف عن كثير من الاديان الاخرى بميزة جوهرية من الطراز الاول وهذه الميزة هي سرعة انتشاره والانقلاب العملي الذي احدثه ، ومهما تعنت المحافظون من علماء الاجتماع وبالغوا في قيمة التغير البطيء فليس في وسعهم ان ينكروا ان قصور كسرى وقيصر لم تدك فقط بل تغير الناس الذين كانوا يترددون اليها ايضاً في نحو جيل من الزمن

وغير نكير ان بعض المنمنات والتقاليد القديمة بقيت في المملكة الاسلامية الحديثة ولكن نسبتها الى ما استجد وطرأ نسبة ضئيلة على رغم المتظاهرين بالدين الجديد من الشعوبية المضمرين في الباطن البغضاء للعرب والحقد على ابطالهم . وأقل ما يقال في الثورة الآن انها تجربة في مختبر المجتمع البشري ومن التعصب الاحمق ان يحكم المرء على بطلانها قبل التحقق من نتائجها

وقد قيل لنا ان الخطأ الأكبر الذي يرتكبه دعاة الثورة انهم لا يفرقون بين الشعب وبين النظام الذي يسير عليه هذا الشعب زاعمين ان مجرد استنان السنة الصالحة يجعل الشعب صالحاً وان المجتمع يمكن دفعه الى الامام برفسة واحدة من الوراء وان التتبع التاريخي دلهم على ان الشريعة متى كانت ارقى من الرأي العام في الشعب لا يمكن تطبيقها وفي الطاقة جعل الشريعة موافقة للرأي العام ولائقة به ولكن ليس في الطاقة عكس ذلك اي جعل الرأي العام على غرار الشريعة ومطابقاً لها ، ويذكرون ان السبب الذي يجعل الرأي العام قليل التأثر بتغير الحكومات هو سبب عميق متأصل في طبيعة الانسان ومرتبط بما للعادة من سلطان عليه نافذ بحيث يحول هذا السلطان دون التغيير الفجائي لان كل تقدم في المدنية محسوس ينطوي على تغير في الاخلاق والعادات والتقاليد والمعارف والنظرات وهذا جميعاً لا يتيسر بقفزة واحدة . وأوردوا من البراهين على ذلك ان سن الانظمة الجديدة لا يصيّر الكسالى مجتهدين ولا النفعيين ايثاريين ولا الجهلاء من حملة العلم ولا الخشناء من اهل التهذيب ولا من نخر اخلاقهم سوس الفساد اعمدة الاصلاح ، وان التغيير الذي

يتطلب من الخصائص في الشعب والمزايا في افراده ما هو فوق طاقتهم وأعلى مما يتصفون به ويحملونه في نفوسهم محكوم عليه بالاخفاق

اننا لا ننكر ابداً ان في هذا الاعتراض شيئاً من الحق وجيهاً ولكنه في الاكثر حق ينطبق على الاعصر التي انقضت لا على العصر الذي نعيش فيه وذلك لان وسائل النشر والاقناع وتغيير العقائد وطرائق التعليم وبث الدعايات والمواصلات المعنوية والمادية بأنواعها اصبحت الآن من السهولة والتمكن والنفوذ بحيث يتعذر على ارباب المصالح الرجعية ان يسبلوا ستائر اغراضهم على الابصار او ان يضعوا الكمائم في الافواه ليحولوا دون الصياح بالحق ، ولا شك ابداً في ان تطبيق القانون السويسري في الاحوال الشخصية في تركيا الحديثة مثلا هو ثورة شرعية تمت بين عشية وضحاها واذا دام (اتاتورك) قابضاً على ناصية تركيا مدة وجيزة من الزمن اخرى فسيتعود الجيل القديم بهذه السرعة الفائقة الزواج الموحد والطلاق المعدل مرغماً ، وأما الجيل الجديد فيعد هذه الشرعة المبتدعة تراثاً من الآباء والجدود ، وهكذا ينتقل الترك في سنوات معدودة في وضع الزواج — وهو وضع محافظ — انتقالا اقل ما يقال فيه انه ثورة اجتماعية

***

من المؤسف جداً ان شجرة الحرية كما قال (توماس جفرسون) يجب ان تنتعش من حين الى آخر بدم الوطنيين والمستبدين وان هذا الدم هو سمادها الطبيعي ، ولو فكر الذين يطمعون في استعباد الاقوام واستثمارها ان الجماعات اشد حرصاً على حريتها من الافراد وان الرق الحديث — رق الشعوب والاقوام الراقية — هو اشنع من رق الافراد وأضر بمصالح المجتمع وأشد خطراً على الحضارة للتقلقل الدائم الذي يحدثه فيها ما كانوا اندفعوا في هذه البسطة السياسية المحفوفة بالمهالك

وعلى كل حال فالرجل المتحلي بالشجاعة في البلدان التي تنوء بالمظالم لا تستطيع القوة الغاشمة بالغة ما بلغت من الجور والعسف ان تكمّ فمه عن الافصاح عما يجول في نفسه من الهواجس والافكار وعن الثورة التي تضطرم في فؤاده على الاوضاع التي تذله وتغل قومه وتقف عقبة في سبيلهم ، وفي طاقته ان ينادي كما نادينا في اواخر الشهر الماضي في القاهرة في احدى الحفلات فيقول : « ارتفعي يابنادق ، وقعقعي يا حراب ، وفرقعي يا قنابل ، واغرقي عباب البحر ايتها الاساطيل العاتية واملأي كبد السماء ايتها الطائرات المستكبرة ، وميدي يا جبال الوطن العزيز بضعاف النفوس من ابنائك ، اما نحن فكما قال (فردريخ نيتشه) في قصيدته الغنائية[١] سنجلس على الرغم من ذلك كله بين فكي التنين ونتربع على انياب الكارثة ونصيح بأعلى اصواتنا وملء افئدتنا فلتنتعش الحرية وليحيى الاستقلال وليهنأ الوطن المقدس بأبنائه البررة الاوفياء »

(١) German Ecstasy of Song

الملك جورج الخامس

والتاج البريطاني [1]

[على ذكرى الاحتفال بعيده الفضي]

في الاسبوع الثاني من شهر مايو الماضي احتفلت الامبراطورية البريطانية بانقضاء ربع قرن على اعتلاء الملك جورج الخامس اريكة الملك . وقد خلف الملك جورج والده الملك ادوارد السابع عند وفاته في ٦ مايو سنة ١٩١٠ وكانت جدته الملكة فكتوريا من قبلهما قد ارتقت العرش سنة ١٨٣٧ فبين ارتقائها العرش والاحتفال بانقضاء ربع قرن على ملك حفيدها قرن من الزمان تقريباً]

***

في خلال هذا القرن انثلت طائفة من اعظم عروش العالم واقدمها ، وحلت الحكومات الجمهورية محل الحكومات الملكية في فرنسا واسبانيا والبرتغال ، والحكومات الدكتاتورية في امبراطوريتين عظيمتين هما المانيا وروسيا ، وتفرقت البلدان التي كان يجمعها صولجان آل هبسبرج بعضها عن بعض . ولكن العرش البريطاني اصبح في هذا القرن نفسه اشد رسوخاً مما كان . فالمؤرخ يرى التاج البريطاني ، في سنة ١٩٣٠ ارسى منه في سنة ١٨٣٠ او سنة ١٨٧٥ عندما كان بعض الانكليز وفي مقدمتهم جوزف تشمبرلين — والد السر اوستن تشمبرلين والمستر نفيل تشمبرلين وزير مالية بريطانيا الآن — يُعرفون جهاراً باسم الجمهوريين . بل ان المرء كان له ان يتساءل في القرن التاسع عشر ، هل يتاح لابن الملكة فكتوريا ان يرتقي العرش ، ولكن قلما نجد الآن احداً من الانكليز يرتاب في ان ابناء الملك جورج الخامس سوف يتمتعون بتراثهم الملكي

فالولاء للملكية في انكلترا ليس مسألة حزبية . والعمال هناك يشاطرون المحافظين هذا الولاء . ويروى ان المستر مكدونلد دعي في سنة ١٩٢٨ الى باريس ليخطب في جماعة من النواب الفرنسيين اكثرهم من الاشتراكيين ، في سياسة حزب العمال ، وكانت وطأة المرض مشتدة على الملك جورج حينئذٍ ، فلما نهض المستر مكدونلد للمحاضرة قال : « ايها السادة قبل ان ابدأ في معالجة موضوعي ارى من الخير ان نتريث قليلاً ضارعين الى الله ليمن بالشفاء على ملكنا ، الذي يصارع الموت الآن »

---

(١) من بحث للكاتب الفرنسي اندريه موروى صاحب المؤلفات النفيسة في شلي ودزرائيلي وبيرون ودكنز

فدهش كثير من الحاضرين ولو انهم كانوا يفهمون الامة الانكليزية لما دهشوا . فالحب للاسرة المالكة هناك اقوى واعم بين جمهور الامة منهُ بين الاعيان [1]

وقد تخيّل برنارد شو في احدى رواياتهِ التمثيلية ، بريطانيا وقد انقلبت شيوعيةً ولكنها مع ذلك ظلّت محتفظة بملكها وكان ملكها من احب الناس الى الامة . وهو تخيُّل قد لايكون مستحيلاً

فيجدر بنا ان نبحث عن الصفات الخاصة التي اتصفت بها الملكية البريطانية والحوادث المؤاتية التي مكّنت للعرش ووطدت مقامهُ في بريطانيا . ما مقام الملك في نظام الحكم البريطاني ؟ واية خدمات يؤديها ؟ وعلينا ان نجيب عن هذين السؤالين قبل ان نجمل حكم الملك جورج الخامس

ان الحكم الملكي الدستوري ، كمعظم المنشآت البشرية ، لم يجيء نتيجة لتفكير الناس الواعي . فالملك جورج الاول الذي دعي الى العرش من هانوفر كان لا يتكلم الانكليزية فتخلى عن رآسة مجلس الوزراء في القرن الثامن عشر . وكذلك انفصلت السلطة التنفيذية في البلاد الى جانبين ، من دون اي نضال او نزاع . ولما كانت الملكة فكتوريا امرأة ، اصبح الولاء للعرش نوعاً من الشعور الرومانطيقي . ولما كان زوجها البرنس البرت متصفاً بجميع الفضائل العائلية ، اصبحت الاسرة المالكة في نظر شعب متدين ، موضوعَ حبٍ مقرون بالحنان . وقد توالى على العرش البريطاني ثلاثة ملوك — فكتوريا وادورد السابع وجورج الخامس — اشتهروا بالحكمة والاعتدال والقدرة على التجرُّد عن النزعات الحزبية ، فأصبح للملك عمل مفيد لا يستغنى عنهُ . ولو كان في انكلترا في القرن التاسع عشر ملك حاول ان يحكم حكماً مطلقاً لتحولت انكلترا الى جمهورية . ولكن أسرة كوبرج المالكة ، ادركت في بريطانيا والبلجيك ، ادراكاً تامًّا سرَّ النظام الملكي الدستوري

فما هو هذا النظام ؟ وما القواعد التي يقوم عليها ؟ القاعدة الاساسية هي ان يكون الملك دائماً حكماً محايداً والقاعدة الثانية ، ان يسلّم الملك بالمقترحات التي يعرضها وزراؤهُ . وفي ذلك يقول باجهو : عليهِ أن يوقع الامر باعدامهِ اذا قدّم اليهِ بعد موافقة المجلسين عليهِ » . وقد كتب المستر اسكوث في مذكرة مشهورة . . « على التاج ان يعمل وفقاً لمشورة وزرائهِ الذين يمثلون في وقت تقديم المشورة ثقة مجلس النواب وسواء كانت هذه المشورة تتفق مع رأي الملك أو لا تتفق . ان الوزراء يصغون باحترام عميق الى نقد الملك واعتراضه ومخصوصهما بعناية عظيمة ، ولكن القرار الاخير يجب ان يبقى لمجلس الوزراء . لان مجلس الوزراء لا التاج ، مسؤول امام البرلمان . وبتطبيق هذه القاعدة تطبيقاً دقيقاً يستطاع ان يحفظ التاج فوق شدائد المعارك السياسية »

---

(١) المقتطف : قرأنا من ايام ان انكليزياً من رجال الاعمال كان يستأجر كل صباح سيارة توصله الى مقر عمله ففي ذات يوم اذ كانت وطأة المرض شديدة على الملك قال الرجل لسائق السيارة عرج بنا على تمر بكنهام لانني اريد ان اقرأ النشرة الطبية الاخيرة ففعل ولما وصل الرجل الى مقر عمله كانت قيمة اجرة السيارة قد بلغت اربعة شلنات وهي عادة ثلاثة فقال السائق « ثلاثة شلنات يا سيدي فقط » فقال الرجل « ولكننا عرجنا عن طريقنا العادي ويجب ان اوفي الفرق » فقال السائق بلهجته الدارجة « أليس هو ملكي كما هو ملكك »

يقابل ذلك انهُ لا يغتفر لوزير ما ان يزجّ اسم الملك في احدى هذه المعارك . وليس عليهِ فقط أن يمتنع عن التصريح بما قاله الملك حرفيًّا ، وعدم اقحام اسم الملك في الشؤون الحزبية ، بل الواجب على رئيس الوزراء ان يتحمل كل المسؤولية الخاصة بأعمال وزارته ، وان لا يحاول الاحتماء بالعرش

فما هي أعمال الملك؟ يقول باجهو انهُ يحتفظ بثلاثة حقوق: أن يشاوَر وان يشجّع وان يحذّر. فلا يمكن أن يعمَل شيء في المملكة من دون اطلاع الملك عليهِ ، وملوك انجلترا قد طلبوا — وكانوا على حق في ذلك — بأن يحتفظوا بهذا الحق كاملاً غير منقوص . وبفضل الحقائق التي يطلعهُ عليها وزراؤه، مضافاً اليها الآراء التي يكوّنها بالاصغاء الى زعماء المعارضة من دون أن يطلب مشورتهم ، يستطيع الملك في الازمات الخطيرة ان يحكم حكماً منزّهاً بصفتهِ مشاهداً محايداً. ولكنهُ لا يستطيع ان يحول دون شيء تقترحهُ الوزارة ويقرّه البرلمان . فقد يقول الملك لرئيس وزرائهِ ، انك مقبل على خطة خطيرة. واني لاذكر سابقة من هذا القبيل تبعث على الاسى . لاريب في انك أنت المسؤول، واذا اصررت على هذه الخطة كان عليّ ان اوقع . ولكنني احذّرك . فانك ترتكب هفوة

هذه الآراء يتقبلها رئيس الوزراء باحترام عظيم من مليكه لما لهُ من المكانة والهيبة ولانهُ يكسب بفضل استمراره في منصبهِ ، خبرة أوسع نطاقاً من خبرة أي وزير من وزرائهِ . وقد ضرب السر موريس المورس مثلاً لتفسير عمل الملك هذا بشركة مساهمة فقال : لنفرض ان الامة شركة مساهمة وان مجلس الادارة المهيمن على شؤونها هو البرلمان . فالملك كان أصلاً صاحب الشركة فتنازل عن ملكهِ واصبح لاحق لهُ في الاقتراع ولكنهُ مع ذلك لا يزال أعلى المستشارين مقاماً . فكل شيء يعمل باسمه

وهنا يبادر الى الذهن السؤال التالي: ما الفائدة من الاحتفاظ بصاحب الشركة الاصلي في مقامهِ الجديد. الفائدة منوّعة لاريب فيها. فنجاح النظام الملكي الدستوري في بريطانيا والبلجيك قائم على اربع حقائق :

اولاً — أن الجماهير تفضل ان تمنح ولاءها لشخص معين دون نظام عام — فالبرلمان يتناول في الغالب الآراء المجرّدة التي لا يدركها الجمهور . ان النزعة الاميركية الجديدة في الحكم المعروفة باسم « التوزيعة الجديدة » تتمثل للاميركي في شخص الرئيس روزفلت ، والفاشستية في شخص موسوليني . وهذا الميل لا يختلف في الشعوب البدائية عنهُ في جماهير الامم المتحضرة . فقد كنت في خلال الحرب ضابط اتصال بين الجيش الانكليزي والفرنسي وكان الزعماء الافريقيون في بعض فرق الجيش البريطاني يرفضون أن يجددوا عقودهم الا في حضرة الملك . فكان قواد الجيش البريطاني ينتهزون فرصة زيارة الملك جورج للميدان الغربي ويأتون بهؤلاء الزعماء اليهِ

ثانياً — ان الشعب يتتبع بعناية عظيمة اعمال الاسرة المالكة . ومن شأن هذه العناية في بعض الاحيان تقريب حياة الاسرة المالكة الى حياة الشعب الخاصة . فاذا تزوج أحد الامراء ، كانت الحفلة عيداً قوميًّا ، واذا كان الزواج قائماً على الحب ، كزواج دوق يورك وزواج دوق كنت ، وكانت العروس جميلة ، استولى على الجماهير نوع من التمثل النفسي

ثالثاً — ان التقاليد التي ترعاها الاسرة المالكة ، وقيود وراثة العرش التي تتقيد بها ، من شأنها ان تسمو بنفوس اعضائها فوق الشهوات الدنيئة كالغيرة والحسد وحبّ الاذى

رابعاً — اذا عرف اعضاء الاسرة المالكة ان ينهضوا بواجبهم نحو الأمة اصبحت الاسرة مرجعاً لحياة الامة الاجتماعية والادبية . فهي تحافظ على التقاليد المحترمة وتصدّ أي انقلاب مفاجيء في آداب السلوك . وقد أدّت الاسرة البريطانية المالكة هذه الناحية من عملها على أتمّ وجهٍ وأوفاه

***

هذا هو عمل الملك الدستوري بوجه عام . ولكن الملك في انكلترا مضطرٌ أحياناً وفي احوال معينة ، ان يشترك اشتراكاً فعّالاً في شؤون الدولة

فالقاعدة ان الملك يختار رئيس وزرائه . ولكن اذا كانت اكثرية مجلس النواب تابعة لحزب واحد فزعيم ذلك الحزب يصبح بطبيعة الحال رئيساً لمجلس الوزراء . وليس للملك ان يتجاهله . وقد حاولت الملكة فكتوريا — وكانت لا تميل كثيراً لغلادستون — ان تفضل بعض اتباعهِ عليه ، فذهبت محاولتها ادراج الرياح ، لان مفاتحتها لهم في هذا الموضوع كانت تفضي الى التماس العذر . وكان غلادستون في كل محاولة من هذا القبيل يطلب في النهاية لتأليف الوزارة . فاذا انقسم حزب كبير الى فريقين واصبح زعيم الحزب لا يملك ولاء جميع أعضائه ، فيستطيع الملك ان يرشد زعماء الفريقين الى الطريق الصواب من دون ان يفرض مشيئتهُ عليهم . وهذا ما وقع في سنة ١٩٢٣ لما اضطرّ المستر بونارلو ان يستقيل من رآسة الوزارة لمرضهِ . فقد كان اللورد كرزون مقتنعاً أن رئيس الوزارة لا يمكن أن يكون احداً غيره . ولكن المستر بلفور وغيره من زعماء المحافظين بينوا للملك أن طبع اللورد كرزون لا يتلاءم ومقتضيات المنصب وكانت النتيجة ان استدعي المستر بولدون الى قصر بكنهام فقطع الملك العقدة بسيفهِ

والقاعدة كذلك ان الملك لهُ حق حلّ مجلس النوّاب . ولكنهُ في الواقع لا يستطيع ان يحلّ مجلس النواب من دون ان يشير بذلك رئيس وزرائه . الاّ إنهُ قد تجيء احوال تصبح فيها مسألة حل المجلس مشكلة معقدة . فاذا كان في المجلس ثلاثة احزاب بدلاً من حزبين ، فقد يتفق ان يكون حزب رئيس الوزراء — كحزب مكدونالد الآن — اقلية في المجلس . وقد يشير رئيس الوزراء بحل المجلس في وقت يكون فيه السبيل قد تمهد لائتلاف الحزبين الباقيين والنهوض بشؤون الحكم من دون انتخاب جديد . في هذه الحال تكون كلمة الملك المرجع الاخير

وللملك وحده الحق في اسباغ القاب الشرف على العوام . وهذا الحق على ضيق نطاقه ، يمكنه من ان يقترح اسماء او ان يرفض اسماء اخرى مقترحة لهذه الالقاب . ولكن الفائدة الكبرى من هذا الحق هي ان الحكومة تستطيع ان ترجع الى الملك في ممارسته عند ما يرفض مجلس اللوردات الموافقة على مشروعات اقرها مجلس النواب . فقد حدث مرة ان مجلس اللوردات رفض

ان يقر الميزانية فاضطرت الحكومة القائمة ان تهدد مجلس اللوردات بتعيين لوردات جدد يكفي عددهم لمنح الحكومة اكثرية في ذلك المجلس . ولكن رئيس الوزراء لا يستطيع ان ينفذ تهديداً من من هذا القبيل الا اذا وافق الملك عليه . وهذه المشكلة توقف الملك احياناً موقفاً حرجاً ، لانه من ناحية ، رئيس اعيان قومه بطبيعة مقامه ، ومن ناحية اخرى يرغب في ان يتصرف تصرفاً دستوريّاً لا غبار عليه . وسوف نرى في صفحة تالية كيف تصرف الملك جورج الخامس عند ما واجهته حالة من هذا القبيل

ثم ان للملك ، اذا اقتضت الحال ، حقّاً مبهم الآن لقلة الاستناد اليه ، ولكنهُ فعّال في الملمات وهو ان يكون وسيطاً بين الاحزاب السياسية ، اذا بلغ النزاع بينهما مبلغاً من الحدة والعنف يهدد سلامة الدولة . فالملك ادورد السابع ، لم يحجم عن دعوة المستر اسكوِث رئيس وزرائه ، والمستر بلفور ولورد لنسدون زعيمي المعارضة ، الى قصر بلمورال لتخفيف سورة النزاع عند ما اشتد بين مجلسي النوّاب واللوردات

وكذلك نرى ان عمل الملك معقد وذو شأن خطير في آن واحد . فهو رئيس للدولة لا سلطة واسعة له كسلطة رئيس الجمهورية الاميركية الذي يجمع بين رآسة الدولة ورآسة السلطة التنفيذية — اي بين عمل الملك وبين عمل رئيس الوزراء — ولكن سلطة ملك انكلترا اوسع نطاقاً من سلطة رئيس الجمهورية الفرنسية . فهذا لا يستطيع ان يحل البرلمان الاّ بعد موافقة مجلس الشيوخ . ومجلس الشيوخ اذا عارض في امر اقره النواب فليس لرئيس فرنسا ان يعين شيوخاً تتغلب بهم الحكومة القائمة على معارضة المجلس لها

فاذا اضفت الى سلطة الملك الدستورية هيبته التي تأذن له في التوسط في بعض شؤون السياسة الخارجية وأمور الجيش ، ادركت ان للملك الدستوري في بريطانيا شأناً كبير في تسير دفة الحكم

فلننظر الآن في حكم الملك جورج الخامس ، محاولين ان نبين كيف مارس الملك هذه الحقوق وكيف نهض بهذه الاعمال في خلال ربع القرن المنصرم

***

كان جورج الخامس الابن الثاني للملك ادورد السابع . فلما توفي شقيقه الاكبر ، دوق اوف كلارنس اصبح وليّاً للعهد . وكان قد تلقى العلوم التي تعدهُ للانتظام في السلك البحري ، وقضى معظم حياته قبل وفاة شقيقه بعيداً عن البلاط وقد قلّد في فترةٍ ما قيادة سفينة طوربيد ثم قيادة طراد . فلما توفي والده وذهب المستر اسكوِث (وكان رئيس الوزراة حينئذٍ) لمقابلتهِ تركت هذه المقابلة أثراً عظيماً في نفسهِ لما شاهده في الملك الجديد من الدعة والرأي السليم . ولكن جورج الخامس ورث من عهد والده مشكلة معقدة . ففي ميدان السياسة الخارجية ، كانت المنافسة بين انكلترا والمانيا قائمة على قدم وساق . الآن الملك جورج الخامس لم ينظر الى القيصر على انه عدوٌ شخصيٌ

كما كان يفعل والده ، ولذلك كبر الامل بعد اعتلاء الملك جورج العرش ، بان يسوّى هذا النزاع العائلي على احسن وجهٍ . ولكن هذا الامل لم يلبث قليلا حتى تبدد . وأما في سياسة البلاد الداخلية ، فكان النزاع بين مجلسي اللوردات والنواب ، قد بلغ اشده . فحزب الاحرار القابض على زمام الاحكام من سنة ١٩٠٦ كان قد تبع خطة ترمي الى غرضين هما ، فرض قبول الميزانية التي اعدها لويد جورج وتعديل الدستور حتى يجرد مجلس اللوردات من قوة النقض لقرارات مجلس النواب . فبعد نزاع وانتخاب عام وافق مجلس اللوردات على ميزانية لويد جورج . ولم تكن ثمة وسيلة للتغلب عليه فيما يختص بالغرض الثاني ، الاّ بتهديده بتعيين ٣٠٠ لورد جديد . وكان الملك ادورد السابع قد وعد المستر اسكوث ، انه يوافق على ذلك ، اذا اقتضى الامر ، بعد انتخاب عام آخر لتبين اتجاه الرأي العام

***

فوفاة الملك ادورد ، والمسألة لا تزال معلّقة ، وضعت المستر اسكوث في مأزقٍ ، لا سبيل الى الخروج منهُ الاّ بالبراعة والكياسة . فرأى اولاً انهُ لا يليق ان يطلب الى الملك ان يتخذ قراراً حاسماً في موضوع خطير كهذا في مطلع حكمهِ وخاصة في فترة الحداد . وفي هذا مثل بليغ على ان وجود التاج يفعل بحكم الطبع ، فعل مسكن في حلبة النزاع السياسي ، وينفخ في السياسة شعوراً انسانيًا قريباً من القلب . ولما كانت المعارضة تشاطر الحكومة هذا الرأي اجتمع مؤتمر خاص من زعماء الفريقين قصد الوصول الى اتفاق ، فكان سبيله الى الاخفاق بعد جدال طويل

فتحتم عند ذلك على رئيس الوزارة ان يعلم هل يعيد الملك جورج وعد أبيهِ ، ويتعهد بتعيين لوردات جدد اذا اسفر الانتخاب العام عن عودة الاحرار الى الحكم . والواقع انهُ لم يكن ثمة سبيل الى حلٍ آخر . فاذا رفض الملك استقالت الوزارة ، وعندئذٍ يستدعي المستر بلفور زعيم المعارضة ويُطلب اليهِ ان يؤلف وزارة فيؤلفها وعند تقدمها للمجلس يخذلها فتضطرُ الى الاستقالة . وعندئذٍ يحق للملك من الناحية النظرية ، ان يحلّ المجلس لاجراء انتخابٍ آخر ، ولكن ذلك يزجُ بالتاج في معارك الانتخابات ويقضي على القاعدة الاساسية التي شيّد عليها النظام الملكي الدستوري . وهذا نحوٌ كان المستر اسكوث عازماً كل العزم على اجتنابهِ ما استطاع الى ذلك سبيلاً . فاذا وعد الملك بتعيين اللوردات عند ما تقتضي الحال ذلك ، وخاض هو وحزبهُ الانتخاب مسلّحاً بهذا الوعد السري يبقى مقام الملك محفوظاً من الاذى . قال المستر اسكوث : « فاذا خذلنا في الانتخاب لم تكن ثمة حاجة لتنفيذ وعد الملك فيبقى في طيّ الكتمان . واذا نلنا اكثرية ، اضطرُ اللوردات الى الاذعان ، وكذلك نجتنب ذكر اسم الملك على كل حالٍ »

ومع أن الملك جورج كان قليل الرغبة في اتباع هذه الطريقة ، رأى بعين حكمتهِ ان لا سبيل

آخر للخروج من المأزق . فاتفق على ان يحفظ وعد الملك طي الكتمان وان يسعى الوزراء جهد الطاقة الى الحيلولة دون ذكر الملك في معارك الانتخاب . فلما أسفر الانتخاب عن اكثرية للاحرار اصر الملك على أن يعلن الوعد الذي قطعه خشية ان لا تفهم المعارضة موقفهُ اذا ظلَّ هذا الوعد مكتوماً ثم تسرَّب نبأه الى الصحف . وقد اذيع ذلك في كتاب ارسل الى المستر بلفور ولورد لانسدون . فغضبت المعارضة ولكنها لم تحِر عملاً . فتعيين ثلاثمائة لورد جديد يضعف من مقام الارستقراطية البريطانية ، ويفضي على كلّ حال الى اقرار ما رفض مجلس اللوردات اقراره . فرأى المجلس عندئذٍ ان يذعن لمشيئة مجلس النواب واقرَّ القانون المطلوب

وخرج الملك من هذا النزال وقد زادت هيبتهُ ومكانته ، لانهُ لم يحد في خلاله قيد شعرة عن عمله وهو ان يكون حكماً منزهاً عن الغرض الخاص . فقد كان في ناحية الحكومة مستشاراً حكيماً ولكنهُ لم يقف عثرة في سبيلها ، وكان في ناحية المعارضة ، صديقاً ولكنهُ لم يكن حليفاً

***

كان حكم الملك جورج حافلاً بالمشكلات . فما كادت تحل المشكلة الدستورية على الوجه المتقدم ، حتى استفحلت المشكلة الارلندية . ذلك ان المستر اسكوث كان قد اضطر الى التحالف مع النواب الارلنديين الوطنيين في مجلس النواب بغية الفوز بأكثرية كافية ووعدهم بتحقيق آمانيهم فيما يخص «الهوم رول» اي الاستقلال الذاتي ، وهو يكاد يكون استقلالاً تامًّا لارلندا . فاقسم البروتستانت في ارلندا الشمالية انهم لن يخضعوا بحالٍ من الاحوال لحكم دبلين وطلبوا ان يفصلوا عن سائر ارلندا ويتركوا وشأنهم. ولكن الوطنيين الارلنديين هالهم ان يفقدوا اغنى شطر من ارلندا . فاقترح المستر بلفور على الملك ان يتوسط ويعلن ان تجزيء الامبراطورية على هذا الوجه موضوع يجب ان يتاح للبلاد ان تعرب عن رأيها الصريح فيهِ . وهذا يعني ان بلفور اقترح على الملك ان يحتم على اسكوث فضَّ البرلمان وخوض معترك انتخابات جديدة . اما لورد روزبرى فكان رأيهُ ان رفض الملك توقيع قانون اقرَّهُ البرلمان مخالف للتقاليد واستعمال لسلطة الملك في غير محله . وظلَّ الجدال محتدماً خلال شتاء سنة ١٩١٣ و١٩١٤ والآراء متناقضة

الاَّ ان الملك كان حكيماً ، فلم يصغ الى اصحاب الآراء المختلفة ، المخالفة للتقاليد الدستورية . وظلَّ محتفظاً برباطة جأشهِ ، ولكنهُ لم ينِ عن تذكير وزرائهِ بان الحالة في نظره كانت اشدَّ خطراً منها في نظرهم لانهُ باقٍ رئيساً للدولة حالة انهم خالعون جلباب الحكم عند ما يتحوَّل الرأي العام عن تأييدهم ، فيحلُّ غيرهم محلَّهم . ومضى شهراً بعد شهر محاولاً اقناع المتطرفين من الفريقين بالتريث والتأني ، طالباً من كل فريق تخفيف الحدة في الخطب والتصريحات التي يفوهون بها ، وان ينظروا بعين الاهتمام للمصاعب التي تعترض موقف الفريق الذي يخالفهم . ودعا الى قصره في بلمورال الى زعماء الاحزاب المختلفة فلعب اللورد كرو احد زعماء الاحرار الجولف مع المستر بونارلو زعيم المحافظين

الجديد . فبدا في موقف بونارلو شيءٌ من اللين في حلبة اللعب لم يؤثر عنهُ . واصر الملك على اجتماع اسكوث رئيس الوزراء ببونارلو زعيم المعارضة وكان الاجتماع سريًّا خشية لوم المؤيدين لكل منهما فوجد كلٌّ منهما صاحبهُ أقرب الى التعقل مما كان يتصوَّر

وفي مارس سنة ١٩١٤ كادت المشكلة ان تتخذ شكلاً عسكريًّا ، وبدرت بوادر الحرب الاهلية في ارلندا ، فدعا الملك مؤتمراً من زعماء الاحزاب المتعارضة الى الاجتماع في قصر بكنهام وافتتح هو المؤتمر بخطبة مؤثرة ، ولكن النفوس كانت ثائرة فلم يسفر المؤتمر عن نتيجة ما ، ولم تنج ارلندا من نشوب الحرب الاهلية فيها سنة ١٩١٤ الاَّ بنشوب الحرب العامة على أثر حادثة سراييفو

***

في اول اغسطس سنة ١٩١٤ بعث ملك انكلترا بنداء الى قيصر روسيا يطلب اليهِ فيهِ ان يوقف تعبئة الجيش الروسي . وكان اسكوث قد كتب هذا النداء مستعيناً برجال وزارة الخارجية . قال اسكوث : فلما انتهينا من كتابتهِ ذهبت في سيارة اجرة مع ترل الى قصر بكنهام وكانت الساعة الحادية والنصف بعد منتصف الليل . فدعي الملك من سريره وصورة الملك في قبائهِ في تلك الليلة التاريخية من أعجب الصور التي اذكرها

وقد اصرَّ الملك في خلال الحرب ، على ان غذاء الاسرة المالكة يجب الاَّ يختلف بوجهٍ من الوجوه عن غذاء الجمهور . فلما قضت حالة الحرب بان توزَّع بعض اصناف الغذاء ارزاقاً بمقتضى بطاقات لقلتها كان قصر بكنهام ينال من هذه الارزاق ما يناله بقية الناس . وامر الملك بان لا يقدَّم على مائدتهِ خمر ولا جعة . وقد ذهب في خلال الحرب غير مرة الى فرنسا ، لزيارة ابنهِ وولي عهده ، وليكون وجوده هناك من بواعث النشاط والحماسة في نفوس الجنود . فلما انقضت الحرب ، اعرب المستر اسكوث عن اجلالهِ للملك بهذه الكلمات :

« اما والعروش تهوي حولنا ، وقد كان بعضها قائماً على الظلم ، وبعضها مؤيداً بهيكل ضعيف من التقاليد ، فاننا نرى عرش هذه البلاد راسخاً لا يتزعزع قائماً على مشيئة الشعب البريطاني »

وقد كانت الصعاب التي واجهتها بريطانيا بعد الحرب لا تقل عن الصعاب التي واجهتها قبيل الحرب وفي خلالها . فالاضراب العام ، وفوز حزب العمال ، اقتضيا من الملك ان يبرهن مرة اخرى على مقدرته وحكمته بحكم منزه عن النزعة الخاصة او الحزبية . وقد اصاب في ذلك قسطاً وافراً من النجاح ، حتى انه لما مرض سنة ١٩٢٨ كانت الجماهير تقف امام قصره وهي متلهفة لاخباره ، ضارعة الى الله ان يمن عليهِ بالشفاء ، ففاقت بولائها له ما عرف عن الولاء لملوك انكلترا الذين تقدموه

وهذا كلهُ يفسر لك قول السر ستافورد كربس احد زعماء العمال المتطرفين اذ قال من عهدٍ قريب : « ان الملكية الدستورية سوف تبقى زمناً طويلاً في هذه البلاد افضل وسيلة لاختيار رأس الدولة »

صفحة من التاريخ

تتويج جورج الخامس

[سبق الانكليز غيرهم من امم هذا العصر الى الحكم الدستوري ونزع السلطة من ملوكهم ولكنهم مع ذلك لا يزالون متمسكين بكثير من عاداتهم وتقاليدهم القديمة كتتويج ملوكهم والباس قضاتهم الشعور العارية وحراسهم الثياب المقصبة . وفيما يلي وصف جانب من حفلة تتويج الملك جورج الخامس في ٢٢ يونيه سنة ١٩١١ في دير وستمنستر]

... ووقف رئيس اساقفة كنتربري ونادى قائلاً ايها السادة قدمت اليكم الملك جورج ملك هذه المملكة الذي لا شبهة فيه والذي جئتم جميعكم اليوم لكي تقدموا له الطاعة فهل انتم راغبون في ذلك . فهتف الجمع هتافاً متكرراً قائلين احفظ اللهم الملك جورج . ثم ابتدأت الخدمة الدينية وتلي قانون الايمان ووعظت وعظة مختصرة وفي ختامها تقدم رئيس اساقفة كنتربري الى الملك وقال له هل انت مستعد يا مولاي أن تقسم اليمين فقال الملك نعم وأقسم انه يحافظ على الديانة البروتستانتية ويحكم شعبه بالعدل . وسار الى المذبح وركع امامه ووضع يمينه على التوراة وقال ان كل ما وعدت به هنا افعله وأحفظه فليعني الله . وقبل التوراة ووقع صورة القسم ورجع الى كرسيه بجانب كرسي الملكة وسجدا كلاهما ثم عاد الى المذبح وخلع حلة الملك وتقدم الى عرش الملك ادورد المعترف وجلس على حجر تاريخي مشهور فمسحه دين وستمنستر بالزيت المقدس والبسه مهمازه ووضع سيفه على المذبح . وصلى رئيس الاساقفة ضارعاً الى الله ان لا يتقلد الملك سيفه عبثاً بل يستعمله لخدمة الله بارهاب الاشرار وحماية الاخيار ثم ناوله اياه قائلاً اجر بهذا السيف العدل وأوقف نمو الشر واحم كنيسة الله واعن الارامل والايتام وجدد ما عتق واحفظ ما تجدد وأصلح الاثيم وأيد الصالح حتى تنمو كل فضيلة . وناوله بعد ذلك رداء الملك والكرة والصليب قائلاً فليلبسك الله رداء البر وثوب الخلاص واذا رأيت هذه الكرة موضوعة تحت الصليب فتذكر ان العالم كله خاضع لقوة المسيح فادينا ولسلطته . ثم البسه خاتم الملك في اصبعه وناوله الصولجان قائلاً تناول صولجان العدل والرحمة وليمنك الله في اجراء كل ما وهبك من السلطة وكن رحيماً ولكن لا تتناه في الحلم وعادلاً ولكن لا تنس الرحمة وعاقب الشرير واحم الصالح وقد شعبك في السبيل الذي يجب أن يسير فيه . ثم رفع التاج عن المذبح وتضرع الى الله ليبارك الملك ويتوجه بكل فضيلة ووضع التاج على رأسه قائلاً ليتوجك الله بتاج المجد والبر . وللحال رفع الاعيان تيجانهم من تحت مقاعدهم ووضعوها على رؤوسهم وهتفوا للملك . وجلس الملك على عرشه وجعل رجال المملكة يمرون امامه ويسجدون له واحداً بعد الآخر وأولهم رئيس اساقفة كنتربري والاساقفة ثم ولي العهد وامراء بيت الملك وكان كل منهم يرفع تاجه عن رأسه ويركع امام الملك ويقول اني اخدمك بحياتي وأكون اميناً لك حتى الموت فليساعدني الله ثم يلمس تاج الملك بيده ويقبله في وجهه. وفعل مثلهم كل رؤساء فرق الاعيان اما اعضاء تلك الفرق فبقوا راكعين في مجالسهم حاسري الرؤوس

الزواج والبيت والاولاد

يجب ان تكون هدف

المرأة في المانيا النازية

قلما ادركت نساء المانيا في بدء الانقلاب النازي ما يكون اثره في حياتهن ، ولكنهن يعلمن الآن انه كان فاتحة عهد جديد يختلف في قواعده واتجاهاته عن العهد السابق كل الاختلاف

ففي خلال الحرب الكبرى ، وفي السنوات التي تلتها ، ارتفع مقام المرأة ارتفاعاً سريعاً في ميادين الاعمال والحرف المستقلة والحياة السياسية . ولكن الرايخ الثالث يرمي الآن الى اعادتهن الى البيت على قدر المستطاع

ففي ميدان الحياة الاقتصادية قضت كثرة العمال المتعطلين عن العمل ان تستبدل النساء العاملات بعمال . وكذلك صدر قرار في يونيو سنة ١٩٣٣ يحول دون اشتغال النساء بالاعمال المدنية اذا كان لهن ازواج او آباء عاملون . وليس يقصد بالاعمال المدنية هنا مناصب الحكومة فقط بل جميع ضروب العمل في المنشآت التابعة للحكومة مثل المدارس والبنوك وسكك الحديد والجمعيات والمؤسسات الدينية . وقد عمدت الحكومة الى تطبيق هذه القاعدة تطبيقاً واسع النطاق . ففي مدينة همبرغ اقيلت مائة معلمة دفعة واحدة وعين محلهن مائة معلم . بل ان الحكومة عمدت الى التفريق بين الرجال والنساء في مؤسساتها . بجعل راتب النساء اقل من راتب الرجال ، ورفض النساء اللواتي لم يبلغن الخامسة والثلاثين حالة ان الذكور يقبلن في الاعمال نفسها ابتداء من السنة الحادية والعشرين . ولكن هذه القواعد لا تطبق تطبيقاً عاماً مطلقاً . فالنساء اللواتي يعملن امرهن لا يستبدلن في اعمالهن برجال . وقد احتفظ بالنساء الكواتب على المكتاب (التيب ريتر) والعاملات في مصانع النسيج ، لبراعتهن وتفوقهن على الرجال . ثم ان القابلات المتزوجات تشجعن على العمل لانهن يخدمن هدفاً من اهداف الحركة النازية وهو زيادة النسل

فالزواج في ظل النظام الجديد ، هو الهدف الذي يجب ان تسعى اليه المرأة . ولكن من الواضح ان كثيرات من الفتيات الالمانيات لا يستطعن بلوغه . لان في المانيا ١٩٠٠٠٠٠ امرأة زيادة على الرجال . ولا يزال امام هؤلاء ميدان للعمل ، مع ان نطاقه قد ضاق كثيراً . فالطبيبة يجب ، بحسب الرأي النازي ، ان تحصر عملها في امراض النساء ، والمحامية يجب ان تقف نفسها على الناحية القانونية من شؤون المنزل ومحاكم الاحداث . فلا الجراحة في الاول ولا العمل كقاضية في الثانية ، من الاعمال التي يجب ان تزاولها المرأة في المانيا النازية . اما الصحافية فيجب ان توجه عنايتها الى الموضوعات الخاصة بالبيت والطفل واذاعة فلسفة النازي السياسية بين النساء . ولا ريب ان ميدان الحرف الحرة سوف يتأثر في المستقبل ، تأثراً عظيماً ، بتحديد عدد الفتيات اللواتي يسمح لهن بالانتظام في معاهد التعليم العالي أي الجامعات

والحيلولة بين المرأة الالمانية والجامعات، بجعل عدد الفتيات اللواتي ينتظمن في الجامعات بعشرة في المائة من مجموع الطلاب ، يصحبها توجيه عناية المرأة توجيهاً خاصاً الى مسائل البيت والعناية بالاطفال والوالدات من نواحيها المختلفة ولذلك يشاهد عدد كبير منهن مقبلاً على اعمال الخدمة الاجتماعية ، ولكن المناصب الادارية في جميع هذه المنشآت الاجتماعية ، هي في الغالب في ايدي الرجال . والحكومة تسهّل بواسطة مكاتب خاصة للتخديم ، سبيل الخدمة في البيت للفتيات اللواتي لا يستطعن الزواج ويرغبن في هذا النوع من العمل

وقد كان من شأن هذه الخطة التي اختطها الريخ الثالث نحو النساء ، ان فرض لعمل النساء السياسي ، حدوداً ضيقة . فقد نقص عدد الموظفات منهن في الوزارات المختلفة ، وحيل بينهنّ وبين عضوية الريخستاج ، مع انهُ في سنة ١٩٣٣ كان في الريخستاج ثلاث وثلاثون امرأة بين اعضائهِ . ولكن تجريد المرأة من حق العمل في منصب سياسي، لا يعني حرمانها حق الانتخاب . بل ان الانتخاب في الفلسفة النازية ، ليس حقاً للمرأة فقط ، وانما هو واجب مقدس عليها . فقد ذكرت احدى الصحف في السنه الماضية ان سيدة لها مقعد في السوق العامة ، اشير اليها بالاشتراك في الانتخاب مرتين فلم تفعل، فحرمت من مقعدها هذا وحتم عليها ان تلبس بطاقة كتب عليها : « لم اشترك في الانتخاب لان سلامة المانيا واستتباب السلام فيها لا يهمانني » . وقد تكون هذه الحادثة فريدة في بابها ولكن الواقع ان النساء الالمانيات لا ينظرن نظرة استخفاف الى حق الانتخاب

ثم ان الحكومة لا تكتفي بالقوانين تحدُّ بها من نشاط المرأة في ميادين العمل والسياسة ، بل تعمد كذلك الى وسائل الترغيب والدعاية لتغري المرأة بالعودة الى البيت . ومن اشهر هذه الوسائل نظام الزواج الذي وضع في يونيو سنة ١٩٣٣ وبمقتضاه تمنح الفتاة العاملة الف مارك ديناً طويل الاجل ، اذا تركت عملها وتزوجت وعادت بعد الزواج لا تبحث عن عمل . وهذا المبلغ لا يدفع لها نقداً ، بل تعطاه اذونات ، تستعملها في تأثيث بيتها . ثم هي تستطيع ان توفي هذا الدين بأسلوب غريب ، فعند ولادة ولدها الاول يحذف من الدين ربعهُ ، وعند ولادة الولد الثاني يحذف الربع الثاني . فاذا ولد لها اربعة اولاد ، سُوّي الدين كلهُ . فكان هذا النظام باعثاً على اقبال مئات من الفتيات والشبان على الزواج ، فقرعت أجراس الافراح في طول المانيا وعرضها ، وتزوج في مدينة همبرج وحدها ، ٥٠٠ فتاة و ٥٠٠ شاب دفعة واحدة . وكان من آثاره ، ان الاقبال على تأثيث البيوت زاد عدد العمال في الصناعات المختلفة الخاصة بالاثاث وأدوات المنزل ١٥٠ الف عامل . ولكن غرضهُ ليس زيادة العمال العاملين فقط بل رفع متوسط المواليد في المانيا ، بعد ان نقص نقصاً تدريجياً من سنة ١٩١٣ الى سنة ١٩٣٢ حتى أصبح متوسط المواليد في المانيا اقل منه في اي بلاد اوربية اخرى عدا بلاداً واحدة [يراجع الفصل الذي نشرناه في مقتطف اكتوبر ١٩٣٤ صفحة ٢٢٩ـ٢٣١ بعنوان « مقام المرأة واتجاهها في المانيا النازية »]

من نافذة القطار

لكامل كيلاني

هيهات ، هيهات ، لا جنٌّ ولا سحرة ... بقادرين على أن يلحقوا أثره !

هذي المنازل قد مرّت على عجل ، ... كأنها ومضةٌ للبرق مختصرة

هذي القناطر — والاشجار تتبعها — ... هذي الحقول تبدت وهي مزدهرة

هذا قطيعٌ — من الاغنام — ألمحهُ ، ... وهذه دوحةٌ ، في ظلها بقره

وهذه تُرعةٌ — في إثرها ظهرت ، ... وتلك ناعورةٌ ، في جنبها شجره

هذا سوادٌ علا فوق القطار ، وقد ... عمّ الفضاء دخانٌ قاذفٌ شرره

هذا القطار بطيئاً — بعد سرعته — ... وذا صفيرٌ يدوّي منذراً خطره

هذي المحطة قد لاحت لاعيننا ... اعلامها ، ووفود الناس منتظره

يحُلُّ فيها قليلاً ، ثم يتركها ... لغيرها ماضياً ، مستأنفاً سفره

كالسهم منصلتاً والسيل مندفعاً ، ... يثير — في عدوه — الحصباء والغبَره

***

هيهات، هيهات ، لا جنٌّ ولاسحرة، ... بقادرين على ان يلحقوا أثره

هنا غلامٌ أراهُ صاعداً حذراً ... على النخيل يرجّي — فوقه — ثمره

وزارعٌ دائبٌ في حرث دسكرة ، ... وهضبةٌ ، ومروجٌ — بعدها — نضره

وهذه ثلةٌ — من قريةٍ — خرجت ، ... وكلهم — رافعٌ — من دهشةٍ بصره

وهذه مركبات حملت نفراً ، ... وفوق اخرى حشيش يابس ، وذُره

وثمّ طاحونةٌ ، لاحت — لاعيننا — ... ثوانياً ،واختفت — في الحقل — مستتره

هذا غديرٌ ، وهذي روضةٌ أنفٌ ، ... تهبُّ منها — علينا — نسمةٌ عطره

وثمّ مئذنةٌ في الجو ذاهبةٌ ، ... وتلك سوقٌ ، بها التجار منتشره

شتى مناظر مرت — خطفَ بارقةٍ — ... كما تمرُّ بك الاحلام منتثره

مرت، وليس لها من عودةٍ — ابداً — ... كالطيف ولّى ، فمنذا يقتفي أثره

« مقتبسة من الانكليزية »

الاتجاه الجديد

في تربية الاطفال[1]

كان أبناء السادة في بلاد الفرس في العصور القديمة يدرّبون على ثلاثة أمور : الرمي بالنشاب ، وركوب الخيل ، وقول الصدق . ومتى جهزوا بهذه العدة اعتبروا أشخاصاً كملت تربيتهم مستعدين لما يتطلبه منهم المجتمع الفارسي من المطالب البسيطة ، ولم يكن هـذا المجتمع ليتطلب من أعضائه غير قليل عدا الشجاعة الحربية ، والقوة البدنية ، والاستقامة الخلقية . ولا جدال في أنهُ — حتى في تلك العصور — كان المربون والحكماء غارقين في المذاهب النظرية والجدل حول تربية النشء وتقرير مستقبلهم . ولكن غايات التربيـة كانت على كل حال محـددة بجلاء ، وكانت الوسـائل لادراك تلك الغايات في متناول اليد ، وليس الحال كذلك الآن ويالأسف ! قلب النظر في مجموعة حديثة من كتب التربية تجد آراء كثيرة مختلفة في إدراك حقيقة وظيفتها ، بقدر عدد من كتبوها فهل الهدف الذي ترمي اليهِ هو منزلة رفيعة من القوة الذهنية او اعداد ضيق للاحتراف ? وهل نؤكد الاهتمام بالفرد وحده أو بمنزلته المستقبلة في المجتمع ? وهل تكون الوسيلة نظاماً آليّاً صارماً ، أو حرية تمتد الى حدود لا تكاد تصدق ? وهل نعنى كثيراً بالادب القديم وتعاليم الماضي أو نستهدي العلوم ومخترعات العصر الحاضر ?

من يدري ? وأي الناس لديه من الحكمة ما يخوله أن يجيب عن ذلك ? أليست كل ظنون هؤلاء المربين سواء في قيمتها ? يلوح أن هذا هو الواقع فانهم على الرغم من نظرياتهم وتوكيداتهم الجريئة ليس منهم من يبدو على ثقة مما يقرره الا حين يهاجم اخوانه

على أمر واحد اجتمعت كلمتهم ، وذلك هو سحق الطفل — منشأ كل منافراتهم — أو على الاقل اخضاعه وتحويله من مخلوق أبي مستقل وهو ما فطر عليهِ الى شخص سهل القياد اكثر متابعة لاغراضهم . أن نظرية تأثيم[2] الطفولة لا تزال تسيّر جانباً كبيراً من سياستنا التعليمية فيجب وفقاً لها ان يبرأ الاطفال من الشر الاصيل الذي يلابسهم ويجتث منهم ما فيهم من هراء ، ثم يصبون في القالب المطلوب حتى يصيروا ملائمين للمجتمع ! ولولا أن اولئك الاطفال يرغمون على التعلم بجيش من المعلمين والضباط ويد القانون لفروا منهُ ومن كل ما يتصل بهِ من الاعمال

على انهُ قد بدأ حديثاً انتقاض وثورة على تلك التقاليد المرعية

---

(١) هذا الفصل النفيس هو جانب من مقدمة كتاب « ضحايانا الاطفال » الذي وضعته المربية أغنس دي ليمان ونقله الى العربية الاستاذ محمد عبد الواحد خلاف ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر في سلسلة مكتبة المعلم

(٢) اشارة الى المذهب المسيحي القائل بان الانسان ولد في الخطيئة

فقد جرأت بعض المدارس بالفعل على ان تضع موضع التجربة والاختبار نظرية تخالف النظريات القديمة كل المخالفة وتقرر ان النزعات الفطرية للطفل ابتكارية وانهُ لو اعطي المواد الملائمة واتيحت له الفرص لاستعمالها ، واطلقت له الحرية فلا تملى عليهِ ارادة ، لظهرت منهُ قوى وكفايات لا يحلم بها الى اليوم . وليس معنى هذا ان ندع الاطفال يهيمون في كل واد ، بل ان نعطيهم قدراً من الطمأنينة ومن الفرصة للتعبير عن انفسهم بلائم ما بلغوه من اطوار النمو . ان التربية القديمة — او على الاصح اسلوب التعليم السائد المسمى تربية — قد جمعت اعتباطاً علم الماضي وثقافته ، ثم قسمته الى اقسام تامة الانفصال تسمى مواد ، ورتبت هذه المواد الى اجزاء متسلسلة تتدرج من البسيط الى المركب ويرتبط كل منها منطقيًّا بالجزء الذي سبقهُ . والواقع اننا وان كنا لا نعلم كثيراً عن عملية التعلم على الرغم مع كثرة رسائل الدكتوراه في الموضوع فاننا قد اهتدينا على الاقل الى انها ليست عملية منطقية اصلاً ، وعلى الرغم من مجهوداتنا المنطقية فان الاطفال لا يتعلمون على هذا النحو . ففي الفصول التجريبية التي تشرف عليها المس اروين والتي جئنا على وصفها في الفصل الرابع وجد ان عدداً من تلاميذ الفرقة الثانية الذين لم يعطوا شيئاً في الحساب في سنتهم الاولى قد طلبوا فجأة ان يتعلموه وفي شهر واحد قطع بعض نجبائهم فيهِ شوطاً بعيداً حتى لقد وصلوا سريعاً الى عمليات معقدة في الكسور من غير ما حاجة الى حفظ جدول الضرب والتشكيلات التي تسبق عادة مثل هذا العمل

وكذلك شأن الجغرافية فهي في هذه المدارس الحديثة ليست قاصرة على دروس مأخوذة عن كتاب كبير واحد مملوء بالخرائط وكشوف الانهار والعواصم والمحصولات . ان الصغار الذين هم دون روضة الاطفال يبدأون تحديد موضعهم في الفراغ فيحددون وضع حجرتهم بالنسبة للحجر الاخرى في البناء ويحددون وضع المدرسة بالنسبة للمباني الاخرى في الشارع . وبعد زمن يسايرون الطريق الى النهر ويرون المراسي والاحواض والمعادي والسفن . وهل من دافع اقوى من هذا يحملهم على ان يحصلوا لا الحقائق الجغرافية وحدها بل معلومات اقتصادية وصناعية كذلك ؟ ويدلك على صواب هذه النظرية ان الاطفال في هذه المدارس الحديثة لديهم قدر مدهش من المعلومات . لقد لوحظ على فريق من الاطفال في الثانية عشر من عمرهم بمدرسة « والدن » وكانوا قد طلبوا الى الدكتور اسكندر جولدنويزر أن يدرس لهم علم نشأة الانسان[1] انهم كانوا يعالجون مسائل المدنية ، ووراثة الخصائص المكتسبة ، وحرية الارادة والتقديس والتقاليد الدينية للشعوب الفطرية ، والاباحة والتحريم ، والعرف الاجتماعي ، وقيمة العادة ، وغير ذلك من المسائل التي تؤجل عادة لفرق اكثر رشداً

ومع هذا فليس اولئك الاطفال بمعجزات او خوارق من الناحية العقلية ، ولكنهم مجرد صبية وبنات لم تقمع فيهم النزعة الفطرية للاستطلاع ، ولم يجمد فيهم الميل للتفكير . فلكي يفكر

(1) Anthropology

الانسان لا يكفي ان يجلس ساكناً ويمتص العلم من فم مدرس . ان الطفل لا يتعلم المشي بأن يأتي شخص تام النمو فيخبره كيف يمشي ، ولا باعطائه وصفاً فنيًّا للتوفيق الحركي الذي تنطوي عليهِ هذه العملية ، بل انهُ حين يؤون الاوان يعلم نفسه بالمحاولة والخطأ والتخبط والوقوع كيف يتزن ، وكيف يدفع قدماً قبل اخرى

وكذلك الحال في تلك المدارس الحديثة تعطي للاطفال كل فرصة ليكشفوا الاشياء بانفسهم . ومن الوسائل الوثيقة الاكيدة لتحقيق ذلك امدادهم بكثير من الادوات التي يستطيعون بوساطتها ان يعيدوا ويحيوا تجارب سابقة، وبذلك يضعون اساساً لمواصلة بحث جديد . وحقًّا لاشيء أوضح تمييزاً لهذه المدارس الحديثة عن القديمة من استعمال الادوات . ففي المدارس التقليدية تجد غرف الدراسة فضلاً خرباً من الادراج وألواح الكتابة والمواد المستعملة قاصرة على الورق والاقلام والكتب وحتى في رياض الاطفال تجد المواد محدودة واستعمالها مقيداً بقيود . اما في المدارس الحديثة فان الاطفال الى أعلى الفرق يحاطون بعدد كثير من الاشياء المتنوعة ليشتغلوا بها ككتل خشبية، وأصباغ، وأقلام تلوين ، ومناسج ، وطين ، ورمل ، وخشب ، وقوارب ، ومكابس طبع ، وآلات كاتبة ، وأدوات للعلوم الطبيعية ، وأطقم مسرحية ، وآلات خياطة ، ومعدات كهربائية ، وكل ضرب من الآلات الموسيقية — وأن بيان الادوات في احد الكتب التي تصف تجارب التعليم ليشغل عدة صفحات بالخط الصغير . وللكتب مكانها الذي تستحقهُ بين الادوات كمصادر للمعلومات تكمل ما اكتسب بالاختبار الذاتي اولاً . وكمراجع ذاخرة يرجع اليها

ماذا يكون إذن متى ترك الطفل لشأنهِ دون ان تملى عليهِ اوامر ، وترك مع ادوات كتلك ؟ اذا لم تكن بهِ موانع وجدانية ، وكان سليم البنية بحيث يؤدي وظائفه الطبيعية بلا شذوذ ، فنحن في أمان من الخطأ اذا قلنا ان استعماله لتلك الادوات سيكون ابتكاريًّا . راقب طفلاً في الثانية من عمره يرص كتله الخشبية فاذا لم يفسد عليهِ محاولاته الاولى من هو اسن منهُ بتفهيمهِ عن غباوة كيف يعمل ، فانهُ بلا عناءٍ يرتبها في اشكال ليس حظها من الاتزان والتناسب قليلاً . دع طفلاً وحده ومعهُ الوان او اقلام تلوين وصحائف كبيرة من الورق تجده بـ . فترة من التلويث والعبث يبدأ يرسم أشياء مدهشة ، مدهشة في الشكل والتلوين . وحتى لو لم تكن لمنتجاتهِ معنى لدى شخص راق فانها له كطفل ذات معنىً ودلالة . لقد اطلعت بنت في الثالثة من عمرها احد الزوار حديثاً على رسم لرجل رسمتهُ فصاح بها الزائر انهُ لرجل مضحك ، لانهُ ليس له الاّ رجل واحدة ، فاحمرت الفتاة خجلاً لنقدهِ ،ولكنها لحسن الحظ ثبتت في موقفها وقالت : نعم هذا هو نوع الرجل الذي اردت أن يمثله الرسم

حقيقة ان المدارس الحديثة تواجه مسائل كثيرة لم تحل ، وليس اقلها الضعف البشري العادي الذي يدفعنا الى أن نستبدل باسم الحرية استبداداً جديداً باستبداد قديم . فكثير من المدارس

الحديثة تميل الى اعتبار بعض المبادىء الاجتماعية أو البسيكولوجية اكثر حرمة من الطفل ، وفي كثير منها تقدم فكرة المجتمع المستقبل — وهي محض فكرة معنوية — على كل اعتبار آخر. فالمنهج مصبوغ بالصبغة الاجتماعية ، وكل المجهودات تميل الى جعل الطفل شريكا فطناً في الديمقراطية الاجتماعية المستقبلة . ولهذه الغاية تعطى للطفل موضوعات لا نهاية لها تتصل بنظام الصناعة والحكومة الحديثتين — وهي نوع من التربية الوطنية المضخمة ترمي الى تحويله الى ضرب من الانسان الميكانيكي مصبوغ بصبغة المجتمع من المحقق أن يتعاون بهدوء وكفاية مع رفاقه . وآخرون من دعاة الحرية منهمكون في غرس عادات فيمن هم مرد صغار يتعثرون في مشيهم ، عادات لا ندري ان كانت تحد قوى البداهة والاستقلال والابتكار أو لا تحدها . وآخرون يغالون في قيمة «التركيز الوجداني» و«العقد» الى حد غير معقول . وبعض هذه الاخطار قد اشير اليه بالتحديد في هذا الكتاب ، ومع أن هذه العيوب خطيرة ، وقد تزداد خطورة كلما تضاعف عدد المدارس التجريبية ، فاننا لم نصل بعد الى الفوز ولو بقليل من حرية العمل في المدارس العادية . ومع أن عدم التقيد بالمراسم في فصول الدراسة آخذ في التزايد فان الكثرة من الأطفال لا يزالون ضحايا نظم قاهرة تشبه كثيراً ما جاء وصفه في الفصول الاولى من هذا الكتاب . ولم يتقدم قليل من المدارس العامة الى مثل ما وصلت اليه المدارس النموذجية المحافظة كمدرسة هوراس مان، ومدرسة الثقافة الخلقية التي يجيء وصفها في الفصل التاسع . ويكاد جمهور المدرسين في أنحاء هذه البلاد لا يعلمون شيئاً عما أدته مدرسة لنكولن [1] من الخدمات في وضع المنهج على أساس علمي . ولا تكاد تشق مدارس جاري ودالتون لنفسها الطريق الا ببطء مجهد ، مع أنه من السهل التوفيق بينها وبين ظروف المدارس العامة . وفي حالات قليلة فقط أنشئت فصول في المدارس العامة — ولم تعمل طويلا في الغالب — لتجربة مبادىء انقلابية ، منتهجة السبل التي اقترحتها هيئات ، كمدرسة المدينة والريف ، ومدارس والدن في مدينة نيويورك [2]

رأى زعيمة هندية

سئلت احدى زعيمات النهضة النسائية في الهند عن رأيها في اتجاهات المرأة الالمانية الحديثة الى البيت وفقاً لفلسفة النازي الاجتماعية فقالت : ان الشرق على ما ارجح سوف يكون اقل تأثراً من الغرب بحركة المرأة الالمانية . فهذه الحركة تطرف في الناحية الاخرى من نهضة المرأة الحديثة والغرب اقرب الى الاخذ بالحركات المتطرفة من الشرق . اما نحن فسوف نمضي في اخراج نسائنا من البيت ولو تبعتم انتم اثر المانيا واعدتموهن اليه »

---

(١) مدرسة نموذجية تابعة لكلية المعلمين في جامعة كولومبيا

(٢) سيأتي وصف نظم هذه المدارس في الفصول القادمة (الكلام راجع الى كتاب : ضحايا الاطفال)

مقال صحي يهمّ مفيد

درة البول عند الاطفال

أسبابها وعلاجها

للدكتور عبده رزق

من اكثر انواع التبول قهراً عن الانسان واعمها حدوثاً هو سلس البول في الأطفال الذي غالباً ما يكون في أثناء الليل عند ما يكون الطفل نائماً . وهي علة كريهة مزعجة ، وابتداؤها يرجع احياناً الى الايام الاولى بعد الولادة ، لكنها لا تظهر عادة الا بتقدم الولد قليلاً في السن . وفي بعض الاحيان نراها تصيب البالغين ايضاً

واكثر الاصابات بهذه العلة يكون من السنة الثالثة الى السنة الرابعة عشرة ثم تقل تدريجياً بعد ذلك . أما اذا أتى دور المراهقة ولم يشف المريض منها فتستمر اذ ذاك حتى دور الكهولة او احياناً ما بعده ، وفي هذه الحالة لا بدّ ان يكون هناك سبب مرضي

ومن الاطفال من يتبول ليليّاً مرة واحدة أو مرات كثيرة في الليلة نفسها وآخرون يتبولون ليلة واحدة من آن الى آخر . وفي أحيان اخرى يكون هذا التبويل متتابعاً أي ان العلة تظهر مدة ٨ ليال أو خمس عشرة ليلة متوالية ثم تزول حيناً من الزمن ثم تعود بعدئذٍ من جديد الى ما كانت عليه قبلاً . وهذه الحالات تكون مصحوبة أحياناً باضطرابات التبول نهاراً تارة من كثرة عدد هذا التبول أو من عدم تفريغ المثانة تفريغاً تاماً . لكن في حالات المرض المألوفة تقتصر الاضطرابات المذكورة على وقت النوم ليلاً

***

ومما يجدر ذكره هنا هو أن الحمى التيفية والحميات الناتجة عن البثور الجلدية كثيراً ما تعمل على توقيف المرض وقتيّاً ، ان لم تقطعه تماماً في بعض الاحيان . كما أنهُ لوحظ الشفاء منهُ فجأة في بعض أدوار الحياة ، سواء اثناء بروز الاسنان ، أو في سن البلوغ ، أو وقت ظهور الطمث ، أو ايضاً في الزواج ، كذلك بعد الوضع الأول . لكن ذلك لا يعني انهُ يجب الركون الى هذه الحالات الفسيولوجية للشفاء من تلك العلة المزعجة بل من الحكمة وسداد الرأي الاهتمام بأمرها والتخلص منها بالمداواة الجلدية

والاصابات بدرة البول اكثر بين الذكور منها بين الاناث . وقد لوحظ حدوثها على السواء عند الاولاد البدنيين وأشداء البنية مثلها عند الضعفاء والعصبيين . وهذه العلة كثيراً ما تكون

وراثية وتشاهد في أفراد العائلات وارثي داء الزهري أو ذوي الاستعداد لبعض الامراض العصبية كالصراع او الخبل مثلاً

أسبابها

تنشأ أسباب هذا المرض احياناً عن التكاسل عن النهوض من الفراش ، وغالباً عن تهيج المثانة أو صغر حجمها عند الطفل او وقت وجود حصاة فيها . ومن الجائز أن يكون منشؤه أيضاً عدم التوازن بين أعصاب الطفل المختلفة التي تسيطر على فتح المثانة أو غلقها ، أو شلل يصيب الصمام أو العضل الذي يغلق هذا العضو . وقد يكون السبب أيضاً نتيجة لمرض في الدماغ أو النخاع الشوكي أو السكر أو ايضاً وجود سرطان في المثانة ، فيعمل على تخمصها وانقباضها كلما وصل اليها البول من الحالبين . وثمة شيء لا ينكر هو أن زيادة حموضة البول لناتجة عن تناول الاطعمة الحارة أو الملهبة تكون سبباً مهماً لظهور المرض وهكذا قل عن الافراط في شرب السوائل في الساعات الأخيرة قبيل النوم وخاصة اللبن الحليب أو الحليب والقهوة معاً وقت طعام المساء

عدا ذلك فأمراض الكلى تلعب من هذا القبيل دوراً خطيراً . وقد شوهد حدوث ذات العلة عند الفتيان المصابين بتضيق فتحة القلفة وكذلك عند الفتيات المصابات بالتهاب الشفرين الناتج عن الاهمال في النظافة . وقديكون سبب ذلك أيضاً وجود ديدان دبوسية في القسم الأسفل من المعى الغليظ . أو اورام صغيرة أو سليلة في الانف التي من شأنها أن تعيق التنفس وتسبب بذلك تسمماً بحمض الكربون — تسمم ناتج عن نقص في تجدد الغازات بين الدم والهواء في الرئتين مما يؤول الى نوم عميق جداً بحيث تكون حاسة الطفل او حاجته الى التبويل غير كافية لاستيقاظه

أنواعها

ودرة البول تكون على ثلاثة أنواع : —

١ — درة البول التي تنتج عن التهاون في النهوض من الفراش

٢ — درة بول الطفل الذي يبقى نائماً فيبلل ثيابه وفراشه بدون وعي

٣ — درة بول الطفل الذي يحلم انهُ يبول مثلاً على حائط أو في وعاء فيبلل أيضاً فراشه من دون أن يشعر بذلك أيضاً

ومن ذلك نستنتج ان هذه العلة تظهر عادة في الدور الاول من الطفولة . والنقطة المهمة التي يجب التنويه بها هو ان كل ولد بلغ السنتين او السنتين والنصف وهولا يزال يتبول ايضاً في فراشهِ فمداواته ضرورية بلا ابطاء . وبوجه عام هذا التبويل لا يكون الاّ في الساعات الاولى من الليل او قرب الصباح ومقدار البول وافرٌ في الغالب وفي بعض الاحيان يشعر الولد انهُ يتبول في فراشه ويحاول ان يمسك نفسه لكن بعد فوات الوقت

علاجها

قبل كل شيء لا يجوز ضرب الولد وتعنيفه لهذا السبب . بل تحريضهُ فقط بكلام فعال لان المعالج او احد الوالدين ينال بعبارات التحريض والتشجيع اكثر مما ينال بعبارات التهديد والارهاب بعد هذا علينا الاستقصاء عن سبب هذه العلة او اسبابها ومداواتها جديًّا مع العلم انهُ لا بد من المثابرة وطول الاناة للحصول على الغاية المبتغاة . عدا ذلك يقتضي استعمال الوسائط الصحية التالية:

١ — منع الولد عن النوم حالاً بعد طعام المساء وليكن تناول هذا الطعام باكرًا

٢ — الزامه بتفريغ المثانة قبل النوم ووضع وعاء صغير عند فراشه ويوقظ نحو نصف الليل ليبول

٣ — منعهُ شرب الماء مطلقاً من العصر فصاعداً وخصوصاً من شرب الحليب أو القهوة والحليب معاً او الشاي ايضاً — وقت طعام المساء او حمله على تقليل ما يشرب منها

٤ — العمل على تدريب المثانة وزيادة تحملها وذلك بتعويد الولد حبس البول ما امكن خلال ساعات النهار

٥ — ايقاظ الولد ليليًّا لتبويله مع تأخير ساعة هذا الايقاظ في كل مرة وبذلك يتوصل الولد اخيراً الى تمضية الليلة من دون ان يبول في فراشهِ

٦ — اذا كانت درة البول ناشئة عن ضعف في صمام المثانة فيلجأ الى الغسل بالماء البارد صباحاً في الصيف او الى استعمال الكهربائية « التيار الفارادي او التيار المتصل او التيار المتزن »

كما انهُ يستحسن وقت تنويم الولد ان يكون مقعده مرتفعاً اكثر من بقية انحاء جسمه وبذلك تمتلئ المثانة قبل وصول البول الى عنقها . لان وجود هذا البول في القسم الخلفي من المجرى البولي، اي في منطقة الموثة ، يسبب تهيجاً فيهِ من شأنهِ ان يفرغ المثانة ليلاً رغماً عن الولد . وابسط طريقة الى تحقيق هذه الفكرة هو ان تكون رجلا السرير مرتفعة نحو ١٠—١٢ سنتمتراً فاذا قرنت هذه الطريقة باستعمال الوسائط المبينة اعلاه تزول حينئذٍ تلك العلة في خلال ٤٠ الى ٦٠ يوماً . وقد جربها كثيرون من الاطباء فأسفرت عن نتائج مرضية

واذا لم تكف هذه الوسائط يعطى البلادونا بمقادير متزايدة . والانتبيرين والبرومور . وخلاصة الجوز المقيء مرتين في اليوم لولد بين السنة الثالثة والسنة الخامسة عشرة . كذا الصبغة العطرية Aromatica ٢٠ — ٣٠ نقطة وقت النوم ليلاً . وفي حالة حموضة البول الشديدة يعطى الولد ايضاً في اوقات الطعام بيكاربونات اشترات الصوديوم . اما اذا كان البول قلويًّا فالشفاء يحصل باستعمال الحامض الفوصفوريك وقد نصحوا ايضاً بوضع حراقة على اسفل الظهر

فنستنتج من ذلك ان هذا المرض يتطلب كثيراً من العناية والصبر توصلاً الى انقاذ الولد من علة وان لم تكن بحد ذاتها خطرة لكنها ذات نتائج وبيلة اجتماعية وادبية

باب المراسلة والمناظرة

ارشاد لغوى

فى كل جزء كلمة

للاستاذ عبد الرحيم بن محمود

الحمى الوبيلة أو الأجيـة « الملاريا »[1]

أطوار الحمى الوبيلة أو الأجية :

(ا) الرَّسُّ — أول ما يجد الإنسان مسّ الحمى قبل أن تأخذه وتظهر — ويقابل الرس باللغة الانكليزية (prodroma)[2]

(ب) العُرَواء — (Rigor) اذا أخذته لذلك قِرّة ووجد مسَّها

(ج) الرُّحَضَاء (perspiral stage) إذا عرق من الحمى ويقال للمريض مرحوض وقد عنى المتنبي المادح هذا الطور فى مقام حسن التعليل لجود الممدوح وهو هرون بن عبدالعزيز الاوراجيّ الكاتب مبالغاً فى قوله

لمْ تَحكِ نائلَكَ السحابُ وإنما ... حُمَّتْ بهِ فصبيبُها الرُّحضاء[3]

(د) البُرَحاء وهى شدة الحمّى (Fever in its acme)

---

(١) قد سمى الشيخ ابرهيم اليازجى (الملاريا) بالحمى الوبيلة وبالحمى الاجية وقد أصاب كل الاصابة فى تسميتها بهذين الاسمين وقد تبعته مذ كنت أدرس فن تدبير الصحة بمدارس المعلمين والمعلمات الاولية من سنة ١٩١٠ م الى سنة ١٩٢٢ م وأيدنا الاطباء الحذاق عشاق اللغة العربية فى هاتين التسميتين

(٢) أخذت الالفاظ الانكليزية التى فى هذا المقال عن صديق الطبيب سامى الياس

(٣) النائل العطاء . الصبيب الماء المصبوب . والسحاب اسم جنس يذكر ويؤنث (ادعى المتنبي أن علة نزول الامطار من السحاب على الارض هى عرق حماها بعطاء هرون لانه جعل نواله أكثر من نوال الغمام فاصابتها الحمى حسداً) . والمعنى ان السحاب لا تقصد محاكاة جودك بمطرها لان عطاءك المتتابع أكثر من مائها وأغزر ولكنها حمت حسداً لك والماء الذي ينصب منها هو عرق تلك الحمى

أنواعها :

(١) حمّى مستديمة وهي التي تأتي كل يوم ويقال لها المُطْبِقَة اذا لم تقلع

(٢) الغِبّ أن تأخذ المريض يوماً وتدعه آخر ويقال لها ايضاً حمى ثلاثية لأنها تأتي المريض يوماً وتدعهُ يوماً وتأتي ثالث يوم (Tertian)

(٣) حمّى رِبْع وهي أن تأخذهُ يوماً وتدعهُ يومين ثم تجيء في اليوم الرابع (Quartan Malaria) ويقال رَبَعت على فلان الحمّى أي جاءَتهُ رِبْعاً وأربعتْ عليهِ وقد رُبِع كعُني فهو مربوع وأُرْبِعَ فهو مُرْبَع فإذا دامت مع الصداع أو الثقل في الرأس والحمرة في الوجه وكراهة الضوء فهي البِرْسام أو البِلسام وليست الحصبة وإن أشبهتها في كثير من الاعراض

توجيهات :

(١) الوعْك أذى الحمّى ووجعها في البدن ويقال رجل وَعِك وموعوك

(٢) الوِرْد يوم الحمّى وقد وردته أو الورد الحمى النائبة كل يوم

(٣) القَلَع. حين تقلع الحمى أي تفارق المريض

(٤) القفقفة (Chill) صوت المحموم من الرعدة او إذا اضطرب فكاه واصطكت أسنانه وفعله قَفْقَفَ

(٥) الحلأ — الحَرُّ الذي يخرج على شفة الانسان عقب الحمى الوبيلة (Herpes)

(٦) الحمى الصالب هي التي تُسيل العرق الغزير وقد صلبت على المريض إذا اشتدت حرارتها ولم يكن معها برد . وقد رأى صديق الطبيب سامي الياس أن الحمى الصالب هي (الملاريا) لان وصفها يشتمل على أظهر أعراضها ولكني آثرت تسميتها بالوبيلة أو الأجية على تسميتها بالحمى الصالب (٤) لأن الشيخ ابرهيم اليازجي قد اختار (للملاريا) الحمى الوبيلة أو الحمى الأجية وقد رأيت من صديقي الطبيب محمد عبد الحميد بك موافقة تامة على تسمية اليازجي مذ كنت في قليوب معهُ من سنة ١٩١٢ إلى اليوم وإني أثق كل الثقة بالطبيبين الفاضلين كما أثق بما نقلته عن علماء اللغة ومن شأني أن أعز شأن الفاضلين وأنسب الفضل إلى ذويه وهذا جناي وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه

(٤) لم يخطيء الطبيب سامي الياس تسمية (الملاريا) بالحمى الوبيلة أو الاجية ولكنه يرى ان اللفظ الذي وضعته العرب — الحمى الصالب — أولى بالتسمية

أمراض وأعراض بوزن فعال

محرر المقتطف الفاضل

للاستاذ عبد الرحيم بن محمود فضل بين على اللغة العربية ببحوثه النفيسة المتتابعة على صفحات المقتطف ونشره الفاظاً فصحى يود الى العلماء والادباء احياءها باذاعتها في مؤلفاتهم وكتاباتهم فهو من البحاث الذين يقومون بقسطهم من خدمة لغتهم ولو كان كل علماء اللغة نصفة نشاطى لها غيوراً على نموها وازدهارها لما تركوا الوفاً من الالفاظ الفصيحة مهملة في مثاني معاجمها وهناك عشرات في الامصار العربية ممن احاطوا بأسرارها ووقفوا على فصحها ووفق بعضهم الى معرفة اصول كثيرة من الفاظها وكلهم آلون على رفع شأنها واصلاح ملاغيها لو شاءوا ولكنهم لامر ما يهملون واجبهم البنوي بيد ان بعضاً منهم يقومون بقسطهم من الخدمة على عزلة متجنبين سبل النشر مخفين علمهم ونتائج بحوثهم وكان يخلق بهم ان يذيعوها ليستفيد منها اخوانهم ويعمموها فأنا لذلك اثني على همة الاستاذ عبد الرحيم وأستأذنه باضافة بعض اسماء الامراض مما جاء على زنة فُعال تتمة لبحثه راغباً اليه ان يطلعنا على ما يقابلها بالافرنجية فاني اجهل ذلك ولا اجد امامي من الاطباء من استطيع الركون اليه في هذا البحث واني له سلفاً من الشاكرين واما الالفاظ فهي :

الرُداع : وجع الجسد اجمع وقيل النكس ، والغُثار : ابتداء الغشوى ، والهيام : داء يصيب الابل من ماء تشربه مستنقعاً فتهيم في الارض لا ترعى وقيل هو داء يصيبها فتعطش فلا تروى وقيل داء من شدة العطش ، السُهاف : العطاش ، والبوال : داء يكثر منه البول يقال اخذه بوال اذا جعل البول يعتريه كثيراً ، والسكات داء يمنع من الكلام تقول اصابه سكات ولعله بمعنى السكتة الداء الذي تتعطل به الاعضاء عن الحس والحركة الا التنفس ، وبمعنى السباه وهو سكتة تأخذ الانسان ، والعُساف : داء يأخذ الابل من الغدة وقال الاصمعي « قلت لرجل من اهل البادية ما العُساف قال حين تقمص حنجرته اي ترجف من النفس وهو للابل كالنزع للانسان ، والقُشاع داء يؤيس الإنسان والبطاح مرض يأخذ من الحمى وروي عن ابن الاعرابي ان البطاح هو المرض الشديد والملال : وجع الظهر — والتقاب مرضاً او وجعاً يقال اخذه الثملان — وعرق الحمى ، والغُضاب: داء يصيب بصر الانسان يقال غضب بصر فلان على المجهول اذا انتفخ من داء يصيبه — وقيل هو الجدري فهو رجل مغضوب ، والجحام داء في العين يصيب الانسان فترم — وداء في رؤوس الكلاب فتكوى من بين عينيها ، والمُضاض : وجع يصيب الانسان في العين

والسُواد : داء يأخذ الانسان والابل والغنم من شرب الماء الملح ، والسُواد : داء في الاسنان — وصفرى في اللون — وخضرى في الظفر وفي اللسان السواد بالفتح صفرى في اللون تصيب القوم من الماء الملح

والقُداد : وجع في البطن . والرُماع داء في البطن يصفر منهُ الوجه — ووجع يعترض في ظهر الساقي حتى يمنعه من السقي ، والشُفاف : وجع البطن أو وجع شغاف القلب — وداء يأخذ تحت الشراسيف من الشق الأيمن ، والقُضاع : وجع في بطن وتقطيع فيه وهو من الابدال اي من الانقطاع والتقطع ، وسمي ايضاً القَضْع والتقضيع ، والجُمام داء للابل وغيرها من الدواب يعرض من رعي النشر .وقال الهجري في نوادره انهُ داء يصيب الابل من الندى بأرض الشام يأخذها لَيٌّ في بطونها ، والحُباطُ داء يعرض للابل وهو وجع في البطن من كلأ تستوبلهِ ويسمى الحَبَط ايضاً

والظُلاع داء في قوائم الدابة لا من تعب ولا من سير ، والعُقاف والقُفاع داء في قوائم الشاه تعوج منه وهي شاة عاقف جمع عواقف ، والقُوام داء يأخذ في قوائم الدابة تقوم منهُ فلا تنبعث ،

والقُفاص : داء يصيب الدواب فتيبس قوائمها وقال الامير مصطفى الشهابي « كل التحام يحصل في مفاصل الدابة في اي موضع كان من قوائمها بسبب ظهور زوائد عظمية يسمى القفاص ولعلهُ بالفرنسية Fausse anhylose

والرُحام : داء في الرحم

والنُحاز : داء للابل في رئتها تسعل بهِ شديداً

والحُكاك : الجرب او داء يُحكُّ منه ، والحُصاص : الجرب لانهُ يتمعط من الشعر ويتناثر

والدُغام : وجع الحلق ومثله الذُباح والذباح والحُلاق

والدُكاع : داء يصيب صدور الخيل والابل قال القطامي :

ترى من صدور الخيل زوراً كأن بها نحازاً او دُكاعا

والسُواس : داء في اعناق الخيل ييبسها

والقُماص : داء في الصدر كأنه يكسر العنق — وداء في الغنم لا يلبثها ان تموت وفي الأساس «اصاب الغنم والناس قُماص داء يقمصهم ، اي يقتلهم مكانهم .وقد قمصت الشاة اذا اصابها القماص»

والنُقاز : داء الماشية شبه الطاعون تنقز منه حتى تموت مثل النزاء ، والذُباب : الطاعون

والقُحال : داء يصيب الغنم فتجف جلودها فتموت

وقُلاع الاذن : شقاق يعرض في اصل الاذنين يرشح بالمدة والماء الاصفر ، القُلاع ايضاً بثرات تكون في جلدة الفم واللسان ، والنُكاف : وجع يأخذ في الأذن — وقيل ورم يأخذ نكفتي البعير وقيل داء في حلوقها يقتلها قتلاً ذريعاً فلعله Mumps

والهُناع :داء يصيب الانسان في عنقه ،والقُماس التواء يأخذ في العنق من ريح كأنها تهصره الى ماوراءه

والدُود : وجع يأخذ في الفم والحلق ، والخُنان داء يأخذ الطير في حلوقها

والحُماق :شبه الجدري يصيب الانسان فيتفرق في الجسد ، وقد حمِق فهو محموق

والقُعاس : داء في المفاصل ، والحُال داء في مفاصل الانسان وقوائم الحيوان يظلع منه وقد

حُمِل فهو محمول وقالوا قَفَس قَفاساً اذا اخذه داء في المفاصل كالتشنج

والكُناع : قصر اليدين والرجلين من داء على هيئة القطع والتعقف يقال بها كُناع (التاج)

والشُقاق : تشقق يصيب ارساغ الدواب وربما ارتفع الى وظيفها (١) وتقول بيد فلان ورجله شقوق ولا تقل شقاق ، واليُداء : وجع اليد وقد يدي من يده اذا ذهبت يده وليست يقال ما له يدي من يده وهو دعاء عليه كما يقال ما له تَربت يداه (الصحاح)

والنفاص : داء في الشاء تنفص بابدالها حتى تموت يقال اخذ الغنم النفاص ، وقد اطم الرجلُ اذا احتبس بوله من داءٍ يلم بهِ ، وأُطم عليه عسر عليهِ بروز غائطه واحتبس بوله فهو مأطوم ، وكذلك او تُطم عليهِ اذا اصابه الأُطام وهو احتباس البول او تعسر بروز الغائط

والكُتاف : وجع الكتف وقد كتف الدابة إذا اشتكى كتفه وظلع منها ، والخُرام فساد يعرض في جانب الكتف

والخُلاع شبه خَبَل يصيب الانسان ، والخُباط داء كالجنون وليس بهِ ، والخُراع جنون الناقة — وانقطاع في ظهرها تصبح منهُ باركة لا تقوم

والقُعاد : داء يُقعد من أصيب بهِ — وداء يأخذ في ادراك الابل فيميلها الى الارض ،

والذُبل : النقابات وهي قروح تخرج في الجنب فتنقف الى الجوف

والشلاق بثر يخرج على اصل اللسان وقيل تقشر في اصول الاسنان Pyorrhoae

والحُمام : حمى الابل وجميع الدواب ،

والقُلاح : حفرة الاسنان — وخضرة بين اسنان البعير

ومما يلحق بالادواء الادوية فكثير منها على وزن فعول : كالسعوط وهو الدواء الذي يُستعط ، والنَشُوق وهو كل دواء ينشق مما له حرارة او يدني من الانف ليجد ريحه وحره . والسفوف وهو كل دواء يؤخذ غير ملتوت او معجون ، والسهول : الدواء المسهل ، والاجور وهو الدواء يوجر اي يصب في الفم ، والنشوع وهو بمعنى الوجور ، والعقول وهو الدواء يعقل البطن اي يمسكه ، والحنوط وهو كل دواء يمنع الفساد ، والذَرُور وهو ما يذرُّ في العين وعلى الجرح ونحوه ، والدَقوق وهو دواء يدق للعين واللدود وهو ما يصب بالمسعط من الدواء في أحد شقي الفم ج الدَّ ، والغرور وهو ما يتغرغر بهِ من الادوية ، والقشور وهو دواء يقشر بهِ الوجه ليصفو لونه ، والقيوء وهو الدواء يشرب للقيء . واللزوق وهو دواء للجرح يلزمه حتى يبرأ ومثله اللصوق ، واللعوق وهو ما يلعق من الادوية ، والسنون وهو الدواء اليابس المسحوق الذي تدلك بهِ الاسنان

سالم خليل رزق — النبك سورية

(١) قال الشهابي هذا الداء تسميه العامة الجلفام وهو بالفرنسية Yavart cutané

حول ارشاد لغوي

مستشفيات صيغة صحيحة

يشكر الاستاذ عبد الرحيم بن محمود فيما قام به من نشر مباحثه اللغوية الاصلاحية الثمينة وحسناً فعل بنشرها في المقتطف لانها المجلة العلمية الادبية الوحيدة التي يفاخر بها الشرق الناهض. وفي جزء فبراير ١٩٣٥ من المقتطف بحث ممتع من تلك البحوث المفيدة بعنوان «المستشفى» أجاد فيه كاتبه اللغوي اذ اوضح فيه ان «المستشفى» هي الكلمة العربية الفصيحة التي يجب ان تحل محل «اسبتالية» الدخيلة

وفي اثناء هذا البحث حاول الاستاذ القاء المؤاخذة بالخطأ على من يجمع المستشفى جمع مؤنث سالماً فيقول « مستشفيات » . وفيما يلي تلخيص حججه التي بنى عليها هذا الرأي : —

١ — ان الف المستشفى لام الكلمة وليس للتأنيث ، فهي مثل باء « مستغرب »

٢ — إنه لا يصح ان يراد بالمستشفى : بقعة الاستشفاء فيجمع حينئذ على مستشفيات لعدم صحة ان يقال . « هذه منزل » . وقال لم ينطق بهذا عربي ولا مستعرب

٣ — انه سداسي وليس خماسيًّا كاصطبل حتى يصح جمعه جمع المؤنث السالم . هذه خلاصة دلائل الاستاذ التي بنى عليها رأيه في تخطئة صيغة « مستشفيات » اما نحن فسنقوم بايضاح صحتها تمحيصاً لحقيقة لغوية هامة . والمأمول من رئيس تحرير المقتطف ان لا يضن بنشر بحثنا هذا لان العبرة بما قيل لا بمن قال . نعم يا حضرة الاستاذ ان الف مستشفى هي لام الكلمة كما ذكرت وليست للتأنيث . وبما ان « مستشفى » يصح ان يكون وصفاً وبما ان هذا الوصف هو لما لا يعقل اي المكان المستشفى فيه ، فقد نص علماء النحو والصرف على صحة وقياس جمع اشباهه بألف وتاء [1] فيقال مستشفيات كما يقال في جمع « مرتب » مرتبات

اما نفي الاستاذ لصحة ارادة بقعة الاستشفاء بالمستشفى فهو نفي تنفيه ، ونفي النفي كما يقولون اثبات . فقد ورد في كتاب مغنى اللبيب عن كتب الاعاريب لابن هشام الانصاري انه يصح مثل ذلك وقد نطق به العرب ، لانه من باب التضمين . ولا خلاف في جوازه في الاسماء فتقول اتتك كتابي مريداً اتتك صحيفتي او رسالتي [2] كما يصح ان تقول « هذه منزلي » قاصداً به « هذه داري » ولا دليل للاستاذ على تخطئة « هذه منزلي » — في قوله تعالى «وقل رب انزلني منزلاً مباركاً » لان الآية جاءت على غير التضمين وهو الاصل ، مما شرح يتضح ان صيغة « مستشفيات » هي صحيحة من هذه الناحية ايضاً . اما ان المستشفى سداسي لا خماسي ، فهو صواب ، ومما سبق ايضاحه بينا ان ذلك لا يمنع من صحة جمعه على مستشفيات وبناء على جميع ما تقدم فلا حق للاستاذ في تخطئة «مستوصفات» في جمع مستوصف ايضاً

عبد القدوس الانصاري — المدينة المنورة

---

(١) انظر الصبان على الاشموني «ج ١ ص ٧٣» (٢) ونص ما في المغني «ج ٢ ص ١٧٢ طبع المطبعة الشرقية بمصر» : — ولقد حكى ابو عمرو بن العلاء انه سمع شخصاً من اهل اليمن يقول «فلان لغوب اتته كتابي فاحتقرها» فقال له كيف قلت اتته كتابي ؟ فقال : اليس الكتاب في معنى الصحيفة ؟

عود على بدء

أشكر للأستاذ الفاضل عبد القدوس الانصارى المدنى لما أسداه إلىّ من شكر وحمد لبحوثى اللغوية التى طابت بقراءته إياها فى « طيبة » حيث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جدّى الذى أنتمى اليه نسباً وحسباً وديناً ولغةً . وأرجو أن يستذكر هذا الرد الموجز فيذكره

لا يصح أن يكون المستشفى الذى هو مكان الاستشفاء وصفاً لمذكر غير عاقل حتى يجمع على مستشفيات كما يقال معادن مستخرجات والمفرد معدن مستخرج وكما يقال أشياء مرتبات والمفرد شيء مرتب وقد يحذف الموصوف ويكتفى بالصفة إذا اشتهرت كواجبات جمع واجب (التقدير شيء واجب أو أمر واجب) قال الناظم فيما ينقاس فيه جمع المؤنث السالم

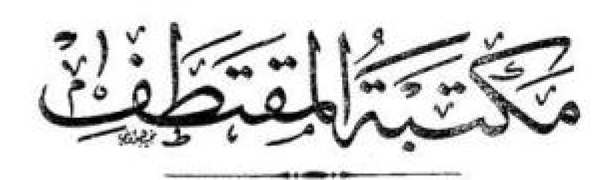
وقسه فى ذى التا ونحو ذكرى ودرهم مصغر وصحرا
وزينب ووصف غير العاقل وغير ذا مسلّم للناقل

فوصف ما لا يعقل يجمع جمع مؤنث سالماً غير منازع ولا ينظر إلى عدد حروفه فقالوا جبال شامخات والمفرد جبل شامخ فشامخ وصف للجبل جمعوه على شامخات . وأيام ممدودات والمفرد يوم ممدود وقد أشرت إلى هذا فى مقالى بمقتطف فبراير ١٩٣٥ م فقلت (وإن عاملتَ ما زاد على الخمسة معاملته فى الجمع فليكن ذلك فى غير ما أشبه هذا) أى أن المستشفى اسم جنس (مثل مسجد وكنيسة وأسد ورجل فتجمع جموعاً مكسّرة فتقول مساجد وكنائس ورجال وأسد أو أسود أو آساد ويصح جمع كنيسة على كنيسات أيضاً لأن المفرد ختم بالتاء) وليس بوصف وكذلك مستوصف فتأمل . وما أغناك وما أغنانى عن التضمين فى هذا المقام والتضمين البيانى شروط ليس هذا محلها أما التضمين اللغوى في الكلمات الجامدة فمقصور على السّماع لنصون عرض اللغة عن الدنس وإلاّ اختلط الحابل بالنابل. وقول الحجة (أتتني لسان فكذبتها) دليل على أن المراد باللسان الوشاية وإن قيل أتتك كتابى فقد أريد أتتك رسالتى أو صحيفتى وهذا من التضمين اللغوى أى المسموع وقد أورد له علماء اللغة فى ملاغيهم أمثلة معلومة إذ أنه من اللغة ، والاستعارة التبعية — ولا تكون إلاّ في المشتقات والحروف — من التضمين البيانى المقيس وحسبي أن القرآن ذكّر المنزل وكفى بالقرآن دليلاً[1] فلا يجمع مستشفى إلاّ على مشافٍ. والحمد لله الذى وهب لى الرجوع إلى الحق إذا شمت له بريقاً فأعلن الصواب وإن لم يرشدنى اليه مرشد فلست من الممارين فى الحق وكفى بالله شهيداً

عبد الرحيم بن محمود

---

(١) قال ابن الانبارى (واعلم أن جمع غير الناس بمنزلة جمع المرأة من الناس تقول فى منزل منزلات وفى مصلى مصليات) فعلى هذا يجمع مستشفى على مستشفيات ولا يخطىء جمعه على مشاف وقد خالف جمهور اللغويين ومنهم علماء الصرف — وليت الأستاذ الانصارى اطلع على قول ابن الانبارى هذا فردّ به علىّ بدلاً مما أتى به خطأ. على أن ابن الانباري لم يجعل منزلاً مؤنثاً ولا مصلى مؤنثاً ايضاً كما يفهم ذلك من عبارته. وانى أقول رداً عليه ان ورد عن العرب منزلات فهى جمع منزلة لا منزل أما مصليات فجمع مصلاة لا مصلى كمحلات جمع محلة لا محل الذي يجمع على محال



حياة محمد

تأليف الدكتور محمد حسين هيكل بك — صفحاته ٥٤٤ قطع المقتطف — طبع بمطبعة مصر

في دور من أدوار الحرب الريفية التي كان يخوض غمارها الامير محمد بن عبد الكريم الخطابي (من سنة ١٩٢١ الى ١٩٢٥) كان في جملة حملة الاقلام الفرنسيين الذين زاروا المغرب لتغذية صحف فرنسا باخبارها كاتبٌ مهذّب منصف هو المسيو إميل درمنكهام Emil Dermenghem ، فاتصل في محيط المغرب ببعض الشبان المغاربة المثقفين — ومنهم الاستاذ السيد أحمد عبد السلام بلافريج — فكشف له الاتصال بهم عن حقائق تتعلق بالاسلام ومبادئه وتاريخه وسيرة صاحب شريعته لم يكن اطلع من قبل عليها بمثل هذه الصراحة والوضوح وأسباب الاقتناع . فلما عاد الى فرنسا شرع يدرس حياة صاحب الشريعة الاسلامية ليسبر الاساس الذي يقوم عليه تفكير اكثر امم الشرق من بضعة عشر قرناً الى الآن ، وكان في دراسته منصفاً . وما قد يكون وقع في كتابه من هفوات قليلة يرجع الى خطإٍ في الاجتهاد قد يتعرض لمثله كل باحث ، ولا سيما فيما يكون بعيداً عن محيطه

حرب الريف كانت الباعث للمسيو درمنكهام على تأليف كتابه (حياة محمد[1] La vie de Mohamet) وكتاب درمنكهام كان — بلا شك — الباعث للاستاذ الدكتور محمد حسين هيكل بك على تأليف كتابه بالاسم نفسه

بدأ هيكل بك دراسة حياة محمد (ص) بترجمة فصول من كتاب الاستاذ درمنكهام ونشرها في السياسة الاسبوعية ، وكان يقدر عند ما امسك القلم ليكتب لقراء السياسة الاسبوعية ترجمة كتاب درمنكهام انه سيقف عند هذا الحد وسينتهي بترجمة كتاب فرنسي بالعربية . ولكنه لما سار في عمله شوطاً اعترضته النصوص العربية التي نقل عنها درمنكهام ، والاعلام العربية التي تكلم عليها درمنكهام ، والجوّ الذي كان موضوع كتاب درمنكهام ، فصار لا بدّ للدكتور هيكل من أن يرجع الى النصوص العربية فينقل متنها تفادياً من ترجمتها مع وجود اصلها ، وصار لا بدّ للدكتور هيكل من أن يحقق الاعلام العربية تفادياً من تحريفها عند نقلها من حروف اللاتين الى حروف العرب وامعاناً في معرفة مدلولاتها . وبذلك تحوّلت الترجمة الى تأليف ، وكان من هذا العمل كتاب (حياة محمد) الذي نشره الدكتور هيكل بك على قرّاء العربية فاحتفل به اصدقاؤه وزملاؤه رجال الصحافة والعلم وكان لذلك دويٌّ بعيد

لقد كانت الصحافة العربية في حاجة الى أن يدرس قادتها مثل هذه الموضوعات التي يحج

(1) Librairie Plan, 1929, Paris

المستشرقون الى بلاد مترامية الاطراف ابتغاء درسها والوقوف على احداثها كما وقعت، ويتجشمون في سبيل ذلك جهوداً ونفقات وإعمال فكر قد لا نحتاج نحن الى جزء قليل منهُ لنقوم بعمل أجود من عملهم وأصح وأجل ، ولست ادري لماذا يزهد كتابنا في ذلك وفيه ما فيه من توثيق اواصرهم بالامة التي ينسجون عقولها ويكونون رأيها العام ، وستبقى غريبة عنهم ما داموا في معزل عن الاضطلاع بتاريخها وإكمال سلسلة ماضيها حتى يتصل بآتيها

من ميزات التاريخ الاسلامي ان مادته حُفظت بأمانة وعناية وبالرغم مما ابيد منها في حوادث جلاء العرب عن اسبانيا ، وفي حوادث غزوة الصليبيين للشرق ، وفي حوادث اكتساح التتار غرب آسيا ، بل بالرغم مما اضاعه المسلمون انفسهم في عصور الجهل الاخيرة ، فان الذي ورثناه من تركة السلف الادبية كاف لبناء مجموعات في تاريخ هذه الاوطان الاسلامية نباهي بها الامم ، وتتمنى ارقى أمم الارض لو ان اجدادنا كانت في صفحات تاريخها ووقائع ماضيها . فالمادة التي يبنى منها صرح تاريخنا موجودة بين أيدينا ، ونحن لا نستطيع أن نعرف قدر أنفسنا في حاضرنا الا اذا علمنا قدر أنفسنا في ماضينا، ولا يمكن ان نعين مطمحنا القومي الا اذا عرفنا اتجاه قافلتنا في التاريخ . ولدراسة تاريخ هذه الاوطان في بضعة عشر قرناً الماضية أثر عظيم في الروابط بين الاوطان التي تشترك الآن في هذا التاريخ

اهمال كتابنا هذا الواجب كان مما يؤاخذهم عليهِ الجمهور، وقيام بضعة مؤلفين — آخرهم الدكتور هيكل بك — مما يدل على عناية جديدة بالتاريخ الاسلامي وقع عند الناس موقعاً حسناً ، لان أمة تملك ثروة عظيمة من امجاد التاريخ لا يعقل ان تبقى الى الابد محرومة من دفاتر حديثة تسجل ثروتها وتعرضها على انظار الاقربين والابعدين

كتبنا القديمة في التاريخ مادة خصبة للتأليف ، بل هي عين ثرَّة وينبوع غزير من ماء عذب زلال لا نظير له في مصادر التاريخ عند الامم الاخرى . فدولة الرومان وهي أقرب الدول القديمة زماناً وأعظمها عمراناً ، وأشهرها تشريعاً ، لو اراد مؤلف أن يدوّن سند شرائعها التي هي اليوم من أهم مصادر القانون الحديث لما وجد شيئاً تطمئنُّ النفس اليهِ يرجع الى زمن تلك الشرائع . وقس على ذلك كثيراً مما لا يتسع المقام هنا لاستعراضه او الاشارة اليهِ

لقد كان الدكتور هيكل بك موفَّقاً في هضم موضوعه والاحاطه بأطرافه ، فأنشأه انشاء افرغ عليه من جمال الاسلوب وحسن التعبير ونظام التبويب والتقسيم ما يحببه الى القارىء ، ولاسيما القارىء الناشىء الذي اعتاد أساليب العصريين ، فصار لا يأنس الا بها ولا يستفيد الا منها. ولكن لاحظ عليهِ الكثيرون أنهُ ربما لم يفكر الا بهؤلاء عند ما دوَّن كتابه

الموضوع الذي اضطلع بهِ الدكتور هيكل بك حياة نبي ، وحياة الانبياء فيها جانب غير عادي ولا يمكن لمؤلف يتعرض للكتابة في حياة نبي أن يغفل هذا الباب غير العادي الا اذا ألَّف كتابه لفئة دون فئة وأراد أن يكون لاهل مشرب معين لا تأليفاً عامًّا . لان جميع الانبياء ثبت وقوع

الخوارق على ايديهم ، والتوراة والانجيل والقرآن مليئة بذلك ، وجميع امم الارض مصدقة بوقوع الخوارق للانبياء ، وما وقع من ذلك لنبي الرحمة الذي اختصه الدكتور هيكل بك بتدوين حياته ثابت بروايات صحيحة معروفة الاشخاص ، واذا فتحنا باب الشك في قبول روايتهم فتحنا بذلك باب الشك في جميع وقائع التاريخ بل في جميع ما تنقله الصحف الآن من الحوادث العصرية لانه ليس شيء منها اصح سنداً وأصدق شهوداً من هذه الحوادث التي مهما اوَّلنا بعضها وخرَّجنا بعضها تخريجاً يحولها الى حوادث عادية ، فانه سيبقى بعد ذلك ما لا سبيل الى تأويلهِ وتخريجه ، والاَّ لم يكن النبي نبيًّا ويكون مصلحاً أو مرشداً أو قائداً . فجانب النبوَّة في حياة النبي له صفاته ولوازمه ، وله في أي كتاب يؤلَّف في حياة ذلك النبي حقَّهُ من العناية ، والاَّ كان للكتاب صبغة خاصة يفرغها عليه مؤلفه ويختارها له . وكان للذين يحترمون ذلك الجانب من حياة الانبياء وهم يعدَّون بعشرات الملايين بل بمئات الملايين عذرهم اذا اعتبروا الكتاب خاصًّا لا عامًّا . والمعجبون بكتاب الاستاذ هيكل بك يريدون لكتابه اكثر مما أراد هو لهُ

وهذا المسلك الذي سلكه هيكل بك أدّى بهِ الى أن يفهم قراؤه (ص ٩٥) ان شيئاً من القرآن (سورة العلق) نزل على النبي (ص) في المنام كما أدى بهِ الى ترجيح الرواية القائلة عن عائشة في الاسراء (ص ١٥٣) : « ما فُقِد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن الله أسرى بروحهِ » ، ولعلهُ لاجل ترجيح هذه الرواية وضع حادثة الاسراء بعد حادثة زواج النبي صلى الله عليهِ وسلم بها . واذا علم القارىء أن الاسراء كان قبل زواج النبي صلى الله عليهِ وسلم بعائشة وانها كانت في زمن الاسراء طفلة بعيدة عن منزل النبي صلى الله عليهِ وسلم ولا تعلم متى يبيت في منزله ومتى يفارقهُ ، يتبين حينئذ ان ترجيح هذه الرواية لا يوافق قواعد البحث ، وان تأخير حادثة الاسراء الى ما بعد زواج عائشة إخلالٌ في ترتيب الوقائع ترتيباً تاريخيًّا

أما الذهاب في تأويل حادث المعراج مذهب وحدة الوجود ، فالاسلام لا يعرف وحدة الوجود ، لان الوجود في نظر الاسلام اثنان : واجب الوجود وجائز الوجود ، فواجب الوجود أزليٌّ أبديٌّ وهو الخالق وحده بصفاته المعلومة في القرآن ، وجائز الوجود هو هذه المخلوقات المتغيرة . ولا معنى لوحدة الوجود في نظر الاسلام الا اعطاء الكون صفة القدم والبقاء — اي الوجود وجوباً — ومعنى ذلك تألية الكائنات وهو ليس من الاسلام

أما المقدمة البديعة التي توَّج بها الاستاذ الاكبر فضيلة الشيخ المراغي كتاب الاستاذ هيكل بك فقد وقع فيها سبقُ قلم نأمل تلافيه في الطبعة الثانية ، وهو قول فضيلته « وجاء الوحي مفصلاً قاطعاً في كل ما يخصُّ ذات الاله ووحدته وصفاته وكيفية عبادته ، ولم يكن كذلك فيما يخص النظم الاجتماعية للاسرة والقرية والمدينة والدولة منفردة ومرتبطة بغيرها من الدول » . نعم ان الوحي — وبوجه اخص القرآن — جاء بالهداية الى الطريق ، وترك الدلالة على الطريق للرسول ، فالقرآن

ليس محلٌ تفصيل فيما يخص النظم الاجتماعية ، لكن الاسلام كان صريحاً في انهُ دين عقيدة وعبادة وحكم ، وانهُ جاءَ للارشاد الى سعادة الانسان في الدنيا كما جاءَ للارشاد الى سعادتهِ في الآخرة ، وليس ما في القرآن عن معاني الحكم في الاسلام والاشارة الى احكامهِ اقل مما ورد في القرآن عن العبادة وكيفيتها، كالصلاة وهي عماد الدين ورأس العبادة، لا نستطيع ان نفهم من القرآن كيفيتها وعدد ركعاتها وما يقرأ فيها . وما في القرآن عن الجهاد اوضح بياناً مما فيهِ عن الصلاة

وهناك امور اخرى في الكتاب نبه عليها كثيرون من اهل الفضل كالاستاذ الشيخ احمد محمد حميدة والاستاذ الشيخ محمد زهران ، وكلها جديرة بأن تراعى عند اعادة طبع الكتاب . ان شاء الله

واننا نتمنى أن يجعل الدكتور هيكل بك في وقتهِ نصيباً لمتابعة التأليف في سلسلة تاريخ الاسلام الذهبية ، فان ما استقبل بهِ الناس كتابه جدير منهُ بمواصلة هذا العمل المجيد

محب الدين الخطيب

أديب

تأليف الدكتور طه حسين — يطلب من مكتبة النهضة المصرية — ثمنه ١٠ قروش مصرية

الدكتور طه حسين اديب فذٌّ نبه اسمه بين كتاب الشرق في القرن العشرين ، كما نبه اسم الاديب الفرنسي العظيم سانت بيف في اواسط القرن التاسع عشر ، وهو كصاحبه الفرنسي ذكي القلب خصب الخيال موفور النشاط ، عظيم الاعتداد بفنه ، جريء في النقد ، كلف بالحرية في شتى مناحي التفكير والكلام ،ولكنه ابعد من صاحبه الفرنسي اثراً في الحياة الادبية ، فهو رجل ثورة وكفاح ، وهو رجل مفاجآت لا يبرح يثير حوله كل يوم تيارات عنيفة من النقد الرائع والنقاش الممتع البارع وهو صاحب مدرسة من اجل ذلك كثيرة الانصار المعجبين به وبأدبه ،على انها كثرة يناوحها جمهور آخر ممن لا يرضون عن مذهبه في التجديد كل الرضا ، ولا يسلمون بآرائه في المدرسة القديمة وان شئت فقل من هؤلاء الذين بيايديهم فيفوتهم ولا يملكون له ردًّا ولا يستطيعون معه صبراً .
على ان هؤلاء الراضين والمغضبين يتلاقون على رأي واحد فيه ، ذلك انه استحدث لغة جديدة في النثر العربي الحديث لها من رشاقتها وطلاقتها وجزالتها وعذوبة جرسها مميزات الفن القصصي وخصائص لغته العالية التي لا تضيق بالحوار والوصف والتحليل في اسلوب فاتن وتخلص رشيق

وقصة اليوم «أديب» مزاج معتدل من تلك المميزات والخصائص ، على ان لها بعد ذلك قيمتها فهي ان لم تكن ترجمة حياة الكاتب نفسه ، او ترجمة فترة من حياته ، فهي عرض صادق لحياة الجيل الذي عاش فيه واستقراء لآرائهِ في كل ما لابس شؤون الادب والعلم والفكر والحياة جميعاً . وهي ذكريات الحياة الحلوة الوادعة المضطربة الكثيرة الاحلام والاهواء التي ينعم بها العقل والقلب معاً في تلك القصة الممتعة ويستروح فيها الشباب الطامح ارق ذكريات الصبا والحب والامل قرأت هذه القصة مرتين فخرجت من قراءتها باعجاب لاحدَّ له ، ولا زلت اذكر ليالي القرية والقناة

وحديقة المعلم وشجرات التوت واولئك الفتيات الفقيرات الحسان المتبذلات بحكم الفقر وهنّ يطوفن بالحقول يلتمسن اقواتهن في التقاط ما يسقط من الحب . ثم ذلك الوصف الرائع لطبيعة مصر وجمال ريفها الذي تسبغه الحياة العاملة الجادة على اهله حين يخرجون من اطوار الجمود ويفنون في طبيعتهم ويصبحون وكأنهم أدوات للعمل والانتاج لهم جد الاداة وصدقها واستقامتها وصبرها واعراضها عن الشكوى وبعدها عن الملل والسأم . ويمضي الكاتب في هذا التصوير الرشيق البديع الذي لا تكاد تخلو منه صفحة من صفحات « اديب » . والذي يذكرنا بصفحات اخرى من كتابه « في الصيف » الذي يدل على ترف في الحس ورقة في الشعور والتفاتات ذهنية خاطفة لا تكون الا للشعراء المغنين او الفنانين الموهوبين الذين تكشف لهم الطبيعة عن اسرار خلقها وابداعها

وهانذا انطلق بك من ذلك الجو السحري الهادىء الذي يستغرق التأملات في دعة وطمأنينة الى جوّ آخر يرسمه لنا الكاتب بألفاظ لها من جرسها سرعة الحركة ، وخفة الطيف ، وتنقل الاشباح ، وذلك الغموض الرهيب الذي يكتنف حياتنا احياناً حين تقبل على امر من الامور التي تستبدّ بغرائزنا فنمضي وكأننا نستعجل دورة الزمن او تفاجىء القدر . وتحس هذا كله في حديث العربة حيث يقول :

« واذا بالباب يطرق طرقاً عنيفاً واذا صاحبي يدخل وكأنهُ العاصفة ، واذا هو يدعوني في صوت مريع اليّ ان انهض فالبس ثيابي واخرج معهُ ، وان اسرع ، فان العربة تنتظرنا واحاول ان اسأله كيف خرج من ديوانه وما هذه العربة التي تنتظرنا والى اين يريد ان يذهب بنا ولكنهُ لا يجيب ، وانما يستعجلني ويلح في الاستعجال ، حتى اذا تركتهُ وذهبت لالبس ثيابي سمعتهُ وهو يذهب ويجيء كالمجنون ويتغنى في صوته الغليظ بما يحضرهُ من الشعر . ثم اخرج له فيخطفني خطفاً ، ويعدو بي عدواً حتى يلقيني في العربة القاء ... »

ومثل هذا الابداع والترسّل كثير حين تقلب صفحات هذه القصة الممتعة وانت لا تخطىء فيها فنوناً شتى من التحليل لنفسية ذلك الاديب الطموح وحياته المضطربة بين الامل واليأس ، وحديث ذلك الصراع بين القديم والجديد الذي حملت لواءه مصر من فجر القرن العشرين الى اليوم وانت لا تخطىء ذلك التصوير الحزن احياناً لحياة السواد في مصر او عقلية آبائنا في نظرتهم الى العلم والى ما يصيب نفوس ابنائهم من دنس واثم اذا ما استقلوا السفن الى اوربا في سبيل تحصيله ، وانت لا تخطىء وصفاً بديعاً لحياة هؤلاء الشبان الذين بهرت البابهم ثقافة الغرب فودّوا الاّ يحول بينهم وبينها حائل من التقاليد او المادة ، وانت لا تخطىء نبل الفطرة وتسامي الانسانية عن النُظُم الارضية وأوضاعها في سياق تلك الرسائل التي تحدث فيها المؤلف عن صاحبه الالماني ، وانت لا تخطىء بعد هذا كله الواناً شتى من الادب الحي والثقافة العالية والفلسفة المستقيمة في صفحات هذه القصة التي هي قصة الحياة والتي تعد في حقيقتها متممة لكتاب الايام الذي فتح بهِ الدكتور طه أُفقاً جديداً في عالم القصة العربية

**

الاسلام والتجديد في مصر

الفه بالانكليزية الدكتور شارلز ادمز — ونقله الى العربية عباس محمود — نشر لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية

كأنَّ الاستاذ عباس محمود عز عليهِ أن ينفرد باحث اجنبي بالبحث في ناحية من أهم نواحي الحياة الاسلامية على اسلوبٍ علمي منظم لم يحد عن سبيل الانصاف والنزاهة في الحكم، فنقل هذا البحث إلى اللغة العربية نقلاً راعى فيه الدقة والضبط وتحقيق كل نص ومراجعة الأصل الذي أخذ منهُ، ثم وضعهُ تحت نظر القراء المسلمين ليستفزَّ شعورهم ويحرك هممهم للعناية برجالهم والانتباه الى سير ثقافتهم في تطورها بسبب اتصالها بمختلف المؤثرات الاجنبية

يبحث الكتاب في حركة التجديد الاسلامية في مصر، فيصور نواحيها المختلفة، ويصف الاشخاص الذين قاموا بها وصفاً تحليليًّا مفصلاً، فيعرض للمغفور له الأمام الشيخ محمد عبده ويعرض لتلاميذه الذين اقتبسوا من روحه وساروا على نهجه. والشيخ محمد عبده شخصية من اكبر الشخصيات الجديرة بالاحترام في تاريخ الاسلام الحديث، وهو زعيم حركة التجديد الاسلامية في مصر، ولاشك ان الذين درسوا افكار المسلمين في مختلف بلادهم يعرفون مبلغ تأثير الشيخ محمد عبده في مصر بل وفي جميع بلاد الاسلام من اقصاها الى اقصاها. وقد كان الامام شخصية متعددة النواحي، تقلب في مختلف شؤون الحياة واضطلع بمختلف اعبائها فبينا تراه عالماً ومحفيًّا وقاضياً تراه ثائراً سياسيًّا ومصلحاً اجتماعيًّا وزعيماً دينيًّا يستهدف لخطر النفي وألم الاغتراب والخصومة، فيبرهن بذلك على قوة في الايمان وتمسك بالغاية وهمة لا تنضب. وانت تراه في هذا الكتاب مثالاً من الرجولة الكاملة التي يجب ان يقتدي بها

لم أكن قبل ظهور هذا الكتاب اعرف الكثير عن حركة التجديد الاسلامية في مصر، مثلي في هذا مثل سائر ابناء الجيل الناشىء الذين لم يولدوا الاَّ بعد أيام محمد عبده ولم يفطنوا الى مختلف شؤون الحياة الاَّ بعد وفاته بزمن طويل. ولم يكتب عن تلك الحركة كتاب مختصر سهل التناول مرتب يغري الشاب بمطالعتهِ. فهذا الكتاب يكشف لابناء الجيل الناشىء عن صفحة هامة من تاريخهم الفكري القريب ومن تاريخ العلاقة بين دينهم وبين مختلف نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية، لان النهضة السياسية سارت مقارنة لهذه النواحي ولا غنى لمن يريد معرفة احداها عن ان يلم بالاخرى، لما بينها جميعاً من تأثير متبادل، وهي خاصة يمتاز بها تاريخ الثقافة الاسلامية من اوله الى آخره، لان الاسلام ليس عقيدة فحسب بل هو مدنية كاملة متشعبة النواحي، فله نظرته الخلقية ونزعته العقلية ومذهبهُ السياسي وآراؤه الاجتماعية. والحق ان الاسلام هو الذي يميز الشخصية الشرقية عن الشخصية الغربية، فهو عنصر اصيل متمكن في حياة الشرق، والشرق الآن يتصل بالغرب اتصالاً وثيقاً ويتأثر بهِ تأثراً بعيد المدى، والمسلمون يسلكون إزاء مدنية الغرب

مسلكاً يختلف باختلاف شعوبهم ، وهم يتخذون وسائل كثيرة ويصطنعون أسلحة الغرب ذاتها دفاعاً عن شخصيتهم وذوداً عن دينهم ورغبة في التوفيق بين مقوماتهم الدينية والاجتماعية وبين العوامل الآتية من الغرب ليبرهنوا على أنهُ خير دين وانه يؤاتي حاجة الانسانية في كل أطوارها

والكتاب الذي نحن بصدد القول فيه يبحث في هذه النواحي في مصر ، ولا غنى للشرقيين — بعد ما تقدم — أن ينظروا في أنفسهم ويعرفوا الوجهة التي يقصدونها والعوامل التي تؤثر فيهم وان يعرفوا جهود المجاهدين في هذه الناحية ليواصلوها ويصلحوا ما فيها من خطإ ليمكنهم المحافظة دائماً على مقوماتهم التي لا حياة لهم الا بها . فالكتاب اذن حلقة لا غنى عنها من حلقات تطور الفكر الاسلامي ، جديرة بالبحث والتمحيص ، ثم هو قد ألفه اجنبي يستطيع ان يرى من شئون المسلمين ما قد يخفى عليهم احياناً ، وعلى كل حال فله قيمة اخرى لانهُ من وجهة نظر غير وجهة نظرهم

والكتاب يثير مسائل كثيرة جديرة بأن تنال من عناية الباحثين ما هي خليقة به . يقول الباحثون ان الاسلام اليوم ، وهو يواجه المدنية الغربية بتنوع نواحيها ، في موقف شبيه بموقفهِ منذ ألف عام حينما كان يواجه المدنية الاغريقية . واذا كانت تلك الصفحة الهامة من تاريخ الاسلام وصلته بمدنية اخرى قد طويت ، ومن الاسف انها لم تسجل تسجيلاً علمياً دقيقاً ، فينبغي ألا يفوتنا تسجيل هذه الصفحة القريبة العهد قبل ان تعدو عليها عوادي النسيان . ولا شك أنهُ من الشائق ان نوازن بين الموقفين على قدر الطاقة . فالاسلام هو هو بأصوله المقررة وهو مع ذلك يتسع روحه فيهضم مدنية اليونان ويتمثلها ويصبغها بصبغته ، وهو يريد اليوم هضم المدنية الاوربية الحديثة وصبغها بصبغته ايضاً معتداً بأسلحتها العلمية والفلسفية والاجتماعية

وقد اتصلت بلاد الاسلام بمختلف الدول الاوربية . وكل بلد اسلامي يسلك ازاء الدولة الاوربية التي اتصل بها مسلكاً خاصاً ويتأثر بها الى مدى معين ، فالبلاد الاسلامية متعاونة في أخذها لمدنية الغرب وتأثرها بها ، وفي هذا مجال للموازنة واسع شيق ، وشتان ما بين ما يجري في تركيا وبين ما يجري في غيرها من بلاد الاسلام ، وقد نالت حركة التجديد من العناية في كتابات المستشرقين الذين اختص كل منهم بناحية كتب عنها ، وما أحرى المسلمين ان يلموا بهذا كله ويوجهوا اليه ما يستحقه من عناية وينتفعوا بما عكن ان يكون فيه من ثمرات ، وهذا الكتاب يوجه نظرنا لهذه الناحية

ومما يجعل لهذا الكتاب قيمة خاصة انهُ يشير الى النهضة السياسية والادبية في مصر الحديثة ، ويبين علاقة كل منهما بحركة التجديد ، فيوجه نظر الباحثين الى هاتين الناحيتين ليدرسوهما درساً أكثر تفصيلاً . ولست ازعم ان الكتاب قد الم بكل تفاصيل موضوعه بل هو اشار الى اهم ما فيه وترك مجالاً لباحثين آخرين

فالشكر للاستاذ ادمس وللاستاذ عباس محمود وللجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية لما بذله كل من جهد في هذا العمل الجليل

محمد عبد الهادي ابو ريدة

تاريخ شرقي الاردن وقبائلها

تأليف اللفتننت كولونيل فردريك ج . بيك . ترجمة بهاء الدين طوقان . مطبعة دار الايتام الاسلامية الصناعية بالقدس

قد يظن المرء ان شرقي الاردن لا يستحق تاريخاً ولكن المؤلف بين باسلوب حسن جداً انهُ جدير بذلك لانهُ على طريق الغزاة بين اشور وفارس ومصر فهو الطريق التي تمرّ فيها الجيوش الغازية وانهُ يتعذر عليَّ نقد هذا الكتاب الجليل باسطر قليلة ولكنني سأفعل ذلك على قدر المستطاع .

فالكتاب جزءان جزء تاريخي وجزء في وصف قبائل شرقي الاردن فنبدأ اولاً بالجزء التاريخي

فالجزء التاريخي من ازمنة ما قبل التاريخ الى يومنا وهو مكتوب بدقة عظيمة وجهد كبير ومؤيد بالاسانيد الكثيرة فقد ذكر المؤلف ما قبل التاريخ ثم مجيء بني اسرائيل وحروبهم ثم دخول الاشوريين والبابليين والفرس ثم اليونان في زمن الاسكندر ثم البطالسة وثورة اليهود ثم دخول الرومان ومملكة اليهود في زمن هيرودس ومملكة الانباط والغساسنة وحروب الغساسنة والمناذرة وما جرى في تلك البلاد الى الفتح الاسلامي وما وقع من الحروب بين العرب والروم الى ان استتب الامر للعرب ثم فصل في الحروب الصليبية الى جلاء الصليبيين ثم دخول الترك العثمانيين ثم جلاؤهم ودخول الحلفاء وجميع ما تقدم مؤيد بالاسانيد التاريخية كما ذكرنا . اما الجزء الثاني فخاص بقبائل شرقي الاردن ذكر فيهِ المؤلف القبائل واحدة واحدة وانصف في ذكرها على عادة الضباط البريطانيين في الانصاف بلا محاباة وانا لا ادري هل الجزء الاول اي التاريخي خير من الجزء الثاني فكله حسن جداً يأخذ بمجامع القلوب والترجمة حسنة ولغته كذلك حسنة مما يدل على سعة اطلاع المؤلف والمترجم واني لا اجد فيه مجالاً للانتقاد الا اموراً طفيفة لا بد انها وقعت سهواً من المؤلف او المترجم

منها في ذكر حيوانات البلاد قوله الفهود الصغيرة واظنهُ يريد النمورة واشباهها

لجميعها كانت في شرقي الأردن الى عهد قريب وهي اربعة انواع النمر Leopard والفهد Hunting leopard or cheeta والوَشَق ويقال الشِيب وعناق الارض Caracal وأما الببر Tiger فبالطبع لا يكون هناك ولا عبرة لما جاء في المعجمات خلاف ذلك . وقال في الزراعة ان الدخان والقنب قديمان هناك فالدخان حديث لا يعرف في البلاد العربية قبل الالف للهجرة قال الشاعر في وصفه

سألوني عن الدخان فقالوا   هل له في كتابكم ايماء

قلت ما فرط الكتاب بشيء   ثم ارخت يوم تأتي السماء

أما القنب فقديم جداً ولا سيما الهندي منه زرعه المصريون القدماء ومما يؤخذ على المترجم قوله جستنيان واظن الصواب يستنيانس بالياء المثناة ومثله ترجان واظن الصواب تريانس أو طريانس فان العرب كتبوا هاتين الكلمتين وأمثالهما بالياء منها يوليوس ويسوع ويوسفوس وبايزيد ويعقوب وهي كثيرة ويستنيانس أو يسطنيانس هذا هو القيصر صاحب امرء القيس واظن فؤاد باشا الخطيب لا يزال يذكر انشاده قصيدة

أمره القيس بصوته الرخيم في طريقنا الى جدة لاذكاء نار الثورة العربية وقول امرىء القيس

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت لهُ لا تبك عينك انما نحاول ملكاً او نموت فنعذرا

فيستنيانس هو القيصر الذي وفد عليه امرىء القيس في القسطنطينية وما يؤخذ على المؤلف قوله ان بعلمين ودوزارس وعلات آلهة مأخوذة من اليونانية واظن الصواب ان هذه الآلهة عربية وصوابها بعل أو هبل واللات وذو الشرى وهو صاحبنا باخوس وقد جرت العادة حتى الآن نسبة كل شيء الى اليونان كقولهم ان سيريوس اي الشعرى يونانية من مادة يونانية معناها احرق والصواب هي سامية قديمة جداً كما تجد في مادتي سعر وشعر في كتب اللغة وما يؤخذ على المترجم استعماله التعريب بمعنى الترجمة فالتعريب على الاصح خلاف الترجمة ولا ادري لاي سبب جرى بعض الكتاب في الشام على ذلك فيقولون هذا الكتاب تعريبُ فلان والصواب ترجمتهُ وقوله في صدر الكتاب الاردن بفتح الهمزة والصواب ضمها . قال المتنبي

وقعت على الأُردنّ منهُ بلية نضدت بها هام الرفاق تلولا

هذه هنات قليلة جداً كنت اود ان يخلو منها هذا الكتاب النفيس

والكتاب مقدم الى صاحب السمو الأمير عبد الله أمير شرقي الاردن ومزين برسوم كثيرة منها رسم الامير ورسم نجليه الاميرين طلال ونايف ورسم المغفور له الأمير شاكر من أبطال الثورة العربية ورسم مؤلف الكتاب وغيرهم . وقد قال المؤلف في أول الكتاب انهُ ليس له أية صبغة رسمية وهذا صحيح فقد قرأته من اوله الى آخره فليس فيه شيء من السياسة او الامور الرسمية ولكن ما قول المؤلف في صورة الزعيم كلوب بك فلو ازدردتها أنا فلا اظن سائر العرب يقوون على ازدرادها وهضمها فقد ازدردوا كثيراً حتى الآن. أما القول بأن كلوب بك لا صفة رسمية لهُ او سياسية فقليل من المعد يقوى على هضمها ! على أن الكتاب نفيس جداً يعود على مؤلفه ومترجمه بالثناء العظيم

مصر الجديدة امين المعلوف

مقتل عثمان بن عفان

تأليف محمود الغزاوي عضو الماجستير في التاريخ الاسلامي بالجامعة المصرية

كنت اعتقد ان موضوعاً كموضوع مقتل عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، موضوع لا يمت الى طبيعة الاشياء بصلة ، وانما هو حادث من حوادث جمة انتابت الاسلام في ابان قيامه . لكنني اذ انتهيت من قراءة ذلك السفر الجميل عن هذه المأساة المروعة استشعرت من نفسي القوة على ربط الحوادث التاريخية بعضها بأطراف بعض ، وخرجت من ذلك كله بأن هذا الحادث وان يكن مشئوماً في ذاته ، الا انه كما يقول المؤلف نتيجة ثورة « كانت المنفذ الطبيعي أمام شعب ساخط رأى دستور الدولة في يد اناس يتعصبون لذوي قرباهم من سائر عباد الله المسلمين ، وما

هذه الثورة الاّ النتيجة الكيمائية لجملة مواد كانت فوق بوتقة ما لبثت ان تفاعلت كلها بعضها مع بعض وتمخضت عن قتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنهُ »

هذا مثل من الامثلة العديدة التي يسجلها المؤلف في مواضع كثيرة من كتابه بمثابة آراء شخصية له . وهي ميزة تميز الطابع الذي انطبع به المؤلف في دراسته التي تشرب بها في الجامعة. فهو صريح في تحليل مختلف الآراء شأنه في ذلك شأن كبار المؤرخين الذين لا يكتفون برواية الحوادث التاريخية فحسب بل يعللون هذه الحوادث ويرجعونها الى أسباب قد تكون غامضة بعض الغموض فما يزالون بها حتى يكشفوا الستار عنها

على ان المؤلف قد تعرض في الحقيقة لبحث نقطة واحدة من التاريخ الاسلامي على جانب كبير من كبر الشأن والدقة قلَّ من تعرض لها من المؤرخين على حدة ، فمقتل الخليفة عثمان بن عفان هو حلقة وسطى بين نمو دستوري وبين نمو دستوري آخر : نمو دستوري نشأ بنشوء الاسلام ويعتمد على كلمة الله ، ونمو دستوري آخر اظهر سلطة الامة وصوت الشعب الى جانب كلمة الله . بل ان مقتل عثمان كان بصريح العبارة اول ثورة في الاسلام على المحاباة والمطامع الاشتراكية

وقد قدم الكتاب للجمهور حضرة الدكتور حسن ابراهيم حسن استاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة المصرية فشاد بذكر المؤلف — وهو من تلاميذه — وتمنى عليه مواصلة البحث والدرس حتى يكشف عن كثير من حوادث التاريخ الاسلامي الغامضة

ميشيل سليم عبده

جبال النور

[بقية المنشور في صفحة ٢٤]

وارتفاع هذا الهرم الموهوم يساوي ١٣٧ ١٢٩٥ سنتيمتراً اي ١٢٩٥٫١ متراً اي ان « جبل النور » الهرمي الشكل هذا يبلغ طول ضلع قاعدته المربعة اكثر من ١٨٫٣١٥ كيلو متراً وارتفاعه اكثر من ١٢٫٩٥١ كيلومتراً . فتأمل !!

واذا بسطت هذه البرتقالات اللوامع فوق سطح الاراضي المصرية الصالحة للزراعة لبلغ ارتفاعها :ــ

$$\frac{\text{٢٠٤٨ كيلو متراً مكعباً حجم البرتقالات اللوامع}}{\text{٣٢٠٠٠ كيلو متر مربع مساحة الاراضي المصرية الصالحة للزراعة}} = \text{٠٫٠٦٤ كيلو متراً}$$

ولأصبحت الأراضي المصرية الصالحة للزراعة التي تبلغ مساحتها اثنين وثلاثين الف كيلو متر مربع صحيفة لامعة متلألئة تبهر الابصار بارتفاع أربعة وستين متراً . فتأمل !!

ولكن دعني أهمس في أذن قارئي العزيز أن هــذا لن يتم فهذه البرتقالات بحجمها الطبيعي العظيم معلقة في الفضاء متماسكة بقوة الجاذبية فاذا ما جمعناها على الوجه الذي تخيلناه لاختل نظام التجاذب الكوني ولهوت كرتنا الارضية وتخبطت في الفضاء اللانهائي، فسبحانك اللهم يامبدع الكائنات



الكولونل لورنس بملابسه الرسمية

Colonel T. E. Lawrence



طائفة من اشهر شعراء الانكليز

من اليمين الى اليسار : الصف الاول — بيرون ، بوب ، ملتن — الصف الثاني : كيتس ، كولردج ، برنز — الصف الثالث : سونبرن ، شلي ، تنيسون



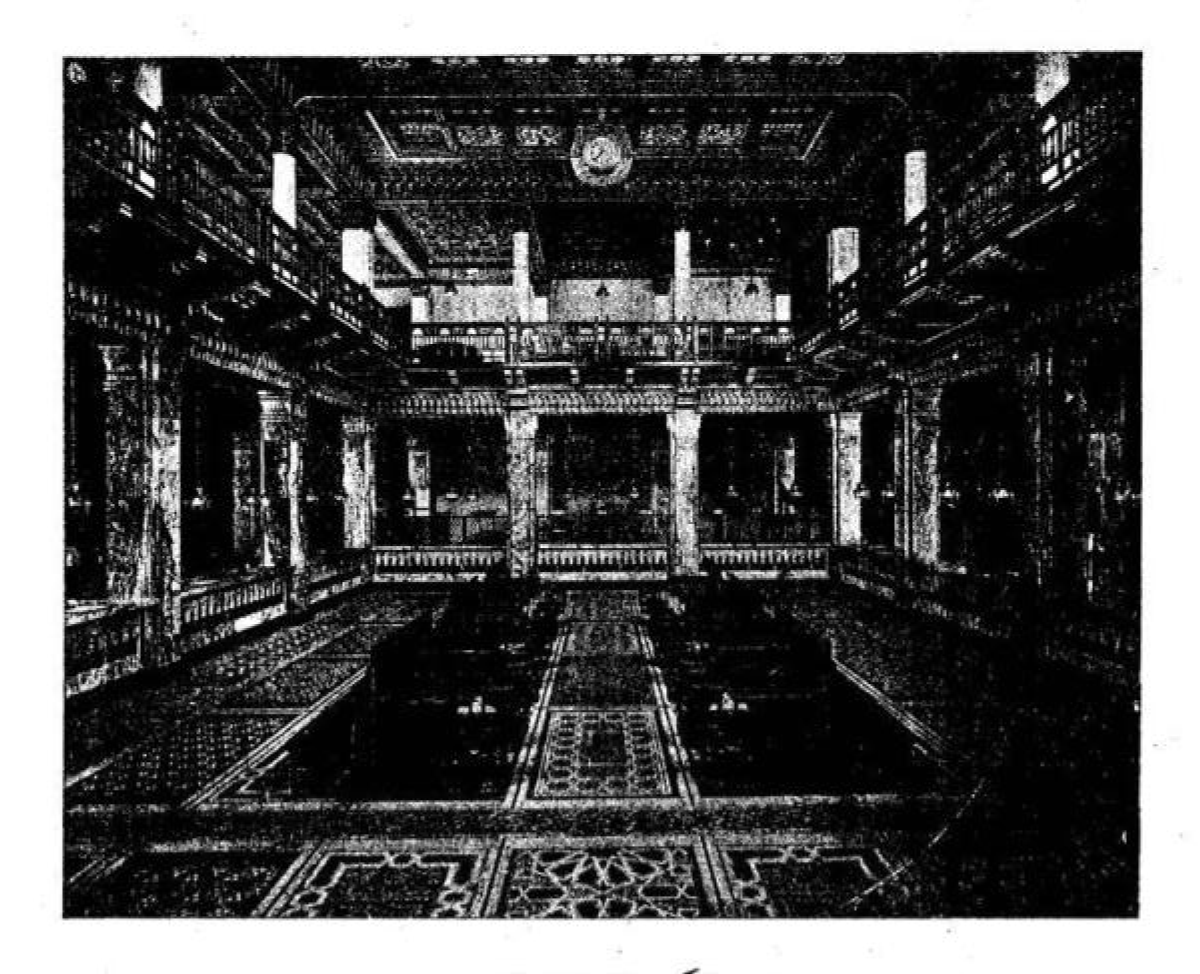
موسى بن ميمون

ويعرف في اللغات الاعجمية باسم Maimonides

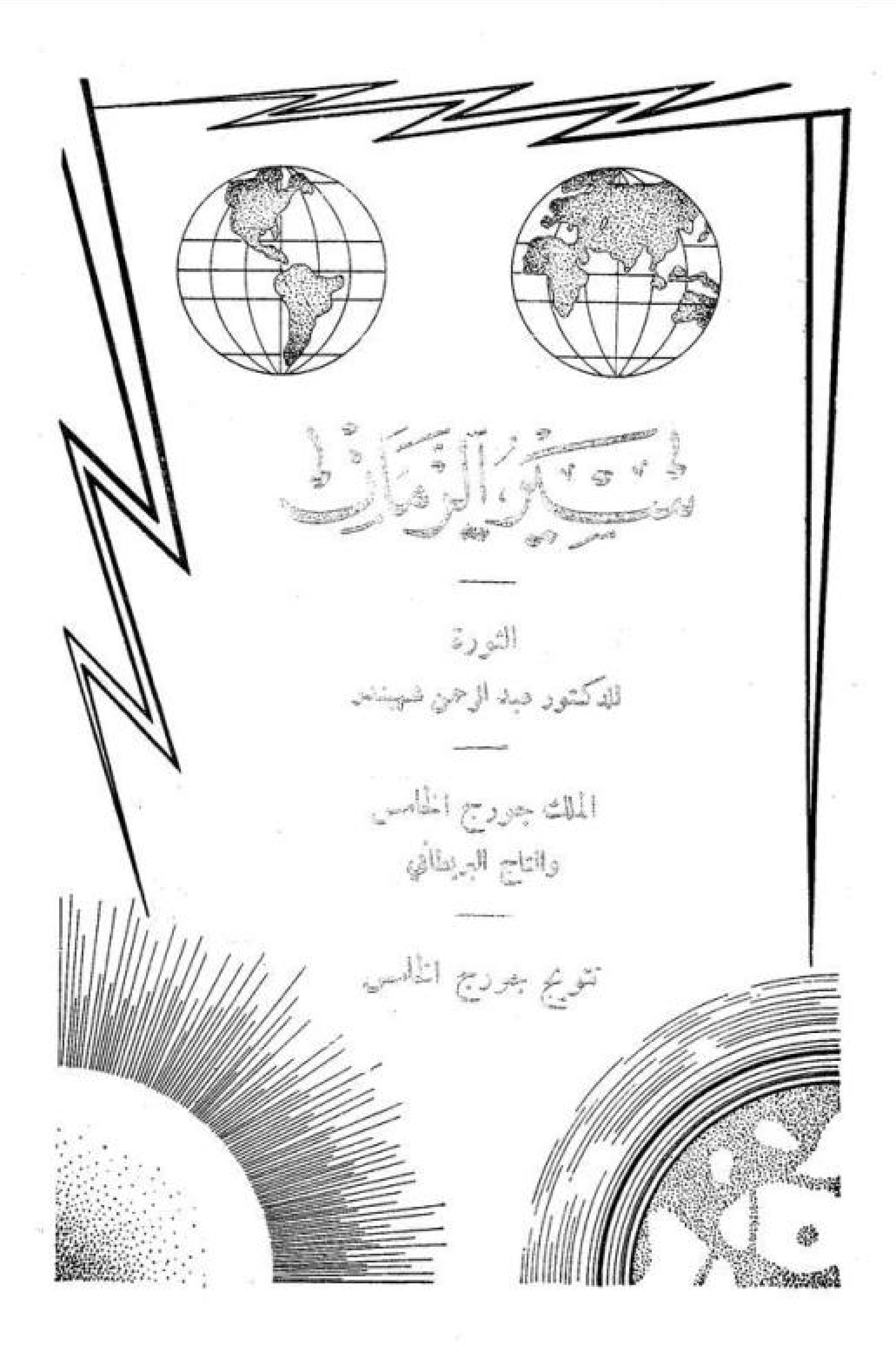


صاحب السعادة طلعت باشا حرب

مستعارة من مطبعة بنك مصر

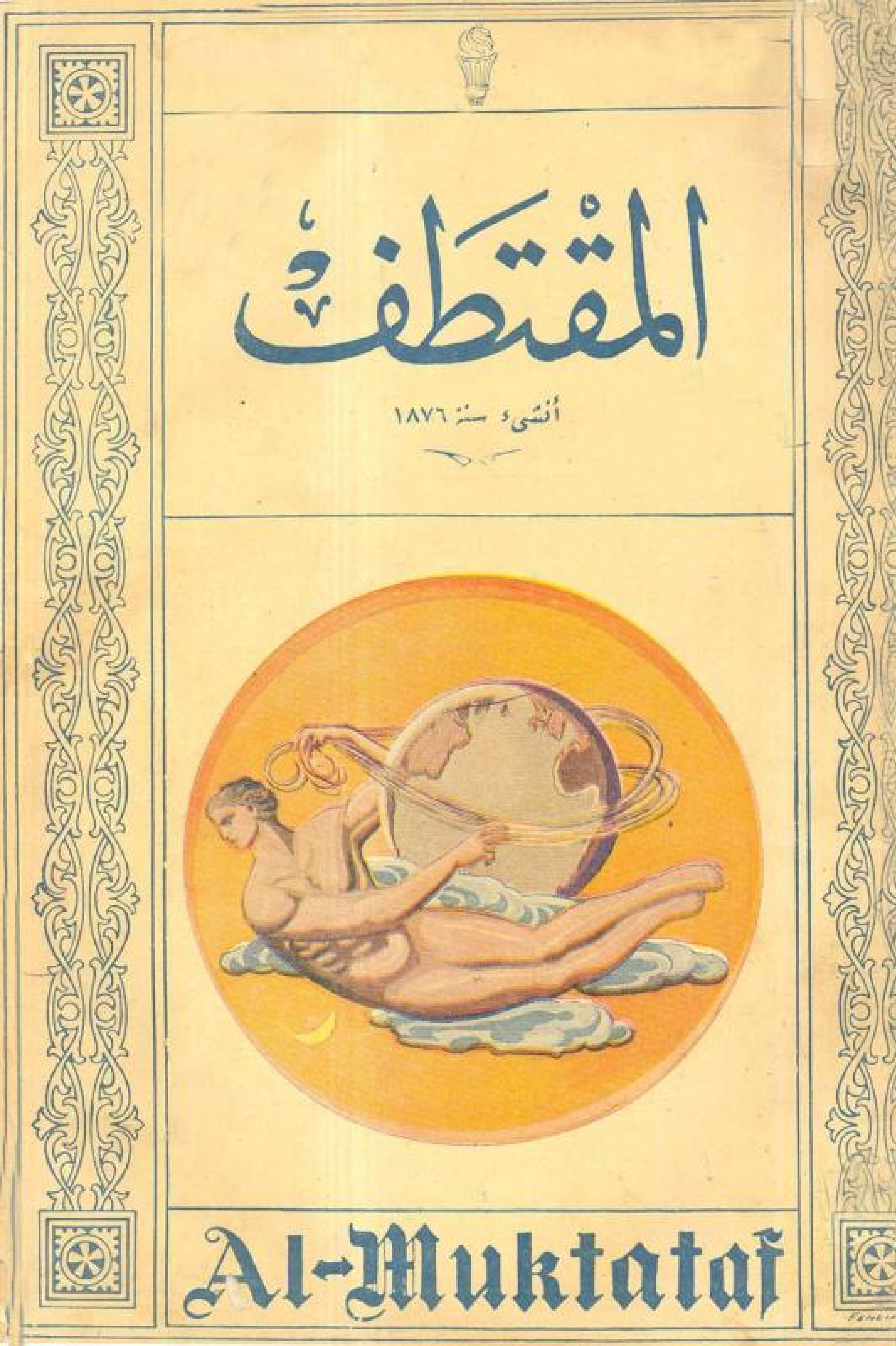


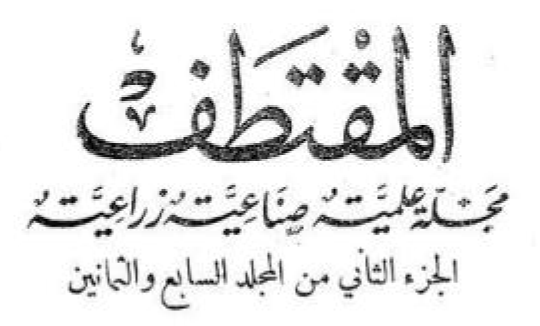
البهو الكبير في بناية بنك مصر


الثورة
للدكتور عبد الرحمن شهبندر
الملك جورج الخامس
والتاج البريطاني
تتويج جورج الخامس

الجزء الاول من المجلد السابع والثمانين

صفحة


المقتطف
أنشىء سنة ١٨٧٦
Al-Muktataf



مجلة علمية صناعية زراعية
الجزء الثاني من المجلد السابع والثمانين

١ يوليو سنة ١٩٣٥ — ٣٠ ربيع الاول سنة ١٣٥٤

الارض في محيط الاشعاع

وتأثرها بضروبه المختلفة

ليست الارض في بحر الفضاء الا دقيقة من الهباء . ولكنها مع ذلك تستطيع ان تلتقط من طاقة الاشعاع ، ما يحرك الرياح ويجري الامواه ويدفع النمو في اجسام الاحياء

اذا نظرنا الى السماء في ليلة صافية الاديم ، رأينا المريخ كرة صغيرة محمرَّة ، وهو اقرب الى الارض من الارض الى الشمس . فاذا اتيح لمراقب ان يقف على سطح الشمس وينظر من خلال جوها الى رحاب الفضاء ، رأى الارض كما نرى المريخ او اصغر ، فيعجب ان كان عالماً بأحوال الارض ، كيف يستطيع هذا السيار الصغير ان يلتقط من الطاقة التي تسكبها الشمس في الفضاء ، قدراً يكفيه . والواقع ان الارض لا تستطيع ان تلتقط من طاقة الشمس الا جانباً يسيراً مما يصيب سطحها وهذا يعني احد امرين : اما ان الطاقة التي تطلقها النجوم — ومنها شمسنا — في الفضاء عظيمة جداً ، وإما ان الارض شديدة الاحساس بقسطها اليسير منها

من الطبيعي ان تكون اقرب النجوم الينا ، ابعدها تأثيراً في احوالنا . قد تكون الارض بنت الشمس وقد لا تكون . فالعلماء مختلفون في ذلك . ولكن الرأي السائد الآن ان الارض والشمس وسائر سيارات النظام الشمسي وتوابعها ، نشأت في وقت واحد من كتلة سديمية عظيمة . وعلى ذلك فالشمس شقيقة الارض الكبرى وليست بأمها . ولكن الامر الذي لا يختلف فيه عالمان ، ان الارض مدينة بجانب كبير من شكلها وخواص سطحها لاشعاع الشمس . فالشمس تطلق اطلاقاً دائماً تياراً

من الطاقة قوته ٦٠٠ مليون مليون مليون حصان . ونصيب سطح الارض من هذا التيار لا يزيد على جزئين من الفي مليون جزء منهُ ، ومع ذلك فهذا النصيب يبلغ مقدار حصان واحد لكل ذراع مربع من سطح الارض المضيء . على ان قدراً يسيراً جدًّا من نصيب الارض ، تمتصهُ الارض وتستعمله ، ولكنه كاف لابقاء المحيطات سائلة ، والجو غازيًّا ، وأحوال الحياة على ما هي

اما القمر فأقل من الشمس كتلة بل ان كتلته لا تبلغ الآ $\frac{1}{27000000}$ جزء من كتلة الشمس ولكنهُ اقرب الينا من الشمس فتوسط بعدهِ عنا ٢٣٨ الف ميل مع ان بعد الشمس عنا يبلغ متوسطهُ ٩٣ مليون ميل ، وكذلك يعوض قربُ القمر عن صغر كتلتهِ من حيث تأثيره في الارض

ولا نتولّى هنا شرح المدّ والجزر كما يبدوان في مصابّ الأنهر وعلى بعض الشواطيء خاصة ، وكيف درست تفصيلاتهما درساً مدققاً ، حتى اصبح في الامكان معرفة علو الماء في بعض المرافيء ، معرفة دقيقة في كل ساعة من ساعات النهار والليل

أما ما لم يعرف الآ من عهد قريب عن تأثير القمر في الارض ، فهو جذب القمر للجو ، واغرب منهُ جذب القمر لقشرة الارض . فقد اثبت العالمان الاميركيان الفرد لومِس وهارلن ستتسن انهُ اذا كان القمر فوق الجانب الشمالي من المحيط الاطلنطي كانت وشنطن اقرب الى لندن بمقدار ٦٣ قدماً ، منها اذا كان القمر فوق الجانب المقابل للمحيط الاطلنطي من سطح الارض . اي ان القمر يحدث مدًّا في قشرة الارض فيقرب المسافة بين مدينتي وشنطن ولندن . والواقع ان الفرق في المسافة بين شواطيء اميركا واوربا ، لا يؤثر في أجور السفر والتلغرافات ، ولكنهُ فرق كبير في نظر العلماء الذين يقيسون خطوط العرض والطول قياساً دقيقاً بالثواني من درجات القوس وأجزائها

وقد عني ستتسن بعد ذلك بالمقابلة بين تواريخ الزلازل والتقويم القمري فظهر لهُ ان الزلازل تكثر عند ما يكون القمر في مواقع معينة في الفضاء

والشهب اصغر من القمر ، ولكنها تفوقهُ في اقترابها من الارض ، وبعضها يسقط على سطحها ويضاف وزنهُ الى وزنها . ويقدر العلماء عدد الشهب التي تخترق جوّ الارض بألف مليون شهاب كل يوم (٢٤ ساعة) . نعم ان معظمها لا يعدو كونهُ دقائق وحبيبات من الغبار الكوني ، ويفنى في خلال اختراقهِ لطبقات الهواء العليا ، ولكن بعضها كبير فيخترق الفضاء ويبقى منهُ جانب يصل الى الارض وهي الرجم ، ومنها رجم تبلغ زنة الواحدة منها بضعة اطنان ، وكثير منها يقع في الصحاري والبحار والادغال . ولذلك قدر الاستاذ ويلي Wylie جملة ما يضاف الى وزن الارض كل سنة بسقوط الرجم عليها ، بنحو ألفين وخمسمائة طن

وللشهب تأثير آخر هو تأيين ionize طبقات الهواء العليا او كهربتها بتمزيق بعض دقائقها . وقد اكتشف هذا الفعل من مراقبة الزيادة في وضوح الاشارات اللاسلكية في الفترات التي تنهمر فيها شآبيب الشهب . فالشهاب اذ ينقضُّ في الهواء سائراً بسرعة تتباين من عشرة اميال الى مائة

ميل في الثانية يحمى من احتكاكه بدقائق الهواء فيتوهج وتبلغ درجة حرارته احياناً ٣٠٠٠ درجة مئوية فتنطلق اشعاعات قوية وتصطدم بدقائق الهواء فتمزّق بعضها ، وكذلك يسحب الشهاب في أثره ذيلاً من الدقائق الممزقة والهواء المكهرب

***

هذه هي الاجسام التي تراها العين — الشمس والقمر والشهب — وهذا بعض تأثيرها في سطح الارض وجوّها . ولكن الاشعة الكونية مما تعجز العين عن رؤيته ، بل مما تعجز الآلات الدقيقة عن تبينه الاّ اذا كانت قد صنعت خاصة لذلك . والعلماء مختلفون في طبيعة هذه الاشعة ، ففريق يقول انها اشعاع من قبيل الاشعة السينية ، وفريق يقول انها مؤلفة من دقائق متناهية في الصغر متناهية في السرعة . ولكنّ احداً لا يرتاب في انها تصدم الارض وما عليها بطاقة عظيمة . فضغط الكهرب في صاعقة قد يبلغ الف مليون ڤولط ، ولكن ضغط بعض الكهارب التي تقذف من المادة عند اصطدام الاشعة الكونية بها قد يبلغ مرتبة عشرة آلاف ڤولط او اكثر من ذلك

ولا يحتمل ان تتعرّض الارض وما عليها لاشعاع هذا قوته ولا تتأثر به . فالاستاذ جولي الجولوجي الارلندي ذهب من بضع سنوات الى ان هنالك علاقة بين الاشعة الكونية وتفشي حوادث السرطان . ولا يزال هذا الرأي نظرية من دون برهان يؤيدها . ولكن الاستاذ مولر الاميركي اثبت ان الاشعة السينية تؤثر في احداث التحوُّلات الفجائية في ذباب الفاكهة . ومن هنا نشأ القول بأنّ بين الاشعة الكونية ومراتب التطوّر العضوي صلة وثيقة ، بل قد يكون في الاشعة الكونية مفتاح التطور العضوي . الاّ ان البحث الاحصائيّ في كثافة الاشعة الكونية يشير الى ان هذه الاشعة غير كافية لاحداث جميع التحولات الفجائية التي حدثت على مرّ الدهور ، فتحوّلت بها الاحياء وتطوّرت ، ولكنّ من المؤكد ان بعض التحولات الفجائية يمكن اسناده اليها

ولعلّ احدث النظريات المتصلة بفعل الاشعة الكونية في الارض نظرية وضعها لوس العالم الاميركي والاستاذ في جامعة كاليفورنيا . فعلماء الجولوجية الطبيعية الذين يستطلعون طلع الارض بالطريقة الزلزلية يقولون ان قلب الارض كرة ضخمة كثيفة من الحديد والنيكل ، تحيط بها قشرة الارض الصخرية ، وهذه تعلوها طبقة التربة في مناطق ومياه المحيطات والبحار في مناطق اخرى

فلما تأمل الاستاذ لوس في هذا التركيب استوقف نظره ما يعرف عن الرجم وهو انها مركبة من هاتين الطائفتين من المواد . فثمة رجم ٩٩ في المائة من أجسامها مركبة من حديد ونيكل ، وثمة رجم اخرى حجرية مركبة من المواد الداخلة في تركيب قشرة الارض بوجه عام

فالصخور التي تتركب منها قشرة الارض والرجم الحجرية مؤلفة في الغالب من السليكون وبعض عناصر اخرى . وذرة السليكون تزن بوجه عام نصف ما تزنهُ ذرة الحديد أو ذرة النيكل . اي اذا استطعت ان تطلق ذرة سليكون على ذرة سليكون اخرى ، في احوال مؤاتية من الطاقة العالية —

على نحو ما يفعل العلماء في تحويل بعض العناصر الآن — فقد تندمج الذرة الواحدة بالذرة الاخرى فتتولد ذرة حديد أو ذرة نيكل . يقابل ذلك انك اذا اطلقت تياراً من الطاقة العالية على ذرة حديد أو ذرة نيكل فقد يكون في المستطاع ان تقسم هذه الذرة الى جزئين كلٌّ منهما ذرة سليكون.

ولا يخفى ان الحديد والسليكون من العناصر المستقرة والطاقة التي تفعل بهما هذا الفعل يجب ان تكون عالية جدًّا ، أعلى من أية طاقة استطاع الانسان توليدها في المعمل حتى الآن

وهنا نصل الى مكان الاشعة الكونية في نظرية لوس ، لانها تنطوي على ما يظهر ، على طاقة كافية لاحداث هذا التحويل . فالاشعة الكونية تستطيع من الناحية النظرية أن تحطم ذرة حديد أو ذرة نيكل الى ذرتي سليكون . والسليكون كذلك عنصر مستقر ولكن في طاقة الاشعة الكونية ان تحلّ ذرتهُ الى ذرتي عنصرين خفيفين احداها ذرة المغنيزيوم والاخرى ذرة الهليوم . وكذلك يمضي فعل التحويل فتنشأ العناصر الخفيفة من العناصر الثقيلة. وقد بيَّن الاستاذ لوس ان هناك ثمانية عناصر لها نظائر، وان اوزان هذه النظائر كسور بسيطة من أوزان الحديد والنيكل ، فهي في الراجح قد نشأت منهما بطريقة التحوُّل التي تقدم ذكرها

وهذه النظائر الثمانية هي العناصر التي تتركب منها الرجُم الحجرية. وعلى ذلك نستطيع ان نتصور الارض مركبة في الاصل من الحديد والنيكل ثم تحوَّل سطحها بفعل الاشعة الكونية منهما الى عناصر القشرة الارضية اي السليكون والمغنيزيوم والالومينوم والصوديوم وغيرها

فالنظرية طريفة تغري بالنظر ولكنها على كل حال لا تقول شيئاً عن اصل الحديد والنيكل وعلاقتهما بغاز السديم الاصلي الذي نشأت منهُ الارض . والاستاذ لوس نفسهُ يعترف بأن غرضهُ ليس وضع نظرية كونية شاملة بل محاولة تعليل بعض الظاهرات التي تستوقف النظر ومنها هذه الظاهرة ظاهرة التشابه بين بعض الرجم وقلب الارض من ناحية، وبين بعض الرجم الاخرى وقشرة الارض، من حيث العناصر التي تدخل في بنائها جميعاً وصلة ذلك بالاشعة الكونية

***

الآن ان حدود الكرة الارضية ليست الطبقة العليا من قشرتها. بل هناك غلافها الغازي الذي نطلق عليهِ اسم الجو . فاذا كانت الارض تتأثر بمؤثرات خارجية ، آتية اليها من الفضاء فالمرجح ان بعضاً من مظاهر هذا التأثر يبدو في جوها . وهذا هو الواقع، ولكننا ما نزال بعيدين عن معرفة صحيحة لما يضطرب به الجو. والفضل في كشف ما كشف حتى الآن يرجع الى علماء المواصلات اللاسلكية بل ان اعظم اكتشاف حديث في بناء الكرة الارضية ، انما هو اكتشاف ان الهواء مركب تركيباً كهربائيًّا

كان الرأي القديم ان الارض يحيط بها غلاف غازي تقلُّ كثافته رويداً رويداً الى ان يندمج في الفضاء الرحب الفارغ على مائة ميل او اكثر فوق سطح البحر . اما النظر الجديد الى هذا الغلاف الغازي فهو انهُ بمثابة سقف كهربائي للكرة الارضية

لما كشف العلامة الالماني هرتز عن الامواج اللاسلكية، وبدأ المستنبطون والعلماء يتصورون كيف يمكن استعمال هذه الامواج للتخاطب ، كانت القاعدة التي بني عليها كل تفكيرهم ان التخاطب بهذه الامواج لا يمكن ان يعدو نقطتين قريبتين على سطح الارض لان الامواج اللاسلكية لا تنحني بانحناء الارض وتكورها . فالمسافة بين محطي التخاطب ، تمكن زيادتها بزيادة ارتفاع الاعمدة التي تحمل الاسلاك الهوائية. وهذه الاعمدة كالمنائر يزداد امتداد ضوئها بزيادة ارتفاع بنائها

وكانت تجارب مركوني الاولى مما قوّى هذا الاعتقاد . ففي سنة ١٨٩٦ جرّب الاتصال اللاسلكي بين نقطتين في سهل سلسبوري بانكلترا ، تبعد احداها ميلين عن الاخرى . ثم زاد ارتفاع الاعمدة فزادت المسافة بين النقطتين المتصلتين . فلما كانت سنة ١٩٠٠ كانت هذه المسافة قد بلغت ستين ميلاً ، وفي الاحوال الجوية الموافقة ، امكن الاتصال اللاسلكي على مسافة مائة ميل

وكان مركوني مع اجلاله لآراء العلماء يحسُّ انهُ من الحق ، الجزم في موضوع لم يدرس درساً وافياً كهذا الموضوع ، وكان علاوة على ذلك يحسُّ ان هذه الامواج اللاسلكية تتحدب بتحدُّب الارض ، والاَّ فكيف يعلّل اجتيازها مائة ميل من محطة الى محطة ، ولو انها كانت كما يقولون لما استطاعت ذلك

لذلك اقدم سنة ١٩٠١ على تجربتهِ المشهورة فاثبت ان في الامكان الاتصال اللاسلكي بين اوربا واميركا (راجع « الكلمات المجنحة » في كتابنا فتوحات العلم الحديث) . فهي من اعظم التجارب العلمية في التاريخ ، لانها اضافت حقيقة جديدة الى العلم وهي ان تكوُّر الارض لا يعيق الامواج اللاسلكية عن الوصول من محطة الى اخرى على جانب الارض المقابل ، ثم لانها كانت مفتتح عصر المخاطبات اللاسلكية العجيب

فاذا كانت هذه الامواج تنحني وتتحدَّب بتحدُّب الارض فلا بدَّ من شيء يحنيها . وقد كان معروفاً عند العلماء ان موصلاً كهربائياً كلوح من النحاس او شبكة من السلك المعدني يستطيع ان يعكس الاشعة اللاسلكية . فاذا فرضنا وجود موصل من هذا القبيل في طبقات الجوّ العليا — كطبقة من الايونات — كان ذلك كافياً لعكس الامواج اللاسلكية. والنظر العلمي كان يقضي ان ترتدّ هذه الامواج من الطبقة الجوية المكهربة او المؤينة (ionized) في زاوية تعدل زاويتها عند اصطدامها بها ، ثم عند عودتها الى الارض ترتدُّ ثانية الى الفضاء ، وكذلك تتقدم في سيرها بهذا التذبذب بين سطح الارض وطبقة الهواء المكهربة

هذه هي القاعدة التي بنيت عليها نظرية هيفيسيد وكنلي وهما مهندسان كهربائيين اولهما انكليزي والثاني اميركي. على ان القول بوجود طبقة مكهربة في اعالي الجو لم يكن قولاً جديداً لان العالم الانكليزي بلفور ستيورت كان قد قال بها بناء على ادلة اخرى لا صلة لها بالمواصلات اللاسلكية. ولكن هيفيسيد وكنلي كانا اول من فسر انتقال الامواج اللاسلكية بها . وقد ظلَّ قولهما نظريًّا ، حتى سنة ١٩٢٥

اذ اثبت وجود طبقة الهواء المكهرب المعروفة بطبقة كنلي هيفيسيد بتجارب جرّبت في اميركا وانكلترا . وكذلك اصبح للغلاف المؤيَّن (ionosphere) مكان في كل بحث جغرافيّ جيولوجي

وقد اثبت البحث الحديث في الطبقة المؤينة انها ليست طبقة واحدة وانها ليست طبقة مستوية بل فيها اودية وجبال ، تتغير اماكنها وفقاً لتقلب النور والحرارة وغيرها من العوامل الآتية من رحاب الفضاء . واشهر هذه الطبقات ثلاث سميت بثلاثة حروف من الابجدية الاعجمية هي D و E و F تردّ الامواج من اعالي الجوّ الى سطح الارض فتجعل التخاطب اللاسلكي مستطاعاً . فطبقة D تعلو ٣٠ ميلاً من سطح الارض وترد الامواج اللاسلكية الطويلة ، وطبقة E (وهي المعروفة بطبقة كنلي هيفيسيد) علوها من ٦٥ الى ٧٠ ميلاً وترد الامواج اللاسلكية الطويلة والمتوسطة وطبقة F (وهي المعروفة بطبقة ابلتن) علوها ١٥٠ ميلاً وتردّ معظم الامواج القصيرة . وقد تنفصل طبقة F الى طبقتين او ثلاث طبقات وفقاً لفعل الحرارة والضوء والاشعة المختلفة ، وهذا يعلّل لنا تصرُّف الراديو في بعض الاحيان تصرفاً شاذّاً

***

وهنا يخطر بالبال السؤال التالي . ماذا يكهرب اعالي الجو ؟ والجواب عن هذا السؤال هو ان الشمس هي العامل الاقوى في كهربة اعالي الجو . فقد اثبتت التجارب ان قوة كهربة هذه الطبقات ، وانفصالها احياناً ، يتبع موقع الشمس في الفضاء واذاً من المعقول اسناد هذه الكهربة اليها . ثم انهُ عند ما تكون كلف الشمس على اشدها فملاً ، تقع تقلبات عظيمة في الغلاف المؤيَّن

والمقام الاول بين اشعة الشمس المختلفة في تأيين طبقات الهواء العالية هو للاشعة التي فوق البنفسجي . بل ان بعض الباحثين امثال هلبرت ومارس يعتقدون ان الاشعة التي فوق البنفسجي في اشعة الشمس هي المصدر الوحيد لهذا التأيين . ويعتقد تشابمن احد علماء جامعة لندن ان دقائق من الكهربائية السالبة تنطلق من الشمس وتحدث بعض التأين في الهواء . ثم هناك ضروب اخرى من الاشعاع تصدم الهواء وتحدث فيه هذا الفعل بتمزيق بعض دقائقه وذراته

وقد عمل المستر سكات Skellett جدولاً بمصادر التأيين في طبقات الجو العليا فاذا هو كما يلي

الاشعة التي فوق البنفسجي في ضوء الشمس	٣٦ر٢٨
الشهب	٢ر٤٠٠٣٦
الاشعة التي فوق البنفسجي في ضوء النجوم	ر٠١٤
الاشعة الكونية	ر٠٠٠٣١
الاشعة التي فوق البنفسجي من ضوء البدر	ر٠٠٠٠٤٤

فالارقام في هذا الجدول تدل على وحدات الطاقة التي تقع على مساحة معينة من سطح الارض في الثانية . ويلاحظ فيها ان طاقة الاشعة التي فوق البنفسجي تفوق عشرة اضعاف طاقة المصادر

الاخرى مجتمعة . وليس ذلك لان الاشعة التي فوق البنفسجي اقوى فعلاً من الاشعة الكونية ولكن لان ما تلتقطهُ الارض منه اكثر كثيراً مما تلتقطهُ من الاشعة الكونية

***

وفي ليلة من ليالي سنة ١٩٢٧ لاحظ المهندس اللاسلكي النروجي هالز Hals في اثناء اصغائهِ لاشارات رمزية مذاعة من محطة ايندهافن الهولندية ، انهُ يسمع احياناً الاشارة الواحدة ثلاثة مرات . فبعد ما سمع الاشارة الاصلية لبث سُبْع ثانية فسمعها ثانية كأنها واردة من جهة مقابلة ثم بعد انقضاء ثلاث ثوانٍ سمعها ثالثة . اما الصدى الاول فيمكن تعليله بأنهُ تمَّ بعد ما دارت الاشارة اللاسلكية دورة كاملة حول الارض وهذه الدورة تقتضي سبع ثانية من الوقت لان قطر الارض نحو ٢٥ الف ميل تقطعها الامواج اللاسلكية في نحو سبع ثانية . ولكن من اين جاء الصدى الثاني ؟ فان مجيئه بعد ثلاث ثوانٍ يقتضي ان يكون قد قطع ٥٤٨٠٠٠ ميل قبل رجوعه الى الارض فاذا كانت الامواج اللاسلكية تسير جميعاً بسرعة واحدة في انطلاقها من سطح الارض وارتدادها اليها من احدى الطبقات المؤينة ، فالطبقة التي ردَّت هذا الصدى الاخير يجب ان تكون على ٢٧٩ الف ميل فوق سطح الارض . وهذا يعني ان هذه الطبقة أبعد من فلك القمر وهو مما يصعب تصديقه . فأحدث هذا النبأ هزة في الدوائر اللاسلكية العالمية وتنبه المشتغلون بالشؤون اللاسلكية للاصغاء الى هذه الاصداء فقيل بعد قليل ان بعضهم سمع صدى بعد خمس ثوانٍ وآخر سمع صدى بعد خمس عشرة ثانية (وهذا يقتضي ان تكون الطبقة العاكسة على ٢ر٣٢٥٠٠٠ ميل فوق سطح الارض) وفي سنة ١٩٢٩ ذكر فريق من علماء فرنسا كانوا قد ذهبوا لرصد الشمس في الهند الصينية انهم سمعوا صدى لاسلكيًّا بعد انقضاء ثلاثين ثانية على سماع الاشارة الاصلية (وهذا يقتضي ان تكون الطبقة العاكسة على نحو خمسة ملايين ميل فوق سطح الارض)

ويرى العالمان فان درپول الهولندي وايلتن الانكليزي ان أفضل تعليل لهذه الاصداء ان بعض الامواج اللاسلكية يحصر بين طبقتين متغيرتين من الايونوسفير اي الغلاف المؤيَّن ، فتتذبذب بينهما مدة من الزمن ثم يطلق أمامها المجال بتحرك احدى الطبقتين او بحدوث فرجة فيها فتعود الى الارض. وهو تعليل لا بأس بهِ ولكن العلماء يقولون انهُ لا يسلم من الاعتراض عليه . وقد نظم في السنة الماضية برنامج دولي لدراسة هذه الظاهرة. ومن غريب ما يروى في صددها ان هذه الاصداء سمعت في اوربا باستمرار منذ ما اشار اليها هالز سنة ١٩٢٧ ولكن المشتغلين باللاسلكي في اميركا لم يسمعوها مطلقاً

هذه هي بعض القوى التي تصدم الارض في خلال سيرها في الفضاء . فاذا كان في طاقة بعض هذه القوى ان يحوِّل الفلزات الى ضوء ، وفي طاقة البعض الآخر ان يجعل من الغلاف الغازي غلافاً مكهرباً تُشَقُّ فيهِ الاودية وتُبسط السهول وتُرفع الجبال ، فما هو يا ترى تأثيرها في المادة الحية التي تتكون بين اجسام الاحياء ، او في دقائق الدم وخلايا الدماغ ؟

بحث لغوي في :—

مجلة المجمع الملكي

للاب انستاس الكرملي

[عضو مجمع اللغة العربية الملكي]

١ — توطئة

برز الجزء الاول من مجلة مجمع اللغة العربية الملكي بحلة تزري بحلل العرائس ، فتلقفهُ الادباء ، والعطشى الى اصلاح ما افسد الزمان من لغتنا المبينة ، والراغبون في رقيها ومسايرتها لمقتضيات العصر ، واقبلوا على مطالعتهِ بكل شوق ، للاستفادة منهُ ، وللتمسك بلغة عدنان النقيّة الصيغة — على ان جمهوراً من هؤلاء الفضلاء اقتنوهُ لنقدهِ وتزييف ما ورد فيهِ ، فانقسموا ثلاث حِزَق : حِزْقة لم تَرَ فيهِ حسنة بل كوماً من المساوىء ، وفرقة لم تجد فيهِ سوى المحاسن ، وجماعة كانت بينَ بين ، اي رأت فيهِ محاسن ومساوىء ، ولينت عبارة النقد ، فكانت من المنصفين ، الرامين الى هدف الحقّ ، لا غير

اما المسوئون ، فانهم لم ينطقوا إلاّ عن غرض او مرض في النفس ، او لا اقل من هوى في القلب . وكان المستحسن في أمرهم ان يكونوا اعضاء في المجمع دون غيرهم ، لاظهارهم اياهم مظهر اناس غير اكفاء لما انتدبوا اليهِ . والغاية اذا ما زجت قلب المرء ، أفرغتهُ من مكارم الاخلاق و«عورتهُ» فرأستهُ في « مملكة العميان » ، اذ لم تجد سواه ملكاً لتلك الدولة المعيبة — واما المستصوبون لكل ما وقفوا عليهِ من المقالات ، فهم لم يفعلوا هذا الفعل ، إلاّ مدفوعين بدافع ايضاً ، وهذا الدافع هو المصانعة ، في امل انهم يستميلون الخواطر اليهم ، ليكونوا شيئاً او بعض شيء في المجمع من نأي ، او من كَثَب . — اما الذين جمعوا بين النقد المنزّه من الغايات الدنيئة والاصلاح المرغوب فيهِ ، فقد احسنوا في المقال والمآل معاً

ونحن من هذا الفريق الاخير ، لوجودنا في المجلة محاسن لا تحصى ، إلاّ انها لا تخلو من بعض مغامز هي لا تكاد تكون شيئاً بالنسبة الى ما حوت من جلائل الاعمال والاوضاع والمصطلحات . وهذه المغامز هي ان بعض اللجان (لا المجمع كما توهم بعضهم) خالفت الاقدمين في بعض القواعد ونحن نعرض هنا على القراء وجهة نظرنا للتأمل والتدبُّر ، لعلها تجد موافقة تبدو من تلك اللجان انفسها ، فتطمئن اليها النفوس وتنقاد الى ما فيهِ حسن السبك والصوغ والوضع

٢ النسبة الى فعيل او فعيلة لغير العَلَم فَعِيلي لا فَعَلي

جاء في مجلة المجمع في (ص ٧٠) ما هذا نصهُ : « القيام بالعمل ، او النشاط العملي — تطلق هذه الكلمة على حالة العضو في اثناء تحقيق الوظيفة ، او على النشاط الوَظَفي » . فنسبت اللجنة الى الوظيفة بقولها « الوَظَفِي » وفتحت الواو والظاء المنابة وهذا مخالف لما سمع ونقل — اما انهُ مخالف لما سمع ، فلاننا لم نجد من نسب الى فعيلة « النكرة » فقال فَعَلِيّ . فالوَظَفِي منسوبة الى الوظيفة . والوظيفة نكرة من النكرات.ولم يسمع في فعيلة هذه فَعَلِيّ بالتحريك البتة.بل فَعِيلِيّ بابقاء الياء على حالها . فقد قالوا مثلاً : الطبيعي ، والسليقي ، والبديهي ، والغريزي ، والبهيمي ، الى امثالها . ولم يقولوا ابداً : الطبعي ، والسلقي ، والبدهي ، والغرزي ، والبهمي ، بتحريك الاول والثاني واسقاط الياء

ثم عادت المجلة الى تكرار مثل هذا الاصطلاح المخطوء فيه (في ص ٩٨) اذ قالت : « وَشَمِي الشكل » وضبطت الكلمة ضبط قلم ايضاً بفتح الواو والشين . ونحن لم نعثر على «كلمة واحدة نكرة» نسب اليها هذه النسبة التي نعدها وهماً فظيعاً يُفقَأُ في عيني المطالع حصرماً شديد الحَمْز — واما اذا انكرت علينا مجيء المنسوبات التي ذكرناها لك بهذه الصيغة في كتب القوم ، فنحن نسرد لك مواطن ورودها فنقول :

ا — اما (الطبيعي) ، فقد وردت في جميع المصنفات ، من قديمة ، وحديثة ، ومعاصرة لنا . اما الحديثة والمعاصرة لنا ،فهي اشهر من ان تذكر . والمحدثون والعصريون لا يكادون يعرفون سواها ، واما الاقدمون فقد ذكروها في دواوينهم ، منها كتاب العين . قال صاحبهُ في مادة (ج ب ل) : « جبلة كل مخلوق : تُوسُهُ الذي طبع عليه.وشيء جبلي : منسوب الى الجبلة كما يقال طبيعي» اه. وكفى بالعين حجة . وقد ورد في المصباح ايضاً ما يقارب هذا التعبير في مادة جبل . فليراجع . وصاحبهُ من أهل المئة الثامنة للهجرة

ب — جئنا الى (السليقي) ، فقد جاء في لسان العرب ما هذا قوامه : « قال سيبويه : والنسب الى السليقة : سليقي ، نادر . وقد أبنت وجه شذوذه في عُمَيْرة كلب ... الليث : والسليقي من الكلام : ما لا يتعاهد اعرابه ، وهو فصيح بليغي في السمع ، عثُورٌ في النحو . غيرهُ: السليقي من الكلام : ما تكلم بهِ البدوي بطبعه ولغتهِ ، وان كان غيره من الكلام آثر واحسن . وفي حديث أبي الاسود : انهُ وضع النحو حين اضطراب كلام العرب وغلبت السليقية اي اللغة التي يسترسل عنها المتكلم على سليقته اي سجيتهِ وطبيعتهِ من غير تعمُّد اعراب ، ولا تجنب لحن . قال

ولست بنحويٍ يلوك لسانهُ ولكن سليقيٌ اقول فاعربُ اه ما في اللسان

قلنا. قول سيبويه . « سليقي نادر » لا يوافق المنقول من كلام العرب ، كما لا يوافق ائمة النحاة كما سترى بُعَيْد هذا

ج — (والبديهي) ، على ما قاله السيد الجرجاني في تعريفاته (وكذلك في كليات البقاء في ص ١٧٩ من طبعة الاستانة) . « وهو الذي لا يتوقف حصوله على نظر وكسب سواء احتاج الى شيء آخر من حدس او تجربة او غير ذلك ، او لم يحتج . فيرادف الضروري ، كتصوُّر الحرارة والبرودة ، وكالتصديق بان النفي والاثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان » اه — ولم نجد مؤلفاً قديماً او مولداً او حديثاً فصيحاً نسب الى البديهة فقال « بَدَهِيّ » (او بدَهيًّا ، ان شئت اعراب الكلمة)

د — وورد (الغريزي) في مدّ القاموس ، لكنهُ لم يعزهُ . وهو كثير المجيء في كتب الطب والحكمة والفلسفة . قال ابن سينا في قانونهِ في كلامه على امزجة الاعضاء (ص ٤ من طبعة رومة) : « ان الرئة في جوهرها وغريزتها ليست برطبة شديدة الرطوبة ، لان كل عضو شبيه في مزاجه للغريزي بما يتغذى به . . . فالكبد ارطب من الرئة كثيراً في الرطوبة الغريزية . . . » وجاء في تلك الصفحة في كلامه على امزجة الاسنان . « ولأن الحرارة الغريزية المستفادة فيهم من المنيّ اجمع واحدث وبعضهم يرى ان الحرارة الغريزية في الشبان اقوى بكثير » اه

وقد تكررت « الحرارة الغريزية والرطوبة الغريزية » مراراً لا تحصى في قانون ابن سينا وفي جميع مصنفات الاطباء ، من قديمة وحديثة . ولم اجد كاتباً واحداً قال : غرزي وغرزية — وقال ابن القف المسيحي عند كلامه على خواص العدس « وأما منْ حرارته الغريزية قوية . وطبيعته فائقة جيدة لا يغلبها سبب ممرض » اه — وفي مقدمة ابن خلدون في الفصل الـ ٢٦ : « وكذا الحرارة الغريزية في كل طور » وقد اعاد هذه اللفظة مراراً لا تقدر في سفره الجليل . ولو اردنا ان نسرد النصوص التي جاء فيها الغريزي والغريزية لملأنا كتاباً قائماً برأسه . فتدبّر

هـ — اما (البهيمي) فقد ذكرها صاحب مد القاموس ايضاً ولم يعزُها ، مع انها وردت في جميع دواوين الطب عند كلام اصحابها على العشق . قال صاحب الروضة الطبية (في ص ٣٥ من النسخة المطبوعة في القاهرة » : « وبعضهم قالوا انهُ « اي العشق » يختص بالنفس البهيمية ، وهو مرض يعرض لها من قبل افراط الشهوة » — ولصاحبها ايضاً في الصفحة ٣٦ : « ونرى التعشق يختص بالنفس البهيمية اكثر » اه — ووردت الكلمة مرتين اخريين في تلك الصفحة نفسها . وجاءت مراراً لا تحصى في اسفار الاطباء البلغاء عند الكلام على العشق وأنواعه . وكذلك في كتب الادب الباحثة في هذا الموضوع الاخلاقي

٣ — لماذا لا يقال فَعَلِيّ (بالتحريك) في النكرات والاعلام غير المشهورة

اما انه لا يجوز ان يقال : (الطَبَعِيّ) و (السَلَقي) و (البَدَهِي) و (الغَرَزي) و (والبَهَمي)

بالتحريك ، فلأنها ليست بأعلام مشهورة ، ولأن (الطَّبَعي) نسبة الى الطبَع بالتحريك وهو الدنس والوسخ الشديد من الصدإ — ولأن (السَّلقي) نسبة الى السلَق بالتحريك وهو أثر دبرة البعير اذا برئت وابيضَّ موضعها ، والقاع الصفصف الاملس ، الطيب الطين — ولأن (البَدهي) لم يسمع من احد ولم ترد في كلامهم ولا وجود لها في لغتنا — ولأن (الغرزي) بالتحريك نسبة الى الغرَز بالتحريك وهو ضرب من الثمام ونبات كنبات الاذخر من شر المرعى — ولأن (البَهَمي) بالتحريك نسبة الى البهَم بالتحريك ، وهو جمع بهمة بالفتح وهي اولاد الضأن والمعز والبقر . فما سمعناه ذكرناه قبيل هذا ، وما لم نسمعه ، صرحنا به هنا وبأنهُ لم ينقل عن فصحائهم ولا عن مولديهم ولا عن محدثيهم . فكيف يجوز لاعضاء لجنة من لجان المجمع ان تجري على هواها ولا تعمل بما وصل الينا من كلام البلغاء ؟

٤ — المنقول عن النحاة الراسخين القدم في كلامهم على فَعيلي وفَعَلي

كل ما اوردناه الى هنا كان من قبيل المسموع او المنقول عن فصحاء الكتاب من اقدمين ومولدين . اما ان النحاة قالوا لا ينسب الى فعيل او فعيلة النكرة او العلم غير المشهور بحذف الياء بل بابقائها على حالها فواضح مما نص عليه ابن قتيبة [1] في (ادب الكاتب) ص ٣٠٧ من طبعة الافرنج : « اذا نسبت الى فعيل او فعيلة من اسماء القبائل والبلدان وكان (مشهوراً) القيت منه الياء ، مثل ربيعة وبجيلة : رَبَعي وَبَجَلي . وحنيفة : حنفي . وثقيف : ثقفي ، وعتيك : عتكي . وان لم يكن الاسم (مشهوراً) « علماً كان ام نكرة » لم تحذف الياء في الاول « اي في فعيل » ولا الثاني « اي في فعيلة »

فأنت ترى من هذا انه لم يذهب الى حذف الياء في ما ليس بمشهور ، لئلاَّ يضلَّ الانسان في معرفة الاسم الذي ينسب او نسب اليه . ومما يؤيد قول ابن قتيبة الدينوري انك اذا نسبت الى مدينة الرسول — وهي من اشهر الاعلام وأعرفها بين الناس — قلت : مَدَني ، بالتحريك وبحذف الياء ، لانك ان نطقت بهذا الحذف لم تضل الطريق في معرفتها بل اهتديت حالاً اليها

(١) كان ابن قتيبة من علماء النحاة الذين عاشوا بعد سيبويه . وكان قد اطلع على كل ما كتبه صاحب «الكتاب» لكنه خالفه في امور كثيرة فتكون نظراته ابعد مدى من نظرات سيبويه حتى ان ابن الخطيب قال فيه « كان رأساً في العربية واللغة والاخبار وأيام الناس ، ثقة ، ديناً ، فاضلا » وهذا اعظم مديح قيل في رجل . فاذا كان ابن قتيبة الدينوري «رأساً» كان سائر العلماء بالنسبة اليه ، اعضاء لتلك الهامة . وليست الاعضاء كلها كالرأس

وفي الفهرست لابن النديم ان ابن قتيبة كان صادقاً في ما يرويه ، عالماً باللغة ، والنحو ، وغريب القرآن ، ومعانيه والشعر والفقه » آه . وراجع ما قاله ابن الانباري وابن خلكان في الوفيات ، وبغية الوعاة للسيوطي وروضات الجنان ومعجم الادباء وابن النديم الى غيرهم تراهم جميعاً يثنون عليه اطيب الثناء

لشهرتها بين جميع الناس قاطبة . واما اذ نسبت الى المَدِينة بمعنى البلدة ، فانك تقول «مديني» باثبات الياء في موطنها . وكذلك تفعل اذا اردت ان تنسب الانسان او الثوب الى المدينة تقول «مدَنِي» والطائر ونحوه تقول « مديني » — اما اذا اردت ان تنسبهُ الى « المدائن» ، علَم لمدينة كسرى ، فتقول « مدائني » . قال سيبويه : « واما قولهم « مدائني » فانهم جعلوا هذا البناء اسماً للبلد » اه —

قلت : ومن هذا القبيل قولهم « الفرائضي » للعارف بعلم قسمة التركات على مستحقيها ، فانهم اعتبروا اللفظة (اي علم الفرائض) علَماً للعلم المذكور. وسموا الفرائضي ايضاً : الفارض والفراض والفريض والفرضي وكلها من قبيل النسب اما للكثرة واما لغيرها . وقالوا « الفرضي » ولم يقولوا « الفريضي » لانعدام « علم الفريضة » لهذا العلم ، ولان الفريضيّ نسبة الى « الفريض » للعارف بعلم الفرائض . وانت بصير ان اغلب المنسوبات تكون لاعلام المواطن والرجال. وقد جروا في اعلام العلوم كما جروا في اسماء المدن ، التي هي الاصل في النسب . ثم انتقلوا منها الى اسماء الرجال ، وفي الآخر الى النكرات من باب التوسع والتجوز . ولهذا كانت النسبة الى النكرات قليلة جدّاً ، اللهم الاّ ان تكون نكرات تقع على الجنس ، فتكون من قبيل اعلام جنس لا اعلام نكرات منفردات بنفسها. ولهذا قالوا «فرضي» بالتحريك والنسبة منعاً للبس (اي منعاً لها من الاختلاط «بالفريضي» الذي هو العالم بالفرائض مع ياء النسب ، واحتفاظاً بقاعدة اصل الوضع للنسبة التي اوضحناها لك)

فانت ترى من هذا التتبع ان العرب لم ينسبوا مطلقاً الى فعيل او فعيلة بقولهم « فعَلي » بالتحريك اذا كان غير مشهور ، علماً كان ام نكرة ، بل « فعيلي » باثبات الياء على اصلها . والآن نثبت لك هذه الحقيقة بكثرة ما سمع منهم منذ عهد الجاهلية الى صدر الاسلام الى عهد المولدين الى عصرنا هذا

٤ — شواهد على ورود فَعَلِيّ في الاعلام المنسوبة الى فعيل او فعيلة

قلنا : لا يقال «فَعَلي» الاّ في النسبة الى ما «اشتهر» من الاعلام واجناس النكرات . والا فيقال « فعيلي » في العَلم نفسه وفي النكرات ايضاً . ونحن نسرد لك هنا ، ما عثرنا عليه من هذا القبيل ، مرتباً على حروف الهجاء وهو اكثر من مئة لفظة . ودونكَها ، منقولة عن كتاب الانساب للسمعاني ، واللباب لابن الاثير ، ومعجم البلدان ، ومعجم الادباء لياقوت الحموي ، ولب اللباب للسيوطي : —

١ الاديمي كالكريمي نسبة الى الاديم ، بطن من خولان — ٢ الاشيري نسبة الى اشير حصن بالمغرب — ٣ البحيري نسبة الى بحير ، جدّ — ٤ البديهي نسبة الى البديهة وهي النظم بسرعة — ٥ البذيشي نسبة الى بذيش ، من قرى مَرْو — ٦ البريدي نسبة الى البريد وهو الساعي — ٧ البسيني نسبة الى بسينة قرية بمرو — ٨ البشيتي نسبة الى بشيت قرية بفلسطين — ٩ البشيري نسبة

الى قلعة بشير بنواحي الزَوْزان من بلاد الاكراد ، والى جد ايضاً — ١٠ البشيلي نسبة الى بشيلة قرية قرب بغداد — ١١ البصيري نسبة الى بصير ، جد . وهي ايضاً نسبة الى بصير الجَيْدور ، بالجيم والتحتية والمهملة والراء ، من نواحي دمشق — ١٢ البكيلي نسبة الى بكيل ، بطن من همدان — ١٣ التزيدي نسبة الى تزيد من بلاد اليمن ، وبطن من الانصار — ١٤ التليدي نسبة الى تليد ، بطن الازد — ١٥ الثبيري نسبة الى ثبير . جبل بمكة — ١٦ الجديلي نسبة الى جديلة ، وهو موضع في طريق مكة على طريق البصرة — ١٧ الجليقي نسبة الى جليقة ، بلد بالروم — ١٨ الجميلي نسبة الى جميل ، جد ، والى درب جميل ببغداد حاضرة العراق — ١٩ الجليلي نسبة الى الجليل من عمل صيداء — ٢٠ الجهيري نسبة الى جهير ، جدٍ — ٢١ الحديثي نسبة الى الحديثة والحديث من مدن العراق — ٢٢ الحريمي نسبة الى حريم قبيلة ، والى الحريم الطاهري من محلات بغداد — ٢٣ الحزيمي (بالقاف) نسبة الى حزيمة ، بطن من نهد — ٢٤ الحسيني ككريمي نسبة الى حسين ككريم ، وهو بطن من طيّىء — ٢٥ الحظيري نسبة الى الحظيرة ، موضع فوق بغداد — ٢٦ الحكيمي نسبة الى حكيم ، جد — ٢٧ الحليمي نسبة الى حليمة السعدية ، وجدة ، والى حليم جد الفقيه الشافعي — ٢٨ الحميدي نسبة الى الحميد ، الامير السامانى — ٢٩ الخبيصي نسبة الى خبيص ، وهي مدينة بكرمان — ٣٠ الخصيبي نسبة الى خصيب (بالصاد المهملة) رجل — ٣١ الخطيبي نسبة الى خطيب جد ، كان خطيباً — ٣٢ الخطيمي نسبة الى خطيم ، جد — ٣٣ الديري نسبة الى دير ، قرية بنيسابور — ٣٤ الدبيقي نسبة الى الدبيقية ، قرية ببغداد — ٣٥ الدثيني نسبة الى الدثينة ، قرية باليمن — ٣٦ الدميري نسبة الى دميرة من قرى مصر — ٣٧ الربيعي نسبة الى الربيع ، جد — ٣٨ الزريقي نسبة الى زريق ، محلة بمرو — ٣٩ الرشيدي نسبة الى الرشيد الخليفة العباسي الشهير ، والى رشيد بلدة بمصر — ٤٠ الرهيني نسبة الى رهين ، جد — ٤١ الزبيعي نسبة الى زبيع ، جد — ٤٢ الزبيني نسبة الى زبينة ، جد — ٤٣ الزبِيدي نسبة الى زبيد ، مدينة باليمن — ٤٤ الزعيمي نسبة الى زعيم الدولة — ٤٥ السبيري نسبة الى سبيرة ، قرية ببخارى — ٤٦ السبيعي نسبة الى سبيع ، بطن من همدان ، والى محلة السبيع وهي بالكوفة — ٤٧ السعيدي نسبة الى سعيد ، جد ٤٨ السليحي نسبة الى سليح ، بطن من قضاعة — ٤٩ السليطي نسبة الى سليط ، جد — ٥٠ السليمي نسبة الى سليم ، درب ببغداد والى سليمة بطن من الازد — ٥١ السنيجي نسبة الى سنيج ، مدينة من عمل كرمان — ٥٢ السنيكي نسبة الى سنيكة ، قرية بمصر — ٥٣ الشبيني نسبة الى الشبين وهو الصنوبر او نوع منهُ وهو المسمى في عهدنا هذا بالشربين في سورية ولبنان — ٥٤ الشريجي نسبة الى شريج ، جد — ٥٥ الشريشي نسبة الى شريش مدينة بشذونة — ٥٦ الشريفي نسبة الى شريف بطن من تميم — ٥٧ الشريكي نسبة الى شريك ، بطن من دوْس — ٥٨ الشعيري نسبة الى الشعير لبائعه — ٥٩ الشفيقي نسبة الى الشفيق — ٦٠ الصديقي نسبة الى صديق ، جد — ٦١ الصريمي

نسبة الى صريم ، جد — ٦٢ الصغيري نسبة الى صغير . جد — ٦٣ الضبيسي نسبة الى ضبيس ، بطن من عذرة — ٦٤ الطريفي نسبة الى طريف ، بطن من طيء — ٦٥ الطريقي نسبة الى الطريق وهو علي بن المنذر ، لانهُ ولد في الطريق — ٦٦ الطميسي نسبة الى طميس ، قرية بمازندران — ٦٧ العتيقي نسبة الى عتيق ، جد — ٦٨ العريشي نسبة الى العريش ، موضع بناحية الشام وهي اليوم من ديار مصر — ٦٩ العريفي نسبة الى عريف بن جُشَم — ٧٠ العقيلي نسبة الى عقيل بن ابي طالب ٧١ العليجي نسبة الى عليجة (بفتح العين وكسر اللام) تصغير علي على الطريقة الفارسية — ٧٢ العميري نسبة الى عميرة ، بطن من ربيعة — ٧٣ الغسيلي نسبة الى غسيل الملائكة ، حنظلة بن ابي عامر — ٧٤ الغشيدي نسبة الى غشيدة من قرى بخارى — ٧٥ الفقيري نسبة الى الفقير ، جد — ٧٦ الفليشي ، نسبة الى فليشه ، قرية بالاندلس — ٧٧ القتيري الى قتيرة ، بطن من تجيب — ٧٨ القريبي نسبة الى ابي قريبة ، جد — ٧٩ القريجي نسبة الى قريج ، بطن من سامة بن لؤي — القشيبي نسبة الى بني القشيب ، بطن من لخم — القطيعي نسبة الى قطيعة الربيع والى قطيعة الفقهاء والى قطيعة ام جعفر والى قطيعة الدقيق . وكلها محلات كانت في بغداد — ٨٢ القطيفي نسبة الى القطيف ، بلد بناحية الاحساء — ٨٣ القميري نسبة الى قمير بن حبشة بن سلوك بن كعب بن عمرو ابن ربيعة — ٨٤ الكبيري نسبة الى كبير ، بطن من اسد وغيره وقرية قرب بخارى — ٨٥ الكثيري نسبة الى كثير ، جد — ٨٦ الكفيني نسبة الى كفين قرية ببخارى ٨٧ اللقيطي نسبة الى لقيط ، جد ٨٨ المريسي نسبة الى مريس ، قرية بمصر . — ٨٩ المريضي نسبة الى المريض ، جد — ٩٠ المطيري نسبة الى المطيرة ، قرية بنواحي سر من رأى — ٩١ المغيلي نسبة الى المغيلة ، قبيلة من البربر — ٩٢ المنيحي نسبة الى المنيحة . قرية بدمشق — ٩٣ المنيعي نسبة الى منيعي جد — ٩٤ النجيحي نسبة الى نجيح جد — ٩٥ النذيري نسبة الى نذير ، بطن من بجيلة — ٩٦ النريزي نسبة نريز قرية باذربيجان — ٩٧ النضيري نسبة الى بني النضير ، قبيلة من اليهود — ٩٨ النعيتي نسبة الى النعيت ، بطن من سامة بن لؤي — ٩٩ النعيمي نسبة الى نعيمة ، بطن من الكلاع — ١٠٠ الوجيزي نسبة الى حفظ الوجيز — ١٠١ الوجيهي نسبة الى وجيه ، جد — ١٠٢ الوزيري نسبة الى الوزير ، جد ، وغيره — ١٠٣ الوكيعي نسبة الى وكيع ، جد . ورجل . وهناك غير هذه المنسوبات وعلى هذا الوجه مما لا يقع تحت حصر . ولا يزيدنا فائدة لعلمنا أن هذه المنسوبات اكثر مما ذكرناه بكثير

***

اذن هذه مائة وثلاث كلمات ، جاءت فيها فعلي منسوب الى فعيل أو فعيلة وكلها أعلام . زد على ما تقدم اننا لم نذكر ما جاء منها اجوف او مضاعفاً لشهرة قاعدتها ان الياء لا تحذف منها في النسبة اليها ، ولو جمعناها لازداد العدد المذكور ضعفين أو ثلاثة اضعاف واكثر هذه الكلم من الالفاظ المعروفة منذ عهد الجاهلية كأسماء بطون من العرب أو اسماء ، مدن في ديار الجزيرة العربية — فأنت

نرى من هذا التعداد الطويل الممل — وان اجتزأنا بالوشل منهُ — ان الاولين ، او قل بالاحرى : ان الاول الذي وضع قاعدة النسبة الى فعيل او فعيلة بحذف الياء لم يستقر جميع ما جاء من هـذا القبيل ولو تتبعها كما تتبعناها لعدل عن قاعدته ووضع ضابطاً مخالفاً لما قرره ، وجعل ما خالف هذا الضابط شاذًّا لا غير . لكن الذين جاؤوا بعد الواضع الاول تأثروه في قاعدته من غير أن ينعموا النظر في صحة ما قال او علتهِ ، فقرارة تسفّهت قراراً

ونزيد على ما تقدم ان النسبة الى فعيل وفعيلة بابقاء الياء في قلب الكلمة وكَسْع الآخر بياء النسبة كثير الورود في ما ذكره القلقشندي في صبح الاعشى ونحن لم نذكر تلك الشواهد ، لانها وضعت بعد العهد العباسي الزاهر . اما ما نقلناهُ عن السمعاني وابن الاثير وياقوت الحموي والسيوطي فهو مما عرف في الجاهلية او صدر الاسلام او في العصر العباسي . — فأين بقي كلام من يقول بخلاف ما ذهبنا اليهِ — وتلك الالفاظ الشاذة لو جمعت بحذافيرها لما اربتْ على العشرين ، على اعظم تقدير ، دع عنك اننا لم نذكر من الكلم الآ ما عثرنا عليهِ في الدواوين المذكورة بسرعة البرق الخاطف لقلة ما بيدنا من الوقت ، ولهذا نظن ان هناك الفاظاً كثيرة فاتتنا في تلك الاسفار نفسها

وسوف نذكر بقية ماجاءَ من الاوهام في مجلة المجمع والتوفيق منهُ تعالى

الاتجاه الجديد في

اشكال السيارات والسفن

والقطارات والطائرات

رغبة في السرعة مع توفير الوقود

من عجائب الطبيعة انها تتوخى الاقتصاد كلّ الاقتصاد في خلقها ، فقطرة المطر الساقطة من الغمام الهامي ، تتخذ الشكل الذي يجعلها اقلّ ما تكون تعرّضاً لمقاومة الهواء لها وهو شكل كمثري . والضوء المنبعث من بعض الحيوانات البحرية والبرية لا يضيّع معظم الطاقة التي تولده في التغلّب على مقاومة السلك كما يحدث في ضوئنا الكهربائي . ومنقار الطير تجعله بحيث يكون افعل ما يكون في نقر الثمار او نقد الحبوب . والعقاب تهيء لها طريقة لكنم جناحيها وهي منقضة لكي لا يزيد الجناحان المنشوران مقاومة الهواء لها . والسمك على اختلاف اشكاله تراعي فيهِ ان الرزق عسير في البحر الخضم ، وان الاسماك لا طاقة فائضة عندها تنفقها في طلب القوت ، فتخلقها بحيث تقتصد في هذه الطاقة جهدها ولذلك تجعل شكلها اقلّ ما يكون مقاومة للسير في الماء

تفعل الطبيعة ذلك لا عن وعي ، ولكن مجاراة لنواميس عامة ، بدأ الانسان يميط عنها اللثام في العصور الاخيرة . ولو هو راعى بعضها لوفّر على نفسهِ جهداً كبيراً بذل في غير وجهٍ ، وطاقة عظيمة بذّرت على غير سبيل ، ولكفّ عن التبجّح بانهُ غزا الطبيعة ولقال في دعةٍ انهُ تعلّم منها

خذ سيارة اليوم ، فانت حين تسير بها بسرعة ثلاثين ميلاً في الساعة تنفق نحو نصف قوتها الاندفاعية المستمدة من محركها في مقاومة الهواء ، لان شكل السيارة حين سيرها بهذه السرعة يخلق دوامات من الهواء فوق السيارة وحولها وخلفها تعيقها عن المضي . فاذا ارتقت سرعة سيارتك الى ٧٠ ميلاً في الساعة اصبح ما تنفقهُ من الطاقة في مقاومة الهواء خمسة اسداس الطاقة التي يولّدها المحرّك

او خذ السفينة الايطالية العظيمة « ركس » . فرغبة اصحابها في زيادة سرعتها عقدتين في الساعة اقتضت منهم زيادة ما تحرقهُ محركاتها من البترول من ٧٠٠ طن في اليوم الى ١١٠٠ طن اي ان زيادة عقدتين في الساعة في سرعة السفينة اقتضى زيادة النفقة على الوقود نحو الف جنيه في اليوم، لان زيادة السرعة تقتضي زيادة مقاومة الماء للسفينة زيادة كبيرة ، ومن هنا زيادة ما ينفق من الوقود للتغلّب على هذه المقاومة

ولو ان الطبيعة تجسمت مهندساً يصنع سيارة او يبني سفينة ، لما عمدت الى زيادة القوة فقط في التغلّب على مقاومة الهواء والماء . بل لحاولت ان تجعل شكل السيارة ، او شكل السفينة ، بحيث

يكون اقل ما يمكن مقاومة للهواء او للماء ، حتى ينفق اعظم جانب من الطاقة في احراز السرعة ، وهو ما فعلتهُ في اسماك البحر وبعض حيوانات اليابسة والطيور ، على تفاوت بينها

***

يقول علماء الحركة ان المقاومة التي يلقاها جسم متحرك في الماء او في الهواء تزداد كمربع تسارعه اذا كان هذا التسارع من مرتبة عادية كتسارع سيارة أو طيارة . ثم ان هذه المقاومة تتوقف على حجم الجسم وشكلهِ . والشكل لا يعني شكل مقدم الجسم فقط بل شكل مؤخرتهِ وما بينهما . فاذا ضوعف التسارع صارت المقاومة اربعة اضعاف . أما الشكل فيجب أن يكون بحيث يدرك أقصى سرعةٍ للجسم مع أقل نفقةٍ في الطاقة التي تحركهُ

هذه قواعد علمية قد يتعذر ادراك مغزاها على بعض القراء الاَّ اذا ضربنا مثلاً عليها . خذ لوحاً بيضيًّا من الخشب أو المعدن وغطسهُ في حوض من الماء جاعلاً وجه اللوح الامامي عموديًّا على اتجاه الحركة . ثم حرك اللوح بسرعة معينة فتجد وانت تحركه ان الماء يقاوم هذه الحركة وهذا طبيعي . ولنقُلْ ان مقاومة الماء لحركة اللوح بهذه السرعة تعدل واحداً صحيحاً . ثم خذ قطعة مكعبة من الخشب نفسهِ طولها طول اللوح ، وعرض كل سطح من سطوحها عرض اللوح ، وغطسها في الماء نفسهِ وادفعها بحيث يكون احد سطوحها في خط المقاومة ، وبنفس السرعة التي دفعت بها اللوح ، تجد ان مقاومة الماء لها اقلُّ بل هي عند التحقيق تبلغ ٨٢ في المائة من مقاومة الماء للوح . ثم خذ اسطوانة من الخشب نفسهِ طولها طول اللوح وقطر مقطوعها كعرض اللوح ثم حركها في الماء بسرعة حركة اللوح ، جاعلاً مقطوعها في خط مقاومة الماء ، فترى ان مقاومة الماء لها تبلغ ١٨٥ر٠ من واحد صحيح وهو مقاومة الماء لحركة اللوح

فاذا قمت بهذه التجارب قرب سطح الماء ، وجدت ان حركة كل جسم من هذه الاجسام في الماء ، تحدث تيارات حولهُ ووراءهُ تختلف عن التيارات التي تحدثها حركة الآخر ، وان الاختلاف في هذه التيارات يصحبهُ نقص في مقاومة الماء لسير الجسم المتحرك ، اي نقص في مقدار الطاقة التي انفقت في احداث قدر واحد من العمل في الاحوال الثلاث

فهذا الاقتصاد في الطاقة نتيجة لما أحدثناهُ في الجسم المتحرك من تغيير في شكلهِ

وقد عمدت الطبيعة الى هـذه القاعدة في خلق الحيوانات المختلفة رغبة في الاقتصاد كذلك . ولكن الانسان لم يعن بها ، الاَّ لما اصبح الخلق الانساني يأبى البطء في الانتقال ، فصار ادراك السرعة العظيمة في السيارة والطيارة ، في السفينة والقطار ، هدفاً تتقطع دونهُ الاعناق وتزهق الارواح . عندئذ ادرك الانسان ان زيادة السرعة يقتضي زيادة عظيمة في النفقة لا يسوغها من الناحية الاقتصادية ما توفره السرعة الجديدة من الوقت على المسافر

ويقول دانيال ساير Sayre وهو من ابرع مهندسي الطيران في اميركا ، انه لو امكن صنع سيارة

بحجم سيارة متوسطة مألوفة ، على ان يفرغ شكلها في القالب الامثل الذي تقتضيه قواعد الحركة والمقاومة ، لنقصت المقاومة التي تلقاها السيارة من الهواء تسعة اعشار اي ان هذه المقاومة تصبح عُشر ما هي الآن . ولكن بلوغ الكمال في هذه الناحية من الحياة متعذر تعذره في سائر نواحيها. الاَّ ان هذا الخفض العظيم في مقاومة الهواء للسيارة لا يبدو لصاحبها وهو يسير بسرعة ثلاثين ميلاً او اربعين ميلاً في الساعة ، بل يبدو عند ما ترتقي السرعة الى نحو مائة ميل في الساعة

ولعلَّ السؤال الاول الذي يخطر بالبال بعد بسط القواعد المتقدمة هو لماذا لايعمد المهندسون وصانعو السيارات الى صنع سيارات من هذا القبيل لا يقاومها الهواء مقاومة شديدة فيوفرون على مستعمليها جانباً من نفقة الوقود ان لم يرغبوا في زيادة السرعة او حالت القوانين والطرق دونها

والواقع ان الحائل دون ذلك نفسيٌّ في المقام الاول لان الناس وقد أَلِفوا اشكال السيارات كما هي ، يأنفون من اشكال جديدة تختلف عنها كل الاختلاف . فالسيارة المصنوعة على هذه القواعد يجب ان تكون كمثرية الشكل ، وهو قالب تستهجنهُ العين لانها لم تألفه . ثم هناك حائل اقتصادي يقتضي من اصحاب المصانع احداث تغيير كبير في التصميمات التي يجرون عليها والآلات التي تخرج هذه التصميمات من حيز الرسم الى حيز الفعل . وقد كان غوستاف ايفل ، صاحب برج ايفل المشهور اول من عُني من نحو عشرين سنة ، بدراسة تأثير الهواء وتياراته في سير السيارات والقاطرات ومركبات القطارات والطائرات. ثم شرع العلماء والمهندسون يبنون أنفاقاً خاصة لتجربة التجارب فيها بنماذج من الطائرات والسيارات والقطارات . وقد عينت الاميرالية البريطانية لجنة من العلماء لدراسة الاحياء البحرية مثل سمك التنِّ والسلمون والحوت الازرق والقرش رغبة منها في التوصُّل الى اصلح الاشكال لسفن الهواء والغوَّاصات . وقد اسفرت هذه الدراسة عن ان افضل الاشكال الطبيعية الجامعة لهذه المزايا ، انما هو شكل القرش Shark

وعُني المستر هيلد Heald احد علماء مجلس المقاييس والموازين في الحكومة الاميركية بتجربة تجارب في انفاق من هذا القبيل فاخذ اربعة نماذج قياسية لسيارة مقفلة (سيدان) صنعت سنة ١٩٢٢ ولسيارة مفتوحة صنعت سنة ١٩٢٢ ولسيارة (سيدان) خفيفة صنعت سنة ١٩٢٨ ولسيارة (سيدان) خفيفة صنعت سنة ١٩٣٣ ونموذجين لسيارتين مصنوعتين على اساس القواعد التي يجب ان تتوافر في السيارة لتكون اقل ما تكون مقاومة للهواء . ثم قاس مقاومة الهواء لكلٍ من هذه النماذج فوجد ان مقاومة الهواء لنموذج سيدان ١٩٢٢ يدلُّ عليها الرقم ٠٫٠٠١٧ وان مقاومته لنموذج سيدان ١٩٢٨ يدلُّ عليها الرقم ٠٫٠٠١٨ وان مقاومتهُ لنموذج سيدان سنة ١٩٣٣ يدلُّ عليها الرقم ٠٫٠٠١٥ اما المقاومة للنموذجين الاخيرين فيدل عليها الرقم ٠٫٠٠٠٥ اي ان السيارة التي تصنع وفقاً للقواعد العلمية الصناعية تفوق في كفاءتها ٣٥٠ ضعفاً كفاءة سيارة كانت مستعملة من ثماني سنوات . وهذا يعني ان سيدان سنة ١٩٢٢ تحتاج الى قوة ٢٧ حصاناً لتسير بسرعة ٣٠

ميلاً في الساعة واما سيدان سنة ١٩٢٨ فيحتاج الى قوة ٢٦ حصاناً ليسير بالسرعة نفسها وسيدان سنة ١٩٣٣ الى قوة ١٨ حصاناً وان كلاً من السيارتين المصنوعتين وفقاً للقواعد العلمية تحتاج الى قوة ٨ احصنة فقط . فكفاءة هاتين السيارتين الميكانيكية تزيد ٣٠٠ ضعف على كفاءة سيارة ١٩٣٣ و ٦٠٠ ضعف على كفاءة سيارة سنة ١٩٢٢

هذا فيما يتعلق بالسيارات . فاذا نظرنا الى القطارات وجدنا أن ارتقاء السفر الجوي والانتقال بالسيارات ، قد سلبها جانباً كبيراً من ركابها . ولا ريب في ان السفر الجوي سوف يهدد قريباً السفن التي تمخر عباب البحار . ومن الغريب ان شركات السفانة عمدت الى تكبير حجم السفن في مواجهة هذه المنافسة من الطائرات غير عابئة على ما يظهر بالقواعد العلمية التي يجب أن تتوافر في تصميمها

ففي الولايات المتحدة الاميركية مهندس يدعى نورمن بل غدس N. B. Geddes له نظرة خاصة في هذا الموضوع يهزأ بها بعض المهندسين لانها متطرفة في رأيهم . ولكن غدس يرى ان شكل السفينة المثلى يجب أن يكون أشبه بالدلفين منهُ بأي شيء آخر . وفي الصورة المقابلة رسم لسفينة مصنوعة على هذا المثال . وعنده أن سفينة حمولتها ٧٠ الف طن وطولها الف قدم ، اذا صنعت على هذا المثال زادت سرعتها ٢٠ في المائة أي نحو ستّ عقد بحرية من دون أن تزيد ما تنفقهُ من الوقود كما فعلت السفينة الايطالية «ركس» فتستطيع ان تختصر مدة سفرها بين نيويورك وبليموث ٢٢ ساعة . ثم ان بناءها على هذه القواعد يخفض مقاومة الريح لها ١٤ في المائة

أما القطارات فحالتها أحرج من حالة السفن الآن لأن الطائرات والسيارات تنافسها في ميدان الانتقال والنقل على سطح الارض . وقد نقص عدد الأميال التي قطعها المسافرون بالسكك الحديد الاميركية من ٤٧ مليوناً سنة ١٩٢٠ الى نحو ١٧ مليوناً سنة ١٩٣٣

وقد صنع في أميركا قطار من هذا القبيل وفقاً لقواعد الحركة العلمية باسم زفير Zephyr . هذا القطار يحتاج الى قوة ٥٠٠ حصان لجرّه مسافة ٩٠ ميلاً حاملاً ١٢٠ مسافراً وما زنتهُ ٢٥ الف رطل من البريد والامتعة . أما القطار المألوف فيحتاج الى قوة ٣٤٠٠ حصان لنقل الحمل نفسهِ بالسرعة نفسها . فعلى القاطرة في القطار المألوف ان تجرّ علاوة على كل راكبٍ ، ما وزنهُ ثمانية اطنانٍ من عربات القطار نفسهِ ، والنفقة التي تتكبدها الشركة على جرّ هذا الوزن الاضافي ، تبلغ ريالاً لكل ميل من السير ، وتنفق القاطرة ما قوتهُ ٨٫٣ الحصان على كل مسافر وما يتبعه . فاذا سمح للمهندس ان يصنع قطاراً تجتمع فيه القواعد التي بسطناها وحولت قاطرتهُ من قاطرة بخارية الى قاطرة كهربائية : اصبحت القوة التي تنفق على جر المسافر الواحد وما يتبعه خمسة أحصنة بدلاً من ٨٫٣ الحصان ، واصبح ما تنفقه الشركة على الميل الواحد من السفر تسعة قروش بدلاً من عشرين قرشاً . وبذلك تستطيع سكك الحديد ان تنافس السيارات والطائرات . وقد بدأت شركات السكك

الحديد تتنبه لهذا الامر، ولكنها مترددة في احداث الانقلاب التام الذي يقتضيه : لأن الانسان بوجه عام يكره التزحزح عن شيء ألفه ولو كان الربح في الانقلاب مضموناً، والخسارة في الاستقرار لا ندحة عنها

ان سر السرعة في الطبيعة هو خلق الاحياء حتى تكون مقاومة الوسط الذي تتحرك فيه اقل ما يمكن ان تكون . « فالعودة الى الطبيعة » يجب أن تكون شعار هذا العصر الراغب في السرعة

***

كتبنا هذا المقال ولم نذكر فيه اللفظ الانكليزي الذي يُدلُّ به الآن على السيارة او القطار المصنوع على اساس القواعد التي بسطناها . هذا اللفظ هو Streamlining واصل الكلمة من ان حركة السوائل نوعان احدها جريان في خط مستقيم او يكاد يكون مستقيماً streamline motion والثانية جريان مضطرب تكثر فيه الدوامات وتزداد بازدياد السرعة turbulent motion فلفظ streamlining مطبقاً على سيارة مصنوعة وفقاً لقواعد الحركة العلمية يقصد به ان يكون شكلها بحيث تكون حركة السائل او الغاز الذي تسير فيه خلواً من الدوامات على قدر الامكان لأن هذه الدوامات هي التي تعيق تحركه اي انها سرُّ مقاومة السائل او الغاز لهُ . وشكل الجسم الذي يسير في سائل او غاز من دون ان يحدث هذه الدوامات ، او يحدث منها اقل مما يحدثهُ اي شكل آخر، هو الشكل المستطيل البيضي المقدمة المستدق المؤخرة . وقد يصلح القول بأنهُ شكل مساير للتيار (استعمال عوض جندي) ولكننا نفضل كلمة واحدة اذا امكن ليسهل التصرف بها عند الكتابة . فراجعنا في المخصص ما جاء في اوصاف حركة الحيوانات المختلفة لعلنا نعثر فيها على ما يمكن استعارته لما نحن في صدده

ثم خطرت على بالنا مادة مشق ومن معانيها « مشقت الجارية على المجهول مشقاً اي طالت مع رقة . . . . المشق سمكة بحرية . . . (بينا في هذا المقال ان الاسماك بوجه عام اقرب ما يكون من المخلوقات للشكل الامثل الذي تقتضيه قواعد الحركة والراجح ان اسم هذه السمكة أخذهُ العرب من مادة مشق نفسها لانهم كانوا يطلقون على النبات والحيوان اسماء مشتقة من اوصافها فقالوا في طائر طيفور لانه كثير الطفر . وقالوا في نبات إسليح لانه يسلح الماشية) .... وفي قدها مشق اي طول مع رقة . . . والمشق من الرجال الخفيف اللحم .... المشيق من الخيل الضامر . . . ورجل مشيق اي خفيف اللحم ..والممشوق «من الجواري والقدود والخيل والرجال بالمعاني التي تقدمت » ومن القضبان الطويل الدقيق . . . » ومن عجائب الاتفاق ان من الأمثلة التي يضربها العلماء على stremlining في الطبيعة «قضبان جردت من اوراقها وزوائدها

فالطول مع الرقة، وخفة اللحم في الرجال ،والضامر من الخيل، والطويل الدقيق من القضبان، كلُّ هذه معان يتضمنها المقصود من الجسم الذي يصحُّ عليهِ الوصف streamlined لذلك قد يصلح ان نقول سيارة مشيق او ممشوقة بمعنى treamlined car وقطار مشيق او ممشوق streamlined train وهكذا

النباتات المصرية القديمة

للدكتور حسن كمال
[وكيل القومسيون الطبي العام]

الحبوب وصناعة الخبز

حبوب الاوطس هي الحبوب الوحيدة التي عثر عليها من الزمن السابق للعهد التاريخي . والفضل في ذلك يرجع الى (ده مرجان) الذي اكتشفها مع زميليه (بتري) و (اميلينو) . اما مقابر الامر الاول (حوالي ٣٤٠٠ ق . م .) فحوت بعض اوعية عثر فيها على نوع من القمح يعرف بالقمح الجبلي او قمح جبل فارس وعلى الشعير ايضاً (Recherches 1897 t II p 100, 94)

(١) قمح جبل فارس : ويقال له باللاتينية Triticum Spelta عثر عليه اولاً في اوعية قرابين الموتى الخاصة بغزاة مصر الاقدمين . وثبت وجوده في الزمن السابق لعهد الاسر (٣٤٠٠ ق.م.) . ونسب المصريون الى (ازوريس) شرف اكتشاف الحبوب ودراسة النبات المجهول والدقيق كما نسبوا الى زوجته (ازيس) فخر ابتكار صناعة الخبز

واننا لم نهتدحتى الآن الى موطن هذا النبات الاصلي . لكن الرأي السائد انه لا يبعد كثيراً عن فلسطين ورجح بعضهم وجوده ايضاً في العراق (بلاد النهرين) . وقسم المصريون هذا الحب الى نوعين ابيض واحمر ولا يبعد ان يكون لهذا التقسيم صلة جغرافية بمواضع زراعته كأن يكون الوجه القبلي موطن النوع الابيض والوجه البحري مزرعة النوع الاحمر ويقال لهذا النوع من القمح بالمصرية القديمة (بدت)

(٢) البرّ — او — الحنطة Triticum Vulgare : — قال (ده كاندول) [1] ان الانسان اجتهد من قديم الزمان في تحسين القمح الجبلي (قمح جبل فارس) بطريقة التلقيح المختلط فتمكن بذلك من الحصول على نوع القمح الحالي المعروف بالبرّ او الحنطة . ولما لم يهتد الأثريون على حبوب البرّ منذ اوائل القرن التاسع عشر بعد الميلاد الى عهد قريب استنتج (كروسانس Crosatz) [2] ان ذلك يتمشى تماماً مع ما نسب الى بطلميوس الاول من انهُ اول من ادخل البرّ في حياة مصر الاقتصادية . لكن عثر حديثاً على آوان وكؤوس حاوية برّاً باحجام متباينة (بتري مجلة مصر القديمة مجلد ١ ص ٧٨ و٧٩) . وكان المصريون يكسون البرّ بطبقة خفيفة من الورنيش للمحافظة عليه . واهم انواع الحنطة او البرّ التي كانت معروفة عندهم وقتئذٍ هي (Triticum Amyleum [3]

---

(1) De Condolle, Recherches Sur Les l'origines des plants cultivées p 289
(2) Mem. Sur l'Egypte Paris X t II p 144 (3) Meyer Hist. Vol II

و Triticum Vulgare و Triticum Turgidum . ودار تحف الاوفر بفرنسا يحوي مزيجاً من النوعين الاخيرين . (راجع مجلة العاديات المصرية مجلد ٧ ص ٢١٢)

وكانت مصر تصدر الحنطة الى جميع سكان البحر الابيض المتوسط . ويستدل على عظم محصول مصر وقتئذٍ بتأثير القحط الذي حل بمصر على بلدان البحر المتوسط . فقد جاء بالذكر الحكيم حكاية عن ذلك « يا ايها العزيز مسنا واهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا » — سورة يوسف . اما سفر التكوين فقد جاء فيهِ عن ذلك ما يأتي (اصحاح ٤١ آية ٥٧) « واشتد الجوع في ارض مصر . وجاءَت كل الارض الى مصر الى يوسف لتشتري قمحاً . لان الجوع كان شديداً في كل الارض » واحتكرت الحكومة المصرية حق تصدير الحنطة وحق بيعها

قال شاباس (Bibl Egypt. Vol XII p. 32) ان آسيا كانت تورد في عهد تحوتمس الثالث (١٤٧٩ — ١٤٤٧ ق . م) الحنطة كجزء من جزيتها

قال المرحوم كمال باشا : ان «قمح» هو لفظ مصري قديم وجد على الآثار هكذا ـ قمح قموـ بدليل ما جاء في هرم تيتي من ان حوريس اكل خبز القمح الخاص به وكانت قد خبزته له خادمته الكبيرة (Pyr. Teti p 96) . ويوجد من القمح الفرعوني الآن مقادير كبيرة في جميع متاحف اوربا مأخوذة من المقابر المصرية القديمة . ووجدت مرة بالأقصر حوالي سبعة ارادب قمحاً احضرت الى متحف القاهرة . قال لوريه وقد اختبروا زراعة هـذا القمح القديم فبذروه بعد ان مضى عليهِ سبعة آلاف سنة لكنهُ لم ينجح . وبحثه الكيماويون بالقائه في الكؤول الساخن الى درجة الغليان فوجدوا انهُ قد انفصلت منه مادة راتنجية رسبت في قاع الاناء . فاستنتجوا من ذلك نتيجة غريبة وهي أن المصريين الاقدمين كانوا يعدون لمؤونة موتاهم قمحاً مدهوناً بنوع من الورنيش قبل وضعه في المقابر كي يقاوم مرور الزمن وتأثيراته . والواقع ان هـذا الدهان الراتنجي حفظ القمح وحفظ ما فيه من الدقيق وخاصيته الى ان وصل الينا . قال ووجد (شوينفورت) قمحاً أقل حجماً من قمحنا الاعتيادي شبههُ بالقمح البحيري ويشاهد القمح مرسوماً بكثرة في المقابر بين المزروعات ومذكوراً في نصوص القرابين . وكانوا يستعملونه كثيراً في الطب مع تراكيب لألم المعدة وفروة الرأس

(٣) الشعير (Hordeum Vulgare) : — وجد بمقابر الاسر الاول مع القمح الجبلي[1] ولم يعلم للآن موطنه الاصلي القديم بالضبط . وميز قدماء المصريين بين « الشعير الابيض » و « الشعير الاحمر » . وفي دار تحف القاهرة سنبلة شعير يرجع تاريخها الى الاسرة الخامسة (٢٧٥٠ — ٢٦٢٥ ق.م.) في حالة تحلل (مجلة المعهد العلمي المصري رقم ٥ سنة ١٨٨٤ ص ٤). وعثر العالم (أونجر) في قالب لبن بدهشور على شعير[2] وميز شوينفورت هذا النبات بين ماوجده في جبلين (مجلة المعهد العلمي المصري) سنة ١٨٨٦ ج ٧ ص ٤٢٢

(1) De Morgan, Recherches t II p 100 (2) Loret (La Flore p. 24)

وكان المصريون يصنعون الخبز من الشعير في عهد الاهرام (اي قبل عام ٢٧٥٠ ق .م.) اما الجعة او البيرة فكانت تصنع في جميع العصور من الشعير (هيرودتس ٢ — ٧٧ ، ديودورس ١ — ٣٣ استرابون ١٧ — ٢٤ ، بليني ٢٢ - ٢٥) . وكان المصريون ينسبون صناعة البيرة دائماً الى المعبودة إيزيس وكانت كل سيدة تحرص دائماً على اقتناء البيرة او الجعة بمنزلها (ماسبرو — حكايات العامة ص ٤٢)

ولصناعة الجعة كانوا يستعملون الشعير النابت دون المختمر . قال شوينفورت (مجلة المعهد العلمي المصري سنة ١٨٨٥ ص ٢٧١) ان هذه الحقيقة ثبتت من وجود شعير نابت بجذور يتراوح طولها بين ٥ و٧ سنتيمترات بنفس الوصف الذي تصنع منه الجعة (البوظة) هذه الايام . وبعد ما يصنعون منه كعكاً يكسرونه ثم ينقعونه في الماء حتى يختمر . الى هذه المرحلة فقط كان الاقدمون يكتفون في صناعة جعتهم (بوظتهم). وكثيراً ما نشاهد بالمقابر المصرية القديمة رسوم تمثل صناعة الخبز (لبسيوس دنكمايلر لوحة ٢١ — مقبرة تي — دشاشة لوحة ٢٧ و١٨ الخ) . ويلاحظ ضمن هذه الرسوم الطحانون يطحنون الحبوب بين الاحجار والعجانون يعجنون العجين والخبازون يخبزون الخبز . وبالقرب منهم عمال يصنعون الجعة (البيرة — البوظة) ويصفونها بمصفاة. واعتاد القوم ان يرسموا هذين العملين جنباً الى جنب لانهما يمثلان اهم مرحلتين في صناعة هذا الشراب الوطني

وفي العصور المتأخرة اضاف القوم بعض النباتات الى الجعة ليكسبوها رائحة ذكية وتمكنوا في العهد الفرعوني من عمل عدة انواع من الجعة . من ذلك الجعة العذبة (البوظة) المقال لها عندهم (حِكت) ويقابله بالعربية رحاق . رحيق (كمال باشا) . ايضاً سخب — من سكب الماء صبه (كمال باشا) [1] . وفي العصور الاخيرة اشتهر اهالي بلوزيوم (قرب بور سعيد) بصناعة نوع الجعة المعروف باسم زيثوس (Zythus) (راجع ديودورس ١ — ٣٤) . وبعد تصفية الجعة كانت تخزن داخل اوان داخلها مطلي بالقار حتى يتم اختمارها. ويقال للشعير بالمصرية القديمة (ات) — ويقابله بالعربية عُض وهو الشعير (كمال باشا) . ومنه اخذت الكلمة القبطية (يوت)

(٤) الذرة (Sorgham vulgare): قال شوينفورت في (مجلة المعهد العلمي المصري سنة ١٨٨٦م ٧ ص ٤٣٦) ان الذرة لم توجد في مصر القديمة لانه لم يعثر عليها في المقابر ولم ترسم على الآثار. وخالفه في ذلك الاساتذة ارمان ولبسيوس واونجر (راجع رسم لبسيوس الذي اورده اونجر في كتابه عن النباتات المصرية القديمة ص ٣٤) حيث قالوا ان هذا النبات منقوش على الآثار . واما ولكنسون فقد ذكر في كتابه عن (عادات قدماء المصريين م ٢ ص ٤٢٦) انه استطاع تمييز الذرة على الرسوم المصرية القديمة باللون والارتفاع والشكل الخ . وهذه الآراء المتناقضة تشير الى ان وجود الذرة ان لم يكن امراً مؤكداً فلا يبعد ان يكون هناك نبات آخر شبيه به استعمل في صناعة الخبز والكعك والمعروف عن الذرة انها نوعان نوع اميركي الاصل يعرف في الشام بالذرة الصفراء وفي مصر

(1) Weil, Les origines de l'Egypte Pharaon p 251

بالذرة الشامية وهي دخيلة في الشرق منشؤها اميركا الجنوبية كما يقول الاستاذ (ايست) بجامعة هافرد . قال الفريق امين المعلوف باشا في مقتطف يناير سنة ١٩٣٥ ص ٣٨ » : اما الذرة المعروفة بهذا الاسم العربي فشرقية نشأت بأفريقيا في عهد راسخ في القدم فاذا ذكرنا هذين النوعين من الذرة ارى ان نسمي الذرة المعروفة بهذا الاسم في كتب اللغة العربية بالذرة الافريقية او الذرة البلدية ونسمي الاميركية بالذرة الاميركية او الذرة الصفراء دفعاً للالتباس . قال واقدم ذكر للذرة بهذا الاسم فيما وقفت عليه هو في القرن الرابع للهجرة اي قبل اكتشاف اميركا بزمن طويل فلا يمكن ان تكون الذرة التي عرفها العرب اميركية الاصل . فهذه زرعها المصريون في زمن عريق في القدم كذلك العبرانيون فقد ورد ذكرها في سفر حزقيال باسم الدخن . ويرى العلماء ان الدخن نوع من الذرة البيضاء وكلاهما قديم في الشهرة

(٥) الفول (Vicia Faba) : اعتاد قدماء المصريين ان يقدموا الفول لموتاهم منذ عهد العائلات الاولى (حوالي ٣٠٠٠ ق. م.) واكتشف الاستاذ بتري كثيراً من الفول في مقبرة من عهد الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠—١٧٨٨ ق.م.) [1] . وورد ذكر الفول كثيراً في قرابين المقابر الطيبوية . وجاء عن رمسيس الثالث (١١٩٨—١١٦٧ ق. م.) انه زاد في دخل الفول كثيراً لمخازن اغذية معبد آمون (مجلة المعهد العلمي المصري سنة ١٨٨٤ ص ٧)

اما هيرودوتس فقال ان المصريين لم يبذروا الفول في حقولهم . واذا حصل ونبت فانهم كانوا لا يأكلونه طازجاً كان او مطبيّاً . ولم تجرأ طائفة الكهنة على رؤيته لانهم اعتبروه دنساً

واسمه بالمصرية القديمة فوير ويقابله بالعربية فول (بقلب الراء لاماً كما يحصل كثيراً)

(٦) العدس (Ervum lens) : قال هيرودوتس (٢— ١٢٥) ان العدس كان من ضمن اغذية عمال اهرام الجيزة . وقد عثر بمقبرة بدراع ابي النجا بالاقصر على طبق يحوي عجين العدس (مجلة المعهد العلمي المصري سنة ١٨٨٤ ص ٧ رقم ١٢) وهذا العجين محفوظ الآن بمتحف القاهرة

وكان المصريون يفصلون قشور العدس عن حبه . وورد في القصص التاريخية عن فلوطرخومي (قصة ازيس واوزوريس ٦٨) ان بشائر العدس كانت تقدم الى المعبود هيرو قراط . قال المرحوم كمال باشا (بغية الطالبين) وكان العدس من المآكل المألوفة عند قدماء المصريين . فقد جاء عن بني اسرائيل انهم قالوا ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ويقال له بالمصرية عرمش ويقابله بالعربية بُلسن وهو العدس المأكول (كمال باشا)

(٧) الحمص (Cicer arietinum) : ويقال له بالانكليزية Chick-pea : قال هيرودوتس ان الديانة المصرية القديمة حرّمت اكل الحمص . وفسّر ذلك ديودورس (٢ — ٣٣) بقوله ان هذا المنع مقصود به افهام الناس معنى الحرمان . واسمه بالمصرية القديمة لم يعرف بعد

---

(1) Loret, La Flore Pharaon. II 94

حجم ذرة الاثير

كيفية استخراجه بالمقايسة

بقلم نقولا الحداد

نشأت نظرية الاثير حين ثبت ان النور حركة موجية تحدثها اهتزازات ذرات الجسم المنير . ففرضوا وجود شيء ادق جداً من المادة المعروفة يملأ الفضاء سموه اثيراً ، تموجه ذرات المادة وهي مهتزة ، او بالاحرى وهي دائرة على محاورها . فيرحل التموج بسرعة ٣٠٠ الف كيلو متر بالثانية .

وبقيت نظرية الاثير سائدة نحو قرنين الى ان اكتشفت بعض ظاهرات طبيعية تدل على ان النور امواج كهرطيسية (كهربائية مغنطيسية) كأمواج الراديو ، وان المادة المتشععة كالراديوم تنقص كتلة مادتها بهذا التشعع نقصاً يدل على ان الشيء الشاع (او الشعاع) هو مادي ايضاً . فقالوا ان النور ذرات مادية Particles منتشرة من الجسم المنير . ثم تحققوا ان كلاً من البروتون والكهرب متى قضي عليه لسبب ما بالاندثار تفتت الى ذرات سموها فوتونات . فالكهرب ينحل الى ١٠ آلاف فوتون. ولما كان البروتون يساوي ١٨٤٠ كهرباً كتلة ووزناً فهو اذا اندثر ينحل الى ١٨٤٠ × ١٠٠٠٠ = ١٨٤٠٠٠٠٠ فوتون . فذرة الهيدروجين المؤلفة من بروتون واحد وكهرب واحد اذا اندثرت انحلت الى ذلك العدد من الفوتونات . والفوتون هو اصغر ما عرف من اجزاء المادة ، ويظن انه آخر « وحدة » Unit منها لا يقبل التجزئة . فاكتشاف الفوتون هذا جعل العلماء يعتقدون ان الشيء الشاع هو الفوتون نفسه وان الذرة التي تنقص بالتشعع Emanations (كالراديوم) انما هي تنقص فوتونات منتثرة في الفضاء بزخم بسرعة ٣٠٠٠٠٠ كيلو متر في الثانية . وقد ظهر ان الفوتون خلافاً للبروتون والكهرب غير مشحون شحنة كهربائية . ولكنه باندفاعه بتلك السرعة يحمل طاقة Energy

بناءً على هذا الاكتشاف قالوا ان النور (وكل تموج كهرطيسي) انما هو هباء مادي ينتقل بنفسه بلا وسيط . فلا لزوم لفرض الاثير . وفي رأي آخرين ان هذا الحكم القاضي على الاثير تسرُّع وتطرُّف . لان المتعمقين منهم في البحث لا يرون غنى عن الاثير ، ما دام النور (وكل تشعع كهرطيسي) يسير امواجاً مختلفة بالطول وبعدد الموجات في الثانية . على ان الذين يصرُّون على جحد نظرية الاثير يزعمون ان الفوتونات المذكورة تسير متموجة من تلقاء نفسها . وفي رأي السر جيمز جينز الذي يصالح بين النظريتين ان الفوتون يسير دائراً على نفسه دوراناً حلزونياً في الفضاء كما

تسير رصاصة « دم دم » . وذلك كقولك ان الرصاصة المنطلقة من بندقية « دم دم » تندفع متعرجة بشكل الموجة . ولا نرى مسوّغاً لهذا الفرض لانه ليس اقرب الى العقل من القول ان الرصاصة وهي مندفعة بخط مستقيم تحدث امواجاً في الهواء . وهكذا القول ان الفوتون نفسه يسير متعرجاً ، اذ لا نرى سبباً لتعرجه الاّ اذا كان السبيل الذي يسلكه متعرجاً فيضطر ان يتعرج بتعرجه . واذن فلا مناص من افتراض شيء يملأ الفضاء يمنع الفوتون ان يسير بخط مستقيم . وهو الاثير المفروض

ولا متسع هنا للتوسع في البحث لاثبات ان النور (وكل طاقة كهرطيسية) انما هو امواج اثيرية لافوتونات مندفعة في فضاء فارغ فراغاً مطلقاً . فالاثير يتموج بفعل دوران كل من البروتون والكهرب على محوره ودوران الثاني حول الاول وباندفاع الفوتون فيه . وتموجه هو الكهرطيسية بعينها والنور من ضروبها . وجينز وادنغتون وغيرهما يرجحون نظرية الاثير . وبناء على ارجحيتها نبحث في طبيعة الاثير كما نستدل عليها من قوانين التموج

طبيعة الاثير

من ظاهرات التموج الكهرطيسي (النور وغيره) يستدل ان هذا الاثير ضرب من ضروب المادة (اي لا هو روح ولا هو عقل) وذراته ادق جداً من ذرات المادة (البروتون والكهرب) بحيث يستطيع ان يتخلل كل فراغ بين الجزيئات Molecules وبين البروتونات والكهارب ، وانه ساكن لا يجري في مجارٍ او تيارات ، ولا حركة له الاّ الحركة الموجية الطارئة عليه من دوران الذرات المادية . وهو معلوم ان الحركة الموجية لا تستلزم انتقال الذرات من مكان الى آخر انتقالاً متوالياً ، كما ان تموج الماء مثلاً لا يستلزم انتقال ذراته من اماكنها ، بدليل ان الشيء العائم على الماء (غير الجاري) يعلو ويسفل مع الموجة ولكنه يبقى في مكانه . فالتموج انما هو اصطدام الذرات بعضها ببعض . وهكذا الاثير لا يتحرك جارياً بل ان ذراته يصادم بعضها بعضاً متى جاءتها الصدمة من البروتون او الكهرب او الفوتون

الاثير كالفوتون ليس فيه شحنة كهربائية لا ايجابية ولا سلبية . ولهذا هو ثابت غير جارٍ ، وانما هو بتموجه يحمل طاقة ، اي ان الطاقة تنتقل بواسطة تموجاته . والفوتون متى تلاشت الطاقة التي يحملها في امواج الاثير (اي متى انتقلت الى امواج الاثير) بمصادمته لذراته يهدأ ويصبح كجزء من بحر الاثير ، كما ان الماء المندفع في النهر الى البحر يبقى برهة مندفعاً فيه ومحدثاً امواجاً الى ان تتلاشى قوته فيشترك مع ماء البحر في الهدوء او الاضطراب كجزء منهُ

ولان بعض العلماء مثل جينز وادنغتون ولودج لا يتورعون عن القول بانهُ لا يستحيل ان تكون المادة متكونة من ذرات الاثير ، فلا نتورع نحن عن التوسع في فرض ان الاثير هو فوتونات لم تتكون كهارب ولا بروتونات ، او ان بعضها كانت تؤلف بروتونات وكهارب ثم انتهى عملها فعادت الى سكونها

في بحر الاثير الذي تألفت منهُ وفيهِ قبلاً ذرات مادية ، على حد قطرة الماء التي تصاعدت من البحر بخاراً ، ثم تجمعت وهبطت مطراً ، ثم جرت من اليابسة الى البحر حيث انتهى عملها

وبناء على ان الاثير هو بحر فوتونات غير مؤتلفة ائتلافاً مادياً نبحث في مقدار كثافة هـذا البحر الفوتوني الذي سميناه اثيراً . نبحث في مقدار كثافتهِ density بالنسبة الى كثافة ذرات المادة السابحة فيهِ . على اننا ننبه القارىء الى ان هذا الاثير لا يزال فرضاً بلا برهان ايجابيّ على وجوده ولا دليل محسوس عليهِ سوى ان معظم ظاهرات التموج لا تتفسر الاَّ بهِ . وبناء على هذه الظاهرات نستخرج مقدار كثافتهِ (على فرض وجوده) بالمقايسة بين سرعة امواجه وسرعة امواج المادة كامواج الصوت مثلاً

حجم الذرة الاثيرية

كيف يمكننا اكتشاف حجم ذرة الاثير ؟

اذا درسنا انواع الامواج المختلفة بحسب اختلاف طبائع المواد المتموّجة درساً دقيقاً فقد يمكننا ان نتوصل الى ناموس عام لسرعة التموج بنسبة كثافة الوسط المتموج : — « كلما كان الوسط المتموج كثيفاً كانت امواجه اسرع » . مثال ذلك الصوت . امواجه في الحديد اسرع منها في الماء، وهي في الماء اسرع منها في الهواء : سرعة الصوت في الهواء على درجة حرارة الصفر بمقياس سنتغراد ٣٣١ متراً في الثانية ، وفي الماء على درجة ١٣ سنتغراد ١٤٤١ ، وفي الحديد ٥٠٠٠ متر تقريباً . كل ذلك في الثانية . لان الحديد اكثف من الماء والماء اكثف من الهواء كما هو معلوم

ولكن ايضاح هذا الناموس يستلزم تفسير معنى كل من الكثافة والتموج . فاولاً ما هي الكثافة؟

الكثافة هي نسبة عدد وحدات الجسم (المتموج) الى حجمه . والمراد بالوحدة كل ذرة او كل مجموعة ذرات متحدة في جزيء او مجموعة جزيئات متحدة في كتلة بحيث تتحرك ذرات المجموعة معاً حركة واحدة . فكلما كان عدد الوحدات (ذرات او جزيئات) اكثر في الحجم الواحد كالسنتيمتر المكعب مثلاً عُدَّ الجسم اكثف . فالماء يعد اكثف من الهواء لان في السنتيمتر المكعب منهُ ذرات او جزيئات اكثر مما في سنتيمتر مكعب من الهواء . وفي سنتيمتر مكعب من الحديد ذرات اكثر مما في ذينك الاثنين (فناموس الكثافة اذاً : الكثافة = عدد الذرات ÷ الحجم)

وسبب ان الجسم الاكثف مادةً اسرع تموُّجاً يظهر في تفسير معنى التموُّج — فثانياً ما هو التموج؟

التموج هو مصادمة الذرة (المصدومة بالجسم المصدر الحركة الموجية) لذرة مجاورة لها . ثم ارتدادها عنها (رد فعل) . ثم مصادمة هذه الذرة الثانية لذرة ثالثة اخرى مجاورة لها كما فعلت الاولى بها ، ثم مصادمة الثالثة لرابعة وهلمَّ جرًّا . ولا يخفى ان المصادمة تستغرق وقتاً مناسباً للمسافة التي تقطعها الذرة في انتقالها من موضعها الى موضع الذرة الاخرى التي تصادمها او تصطدم بها . فكلما

كانت المسافة بين الذرات اطول (اي كلما كانت الذرات متباعدة وبالتالي تكون الكثافة اقل كما علمت) كان الاصطدام يستغرق وقتاً اطول، وبالتالي تكون الموجة ابطأ . فاذاً يجمل ناموس التموج هكذا : مثلاً

$$\frac{\text{سرعة تموج الهواء}}{\text{سرعة تموج الماء}} = \frac{\text{كثافة الهواء}}{\text{كثافة الماء}}$$

الى هنا غضضنا النظر عن امر آخر لا بد من ادخاله في الحساب وهو وزن وحدة الجسم (ذرته او جزيئه) وحجمه او الحيز الذي يملأه . فوزن جزيء الماء اثقل من وزن جزيء الهواء (المعدل الاوسط لجزيئات الهواء المختلفة من اوكسجين ونيتروجين الخ) ووزن جزيء الحديد اثقل من وزن جزيء كل من ذينك . فما هو حساب الوزن في سرعة التموج ؟

كلما كانت الوحدة، (ذرة او جزيئاً) ، اثقل كانت حركة المصادمة ابطأ كما هو معلوم من ان تحريك الاثقل يستلزم قوة اكثر لتحريكه . ثم ان اوزان الجزيئات مناسبة لاحجامها على الغالب . فجزيء الحديد اكبر من جزيء الماء ، لان فيه بروتونات وكهارب اكثر تشغل حيزاً اوسع . جزيء الحديد (ثنائي . ذرتان) ١١٠ بروتونات وجزيء الماء ١٦ اوكسجين + ٢ هيدروجين . والنسبة بينهما ٨ الى ١ وهي تقارب النسبة بينهما في الكثافة وهي ٧٫٧٥ الى ١ ، لذلك كانت سرعة التموج في الحديد $\frac{٥٠٠٠}{١٤٤١}$ = ٣،٤ اضعاف سرعة تموج الماء في حين ان كثافة ذاك ٧٫٧٥ اضعاف كثافة هذا

واذا تفرغ رياضي لهذه المسألة مراعياً فيها الوزن الذري والثقل النوعي والحجم امكنه ان يتوصل الى عبارة رياضية عامة يستطيع بها ان يستخرج حجم ذرة كل جسم متموج بالنسبة الى حجم ذرة الهيدروجين باعتبارها مقياساً . هذا اذا عرف مقدار سرعة التموج في ذلك الجسم . ولا ينكر ان العملية معقدة تستلزم اعنات الفكر . اما نحن في هذا البحث فنستطيع التوصل الى غرضنا من غير عملية معقدة اذا قايسنا بين سرعة امواج الهيدروجين الصوتية وأمواج الاثير النورانية . لان الهيدروجين ابسط العناصر كما هو معلوم وذرته معتبرة الوحدة الاولى لكل العناصر ومركباتها . فهو بروتون واحد مع كهربه . وسرعة الصوت في غاز الهيدروجين ١٢٥٨ متراً في الثانية اي كيلو متر وربع تقريباً (وذلك ٤ اضعاف سرعة الصوت في الهواء)

فاذا صح قانون تناسب السرعة والكثافة الذي تقدم نصه كانت سرعة موجة الهيدروجين (١ ¼ كيلو متر) الى سرعة موجة الاثير (٣٠٠ الف كيلو في الفراغ) كنسبة كثافة الهيدروجين الى كثافة الاثير . فلنتخذ الحيز الذي تشغله ذرة واحدة من الهيدروجين وحدة للكثافة لكي نعلم كم ذرة اثير تشغل ذلك الحيز نفسه :

$$\frac{\text{١ ¼ (سرعة موجة هيدروجين)}}{\text{٣٠٠٠٠٠ (سرعة موجة اثير)}} = \frac{\text{١ (كثافة هيدروجين . ذرة واحدة)}}{\text{ك (كثافة اثير)}}$$

اذن ، ك = ٢٤٠٠٠٠ ذرة اثيرية

في هذا الحساب اعتبرنا السرعة في خط واحد مستقيم . وهي بالحقيقة تنتشر الى جميع الجهات فاذاً ذلك الرقم ٢٤٠٠٠٠ ليس الا عدد ذرات الاثير التي تشغل قطر الحيز الذي يشغله الهيدروجين. فاذا كعَّبناه حصلنا على عدد ذرات الاثير في الحيز الذي تشغله ذرة واحدة من الهيدروجين وهو تقريباً ١٦ الف بليون ذرة

فانظر ما اكثف الاثير بالنسبة الى كثافة الهيدروجين . ولو انحلت ذرة الهيدروجين الى فوتوناتها وهي ١٨ مليون تقريباً لكان بين كل فوتون وآخر نحو ١٠٠ مليون ذرة اثير تقريباً

واذا صدق هذا الحساب وصدق الظن بأن الفوتون ليس الا ذرة اثير فلا نعود نتعجب من ان البروتون الذي يساوي الكهرب بالحجم يزن ١٨٤٠ مرة كوزنه ويحتوي على ١٨ مليون فوتون تقريباً محشودة فيه حشداً اكثف من البحر الاثيري . وكذلك لا نستغرب ان الكهرب المحشود فيه نحو عشرة آلاف فوتون لا يكاد يعد ذا كتلة مادية . ولا نستغرب ايضاً ان بين الكهرب وبروتونه رحبة واسعة المدى بالنسبة الى حجمهما ، وان المسافة التي بين فلك الكهرب وبروتونه تشغلها ملايين ذرات الاثير ، والكهرب يفلحها فلحاً في اثناء دورانه ، ولا يكاد يشعر باحتكاكها فيه. مع انهُ يصدر فيها أمواجه الكهرطيسية. فدقة ذرات الاثير لهذا الحد واحتشادها هذا الاحتشاد هما سرّ سرعة النور الفائقة وسرعة كل تموج كهرطيسي . وهذا هو السر في انها السرعة المتناهية التي لا يمكن ان تفوقها سرعة اخرى ، لانه لا يوجد في الكون وسط لانتقال الامواج أدق ذرةً من الاثير واكثر احتشاداً بذراته (كثافة) . أفليس في هذه الحقيقة برهان دامغ على أن النور (وكل طاقة كهرطيسية) انما هو تموج أثيري ؟ لانهُ لو كان مجرد فوتونات منتثرة من الذرات لما كان ذا سرعة ثابتة لا تتغير ، بل كانت الفوتونات تندفع كسائر القذائف وبسرعة تعادل القوة التي قذفتها ، كسرعة القنبلة بالنسبة لقوة المدفع

بعض خواص الاثير

بناءً على تقارب الذرات الاثيرية العظيم بالنسبة الى ذرات المادة كذرات الهيدروجين ، او أي عنصر آخر او اي مجموعة ذرات سابحة في بحر الاثير أو متحركة فيه أية حركة او تدور على نفسها او حول مركز — كانت هذه الذرات من غير بد تصادم ذرات الاثير في طريقها وتشق فيها اثلاماً وتحدث تموّجاً . وهذه بنوبتها تصادم اخواتها التي حولها ، وهكذا دواليك تنتشر الموجة في الفضاء الى ما لا نهاية لهُ

لذلك لا نقدر ان ننفي من الذهن فكرة الاصطدام بين الاثير والذرات المادية المتنوعة وكهاربها خلافاً لرأي السير اوليفر لودج نصير الاثير . فلا بدّ ان يكون بين الذرة والاثير شيء زهيد جداً

من الضغط يساوي جزءًا من ملايين من مقاومة الذرة لذرة اخرى . وفي نظر هـذا العاجز لولا وجود هذا الضغط لما وجد ناموس الجاذبية . ولهذا بحث خاص

لا ينفي السير اوليفر لودج هذه المقاومة فقط بل بنفي اللزوجة عن الاثير . فلا يعلق منهُ شيء بالمادة المتحركة فيه كما يعلق الماء بجوانب السفينة الماخرة في البحر . وهو مصيب بنفي اللزوجة لانها تستلزم وجود تجاذب او الفة بين ذرات الاثير وذرات المادة . وهذا التجاذب غير موجود بحسب رأي جينز وغيره ممن يقولون بأن الفوتون خالٍ من الشحنة الكهربائية . فما للاثير من خاصة الحركة الاَّ انهُ الوسط الذي تنتقل الحركة (او بالاحرى الطاقة) بواسطة تموجهِ

وزعم انصار الاثير انهُ لا وزن له . وانما بحسب حسابنا السابق وباعتبار ان الأثير بحر فوتونات تزن الذرة الاثيرية نحو جزء من ١٨ مليون من وزن ذرة الهيدروجين . ولكننا لا نستطيع ان نزن الاثير كما نزن الماء والهواء لاننا لا نستطيع الخروج منه والاستقلال عنه كما نحن خارجون عن الماء ولا نستطيع ان نفرغ حيزاً منه كما نفرغ انبوبة من الهواء . نحن فيهِ كالسمكة في البحر لو كانت تعقل لما كانت تستطيع ان تعلم ثقل الماء وهي غائصة فيه لا تستطيع الخروج منه

واذا كانت الفوتونات ذرات أثيرية (كما يميل الى هذا الظن بعض العلماء) انحلت اليها المادة بروتوناً وكهرباً . فهي اذن كلما تناثرت من المادة وتدفقت في بحر الاثير العظيم فلا تزيد كثافته فقط بل تزيد اتساعه ايضاً . وقد تعود كثافته الى حالتها الطبيعية باتساعه على حساب الفراغ المحيط بهِ . وهذا الظن يطابق نظرية . ان الحيز الكوني يتسع رويداً كما حققته ارصاد هوبل وكما علله ديستر ولاميتر

واذا كانت ذرات الاثير كالفوتونات غير مشحونة كهربائيًّا كما قرر العلماء بشأن الفوتون بناء على اختبارات ظاهرات طبيعية فلا توجد قوة التدافع بينها كما توجد بين الكهارب وكلها سلبية الشحنة من نوع واحد . فلا تصد بعضها بعضاً كما يصد الكهرب الكهرب ، وانما تزحم بعضها بعضاً . واذن فيحتمل جدًّا ان يكون النسيج الاثيري حول الجرم الذي تتدفق منه الفوتونات ، كالشمس مثلاً ، كثيفاً جدًّا بسبب ازدحامها . وهـذا الازدحام يقل كمربع البعد (طبقاً لناموس الجاذبية) فلذلك تقل سرعة النور العابر من هناك ويعتوج خط سيرهِ كما أثبته اينشطين

***

اذا صحت نظرية الاثير كما شرحها هذا الضعيف فيما تقدم سهل جدًّا تعليل سر الجاذبية باعتبار ان الجو الجاذبي Gravitational field ليس الاَّ تموجات أثيرية تحدث قوة الشرود عن المركز Centifugal force المعادلة لقوة التجاذب Centripetal force التي هي خاصة من أهم خواص المادة وعلة حركتها . وفوق كل ذي علم عليم

فلسفة الجمال

ESTHETICS

يخلق الحب جمالاً والجمال حبًّا

لحنا خباز

ليس في لغات هذا السيّار الصغير اقدس من هاتين الكلمتين : الحب والجمال : على انك لا ترى موضوعاً اقصر الناس باعاً فيهِ منهم في الحب والجمال . واليك المثل المحسوس الملموس . هذا مقتطفنا العزيز ، وقد ادرك الستين من العمر ، ولم يترك من بحوث العلم والادب شاردة ولا واردة . ولكن كم مقالة لهُ في فلسفة الحب ؟ فلست اطرق اذاً موضوعاً مبتذلاً في هذه المقالة . بل اراني غاية في الافتقار الى آراء كبراء الكتّاب والباحثين

***

في كل قلب معبد للجمال ، وفي كل بيت هيا كل ومذابح . على ان القليلين هم الذين يعنون بكشف استاره ، وسبر اغواره . وبحث الجمال والحب هو من خصائص علم النفس — Psychology — ولكن علم النفس تخلى عنهُ للفلسفة ، شأن العلوم في كل بحث عويص ، فانها تتخلّى عنهُ للفلسفة . هذا هو ديدن العلوم ولا سيما العلوم العصرية الممتازة بالمختبرات والتجارب ، وبردّ القواعد العلمية الى المقادير والارقام . فانها عاجزة عن خوض مثل هذا البحث . ولذلك جعلت عنوان هذه المقالة « فلسفة الجمال » وليس « علم الجمال »

على ان الفلسفة نفسها ، وهي في ذروة مجدها ، في العصر الباركليسي وبعدهُ ، لم تُعنَ كثيراً بحلّ مسألة « الجمال » . ما هو الجمال ؟ ولماذا تقول عن شيءٍ انهُ جميل ؟ فاقتصر فيثاغورس في امر الجمال على ردّ السلم الموسيقيّ الى قواعد الرياضة ، ووصف الاتزان بالشكل الكروي . وكان الفلاسفة الاقدمون — قبل سقراط — يصفون الجمال بحدود المكان والمقدار . فكانت الموسيقى عندهم « انتظام الاصوات » وجمال المرئيات « انتظام النسب » . اما افلاطون الالهيّ فوحّد ذاتية الجمال والخير . فالمثل الاعلى عنده هو « الجميل » او « الخير » ولم يفسح للموسيقى مجالاً واسعاً في مدينتهِ المثلى الاّ في تثقيف الاحداث

***

وكان الفيلسوف بمغارتن الالمانيّ اول من افرد الجمال ، وجعله موضوع بحث خاص . واختصّ غروتشي بهِ فدعي « فيلسوف الجمال » . وقد سبقه اريسطوطاليس فوضع للجمال التعريف التالي :

الجمال هو الاتزان ، وحسن اندماج الاجزاء في الكل : وقد اضاف الفيلسوفان لاسن وونكلمن الى هذا التعريف شيئاً يسيراً . فظل الجمال عندهما كما كان عند ارسطوطاليس ، مسألة : بناءٍ وصورة : من حفرٍ وتلوين الخ . اما « الفيلسوف « كنت » ، واضع المذهب التصوري Idealism فتقدّم خطوة الى الامام في تعريف الجمال ، فجعله : ما يسرُّنا لغير انتفاع : فنسرُّ بالجميل لانهُ جميل ، لا لغرض شخصي . بمثل هذا الشعور السامي نفهم ماهية الجمال ، او نشعر بتأثيرهِ في نفوسنا وحياتنا

ولكن « شوبنهور » جعل الجمال : شعوراً استاتيكيًّا (وضع بمغارتن لفظة « Esthetics » — فلسفة الجمال —) او غريزة فنية في نفوسنا : وبذلك يتحرر العقل نوعاً من سلطة الشهوة ، فيتمكن من تحقّق المُثُل الافلاطونية « العليا » . على ان « هيغل » عاد بنا صفقةً واحدة الى المهد الاغريقي ، فجعل الجمال « الوحدة في التعدُّد » ، او تغلُّب الصورة على المادة

قال « اناطول فرانس » : لسنا نعرف لماذا نقول عن شيءٍ انهُ جميل : ولكن الجمال اشهر مايدور على ألسنتنا ، ويتغنّى بهِ شعراؤنا ، وتلهج بهِ نفوسنا ، ويعبده افرادنا وجمهورنا . فهل قُضِي على هذه البشرية ان تعبد الهاً تجهله ؟ ! او صحيح ما قيل ان ما يمكن تعريفه ليس بإلهٍ ؟ مع ذلك فالجمال يملأ الارض والسماء ، والظاهر والباطن . فهو اشهر ما تراه العين وتمسهُ اليد . استغفر الله ان الجمال لا يُلمَس ولكن يُشعَر بوجوده شعوراً . انما الذي يُرى هو آثاره ومجاليه . اما ماهية الجمال فستترة وراء تلك المجالي والآثار . شأن الكليات او المثل العامة العليا

الحكمة واسطة ، والغاية وراءها هي احراز الصحة التامة جسماً وعقلاً . فما هي فائدة الحكمة اذا لم تنتهِ بنا الى بلوغ تلك الغاية ، ولم تحملنا على حب الجميل ؟ وما هي قيمة الحكمة اذا هي لم تخلق فينا جمالاً اسمى مما وهبت لنا الطبيعة ؟ فالفن دون علم مسغبة . والعلم دون فنّ بربرية . والفلسفة تاج الاثنين ، العلم والفن ، على ان الفلسفة نفسها ، حتى الروحية ، هي واسطة لا غاية . اللهمّ الاّ اذا وسّعنا نطاقها فشملت كل مرافق الحياة ووسائلها وجمالها . فاذا لم تنشيء الفلسفة فينا حبًّا كانت غير جديرة بالانسان . والجمال روح الفلسفة وغرضها الخاص . فهو حياة الفلسفة كما انهُ حياة الحب

الجمال الانساني

الشيء جميل لانهُ مرغوب فيهِ . قال الفيلسوف بندكت سبينوزا : لسنا نهيم بشيءٍ لجماله ، بل نراهُ جميلاً لانا بهِ نهيم . فكل ما يسدّ جوعاً في نفوسنا فهو جميل . حتى ان الطعام هو في عين الجائع اجمل من الحور العين . وذلك الشاب الراغب في البحث والطلب ، وقد جدَّ واجتهد ، وصبر وحرَّر ، وعاد من المطبعة حاملاً اجمل شيء في عينه ، اي ملازم اول كتاب عني بتأليفه . فباكورة مؤلفاته اجمل جمال في الوجود . حالة كون جيران ذلك المؤلف من فلاح وبقال لا يريان اية قيمة لاوراق ذلك الكتاب ، الاّ لصرّ الملح والفلفل أو لمسح أواني المطبخ بعد غسلها

قال نيتشه: الجميل والقبيح كلمتان من خصائص البيولوجيا: فما أضرَّ الجنس حسبناه قبيحاً. وما نفع الجنس حسبناه جميلاً. قال سندرلند: ليست السماء زرقاء لتسر نواظرنا، ولكننا ألفنا زرقتها فحسبناها جمالاً. فالجمال قرين النفع. والدراهم يفوق جمالها نفعها في عين المعدم، من ثمَّ كان جمال النور والشعر والملمس الناعم. فالقبيح ما اضعف الحيوية وشوش الهضم والاعصاب. قال سنتايانا الفيلسوف العصري: الجمال لذة مجسمة: وقال ستندهلد: الجمال هو الاستبشار باللذة: وبهذا القول نحا ستندهلد نحو هبز عن غير قصد

والجمال في الفرد كالجمال في المجموع، لا يعنى به المرء الا وقد استفضل بعد الاكتفاء. فالحب يخلق جمالاً، كما يخلق الجمال حبًّا. وكل ليلى هي أجمل بنات حواء في عين قيسها. فالجمال والحب قرينان، فان يخلق هـذا ذاك خلق ذاك هذا. واصلهما بحسب رأي ول دورنت مستقر في حفظ النوع، ولا سيما في التوليد. يعني ان غرض الحب والباعث عليه الملاقة الجنسية. وهـذه متى وجدت نحو شخص فاذا لم يكن ذلك الشخص جميلاً في ذاته خلقت له جمالاً. اعني جملته جميلاً في عين من يحبه، وان كان جميلاً في ذاته زادته جمالاً عليه، فظاهرات الجمال وجواذبه ليست الا ملابسات التوليد المقارنة عهد الاستعداد له ولذا حسبت جمالاً. فتورُّد الخد، وتقبب النهد، واعتدال القد، وترعرع الصدر، ودقة الخصر، وصقل النحر، وريا الخلخل، واستدارة الكفل، ونبت العذار في الذكر — هذه الامور وامثالها — حسبت جمالاً لانها ظاهرات تصحب طور الصلاحية للتوليد وتدل عليه. فميل الذكر للانثى هو خالق الجمال الاول. فليس جمالها انشأ حبه. بل حبه انشأ جمالها. وكل ما صحب عهد البلوغ من الظاهرات فهو جمال مستحب. كذلك التستر بالثياب هو من مزيدات الجمال، لأن الثياب تستر ما يميل المرء الى رؤيته. فهي نوع من الصد، والصد من مزيدات الوجد. فكما أن السفور يزيد المرء هياماً في من يحسبها جميلة، كذلك التحجب يزيد المرء رغبة فيهن

والمرأة في عرفنا مثل الجمال الاعلى. ولماذا؟. لانها مصدر التوليد، مصدر الجنس، ومحور آماله، ومحط رحاله. فلم نحبها لجمالها، بل رأيناها جميلة لأنا نميل اليها ونحبها. جاء في رواية تاييس ما نصهُ. انا جمال الانثى. فأنّى تهرب مني يا ارعن؟ فانك تراني حيثما التفت، وأينما اتجهت، فتراني في نضارة الازهار، وميلان الاشجار، وخرير الانهار، وتغريد الاطيار، وبهاء الاقمار. بل انك اذا اغمضت عينيك وسددت اذنيك فانك تراني حينذاك في ذاتيتك

كان شرخ الشباب جمالاً عنـد الاثينيين والاسبرطيين. لان ذلك آذن بالتوليد. فالجمال عندهم قرين القوة، لذا كان الفن في عرفهم اكمال الرجولة. اما عندنا فالفن هو اكمال المرأة. فاذا استثار رجل حبنا فما ذاك الا لان قناة الصداقة والاخلاص عندنا كما عند الاغريق من لوازم الحب المقدَّسة

ولقد صارت المرأة مثل الجمال الاعلى لانهُ يحبها اكثر مما تحبُّه . وشدة رغبته فيها تزيدها في عينه جمالاً . وقد قبلت هي شهادته — انها أجمل منه — لانها تؤثر ان تكون محبوبة على ان تكون مالكة . لذا هي تعنى بما يثير هيامه بها . أما هي فبقوته تعنى لا بجماله . فهي تؤثر قوته ، لأن تلك القوة ضامنة سلامتها واطفالها . والدليل على أن الحب خالق الجمال فتورنا في حب من امتلكنا زمامها ، مع كونها لا تزال جميلة ، لذا قيل ان الزواج يقتل الحب . على أنا ما دمنا نحب فجمال المحبوب لا يذبل . بهذا الاعتبار الحب حياة الجمال ، لا الجمال حياة الحب

جمال الطبيعة

المحبة علة الجمال لا معلوله . والاصل في الجمال جمال الاشخاص ، لا جمال الاشياء . اما جمال الاشياء فهو فرع عن جمال الاشخاص . فكيف نعلل جمال اشياء كثيرة لا علاقة لها بمحبتنا . كقوس قزح ، وحدائق الورود والازهار ، والشلالات ، والاودية ، والغصن الرطيب ، وما لا يحصى من انواع الجمال في العالم الخارجي ؟

الجواب : كما ان لكل كلمة في قاموسنا معنيين ، الواحد اصليٌ اوليٌّ ، والآخر فرعيٌ ثانويٌّ ، هكذا في رغباتنا ما هو اولي اصليٌ ، وما هو ثانوي فرعي . فقد تطور الجهاد لاجل القوت فكان منهُ البأس والميل الحربي . وتطورت عاطفة حب الجمال الانساني ، او بالحري فاضت ، فتخطت الاشخاص الى الاشياء . فحبنا الطبيعة فرع حبنا الاشخاص ، وناشىء عنهُ . فنحن لا نحب قامتها المشوقة لانها تشبه الغصن الاملد . بل احببنا الغصن لانهُ يشبه قامتها . ولم نحب وجنتها لانها تشبه الورد . بل احببنا الورود لانها اشبهت وجنتها . فترى ان النعومة والاستدارة ليست جمالاً في الذات . والا فرمز الكمال عند ارسطوطاليس المربع لا الكروي فنحب الاستدارة والنعومة والبضاضة ، لان هذه الاوصاف من مزايا من نحبها ، وهي الكاعب وما فوق الكاعب من ربات الجمال

كذلك الاصوات الشجية ، التي لها رنة تأسر القلوب ، وكل ما هو لطيف ورقيق في الكون هو جميل في اعيننا لانه يمثل لنا بعض مزاياهنَّ . فحبنا اياهن جمل ما يماثل اوصافهن جمالاً في اعيننا بل انه قادنا الى الاعتقاد في جمال اوصافهنَّ وما ماثله في غيرهن من الاشياء . فلم تكن عين المهى جميلة الاّ لانها اشبهت عين ميٍّ

ما رأت مثلكِ عين حسناً وكمثلي بك صبًّا لم ترَ يْ

فالصوت الشجي استفزاز جنسي في آذان الرجال . على ان الصوت لم يستقل بالاتصاف بالجمال واثارة الحب ، وان كان حنوناً . فهنالك اللحن والايقاع ، وما فيها من حفز والحاف واستفزاز ، لايقاظ العواطف للحب

فالموسيقى تلطف خشونة طباعنا ، وترفعنا الى الملأ الاعلى فتخفف الالم ، وتحسن الهضم ، وتعقل المجنون وتقود الجندي مختاراً الى الموت في ساحات القتال

ولقد اقترن السمو بالجمال (كنت) اقتران الانثى بالذكر ، فهو اكثر رغبة في الجمال منه في السمو . وهي اكثر رغبة في السمو منها في الجمال . لذا كان السمو ضالتها المنشودة ، والجمال ضالته المنشودة . من هنا كان حبها للسامي في الرجال . قالت احداهن لاحدهم ، لم اكن لاكترث لك لو انك رجل عادي . انما انا كلفة بك لانك عبقري وذو همة شماء

اما هو فيقول لها :

قوامك فتان وطرفك احور   ووجهك من ماء الملاحة يقطر

لذا كانت الانثى ارق من الذكر ذوقاً اذا صح هذا القول

جمال الفن

فاض حبنا ، وتخطى الاشخاص الى الاشياء ، فانتهى ذلك بانشاء الفن . واليك البيان . حمل الذكر في مخيلته صورة حبيبته ، فقرن تلك الصورة بمشهد كمال الكل ، هذا هو الفن فللفن مولدان بيولوجي وتاريخي

١ — بيولوجيًّا . يتولد الفن من غناء القرين ورقصه وجهوده في احراز الازدهار الذي يستميل العاشقين ويستهويهم

٢ — تاريخيًّا . يتولد الفن عن التطرئة والوشم وخمش الجسوم والتزين بالملابس على انواعها ، ولا سيما ما كان منها فضفاضاً آذناً برؤية الزندين ، والنهدين ، وما فوق الكعبين . ولكن التطرئة الى حين ، والثياب فانية ، فآثر شعب عريق بالخلود كالاغريق اثراً خالداً . فرسم رموز حبه ، وصور آراءه وعواطفه في تماثيل منحوتة خالدة . هذا هو مولد الفن . وبهذا الاعتبار يكون الحب خالق الفن كما انه خالق الجمال . فالملابس تراد بها الزينة اولاً ، لا التحفظ او الاحتياط الصحي . قال داروِن انه لما أثر في نفسه تحملهن البرد القارس في فيجي ، عطف عليهن وأمدهن بالاقمشة لوقاية جسومهن من قرس البرد . فما كان منهن الا انهن مزقن تلك الاقمشة شرائط مستطيلة ووزعنها بعضهن على بعض ، للزينة . اليس ذلك ما تفعله الحسان في اوربا واميركا ؟ فانهن يلبسن الفرو صيفاً ، ويحسرن النحر والزندين شتاء . فالملابس عندهم للزينة اكثر مما هي للصحة

***

ولما فرغ الانسان في العصور الخالية من تزيين جسمه عمد الى تزيين الاشياء كالحراب والانصاب والصروح ونحوها . فأفضى به ذلك الى الانصاب والتماثيل . ألا ترى ان ذلك هو الفن . ومع ان

الديانة ليست مصدر الجمال فقد ضحت في سبيل الفن اكثر من كل مضح الآ الحب . فالحب اعظم المضحين في سبيل الفن . والفن مدين للحب اكثر مما هو مدين للديانة . فلم تكن الانصاب والتماثيل الراقية في عهد المدنية الآ ارتقاء عاطفة حب الجمال بعد عهد البداوة والخشونة . ولم يعن المثال بالحب الآ بعد ارتقاء الفن ، ففيدياس دائماً قبل بركستيلس ، هو ناموس عام في كل عصر وفي كل مصر

الجمال الوضعي

بقي في ميدان البحث امامنا المسألة الاساسية وهي : هل للجمال وجود في الخارج ؟ او هو من صور الخيال ؟

من الناحية الواحدة نرى الجمال مختلفاً في مختلف الامم في عصر واحد ، او في الامة الواحدة في مختلف العصور . مثال ذلك ان الجمال عند الهوتنتوت يبدو في ضخامة الشفتين ، وندوب الوشم الازرق. وعند اليونانيين في القوة والاتزان . وعند الرومان في السمو. وفي عصر الاحياء في الالوان وعندنا اليوم في الموسيقى والرقص . ويؤثر اهالي تاهيتي فطس الانوف لذا هم يضغطون على أنوف اطفالهم لاجل الجمال . والمياس — سكان مريدا في مكسيكو — يخرمون الانوف ويتخزمون كما انهم يحددون اسنانهم ويطعمونها . وقد دهش منجو بارك لما علم ان الزنوج يكرهون بياض بشرته

وحتى عند الاوربيين يختلف الجمال في عصر عنه في عصر آخر . فقد كانوا فيما مضى يؤثرون ضخامة الجسم ، بل في عهد الاحياء كانوا يؤثرون الجسوم الممتلئة . أما اليوم فانهم يؤثرون الجسوم الهيف

بهذا الاعتبار نرى ان الجمال انما هو في العقل لا في الخارج ، وفي عين الناظر لا في المرئي الجميل . ولكن هنالك مبدءًا واحداً عامًّا مطلقاً في الجمال ، وهو ما لابس عهد التوليد . أو ارتبط بالتناسل . فكل آلة تصلح لما وضعت له هي جميلة . واذا لم تخدعنا التطرئة فالجمال أمر بيولوجي . فأجمل منظر في عيوننا الفتاة في عهد البلوغ . او المرضع وعلى صدرها طفل مملوء صحة ورونقاً . فالجمال كما ارادته الطبيعة هو ازدهار الصحة ونضارتها وسلامة النسل . وهو ما آل الى سلامة الجنس . لا الى وهنه . وكل ما اضعف الجسم وحط من شأن الجنس فهو غير جميل

***

قال إيليس وحكمه جدير بالاعتبار ، بناءً على اختباراته الكلية . الجمال مستقل عن الناظر . اي انهُ يرى ان الجمال شيء في الذات لا في العقل . وهو يستند في ذلك الى عمومية استحسان المتماثلات عند كل الأمم . وحتى هذا مردود وفيه مناقضة للاستقراء كما هو معلوم . على ان فلسفة الجمال والاخلاق قرينان . وبذا نوافق استنتاج افلاطون : — مبدأ الخير يرجع الى ناموس الجمال

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الدمياطي

[اجتمع لي طائفة من أسماء المفردات النباتية وحررت ما يقابلها في بعض اللغات الاجنبية لترتيبها في معجم والآن عنّ لي أن أنشرها تباعاً في مجلة المقتطف الغراء في بيان موجز أذكر فيه المفرد ووصفه وموطنه واستعماله مشيراً الى بعض فوائده في الزراعة أو الصناعة أو التغذية أو الطب عسى أن يكون في ذلك بعض الفائدة — الدمياطي]

الكَمْأَة

واحدة (الكَمْء) مثل تمرة وتمر وقيل إنها تطلق على الواحد والجمع ويتنازع اللغويون مفردها وجمعها في كلام كثير وهي معروفة للعرب بهذا الاسم ويسمونها (نبات الرّعد) و(جُدَرِيّ الارض)

وهي ضرب من النبات الفُطْرِيّ لا ورق لها ولا ساق توجد في الارض من غير ان تزرع وطريقة تكاثرها لم تعرف تماماً حتى الآن رغماً عن مشاهدة غبيراتها (جراثيمها)

ويظن بعض النباتيين أن القوارض من الحيوانات اللبونة كالفار والارنب تهتدي اليها بسبب رائحتها وتأكلها فتنقل بواسطتها الغبيرات مع البراز من مكان الى آخر فيكون من ذلك انتشارها وتنقل جراثيمها

والمأكول منها درنات تنمو تحت الارض شحمية او صلبة مرداء او على سطحها شعيرات قصيرة ملساء او حلمات او ثآليل وتكون عند كمال نموها ذات رائحة خاصة ويشاهد في القِدّة منها مثل عروق الرخام وهذه العروق على نوعين نوع ابيض عقيم (غير مثمر) والثاني ملوّن ملتو يحيط به نسيج برنشيمي مثمر لونهُ شاحب . واما الغبيرات فتوجد داخل زقاق بيضية او كرية في كل منها اربع او اكثر او اقل والغبيرات نظراً لصغرها المتناهي لا ترى بالعين المجردة بل بالمكرسكوب وسطحها شبكي وهي شبيهة بالنخاريب (الثقوب) التي في قرص عسل النحل

ويعرف من الكمأة نحو خمسين نوعاً اغلبها اوربي والباقي في امريقة الشمالية والجمهورية الفضية وجبال حمالايا وشبه جزيرة ملقا وجزيرة سيلان وغيرها وهي مقسمة اقساماً كثيرة منها قسمان فقط

يشملان الانواع الجيدة التي تؤكل

واسم جنسها العلمي (Tuber) (توبر) وفصيلتها الكمئية (Tuberaceae) (توبراسية) وبالانجليزية (Truffle) وبالفرنسية (Truffe)

فمن الانواع الجيدة : —

(١) (Tuber aestivum, Mich.)(توبر ايستيوم) وبالانجليزية (Common or Spring Truffle) وبالفرنسية (Truffe de Bourgogne, ou de champagne; Truffe blanche) وهو ينبت في الغابات ذات الشجر المتساقط الاوراق بشمال ايطاليا وفرنسا والمانيا وغيرها ويوجد بكثرة في اسواق اوربا

(٢) (Tuber uncinatum) (توبر انسيناتوم) وبالانجليزية (Autumn Truffle) وبالفرنسية كالسابق

(٣) (Tuber magnatum, Pico.) (توبر ماغناتوم) وبالانجليزية (Grey Truffle) وبالفرنسية (Truffe grise ou T. blanche d'Italie et de la Provence) وينبت في جنوب اوربا بايطاليا ومقاطعة بروفانس بفرنسا وسطح درناته املس ورائحتها كرائحة الثوم وهو نوع مرغوب فيه

(٤) (Tuber melanosporum, Vitt.) (توبر ميلانوسپوروم) وبالانجليزية (Perigord or Winter Truffle) وبالفرنسية (Truffe du Périgord) وينبت في ايطاليا والمانيا وجميع انحاء فرنسا وهو كمأة الشتاء المرغوبة وطعمها كطعم الشليك

(٥) (Tuber brumale, Vit.) (توبر برومالي) وبالانجليزية (Perigord or Winter Truffle) وبالفرنسية (Truffe musquée ou T. du Périgord)

(٦) (Tuber rufum, Pico.) (توبر روفوم) وبالانجليزية (Red Truffle) وبالفرنسية (Truffe rouge) وينبت في أرض الكروم

(٧) (Tuber albidum, Cesa.) (توبر البيدوم) وهو مثل توبر ايستيوم في اسمائه

(٨) (Tuber album) (توبر البوم) وبالانجليزية (The great White North-American Truffle) وبالفرنسية (Grande truffe blanche de l'Amerique du Nord) وهو أبيض كالثلج وطري كالجبن

(٩) (Tuber cibarium, Sibth.) (توبر سيباريوم) وبالانجليزية (The Black Truffle) وبالفرنسية (Truffe noire) وينبت في وسط اوربا وجنوبها في الغابات التي أرضها جيرية وقد تبلغ درنته زنة رطل ويستعمل من التوابل أو يحمس ويؤكل غذاء طيباً

هذه أشهر الانواع وهي لا توجد بذاتها في بلاد الجزائر وتونس وجزيرة سردانية وغيرها وانما يوجد أنواع اخرى أقل جودة منها درناتها كبيرة يقال لها (ترفا) (terfa) أو (ترفاس) (terfas) أو (قامس) (kames) تابعة لجنسي (Terfezia) (ترفيزيا) و (Tirmania) (تيرمانيا) من فصيلة اخرى تسمى (Terfeziaceae) (تيرفيزياسية) تعرف العرب مواضعها من تفطر الأرض عنها فتستخرجها وهي مغذية ايضاً لوفرة المادة الزلالية (البروتينية) فيها

اما جمعها باوروبا فيقوم به رجال مختصون يرتزقون من ذلك فاذا جمعت اكلت طازجة أو محفوظة

وكانت الكمأة معروفة عند العرب وفي الصدر الاول من الاسلام امتدحها النبي صلى الله عليه وسلم فقد اخرج الترمذي من حديث أبي هريرة ان ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا الكمأة جُدَرِيّ الأرض فقال النبي صلى الله عليه وسلم الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين . والمراد بكونها من المن انها من المن الذي انزل على بني اسرائيل وهو الطل الذي كان يسقط على الشجر فيجمع ويؤكل حلواً (الترنجبين) فكأنه شبه به الكمأة بجامع ما بينهما من وجود كل منهما عفواً بغير علاج . وقيل إن المراد انها من المن الذي امتن الله بهِ على عباده عفواً بغير علاج فهي شيء ينبت من غير تكلف بذر ولا سقي فهو من قبيل المن . وقيل المن الذي انزل على بني اسرائيل كان أنواعاً منه ما يسقط على الشجر كالطل ومنه ما يسقط عليهم عفواً بغير اصطياد كالسلوى ومنهُ ما يخرج من الارض كالكمأة . والمن مصدر بمعنى المفعول اي ممنون به . فلما لم يكن للعبد شائبة كسب كان منّاً محضاً وان كانت جميع نعم الله على عبيده منّاً منهُ عليهم لكن خصّ هذا باسم المن لكونه لا صنع فيه لاحد فجعل سبحانه قوت بني اسرائيل في التيه الكمأة تقوم مقام الخبز والسلوى تقوم مقام اللحم والطل يقوم مقام الحلوى فكمل بذلك غذاؤهم . فقوله في الحديث الكمأة من المن اشارة الى انها فرد من افراده فالترنجبين فرد من أفراد المن وان غلب استعمال المن عليه عرفاً ولا يعكر على هذا قولهم لن نصبر على طعام واحد لان المراد بالوحدة دوام الاشياء المذكورة من غير تبدل لاعيانها . وفي الحديث وماؤها شفاء للعين يفسره ما ورد في مفردات الغافقي (المتوفي سنة ٥٦٠ هـ) ان ماء الكمأة اصلح الادوية للعين اذا عجن بهِ الإثمد واكتحل به فإنه يقوي الجفن ويزيد الروح الباصر حدة وقوة ويدفع عنها النوازل . وقد ذكر ابن سينا وغيره من أفاضل الاطباء ان ماء الكمأة يجلو العين انتهى ملخصاً من فتح الباري شرح البخاري

***

شجر الأُتْرُج

وتقول العامة (الأَتْرُنج) و(التُّرُنْج)

ترتفع الشجرة الى ستة امتار قصيرة الاغصان شائكة او غير شائكة اوراقها كبيرة متماسكة

مستطيلة كثيرة الغدد الزيتية وتشاهد عليها كالنقط وحافاتها مسننة وأزهارها عديدة التزاوج في لون أرجواني من الخارج وفي إبط كل ورقة زهرات من ٥—١٢

واسم ثمرتها بالفرنسية (Cédrat ou Pomme de Medie) ومعناه أترجة ميديا او تفاحتها وهي التي كانت تعرف عند الرومان باسم (Mala Medica) (مالا مديقا) كبيرة الحجم متآلة (ذات ارتفاعات وانخفاضات) وسطح قشرتها اصفر مبيض او ذهبي اللون ويليه طبقة بيضاء ثخينة ويلي ذلك اللب وهو قليل المادة قليل الحموضة على خلاف الليمون

اسمها العلمي (Citrus Medica, L.) (سيتروس مديقا) وفصيلتها السذابية (Rutaceae) (روتاسية) وبالانجليزية (Citron Tree) وبالفرنسية (Cédratier)

ويعتبرها علماء النبات اصلاً لكل انواع (الموالح) وبينها وبين شجر الليمون شبه ففي كثير من اصنافه يكون ثمره شحمياً ثخيناً يشبه ثمرها

والاترج موطنه القديم بلاد ميديا وبلاد فارس وينبت بطبيعته في الهند وجبال هالايا والآن يزرع في جزائر صقلية وقورسيقا وماديرة ومصر وغير ذلك

وهو بالنسبة الى ثماره ثلاثة أقسام :

(١) الاترج الشبيه بالليمون واسمه بالفرنسية (Cédratier limons) ومنهُ نوعان ثخين القشرة (Cédratier à grosses côtes) وليموني الشكل (Cédratier limoniforme)

(٢) الاترج الحقيقي واسمهُ بالفرنسية (Cédratier proprement dits) ذو الثمرة المنبعجة ذات الاخاديد ومنهُ اترج فلورانسة (Cédratier de Florence) واترج سالو (Cédratier de Salô)

(٣) اترج بونسير او الاترج الدرني واسمهُ بالفرنسية (Cédratier Poncires) ذو الثمرة الكبيرة الدرنية الشكل والرغبة في اصنافه قليلة

وعلى الاجمال فالمنتفع بهِ من الاترج انما هو الجزء الابيض او شحم الثمار في عمل (المربات) ويحصل من قشور هذا الثمر على عطر طيار ذكي الرائحة يدخل في ماء الكولونيا ويؤخذ من لبه عصير يستعمل كعصير الليمون في بعض البلاد . والاترج يوجد في بلاد العرب وقد وصفهُ النباتيون الاقدمون واطنب اطباء العرب في خواصه ونقلوا فيه أقوال القدماء . قال ابن سينا إن حماض الاترج يقوي القلب الحار المزاج وينفع من الخفقان الحار وفيه ترياقية تنفع من لسع الافاعي والحيات وانهُ نافع من اليرقان ويكتحل به فيزيل يرقان العين وعلى الجملة فمنافع الاترج كثيرة حسبما وصفه اطباء العرب فانهم جعلوا لكل من قشره ولبه وحمضه وبزره منافع كثيرة لا يتسع المقام لسردها . وكانت العرب تحب رائحته والنظر اليه لما في منظره من جلب الفرح

وقد ضرب النبي صلى الله عليهِ وسلم المثل للمؤمن الذي يقرأ القرآن بالاترجة طعمها طيب وريحها طيب كما ورد في الصحيح

سفن جوية كالقنابل

تشق الفضاء كالصواريخ

علم الملاحة بين النجوم

ان موضوع التملّص من قوة الجاذبية ، والانطلاق في الفضاء بين السيارات والنجوم ، موضوع شغل به العلماء والكتّاب من اقدم الازمنة . وفي سنة ١٨٦٥ كتب اشيل ايرو وهو من معاصري جول ڤرن الفرنسي كتاباً موضوعه « من الارض الى القمر » اقترح فيه استعمال « صاروخ » للطيران من الارض الى القمر . اما جول ڤرن فقد تخيّل روّاد السماء سائرين في قذيفة كقذائف المدافع تنطلق بتفجّر مقدار من المواد المفرقعة . فنظر كبراء العسكريين الى اقتراحه هذا شزراً هازئين به . ولكن اقتراح ايرو كان صواباً في مبدإه ، على ما اثبتت التجارب الحديثة في المانيا وغيرها

وفي سنة ١٩٠٧ عني مهندس فرنسي بحساب مقدار الطاقة اللازمة لقذف جسم معيّن ، بسرعة معيّنة ، الى القمر ، او الى الزهرة ، او الى المريخ . هذا المهندس هو المسيو روبير اينو پلتري احد ابناء فرنسا الممتازين ومن اذكى مهندسيها واشهر مصممي محركات الطيارات في خلال الحرب الكبرى . وقد نشر حساباته الخاصة بالطيران بين السيارات ، في سنة ١٩١٢ بعد ما عرضها على الجمعية الطبيعية الفرنسية . وفي السنة السابقة كان الدكتور اندره بنغ البلجيكي قد نال امتيازاً لآلة تمكنهُ بحسب قوله من ريادة طبقات الجوّ بلغ الهواء من اللطافة ما بلغ

وفي سنتي ١٩١٢ و١٩١٣ حسب الاستاذ غودَرد الاميركي — وهو من اعلام هذه المباحث — حسابات دقيقة شجعتهُ على محاولة تحقيق فكره في سنتي ١٩١٥ و١٩١٦ في جامعة كلارك الاميركية فوجد انهُ في الامكان صنع صاروخة تصل الى القمر وعند وصولها تشعل مقداراً من مسحوق المغنيزيوم فيضيء بنور لامع تمكن مشاهدتهُ من الارض باقوى النظارات المقربة . ثم عني ثلاثة من الالمان وهم اوبرث (وهو من اصل روماني) وهوهمن وماكس ڤاليه بدراسة الموضوع كلٌ على حدة . فوصلوا الى نتائج لا تختلف اختلافاً كبيراً عن النتائج التي وصل اليها اينو پلتري وغودَرد

ومن بضع سنوات اطلق الروائي الفرنسيُّ روسني لفظ « استرونتكس » على هذا الضرب من المواصلات ومعناهُ « الملاحة بين النجوم » وهو يقابل لفظ « إيرونُتكس » اي الملاحة في الهواء

***

وقد مضت سنوات وبعض المخترعين يحاولون أن يصنعوا طائرة تنطلق في الفضاء كالسهم أو كالصاروخ . وذلك بأن يوضع في أنابيب او اسطوانات في مؤخرتها مواد متفرقعة شديدة التفرقع . فاذا انفجرت هذه المواد رويداً رويداً انفجاراً منتظماً ، وخرجت الغازات التي تتولد من هذا الانفجار

من ثقوب في مؤخرة الانابيب بقوة عظيمة دفعت بخروجها الطائرة في الجهة المقابلة

هذا هو المبدأ . اما تطبيقه أي بناء الانابيب المتينة التي تتحمل ضغطاً عظيماً كالضغط الناشيء عن مثل هذا الانفجار ، وصنع المادة المفرقعة المثلى ، وبناء الطائرة المناسبة لهذا النوع من السير ، واعدادها حتى تؤاتي الجسم الانساني — كل ذلك أمور صعبة لا يمكن تحقيقها بين ليلة وضحاها. وقد اقتضت من أعلام المجربين وشجعانهم ثمناً فادحاً دفعه معظمهم بحياته

ومع ذلك لا يني هؤلاء عن التجربة والامتحان وقد قطعوا حتى الآن شوطاً لا بأس بهِ نحو تحقيق ما يرمون اليهِ

فقد ذكر كاتب انكليزي اسمهُ وليم مكين انهُ ذهب الى المانيا ، الى مطار السفن السهمية وهو على خمسة أميال من برلين ، لاستطلاع ما تم في هـذه الناحية ، فطالعه أولاً برج ذو ثلاث قوائم متين البناء يستعمل لاطلاق السفن السهمية منهُ في الفضاء

والسفن السهمية التي تجرب الآن ليست مما يستعمل لنقل مسافر أو اكثر ، بل هي تحتوي على أدوات علمية مختلفة لقياس الحرارة والسرعة وغيرها من الظاهرات الطبيعية . ثم أن في مقـدمة الطائرة « مظلة » (باراشوت) لأنهُ اذا نفد المركَّب المتفرقع من أنابيب الطائرة وأخذت تهوي الى الارض وجب ان يكون لها ما يحول دون سقوطها كنيزك منقضّ فتتحطم الآلات التي فيها

***

في المطار ستة مهندسين قلما سمع اسم احدهم الا في دوائر خاصة . وهم في الثلاثين من العمر في الغالب ، ويمثلون الشباب الالماني أحسن تمثيل . تراهم يذهبون ويجيئون بين المواد المفرقعة والغازات السائلة من دون كبير اهتمام مع ان الموت كامن في كل دقيقة من دقائقها

وعلى مقربة من المطار بناية صغيرة رأى فيها الكاتب الانكليزي ميكانيكيين مرتدين أثواباً من حجر الفتيلة (اسبستوس) الذي لا يحترق وهم يملأُون اسطوانات معينة بالاكسجين السائل وخارج البناء صفوف من اكياس الرمل يقف وراءها العلماء والمهندسون عند اطلاق السفينة السهمية في الفضاء ليدرأوا بها ما قد يصيبهم من شظايا اذا انفجر أنبوب من الانابيب المحتوية على المواد المفرقعة

والمواد المفرقعة التي تستعمل في هـذه التجارب صنفان . الاول جاف وهو مبني على أساس من البارود والثاني سائل وهو في الغالب مزيج من الكحول والاكسجين أو البترول والاكسجين. والصنف الثاني أعنف فعلاً وأشد تفجراً من الاول بل هو يفوق اشد المفرقعات في ذلك

وقد يسأل القارىء عن نتيجة كل هذا التجريب والامتحان والتعرض للخطر . والواقع ان الكاتب الانكليزي سأل السؤال نفسه فقيل له ان طائرة من هذه الطائرات قد حلقت الى علو ستة اميال وهي نتيجة لا بأس بها مع انها لا تقابل بتحليق بيكار البلجيكي الى علو عشرة اميال ببلونهِ . ولكن يجب ان نذكر ان هذه السفن السهمية تنطلق بسرعة ٦٠٠ ميل في الساعة لان الغرض منها انفلات الطائرة من

فعل جاذبية الارض وان هذه خطوة اولى فقط . فطائرة ريط الاولى لم تطر يوم ١٧ دسمبر ١٩٠٣ اكثر من ثانيتين ولم تقطع الا مئات من الامتار

واذ كان الكاتب واقفاً يوجه السؤال أثر السؤال مستطلعاً قدّم له رجل قوي البنية وقيل له ان هذا هو الرجل الوحيد الذي طار بطائرة سهمية وعاد الى الارض سالماً يحدث بما رأى وشعر

كانت الطائرة من صنع شقيقه الحر برونو فشر . فبعد ان اتمّ شقيقه صنعها نقلها في تكتم شديد الى جزيرة روغن في بحر بلطيق ولم يدر أحد في المانيا بهذه التجربة الا زعماء الريخسفهر

وفي يوم احد من شهر اكتوبر ١٩٣٣ صافح اوتو فشر شقيقه برونو وبعض رجال الريخسفهر الذين جاؤوا خاصة لمشاهدة التجربة ودخل الطائرة من باب فولاذي ثم انسحب برونو شقيقه وصحبه الى خندق في الارض على بعد مائتي متر من البرج ثم ضغط على الزر الذي اطلق الطائرة في الفضاء

فبرق بريق يبهر الانظار وحدث دوي يصم الآذان وانطلقت الطائرة وهي بشكل الطوربيد او السيجار كأنها سهم يشق الفضاء وبعد بضع دقائق رئيت الطائرة عائدة الى الارض عوداً وئيداً بفعل المظلة المتصلة بها واذ اقتربت من الارض شوهدت زعانفها الفولاذية تتحرك فادرك المشاهدون ان الرجل حيٌّ في داخلها وانهُ بتحريك هذه الزعانف يوجّه الطائرة حتى لا تسقط في البحر

فلما استقرت على الارض على مقربة من اكياس الرمل فتح الباب وخرج الرجل ممتقع الوجه مهزوز الاعصاب ولكن ثغره كانت تعلوه بسمة الظفر

وكانت رحلته هذه قد استغرقت تحليقاً ونزولاً عشر دقائق وستاً وعشرين ثانية

***

فسأله الكاتب : وبم احسست . فقال سمعت اولاً دوياً هائلاً ثم شعرت بضغط عظيم على جسمي سمّرني في ارض الطائرة ثم فقدت وعيي لان سرعة الطائرة العظيمة دفعت جانباً كبيراً من الدم الذي في عروق الرأس والدماغ ولما استعدت وعيي ونظرت الى مقياس العلو رأيته وقد سجل ٣٢ الف قدم. ثم بدأت الطائرة تسقط الى الارض بسرعة فنظرت من نافذة صغيرة الى جانبي فرأيت المظلة وقد بدأت تنفتح فعلمت انني عائد سليماً الى الارض

ومما استرعى نظري الحرارة الشديدة في أرض الطائرة وهي مصنوعة من حجر الفتيلة. وبعد ان قال كلمة عن طريقة تحريك الزعانف ختم حديثه بقوله « ولا يخفى انني سررت سروراً عظيماً بعودتي سالماً »

***

ثم هناك مهندس الماني يدعى يوهانس فنكلر ، مضى عليه بضع سنوات ، وهو يحاول ان يحقق امنية قديمة له . وهي الوصول الى القمر بطائرة سهمية . ومن نحو ثلاث سنوات ، أتم بناء هذه الطائرة ، ونقلها الى سهل رملي فسيح في بروسيا الشرقية . وكان طول الطائرة ست اقدام وقطرها ١٨ بوصة وكان الوقود المنفجر في انابيبها خليطاً من كحول الخشب والاكسجين السائل ، وكان قد اتفق

٧٥٠ جنيهاً على بنائها . فلما تمت المعدات ، اطلقت هذه الطائرة فارتفعت مسافة خمسين قدماً تقريباً ثم انفجرت احدى حجراتها الداخليـة ، وسقطت على الارض قرب الخندق الذي توارى فيهِ صاحبها وصحبهُ ، لمراقبة التجربة عن كثب من دون ان يتعرضوا لخطر ما . والواقع ان هذا الانفجار لم يؤذِ احداً ، ولكنهُ غطى المنطقة المحيطة بالمطار بسحابة قاتمة من الدخان

واذا حاولت ان تستطلع طلع الدكتور فنكلر في هذا الصدد رأيتهُ الآن اميل الى الحرص ان لم نقل الى الكتمان . فهو يقول انهُ كسب شيئاً كثيراً من الخبرة من تجربتهِ الخائبة . وقد فسّر للكاتب الانكليزي انصراف المستنبطين عن استعمال الوقود المتفجر الجاف ، اي القائم على اساس من البارود واقبالهم على استعمال الوقود المتفجر السائل القائم على اساس الاكسجين السائل . فضرب له مثلاً بطائرة سهمية لنقل مقدار معين من البريد مسافة معينة . فقال انها تحتاج الى نحو مليوني رطل من الوقود البارودي ولكنها تحتاج الى ٤٠٠٠ رطل من الوقود السائل في انجاز العمل نفسه . ولذلك ترى المستنبطين الالمان وقد اتجهوا الآن الى اتقان طائرة سهمية على هذا الاساس، الغرض منها نقل البريد ثم يعمدون بعد ذلك الى الطائرة السهمية التي غرضها الرحلة بين السيارات

ومن نحو سنة تقريباً ذهب الى لندن مستنبط الماني شاب في السادسة والعشرين من عمره ، يدعى جرهارد زوكر ليعرض طائرة سهمية خاصة بنقل البريد وهي مصنوعة من الالومنيوم المقسّى بالفولاذ وتتسع لنحو الفي رسالة . وقد اتيح للهر زوكر من بضعة اشهر ان يجرب طائرتهُ هذه امام جمهور من المهتمين بهذا الضرب من الاختراع وكان بينهم لورد لندندري وزير الطيران البريطاني فلم تسفر التجربة عن نجاح تام . وضعت الرسائل في حجرة خاصة في مقدمة الطائرة وملئت الانابيب بالوقود وهو مركب وفقاً لوصفة وضعها الهر زوكر ولا تزال سراً مكتوماً . وكان الامل ان يستطاع نقل هذه الرسائل بالطائرة السهمية من احد ميادين « الجولف » في مقاطعة همشير الى جزيرة ويت على مقربة من شاطئ انكلترا الجنوبي . ثم اطلقت الطائرة فرقت في الفضاء كالسهم وسقطت على بعد ميلين من الميدان الذي اطلقت منه . وقد يبدو لبعض القراء ان تجربة كهذه لا تصلح ان تكون اساساً للبحث في رحلة الى القمر ولكن الاستاذ غومنتش الالماني يقول: « اني لواثق انه اذا حدث ما يضطرنا الى محاولة بلوغ القمر تمكنا من ذلك بالوسائل والمواد التي في متناولنا الآن . الاَّ ان الرحلة الى القمر تقتضي منا مواجهة اختلافات شديدة في ضغط الهواء وحرارته والاصطدام ببعض الرجم المنطلقة في الفضاء بزخم شديد ولذلك اظن اننا لن نحاول ذلك لأن النفقة اعظم من ان تسوغهُ »

***

وطار الكاتب من برلين الى بروكسل فقابل الاستاذ بيكار وهو الرجل الذي حلق الى اعلى ما بلغه انسان بطيارة او منطاد فسألهُ في موضوع الطائرة السهمية فقال بيكار انهُ لا يرتاب في

اتقان الطائرة السهمية في المستقبل وعنده ان طائرة المستقبل سوف تكون وسطاً بين الطائرة المألوفة الآن والطائرة السهمية فتطير وهي في طبقات الجو السفلي بحركاتها كما تطير الطائرات التجارية والحربية الآن، فاذا بلغت الطبقة الطخرورية حيث يصعب على المحركات جرّ الطائرة في هواء لطيف كل اللطف، تطير بالطاقة المولدة من مادة متفجرة في انابيب خلفية خاصة اي تنطلق فيه كأنها سهم او صاروخ. وبذلك تستطيع هذه الطائرات ان تبلغ سرعة عظيمة جدًّا في الطبقة الطخرورية . الاّ ان المسافرين بالطائرات الطخرورية (stratoplanes) يجب ان يجهزوا بوسائل وافية لتدفئتهم لان طائرة تكون منطلقة بسرعة فائقة في جوٍ حرارته ستون درجة تحت درجة الجمد تقتضي ذلك . ومن المؤكد ان هذه الطائرات يجب ان تكون سوداً حتى تمتصّ اكبر قدر من حرارة اشعة الشمس . فسأله الكاتب في موضوع الرحلة الى القمر فهزّ العالم رأسهُ وقال : ان الملاحة بين السيارات والطيران الى القمر وما اليه مسائل لم نجد لها حلاً وافياً حتى الآن ولا يحتمل ان نبلغ القمر الآن ولا في المستقبل القريب الاّ انني لا احسب الوصول اليه مستحيلاً والراجح اننا نحقق ذلك يوماً ما

— بالطائرة السهمية ؟

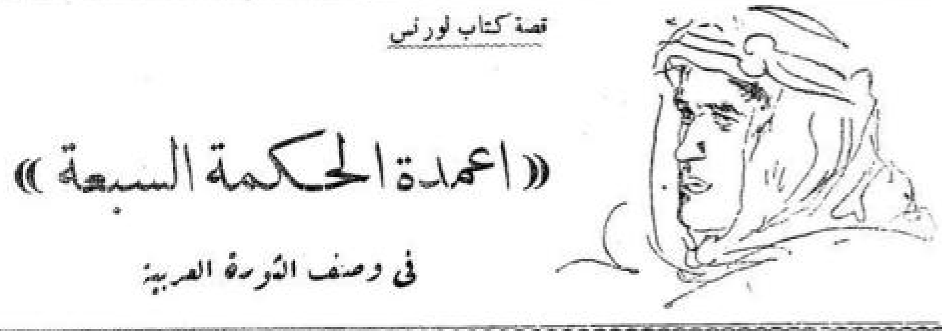
— طبعاً بالطائرة السهمية ! انها الوسيلة الفذة للطيران في هواء لطيف كل اللطف وادراك سرعة عظيمة تمهد لنا يوماً سبيل التفلت من جاذبية الارض . ان المباحث الحديثة في هذا الصدد قد جعلت الطيران بين القارات بهذه الوسيلة امراً وشيك التحقيق

***

ولقي الكاتب في مدينة ليون اشد العلماء حماسة لموضوع الطيران الى القمر وهو الاستاذ ايزيدور باي مدير الجمعية الفلكية بمدينة ليون ومن اقواله في هذا الصدد ان التفلت من جاذبية الارض يقتضي ان تبلغ سرعة المقذوفة سبعة اميال ونصف ميل في الثانية وهذه سرعة تفوق اسرع الطيارات ستين ضعفاً اما مقدار الطاقة اللازمة لقذف ما زنتهُ كيلو غرام واحد بهذه السرعة فيجب ان يكون ١٥ الف وحدة حرارية

ثم قال الاستاذ باي ان العلماء لم يتوصلوا حتى الآن الى صنع مادة متفجرة تستطيع ان تولد هذه الطاقة ولكن كيلو غراماً واحداً من الراديوم يولد في خلال « حياته » ٣٠٠ مليون وحدة حرارية فاذا استطعنا ان نسرع تحول الراديوم اي اذا استطعنا ان نزيد سرعة انطلاق الطاقة منهُ كانت الطاقة الكامنة في كيلو غرام من الراديوم لقذف ما زنتهُ بضعة أطنان الى الفضاء ولكن غلاء ثمنهِ يظلُّ حائلاً دون استعماله

وليست الولايات المتحدة الاميركية والمانيا وفرنسا البلدان الوحدة المعنيّة بهذا الضرب من الطيران ولكن ايطاليا وروسيا مهتمتان به اشد الاهتمام . الاّ ان الكاتب الذي نقلنا عنه لم يتح لهُ السفر اليهما لوصف بعض ما تم على ايدي علمائهما في هذا الصدد ولعله يفعل ذلك قريباً



اصرَّ هوغارث[1] على لورنس بان التاريخ يقتضي منهُ انشاء كتاب جديد بذكرى الثورة العربية . فسلّم لورنس بذلك متلكئاً . ولكنهُ لما سلّم بهِ اقبل على إنجازه بنفس الاندفاع الذي امتاز بهِ في معاركها

قلما نجد كتاباً عظيماً الشيء ومؤلفهُ موزّع الفكر كما كان لورنس عند انشاء هذا الكتاب . بل ان اصولهُ فقدت مرتين ، الاولى في روما لما تحطمت الطيارة التي كان لورنس مسافراً بها الى الشرق الادنى وكان لا يزال في مسنهاـه ، والثانية عند الانتقال من قطار الى آخر في محطة ردنغ بانكلترا وهو ذاهب الى اكسفرد ، وكان قد اوشك ان يتمّهُ

ماكاد يضع لورنس منهجاً لفصول الكتاب حتى تبيّن له انهُ في حاجة الى مراجعة اوراقهِ ويوميتهِ وكانت لا تزال في القاهرة . فعرض عليهِ الجنرال غروفز مندوب بريطانيا الجوّي في مؤتمر الصلح ان يسافر في احدى طائرات السلاح الجوي ، وكانت طائفة منها متجهة الى الشرق الاوسط لتخطيط المواصلات الجوية الامبراطورية . فكتب لورنس مقدمة « الاعمدة السبعة » في الطائرة وهي محلقة فوق نهر الرون بين باريس ومرسيليا ولم يكد يتمها حتى تحطّمت الطيارة التي كان فيها عند وصولها الى روما ، فقتل سائقاها ونجا هو لانهُ كان جالساً وراء المحركات بعد ان رفض دعوة السائقين الى الجلوس بينهما . فنجا بحياته ولكن ثلاثاً من اضلاعه كسرت وكذلك عظمة ترقوته واخترقت احدى الاضلاع المكسورة رئتهُ وقد ظلَّ أثر ذلك يبدو فيها على أثر اي جهد كبير يبذله

لم تكن هذه الحادثة الفردة التي نجا فيها من الموت بل ان لورنس قال للكابتن لِدل هارت — ونحن نلخص عن كتابهِ الموسوم ت . ي . لورنس — انهُ نجا سبع مرات من حوادث مميتة في خلال معالجتهِ الطيران وكانت حادثة روما سادستها . وقد نجا مرتين اخريين على الاقل من حادثتي اصطدام خطيرتين لانهُ كان شديد الميل الى السرعة وهو ممتطٍ دراجته الخاصة وكانت من احدث طراز في « الموتوسيكلات »

---

(١) هو هارث دايفد جورج «١٨٦٢—١٩٢٧» عالم أثري انكليزي وكان رئيساً للجمعية الجغرافية الملكية وأميناً للمتحف الاشمولي في اكسفرد ، ومديراً للمكتب العربي في القاهرة خلال الحرب الكبرى وصديقاً حميماً للورنس

بعد ان لبث يومين او ثلاثة ايام في احد مشافي روما تحدث تلفونيًّا مع رفيقهِ في الحرب فرنسيس رُدْ نجل السر رنل رُدْ وكان السر رنل حينئذٍ سفيراً بريطانيًّا في عاصمة ايطاليا فنقل لورنس الى السفارة وبعد بضعة ايام اصرَّ على مواصلة السفر الى مصر مع سائر طيارات السرب. وكان عند مغادرتهِ لروما لا يزال في جبائر الجبير، ولكن الحوائل التي حالت دون الاسراع في وصول الطيارات الى مصر مهّدت له فترة للراحة فالشفاء

فلما انتصف الصيف كان قد عاد الى باريس فنقل سكنهُ بعيد وصوله الى مقرّ الوفد العربي في دار قرب «بوا ده بولون» وهناك اكبَّ على عمله. وقد قال لورنس انهُ كان يكتب في فترات قد تطول احداها حتى تبلغ اربعاً وعشرين ساعة، لا يتوقف في خلالها الاّ مرة واحدة لتناول الطعام. وكان متوسط ما يكتبهُ حينئذٍ من الف كلمة الى الف وخمسمائة كلمة في الساعة. وقد بلغ اكثر ما كتبه في أطول هذه الفترات ٣٠ الف كلمة أو نحو سبعين صفحة من صفحات المقتطف اذا كان اساس القياس عدد الكلمات. وكان بين فترات الكتابة فترات طويلة، يعمد في خلالها الى تحقيق ما كتب وتنقيحهِ

ذلك ان كتابته كانت ثلاث مراتب. ففي المرتبة الاولى، كان يروي الحوادث كما يتذكرها. ثم بعد ذلك يراجع الوثائق و المذكرات اليومية ويعيد كتابة ما كتب وهي المرتبة الثانية. أما المرتبة الثالثة فكانت تنقيح الكتابة من ناحية الاسلوب، حتى يكون الكتاب كلهُ متجانساً. وكانت المرتبتان الثانية والثالثة تستغرقان أياماً بعدد الساعات التي ينفقها في المرتبة الاولى

ومع ذلك، كان كتابهُ هذا قد اوفى على التمام عند ما غادر باريس في أواخر الصيف. كان قد سرّح من الجيش في شهر يوليو ولكنهُ دعي الى حضور مؤتمر الصلح. وفي نوفمبر اختير لزمالة في كلية كل الارواح All Souls بجامعة اكسفرد تدوم سبع سنوات حتى يتاح لهُ وضع تاريخ للشرق الاوسط ولكنهُ لم ينتظم في كلية كل الارواح فوراً بعد عودته الى انكلترا بل أقام في غرفة فوق مكتب صديقه السر هربرت بايكر المهندس المعماري حيث مضى في انجاز كتابهِ عن الثورة العربية

وفي آخر السنة غادر لندن متجهاً الى اكسفرد حاملاً معهُ معظم أصول الكتاب في حقيبة من الجلد كالحقائب التي يحملها بعض التجار. وكان عليه ان ينتقل من قطار الى آخر في محطة ردنغ فذهب الى بوفيه المحطة ليتناول بعض المنعشات فوضع حقيبتهُ تحت الخوان ولما نهض للسفر بالقطار التالي نسيها فلما وصل الى اكسفرد تحدث بالتلفون مع مدير البوفيه فلم يعثر هذا على أثرٍ لها

فكان شعوره الاول شعور فرحٍ وكذلك كتب الى هوغارث فرحاً ساخراً فقال: «لقد ضيّعتُ الكتاب الملعون»! ولكن هوغارث كان قد قرأ اصول الكتاب كلها أو معظمها هو وصديقان آخران من أصدقاء لورنس؛ فاضطرب عند ما بلغهُ هذا النبأ، وعاد يحاول اقناع لورنس بوجوب كتابتهِ كتابة جديدة

ألقى هذا الطلب على كاهل لورنس عبئاً لا ريب في أن كلَّ كاتب يؤثر التملص منهُ. ولا يزال

ضياع أصول كتاب جديد من اكبر المخاوف التي تقلق بال المؤلفين . ولكن لورنس تغلب على ذلك الشعور ومضى في عمله مستعيناً بذاكرته التي كادت ان تكون كألواح التصوير الشمسي، ومستنداً الى يومياته . فعاد الى الغرفة فوق مكتب السر هربرت بايكر واكبَّ على العمل فما أقبل ربيع سنة ١٩٢٠ حتى كان لورنس قد كتب ثمانية من فصول الكتاب العشرة وهي الفصول التي ضاعت اصولها ، ونقح الفصلين الباقيين وكذلك تمَّ الكتاب

لم يكن الاسراع في النشر ، الباعث الذي حمل لورنس على بذل هذا الجهد المنيف في انجاز كتابه . بل كان غرضه الرئيسي تفريغ ما في ذهنه من حوادث الثورة العربية بكتابتها ، لا فائدة الغير ، اوهو على الاقل لم يرمِ الى فائدة احد في عصره . ومما يدل على ان النشر لم يكن الغرض من الاسراع في انجاز الكتاب ان الكتاب لم ينشر قبل سنة ١٩٢٦ وانهُ الّف ثلاثة كتب اخرى ولم ينشر الاّ واحداً منها فقط . وكان احدها كتاباً وصف فيه رحلاته في الشرق الادنى والشرق الاوسط ، فما كاد يتمه حتى حرق اصوله حرقاً . ومن غرائب الاتفاق ان عنوان ذلك الكتاب كان «اعمدة الحكمة السبعة» وهو مستمد من عبارة جاءت في امثال سليمان : — «الحكمة بنت بيتها ونحتت اعمدتها السبعة . ذبحت ذبائحها ومزجت خمرها وصففت مائدتها . ارسلت جواريها تنادي على متون مشارف المدينة . من هو غرٌّ فليمِل الى هنا وتقول لكل فاقد الاب . هلموا كلوا من خبزي واشربوا من الخمر التي مزجت . اتركوا الغرارة واحيوا . انهجوا طريق الفطنة ......»

كان الكتاب الذي كتبه قبل الحرب ، كتاب وصف ينطوي على مغزى ادبي . ولكن الكتاب الذي كتبه بعد الحرب كان كتاب تاريخ ينطوي على فلسفة

انقضت فترة ليست بالقصيرة ، بين انجاز التأليف واخراج الكتاب . فقد كان لورنس غير راضٍ عن اسلوبه فيه . فمضى ينقحه ويصقل عبارته ولم يكتف بذلك بل عني بدراسة اصول التأليف دراسة وافية . فطلب الى نفر من اصدقائه ، وكان بينهم طائفة من اكتب الكتّاب باللغة الانكليزية ، ان يكشفوا له عن المبادىء والقواعد التي يرعونها في كتاباتهم . وهو يعترف بأن ذلك لم يهده الى السبيل السوي، وان كبار الكتّاب لا يجرون على قواعد معينة في الكتابة ، جرياً واعياً، وان الهواة فقط يفعلون ذلك . ولذلك كانت القواعد التي اتبعها في كتاباته ، نتيجة تفكيره الخاص وقد لابسته ملابسةً حتى اصبحت كل رسالة كتبها قطعة من الفن مطبوعة بطابعه الممتاز

وقد جرى على هذه القواعد في تنقيح كتابه في الثورة العربية خلال سنتي ١٩٢١ و ١٩٢٢ فلما انجز النص الجديد، حرق النص القديم، وطبع ثماني نسخ منه بمطبعة اكسفرد، لان نفقة الطبع بالمطبعة كانت اقل نفقة من الطبع بالمكتاب او مثلها على الاقل، فكلفه طبعها — والكتاب مؤلف من ٣٣٠ الف كلمة — نحو ثمانين جنيهاً . وكان يعتقد ان النسخ الثمان التي طبعها تكفي اصدقاءهُ الذين كانوا يرغبون في الاطلاع على وصف تام لحوادث الثورة العربية . ولكن دائرة الاصدقاء

الراغبين في ذلك كانت اوسع مما ظن ، فلما اشتدَّ اصدقاؤهُ في محاولة اقناعه بوجوب طبع الكتاب عجز عن ردهم ، وبوجه خاص لانه كان يميل ميلاً خاصًا الى الكتب المطبوعة طبعاً متقناً والمجلدة تجليداً فاخراً

وكان الباعث الذي حمله على تقرير طبع الكتاب رغبة المس جرترود بل في حيازة نسخة منه بعد ما اطلعت على نسخة صديق لها . فحثته على اخراج طبعة محدودة لاصدقائه . فسلم بذلك لان الطبعة الجديدة تتيح له ان يخرجه على الوجه الذي يرتضيه . فعين لثمن النسخة الواحدة ثلاثين جنيهاً . ثم اتسعت دائرة الأصدقاء حتى صارت شاملة لاصدقاء الأصدقاء . ولما كثرت الاشتراكات حمله ذلك على التفكير في اخراج الكتاب إخراجاً أفخر مما كان يتوقع . فعهد الى طائفة من رجال الفن برآسة إرك كننغتن في وضع الرسوم لهُ . وكذلك زاد ثمن النسخة الواحدة من ثلاثين جنيهاً الى تسعين جنيهاً . ولكنها مع ذلك ظلت دون ما يقتضيهِ هذا الاخراج من النفقة

وقد قدرت نفقات الطبعة المحدودة بثلاثة عشر الف جنيه ، وكان هو عاجزاً عن النهوض بها فتقدم أحد أصدقائه في الحرب — روبن بكستن وكان عند الاقدام على طبع الكتاب أحد مديري بنك مارتنز — متعهداً بتوفية الفرق بين نفقات الكتاب ودخله . ولكن لورنس رغب في أن يحول دون أية خسارة ، يتكبدها صديقهُ ، فاتفق معهُ على اختصار الكتاب ، واخراج طبعة عادية منهُ ، بعنوان « ثورة في الصحراء »

وأخيراً ظهر كتاب « أعمدة الحكمة السبعة » في سنة ١٩٢٦ . فتنقلت بعض نسخهِ تنقلاً سريعاً من بائع الى شارٍ الى ان عرضت احداها في دكان كتبيٍّ بلندن بسبعمائة جنيه

أما كتاب «ثورة في الصحراء» فظهر سنة ١٩٢٧ واعيد طبعهُ خمس مرات . فلما علم لورنس أن ما بيع من هذا الكتاب كافٍ لتوفية الدين على كتاب « الأعمدة السبعة » طلب الى الناشرين ان يكتفوا بذلك . ولكن ما بيع منهُ في الولايات المتحدة الاميركية ، أسفر عن ربح كبير للمؤلف

الاَّ ان لورنس رفض رفضاً باتًا أن يمسّ فلساً واحداً من هذا المال . بل انهُ كان قد دبَّر تدبيراً قبل نشر الكتاب ، اشترط فيهِ تعيين لجنة يحق لها أن تتصرف بأي مال يجنى من بيعهِ في الوجه الذي تراهُ . ولما طلب اليهِ أحد الناشرين الفرنسيين ان ينشر ترجمة لكتابهِ اشترط أن يطبع على النسخة الفرنسية العبارة الآتية : « خصص ربح هذا الكتاب لضحايا الظلم الفرنسي في سورية »

ومن عجائب ما يروى عن كتاب «الاعمدة السبعة» انهُ ظهر من غير ان يظهر عليه اسم المؤلف. والواقع ان اسمهُ كان مطبوعاً على تجربة الصفحة الاولى فلما اطلع عليها شطب اسمهُ ، فلما سئل في ذلك ، قال يبدو الكتاب كذلك أنق مما لو كان اسمي عليهِ (It looks cleaner) . أما النسخ التي أهداها الى أخصائهِ ، فلم يمهرها بالحروف .T. E. L أي ت.ي. لورنس بل مهرها بحروف .T. E. S أي ت . ي . شو وهو الاسم الجديد الذي اتخذه عند ما انتظم في فرقة الدبابات وسلاح الطيران

نجران

بحث جغرافي تاريخي

في منطقة تكاد تكون مجهولة من بلاد العرب

لسعادة فؤاد بك حمزة وكيل خارجية المملكة العربية السعودية

لدراسة جغرافية نجران شأن كبير يرتكز على ثلاثة اعتبارات: أولاً — من الوجهة التاريخية والأثرية بسبب انتشار اليهودية والنصرانية فيها قبل الاسلام ووجود بقايا آثار مدن قديمة فيها قد تساعد كثيراً على حسر اللثام عن حوادث تاريخية غامضة. ثانياً — من الوجهة السياسية لأنها كانت السبب المباشر للنزاع بين الملك ابن سعود والامام يحيي مما جر الى الحرب الاخيرة بينهما. ثالثاً — من الوجهة العلمية والاجتماعية لان اكثر الخرائط الحديثة لا تحوي عن هذه البلاد شيئاً صحيحاً ولان كثيرين خلطوا في أحوالها ووجود اليهود والاسماعيلية فيها ثم لان موقعها الجغرافي الصحيح ووضعها بالنسبة الى البلاد المجاورة مجهولان بعض الجهل

موقع نجران

نجران احد الاودية الستة، وأقربها الى جهة خط الاستواء، التي تصفى مياه الأمطار المتحدرة من السفوح الشرقية لسلسلة الجبال الممتدة من جنوب بلاد العرب الى شمالها بعد دخولها في البلاد المشمولة بحكم ابن سعود والتي يسميها العرب جبال «السراة» أو «الحجاز»[1]. ومع ان نجران ليس أهم الاودية الستة المشار اليها من حيث طوله، والروافد التي تصب مياهها فيه والقرى والمزارع القائمة على جوانبه، فان له شأناً خاصاً من جهات عديدة اخرى اهمها علاقته بتاريخ النصرانية واليهودية ووجود آثار كنيسة ومباني مدينة قديمة يدعي بعضهم انها بقايا المدينة الوارد ذكرها في القرآن باسم «الأخدود» ولما كنت قد ذكرت الأودية الستة فانني أرى من المناسب ان أذكر اسماءها والبلاد التي تنبع منها والتي تنتهي اليها مبتدئاً بها من الجنوب الى الشمال على وجه الترتيب

الاودية الستة بحسب وضعها من الجنوب الى الشمال[2]

اولاً — وادي نجران وهو منفصل عن الاودية التي في بلاد الامام يحيي بجبال مرتفعة تشكل سطحين مائلين لخط تقسيم المياه، سطح جنوبي تتصفى مياهه الى وادي الفرع واضدح اللذين ينتهيان

---

(١) بعضهم يسمي السلسلة ساق الغراب وهم بالاحرى يسمون السلسلة الغربية ساق الغراب والسلسلة الشرقية لها اسماء اخرى (٢) حصرنا بحثنا في الاودية القائمة ضمن حدود المملكة العربية السعودية فقط

في بلاد الجوف في اليمن، وسطح شمالي تتصفى مياهه الى وادي نجران الا ان اكثر مياه الوادي تأتيه من جهة الغرب لا من جهة الجنوب . ومياه الامطار التي تأتي الى وادي نجران من جهة الغرب تتجمع من السيول والروافد العديدة القادمة من بلاد قبيلة سحار وبعض قبيلة بني جماعة (وكلتاهما ترجع في أصولها الى قبيلة خولان بن عامر) . وأما مجرى الوادي نفسه واطرافه ومنتهاه فانه ملك لاحد فروع قبيلة همدان بن زيد المعروفة باليامية

ثانياً — وادي حبونه (ويسميه جغرافيو العرب المتقدمون حبونن) ويقع الى الشمال من نجران وتفصله عنه هضاب عديدة اكثرها مرتفع وفي أعاليها منبسط اسمه الصحن . والواديان يسيران متوازيين تقريباً ويبعد أحدهما عن الآخر في غالب نقاطهما مسافة يوم للجمال المحملة ومصبهما عند رمال المهمل اي الربع الخالي يبعد هـذه المسافة ايضاً . ووادي حبونة أقل اهمية من نجران وأقل عمراناً وقرى بالرغم من أن هنالك أودية مشهورة تصب فيه منها أودية بدر والخانق وهدادة والحرشف . وهو يصفي المياه التي تنحدر الى جهة الشرق من القسم الشمالي من بلاد بني جماعة اليمانيين كما انهُ يصفي بلاد وادعة من همدان والقسم الجنوبي من بلاد قبيلة قحطان . ويمكن ذكر ستة أودية مهمة في بلاد بني جماعة ووادعة وقحطان يمكن اعتبارها أساساً لوادي حبونة وهي (١) وادي الحاجر ويصب في هدادة (٢) وادي قتام ويمر ما بين عقبتي الشطبة وعلب اللتين هما نقطة الحدود بين بلاد ابن سعود والامام يحيي الفاصلة بين حدود بني جماعة وسحار الشام وحدود وادعة (٣) وادي العرين ويمر في قرى عديدة منها ظهران والمجزعة (٤) وادي الغيل وينتهي الى حبونة بعد أن يمر في وادي القرن (٥) وادي طلحة (٦) وادي رشاد

ثالثاً — وادي تثليث وهو يصفي الامطار التي تتجه الى جهة الشرق من بلاد بطون قبيلة قحطان كما انهُ منتهى عدة أودية مهمة تصفي قسماً من بلاد قبيلة شهران صاحبة الوادي الرابع الذي سنذكره فيما يلي . وهذا الوادي أطول من الواديين المتقدمين واكثر اعوجاجاً منهما وهو في اتجاهه يختلف عنهما نوعاً لانهُ منحرف الى الشمال الشرقي ، والاودية التي تصب فيهِ كثيرة نذكر أهمها وهي (١) المَجْمَع (٢) جَنَاب (٣) سروم (٤) راحة سَنْحَان (٥) راحة شُرَيف (٦) وادي الحرجَة (٧) وادي بِحْلاَة (٨) وادي يَعْمُوض (٩) وادي الوفيرة (١٠) طَريب (١١) الهَيْج (١٢) وادي المَسِيْرق وهو يتألف من ثلاثة أودية كبيرة في بلاد شهران : وادي الشيَق ووادي السِّلِيل ووادي خيبر، ومجمعها بقرب خيبر، وتتجه الى وادي ثَفْن ثم تصب في تثليث (١٣) وادي القاعة . وينتهي وادي تثليث عند الرمال المعروفة باسم المختمية بقرب وادي الدواسر . وقد فاض تثليث عام ١٩١٧ وكسر السد الرملي وطغى على وادي الدواسر فأغرق قرى كثيرة وسبب خسائر عظيمة في الارواح والاموال . ويمكن القول ان مجرى الوادي واطرافه ملك لفروع قبيلة قحطان ما عدا المسيرق والقاعة فانهما لشهران

رابعاً — وادي بِيشة وهو أطول الاودية الستة وأهمها ولذلك يقسمونه الى ثلاثة أقسام يسمونها بيشة بن سالم من قحطان وبيشة بن مُشَيْط وبيشة النخل . وهو يصفي مياه الأمطار التي تتجه الى الشرق والشمال من ديار بطني رُفَيْدَة وعَبِيدَة من قبائل قحطان وديار قبيلة عسير كلها وديار شهران عدا ما يصب في تثليث من المسيرق والقاعة وديار بالاحمر وبالاسمر وبني شهر كلها. أما الاودية الكبيرة التي تصب فيه فاننا نذكرها على وجه الاختصار لان ذكرها كلها يستغرق من التفصيل ما لا يسمح المجال بذكره هنا (١) وادي تَنْدَحَة (٢) وادي أبها الذي يكون اسمه في علوه حيث ينبع عند السقا مركز بني مغيد من عسير (خَبيبي) (٣) وادي عتود (٤) وادي الحُمْرَة (٥) وادي هرجاب (٦) وادي تَرج (٧) وادي تبالة (٨) بطنة الحبيب . ومن المهم أن نذكر ان وادي بيشة ينبع في علوه من بلاد عبيدة ورفيدة من قحطان عند مكان فيهِ آثار قديمة لبلدة خربة كانت مشهورة في الكتب العربية باسم « جرش » وبعد أن يمر في بلاد ابن مشيط يجتمع بهِ وادي تِنْدَحة قادماً من ضفته اليمنى ووادي عتود وابها من جهة الغرب ووادي الحمرة الذي هو الى الغرب والشمال من وادي ابها الى أن تلتقي عند بلاد ابن هشْبَل فيصبح اسم الوادي اعتباراً من هذا المكان وادي شهران ثم يظل هذا الاسم عليهِ الى أن يصل الى مزارع تسمى وَاعِر وهي تعتبر أول وادي بيشة الذي هو الاصل فيما يطلق عليهِ «وادي بيشة» وهي تبعد عن الرَّوْشَن مركز بيشة اكثر من يومين للجمال المحملة . ويمتد الوادي بعد قرى بيشة التي آخرها الخينة الى أن يصل الى منطقة الرمال فيغور فيها في الرمل المسمى رغوة عند مكان اسمه ظاعن

خامساً — وادي رنية ومنبعه الاصلي في بلاد غامد الواقعة الى الشمال من بلاد بني شهر من موضع اسمه ثَراد وبعد ان يصفي ديار قبيلة غامد وبعض زهران وبالحارث وبني عمرو يبدأ العمران فيهِ عند نخيل اسمه الاملح وبعد أن يسقي القرى العديدة الموجودة على اطرافه والتي آخرها من جهة مصبه بلدة العماير الى ان يصل رغوة وينتهي عند هجلة المتحتمية . ويصب في هذا الوادي اودية فرعية عديدة أهمها (١) غتران (٢) المجرة (٣) قَرْة

سادساً — وادي تُرَبة واصل منبعه في علوه في ديرة زهران وبني مالك ولكن اكثر مياهه تأتي من ديرة البقوم في حضن واطرافه من حرة سبيع الواقعة الى الشرق والجنوب من الخرمة وينتهي الوادي في عرق سبيع الرملي عند القنصلية والعرق يبعد مسيرة مرحلة المطية عن الخرمة ويفصل وادي تربة عن وادي رنية حرة سبيع المشهورة . ويصب في وادي تربة عدة أودية أهمها (١) المجرة (٢) المبايع (٣) سعدانات (٤) الجوفا (٥) الحرملية (٦) الشضو (٧) الجنينة (٨) الظليم ومميذ والسدري

نجران في كتب العرب

ورد ذكر نجران في كثير من الكتب العربية غير انهُ يتراءى لي ان الذين كتبوا عنها في الاعصر القديمة انما كتبوا ما سمعوه كما فعل المتأخرون والفرق بين كتابة السامع والمشاهد عظيم واكثر

المؤلفين من العرب يذكرون ان نجران مخلاف من مخاليف اليمن وانهُ يقع بين صنعاء واليمامة (نجد) ويذكر بعضهم ان اسمه مشتق من اسم احد حفدة يعرب بن يشجب ويغلب على الظن انهم كانوا يشيرون الى نجران كانهُ علم لمدينة كبيرة لانهم يذكرون ان نجران وجرش مدينتان هما دون صعدة الى جهة مكة وانهما متشابهتان (ذكرت عن جرش انها خربة وقد بقيت منها اطلال دارسة في علو وادي بيشة) . وقد ذكر اسم احدى قرى نجران المسماة بالاخدود في القرآن الكريم في سورة البروج وورد الاسم ايضاً في السيرة النبوية بمناسبة وفود اهل نجران الى النبي (صلعم) ودخولهم في الاسلام قبيل وفاتهِ . وورد ذكر اهل نجران بمناسبة اخرى ايضاً وهي حديث النبي عن مشاهدته لقس بن ساعدة الايادي خطيب العرب المشهور وقد كان قس اسقفاً لنجران قبل الهجرة

النصرانية واليهودية في نجران

يذكر مؤرخو العرب ما يستفاد منهُ ان النصرانية سبقت اليهودية الى نجران وان محاولة احد ملوك اليمن الحميريين الذين هادوا ان يرغم نصارى نجران على اعتناق اليهودية ادت الى تدخل قياصرة الروم بواسطة الحبشة والى فتح اليمن من قبل الاحباش كما هو مشهور في الكتب العربية . وقد لخص السير وليم موير في كتابه (حياة محمد) اقوال مؤرخي العرب في ذلك ، ونقل الدكتور هيوز في كتابه (قاموس الاسلام) ما هذه خلاصته

كان ذونواس الحميري في احد اسفاره الى المدينة اعتنق الديانة اليهودية وحينما عاد الى اليمن حاول نشرها فيهِ ايضاً . فلقي مقاومة عنيفة من اهل نجران الذين كانوا يدينون بالنصرانية فجهز عليهم جيشاً كبيراً وهدم كنيستهم وقتل كثيرين منهم وكان يحفر لهم حفراً يغرقهم فيها ومعنى الحفرة الاخدود وهو المقصود بالآية الكريمة الواردة في سورة البروج « قتل اصحاب الاخدود الخ » وكان من أثر ذلك ان استنجد نصارى نجران بالقسطنطينية التي كانت حامية للدين المسيحي فمهدت هذه الى ملك الحبشة بنصرة نصارى نجران وكان ما كان من استيلاء الاحباش على اليمن (عام ٥٢٥ م) ونشر النصرانية فيهِ وشروعهم في مهاجمة الحجاز لهدم الكعبة المكية واقامة كعبة اخرى مكانها في صنعاء يسميها العرب (القليس) وربما كانت محرفة عن كلمة (Eglise)

ومن المعلوم ان النبي ولد في العام الذي غزا الاحباش مكة فيهِ . ولم يدم ملك الاحباش في اليمن كما ان النصرانية ظلت في نجران الى ظهور الاسلام وظل في اليمن كثيرون من اليهود ومن العرب الذين دانوا باليهودية الى يومنا هذا . وحينما انتشر الاسلام اوفد اهل نجران اساقفتهم ورؤساءهم الى النبي وصالحوه على ان يظلوا على نصرانيتهم ويؤدوا الجزية ولكن حينما قرر الخليفة عمر ألا يبقى في جزيرة العرب دين آخر مع الاسلام صدر الامر باخراج من يصر منهم على النصرانية وعوض على من خرج مالاً مقابل املاكه

الاسماعيلية في نجران

يتمذهب اهل نجران كما يتمذهب سائر ابناء عمومتهم واخوانهم من قبيلة يام بالمذهب الاسماعيلي وهو مذهب احدى الفرق الشيعية الباطنية في الاسلام واتباعه يعتبرون ائمة سبعة من اهل البيت آخرهم محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ويختلفون عن الاثني عشرية بان هؤلاء يقولون بامامة اثني عشر اماماً آخرهم محمد الحسن العسكري ولا يعترفون لمحمد بن اسماعيل بل يتبعون موسى الكاظم . والاسماعيلية بانفسهم منقسمون الى عدة فرق اهمها (١) فرقة الخواجية التي يترأسها آغا خان (٢) فرقة الداودية التي يترأسها طاهر سيف الدين من بومباي (٣) فرقة السليمانية التي يترأسها الداعي المكرمي الذي له منصب في الهند في بدر باغ وهو غلام حسين الهندي . اما كيفية دخول الاسماعيلية بين اهل نجران وسائر يام فما لا نستطيع الجزم به ولا تحديد وقت معين لحصوله . الآ ان الذي يتراءى لي ان طبيعة اليامية جعلتهم يميلون الى مخالفة جيرانهم من القبائل في العقائد الدينية وفي العادات الاجتماعية ومع ان اليامية بطن منهم من بطون همدان بن زيد فانهم يختلفون عن مجاوريهم بانهم عرفوا بمزيتين الاولى اختلاف المذهب والثانية كونهم من اشد القبائل شكيمة وقت الحروب ومعتادين الغزو والغارات.ولم تشتد دعوة الاسماعيلية في نجران وتصبح لرؤسائهم سيطرة مدنية وقوة عسكرية حكومية الآ منذ ثلاثة قرون ونصف تقريباً حينما قدم الى نجران الداعي الاسماعيلي المسمى محمد بن اسماعيل المكرمي فاراً من بلدة (طيبة) التي تبعد عن مدينة صنعاء مسافة بضع ساعات الى جهة الجنوب (١)

المكارمة في نجران

كنت مخطئاً في ظني ان المكارمة من السادة العلويين الى ان اتيحت لي فرصة الاجتماع المتكرر مع نائب المنصوب عن الداعي والمسمى حسين بن احمد فاعلمني ان المكارمة قحطانيون وسرد لي سلسلة نسبه الى يعرب (حسين بن احمد بن حسن بن حسين بن علي بن حسين بن علي بن حسين بن احمد بن محمد وهذا اول من سكن بدر من المكارمة ابن الفهد بن صلاح بن داود الناصر بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن علي بن صبيح بن حسان بن مكرم بن سبا بن حمير الاصغر بن المنتهب بن عمرو ابن علاق بن ذي ابين بن ذي يقدم بن الصوار بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيدان بن قطر ابن غريب بن زهير بن ايمن بن الهميسع بن حمير الاكبر بن يشجب بن يعرب بن قحطان). وسرد عليَّ المكرمي حادثة قدوم محمد بن اسماعيل الى نجران ثم كتب اليَّ خلاصة وافية نقلها عن كتاب جامع لتاريخ ائمة الاسماعيليين ودعاتهم واعمالهم في مدة الدعوة ولكنهُ رفض ان يطلعني على اصل التاريخ الذي عنده مع انهُ قديم ويتناقله الدعاة خلفاً عن سلف . وفهمت ان سبب امتناعه عن اطلاعي عليه يعود الى ان ما فيه عائد لشؤون باطنية محضة وقاعدة اهل الباطن في الاسلام المحافظة على اسرار معتقداتهم وعدم اطلاع الاجانب عنهم عليها

(١) ذكر لي المكرمي ان بلدة طيبة كانت تسمى في الزمان القديم دورم

كان المكارمة مقيمين في طيبة ولكن الدعوة لم تنقل اليهم الاّ متأخرة فقد قرأت فيما كتبه الي المكرمي اسماء اربعة دعاة من الهنود قاموا بأمر الدعوة في الهند وطيبة من عام ٩٧٤ الى ١٠٨٨ هجرية وهم داود بن عجب الذي حصل بعد وفاته انفصال فرقة الداودية عن السليمانية وسليمان بن حسن هندي وجعفر بن سليمان وعلي بن سليمان وحين وفاة هذا اوصى بالامر لشخص اسمه ابراهيم ابن محمد بن الفهد (راجع سلسلة النسب) ابن صلاح المكرمي فقام بالدعوة في بلدة طيبة مدة ٤٤ سنة وحين وفاته عهد بها الى حفيده محمد بن اسماعيل بن ابراهيم فحصل بينه وبين الزيود حرب غلب فيها فهرب الى القنفذة ومنها دعاه اسماعيليو نجران ليكون بينهم فحضر الى بلاد نجران وسكن في بلدة بناها واسماها الجمعة ولكنها الآن خراب

ومع ان المكارمة غرباء عن نجران وليس لهم سلطة زمنية (لا سيما اذا اخذنا بعين الاعتبار ان اليامية مؤلفة من ثلاثة فروع لكل فرع رئيس زمني قوي) فانهم نجحوا في اعمالهم وأصبحوا اصحاب الشأن في الامور الدينية والزمنية وامتدت فتوحاتهم الى الاطراف المجاورة ووصل بعضهم الى تريم في حضرموت وبعضهم الى اواسط نجد أيام النزاع بين آل سعود وابن دواس وآل معمر

أما الذين تعاقبوا من دعاة المكارمة في نجران فهم: (١) محمد بن اسماعيل توفي ١١٢٩هـ (٢) هبة ابن ابراهيم توفي ١١٦٠ (٣) اسماعيل بن هبة توفي ١١٧٤ (٤) حسن بن هبة توفي ١١٨٩ (٥) عبد العلي بن الحسن بن اسماعيل بن ابراهيم توفي ١١٩٥ (٦) عبد الله بن علي بن هبة توفي ١٢٢٥ (٧) يوسف بن علي بن هبة توفي ١٢٣٤ (٨) حسين بن حسين بن علي بن هبة توفي ١٢٤١ (٩) اسماعيل ابن محمد بن حسن بن هبة توفي ١٢٥٦ (١٠) حسن بن محمد بن حسن بن هبة توفي ١٢٦٢ (١١) حسن بن اسماعيل وهو من آل شبام ومن غير المكارمة توفي ١٢٨٩ (١٢) احمد بن اسماعيل بن محمد بن حسن بن هبة توفي ١٣٠٦ (١٣) عبد الله بن علي توفي ١٣٢٣ (١٤) علي بن هبة توفي ١٣٣٠ (١٥) علي محسن ابن حسين آل شبام تولى ١٣٣٠ وهو الداعي الى الآن وخليفته غلام حسين الهندى والمنصوب الآخر حسين بن احمد المكرمي . وجميع المكارمة الاحياء الموجودين في بدر ونجران وشهارة في اليمن اربعة افخاذ ويجتمعون في جد اعلا اسمه محمد بن الفهد المار ذكره في سلسلة النسب وحسين بن احمد المكرمي الخليفة المقبل يقول ان اخذه اسمه نخذ آل ذي الجدين دليلاً على انه مكرمي اباً وأمّاً

سكان نجران

يقطن نجران فرع من فروع قبيلة همدان بن زيد القحطانية كما انه يوجد فيه عدد قليل من الذميين (اليهود) بعضهم من اصل يهودي والبعض الآخر من العرب الذين اعتنقوا الديانة اليهودية ويوجد فريق ثالث من السكان يحسب من الطبقات المنحطة التي لا يحترمها العرب ومكانة هذا الفريق اعلى من مكانة اليهود وأحط من مقام القبائليين . اما اليهود فانني قد علمت بعد البحث الدقيق بواسطة زعماء المكارمة واليامية انهم لا يزيدون عن مائة عائلة منتشرة في قرى وادي نجران

وحبونة وعملهم في الصنائع التي يحسب العرب القبائليون انها حطة في قدرهم مثل الخرازة وسائر اشغال الجلود والحدادة والسمكرة وسائر الاعمال الصناعية . ولليهود كاهن يقيم في المخلاف يسميه الاهالي « الذبَّاح » وهم يسبتون يوم السبت ويجتمعون غالباً في بيت الكاهن ويقرأُون بالعبرانية واليهود متمتعون بحماية زعماء اليامية الثلاثة وحماية المكارمة ايضاً ويظهر انهم مسرورون من معيشتهم وهم يؤدون الجزية سنة فسنة ويبلغ مقدارها ريالاً واحداً عن البالغ ذكراً او انثى . وذكر لي بعضهم ان احد هؤلاء اليهود اغري على السفر الى فلسطين فأقام فيها مدة ثم عاد منها الى قومه فسئل عن اسباب عودته فقال : « وجدت معاملة المسلمين والنصارى غير التي نعرفها عنهم في بلادنا وغير ما نقرأه في كتبنا ووجدت اليهود غير اليهود الذين نعلمهم فقنعت نفسي وعدت الى قومي »

اما العرب القبائليون او اليامية فانهم ثلاثة بطون :—

« اولاً » — بطن آل فاطمة — كبيرها جابر بن حسين ابو ساق

١ آل سالم
٢ آل شرية
٣ آل مسعد
٤ آل الحامض
٥ آل سليم
٦ آل ذيبان
٧ الوبادين
٨ آل زمنانان
٩ آل القفيلي
١٠ آل بشر
١١ القشانين
١٢ الشركان في هداءة
١٣ المكاييل في حبونه
١٤ آل مخلص بدو
١٥ آل زابن »
١٦ آل معجبة »
١٧ آل راكه »
١٨ آل فطيح »
١٩ آل رشيد »

٢٠ آل فهاد بدو
٢١ آل العرجاء »
٢٢ آل سالم بدو وحضرهم في بدر وفي حبونه
٢٣ آل فروان بدو وحضرهم في بدر وفي حبونه
٢٤ آل سفران بدو وحضرهم في بدر وفي حبونه
٢٥ آل لبيد بدو في بدر
٢٦ آل عمرو » وحضرهم في بدر
٢٧ آل معمر »
٢٨ آل زائد حضر في حبونه
٢٩ آل شرار حضر في نجران
٣٠ آل دكان » » »
٣١ آل معيط » » »
٣٢ آل سعد » في حبونه
٣٣ آل فائد » في حبونه
٣٤ آل الخريت » » »
٣٥ آل الظويل » » »
٣٦ ابن قنة » » »
٣٧ ابن حامد » في نجران

(٢٩–٣١: [illegible])

﴿ ثانياً ﴾ — بطن آل ام واجد كبيرها ابن نصيب آل المهري

١ وهم ثلاثة أقسام آل غانم وآل علي بن سعيد وآل حسن المحمد وابن الخزور يسكنون نجران
٢ آل الحارث وفيهم آل بحري — آل الحارث في نجران — وآل بحري في حبونه
٣ ابن الحزوبر
٤ آل عامر
٥ الدلاوين
٦ آل بنيان | يطلق على هؤلاء الثلاث
٧ العطازة | آل عامر وهم بدو
٨ آل علي بن عامر | وحضرهم في حبونه
٩ آل صليع بدو وحضرهم في حبونه
١٠ الخضرا في حبونه
١١ آل هميم «
١٢ آل بحري
١٣ آل عباس في نجران
١٤ وادعة « «
١٥ آل قريع بدو وحضرهم في حبونه
١٦ الميسان بدو وحضرهم في حبونه
١٧ آل رزق بدو وحضرهم في نجران
١٨ آل علي بن الأحسن في نجران وحبونه حضر

﴿ ثالثاً ﴾ — بطن ادشم (اجشم) وكبيرها سلطان بن منيف

١ آل مقاتل ومنهم بنو منيف في نجران
٢ آل حرث «
٣ زبيد «
٤ آل بوزيده في نجران
٥ آل منصور «
٦ آل سليمان وفيهم آل بدر وآل مطيف والحسان وآل كليب وآل مطارد وآل خطاب وآل سنان وآل جريشه والدويس في نجران
٧ آل حسن في نجران
٨ ابن سليمان وهم آل هتيله بن علي وآل مشرف — وآل حابس وآل سوران وآل حوار في نجران
٩ ابا الحارث في نجران
١٠ الصقور «
١١ آل جعفر « ويقال لهم آل جبير
١٢ آل ربعه «
١٣ آل مصعب «
١٤ آل ريح «
١٥ الاشراف « هجرة آل المندي
١٦ آل جعران « في بدر
١٧ آل المندي وقد ورد ذكرهم بصفة متفرقة ولكنهم كما يأتي :—

آل حسن
آل سليمان
بالحارث
آل منصور
آل مقاتل
آل حرث
آل ابو زيده آل جبير
الربعة الاشراف هجرة آل المرفق
آل جبر

ومن اليامية بدو يتبعوق الاقسام السابقة وبعضهم ليس فيها

١ جماعة ذيب المهان (من آل فطيح)
٢ جماعة ابو نقايا (من آل فطيح)
٣ جماعة حسين بن سداح بن آل ممجبة
٤ جماعة الخدري من آل مطلق وآل مخلص
٥ جماعة منير الرشيد من آل زائد من الرشيد
٦ جماعة فلاح بن سمحه من آل عمرو
٧ جماعة ابراهيم الاسلومي من آل عامر يتبع بن نصيب
٨ عوض بن حليمة من آل فروان
٩ مفاشر آل سالم من آل سالم
١٠ صالح بن محمد آل لبيد من آل لبيد
١١ جابر بن دكام يتبع بن نصيب

ثانياً : آل ام واجد وكبيرهم ابن نصيب واكثر في حبونة ولهم في نجران ثماني قرايا سأذكرها فيما بعد ثالثاً : ادشم او اجشم وكبيرهم سلطان بن منيف ولهم في نجران ١١ قرية كبيرة سنأتي على ذكرها حين ايراد اسماء القرايا ومواقعها فيما يأتي :

قبائل اليمن المشهورة ونسبة اليامية الى همدان بن زيد

علمت من كثيرين من الثقاة ان القبائل العربية التي تقطن جبال اليمن الواقعة الى الشمال من صنعاء حتى حدود بلاد ابن سعود ترجع انسابها الى اصلين كبيرين ويحدهما من شماليهما قبائل عربية سعودية تنحدر من اصل آخر سأذكره ايضاً . اما الاصلان فهما : اولاً همدان بن زيد والثاني : خولان بن عامر والاصل الذي يجاورهما من شماليهما هو قحطان بن عامر « وربما كان ابن عمرو » . اما قبيلة همدان بن زيد فانها تنقسم الى قسمين كبيرين (١) حاشد وهو اقربهما الى صنعاء (٢) بكيل وتنقسم بكيل الى عدة اقسام اذكرها فيما يلي

اولا — دهم وتتألف من فرقتين ذوى محمد وذوى حسين وهما رأس بكيل . ثانياً — سفيان اهل الحرف . ثالثاً — ارحب . رابعاً — وائلة وأهل الفرع . خامساً — اليامية وهي اهل نجران وحبونة وآل مرة والعجمان في نجد . سادساً — وادعة التي تقيم في بلاد ظهران

واما قبيلة خولان بن عامر فانها تقيم في السورات الى جهات الغرب من اقسام وفروع بكيل ولخولان ثلاثة مراكز رئيسية في الادارة الاول : مركز رازح والثاني : مركز ساقين والثالث : مركز صعدة . واما اهم اقسام خولان فانها كما يأتي : —

اولاً قبيلة سحار وهي في صعدة واطرافها وفي بلاد الصعيد المجاور لصعد تولها قرية واحدة منفصلة عن بغية سحار بواسطة بني جماعة وهي اقرب القرايا اليمانية الى حدود الملك ابن سعود واسمها « يباد » قرية ابن صبحان . ثانياً قبيلة بني جماعة وهي في بلدة باقم واطرافها . ثالثاً قبائل رازح والنظير . رابعاً قبائل بني مشيخ وبني منبه . خامساً قبائل فيفا وبني مالك وبني عبد الله التابعون لابن سعود . ويفهم مما ذكرنا اعلاه ان لليامية اقارب في نجد وفي اليمن على السواء . (ومن شاء زيادة التوسع عليه ان يراجع قسم القبائل العربية في كتابي قلب جزيرة العرب)

[للبحث تتمة مع خريطة لنجران]

طلسم الآباد

لالياس قنصل

لا تطمعي يا نفسُ في ادراك ما — أعيي حجا المتعمق المتفلسفِ

طُلَّسمُ آبادٍ خلال قشوره — تبدو الظنون الحائمات وتختفي

القربُ منه هو البعاد بعينه — ان لم يزد في غمضه المتكثفِ

أنا ما عدلتُ عن التسائل قانعاً — بحقيقة أروت غليل تشوّفي

لكنني الفيتُ ابلائي سدى — ثوب الشباب من الجنون المتلف

وَلَوَ أنني ادركتُ بعد الجهد ما — امتلتُهُ ، وكشفتُ ما لم يكشف

افكنت ادرج في نعيم دائم — صفو السعادة فيه غير مزيّف ؟

لا ! فالحياة بجهلنا وبعلمنا — لم يعرُها نقصٌ ولم تتشرّف

يا نفسُ لن تجدي السبيل فاطفئي — هذا السراج ، فما الضياء بمسعف

ما زلتُ ابحث ممعناً في حيرتي — واجدُ خلف الوهم جدّ تلهّف

حتى رجعتُ الى الشكوك مصدّعاً — ورأيتُ اني مصدر السر الخفي

عاصمة الارجنتين

الدفتيريا وعلاجها الواقي

بحث علمي صحي

للدكتور محمد علي

[بكتريولوجي بمعامل مصلحة الصحة]

اذا اردنا ان نحدد معلوماتنا الطبية عن مرض الدفتيريا ، وجدناها تقع في اربع مراحل ، الاولى مرحلة المشاهدات الاكلينيكية ايام كان الطبيب يشخص الدفتيريا معتمداً على مشاهدات خارجية اكثر ما تكون عرضة للخطإ للتشابه الكبير بين الدفتيريا وامراض الحلق المختلفة الاخرى . والثانية مرحلة اعتمد فيها الطبيب على التشريح المرضي في تمييز الامراض وتشخيصها . والثالثة مرحلة التجارب وفيها تكشف للطب سبب المرض . فبالتجربة العلمية امكن احداث مرض الدفتيريا في الحيوانات فكان ذلك مدعاة للتفكير والبحث عن العامل الخفي المجهول المسبب لهذا المرض . وفي عام ١٨٨٤ نال فخر هذا الاكتشاف العظيم العلامة لوفلر بكشفه عن الميكروب المسبب للدفتيريا ، وما لبث ان ايد العلماء كشفه فأصبح حقيقة ثابتة . وتوالت الجهود بعده فكشف الشيء الكثير عن خواص هذا الميكروب وتاريخ حياته . وأمعن كل من رو ويرسين في دراسة خواصه وتوصلا سنة ١٨٨٠ الى فصل سم الدفتيريا الفعال (توكسين) وذلك بترشيح مزرعة من الدفتيريا في المرق ، وبحقن هذا التوكسين في حيوانات التجارب تبين لهما الشبه بين مفعوله ومفعول باشلس الدفتيريا نفسه . وكان عملهما هذا ختام مرحلة التجارب وتمهيداً للمرحلة الرابعة الهامة

ويعتبر عام ١٨٩٠ بداية المرحلة الرابعة التي اضاء فجرها اكتشاف بهرنج وكيتا ساتو لمصل الدفتيريا العلاجي . ذلك الاكتشاف الخالد الأثر الذي يعتبر بحق فاتحة جديدة للتقدم المطرد الذي بلغه تحضير الامصال العلاجية فيما بعد ، وقد بلغ الغاية في هذه الايام ، ولعل اول نتيجة مذكورة مشكورة محسوسة له هي قلة الوفيات من الدفتيريا ، قلة واضحة في جميع انحاء العالم

***

بعد ذلك اتجهت البحوث الى ايجاد الوسائل لوقاية القابلين للعدوى بالدفتيريا وخصوصاً الاطفال بين السنة الاولى والخامسة عشرة من العمر حينما يكونون اكثر تعرضاً للمرض من غيرهم

كان من المعلوم اذ ذاك امكان التحصن ضد الدفتيريا بزيادة مقدار الانتي توكسين Antitoxin الطبيعي الذي في الجسم اي في الدم وذلك بحقن مصل الدفتيريا الحاوي للانتي توكسين . وهو المصل المضاد لسموم الدفتيريا وقد رغبوا في الاستفادة من تلك الظاهرة في الوقاية كأول خطوة في هذا السبيل ولكن التجارب المتعددة والمشاهدات الكثيرة اثبتت حبوط هذه الطريقة . ومما لا شك فيه انه يمكن تأخير ظهور اعراض المرض بحقن مقدار كافٍ من مصل الدفتيريا لمن تعرض للمرض او لمن اصابته العدوى وما زال في دور الحضانة ، فتحدث بذلك مناعة وقتية تبقى ما بقي في الدم مقدار وافٍ من « الانتي توكسين » المحقون ، واذا ما تضاءل هذا المقدار بسرعة وهو غالباً ما يحدث ، زالت عن المريض المناعة وتعرض للمرض فتبدو اعراضه واضحة خصوصاً ما زال ميكروب الدفتيريا في حلقه

وحبوط هذه الطريقة في ايجاد الوقاية الكافية صرفت عنها الافكار وحولتها الى اتجاه آخر

***

وفي عام ١٨٩٢ قام كل من فون بهرنج ووارنيك بعدة تجارب في الحيوانات القابلة للعدوى ، فأثبتا امكان حقنها مع بقائها سليمة بمقادير متزايدة من الميكروبات الحية الفعالة وذلك بعد اعطائها حقنة واقية من المصل . مضى على ذلك ست سنوات عند ما تمكن نيكاروف من تحصين الحيوانات باعطائها حقناً متكررة من التوكسين المتعادل بالانتي توكسين (اي ان كل حقنة من هذه الحقن كانت تحتوي على مقدار معين من التوكسين مع مقدار آخر معيَّن من الانتي توكسين لتخفيف فعلهُ التسممي) . ثم حقنها بعد ذلك بالتوكسين وحده بغير ضرر يذكر . وفي عام ١٩٠٠ اقترح درابر تبين المقادير اللازمة من التوكسين والانتي توكسين وذلك بواسطة حقنها في خنازير الهند قبل استعمالها في تحصين الخيل

وبالرغم من الجهود المتوالية لاستنباط طرق للوقاية لم تسفر أية طريقة حينئذ عن الفائدة المرجوة في الحيوانات فكان من الصعب جداً تطبيق احداها على الانسان

وجاء بعد ذلك بهرنج عام ١٩١٣ واعلن عن نجاحه في توصله الى طريقة نافعة لتحصين الانسان ضد الدفتيريا . وطريقته : ان يحقن مركباً مؤلفاً من التوكسين والانتي توكسين داخل الجلد . وصرح أن تركيبه هذا الذي لم يذكر طريقته لا يضر خنزيراً من خنازير الهند اذا حقن بهِ

ولعلَّ الفضل كل الفضل في تقدم هذه الطريقة في العلاج الواقي من الدفتيريا راجع جلّهُ الى اعمال بارك وزنجر اللذين استعملا مركباً معيَّراً من « التوكسين انتي توكسين » فكان ذلك سبباً في ذيوعه وتعميمه لتحصين الاطفال والافراد القابلين للعدوى . ومما يؤسف لهُ ظهور بعض العواقب غير المحمودة لاستعمال هــذا المركب . ويعزى ذلك الى خطإٍ في تركيبه وتحضيره ، فكان باعثاً على صرف النظر عنهُ الى محاولة استعمال التوكسويد (التوكسويد هو توكسين الدفتيريا مضافاً اليهِ مادة

الفورمالين بحيث يضعف فعله التسممي مع بقاء مقدرته على توليد المناعة) بدل التوكسين لقلة ضرره اذا قيس بالتوكسين مع كفاءته في التحصين. وأول من استعمل مركباً من التوكسويد والانتي توكسين هم الانجليز والاميركيون وكانت نتائجهُ محمودة . أما الممالك الاخرى وخصوصاً فرنسا فاقتصرت على استعمال التوكسويد وحده فأسفر فيها عن نتائج تفوق ما كان منتظراً منهُ ويرجع فضل ذلك في فرنسا الى اكتشاف رامون سنة ١٩٢٤ لخواص هذا التوكسويد الذي سماه « اناتوكسين رامون »

وتركيبه هـذا عبارة عن توكسويد ، محضر باضافة فورمالين الى السموم المرشحة من مزرعة دفتيريا في مرق ، ثم حفظه في فرن التفريخ مدة طويلة كافية لازالة قوته السامة وهو مع ذلك لم يفقد خاصة اتحاده بالانتي توكسين بل يظلُّ كفوءاً للتحصين كما تبين ذلك من التجارب العديدة

***

ويحسن هنا ان نشير الى طريقة شيك المتبعة لكشف قابلية العدوى في الاشخاص . فهي عبارة عن حقن مقدار يسير جدًّا من التوكسين داخل الجلد ومراقبة تأثيره المحلي في الجلد . فمن كان قابلاً للعدوى ظهر في مكان الحقنة التهاب يختلف شـدة وضعفاً باختلاف قابلية الشخص للعدوى وتعتبر التجربة ايجابية وليس لها أي تأثير ضار بالشخص . واذا لم يبدُ أي تفاعل موضعي يعتبر الشخص سلبيَّ النتيجة لتجربة شيك أو غير قابل للعدوى لتمتعه بنوع ما من المناعة الطبيعية ضد الدفتيريا وتعرف هذه التجربة باسم كاشف شيك Schick

ويقول رامون ان الحالات التي اصبحت سلبية لتجربة شيك بعد تحصين تام بالاناتوكسين (أي بعد ٣ حقن) بلغت نسبة النجاح عندهم من ٩٤ الى ٩٨ في المائة أي ان نجاحها فاق كثيراً نتائج استعمال « التوكسين انتي توكسين » بل ان كثيرين غيره من العلماء منهم ديكس وسفارتس وجيتي يذكرون الاناتوكسين بالنجاح الكامل اذ بلغت نسبة النجاح عندهم ٩٨ ./. أو ما يزيد

وطريقة الوقاية به هي أن يعطى على ثلاث دفعات حقناً تحت الجلد. الاولى نصف سنتمتر مكعب والثانية سنتمتر مكعب بعد ثلاثة أسابيع من الحقنة الاولى . والاخيرة حقنة تختلف من سنتمتر مكعب الى سنتمتر ونصف بعد اسبوعين من الحقنة الثانية . ومنعاً لما قد يحدث من تفاعل في البالغين يحسن اعطاء مقادير صغيرة تتراوح بين عُشر سنتمتر مكعب وربع سنتمتر حقناً تحت الجلد قبل اعطاء العلاج الواقي السالف الذكر

وللحقنة الثالثة شأنها الكبير وقد وجد ان ٣٣ ./. ممن اكتفوا في الوقاية بحقنتين يظلُّ امتحانهم يسفر عن نتيجة ايجابية لكاشف شيك دلالة على عدم تكون المناعة اللازمة لديهم [1]

وينصح رامون امعاناً في الوقاية لكل من أتمَّ العلاج الواقي اي الحقن الثلاث ان يأخذ سنويًّا حقنة اناتوكسين مقدارها سنتمتر مكعب واحد

---

(١) وقد جاء في بعض المجلات العلمية انهم قد حسنوا هذه الطريقة بحيث يكتفي فيها بحقنتين بدلا من ثلاث حقن

والثابت الآن أن المناعة تتم في نهاية الشهر الرابع من أخذ الحقن ، وتبلغ أقصاها في الشهر السادس كما يتبين جلياً من مراقبة المحقونين بتجربة شيك وتستمر المناعة في الاطفال عامين أو ما يزيد اذا لم يتم العلاج كله . أما اذا أتمّ الحقنة الثالثة فالمناعة اكيدة مدى أعوام طويلة

***

ولقد كان لتعميم استعمال « الاناتوكسين » للوقاية بفرنسا اكبر الفضل في اختفاء أوبئة الدفتيريا من جلّ المعاهد والمدارس وتدليلاً على ذلك يذكر موزار انهُ حقن ما يزيد على ٣٠٠٠ طفل في مستشفى برش في مدى سنوات اربع بدايتها ١٩٢٥، ففي العامين الاولين اي ١٩٢٦ و١٩٢٧ كان عدد حالات الدفتيريا ١٠٣ وعدد الوفيات بها ٨ ، اما في العامين التاليين لهما اي ١٩٢٨ و ١٩٢٩ فبالرغم من شدة التعرض لعدوى جديدة من المرضى الجدد لم تظهر سوى خمس حالات في ١٠٠٠ طفل محصّن . وحتى هذه الحالات الخمس كان شفاؤها سريعاً

أما في المدارس فقد هبطت عدد الاصابات بالدفتيريا في المحصنين الى حد أدنى

وفي عام ١٩٢٨ عممت الحكومة التحصين المجاني باناتوكسين رامون

وفي فبراير ١٩٢١ حقن ٥٥٠٠ طفل في المدارس الابتدائية منهم ٥٠٪ تقل أعمارهم عن ٦ سنوات ولم يعرض أحدهم بالدفتيريا لغاية سبتمبر سنة ١٩٢٨

وفي اجتماع يناير ١٩٣٠ لجمعية طب الاطفال ذكر لبربوليه وجورنيه انظهوراصابات الدفتيريا في الافراد المحصنين أمر نادر الحصول ، بل وجدا انها لا تظهر الا فيمن لم يتم العلاج بحقنه الثلاث

وكذلك اتضح جلياً فائدة هذه الطريقة في الوقاية من الدفتيريا ، فاصبح لزاماً تعميم استعمالها كطريقة صحية ناجعة في فرنسا عموماً وادخلت حتى في الجيش

ثم اتخذتها بلجيكا وهولندا طريقة للوقاية من الدفتيريا فنشأ عن ذلك هبوط عظيم في عدد الوفيات بهما كما دلت على ذلك تقارير مصالح الصحة

***

وكان لنجاح طريقة التحصين ضد الدفتيريا بالحقن في امريكا اكبر الاثر في انكلترا في البداية ، ولكن النجاح الباهر الذي نالهُ في انكلترا بعد ذلك فاق كل وصف . فمثلاً في ادنبره حصّن ١١ الف نفس وبقي ٩٥ الف بغير تحصين فبلغت نسبة الاصابات بالدفتيريا في غير المحصنين ١٠ امثالها في المحصنين ولم تحصل اي وفاة في المحصنين ، وقد بلغت الوفيات في غير المحصنين ٦٣ من كل ١٠٠٠٠٠ نفس وهذا احصاءٌ واحدٌ فقط من الاحصاءات التي تبين اثر التحصين ومفعوله في انكلترا مما ادى الى تعميم استعماله في جميع انحاء انكلترا واسكتلندا وارلندا ، ومما يستحق الذكر دلالة على عدم ضرر التحصين انهُ لم يصب اي واحد من ١٥٠٠٠٠ نفس حصنوا بها باي ضرر يذكر

وفي الولايات المتحدة ويبلغ سكانها ١٢٢ مليون و ٧٠٠ الف نفس عام ١٩٣٠ بدأ التحصين ضد

الدفتيريا من امد طويل، ولكن المجهود الجدي بدأ حقيقة عام ١٩٢٩ — ١٩٣٠ حيث عم التحصين في نظام مضمون وكانت اصابات الدفتيريا عام ١٩٣٠ تبلغ ٦٢،٢٧٤ في الالف تقابل ٨٠،٠٤١ في الالف عام ١٩٢٩ اي ان نسبة الاصابات هبطت من ٠،٧ في الالف الى ٠،٥ في الالف وهي قلة واضحة ولاشك

وكان عدد الوفيات في عام ١٩٣٠ — ٥٠ ./. اقل منهُ عام ١٩٢٩ والاصابات قلت في عام ١٩٣٠ — ٦٥ ./. والوفيات ٧٠ ./. عن عام ١٩٢٨

ومن الادلة الواضحة ان في عام ١٩٣٠ حدثت ٣٥٣٠ اصابة وكان ٩٣ ./. من اصحابها تقريباً ممن لم يتحصن ضد الدفتيريا و٢ ./. ممن تحصن وهؤلاء لم يستعملوا العلاج كاملاً

اما عام ١٩٣٠ فقد قلت الاصابات فيهِ قلة واضحة مما دل على فائدة التحصين ضد الدفتيريا

***

اما في المانيا فقد اختلفت الآراء في بادىء الامر بين محبيذ لهُ ورفض ولكن ساد اخيراً الاعتقاد بفائدة التحصين فذاع استعماله في كثير من المدن والمعاهد والمدارس

وقررت وزارة الصحة البروسية في نوفبر سنة ١٩٢٧ تحصين جميع الاطفال الذين تقل اعمارهم عن خمس سنوات كما قررت تحصين كل من كان ايجابيًّا لتجربة شيك وعمره اكثر من خمس سنوات خصوصاً في الاماكن التي زادت فيها اصابات الدفتيريا

وفي كندا سنة ١٩٣٠ كانت اصابات الدفتيريا ٧٥٣٤ والوفيات ٥٧٩ يقابل ذلك في عام ١٩٢٩ ٨٨٨٤ اصابة و٨٧٩ وفاة ويدل ذلك على نقص في اصابات الدفتيريا ووفياتها . وما من شك في ان النجاح سيكون عظيماً عند اتمام التحصين العام الذي بدأ عام ١٩٣٠

امام هذه الدلائل الواضحة على فائدة التحصين ضد الدفتيريا نجد ان ممالك الارض طرًّا قد اتخذتهُ كاداة ناجعة في الوقاية من مرض طالما فتك بالانسانية . ومن ذلك مثلاً ما قررتهُ اليابان والصين وبلدان اميركا الشمالية والجنوبية وروسيا وجميع ممالك اوربا

***

اما مصر فلا يمكن اعتبارها بين البلدان التي تحسب معرضاً للدفتيريا ولكن الجدول الآتي يحتوي على نسبة اصابات الدفتيريا في القاهرة : —

٣٣٣	اصابة عام	١٩٢٦	اي بنسبة	٣٠،٦٢	في ١٠٠،٠٠٠
٤٨٦	»	١٩٢٧	»	٤٤،٦١	»
٣٤٤	»	١٩٢٨	»	٣١٫٣	»
٣٠٥	»	١٩٢٩	»	٢٧،٦٦	»

وهي نسب عالية وقد لاحظتها مصلحة الصحة العمومية ، فعملت على تحضير الاناتوكسين في معاملها بالقاهرة حتى تزود المصريين بسلاح ناجع في مقاومة هذا المرض الخطر على غير المحصَّنين

سوريا في زمن الصليبيين

[تتمة البحث]

لنقولا زياده

الصليبيون وجموعهم

كانت اوربا المسيحية في القرنين العاشر والحادي عشر تختلف كل الاختلاف عن الصورة التي رسمناها للشرق . كان الاقطاع سبيل الحياة السياسية ، الا حيث قامت المدن التجارية التي ابتاعت حريتها من النبلاء ، لقاء ضريبة تدفعها لهم . وقد فرض هـذا على الاتباع قيوداً اجتماعية سياسية ثقيلة جداً ، كما فرضت عليهم الحياة الزراعية قيوداً اقتصادية . ولم يعرف الحرية الا اولئك التجار الذين كانوا يرحلون بين اوربا والشرق . وكانت الكنيسة قد سيطرت هناك على العقول ، فأغلقت دونها أبواب المعرفة الا ما رضيته ووافق عقائدها وتقاليدها ، فكانت آمال اتباعها في السماء ، وسبيل تحقيقها ارضاء الرئيس الروحي أو التبرك بأثر من آثار القديسين أو الحج الى البلاد التي قضى فيها المخلص أيامه على الأرض [1] . وهذه فكرة جديدة تستهوي الافئدة ، وتملك الالباب ، ذلك أن عودة المسيح أصبحت قريبة فليعمل كل جهده ليكون له ملكوت السماوات . فكان هم الكبير والصغير ، المجرم والبريء ، أن يفوز بهذه النعمة

وهذا الطاعون والقحط ، يهجمان على غرب اوربا في أواخر القرن الحادي عشر ، فيتركان الناس على شر ما يكونون [2] ، فقر مدقع ، وارض ليس من يعمل فيها ، ويأس من النجاح في بلادهم . فسعى بعضهم الى الارض المقدسة ليكفر عن ذنبه ، ودخل آخرون الدير ليصوموا ويصلوا [3] . ومن هنا كانت بين الجماعات الأوروبية نزعة قوية نحو تبديل ما هم عليه ، وميل الى تحسين أمورهم [4] ، وكثيرون خرجوا من بلادهم ليعملوا في مكان آخر لندرة الاعمال عندهم [5]

والتجار الذين سحرتهم ثروة الشرق ، وراقتهم اسواقه ، رغبوا في أن يكون لهم منها حصة اكبر ، لتزداد مغانمهم ، ويقوى نفوذهم ، لاسيما وان التنافس بين تجار المدن الايطالية نفسها كان قوياً ، والتزاحم كان شديداً [6]

---

(١) راجع «الرحلة والرحالون في القرون الوسطى» — المقتطف (٢) Lamb 39,42 (٣) Lamb 33
والرحلة والرحالون (٤) Prutz 15 (٥) جوانفيل ١٧ (المقدمة) (٦) الحسني ١٠٨—١٠٩

والامراء جالت في نفوسهم خواطر متعددة عن أمارات خاصة ينشئونها ، في البلاد التي « تفيض لبناً وعسلاً » ، حيث لا ملوك يحكمونهم [١] . والفرسان كانت تعروهم هزة اذا هم ذكروا انهُ من الممكن أن يحققوا الاغراض التي أقسموا ان يسعوا وراءها ، يوم قلدوا وشاح الفروسية .

والبابا [٢] كان يتطلع وهو شديد الشوق الى اليوم الذي يستطيع فيه أن يعيد الكنيسة البزنطية الشرقية والارمنية الى حظيرة الهدى ، وحصن الطاعة الروحية

هذه هي الهواجس التي كانت تجول في الخواطر ، لما ان جاءت رومة ، او ادعي ان قد جاءت رومة [٣] ، رسالة صاحب بزنطية ، يستنجد بحامي النصرانية الاكبر ، ان يوقف التقدم الحثيث ، تقدم الجيوش التركية ، في هجومها العنيف على دولته الكبيرة

وسنحت الفرصة ، وكان على العرش الروحي ، البابا الذهبي [٤] ، اوربانوس الثاني ، الفرنسي الاصل . فتسلل الى كلرمون الفرنسية ، في خريف ١٠٩٥ ، ووقف بين مئات من رجال الدين والامراء وآلاف من غيرهم [٥] ، وقال « ان الاتراك قد أسروا وقتلوا كثيرين (في الشرق) وهدموا الكنائس ودمروا مملكة الله [٦] » . وطلب من الحاضرين [٧] « ان يذكروا الالوف الذين لاقوا موتاً شنيعاً » وعدد الفظائع التي زعم ان الشرقيين ارتكبوها مع الحجاج المسيحيين ومع مسيحيي الشرق ، وفي الكنائس . وذكرهم بقول المسيح ان من ترك بيته وارضه وأهله من أجلي ، جوزي على ذلك بمائة ضعف ، ونال ملكوت السموات . ولما وثق أنهُ أثار الشجون ، وأسال العبرات ، استصرخهم : « فعلى عاتق أي غيركم يقع اذن واجب الانتقام ؟ من أعمال الظلم هذه ؟ واسترداد الاراضي المقدسة ؟ انتم الذين حباكم الله بالاساحة والشجاعة الفائقة ؟ والقوة الجسدية والمقدرة على الانتصار على كل من يجرؤ على مقاومتكم ؟ لا ترهبوا الموت ، لأن فيه تاج الشهادة . فالطريق قصير ، والعناء قليل ، والجزاء وفير أبدي . احملوا سلاحكم وامضوا فانهُ خيرٌ لكم ان تقعوا في المعركة من ان تتألموا لما يصيب اخوانكم ، وما تتعرض له مقدساتكم . سيروا . . . فانني أرى أمامكم في الطليعة ، القائد الذي لا يغلب — المسيح »

وفعلت هذه الكلمات فعلها في نفوس الجماهير ، فصاحت « ارادة الله ، ارادة الله » وشجع كل من سمع الخطاب من لم يسمع ، وكذلك انضم الناس الى الجيوش التي بدأت في السنة التالية تفد على سوريا لتنقذ البلاد المقدسة من أيدي حكامها المسلمين . وروج كل طماع الدعوة بين الفئات المتدينة

(١) Lamb 53, 65-6,25,69,95 و Kugler 86 و Prutz 120 (٢) Kugler424 و Lamb 44 وتاريخ الكنيسة ٧٥ و La Monte 295 والعلاقة بين البابا والفرق الدينية في La Monte 206 والمتاجر الايطالية والبابا وهناك بحث واف في العوامل التي دفعت البابا الى اثارة الحروب في Lamb 277-9 (٣) Lamb 277-9 (٤) Lamb 41,43,44 (٥) حضر الاجتماع ١٤ من رؤساء الاساقفة و ٢٢٥ مطراناً و ٤٠٠ رئيس دير — Kugler 18 (٦) السكلية ١٨ : ٢٠٧ و Kugler 11 (٧) Lamb 46-9

أو الناقة على الحياة الاجتماعية بما يتفق ورغبته. فتهم تكال للمسلمين جزافاً[١] — «هم عباد اصنام[٢]..» «وهم يعبدون محمد كآله[٣]» وهم جبناء ضعفاء تعوزهم الشجاعة ... يعمدون في الحرب الى طريقة الهرب ... سهامهم مسمومة ، وهي ، لا الشجاعة ، التي تنزل الموت بعدوهم[٤]» — ليزيدوا حماستهم. وتشويق المؤمن الى ملكوت السموات ، والمجرم الى الغفران ، والعبد الى الحرية[٥] ، والجائع الى الشبع ، والفقير الى الثروة ، والامير الى الامارة ، والفارس الى الاجر[٦] ، والتاجر الى الربح[٧] ، والشهواني الى النساء الشرقيات الجميلات — كل يخلع ثوبه ويرتدي ثوب التقى والصلاح ، ويضع شارة الصليب ، لانها حرب دينية

هذه الحملات الصليبية اذن حققت تلك الاماني التي كانت تخفق بها الصدور ، واوجدت للقوى والرغبات الحبيسة منفذاً للانطلاق ، ومجالاً للعمل ، وسبيلاً للاعلان عن نفسها[٨] . ثم فقدت بعد سنين ، صبغتها ، وصار للفرنسيين والبنادقة اعمال اخرى[٩] . من دون ان يعنى الآخرون بالدين في فلسطين . وبعض الامراء أرادوا ان يتخلصوا من نقمة ملك فرنسا عليهم ، فحملوا الصليب ذراً للرماد في العيون[١٠]

والحملة الصليبية الاولى . والفظائع التي ارتكبتها في طريقها[١١] . وفي احتلال القدس[١٢] . ليست مما يشرف . وقد تظهر لنا رغباتهم من خلال تصرفهم السيء مع مسيحيي فلسطين انفسهم . فقد استولوا على اديرتهم . وطردوهم من الكنائس والبيوت . فتبعثر المسيحيون في جهات فلسطين وشرق الاردن[١٣] وكان بطريركهم يقيم في القسطنطينية أو في القاهرة تحت حماية الخلفاء الفاطميين[١٤]

وعلى هذا فان هذه الزوبعة الاجتماعية التي هبت على اوربا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . كانت لها عوامل اقتصادية وسياسية ودينية[١٥] . وقد هزت شعوب اوربا من نروج الى صقلية . وحملت في مدى القرنين الى سوريا نماذج من جميع الاصناف والاجناس البشرية التي كان العالم الاوروبي يعج بها[١٦] . وعلى ما بينها من تفاوت في الجنس واللغة والفكر ، فقد كانت كلها تجمعها وحدة الدين والحماسة والشارة[١٧] . فهم على حد تعبير شرف الدين ابن عنين[١٨]

قد اجتمعوا رأياً وديناً وهمةً وعزماً وان كانوا قد اختلفوا سنا

---

(١) Prutz 88 (٢) الكلية ١٨ : ٢٠٨—٢٠٩ و Lamb 153 (٣) الكلية نفس المكان (في الكلية ١٨ : ٢٠٦ — ٢١٢ مقال في الموضوع) (٤) الكلية ١٨ : ٢١٠ والنوادر ١٢١ (٥) Prutz 16 وفي نفس الكتاب ٧٢—٨٨ و ١٠٨ — ١٠٩ (٦) جوانفيل ٤٠،٢٦١،٢٤٤،٢٤٥،٢٤٢،٣٠٢ (٧) الحسني ١١٠ (٨) Prutz 15 وجوانفيل ٣٣—٣٤ (المقدمة) ، ١٧ (الاصل) و Kugler 65,426-7 (٩ جوانفيل ١٦ (المقدمة) (١٠) جوانفيل ١٧ (المقدمة) (١١) راجع Lamb 175 عن احتلال المعرة (١٢) Kugler 61 (١٣) تاريخ الكنيسة ٧٠ (١٤) نفس المكان (١٥) حتي — كتاب المقتطف الذهبي — ١٤٣ و Prutz 119 (١٦) La Monte 203 و Lamb 126 (وهذه رواية مؤرخ معاصر هو فلكر) (١٧) Kugler 11 و Lamb 126 (١٨) المقريزي (السلوك) ١ : ٢١١

تداعوا بأنصار الصليب واقبلت جموع كأن الموج كان لهم سفنا

كان في الجيوش الصليبية . ومع التجار الصليبيين [١] . الفرنسيون من مختلف المدن [٢] . واللومبارديون [٣] من مدن ايطاليا التجارية الشمالية . والمالطيون [٤] . والاسبان [٥] والاسكندنافيون [٦] . والانكليز . والهنغاريون [٧] . والبلغاريون [٨] . والجرمان من القبائل المتفرقة في أواسط اوروبا وكان عددهم كبيراً جداً حتى تألفت منهم فرقة الفرسان التوتون . وكانت قلاعهم الخاصة حصينة [٩] . وكان بين هؤلاء القادمين على رواية المؤرخين المعاصرين من الغربيين . القاتل . واللص . وقاطع الطريق . والمجرم [١٠] . والقرصان . والسكير . واللاعب . والراهب . والراهبة . والرجل . والمرأة . والطفل . والعاهرة . والمحكوم عليه بالاعدام [١١] . والملك . والأمير والفلاح . والتاجر . والنبيل . والغني . والفقير . وباختلافهم اختلفت الغايات والاطماع [١٢] . من دينية خالصة . الى مادية بحتة . والأخيرة هي التي غلبت متسترة بالأولى [١٣] . وقد كان هناك من جاء يفتش عن اميرة شرقية غنية يتزوجها [١٤]

***

انهُ لمن الصعب تقدير عدد الاوربيين الذين هبطوا البلاد السورية في القرنين المذكورين ، فان هذا البحث لم يستوفه المؤرخون بعد ولكننا نسمع دائماً الارقام تعدو عشرات الالوف الى المئات في الحملة الواحدة . فالحملة الاولى كانت نحو نصف مليون [١٥] والثانية فاقتها [١٦] والثالثة بلغت ربع المليون [١٧] وفي حصار عكاء كان عدد الافرنج لا يقل عن خمسمائة من الآلاف [١٨] حتى ان القاضي ابن شداد ركب دابته بعد احدى المعارك العادية في تلك السنوات ، وخاض بين القتلى واجتهد ان يعدهم فلم يقدر [١٩] . وهناك غير المتحاربين التجار والحجاج الذين زاد عددهم كثيراً في هذه الاثناء ولذلك فلا يبعد ان يكون عدد الذين اشتركوا في هذه الحروب مليونين من الافرنج [٢٠]

---

(١) ان التجار وحركتهم جزء من الحملات الصليبية . راجع La Monte 227,8,30,33,34 (٢) Prutz 25 وقد كان عدد الآتين من بريتني كبيراً حتى انشيء لهم مستشفى خاص بهم في عكاء (١٢٥٤) . (٣) Prutz 112 ، الخطط ١ : ٢٨٤ و ٣٠٤ والحسني ١١٠ (٤) Prutz 112 (٥) راجع Prutz 112 و Lamb 43 و 277-9 (٦) مثل سيجور وجماعته . راجع EarlyTravels 50-62 و Kugler 10,11,104 (٧) وقد عثر في البلاد السورية على نقود هنغارية وغيرها . Prutz 113 (٨) ابن جبير ٢٩٣ (٩) منها قلعة القرين في ضواحي عكاء (١٠) بركهارد في Prutz 119 (١١) يعقوب فتري — في Prutz 119-120 ، راجع ايضاً Lamb والفتح ١٦٩ — ١٧١ (١٢) Kugler 11,21,31 و Prutz 337 و La Monte 228,230-1 (١٣) Prutz 120-1 (١٤) في Prutz 121 امثلة كثيرة لهذا النوع من المحاربين (١٥) Kugler 30 وميشو — في الخطط ١ : ٢٧٩ . راجع ايضاً La Monte 138 و Lamb 276-7 (١٦) Kugler 137 (١٧) Kugler 23 راجع الهامش (١) (١٨) الخطط ٢ : ٧١ (١٩) النوادر ١١٣ (٢٠) الحسني — عن قطف الزهور — ٩٩ ويقدر محمد كرد علي (الخطط ٢ : ١٢٨) عدد من قتل من الشرقيين والغربيين بخمسة ملايين

الاختلاط في سوريا

يبدو لنا الآن ونحن ننظر النظر المشارف مدى احتكاك هذه الملايين من مختلف الاجناس البشرية، والعادات والاخلاق خلال قرنين ، والأثر العميق الذي تركه هذا الاختلاط في نفس الجماعات الغربية التي اتيح لها ان تعاشر اقواماً راقين ، مخالفين لهم في الدين والمدنية . وهذا الاحتكاك امر فرضه التجاور في المسكن ، والتبادل في المصلحة . فان الصليبيين بعد ان استوطنوا سوريا ، ورأوا ما عاد عليهم من الفائدة المادية ، كان امراؤهم وتجارهم يحبون ان ينتشر السلم ويستتب الأمن بينهم وبين جيرانهم المسلمين ، ليعيشوا في اطمئنان [1] وليضمنوا لتجارتهم سيراً اميناً الى اسواق بغداد . وكان اكثر الساعين الى ذلك تجار ايطاليا في الموانىء الكبيرة . حتى انهُ لم يكن غريباً ان يكون بين المسلمين والصليبيين حروب ومعارك ، وفي نفس الوقت تروح القوافل بالمتاجر وتجيء [2] بها وليس عليها الا ان تدفع الجعل [3] . وقد يتفق ، كما روى ابن جبير ، ان يدخل سبي الافرنج مدينة ، وتخرج في نفس اليوم قافلة من تجار المسلمين الى بلاد الصليبيين [4] . اضف الى هذا ان امراء الصليبيين قد جندوا كثيرين من اهل البلاد في جيوشهم [5] . ثم ان جهل هؤلاء الامراء اصول الزراعة ، وقلة الزراع الافرنج ، حملاهم على استخدام السكان الوطنيين . وكانوا بادىء الامر يشتدون معهم ، لكن بعد حين احسنوا اليهم [6] واقطعوا اصحاب النفوذ منهم الارض [7] بل ولّوا على بعض الضياع التي كان لا يعمرها الا المسلمون ، رؤساء مسلمين من قبلهم ، حتى في امكنة قريبة من مراكزهم [8] . وكثيراً ما قيل ان فارساً افرنجياً اخذ اقطاعاً من امير عربي ، لقاء مال دفعهُ اليهِ [9] . وقد كانت بعض الاراضي الواقعة على الحد بين المسلمين والصليبيين تقتسم غلاتها مناصفة ، مثل البطحاء ، بين بانياس وهونين [10] وعلى هذا فقد كان الافرنج والمسلمون يعيشون معيشة ترفيه ، خشي منها ابن جبير فاضاف الى وصفها [11] « نعوذ بالله من الفتنة » . ولعل اغرب ما روي عن الاتفاقات التي عقدت حينئذٍ ما رواه ابن جبير ، من انهُ كانت شجرة كبيرة بين بيت جن (الشامية) وبانياس ، تسمى شجرة الميزان ، وهي حد بين الامن والخوف فمن اخذ وراءها (شرقها) الى جهة بلاد المسلمين ، ومن اخذ امامها (غربها) فالى جهة بلاد الافرنج . ولهم في ذلك عهد يوفون بهِ [12]

وهكذا فقد ضعف النفور بين السكان انفسهم من الفريقين [13] حتى ان ابن جبير لاحظ

---

(١) Prutz 61,62 وحتى انه لما استولى ابن قلاون على عكاء كان فيها تجار مسيحيون اوربيون (٢) ابن جبير ٢٦٨ و Prutz 360 (٣) الحسني ١١٥ (٤) ابن جبير ٢٨٠ و ٢٨٢ وجوانفيل (٢٤٦) يقص حكاية يوحنا الارمني الذي ارسله صليبيو عكاء الى دمشق ليبتاع معدات عسكرية مع ان صاحب دمشق وافرنج عكاء كانوا في حرب (٥) موزرو — الكلية — ١٨ : ٢١١ و Lamb 270 ولامونت . (٦) الحسني ١٠٦ وموزرو — الكلية ١٨ : ٢١١ و La Monte ٢٠ (المقدمة) (٧) اسامة ١٠٣ و ١٢٠ و La Monte 21 (المقدمة) . (٨) ابن جبير ٢٨٤ وأسامة ٨٢ (٩) اسامة ٩٧ «قرية كانت بيننا وبين فارس من افرنج كفر طاب و Lamb 173 (١٠) ابن جبير ٢٨٢—٢٨٣ (١١) ابن جبير ٢٨٤ (١٢) ابن جبير ٢٨٤ (١٣) Prutz 61

ذلك في اهل صور فقال عنهم انهم [١] « ألين في الكفر طبائع ، واجرى الى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازل ، فخلائقهم اسجح ، ومنازلهم اوسع وافسح ، واحوال المسلمين بها اهون واسكن » وقد شهد ابان اقامته بصور عرساً صليبيًّا ، فوصفه ، ووصف ثوب العروس المزركش الفضفاض ، ومشيتها الفاتنة ، ونقلها الى بيت عريسها ، يتقدمها المسلمون وسائر النصارى من النظار ، وليس من ينكر ذلك [٢] حتى الرهبان كانوا يضيفون المسلمين في الدير [٣] واهل لبنان المسيحيون يقدمون للمنقطعين لله من المسلمين القوت ، ويحسنون اليهم [٤]

ويحدثنا المؤرخون المعاصرون عن الثقة المتبادلة بين المسلمين وجيرانهم من الصليبيين ، بعد ان اقاموا في البلاد مدة ، وتبلدوا وعاشروا المسلمين [٥] وكثيراً ما كان صاحب الامر في جهة ، يمر به رسول عدوه فيكرمه [٦] او يطلب احدهم الامان لجماعة تجتاز بلاده فلا يبخل بذلك [٧] وتصل المعرفة بينهم حدود المودة ، كهذا الذي يحدثنا اسامة عنهُ ، فانهُ كان فارساً محتشماً وصل من بلادهم يحج ويعود . فأنس باسامة ولازمهُ وكان يدعوه « أخي » وبينهما المودة والمعاشرة [٨] . وهذا صلاح الدين ، يفد عليهِ صاحب صيدا بالناصرة ، فيحترمه ويكرمه ويؤاكله ، ويعرض عليهِ الاسلام ويذكر طرفاً من محاسنهِ ويحثهُ عليهِ [٩] كما ان تبادل الهدايا مع الرسل كان مألوفاً [١٠]

فسوريا اصبحت لهؤلاء الصليبيين بلاداً تفوق غيرها بالحرية حيث الملك والبطريرك والامراء والتجار والحجاج والعامة من الناس جربوا ان يتبلدوا مع جيرانهم من المسيحيين الشرقيين [١١] والمسلمين

والحق ان الاختلاط الاجتماعي [١٢] بدأ بين الشرقيين والغربيين بعد مرور زمن قصير جداً من نزولهم البلاد . فان بلدوين ملك القدس ارسل لحيتهُ . وحيّى بالانحناءة الشرقية . واكل على بساط على الارض . وقدم امامه المبوقين على عادة سلاطين الشرق . وتنكر واتخذ الزي الشرقي . فلبس العمامة والجبة المرصعة بالجوهر . [١٣] وعلى هذا سار كثير من الامراء فيما بعد . حتى ان الامير هنري طلب الى صلاح الدين ان يبعث له بعمامة وفروة . لان الفرنج يحبون هذا الزي [١٤] ولم يقتصر هذا على الامراء . بل شمل الكل تقريباً . رجالاً ونساء [١٥] وحذا الفرنجة حذو الشرقيين في اعيادهم وحفلات لهوهم . فاستخدموا جوقات الطرب في ساعات السرور . وقلدوهم في بناء دورهم . فجعلوها فسيحة ذات غرف واسعة ودواوين مكشوفة [١٦] وقلدوا الشرقيين كذلك في مآكلهم . واتخذوا طباخات مصريات . وامتنع بعضهم عن اكل لحم الخنزير تقليداً للمسلمين [١٧]

---

(١) ابن جبير ٢٨٧ (٢) ابن جبير ٢٨٨ (٣) ابن بطوطة ١ : ٩٤ (٤) ابن جبير ٢٦٨ (٥) اسامة ١٣٤ و١٤٠ و ١٩٦ و Lamb 262 ينقل قول فلكر المعاصر « ان الثقة المتبادلة جمعتنا » (٦) اسامة ٨٢ و٨٧ (٧) اسامة ٣٤ (٨) اسامة ١٣٢و١٤٠ (٩) النوادر ٢٤ (١٠) القلانسي ٣٥٦ (١١) Lamb 262 (١٢) جوانفيل ٢٦١ — ٢٦٣ (١٣) و(١٤) Prutz 62 (١٥) Early Travels واسامة ١١٦ (١٦) حتى كتاب المقتطف الذهبي ١٤٥—١٤٧ (١٧) اسامة ١٤٠

وقد كان كثيرات من المسيحيات في حريم الامراء والكبار من المسلمين . وكان اولادهن دعاة سلم . وعمال صلح بين الفريقين[١] وكان صاحب جبيل (الصليبي) متزوجاً ابنة سلطان حلب[٢] وتزوج كثير من الصليبيين بنات البلاد المسيحيات اوممن تنصر من المسلمات كما ان المسلمين تزوجوا مسيحيات ابقين على دينهن او اسلمن[٣]

واعجب الافرنج ببراعة السوريين في الرماية والمسابقة واللعب بالصوالجة . واخذوا يرتاضون بها . وينسجون على منوالها[٤] وكثر اجتماع الفرسان من الفريقين للرياضة والصيد وعقدوا لهذا عهوداً خاصة[٥] وكانوا يقبلون هدايا بعضهم مهما كان نوعها حتى في ايام الحرب[٦] وشملت هذه العادة فرسان الفرق الدينية الصليبية والحشاشين الشرقيين[٧] كما ان الجند العادي كان اذا وقفت رحى الحرب انس البعض بالبعض بحيث ان الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة . ثم يرجعون الى القتال بعد ساعة[٨]

وكثيراً ما احتفظ السلاطين والملوك والامراء برهائن توثيقاً لحلف اومعاهدة . وهؤلاء الرهائن كانوا عادة من كبار القوم وابناء الامراء . ومعاشرتهم لانداهم من المسلمين كانت ذات تأثير طيب في تعريف الفريقين كل بالآخر[٩] حتى الاسرى كان امراء المسلمين يعاملونهم معاملة حسنة . ويعطونهم قسطاً وافراً من الحرية . وعلى هذا المنوال كان حظ بعض المسلمين في اسرهم عند الصليبيين[١٠]

وتعلم كثيرون من القادمين اللغة العربية ليتمكنوا من التخاطب مع السكان في المتاجرة والمناسبات الاجتماعية[١١] كما تعلم بعض الشرقيين اللغة الفرنسية والايطالية[١٢] واتخذ كثير من الامراء كتاباً شرقيين يتكلمون العربية وغير العربية من اللغات الشرقية[١٣] كما انه كان من حق الاستاذ الاعظم ونائبه في الفرق الدينية ان يكون له كاتب عربي[١٤] وعمل العرب كتاباً وتراجمة للتجار واصحاب المعامل التي انتشرت في المدن السورية[١٥] ، وقلما فرق هؤلاء في المعاملة بين المسلم والمسيحي الشرقي[١٦] وقد رأى ابن جبير في عكاء كتاب الديوان من النصارى يتكلمون العربية ويكتبون بها[١٧]

وقد ادرك الصليبيون من اول الامر تفوق الشرقيين عليهم في الطب ، فكانوا يستدعون اطباء المسلمين لمعالجتهم[١٨] وللصليبيين العذر في استدعاء اطباء المسلمين اذا كان اطباؤهم من ذلك النوع الذي اورد ذكره اسامة بن منقذ في الاعتبار[١٩] فقد روى ان صاحب المنيطرة كتب الى عمه يطلب

---

(١) و(٢) Prutz 63 (٣) Prutz 141-3 والكلية ١٨ : ٢١٢ (٤) حتى « كتاب المقتطف الذهبي » ١٤٤
(٥) Prutz 68-9 والكلية ١٨ : ٢١٢ (٦) Prutz 69 (٧) جوانفيل ٢٤٥ و٢٤٨ و ٢٥٠
(٨) النوادر ٩٢ (٩) اسامة ١٠٥ والمقريزي « السلوك » ١ : ٢٠٨ والفتح ١٩٣ (١٠) الكلية ١٨ : ٢١٢
(١١) جوانفيل ٢٤٦ والنوادر ٨٠ (١٢) Prutz (١٣) جوانفيل ٢٧٧ و Sykes 64 والخطط ٤ : ٣٩ (١٤) دائرة المعارف البريطانية مادة Templars (١٥) Prutz 145 (١٦) Prutz 146 والكلية ١٨ : ٢١٢ (١٧) ابن جبير ٢٨٥ (١٨) Prutz 62 نقلا عن يعقوب الصوري (١٩) اسامة ١٣٢ـ١٣٤

انفاذ طبيب يداوي مرضى من اصحابه . فارسل اليه « ثابتاً » فما غاب عشرة ايام حتى عاد ، فقالوا له : « ما اسرع ما داويت المرضى » قال « احضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة ، وامرأة قد لحقتها نشاف . فعملت للفارس لبيخة ، ففتحت الدملة وصلحت . وحميت المرأة وربطت مزاجها . فجاءهم طبيب افرنجي فقال لهم :هذا ما يعرف شي يداويهم . وقال للفارس دايماً أحب اليك أن تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين . قال اعيش برجل واحـدة . قال . احضروا لي فارساً قويـا وفأساً قاطعاً . فحضر الفارس والفأس . وأنا حاضر . فحط رجله على قرمة خشب وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها . فضربه . وأنا أراه . ضربة واحـدة . ما انقطعت . ضربه ثانية فسال مخ الساق . ومات من ساعته . وابصر المرأة فقال . الشيطان قد دخل في رأسها .فأخذ الموسى . وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح . فماتت في وقتها . فقلت لهم:بقي لكم الي حاجة ؟ قالوا «لا» ، فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم اكن اعرفه . وروى اسامة عن أحد امراء الصليبيين[1] وقد رافقه من عكاء الى طبرية ، انهُ كان في بلد الامير فارس كبير القدر ، فمرض وأشرف على الموت ، فجاؤا الى قس كبير من قسوسهم ، واستصحبوه الى المريض. فلما رآه القس طلب شمعاً فلينه وعمله مثل عقد الاصبع ، وعمل كل واحدة في جانب أنفه ، فمات الفارس

وقد كان عند الافرنج أمر آخر آثار استغراب العرب ، وهو محاكماتهم ، فقد كانوا لا يزالون يحتكمون الى وسائل الامم الجرمانية التي استعملتها في القرن الخامس للميلاد وقبله . وقد ذكر لنا اسامة انه مر بنابلس ، وحدث ان أحد الفلاحين اتهم انه كبس ضيعة من ضياع المدينة فقال الفلاح «انصفني : أنا ابارز الذي قال عني اني دللت الحرامية على القرية » فجاء صاحب القرية المقطع بحداد قوي ، واعطاها شحنة البلد عصاً وترساً ، واخيراً تغلب الحداد الشاب ، وبرك على خصمه يداخل أصابعه في عينيه ، ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله. فطرحوا في رقبته حبلاً وجروه وشنقوه ، اذ ثبتت لهم ادانته[2]

ولعلَّ خير ما يمثل الاتصال بين الغربيين والشرقيين ما ذكره المقريزي عن الامبراطور فردريك من انهُ كان متبحراً في علم الهندسة والحساب والرياضيات ، وانهُ بعث الى الملك الكامل بعدة مسائل مشكلة في الهندسة والحكمة والرياضة فعرضها على الشيخ علم الدين قيصر الحنفي — المعروف بتعاسيف — وغيره فكتب جوابها[3]

فالاستيطان في البلاد الشرقية ، وتقليد الشرقيين ، والتزاوج ، والثروة التي حصل عليها الغربيون أنستهم بلادهم الاصلية ، فلم يفكروا بالعودة اليها ، ولم يسمعوا حتى باسمها ، واثبتت لهم أنهُ من الممكن للمسيحيين أن يعيشوا مع المسلمين على وفاق تام ، فيكون لكل حظه من العمل والاتجار

(١) اسامة ١٣٧ (٢) اسامة١٣٧ — ١٣٩ (٣) السلوك « المقريزي » ١ : ٢٣٢

والزرع والربح [١] ، بل ويكون لكل معبده: فللمسلم مسجده وللمسيحي كنيسته ، وبهذا نستطيع ان نعلل ما رواهُ المعاصرون من ترك الصليبيين المتأخرين للمساجد في المدن . فالهروي يقول[٢] « ان جميع ما على أبواب الصخرة من آيات القرآن العزيز واسامي الخلفاء (ر) لم تغيره الافرنج» . وابن جبير قضى مدة اقامته بصور بمسجد بقي في أيدي المسلمين [٣] ويضيف «ولهم فيها مساجد اخرى» ويصف الهروي [٤] مساجد عكاء ، وابن جبير وابن بطوطة يوافقانه على ذكر المساجد . ومن هذا ما رواه المؤرخون [٥] من انهُ لما زار الامبراطور فردريك القدس نزل في دار القاضي ، وفي تلك الليلة أمر القاضي المؤذنين ان لا يؤذنوا ألبتة . فلما أصبح قال الملك للقاضي « لِمَ لم يؤذن المؤذنون على المنائر ؟ » فقال القاضي «منعهم المملوك اعظاماً للملك واحتراماً له» فقال له الامبراطور « اخطأت فيما فعلت . انهُ كان اكبر غرضي في المبيت ببيت المقدس ان اسمع أذان المسلمين وتسبيحهم بالليل»

وقد تغير رأي الصليبيين في الشرقيين والدين الاسلامي . فقد بلوا من شجاعتهم الكثير من اول الامر . فبعد ان قالوا عنهم انهم يفرّون من الحرب ولا يجرؤن على التلاحم في العراك[٦] رأوا « انهُ ليس لهم الحكمة والعلم الكافي على وصف شجاعة الاتراك » [٧] واعترفوا « بمهارة الشرقيين الحربية وفروسيتهم وكرم اخلاقهم » [٨] و« انهم محبو الضيافة والفائقون في الادب واللطف » [٩] ومن الجميل ان نلاحظ ان الصليبيين كانوا في السنين الاولى من القرن نفسه قد علوا عظمة عماد الدين زنكي بان جعلوه ابن الكونتس ايدا (Ida) التي اشتركت في حملة ١١٠١ ، وفي زمن الحملة الثالثة اعتقدوا ان قلج ارسلان من نسل جرماني شريف . ولكن بعد ان انتشرت شهرة صلاح الدين ، ظهرت خرافة تعلل عظمة توماس بكت احد مشاهيرهم بجعله ابناً لام عربية [١٠] ومن تأثرهم بالحياة الشرقية اعتنق كثيرون منهم الاسلام [١١] ، حتى شعر البابا غريغوريوس العاشر بالخوف من ذلك ، وبضرورة وضع حد لهذا الامر ، فحرم مد يد المعونة الى المرتد [١٢] وفي معاهدة عقدت سنة ١٢٨٣ ارغم الافرنج على التعهد بحماية حقوق المرتدين عن الدين المسيحي [١٣]

***

ويحق لنا ان نسأل الآن ، ما كانت آثار هذا الاختلاط ؟ ما الذي حمله هؤلاء الغربيون من بذور المدنية الشرقية الى بلادهم ؟

المؤرخون والباحثون مجمعون على ان هذه الحملات احدثت انقلاباً كبيراً في الحياة الاوربية ، في

(١) Prutz 72 . وهذا ما كانت تقاومه الكنيسة لانه يحول دون تحقيق غاياتها (٢) الهروي « المخطوطة ١٩ (٣) ابن جبير ٢٨٨ (٤) الهروي « المخطوطة» ١٩ (٥) المقريزي «السلوك» ١: ٢٣١–٢٣٢ وهناك تجد الروايات المختلفة للقصة اللطيفة (٦) الكلية ١٨: ٢١٠ (٧) الكلية ١٨: ٢١١ و Lamb 120 وهو ينقل عن مؤلف معاصر هو كاتب الكتاب المعروف باسم Gesta (٨) الكلية ١٨: ٢١١ وهنا ينقل موزو عن جيبرت (٩) الكلية ١٨: ٢١٩ نقلا عن بركهارد «١٢٨٣م» (١٠) موزو الكلية ١٨: ٢١٦ (١١) موزو الكلية ١٨: ٢١٩ عن رئيس فرقة الدومنيكان الاعلى (١٢) موزو الكلية ١٨: ٢١٩ . صدر هذا الامر سنة ١٢٧٤ (١٣) نفس المكان

المجتمع ، والثقافة ، والحكومة [١] والقانون [٢] والبابوية ، والكنيسة ، والتجارة [٣] ولكن الخلاف بينهم في مدى هذا الانقلاب كأثر لهذه الحملات . وسبب ذلك ان المدنية العربية انتقلت الى اوروبا عن طريق الأندلس وصقلية [٤] والشرق . والمتفق عليه أن العلم كان سبيله الطريقين الاولين، والناحية الاجتماعية والاقتصادية تأثرت بالطريق الثالث [٥] فالحروب الصليبية فتحت امام اوروبا أبواباً جديدة للعمل والتفكير ، واوجدت لهم اغراضاً جديدة في الحياة فاتجهوا في نهضتهم اتجاهاً نافعاً حراً ، بعد أن كانوا مقيدين بالنظام الاقطاعي [٦] والنواحي التي نقل الصليبيون اثرها الى اوربا متعددة ، لا نستطيع ان نحيط بها في هذه الالمامة الوجيزة ، وعلى ذلك فنحن نجتزيء بأمثلة تبين القصد ، دون ان تبلغ بنا الحد [٧] · فقد اخذوا من الشرق الورق [٨] ، والسكر [٩] ، ودود القز وتربيته [١٠] ، والفواكه كالليمون والمشمش [١١] ، وصنع الاقمشة كالموصلين (الموصلي) [١٢] والدمقس (الدمشقي) والاقطان [١٣] والسجاد [١٤] والاصباغ واسماء الالوان [١٥] والجبة وصنع المرايا [١٦] وطواحين الهواء [١٧] واستعمال الرنوك والشعار الخاص [١٨] والمسالح [١٩] واستخدام الحمام الزاجل [٢٠] وقلدوهم في البناء الحربي والديني [٢١] والتطعيم بالصدف والتنزيل بالفضة والعاج [٢٢]

وكانت طبيعة الحروب التي شنوها تقضي عليهم بتخليد ذكرى ابطالهم بقصص شعرية ثم اخذوا القصص الشرقية لاشعارهم [٢٣] مثل كتاب كليلة ودمنة [٢٤] ولما عرفوا قصص التسامح الاسلامي كما ظهر في اعمال صلاح الدين وخلفائه صاغوها شعراً وقصصاً واصبحت غرام الشعراء في اواسط اوربا بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر [٢٥] وهكذا فقد تأثرت الحياة الادبية والانتاج الادبي وكان تأثره عميقاً [٢٦] كما انهم افادوا معرفة جغرافية من الرحلة ومن درس الكتب العربية [٢٧] وعلوماً جديدة [٢٨] كالصيدلة والجبر والطب فان مدرسة مونبلييه الطبية أثر من آثار احتكاك الصليبيين بالشرقيين [٢٩] كما انهم نقلوا عن الشرقيين مستشفياتهم [٣٠]

عكا (فلسطين)

---

(١) Prutz 335,402 وفي المكاتب يعطي امثلة لكلمات ادارية دخلت اوربا عن طريق الحروب الصليبية
(٢) La Monte 20-24 « المقدمة » وحتي « كتاب المقتطف الذهبي » ٢ / ١٤٢ (٣) يمكن مراجعة الاماكن التالية للحصول على آراء المؤرخين في المسألة . Tegacy of Islam ٦٨ـ٧٧ و Sykes 64 وجوزي ١٢١ و Travel & Iravellers و Kugler 431-2 و Prutz ٥٥ و ١٩٤ و ٤٥٣
(٤) و (٥) Legacy of Islam 63-1 و Legacy of Israel 215-237 (٦) Sykes 65 « نقلاً عن بزلي » و Prutz 55,72,397,479,493 وحتي « الكتاب الذهبي » ١٤١ و Legacy of Islam 148 (٧) راجع التفصيل في Prutz والكلية المجلد التاسع (٨) الخطط ٢:١٢٩ (٩) حتي و Lamb (١٠) Prutz 323 (١١) Prutz 408 (١٢) و (١٣) نفس المكان (١٤) Prutz 433 و Leg. of Islam 63 (١٥) Legacy 61 و Prutz 410
(١٦) حتي « الكتاب الذهبي » (١٧) و (١٨) Prutz 415 (١٩) Legacy 60 (٢٠) النوادر ١٢٨
(٢١) Prutz 194,423 ورأي باركر في Legacy 58,62,63 وآراء اخرى في Legacy ايضاً ص ١٦٨ و ١٧٦ (٢٢) Prutz 432 (٢٣) Prutz 444,450 (٢٤) Prutz 450 و Legacy (٢٥) Prutz 441 و Legacy 64 (٢٦) Leg. 64 و Prutz 441,451 (٢٧) Legacy 65,471 (٢٨) Legacy 349-50,473
(٢٩) حتي « الكتاب الذهبي » ١٤٤-١٤٨ و Legacy 57 (٣٠) Legacy 349-50

عجيبة المرأة المضيئة

امرأة ايطالية تنطلق منها اضواء غريبة

ورأي الدكتور بروتي بعد فحصها

من الحقائق المعروفة ان بعض اسماك البحر وحشرات اليابسة يضيء اضواء فصفورية درسها العلماء وفسروها [1]. وقد نقل الرواة روايات عن ظهور مثل هذا الضوء احياناً في آدميين ولكنهُ كان في الغالب يسند اليهم قبيل الوفاة . واذن لا يستغرب القول بان ما يعرف عن هذا التألق في الانسان نزر لا يعتمد عليهِ . لذلك عني العلماء في مختلف الاقطار بما روي عن سيدة ايطالية تدعى « حنة مونارو » وقد اطلق عليها لقب «سيدة بيرانو المضيئة». ولكن الدكتور بروتي احد اطباء البندقية لم يشأ ان يدع الحكاية للسماع فاغتنم هذه الفرصة ليدرس ظاهرة التألق في هذه المرأة درساً علمياً

بدأ الدكتور بروتي بجمع اقوال الذين شاهدوها فتبين له من اقوالهم ان ميعاد ظهور الضوء كان في الهزيع الاول من الليل وانهُ لا يظهر مطلقاً في خلال النهار او حين تكون حنة نائمة نوماً خفيفاً . هذا التألق او هذا الضوء الفصفوري لا يدوم اكثر من ثلاث ثوان او اربع ، وهو يظهر دائماً في ناحية القلب ويختلف في لونه من اخضر الى احمر

اما السيدة نفسها بحسب اقوال الشهود فلا تشعر بالضوء والضوء لا يؤثر فيها ولا يترك اي اثر من رائحة او حرارة او لون

فذهب الدكتور بروتي الى هذه السيدة وفحصها فحصاً دقيقاً فوجدها سوية من كل ناحية الا انها تشكو « الازما » « اي الربو » وارتفاعاً يسيراً في ضغط دمها . وهي فقيرة معوزة ولكن الطعام الذي تتناوله لا يختلف عن الطعام العادي المألوف في شيء . ولكنها في الصيام تصوم وتحافظ على جميع قواعد الصوم محافظة دقيقة فلا تتناول الا الحساء واللبن . وفي خلال الصوم تبدو ظاهرة التألق فيها على اشدها وخاصة في خلال الاسبوع المقدس عند ما يكون الصوم مطلقاً حتى الظهر من كل يوم — ففي ليلة واحدة من ليالي هذا الاسبوع ظهر الضوء فيها ٢٥ مرة

ولما اقتنع الدكتور بروتي بأن ظهور هذا الضوء ليس وهماً اجمع عليه الرواة اقام آلة سينمية قريبة لها فلم شديد الاحساس يمكن ان يدوَّن عليه اي اثر ضوئي من تلقاء نفسه « تدويناً اوتوماتيكياً » في خلال الليل

وعلق فوق منطقة القلب بصاصة — (وهي بطارية كهربائية ضوئية تتأثر بأقل اختلاف في قوة

---

(١) راجع فصلي الضوء البارد والاحياء المنيرة في مقتطف يونيو ١٩٣٠ ص ٥١ ويوليو ١٩٣٠ ص ١٥٩

ضوء ما حتى انها تفرق مثلاً بين الضوء المعكوس عن سيجارين لون أحدهما أغمق من لون الآخر ويظهر تأثرها هذا في قوة التيار الكهربائي الذي تولده) — متصلة بآلة كهربائية حساسة تدعى غلفانومتر لمقياس قوة الضوء بعد تحوله الى تيار كهربائي في البصاصة. ومبالغة في الاحتياط أقام آلة كهربائية اخرى تدعى الكتروسكوب عملها ان تثبت ان طاقة كهربائية لم تستعمل في احداث هذه الظاهرة، وهذه الآلة تفعل ذلك بفحصها مقدار الشحنة الكهربائية في الهواء حول سرير المرأة، وهل تغيرت هذه الشحنة وما مدى تغيرها. ثم انهُ فصل بين قوائم السرير والارض بمادة عازلة ليحول دون اي اتصال كهربائي خفي

وبعيد ما اطفئت الانوار في الغرفة ظهر ضوء خارج من اغطية السرير فأدار الدكتور بروني الآلة السينمية لتصويره وكان متوسط سرعة الجهاز ست عشرة صورة في الثانية

وقد استغرق ظهور الضوء ثلاث ثوان وثلاثة اجزاء من ١٦ جزءاً من الثانية (٣/١٦) ثم خبا رويداً رويداً. وقد اضيء به عظام الفكين والوجه. وظهر من منطقة حول القلب مساحتها بقدر الكف وكان على جانب من اللمعان حتى ظهرت بهِ الاسرة المجاورة. أما الغلفانومتر وهو الآلة التي تقيس التيار الكهربائي فلم تسجل شيئاً، وأما الالكترسكوب الذي يقيس الشحنة الكهربائية في الهواء فلم يدل على ان قوة كهربائية خارجية قد استعملت

أي أن المظاهر صحيحة على قدر ما يستطيع الباحث أن يؤكد ذلك بعد اتخاذ جميع أسباب الحيطة

بعد ذلك فحص الطبيب الباحث دم المرأة لمعرفة قوته الاشعاعية فظهر انهُ يفوق الدم السوي في ذلك ثلاثة اضعاف. ولهذه الحقيقة صلة بتعليل الظاهرة

يرى الدكتور بروني انهُ قد حال دون الخداع كتناول الفصفور أو استعمال تيار كهربائي ثم هو يقول انهُ يمكن تعليل هذه الظاهرة كما يلي على ما جاء في مجلة اللانست الطبية: —

ان شعور المرأة الديني القوي يؤثر في عمل غددها الداخلية أي الغدد الصم فيحدث تغيرات فسيولوجية تؤثر في املاح الدم وخاصة املاح الكبريت فيه فتجعلها تتألق تألقاً فصفورياً وهو يرى ان حالة الصوم تساعد على حدوث هذه التغيرات

ومما يؤيد رأي الدكتور بروني ان الطبيب الباحث الأميركي الدكتور كريل اثبت من عهد قريب أن طوائف من الاشعة تنطلق من أدمغة الكلاب ومنها الاشعة تحت الاحمر وان اشعاعها يزيد بحقن خلاصة الغدة الدرقية أو خلاصة الغدة التي فوق الكلى ثم ينقص اذا حُقن بمادة مخدرة. أي ان الدكتور كريل بيَّن ان هناك صلة بين الغدد الصم وحالة الاشعاع وهي هذه الصلة التي يعتمد عليها الدكتور بروني في تعليل ظاهرة الضوء الشاع من جثة مونارو «سيدة بيرانو المضيئة»

مشاهد لبنان في الصيف

مغارة قاديشا العجيبة

لميشيل سليم كميد

... وقفلت راجعاً من الأرز الخالد ، بعد ان قضيت زمناً في هيكل الدهور ، في ذلك الصبح السعيد ، وقد ارتفعت الشمس في كبد الافق ، فاسرعت الى الفندق ، وجمت حقائبي ، ومن هناك الى السيارة . وكان بنزينها قد نفد بالامس لدى وصولنا الى الارز . ولكن انحدار الطريق يسهل علينا الهبوط الى بشرّي ، مدينة المقدّمين ، حيث نملأها ثانية

ورفع السائق قدمه عن الضواغط ، فانحلّت ، وتدحرجت السيارة هابطة على ذلك الطريق الكلسي الابيض ، على كنف قاديشا الجميل ، الوادي المقدس ، حيث لا يزال الى اليوم يفوح من جنباته شذى القداسة ، وعطر التقوى . وكان تدحرج السيارة لذيذاً مريحاً ، لا عنف فيه ولا شدة ... ألا ليت السيارات تدرج بهذه السهولة ، دون ضجيج آلاتها المزعج ! ويالها من أمنية !

وعند ما انتصفنا الطريق ، ما بين الارز وبشرّي ، ضغط السائق على الكوابس ، فوقفت السيارة ، وهمدت حركتها الاندفاعية . فنزلنا منها ، أنا والسائق ، ومن هناك أخذنا طريقاً فرعياً ضيقاً كمسالك المعز ، فالوادي العظيم الهائل تحت اقدامنا عن جانب ، والجبل يلتصق باكتافنا عن الجانب الآخر ، وكلما تقدمنا ازداد ارتفاعاً وشموخاً . وعرض هذا المسلك المؤدي الى مغارة قاديشا لا يتجاوز في بعض الاحيان متراً وربع متر ، وقلما يتسع الى مترين . انهُ حقاً لمنظر يبعث الدهشة والروعة في النفس ، ويأخذ بمجامعها . وكنت اتوقف مراراً عن المسير ، ونحن معلقين بين السماء والارض لأملي من منظره ، واجتلي روعة محاسنهِ المخيفة ، فعشرات الامتار من فوقنا ، ومئات الامتار من تحتنا ... ترى لو زلّتْ قدم أحدنا ، وهوى الى الهوّة السحيقة ، فوق الصخور الناتئة ، ماذا يكون مصيرهُ ؟ لا لا خوف من الزلل ما دامت الاعصاب ثابتة والسير هادئاً وطيداً !

سرنا مسافة طويلة ، قد تزيد على ثلاثة ارباع الميل ، على درب الماعز هذا ، وما هو كذلك بل هو ممرّ شقته شركة كهرباء قاديشا الوطنية ، لتصل الى المغارة لاجل اعمالها الخاصة . ولما نكد ندنو من المغارة ، حتى طرق اسماعنا خرير المياه العذب ، الذي تحوّل ، مع اقترابنا شيئاً فشيئاً ، الى هدير عظيم ، هدير تلك الامواه المتدفقة ، على دوّامات شركة الكهرباء ، التي تنير شمال لبنان كله ، هابطة

نحو الوادي العظيم ، كأنها امواج بحر صاخب تتدافع بعضها أثر بعضها ، في زئير دائم متواصل، هي رمز الحياة المجاهدة المثمرة

هذه المياه التي تمنح الحياة للوادي المقدس، لعرين لبنان، تحكي في تدفقها الحي، التدفق الخصب الذي امتاز به الشعب الذي يرتوي منها على مدى الاجيال . وما السمعاني والحصروني ويوسف كرم وجبران ، سوى بعض اولئك الذين شربوا من هذا المعين الخالد ، فنفحهم بروح العبقرية ، ووهبهم اكسير الخلود !

ووصلنا المغارة ، والمياه تهدر هديراً ، فوجدنا هناك بعض الزوّار ، ينتظرون في الخارج ، المراقب الدليل القائم عند مدخلها ، الذي اقتطع لنا تذاكر الدخول . ومن ثم ادخلنا اولاً الى شبه غرفة منقورة في الصخر . فأضيئت الانوار الساطعة ، لتنير حالك الظلام المخيم في جوف هذه الانفاق الممتدة المتشعبة تحت الجبل الشامخ ، مسافات لا يعلم مداها وعدد شعبها الاّ الله خالقها

تبلغ مساحة هذه « الغرفة » الاولى ، اكثر من خمسة وعشرين متراً مربعاً على احد جوانبها يقع الممر الضيق الذي يبلغ عرضهُ اكثر من متر واحد ، مدته شركة كهرباء قاديشا مسافة طويلة في الداخل . ومن بعد هذا الممر حتى الحائط المقابل من الغرفة المذكورة ، مياه المغارة التي تنصبُّ خارجاً الى مجراها في الوادي المقدس ، حيث تعرف بنهر قاديشا ، حتى مقربة من طرابلس ، ومن هناك يتبدل الاسم الى نهر « أبو علي » .. ويبلغ عمق هذه المياه ، في « الغرفة » كما استدللت بالحدس والتخمين ، امتاراً عدة ، لا كما هي في اعماق المغارة ، حيث هي اقلُّ عمقاً بحسب اتساع المجرى او ضيقه

غطسنا ايدينا في هذه المياه ، فاذا بها باردة كالثلج ، ولم يسعنا ابقاؤها فيها كثيراً . ثم ارتشفنا منها قليلاً ، وتلذذنا بطعمها العذب ، بهذا الرحيق الزلال ، الخارج من كنف الطبيعة قبل ان تدنسه يد الانسان

ان تخطينا هذه « الغرفة » او قل ان انتقالنا منها الى مقدمتها ، نحو الظلام، ثم انارة الكهرباء ، وسطوعها ذلك السطوع الباهر ، الذي يحيل ليل المغارة الدامس الى نهار منير ، هو الذي خيل الينا وجود هذه « الغرفة » الوهمية، لاتساعها عما سواها ، ولشكلها المربع تقريباً ، لضيق النفق في ناحيتها الداخلية . على اننا لم نكد نتخطاها ، ونضيء الانوار ، حتى سمعنا صوت الدليل يقول : « من يطلب بطيخاً او قرعاً ؟ لدينا هنا من كل صنف. فمن يرغب ؟ » . والتفتنا نحن في دهشة واستغراب ، نفكر في ما يعنيه وما الذي بعثهُ في هذا المكان على المناداة على شيء يجتنى في الحقول، لا بين الصخور وفي اغوار الكهوف ، فاذا تحت اقدامنا هوة واسعة ، فيها اشكال من الصخور الشمعية اللون، في قوالب مختلفة مستديرة منها ما يشبه البطيخ او القرع حقًا . ولما رأيناها عرفنا قصد صاحبنا . فابتسمنا لوصفه الفكاهي الطريف . فهذه المغارة ، تعج بهذه البوارز والنواتىء في الصخور فمنها ما يبرز من الارض

Stalagmite ومنها ما يتدلّى من السقوف Stalactite وهذه الرواسب المتحجرة توجد في كثير من المغاور او الكهوف في العالم وتكثر وتقل في بعضها لكن المغارات المشهورة بها قليلة . وهي تتخذ في اكثر الاحيان اشكالاً غريبة ، كرأس فيل ، او رؤوس بشرية ، او اقدام ، أو تماثيل ، وقد تتكون اشكالاً مخروطة ، أو تبدو كالجليد ، ويغلب عليها اللون الاصفر الشمعي ، ويضرب لونها مراراً الى الاحمرار أو الاسوداد ، وغير ذلك من الالوان الجميلة ، انما تبدو كلها كأنها مصنوعة من الشمع ، مع انها من الصخر ، وتحس في نفسك لدى رؤيتها بشعور غريب . وانك تود مسكها ، وانها ستذوب أو تنثني أو تنكسر حال لمسك لها . مع انك حين تمسها حقيقة تشعر بها صلبة دون شك لانها من الصخر ، وتحس بها باردة كالثلج ، وخاصة في المغاور التي كقاديشا

في فرنسا مغارات عديدة مثل هذه : أشهرها ، كما أعرف ، ما يقع في جبال البيرينه ، فهناك قرب لورد عدة منها : كمغارة الذئب ، ومغارة الملك ، وقد زرت الاخيرة . لكن أشهرها مغارة بيتارام التي يقصدها السياح خصيصاً ، وفيها ينحدر المرء في بعض أجوافها الى ستين متراً . وفي لبنان ايضاً غير مغارة قاديشا هذه ، مغارة نهر الكلب ، أي مغارة جعيتا ، قرب بيروت . وهاتان المغارتان تعدان من أشهر مغاور العالم ، بهذه النواتىء الغريبة التي فيهما ، فضلاً عن أن حدود نهايتهما لا تعرف حتى اليوم ، رغم الجهود التي بذلها كثيرون من الباحثين . والذي اذكره ان بعض اساتذة الجامعة الاميركية ، دخلوا مغارة جعيتا في زورق ، قبل الحرب بعدة سنوات ، قاصدين ارتيادها والوصول الى آخرها ، اي الى منبع نهر الكلب ذاته ، وبقوا هنالك زمناً طويلاً ، وأعادوا الكرة مرة أو مرات اخرى ، لا اعلم تماماً ، فلم يفلحوا ، لبعد الشقة ، ثم لضيق المغارة في الاقاصي التي وصلوها . وكذلك دخل المغارة منذ بضع سنوات ، ثلاثة من الروس ، وقضوا فيها يوماً أو يومين ، وخرجوا منها من دون نتيجة — وقد قبض عليهم البوليس وحقق معهم ، خوفاً من أن يكونوا من الشيوعيين ، وبغيتهم تسميم أهالي بيروت . كذلك مغارة قاديشا ، لم يعرف بعد منتهاها ، ولم اسمع ان احداً سعى لمعرفته ، بذات الاجتهاد الذي بذل لاجل معرفة مغارة جعيتا ، وذلك لان المغارة المذكورة لم تكتشف أو بالاحرى لم يشق اليه درب الماعز الذي سبق وصفه ، الاّ منذ ست سنوات ، على ما اتصل بي . وقد سألت الدليل ، حينما وصلنا الى اقصى ما سُمح لنا بالتوغل فيها ، هل نهايتها قريبة من مكاننا : فقال لي أن بعضهم توغل فيها قليلاً ، فاتضح لهم انها طويلة جداً . هذا مع العلم ان المسافة التي سرناها نحن تعد بعشرات الامتار ، كلها تحت الجبل المظيم . الذي تنبت عليه ، من فوقنا ، أشجار الارز الخالد !

وكان الدليل يسير بنا ، يروي لنا ما يفقهه من معنى هذه الاشكال ، فيصفها بلهجة فكاهية ، بتلك اللهجة اللبنانية المذبة ، التي يمتاز بها أهل الشمال . ولما ادخلنا الى كهف صغير هناك اضطررنا ان ننحني كثيراً ، لان المدخل كان واطئاً جداً . كذلك في الداخل كان السقف واطئاً ، فكنا ننحني

فيه قليلاً . وقد شعرنا في هذه النقرة ببرودة اكثر مما شعرنا بهِ في النفق الكبير ، مع ان لا ماء فيها أبداً . وأرانا الدليل شيئاً في طرف هذه النقرة المستديرة المجوفة السقف ، يشبه شرَّابة (زِرّ) طربوش مغربي ، وقال لنا : « هـذا طربوش ابينا نوح ، ألا ترون شرابته هنا ؟ ... قد تركه هنا لما زار لبنان ، اذ نام هنا فنسيه . وكبر الطربوش كما ترون ، وصار مغارة صغيرة ، في داخل المغارة الكبيرة. ويظهر ان الجبل ارتفع مع انتفاخ الطربوش ! »

وكان الدهليز أو النفق يضيق احياناً الى مترين ونصف متر ، ثم يتسع الى خمسة او اكثر قليلاً ونحن نسير على الممر الضيق ، ونستند الى الحائط بأيدينا ، في ذلك الجو المشبع بالبرودة ، وان لم يكن رطباً ، كما يظن المرء لاول وهلة . وكانت الاشباح العديدة في النواتىء تعد بالعشرات في كل خطوة ، ولهـذه الكثرة ما عدت اذكرها كلها ، بل بعض التي فكهنا الدليل بأوصافها الغريبة . ولـكني لا اقدر ان اعدد هنا حتى هذه : —

« انظروا هنا لا في أعلى : هذه هي الملكة فكتوريا ، ونابوليون ، والملك ادوارد ... ما لكم ؟.. لا تضحكوا .. اني اتكلم جادًّا .. أنا لا اعرف المزل ... انظروا جيداً . نعم ، هؤلاء هم ، الملكة فكتوريا ، التي دعوا باسمها الدارعة التي غرقت في طرابلس قبل الحرب .. وهـذا نابليون . انتم تعرفونهُ ! ولويس الرابع عشر ... لا تخالوني اسخر منكم ... لا ... هم ليسوا في بلادهم في اوروبا ، بل جاؤوا الى هنا ، وجمدوا ايام الشتاء ، لما اشتد البرد عليهم ... انظروا ايضاً ، هذا خرطوم فيل ، مده ليأخذ تلك التفاحة ، أو عنقود العنب ، فجمد . . . أتريدون شراء بعض التفاح ، والبرتقال اليافاوي ، والعنب الزحلاوي ... أتريدون غزلاناً ... !! »

وكذلك كنا ننتقل من مكان الى آخر ، والدليل يتابعنا بهذه الاحاديث . ويسلينا بوصفه لتلك الاشكال والاشباح الغريبة . والحقيقة ان بينها ما كان يشبه الملكة فكتوريا ، ونابوليون ، والملك ادوارد ، وسواهم ، عن بعد ، بعض الشبه ، كأن احد المثالين نحتهم على عجل في الصخر . . . وهذه المغارة تمدحقاً أعجوبة من أعاجيب الطبيعة لكثرة ما فيها من النواتىء ، وانها لترتسم صورها في المخيلة لغرابة اشكالها . ولما انتهينا الى آخر الممر ، ووجدنا الصخر يرتفع في وجهنا ، مع ان دهليز المياه ذاته ، لا يزال واسعاً يتغلغل الى الداخل ، لكن لا سبيل الى السير فيه ، التفت الينا الدليل قائلاً : — « هنا آخر الحدود المسموح بها ، كما ترون . والنية متجهة الى التوسع في داخل هذه الدهاليز والانفاق ، عما قريب . ولعلكم تشاهدونها وقد تمت في الزيارة التالية ... والآن نرجع من حيث أتينا . . . ومع السلامة ! . . . . »

***

وكان الميعاد قد أزف للمثول بين يديّ غبطه البطريرك الماروني الجليل ، فأسرعت خارجاً من المغارة ، نحو السيارة . . . . فالى الديمان ! . . . .

أيقال كريات بيضاء

لامين ظاهر خير الله

نظر النطاسي اللامع امين باشا المعلوف في الجزء الاول من مدخل فن الجراثيم للطبيب احمد حمدي افندي الخياط لجاد عليهِ بكلمة نشرها مقتطف مارس سنة ١٩٣٥ جاء فيها ما يأتي :

« قال الكريات البيضاء والكميات الحمراء والصواب بيض وحمر ولا يجوز غيرها » (كذا) واظن انها غيرهما فسقطت الميم في الطبع

وهذا الاعتراض شافهني بهِ العلامة الأب انستاس ماري الكرملي سنة ١٩٣٢ في مدينة بيروت فردَّ قولي الهضاب الملساء وقال المُلْس

ورأيت هذا القول نفسه لشيخ العروبة احمد زكي باشا اذ كنتُ في القاهرة سنة ١٩٢٠ فان نسيباً لي هنالك عرض مقالاً له لدى ذلك العلامة جاء فيهِ الليالي السوداء فابدلها بالسود

وهذه قضية لا يصحُّ ان تظل تحت خفاء فها اناذا اوضح ما عندي فيها

التاء والالف في الدلالة سواء فكما تقول التاء للجمع تقول الالف للجمع ايضاً وهذه أدلتي

١ — « كَلِم عوراء وعوران » جمع افعل وفعلاء على فُعْل وفعْلان معلوم تقول اسود وسوداء على سود وسودان والنظير كثير

وكلمٌ مختلف فيها فالمعاجم تجمع كلمة على كلم فهي صيغة جمع عندها . واما المحقق الاطوي فيورد في شرحه امتحان الاذكياء للعلامة البركوي ص ٣٤ من نسخة الاستانة سنة ١٢٧١ ما يأتي :

« الكلم اسم جنس . اشارة الى انهُ ليس بجمع ولا اسم جمع . مع ان عدم وقوعه الاَّ على الثلث (الثلاث) فصاعداً كونهُ احدهما . ووجهُ اولهما عدم ثبوت فعِل بكسر العين في صيغ الجمع وارجاع ضمير المفرد اليهِ (كالكلم المحكم) وجمله مصغَّراً ومنسوباً بلاردم الى واحده . ولو كان جمعاً لم يجز واحد مما ذكر . ووجه الثاني مجيء واحدهِ بالتاء وهو لم يوجد في اسم جمع » اه

فاللغويون قالوا كلم جمع كلمة والاطوي يقول كلم اسم جنس الواحد منهُ كلمة . ولا ريب في ان اسم الجنس يشارك الجمع على انهُ يدل على اكثر من اثنين . ولهذا عد اللغويون اسم الجنس من الجموع

وقد جاء كلمٌ عوراء . قالت امية بنت ضرار (حماسة البحتري فصل ١٧٤)

ما بات من ليلة مذ شدَّ مئزره قبيصةُ ابن ضرارٍ وهو موتورُ
لا تعرف الكلم العوراءَ مجلسهُ ولا يذوق طعاماً وهو مستورُ

وكلم عوران . قال كعب ابن سعد الغنوي (حماسة البحتري فصل ١٠٨)

وعوراء قد قيلت فلم استمع لها وما الكلم العوران لي بقبول

فالجمع او اسم الجنس يأتي نعته على صيغة فعلاء

٢ — الحمر الخشباء — جاء في مادة قرين في معجم البلدان « القرين... موضع ذكره ذوالرمة قال:

يردفن خشباء القرين وقد بدا لهن الى ارض الستار زيالها

اي ركبن الحمر الخشباء وهي القطعة من الارض كأنها جبل » اهـ . فحمر هنا جمع حمراء وقد نعتها بخشباء ونعت الجمع جمع . فخشباء من صيغ الجمع

٣ — الشيعة الشنعاء [1] جاء في ذروة من معجم البلدان قول الصليحي

وطالعت ذروة منهن عادية واشاعت الشيعة الشنعاء شردا

ولشيعة وجها تخريج . اولهما : شيعة جمع شائع بمعنى ناصر او موافق . مثل صحبة جمع صاحب وروقة جمع رائق. والاصل شُيعة فجيء بكسرة بدل الضمة لسلامة الياء كما جرى ذلك في شيب جمع أشيب والاصل شُيب . وقد جاء الصحاح بفعلة جمعاً لفاعل وشاهده قول امرىء القيس

علون بانطاكية فوق عقمة كجرمة نخل او كجنة يثرب

فان هذا القول ردّه بعضهم ونقل ردهم صاحب البستان فقال « جاء الصحاح بهذا البيت شاهداً على الجرمة بمعنى القوم والصحيح ان الجرمة هنا ما جُرِم وصُرِم من البسر » فذهبتُ الى صيغة جمع لا وجه لردّها

وثانيهما . شيعة جمع شاع بمعنى نصير مثل جيرة جمع جار وقيعة جمع قاع وفتية جمع فتى وإخوة جمع اخ (أخو) وولدة جمع ولَد اي أن فعلة صيغة جمع لفَعَل والشواهد على جمع فعلة على فعَل كثيرة

فشيعة صيغة جمع لا شك فيها وقد جاء نعتها على فَعْلاء ونَعْتُ الجمع جمع فشنعاء صيغة جمع لا صيغة مفرد . ومن هذا الباب قول طاهر ابن ابي هالة من قواد ابي بكر الصديق (أخابث في معجم البلدان)

فلم تَرَ عيني مثل جمع رأيتهُ بجمع مجاز في جموع الاخابثِ

قتلناهمُ ما بين قُنة خامر الى القيعة البيضاء ذات النبائثِ

فقيعة جمع قاع كما تقدم التنظير . ولكن المعترض له ان يعترض هكذا : قيعة مفرد ودليل ذلك قول معيار اللغة « القاع أرض مهملة مطمئنة مستوية .. والقيعة كصيغة بمعناه كالقيع بلا هاء ومنهم من جعل الاولى (أي قيعة) جمعاً ومنهم من جعل الاخيرة جمعاً » وقول محيط المحيط « وقيل قيعة مفردة بمعنى القاع . ويستدل على صحة قيعة مفرداً نعتها بذات فذات من نعوت الافراد لا الجموع

(١) هذه كلمة نقلتها كما جاءت اما انا فمن يجلون شأن الشيعة (امين)

قلت لو صحَّ عند اللغويين ان قيعة مفرد كجيفة وصيرة لاقتضى ان يذكروا صيغ جمعها كما ذكروا الجيفة جيفاً وأجيافاً وهذه في الحقيقة جمع اي جيَف على أجياف كعنب على أعناب. وذكروا لصيرة صِيَراً وصيَراً فما هي صيغ الجموع التي ذكروها لقيعة وهي وزان قِدّة وقد جمعوا قِدّة على قِدَد وأقِدّة فان هـذا الاهمال اما عن عدم اطمئنان الى ان قيعة مفرد واما عن عدم استيفاء البحث. فعلى الرأي الاول تكون قيعة عند اللغويين صيغة جمع لا صيغة مشتركة بين الجمع والمفرد وعلى الثاني يكون الاهمال دليل نزازة المادة اللغوية عند اصحاب المعاجم او حيرتهم في هذه الصيغة

أما ذات فمن نعوت المفرد والجمع ودليل ذلك ان معجم البلدان قال «أميل جبل من رمل جمعهُ أُمُل (مثل قَليب وقُلُب) قال الراعي

مهاريس لاقت بالوحيد سحابة الى أُمُل الغرّاف ذات السلاسل

فنعتَ أُملاً بذات. وجاء في شعر ذي الرمة (طبع بيروت)

وبين الحبال العفر ذات السلاسل. والحبال جمع حبل اي الرمال المستطيلة فنعتها بذات. وجاءت ذات نعتاً لحمام. قال الشماخ (الساري في معجم البلدان)

حنَّت الى سكة الساري فجاء بها حمامة من حمامٍ ذات أطواقِ

فجعل ذات نعتاً لحمامة من القطع بين الموصوف والصفة وهو معيب عند البلغاء وجعلها لحمام من الفصيح. وحمام كسحاب فمن قال سحابة ج سحاب قال حمامة جمعها حمام ومن قال سحاب اسم جنس والمفرد سحابة قال الحمام اسم جنس والافراد بالتاء ومن هذه الطائفة نعامة ونعام والخلاصة أن ذاتاً نعت لاسم الجنس او للجمع واسم الجنس في معناه جمع. فمن قبل قيعة في قول طاهر الآنف الذكر صيغة جمع يجد بيضاء نعتاً لجمع ونعت الجمع جمع

٤ — كتيبة شهباء وفارسية خضراء وسمهرية سمراء. مجيء الجمع بالتاء وارد كثيراً على صيغ متعددة فنسوة جمع نسوٍ ومارّة جمع مارٍ وعسّالة جمع عسّال ومسلمة جمع مسلم ومقاتلة جمع مقاتل وهندية جمع هندي وكتيبة جمع كتيب. وفارسية جمع فارسي وسمهرية جمع سمهري. وقد نعت باعث ابن صريم اليشكري (من شعراء حماسة حبيب) كتيبة هكذا

وكتيبةٍ سفع الوجوه بواسلٍ كالأسد حين تذبُّ عن أشبالها

وما ينعت بجمع فهو جمع. وقد جاء في صفة كتيبة فعلاء كشهباء وخضراء قال حسان (السيرة لابن ابي اسحاق) بكتيبة خضراء من بلخزرج

وجاء في شعر ابن حلزة اليشكري

ثم حجراً اعني ابن ام قطام ولهُ فارسيـــة خضراء

وجاء في شعر المتنبي

وبساتينك الجياد وما تحـ ـملُ من سمهريةٍ سمراء

والسمهرية والعسّالة مثلان في مجيء التاء جمعاً لمفردها وقد نعت المتنبي عسالة بذبل قال

معطي الكواعب والجرد السلاهب والـ بيض القواضب والعسالة الذبل

اذن لا فرق بين سمراء وذبل ومن يذهب الى وجود فرق بينهما عليه أن يجيء بدليله فسمراء صيغة جمع لان الجمع ينعت بجمع ولا ينعت بمفرد . ومن هذا الباب مركوزة جمع مركوز ومقربة جمع مقرب قال المتنبي

وأردية خُضرٌ ومُلكٌ مُطاعةٌ ومركوزةٌ سُمْرٌ ومُقْرَبةٌ جُرْدُ

٥ — اسم الجمع ينعت بفعلاء . اسم الجمع كما عرفه الاطوي له مفاد الجمع وليس له مفرد من بنائه ولا يفرد واحده بالتاء او بياء النسبة كفيلق . فقد جاء فيلق شهباء وفي السيرة لابن اسحاق للعباس ابن مرداس السلمي قوله

حتى صبحنا أهل مكة فيلق شهباء يقدمها الهمام الاشوسُ

وفي السيرة ايضاً شاهد آخر هو

رُميت نطاة من الرسول بفيلق شهباء ذات مناكب وفقار

واسم الجمع متضمن معنى الجمعية اذن صيغ الجموع وصيغ اسماء الجموع وصيغ اسماء الاجناس يجيء في نعتها بناء فعلاء

٦ — فعلاء صيغة جمع — اما مجيء فعلاء صيغة جمع فوارد كثيراً . ففي ترجمة الاحنف التميمي التي نشرتها المكتبة العربية في دمشق ان زياد ابن ابيه قال له : « هذه الحمراء قد كثرت بين اظهر المسلمين وكثر عددهم (كذا) وخفت عدوتهم . والمسلمون في ثغرهم وقد خلفوهم في نسائهم وحريهم . وحمراء جمع احمر كأحمرين جمع احمر

وجاء في مادة شجر في محيط المحيط « قال سيبويه الشجراء واحد وجمع وكذلك القصباء والطرفاء والحلفاء » ومن هذه الطائفة البرشاء والغوغاء والعشراء والدهماء وذهب اقرب الموارد الى ان برشاء جمع ابرش وبرشاء

ومجيء الواحد والجمع على بناء واحد وارد في فُعُل كفُلُك وفُعْل كفُلْك وفِعال كدِلاص وفعيل كقطين وفاعل كالحاج والداجّ والد قال جرير (ديوانه جزء ١ : ١٣٢ طبع مصر)

اعياك والدك الادنون فالتمسْ هل في شفاعة ذي الاهدام مفتخر

فكما شارك بناء فعلاء بناء افعل في المجيء على فعل وفعلان شارك بناء أفعل بناء فعلاء في المجيء على فعلاء

٧ — عرب عاربة وعرب عرباء اي عربٌ صُرَحاء خلّص — هذا نص وارد في كتب اللغة فاذا يقال في عرب أاسم جنس او جمع

جاء في الصحاح « النسبة الى اعراب أعرابي لانهُ لا واحد له . وليس الاعراب جمعاً لعرب كما كان الانباط جمعاً لنبط . وانما العرب اسم جنس »

فهذا قول صريح بأن عرباً اسم جنس . وارِدُه هكذا : قد جعل الصحاح عرباً من طائفة مستقلة عن طائفة نبط وحبش وعجم . والتفرقة بين طائفتين لا بد لها من فارق فأين الفارق ؟ فقد جاء نبطي وحبشي وعجمي للواحد كما جاء عربي للواحد. وحبش وأحباش وحُبش وحُبُش وحُبشان كعرب وأعراب وعُربان وعُرُب وعُرب . ووجه الخلاف ان اعراباً ليست جمعاً لعرب كما ذكر الصحاح وأحباش جمع حبش . قلتِ أعراب أصالة جمع عرب ثم نقل الى فئة من العرب هم البدو وواحدهم بدوي . فالشيء يكون عاماً ثم يتخصص فكل ثمر يجتنى قطيف ثمراً كان او مشمشاً او خوخاً او تفاحاً وجمع قطيف قطائف كضمير وضمائر . والاستعمال خصص قطائف بنوع من الثمر . والمنجور كل ما نجر صندوقاً كان او خزانة او باباً او شباكا وقد خصص منجور بالمحالة . والدقيق كل مدقوق بزر صعتر كان او بزر كتان او قمحاً او شعيراً وقد أطلق الدقيق على القمح خاصة فاذا اريد سواه قيل دقيق صعتر او دقيق شعير والنظائر كثيرة . ومن هذا الباب استعمال اعراب للبدو فالتفرقة بين اعراب وانباط واعجام وأحباش من عمل الاستعمال لا من عمل اللغة . والاعرابي كالانصاري والحرمي والبدوي فالبدو جمع باد كالصحب جمع صاحب

***

أما الذهاب الى ان عرباً جمع فلوالدي رحمه الله وقد أورد في لمع النواجم في اللغة والمعاجم مقدمة معجم الطالب لتأييد مذهبه ما يأتي

اولاً — لا يقال عرب على الواحد ولا على الاثنين وانما يقال على الثلاثة فما فوق تقول هذا الرجل من العرب وهذان الرجلان من العرب وهؤلاء عرب . (ويصح ان تقول هو عربي وهما عربيان وهم عرب كما تقول هو حبشي وهما حبشيان وهم حبش وهو حرمي وهما حرسيان وهم حرس) وذلك من خصائص الجمع واسم الجمع ولكن اسم الجمع لا يكون له مفرد من لفظه يجمع عليه جمعاً قياسياً وعرب له مفرد من لفظه يجمع عليه جمعاً قياسياً فهو جمع (مثل حرس وحارس)

ثانياً — وجوب كون الضمير الراجع اليه ضمير الجمع او ضمير الجماعة نحو العرب يقولون والعرب تقول وما هو اسم جنس يعود اليه ضمير الجمع فيقول القنا الخطية والقنا السُلُب قال الأخطل (ديوانه طبع بيروت)

ومن ربط الجحاش فان فينا قناً سُلُباً وافراساً حسانا

وقال أبو الاخيل العجلي (حماسة حبيب)

كفى حزناً ان لا أزال ارى القنا تمجُّ نجيعاً من ذراعي ومن عضدي

وضمير المفرد ايضاً قال الاخطل (ديوانه) «اذا ما القنا الخطي عُلّت مخاضبةً» وقال المتنبي

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطمُ

لذلك تكون صيغة عرب ليست اسم جنس كما ذهب اليه الجوهري ولا اسم جمع لانهُ يقال فيلق شهباء وفيلق لجِب

ثالثاً — اتفاق اللغويين والنحاة على انهُ مؤنث وليس فيهِ علامة تأنيث ولا هو مما يطلق على مفرد مؤنث وهذه خاصة جمع التكسير كالرجال قامت وقعدت

رابعاً — تصغيره على عريب بدون تاء والمفرد المؤنث المعنوي اذا صغر تلحقهُ التاء كشمس وشميسة وارض وأريضة . وجمع التكسير الذي لا تاء فيه اذا صغر لا تلحقهُ التاء كأصيحاب . ولما خفيت هذه الحقيقة وحسبوه مفرداً مؤنثاً قالوا ان تصغيره بدون تاء شذوذ . (وما الشذوذ الا ثمرة نقلهم له من طائفته الى طائفة اخرى . ولو انزلوه في طائفته لوجدوا قياسهُ صحيحاً فالشذوذ من عملهم لا من بناء صيغته) وازيد على ذلك ان عرباً جمع لعارب أو عريب فلعارب كخدم لخادم ولعريب كخدم لخديم .وعرُب وعرْب لعارب كجاهل وجهُل وجهْل ولعريب كقليب وقُلُب وقُلْب . وعُرْبان وعرِبان لعارب مثل حوران لحائر وحيطان لحائط ولعريب مثل فُصلان وفِصلان لفصيل واعراب لعارب كاشهاد لشاهد ولعريب كاشراف لشريف . اما عاربة فلعارب خاصة مثل سابلة ومارة وقاطنة وجالية فهي لسابل ومار وقاطن وجال وبهذا يعرف ان عارباً اولى من عريب بعرب

***

فبما ان عرباً جمع وجاء نعته بعرباء فصيغ الجمع يأتي نعتها بفعلاء .وبما أن عرباء وصرحاء وخلص معنىً واحد ولا خلاف في جمعية صرحاء وخلص فلا وجه للشك بأن عرباء صيغة جمع والا كان بين صُرَحاء وعرباء فارق فما هو وما الدليل عليهِ .اذن يقال أدلة غراء كما قال والدي في تسميته أحد كتبه الادلة الغراء وهضاب ملساء كما جاء في كلامي وشمائل حسناء كما اورد شاعر الاقطار العربية خليل بك المطران في رثاء الامير كمال الدين بن السلطان حسين كامل رحمهُ الله . وكريات بيضاء كما جاء في كلام احمد حمدي افندي الخياط

ولكل من الاب انستاس ماري الكرملي الجليل والنطاسي امين باشا المعلوف ومن يذهب مذهبهما ان يزيف ادلتي واشترط في الردما يأتي

١ — ان يكون نقيًّا من المطاعن فينظر الى القول لا الى القائل

٢ — ان يعيِّن موضع الشاهد فلا يكتفى بانهُ قال المازني او الفارسي او الشاعر لأنهُ لا يمكن من العثور على موضع الشاهد

٣ — ان يرسل نسخة من رده اليَّ لا تصفح ما جاء بهِ . فانهُ لا يعلم الغيب الا الله ولا شك في أن الحقيقة بنت البحث

دمشق : البطريركية الارثوذكسية

صورة قلمية

الدكتور احمد النقيب

بقلم نقولا شكري

لا يزال بيننا وبين الطبيعة مناجاة دائمة تحدثنا بمقاييس ملموسة نحسها في كل شيء . فان الزهرة النضرة ، أو السنبلة التي يقصفها الريح في الحقل ، أو العنقود الذي تطمح اليهِ أنظارنا متهدلا بالبستان انما هو دليل واضح تبديه الطبيعة اشارة الى خصبها ، وانها تعطي الانسان دائماً ما تنطوي عليهِ من ثمار وزهر

وليس أبلغ من هذا الشعور تناجينا بهِ طبيعة مصر الخصبة التي ما زالت تحتفظ بمقاييسها القديمة بينها وبين أهلها وزروعها وشمسها وسائر ضروب حياتها . فان الثمرة التي تنبتها تربة خصبة لا تكاد تختلف عن الانسان المثقف الذي يخرجه نوع سامٍ من التهذيب . ولعل سرّ الطبيعة نفسها في ذلك التهذيب لا يفترق عن أثرها في النبت . وهذا لعمري ما نسميه بالعلاقة بين الانسان ووطنه

***

هذا رجل من رجال مصر ، في حدود الأربعين ، ذو ثقافة عالية ، ربعة الى الطول ، حنطي اللون ، ساكن النظرات ، حاضر البديهة ، موفور القوة ، متواضع السمت ، يغلب عليه الحياء ، وتبدو عليهِ مع ذلك مخائل الثقة العظيمة بالنفس ، والرغبة العميقة في ان يعمل دون أن يتكلم

هذا الدكتور احمد النقيب ، الطبيب الجراح الذائع الصيت ، هذا الشاب المصري الطموح ، الشجاع ، الجريء ، قد ضرب لأمثال مصر وشبابها المتوثب أحسن الامثال كيف يستحيل الامل الكامن عملاً بارزاً ، ونصراً مبيناً . وأقام الدليل الحسي على ان استعداد شباب مصر المأمول لجسام الاعمال التي تحتاج الى الجرأة والاعتداد بالنفس ، والاعتماد على الله وعلى الهمة العالية الشماء ، لا يقلُّ مثقال ذرة عن استعداد أية أمة غربية أو شرقية، أو عن استعداد أي شباب في أي بلد عظيم

هذا الدكتور النقيب قد جاهد في الطليعة مع النخبة المستنيرة من رجال المواساة لتشييد صرح مصري عظيم يكون بينة على النهضة القومية في هذه البلاد ودليلها ، وآية المبادىء الوطنية التي نجاهد في سبيلها بارزة في أحسن مظاهرها وأجمل صورها ، والنهضة الاجتماعية في بعض معالمها الواضحة للابصار المتحدثة بلغة القومية ومنطق الاستقلال

وغداً يجوس المصريون خلال فكرة قومية استوت قائمة على أحسن بقعة مصرية ، في رأسها

يخفق العلم المصري مدللاً على قوة باعثها ، وصدق احساسها ، وسلامة دوافعها . وتمشي في ساحة مستشفى المواساة الفخم جموع المصريين يشهدون الوطن على مدى وطنيتهم ، وقوة ايمانهم بالفكرة القومية التي تتمثل بهم ، ومبلغ عرفانهم لمعناها البارز فيهم . غداً يتفقد المصريون ردهات هذا المستشفى ، ويشهدون أجزاءه وجهاته ، فيغتبطون بوجودهم على قطعة مستقلة من مصر المطالبة باستقلالها ، فتجتمع بهم وبالبناة الصالحين الذين أنشأوها ، الوطنية المصرية بسائر قواتها ، وتواجه العقيدة القومية اثباتها ، وتزدحم في مكان واحد معانيها وآياتها ، وتتجلى مصر في أفخم عناوينها وشاراتها ، ويبرز الايمان بالكفاءة المصرية شواهده قائمة ماثلة . ومنشآته في البر متحدثة عنهُ بلغة العزمات النافذة ، والهمم المنجزة ، والاخلاص المكين

وغداً يذكر الدكتور النقيب اخوانه من شباب مصر بما تحتويه فطرتهم من صفات الرجولة ، ومناقب الفتوة التي تنازعها الآمال ، فاذا بالعزيمة الصادقة تسمو بتلك الآمال من عالم الأماني والاحلام الى عالم الحقائق المجيدة ، يسجلها الوطن للعاملين من أبنائه في كتاب العزة الوطنية التي أودعها القدر بين ايدي الشباب العاملين امانة مقدسة

لقد وضع الدكتور النقيب ورجال المواساة النواة الطيبة الصالحة ، وبقي امام الشعب باكمله ان يستكمل هذه المنابت ، وينمي هذه الحقول ، فان كل نواة تقتضي تعهداً ، وكل مستنبت يطلب مزيداً من الجهود ، واذا كان الدكتور النقيب والعاملون من رجال المواساة قد اقاموا هذا الصرح الانساني الفخم بجهود الجبابرة ، وهمة البطولة ، واخلاص الوطنية ، فقد وضعوا بهِ القاعدة ، واصبح الواجب القومي مقتضياً البناء فوقه ، والمزيد عليهِ ، والتوسع في اجنحته وطبقاته . وما دام أخطر دور التعمير والانشاء قد تم ، فلتمض الامة اغنياء وقادرين وزعماء وهداة وغيورين ، في بناية الباقي ، والوفاء بما يريد الوطن . ويوحيه استقلاله ، ويقتضيه مكانه بين الشعوب

***

وهنا يحق لنا ان نشرح بايجاز حياة الرجل الذي يَعدُّ رمزاً عالياً للفكرة التي اوحت بانشاء هذا المستشفى

ولد الدكتور احمد النقيب بمدينة الزقازيق في ١٠ يناير سنة ١٨٩٥ وتلقى علومه الاولية بمدرستها الابتدائية ثم انتقل الى القاهرة وحصل على شهادة البكالوريا من المدرسة التوفيقية ثم انتظم في مدرسة الطب ونال شهادتها في يناير سنة ١٩١٩ وتولى بعد ذلك تدريس التشريح العملي بها الى ان عين طبيباً بمستشفى قصر العيني . وفي غضون ذلك ظهرت آيات براعتهِ وخبرته ، وافضت بهِ كفاءته الى اداء مهمته في المستشفيات العامة وفي سنة ١٩٢٥ عين جراحاً لمستشفى الاسكندرية . وكانت رغبتهُ القوية في خدمة الطب تسوقهُ دائماً الى الاختبار والترقي فانهُ في سنة ١٩٣١ تخصص في جراحة المجاري البولية على الاستاذ العالمي السر طومسون دوكر والمستر ايفردج بانجلترا ولم ينقض عامان حتى قصد

الى برلين في بعثة جديدة للغرض نفسه فتخصص على الاستاذ « ليشتنبرج » من اشهر اطباء جراحة المجاري البولية في المانيا

ولم ين الدكتور النقيب في غضون هذه المدة عن البحث واختبار حالات معاهد الطب في عواصم اوربا وزيارة المستشفيات الكبيرة حيث خطرت له فكرة مستشفى المؤاساة على أثر مشاهدة مستشفى « مارتن لوثر » في برلين . وكان قبل ذلك قد بحث هذه الفكرة عن طريق اتصاله المباشر بالطبقات الاجتماعية وهو ذلك الاتصال الجليل الذي يتوصل اليه الطبيب لعلاقة مهمته المباشرة بادواء الناس . ولأنهُ اكفأ من سواه في اقتراح الوسائل التي تخفف آلام الجماهير . وكان يعلم ان الطبقات الراقية مع اعترافها في الغالب بخبرة الاطباء الوطنيين تميل الى الالتجاء نحو المستشفيات الاوربية على اعتقاد انها اكمل واعظم ضماناً ، ويعلم من جهة اخرى حال المستشفيات الوطنية وحدوث تراجعها المحزن عن الخطوات التي وصل اليها الطب الحديث باعتباره قاعدة رئيسية في الحضارة ، وان الامم التي وصلت الى الترقي الحقيقي انما وصلت عن طريق القوة التي يوفرها الطب . ونعتقد ان الترقي الاوربي مدين للطب باشياء كثيرة جميعها ذات أثر ظاهر في نشاط الجماعات الغربية . ولما عرضت هذه الفكرة وجهت النظر بادىء ذي بدء الى تقدم العصر وجود الوسائل الصحية وبخاصة المستشفيات الوطنية ، وكان من الطبيعي ان يدل ذلك على الفارق بين طموح مصر الجديدة الى الترقي وتراجع قاعدة تعدّ اعظم قواعد الحضارة وهي الطب. وفي الحقيقة ان الكثير من الوطنيين اذا فكر في الالتجاء الى احد المستشفيات الوطنية يرى انهُ في حاجة الى ضمان كاف يقنعهُ بتحقيق الغاية التي يرجوها . ولعلَّ ذلك يرجع الى ضعف الجهود التي ينبغي ان تبذل لترقية المستشفيات المنسوبة الى الوطنيين ، وقد عرض الدكتور النقيب فكرته الشريفة على رجال المؤاساة فقوبلت بالتأييد . والظاهر انها رغبة كمينة في نفوس الذين يميلون الى خير مصر وسعادتها. واقترن هذا التأييد باستعداد صادق لانشاء مستشفى وطني يضارع سائر المستشفيات الاوربية وان تكتمل فيه الوسائل ، وان يكون نموذجاً محبباً يرمز على الدوام الى جهود الوطنيين

***

ومن الممكن ادراك هذه الجهود من مجرد النظر الى البناء الفخم الذي تحقق به المشروع والذي يقال انه استنفد ما يقرب من ربع مليون جنيه . وهو وحده كاف للدلالة على ان الفكرة التي تحققت قد خيبت ظنون الذين كانوا ينسبون الى جمعية المؤاساة التعلق بالنظريات والاحلام . ولا شك في ان اكتمال هذا المشروع سيظلُّ رمزاً للخطوات الواسعة التي وصلت اليها الوسائل الصحية في مصر بل في سائر الشرق العربي فان الجهود التي بذلت تدل على الثقة في ان المستشفى سيكون صورة تجاوز باستكمالها وفخامتها ما بلغه العصر من الرقي . وطبيعي ان هذا الانشاء الصحي سيظل يحض الهيئات المصرية على الاعتراف بالجميل للطبيب صاحب الفكرة الذي استحثَّ جماعة المؤاساة على سد الفراغ الحادث من تأخير المستشفيات الوطنية ونقص وسائلها ومباشرة العمل على

ان لا يكون ثمة ميزة تجمل الوسائل الصحية في عاصمة كبيرة مثل الاسكندرية تتخلف عند الحاجة عن تحقيق آمال جميع الطبقات

وبعد ، فلعل الظاهرة البارزة في حياة الدكتور النقيب لا تُحَدُّ بشغفه بالفكرات الجيدة التي تولي صاحبها خلوداً حقيقيًّا ، بل ان هذه الظاهرة تشمل اشياء اخرى ، بل ترجع الى اول عهده بصناعته عندما كان طبيباً بمستشفى قصر العيني حيث برهن على مقدار ثقة الرجل الكفء بخبرته ومقدرته . فقد حدث في الهزيع الاخير من احدى الليالي ان نقل الى مستشفى قصر العيني رجل مطعون بسكين في صدره وبطنه حتى تمزقت رئته وطحاله ومعدته . وكانت حالته تنبيء بأنهُ ليس ثمة امل في انقاذه فحادث الطبيب « النوبتجي » البروفسور « دولي » الذي كان يتعين عليه وقتئذٍ اجراء العملية للمصاب فكلفه البروفسور دولي إجراءها وكان المصاب يمت بنسب الى اسرة عريقة من الاعيان واتفق ان الدكتور بدرخان كان حاضراً فأكبر ان يجري العملية طبيب آخر غير البروفسور دولي فلم يطق الطبيب النوبتجي هذا الشك في كفاءته وغضب ثم نهض لساعته وتولى بنفسه اجراء العملية الجراحية ونجح في انقاذ المصاب بعد ان كانت حالته تنذر بالخطر وكان ذلك الطبيب النوبتجي هو الدكتور احمد النقيب فنال بتصريح خاص مكافأة كبيرة على توفيقه في اول عمل جراحي برهن على براعته . ومنذ ذلك الوقت ظهرت مهارة الدكتور النقيب وذاعت شهرته وطار صيته . والدكتور النقيب يتصف بالصراحة التي تكون عادة في فطرة المشتغلين بصناعة الطب ، وتتجلى في حديثه القوة وفي منطقه بيان الرجل المثقف الواسع الاطلاع الغزير العلم . وهو الى هذا كله خطيب زلق اللسان ، فصيح العبارة ، تقترن فصاحته بحماسة وجاذبية تنم على مقدرته وقوة تأثيره

ولعل اكبر مزايا الدكتور النقيب نشاطه ، وانه رغم قيامه بمهمته في المستشفى الاميري حيث يقوم باجراء العمليات الجراحية يؤدي هذه المهمة نفسها في مستشفى خاص له في حي محرم بك بالاسكندرية ، ولا يترك الفرص التي يزيد بها في تجاربه وعلمه عن طريق انقاذ المرضى الذين يجدون فيه دائماً الطبيب البارع المنقذ

وبعد ، ففي هذا العصر الذي قوي فيه النشاط في الحياة العلمية وبخاصة الطب ، وهو نشاط يتكافأ مع الحالة التي وصلت اليها الانسانية بعد الحرب ، نستطيع ان نعد الدكتور النقيب في مصر من الرجال الذين تفخر بهم البلاد

واخيراً ما دامت مصر تؤدي مهمتها في سبيل الترقي فحسب الشباب ان يراقب دائماً المثل العليا التي تخلدها حوادث ظاهرة في تاريخ الجماعات . فاذا ذكر مستشفى المواساة باعتباره مثلاً لمجهودات صحية عظيمة فلا غرو ان هذا الفخر سيشترك فيه اسم الطبيب الذي اقترح انشاءهُ ومهد السبيل لتحقيقه . فاذا كان هذا المشروع عملاً لخير الانسانية ومواساتها فانهُ من جهة اخرى يغذي النشء بنية طاهرة تعوده التضامن لخدمة الوطن

الدستور السوفياتي الاشتراكي [1]

للاستاذ وليم بنت منرو [2]

— ١ —

حملت الينا الاخبار اللاسلكية ان مؤتمر سوفيت الاتحاد الاعلى — وهو اعلى هيئة تشريعية في بلاد الاتحاد السوفياتي — اقر في اجتماعه السنوي الملتئم في موسكو خلال شهر يناير من السنة الحالية ، إدخال تعديلات جوهرية على الدستور السوفياتي الاشتراكي يمنح فيها للفلاحين حق التمثيل المباشر والاقتراع السري والمساواة بين الريف والمدينة في جميع ما يتعلق بالانتخاب الى هيئات الحكومة المحلية وحكومة الاتحاد العليا. وقد تلقت الصحافة والدوائر السياسية خارج بلاد السوفيت هذه التعديلات بالاعجاب والامتعاض معاً . اما الذين أعجبوا بها فهم الشيوعيون والدمقراطيون الذين يرون فيها تقدماً نحو تحقيق المجتمع القائم على الدمقراطية الاقتصادية اولاً والسياسية والاجتماعية ثانياً ، وهم المؤمنون بان لا سبيل الى تحقيق الدمقراطية الحقيقية ونجاحها الا بمعالجة النظام الاقتصادي من الاساس والقضاء على حكم الطبقات في المجتمع . اما الذين امتعضوا من هذه التعديلات فهم الرأسماليون ودعاة دكتاتورية الطبقات المستغلة كالفاشستية والنازية الذين يرون فيها نجاحاً جديداً للمبادىء التي يدّعون انها مستحيلة النجاح وان الافضل للشعب ان يجرد من إرادته ويخضع للحكم الفردي . ومهما يكن موقف البلاد الرأسمالية ازاء هذه التعديلات والنظام المطبّق في الاتحاد السوفياتي فالحقيقة الواضحة هي ان الدمقراطية السياسية التي أعلنتها الطبقات البورجوازية منذ الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ تعاني اليوم ازمة الاخفاق في معظم بلاد اوربا وحتى في البلد الذي اعلنت فيه وطبقت فيه اولاً . حالة اننا نرى نجاح الدمقراطية في البلاد التي كانت الى قبل الحرب العظمى ابعد البلدان عنها يتحقق شيئاً فشيئاً في الاتحاد السوفياتي تحت اشراف دكتاتورية العمال التي تطبقها على اسس غير التي طبقت عليها دمقراطية البورجوازية وترمي الى غايات غير التي ترمي اليها هذه الطبقات الرأسمالية الاستعمارية . وفيما يلي دراسة للدستور السوفياتي الذي يعد اول دستور من نوعه طبق في العالم

كثيراً ما يتوهم البعض ان روسيا امة واحدة كما هي انكلترا او فرنسا او ايطاليا اذ يرون على الخريطة الجغرافية اراضي واسعة تمتد غرباً الى شمال اوربا وشرقاً الى شمال آسيا تزيد مساحتها على ثمانية ملايين ميل مربع او ما يقارب سدس الجانب اليابس من الكرة الارضية او ثلاثة اضعاف مساحة

---

(١) Socialist Soviet Constitution (٢) استاذ التاريخ والحكومات في معهد جامعة كالفورنيا الفني باميركا وقد نقل هذا الفصل الممتع كامل قزانجي مدرس الاجتماع والتاريخ بمدرسة النجف الثانوية في العراق

الولايات المتحدة الاميركية تقريباً، ويطلق عليها جميعاً اسم (روسيا) ويقرأون ايضاً ان فيها ما لا يقل عن ١٥٠[1] مليون نسمة من الروس يسكنون هذه الاراضي الواسعة تديرها حكومة واسعة من العاصمة موسكو فليس غريباً اذاً ان يعتبروا روسيا بلاداً موحدة كما هي الولايات المتحدة الاميركية

لكن روسيا ليست امة بهذا المعنى بل هي مجموعة غير منتظمة لاقطار واجناس مختلفة. فقد كانت قبل الحرب مكونة من اقاليم ضعيفة الصلة فيما بينها يزيد عددها على العشرين يسكنها الروس والبولونيون واليهود والفنلنديون واللتيثون والتتر والاتراك والمغول وغيرهم من عناصر مختلفة اللغات والاديان والميزات يقارب عددها المائتي عنصر . واولى هذه المقاطعات واكبرها مساحة واكثرها سكاناً هي (روسيا الاصلية) التي تمتد من سواحل بحر البلطيق الى جبال اورال ومن الدائرة القطبية الشمالية الى البحر الاسود ويسكنها الروس على اختلاف طوائفهم . وفي الجهات الشمالية الغربية والغربية والجنوبية الغربية من بلاد الروس تقع فنلندة ولاتفيا ولتوانيا وبولندة تسكن كل واحدة منها شعوب ذات لغات واديان مختلفة ، وفي الجهات الجنوبيـة والجنوبية الشرقية تقع قفقاسية وآسيا الوسطى الروسية وسيبيريا وفي هـذه الاقطار ايضاً تسكن شعوب تختلف عن بقية شعوب الامبراطورية في اللغة والدين والجنس ايضاً . هكذا كانت روسيا قبل الحرب امبراطورية واسعة تشمل ما يقارب سدس القسم اليابس من الكرة الارضية فيها شعوب مختلفة الاجناس واللغات والاديان الى غير ذلك من الفوارق الاجتماعية . لكن المعاهدات التي عقدت بعد الحرب العظمى فصلت بعض هذه المقاطعات عن امبراطورية آل رومانوف واصبح الجانب الاكبر الباقي من هذه الامبراطورية يدعى بـ (الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية المتحدة — United Socialist Soviet Republics, U. S. S. R.) او بتعبير مختصر (الاتحاد السوفياتي — Soviet Union, S. U.)

ولكي تفهم حاضر الاتحاد السوفيتي يجدر بنا ان نلقي نظرة سريعة على تاريخ الامبراطورية القيصرية في عصورها الاولى فنقول : نشأت الامبراطورية القديمة بطريقة هجرة التجار او اللاجئين الى الحدود الروسية حيث احتكوا بالقبائل الاصلية ولم يمض زمن طويل على احتكاكهم هذا حتى استأثرت القبائل الجديدة باملاك القبائل الاصلية . اما في العصور التي اعقبت الهجرات الاولى فقد توسعت الامبراطورية الروسية بالطريقة التي توسعت بها امبراطورية روما القديمة اذ اعتمدت على الدم والحديد فكانت الحروب والفتوح عماد هذه الامبراطورية التي لم تختلف عن روما في طرق الاحتلال والفتح

لكن قياصرة الروس لم يكونوا رجالاً منظمين اداريين كما كان أساتذتهم قياصرة روما . فقد أقاموا حضارة بيزنطية اكثر منها رومانية واسيوية اكثر منها اوروبية ويرجع السبب في ذلك الى

(١) كان عدد سكان الامبراطورية الروسية قبل الحرب العظمى يقارب ١٥٠ مليون نسمة اما بعد سنة ١٩٣٤ فقد بلغ ما لا يقل عن الـ ١٦٨ مليون نسمة في بلاد الاتحاد السوفياتي بالرغم عن انفصال بعض اقسام الامبراطورية القديمة عنها

وقوع روسيا خلال القرن الثالث عشر تحت سيادة التتر وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر تأثرت كثيراً بالمبادىء السياسية والعقائد الدينية البزنطية بسبب سقوط الامبراطورية البزنطية ودخول الارثوذكسية الى روسيا

ولم تدخل الحضارة الاوربية الى روسيا الاّ في عصر بطرس الاكبر بفضل الجهود التي بذلها لاخراج بلاده من عزلتها وتأسيس حكومة مركزية قوية فيها ولو أنهُ لم يتمكن أن يؤثر فيها اكثر من ان يعطيها صبغة اوروبية شفافة فقط

وبفضل جهود القيصر الاكبر ومن عقبهُ من القياصرة، مثال كاترين الثانية اصبح لروسيا شأن كبير في السياسة الاوربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ومع ان مبادىء الثورة الفرنسية لم تدخل روسيا لكن نابوليون حمل راياتها اليها وهو في أوج عظمته في حملته على موسكو فارتدَّ بجيشه متعثراً على ثلوجها فكان في ذلك بدء انحطاط امبراطوريته اذ كان تقهقره هذا أمام الروس بداية ضعف قوة فرنسا الحربية التي انتهت بواقعة واترلو. هكذا كانت روسيا ولا تزال في موقع حصين مكنها من أن تقهر نابوليون وتحمي نفسها من الفتوحات الخارجية طيلة عصور تاريخها

ان جميع ما كان في روسيا ساعد على قيام حكم القياصرة المستبدين الطغاة وأهم هذه العوامل سعة البلاد وتعدد الاجناس الساكنة فيها وأمية الشعب والروح الحربية والحياة الريفية المتأخرة وتقاليد العقلية الشرقية، كلها ساعدت على قيام الحكم الاستبدادي وبقائهِ فيها، ومع أن بعض القياصرة كانوا يحاولون بين آن وآخر ادخال مبادىء الحكم الدمقراطي لكن عملهم لم يكن بذي بال لانهم لم يريدوا أن يضعوا السلطة العملية بأيدي ممثلي الشعب. ولما سارت الروح الدمقراطية بعد سنة ١٨٤٨ وقادت الى وضع دساتير في فرنسا وايطاليا وبروسيا وادخلت بعض التعديلات السياسية في النمسا، لم يكن لها أثر يذكر في النظم السياسية في روسيا

وبعد بضع سنين من ثورات سنة ١٨٤٨ في اوروبا ألغى القيصر اسكندر الثاني العبودية الاقطاعية بين الفلاحين في روسيا سنة ١٨٦١ وادخل الاصلاحات على حالة الفلاحين الاقتصادية لكنهُ لم يقض على سلطة الملاك ولم يمنح الشعب حق الاشتراك في ادارة شؤون الحكومة المركزية بل اكتفى بمنحهم بعض الحقوق في الادارة المحلية في المقاطعات بأن ينتخبوا منهم بطريقة الانتخاب غير المباشر — ممثلين في مجالس الولايات (الزمستفوس Zemstvos) التي خوّلت حق فرض الضرائب المحلية والانظمة المتعلقة بشؤون محلية كنظام الطرق والجسور والمدارس والصحة العامة والبنايات العامة ودور العجزة وجمعيات اعانة الفقراء لكنهُ رفض تأسيس مجالس بلدية أو (دوما — Dumas) في المدن للقيام بالاعمال التي تقوم بها الزمستفوس في الولايات

وما فتئت هذه المجالس المحلية حتى اصبحت معاقل للحركات الدستورية الحرة التي كانت ترمي

الى الاصلاح السياسي في الامبراطورية بأجمعها واخذت تزداد قوة في مطالبتها بدستور دمقراطي ودعوة برلمان عام . ولم تتقدم هذه الحركات الدستورية الحرة تقدماً محسوساً الآ بعد نهاية القرن التاسع عشر . أما السلطات المركزية والحاشية المحيطة بالقيصر فكانت تعتبر هذه المبادىء الحرة ثورية لذلك كانت تخاف من كلمات (الدستور) و (البرلمان) خوفاً شديداً حتى أخذت تمنع ظهورها على صفحات الجرائد ، وفي نفس الوقت كانت تعاليم كارل ماركس وتلاميذه تتغلغل في روسيا فتحول الكثير من الشبان الاحرار الى الاشتراكية وتعدد الاعضاء للحزب الاشتراكي الدمقراطي

ودامت الحال على هذا المنوال حتى خاضت روسيا الحرب مع اليابان سنة ١٩٠٤ — ١٩٠٥ وخرجت منها مقهورة في البر والبحر فأحدث هذا الخذلان إستياءً عامّاً أقلق السلطات الامبراطورية المستبدة واضعف مركزها . وقابل هذا الضعف في سلطة القيصر ازدياد عدد الاشتراكيين الدمقراطيين في روسيا وتمكن مبادئهم بالرغم من الاضطهادات العنيفة المتواصلة التي كانوا يلاقونها . وزاد في خوف السلطات تكاثر الاضطرابات والاضرابات المتتالية التي كان ينظمها الاشتراكيون الدمقراطيون بين عمال المصانع والفلاحين في الارياف حيث أخذ الفلاحون يسطون على أملاك الاشراف ويحتلون قصورهم مما اضطر السلطات الى اعلان الاحكام العرفية في كثير من انحاء الارياف المختلفة . وكان تلاميذ المدارس في المدن ينظمون الاضطرابات والاضرابات العامة الخطرة فتغلق الجامعات . وقد اوضحت جميع هذه التبدلات العامة وجوب تعديل السياسة الرجعية القديمة القائمة على الاستبداد والاضطهاد ، لذلك رأت الحكومة القيصرية — احتفاظاً بمقامها — ان تبدأ بالنزول على مطاليب الشعب بدعوة برلمان امبراطوري عام

لذلك أسرع القيصر واصدر في عام ١٩٠٥ سلسلة من المراسيم وعد فيها بوضع دستور للشعب الآ أن هذه المراسيم القيصرية — بالحقيقة — لم تلغ الحكم الفردي الاستبدادي بل — بالعكس — اكدت سيادة سلطة الامبراطور التنفيذية وايدت حقه بالرفض (فيتو — Veto) لجميع التشريعات التي يضعها البرلمان بصورة عامة وصرحت بابقاء الوزراء مسؤولين أمام القيصر فقط . لكنها منحت الحق بدعوة برلمان وطني عام يتألف من مجلسين . المجلس الاعلى وهو مجلس الامبراطورية ، والمجلس العام او الدوما . وفرضت هذه المراسيم تعيين نصف اعضاء مجلس الامبراطورية الاعلى من قبل القيصر وانتخاب النصف الآخر من قبل مجالس المقاطعات والملاّك والاشراف وغرف التجارة والصناعة والكنيسة والجامعات لمدة تسع سنوات على ان لا يقل عمر المنتخب عن الـ ٤٠ سنة وان يكون حاملاً لدرجة علمية . أما فيما يخص اعضاء الدوما فقد حتمت المراسيم القيصرية ان ينتخبوا بواسطة مجالس الولايات على اساس اقتراع الذكور فقط . واكدت أوامر القيصر عدم السماح بالبحث في هذه المراسيم او في الشؤون الحربية والخارجية والمالية في مجلس الدوما انما يكتفى بأخذ موافقة هذا المجلس في وضع القوانين العامة فقط

ظهرت هذه التبديلات وهي على الورق بمظهر جذاب ينبيء عن بدء موفق في سبيل الوصول الى توطيد سيادة الشعب لانها اوصلت روسيا سنة ١٩٠٥ الى ما كانت قد وصلت اليه انكلترا منذ سبعمائة سنة مضت حين فاز الاشراف بالبراءة العظمى Magna Carta في زمن الملك يوحنا سنة ١٢١٥ . لكنها لم تكن بداية عصر جديد لسببين هما : اولاً — لان الشعب الروسي لم يعرف كيف يتصرف بالسلطة التي منحها تصرفاً معتدلاً . وثانياً — لان القيصر ووزراءه لم يقبلوا النظم السياسية الجديدة عن طيبة خاطر

***

ولما اجتمع مجلسا الدوما الاول والثاني بين ١٩٠٦ و ١٩٠٧ كان بين اعضائه كثير من الاحرار والمتطرفين الذين اقلقوا الوزراء بخطبهم الشديدة وحملوا مجلس الدوما على الاستياء وعدم الاكتفاء بالسلطات التي منحها حتى هجم بعض زعمائه على الدستور الصوري، وطالبوا بدستور قائم على سيادة الشعب الحقيقية . وبالرغم مما نصت عليه المراسيم القيصرية بدأ مجلس الدوما يبحث في كيفية جعل الوزراء مسؤولين امام الدوما مباشرة ليؤسسوا بذلك نظاماً برلمانياً حقيقياً . وكذلك طلب اعضاء الدوما العفو العام عن جميع المسجونين السياسيين وتقسيم الأراضي على الفلاحين والانتخاب المباشر لاعضاء الدوما بحسب انظمة الاقتراع العام . وذهب بعض المتطرفين الى حد المجاهرة بأن واجب الدوما ليس سن القوانين فقط بل العمل للثورة الاجتماعية وانجاحها

ولما اتضح للسلطات القيصرية ان مجلس الدوما شديد التطرف في دمقراطيته ومناقشاته ومبادئه لم ير بدّاً من حله مرتين متتاليتين وقرر القيصر ووزراؤه ان قد حان الوقت لادخال التعديل في قانون الانتخاب فأصدر القيصر مرسوماً سنة ١٩٠٧ الغى به الاقتراع الفردي للذكور وأمر ان ينقسم المقترعين الى طبقات (كوريا — Curiae) هم الملاك وأصحاب المعامل والتجار والفلاحون والعمال وان يخصص لكل طبقة عدد من المقاعد في المجلس . وكذلك ادخل تعديلات أُخرى ترمي الى منح حق تمثيل غير متناسب الى الملاكين من بين المقترعين . فكانت جميع هذه التعديلات منافية تماماً للحقوق التي منحت سنة ١٩٠٥

وطبقت تعديلات سنة ١٩٠٧ كما امل القيصر ووزراؤه اذ انتخب الدوما الثالث تحت رقابتهم وبموجب التعديلات الاخيرة فكان اقل تطرفاً وأسهل انقياداً لرغبة الوزراء اذ كان مؤلفاً من الملاكين والتجار بالدرجة الاولى فكان هؤلاء يطيعون الاوامر عادة ليبقوا طيلة السنوات الخمس أي مدة اجتماع المجلس . اما الدوما الرابع فقد افتتح خلال سنة ١٩١٢ وبقي منعقداً حتى نشوب الحرب . لكن كلا المجلسين الثالث والرابع لم يكونا يمثلان الشعب الروسي تمثيلاً حقيقياً وكانا تحت تأثير الطبقات المالكة والمرفهة من الشعب . ومع انهم كانوا يستطيعون في بعض الاحيان

اقناع القيصر او الوزراء بتعديل مراسيمهم الاَّ انهم لم يكونوا —بالحقيقة— ليقوموا الاَّ بالاعمال الاستشارية فقط . وقد مثل الحالة حينذاك احد الاحرار الروسيين بقوله «ولكي يتمكن الشخص من التمتع بحق البقاء حيًّا عليه ان يصبح آلة صماء في ماكنة الدولة الاوتوقراطية المستبدة »

وكذلك اخفقت الحركة التي كانت ترمي الى تحقيق الدمقراطية السياسية والتي ابتدأت حوالي سنة ١٩٠٥ فكان مثل الشعب الروسي كمثل الذي طلب الخبز فأعطي حجراً . وأيقظ هذا الاخفاق السياسي احرار الروس واضطرهم الى الاتفاق مع الاشتراكيين الدمقراطيين في اعتقادهم ان ليس في الامكان توطيد النظام البرلماني في روسيا بالوسائل الدستورية

***

وعند نشوب الحرب الكبرى كانت معظم الطبقات في روسيا باستثناء الامراء وبعض الملاَّك ومعظم اصحاب الصناعة الكبرى — ترى رأي الاحرار الدستوريين والاشتراكيين الدمقراطيين . ومع ان نشوب الحرب ودخول روسيا فيها وحد البلاد توحيداً ظاهراً زمناً قصيراً — كما يظهر ان الحرب تعمل على ذلك وقتيًّا — الاَّ ان الحالة لم تدم طويلاً اذ بالرغم من انحياز الدوما الرابع الى جانب الحكومة القيصرية وتعضيده لها في دخول الحرب لكنه عندما اقترح القيام ببعض الاصلاحات الضرورية والتي من شأنها ان تساعد على فوز القيصر في الحرب بعد اندحارات سنة ١٩١٤و١٩١٥ لم يلق من القيصر وحاشيته الاَّ الرفض وعدم الاستحسان لاقتراحاته ونصائحه . وزاد في استياء جميع طبقات الشعب وحنقها الشديد على الوضع ما كان يسود من فساد وارتباك في جميع دوائر الحكومة المدنية منها والعسكرية على السواء — فقد كانت الرشوة والتبذير في الاموال والاهمال في الواجبات ظاهرة في جميع مناحي الادارة المدنية والعسكرية بينما كانت تعوز الجيش القيادة المنظمة القادرة كما كانت تنقصه الاسلحة والمعدات الضرورية والمؤونة والالبسة وليس هذا فقط بل ان جميع الوسائل التي حاولتها الحكومة لتزويد السكان المدنيين بالاكل اخفقت فراح الشعب يهلك جوعاً بينما كانت آلاف القناطير من المواد الغذائية تهرب الى المانيا والنمسا من قبل التجار الروس انفسهم والمنتفعين من مضاربات الحروب ليبيعوها لدوائر التموين في الجيش الالماني والنمساوي بأرباح كبيرة جدًّا . فاتضح اخيراً ان الحكومة الاوتوقراطية غير قادرة ان تنهض باعباء الحرب العظمى وغير كفوءة لها

وفي هذا الموقف الحرج الذي كان يتطلب اقصى ما يمكن من الحكمة والحذر والتوفيق بين العناصر السياسية ارتكب القيصر غلطة كانت القاضية على مقامه اذ انتخب وزارة من اكثر العناصر رجعية ولم يكن لديها طريقة لمعالجة المجاعة والاستياء العامين الاَّ باستعمال الشدة مع شعب هائج يموت جوعاً . ومع ما كان عليه مجلس الدوما من المحافظة والانحياز الى جانب الحكومة القيصرية والميل

الى التعاون معها الآ انه بعد ما جابه الواقع خرج عليها لشدة تأثره من المجاعات والفوضى التي كانت تداهم الشعب باشتداد يوماً بعد يوم . وهكذا اصبحت منصة الخطابة فيه المحل الوحيد في جميع روسيا حيث يتيسر للحرّ التعبير عن آرائه وموقفه بحرية لذلك أخذ اعضاء الدوما يهاجمون الوزراء مهاجمات شديدة جداً ناسبين الخيانات الى الرجال الذين كانوا يديرون الحركات الدبلوماسية والعسكرية معاً . وزاد في هياج المجلس رواج اخبار مؤداها ان الحكومة كانت تفاوض العدو سراً ولما بحثت هذه الاخبار في الدوما وانتقد اعضاؤه الحكومة انتقاداً شديداً تشجع زعماء الاشتراكيين واشتدت قوتهم بين العمال في المدن ونظموا الاضرابات العامة في بتروغراد العاصمة وموسكو والمدن الصناعية الاخرى وفي وسط هذا الهياج والاضطراب والخيبة اصدرت الحكومة القيصرية اوامرها بحل المجلس وطلبت من العمال انهاء الاضرابات لكن الدوما رفض التفرق ولم يعر العمال اوامر الحكومة التفاتاً وهكذا اندلعت نيران الثورة كلهيب احمر يتقد في السماء

***

بدأت الثورة الروسية الاولى في بتروغراد في مارس سنة ١٩١٧ قبيل دخول الولايات المتحدة الحرب بجانب الحلفاء وبدأت كما تبدأ سائر الثورات عادة . اذ خرج العمال المضربون والسكان الجائعون في شوارع العاصمة يهاجمون الحكومة ويطلبون الخبز والطعام . وكان القيصر غائباً عن العاصمة عندئذٍ لكن وزراءه حاولوا صرف الجموع او تفريقها باخراج جنود الحامية في بتروغراد لكن الجنود رفضوا اطاعة الاوامر الصادرة اليهم بمقاتلة اخوانهم بل التحقوا بالجموع الثائرة المالئة جميع الشوارع . وحمل الشعب الروسي — كما حمل قبله الشعب الفرنسي في ثورته الكبرى سنة ١٧٨٩ على سجن الباستيل — على الباستيل الروسي وهو القلعة المعروفة باسم قلعة القديسين بطرس وبولس واطلقوا سراح المسجونين . وبينما كانت الجموع تقوم باعمال الثورة في المدن والارياف تشكلت لجنة من اعضاء مجلس الدوما نصبت نفسها بنفسها وقبضت على اعنة الموقف وعينت وزارة جديدة واقامت حكومة موقتة ووعدت بوضع دستور جديد وترأس الحكومة الموقتة (مليوكوف) زعيم الاحرار ثم اعقبهُ (كرنسكي) زعيم الاشتراكيين الدمقراطيين . اما القيصر فقد اضطر ازاء هذا الموقف ان يعلن تنازلهُ عن العرش وأخذ سجيناً مع عائلتهِ

وفي اليوم الذي تشكلت فيهِ الحكومة الموقتة نظم مجلس عمال (سوفيت — Soviet) بتروغراد من مندوبي العمال والجنود . ولما كان لكلٍ من الحكومة الموقتة وسوفيت العمال وجهات نظر مختلفة اخذ كل منهما يصدر اوامر يناقض بها الآخر . لكن السوفيت تمكن اخيراً من ارغام الحكومة الموقتة على قبول سلسلة من الاوامر والانظمة التي حل بموجبها انظمة الجيش القديمة وبذلك تمكن من اضعاف قوة الجيش المعنوية وكانت قبل قد اضعفها الارتباك السائد في ادارتهِ . ولكي يتحاشى

السوفيت والحكومة الموقتة السير في وجهات متضاربة شكلاً تحالفاً في شهر مايو لكن حتى جهودها المشتركة لم تمكنهما من وضع حد للارتباك الذي كان يسود البلاد سواء في الجيش او في الحالة الاقتصادية الحرجة

ولما زاد الموقف حرجاً وسوءاً في ربيع سنة ١٩١٧ لم يقوَ الاحرار ولا الاشتراكيون الدمقراطيون (المنشفيك) على معالجة الحال في ظل الحكومة الموقتة والتحالف الذي اعقبها فزاد بذلك نفوذ (الحزب البلشفي Bolshevik Party) — وهو الفرع المتطرف من الحزب الاشتراكي الدمقراطي — في ادارة شؤون الحكومة واخذوا على عاتقهم معالجة الموقف بأن اكدوا بوجوب تحقيق الثورة الاقتصادية والسياسية معاً . وساعدهم على تحقيق مبدئهم ان العمال اخذوا يستولون على المعامل والفلاحون يطردون الملاكين من اراضيهم ويحتلونها . ومع ان البلاشفة لم يكونوا اكثرية الشعب الروسي الاّ انهم كانوا حزباً منظماً لهم منهاج معين واضح سهل على الجنود والعمال والفلاحين فهمه واتباعه اذ كانوا يرمون الى عقد السلم حالاً ونبذ المطامع الاستعمارية القيصرية واعلان (دكتاتورية العمال Dictatorship of The Proletariat) ليبدأوا بانشاء (المجتمع الخالي من الطبقات Classless Society التي تصبو اليه (الشيوعية ـ Communism) وزد على ذلك ان الحزب البلشفي كان يمتاز عن الاحزاب الاخرى بزعمائه المخلصين الاكفاء أمثال (نيقولاي لينين ـ Nikolai Lenin) و (ليون تروتسكي ـ Léon Trotsky) و (جوزيف ستالين ـ Joseph Stalin) وقد كان الاثنان الاولان في المنفى خارج روسيا عند ابتداء الثورة لكنهما لم يتأخرا عن الاسراع في الرجوع اليها وقيادة اتباعهما قيادة عملية ناجحة

ان في ناحية القيادة في هذه الثورة ما يماثل القيادة في الثورة الافرنسية سنة ١٧٨٩ اذ كما انتقلت السلطة من ميرابو الى دانتون ومن دانتون الى روبسبير كذلك في الثورة الروسية سنة ١٩١٧ انتقلت السلطة من مليكوف الى كرنسكي ومنهُ الى لينين . وهكذا زادت كل من الثورتين تطرفاً بانتقال القيادة فيها من زعيم الى آخر . ولم يتأخر زعماء البلاشفة عن تمكين سلطتهم في سوفيت بتروغراد وموسكو والمدن الاخرى . وباعتمادهم على الجيش تمكنوا ان يسقطوا الحكومة الموقتة في نوفمبر سنة ١٩١٧ فحققوا نجاح دكتاتورية العمال

وبعد اتمام الثورة الروسية الثانية المعروفة بالثورة البلشفية عين مؤتمر السوفيت (Congress of Soviets) مجلس قوميسارية الشعب (Council of Peoples Commissars) برآسة لنين واسندت شؤون الجيش الى قوميسار الحربية تروتسكي . وحال تسلم الحكومة البلشفية زمام الحكم اقترحت وجوب عقد الصلح بين الدول المتحاربة وعندما رفضت الدول قبول اقتراحها هجرت جانب الحلفاء وبدأت تفاوض المانيا على حدة فعقدت معها معاهدة (برست لتفسك Brest-Litovsk) ومع ان المعاهدة كانت مجحفة بحق روسيا القيصرية الاّ ان البلاشفة قبلوها لانهم لم يكونوا يرغبون في تحقيق غايات الحكومة القيصرية الاستعمارية اذ لا تتفق مباديهم الشيوعية مع الحرب والاستعمار

وكذلك ارادوا ان يتخلصوا من مشاكل اوربا الرأسمالية ليوجهوا جهودهم الى إكمال الانقلاب الذي بدأوه في حياة البلاد الاقتصادية والسياسية ليؤسسوا النظام الاشتراكي . وفي خلال ذلك اخذوا يصدرون سلسلة من المراسيم والانظمة يلغون بمقتضاها التملك الفردي لوسائل الانتاج والتوزيع معلنين مصادرة جميع السكك الحديدية والبنوك والمعامل والمناجم والاراضي من ايدي الافراد من الطبقة الاقطاعية والبورجوازية لاستخدامها وتثميرها للنفع العام من قبل حكومة العمال والفلاحين والجنود . اما القيصر فلم تمض عليه مدة طويلة في السجن حتى قتل مع عائلته واعملت الحكومة القتل والسجن والنفي في كثير من اعضاء الاسرة المالكة والامراء والملاك وموظفي الحكومة القيصرية السابقين ومحرري الصحف الرأسمالية وكل من كان له علاقة عملية بالحكومة القيصرية . ولم تتأخر الحكومة الجديدة عن تعيين مندوبين سوفياتيين في ادارة الصناعة في جميع انحاء البلاد وحلوا الكنيسة الارثوذكسية التي كانت الكنيسة الرسمية للامبراطورية القيصرية . وهكذا لم تمض بضعة أشهر حتى وضعت البلاد على اساس شيوعي من ناحية التشريع والانظمة والادارة معاً

***

لكن هذا الانقلاب لم يرق حلفاء روسيا السابقين الذين كانت لهم كثير من المعدات الحربية والمؤن في موانىء روسيا وكذلك كانوا يرون في نجاح البلاشفة في روسيا قضاء على موقفهم الحربي وخطراً يهددهم بفقدان طبقاتهم الحاكمة الثروة التي تعتمد عليها للسيطرة على جماهير العمال في اوربا والبلاد المستعمرة ومعنى هذا القضاء على المبدإ الفردي الذي تعيش في ظله الطبقات الرأسمالية الاستعمارية . لذلك اسرع الحلفاء بارسال فرق من جيوشهم بحجة المحافظة على اموالهم وبذلك سهل على كثيرين من المعارضين للبلاشفة التجمع في الموانى والالتجاء الى فرق الحلفاء حتى اخذوا ينظمون حملات لاحباط الثورة . وزيادة على ذلك تضافر الحلفاء بعد خروجهم من الحرب لمهاجمة بلاد الاتحاد السوفياتي من جميع الجهات فجردوا حملة بولندية واخرى تشيكوسلوفاكية من الغرب واحتلت جيوش بريطانيا مناطق النفط في قفقاسية وتقدمت قوات المهاجرين من الروس البيض في الشرق الاقصى تساعدهم اليابان والصين وبريطانيا وتابعت هذه الحملات تقدمها نحو موسكو خلال سني ١٩٢٠ - ١٩٢١ حتى أصبحت على مقربة منها لكن البلاشفة عرفوا كيف يستعيذوا من هذا التدخل ، وقد كان الحلفاء يرمون به الى اقتسام امبراطورية آل رومانوف . فاستنفر رجال الحكومة الجديدة الشعب الروسي المتحرر فاتحد لمقاومة الدسائس والحملات الاجنبية التي كان يرى انها ترمي الى اعادة حكومة القيصر الطاغية . وقد تمكن البلاشفة من ردّ الحلفاء وراء الحدود بفضل الجيش الاحمر والخطط الحربية والسياسية التي تبعوها وهكذا قضي على حركة ضد الثورة وعلى التدخل الأجنبي بسرعة ونجاح وخرج البلاشفة أقوى مقاماً وأعم سلطة مما كانوا قبلا

[التتمة في العدد القادم]

مقام البترول

في سياسات الامم الحربية والصناعية

لما اشتدت الحرب الكبرى ، وضيق الخناق على فرنسا ، في ايامها الاخيرة وقبيل انفراجها النهائيّ كاد البترول ينفد من مستودعات فرنسا ، فاضطرب كلمنصو وقلق ، فأرسل برقية فيها توسل شديد ودعاء حار طالباً من الرئيس ولسن ان يمد فرنسا بالبترول . ولخصت الصحف هذا التلغراف حينئذٍ بقولها ان كلمنصو قال لولسن : « كل قطرة بترول تعدل قطرة دم »

وللبترول ، في هذا العصر ، مقام خاص في حياة الدول السلمية والحربية ، ولذلك تسعى الشركات الكبيرة والحكومات الى السيطرة على منابعه ، وحول هذا السعي نسجت طائفة من الدسائس الدولية تبعث على الدهشة في دقتها وإحكامها . وفي سبيل هذه السيطرة تثار الثورات والحروب الاهلية أحياناً ، لكي يمنع فريق من اصحاب المصلحة فريقاً آخر منافساً له ، من الفوز بالمنابع دونه . فقد قرأنا عن الثورات المتعاقبة التي حدثت في المكسيك من مطلع هذا القرن الى الآن ، ما حملنا على عزو هذه الثورات الى فوران الدم المكسيكي وحرارته واندفاعه ، طبيعة ورثها عن أسلافه ، وتعزوها احوال البلاد المناخية وتاريخها الحديث . ثم اطلعنا على كتاب لكاتب يحمل تبعة ما ينشره باسمهِ ، ان شركات البترول ، في اوربا واميركا ، كانت تتنافس على الفوز بمنابع البترول الغنية في المكسيك فاذا كان صاحب السلطة يميل الى فريق منهما ، بذل الفريق الآخر المال لاثارة الخواطر ، ومنّى زعيماً آخر بالتأييد والمال ، اذا هو تقلد الحكم ومنحهم ما يطلبون من الامتياز ، وليس في هذا التعليل ما هو غير معقول . فما هو السر في ذلك ؟

الحضارة الحديثة قائمة على الصناعة الآلية ولا بد للصناعة الآلية من الوقود . وفي هاتين العبارتين يتلخص سر مقام البترول في شؤون الدول . ذلك ان البترول يفوق كل اصناف الوقود المستعملة في الصناعة حتى الآن

فاستنباطه سهل كل السهولة ونقله أسهل فليس على الشركة التي تملك منابع بترولية الا ان تمد الانابيب من منطقة المنابع الى معامل التقطير او الى اقرب المرافىء فينقل في سفن خاصة صنعت لنقله . كذلك تقل نفقات العمال الذين يتولون استنباطه وتصفيته ونقله الى أدنى حد ممكن . ثم ان الحرارة التي يولدها قدر معين منهُ ضعف الحرارة التي يولدها مثل ذلك المقدار من أفخر انواع الفحم . وهذه الامور تضمن لهُ سعراً نسبيًّا أرخص من سعر الفحم ، وتجعل صناعته بمعزل عن القلاقل الصناعية التي تستولي على المعدنين وغيرهم من طوائف العمال

لذلك ترى استعمال هذا السائل الثمين ، هذا « الذهب الاسود » كما دُعي ، يتسع نطاقه رويداً رويداً في السفن الحربية والتجارية وسكك الحديد والصناعات على اختلافها ، فضلاً عن السيارات

والطيارات وما اليها . ففي الولايات المتحدة التي بلغت أرقى مستوى من التقدم الصناعي يستعمل البترول في معظم مصانعها . وشركات السكك الحديدية في أميركا وروسيا تستعمله في قاطراتها مؤثرة اياه على الفحم . على أن فوائده تتجلى في السفن الحربية والتجارية . واليك المثل :—

لنفرض اننا نريد الموازنة بين سفينتين متماثلتين ، احداهما بخارية يسيرها الفحم والاخرى يسيرها البترول . وان قوة كل منهما ٢١ الف حصان فالآلة البخارية التي تولد ٢١ الف حصان يجب أن يكون وزنها نحو ٣٤٠٠ طن ، وأما الآلة البترولية التي تولد القوة بنفسها فوزنها الف طن فقط . كذلك تستهلك الاولى نحو ٣٦٠ طناً من الفحم كل يوم . أما الثانية فتستهلك مائة طن من البترول لتوليد القوة نفسها . فاذا استعدت السفينتان لرحلة طولها خمسة عشر يوماً ، وجب على الاولى ان تتمون ٥٤٠٠ طن من الفحم تملأ ٧٠٠٠ متر مكعب ، أما الثانية فتكتفي بألف وخمسمائة طن من البترول تملأ نحو ١٧٠٠ متر مكعب

فينجم عن ذلك ، ان الباخرة (أي السفينة البخارية) لا تستطيع بما تتمونه من الوقود أن تسير اكثر من خمسة عشر يوماً ، من دون ان تدخل الى مرفإ خاص لتتمون فحماً . مع انها لو استعملت مخازن الفحم فيها ، لخزن البترول ، وحولت آلتها البخارية الى آلة بترولية لتمكنت من المسير ٢٧ يوماً من دون ان تضطر الى دخول مرفإ ما لهذا الغرض

أما السفن الحربية فتفوُّق البترول على الفحم فيها أجلى منهُ في السفن التجارية

ان مداخن السفن الحربية المسيرة بقوة الفحم . والدخان المنطلق منها ، تنمُّ على السفن نفسها من بعد عشرة كيلو مترات ، لكن السفن التي تسير بالبترول لا ينطلق منها دخان ولا هباب ، ولا حاجة بها الى المداخن ، فلا تبدو السفينة الحربية منها ، في منظار قائد العدو ، الاّ خطّاً رمادياً على الأفق

ثم ان الاسطول المسيَّر بالبترول ليس مضطرّاً ، الى دخول المرافىء لتموُّن الوقود ، اضطرار الاسطول المسير بالفحم . وهو لذلك أخف وزناً وأعظم سرعة ، فاذا قل ما يجب أن يحمله من الوقود ، للسبب الذي قدمناه ، تمكن صانعوه من استعمال فرق الوزن في زيادة كثافة دروعه وضخامة مدافعه

ومما يمتاز بهِ الاسطول الحربي المسيَّر بالبترول سرعة حركته ، فاشعال النار في الفحم وتوليد الضغط الكافي في المراجل حتى يكثف البخار ويدفع الاسطوانات ، يستغرق ساعات ، أما اذا استعمل البترول ، فلا يمضي نصف ساعة على تلقي الامر بالرحيل ، حتى تكون السفينة مستعدة للقيام ثم لا تمضي ٣٥ دقيقة أخرى حتى تكون قد بلغت سرعتها العادية وبعد ست دقائق أخرى تبلغ أقصى سرعتها المستطاعة ، يضاف الى ذلك ان الاضطرار الى مواصلة السير ، لا ينهك الرجال الذين في يدهم ادارة الآلات ، وهم يعدون على أصابع اليد او اليدين ، ثم ان تموينها بالبترول سهل وسريع ، لا

يقتضي عمالاً كثيرين وقذراً كالغبار الاسود المتطاير من الفحم لدى تعبئته . ان تموين سفينة الاولمبك بالفحم تستغرق خمسة ايام ويقتضي عمل ٥٠٠ رجل اما تموينها بالبترول فلا يستغرق اكثر من ١٢ساعة ولا يقتضي اكثر من عمل ١٢ رجلاً . وعلاوة على ذلك ان تموين السفينة بالبترول يمكن ان يتمّ وهي في عرض البحر بواسطة نقالات البترول ، وكل منها لا تخرج عن كونها حوضاً كبيراً عائماً ، فتمد الانابيب وفي بضع ساعات ينقضي الامر ، وهذا متعذر اذا أُريد تموينها فحماً

هذه الاعتبارات الخطيرة حملت انجلترا وأميركا سنة ١٩١٢ على استعمال البترول في معظم سفن اسطوليهما وحمل المانيا على استعماله في ٢٩ طراداً من طراداتها وروسيا في جميع سفنها الحربية في بحر بلطيق

اما فرنسا فكانت متأخرة عن مزاحماتها ، عند نشوب الحرب الكبرى ، فكانت لا تملك في اسطولها الحربي سفينة واحدة من السفن الكبيرة ، تسير بالبترول ، ولكنها اصلحت هذا الخطأ بعد الحرب فقد جاء في قول المسيو فلاندان سنة ١٩٢٨ « في المستقبل القريب يعفو أثر الفحم كوسيلة من وسائل الوقود في سفننا الحربية ، وجميع سفننا الجديدة سوف تسير بالبترول »

ويصح القول الآن بأن كل الاساطيل الحربية التي لها شأن دولي ما ، قد عمدت الى استعمال البترول في وحداتها الجديدة ، وقد لا تمضي بضع سنوات حتى نودع السفن البخارية الاخيرة بنفس البسمة الساخرة ، التي ودع بها اسلافنا الاولون من قبلنا السفن الحربية الشراعية التى حاربت في طرف الغار ونافارين

ومن المؤكد انه لو لم تكن انجلترا وأميركا من حلفاء فرنسا في الحرب العالمية ، لكان اهمال فرنسا لسياستها البترولية قبل الحرب سبباً في خذلانها وهزيمتها

لذلك صرح مدير احدى شركات البترول البريطانية « ان الامة التي تسيطر على البترول تتقلد زمام التجارة العالمية فلا الجيوش ولا الاساطيل ولا الاموال ولا كثرة السكان نفسها ، تغني عن البترول في هذا العصر فتيلاً . وصرح المسيو هنري برنجه المفوض السامي « للبترول » في وزارة كلمنصو — قال سنة ١٩١٩ — (من يحز البترول يحز الملك — ملك البحر بالبترول الكثيف (الوسخ) وملك الجو بالبترول المصفى (اي اعلى اصناف البنزين للطيارات) وملك اليابسة بالبنزين والغازولين (للسيارات والدبابات والنقالات والمصانع وغيرها) وملك العالم بالقوة المالية المرتبطة بمادة هي اثمن وأقوى واتم سيطرة على الارض من الذهب نفسه »

ثم قال : — ان الامة التى تصبح سيدة لتموين البترول ، تشهد تيارات الملايين من اموال الناس متدفقة نحوها ، لتنفق فيها ثمناً له ، فسفن الامم الاخرى لاتستطيع ان تسافر الاّ اذا دخلت مرافئها وتموّنت من احواضها . فاذا بنت اسطولاً تجاريًّا فليس ما يحول دون سيطرتها الكاملة على تجارة العالم البحرية . ثم لا تلبث الصناعات ان تنشأ وتترعرع حول مرافئها ، وتصبح في ايدي مديريها السيطرة التامة على الاعتمادات المالية الدولية ، فتسيطر على الصناعة والتجارة والسياسة نفسها

خواطر مثقفة عصرية

عندما عرفت ان زوجها مُشفٍ لا يرجى
وبعد وفاته

قال الطبيب : اظنك تستطعين ان تتحملي صدمة النبإ . ليس ثمة امل في ان يفوز زوجك بالشفاء والراجح انهُ سيموت فجأة — وقد يكون ذلك غداً او في الاسبوع القادم او في الشهر القادم او حتى في السنة القادمة . وليس في وسعك الآن ان تعتني بهِ وتعطفي عليهِ ولكن يجب ان تكوني مستعدة لصدمة ذلك اليوم

ولذلك مضى عليَّ شهر وانا احاول ان الائم نفسي للحال الجديدة ، مهتمة كلَّ الاهتمام باخفاء حقيقة حاله عنهُ . ومع انني لا اوافق على اخفاء حالة المريض عنهُ بوجهٍ عام ، ارى انهُ يتعذر على اي انسانٍ ان يقول لاحبّ انسانٍ اليهِ «ليس في وسعك ان تشفى» . او «انك مائت لا محالة» . وقد اعددتُ نفسي لذلك اليوم من الناحية العقلية . فاستطيع ان ادبّر امري واتوقع حكم القدر . وانا الآن اعلم بالضبط ماذا افعل عندما تأزف الساعة . ولكن من ناحية الشعور احس بانني لا ادري ما يكون شعوري حقيقة عندها . فانني عاجزة عن ان اتصور كيف تكون الحياة من دون الرجل الذي شاطرني كلَّ جزءٍ وكلَّ ناحية من حياتي مدى عشرين سنة . ولذلك اراني عاجزة عن تصور شعوري حينئذٍ ومما يزيد الامر وقعاً في نفسي ان زواجنا كان زواجاً نادراً لانهُ كان اشتراكاً تعاونيًّا من جميع الوجوه . فقد مضت سنوات لم يفترق فيها احدنا عن الآخر اكثر من بضع ساعات . ولم يخف في خلالها احدنا عن الآخر سرًّا ما . فتى مات زوجي افقدهُ حبيباً وصديقاً وزميلاً . ليس لنا اولاد وقد تخطينا الشباب ودرجنا الى الكهولة ، ومحبة كلٍّ منا كانت مركّزة في صاحبهِ . واكاد لا اصدق انهُ في يوم من الايام سوف اشرع اعيش وحدي — أعمل ، وألهو ، وآكل ، وأنام وحدي ! كيف استطيع ان اتمتع بمطالعة كتاب ، او بمشاهدة شريط سينمي ، او بسماع برنامج لاسلكي اذا كنت لا استطيع ان ابدي رأيي فيها لهُ . كيف استطيع ان اقضي سهرة عند جماعة من الاصدقاء من دون فترة تعقبها في البيت حيث نتحدث عما رأينا وسمعنا ؟ كيف استطيع ان اغتبط بما أُحرزه في عملي من الظفر ، او كيف استطيع ان اتحمل ما يعروني من القنوط احياناً ؟ كيف استطيع ان اعنى بنفسي ، محاولة الاحتفاظ بغضاضة شبابي وحسن هندامي ؟

سوف لا امتنع عن اي شيء من هذا . وانني لاحتقر الارامل اللواتي يلنَ للحياة عند ما تحلُّ بهن مصيبة ، فيجعلنَ حياة اصدقائهن وصديقاتهن مترعة بالبؤس لشدة ما يتنهدنَ في المجتمعات او لشدة ما يمتنعنَ عنها

اما انا فلن ابكي وأولول متكئة على اكتاف الآخرين ، ولن اتحدث حديثاً لا ينقطع عما اصبته من السعادة مع « هيو » ولن اكون باعثاً من بواعث الكدر والانزعاج في اجتماعات اصحابي

ولست اطلب الآن ان أُتْرَك وشأني ، في مكافحتي للتغلب على كل هذا . ولكنني لست ادري كيف استطيع ان احمل هذه الوحدة . انه لأسهل عليَّ ، ان افقد ذراعي ، او عيني ، على ان أُنزَعَ هذا النزع العنيف الاليم من رجل اصبح جزءاً من حياتي وشخصي لا يتجزأ عنهما

ومع ذلك فالحياة ماضية في طريقها المرسوم . و « هيو » يظن انهُ ناقه ، او انني ارجو انهُ يتصور ذلك . فهو عاجز عن ادراك الحقيقة ، والاّ لما وجب عليَّ ان اتبعه طوال النهار محذرة من التعب محرضة على الراحة . ومع ذلك يجب ان لا اشغل بالهُ كثيراً بعنايتي لان شغل البال أضر به لشدة ضعفه من رفع حمل ثقيل . ثم يجب ان ادبر عنايتي به ، بحيث لا توقظ في نفسهِ اي شك في حقيقة حاله . وانهُ ليسرني انني استطيع ان افعل كل هذا

ولكن في ضمن هذا النطاق الحافل من الحياة اليومية ، اجدني ، اجد نفسي الحقيقية ، محيرة ، مرتاعة ، محاولة ان تدرع درع الشجاعة ، آناً سائرة في دردور ، وآناً محلقة في فراغ ، عالمة ان في اية دقيقة ، قد ينفصل النطاق الخارجي ، فتبرز هذه النفس من عالمها الخاص الى عالم الحقيقة الواقعة . انني اكتب هذه الكلمات الآن ، وقد ارفع بعد هنيهة نظري الى زوجي وهو يصغي الى اذاعة الراديو ، فأسأله ولا يجيب

وبعد ذلك

كنت احسب انني اعددت نفسي لفقده . والآن أراني على خطإٍ . لم أسقط اعياء عند ما دنت الساعة الاخيرة ، مع انهُ سبقها يومان عانى فيهما آلاماً جسدية وعقلية أيَّ معاناة . فنظرت في كل الشؤون الخاصة التي تبعث في النفس ذلك الالم العميق الذي لا قرار لهُ . لم أذرف دمعة واحدة في اليوم الاول لشدة تعبي وهول مصابي ، وقد انقضى عليَّ شهران الآن وأنا ماضية في عملي المألوف محاولة ان املأ كل دقيقة من ساعات اليقظة بعمل يصرفني عن التأمل في حالي ويمنعني عن الشعور بالوحدة الاليمة . وقد بدا لجميع معارفي انني قابلت مصابي ، بهدوءٍ عجيب ، فلما كان أحد زملائي في العمل يحدثني أمس في موضوع لهُ صلة بزوجي طلبت منهُ فجأة ان يغير الموضوع فقال دهشاً « لقد واجهت مصابك بشجاعة وصبرٍ فلم يدر في خلد أحدنا أنك متأثرة بهِ الى هذا الحد »

لم استطع حتى الآن ان أنشط الى زيارات بيوت اصدقائي ، ولكنني لا أمتنع عن قبول زيارات اصدقائي والتحدث معهم في هدوء في كل موضوع حتى في كل ما يتصل بزوجي . وقد ذهبت من أسابيع الى بلدة اخرى لانقل رماد زوجي في قارورة ، وانني لن أنسى كيف جاهدت لأملك نفسي عن الاعوال أمام الناس في القطار وأنا ضامة تلك القارورة الى صدري الذي لن يستند اليهِ رجل آخر بعد الآن . فلما وصلت الى داري اوصدت الباب وتهالكت على مقعدٍ . ولكن لم تمض ساعة عليَّ حتى كنت جالسة أمام مكتبي أقوم بعملي اليومي . الاّ ان الشخص الذي يفعل هذه الاشياء ليس أنا ، لان « أنا » التي كانت تهتمّ بالحياة تحولت رماداً في محرق الجثث

وقد تعلمت شيئاً جديداً من رسائل التعزية . انها تُسيل جراحاً تكاد تلتئم . فأفضل ما يفعلهُ أصدقاؤك وأنت تسير في وادي ظلّ الموت ، أن يتركوك تجتازه . وكثيراً ما قيل لي ، ان الزمان يدمل الجرح ، ويخفف من وقع الضربة ، كأن الانسان يجد شيئاً من التعزية اذا علم انهُ سوف يخوض جحيماً مدى سنة أو سنتين او خمس سنوات فقط . لقد ذكرني من أراد تعزيتي ، بكرم «هيو» ولطفهِ ودماثتهِ وهذه كلها أمور أعرفها معرفة أتمّ واعمق من معرفتهم هم . وقد اكدوا لي انهُ خيرلهُ ان يموت من أن يعيش مريضاً مزمناً مع انني علمتُ من شفتيهِ انهُ كان يفضل ان يبقى حيًّا على اية حال . وقد قيل لي كذلك انهُ اخذ نصيبهُ من الحياة ، وانهُ بلغ من العمر سنًّا وافية ، حالة انني انظر من النافذة فارى رجلاً يصحُّ ان يكون والد « هيو » وهو عائد من رياضتهِ اليومية في الخلاء ، ويزاول الذهاب الى مكتبهِ ستة ايام في الاسبوع . ولكن « هيو » الذي كان واسع العلم ألمعيّ الذهن ، قد مضى ولن يعود

وانا الآن مشغولة بتفكيك بيت قضينا عشرين سنة في انشائهِ لان دخلي لايسمح لي باستبقائهِ . ثم انهُ اكبر مما احتاج اليهِ . ولست احتمل احداً آخر يشاطرني بيتي بعدهُ رجلاً كان او امرأة . ولذلك اراني مضطرة ان اتخلّى عن جميع القطع التي كان لها مكانة خاصة في نفوسنا ، فجعلت لنا من الشقة بيتاً

عرفت رجلاً احتفظ بكل شيءٍ في داره ، بعد وفاة زوجتهِ ، على ما كان عليهِ في حياتها . علبة «البودرة» وقلم «الاحمر» على مائدتها زينتها ، وفساتينها معلقة في خزانتها ، وامر الخدم بان يعدّوا لها مكانها على مائدة الطعام كلّ صبحٍ وظهر ومساءٍ ولكنني اظنّ هذا نوعاً من الشعور المريض

وانني لاشكر الله انني قويتُ حتى الآن على مواجهة الحالة الجديدة بكل مقتضياتها العسيرة . ولكن الزمن لم يخفف من وقع الصدمة كما قالوا . بل انا لا اصدق ان الزمن يدمل الجروح . فقد كان جدّي في الثالثة والثمانين عند ما حضرتهُ الوفاة ، وكان آخر لفظ فاه بهِ ، اسم اول فتاة احبها قبل ان عرف جدتي

ولكنني اعدّد النعم القليلة شاكرة . واذا كان لي ان اسرّ ، فقد سرّني انهُ سبقني ، لانني لو سبقتهُ ، لتحيّر واضطرب وعجز عن مواجهة مقتضيات حالتهِ الجديدة . ثم أنهُ يسرني انهُ عاد الآن لا يتألم . ويسرني كذلك انني استطيع ان اتذكر الآن ، دلائل حبي لهُ ، وقيامي على عهده ، وعنايتي بهِ . بل لاغتبط انهُ كان محبوباً من جميع عارفيه وانهم عرفوا قدرهُ ومكانتهُ

***

ولكن ذلك لا يكفي . فحبنا كان يزداد ويقوى يوماً بعد يوم فلم يفقد جدتهُ ، بذهاب رواء الشباب . وكنا لشدة صلتنا أحدنا بالآخر ، نحلم في بعض الليالي الاحلام نفسها ، او يجيب احدنا عن الاسئلة التي تجول في خاطر الآخر . فقد كان أحدنا قلب كيان الآخر ، والباعث لهُ على حب الحياة ، ومواسيهُ في الخيبة . كان الفردوس فردوسي ، ولكنه ضاع ، ولن يستعاد !

الصحة والطقس

للدكتور فيليب شدياق

[نشر الدكتور فيليب شدياق سلسلة من المقالات الصحية في التدرن وعلاجه في جريدة الاجيشن ميل فرأينا ان نلخص احداها لما احتوت من الفوائد الصحية العامة]

« آخر دوا تغيير هوا » من الامثال السائرة . وقد ينطوي هذا القول على شيء من التعريض بعجز وسائل الطبيب فيحاول عندئذٍ ان يتخلص من مريضه بارساله الى اقليم آخر لتبديل الهواء ولكن اطلاق هذا المثل القديم اصبح لا يتفق بوجهٍ من الوجوه مع التقدم العلمي الحديث في التفريق بين أنواع مختلفة من الطقس والجوّ والاقليم وهذا يمكن الطبيب من ان يصف للعليل نوع الطقس الخاص الذي يتفق وعلتهُ الخاصة . ولذلك تحسَب الاقامة في جوّ موافق جانباً مهما متمماً لوسائل العلاج العلمية

والاقليم من الوجهة الصحية هو تأثر الأحياء بعامٍ منطقة ما وتربتها وهوائها . وهـذا التأثر يتوقف : (اولاً) على العوامل الجوية كالحرارة والنور والرطوبة والريح (ثانياً) على العوامل الارضية كالارتفاع عن سطح البحر والتربة والنبات

***

اذهب الى قلم الجوازات وراقب مئات الناس المنتظرين هناك بفارغ صبر الحصول على التأشيرات اللازمة على جوازاتهم ليتمكنوا من السفر الى بلاد يصيبون فيها جوّاً أبرد من جوّنا الحار . فالى أين يذهبون لقضاء فصل الصيف ؟ إما الى جبلٍ وإما الى ساحلٍ من السواحل حيث الشاطئ يتيح الرياضة والاستحمام بماء البحر ، ولكن كيف يفضلون هذا على ذاك أو ذاك على هذا ؟ لان صديقاً كان في الجبل فوصفهُ وصفاً يأخذ بمجامع النفس ، او لان صاحباً قضى صيفه السابق على الشاطئ فتحدث بمحامده ولم يكلّ ، وكلاهما قال ان نفقات المعيشة معقولة

ولكن قلما تجد مصطافاً — الاّ في القليل النادر — يدرس المكان الذي يقصد اليهِ من ناحية ارتفاعه ، والرياح السائدة فيهِ ، ورطوبة هوائه ، حتى يتأكد أن كل ذلك يتفق ومطالبه الصحية بوجه عام . والغالب ان يذهب الناس الى اماكن الاصطياف ، خبط عشواء ، فيذهبون ويعودون وقلما يجنون فائدة تذكر من الذهاب والاقامة والاياب

اذا كانت حالة اعضائنا الرئيسية متعبة ، وكان عملنا يسمح لنا في تبديل الهواء فلماذا لا نذهب الى طبيب يفحصنا ويشير علينا ببقعة نستريح فيها وتكون مؤاتية للقلب والكلى والرئتين

فللحرارة شأن كبير في صحة الانسان ومرضهِ . وأثرها الضار في الكبد واعضاء الهضم اشهر

من أن يذكر . وامراض الرئتين يوائيها الاقليم المعتدل . وفي معالجة سل الرئتين لا يكفي ان تكون الحرارة معتدلة ، ولكن الجو يجب ان يكون مستقراً ، أو غير متقلب تقلباً فجائياً يعرض المريض لما لا قبل لهُ بهِ . فالتقلب الفجائي بين الحر والبرد ، يؤثر في الجهاز العصبي الذي يضبط حرارة الجسم ويتطلب منهُ جهداً غير مألوف ، وهذا يضني الجسم ويجب ان تتجنبهُ على أية حال

بل قد نقول في ما يتعلق بسل الرئتين ان الهواء الرطب رطوبة يسيرة مفيد لانهُ يريح الاعصاب حالة ان الهواء الجاف ضار لانهُ يهيجها. وعلى الضد من ذلك ان الهواء الجاف يوائي المصابين بروماتزم المفاصل وامراض الكلى حالة ان الهواء الرطب يضرُّ بها

فالمريض المصاب بسل الرئتين يجب ان يذهب الى مكان على شواطىء البحر الابيض المتوسط حيث الجو معتدل والهواء على جانب من الرطوبة، ولكن هذا الهواء الرطب ينقلب ضاراً اذا كانت التربة لزجة لا تمتص المطر، او ان امتصاصها لهُ قليل جداً . وهنا اريد ان اوضح ما اعني . فكثرة المطر لا تضرُّ المسلول ، لان المطر بدلاً من ان يبرد الهواء يدفئه قليلاً ويحول دون تقلباتهِ المفاجئة ولكن اذا كانت التربة في منطقة ما ، لا تمتص المطر بسرعة وسهولة ، تصبح الارض وحليَّة شديدة الرطوبة ، او اذا كان الهواء متقلباً يحدث في تقلبه تغييراً مفاجئاً في الحرارة وصفاء الجو ، فتلك المنطقة لا تصلح للمسلول . ثم يجب على الطبيب ان يتبين مهابَّ الرياح في منطقة ما قبل ان يصف تبديل الهواء فيها لاي مريض وخاصة للمسلول. وخير الرياح ما يهبُّ من فوق البحار ، لانهُ يجيء معتدل الحرارة غير ملوث بالجراثيم . وشرُّها ما هب من بقع يغطيها الجمد او من الصحاري

***

واذا ذكرنا الارتفاع ، فعندي ان ارتفاع ١٢٠٠ متر هو الحدُّ الفاصل بين الارتفاع الذي يجهد المريض والارتفاع الذي يريحهُ

فالشواطىء البحرية تختلف عن الاماكن المعتدلة الارتفاع في ان ضغط الهواء فوقها كبير جداً وعدم تعرُّضها لانخفاض مفاجىء في الضغط وهو ما تحدثهُ الرياح الشديدة في الاقاليم المعتدلة الارتفاع . واذاً فالشواطىء البحرية من هذا القبيل توصف للمتعبين العاجزين — لاسباب في جهاز التنفس او في جهاز الدورة الدموية — عن الملاءمة السريعة بين اجسامهم والضغط الجديد الذي يحدثهُ هبوب الريح . وهذه الملاءمة السريعة مما تقتضيهِ الحياة في اماكن مرتفعة . فالمصابون بالسل او بالازما او بضعف القلب ، يحسّون بشيءٍ من الفرج عندما يهبطون من الجبال الى السواحل

وللسن تأثير كبير في احداث هذه الملاءمة او العجز عنها . فالشبان اقدر عليها على قنن الجبال من المتقدمين في السن . وقلما نجد مصاباً بالسلّ ، يستطيع بعد سن الخامسة والاربعين، ان يعيش في جوّ بارد وفي مكان مرتفع من دون ان يصاب باعراض الالتهاب . بل ان المسلولين المزمنين الذين تصلبت جوانب من رئاتهم يعجزون بعد سنّ معيّنة عن المعيشة في مكان مرتفع

واذاً فالاماكن العالية ليست بالاماكن التي توصف للمصابين بتصلب الشرايين او ضعف الكلى او القلب او النزيف من الرئتين او للذين يتمرضون لفقد جانب كبير من وزنهِ بسرعة . ثم ان كريات الدم الحمر تتكاثر بسرعة في الاماكن المرتفعة ، ولكن البحث اثبت انها تتكاثر كذلك بعد اقامة قصيرة على شواطىء البحر . ففي خلال الاسابيع الثلاثة الاولى من الاقامة على شاطىء البحر تطرد زيادة هذه الكريات ، ثم تبدأ تقلُّ ، ولكنها تبقى مع ذلك اكثر مما كانت قبل قدوم صاحبها الى الشاطىء

فلما يختلف جو الشاطىء عن جوّ الجبل من حيث النتروجين والاكسجين وثاني اكسيد الكربون، ولكن الاوزون في هواء الجبال الحرجاء اكثر منهُ في هواء الشاطىء . الاّ ان هواء الشاطىء يفوق هواء الجبل بما يحتوي عليهِ من الملح واليود . والاوزون يختلف عن الاكسجين في ان دقيقته تحتوي على ثلاث ذرات اكسجين ، وهي لذلك لها فعل مطهر ووجودها في الجوّ دليل وبرهان على نقائهِ . واستنشاق الاوزون يزيد مقدار الهيموغلوبين النسبي في كريات الدم الحمر . وهذا يعني تحسُّن الحالة الصحية بوجهٍ عام

اما اذا هبَّت الرياح فوق البحر فانها تحمل دقائق من الملح نستنشقها مع الهواء الذي نستنشقهُ اما الملح في هواء البحر فليس مقداره ثابتاً بل يتغيَّر بتغيُّر الاحوال . واما اليود فعنصر دائم في هواء البحر ومقداره فيهِ يفوق ١٢ ضعفاً مقدارهُ في الهواء الذي يهبُّ في داخل البلاد بعيداً من الشاطىء

نوم الاطفال

من قواعد علم النفس الجديد ان السنوات الخمس الاولى من حياة الطفل لها اكبر مقام في مستقبل صحتهِ العقلية والنفسية . وهي قاعدة تنطبق كذلك على الصحة الجسدية ، لان البيئة التي ينشأ فيها الانسان ، والغذاء الذي يتناوله ، والعادات الصحية التي يتعودها ، لها اكبر مقام في حياتهِ ، لانها تتأصل في تلك السنوات ويمتدُّ اثرها الى آخر الحياة

ومن الامور التي جزم فيها بعض العلماء والاطباء ان اهمال قواعد الصحة في سن الطفولة ، لا تعوضهُ اية عناية في المستقبل ، تعويضاً تامًّا . وعبء هذا العمل العظيم — عمل الاحتفاظ بقوى الاولاد الجسدية وتنشئة العادات الصحية الصالحة التي يمهد اليها في المستقبل في حفظ هذه القوى — يقع على كواهل الوالدين ولكنهُ يكفل نموّ الاطفال شباناً وشابات تفيض الصحة ويسيل الشباب السليم من معاطفهم ومعاطفهن

وليس الغرض من هذا المقال الاّ ذكر بعض المسائل العلمية ومعالجتها من ناحية تطبيقها على صحة الاطفال . فلا بد للطفل من النوم الكافي لينمو صحيحاً ، جسداً وعقلاً . ومن الامور التي

لا يختلف فيها الباحثون ولكنها مع ذلك مما يبعث على اعظم الاسى ، ان الاطفال في الجماعات المتحضرة ، كثيراً ما ينشأون رجالاً ونساء ضعاف الاجساد والعقول ، لعدم حصولهم في طفولتهم وما بعد طفولتهم على النوم الكافي الوافي . وانك لتستطيع ان تعرف الطفل المحتاج اشد الحاجة الى النوم من بعض عاداته . فهو في الغالب يغط في النوم صباحاً ، وينهض عند ايقاظه متثاقلاً ، ويسرع في تناول فطوره ، ويتأخر عن الوصول الى مدرسته في الميعاد ، وقلما يكون منتبهاً انتباهاً كافياً في فصول المدرسة ، فاذا طالت حاجته الى النوم ، يشحب لونه وتضطرب اعصابه ، وينشأ هزيلاً ويصبح شديد التعرض لكل داء من ادواء الطفولة وامراضها

ومن الواضح ان تدبير كل ما يلزم لتمتع الطفل بقدر كاف من النوم يقع على عاتق الوالدين وهؤلاء يجب ان يعلموا ، عدد ساعات النوم الذي يوافق عمر الطفل . فالوليد قلما يفعل غير الاكل والنوم . ثم ان الاطفال بوجه عام يحتاجون الى ١٤ ساعة نوم كل يوم الى ان يبلغوا السنة السادسة من العمر . والى ١٢ ساعة نوم بين السادسة والثانية عشر ، والى عشر ساعات نوم ، فوق ذلك العمر

وميعاد النوم له شأن كبير في سلامة النوم . فالصغار الذين في الثانية والثالثة الى السادسة يجب ان يناموا حوالي الساعة السادسة مساء ثم يؤخر ميعاد نومهم رويداً رويداً حتى اذا بلغوا الثامنة من العمر كان ميعاد نومهم الساعة الثامنة مساء . وبعد ذلك يؤخر ميعاد النوم ربع ساعة بزيادة كل سنة في عمرهم ، حتى اذا بلغ الولد الرابعة عشرة من العمر ، كان ميعاد نومه قد اصبح الساعة التاسعة والنصف مساء

وعلى الوالدين ان يجروا على هذا البرنامج جرياً دقيقاً حازماً . وقد يقال احياناً ان السماح للولد بتأخير ساعة نومه بمثابة عيد او هدية له ، ولكن ذلك يجب ان يكون نادراً لئلا يتحول الى عادة. ثم يجب ان يتخذوا كل تدبير في وسعهم ، ليكون نوم اولادهم هادئاً ومريحاً . فالوالدون يجب ان يعنوا عناية كبيرة ، بازالة كل باعث من بواعث الضجيج في البيت وقت نوم الاطفال او على الاقل قرب حجرهم. اما حجر النوم فيجب ان يتخللها الهواء ، والفرش يجب الا تكون باردة حتى لا تحول دون تمدد الطفل فيها تمدداً يريحه . واذا كانت اغطية السرير وافية فيجب ان تترك النوافذ مفتوحة . ويجب الحيلولة بين الاطفال النائمين وبين تغطية رؤوسهم بأغطية السرير او بالوسائد

أما الدرس قبل النوم ، والقراءة في السرير ، فيجب ان يمنعا . ومن الواضح ان ما يأكله الطفل قبل النوم يؤثر في نوع الراحة التي يصيبها من النوم . فاذا تأخر في تناول طعام العشاء وشرب معه الشاي او القهوة ، فالغالب ان تقطع نومه الاحلام المزعجة والكوابيس المرعبة

وأخيراً يجب ان يحال بين الهم والاضطراب والطفل الذاهب الى سريره . فاذا رأى الوالدان او احدهما ان امراً ما يقلق بال الطفل ، فحديث يستغرق خمس دقائق قبل النوم يريح بال الصغير ، فيصيب في نومه الراحة المطلوبة

آداب الحديث

من آداب الحديث والسمر عند الغربيين انك اذا اجتمعت باحد فاول ما يجب عليك معرفتهُ هو هل تراهُ اكثر ميلاً الى الاصغاء او الى الكلام فان كان يميل الى الاول فاكثر من الثاني او الى الثاني فاكثر من الاول . والحديث الطيب هو ما كان منسجماً طبيعيّاً لا ثقيلاً ولا خفيفاً . كثير الفائدة ولكن ليس الى حد الصلف بالعلم واظهار بضاعتك منهُ . فكهاً ولكن بلا جعجعة . مهذباً ولكن بلا تورية

ومن شروطه ايضاً ان يكون بين بين في طوله لا خطاباً مستفيضاً ولا موجزاً الى حد الاقتضاب . وان يكون معقولاً بحيث لا يحتمل الاخذ والرد والجدل الكثير . والحسن الحديث يحدث سامعيهِ عن كل شيء كيما يجتني كلٌّ منهم ما يهوى ويلتقط من درره المتساقطة ما يشتهي . ويحثه في جميع المسائل التي يتحدث بها سطحي أو اعمق من السطحي قليلاً ولكنهُ لا يغور الى قعر المسائل كما يفعلون في الجمعيات العلمية البحتة

ومن أقوالهم لا تحدث الموسيقي بالموسيقى ولا بالطب مثلاً إلاّ اذا كان مريضاً وكان الطبيب غائباً . ولا تحدث الناس بالمسائل المبتذلة عندك والمجهولة عندهم لئلا يكون مثلك معهم مثل الكركي والثعلب اذ صنع الاول للثاني مأدبة وقدم الطعام اليهِ في قصاع بعيدة الغور ضيقة العنق فالتهم المضيف كل شيء ولم يذق الضيف شيئاً

قالوا واسكت عن نفسك واطراء اقوالك واعمالك . فانها ان كانت حسنة تستحق المدح نشرت شذا عرفها من نفسها أو اتاح لها الله لسان حسود . وان كانت سيئة فكلما سكت عنها تحسن صنعاً

ولا تقطع على محدث حديثه واسكت اذا قطع الكلام عليك . وقل الخير عن الجميع . قال بعضهم «قل عن الناس كلهم ما يستطاع من الخير . واذا اردت ان يقال الشر على احد فاعهد في ذلك الى الشيطان»

من الحكايات اللطيفة التي يحكونها ان سيدة كانت تحدث ضيفة لها في منزلها في حضرة طفل لها والطفل لاهٍ يلعب ببعض الدمى بين يديهِ . واذا بضيفة ثانية قد دخلت ثم ما عتمت ان انصرفت وبعد انصرافها جعلت السيدتان تفتشان عن عيوبها وتذكرانها باقبح الاوصاف فلم تبقيا ولم تذرا . وكان الطفل في خلال ذلك مشغولاً بلعبهِ في الظاهر . ولكنهُ رفع رأسهُ هنيهة وقال للضيفة المحتشمة « وهذا ما تقوله « ماما » عنك بعد انصرافك »

ومما قالوا ان سوء التفاهم وعدم الانتباه اكثر ضرراً من الغش والاحتيال

وليكن حديثك بالمسائل التي كثر بحثك لها وأصغ الى المسائل التي قلّ علمك بها فان المعرفة كالحَبّ لا يصح استعماله في الاعمال إلا بعد تجفيفهِ وتيبيسهِ . وليس شيء ادعى الى سآمة الحديث مثل ان يفرغ المحدث جعبتهُ في الموضوع الذي يتكلم فيهِ . قال كرومول الانكليزي : اذا كثر هرف محدثك فدعهُ وانصت له مسروراً اذن انت العاقل . واذا اخطأ في قول فاسكتهُ بكلام لا يقبل المراجعة . واذا صدق فافرح بقول الحق »

المفترقان

لمدام دبورد فالمور

وهي شاعرة فرنسية ولدت سنة ١٧٨٥ وتوفيت في باريس سنة ١٨٥٩

لا تكتب ! فاني حزين اشتهي الموت
ما عهود الصيف الجميلة بدونك الا الحب بغير اشتعال
لقد طويت ذراعي لما اعجزهما الوصول اليك
والقارع على قلبي كالقارع على قبر

فلا تكتب !

لا تكتب ! فلا نعلّم انفسنا الا ان نموت
ولا تسأل الا الله ... والا نفسك اذا كنت احبك
ان سماعي انك تحبني وانت في شديد محبتك
كمن يسمع عن السماء وما هو بصاعد اليها ابداً

فلا تكتب !

لا تكتب ! اني اخافك . اني اخاف ذاكرتي
فانها قد حفظت صوتك الذي يناديني غالباً
لا تدلّنّ على الماء من لا يستطيع له شرباً
ان كتاب عزيز لديك صورة منهُ قريبة الشبه

فلا تكتب !

لا تكتب هذه الكلمات الحلوة التي عدت لا اقوى على قراءتها
فكأن صوتك يلقيها على قلبي ويفيضها
وكأني اراها خلال ابتسامتك تلمع
وكأنها بقبلة منك على قلبي تُطبع

فلا تكتب !

الشاعر والاولاد

لفكتور هوغو

الشاعر الفرنسي العظيم وُلد سنة ١٨٠٢ وتوفي سنة ١٨٨٥

على دكة اجلس ، فلا ادري لِمَ

جميع الصبية الصغار يجتمعون حولي

فما اكاد اجلس حتى اذا هم جميعاً عليَّ يقبلون

ذلك انهم يعلمون اني اجد مثل ميولهم ، ويذكرون

اني أُحبُّ مثلهم الهواء والزهر والفراش

والبهائم التي تُرى عادية في الغيطان

ويعلمون اني امرؤٌ احبهم

واني انسان يسعهم اللعب بقربه ، بل

الصياح والضجيج والكلام المرتفع

واني كنت اضحك مثلهم وأشد منهم في ما مضى

واني اذ اشهد اليوم ملاعبهم

أبشّ لهم ايضاً ، وان اكن اشد ترحاً وبثًا

ويقولون ، ويا ما احيلى مودّتهم ، اني لا يمكنني

ان اغضب ابداً وانهم يلعبون معي وان اصنع

اشياء من ورق مقوّى ورسوماً بالقلم

واني اقص اذ يوقد السراج

ويا عجباً ! اقاصيص لذيذة تخيف اذا الليل جنّ

وبالجملة اني لطيف غير مستكبر ، واني ذو علم كثير !

الاناء المكسور

لسولى برودم

وهو شاعر فرنسي ولد سنة ١٨٣٩ وتوفى سنة ١٩٠٧

صدع بدا من مَسّ مروحة
في آنية فيها رَعيُ الحمام (١) قد ذوى
وكأن الاصابة لم تمس الآنية
اذ لا صوت أبدى بها

ولكن ذلك الثَلْم الخفيف
كان كل يوم يسرى في الزجاج
سيراً خفيفاً مستمكناً
حتى طوق الاناء على مَهَل

سال منه ماؤه البَشَام قطرة قطره
والزهر غاض ماؤه وجفّ
وما فطن بعد أحد الى ما كان
فحذار أن تمسه انهُ قد انكسر

كذلك يقع غالباً ان يداً نحبُّها
تمس القلب فينجرح
ثم يتصدع القلب من نفسه
فتذبل فيهِ زهرة حبه

لا يبرح بأعين الناس لم يُثْلَم
وهو يستعر بجرحه الرقيق البليغ
ينمو ويبكيه متكتماً
لقد انكسر فحذار أن تمسّه

---

(١) نبات وزهر جيل منظره أنيق

باب المراسلة والمناظرة

إرشاد لغوى

فى كل جزء كلمة

للأستاذ عبد الرحيم بن محمود

لفيفٌ ثانٍ من أمراض وأعراض

بوزن فُعَالٍ

الى الأستاذ الباحث سالم خليل رزق في النبك من سورية

تحيتي لكم وبعد فقد قرأت فى مقتطف يونيه كلمتكم الجامعة فحمدت إليكم الله الذى رفع بمثلكم شأن اللغة العربية فى زمان فيه اللغى تتقدم . ولا غرو فأنتم من القامة عليها — وعالم ذو همة يحيي أمة — وما كنت فى بحوثى اللغوية فى المقتطف الا مؤدياً واجباً علىّ قد خالط دمى ولحمى ولا أسأل العرب والمستعربين عليها أجراً الا قراءتها للانتفاع بها فيما يكتبون ويقولون نثراً وشعراً بعد نقد كلماتى نقد الصيرفى دراهمه . ولذلك أشكرِ لمن أجاب دعوتنا ونهل من منهلنا وورد موردنا واستقرى قِرانا[1] والضيوف إذاً أكرم من المضيف إذا عدّ ما أقدمه لهم قِرى ولا إخاله كرماً!!

لعمرُ أبيك ما نُسِب المُعَلّى　　إلى كرمٍ وفى الدنيا كريمُ

ولكنّ البلادَ إذا تعرّتْ　　وصوّح نبتها رُعِىَ الهشيمُ

وقد غرس القُدامى شجراً يُؤتى أكلهُ كلّ حين فأكلنا ثمراً جنيًّا وكذلك نحن نغرس ليأكل حفَدَتنا وما لدىّ قليل وإن استكثره إخوانى فأنت أولى منى بالشكر والحمد إذ أنك تحيي لغتك وتبعث أمتك فى لسانها من رمسها وتربط تليدها بطريفها وفى لغتك الفصاحة والبلاغة — أعزك الله ما أعززت أمّ اللغات التى هى أبقى على الزمان من الزمان.

---

(١) استقرى طلب الضيافة — القرى بكسر القاف وفتح الراء ما يقدم للضيف من طعام وهو أجود ما عند المضيف الكريم عادة فمعنى استقرى قرانا طلب قرانا

بَلِيَتْ هاشمٌ وبادتْ نِزارٌ واللسان المُبين ليس يبالى

أما استفتاؤك لى فى الأمراض والأعراض التى جئت بها في مقالك المشار إليه فإنى قسمته ثلاثة أقسام : أولها ما يتعلق بالطب البشرى وهذا أفتيك فيه بمعونة اصدقائى الاطباء الحذاق فى اجزاء من المقتطف إن شاء الله وقد نبهت منى غافلا وأردتنى على ما يريده منى قراء المقتطف ولاسيما رجال المجامع اللغوية العربية أعانهم الله وعصمهم ونفع بهم . وثانيها ما يتعلق بالطب البيطرى ولى من اصدقائى البياطرة فى مصر معينون غير أنى أؤجل الاجابة عن هذا القسم بعد استيفاء الاجابة عن سابقه (لا بد من صنعا وإن طال السفر)

وثالثها ما يتعلق بالأدوية وستكون كلماتكم فى جَبهة الأدوية التى أعنى بها فى المقتطف إذا حان حينها وأدركتم إبانها ولى منهج فى بحوثي لا أحيد عنه قيد شعرة — وكل ما هو آتٍ آت

لم يملك المحبوب صبـ ـراً عنك حين ملكتَ صبرك

وإنى أوجه نظرك الى أن فريقاً من الكلمات اللغوية التي وردت في كلمتك لم تفصل شرحها الملاغى [1] بل أجملت وأوجزت فالبحث عما يرادفها باللغة الاجنبية من المستحيلات اذا رعينا الامانة حق رعايتها وتخصيص العام لا يلزم إلا بالاجماع وهيهات ان يكون في هذا العصر وأغربة البين قد عششت فى كل اقليم شرق . بل انها اتخذت فى كل بيت من بيوتاتنا اوكاراً ولا ارى كالشرقيين تظهر فى أفرادهم القوة وفى مجموعهم الضعف وأنا منفرداً اكثر منى عملاً فى جماعة ومتى تحين اويقات الاتفاق وكلنا يوده ولا يتخذ اليه سبيلاً . ولقد صدق من قال عنا « اتفقنا على الآ نتفق » ورحم الله المتنبي وهو القائل :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب [2] والخلف فى الشجب

***

وليعلم القرأة أن الأطباء الذين يعينوننى يجهدون جهداً معى فى اختيار اللفظ الاجنبي المرادف للفظ العربي حتى تتم المطابقة بين المعنيين ولا بد لى من عرض كلماتهم على أطباء سواهم للمبالغة فى التحقيق وبين أيديهم المصادر الموثوق بها من عربية وغير عربية بعد النقد الذى سداه الحق ولحمته الصدق

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

ودار المقتطف التى يشرف عليها صديقى الاستاذ فؤاد صروف قد غصت بالمصادر العالية ولها نصيب موفور فى التحقيق الذي يرفع بحوثنا الى الغاية التي يتطلبها عشاق الحقيقة الخالدة . وقليل من

(١) الملاغى كتب اللغة والمفرد ملغى أى كتاب اللغة كالقاموس ولسان العرب وغيرهما

(٢) الشجب بفتح الشين والجيم الهلاك

الثروة الادبية يُنْقى خَبَثه خير من كثير فيه خبث وهذه طائفة مما سألتنى عنه فهاك الاجابة عنها :

﴿ الرُّداع ﴾ ورد فى اللغة بمعنى النكس ومرادفه بالانكليزية (Relapse) وورد ايضاً بمعنى الالم الذى يصيب الجسد كله ومرادفه بالانكليزية General malaise

﴿ القُتَار ﴾ ابتداء الغَشْيَة ويرادف هذا اللفظ بالانكليزية Fainting Sensation

﴿البُوال﴾ وهو البول السكرى (أى الصادق أو الظاهر سببه) وترجمته بالانكليزية كما يلي Diabetes mellitus

ويأتى أيضاً بمعنى البول الكثير أى الكاذب أو الخفى سببه فى اصطلاح الاطباء وترجمته بالانكليزية Diabetes Insipidus

ويأتى أيضاً بمعنى تتابع البول وترجمته Incontinence of urine أو Frequency of urine [١]

﴿ السُّكات[٢] ﴾ مَا يمنع من الكلام — غير البكم والشلل ويرادفه بالانكليزية Aphasia

﴿ الرُّمَاع ﴾ وجع يعترض فى ظهر السقّاء حتى يمنعه من السقى يقال أرمع السقّاء أى أصابه الرُّماع ومرادفه (Lumbago) وهو المعروف عند أبناء سورية بالـبَرْقة وأيضاً ينشأ من التهاب العضلات وترجمته (Myositis)

وجع شَغَاف[٣] القلب (Pericarditis)

﴿ الرُّحام ﴾ وجع الرحم (Metritis)

﴿ الحُصَاص ﴾ مرض يتناثر منهُ الشعر (Alopecia)

﴿ قُلاع ﴾ الاذن (Autitis Media)

﴿ الحاق ﴾ هو جدرى الدجاج وقد تلتبس هـذه الحالة بالجدرى البشرى لتشابه فى كثير من الاعراض وترجمته (Chicken Pox) والحاق أيضاً هو الجُدَيْرِي أو جُدَرِى المـاء ومرادفه (Varicella)

﴿الخُبـاط﴾ اي الصرع وهو نوع من التشنج العصبي وهو داء عاقبته الجنون فالموت وترجمته (Epilepsy)

﴿ الحُكَاك ﴾ هو الجرب على التحقيق وترجمته Scabies

(١) الترجمة الاولى للطبيب سامي الياس والاخرى للطبيب شكري مشرق
والالفاظ الطبية الانكليزية التى فى هذا المقال للطبيبين الفاضلين المذكورين ولقيت تأييداً من غيرهم من اخوانهم الاطباء بعد عرضها عليهم

(٢) وليس بمعنى السكتة التي تتعطل بها الاعضاء عن الحس والحركة الا التنفس كما ترى لاما يرى أهل الفن

(٣) شغاف القلب بفتح الشين ، غلافه

﴿الظَّلَاع﴾ العرج وترجمته Lameness أو Claudication

﴿القُحال﴾ ورد في معجم الطالب قحل جلد فلان جفّ ويبس وأقحل الصوم جلد فلان أيبس جلده على عظمه ويرى الطبيب شكرى مشرق أن توضع الكلمة (قُحال) لما يرادف بالانكليزية Scleroderma إذ أن الجلد يجف من هذا المرض وينقلص حتى يلصق بالعظم أو يكاد يلصق به

﴿القُعاس﴾ مصدر بمعنى القعس وهو مرض به يخرج الصدر ويدخل الظهر ويقال لصاحبه أقعس إذا كان ذكراً وللانثى قعساء ضد الأحدب والحدباء ومرادف القُعاس Lordoses . وأما الحَدَب فترجمتهُ Kyphoses

هذا وقد اكثر اللغويون من المعانى والمترادفات لكثير من الأمراض والاعراض مما جاء في مقال الاستاذ النابه سالم خليل رزق على توغلها في الإبهام والعموم فصدفنا عنها وآثرنا نحن والأطباء بعض هذه المعانى على غيره مما تقفنا مرادفه باللغة الانكليزية لاتقاء الافتئات ـ والمقتطف رائد القراء «إن الرائد لا يكذب أهله»

وهذه كلمتى أسوقها إلى أبناء العرب والمستعربين الذين بهم تحيا اللغة إذا أرادوا لها حياة وبحياتها يحيون وبموتها يموتون — ومن يصن مجد قومه ولغة قومه وأخلاق قومه فقد صان عرضه الذي هو عرضهم والسلام

الهشاب

والقَتَاد والعكوب

أعرف مصطفى بك الدمياطي منذ خمس وعشرين سنة او اكثر وكنا نجلس في اسبلندد بار في أيام مجده وكان يرافقه الى هذه المجالس ابنه محمود ثم عدت الى مصر فسألت عن محمود فاذا هو استاذ في مدرسة الزراعة في الجيزة وقد نبغ في علم النبات ورأيت له مقالات نفيسة في المقتطف تدل على علم واسع وتحقيق دقيق جداً ولما كنت أعرفه وهو غلام فاني استأذنه في نقد بعض ما جاء في مقالاته

فقد أجاد في السنط أيما اجادة واجاد في احد انواعه وهو الهشاب ووصفه وصفاً حسناً جداً مما يدل على علم وتدقيق وبحث فهو ليس ناقلاً جمّاعاً بل يعرف هذا النبات حق المعرفة وانما فانه ذكر اللفظ العربي الفصيح له وهو القتاد ذكره احمد عيسى بك في معجمه ص ٣ قال Acacia sengal Syn. Acacia verek وقال اسمه هشاب وقتاد (اليمن) واظن احمد بك اخذ القتاد

عن الكتاب الآتي A. Deflers, Voyage au Yemen 1887 والكتاب كان في مكتبتي فاستعاره الامير مصطفى الشهابي ولم يمده على عادة الادباء في عدم اعادة الكتب المفيدة ولكن لا بأس لأن الامير يستفيد منهُ اكثر مني واظنه لو قرأ عن القتاد في النسخة التي عنده في دمشق لوجد ان دفلرس وصفه كما وصفه الاستاذ محمود مصطفى الدمياطي وكما وصفه صاحب التاج. قال التاج « القتاد كسحاب شجر صلب له شوكة كالابر وجناة كجناة السمر ينبت في نجد وتهامة واحدته قتادة. وقال أبو زياد من العضاه القتاد وهو ضربان فاما القتاد الضخام فانهُ يخرج له خشب عظام وشوكة حجناء قصيرة. واما القتاد الآخر فانهُ ينبت صعداً لا ينفرش منهُ شيء وهو قضبان مجتمعة كل قضيب منها ملآن ما بين اعلاه واسفله شوكاً وفي المثل من دون ذلك خرط القتاد وهو صنفان فالاعظم هو الشجر الذي له شوك والاصغر هو الذي له نفاخة كنفاخة العشر » الى آخر ما ذكره صاحب التاج في هذه المادة.

قلت هذا هو القتاد الذي قال فيهِ كليب التغلبي ماذا يريد جساس من عليان ودونهُ خرط القتاد في الليلة الظلماء وهو الذي ذكره دفلرس وعيسى بك وهو ليس الخشاب على ما ورد في معجم شرف بك مما يدل على ان كل واحد من المؤلفين الفاضلين بحث مستقلاً عن الآخر والصواب ما جاء في معجم عيسى بك وما قاله الاستاذ الدمياطي الا انهُ اصاب في الهشاب وفاته القتاد

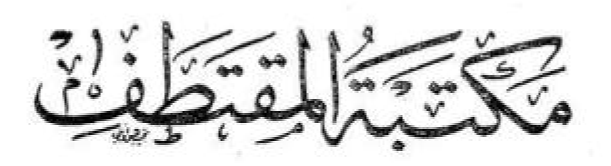
وهناك قتاد لم يرد في كتب اللغة في ما اعلم بل ورد في ابن البيطار وهو الكثيراء ولا محل للبحث فيهِ هنا ولا يخفى ان كلا النباتين مستعمل في الطب واری ان يقتصر على القتاد والهشاب لهذا الذي يخرج منهُ اجود اصناف الصمغ العربي وعلى الكثيراء لهذا الذي يستخرج منهُ الصمغ الآخر

***

بقيت هفوة اخرى نقلها الاستاذ محمود عن عمدة المحتاج للرشيدي وهي ان القردون هو المكعوب فالمكعوب اسمهُ العلمي Gundelia Tournefortii فليس هو الكعيب ولا العكوب ولا الكعوب بالتخفيف ولا العقوب ولا الكويب كما جاء في معجم الطبيبين الفاضلين بل هو المكعوب كتنور كما ورد في التاج وقد اسهبت في ذلك في مقالة لي نشرت في مقتطف يونيو سنة ١٩٣٣

فأرجو من صديقي الاستاذ الدمياطي ان يستمر في ابحاثه المفيدة لانه يكتب عن هذه النباتات كتابة عالم خبير واني ادعو الله ان يمد في اجلي لارى معجماً في النبات من تأليفه فاننا في حاجة كبيرة الى معجم يعتمد عليه وانما احذره من امرين وهما الادعاء والحذلقة فقد سئمنا الحذلقة في مصر والشام والعراق فلم يكن الجاحظ متحذلقاً ولا ابن البيطار كان مدعياً لانهما كانا على علم كبير واني لا ارى الادعاء والحذلقة الا في هذا الزمن فنوعان من الاقاقية ذكرهما صواباً كما فعل الاستاذ الدمياطي خير من ثلاثين نوعاً ليس فيها نوع واحد خالياً من الخطإ فاننا نريد معجماً نعتمد عليهِ وهذا الامر ليس عسيراً اذا سرنا على طريقة الاستاذ محمود الدمياطي

امين المعلوف



رسالة من برلين — للدكتور بشر فارس

تآليف المستشرقين

ابرهيم مدكور ، « منزلة الفارابي في المدرسة الفلسفية الاسلامية »
٢٥٤ ص ، من القطع المتوسط ، باريس ١٩٣٤

Ibrahim Madkour, "La Place d'al Fârâbi dans l'école philosophique musulmane"
Editions Adrie n -- Maisonneuve, Librairie d'Amérique et d'Orient, Paris

تخرج صديقي ابرهيم مدكور في دار العلوم ثم شخص الى باريس فطلب في جامعتها الفلسفة ، وما زال في اجتهاد وتحصيل حتى نال شهادة (الليسانس) ، ثم صرف همه الى الالهيات والمنطق حتى ظفر بالدكتوراه في الآداب برسالتين احداها المذكورة فوق هذا الكلام

ان الباحثين في الفلسفة الاسلامية لم يعنوا بالفارابي عنايتهم بغيره من المفكرين المسلمين ، ذلك انهُ لم ينتهِ الينا مما الفه الرجل الا اقله (انظر مقالة كارا دى فو في دائرة المعارف الاسلامية ج ٢ ص ٥٨) . ثم هناك ما عدل باولئك الباحثين عن الفارابي بعض الشيء ، ذلك انه قام في اعتقادهم او كاد يقوم ان الرجل انما جال في دائرة الفلسفة الارسطية [١] فلم يحدث شيئاً (انظر Munk, Mélanges de Philosophie juive et arabe, 1927 ص ٣٤٣ ، ذكره المؤلف) . هذان امران ثبت لهما الدكتور مدكور فنقضهما اذ رأى ان ما وقع الينا من تآليف الفارابي يدلنا على اركان مذهبه دلالة كافية وبخاصة إن نحن عارضناها بتآليف من اخذ عنه امثال ابن سينا وابن رشد. وأما الامر الثاني فما وقع في خلد الدكتور مدكور ان الفارابي — وان حذا حذو ارسطو وغرف من بحره ما شاء الله ان يغرف — لصاحب فلسفة قائمة برأسها ، ألاَ وهي الفلسفة الاسلامية . وقد استقامت هذه الفلسفة على يد المعلم الثاني (اي الفارابي) دون الكندي الذي كان الى العلوم الطبيعية اميل منهُ الى العلوم العقلية ، ومنزلة الكندي من الفارابي منزلة المفكرين اليونانيين الاولين بين حاسبين واطباء ومنجمين من ارسطو

اعتماداً على هذه النظرات انطلق الدكتور مدكور يبحث في فلسفة الفارابي ويحللها ويرد مسائلها الى سوابقها في الفلسفة اليونانية وما اخذ مأخذها ويتتبعُ لواحقها في الفلسفة الاسلامية وما قفا إثرَها . فما دارت عليهِ مباحث هذا الكتاب النفيس ان مذهب الفارابي يندرج تحت الفلسفة

---

(١) نسبة الى ارسططاليس او ارسطوطاليس

الروحانية — المعنوية ، فالروح فيه صاحب العمل والعقد على حين المعنى أس ووسيلة . وهذا المذهب منحدر — جملة — من جانبين احدهما الفلسفة الافلاطونية — الارسطية والآخر الفلسفة البلوطينية . وطرافة المذهب ان الفارابي عالج مسائل اسلامية محضة كمثل الجمع بين الايمان والعقل اي الدين والفلسفة تلك المسئلة التي شغلت المتكلمين على اختلاف مللهم زماناً طويلاً . ومما يأتي بعد هذا ان ابن سينا انشأ مذهبهُ على مذهب الفارابي الا شيئاً ، وان ابن رشد اخذ أخذ الفارابي على الغالب وان حاول ان يدفع طائفة من آرائهِ وآراء الشيخ الرئيس لتعصب كان فيه لأرسطو . هذا ثم ان نظرية الفارابي في « الاتصال » قد راجت عند ابن باجة وابن طفيل . على ان تأثير الفارابي لم يكن مقصوراً على الفلسفة الاسلامية بل جاوزها الى علم الكلام اليهودي والمسيحي في القرون الوسطى من طريق ابن سينا وموسى بن ميمون وغيرهما ، والى التصوف عند ابن سبعين الاندلسي « والاشراقيين » اصحاب الشيخ المقتول ، بل الى الفلسفة الحديثة : فكلام سبينوزا Spinoza على السياسة المدنية والنبوة والعقل والايمان يميل ميل كلام الفارابي عليها جميعاً قليلاً او كثيراً

ذلك مضمون الكتاب ، وبهِ نزع صاحبه عن مصدر من مصادر الفلسفة الاسلامية حجاباً فشهر جانباً ضخماً من جوانبها ورفع من شأنها في اسلوب علمي دقيق قويم

كل هذا أصدقه صديقي . على اني اصدقه شيئاً آخر ، ذلك ان لي على كتابه استدراكات مالي بكتمانها قراء هذا الباب من المقتطف يدان :

أثبت الدكتور مدكور في آخر كتابه جدول المصادر التي عوَّل عليها (ص ٢٢٣ — ٢٤١) وقد خطر له ان يلحقها بنقد جامع جرياً على طريقة علماء الفرنجة . ويسمى هذا النقد بالفرنسية مثلاً Bibliographie Critique واني والله ليسوءني أن أقول ان هذا الجدول ليس من محاسن الكتاب . ففيه مثل هذا النقد الذي أنقله حرفاً لحرف

« كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان — لا بدَّ منهُ لمعرفة سير أعلام المسلمين » ، « كتاب الفهرست لابن النديم — تأليف جليل الشأن نظراً الى العلوم الاسلامية والكتب المنقولة الى العربية » و « كتاب تاريخ الحكماء القفطي — ذو شأن عظيم جداً » و « معجم الادباء لياقوت — من أعظم تآليف العرب في التراجم » و « تاريخ الآداب العربية للألماني بروكلمان C. Brockelmann — مصدر حسن (كذا) لسير المسلمين المفكرين وتآليفهم » ، « ارسطاليس للانجليزي رُس W. D. Ross — بحث مستفيض غاية الاستفاضة يدل خاصة على معرفة الفلسفة الارسطية من مختلف مصادرها » اه

ولعل القارىء يجاريني على أن الفهرست وتاريخ الحكماء ووفيات الاعيان ومعجم الادباء وتاريخ الآداب العربية لبروكلمان في غنية عن هذه التعريفات ، وهيهات أن يكون بأصحابها حاجة الى مثل تلك التلويحات . واما رُس فهو أمام العصر فيما يتعلق بأرسطاليس . هذا ومما يصل اليهِ علمي

ان نقد المصادر في التآليف العلمية انما يستقيم على غير هذا الاسلوب . فإما ان تنشر عيوباً مستورة أو تذيع محاسن مجهولة اوتحلل تحليلاً تامًا أو تحول الانظار الى كتاب ظهر حديثاً أو تثبت جميع «طبعات» كتاب من الكتب وما قيل فيه وكتب. وقد رأيت المؤلف لم يذهب في هذا المجال مذهباً بعيداً . مثال ذلك انهُ لا يذكر لنا تاريخ طبعة كتاب « الطب العربي » ولا مكانها Arabian Medicine by Browne المنقول الى الفرنسية ، وانهُ يهمل طبعة الديار السورية « للمنقذ من الضلال للغزالي » وطبعة مصر « لآراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي » وانهُ يغفل بحث شيخي احمد زكي رحمهُ الله في رسائل اخوان الصفا (انظر Etude Bibliographique sur les Encyclopédies Arabe, Le Caire 1308 h.) وان يعرض عند الكلام على « مروج الذهب للمسعودي » عن الاشارة الى ما في طيات هذا التاريخ من الاساطير والمبالغات (انظر «مقدمة ابن خلدون» طبعة بيروت سنة ١٩٠٠ ص ٣٦ مثلاً) وانه يفرط في الايجاز عند ذكر كتاب المستشرق فنسنك Wensinck الموسوم «بالعقيدة الاسلامية» The Muslim Creed, Cambridge 1932 في حين ان هذا الكتاب حديث العهد ، وانهُ لم يطلع على هذا الكتاب « مقالات فلسفية لابن سينا والفارابي والغزالي وابن العبري وابن العسال مع تعريب اسحق بن حنين لمقالات (اوسطو وافلاطون) (بيروت ١٩٠٨)

ثم ان المؤلف يميل الى ارسال احكام مبهمة وارمة . من ذلك قوله «تلخيص حسن» (ص ٢٣٣ س ٧ تحت ، ٢٤٠ س ٧) وقوله «بحث دقيق مستفيض» (ص ٢٣٦ س ٣) ، وقوله «عرض حسن» (ص ٢٣٦ س ١٩ ، ص ٢٣٢ س ٤)

ولن أدع هذا الباب — باب جدول الكتب — دون ان أخبر المؤلف انهُ لم يرجع الى ثلاثة مباحث لها شأنها بل بينها وبين موضوعات كتابه علاقات . فأحدها يبحث في فلسفة (سبنوزا) Spinoza «على ضوء» الفلسفة الاسلامية اليهودية وعنوانه The Philosophy of Spinoza, unfolding the latent processes of his reasoning, 2 vol. Cambridge 1934, by H. A. Wolfson وقد برز هذا الكتاب قبيل بروز كتاب المؤلف (طالب نقده في مجلة « الاندلس » التي يخرجها لفيف من المستشرقين الاسبانيين ، الكتاب الثاني ، العدد الثاني ، سنة ١٩٣٤ ، ص ٤٣٨). والبحث الثاني يعرض للصلة التي بين فلسفة ابن سينا وفلسفة ديكارت فيما يلحق باثبات النفس (وحكاية هذه الصلة في الكتاب ص ١٥٣) وقد نشر ذلك البحث مستشرق ايطالي G. Furlani في مجلة ألمانية مستشرقة Islamica سنة ١٩٢٧ ، الجزء الاول ، ص ٥٣ — ٧٣ تحت عنوان Avicenna e il Cogito, Ergo Sum di Cartesio .. وأما المبحث الثالث فالكتاب الآتي نقده في هذه الرسالة

ولننتقل الآن الى مجال آخر مجال رسم الحروف العربية بالشكل الافرنجي Transcription بالفرنسية و Transliteration بالانجليزية :

يقول المؤلف في صدر الكتاب تحت عنوان جدول رسم الحروف العربية « إنا عمدنا الى

اسلوب نرسم بهِ الحروف العربية على وجه النطق بها » . فهل للمؤلف ان يبيّن كيف جعل للجيم حرف j الفرنسي (لا الانجليزي) ? والمعلوم ان مخرج هذا الحرف بالفرنسية مخرج الجيم في اللهجة الشامية . ثم هل له ان يبين كيف جعل للضمة العربية حرف اللين o الفرنسي ? فان حرف اللين o يلفظ في الفرنسية ممالاً اي بين الضمة والفتحة على نحو ما تلفظ عامة مصر الهمزة المضمومة في هذه العبارة مثلا « أُنْتِيلُهْ » . فما ضر المؤلف لو اتبع في رسم حروف العربية طريقة دائرة المعارف الاسلامية او الجمعية الاسيوية الفرنسية . ولاشك ان له ان يضع طريقة في ذلك يستحدثها استحداثاً وانما وجه الاعتراض في قوله انهُ «عمد الى اسلوب يرسم بهِ الحروف العربية على وجه النطق بها » tels qu'ils se prononocent حالة ان ذلك الاسلوب ينحرف احياناً عن النطق الصحيح بتلك الحروف

ومن الاعتراضات التي تلحق بهذا الباب ان لفظة «المتكلمون» (اي اصحاب علم الكلام) رسمت على هذا الشكل « المتكلمين » كذا : les Motakallemîn غير مرة (١٤٦ ، س٢١، ص ١٤٧ س١٣ ، ص ١٥٠، س ٢٣ و٢٥، ص ٨٠ ، س ٣ تحت) . فلم ادرك السبب الذي من اجله رسمت هذه اللفظة بالحروف الافرنجية في حالة النصب او الجر (اي بالياء والنون) بدلاً من ان ترسم بتقدير الابتداء بها والوقف عليها (اي بواو ونون ساكنة) كذا Les Mutakallimoun لحالة الرفع هي الغالبة إذا وقعت اللفظة مفردة فيما أعلم ، والمستشرقون على هذا النحو جارون . ثم اني لم أدر لِمَ رسمت كسرة اللام من «المتكلمين » بالحرف اللين e الفرنسي اي ممالة على نحو ما تلفظها العامة عندنا ، والوجه في هذا ان ترسم بالحرف اللين i الفرنسي كما اثبت ذلك المؤلف في «جدول رسم الحروف العربية» المتقدم ذكرهُ

ومما يلي هذا ان المؤلف اضطر الى ان يترجم نصوصاً للفارابي رغبة في التدليل والتبيين ولغة الفارابي على جانب عظيم من الايجاز . ومن نتائج الايجاز المفرط الالتباس والاشتباه . فلولا ان يكون المؤلف راسخ القدم في العربية عالماً بالفلسفة الفارابية لما قوي على ان ينقل تلك النصوص الى اللغة الفرنسية نقلا حسناً . الاّ ان نصّاً اختلطت عليّ سطوره حتى اني لم اخرج منه بشيء (ص ١٣٨ س ٨ الى ١٩) . ومما بدا لي وأنا اقرأ هذا الكتاب الجامع ان المؤلف اتفق له الحين بعد الحين ان يستند الى مباحث العلماء والمحدثين في فلسفة ارسطو ومن قبله ومن بعده وفلسفة آباء الكنيسة وسبينوزا وغيرهم عوضاً عن ان يرجع الى تآليف هؤلاء الفلاسفة انفسها (انظر مثلا : ص ٣٣ حاشية ٦ ، ص ٣٦ ح ٣، ص ٧٠ ح ١ و ٢ ، ص ٨٠ ح ١ و ٦ ، ص ٨٦ ح ٢ ، ص ٩٢ ح ٢ ، ص ٩٥ ح ٣ ، ص ١٢٧ ح ٦ ، ص ١٣٣ ح ٤ ، ص ١٤٤ ح ٥ ص ١٧٤ ح ١ و ٢ و ٣ ، ص ١٩٠ ح ٢ ، ص ٢٠٧ ح ١ و ٥ ، ص ٢٠٨ ح ٤) انه لا يخفى علي انه اعتمد على أئمة ، غير ان البحث الذي نهض له يقتضي الرجوع الى الاصول من حيث انه بحث قائم على معارضة الفلسفة اليونانية وما جرى مجراها وفلسفة القرون الوسطى بالفلسفة الفارابية خاصة والاسلامية عامة

بقي اني لو شغلت صدري أمنية لوددت لو اردف المؤلف كتابه بذيل ادرك فيه اصطلاحات

الفلسفة الفارابية كاملة . فالاصطلاحات الواردة في الكتاب المبسوطة في جدول في آخره لا تنقع غلة وبنا اليوم حاجة ماسة الى تدوين الاصطلاحات الفلسفية ، بل حاجة الى معرفة اصطلاحات الفلاسفة واحداً واحداً على تعاقب السنين . وخاتمة النقد اني اشهد ان تلك الاستدراكات « اللاحقة بالعرض لا بالذات » لا تغض من شأن هذا الكتاب الغزير مادة

ا.م . جواشو — المدخل الى ابن سينا — رسالة الحدود له

(ترجمة وتعاليق) ٢٥٤ ص ، من القطع الصغير ، باريس ١٩٣٣

A. — M. Goichon — Introduction à Avicenne. Son épitre des définitions (traduction avec notes) — Edition Desclée, de Brouwer et Cie — Paris

عمل المستشرق الاسباني ميجيل أشين بلاسيوس Miguel Asin Palacios مقدمة لهذا الكتاب. ومما جاء فيها « ان مسألة الاصطلاحات الفنية ولاسيما الفلسفية من ملتويات اللغة العربية . والمتمنى أن ينهض لفيف من العلماء الى تآليف فلاسفة العرب فيدونوا اصطلاحاتهم واحداً واحداً بحيث انهم يؤلفون معجماً للمواضعات الفلسفية عامًّا وخاصًّا في آن ، اي جامعاً للالفاظ بمفاداتها المتحولة على ايدي الفلاسفة زماناً ومكاناً . والحق ان معاجم اللغة لا تكاد تلتفت الى هذه المواضعات واما المعاجم الموقوفة على الاصطلاحات نحو «مفاتيح العلوم» للخوارزمي و« التعريفات » للجرجاني و« كشاف اصطلاحات الفنون » للتهانوي (وهنا اغفل المستشرق الفاضل « الكليات » لابي البقاء طبعة بولاق ١٢٥٣ ، وطهران ١٢٨٦ ، والاستانة ١٢٨٧) فهي تسوق الالفاظ جملة من دون ان تقيدها بمصادرها ومواردها » اه

تلك امنية يطول حبلُها ! وها هي ذي تنقاد بمثل هذا الكتاب . فقد عمدت صاحبته فيه الى ايضاح اصطلاحات ابن سينا خاصة مستندة الى رسالته في الحدود . فجاء هذا الكتاب توطئة لفلسفة ابن سينا من حيث انهُ يبين مفادات اصطلاحاته ويبسط وجوه آرائه في آن . ذلك بأن المؤلفة علقت على كل حد من حدود ابن سينا فشرحتهُ شرحاً مسهباً مستضيئة بتآليفه الاخرى راجعة الى تآليف الفلاسفة اليونانية وبخاصة الفلسفة الارسطية التي اقتبس منها ابن سينا الشيء الكثير . وهنا كنا نود أن تعارض المؤلفة اصطلاحات ابن سينا باصطلاحات الفارابي من الناحية التاريخية — اللفظية

وثمة عمل مرهق نهضت به المؤلفة ، ألا وهو نقل كتاب الحدود الى اللغة الفرنسية ولا يسع الناقد الاّ ان ينوه بما قدمت يداها وان يتجاوز عن عثرات معدودات منها ترجمة « الامور القبيحة والحسنة » هكذا le laid et le beau (ص ٣١) أي القبيحة والحسنة من جهة الجمال والمراد من جهة الاخلاق ، فالوجه أن يقال : le bien et le mal وترجمة «الفهم» بالعقل (الذكاء) l'intelligence (ص ٩) واظن الوجه la compréhension أو (l'entendement) (وكذلك ترجم في ص ٢٣) وترجمة «النطق» بالعقل la raison وأظن الوجه le langage (كما في ص ١٣) ثم اشتباه في ترجمة المكان والحيز (ص ١٥٠ — ١٥٢) وترجمة «الفطرة» بالعقل l'intelligence (ص ٣٤ — ٣٥) والفطرة هنا الطبيعة

وكان يحسن بالمؤلفة أن تنشر النص العربي مرة أخرى وتجعله قبل الترجمة الفرنسية حتى يتتبع القارىء الترجمة فتنتظم الفائدة . ومما يقال — فوق هذا — ان المؤلفة لم ترجع في المباحث اللغوية المحضة الى الاصول العربية الاولى من المعاجم بل وقفت عند قاموس لين Lane الانجليزي. انها لم تستفد من معاجم الاصطلاحات التي تقدم بك ذكرها ولم تعارض مواضعات ابن سينا لتعاريفها حدودها

والذي يسوء القارىء في هذا الكتاب ان الالفاظ العربية قد رسمت بالحروف الافرنجية على غير وجهها الصحيح في الغالب . ولو اخذت أسرد الادلة على ذلك لضاقت « مكتبة المقتطف » بها . وحسبك هذه السقطات « الطُّبيب » (اي الطبيب ، ص ١٦ رقم روماني) « المجز » (اي الموجز ، الصفحة عينها) «اللاتي» (والمراد التي ، ص ١٧ رقم روماني) «أسْبَبُهُ» (والمراد اسبابه ، ص ١٩ رقم روماني «المُوت» (أي المَوْت ، ص ٢٦ ، رقم روماني) «متوقِّي» (والمراد متوقَّى ، ص ٢) « أخِذ » (أي : أخَذ ، ص ٢٨) « التغذّي » (أي : التغذي ، ص ٢٩) ، « صُحَّة » (اي صحَّة ، ص ٣١) « لا وجودٌ لها » (اي : وجودَ ، ص ٥٢) ، « الخُط » (والمراد : الخَط ، ص ١٤٦) الخ ، الخ . ولا جرم ان هذه السقطات تجعل الكتاب موضع نكير وغمز ، ولربما سأل الناقد نفسه كيف استقامت الترجمة لمن كان بينهُ وبين العربية الفصحى مثل هذا التَّشَسُّع ب . ف .

المعجم في بقية الاشياء

لابي هلال العسكري — طبع بمطبعة دار الكتب المصرية في ١٧٤ صفحة من الحجم الصغير —

لأبي هلال العسكري فضل لا يجحد على اللغة وأدبها ، فلقد ترك لنا ثروة قيمة من مؤلفاته ، ونخصُّ منها في علم اللغة كتبه « التلخيص » و « ما تلحن فيه الخاصة » و « الفروق في اللغة » و « المعجم في بقية الاشياء » . وهذا الأخير ، ولو أنهُ صغير الحجم الا أن فائدته جزيلة ، ولقد قصره على ايراد اسماء بقايا الاشياء . ان معجماً كهذا لأرطب في تسهيل الحصول على امثال هذه الكلمات فقد يتعذر على الكاتب في بعض الاحيان اطلاق اسم على كل شيء من البقايا الصغيرة فينقب في المعاجم وقد يفنيه البحث قبل ان يجد غايته . وليس من ينكر فضل التخصيص في تسهيل المعارف وتيسيرها

والآن ، ونحن نترقب من مجمع اللغة الملكي ترقية اللغة واظهار ابنائها على ما خفي بين المعاجم من الكلمات مما يصلح للتعبير عن كثير من خلجاتنا ، ووضع معجم جدير يتفق وحاجة العصر ، نعدُّ اظهار هذا المعجم خدمة طيبة يشكر عليها الأستاذان ابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي اللذان قاما بتكملة هذا المعجم والتعليق عليه وضبطه ، ونشكر لحضرة محمد مصطفى نجم افندي فضله في الانفاق على هذا المعجم وإخراجه في هذا الثوب القشيب . ولعلهم يتعاونون على اخراج باقي مؤلفات هذا العالم الجليل واحياء النفيس من مخطوطات المكتبة العربية فيقدمون الى ابناء هذه اللغة يداً لا تنسى

ضحى الاسلام

تأليف الاستاذ احمد امين بكلية الآداب بالجامعة المصرية . الجزء الثاني يبحث في نشأة العلوم في العصر العباسي — ٣٦٣ ص من قطع النصف — طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

من الاسراف ان يقول ناقد ان أي بحث يتناول تاريخ نشأة العلوم عند العرب في بدء حضارتهم يمكن ان يلم بأطراف ذلك الميراث العظيم الذي حققته العلوم الاسلامية في ثلاثة القرون الأولى بعد الاسلام . ولذلك اسباب تناولها كثير من المؤرخين بالبحث والتنقيب وخص بعضهم عن علاقة نشوء العلم عند العرب من ناحية العلاقات السياسية والاقتصادية او الاجتماعية التي أثرت في الفكرة الرئيسية للاسلام أو العقائد التي ذاعت بين العرب بعد الرسالة . غير ان ذلك لم يأت تامًّا ولا يمكن ان يصل يوماً حدّ الكمال . فان ما ضاع من آثار العرب في العواصم الاسلامية بسبب الحروب ، وما فقد من الآثار العلمية التي خلفها منشئو الحضارة العربية ، في مختلف نواحي العلم والحياة ، يجعل الوصول الى رسم صورة جامعة من حياة العرب العقلية في أيام حضارتهم امراً عسيراً بل متعذراً وغاية ما يصل اليه المؤلف ان يجمع اجزاء متفرقة ليحاول أن يخرج منها صورة جامعة . اما رسم هذه الاجزاء وجمعها فأهون بكثير من تركيبها كلاًّ واحداً واخراجها صورة كاملة الاجزاء مؤتلفة النواحي ، فان فقدان الحلقات التي تربط بينها ، يقف أمام المؤلف حجر عثرة دون الوصول الى الغاية الاخيرة التي يبغيها من تكوين هيكل كامل للحضارة العربية

***

مثال ذلك ما ورد في نهاية الفصل الاول من كتاب الاستاذ احمد أمين عند الكلام في حرية الرأي عند العرب . فان الاستاذ على دقة بحثه واحاطته بالموضوع الذي يكتب فيه احاطة شاملة، لم يستطع أن يكوّن فكرة جامعة عما كانت الفكرة في حرية الفكر في ذلك العصر . وكل ما استطاع ان يستخلص من علمه الواسع بتاريخ ذلك العصر ، بضع صور متلاحقة من خليفة كان يتسمح مع الزنادقة أو المعتزلين، الى آخر يضطهدهم ويؤيد السنيين . ولكن الى اي مدى أثرت هذه الحرية من ناحية، والاضطهاد من ناحية اخرى، في الفكر العربي جملةً وتفصيلاً ؟ ذلك ما لم يصل مؤلف الى تحليل دقيق فيه ، خرج منهُ بصورة اشبه بالصورة التي يمكن رسمها لعصر الاضطهاد في اوربا تحت لواء محاكم التفتيش

مع كل هذا استطاع الاستاذ احمد امين ان يبرز صوراً بديعة مؤتلفة الاجزاء وبخاصة في التشريع الاسلامي والفقه والتاريخ ، وهي نواح من التاريخ العربي مصادرها اوفى من مصادر غيرها من فروع الفكر التي ازدهرت في عهد الحضارة العربية

بجانب هذا نقول ان تبويب كتاب في تاريخ الفكر العربي عنصر من أهم العناصر التي تعين المؤلف على الوصول الى غايات بعيدة من تحقيق الغرض الذي يرمي اليهِ . ولاشك في ان ترتيب ابواب كتاب ضحى الاسلام وتساوق موضوعاتها قد مكّن الاستاذ الفاضل من تقريب الصورة التي حاول ان يرسمها لذلك العصر من الفهم تقريباً قلما تقع على مثال له في كثير من الكتب التي تصدت للكلام في موضوع العلم في الحضارة العربية

على ان لنا بعد ذلك ان نتناول ناحية عامة من الكتاب . وعندي ان اخطر ما يتعرض له مؤرخ في ضحى الاسلام هو استقراء الاتجاهات التي اتجه فيها اللغويون والمترجمون من الاستعانة بالاصول العربية في وضع المسميات التي عرض لهم الكلام فيها على نحو ما فعل المؤلف عند كلامهِ في المذاهب اللغوية في العصر الذي أرّخ فيهِ . وعندي ان البحث اللغوي في هذا العصر سيتجه اتجاهاً جديداً يخرج فيهِ على الاوضاع القديمة . فان اكثر اسماء النبات والحيوان التي وردت في المعاجم مشتق من اصول عربية صحيحة قد لحظ فيها صفة في الحيوان او النبات . هذا اذا لم يكن الاسم معرباً . وجرى العربي في ذلك على غير قاعدة قياسية . فان القياس والسماع والجدل فيهما لم يظهرا في الواقع الا في عصر ضعفت فيه السليقة العربية والذوق العربي عند اختيار الوزن الذي يؤخذ منه الاسم . ولذا قيل ان ما سمع من العرب موزوناً على بعض الصيغ صحيح ، ولكن لا يقاس عليه . مثال ذلك صيغة — فِعَّوْل — فقد جاء منها خنوص وخنوص و قلوب وسنور ولكن ليس لك ان تصوغ اسماء على هذا الوزن لحيوانات تريد تسميتها الآن . وكذلك صيغة يفعول وفيعول وإفعيل مثلاً . عدا غيرها من الصيغ التي لا يتناولها حصر

وهنا نقع في مشكلة كبيرة ، اذ ليس امامنا في هذا الآ احدى طريقتين : فاما ان نصوغ من كل الاوزان التي سمعت عن العرب اسماء لما نريد تسميته الآن ، فنحصر كل الاوزان التي وردت في اسماء الحيوانات والنباتات والاسماء الاخرى ، ونجعلها قياسية يوزن عليها في العلوم قياساً بحيث يكون الاسم مأخوذاً من اصل عربي يشتق منهُ ، وإما ان نلجأ الى التعريب ، فنزن المعرب على وزن عربي حيناً ، وعلى غير وزن عربي حيناً آخر . ومذهبي ان الصوغ من الاوزان التي سمعت عن العرب اولى من التعريب ، بل اني اكاد اقطع باننا اذا قلنا بقياسية ما سمع من العرب استغنينا عن التعريب وهذا ما نعني هنا من القول بان البحث اللغوي يجب ان ينتحي منحى جديداً يتناول حاجة اهل العصر والتسمح في وضع قواعد جديدة يجري عليها اهل اللغة

***

واني لارجو ان تتاح لي فرصة اخرى اوفي فيها هذا البحث حقه من الاستفاضة والبيان . ولاشك في ان اتجاه تاريخ العلوم عند العرب هذا الاتجاه مفيد بل انهُ الركن الاول في توجيه البحوث اللغوية توجيهاً جديداً فيهِ الخير كلهُ لابناء العربية في عصرنا هذا

اسماعيل مظهر

ديوان حافظ

من صباه الى وفاته

٢٦٨ صفحة بحجم المقتطف — طبع مكتبة الهلال بالفجالة بالقاهرة — الثمن ١٥٠ مليما

لم يعرف شاعر حديث أحب الى الشعب المصري من فقيد الادب المغفور له محمد حافظ ابراهيم بك . وليس ذلك لان له قوة فنية تبذ غيره من الشعراء المعاصرين الممتازين وانما ذلك لان حافظاً يعبر أصدق تعبير عن شعور هذا الشعب تعبيراً شعريًّا ساذجاً في الغالب متعمقاً أحياناً بحيث ان ديوان شعره يمثل سيرة المشاعر المصرية الوطنية في ثلث قرن . فاذا أحبه الشعب المصري فانما يحب ذاتيته المنفعلة الممثلة في شعره الصادق الوطنية المندمج كل الاندماج في أحاسيس الامة المصرية

ولقد توفى حافظ في احوال لم تمكن الامة من تقديره مجتمعة فقدره أفرادها متفرقين كأنما موته كان خسارة عائلية لكل منهم ، والى ذلك أشار شاعر العربية الاشهر الاستاذ خليل مطران في مقدمته البديعة التي صدرت بها هذه الطبعة من الديوان اذ قال أطال الله بقاءه :

«الامة المصرية بارك الله فيها تكرم شعراءها الكبار وعلماءها العاملين وأعلامها البارزين في كل منحى من مناحي المعارف والآداب والسياسة والقضاء والادارة والاجتماع والاقتصاد . وما منهم الاَّ من له في فؤادها مقامٌ معلومٌ فان زعم زاعمٌ أنها تنسى موتاها العظماء ففي الحق انها لا تنسى ، غير ان مظاهر حبها ووفائها تختلف عن أمثالها عند الامم الاخرى . هي تنفق من شعورها ما لا ينفق سواها . ولكنهُ قد يفوتها في احوال جمع كلمتها المتفرقة من حيث انها لم تألف التعاون على متعدد صوره فذلك لا ينقص من كنه ما بذلت بيد انه ينقص من قوته وخصوصاً فيما يبدو منهُ للناس . مثل شعورها في اكثر أمرها مثل الماء الضحضاح المنتشر رقيقاً فوق وجه الارض لتبدُّد أجزائه، ولو احتفر له مسيلٌ مهما رحب ، وردَّت أطرافه الى ذلك العقيق ، لاندفع اندفاع النيل يحمل الثقال من الجواري المنشئات تخطر عليه خفافاً ، ولا فاض الخير من كل جانب . وذلك كان شأنها مع المغفور له محمد حافظ ابراهيم بك شاعرها الذي كان في مدى اربعين سنة من سنيها الأخيرة ملء ابصارها وأسماعها . وكانت له المواقف التي وطدت وايدت سيادتها الادبية في العالم العربي ، وكل قارىء وكاتب من أهلها كان يعرف حافظاً ويحب حافظاً وينشد شعراً لحافظ لأن حافظاً كان المعبر عن آمالها وآلامها بأصدق ما عبر عنها شاعر سواه ، فحيثما حل فله الاكبار ، وحيثما انتقل فله الكرامة الموفورة والتجلة النزيهة . عاش كذلك بينها منذ ابلغته عبقريته المجوادة وطنيته الفياضة مكانته الرفيعة بين جوانحها . فلما قبض الى ربه عم حزنها عليه ، لم يخل منه انسان ولا بيت ولا عشيرة ، كما حقق ذلك كل منا في نفسه وفي محيطه » . وتبعاً لهذا نشعر بفرحة خاصة كلما اطلعنا على أثر من آثار التقدير لشاعرنا الفقيد الكبير ، وما اخراج ديوانه في نمط جديد إلاَّ مثالاً من امثلة هذا التقدير المحبوب

وبعد فيقضي عليَّ واجب النقد الادبي أن أقول في صراحة مع شكري للمكتبة الناشرة ان أملي كان اضعاف ما حقق على يديها ، ولذلك ارجو باخلاص ان يتدارك النقص المحسوس في طبعة هذا الديوان عند اصدار طبعات اخرى في المستقبل القريب ان شاء الله . اما ملاحظاتي النقدية فأجملها فيما يأتي واكتفي بها لاهميتها خصوصاً وشعر حافظ مشهور لدى القراء وقد سبق درسهُ في (المقتطف) فلا حاجة بنا الى الاستشهاد بهِ في هذا المقام : —

(١) — ليست قصائد الديوان منسقة التنسيق الواجب بحسب الابواب او التواريخ بل هي تمثل خليطاً عجيباً

(٢) — ينقص الديوان كثير من شعر حافظ كقصيدتهِ الميمية الكبرى في الجامعة المصرية ورثائه لمصطفى كامل ومحمد ابو شادي ، فضلاً عن شعره السياسي الاخير واخوانياتهِ العديدة ، وكان من الواجب على الناشر الفاضل ان يدعو الادباء الى معاونتهِ في ذلك وأن يمهلهم مهلة كافية لا أن يطبع الديوان على هذه الصورة

(٣) — شرح البلدان قليلٌ ومقصورٌ على قصائده القديمة . كذلك تجرد الديوان عن ذكر المناسبات لمعظم القصائد مع ان هذه مساعدة اي مساعدة على تفهم القصائد تفهماً فنيًّا وخدمتها بالنقد الادبي المستقل وهذا ما نطالب بهِ . شعراءنا الاحياء ، فما فات ديوان حافظ سابقاً كان يجدر بالأدباء تلافيه في هذه الطبعة التي خلت حتى من الفهرس ولم تخل من كثرة الاغلاط المطبعية

(٤) — من رأيي أن يعتمد حضرة الناشر او غيره في المستقبل على لجنة من خاصة الادباء بين مريدي الفقيد الكريم للاشراف على اخراج طبعة أتم من هذه تكون جامعة لشعر حافظ جمعاً صحيحاً مبوباً مشروحاً أوفى شرح ، وتكون في الوقت ذاته فنية المظهر والرونق بما يتفق والاعزاز الذي في نفوسنا لفقيد الشعر المصري والوطنية المصرية

هذا اقل ما تتطلبهُ الذكرى الادبية لشاعر النيل من مصر التي مجدها اي تمجيد في شعره ،وكان الترجمان الامين لآلامها وآمالها — مصر التي أعلا كرامتها وتسامى بعزتها ونفسيتها فقال على لسانها من قصيدتهِ الرائعة الخالدة (مصر فوق الجميع)

وقف الخلق ينظرون جميعاً كيف أبني قواعد المجد وحدي
وبناة (الاهرام) في سالف الده ر كفوني الكلام عند التحدي
أنا تاج العلاء في مفرق (الشر ق) ودراتها فرائد عقدي
أي شيء في (الغرب) قد بهر النا س جمالاً ولم يكن منه عندي ؟!

وأخشى ان (الغرب) المتحدي يسأل (مصر) أي ذكرى عملية تقوم بها نحو أعلامها الراحلين ؟

رحم الله حافظاً عداد حسناته

محمد عبد الغفور
(سكرتير التعاون بوزارة الداخلية)

شعراؤنا الضباط

تأليف محمد عبد الفتاح ابراهيم

بعد ان تفرغ من قراءة هذا الكتاب تتمثل امامك صور خمسة رجال تلتمع السيوف بأيديهم احياناً ، وتأخذ الاقلام مكان تلك السيوف اخرى ، يتجاذب كل من السيف والقلم حنان صاحبه اليه ونزوعه الى امتشاقه ، فما يقضي السيف امره حتى تهتز القريحة شوقاً الى القلم ، وما يجري القلم بفيض القريحة حتى تستعر الحماسة لا تبغي الاّ الحسام ، ولكننا نرى هؤلاء الرجال في بعض الاحيان التي يحنون فيها الى السيف بعد طول هجر القلم كالخيل تملك الاجم ، يصولون ويجولون لا في ساحة الوغى بل في ابيات من الشعر تحدها الاوزان والقوافي

اولئك هم محمود سامي البارودي ، وحافظ ابراهيم ، وعبد الحليم حلمي المصري ، ومحمد فاضل ، ومحمد توفيق علي ، شغلوا شطراً كبيراً من القرن الماضي ، وصدر القرن الحاضر . والمؤلف هو ايضاً ضابط اديب ، وقد عني بدرس هؤلاء الشعراء الضباط ملائماً بين حياتهم الشعرية وحياتهم العسكرية فقد وفق في هذه الناحية كما وفق في تحليل العوامل التي ادت الى ان يقول كل منهم في الاغراض الشعرية المختلفة ، فهذا البارودي قضى مستهل حياته في الجندية الحافلة بالحوادث ، وخاض غمار الحروب فتحدث في شعره عن بلائه فيها ، ووصف المعارك والقتال ، وكان ذلك الى نفسه الكبيرة وروحه العالية داعياً الى الفخر بعزائمه وسجاياه ، وعاش حيناً من الزمن في خدمة الخديوي اسماعيل قائداً في حرسه ، وقربه اسماعيل منه ، فقال في مدحه وأشاد بذكره ، وساهم في الثورة العرابية فكانت صيحاته اولى الصرخات السياسية في العصر الحديث ، وأفاض في حديث السياسة في جرأة وصراحة وترجم عن الاماني القومية بدافع نزعته الى الحرية ، ونفي الى جزيرة سرنديب فمكث في منفاه يشكو ويتوجع ، ويذكر الشباب وذكرياته ، ويحن الى مصر ويتشوق الى جرعة من نيلها ، وعاد الى مصر بعد العفو عنهُ مقوس الظهر مكفوف البصر ، فدح عباساً وذكر أيام اسماعيل ، وكان طبيعيّاً — وقد مرت بهِ كل تلك الحوادث — ان يتحدث عن الحياة على حقيقتها ، ويسوق الحكم كما اخذها عن تجاريبهِ

وعلى هذا الغرار وبمثل هذا التحليل تحدث المؤلف عن بقية الشعراء الضباط

واذا كان الانصاف قد اقتضانا ان نذكر ما للمؤلف فان الانصاف نفسه يقتضينا ان نذكر ما عليهِ أهم ما عنى بهِ ترجمة حياة الشاعر وبيان العوامل التي دعتهُ الى القول في كل غرض ، ولكنهُ لم ينظر في الشعر نظرة نقد مستقصية ، والشعر ينظر فيهِ — عدا الاغراض — من حيث المعاني والاخيلة والالفاظ والاساليب وغيرها ، وهو لم يوف شيئاً من ذلك حقه ، بل حاول ان يعرض لبعض ذلك فلم يوفق ، مثال ذلك انهُ اتهم البارودي بادعاء الخطابة في قوله : (ص ٢٧)

أنا فارس أنا شاعر في كل ملحمة ونادي
فاذا ركبت فانني زيد الفوارس في الجلاد
واذا نطقت فانني قس بن ساعدة الايادي

وقال ان القافية وحدها هي التي ارغمته على ان يتحدث عن قس بن ساعدة الايادي ! ونحن نقول له : ان قساً يضرب به المثل في مطلق البلاغة لا في الخطابة وحدها ، وما زلنا نقول « بلاغة قس وبيان سحبان » والشاعر يقول « انا فارس انا شاعر » ولم يقل « انا خطيب » والبيتان الثاني والثالث يفصلان البيت الاول ، فالبيت الثاني يفسر فروسيته ، والبيت الثالث يبين بلاغته في نطقه بالشعر لا كونه خطيباً كما حسب مؤلفنا الفاضل . ولو لم يكن الشاعر رجل حرب لكان شأن الابيات غير شأنها هذا

وساق قصيدة للبارودي في رثاء زوجته وأعقبها بقوله (ص ٤٦) : « ولن تجد في حزن البارودي عنفاً . . فقد رأيته يتحدث عن الدمع الذي سيلازم وسادته بينا سواه يدك الجبال ويكسف الشمس ويخسف القمر » ومعنى هذا ان حزن الشاعر ضعيف لانه لم يشرك فيه الجبال والشمس والقمر ! ونحن نقول له : ليس مقياس شدة الحزن وضعفه دك الجبال وكسف الشمس وخسف القمر وما الى ذلك ، وان الدمع الذي يلازم الوسادة لابلغ في الحزن وأدل على عنفه من تلك المبالغات السخيفة . وثمة مآخذ اخرى على نقد المؤلف لم تتسع لها هذه الكلمة

ومهما يكن من شيء فان الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم نبه بتأليف هذا الكتاب على ناحية من نواحي أدبنا الحديث، وأدى مهمته كضابط أديب ، ووفق فيها توفيقاً لا بأس به

عباس حسان خضر

هوامش الصحافي العجوز

اصبحت كلمة « على الهامش » علماً على الصحافي العجوز . . . فكلما ساقت الصحف حديثاً أو خاضت في شخصية تطلع القراء المثقفون الى هامش الاهرام متشوقين . وهناك لا يكاد رجل الهامش يتريث الا ريثما يدور القمر دورتهُ اليومية ثم يطلع على قرائهِ فيشفي العليل ويروي الغليل .. وفي العام الماضي صدرت مجموعة من هذه الهوامش بعنوان « برسوم العريان وآخرون » وها نحن في هذا العام نحظى بمجموعة اخرى عنوانها « ابو جلدة وآخرون »

والمجموعتان متشابهتان في الحجم وفي صنف الورق وفي حروف المطبعة فان رأيتهما لا تكاد تحسبهما كتابين مستقلين صدرا في عامين وانما تحسبهما اخوين توأمين كان المؤلف يسهل على مقتنيهما تجليدهما معاً وحينئذٍ لا تشعر العين في قراءتهما بالانتقال من كتاب الى كتاب . وهذه الملاحظة من المؤلف نهاية في الذوق الفني الاصيل

والمجموعتان متشابهتان ايضاً في طريقة اختيار الموضوعات وطريقة ترتيبها وفي طريقة الكتابة والاسلوب . فدستور المؤلف في اختيار موضوعاته ان يكتب عن كل مسألة او شخصية شغلت حيزاً من وعي الناس وهو في ذلك لا يبالي هل كتب عن قديس كبرسوم العريان او كتب عن شخصية لص كأبي جلده وزميله العرميط فالمهم عنده هو ان هذه الشخصية ظهرت على مسرح الدنيا ومثلت دورها في الحياة تمثيلاً لفت اليها الانظار في فترة من الزمان — كذلك طريقته في ترتيب الموضوعات في المجموعة فهو دمقراطي الى ابعد حد فلا بأس ان يجعل موضوع اللورد غراي مثلاً بجانب موضوع برنس دار الكتب فمجموعات الهوامش من هذه الناحية اشبه بالمحافل الشعبية او بالمتاحف الفنية التي تترك بدون تصنيف لتكون ادنى الى نظام الطبيعة واكبر الظن ان صاحبنا لا يتكلف لكتبه هذا الوضع الدمقراطي وانما ذلك يصدر عفواً عن طبيعته الفنية صدى لنفسيته الحرة ومرآة لمسيحيته الاصيلة السمحة التي تفتح ملكوت الله للجميع

***

أما طريقة كتابته في التراجم فهي ليست تحليلية غالباً وانما هي استعراضية كل همه فيها أن يعطيك عن المترجم قصة حياة مصطنعاً في نقلها لك أقل ما يمكن من الالوان . ولو سمح لي الاستاذ العجوز أن اكشف عنها قليلاً لقلت انهُ لم يعزف عن الطريقة التحليلية تحقيراً لشأنها اذ من الواضح انهُ يحسن استخدامها في حياته العملية كما أنهُ يوسطها في تعرف اصدقائه وسبر من يصلح للصداقة ومن لا يصلح وانما هو يعمد الى الطريقة الاستعراضية حتى لا تلوِّن مبادئه وميوله مبادىء الآخرين وميولهم عند تحليلها ، كأنهُ يريد ان يعيش دائماً ملفوفاً على نفسه مدارياً بقدر ما يستطيع . اذن فتراجم الهوامش لا تعنى بالتغلغل في عناصر الشخصية المترجمة وكل عنايتها ان تقدم لك هذه الشخصية في قسمات وسمات واضحات ثم تتركها لك كأنك تفهم منها ما تريد — ومن العجيب ان صديقنا العجوز وخلفه اربعون سنة تؤيد منزلته في الفن والشهرة لا يزال يصدر كتبه بمقدمات لكتاب قد يكونون كأبنائه او حفدتهِ اذا راعينا السن فقط واغمضنا عن غير ذلك من الاعتبارات كأن نصف قرن في الصحافة لا يكفي لتعريفه للقراء . حقاً انهُ لون من التواضع عجيب

كتبت عن الصحافي العجوز مرة قبل هذه فقلت ان فيهِ نصيباً من الشاعر والفيلسوف فغضب ورجاني ان ابعد عنهُ هذه التهمة وكنت اود ان افعل ولكن ما ذنبي وهو نفسه يدفعني الى تأكيد هذا الاتهام تأكيداً فأقول انهُ فيلسوف ساخر وساخر من الطراز العميق

أجل يا صديقي انك تسخر بالشهرة وتسخر بالاقدار وتسخر بالحياة وان تواضعك ما هو الا نوع من السخر يعرفه أصحاب اناتول فرانس في تهكماته واصدقاء المعري في مواربتهِ للناس ومداراته ولعلك تتحفنا على ذكرهما بهامشين عن هذين الرجلين والى اللقاء عندئذ أيها الصديق الكريم

محمود أبو الوفا



نورمندي

ملكة البحار السبعة

وصفنا هذه الباخرة في مقتطف ابريل من السنة الماضية في مقال عنوانه «معجزات السفانة» ثم قرأنا وصفاً طريفاً لها في احدث جزء من اجزاء مجلة «الميكانيكا العامة» فآثرنا اتحاف قرائنا به في حينه ، لكيلا تفوتهم شاردة ولا واردة من المعلومات الخاصة بتلك الجارية العجيبة واليك البيان :—

يبلغ وسق نورمندي ٧٩٢٨٠ من الاطنان وهي باخرة نسيج وحدها في سعتها وضخامتها وافخر ما أتم صنعه من السفن حتى اليوم ، فمن العسير منافستها . ورسمها وزخرفها لا مثيل لها في تاريخ السفانة . ولا تحتوي اية سفينة من السفن الكبرى ما احتوته نورمندي من المخترعات العصرية . ومظهرها الخارجي البديع دليل جلي على شكلها الداخلي الانيق . وجؤجؤها ودواخنها مصنوعة ، على شكل مساير للتيارات

والقوة الكهربائية المحركة لها تكفي لمدينة عدد سكانها ٣٠٠٠٠٠ نفس . وكل شيء في نورمندي (عروس الاطلنطي) يسترعي الاعجاب فضهورها خالية من الروازن (منافذ التهوية) والزناجير ، وغيرها من الآلات والادوات المعرقلة للسير . وتستطيع نورمندي ان تدرأ عن نفسها ، بجؤجؤها المساير للتيارات غائلة الامواج الطاغية . ويتاح لها بقوتها الضخمة ان تقطع المحيط الاطلنطي في ٩٦ ساعة بحيث لا يعيقها اي عائق ، ريحاً كان او مدًّا او جزراً او اسراباً من الحيتان او عواصف جبارة او غيرها ، عن وصولها في ميقاتها المضروب

فاذا قيض لك ركوبها، تجلت لك فيها آيات الزخارف العصرية والرياش الفاخر والانوار الباهرة والالوان المطابقة لها . وفي نورمندي من الاثاثات الثمينة والمنسوجات النفيسة والمصنوعات الخشبية طُرفٌ لم تَرَ العين مثلها في اية باخرة اخرى ، لان خشبها النادر استورد من جميع انحاء العالم . وقصارى القول ، ان محتويات نورمندي تدل على اسمى ما بلغته الحضارة والعلوم في هذا العصر . وسرعتها ثلاثون ميلاً بحريًّا في الساعة وطولها ١٠٢٩ من الاقدام وعرضها ١١٩ ½ من الاقدام . وغاطسها ٣٦ قدماً و ٧ قراريط وعدد ملاحيها ١٣٣٩ وقوة محركاتها ١٦٠٠٠٠ من الاحصنة وارتفاعها من قاعدتها الى ذروة مرقبتها bridge ١٢٨ قدماً

وفيها كل ما تشتهي الأنفس ، وتقر برؤيته الاعين . فهي جزيرة عائمة ، بحيث لا تطلب شيئاً الاّ وجدته فيها يسير المنال ، من طعام ووقاية وعلاج ومكتبات ومسارح وجمباز

واحواض للسباحة وجرائد وراديو وحوانيت حلاقين للرجال ، واخرى لتنسيق وتزيين شعور السيدات ، وفيها كذلك الخياطون وغيرهم من الصناع . وتحتوي على الملاهي المختلفة الانواع ، والمتاجر الخاصة ببيع الملابس ومتعلقاتها

واذا قُدِّر لك السفر فيها ، استطعت الاختلاط بأجناس شتى من الناس فتسمع اهم اللغات الحية وغيرها من اللهجات. وقد استخدم في صنعها الوف من الصناع واستغرق ما ينوف على خمس سنين

وتشمل نورمندي جميع اسباب الترف ، ففيها حجرات لألعاب الاحداث وغرف للعب الورق (كونشينة) وأروقة للصيد ، وغرفة للتدليك وثلاثة مشاف وحانوت لبيع الازهار وحجرة للتصوير الفوتوغرافي واخرى للملاج . وحمامات كهربائية وبخارية ، وحظيرة للسيارات تسع ١٠٠ سيارة ، وبيوت للكلاب واحواض لاغتسالها ومتنزهات للكلاب ايضاً !

وغرف الدرجة الثالثة في نورمندي موضوعة بقرب مؤخرها ، بدلاً من حشرها في الجؤجؤ كما هي الحال في غيرها . وتحتوي الباخرة على ساحة رحبة للتشمس تستطيع الطيارات النزول عليها ، طولها ٣٠٠ قدم وعرضها ٧٥ قدماً ، خالية من الموانع المعتادة في البواخر الاخرى مثل الآلات والادوات وغيرها فتصلح ملعباً كملاعب الفضاء المختلفة الانواع

وتحتوي الدرجة الاولى في نورمندي على حديقة شتوية طولها ١١٢ قدماً وعرضها ٣٩ قدماً وفيها ردهة للاستراحة طولها ٩٥ قدماً وارتفاعها معادل لارتفاع ثلاث طبقات في الباخرة وفيها مصاعد تصعد ركابها الى اية طبقة من طبقاتها الاحدى عشرة . وفي الباخرة مسرح يسع ٣٥٠ مقعداً يستعمل إما للتمثيل وإما للسينما الناطقة . وفيها حوض للسباحة طوله ١٢٠ قدماً وعرضه ٣٠ قدماً ذو عمق مدرَّج تتاح فيه المنافسة في السباحة والغوص للراغبين من الركاب . وفيها ثماني رِدَهٍ لتناول الطعام ، عدا مطعم الدرجة الاولى وهو مطعم فاخر طوله ٣٠٠ قدم وارتفاعه يعادل ارتفاع ثلاث طبقات من طبقاتها . وهذا مما يجعله من اكبر المطاعم في البر والبحر

وفي نورمندي اجهزة توقظ ركابها عند حدوث الحريق وتكافحهُ . وكذلك فرقة من مطفئي الحرائق ليس لزعيمها اي عمل الا الاضطلاع بتلك المهمة والسهر عليها

وجميع حيطان الباخرة ، وفواصل غرفها ، مغشاة بطبقات من الواح معدنية من « الدورالومين » Duralumin موضوعة بين طبقتين من الاسبستوس (معدن لا يحترق) وفي كل حجرة من حجر الركاب جهاز منبه على الحريق ، فاذا ما وصلت حرارة اية غرفة ، الى درجة شاذة ، قرع الجهاز ناقوساً في المقر العام لفرقة الحريق ، واغلق الجهاز ، في الوقت نفسه ، الروازن المجددة للهواء في ذلك القسم من اقسام الباخرة

والدائرة الكهربائية في اغلب الغرف مستقلة عن غيرها . وفي سقف كل غرفة ، كوة تصل الى مركز مطفئي الحريق في الاحوال المستعجلة. واذا ما اختل جهاز الاضاءة الكهربائية ، في نورمندي فانطفأت مصابيحها ، تمكن الركاب من الاستضاءة

بانابيب غاز النيون والغازات المماثلة لهُ . وفي نورمندي اجهزة راديو شتى تعمل مستقلة عن القوة الكهربائية التي تتولد فيها

ومن غرائب هذه الباخرة ، انها على ضخامتها المتقدم وصفها، يستطيع تسييرها ٤٠٠ رجل فقط. اما باقي عمالها فمخصصون لخدمة الركاب . ولكن في غرفة القيادة (وقد وضعنا لها لفظ مرقبة) ، مئات من الاجهزة الكهربائية تحل محل الوف من العمال البشريين

وعند ما تسير نورمندي بين اوربا واميركا تطلق دواخنها ١٥٠ طنًّا من الدخان في الهواء. وذلك بانابيب مسايرة للريح صنعت لتلك الغاية لكيلا يصل الدخان البتة الى وجوه الركاب . وقد اتمت رحلتها الاولى ففاقت كل ما سبقها من السفن

تهجين القمح

جعل علماء الزراعة في جمهورية الولايات المتحدة الاميركية يبحثون في تهجين قمح لا يستهدف لآفة الصدأ . وقد يتعذر على الباحث تقدير الضرر الذي يصيب الزراعة من تلك الآفة الماحقة . وحسبنا ان نعرف ان الخسارة التي لحقت زراع اميركا الشمالية وحدها منها في سنة ١٩٢٧ كانت تقدر بملايين الجنيهات

وكل ما يعرفه الفلاح بشأن آفة الصدأ النباتي انه غبار احمر اللون ، يغشى اوراق القمح وسوقه فتحبط آمال الزراع في استغلال محصول جزيل من اراضيهم اذ يظفرون بمحاصيل ضئيلة . اما الخبير الزراعي فيقول انهُ نبات دقيق جدًّا لا يرى بالعين المجردة وهو من فصيلة الفطريات المعروفة في مصر باسم عيش الغراب

وقد استدل الخبراء من التجارب ان ذرّ كبريتات النحاس التي كانوا يستعملونها اولاً لوقاية الحبوب من الفطر ، ما هي الأ وسيلة وقتية لان المطر متى هطل على النباتات ، غسل عنها الكبريتات وكذلك الارياح الهوج تذروها عن الغلال فلا تستقر عليها استقراراً متسقاً ومن ثم اقتنع الخبراء بأن العلاج الناجع هو تهجين قمح لا يصيبه الصدأ

ولما كانت اصناف القمح تزيد على الالف عدًّا . وجميعها معرضة للاصابة بآفة الصدأ بينما توجد اصناف اخرى ، ليست جيدة لصنع الخبز ، ولكنها لا تسطو عليها جراثيم الصدأ رأى مهجنو النباتات في جامعة منيسوتا وفي مختبر الصدإِ في كندا ، الشروع في تلقيح الحنطة التي لا تنتج خبزاً فاخراً ، بأصناف من الحنطة السليمة الحبوب غير المشهورة بانتاج الخبز اللذيذ ، ولكنها تضاد الصدأ . ولذلك فحص الخبراء ١٥٠٠٠٠ نوع من القمح في مدينة وينبيج في خلال ستة اشهر حتى وفقوا لتهجين صنف منها يقاوم الصدأ عوض جندي

العين وطول الحياة

اعلن الدكتور فيلكس برنشتين الاستاذ بجامعة كولومبيا الاميركية ان سر طول العمر او قصره في عين الانسان ، بل في عدستها . فالناس في الغالب اذا تخطوا سن الاربعين الى الخمسين ظهر شيء من التصلب في عدسات عيونهم .

فاذا كان هذا التصلب سويًّا (Normal) دل ذلك على ان مدى الحياة سوف يكون سويًّا فاذا ظهر هذا التصلب مبكراً دل على ان صاحبه لن يكون من المعمّرين . وعلى الضد من ذلك اذا ظهر متأخراً فالراجح ان صاحبه مكتوب له العمر الطويل . وهذا بصرف النظر طبعاً عن العوارض التي قد تقتل الانسان طفلاً وفتىً وشابًّا وكهلاً

ويقول الدكتور برنشتين انه توصل الى هذه النتيجة بعد ما بحث في خمسة آلاف حالة من حالات تصلب العدسة في العين ، دونت تفصيلاتها في عيادات جامعتي غوتنجن وليبتسغ وعيادتي طبيبين من اطباء العيون المشهورين وقد تتبع تاريخ كل حالة من هذه الحالات التي دونت كما تقدم من لدن تقدم اصحابها لامتحان العين الى حين الوفاة فتبين له ان الذين يصابون باكراً بتصلب العدسة يموتون باكراً وان الذين يتأخر تصلب العدسات في عيونهم يعمرون

آذان جديدة للجيش

صنع للجيش الاميركي «آذان» صناعية عجيبة في مكنتها ان تتبين هدير طائرات العدو وهي على بعد ١٢ ميلاً ثم اذا تبينته اطلقت من تلقاء نفسها اشعة قوية على هذه الطائرات فيستطيع رجال المدافع الخاصة بمقاومة الطائرات ، ان يسددوا قنابلهم اليها كأنهم يرونها في رابعة النهار

وقد تم هذا الاستنباط على يدي رجل يدعى فرانك هوس بعد خمس سنوات من البحث والتجربة

والسر في هذه « الآذان » جهاز خاص يستعمل فيها كالغربال اذا اردنا التشبيه اي انهُ يصد عن « الآذان » كل الاصوات الصادرة من مصادر ارضية ولا يأذن الا لهدير محرك الطائرة وآلتها بالوصول الى الجزء الحساس ومهما يكن الهدير لطيفاً يكبر ويقوى عند دخوله . وهذا الجهاز يمكن رجال الجيش من الاعتماد على هذه «الآذان» في العواصف والامطار وقد جرب في مثل هذه الاحوال فأسفرت التجارب عن نتائج تماثل نتائج الاجهزة المستعملة فعلاً في أتم الظروف هدوءاً وسكوناً

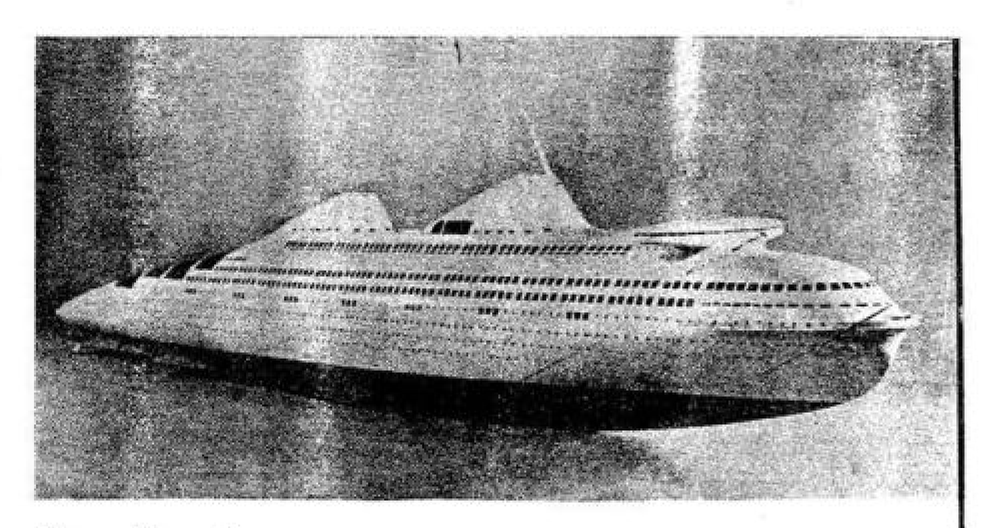
سرعة الحيات او بطؤها

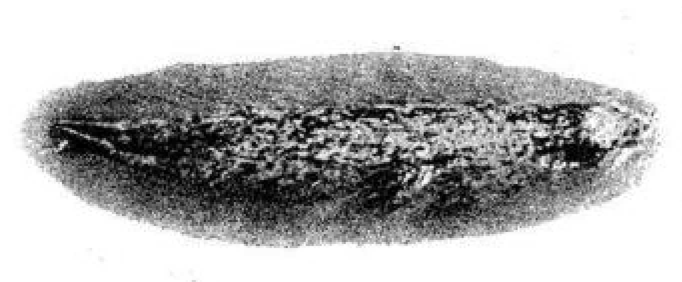
اذا رأيت حية منسابة ظننت انها من الحيوانات السريعة ولكن القياسات العلمية تدل على انها ليست كذلك . فالدكتور دلني موزور احد اساتذة جامعة كاليفورنيا وجد بالاستقراء ان اسرع الحيات لا تقطع اكثر من ٣٫٠٦ ميل في الساعة

والحية التي بلغت هذه السرعة في انسيابها اضطرت اليها اضطراراً وعجزت عن المضي فيها الا مسافات قصيرة

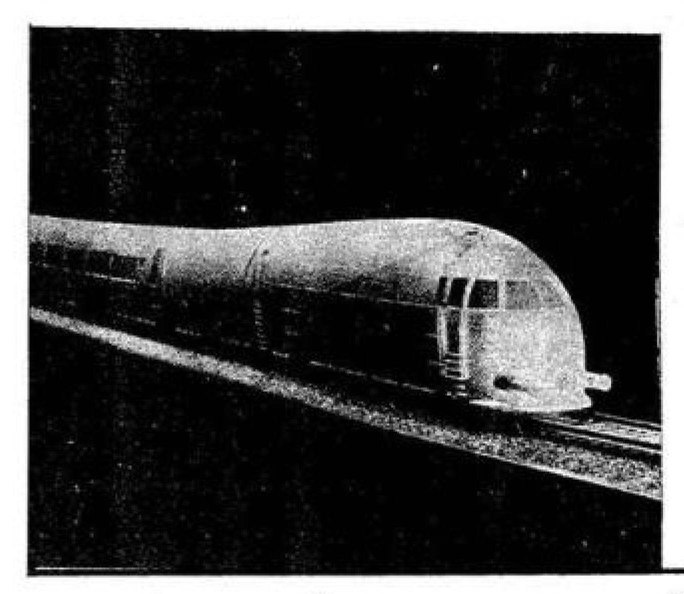
وقد اجرى الدكتور موزور تجاربه بستة انواع من الحيات المألوفة في ولاية كاليفورنيا وقد استخرج لكل نوعين سرعتين . الاولى سرعتها الطبيعية عندما تبحث عن فرائسها والثانية عند ما تستحث حتى تبلغ اقصى سرعة تستطيعها

فنهاجبات بطيئة كل البطء فلا تزيد سرعة انسيابها العادية على عُشر ميل في الساعة واقصى سرعتها ميل وخمس ميل في الساعة . وثمة ضرب من البواء في كاليفورنيا لا يبلغ اقصى سرعته اكثر من ربع ميل في الساعة





التصميم الذي وضعه المهندس نورمن دل غدس لسفينة كبيرة وفقاً للقواعد العلمية وهي تشبه دلفيناً او الحيوان المائي الذي تحتها وهو ضرب من القفم



تصميم قطار وضعه المهندس غدس وقد صنع غير قطار في اميركا من هذا القبيل فتحققت فيه السرعة مع توفير الوقود

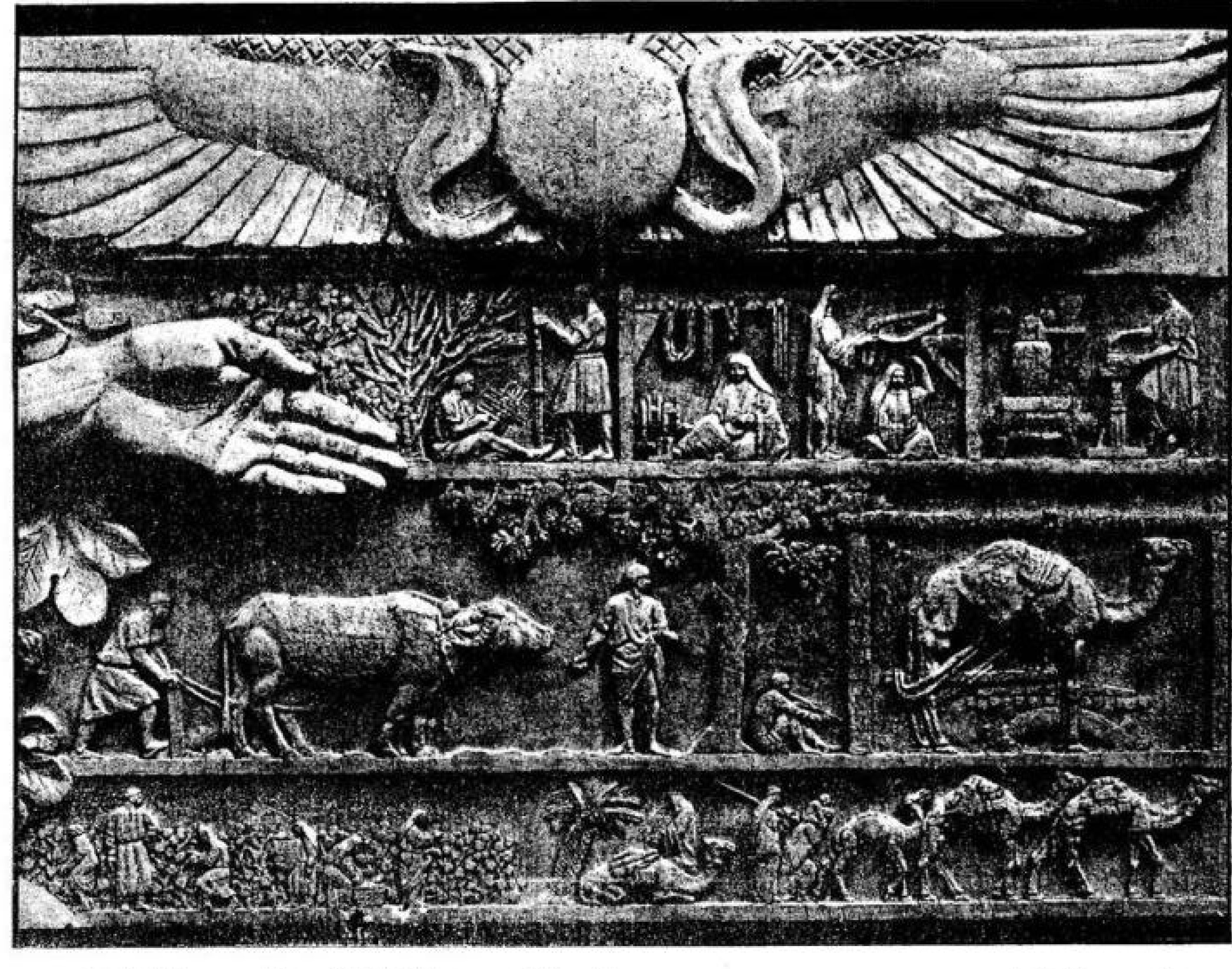
نقلاً عن مجلة « التاريخ الطبيعي » الاميركية



تصميم وصنعهُ المهندس
غدس لسيارة كما يجب
ان يكون شكلها حتى
تكون مقاومة الهواء
لها أقل ما يمكن ان تكون

نوع من الحيتان (الى اليسار)
وسمك التن (تحت) وهما من
ابدع الامثلة في الطبيعة على
مجاراة قواعد الحركة . ويمتاز
سمك التُن بأنهُ يستطيع ان
يضم زعانفه لتقابل مقاومة
الماء له الى ادنى حد ممكن

نقلاً عن مجلة « التاريخ الطبيعي » الاميركية



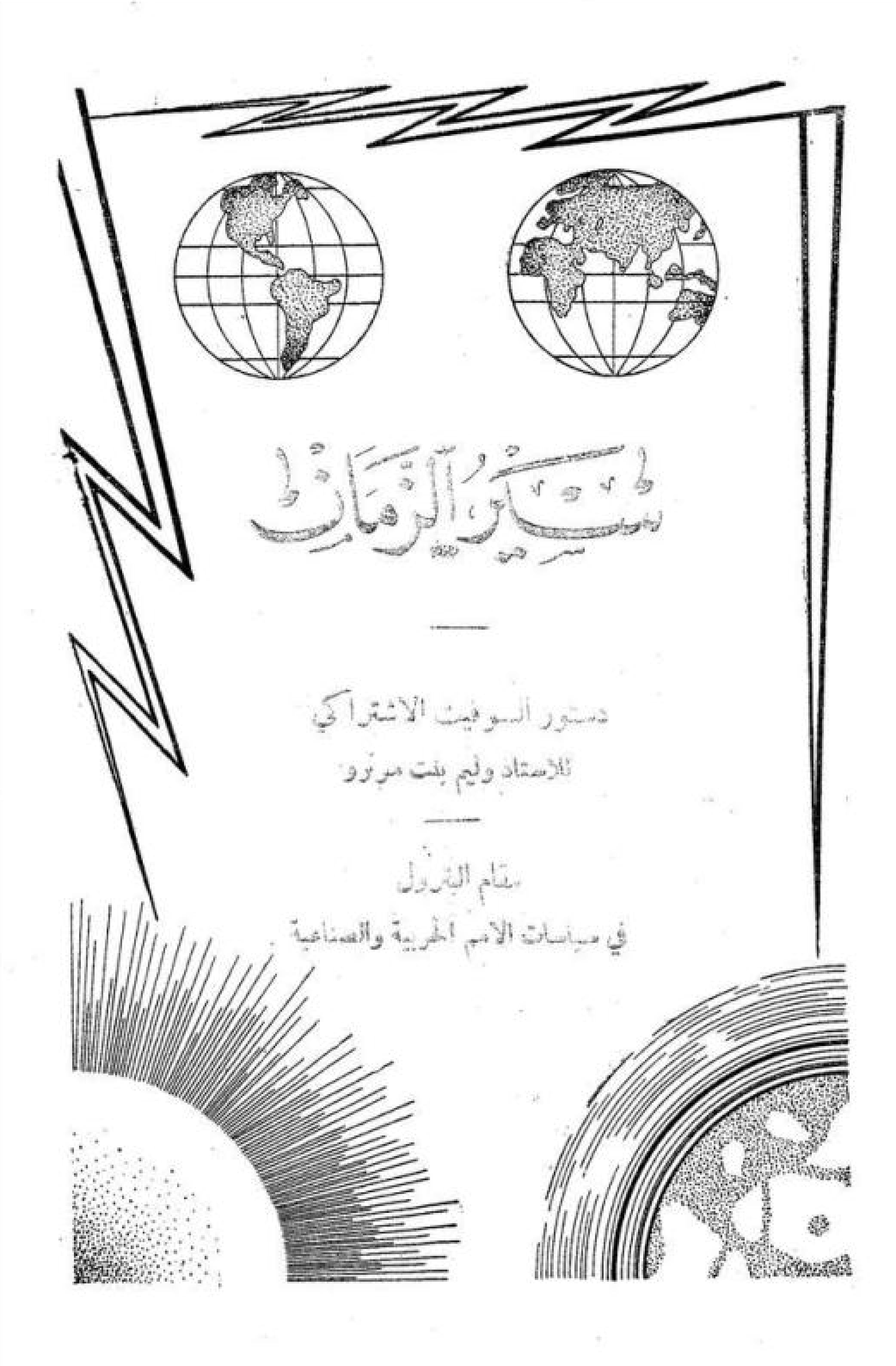
« مصر هبة النيل »   الربع الاعلى من يمين التمثال مكبراً وفيه تظهر رموز الحياة المصرية



داعي الاسماعيلية في نجران (لابس البرد المخطط) والى يمينه احد اولاد حسين بن احمد الكرمي الواقف الى يسار الداعي . وقد اخذت هذه الصورة في ابها .

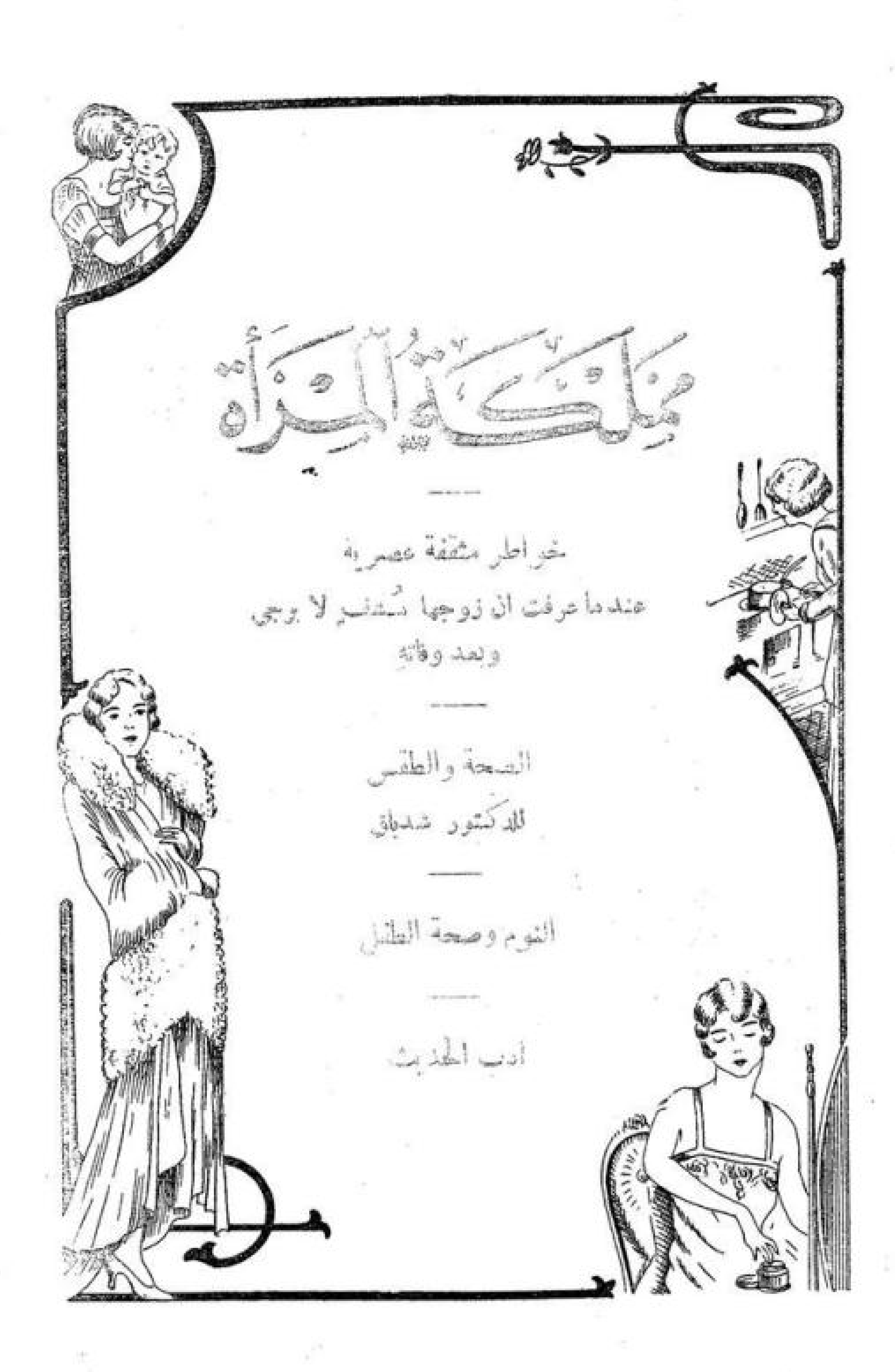
صورة داخل مغارة قاديشا

مغارة لوراي بولاية فرجينيا الاميركية وهذا الجانب منها يعرف بعضرب العرب


شؤون الزمان
دستور السوفيت الاشتراكي
للاستاذ وليم بنت مونرو
مقام البترول
في سياسات الامم الحربية والصناعية



الدكتور احمد النقيب



مملكة المرأة

خواطر مثقفة عصرية

عندما عرفت ان زوجها مُستشفٍ لا يرجى

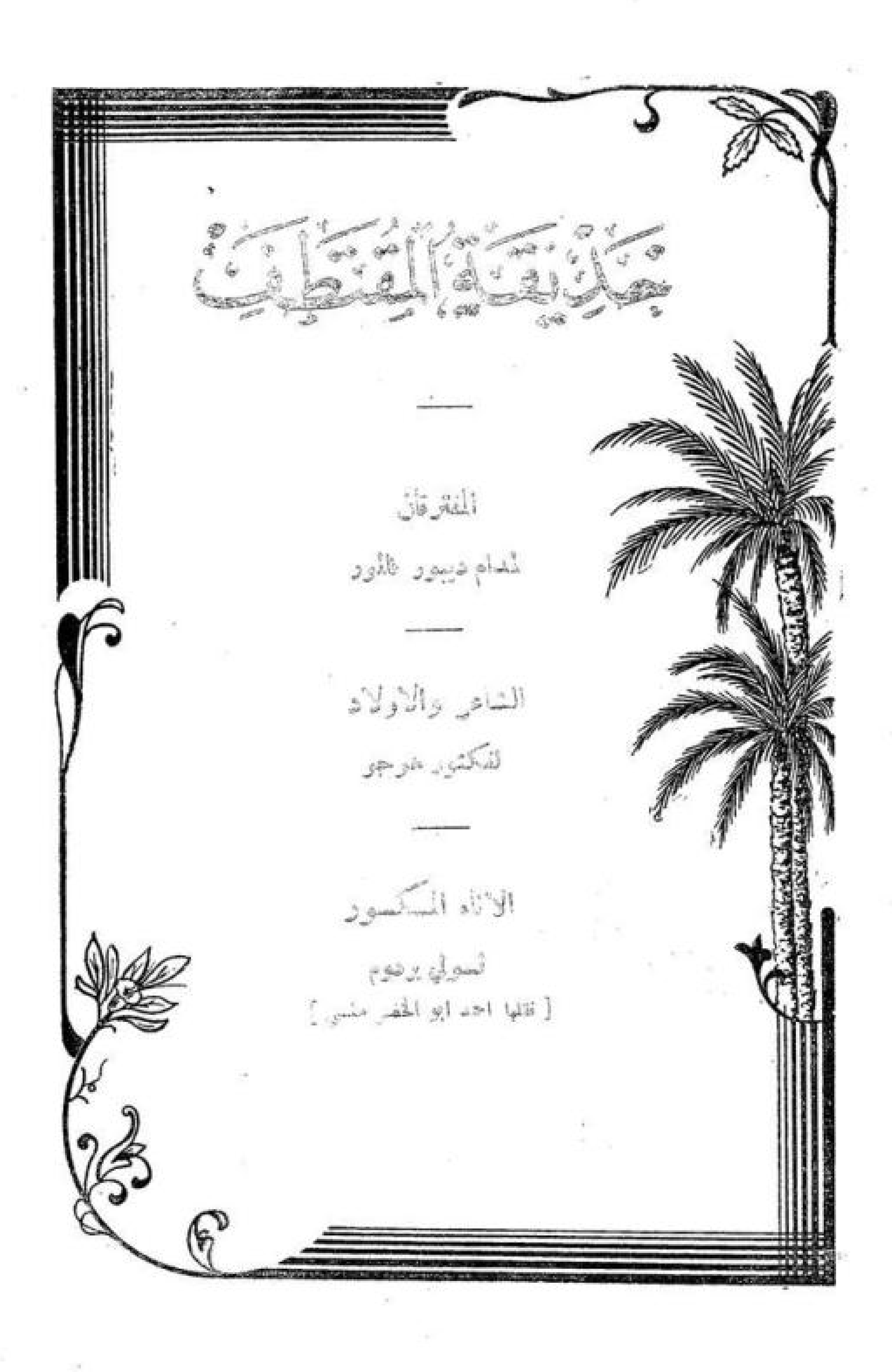
وبعد وفاته

الصحة والطقس

للدكتور شدياق

النوم وصحة الطفل

ادب الحديث



حديقة المقتطف

المفترقان

لمدام ديبورد فالمور

الشاعر والأولاد

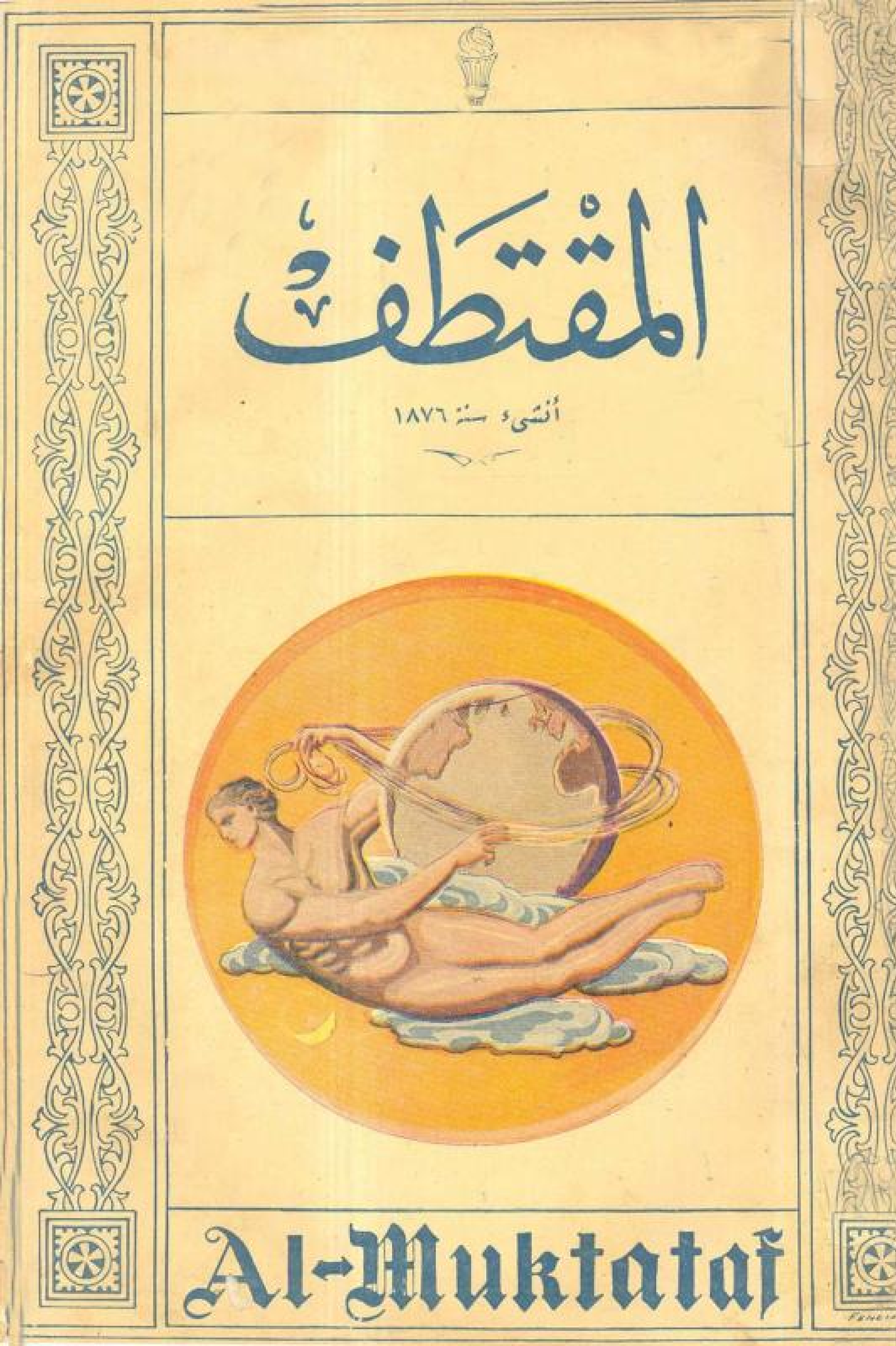
للفكتور هوجو

الإناء المكسور

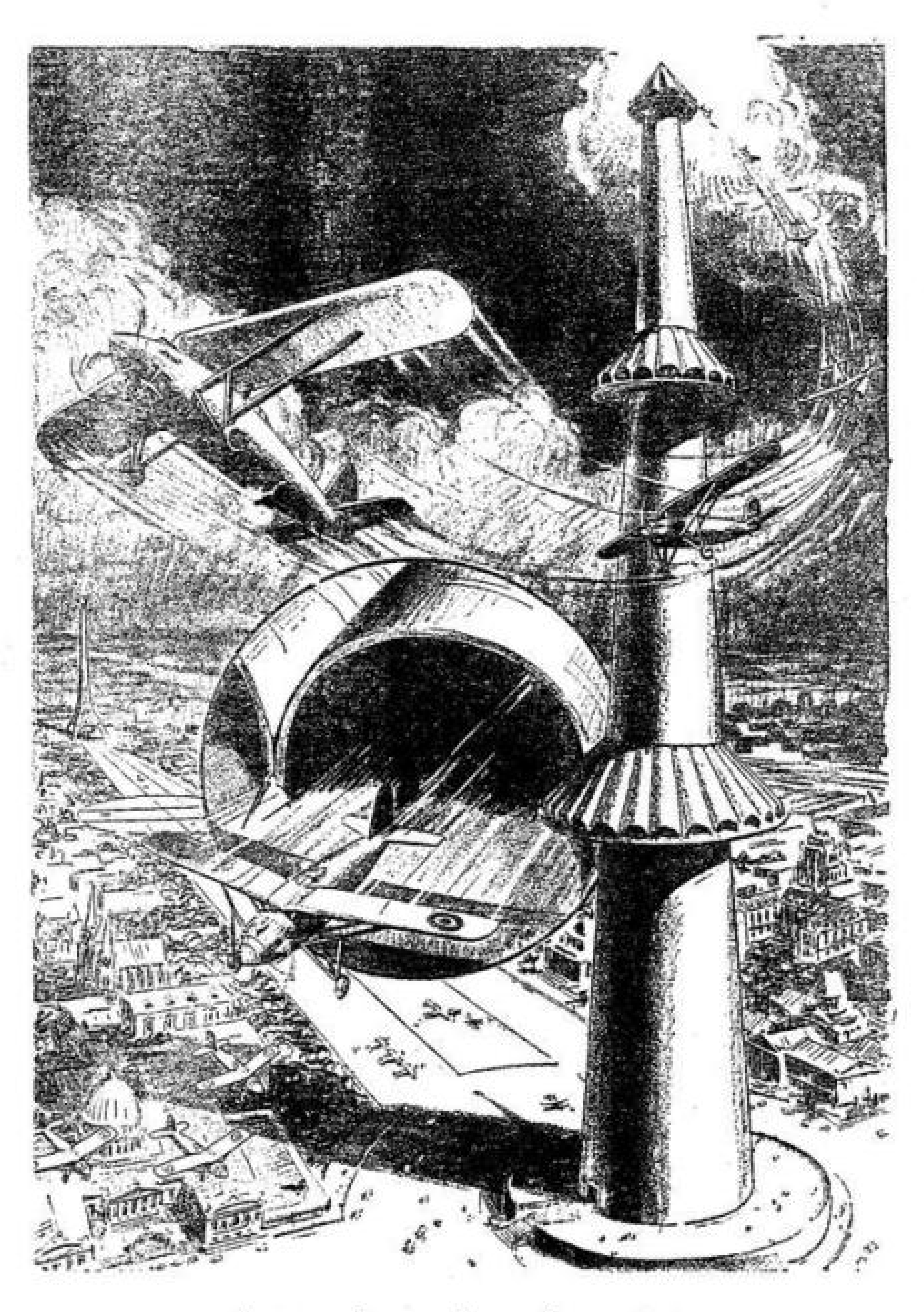
لسولي برودوم

[نقلها احمد ابو الخضر منسي]

الجزء الثاني من المجلد السابع والثمانين



المقتطف
أنشئ سنة ١٨٧٦
Al-Muktataf



صورة برج ينتظر تشييده لمعرض باريس سنة ١٩٣٧ علوه ٦٩٠٠ قدم
وقطره عند قاعدته ٧٠٠ قدم وعند قمته ١٢٥ قدماً



١ اكتوبر سنة ١٩٣٥ — ٤ رجب سنة ١٣٥٤

الغدد والشخصية

الشخصية لفظ مولّد ، حديث التوليد في اللغة العربية ، ولّد ليدلّ على ما يدل عليهِ اللفظ الانكليزي Personality . والشخصية لفظ يصعب تحديدهُ حتى في اللغات الاعجمية، وان كان معناهُ بوجهٍ عام لا يخفى على اللبيب . وموضوع هذا الفصل يتناول اثر الغدد الصمّ في احداث المميزات الخاصة التي تميّز شخصية عن اخرى . وهو من قلم الدكتور هسكنز Hoskins مدير معامل البحث في معهدٍ خاصٍّ بدرس الجهاز العصبي والغدد الصم في مدرسة الطب بجامعة هارفرد الاميركية

في كل جسمٍ غدد كثيرة . وهي في الواقع معامل كيمائية حيّة . ولعلّ اشهرها الغدد اللعابية التي تفرز اللعاب فترطب بهِ الفم . والغدد الدمعية التي تفرز الدموع . وغدد العرق في الجلد التي تفرز العرق فتسهل على الجسم الابتراد بتبخرها في حرارة الصيف . هذه الغدد جميعاً تتناول من الدم الذي يجري فيها في عروق دقيقة ، موادّ مختلفة ثم تركبها فتصنع منها مفرزاتها الخاصة بها . ثم تفرز هذه المفرزات في اقنية خاصة الى الفم او العيون او سطح الجلد

ولكن الغدد التي يدور عليها بحثنا في هذا الفصل تختلف عن الغدد التي تقدَّم ذكرها ، في ان مفرزاتها لا تفرز في اقنية الى الخارج، بل تعاد رأساً الى الدم وهو مارٌّ في عروقهِ الدقيقة التي تخترقها. وفعلها لذلك لا ينحصر في عضوٍ خاص دون آخر، بل تجري مع الدم الى جميع اعضاء الجسم ونسجهِ فتؤثر فيهِ تأثيراً يختلف باختلاف العضو او النسيج وباختلاف المادة المفرزة والغدة التي افرزتها

هذه الغدد تعرف بالغدد الصمّ ، ومفرزاتها تعرف بالمفرزات الداخلية او بالهرمونات

والهرمونات من اقوى العقاقير التي عرفها الانسان واشدّها فعلاً . في كل جسم سويّ مبلغ خمس قمحة من هرمون تفرزه الغدة الدرقية . والجسم يستعمل من هذه المادة نحو ثلاث قمحات ونصف قمحة في السنة ، اي انهُ يستعمل منهُ ما قدره نصف قرص من الاسبيرين . ولكننا مع ذلك لا نستغني عنهُ ، بل اذا أُضربت غدة احدهم الدرقية لعلّة ما ، عن افراز هرمونها هذا (وهو يعرف باسم الثيروكسين نسبةً الى اسم الغدة ثيرويد وقد يصح ان ندعوه باللغة العربية دَرَقين قياساً على نسبته الى اسمها العربي) فقد ذلك الرجل نعمة الفكر وأصبح أبله لا يعقل

وثمة هرمونات اخرى غير الثيروكسين ، تشبههُ في قوة فعلها ، بل بعضها يفوقهُ ، ونحن نعتمد عليها في حياتنا وفي كل ما يجعل لهذه الحياة شأناً في نظرنا

على اننا يجب الاَّ نغالي . فبعض الكتّاب الذين المّوا ببعض ما للغدد الصم من الاثر في حياة الانسان تطرّفوا في القول اذ ذهبوا الى ان شخصية الانسان لا تعتمد الاَّ على مفرزات الغدد الصم. ولكن الواقع ان العناصر والعوامل التي تكوّن « الشخصية » كثيرة ومختلفة . ولكن العنصرين الذين يفوقان غيرهما في تكوينها ، هما ذهن الانسان وشعوره ، أي تفكيره وانفعاله . فعلى عقله يتوقف الرأي في هل هو ذكيّ أو أبله ، والذكاء يتوقف على الدماغ الذي يرثهُ الانسان من اسلافه. ولكن نموّ العقل يتوقف الى حد بعيد على هرمونات الغدد الصم . وأهم من العقل في تكوين الشخصية انفعال الانسان وحدتهُ ومداه وكبتهُ لانفعاله او استسلامه لهُ فنحن نحب من الرفاق من كان مرحاً لعوباً ، وقد نعرض عمن كان مقطباً يغلب فيهِ القتام على النور . والانفعال متصل اوثق اتصال بالغرائز . بل قيل ان الانفعالات تمثل للانسان ما تحسّ بهِ غرائزهُ . والغرائز تعتمد اعظم اعتماد على مفرزات الغدد الصم في طبيعتها وقوتها

فلننظر الآن في بعض هذه الغدد كل على حدة

في الدماغ غدة تدعى الغدة النخمية Pituitry تقع في منخفض من الجمجمة في مؤخر الدماغ . فاذا عجزت هذه الغدة عن النموّ نموّاً سويّاً ، ظلَّ صاحبها صغير الجثة طول الحياة . وصغر جثتهِ يميزهُ عن غيره ، ويؤثر من الناحية السيكولوجية في شخصيتهِ ، لانهُ يحسّ دائماً بحافز نفسي يحفزه الى محاولة التعويض بكلامهِ أو عملهِ عن هذا النقص البادي في جسمهِ

واذا كبرت هذه الغدة في عهد الطفولة كبراً غير سويّ ، نشأ جسم صاحبها عملاقاً . ففي احدى الولايات المتوسطة في اميركا شاب في السابعة عشرة من العمر ، يبلغ طوله ثماني اقدام ، لأن غدتهُ النخمية طغت في نموها وكثرة افرازها على الحدود الطبيعية . فاذا طغت الغدة النخمية هذا الطغيان بعد سني الطفولة ، ظهر اثرها في نمو الجسم نموّاً مشوّهاً . فقد تطول الذراعان والساقان ولا يكبر الرأس . أو قد يكبر الرأس وتطول الساقان وتبقى الذراعان سويتين . فيصبح صاحبها مسخاً من المسوخ يشبه الغورلاَّ . ولا ريب في ان لهذا التشويه الخَلْقي تأثيراً في خُلُقهِ وشخصيتهِ.

بل عليهِ ان يواجه خطراً اعظم من هذا . فانهُ يكون في بدوء نموّهِ العجيب نشيطاً شديد النشاط وافر الحيوية ، فيفعل ما يعجز عنهُ الاسوياء ثم تضعف قوتهُ ويخمد نشاطهُ ويصبح وكأنهُ حطام انسانٍ لا انساناً . وعلماء الولايات المتحدة الاميركية يضربون المثل في هذا التحول بلاعب رياضيّ مشهور عندهم زاد ما تفرزهُ غدتهُ النخمية ، فصار لوفرة نشاطهِ يقذف الكرة (بايس بول) قذف جبّار فيعجز انداده عن ردها أو التقاطها . فطار ذكرهُ كلَّ مطار ، وصار كل فريق يتنافس مع الفريق الآخر في ضمهِ اليهِ ، ثم لم يلبث حتى خبت تلك الشعلة فيهِ وخمد ذلك النشاط ، فأخذ يهوي من فريق المقدمة الى آخر في المرتبة الثانية فالثالثة ، الى ان اصبح متشرداً زائغ البصر متهدّل الاعضاء

وتفرز الغدة النخمية هرموناً آخر لهُ صلة وثيقة بالنموّ الجنسي او الشقي (sexual) . فاذا عجزت هذه الغدة عن افراز المقدار الكافي من هذا الهرمون ، ظلّ صاحبها من الناحية الجنسية هو والطفل سواء . ولا يبعد ان يكون هوَسة المصلحين من هذا الطراز من الناس . فان عجزهم عن اشباع الغريزة الجنسية فيهم يدفعهم الى محاولة اصلاح العالم ، ويغالون في محاولتهم ، لان ذلك يضفي عليهم لوناً من ألوان الشعور بالقوة والسلطان

وقد كشف العلماء من عهد قريب هرموناً آخر تفرزهُ الغدة النخمية يضبط توليد اللبن في الانثى . ففي المراحل الاخيرة من حمل المرأة ، وبعد ولادة الطفل ، يكون عمل هذا الهرمون تنبيهَ الاعضاء والنسُج اللازمة لاعداد غذاء الوليد . وقد ثبت ان لهذا الهرمون — وقد دعي باسم برولاكتين prolactin — أثراً في فعل غرائز الامومة وتنبيهها في الحيوان ، ولا يبعد ان يكون لهُ هذا الأثر نفسهُ في الانسان كذلك . فحقن هذا الهرمون في اناث الجرذان حملها على ان تتبنى صغاراً وترأمها بعناية الام . وحقن الديوك بها حملها على أن تقبق قَبْقَ الدجاج . ولا اريد ان اقول ان حب الام يرجع الى هذا الهرمون وانما ارجح ان البحث في المستقبل سوف يبيّن ان للبرولاكتين اثراً عظيماً في حب الام

***

في الجانب الاسفل من العنق نجد الغدة الدرقية . فاذا عجزت هذه الغدة عجزاً مطلقاً عن افراز هرمونها ، كانت سرعة الافعال الحيوية في صاحبها نصف سرعتها في الاسوياء من الناس فيكون في الغالب شارد الفكر بطيء الفهم ضعيف الذاكرة . اما حياتهُ الانفعالية فتكاد تكون كالبحر الرهو لا يثيرها مثير ولا يحفزها حافز ، ولكن البحث أثبت ان العجز التام في الغدة الدرقية نادرٌ ، ولكن بعض العجز فيها ليس بالنادر ، بل هو كثير الوقوع ، ومما يبعث على الاسف ان معظم الاطباء يتخطّاهُ او يجهلهُ

فالذين تعجز غددهم الدرقية عن افراز هرمونها ، بعض العجز ، يميلون الى السمنة في الغالب ، ويتعبون بسرعة من كل عمل جسماني ، ويغضبون ويبرمون لاقل سبب . ثم تراهم وقد جمعوا ما تفرّق

من حبال حياتهم ، فيملكون زمام امرهم ، ولكن ذلك لا يطول ، فيستغرقون في لجة الشعور بالضعف والعجز . ولا يمكننا الآن ان نستند الى احصاءات وافية في هذا الصدد ، ولكن المرجح ان الذين يوصفون في الحياة والمجتمع ، بانهم مصابون بالنورستيفيا هم في الواقع مصابون بعجز غير تام في غددهم الدرقية

ولا بدَّ من القول في هذا المقام ان للنورستيفيا اسباباً اخرى غير عجز الغدة الدرقية ، ونقص هرمونها ، فاذا كان السبب هذا العجز امكن في الحال اصلاحها . فاضافة عُشْر حبة من خلاصة الغدة الدرقية في اليوم يكفي احياناً لذلك

يقابل ذلك ان لتضخم الغدد الدرقية وطغيان افرازها نتائج اصعب من نتائج عجزها ونقص هرمونها . فتضخمها وطغيان هرمونها يزيدان سرعة الافعال الحيوية ، بل يضاعفانها احياناً ، فيعيش صاحبها وكأنهُ سلك كهربائي فيصبح نهماً ولكن نهمتهُ قلما تجدي في تجهيز موقده الحيوي بالوقود الكافي ، فلا يلبث ان يحترق فملاً ويموت . وقد عولج بعضهم باستئصال هذه الغدة وحقن صاحبها بمقدار ما يجب ان تفرزهُ الغدة السوية في جسمهِ كل يوم فنجح العلاج . أو قد يستأصل جانب منها حتى لا يفرز الباقي من الهرمون الاَّ ما يكفي صاحبهُ ليعيش عيشة سوية

***

وفي اعلى الصدر الغدة الصعترية وقد طال البحث فيها ولكنهُ لم يسفر بعد عن نتائج يصحُّ السكوت عليها . وانما يظنُّ ان لها صلة بالنمو وان ضمورها او عدم نموّها يجعل صاحبها ضعيف الجسم ضعيف الشخصية . ولكن في خلال السنة الماضية جربت تجارب بهرمونها دلَّت على ان حقنها في صغار الجرذان يستعجل نموها ويستحثُّ افعالها الحيوية والعقلية

فقد اخذ الدكتور رونتري الاميركي وصحبه طائفة من الجرذان واضافوا الى غذائها خلاصة الغدة الصعترية خمسة اجيال متعاقبة . ثم لاحظوا جرذان الجيل الخامس فاذا السرعة في نمو الجرذان نموًّا جسميًّا وعقليًّا ستة اضعافها في الجيل الاول . فقد ظهرت الاسنان في جرذان الجيل الرابع في خلال اربع وعشرين ساعة تقابلها تسعة ايام او عشرة في الجيل الاول . وفتحت العينان ونبت الصوف في جرذان الجيل الخامس في اليوم الثاني والثالث بدلاً من اليوم الرابع عشر الى السابع عشر . وفطمت في اليومين الثاني والثالث بدلاً من اليوم السادس . وتقدمت سن البلوغ في ذكور الجيل الخامس الى الفترة الواقعة بين اليوم الرابع واليوم الثامن عشر بدلاً من الفترة الواقعة بين اليوم الخمسين واليوم التسعين . اما في الاناث فتقدمت سن البلوغ فيها من ٧٠ — ٩٠ يوماً الى ٢٠ — ٢٥ يوماً وزادت قوة الاخصاب كذلك

وهذا اذا تصورنا ما يقابله في البشر كان كما يأتي : اذا اضفنا خلاصة الغدة الصعترية الى غذاء

خمسة اجيال من فريق من الناس استطعنا ان نفطم طفل الجيل الخامس اذ يبلغ بضعة اسابيع من العمر وتمكن الطفل نفسه من المشي وعمره نصف سنة وان يبرع ويبرز في الالعاب في الخامسة وان يتخرَّج في المدارس الثانوية وهو في العاشرة

ومن الغدد التي لها تأثير في شخصية الانسان الغدد المعروفة بالغدد الكلوية . وهي واقعة في الجسم فوق الكليتين . وتفرز هرموناً يعرف باسم الادرينالين . والراجح ان افراز هـذه الغدد لا مقام لهُ في حياته العادية المألوفة . ولكنهُ يصبح ذا شأن كبير في الحوادث العارضة والمفاجآت والاحوال التي يسيطر فيها الانفعال على الجسم . ففي هذه الاحوال تفرز هذه الغدد افرازها الخاص فتمكن الجسم من مواجهة الحالة الجديدة ، التي تقتضي احياناً الفرار من خطر محدق ، او القوة والنشاط في مواجهة خطر محدق . ولولا الادرينالين هذا لما كانت شخصية الانسان ما تكون عليهِ عادةً في امثال هذه المواقف

ولكن الفرق بين الانسان البدائي والانسان المتحضر ان العوارض كانت تقتضي من الاول دائماً نشاطاً عظيماً في مواجهتها او الفرار منها وكان الادرينالين يعينهُ على ذلك ولكن الانسان المتحضر يجد ان بعض هذه المواقف العارضة تقتضي منهُ كبت الانفعال وكبح جماح النفس ، ومع ذلك تظل هـذه الغدد تفرز الادرينالين والادرينالين يحثّهُ من غير أن يدري إلى النشاط والعنف . فتزيد صعوبة ضبط النفس عليهِ

وتفرز الغدد الكلوية هرموناً آخر يدعى « كورتين » والظاهر ان لهُ تأثيراً عامًّا في جميع خلايا الجسم . فاذا عجزت هذه الغدد عن افراز الكورتين اصيب صاحبها بمرض يدعى مرض أديسن فيضعف جسمهُ ويصبح قلقاً برماً تسهل استثارتهُ ويرغب عن التعاون مع رفاقهِ . فاذا حقن بالكورتين استردَّ عافيتهُ ونشاطهُ ورغبتهُ في العمل والتعاون . ولم يفرغ العلماء حتى الآن من بحث هذا الهرمون وتأثيرهِ في الجسم وانما تدل بعض التجارب والحوادث التي وصفها الاطباء على ان لهُ صلةً بالحياة الجنسية

***

واخيراً لا بدَّ من كلمة عن الغدد الجنسية أو الشقية . ففي العصور القديمة كانت الحيوانات المستعملة في الحقول تخصى لكي تلين ولا تشاكس ولكي يسهل تسمينها توطئة لبيعها . فاذا ازيلت هذه الغدد قبل البلوغ ، في الحيوان أو في الانسان ، قصَّر مَنْ تُسلُّ منهُ ، عن البلوغ الجنسي ، وفقدَ النشاط ، فيفقد الحيوان شهوة المزاوجة والانسان كل عناية بالجنس الآخر . ولكن اذا عملت عملية السلّ بعد سن البلوغ كان لها نتائج تختلف عن نتائجها قبلهُ . فيصبح الرجل قلق الطبع ، وتضحي المرأة شديدة الانفعال سريعة التبرُّم والتأثُّر ، وفي كلا الجنسين يميل من سُلَّت غدده الجنسية الى السمنة

حكمة « جوته »

بقلم عبد الرحمن صدقي

ليست الحكمة وقفاً على الشيخوخة . ولكن الحكيم لاشك يزداد مع السن حكمة بما يجتمع له على تطاول الايام من المشاهدات والتجاريب ينضم بعضها الى البعض فيستوفي بها الجملة ويبلغ القمة . فاذا اضفنا الى هذا ما هو معلوم مشهور عن الالمان من انهُ لا كاتب منهم الاّ وهو بطبعه من طلاّب الفلسفة ونقّاد الاخلاق ، لخلص لنا التقدير الصحيح لحكمة جوته كبير ادبائهم وهو في السبعين من عمره الحافل المديد . وهذه الحكمة التي تعرض لآفاق الفكر جميعها من فنون وعلوم وشعر وخبرة عملية وفلسفة ودين وغير ذلك لا تنحصر في حيّز بعينه كالازهار المجففة بل هي الشجرة الفينانة تمتد اغصانها ناضرة الريحان وتنوّر غلائلها متعددة الالوان في كل صفحة من صفحاته وفي كل سفر من اسفاره سواء أكان منظوماً او منثوراً ، مبحثاً علمياً او نقداً فنياً ، قصصاً او ترجمة لحياته او مسرحية من عديد مسرحياته . وجوته مثال الحكيم . والذي يجعلهُ اتم تمثيلاً للحكمة هو انهُ أوتي ما لا يؤتاهُ الحكيم عادة من مختلف المواهب وشتى الدوافع النفسية

وتقوم حكمة جوته على انهُ لا ينفك يضم الى نفسه ما تشعّب ويؤلف المتعارض من الميول والنزعات كما تلتقي اقطار الدائرة في المركز . فليس هو من اهل المذهب المدرسي ولا المذهب الابداعي وانما هو فيما وراء هذا وذاك . وليس هو بالمسيحي ولا الوثني ولا غير ذلك من العقائد الملتزمة لانهُ في المحل الأرفع الأبعد ونعني به الاقرب الى المركز حيث لا تشعب ولا افتراق . فهو يستوفر ويستكثر على الدوام ومن كل شيء . وكأنما عندهُ سر يجعل القيم المتفاوتة ووجهات النظر المتضاربة تجتمع في عيشة واحدة بل ينضاف بعضها الى البعض فيحصل من تضافرها زيادة الكل . ولم يكن جوته في موقف سالب يترك الاشياء تقبل عليه فحسب . بل كان فعالاً موجباً يسعى لها ويجذبها اليه من شتى الآفاق مهما كانت غريبة وسحيقة . والعجيب المعجب ان نجد مجموع هذه الاشتات الهائلة فيه كتلة متماسكة . وثمة عظمة جوته الحكيم . وسيلمس القارىء هذا الجمع العجيب مجلوّاً فيما اخترناهُ لهُ من اسفار الحكمة في ديوانه الشرقي :

كتب التفكير والحكمة والمثل

تصدر هذه الكتب عن تجاريب شاعرنا وحكمته بعد بلوغه هذه السن . وهي حافلة بالهداية والعبرة . ولا مشاحة في ان جوته افاد الكثير في هذا الباب من مطالعاته لترجمة كتاب العظات لفريد الدين العطار وكتاب قابوس فضلاً عن المامه بحكم لقمان وبيدبا وغيرها . ونحن نجتزىء بفقرة من كل سفر من اسفار جوته الثلاث على سبيل المثال :

﴿ لفتة الاحسان ﴾ ما احلى نظرة الجارية ذات الدل وهي تغمز بطرفها ، والنديم تلمع عينه بالرضى ساعة يحتسي كأسه ، وما أحلى تسليم السيد الآمر يشملك بعطفهِ ، وشعاع الشمس في الخريف ينعشك بدفئهِ . فليكن أحلى من ذاك جميعه في نفسك هذه الخفة اللطيفة تمتد بها كف الفقير في طلب الصدقة وتتلقى منك بالحمد الجميل ما تجود بهِ . وما أحلاها وقتئذٍ نظرة وما احلاها تحية وما أحلاها بلاغة في السؤال . تأمل هذا فاذا أنت الكريم الجوَّاد على الدوام »

﴿ دين التسليم ﴾ « من الحماقة أن يتعصب كلٌّ لدينه . واذا صحَّ أنَّ الاسلام هو التسليم لله لوجب أن نحيا ونموت مسلمين أجمعين »

﴿ مثل الايمان ﴾ « تحدَّرت من السماء الى لجة الخضمّ قطرة مرتجفة . فأنحت عليها الأمواج خفقاً وتصفيقاً . ولكن الله جزاها عن صبر إيمانها خيراً . فوهب لقطرة المطر قوةً واعتصاماً . فاحتوتها الصدفة في حرز حريز . وأتمَّ عليها العز والجزاء الأوفى فهي اليوم على تاج مليكنا درَّة تتألق حلوة اللمح سنية البهاء »

كتاب السخط

ليس في طاقة الانسان أن يكبت فورات غضبه ويكظم نوازي نقمته . بل من الخير أن يحتال على تنفيسها ، ولاسيما ان كان حرج صدره بحيث يكدر صفاء الخاطر ويعتاق الخيال عن تحليقه . وأمرّ ما يعانيه الشعراء سوء التقدير فتراهم يقابلونهُ بالمغالاة بأقدارهم والمفاخرة بمزاياهم . وليس يخاف ان الناس اذا ذكروا العظماء فأول ما يحبون امتداحه فيهم التواضع ثم لا يفيضون فيما عداه من المناقب والملكات . والتواضع ابداً حليف المصانعة وضرب من التمليق مقصود بهِ الى إنامة الحسد أو الشعور بالمضاضة بين فاضل ومفضول ، فهو في الظاهر تسوية وفي الباطن ترضية وكأنهُ اعتذار النابغ عن نبوغه . وما حسن المعاشرة بين الناس الاَّ انكار كل كبير لنفسه وفي هذا حكم على المجتمع بالبطلان ، اللهمَّ الاَّ اذا تأتت للكبير القدرة على ان يترضى اعتزاز الغير بأنفسهم ليرتضوا منهُ اعتزازه بنفسه . ولقد كان شعراء الشرق يبسطون اللسان في ممدوحيهم بالهجاء كلما أخلفوا منهم الظن وخيبوا الرجاء أما شاعرنا فكان ذا حظوة عند الامراء . وانما شكواهُ من سوء التقدير من الشعب وعليهِ يصب جام نقمته وسخطه

﴿ البغض بالجملة ﴾ « اني لأحب البغض ولا غنى للفؤاد عن حبه . وليس بي بغض شخص بعينهِ . فاذا كان لا بدَّ لي من البغضاء فما أنذا على الاهبة ، أبغض أصنافاً من الناس بالجملة »

﴿ اعتبارات سخيفة ﴾ « يعاب على المرء مدحه لنفسه . ولكن أليس فاعل الخير بالمادح نفسه بالخير الذي هو فاعله ! ثم ، أليس الخير لولا التسمية في الكلام هو الخير في كل حال وبالرغم من كل مقال !

أيها الحمقى ، ذروا للحكيم الواثق بحكمته أن يلذ مثلما تلتذون جنونكم بالاستهتار بتافه محامدكم وسخيف اعتباركم »

﴿ ماذا في الكبر ﴾ « ما بالكم أيها المشائخ الدجاجلة ، تذمون نفخة الكبر العاتية ؟ لو شاء الله لي أن أكون دودة لكان خلقني دردة »

﴿ كيد الوضيع للرفيع ﴾ « كيف أوهمهم ، وهذا لسان حالهم يقول : ليس في الإمكان أن نرفع رفيعاً الاّ وضعنا من أنفسنا . أو كنا نحيا لو تركنا غيرنا يحيا ؟ »

﴿ شاهد الكنود ﴾ « ما من سعيد هانيء الاّ بادره الجار بالتنغيص . كذلك لم يعش ذو فضل حياته العاملة الاّ كان همّ الناس في رجمه ، فأذا ما قضى نحبه جمعوا على الفور الهبات الوفيرة ليقيموا لتكريم هذا المنكود بهم تمثالاً . ولو عقلوا وجه مصلحتهم لكان الأولى لهم ان يكتموا أمر المسكين ويدعوه في طوايا النسيان أبد الآبدين »

﴿ الدناءة ﴾ « فيمَ التشكي من الدناءة ، وانها في الدنيا لذات الحول والطول . هي صاحبة الامر في الشر طلباً للمنفعة ، وهي المتصرفة في العدل كما شاء لها الهوى . أفتريد أيها الحاج المتنطس خروجاً على القضاء المحتوم ؟ ألا دع الصلصال والاعصار ، فلا بدَّ من الدوار وتذرية الغبار »

كتاب الساقي

لا يمكن أن يخلو ديوان شرقي من ذكر الولع بالخمر وهوى الغلمان . ويقول جوته انهُ بمقتضى أدب العصر يتناول هذا الغرض الاخير بمنتهى الطهر . ويقدم الى ذلك بأن الميل المتبادل بين الشباب والكبر هو على أصح معانيه علاقة تهذيبية بين معلّم ومتعلم . وتعلّق الفتى بمن يكبره سنّاً ليس بالظاهرة النادرة ولكن النادر هو حسن الالتفات الى الاستفادة منهُ . وليس أدل على ذلك من مراقبة العلاقة بين الحفيد والجد ، ففي هذه العلاقة تنمو ذهنية الاطفال حق النماء ولان همهم يكون منصرفاً الى الشيخ المحبوب يرعون وقاره ويطيعون كلمته ويعون ما استطاعوا وعيه من خبرته . وما لنا نقصر الكلام على سن الطفولة ، وهذي سائر النفوس المطبوعة على الطهر تأنس من نفسها في كل اطوارها حاجة الى هــذه العلاقة القائمة على التقدير والاجلال . ولئن كان الصبي يستغل أحياناً عطف الشيخ لادراك رغائبه الصبيانية واشباع بداوته البريئة الاّ ان اصطناعه التلطف والمراضاة يحمل على التساهل والاغضاء . وليس الشيخ بأقل سعادة بهــذه العلاقة فانه ليطربهُ ويتصباه أن يرى الفتى الغضّ الطموح مأخوذاً بالعجب والإعجاب برجاحة عقله وحكمة سنّه في حين تفيق طوالهُ من هذا العقل في النفس الناشئة الزكية . واليك بعض المقطعات من هذا الكتاب :

— فلنكن سكارى جميعاً . فالشباب سكر بلا خمر ، والشيوخ يستدركون الشباب بفضل الشراب ، ولا غرو فالحياة المسكينة معذبة بالهم ، وليس يطرد الهم مثل الكرم

— الخمر محرّمة بلا ريب . فاذا كان لا بدّ من شربها فلا تشربها الاّ صرفاً . فانك ان عاقرتها ممذوقة كنت مضاعف الاثم

— أقول غير مبالغ في القول : من كان منكم غير قادر على الشرب فليس يصح له حب . كذلك

انتم أيها الندامى لستم بأحسن حالاً ، فمن كان منكم غير قادر على الحب فليس يصح له شرب

— تعال أيها الغلام الحبيب . لماذا تلزم الباب ؟ كن من اليوم نديمي تكن الخمر كلها رحيقاً

— يا لك من خبيث صغير ! أبق من الخمر على رشدي . وهذا هو المهم عندي ، لكي آنس بقربك أيها النديم الخبيث على الرغم من سكري

— اليوم في البكور قامت في الحانة جلبة يا لها من جلبة ، صاحب الحان والقيان والمشاعل والزحام . وكم من لجاج وكم من خصام ! والناي يعزف والطبل يقرع . عربدة ما أفظعها عربدة . فدخلت مع الناس في غمارها من غبطة ومن حب . ان الخلق لينعون عليّ الاستهتار وخلع العذار ولكنني مبتعد في حزم وسلام عن مجادلة فقهاء المكاتب ووعاظ المنابر

— يدعونك الشاعر العظيم كلما طلعت في الاسواق . واني لشديد الاصغاء حين تنشد واني لأشد اصغاء لك حين تصمت . ولكني أحبك أعمق ما احبك حين تقبلني قبلة التذكار . فان الكلام يذهب ، أما القبلة فباقية في صميم الفؤاد . ولئن كان لنظم القوافي قدرها الكبير فان خيراً منها اطالة التفكير . فانشد الناس فنوناً من النظيم واصمت صمتك البليغ مع النديم

كتاب الفرس

في هذا الكتاب يشيد جوته بذكر دين المجوس ويرى أن عبادة الشمس والنار مهما تكن معنوية فانها مع هذا عملية جد عملية . ولا غرابة في ان يتحمس جوته لتعاليم من يعبدون الله في نور الشمس وفي النار والهواء والماء وفي خصب الارض وحياة النبات . فان هذا التأليه للطبيعة يتفق واحساسه العميق بها حتى لينطق به كل سطر من « وصية المجوسي الأخيرة » لاخوانه في الدين وهو من الحياة في آخر الذروة المغمورة بالنور الازلي

« اذا الشمس فوق أجنحة الفجر ذرّ قرنها ، واطلّع جانب قرصها الوهاج فوق الذرى ، فمن ذا الذي لا يرفع اليها البصر خاشعاً . لكم أحسست في حياتي المديدة مراراً لا تحصى لدى شروقها انني خارج اليها لكي اشهد الرحمن على عرشه واسبح باسمه سبحانه مصدر الوجود ورب العالمين ، ولكي أسلك الصراط المستقيم صراط الذين هم أهل لهذا المشهد العظيم ، ولكي اهتدي ابد الدهر بنوره العميم . وبعد فهذي وصيتي المباركة اودعها صدور اخواني واوكلها الى صدق عزائمهم : « عليكم القيام بفرائض الحياة الشاقة كل يوم . وما بكم حاجة بعدها الى وحي يوحى » . . . .

ويلي هذا تفصيل الفرائض وكلها ناطق بعبادة جوته الحياة وتقديسه الجهاد فيها

كتاب تيمور

يرى جوته ان كتاباً كهذا كان من حقه ان توضع دعائمه بعد عامين كاملين من العكوف والتوفر على موضوعه حتى يتأتى للشاعر مواجهة هذى الخطوب الجسام بما يتفق وروعتها وترامي

آفاقها . كما يحمل به تخفيفاً لفجاعتها من حين الى حين ان يظهر الاستاذ نصر الدين النديم الى جانب مولاه الطاغية المخرب . وما اكثر ما يروي الرواة من نوادره ويخص جوته بالذكر هذه النادرة :
«وكان تيمور دميم الخلقة أعور أعرج ، وفي ذات يوم والاستاذ نصر الدين بين يديهِ أمر تيمور بالحلاّق فلما أتمّ حلق رأسه عرض لهُ بالمرآة فلما رأى تيمور في المرآة قبحهُ أجهش بالبكاء وبكى الى جانبه الاستاذ . وظلّ الاثنان يبكيان نحو ساعتين وأقبل بعض الخلاّن فجعلوا يواسون تيمور ويسرون عنهُ بالحكايات حتى نسي . وكفّ تيمور عن بكائه ولكن الاستاذ لم يكف بل زادت عبراته انهماراً . فقال لهُ تيمور : « وبعد ، انني نظرت في المرآة فرأيت فرط قبحي ، فحزنت وانا صاحب الحول والطول وخزائن المال والجواري الحسان ان اكون بهذا القبح . وانت ، ماذا يحملك تبكي وتمضي في البكاء ؟ » فأجاب الاستاذ « إنك صادفت وجهك في المرآة مرة فلم تطق رؤيتهُ وطفقت تبكي . فماذا يكون من امري أنا المقضيّ عليّ برؤية وجهك صباح مساء ، فاذا لم ابكِ فلمن البكاء» فضحك تيمور لقوله حتى استلقى على ظهره

ومع ان الشاعر لم ينفسح لهُ الأجل لتحقيق ما رسمهُ لنفسه ، ووقف عند المقطوعتين اللتين نظمهما ولم يشتمل كتاب تيمور على غيرها الاّ انهما في الحق حسبه جلالاً وروعة

﴿ الشتاء وتيمور ﴾ « هذا الشتاء أنزل بهم بلاءه ، وتنفّس بينهم برد انفاسه فثارت صرصراً عاتية ، وسلط عليهم زعازع زمهريرهِ وغواشي صقيعهِ . ثم انحدر حتى مجلس تيمور وأهاب بهِ مرعداً متوعداً : « على رسلك واتئد ايها الشقي ! ايها الطاغية الغشوم ! او لم يكف القلوب ما اصطلت من عذابك واكتوت بهِ من نارك ؟ فان تك مريداً من الشياطين فانا المريد الآخر . وانك شيخ تمرّس بالسنين وتمرّست بهِ واني لكذلك . وانت المريخ وانا كيوان . وكلا الكوكبين شؤم وفي اقترانهما إيذان بالويل والثبور وعظائم الأمور . وانت تهلك الأنفس وتخمد جذوتها ، ولكن رياحي أقتل برداً مما تستطيع . ولئن كانت عصائبك المهج قد سامت المؤمنين سوء النكال . فقد كان ما كان ! وسترى اذا آن الاوان باذن الله شرّاً مما جرى . والله انك لست لي بكفء وهو على ما أقول شهيد. أجل والله سوف لا تغني عنك حرارة الوطيس المسجور وشواظ كانون شيئاً ، ولن يعصمك عاصم من برد الموت

﴿ قارورة العطر ﴾ « لكي يتحبب اليك المحب بالعطر العبق ويزيد في انشراحك وبهجتك ، يهلك العطار على النار العدد المديد من اكمام الورد . وليستقطر ملء قارورة صغيرة تهدى اليك ، قارورة مخروطة مستدقة كسبط أناملك ، لابد لهُ من عالم منها . عالم من القوى الحيّة التي تتفتق عنها الورود مؤذنة بهيام البلابل بها وترجيعه شجيّ اغانيه في حبّها

فهل ترانا نذكر هذه الآلام والعطر يفعم حسّنا ويزيد في متاعنا ! الكم هلكت أنفس لا عداد لها ظلماً في سبيل عظمة تيمور ! »

نظرات في الفاظ مجلة

مجمع اللغة العربية الملكي

للاب انستاس الكرملي

[عضو المجمع]

٥ — النسبة الى الكيمياء : كيمياويّ

وردت (الكيميائي او الكيميائية) بالهمزة ، مراراً عديدة في مجلة المجمع ، وانا اذكر هنا ما ورد منها بهذه الصورة في « خلاصة لاعمال لجنة علوم الحياة والطب » . من ذلك في ص ٦٨ و٧٢ و٧٩ (وكررت اربع مرّاتٍ) و٨٠ و٨٣ (وكررت اربع مرّات) و٩٠ و٩٢ ولا اتعرّض لسرد ما بقي منها في سائر الصفحات ، فان المجلة لم تذكر النسبة الى الكيمياء الأ بالهمزة اي كيميائي . وهو غلط بيّن لا يحتاج الى التصريح بهِ . نعم ، ان اصحاب الكتب والجرائد والمجلات في ديار وادي النيل يقولون ما نطق بهِ مجلة المجمع . اما العراقيون الخُلّص والسوريون الاقحاح واللبنانيون الفصحاء والفلسطينيون البلغاء فلا يقولون إلاّ « كيمياوي او كيمويّ او كيميّ او كيماوي » حسب تقدير الكلمة المنسوب اليها من « كيمياء او كيميا او كيما » اللهمّ الأ بعض الحديثي العهد منهم في الكتابة (والمراد بهم هنا اولئك الذين هم من البلاد الناطقة بالضاد) فانهم اخذوا يقلّدون المصريين في نسبتهم هذه . وهي — على ما قلنا — صريحة الخطأ . وذلك لانك ان اعتبرت هذه اللفظة (اي كيمياء او كيميا او كيما) دخيلة في العربية او اصيلة ، فانك لا تقول إلاّ « كيمياويّ » اذا نسبتها الى المهموزة الآخر ، و« كيميّ او كيموي او كيماويّ » اذا نسبتها الى كيما

***

اما ان الكيمياوي نسبة الى الكيمياء المهموزة الآخر هي الصحيحة ، دون الكيميائي ، التي هي خطأ شنيع ، فظاهر جلي من كلام سيبويه . فقد قال في كتابه الجليل (٢ : ٧٨ من طبعة بولاق) ما هذا نصّهُ بحرفهِ : « هذا باب الاضافة الى كل اسم كان آخرهُ الفاً ، وكان على خمسة احرف . . . « واما الممدود ، مصروفاً كان او غير مصروف ، كثر عددهُ او قلّ ، فانهُ لا يحذف . وذلك قولك في خنفساء : خنفساوي ، وفي حرملاء : حرملاوي ، وفي معيوراء : معيوراوي . وذلك ان آخر الاسم لما تحرك ، وكان حيّاً ، يدخلهُ الجرّ والنصب والرفع ، صار بمنزلة سلامان وزعفران ، وكالاواخر

التي من نفس الحرف نحو احرنجام واشهيباب ، فصارت هكذا ، كما صار آخر معزى حين نوّن بمنزلة آخر مَرْمَى . وانما جسروا على حذف الالف لانهامية لا يدخلها جرّ ولا نصب ولا رفع فحذفوها» اه

وقال في ص ٧٩ من كتابهِ المذكور : « هذا باب الاضافة [اي النسبة حسب تعبير الغير] الى كل اسم ممدود لا يدخله التنوين ، كثير العدد كان او قليله — ... فالاضافة اليهِ ان لا يحذف منهُ شيء وتبدل الواو مكان الهمزة ، ليفرقوا بينهُ وبين المنوّن الذي هو من نفس الحرف ، وما جعل بمنزلتهِ وذلك قولك في ذكرياء : ذكرياوي ، وفي بروكاء : بروكاوي » . اه بنصه

فعلامَ تعتمد اللجنة في قولها « كيميائي » ، فان كانت قد اعتمدت على القواعد العربية المقرَّرة في جميع كتب النحاة والصرفيين فان هذه الضوابط لم تخرج في النسبة عما ذكرناهُ ، اي كيمياوي بالواو لا بالهمزة . اما اذا قيل ان السماع نقل الينا « كيميائي » بالهمز لا بالواو ، فاننا لم نرَ ذلك في ديوان قديم يعتمد عليهِ اعتماد حجة ، او ثبت ، بل رأينا نحن بالعكس في ما عثرنا عليهِ

قال ابن الاثير (وهو كما تعلم من فصحاء الاخباريين وعبارتهُ منقحة احسن من عبارات كثيرين من انداده) في حوادث سنة ٥٠٢ للهجرة (١٠ : ٣٣١ من طبعة ليدن في هولندة) : « وصل الى المهدية ثلاثة نفر غرباء ، فكتبوا الى اميرها يحيى بن تميم يقولون انهم يعملون الكيمياء ، فاحضرهم عندهُ وأمرهم ان يعملوا شيئاً يراهُ من صناعتهم ... فلما رأى الكيماوية المكان خالياً من جمع ثاروا بهم ... واخذ القائد ابرهيم السيف فقاتل الكيماوية ، ووقع الصوت ، فدخل اصحاب الامير يحيى فقاتلوا الكيماوية ، وكان زيهم زي اهل الاندلس »

وقد لاحظ الناشر ان في نسختين من هذا الكامل وردت في مكان الكيماوية « الكيميائية » (اي بنون بعد الالف) قلنا : وهذه تكون على الطريقة الإرَميّة ، وليس على الاسلوب العربي الفصيح ، ولعلها من الناسخ الذي كان واقفاً على اسرار النسبة عند الإرَميين . ووردت الكيماوي والكيمياوي في كتاب النوري على ما ذكره دوزي في معجمه . وذكر دوزي عدة مؤلفين استعملوا الكيماوي والكيموي في كلامهم فنحيل القارىء على مطالعة معجمه . ثم قال المستشرق الهولندي المذكور : « ذكر الكيميائي » بالهمز صاحب الفهرست في ص ٣٥١ من طبعة الافرنج ، الاَّ ان الاعتماد على نص هذا الكتاب ضعيف ، لأن النسخة التي اعتمدها الناشر كانت في غاية السقم وركة العبارة وكثيرة الاوهام . فقد ورد في الصفحة المذكورة وفي السطر عينه ما هذا قوامه : « المقالة العاشرة من كتاب الفهرست ويحتوي على اخبار الكيميائيين والصنعويين من الفلاسفة القدماء والمحدثين »

فقوله « الصنعويين » نسبة الى الصنعة ، غريب جدًّا ، بل شنيع وفي ابعد غاية من الشناعة والقباحة والغلط ، اذ حقهُ ان يقول : « الصنعيين » مثلاً او اهل الصنعة او اصحاب الصنعة او ما ضاهى هذا الاستعمال ، لان الكيمياء تسمى ايضاً الصنعة والصناعة وعلم الصنعة من باب

التغليب . ومن العجيب ان كلمة « الصنعويين » لم تتكرر في السفر المذكور ولا كلمة «الكيميائيين» فالظاهر انهما من اغلاط النساخ . وقد بين الاستاذ المحقق عبد الله مخلص ان كتاب الفهرست هذا المطبوع في اوربا (الذي طبع طبعة ثانية مشوهة في مصر) مشحون اغلاطاً بل نسيج اغلاط لا تقدر وكلها او معظمها اقبح من قرد او من غول . راجع مقالة الاستاذ الجليل والمدقق الكبير في مجلة لغة العرب (٦ : ٥٠٢ الى ٥٠٦) ترَ العجب ، فهي جزيلة الفائدة لمن يحاول الاعتماد على هذا التأليف من غير ان يتصدى لنقده نقداً صحيحاً

والخلاصة اني رأيت الترك والفرس ومن اخذ عنهم لا يقولون الاَّ «الكيميائي» وأما فصحاء العرب من عراقيين وسوريين ولبنانيين وفلسطيفيين ، من اقدمين ومعاصرين ، فلا يقولون الاَّ « كيمياوي » . على ان بعض المحدثين من الناطقين بالضاد اخذوا يقلدون المصريين في مصطلحهم من غير ان يتثبتوا في صحة هذا الامر ، لكن ذلك لم يؤثر في واضعي المعاجم ادنى تأثير . راجع المعاجم الفرنسية الى العربية والانكليزية الى العربية كنجاري بك وبادجر ومن نقل عنهما كصاحب الفرائد الدرية والقاموس العصري وغيرهما فانك تجدهم يقولون جميعاً « كيمياوي »

وبعد هذا البسط الصريح ، من ذا الذي لا يرى ان صحة النسبة الى الكيمياء : « كيمياويّ » وما الكيميائي الاَّ غلط شنيع ؟

٦—البعولة لم ترد بمعنى الجنس او الشق

ومن « مصطلحات لجنة علوم الحياة والطب » ما جاء في ص ٩٦ قول اعضائها : « التكاثر غير البعوليّ asexual multiplication » والعرب لم تعرف البعولة بمعنى sex الانكليزية او sexe الفرنسية والذي عرفوه بهذا المعنى « الجنس » قال في لسان العرب في مادة (ح ر ي) : « من قال حرًى لم يغيره عن لفظه في ما زاد على الواحد ، وسوَّى بين الجنسين اعني المذكر والمؤنث لانهُ مصدر » اه . وكذا ورد ايضاً في شرح القاموس للزبيدي

على ان بعضهم رأى ان « الجنس» بهذا المعنى قد يختلط بالجنس لما هو فوق النوع . ولذلك اقترحنا ان تكون اللفظة العربية « الشِقّ » بكسر الاول لمنع كل لبس . وكنا قد كتبنا ذلك في احد اعداد الجوائب الصادرة في سنة ١٨٨٣ التي كانت تنشر في الاستانة . ثم عدنا فكتبنا في مجلتنا لغة العرب في سنة ١٩٢٩ ما هذا نصُّه : (٧ : ٨٩٤) « ويوضح المؤلفان بنوع خاص ان التعقيم لا يتلف عضو الجسم او غدته ، بل يُظهران ان لا اثر له في رغبة الشق (الجنس من جهة الذكورة والانوثة) . اه » — فعددنا الشقّ والجنس شيئاً واحداً . والسبب في تفضيلنا الشق على الجنس اجتناب اللبس على ما قلنا . — وثانياً لان الكلمة الغربية مشتقة من اللاتينية Sexus ، التي قال فيها صاحب معجم اصول الكلم اللاتينية ص ٣٤٥ : « Sexus معناها الحرفي «التقسيم والتفريق والتمييز » والكلمة مشتقة من اصل هو Sec ومنها جاءت كلمة Secare والظاهر ان اللفظة كانت

في اول وضعها Sec-tus اي تفريق . وفي اللسان القديم (اللاتيني) C T تنتقل غالباً الى C S مثل auxilium و vexare والجنس المشترك secus (وهو لايتصرَّف) يفيد ايضاً معنى الجنس ...» اه كلام المحقّقين

قلنا ولما كانت اللاتيفية sexus والعربية « شِقّ » بمعنى واحدٍ ، خيَّرنا الشق على الجنس لما قدَّمنا من الاسباب : ولاسيما لان من معاني « الشِقّ » ايضاً في العربية : النصف من كل شيء وعلماء البشر يذهبون الى ان الناس نصفهم ذكور ونصفهم اناث . فالشق اذن يوافق ان يكون بمعنى « الجنس » وان كانت هذه الكلمة لاغبار عليها

وقد ذكر محمد بك شرف في معجمهِ الانكليزي الى العربي بازآء sex ما يأتي : « (جنس). شِقَّة [وضبطها ضبط قلم بكسر فتشديد] (ج . شقائق) « ان النساء شقائق الرجال » . وقد عرَّبها المحدثون بكلمة جنس . والحال ان الجنس يقابلهُ genus بالفرنجية ولهذا وجب التمييز لأَمْن اللبس » اه كلام البك — قلنا : ان الجنس عربي فصيح لاغبار عليهِ بمعنى احد قسمي الخلق الذكور والاناث . وهو ليس من وضع المحدثين ، بل من وضع الاقدمين على ما رأيت من استشهادنا بلسان العرب وتاج العروس . والنحاة والصرفيون الاقدمون كثيراً ما استعملوا « الجنس » ليشملوا بهذا اللفظ الذكور والاناث . — اما (الشِقَّة) التي استعملها الدكتور العلامة فانها لم ترد في كلام العرب الاقدمين ولا المولدين ابداً . والعبارة التي اوردها حضرتهُ هي حديث على ما رواه صاحب النهاية ، اذ قال : « النساء شقائق الرجال » وفسَّرها بقولهِ : « نظائرهم وامثالهم في الاخلاق والطباع ، كأنهنَّ شققن منهم ، ولأن حوَّاء خلقت من آدم عليهِ السلام » اه

فالشِقَّة كما ترى لاتعني الجنس ابداً وهي وزان كِسْرة ولاتجمع على شقائق بل على شِقَق ككِسَر ، واما الشقائق فهي جمع شقيقة ككبيرة وكبائر وقليلة وقلائل وصغيرة وصغائر . والذي يستغرب في كلام الدكتور النطاسيّ انهُ استعمل الجنس بعد ان رذلهُ وذلك في ما بقي من مصطلحاتهِ في هذا اللفظ ، ولم يستعمل الشِقّ ولا الشقيقة ولا الشِقَّة . فانك تراهُ يقول بعد ذلك : « ارتكاس جنسي وانقلاب جنسي وانتخاب جنسي وتنقية جنسية ونقاوة جنسية والجنسية وكيفية الجنسيَّة وجنسيًّا ومن جهة الجنسية » وهـذا عجيب منهُ بعد ان طعن في اول الامر بهذهِ اللفظة ، فكيف عاد الى اتخاذها وترك سواها بتاتاً ؟ أليس لانهُ رأى ان «الجنس» هي أحسن لفظة تقوم بمعنى اللفظة الافرنجية ؟

واما قولهُ : « والحال ان الجنس يقابلهُ genus بالفرنجية ، ولهذا وجب التمييز لأمن اللبس » فنقول لحضرتهِ . إطْمَئِنّ بالاً اذ لاخوف في اللبس فان اليونانيين يستعملون genos لكلا المعنيين اي للجنس الذي هو فوق النوع وللجنس الذي هو بمعني قسم الذكور وقسم الاناث . هذا فضلاً عن ان الاقدمين لم يعرفوا « الشِقّ » ولا الشِقَّة ولا الشقيقة لمعنى الجنس . وفي هذا القدر مجزأة

٧ — الوحيدة مؤنث الوحيد لا الوَحِدة

ومما قرأناهُ بغرابة بالغة قول احد اعضاء المجمع في صدر الصفحة ١٥٥ : «وحيدة . ترد هذه الكلمة على الالسنة والاقلام كثيراً . فيقال مثلاً . » وهي المسألة الوحيدة . . . » او « الفتاة الوحيدة .» وهو خطأ ، اذ لم ينقل هذا التأنيث عن العرب فيما نعرفهُ من اقوال اللغويين . فانهم قالوا في تأنيث وحيد : وحِدَة . فقد جاء في ، اللسان : ورجل أحَد ، ووَحَد ، ووَحِد ، ووَحْد ، ووحيد ومتوحّد : اي منفرد . والانثى وحِدة . حكاه ابو عليّ في التذكرة ، وانشد : كالبيدانة الوحدة اه . والبيدانة الاتان الوحشية ، او التي تسكن البيداء . قاموس . وقال في شرح القاموس : وهي ، اي الانثى ، وَحِدَة بفتح فكسر فقط . اه

قلنا : الوحِدة (بفتح فكسر) ليست الاّ تأنيث الوَحِد كحَذِر ، دون سائر الالفاظ . اما أحَد ووَحَد بالتحريك فانهما تقعان على المذكر والمؤنث معاً كما في المصباح ، كما قد يكون لاحد مؤنث خاصّ بهِ ، اذ قال الفيوميّ نفسهُ : « واما تأنيث احد فلا يكون الاّ بالالف ، لكن لا يقال إحدى الاّ مع غيرها نحو : احدى عشرة واحدى وعشرون . قال ثعلب : وليس للاحد جمع ... وتأنيث الواحد : واحدة بالهاء » اه . — قلنا : وتأنيث متوحّد : متوحّدة على القياس المشهور . وكذلك يقال في (وحيد) فان مؤنثها (وحيدة) بالهاء لا وحدة بحذف الياء ، إذ هذا القول مخالف لاحكام العربية ونصوص ائمتها ولانهُ لم يسمع بهِ احد ، ولان الوَحِدة (بفتح فكسر) مؤنث (وَحِد) بفتح وكسر وليس بمؤنث سائر مترادفاتها . ومؤنث (وَحْد) بسكون الحاء (وَحْد) بلا تغيير او (وَحْده) بهاء في الآخر . وانما خصّ المؤلف الوَحِد بقوله وحدة تنبيهاً للغافل ، لان فعلاً بفتح فكسر قد يبقى على حاله في التذكير والتأنيث وقد يغير ، اما انهُ قد يبقى على حاله فكقولهم (عَجِف) بمعنى (العجف) فان مؤنثهُ بلا هاء كما في اللسان والتاج . واما انهُ قد يغير فكقولهم (حذِر) فان مؤنثهُ (حذرة)

اذن فلم يبق الاّ التنبيه على مؤنث (وَحِد) لينفي اللغوي كل صورة اخرى عن فكر المطالع ويقف على الحقّ الصراح . زد على ما نقول ان الامر ينجلي من كلام الشارح . وهذا نصّ عبارته : « ورجل وَحَد وأحَد محركتين ، ووَحِد ككتف ووحيد كأمير ، ووحْد كعدل ومتوحّد اي منفرد ... وهي اي الانثى وَحِدة بفتح فكسر فقط ، ولذا عدل عن اصطلاحه وهو قوله : وهي بهاء لانهُ لو قال ذلك لاحتمل او تعين او يرجع للالفاظ التي تطلق على المذكر مطلقاً . قاله شيخنا . قلت : وهذا حكاه ابو علي في التذكرة وانشد : كالبيدانة الوحدة . قال الازهري : وكذلك فريدٌ وفرِدٌ وفرْدٌ » . اه المقصود من ايراده

فهذا نصّ صريح على ان « الوحدة » مؤنث لفظةٍ واحدةٍ دون اخواتها المترادفات وهي « وَحِد »

بفتح فكسر . ويدعم كلامهُ هذا بقوله : « وكذلك فريد وفَرَد وفرْد » فهو نص صريح جلي على ان « وحيداً » يؤنث بالهاء كما ان فريداً يؤنث بالهاء اي فريدة ، وقد صرّح بذلك جميع اللغويين سرًّا او جهراً . على ان بعض المكابرين قد يرون في تعبير الشارح إبهاماً ، اذ فيه شيء من الغموض او اللُبْس ، فلا يسلمون بما اوضحناه . فنزيد على ما تقدّم نص صاحب الاوقيانوس فهو اوضح من الشمس في رائعة النهار ، فقد قال : « وَوَحِيد وزان كتف بمعنى وحيد يؤنث وحِدة » فهل بعد هذا التصريح شبهة او ريب ؟ ومع ذلك نأتيك بنص آخر اطمئناناً لقلبك . قال ياقوت في معجم البلدان : « الوحيدة مؤنثة الذي قبله (والذي قبلهُ هو الوحيد) من اعراض المدينة بينها وبين مكة » فلو لم يكن في كلامهم (الوحيدة) بل (الوحدة) لقالوا هذه دون تلك

على اننا لانقول ان (وحِدة) بفتح فكسر غلط ، بل نقول ان الوحِدة مؤنثة الوحد . والوحيدة مؤنثة الوحيد . واخطأ من ذهب الى غير هذا المذهب . ومن الغريب اني قرأت بعض مقالات كتبت بعد صدور مجلة المجمع ، واذ بأصحابها يخطئون (الوحيدة) اعتماداً على ما جاء في المجلة ولا يسلمون الاّ بالوَحِدة . فانظر الى هذا الضرر الصادر من كاتب ينشر مقالهُ في مجلة يعتمد عليها ، فاذا هي تسوق الناس الى آراء لم يقل بها العلماء الاثبات والائمة الثقات

٨ — اكتشف الشيء فصيح

وورد في الصفحة ١٤٧ كلام هذا نصهُ : « يخلّط الكتاب كثيراً في استعمال هذه الافعال فيقولون مثلاً : اكتشف طبيب دواء كذا كما يقولون : استكشفهُ ، ويقولون . العالم المكتشف وهم في ذلك كله مخطئون . ذلك بأن (اكتشف) جاء لازماً ومتعدياً في معنيين مختلفين . وقد مثلوا للازم بما يأتي : اكتشفت المرأة ، اذا بالغت في التكشف . . . . » ومثلوا للمتعدي بقولهم : اكتشف الكبش النعجة ، اذا نزا » اه — قلنا : اذن فالكلام فصيح في قول من قال : اكتشف الدواء والعالم المكتشف ، اذ هو من باب المجاز ، فمعنى اكتشف الشيء المهجوم على حقيقته أو على ما خفي منهُ وإلقاحهُ وانتاجه وانماؤه وبثهُ في العالم للانتفاع بهِ . وهو من باب الاستعارة ، فهو اذن من فصيح الكلام وعاليه وما فصحهُ واعلاه الاّ الاستعارة . (راجع المقتطف في صفحة ٣١٤ جزء ٣ مجلد ٨٦ من جزء مارس ١٩٣٥ ترَ فيهِ بحثاً مسهباً في هذا الموضوع)

وكان قد اطلع على زبدة هذا البحث العلامة الجليل واللغوي المدقق الاستاذ مصطفى افندي جواد فكتب الينا ما هذا بعض عباراته البديعة المعنى وذلك بتاريخ ٢٩ آذار (مارس) سنة ١٩٣٥ من باريس :

«أما مقالتكم في « اكتشف » وتجويز هذا الفعل ، فالدنيا كلها معكم ولا عليكم . . . وتجويز هذا الفعل عندي يستند الى عدة اركان : (الاول) انهُ زيدت عليهِ التاء لقصر الفعل على ارادة الفعل

التصرُّفيّة . ويقابلها في الفرنسية للغائب SE . والفرق بين النتيجتين ان الفعل الفرنسي يصبح لازماً والفعل العربي متعدّياً ، الاّ ما عاد على جسد الفاعل ، مثل : «اغتسل» و «امتشط» . ومن هذا الباب : « خار واختار ، ونخب وانتخب ، وعاق واعتاق ، وعدّ واعتدّ ، وجرّ واجترّ ، وصاد واصطاد ، وبنى وابتنى ، وعلا واعتلى ، (كأن في العلو منفعة خاصة بنفسهِ) ونحا وانتحى ، وعرا واعترى ، وصلى واصطلى ، وشرى واشترى ، وباع وابتاع ، وشهى واشتهى ، وحلب واحتلب ، وقطع واقتطع ، وقدح واقتدح ، وقاد واقتاد ، وعاد واعتاد ، وكنف واكتنف » وما يصعب ذكره ويطول . فاضافة تاء التصرُّف الى الفاعل مما لاحاجة بالقائل ان يستأمر فيهِ ولا ان يستأذن ، وكذلك هو في الفرنسية كالذي اشرنا اليهِ ، فاكتشف المتعدّي من هذا الباب الذي يعتري امرهُ الافعال اللازمة فيصيرها متعدّية في احيان ، مثل : «صفا واصطفاهُ ، وجبي واجتباهُ ، وبدر وابتدرهُ ، وعام واعتامهُ ، ومحن وامتحنهُ » وما الى ذلك . فالمكتشف ممن يستبقون الخير لانفسهم ويجلبون العظمة لمراتبهم

(والوجه الثاني) انهُ من اكتشف الكبش النعجة اي نزا عليها . والامر على ما قلتم ، فان المكتشف ينزو على الحقيقة ليلقحها وينتجها . ومن هـذا الاسلوب : « قتله بحثاً وعلماً وتحقيقاً » والقتل للاحياء وهي من الجسمانيات . ومنهُ : « دقّق النظر » فان التدقيق للجسمانيات كالحجارة والحديد . و « أحْسَنَ اخلاقهُ » فالحسن للجسمانيات . ومنهُ قول ابن جني : « وكدورة الفكر وجمود النفس » وهما للماء وهو من الجسمانيات . ونقول « من العناصر الاربعة » . وان اعترض معترض بأن هذا التوجيه يجيز استعمال « اكتشف » للمعنويات ولا يبيحهُ للجسمانيات لان قولهم : «اكتشف الصقع الفلاني» لا يفسر « بلقحهِ ونتجهِ » فيرد عليهِ قولهُ بأن الذهن لا يبادر الى هـذا التفسير لمنع القرينة اياه ، كما لا يبادر ذهن القارىء في كتب الحديث وعللهِ الى أن « جَرَحَهُ » في باب الجرح والتعديل ، يفيد الجرح الحقيقي لمنع القرينة الحصينة ، بَلَهَ ان المراد بـ « اكتشف الكبش النعجة » هو النزو عليها وما يحصل بعد النزو ، فهو تابع ومتمم . يدل على ذلك ان اكتشف هو واصلهُ من (الكاف والشين والفاء) لايفيدان معنى الالقاح والنتج ، فهذا المعنى عارض لا اصيل وتابع لا متبوع واذ كان الاصل لمعنى « اكتشف » هذا هو « النزو » ، حَسُنَ ان يستعمل فيما يعنيه الكتّاب اليوم لافادة التسلط مع السابقية . ويسوغ مثل هذا الاستعمال قولهم قديماً « نُتِجَ هذا من ذاك » وقول الحريري في المقامة السادسة عشرة وهي المغربية : « فتداعينا الى ان يستنتج لهُ الافكار ، ونفترع منهُ الابكار »

(والوجه الثالث) ان يُعدَّ من « اكتشف فلان » بالغ في التكشف . كما ورد في كتب المغازي فان احد المحاربين قد حملتهُ الحمية ان يكتشف — كما في مغازي الواقدي والاغاني — فكأنهُ كان

قد رفع ما على رأسهِ حماسة واغتياظاً . ولا تزال العرب تفعل ذلك عند احتدام غضبها وركوبها خطةً وعرةً ونية خشناه . ثم ينقل الفعل الى حالة التعدية لتعدّيه بنفسهِ الى المنصوب فيكون مثل « اصطاده واعتلاه واشتهاه » فالاصل فيهنّ جملهُ « ينصاد وينعلي وينشهي » ولاعقاب ولاحساب في شرح مثال هذا بـ « ينفعل » فاكتشفهُ : جملهُ « ينكشف » وبغير هذا التحليل اللغوي الفلسفي لا تصح تعدية « افتعل » المقصور على « ارادة الفاعل التصرفية » لان الاصل اللزوم مثل : « امتشط واغتسل واعتجر وادّرع واقتبع وادّهن واطّلى » فان قال قائل : ان هذه افعال تختص بجسده فلا حاجة الى المفعول ، قلنا : انها وان كانت افعالاً خاصة بجسده ، فانها خاصة ايضاً بأجزاءٍ من جسده فلمَ لم يقولوا : « امتشط شعره ، واغتسل بدنهُ ، او بشرتهُ ، واعتجر رأسهُ » وغيرها مما يجانسها ؟ على انهم قالوا : « دهن رأسهُ ، وطلى بدنهُ » وما شابههما . ويزيدك يقيناً بأن مذهبنا لاحب ورود « اكتسى الثوبَ ، وارتداهُ ، وانتعل النعلين » في كلام فصحائهم . وهو من اطوار تحول الافعال الذي اشرنا اليه » . الى هنا كلام الاستاذ المصطفى

وكنا قد كتبنا في المقتطف في المقالة المذكورة ايضاً (في ص٣١٧) : « وكان الاقدمون من السلف (يكتشفون أي يكشفون عورتهم) في المصيبة العظمى أو لبثّ التحمس في صدور الشهود .. »

فكتب الينا الاستاذ المحقق من باريس في ٢٨ ابريل من هذه السنة ١٩٣٥ يقول :

« اكتشف الذي رأيتموهُ في تاريخ الطبري (١ : ١٣١٦ من طبعة اوربة) ورأيتهُ أنا في كتب المغازي وذكرتهُ في ردودي بمعنى : رفع ما على رأسهِ لا كشف عن عورتهِ . ولم تفعل العرب للتحميس التكشيف عن عوراتها

أما قولكم ان العرب كانت تفعل ذلك في الملمات ، فلا اعتقدهُ البتة . فاني — وان كنت تركي الاصل خالص التركية — لا أجد في العرب من يستحق ان ينسب اليهِ هذا القول ، ولا يزالون اليوم يفرّعون رؤوسهم (كما تقول العامة) عند الغضب . نعم ، ورد في حوادث الجبناء من كشف العورة شيء قليل ، وهو ضد الحماسة ، كما فعل عمرو بن العاص في صفّين حينما ادركهُ عليّ بن ابي طالب ليضربه بالسيف ، فرمى بنفسهِ عن فرسهِ ، وكشف عن عورتهِ ، لان عليّ ابن ابي طالب لم يكن ينظر الى عورتهِ ، ولا الى عورة غيره ، وهذه الحادثة تؤيد ذلك . فنجّى عمرو نفسهُ . وقال الشاعر : « كما ردّها يوماً بسوْأتهِ عمرو » . يعني ردّ ضربة السيف . وكما قال الشاعر الشامي في وصف ابن العاص ، والشاعر هو مهذّب الدين الطرابلسي :

هـذا ولم يغدر مُـعَا ويةُ ولا عمرو مكَرْ
بطل بِسَـوْأتِـهِ يُـقا تِل لا بِصَارمهِ الذكَرْ

وهذا من اقذع الاهجية عندهم . فكيف يكشفون عوراتهم للحماسة والانكرار في الحرب ؟ هذا ما وصل اليهِ علمي » . اه كلام الاستاذ

النظام الادبي

بين الحيوانات[1]

يسلّم معظم المتعلمين بأن الحيوانات العليا متصفة بالذكاء وان كانت درجته أدنى من درجة ذكاء الانسان . ولكن يندر بينهم من تراهُ مستعداً للتسليم بأن الحيوانات تشاطرهم قواعد النظام الادبي الذي يسود الحياة فالنظام الادبي في نظرهم صفة خاصة بالانسان . ولكن الباحث يستطيع ان يكشف بين الحيوانات الواناً من التصرف يصح ان تحسب اساساً للنظام الادبي وأهمها اربعة

حق التملك

اولاً — ان الحضارة الصناعية راسية على ما يعرف بحق التملك . وجانب كبير من قوانيننا المدنية يدور على هذا الحق . أتستغرب ايها القارىء اذن اذا قلنا لك ان حق التملك معروف عند الحيوانات كذلك وانها تدافع عنه ؟

ان حق التملك هذا مشاهد بين الحيوانات من اعلاها الى السمك ولكنه على اوضح ما يكون بين الحيوانات العليا . فالطيور مثلاً تدعي حق تملكها للعش الذي تقطنه وللمنطقة التي تجاورهُ كذلك . وبعض العقبان لا تسلّم لمنافس من العقبان ان يشاطرها المناطق الخاصة بها . اما حق التملك عند القردة فيمتد الى كل شيء لهُ قيمة في نظرها . فالباحث « برهم » Brehm يذكر ان «بابونا» عني بقصعة من الصفيح لسبب ما فصار يأخذها معهُ كل ليلة الى المكان الذي ينام فيه ويعالجها كأنها ملكه الخاص . والفرديس Alverdes راقب قرداً اسيراً كان يلعب بكرات من المطاط وقطع من الخشب فصار يحنق حنقاً شديداً اذا مسها احد لان هذه الاشياء ملكه الخاص . واذا جاز لنا ان نفسر افعال الحيوانات كما نفسر افعال الناس صح لدينا ان نقول انها متصفة بحس التملك وانها تدرك حقها في التملك نتيجة سَبْقها الى بقعة من البقاع او الى استعمالها شيئاً من الاشياء كحق الغزو او الفتح بين الشعوب

الالم الادبي

ثانياً — لا ريب في انك ايها القارىء لاحظت تصرف كلب من الكلاب عندما أنّبهُ صاحبه او نهره . فهو لا يفر من أمامه كأنهُ يخشى ان يلكمهُ او يلطمهُ بل يظل قريباً من صاحبه او بالحري يقترب منهُ وفي عينيه معنى التوسل وقد يحاول ان يلحس يدي صاحبه . فهذا التصرف ليس قائماً على خوف الكلب من العقاب . فعلى ماذا يقوم ؟

وقد قام بين الالمان عالم يدعى كوهلر قضى سنوات في مستعمرة من القردة المعروفة باسم

---

(١) ملخص مقال للكاتب العلمي جيمس لوبا في مجلة هاربرز الاميركية

شمبانزي في جزيرة تناريف ووضع كتاباً جعل عنوانه « عقلية القردة » فذكر فيهِ القصة التالية :

لاحظت في احد الايام وانا اطعم طائفة من القردة مجتمعة حولي ان احدى الاناث تنتزع الطعام من احد الذكور الضعاف . فنهرتها وضربتها . فتراجعت الى الوراء وصرخت ثم جعلت تحدق بي واذا بها في اللحظة التالية قد رمت ذراعيها حول عنقي ولم تستقر حتى ربتُّ لها على ظهرها . وهذه ظاهرة غير عادية في حياة القردة الانفعالية . فالذي يتأثر بهِ الكلب والقرد ليس الخوف من العقاب الاليم ضرباً او لكماً بل هي تصاب اذا ضربت او اقصيت عن جماعتها بألم أدبي هو من قبيل الالم الذي تصاب بهِ اذا قاطعك او اقصاك من تحب

العطف والمساعدة

ثالثاً — ان السخاء والمساعدة الصادرين من انسان لا غرض له ولا غاية خاصة من اجل الصفات الادبية في الانسان وحماها . وقد لوحظت هذه الصفات عينها في الحيوانات . فالطيور من نوع معين تتصرف بعضها مع بعض تصرفاً لو شاهدناهُ في الانسان لدعوناه « الحنان » . ولعل هذه الصفة اي صفة الحنان تبدو على اروعها في الفيلة — بصرف النظر عن القرود . فاذا جرح فيل برصاصة اصابتهُ تهرول اليهِ الفيلة التي على مقربة منهُ لغوثهِ . فاذا وقع الجريح ركع بعضها الى جانبهِ فيضع بعضها انيابه تحته ويلف البعض الآخر خراطيمه حول عنقه بغية انهاضه

ولكن القردة تفوق حتى الفيلة في هذا . ففي الكتب التي وضعها العلماء ودوَّنوا فيها حياة القردة نجد أمثلة عديدة على ذلك ولكننا نكتفي بذكر مثال واحد منقول من كتاب طومانيس في « ذكاء الحيوانات » . وهو ان ذكراً من الحيوان وقع من شجرة فاصيب في معصمهِ . فنال عناية خاصة من القردة الاخرى وخاصة من قردة عجوز مع انها لم تكن تتصل بهِ بصلة نسب . فكانت قبل ان تبدأ طعامها تأخذ اول قطعة من الطعام تقدم اليها وتعطيه اياها . وقد قال طومانيس انهُ في خلال مراقبته للقردة مدة طويلة لاحظ انهُ اذا صرخ قرد ما صرخة الم احاط بهِ جمهور من القردة واحاطوهُ بعطفهم ولم يكن من النادر ان يحيطوه كذلك باذرعتهم كما تفعل نحن الناس بطفل متوجع

الشكر والاعتراف بالجميل

رابعاً — ومن الصفات الادبية التي تلاحظ في القردة صفة الشكر والاعتراف بالجميل . فالعلامة وهلر الالماني يذكر حادثة اقفل فيها الباب خطأً على قردين فاضطرَّا ان يبقيا خارجه وكان الجو بارداً ماطراً . وكانا واقفين امام الباب ينتظران . وعلى وجهيهما امارات الخوف اذ مرَّ بهما ففتح لهما الباب . ولكنهما بدلاً من ان يسرعا الى الدخول تأخر كل منهما قليلاً لكي يشكر لصاحبه هذا الخير بوضع ذراعيه حول عنقه . ولو كان الغرض من هذا المقال رسم صورة تامة لحياة الحيوانات من ناحية انفعالاتها لوجب ان نقول شيئاً عن حسدها وغيرتها وخوفها ولرأى القراء اذن ما يراهُ العلماء الذين توفروا على درس حياتها وهي ان هذه الحيوانات اقرب ما تكون الى الانسان من ناحية حياتها الانفعالية

اسلحة الجيش المصري [1]

في ايام الفراعنة

لعبد الرحمن زكي
الملازم الاول في الجيش المصري

اذا استعرضنا الادوار التاريخية التي مرّ بها الجيش المصري القديم وجدنا ان اهم المعارك التي خاضها كانت في عصر الامبراطورية الجديدة التي وضع اساسها احمس الاول طارد الهكسوس من مصر وهو الذي يلقبهُ بعض مؤرخي العصر الحديث بلقب نابليون مصر القديمة . ولم تكن الحروب التي خاض الجيش المصري غمارها حتى ذلك الحين سوى معارك صغيرة نشبت بين المصريين وقبائل الصحراء او بين امراء المصريين انفسهم

بدأ الجيش الذي قام على رأسهِ احمس يتدرّب على اعمال الحروب الكبيرة كما شرع الامراء يتذوّقون طعم الاقتتال . ووافق ذلك ضعف الاحوال السياسية في البلاد الشمالية المجاورة للحدود المصرية . فلما قام ملك مصر بتأسيس ملكه الجديد لم يلق مقاومة تذكر في سوريا . ولا يغيب عن بالنا ان قتال شعب منظم يتبع نظاماً دقيقاً من قواعد الحرب يختلف باختلاف الغارات التي تشنها قبائل البدو او جماعات اهل النوبة بقصد الاستيلاء على الرقيق او نهب المواشي او اتلاف المحصولات والزراعة . فلما جاء عصر تحوتمس الثالث كانت الخطط العسكرية (الستراتيجية) قد بلغت حدًّا فائقاً من الدرس . فنجده يقصّ علينا انباء حملاته المتتالية بأسلوب عسكري ووصف دقيق احتوى على كل التفصيلات التي نجد مثلها اليوم في وصف حملة عسكرية حديثة ، بدلاً من الاساليب العامة الدارجة التي وصف بها اسلافه غاراتهم التي شنوها ضد اعدائهم من البربر وسكان البادية . وكان ملك مصر يقود حملاته ضد اعداء بلاده بدلاً من القواد الذين كانوا يخضعون قبائل الحدود الثائرة ويتسلمون قيادة الوحدات الكبيرة . ووجد الملوك ان الحرب فضيلة وفي دماء المعركة اسمى معاني « التضحية »

كان فرعون مصر يأخذ مكانه في طليعة المعمعة يقاتل في عربته الحربية التي يقودها بنفسه كما يقاتل جنوده . وان النقوش التي على جدران الهيا كل الأثرية لتبين جليًّا اشتراك الملوك المصريين مع جنودهم الى حيث قادهم المجد في ساحات القتال

أن مبدأ تكوين الجيوش المصرية الكبيرة وجد في مصر منذ طرد احمس الرعاة . ومن ثمّ كان

---

(١) هذا الفصل مقتبس من كتاب في تاريخ الجيش المصري في أيام الفراعنة أعده كاتب هذا المقال للطبع

ظهورها في آسيا حيث خلدت أعمالها على آثار لا تزال باقية الى يومنا هذا. وليس الغرض التحدث عن تنظيم الجيوش المصرية في المملكة القديمة وان كان هذا البحث مما يلذ الوقوف عليهِ. ولكن الناحية التي سأقصر الكلام عليها هي الاسلحة التي استخدمها الجيش في فتوحاته المجيدة وغزواته الخالدة

الاسلحة الهجومية والدفاعية

يمكن تقسيم اسلحة قدماء المصريين الى قسمين : الاسلحة الهجومية والاسلحة الدفاعية

فمن اسلحة القسم الاول : القوس والرمح والجريدة والمقلاع والسيف القصير المستقيم والخنجر والمدية والسيف القصير المحدب والبلطة ذات اليد القصيرة وبلطة القتال والصولجان واللسان الذي يشبه العصي المموجة كالتي يحملها العبابدة والاثيوبيون. ومن اسلحة القسم الثاني : الخوذة المعدنية وواقية الرأس والدرع او سترة الزرد المصنوعة من الصفائح المعدنية ولم يعرف المصريون واقية الأرجل . وكانت اغطية الذراعين جزءاً من الزرد تؤلف كمًّا قصيراً يمتد الى الكوع

الدرع

كانت الدرع اهم ما يدافع بهِ الجندي عن نفسهِ، طولها لا يزيد عن نصف قامة الجندي وكانت في الغالب ضعف عرضها. وفي اكثر الاحوال كانت تغطَّى بجلد ثور والشعر الى الخارج كالدرع الاغريقية وتقوَّى في بعض الاحايين بحافة او بحافتين من المعدن وترصع بالمسامير والدبابيس المعدنية. اما الناحية الاخرى للدرع فكانت مبطنة بأغصان جافة مجدولة . ويحيط بحافتها أطار خشبي مغطى بالجلد على طريقة الدروع الرومانية والاغريقية

وكان شكل الدرع المصرية مشابهاً لالواح الموتى التي تحفظ في المقابر والتي عثر عليها في القبور، مستديرة من اعلاها ومربعة من اسفلها تنتفخ قليلاً عند القمة . وبالقرب من الجزء العلوي لسطح الدرع الخارجي كانت توجد تجويفة مستديرة في محل السُرَّة. وكانت هذه التجويفة اعمق في الاجناب منها في الجزء المركزي وسطح هذا الجزء كان مع مستوى سطح الدرع تقريباً. ويصعب معرفة الغرض الحقيقي من صنع هذا الجزء على هذا النمط وهل لهُ فائدة دفاعية او هجومية. وكان يثبَّت في السطح الداخلي للدرع «علاَّقة» لتعلق بها حول الرقبة وكانت هذه العلاَّقة تعمل احياناً بكيفية يسهل معها ادخال الذراع فيها والقبض على الحربة وكان للدرع احياناً قبضة يسهل بها تحريك الدرع في اي اتجاه . وكانت هذه القبضة تركب اما تركيباً عموديًّا واما تركيباً افقيًّا على الدروع

وقد شوهدت على جدران الآثار القديمة ما عدا مقابر بني حسن نماذج اخرى من الدروع تختلف عما سبق وصفه ويغلب على الظن ان هذه كانت تستخدمها الجنود المستأجرة فقط

وكان لبعض الدروع المصرية مقاسات كبيرة غير مألوفة . اختلفت في شكلها عن الدروع العادية فكانت محدبة من القمة على اسلوب العقود القوطية وذات حجم كبير يصعب استخدامها بسهولة

لنقلها . وقد شوهد هذا النوع من الدروع في مقبرة بعض حفريات اسيوط «ليكوبوليس» ولاشك انهُ كان من الامور الاولية التي تراعى في صناعة الدروع خفة موادها لسهولة حملها في السير الطويل وفي ميادين القتال ونشك في انها كانت مغطاة بأي نوع من المعادن

القوس

كانت القوس المصرية تشابه القوس الاوربية التي استعملت قبل عصر البارود . وكان الوتر يثبت اما في جزء بارز مصنوع من القرن في نهايتي القوس أو يثبت في خدش أو حز في خشب القوس من نهايتيهِ على غير طريقة تثبيت الوتر عند الاسيويين الذين كانوا يثبتونه في خابورين بطرفي رأسي القوس المستديرين

واتبع الاثيوبيون والليبيون وقد اشتهروا بمهارتهم في رماية النبال طريقة المصريين في تثبيت الوتر وكانت قوسهم مشابهة في الهيئة والحجم لقوس جيرانهم

كانت القوس المصرية قطعة اسطوانية من الخشب طولها خمس اقدام أو اكثر بنصف قدم. وهي أما مستقيمة مدببة الطرفين أو مقعرة الوسط عند ما لا تكون مشدودة ، وفي بعض الاحيان كانت تلتصق بها قطعتان من الجلد فوق منتصفها بقليل وتحتها

واذا أريد تثبيت الوتر ركزت نهاية القوس في الارض وضغطت الركبة على الجانب الداخلي من القوس بينما تجذب اليد اليسرى القوس الى الداخل وتدخل اليد الاخرى الوتر في الحز العلوي للقوس. وكان الجندي يجري هذه العملية اما وهو واقف واما وهو جالس على مقعد كما يستطيع تثبيته بينما يضعه مقلوباً فوق كتفه . وفي اثناء الرماية كان الجندي يضع واقية وقاية من الجلد على ذراعه اليسرى لكي لا تصاب بالوتر عند ارتداده او كانت تلف أيضاً حول المعصم . ويسحب الوتر بجذبه بشدة نحو الجسم بواسطة الاصبعين السبابة والابهام وتفرد اليد اليسرى الى نهايتها ويصوّب السهم نحو الهدف

وكان الوتر المصري يصنع من الجلد أو القماش الكتاني أو القنب او امعاء الهررة بعد تجفيفها . واختلفت الأسهم طولاً من ٢٢ الى ٣٤ بوصة بعضها صنع من الخشب والبعض من القصب . وفي غالب الاحيان كانت مغطاة برأس معدنية تحف بها من كلا جانبيها ثلاث رياش مغراة وموزعة بالتساوي واستبدلت أحياناً الرأس المعدنية بقطعة مدببة من الخشب القوي . وكانت هذه ضعيفة التأثير في الحرب فقصر استعمالها على الصيد والقنص والالعاب . واستبدلت القطعة المعدنية بأخرى من حجر الظران المدبب

وكان يحمل القواس جعبة مستطيلة قطرها أربع بوصات تسع عدداً وافراً من الأسهم يثبتها الجندي في حزامه المار فوق صدره الى الجانب المقابل على خلاف طريقة الاغريق الذين كانوا يضعونه فوق اكتافهم . وكان المصريون في اثناء السير يضعون جعبة السهام هذا الوضع . وكان للجعبة

غطاء مزخرف عليه رأس أسد اذا كان صاحبها من كبار القواد . وكان الغطاء يثبت في العلبة بواسطة عروة من الجلد لكي لا يفقد عند فتح الجعبة اثناء الاقتتال . وكان للقوس علبة تحميها من الشمس والرطوبة وتحفظ لها مرونتها . وكان لهذه العلبة غطاء من الجلد الناعم مثبتاً بعناية في نهايتها العلوية . وكانت تركب دائماً في العربة الحربية ويقابلها في الجانب الآخر من العربة علبة كبيرة أخرى تحتوي على رمحين وعدد من السهام فضلاً عن العلبة (الجعبة) السابق ذكرها المثبتة حول وسط الجندي

وكان جنود سلاح القوّاسة المشاة يجهزون بغمد صغير للقوس مصنوع من الجلد ويلف حول القوس ويمسك اثناء السير . وبجانب القوس وهو السلاح الرئيسي في حالة الهجوم كانوا يحملون كجنود سلاح القوّاسة الخيالة الذين يحاربون في العربات الحربية خنجراً وعصا مقوسة وصولجاناً وبلطة للالتحام عند ما تنفد سهامهم . وكانت اسلحتهم الدفاعية تشتمل على الخوذة أو واقية الرأس وسترة معدنية . لكن الجنود كانوا لا يحملون الدروع لانها تعرقل استخدامهم للقوس بحرية تامة

الرمح

كان يصنع الرمح او المنخس من الخشب بطول خمس اقدام ، او ستّ ، ورأس معدنية يدخل اليها ساق الرمح ويثبت بالمسامير

أما الجريدة Javelin فكانت اخف من الرمح واقصر . وكانت تصنع من الخشب ورأسها مزدوجة الحرفين من المعدن ذات شكل معين . فإما ان تكون مفرطحة واما ان يزيد سمكها قليلاً من الوسط أو مدببة جدًّا من حرفها . وكان الطرف الاخير ينتهي بكرة ثقيلة من البرونز لتجميلها وتساعد على توازنها . وكانت تستعمل احياناً مكان الحربة فتقبض عليها كلتا اليدين في حالة الاشتباك القريب . وقد وجدت اشكال كثيرة من الجريدة صنعت من القصب الصيد لا داعي لوصفها هنا

المقلاع

صنع المقلاع من عروة جلدية او حبل مضفّر عريض من الوسط له خيّة حلقة (خية) Loop في احد طرفيه تثبت به وتقبض بشدة باليد . اما الطرف الآخر فينتهي بسوط . وعند استعمال المقلاع كان يدار مرتين او ثلاثاً فوق الرأس لموازنته ولزيادة قوته الدافعة . وكان الاغريق لا ينظرون الى المقلاع كسلاح من الاسلحة المحترمة التي تحملها المشاة الثقيلة وان كانت تستخدمه المشاة الخفيفة . وقد ذكر المستر كورتيس كيف ان اسكندر المقدوني لما اراد تصوير جندي فار من جنود الاعداء امر مصوره ان يجعل هذا الجندي مسلحاً بالجريدة والمقلاع . وكانت ذخيرة المقلاع الحصى الصغير والحجارة المدببة او المستديرة وكانت توضع في حقيبة صغيرة تعلق في حزام الوسط

السيف

كان السيف المصري مستقيماً وقصيراً يتباين طوله من قدمين ونصف قدم الى ثلاث اقدام . له

سن مزدوج ومدبب الطرف . وكان يحمل السيف ورأسه الى اسفل ويستخدم كالخنجر وكانت القبضة بسيطة الصنع منتصفها مجوّف تزداد سمكاً بالتدريج من مكان اتصالها بالنصل الى نهايتها وكانت ترصع احياناً بالاحجار الثمينة او الاخشاب النفيسة او المعادن. وكان لسيف الملك رأس او رأسان تصنعان على شكل صقر رمز المعبود رع او الشمس . ويمكن ان نضع الخنجر مع السيف القصير لتشابههما تقريباً مع ان الاول كان اقصر من الثاني. وكانت قبضة الخنجر كقبضة السيف مرصعة بالجواهر. وكان النصل من البرونز السميك من الوسط وله حز خفيف يمتد بين طرفيه . وفي متحف برلين خنجر مصري قديم بغمده عثر عليه الأثري « باسالاكوا » في احدى حفريات طيبة منذ نصف قرن او اكثر . وهو يمثل تمثيلاً واضحاً صناعة الاسلحة عند قدماء المصريين

المدية

اما المدية فكانت اقصر من السيف ذات حرف (نصل) واحد وقد استخدمت للقطع فقط وكانت تحملها جنود الاسلحة الخفيفة والثقيلة على السواء

السيف القصير Falchion

وكان الضباط والجنود يحملون ضمن اسلحتهم سيفاً قصيراً وفي كثير من النقوش يرى ملك مصر مشتبكاً مع العدو وهو يحمله ومعه البلطة ذات اليد القصيرة او النبوت (الصولجان) وكثيراً ما شوهد ضباط الجيش المصري القديم وهم يحملون العصي الخفيفة كالتي يحملها ضباط اليوم . أما في اثناء قيادتهم للجند للاشتباك فكانت اسلحتهم كأسلحة الملك عند ما يحارب على قدميه . وفي حرب العربات كانوا يسلحون بالقوس

البلطة ذات اليد القصيرة

وكانت البلطة صغيرة الحجم بسيطة الصناعة لا يزيد طولها على قدمين ونصف قدم . لها نصل واحد . ولم تر بلطة مصرية ذات نصلين كما كانت عند الرومان . وشكل هذه البلطة يشبه شكل البلطة التي يستعملها النجار المصري ولم يكن القصد من حملها ان يستعملها الجنود كسلاح هام في الاشتباك بل كانوا يهشمون بها ابواب المدن التي يهاجمونها او يكسّرون الاشجار التي يحتاجون الى خشبها لمعداتهم. وكانت البلطة اقل جميع اسلحة القتال زخرفة وبعضها نقش على نصله صورة حيوان أو قارب او رمز من الرموز الدينية ينتهي في الغالب بقدم غزال. وكان الجندي خلال مسيره يحملها في يده او يعلقها على ظهره . ولم يظهر على النقوش الأثرية هل كان للبلطة غمد ام لا . وكانت أيدي بعض البلطات قصيرة جداً لا تزيد قدماً عن طول النصل. وان كان طولها في الغالب يقرب من ثلاث اقدام

وكان شكل النصل في الغالب نصف دائري وقد تفنن الصناع في نقشه ورسمه

الصولجان

ومن اسلحة المصريين الصولجان الخشبي . كان يحاط باسلاك البرونز . طوله قدمان ونصف قدم. تشتبك في احدى نهايتيهِ قطعة مثلثة من المعدن تسمى الحارس لتحكيم اليد فوقها حتى لا تفلت عفواً اثناء الضرب . له كرة معدنية تضرب بها الخوذات والدروع . وكانت تسلح بهِ الجنود المشاة او جنود العربات الحربيــة الذين كانوا يحملون صولجانين معهم يعلقان على جانبي العربة . وكان للصولجان شأن كبير عند اشتباك فريقي المعركة فتظهر البسالة بأجلى مظهر لان فرقة من الجنود الشجعان حملة القضبان يستطيعون ارباك العدو وتحطيم قواه بسرعة عجيبة

وكان لدى المصريين نوع آخر من الصوالجة منتظم السمك في طوله الكامل عريض في نهايتهِ العليا وليست له كرة او حارس . وكانت العصي المقوسة او النبابيت (اللسان) تستعملها جنود الاسلحة الخفيفة او الثقيلة وحملة الاقواس . وهذه العصي وان كانت تظهر لاول وهلة كسلاح عديم الفائدة لكن التجارب اثبتت انها تفي بالغرض اثناء الالتحام . وكانت قبائل البشاريين الى عهد قريب تستعمل العصي بدلاً من السيوف

اسلحة بعض الفرق

وكان جنود الاسلحــة الثقيلة مجهزين بالدروع والحراب وبعضهم يحملون الدروع والصوالجة والبعض يحملون بلط القتال والدروع ومنها احياناً السيف والعصا المقوسة (اللسان) والعصا العادية

والجنود الخفيفة الذين ليسوا من رماة النبال كانوا مسلحين بنفس الاسلحة لكن اسلحتهم الواقية كانت اخف . اما اسلحة الخيالة المصرية فلم نعثر على مصادر تسهل الكلام عليها. والآن ننتقل الى وصف العربة الحربية التي كانت عنصراً هاماً في الجيش المصري

العربة الحربية Chariot

كانت تسع العربة راكبين على مثال العربة الاغريقية Diphros وتسع احياناً ثلاثة : السائق وقائدين . لكن كان ذلك نادراً ولم يشاهد الا عند ما كان الملك يصطحب اميرين في بعض الحفلات احدهما يحمل الصولجان الملكي او الفلابيلا Flabella والآخر يقود العربة

وفي القتال كان كل ضابط يركب عربته ومعهُ سائقهُ وتعلق خلفه العلامة المميزة له على حزام عريض ويكون حراً في استعمال يديهِ للقوس والاسلحة الاخرى . وعند ما يخرج الملك او احد الزعماء بقصد النزهة او لزيارة صديق يستقل عربتهُ وحده ليقودها بنفسهِ وامامهُ تجري السوّاس . فاذا وقفت العربة قبضوا على السروع (جمع سرع مولّدة لسير اللجام) ويأخذون جياد العربة لتسييرها حتى عودة السيد . وكنت ترى دائماً في المعركة هؤلاء الاتباع على استعداد لاية اشارة . فاذا نزل قائد من عربته لقيادة جنوده فوق تل او مرتفع لا تستطيع العربة تسلّقهُ او عند حصار مدينة محصنة

اسرع هؤلاء الاتباع الى الجياد وأخذوها الى مكان أمين حتى عودة سيدهم . او تبعوه عن كثب . وفي الغالب كان يوجد فريق آخر من العربات في مؤخرة الجيش لاستبدال العربات المتقدمة عند حدوث مفاجاءات او عند ما تضطره الاحوال العسكرية للتقهقر

ويرى الملك في المشاهد العسكرية المنقوشة على جدران المعابد المصرية راكباً جواده او في عربته وليس معهُ سائق . والسروع ملفوفة حول وسطه . ويرى كذلك وهو يحني قوسهُ ضد الاعداء . ويحتمل ان الفنان المصري تعمد عدم اظهار السائق بجانب الملك لاعتبارات فنية ولكي يظهر الملك وحده واضحاً على الآثار . واشتملت العربة الحربية على راكبين من درجة واحدة يشتركان معاً في خطر القتال ومجده . فاذا كان سائق العربة الملازم للقائد لا يحمل رتبة عالية كان يعد تعيينه لهذا العمل فخراً وامتيازاً . وفي الغالب كان لا يملأ هذه المناصب الا اصحاب الاخلاق الحميدة والمنزلة الرفيعة والذين كانوا اهلاً لا كتساب الشرف لملازمتهم ابناء الملوك والامراء والقواد . وكان اكثر الضباط المصريين ماهرين في قيادة عرباتهم الحربية لا يحتاجون الى من يقود لهم عرباتهم وكانوا يعتبرون ذلك فخراً لهم ودليلاً على مهارتهم في استعمال اسلحتهم اثناء قيادتهم للعربة

العربة الحربية في المعركة

استعمل المصريون السوط كأبطال هوميروس في ملحمته الخالدة واستعملوا احياناً العصي القصيرة . وكان السوط عبارة عن قبضة مستديرة من الخشب الناعم لهُ عروتان احداهما في اعلاه والاخرى في اسفله ولهُ قدة من الجلد او قطعة من الحبل طولها قدمان . يستطيع الجندي ان يعلقهُ من احدى عروتيه في اسفله بينما يستعمل قوسهُ او رمحهُ بسهولة

وعند ما يقابل احد الابطال زعيماً من الاعداء كان يترجل في الحال لينازله بقوة جسمه وبيده بدلاً من القوس او الرمح او البلطة كما كان يفعل الاغريق واهالي طرواده . فاذا تغلب عليه وقتله جردت جثتهُ من الاسلحة . فاذا جرح واصبح غير قادر على المقاومة واستسلم طالباً الرحمة نقل من الميدان في عربة حربية . اما باقي الاسرى الذين يسلمون اسلحتهم ويقدمون انفسهم فكانوا يعاملون معاملة اسرى حرب ويرسلون الى مؤخرة الجيش تحت الحراسة لتقديمهم الى الملك ثم يشتركون فيما بعد في حفلات النصر بعد انتهاء الحرب . وكانت تعد ايدي القتلى من جند الاعداء امام الملك وتسجل اعدادهم رسمياً بواسطة المسجلين . ويذكر عددهم تمجيداً لذكر حكم الملك . وترى مشاهد الاسرى امام الملك على جدران مدينة هابو بطيبة . والصورة الكبيرة المنقوشة على الفناء الداخلي من هذا المعبد العظيم تمثل الملك رمسيس جالساً في عربته وامامهُ المسجل يأخذ ايدي القتلى ليضعهم في كوم كبير ويعدهم يداً بعد يد

ويستدل من مكان الملك في تلك اللوحة على انهُ من المحتمل ان كان للعربة المصرية مقعد وان كانت اكثر النقوش لا تظهر مقعداً في العربة فكان الجالس يركب على الحرف الامامي او الجانبي

فيها وكانت ارض العربة المصرية مصنوعة من اطار مثبت فيهِ شبكة متينة من الاغصان الجافة او الحبال كشبكة قوية تقاوم ضغط راكبيها وتكون لينة تحميهم اثناء الجري

ولاشك ان العربة المصرية كانت تصنع من الخشب كما اثبتت النقوش العديدة التي يستدل منها على صناعة اجزاء العربة وادوات النسل والقطع التي استعملها الصناع القدماء

وكان جسم العربة خفيفاً جدًّا يتركب من اطار خشبي منقوش ومزخرف بقطع معدنية اومكسوّ بالجلد يفوق في ذلك اكثر العربات التي وصفها هوميروس. وكان قعر العربة الذي يقف عليهِ الجندي مستوياً مكوناً من قطعة واحدة او من جرائد مفتولة ترتكز على العريش بعد اتصاله بخشب محور عجلتي العربة لتستطيع المحافظة على توازنها وسهولة تحركها وحدها من دون ان تنقلب ولكي لا يكسر العريش. وفي هذه الحالة يكون الثقل موزعاً بين العجلات والجياد. ولم تكن العربة ثقيلة الحمل فان جنديًّا واحداً كان يستطيع حملها بسهولة اذا حمل آخر متاع الجياد. وفي حالة ركوب اثنين لم يكن من الصعب على جوادين شد العربة والجري بها. وكان لكل عربة مسند او قائم متوسط الارتفاع ليتكيء فوقها العريش عند ما تؤخذ الجياد بعيداً فلا يقع العريش على الارض. وكان هذا القائم على شكل انسان يمثل اسيراً من الاعداء

قلنا ان اكثر اجزاء اجناب العربة وظهرها كانت مكشوفة. وهذا الجزء الاخير لم يكن له أطار أو حرف لمنع الجندي من السقوط الفجائي. وكانت تُعلق على احد الجانبين جعبة السهام او علبة القوس محلاة بالنقوش والزخارف تعلوها صورة اسد وتوضع الجعبة مائلة متجهة الى الامام. ولا يتسع المقام هنا لتفصيل عمل كل من النجار والحداد وصانع الجلود ...هؤلاء الثلاثة الذين اشتركوا في صناعة العجلات الحربية. وكان لكل عجلة ستة «برامق spokes» اسطوانية وكان للعجلات المستعملة في الشؤون المدنية او العربات الخاصة المستعملة في داخل المدن اربعة «برامق» فقط. وكانت تثبت العجلة في نهاية المحور بواسطة (شيوى) او خابور لهاحياناً رأس مزخرفة وله (تيلة) متينة تمنع انزلاق العجلة من محورها ولم تشاهد على الآثار عربات لها اكثر من عجلتين. ولم يكن للعربات المصرية حاجز لوقاية راكبها من الامام او الاجناب

لم ترَ عربات مصرية يجرها اكثر من جوادين وان كان بعض اعداء المصريين استعملوا العربات التي تجرها اربعة جياد. وكان فيلق العربات المصرية كالمشاة مقسماً الى جنود خفيفة وثقيلة وكلاهما مسلح بالأقواس فالاول هو سلاح العربات الخفيفة فكان يستخدم لازعاج العدو بمقذوفات الحجارة ولذلك كان يستلزم خفة الحركة. اما الثاني وهو سلاح العربات الثقيلة فكان يستخدم لتفريق شمل الجماعات الكثيفة من مشاة الاعداء بعد امطارهم بوابل من السهام الثقيلة

نماذج من الاسلحة المصرية بالمتحف

واننا لنشاهد كثيراً من انواع الاسلحة القديمة معروضة في ابهاء المتحف المصري. فيرى

الزائر مجموعة من اسلحة الظران (الصوان) التي ترجع الى عصور قبل التاريخ في مصر . كما يشاهد مجموعة اخرى من العصي والحراب والبلط والخناجر والعصي المعقوف التي ترمى بها الطيور ومقابض للتروس (ارقام المتحف المصري ٦١٠٠ A, B)

وبين مكتشفات مقبرة توت عنخ آمون يشاهد هيكل مركبة حربية من خشب مذهب ومزين برسوم بارزة ومطعم بشرائط من الزجاج المختلف الالوان . وفي الوسط «خراطيش» الملك والملكة يحملها صقر باسط جناحيه وبين قمة المركبة وحافتها الخارجية جملة رسوم تمثل ستة من الاسرى الزنوج والاسيويين . وبالقرب من هذه العربة يشاهد الزائر مركبة اخرى عليها شارة الملك على شكل ابي الهول يطأ اسراهُ بأقدامهِ ويرى ايضاً اربعة سروج من عدة الجياد التي كانت تجر العربات وقد ازدان زوج منها برأسين مذهبتين للاله «بس» (١٠٥—١٠٨)

وتحتوي مكتشفات مقبرة هذا الملك الشاب على مجموعة جميلة من الاقواس المطعَّمة والمكسوة بالذهب والعصي الخشبية المزركشة برقائق الذهب والصوالجة والاقواس والمدى والسكاكين والسهام التي لا يزال كثير منها محافظاً على رياشه ، ونصالها مختلفة المواد والاشكال . فنها ما هو مصنوع من البرونز على شكل كمثرى او رصاصة ومنها ما هو مصنوع من الزجاج او له اسنة من العاج او من الخشب . ومنها ما هو مدبب او مخروطي النصل للعب

« اطقم » الجياد

ويستطيع القارىء بعد زيارة معروضات بلاد النوبة في المتحف المصري ان يستخرج صورة كاملة للاطقم والحلى التي كانت تزين رؤوس الجياد . فقد كانت تصنع من الحديد او النحاس او الفضة المطعمة بالاحجار الكريمة التي لا يمكن تمييزها عن الصناعة الحديثة التي نشاهدها اليوم . ولا يمكن تمييز الاجزاء التي يتألف منها الطقم الذي صنع في مصر القديمة من الطقم الذي يخرجه احدث مصنع في هذه الايام تناسقاً وتنسيقاً ودقة . كذلك لا تختلف الاجزاء الجلدية من السرج القديم عن السرج الحديث . فالقرطمة والسروع والركابات واللجم لم تتغير منذ القدم . وكانت للجواد مكانة عزيزة لدى سيده . فاذا فارق السيد الحياة زين جواده بأحلى اطقمه واقتيد الى مدفن مولاه لينفق ثم يدفن في غرفة ملاصقة للقبر . وكانت الجياد تدلل بالنواقيس النحاسية الصغيرة والخرز الملون والعقود الجميلة على الاسلوب الذي تدلل بها جياد اليوم

المراجع

١ — تاريخ مصر للعلامة برستيد وترجمة الدكتور حسن بك كمال
2 — Manners and Customs of the Ancient Egyptians by "Wilkinson" 3 Vols,
3 — Life in Ancient Egypt. by "Erman"
4 — Die Bewaffnung des alt agyptischen Heeres. by Wolf.

خليل شيبوب

البنفسج

قد التحفت اوراقها وتطأمنت ... على نفسها في رقة وتواضع
مكحلة الاجفان يقضي حياؤها ... عليها باغضاء اللحاظ الخواشع
فتكسرها في غمزةٍ ثبتت بها ... محيرةٍ في ناظر غير دامع
وتثني من الاشفاق جيداً منعماً ... يميل باطراق الحيي الممانع
فيطمعنا فيها اريجُ عَرفها ... وربَّ عفافٍ كان أغوى لطامع
مجاورة ترباً غذاها ولم تزل ... تحنُّ اليهِ وهو قيد اصابع
كأن لها ذكر الجميل فريضة ... تردّدها في صمتها المتتابع
لذن باسقات الدوح ترفع هامها ... موليةً عنه الى كل رافع
وهل كبرياء الدوح تعدل نظرةً ... لمسومةٍ في ثوبها المتواضع
بنفسجة قد أسكرت كلَّ ناشقٍ ... كما بهرت باللطف كل مطالع
منمنمة في الروض قامت متيمة ... بمكحول جفنيها طرازَ الوشائع
محببة ان زيّنت صدرَ حاملٍ ... حمت ذوقهُ من صارخ اللون فاقع
كأنّ بها في معرض الزهو خجلةً ... تردُّ طموح الثائر المتدافع
ضحية لهو في الزمان ونزوةٍ ... تزيد بها نوراً على كل ساطع

***

أيا رمزَ نفسي في الحياة تحيةً ... تحاكي هتافَ النائحات السواجع
اردِّدها في لاعج اليأس كاظماً ... على غلّةٍ تذكي حنايا الاضالع
لعمرك كم سامي الذرى كشفتْ له ... ذراهُ عيوباً كنَّ حليةَ واضع
وكم وادعٍ في لطفهِ متطامنٍ ... على نفسهِ أعلتهُ رقّةُ وادع
وأكثر هذا الناس زهرٌ بلا شذا ... ومرأى بلا لونٍ ووَقرٌ مسامع
هناك كنوزٌ لا تباح لهم ولا ... يقودُ اليها فضلُ شافٍ وشافع
غنى عنهم في العمر تشعيرهم بهِ ... وإن بقيت مغمورة نفسُ قانع

سطور زرق

رعشة البحر ووجهه وحديثه واصواته

لراجي الراعي

وقفت امام البحر اسأل عن رعشته واحلّل معانيها
لماذا يرتعش البحر ؟؟
أهو يرى نفسه على رحابته وعظمته سجيناً في مكان رُسم لهُ في الارض لا يستطيع ان يفلت من قضبانه ليهجم على اليابسة عدوّته الازلية ويغمرها فيرتعش رعشة الاسد السجين الذي يرى امامه قطعاناً يمكنهُ ان يفترسها ولكن الحديد يقف بينهُ وبين مطامعه ، رعشة القوي الشاعر بقوته ولكنهُ لا يستطيع ان يمارسها . .
ام هو يشعر بجريمته عندما يمرّ على بقايا الابطال من غرقاه فيرتعش رعشة الخاطىء الذي حالف الموت فاعطاه في اعماق الماء مكاناً يلقي فيها بعض الخلائق التي حصدتها مناجله وضاقت بها الاضرحة ...
ام هو يضنّ بدرره المستقرة في قلبه ويخاف عليها من حيتانه فيرتعش رعشة الغني امام الايدي الجريئة التي تمتد حول خزائنه الغاصة بذهبها الموفور الدفين ...
ام هو نبيٌّ يرى كل يوم بعين النبوّة يومه الاخير الذي يسدل فيهِ على روايته ستارها الازرق ويعود الى اليابسة فيرتعش رعشة الحيّ المتشبّث بيومه الخائف من غده ...

ام هو شاعر عبقري روحاني نوراني خلق ليعيش في عالمه الخاص بين افكاره واحلامه وعواطفه بعيداً عن الانسان والانسانية قريباً من نفسه ومن خالقه وليكون جزيرة بارزة مستقلة عن التراب وابنائه في بحر الوجود ، يرى نفسه مُلكاً لسواهُ وساحة عامة يطأها كل عابر وصدراً مفتوح الرئتين والقلب والضلوع تشقّه السفن والدارعات والطرادات والنسّافات على مختلف اسمائها والوانها وتنفث فيه دخانها وتصيح صيحاتها وتلقي مراسيها فيرتعش رعشة العبقرية التي أقامت لنفسها الهياكل العاجية فاستبيح حماها واسودّ عاجها ، رعشة الشاعرية التي سُدلت الستار على آلهتها فمزّقتها الايدي القاسية الاثيمة ...

ام هو يرى في مائهِ تلك الدموع التي التقطها من العيون الباكية وانهُ من اجل ذلك يجسّم اليأس وان كل كئيب يصبّ فيه ثمالة كأسه وانهُ مجموعة الثمالات في كأس واحدة ومجموعة الدموع في عين واحدة فترتمش فيهِ الوهية الالم التي اتخذته لها معبداً . . .

ام هو يحدق بالههِ « نبتون » ويؤمن بانهُ اله الآلهة فيرتعش رعشة العبادة والايمان . . .

ام هو بين موجته المجنونة وغايته المجهولة رجل اضاع عقله فارتعش رعشة المجنون . . .

ام هو يرى الزبد في موجته خمرة في فه فيرتعش رعشة الثمل . . .

ام هو المرأة المرأة ذات العينين الزرقاوين والقامة التي هي اطول من قامات النساء جيعهن مندغمات في قامة واحدة ، يراها « كوبيد » اله الحب منتهى حبه واطار خيالهِ فيمسح بثوبها الازرق دم كل سهم من سهامه بعد ان يرمي بها المشاق فترتعش الرعشة الكبرى ، رعشة الرعشات ، الرعشة التي يرى فيها كل جميل حبه وكل جميلة وجهها الساحر وقلبها الخفاق . . .

لا أدري لماذا يرتعش البحر ولا هو يدري ، هو البحر ومع ذلك فهو لا يعرف نفسه ولعله لا يعرف نفسهُ لانهُ البحر . . .

ان رعشته هي سرّه ، سر قوته ، سر الهته ، هي عينه الناظرة واذنه السامعة وفه الناطق ، هي روحه بل هي كل شيء فيه وهو يجهلها لان عظمته تمادت ومجده علا الى حيث لا يراها . . . ومن بلايا الانسانية أن صغيرها وكبيرها يجهلان نفسيهما فالصغير لا يرى في صغره لنفسه وجهاً والكبير يرى نفسه في كبره واتساع خياله على صور وألوان عديدة يضيع بينها فلا يدري ايها يختار . . .

البحر مرآة رأيت فيها وجوهاً لم أرها في مرآة ورأيت هذه الوجوه تواكبها ذكريات بعيدة

رأيت أبانا القديم نوح يختال بفلكه على اليمّ وعلى رؤوس الغرقى ثم يستقر على سفح جبل ارارط فسألت نفسي : أين استحق نوح تلك المزايا الفريدة التي اصطفاه من اجلها الله فأغرق الخلائق وابقاه حيًّا ، سألت هذا السؤال لكي أنسج على منوال ذاك الرجل

البار العظيم فأنال حظوة في عيني الرب عند ما تطفح الكيل ويبلغ سيل الخطايا ربى الخليقة فتغمر الخليقة بطوفان آخر . . .

ووثبت فوق القرون وثبة هائلة رمتني تحت اقدام المسيح فرأيته يمشي على الماء وحييته باسم الوداعة والتقى والحلم والصبر والالم والاستشهاد والرحمة والعدل والحكمة وفتحت كتاب التضحية واخذت اقرأ سير الشهداء وتخيلت على كل موجة صليباً . . .

ورأيت الفراعنة يتتبعون آثار موسى السائر الى ارض ميماده فتتفرق جيوشهم وخيولهم وأعلامهم فقلت : أين هم الظلاّم المستبدون يرون دماء ضحاياهم في هذا البحر الاحمر وهل يشعرون ان لكل منهم بحره الاحمر يفرقه باسم الضعيف المظلوم وباسم الحرية المسجونة . . . .

وسمعت اصواتاً طنّانة صخّابة متناقضة تخرج من اعماق البحر فتتجاوب اصداؤها في اودية كياني ، وللبحر كلماته وقاموسه ولغته واحساسه وخواطره . . .

سمعت صوتاً يقول لي : انظر اليّ كيف تتلاقى في ساحتي جميع قوات الارض والسماء كأنها على موعد في بيتي وكيف تشق عبابي السفينة ويلعب باحشائي الغوّاص وكيف يرتد عني الطرف وهو كليل ، انظر وكن مثلي صبوراً رحب الصدر بعيد المطامح واسع الخيال . . . .

وسمعت صوتاً آخر يقول :

صارع صخورك كموجاتي فالحياة جهاد مستديم وأنا عنوان هذا الجهاد ، كن مثلي وثّاباً دائماً وأبداً واذا استرحت من وثبة الامس فلتكن راحتك تأهباً لوثبة الغد . .

وقال صوت ثالث :

أنا مع عظمتي ورحابتي رجل اسير تقيّده شواطئه التي لايستطيع ان يجاوزها فاذكر دائماً وابداً انك مهما علوت وعظمت وشمخت وحملت الصوالجة وركبت العروش لا تستطيع ان تكون حرّاً ، واذكر دائماً وابداً ان الغاية من الحياة انما هي السعي طيلة ايامك ولياليك المعدودة للتملص من ربقة الشاطىء الذي يقف في طريق نفسك المائجة فيمنعها من ان تنبسط بكليتها وتتجلّى بكل ما فيها من انوار ونيران فتحقّق جميع احلامها وتسكب جميع خمورها في كأس الخليقة . . .

وقال لي صوت رابع :

انا رجل وادع ثائر ، عاقل مجنون تراني يوماً ليّن الملمس كالحرير مصقولاً كالمرآة ويوماً فاغراً فماً فيه نيوب الليوث وباسطاً يداً تحمل اشدّ البراثن فتكاً فكان رأسي يحمل وجهين وجه الحياة ووجه الموت فكن مثلي حكيماً وافرق بين نداك وسيفك فلا تضع احداهما مكان الآخر . . .

وارتفع صوت خامس يقول :

ايها المشرف على عالمنا المتفرس في حياتنا البحرية انظر اليّ انا السمكة الصغيرة تبتلعني السمكة الكبيرة لانها القوة ولانني الضعف ، واليك اشكوها ايها الانسان فهل لك ان تحوّل بطشها عني وتضع في قلبها شيئاً من الرحمة والحنان ، فقلت لها : ايتها المستجيرة بي ، ان ما بك في الماء هو ما بنا على الشاطىء ، نحن اسماك الارض يأكل كبيرنا صغيرنا ويقتل قويّنا ضعيفنا فسيف القوة مصلت في البرّ والبحر وكأن الاقوياء فيهما يؤلفون عصبة واحدة ويتنادون فكلما ربح الظلم فريسة في بطن الماء ربح مثلها على سطح الارض — الظلم يا سمكتي الصغيرة قديم والظلم في كل مكان فلا تحسدي ابناء الارض ولا تحسبي انك اذا خرجتِ من الماء افلتّ من قبضة الاقوياء ...

ودُرتُ حول البحر اسأله : هل هناك ما يشبهك في الارض فحنى رأسهُ متواضعاً وقال نعم : تشبهني الصحارى ولكنها بحور جامدة والليالي ولكنها بحور سود . .

وسألتهُ : كيف انت والافق فقال : نحن شقيقان لفظتنا احشاء امرأة واحدة هي الطبيعة والصلات التي تجمعنا عديدة فلوننا واحد هو الزرقة وجيوشنا لا تعدّ ولا تحصى فللافق نجومه ولي موجاتي ، وكلانا رمز العظمة واللانهاية ولكل منا وجههُ الغضوب فللافق صاعقته التي يعطس بها انفه ولي بركاني الثائر على شاطئي ، وفي قلبينا تستقر الدرر ...

وسألتهُ : كيف انت والصياد فقال بلهجة الفائز : انني آخذ اكثر مما اعطي ، ان غرقاي الذين اغنمهم اوفر عدداً من الاسماك التي يغنمونها مني ...

وسألته هل انت رجل عصاميّ ايها البحر فاجابني متأسفاً : ان عيبي الوحيد هو انني استعير مجدي وقوتي من سواي فلولا تلك الينابيع والانهار والجداول لم اكن ، انها تموت فيّ لأحيا وتصبّ فيّ كنوزها لأصبح مثرياً ، انها تعطيني حنينها لا تجبر وتضع في صدري الواحد الملايين من القلوب ليظلّ نابضاً الى الابد ، انا كالقمر يستعير

نوره من الشمس ولولاها لم يكن القمر : انا البحر ولكنني رجل مدين لا استطيع ان اطلح السحاب بانفي الجبّار ...

وسألته عن البخار لماذا ينفثهُ فه فبدت على وجهه الرحمة وقال : انفثه ليؤلفهُ الافق غماماً ويسكبهُ ماء فيحيي ما يبس في الارض ، انا ابن الحنان ، انا ابن التضامن ، لقنتني امثولته القوى التي تضافرت فولدتني ...

وسألتهُ هل للشعر مكان فيك فاجاب : شاعريتي هي في رعشتي وصور خيالي المتوالية المتعاقبة في هذه الموجات المتعاقبة المتوالية ...

وسألتهُ : كيف انت والظمأ ايها البحر فقال بين الحسرة والدهشة : انا بين ظمأين ظمأي وظمأ الناس فلا في يشرب مائي ولا يرتوي من يشرب مني ...

وسألتهُ عن البراكين التي يثيرها على بعض شواطئه بقوته الدافعة فأجاب : عند ما اغضب الغضبة الكبرى وتعجز الموجة عن ان تسمها اطلق بركاني ومن عجائبي انني اخرج النار من مائي ...

وسألته : كيف انت والجبل فقال : الجبل ضيق وانا فسيح ، الجبل مقطب الجبين وانا طلق المحيا ، الجبل صخرة وأنا رعشة ، الجبل عقل صارم وارادة باطشة وأنا قلب خفاق وشعور صارخ ، واذا كان للجبل عقبانهُ على قمته فلي كنوزي في اعماقي ...

وسألته عن الغزاة الفاتحين فقال :

ان لهم بحورهم ولكنها من دماء وأنا خير منهم فانك لا ترى على جبيني طابع الجريمة ....

وعن الفلاسفة فقال : أنا في كل كرة من كرات شكهم ويقينهم ، انهم يموتون صرعى بين امواجهم التي تغمر كيانهم ...

وعن المنتحرين فقال : انهم يؤثرون موجتي الصارخة على التراب الصامت

وسألته عن هؤلاء العراة الذين يستحمون فيه فهزّ رأسه وقال :

ان مذهب العري ينتشر في العالم ولكن العريان الذي نريده ليس هذا الذي ينزع ثيابه ويستسلم اليَّ ليزداد وزنه ولتقوى معدته واعصابه وانما العريان الحقيقي الذي ننشده هو ذاك الذي ينزع عنه اطمار تقاليده واوهامه التي حملته اياها القرون السالفة فتبدو نفسه حرة جريئة طليقة من قيود الجهل والذل

وسألتهُ : كيف انت والموت فقال : نحن لسانان في فم واحد يوم نغضب

وسألته كيف انت والخيانات فقال : اني اعرفها فكم من عقيدة طرحها في صاحبها ولم يسأل عن غده . . .

وسألته : من هم أعداؤك الالداء فقال : القناعة والبخل والكآبة والعقم . . .

وسألته عن الاحلام فقال : ان نصفها يتلاشى في طيّاتي . . .

وسألته عن الامجاد فقال : انها موجات في بحر الخلود . .

وتماديت في الاسئلة حتى خشيت ان يستهويني البحر فتتلقفني يد من اياديه ولكنني قبل ان تركت الشاطىء وعدت الى صلابة الارض سجدت امام « نبتون » وصليت صلاتي الزرقاء فقلت :

يارب الماء

ضع من قلبك في قلبي فتتّسع دائرته ويغزر دمه ، واضرب بموجاتك الصخور القائمة في طريق خيالي واحلامي

غذّ ارادتي لأحطم كآبتي وضعفي ، وارفعني الى مستواك لأبسط كتابي في العالمين . .

انزع مني الجداول والانهار والبحيرات والسواقي واجعلني بحراً . .

انا من محبيك ايها الاله نبتون ومن المعجبين بعشاتك وصيحاتك فاجعلني من اتباعك وافتح لي صدر الموجة لتضمني اليها . .

افتح عيني لتسعك كلك وافتح اذني لتسمع جميع اصواتك ...

جمّلني بالصبر والحكمة واجعل صدري رحباً ليسع الناس ولؤمهم والأقدار وظلمها

اغرق فيَّ الوجه القبيح من انسانيتي وابق لي وجهها الجميل وزده جمالاً . . .

أغرق صحرائي واجعلني بحراً وخذني أنت لا سواك في يومي الاخير وارحني من وطأة ذلك الحجر البارد الثقيل اللئيم أيها الكريم الرحيم . . .

بيروت راجي الراعي

الدين والثقافة الحاضرة

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

شأن الدين : ان نظرة واحدة اجمالية في تاريخ الدين تدل على الدور العظيم الذي مثلتهُ العقائد الدينية على مسرح الحياة الاجتماعية ، ولا ادلّ على المقام الرفيع الذي يتبوأهُ الدين في قلوب الجماعات — حتى في السنين الاخيرة الطافحة بالشكوك والثورات على انواعها — من هذه الغارة الشعواء التي تشنها الحكومات اللادينية على العقائد الدينية المتأصلة في النفوس لعلها تستطيع ان تزحزحها عن مكانها . ومن اللغو ان يحاول كاتب في التاريخ الحطّ من شأن العامل الديني في التطور الاجتماعي وان يقتصر على العوامل الطبيعية وحدها ، واذا وجد ما يبرّر هذا الموقف في القرن الذي نعيش فيهِ فلن نجد له مبرراً في القرون الخالية ، لان الدين كما قالت « المعلمة البريطانية » قوة دافعة من اعظم القوى ، فقد الّفت هذه القوة الامم ومزّقتها وجمعت الامبراطوريات وفرّقتها واجازت افظع الاعمال المنكرة واوحشها واقسى العادات واخشها والهمت الخلق أنبل الافعال في البطولة والايثار والاخلاص واحدثت اهول الحروب والثورات والاضطهادات وجلبت للناس الحرية والسعادة والسلام ، وكانت في بعض الايام نصيرة الاستبداد وفي بعضها الآخر محطمة قيود الاستعباد، وكانت حيناً من الزمن اساساً متيناً لمدنية جديدة لامعة برّاقة ثم كانت للتقدم والعلم والفن خصماً عنيداً وعقبةً كؤوداً

البحث العلمي والعقيدة الدينية : اننا على اتم وفاق مع « الموجز في الاجتماع » عند قوله :[1] لادخل للمباحث المتعلقة باصل الدين في المسألة الآتية وهي : هل كان ثمت وحي استطاع بفضله الانسان ان يعرف ربه ؟ فالبحث العلمي الفلسفي عن اصل الشعور الديني هو غير البحث في قولنا هل اظهر الله ارادته للخلق واطلعهم على مشيئتهِ ؟ ويهمنا كثيراً ان نعرف ما هي الاحوال الطبيعية التي احاطت بالانسان الاول حتى زرعت في نفسه الشعور الديني وساقتهُ الى العبادة وسائر الشعائر الدينية وهنالك شبه اجماع على ان الدين ظاهرة اجتماعية تلازم الجمعية البشرية كما تلازمها الظواهر الاخرى فحيثما تألف مجتمع من الافراد فمن لوازمه الاولية ظهور الاوضاع الاساسية من نظام وحكومة وادارةٍ واقتصاد وعقيدة دينية

وقد اجاد الاستاذ مائيوس في قوله[2] ومع كل الفروق البدهية التي تميز اديان الناس بعضها

---

(١) Outline of Modern Knowledge, p. 49 (٢) Outline of Sociology. p. 252

عن بعض ، وما لهذه الفروق من قيم متنوعة ، فالدين شيء اكبر من اي دين خاص بعينه، وهو يضع على بساط البحث قضايا سابقة لكل قضية تنشأ عن التعاليم التي يقول بها اي مذهب من المذاهب

التعصب الديني عقبة في سبيل البحث : ولم تعالج الموضوعات الدينية بالطريقة العلمية المضبوطة الآ في القرن الماضي لان التعصب الديني كان عثرة في سبيل البحث والاستقراء ، يدلك على ذلك ما كان يفعله العلماء حتى اهل الاخصاء منهم عند تصنيفهم الاديان فكانوا يقسمونها الى اديان صحيحة واديان فاسدة غير مدركين ما يعد اليوم بداهة وهو ان الدين ظاهرة اجتماعية تلازم الجمعية البشرية منذ نشأتها الاولى ، وهم يقصدون بالاديان الصحيحة ما وجدوا عليه آباءهم طبعاً وكل ما خالف ذلك فهو فاسد من عمل الشيطان . (ولمكس مولر) العالم الالماني الانكليزي المشهور فضل عظيم في محاربة مثل هذا التصنيف الضيق كما حارب تصنيفاً آخر يشابهه وهو القول ان الاديان قسمان اديان الهامية سماوية واديان وضعية ارضية[١]

ولم ينظر احد الى الاديان فيما اعلم نظرة رحبة سمحة ترى اليد المحجبة وراءها تدير شؤونهـا وتبعث روحها مثل المتصوّفة في الاسلام فقد وقف بعضهم منها موقفاً يجب ان يكون درساً بليغاً حتى للكثيرين ممن يعنون بمثل هذه الامور في اوربا واميركا في العصر الحاضر . وليت بعض السخفاء من المتحمسين الغربيين الذين يستدرون المال من ابناء دينهم « لهداية الوثنيين والمسلمين » او « لنشر النور بين العميان » يفهمون من غربهم فيقرأوا على ضوء الحقائق التي قرّرها علماء (الدين المقارن) ما قاله ابن العربي وقد توفي سنة ٦٣٨ في قصيدته التي طالما استشهدنا بها على سموّ الشعور الديني عند العرب وجعلناها عنواناً لا للتعمق فقط بل لله وللعقيدة والمبدأ ايضاً ، ذلك ان ابن العربي كان من القائلين بوحدة الاديان ويرى جميع المتدينين يعبدون الاله الواحد المتجلي في صورهم وصور جميع المعبودات والقصيدة هي :

لقد كنت قبل اليوم انكر صاحبي	اذا لم يكن ديني الى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لاوثان وكعبة طائف	والواح توراة ومصحف قرآن
ادين بدين الحب انى توجهت	ركائبه فالحب ديني وايماني

وابن العربي هذا لا حاجة به الى من يذكرهُ من المتشددين الثقيلي الوطأة بأن هنالك في بعض الاديان المنحطة من السخافات والاعمال المنكرة ما لا يجوز ان يتسع لها قلبهُ او يطمئن اليها لبه، فهذا كله كان معلوماً عنده الآ انهُ كان في موقفه المستجد اسمى من ان يفوته المعنى المعظم المتجلي الشامل بانصرافه الى الجزئيات الموضعية الخاصّة . واذا كان الكون في نفسه الحسّاسة الصافية اشبه

(٣) Lectures on the Science of Religion p. p. 123—143

بقطعة شعرية نفيسة منسجمة فمصراع واحد ممعوج او بيت واحد فاسد لا يحول دون تمتعه بالقصيدة كلها كاملة واعجابه بالفنان المبدع الذي اجاد نظمها واحكم قوافيها ووزنها

وخذ مثالاً آخر على هذه الروح السمحة الرفيعة ما قاله ابن الفارض الحموي المصري المتوفى سنة ٦٣٢ هجرية في تائيته الكبرى :

وان نار بالقرآن محراب مسجد فما بار بالانجيل هيكل بيعة
وان عبد النار المجوس وما انطفت كما جاء في الاخبار في الف حجة
فما قصدوا غيري وان كان قصدهم سواي وان لم يظهروا عقد نية
فلا عبث والخلق لم يخلقوا سدًى وان لم تكن افعالهم بالسديدة

ولا اعرف احداً من المتقدمين قارب هذه المعاني — وان لم يبلغ شأوها — سوى الانبياء القديين من الهنود فقد صاحوا في زمنهم « ان الناس ليدعونه — « اي ليدعون الله » — اندرا او مترا او فارونا او اغني وان الحكماء ليطلقون عليه الاسماء المتنوعة، اما هو فليس الاّ واحداً في جميعها» وسوى (مكسيموس المادوري) لما قال لاغسطين في نحو سنة ٣٩٠ « ان هنالك الهاً واحداً عليًا ليس له ولد وهو الله القدير ابو الجميع، وان قوى هذه الآلهة التي عمّت الخلائق — يشير الى الآلهة الجديدة التي انتشرت في الامبراطورية الرومانية بدخول المؤمنين بها تحت طاعة الرومانيين — هي ما نتجه اليه بالعبادة تحت اسماء مختلفة بالنظر الى جهلنا اسمهُ الحقيقي ، فيحدث اننا اذ نقترب بعبادتنا ونحن منفردون من بعض اجزاء الوجود الالهي نجد اننا انما نعبد من كانت فيه هذه الاشياء جميعها وحدة كاملة »

ومن خير من عرفنا ممن يمثلون هذا الاتجاه البعيد الغور في الأعصر الحاضرة رئيس اعظم مؤسسة وجدت في الشرق للتبشير حوّلها بسمته للتثقيف وهو المرحوم الدكتور هورد بلس رئيس الجامعة الاميركية في بيروت. قال لي « لقد بقيت نصرانيًا ادين بالمسيحية لا عتقادي انها تحوي مثلاً ٧٥ في المئة من الحق في حين اعتقد ان الاسلامية تحوي ٧٠ في المائة فقط واما انت فقد بقيت مسلماً على مثل هذا الاساس لاعتقادك بهذه النسبة ولكن في مصلحة الاسلام ، وخمسة في السبعين هي اختلاف ضئيل في المقدار لا اختلاف في الجوهر »

وعقد المستر «هربرت سبنسر» في كتابه «درس الاجتماع[1]» فصلا شيقاً في التعصب الديني وتأثير العقيدة المتوارثة العمياء في احكام الناس . قال ان الصامويين — وهم سكان جزائر «صاموا» في المحيط الهادىء — متصفون باللطف والدعة والكرم الحاتمي والرجال والنساء منهم مطبوعون على حب اولادهم ، وللشيخوخة في نظرهم حرمة ووقار ، ويأبى الواحد منهم ان يدعى خشناً قليل المعروف

(١) The Study of Sociology, 293

وتمتاز نساؤهم بالفضيلة والالفة ، ولا تعرف عندهم جريمة قتل المواليد ، ولاحظ السياح انهم يعاملون المرضى معاملة انسانية كريمة جهد طاقتهم

هذه حال الصامويين اجمالاً ، فلننظر ما يقال عن جيرانهم «الفيجيين» اكلة اللحم البشري . فهؤلاء لا يكترثون لحياة الناس ويعيشون في خوف دائم بعضهم من بعض ويحسبون البوق «وهو الغدر» من الشمائل الكريمة ، وليس سفك الدم في نظر الفيجي جناية بل شرفاً ، فهم يقتلون المقعدين والعجزة والمرضى ويحوثلني مواليدهم، ومن بقي منهم حيًّا فأول درس يتلقنه ان يضرب امه ، ومن خصالهم الحث على الانتقام واثارة الغضب وقتل من كان ادنى منهم مرتبة بمجرد اهماله تأدية السلام على الاصول ، وهم يشدون العبيد بجانب القوائم التي يبنى عليها بيت مليكهم ، ويذبحون عشرة منهم او اكثر على ظهر ركوة - زورق - جديدة ينزلونها الى الماء تعميداً لها بدمائهم ، ويخنقون نساء الامير وحجابه وامناءه عند موته تشريفاً لهم وتكريماً ، وعادة اكل اللحم البشري منتشرة عندهم الى حد ان اميراً من امرائهم رثى ابنه فقال في ختام رثائه انهُ لا يحجم عن قتل نسائه واكلهن « اذا ما اغضبنه » . وهم في بعض الاحيان يشوون فرائسهم البشرية احياء قبل ان يبتلعوهم ، وقطع (طانوا) احد امرائهم ذراع ابن عم له ولعق الدم السائل منهُ ثم طبخ هذه الذراع واكلها في حضرتهِ وبعد ذلك قام اليهِ فزقه ارباً ارباً . أما آلهتهم — وقد وصفوا بأوصافهم وطبعوا على غرارهم — فكانوا يرتكبون هذه الاعمال نفسها ، لا جرم انهم يعيشون على ارواح الفرائس التي يفترسها الناس بشيّهم هذه الارواح على النار اولاً ، وليست هذه الارواح في الواقع الا « قرائن » الفرائس او نسخة ثانية عنها

ويصف الفيجيون هذه الآلهة بأنها محتالة متكبرة منتقمة تتحارب وتتقاتل ويأكل بعضها بعضاً ، ومن اسماء التمجيد التي يكرم بها الاله الفيجي قولهم « الزاني » و « خاطف المرأة » و « آكل الدماغ » و « القاتل »

تلك صفات الصامويين وهذه صفات الفيجيين فاسمع ما يقول هؤلاء عن اولئك

« يرتعش الفيجيون من ذكر الصامويين لانهم ليس لهم دين يدينون بهِ ولا عقيدة بآله من امثال الآلهة الفيجية يؤمنون بهِ ، وهم لا يعرفون شيئاً من تلك الشعائر الدموية المنتشرة في الجزائر الاخرى ، وفي احد الايام اظهر السائح « جكسون » شيئاً من قلة الاحترام لاحد آلهتهم فغضبوا عليهِ ولقبوه (الكافر الابيض) »

قال (سبنسر) وكل من قلب هذه الصفحات يرى الدرس البليغ المستخرج منها ، ولا نحتاج الى كبير عناء في تطبيقه على العقائد والمشاعر في الاقوام المتمدنة . ولا شك ان الرجل الفيجي الشرس يرى ان افتراسه فريسة بشرية باسم احد آلهته من اكلة اللحم البشري هو عمل مبرور في حين يرى ان جاره الصاموي الذي لا يقدم قرباناً لهذه الآلهة بل يعدل في معاملته ويحسن الى اخوانهِ يدل بعمله هذا على ان الدناءة تسير وقلة دينهِ كتفاً لكتف

اما وقد فسر الفيجي الحقائق على هذا المنوال فهو عاجز عن تصور المجتمع الصاموي تصوراً صحيحاً . وهو بما احدثهُ من الخبط والخلط بين الرذائل والفضائل وفقاً لعقيدتهِ الدينية المستحكمة لا بدَّ ان يرى الخير المتولد عن بعض النظم الاجتماعية شرًّا والشر خيراً

ولا يصعب على الباحث في اي دين من الاديان متى استعرض في ذهنهِ الحوادث والاشخاص ان يذكر بعض الذينهم في تصلبهم الديني الاعتقادي كجلاميد الصخر وفي سيرتهم العملية الاخلاقية لينو العريكة قليلو الاكتراث حتى ليلوح للمتتبع ان ليس ثمت ارتباط وثيق بين العقيدة والاخلاق فكأن مجرد الاعتقاد بوجود قوة محجبة يتقرب اليها المؤمن بالركوع والسجود والادعية توصله الى الجنة الموعودة كما يوصل مجرد اسم (بدوح) على الغلاف الرسالة الى اصحابها

وقد أثرت عقيدة الناس بخطورة الايمان الديني وحده واتمام الشعائر والعبادات في الاصول من غير نظرٍ الى الاعمال تأثيراً بليغاً في جميع الاوساط التي عرفناها ، وكنت اسمع في صغري من هذا القبيل مثلاً لا يزال كثير الشيوع للدلالة على قوة العبادة وحدها وهو «صل الفرض ونم بالعرض» يعني متى اديت عدداً من الركعات في يومك معيناً في الاوقات الخمسة فنم قرير العين هادىء البال

وانني لا اعد مثل هذه العقيدة الابتدائية شيئاً مستغرباً في بيئة عامة من بيئات الشرق بل العجيب ان ترسل اوربا وأميركا طبقة من خريجي جامعاتها — من اكسفرد وكامبردج وهارفرد وكولومبيا — ليبشروا بالدين فيسيئوا اليهِ بما يحملون من عقائد لا تختلف في جوهرها كثيراً عن عقائد الفيجيين ، فعند بعضهم مثلاً ان مجرد الايمان بالثالوث ينجي صاحبهُ وان لا دخل للاعمال في مصائر الناس ، وقرأت في منشورٍ وزعهُ بعضهم على البدو في العراق في سنة ١٩٢٧ قولهم: «ايها الموحدون اياكم ان تتكلوا على صالح الاعمال واحذروا ان تعتقدوا انها تدخل عاملها جنة الرب المتعال . ففتشوا عن الشفيع وابحثوا عن صفاته القدسية ترشدوا وآمنوا بالمخلص من الخطايا تهتدوا وان عسر عليكم فهم شيء فاسألوا الذين يقرأون الكتاب كما امركم بذلك القرآن يا اولي الالباب»

انني لما قرأت هذه العبارة المهينة للعمل الصالح لم اتمالك ان قلت في نفسي ما احوج اصحاب هذا المنشور الى هدي البدو لهم لان اصغر بدوي في العراق يعلم ان دخول الجنة متوقف على العمل الصالح ولو باطعام جائع وايمان خائف . ولو اطلع كاهن بسيط من كهنة البوذية في الشرق على هذا المنشور لحمد لغوتاما بوذا مذهبه « الـكرما » الرائع الذي اصبح اساساً للدين وخلاصته ان مصير المرء في التناسخ الازلي متوقف على عمله او كما جاء في القرآن فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره

اما الحملة على العبادات وحدها من غير صلاحٍ يؤيدها فللشرق في ذلك مواقف رائعة قال المعري :

ما الدين صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وانما هو ترك الشر مطرحاً ونفضك الصدر من غل ومن حسد

وفي صحيح البخاري « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في طعامه وشرابه » وتقريع المسيح للفريسيين على تمسكهم بالقشور دون اللباب اشهر من ان يذكر

وحضرت مرة مجلساً للمرحوم عبد القادر بك المؤيد العظم فجاءه رجل يدعي حقاً عليه وأخذ يدلي بحججه ومنها انهُ رجل لا يؤخر الصلاة ولا يترك الصيام فأجابهُ بغضب «الصلاة عادة والصوم جلادة»

وقد بيّن الاستاذ « هوبكنس » [١] الضرر الشديد الذي قد يصيب الروح الدينية النبيلة من الاقتصار على الشعائر وغيرها من المظاهر الصورية ، ولما كان الدين ركناً ركيناً للاخلاق فكل ما يحدث فيه ضرراً يتناولها بالضرر ايضاً ويعرضها للخطر . وقد ذكر المؤلف من القصص النادرة في هذا الموضوع انهُ رأى في احد الايام امرأة تصلي في احدى الكنائس اللاتينية وبيدها سبحة لتلاوة الاوراد فركعت بجانبها امرأة غريبة تدل مظاهرها على الثروة والغنى فلاحت من صاحبتنا التفاتة فرأت طرف منديل يخرج من جيب الغنية عرضاً واتفاقاً فاغتنمت هذه الفرصة السانحة ونشلته لانها لم تستطع مقاومة هذه المحنة في نفسها ، واعتقد الاستاذ (هوبكنس) انها لم تأت الكنيسة للسرقة بل دلّته ملامحها على اخلاصها في عبادتها . وبعدما اتمت سرقتها جدّدت صلاتها بنشاط وحماسة اشد من قبل كأنها شعرت بالشكر والامتنان على ما اصابته من نجاح . وغني عن البيان ان مثل هذه الصلاة كانت عملاً صوريًّا من اعمال الشعائر . ويقال ان الرجل من سكان جزيرة صقلية يطعن بالمدية قابضاً عليها باليد الواحدة في حين يقبض على الصليب او الاثر المقدس باليد الاخرى فدينه كما ترى دين الشعائر . وفي شمال الهندطائفة تدعى طائفة (الثوجيين) مؤلفة من اخوان يعبدون الهاً يسمى (كالي) ومن عادتهم الدينية المقدسة انهم يخنقون الفرائس البشرية تقرباً لالههم وتعبداً وكانوا يحصلون على معاشهم من الاسلاب التي تأتيهم بهذه الطريقة وقد استمروا في شعائرهم الدموية المقدسة هذه الى ان الغتها الحكومة البريطانية حوالي سنة ١٨٤٠

وفي الحملة النجدية الوهابية التي شنت الغارة على شرق الاردن منذ نحو عشر سنوات هجم بدوي من الغطغط في جملة من هجموا على قرية تدعى « أم العمد » ليجاهد في سبيل الله أعداء الدين من المرتدين الذين يجوزون زيارة القبور وطلب الشفاعة من أصحابها ، فرأى امرأة في حجرها ابنها فنادت تستغيث وتطلب الامان ولكن لا أمان للمرتد فذبح الطفل اولاً ثم ذبحها وهو يهلل ويكبر وينشد النشيد المعروف

هبّت هبوب الجنة وانت فين يا باغيها

(١) Origin & Evolutiun of Religion, p. 270

وكثيراً ما ناقضت بعض الاديان الاخلاق على هذا النمط فلايين « مملينة » ذهبت ضحايا الآلهة وفرائس العبادات. والاغواء كان جزءًا من العقائد الدينية في الهند وهو مع الاسف لا يزال كذلك الى اليوم ، وأخرت اديان اخرى الاخلاق بطرق اكثر حذاقة واشد مهارة فان ادعياء خدمة الدين المتصدرين للكلام بلسانه قد تمسكوا بالقواعد الاخلاقية الهرمة البالية وشووا المتهمين بالزندقة على النار في حفلات عامة يخيم عليها التبجبل والوقار وذلك عملاً بالامر الديني الذي يحرم سفك الدماء ! وقاوموا الافكار الحرة بحرقهم الكتب الاخلاقية والفلسفية التي تنافي العقائد الاخلاقية والسياسية الجامدة المقلدة . وتؤيد في يومنا هذا الاباحية وهي الحب الطليق بين الذكر والانثى تأييداً علنيًّا باسم دين له مئات الملايين من الاتباع فقد جاء في كتاب « رقص شيفا » المطبوع في نيويورك سنة ١٩١٨ — وشيفا هذا هو اله الاصلاح في الثالوث الهندوكي — قوله عن هذه الاباحية « ان لها معنى روحيًّا عميقاً فهي تمثل الاتحاد الصوفي بين المتناهي واللامتناهي »

وعرفت رجلاً من سلك القضاة الشرعيين في سورية توفي منذ سنوات فكان لا يترك صلاة في الضحى ولا صوماً في عاشوراء ولا مالاً ليتيم في المحكمة الشرعية ! ولم يدر في خلده ابداً ان الصلاة يجب ان تنهى عن الفحشاء والمنكر لتكون صلاة صحيحة

***

تعريف الدين : الدين عقيدة داخلية تدل عليها الطريقة التعبدية الخاصة التي تسلكها الجماعات نحو آلهتها وفقاً لتلك العقيدة . وفي امهات المعاجم العلمية ان الدين هو المظهر الخارجي في الشكل او في الفعل الذي يدل الناس بواسطته على اقرارهم بوجود اله واحد او آلهة متعددين لهم سلطة على مصير هؤلاء الناس ولهم واجب الطاعة والعبادة والحرمة اللائقة . او هو شعور داخلي واعراب خارجي عن حب وخوف ورهبة من قوّة مسيطرة خارقة فوق البشر ، ويتم هذا الاعراب بالاقرار بالعقيدة او بالقيام بالشعائر او بالسيرة الشخصية التي يسيرها المرء في حياته

وقد دلّ التتبع الدقيق ولا سيما في الاقوام الابتدائية على ان الدين عقيدةً وعملاً انما هو سعي للاحتفاظ بما ثبتت منفعته اجتماعيًّا . ويضرب العلماء[1] المثل على ذلك بالشعائر التي يقوم بها (التوديون) وهم جيل من الناس الابتدائيين يسكنون في آكام « نلجيري » في جنوب الهند وعددهم قليل مبعثر هنا وهنالك ويؤلف لبن الجاموس والبقر وما يستخرج منهُ من المحصول جلّ طعامهم . اما دينهم فيرتكز على هذا الرزق الذي هو ركن معيشتهم وهو الشيء القيم الثمين الذي يهمهم الاحتفاظ بهِ في الدرجة الاولى . فالواجب ان يكون اللبن غزيراً ونقيًّا لذلك كان جميع متعلقاته من بقر وملابن ولبانين ومحالب « وهي ادوات العمل في الالبان » مقدساً ، وان بعض الملابن

(١) A Student's Philosophy of Religion, p. 19

هي في الواقع معابد يؤمها الناس للعبادة والبانون القائمون على سدانتها هم كهنة

ويتفاوت البقر في قدسيته ، فهنالك البقر العادي يسوسه رجال القرية وصبيانها بالشيء القليل من الاحتفالات ، فيؤخذ اللبن ويمخض أمام كوخ المسكن من غير شعائر خاصة تقام له ولا قيود يقيد بها استعماله أو المحصول الناتج منه . على ان الرجال والصبيان يحيون الشمس قبل مباشرتهم البقر وهكذا نرى استخدام الدين للاحتفاظ بهذا الخير الثمين محدوداً . وبخلاف ذلك البقر المقدس والملابن المقدسة فهي تحاط بالشيء الكثير من الرعاية الدينية ، فللعناية بملابن « ألتي » مثلاً وهي أكثر الملابن شعائر ومناسك يقوم اللبان باحتفالات دقيقة محكمة قبل دخول محل عمله المقدس وعليه ان يبقى متبتلاً ما دام في هذا العمل ، وان يعيش في ملبنته منقطعاً عن الناس انقطاع الراهب في الدير

وعلى الكاهن في كثير من الملابن المقدسة ان يتلو صلاة معينة عند ما يشعل مصباحه وذلك قبل مباشرته البقر في الفجر وبعد حلبها ، وقبل سوقها الى المرعى ، وعليه في جميع هذه الملابن ان يتلو الصلاة في المساء قبل الحلب وبعده وعند ما يزرب البقر للمبيت ليلاً . وتتألف صلاة « التودين » من جزئين اثنين « الاول » المقدمة وهي عبارة عن سرد اسماء كل اسم منها تسبقه كلمة معناها « لاجل » و (الثاني) الجزء الجوهري . اما المقدمة فهي مقدسة ويجب ان تبقى سرية حتى ان الذين عنوا بتدوين خبر (التودين) لقوا صعاباً جمة في حملهم على ذكرها . وهي في احدى الملابن المعروفة في قرية « كودر » تشمل فيما تشمله الاسماء الآتية وهي اسم القرية والقبيلة والملبنتين الكبيرة والصغيرة والمصباح في الملبنة الاولى ، وزريبتي الجواميس في القرية وحظيرة العجول ، واسم الجواميس على نوعيها المقدسة والاعتيادية واسم الينبوع في القرية المختص بالملبنة واسم الجاموسة التي يزعمون ان لبنها مصدره هذا الينبوع ، واسم التلال الاربع القريبة من القرية ، واسماء بعض الجواميس التي يعتقدون ان الالهة « تيكرزى » اهدتها في بعض الايام للقبيلة ، واسم العجل الذي كان بحسب اساطير القوم وخرافاتهم السلف الصالح لبعض الجواميس الحاضرة

وبعد ان يردد كاهن الملبنة هذه المقدمة همساً بصوت ضعيف لا يكاد يفسره من يقف بجانبه ينتقل الى الجزء الجوهري من صلاته فيتلوه بجلبة وخشخشة قائلاً : « لتكن حال الجواميس حسنة وليبتعد عنها الاذى والهلاك وشر الحيوانات السامة والوحوش البرية واضرار الفيضان والنيران وليكن عندها بحبوحة في الماء والكلأ »

***

افلا تدل مثل هذه الصلاة على انها سعي جدي للاحتفاظ بخير اجتماعي صميم له شأن عند القبيلة من المقام الاول

[البحث صلة]

ما بين

الذهن الالماني والذهن الفرنسي

للدكتور بشر فارس

ان ثمة عبارة دارت على الاقلام وخلصت الى الاسماع حتى أشربت العقول اياها واطمأنت اليها ، ألا وهي قولهم « المنهج الاوربي» La méthode européenne ، عند الكلام على الطرق العلمية فيما يتعلق بالبحث والتنقيب والتأليف . وبعيدٌ ان ينصرف حديثي هنا الى شرح نشأة هذا المنهج وبسط خصائصه . فانما هذا يرجع الى فن المنطق العلمي ثم الى تاريخ الفلسفة ، وقبيح بي ان اطارح قرّاء المقتطف مثل ذاك الحديث فما أظنهم الاّ ولهم عنه غنىً . وانما الموضوع الذي أحب ان اعالجهُ من الفرعيات ، ألا وهو الفرق بين المنهج الالماني والمنهج الفرنسي فيما يختص بالعلوم العقلية، والذي استدرجني الى معالجة هذا الموضوع اني حصلت الفلسفة وما يلحق بها على أساتذة جامعة باريس ثم اتفق لي ان اشخص الى برلين فاجتمعت بطائفة من علماء الالمان وصممت عليهم ووقفت على سياقة تآليفهم . فسرعان ما فطنت الى ان بين هؤلاء واولئك وجوهاً من الفرق

ان الكاتب الفرنسي الى الادب ميال ، وان كان عالماً . فتجده يعنى بالمبنى فيحاول ان يقلب العبارة عذبة المدخل الى السمع لطيفة المنفذ الى النفس ،وذلك بأن الفرنسي يقيم للذوق الادبي وزناً عظيماً ، ومن شواهد ذلك ان امثال (تين) Taine و (رينان) Renan و (برجسون) Bergson لهذا العهد من أبعد الكتّاب ذهاباً في تهذيب اللفظ وإحكام السبك . ثم ان العالم الفرنسي لايحاول ان يكون بحراً فيأبى — على الغالب — ان يجمع الاشتات ويستقصي الاطراف ، بل ربما مال عن الاحاطة بالاصول كلها . فهو خطّاف علوم[1] ، يساعده على ذلك ادراك وثّاب وفطنة متقدة . فان استقامت له بضاعة علمية انطوى على نفسه وجعل يفكّر ، فان ألّف برزت آثار تفكيره فوق آثار علمه : فالمصادر والوقائع عنده وسيلة ، وانما الغاية الخروج بنتيجة سواء كانت حقيقية او نظرية . ثم ان العالم الفرنسي قصير الصبر بحيث انهُ لا ينجذب الى التقصي البعيد والتفتيش المضني نحو اثبات كتب فن من الفنون

وأما العالم الالماني فن أبعد الكتّاب عن الادب . ولتجدنّ عبارته جامدة ، بل خشنة المطاوي

---

(١) أريد بالخطف الاخذ السريع، دون تعريض ولا تلميح

مائلة عن مذاهب السلامة . ومن المعلوم ان اللغة الالمانية غريبة التركيب بل زائغة عن المنطق اللغوي فيما ارى ، وهنالك علماء يزيدون في تعقيد مبانيها باستمساكهم بالاسلوب القديم المنحدر قليلاً او كثيراً من جانب اللاتينية . ثم ان العالم الالماني يتغرّف العلم وهمه ان يردّ ذهنهُ موسوعة: فان اقبل على المشرقيات ومطلبه اللغة العربية تعلم جميع اللغات السامية ثم التركية والفارسية ، وفي نيّته ان ينبري للبحث فيها جميعاً والتنظير بينها ، وبعيد ان يكون الرجل كاذب العزم في ذلك فهو يتشبث بالاصول لكنل قواعد اللغة ومناحي التاريخ ، الاّ انهُ لا يكاد يصيب مخلصاً الى نفسه فيخلو بها، ذلك لانهُ اسير العلم وصريع الوقائع : فان ألّف توارى خلف معارفهِ ، وان اجترأ على بث رأي فكانهُ يحلف ليدعمنهُ بوثائق لا سبيل عليهِ لآخذ . ثم ان العالم الالماني غوّاص على النوادر ، نقاب عن الدقائق ، ومن الامثلة على ذلك اني قرأت بحثاً للاستاذ « فِشِر » A. Fischer — وهو من اعضاء المجمع العربي الملكي المصري — في رسم اسم « امرىء القيس » ، فوقع البحث في مائة صفحة او تزيد، وفي اثنائهِ من الشوارد والاشتات ما لا يدور لذهن ، وما اظن احداً يقوى على ان يخرج شيئاً في هذا الباب بعد ذلك المقال . ومما يعين العالم الالماني على ذلك الجهد جلد متين العرى . فقد عرفت علماء يجلسون الى مكاتبهم اربع عشرة ساعة بل ست عشرة ساعة،وذلك كل يوم الاّ في النادر . وانك لتلمس هذه العناية بالتدقيق والتمحيص التي تتطلب صبراً ما وراءهُ صبر في مثل كتاب تاريخ الآداب العربية « لبروكلمان » Brockelmann فان هذا المؤلف لايكاد يعدو اثبات المصادر وسياقة التراجم، الاّ انهُ كنز نفاسته في المحل الاول.وعليهِ اعتمد زيدان رحمهُ اللّه و« نكلسون » Nicholson الانكليزي و« هوار » Huart الفرنسي . وان انت قرأت مؤلف « هوار » هذا في الادب العربي خرجت منهُ برأي شامل ناصع ، ذلك ان الرجل فرنسي ... ولكني اشهد ويشهد غيري انهُ لم يك ليصنع شيئاً لو لم يبذل له « بروكلمان » كتابهُ الغزير مادةً

بقي اني لو سألني سائل من قومي : فان كان ذلك كذلك فالى المانيا نصعد ام الى فرنسا ارادة التفقه في العلوم الحديثة ، اجبت ، بنا حاجة اليهما جميعاً ، الاّ اني انظر في الذهن المصري أو السوري او العراقي لهذا الزمان فأراهُ الى الذهن الفرنسي اقرب منه الى الذهن الالماني . وقصة ذلك اننا قوم الى الأدب منجذبون ، والى خطف العلم ميّالون ، وبنفاد الصبر مصابون . ولا شك اننا اذا انطلقنا الى فرنسا تلقينا عن علمائها مذاهب المنهج الاوربي ، غير اننا لا يتم لنا ان نجاهد انفسنا المجاهدة كلها . هذا واذا نحن شخصنا الى المانيا اصلحنا معايبنا العقلية بترويض اذهاننا وا كراهها على التماس ما تنفر منه . فان خرج الذهن من هذه البلوى غانماً اضاف الى مزاياه الفطرية مزايا اخرى مكتسبة لا تقل شأناً عن تلك . . . كل هـذا وأنا استثني في هذا المقال الذهن الانجليزي ، ذلك الذهن الجبار ، ولي اليه عودة ان شاء الله

النباتات المصرية القديمة

للدكتور حسن كمال

الخضراوات

الباميا . الملوخية . الكرنب . البسلة . الكرات . الفجل . الخس . الخيض . الخيار
الكرفس . البصل . الثوم . الترمس . التوابل

سبق ان تكلمنا في « مقتطف » يوليو ١٩٣٥ عن الحبوب المصرية كالقمح والشعير والذرة . والآن نواصل بحثنا في الخضراوات . لكن هناك بعض الحبوب تدخل ضمن الخضراوات كالفول ونحيل القارىء اليها اذا اراد التثبت منها

والخضراوات تكوّن الجزء الاكبر من الغذاء المصري القديم . وتحوي موائد قرابين الموتى أنواع الاغذية مثل الفواكه والخضراوات والفطير واللحوم وغير ذلك . وسنقصر بحثنا على اهم الخضراوات الواردة على الآثار المقطوع بصحتها تاركين للزمن اماطة اللثام عن المجهول منها . ويقال للخضراوات بالمصرية القديمة (رنبت)

١ — ﴿ الباميا ﴾ يقال لها باللاتينية Hibiscus esculentus وبالانكليزية Bamiah او Ladies' finigers . قال روزاليني « ج ١ لوحة ٣٩ ص ٣٨٠ — ٣٨١ » ان رسم هذا النبات ورد على الآثار الفرعونية . وفاكهة هذا النبات تكسوها شعور حادة وتحوي حبوباً كروية بيضاء اللون هشّة المادة سكرية الطعم نوعاً

٢ — ﴿ الملوخية ﴾ ويقال لها باللاتينية Torchorus olitorius وبالمصرية القديمة « مِنح » « كمال باشا — لآلىء درية ص ١٣٠ — ١٣٣ » . كانت تنبت على الاخص بالوجه البحري . وأورد الاستاذ بروكش في قاموسه عبارة مصرية قديمة هذه ترجمتها « البردي والملوخية واللوطس الازرق والبشنين وجميع النباتات التي تنبت على النيل »

٣ — ﴿ الكرنب ﴾ ويقال له باللاتينية Brassica oleracea وبالانكليزية Cabbage كان يزرع في مصر كغذاء اعتيادي . ورد ذكره في قرطاس ساليير الفكاهي حكايةً عن البستاني « انهُ يمضي نهاره يروي الكراث وليله في ريّ الكرنب » (قرطاس ساليير لوحة ٢—٦—٦)

٤ — ﴿ البسلّة ﴾ ويقال لها باللاتينية Pisum Sativum . وبالانكليزية Peas وجد منها

مقدار كبير في مقبرة هوارة وكاهون بالفيوم . وكان المصريون يزرعونها في عهد الاسرة الثانية عشرة « ٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق . م . » — وتسمى بالقبطية « لا كونشة — كمال باشا » . وهناك نوع يقال له بسلة هندية Pisum Indicum . قال عنهُ بروكش باشا انهُ كان معروفاً عند المصريين باسم « عنخ آري » . وهناك نوع ثالث يقال لهُ باللاتينية Pisum arvense وجد الاستاذ Unger حبوبه في هرم دهشور . كل ذلك يثبت ان البسلة من النباتات المصرية القديمة . وميَّز الاستاذ « نيوبري » نوعاً من البسلة كان ممزوجاً مع شعير عن غير قصد في مقبرة بكاهون « اسرة ١٢ : ٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق.م » يقال له باللاتينية Pisum elatius

٥ — ﴿ الكراث ﴾ ويقال لهُ باللاتينية Allium porrum . قال الاستاذ لوريه عن بلينيور ان الكراث نبت مصري لورود ذكره في التوراة . ولان « شوينفورت » وجده بمقبرتين قديمتين . وقرَّب الاستاذ كمال باشا اللفظ العربي كراث باللفظ المصري القديم كاراتا « لآلىء درية ص ٢٧٣ »

٦ — ﴿ الفجل ﴾ ويقال له باللاتينية Raphanus Sativus وبالانكليزية radish قال هيرودوتس في رواية يغلب انها خرافة — انهُ كان منقوشاً على هرم الجيزة الاكبر ما معناه : « ان العمال الذين شادوا هذا الهرم كانوا يغذون بالفجل والبصل والثوم » . وميَّز الاستاذ اونجر (Unger) طوابع هذا النبات على قالب من اللبن بدهشور . وتعرَّف ايضاً على رسمين لهذا النبات بمعبد الكرنك اوردها في رسالة عن النباتات المصرية القديمة « ص ٥١ رسم ٢٤ و ٢٩ » . قال لوريه : ومما يؤيد ايضاً ان الفجل قديم في مصر وجود فجلتين في احدى مقابر كاهون التي يرجع تاريخها الى زمن الاسرة الثانية عشرة « ٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق . م »

٧ — ﴿ الخسّ ﴾ ويقال لهُ باللاتينية Lactuca Sativa وبالانكليزية Lettuce كانت مصر القديمة تنتج عدة انواع من الخسّ ووجد هذا النبات مرسوماً ضمن القرابين العديدة التي تقدم للموتى . ويمكن معرفته من بينها بواسطة اوراقه الطويلة المدبَّبة . وهي خضراء اللون مائلة الى الزرقة « دنكايلر ٢ لوحة ١٢٩ بني حسن أسرة ١٢ » وتحوي دار تحف برلين حبوباً لهذا النبات يرجع تاريخها الى العهد الفرعوني . ويقال لهُ بالمصرية « إبو »

٨ — ﴿ الحميض ﴾ واسمه باللاتينية Rumexdentatus وبالانكليزية Sorrel . وجد الاستاذ شيارلّلي اغصان الحميض مغطية لبعض الفواكه المحفوظة . ونشر اكتشافه هذا في مجلة المعهد العلمي المصري سنة ١٨٨٥ « مجلد ٦ ص ٢٧٢ — ٢٧٥ » وقال انهُ عثر على هذا النبات في قعر بئر عميق من العهد اليوناني

٩ — ﴿ القثاء والخيار ﴾ القثاء ويقال لهُ باللاتينية Cucumis Chate والخيار ويقال لهُ Cucumis Sativus وبالانكليزية Cucumber . يكثر رسم هذا الخضر بنوعيهِ بين قرابين الموتى . وقد أسف عليهِ بنو اسرائيل وقت خروجهم من مصر « اعداد ١١ — ٥ » . واستعمل قدماء المصريين

عصيره كَمُلَيِّن في الطب من بين مواد اخرى كالملح « قرطاس ايبرس » . ويقال للقثاء بالمصرية « قاد » وللخيار « شب » (كمال باشا لآلىء درية ص ٢٤٤) . وورد ذكر القثاء في هرم تيتي من انهـا كانت تحت أرجل المعبود « سب » . وشُبِّه بها في ورقة « ايبرس » النبات المسمى « سنوت » من حيث امتداده على الارض . ووجد « بتري » اجزاء من فروع الخيار العادي بأوراقها بمقبرة كاهون وهوارة بالفيوم (اسرة ١٢ — ٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق.م)

١٠ — ﴿ الكرفس ﴾ ويقال له باللاتينية (Apium dulce) وبالانكليزية celery ورد ذكرهُ بهرم (مرزع) (اسرة ٦ : ٢٦٢٥ — ٢٤٧٥ ق . م .) وعثر على بذره في مقبرة مصرية قديمة ومنهُ المعروض في متحف فلورنسة بايطاليا . ووجدت اوراقه وفروعه ضمن اكليل الكاهن « كنتت » الذي عثر عليه في جهة الشيخ عبد القرنة بالأقصر . وقيل ان ذكره ورد في قرطاس « ايبرس » الطبي في علاج الاسنان والاذنين والعينين وغيرها . غير ان اسمهُ بالمصرية لم يعرف للآن بالضبط

١١ — ﴿ البصل ﴾ ويقال له باللاتينية Allium ce pa وبالانكليزية Onion وجد مرسوماً على على الآثار المصرية منذ عهد الاسرة السادسة « ٢٦٢٥ — ٢٤٧٥ ق .م . » وروى « هيردوتوس » ان المصريين كانوا يأكلون البصل بكثرة . واعتاد القوم تقديمه قرباناً لموتاهم لوجوده في يد مومميا. وثابت في قراطيسهم أنهم استعملوا هذا النبات لادرار البول « ايبرس ٥٠ — ١٣ — ٤ » ولاصلاح الهضم « ايبرس ٣٩ — ٢٥ » . واعتادوا وضع هذا النبات على جحر الثعبان لمنعهِ من الخروج كما أنهم كانوا يداوون بهِ لدغة العقرب والحيوانات السامة . وعثر الاستاذ بتري على مقادير كبيرة منهُ في مقبرة هوارة بالفيوم . ويقال له بالمصرية « بصر » وهو أصل لفظ بصل

١٢ — ﴿ الثوم ﴾ ويقال له باللاتينية (Allium Sativum) وبالانكليزية (Garlic) . قال (ديوستوروديس) ان الثوم المصري له بصلة صغيرة كالكراث وهو حلو الطعم مائل الى اللون الارجواني قصير الطويل . أما في البلدان الاخرى فهو اكبر حجماً ويتكون من عدة بصيلات ذات اللون الابيض . وقد تذكره اليهود بحسرة وقت خروجهم من مصر (اعداد ١١ — ٥) . وجاء عن رمسيس الثالث « ١١٩٨ — ١١٦٧ ق . م . » انه قدم منه الى معبودات طيبة ٣٦٠ مكيالاً زيادة على ٦٢٠٠ مكيال وهو المقدار المعتاد صرفها « قرطاس هويس ١٩ — ١ — ١٣ — ١٤ » . وهذا المجموع يعادل ٦١٧٦ لتراً . وكان المصريون قبل حكم الاسر « قبل ٣٤٠٠ ق.م. » مغرمين بالثوم كما يستدل بالمقادير التي عثر عليها منه في مقابرهم « بتري Prehistoric Egypt ١٩٢٠ — ٢٤ » . وعثر على حزمة من الثوم كاملة طول أفرعها ستون سنتيمتراً بمقبرة جهة العساسيف . واسمه بالمصرية « حتوم »

١٣ — ﴿ الترمس ﴾ اسمه باللاتينية (Lupinus) وبالانكليزية lupine . وجد الاستاذ (بتري) في مقبرة قديمة بهوارة بالفيوم بعضاً منه . فدلَّ ذلك على انه كان معروفاً عند المصريين في العصرين اليوناني والروماني

١٤ — ﴿ التوابل ﴾ Spices — استعمل المصريون التوابل بكثرة في أغذيتهم . وانتقل عدد كبير منها الى اوربا بعد الحرب الصليبية . وأهم التوابل القديمة هي : —

ا — ﴿ الكزبرة ﴾ واسمها باللاتينية C riandrum Sativum وبالانكليزية Coriander قال پلينوس في تاريخه الطبيعي «٢٠—٨٢» ان الكزبرة المصرية هي اجود ما عرف من نوعها . واعتاد القوم ان يخلطوها بالنبيذ لزيادة قوته المسكرة ولاكثار السرور (مريت — دندرة — ١—٦٦ ٤١ ولتهييج الاعصاب وتنبيه الاعصاب التناسلية « ماسبرو — دراسة مصرية ١ — ٢٣٣) . وورد ذكر الكزبرة سبع عشرة مرة في قرطاس «ايبرس» وثلاث مرات في قرطاس «برلين» وذلك ضمن وصفات لتقوية شهية الطعام ومقاومة التهوّع وعلاج الاورام والقلب والكبد الخ . لذلك اعتاد المصريون ان يضعوا مع موتاهم بعضاً من حب الكزبرة وقد عثر على مرتين من حب الكزبرة في مقابر مصرية قديمة معروضة الآن بهولاندا « متحف ليدن — دليل — ٤٨ » . وعثر الاستاذ « شوينفورت » على بقايا الكزبرة بالدير البحري . وورد ذكر الكزبرة في قائمة قرابين قدماء المصريين « دار تحف اللوفر ب — ٤٩ — اسرة خامسة — ٢٧٥٠ — ٣٦٢٥ ق.م . » . واسمها بالمصرية القديمة «اۥنش» — كمال باشا

ب ﴿ سمسم ﴾ ويقال له باللاتينية Sesamun indicm وبالانكليزية Sesame اورد «لوريه» رسماً للسمسم في كتابه « La Flore ص ٥٧ و٤١٥ » مأخوذاً من مقبرة رمسيس الثالث « ١١٩٨ — ١١٦٧ ق.م.» مبيناً استعماله مع الفطير كما يستعمل الآن بين المصريين . واسمه بالمصرية القديمة شمشم « كمال باشا » ويطلق هذا اللفظ على النبات وحبّه على السواء

ويرى الاستاذ ولكنسون « عادات المصريين ج ٢ ص ٤١٥ » والاستاذ اونجر « نباتات مصر القديمة ص ٤٥ » ان قدماء المصريين استعملوا السمسم واليانسون والكمون كحبوب معطرة في الفطائر

« ج » كمون — واسمهُ باللاتينية Cuminum Cyminum وبالانكليزية Cummin وبالمصرية جنى — كمال باشا — كانت اليهود تأخذ عشوراً على الكمون والنعناع والشبت وورد ذكر الكمون عشر مرات بقرطاس « ايبرس » الطبي . وقد وصفه « ديوسقوردیس » المرضى. وعثر على حبوب الكمون بمقبرة مصرية قديمة معروضة الآن بدار تحف « فلورنسة » بايطاليا

« د » شبت :— اسمه باللاتينية (Anethum) وبالانكليزية anise وبالمصرية القديمة (إمست) — نبت مصري قديم دخل ضمن وصفات الصداع . قال الاستاذ « لوريه » ان بذر الشبت دخل ضمن وصفة لشفاء اوعية الفخذ « قرطاس برلين لوحة ١٥ »

تجارب عجيبة

بأشعة تعطل وتميت

في انكلترا والمانيا وفرنسا وايطاليا واميركا

ردد الكتّاب من أصحاب الخيال في السنوات الأخيرة ذكر شعاعة تطلق من بعيد فتميت الانسان والحيوان وتدمر الطائرات والسيارات . وقد حملت الينا الانباء البرقية غير مرة في العهد الاخير نبأ تحقيق هذا الخيال ثم ظهر ان ما قيل سابق لاوانه . ولا يخفى ان اقدم ذكر ورد لهذا الضرب من الاشعة ما نقل عن الاقدمين من استعمال المرايا في الحروب لعكس أشعة الشمس على العدو واستعمالها لحرق سفنه وعتاده الحربي . والواقع ان طائفة من العلماء المجربين في أشهر البلدان يجربون تجارب من هذا القبيل . والى القارىء شيئاً عن بعض هذه التجارب وأصحابها

يقول الاستاذ لو العالم الانكليزي انه اذا نشبت الحرب القادمة قبل استنباط هذه الوسيلة فلا ريب في ان الحكومات سوف توجه اليها جهدها عند نشوب الحرب . عند ذلك يصبح كل سلاح من أسلحة الحرب ولا فائدة منه بل ان استعمال هذه الاشعة يقضي على الحرب لانهُ يكفي لشل أمم بأسرها في بضع دقائق بعد اعلانها . فالطائرات اذا وجهت اليها هذه الاشعة قتل سائقوها أو عطلت محركاتها فتسقط الى الارض لا حراك فيها

ففي انكلترا عالمان يبحثان عن هذه الضالة ويظنان انهما على وشك الفوز بها . أحدهما يدعى غروندل ماتيوز وهو يحيط تجاربه بستار من الكتمان وترقبها الدوائر الرسمية البريطانية بعناية كبيرة . يقيم في كوخ على قمة جبل في جنوب ويلز يدعى جبل المشب . والكوخ يحيط به سور من الاسلاك الشائكة وعلى مقربة منهُ ساحة للطائرات . ويدعي المستر ماتيوز ان في كوخه جهازاً يطلق اشعة في مكنتها أن تقتل فأرة أو ان تعطل سيارة . وهو يقول انهُ من المستطاع في المستقبل استعمال اشعة من هذا القبيل لتعطيل محركات الطائرات والسيارات عن بعد . واستعمالها يقتضي نفقة كبيرة ولا ريب ولكن الحكومات لا تحجم عن هذا عند الاضطرار . غير ان الطائرة التي تصيبها هذه الاشعة لا تدمر وانما يعطل محركها فلا تستطيع الحراك

والمستر ماتيوز ليس جديد العهد بالاختراع . فله في دار تسجيل المخترعات امتيازات عديدة لها صلة بالمواصلات السلكية واللاسلكية . وكان في خلال الحرب الكبرى قد استنبط زورقاً يسير بمحرك كالسيارة يمكن أن يطلق في البحر ويوجه بشعاعة من الضوء ، ثم يطلق مدفعاً صغيراً فيه بالطريقة نفسها . فاشترت الحكومة البريطانية منه هذا الاختراع بخمسة وعشرين الف جنيه

وهذا يدلك على ان تجارب المستر ماثيوز بأشعة الموت ليست من قبيل الفكاهة والتسلية

وهناك عالم آخر يدعى تشدفيلد وهو محاضر في كلية ليستر العلمية . وقد مضت عليهِ شهور وهو يجرب في مختبره الخاص بمدينة ليستر تجارب من هذا القبيل . وقد صرح ان لديهِ جهازاً الآن يستطيع ان يقتل بهِ فئراناً على بعد مئات من اليردات . وهو يدعي كذلك ان الرسائل العصبية في الاحياء كهربائية الاصل . وانهُ يمكن قتل الاحياء بتعطيل جهازها العصبي بواسطة اشعة مختلفة في طول امواجها . وقد استخرج رخصة من وزارة البريد لانشاء آلة من هذا القبيل قوتها ٥ كيلوط

وقد صرح المستر تشدفيلد لاحد الصحافيين انهُ عازم على الحرص على استنباطه لئلاَّ يقع في ايدي من يستعمله للاذى لان انساناً واقفاً في مسار هذه الاشعة يقتل وهو لا يحس بذلك . فانهُ يشعر اولاً بقليل من الدفء ثم يفقد الشعور . وقد وجه اشعته هذه الى طوائف من الفئران والذباب فماتت من دون ان يبدو عليها كيف ماتت

وقد تستعمل هذه الاشعة لقتل البقر والاغنام بدلاً من ذبحها أو دق اعناقها في السلخانات

ولكل حي ضرب من الاشعة خاص بهِ يختلف في طول موجتهِ عن الضرب الآخر وهو يبحث الآن محاولاً اكتشاف هذه الضروب المختلفة . على ان انكلترا ليست بالبلاد الوحيدة التي تجرب فيها هذه التجارب . وقد اشارت الصحف والانباء البرقية غير مرة الى التجارب اللاسلكية التي يجربها المخترع العظيم ماركوني في ايطاليا بين قصر بوكتشيا وروما ، باشعة لاسلكية قصيرة جداً

وقد قيل انهُ في خلال قيام ماركوني بتجاربه هذه ، توقفت طائفة من السيارات الدارجة على شقة معينة من الطريق بين روما واوستيا لغير سبب معروف . ولما حاول سائقوها تسييرها ذهبت محاولاتهم ادراج الرياح . وقد اقترن اسم ماركوني في اواخر القرن التاسع عشر ببحر الامواج اللاسلكية وعجائبها . لذلك يقال انهُ على وشك اختراع عظيم . ويؤكدون ان هذا الاختراع ، ليس إلاَّ اشعة تؤثر في «ماغنيتو» السيارات والاجهزة الكهربائية في محركات الاحتراق الداخلي التي تسير بها السيارات والطائرات فتعطلها وتبقى معطلة ما دامت في نطاق تأثير الاشعة . وما لوحظ في ايطاليا من وقف السيارات ، لوحظ كذلك في المانيا . فقد كان احد تجار ڤينا دارجاً بسيارته في بافاريا ، فتوقفت السيارة فجأة ولم يدر السبب . ثم توقفت سيارة اخرى وراءه عن السير . فلما اقبل البوليس وقصت عليهِ القصة ، قال لا تخشوا بأساً ايها السادة . فبعد بضع دقائق تعود سياراتكم الى حالها الاولى

وما انقضت خمس دقائق حتى حركت المحركات فتحركت ومضت السيارات في سبيلها . وقد علم بعدئذٍ انهُ عالماً بافاريّاً قد بين انهُ يستطيع ان يعطل جهاز الاشتعال في محرك الاحتراق الداخلي ، بشعاعة من الاشعة اللاسلكية . ويقال انهُ اذا ظلت سيارة بضع دقائق في مسير شعاعة من هذا القبيل صهر معدن «الماغنيتو» فيها . وفعل هذه الشعاعة يمتد الى ميلين ولو كانت مولدة من جهاز صغير

ثم ان في المانيا خبيراً بالطيران يدعى نيفل تانغي يقول انهُ سمع تفصيلات عجيبة من طيار مشهور

موظف الآن في وزارة الطيران الالمانية . وقد جرّب هذا الطيار تجربة خاصة بتوجيه ضرب من هذه الاشعة الى الطائرات فاسقط الطائرات بها ؛ ولم ينفع في حجبها عن الطائرات حاجز ما

وقد اتخذت هذه التجارب شكلاً آخر في فرنسا . فقد استنبط هناك جهاز يشبه المسدس في تركيبه ، ويطلق اشعة قوية الطاقة من الضوء . وقد جربت به تجربة عجيبة ، بأشعة ضعيفة الطاقة ، امام جمهور من خبراء الجيش وسلاح الطيران . فاطلقت اشعته على جمهور من الراقصين والراقصات في ميدان كبير في باريس . وما كادت تطلق عليهم هذه الاشعة حتى فقدوا قوة التحرك ، ووقفوا جموداً في اماكنهم من دون ان يتموا خطوات الرقص التي كانوا بسبيلها ، وسقط بعضهم على الارض . فلما حولت الاشعة عنهم عادوا كما كانوا اناساً اسوياء يرقصون ويطربون

ويقولون في فرنسا ان عندهم جهازاً عاكساً استنبط حديثاً قد يثبت انهُ اصلح الوسائل لمقاومة الطائرات الحربية . وهذا الجهاز مؤلف من قرص معدني عاكس تتوسطه بندقية او آلة القذف . فالبندقية تطلق نوعاً من الذرور شديد الالتهاب كذرور المغنيسيوم المستعمل في التصوير الشمسي ليلاً او في الظلام . الا ان ذرور هذا الجهاز ألمع ضوءاً من المغنيسيوم عند اشتعاله وتركيبهُ لا يزال سرّاً مكتوماً . فعني اولو الامر من الفرنسويين بهِ عناية خاصة فطلبوا الى مستنبطيهِ ان لا يصنعاه للبيع في السوق العامة . ويقول احدهما اننا نستطيع بطلقة واحدة ان نحدث ضوءًا يبلغ اشراقه اشراق ثلاث ملايين شمعة ويستمر جزءًا من مائة جزء من الثانية . فاذا اصاب هذا الضوء عيني طيار محلق فوق مدينة ما بهر بهِ واصيب بعمى وقتي يدوم ثلاث دقائق فاذا وضعت بطريات من هذا الجهاز في المواقع الموافقة في قلب حاضرة كباريس وحواليها امكن وقايتها من هجمات الاساطيل الجوية المعادية عليها . وفي الولايات المتحدة الاميركية مستنبط كهربائي قديم العهد من اصل سربي يدعى تقولا تسلا . وقد اعلن من شهور عند بلوغه السنة الثامنة والسبعين من عمره انهُ اكتشف ضرباً من الاشعة يمكن استعماله في بناء سور يحيط ببلاد ما ولا يمكن ان تخترقه القوى العسكرية . وهو عازم على جعل هذا الاكتشاف رهن تصرف جامعة الامم لتستعمله في تعزيز السلام . ويؤخذ من تصريح آخر لهُ انهُ اتقن جهازاً يستطيع ان يبعث بهِ بتيارات من الدقائق المتناهية في الصغر بسرعة عظيمة وقوة عجيبة فتستطيع ان تسقط اسراب العدو وان تفتك بجيوش عظيمة اذا أصابتها

وهذا الاستنباط — اذا صحَّ — يجعل الحرب العدائية متعذرة ولكنه في الوقت نفسه لا يمكن ان يستعمل في اعتداء امة على اخرى اي انه لا يمكن ان يستعمل الاَّ في الدفاع . لان هذه الدقائق لا يمكن ان تتولد الاَّ من آلات كهربائية ضخمة . وهذه بحكم الطبع يجب ان تكون راسخة في الارض وليس في الوسع تنقيلها لتسير مع الجيوش الهاجمة

ولا يخفى ان الاشعة السينية والاشعة المنطلقة من الراديوم تستطيع ان تتلف الانسجة الحية . ولكن الغرض من هذه التجارب هو استعمالها او استعمال ما يقابلها على مدى بعيد وفي نطاق واسع

استاذنا الامام

حجة الاسلام

السيد محمد رشيد رضا

بقلم الشيخ أحمد محمد شاكر

فقد الاسلام في هذه الايام علماً عالياً من أعلامه ، وإماماً حجةً من ائمة الهدى ، ومجاهداً كبيراً ، ومصلحاً عظيماً ، عاش حميداً ومات شهيداً (1)

ولد استاذنا الامام (السيد محمد رشيد رضا) رضي الله عنهُ في يوم الاربعاء ٢٧ جمادى الاولى سنة ١٢٨٢ (١٨ اكتوبر سنة ١٨٦٥) بقرية (القلمون) ، وهي قرية من قرى جبل لبنان على شاطىء البحر الابيض المتوسط ، وتبعد عن مدينة (طرابلس الشام) نحو ثلاثة أميال

وأسرة ابيهِ من السادة الاشراف الذين ينتهي نسبهم الى جدّنا الأعلى سيدنا الحسين بن علي عليهما السلام ، وهم من اهل العلم والارشاد والرياسة ، ذوو كرم وكرامة ، ودين وتقوى ، وعزة نفس وترفع . وقد عاشرنا في مصر منهم افراداً ، فكانوا من أنبل الناس خُلقاً ، وأطهرهم قلباً ، واصدقهم حديثاً . وكان ابوهُ من اعز الرجال نفساً ، وأجرئهم جناناً ، واسخاهم يداً . وأمهُ : من أسلم النساءفطرة ، وأكرمهنّ أخلاقاً ، وأوفاهنّ لزوج ، وأحناهنّ على ولد. واسرة امه ينتهي نسبها الى سيدنا الحسن بن علي عليهما السلام

اول ما تعلم — رحمهُ الله — في كتّاب قريتهِ ، فتعلم قراءة القرآن والخط وقواعد الحساب الأربع ، ثم ادخل في (المدرسة الرشدية) بمدينة « طرابلس الشام » وهي مدرسة ابتدائية للدولة العثمانية ، يدرس فيها الصرف والنحو والحساب ومبادىء الجغرافية ، والعقائد والعبادات ، واللغة العربية واللغة التركية ، وكان جميع التدريس فيها باللغة التركية (2)

ثم دخل « المدرسة الوطنية الاسلامية » في سنة ١٢٩٩ وهي أرقى من المدرسة الرشدية ، وجميع التعليم فيها باللغة العربية ، الا اللغتين التركية والفرنسية . وتدرس فيها العلوم العربية والشرعية ، والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية . وكان استاذه العلامة الشهير « الشيخ حسين الجسر الازهري »

---

(١) فانه رحمه الله خرج مع ركب الامير سعود حين سفره من مصر الى الحجاز ، فذهب معهم الى السويس ، ومات في العودة عند ما وصل الى مصر الجديدة ، وماكان خروجه هذا مجاملة أو تقرباً للامير ، وانما كان ليحدثه في شؤون المسلمين ويعرض عليه آراءه في طرق الاصلاح ، ليعرضها سمو الامير على جلالة والده الملك عبدالعزيز بن السعود ، فكان خروجه عملا من أعمال الجهاد في سبيل الله ، ولم يقو جسمه في هذه السن على احتمال المشاق ، فمات مجاهداً شهيداً ، ان شاء الله . وكان ذلك في يوم الخميس ٢٣ جمادى الاولى سنة ١٣٥٤ (٢٢ اغسطس سنة ١٩٣٥)

(٢) المنار والازهر (ص١٣٩)

هو المدير لها ، بعد أن كان هو الذي سعى لتأسيسها ، لأن رأيه أن الامة الاسلامية لا تصلح ولا ترقى الاّ بالجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا على الطريقة العصرية الاوربية ، مع التربية الاسلامية الوطنية ، تجاه التربية الاجنبية في مدارس الدول الاوربية والامريكانية (١)

فلم يدخل المدارس الاّ بعد تجاوزه الخامسة عشرة من عمره ، وكان ذلك عن رأي والده وإرشاده ، خوفاً عليه مما يعرض في المدن للناشئين من الفتن . فلما أن وثق من دينه وخلقه ورشده أذن له بالاقامة في مدينة طرابلس الشام لطلب العلم في المدارس

وكان قبل دخوله المدارس شديد العناية بمطالعة كتب الأدب وكتب التصوف . قال في كتابه « المنار والازهر » ص ١٤٠ « وكان أعجب كتب التصوف اليّ احياء علوم الدين لحجة الاسلام أبي حامد الغزالي ، هو الذي طالعته كله ، وكنت اكثر مراجعته وقراءة بعض ابوابه عوداً على بدء ، ثم صرت أقرؤه للناس ، وكان له اكبر التأثير في ديني واخلاقي وعلمي وعملي . وإنهُ لتأثير صالح نافع في اكثره ، ضارٌ في أقله . وقد عالجت الضار منهُ بعد العلم بهِ : فما كان فيهِ من خطأ علمي فقد رجعت عنهُ بالتدريج ، بعد اشتغالي بعلم الحديث ، ولاسيما عقيدة الجبر والتأويلات الاشعرية والصوفية والغلوّ في الزهد ، وبعض العبادات المبتدعة . وأما تأثيره الوجداني في الزهد واحتقار الدنيا والمتكالبين عليها وعلى وظائف الحكومة — : فلم استطع الاعتدال فيهِ ، فضلاً عن التفصي منهُ »

وقد تلقى العلم عن كثير من العلماء الاعلام . فمنهم العلامة الشهير الشيخ حسين الجسر : أخذ عنهُ العلوم العربية والشرعية والعقلية . ومنهم شيخ الشيوخ الشيخ محمود نشابة : أخذ عنهُ الحديث وفقه الشافعية . ومنهم العالم المحدث العابد الشيخ محمد القاوقجي الكبير : تلقى عنهُ بعض مؤلفاته في الحديث . ومنهم العلامة الشيخ عبد الغني الرافعي : حضر عليهِ قليلاً من نيل الاوطار للشوكاني ، واستفاد كثيراً من معاشرته في العلم والادب والتصوف

ونشأ عابداً متعبداً ، زاهداً متنسكاً ، يذهب الى المسجد في السحر ، ولا يعود الى البيت الاّ بعد ارتفاع الشمس ، ويصلي في الليل متهجداً تحت الاشجار في بساتين آله . ورباه اهله ثم ربى نفسه على الحياء والصدق والاخلاص والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والشجاعة في ذلك ، فلا يخشى الاّ الله

وكمل نفسه بكثير من العلوم العصرية ، ووسع دائرة تفكيره بالاطلاع على شؤون الاجتماع وسياسة العصر . فكان يطالع المجلات العلمية ، وفي مقدمتها « المقتطف » والمجلات السياسية وأهمها « العروة الوثقى » التي كان يصدرها في باريس المرحوم الاستاذ السيد جمال الدين الافغاني والمرحوم الامام الشيخ محمد عبده . ولقد حدثني صديقي الكاتب الفاضل السيد محيي الدين رضا انهُ سمع عمه المرحوم السيد رشيد يعترف بفضل « المقتطف » عليهِ في توسيع دائرة معارفه في نشأته ، وانهُ كان يواظب على قراءته ما وجد سعةً من وقته

(١) المنار والازهر (ص١٣٩و١٨١)

واما مجلة (العروة الوثقى) فانها كان لها اكبر الأثر في توجيه تفكيره الى الوجهة الاصلاحية المسلمين[1] والى وضع منهج واضح يسير عليهِ في سبيل الاصلاح . وقد اتبع ما رسم لنفسه من خطة ، لم يحد عنهُ قيد شعرة ، حتى لقي الله

واوتي موهبة الكتابة العالية في إبان نشأته ، ونشر بعض مقالات في جريدة (طرابلس) فكان صحفيًّا بطبعه وفطرته ، وما زال يكتب ويحرّر الى حين وفاته . فكان من ابلغ الكتاب قلماً ، واوسعهم مجالاً ، واقومهم بحُجة

وقد عزم على الاتصال بالمرحوم السيد جمال الدين الافغاني « لتكميل نفسه بالحكمة والجهاد في خدمة الملة ، فلما توفاه الله تعالى اليهِ ، واشتهر ان السياسة الحميدية هي التي قضت عليهِ ، ضاقت عليهِ المملكة العثمانية بما رحبت ، وعزم على الهجرة الى مصر ، لما فيها من حرية العمل واللسان والقلم ، ومن مناهل العلم العذبة الموارد ، ومن طرق النشر الكثيرة المصادر . وكان اعظم ما يرجوه من الاستفادة في مصر الوقوف على ما استفادهُ الشيخ محمد عبده من الحكمة والخبرة وخطة الاصلاح التي استفادها من صحبة السيد جمال الدين ، وان يعمل معهُ وبارشاده في هذا الجوّ الحرّ » [2]

ثم يسَّر الله لهُ اسباب السفر الى مصر ، ورضي بهِ والداه رحمهما الله ، ولما وصل الى بيروت في طريقهِ الى مصر عرض عليهِ عبد القادر افندي القباني ان يقيم في بيروت ، ويتولى رئاسة التحرير لجريدته (ثمرات الفنون) . قال السيد رحمهُ الله : « فقلت لهُ : ان الحرية التي في بيروت لا تسعني قال : او تريد ان تنقد جلالة السلطان عبد الحميد او تخوض في سياسته ؟ قلت : انما أريد اصلاح الاخلاق والاجتماع والتربية والتعليم . قال : إن لك أوسع الحرية في هذا . قلت : إذا أردت ان أكتب في فضيلة الصدق ومضارّ الكذب ومفاسده فأبيّن ان أكبر اسباب فشوّ الكذب في الامم الحكم الاستبدادي ، أتنشر لي ذلك جريدتكم ؟ ! قال : لا ، لا ، عجّل بالذهاب الى مصر ولا تخبر أحداً ! [3] »

ويجدر بنا في هذا الموضع أن نصحح خطأً مشهوراً ، يظنه اكثر الناس صواباً ، وذلك : انهم يزعمون أن السيد رشيد رحمهُ الله جاء الى مصر لاتمام الدراسة العلمية ولذلك تتلمذ للشيخ محمد عبده . والحقيقة انهُ رحمهُ الله لم يغادر بلاده الاّ بعد اتمام دراسته ، وبعد نيل الشهادة العالمية والاذن لهُ من شيوخه بالتدريس ، وكان قد جاوز الثلاثين من عمره . وانما اتصل بالاستاذ الشيخ محمد عبده كما يتصل العالم الصغير بالعالم الكبير ، وبقي تلميذاً لهُ — على هذا المعنى — الى حين وفاته ، كما كان يفعل سلفنا الصالح رضي الله عنهم ، ولو بقي الاستاذ الشيخ محمد عبده حيًّا الى الآن لبقي السيد رشيد تلميذه الى الآن ، ولوفّى لهُ في حياته كما وفى لهُ بعد مماته ، رضي الله عنهما

---

(١) تاريخ الامام محمد عبده (ج١ص٨٤ و ٣٠٣ و ٩٩٥ — ٩٩٦) (٢) المنار والازهر (ص ١٩١)
(٣) المنار والازهر (ص ١٩٢)

فكان السيد رحمه الله مع الاستاذ الامام تلميذاً لهُ وصديقاً ، وناصحاً ومخلصاً ، وكان مستودع أسراره والداعية لآرائه ، والمدافع عنهُ في كل معركة من معارك جهاده . بل كان كما وصفهُ الاستاذ الامام — لوالدي الاستاذ الاكبر الشيخ محمد شاكر حفظه الله — « ترجمان افكاره »

جاء السيد رشيد الى مصر وقد وضع نصب عينيهِ صحبة الاستاذ الامام ، ثم انشاء صحيفة اصلاحية يستمد فيها من حكمته وخبرته . فوصل الى الاسكندرية مساء الجمعة ٨ رجب سنة ١٣١٥ «٣ يناير سنة ١٨٩٨ » فأقام فيها أياماً ثم انتقل منها الى طنطا فالمنصورة فدمياط ، ثم عاد الى طنطا وسافر منها الى القاهرة قبل الظهر من يوم السبت ٢٣ رجب « ١٨ يناير سنة ١٨٩٨ » وفي ضحوة اليوم الثاني (الأحد ٤ رجب) ذهب الى زيارة الاستاذ الشيخ محمد عبده في داره بالناصرية. ثم اتصل الأمر بينهما واستشار السيد أستاذه في انشاء الصحيفة التي يريدها ، وشاوره في تسميتها ، وذكر له اسم (المنار) . مع أسماء أخرى ، فاختار الامام اسم (المنار) . ثم شرع السيد في تحريره ، وكتب فاتحة العدد الأول بقلم الرصاص في جامع الاسماعيلي المجاور لدار الاستاذ بالناصرية — وكان ذلك في منتصف شوال سنة ١٣١٥ (مارس سنة ١٨٩٨) — وذهب بها الى داره وعرضها عليه ، فأُعجب بها كل الاعجاب ، وارتضى كل ما ذكره فيها من المقاصد والأغراض ، إلا كلمة واحدة : هي تعريف الأمة بحقوق الامام ، والامام بحقوق الأمة . قال ما معناه : « إن المسلمين ليس لهم اليوم إمام إلا القرآن ، وإن الكلام في الامامة مثار فتنة يخشى ضره ولا يرجى نفعه الآن » فحذف السيد هذه الكلمة عن رأي الأستاذ وإشارته (١)

وقد اقترح السيد على الاستاذ الامام عقيب اتصاله بهِ — وكان أول اقتراح له عليهِ — أن يكتب تفسيراً للقرآن ينفخ فيهِ من روحه التي وجد روحها ونورها في مجلة (العروة الوثقى) فاعتذر الامام عن ذلك . فاقترح عليهِ أن يقرأ دروساً في التفسير ، فكان يعتذر ، ثم لم يزل بهِ حتى أقنعهُ برأيه ، فبدأ الأستاذ الامام في قراءة التفسير بالازهر الشريف في غرة المحرم سنة ١٣١٧ وانتهى منهُ في منتصف المحرم سنة ١٣٢٣ عند تفسير قوله تعالى « وكان الله بكل شيءٍ محيطاً » من الآية ١٢٦ من سورة النساء ، فقرأ زهاء خمسة أجزاء في ست سنين ، ثم توفى الامام الى رحمة الله يوم ٨ جمادى الاولى سنة ١٣٢٣ . وكان السيد رحمهُ الله يكتب في أثناء الدرس مذكرات بأهم ما يقوله الاستاذ ، ثم بدا لهُ باقتراح بعض الراغبين في الاطلاع على تفسير الامام : أن ينشر هذا التفسير في المنار ، فشرع في ذلك في المحرم سنة ١٣١٨

قال السيد رحمهُ الله : « وكنت أولاً أطلع الاستاذ الامام على ما اعده للطبع كلما تيسر ذلك بعد جمع حروفه في المطبعة وقبل طبعه ، فكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة او حذف كلمة او كلمات ، ولا اذكر انهُ انتقد شيئاً مما لم يره قبل الطبع ، بل كان راضياً بالمكتوب بل معجباً به . على انه لم يكن

(١) تاريخ الاستاذ الامام (ص ٩٩٥ — ١٠٠٥ وص ٩١٣)

كله نقلاً عنهُ ومعزوًّا اليهِ ، بل كان تفسيراً للكاتب من انشائه ، اقتبس فيهِ من تلك الدروس العالية جل ما استفاده منها »[١]

ثم استقلَّ السيد رحمهُ الله بعبء التفسير وحده بعد أستاذه فقام بهِ خير قيام ، بل فاق في هذا المجال استاذه الامام . فان الاستاذ الشيخ محمد عبده انما كان روحاً وثاباً ، وحكيماً عظيماً ، وقائداً ماهراً ، ولكن لم يكن مطلعاً على السنة النبوية اطلاعاً كافياً ، ولا يكون ، المفسر للقرآن مفسراً حقًّا الاَّ بالتوسع في دراسة الحديث النبوي والتشبع منه ، لان رسول الله صلى الله عليهِ وسلم أمر ببيان الكتاب للناس ، فقوله وفعله وكل حالاته شرح لهذا الكتاب الكريم

وقد أتمَّ السيد تفسير اثنى عشر جزءاً من اجزاء القرآن ، طبعت كلها . وفسر بعض آيات من اول الجزء الثالث عشر ، ثم فقدناهُ أحوج ما كنا اليهِ ، رحمهُ الله ورضي عنهُ

وان اخوف ما كنت اخاف هو هذا الموقف الذي صرنا اليهِ : مات السيد رشيد ولم يكمل تفسير القرآن . ولقد أذكر أني تحدثت اليهِ في هذا المعنى منذ عشرين سنة تقريباً ، وكنت من اقرب الناس اليهِ وأبرّهم به ، فألححت عليهِ في ان يوجه عزمه وهمته الى اتمام التفسير ، وان يدع كل مشاغله الاخرى ويتفرغ لهذا العمل الجليل النافع ، الذي لا نعرف احداً من العلماء يضطلع بهِ ، ولا نرى له أهلاً غيره . ولكن هكذا قُدّر فكان . ولعلنا نجد من علمائنا من يوفق لاقتفاء أثر السيد رحمهُ الله في تفسير القرآن حتى يتمهُ . ان شاء الله

وبعد : فان آثار السيد رشيد في دفاعهِ عن الاسلام ، وتقريبهِ للاذهان لا يحصيها مقال او كتاب ، فانهُ رجل مكث قريباً من اربعين سنة يكتب في مجلتهِ وفي الصحف الاخرى ، ويؤلف الكتب والرسائل ، كل هذا لله وفي سبيل الله ، ولا يخشى في الله لومة لائم . ولكن أعظم آثاره وأنفعها ، وأرجاها للمسلمين ، وأبقاها على الدهر — : هو هذا التفسير العظيم

واني كنت قد وصفت بعض مزاياه في مقال نشرتهُ في مجلة (المنار) في العدد (٣ من المجلد ٣١) ربيع الآخر سنة ١٣٤٩ سبتمبر سنة ١٩٣٠ — ومما قلت فيهِ : إنهُ «خير تفسير طبع على الاطلاق ، ولا أستثني ، فانهُ هو التفسير الأوحد الذي يبين للناس اوجه الاهتداء بهدي القرآن على النحو الصحيح الواضح — إذ هو كتاب هداية عامة للبشر — لا يترك شيئاً من الدقائق التي تخفى على كثير من العلماء والمفسرين »

«ثم هو يظهر الناس على الاحكام التي تؤخذ من الكتاب والسنة ، غير مقلد ولا متعصب ، بل على سنن العلماء السابقين : كتاب الله وسنة رسوله . ولقد أوتي الاستاذ من الاطلاع على السنة ومعرفة عللها ، وتمييز الصحيح من الضعيف منها — : ما يجعله حجة وثقة في هذا المقام ، وأرشده الى فهم القرآن حق فهمه »

« ثم لا تجد مسألة من المسائل العمرانية او الآيات الكونية الاَّ وأبان حكمة الله فيها ، وأرشد الى الموعظة بها ، وكبت الملحدين والمعترضين بأسرارها ، وأعلن حجة الله على الناس . فهو يسهب

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام ص (٧٦٥ — ٧٦٨) وتفسير المنار (ج ١ ص ١٢ — ١٥)

في ازالة كل شبهة تعرض للباحث من ابناء هذا العصر ، ممن اطلعوا على اقوال الماديين وطعونهم في الاديان السماوية ، ويدفع عن الدين ما يعرض لاذهانهم الغافلة عنهُ ، ويظهرهم على حقائقهِ الناصعة البيضاء ، مع البلاغة العالية ، والقوة النادرة . لله دره ! » ...

« ولقد عرض للكثير من المشكلات الاجتماعية والسياسية التي عرضت في شؤون المسلمين فأفسدت على كثير من شبانهم هداهم ودينهم ، فحللها تحليلاً دقيقاً . وأظهر الداء ووصف الدواء من القرآن والسنة ، وأقام الحجة القاطعة على ان الاسلام دين الفطرة ، وأنهُ دين كل أمة في كل عصر . ونفى عن الاسلام كثيراً مما ألصقهُ بهِ الجاهلون ، أو دسهُ المنافقون ، من خرافات وأكاذيب كانت تصد فئة من أبنائه عن سبيله ، وكان اعداؤه يجعلونها مثالب يلعبون بسببها بعقول الناشئة ليضموهم الى صفوفهم ، وينزعوهم من أحضان أمتهم »

« وإنهُ لكتاب العصر الحاضر يفيد منهُ العالم والجاهل والرجعي والمجدد بل هو الدفاع الحقيقي عن الدين »

« وأنا أرى من الواجب على كل من عرف حقائق هذا التفسير أن يحض إخوانه من الشبان على مطالعته ، والاستفادة منهُ ، وبث ما فيهِ من علم نافع . لعلَّ الله أن يجعل منهُ نواة صالحة لاعادة مجد الاسلام ، وأن ينير بهِ قلوباً أظلمت من ملئها بالجهالات المتكررة »

ولو شئنا أن نطيل في ترجمة السيد رشيد وتعداد مناقبه وفضائله ، أو في بيان مزايا تفسيره ونفعه للناس عامة — : لكان مجال القول أمامنا واسعاً ، ولأعجزنا ان نستوعب ما نريد من ذلك . ونسأل الله سبحانهُ أن يجزيه عن المسلمين خير الجزاء ، وأن يجعلهُ من السابقين الأولين

وإن الاخ الفاضل السيد عبد الرحمن عاصم — ابن عم أستاذنا وصهره — أعلم الناس بسيرته الشخصية والاجتماعية ، والسياسية الاسلامية والعربية ، وقد شهد لهُ بذلك السيد رشيد نفسه في كتاب المنار والازهر (ص ١٩٤) . وأنا أرى انهُ جدير بهِ أن يكتب ترجمة وافية ، أو يعين غيره على كتابتها ، وقد عاش معهُ نحواً من خمس وعشرين سنة ، ويخيل اليَّ أن هذه الشهادة للسيد عاصم تشير الى رغبة الاستاذ في ذلك ، وكأنها وصية منه ينبغي تحقيقها

وبعد فان من أمارات الخير ودلائل التوفيق أن السيد — رضي الله عنه — ركب السيارة يوم وفاته من السويس ، وشرع في قراءة القرآن ، ولم ينقطع عن التلاوة حتى قبضهُ الله اليهِ في مصر الجديدة

وأخرى : أن آخر ما كتب في تفسير القرآن تحت عنوان (دعاء يوسف عليهِ السلام بحسن الخاتمة) أنهُ فسر قوله تعالى حكايةً عن النبي يوسف عليهِ السلام (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) ، وكتب في آخر تفسيرها : « فنسأله تعالى ان يجعل لنا خير حظٍ منهُ بالموت على الاسلام » . فكانت دعوة استُجيبت ، وكانت — ان شاء الله — أمارة حُسن الختام

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الدمياطي

[اجتمع لي طائفة من أسماء المفردات النباتية وحررت ما يقابلها في بعض اللغات الاجنبية مرتبيها في معجم والآن عنّ لي أن أنشرها تباعاً في مجلة المقتطف الغراء في بيان موجز أذكر فيه المفرد ووصفه وموطنه واستعماله مشيراً الى بعض فوائده في الزراعة أو الصناعة أو التغذية أو الطب عسى أن يكون في ذلك بعض الفائدة — الدمياطي]

التمر الهندي

ويقال له (الحُمَر) كصُرَد او (الصُّبَّار) بالضم وفي السودان اسمهُ (العَرْدِيب) شجرةٌ كبيرة الحجم او متوسطته مظلّة جميلة المنظر بطيئة النمو ترتفع الى ٨٠ قدماً او اكثر ذات جذع ثخين مستقيم قائم قد يكون طول محيطه ٢٥ قدماً وقلفها اسمر قاتم وأوراقها من النوع المركب الريشي الصغير الذي لا ينتهي بوريقة طول الواحدة منها من ٧½ سنتيمتراً الى ١٥ وبها من ١٠ ازواج الى ١٥ من الوريقات الصغيرة الاهليلجية الملساء. وأزهارها مجتمعة في عناقيد غير مكتظة في الواحد منها من ١٠ زهرات الى ١٥ بأطراف فروع جانبية صغيرة قصيرة. وثمرتها قرون سمر متدلية يتراوح طول الواحد منها بين ٧½ سنتيمتراً و١٠ وعرضه ٢½ سنتيمتراً وبداخله كتلة لب احمر يضرب الى السمرة مزّ الطعم حلو وهو الذي يتَّجر بهِ ويشاهد في مصر مكبوساً كالعجوة. اما بذوره وتسميها العرب (القاريط) او (القراريط) فسمر اللون صلبة

اسمه العلمي (Tamarindus indica, L.) (تامارِندوس انديقا) وفصيلته الخيار الشنبرية او السنائية (Caesalpiniaceae) (سيزالپينياسية) وبالانجليزية (The Tamarind Tree; Indian Date) وبالفرنسية (Tamarinier de l'Inde)

قيل موطنه إفريقية وآسيا الاستوائيتان وهو يزرع عادةً في الجهات الدافئة من الهند وجزيرة سيلان وجزائر ملايا والسودان وغيرها للاستظلال به والانتفاع بلب ثمره المزّ المشتمل على الحامض الليمونيك والتفاحيك والطرطاريك وهو المستعمل في الطب لتليين البطن وفي صنع انواع الشراب المنعش المرطب وتصدر منه كميات وافرة من جزائر الهند الغربية الى بلاد الانجليز وغيرها. وأهالي الشمال من جزيرة سيلان يستعملون خلاصة من اللب لحفظ السمك. وفي الهند تستعمل اوراقه الصغيرة الغضة كِمَادة على كل دُمّل وخُرّاج وغُلُفاً سطحية لحفظ التبغ في المناطق الجافة وبذوره دواء لمعالجة الاسهال. وفي السودان يستعمل قَلف الجذع قابضاً ومقوّياً ويعتصر

من البذور زيت يدخل في صناعة (الورنيش) وخشب هذا الشجر صاب صفيق جميل المنظر جيد في الصقل مرغوب فيه في الهند وغيرها لصنع الاثاث وعجلات جر الاثقال وأوتاد الخيام والمهاريس المستعملة في تبييض الأُرْز وفي صنع السفن ومعاصر الزيوت وقصب السكر الى غير ذلك

الخُرْنُوب

ويقال له (الخُرُّوب) وفي العراق (القِثّاء الشامي) شجرته صغيرة تنمو ببطء وتعمر طويلاً وتظل الى اكثر من مائة سنة ترتفع من ٦ امتار الى ٩ قلف جذعها املس سنجابي اللون وهي دائمة الخضرة . أوراقها من النوع المركب الريشي في الواحدة منها من ٥ وريقات الى ١٠ وهذه الوريقات خضر برّاقة بيضية الشكل ملساء كالجلد كاملة الحافة منفرجة القمة . وأزهارها صغيرة جدًّا عديمة البتلات (وريقات التويج) مخضرة مجتمعة في عناقيد اسطوانية الشكل . أما ثمارها فعبارة عن قرون منبسطة ثخينة سمر اللون قاتمة متدلية ذات لب سكري حلو يتراوح طول الواحد منها بين ١٥ سنتيمتراً و٣٠ وعرضه ٢ ١/٢ سنتيمتراً

اسمه العلمي (Ceratonia Siliqua, L.) (سيراطونيا سيليكوا) وفصيلته الخيار الشنبرية او السنائية (Caesalpiniaceae) (سيزالپينياسية)

وبالانجليزية (St. John's Bread, Locust-bean, or Carob Tree)

وبالفرنسية (Caroubier; Arbre de carrouge)

وهو ذائع بجنوب اوربا باسبانيا والجزائر وبشرق البحر الابيض المتوسط والشام ودخل مصر وشمال الهند وكوينزلاند والولايات المتحدة وجنوب افريقية وغيرها ويزرع بمنطقة البحر الابيض المتوسط لثمره الحلو المنبسط الذي يتجر به كثيراً وهو يؤكل كما يعطى علفاً للماشية مغذياً ممسناً كما يستدل من تركيبه الكيميائي وهو :— ماء ١٤،٦ ./° — البيومينات او پروتيدات (مكونة للّحم) ٧،١ ./° — كربوهيدراتات (نشا وسكر الى غير ذلك) ٦٧،٩ ./° — زيت او دهن ١،١ ./° — ليف او سليلوز ٦،٤ ./° — رماد ٢،٩ ./° أما خشبهُ فثقيل متين احمر اللون جميل المنظر يرغب فيه للنجارة والوقود

وثمّ نوع آخر من جنس الشجر المعروف في مصر (بخف الجمل) من الفصيلة نفسها معروف في السودان باسم (خروب) و (تَمْبَريب) و (ابو خميرة) اسمه العلمي (Bauhinia reticulata D C.) (بوهينيا ريطيقولاتا) جاء عنهُ في كتاب برون ومامى عن نباتات السودان المطبوع سنة ١٩٢٩ ان الشجرة منهُ صغيرة تضرب اجزاؤها الحديثة الى الحمرة أوراقها كبيرة الواحدة منها ذات فصين أزهارها عديدة تيجانها بيض وكؤوسها تضرب الى الحمرة . ثمرتها قرن منبسط طويل مقوّس قليلاً اسمر اللون قاتم برّاق طوله قدم وعرضهُ ثلاث بوصات . خشبها صلب على نوع ما أسمر اللون قاتم يستعمل وقوداً . ويتخذ بعض نساء السودان من الياف قلف هذه الشجرة حبالاً ونسيجاً للثياب

وتؤكل البذور ويتمضمض بمغلي الاوراق في وجع الاسنان ويحصل من الجذور على صبغة لونها يضرب الى الحمرة كلون خشب الماهوجانة

السَّنى

بالقصر والمد نبت يتداوى بهِ والسَّنَى يطلق على الاوراق والقرون الجافة لانواع معيَّنة من الجنس النباتي المسمى علميًّا (قاسيا) (Cassia) وهو من فصيلة خيار الشنبر او الفصيلة السَّنائية (سيزالپينياسية) (Caesalpiniaceae) وهي المعروفة بخواصها المليّنة وتستعمل في الطب كثيراً

(١) من احسن الانواع في التجارة (السَّنى المكّي) ويحصل عليهِ من النبات المسمى علميًّا (قاسيا انجوستيفوليا او قاسيا لانسيولاتا) (Cassia angustifolia, Vahl. Syn. Cassia lanceolata, Royle) وبالانجليزية (Mecca, Bombay, or Tinnivelly Senna) وبالفرنسية (Séné de la Mecque, de Bombay, ou Séné de Tinnivelly) شجيرته عشبية صغيرة معمرة اوراقها من النوع الريشي المركب في الواحدة منها من ٥ ازواج الى ٨ من الوريقات البيضية المستطيلة الضيقة. أزهارها مجتمعة في عناقيد اطول من الاوراق المتأبطة لها. ثمرتها قرن عريض مستطيل مقوس قليلاً مستدير الطرف مصراعاه في نعومة الجلد مجردان عن الزوائد

ذائع في شمال إفريقية وشرقها ووسطها الاستوائي والجنوب الغربي من آسيا في بلاد العرب والسند وجنوب الهند بريًّا او يزرع ويغل كثيراً فينتج الفدان المزروع منهُ من ٧٠٠ رطل الى ١٤٠٠ من الاوراق الجافة حسب تربة الارض

(٢) وهناك السَّنَى الاسكندري او النوبي) المعروف في السودان (بسنى الكلب) ويحصل عليه من (Cassia obovata, Coll. Syn. Senna obtusa, Roxb.) (قاسيا اوبوواتا او سنا أبتيوزا) وبالانجليزية (Alexandrian or Nubian-Senna) وبالفرنسية (Séné d'Alexandrie, ou séné de la Nubie)

شجيرته عشبية معمرة اوراقها من النوع الريشي المركب في الواحدة منها من ٣ ازواج الى ٧ من الوريقات البيضية او المستطيلة المقلوبة الملساء. أزهارها مجتمعة في عناقيد إبطية قائمة. ثمارها قرون منبسطة كلوية الشكل مستطيلة مستديرة الاطراف عريضتها للواحد منها مصراعان رقيقان في نعومة الجلد

وهو ذائع في الجنوب الغربي من آسيا بالسند وجنوب الهند ومنتشر في إفريقية ببلاد السنغال ومصر والسودان وغيرها وكثيراً ما تخلط اوراقه وثماره بأنواع السَّنىَ الحقيقية في التجارة كما يحصل منهُ ايضاً على جزء من السنى الحلبي والطرابلسي والايطالي والسنغالي الى غير ذلك

(٣) ومنها السَّنَى الاسكندري الحقيقي) ويقال لهُ في (مصر لسان العصفور) او (سنى صعيدي) او (سنى مكي) وفي السودان (سنى الرّيف) و (سنى مكة) ويحصل عليهِ من (Cassia acutifolia, Del.) (قاسيا آكوتيفوليا) وبالانجليزية (True Alexandrian Senna) وبالفرنسية (Veritable Séné d'Alexandrie) شجيرته عشبية معمرة اوراقها من النوع الريشي

المركب في الواحدة منها من ٤ ازواج الى ٥ من الوريقات البيضية او البيضية المستطيلة الحادة القمة أزهارها مجتمعة في عناقيد بآباط الاوراق العليا وهي اكثر طولاً من الاوراق . ثمارها قرون منبسطة مستطيلة عريضة مقوسة قليلاً طول الواحد منها ٥ سنتيمترات تقريباً

وهو ذائع في مصر وشمال إفريقية ومنطقتها الاستوائية والسودان والجنوب الغربي من آسيا ويخلط اوراقه الجافة في التجارة باوراق السّنى الاسكندري او النوبي والسّنى المكي السابقين

والعنصر الفعّال في السّنى هو الحامض القثارتيك الذي يوجد في نباتات اخرى . وعلى الجملة فهذه الثلاثة هي الانواع المهمة التي يحصل منها على السّنى الطبي

وقد جاء ذكر السّنا في الهدى النبوي في علاج يبس الطبع لتلينه . روى الترمذيّ في جامعه وابن ماجة في سننه من حديث اسماء بنت عُمَيْس قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بما ذا كنت تستمشين قالت بالشبرم قال حار جار ثم قال استمشين بالسنا فقال لو كان شيء يشفي من الموت لكان السنا . وفي سنن ابن ماجة عن ابراهيم بن ابي عبلة قال سمعت عبد الله بن حَرام وكان ممن صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى القبلتين يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عليكم بالسنا والسنوت فان فيهما شفاء من كل داء الاّ السام قيل يارسول الله وما السام قال الموت . قولهُ بمَ تستمشين اي تليين الطبع حتى يمشي ولا يصير بمنزلة الواقف فيؤذي باحتباس النجو

الحبة السوداء

ويقال لها بالفارسية (الشُونيز) وهي (الكمون الاسود) و (الكمون الهندي) معروفة بمصر و (بحبة البركة) و (بالحبة المباركة)

هي نبات عشبي سنوي ساقه قائمة الى ٣٠ سنتيمتراً أزهاره زرق فاتحة ثماره علبية بيضية الواحدة منها مكوّنة من ٣ كاربلات (اعضاء تأنيث) الى ٦ ملتحمة الى القمة وبذوره خشنة سود ذات رائحة عطرية وطعم حرّيف . اسمه العلمي (Nigella sativa, L.) (نيجيلاً ساتيوا) وفصيلته الشقيقية (Ranunculaceae) (رانتقولاسية) وبالانجليزية (Small Fennel-flower or Black Cumin) وبالفرنسية (Nigelle cultivée, Nouelle romaine; Toute épice) موطنهُ جنوب اوربا ويزرع في صعيد مصر والسودان وبلاد البحر الابيض المتوسط والهند وفارس للحصول على بذوره العطرية المذهبة للريح المقوية للمعدة . قال اهل العلم بالطب ان طبع بذور الحبة السوداء حار يابس وهي تذهب النفخ وتنفع من حمى الربع ومن البلغم وتفتح السدد وتذهب الريح وتجفف بلة المعدة وتذيب الحصاة وتدر البول والطمث وفيها جلاء وتقطيع واذا دقت واديم شمها نفعت من الزكام البارد وتفيد في علاج اليرقان وضيق النفس والصداع البارد ووجع الاسنان الناجم عن برد . وقد ذكر ابن البيطار وغيره ممن صنف في المفردات في منافعها ما تقدم واكثر منهُ وتستعمل مفردة ومركبة مسحوقة وغير

مسحوقة أكلاً وشرباً وسعوطاً وضماداً يستخرج منها زيت يستعمل بنجاح في السعال العصبي واوجاع الصدر وتعتبر من التوابل ويعطّر بها الخبز. وقد ورد ذكرها في حديث صحيح عن عائشة رضي الله عنها انها سمعت النبي صلى الله عليهِ وسلم يقول إن هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء الاّ السام (والسام الموت) والمراد كل داء يقبل العلاج بها فانها انما تنفع من الامراض الباردة . فقوله في الحديث كل داء من العام الذي يراد به الخاص لانهُ ليس في طبع شيء من النبات ما يجمع جميع الامور التي تقابل الطبائع ومعالجة الادواء بمقابلها ولأن النبي صلى الله عليهِ وسلم كان يصف الدواء بحسب ما يشاهده من حال المريض فلعلّ قوله في الحبة السوداء وافق مرض من مزاجهُ بارد فيكون معنى قوله شفاء من كل داء اي من هذا الجنس الذي وقع فيهِ القول واستثنى السام في هذا الحديث كما استثنى في حديث ما انزل الله داء الاّ انزل له شفاء الاّ السام في بعض رواياته . ولعلّ التقدير الاداء الموت اي المرض الذي قدر على صاحبه الموت . واعتبار الموت مرضاً جار على ما تقول العرب وداء الموت ليس لهُ دواء

وثمَّ انواع اخرى من الحبة السوداء او الشونيز اهمها :

(١) الشونيز الدمشقي (Nigella damascena, L.) (نيجيلا داماسينا) وبالانجليزية (Love-in-a-mist; Catehrine's flower; Damask fennel-flower) وبالفرنسية (Nigelle de Damas) اي شونيز دمشق و(Cheveux de Vénus) اي شعر الزُّهَرة . وهو اجمل نوع في المنظر واصله من قسم البحر الابيض المتوسط من بلاد البرتغال الى ما وراء البحر الاسود ويوجد في شمال فرنسا ودخل مصر في القرن الماضي واستنبت في البساتين كثيراً حتى نشأت عنهُ اصناف عديدة . ساقه بسيطة قائمة الى ٤٠ سنتيمتراً. اوراقه ريشية شبيهة بالشعر. أزهاره زرق فاتحة. ثماره ملساء كرية الواحدة منها مكوّنة من خمس كاربلات ملتحمة ورائحة بذوره كرائحة الشليك . قيل إنها مقوية مشدّدة طاردة للرياح مخية مدرة للطمث والبول

(٢) الشونيز الاندلسي (Nigella hispanica, L.) (نيجيلاّ هيسبانيقا) يزرع للزينة ببلاد اسبانيا وبلاد المغرب وفرنسا ودخل مصر في القرن الماضي . وهو نبات خالٍ من الزغب سنوي ساقه ثخينة قائمة الى ٦٠ سنتيمتراً أزهاره زرق او بيض في حجم أزهار الشونيز الدمشقي ثماره خشنة غدّية كبيرة عرض الواحدة منها مثل طولها ومكونة من ٨ كاربلات الى ١٠ ملتحمة وبذوره ملساء

(٣) الشونيز البرّي (Nigella arvensis, L.) (نيجيلاّ اروِنسيس) وبالانجليزية (Field fennel-flower) وبالفرنسية (Nigelle des champs) اي شونيز المزارع ينبت بكثرة في المزارع التي تحصد باوربا وبلاد المغرب والمشرق وقليل الوجود في مصر وهو نبات صغير جميل ساقه بسيطة عديمة الزغب ترتفع الى ١٥ سنتيمتراً تقريباً . أزهاره زرق سنجابية . قيل إن بذوره معطّسة

التفاؤل والتشاؤم

Optimisme & Pessimisme

لرسلان عبد الغني اليافي

ما اسعدك لو اتيح لك ان تلج حديقة ايقور الجميلة حيث الطير الشادي بلا انقطاع ، والزهر الدائب الايناع ، وحيث الشجر المورق المثير ، والجدول الدائم الخرير ، وتجلس في اصيل من ذهب فوق بساط من سندس ، تحت خميلة من ياقوت ، وتغمس رجليك في قناة من لجين ، وشعرك في نسيم من حرير ، وتطير بعقلك في سماء من خيال فتشعر بأن كل ما ترى وكل ما تسمع ، وديع كالحمل حلو كالقبل ، ضاحك كالثميل ، فيصفو ذهنك ، ويرهف حسك ، وتميل نفسك وأنت في هذا الجو المشبع بشذا الحب وشذا العطر ، المليء بالموسيقى والشعر ، أن تحتسي بضع اكؤس من تلك الخمر النيسابورية المساغة ، تترقرق من ثنايا الرباعيات الخالدة التي صاغها الشاعر الفيلسوف عمر الخيام في سويعات نشوته ، واحلام يقظته ، ثم تساقيت معها أكؤساً اخر من تلك الخمر البغدادية الشهية التي عصرها ابو نواس من عناقيد خياله ، والتي اصطلح الناس على تسميتها شعراً ، وهي مع ذلك وقبل ذلك ضرباً من ضروب الخمر بل لعلها اجود ضروب الخمر التي يثمل منها الشارب وينتشي

لا ريب انك تسخر من هذا العالم الترابي ، الذي يحيا فيه الناس مع الانعام ، وان تزور عنهُ ، فهذي روحك الخالدة ، قد غالبت جسدك الفاني ، وسمت بجناحيها فرحة مستبشرة حتى ولجت جناناً لما يطأها بشر ، فثمّ صرح من قوارير ممرد . وثمر من اجناس منضد ، وطير ابابيل مغرد ، وثمّ متاع جميل اسمى ما يكون الجمال ، طاهر أحق ما يكون الطهر ، لا شائبة فيهِ ولا دنية . يا للمقام الساحر ! لقد اعادك الى الطفولة وانت رجل ومنحك بسمة الطفل المدلل وأنت بأعباء التبعة مثقل وألقى بك بين احضان حلم جميل يرنحك فوق لجات الخيال كما ترنح القارب الصغير في رفق الأم موجات من النهر قد عشقته وهو بين يدي صانعه الواحاً ودسراً !!

لكنك هبطت الارض ثانية ، وانت الحين في المعرة ، ولم يبق في نفسك مما نلت من لذة . وما تذوقت من متعة ، الاّ آثار الذكرى . بيد انك تركت الدور ورحت تجوب انحاء القبور . تنظر عن يمينك وعن شمالك متأملاً مفكراً ، ثم هأنتذا قد وقفت أمام قبر كتب عليهِ

هذا جناهُ أبي عليَّ وما جنيتُ على أحد

فصحتَ بصوت قطع سكون المقبرة الرهيب ... هنا يثوى أبو العلاء فهذا بيته !! وفي هذه

البقعة الموحشة الرهيبة تكلم رهين المحبسين وكان كَلِماً فيه جمال وفيه حزن وقليل من سُخر. فثمَّ حبات من در يتيم قد نثرت من جوف رمس ظليم، فاستحالت وحدها الى عقد نظيم، تريث ولا تعجل فقد يكون وراء هذا العقد شيء، فهذه قطعة اخرى تصلح ان تكون قرطاً! وهذه اخرى تليق بأن تكون سواراً !! عد الآن الى حسنائك فأنت اليها مشوق وزين جيدها ومعصمها الجميلين وأذنيها الصغيرتين بهذه اللآلىء الغوالي فهنَّ خير ما يُهدي الحبيب الى الحبيب!! لكن يا لسوء حظك فهذا الدر اليتيم الذي خلت انك بالغ به قلب حسنائك لم يزدها الاَّ نفوراً منك واعراضاً عنك. لقد ظنتك تسخر منها وتكيد لها فهي لهذا قد أبت منك الدر وارتضت من خصيمك الخرز !! حاولت أن تزين به جسدها لتزداد جمالاً فازدادت قبحاً ودمامةً وبدا عليها كما يبدو الثوب الفضفاض على الرجل النحيل بل بدت فيه كما تبدو بلباس (الكرنفال) حقًّا ان الدر قد لمع في موضعه — ولكنهُ ما لمع حتى انطفأ لألاء الابتسام على ثغرها والنور في جبينها وحتى انقبض صدرها وانساب الخوف الى قلبها فألقت به أمام عاشقها وفرَّت مجلي تنشد ملاذاً !! ألا تَرِباً لك أيها العاشق وجندلاً سمعت بشهرة الصائغ أبي العلاء فدار بخلدك — أن تزور حانوته. لكن أبا العلاء قد خدعك عن نفسك. فباعك درًّا لا يصلح لان يكون سوارا (خطبة) أو عقد (عروس) أو قرط (حب) !! فياليتك حين كنت في حديقة ابيقور قد قطعت وردة أو زنبقة، أو جملة من طَلْح وشيء من سدر قليل أو ليتك وانت تحتسي من راح الخيام وراح ابي نواس قد فكرت في استبقاء كأس من هذه وكأس من تلك. اذن لنلت ما كنت تطمح من قلب حسنائك ولما افتقدت حبها في اللحظة التي رقبتك فيها لتهبك قلبها خالصاً بلا ثمن !! فنفسك لم ان كنت لا بد لائماً وعبثاً تنتظر أوبة عصفورك الهارب. عند وكره، فما هو براجع اليه ابداً !!

صدعت قلبك الصدمة. فأنت مفتقر الى طبيب يضمد جراحه فلمَّ اخترت نطاسيًّا من (المانيا) هو (شوبنهاور) ليعالج تضميد جراحك وتسرية همومك ورقأ دموعك؟ لن يكون دواؤه عند كل صباح ومساء الاَّ ان يلقي عليك فصولاً من سفره الخالد (الارادة) ولسوف يجذبك وهو يسمعك هذه الفصول المنمقة الثمينة الى فراديس رحاب فيها دوح ونَهَرْ، وفيها زهر وثمر، ونصحنا لك ان شئت ان تقبله ألاَّ تلجها وحسبك ان تقف لدى بابها وقفة الآبي، فقد ترى في منظرها عن كثب شيئاً يسر وشيئاً يخلب، خيرٌ لك ان تظمأ، وخيرٌ لك ان تجوع وأن تؤوب صادياً طاوياً، من ان تشرب جرعة، او تطعم ثمرة، فالماء والثمر، كلاهما قد نفثت فيهِ الافاعي فسممتهُ فأصبح قاتلاً !!

ويلوح لنا انك عدت من المانيا مريضاً كما ذهبت اليها مريضاً وان الطبيب شوبنهاور لم يفدك ولم يستطيع ان يفيدك لان مرضك التوى عليهِ واستتر. وخيرٌ لك اذن ان تلقي بقنانينه واربطته (ومراهمه) بما حوت من دواء دون ان تجرع منهُ قطرة او تضع على جرح من جراحك (لزقة) فقد يكون

فيهِ حتفك ان فعلت . ولعلك وانت في ايابك سادماً حزيناً قد عنّ لك ان تتجه نحو ذلك الموسيقي البائس (لامنيبه) وهو يعزف على قيثاره (انشودة اليأس) لكن حذار ان تسمعه بقلبك وعواطفك واقنع منهُ بسمع لا يتجاوز صماخ الاذن ، تلذذ بموسيقى النغم دون ان تذهب معها بعيداً حيث تحاول ان تستقر فقد يكون مستقرها ناراً تحرق او بحراً يغرق ! ! ارث لهُ رثاء انسان مجدود لانسان مفؤود لا يستطيع ان يمحو شيئاً من بؤسه وشقائه . ولا تعجب بهِ او تحاول ان تشاركه في حزنه فأنك وان كنت مثله حزين الاّ ان حزنك قد جدّ في سيره حتى لحق الفجر وهو من الصبح قاب قوس في حين ان حزنه والليـل صنوان التفّـا في مئزر واحد وسيظلاّن كذلك ابداً ! ! انت تصيح لهُ وهو ينشد !

(ايه أيتها النفس لِمَ انت دائمة الحزن والاكتئاب ؟ أليست الشمس في جمالها الخلاّب ترسل اشعتها حباتٍ من اليـاقوت الاحمر وهي طفلة في المهد يرعاها الفجر ؟ وسلاسل من ذهب خالص وهي عذراء قد نمت وترعرعت ثم سفرت من خدرها تغازل الصبح ؟ انظري ايتها النفس الى اوراق الشجر كيف تختال في اغصانها رافلة في حلل مختلف الوانها ! وانظري الى الازهار كيف تفتحت اكمامها على نور اشعتها كما تتفتح اجفان الهُجّع عند اليقظة ، بل انظري الى الطبيعة جميعها كيف نفضت عنها رداء الكرى ، وهبت فرحة متهللة لتستقبل حياة جديدة كلها بهجة وكلها حراك ! ان كل كائن يتنفس قد شحذ لسانه ليحمد للطبيعة هذه الآلاء العديدة التي اغدقتها عليه في سخاء لاحدّ له ولا منّ معهُ . فهذا العصفور الصغير قد وقف على فننه اللدِن ينشدها قصائد مديحه والفضاء يردّد صداها وهذه ربات الشهد قد طنطنت بين الكلأ الاخضر رائحة وغادية . فلماذا تأتزرين بكساءٍ من الحزن كثيف اذا كان كل مخلوق على وجه البسيطة قد تمدّد بين احضان المسرّة وانغمس في كوثر الحب في ذهول الثمل ؟ ان الشمس جميلة حقـا واشعتها خلابةّ حقـا والطبيعة جميعها قد استعادت على ضوئها الحياة . وانتقعت غلتها وارتوت ولكنني احز الودج حزناً واقرع السن ندماً لان هذه الحياة البهيجة المنعشة التي ابتسمت لها ثغور الاطيار والاشجار والبحار قد وقفت حيث هي ولم تمد اليّ يداً . فثم عالم قد غمرتهُ الشمس بأمواج من الضوء وتيارات من الدفء في حين ظلّ عالمي الذي تعيش فيه نفسي محروماً من قبس من نور او جذوة من نار فهو دائماً في ليل داج مقرور قد لفهُ الشتاء في كساءٍ من ضباب اغلب ظني انه كفنه الابدي . فلنذر اولئك التعساء الذين ليس لحياتهم ربيع ولا وراء ليلهم صبح ان يبكوا من القلب دماً فدمع العين قد جفّ ونضب بعد ان جرح الاجفان وما اطفأ اللهب) (١)

نداء يأس أرضى ان تجيبه ؟ ... والآن ماذا ترى في ابيقور وصاحبيه الخيام وأبي نواس ؟ ترى فيلسوفاً وشاعرين او فيلسوفين وشاعراً قد ابتسموا للحياة فابتسمت لهم الحياة وتودّدوا اليها تودُّد الاغصان الى النسيم ، فحنت عليهم حنوّ المرضعات على الفطيم ، ورضوا عنها رضاءً لا يشوبهُ تذمر او شكاة

---

(١) عن لامنيه La mennais بتصرف

فكشفت لهم عن نفسها في عري فرأوا جمالاً لم تره عين ، ولا سمعت بمثله اذن فراحوا يمرحون ويعبثون ويختلسون اللذات اختلاساً ويستمتعون في شهوة النهم ! ثم ماذا ترى في رهين المحبسين وصاحبيه شوبنهاور ولامنييه ؟ ترى فلاسفة ثلاثاً ، قد وضعوا على اعينهم مناظر سود فرأوا كل ما في الكون اسود كالليل ، ووضعوا اصابعهم في آذانهم فألفوا كل ما في الكون هادئاً كالقبر ، فبرموا بالحياة وعبسوا في وجهها . عابوا محاسنها وهنّ ملاح ، وارتطموا بالراح في الاقداح ، فكسروا الاقداح وأراقوا الراح ، وقالوا الحنظل اربق . فأين الرحيق ؟ وقالوا والشمس في هودجها فتاة ، يا لك من ليل اطول من ظل القناة ! وقالوا للبلبل وقد فتح فاه ، وغرّد فرحاً بالحياة ، توار غراب البين ، وانعق في مكان سحيق !

والانسان في هذه الحياة احد رجلين رجل كأبيقور وصاحبيهِ وآخر كالمعرّي وصاحبيه !! رجل متفائل مستبشر بالحياة راضٍ عن عيشه الاَّ في لحظات قصار اشد ما يكون القصر ، لا يقنطهُ ما تصنعهُ بهِ يد الناس والقدر ، ولا ما يحيق بهِ من الاحداث والغِيَر ، ان سُرَّ لم يذهب بهِ السرور الى حد الخيلاء والبطر ، أو تألم لم يهو بهِ الألم الى حضيض الضعف والخور ، يرى أن ما هو فيهِ خير ، وينتظر ما هو أخْيَر ! يعمل في هدوء ما يوحيه الزمان والجد ، ولا يحمل نفسه عبء الاهتمام بما قد يجيء بهِ الغد ، يرى ان كل جرح لا بد أن يندمل مع الزمن وأن كل نجاح في سعي بوقتهِ مرتهن ، فهو لهذا لا يقرع على ماضٍ سن ندم ، ولا يوجس خيفة من آتٍ لفَّ في ذر من ظُلَم ، ان نام ملء جفنيه لا يشهد سهداً !! وان استيقظ استيقظ وهو منشرح الصدر يستقبل في يومه الجديد آمالاً جُدَداً . اما الناس عدوه وصديقه فلا سبيل له معهم الاَّ ان يحبهم كأخ سمح ، ينظر الى محسنهم بالمدح والى مسيئهم بالصفح ، والى معوزهم بالمنح وهو في كل هذا يرى ان لكل مخطيء عذره مادام الانسان خلق ضعيفاً وما دام اول ناسٍ أول الناس

(انظر الى عيني هذا الانسان المتفائل كيف يلمع فيهما بريق الأمل والرجاء وتأمل نظراته تجدها ملأى باليقظة والجاذبية والحياء ، وانظر الى شفتيه ألا ترى انهما دائماً على أهبة الابتسام عند اقل اعتذار ألسنا جميعاً نحب ان نحيي هذا الابتسام الحلو بابتسام مثله حلو ؟ ألسنا نرقب أن يسمعنا هذا الثغر تحية صباح أو مساء ؟ انهُ يذكرنا بهبات الرياح على سنابل القمح ، وتكسر الموجات على شطآن البحر ، وخطرات النسائم بين الشجيرات والزهر ، وبكل صوت في الطبيعة يأسر اللب ويملك الحس . انهُ مليء بالموسيقى والشعر ، مليء بالجمال والسحر !!

(ثم انظره كيف يمشي ترَ قدمين ثابتتين وخطوات مرنة متزنة تنم على رصانة واتئاد ، وتراه يحمل ساعديه في خفة او يدعهما يترنحان الى الجانبين في انتظام ويداه واصابعه ؟ هلاَّ تكشف عن قوة وعزم ؟ ورأسه الشامخة في غير زهوٍ او صلف — ولكن في رفعة معتدلة ووضع منتظم هلاَّ تدل على احترامه لشخصه وامتلاكه ناصية ذاته او ثقته بنفسه ؟ هلاَّ تدل في وقت واحد على انه

متواضع في غير ذلة متمال في غير كبرياء ؟ وعلى انه في وقت واحد شديد في غير قسوة ، لين في غير خضوع ؟) (١)

لا ريب انك تريدني أن إصف لك الرجل الآخر الذي يقف من هـذا الذي وصفناه من قبل موقف الليل من النهار ، والحنظل من العقار ، حسبك ان تقلب الوصف وتعكس الآية فتظفر بما تريد وهل هو الاَّ رجل قانط متشائم ينتظر الضر حيث لا ضُر ، ساخط متبرم بعيشه احلولى ذلك العيش أو مرّ ، لا تسره شمس تطلع ولا شمس تغيب ولا يبهجه شتاء ذو صِرٍّ ولا صيف ذو لهيب ، تضيق به الغرفة كما يضيق به الفضاء ، ويقبضه نظره الى الارض أو نظره الى السماء . يريد دنيا غير هذه الدنيا . وأناساً غير هؤلاء الاناس . بل لعله يريد نفساً غير نفسه وحساً غير حسه ، هو حائر مضطرب يصور له عقله المقيد بقيود الوهم كل جميل في هذا الوجود قبيحاً ، وكل شاد في الكون يصيح ويشكو . (انظر اليه ترَ عينين كليلتين قد فقدتا منذ زمن بعيد ما أعارهما الشباب من جذى مشتعلات . تأملهما لا ترى فيهما بارقة أمل أو لمعة حياة ..... وشفتين متدليتين قد ضلتا سبيلهما الى الابتسام يحييانك ان مرَّ بك صاحبهما تحية لا بهجة فيهما ولا روح . بضع كلم مصطلح عليه كله تصنع وكله فتور !! وقدماه ؟ ألا ترى انهما متوانيتان تسحب احداهما الاخرى كأنهما لا تجدان ميلاً الى المسير او لا تريدان أن تحملا ذلك العبء الثقيل ؟ ... وذراعاه ؟ معلقتان الى الجانبين في ضعف وجمود وأصابعه رخوة كاصابع المحتضر)(٢) انسان قد اهرم وهو شاب فراح يتوكأ على عكاز شيخ وجبان يخشى ان يرفع قدمه مخافة ان يصيبها الزلل يفر من الفيء ويخاف من لا شيء . يذر رياض السعادة الزاهرة الثامرة وراء ظهره ليخبط خبط عشواء في بيد من الضلال لا اول لها ولا آخر ولا ثمار فيها ولا ازاهر ولا طير ولا نهر . ولا ديار ولا شيء الأعراء يقصر فيه قاب الطرف وهو هكذا موغل فيه كالمنبت لا طوق له على بلوغ نهايته ولا قدرة له على المآب ان اراد ... هذه حياة المتشائم من الناس سوداوي المزاج ، ولو ان السعادة سعت اليه في أبهى حللها لشاح عنها بوجهه باسراً فان ابت الاَّ تعلقاً به اقصاها عنهُ وفر من المكان الذي هي فيه كما يفر جبان من خصيم يتقيه

حقاً أن الحياة لا تخلو من الالم . وهذا المعلم ، لا يريد أن يعذبها وانما هو يريد أن يهذبها والدمع الذي يولده ، منها يسقي زهرتها كما تسقي الزرع قطرات الطل وماء المزن . والالم مرٌّ . ولكنهُ مرٌّ كالدواء والنفس التي ترفض الالم شبيهة بالمريض الذي يرفض الدواء الذي فيه شفاؤه حتى اذا أعضل داؤه استحال البرء منهُ ابداً . انا حينما نخاف دائماً ان تزل بنا القدم لا نسير ولا نتقدم نبين كأنا (أجبن من صافر) وان نك اشجع من اسد ضارٍ وحينما نخاف السقاط لا ننبس ولا نتكلم نبين كأنا

(١) Elements of Success (Lily L. Allen).

(٢) بتصرف عن (ليلى . ل آلان) في كتابها (Elements of Success)

(أعيا من باقل) وأن تك (أخطب من سحبان وائل) افهل مثل هذه السعادة الحرجة المحدقة بسيران من التردد والخيفة سعادة انسان حي ام سعادة جلمود وجيفة ؟ او ليست هذه تعلة من ركن الى الرذيلة ورضي (بحشف وسوء كيلة) ؟ انظر الى انفس ما في العالم وانظر الى اجمل ما في العالم ترَ النفيس والجميل كلاهما حزين وترَ ان هذا الحزن نفسه يزيد النفيس نفاسة والجمال جمالاً . فالبحر المترقرق كأنه بساط من لجين ترقص عليهِ الزوارق والسفين هذا البحر الذي يلوذ بهِ القنطون ليعصمهم من القنوط ويعيدهم الى مرفأ الامل هو الآخر يتألم ويتألم في صبر وصمت فاذا عيل صبره وناء به صمته ، تذمر وشكا فعجَّ موجه وطغت على الشطآن لججه . والسماء الصافية الاديم ينوء كاهلها بما تحمل ولكنها لا تستطيع ان تلقي به لانهُ قدِّر عليها ان تحمله امانة حتى آخر الدهر. هذه السماء تتألم ولكنها لا تحب ان يشهد أحد ألمها لانها فخورة بما تحمل من كوكب ونجم فخر البطل بما يحمل من اوسمة المجد . فهي لهذا كثيراً ما تتشح بالضباب لتخفي حزنها على أن هـذا الحزن قد يعدو عليها فيمزق ثوبها ويفضحها فتبكي على الرغم منها دمعاً هواطل ! وهذه الدموع التي تترقرق من عينها جميلة وهي تتساقط كالدر النثير وجميلة حينما تهبط على الارض الموات فتحيلها الى روض نضير !!

والجبال الرواسي قد علا قممها الثلج ألا تذكرنا برؤوسنا حين يعلوها المشيب ؟ وهذه الاطلال الدوارس هلاَّ تذكرنا بآمال حسان قد ذوت وحب شهي قد اخفق ؟ اوليس في هذه الذكرى ألمٌ ولكن هذا الالم محبب الى النفس لانهُ ألم نبيل يعيد الينا ذكريات جميلة ، نحب ان نحيا معها في حلم نوم او يقظة ! (وآيات الفن التي انتجتها القرائح البشرية الممتازة هلاَّ تفيض آمالاً واحزاناً وشكايات ودموعاً ، ففيدون لافلاطون ، وفايدر لراسين ، وهملت لشكسبير ، وفاوست لجيتي ، والليالي لدى موسيه ، هي خير ما اخرج للناس من آيات البيان القديم والحديث لانها تنساب الى قلوبنا وتتغلغل في مشاعرنا حاملة احزاناً قد جلت عن الوصف واعتصمت من النفاد !!) [1]

(فهذا الالم ما اجملهُ وما اجلهُ ! تعساً لمن يعقهُ فيفعل بهِ ما يفعلهُ الحطاب بالغصن يظله! كم كان ينبغي للانسانية التي تسلقهُ بألسنة حداد ، وتنقم منهُ ، كما تنقم من اللجم الجياد ، ان تباركه وان تمعن في تمجيده ، لو انها كانت تفكر فيما تدين بهِ له من يُدى سابغات !! انهُ عصى موسى التي تفجر من الصخور الممحلة العارية ينابيع عذبة صافية، يرتوي منها الصداة من البشر. لله دره من مؤدب حكيم ! يُشوِّب الجاني على ذلتهِ ، ويفيق الغافل من غفلته ، ويحيل الطفل الماجن الذي لا يفرق بين التمرة والجمرة ، الى رجل مسؤول يقدر عبء التبعة ، والرجل المسؤول الى بطل عظيم يحمل آمال أمة ، ويحيل البطل العظيم الى قديس كريم ، لا يحصر جهده في حدود وطنه ، بل يتعداها الى كل بقعة درج عليها انسان يؤثر غيره عليهِ يشقى ليسعده ، ويحترق كالشمعة ليضيء له ، فيهتدي بعد ضلال ، ويرعوي بعد تأثيم [2]) . فأنت ترى ان المتفائل لا بدَّ له من ان يتألم ولا بدَّ له من ان

(١) عن بول جانيه Paul Janet من كتابه فلسفة السعادة (٢) جانيه : فلسفة السعادة

يبكي لانهُ لا يمكن تصور الحياة خالية من الآلام ولا من الدموع . بل لعلّ المتفائل اكثر تألماً وأغزر دمعاً وفي الحق انهُ لكذلك لانهُ ادق حسّاً وأرق نفساً ولأنهُ اكثر ارتباطاً بالناس وحبالهم وثقة فيهم من المتشائم الذي اعتزلهم وما يحبون !

ولكن هذا المتفائل سعيد مجدود لان هذه الآلام الكثيرة التي يتحملها وهذه الدموع الغزيرة التي يريقها لا تصرفهُ ، ولا يمكن ان تصرفهُ ، عن حب الحياة ، لانها الثمن الذي بهِ اشتراها والذي بهِ اصبحت الحياة غالية ثمينة !! وكيف يتسنى للعاشق الذي جاب من اجل معشوقتهِ السهل والحزن واليابسة والماء ، والبادية والحضر واستعاض من اجلها عن الاقامة بالسفر وعن النوم بالسهر ان يتخلى عن حبها بعد ان كلفهُ هذا الثمن الباهظ ؟!

اما المتشائم فأغلب ظني ان المهُ قُل ، ودمعهُ نَزر ، فهو قلما يبكي لانهُ يستزري الحياة ويبخسها ثمنها فهو يدّعي انها لا تساوي دمعة — لانهُ ليس فيها متعة ، وهذا الوجود الذي ليس فيهِ أثر ولا عين ، لا يستحق تجعيدة جبين ! ولكنه مع هذا بائس مرزأ بل لعله ابأس خلق الله طُرّاً ، ذلك لان ألمهُ صامت ، ودمعهُ جامد ، وليس اشق على النفس من الالم الذي لا يتكلم ، والدمع الذي لا يتفجر هذا فضلاً عن انهُ لا يجد امامهُ غرضاً سامياً يرمي اليهِ ويتعزى بهِ ويعيش له ولا يجد امامهُ املا يلوذ بهِ من يأسهِ

قد تحيط بالمتشائم لذائذ ومتع ولكنهُ لا يعرف كيف يتذوّقها ولو قد تذوّقها كما ينبغي لها ان تتذوّق لكان أسعد الثقلين . قد تسمعهُ يضحك ويسرف في الضحك ولكنه يضحك من الفم لا من القلب ، فضحكه ميكانيكي لا بهجة فيه ولا هناء ، كالسراب الكاذب والبرق الخلب ليس وراءها ماء وانما هما خداع سمع وبصر ، فالمجنون يضحك كما يضحك العاقل ، والثكلى تضحك كما تضحك العروس ، والسبع يبدو نابه اذ يغضب . وقل ايضاً : والسبع يبدو نابه اذ يضحك !! فالعبرة اذن بمصدر الفعل لا بمظهره . والعبرة ايضاً بجوهر الفعل لا بمظهره ، فكما تتفق المظاهر وتختلف الجواهر فكذلك تتفق المظاهر وتتباين المصادر . وخطأ نحكم على الناس من الوجوه او الثغور فما كل باكٍ مصاب ولا كل ضاحك مغتبط راضٍ وليست دموع الباكين وضحكات الضاحكين الاّ خدعة تخدع بها عن الحقيقة التي لا تتغيَّر ابداً . على انهُ بفرض ان ضحك المتشائم كان مبعثه السرور فهذا قليل ومسروره فضلاً عن انهُ مشوب فهو وقتي والسرور الوقتي ليس دليلاً على سعادة صاحبه (فان خطافة واحدة لا تدل على الربيع لا هي ولا يوم صحو واحد فلا يمكن ان يقال ان سعادة يوم واحد بل ولا بعض زمن من السعادة يكفي لجعل الانسان سعيداً محظوظاً) [1]

بقي علينا وقد تعرضنا لشرح فلسفة التفاؤل والتشاؤم ان نعالج الاسباب التي جعلت هذا

---

(١) عن كتاب الاخلاق لارسطو ترجمة الاستاذ لطفي السيد بك

الانسان راضياً بقُله ينعم حتى في أمله ، وذاك ساخطاً على كُثره يشقى حتى في نعيمه فنقول : —

لا مرية في ان نفوس الناس متباينة أشد ما يكون التباين حتى بين التوأمين ومع اللدنين ، فالنفوس معادن منها النفيس ومنها الرخيص ، والنفس الانسانية هي السبب الجوهري والرئيسي في توجيه الانسان وفي تكييف حياته واليها يرجع اكبر الفضل فيما يصيب من غُنم ، وعليها تقع اكبر التبعة فيما يناله من غُرم ! ! ولكل انسان — بَله نفسه التي بين جنبيه — صفات متنوعة ورثها عن ابيه وجده ، وتجارب شتى اكتسبها بسعيهِ وجده ، ثم هو اما ان يقدر لهُ ان يمشي في ضوء العلم ، كما يمشي الساري في ضوء البدر يرتشف من مناهل المعرفة شراباً سائغاً ، ويطعم من جنان الحكمة أُكُلاً جنيًّا ، فيكون لهُ تحت قبة الشمس مكاناً يُغبط ولا يُغمط ، او يقضي طيلة حياته في ليل من الجهل بهيم يسير تحت سماء حالكة ، وفوق سبل شائكة ، يجوب اودية الضياع ، وقد عدَّ بين الناس من سقط المتاع ، وهذا الانسان بطبعهِ مدني لابدَّ له من جلاَّس صالحين او طُلَّح ، وخلاَّن اوفياء او غُدَّر ، قد يسخط على بيئتهِ ويمعن في السخط ولكنهُ ما يزال يؤثر فيها ويتأثر بها ، ولا يمكن لهُ ان ينفرد بنفسه بالمعنى المقصود من الكلمة ، وانما هو ينأى عن المنتديات والمجاميع فلا يغشاها وهو في كل عشية او ضحاها متصل بنفر من خلصائهِ — هم بلا ريب من صميم المجتمع الذي خال انهُ قد تخلص منهُ ابداً . هو بعيد عن جسم المجتمع ولكنهُ دائب الاتصال بروحه ، هو بعيد عن المصباح ولكنهُ يقرأ في ضوئهِ ، ينعم بشذا الزهور ولا يراها ، ويسمع هزيج الورق . وهو بعيد عن اوكارها . والطبيعة التي تحدق بهِ أليس لها في نفسه اثر ؟ ! قد تكون أليفة ساذجة كجنان الزنبق والورد ، وكمروج العشب ، وكالجداول ذات الخرير الهامس كحديث العذراء ، وذات الماء الفضي ينساب كالافعى بين الرمال الميثاء ، او مناظر غليظة كمناظر الغابات ذات الاشجار العالية كالاعلام ، او البحار العاجة الصاخبة كأنها مع الشطآن في حرب وخصام ، وكالابنية تطاول السحاب وكالمصانع ذات الدخان كأنهُ الضباب . . . ثم هو اما ان يكون في بسطة من الرزق تجعلهُ دائماً في مأمن من العوز او فقيراً مملقاً لا يكاد يصيب قوت يومه الاَّ بشق النفس وذل الرقيق واما ان يكون متديناً يؤمن بقضاء الله وقدره او ملحداً ينسب كل شيء الى الطبيعة والى نفسه او متشككاً يمزج الايمان بالكفر مزجاً — فنفس الانسان التي حلت في هيكله وصفاته التي ورثها عند مولده ، وتجاربه التي اكتسبها وثقافته التي حصل عليها ، وبيئته الاجتماعية والطبيعية التي احاطت بهِ ، ودينه الذي اعتنقه ، وغناهُ الذي أعزه ، أو فقره الذي أذلهُ ، كل هذه تدفع بهِ متساندة متضافرة وهو كالزورق الصغير بين لجات خضم الحياة الزاخر العاج الى مرفأ الامل والرجاء أو تهوى بهِ الى قرارة اليأس والقنوط . . . ! !

العبقرية العلمية

وحداثة السن

وماذا يبتغي الشعراء مني   وقد جاوزت حدَّ الاربعين

كان غليليو في الثامنة عشرة من عمره لما اكتشف ان خطرات الرقاص متساوية ثم انقضت اربع سنوات فنشر مباحثهُ في الثقل النوعي ومركز الثقل في الاجسام الجامدة . وكان في الثالثة والعشرين من عمره لما اكتشف ناموس الاجسام الساقطة . وقد قال أحد كبار العلماء « ان اكتشاف هذا الناموس أفاد العلوم الطبيعية اكثر من كتابات جميع الفلاسفة الذين سبقوا غليليو »

اما السر اسحق نيوتن فولد سنة ١٦٤٢ ودخل جامعة كمبردج لما كان في التاسعة عشرة من عمره فتعلم كل العلوم الرياضية المعروفة حينئذٍ وملك ناصيتها في وقت قصير

ولما كان في فرقة المدركين أي في الثانية والعشرين من عمره وضع قاعدة « تربيع المعادلات » في علم الجبر وبعيد تخرجهِ سنة ١٦٦٥ وضع حساب التمام والتفاضل ففاق عمله العلمي في سنتين أي في الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين من عمره عمل أي رجل قبله أو بعده . وسنة ١٦٦٦ اي لما كان في الرابعة والعشرين من عمره بدأ يبحث في فعل الجاذبية بالقمر واعلن حينئذٍ جانباً من ناموس الجاذبية العام الذي اتمهُ فيما بعد . ولم يوفق الى اثبات صحة هذا الناموس حينئذٍ وتطبيقه على حركة القمر لأنهُ استعمل في حساباتهِ رقماً لقطر الارض ثبت بعدئذٍ انهُ خطأ ولولا ذلك لكان أتم في الرابعة والعشرين من عمره أعظم عمل علمي عرفهُ التاريخ . ثم انصرف الى درس النور وصنع المرقب العاكس قبلما بلغ السادسة والعشرين من عمره

> وزع المقتطف في الشهر الماضي هديته السنوية وهي كتاب «أساطين العلم الحديث» المشتمل على سير ثلاثين عالماً من أشهر أقطاب العلم في العصور الحديثة فرأينا ان ننشر على ذكر صدوره مآثر العلماء الذين اشتهروا في حداثتهم بمكتشفات خلدت ذكرهم في تاريخ العلم

وكتب هويجنس العالم الطبيعي الهولندي بحثاً في تربيع الدائرة والشكل الاهليلجي في الثانية والعشرين من عمره . واستنبط الساعة ذات الرقاص في السادسة والعشرين . وفي السنة نفسها تمكن من تعليل الفواصل في حلقات زحل فكان أول عالم تمكن من ذلك

أما ليبنتز الفيلسوف الالماني الذي يشارك

نيوتن في الفخر لانهُ اكتشف على حدة قواعد حساب التمام والتفاضل ، فتعلق على درس القانون في صباه وكتب كثيراً من الرسائل الممتعة بين السادسة عشرة والعشرين من عمره . واشتهر ايضاً بالتاريخ واللاهوت والفلسفة والسياسة والرياضيات وهندسة المناجم والآداب . وكان اكتشافهُ لقواعد حساب التمام والتفاضل في التاسعة والعشرين من عمره

وولد پسكال سنة ١٦٢١ وتعلم هندسة السطوح والاجسام في الثانية عشرة من عمره . ونشر بحثاً في « هندسة القطوع المخروطية » لما كان في السادسة عشرة منهُ ضمنهُ مبدأً لا يزال معروفاً باسمهِ الى الآن

وقد انجبت اسرة برنويي ثمانية نوابغ في العلوم الرياضية في القرنين السابع عشر والثامن عشر واكثرهم نبغوا في حداثتهم فنقولا برنويي كان يتكلم اربع لغات لما كان في الثامنة من عمره وفاز بشهادة الدكتوراه العلمية من جامعة بال في السادسة عشرة وعين استاذاً للرياضيات في الحادية والعشرين

أما دالمبر (١٧١٧ — ١٧٨٣) العالم والفيلسوف الفرنسي فكتب بحثاً يدل على النضوج والابتكار في حساب التمام والتفاضل لما كان في الثانية والعشرين . ولما كان في السادسة والعشرين بحث في « الديناميكا » بحثاً وصفهُ أحد العلماء بانهُ « فاتحة عصر جديد في الفلسفة الميكانيكية »

ونشر لاپلاس أعظم علماء الفلك الفرنسيين بحثهُ في « حساب التمام والتفاضل » قبلما بلغ سن العشرين واتبعهُ في السنوات الاربع التالية بمباحث مبتكرة في «قانون المرجحات» استدعت اعجاب العلماء في اكادمية العلوم الفرنسوية

ونال العالم بولر السويسري لقب استاذ في العلوم لما كان في السادسة عشرة من عمره وكتب رسالة نال بها احدى الجوائز التي تمنحها اكادمية العلوم الفرنسية وهو في سن العشرين وعيِّن استاذاً للطبيعيات في بطرسبرج في الثالثة والعشرين واستاذاً للرياضيات العالية في السادسة والعشرين

ولقّب لاغرانج العالم الرياضي الفرنسوي « اعظم عالم رياضي حيّ » وهو في سن الخامسة والعشرين

وقيل ان كارل فردرك غوس احد نوابغ العلوم الرياضية في العصور الحديثة (١٧٧٧ — ١٨٦٥) كان يستطيع ان يستخرج الجذور المكعبة في عقلهِ من غير كتابة لما كان في الثامنة من عمرهِ . وبحث مباحث رياضية عميقة ومبتكرة قبل الرابعة والعشرين

***

هذا في الرياضيات واما في الكيمياء فكثير من المكتشفات الاساسية كشفها علماء في حداثتهم فجوزف بلاك اثبت ماهية اكسيد الكربون الثاني في السادسة والعشرين من عمرهِ ولاڤوازييه (١٧٤٣ — ١٧٩٤) ابو الكيمياء الحديثة مُنح الوسام الذهبي من اكادمية العلوم الفرنسية في

الثامنة والعشرين من عمره جزاءً له على رسالة كتبها وبحث فيها في افضل الوسائل لانارة مدينة كبيرة . وفي السادسة والعشرين من عمره نشر نتائج امتحانه الاول الذي اثبت فيه ان الاحتراق هو اتحاد المادة المحترقة بالاكسجين . واعلن الكيماوي الفرنسوي غاي لوساك القانون المعروف باسمه وهو في الثانية والعشرين ومؤدى هذا القانون ان الفراغ الذي يشغلهُ مقدار معين من الغاز على درجات مختلفة من الحرارة يتناسب مع درجة حرارته اذا بقي الضغط واحداً . وكان السر همفري دايفي في العشرين من عمره لما اكتشف ما لاكسيد النتروجين الاول من الفعل الفسيولوجي وعيّن استاذاً في المعهد الملكي بلندن في الثانية والعشرين . واستخرج الصوديوم والبوتاسيوم بطرق كهربائية لما كان في السادسة والعشرين

وكان فراداي تلميذ مجلد كتب فلم يكن ينتظر ان تأتي مكتشفاته العلمية باكراً لانهُ لم يدخل في خدمة السر همفري دايفي الاَّ في الثالثة والعشرين من عمره وكان ما تلقاهُ من العلوم حينئذٍ نزراً يسيراً ولكنهُ لم تنقض عليه سنتان او ثلاثة حتى بدأ يكتشف مكتشفات تضارع مكتشفات استاذه

ونال ليبغ الكيماوي الالماني المشهور رتبة الدكتوراه العلمية في التاسعة عشرة من عمره وعيّن استاذاً في جامعة غيسن في الحادية والعشرين منهُ فاسس فيها المعمل الكيماوي الاول الذي تعلَّم فيه الطلبة مبادىء الكيمياء على الاصول الحديثة . وكان وهلر في السابعة والعشرين لما اكتشف معدن الالومنيوم وفي الثامنة والعشرين لما ركّب اليوريا من مواد غير عضوية . ويحسب هذا العمل مبدأ الكيمياء العضوية . وبدأ توماس غراهام في الرابعة والعشرين من عمره مباحثهُ في اختلاط الغازات التي ادَّت الى كشف المبدأ المعروف باسمه . وعني برتلو الكيماوي الفرنسوي بمباحث الكيمياء العضوية في الثالثة والعشرين من عمره فأمرَّ مقادير من الالكحول والحامض الخليك وغيرها من المواد البسيطة في انابيب محماة فركب منها بنزيناً وفينولاً ونفتالينا فكان عملهُ هذا وما تلاه العامل الاقوى في تنشيط المباحث المختلفة في الكيمياء العضوية . وولد بنصن سنة ١٨١١ فنال رتبة الدكتوراه العلمية من جامعة غوتنجن سنة ١٨٣٠ اي لما كان في التاسعة عشرة من عمره . وبحث دوماس الكيماوي الفرنسوي في كيمياء الدم لما كان في الحادية والعشرين ففاق بحثهُ كل المباحث السابقة له في هذا الموضوع

ولما كان السر وليم پركن تلميذاً لهوفن الكيماوي الالماني صنع اول صبغ صناعي من قطران الفحم الحجري فترك الدرس على هوفن وخاض ميدان صناعة الاصباغ فتغلب على كثير من الصعوبات الفنية والصناعية قبلما احرز المقام الذي عُرف به وهو « مؤسس صناعة الاصباغ من قطران الفحم الحجري وما يتفرع عنها » وكان ذلك قبلما بلغ سن العشرين . وكان پاستور في الخامسة والعشرين من عمره لما بحث في العلاقة بين الاشكال البلورية وفعل املاح الطرطير الضوئي ، فأحرز بمباحثه هذه مكاناً رفيعاً بين علماء عصره

وعلى هذا النمط نستطيع ذكر اسماء ڤانت هوف وله بل وارهينيوس ورتشردس ومار وفشر وغيرهم. ولا يخفى ان السر وليم رمزي الكيماوي الانكليزي احرز شهرتهُ العلمية بعدما تقدم في العمر فانهُ بدأ مباحثهُ في الغازات النادرة في الهواء حوالي سنة ١٨٩٢ فكشف غاز الارغون سنة ١٨٩٤ وتلاهُ الغازات الاخرى وكان ذلك في الثانية والاربعين من عمرهِ. ولكن لرمزي مباحث مبتكرة كيمائية وطبيعية قام بها في الثلاثين من عمرهِ فانتخب عضواً في الجمعية الملكية لما كان في السادسة والثلاثين

***

نلتفت الآن الى علماء الطبيعة فنبدأ بكارنو الفرنسوي الذي بدأ مباحثهُ في طبيعة الحرارة لما كان في الثالثة والعشرين ونشر بحثهُ الذي عنوانهُ « الدورة » وهو في الثامنة والعشرين وكان بحثهُ هذا ركن علم « الترموديناميكا » . ونشر جول الطبيعي الانكليزي نتيجة بحثهِ في علاقة الحرارة بالطاقة الميكانيكية وهي المعروفة في كتب الطبيعيات « بعبارة جول » لما كان في الرابعة والعشرين

وسنة ١٨٤٦ كان هلمهلتز الفيلسوف الالماني في السادسة والعشرين من عمرهِ فوضع مبدأ حفظ القوة او عدم تلاشيها وكان قد اشتهر قبلاً وهو في الحادية والعشرين من عمرهِ باكتشاف الخلايا العصبية في العقد العصبية

وكتب لورد كلفن رسالة في الثامنة عشرة من عمرهِ ضمَّنها خلاصة رأيهِ في عمر الارض ثم توسع في هذا الموضوع في كهولتهِ وشيخوختهِ . وكتب رسالة اخرى لما كان تلميذاً ، تدور على سير الحرارة في الاجسام الجامدة . وتخرج في جامعة كمبردج في الحادية والعشرين من عمرهِ وبحث اهم مباحثهِ في علم الترموديناميكا بين السنة الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين من عمرهِ

وولد العالم الطبيعي ينغ سنة ١٧٧٣ وهو من اشهر العلماء الذين بحثوا في النور فعلَّل وهو في العشرين من عمرهِ الاسلوب الذي تتكيف بهِ العين وفقاً لتغير قوة النور بالتغير الذي يطرأ على عدسيتها. ولما كان في الحادية والعشرين من عمرهِ انتخب رفيقاً في الجمعية الملكية ولما كان في السابعة والعشرين نشر كتابين ضمنهما اهم مباحثهِ العلمية ذكر في احدهما القواعد الميكانيكية التي تجري عليها العين وبحثا في ماهية الداء الذي يصيب العين لخلل يصيب تحدب بلورتها Astigmatism وكيف تبصر العين الالوان وماهية العمى اللوني وغير ذلك مما يتعلق بالنور والعين . والثاني في النور بيَّن فيهِ الادلة على صحة مذهب التموج. ولما كان عمرهُ ١٥ سنة كان يلمُّ باللغة اللاتينية واليونانية والعبرية والفرنسوية والايطالية والفارسية والعربية وفي اواخر ايامهِ اشتهر بين كبار علماء الآثار

اما فوكول وفيزو وميكلصن وكلهم من العلماء الذين عنوا بقياس سرعة النور ففعلوا ذلك قبل بلوغهم سن الثلاثين

والظاهر ان نبوغ كلارك مكسول كان باكراً جداً فتلا رسالتهُ العلمية الاولى امام جمعية ادنبرج

الملكية قبلما بلغ الخامسة عشرة وكان موضوعها « وصف المنحنيات البيضوية » وكتب رسالتين اخريين في موضوعات رياضية عويصة قبلما بلغ الثامنة عشرة وبدأ مباحثهُ المشهورة في ماهية المغنطيسية والكهربائية لما كان في الخامسة والعشرين ونال جائزة ادمز من جامعة كمبردج على رسالة في « حلقات زحل » لما كان في السادسة والعشرين

وكشفت مدام كوري الراديوم والپولونيوم في الثلاثين من عمرها فكان اكتشافها اساساً للمباحث الجديدة في الاشعاع. والظاهر ان كثيراً من مباحث صُدي ورذرفرد وهما من اكبر علماء الطبيعيات المعاصرين قاما بها في التاسعة والعشرين من عمرها

وكشف موزلي مكتشفات عويصة كبيرة الشأن في الطبيعيات الحديثة لما كان في السادسة والعشرين وقتل في غليبولي في السنة التالية فكان موتهُ من فواجع الحرب العامة . ونشر اينشتين الجزء الاول من مذهبهِ في النسبية وهو في السادسة والعشرين وهو الآن يناهز الثالثة والخمسين

***

واذا التفتنا الى علماء الحياة والتاريخ الطبيعي وجدنا ان لينيوس (١٧٠٧ — ١٧٧٨) الذي « وضع علم النبات » اظهر كثيراً من النشاط والمقدرة في زرع النباتات وجمعها وملاحظة طرق نموها قبلما بلغ العاشرة من عمرهِ . واسترعت النباتات كل انتباههِ فاهمل دروسهُ حتى قنط ابوهُ من اعدادهِ لدخول احدى الجامعات وعزم ان ينظمهُ في سلك التجارة والصناعة ولكن احد الاطباء عرفهُ وادرك نبوغهُ فساعدهُ في اظهار مواهبهِ . وكذلك تمكن لينيوس وهو في الثانية والعشرين ان يكتب كتابات مبتكرة في « اجناس النباتات » من حيث هي ذكور او اناث وفي الثامنة والعشرين نشر كتابهُ المشهور بـ « نظام الطبيعة » واتبعهُ بكتب اخرى قبل سن الثلاثين

وكان جفري سانت هيلار في الحادية والعشرين من عمره لما عيّن استاذاً لعلم الحيوانات الفقرية في متحف باريس . واشتهر نبوغ كوفيه مؤسس علم التشريح المقابل في الخامسة والعشرين من عمره وعين عضواً اصيلاً في المعهد الفرنسوي حين تأليفه سنة ١٧٩٥ ونشر تبويبه لانواع الحيوانات في التاسعة والعشرين من عمره

اما اسكندر فون همبولت (١٧٦٩ — ١٨٥٩) فنشر مباحثه الجولوجية الاولى في سن العشرين وعين مراقباً لمصلحة المعادن لما كان في الثانية والعشرين على أثر كتابته رسالتين في اشكال النباتات الباقية آثارها في الفحم الحجري. وله مباحث مبتكرة في الكيمياء والطبيعيات والجولوجية انشأها كلها قبل سن الثلاثين

وولد الاستاذ هكسلي اكبر انصار داروين سنة ١٨٢٥ وتخرج من جامعة لندن حائزاً على المدالية الذهبية في الحادية والعشرين من عمره ، ونشر بحثه الذي عنوانه « بحث في تشريح المدوزا » قبلما بلغ الخامسة والعشرين فأحله في المقام الاول بين علماء الحياة ويحسب اساساً لفلسفة علم الحيوان

لحديث . وانتخب رفيقاً في الجمعية الملكية وهو في السادسة والعشرين ومنح مداليتها في السنة التالية

وولد السر تشارلس ليل العالم الجيولوجي الانكليزي سنة ١٧٩٧ وانتظم في سلك المحاماة في السادسة والعشرين الاَّ انهُ تعلق على علم الجيولوجيا فبحث فيها مباحث ممتعة فاعترف بقيمة مباحثه كل من كوفيه وهلهلتز وغيرهما وانتخب رفيقاً في الجمعية الملكية وهو في التاسعة والعشرين . ونشر كتابه المشهور في مبادىء الجولوجية وهو في الثالثة والثلاثين ومقامه في علم الجولوجية مثل مقام كتاب داروِن «اصل الانواع» في علم الحياة

وكتب جوهانس مولر رسالة عنوانها «تنفس الجنين» وهو في سن العشرين وكتب كتابه المسهب في الباثولوجيا العامة وهو في الثامنة والعشرين

واكتشف تيودور شوان الفسيولوجي الالماني مادة الببسين وهي من المواد التي في العصارة المعدية لما كان في الخامسة والعشرين وشرح رأيهُ في «تركيب الجسم الخلوي» في التاسعة والعشرين

ونشر داروِن كتابه اصل الانواع وهو في الخمسين من عمره على ان خاطر الانتخاب الطبيعي خطر له وهو سائح في سفينة البيغل وكان حينئذ في السادسة والعشرين من عمره

***

اما المستنبطون والمخترعون فاليك بياناً مقتضباً عنهم :

بدأ وط بحثه في الآلة البخارية لما كان في الرابعة والعشرين من عمره واتمها في الثامنة والعشرين . وسجل هورتني آلتهُ لحلج القطن في الثامنة والعشرين من عمره

واستنبط «هو» آلة الخياطة في السادسة والعشرين

واستنبط اديصن الوسيلة لارسال رسائل كثيرة على سلك تلغرافي واحد في السادسة والعشرين من عمره والفونغراف في التاسعة والعشرين . وسجل بل تلفونه في التاسعة والعشرين . وبرش محركه الكهربائي في السادسة والعشرين ونوره القوسي في السابعة والعشرين. واستنبط وستنغهوس فرملتهُ الهوائية التي تستعمل في القطارات في الثانية والعشرين من عمره . واستنبط هول طريقة كهربائية تجارية لاستخراج الالومنيوم من معدنه وهو في الثالثة والعشرين

نحن والطبيعة

الطبيعة ! تكتنفنا وتحتضننا فنعجز عن الانفصال عنها ، ونعجز كذلك عن النفوذ الى ما وراءها . انها ابداً مشغولة بابتداع اشكال جديدة . فما هو كائن الآن لم يعهد من قبل . وما عهد من قبل لن يعود . كل شيء جديد ، ومع ذلك فليس في طياته الا القديم (غوته)

تقدم المباحث الطبية في

الغدد والفيتامين

وغيرهما من شؤون الصحة والعلاج [1]

[نقلها عوض جندي]

ما انفكت الغدد مدار اهتمام الاطباء خلال السنين العشر الماضية ، اذ ثبت انها بمثابة سلسلة ذات حلقة مفرغة يؤثر بعضها في بعض . ومن الاعمال الباهرة التي تمت فيها ، استخراج مادة منها تسمى كورتين Cortin وذلك من غلاف الغدة الكلوية (ادرينال) . ويستعمل الكورتين في علاج الاصابات المستعصية من مرض البول السكري البرنزي أو مرض أديسون Addison's disease الذي كانت الاصابة به تفضي الى الموت الزؤام . ولعلّ أهم ما تم في السنين الاخيرة في الغدد ، ثبوت أن الكبد ، وجدار المعدة ، يحويان مادة حيوية ، لتكوين خلايا الدم الحمر . وان استعمال تلك المادة يمكن المصابين بالانيميا الخبيثة القتالة ، من استرداد صحتهم

وكان اهم ما تبينهُ العلماء في السنة الماضية ، ان الجسم لا يولد الهرمونات وحدها ، بل مضاداتها ايضاً . وبعبارة اخرى انهُ حينما تفرط الغدد في الجسم ، في اطلاق عناصرها المختلفة، تأخذ الاعضاء والنسج ، المنوط بها مقاومة تلك المفرزات ، في توليد مواد مضادة لها ، تحدد فعل الهرمونات ، وتحدث التوازن في الجسد على الدوام . وتوكد تلك المشاهدات ، القاعدة الأساسية، وهي ان الجسد البشري آلة تنظم نفسها بنفسها وانهُ في احواله الطبيعية يستحيل حدوث حموضة فيه تزيد على حاجته ، ولا وجود سمنة مفرطة ، ولا نحافة شاذة ولا ضخامة خارقة ولا نقاد[2] . اما اذا استهدف الجسد لأحوال غير عادية إما من مرض واما من فشل الاعضاء أو عجز أي عضو حيوي عن اداء عمله بطل توازن الجسد وحلت فيه حالة غريبة . ويلي المكتشفات الخطيرة الخاصة بالغدد في عظم الشأن ، تقدم المباحث الخاصة بالتغذية . فقد كنا بالامس الغابر ، نعدّ الغذاء بمثابة وقود لتسيير حركة الجسد ، فأصبحنا موقنين ان للغذاء مهمة اخرى وهي احتواؤه على انواع الفيتامين الضرورية للنمو ودرء السقم. وتبين من تلك المباحث ايضاً مبلغ منافع المواد المعدنية للصحة

وانواع الفيتامين المعروفة حتى اليوم خمسة وهي المرموز لها بالاحرف الافرنكية A,B,C,D,&E.

---

(١) بقلم الدكتور موريس فيشبين رئيس تحرير هيجيا ومجلة الجمعية الطبية الامريكية. نقلا عن مجلة الميكانيكا العامة

(٢) Cretinism — النقد — و cretin النقد بالكسر القليل الجسم البطيء الشباب — اي الذي لا يشب كما جاء في الفيروزابادي . واذ انه ذكر ولم يذكر مصدره ولا فعله فنرجع الى القياس فنقول نقاد بضم النون وزن فعال لانه دل على داء وهو أفضل من مقرقم

فالنوع الاول A — أ — ضروري لصون سلامة النسج ومقاومة الجسد للمرض بوجه عام . فاذا حرم الجسم منه ، تعرضت العينان للاصابة بمرض السلاق zerophthalmia (١) واذا نقص مقدار ذلك الفيتامين عما يحتاج اليهِ المرء ، نجم عنهُ اعتلال الاغشية المخاطية ، ولا سيما في منطقة التنفس . وقد يكون ذلك النقص مقروناً بالنوازل العادية ونحوها من الادواء الخاصة بجهاز التنفس . ويصحبه ايضاً ظهور بعض الامراض الجلدية . واذا حرم امرؤٌ من فيتامين B اي النوع الثاني ، صار عرضة لمرض البرص الايطالي (البلاغرا) او لداء البريبري (٢) وربما تصحبه اضطرابات في المنطقة المعوية والمعدية ، وفقد القابلية للطعام . واذا حرم الجسد من فيتامين C اي النوع الثالث ، ظهر فيهِ الاسقربوط . واذا عدم الجسم فيتامين D اي النوع الرابع ، تعرَّض للكساح

ومن احدث المستنبطات الخطيرة في السنين الاخيرة ، استخلاص انواع الفيتامين ، نقية . وقد اعلن استخلاص فيتامين C في سنة ١٩٣٤ الماضية . وكذلك استخراج فيتامين A اي النوع الاول الذي يسمى كاروتين Carotene بعد ان تبين ان المادة الملونة في الجزر الاصفر تعدُّ من اغزر المواد المعروفة ، احتواء على ذلك الفيتامين . وقد ثبت في الوقت نفسه ان كبد القفندر halibut هو اكثر اكباد السمك احتواء على فيتامين النوع الاول اي A (٣) . فاذا مزجناه بزيت كبد القد ، صار المزيج ادسم مادة طبيعية تحوي فيتامين A. و D. اي الاول والرابع — لان زيت كبد القد ادسم مادة طبيعية تحتوي على فيتامين D . وقد تجلى لنا ايضاً ان الاشعة التي فوق البنفسجية في الشمس ، تؤثر في الجلد البشري فتولد فيهِ فيتامين النوع الرابع اي D وذلك من مادة يحتويها الجلد . فأصبح الانتفاع بالاشعة التي فوق البنفسجية مشهوراً ونشأ عنهُ اختراع المصادر الصناعية لضياء الشمس

وعقب تلك التحقيقات ، تبين للباحثين ان انواعاً شتى من الاغذية يمكن تعريضها للاشعة التي فوق البنفسجية لتكتسب منها فيتامين النوع الرابع اي D . وصار ميسوراً توليد ذلك الفيتامين في الحليب والخبز . ولما كان الكساح داءً يصيب الاطفال والاحداث في الغالب ، واللبن يحوي فيتامين النوع الرابع أي D فتناول اللبن من افضل الوسائل لاُعطاء ذلك الاطفال الفيتامين الذي يحتاجون اليهِ . ولم يظهر الكساح بين الناس الاَّ عند شيوع استعمال زجاج النوافذ المعتاد ، لانهُ يحول دون دخول الاشعة التي فوق البنفسجية في البيوت . وكذلك المصباح الكهربائي الدريُّ (المتوهج) لا يولد تلك الاشعة . بيد اننا اذا استطعنا الاستعاضة منهُ بنوع آخر جديد من المصابيح ، قد نتمكن من اضاءة بيوتنا ومدارسنا بضوءٍ يحتوي على مقدار من الاشعة التي فوق البنفسجية فتؤثر تأثيراً حسناً في الكساح

والكساح كما لا يخفى على القراء ، داء يصيب العظام الطويلة فيمنع نموها كما يجب ، ويحدث

---

(١) السلاق — غلظ الاجفان في تحمر وتقرح (٢) البريبري نوع من الاستسقاء العام — مصحوب بفقر دموي وتمل أو شلل في الاطراف السفلى وهو مرض معد يظهر بشكل حاد أو مزمن في الهند واليابان وسيلان . ولا يزال سببه مجهولا ويحتمل ان يكون ميكروبياً ولسوء الغذاء شأن في ايضاً (٣) انظر ما كتبته في مقتطف نوفمبر ١٩٣٤ بعنوان (احدث المباحث في انواع الفيتامين)

عيوباً في الاسنان والعظام الاخرى . وفيتامين النوع الرابع اي D يتحكم في تمثيل الكلس والفصفور في الجسد البشري ، ومن ثمَّ كانت علاقته شديدة بكثير من الامراض التشنجية والكساح

وقد اثبت العلاّمة باستير حوالي سنة ١٨٩٠ أن الجراثيم مصدر للامراض . فتقررت بذلك أسباب كثير من الامراض المعدية وثبتت طرق نقلها وعرفت وسائل الوقاية منها . وأضحت الحمى الصفراء والطاعون والكوليرا والجدري ، نادرة في كل وسط متحضر . وامكن التغلب على الدفتيريا والحمى التيفوئيدية والحمى القرمزية

ومع ذلك لما تعرف اسباب الحصبة وشلل الاطفال ومرض النوم الامريكي Encephalitis الوبائي والتهاب الغدة النكفية والحماق[1] معرفة يقينية . غير ان المباحث التي تمت في السنين الاخيرة ، قد اسفرت عن تقدم باهر في كبح جماح تلك الامراض . وكذلك تمكن الباحثون من اختراع وسائل جديدة لمكافحة جراثيم التدرن . ثم بذلوا عناية خاصة في تطعيم الاطفال بجراثيم تدرن حية أزيل ضررها قبلاً بالوسائل الكيماوية . وقد اخترعت كواشف جلدية تبين عاجلاً ، هل الطفل قابل للعدوى بالتدرن او مصاب به فعلاً . ثم تحسنت أجهزة أشعة رنتجن باستعمال نوع جديد من فيلم ورقي لكي يسهل تصوير فريق كبير من الاطفال بتلك الاشعة بنفقات زهيدة جداً فيتسنى الوقوف على احوال رئاتهم واتخاذ الوسائل الصالحة مبكراً لوقايتها من ذلك الداء العضال

واذا بحثنا اسباب الوفيات ، تبين لنا ان كثيراً من اشد الاخطار التي تتعرض لها حياة الناس العصرية قد نجمت عن ادخال المواد الكيميائية الجديدة في الصناعة والبيوت ، ومن اختراع الآلات الحديثة ايضاً ومنها السيارات . والاسباب الستة الرئيسية للوفيات هي امراض القلب والكلى والالتهاب الرئوي والسرطان وتصلُّب الشرايين وارتفاع ضغط الدم والبول السكري . ولم تكن السيارات قبل سنة ١٩٠٠ معدودة من اسباب الوفيات اما الآن فان حوادثها تأتي في المقام العاشر في قائمة اسباب الوفيات

والمواد الكيميائية المضرة بالصحة المشار اليها قبلاً ، هي غاز اول اوكسيد الكربون والبنزين Benzene ومشتقات الانيلين المختلفة الانواع ، والرصاص والزرنيخ ، وقد وجّهت عناية عظيمة في السنين الاخيرة نحو المادة الكيميائية المحتوية على حلقة البنزين — وهي المؤلفة من ستة جزيئات كربون التي اذا دخلت جسد انسان حساس قللت بغتة عدد خلايا دمه البيض ، وهي الخلايا التي تحميه من الجراثيم ، ومن العقاقير التي تحتوي على دائرة البنزين ، البيراميدون Pyramidon وهو الدواء المستعمل لتخفيف الآلام ، ويدخل ايضاً في تركيب الادوية المنومة ، والعقار المسمى دينيتروفينول Dinitrophenol الذي يوصف لتخفيف السمنة

وازاء تفاقم الوفيات الناجمة عن اول اوكسيد الكربون والتسمم الزئبقي ، قد اتفقت جماعة من الكيميائيين والاطباء على بحثها لكي تكافحها . فاخترعوا وسائل جديدة لعلاج ذلك التسمم ينتظر نجحها

(١) الحماق — جدري الدجاج

وظهرت فائدة جليلة من استعمال ازرق المثيلين Methylene كترياق قاطع لسم اول اوكسيد الكربون، ولسم السيانور كذلك . وقد تقدمت ايضاً الوسائل التي استعملت لعلاج شلل الاطفال ، فقد اخترع الطبيبان موريس برودي Maurice Brodie في نيويورك وجون . كولمر John A. Kolmer في فيلادلفيا ، لقاحاً استخرجاه بنقع الحبال الشوكية للقرد المصابة بذلك الداء ، ثم ازالا السم من ذلك الحبل الشوكي باستعمال المواد المطهرة . وينتظر ان ينتفع الاطفال بذلك اللقاح كوسيلة للمناعة وكعلاج للادوار الاولى من ذلك المرض . ولم ينقطع البحث والتحقيق في مرض السرطان في جميع انحاء العالم ولاسيما في الخلايا السرطانية وطبيعتها فأسفرت عن كون خلايا السرطان تدخر السكر كمصدر لنموها

واخترع المهندسون الكهربائيون اجهزة لاشعة رنتجن اقوى بكثير مما سبق ان اخترعوه ، وهي نافعة جداً لعلاج السرطان وانجع للوصول الى اصابات السرطان الغائرة من جميع الوسائل المعروفة. وانتشر استعمال الراديوم بمثابة مقذوفات قوية تقصر زمن العلاج وتكفل فلاحه

وكان اختراع المخدرات الجديدة ، والاجهزة الحديثة التي تقطع اللحم بالكهربائية ، وتقف نزف الدم ، وكذلك اختراع المطهرات الجديدة التي تمنع انتقال العدوى، بمثابة معجزات في عالم الجراحة ، فغدا الجراحون يكادون يستطيعون الوصول الى كل عضو من اعضاء الجسد . فنشأ عن ذلك تمكن الجراحين في كثير من الاصابات من نزع النصف الامامي للمخ فأنقذوا المصابين بسرطان الدماغ . كما استطاعوا في عدة حوادث استئصال احدى الرئتين وابقاء اختها ، محافظة على حياة المريض . وكان القلب معدوداً من الاعضاء البعيدة المنال على الجراحين ، فأضحى في مقدور الكثيرين منهم اجراء العمليات الجراحية فيه وخياطته ، وبتر بعض تاموره [١] ونحوها من العمليات

ولا غرو فان الآلات الجديدة ، والاجهزة الحديثة المنوعة التي اخترعت في هذا العصر ، تساعد الاطباء مساعدات باهرة في ذلك الميدان ، وتعد دعامة من دعائم تقدم الطب الحديث

وابتدعت آلات تساعد على التخدير ، فتريح المريض ، وتكفل سلامته . واستحدثت اجهزة ترفع درجة حرارة الانسان رفعاً صناعياً لعلاج الامراض المعدية وبعض حالات المخ. وقد استعملت جميع الوسائل التي تمد الجسد البشري بالحرارة اللازمة لعلاج الادواء الروماتيزمية

واخترعت ايضاً رئات صناعية يستعاض بها عن الرئات الطبيعية ، حينما تصاب هذه بالشلل كما يحدث للاطفال ، وحينما يتسمم امرؤ بأول اكسيد الكربون ونحوه . واخترع جهاز نافع يمد اعضاء الجسد بضغط جوي متعاقب يساعد في حالة التهاب الانابيب الدموية في الساقين

واخترعت مخترعات صغيرة لا تحصى ، تساعد على درس الطوارىء التي تطرأ على الجسد البشري وتسمع خفقان القلب ، واختلاج الرئتين وتقيس وظائف اعضاء الجسم المختلفة ، وهذه كلها اساس تقدم الطب ونجاح الاطباء

---

(١) التامور — غلاف القلب

الدستور السوفياتي الاشتراكي [١]

للاستاذ وليم بنت منرو [٢]

— ٢ —

في صيف سنة ١٩١٨ أقرّ مؤتمر السوفيت — الذي اصبح فيما بعد يدعى مؤتمر جميع الروس — دستوراً أعدّه له زعماء البلاشفة وهو لا يزال الى الآن دستور (اتحاد جمهوريات روسيا الاشتراكية السوفياتية) وفي الوقت نفسه منحت الأقاليم التي كانت قبل الثورة مستعمرات للتاج القيصري استقلالها وأقامت لها جمهوريات سوفياتية منفردة اتحدت بعضها ببعض وفي سنة ١٩٢٢ عقد بين جميعها معاهدة اتحادية عامة. وكانت نتيجة هذه المعاهدة نشوء (الاتحاد السوفياتي) أو (اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية (Union of Socialist Soviet Republics, U. S. S. R.) يشمله دستور اتحادي واحد وقعت عليه جميع الجمهوريات الداخلة في الاتحاد سنة ١٩٢٣ . ويشمل هذا الاتحاد السوفياتي العام سبع جمهوريات اتحادية رئيسية وهي : —

١ — اتحاد الجمهوريات الروسية الاشتراكية السوفياتية — Russian Socialist Federated Soviet Republics, R. S. F. S. R. وهي روسيا وسيبيريا الاصلية ولكل جمهورية داخلة فيها عاصمة ادارية أهمها موسكو وهي عاصمة الاتحاد العام ايضاً

٢ — جمهورية روسيا البيضاء الاشتراكية السوفياتية White Russian S. S. R. وعاصمتها منسك

٣ — جمهورية اوقرانيا الاشتراكية السوفياتية — Ukrainian S. S. R. وعاصمتها خاركوف

٤ — اتحاد جمهوريات قفقاسيا الاشتراكية السوفياتية — Transcaucasian Socialist Federated Soviet Republics وهي عدة جمهوريات لكل منها عاصمة ادارية أهمها تفليس عاصمة جمهورية اذربيجان وعاصمة الاتحاد القفقاسي ايضاً

٥ — جمهورية تركمانستان الاشتراكية السوفياتية — Turkmenistan S. S. R. في أواسط آسيا وعاصمتها عشقباد

٦ — جمهورية ازبكستان الاشتراكية السوفياتية — Usbek S. S. R. في اواسط آسيا ايضاً وعاصمتها طاشقند

٧ — جمهورية تاجستان الاشتراكية السوفياتية — Tadzhikistan S. S. R. في أواسط آسيا ايضاً وعاصمتها ستالين آباد

---

(١) Socialist Soviet Constitution (٢) استاذ التاريخ والحكومات في معهد جامعة كالفورنيا الفني باميركا وقد نقل هذا الفصل الممتع كامل تراتجي مدرس الاجتماع والتاريخ بمدرسة النجف الثانوية في العراق. راجع مقتطف يوليو الماضي صفحة ٢١٩

وفي كل من هذه الجمهوريات السبع الرئيسية جمهوريات او اقطار ومناطق تتمتع باستقلال داخلي في شؤونها القومية حسبما تقتضيه التقسيمات الادارية والفروق الجنسية اللغوية . ومع ان لكل جمهورية عاصمتها الداخلية الاّ أن جميعها تبعث بممثليها الى حكومة الاتحاد العام في موسكو

وقد انفصلت عن امبراطورية آل رومانوف عدة أقطار كانت قبلاً مستعمرات لروسيا لكنها الآن دول مستقلة وهي فنلندة ولتوانيا واستونيا ولاتفيا وألحقت بسارابيا برومانيا واعيدت بولندة الروسية الى بولندة الاصلية

يعلن دستور سنة ١٩١٨ في فاتحته ان روسيا «جمهورية سوفيت مندوبي العمال الفلاحين والجنود» وهي تقوم على اساس «اتحاد حر لأمم حرة» . ثم يعقب اعلان حقوق «الجموع العاملة المستغَلَّة» . — وليس حقوق جميع أفراد الشعب لان ليس (للشعب) معنى اقتصادي سياسي واحد في المجتمع الطبقي — وفي هذا القسم من وثيقة الدستور يؤكد عمل السلطات الثورية ويوافق على عملها بالغاء التملك الفردي ومصادرة جميع وسائل الانتاج من قبل الدولة وجعلها ملكاً للمجتمع تستغل لمنافعه العامة . وهكذا اعلن ان جميع الاراضي والمناجم والمعامل وجميع وسائل الانتاج والتوزيع والمواصلات ملك عام للمجتمع تشرف الدولة على استغلالها وادارتها واعطتها للعمال من دون مقابل على ان لا يكون لاحدهم فيها الاّ حق الاستعمال والاستغلال بحسب مشروعات السوفيت أو السلطات المحلية وسلطات الاتحاد العام . وكذلك أعلنت الحكومة الغاء جميع ديون الحكومة القيصرية للحكومات أو الشركات الرأسمالية فكان ذلك ضربة شديدة على الحكومات الدائنة والمؤسسات المالية الدولية

يمنح الدستور السوفياتي جميع الحقوق المدنية ومنها حق الانتخاب لجميع المقيمين والمقيمات في الاتحاد السوفياتي البالغين سن الثامنة عشرة فما فوق من دون أي تفريق في الجنس أو الدين أو اللغة ومن دون أي قيد خاص بالاقامة على شرط (وهنا يؤكد الدستور) ان يكون المصوّت أو المصوّتة «ممن يقتنون عيشهم بعمل منتج ولا يستخدمون غيرهم بقصد الاستغلال والربح الشخصي» . وتنص مواد الدستور على ان الجنود والبحارة هم من الذين يحصلون على عيشهم بعمل منتج لذلك هم يتمتعون بحق التصويت كغيرهم ، لكنه يصرح بحرمان الطبقات الآتية من حق التصويت واشغال المناصب والتمتع بالحقوق المدنية وهي : —

١ — كل من يستخدم الآخرين لغاية الاستغلال والربح الشخصي وجمع الثروة (ولا يشمل هذا استخدام الخدم في البيوت على ان لا يتجاوز عددهم حدّاً صغيراً معيناً)

٢ — كل من يعيش على دخل لا يُجنى من اتعابه الخاصة (كالربا والايجار والارباح الغير المشروعة) وكل من يتعاطى هذه الاعمال بأي صورة كانت

٣ — التجار الفرديين والوكلاء وغيرهم من اصحاب الاعمال النفعية الفردية التطفلية الغير الانتاجية

٤ — رجال الاديان على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم (وعلى الاخص اذا كانوا يعيشون بفضل مركزهم الديني لا من حرفة او عمل منتج معين)

٥ — الاشخاص الذين كانت لهم اعمال او صلة ببعض دوائر الحكومة القيصرية

٦ — كل معتوه او فيه خلل عقلي او من يرتكب جريمة مأجورة او مخلة بالشرف

وكذلك ينص الدستور على منح الحقوق المدنية وحق التصويت للاجانب الذين يقيمون في بلاد الاتحاد السوفياتي إن كانوا يقومون بعمل منتج ويعتبرون مواطنين سوفياتيين من دون شرط معاملة رسمية اذا كانوا يعيشون على اتعابهم الخاصة في عمل منتج ويحافظون على قوانين وانظمة الاتحاد العام والسلطات المحلية . ومع ان عمر المصوّتين محدد عند سن ال ١٨ سنة إلاّ ان في الامكان تبديله بأمر من اي سوفيت محلي بعد موافقة السلطات المركزية

والذي يجدر بنا ملاحظته ان هذه الحدود لا تمنح التصويت العام لانها تحرم جميع الاشخاص إلاّ العمال بما فيهم الفلاحين والجنود ومعنى هذا ان نظام التصويت هذا يحرم كل من تبقى من البورجوازية الروسية وبقايا الاقطاعيين بما فيهم من جميع اصحاب الدكاكين الفردية والتجار الفرديين وكل من يستخدم شخصاً واحداً على الاقل لغاية الربح الشخصي وحتى الفلاح الذي يؤجر فلاحاً آخر في عمله الفردي يحرم من حق التصويت . وهكذا نرى ان الدستور السوفياتي يرمي الى تأسيس الدمقراطية الاقتصادية أولاً التي عليها وبواسطتها يمكن ان تنجح الدمقراطية السياسية والاجتماعية لذلك نراه يبدأ بتوطيد الدمقراطية بين الطبقات العاملة بينما يعلن دكتاتورية العمال على الطبقات الاقطاعية والبورجوازية القديمة . اي ان الطبقات العاملة تتمتع بالدمقراطية وتفرض دكتاتوريتها على الطبقات المستغِلّة القديمة لكي تتمكن من ادماجها في الطبقات العاملة إن عاجلاً وان آجلاً . وفي هذا العمل بدء منطقي للبلاشفة لان نظرية الحكومة الطبقية في نظر الشيوعية تتلخص باعتبار جميع الطبقات الغير العاملة مستغلة متطفلة تعيش على الطبقات العاملة لذلك يتحتم على الطبقات العاملة التي تأتي في آخر الطبقات في التدرج التاريخي ان لا تتساهل مع الطبقات السابقة لها في الحكم وان لا تشجعها على البقاء متطفلة بمنحها الامتيازات السياسية وبذلك تقضي على نظام الطبقات بجعلها المجتمع كله طبقة واحدة عاملة مالكة تنتج الثروة عامة وتستهلكها عامة

إن الشكل الذي وضعهُ دستور سنة ١٩١٨ للحكومة السوفياتية كثير التعقد وقد وضع بهذا الشكل المعقد تعمداً لان الزعماء الشيوعيين رأوا ان الذي يحاول ان ينتزع الحكم من الطبقات القديمة عليهِ ان يجعل شكل الحكومة صعب المهاجمة لكيلا يتعرض لتلاعب اعداء النظام الجديد به . وقد احتفظ بالهيكل الحكومي الذي وضع سنة ١٩١٨ في معاهدة الاتحاد سنة ١٩٢٢ التي جعلت من امبراطورية روسيا اتحاد جمهوريات سوفياتية اشتراكية

إن اعلى مؤسسة تستمد منها السلطة في الاتحاد السوفياتي هي : — (مؤتمر سوفيت الاتحاد

الاعلى All-Union Congress of Soviets) ويتكوّن من مندوبي سوفيت المدن بمعدل مندوب واحد عن كل ٢٥ الف عامل صناعي ، اما الاقاليم الريفية فقد كانت تمثل بمعدل مندوب واحد عن كل ١٢٥ الف ساكن في الريف قبل التعديل الدستوري الذي أجريَ في اوائل يناير سنة ١٩٣٥ الحالية على اساس التمثيل الغير المباشر والتصويت العلني ، اما بعد التعديل الاخير فقد وضع الريف على قدم المساواة مع المدينة بان يمثّل بمندوب واحد عن كل ٢٥ الف صوت حتى الفلاحين ايضاً وألغي التمثيل الغير المباشر وحلّ مكانه التمثيل المباشر والتصويت السري مكان العلني . ويجتمع هذا المؤتمر بانتظام مرة واحدة في كل سنة . وفي المدة التي لا يكون المؤتمر منعقداً تضطلع بالسلطة التشريعية العليا (لجنة الاتحاد التنفيذية المركزية العليا — All-Union Central Executive Committee, Tsik.) التي ينتخبها المؤتمر في كل سنة وهي تجتمع مدة اسبوعين كل ٣ اشهر . وهذه اللجنة هيئة واسعة تشمل على ما يقارب ٤٠٠ عضو وتنقسم الى مجلسين : ١ً — (سوفيت الاتحاد Soviet of the Union) وهو يمثل كلاً من الجمهوريات السبع الرئيسية وما فيها من المناطق والاقاليم الذاتية على اساس عدد سكان كل جمهورية على حدة . ٢ً — (سوفيت القوميات — Soviet of Nationalities) وهو يمثل جميع القوميات والاجناس الداخلة في الاتحاد على اساس المساواة بين جميعها وعددها يقرب ٢٠٠ قومية ، وللجنة التنفيذية هيئة (رآسة — Presidium) او لجنة مسيرة مكونة من ٢٧ عضواً ينتخبون من قبل اعضاء اللجنة التنفيذية وعلى هذه الهيئة تقع إدارة كثير من الشؤون الجارية اليومية وكذلك تعتبر السلطة التشريعية العليا وعليها ان تراقب مجلس القوميساريين عند ما لا تكون اللجنة التنفيذية المركزية العليا مجتمعة

وتنحصر السلطة التنفيذية بالوزارة او (مجلس قوميساري الاتحاد الاعلى All-Union Council of Commissars) وهو هيئة مكوّنة من ١٥ قوميساراً تنتخبهم اللجنة التنفذية المركزية العليا ويكونون مسؤولين نحوها ونحو مؤتمر سوفيت الاتحاد ونحو مجلس الرآسة ايضاً . ومن هؤلاء القوميساريين واحد رئيس و٤ نواب رئيس بالترتيب . ويقوم كل من القوميساريين عدا الرئيس بمهام قوميسارية معينة كقوميسارية الشؤون الخارجية ، الحربية ، البحرية ، التجارة الخارجية ، المواصلات ، العمل ، الطعام والمالية الخ . . . ، وتشمل الاوامر والانظمة التي يصدرها مجلس قوميساري الاتحاد جميع افراد الاتحاد ويجب تنفيذها حالاً من قبل قوميساري كلٍّ من الجمهوريات الداخلة في الاتحاد . وقد نشأ داخل هذا المجلس هيئة صغيرة تعرف باسم (سوفاركوم — Sovarkom) او قوميسارية داخلية يرأسها جوزيف ستالين السكرتير العام للّجنة التنفيذية المركزية العليا للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي . ومع هذه الهيئة هيئة اخرى صغيرة تدعى (البوليتبورو — Politbureau) وكلتاهما تقبضان على جميع شؤون الاتحاد

يمنح دستور الاتحاد سلطات واسعة لهيئات حكومة الاتحاد التي اوضحناها سابقاً ومن هذه

السلطات ادارة جميع شؤون المعاهدات والشؤون الخارجية وحق اعلان الحرب وعقد السلم وعقد الديون الخارجية وتنظيم التجارة الخارجية وتنظيم السكك الحديدية والبرق والبريد والمؤسسات العسكرية ووضع عملة عامة منظمة وحق وضع نظام الضرائب الموحد وتوحيد الاوزان والمكاييل والمقاييس. وكذلك يمنح سلطات الاتحاد حق « وضع الاسس العامة التي يجب ان تتبع من قبل الجمهوريات الرئيسية فيما يخص القانون المدني او الجنائي والاساليب القضائية وتشريعات العمل والمدارس » . ومن حق سلطات الاتحاد العليا (رفض — Veto) كل قانون او مرسوم او نظام تضعه اي واحدة من الجمهوريات الرئيسية اذا تعارض مع المعاهدة والدستور الاتحاديين اللذين يعتبران قانون البلاد الاعلى

إن تكوين الاتحاد لم يمحُ الدساتير التي كانت لكل من الجمهوريات السبع الرئيسية إذ احتفظت كل واحدة منها بنظام حكومتها القائم على الاساس الاشتراكي السوفياتي . وهذا لا يختلف كثيراً في الجمهوريات المختلفة . وكل من هذه الجمهوريات السبع مستقلة استقلالاً ذاتياً ولها من الحقوق ما يساعدها على تنفيذ الاوامر التي تأتيها من سلطات الاتحاد في موسكو ولهذه الجمهوريات الرئيسية وما فيهامن مناطق واقاليم ذاتية داخلية سلطة على الشؤون المحلية كالتربية والصحة والتأمين الاجتماعي وادارة القضاء في المحاكم الثانوية وتشجيع الزراعة والصناعة على شرط ان لا تخرج ولا تتعارض في هذه الشؤون مع السياسة العامة التي تقررها سلطات الاتحاد العليا . ولكل منها مجلس قوميسارين خاص بها له السلطة في ادارة شؤونها الخاصة

فأساس هذا النظام ١ — هيئات العمال في المعامل وحوانيت الشغل في المدن — ٢ — هيئات الفلاحين في القرى والمجتمعات الريفية . هذه الهيئات في كل معمل او منجم او محطة او دائرة او قرية او مزرعة اشتراكية الخ ... تنتخب لها مجلساً (سوفيت) محلياً . واذا كان المعمل او القرية او المزرعة الاشتراكية صغيرة جداً تتحد عدة منها وتنتخب مندوباً عنها في سوفيتها المحلي . وهكذا يبدأ هيكل الحكومة السوفياتية بهذه المجالس المحلية الى ان يبلغ عددها عدة آلاف في جميع بلاد الاتحاد . على هذه الاسس يقوم البناء الاهرامي لحكومات الجمهوريات والمناطق والاقاليم الذاتية وحكومات الجمهوريات السبع الرئيسية وحكومة الاتحاد معاً

وهذه المجالس المحلية في المدن والارياف تنتخب مندوبين عنها الى هيئات أعلى على طريقة التمثيل المباشر والتصويت السري وهذه الهيئات هي كما يلي : —

١ — كل سوفيت اولي محلي زراعي يبعث مندوبيه الى سوفيت الريف . وكل سوفيت اولي محلي صناعي يبعث مندوبيه الى سوفيت المدينة

٢ — يبعث كل من سوفيت الريف وسوفيت المدينة مندوبيه مباشرة الى : — ا — مؤتمر سوفيت الاقليم — ب — مؤتمر سوفيت المنطقة التي تقع فيها عدة مدن وارياف —ج — مؤتمر

سوفيت جميع الجمهورية الرئيسية (مؤتمر سوفيت جميع الروس)د — مؤتمر سوفيت الاتحاد الاعلى

والذي يجب ملاحظته هنا ان سوفيت الارياف الزراعية كانت قبل التعديل الدستوري الاخير محرومة من التصويت السري والتمثيل المباشر في المؤتمرين الاخيرين لكنها كانت تمثل فيها بطريقة غير مباشرة بواسطة مندوبين من مؤتمرات المناطق وفي بعض الاحيان من مؤتمرات الاقاليم ايضاً، وكذلك لم يكن التمثيل متناسباً مع السكان اذ كان يجري على اساس عدم المساواة بين الريف والمدينة لان نسبة تمثيلهم كانت تقارب نسبة ١:٥ في الريف والمدينة على الترتيب

وقد كان هذا التفضيل الموقت للمدينة على الريف مقصوداً من قبل قادة الثورة اذ كانوا يعتقدون ان العمال في المعامل صناعيون حقاً فهم لذلك اكثر اخلاصاً للنظام الاشتراكي ويمكن الاعتماد عليهم في بناء الاشتراكية لانهم اكثر فهماً لمبادئها وأساليبها وأقوى شعوراً بالنضال الطبقي ومساوىء النظام الرأسمالي الذي كانوا يعيشون في ظله ولانهم اكثر تحرراً من التقاليد والعقلية الرجعية الشديدة القوة عند الفلاحين الفرديين . اما بعد مرور ما يقارب ١٧ سنة على قيام دكتاتورية العمال في الاتحاد السوفياتي تمكنت المبادىء الاشتراكية في قلوب الفلاحين بعد ان شملتهم مشروعات السنوات الخمس وعمت بينهم التربية لذلك اخذ زعماء النظام يشعرون بالاطمئنان الى اخلاص الفلاحين فاقروا منحهم التمثيل المباشر والتصويت السري القائم على اساس المساواة بين المدينة والريف دون ان يخشى الزعماء انقلاب الفلاحين على النظام الذي اصبحوا منتظمين فيه مرفهين بواسطته

ولهذا النظام السوفياتي للحكومة — عدا عن هذه الخصائص — ميزات اهمها : —

١ — اتحاد واسع مفتوح لا وحدة مغلقة ضيقة — ان هذا الاتحاد لا يقوم على اساس الوحدة المغلقة التي تكون فيها السيادة مطلقة بيد القومية الاكثرية لكنهُ اتحاد حر لقوميات حرة على اساس التحالف والتعاون لا القوة والاستعمار كما كانت في عهد الامبراطورية القيصرية . لكن لما كانت روسية الاصلية اوسع جمهوريات الاتحاد مساحة اذ تبلغ $\frac{9}{10}$ مساحة الاتحاد بأجمعه وفيها من السكان ما يقارب ثلثي سكان الاتحاد ايضاً ، ولما كانت هي التي قامت بالثورة الكبرى لذلك اصبحت هي المسيرة لشؤون الاتحاد العامة تاركة للجمهوريات الاخرى التمتع بالاستقلال الذاتي في شؤونها الداخلية والثقافية على الاخص وتعليم ناشئتها باللغة القومية الخاصة . وللجمع بين حكومة الاتحاد وحكومة روسيا الاصلية يدير الشؤون العليا عادة نفس الزعماء السياسيين ، لكن هذا لا يمنع تقلد غير الروسيين من الاجناس الاقلية مناصب في حكومة الاتحاد العامة

٢ — جمع السلطات — والميزة الثانية ان ليس في نظام الحكومة السوفياتي فصل السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية الواحدة عن الاخرى فصلاً مطلقاً . فالسلطة التشريعية والتنفيذية موحدتان وفي بعض الاحيان تدخل السلطة القضائية ايضاً في هذا التوحيد . لذلك اصبح في امكان نفس السلطات ان تهيىء القوانين وتوافق عليها وتصدرها وتنفذها وتفسرها وفي بعض الاحيان تعاقب المخالفين لها

« للبحث تتمة »

حول المشكلة الايطالية الحبشية

— ١ —

المستعمرات والموارد الطبيعية

لا يسع الباحث ان ينعم النظر في ما ورد في الاسابيع الاخيرة من أنباء النزاع الايطالي الحبشي وأقوال الاقطاب فيه الاّ أن يدرك ان سر الخلاف أبعد مدى من قول ايطاليا ان الحبشة لا تصلح أن تكون عضواً في جامعة الامم لانها لم تنهض ببعض العهود التي قطعتها أو أن موسوليني حشد ما حشد من القوى المسلحة ليحمي المستعمرات الايطالية في شرق افريقية من تهديد الاحباش لها . مع ان هذين القولين على جانب غير يسير من الصحة

ولكن سرّ النزاع ان في هذا العصر الصناعي الذي اكتسحت فيه النزعة القومية في الميدان الاقتصادي معظم الامم ، حتى بريطانيا المشهورة بتعلقها بحرية التجارة ، نجد أمماً كبيرة تتدافع الحياة في عروق ابنائها ، لا تملك مستعمرات تستطيع أن تعتمد على موارد ثروتها الطبيعية لتقيم أود صناعاتها من جهة وتجعلها سوقاً لمصنوعاتها ومنفذاً لازدحام ابنائها في وطنهم الاصلي من جهة اخرى . ولكننا نجد في الوقت نفسه بعض أمم اوربا يملك بلداناً تقدر مساحاتها بملايين من الاميال المربعة شديدة الغنى بموارد الثروة الطبيعية فيها بحيث اصبحت طائفة غير يسيرة من المواد الخام التي لا تقوم قائمة للصناعة الحديثة من دونها ، أشبه ما يكون باحتكار لها . وهذه الحالة تفضي في الدول المحرومة الى شعورها بالحرمان فبالثورة عليه . فهي لذلك لا تطمئن ولا يستريح لها بال ولا يمكن أن تكون في اوربا عامل استقرار بل لا بدّ ان تظل عامل قلق واضطراب حتى تُكفَى حاجتها في هذا الصدد

ونحن لا نقول ان الاستعمار خير . ولكننا من الوجهة العملية يجب أن نعترف بأن سلام اوربا لا يتوطد حتى تجد ايطاليا والمانيا بعض الرضى على الاقل من هذه الناحية . وقد اعترف السر صموئيل هور في خطبته التاريخية في الجمعية العمومية بجامعة الامم بخطورة هذا الأمر وقال أن حكومته مستعدة أن تنظر في الموضوع بقصد إعادة توزيع الموارد الطبيعية توزيعاً يكون أقرب الى العدل — اذا كان في الاستعمار عدلاً — وأوفى بالحاجة . وقد نقلت الينا البرقيات من المانيا ان الهر فون روبنتروب أحد أقطاب الريخ الثالث ومستشار الهر هتلر في شؤون التسلح صرح بأن المانيا لا يسعها أن تصبر طويلاً على حرمانها من هذه الموارد

فكأن اوربا من هذه الناحية مائدة لها اربع قوائم اثنتان متساويتان طولاً وثالثة أقصر منهما ورابعة مجزوزة من أصلها فلا تقوى المائدة على الوقوف الاّ اذا تساوت قوائمها الاربع أي الاّ اذا أحرزت ايطاليا والمانيا ما تحتاجان اليه اسوة ببريطانيا وفرنسا

وهناك عامل آخر يؤثر تأثيراً نفسيًّا بعيد المدى وهو أن لبعض الدول الاوربية الصغيرة كالبرتغال مستعمرات ليست حاجتها اليها مثل حاجة ايطاليا والمانيا . وفي هذا باعث على شعورهما بالامتهان لكرامتهما القومية

فلما نشبت الحرب الكبرى وحصرت المانيا بأساطيل الحلفاء وأصبحت لا تستطيع الدفاع عن مستعمراتها سطت دول الحلفاء على المستعمرات الالمانية واحتلتها ، فاحتلت حكومة جنوب افريقيا مستعمرات المانيا في الجنوب الغربي من افريقية واحتلت استراليا الجانب الخاص بألمانيا من غينيا الجديدة واحتلَّ اليابانيون الجزائر الالمانية في الجانب الشمالي من المحيط الهادىء والبريطانيون شرق افريقية وبلاد الكمرون . وقد صارت هذه الاخيرة من نصيب فرنسا بعدئذٍ

وكان شعور الناس لا يزال مستفزًّا بعيد الحرب فكان من المتعذر لمن تقنع الدول المحتلة وقد آتاها الظفر ولها حق في الغنائم والاسلاب ، بارجاع المستعمرات الى أصحابها حتى ولو قضت بذلك الحكمة العملية وبعد النظر السياسي . ويروي الاستاذ غلبرت مري وهو من أعلام الانكليز انهُ سعى بعيد الحرب لانشاء حركة غرضها ارجاع مستعمرات افريقية الشرقية الى أصحابها السابقين فقال له من لا يرتاب في صدقه وصحة حكمه ان ابناء تلك البلدان يتوجسون خيفة من ذلك ويؤثرون الانتقال بسائمتهم الى قلب افريقية . لذلك كان حل هذه المشكلة بعيد الحرب متعذراً

***

أما ايطاليا فتختلف مشكلتها قليلاً عن مشكلة المانيا ولكنَّ المشكلتين ترتدان الى أصل واحد . فايطاليا لم تبلغ المقام الاول بين دول اوربا الاَّ من عهد قريب فلما بلغته وبدأت تحس ما تقتضيه صناعتها وتجارتها وازدحام أبنائها في بلاد تحتاج إلى معظم المواد الخام اللازمة للصناعة ، وجدت أن معظم بقاع الارض التي تصلح لها من هذا القبيل ، قد اقتسمتها الدول فقنعت أولاً بالاريترة والصومال وهما منطقتان لاتسدان حاجتها من هذه الناحية ، وظنت أن الحلفاء ينصفونها في مؤتمر الصلح فخاب ظنها فكتمته على مضض وهي تتحين الفرص لتحقيق ما تريد أو بعض ما تريد

وقد كان الفاتحون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لا يقيمون وزناً لضمير أو حساب اذا رأوا بلاداً يريدون احتلالها فكانوا ينتحلون الاعذار ويقيمون الحرب ويحتلون البلاد . فاذا اعترضتهم دولة او اكثر صانعوها أو فاوضوها أو حاربوها أو اتفقوا معها على أن تحتل هي بلاداً اخرى كأنهم موكلون بسطح الكرة يهبونه من يشاؤون

ولكن الحال تغيرت بعد عقد معاهدة فرساي ففيها قطع الحلفاء عهداً بالجري على شروط ولسن والشرط الخامس منها ينص على وجوب إعادة النظر في المطالب الاستعمارية بروح الانصاف والتجرد ومراعاة مصلحة المستعمَرين (بفتح الميم) . ثم انها كانت قد صرحت برغبتها عن ضم بلدان جديدة اليها اذا استثنينا مقاطعتي الالزاس واللورين وقد كانتا في حكم الحق يعاد الى صاحبه . لذلك اخترعوا

نظام الانتداب، فاحتفظ الحلفاء بالمستعمرات التي احتلوها في خلال الحرب وبمظاهر الشروط الولسنية التي قطعوا عهداً باحترامها

ولو أن العالم مال بعد الحرب الى الأخذ بحرية التجارة وبحرية المهاجرة لكان من السهل على الدول التي فقدت مستعمراتها، أو الدول التي ليس لها مستعمرات تكفيها، أن تقنع بذلك الى حد ما من الوجهة المادية العملية — دون القومية وكرامتها — لان ذلك يمكنها من استيراد ما تريد استيراده من دون عائق يعوقه . وتصدير ما تريد تصديره الى حيث تريد من دون عقبات تجارية واقتصادية تقوم في وجهه — كالحواجز والحصص وغيرها من القيود — . والسبق في ذلك لمن كان أدق علماً وأبرع صناعة وأوفر حيلة تجارية . ثم أن ما تشكوه بعض الامم من ازدحام أبنائها كانت تجد له منفذاً في بعض هذه المستعمرات المترامية الاطراف أسوة بغيرها والفوز هنا لمن كان من الشعوب أصلب عوداً على الاجواء المختلفة وأمضى عزيمة في استغلال مواردها

فالحضارة الصناعية في لبها تقتضي اعادة النظر في هذا الموضوع الحيوي . ولا يغرنَّ أحد ان المشكلة الحبشية قد تنتهي سلماً بما يحقق بعض مطالب ايطاليا ويحفظ استقلال الحبشة ، أو حرباً يبسط سيادة ايطاليا على الحبشة — ولو لم تفض الحرب الخاصة الى حرب عالمية . فان المشكلة تبقى هي هي لان ما تجهر ايطاليا بطلبه اليوم وتعد له العدة تطلبه المانيا بصوت خافت اليوم ولا بدَّ ان تطلبهُ بصوت جهوري غداً يصحبهُ صليل السيوف. ولا يمكن ان يستقر لاوربا قرار ما لم تتساو القوائم التي تقوم عليها مائدتها

***

فهذا النزاع سواء أحل بالاتفاق أم بالحرب ليس الاَّ نذيراً لدول اوربا بان ما ارتكب في معاهدة فرساي من الهفوات قد أخذ يستفحل أثره الآن وينذر بحروب استعمارية بين الدول كالحروب التي دارت رحاها في القرن السادس عشر . فقد كتب المستر همند الانكليزي في مجلة السبكتاتور يقول «ان وضع معاهدة فرساي كان خاضعاً من الناحية الاوربية للصورة القائمة في ذاكرة كلمنصو من هزيمة فرنسا في حرب السبعين . فضيق واضعو المعاهدة الخناق على المانيا . ومن الناحية غير الاوربية كان خاضعاً للجشع البريطاني فكانت النتيجة ان عدم التساوي في المستعمرات الذي سبق الحرب الكبرى استفحل بعدها . وقد ظهرت نتائج الخطاء الاول من بضع سنوات وبدأت الآن تظهر نتائج الخطاء الثاني حتى ليخشى ان نكون في خطر من عودة دول اوربا الى سلسلة من الحروب الاستعمارية كما كانت الحال في القرن السادس عشر»

فبعد ما اكتشفت الطرق البحرية الكبيرة وتسابقت الامم الى احتلال البلدان الجديدة التي افضت اليها هذه الطرق نشبت سلسلة من الحروب بين اسبانيا والبرتغال وهولندا وفرنسا وانكلترا على جزر الافاويه والهند والعالم الجديد . ولكن هذا الخلاف بين الدول الاوربية في المستعمرات

نفسها لم يفض الى خلاف عظيم بينها في اوربا . ثم ان اقتسام افريقية لم يسبب حروباً تذكر بين هذه الدول. ولكن نتائج هذا الاقتسام اخذت تفعل فعلها الآن وهي تهدد بما لا يريد محب للسلم ان يتخيله . وتفسير ذلك ان السلطة في مستعمرات العالم الجديد انتقلت من ايدي الحكومات الاوربية الى ايدي المستعمرين من ابنائها بالقوة بعد ما ابيدت في الغالب الشعوب الاصيلة فحلت مشكلتها على هذا النحو

اما في افريقية او في معظمها فيظهر ان الحكم سيبقى طويلاً في ايدي الاوربيين. وامتلاك البلدان الافريقية مثار للنزاع بين الحكومات الاوربية لانها بلدان أصبحت قيمتها في عيون الاوربيين الآن ضعف ما كانت قبل نصف قرن من الزمان . وسبب ذلك مثلث . فالحضارة الصناعية تدفع الدول الى التنافس في البحث عن المواد الخام والاسواق الجديدة التي لم تتخم بمصنوعاتها . ولا يخفى ان الثورة الصناعية كانت من نحو قرن لا تزال في مستهلها في المانيا وروسيا والولايات المتحدة الاميركية بل كانت اساليبها لا تزال غريبة عن اليابان وايطاليا فارتقت ارتقاء عجيباً في الربع الاخير من القرن الماضي وما انقضى من هذا القرن وصحب اشتداد التنافس بين الدول الصناعية على المواد الخام والاسواق ، احاطة البلدان التي تصلح لذلك باسوار من الحواجز والحوائل . وقد اجمع اهل الرأي وكان لورد كرومر من اقطابهم ان بقاء الامبراطورية البريطانية كان متعذراً في القرن الماضي ومطلع هذا القرن لولا حرية التجارة وسياسة الباب المفتوح . وجاء ردح من الزمن ظن فيه ان سائر الدول ستتبع بريطانيا في خطتها هذه . ولكن بريطانيا نفسها اصبحت اليوم من الدول الآخذة بخطة حماية التجارة . فاشتداد التنافس مع ما يصحبه من القيود الاقتصادية هو سر الخطر الذي اشار اليه المستر همند في مقاله ووزير خارجية بريطانيا في خطبته في جنيف

ويرى السر نورمن انجل وهو من كبار الباحثين الانكليز في الموضوعات الاقتصادية وصلتها بالسياسة الدولية ان الدول الصناعية يجب ان يتاح لها على السواء الوصول الى المصادر الطبيعية للمواد الخام من دون اي تمييز بينها من جهة ، والى الاسواق العالمية من جهة اخرى . ولكنه ينكر ان الاستعمار او امتلاك المستعمرات او اعادة توزيعها سبيلها الى ذلك . فكون كندا مثلاً احدى الولايات المستقلة في الامبراطورية البريطانية لا يبيح لاصحاب معامل انكلترا ان يأخذوا منها موادها الخام بلا مقابل او ان يشتروها بثمن مخفض . وهو لذلك يرى ان موطن الخطر ليس في عدم توزيع المستعمرات على مختلف الدول بل في استفحال النزعة الاقتصادية القومية التي توصد في وجوه الدول الابواب الموصلة الى المصادر الطبيعية او الى الاسواق . ومن آثار هذه النزعة الحواجز والحوائل والحصص وسائر القيود الاقتصادية. وعنده ان العلاج لا يكون باعادة توزيع المستعمرات بل بالجري على خطة من حرية التبادل وعندئذ تستوي الامم المستعمرة وسائر الامم في الفرص الاقتصادية التي تتاح لها في المستعمرات وما اليها

— ٢ —

نظام العقوبات

ما هو نظام العقوبات في دستور جامعة الامم ؟ وما هي انواعها ؟ وكيف تفرض ؟ وعلى من يقع عبء تطبيقها ؟ وهل يمكن فرض العقوبات الاقتصادية من دون اللجوء الى الحرب لجعل هذا الفرض فعالاً ؟ هذه هي الاسئلة التي تخطر للباحث فما هي الاجوبة عنها

تعتمد جامعة الامم على انواع من العقوبات في تأييد قراراتها . الاول أدبي وهو قوة الرأي العام الدولي . والثاني اقتصادي وهو فعل الحصر البحري والبري . والثالث عسكري وهو القوة المسلحة على انواعها اي الحرب

واول ما تحتاج اليهِ الجامعة في توجيه الرأي العام الدولي الى حل مشكلة دولية معقدة او خلاف قائم بين دولتين او اكثر من الدول ، هو اذاعة الحقائق المتصلة بهذا الموضوع . فلا يلبث جمهور القراء من مختلف الامم اذا كانت الحقائق صريحة وكان الظلم بادياً في جهة دون اخرى ، حتى يتأثر بما يذاع وينحاز في الغالب مع المظلوم على الظالم . او مع المعتدى عليهِ ضد المعتدي . وقد اعترف واضعو دستور الجامعة بما لهذه الاذاعة من المقام الكبير في تأييد مكانة الجامعة وتعزيز احكامها فجعلوا جمعيتها العمومية منبراً عامًّا ومنحوها الحق في ان تتناول في اجتماعاتها كل موضوع يدخل في نطاق عمل الجامعة او له صلة بسلام العالم . (المادة الثالثة من عهد الجامعة) ولا ريب في ان بحث مشكلة دولية بحثاً حرًّا وافياً في مؤتمر عام يحضره مندوبو معظم امم الارض، وسيلة من افعل الوسائل لاطلاع الرأي العام في كل بلاد ممثلة في الجمعية العمومية — وغيرها كذلك — على حقائق الموضوع . والباحث في عهد الجامعة لا يكاد يرى للجمعية العمومية عملاً غير هذا العمل . وكأنَّ بعضهم لا يقيم وزناً للرأي العام في المشكلات العامة فسخر من الجمعية العمومية اذ وصفها بانها « جمعية مناظرة »

وقد أشارت المادة الثامنة من عهد الجامعة الى القوة المعنوية التي تعتمد عليها في تنفيذ ما يعقد من اتفاقات نزع السلاح اذ قالت « ان اعضاء الجامعة يتعهدون بان يتبادلوا تبادلاً صريحاً تامًّا كل ما يختص بمدى تسلحهم وبرامجهم العسكرية والبحرية والجوية وحالة المصانع الصالحة لاغراض حربية » . فالجامعة تعتمد في هذا الصدد على قوة الرأي العام في الحيلولة بين اي عضو من أعضاء الجامعة و نبذ اتفاق نزع السلاح (او تحديده) لان اذاعة الحقائق تدل على نقضه الاتفاق وعلى سوء نيتهِ . وقد كانت هذه النقطة موضوع بحث طويل ودقيق عند اقتراح انشاء لجنة للرقابة يحق لها الاطلاع على كل ما يختص شؤون التسلح في الامم المختلفة . وكانت بريطانيا في مقدمة المعارضين في انشائها

وليس الغرض من هذا الفصل ان ننشىء بحثاً فقهيًّا مسهباً في مواد العهد ولكننا نقول ان ثلث مواده على الاقل يشير اشارة صريحة كل الصراحة او بعضها الى اعتماد الجامعة على الرأي العام الدولي

في تحقيق اغراضها ووسائل تنويره ومنها ما جاء في المادة الخامسة عشر وهي ان على مجلس الجامعة ان يضع تقريراً يبسط فيه حقائق المشكلة التي رهن البحث ويضمنهُ المقترحات التي يراها لحسم النزاع

على ان واضعي عهد الجامعة لم يعتمدوا على الرأي العام وقوته المعنوية دون غيرها في المحافظة على السلام الدولي . فنصوا في المادة السادسة عشرة على ما يعرف بالعقوبات . والجانب الاول من هذه المادة بل جلّ نصوصها عدا نصًّا واحداً ، يقتصر على ذكر العقوبات الاقتصادية . وليس ثمة من يرتاب في ان مهمة الحصر البحري او البري او كليهما لتنفيذ العقوبة الاقتصادية عمل مشترك يقع على عاتق جميع الاعضاء ولكن الصعوبة في هذا كله ان الامم المختلفة لا تلزم بتنفيذ العقوبة الاقتصادية الاَّ بعد ان يقرر مجلس الجامعة ان دولة ما انتهكت حرمة العهد وبعد ان يوصي المجلس بالقوات المسلحة التي على كل دولة ان تقدمها للقوة المشتركة المتحركة باسم الجامعة لحماية عهود الجامعة

واول ما يتجه اليهِ الحصر البري والبحري اي اول غرض من اغراض العقوبات الاقتصادية هو حظر تصدير الاسلحة الى البلاد التي يراد توقيع العقوبة عليها . ولكن كيف تستطيع الجامعة الآن ان توقع هذه العقوبة وثلاث من الدول الكبرى التي فيها طائفة من اكبر مصانع الاسلحة في العالم — ونعني اليابان واميركا والمانيا — ليست اعضاء في الجامعة فهي غير مقيدة بقرارها . ثم ان هذا الحظر لا يضر ايطاليا لان فيها مصانع سلاح كبيرة ووافية المعدات

ثم يتجه النظر بعد ذلك الى منع توريد المواد الخام التي تدخل في صنع الاسلحة . فاذا امكن الاتفاق بين الدول التي تصدر هذه المواد فالاتفاق كاف لشل صناعة الاسلحة في الدولة التي تمنع عنها . ولكن قيل في الايام الاخيرة أن بعض الدول بدأ يشكو من الآن — مع ان الحديث لم يتعدَّ الكلام التمهيدي — ان توقيع العقوبة الاقتصادية قد يضر بمصالحها التجارية . ولا يفوتنا أن نشير في هذا الصدد الى اقتراح كان قد اقترحهُ السر توماس هلند وهو عالم جيولوجي بترولي مشهور في خطبة الرئاسة بمجمع تقدم العلوم البريطاني من سنوات ثم أعاده من اسابيع وهو ان يمنع تصدير بعض الفلزات والمعادن النادرة التي لا بد منها في صنع اصناف الصلب الجيدة القاسية . فأنواع الصلب القاسي لا بد منها في صناعة المدافع والبنادق والدبابات وغيرها من الاسلحة . وهي تحتاج لكي تبلغ درجة وافية من القساوة ، الى مقادير يسيرة من عناصر المولبدنوم والتنغستن والكروم والنكل والقصدير وغيرها . فمنع تصدير هذه المواد اليها فعال في شل صناعاتها الحربية ولا يضر ضرراً كبيراً بالتجارة الدولية لان ما يستعمل منه مقادير يسيرة . وقد يقال ان الامة التي تنوي الحرب قد تخزن منها مقادير كبيرة ، ولكنها لا تستطيع ان تمضي في الحرب طويلاً قبل ان تنفد هذه المقادير المخزونة

وقد يوسع نطاق هذا النوع من بتّ صلة التبادل التجاري حتى يشمل جميع الواردات والصادرات ولكن اعتراض الامم المصدرة عليه يشتد بقدر ما تتأثر بهِ تجارتها الخارجية

وقد تتخذ العقوبة الاقتصادية شكل الحصر المالي فلا تعقد لها قروض ولا تباع عروضاً الاَّ

نقداً ولا تفتح لها اعتمادات فاذا لم يكن لدولة ما اعتمادات سابقة في المراكز المالية او ذهب كاف في خزانتها توفي به نقداً ثمن ما تبتاعه عجزت عن مواصلة الحرب . ولكن الغالب ان الدوائر المالية في العالم ترغب عن الاخذ بهذه الخطة

ويرى السر آرثر سولتر وهو من كبار المشتغلين بالشؤون الاقتصادية وصلتها بالسياسة الدولية في انكلترا رأياً ملخصهُ ان افضل شكل يمكن ان تتخذه العقوبات الاقتصادية في مرحلتها الاولى ، هو الاتفاق على عدم استيراد اي عرض من صادرات البلاد التي تفرض عليها هذه العقوبات . فهذا النوع من العقوبات الاقتصادية اسهل تطبيقاً من الناحية السياسية ، لان الامم اقل اعتراضاً على من يمنعها من الشراء منها على من يمنعها من البيع . اي ان الامم التي تعتذر عن تطبيق العقوبات الاقتصادية بالضرر الذي يلحق تجارتها اذا امتنعت عن التصدير الى بلاد ما قد لا تكون شديدة الاعتراض اذا طلب اليها ان تمتنع عن شراء ما تصدره تلك البلاد اليها . وهو اسهل تطبيقاً من الناحية الادارية لان نظام الجمارك كفيل بتنفيذه من دون اي اداة حكومية جديدة تنشأ لهُ ولانهُ اسهل جداً في هذا العصر ان تعرف مصدر العروض والبضائع من ان تعرف مصيرها. فقد تبيعها لتاجر من اليونان وهذا بدوره يبيعها لتاجر في ايطاليا . فمنع صادرات البلدان المختلفة من الوصول الى بلاد معينة يقتضي في آخر الامر حصراً بحرياً او برياً او كليهما وهذا يعني الحرب . يضاف الى ذلك ان الامتناع عن شراء ما تصدره بلاد معينة يحرمها من ثمن هذه الصادرات في الاسواق الخارجية فلا تستطيع ان تبتاع ما تحتاج اليهِ الاَّ اذا كان لها اعتمادات مفتوحة او كانت تملك ذهباً كافياً توفي بهِ ثمن ما تشتري

والمحك الاخير في كل هذا هو اجتماع كلمة الدول الكبرى على تطبيق العقوبات المتقدمة والمتفق عليها . ولسنا نعلم إلى أي مدى يمكن الفوز بهذا الاتفاق بين الدول التي لا تزال أعضاء في الجامعة دع عنك الدول التي خارجها . ولا يخفى أن السنيور موسوليني قال أن كل سعي لتطبيق العقوبات على ايطاليا يقاوم من الامة الايطالية بالقوة المسلحة . فمن العبث أن تقول الدول بفرض العقوبات الاقتصادية ان لم تكن على استعداد لتأييد قرارها بالقوة المسلحة . ولذلك تقول الديلي اكسبرس وفي قولها تصيب كبد الموضوع « ان الحرب هي العقوبة النهائية » . لان الحصر الاقتصادي أشبه ما يكون برجل قوي قابض بكلتا يديه على عنقك يحاول ان يخنقك ولا يمكن ان يكون ذلك العمل عملاً سلمياً

والسر آرثر سولتر يعتقد كما يعتقد غيره ممن يعالج هذه الموضوعات من ناحيتها العملية ، ان العقوبات ايًّا كانت لا تصلح لتحقيق الغرض منها الاَّ اذا كانت فعَّالة . ولا يمكن ان تكون فعَّالة الاَّ اذا كانت الامم متفقة على تأييدها بالقوة ، متخذة العدة لاظهار هذا التأييد بمظهره الفعال . ولكنه يشدد في ان الانصاف يقتضي من هذه الدول ان تعين موقفها هذا في بدء النزاع لكي لا يخامر الدولة التي قد تفرض العقوبات عليها أي ريب في هذا الصدد

واذن فالعقوبات المسكرية او بالحري الحرب نفسها هي الملجأ الاخير لردع دولة معتدية على احد اعضاء الجامعة ، او منتهكة لحرمة العهد . وهذا هو لب السلامة الاجماعية ولا معنى لها من دونه

فما هي النصوص الخاصة بفرض العقوبة العسكرية التي ينطوي عليها عهد الجامعة وكيف يمكن تطبيقها ؟

تنص المادة العاشرة في عهد الجامعة على ما يلي : « يتعهد اعضاء الجامعة بان يحترموا الوحدة السياسية والاستقلال السياسي لكل عضو من اعضاء الجامعة وان يقوها من الاعتداء الخارجي فاذا وقع الاعتداء او اذا كان هناك تهديد بوقوعه فعلى مجلس الجامعة ان يشير بالوسائل التي ينجز بها هذا التمهد »

نعم ليس في هذه المادة اية اشارة الى القوى المسلحة ولكن من الجلي انهُ اذا هوجمت امة في عقر دارها فلا سبيل الى المحافظة على وحدتها السياسية واستقلالها الاَّ بطريقة واحدة وهي تنظيم قوة حربية دولية ترسل الى البلاد المغزوة لرد الغازي وقد يكفي احياناً بأن يهدد مجلس الجامعة بأنهُ مستمد لحشد قوى اعضاء الجامعة ضد الدولة الغازية ليردعها ويحملها على سحب قواتها ولكن اذا لم يفلح التهديد في تحقيق هذا الغرض فعلى المجلس ان يتعدى القول الى الفعل

واستعمال القوى المسلحة المنصوص عليها في المادتين ١٦ و ١٧ من عهد الجامعة يقصد به معاقبة دولة معتدية . الاَّ ان الفرق بين المادتين ان الاولى (أي ١٦) تشير الى دولة تعمد الى الحرب متجاهلة عهودها اذا كانت تلك الدولة من اعضاء الجامعة . واما الثانية (أي ١٧) فتشير الى دولة غير منتظمة في الجامعة اي خارجها . فاذا شجر خلاف بين دولة غير منتظمة في الجامعة واخرى عضو فيها تدعى الاولى لقبول ما تفرضه الجامعة على اعضائها من العهود والتبعات فاذا رفضت وعمدت الى الحرب فعندئذٍ تستعمل العقوبة العسكرية ضدها دفاعاً عن عضو الجامعة اي تطبق عليها المادة ١٦

وبالرجوع الى المادة ١٦ من عهد الجامعة والمادة ١٧ كذلك نجد ان الخطوات الاولى التي تتخذها الجامعة هي الحصر البري والجوي ولكن الفقرة الثانية في المادة ١٦ تنص ان للجامعة ان تعمد الى القوة المسلحة برية وبحرية وجوية اذا وجد ان ذلك ضروري « لحماية عهود الجامعة » . والفقرة الثالثة في المادة نفسها تشير الى واجب اعضاء الجامعة في تمهيد السبيل لمرور القوات المسلحة التي تبعثها احدى الدول من اعضاء الجامعة المتعاونة في الدفاع عن عهودها

وهاتان العبارتان تشيران من دون ريب الى أن واضعي عهد الجامعة كانوا يرمون الى اعمال عسكرية واسعة النطاق اذا اقتضت الحال ذلك

ولكن نظام الجامعة يجعل تطبيق العقوبة العسكرية صعباً كتطبيق العقوبات الاقتصادية . في المقام الاول يجب ان يكون قرار المجلس باستعمال القوى المسلحة اجماعيًّا (ما عدا صوتي او اصوات الدول المتنازعة) ثم يجب ان يكون قراره اجماعيًّا كذلك في تعيين ما على كل دولة من الدول ان

تقدمه من قواتها المسلحة للقوة المسلحة المشتركة التي تعمل باسم الجامعة . وكل هذا يجب ان يتم قبل ان يبحث اصحاب الشأن في توحيد القيادة للقوة المشتركة واختيار قائد لها وما يجره ذلك من المناقشات وما عهدنا بصعوبة توحيد القيادة في جيوش الحلفاء في الجبهة الغربية ببعيد

— ٣ —

القنال والموقف الدولي

اجتمع مجلس جامعة الامم في ٤ سبتمبر الحالي وشرع حالاً في معالجة مشكلة النزاع بين الحبشة وايطاليا . وكان يغلب على مساعي الدول روح الرغبة الصادقة في البحث عن حل سلمي يضمن حرمة العهود والمواثيق الدولية المختلفة ويصون استقلال الحبشة ويمهد السبيل لتحقيق ما اعترفت به المعاهدات السابقة لايطاليا من مقام ممتاز وحقوق خاصة في الحبشة واستغلال مواردها . وقد ساعد على تعزيز تلك الروح تنصل الحكومة البريطانية بتصريحات حاسمة من الامتياز الاقتصادي الكبير الذي فاز به المستر ريكيت ، واشارتها على النجاشي بامساكه ، وقرارها ان تستمر الآن في حظر اصدار السلاح الى الحبشة لكي لا يكون الغاؤها لهذا القرار استفزازاً لايطاليا ، والتعاون الصادق بين لندن وباريس في سبيل الوصول الى صيغة تكفل ما تقدم . ثم ان العقوبات وفرضها على ايطاليا من قبل الجامعة اذا هي مضت في طريقها وشهرت الحرب على الحبشة، لم تذكر مطلقاً في حديث او خطبة رسمية تمشياً مع هذه الروح مع كثرة التحدث بها قبل الاجتماع لان اقطاب الجامعة يدركون ان الاشارة الى هذه العقوبات وجعبة الحلول السلمية لم تفرغ بعد لا بد ان تحسبه ايطاليا سهماً يصيب كرامتها القومية وتفسره بأنه تحدٍّ لها لانه يوقفها امام الرأي العام الدولي موقف المتهم

ومع ذلك لا يزال ذكر قنال السويس واقفاله او تركه مجازاً حرًّا في حالة نشوب الحرب موضوع مقالات ضافية تنشرها الصحف ومباحثات قانونية دقيقة بين المستشارين القضائيين في الحكومات ذات الشأن . والاسئلة التي تخطر للباحث في موضوع قنال السويس من حيث ان اقفالها سيكون احدى العقوبات الثلاث التي تفرض على ايطاليا اذا اقتضت الحال فرضها هي :

١ — هل معاهدة سنة ١٨٨٨ التي تنص على ان القنال يجب ان تكون مجازاً حرًّا لجميع الدول في زمن الحرب وزمن السلم للسفن التجارية والسفن الحربية على السواء معاهدة نافذة الآن

٢ — هل للحكومة البريطانية سيطرة شرعية على القنال

٣ — اذا اختلف عهد جامعة الامم عن معاهدة ١٨٨٨ في حكم من الاحكام فهل يحل العهد محل المعاهدة اي هل يكون الفصل في الخلاف بحسب نصوص العهد دون نصوص المعاهدة

وقد عني المستر ريمون لسلي بيول وهو من كبار الثقات الاميركيين في التاريخ السياسي الحديث ورئيس جمعية السياسة الخارجية الاميركية بدراسة الموضوع فنشر رسالة تاريخية أشار فيها الى ان

القوات البريطانية نزلت في الاسماعيلية سنة ١٨٨٢ وأقفلتها بضعة ايام . ولكن في العقد السابق عرض موضوع القنال مرتين . ففي الحرب الفرنسوية البروسية (١٨٧٠) سمح لبوارج الدولتين المتحاربتين بأن تجتاز القنال ولكن لما نشبت الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ بعثت حكومة بريطانيا الى حكومة روسيا بمذكرة في ٦ مايو من تلك السنة حذرتها فيها من ان كل سعي للتدخل في شؤون القنال تحسبه الحكومة البريطانية تهديداً للهند . فردت حكومة روسيا بأنها لن تمس القنال بأذى

كان هذا قبل معاهدة سنة ١٨٨٨ فلما نشبت الحرب الاميركية الاسبانية سنة ١٨٩٨ سمحت الحكومة المصرية للاسطول الاسباني وكان في طريقه الى مانيلا عاصمة جزائر الفيلبين بأن يمليء الفحم في مرافيء القنال بعد ان وعد بالعودة الى اسبانيا . وفي الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤ — ١٩٠٥) سمحت الحكومة البريطانية للاسطول الروسي باجتياز القنال مع انهُ كان في طريقه الى منازلة اسطول حليفة لها . وفي الحرب التركية الايطالية سنة ١٩١١ جازت البوارج الايطالية القنال مع ان مصر كانت حينئذ جزءا من الامبراطورية العثمانية . وفي بدء الحرب الكبرى أصدرت القيادة العسكرية البريطانية امراً يحظر على اي سفينة من سفن الاعداء دخول القنال . ولكن تركيا اعترضت بأن هذا الامر انتهاك لحرمة معاهدة ١٨٨٨ فسوغته السلطات البريطانية بأنهُ لا مندحة عنه للدفاع عن سلامة القنال نفسها . فالحقائق الاساسية في موضوع القنال هي :

أولا — ان ادارة القنال في يد شركة خاصة مصرية تملك الحكومة البريطانية جانباً من اسهمها ولكن اساس هذه الشركة امتياز منحته الحكومة المصرية ينتهي سنة ١٩٦٨

ثانياً — ان معاهدة الاستانة (١٨٨٨) تنص على ان القنال مجاز حرٌّ في زمن الحرب وزمن السلم لكل سفينة حربية او تجارية بصرف النظر عن العلم المرفوع عليها . وان موضوع الدفاع عن القنال يجب ان يرجع في آخر الامر الى مجمع الدول

ثالثاً — اعلنت الحكومة البريطانية من ناحيتها الخاصة الحماية على مصر سنة ١٩١٤ واقفلت القنال في وجه سفن الاعداء . ولكن الحماية الغيت سنة ١٩٢٢ وكان موضوع حماية القنال احد التحفظات الاربعة

رابعاً — ان مصر صاحبة السيادة على القنال والارض التي تجتازها ولكنها ليست عضواً في جامعة الامم ولا هي اعترفت بمعاهدة سنة ١٨٨٨

خامساً — لم تعقد مصر معاهدة ما اعترفت فيها لبريطانيا بحق الدفاع عن القنال

ويرى المستر بيول في نتيجة بحثه انه اذا قرر مجلس جامعة الامم ان يفرض عقوبات على ايطاليا وعهد الى الحكومة البريطانية في اقفال القنال وفقاً للمادة العشرين من عهد الجامعة فللحكومة الايطالية حينئذ من الوجهة القانونية الدولية ان تعارض في ذلك امام محكمة العدل الدائمة في لاهاي مدعية ان معاهدة سنة ١٨٨٨ لا تزال نافذة الفعل وان السيادة على القنال هي لمصر لا لبريطانيا

السباق

لا تقل يا أخي قد خسرتَ السباق !

فأنا وان اكن اخفَّ منك قدماً وأوسع خطىً ، فسبيلي وسبيلك ابداً يلتقيان في الفضاء الذي لا سبل فيهِ ولا شُعب

***

سريعة هي الريح ، ولكن النسيم الناعس الذي يلدها ، ثم ينام في احضانها ، ليس بأبطأ منها

والعصفورة المرفرفة فوق وكرها مهما تمادت في الفضاء ، لا تستطيع ان تسبق الفراخ في الوكر

والنهر الذي يكر من ذروة جبل معربداً مزبداً ، ليس بأسبق الى الأعماق السحيقة الساكتة من دمعة او قطرة ندى

***

قم بنا يا أخي ، قم بنا !

فالنهار ما يزال فتيّاً ، ونحن ما نزال في المضمار

وليس لنا ان نتساءل عمن هو السابق واللاحق الا من بعد ان ينصرم الزمان ويتقلص المكان

اما الآن فهات دموعك لنغرق فيها ضحكي ، طارحين عنا اثقالها القتّالة للروح

ولنسر في سبيلنا غير آبهين بالهازجين ولا بالساخرين الباركين على جوانب الطريق

الجوع

ألقت الاقدار في قلبي بذرة

وسرعان ما اشتبكت جذورها وتمادت ، وضخمت ساقها وتعالت ، والتفت أغصانها وترامت الى ان حجبت عني الارض والسماء

وها هي اليوم مثقلة بثمارها التي لا أخال الملائكة يتذوقون مثلها

وانا الذي يغذيها بعصير قلبه : — وان اكن جائعاً حتى التلف — لا أجرؤ ان امد يدي الى ثمرة من ثمراتها

الحائك

انا هو المنوال والخيط والحائك

وأنا احوك نفسي من الاموات الاحياء ، اموات الامس واليوم والأيام التي لم تولد

وما احوكهُ بيدي لا يستطيع احد ان يحله حتى ولا يدي ! ها هي قصتي يا عابر الطريق

فصلٌ معي لكيما تكون المحبة فائدة لمكُوكك مثلما هي فائدة لمكُوكي في هذه اللحظة التي اراك فيها على منوالي صورة سرية كالقدر وسرًّا سرمديًّا كالله

والآن سر في سبيلك ، ولا تقل لي وداعاً !

فأنا لا اقول وداعاً لأحد

أنا ماضٍ في حياتي

[نقلها خليل هنداوي]

من الادب النروجي

الوالد

مؤلف هذه الحكاية بيورنستيرن بيورنسون Bjornstjerne Bjornson ١٨٣٢ — ١٩١٠ وهو من اركان الادب النرويجي الحديث كان شاعراً ومؤلفاً قصصياً ومسرحياً وسياسياً وزعيماً من زعماء الشعب . ولحكاياته short tales مكانة عالية بين آثاره الادبية والحكاية التالية في نظر النقاد آية صغيرة في بساطتها وايجازها.

كان الرجل الذي نروي حكايتهُ في هذه السطور اغنى رجال مقاطعتهِ واعلاهم نفوذاً . وكان اسمهُ ثورد اوفرساس

جاء الى مكتب القسيس في احد الايام ووقف امامهُ بقامتهِ المديدة ونظرتهِ القوية وقال :

— لقد ولد لي ولد واريد ان اقدمهُ للمعمودية

* وما عسى ان يكون اسمهُ

— فِنْ ، وهو اسم والدي

* ومن عسى ان يكون ضامنهُ

فذكرت اسماء طائفة من الرجال النساء فاذا هم من اكبر اقرباء ثورد مقاماً في المقاطعة

* فقال القسيس : وهل ثمة شيء آخر ؟

— فتردد الفلاح الكبير قليلاً وقال : اريد ان يعمَّد ولدي وحدهُ

* اي انك تريدهُ ان يعمَّد في احد ايام الاسبوع

— يوم السبت القادم عند الظهر

* فسأل القسيس وهل ثمة رغبة اخرى

— كلاَّ . ثم وضع ثورد قبعتهُ على رأسهِ يتحفَّز للخروج

* فوقف القسيس . واخذ ثورد من ذراعهِ وقال : بني ان اتمنى لك ان يكون ابنك نعمةً عليك

***

وفي أحد الايام ، بعد ستة عشر عاماً جاء ثورد ثانية الى القسيس ودخل عليهِ في مكتبهِ . فقال القسيس بعد ان حدجهُ بعينهِ : حقاً انك محتفظ بفتوتك

— فقال : ثورد لانني لا اعاني همًّا ما

* فلم يردَّ القسيس على هذا القول ولكنهُ بعد هنيهة قال : ما هي رغبتك الليلة

— اتيتك الليلة في شأن آخر لولدي . انه ينتظم في الكنيسة غداً

* انهُ ولد ذكيٌّ

— ولكنني لا اريد ان ادفع رسم الكنيسة قبل ان اعلم أين تكون مكانته بين الشبان المتقدمين معهُ للانتظام فيها

* في المقدمة

— قيل لي هذا . دونك عشرة ريالات

* أليس ثمة خدمة اخرى استطيع ان أسديها . قال القسيس هذا وهو ينظر نظرة ثابتة في عيني ثورد

— كلاَّ . وخرج ثورد

***

ثم انقضت ثماني سنوات اخرى ، وفي أحد الايام سمع القسيس ضجة وصياحاً خارج مكتبه ، لأن جماعة من الرجال كانت تقترب منهُ وعلى رأسهم ثورد ، فتقدمهم في الدخول الى المكتب

فحدق فيهِ القسيس وعرفهُ . وقال :

* لقد أتيت مصحوباً الليلة

— لقد أتيت الليلة لاطلب اصدار رخصة بزواج ابني . انهُ سيتزوج كارن ستور ليون ابنة «غودمنود» الواقف الى جانبي

* انها أغنى فتاة في المقاطعة

— فقال ثورد وهو يمرُّ كفهُ على شعره كأنهُ لا يعبأ : كذلك يقولون

فاتكأ الكاهن على مكتبهِ كأنهُ غارق في بحار التأمل . ثم دوّن الاسماء في كتابهِ، وعلّق عليها بما يرى ، وتقدم الرجال من صحبة ثورد ووقّعوا . ثم ألقى ثورد ثلاثة ريالات على المكتب

* فقال القسيس : حقي منها ريال واحد فقط

— اعلم ذلك حق العلم ولكنهُ وحيدي واريد ان يكون زواجهُ فخماً

فاخذ القسيس المال

* هذه هي المرّة الثالثة التي اتيتني فيها في شأن لولدك

— نعم : ولكنني انهيت منهُ الآن . قال ذلك وهو يطوي محفظتهُ في جيبهِ ثم ودّع وانصرف وتبعهُ صحبه

***

وبعد انقضاء اسبوعين على ذلك ، كان الرجل وابنهُ يجذفان في زورق قاصدين الى ستور ليون ليتما تدبيرات حفلة الزفاف . كان الجوّ صافياً والبحيرة كأنها مرآة زرقاء

واذهما يجذفان قال الفتى : هذا المقعد متقلقل . ووقف في الزورق يبغي تثبيت قدة الخشب التي كان جالساً عليها . ولكن القدّة التي وقف عليها ، زلقت من تحت قدميهِ ، فرفع ذراعيهِ في الهواء ، وصاح وسقط في البحيرة

فصاح والدهُ وقد قفز الى قدميهِ ومدَّ مجذافهُ : تمسّك بهذا المجذاف . وبعد ان حاول الفتى ان يمسك بالمجذاف ، مرة او مرتين ، على غير طائل ، تصلّب جسمهُ

فصاح الوالد : اصبر قليلاً . وجعل يجذف نحو ابنهِ . ولكن الفتى انقلب على ظهرهِ ، ونظر الى والدهِ نظرة طويلة وغاب في الاعماق

فلم يكد ثورد يصدّق ما حدث . فجلس في الزورق المستقرّ ساهماً . يحدق في في البقعة التي غاص فيها ولدهُ ، كأنهُ عائد بلا ريب الى سطح الماء . فرأى اولاً فقاقيع

صغيرة على سطح الماء ، ثم اخرى ، و اخيراً رأى فقاعة كبيرة تنفجر واذا البحيرة عادت ساكنة صافية كالمرآة

ويقول الناس انهم شاهدوا الوالد ثلاثة ايام بلياليها يجذف حول تلك البقعة غير عابىء بالاكل ولا بالشرب . كان يبحث عن جثة ولده . وفي فجر اليوم الثالث ، وجدها ، فحملها بين ذراعيه وتوقل بها الآكام الى مزرعته

***

وبعد انقضاء نحو سنة على ذلك اليوم ، كان القسيس جالساً في مكتبه ، والمساء مساء خريف كئيب ، اذ رأى في المجاز امام بابه رجلاً يبحث عن قفل الباب ليفتحهُ . ففتح القسيس الباب ، واذا هو امام رجل طويل نحيف محني الظهر ابيض الشعر . فحدّق فيهِ طويلاً قبل ان عرفهُ . لانهُ كان صاحبهُ ثورد

* فقال القسيس وهو واقف امامه : انت متأخر في عودتك الى دارك

— فقال ثورد : نعم . وتهالك على مقعد

فجلس القسيس كذلك ، كأنهُ ينتظر ، وبعد صمت طويل قال ثورد

— معي شيء اريد ان اعطيه للفقراء . اريد ان يثمرّ هبة باسم ولدي . ثم وقف ووضع على المائدة مبلغاً من المال وعاد الى مقعدهِ

فاحصى القسيس النقود . وقال

* هذا مبلغ كبير من المال

— هو نصف ثمن مزرعتي . فقد بعتها اليوم

فصمت القسيس طويلاً ثم قال لثورد بلطف و تؤدة وماذا تبغي ان تفعل الآن

— خيراً مما فعلت في الماضي

ولبثا هنيهة صامتين . الوالد ذابل النظر يحدق بالارض . والقسيس يحدق بثورد ثم قال القسيس متمهلاً متلطفاً:

* اظن ان ولدك قد اسبغ عليك النعمة الحقيقية اخيراً

— اني على رأيك

والتفت الى القسيس فاذا دمعتان كبيرتان تنحدران على خدّيهِ



المعجم الفلكي

تأليف الفريق امين فهد المعلوف — طبع بمطبعة دار الكتب المصرية — ثمنه ١٥ قرشاً

للفريق أمين فهد المعلوف باشا مؤلف هذا المعجم فضل على اللغة العربية العلمية لايدرك قيمته الاّ من أدركته حرفة الكتابة العلمية باللغة العربية فاضطرّ في خلال الترجمة أو التأليف أن يحقق اسم حيوان أو نبات أو جرم من الاجرام السماوية . ولو لم يشغف الفريق العلامة بهذه المباحث لما وسعه ان يديم النظر فيها مدى ثلاثين سنة أو تزيد . الاّ ان الشغف وحده لا يكفي وان كان لا مندوحة عنه . فقد أعدّ الباشا عدّته لهذه المباحث من علم منظم وأسفار واسعة النطاق وصبر لا ينفد وتدقيق وانصاف هي في الواقع صفات العالم العامل ويجب أن تشد بعضها بعضاً والاّ كانت نتيجة العلم مشوهة . وقد اتحفنا من سنوات بمعجم الحيوان بعد ان نشر معظمه فصولاً متتابعة في المقتطف . وها هو ذا يتحفنا اليوم بالمعجم الفلكي وفيه أسماء النجوم وصورها وأهم المصطلحات الخاصة بأقدارها وأفلاكها

قال في مقدمته انهُ اعتمد على ما نشر من كتب الفلك وخصّ بالذكر منها اصول علم الهيئة ومحاسن القبة الزرقاء (فانديك) وبسائط علم الفلك (صرّوف) وعلم الفلك عند العرب وزيج الصابىء (نللينو) والآثار الباقية (للبيروني) وترجمته للدكتور ادورد ساخو وترجمة تاج العروس (لاين) . وأشار الى كتب اخرى ثم ان فانديك قد أخذ عنها لذلك أسند التحقيق الى فانديك ولم يتخطه الى القزويني أو الصوفي أو اولغ بك أو التيزيني . وهذا الاعتراف من الفضائل العلمية التي يتصف بها المؤلف ويجب أن تذاع ليأخذ بها جميع المؤلفين المحققين

والمعجم مرتب وفقاً للابجدية الاعجمية فيبتدىء باصطلاح Aberration of Light وما يقابلها باللغة العربية وينتهي باسم نجمين في صورة العقرب

لم يكتف المؤلف بذكر الاسم العلمي باللغة الاعجمية وما يقابله باللغة العربية بل وضع الاسم العربي في الغالب بنبذ تاريخية أو علمية تدل على واسع علمه . ولا يستغني عنها الباحث . فتحنا الكتاب ففتح عند الصفحة ٣١ فاذا في الصفحة تحقيق تاريخي نفيس لاسم النجم الكبير في صورة الجبار المشهور باللغة الاعجمية باسم Betelgeuse فقال بعد ان وضع امام الاسم الفرنجي مقابلين عربيين هما منكب الجوزاء ويد الجوزاء ما يلي :—

والمشهور عند الافرنج ان الكلمة من إبط الجوزاء بالعربية وهي ليست كذلك . فكتبت الى

السيد البكري استفتيه في ذلك وقلت اني لم اعثر على إبط الجوزاء في كتاب عربي قديم ولعلّ الافرنج قرأوا يد الجوزاء بالياء المثناة بد الجوزاء بالباء الموحدة فأجابني بما يؤيد رأيي».

وجواب السيد البكري يستغرق عشرة سطور وفي كل سطر تحقيق علمي مفيد

وليست جميع التعليقات في المعجم في طول هـذا التعليق ولكنها جميعاً تؤدي الخدمة التي يتوخاها المؤلف لمن يعتمد المراجعة في معجمه

ولا يسع الباحث ان يقلب صفحات هذا المعجم من دون أن يستوقف نظره كثرة الأسماء الفلكية باللغات الاعجمية المنقولة من أسماء عربية بعد تحريفها تحريفاً يسيراً أو كبيراً . بل لا تخلو صفحة من صفحات هذا المعجم من اسم واحد على الاقل. فتحناه عند الصفحة ٧٣ فوجدنا Menkalinan وهو من منكب ذي الاعنة و Menkar نجم في صورة قيطس وهو منخر قيطس وكذا Menkib منكب الفرس و Merak وهي مراق الدب الاكبر . وهذا في صفحة واحدة

ولم يكتف المؤلف الفاضل بترتيب ما حققه السابقون من أعـلام البحث . بل حقق بنفسه الفاظاً مختلفة واسمـاء عدة نجوم منها الماصح Achromatic أي خال من اللون فيقال مرقب ماصح وشبحية ماصحة. واللصيق Acolyte وهو نجم خفي قرب نجم آخر أشد منهُ لمعاناً كالسها في الدب الاكبر

ومن الصور النجومية صورة تعرف باللغة الاعجمية باسم ترجمته «الصليب الجنوبي» ومنه أخذ اسم الطيارة المشهورة التي استقلها كنسجفورد سمث الاسترالي في رحلاته الجريئة . ولـكن المؤلف لم يكتف بالترجمة بل علم من المستر فلبي ان العرب يسمون هذه الصورة «نعيام» والحاشية التي كتبها في تحقيق هذا الاسم تدل على الجهد الذي بذل في اعداد الكتاب

وكنا نود ان يشتمل المعجم على بعض المصطلحات في علم الفلك الحديث مما لا يستغني عنهُ الكاتب في هذا الموضوع مثل عبارة Expanding Universe وقد ترجمت بألفاظ وعبارات عربية مختلفة فقيل الكون المتمدد والمتشتت والآخذ في التمدد او التشتت أو الاتساع وغيرها . وعبارة Red line shift وقد ترجمت بحيود الخط الاحمر (نظيف) وانحراف الخط الاحمر . وهذه العبارة من مصطلحات علـم البصريات ولهُ صلة بظاهرة تفرق السدم اللولبية خارج المجرَّة ولا يمكن أن يكتب فصل في علم الفلك الحديث من دون الاشارة اليها . ثم هناك لفظ Interferometer وهو جهاز دقيق استنبطه العلاَّمة ميكلصن لقياس أقطار النجوم السحيقة وثمت عبارات والفاظ اخرى لاغنى عنها

والسدم انواع ميز بينها العلم الحديث منها ما هو داخل المجرَّة ومنها ما هو خارجها وما كان منها داخل المجرة انواع كذلك ولكن المؤلف لم يشر الى كل هذا واكتفى بذكر السدم مع ان الكاتب العلمي باللغة العربية لا يـكاد يطرق موضوع السدم حتى يشعر بالحاجة الى اسماء عربية تطلق على أنواعها المختلفة

ثم اننا لا نعلم لماذا رسم المؤلف الفاضل لفظ Ether وهو الوسط المفروض في طبيعة القرن

التاسع عشر المالىء رحاب الفضاء — «ايثر» بتقديم الياء على الثاء . والذي نعلمه أن المصطلح السائر الآن تعريباً لهذا اللفظ هو «اثير» بتقديم الثاء على الياء تمييزاً له عن السائل الطيار المخدر المعروف للاطباء . فالوسط المفروض في الطبيعة «اثير» والسائل الطيار «ايثر» وبهذا الفرق يميز أحدهما عن الآخر . وفي هذا تحديد لمعنى اللفظين

وفي ترجمته لفظ epoch (مبدأ التاريخ) ولفظ era بـ (التاريخ) غموض لان لكل من هذين اللفظين معنىً عامًّا ومعنىً فلكيًّا ومعنىً جيولوجيًّا فالتفصيل في هذا المقام كان أدل أو على الاقل تفصيل المعنى الفلكي لان المعجم فلكي

والخلاصة ان الكتاب مفيد مفيد وبوجه خاص في كل ما يتعلق بأسماء النجوم والسيارات والصور النجومية

ولا يسعنا أن نختم الكلام على هذا الكتاب من دون الاشارة الى اتقان اخراجه . فالفرق بين حروف الاسماء الرئيسية وتوابعها واضح كل الوضوح ، والحروف اليونانية لا بدَّ منها في أي معجم فلكي لان نجوم الصور الفلكية سميت بالحروف اليونانية فيقال الفا الكلب وهي الشعرى اليمانية والفا السنبلة وبيتا الاسد . وهذا المعجم يحتوي عليها في مواقعها . ومعظم الفضل في اخراج هذا السفر النفيس على هذا الشكل المتقن يعود الى الاستاذ نديم مدير مطبعة دار الكتب المصرية

نبات سورية وفلسطين

تأليف بوست — المجلد الثاني — المطبعة الاميركية ببيروت

Flora of Syria and Palestine

نبغ في بيروت في النصف الثاني من القرن الماضي طائفة من العلماء يشار اليهم بالبنان منهم في الجامعة الاميركية — وكانت تسمى قبلاً المدرسة الكلية السورية الانجيلية — الدكتور كرنيليوس فان ديك وابنهُ ولِيَم والدكتور يوحنا ورتبات والدكتور جورج بوست والدكتور ادون لويس والدكتور يعقوب صرُّوف والدكتور فارس نمر والدكتور هارفي بورتر والشيخ خليل اليازجي والاستاذ جبر ضومط والاستاذ الفرد داي ، وفي المطبعة الاميركية الشيخ ابرهيم الحوراني ، وفي جامعة القديس يوسف للآباء اليسوعيين الاب لويس شيخو والاب هنري لامنس والاستاذ سعيد الخوري الشرتوني ، وفي المدرسة الوطنية المعلم بطرس البستاني وابنهُ سليم والشيخ ناصيف اليازجي ، وفي مدرسة الحكمة المطران يوسف الدبس الشيخ يوسف الاسير والشيخ عبدالله البستاني ، وفي مدرسة الثلاثة الاقمار للروم الارثوذكس الاستاذ شاهين عطية ، وفي المدرسة البطريركية نسبة إلى البطريرك غريغوريوس الشيخ ابرهيم اليازجي ثم الشيخ ابرهيم الحوراني ، وفي الشوير على مقربة من بيروت الدكتور كارسلو والاستاذان ظاهر خيرالله وجرجس همّام وكلاهما من الشوير ، ولم يبقَ من هؤلاء العلماء الاعلام على قيد الحياة الآن ثلاثة هم الدكتور فارس نمر والاب هنري لامنس والدكتور وليم

فان دبك اطال الله في عمرهم . اما الباقون فتوفوا الى رحمة خالقهم بعد ان تركوا آثاراً خالدة ابد الدهر ولعل الدكتور كرنيليوس فان دبك والمعلم بطرس البستاني واليازجيين والاب لويس شيخو والدكتور جورج بوست اكثرهم آثاراً علمية وان القلم ليعجز عن ذكر مؤلفاتهم وهي لا تزال حية حتى الآن ولا اعلم في رجال التاريخ العربي من فاقهم في كثرة المؤلفات المفيدة الا جلال الدين السيوطي

اما الدكتور جورج بوست مؤلف هذا الكتاب فمن علماء النبات المشهورين فهو من طبقة بواسيه السويسري والسر جوزف هُكر الاسكتلندي والدكتور شوينفورث الالماني وكان معاصراً لهم وكانت بينهم مكاتبات . ولا شبهة ان كتابه في نبات سورية وفلسطين وسيناء خير ما كتب في هذا الباب . وقد كان الدكتور بوست جرّاحاً مشهوراً وخطيباً مفوّهاً يعرف العربية كاحد ابنائها وكان معلمهُ على ما قيل لي في اوائل عمره الاستاذ الياس سعادة الطرابلسي لذلك بقيت اللهجة الطرابلسية في كلامهِ الى آخر ايامهِ . اما مؤلفاته التي اذكرها فكثيرة منها علم النبات وهو كتاب مدرسي ونبات سورية وفلسطين والبادية وهو بالعربية وكتابه هذا وهو بالانكليزية وهو اشهر مؤلفاته طبع للمرة الاولى في بيروت نحو سنة ١٨٩٢ وكنا نعتمد عليهِ في المدرسة . وله كتاب في الحيوان اسمه نظام الحلقات في سلسلة ذوات الفقرات وهو جزءان . ومن آثاره الطبية كتاب الاقراباذين والمصباح الوضّاح في صناعة الجرّاح ومجلة الطبيب . ومن آثاره الدينية فهرس الكتاب المقدس مجلدان وقاموس الكتاب المقدس مجلدان . اما مواعظه وخطبه فكان يرتجلها بلغة عربية فصيحة ولا اعرف اجنبيًّا ولد في بلاد اجنبية يحسن العربية مثله ومثل الدكتور كرنيليوس فان دبك وكانا يتكلمانها بلا عجمة في النطق وربما فاقه فان دبك في ذلك واذكر كتاباً من كتب فان دبك العديدة في علم العروض وقليلون يعرفون ذلك

اما كتاب بوست في نبات سورية فقد طبع لاول مرة في سنة ١٨٩٢ كما تقدم وطبع في المرة الثانية في سنة ١٩٣٣ وامامي الآن الجزء الثاني منهُ اما الجزء الاول فلم اره ولكن يمكن معرفة الجزء الاول بمقابلته بالطبعة الاولى وهي في مكتبتي فالطبعة الثانية نفيسة جداً وهي في ٩٢٨ صفحة منها الاضافات والتصويبات وتمتاز عن الطبعة الاولى بفهرس الالفاظ العربية وهذا لم يكن في الطبعة الاولى . كذلك فهرس الالفاظ العبرانية . على انني لم ار ذكراً لكثير من الالفاظ العربية منها المكّوب مثلاً فقد ورد في المتن في الصفحة ٧٤ ولم يرد في الفهرس . ثم ان في الطبعة الثانية اشياء كثيرة لم تكن في الطبعة الاولى فهي طبعة منقحة وفيها زيادات كثيرة وانهُ يتعذّر عليَّ نقد هذا الكتاب النفيس وانا لا يَحِق لي بنقده فالمؤلف استاذي وله فضل كبير عليَّ وهو الذي علمني فكيف انقد استاذي وهو من مشاهير علماء النبات وكتابه هذا خير ما كتب في نبات سورية وفلسطين وشرقي الاردن وسيناء وليس عليَّ الا ان اقول سوى ان المستر دنسمور قد احسن واجاد في اخراج هذا الكتاب النفيس الذي هو من مفاخر الجامعة الاميركية في بيروت وسيبقى كذلك ابد الدهر

مصر الجديدة امين المعلوف

شهر في اوربا

بقلم سامي الكيالي ١٩٠ ص من القطع الصغير

اذا خلا كتاب من الادعاء والتكلّف والغلو فليكن هذا الكتاب . فان سطوره لتجري رشيقة خفيفة ، وكأني بالقلم الذي خطها لم يعالج شدة ولم يكابد عقبة ، بل كأني به لم يطلب خطة بعيدة ، وشاهد ذلك ان صاحبه قال (ص ١٥٤) «اني انقل حسّي وارسم ما تقع عليه عيني». ألا لو اراد المؤلف غير ذلك لما تمَّ له ان يخرج مثل هذا الكتاب ، وهل لأحد من الناس ان يقدر على الفحص البعيد والبحث الدفين وهو جائز طريق . وهل تُخبر اوربا في شهر او سنة ؟

ففضل هذا الكتاب انهُ ينتقل بك من روما الى باريس الى لندن الى غيرها من البلدان وانت لهُ منقاد واليهِ منبسط . وبعيد ان يكون هذا الكتاب مجموعة اوصاف « موضوعية » و«تقريرات» جافة ، فان صاحبه احسّ وفكر وحاول بصدق بيانه ان يجعلك تشاركه في احساسه وتفكيره ؛ وان كانا — في الغالب — « من الخارج » على قول الفلاسفة . إلاَّ ان المؤلف ربما اتفق لهُ ان يعلل ظاهرة من الظواهر (كالقبلات في الطريق ص ٤٣) ، او يستوضحها (كالشعور الايطالي الوارم ص ١٤٢) ، او يتوجع لها (كالفجور في باريس ، ص ٦٤) ، او يتهكم بها (كالقصر الابيض ، ص ١٣١) ولهُ في كل هذا قلم أخاذ ينزل توّاً الى وليجة النفس

وانك لتلمس في هذا السفر نزعات المؤلف الوطنية . فعربيّته الصادقة وشرقيّته الغالبة عليهِ تقفزان من بين الاسطر . فاذا هو وقف امام قصر عصبة الامم كتب «العرب يطلبون حقّاً . كيانهم مفقود . . حريتهم مضيعة . . استقلالهم مسلوب . . » (ص ١٣٢) واذا رأى انجليزيًا يطعم العصافير خبزاً بسطت عليهِ زبدة قال « . . ارى هذا الخبز من دقيق الهند ؟ . . الانسان في الهند يضنيه الجوع وعصفور لندن يتلذذ بالخبز الابيض والزبدة النقية ؟ » (ص ١٠٢) . ولكنهُ اذا انتهى الى خاتمة كتابه لم يفته ان ينوّه بصفات الغرب كمثل المرح والنشاط والاتكال على المرأة والعدول عن الشعور الى العقل (ولأزد هنا « معرفة الواجب ») ، تلك الصفات التي اخذت بيد الغرب الى مقاعد السيادة والغلبة

وبعد فهنالك تعابير لم تنشط لها أذني ، منها « البحر الحالم » (ص ١٥٣) ؛ « النساء العاريات اللواتي يعرضنَ اجسامهنَّ عليك عرضاً بوهيميًا (؟) » (ص ٦٢) ، « العوائل » (اي الأُسَر) (ص ٦٤) ، « ونأخذ فكرة لا بأس بها عن طابع البلد » (ص ٣٥) . بيد ان كل هذا الى الذوق يرجع [1]

برلين بشر فارس

(١) كأني بالمؤلف يعبث بالهمزة ، فانه يرسم مثلاً : « متئولة » (ص ٣٦) ، « في نفوس اعضاءه » (ص ١٣١) « أفاءه » ص (١٣٢)

مؤلفات المستشرقين — رسالة من برلين

الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير (الجزء التاسع)

لابي طالب علي بن انجب تاج الدين المعروف بابن الساعي الخازن

عني باخراجه مصطفى جواد — طبع في المطبعة السريانية الكاثوليكية في بغداد — سنة ١٩٣٤
٣٩٠ ص ، بقطع الثمن ، ثمنه ١٢ شلناً

ان الاب انستاس ماري الكرملي علاّمة العراق وعضو مجمع اللغة العربية الملكي قد اصطنع الى المشتغلين بالتاريخ العربي معروفاً يومَ نشر الجزء الثامن من «كتاب الاكليل» لابن ابي الدمينة . وها هو ذا يتحفهم بسفر آخر نشره على نفقته ووكل اخراجه الى الاستاذ مصطفى جوَاد. والاستاذ مصطفى جوَاد فوق التعريف : تخرّج على الاب الكرملي فيمن تخرَّج عليهِ وأخذ عنه فانصرف الى علوم اللغة العربية في نشاط لا تكاد تصيبه اليوم عند شبابنا . ومقالاته في فنون العربية تشهد بوقوفه على اسرارها واحاطته بأصولها وفروعها

اصاب الاستاذ مصطفى جواد هذا الكتاب مخطوطاً في المكتبة التيمورية الملحقة بدار الكتب المصرية ، ايام كان نزيل مصر فانبرى له ينسخه . ولما انقلب الى العراق جعل ينظر فيه فأصلح تصحيفه وقوّم نواحيه وعلق عليه ثم نشره بنفقة الاب الكرملي

وهذا الجزء من تاريخ ابن الساعي (المتوفى سنة ٦٧٤) تجري فيه حوادث ١٢ سنة (من ٥٩٥ الى ٦٠٦) . وهو مرتب على السنين يبدأ بالسنة فيذكر حوادثها ثم يأتي بتراجم من مات فيها من الاعيان . وفي الكتاب من الحوادث ما له شأن عظيم . مثال ذلك فصل في «الفتوة» انطوى على قصة تقليها الى الخليفة الناصر لدين الله مقدمة مستجدَّة (ص٢٢١ وما يليها) . وقد عمل مخرج هذا الكتاب مقدمة له تقع في ٣٦ صفحة ادرج فيها وصف النسخة المخطوطة وترجمة المؤلف وثبت تصانيفه وذكر شيوخه وأقوال العلماء في تاريخه الجامع . ثم صنع بعد ذلك خمسة فهارس : اولها للسنوات الواردة عرضاً في الكتاب، وثانيها لاعلام الناس، وثالثها للكلمات المفسرة والاصلاحات المشروحة ؛ ورابعها للاخلاق والعادات والشؤون الاجتماعية في الكتاب (مثل اسلام اهل الذمة والاستخلاف في القضاة والاسعار وتراخيها) ، وخامسها لاسماء المواطن . ومما لا يفوتني ذكره ان مخرجي الكتب سواء في الشرق او في الغرب لم يألفوا اثبات فهرست «عمراني» للاخلاق والعادات والشؤون الاجتماعية . فأن يصنع مخرج الكتاب مثل هذا الفهرست ذلك عمل جليل جداً . الاَّ اني لعلني تمنيت ان يكون للكتاب فهرست سادس شامل يهتدي به القارىء الى نواحي الكتاب وفهارسه الاخرى

ثم ان صفحات الكتاب مشحونة بالتعاليق المفيدة بين لغوية وتاريخية وجغرافية وعمرانية ، وقد اعتمد المخرج في اجرائها على تآليف قويمة نحو اخبار الحكماء لابن القفطي وشرح نهج البلاغة

والفخري الى غير ذلك مما اثبته في جدول خاص (ص يو) . ولربما اخذت على الناشر اثباته هذه التآليف على اسلوب غير تام ، ذلك بأنهُ لم يذكر سنة الطبع ولا مكانهُ ، ولربما اتفق له ان يغفل اسم المؤلف

وقد صنع المخرج فوق هذا ثلاث خرائط طريفة : الاولى خريطة بغداد الشرقية في اواخر الدولة العباسية ، والثانية خريطة بغداد الغربية في ذلك العهد نفسه ، والثالثة خريطة «دار الخلافة» فيه . وأما صحة طبع الكتاب فلا غبار عليها . ومن المتعذر ان (تجد تصحيفاً او تحريفاً او اضطراباً او سوء فهم للنص ، ومخرج هذا الكتاب الى الناس مخرجه ؟) برلين بشر فارس

الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي

بقلم الدكتور . ج . ڤِدْمِر

في مجلة « عالم الاسلام » (الالمانية) ، المجلد السابع عشر سنة ١٩٣٥ ص ٩٧ من القطع المتوسط

Der Irâqische Dichter, Gamil Sidqi az-Zahawi
(in : "Die Welt des Islams", B. 17, H. ½ 1935)

مما لا يخفى على قراء المقتطف ان المشتغلين بالآداب العربية في بلاد الفرنجة يستوضحون الادب الحديث فضلاً عن تخصصهم الادب القديم . وعلى رأس هؤلاء المستشرقين الاستاذ كراتشكوفسكي الروسي وجبّ الانجليزي وكامْفماير الالماني . واظن الاول اسبقهم في هذا الميدان : فله عدة مباحث نشرها بالروسية والالمانية والعربية ثم له مبحث مدرج في ملحق دائرة المعارف الاسلامية (التي تبرز في هولاندا) ؛ وقد عالج فيها جميعاً نشوء الادب العربي الحديث وارتقاءه بدراية وفطنة

والحقّ ان هذا الادب لموضع عناية من حيث انهُ نفيس في ذاته لا من حيث انهُ مظهر من مظاهر النهضة الفكرية في البلاد العربية . ومما انكره ان بعض المستشرقين — وما هم بجهابذة والحمد لله — قد انصرفوا الى بحث ادبنا الحديث مستخفين به لاهين باصحابه ، وفي هؤلاء المتحاملين تارة البلداء اخرى نفر من الفرنسيين خاصةً يذهبون الى ان التفكير العربي لهذا العهد حقير الشأن . تلك قضية سأنقلب اليها تفصيلاً في هذا الباب ان شاء الله ، الا اني احب ان اقول ان للاستاذ كراتشكوفسكي مقالاً مدرجاً في المجلة الالمانية المذكورة أعلاه سنة ١٩٢٩ (الخاتمة خاصة ، ص ١٩٩) يدفع ذلك الرأي دفعاً من طريق غير مباشر [1]

هذا ومما يفسح الصدر ان المستشرقين وبخاصة الالمان منهم ما يزالون على عنايتهم بأدبنا الحديث . واليك عدداً من أعداد مجلة «عالم الاسلام» موقوفاً على الشاعر العراقي البعيد غايةً ، ألا وهو جميل صدقي الزهاوي . وينقسم هذا العدد قسمين . اولهما ترجمة حياة الزهاوي وبحث في طريقته ،

(١) ليأذن لي الاستاذ محمد كردعلي — وقد امتد نفس الكلام بقلمي الى هذا الحد — أن لا أسايره في طعنه على الاستاذ كراتشكوفسكي (انظر الاسلام والحضارة العربية مصر ١٩٣٤ ص ٢٣ — ٢٨) فلقد اطلعت على مقال الاستاذ كراتشكوفسكي ، ذاك المقال الذي عليه دار الطعن ، فاشهد اني لا ارى بأساً بقلم الاستاذ محمد كردعلي ان ينبري على ذلك النحو

والثاني طائفة كبيرة من قصائده منقولة الى اللغة الالمانية . والذي عُني باخراج هذا العدد هو الدكتور ج . فِيدْمِر G. Widmer وللرجل مباحث سالفة في أدبنا

يستند الدكتور فدمر في ترجمته لحياة الزهاوي الى ثلاثة مصادر . الاول : « كتاب الادب العصري في العراق العربي» لرفائيل بطي الاديب العراقي العامل ، والثاني : مقالة للزهاوي نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي (الدمشقي) سنة ١٩٢٨ ، والثالث : ايضاحات بعث بها الزهاوي نفسهُ الى المؤلف . فجاءت الترجمة وافية اذ ضمت الوان سعي الزهاوي في سبيل استقلال العراق وتحرير الفكر . هذا وفي رأي الدكتور فدمر ان الزهاوي شاعر خلا بقريحته دون حكمته ، وأنهُ يمت الى المعرّي بصلة

ولا يسع الناقد — وان انحرف بعض الشيء عن رأي الدكتور فدمر في الزهاوي — الاّ ان يشكر له اليد التي اتخذها عند الادب العربي الحديث وينوه بالجهد الذي بذله في اخراج عيون شعر الزهاوي . على انهُ صرّح (س ١٢) بان قلمه كثيراً ما كبا عند نقل روعة قصائد الشاعر العراقي فاي قلم يقوى على ان ينقل الشعر من لغة الى لغة بل من لغة سامية الى لغة غير سامية بزهده واناقته ؟

بقي اني لا ارى منصرفاً عن ان احدث قراء المقتطف عن مجلة « عالم الاسلام » التي تقدم الكلام عليها . فان الغاية التي اليها تجري هذه المجلة انما الفحص عن احوال « النهضة العربية — الاسلامية » لهذا الزمان فحصاً لا ينخفض به تشيع ولا يزوغ به لؤم قائماً على تدبر المصادر نفسها على اختلاف الوانها . وقد جرت تلك المجلة في هذا الميدان الواسع شوطاً بعيداً على يد ناشرها الاستاذ كامفماير Kampffmeyer وهو ممن يميل الى الشرق العربي ويحتج له وينزله من نفسهِ منزلة كبيرة

برلين ب . ف .

مكتبة الاطفال الحديثة

وضع احمد عطية الله — مجموعها ٢٦ كتاباً — مختلفة الموضوعات

انفق الاستاذ أحمد عطية الله مؤلف لندن وبسائط علم النفس وقتاً غير قليل في وضع مكتبة حديثة قيمة للاطفال مجموع كتبها ٢٦ كتاباً بين صغير وكبير ضمنها الكثير من الفوائد الادبية والعلمية والادبية والتاريخية فضلاً عن مجموعة حكايات مبتكرة عن النبات بطريقة أخاذة وقصص شيقة عن مبادىء الطبيعة موضحة بصور كثيرة ملونة بالالوان الجميلة وهذا مما يحتاج الى معرفته الاطفال لانها تربي فيهم ملكة المطالعة والدرس . وقد أعجبنا بهذه المجموعة لما فيها من الفوائد الجمة وما تحويه من لذيذ القصص والحكايات نذكر منها قصة ملك النهر الذهبي ومعروف الاسكافي والديك المغرور والزمار الصغير وهذه الاخيرة من القصص العالمية (بيترباق) للكاتب الانكليزي سير جيمز بري ملخصة للاطفال بها ١٨ صورة وصورتان بالالوان وصفحاتها ٤٠ صفحة

كتاب الاساس

في الامم السامية ولغاتها وقواعد اللغة العبرية

تصفحت كتاب الاساس بكل دقة فوجدته كتاباً جميل المنظر مطبوعاً على ورق ابيض فاخر مجلداً تجليداً جيداً ولكنهُ ضخم كبير الحجم ثقيل للمناولة والدراسة يقع في ٦٥٤ صحيفة . نصفه الاخير عبارة عن مجموعة تمارين ومفردات وقاموس الافعال . وعن فصول من التوراة تشغل ١٤٠ صفحة من النصف . وعدد كبير من الصحائف يحتوي على ٦ او ٧ اسطر فقط لا تزيد عن ٢٧ — ٣٣ كلمة . مما يدل على علامات البذخ والاسراف في الطبع . وأما شكل الحروف العبرية ولا سيما الكبيرة فليست من نوع المربع الجميل المألوف . وكان يمكن الاستغناء عن قاموس الافعال والمفردات وفصول التوراة اذ لم تكن من خصائصه فيخف حجمه

يقسم الكتاب الى قسمين الاول يبحث في علم اللغات عموماً والسامية خصوصاً للدكتور علي العناني . والقسم الثاني في آداب اللغة العبرية للاستاذ ليون محرز في دار العلوم

بحث الدكتور في القسم الاول منه ملياً وأفاض وأفاد في تعريف اللغة وبسط الآراء في كيفية نشأتها وشرح المذهبين في تكوينها الديني والطبيعي وتكوين المقاطع والالفاظ . ثم تناول وضع الكلمات والقواعد ولغة الانسان الاول فقال اما كانت واحدة بحسب نظرية المذهب الديني واما متعددة بحسب المذهب الطبيعي وظهرت في بقاع مختلفة

ثم انتقل في البحث الى اللغات القديمة . فمنها (١) القديمة التي لا يوجد دليل لحدها وهذه تشمل العربية القديمة . والكنعانية والبابلية والسانسكريتية ومنها (٢) المعروفة النشأة والزمن كالعبرية والسريانية والاغريقية واللاتينية . ومع أقدميتها نجد فيها قواعد وتنسيقات لغوية مما يثبت وجود قواعد في الصرف والنحو قديمة العهد جداً

ثم انتقل الى علم اللغات عموماً (الفيلولوجيا) وبحث في اصل هذه اللفظة وبعدها وفي اول من نطق بها وهو افلاطون ثم في نوعيها الاكلاسية او المحتذاة والعامة وتاريخ ابتدائها يرجع الى القرن ١٨ ثم عن فوائدها وما انتجت المقارنة اللفظية والمعنوية بها وفي آدابها وعلم فقه اللغة والنقد الفني والادبي وفي أدوارها الاربعة (١) الايطالياني من القرن ١٤ — ١٦ و (٢) الفرنسي الى القرن ١٧ و (٣) الانكليزي الهولندي الى القرن ١٨ و (٤) والالماني الاخير الى الآن

ثم بحث مطولاً في مجاميع اللغات واقسامها والاسس التي استندوا اليها في التقسيم ثم كيف انهُ بمجهود عنيف ومثابرة وصلوا الى حل النقوش والخطوط القديمة ولغاتها الهيروغليفية والمسمارية والسنسكريتية وبروايات الكتب المقدسة والرحلات والروايات المتوارثة والوثائق الرسمية وصلوا

ايضاً الى التاريخ الدقيق ثم الى المروي الاسطوري ما خلا من الاعتماد على التاريخ الدقيق ما لم تدحضهُ البراهين الأثرية والمباحث العلمية الطبيعية

ثم بحث طويلاً في مجاميع اللغات واقسامها والاسس التي استندوا اليها في التقسيم ومنها تقسيم التوراة الى سامي حامي ويافثي وتقسيمات الطبيعة بحسب الوان البشر والاماكن والاوسطة ثم اضافوا مجاميع اخرى فاوصلوها الى ١٠ وتعرف بالسامية والآرية . ثم بحث في اقسامها ولهجاتها . وتناول قسماً آخر الحادي عشر وهو مجموعة اللغات المنعزلة التي لا تشبه بعضها بعضاً ولا رابطة وصلة لها كالجركسية واليابانية والاسكيمو . وبين في احصاء اللغات ان عددها يتراوح ما بين ٩٠٠ و ١٥٠٠ وقد اوصلهُ ادلونغ الى ٣٠٠٠ لغة

ثم انبرى الى المجموعة السامية وفروعها الاصلية العربي والعبري والسرياني وأول من سماها بالسامية شلوتزر ١٧٨١ وبين اختلافهم في مهدها الاول وفي كيفية نشأتهم في اماكن مختلفة في مصب النهرين وكنعان والحبشة وفي افريقيا وبلاد العرب وان انصار الرأي الاخير الراجح اي في بلاد العرب ومنها ابتدأت الهجرة السامية الاولى . وبناء على هذا الرأي يعتقد أن اللغة السامية الاولى كانت عربية . وهي اما العربية الارمية او ام لها نشأت منها اللهجات التي تفرعت عنها لهجات العرب

ثم قارن بينها مقارنة لفظية فنية اي في اللغة . ومعنوية ادبية اي تاريخية وفي التفكير الديني والفني الاجتماعي المدني والفلسفي والمجهود العقلي التاريخي الادبي ثم عن العلاقة وتأثير الامتين العربية والعبرية وتقرير تاريخه . ثم بين مقارنة ثالثة تختص بجميع اللغات السامية ونتائجها الخاصة وتعيين أثرها في الحضارة وبالنسبة الى حضارة الانسانية العامة وهذه المقارنة خاصة بالجنس السامي

اما نشأة هذه المقارنة المعنوية الادبية تنسب الى منتصف القرن ١٩ وكان رينان الفرنسي المستشرق اول من كتب كتاباً في قواعد اللغات السامية والمقارنة بينها وبحث عن نوعها اللغوي والمعنوي ثم نولدكه وبروكلن . ثم قال الخلاصة ان اهم مجاميع اللغات العشر لا يتعدى المجموعتين السامية والآرية وان اعظم الاجناس البشرية وافضلها ينحصر في السامي والآري وان لهذين الشعبين السلطان الاكبر في قيادة الامم . والسامي أقدم وأبعد من الآري . ومن اطلع على المباحث في هذا الجزء النفيس من الكتاب يتأكد من متانة الاستاذ عنافي في علم اللغات ولا سيما في اللغات السامية وكفاءته وتضلعهِ منها وقد سد فراغاً محسوساً في لغتنا العربية في هذا الموضوع

***

ثم بحث الاستاذ ليون محرز في الجزء الثاني من الكتاب فأفاض عن الخط العبري وعن اصله من الكنعانية اصل جميع الخطوط السامية . وكان يعرف الخط العبري القديم بالقلم العبري (كتاب عبريت والاصح كتاب عبري) الى عهد بابل وآثاره موجودة للآن في نقش سلوان قال « يصف هذا

النقش عملية الحفر في جبل سلوان في عهد الملك حزقيال حوالي ٧٠٠ ق م » اني لا اعلم ملكاً لبني اسرائيل بهذا الاسم مطلقاً ولربما يقصد الملك حزقيا . واذكر بهذا الصدد نقشاً آخر واقدم منهُ وهو حجر موآب للملك ميسع ملك موآب اكتشف في ديبون ١٨٠٨ عبري فينيقي موجود في باريز الآن يرجع تاريخه الى سنة ٨٦٠ ق م يحتوي على ٢٨٠ كلمة في ٣٤ سطراً

ثم ترك العبريون هذا الخط واخذوا الخط المربع الاشوري المستعمل للآن وكانوا يستعملونهُ في الشؤون الدينية فقط والقديم الى نهاية القرن الثاني ب . م ومن الغرابة ان الاستاذ لم يذكر شيئاً عن الخط المعروف بالراشي الذي كتبت به معظم شروحات التوراة والتلمود وغيرها من المؤلفات التي لا تحصى الى يومنا هذا

ثم بين كيف ان نظام الابجدية وحساب الجمل معروف قديماً وتجده في المزامير والمراثي والامثال في التوراة وكيف انهم استعملوا حروف العلة في الابتداء لضبط النطق ثم اخترعوا نظام الحركات في القرن ٥ و٦ وانهُ كان لها عدة نظم اشهرها العراقي والطبري المستعمل للآن

***

ومما يؤسف له أن الاستاذ لم يستوف الكلام عن الحروف وأنواعها وحروف الابدال والحروف التي تنقص في العبرية وحروف العلة والحروف الحلقية والمقاطع . ولا عن الحركات الثابتة والقابلة التغيير ولا عن الحركات اللحنية أي علامات الترقيم التي عليها يتوقف تقطيع الآيات في ضبط قراءة التوراة ولا عن المقاف علامة الوصل والمتغ والجعيا ولا عن أحكام الشوا والقامص ونبرة الصوت وحروف المعاني كواو القالبة وواو العطف وشين الموصولية ولا عن الحروف الزائدة « اهوين » ولا عن الحذف في الحروف ولا عن صيغة المنسوب ولا عن اوزان الاسماء كما يجب ولا عن الحروف والظروف وأهمل كليةً اسم التصغير كما في العربية وقواعد التأنيث والتثنية واوزان النعت . وهاء الندا والرافه علامة التخفيف وقواعد الاختصار وعلاماتها واوزان المزيدات في الافعال النادرة غير السبعة

ولم يضبط كيفية لفظ الحروف الحلقية المشكلة بالفتحة التي سماها المستعارة (والاضبط المختلسة كما هي في العبرية) فانها تلفظ كالضمة المختلسة بتقدير حرف الالف ولا اليود او الواو ولم يتقن كيفية لفظ الحركات بالعربية ولم يأتِ بالاسماء العبرية المعربة في بعض الحال

ثم جاء بسلسلة تمرينات وتراجم حياة بعض الشعراء وبعض مفردات في اللغة ومعجم في الافعال العبرية ولكن ينقصه كثير من الافعال التي وردت في التلمود . ثم جاء بفصول من التوراة مع ترجمتها العربية شغلت نحو ١٤٠ صحيفة من الكتاب . ومن الغرابة أنهُ لم يتكلم عن قواعد النحو « كلية » (شموش هلاشون) واظن أنهُ كان أولى وألزم من المعجم والمفردات التي جاء بها وليست من خصائص هذا الكتاب فكان أوفى وأخف وأنسب مما هو الآن ككتاب في قواعد اللغة

الدكتور هلال فارحي

قصص علمية للاطفال

الجزء الاول : النحلة العاملة — الجزء الثاني : العنكب الحزين — للاستاذ كامل كيلاني

ليس اسم الاستاذ كامل كيلاني في حاجة الى تقديم وتعريف ، فهو من خاصة أدباء الشرق الذين كان لانتاجهم أثر كبير ، وقد عرف بنشاطه المتواصل في الإنتاج ، وتعدد جوانبه في التأليف ، فما أخرج في الادب : رسالة الغفران وديوان ابن الرومي وابن زيدون ، ومما أخرج في التاريخ : ملوك الطوائف ومصارع الاعيان والخلفاء . ومما أخرج في القصة : مختار القصص ، وروائع من قصص الغرب

ومنذ سنين صرف قسطاً كبيراً من جهده في انشاء مكتبة للاطفال ، ووضع لها برنامجاً يفي بالحاجة . وهذه فكرة قويمة ، لانها تسد في المكتبة العربية فراغاً من العار أن لا يسد ، وقد وفق في كل ما انفذه من برنامجها الوسيع ، فالذي بين ايدي القراء من هذه الكتب يدل دلالة واضحة على ان مؤلفها يدخر لها ذخيرة نفيسة من اليقظة والعناية

وعلى الرغم من ان تلك الكتب التي وضعت خصيصاً للاطفال هي الاولى من نوعها في اللغة العربية ، وانها فتح جديد في عالم التأليف ، فقد بلغت من الاجادة المبلغ الذي يخيّل ان مؤلفها سار في طريق صادر وارد ، وان كتبه نتيجة تطور ، وخاتمة تجارب ، ووثبة سبقتها خطوات . . .

ومن حديث ما اظهره الاستاذ كامل كيلاني من كتب الاطفال ، كتاب : « قصص علمية » وهو جزءان كبيران ، الاول اسمهُ : « النحلة العاملة » والثاني اسمه : « العنكب الحزين »

وهذا الكتاب — كما يدل عليه عنوانه — قصص صغيرة مملوءة بالمعلومات العلمية في الحيوان والنبات ، واسلوب هذه القصص طليّ غاية الطلاوة ، تتخللهُ المحاورات التي توقظ انتباه القارىء وتغريه بمتابعة القراءة ، اما المعلومات العلمية فسوقة في اطواء القصة بلباقة ومهارة وحذق ، بحيث يتلقاها القارىء الراغب في التسلية بشغف ورضى . وهذه الظاهرة وحدها جديرة بالاعجاب

وقد اخذ المؤلف على قلمه ان يستعمل الكنى العربية للحيوانات التي يرد ذكرها في القصص ، مثل « ام خداش » للهرة ، و« ام راشد » للفأرة ، وهذه وسيلة طريفة للتسمية ، ولو ذكر الحيوان باسم جنسه ، او سمي باسم خاص ، لما اخذ سياق الحديث هذا الرواء الذي اخذه باستعمال الكُنى . على ان لهذه الوسيلة فائدة اخرى ، هي اطلاع القارىء على ثروة لغوية يتبين بها سعة الفصحى وضربها في كل فن بسهم . ويحسن ان نذكر هنا ان الجزء الاول من هذا الكتاب ختم بمعجم لغوي لاسماء الحيوان وكُناه ومعجم آخر للنحّال شمل اسماء النحل وبيته وولده وما اليه . ويبدو ان هذين المعجمين لم يستقل بهما كتاب لغوي فيما نحسب ، بل جمعت موادهما من كتب لغوية شتى

ومن ظريف التدبير في الجزء الثاني أن كل قصة أتبعت بها قصة منظومة نظماً رائعاً وبذلك اجتمعت في الكتاب مقطوعات تؤلف ديواناً صغيراً للأطفال

والحق أن ذلك الكتاب ، بنبل موضوعه ، وحسن أسلوبه ، وأناقة طبعه ، تحفة رائعة ، تناصرت على تزيينها قُوًى عاملة من المؤلف والناشر كليهما ***

باب الأخبار العلمية

الحرب والمرض

بحث احصائي طريف

قيل ان قتلى الحرب العالمية بلغوا عشرة ملايين نفس . ولكن الباحثين ورجال الاحصاء يذهبون الى ان الحرب العالمية لم تنته في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ بل عندهم ان الثورة الروسية والحرب التركية اليونانية ذيلان من ذيولها . فالحرب الاهلية والانقلاب في روسيا افضيا الى مساعي فرنجل ودنيكين وكولشاك وغيرهم من الروس البيض على ما يدعون، لانقاذ روسية من براثن البلاشفة . ثم هناك الحرب الروسية البولونية التي انتهت سنة ١٩٢٠ « بقيادة الفرنسويين وشجاعة البولونيين »

ويقدر قتلى هذه الحروب بنحو ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة . تضاف الى الملايين العشرة الذين قتلوا في الحرب العالمية

والمرض يصحب الحرب دائماً . فالهواء الاصفر صحب حرب القريم والحرب البروسية النمسوية وسار في اثرها . وصحب مرض الجدري الحرب الفرنسية البروسية فمات به ٢٧٠ الفاً من الناس . ولم تشذ الحرب العالمية عن الحروب السابقة . واشهر الامراض التي تفشت فيها وبعدها حمى التيفوس والنزلة المعروفة بالانفلونزا وقد زاد فتك هذين المرضين ضعف الناس جنوداً وغير جنود عن المقاومة ، وضعفهم نشأ عن عسر المعيشة في ايام الحرب . فالذين ماتوا بالانفلونزا يجب ان يحسبوا من قتلى الحرب ، كالجنود والضباط الساقطين في الميدان

وقد عجبنا قبلاً لماذا نعتت الانفلونزا باسنادها الى اسبانيا . ولكن كاتباً في مجلة الفورم الاميركية يقول ان اقلام المراقبة في دول الحلفاء منعت اولاً تسرب اخبار الانفلونزا الى الجماهير لئلا يفت نبأ المرض وتفشيه في عضدها . ولم يذع نبأ هذه الوافدة الا لما تخطت في فتكها البلدان المحاربة الى البلدان المحايدة فبدأت عندئذٍ انباء تفشيها تتسرب الى الخارج . ولما كانت اسبانيا من البلدان المحايدة التي اصيبت بها شر اصابة ، كانت الانباء الاولى التي اذيعت عنها في العالم مقرونة بذكر ضحاياها العديدين في اسبانيا . فقيل الانفلونزا الاسبانية مع ان هذا المرض لم ينشأ في اسبانيا

وقد بلغ عدد الذين ماتوا في الولايات المتحدة الاميركية بالانفلونزا ٦٠٠ الف نسمة . وهذا احصاء يعتمد عليه . ويقال ان عدد الذين ذهبوا ضحيتها في المكسيك ٤٠٠ الف نسمة وهو تقدير تقريبي . اما بلدان جنوب

اميركا فقد اصيبت بها اصابة شديدة حتى ليسع الباحث ان يقول ان عدد الذين ماتوا بها في قارتي اميركا الشمالية واميركا الجنوبية بلغ ١٥٠٠،٠٠٠ نسمة

وبلغ عدد الذين ماتوا بها في اوربا ٢٥٠٠،٠٠٠ نسمة وفي افريقيا مليون (وقد كان القطر المصري من البلدان التي اصيبت بها شر اصابة) . اما عدد ضحاياها في بلدان آسيا فلا يكاد يصدق . فقد قدرت وزارة الصحة العمومية في بريطانيا عدد الذين ماتوا بها في الهند بثمانية ملايين نسمة وخسرت بها اليابان ٢٥٠ الفاً وايران ٢٠٠ الف وجزائر الفيلبين ٨٥ الفاً فمجموع ما خسرتهُ بها آسيا يكاد يكون عشرة ملايين . اما مجموع الخسارة في القارات المختلفة فكما يلي :

آسيا	١٠،٠٠٠،٠٠٠
اميركا الشمالية والجنوبية	١،٥٠٠،٠٠٠
اوربا	٢،٥٠٠،٠٠٠
افريقية	١،٠٠٠،٠٠٠

ومن الامراض التي حصدت كثيرين مرض السل . فقد زاد متوسط الوفيات بهِ بعيد نشوب الحرب . ولما اشتدت حرب الغواصات بلغ متوسط الوفيات بهِ مبلغاً عظيماً سببهُ سوء التغذية في البلدان المحاربة

ففي سنة ١٩١٨ كان متوسط الوفيات بهِ في فرنسا ١٠ في المائة اعلى من المتوسط السنوي قبيل الحرب وفي انكلترا ٢٥ في المائة وفي ايطاليا ٤٤ في المائة . ولكن زيادة الوفيات بهِ بلغت اقصاها في اوربا الوسطى . ففي تشكوسلوفاكيا زادت ٣٤ في المائة عما كانت عليهِ قبيل الحرب وفي المانيا ٦١ في المائة وفي النمسا ٦٧ في المائة . وقد زاد عدد وفيات السل في المانيا خلال سنوات الحرب ١٦٠ الفاً على عدد وفياته في سنة ١٩١٣ و ١٤٠ الفاً من هؤلاء كانوا من غير الجنود

وكما زادت وفيات السل في الحرب عما كانت عليهِ قبلها زادت كذلك الوفيات بالامراض الاخرى . وهذا يصدق على جميع البلدان المحاربة . ولكن احصاءات ايطاليا يصح ان تتخذ مثالاً فقد زاد عدد الوفيات بالسكتة القلبية فيها من ٣٥ الفاً في السنة الى ٤٤ الفاً . والوفيات بالانيميا من ١٠ آلاف في السنة الى ١٥ الفاً . وبالامراض المعوية من ١٦٠ الفاً في السنة الى ٩٣ الفاً . وبالتهاب الرئة والتهاب الرئة الشعبي من ٧١ الفاً في السنة ١٧٨ الفاً وبالتيفوئيد من ٧ آلاف الى ١١ الفاً وهكذا

ولم ينحصر اثر هذه الامراض في البلدان المحاربة بل تعدّاه الى البلدان المحايدة لان حالة معيشتها من الوجهة الصحية لم تكن تختلف كثيراً عن حالة البلدان المحاربة . وقد عكف الاستاذ هرش احد اساتذة جامعة جنيف على درس هذه الناحية من الموضوع درساً احصائياً فوجد ان زيادة عدد الوفيات في اسبانيا خلال الحرب على عددها قبل الحرب بلغ ٥٣٠ الف وفاة

فاذا جمعت هذه الارقام وجدنا ان نحو ٢٧ مليوناً من غير المحاربين ماتوا خلال الحرب الكبرى بسببها . فاذا اضيف هذا الرقم الى عدد ضحاياها في الميدان بلغا ٤١ مليوناً من الناس

عود الى البلون

والبلون الالماني الجديد

بعد النكبة التي أصابت البلون البريطاني ر١٠١ باصطدامه باكمة قرب بوفيه سنة ١٩٢٩ فقدت بريطانيا الثقة التي كانت قد عقدتها على البلونات كوسيلة من وسائل السفر الجوي بين بلدان الامبراطورية . وقد خسرت بريطانيا في تلك النكبة لورد طمسن والسر سفتن برانكر خسرت رجلين كانا في مقدمة الداعين فيها الى استعمال البلونات في المواصلات الامبراطورية

وقد أصيبت الولايات المتحدة الاميركية بغير نكبة واحدة في بلوناتها الكبيرة. فأصيب اولاً البلون شننددوى ثم اصيب البلون اكرون ولكن ذلك لم يقعد الاميركيين عن المضي في بناء البلونات . ففي ينابر من هذه السنة قررت لجنة الطيران الاميركية انشاء محطة للمباحث وتجربة التجارب الخاصة باستعمال البلونات للنقل بين اميركا واوربا تغلبا على منافسة السفن البحرية الجديدة . فلما حدثت نكبة البلون الاميركي «ماكون» في فبراير أي بعيد ما اتخذت اللجنة قرارها المتقدم جاءت تلك النكبة عائقاً في سبيل استعمال البلونات أو بنائها في لميركا

وقد ثبت حتى الآن ان الالمان فقط نجحوا في استعمال البلونات وسيلة صالحة للنقل والانتقال على مسافات بعيدة . وقد بلغ من نجاح التجربة بالبلون المشهور المعروف باسم غراف تسبلن ، ان عمدوا مؤخراً الى بناء بلون جديد دعي باسم (L. Z ١٢٩) وينتظر أن يقوم برحلته في الشهر القادم فيكون حينئذ اكبر بلون بني حتى الآن

وارتقاء البلون مقترن باسم رجلين المانيين كان لهما اكبر شأن في ارتقائه . نعني الكونت تسبلن والدكتور هوغو اكنر

أما الاول فهو الصانع الصناع وقد مضى على مصنعه خمس وثلاثون سنة وهو يصنع بلونات بلا توقف. وأما الثاني فهو الربان البارع الذي سار بالبلون غراف تسبلن في الشرق والغرب في الشمال والجنوب . فوق البحار الشاسعة وفوق الجبال الشاهقة وفوق الفيافي المقفرة. وطوق الارض وعبر المحيط الاطلنطي حتى الآن سبعين مرة ناقلاً في كل مرة ركاباً وبريداً

رحل البلون غراف تسبلن رحلته الاولى سنة ١٩٢٨ وكانت من مدينة فريدر كسهافن بالمانيا الى مطار ليكهرست بنيوجرزي في الولايات المتحدة الاميركية . وقد انقضت عليه ست سنوات وهو ينقل الركاب والبريد بين بلدان الارض وفي السنوات الاخيرة كان يطير بين المانيا وجنوب اميركا طيراناً منتظماً

فمجرد انساعه لاربع وعشرين من الركاب يقطعون ألوف الاميال في راحة ورفاهة ، ومقدرته على قطع المحيط سبعين مرة من غير حادث يحدث له الاَّ في رحلته الاولى — دليل

على إن السفر بالبلون امر عملي يمكن الاعتماد عليه — كالسفر بالسفن والقطرات ولكن على شرط واحد وهو حسن قيادته

والبلون الالماني الجديد (١٢٩ LZ) يتسع كيسه لسبعة ملايين قدم من الغاز أي انهُ يفوق البلون الانكليزي المنكود (ر ١٠١) خمسين في المائة حجماً . وقوة محركاته ٤٤٠٠ حصان وتدار بالزيت الخام ويستطيع أن يقطع ثمانية آلاف (٨٠٠٠) ميل من دون أن يحتاج الى الوقود. طوله ٨١٠ أقدام وقطره ١٣٤ قدماً ويبلغ عدد ملاحيه ٣٥ ملاحاً ويتسع لخمسين راكباً وينتظر ان يملأ كيسه بغاز الهليوم وهو غاز غير قابل للالتهاب كغاز الايدروجين الذي ملىء بهِ كيس البلون غراف تسبلن وكيس البلون (ر ١٠١)

من المتعذر على بلون واحد يقطع مسافة طويلة بين بلادين ان يعود على اصحابه بربح ولو كان ربحاً يسيراً . ولكن اذا كثر عدد البلونات قلت نفقات البلون الواحد : سواء في صنعه أو في الترتيبات اللازمة له في المدن التي يبغي أن ينزل فيها

لذلك يقترح الدكتور اكنر صنع اربعة بلونات كبيرة تمتد خطوطها بين المانيا وريو جانيرو بالبرازيل . وبين الولايات المتحدة الاميركية وجزائر الهند الشرقية . وثمت خط ثالث يقترح انشاءه وهو مثلث الشكل يمتد بين اوربا واميركا الشمالية واميركا الجنوبية . وينتظر ان يقترح كذلك خطاً رابعاً يمتد بين اوربا والهند وجزائر الهند الشرقية

وقد تمَّ الاتفاق على ان يسير البلون الالماني الجديد سيراً منتظماً مرة كل اسبوعين بين المانيا والولايات المتحدة الاميركية فينزل أما في ليكهرست بنيو جرزي الى الجنوب من نيويورك أو في مدينة ميامي وهي المشتى المشهور في فلوريدا . وتستغرق هذه الرحلة خمسين ساعة واجرتها ستون جنيهاً ، وهي لا تزيد كثيراً على اجرة السفن التي من الطبقة الاولى بين اوربا واميركا

وقد اتفقت الحكومتان الالمانية والاسبانية على انشاء خط آخر بين برلين وبرشلونة واشبيلية على ان يكون من حق البلونات التي تسير في هذا الخط ان تتم الرحلة الى اميركا الجنوبية

فاذا تحقق جانب من الخطط الالمانية التي اشرنا اليها كان ذلك باعثاً جديداً يحفز سائر البلدان وبوجه خاص اميركا وبريطانيا لتجديد عنايتهما بالبلون

تقاليد زوجية قديمة

يقول الباحث الاثري الشاب جون الكسندر ان رسائل النساء البابليات اعسر حلاً من رسائل البابليين ولكنها ابعث على الدهشة . فقد وجد رسالة قديمة لسيدة بابلية ، تدل على انها اتمت صفقة زوجية لزوجها بشراء زوجة ثانية له ، ذلك انها اتخذت فتاة شقيقة لها ثم قدمتها الى زوجها كزوجة ثانية ولكنها اشترطت انهُ اذا قرر زوجها ان يطلقها — اي الزوجة الاولى — فلها ان تأخذ معها كل ممتلكات الزوجة الثانية . اما اذا اشتدت غيرتها هي ورغبت في ان تترك زوجها فليس لها ان تأخذ معها شيئاً

العنب والذباب والحرارة

من المعروف عند علماء الحشرات ان بعض الآفات الحشرية التي تصيب النباتات المختلفة تنتقل في الغالب مع شحنات الثمار المختلفة كشحنات البرتقال والتفاح والكمثرى والعنب وغيرها. ومن هنا نفهم دقة القوانين التي تحول دون استيراد اصناف معينة من الفواكه من بلدان مصابة بالآفات الى بلدان غير مصابة بها

وقد كان العنب الذي يجنى من كروم اميركا الجنوبية من الفواكه المحظور استيرادها الى اميركا الشمالية أي الولايات المتحدة الاميركية ولكن اكتشافاً علمياً حديثاً يمكن الآن اصحاب الكروم الجنوبية من تصدير عنبهم الى اميركا الشمالية

وخلاصة الحكاية انهُ في سنة ١٩٢٨ ارسل الدكتور داربي وزوجته وكلاهما من علماء الحشرات الاميركية الى بلاد المكسيك ليبحثا عن أفضل الطرق لمكافحة ذبابة الفاكهة المكسيكية وهي من الآفات التي يخشى شرها كثيراً في اميركا وخصوصاً في المناطق المشهورة ببساتين الفاكهة

وبعد البحث والامتحان وجد الدكتور داربي وزوجته ان هذه الحشرة شديدة الاحساس بفعل الحرارة وان حرارة من درجة ١١٢ فارنهيت (نحو ٤٥ سنتغراد) تكفي لقتلها

وما كاد هذا الاكتشاف يذاع، حتى سطت ذبابة الفاكهة المعروفة في مناطق البرتقال باسبانيا، على بساتين فلوريدا، فخشيت وزارة الزراعة الاميركية شرها وعمدت الى تطبيق اكتشاف داربي وزوجته فوجدت ان الحرارة التي تقتل ذبابة الفاكهة المكسيكية تقتل كذلك ذبابة الفاكهة الاسبانية. وان هذه الحرارة نفسها لا تضر بالفاكهة. واذن صار في الامكان معالجة الفواكه المعرضة لهاتين الآفتين بالحرارة فتصبح صالحة للتصدير من مواطنها

الحمى وأشعة اكس

وجدت طائفة من الاطباء الباحثين في مستشفى رتشستر التذكاري بولاية نيويورك ان استعمال الحمى يتخللها العلاج باشعة اكس قد يكون علاجاً ناجماً للسرطان

وقد قصرت التجارب الاولى بهذا العلاج على نوع من السرطان يصيب الارانب فاستعماله في السرطان الذي يصيب البشر قد لا يكون ممكنا قبل التوسع في تجربة هذا العلاج بانواع السرطان التي تصيب مختلف الحيوانات. فقد وجد احد هؤلاء الاطباء واسمهُ الدكتور ورن ان الحمى العالية تقتل الخلايا السرطانية خارج الجسم في مدة معينة ثم وجد كذلك ان الحمى العالية تقتل الخلايا السرطانية داخل الجسم ولكن في ٢٥ في المائة من الاصابات فقط. ووجد ان استعمال اشعة اكس يسفر عن قتل الخلايا السرطانية داخل الجسم في ٤٢ في المائة من الاصابات. فلما جمع بين استعمال الحمى واستعمال اشعة اكس ثبت لهُ ان هذا العلاج المزدوج يقتل الخلايا السرطانية داخل الجسم في ٨٤ في المائة من الاصابات

التنويم المغنطيسي والجوع او الشبع

من الامور المعروفة ان المنوم المغنطيسي يستطيع ان يقنع من ينومهم بانهم جياع فيحسون بالجوع او انهم شباع فيشعرون بالشبع او التخمة . وكان الرأي حتى الآن ان هـذا الاحساس انما هو احساس نفسي فقط لا يؤثر في اعضاء الهضم نفسها . ولكن ثلاثة من علماء الجمعية الفسيولوجية الاميركية اجروا تجارب ثبت لهم منها ان الحالة النفسية التي يخلقها المنوم المغنطيسي تؤثر في الجهاز الهضمي

فقد اخذوا رجلاً في الرابعة والثلاثين من العمر ونوم تنويماً مغنطيسياً بعد صوم دام من ١٨ الى ٢٠ ساعة ثم اوحى اليهِ المنوم انهُ اكل وشبع فظهر في حركة اعضاء الهضم ما يظهر فيها عند الشبع الحقيقي وكانت قبل هذا الايحاء تتحرك الحـركة التي تصاحب الشعور بالجوع الشديد

زيت الزيتون ووزن الاطفال

انقذ الاطباء في بلطمور عشرين طفلاً من الموت جوعاً بحقن زيت الزيتون في عروقهم . لم يكن سبب جوع الاطفال قلة الغـذاء ولكن اضطراب اجهزتهم الهضمية حال دون انتفاعهم بالغذاء يتناولونهُ عن طريق الفم

اخذ زيت الزيتون ومزج بمادة اللسيثين المستخرجة من صفار البيض ثم عولج المزيج تحت ضغط عظيم ، لتفتيت كريات الزيت الكبيرة وتحويلها الى كريات صغيرة يسهل مرورها في انابيب الدم الشعرية في الرئتين ثم عقم المزيج وحقن في الاوردة

ومضى الاطباء اسبوعاً يحقنون كل يوم كل طفل من هؤلاء بحقنة من هذا المزيج تحتوي على مقدار من الدهن يساوي مقدار الدهن الذي يتناوله الطفل من غذائه المألوف لو كان يستطيع تناوله . وبعد الحقنة الثانية ظهرت على الاطفال دلائل زيادة الوزن

فحقن الزيت والدهن في الاوردة مباشرة اسلوب جديد من اساليب الطب ويمكن استعماله في حالات اخرى غير حالة اضطراب الجهاز الهضمي عندما يتعذر على المريض تناول الطعام . ونحن نقول انهُ قد يصاب المرء باضطراب عصبي في جهازه الهضمي يحول بينهُ وبين الطعام حتى اذا تناول قطرة من الماء تهيجت المعدة وحملته على القيء . ونعرف من اصيب بهذا فضعف وهزل . فحقنه بحقنة من هذا القبيل تمكن الاطباء المعالجين من الاحتفاظ بقوته في خلال المعالجة

تغريد الكنار

. تغريد الكنار من ارخم ما يسمع من تغريد الطيور . وكان يقال ان الكنار الصغير يتعلم التغريد من الكنار الكبير . ولكن طائفة من علماء جامعة كاليفورنيا الجنوبية أثبتت ما هو عكس ذلك . فقد أخذت اثنتي عشرة بيضة كنار ملقحة ووضعتها في اقفاص لا يخترق الصوت جدرانها ، ففقس البيض وربيت الصغار فيها ، فلما ترعرعت ظهرت فيها المقدرة على التغريد

السلولوز وثفل قصب السكر

كل ما يتعلق باستعمال الثفل المتبقي من قصب السكر بعد استخراج السكر منهُ يهمنا وهذا الثفل هو الالياف المقطعة المتبقية من القصب بعد عصره . وقد بلغ مقدار الثفل المتبقي في مصانع السكر بولاية لوزيانا الاميركية نصف مليون طن في السنة . وفي مصانع بورتو ريكو مليوني طن في السنة . ولا نعلم ما وزن الثفل المتبقي في مصانع السكر في القطر المصري كل سنة

وكانت العادة قد جرت على استعمال هذا الثفل وقوداً في مصانع السكر نفسها . ولكنهُ لا يصلح كثيراً للوقود . فطن من الثفل الاخضر يحل محل برميل من النفط الخام أو الزيت الوسخ . وثمن هذا البرميل الآن يختلف من ريال الى ريال وربع ريال في اميركا . فقيمة الثفل من حيث هو وقود ليست كبيرة

وقد استعمل بعض الثفل في صنع الواح عازلة ولكن هذه الصناعة لا تستنفد منه الاَّ قدراً يختلف من ٢٠ في المائة الى ٢٥ في المائة

ثم جرَّب بعضهم ان يستعمله في صناعة الورق فثبت بعد التجربة أن الياف قصب السكر لا تصلح لذلك

ولكن في خلال الخمس عشرة سنة الاخيرة زاد الطلب على السلولوز (المادة الخشبية في النبات) ليستعمل في مطالب متنوعة غير صناعة الورق . ففي خلال هذه المدة نشأت صناعة الحرير الصناعي وما يتصل بها مثل صناعة السلوفان . وقد كان ما تصنعه الولايات المتحدة الاميركية من الحرير الصناعي سنة ١٩٢٠ يسيراً لا يذكر ولكن بلغ ما يصنع منه فيها سنة ١٩٣٤ ما وزنهُ ٢٠٨ ملايين رطل . وما صنع من الحرير الصناعي في مختلف بلدان العالم بلغ وزنهُ ٧٣٥ مليون رطل في السنة الماضية . والفروع التي تفرعت على صناعة الحرير الصناعي او اتصلت بها تقتضي استعمال مقادير كبيرة من السلولوز لا يمكن تقديرها الآن ، وبعد ما رأيناه من سرعة الزيادة في ما ينفق من السلولوز في صناعة الحرير الصناعي

***

وقد دلت تجارب محطة المباحث التابعة لمكتب الكيمياء والتربية بوزارة الزراعة الاميركية انهُ يمكن تحويل ثفل قصب السكر الى سلولوز صالح لهذه الصناعات فيستعمل الحامض النتريك المخفف في تحويل الثفل الى رب . ولا يخفى ان امكان استعمال الحامض النتريك يجعل هذا التحويل عملاً اقتصاديًا لأن هذا الحامض رخيص لامكان صنعهِ من الامونيا والامونيا يسهل الآن صنعها من الهواء المباح لكل انسان

ويقال ان السلولوز الذي حضر من ثفل قصب السكر يجاري أفضل انواع السلولوز المستعمل في مصانع الحرير الصناعي . ونفقات تحضيره أقل من نفقات السلولوز المماثل له الذي كان مستعملاً حتى الآن

فيتامين جديد والبول السكري

في الاجتماع السنوي الاخير الذي عقدته الجمعية الاميركية الطبية والجمعية الكندية الطبية ، بسط الدكتور بست احد الذين اشتركوا في اكتشاف الانسولين (علاج البول السكري) نتائج بحثه في فيتامين جديد قال انه لا مندحة عنه لقيام الكبد بعملها قياماً سوياً ولذلك يرجح ان هذا الفيتامين سوف يكون لهُ شأن كبير في حالة الاصابة بالبول السكري

عرفت انواع الفيتامين التي كشفت حتى الآن بحروف الابجدية الفرنجية فمنه فيتامين A وفيتامين B وفيتامين C وفيتامين D الخ . اما هذا الفيتامين الجديد فقد اطلق عليهِ اسم لاحرف وهو يعرف باسم كولين Choline ويوجد في كثير من مواد الغذاء ولكنه كثير في اللحم ومح (صفار) البيض و الخميرة

لم يغتصب الدكتور بست فخر اكتشافه اغتصاباً بل صرح في رسالته ان جانباً كبيراً من المشاهدات الدقيقة التي افضت الى اكتشافه قام بها الدكتور هرش والمس هنتسمن وكذلك يعترف اهل العلم الصحيح بالفضل لذويه

ويقول الدكتور بست ان نقص هذا النوع من الفيتامين يفضي الى تشحم الكبد فتعجز عن صنع السكر او تصريف الصفراء او غير ذلك من الاعمال الحيوية التي يجب ان تعملها . وقد اكتشف هذا الفيتامين في خلال البحث في الانسولين وتجربة التجارب به .

فالكلاب التي سُلت منها الغدة الحلوة (البنكرياس) عجزت عن ان تحيي اكثر من بضعة شهور رغم حقن الانسولين التي تحل محل افراز البنكرياس عادة . فلما غذيت هذه الكلاب بالغدة الحلوة مفرومة علاوة على حقن الانسولين عاشت حياة جديدة

فاقبل الباحثون على الغدة الحلوة يدرسونها من جديد فوجدوا انها تحتوي على مادة الكولين علاوة على الانسولين ومادة هاضمة. ثم ثبت ان الكولين في الحلوة المفرومة هو ما يفيد الكلاب بعد سل هذه الغدة منها

وقد قال الدكتور بست ان الاصابة بالبول السكري (الديابيطس) ليس سببها اصابة الغدة الحلوة دائماً . بل قد تنشأ عن اصابة الكبد وضعفها من ناحية أو شدة فعلها في توليد السكر من النشويات والبروتينات من ناحية اخرى . وقد دلَّت التجارب على أن الكولين لازم لقيام الكبد بوظيفتها قياماً سوياً ومن هنا صلة هذا الاكتشاف بالبول السكري

فيتامين د والتهاب المفاصل

المعروف عند المشتغلين بعلوم الطب والغذاء ان الفيتامين د يفيد في منع الكساح. وقد قرأنا الآن ان الدكتور ريد الاستاذ بكلية الطب في جامعة الينوي الاميركية قال في رسالة تلاها امام الجمعية الاميركية الفسيولوجية ان هذا الفيتامين نفسه يفيد في معالجة التهاب المفاصل (الفصال) الذي يدعى احياناً باسم الروماتزم

فقد عالج الدكتور ريد وصحبه في الكلية

التي تقدم ذكرها ٧٠ مصاباً من مائة مصاب بالتهاب المفاصل تخفت وطأة اصابة بعضهم وشفي البعض الآخر

وقداستعمل هذا الفيتامين في شكل مركز وكانت الجرع كبيرة جداً . فالجرعة المستعملة في حالة الكساح لا تزيد على ثلاثة آلاف وحدة ولكن الدكتور ريد استعمل في حالات التهاب المفاصل جرعاً تحتوي على ثلاثة ملايين وحدة وقد استفاد جميع المصابين بالتهاب المفاصل الا الذين سبب اصابتهم التعقيبة (السيلان)

مرايا المراقب وطلاؤها

المراقب نوعان النوع الكاسر وقد قل استعماله الآن والنوع العاكس وهو النوع السائد في معظم مراصد العالم الكبيرة . فالمرقب العاكس يحتاج الى مرآة مقعرة . وقد كانت مرايا المراقب العاكسة تطلى بالزئبق أو الفضة . ولكن أحد العلماء جرّب من عهد قريب طلاءها بمعدن الالومنيوم فأسفرت تجربته عن نتائج تبعث على الدهشة اذ زادت قوة المرآة العاكسة وصحب هذه الزيادة نقص في نفقة الطلاء لان الالومنيوم أرخص جداً من الزئبق أو الفضة . وينتظر الآن أن تطلى مرآة المرقب الكبير الذي يبنى باميركا — وقطر عدسته مئتا بوصة أي ضعف قطر العدسة في اكبر مرقب عرف حتى الآن وهو مرقب جبل ولسن بكاليفورنيا — نقول انهُ ينتظر أن تطلى مرآة المرقب المنتظر بالالومنيوم فيقتصد نحو مائتي الف جنيه في نفقات المرقب وتزيد قدرة مرآته على عكس الاشعة الواقعة عليها

ارتفاع حرارة الهواء في طبقاته العليا

تختلف حرارة الهواء قرب سطح الارض باختلاف الارتفاع عن سطح الارض فتقل حرارته اذا توقلنا جبلاً ولا يخفى ان أعلى الجبال مكللة هاماتها بعمم من الثلج الدائم ويقول الطيارون الذين حلقوا بالطائرات او البلونات الى ما فوق قمم الجبال ان الهواء هناك أبرد منهُ على متن الجبال العالية

فهذه الحقائق حملت الباحثين على الظن ان برد الهواء يزداد بازدياد امعاننا في التحليق

ولكن طرقاً جديدة للبحث دقيقة كل الدقة حملت العلماء على الاعتقاد بان الهواء في طبقاته العليا ليس بارداً كما يظن

وقد نشر الاستاذ ابلتون — وهو من اكبر الثقات المعاصرين في موضوع الامواج اللاسلكية — بحثاً طريفاً من نحو شهرين اقام فيه الدليل على ان حرارة الهواء في يوم من ايام الصيف تبلغ الف درجة مئوية (ميزان سنتغراد) على ارتفاع ثلثمائة كيلو متر

وهذه الحرارة تعني انه اذا استطعنا ان نعلق قطعة من النحاس على هذا العلو حتى تصبح حرارتها كحرارة الجو المحيط بها ، كانت حرارة هذا الجو حينئذٍ كافية لصهرها

واذن فسكان الارض يعيشون داخل كرة من النار لا يمنع اذاها عنا الا طبقات الهواء التي بيننا وبينها

***

ويعود الفضل الاول في هذه الناحية من

البحث الى عالم فرنسوي يدعى تسرنك ده بورت فقد اطلق في سنة ١٨٩٨ بلونات تحمل مقاييس للحرارة وادوات اخرى فدهش لما عادت البلونات وظهر من مقاييس الحرارة فيها ان حرارة الهواء فوق باريس ظلت تهبط حتى بلغ البلون الى علو سبعة اميال ثم وقفت الحرارة عن الهبوط . فانكر معظم الطبيعيين ذلك اولاً ثم وجد علماء الظواهر الجوية ان الارتفاع الذي تقف عنده حرارة الهواء عن الهبوط اقرب الى القطبين منه الى سطح الارض عند خط الاستواء

ولكنهم مع ذلك ظلوا عاجزين عن تعليل هذه الظاهرة تعليلاً مقبولاً

***

وظل الرأي بعد اكتشاف ده بورت ان حرارة الجو فوق ذلك الارتفاع المعين — وهو ١١ ميلاً فوق خط الاستواء واقل من سبعة اميال فوق القطبين — تظل ثابتة لا تتغير . ولكن في سنة ١٩٢٢ تبين للعالمين لندمان ودوبسن من مراقبة الشهب ودرجات اشراقها ان حرارة الهواء تأخذ في الارتفاع على ٣٧ ميلاً (او نحو ستين كيلو متراً) فوق سطح الارض

الحلوى والعمل العقلي

في بعض الاعلانات الاميركية والانكليزية البارعة عن اصناف السجاير المشهورة عبارة مؤداها «مد يدك وخذ سيجارة» اما «رسالة العلم الاسبوعية» فتقول ان هذه العبارة تكون في محلها اذا كنت ممن يبغون النحافة ولكن اذا كنت ممن يتحتم عليهم القيام بأعمال عقلية جاهدة فيجب ان تمد يدك وتأخذ قطعة من الحلوى

ذلك ان التجارب قد اثبتت ان طاقة الدماغ على التفكير مستمدة من السكر المعروف باسم غلوكوز . وهذه النتيجة قد توصل اليها العالمان الاميركيان همتش وفازيكاس من علماء جامعة يابيل وبعثا بها في رسالة الى الجمعية الفسيولوجية الاميركية

والدماغ يتناول السكر من الدم ثم يحله الى مركبات كيمائية بسيطة ويحرق الحامض اللبنيك المتولد منه فيستمد من حرقه طاقة ونشاطاً كما تستمد القاطرة طاقتها من حرق الفحم وتوليد البخار . وقد وجد همتش وصاحبه مصادفة واتفاقاً انه اذا كان في اناء ما قطعة من نسيج الدماغ وكان في الاناء نفسه قليل من النيكوتين وهو المادة الفعالة في التبغ ، تعذر على نسيج الدماغ ان يحرق الحامض اللبنيك ، ولكن النيكوتين الذي يصل الى الدماغ من تدخين سيجارة اقل من ان يؤثر في مقدرة الدماغ على حرق الحامض اللبنيك

***

وعلى ذكر النيكوتين نقول اننا قرأنا في رسالة العلم الاسبوعية نفسها ان جماعة من علماء جامعة كورنل الاميركية يقولون ان التسمم بالنيكوتين يوقف التنفس لان اطراف الاعصاب في عضلات جهاز التنفس تشل عن العمل وقد كان الرأي قبلا ان النيكوتين يشل مركز التنفس في الدماغ . والفرق بين الاثنين واضح

تقدم الاختراع وسرعته

في سنة ١٨٣٦ اي من تسع وتسعين سنة اخرج قسم « الباتنته » في الحكومة الاميركية الامتياز الاول لاختراع جديد طلب منها تسجيله فيها . وفي ٣٠ ابريل سنة ١٩٣٥ منح هذا القسم امتيازاً لمهندس في شركة يد الصناعية فكان رقم امتيازه ٢٠٠٠ر٠٠٠ وسيرة هذا المهندس نفسه تدلك على سرعة التقدم في الاختراع . ففي سنة ١٨٩٩ استخرج هذا المهندس امتيازاً فكان رقمه ٦٣٨٦٤٣ أي ان ٣٦ سنة انقضت بين ١٨٣٦ و١٨٩٩ سجل في خلالها ست مائة الف اختراع ولكن في المدة الثانية أي من ١٨٩٩ الى ١٩٣٥ (٣٦ سنة) فقد سجل نحو ١٣٠٠٠٠٠ اختراع او ما يزيد على ضعفي ما سجل في المدة الاولى

علاج لدوار الجو والطيران

يقول المشتغلون بعلوم الطب ان الدوار الذي يصاب به بعض الذين يستقلون الطائرات للسفر سببه حالة تدعى زيادة التهوية أو التهوية الزائدة (وقد اقترح بعضهم لفظ الترويح بدلاً من لفظ التهوية). فالمسافر يكثر في هذه الحالة من زفر ثاني اكسيد الكربون فيصاب بالدوار والعلاج يقوم بتجهيز المسافر بوسيلة تمكنهُ من استنشاق قدر من ثاني اكسيد الكربون ويتم ذلك باعطائه كيساً من الورق يتنفس فيه فيزفر فيه هذا الغاز ثم يعود فيستنشقه فيزول هذا الدوار . وقد يفيد في علاج هذه الحالة الامساك عن التنفس مدة ١٥ ثانية . وتقول المجلات العلمية التي اطلعنا عليها ان هذه الطريقة افيد على ما يظهر من بعض أنواع العلاج التي ذكرت حتى الآن لانها تعالج السبب

بذ الراديوم بأشعة صناعية

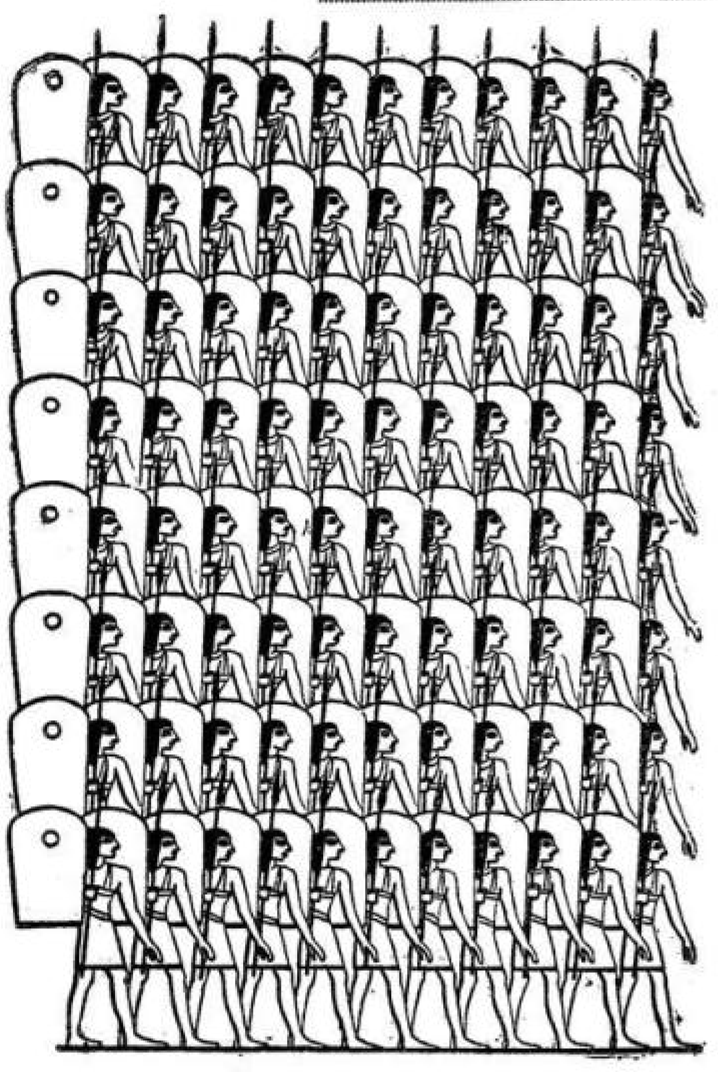
كان الاعتماد حتى الآن في معالجة السرطان بالاشعة على اشعة غما المنطلقة من الراديوم . ولكن طائفة من العلماء في معهد كاليفورنيا التكنولوجي الذي يرئسهُ العلامة ملكن كتبوا رسالة في المجلة الطبيعية الاميركية يقولون فيها انهم ولدوا اشعة غما في المعمل تفوق قوة اختراقها للاجسام نحو ستة اضعاف قوة اشعة غما المنطلقة من الراديوم فطاقة اشعة غما المولدة في المعمل تبلغ ١٦ مليون فولط حالة ان طاقة اشعة غما المنطلقة من الراديوم لا تزيد على ٢،٦٠٠،٠٠٠ فولط

فاذا صح ما نقلناه وكانت نفقة توليد هذه الاشعة غير كبيرة فلا بد من ان يهبط سعر الراديوم ويشيع استعمال هذه الاشعة المولدة في المستشفيات لمعالجة السرطان

القوة المحركة في السفن الكبيرة

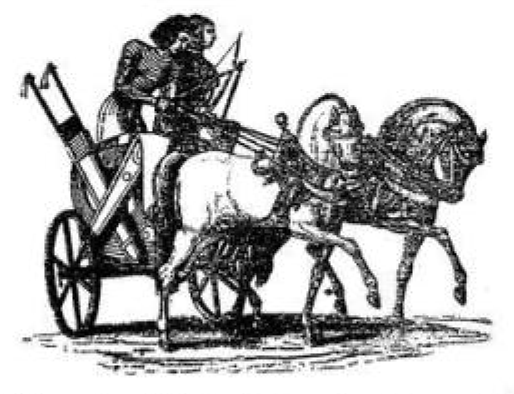
تقدر قوة المحركات الكهربائية في السفينة الفرنسوية « نورماندي » بمئة وستين الف حصان . فهي تفوق في هذا الصدد جميع السفن التجارية والحربية الا سفينتين وهاتان السفينتان هما حاملتا الطائرات في الاسطول الاميركي وقوة كل منهما ١٨٠ الف حصان وتدعيان « لكسنغتن » و « سراتوغا »

اسلحة الجيش المصري القديم — ١

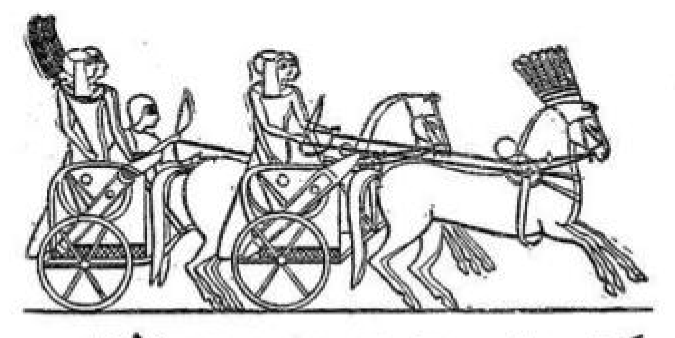


فصيلة من الجنود المشاة المسلحة بأسلحة ثقيلة

اسلحة الجيش المصري القديم — ٢



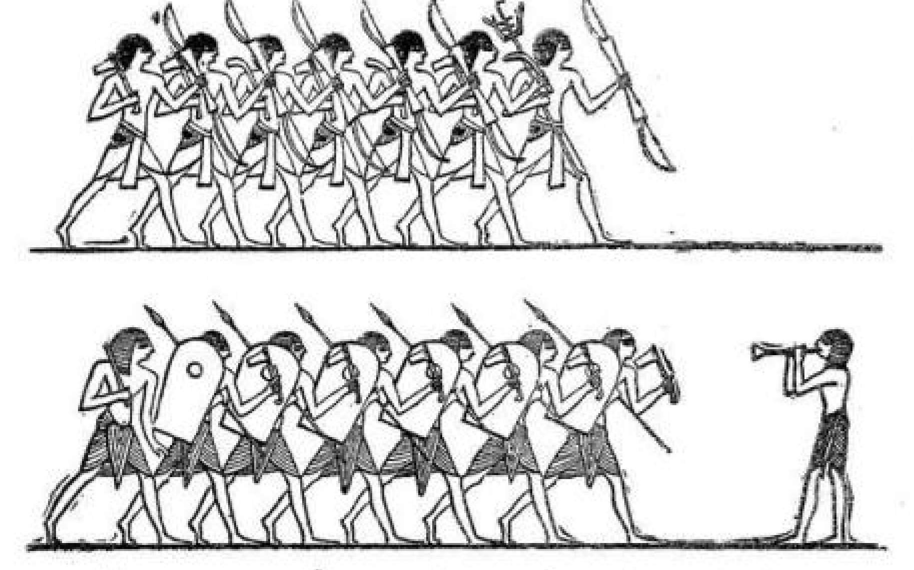
مركبة حربيه يجرها جوادان وفيها اميرها ومساعده



مركبة مصرية يقودها اميران ويتبعهما ضابطان كأركان حرب

(جميع الصور في هذا المقال منقولة عن ولكنسون)

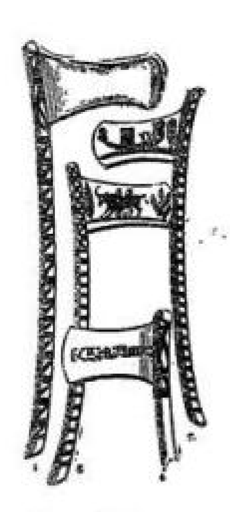
اسلحة الجيش المصري القديم — ٣



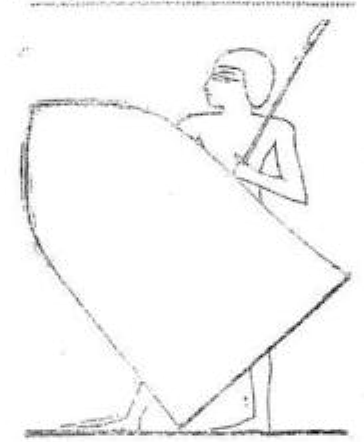
فوق : فصيلة من الجنود المشاة حملة الاقواس . تحت : فصيلة من الجنود المشاة حملة التروس



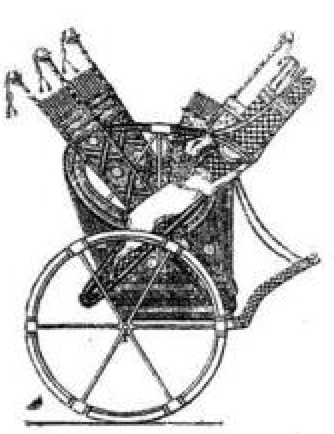
المدية المصرية وغمدها



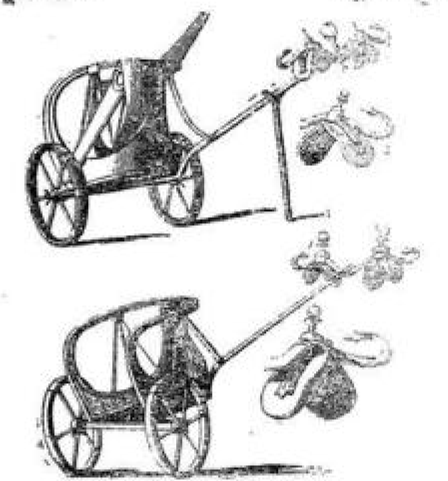
البلطة المصرية



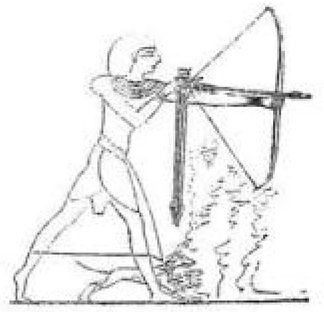
صورة تمثل الدرع الكبيرة



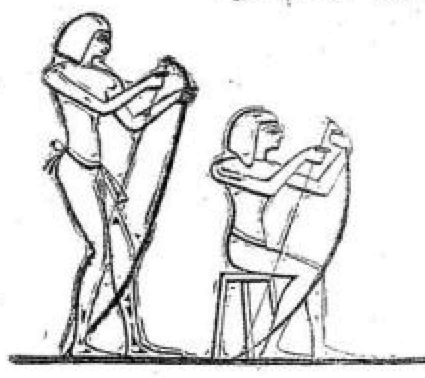
منظر جانبي للعركبة الحربية



منظر عام للعركبة الحربية «وأطقم» الجياد



صورة تمثل الاستعداد لاطلاق
السهم وحمل اسهم اضافية



طريقة شد القوس



السيد محمد رشيد رضا



دستور السوفيت الاشتراكى

للاستاذ وليم بنت مونرو

حول المشكلة الايطالية الحبشية

المستعمرات والموارد الطبيعية

نظام العقوبات

القتال والموقف الدولي

حديقة المقتطف

ثلاث قصائد لميخائيل نعيمة

السباق

الجوع

الحائك

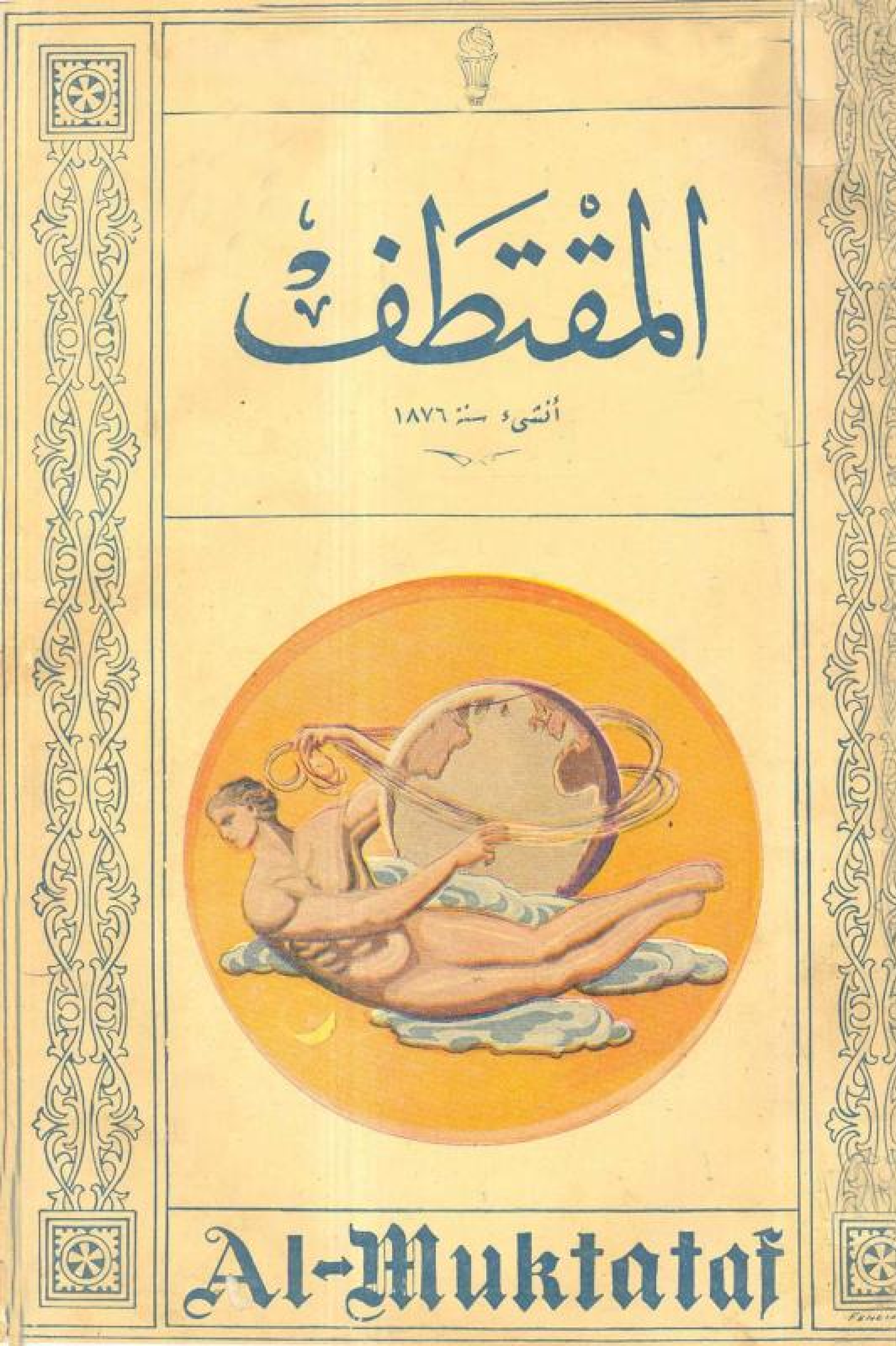
الوالد

قصة للكاتب النرويجي

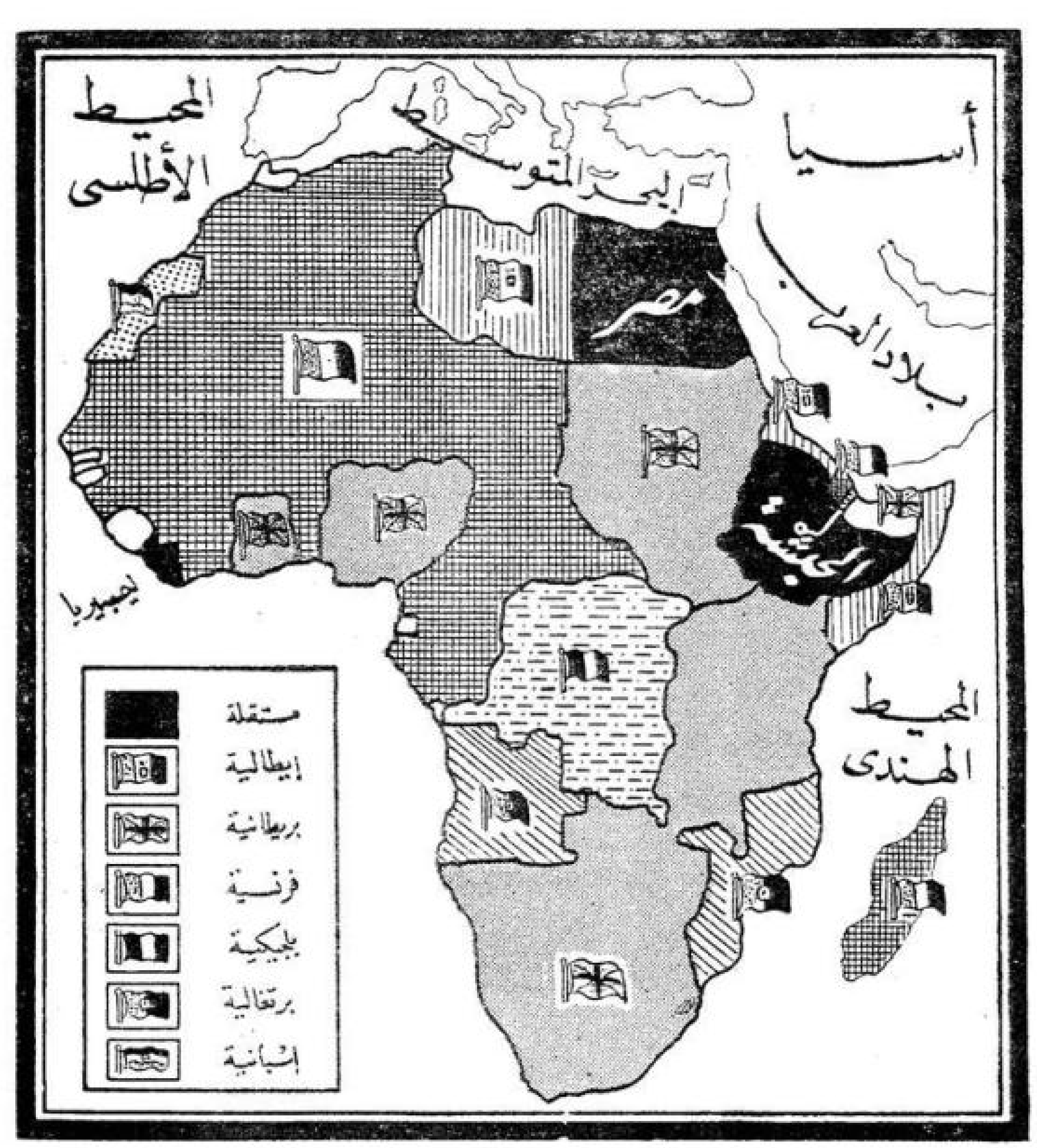
بيورنسن

الجزء الثالث من المجلد السابع والثمانين

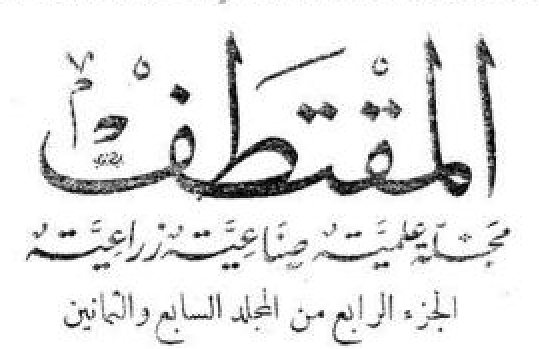
صفحة



المقتطف
أنشىء سنة ١٨٧٦
Al-Muktataf



افريقية وتقسيمها الجغرافى السياسى



الجزء الرابع من المجلد السابع والثمانين

١ نوفمبر سنة ١٩٣٥ — ٥ شعبان سنة ١٣٥٤

المتفجرات الحربية

والبحث العلمي

يتأثر تطبيق المعارف العلمية على اساليب الحرب ، برأيين متناقضين . فقواد الجيوش يرغبون بوجهٍ عام عن تغيير الوسائل والقواعد التي جرى عليها كبار القواد من قديم الزمان ، ويحسبون كلَّ اقتراح بتعديلها او تغييرها ، اعتداء على حقوقهم المقدسة . يقابل هذا ، ان الاساليب الجديدة تمنح مستعمليها في الحروب امتيازاً كبيراً على خصومهم ، فلا يلبث هؤلاء الخصوم طويلاً حتى يعمدوا الى وسائل اعدائهم الجديدة . فقد كان الالمان في الحرب الكبرى اول من استعمل الغازات والابخرة السامة ، فاضطرَّ الحلفاء ان يستعملوها مع اعتراضهم عليها وتنديدهم بها . وقد جنت الجيوش البريطانية بوجهٍ خاص فائدة كبيرة من استعمال الدبابات ، مع ان القواد اهملوا ملاءمة الخطط العسكرية لاستعمال هذا السلاح الجديد . ولا ريب في ان عجز الالمان عن مجاراة الحلفاء في استعمال الدبابات كان له اثر غير يسير في خذلانهم . واذن فلا ينكر احد ان الحرب الكبرى كانت باعثاً قويًّا على تشجيع البحث العلمي من ناحية تطبيقه على وسائل الحرب وأساليبها . فالطيران لولا حافز الحرب الكبرى وفائدته فيها لما بلغ الشأو العظيم من الارتقاء الذي بلغه في خلال اربع سنوات من تأجج نيرانها . يضاف الى هذا انهُ اصبح يتعذر على اي كان ان يعين الخط الفاصل بين الصناعات الحربية والصناعات غير الحربية . فغاز الكلور يصلح غازاً ساماً في الحروب ومع انهُ غاز جليل الفائدة في تعقيم الماء وتطهير الجروح

من اعجب المكتشفات في التاريخ اكتشاف البارود والبندقية . ووجه العجب في اكتشاف البارود انهُ اكتشاف في العلم المطبق . وقد تمَّ في عصرٍ كان العلم فيهِ لا يزال طفلاً مقمطاً في المهد. ولا بدَّ ان سبق البارود اكتشاف طريقة لتنقية ملح البارود (نترات البوتاسيوم) وهو المادة الاساسية فيه. واكتشافها عمل كبير اذا اعتبرنا حالة العلم في ذلك العهد . والظاهر ان البارود صنع اولاً في الصين في اوائل القرن الثالث عشر ، ولكنهم استعملوه في الالعاب النارية فقط ، والراجح ان تأثير الالعاب في الحروب كان معنويًّا لا ماديًّا ، اي ان رؤيتها كانت تبهر الاعداء وتخيفهم

اما البندقية فلم تخترع الاَّ في القرن الرابع عشر ، والراجح انها اخترعت في المانيا . ولكن قبل انقضاء حرب المئة سنة (١٣٣٧ — ١٤٥٣) بين فرنسا وانكلترا كان استعمالها قد اصبح عامًّا في غرب اوربا . وقد تقدم صنع البارود وصنع البندقيات جنباً الى جنبٍ لانهُ كان من خرق الرأي ان يعمد صانع البارود الى صنع بارود قوي التفجُّر اذا كانت البندقيات لا تقوى على ان تتحمل ضغط انفجاره

اما استعمال البارود في نسف الصخور وشقّ المناجم والمحاجر فتأخر كثيراً . فلم يذكر استعمالهُ لهذا الغرض الاَّ في اوائل القرن السابع عشر في بلاد المجر . والظاهر انهُ لم يستعمل في انكلترا الاَّ سنة ١٦٨٩ وذلك في مناجم كورنول . وهذا مما يبعث على الدهشة لان الانكليز استعملوا البارود في لغم الحصون في حصار هونفلور سنة ١٤١٥

ومقدار ما يستعمل من البارود في نسف المناجم والمحاجر يفوق المقادير المستعملة منهُ لجميع الاغراض الاخرى . بل ان صناعة الديناميت تعتمد في حياتها على ما يستعمل منهُ لهذا الغرض

فتاريخ البارود مثال يدلّ على تأثير الحرب في شقها الطريق الى استعمال مادة حربية لاغراض صناعية وتجارية

فاذا نظرنا في ما تمَّ في ميدان المتفجرات والمفرقعات في العصر الحديث ، رأينا أثر الحرب فيها واضحاً كلَّ الوضوح

***

اكتشف قطن البارود في سنة ١٨٤٥ — ١٨٤٦ وكان مكتشفهُ استاذاً للكيمياء في بال يدعى « شونبين » ، فادرك في الحال قيمة هذه المادة من ناحية تفجّرها ، فاحتفظ بطريقة تركيبها سرًّا وهو يحاول ان يبيعهُ لحكومات مختلفة . فاثبت انهُ اذا جُرّب قطن البارود في بندقية musket فاقت قوة قذفهِ قوة مقدارٍ اكبر جدًّا من البارود . فذهب الى انكلترا وجرَّب تجارب مختلفة في مدرسة وولتش الحربية وفي بورتسموث على مرأى من رجال مجمع تقدم العلوم البريطاني . ثم سجّلهُ في دائرة الباتنته وأجَّر حقوقهُ لمصنع جون هول وابنائهِ . ولكن في ١٤ يونيو سنة ١٨٤٧ حدث انفجار

هائل في المعمل دكّهُ من اساسهِ وقتل ٢٩ من رجالهِ . وحدث مثل هذا الانفجار في فرنسا .
والظاهر ان مساعي بذلت في النمسا لصنع قطن البارود فكان مصيرها القتل والتدمير . وظلّت
الحال كذلك الى ان اكتشف الكيماوي البريطاني فردريك آبل — كيماوي وزارة الحربية البريطانية —
طريقةً لجعلهِ مركّباً مستقرًّا وكان ذلك سنة ١٨٦٥

***

كانت التجارب الاولى بقطن البارود متجهة الى الحصول على مادة متفجّرة تصلح للاستعمال في
الاسلحة النارية ، ولكن الباحثين كانوا مهووسين بوجوب استعمالها كما يستعمل البارود . فكانوا
يسحنونهُ ويضغطونهُ ثم يحولونهُ الى حبيبات دقيقة . فكان مسحوقاً سريع الانفجار تصعب السيطرة
عليهِ ، ولكنهم وجدوا انهُ يصلح لبندقيات الرش

اما البارود الذي لا دخان لهُ فاستنبطهُ اولاً الكابتن شولتز احد ضباط المدفعية الالمانية
سنة ١٨٦٥ . وفي سنة ١٨٦٨ اكتشف احد مساعدي آبل — وكان اسمهُ برون — ان قطن البارود
الجاف يمكن ان يتفجر بالضغط ثم وجد ان لوحة من قطن البارود الرطب يمكن تفجيرها بضغط
جزء جافٍ منها . فافضى هذا الاكتشاف الى استعمالهِ في الاعمال العسكرية لان حفظهُ رطباً حال
دون تفجّرهِ اتفاقاً . ولا يزال الانكليز يستعملونهُ مع ان الالمان وبعض الدول على البرّ الاوربي
احلّت محلهُ مركب « الترينيتولوين » وهو اعنف تفجراً واسهل حفظاً

الاَّ ان بارود شولتز لم يصنع من القطن بل من نترجة nitrating الياف الخشب ، والمادة في كلا
القطن والخشب اساسها واحد وهو السلولوس ولكنهما تختلفان قليلاً . وباع حقوقهُ في النمسا
لمصنع فولكمن فعكف عليهِ كيماويوهُ وحسّنوهُ بتفتيت بناء الخشب الليفي بمعالجتهِ بمزيج في
الكحول والايثر . وبعد ان مضى هذا المصنع في صنعهِ سنوات حظرت الحكومة النمسوية صنعهُ
لانهُ يتعارض مع احتكارها لصنع البارود

ولما حاصر الالمان باريس في سنة ١٨٧٠ دعت الحكومة الكيماوي المشهور مارسلان برتلو
لمساعدتها فعكف على دراسة المتفجرات ومقدار ما ينطلق من المواد المتفجرة ، من الحرارة والطاقة
عند التفجر . واحتفظت الحكومة بخدماتهِ بعد انتهاء الحرب فأنشأ مصلحة حكومية غرضها
البحث في جميع الاختراعات ووجوه التقدم الخاصة بهذا الموضوع وتنظيمها . ومعظم ما يعرف عن
المتفجرات يرجع الى مباحثهِ . ومن أهم النتائج التي اسفرت عنها مباحث هذه المصلحة ، اكتشاف
ڤيي Vieille في سنة ١٨٨٤ ان قطن البارود يمكن تحويلهُ الى جسم هلامي (جلاتيني) القوام
بمعالجتهِ بمزيج من الايثر والكحول فيصبح معجوناً يمكن تحويلهُ الى حبوب او قدد ، ثم يجفف
المذيب الكحولي فتبقى مادة قرنية ، اذا اشعلت احترقت احتراقاً منتظماً في طبقات متوازية .

فدعيت هذه المادة « المتفجرة » مسحوق (B) . وحرف (B : هنا رمز الى الاسم بولانجه Boulanger ولكن لا يعرف على وجه التحقيق هل المقصود بولانجه وزير الحربية حينئذٍ او الاناء الذي كان قطن البارود يمزج فيهِ بمحلول الايثر والكحول وكان شائعاً حينئذٍ بين الخبازين . والخبّاز بالفرنسية « بولانجه » كذلك

وكذلك حلّت مشكلة تحويل قطن البارود الى بارود لا دخان لهُ يصلح للاستعمال في البندقيات والمدافع . وهذا البارود الجديد يفضل البارود الاسود القديم من وجوهٍ عديدة ، وما كاد يصنع حتى أفضى الى وجوهٍ جديدة من التقدم في الاسلحة نفسها

وبعد بضع سنوات تمّ صنع اصناف البارود الهلامي . في سنة ١٨٨٨ استنبط الفرد نوبل (صاحب جوائز نوبل المشهورة) مادة البالستيت Ballistite بمزج مقدارين متساويين تقريباً من النتروسلولوس (حيث مقدار النتروجين فيهِ قليل) والنتروغليسرين . وفي السنة نفسها عيّنت الحكومة البريطانية لجنة مؤلفة من السر فردريك آبل (F. Abel) والسر جيمس ديور (J. Dewar) فأسفر بحثها عن اكتشاف مادة الكورديت Cordite وهي مزيج من النتروغليسرين وقطن البارود (حيث مقدار النتروجين فيهِ كبير) وهلام معدني (الفازلين) . وقد جرى الجيش البريطاني والاسطول البريطاني على استعمال هذه المادة من وقتها ، حالة ان الفرنسيين قصروا استعمالهم على مواد لا يدخل النتروغليسرين فيها وتعرف انواع بارودهم ببارود النتروسلولوس . وقد كتبت فصول كثيرة للمقابلة بين مزايا النوعين من دون الوصول الى نتيجة حاسمة في تفضيل الصنف الواحد على الآخر . اما الايطاليون فقد اخذوا بأنواع البارود التي يدخل النتروغليسرين في تركيبها

***

اما في المانيا فصنع دوتنهوفر احد علماء مصنع روتويل للبارود ، باروداً جديداً من النتروسلولوس بعد تحويلهِ الى هلام بمعالجتهِ بالايثر الخلي Ascetic ether ولكنهُ ظلّ متأثراً بطريقة صنع البارود القديم بخفقهِ وضغطهِ وطحنهِ حبوباً صغيرة

الا ان السلطات العسكرية الالمانية ادركت الفائدة العظيمة التي جنتها حكومة فرنسا من البحث العلمي المنتظم في هذا الموضوع فطلبوا الى باحث يدعى « ول » Will وكان اكبر مساعدي الكيماوي هوفمن ان ينشيء للحكومة الالمانية مصلحة للقيام بهذا النوع من البحث . وعنيت صناعة الاسلحة والذخيرة الحربية في الوقت نفسهِ بانشاء فرع للمباحث العلمية في هذا الموضوع ، يدعى (سنترستال) . وكذلك نشأ في المانيا مقرّان لهذا البحث الواحد يقوم على تأييد الحكومة وبنفقاتها والآخر على تأييد مصانع السلاح وبنفقاتها ، فكان لكليهما اكبر شأن في ترقية صناعة الاسلحة والذخيرة الحربية في المانيا

وكانت المانيا تختلف عن فرنسا وانكلترا ، في ان الدولة لم تكن تملك مصانع الذخيرة ، فكانت المصانع الخاصة في المانيا مطلقة من القيود حرّة في تجربة التجارب لانشاء اصناف جديدة من المواد المفرقعة بناءً على ما تفضي اليهِ مباحث العلماء المختصين . وقد دلّت مباحثهم وتجاربهم على ان لكل من البارود المصنوع من النتروسلولوس والبارود المصنوع من النتروغلسرين دائرة خاصة يمتاز فيها . فبارود النتروسولولوس اصلح في رأيهم للبنادق ومدافع الميدان المتوسطة ، حالة ان بارود النتروغليسرين اصلح للمدافع الضخمة

فلما نشبت حرب افريقية الجنوبية تبين ان استعمال البارود الجديد يبري باطن المدافع بسرعة فعينت لجنة برآسة لورد راليه للبحث في هذه المشكلة وفي مشكلات اخرى تتعلق بالمواد الحربية المتفجرة . فحاولت اللجنة ان تقنع مصانع السلاح والذخيرة في انكلترا ان تنشىء مركزاً للبحث العلمي على طريقة « السنترستال » الالماني ولما عجزت عن ذلك ، انشأت فرعاً للبحث العلمي في مدرسة وولتش الحربية ، فكان لمباحثهِ شأن عظيم في الحرب الكبرى وبوجهٍ خاص في صناعة الكورديت

***

ومن الاكتشافات التي تستوقف النظر في السنترستال الالماني ، اكتشاف تين Thiene في سنة ١٩٠٦ لما يعرف باسم « سنترالّيت » واسمهُ العلمي « دايفنل - دايائل - يوريا » . فاذا اضيف مقدار يسير من هذا المركّب الى مسحوق النتروغليسرين وأُندمج المركبان احدهما بالآخر بضغط مداحٍ حامية ، تحوّل المزيج النتروسلولوس الى هلام من دون استعمال محلول طيّار لذلك الغرض . فيستغنى كذلك عن عملية التجفيف بعد الحل ويوفر ذلك الايثر والكحول او ثمن الاستون . ولا يخفى ان قلة الاستون في انكلترا في اثناء الحرب كادت تعرقل عمل الكورديت . ولولا قلة الغليسرين في المانيا في خلال الحرب الكبرى لكان في وسعها ان تصنع مقادير كبيرة من المتفجرات باستعمال السنترالّيت . يضاف الى ذلك ان اضافة السنترالّيت تجعل البارود اكثر استقراراً في تركيبه الكيماوي لانهُ يتحد بالمواد المنحلة وهي اذا تركت حرّة تقصر عمر البارود

وما لمسناه من الفرق في تحضير اصناف البارود واستعمالها ، نلمسهُ كذلك في المتفجرات العنيفة (ويرمز اليها بالحرفين H. E. اي High Explosives) التي تحشى بها القنابل . على ان هناك فرقاً واحداً في الحالين ، وهو ان الاقوال مختلفة في تفضيل بارود على آخر حالة انه لا اختلاف هناك في تعيين افضل المتفجرات لحشو القنابل

كان البارود يستعمل في حشو القنابل الى اواخر القرن التاسع عشر مع ان سبريغل Spregel كان قد بين سنة ١٨٧٣ ان الحامض البكريك يمكن تفجيره بكبْسولٍ يحتوي على احد املاح الحامض الفولمينيك . ولكن هذا الاكتشاف لم يسفر عن نتيجة عملية حتى بين توربين Turpin سنة ١٨٨٥

اسباب تفضيله على غيره لحشو القنابل لانهُ عنيف فعَّال وفي الوقت نفسه لا يتأثر بالحرارة ولا بالاصطدام اذا قيس بالمواد المتفجرة الاخرى . يضاف الى ذلك ان تحضيره لا يقتضي نفقة كبيرة لانهُ يحضَّر بنترجة الفينول (الحامض الكربوليك) وهو احدى المواد التي يمكن استخراجها من قطران الفحم الحجري . ولذلك عمدت الحكومة الفرنسية الى استعماله باسم مليفيت وتبعتها حكومات الدول الاخرى . فشرع الالمان يستعملونهُ سنة ١٨٨٨ وحذا الانكليز حذوهم حوالي ذلك العهد ولكنهم اطلقوا عليه اسم لديت Lyddite نسبة الى لِدّ Lydd حيث تجري مناورات المدفعية البريطانية

ولكن الالمان لم يرضوا عنهُ كل الرضا . لان درجة ذوبانه عالية فيصعب تذويبه وافراغه في الشكل المطلوب . ثم انهُ يأكل الرصاص وغيره من المواد فتتكوَّن مركبات خطرة . ثم وجدوا ان حوادث تفجره اتفاقاً اكثر مما كان يظن . فوالوا البحث في معهديهم فأسفر سنة ١٩٠٤ عن استعمال مركب التريفيتولوين ويرمز اليه عادة بثلاثة حروف .T. N. T وهو يفضل الحامض البكريك من جميع هذه النواحي . ومع ان انكلترا كانت عالمة بتقدُّم هذه المباحث في المانيا ظلَّت لا توليها العناية الوافية حتى نشبت الحرب الكبرى اذ ظهر ان مقدار الفينول اللازم لاعداد « اللديت » غير كافٍ فشرع قسم المباحث في اعداد المعدات لصنع مادة .T. N. T وكانت السرعة التي حوّلت بها المصانع لهذا الغرض سبباً في حدوث انفجارات عديدة أودت بحياة كثيرين . بل ان بعض القنابل المحشوة بمادة .T. N. T المحضَّرة على عجل في انكلترا كانت تنفجر في الميدان وهي في اسطوانات المدافع قبل اطلاقها فتمزقها وتقتل بعض المدفعيين . حالة ان شيئاً من هذا لم يقع في المانيـا . وسببهُ ان الالمان قضوا سنوات يبحثون ويجرّبون حتى اتقنوا معرفة جميع التفصيلات في هذه الصناعة الخطرة ، ولكن الانكليز لم يقبلوا على هذا البحث الا على عجل وبدافع الحاجة فاضطروا ان يقدموا على صناعة هذه المركبات الخطرة قبل ان يتقنوا جميع اساليبها

ومع ذلك ظلَّ الاسطول البريطاني محافظاً على استعمال الحامض البكريك في قنابله والى استعماله يعزى غرق طائفة من البوارج والطرادات البريطانية في معركة جتلند ، لانها كانت عند اصابتها ببعض قنابل العدو تنفجر قنابلها المحشوة باللديت من تلقاء نفسها فتغرق بمن فيها

اما المدرعات الالمانية فكانت لا تغرق الا اذا دمَّرتها قنابل الانكليز ، ومنها ما عطل عن العمل ومع ذلك لم يغرق

***

ليس الغرض من هذا المقال ان يكون بحثاً وافياً في الموادّ الحربية المتفجرة ، ولكن الغرض اقامة الدليل على الصلة بين البحث العلمي وتقدم صناعة المتفجرات ، بضرب بعض الامثال . ولعلّ القارىء يجد ابلغ مثل على هذه الصلة في الفصل التالي وهو ترجمة المحاضرة النفيسة التي القاها الدكتور شوشه بك في موضوع الغازات السامة وفعلها الفسيولوجي ووسائل مكافحتها والوقاية منها

الغازات الحربية

اصنافها وخواصها وفعلها والوقاية منها

للدكتور علي توفيق شوشه بك
مدير معامل الصحة

ان امم الارض قاطبة معنية اشد العناية الآن باعداد العدة للحرب الكيمائية . ولما كانت الحكومات تلتزم الكتمان الشديد فمن النادر ان يعرف ما تمّ لعلمائها في هذا الصدد . وقوانين الجيش في مختلف البلاد تحظر معالجة موضوع الدفاع ضد الغازات السامة معالجة وافية

وقد بذلت مساعٍ كثيرة ، رسمية وخاصة ، لاخراج المدن والمراكز الحافلة بالسكان من المناطق المعرضة للهجوم الجوي ، ولكن لا يحتمل ان تقنع الامم المتحاربة بقصر الهجوم الجوي على القواعد الحربية ، بل المرجح ان تستعمل الطائرات في المستقبل لمهاجمة القواعد الحربية ولتدمير بلاد العدو بوجه عام كذلك . والغالب ان الجانب الثاني من عمل الطائرات الحربية لا يكون عسكريًّا بالمعنى الدقيق بل يقصد به الى اضعاف القوة المعنوية في الشعب من الناحيتين النفسية والسياسية فيستولي عليهِ شعور الضعف واليأس ويغدو مثقلاً بكابوس الحرب شديد الرغبة عن مواصلتها

وكذلك تصبح الدول غير شاكية السلاح ، غنيمة باردة للدول المدججة بهِ التي تحركها المطامع العسكرية فلا تتورَّع عن مد نطاق الحرب حتى تشمل الشعوب الآمنة . ومصر معرضة لخطر الهجوم من الجو عليها ، فيجب على كل من يعنيه الامر ان يعد المعدات اللازمة لحماية شعب آمن اذا قضي الامر وامتدت الحرب الى هذه البلاد

وسائل الهجوم الجوي

قد تكون القنابر التي تلقيها الطائرات من الجو قنابر محشوَّة بمواد متفجرة او بمواد ملتهبة او بالغازات . اما القنابر المحشوة بالمواد المتفجرة والمواد الملتهبة فلا تستوقف نظرنا الآن لانها خارجة عن نطاق موضوعنا . وأما استعمال القنابر المحشوَّة بالغازات ففي وسع صانعيها حشوها بغازات سامَّة . وقد حل محلَّها من عهد قريب رشّ المواد السامَّة من طائرات صنعت خاصَّة لذلك

والغازات الحربية لا تزال على ما كانت عليهِ تقريباً عند خاتمة الحرب الكبرى ، على الرغم مما يقال مخالفاً لذلك . اما ما اذيع عن اهوال الغازات الحربية الجديدة وتأثيرها المخيف فقد دحضتهُ اللجنة المختلطة غير الدائمة التي عينتها جامعة الامم لتحديد السلاح . فقد قالت في تقريرها الخاص بالغازات

ما يلي : «وليس هنالك ما يسوّغ القول بانهُ في الامكان اختراع غازات حربية جديدة تفوق من ناحية فعلها العسكري على الغازات المعروفة الآن »

ومما يجب ان نوجه اليهِ النظر رأي فريق كبير من الاختصاصيين في جميع الامم ومؤدّاهُ ان القنابر المحشوّة بالمواد المتفجرة والملتهبة ، اذا اطلقت من الجو سواءٌ اطلقت مفردة ام في كميات كبيرة ، اشدُّ فعلاً من قنابر الغاز ، على شرط ان يكون جمهور الشعب قد درّب على اساليب الوقاية من قنابر الغاز وانذر بنوع القنابر التي تلقى عليهِ . يضاف الى هذا أن التدمير الذي تحدثهُ قنابر الغاز اقلُّ من التدمير الذي تحدثهُ القنابل المتفجرة والملتهبة

والغازات المستعملة في الحرب قليلة . فثمة الكلور اولاً والفوسجين ثانياً . وهما غازان بالمعنى العلمي الدقيق . واما المواد الكيمائية الاخرى المستعملة في الحرب ، فسائلة وهي ترشُّ في قطيرات دقيقة جدًّا ، فتبدو في الجوّ كأنها رشاش او غبارٌ او غيم

خواص المواد الكيمائية الحربية

ولا يستعمل من المواد الكيمائية الحربية الاّ ما كان منها متصفاً بالخواص الآتية : —

اولاً — يجب ان يكون مقدار صغير من المادة الكيمائية كافياً للحصول على نتيجة كبيرة وقد استنبط العلاّمة هابر نسبة رياضية دقيقة بين المقدار المستعمل من الغاز الحربي او السائل الحربي وتأثيره وهي م × و = ف حيث الحرف م يرمز الى المقدار والحرف و يرمز الى الوقت والحرف ف الى الفعل او التأثير . ومقدار الغاز يحسب بالملغرامات في سنتمتر مكعب من الغاز الذي يستنشقهُ الانسان . والوقت يشير الى المدة التي تنقضي بين بدء الاستنشاق وظهور الفعل الضار في الانسان . فاذا ضربت الكمية الاولى في الكمية الثانية كان الحاصل دليلاً على فعل الغاز الضار

ولذلك لا يمكن ان يحسب اول اكسيد الكربون (Co) غازاً حربيًّا ، مع انهُ يعدّ نفسهِ غاز سامّ ولكن لا يمكن تركيزهُ تركيزاً كافياً حتى يكفي مقدار صغير منهُ لاحداث تأثيرهِ السام . وما يقال عن غاز اول اكسيد الكربون يصحُّ كذلك على الغاز الايدروسيانيك

ثانياً — يجب ان يكون الغاز السام في حالتهِ البخارية اثقل من الهواء ، اي ان ثقلهُ النوعي يجب ان يكون اكبر من ثقل الهواء النوعي لئلاَّ يرتفع في الهواء فلا يؤثر في الذين اطلق عليهم على سطح الارض . ولذلك نجد جميع المواد الكيمائية الحربية اثقل من الهواء

ثالثاً — يجب ان يكون طيّاراً حتى يمكن انتشارهُ في الهواء رشاشاً او بخاراً او غباراً او غيماً

رابعاً — يجب ان يكون مستقرَّ التركيب فلا تؤثر فيهِ عناصر الهواء وبوجه خاص اكسجين الهواء وبخارهُ المائي

خامساً — يجب ان يكون مستقرَّ التركيب كذلك لا يمكن حلُّهُ بمواد تطلق عليهِ في سبيل الوقاية منهُ

سادساً — من الخواص التي يجب ان ينظر اليها عند اختيار غاز حربي مدى انحلاله في الماء . فالمواد التي يسهل انحلالها في الماء لا تصلح في الغالب لهذا الغرض صلاح المواد التي لا تنحلُّ في الماء مطلقاً او تنحلُّ انحلالاً يسيراً . لان المواد الكيمائية الحربية التي تنحلُّ في الماء يغسلها ماء المطر فتضيع جزافاً

تقسيم الغازات الحربية

يمكن تقسيم الغازات الحربية وفقاً لاعتبارات مختلفة . ولكن التقسيم الذي يهمُّنا بوجه خاص في كلامنا الآن قائم على تأثيرها في الجسم اي تقسيمها من الناحية الطبية . وعلى ذلك يمكن تقسيم الغازات السامة اربعة اقسام

اولاً — الغازات التي تؤثر في اغشية العين وتعرف باسم (غازات الدمع)

ثانياً — الغازات التي تؤثر في القسم الاعلى من جهاز التنفس اي الانف والحلق وتعرف باسم (طائفة الصليب[1] الازرق)

ثالثاً — الغازات التي تؤثر في اغشية الرئتين وتعرف باسم (طائفة الصليب الاخضر)

رابعاً — الغازات التي تؤثر في الجلد وتعرف باسم (طائفة الصليب الاصفر)

غازات الدمع

اهم الغازات التي في هذه الطائفة غازا « بروم اسيتون » Brom—aceton وزيليلبروميد Xylylbromide . والغازات الدمعية مما يسهل نشره بالرش وهي تهيج اغشية العين ولو استعملت في محلولات ضعيفة ؛ فتحمل العيون على سكب الدموع وتحدث العطاس . وهي تلتصق بالملابس وتظل لاصقة بها حتى بعد تطهيرها وتعقيمها . وبقاء آثار يسيرة منها لاصقة بالملابس بعد التطهير والتعقيم يسبب التدميع والعطاس

فاذا استعملت هذه الغازات في محلولات ضعيفة كانت تأثيرها مؤقتاً . فالتهاب اغشية العين يزول بعد مدة قصيرة على اثر استعمال المكمدات الباردة . اما اذا استعملت في محلولات قوية فانها تحدث عسر التنفس وسعالاً تشنجياً والتهاباً في الشعب الرئوية

ويمكن الاستدلال على وجود هذه الغازات في الهواء برائحتها اللاذعة المهيجة لغشاء الانف والعين . وقد استعملت في اميركا في تسكين هياج الجماهير والقبض على المجرمين . بل قيل ان غير بنك واحد في اميركا ثبت في جدران ساحته انابيب تنطلق منها هذه الغازات عند الحاجة اليها اي عند هجوم فريق من اللصوص او الاشقياء عليه

اما اسعاف المتأثر بها فيتمّ بوضعه اولاً في الهواء الطلق وتغيير الملابس واستعمال المكمدات الباردة والراحة ثم معالجة الالتهاب بالوسائل الطبية المعروفة

(١) استعمل الالمان علامة الصليب بألوان مختلفة على القنابر الغازية تسهيلا لمعرفتها فعرفت باسم الصليب الازرق او الاخضر او الاصفر

طائفة الصليب الازرق

تشتمل هذه الطائفة من الغازات على مواد عضوية هي خليط الايدروكربونات الزرنيخية والكلوريدات ، وهي تحدث تهيجاً عنيفاً ولكنها تؤثر في الغالب في الانف والحلق وقد تسبب التقيؤ وتستعمل على الاكثر رشاشاً دقيقاً فتراها كأنها غيمة بيضاء او رمادية اللون . وهي اثقل من الهواء طبعاً وتبقى مدة طويلة في المنطقة التي رش فيها

ومن خواصها العجيبة انها تخترق الكمامات العادية الواقية من الغاز ولذلك أطلق عليها اسم « مخترقة الكمامات » . ويمكن الحيلولة بينها وبين الكمامات باستعمال مصفاة من الورق النشاف توضع أمام الكمامة . ومقدرتها على اختراق الكمامات العادية حملت بعضهم على استعمالها أولاً فيضطر الجندي الذي اخترقت هذه الغازات كمامتهُ ان يرفعها عن وجههِ وعندئذٍ تطلق عليه الغازات الخانقة من طائفة الصليب الاخضر . وفعلها مفصل في الفقرة التالية . اما اعراض الاصابة بغازات الصليب الازرق واساليب معالجتها فتشابه اعراض الاصابة بالغازات الدمعية واساليب معالجتها

طائفة الصليب الاخضر

﴿ الفوسجين ﴾ اهم غازات هذه الطائفة هي الفوسجين والبرستروف والكلوروبكرين . فالفوسجين ($COCl_2$) غاز من اشد الغازات فعلاً ساماً . وهو غاز لا لون له، قوي الرائحة تشبه رائحته رائحة التبن الفاسد، اثقل من الهواء ثلاثة اضعاف . فاذا اضيف الى الماء انحلَّ الى ثاني اكسيد الكربون والحامض الايدروكلوريك . ويفوق في شدة فعله السام الحامض الايدروسيانيك ثلاثة اضعاف . فالمتر المكعب من الهواء اذا كان يحتوي على ٤٥ ملغراماً من هذا الغاز كان خطراً على مستنشقهِ . فاذا استنشق منهُ ما مقداره ثلاثة ملغرامات ونصف ملغرام (٣٫٥ ملغرام) في الدقيقة كان مميتاً . ومما يجب ان يذكر ان الهواء المحتوي على مقادير يسيرة من الفوسجين، لا يسبب اعراضاً ما عند استنشاقه ، ولكن أثره يتجمع فيصبح مميتاً اذا طال زمن الاستنشاق . فاذا رش المكان الذي يكون فيهِ هذا الغاز بالماء النشادري انحل وزال . واذا كان هناك مقدار يسير منهُ في الهواء كانت رائحة الهواء تشبه رائحة التفاح الفاسد . لذلك كان الجنود يدعونهُ في خلال الحرب غاز التفاح . وهو يختلف عما تقدم من الغازات المهيجة في انهُ يؤثر في اجزاء الرئتين العميقة

فهو يهيج أدقّ أطراف جدران الرئتين عند انحلاله بامتزاجهِ بالماء الذي في مجاريهما وتحوّله بعد الانحلال الى حامض ايدروكلوريك وثاني أكسيد الكربون . وقد يؤثر تأثيراً مباشراً في جدران الرئتين . واذا كان مقداره في الهواء يسيراً (من ٥ ملغرامات الى ١٠ ملغرامات في المتر المكعب) لا يهيج الافعال العكسية الدفاعية في الجسم مثل السعال والاختلاج الشعبي وكذلك يمكن أن يستنشقه المرء وهو لا يدري

يحدث استنشاق هذا الغاز نزيفاً في الاغشية المخاطية وانتفاخاً شديداً (اوذيما) في الرئتين ، ويتلف مخاريب الرئتين ، فيختنق مستنشقهُ في سائلهِ الدموي . ويتضخم حجم الرئتين حتى تبلغا من اربعة اضعاف الى ستة اضعاف حجمهما السويّ وتبدوان كأنهما مضغوطتان بين الاضلاع . ولما كان الارتشاح من الرئتين كثيراً ، فالدم يتركز بسرعة فيسفر ذلك عن وجود تخثر دموي محمرّ الى السمرة في جميع الاوعية الدموية وفي القلب كذلك . ثم ان جدران المخاريب تصبح مما يسهل على الدم اختراقهُ فتمتلىء بالسائل الدموي وكذلك تظهر اعراض الاوذيما الحادة . ومما يشار اليهِ في هذا الصدد ان حالة الاوذيما تتكوَّن ببطءٍ اولاً ثم بعد بضع ساعات تظهر اعراض الاختناق الشديد

واذن هناك فترة حضانة بين استنشاق الغاز وظهور الاعراض . ففي حالات التسمُّم الخفيفة لا تبدو عليها علامات خطرة خلال بضع ساعات ، بل قد تبدو انها تتحسن تحسناً يسيراً . ثم ان القلب والدورة الدموية يتأثران عندما يبدأ الدم ، بتركزهِ ، يحتك بجدران الاوعية الدموية الكبيرة

فالحالات « الخفيفة » تظهر فيها علامات التهيج في جهاز التنفس وعلامات التهاب شعبي منتشر يعقبهُ الشفاء السريع

والحالات « المعتدلة » يخفُّ انتفاخ الرئتين (اوذيما) تدريجاً فيها

وفي الحالات « الشديدة » يزداد عسر التنفُّس خلال بعض ساعات بعد استنشاق الغاز وتحدث الوفاة بالاختناق عقب ألم شديد . فاما أن يبقى المصاب فاقد الوعي أو يصاب بحالة هبوط سببها ضعف الدورة الدموية . ففي الحالات الاولى يكون لون الجلد مزرقّاً وفي حالة خور القلب يصبح شاحباً . أما البصاق فيكون رغوة مصفارّة ، او حمراء الى السمرة . وقد تفضي نوبة السعال الى تمزيق نسج الرئة وقد يحدث حينئذٍ اما انتفاخ البلورا واما انتفاخ عام

ويعقب التسمُّم الشديد بعد بضعة ايام الاصابة بالنزلة الرئوية الشعبية (برونكو نيمونيا) ومن مضاعفات هذه الحالة انتفاخ الوجه والاصابع ونزيف في الشبكية والاغشية المخاطية ويقترن مصير المريض النهائي بحالة قلبهِ ونبضهِ . ويجب ان ينعم المصابون بالراحة التامة لاجتناب كل جهد عضلي فيقلّ بذلك مقدار ما تستهلكهُ الاعضاء من الاكسجين

والعادة ان المصابين الذين يتحملون الثلاثة الايام الاولى من الاصابة يكن عقد الرجاء على شفائهم . فن المتعذر ان يعرف الطبيب ، عند حصول التسمُّم ، مبلغ شدة الاصابة او خفّتها ، ولا يمكنهُ ان يعين الانذار النهائي . فقد لا تبدو على المصاب اعراض خطرة في فترة الحضانة ، بل قد تظهر عليهِ احياناً بوادر التحسُّن ، ولكن الوفاة قد تقع احياناً بعد انقضاء بضع ساعات على ذلك بسبب انتفاخ (اوذيما) الرئتين . وانما يمكن ان يقال ان اكثر الوفيات تحدث في الايام الثلاثة الاولى وتقل بعد اليوم الخامس ويقوى الامل في الشفاء بعد اليوم الثامن

ومن اخطر ما يتعرض لهُ المصاب من بدء التسمُّم الى حين الشفاء ، الجهد العضلي ، وذلك

بانتفاخ الرئتين وتركز الدم وضعف القلب . فالمصابون بالغاز السام لا يسمح لهم بالتحرك ويجب ان ينقلوا نقلاً رفيقاً من مكان الى مكان ، لان بذل الجهد العضلي يفضي في الغالب الى الوفاة بخور القلب وبعض المصابين يبقون بعد اليوم الثامن مصابين بالتهاب الشعب والربو ويظل القلب متعباً مدة طويلة

﴿ البرستوف ﴾ ويعرف هذا الغاز باسم « سوربالیت » بالفرنسية وباسم داي‌فوسجين بالانكليزية . وهو شبيه بالفوسجين الاَّ انهُ اشدُّ منهُ فعلاً فثقلهُ ضعف ثقل الفوسجين بل هو سائل لا لون لهُ ودرجة غليانهِ ١٢٨ درجة مئوية . يرش على الارض والملابس فيلبث لا يتطرق اليهِ الانحلال بضع ساعات . اما الابخرة المتصاعدة منهُ فتهيج جهاز التنفس اكثر مما يهيجها غاز الفوسجين . ثم ينحلُّ في الرئتين كما ينحل الغاز السابق

﴿ العلاج من الاصابة بالغازين ﴾ وتقتضي معالجة المصابين بهما نقلهم حالاً من منطقة الغاز الى الهواء الطلق وتغيير ملابسهم بل يجب اخراج الملابس من حجرة المصاب بسرعة لان الغاز يلصق بها مدة طويلة — واجتناب كل جهدٍ عضلي — واستعمال غسولٍ خفيف مثل محلول الحامض البوريك أو محلول ملحي فسيولوجي برمنغنات البوتاس (واحد في الالف) لتخفيف التهاب الاغشية المخاطية — وغسل العينين بمحلول سلفات الزنك (قوة نصف في المائة) او دهنهما بمرهم كربونات الصوديوم (قوة ٢ في المائة) لتخفيف تهيجهما — استعمال محلول خفيف من الاتروبين لمعالجة نفور العينين من الضوء — واستنشاق بخار الماء لتخفيف تهيج جهاز التنفس — وحقن حقن تحت الجلد (٤٠٠ - ٨٠٠ سنتغرام من محلول كلوريد الكلسيوم قوة واحد في المائة وغلوكونات الكلسيوم) لتخفيف انتفاخ (اوذيما) الرئتين — الامتناع عن التنفس الصناعي في حالة انتفاخ الرئتين لما تقتضيه حركاته من الجهد العضلي ويجوز استنشاق الاكسجين الصرف — فاذا تعسر التنفس يحقن تحت الجلد بحقن لوبيلين (٠٠٠٥ر٠ الى ٠١ر٠) او بحقن كافور

اما حالة تركز الدم قبل حصول انتفاخ الرئتين فالفصد خير علاج لها . وانما يجب على الفاصد ان يلاحظ ان الدم يكون كثيفاً في الغالب وانهُ يتخثر في الاوردة . في هذه الحالة يمكن فصد الشرايين على ان تربط حالاً بعد ذلك . ويمكن فصد مقدار من الدم يختلف من ٥٠٠ سنتمتر مكعب الى ٧٠٠ او الى الف . ويفضل ان لا يكون الفصد مرة واحدة بل مراراً حتى يسع القلب ان يلائم حملهُ لقلة الدم الناجمة عن الفصد . ولتخفيف ما يخسره المصاب من الدم يحقن المفصود على دفعات ، بمحلول ملحي فسيولوجي . ويستعمل لتخفيف تركيز الدم حقن قطَّارة ويعمد الى شرب المياه المعدنية القلوية

ويستعمل لتنبيه القلب الكارديوزول او الكافيين او الديجيتالس او حقن وريدية من الغلوكوس بمقدار ٣٠ الى ٥٠ سنتمتراً مكعباً بقوة ١٥ الى ٢٠ في المائة . ولما كانت المواد المخدرة وخاصة المورفين ضارة فيحسن استعمال قطرات من القاليريانا والبرومور . ومما يستعمل لتخفيف الظمإ اللبن الساخن والشاي والقهوة وعصارة الفواكه والمياه المعدنية ويفضل استعمال الغذاء المائع

طائفة الصليب الاصفر

اهم الغازات في هذه الطائفة غاز اسمهُ الكيماني «دايكلور داي اثيل سلفيد» ويعرف باسم غاز الخردل وهو غاز شفاف كالماء يذوب في الكحول والاثير وينحل انحلالاً متدرجاً في مقادير كبيرة من الماء له رائحة مثل رائحة الخردل الخفيفة او البصل واذا كانت مقادير صغيرة منهُ منتشرة في مقادير كبيرة من الهواء تعذر تبينهُ برائحته . وقد استعمل في الحرب الكبرى للدفاع بنشره بواسطة قنابر تحشى بهِ في مناطق واسعة . وهو غاز بطيء الفعل ولكنهُ شديده . فما ينتشر منهُ في الهواء الغائم يظل فعالاً مدة طويلة واذا كانت الحرارة معتدلة احتفظ بفعله اياماً بل واسابيع . ولكن ضوء الشمس والمطر يضعفان من فعله كثيراً

وهو يحلّ بفعل محلول كلورو الجير او المستحلبات التي تصنع منهُ وعوامل الاكسدة كما يحلّ بغسلهِ بالماء . فالمناطق التي يبث فيها هذا الغاز يجب ان تغسل بالماء ، او بما يفضل الماء في هذا الصدد وهو محلول كلورو الجير . واذا اذيب الكلورامين في الماء كان المحلول مما يزيل فعلهُ السام

وانما يجب ان يراعى في استعمال محلول كلورو الجير ان لا يتصل بالغاز في حالتهِ المركزة لان مقادير كبيرة من الغاز تبخر قبل انحلالها بالاكسدة وهذه الابخرة تحرق الجلد وجهاز التنفس

وموضع الخطر في استعمال هذا الغاز مقدرتهُ على تخلّل الملابس جميعاً وحتى الجلد . فالذين تقضي اعمالهم بالسير في مناطق بث فيها هذا الغاز يجب ان يرتدوا الملابس التي تحول دون تخللهِ اياها

ومن اسهل ما يكون ان يتعوّد عصب الشمّ رائحة غاز الخردل ، فيعتقد من تعوّد عصبهُ هذه الرائحة ان الغاز قد زال من المنطقة التي يكون فيها ، مع ان الغاز يكون باقياً فيها . وقد تنقضي ساعات بعد استنشاق الغاز ، قبل ان تظهر اعراض التأثر بهِ ولذلك يعسر على مستنشقه ان يعيّن الساعة التي استنشقهُ فيها اولاً . وخير وسيلة لدرء خطره عند اجتياز منطقة بثّ فيها ان تغطى الاحذية بدثار مبلول بمحلول الكلورامين . اما الملابس التي لصق بها هذا الغاز فيجب الاّ تعلّق في البيوت والمثاوي بحيث تنتشر منها دقائق الغاز في الحجر . والغالب ان تتحرك غيمة غاز الخردل في جهة هبوب الرياح على سطح الارض ولكنها قد يستقرّ جانب منها في حفرة او خندق ، او تتغلغل في الادوار التي تحت الارض من المباني كما يفعل غاز الكلور وغاز ثاني اكسيد الكربون

﴿ فعلهُ ﴾ هذا الغاز لا يؤثر في المرء على الفور ، فلا يحسّ من يتعرض لهُ بحكة او حرق في جلده ، ولكنهُ يتخلل الجلد في خلال ثلث ساعة . وانما يتوقف اختراقهُ للجلد على بنائهِ التشريحي فجلد العنق والابط والذراع والصفن اسرع تأثراً بهِ من جلد الكفين والقدمين . ويظهر على الجلد عند تأثره بهذا الغاز بقع حمر لا تلبث ان تتخذ شكل الفقاعات الناشئة عن الحرق بالنار . واذا استنشق المرء ١٢ ملغراماً منهُ في الدقيقة افضى ذلك الى تلف الرئتين . ولا يخفى ان المصاب بغاز الفوسجين يضيق نفسهُ فيحاول عبثاً استنشاق نسمة من الهواء ، واما المصاب باحد غازات الصليب الاصفر

فيجلس ساهماً محدقاً في الفضاء . وتتأثر العينان بهذا الغاز فتتقيحان وتتلف ملتحمتهما وقرنيتهما، بل تتلف العين كلها. واذا كان مقدار الغاز في متر مكعب من الهواء يختلف من عُشْر سنتمتر مكعب الى خمس سنتمتر مكعب اثر في الاغشية المخاطية فاذا بلغ المقدار من سنتمتر واحد الى ثلاثة سنتمترات مكعبة في متر مكعب من الهواء كان استنشاق هذا الهواء مميتاً

ويشبه غاز الخردل في فعله غازاً آخر يدعى « لويسيْت » وهو خليط من كلورو فينيل ارسين دي كلوريد وداي كلور دي فينيل ارسين كلوريد وتراي كلور تري فينيل ارسين كلوريد

﴿ علاجهُ ﴾ افضل طريقة لعلاج تأكل الجلد استعمال كلورور الجير ويمكن دهن الجلد به جافاً او معجوناً ، فبه يستطاع منع تلف الجلد في الدقائق الاولى من اتصال الغاز به . وبعد انقضاء عشر دقائق لا يبقى الاّ احمرار خفيف او نفاطات خفيفة . واذا كان مقدار غاز الخردل الراسب على الجلد كبيراً وجب ان يغسل ويمسح بكلورور الجير حالاً واذا كان الجلد قد اصيب بالتهاب فيجب ان يستعمل كلورور الجير في غسل الجزء المجاور للبقعة الملتهبة لوقايته . وبعد ذلك يجب ان يغسل مدة ساعة او ساعتين بمحلول دا كين او محلول كارل . اما الاول (اي محلول دا كين) فؤلف من ٢٠ غراماً من كلورور الجير و١٤ غراماً من كربونات الصوديوم في لتر من الماء تخض خضاً عنيفاً مدة نصف ساعة . ثم يرشح المحلول ويعدَّل باضافة اربعة غرامات من الحامض البوريك . واما المحلول الثاني (اي محلول كارل) فؤلف من ١٢ غراماً ونصف غرام من كلورور الجير تسحق جيداً مع قليل من الماء حتى تصبح معجوناً ثم يضاف اليهِ الماء رويداً رويداً حتى يصبح حجم الكل لتراً واحداً . وبعد الخض جيداً يضاف ١٢٫٥ غرام من الحامض البوريك ويخض الكل جيداً ثم يرشح المحلول . وجميع المحلولات التي يدخل كلورور الجير في تركيبها لا يمكن حفظها مدة طويلة فيجب ان تحضر قبيل الاستعمال . واذا تعذر الحصول على كلورور الجير فيمكن استعمال برمنغنات البوتاسيوم (قوة نصف في المائة) او كلورامين (قوة ١ في المائة) او ماء الصابون عند الاضطرار . ثم يفرك الجلد بالفازلين وعلى الطبيب ان يلبس قفازاً من الجلد في خلال قيامهِ بهذه الاسعافات . اما المناشف التي يستعملها فيجب اما ان تحرق وإما ان توضع في محلول كلورو الجير . والملابس التي تخللها غاز الخردل يجب ان تغسل حالاً بمحلول كلورور الجير في ماء صابون ساخن

وقد تشق النفاطات على ان تتخذ الاحتياطات المانعة للفساد في شقّها، ولكن جلدها يجب ألاّ يقطع لان الجلد افضل واقٍ للنسج الحساسة التي تحتهُ . ويجب كذلك الامتناع عن تضميد النفاطات والقروح المشقوقة بضمادات رطبة . او رشها بمسحوق ما . ويمكن تجفيف جرح رطب بالهواء الساخن ثم يغطى بالفازلين ويشار باستعمال الفازلين مع مادة مخدّرة في حالة الالتهابات والنفاطات الاليمة

اما العيون الملتهبة فيجب ان تغسل مرة كل ساعتين او ثلاث ساعات بمحلول بيكربونات الصودا ، ثم يلي ذلك دهنها بمرهم قلوي . ثم ان دهن العينين بالفازلين يفيد في وقاية العين من فعل غاز

الخردل ويعالج تآكل الاغشية المخاطية في مسالك الانف والحلق باستعمال البخار الصاعد من ابريق النزلة الشعبية ويمكن تخفيف السعال باستعمال الكوداين والبوكوداين

وسائل الدفاع

تختلف المشكلات التي يتعرَّض لها جمهور الشعب وتتحتم عليه معالجتها ، في الوقاية من قنابر الغاز ، عن المشكلات التي يتعرض لها الجيش . وقد اجمعت الامم الاوربية بعد الحرب الكبرى على ان الدفاع العسكري وحده لا يكفي لحماية الشعب الآمن ووقايته الصحية . فاتخذت الوسائل اللازمة لتنظيم هذا الدفاع . فيقسم الشعب الى طائفتين احداهما صغيرة وتعرف بالطائفة الفعَّالة active ، وهي تشتمل على رجال البوليس والمطافىء وجمعيات الاسعاف والاطباء وعمال النقل . اما الطائفة الاخرى فتشتمل على بقية الشعب . فالطائفة الاولى تجري على قواعد معيَّنة اهمُّها تحذير الجمهور من هجوم جوّي منتظر وانباؤهُ به عند وقوعه وعند انتهائه والمحافظة على النظام والامن العام ونشر غشاء من الضباب للتخفي عن المهاجمين واسعاف المصابين بالعناية الطبية اللازمة وتنظيف الشوارع والمباني باستعمال المواد الكيمائية التي تغسلها او تحلُّها

ولا ريب في ان فائدة كبيرة عامة تجنى من تنفيذ هذه الوسائل تنفيذاً دقيقاً ولكنها قلما تجدي في وقاية افراد الطائفة الاولى وكل منهم بمثابة الجندي العامل يكون دائماً في مواقع الخطر . ففي حالة هؤلاء تستعمل الكمامات . والكمامات المعروفة باسم S تنطوي على احدث وجوه التقدم في هذه الصناعة . وهي تشبه الكمامة العادية في انها تصنع من ثلاثة حجوم ولها صمام خاص لزفر النفس فلا تدخل رطوبة الهواء المزفور المرشح الذي داخل الكمامة ومن المعروف ان الرطوبة تقصر مدة فائدته . اما رجال فرق اطفاء النار ورجال الاسعاف فيجب ان يجهزوا بأجهزة تمدهم بالاكسجين عند الحاجة . ولما كانوا يتعرضون لغازات الصليب الاصفر وجب ان يرتدوا ملابس وقلانس وقفازات واحذية تقي من فعل هذه الغازات . واستعمال مقادير كبيرة من الماء وكلورور الجير في تنظيف المناطق التي غشيها الغاز يعرضهم لتطرق بعض دقائق الماء ومقادير غير يسيرة من كلورور الجير الى مرشحات التنفس داخل الكمامات ، فتبطل فائدتها . فيقترح في هذه الحالة استعمال مرشَّح واقٍ لتغطية مرشح التنفس . وهذا المرشَّح يصنع عادة من مادة يخترقها الهواء دون الماء

اما جمهور الشعب فمن المتعذر ان يجهز بالكمامات فالثمن كبير والكمامات لا فائدة منها الاَّ اذا استعملت كما يجب ان تستعمل وحفظت سليمة من العطب بفحصها فحصاً دوريًّا وهذا الفحص لا يمكن ان يتمَّ الاَّ في حجرات صنعت خاصة لذلك . والغالب ان السواد من الشعب لن يعنى بجميع هذا عناية وافية . يضاف الى هذا ان العناية الفردية غير لازمة اذا اتبع الجمهور التوصيات اللازمة للوقاية الاجماعية . فاذا أعدت ملاجىء لوقاية طوائف كبيرة من الشعب من تأثير الغازات اصبحت العناية الفردية غير ضرورية فالذين يتفق وجودهم في الشوارع او الميادين اويمحون الدور عند وقوع الهجوم الجوّي يتعرَّضون

خطر قنابر الغاز التي قد تنفجر على مقربة منهم . فشعار هؤلاء يجب ان يكون الفرار من الميادين الى اقرب دار واذا دخلوها يجب ألاَّ يقتربوا من الباب. واذا تعذر عليهم وجود دار على مقربة منهم فليبحثوا عن اي منخفض في الارض ويستلقوا فيهِ ووجوههم الى سطحها . اما اذا كانوا خارج المنطقة التي تلقى فيها القنابر فليبقوا حيث هم . فمحاولتهم مساعدة غيرهم عبث علاوة على تعرضهم لاعظم المخاطر

ثم ان الطبقات الارضية والتي تحت الارض (البدروم) افضل الامكنة في الدور المختلفة للالتجاء اليها . وقد ثبت في خلال الحرب الكبرى ان هذه الطبقات تقي من تركيز غازي في الهواء يفوق اي تركيز عرف حينئذٍ. اما الطبقات العليا فمعرَّضة للهدم بوقوع القنابر المحشوة بالمواد المتفجرة عليها . يضاف الى هذا ان الطبقات التي تحت سطح الارض لا نوافذ لها في الغالب او لها نوافذ قليلة وصغيرة فيمكن سدُّها سدًّا محكماً . ويفضل ان يكون امام « البدروم » دهليز يحول دون دخول الغاز مباشرة الى الحجر حيث يتجمَّع اللاجئون ، ويستعمل لتنظيف المتأخرين في دخول « البدروم » مما يكون قد علق بهم من الغاز

اما عدد الذين يسعهم اللجوء الى «بدروم» ما فيختلف باختلاف سعته . وقد حسب الحاسبون ان المرء يحتاج الى متر مكعب من الهواء في الساعة . فاذا اضطرَّ ان يبقى في مكان ما ثلاث ساعات استنفد الاكسجين من ثلاثة امتار مكعبة من الهواء . وانما يجب ان يلاحظ انهُ رغبةً في الحيلولة دون استنفاد مقدار زائد من اكسجين الهواء يجب ان يمنع التدخين والانارة باشعال شموع او ما اليها والحركة

ومما يستعمل لسد هذه الحجر وجعلها منيعة على الغاز وضع لوحين من الخشب على كل نافذة بينها اكياس من الرمل . واذا كانت الالواح مصنوعة من قدد فيجب ان تسد الفواصل بين القدد بقدد ضيقة توضع فوق الفواصل . ويحسن ان يغطى اللوح الداخلي بورق يلصق عليهِ بالغراء. اما الابواب فتسد سدًّا محكماً بتغطيتها بقددٍ من اللباد المغموس في زيت او اية مادة عازلة او قد يستعمل ورق مطوي عدة طيات . وتسدُّ ثقوب المفاتيح بالقطن . واذا لم يكن بين البدروم ودهليزه باب ، وجب فصل احدهما عن الآخر بملاءات كثيفة مغموسة في محلول الصودا . ويجب ان تكون الملاءات طويلة حتى تدلى على الارض حيث تثبت عليها باثقال منعاً لتسرب الغاز من الفاصل بين طرفها الادنى وارض الحجرة

واذا انقضت مدَّة وفريق من الناس محصورٍ في ملجإٍ من هذا القبيل ، يقل الاكسجين في هواء الغرفة ويكثر ثاني اكسيد الكربون فيجدَّد الهواء باستعمال خراطيش صوديوم بيروكسيد فتثبت ثاني اكسيد الكربون وبخار الماء وتطلق الاكسجين او باستعمال قنابر الاكسجين لزيادة اكسجين الهواء وفي الوقت نفسه تبيض بالجير الجدران فيثبت ثاني اكسيد الكربون

ويجب ان تكون هذه الملاجىء مجهزة ببطريات جافة للاضاءة او بمصابيح كهربائية من نوع مصابيح الجيب ويتحتم الامتناع عن انارة الشموع او اي ضوء ذي لهب . ويجب ان تكون فيها جميع وسائل الراحة والغذاء والاسعاف الاولي ومكافحة النيران والماء للشرب والغسل

الشاعر والمرأة

للشاعر علي محمود طه

قصيدة أخرى ، من ملحمة البعث الاول التي نشرنا احدى قصائدها في «مقتطف يونيو» ، وفي هذه القصيدة حديث عذراء الى صواحباتها عن فن الرجل وكن يقرأن لها شيئاً من اشعار شاعر ضمنها اتهام امرأة باغراء فنان شاب ، كان يرى فيها روحاً للجمال والفن ، فأصبح يراها كلها مادة من جسد يشتهى :

كفانا فقد جُنَّ هذا الفتى — وجاوز حدَّ الكلام المباحْ
نكاد نُحسُّ اختلاجَ النجوم — ونسمعُ مضطرباً في الرياحْ
مريضُ الغريزةِ فتّا كُها — حبيبَتُهُ الطبيعةُ أمضى سلاحْ
سَقَتْهُ الشياطينُ محمومَها — فحَّ الرحيقَ وذمَّ الصباحْ

***

تأثّم بالفنِّ حتى غوى — وما الفنُّ بالمرأةِ الخاطئه
هو الدمُ واللحمُ ما يشتهي — هو الخمرُ والمتعةُ الطارئه
وكم في الرجالِ سُعارُ الوحوش — اذا لمسوا الجثّةَ الدافئه !
فلا تذكري فنَّ هذا الفتى — بل الحيوانيةَ الخاسئه !

***

رأى جسمَ حوّاءَ فاشتاقهُ — فهاجتْ بهِ النزوةُ المسكرهْ
حوى جسمَها فاشتهى روحَها — فثارتْ بعزّةِ مستكبرهْ
محتْ روحها وتأبّتْ عليهِ — فجرّدَ في وجهها خنجرهْ
وهمَّ بها فالتوى قصده — فأرسل صيحتهُ المنكرهْ

ألم ينسم الخلدَ من عطرها ؟ ألم يعبدِ الحسنَ في زهرها ؟
ألم يسرق الفنّ من سحرها ؟ ألم يقبس النورَ من فجرها ؟
شَفَت غلّةَ الفنّ حتى ارتوى وإنْ دنَّس الفنُّ من طهرها
وهامت على ظمإٍ روحُـها وكم ملأوا الكأسَ من خمرها !

***

على مذبح الحبّ من قلبها سراجٌ يسبّحُ من لألأهْ
منارٌ يجوبُ الدجى لمحُه فيأوي الضليلُ به رفأهْ
يبثُّ الحرارةَ بردَ الشتاء ويُلهبُ شعلتَه المطفأهْ
وتمشي الحياةُ على نوره وما نورهُ غيرُ عينِ امرأهْ ! !

***

لهيبٌ إذا الروحُ طافت به تضاعفتِ الروحُ في نارهِ
يطيق القويُّ لظى جمره ويمشو الضعيف بأنوارهِ
رمَت فيه حواءُ آثامها فسالت كذائبِ أحجارهِ
لقد قرَّبت جسداً عارياً وقلباً يضنُّ بأسرارهِ

***

أمن صنعةِ الله هـذا الجمال ؟ نعم ومن الفنّ هذا المثالْ !
على معرض مرمريّ الدُّمى تَرامى أشعتُهُ والظلالْ
تماثيلُ من جسدٍ فاتنٍ تأبّى على شهواتِ الرجالْ
حبتهُ الطبيعةُ اسرارَها ولاقى الحقيقةَ فيـهِ الخيالْ !

تحدّب الفضاء

وماذا عني به النسبيون ؟

ولماذا لا تصلح له هندسة اقليدوس ؟

بقلم نقولا الحداد

اذا قلت للعامي : الفضاء منحنٍ ، او متحدّب ، حسب هذا القول هذياناً او كلاماً فارغاً ، كفراغ الفضاء ، لا معنى له . واذا قلت للمثقف ثقافة عامة وهو يفهم ان اي حجم من الفضاء هو ذو ثلاثة ابعاد متعامدة وذو وجهات ستٍّ يستهجنهُ ويسأل : ماذا تعني بتحدب الفضاء ؟ فاذا قلت له : اعني بهِ ان الخط المستقيم الذي عرّفهُ اقليدس بانهُ اقصر مسافة بين نقطتين لا وجود له في الفضاء لان كل خط في الفضاء منحنٍ بالنسبة الى هذا الخط المستقيم الذي عرّفه اقليدس ، وبالتالي الفضاء متحدّب — اذا قلت لهُ هذا القول عدّهُ سخافة واجابك انهُ قول غير منطقي لانهُ مناقض بعضهُ لبعض ، فضلاً عن انهُ مناقض للاختبار ، لاني اذا ادليت بحبل طويل معلق فيهِ جسم ثقيل من مكان عالٍ رأيت الحبل خطاً مستقيماً . واذا تصورت حبلاً مثله مدلى من الارض الى الشمس التي هي مركز الثقل في النظام الشمسي تصورت هذا الحبل الذي طوله ٩٣ مليون ميل خطاً مستقيماً . لا استطيع ان اتصوره منحنياً . واذا كان الخط المستقيم طبيعة للفضاء فلا استطيع ان اتصور الفضاء منحنياً . ولا افهم كيف يكون متحدباً

هكذا يكون جواب الشخص المثقف على اقوالك الآتية . فكيف بهِ اذا زدت عليها قولك : ان الخط المستقيم يلتقي طرفاهُ ، خلافاً لقول اقليدس البديهي ان الخط المستقيم مهما مددتهُ فلن يلتقي طرفاه . وكيف بهِ اذا قلت له ان الخطين المتوازيين يلتقيان ، خلافاً لقول اقليدوس البديهي انهما مهما امتدا فلن يلتقيا البتة . وكيف بهِ اذا قلت له ايضاً ان زوايا المثلث لا تساويان زاويتين قائمتين وان زوايا المربع والمكعب ليست زوايا قائمة ، خلافاً لما هو معلوم في هندسة اقليدس التي لا تزال هندسة المدارس والعلوم والفنون المصرية — كل ذلك يعدهُ هذا المثقف سخافة وخرافة

***

لذلك يجب ان نتحقق ماذا عنى اينشطين واتباعه من علماء النسبية بتحدب الفضاء واستحالة وجود خطوط مستقيمة فيهِ بالمعنى الاقليدوسي

ما هو الفضاء

ليس فيما قالهُ اولئك النوابغ ما يستفاد منهُ تلك المزاعم المناقضة للمعقول . ولا يمكن ان يلقوا الكلام على عواهنه . وانما كتاب الجرائد والمجلات الاجنبية عزوا تلك المزاعم الى نظرية النسبية على أثر ظهورها ولغطوا بها كثيراً من غير ان يفسروا المراد بها لانهم لم يدرسوا النسبية ولا تفهموها. وحذا كتّاب العربية حذوهم . فترامت قضايا النسبية ، ومنها «تحدب الفضاء» سخافة مستهجنة . والحق يقال انهم بكتابتهم عن تلك القضايا بلا تفهم ولا تفسير مسخوا نظرية النسبية مسخاً اجرامياً

والسبب الاساسي في هذا المسخ هو عدم تفسير الكتّاب الاجانب لفظ « الفضاء » وترجمة كتّاب العربية كلامهم بلا تفسير ايضاً . فاولئك ذكروا الفضاء بلفظ Space وحسبوه فضاء خالياً Emptiness . وكذلك فهمهُ كتّاب العربية فترجموه بلفظ « فضاء » وهو لفظ ابلغ لمعنى ذلك اللفظ لانهُ يُشعرنا بمعنى الفراغ المطلق

ولكن علماء العصر ، ولاسيما علماء النسبية ، عنوا بلفظ Space الحيز الذي تشغله المادة من اجرام واجواء Fields جاذبية وكهرطيسية واثير (اذا اقتضى الامر ان يذكروا الاثير) فهو حيز مملوء لا فارغ . واما اذا اقتضى الامر ان يذكروا الفراغ المطلق قالوا Emptiness . وهم يعنون به الفضاء المجهول الطبيعة الذي يحيط بالحيز الكوني المادي ، وما هو الاَّ العدم

لذلك يعد استعمال لفظ « فضاء » في لغتنا العربية لرحاب الكون المادي خطأً لان هذه الرحاب ليست خالية بل هي ملأَى من انواع التشعُّع او التموج المختلفة : جاذبية وكهرطيسية . والاصوب استعمال لفظ « حيز » تحاشياً لايهام معنى الفراغ المطلق او الخلاء . فالمقصود بالتحدب الذي نحن بصدده هو تحدب الحيز وانحناء كل خط حركةٍ فيه على الاطلاق . ولذلك لا يستقيم تفسير هذا التحدب الاَّ بما عنيناه بلفظ الحيز المشغول بالمادة والمحدود بها . فكيف يكون هذا التحدب .

اذا أريد بالخط رسم الخط الوهمي التصوري فالخط المستقيم الاقليدوسي (اقصر مسافة بين نقطتين) موجود . يمكن وجوده بالتصور، وبالفعل ايضاً في المسافات القصيرة، وبالرسم على الورق . واما اذا اريد به الخط الذي يسلكه الجسم المتحرك فلا يكون الاَّ منحنياً . لان العلم العملي مختص بالحركة التي هي حاصل اندماج القوة بالمادة . وخط الحركة لا يكون مستقيماً بالمعنى الاقليدوسي بل هو منحنٍ . اي ان خط الحركة الفعلي لا يطابق الخط الهندسي الاقليدوسي . ولا يمكن ان يطابقه . لماذا ؟

ان سرَّ هذا الانحناء هو في مصدر القوة المنتجة كل حركة في الوجود . وما هو مصدر القوة ؟ — الجاذبية !

سنّة الجاذبية سبب الانحناء لكل خط حركة في كل جو جاذبي على الاطلاق . ولانهُ لا وجود للحركة خارج الجو الجاذبي اذ لا جسم متحرك هناك فلا وجود لخط حركة مستقيم البتة . اذن لا بد من تفسير معنى الجاذبية ولو بايجاز كلي تمهيداً لتفسير كيفية هذا الانحناء

ما هي الجاذبية

رأى فارادي كما رأى غيره ان جذب المغنطيس للحديد عن بعد ، من غير واسطة تصل بينهما تنقل القوة من الواحد الى الآخر ، امر غير معقول . لذلك فرض وجود شيء ينشره المغنطيس حوله الى جميع الجهات بالتساوي سمّاه الجو المغنطيسي Magnetic field وهذا الجو يفعل في الحديد فيدفعهُ الى جهة المغنطيس . فليس المغنطيس نفسه فاعلاً مباشرةً في الحديد بل جوه الذي هو محدثهُ يفعل في هذا . ولكن ما هو هذا الجو ؟ لم يستطع احد تحقيقه . وانما استعين بفرض الاثير في تفسيره باعتبار انهُ تموجات اثيرية يحدثها المغنطيس في الاثير . وسواء كان هذا التفسير سديداً او خطاء فنظرية فارادي تعني ان الحيز الذي بين المغنطيس والحديد او بالاحرى الحيز المحيط بالمغنطيس ليس فراغاً مطلقاً كما نرى ونظن بل هو جو صالح لانتقال القوة (او بالاحرى حركتها) فيهِ

لم يقتصر فارادي على النظريات الفلسفية بل اعتمد على الامتحانات العملية فاكتشف «الامواج» الكهرطيسية Electro Magnetic وسمي الحيز الذي تنتشر فيهِ الجو الكهرطيسي » . وجاء بعده مكسويل وآخرون واشتغلوا عمليًّا في تحقيق خواص هذا الجو . ثم جاء نجاح اختراع اللاسلكي برهاناً دامغاً على نظرية فارادي وفوزاً باهراً لها جعل مجد فارادي لامعاً

ولما ثبتت هذه النظرية اطلقها العلماء وفي مقدمتهم اينشطين على كل ظاهرة من ظواهر الجذب ، ولا سيما على « الجاذبية العامة » بين اجرام السماء . فقالوا ان الاجرام تنشر حولها جوًّا جاذبيًّا الى جميع الجهات تساوي حدّته Intensity حاصل ضرب كتلها المتجاذبة بعضها ببعض وتنقص كمربع البعد بينها . وهذا الجو هو الذي تنتقل بهِ قوة الجذب من جرم الى آخر بالتبادل . فالشمس مثلاً لا تجذب بنفسها السيارات اليها وانما جوها الجاذبي الذي تنشره حولها هو الذي يدفع سياراتها اليها كما ان جو السيارات بنوبته يجذب الشمس اليها . فاذا صح ان كل جو جاذبي : مغنطيسي او كهرطيسي ، انما هو امواج اثيرية يصدرها الجسم فلا بدع ان تكون « الجاذبية العامة » امواجاً اثيرية ايضاً يحدثها الجرم او الجسم ، وان ذلك الجو الجاذبي بحر اثيري متموج

وحاصل القول ان الرحاب التي بين الاجرام ليست فراغات مطلقة بل هي بحار امواج (اثيرية عند من يعتقد بنظرية الاثير او مجهولة الحقيقة عند من ينكر النظرية) وهي « الجو الجاذبي » بعينهِ . فاذا قلنا ان الفضاء ، او بالاحرى ، الحيز متحدب عنينا ان هذا الجو متحدب بمعنى ان الخطوط التي ترحل فيها القوة على متن تلك الامواج بين الجاذب والمجذوب منحنية لا مستقيمة . وهو ما نُعنى بشرحهِ فيما يلي . ومنهُ نعلم الفرق بين جاذبية نيوتن وجاذبية اينشطين :—

جاذبية نيوتن وجاذبية اينشطين

لم يراع نيوتن الزمن الذي تستغرقه القوة « الجاذبة » في رحيلها من المركز (الشمس مثلاً)

الى الجسم الواقع تحت تأثيرها (كالارض) ولذلك صاغ ناموس الجاذبية باعتبار ان القوة تبلغ الى الارض حالما تصدر من الشمس بلا استغراق مدة البتة . واما اينشطين فراعى الزمن لان ناموس سرعة النور وناموس النسبية ايضاً اللذين لاغبار عليهما يقضيان حتماً بأنهُ يستحيل ان توجد في الكون سرعة اسرع من سرعة النور . ولذلك مهما كانت القوة الراحلة من المركز الى المحيط سريعة يستحيل ان تكون اسرع من النور . حَسْبُها ان تكون كسرعة النور . (وفي رأي هذا الضعيف انها كسرعة النور تماماً بناءً على عقيدة ان الجاذبية كالنور تموّج اثيري . ولتموج الاثير سرعة واحدة في كل مكان وزمان . لان سرعة التموج تتوقف على الكثافة كما شرحناه في المقال السابق في المقتطف تحت عنوان «حجم ذرة الاثير» . ولان الاثير اكثف مادة في الكون . فتموجه اسرع تموج . او هو منتهى السرعة . وهو السرعة المطلقة Absolute Velocity)

والتموج الاثيري هذا هو الوسيلة لنقل القوة Energy او الطاقة محمولة على متموّج . فلنتتبع موجة جاذبية واحدة فقط صادرة من الشمس (في الرسم) ومنتشرة في الحيز الجاذبي (الفضاء بعرف العامة) الى جميع الجهات بسرعة واحدة . ولنفرض ان الدوائر التي في الرسم تمثل المواقع المتوالية لتلك الموجة المفردة في خمس برهات متساوية . ولنفرض ان الارض(ض) انتقلت في اثناء هذه البرهات الخمس من ض الى ضَ متنقلة على النقط الخمس بَ جَ دَ هَ ضَ ذات المسافات المتساوية في نفس البرهات الخمس التي تنقلت فيها القوة (الموجة) على الترتيب نفسه من ١ — ٥

لو كانت الارض خلواً من حركة استمرارية Inertial البتة ، اي لو كانت ساكنة لكان حكمها كحكم الحجر الساقط من علٍ الى الارض . اي انها تسقط في الخط المستقيم من ض الى ش . ولكن لان لها قوة استمرارية تعادل قوة الجاذبية وتعامدها تسير في فلك مستدير (تقريباً) بفعل القوتين المتعامدتين كما هو معلوم

قلنا ان القوة الصادرة من المركز تنتشر الى جميع الجهات فلا يصيب الجسم الواقع تحت تأثيرها كالارض الاّ جزء منها كما هو ظاهر ومفهوم بالبداهة . ويسمى الخط الذي يسير فيه هذا الجزء «خط القوة» Radius Vector لانهُ يجتاز خطاً من الشمس الى الارض (فلا هو مسطح ولا هو مجسم) فلما كانت الارض عند ض كان جزء القوة يتجه اليها في الخط ش ض . ولكن الارض لم تبق في مكانها تنتظر جزء القوة هذا بل سارت في سبيلها . فما بلغ جزء القوة الى ب في البرهة الاولى حيث صارت الموجة في الدائرة الثانية حتى كانت الارض قد برحت الى بَ واصبحت تقابل خط قوة آخر أي صار جزء قوة آخر يتجه اليها في الخط ش ض . ولكن القوة لم تدركها هناك فما بلغت الى ج في البرهة الثانية حيث صارت الموجة في الموقع الثالث حتى كانت الارض قد رحلت الى جَ واصبحت تجاه جزء آخر من القوة قادم اليها في الخط ش جَ . ولكنه لم يدركها ايضاً هناك لانها سبقت الى د واصبحت تجاه جزء آخر من القوة في خط ش دَ . وهكذا لم تبلغها القوة عند هَ لان الموجة لا تزال في الدائرة

الرابعة والارض تجاوزت اتجاه خط القوة ش هـَ . فما ادركها من القوة الاَّ الجزء المتجه في الخط ش ضَ فالتقيا عند ضَ

نرى مما تقدم ان جزء القوة الذي ادركها في الموجة التي صدرت من الشمس حين صارت عند ضَ هو غير الجزء الذي كان متجهاً اليها حين كانت عند ض . فاذا وصلت بين نقط «خطوط القوة» التي تعاقبت في الاتجاه اليها في البرهات الخمس المتوالية (ش ج د هـ ض) رأيت الخط الذي يمر في هذا النقط منحنياً . اذن القوة التي رحلت من الشمس الى الارض لم تسر اليها في خط مستقيم — لا في الخط ش ض ولا في الخط المتقوط ش ضَ — بل رحلت اليها في الخط المنحني ش ضَ ج د هـ ضَ ولك أن تقول بعبارة اخرى : منذ صدرت من ش القوة ، أو الجزء منها المقابل للارض ض جعل هذا الجزء يميل في سيره منحنياً كما تراه

يستفاد مما تقدم ان ناموس نيوتن يعتبر القوة راحلة الى الارض في خط مستقيم في الحال (بلا استغراق وقت) قبل أن ترحل الارض من موقعها ض . ولكن ناموس اينشطين يعتبر ان القوة استغرقت وقتاً في الرحيل الى الارض السائرة في طريقها . فاضطرت (أي القوة) أن تسير في ذلك الخط المنحني لكي تدركها

فالخط المستقيم ش ض الذي اعتبره نيوتن «خط القوة» يمثل مسافة البعد بين الشمس والأرض مجرداً من الزمن. لذلك صاغ ناموسه باعتبار ان الراديوس (نصف القطر) ش ض مسافة البعد بين المتجاذبين الشمس او الارض وان نسبة قوة الجذب بينهما كنسبة مقلوب مربع البعد بينهما $\frac{1}{(\text{ش ض})^2}$

وأما الخط المنحني الذي اعتبره اينشطين طريقاً للقوة في رحيلها من الشمس الى الارض فلا يمثل مسافة البعد فقط بل يمثل المسافة والزمن جميعاً . لأن الراديوس يمثل الزمن الذي استغرقتهُ القوة في مسافته ، والخط ض ضَ يمثل الزمن الذي استغرقتهُ الارض في مسيرها من ض الى ضَ . ومجموع مربعي الراديوس وهذا الخط يساوي مربع الخط المنحني ش ضَ كما هو معلوم . فاذاً هـذا الخط المنحني يمثل الزمن الذي استغرقتهُ القوة في سيرها من ش الى ضَ واستغرقتهُ الارض في في مسيرها من ض الى ضَ حيث التقت بالقوة . لذلك صحح اينشطين ناموس الجاذبية بأن حسب البعد بين المتجاذبين ذلك الخط المنحني لا الراديوس الذي حسبه نيوتن . فاذاً

$$\text{ناموس نيوتن للجاذبية} = \frac{\text{ش} \times \text{ض} = \text{كتلة الشمس} \times \text{كتلة الارض}}{(\text{الخط ش ض})^2}$$

$$\text{ناموس اينشطين : الجاذبية} = \frac{(\text{ش} \times \text{ض})}{(\text{الخط ش ضَ المنحني})^2 = (\text{ش ض})^2 + (\text{ض ضَ})^2}$$

يتضح مما تقدم ان معنى تحدُّب الجو الجاذبي هو أن الجسم الذي يقع في أي جو جاذبي يكون تحت تأثير قوة واردة اليه في « خط قوة » منحنٍ كما علمت

قصور نظرية المبروس

اذا سكتنا عند هذا القول بقي البحث ناقصاً . فلنتقدم فيه خطوة اخرى لكي نعلم كيف يختلف هذا التحدُّب باختلاف مواقع الاجسام في الجو الجاذبي

من فروع ناموس الجاذبية التي هي من مقتضياته « ناموس التسارع بالنسبة الى البعد » وهو ان الجسم الاقرب الى مركز الجذب يكون أسرع في فلكه من الجسم الابعد عن المركز بنسبة $\frac{س^2}{ش}$ باعتبار ان س رمز السرعة و ش رمز البعد (الذي يعبر عنهُ بالشعاع أو نصف القطر أو الراديوس) وقد شرحت هذا القانون الفرعي في المقتطف منذ نحو سنتين

بناءٌ على هذا القانون يكون انحناء « خط القوة » تجاه الجسم الاقرب أشد منهُ تجاه الجسم الابعد. لان ذلك اسرع من هذا فيواجه من « خطوط القوة » عدداً اكثر مما يواجه هذا ، فلا تدركه القوة الاَّ وقد رحل مسافة (بعد ما يرحل هذا) . ولذلك يكون « خط القوة » اكثر انحناءٍ . ولا أظن القارئ يتعذر عليهِ فهم هذه النقطة من الموضوع اذا فكّر قليلاً . ولذلك لا أرى داعياً لتمثيلها برسم شكل ثانٍ

وبناءٌ على هذا القانون الفرعي ايضاً يكون ان الجرم الذي له من السرعة الاستمرارية (الذاتية) ما يحميهِ من السقوط الى مركز الجذب يسير بخط منحنٍ متمم دائرة حول المركز . فكلما كان أقرب الى المركز كان خط سيره اكثر انحناءٍ (كما هو معلوم ان قوس الدائرة الصغرى اكثر تقوّساً من قوس الدائرة الكبرى)

اذاً يتضح مما تقدم ان تحدُّب الجو الجاذبي يكون اشدَّهُ على مقربة من المركز واضعفهُ كلما كان ابعد عنهُ

وبناءٌ عليه اذا مرّ فيهِ خيط من النور (واشعة النور خاضعة لتأثير الجو الجاذبي كما رأى اينشطين وأيدتهُ الارصاد الفلكية) الوارد من نجم سحيق والمار على مقربة من الشمس يظهر انحناؤه حين مروره في جوها الجاذبي الاقرب اكثر من خيط آخر يمر في جوها الابعد . وقد حققت هذه الظاهرة بعثة فلكية بريطانية حين حدث كسوف كلي يرى من مناطق الارض الجنوبية سنة ١٩١٨ وثبت لها ان الزاوية بين الخط المنحني والخط المستقيم ٧ ، ١ الثانية كما تنبأ اينشطين بحسابهِ الرياضي . وكان حسابه مبنيًّا على تصحيحه لناموس نيوتن الذي بسطناه آنفاً

يتضح مما تقدم ان الفضاء (الحيز) يُعد متحدّباً باعتبار أن المراد بالفضاء ذلك الجو الجاذبي الذي نحن بصددهِ اي الحيز الذي يملأه هذا الجو . فاذن حيث يوجد جو جاذبي ، اي حيث توجد اجرام متجاذبة ، يكون الحيز (الفضاء) متحدّباً . وحيث لا اجرام فلا جو جاذبي ، كما هي الحال في الرحاب الشاسعة بين الجزر الكونية — المجرات المتباعدة ابعاداً سحيقة . وبالتالي يعتبر الفضاء الخالي هناك غير متحدّبٍ

في هذه الرحاب الخالية تصلح هندسة اقليدس ذات الخطوط المستقيمة اذ لا اجرام متحركة هناك . واما في الاجواء الجاذبية فلا تصلح : لانهُ يستحيل ان تحدث فيها حركة في خط مستقيم البتة . والاجرام تسير في افلاك مستديرة (او اهليليجية) والقوى الفاعلة فيها ترد اليها في خطوط منحنية . لذلك لا يصح اي حساب فلكي على قاعدة الخطوط المستقيمة بل لا بد من الحساب على قاعدة الخطوط المنحنية على الاطلاق . وقضايا اقليدس بشأن الخطوط المنحنية قاصرة لا تفي بالغرض . ولذلك توسع فيها الرياضيون الحديثون الى ان وفت بالغرض . ولا ينكر انهم بنوا توسعهم على قواعد الهندسة الاقليدوسية . فلذلك لا يصح القول انهم كسفوا مجد اقليدس بل بالاحرى اظهروه لامعاً

***

بقيت ملاحظة اخرى لا بدَّ من ذكرها لازالة وهم قد يطرأ على ذهن القارىء . وهي ان رحاب الفضاء الخالية من السدم والاجرام وجزر الكون الاعظم ليست خالية من الاجواء الجاذبية خلواً مطلقاً بل ان اجواء الجزر منتشرة فيها انتشاراً ضعيفاً جداً لا يحسب حسابه

بناء على ثبوت التحدب في كل حيّز جاذبي بالمعنى الذي شرحناه آنفاً يستنتج اينشتين ان حيز الكون الاعظم الذي يشمل الملايين من العوالم كالمجرّة انما هو لوح (يعبرون عنه بلفظ Surface محدب بحيث تلتقي جميع حواشيه بعضها ببعض ويصبح كالكرة الفارغة الجوف (وفي رأيه كالبيضة ، اي بيضي الشكل Oval) ضمن فراغ مطلق وحوله فراغ مطلق (عدم) والعوالم تسبح في قشرة البيضة . وبسط مذهب اينشتين هذا يشغل مقالاً قائماً بذاته

فاذا صح ان الكون الاعظم لوح محدب على هذا النحو فبالطبع كل خط مستقيم يمرّ في هذا اللوح يكون محدَّباً ويمكن ان يلتقي طرفاه ، كما ان الطيار الذي يطير في جو الارض في خط مستقيم بحيث لا يحيد يمنة ولا يسرة ولا يحلق ولا يهبط لا بدَّ ان يصل اخيراً الى النقطة التي رحل منها . فالخط المستقيم الذي لازمه في رحيله انما هو دائرة تامة لا خط مستقيم اقليدوسي . ومع ذلك لك ان تقول ان هذا الخط اقرب مسافة بين نقطتين في حين انهُ متحدّب كتحدب السطح الذي مرَّ فيه . لا يكون الخط الاقصر بين نقطتين في قشرة البيضة المحدَّبة الفارغة مستقيماً بالمعنى الاقليدوسي الاَّ اذا اخترق القشرة ومرَّ في فراغها وظهر مخترقاً ناحية اخرى فيها . وهذا خط تخيلي لا يمكن ان يتمشى لخطوط الحركة الكونية التي لا تستطيع ان تفارق الاجواء الجاذبية . حتى النور نفسه لا يستطيع ان يفارق الحيز الكوني الكروي الفارغ الجوف . فلا يمر في تجويفه ولا يشرد في العدم المحيط به بل تضطره الاجواء الجاذبية ان يلازم اللوح الكروي

بعد هذا الشرح اصبح الرياضي يفهم كيف ان المثلث في سطح محدب لا يمكن ان تساوي زواياه قائمتين . والمربع والمكعب لا تكون زواياها قائمة . وكيف ان الخطين المتوازيين قد يلتقيان في قطب — الى غير ذلك مما يناقض هندسة اقليدس

السمو والارتقاء

للشاعر عبد الرحمن شكري

أراك فريسة الجوعين سغباناً وشهوانا
بربك أيها الانسان لم أصبحت إنسانا
بعقل يبلغ الشمس وأقصى الكون عرفانا
وجدت لكل ما كان من الأكوان ميزانا
كأنك خالق الخلقين أكواناً وأزمانا
وسخرت الرياح مطية والبرق فرسانا
وقد أعليت عمراناً وقد قدست أديانا
وردت العيش عرياناً وترجع عنه عريانا
وملء حياتك الأحزان والآلام ألوانا
وتبكيك الحياة كما يفت الجو صوانا
وتصرعك الجراثيم كما لو كنت ديدانا
وقد تهلك غرثانا وقد تهلك مبطانا
وقد تغدو الى اللذات فتاكاً وخزيانا
فبين الجوع والشهوة قد أجريت ميدانا
وللتحليل والتحريم قد أعددت تبيانا
فما أصلحت حاليك ولا طهرت أدرانا
وفقت الطير والحيوان آثاماً وأشجانا
وزنت الذرة الصغرى وما أعددت ميزانا
لعيشك كي يكون العيش إسعاداً وإحسانا

بربك ايها الانسان لم أصبحت إنسانا

غزل المتنبي

لخليل شيبوب

يجوز لنا ان ننعت بعض الابواب من الشعر كالمديح والرثاء والهجاء بانها موضوعية الى حدٍّ ما لان الشاعر ينظر فيها الى ممدوحه او الى خصيمه ليقول ما فيهما حيناً وما ليس فيهما احياناً ما . اما الغزل في الشعر فانهُ ذاتي محض لان الشاعر ما لم يكن مقلداً او سارقاً لا يمكنهُ ان يعرب الاَّ عن شعوره الخالص فيسبغ على قوافيهِ فيض احساسه وقرارة نفسه

والشاعر غزِلٌ بطبيعته لانهُ مرهف الحس متسع الخيال . وهما جناحان يحلق الشاعر بهما في سماء الفن . ومن كان كالمتنبي جامح العبقرية، صعب الشكيمة ، دافق النفس كان لا بدَّ ان يفوق سواه في افتتانهِ بالمرأة التي تظل المثل الاعلى للجمال في هذه الدنيا لانها هي الجمال بمختلف صوره ومعانيه التي تزهو فيها الحياة فتخاطب العقل والقلب والدم وتتحد فيها اغراض الحياة جميعاً

ولا اعرف في غير آداب اللغة العربية تقسيماً للشعراء يتناول جزئيات الشعر من الجهة الفنية . فبينما يقال ان شكسبير روائي وهوميرس قصصي ترانا نقول هذا شاعر غزل مثل عمر ابن ابي ربيعة او مدَّاحة نوَّاحة مثل ابي تمام او هجَّاء مثل دعبل او وصَّاف مثل ابن المعتز او ما شاكل كل ذلك من النعوت التي تعد من تفاصيل الشاعرية العامة لأن في الرواية او القصة غزلاً ومدحاً ونوحاً وهجاء ووصفاً، وقد يجيد الشاعر الموهوب القصة والرواية معاً او يجيد هذه ولا يجيد سواها

واذا نظرنا الى المتنبي على ضوء التقسيم العربي نخطىء اذا قلنا انهُ غزِل او مدَّاح او هجَّاء او وصَّاف لانهُ كل هذا بل هو فوق هذا كله لانهُ شاعر الحياة فهو اذن من كبار شعراء الانسانية

ان هذا الرجل الفذ الذي نبت في الطبقة الدنيا اذ كان ابوه يبيع الماء بالكوفة حدثتهُ نفسهُ ان يدَّعي النبوة وان يطمح الى الامارة فعاش عيشة الجد والاستكبار متطلعاً الى غرضٍ سامٍ اراد تحقيقه عن طريق النبوَّة ثم قذف بهِ من حالق فعمد الى الشعر يتخذه وسيلةً حتى اذا فاته ذلك الغرض عاش اسمه بهذا الشعر في درجة الخالدين من الانسانية . وها هو بعد الف عام من وفاته يقيم الشرق ويقعده . وتعقد لهُ الحفلات في كل بلد . وتخصص لهُ اعداد الصحف الدورية وغير الدورية فاذا كان قد فاتتهُ الامارة في عصره فانهُ بلغ امارة الشعر على العصور . واذا لم يحكم على الاجسام بسيفه وسطوته فقد تحكم في العقول والنفوس بعبقريته وقوافيه

وطالما سألت نفسي ما كان يجري لو بلغ المتنبي مأربهُ من الولاية او الامارة . أتراه يبقى على

عبقريته القوية ام يجنح به تعصب أهل الحكم من الادب والفن ام يتمشى به الترفع الى الميوعة والتراخي ؟ وهو سؤال لم اقنع نفسي بأي ردّ عليه الى اليوم . . . ولكنني اميل الى الاعتقاد بأنهُ لو تم ذلك لهُ لما اقفل باب التاريخ في وجه ابن الرومي دهراً . ولا رجح اسمه بأبي تمام والبحتري ولا شغل الناس عن الشريف الرضي ومهيار الديلمي وابن حمديس وجميع من جاءَ بعده الى الحد الذي شغلهم به عنهم

وقد اجمع المؤرخون على ان المتنبي كان كثير الجد في حياته . قويم الخلق لا يميل الى لهو ولا الى دعابة . واكبر الظن انهُ لم يكن يمزح بل لعله لم يفهم الدعابة والمباسطة . وكم تصورته في مخيلتي رجلاً عصبيًّا . عابس الوجه . مرير الطبع . منقبض القلب في معيشته مقيماً لكل حديث وزناً لا همَّ له الا كسب الاموال . وبلوغ المعالي . وسبق الاقران . واثارة الاعجاب بنفسه عند الذين يحيطون بهِ . ومن كان كذلك لا بد لهُ ان يتجانب عن اللهو والمزح ويصدف عن مجالس الشراب الا اذا اضطر اليها ويكبت ميله الى الحسان اذ كان الرأي السائد ان العشق اذا طغى على قلب الرجل ذهب بهِ كل مذهب . ودفع بهِ الى الاستهتار بجد الامور . وقعد بهمته عن جلائل الاعمال . ولا يتفق هذا لمن يطمح الى امارة وزعامة

لم تذكر التراجم العربية عن المتنبي هوًى اختصّ بهِ امرأةً بعينها . لكننا نقرأ لهُ كما نقرأ لسواه شعراً يعرب فيهِ عن شغفه بالنساء وبتعرفه بالاطلال وتفجعه من الوداع وما يلحق بهذا من وصف الحمى ومنازل الحسان وسكب الدموع شوقاً . ونحول الجسم هياماً . وما اشبه ذلك من مألوف الغزل الذي عاش بهِ الشعر العربي قروناً طويلة

تلك هي النظرة العجلى في ذلك الغزل المتناثر في تضاعيف القصائد . ولكن القارىء المتريّث يلاحظ في ثنايا المعاني اتجاهات خاصة اذا تتبّعها بيّنا انجلت له مبادىء المتنبي الغزلية — اذا جاز هذا التعبير — فنفى من شعره ما كان فيهِ مقلداً وأخذ بما هو ذاتي جديد صادر عن شعور عميق صادق . وليس كشعر المتنبي للاستدلال بالبحث فيهِ على الذاتي منهُ وغير الذاتي . لانه صاحب اغراض خاصة . ومعانٍ متسلسلة مستمدة لم يسبقه اليها من تقدمه ولم يلحقه فيها من تأخر عنه لفقدانه الحاجة اليها بفقدانه اغراضها وان كان المتنبي ليتناول النادرة الهينة فيترسم فيها الى ابعد غايات الحياة من مشاعر كل عصر . واغراض كل جيل . حتى يزينها من سبقه ومن لحق به

ولا بدّ هنا من الاشارة الى ان ديوان المتنبي فريد بين الدواوين القديمة بكونه مبوّباً على الطريقة الحديثة لان قصائده متسلسلة التنسيق تبعاً لسني النظم والانشاد لا لابواب الشعر وحروف الهجاء . وعلى الرغم من ان بعض ما نسب منها الى نظمه اياها في صباه لا تقنع بصحة موقعها من الديوان الا ان ذلك التنسيق يساعد كل المساعدة على تتبع المتنبي في اطوار شبابه ونضوجه واكتهاله

اجل لقد اشتهر كثير من الشعراء بغرام خاص حفظ التاريخ اسم صاحبته امثال ابي نواس وجنان

وابن الاحنف وفوز وقبلهما عشاق الصدر الاول للاسلام ولكن المتنبي لم يشتهر بحب امرأة بعينها فهل كان ذلك بمجرد مصادفة ؟ . . . لا اظن ذلك كذلك بل اظن ان مرضه بحب الامارة جعله يستنكف اقتران اسمه باسم امرأة ربما عيره بها اعداؤه وان تغنى بحب الجمال وانتسب الى زمرة العشاق ابان صباه الاول اثباتاً لرجولته ، وتوكيداً لسامعه انه لم يكن بمزهاة معتبراً هذه الصفة منقصة لشعوره . فالمسألة خلقية قبل كل شيء ولعلها الى جانب هذا تدخل في طبيعة المتنبي لان شعره يدل على انه كان غزلاً ملتهب العاطفة الا انه كان عزوفاً عن مواقف التخصيص فهو من الفريق الذي يسميه الفرنجة «دون جوان Don Juan» — ولعل لفظة عِشّيق (بكسر العين والشين المشددة) لا زير نساء تؤدي معناها — فهو تستصبيه المرأة الجميلة كيفما عنت له ولا يقنع بحب واحدة او اثنتين بل يعشقهن جميعاً ويصبو اليهن جميعاً . وهذا الطراز من المحبين يأخذ بالصورة الماثلة التي تثير العاطفة وتستفز نوابض القلب ولا يهمه ما وراء هذه الصورة ولعله لا يطيل التفكير بها بكأنما كل صورة اذا لم تمح سابقتها فهي تضعف تأثيرها بلا ريب

وقد ابدع المتنبي يصف نفسه في مواقف غزله بما ينطبق كل الانطباق على تعريف هذا الصنف من المحبين حيث يقول :

فما امر بربع لا اسائله ولا بذات خمار لا تريق دمي

وحيث يقول : ما لاح برق او ترنم طائر الا انثنيت ولي فؤاد شيق

وحيث يقول على التعميم :

فالثغر والنحر والمخلخل — والمعصم دائي والفاحم الرجل

وهكذا لا يمر بربع الا وقف يسأل قطينه اين ذهبوا وماذا جرى لهم ولا يرى ذات خمار الا استشف جمالها من وراء خمارها فشعر انهُ يموت حباً وهو ما كنى عنهُ بأراقة دمهِ كما انهُ يصبو لكل برق يلوح وطائر يترنم وانما داؤه حب الثغر والنحر والمخلخل وسائر الاعضاء الجميلة ومظاهرها فأين تذهب بهذا تلك المحبوبة المنفردة التي يختصها بعاطفته ويقف عليها صبوته لذلك نرى المتنبي يفرط في التغزل بالنساء عامة وبالحسان مجتمعات كقوله :

الراميات لنا وهنّ نوافر والخاتلات لنا وهنّ غوافل

وقوله أيضاً : لبسنَ الوشيَ لا متجملات ولكن كي يصنّ به الجمالا

وضفّرنَ الغدائر لا لحسنٍ ولكن خفنَ في الشعر الضلالا

وقوله وهو في درجة لا تدانى من الابداع :

ديار اللواتي دارهنّ عزيزة بطولى القنا يحفظنَ لا بالتمائم

حسان التثني ينقش الوشي مثله اذا مسنَ في اجسامهنّ النواعم

ويبسمنَ عن درٍّ تقلدنَ مثله كأنّ التراقي وشّحت بالمباسم

وفي البيت الثاني صورة يعجز عن ابرازها اكثر الراسمين . وان الشعر الذي يؤيد هذه النظرية متوافر في الديوان كل التوافر . على ان من كان ملتهب العاطفة كثير التدفق على هذا النحو لا يبعد ولا يستغرب ان تستعبدهُ احدى الجميلات ولو حيناً فتشعرهُ بنار العشق التي تقلقل الضلوع . ولعلَّ المتنبي وقع في العشق واكتوى بناره أيام شبابه الاول على الاقل وقبل اتصاله بسيف الدولة . لانهُ لا يمكن للعبقرية مهما عظمت ان تدل صاحبها على شعور لم يحسهُ فلا بد ان يحس بهِ ولو قليلاً لان تجسيمه عن طريق الخيال لا يستقيم الى الحد الذي يستقيم بهِ من وراء الاحساس وكل صاحب فن لا تتطرق الصور او العاطفة الى فنه الاَّ عن طريق حواسه . غير ان العبقرية هي التي تجعله يحلل شعوره ويدرس خلق النساء في تفكير وتأمل . ولم يكن المتنبي في ادبهِ صاحب فن فحسب بل هو مفكر نافذ البصيرة ثاقب النظر الى الحياة يحيط بها من شتى جوانبها . ولعلهُ قد وقعت لهُ حادثة غرام واحدة تضاف الى تدفقه في التعشق جملتهُ يصف أخلاق النساء على نحو ما قال :

اذا غدرت حسناء وفت بعهدها فمن عهدها ان لا يدوم لها عهد
وان عشقت كانت اشد صبابة وان فركت فاذهب فما فركها قصد
وان حقدت لم يبق في قلبها رضى وان رضيت لم يبق في قلبها حقد
كذلك اخلاق النساء وربما يضل بها الهادي ويخفى بها الرشد
ولكن حبًّا خامر القلب في الصبى يزيد على مرّ الزمان ويشتد

ولا شك ان هذه الابيات تشعر بشيءٍ من القسوة في الحكم مرجعهُ الى العصر والبيئة وما عدا هذا فانهُ فيها من تفهم طبيعة المرأة ما تبقى حقيقته ما بقيت هذه الطبيعة . على انهُ في البيت الاخير مرارة ولوعة لا يحس بهما الاَّ من جرب مثل ذلك الحب الذي خامر القلب في الصبى ولم يزده مرُّ الزمان الاَّ اشتداداً على الرغم مما خبره من تلك الاخلاق التي وصفها . واننا نعرف ما نعرف عن كبرياء المتنبي وتعاظمه حتى قال عن نفسه

تغرب لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً الاَّ لخالقه حكما

وقال كثيراً غير هذا في معرض القوة والجبروت فاذا بهِ في معرض الحب يقول :

تذلل لها واخضع على القرب والنوى فما عاشق من لا يذل ويخضع

فلا ريب ان شعوراً مفرطاً بالحاجة الى استرضاء حبيبة بعينها افهمه ان الخضوع هنا لا يعد هواناً وجعله يحرص كل الحرص على انهُ يدعي عاشقاً ويقول معتذراً :

وعذلت اهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق

ولا يني في الاعراب عن خوالج صدره بالذهاب في صحة عاطفته الى اقصى غايات الوصف التي لا يوفق اليها الاَّ من ذاق واختبر وهداه اختباره الى استنباط الدقائق الخفية واستكناه خفيات المشاعر النفسية كقوله

جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي فاصبح لي عن كل شغل بها شغل

وقوله ايضاً : قد كنت اشفق من دمعي على بصري فاليوم كل عزيز بعدكم هانا

وقوله في موقف الوداع : تنفست عن وفاء غير منصدع يوم الرحيل وشعب غير ملتئم

قبلتها ودموعي مزج ادمعها وقبلتني على خوف فما لفم

ولقد تركت تلك القبل في مقطعها تناولته شاعريته الكبيرة فوضعته موضع التشبيه البارع حيث قال :

لبيو آونة تمر كأنها قبل يزودها حبيب راحل

قال كثيراً من هذا الشعر الغزلي الصادق الذي يتدفق من صميم النفس والقلب. وقد ظن المتنبي ان العاشق يجب ان يكون نحيلاً فقال في صباه :

كفى بجسمي نحولاً انني رجل لولا مخاطبتي اياك لم ترني

فاذا به يعجب بهذا المعنى جداً والمرء معجب ببنات افكاره حتى لوكان المتنبي لذلك عاد الى نظمه ثانياً

ولو قلم القيت في شق رأسه من السقم ما غيرت في خط كاتب

وعاد فنظمهُ ثالثاً : وبليتي فقد السقام لانهُ قد كان لما كان لي اعضاء

ونظمهُ رابعاً باضافة شيء على المعنى :

دون التعانق ناحلين كشكلتي نصب ادقهما وضم الشاكل

وكرر معنى صدر هذا البيت خامساً :

حلت دون المزار فاليوم لو زرت لحال النحول دون العناق

وهكذا بقي المتنبي شغوفاً بمعناه هذا يبالغ بهِ في وصف النحول وصفاً يخرجهُ عن المعقول بل هو من الاغراق المرغوب عنهُ . وهو في جملتهِ لا يخرج عن قول ابن ابي ربيعة :

وتقلبت في الفراش وما تعلم الا الظنون اين مكاني

ولا شك ان المتنبي وضع معناه وضعاً ولم يقتبسهُ اقتباساً والا لما افرط في الاعجاب بهِ حتى كرره ايضاً وهو يهجو ابن كيغلغ لما ورد الخبر بأن غلمانه قتلوه فقال :

تساءلوا قاتليه كيف مات لهم موتاً من الضرب ام موتاً من الغرق

واين موقع حد السيف من شبح بغير جسم ولا رأس ولا عنق

ويصح ان نسمي البيت الاخير من الخيال المستحيل على انهُ وفق مرة واحدة الى وضع هذا المعنى في موضعه الصحيح حين صرفه الى وصف الموت فاستقام في قوله :

وما الموت الا سارق دق شخصه يصول بلا كف ويسعى بلا رجل

ولم يفت المتنبي تعريف الحب ونشأته وحالاته وكيف يطغى على العقل ويغلب العاطفة على الفكر ويعقل الارادة فقال :

وما هي الا لحظة بعد لحظة اذا نزلت في قلبه رحل العقل

وقال : ومن يعشق يلذ لهُ الغرام . وقال في باب التعريف :

الحب ما منع الكلام الألسنا وألذ شكوى عاشق ما أعلنا

ويعتبر هذا البيت من ادق الملاحظات النفسية المتوافرة في الديوان . وقد اشتط بعض النقاد حينما وهم ان في البيت تنافراً معنوياً اذ زعم ان الحب يمنع اللسان من الكلام وان الشكوى لا تعلن الا بالكلام الذي منعهُ الحب فكيف يكون ذلك . على ان هذا الاعتراض لا يؤبه لهُ اذا علمنا ان العاشق الصادق يذهل في مواقف الغرام ويخبل حتى لا ينبس بحرف وهذا معنى صدر البيت ثم انه لابد لهُ ان يشكو فاذا اعلن شكواه شعر بلذة غريبة قريبة من بعض اللذة التي يحدثها الالم وهذا معنى عجز البيت . وفي تناقض العشق والعقل يقول المتنبي

يا عاذل العاشقين دع فئة اضلها الله كيف ترشدها

ويقول ايضاً : الى يوم طاعية العاذل ولا رأي في الحب للعاقل

هذا هو موقف المتنبي من العشق والغزل الى السنة الاولى التي لحق بها بسيف الدولة . ومن ثم بدأ عند سيف الدولة حياة جديدة تقتضيه التسامي بنفسه عن كل شائبة . صوناً لكبريائه بين منافسيه فصرنا حينئذٍ نسمع مثل هذا السؤال الانكاري : أ كل اديب قال شعراً متيم . . . وصار غزله صناعياً الا اصداء بعيدة تتجاوب في نفسه لتلك المواطف الزاخرة التي تدفقت في شعره الاول كقوله :

وكيف التذاذي بالاصائل والضحى اذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبّا

ذكرت بهِ وصلاً كأن لم افز بهِ وعيشاً كأني كنت اقطعهُ وثبا

ومثل قوله وهو يسيل حناناً : اذا زلتم ثم لم ابككم بكيت على حبي الزائل

ومثل قوله ايضاً : لعينك ما يلقى الفؤاد وما لقي وللحب ما لم يبق مني وما بقي

ولا بد هنا من الاشارة الى افتتان المتنبي بجمال العينين لوفرة ذكرها في شعره فهل كان ذلك مصادفة شعرية ام هو افتتن بذات عينين جميلتين انطبعت صورتهما في قرارة صدره حتى قال

عزيز اسىً من داؤه الحدق النجل عياء بهِ مات المحبون من قبل

وقال : وعيون المهى ولا كعيون فتكت بالمتيم المعمود

وقال : وفتانة العينين قتالة الهوى اذا نفحت شيخاً روائحها شبا

وفي القصيدة التي ساق مطلعها الى هذا الاستشهاد على السؤال يقول :

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ولكن من يبصر جفونك يعشق

ويقول في وصف العيون مبدعاً :

ادرن عيوناً حائرات كأنها مركبة احداقها فوق زئبق

ويقول ايضاً : ألم يرَ هذا الليل عينيك رؤيتي فتظهر فيه رقة ونحول

ولما اكتهل قال متغزلاً وهو صادق :

افسدت بيننا الامانات عيناها فخانت قلوبهن العقول

وقد اشار الى ان الجمال اكثر ما يكون في العينين حيث قال :

الحسن يرحل كلما رحلوا معهم وينزل حيثما نزلوا

في مقلتيْ رشاٍ تديرهما بدوية فتنت بها الحلل

وما احسن قوله : كل جريح ترجى سلامته الاّ فؤاداً رمته عيناها

ثم ان المتنبي لما لزم سيف الدولة طفق يبعد بنفسه عن كل ما يخشى ان يعكس عليه سوء فهمه فلم يعد يكثر من ذكر الغرام والهيام كأنهُ يريد تفهيم سيف الدولة ان نفسه لا تشغله اليوم عنه كما كانت تشغله من قبل عن سواه وان همه ان يرضيه ويظهر لدنه بمظهر الرجل الكبير الذي يستحق الامتيازات التي حصل عليها منهُ . انهُ لايقبل الارض بين يديه ولاينشده الشعر واقفاً ويتقاضاه كذا الوفاً على قصائد معدودة فهو جدير بكل احترام على الرغم من ان حرفة الشعر لم تكن ايامئذٍ تسمو بصاحبها الى المعالي وعلى هذا شرع المتنبي يصف نفسه بالعفة والتصون كقوله :

يرد يداً عن ثوبها وهو قادر ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد

وهل يشتفي من لاعج الشوق في الحشا محبٌّ لها في قربها متباعد

بل هو ذهب الى ابعد من ذلك فنبذ استهلال القصيدة بالغزل على طريقة اسلافه من الشعراء وصار يدخل مباشرةً في موضوعه والشواهد عديدة على ذلك :

— اعلى الممالك ما يبنى على الاسل — على قدر اهل العزم تأتي العزائم

— اذا كان مدح فالنسيب المقدم — بغيرك راعياً عبث الذئاب

— لكل امرىءٍ من دهره ما تعودا — عقبي اليمين على عقبي الوغى ندم

— طوال قنا تطاعنها قصار — غيري باكثر هذا الناس ينخدع

وعشرات غير هذه من القصائد التي لا ذكر للغزل فيها البتة. وانتفخت اوداج ابي الطيب كبرياء لما علت مرتبته وانتشر اسمه في الاقطار ولقي من سيف الدولة بالغ الحفاوة والاجلال فتطورت آراؤه في النساء تطوراً عجيباً حتى صارت الانوثة شبه مسبة عنده فهو يعتذر عن ام سيف الدولة انها انثى

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير فخرٌ للهلال

ولا يقولنَّ احد ان المتنبي اراد في البيت الثاني ان يساوي بين التذكير والتأنيث وانما ساقهُ الموقف الى هذا التشبيه بعد ان قرر في البيت الاول تفضيل الرجال على النساء . وجاء بعدئذٍ يقول ان التأنيث ليس عيباً . ومعنى ذلك انهُ ليس بعيب اذا كانت ام سيف الدولة انثى ولكنهُ عيب في سواها . . . وبلغت قلة الذوق بالمتنبي وهو مسوق بآرائهِ هذه انهُ لم يستنكف حين عزَّى سيف الدولة فيما بعد بفقد اختهِ الصغرى ان يقول لهُ :

واذا لم تجد من الناس كفئاً ذات خدر ارادت الموت بعلا

وذهب الى أبعد من ذلك فقرر ان شيمة النساء الغدر وان الدنيا غادرة فهي تشبه النساء. ولعلَّ هذا الشبه جعل لفظ الدنيا مؤنثاً . فقال والضمير عائد الى الدنيا :

وهي معشوقة على الغدر لا تحـــفظ عهداً ولا تتمم وصلا
شيم الغانيات فيها فما أدري لذا أنَّث اسمها الناس ام لا

فالتأنيث والغدر ونقض العهد كل هذا واحد في نظر المتنبي . وقد لزمتهُ هذه الفكرة في الغواني الى آخر عمره فصار لا ينظر الى المرأة الاَّ انها أداة لهو واستمتاع وصار غزله ماديًّا بحتاً حينما عاد في ابان اكتهالهِ الى الغزل كقوله :

ولا ليـلة قصرتـهـا بطـويلة أطالت يدي في جيدها صحبة العقد

وقوله : شامية طالما لهوت بها تبصر في ناظري محياها
فقبلت ناظري تغالطني وانما قبلت بهِ فاها

وقوله ايضاً وهو قبيح : عد وأعدها فحبذا تلف ألصق ثديي بثديها الناهد

ولو لم تكن نضبت حيوية المتنبي لما قال :

فـا حرمت حسناءُ بالهجر غبطـةً ولا بلغتها من شكا الهجر بالوصل

كل هذا وقع له وهو كهل في السنوات القصيرة التي قضاها بعد يأسه من التصون والتعفف ولكنه كان قد قساعوده وجفت عواطفه واصبح لا يستلذ بالخالجة التي تلجلج النطق وتذهل العقل بل صار يطلب الموقف المثير والملمس الوثير بل صار يعكس مواقف الغرام فيجعل المرأة تقبله وتستبيته ولم يعد طلب الوصل رجاء بل اغراءً فلسفيًّا مزيجاً من اللذة والتفكير بفناء الدنيا والقارىء المتأني يعجب كل الاعجاب بهذين البيتين :

زوّدينا من حسن وجهك مادام فحسن الوجوه حالٌ تحول
وصلينا نصلك في هذه الدنيا فان المقام فيها قليل

على انهُ بعد انفصاله عن سيف الدولة ولحاقه بكافور لزم في مصر حيال كافور خطته مع سيف الدولة في الانصراف عن الغزل . ولا نرى المتنبي تغزَّل في مصر الاَّ مرة واحدة حينما وازن بين الحضريات والبدويات في قصيدته التي مطلعها

من الجآذر في زي الاعاريب حمر الحلي والمطايا والجلابيب

اما قصيدته التي يقول فيها : ولكن قلبي يا ابنة القوم قلـب . فقد دعا حسناءهُ ابنة القوم وفاقاً لعادة عربية قديمة تنادي بها المرأة هكذا امتداحاً لها بأن لها قوماً تعتز بهم فجعل نفسه غريباً عنها وفيها يقول

احنُّ الى قومي واهوى لقاءهم واين من المشتاق عنقاء مغرب

وهل اشرف من عاطفة الحنين الى الاهل فالمتنبي يقف في مصر مواقف مشرفة لان رأسه تغلي بأطماعهِ المعروفة وكافور يطاوله ويمنيه واذا جاز الافتراض قلنا لعلَّ كافوراً اوعز من باب السياسة الى

بعض اشياعه ان يعير المتنبي بتطلعه الى النساء ومعاقرة الخمر دفعاً عن اطماعه ولعلَّ التهمة قرعت سمع المتنبي والاَّ فما معنى ان يدال طويلاً بعفته وابائه واجتنابه للخمر ويذكر هاتين الخلتين مفتخراً فيقول

وغير فؤادي للغواني رمية   وغير بناني للزجاج ركاب

ثم يشفق ان يتهم بالضعف في موضوع الحسان فيقول :

وللخود مني ساعة ثم بيننا   فلاة الى غير اللقاء تجاب

وراح يسلك في تعريف العشق مسلكاً لا يتفق مع ما سبق له في قصائده السالفة فيزعم ان العشق غرور وطمع حيث قال :

وما العشق الاَّ غرة وطماعة   يعرض قلب نفسه فيصاب

وصار يقول ايضاً : يحب العاقلون على التصافي   وحب الجاهلين على الوسام

فيجمع بين الحب والعقل بعد ان أشاد طويلاً بالتفريق بينهما وينسب الجهل الى عشاق الجمال وانكى من هذا قوله

مما اضرَّ بأهل العشق انهم   هووا وما عرفوا الدنيا ولا فطنوا

تفنى عيونهم دمعاً وانفسهم   في اثر كل قبيح وجهه حسن

كأن كل عاشق جاهل وكل جميل الوجه قبيح النفس وكأنهُ لم يكن يحب اهل العشق هؤلاء الذين يرميهم بالجهل وهو الذي قال :

وما انا الاَّ عاشق كل عاشق   اعق خليليه الصفيين لائمه

وقد يتزيا بالهوى غير اهله   ويستصحب الانسان من لا يلائمه

وهو الذي قال : ضروب الناس عشاق ضروبا   فاعذرهم اشفهم حبيبا

اجل لم يكن المتنبي ليجسر على الجهر باطماعه عند سيف الدولة ونحن نعرف ما كان عليهِ من الشجاعة والفروسية والعزة والسطوة بل هو من قومهِ بني حمدان في سياج من الامراء والقواد ممن لا يجوز للمتنبي ان يفكر في تخطيهم الى ملك او امارة . ولكن الحالة في مصر غير الحالة في حلب وكافور عند اسود اغتصب ملك سيده وتصدر لتصريف شؤون البلاد والعباد وليس له قوم يرتكز على عصبيته فيهم وقد الحَّ في استدعاء المتنبي ليرفع به جاهه ويدل به على غيره من الملوك فلا ضير على المتنبي اذا طلب الولاية والامارة وهو لن يتخطى اليها احداً من اهل كافور الاقربين وسواء في حلب او في مصر فان المتنبي لزم خطته في التغني بمناقبه الرفيعة واخصها بعده عن النساء وترفعه عنهنَّ ولكن بعد ان هرب من مصر ولحق ببني بويه وقد انهارت آماله واخفقت مساعيه عاد الى الغزل واطلق لنفسه العنان في صدر قصائده على السيرة القديمة المألوفة ولكنهُ كان قد تجاوز سن العشق فجاء غزله ماديًّا كما اسلفنا وظلت المرأة كما صورتها له كبرياؤه بعد طور الصبا

ومن العجيب ان يذهب المتنبي ضحيـة امرأة هجـاها فأفحش فقتـله اخوها . وهذا منتهى سخرية الاقدار !

آراء الباحثين

في اصل الشعور الديني

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

كثيراً ما كنت اسأل والدتي في طفولتي ورأسي على حجرها سؤالاً كان يشغل بالي يومئذٍ كما يشغل بالي اليوم وهو « من اين اتى ابي ؟ » فتقول « من جدك » و « جدي ؟ » فتقول « من جد بابا » وهكذا الى ان نصل الى آدم كما هي العادة فاسألها « ومن اين اتى آدم ؟ » فتقول على الاصول « خلقهُ الله من التراب » وهنا تحاول كثيراً ان تقطع الحديث ولكنني ويا للأسف كنت استمر في سؤالي شأن من لم يستفرغ الحقائق المنشودة فاقول لها ببساطة الاطفال ومن غير وجل « ومن اين اتى الله ؟ » فتعبس في وجهي حالاً وتقطب جبينها وتقول « اسكت ... حرام ... كفر ... » فكنت اسكت حقاً ولكن على مضض وانا خائف ان اكرر سؤالي حتى لا اغضبها

تمثل هذه الصفحة المقتضبة من طفولتي تاريخ كثير من الاطفال غيري ، وما حب الاستقصاء المتسلسل الوارد فيها الا ميزة من ميزات العقل البشري وصفة ملازمة له لا تستطيع الوالدة مهما كانت محبوبة ومحترمة ان تقف في وجههِ . فالسؤال عن اصل الموجودات او عن سبب حدوثها متأصل في النفس تأصل سائر الخصائص التي لازمت العقل البشري منذ ما انتقل من البساطة الحيوانية التي كان عليها . واذا صحَّت نظرية النشوئيين فيما يقولون من ان سن الطفولة في الفرد يمثل عصر البشرية في المهد فيكون مثل هذا السؤال الذي ازعج والدتي كثيراً من الاسئلة التي خطرت للانسان الاول وهو لا يزال في الكهوف والبحيرات والغابات ، وكانت مساعيهِ يومئذٍ للحصول على الجواب الشافي بمثابة البحوث الاولى في الدين والعمل لتعليل السبب والمسبب واللازم والملزوم والازل والابد.

لا جرم اننا نرى في جميع الاديان المعروفة خبراً طويلاً مستفيضاً عن بدء الكائنات ومصيرها وعن الجلد والظلمة والغمر وروح الله التي كانت ترفرف على الماء وعن خلق آدم من التراب وحواء من ضلعه وكذلك الخبر عند المجوس عن الاثني عشر الفاً من السنين الطوال التي يتصارع فيها اله النور (اهورامازدا) واله الظلمة (اهوراماني) وعند الهندوكيين عن تلك العشرات من ملايين السنين التي تنتهي بتفاني الخلق واندثارها في براهما

ان هذه الصفحات الغزيرة المستوفاة عن البدء والمصير هي روح تلك الصفحة الاولى التي خطرت لي وانا مستند الى حجر والدتي وستخطر للاطفال امثالي ما بقيت لهذا العقل الذي زين الانسان تلك الخصائص النفسية التي يحق لنا ان ندعوها « السببية » « والتلازمية » « والازلية » « والسرمدية » ، وفي نظري ان مذهب النشوء والترقي ان هو الا محاولة علمية استقرائية بعثها في قلوب العلماء مثل

هذا الشعور المتأصل في النفس لتعليل الانسان بالعودة بأصله الى الحيوانات من القردة فما دون الى الحيوانات ذات الخلية الواحدة. بيد ان هذه النظرية تقف وقوف سائر المذاهب والعقائد عند ما نتساءل « ومن اين اتت الحياة لهذه الحيوانات الدنيا ؟ » ومتى وصل العالِم حتى من كان دهريًّا بحتاً الى هذا المقام فهو ليس ببعيد كل البعد عن منطقة الدين وما لهُ من ولهٍ في تعليل المبدأ والمصير.

وفي الجزء الثاني من كتاب « زاد المعاد في هدي خير العباد » لابن القيم الجوزي (ص ٣٥): «وقال صلى الله عليهِ وسلّم (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقول قائلهم هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليستعذ بالله ولينته »

وقرأت في مقتطف مايو الماضي للاستاذ نقولا حدّاد مقالاً طريفاً عن « الزمكان » فيهِ خلاصة النظرية النسبية للاستاذ (أينشتين) في الزمان والمكان فقلت في نفسي هذه هي الضالّة التي انشدها وهذا بيت قصيدي لانهُ يعالج بالطرق الحديثة الفضاء ويضع لهُ حدًّا فلننصغ الى طريقته

قال الاستاذ حدّاد: «لذلك ما نسميهِ فضاء هو فضاء محدود بالمادة ، متناهٍ ، لان المادة متناهية اي ان لها قدراً معيناً والفضاء محدود بها ، لهُ اول ولهُ آخر» ، فقلت في نفسي ان (اينشتين) وجميع شهرته العالمية لم تحل وبالأسف شيئاً من العقدة لانني لا ازال حتى هذه الساعة اسأل بحكم فطرتي وتركيب عقلي واختباري اليومي في الموجودات « ما الذي كان يا ترى قبل اول الفضاء وما الذي يأتي بعد آخره ؟ » ولشد ما كان تعجبي اذ رأيت الاستاذ حدّاداً نفسه يعقب على جميع ما اتى بهِ من البراهين لاثبات ان المكان محدود بجملة واحدة تهدم هذا التحديد وتعود بنا الى المواقف المتحيرة التي وقفها حكماء الهند واليونان والعرب منذ الوف السنين وهي قوله « ولا تسل عما قبل الاول وعما وراء الآخر فهذا مستحيل على العقل البشري تصوره » وهو لا يختلف كثيراً عن قول والدتي ورأسي على ركبتها « اسكت ، . . حرام . . . هذا كفر . . »

ثم اني لم اقصر سؤالي لها على آدم وتسلسله فقط بل كثيراً ما كنت اسألها عن السماء ايضاً وما فوقها وعن الارض وما تحتها فلم يكن ليصعب عليها ان تردّ عليَّ بذكر السبع الطباق وبقرن الثور ولكنني كنت ألاقي منها نفس الاعراض والتقطيب متى جاوزت السماء السابعة الى العرش وقعر الارض الى قرن الثور

فانت ترى ان البحث في المكان واللانهاية مثل البحث في الزمان والازل خاصيّة من خصائص العقل البشري لا محيد عنها، وقد جال فيها علماء الطبيعة كما جال فيها الحكماء المتقدمون وعلماء الدين، ولعمري ان المستكشفات الحديثة في علم الفلك وما توصلت اليه من تقدير الابعاد بالسنين الضوئية قد ضاعفت حيرتنا من هذا الكون وابهته وجلاله ، وكل طالب علم يذكر كيف قضى في فراشه الليلة الاولى التي رصد فيها الافلاك بالمرقب لاول مرة وكيف سبح وهمه ساعتئذٍ بين الاجرام السماوية محاذياً لها حتى تراءت له حدود اللانهاية فعاد خاسراً وهو حسير. ومع كل هذا

السلاح العلمي الدقيق الذي نتسلح به اليوم فنحن ازاء هذه المعضلات الزمانية المكانية لسنا بعيدين عن مقام الحيرة الذي بلغهُ اعلام التصوف من رجالنا الماضين ، وبخاصة الحيرة من اللانهاية فقد مثلت هذه الحيرة ادق الادوار وأخطرها في تصوراتنا الدينية ومعتقداتنا الروحية

ولقائل ان يعترض فيقول ان ما ذهبنا اليه من هذه الخصائص العقلية التي مازت الانسان لا ينطبق على الانسان الوحشي الاول فمثل هذه المرتبة الراقية في التفكير تحتاج الى انسجام منطقي لم يبلغه ، وان الطفل ابن الخامسة من ابناء اليوم هو في مقام الحكماء اذا ما قيس بالانسان النيندرتالي مثلاً ، ثم ان الدين قضية اجتماعية من اولها تولدت من اتصال الانسان بأخيه الانسان ولا يكفي في تعليلها الاعتماد على الشعور الفردي مهما كان خطيراً ، وجوابي عن ذلك كله ان الشعور باللانهاية على انواعها ، اللانهاية المكانية التي لا قرار لها واللانهاية الزمانية التي لا منتهى لها ، واللانهاية الطبيعية في القوة التي لا تنضب وظواهرها الجبارة التي يتضاءل عندها الانسان فينقاد لاحترامها وتبجيلها والرهبة منها صاغراً ، كل ذلك كان له اعظم الاثر في تفكيرنا الديني منذ ما جاز ان يطلق على هذا الانسان انه حيوان مفكر

المذهب الاجتماعي الطبيعي في تعليل الدين : ان هذا الذي ذكرناه في تعليل الدين يحتاج ولا شك الى شيء من الارتقاء العقلي قد لا يكون موجوداً في البشر الاول ، لذلك رأينا ان نطلع القراء على خلاصة رأي الاجتماعيين في هذا الباب وكيف عللوا الظواهر الدينية منذ نشأتها الاولى معتمدين في الاكثر على ما كتبهُ الاستاذان (هوبكنس) و (جيدنغز) وعلى ما ورد في « الموجز في علم الاجتماع » :

ان المشاكل المعضلة التي لقيها الانسان في حياته على وجه الارض فولَّدت في نفسهِ الافكار الدينية وما يتعلق بها من أعمال هي مشاكل شديدة التعقد ، والعلائق القائمة بينها دقيقة جداً ، فنرى ان العقل البشري بما بذله من المساعي الجدية للخروج من التيه المرتبك الذي وضعتهُ فيهِ ظواهر الطبيعة والخلاص من الحيرة المختبطة التي احاطت به من البشر انفسهم قد هيأ التربة الصالحة التي نمت فيها شجرة الدين ، فيجوز ان يقال اذن ان البشر الاول وهو منتقل حديثاً من المرتبة الحيوانية العجماء بعقل لا يفضل كثيراً عقل الحيوان حلق في هذا الكون فرأى ما فيهِ من قوى وحشية وبشرية محجبة فاعتراه الخوف ولكنهُ لم تتضح له جلية هذا الشيء المخوف اذ كانت الافكار التي تجول في نفسهِ لا تزال مجموعة صور خليط لم تدخلها بعد عوامل التنسيق والتبويب . بل امتلأ قلبه ذعراً من شيء اطلق عليه العلماء اسم « المرعب الاعظم » او « البعبع » وعنوا به قوة مرعبة محجبة تكتنفها الاسرار وتحيط بها الهواجس تسلطت على لب هذا البشر الوحشي وضايقتهُ ولازمتهُ حتى حملتهُ على اتخاذ اتجاه خاص نحوها فكان يفكر كيف يفسر هذا المرعب الاعظم ويمالئهُ ويقوم بمعاملتهِ والتقرب اليهِ ومن هنا ابتدأت فكرة الاسترضاء والاستغفار والعبادة كما يتضح مما يأتي

فالبشر حتى منذ ما كان على الحالة الحيوانية ادرك معنى التفوق او السيادة من جهة والخنوع والخضوع من جهة اخرى ، وتوصل الى فهم بعض الاشياء والاحاطة بمعناها وذلك لفهم الناس من حوله ، وتعلم كيف يعقد أواصر الاتصال بهم ويمشي اموره معهم ، ومن المعقول جداً ان يمتد هذا الفهم وتزداد أواصر الاتصال حتى يتسعا فيشملا الظواهر الطبيعية المحيطة به ، والتي لم يدرك كنهها ولكنهُ حرص على استمالتها اليهِ واسترضائها . لم يدرك البرق والرعد والعاصفة والسيل والشلال مثلاً ولكنهُ توسل بجميع الوسائل التي سبق له ان استعان بها لاسترضاء أخيهِ الانسان لاكتساب عطفها ورضاها . لا جرم انهُ فسَّر كل شيء مستغرب مجهول بالمشاعر التي تجول في نفسهِ وتجول في نفس البشر اخوانه وعزا اليها ما عزاه اليهم وعامل هذه المجهولات التي اعجزهُ فهمها بنفس الطريقة التي عامل بها اخوانه ومشَّى حاله معهم

وعلاوة على ذلك فقد دلَّتهُ التجارب على ان الطريقة التي نجحت في اكتسابهِ معونة البشر اخوانه واسترضائهم قد نجحت هي ذاتها في اكتسابهِ معونة الحيوانات واسترضائها . وقد تجلى ذلك له في تدجين بعضها والعمل لتأنيسها . ثم ان الصراع الذي كان قائماً بينهُ وبين الحيوانات البرية قد أرشدهُ حتى قبل مباشرته عمل التدجين هذا الى ان عقول هذه الحيوانات تشبه بعض الشبه عقول الناس مَن كان عليهِ ان يتصل بهم ويعاملهم . فاذا كان في وسعه ان يعيش مع الناس ويتعامل مع الحيوانات باتباعهِ بعض القواعد وسلوكهِ بعض السبل ، افليس من المعقول ان يستنتج استنتاجاً منطقياً خالياً من الارتباك والتعقيد ان هذه القواعد والسبل نفسها تنجح في فهم واسترضاء اشياء اخرى منتشرة حوله في الكون لا تقل غموضاً وغرابة ؟

وقد احتفظ الانسان بهذا الاتجاه العقلي المنطقي في جميع اعماله وطوال حياته ، واذ كان جاهلاً ان في الدنيا اسباباً غير شخصية تصدر عن قوى طبيعية عمياء فقد توهم الشخصية في كل سبب مرغماً ونسب الى الظواهر الطبيعية من حوله التي لادخل للناس فيها ايدي الاشخاص ، اذن فما دام السبب الذي يحدث النتيجة شخصاً فالواجب ان يكون شخصاً مثل سائر من عرف من الاشخاص — شخص حبّ وكره ، شخص عطف ونفرة ، شخصاً مكوناً من قوة مستغربة غامضة ، عليهِ ان يعاملها بطريقة من الطرائق . فاذا كانت هذه القوة ساخطة فالواجب استرضاؤها وتسكين روعها ، والطريقة المثلى الوحيدة التي تخطر بالبال هي الطريقة التي يسترضي بها البشر متى كان ساخطاً لذلك تخيل الانسان الطبيعة جميعاً حافلة بالارواح من نمطهِ ، ثم ان شخصيته ذاتها لم تكن اقل غموضاً وتعمية بالنسبة اليهِ من ظواهر الطبيعة ووقائعها فهو اذا ما صاح سمع صوتاً يهزأ بهِ يتردد من الروابي والغابات وهو الصدى الذي لايدهش أحداً منا ، واذا ما انحنى على البركة ليشرب رأى في اعماقها وجهاً ينظر اليهِ مثل وجههِ او وجه من يكون معهُ من الرفقاء وهو الصورة المنعكسة عن سطح الماء التي لا يكترث لها احد منا ، واذا ما نام حلم في منامهِ انهُ يجول ويقوم بشتى الاعمال ولكنهُ عند ما يصحو يجد انهُ لم يغادر البقعة

التي نام فيها ، وفي بعض الحالات الاخرى يضطجع ثم يقوم ويمشي وهو نائم الى ان يصطدم بشيء من الاشياء فيصحو، اذن فهذه الحوادث الطارئة والاختبارات المتتابعة التي مشى فيها وجال وتكلم هي في منطقهِ البسيط اختبارات حقيقية وحوادث واقعة لاغبار عليها . فكيف يفسرها ؟ كيف يستطيع المرء ان ينام ويمشي في آن واحد من غير ان يغادر مكانه ؟ والتعليل الوحيد الذي يخطر لهُ من جميع هذه المشاهدات هو انه شخص مزدوج مؤلف من قرينين — والقرين في العربية هو النفس او هو الشيطان المقرون بالانسان لا يفارقهُ ، وكلا المعنيين لا يبعد عن معنى الازدواج الذي قصدناه — ففي المنام يبقى احد قرينيه في موضعه والقرين الآخر يتمشى خارجاً ، ومعنى ذلك في حسابه ان لهُ روحاً وهذه الروح تلازمهُ في صحوه ، واما اذا نام او اصيب باغماءٍ او ذهولٍ فانها تغادر جسمه وتروح وتغدو بعيدة عنهُ ، وهي محجوبة عن نظره لا يستطيع مهما حاول ان يراها . ولكن اي برهان على وجودها يا ترى أصح وأسد من هذا البرهان المحسوس الملموس ؟

ثم انه بسائق العقل البسيط الذي يحمله في رأسهِ يستنتج ان روحاً تشبهُ هذه الروح تحل في الطبيعة كلها وهذه الروح هي شخص ذو خصائص ذاتية مثله ومثل رفقائهِ ، تحب وتبغض ولها شهوات وانفعالات وعواطف ويساورها الغضب وتشتهي الهدايا والمنح وتصاب بالهوى والوسواس ، اذن فهي شيء ينظر المرء اليهِ بالرهبة والخوف ويعقد معهُ اواصر الصلح والسلم والوئام

ثم هنالك حادثة الحوادث — هنالك الموت وما فيهِ من غرابة وغموض وابهام ، وقد دلتنا جميع الملاحظات التي جمعناها على أن الشعوب الابتدائية البالغة درجة التفكير في الامور تهتم بالموت ، فالانسان الاول وهو مقيم دائماً في وسط القوى الوحشية التي قضت عليها المدنية فيما بعد او أخضعتها ودجنتها لخدمة البشر قلما مات ميتة طبيعية حتف أنفه ، فاذا كتب له أن يعيش فيموت هذه الميتة فانها تكون حينئذٍ ظاهرة غريبة تفسر على هذا النمط المزدوج القائم على وجودٍ آخر هو الروح المحجوبة أو القرين الخفي

والغالب أنهُ يموت قبل بلوغهِ أرذل العمر وهو سن الشيخوخة البالية اذ يقول انه لا يرى لذة في الحياة بل تكون الحياة على عكس ذلك لا تزال لذيذة حلوة والموت نكبة لا راحة ، ولما كانت الوحوش البرية الضارية والبشر الاشد منها توحشاً وشراسة واقفة له بالمرصاد في كل ناحية للانقضاض عليهِ فالخوف الطبيعي الغريزي من الموت كان ابداً ماثلاً أمام عينيه ، ولما أخذ يفكر في هذه الاحوال والاشياء خطر له هذا السؤال بالطبع وهو « ما هو الموت ؟ » فهل يجد الجواب الشافي عن هذا السؤال الاَّ في تلك الاختبارات التي تشبه الموت كثيراً ؟ لقد نام وأفاق ، ورأى في بعض الاحيان أناساً صرعوا في القتال فأغمي عليهم حيناً من الزمن ثم عادوا الى وعيهم ، ورأى آخرين أصيبوا بغشيان او دهشة وذهول فلما صحوا قصوا على الناس ما رأوا وما سمعوا ، أليس الموت شيئاً مثل النوم والاغماء والذهول الاَّ ان غياب الروح فيهِ عن الجسد أطول أمداً ؟ أولا تكون الروح أو

القرين في حالة الموت حية في مكان آخر ترى وتسمع وتتلذذ وتمي وتشتهي وتنفعل وتحب وتبغض كما لو كانت في الجسد؟ ثم تحدث حادثة مشؤومة ليس لها سبب ظاهر ، فليت شعري لم لا يكون ميت من الاموات الساخطين قد أحدثها؟ فمثل هذا الميت لما كان حيًّا انتقم لنفسهِ ، والآن وهو ميت وقد غضب واغتاظ فالواجب ان يسترضى ويهدأ روعه بنفس الطريقة كما لو كان حيًّا

وربما كان الميت رئيساً كبيراً أو حاكماً للجماعة مطلقاً فيخشى منهُ في موته بقدر ما كان يبجل في حياته وزيادة ، لان المعروف من أمره وهو ميت أقل بكثير مما كان يعرف وهو حي ، لذلك لفّفة الموت بالاسرار وحجبهُ بالطلاسم والمعميات فاحاطهُ بالاسباب الداعية إلى الذعر والرهبة ، وهكذا نشأت عبادة السلف أو بمثل هذه الطرق كانت الافكار الدينية الاولى الخالية من الانسجام للاعراب عن نفسها ، وهي أفكار طافحة بالمتناقضات مثل أفكار الرجل الابتدائي أو مثل افكار الطفل الصغير في أوائل تفكيره ، ومغشّاة مبهمة « ومتبّلة » خليط بعضها فوق بعض تشبه العواطف والانفعالات والاندفاعات المتولدة في نفسهِ من اتصاله بالكون وما فيهِ من أشياء وأشخاص . على ان هذه الافكار هي جهود جهدها لانقاذ الموقف الكريه بشيءٍ من العمل مهما كان نوعه ، هي بوادر تعليل نظري للعالم الذي يعيش فيهِ ، وهي المحاولات المغلوطة الاولى للحصول على الوسيلة التي يتمكن بها من اخضاعه والتسلط عليهِ . هي آراء منعكسة عن الجمعية البشرية التي هو جزء منها وعضو فيها ، ولهذه الآراء نظائرها في نفسهِ وفي نفوس الناس من حوله ممن يتصل بهم ، فالآلهة التي يصطنعها لنفسهِ يعملها على غراره وغرار اخوانهِ ولكنها اعظم منهم شأناً وأشد بأساً وأسدُّ حكمةً واكثر ابهاماً وأقل جلاءً

وقصارى رأي الاجتماعيين الطبيعيين في نشوء الاعمال الدينية والعبادات هو ان اتصال الانسان الابتدائي الاول بالطبيعة وبالناس من حوله ادى الى استحداثهما في نفسه فهما من صنعه ويبتدئان من عنده وينعكسان عن تجاربه . وكما نما الطفل الصغير وأضحى على اتصال بالشخصيات الاخرى تعلم ان يكيف نفسه بحسبها وعلى مقتضى الاحوال التي تحيط بها فهو يرى انهُ اذا قام ببعض الاعمال استرضاها وعقد اواصر الوفاق معها وان قام بغيرها أغضبها وأثار حفيظتها ، فهنالك اشياء تستدعي سرورها واخرى تسيئها ، ومن مثل هذه المفاجآت الاختبارية الدائمة يتعلم ماذا يعمل لاكتساب رضاء الشخص الآخر . وعلى اساس هذا الاختبار يستخلص لنفسهِ قاعدة عامة ويختار دستوراً يوافق جميع الناس . والآن وهو يعتقد ان الظواهر الطبيعية يسببها اشخاص فانهُ يتبع في معاملتهِ روح الجبل او روح العاصفة مثلاً نفس الخطة التي يتبعها في معاملة الناس . ويجب ان يكون الاشخاص الذين يحدثون هذه الظواهر ويدبرون امرها مثل الاشخاص الذين عرفهم لذلك يتخذ اتجاهاً خاصًّا نحوهم ويستميلهم بالهدايا والقرابين ويسكن غضبهم او يكتسب رضاءهم ورعايتهم بالثناء عليهم والتضرع اليهم واقامة الصلاة لتمجيدهم

العناية بالصحة الشخصية

في العهد الفرعوني

للدكتور حسن كمال

١ — ﴿مقدمة﴾ كلنا نعرف ان العناية بصحة الفرد أصبحت الآن غير قاصرة على الفحص وقت المرض ووصف الدواء . بل تعددت وتنوعت وأصبحت تعرف الآن بالطب الواقي . يضاف الى ذلك الوسائل الحديثة في التشخيص والعلاج . وقد تغلغل الطب الواقي حتى شمل حالات الانسان الخاصة كالمأكل والمشرب والمسكن ونظافة الجسم والعناية بالجلوس والنوم واستنشاق الهواء النقي والاهتمام بالالعاب الرياضية وغير ذلك مما لا يقع تحت حصر . وهذه الامور الشخصية لم تكن الى عهد قريب موضوع بحث فني ولاعناية طبية . لكن مكانتها اضحت الآن حقيقة ثابتة لا تقل عن التطعيم ضد التيفودية او الدفتريا على سبيل المثال

٢ — وكلنا نعرف ايضاً ان المشرب والمأكل والملبس وكثيراً من العادات الشخصية هي وليدة التربة والطقس والوطن وذات صلة وثيقة بمدنية الشعب ورقيّه الفكري واستقلاله السياسي . هذه كلها عوامل جدية في حياة الانسان الماشية . وعليه نجد للقطر المصري ميزات خاصة منذ قديم الزمان . وهذه الميزات طبيعية واجتماعية . اما الطبيعية فلكثرة الخضراوات واللحوم وانتشار الزراعة والتعرّض للشمس وغير ذلك نجد ان قدماء المصريين كانوا يمرضون بما لهُ صلة بهذه العوامل كالديدان المعوية والبلهارسيا والانكلستوما . واما العوامل الاجتماعية فنتيجة نشاط العنصر المصري وذكائهِ وقوة ابتكاره وشعوره بالسيادة . لذلك نجد اجدادنا شديدي العناية بكل ما لهُ علاقة بمظاهر السيادة والتفوّق مثل نظافة الجسم والمسكن ووسائل الراحة والنعيم والعناية بالملبس والصحة بل وحتى تجاعيد الوجه الدالة على الشيخوخة . وقد توسعوا في ذلك فشملوا بعنايتهم حجرات النوم والدورات المائية والالعاب الرياضية وغيرها . وصحب كل ذلك تحسين وتنسيق وتهذيب على ممر الايام حتى بلغ القوم في العناية بأشخاصهم درجة حسدتهم عليها الممالك الاجنبية . وصار هذا المجهود انموذجاً يراعى في البلاد الراقية ايما مراعاة ولهُ فيها حرمة التقديس

لكن نكبات الدهر والغارات الاجنبية والاسراف في الترف أضعفت من نفوس المصريين — كما أضعفت من نفوس الرومان — فأنستهم فضل آبائهم واجدادهم والهتهم عن النافع ووجهتهم نحو الفساد وذلك منذ الفتح الفارسي عام ٥٣٥ ق . م

ولما بدأنا حديثاً نبحث عن مدنيتنا القديمة اتضح لنا ان كثيراً من العناية بصحة الفرد الحديثة انما يرجع الفضل فيهِ الى مجهود اجدادنا . وسيأتي ذلك مفصلاً ومدعماً بالصور الاثرية بوضوح

قال هيرودوتس (١١ — ٧٧) ان المصريين كانوا اكثر الناس اشتغالاً بالأمور الذهنية . يشربون مسهلاً كل يوم ثلاثة ايام متوالية . ويعنون بمداراة صحتهم وحفظها بواسطة المقيئات والمسهلات لانهم يعتقدون ويؤكدون ان كل الامراض تأتي من الاطعمة . واورد ديودورس الصقلي ما يؤيد هيرودوتس فيما ذهب اليهِ . والآثار المصرية والقراطيس البردية تحوي الكثير من المعلومات في هذا الموضوع

٢ — ﴿ العناية بالرأس ﴾ اهتمَّ المصريون قدماً بحلق رؤوسهم رجالاً واطفالاً واحتفظوا للاخيرين بخصلة طويلة على احد الجانبين . وكان العمال والفلاحون يخرجون الى الحقول عراة الرؤوس . قال هيرودوتس وهذا هو السبب في صلابة جماجم المصريين وعدم انتشار الصلع بينهم . ولا يعني هذا ان افراد الطبقة المذكورة لم يلبسوا لباساً لرؤوسهم مطلقاً فقد وردت رسوم كثيرة تظهرهم بهذا المظهر في ظروف خاصة . اما سراة القوم فامتازوا بلبس الشعور السارية في الاحتفالات وغيرها . وارسل النسوة شعورهنَّ طويلة ولم يحلقنها الاَّ وقت الحزن . واخذ الرومان عن المصريين استعمال الشعر المستعار ولا يزال قضاة الانكليز يلبسونهُ في جلسات محاكمهم

واعتاد القوم ان يحلقوا لحاهم وشواربهم ولا يرسلونها الاَّ وقت الاتراح . وجاء في التوراة ان سيدنا يوسف عليهِ السلام حلق رأسه لما استدعاه فرعون مصر من السجن . وكان هذا الحلق ضروريًّا حتى انهم مقتوا كل مرسل لشعره . واذا ارادوا ان يحقروا شخصاً رسموه بلحية وشارب . ولما كان حب النكتة غريزيًّا في مصر لم يسلم ملوكهم منهُ . فرسم القوم ملكهم رمسيس السابع بقبره في طيبة ملوَّن اللحية كانها مرسلة لمدة ثلاثة ايام . وورد على الآثار رسم لرمسيس الثاني في مواقعه الحربية يمثله بلحية مرسلة قصد اثبات انهماكه في الحرب بدرجة أنستهُ حلق لحيته

وامتاز الكهنة بالنظافة المطلقة . فحلقوا اجسامهم كل ثلاثة ايام واستحموا مرتين صباحاً ومرتين مساء كل يوم . واتبع كثير من الاهالي هذه التعاليم . وجاء عن يوسف عليهِ السلام انهُ طلب من اخوته ان يحلقوا لحاهم وينظفوا اجسامهم وقت استحضار والدهم لمصر مراعاة لعادات المصريين واحتراماً لها . وحقّر المصريون الاسيويين واليونانيين لارسالهم لحاهم . ورفضوا اكل حيوان ذبحه يوناني لهذا السبب . والحلاقة اولى خطوات التمدين . والحلاقون نسل الحضارة . ولا ادل على ذلك من عادة الرومان الذين كانوا يحلقون لحاهم عند بلوغهم سن المراهقة ويقدمونها الى آلهتهم اثباتاً لرشدهم . وعلى ذلك فحلاقة الرأس باكمله عادة مصرية قديمة . وهذا هو السر في ندورة امراض الشعر المتعددة عندهم كالقراع والاكزيما الجافة والسعفة (ringworm) . ويمتاز سراة القوم بلحاهم المستعارة ذات الاشكال المخصوصة . وكان افراد الطبقة الوسطى يتزينون بلحى مستعارة لا يزيد طولها على خمسة سنتيمترات ولحى الملوك المستعارة طويلة وذات زوايا مستقيمة . ولحى المعبودات ملتوية الطرف السفلي

واعتاد النسوة ان يرسلنَ شعورهنَّ وان يضفرنها ضفائر رفيعة حتى لوحتي الظهر . وان يرسلنَ

شعر جانبي الرأس المضفر ينفصل الكيفية على صدورهن من الامام . وكل ضفيرة عبارة عن مجموعات ثلاث كما هي العادة الآن . وتثبت حول الرأس شبكة خفيفة للحلية وحفظ الشعر محله . وتزين هذه الشبكة احياناً بزهرة اللوطس . وكثيراً ما كانت ضفائر الرأس تثبت بامشاط او دبابيس كما هي العادة الآن . اما الامشاط فكانت ذات حدين احدهما غليظ الاسنان وثانيهما دقيقها . ويبلغ طول المشط عشرة سنتيمترات تقريباً . وهناك امشاط بحد واحد . والقصد من الاسنان الغليظة تسريح الشعر . اما الدقيقة فلتنظيفه من الحشرات . والمشط من اهم ادوات العناية بصحة الفرد . وابتكاره يرجع الى قدماء المصريين . وتستعمل الامشاط الآن في مقاومة التيفوس والحمى الراجعة

واهتمَّ القوم باطالة شعر المرأة واستعملوا لذلك زيت الخروع (ايبرس وصفة رقم ٢٥١) . وكذلك عنوا بانبات الشعر بعد سقوطه كما هو واضح بقرطاس ايبرس (وصفة ٤٦٤ — ٤٧٦)

٢ — ﴿ العناية بالعينين ﴾ ليس هذا مقام الاشادة بفضل قدماء المصريين في تشخيص امراض العيون وابتكار العقاقير الهامة التي لا تزال مستعملة للآن في الرمد الحبيبي وغيره . لذلك سأقتصر هنا على ما كان الفرد يقوم به في سبيل تجميل عينيه . ويشاهد ذلك بوضوح عند السيدات . والمعروف انهُ كلما زادت الرغبة في اظهار جمال الشيء كانت العناية به في حالتي الصحة والمرض عظيمة

اعتاد المصريون منذ اقدم العصور ان يكحلوا اعينهم . واتى الرومان فأخذوا عنهم ذلك . والقصد من ذلك تجميل العينين باظهارهما كبيرتين وذلك باضافة اطار اسود حولهما . واعتقد المصريون ان الكحل يحسن البصر . وهذا يفسر كثرة المكاحل والمراود التي عثر عليها في المقابر المصرية وتعدد انواعها وتباين المواد المصنوعة منها كالحجر والخشب والخزف

وهناك نوعان من الكحل اخضر واسود . اما الاخضر ويعرف بالحجر الملكي Malachite (وهو المعروف كيمائيًّا باسم green ore of copper) احد املاح النحاس . واما الاسود فهو احد املاح الرصاص (يعرف باسم dark grey ore of lead او galena) والكحل الاخضر اقدم من الاول ولكن استعيض منهُ تدريجاً بالاسود . واستعمل القوم كلهم جافًّا او ممزوجاً بالماء وذلك بعد سحقه جيداً في كلتا الحالتين . ويرتد استعمال الكحل الاخضر الى اقدم الازمنة المعروفة حتى عهد الاسرة التاسعة عشرة (١٣٥٠ — ١٢٠٠ ق. م.) . اما الكحل الاسود فبدأ استعماله منذ عهد الاسرة الاولى تقريباً ودام حتى العهد القبطي . وقد عثر على مقادير من الكحل بنوعيه مسحوقة وغير مسحوقة . ولم يعثر على الاثمد (antimony) الاَّ في نموذج واحد من الكحل القديم . اما الكحل الحديث فمصنوع من هباب البخور او قشر اللوز او من حرق القرطم ويستعمل ببلّ المرود بالماء ثم غمسه في مسحوق الكحل ثم وضع الكحل حول الاهداب . واقدم مراود عثر عليها يرجع تاريخها الى عهد الاسرة الحادية عشرة (٢١٠٠— ٢٠٠٠ ق. م.) ويغلب ان القوم كانوا يكتحلون بأصابعهم قبل ذلك . وموطن الكحل الاخضر طور سيناء وصحراء العرب اما موطن الكحل

الاسود باقليم اسوان وشاطىء البحر الاحمر . وقد وردت وصفات عديدة في القراطيس الطبية خاصة بالعين كغتامة القرنية « ايبرس ٣٧٨ — ٣٨٠ » و احتقان العين « ايبرس ٣٩٠ » وتقوية البصر « ايبرس ٤٠٧ و ٤١٤ » والعشرة « ايبرس ٤٢٤ » وضيق الحدقة « ايبرس ٣٤٥ » والرمد الحبيبي « ايبرس ٣٥٥ الخ » والرمد الصديدي « ايبرس ٣٥٤ » وغير ذلك

٤ — « العناية بالاسنان » اهتم المصريون بازالة الالم وقت التسنين (ايبرس ٧٤٨) وبتقوية اسنانهم (ايبرس ٧٤٣—٧٤٤) وبتعطير رائحة افواههم بمضغ مزيج من الكندر واليفسون والعسل وغيرها (ايبرس ٨٥٣ ب) . ولم نهتد للآن الى استعمال السواك او الفرش لنظافة الاسنان . لكن يلاحظ ان المومياءات القديمة امتازت بسلامة اسنانها على اختلاف اعمارها . وذلك لان صحة الاسنان تابعة لصحة الجسم فاذا كان الاخير سليماً كانت الاسنان سليمة ايضاً

٥ — « العناية بالوجه » عثر على كثير من ادوات الزينة (التواليت) بالمقابر المصرية من قارورات واوانٍ توضع فيها المراهم والاكحال والقطرات . وعثر ايضاً على عدد وفير من المرايا والامشاط والصناديق الصغيرة والملاعق والاطباق الصغيرة . ومراهم القوم المستعملة للوجه والجسم كانت عطرية ولا يزال بعضها حافظاً رائحته للآن . ووضع القوم مراهمهم في مواعين او اوان مرمرية او زجاجية او عاجية او عظمية او فخارية او حجرية « ولكنسون ٢ـ٣٤٤ » . وحضّر القوم عطورهم بشكل زيوت او مراهم ورد ذكرها بكثرة على الآثار وفي مصنفات اليونان والرومان (لوكاس مواد مصرية قديمة ٨٥) . والمعروف ان العطور الحديثة عبارة عن محلول كحولي متباين النسبة مذاب فيه العطر . وهذا الاخير يستخرج من الزهر او الفاكهة او الاخشاب او اوراق النبات او حبوب النبات

اما عطور قدماء المصريين فتختلف كثيراً عن الحديثة لجهلهم بامكان ذوبان العطر في الكحول وبطرق تقطير الكحول بالاساليب الحديثة . ويجدر بنا ان نذكر في هذا المقام ان اقدم ذكر للتقطير هو الذي اورده ارسطوطاليس (Meteorologica I 9, 11 II 3) وذلك في القرن الرابع بعد الميلاد واحسن مادة لحفظ العطر بعد الكحول هو الزيت او الشحم . ولا تزال هذه الطريقة مستعملة في استخراج عطر الازهار وذلك بنقع ورق الزهر في الزيت او الشحم المدة الكافية ثم اذابة ذلك في الكحول ثم تقطيره . اما قدماء المصريين فاقتنعوا بنقع الازهار او ما شاكلها في زيت الزيتون او زيت اللوز وزيت الهلج او الزقوم (Balanitis agyptiaca) او الشحم الحيواني . وولع المصريون برائحة المر واليفسون وصنعوا منها زيوتاً عطرية بكثرة كما رواه پلينيوس وثيوفراستوس

اما احمر الخدين فقد عثر على كثير من بقاياه على الواح بالمقابر وهو عبارة عن ملح حديدي يعرف باسم (haematite او red ochre او red oxide of iron والغالب ان المصريات لوّنّ به خدودهن وشفاههن (ارمان ص ٢١٦ رسم ١٠١)

وتتجسم الهمة في ازالة تجاعيد الوجه في العبارة الواردة بآخر قرطاس ادوين سميث الجراحي

« ١٦٠٠ ق . م تقريباً » وتتلخص في غلي نبات يقال له همايت مراراً ثم دهن الوجه بالعجين الناجم من هذا الغليان ويقرب فعل هذا الدواء من « حسن يوسف » « المستعمل الآن عند العامة لهذا الغرض

ووردت عدة وصفات لملاسة جلد الوجه « ايبرس ٧١٧ – ٧٢٠ » وتحسين الجلد « ايبرس ٧١٥ »

اما المرآة وهي التي تنكس لهم صورتهم الشخصية وتشجعهم على العناية بمظهرهم وصحتهم الخارجية فابتكار مصري قديم ككل شيء قديم مفيد . وكانت تصنع من النحاس المصقول بدقة وتعكس المرئيات بوضوح تام . وفي المتحف المصري مرآة قديمة يشاهد فيها الناظر تقاطيع وجهه جلياً . وكانت العادة في المرآة ان تكون مستديرة مثبتة في يد خشبية اومعدنية

٦ – ﴿ العناية باليدين والقدمين ﴾ في مقبرة (سما) بسقارة (٢٦٠٠ ق . م) رسوم تمثل احد الاطباء يعالج اليد اليمنى لمريض يظهر على وجههِ أثر الالم ، ورسوم اخرى تمثل علاج القدمين . ويظن (كابار) ان هذه الرسوم تمثل تقليم الاظافر .

اما « القفازات » فالمعروف انها كانت مستعملة منذ عهد الاسرة الثامنة عشرة (١٥٥٥ – ١٣٥٠ ق . م) كما انها كانت ضمن الجزية التي قدمتها آسيا لمصر في عهد الملك تحوتمس الثالث (١٥٠١ – ١٤٤٨ ق . م) . وعثر على كثير من القفازات الكتانية الطويلة المحلاة بخطوط زرقاوية . ومقبرة (توت عنخ امون) تحوي كثيراً من هذه القفازات وهي معروضة الآن بدار تحف القاهرة

والقفازات ابتكار هام في الطب الواقي . ولو انها كانت تستعمل اولاً لتدفئة اليدين ووقايتهما من البرد الا انها لما صنعت اخيراً من المطاط وافادت كثيراً في عدم وصول جراثيم الامراض الى جروح العمليات من جهة والى يدي الجراح من جهة اخرى

اما « النعال » المصرية القديمة فعلى عدة اشكال . فنعال السيدات وافراد الطبقة الراقية كانت مجدولة ملتوية الطرف الامامي وتعمل من سعف النخل او سيقان البردي او سيور الجلد وتكسى بعد ذلك بقماش مرسوم عليهِ أسير اجنبي (ولكنسون ص ٣٣١) . وعثر على كثير من الاحذية في طيبة والغالب انها من العصر اليوناني وهي مصنوعة من الجلد الاخضر

وكثيراً ما كان القوم يغسلون ايديهم قبل الطعام وارجلهم قبل الدخول في الولائم والافراح (ولكنسون : ص ٧٦) . وجاء في التوراة ان سيدنا يوسف عليهِ السلام امر خدمه ان يغسلوا أرجل اخوته قبل تناولهم الطعام . حيث ورد بسفر التكوين اصحاح ٢٤ ما تعريبه :

« وأدخل الرجل الرجال الى بيت يوسف وأعطاهم ماء ليغسلوا أرجلهم » . واستعملوا لذلك الاباريق والاطشات كما يرى ذلك على الآثار . واورد هيرودوتس ان امازيس وزراءه كانوا يغسلون اقدامهم في طشت من ذهب . ووردت على الآثار (ارمان ص ٢٣١ كتابه عن مصر) رسوم توضح أساليب غسيل الملابس وعصرها وتجفيفها مما يضيق المقام عن سرده هنا

وما دمنا الآن نتكلم عن العناية باليدين والقدمين جاز لنا هنا ان نذكر شيئاً عن استعمال الحناء

عند قدماء المصريين. فقد استعملها القوم كما تستعمل الآن وذلك بسحق اوراقها وتحويلها الى معجون باضافة الماء اليها ووضع هذا المعجون على راحتي اليدين واخمص القدمين والاظافر والشعر . واخذ الرومان عن المصريين طريقة صبغ الشعر بالحناء . وعثر الاستاذ اليوت سميث على شعر موميا (حنتاوي) (اسرة ١٨ — ١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م) مخضبة بالحناء على الارجح . واثبت نافيل ان اظافر يدي موميا من عهد الاسرة الحادية عشرة (٢١٠٠—٢٠٠٠ ق . م) كانت مصبوغة بالحناء ايضاً . وعثر (نيوبري) على افرع الحناء في مقبرة هوارة من عهد البطالسة

٧ — « الختان » وردت عملية الختان مرسومة على مقبرة بسقارة (٢٦٠٠ ق . م .) مما يشير الى ان المصريين كانوا لا يختتنون الا قبل الزواج بزمن قليل. والجثث المصرية القديمة يكثر فيها الختان وهكذا يكون اجدادنا قد سبقونا في اتخاذ الوسائل الجراحية الفعّالة للوقاية من الزهري والسرطان

٨ — « الملبس » للملابس شأن كبير في صحة الجسم لانها تدفيء الجسم وتحفظ حرارة الجلد بقدر الامكان عند حدها الطبيعي وتمتص العرق . وهي تصنع الآن من الكتان والقطن والحرير والصوف . ومعظم الاقمشة المصرية القديمة التي عثر عليها هي الخاصة بالموتى ولما كان الكتان شبه مقدس عندهم كانت معظم تلك الاقمشة من الكتان. والكتان المصري القديم من النوع المعروف باسم Linum usitatissimum ويرجع تاريخه الى عهد البداري . اما الصوف فانهُ بالرغم عن قلة ما عثر عليهِ من منسوجاتهِ فان سراة القوم صنعوا بعض ملابسهم منهُ . واما القطن فاقدم ذكر ورد عنهُ هو عن (بلينيوس)— القرن الاول بعد الميلاد —واما الحرير فصناعته بدأت في الصين ومنها انتشرت الى الفرس ثم الى سواحل البحر الابيض المتوسط . هذا باختصار تاريخ هذه المواد الاربعة

أما تحوُّل الملبس فموضوع مشوّق كل التشويق لانهُ ولد وترعرع في مصر. ففي عهد المملكة القديمة « ٣٢٠٠ — ٢٢٧٠ ق . م . » كان اللباس قصيراً ساتراً للعورة بادئاً من الخاصرة ومنتهياً عند الركبة . وحوالي عام ٢٠٠٠ ق . م . ظهر رداء آخر فوق المذكور واصلٌ الى منتصف الساق . وفي القرن السادس عشر قبل الميلاد وبعده زاد حجم الملبس حتى كسى الصدر والساقين. وملابس الملوك كانت تمتاز عن ملابس الامراء. وهؤلاء كانوا يلبسون زيًّا مخالفاً لزيّ الفلاحين. ولما كان الصغار كثيري التشبه بالكبار في الزيّ اضطر هؤلاء الاخيرون أن يغيّروا ملبسهم محافظة على مكانتهم الاجتماعية كلما لاحظوا أن زيهم أصبح دارجاً . وهذا هو سرّ تغيّر الازياء « المودة »

لكن هناك احوال أخرى تحتم على الشخص تغيير ملبسه ككبر السن وما يتطلبهُ من التدفئة واتقاء تقلبات الجو . كذلك مقابلات الملوك كانت دائماً تتطلب هنداماً خاصًّا

لذلك نجد أن المصري بعد ما كان قدماً يستر نفسهُ بفراء الحيوانات كالفهود أخذ يلبس منطقة حول الخاصرة مثبت فيها من الامام كيس يستر بها عورتهُ . وفي ذاك الوقت كانت النسوة يسترن أجسامهم بملاءة . بعد ذلك ظهر اللباس القصير المنقوش على الآثار والذي يظن أنهُ كان مصنوعاً من

القصب أو الياف النخيل لانهُ يحوي خطوطاً رأسية . ولما تعلم المصري صناعة الكتان ظهر الرداء على الآثار أبيض اللون أملس ومثبتاً حول الخاصرة بحزام . وفي عهد الاهرام زاد هــذا الرداء طولاً . وحوالي ٢٦٢٥ ق . م . زاد القوم على هذا الرداء بعض الثنايا . وحوالي [illegible] ق . م صنعوا حزاماً لتثبيت الثياب حول الخاصرة انيق الشكل ينتهي مقدماً بالاشرطة . ولما تفنن القوم في صناعة المهلهل من الكتان لبسوا ثوباً آخراً تحته لستر العورة . اما الطاعنون في السن فكانوا يرتدون ثوباً كاسياً لجميع الجسم تقريبا . ومنذ سنة ١٥٥٥ ق . م انتشر بين القوم لباس الاثواب القصيرة الواسعة المثبتة في الخاصرة . واصبح للذراعين كامل الحرية في الحركة لان الجزء العلوي المضاف الى الجزء القديم لا يحيط بالعضدين بل يكسوها حتى وسطها . وهذه هي الخطوة الاولى في ابتكار الاكمام . اما الجزء السفلي فحافظ على جزئيه بدون تغيير من حيث احتوائهِ على جزئين داخلي وخارجي . لكن يلاحظ ان الرداء الخارجي اخذ يقصر تدريجاً من الامام ويزداد طولاً من الخلف

وفي سنة ١٣٨٠ « عهد اخناطون » ازداد الازار الداخلي طولاً وسعة واما الزي الخارجي فثني الى اعلا وثبت طرفه في الخاصرة فظهر بشكل منتفخ . والازار الداخلي كان مجعداً بهيئة ثنايا صغيرة « تعرف الآن باللفظ الفرنسي (بليسه) . ويلاحظ ان طرفا الحزام ينحدران اماماً الى اسفل السرة . وبعد زوال اخناطون ودولته بطل زي عصره وصنع القوم لباسهم الخارجي أملساً وزادوه طولاً عن قبل . هذا من حيث زي الرجال . اما لباس السيدات فيتكوّن من رداء واسع او قميص واصل الى الكعبين لهُ كمان واسعان او ضيقان ملتصقان بالجلد . وهذا الرداء مثبت حول العنق برباط . وكن يلبسن فوق ذلك رداءً آخر قصيراً مثبتاً في الوسط بحزام

اما نساء الطبقة الراقية فكن يرتدين قميصاً مثبتاً بحزام ملوّن او بشريطين على الكتفين وفوق هذا القميص كنّ يرتدين جلباباً مهلهلاً من الكتان بأكمام طويلة ومربوطاً اماماً اسفل النهدين . وفي بعض الحفلات كانت النسوة يخرجن اذرعهن اليمنى من اكمامهن ويتركنها عارية كما يشاهد ذلك في الرسم الوارد في عازفة العود . واما الاطفال فاعتاد القوم ان يلفوهم في ملاءات ويحملوهم على ظهور امهاتهم او فوق صدورهن واعتادوا ايضاً استعمال التمائم لهم وذلك من ذهب او حجر بهيئة علامة العدالة او الميزان قصد جلب الفضيلة والذكاء وابعاد العين الخبيثة او نكد الطالع كما يشاهد الآن بين عامتنا

من ذلك يتضح ان الزي المصري القديم تتوفر فيهِ كثير من الشروط الصحية كعدم الضيق والخفة وموافقه مادته لمناخ القطر . وابتكر القوم طريقة عمل تمثال لنصف الجسم العلوي « كالمعروف الآن باسم مانوكان » صنعوا عليهِ الملابس كالذي عثر عليهِ بمقبرة توت عنخ امون . بهذه الطريقة كانت الملابس تقطع وتخاط وترسل لصاحبها جاهزة مطابقة لجسمهِ من حيث الطول والعرض وخلافه مما يزيد في مظهر الشكل رونقاً وجمالاً

« البقية في باب الاخبار العلمية »

تحديد الادب

بقلم حليم متري

يستطيع هذا الجيل الصاخب بشتى الظواهر أن يلهم الاديب من المعاني والصور ومن الأفكار والآراء ما يؤهله لدرس معضلات الحياة. ويستطيع هذا الجيل أن يلهم الاديب من التعابير المستحدثة والاخيلة الرائعة ماينتج به، أدباً خالصاً ممتازاً؛ يستطيع هذا الجيل ان يلهم الاديب هذا ويستطيع أن يلهمه اكثر من هـذا ككل عهد من العهود أي جيل من الاجيال في تاريخ الحياة الانسانية. فقد لا يحسب الادب قوة نافذة اذا لم يطرق هذا الكون بحثاً ودرساً. وليست الحياة قاصرة على العلم بحقائق الاشياء بل ليست الحياة متجهة دائماً الى النظر الفلسفي أو متجهة دائماً الى الهدف العلمي. فالحياة العقلية في الانسان بدأت بالدين وستنتهي حتماً بالعلم. وأقول ستنتهي بالعلم لأن العلم بعيد الغور لا يستطيع عالم في أي فرع من فروعه أو قسم من أقسامه ان يحدده ولايستطيع ان يدل على نهايته. بل لقد استأثر العلم بكثير من الحقائق او ما يشبه الحقائق فلم يخرجها عن كونها «ظواهر اجتماعية» كغيرها من الظواهر العامة في الوجود. أليس يرى العلم في الفن أنهُ ظاهرة من ظواهر التاريخ؟

ثم أليس يرى العلم في الدين انهُ ظاهرة من ظواهر الاجتماع كاللغة يبحثها على الضوء الارضي الذي يبحث عليه نشوء الجماعة نفسها. ويعلل ذلك بأن الدين وما يشبه الدين واللغة وما يشبه اللغة انما دبرا وجودهما كما دبرت الجماعة نفسها وجودها في الحياة... ! واذن فالعلم هو التحليل والتطور عماده البحث والاستقصاء بل ان وظيفة العلم التي يسعى لاثباتها وصف الظواهر وتحليلها الى عناصرها الاولى. فالحياة العقلية اذن لا تستطيع أن تنتهي الى العلم الاّ اذا مرت في مرحلة تطورها بالأدب والفلسفة. ولعلّ اتصال الادب بالفلسفة مما جعل له مكانة خاصة في تراث الثقافة العالمية. بل لعلّ اتصال الادب بالفلسفة مما جعل للحياة العقلية هذا الانتاج الفكري القوي الذي ينمو بتطور الحياة نفسها ويسمو بما فيه من حيوية

أما الادب فهو الانتاج الفكري في قالب المنطق والخيال. وان كان التعبير عنهُ باللفظ المختار واعتماده على المادة والروح — انصحّ هذا التعبير. ولا ينبغي للاديب أن ينحو نحواً خيالياً عاماً فيكون تعبيره حسيًّا فرديًّا أو ينحو نحو المنطق فيكون تعبيره علميًّا تركيبيًّا نائياً عن الروح الادبي. فطبيعة الادب اذن انيمزج مزجاً دقيقاً ليجمع بين هاتين الناحيتين وهذا المزج هو التصور

الحقيقي للادب بل هكذا يجب أن تنشيءَ الادب ونترواه . فنشوء الادب كنشوء أي كائن حي يتخذ حياتهُ من طبيعته الاولى التي تحوي التراكيب والمعاني . فالتراكيب تهيء رسمه وقيمة وجوده المادي . والمعاني تهيء للعقل ما يتضمنه من تعيين عبارة أو وصف خاطرة أو التبيان عن عاطفة . والادب اذن يستمد عنصريه من اللغة ومن العقل فاللغة لها نشوؤها الخاص ولسنا بصدد بحثه فرجع هذا الى «علم اللغات» والعقل له مناحيه واستنتاجاته ومظاهر تفكيره العامة

***

والادب فن من فنون الجمال . غايته تصوير ما في النفس الانسانية من معان وأوضاع وما في الاجتماع من أساليب ونظم . وما في الوجود من آثار قيمة لها مكانتها . وما في الحياة بوجه عام من اخلاق وطبائع ومن أسباب ونتائج . على أن الادب في العصر الحديث يشمل مناحي جديدة في الدراسات النفسية العميقة فيعرضها على انها طائفة شائقة من البحوث الخالدة التي تستحق التسجيل والتي يجب ان يعرض لها بكل ما فيه من آداة للبحث . . . وفي هذا الجو نشأت الدراسة والقصة التحليلية وأشباهها من الآثار الممتعة . والادب لكي ينتهي الى هذا كله يتخذ العلم والفلسفة سبيلاً لتوضيح هذه الموضوعات . بل يتخذ أداته الطبيعية لابداعها في أجزل اسلوب وأقوى معنى . وليس الادب حديثاً للفظ منمق أو عبارة موشاة انما الادب أسمى من أن يقصر على هذه الألفاظ الجوفاء التي اتسم بها كتّاب العصر الماضي عند ما كانت «المقامة» وأشباه المقامة والهجاء والمديح في الشعر تطمو على هذا الفن الرائع . وحياة الادب في استيعاب شؤون الحياة نفسها فليس بدعاً ان يعرض الادب للاجتماع أو الاقتصاد أو التاريخ كما تحتكم للعلم أو كما تحتكم للفلسفة . فالادب مرآة الجيل اي الظواهر الحية بوجه عام . ولسنا بصدد حالات معينة أو طائفة من الآراء خاصة تدع الادب وقفاً على بحث دون آخر . واذا كان العلم لم يدع شيئاً ماديًّا أو روحيًّا الاّ وتناوله بحثاً واستقصاء ، فأحرى بالادب أن يصور المثل الأعلى لاتساع الامد العقلي وسبر غور الحقائق المعنوية في اطراء المعضلات الاجتماعية اذ انهُ من تحصيل الحاصل ان ينتهي الادب الى تقدير الالفاظ ودلالتها على المعاني . او المشتقات اللغوية فليس هذا موضوع الأدب . وليس هذا مجال البحث القائم على الاسلوب العلمي . ولكي تقدر هذا ينبغي ان نعلم ان هناك طبقة من رجال الادب تنتصر للاساليب القديمة التي محورها البهرجة والزينة . والتي تنفرد بالمديح حيناً وبالهجو حيناً او تفهم من الأدب انهُ آداة للكسب . ولعلّ هؤلاء يصورون احوال الناس وطرائقهم في الحياة كما تحكم المادة وحدها . وشر الأدب ما استعمل في تصوير وجهة خاطئة في لباس من الصدق وان كان في هيكل من هيا كل البيان الرائق الجذاب . بل شر الأدب ما استعمل في الحياة لاكساب الشر معنى الخير وهو عنهُ ناءٍ . ولعلّ في تاريخ الشعراء والكتّاب في عصور الادب المتباينة ما يقرر هذه النظرية . ولعلّ في تاريخ الشعراء والكتّاب ما يعبر بأجلى بيان عن ابتذال الادب اذا ما استخدموه في مباذل عهودهم وجعلوه

سبيل حديثهم وعلاقاتهم بالخلفاء والامراء واصحاب السلطة ... ان العصور التي ساد فيها هذا الأدب لا وجه فيها بتاتاً لنهضة ادبية جديرة بالتقدير . فليس تحقير النفوس والإعمال في غير صدق بأدب وان بلغ فيه الاسلوب حد الاعجاز . وليست الرفعة الكاذبة بمجدية خيراً على الحياة والواقع ، وان صورت بأطياف الطبيعة وكان الفن فيها حقيقة ملموسة . فادب المديح او الهجاء له أسلوب خاص فيه كثير من الإثم والمبالغة

بين التقليد والخيال

يجب ان نسلم أن هناك طبقة من الادباء تمجد هذا الروح القديم الذي سيطر على الحياة الادبية في العهدين الجاهلي والاسلامي . وقد انفرد هذا الروح بنزعة اللفظ المبهرج في مختلف المناسبات الادبية نحوته الرسائل الخاصة والعامة والاحاديث والخطب والمديح والهجاء في الشعر والنثر والتفاسير والسير والتاريخ بوجه عام . فالكتابة بأسلوب معين متشابه في كل مناسبة تثبت معنى التقليد وتحصر فيه ميزتها ولعل التقليد في الادب العربي يلمس لمساً شديداً في هذه الفصول التي كان يكلف الأدباء واشباه الأدباء وضعها في سبيل الامراء والخلفاء من اصحاب القوة والسياسة فكان الأدب التقليدي ادب فئة خاصة لا تظفر فيه بعواطف العامة ولا تلمس فيه الروح الانساني الشعبي بل تستطيع ان تجد فيه هذه الالقاب ومظاهر الثراء واخبار المجالس التي يكثر فيها السمر والشراب والتي اقتصرت عليها حياة بعض الخلفاء والامراء والتوابع والخدم . ولعل هذا تلمسهُ في كثير من ادب الشعراء وأخبار الادباء . هذا الأدب الذي ساد في العصر الوسيط . على ان العامة كان لها كلف شديد باستطلاع القصص التي كانت تتلى عن الابطال والعظماء . وكان لها ولع خاص بهذه الموضوعات التي تصور حياة الناس ووقائع الملوك والقادة . وكان الكتّاب الشعبيون يشعرون بهذا شعوراً قويًّا . فبدأوا بوضع الاقاصيص الخيالية التي لا تنطبق في كثير او قليل على الواقع والتي لا تخرج عن حد المبالغة في تصوير الوقائع والحوادث . وجد الكتّاب والشعراء اذن في هذا انصرافاً عن هذا الادب الخاص الذي لا يعدو اصحاب السياسة وينحصر في مرضاتهم

على أن هذا اللون من الأدب الخيالي كان نتيجة لازمة لعهد الأدب التقليدي وان كنا نرى في الأدبين التقليدي والخيالي صوراً مشوّهة فيها كثير من التجني والتحريف عن الادب الواقعي . وانني لألمس في اشباه « الف ليلة وليلة » هذا اللون الظاهر للادب الخيالي . فالف ليلة وليلة من المصادر الدالة على النزعة الخيالية في الأدب . على ان هذا اللون الخيالي لم يترك غرضاً الا وعالجه في لفظ مصطنع ودقة إداء وبلاغة تعبير

ولقد اعتمد الادب الاوربي على هذه النزعة الخيالية العربية التي اكسبتهُ لوناً جديداً من الوان التأليف والتي كانت محط العواطف الانسانية الشعبية ترى فيه راحة وإقبالاً لمناحي غرائزها وتذكيرها

ولقد نشأ الادب «الرومانتيكي» على انقاض الحياة العربية . وانك لتلمس فيه روح الادب العربي في المعاني والآراء والنتائج .. ويعييك التحليل والبحث اذا أرجعتهُ الى الادب اللاتيني .. لانهُ لا ينتمي اليهِ بحال

النزعة الانفرادية والادب القومي

الادب نوعان خاص وعام . فالادب الخاص ما يصور حياة جماعة او امة . والادب العام ما يصور حياة جيل ملخصاً في مجموع طائفة من الامم والشعوب . والادب العام هو الادب الذي يحدد التفكير الانساني والعقلية الاجتماعية في شتى مظاهرها . فالادب العربي له نزعته الخاصة في العصر الاموي وله نزعة اخرى تغايرها المغايرة كلها في العصر العباسي على ما بين العصرين من مواضع للشبه ومناح للتمثيل . ولقد زخر الادب بلونيه الانشائي والوصفي في هذا العهد العباسي العظيم كما اتيح لهذين اللونين ان يظهرا ظهوراً واضحاً ايضاً في غضون الحياة العربية بالاندلس . فكان للادب من منثور الكلام ومنظومه روح خاص وطابع ممتاز في املاء الخواطر النفسية والمشاعر الاجتماعية . فكان الطابع الانساني لحياة هذه الطائفة الخاصة من الناس سبيلاً لانشاء الشاعر وسبيلاً لخلق الادب العصري المصور للحياة «الارستقراطية» التي سادت جو الامراء والخلفاء . كما تناول الادب الوصفي حياة هذا الادب الانشائي تناولاً عامًّا يحلل ما فيه من قوة وضعف ومن خيال وحقيقة . وبخلق هذا الادب الوصفي سادت الحياة الاجتماعية ظاهرة النقد في مناحيها المختلفة . ولقد نشأ الادب العام بنشوء العقلية الشرقية متمثلة في الجنسين السامي والآري . ولذلك نجد هذا واضحاً في ادب القدماء المصريين . فهذه الناحية من حياتهم العقلية نجدها في قصص البردي والاقاصيص الدينية التي اخذت تنمو في عصورهم الذهبية وقد نزعها الكهان والملوك والزعماء . والادب الآري له نزعة خاصة من وجهة الخيال وفيه أثر الروح الشاعرة التي لا تحيي في جو التفكير المادي . والادب الآري يحوي فيما يحوي الادبين الهندي والفارسي والادب الهندي ادب الحكمة العالية والفلسفات الدينية والتصوف وله في الجوهر منزلة خاصة عند مؤرخي الآداب العامة . والادب الفارسي له تاريخ عظيم في سجل الآداب الشرقية وبهِ طائفة من صفوة الكتاب والشعراء المنتجين ويكفي ان نذكر على سبيل المثل منهم الشاعر العظيم الفردوسي صاحب الشاهنامة

والادب الذي يعبر عن رأي خاص لكاتب من الكتاب او جماعة من الجماعات هو الذي يدعو الى النزعة الانفرادية وأما الادب القومي فهو ادب خاص بأمة لاتستطيع ان ترده الى غيرها . فالادب العربي أدب قومي لاتستطيع ان ترده بحال من الاحوال الى الاغريق او اليونان وانما الادب الانجليزي ليس ادباً قوميًّا في نشأتهِ لانهُ يردُّ الى الادبين اللاتيني واليوناني . على ان الأدب العالمي بصفة عامة ما سما الى المثل العليا الجديرة بالتسجيل والخلود . والمثل الاعلى في الادب يمثل النظرة الفنية له . فقد

تكون هذه النظرة خاصة بالحقيقة او بالجمال او بالدين أو بالطبيعة . ثم النظرة الفنية لا النظرة العلمية او النظرة الطبيعية او النظرة الفلسفية . فالنظرة الفنية نظرة المزاج ونظرة النفس وطبيعة الخلق واكتمال الثقافة . واما ما عداها فنظرات فيها هذا اللون من الادراك العقلي الخاص بالنفس وكنه الاشياء او هذه الفلسفة التركيبية التي عبر عنها بادراك الحكيم الاجتماعي العالمي « سبنسر »

على ان نظرة الاديب في الحياة تحدد ادبه او تحدد عقليته الاجتماعية في الحياة والوجود وهذا ما يعبر عنهُ بمواهب الاديب وطابع أدبه أو ما ندعوهُ « رسالة الأديب » . فابسن كانت له رسالة في حياته وان عرف عنهُ طابع «الهوسة» وشو عمائله من الوجهة الاجتماعية في هذا العصر وولز له رسالة « العالمية » « وأتوفارنجر » له رسالة « الجنسية والنوع »

وعالمية الادب تكوّن عظمة الأنتاج العقلي لأمة أو أمم ولشعب أو شعوب على ان الأدب الذي يمثل العالمية من فجر التاريخ هو الأدب الاغريقي الذي يدعو الى كثير من التأمل والدرس والذي يصور في مجموعه أرق نزعات الآداب واقواها . فالى اليوم يُعد غذاء طائفة كبيرة من اعلام الكتّاب وأئمتهم . بل ان طابع القوة لأدب هذا العصر يستقي خصائصه ومميزاته من عناصر الأدب الاغريقي

حرية الادب

هي روح البحث العلمي الذي يجعل من الادب فناً قائماً بنفسه فيهِ عناصر الاستقلال يتحدث عن الشعور والحس بل هذه الحرية ما ينبغي ان نتناول فيها الأدب كما نتناول ظواهر الحياة كلها نتناوله كما نتناول فنون الجمال وكما يتناول العالم الرياضي أو الطبيعي الموضوعات العلمية بالبحث والتحليل. يجب ان نُخضع الأدب للحياة لا أن نخضع الحياة للأدب . فالجوهر ان نترك هذا المعتقد البالي الذي صور الأدب في هيكل القداسة والالوهية . والذي لم يجرؤ اصحاب الأدب القديم ان يبحثوه على انهُ شيء يستحق البحث . ان هذه الحرية تتيح للأديب حظاً وافراً من قوة البحث بل ان هذه الحرية التي تسود جو الأدب هي الفضيلة العلمية التي يستطيع الأدب ان يفخر بها والتي تُعد دُرّة الفكر في جبين الثقافة الحديثة

بين الادب والدين

الحياة كفكرة . و الحياة كمذهب من المذاهب . والحياة كما افهمها انا لا كما تفهمها انت . والحياة كحوار متصل بين اصحاب الأدب واصحاب العلم أو بين اصحاب الأدب واصحاب الدين جعلت العقول تتحفز للوصول الى معنى فيهِ شيء من الاستقرار وفيهِ شيء من الاقتناع . على ان الأدب الذي عاصر الدين من يوم بعثه كان ولم يزل عنصراً لازماً لنشره وكان ولم يزل سبباً لهذا

الضرام المستعر الذي يقوم بين اصحاب الأدب والفكر الحر وبين اصحاب الدين . فشاعر المعرة لا تستقيم آراؤه واصحاب الدين وقد كان الغزالي متهماً بالالحاد وان مات وهو حجة الاسلام وقد يكون هذا سببهُ تمريض اصحاب الأدب برسالة العقيدة أو المذهب الديني ولقد كانت كتابات روسو وفولتير ورينان نقداً عنيفاً للمذاهب والمعتقدات بل أن « جحيم دانتي » أروع صورة من صور الأدب المناهض للدين . مصدر هذا كله هذه الثورة التي طالما خبا أوارها في صدور الادباء المفكرين الذين يجعلون من اقلامهم سبيلاً لبعث الأدب الحي الذي يعبر عن مكنونات النفس الروحية وكان الادباء في اوربا في خفية هذا الصراع يسيرون على نمط زعيمهم الاكبر « ديكارت » عندما نشر كتابه « عن الاسلوب » واصبح من حق المفكرين ان يقيموا الحجج أمام اصحاب الدين ممن استولوا على سلطة العلم والفن والثقافة في وقت واحد . وقد ظفر الأدب حقاً يوم اتيح للدولة ان تنفصل عن الكنيسة

بين الادب والسياسة

العلاقة بين السياسة والأدب قائمة على ممر العصور . لا سبيل الى قطعها . فقد تطغى السياسة على الادب كما تطغى على العلم أو الفلسفة . فالتاريخ يحدثنا عن هذا كله والتاريخ يحدثنا مثلاً عن فوز الأدب في فترات الجمود السياسي . والتاريخ يحدثنا ايضاً عن ازدهار الأدب في إبان النهضات السياسية . نعم قد تدعو السياسة الى نهوض الأدب أو الى اهماله وقد تكون السياسة باعثاً قوياً على نشاطه وذيوعه ولكن الادب في الحالين لا يكون صالحاً للتعبير عن المثل الأعلى الذي من اجله وجد . فالأدب قد يقرر هذه الحالات كلها وقد يعرض لها في شيء من التحليل والتفصيل

على ان هذه الحالات استحقت التسجيل والتقرير فهي صورة من صور الوصف المحدود بالزمان والمكان أو هي صورة نقدية لعصر من العصور ادعى للاثبات . وان كان الفن فيها مفقوداً أو شبيهاً بالمفقود

نعم قد تعتور الأدب فترات ركود أو خمود ويكون سببها هذه المحن السياسية وهذه الدوافع الخفية التي تحوط الجو الأدبي . ولكن الثورات السياسة التي تعرض للحياة الاجتماعية كثيراً ما تنهض بالأدب فيبرز في حلته الرائعة ومظهره الاعلى . وقد نرى ابلغ دليل نهضة الأدب الفرنسي الثائر عقب نهوض الثورة الفرنسية الكبرى متمشياً مع النهوض الاجتماعي الفكري في كل مظاهره وكذلك نهضة الأدب الانجليزي في اواسط القرن التاسع عشر في اعقاب عهد « اليصابات » وبزوغ فجره في العصر الفكتوري المجيد

المعادن والتبعات الدولية

مكانتها في الصناعة

وصلتها بالحرب والسلام

يعتمد الانسان كل الاعتماد على الوسط الذي يعيش فيهِ . ولكن هذا الوسط قد بلغ من التعقيد في هذا العصر بحيث يتعرّض الانسان لنسيان العوامل الطبيعية والحيوية التي لا ندحة عنها لحياتهِ . فارتقاؤهُ الاجتماعي الى المرتبة التي بلغها الآن ، قد استغرق نحو مائتي الف سنة ، كان همّهُ الاكبر في خلالها ، حاجتهُ الى الطعام ، والى وسط مؤاتٍ يعيش فيهِ ، ورغبتهُ في انجاب الاولاد . ولا تزال هذه البواعث بوجهٍ عام همهُ الاكبر الآن . الاّ ان التقدّم الاجتماعي في القرون الحديثة ، وخبرة اسلافهِ المتجمعة ، وسعت نطاق الوسط الاجتماعي ، وجعلتهُ شديد التعقيد ، فأصبح يشتمل في ما يشتمل عليهِ على جميع الوسائل اللازمة لصحتهِ الخاصة وصحة جماعتهِ والاساليب التي لا ندحة عنها لرفاهتهِ وسعادتهِ

فحياة ملايين من الناس في هذا العصر ، لا تعتمد على انتزاع المواد اللازمة للحياة من صدر الطبيعة بالسعي الفردي ، بقدر ما تعتمد على نظام اجتماعي ، يمكن الجماعة من جمع المواد الخام وتحويلها بالصناعة الى عروض وبضائع نراها اليوم اشدَّ ما نكون حاجةً اليها ، بل لا غنى لنا عنها

ففي هذا العصر ، الذي انتظمت فيهِ الصناعة على اساس واسع النطاق ، وساء فيهِ التوزيع . يميل الانسان الى ان ينسى ان المواد الخام من حيث توزيعها الجغرافي ، وجودتها ، ومقاديرها ، مسيطرة على حضارتنا الحديثة

ويمكن ان تقسم مصادر الثروة الطبيعية الى قسمين عامين احدهما زراعيّ ، والثاني معدنيّ ، وقد ازداد مقام المواد المعدنية في ارتقاء الانسان الاجتماعي ، ازدياداً مطرداً حتى بلغ ذروتهُ في هذا العصر الذي اطلق عليهِ بعض الكتّاب اسم « العصر الآلي » او « العصر الميكانيكي »

ولا يحتاج الكاتب الى اقامة الدليل على انهُ لولا الفلزّات ، لما كان في المصانع آلات ومحرّكات ، ولا في الاسواق ما تنتجهُ المعامل من العروض . ومن خواص الفلزات metals انها تستخلص جميعاً من معادن Minerals . والمعادن التي لها قيمة اقتصادية مركزة في الغالب في أتربة وصخور تعرف باسم تبر او ركاز Ore . فاذا نفد التبر تعذّر على الانسان ان يصنعهُ . فالمعادن ، تختلف عن مواد الغذاء واللباس ، في انها مما لا يمكنه صنعهُ ، كما نصنع الحرير الصناعي بدلاً من الحرير الطبيعي .

ثم ان الوقود المعدني عبارة عن طاقة مخزونة تألبت عوامل طبيعية خلال ملايين من السنين على خلقها وفي وسع الانسان ان يستهلكها ولكنهُ عاجز عن صنعها . فنفاد مصادر الثروة المعدنية ، مرهون بما يكشف منها، ومما لم يكشف حتى الآن. وبمعدل استهلاكها . ومما لا ريب فيه ان الانسان لم يكشف حتى الآن جميع مصادر الثروة المعدنية . وقد ارتقت في العهد الاخير الاساليب العلمية في البحث عن المعادن المطمورة في احشاء الارض والاعتماد عليها زاد مايعرف عن انواع الوقود والمعادن المخزونة

الا ان موضوع المصادر المعدنية كالفحم والنفط والمعادن الفلزية من ناحية توزيعها الجغرافي اهم جداً من الوجهة الدولية من موضوع نفادها وتعيين ميعاده

فاذا صرفنا النظر عن الفلزات الثمينة اي البلاتين والذهب والفضة ، وجدنا اثني عشر فلزًّا مهمًّا توجد في مركبات معدنية معقّدة . ففي بيان احصائي لحكومة الولايات المتحدة الاميركية هنالك ٢٨ معدناً تبلغ قيمتها سبعون في المائة من جميع المواد الخام المعدنية التي تتداولها التجارة . ويدل البحث الجغرافي الاقتصادي ، ان الولايات المتحدة الاميركية والامبراطورية البريطانية تسيطران على ثلثي مصادر المعادن التي لا ندحة عنها للصناعة في هذا العصر. وبكلمة واحدة ان الشعوب الناطقة باللغة الانكليزية قد فازت تدريجاً وبوسائل مختلفة بالسيطرة كل السيطرة او بعضها على الجانب الاكبر من ثروة الارض المعدنية . واهم هذه المعادن الاساسية في الصناعة هي الحديد والنحاس والالومنيوم والرصاص والخارصيني (الزنك) والقصدير والنيكل وتليها المعادن اللازمة للاخلاط المعدنية اي التي تستعمل لتقسية المعادن الاساسية وهي الانتيمون والكروم والمنغنيس والتنغستن

ويضاف الى ما تقدم معادن غير فلزّية مثل الفحم والنفط والنترات والفوصفات والبوتاس وغيرها مما لاندحة عنهُ للنجاح الصناعي والزراعي

***

فاذا كانت الأحوال الدولية سوية ، فالولايات المتحدة الأميركية تملك مصادر جميع المعادن التي تحتاج اليها ، ما عدا فلزّات الاخلاط (الانتيمون والكروم والمنغنيس والتنغستن) والنترات . وقد يكون من بواعث الدهشة عند القرّاء أن يعلموا ان الولايات المتحدة الاميركية تنتج في الاحوال السوية ٧١ في المائة من محصول النفط العالمي ولكنها تستهلك اكثر مما تنتج ولذلك تحتاج الى الاستيراد . اما المواد المعدنية التي تستطيع ان تصدرها اميركا الى الخارج ، لان ما تستخرجهُ منها من مناجمها يفوق ماتستهلكه فهي، الفحم والفوصفات والكبريت. ويمكن ان يقال بوجهٍ عام ، ان الولايات المتحدة الاميركية على غناها بالثروة المعدنية ، تفوق أية دولة اخرى في مقدار ما تستهلكه منها

فاذا نظرنا الى المانيا وجدنا انها اصبحت بعد الحرب الكبرى ، ولا تملك مصادر للمعادن الفلزية تفي بحاجتها الداخلية . ففي بلاد مصادر محدودة جداً للنحاس والحديد والرصاص ، ثم انها تعتمد

كل الاعتماد على البلدان الاخرى في الحصول على سائر المعادن . الاَّ انها غنية بالفحم والبوتاس وما يستخرج منهما يفوق ما تحتاج اليهِ منهما

أما فرنسا فلا تفضل المانيا كثيراً من هذا القبيل . فهي تستخرج من أرضها من الالومنيوم والبوتاس والحديد اكثر مما تحتاج اليهِ منها ولكنها تحتاج ، كما تحتاج المانيا ، الى استيراد النفط وجانب مما تحتاج اليهِ من الفحم

أما انكلترا فما يستخرج منها من الفحم يفيض على حاجتها ، وحديدها يكفيها ، والمقادير المستخرجة من الرصاص والقصدير لا بأس بها . الاَّ انها تحتاج الى استيراد كل معدن آخر . ولكن اذا حسبنا انكلترا قلب الامبراطورية البريطانية ، وجدنا ان ما يستخرج من الامبراطورية يفيض عن حاجتها جميعاً ويصدَّر الى الخارج ، الاَّ الانتيمون والبوتاس والزئبق

فقوة بريطانيا العظمى الاقتصادية تتوقف حقيقة على تماسك الامبراطورية البريطانية ، ومقدرتها على استخراج المعادن الضرورية اللازمة للصناعة من مصادر لها عليها سيطرة سياسية او اقتصادية . فاذا قربلت من هذه الناحية بالولايات المتحدة الاميركية امكن القول بأن ثروتها المعدنية تفوق ثروة اميركا ولكنها لا تملك مصادر هذه الثروة في بلاد خاضعة لسيادتها المطلقة ، بل هي موزعة في بلدان مترامية في جميع اقطار الارض ، وتماسك هذه الاقطار يزداد صعوبة عاماً بعد عام

***

اما الحالة في اليابان من ناحية ثروتها المعدنية فهي اهم مشكلة يواجهها العالم في هذا الميدان . ففي اليابان خارصيني ونحاس ولكن ما يستخرج منهما يكاد لا يكفيها . وليس في بلادها الاَّ بعض ما تحتاج اليهِ من الحديد ومركبات الكروم وعنصر المنغنيس والفحم والنفط . اما في ما عدا هذه المعادن فانها تعتمد على الاستيراد من الخارج كلَّ الاعتماد . ولذلك نرى اليابان مهتمّة كلَّ الاهتمام بالفوز بحق استغلال المناجم في البلدان المجاورة لها سدًّا لهذا النقص في ثروتها المعدنية وعند ذلك يمكنها ان تستقلَّ من هذه الناحية عن الدول الاجنبية التي تستورد منها ما تحتاج اليهِ

وليس في البلجيك من هذه المعادن الاَّ الفحم والنحاس وعليها ان تستورد كلَّ ما عداها من الخارج

وموقف ايطاليا من هذا القبيل لا يقل حرجاً عن موقف اليابان . فليست تملك سيطرة ما على منابع للنفط ولا مناجم للفحم بل انها ليست احسن حالاً في ما يخصُّ الحديد والرصاص . ولا يخفى ان ايطاليا واليابان في الفريق الاول من الدول ، وكلاهما تسعى للاحتفاظ بمكانتها رغماً عن عوزها الشديد في مصادر المعادن . والواقع انهما اسوأ حالاً من انكلترا نفسها ولو فصلت هذه عن الامبراطورية البريطانية

وتختلف اسبانيا عن معظم الدول التي تقدَّم ذكرها في ان ارضها تحتوي على مصادر غنية بالنحاس والحديد والرصاص والمنغنيس والزئبق . ولكنها لا تعنى الآن عناية كبيرة باستغلالها ولا يبعد ان تصبح باعثاً من بواعث الاضطراب بين الدول في غرب اوربا اذا ظلَّت كذلك

فقد قال السر توماس هلند ان «حدود الامم السياسية رسمت اصلاً بناءً على اعتبارات زراعية ولا صلة لها الآن بمصادر الثروة المعدنية داخلها» . وهذه حالة خطرة كان لها شأن كبير ولا يزال في التجارة والسلام الدولي . فالتقدم العلمي والصناعي في صنع ادوات الحرب ومعداتها ، جعل المصادر المعدنية الطبيعية ، عاملاً حيويًّا في اعداد معدات الهجوم والدفاع . خذ مثلاً على ذلك عنصر التنغستن فهو مادة لا غنى عنها في صناعة اجود اصناف الصلب واقساها . وهو يستخرج في الغالب من ركاز يدعى «ولفراميت» لا يوجد الاَّ في بورما تقريباً . ومناجم الولفراميت في بورما خاضعة لسيطرة الشركات البريطانية . فلما نشبت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ كان الالمان قد خزنوا من هذا الركاز ما يكفيهم سنتين . فلما نفد المخزون منهُ عمدت المانيا الى استعمال المولبدنوم بدلاً من التنغستن في صناعاتها الحربية . وكانت تستورده من بلاد محايدة هي بلاد النرويج . فردَّ الانكليز على ذلك بشرائهم كلَّ ما يستخرج من المولبدنوم في النرويج لمنعه عن المانيا . فعمدت المانيا الى فلز ثالث لا يساويهما في تقسية الصلب ولكنهُ يأتي بعدهما وهو عنصر النيكل وكانت تستورده من كندا — البريطانية ! — بواسطة البلدان السكنديناوية المحايدة . فحيلولة بريطانيا دون استعمال التنغستن في المانيا كان صدمة كبيرة لالمانيا . ولو استطاعت ان تمنع عنها واردات النكل كذلك لفاز الحلفاء في تقديم ساعة الظفر

فهذه المسألة العلمية الصناعية لها صلة وثيقة بالعهود الدولية التي قطعت حديثاً لحفظ السلم . وهذه العهود لن تنجح في تحقيق الغاية المنشودة الاَّ اذا نظر رجال السياسة الى توزيع المعادن كأداة من الادوات الفعالة في ضبط المعاملات الدولية في المستقبل . لانهُ اذا كانت المعادن لا مندحة عنها لحضارتنا الصناعية فهي جديرة بأن تخوض الشعوب غمار الحروب لاجلها . واذا كانت باعثاً من بواعث الحرب فالسيطرة عليها يجب ان تجعل أداة من أدوات السلم . وربط توزيع المعادن بالشؤون الدولية لا يحملنا على اقتحام مسائل جدلية في الموضوع . فجميعنا نتفق على أمرين أحدهما رغبتنا في السلام . والثاني وضع بيان علمي للمعادن المطمورة في مختلف بلدان الارض ثم تنقيح كلما تغير نوع المعادن المسيطرة على الصناعة

***

والخلاصة التي يخرج بها الباحث مما تقدَّم ان مصادر الثروة المعدنية في العالم يجب ان تعالج معالجة دولية . لانها اذا ظلت كما هي الآن موزعة توزيعاً غير متساوٍ بين الامم التي تحتاج اليها ، فالرغبة في الحصول عليها او الاستئثار بها لا بدَّ ان يبقى عاملاً من عوامل النزاع والحرب بين الامم

تأثير العلم

في الفلسفة الحديثة والفكر الحديث

طه الباقر

العلم والصورة الكونية

مما يميز الفلسفة الحديثة عن سواها من الفلسفات السابقة مجابهتها طائفة كبيرة من الحقائق العلمية الجديدة عن الانسان وعن العالم . ومهما يختلف الناس في موقفهم تجاه الفلسفة والعلم ، بين تفضيل الواحد على الآخر ، او التعويل على الواحد دون الآخر ، فان محاولة التوفيق بين الاثنين تقتضي من كل مفكر يأمل لطريقته الفلسفية انتشاراً وتابعين ، أن يعترف بصورة العالم كما رسمها العلم الحديث ، وان يجعل المعرفة العلمية اساساً وخطة كائناً هدفهُ ما كان . وسر هذا السلطان ، سلطان العلم على الفلسفة ، هو ما احرزه من ثقة الناس بأساليبه ونتائجه وما احدثهُ في حياة البشر من انقلاب . فالطريقة العلمية اضحت المقياس العصري لكل بحث وتفكير ، والانقلاب الصناعي الذي انتجه العلم ، والحقائق الغريبة التي جمعها عن الكون وعن الانسان ، كل ذلك حدا بالفلسفة الى الخضوع لإرادة العلم سواء كان ذلك في تعيين موضوعات بحثها ام في قسرها على قبول ما تجمع لديه من حقائق عن الكون وعن الحياة

وسنرى في ما يلي أن ابرز واثبت طابع احدثهُ العلم في الفلسفة هو ما نتج عن الصورة التي رسمها العلم للعالم والحياة ، والتي يمكن اجمالها بعبارة « العالم الميكانيكي المتطور » . ولتفصيل اجزاء هذه الصورة وتحليلها ، نقتطف نبذاً من الحقائق العلمية عن العالم وعن الانسان

قال اللورد بلفور : « ليس الانسان ، كما ينص على ذلك العلم الطبيعي ، العلة النهائية لوجود هذا العالم . وليس هو المخلوق الهابط من السماء والوارث لجميع العصور . وما نفس وجوده إلاّ حادث عارض ، وما تأريخه الاّ فترة قصيرة في حياة احقر سيار . ومع جهل العلم بتلك الاسباب الاولى التي انتجت هذا المخلوق العضوي الذي نسميه انساناً ، بتحويل مركبات عضوية مائتة ، فاننا نعرف أنهُ منذ البدء تضافر الجوع والتناحر والسفك على انشاء جنس يعرف أنهُ حقير وأنهُ لا شأن له في هذا الكون . لنستعرض الماضي فماذا نجد ؟ نجد ذلك الذي ندعوه تأريخاً ليس الاّ دماء ودموعاً، اخطاء وفظائع وثورات . والمستقبل ! ماذا في المستقبل ؟ نعرف انهُ بعد فترة ، طويلة اذا قوبلت بحياة الفرد ، وقصيرة اذا قوبلتها بما عرفناه عن حياة العالم ، ستنحلُّ قوانا وسيزول مجد الشمس ، والأرض

الخامدة لن تتساهل بوجود الانسان الذي ازعج عزلتها برهة ، اذ ستؤدي به الى العدم . وسيعقب هذه الطنطنة التي احدثها الانسان في احدى زوايا العالم ، سكون وهدوء ، فلا مادة ولا خلود ولا أعمال ولا معرفة ، وحتى الموت نفسه والحب الذي هو أقوى منهُ ستكون كأنها لم تكن مطلقاً »

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

اما العالم الفلكي فنجده يقول : « ليس عالمنا الاّ وحدة من مجموعة عوالم كثيرة نقف امامها حيارى اذ لا تمكننا وسائلنا من البحث في تلك الابعاد حيث يسود الظلام المطبق . واذا كان توغلنا في تلك العوالم لا يجدينا معرفة عنها فانه مكننا من ان نعرف اننا كلما ابتعدنا عن عالمنا ازدادت ضآلة شأن الانسان . وعرفنا ثلاثة اشياء ايضاً : (١) اطراد الناموس الطبيعي في تلك الابعاداللامتناهية (٢) انتفاء البينة على وجودغاية يمكن العثور عليها في أي جانب من جوانب الكون الفسيح (٣) ان معرفتنا عن الكون وبحثنا في ارجائه لا ترينا أضأل أثر لوجود ذات روحية »

واذا سألنا البيولوجي أو السيكولوجي اجابنا : الانسان حي « كيماوي طبيعي » — Physico-Chemical — وما أمله وطموحه وحبه وخوفه وأثرته وايثاره ومعرفته الاّ نتيجة تفاعلات كيماوية وقوانين تسيطر عليها فتكوّن الوان سلوكه وتصرفه » . والفيزائي ، وهو الذي كشف مجاهيل عالم الذرات المكوّن منها الانسان وعالمه ، يملي علينا الحقائق الآتية : « معرفة التركيب الذري كشفت لنا عن ظواهر كان حتى نفس وجودها غير منتظر قبلاً . وبهذه المعرفة الجديدة نجد صورة «المادية» — Materialism — واضحة غير مشكوك فيها . ونحن في كل بحوثنا ومعرفتنا لم نجد أي غاية للوجود . وكل ما نجده في هذا الوجود هو الاتساق والنظام الناشئين من اطراد الناموس الطبيعي وانتظامه حتى لو قلنا بأن الكون سائر الى الفناء النهائي فذلك لا يعني وجود أية غاية ، كما لا يستلزم وقوف الساعة وعطلها قصداً سابقاً . وأخيراً لا نجد في هذا الميدان الجديد من الكشوف العلمية مكاناً لأي فاعل روحاني . نعرف مما تتكون المادة ونعرف انها طاقة ولكن الطاقة مادية من عالم المادة وليست من عالم الروح ولا يمكن ان تحلل الى الروح . فأين عالم الروح إذن ؟ »

يظهر من ذلك أن العلم في مكتشفاته ووسائله ما كشف عن أي أثر لصديق للانسان سوى الظواهر الطبيعية ، ولم يوفق خلال تنقله بين العوالم إلى أن يعثر على أية قوة إلهية تعنى بالانسان ، او على اي مبدأ يضمن للانسان نجاحاً في كفاحه وغاية من وجوده . فعين العلم لا ترى الانسان الاّ وحيداً في عالم نفس وجوده فيه عارض وصدفة . واذا كان ما يراهُ العلم صحيحاً ، فاذا حدا بالانسان ، من قديم الزمان حتى الآن ، إلى ان يشعر بأن هناك قوة سماوية تعنى به وأنها خلقت كل شيء من اجله ؟ الانتروبولوجي يجيبنا عن هذا السؤال بقوله : « نحن حيوانات اجتماعية من

نوع تلك التي تعيش قطعاناً ، وكذلك كان اجدادنا منذ عصور كثيرة . وبغريزتنا الاجتماعية هذه ننظر الى العالم فندرك فيه الحنو والاخوة والصداقة . هذا ما يخبرنا به دارسو الحيوانات الاجتماعية اثناء تدجينها بملاحظتهم ما يطرأ على عادات الحيوان الاجتماعي وعلاقة تلك الطوارىء بوحدة ذلك الحيوان وحنينه الى قطيعه المفقود . وكذلك تكونت عند الحيوانات الاجتماعية غريزة البحث عن اصدقاء غير موجودين . فمن المحتمل إذن ، او قد يكون اكثر من المحتمل ، أن نشوء فكرة ذلك الصديق عند الانسان يرجع الى تلك الغريزة التي تتصف بها الحيوانات المجتمعة ؟ أي أن اصل الفكرة تشوق الانسان الاجتماعي الى البحث عن القطيع ، او دليل القطيع ، فتمدى في بحثه هذا حدود الارض الى ما وراء النجوم »

ولكن العلم وان يكن لا يجرؤ على نفي ذلك الصديق قطعاً فانهُ زعزع امل الانسان في العثور عليه وجعله وحيداً في هذا العالم الغريب . واذا لم يكن العلم قد نفى الصديق عن الانسان ، فما سبب هذا اليأس والتشاؤم ، او كيف استطاع العلم أن يزعزع أمل الانسان وايمانه ؟

استطاع العلم أن يزعزع ايمان الانسان وأمله لا لأنهُ قال لهُ او فرض عليه ان ينبذ الايمان ؟ فالعلم لا ينفي شيئاً ولا يثبت شيئاً إلاَّ بعد التجربة والتمحيص . انهُ لم يقل ذلك مطلقاً ، ولكن هناك آثار ثانوية مصاحبة للعلم وقد كان من أثرها زعزعة أمل الانسان وايمانه . وهذه الآثار هي : —

١ . تغلغل الروح العلمية او العقلية العلمية والثقة التي حازت عليها بين الناس جعلهم يتخذونها المقياس المعول عليه في شتى القضايا حتى شمل تطبيقها البحث في كل فن . وهذه العقلية العلمية ، وما تتصف به من شك وتجربة وتمحيص ، جعلت الانسان يقف بها تجاه الايمان والمعتقد كأنهما قضية قابلة للتجربة والامتحان

٢ . وقد ينبعث ذلك الشك في الايمان من مصادر غير الروح العلمية ، كما حدث وكما يحدث لافراد ليسوا علماء وليسوا متصفين بما نسميه العقلية العلمية . فتعرض الايمان للشك دوماً ، وتعلقنا بالايمان وبالأمل اللذين يحدوانا الى السير في حياتنا قانعين بل ومغتبطين ، كل ذلك جعلنا نبحث دوماً عمَّا يقوي ذلك الايمان وذلك الامل في نفوسنا . ولطالما لجأنا الى وسائل شتى نعزز بها ايماننا ، فاتخذنا المنطق والفلسفة وصناعة الكلام ، بل والعلم ، سبيلاً الى الغاية نفسها . ولما تراكمت معرفة الانسان في هذا القرن ، ووصلت الى ما وصلت اليه من الشموخ والتعالي والثقة ، لجأنا الى العلم نسأله ونريد منهُ أن يطمأننا في املنا وفي أمانينا وجعلناه الحكم في شكنا . ولكن بماذا أجاب ؟ لم يجب إلاَّ باللاادرية القاسية والعجز ، وهو الذي نعتقد فيه القوي القادر ، فزعزع ذلك أملنا وتسرب الشك إلى ايماننا

٣ . ولو اقتصر الأمر على لا ادرية العلم تلك لهان الأمر ولسهل على كثير من النفوس أن تظل مشبعة بسعادة الايمان والأمل ، ولكن الأمر تعدى ذلك الى كشف حقائق علمية عن الحياة والكون

مثل « المادية العلمية » التي هدم بها العلم عالم الروح ، ومثل قابلية فناء المادة ، وفناء العالم ، ونظرية النشوء والارتقاء ، إلى غير ذلك مما له تأثير في اضعاف ذلك الايمان فينا

تجاه تلك الحقائق العلمية عن الكون والحياة نشأت مواقف مختلفة للمفكرين وسبل متمايزة للفكر الحديث والفلسفة الحديثة : فطائفة من الناس عزَّ عليها أن تدع أي شك يتطرق إلى ايمانها وابت ان تعترف بكل ما جاء به العلم عن الكون وعن الانسان . وهذه الطائفة المحافظة ليست موضوع بحثي ،وانما هناك فئات اخرى أثر فيها العلم فترك فيها نتائج مختلفة ، يمكن تصنيفها ودرجها كالآتي : —

١ — المتشائمون Pessimists

٢ — المتفائلون او المثاليون Optimists, Idealists

٣ — العمليون والطبيعيون Pragmatists, Naturalists

١ — المتشائمون

فالمتشائمون هم أول فريق ظهرت البوادر الاولى لنتائج تلك الحقائق العلمية في افكارهم ووجهة نظرهم في الحياة . ولما طبعت عليه نفوس هؤلاء من التشاؤم ، ولما امتازت به نتائج العلم الحديث من الاجماع على الاخذ بها ، كان لا بدَّ ان نجد تلك النفوس صاخبة او نسمعها نادبة حظ الانسان وباكية على النهاية المحزنة لقصة الانسان على هذه الارض . فنسمع مثل تنسون يقول « إذا لم يكن هناك خلود فسأرمي بنفسي في اليم » . وفي ملحمته الذكرى In Memoriam — نجد العالم يعاني آلاماً قاسية ومستمرة . ولكننا نجد في شوبنهور مثل تلك النتيجة واضحة ، ففلسفته هي ابلغ تعبير عن عبث الجهود البشرية وعدم وجود غاية في الحياة وفي الطبيعة . وعنده ان نحوى الحياة هي الكفاح الأعمى والجهاد غير المجدي ، وان قوة قاتمة وغير مدبرة هي التي انتجت هذا العالم ومن يعيش عليه ، وهي التي يدعوها « بالارادة » . فهو يقول : « كل انسان وفترة وجوده في الحياة ليسا الأحلماً قصيراً لارادة الحياة المستمرة . وما الانسان الا صورة زائلة ترسمها الطبيعة في صحائفها الكثيرة لا تسمح لها في الظهور الا برهة قصيرة تعود بعدها الى العدم لتفسح المجال لصور غيرها»[1] وقد يجد الانسان في العلم وفي الفن وفي مساعدة غيره من اخوانه تعزية وملهاة . ولكن شوبنهور يرى أن هذه نفسها لا تستحق ما يقاسيه الانسان في سبيل الوصول اليها : « فاذا شبهت الحياة بطريق متوهج بنار حامية إلاَّ بضعة اشبار باردة ، الفينا المنخدعين من الناس يجدون في تلك الاشبار الباردة تعلة وتعزية ، ووجدنا الذين نفذت انظارهم الى ما وراء ذلك الخداع فعرفوا حقيقة الكل ، ليس لديهم ما يتعزون به فينسحبون من الطريق »

وبعد ان بكى هؤلاء المتشائمون كثيراً وندبوا طويلاً آل بهم الجزع والاعياء الى البحث عن

(١) « العالم كارادة وتمثيل » Die Welt als Wille und Vorstellung

التمتع والتعزية في الفن والجمال ، وصرنا نسمع مثل والتر باتر — Walter Pater — في كتابه — Conclusion to the Renaissance — ورينان في — Examen d'un Conscience Philosophique — يبشرون بانجيل الفن والجمال كملجأ للانسان من تلك الحقائق العلمية المرة ، على انهُ وان ادعى اولئك المبشرون بأن تمجيدهم للفن والجمال هو لاجل الفن والجمال ، الاّ اننا نستطيع أن نتلمس فيه صدى الصوت القديم القائل « لنأكل ونشرب ونكن سعداء فاننا غداً نموت » . وهكذا نجد هذه الابيقورية العصرية تتغلغل في روح العصر . اذ كل فلسفاتنا الاجتماعية حقاً ، ما هي الاّ وسائل مزخرفة للتمتع بالاكل والشرب والحصول على الغبطة في أحسن شكل ممكن . فروح العصر على وفاق مع الخيام ، سواء اعترفنا بذلك ام أبينا الاعتراف

٢ — المتفائلون أو المثاليون

يختلف هؤلاء عن المتشائمين في أنهم وان كان كثير منهم سلم كما سلم المتشائمون بالصورة التي رسمها العلم للعالم ، فقد ظلَّ بينهم فريق كبير شديد الرغبة عن التخلي عن معتقداته الموروثة وآماله القديمة : فاتجه هذا العدد منهم الى تلك النظريات التي انتجتها أخيلة الرمانتيكيين كرد فعل لصورة العالم النيوتونية في عصرهم . وهكذا نجد النزعة المثالية (idealism) قد نمت من جديد وأضحى أصحابها يحاولون ان يبرهنوا على ان العلم لم يقص قصة الحياة الكاملة ، وان الطبيعة عاملة مع الانسان لخيره وصالحه . اي ان هذه النزعة المتجددة كانت نتيجة تردد تلك الفئة بين التخلي عن آمالها كل التخلي ، وبين الصعوبة التي وجدتها في رفض الحقائق العلمية ، فهي توفيق بين المعرفة والامل ، اي بين العقل والعاطفة . ووجد هذا الفريق في « كانت » خير حل للمشكلة وخير توفيق بين العلم وبين املهم . فهم ككانت يعترفون بأن كل ما كشفه العلم صحيح وحقيقي ضمن دائرة العلم ، الاّ ان عالم العلم ما هو الاّ عالم الظواهر ، ويكمن وراءه او يتخلله عالم الحقيقة الذي يختلف كثيراً عن عالم الحس. وعلى هذا فعالم الحقيقة ليس كما يصوره العلم ميكانيكياً لا غاية له ، وانما هو عالم روحي اخلاقي يضمن للانسان جهوده وكفاحه . فأضحى هذا المعتقد خير تعزية لكثير من النفوس ، ولا سيما تلك المتعلقة بالايمان والامل ، اذ استطاعت أن تبرهن به على وجود الله وان عجز العلم عن أن يجده ، وأن تسوّغ قواعد الحياة الاجتماعية والدينية

الاّ انهُ بعد انقضاء جيل ، اي في مستهل القرن العشرين ، نجد تلك النزعة المثالية وقد اخذ عدد معتنقيها يتناقص ، اذ نرى انفسنا أمام جيل النشوء والارتقاء ، حيث الايمان القديم يخلي المكان لايمان جديد هو « تمجيد النشوء والارتقاء » . وكما يسم كل معتقد معتنقيه بطوابع مختلفة ، كذلك الحال في هذا المعتقد الجديد الذي احدث وجهات نظر مختلفة بين المؤمنين به : ففئة تمجد فكرة النشوء وتعلق عليها الآمال ، وترى أن على الانسان أن يجعل اتجاه سيره وفقاً لنواميس الطبيعة ووفقاً

نساقن النشوء ولا سيما بعد ان عرفت تلك النواميس . يحدثنا « سبنسر » عن ذلك فيقول : « إن اسمى شيء في الحياة هو السعادة البشرية . والمجتمع الذي يعنى بكل فرد من افراده يفوز بالسعادة العظمى . ونستطيع ان نخلق مثل ذلك المجتمع إذا أسسناه على مبادىء المنافسة والتزاحم الحر وعلى اطلاق العنان للفرد يفعل ما يشاء لصالحه . وسيكون مجتمع المستقبل المتطور متسماً بالوفاق مع النواميس الطبيعية ، وستكون مؤسساته على اتساق والبيئة البيولوجية والطبيعية . » وفئة اخرى رأت ان في هذا الايمان الجديد خير ضامن لتقدم الانسان وارتقائه وبلوغه الكمال ، فتراها تعقد الآمال على الناموس الكوني في نشوء ذلك المجتمع الكامل . و « ماركس » يشبه سبنسر في تمجيد ناموس النشوء والارتقاء ، الا انهُ يختلف عنهُ في فهم ذلك الناموس ، اذ « سبنسر » يراه مفضياً الى « الفردية Individualism » في حين ان « ماركس » يراه مفضياً الى الاجتماعية والاشتراكية ، فيتسلط فيه العمال على آلات الانتاج ويستخدمونها لصالحهم . ففهم « ماركس » لناموس النشوء فهم مادي وليس فهماً بيولوجياً . وسواء أخذنا برأي ماركس الاجتماعي او برأي سبنسر الفردي، فان كلا الرأيين يمثل لنا كيف صار الناس يؤمنون بان هذا العالم « الميكانيكي المتطور » ليس شرّاً كما حسبه المتشائمون ، وان الاعتقاد به غير مفض الى اليأس والتشاؤم وانما إلى الأمل اللامتناهي

وهناك عدا الفئتين السالفتين ، فريق رأى ان فحوى نظرية النشوء هو التغيير والتجدد ، وعلى ذلك جعل هذا الفريق التجدد والتطور مثلاً أعلى . وعند هؤلاء ان ماهية التجدد هي الخلق والابتداع ، والانسان يحوز بعقله وذكائه اعظم قوة خالقة ومجددة . فدعهُ اذن يعيش ويخلق وينتج . فاذا وقف نفسهُ على العمل والتجدد كان الانسان الطبيعي الحق

وهناك طائفة اخرى يمثلها نيتشه ، ارى الضرورة تقضي بابداء الملاحظات الآتية على موقفها

١ — ادرك نيتشه انهُ اذا اخذنا بفكرة النشوء وبما تجهزنا به من مقاييس اخلاقية ، وجب علينا ان ننشىء لنا مثلاً جديدة ومقاييس اخلاقية غير التي ورثناها والتي هي على طرفي نقيض والعالم المتطور الذي نعيش فيه فما كان حسناً في الوقت الذي كانت تحكم فيه العناية الإلهية لم يعد كذلك في وقتنا. واذا اردنا ان ننشىء جيلاً نبيلاً قادراً على ان يسير والنواميس الطبيعية وجب علينا نبذ كل ما ورثناه عن الماضي والذي من شأنه الاستسلام والضعف ومماكسة نواميس النشوء والارتقاء

٢ — وعلى هذا المنوال نرى نيتشه يمجد المستقبل ويتصور نشوء الانسان الكامل، على انهُ لا يتوقع ذلك بتركنا الامر الى العوامل الطبيعية تخلق لنا من تلقاء ذاتها، ذلك الانسان. بل علينا ان نكدح ونعد العدة للمستقبل ، يجب ان نفعل ذلك وان تطلب الامر منا ان نكون قساة . ونحن ان لم نفعل ذلك فالانسان بدلاً من ارتقائه الى كمال الآلهة ، سينحط الى مستوى الحشرات

٣ — اعتمد نيتشه اولاً على فلسفة شوبنهور ثم حرّر نفسهُ من الانطباع بصورة الحياة كما رآها شوبنهور . ولكن اصالة نيتشه، وهي التي تفرقهُ عن شوبنهور تبرز في رفضه الاخذ بالنتيجة السلبية التي

رآها شوبنهور ، وهي الانهزام في وجه الحياة الحافلة بالكفاح والتناحر اللذين تفرضهما على الفرد « إرادة الحياة » الشوبنهورية . اذ بذينك العاملين سيظهر « السبرمان » . وترقب ظهور ذلك الانسان الكامل هو الذي جعل نيتشه يثبت في الميدان مسوّغاً كل ما يكلفنا ذلك التناحر من اتعاب ومستسيغاً مأساة الحياة الحاضرة اذ سيعقبها في المستقبل الفرح العظيم

٤ — وكثيراً ما يتهم نيتشه بتأليه الجشع التجاري والقومية والوطنية، مشجعاً الحروب والتناحر بين الشعوب . ولكن لا شيء ابعد من هذا عن رأي نيتشه الذي يحتقر الصناعة الرأسمالية ويمقت الساسة والقادة المهرجين ، ويعتبر التوسع التجاري القومي وحمة الوطنية اسوأ انواع الشرور اذ يرى هذه الاشياء عائقة ومؤخرة لولادة ابن المستقبل — السبرمان —

٣ — العمليون او الطبيعيون

هذه الفئة اقرب الى المتفائلين منها الى المتشائمين . الاَّ فرق واحد هو ان المتفائلين ، لا سيما النشوئيين منهم ، يؤمنون باستخدام قوى الطبيعة والتعاون معها لتقريب ذلك اليوم الذي يولد فيه الانسان الكامل

على ان العمليين — وهم يمثلون الفلسفة الحديثة وبوجهٍ خاص في امريكا — يرون ان الانسان في عالمه هذا الذي يصورهُ العلم ليستطيع ان يعيش بذكائه وكفاحه حياة فردية او اجتماعية راقية . فعالم العلم لا يجب نبذه كما لا يجب تمجيده تمجيداً اعمى ، بل من الخير ان نقبله كسكن الانسان الطبيعي ومستودع مواد عمله وصناعته

واذا كان الانسان جزءاً من الطبيعة ونتاج قواها ، فانهُ ليستطيع ان يستغل تلك القوى لنفسه ، مستعملاً في ذلك عقله وذكاءه اللذين منحته اياها الطبيعة . فالنشوئيون عبدة المستقبل والعمليون عبدة الحاضر

ليست هذه الفلسفة وليدة اليوم ، لاننا اذا رجعنا الى الماضي الفينا في ميدان الفلسفة اليونانية أفراداً اعتقدوا وقالوا بأن الحياة شيء يجب ان يستمتع به على ان تدار وتساس ميول الانسان الطبيعية وعواطفه . وفي فجر العلم الحديث نجد « بيكن » يبشر بانجيل العلم والعمل وباستخدام العلم لتسخير قوى الطبيعة لمنفعة الانسان . وهكذا نجد هذه النزعة « الطبيعية Naturalism » البيكونية وقد اتحدت بنزعة اليونان في تلوين هذه الفلسفة العصرية التي يمكن ان نسميها بالعملية او الآلية Pragmatism or Instrumentalism والتي يفاخر الاميركيون بانها فلسفتهم الخاصة بهم . وربما اعدت الكرة فذكرت شيئاً وافياً عن هذه الفلسفة الجديدة في الاعداد القادمة (جامعة شيكاغو)

مقام دراسة الشرق

في معاهد الولايات المتحدة الاميركية

جاء في خطاب لاحد العلماء الاميركيين منذ سنوات ما فحواه ان الغرب يغالي في الاهتمام بفكرة اتصلت به من القرون الوسطى ترمي الى جعل التاريخ القديم قائماً على صرحين هما صرح اليونان وصرح الرومان. ثم انهُ دعا متأدبة الامة الى نقض هذا القول الناقص لان لمصر وأشور وبابل وفينيقية ودول الحثيين والفرس والعبران نصيباً اعرق وأوفر من اليونان والرومان في تكوين العصور القديمة ولولا تحدر آثار هذه الشعوب الى فلاسفة الاغريق الذين تذوقوا طعمها وصبغوها بصبغتهم ثم اعطوها لاوروبة بواسطة الرومان لما كان لهذا الزمن ما يفاخر به من حضارة وعمران [1]

وان في الولايات المتحدة طائفة لا يستهان بها من جهابذة المستشرقين منصرفة الى دراسة الشرق درساً بعيد الغور ، وحسب المرء ان يحضر اجتماعاتهم السنوية للوقوف على جهودهم الجبّارة في سبيل احياء ماضينا . وكان من حسن الطالع ان ضمتني جلسات الجمعية الاميركية الشرقية المنعقدة لسنتها المائة والسادسة والاربعين في مدينة فيلادلفيا في نيسان (ابريل) من الربيع المنصرم ، فأعجبت بما لاحظته من رسوخ هؤلاء الباحثين الاعلام في معالجة الامور الشرقية لغوية وتاريخية وفلسفية وذهلت لما شاهدته من سعة اطلاعهم وفيض بيانهم في الاخذ بجميع المطالب العلمية ذات البال . وهم موفدون مما يزيد على مائة معهد وجمعية ومتحف منها امهات الجامعات والمتاحف الشهيرة والمكاتب الكبرى المنتشرة في طول البلاد وعرضها . وبوضح تضلعهم من العلوم الشرقية اختصاصهم الواسع فهذا مكبٌّ على اللغات السامية مثلاً وذلك اختصاصه اللغة البابلية (الاكادية) فقط وغيره يعرف كل ما يعرف عن العرب او اليهود او مصر وما اشبه . واليك بعض الموضوعات التي تناولتها مباحث الاعضاء اوردها على سبيل المثال غير جاهل انها لا تمثل الاَّ ناحية يسيرة من نواحي مناهجهم : رسالة حسن البصري في القدر — بحث في نشوء كلمات ساميّة منها ادريس وعمورة ودليلة وناداب — مقابلة بين الشتم عند البابليين واليهود والمصريين القدماء — نقوش سومرية (شمرية) تشير الى القربان — بحث في حياة الخصيان في القصور

وعبثاً نحاول وصف دقتهم وايجازهم واجادتهم المعنوية السائدة مناقشاتهم . فالروح العلمية المرفرفة على بهو الاجتماع كانت حقيقة بالثناء العاطر حتى لاح لي ان افضل ما يقتنيه الشرق من ثروة روحية حرية بالخلود قد انتقل الى هذه الديار النائية فانطلق ابناؤها يتبارون في درسه وتحليله

(1) Julian Morgenstern, Journal of the American Oriental Society, Vol. XLVIII, No. 2, 1928, p. 105.

ولعلّ شغفهم به واقبالهم عليه انساهم ما يحيق بموطنهم من مكاره اقتصادية وما يكتنفه من محن اجتماعية افضت اليها الازمة الحاضرة فاركبتهم مركباً خشناً لا نتهمه نحن الشرقيين وقد تعوّدنا عيشة البساطة والقناعة ولم يذللنا نير المعامل والمصانع ولا سطا علينا تيّار المادة الجارف.

ومما طالعتهُ رسالة وضعها باحثان من اعضاء الجمعية المذكورة احدهما استاذ في جامعة جونس هوبكنز العظيمة اتفق وادارة ذلك المعهد ان يقضي الشطر الاول من عامه في فلسطين منصرفاً الى البحث الأثري على ان يقفل راجعاً في الشطر الثاني ليتولّى منصبه التدريسي. والآخر استاذ كبير في جامعة بنسلفانيا. وقد اعلن الكاتبان تحت عنوان « الاستعداد لدرس الشرق الادنى وآثاره » ما للمباحث الأثرية الجارية في فلسطين من خطر الشأن على شريطة ان يكمل الدارس استعداده العلمي قبل مبارحة اميركا. ثم خصّا باباً من رسالتهما بالعراق واشارا الى اركان الملمّين بأحواله الجغرافية والتاريخية والأثرية ويؤخذ من كلاميهما ان الشرق ينبوع عذب لا يرتوي ظمأ العالم منهُ الاَّ اذا جاب اقطاره وشاهد بأم العين ميادين الحضارة الاولى في ربوعه الفتانة (1)

ولمستشرقي الولايات المتحدة مدرستان بارزتان في الشرق العربي تقومان باعمال الحفر والتنقيب وهذا بصرف النظر عن وفود البحث الأثري في وادي النيل من امد بعيد. الاولى في بيت المقدس والاخرى في بغداد. ولا يُظهر فضل هاتين البعثتين مثل الاطلاع على نتائج اعمالهما التي افضت الى تعديل جانب كبير من تاريخ الشرق القديم وافراغ اخباره في حلة قشيبة. والعدول عن كثير من الحقائق المسلم بها قبلاً وتفسير الشؤون الخطيرة تفسيراً ينطبق على مكتشفات المنقبين الاخيرة

ولا بدّ لنا في هذه الرسالة ونحن نسعى الى تصوير عناية العالم الجديد بالنهضة الشرقية وتاريخها المجيد ونحاول اكتناه ما يساور الرأي العام فيهِ من آثار الروح السامية من العرض لمقام الامة العربية. واول ما يتبادر الى الذهن المساعي الحميدة التي يبذلها العلامة الدكتور فيليب حتي فما كاد يتسلم اعباء منصبه الخطير في جامعة برنستون حتى انبرى لاعلاء مقام العرب والتفرّغ لبثّ اخبارهم بين متعلمة القوم. ويا ليت المجال يتسع لذكر اعماله. فانهُ عدا تأسيسه مطبعة عربية وجمعه شتات المخطوطات العربية من بعد ان حشد ما يزيد على الـ ١٥ الف مجلد عربي ثمين في مكتبة الجامعة اشتغل في ادّخار المال الكافي لتنظيم هذه المخطوطات وتولى الاشراف على وضع فهارسها وتقاويمها العلمية. ولا يقف عزمه عند هذا الحد بل انهُ ينوي البدء بمشروع واسع النطاق يستغرق عشرات السنين ويضمن جمع جميع ما في البلاد من مخطوطات عربية ونشر جانب هام منها. والى كل ذلك فهو يدأب ليل نهار في تأليف كتاب مستفيض في الانكليزية يحوي بين دفتيه تاريخ الامة العربية والمرجح ان يفضي ظهور هذا السفر العتيد الى طور جديد في دراسة الحضارة الشرقية في هذه القارة ويضاعف العناية بآداب العرب وتمدنهم

(1) W. F. Albright, and E. A. Speiser, Suggested Approach to the Study of Near East Archaeology, Philadelphia.

ولا جدال في ان الاوروبيين هم الذين سبقوا الى الفتوحات الباهرة في هذا المضمار فمنهم دي ساسي المتوفي في النصف الاول من القرن الاخير صاحب الايادي البيض على علم اصول اللغة العربية . وبعده قام في القرن ذاته ومن ابناء فرنسا ايضاً اديب فذّ لم يعدم ميوله الى الابحاث العلمية وقائمة مصنفاته وان كانت اليوم مفروغاً منها من الوجهة العلمية الاّ انها لا تزال حلقة مكينة في سلم ارتقاء المشرقيات عند اهل الغرب . نعني الكاتب الطائر الصيت ارنست رينان . فقد ألمّ بتاريخ فينيقية وتوغّل في شؤون بني اسرائيل منعماً نظراته في سفر ايوب وكان قد نشر قبل هذين المؤلفين بحثاً في تاريخ اللغات الساميّة . ومن آثاره « حياة المسيح » و « ابن رشد وعقيدته » وسواها مما هو معروف لدى القراء . وأما المستشرق الالماني تيودور نولدكه فانه شيخ المستشرقين قاطبةً ولد سنة ١٨٣٣ ومات عن عمر كبير ومآثر خالدة في مختلف العلوم الشرقية التي تناولها وكانت ميوله جامعة شاملة فلم يهمل زاوية من زوايا المشرقيات بل طرقها كلها وصار حجة فيها

وفي مرتبة هؤلاء يعد العالمان هرغرونيه ودي غويه وهما لا يقلان تدقيقاً وتنقيباً وهذا الاخير حسبه ما نشره من تاريخ الطبري في مجلدات سهلة المأخذ زينها بالفهارس والحواشي العلمية

ومن المعاصرين الانكليز عالمان يجدر بنا الاشارة اليهما احدهما استاذ في جامعة كامبردج والآخر في اكسفورد اعني نكلسون وندّه مرغوليوث . اما الاول فأشهر مؤلفاته تاريخ الآداب العربية وله سوى ذلك ما يستحق الذكر مما نقله من الشعر الشرقي . وللاستاذ مرغوليوث جولات محمودة يشهد له فيها بطول الباع وقد أصدر تاريخ الدولة الاموية والدولة العباسية في لغته الخاصة نقلاً عن سلسلة جرجي زيدان التاريخية . الاّ ان درس المؤلفات الشرقية التي يصدرها المستشرقون منذ اكثر من قرن يحملنا على الاقرار للالمان بقصب السبق . ولكن احداث السياسة الاوربية والتضييق الفكري الذي يعانيه العلماء يحملان على الظن بان النشاط الفكري في اوربة في هذه الموضوعات التي لا يمكن ان تنهض الاّ في جو ملائم للبحث الحر سيتأخر لما انتاب حرية البحث في بعض بلدانها من مآسٍ جسام

ثم ان عدد الفحول الالمان الذين امّوا هذه البلاد على اثر الانقلاب الاخير يدعم قولنا . أو لم يهبط بعضهم ارض الاتراك كذلك طلباً للسكينة والامن . ومنهم من هجر مسقط الرأس قادماً الى اميركا ولو لم يكن ممن استهدف لسهام الاضطهاد ، طمعاً بما في المهجر من بحبوحة العيش ووسائل النمو العقلي وسبل العمل الحرّ فما تقوم عليه النزعة الجديدة في الولايات المتحدة من الاعتناء بشؤون الشرق العلمية وما يغذيها من ميول صادقة لا تحفزها المطامع الاقتصادية والسياسية مضافاً الى ما يعتور الحياة الفكرية في القارّة الاوربية من الصعاب ينذر بانتقال معقل المشرقيات الى ما وراء بحر الظلمات في المستقبل غير البعيد

ولا ريب في انهُ اصبح لبلاد العرب ولغتهم وامتهم مكانة لم نعهدها من قبل . اما علو شأن البلاد فلان اجماع رأي العلماء يميل الى حسبانها مهد الساميين . واهمية اللغة العربية راجعة الى كونها

مفتاح الفيلولوجيا السامية . واما مقام الامة فلانها اتق العناصر التي يتمثل فيها الجنس السامي ولقد آلت هذه النظرية الجديدة الى قلب الاصول التي كان يتمشى عليها العلماء في درس التوراة . واول من مهد السبيل الى هذه الطفرة Pococke في القرن السابع عشر ثم قام Schultens فأيَّده وجاراه في وضع حجر الاساس حتى اذا ما جاء القرن التاسع عشر تمّت الفكرة الجديدة على يد العالمين Wellhausen و W. Roberison Smith وقبل عشر سنوات ظهر كتاب للاستاذ مرغوليوث احتوى ثلاثاً من محاضراته تحت عنوان « علاقات بين العرب والاسرائيليين قبل نهوض الاسلام » ابان فيه كثيراً من الغوامض واثبت ان الشيء الكثير من تاريخ العبرانيين وآدابهم يسهل فهمه اذا درسناه بعد امام النظر في اللغة العربية ولغة عرب الجنوب

ثم كانت السنة الماضية فأصدر العلامة الاميركي مكدونلد كتابه في « عبقرية العبرانيين الادبية » ذهب فيه الى ان آداب اليهود لازالت على مرّ السنين مدينة في تكوينها للغة الضاد وتوسع في مباحثه فجعل حياة النبي داود واشعاره شبيهة بسيرة امرؤ القيس وقصائده ضارباً امثالاً كثيرة على القارىء اللبيب ان يرجع اليها لرؤية ما يتوسم فيه من تشابه بين الشعبين . وقد قال هذا العالم ان مفسري العهد القديم في السنين المقبلة يجب ان يكونوا من الراقين على متون اللغة العربية

واخيراً ظهر مؤلف للاستاذ مونتغومري سماه « الجزيرة العربية والتوراة » اتى فيه بحقائق ثابتة وآراء طريفة تؤكد بما يقبله العقل وتترده الشواهد التاريخية والعلمية ان فهم تاريخ اسرائيل لا يمكن ان يتم الاّ اذا تمكن الطالب من تفهم احوال الجزيرة . وقد شفع المؤلف اقواله بمستندات فيلولوجية وتاريخية ولا غرو فهو من اساطين العلمين ثم تطرّق الى تفصيل قضية المناخ في الجزيرة وازدياد الجفاف فيها على مرّ السنين والقرون ثم عرض لعلاقات العبرانيين التجارية بأبناء البادية وطرق باب الحكمة العربية وقابل بين هذه وما يجده الباحث في صفحات ايوب والامثال ثم عكف على الاسباب التي ادّت الى افول نجم العز في جنوب الجزيرة بعد تألقه ردحاً طويلاً من الدهر في العصور القديمة وتخلص بآراء حصيفة في أثر الصحراء الجلي الظاهر في ديانة العبرانيين

ومهما يكن من امر فان العناء بالمشرقيات في هذه الديار لهو مقرون بقسط وافر من التشجيع والتنشيط ويؤمل ان يظفر بمقام يليق به وبالشرق الذي اوجده . وهاك كلام احد ائمة العلم الذين يؤبه لهم قال « يجب ان ندرس الشرق لانهُ لا يزال مبعث النور والالهام ويجب ان نُعْنَى بتفهّم تعابير الساميين لان اللفظة من الفاظهم اشبه شيء بشحنة الكهرباء التي يحار الفهم في قدر قوتها والاحاطة بماهية طاقتها . هكذا تعجز السنتنا الغربية عن ازاحة الستار عن المعاني السامية وفقه مكنوناتها لانها ذات مرام بعيدة تستعصي علينا ولا عجب فهي متصلة باعماق النفس ولا سبيل الى سبر غورها الاّ بعد امعان شديد »

جامعة بنسلفانيا — الولايات المتحدة ادورد جرجي

الاسطول والبحرية

أيام محمد علي

للدكتور علي مظهر

— ١ —

في الوقت الذي أخذت فيه دول كثيرة تعد عدتها للهجوم أو للدفاع وفي الايام التي نرى فيها الدول تأمر أساطيلها ومراكبها الحربية بالتنقل من مرفإ الى مرفإ ومن ثغر الى ثغر وفي الشهور التي تنادي فيها أمم بالويل والثبور وعظائم الامور لمن يعتدي على حرمة بلادها وتعد ما استطاعت من بأس وقوة ومن رباط الخيل ترهب به اعداءها ، دع الطيارات والمصفحات والدبابات والمهلكات والغازات الخانقة والسامة ، وفي الوقت الذي تدعي فيه بعض الشعوب ملكية بعض البحار فتقول عنه (بحرنا) وتأبى الا أن تكون سيدة ذلك البحر الخضم — في هذا الوقت الذي نرى فيه كل تلك المعدات ولا نرى لمصر فيها معدات تذكر فلا أسطول ولا بحرية ، يجب علينا أن نرجع البصر ونقلب صفحات الماضي المجيد فنذكر ما كان لنا من قوة وبأس ومن أسطول وبحرية ليس في الماضي المترامي في القدم أيام الفراعنة ومن تلاهم فحسب بل وفي السنين القريبة منا التي يكاد يذكرها بعض المسنين ممن تعمروا بالعيش فيها والتي يذكرها أولاد من اشتركوا في خدمة مصر في تلك الأيام حتى انا لنكاد نرى خيال تلك العظمة ماثلاً أمامنا اذا ما عثرنا على شيخ هرم اشترك في جيش ذلك العهد أو حدثنا رجل من اعيان الارياف عن أبيه الذي كان قبطاناً في الاسطول المصري أيام محمد علي

واني لأذكر يوماً في هذا الشهر جلست في صباحه مع عين من أعيان الفيوم وكان الحديث ذا شجون ورحنا ننتقل من حديث الى حديث وكان جلستنا وكانت على بحر يوسف ونحن نرى مياهه النيلية الحمراء تتدفق أمامنا وتمر بسرعة كما مر قرن أو يزيد على تلك الذكرى السارة المؤلمة ، ذكرتنا بما كان لمصر من عز ومنعة قبل قرن من الزمان أيام أبي الشعب المصري في العصر الحديث فاخذ الرجل يحدثنا عن ابيه الذي كان قبطاناً لسفينة حربية من سفن الاسطول المصري اذ كانت البحرية المصرية أيام منشئها محمد علي كالنيل النجاشي وهو يزخر بمياهه ويتدفق في عظمته وجلاله وما أصبحت عليه البحرية اليوم فهي كقناة صغيرة تستمد مياهها القليلة بشادوف

يعمل فيه صاحبه بجهد ليروي قيراطاً وسهماً من الارض. ولعلَّ رؤيا مياه بحر يوسف أمامنا وقتئذٍ وانتقال الخيال السريع هو الذي دعا ذلك السيد أن يحدثنا عن البحر والأساطيل والمراكب فتمر بالوسنان كشريط من اشرطة الصور المتحركة وأن يحدثنا عن الماضي والآباء والجدود. وليس ذلك السيد هو الخلف الوحيد من سلالة من اشتركوا في قيادة السفن الحربية أيام محمد علي أو في بنائها فأنت أينما سرت وبحثت عثرت على ذريتهم منتشرة من ساحل البحر الابيض المتوسط الى أقاصي السودان. وكان ذلك الحديث هو الذي أثار الذكرى لاتمام بحثنا عن البحرية المصرية قديماً وحديثاً وكنا قد نشرنا جانباً كبيراً منهُ قبل اليوم على صفحات المقتطف. فلنعد اليوم الى ذكر مفخرة من مفاخر الاجيال ونشر شذا الذكر الطيب عن تلك الايام السعيدة بعد أن شغلتنا أمور عن نشرها

محمد علي والبحرية المصرية

يمكن تقسيم الكلام على البحرية المصرية إلى قسمين كل قسم منها يخصص الكلام فيه على مدة فالمدة الاولى تبدأ بسنة ١٢٢٤ هـ الموافقة لسنة ١٨١٠ ميلادية وتنتهي سنة ١٢٤٣ هـ الموافقة لسنة ١٨٢٩ والمدة الثانية تبدأ من سنة ١٢٤٤ هـ الموافقة لسنة ١٨٢٩ ميلادية وتنتهي بولاية ابراهيم باشا سنة ١٢٦٥ هـ الموافقة لسنة ١٨٤٨ ميلادية

المدة الاولى

بعد أن لبث محمد علي والياً على مصر عدة سنوات ارسلت اليه الدولة التركية العثمانية أمراً بتوجيه حملة عسكرية على الوهابيين لاسترداد البلاد التي احتلوها من الحجاز خشية استفحال أمر دولتهم الناشئة في قلب جزيرة العرب. فرأى محمد علي ان نقل الجنود والمعدات الحربية من مصر الى الحجاز غير ميسور الاَّ على ظهور المراكب عن طريق البحر الاحمر فبادر الى تشييد دار صناعة السفن ببولاق لانشاء تلك السفن فأمر بقطع الاشجار الصالحة لبناء السفن وتجهيزها ثم تنقل مفككة على ظهور الابل الى السويس فتركب هناك ثم تنزل في البحر لحمل الرجال والعتاد الحربي والمؤن والذخائر وبذا يمكن أن يقال ان تلك السفن المنشأة كانت النواة الاولى للبحرية المصرية أيام ذلك الرجل العظيم وكان لتلك السفن فضل كبير في نجاح الحملة التي وجهت الى الوهابيين وجعلت لمصر مقاماً وهيبة في البحر الاحمر وثغوره

وقد ذكر الجبرتي في تاريخه في حوادث شهر ذي الحجة سنة ١٢٢٤ هـ ما نصه :

واستهلَّ شهر ذي الحجة بيوم الاحد سنة ١٢٢٤ هـ (يوافق ٧ يناير سنة ١٨١٠ ميلادية) وفيه شرع الباشا (يريد محمداً عليّاً) في انشاء مراكب لبحر القلزم (البحر الاحمر). فطلب الاخشاب الصالحة لذلك. وارسل المعينين لقطع اشجار التوت والنبق من القطر المصري القبلي والبحري وغيرها من الاخشاب المجلوبة من الروم (بلاد الاناضول). وجعل بساحل بولاق ترسخانة (دار صناعة

للسفن) وورشات (معامل ومصانع) وجمعوا الصنّاع والنجارين والنشارين فيهيئونها وتحمل اخشابها على الجمال ويركّبها الصنّاع بالسويس سفينة ثم يقلفطونها ويبيضونها ويلقونها في البحر فعملوا اربع سفائن كبار احداها تسمى الابريق (لشبهها بالابريق وكانت عبارة عن سفينة بساريتين وقلوع مربعة واسمها عند الافرنج بريك) وخلاف ذلك داوات لحمل السفار والبضائع

ويفهم من كلام الجبرتي في حوادث سنة ١٢٢٧ هـ (توافق سنة ١٨١٢ م.) أن دار صناعة بولاق كانت تنشئ (المراكب الكبار والصغار التي تسرح في النيل من قبلي الى بحري ومن بحري الى قبلي ولا يبطل الانشاء والاعمال والعمل على الدوام وكل ذلك على ذمته (على حساب محمد علي باشا) ومرمتها وعمارتها ولوازمها وملاحوها باجرتهم على طرفه لا بالضمان كما كان في السابق. ولهم قومة ومباشرون متقيدون بذلك الليل والنهار)

ثم انهُ ذكر في حوادث تلك السنة عينها ما نصهُ :

ان الباشا ارسل لقطع الاشجار المحتاج اليها في عمل المراكب مثل التوت والنبق من جميع البلاد القبلية والبحرية فلبث المعينون لذلك في البلاد فلم يبقوا من ذلك الا القليل لمصالحة اصحابه بالرشا والبراطيل حتى يتركوا لهم ما يتركون فيجتمع بترسخانة (دار صناعة السفن ببولاق) الاخشاب لصناعة المراكب مع ما ينضم اليها من الاخشاب الرومية (من بلاد الاناضول) شيء عظيم جداً يتعجب منهُ الناظر من كثرته . وكلما نقص منهُ شيء في العمل اجتمع خلافه اكثر منهُ

وعاد الجبرتي فذكر في حوادث سنة ١٢٣١ هـ (توافق ١٨١٦ م.) ما نصه : والعمل والانشاء بالترسخانة مستمر على الدوام والرؤساء والملاحون يخدمون فيها بالاجرة وعمارة خللها واحبالها وجميع احتياجاتها على طرف الترسخانة . ولذلك مباشرون وكتّاب وامناء يكتبون ويقيدون الصادر والوارد . وهذه الترسخانة بساحل بولاق بها الاخشاب الكثيرة والمتنوعة وما يصلح للعمائر والمراكب ويأتي اليها المجلوب من البلاد الرومية (الاناضول وغيره) والشامية . فاذا ورد شيء من انواع الاخشاب سمحوا للخشابة بشيء يسير منها بالثمن الزائد ورفع الباقي الى الترسخانة . اهـ

ففي دار صناعة السفن ببولاق كان انشاء البحرية المصرية الاول ايام محمد علي وفيها انشأ سفناً كباراً حتى رأى انشاء دار الصناعة بالاسكندرية . ويقال ان ذلك المجهود الهائل من نقل الاخشاب من مختلف بلدان مصر والشام والاناضول وبقية البلاد التركية الى بولاق لعمل السفن مفككة لتنقل على ظهور الجمال كان يستدعي استخدام نيفاً وعشرة آلاف من الابل كان يهلك بعضها اثناء العمل فيعوض بغيرها وامكنهُ بذلك ان ينشيء ثماني عشرة سفينة كبيرة كاملة العدة وانزالها الى الماء في مدة عشرة اشهر [1] وذكر اسمعيل باشا سرهنك في كتابهِ (حقائق الاخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٣٦) بعد الكلام عن دار صناعة بولاق ما نصه :

(١) المسيو فيلكس مانجان F. Mangin في تاريخه عن مصر مطبوع بباريس سنة ١٨٣٩

وشيد بالسويس مباني لصناعة السفن انشأ بها اربع سفن جسيمة من نوع الابريق (وهي سفن بساريتين وقلوع مربعة) واحدى عشرة سفينة اخرى من نوع السكونة (وهي سفينة بسارية واحدة لها قلوع مربعة ونصف سارية ذات قلوع مخروطية) . ثم توجه العزيز (يعني محمداً علياً) بنفسه الى السويس لمشارفة ما بها من السفائن سنة ١٢٢٥ هـ. وهناك امر بضبط ما بها من المراكب وما بغيرها من سواحل البحر الاحمر لاستعمالها في الحملة الوهابية . وترى سرهنك باشا رحمهُ الله (ص ٢٢٨) يذكر عودة الوهابيين للقتال بعد تعهدهم بالكف عنهُ فقال ما نصه : واستعد محمد علي باشا لقتالهم واعد السفن ببولاق مصر لحمل الجنود بالنيل الى مدينة قنا لتسير من هناك الى ثغر القصير وجعل على هذه القوة ولده ابراهيم باشا (١٢ شوال سنة ١٢٣١ هـ — ٣ سبتمبر سنة ١٨١٦ م.) ثم ركبوا اسطول البحر الاحمر الى ينبع اهـ . وهذه كانت الحملة الثانية لمحاربة الوهابية كما يفهم من سياق الكلام . ويظهر ان الفرق في عدد السفن التي امر محمد علي ببنائها في رواية مسيو فيلكس مانجان ورواية سرهنك باشا وهو ثلاث سفن هو الذي اخذه محمد علي مما وجده بالسويس كما يشير الى ذلك الباشا في روايته هذه

الاسطول المصري في البحر المتوسط

على ان محمداً علياً كان ذا نفس وثابة طموحاً الى انشاء دولة كبيرة بعيد النظر لحماية بلاده فرأى ان ينشيء اسطولاً ضخماً الى جانب الجيش الذي كوَّنهُ للمحافظة والدفاع عن البلاد وللفتح كما رأينا من سيرة ذلك الرجل العظيم

ولما كانت مراكبه التي اصبحت تمخر البحر الاحمر لا يمكنها ان تسير الى البحر المتوسط اذ لم تكن القناة قد انشئت وقتئذٍ . ولما كان يعلم أن بلاده في حاجة الى اسطول يحمي شواطئها الشمالية والى بحرية ليستعين بها على نقل المتاجر والمعدات ولتكون صلة وصل بين مصر وغيرها من الدول الاخرى لهذا رأى ان ينشيء عمارة مصرية واسطولاً قوياً يمخر عباب البحر المتوسط بين افريقية وآسيا واوربا

فلجأ اولاً الى شراء سفن حربية من الخارج واوصى على انشاء بعضها في ثغور اوربا مثل مرسيليا وليفورن وتريستا وجنوه وسلحها بالمدافع وعهد بقيادتها الى قباطين من الاسكندرية والاتراك كانوا بالسفن التجارية . اما ملاحوها ونوتيتها فكانوا من المتطوعين . وعهد الى بعض الضباط من فرنسا وايطاليا في تدريب البحارة وتعليمهم . يضاف الى ذلك سفينتان حربيتان كان السلطان محمود العثماني قد اهداهما اليه . اما السفن التي احضرها محمد علي بواسطة بعض تجار الفرنج فكانت من نوع الفرقاطة والقرويت والابريق على مثال السفينتين اللتين اهديتا اليه من السلطان

وكان في الاسكندرية دار صناعة قديمة تبني بها بعض السفن من طراز قديم وجعل شاكر افندي الاسكندري رئيساً للهندسة فيها وضمَّ اليه رجلاً عرف ببراعته في فن بناء السفن وكانوا من مشهوري

المعلمين بالاسكندرية يسمى الحاج عمر فجعله محمد علي رئيساً للانشاء وعمارة السفن وجعل الحاج احمد اغا ناظراً على بناء السفن . ولما حضر المسيو بيسون Besson وكان من ضباط السفن الحربية الفرنسية الى مصر في سنة ١٨٢١ وعرض خدمته على محمد علي جعله ملاحظاً للسفن التي امر بصنعها في دور صناعات السفن بأوربا . وقد حاز ثقة الباشا (محمد علي) وارتقى حتى انعم عليه برتبة البكوية وعرف بالفيس اميرال بيسون بك (اعني نائب امير البحر) . وأوجد ادارة خاصة للاساطيل المصرية وجعل صهره محرم بك محافظ الاسكندرية رئيسها مع احتفاظه بعمله كمحافظ

واشترى محمد علي عدة سفن شراعية لنقل الذخائر والمهمات كانت تجلب الاخشاب اللازمة لدار الصناعة الجديدة بالاسكندرية وقد كانت على الشاطىء الشرقي من الميناء الغربية جهة خط الصيادين بالاسكندرية . وجعل بها معامل للحدادة والنجارة والقلفطة وغير ذلك مما تحتاج اليهِ السفن الحربية . وكانت تلك السفن الشراعية تجلب الاخشاب اللازمة من سواحل بلاد الاناضول

وقد اشتركت السفن التي انشأها محمد علي في الاسكندرية مع السفن التي أمر بانشائها في دور صناعة السفن باوروبا أو التي اشتراها والسفينتين اللتين اهديتا اليهِ من السلطان في وقعة نافارين ببلاد موره باليونان في يوم ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧ م

ويرى صاحب السمو الامير العلامة عمر طوسون الذي يعنى عناية خاصة بأعمال جده الكبير ان السفن الحربية التي اشتركت في تلك المعركة كانت اربعاً وثلاثين قطعة غير سفن النقل التي بلغت اربعاً واربعين ، وقد عرف الامير الجليل من سفن محمد علي الحربية قبل موقعة نافارين اسماء خمس فرقاطات وهي

(١) شير جهاد (٢) رشيد (٣) ثريا (٤) احسانيه (٥) جهادية وستة قراويت وغولتات هي :
١ — بلنك جهاد — ٢ رهبر جهاد — ٣ نافارين — ٤ جيلان — ٥ وشنطن — ٦ تمساح

وقد سمي امين باشا سامي في كتابه تقويم النيل ج ٢ اثنتين من الفرقاطات المذكورة باسم سوريا والحربية بدلاً من ثريا وجهادية

ولا يسعنا الاّ شكر سموه أجزل الشكر على هذا البحث القيم وعلى الصور التي سمح لنا بنقل نسخ منها لبحثنا هذا كما توجد بعض الصور لفرقاطات محمد علي الاولى في كتاب (فرقاطات محمد علي الاولى من سنة ١٨٢٤ — سنة ١٨٢٧ لجورج دوين

Les Premières Fregates de Mohamed Aly 1824–1827 par Georges Douin

فليرجع اليهِ من يريد

ولما كانت موقعة نافارين البحرية من الشهرة التاريخية بمكان فقد رأينا أن نتكلم عليها قبل انتقالنا الى الدور الثاني من الكلام على البحرية والاسطول المصري أيام محمد علي وموعدنا العدد التالي ان شاء الله

هي الدنيا

للشاعر رشيد ايوب

بكتكَ عيون السحابْ   اذا ادمعي لم تفي
ربيعي بشرخ الشبابْ   اذ الحب لم ينطفي
وقلبيَ كالموقدِ

ويا صيفَ عمري اذا   ذكرتُ زمان الصفا
اقول عداك الاذى   عفا الله عما عفا
وعمّا جَنَتْهُ يدي

وانت زمان الخريفْ   فياحزن روحي عليكْ
مشيت بقلبي الضعيف   بما قد تبقّى لديكْ
من الامس نحو الغدِ

وجاء زمان الشتا   وهبّت رياح الشمالْ
فقلت لنفسي متى   يحطُّ الغريبُ الرحالْ
ويمضي الى المرقدِ

حمامة وادي الغرامْ   بحقّ الحسان الملاحْ
قفي فوق تلك الخيامْ   وصيحي المعنّى استراحْ
وراح بلا موعدِ

أورقاء فوق الغصونْ   بجمرتها تصطلي
انا قد برتني السنونْ   وامسيت في معزلِ
ولا جمر في موقدي

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الدمياطي

اجتمع لي طائفة من أسماء المفردات النباتية وحررت ما يقابلها في بعض اللغات الاجنبية لترتيبها في معجم والآن عنّ لي أن أنشرها تباعاً في مجلة المقتطف الغراء في بيان موجز أذكر فيه المفرد ووصفه وموطنه واستعماله مشيراً الى بعض فوائده في الزراعة أو الصناعة أو التغذية أو الطب عسى أن يكون في ذلك بعض الفائدة — الدمياطي

شجر النَّارَنْج

بفتح الراء وكسرها فارسيته (نَارَنْك) ولعلّ أصله مشتق من السنسكريتية (نَاجْرَنْجا) (Nagrunga) وبالهندية (نَارَنجي) (Narungee) تتفرع شجرته اقل من شجرة البرتقان كثيراً. وفروعها الصغيرة خضراء اللون فاتحة. ولأوراقها ذنيبات (اعناق) للواحد منها جناحان متميزان اكبر كثيراً منهما في ورقة البرتقان. وكذلك أزهارها بيض اكبر واذكى رائحة. وثمرتها في حجم البرتقانة الا ان سطحها اكثر خشونة ولونه اصفر برتقاني يكون فاقعاً عند النضج. ولبها ذو عصارة حامضة مرّة مقسوم الى ١٢ فصًّا أو ١٤

اسمه العلمي (Citrus aurantium, L., Var. Bigaradia, or amara, L.) (سيتروس اورانشيوم بيغاراديا او أمارا) او (Citrus vulgaris) (سيتروس ولغارس) وفصيلته السذابية (Rutaceae) (روتاسيه) وبالانجليزية (Marmalade, Sour, Bitter, or Seville Orange) وبالفرنسية (Bigaradier, ou Oranger amer)

قيل موطنه القديم جبال هيالايا بالهند واصبح الآن يغرس في جميع المناطق الحارة وجنوب اوربا وجزائر آسورة بالمحيط الاطلنطي وجزائر الهند الغربية ومصر والشام والسودان وغيرها من اجل ثماره وأزهاره واوراقه. اما ثماره فيصنع منها نوع من المربى والطريقة في ذلك ان يبتدأ بتقطيع النارنجات الناضجة الى انصاف ثم الى ارباع وتنزع ألباب الارباع وبذورها وترمى ثم تقطع القشور الى شرائح رفيعة وتنقع في المـاء اربعاً وعشرين ساعة وبعدئذٍ تغلى في ماء جديد بمقدار ثلاثة ارطال وربع من الماء لكل رطل من النارنجات حتى يصير لونها اصفر كالكهرمان ثم تغلى

ثانية مع سكر مقداره ثلاثة ارطال عشرين دقيقة اخرى ويستمر في غليها حتى تصير قلوذجية فتكون مربى النارنج . وبعبارة اخرى يؤخذ لكل رطل من النارنجات ثلاثة ارطال وربع من الماء وثلاثة ارطال من السكر . وقد يصنع من القشور نوع من الحلوى محفظ مسكّرة . ويسمى العنصر المرّ في قشر النارنج (هسبريدين) (Hesperidine) وفي بذوره (ليمونين) (Limonin)

وشجر النارنج يحصل من زهره الابيض الطيب الرائحة بالتقطير على زيت طيار ذكي الرائحة جداً يسمى (زيت نيرولي) (Neroli Oil) يدخل في صنع الروائح العطرية الثمينة وكثيراً ما يحصل عليه في جنوب فرنسا من زهر النارنج والبرتقان معاً فيكون بنسبة نصف جرام الى جرام واحد من الزيت من كل كيلوجرام من الزهر . وقد قدّر بعضهم ما ينتج من الفدان من زهر النارنج في بعض البلدان بخمسين جنيهاً وهو ربح وفير

ويستقطر من الاوراق والاغصان والثمار الفجّة الصغيرة زيت طيار آخر يسمى (زيت بتيجران) (Petitgrain Oil) يدخل في الروائح العطرية قيل اجوده يأتي من باراغواي بأمريقة الجنوبية

ويستقطر من الأزهار كذلك ماء الزهر المعروف وهو هاضم للطعام مضاد للتشنج والصداع هذا الى ان منقوع الاوراق مع اوراق البرتقان دواء مسكّن معروف في الطب . والنارنج بالنسبة الى ثماره ثلاثة اصناف :

١ — (النارنج العادي) والنارنجة منهُ كبيرة عصارية مرّة ولونها اصفر برتقاني فاقع وهو الذي يربّب عادةً

٢ — (النارنج الورديّ) وسطح النارنجة منهُ متألل بلا نظام وهو نادر في مصر

٣ — (النارنج الحلو) شجرته كبيرة والنارنجة منه اصغر منها في العادي ويمتاز بعدم حموضة لبه بل بحلاوته في مرارة وبوفرة عصارته . قيل إنهُ كان في حديقة احمد طوسون باشا ابن محمد علي باشا بشبرا فكان يسمى (النارنج الطوسوني) وسمي ايضاً (بالنارنج اليوسفي) نسبةً الى يوسف افندي الذي كان محافظاً لرشيد على عهد المرحوم محمد علي باشا وصار بعد ذلك امين نزل في جزيرة كريد مع العساكر المصرية

شجر البرغموت

صنف من النارنج اوراقه شبيهة بأوراق الليمون ولهذا يقال لهُ في مصر (ليمون الجرجون) ورقتهُ مستطيلة قمتها حادة او منفرجة حافتها مسننة قد يكون لذنيبها جناحان . وأزهار البرغموت صغيرة ذكية الرائحة جداً . وثمرتهُ في شكل الكمثرى مستديرة من قمتها ضيقة من قاعدتها طولها تسعة سنتيمترات وعرضها سبعة تقريباً مقعرة عند اتصالها بالغصن . قشرتها رفيعة ملساء او محببة سطحها اصفر اللون لامع . لبها ابيض تقريباً رائحته ذكية جداً وطعمهُ حمضي قليلاً

اسمهُ العلمي (.Citrus aurantium, L., var. Bergamia, Risso) (سيتروس اورانشيوم برغاميا) من فصيلة النارنج واسمهُ بالانكليزية (Bergamot) وبالفرنسية (Bergamotier)

موطنهُ الصين وهو نادر في مصر وكثيراً ما يزرع بكلاريا في جنوب ايطاليا . اما ثماره فيستقطر من قشورها زيت طيار ذكي الرائحة ثمين يقال له (زيت البرغموت) (Bergamot Oil) يدخل في تركيب الروائح العطرية جاء في بعض المراجع انهُ يحصل على ثلاثين اوقية منهُ من كل الف ثمرة وان ثمن هذا المقدار من الزيت جنيه ونصف الى جنيهين بحسب درجة نقاوته

هذا وقد يستخرج من الأزهار زيت آخر ايضاً له استعمالات كالسابق

وهناك صنف آخر من هذا الشجر مشهور بزيت أزهاره الذكي الرائحة جداً وارتفاع ثمنه وهذا الصنف يسمى بالفرنسية (بيغارديه) (Bigardier) قيل إنه يستقطر جراماً فقط من هذا الزيت من كل كيلو جرام من الزهر وان ثمن الرطل منه يتراوح بين ١٢ و١٨ جنيهاً

شجر البُرْتُقان

أو (البُرْتُقال) او (النَّارَنْج الحلو) وفي الشام (البُرْدُقان) قيل إنهُ مشتق من التركية (پورتقال) او (پورتوقال) او أنهُ نسبة للبورتغاليين الذين نشروه بين الناس بعد سياحاتهم الكثيرة إلى بلاد الهند موطنهُ الاصلي فقد سماهُ فورسكال[1] (نارنج البرتغال) ويسميه الاسبان الى الآن نَارَانْجا (Naranja) ومازال اهالي نيقوسيه عاصمة قبرص يسمونهُ (پورتغالي)

ترتفع شجرته من ٨ اقدام الى ١٢ قدماً أوراقها مستطيلة خضراء اللون قاتمة. وأزهارها تنبثق على الاغصان فرادى او مجتمعة بتلاتها (وريقات التويج فيها) بيض ثخينة كثيرة الغدد الزيتية المصفرة وثمرتها البرتقانة المعروفة سطحها اصفر واليهِ تنسب الصفرة البرتقانية ولبها حلو سكّري مقسوم الى ٨ فصوص أو ١٠

اسمهُ العلمي (.Citrus Aurantium, L., Var. sinensis, Gall. Citr, or dulcis Volk) (سيتروس اورانشيوم سينِنسيس او دولسيس) وفصيلته السذابية (Rutaceae) (روتاسية) وبالانجليزية (Common, or Sweet Orange) وبالفرنسية (Oranger)

موطنهُ قديماً في الجنوب الشرقي من آسيا وفي رأيي في الهند الشمالية واصبح الآن يزرع في جميع المناطق الحارة وجنوب اوربا وجزائر آسورة بالمحيط الاطلنطي وجزائر الهند الغربية ومصر والشام والسودان وغيرها كما اصبحت تجارته تعود بربح وفير والبرتقان يؤكل عادةً طازجاً كفاكهة

---

(١) بيتر فورسكال (Peter Forskal) الرحالة والعالم الطبيعي السويدي عاش من سنة (١٧٣٦ — ١٧٦٣ م.) وبعد ان اتم علومه في جامعة جوتنبرج بالمانيا ارسله ملك الدانيمارك في بعثة علمية الى مصر وبلاد العرب فوضع كتاباً في نباتات مصر وبلاد العرب وتوفي في ريعان شبابه بالطاعون في يريم من بلاد اليمن

او يعتصر منهُ شراب او يتخذ منهُ نبيذ في بعض البلدان . ويحصل من قشوره بالتقطير على زيت طيار رخيص يعرف (بزيت البرتقان) يدخل في تركيب بعض الروائح العطرية الثمينة

ويحصل من أزهاره الطازجة كما في النارنج على زيت نيرولي الذي يدخل في صنع الروائح العطرية ويستقطر من اوراقهِ وثماره الصغيرة زيت طيار آخر استعماله كالسابق ويستخرج من الازهار ماء الزهر المعروف بفوائده في الطب في حالات التشنج والصداع . قيل إن الرائحة الخاصة في عسل شبه جزيرة سورنتو القريبة من نابولي بإيطاليا انما ترجع الى اغتذاء النحل من زهر البرتقان فيها

هذا وشجر البرتقان قد يكبر فيعمر طويلاً فقد جاء في بعض المراجع انهُ عمّر في قرطبة باسبانيا نحواً من ٧٠٠ سنة وان شجرة منهُ كانت معروفة باسم (جران بوربون) (Grand Bourbon) بفرساي عمرت نحواً من ٤٦٠ سنة. أما خشب البرتقان فابيض اللون يضرب الى الصفرة صفيق صلب جيد في الصقل جميل المنظر عطري الرائحة لا يفتك به السوس يصلح لنجارة بعض الاثاث ولكنهُ لا يصمد للتغيرات الجوية

وعلى الاجمال فالمنتفع بهِ من شجر البرتقان انما هي الثمار والأزهار والاوراق والخشب . وهو بالنسبة الى ثماره اصناف كثيرة اهمها :

١ — (البرتقان البلدي) في مصر شجرته قوية كثيرة الثمر وهو جيد الطعم بوجه عام

٢ — (البرتقان السكري) شجرتهُ غير شائكة وهو متوسط الحجم او كبيره قليل البذور معروف في مصر

٣ — (برتقان القديس ميخائيل) كبير الحجم قشرته رفيعة ولبه احمر قانٍ وطعمه جيد قيل في كثرة ما تنتجه شجرة واحدة منهُ إنها حملت عشرين الف برتقانة في السنة في جزائر آسورة بالمحيط الاطلنطي

٤ — (البرتقان ابو سرة) ويعتبر اجود اصناف البرتقان كبير وفي طرف قمة الواحدة منهُ نكتة شبَّهوها بالسرَّة ولبه كثير العصارة يكاد يكون بلا بذور وشجرتهُ غير شائكة تقريباً تبكر في حملها وقد انتشر في مصر حديثاً

٥ — (اليافاوي) ويقال له (الشاموتي) يمتاز بكبر البرتقانة وحجمها البيضي ولبها العصاري الكثير وبقلّة البذور فيها او عدمها

٦ — (البرتقان الاحمر) ويقال له (أبو دم) وهو متوسط الحجم ذو لب قرمزي اللون قانٍ شبيه بالدم قليل البذور شجرتهُ غير شائكة معروف بمصر

٧ — (برتقان بلنسية) صنف مستحدث شجره مشهور بطول وقت إنتاجه خلافاً للمعتاد

٨ — وثمَّ نوع من البرتقان الياباني يقال لهُ (كومكوات) (Kumquat) من الفصيلة نفسها اسمهُ العلمي (Citrus japonica, Thunb.) (سيتروس جابونيقا) ذائع في اليابان والصين ونادر

في مصر ترتفع شجيرته من متر الى مترين اوراقها صغيرة رفيعة اهليلجية الشكل مستطيلة حافاتها ذات اسنان كبيرة . وثمراتها صغيرة الواحدة منها في حجم حبة كبيرة من العنب الافرنجي المسمّى بالانكليزية (Gooseberry) أي عنب الاوز الذي هو نوع من (الريباس) (Ribes) والحبة سطحها اصفر برتقالي فاقع برّاق وقشرتها رفيعة حلوة الطعم ذات رائحة خاصة ولبها مزّ الطعم مقبول مقسوم الى خمسة فصوص

واهل اليابان والصين يزرعونهُ ويحبون اكل ثماره ذات القشور الحلوة والالباب المزّة وكثيراً ما يصنعون منها نوعاً من الحلوى المحفوظة مسكّرة او يتخذون منها مربى

شجر يوسف افندي

او (البرتقان اليوسفي) نسبةً الى رجل ارمني كان يسمى يوسف افندي ارسله المرحوم محمد علي باشا الى فرنسا لتعلم فن الزراعة الاوروبية فلما عاد في سنة ١٢٤٨ هجرية جلب معهُ صنفاً من البرتقان من مالطة غرسهُ بحديقة شبرا التي وظف بها وطعّم منهُ اصنافاً اخرى اهمها النارنج فتكاثر منه شجر يوسف افندي

وشجرة يوسف افندي ترتفع من ثلاثة امتار الى اربعة . فروعها رفيعة واوراقها رمحية الشكل ملساء برّاقة تفوح منها وهي غضة رائحة عطرية . ثمرتها كالتفاحة حجماً وشكلاً . قشرتها رفيعة وسطحها اصفر اللون يضرب الى الحمرة تنزع بسهولة . وفصوصها سهلة الانفصال طعمها حلو لذيذ

اسمهُ العلمي (Citrus nobilis Lour. Syn. Citrus deliciosa, Ten. و) (سيتروس نوبيليس او سيتروس دليسيوزا) من فصيلة البرتقان وبالانكليزية (The Mandarin) وبالفرنسية (Mandarinier) موطنه الهند الصينية والآن عمّت زراعته في الهند وفلوريدا واوربا ومصر والشام والسودان وغيرها من اجل ثماره التي تؤكل فاكهة

وهو بالنسبة الى ثمره اصناف عديدة اهمها :

١ — (اليوسفي البلدي) معروف في مصر اغلبه حلو الطعم كثير العصارة والمظنون انهُ الاصل في الاصناف المصرية

٢ — (الملكي) صنف امريكي معروف بمصر نادر كبير الحجم جيد

٣ — (الهندي) ويعرف (بالسنترا) (Suntra) نادر في مصر مشهور بحلاوة طعمه

٤ — (اليباني) ويقال له (الساتزوما او الانخوس) (Satsuma or Unchus) كبير الحجم يكاد يكون بلا بذور وينشأ على اغصان شجره في شكل عناقيد كبيرة وهو نادر في مصر

٥ — (السيلاني) ويعرف (بالنازناران) (Nas-naran) في جزيرة سيلان الثمرة منه صغيرة الحجم أو متوسطته ولها طعم عطري خاص

قناة السويس

مكانتها من الناحية الاستراتيجية

للملازم الاول عبد الرحمن زكي

لا جدال في مكانة قناة السويس كحلقة اتصال بين اوربا وآسيا فهي أقصر طريق يصل بين الممتلكات البريطانية في الشرق وبريطانيا . وقد قال بسمارك (Bismark) انها « كالعامود الفقري » . وعلاوة على ذلك فالقناة أهم العوامل الرئيسية في تشكيل سياسة بريطانيا الخارجية وتسلطها عليها يفسر ما للانجليز من مكانة متفوقة في الشؤون العالمية

ولتقدير قيمة تمسك الانجليز بالقناة يجب ان لا يغيب عن بالنا ذلك المبدأ الاساسي لسياسة بريطانيا الخارجية وهو المحافظة والعمل على توسيع الامبراطورية . فالهند تعد العقد الاساسي في الامبراطورية فاذا اطمأنت انجلترا الى سيادتها هناك فان همها الاول ينحصر في حراستها وتأمينها بجميع الوسائل الممكنة . وقد عرفت كيف تستفيد من قوتها البحرية فوضعت يدها على جميع المواقع الاستراتيجية الحيوية في طريق مواصلاتها التي تربط المحيطين الاطلانطي والهندي واستحوذت على مستعمرة الكاب من الهولنديين عام ١٨٠٦ فضمنت سيادتها على طريق الكاب ثم وضعت يدها على جبل طارق مفتاح البحر المتوسط (١٧٠٤) ثم على مالطة عام (١٨٠٠) وقبرص (١٨٧٨) وباستيلائها على عدن (١٨٣٩) وجزيرة بريم (١٨٤٧) والصومال الشمالي (١٨٨٤ — ٨٦) وسوقطرا (١٨٨٦) حولت البحر الاحمر الى بحيرة انجليزية . واخيراً ساد نفوذها على مصر فضمت آخر حلقة من حلقات المواقع العسكرية (١٨٨٢) وبذلك ضمنت بريطانيا سيادتها على الطريقين السلطانيين العظيمين الى الشرق وهما قناة السويس والكاب

وقد وجهت حملة نابليون الى مصر عام ١٧٩٨ انظار انجلترا الى ما لموقع مصر من المقام الاستراتيجي كمركز هام للدفاع عن الهند فاتبعت سياسة الاحتفاظ بالامبراطورية العثمانية وعدم الاضرار بها وتوثيق الصلة بين السلطان العثماني والوالي المصري . وكان اهم اسباب تلك السياسة خوف انجلترا من الروسيا لكي لا تضع يدها على تركيا وترسخ قدمها في البحر المتوسط فتسيطر على العالم الاسلامي وتعرض طريق المواصلات الى الهند للخطر . فتلك هذه الاعتبارات الامبراطورية حملت انجلترا على مقاومة النفوذ الفرنسي في مصر واقتنع رجال السياسة البريطانيون بان استقلال سياسة الامبراطورية العثمانية وسلامة أراضيها أمر حيوي لا مندوحة عنه لسلامة الاملاك الانجليزية في الشرق

وبينما كانت انجلترا تبذل كل نفوذها لعرقلة مشروع شق قناة السويس كانت قد صممت أن لا تدع أية فرصة لاية دولة لاسيما فرنسا أن يكون لها المقام الاول في البلاد المصرية . فحماية الهند

كما قلنا تقتضي ان تكون جميع المنافذ الموصلة اليها في أيد انجليزية . ولما تسلم « فردنان دلسبس » امتياز القناة ظلت معارضة انجلترا لها قوية واستمرت في خطة المقاومة اثني عشر عاماً . وبالرغم من كل مساعيها في تلك الناحية تم شق القناة وواجهت بريطانيا الامر الواقع فوجدت في انشائها ما لا يطاق لموقعها . . . ممر سلطاني أقصر ما يؤدي الى امبراطورية الهند يقع في قبضة اجنبية ومصدر ازعاج لرجال الامبراطورية كما وجد رجال ملاحتها غضاضة لا تريحهم في العمل مع شركة فرنسية وهم الذين يقبضون على نواصي الحركة التجارية وكان عليهم ان يدفعوا ضرائب المرور الثقيلة ويتبعوا تعليمات شركة القناة وينفذوها بكل دقة

ومن هنا نشأت الحماسة لشراء اسهم الخديو اسماعيل باشا ليكون لانجلترا صوت مسموع في ادارة القناة . وعلى الرغم من انها أصبحت أكبر مساهم فيها لم تخضع القناة لمراقبتها بل استمرت الادارة فرنسية كما استمر النفوذ الفرنسي في مصر قويًّا . لكن انجلترا استطاعت بعد أعوام قليلة الإنتفاع بنمو الحركة العرابية في مصر فوضعت يدها بلباقة على أهم موقع جغرافي في العالم وضمنت مراقبة القناة الفعلية . ولما أصبح لانجلترا النفوذ السامي في مصر اتبعت سياسة أخرى تجاه الباب العالي . فقد كانت فيما قبل راغبة في المحافظة على « الرجل المريض » وهو مشرف على الموت . اما اليوم فعادت لا تعبأ بِهِ لأنها نالت مآربها ولم تر في بقاء تركيا ضماناً ضروريًّا لحماية الهند وغدت السياسة الانجليزية ترى أنهُ من مصلحتها فك الصلة التي تربط السلطان بالخديو ورمت الى اكتساح نفوذه نهائيًّا

وكانت انجلترا قد خطت الخطوة الاولى في هذا السبيل بتأييد تلك السياسة فمنعت الباب العالي من ارساله تجريدة عسكرية لاخماد الثورة العرابية عام ١٨٨٢ وتظاهرت بأنها ستؤدي تلك المهمة بقواتها الانجليزية وتثبت عرش الخديو ثم جاءت حملة استرجاع السودان عام ١٨٩٨ فلم تظهر في الميادين العسكرية سوى الجنود المصرية والانجليزية وتمت الاتفاقية المصرية الانجليزية في يناير ١٨٩٩ وكأن تركيا لم يكن لها دخل مطلقاً ! فكانت هذه الاعمال دلائل قوية على ان انجلترا حلت محل تركيا في نفوذها بمصر . ثم كان المسلك الشاذ الذي اتبعته انجلترا في مسألة حادث العقبة عام ١٩٠٦ ودلت نتائجهُ على ان انجلترا قد أصبحت صاحبة الكلمة العليا في مصر

أهمية موقع مصر

كانت لمصر مكانة استراتيجية خلال كل العصور التي مرت بها ولقد قال نابليون ذات مرة أن من يكون صاحب مصر يكون سيد الهند . وكانت حملته على مصر عام ١٧٩٨ تهديداً لا يمكن لانجلترا ان تنساه . ولما شقت القناة أصبحت مصر بحكم الطبع ذات أهمية عظمى لانجلترا وأصبح واضحاً جدًّا ان الدولة التي تسيطر على مصر لا بدَّ لها من ان تسيطر على القناة أيضاً . وذكر « أدوارد ديسي » (Edward Dicey) ان مصر من ضروريات الامبراطورية التي لا غنى عنها » قال ذلك في عام

١٨٧٧ قبل الاحتلال البريطاني . « فاذا أصبحت للانجليز اليد المطلقة في مصر فالواجب يقضي بأن تكون لها مكانة ممتازة بين البحر الاحمر وحدود الهند . فاذا تم لبريطانيا تقوية مركزها العسكري في مصر استطاعت ان تصد اي هجوم يوجه الى الهند من وادي الفرات . والشيء الوحيد الضروري لانجلترا هو ضمان حرية الملاحة في القناة » وقال كاتب انجليزي آخر « ان مصر هي مرتكز المتلة لسياستنا الخارجية فهي في منتصف الطريق من الناحيتين السياسية والبحرية الاستراتيجية وبين امبراطوريتنا الشرقية والغربية فهي نقطة التوازن التي توفق بين علاقاتنا الخارجية وممتلكاتنا الامبراطورية » . ولذلك نجد في مصر انهُ من أسهل الامور إرباك الحالة السياسية او تأمينها فاذا تحققنا من مقام انجلترا في توزيع التجارة الشرقية استطعنا ان ندرك لماذا حاولت الوصول الى حفظ القناة بعيدة عن حرية تدخل الدول في تسيير دفتها ولماذا سمت السنين الطوال وجاهدت من دون كلل جهاداً سياسيًا وعسكريًا وأدبيًا واقتصاديًا لتسود القناة من جميع النواحي . ولم يرض اصحاب النظرية الامبراطورية بأقل من الرقابة الفعلية عليها »

وذكر « ديسي » في مقام آخر ان: « فكرة الحياد لا تتفق مطلقاً مع حاجاتنا فأي تأويل مبهم لتلك الكلمة يضعنا في مركز يزداد سوءًا . فالضمانات الدولية مهما تعني قيمتها ليست كفيلة بتأمين صلاتنا الحرة مع الهند او بعبارة اخرى لضمان امبراطوريتنا . ولما كانت الطريق الى الهند بفضل القناة تقع خلال شبه جزيرة سيناء ، ولما كان المتسلط على شبه الجزيرة يتحكم في القناة وجب علينا لطمأنينتنا ان نضم ايدينا على شبه الجزيرة . فنحن نرى انفسنا بين عاملين اما ان نرى طريقنا الى الهند مهدداً في زمن الحرب وإما ان نحتل مصر . ومن هذه الورطة لا ارى مفرًا »(١)

وبانتهاء القناة اصبحت الطريق الرئيسي الى الهند فكان ضروريًا ان ترغب انجلترا في مراقبتها وجاء منطق التاريخ بجمل هذه الحقيقة واضحة وبموجب هذه النظرية دافع ديسي في كتاباته فقال: يجب علينا بكل الوسائل ومن جميع النواحي ان نعمل على وضع القنال تحت ايدينا . وهذا هو الغرض الحقيقي الذي نسعى اليه ويجب ان تكون قاعدة كل مفاوضة في المستقبل مصممة على هذا المبدأ . لقد حكم القضاء بأن تكون انجلترا سيدة القنال كما اصبحت سيدة مصر . وضد القضاء المحتم يضيع سدى كل ما تعمله الآلهة والبشر سواء اكانوا في السويس ام كانوا في بناما (٢)

عقب ذلك اثيرت في انجلترا مسألة القناة من ناحية حيويتها للمحافظة على الامبراطورية وفي عام ١٨٧٧ تساءل غلادستون (Gladstone) ماذا عسى ان تكون النتيجة لو وقفت انجلترا مساعيها تجاه القناة . فكان الرد عليه بأن الضربة تكون قاضية لما يصيبها من التأثير في التجارة والرخاء

---

(١) مجلة القرن التاسع عشر يونيو ١٨٧٧ . مجلد ١ صحيفة ٦٨٤ (٢) مجلة القرن التاسع عشر اغسطس ١٨٨٣ مجلد ١٤ صحيفة ٢٠٥ من مقال بعنوان «لماذا لا نشتري قناة السويس؟»

والرفاهية العالمية . فنحن أعظم ناقلي المتاجر وأول امة تجارية في العالم المسيحي وسنكون في مقدمة الخاسرين

وكان من رأي « السر شارلز دلك » (Sir Charles Dilke) ان القناة تكون غير مأمونة في حالة اعلان الحرب ضد دولة بحرية كبيرة . فالقناة كسبيل من سبل المواصلات في زمن الحرب تصبح واهية كخيط العنكبوت فان سفينة او سفينتين تغرقان فيها او مقداراً من الديناميت ينفجر فيها بالقرب من خليج السويس او بعض طوربيدات تكمن في اثناء الليل تكفي لسدّها . وثمة غير هذا من المراقيل البحرية التي يسهل ارتكابها . كل هذه تساعد سد المرور خلال القنال وتحرم السفن من اجتيازه مدة ايام او اسابيع وتمنع النقل بواسطة البحر المتوسط باستثناء الجنود من دون عتادهم الحربي ويكون من الصعب جدًّا المحافظة على حرية الملاحة في القناة حتى لو كانت داخل حدود الامبراطورية البريطانية . كما ان واجب حراسة القناة يستلزم تخصيص قوة كبيرة من الجنود لحمايتها ومراقبة المنافذ المؤدية اليها بواسطة جزء كبير من الاسطول . لكننا لا نملك حقوقاً خاصة تتعلق بالقناة وليست لنا قوة تمنع عنها العدد الضخم من السفن التجارية التي تتعمد اغراق نفسها في منتصف القناة » [١]

قال المؤلف الانجليزي جورج هوبر (G. Hooper) في مقال نشره في مجلة الخدمة المتحدة عام ١٨٩٠ ان القناة غيرت الموقف البريطاني الى ما هو أسوأ حالاً فقد سمحت لدول ثانوية أخرى بالذهاب الى الهند بسهولة وكانت الاحوال الى قبيل انشائها تجعل للانجليز سيادة لا نزاع فيها في تجارة الشرق . . . وقناة السويس أصبحت اليوم من اسباب النضال العنيف . ونحن اليوم اذا رأينا فردنان دلسبس تشمخ من تمثاله حالة المجد التي تعترف بنبوغه وتفوقه فأننا نراه ايضاً كمعبود اقيم لتفرقة البشر . ولقد انشئت القناة ضد رغبة انجلترا وصممت في الاصل لكيدها ولطعنها في صميمها . ومن المحتمل جدًّا انها كانت انتقاماً فعّالاً من معركة واترلو نجح نابليون الثالث في توقيعه

ولم يتفق الكابتن ماهان Capt. Mahan مع من قالوا بالتخلي عن طريق القناة لعدم تأمينه في زمن الحرب لانهُ مع كل ما يلحق بالقناة حتى ولو انتهى الامر الى ردمها لا يغير سير الاحوال الطبيعية التي جعلت لمصر مركزاً استراتيجيًّا للممر الرئيسي بين الشرق والغرب وهو يعتقد انهُ من الخطأ الشنيع ان تسحب انجلترا يدها من مصر

ان موقع مصر العسكري ليس لهُ مثيل في توسطه فركزها يسمح بحشد اكبر عدد من القوات العسكرية لتوزيعها الى اي مكان في حالتي الدفاع والهجوم ومنها تحوَّل الى جبل طارق والهند . ومصر ملتقى لاستقبال المواد من جميع الموارد فلا تستطيع بحرية أية دولة ان تعارضها وتقطع عليها خط الرجعة . وهذه الموارد اذا لم نبالغ في عددها قلنا انها تجيء من ميدانين او ناحيتين

(١) كتاب مشكلات بريطانيا العظمى Problems of Great Britain لندن عام ١٨٩٠ ص ٦٥٧ — ٦٥٨

هما طريق البحر الاحمر والبحر المتوسط . فأي اسطول يمكنهُ الجمع بين الاثنين ؟ واذا امكن عرقلة طريق البحر المتوسط بقيت طريق البحر الاحمر اقصر السبل الى الهند واستراليا والكاب وموارد تلك البلاد تكفيها بل تزيد على ما تتطلبه وتستطيع الثبات مدة طويلة بينما يكون البحر المتوسط مقفولاً ولا ننسى ان لبريطانيا طريقاً آخر هو طريق الكاب رغماً عن طوله . وعلى كل حال فالمواصلات تبقى مستمرة كما هي . وهي خطة تقضي بها السياسة الاستراتيجية في حالة الدفاع فقط وليست في حالة الهجوم . والحل الوحيد لانقاذ الموقف لدولة تضع يديها على مالطة وجبل طارق ان تسيطر بقواتها على مصر وتعزز مركزها فيها . وهناك في الهند واستراليا والكاب تؤسس مصادر للامدادات الضرورية

وسواء أكانت القناة حيوية ام غير حيوية لانجلترا فهذه ترى ضرورة السيطرة عليها لمنع كل دولة من عرقلة مواصلاتها الى الشرق . وقد كانت روسيا زمناً طويلاً اكبر مهدد لانجلترا في الهند . ونحن نذكر لها محاولاتها العنيفة في الشرق الادنى ومساعيها لكسب ميناء تطل على البحر المتوسط ولفتح المضيقين (البسفور والدردنيل) لسفنها الحربية وتدخلها في شئون البلقان ومطامعها في الحبشة . كل هذه الامور اثارت ظنون انجلترا وشبهتها وخوفها . فانهُ بعد فتح القناة بدأت روسيا تهتم بشئون الحبشة ورغبت في تحويلها لحمايتها لتعارض بها سيادة بريطانيا على الطريق البحري نحو الشرق ولتعمل على مقاومة نفوذها لكي تجعلها قاعدة استراتيجية لها في حالة نشوب حرب بينها وانجلترا

وفي اثناء الحرب التركية الروسية (١٨٧٧ — ٧٨) حذر لورد دربي (Derby) الروسيا ضد أي هجوم تحاول القيام بهِ على قناة السويس وارسلت بريطانيا اسطولاً انجليزياً الى الاستانة . وفي يونيو ١٨٧٨ وضعت انجلترا قدميها في قبرص وهي اقرب جزر البحر المتوسط للقناة وجعلتها قاعدة للعمليات الحربية في شرق البحر المتوسط . وظلت مسألة المضيقين سنين طويلة من أهم عوامل الشقاق والمنافسة بين الانجليز والروس ولكي تظل انجلترا صاحبة النفوذ في حماية القناة والملاحة في البحر المتوسط بقيت تقاوم كل محاولة تبذلها روسيا في سبيل السماح لها بمرور السفن الحربية من المضيقين . وهذا يفضي بنا الى عام ١٩٠٢ لما حصلت الروسيا من السلطان على الاذن بمرور أربعة سفن طوربيد من الدردنيل والبوسفور للانضمام الى اسطول البحر الاسود فخشيت انجلترا هذا المبدأ . وفي يناير التالي قدم « السر . ن . أوكنور » مذكرة للباب العالي بطلب الحق في الحصول على نفس الامتياز لمرور السفن الحربية الانجليزية اذا اقتضت الاحوال

وفي عام ١٨٨٨ تألفت شركة المانية تحت اشراف « البنك الالماني » واشترت من الانجليز خط السكة الحديدية الممتدة من حيدر باشا الى ازميت ثم تولّت فيما بعد باسم شركة سكة حديد الاناضول انشاء فرع الى انقره . ولم تمض عشر سنوات حتى انتهى الالمان من مد ما يقرب من الالف كيلو

متر من الخطوط الحديدية داخل تركية الامبراطورية. وفي مارس ١٩٠٣ تسلّم البنك الالماني امتيازاً آخر لانشاء خط فرعي يصل بين قونيه والخليج الفارسي . وهذا المشروع الذي عرف باسم سكة حديد بغداد وضع الاستعماريون الالمان فيه املهم لاحياء الامبراطورية العثمانية اقتصاديًّا وسياسيًّا وعسكريًّا وبذلك تحدت سكة حديد بغداد سيادة انجلترا في الشرق واصبحت اسرع وسيلة للنقل الاوربي تنافس بها مناقسة جدية الحركة التجارية في قناة السويس. وبحصول الالمان على منفذ بحري مطل على الخليج الفارسي يستطيعون تهديد المصالح البريطانية في تلك الجهة. ويستطيع ذلك الخط ان يتصل فيما بعد بسكة حديد سوريا والحجاز فتتهدد مواصلات الامبراطورية وتوقع بها اضراراً جسيمة. لكن لم تخف على انجلترا نتائج النيّات الالمانية فاستطاعت عام ١٨٩٩ الاتفاق مع أمير الكويت على ان لا يعقد أية اتفاقات دولية بدون موافقة المستشار البريطاني المقيم . وكان لذلك العمل نتيجة سريعة في احباط المشروع الالماني لمد الخط الى الخليج الفارسيّ

وقد ادرك كبار الكتاب الالمان ما لسكة حديد بغداد من المكانة الاستراتيجية وكان من اشد المتحمسين لها الدكتور بول روهرباخ (Dr. Paul Rohrbach) الذي اشار مراراً خلال كتاباته الى الاخطار التي تلحق بالامبراطورية الانكليزية بسببها وكان مما ذكره انه يمكن مهاجمة انكلترا واصابتها بطعنة نجلاء في البر من اوربا في مكان واحد وهو مصر . وليس معنى خسارة مصر ان تختتم سيادتها على قناة السويس وانهاء سيطرتها على مواصلاتها الى الهند والشرق الاقصى فقط بل من المحتمل اصابتها ايضاً او فقدها لمستعمراتها بأفريقيا الوسطى والشرقية . وان غزو مصر بقوة اسلامية كتركيا مثلاً كان يؤذي المصالح الانكليزية ويعرض سيادتها على الستين مليوناً من المسلمين في الهند للزوال. ولقد اشار اللورد كرومر الى خطر هجوم يقوم به الاتراك على القناة ومصر من ناحية شبه جزيرة سينا وذلك منذ عام ١٩٠٦ عقب جفاء العلاقات السياسية بين بريطانيا وتركيا بسبب حادث الحدود . ومنذ ذلك الحين بدأ اهتمام هيئة اركان حرب الدفاع في بريطانيا بتلك الاعتبارات المهمة ودرس العسكريون خطط الدفاع عن القناة متوقعين كل الاحتمالات وقد رأينا كيف حشدت بريطانيا قواتها في اثناء الحرب العظمى دفاعاً عن القناة لصد هجوم الاتراك والالمان عليها حتى لا تشل مواصلاتها المستمرة مع الهند واستراليا وزيلندا الجديدة واتقت بذلك الضربة التي وجهت اليها

وبانتهاء الحرب العظمى ماتت فكرة الهجوم من تلك الناحية الصحراوية ولم يعد هناك ما يخيف انجلترا بما اصبح لها من النفوذ العسكري وبما انشأته من المطارات في العراق وفلسطين وشرق الاردن حتى العقبة

وهناك كثيرون يقولون أنه من المحال تدمير قوة انجلترا في حرب واحدة . ولكن قد يكون من الممكن تنفيذ هذا العمل في الاراضي المصرية . وان انشاء قناة السويس كان مصيبة لانجلترا وكان السياسيون الانجليز قد تنبأوا بهذا الخطر فعارضوا في شقها . ولا شك أنه اذا قدرت هزيمة

انكلترا في مصر لدوت نتائج الهزيمة من جبل طارق الى سنغافورة . واذا تدمر مفتاح العقد انهار كل البناء واندك صرح القوة الانجليزية في العالم[١]

البحر الابيض المتوسط

نرى اليوم انجلترا أقوى دول البحر المتوسط بما تحتفظ به من القوات الكبيرة في قواعدها البحرية الموزعة بين جبل طارق ومالطة وقبرص والسويس وحيفا فهي تشرف على جميع انحاء هذا البحر الذي يريد عاهل ايطاليا تسميته «بحرنا» (Nostro Mare) ولا نتناسى ان لفرنسا في ذلك البحر عدة مصالح تشرف عليها بقواعدها البحرية في قورسيقا وبيزرتا وأوران والجزائر . كما نذكر أيضاً وصايتها على سوريا . كذلك لايطاليا قواعد بحرية في جزر الدوديكانيز ورودس وجنوة ومسينا ونابولي وهي لا تقنع بمقامها الحالي . وسياستها في البحر المتوسط ترمي الى زيادة نفوذها ورفع مكانتها ليكون لها المقام الاول بين دول البحيرة الايطالية ! وكثيرون من الكتّاب الايطاليين تجد في كتاباتهم عن الدولة الايطالية الناشئة قولهم ان نصف سواحل فرنسا او اسبانيا تطل على البحر المتوسط فاذا اغلق في يوم من الايام في وجه الايطاليين باقدام انجلترا على اقفال جبل طارق والسويس استطاعت الجمهوريتان اللاتينيتان ان تعيشا ولا تهلكا لاتصالها بمياه المحيط الاطلانطي ولا تشل حركة اعمالها بأي حال من الاحوال . لكن ايطاليا وهي من دول البحر المتوسط القوية تمتد كقنطرة في عرض البحر وتطل كل شواطئها على مياهه وليست لها سواحل تمس بحاراً أخرى . فايطاليا تعتمد عليه كل الاعتماد بل وحياتها تتوقف على المقاصد الطيبة التي يضمرها للايطاليين من بأيديهم مفاتيح هذا البحر . وهي جبل طارق والسويس ومن أقاموا لهم قواعد قوية لاغراض امبراطورية ليست قومية في مالطة وقبرص مثلاً . والنتيجة المحتمة هلاك شعب تعداد سكانه ٤٣ مليوناً في شهور قلائل اذا اوصدت انجلترا منافذ البحر لتنفيذ أعمالها العدائية فتصبح ايطاليا سجينة وتمنع عنها واردات الحنطة والفحم وزيوت الوقود والحديد وجميع المواد الخام الضرورية لحياة شعب متمدن حديث

فنحن نرى اليوم مشكلة ايطاليا في البحر المتوسط معقدة كل التعقيد . وان عراكاً تظهره الأيام المقبلة لأجل السيادة فيه بين اصحاب الحق او من يدعيه امر محتمل الوقوع عاجلاً او آجلاً وسنرى انجلترا عاملة في سبيل تحقيق أغراضها الى النهاية . وقد قال السير آرثر ولرت عام ١٩٢٨ : « ان البحر المتوسط هو المركز الاستراتيجي للامبراطورية فاذا فقدنا حرية المواصلات فيه من جبل طارق الى قناة السويس تفكك العامود الفقري لسياستنا الاستعمارية »[٢]

---

(١) من مقال للدكتور بول روهرباخ بعنوان "Das grössere Deutschland" نشر في ١١ سبتمبر ١٩١٥

(٢) من كتاب "Aspects of British Foreign Policy" للسير "Arthur Willert" طبعت في نيوهافن عام ١٩٢٨ — ص ٢٢

طبيعة الحبشة الجغرافية
وصلتها بمنعتها الحربية[1]

يرى السنيور موسوليني ان ايطاليا مسوقة بالحاجة القاسرة ، اقتصادية وشعبية ، الى بسط سيطرتها السياسية على الحبشة . الاَّ انَّ ما عرف عن الاحباش وتمسكهم باستقلالهم ، يجعل كل محاولة للتوسع الايطالي متعذّرة الاَّ بعد نزاع عسكري واسع النطاق مع جيوش الامبراطور هيلاسلاسي. وقد كانت اقوى الوسائل التي اعتمد عليها الاحباش في الدفاع عن بلادهم طبيعتها الجغرافية والطبوغرافية ولا يخفى ان وسائل الحرب الحديثة قد اضعفت من شأن عوامل الاقليم والطبوغرافيا في الخطط العسكرية ، في الاحوال العادية. ولكننا كلما تعمقنا في درس النهج الذي يحتمل ان تنهجهُ الحملة الايطالية في الحبشة هالنا ما للعوامل الطبيعية من الشأن في مسيرها ومصيرها

ليس لايطاليا الاَّ قاعدتان تستطيع ان ترتكز عليهما في حملتها على الحبشة وهما مستعمرتاها الافريقيتان اي الاريترية والصومال الايطالي . فالاولى على ساحل البحر الاحمر الى الشمال من الحبشة والثانية على ساحل المحيط الهندي الى الجنوب وعلى مقربة من خط الاستواء

ففي الاريتريا حشد موسوليني الجانب الاكبر من الحملة الايطالية الافريقية ومنها شرع في محاولتهِ اكتساح الحبشة . ليس لمستعمرة الاريترية في حد ذاتها اي قيمة حقيقية من الوجهة الجغرافية . اما من الناحية الاقتصادية فمكانتها قائمة على انها تسيطر على منافذ التجارة من شمال الحبشة وهي تجارة مقدارها يسير على كل حال . ولكن مكانتها من الناحية العسكرية كبيرة لانها تجهّز الايطاليين بقاعدة للاعمال العسكرية معتدلة الجوّ ، وترسّخ اقدامهم في شمال النجد الحبشي . فاسمرا عاصمة الاريترية بلدة متوسطة على ارتفاع سبعة آلاف قدم ومتوسط حرارة جوها السنوي ستون درجة بمقياس فارنهيت (اي ١٥ درجة مئوية) ولذلك يسهل على الاوربيين ان يقطنوها . الاَّ ان ما يصدق على اسمرا لا يصدق على مرفإ مصوّع ، حيث تشتدُّ الحرارة في معظم شهور السنة . واكبر الصعاب التي يتعرَّض لها سكان الاريترية قلة الماء فيها الناشئة عن قصر فصل الامطار

اما بلاد الصومال الايطالي في الجنوب فتختلف كل الاختلاف عن مستعمرة الاريتريا . فهي جزءٌ من تلك المناطق الشبيهة بالصحراوية التي تحدق بالنجد الحبشي من ناحية الشرق ومنها بلاد الصومال البريطاني والصومال الفرنسي وسواحل الاريترية وولايات الحبشة الشرقية الشمالية والشرقية الجنوبية . ففي الصومال الايطالي لست تجد جبالاً ذات شأن . فانخفاضها وقربها من خط الاستواء

---

(١) ملخص فصل للمسيو سكتا Scaetta صاحب المباحث العلمية في شمال افريقية وقلبها وشرقها وهو الآن استاذ علم الاقليم البيولوجي Bioclimatology في جامعة بروكسل في بلاد البلجيك . وقد نشر في عدد اكتوبر من مجلة الشؤون الخارجية Foreign Affairs الربعية الاميركية

يجعلان سكناها متعذرة على البيض . وسكانها الاصليون يعيشون على الزراعة يعالجونها بأساليب ووسائل بدائية، ورعي القطعان . واصلح مقاطعاتها للزراعة واديا نهر جوبا ونهر وبي شبيلي. فهذان النهران يأتيان من النجود العالية بماء للري وتربة خصبة تسمد الارض التي ترسب فيها . فالجيش المتقدم من مقادشيو عليه ان يسلك هذين الواديين او ان يخترق منطقة جافة طولها نحو ٢٠٠ ميل قبل ان يصل الى آبار وال وال وغرلوغوبي حيث تظهر على سطح الارض المياه المتحلبة تحت الارض من النجود الشمالية . فهذه الآبار من الناحية الستراتيجية لها مكانة عظيمة جداً

***

اما النجد الحبشي ، وهو بوجهٍ عام ما كان يعلو اكثر من خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر، فهو الجانب الوحيد من بلاد الحبشة الذي يصلح لاستعمار البيض. هنا يقطن الاحباش المسيحيون المتكلمون للغة الامحرية ، المسيطرون على القبائل القاطنة في الولايات التي تحيط بهذا النجد. والنجد نفسهُ مكوّن من صخور رسوبية مرتفعة تعلوها طبقة صخرية من اصل بركاني . وثمة جبال كثيرة يبلغ ارتفاعها عشرة آلاف قدم ، وبوجهٍ خاص في الشمال ، وعدة جبال يبلغ ارتفاعها خمسة عشر الف قدم . والى الشرق ، بين النجد والبحر منخفض صحراوي من الارض يعرف بمنطقة الدناكل، وهو منطقة جافية جافة وبيئة بعض اجزائها اوطأ من سطح البحر ، ولم يفلح في اختراقهـا حتى الآن الاَّ فريقان من الرحالين الاوربيين احدهما بقيادة لودفيكو نسبت Nesbitt وقد دعاهُ « عقر الخليقة الجهنمي » . وتضيق هذه المنطقة الى الجنوب فتصبح كأنها خندق يفصل النجد الحبشي عن النجد الصومالي . فالطرف الجنوبي من هذا المنخفض اقل مناعة على الغزاة من منبسطهِ الشمالي وقد سلكتهُ غزاة « الجلا » مراراً من القرن السادس عشر حين ارادت طوائف منهم ان تغزو الحبشة . يضاف الى هذا ان النجد الصومالي لا ينخفض انخفاضاً فجائيـاً في هذه الجهة . فالعقبات الكبرى التي قد تعترض تقدم الايطاليين من هذه الناحية ، هي طول المسافة وقلة الماء ، اكثر منها طبيعة البلاد الطبوغرافية

اما في الشمال فعلى كل قائد ينوي ان يغزو الحبشة من ناحية الاريتريا ان يحسب حساب الخنادق الطبيعية التي خدَّدها نهر التاكاز وروافده في النجد الحبشي . ولما كانت هذه الروافد تعترض في اتجاهها خط التقدم العسكري ، ولما كان عمقها يزيد احياناً على نصف ميل ، فانها ولا شك تعرقل اي تغلغل عسكري في الحبشة وراء عدوه وبوجه خاص لعدم وجود جسور او طرق لعبور هذه الخنادق. فاذا شاء القائد ان يجتنب هذه الصعاب فعليه ان يوجه جيشه من شرق هذه المنطقة عن طريق ماكال ومجدلا. وهذه هي الطريق التي سلكتها حملة الجنرال نابيير Napier الانكليزي ضد الامبراطور ثيودوروس سنة ١٨٦٨

ويقسم الاحباش بلادهم ثلاث مناطق اقليمية

اولاها يسمونها «دجا» وهي تشتمل على جميع البلدان التي تعلو اكثر من ثمانية آلاف قدم عن سطح البحر . ويدخل في نطاقها جانب كبير من شمال النجد الحبشي والحاشية الشمالية من النجد الصومالي . هنا تجد قطعان البقر والغنم مراعي على مدار السنة . ولكن بعض الثقات يرتابون في هل يصلح اقليم هذه المنطقة لسكنى البيض من قلب من جنوب اوربا . ويختلف متوسط الحرارة السنوية من ٤٠ الى ٦٠ بميزان فارنهيت (٤,٤° — ١٥,٥°) بميزان سنتغراد اي ان جوّها بارد

والثانية ترتفع من ٤٨٠٠ قدم فوق سطح البحر الى ٨٠٠٠ قدم . وتعرف عندهم باسم «ويناديجا» وفيها يختلف متوسط الحرارة السنوية من ١٥,٥° الى ٢٠ درجة مئوية (سنتغراد) . هذه المنطقة المعتدلة تشتمل على جانب كبير من قلب النجد الحبشي والمناطق العليا من حوضي نهر جوبا ونهر وبي شبيلي . وفي جوانبها توجد آثار الحراج الاستوائية التي ابقي عليها بعد ان اغتالت النار والقطع معظمها . هنا تكثر الحبوب والعنب والثمار الليمونية ويقول الاحباش انهُ في الامكان جني ثلاثة محاصيل في السنة . واذاً فهذه البقعة اصلح ما تكون لسكنى الاوربيين

اما المنطقة الثالثة فيختلف ارتفاعها من ٢٨٠٠ قدم فوق سطح البحر الى ٤٨٠٠ قدم وتعرف عندهم باسم «كولا» . هنا يختلف متوسط الحرارة السنوية من ٢٠ درجة مئوية الى ٢٥ . والاحباش يرون هذه المنطقة شديدة الخصب فاذا دبرت لها اساليب الري الحديث زادت خصباً . فثمة صنف جيد من البن يزرع في اعاليها ، والقطن وقصب السكر يزرعان في مواطيها . وهي اقل صلاحاً لسكنى الاوربيين من المنطقة الثانية ولكنها في الوقت نفسه تصلح لتجهيز ايطاليا ببعض المواد التي تحتاج اليها اذا احسن تدبيرها وبوجه خاص القطن

اما المناطق التي اوطأ من المناطق الثلاث المتقدمة فشديدة الحرارة ومتوسط الحرارة السنوية هناك ٣٠ درجة مئوية . ويقطنها في الغالب قبائل رحّل مقلقة للامن ولا تهمُّ الاوربيين

***

ثم هناك اعتبار عسكري كبير الشأن . فالنجد الحبشي يرتفع احياناً الى قنن ذاهبة في الجو ، وينخفض احياناً اخرى انخفاضاً فجائيّاً الى اودية عميقة ذاهبة في جوف الارض كما قدمنا . وليس بين المرتفعات والمنخفضات سهول مّا او ان السهول قليلة وضيقة . فالنجد مضرّس تضريساً شديداً، الاَّ في منطقة بحيرة تانا ومنطقة البحيرات الى الجنوب من اديس ابابا . فلستَ تجد في النجد الحبشي اماكن يمكن ان تتخذ قواعد كبيرة لمناورات جيوش جرّارة

ومن الحقائق التي يجب على قيادة الجيش الايطالي ان تحسب لها حساباً في خططها نوع من التربة الحمراء توجد عادة في البلدان الاستوائية . وهي كثيرة في الحبشة في الاماكن التي يقلُّ ارتفاعها عن

٦٠٠٠ قدم . ففي فصل الجفاف تكون هذه التربة جافة صلبة في الظاهر ولكن اقل ضغط تحوّلها بحولها دقيقاً دقيقاً . فاذا سقط رذاذ تحوّلت الى معجون زلق كأنهُ صابون ، فيعسر السير فيها حتى مشياً . وفي هذه الحالة يتعذر على اية مركبة ان تصعد في طريق شديدة الانحدار . وان قافلة من الدبابات او سيارات النقل اذا فوجئت وهي في طريقها بهطول مطر غزير ، لتضطرّ ان تلبث في مكانها حتى ينحبس المطر وتشرق الشمس وتجفف التربة . وهذا يفسّر تعذر القيام باي اعمال حربية في الحبشة قبل سبتمبر وهو الشهر الذي ينتهي فيهِ فصل الامطار

مما تقدم من وصف الحبشة الجغرافي والطبوغرافي يستطيع القارىء ان يتصوّر الخطة العسكرية التي يجب ان يجري عليها من ينوي غزو الحبشة . فالقوة الزاحفة من سواحل المحيط الهندي ، عليها بعد ان تجتاز سواحل الصومال الايطالي واوغادن ، ان تجعل هدفها الاول احتلال الجانب الشمالي من النجد الصومالي وهو يقع في ولاية هرر . فاذا اتخذت وال وال وغرلوغوبي قاعدتين لها استطاعت ان تسلك وادي جوبا ووبي شبلي وهي كما تقدم ، تؤاتي ذلك من ناحيتي الجو والماء

فاذا فازت باحتلال هذه المنطقة مكّنها ذلك من السيطرة على فاصل النهرين الرئيسيين في الصومال الايطالي ، وعلى ذلك الجانب من نهر هواش الذي يسير في وادي الرفت ، وهو الوادي الذي تقطعهُ سكة الحديد من اديس ابابا الى جيبوتي . حتى اذا لم تحتلّ القوة الغازية سكة الحديد ، فانها تستطيع ان تسيطر عليها باحتلالها للجانب الشمالي من النجد الصومالي

***

اما الهدف الذي تتجه اليهِ القوة الزاحفة من الارتيريا فيجب ان يكون احتلال الجبال الى الشمال والشرق من بحيرة تانا . لانه مازالت هذه البلاد الوعرة في ايدي العصابات الحبشية فلا تجرؤ اية قوة على التغلغل الى قلب النجد الحبشي لئلا تتعرض مؤخرتها لهجوم العصابات . وقد يكون من العوامل العسكرية في هذه الناحية ، ان انهار الاتبرة والتكاز والنيل الازرق تنبع في هذه المنطقة ، ومياهها — وخاصة مياه النيل الازرق النابع من بحيرة تانا — متصلة اوثق اتصال بحياة مصر . فالراجح ان بريطانيا تحتفظ بسياستها التقليدية في صدد هذه المنطقة وهي منطوية في عدة معاهدات وتصريحات رسمية وقاعدتها عدم التسليم لاية دولة اوربية باقلاق السلام فيها

ولابدّ للجيش الايطالي الزاحف من شق الطرق وبناء الجسور والاّ تعذر عليهِ ان يجني فائدة ما من استعمال الدبابات والسيارات المسلحة . الاّ ان هناك صعوبة هندسية كبيرة ، ولكن التغلّب عليها غير مستحيل ، وهي وجوب نقل المواد اللازمة في بناء الجسور مسافات طويلة من ايطاليا الى مصوّع ومن مصوّع الى اسمرا الى المناطق التي يحتلها الجيش الزاحف . يضاف الى هذا ان الجسور نفسها ، والطرق الجبلية ، والمستودعات ، معرّضة دائماً للسيول تجرفها في تدفقها

وليس ثمة ما يقي منها . فعلى المهندسين العسكريين يقع معظم التبعة في نجاح الحملة او خذلانها

ولما كانت حاصلات الحبشة الزراعية لا تكاد تكفي الاحباش انفسهم ، وما يحتاجون اليه يسير بالقياس الى ما يحتاج اليه جيش اوربي ، فلا يعقل ان تستطيع القيادة الايطالية الاعتماد عليها في جانب من مؤنة الجيش. ولذلك سوف تضطر الى استيراد كل ما يحتاج اليه الجيش من الخارج وهو عمل شاق وكبير النفقة

***

يتضح مما تقدم ان تقدم الجيوش الايطالية في زحفها على الحبشة يتوقف على شق الطرق الصالحة للفرق الميكانيكية بين القواعد الحربية المتقدمة وقواعد الذخيرة والمستودعات على الساحل . لذلك يكون كل تقدم سريع من ناحية الاريتريا محفوفاً بالخطر . ومع ما جهزت به اسمرة الايطالية الافريقية من وسائل الحرب الميكانيكية ، فان فتح اي بلاد يقتضي احتلال المراكز العسكرية الهامة وتنظيم ادارتها وابقاء حاميات كبيرة فيها . فالبث في كل من هذه المراكز قبل التقدم الى غيرها يفسح المجال للمهندسين فيشقون الطرق ويرصفونها . ولا يستطيع الجيش الايطالي ان يجني الفائدة كل الفائدة من تفوقه في الاسلحة الميكانيكية الا على هذا النمط

ولا ننسى أن أحد العناصر التي تسهل زحف الجيش الايطالي او تؤخره ، مدى المقاومة التي يبذلها الاحباش وعنفها. والاحباش يفوقون خصومهم في ملاءمتهم لاحوال البلاد . ففي وسعهم ان يجتازوا مسافات شاسعة مشياً يعجز عنها البيض الاوروبيون . فهم يستطيعون ان يقطعوا مسافة تختلف من ٢٥ ميلاً الى ٤٠ ميلاً في اليوم ويمضوا في ذلك بضعة ايام متوالية . ويستعملوا صنفاً خاصًّا من البغل الاهلي يتصف بخفة الحركة والصبر والاكتفاء بيسير من الغذاء . واستعماله يمكنهم من نقل المدافع الرشاشة والمدافع الجبلية الى قمم منيعة فيعرقلون تقدم العدو باستعمالها من اعاليها

ان اساليب الحرب الميكانيكية ، ورجال المشاة المثقلة باعبائها الحديثة ، تفقد اكبر جانب من تأثيرها في مثل هذه الاحوال . اي ان القوات الغازية يجب ان تستعمل جماعات كبيرة من رجالها للتغلب على عصابات اقل منها عدداً واضعف عدة ولكنها متصفة بخفة الحركة ومعرفة البلاد . ولما كانت طبيعة البلاد الطبوغرافية ما هي ، فالراجح ان الاحباش لا يعمدون الى التجمع بل على الضد من ذلك يجدر بهم ان يعتمدوا على التفرق والتخفي والتسلل . فاذا جروا على هذه الخطة واستطاعوا ان يستدرجوا خصومهم الى الاودية والخنادق الطبيعية وهناك يمزقون شملهم . ولا ريب في انهم سيحاولون في الوقت نفسه ان يعرقلوا الصلة بين فرق العدو المتقدمة وقواعده الاساسية

ان سر نجاح الاحباش في مقدرة الامبراطور على الاحتفاظ بحرية حركة جيوشه وسرعتها . فاذا استطاع ذلك ، اضطر الايطاليون أن يهاجموا معاقل منيعة بطبيعتها . وهذا من شأنه ان

يفلّ من سورة جيش غير متعوّد الاجهاد البدني في بلاد مرتفعة . يقابل هذا انهُ اذا اتيح للعدو الزاحف ان يحتلّ بعض هذه المعاقل المنيعة، فقوّاد الاحباش يضطرون حينئذٍ ان يغامروا بطوائف كبيرة من جيوشهم لاسترجاعها ، وفي هذه الحالة لا تجدي شجاعة الاحباش كثيراً ضدّ المدافع الضخمة والرشاشة وقنابل الغاز

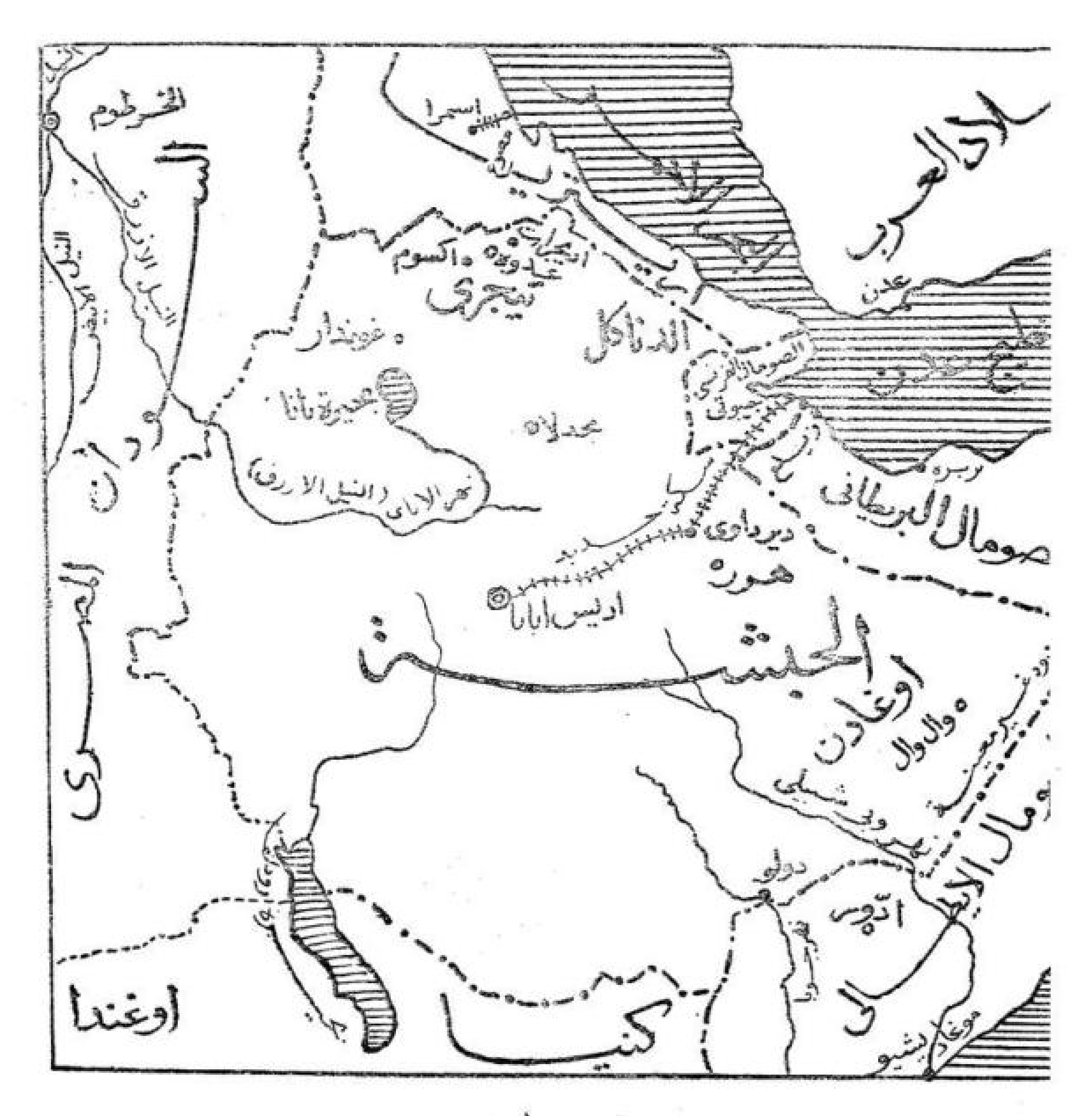
ولا ينتظر ان تجنى فائدة كبيرة من اسراب الطائرات الايطالية ، لقلة الاهداف التي تتجه اليها. فلا يحتمل ان تفاجىء جموعاً كبيرة من جيوش الاحباش لان المتوقع ان هذه الجموع لا تحتشد الاّ ليلاً . وليس هناك مدن كبيرة او مراكز آهلة تصلح ان تكون اغراضاً تتجه اليها الطائرات وتلقي عليها قنابلها . والراجح ان جلّ الفائدة التي يمكن ان تجنى من اسراب الطائرات الايطالية فائدة معنوية ، اذ قد يكون مشهد هذه العفاريت الطائرة وهي تطلق مدافعها الرشاشة مما يبعث الهلع في الجيش والشعب على السواء

نعم للطائرات فائدة كبيرة في استطلاع حركات العدو ، وقد تكون عوناً في حركة المشاة ، ولكن مدى طيرانها محدود بما يمهد لها من المطارات . وقد تجد القيادة الايطالية ان جميع هذه العوامل تقضي بالاقلال من الاعتماد على الطائرات في ادراك اغراضها . ولكن يجب ان نذكر انهُ لم تنشب حرب كبيرة بعد اتقان الطائرات الحديثة بين احوالها واحوال الحرب الايطالية الحبشية شبه ما ، ولذلك فالحكم في هذا الصدد مرهون باختبار سلاح الطيران الايطالي في الحبشة

***

ثم ان موسوليني يجب ان يحسب حساباً لطول فصل الجفاف في الحبشة لتحقيق اغراضه الاولية والنهائية، فهل ادراك الغرض النهائي وهو اخضاع الحبشة قاطبة ، مستطاع في فصل واحد؟

لقد بيّنا في ما تقدم ان الجيش الزاحف من الشمال عليهِ ان يحصن القواعد التي ترتكز عليها مواصلاتهُ مع اسمرا ومصوّع ويبقي فيها حاميات كبيرة . وان تقدّمهُ لذلك لا بدّ ان يكون بطيئاً في البدء . وان التقدم من الجنوب قد يكون اسهل منهُ في الشمال ولكن الجيش الزاحف مع ذلك يحتاج الى تأمين طرق مواصلاتهِ بعد انشائها . وانهُ بعد احتلال الولايات المحيطة بقلب النجد الحبشي يكون الايطاليون في بدء مغامرتهم الحقيقية في الحبشة لا في نهايتها . فاخضاع الحبشة يقتضي اخضاع الامحريين والشوعيين وهم شعوب وقبائل شديدة الشكيمة يجري حب الاستقلال في دمائهم ويضيفون الى منعة معاقلهم الجبلية الوعرة ، كرهاً للاجانب يغذيه شبابهم المتعلمون في اوربا واميركا . واذن فالراجح ان لا يكفي فصل واحد لادراك الاغراض النهائية التي وضعها موسوليني نصب عينيهِ وعندئذٍ يتحوّل النزاع الى حرب عصابات قد تطول سنين . فاخضاع ليبيا ، وهي اقرب الى ايطاليا ، وليس فيها الاّ ٢٠٠ الف مسلم للقيام بحرب العصابات، اقتضى من ايطاليا عشرين سنة . وفي هذه الحالة تضطرُ الحكومة الايطالية ان تنفق بدرات من الاموال ومهج الوف والوف من ابنائها



خريطة لبلاد الحبشة

والبلدان المحيطة بها وبعض مواقعها الحربية

فصول الرواية

ملخص تاريخي

لصلة الحبشة بأوربا من اواسط القرن الماضي الى الآن

١٨٦٧ الحملة البريطانية بقيادة السر روبرت نابيير (لورد بعدئذٍ) Napier وهي حملة جرّدت على الامبراطور ثيودورس لاطلاق سراح بعض الانكليز الذين اسرهم وكان بينهم قنصل بريطانيا . وقد دخلت الحملة مجدلا في ١٣ ابريل سنة ١٨٦٨ فوجد قائدها الامبراطور ثيودورس وقد انتحر . وفي مايو سنة ١٨٦٨ غادرت الحملة بلاد الحبشة

١٨٧٥ اشترت حكومة بريطانيا نصيب الخديوي اسماعيل من اسهم شركة قناة السويس (راجع تأثير هذه الصفقة في مقام بريطانيا في مصر في مقالة « قناة السويس ومكانتها من الناحية الاستراتيجية صفحة ٤٧٣ من هذا العدد)

١٨٨٢ ثورة عرابي باشا في مصر واحتلال انكلترا للقطر المصري

١٨٨٩ معاهدة اوتشالي (Ucciali) بين الحبشة وايطاليا . عقدت هذه المعاهدة مع منليك بعد ارتقائه عرش الحبشة بتأييد من الايطاليين . ثم فاوضوه في تحديد العلاقة بين الحكومتين فانتهت المفاوضات الى معاهدة اوتشالي . وقد جاء في النص الايطالي لهذه المعاهدة ان منليك يتخذ من الحكومة الايطالية سبيلاً له في جميع مفاوضاته من الدول والحكومات الاخرى . وهذا معناهُ بسط الحماية الايطالية على الحبشة . ولكن يظهر ان النص الامحري كان يختلف عن النص الايطالي في هذا الصدد . ولما اخذ الايطاليون يتقدمون في ولاية «التيجرة» ويحاسنون بعض الزعماء من خصوم منليك، ثبت لمتتبعي الحالة ان اغراضهم تتعارض ورغبة الامبراطور منليك في الاحتفاظ باستقلاله . ولذلك اعلن منليك الدول في سنة ١٨٩٣ بالغاء معاهدة اوتشالي

١٨٩٦ معركة عدوة . ولكن الايطاليين مضوا في تقدمهم . فكان من أثر هذا التقدم توحيد الامبراطورية الحبشية وضم صفوفها بزعامة منليك . وفي شهر مارس من سنة ١٨٩٦ التقت قوة ايطالية مؤلفة من ١٤٥٥ جنديًا وضابطاً بقوة حبشية مؤلفة من ١٠٠ الف مقاتل على مقربة من عدوه فهزم فيها الايطاليون شر هزيمة فعقدت بعدها معاهدة في اديس ابابا الغيت بمقتضاها معاهدة اوتشالي واعترف باستقلال الحبشة المطلق وقضى منليك الاثني العشرة السنة التالية في التغلّب على القبائل الخارجة عليهِ

وعقد المعاهدات مع الدول الاوربية لتعيين الحدود بين الحبشة والبلدان المجاورة لها الخاضعة لبريطانيا وفرنسا وايطاليا

١٨٩٧ ففي شهر مارس من سنة ١٨٩٧ عقدت معاهدة مع فرنسا عيّنت بمقتضاها حدود الصومال الفرنسي . وفي شهر مايو من السنة نفسها عقدت معاهدة مع بريطانيا لتعيين حدود الصومال البريطاني . وقد نصّ فيها على ان قبائل الصومال البريطاني التي تدخل مقاطعتي هرر واوغادن في طلب المراعي لها حق في استعمال المراعي والآبار التي في هذه المنطقة . وعقدت في السنة نفسها معاهدة مع ايطاليا لتعيين حدود الصومال الايطالي ولكنها لم تنشر وانما ذكرت في معاهدة الحدود سنة ١٩٠٨

١٩٠٠ في شهر يوليو من سنة ١٩٠٠ عقدت معاهدة مع ايطاليا لتعيين حدود الاريترية من ناحية الحبشة

١٩٠٢ وفي شهر مايو من سنة ١٩٠٢ عقدت معاهدة مع بريطانيا لتعيين حدود السودان وفي الشهر نفسهِ عقدت معاهدة اخرى مع بريطانيا لتعيين الحدود بين السودان والحبشة وبين السودان والاريترية

١٩٠٦ المعاهدة الثلاثية بين بريطانيا وايطاليا وفرنسا وقد تعهّدت فيها هذه الدول الثلاث بالمحافظة على سلامة الحبشة ، وان لا تعمد احداها الى التدخل في شؤونها من دون الاتفاق مع الدولتين الاخريين وحددت فيها منطقة نفوذ كلٍّ منها في الحبشة

وقد اعترضت الحبشة على هذه المعاهدة

١٩١٩ عقدت معاهدات الصلح ولم تمنح ايطاليا مستعمرات ما في افريقية وفقاً لمعاهدة لندن السرية التي عقدت قبيل دخولها الحرب الكبرى في جانب الحلفاء فكان ذلك مدعاة لامتعاضها وتبرمها

١٩٢٣ انتظمت الحبشة في جامعة الامم باقتراح فرنسا وتأييد ايطاليا . وكانت بريطانيا قد عارضت في انتظامها اولاً ثم سلّمت بهِ مجاراة لرأي الاكثرية .وكان وزير خارجية فرنسا يومئذٍ المسيو هانوتو الذي كان وزيراً للمستعمرات يوم حادث فاشودة . وقد قيل ان تأييد فرنسا وايطاليا لانتظام الحبشة في الجامعة كان غرضهُ احباط خطة بريطانيا في الحبشة او ما فسّر على انهُ خطتها هناك عند ما دعت الى السعي لالغاء الرقّ فيها

١٩٢٥ تبادلت الحكومتان البريطانية والايطالية مذكرات في صدد اتفاق على بناء سد على بحيرة تانا ومدّ طريق من حدود السودان اليها وانشاء خط حديدي ايطالي بين الاريتريا والصومال . والى القارئ الفقرة المهمة من مذكرة السفير البريطاني نقلاً عن مجلّة الشؤون الخارجية Foreign Affairs الربعية الاميركية

« لذلك لي الشرف بناء على تعليمات وزير خارجية جلالة الملك ان اطلب الى سعادتكم تأييدكم ومساعدتكم في أديس ابابا قِبَل الحكومة الحبشية للحصول على امتياز لحكومة جلالته (الحكومة البريطانية) ببناء سد على بحيرة تانا مع حق بناء طريق للسيارات لنقل العمال والموظفين ومؤونتهم من حدود السودان الى السد

« يقابل ذلك ان حكومة جلالته مستعدة ان تؤيد الحكومة الايطالية في الحصول من الحكومة الحبشية على امتياز ببناء سكة حديدية من حدود الاريترية الى حدود الصومال الايطالي ويكون من المفهوم بيننا ان سكة الحديد هذه وكل ما يلزم لها من الاعمال لبنائها وتسييرها يكون لها حق مطلق في اجتياز طريق السيارات التي اشير اليها في الفقرة السابقة

« فتحقيقاً لهذين الغرضين يصبح من الضروري ان يبعث بتعليمات مماثلة لممثلي بريطانيا وايطاليا في الحبشة ليعملا مشتركين امام الحكومة الحبشية للحصول على الامتيازات التي ترغب فيها حكومتا بريطانيا وايطاليا في بحيرة تانا وبناء سكة الحديد التي تصل الاريترية بالصومال الايطالي ولكي يكون منح هذين الامتيازين في وقت واحد . فاذا فازت احدى الحكومتين بامتيازها الخاص الذي تسعى اليهِ واخفقت الاخرى يتعين على الحكومة التي فازت بما تطلب ان لا تتهاون في سعيها الحثيث لتحقيق ما تتطلبه الحكومة الاخرى

«فاذا تمّ لحكومة جلالة الملك (بريطانيا) بمساعدة حكومة ايطاليا الحصول على الامتياز الخاص ببحيرة تانا من الحكومة الحبشية فهي (اي حكومة بريطانيا) مستعدة ان تعترف بانشاء منطقة نفوذ اقتصادي ايطالي في غرب الحبشة خاصة بها وفي كل المنطقة التي تجتازها سكة الحديد المذكورة آنفاً . ثم انها تتعهد بأن تؤيد طلب حكومة ايطاليا لامتيازات اقتصادية في تلك المنطقة امام حكومة الحبشة »

وقد قبل السنيور موسوليني القواعد التي ذكرت في هذه الوثيقة الرسمية ولكن فرنسا عارضت فيها لان معاهدة ١٩٠٦ الثلاثية تنص على حظر اي اتفاق ثنائي خاص بالحبشة. ولما كان هذا الاتفاق او مشروعه قد تمّ بين ايطاليا وبريطانيا من دون علم فرنسا فقد عارضت فرنسا فيهِ وبوجهٍ خاص لانها لم تكن صديقة لايطاليا حينئذٍ . وكذلك اعترضت عليهِ الحبشة من طريق جامعة الامم فلم يعمل بهِ

١٩٢٨ عقدت معاهدة تحكيم بين ايطاليا والحبشة والمادة الاساسية فيها تنصُّ على ما يلي:

« تتعهد الحكومتان ان تعرضا للمصالحة والتحكيم الخلافات التي تنشأ بينهما والتي تتعذر تسويتها بالاساليب الدبلوماسية المألوفة من دون اللجوء الى القوة المسلّحة .

وعلى الحكومتين ان تتبادلا مذكرات في صدد الاسلوب الذي يتخذ لتعيين المحكمين »

وفي ٧ اكتوبر من هذه السنة توّج الرأس تفري ملكاً . وماتت الامبراطورة زوديتو في ابريل سنة ١٩٣٠ فتوّج امبراطوراً في ٢ نوفبر من السنة نفسها ، متخذاً لنفسهِ لقب هيلاسلاسي الاول

١٩٣٠ في شهر اغسطس من سنة ١٩٣٠ وافقت حكومة الحبشة على تنفيذ الاتفاق الخاص بتجارة السلاح الذي وقع في « سان جرمان آن لاي » سنة ١٩١٩

١٩٣٤ سبتمبر : اتفقت ايطاليا والحبشة على الامتناع عن الاعتداء

نوفبر : اعتذرت الحبشة عن مهاجمة القنصلية الايطالية في غوندار

دسمبر : اصطدام جنود صوماليين ايطاليين بجنود احباش في وال وال

١٩٣٥ يناير : عقدت ايطاليا وفرنسا اتفاقاً في روما تنازلت فيهِ فرنسا لايطاليا عن جانب من اسهم سكة حديد اديس ابابا وصرّحت ان مصالحها في الحبشة محصورة في ما يتعلق بهذه السكة

فبراير : بدأت ايطاليا تمدُّ حملتها الافريقية

مارس : رفضت ايطاليا طلب الحبشة ان يعهد الى جامعة الامم في تحقيق حادث وال وال . وقطعت المفاوضات المباشرة بين الحبشة وايطاليا

ابريل : مؤتمر ستريزا واتفاق فرنسا وبريطانيا وايطاليا على موقف مشترك في صدد المشكلات الاوربية

مايو : عين مجلس جامعة الامم لجنة للمصالحة والتحكيم

يونيو : ذهب الكابتن ايدن الى روما وعرض على موسوليني اعطاء الحبشة منفذاً الى البحر في زيلع في الصومال البريطاني لقاء ما يتنازل عنهُ النجاشي من اراضي الحبشة لايطاليا فرفض موسوليني ما عرض عليهِ

يوليو : اجّلت لجنة التحكيم اجتماعها . والغت حكومة ايطاليا القانون الخاص بجعل الغطاء الذهب للنقد ٤٠ في المائة . ناشد البابا الحكومات للاحتفاظ بالسلام . حظرت بريطانيا تصدير السلاح الى كلتا ايطاليا والحبشة

اغسطس : ١٨ منهُ . عقد مؤتمر في باريس بين ممثلي حكومات بريطانيا وفرنسا وايطاليا ، فاخفق في محاولتهِ الوصول الى تسوية لان ايطاليا رفضت ان تنظر في المقترحات التي عرضتها فرنسا وبريطانيا . وجاء في بيان من الحبشة ان النجاشي عرض ان يتنازل عن مقاطعة اوسا مقابل اراض تمنحها الحبشة في ناحية اخرى

١٩٣٥ ٢٢ اغسطس : قرّرت الوزارة البريطانية ان تقف من جامعة الامم موقفاً يعزّز عهدها
٣١ منهُ : اذيع نبأ الامتياز الذي منحهُ النجاشي في الحبشة للمستر ريكيت الانكليزي نائباً عن طائفة من اصحاب المصالح المالية في انكلترا واميركا . ففسّر هذا العمل عند اذاعته على انهُ سعي من انكلترا « لحلب البقرة قبل تسليمها لموسوليني » فكذّبت وزارة الخارجية البريطانية اي صلة لها بهذه الصفقة وطلبت الى وزيرها المفوّض في اديس ابابا ان يشير على النجاشي بامساك الامتياز وافضى تعقّد الحالة الناشئة عن ذلك الى انسحاب شركة فاكوم منهُ وكانت صاحبة اكبر نصيب فيهِ . وقرّر الكنغرس الاميركي ان يحظر توريد الاسلحة الى كلا الفريقين المتحاربين
سبتمبر : ٣ منهُ . قدّمت لجنة التحكيم — وكان المسيو بوليتيس اليوناني قد اختير محكماً خامساً فيها — تقريرها في حادثة وال وال فاذا هو لا يلقي اللوم على احد الفريقين
٤ منهُ : عين مجلس جامعة الامم لجنة الخمسة للبحث في الموضوع واقتراح تسوية
١١ منه : القى السر صموئيل هور خطبته في الجمعية العمومية لجامعة الامم متعهداً فيها بالنيابة عن الحكومة الانكليزية باستعداد بريطانيا « للدفاع المشترك عن عهد الجامعة كاملاً » واعربت سائر الدول عن مثل هذا العزم
١٨ منهُ : قدمت لجنة الخمسة تقريرها . فقبلته الحبشة اساساً للمباحثات . ورفضته ايطاليا رفضاً باتاً
٢٣ منه : اعلنت ايطاليا زيادة جيشها الى مليون جندي ، ووجوب استعداد الامة لحشدها عند الدعوة اليه . وشرعت انكلترا في تعزيز اسطولها في البحر المتوسط
٢٥ منهُ : اعلن الرئيس روزفلت قائمة بالمواد الحربية التي يحظر تصديرها الى البلدان المتحاربة
٢٦ منهُ : اجتمع مجلس جامعة الامم واقر بالاجماع مقترحات لجنة الخمسة وان يمضي في السعي لحل النزاع الايطالي الحبشي بمقتضى المادة الخامسة عشرة من عهد الجامعة (مادة المصالحة Conciliation)
٢٩ منهُ : ردت بريطانيا على فرنسا بأنها مستعدة ان تشترك في كل مقاومة اجماعية لدولة معتدية بحسب عهد الجامعة
اكتوبر : ٢ منهُ : تخطت الجيوش الايطالية حدود الحبشة

الدستور السوفياتي الاشتراكي [1]

للاستاذ وليم بنت منرو [2]

— ٣ —

٣ : تمثيل الحرف — أهم ما يمتاز به نظام الحكم السوفياتي هي القاعدة المتخذة اساساً للتمثيل السياسي . فاننا نرى بريطانيا وفرنسا والمانيا والولايات المتحدة وغيرها من الدول الرأسمالية البرلمانية تتخذ الموقع الجغرافي اساساً للتمثيل فيجري الانتخاب من قبل جميع الناخبين في الالوية والاقضية والنواحي المتكونة منها الدولة بحسب المناطق او الدوائر الانتخابية التي تعين على أساس جغرافي . والنائب المنتخب على هذه الصورة يمثل لواء فيه فلاحون وعمال صناعيون وعمال مناجم وموظفو سكك الحديد واصحاب حرف حرة وتجار وملاك وأصحاب معامل الى غير ذلك من أنواع الطبقات الاقتصادية، فهو يمثلهم كجماعات من السكان بلا التفات الى احوال معيشتهم اليومية المتباينة ومصالح طبقاتهم المتضاربة . والسبب في تطبيق هذا التمثيل هو ان النظرية الجغرافية تعتبر ان مصالح المصوّت تتأثر بالمكان الذي يعيش فيه وليس بالحرفة التي يعيش عليها .

اما النظام السوفياتي فيتخذ من الحرف اساساً للتمثيل السياسي ، ومع ان المناطق الجغرافية تستعمل ايضاً في التمثيل الحرفي الا ان استعمالها ليس إلا لتسهيل عملية التصويت الحرفي . وفي هذا النوع من التمثيل يصوت الاشخاص ذوو الحرف المختلفة كل على حدة مع افراد حرفتهم : فعمال المناجم يصوّتون في فريق وعمال الحديد في فريق آخر والجنود في فريق ثالث والفلاحون في فريق رابع الخ . . . كل بحسب اختصاصه الحرفي ينتخب ممثليه من طبقته . فلا يمثل عامل المناجم او الفلاح المنتخب الى مؤتمر سوفيت الاتحاد مدينة موسكو او تفليس او البلدة التي يأتي منها بل يمثل افراد فريقه بالمهنة بلا إلتفات الى محل الاقامة . وهذا النوع من التمثيل اقرب الى التمثيل الحقيقي لمصالح الناخبين من التمثيل الجغرافي بكثير وهو يعد افضل اسلوب للتمثيل جرب في العالم لانهُ يمثل حقيقة مصالح كل فريق حرفي تمثيلاً صحيحاً حالة ان التمثيل الجغرافي خلو من معنى الدمقراطية الصحيحة وصيانة مصالح الناخبين بل هو حيلة تفوز بواسطتها الطبقات المثرية الاقطاعية والبورجوازية في البلاد الرأسمالية بالقوة السياسية مع ادعائها منح المساواة والدمقراطية لجميع افراد المجتمع

ومن الواضح ان التمثيل الجغرافي الذي تتمشى عليه البلاد الرأسمالية على الاخص ضعيف من اساسه لا يتلاءم والدمقراطية الحقيقية التي تدعي انها تصونها لانهُ لا يعير اي اهتمام الى كون ان

---

(١) Socialist Soviet Coustitution (٢) استاذ التاريخ والحكومات في معهد جامعة كالفورنيا الفني باميركا وقد نقل هذا الفصل المتتبع كامل قزانجي مدرس الاجتماع والتاريخ بمدرسة النجف الثانوية في العراق . راجع مقتطف يوليو واكتوبر ١٩٣٥ صفحة ٢١٩ و٣٤٧

المصوِّت ينتمي الى طبقة او فريق اقتصادي بحكم الحرفة التي يؤمِّن بها على موارد عيشه وهو عضو اقتصادي اكثر منهُ ساكناً او مقيماً في بلدة او ريف ما ، لذلك يكون فيهِ الاخلاص لمصلحة حرفتهِ المعيشية اكثر من إخلاصه لسكان الذي ينبغي ان يقيم فيهِ والطبقات الاخرى التي يعيش معها طلباً للرزق . والتجار والعمال المأجورون والفلاحون وأصحاب المهن الحرة — كل واحد منهم لا يضحي بمصالحه ومصالح فريقهِ الاقتصادية والاجتماعية لذلك لايمكن ان تنشأ بين المصوّتين المختلفي المهن رابطة اقتصادية دائمة ولو كانوا يعيشون في بلدٍ واحد او ريف واحد او دائرة انتخابية جغرافية واحدة . ومع انهُ ليس من المؤكد دائماً ان يتفق ذوو الحرفة الواحدة على رأي واحد فيما يخص بعض قضايا السياسة العامة لكن يمكن الاعتماد على ان تكون الحرفة المعيشية اساساً أفضل للتمثيل من الموقع الجغرافي في احوال الحياة الحاضرة . وقد اقترح هذا التبديل في الولايات المتحدة كثير من قبل الساسة المجددين ومنهم وليم مكدونالد في كتابه « دستور جديد لاميركا الجديدة » حيث كتب : «من الواضح انهُ إذا شاءت الولايات المتحدة ان يكون لها هيئة تشريعية تمثلها تمثيلاً حقيقيًّا فيجب ان يبدل نظام التمثيل الحاضر بحيث تأخذ بعين الاعتبار ليس فقط السكان كما هي الحالة الآن بل الفروق في المهن والحرف كذلك ايضاً » لأن التمثيل الجغرافي باعتباره الصلة الجغرافية أهم من الصلة الطبقية لا يمكن ان يصون مصالح جميع المصوّتين المنتمين الى طبقات مختلفة متضاربة المصالح لذلك يكون النائب عادة من الطبقات ذات القوة الاقتصادية ولا يخدم الاَّ مصالح طبقته وفي معظم الاحيان يكون أميل الى نسيان مصالح ناخبيهِ والاعتناء بمصالحه الخاصة قبل غيرها ففي منطقة انتخابية جغرافية ما ، يفوز صاحب المعمل والملاَّك مثلاً بتمثيل الفلاحين والعمال المقيمين معاً لما لديهما من الثروة والقوة الاقتصادية والسياسية لكن الفلاح لا يفوز بتمثيل الملاّك ولا العامل يفوز بتمثيل صاحب المعمل

لكن هناك وجهة ثانية للقضية تنحصر في : هل يكون خير المجتمع اكثر ضماناً وتقدماً اذا وزعت القوة السياسية بحسب المناحي التي يحصل بها أصحاب المهن المختلفة على عيشهم ؟ تقوم النظرية السوفياتية على مبدإ ان حرفة الانسان وطريقة معيشته هي التي تملي عليه موقفه ازاء قضايا السياسة العامة وعلاقاته الاجتماعية . أما البلاد الرأسمالية فقد تمشت على مبدأ اعتبار الشخص اميركيًّا او انكليزيًّا أو فرنسيًّا اولاً وعاملاً أو فلاحاً أو تاجراً ثانياً

وجرياً على هذا المبدأ يطلب من الشخص ان يكون موقفه تجاه مصالح الامة بأجمعها فوق مصلحته الخاصة أو مصلحة حرفته أو طبقته الاقتصادية ولو كلفه ذلك التضحية بالثانية في سبيل الاولى فالنائب في المجلس على هذا المبدأ ينتخب من قبل مصوتي المنطقة فلا يمثل تلك المنطقة بل يمثل الامة بأجمعها لانهُ يتقاضى مخصصاته من الخزينة العامة . لكن الواقع لا يتفق مع النظرية في النظام الرأسمالي لان النائب فيه ينقاد عادة الى الاعتناء بمصالحه الخاصة أولاً — كما اسلفنا —

وهي مصغر مصالح حرفته أو طبقته الاقتصادية . فلا يكون بذلك ممثلاً حقيقياً لجميع ناخبيه. لكنه اذا انتخب من قبل فريق حرفته أو طبقته فلا يطلب منه أن يمثل المجتمع كله بل أن يمثل طبقته فقط وبهذا التحديد في نطاق مسؤوليات النائب ، ضمان اقوى لقيامه بواجبات التمثيل

فالذي تقصده الشيوعية في نظام التمثيل هذا هو تحقيق الديمقراطية الاقتصادية تمهيداً لتحقيق ونجاح الدمقراطية السياسية التي تعاني اليوم الازمات الشديدة في الدول الاوربية الرأسمالية لعدم استنادها الى نظام اقتصادي دمقراطي اذ تمنح الحقوق الدمقراطية السياسية لافراد المجتمع وهم بعدُ لا يزالون على أساس مالي يتناقض مع روح الدمقراطية الحقيقية . وهنا منشأ الازمات

وبتطبيق التملك العام لجميع وسائل الانتاج والتوزيع ومنابع الثروة يقضي النظام السوفياتي الاشتراكي على الفروق الطبقية وحرب الطبقات معاً، وبوضعه التمثيل على اساس حرفي يضمن التعاون بين الفرق الحرفية المختلفة ويصون مصالحها . لكن قبل ان يطرق هذان الميدان وضعت السلطة بيد طبقة واحدة هي طبقة المنتجين من عمال وفلاحين وجنود وبفوز دكتاتورية العمال لم يعد في استطاعة اي طبقة اخرى من الطبقات السابقة ان تعلن حرباً او تناهض القوة القائمة في الحكم مهما حاولت ان تفعل ذلك. فلا يبقى امامها الاّ ان تندمج في الطبقات المنتجة حتى يتكامل المجتمع فيصبح لاطبقياً او تهرب من حكم الطبقة الحاكمة ، وفي كلتا الحالتين تقدم نحو الغاية القصوى وهي « المجتمع اللاطبقي » . لكن وان اعتبرت المصالح الاقتصادية اساس النظام الانتخابي فالنظام السياسي هو بالحقيقة خاضع « لدكتاتورية العمال » التي تشرف على دور الانتقال من الفردية الى الشيوعية

٤ — البعد بين الناخب والحاكم — والميزة الرابعة للنظام السياسي السوفياتي هي البعد بين الهيئات الحاكمة والشعب المحكوم . ففي اميركا مثلاً ينتخب الشعب الهيئات التنفيذية والتشريعية في ولاياتهم فلا يبعد الرئيس واعضاء الكونغرس عن المصوتين اكثر من درجة واحدة . اما في الاتحاد السوفياتي فتنفصل هذه السلطات عن الناخبين عدة درجات . فالفلاح السوفياتي ينتخب سوفيت قريته او مزرعته الاشتراكية وهذا السوفيت الاولي يبعث ممثلين عنهُ الى سوفيت الاقليم ومؤتمر سوفيت المنطقة وهذا بدوره يتمثل في مؤتمر سوفيت جميع الروس اذا كان في روسيا ، او في مؤتمر سوفيت جميع الشعب الساكن في الجمهورية الفلانية مثلاً وهذا الاخير يعين اللجنة التنفيذية المركزية لجمهوريته وهذه تعين مجلس القومساريين في تلك الجمهورية . اما في حكومة الاتحاد فيتمثل الفلاح بواسطة مندوبيه الذين يرسلون من سوفيت ريفه او اقليمه الى مؤتمر سوفيت الاتحاد الاعلى وهذا يعين اللجنة التنفيذية المركزية العليا وهذه تعين مجلس القومساريين . وهكذا قل عن تمثيل العمال في المدن . وعلى ذلك نرى ان المصوّت الاول في الريف او المعمل يفصل بثلاث او اربع درجات عن الهيئة التنفيذية العليا ولطول هذه المسافة تقل مسؤولية القومساريين المباشرة امام الشعب وتنحصر مسؤوليتهم امام مؤتمر سوفيت الاتحاد واللجنة التنفيذية العليا ومجلس الرآسة فقط . وبذلك يقل

تساقط القومساريات في فترات قصيرة . فمع ان جميع سكان الاتحاد السوفياتي يشتركون في ادارة حكومتهم لكنهم يمارسونهم هذه الادارة بهذا الشكل الهرمي تحدد السيادة العامة ويقل تأثر السلطات التنفيذية بتقلبات الرأي العام وفي هذا استقرار سياسي عام ضروري للبلاد وهي في دور الانتقال من الاقطاعية والرأسمالية الى الاشتراكية

«القضاء والمحاكم» لكل من الجمهوريات السبع الرئيسية والجمهوريات والمناطق والاقاليم الذاتية الكائنة في كلٍّ منها نظام قضاء وقوانين خاصة بها . لكن القوانين والنظام القضائي في كل من هذه الجمهوريات لا تختلف اختلافاً جوهريّاً عن الاخرى . وتعتبر محكمة الاتحاد العليا المرجع القضائي الاخير لجميع القضايا في انحاء الاتحاد السوفياتي . وهناك محاكم تعرف باسم (محاكم الشعب) في كل منها حاكم ومحلفين او اكثر وهناك كذلك عدة محاكم خاصة كمحاكم العمل والتحكيم والمحاكم العسكرية والنظامية الخ . . . وفوق هذه جميعها تأتي محاكم المناطق وفي كل واحدة منها عدة حكّام يتفاوت عددهم بحسب الحاجة . والحكّام في جميع المحاكم في جمهوريات الاتحاد يعينون من قبل سلطات المناطق ويبقون في مناصبهم سنة واحدة . ويستثنى من هذا حكام محكمة الاتحاد العليا الذين تنتخبهم لجنة الاتحاد التنفيذية المركزية او بالحقيقة : مجلس رآسة اللجنة . اما المحلّفون في محاكم الشعب ومحاكم المقاطعات او المحاكم العليا فيستدعون للعمل مدة ٦ ايام كل سنة وينتخبون من عدد من بين المواطنين المصادق عليهم وليس في الاتحاد نظام ثابت للمحاكمة امام هيئة من الحكّام بل يقوم المحلفون مقام هيئة الحكّام فيبتون في القضايا مع الحاكم باجماع الاصوات

لكن قد يتبادر الى ذهن القارىء ان يسأل : — لماذا لا ينهار هذا النظام الهرمي من سوفيت ولجان ومؤتمرات وهيئات ومجالس بسبب علوه وثقله ؟ ولماذا لا يرتبك هذا النظام وينحل بسبب التناقض وسوء التفاهم الذين يحتمل وقوعهما بين سلطات الاتحاد وسلطات الجمهوريات الرئيسية وبين هذه وسلطات المناطق والاقاليم والمدن والارياف ؟ اما الجواب فبسيط يتلخص في ان ليس في الاتحاد الاَّ حزب سياسي واحد يسود جميع هذه المؤسسات ويسيطر على هذا النظام . وكل موظف رسمي في الاتحاد مهما اختلفت مرتبته يجب ان يكون عضواً في الحزب الشيوعي الذي يشرف على جميع شؤون السوفيت واللجان وغيرها من مؤسسات الاتحاد ويديرها بواسطة المكتب السياسي فيهِ . ولما كان الشيوعيون لا يتقاسمون الحكم مع من يخالفهم في المعتقد فهم لا يؤمنون بامكان وجود معارضة مخلصة في الاتحاد السوفياتي او في اي مجتمع يريد تحقيق الشيوعية فلذلك هم يعتقدون أن كل من يعارض الحزب الشيوعي خائن وضد الثورة والدولة . فاذا نشأ نزاع في قضية ما يحل النزاع داخل الحزب اذ تعتبر جميع القضايا حزبية لا سياسية عامة ، وبعد تقرير الحزب خطة ما أزاء القضية المختلف فيها يجب على الجميع الرضوخ لقرار الاكثرية الفائزة بوجهة نظرها . وفي سيادة الحزب الواحد هذه على جميع المناطق الجغرافية وجميع مرافق الحكومة من دون اعتراف باي معارضة السرّ كل السرّ في

القوة التي تحفظ هـذا النظام . فعندما اختلف تروتسكي مع ستالين حول متابعة الثورة العالمية بحسب رأي تروتسكي أو الاهتمام بالتشييد الاشتراكي ومشاريع الخمس سنين بحسب رأي ستالين وحول أي الخطتين تقوم على الاخرى فاز رأي ستالين بمعاضدة الحزب له فلم يسمح لتروتسكي ان يتولى جبهة معارضة حوله بل نفي حالاً الى خارج الاتحاد. وهكذا مع رايكوف وغيره من الخارجين على ارادة الحزب العامة أمثال كامنيف وزينوفيف من زعماء الحزب المؤسسين وفلاسفة النظام السوفياتي ، عند ما اختلفوا مع ارادة الحزب العامة وزعمائه الاقوياء أصبحوا أعداء الدولة فأعدم معظمهم حالاً ونفي القسم الآخر الى سيبيريا

الحزب الشيوعي — ومع أن الشيوعيين كانوا أقلية بين سكان روسية أيام الحرب العظمى لكنهم كانوا محكمي التنظيم اذ تقوم عضوية الحزب على أساس التكتل بشكل طوائف ، في كل قرية ومعمل طائفة واحدة على الاقل . وكل طائفة تبعث ممثلاً عنها الى مؤتمر الحزب الذي ينتخب لجنة مركزية وهذه بدورها تعين اعضاء المكتب السياسي الذي يقود حركات الحزب ولشدة علاقة الحزب بأعمال الدولة كثيراً ما يتقلد المناصب العليا في الحكومة وفي الحزب نفس الاشخاص والزعماء . ونظام الحزب صارم جداً يقوم على الطاعة الخاصة والتنظيم العسكري وينزل العقاب الشديد بكل من يشك به شكاً طفيفاً ويطرد من الحزب أو يحمل آلاماً وخسائر عديدة

ولا يمكن لاحد ان يصبح عضواً الا بعد ان يجتاز مدة امتحان يكون خلالها تحت مراقبة شديدة . فالحزب الشيوعي هو القوة المحركة والمنظمة لجميع شؤون الاتحاد

ويعلن الدستور السوفياتي لسنة ١٩١٨ بكل ارتياح انهُ يعترف « بالمساواة في الحقوق لجميع المواطنين » لكنهُ يقول في الفقرة التالية مؤكداً ان ليس من حق اي مواطن ان يدعي التمتع بأي حق او امتياز يمكن استعماله للاساءة لروح الثورة الشيوعية ولهذا السبب لا يحدد الدستور قائمة الحقوق . فالمواطن السوفياتي ليس له اي حق على الدولة وهذا ما اتبعه النظام الفاشستي فيما بعد باعتباره الدولة غاية الجميع وليس الفرد الاّ واسطة لهذه الغاية . اما في الاتحاد السوفياتي بالمقابلة مع ايطاليا فالغاية هي (المجتمع اللاطبقي) الذي يقوم على اساس التملك العام ويكون فيه جميع الافراد عمالاً منتجين يتمتعون جميعهم بما يملكون وينتجون موحدين جهودهم لتحقيق غايات مشروع واحد عام ورفع مستوى معيشة الجميع المادية والادبية . لذلك نرى الفلسفة الفردية تنعكس فتصبح حرية الصحافة والخطابة وحرية التعامل التجاري كما يفهمها بقية العالم الرأسمالي غير متفقة مع روح هـذه النظرية الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي لان هذه الحريات لا يجب ان تصان الاّ اذا كانت تساعد على تقوية النظام الجديد لانهُ اذا كانت غاية الانسان الرئيسية تحقيق المجتمع الشيوعي والمساعدة على الاحتفاظ بشكل من الحكومة تعمل على تحقيق هذا المجتمع فلا يكون للمواطن أي حرية أو مصلحة تتعارض مع الغاية التي يحرص عليها والوسائل التي ينتهجها لتحقيقها

متى يغتفر الكذب

لشاكر الحنبلي

قرأت في مجلة الهلال الغراء مقالاً للعلامة الامير مصطفى الشهابي تحت عنوان « غرائب المصانعة » تناول فيها جانباً من النقص الاخلاقي في بعض الافراد الذين يلبسون لكل حالة لبوسها ويتلونون في آرائهم واحاديثهم تلوُّن الحرباء على حسب ما يرضي مخاطبيهم لاما يرضي ضمائرهم ويعدون ذلك من مقتضيات الكياسة وحسن السياسة . وقد استثار هذا المقال اهتمام بعض المفكرين فكتب الاديبان اديب عباسي والياس يعقوب مقالين في هذا الصدد عابا بهما هذا الخلق واعتبراه ضعفاً في النفوس البشرية واعوجاجاً يجب تقويمه والتحذير من التعرض لآفاته التي تفقد المرء ذاتيته حتى يصبح بمثابة الحاكي الذي يردّد اقوال الغير وافكارهم بدلاً من ان يكون له في الحياة كيان مستقل

وقد نبهتني هذه المقالات الى ناحية اخرى من نواحي اخلاقنا الاجتماعية تكاد تكون عامة بين جميع الطبقات وهي الكذب في الحديث والرواية والعمل لا لشيء سوى التخلص من عتاب صديق او عناء زيارة متوجبة او دفع تبعة محتملة كاعتذارك عن تلبية دعوة بداعي المرض مع انك لم تكن مريضاً او قولك لخادمك عند زيارة احد تكره مقابلته: قل له اني لست في الدار مع انك فيها وتجاهل امرٍ تعرفه او التغاضي عن شيء تكره افشاءه والتمارض السياسي الذي يتظاهر به بعض الساسة — كل ذلك من هذا القبيل، والمصانعة والمداهنة والرياء والتقية وان اختلفت اسماؤها فهي في الحقيقة لا تخرج عن حد الكذب ما دام الكذب هو الاخبار بشيء على خلاف ما هو عليه مع العلم به . فالمصانع والمداهن والمرائي جميعهم يقولون بخلاف ما يعتقدون وهو الكذب بعينه. والذين يستعملون التقية وهي اظهار خلاف ما يبطنهُ المتكلم دفعاً لضرر يظنونهُ لاحقاً بهم ان هم صارحوا بالحقيقة ليسوا سوى كذّابين ايضاً

فلماذا يرتكب الناس هذا النوع من الكذب ويفرّون من مواجهة الصراحة ولا يرون في ذلك غضاضة عليهم ولا حرجاً ؟ اليس لهم مندوحة عن الكذب بالعدول عنهُ الى ما يؤدي الغرض منهُ ؟ وهل هنالك حالات يغتفر فيها الكذب وما هي ؟ هذه قضية جديرة بالبحث والتمحيص لمساسها بناحية دقيقة من نواحي اخلاقنا الاجتماعية : ان الكذب هو بلا ريب من اقبح الخلال واوضعها ولهذا نهت عنهُ جميع الشرائع والأديان ومقتتهُ العقول وكفى بالكذب شيناً ومهانةً ان صاحبهُ

مرذول محتقر لا يصدقهُ الناس ولو صدق . ولا حاجة بنا الى سرد ما قيل في شناعة الكذب والكذابين فذلك مما يطول شرحه وليس هو غرضنا من هذا المقال وانما نريد ان نعرض للكذب من حيث غرض الكاذب وغايته لنرى اتبرر الغاية الشريفة هذه الواسطة الوضيعة في نظر العقل والشرع وان بررتها فما هو مدى هذه الغاية ؟

ان الشرع قد اجاز لنا ارتكاب بعض المنهيات للضرورة فاجاز للمضطر اكل مال الغير لدفع الجوع متى خشي الهلاك عملاً بالقاعدة الفقهية «الضرورات تبيح المحظورات» كما اجاز ارتكاب اخف المفسدتين واختيار اهون الشرين متى تعارضا فاباح لمن اكره بالقتل التكلم بالكفر مع اطمئنان قلبه بالايمان ولكنه مع ترخيصه بهذه المنهيات قد قيدها بالقدر الذي تندفع به الضرورة فنص على ان «الضرورات تقدر بقدرها» فلا يجوز للجائع ان يأكل من مال الغير الاَّ بالقدر الذي يحفظ حياته ويدفع عنه الهلاك ومتى امكن دفع الضرر بالاخافة والتهديد او الضرب العادي فلا يصار الى دفعه بالقتل لأن القدر الزائد عن الضرورة مساوٍ للاعتداء بل زائد عليه . فلا يسوغ لنا التجوز في الرخص وارتكاب ما نهى عنه الشرع في سبيل مصالحنا وشهواتنا تحت ستار الضرورة . وهكذا الكذب فهو وان كان حراماً إلاَّ انه قد يباح في بعض الاحيان للضرورة متى كان في الجهر بالصدق خشية ضرر او فتنة اشد شرًّا من الكذب

***

يقول العلماء ان الكذب ليس حراماً لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب او على غيره وربما كان واجباً في بعض الاحيان . ارأيت لو ان رجلاً سعى خلف آخر بالسيف ليقتله فدخل دارك فانتهى اليك الرجل يسألك هل رأيت فلاناً فماذا كنت قائلاً ؟ الا تقول ما رأيته وهذا كذب ولكنهُ خير من الصدق بل واجب عليك لان فيه حقن دم

ذكر الامام الغزالي في كتابه احياء علوم الدين « ان الكلام وسيلة الى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن الوصول اليه بالصدق والكذب معاً فالكذب فيه حرام وان امكن التوصل اليهِ بالكذب دون الصدق فالكذب فيهِ مباح ان كان تحصيل ذلك القصد مباحاً وواجب ان كان المقصود واجباً كما ان عصمة الدم واجبة . فمتى كان في الصدق سفك دم امرىءٍ قد اختفى من ظالم فالكذب فيهِ واجب ومتى كان لا يتم مقصود الحرب او اصلاح ذات البين او استمالة قلب المجني عليهِ الا بكذب فالكذب مباح . الاَّ انهُ ينبغي ان يحترز منهُ ما امكن لان الانسان اذا فتح باب الكذب على نفسهِ فيخشى ان يتداعى الى ما يستغنى عنهُ والى ما لا يقتصر على حد الضرورة فيكون الكذب حراماً الاَّ لضرورة . روي عن ام كلثوم قالت ما سمعت رسول الله (ص) يرخص في شيء من الكذب الاَّ في ثلاث الرجل يقول القول يريد بهِ الاصلاح والرجل يقول القول في الحرب والرجل يحدث امرأتهُ

والمرأة تحدث زوجها . وقالت ايضاً قال رسول الله (ص) ليس بكذاب من اصلح بين اثنين فقال خيراً أو انمى خيراً . وروي عن ابي كاهل قال وقع بين اثنين من اصحاب النبي كلام حتى تصارما فلقيت احدهما فقلت مالك ولفلان فقد سمعتهُ يحسن عليك الثناء ثم لقيت الآخر فقلت لهُ مثل ذلك حتى اصطلحا ثم قلت اهلكت نفسي واصلحت بين هذين فاخبرت النبي (ص) فقال يا أبا كاهل اصلح بين الناس ولو . . اي بالكذب

«فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء وفي معناها ما عداها اذا ارتبط بهِ غرض مقصود صحيح للقائل اولغيره اما ما كان لهُ مثل ان يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله ان ينكره او يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة كانت بينهُ وبين الله تعالى فله ان ينكر ذلك فيقول ما زنيت وما سرقت وقال صلى الله عليهِ وسلم من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله وذلك ان اظهار الفاحشة فاحشة اخرى فللرجل ان يحفظ دمه وماله الذي يؤخذ ظلماً وعرضهُ بلسانهِ وان كان كاذباً واما الكذب لغرض غيره فبأن يسأل عن سر اخيهِ فلهُ ان ينكرهُ وان يصلح بين اثنين وان يصلح بين الضرَّات من نسائهِ بأن يظهر لكل واحدة انها احب اليهِ او يعتذر الى انسان وكان لا يطيب قلبهُ الاَّ بانكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس ولكن الحد فيهِ ان يقابل بين الكذب والصدق بالميزان القسط فاذا ظهر له ان المحذور الذي يحصل بالصدق اشد وقعاً في الشرع من الكذب فله ان يكذب وان كان ذلك المقصود أهون من مقصود الشرع فيجب الصدق. وقد يتقابل الامران بحيث يتردد فيهما وعند ذلك الميل الى الصدق اولى لان الكذب يباح لضرورة او حاجة مهمة فان شك في كون الحاجة مهمة فالاصل التحريم فيرجع اليهِ . . ولكن بالنظر لغموض ادراك مراتب المقاصد ينبغي ان يحترز الانسان من الكذب ما أمكنهُ وكذلك متى كانت الحاجة له فيستحب له ان يترك اغراضه ويهجر الكذب فاما اذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز له المسامحة لحق الغير والاضرار بهِ . واكثر كذب الناس انما هو لحظوظ انفسهم ثم هو لزيادة المال والجاه ولامور ليس فواتها محذوراً ... »

فيظهر مما ذكره حجة الاسلام الغزالي ان الكذب قد رخص بهِ للضرورة في بعض المواطن دفعاً لضرر لا يمكن اجتنابهُ الاَّ بالكذب فيباح حينئذٍ ولكن هذه الرخصة يجب ان لا تتعدى حدود الضرورة . وكان السلف يعدلون عن الكذب الى المعاريض ويرون فيها مندوحة عن الكذب عند ما يضطرون اليه ومثال التعريض انهُ اذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت ان تكذب تقول ان الله تعالى ليعلم ما قلت من ذلك من شيء فيكون قولك (ما) حرف نفي عند المستمع وعندك للابهام .

وكان معاذ بن جبل عاملاً لعمر رضي الله عنهُ فلما رجع قالت له امرأتهُ ما جئت به مما يأتي به العمال الى اهلهم وما كان قد اتاها بشيءٍ فقال كان عندي ضاغطاً قالت كنت اميناً عند رسول الله وعند ابي بكر فبعث عمر معك ضاغطاً وقامت بذلك بين النساء واشتكت عمر فلما بلغه دعا معاذاً وقال له ابعثت معك ضاغطاً قال ما اجد ما اعتذر به اليها إلاَّ ذلك فضحك عمر واعطاه شيئاً فقال له ارضها به .

ومعنى قوله صاغطاً يعني رقيباً وأراد به الله تعالى . وكان النخعي اذا طلبه من يكره أن يخرج اليه وهو في الدار قال للجارية قولي له اطلبهُ في المسجد ولا تقولي ليس ههنا كيلا يكون كذباً . وكان الشعبي اذا طلب وهو في المنزل وهو يكره الخروج خط دائرة وقال للجارية ضعي اصبعك فيها وقولي ليس ههنا

وهذا كله في موضع الحاجة . وقالوا في توجيه هذ النوع من المعاريض ان المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه الاّ ان ذلك مما تمس اليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الاحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم وفي الحذر من الظلمة وفي قتال الاعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك فمن اضطر الى شيء من ذلك فهو صادق وان كان كلامه مفهما غير ما هو عليه لان الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء اليه فلا ينظر الى صورته بل الى معناه ففي مثل هذه المواضيع ينبغي ان يعدل الى المعاريض ما وجد اليه سبيلاً . وكان رسول الله (ص) اذا توجه الى سفر ورّى بغيره كي لا ينتهي خبره الى الاعداء وليس هذا من الكذب في شيء

وقد أباحوه أيضاً في المزاح لما فيه من المطايبة على ان لا يتجاوز حد الاعتدال . وكان النبي (ص) يمازح بعض الصحابة والصحابيات ولكنهُ لا يقول الاّ حقا . روي عن الحسن أنهُ قال : أتت عجوز الى النبي (ص) فقالت يا رسول الله ادعُ لي بالمغفرة فقال لها : لا يدخل الجنة عجوز فبكت فتبسم وقال لها انك لست بعجوز يومئذٍ أما قرأت قوله تعالى « انَّا أنشأناهنَّ انشاء فجعلناهنَّ أبكاراً عرباً أتراباً » . فانظر الى هذا المزاح اللطيف الذي لا يخرج عن قول الحق ومثل النبي قادر أن يمزح ولا يقول الاّ حقًّا . فأين هذا من مزاح بعض الناس الذين لا همَّ لهم الاّ ان يضحكوا الناس من قولهم كيفما كان

ويغتفر الكذب في الشعر أيضاً عن طريق المبالغة حتى قالوا « أعذب الشعر أكذبه » . وقد أمر رسول الله (ص) حسان بن ثابت الانصاري بهجاء الكفار والتوسع في المدح فانهُ وان كان كذباً فلا يلتحق بالكذب الحرام كقول ابي تمام في وصف الخليفة المعتصم :

ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله

فان هذا عبارة عن الوصف بمنتهى الجود والسخاء فان لم يكن صاحبه سخيًّا كان كذباً وان كان سخيًّا فالمبالغة من صنعة الشعر . وقد أنشدت ابيات بين يدي رسول الله لو تتبعت لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منهُ . قالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله (ص) يخصف نعله وكنت جالسة اغزل فنظرت اليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقهُ يتولد نوراً قالت فبهت فنظر اليَّ فقال مالك بهت فقلت يا رسول الله نظرت اليك فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نوراً ولو رآك ابو بكر الهذلي لعلم انك احق بشعره قال وما يقول قالت يقول :

واذا نظرت الى اسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

قالت فوضع ما كان بيده وقام اليَّ وقبل ما بين عينيَّ وقال جزاك الله خيراً يا عائشة ما سررت مني كسروري منك . ولما قسم النبي (ص) الغنائم يوم حنين امر للعباس بن مرداس باربع قلائص فاندفع يشكو في شعر وفي آخره :

وما كان بدر ولا حابس يسودان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرىء منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عني لسانه فذهب به ابو بكر الصديق حتى اختار مائة من الابل ثم رجع وهو من ارضى الناس فقال له النبي اتقول في الشعر ؟ فجعل يعتذر اليه ويقول بأبي انت وأمي اني لأجد للشعر دبيباً على لساني كدبيب النمل ثم يقرصني كما يقرص النحل فلا اجد بدًّا من قول الشعر فتبسم النبي وقال « لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين » ومثل هذا كثير في اشعار العرب وغيرهم . فالمبالغة في الوصف تغتفر على شرط ان يكون في الموصوف بعض هذه الصفات

ومثل اطراء الممدوح في حفلات التكريم والتأبين . فانك تلاحظ في اقوال الخطباء اطراء يخرج عن حدود الحقيقة ولكن الناس يغتفرون ذلك ويرونهُ ضرورياً لتطييب قلب المحتفل به او مواساة لاهل الفقيد بل يعدونهُ من المجاملات الاجتماعية التي لا بدَّ منها . وكذلك تجاهل العارف هو في حقيقته كذب ولكنهُ من الصناعات الادبية في الادب العربي

***

ومن الكذب الممدوح ما يقصد به الايثار على النفس وهو نادر ويعد من مكارم الاخلاق كما فعل ذلك الانصاري الذي جاء الى النبي فوجد عنده ضيفاً ولم يكن عند النبي ما يقدمهُ الى ضيفه فذهب الانصاري بالضيف الى اهله ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته باطفاء السراج وجعل يمد يده الى الطعام كأنهُ يأكل ولا يأكل حتى اكل الضيف الطعام . فلما اصبح قال له رسول الله لقد عجب الله من صنيعك الليلة الى ضيفكم ونزلت آية « ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة » فيا حبذا الكذب من هذا النوع

هذا وان الناس قد فتحوا باب الكذب على مصراعيه وتجوزوا فيه في غير محال الضرورة حتى كاد يكون خلقاً من اخلاقنا الاجتماعية فاذا اردت ابتياع سلعة او استصناع حذاء مثلاً قال لك التاجر او الصانع ان رأس مالها كذا قرشاً وراحا يعززان قولهما بأغلظ الأيمان وهما كاذبان في قولهما ويمينهما وهكذا تغلغلت خصلة الجبن في نفوسنا حتى صارت عادة مستحكمة تصدر عنا عفواً وبلا تأمل كأنها من الغرائز الطبيعية . ولو حللنا عوامل هذه النقيصة الاخلاقية تحليلاً نفسياً لم نجد لها سبباً سوى الجبن او الانانية فالكذاب يقصد بكذبه سواء اكان صريحاً او عن طريق المصانعة او

المداهنة او الرياء او التقية الى اتقاء شر يخافه او جلب خير يرجوه وكلاهما يتلخصان بالخوف والانانية . نعم ان الحياة الاجتماعية قد تلجيء المرء في بعض الاحيان الى الكذب والمصانعة كما قال زهير بن ابي سلمى

ومن لم يصانع في امور كثيرة يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم

إلاّ ان ذلك يجب ان يقصر على مواطن الحاجة والضرورة وعلى الاحوال التي لا مندوحة فيها عن الكذب فلا يسوغ لنا ان نسرف فيهِ اسرافاً يخرجهُ عن هذا القدر ويصرفهُ عن مقصد الشارع في الترخيص بهِ . فالكذب والمصانعة وما جرى مجراهما من ضروب المين بمثابة السم الذي يستعملهُ الطبيب لمعالجة بعض الامراض فان أعطى المريض منهُ مقداراً زائداً عن الحد المقدَّر لهُ طبّاً أودى بحياة المريض

وهكذا الكذب يخشى اذا نحن أسرفنا في التجوز بهِ ان يوردنا موارد العطب والهلكة لا سيما وان تقدير مواطن الضرورة فيهِ من أدق الامور وأصعبها بل هو من مزالق الاقدام ولذلك كان السلف يحتاطون في الترخيص بهِ ويقولون لا يجوز للرجل ان يكذب لصلاح نفسه فما عجز الصدق عن اصلاحه كان الكذب أولى بفسادهِ »

فيجب على قادة الرأي فينا من علماء وأدباء وكتّاب ان يعالجوا هذا المرض الاخلاقي معالجة دقيقة ويصفوا لهُ الدواء الشافي او الواقي . ولعلَّ خير ما يصنعون ان يكثروا من المحاضرات والمقالات في هذا الصدد فعسى ان يكون من وراء ذلك ما يحقق الغرض من تقويم اعوجاج نفوسنا وتطهيرها مما علق بها من أدران وأوضار فنحن أحوج ما يكون الى تجدد أخلاقي يبنى عليه صرح نهضتنا القومية التي نسعى اليها . وكل رقيٍّ لا يشاد على أساس الفضائل الاخلاقية فمصيره السقوط والانهيار . ورحم الله القائل :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

تحريم السرقة

سئل الدكتور صرّوف ، رحمة الله عليهِ ، ما هي الادلة القاطعة على تحريم السرقة فقال :

التحريم أمرٌ دينيٌّ . والاديان تنهى عن السرقة . ولا دليل فوق ذلك . ولكن اذا اردتم الدليل على ضرر السرقة فالسارق قلمّا يُضَرّ . والذي نسرق امواله يُضَرُّ غالباً بحرمانهِ مما هو لازم لمعيشتهِ وراحتهِ . ولكن الضرر الاكبر يقع على الجماعة التي تجيز السرقة لانها تفقد حق التملك الذي هو اساس العمران وتعود الى البداوة والفوضى

الاستشارة الطبية الدورية

أهميتها — فوائدها

للدكتور حسن كمال

---

١ — يعلم القراء أن الصحة هي أهم ما يدخره الانسان . وقد شبهها بعضهم بتاج على رؤوس الاصحاء لايراه الا المرضى . ولا غرابة في ذلك فالجسم المعافى الخالي من الامراض الكامل النمو هو الاطول عمراً والاقدر على تحمل المشقات والاكفأ على ادارة الامور بحزم وجد ونشاط مع شعور بالراحة والطمأنينة والانشراح . والمثل يقول العقل السليم في الجسم السليم

٢ — وفي هذا الصدد يبدو لنا لاول وهلة سؤالان « كيف الوصول الى هذه الصحة ؟ وكيف نحافظ عليها اذا ما اهتدينا اليها ؟ الجواب عنهما يتلخص في ما يلي : —

اولاً : وقاية الجسم من العلل والسقام قبل ان تصل اليه

ثانياً : المبادرة بعلاج كل حالة مرضية تظهر في الجسم لأن الاختبار علمنا أن استئصال المرض في مبدئه سهل اذا قيس باستئصاله بعد تمكنه وتثبته وتركزه . سهل لانه لا يتطلب حينذاك عناءً كبيراً . فمقدار يسير من الدواء او اصلاح يسير في المسكن والملبس او تعديل خفيف في الغذاء يكفي لشفاء معظم الامراض المبتدئة فتقصر مدة المرض ويتفرغ الشخص لمهامه المعتادة وتنعدم ابواب مصروفات المعالجة ويزول الهم والغم ويبقى الفرح والسرور

٣ — فاذا كان الامر كذلك — فما هي الطريقة التي تجمع بين وقاية الجسم من المرض حتى لايصل اليه والشفاء منه بسرعة اذا ما تسرب اليه ؟ — الطريقة الوحيدة الناجعة هي الاستشارة الطبية الدورية . ورب سائل يسأل : وما معنى الاستشارة الطبية الدورية التي تدعو اليها وتريد ان يتبعها الجمهور؟ الجواب عن ذلك ان المقصود بالاستشارة الطبية الدورية هو التردد على طبيبك الخاص وانت في حالة الصحة كي يفحصك . فاذا ما لاحظ عندك مرضاً مبتدئاً لا تعلمه أشار عليك بالدواء . أو لاحظ انك معرض لبعض العلل من جهة ملبسك او مشربك او مأكلك او مسكنك أو مهنتك أشار عليك بالعمل اللازم حتى لا تقع فريسة لامراض الملابس الغير صحية او الطعام الذي لايوافقك

او المسكن الذي لا يتفق مع حالة جسمك او الشغل الذي قد يؤثر في اعصابك او نظرك او معدتك والمعروف ان درهم وقاية خير من قنطار علاج

وعليه فالاستشارة الطبية تعني اخذ رأي الطبيب . اما كلمة دورية فتعني الاستمرار في ذلك في مواعيد مناسبة او بعبارة اخرى في ادوار موافقة لحالة الجسم والسن

٤ — وأهم فوائد الاستشارة الطبية الدورية هي معرفة المرض في مبدئه . ومعلوم ان الأمراض نوعان حاد ومزمن . فالحاد هو الذي يبدأ فجأة وبشدة ويكون عادة قصير المدة . أما المزمن فهو الذي يتخلف عادة من الحاد وهو طويل المدة قليل الشدة . هذان النوعان اذا شخصا في مبدئهما تمكن الطبيب من مكافحتهما ووصف الدواء لهما فتقصر مدتهما وتقل مضاعفاتهما ويخف تأثيرها السيء في الجسم وعليه فمعرفة المرض عند ظهوره هو اهم عامل لضمان صحة الفرد والمجتمع

٥ — وقد اهتمت الدول الغربية بالاستشارة الطبية . ثم توسعت فيها فاباح بعضها التعقيم الجراحي فيمن ينتظر ان يتركوا ذرية مريضة تكون عالة على المجتمع عديمة الفائدة للوطن فسبقوا في احتياطهم هذا ظهور الامراض في النسل

٦ — والاستشارة الطبية الدورية من أهم العوامل التي تُنمّي معلومات الاطباء فهي لذلك مفيدة لهم افادتها للأفراد . لانها تتطلب مهارة فنية ودقة كبيرة في معرفة الامراض المبتدئة . لذلك نجد أن كثيراً من الامراض يرجع الفضل في استئصاله او تخفيفه الى الاستشارة الطبية الدورية . ومن هذه الامراض السل والسرطان وهما مرضان خبيثان أصبحا الآن بفضل معرفتهما في مبدئهما أقل خطورة وأقرب الى الشفاء عن ذي قبل

٧ — متى يُبدأ بالاستشارة الطبية الدورية ومتى يُنتهى منها ؟ — الجواب ان هذه الاستشارة يُبدأ بها منذ الوضع ويُستمر فيها حتى الوفاة

٨ — ومن هو اجدر الناس بالقيام بهذا العمل ؟ — هو طبيب العائلة — لعدة اسباب منها (ا) إن اشراف الطبيب على افراد العائلة في اوقات الصحة يزيد كثيراً من عنايته بها أثناء المرض (ب) ان طبيب العائلة ادرى بأحوالها الصحية والمالية والمعاشية فهو لذلك اكفأ الاطباء في ادارة شئونها الصحية بأسلوب ظريف كيّس

٩ — وفي بعض البلدان كالولايات المتحدة قسائم مطبوعة للاستشارة الطبية الدورية يملأ خاناتها الطبيب الكشّاف ويذكر بها الملاحظات والاعراض المهمة وقت الكشف ويحتفظ لنفسه بنسخة منها ويُعطي الطالب نسخة اخرى ينتفع بها وقت الحاجة

١٠ — وتتلخص الاستشارة الطبية الدورية في وزن الشخص (ولهذا مكانته عند الاطفال) وقياس الارتفاع ودرجة الحرارة والضغط الدموي وتحليل البول وفحص الهيكل العظمي والغدد الليمفاوية ووظائف الاعضاء وارتخاء العضلات وسلامة الجلد وحركات المفاصل. ومظاهر الجسم الخارجية. ولا يخفى ان الشكل الخارجي كثيراً ما يشير الى امراض كامنة ثم يفحص الرئتان والقلب والنبض. وتلاحظ العادات الضارة كالتدخين وتناول المشروبات الروحية. كذلك الامراض العائلية الوراثية. ثم تلاحظ درجة تعرض الشخص لامراض حرفته. ويفحص الفم للتأكد من سلامة الاسنان وحالة اللوزتين وكذا الانف والعينان

١١ — هكذا تمس الاستشارة الطبية كل جهاتنا المعاشية. وسأتمشى مع حضراتكم على سبيل المثال. وافرض ان اسرة من الاسر اتفقت مع طبيبها الخاص ان يقوم بفحص افرادها الصغار كل ستة اشهر والكبار كل سنة بالمنزل تارة وبالعيادة تارة أخرى. مثل هذا الترتيب يزيل كثيراً من الكلفة بين الطبيب وافراد الاسرة مما يوسع نطاق اطلاعه على احوالها ويجعل لنصائحه منزلة محترمة عندها بصفة خاصة. ويمكنه ايضاً من الاشتراك معها في شعورها فيفرح لفرحها ويأسف لأسفها. إذن ماذا ينتظر من استشارة مثل هذا الطبيب دورياً — هذا هو السؤال الذي سأفسره لحضراتكم

١٢ — اول ما يتطرق الى ذهن الطبيب ان يلاحظ مسكن العائلة وان ينصحها باتخاذ مسكن كثير النوافذ تدخله الشمس له دورة مياه نظيفة

١٣ — بعد ذلك تأتي مسألة الخدم. فيفحصهم قبل التحاقهم بالعائلة كي يتأكد من عدم اصابتهم بامراض معدية او عاهات تمنعهم من أداء اعمالهم المطلوبة منهم

١٤ — ثم تأتي مسألة الاطفال. وهؤلاء يوزنون باستمرار لمراقبة نموهم. وطريقة تغذيتهم وتلاحظ ملابسهم ومحال نومهم. واعلموا حضراتكم ان كثيراً من امراض الاطفال يدركها الطبيب قبل ان تظهر للوالدين. من ذلك مرض لين العظام فان له اعراضاً مبدئية في الاضلاع ونهاية العظام تمكن الطبيب من معرفة الداء في بدايته فيصف لذلك الدواء والغذاء اللازم وتعالج الحالة قبل وضوحها. كذلك مرض احدى غدد العنق الذي تصحبه السمنة وخشونة الجلد وقلة النمو وظهور اعراض الكسل والخمول وبلادة الذاكرة يمكن تداركها في اولها بسهولة وهناك المرضعة التي يجب التأكد من خلوها من الامراض المعدية ومن جودة لبنها. هكذا تفيد الاستشارة الطبية الاطفال

١٥ — بعدَ ذلك تأتي مسألةُ تحصينِ العائلة ضدَّ الامراض . كالتطعيمِ ضدَّ الجُدري والحَقْنِ ضد الدفتريا وخلافها كالحمى التيفودية . والطبيبُ هو الذي يرشدُ العائلةَ الى ذلك ويتولى تنفيذَه . وهناك امراضٌ كالحصبة يمكنُ حصرُها في الطفل المصاب دونَ سواه عند ظهورها بحقنِ الآخرينَ بمصل يمنع اصابتهم او يخففها على الاقل . اليست كلُّ هذه فوائد لا يستهانُ بها ؟

١٦ — والالعابُ الرياضية ، التي اصبحت الزامية بمدارسِ بعضِ البلادِ الغربية لما تحدثهُ من كمالِ النمو وزيادةِ مقاومةِ الجسمِ والنشاط وتعوُّد النظامِ في الجلوسِ والوقوفِ والمشي واداء الاعمالِ اليومية . هذه الالعاب هي اهمُّ ما يصفُها الطبيبُ وهي على انواع بعضُها يؤدى بالمدارسِ والبعضُ الآخر في الاندية الرياضيةِ والمنازل

١٧ — وقد دلتنا التجربةُ والابحاثُ العديدةُ ان لطول الجسم ووزنه وشكل صدره علاقة ببعضِ الامراض وان الطبيبَ الكشافَ يمكنهُ ان يصفَ العلاجَ والغذاء الذي يزيدُ في مقاومة الجسمِ ضدَّ هذه الامراض . فالبدانةُ وقصرُ القامةُ وغلظُ العنق كثيراً ما يصحبها زيادةُ الضغط الدموي . والطبيبُ الكشافُ يراقبُ ذلك ويمنعهُ . كذلك الاصابةُ بالدرن لها علاقة كبيرةٌ بشكل الصدر والطبيبُ الكشافُ يقي مثل هذا الشخص من النزلاتِ الصدرية وخلافه مما يُبعِّدُ هذا المرض

١٨ — وهناك مسألةُ العينين التي يجبُ العناية بها لكثرة الرمدِ الحبيبي هنا وانتشار قصر البصر الطبيعي. كذلك الاسنان فان تلفها يسبب تقرحاتِ اللسان والتهاب اللثة يحدث التهاب المفاصل المزمن وغيره . فالطبيب يرشد الشخص الى مثلِ هذه الامور في اولها

١٩ — ثم مرض الكلى والبول السكريّ كثيراً ما تشاهدُ اعراضُها بالبول دون ان يشعر صاحبهما بالمرض حتى يستفحل امره ويشتدَّ ضررهُ . وعليه فمجردُ تحليل البول باستمرار كثيراً ما يقي الشخص من ويلات هذين المرضين

٢٠ — هكذا تصبحُ الاستشارةُ الطبيةُ الدوريةُ درساً نافعاً لافرادِ العائلةِ منذ نعومة اظفارهم يفهمهم النافع من الضار ويعلمهم مبادىء علم الصحة ووظائف الاعضاء والحالات النفسانية المتنوعة او بعبارة اوجز يعلمهم قيمة الصحةِ . قال تعالى (وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) صدق الله العظيم

***

لوحظ في هذا المقال (١) الاختصار (٢) بساطة التعبير (٣) اجتناب المصطلحات الطبية

باب المراسلة والمناظرة

لا تقل كريات بيضاء[1]

---

١ : تخطئة رأي

نشر الاديب امين ظاهر خير الله مقالة في المقتطف (٨٧ : ٢٠٩) عنوانها : « أيقال كُريّات بيضاء ؟ » حاول فيها ان يثبت للقارىء جواز قول من يقول « كريات بيضاء » واورد لذلك شواهد لم تُثبت شيئاً مما توخاه من ردّه ، إذ جاءنا بالفاظ هي اشباه جمع او اسماء جمع او اسماء جنس او احرف هي بين الافراد والجمع فتوهم فيها جماعة الإفراد وتوهم فيها آخرون الجمع وفي مثل هذه الاحوال لا جدال في ان ينعت الموصوف بصفة مفردة او مجموعة

***

وأول شواهده « الكلم » بفتح فكسر وهذه اللفظة اختلف في حقيقتها : أهي جمع ام شبه جمع وللناس فيها مذاهب على كل حال فان مفردها « كلمة » فيجوز في وصفها الافراد او الجمع

وثانيها « الخشباء » فانها هنا منقولة الى الاسمية كما نقلوا الى الاسمية الخضراء والسمراء والزرقاء الى اشباهها

وثالثها « الشيعة » فهي مفردة كما هي جمع حسبما توجه معناها ، ولذا توصف بالافراد كما توصفُ بالجمع . ومثل ذلك ما جاء في سورة الشعراء : « ان هؤلاء لشرذمة قليلون » فقد وصفها بالجمع لان مدلولها مجموع ويجوز لك ان تقول شرذمة قليلة لان لفظها مفرد مؤنث

ورابعها « كتيبة » شهباء « وفارسية » خضراء « وسمهرية » سمراء فهذه الفاظ كلها وامثالها مفردة كما يجوز لك ان تقول انها مجموعة اذا نظرت الى معناها فهي كقولك شرذمة قليلون او شرذمة قليلة

وخامسها « اسم الجمع » ولا مشاحة في انهُ يوصف بالافراد كما يوصف بالجمع ومنهُ الآية في سورة المؤمنين : « فتقطعوا امرهم بينهم زُبراً كل حزب بما لديهم فرحون » فيجوز لك ان تقول على رأي النحاة وكل حزب بما لديه فرح على التقدير الذي تريده

---

(١) ارسل الينا العلامة الاب انستاس ماري الكرملي رداً مسهباً على مقال الاستاذ امين ظاهر خير الله نشرنا منه ما كان خاصاً بموضوع « كريات بيض وبيضاء » وما جرى مجراها

وسادسها « كل فعلاء واردة لمجموع » فانت مخير في ان تنعت صفته بالافراد او بالجمع . ومنهُ ما جاء في ترجمة الاحنف التميمي وهي العبارة التي استشهد بها الاديب، أمين فقد نقلها بهذه الصورة (ص ٢١٢ من المقتطف) : « هذه الحمراء قد كثرت بين أظهر المسلمين ، وكثر عددهم (اي عدد الحمراء) وهي لفظة بصيغة الافراد ولكنها تعتبر جمعاً في المعنى ومفرداً في اللفظ . ولهذا تقول كثر عددهم وكثر عددها كما تشاء والظاهر ان ابن ظاهر لم يفهم هذه الحقيقة فكتب بعد « عددهم » كلمة (كذا) كأن ذلك غلط وليس هناك زلل

وسابعها « عرب عاربة وعرب عرباء » فانت في الخيار في التذكير والتأنيث كما قلنا في شرذمة « قليلون وقليلة »

فهذه الشواهد لم تثبت لنا شيئاً وكنا نود ان يأتينا بلفظة مجموعة جمعاً صريحاً وصفتها الافراد ، فاذا اتانا بشاهد مثل نساء حمراء ورجال حمراء لقلنا لهُ اصبت ، لكنهُ جاءنا بألفاظ تحتمل الافراد والجمع فلم يفدنا الفائدة التي كنا نتوقعها من مقالته الطويلة العريضة وبطل الاستدلال بشواهده تلك العرج

٣ : الرأي الصحيح

لا مشاحة في ان أفْعَل ومؤنثها فعلاء اذا جاءَت صفة لموصوف (لا موصوفاً) ودلَّت على لون او عيب او حلية ، فان كلاًّ من افعل وفعلاء يجمع على فُعْل بضم فسكون ، وقد يجمع فُعْل على فُعْلان بضم ايضاً . تقول أحمر وحمراء وحُمْر وحُمْران . اسود وسوداء وسُود وسُودان . ابيض وبيضاء وبِيْض وبِيْضان الى آخر ما نقل عن فصحائهم . قال المبرّد في كتابه الكامل (ص ٣٣ من طبعة اوربة وفي ١ : ٢٧ من طبعة مطبعة التقدم العلمية بدرب الدليل بمصر سنة ١٣٢٣) : « وابرقُ اذا عَنَيْتَ بهِ المكان مضارعة للاسماء لانها تدل على ذات الشيء ، وان كانت في الاصل نعتاً . تقول في جمعها الاباطح والابارق والاداهم والاساود . فان اردت نعتاً محضاً يتبع المنعوت قلتَ : مررت بثياب سُوْد وبخيل دُهْمٍ وكل ما اشبه هذا فهذا مجراهُ . . . » الى آخر ما قال فراجعهُ تَرَ في كلامه ما يسدّ افواه المتحذلقين

واعادَ مثل هذا القول في ص ٤٣٨ من طبعة اوربة و ٢ : ٥٨ من طبعة مصر وهذا نصه : « وأفعل ، اذا كان نعتاً بنفسهِ فجمعهُ فُعْل نحو أحمر وحُمْر واسود وسود . واذا كان نعتاً فاجرى مجرى الاسماء فجمعهُ افاعل نحو أساود وأجادل وأداهم اذا اردت القيد لانهُ نَعْت غالب يجري مجرى الاسماء . وان اردت ادهم الذي هو نعت محض قلت : دُهْم . . . » الى آخر ما جاء هناك فيحسن بك ان تقف عليهِ لتردّ عنك هجمات الصائلين في البيداء بعيدين عن العِدَى . ونحن لا نريد ان نزيد على هذا القدر لما في ذلك من الكلام على غير جدوى

٣ : الخلاصة

الخلاصة مما قلنا : انهُ لا يقال ادلة غراء ولا هضاب ملساء ولا شمائل حَسْناء ولا كريات بيضاء إذ كلها اغلاط صريحة صارخة بخطإها الى عنان السماء . والصواب غُرّ ومُلس وحسان (لان الحسناء هنا ليست بمؤنث الأَحْسَن بل الحَسَن وهذا خارج عن كلامنا) وكُريّات بيض ولا يجوز ابداً غير هذا

بغداد الاب انستاس ماري الكرملي

***

أيقال كريات بيضاء

قلت يقال على انهُ نادر جدًّا والمسألة هي اني لقيت يوماً السيد مصطفى جواد في ادارة المقتطف فقلت له انت والاب انستاس تقولان انهُ لا يجوز قولنا بيضاء وحمراء والصواب بيض وحمر قال نعم فانهُ لا يجوز واتفق مجيء السيد عبد الرحيم بن محمود فقال نعم يجوز فقلت للسيد مصطفى ما هي ادلتك على ذلك فقال ان افعل وفعلاء اذا دلاّ على لون او عيب فانهُ لا يقال في جمعها الاّ فُعل ثم اخذ يورد الآيات القرآنية دلالة على ذلك منها «صمٌّ بكمٌ عُميٌ» الآية ومنها« من الجبال جددٌ بيضٌ وحمرٌ مختلفٌ الوانها وغرابيب سود» الآية . واورد آيات اخرى فقلت ألم يأت في القرآن الكريم ما يثبت خلاف ذلك قال لا فقال السيد عبد الرحيم هذا صحيح وانما جاء في كلام العرب قولهم فعلاء نعت للجميع وانما الآن لا يحضرني امثلة على ذلك. ثم انصرف الاثنان وانا مقتنع ان ما ورد في القرآن الكريم هو الصواب دون غيره . اما الآن فبعد الادلة التي اوردها السيد امين ضاهر خيرالله فاني اقول انهُ يجوز قولنا كريات بيضاء وكريات حمراء على انهُ نادر جدًّا والافصح ان يقال بيض وحمر ومعاذ الله ان ازيف ادلة السيد امين وهو اللغوي القدير وقد كان والده رحمهُ الله اماماً في اللغة وهو مشهور بيننا في لبنان . ولما كان الشيء بالشيء يذكر فاني كنت اخذت على اعضاء مجمع اللغة الملكي قولهم صماء وقلت الصواب صمٌّ ونشرت ذلك في المقطم وهو منشور في مجلة المعهد الطبي العربي الجزء ٢ المجلد ١٠ فلما نشرت مقالتي المشار اليها بلغني ان المجمع قرر في ما قرره الموافقة على نقدي فقالوا الغدد الصمّ لا الغدد الصماء كما قالوا قبلاً . وسينشر ذلك في جزء المجلة الذي يصدر في شهر اكتوبر . ولو فرضنا انهُ يجوز قولنا صماء وبيضاء وحمراء فالافصح ان يقال صمٌّ وبيضٌ وحمرٌ فقد قضينا العمر في «هل يجوز او لا يجوز» فالحياة قصيرة جدًّا فالاصلح قضاءها في ما يكون اكثر فائدة لنا . اما الشرط الثاني للسيد امين وهو قوله ان يكون الرد نقيًّا من المطاعن فهو لا يشملني على ما اظن

مصر الجديدة امين المعلوف

ارشاد لغوى

للاستاذ عبد الرحيم بن محمود

لفيفٌ ثالث من أمراض وأعراض بوزن فُعال

إلى الاستاذ الباحث سالم خليل رزق في النبك من سورية

﴿ الكُتاف ﴾ — وجع الكتف « Shoulder-Pain »

﴿ اليُداء ﴾ — وجع اليد وقد يَدِيَ الانسان من يده اذا ذهبت « Amputation »

واليُداء أيضاً يُبْس اليد « Ankylose of Hand »

﴿ الكُساح(١) او القُماد ﴾ — وهو داء يُقْعِد من أصيب به من انسان أو حيوان « Rickets »

﴿ السُلاق ﴾ — وله ثلاثة معانٍ في اللغة العربية : — (١) بثر يخرج على أصل اللسان ويرادفهُ بالانكليزية « Glossilis » (٢) تقشر في اصول الاسنان ومرادفه « Gingvitis » (٣) غلظ الأجفان في احمرار وتقرّح ومرادفه « Conjunctivitis »

﴿ الحُلاق ﴾ — وجع الحلْق « Pharyngitis »

﴿ القُلاح ﴾ — سواد الاسنان ومرادفه بالانكليزية « Dental-Denigration »

والقُلاح أيضاً صفرة أو خضرة في الاسنان أو بينها أو أي تلوّن لها ومرادفه « Dental Coloration »

﴿ الهُناع ﴾ — فسّره اللغويون بأنهُ داء يصيب الانسان في عنقه وفي أصل المادة اللغوية هَنَع الشيء يهْنَعهُ هَنْعاً عطفه عطفاً وثنى بعضه على بعض فالداء المراد يثني الرقبة ويعطف بعضها على بعض وهو يحدث من تسوّس في عظام فقرات الرقبة كما يرى الطبيب سامي الياس وغيره من الاطباء ومرادفه بالانكليزية « Pott's Disease »

﴿ المُلال ﴾ — ورد في الملاغي لثلاثة معانٍ أولها وجع الظهر ومرادفه « Lumbago » وثانيها عَرَق الحمّى ومرادفه « Perspiration ». وثالثها تقلّب المريض وجعاً « Irritation »

﴿ القُداد أو القُضاع ﴾ — في اللغة وجع في البطن وتقطيع فيه وفي المادة اللغوية قَدَدْتُ الأديمَ اذا شققته طولاً ومما أرويه

وقددت الاديمَ لراهشيه وألفى قولها كذباً ومَيْنا

وتقضّع تقطع تمزّق والمرادف لكل من تين اللفظتين المترادفتين « Colic »

هذا وللطبيب سامي الياس شكرٌ جمٌّ لعنايته باختيار الالفاظ الطبية المطابقة تمام المطابقة للالفاظ العربية

---

(١) الكساح لين في العظام وينشأ عن نقص في الفيتامينات ويعالج بتوصيلها الى الجسم بتجرعها في الماكل او الادوية وبالتعرض للاشعة فوق البنفسجية كما يرى الاطباء.



علم الامراض الباطنية

الجزء الاول امراض الجملة العصبية للدكتور حسني سبح استاذ الامراض العصبية والباطنية في المعهد الطبي العربي

هو كتاب آخر من الكتب النفيسة التي يتحفنا بها بين حين وآخر اساتذة المعهد الطبي بدمشق وقد كتبت قبلاً عن كتب اخرى من مؤلفات اساتذة المعهد وهذا احدها وهو لا يقل عن غيره من المؤلفات الاخرى في نفاسته ودقة بحثه . فلا عجب اذا جاء مثل غيره في سبكه في قالب عربي متين وفي مصطلحاته العربية فاذا اطلع عليه القارىء وجده كتاباً عربيًّا لا عجمة فيه لذلك سيكون نقدي له من وجهة المصطلحات لا من وجهة التأليف لانهُ بلا ريب آخر ما وصل اليه العلم في أيامنا

اما طبع الكتاب فحسنٌ جدًّا وهو مطبوع في مطبعة الجامعة السورية في دمشق وحروفه جميلة وأظن الطبع يكون أحسن لو أ كثر المؤلف من ضبط بعض الفاظهِ بالشكل الكامل مثل الأُسْر ويراد بهِ احتباس البول حتى لا يلتبس بالأَسر مصدر أَسر والأُسري نسبة الى الأُسرة فان اشكالاً قليلة تزيد في محاسن الكتاب ولا تكلف عناءً كثيراً وفيها فائدة كبيرة ولاسيما ان الكتاب مدرسي فوضع الشكل ضروري جدًّا في بعض الاحيان وهو يدل على شدة العناية في طبع الكتاب وابرازه

اما المصطلحات الطبية فحسنة جدًّا لا يفوقها شيء في جودتها فقد ذكرها المؤلف وذكر امامها الاسم الفرنسي بحروف مضبوطة واضحة ثم وضع جدولاً في آخر الكتاب فيهِ نحو الف وخمسمائة كلمة فيكاد يكون معجماً كاملاً ذكر فيهِ الالفاظ الطبية بالعربية والفرنسية . ومن محاسن الكتاب ان المؤلف ابتعد عن الحذلقة التي كثيراً ما يقع المؤلفون فيها فلم يذكر الاَّ كلمة واحدة عربية لما يقابل اللفظ الفرنسي حتى لا يضيع الطالب في كثرة الاسماء فلا يدري أيها يختار فكلمة واحدة تدلُّ على الاعتماد على النفس . فهذا المعجم على صغره افضل كثيراً من معجم كبير لا فائدة منهُ

على انني لا اوافق المؤلف في الفاظ قليلة جدًّا مثل البلغم واظن الصواب النفة وأذكر مناقشة جرت بيني وبين الزميل الدكتور حمدي الخياط في هذه الكلمة فالنفة اعجمية كذلك البلغم ولا ارى وجهاً لتفضيل لفظ أعجمي على آخر أعجمي مثله سوى ان الواحد قديم لكنهُ لا يؤدي المعنى تماماً . كذلك لا اوافقهُ على الغول واظن الالكحول احسن والحكمي واظن الطبيعي احسن وان شئت فقل الطبعي وهذه فيها شيء من الحذلقة . ولا اوافقهُ على الحيوي واظن الاحيائي احسن . ولو نسبنا الى الجمع . ولا اوافقهُ على الداء الافرنجي واظن السفلس او الحَلَق او الحُلاق افضل فالحلق واردة في كتب اللغة لداءٍ يشبه السفلس وشائع في السودان لهذا الداء بعينهِ . وهم يقولون

فلان محلّق اي مصاب بالحَلَق . ولا ادري أمحّي بذلك لانهُ يصيب النـاس في حلوقهم ام لان احد ادواره يشبه الحلق. على ان الكلمة شائعة جداً ولا شبهة في أنها افضل من الافرنجي لان قولنا الافرنجي فيهِ مساس ببعض الاقوام

فهذه الفاظ قليلة جداً أخالفهُ فيها ولعلَّ الصواب في جانبهِ او لعلَّ الالفاظ التي لا أوافقهُ فيها يكون ما ذكرهُ احسن كثيراً . ثم ان المؤلف ذكر في مقدمة الكتاب انهُ تعلَّم بالتركية فتجد الفاظاً تركية التركيب لا تسيغها القواعد العربية على ان المؤلف انتبه لها في آخر الكتاب واصلحها في التصويبات

وعلى كل فهذا الكتاب نفيس جداً لا يفوقهُ شيء في جودتهِ . فأهنىء المؤلف الفاضل على ابرازه لاننا في حاجة شديدة الى امثاله من الكتب الطبية التي يعتمد عليها سواء كان ذلك في لغتهِ او في مصطلحاتهِ

مصر الجديدة — امين المعلوف

الفن الاسلامي في مصر

للدكتور زكي محمد حسن

كنا الى عهد قريب لا نقرأ عن الفنون الفرعونية او الاسلامية الاَّ ما كتبهُ المؤلفون الاجانب فهم الذين تناولوا الحفريات في مصر منذ أوائل القرن التاسع عشر وعنوا بوصفها في مؤلفاتهم النفيسة كما تخصصت جماعات منهم لدراسة الآثار المصرية في خلال الاعوام المائة الاخيرة فتسابقوا للكشف عن مخلفات ابناء النيل القدماء وتعمقوا في دراستها فكنا اذا اردنا ان نقرأ شيئاً عن الفنون او الآثار لم نجد ضالتنا الاَّ في كتب الاجانب فنستوحي ما فيها لنتعرَّف الى بلادنا

كان ذلك الى عهد قريب جداً لما بدأت الجامعة المصرية توفد من نجباء خريجيها من يتخصص في دراسة الفنون المصرية والاسلامية فأثمرت تلك الشجرة المباركة ووجدنا ضالتنا في المؤلفات الحديثة التي أخرجها ابناء الجامعة في الاعوام الاخيرة

نقول ذلك على ذكر ظهور الجزء الاول من الكتاب النفيس « الفن الاسلامي في مصر » الذي ألّفه الدكتور زكي محمد حسن الأمين العلمي لدار الآثار العربية . وقد رأينا كتابه الاول « الطولونيون » منذ عامين

ولا يسعني في هذه العجالة القصيرة سوى القاء نظرة سريعة على هذا السفر النادر فقد قسَّم المؤلف بحثه الى قسمين . فتناول في القسم الاول نشأة الفن الطولوني في سامرّا . وانتقاله الى مصر لما تولى احمد بن طولون حكم البلاد المصرية . ووصف لنا بوضوح العمارة الدينية والمدنية والحربية في عهد ذلك الملك المستقل ، وصور لنا ما كانت عليهِ مدينة القطائع التي جعلها عاصمة ومقر ولايتهِ وحلَّل لنا بأسباب تصميم جامعهِ العظيم وهو الأثر الاسلامي الذي ما زال حافظاً لرونقه كما شيده مهندسه العراقي الذي قدم الى مصر في ركاب ابن طولون على ما يرجحهُ المؤلف

وفي القسم الثاني تناول المؤلف الكلام عن الفنون الزخرفية التي نشأت في مصر منذ الفتح العربي الى العصر الطولوني فتكلم عن المنسوجات والحفر على الخشب والخزف والتصوير الخ. ثم زين الكتاب بمجموعة نفيسة جداً من الصور النادرة التي جمعها بين تحف دار الآثار العربية والمتاحف الاجنبية في برلين ولندن وباريز كما ابدعت مطبعة دار الكتب في اخراج كتاب يعد مثالاً كاملاً للذوق والاتقان

ويزيد الكتاب قدراً تلك الصفحات الست التي ذكر فيها الدكتور المصادر التي يجب على الدارس الاعتماد عليها اذ اراد التوسع في البحث وكلها مراجع لها قيمتها لدى طلاب الفنون والآثار الاسلامية

واذا كان هناك ما نؤاخذ عليه المؤلف الفاضل فهو اغفاله للتاريخ الهجري واقتصاره على التاريخ المسيحي وان بحثاً مثل هذا يجب ان يشمل التاريخين. كذلك اقتصاده في الكتابة عن جامع عمرو وقد رأى المؤلف انهُ لم تعد له قيمة كبيرة من الناحية المعمارية الاسلامية للزيادات العديدة التي غيرت معالم الجامع الاول. ولم يذكر المؤلف شيئاً عن مقياس الروضة الذي يعد اقدم أثر اسلامي في هذه البلاد

***

المعلم الجديد

مجلة تصدرها وزارة المعارف العراقية اربع مرات في السنة. العدد الثاني حزيران ١٩٣٥

رئيس تحريرها الدكتور متى عقراوي يعاونه جماعة من السادة والسيدات

من شاء أن يعرف شيئاً عن النهضة العلمية في الدولة العراقية الفتية وشيئاً عن اخلاق العراقيين فما عليهِ الاَّ قراءة هذه المجلة وتصفح ما فيها ليعلم مقدار رقي تلك البلاد فقد قرأتها من اولها الى آخرها فرأيت فيها بياناً موجزاً لوزير المعارف معالي محمد رضا الشبيبي وهو اديب مشهور وعالم كبير من علمائهم وجه فيهِ خطابه الى موظفي المعارف وحثهم على ما يطلب منهم وهو بيان حقه ان يكتب بماء الذهب لما فيهِ من النصائح الرشيدة

ثم مقالة لمدير المعارف العام الدكتور محمد فاضل الجمالي بعنوان « في اهداف التعليم » في العراق وكنت اود ان الخصهُ وانما سأقتبس شيئاً منهُ قال: « ان الهدف الرئيسي للتعليم يجب ان يكون خلق امة قوية مرصوصة البنيان منيعة الجانب ذات مزايا شخصية ممتازة وذات استعداد مادي ومعنوي تستطيع ان تجاري امم الارض في مضمار التقدم والحضارة وتستطيع ان تقدم الى البشرية جمعاء ما عندها من مزايا مادية ومعنوية ولاجل ان تتوصل الى هذا الهدف يجب ان تتوافر فيها الشروط التالية »

ثم اخذ يسرد هذه الشروط واولها معرفة النفس وانهُ يجب على الطفل في المدرسة ان يمارس الاخلاق القومية ويتحلى بها وان النظام والاحتياط اساسيان في تقوية الامة ومجاراتها لامم العالم. وقال في الامة العربية الكبرى انها امة ذات نزعة روحية. ثم ذكر صفات العربي ومنها عزة النفس

واباء الضيم والعفة والشجاعة والايثار والكرم والشهامة ، والمقالة كلها على هذه الصورة حث على المبادىء الصحيحة القويمة

ثم مقالة « في فتح طريق الحج البري الجديد » لحسن فهمي بك رئيس شعبة الادارة في مديرية الشرطة العامة . ومقالة اخرى « في طريق الحج البري » بقلم محمد درويش المقدادي مدير الثانوية المركزية وصف فيها هذا الطريق وصفاً مسهباً مستعيناً بما دوّنهُ الرحالة المستشرق موزل ومستشهداً بالذين كتبوا عنها مثل ابن خرداذبه وابن جبير وابن بطوطه . ويلاحظ في هذه المقالة ان المؤلف لم ينسب شيئاً الى نفسه بل ذكر الاسانيد كلها شأن العلماء المحققين اي انه لم يسرق شيئاً ومعاذ الله ان يفعل فان سرقة الادب داء استفحل امره في الشرق فبعمله هذا كان قدوة لتلاميذه

ثم مقالة « في نظام المعارف في انكلترا وويلز » ترجمة بشير الياس اللوسي المدرس في الثانوية المركزية . ومقالة « في العرب واكتشاف اميركا » وهو بحث لعالم الماني مترجمٌ عن الفرنسية. ومقالة « في اهمية النهضة الصناعية والتربية الصناعية في العراق » لمحيي الدين يوسف مراقب التعليم الثانوي. ومقالة في « الادب الشعبي » للسيدة سارة الجمالي . ومقالة « في الاتجاهات الحديثة » في علم الحساب للدكتور داود القصير استاذ الرياضيات في دار المعلمين ومقالة « في صفات المدرسة الصحية » للدكتور شريف عسيران استاذ الصحة في دار المعلمين الريفية ومقالة « في المدارس الابتدائية الريفية في ايطالية » وهي مقتبسة من مجلة العهد الجديد في البيت والمدرسة ومقالة « في اصل الانسان » لابراهيم شوكت مدرس الجغرافية بدار المعلمين الثانوية المركزية ومقالة مبتكرة « في المعارف العراقية في خمس عشرة سنة » للدكتور متى عقراوي بيَّن فيها سير المعارف في العراق . ومقالة عنوانها « اوقات الفراغ نعمة ونقمة » لفاضل حسين المعلم في المدرسة الخيرية ببغداد ومقالة « في المدرسة واصلاح القرية » لعبد المجيد محمود مدير معارف لواء المنتفك ومقالة « في مكافحة الخرافات بتعليم العلوم » لحكمت عبد المجيد ملاحظ الترجمة والتأليف بوزارة المعارف

ثم يلي ذلك نقد الكتب منها الجغرافية المتوسطة وحياة محمد وعلم الحيوان وعلم الاجتماع ومقدمة التربية وقوانين الالعاب الاولمبية ومجلة المعلمين والمعلمات والشعلة والفتوة والتربية البدنية والكشافة ونقد هذه الكتب نقد نزيه كما يجب ان يكون النقد بلا تحامل على المؤلفين ولا اطراء كما نجد نقد الكتب في كثير من المجلات. ويلاحظ ان بين هذه المجلات مجلة الفتوة فهي في غير معناها في الازبكية فالفتوة معناها مكارم الاخلاق لا ضرب العصي والتعدي على الناس . هذه هي الفتوَّة في العراق

والخلاصة ان هذه المجلة من انفس المجلات العربية بجميع المقالات التي فيها من الطبقة الاولى فكلها ذات فائدة وحث على الاخلاق الكريمة. فأهنىء وزارة المعارف العراقية باصدارها

مصر الجديدة   امين معلوف

كتاب فرناند ليبريت

اغاني البحيرة

ظهر اخيراً ديوان من الشعر الفرنسي للاستاذين الشاعرين (فيرناند ليبريت) مفتش اللغة الفرنسية بوزارة المعارف والثاني للاستاذ (فيشتر) مدرس اللغة الفرنسية بمعهد الليسيه بالاسكندرية والديوانان لهما نفحة خاصة من الشعر المصري وفيهما طائفة شائقة من الخواطر عن مصر دعانا للحديث عنهما حث المطلعين بالادب الفرنسي من المصريين المثقفين على ترجمة هذه الآثار القيمة التي فيها روح جديد تدخل على الشعر العربي نواحي جديدة مستحبة وانني هنا اعبر تعبيراً بسيطاً عن استحقاق هذه الآثار من وجهة التخليد ولولا العجز لقمت بهذا الواجب الادبي الصميم

يحملها اليّ حفيف الاشجار . وهمس الاصوات الخافتة . بل هذه الاصوات الناعمة التي خمدت. ويحملها اليّ مع ذكريات الطفولة العذبة المؤثرة ومع الحزن الذي يوافق اعيادي . ان هذه الاصوات تكاد تسمعني خرير المياه المتدفقة على طيات الجرانيت في الحدائق العليا لبيوتنا القديمة في هذه الساعة التي يترك فيها النسيم شعاعاً بنفسجيًّا على اجفان العذارى الحارة . وفي هذه اللحظات التي يتصاعد فيها بخور لهُ رائحة البذور الممزوجة بدم الشهداء . شهداء الحرب العالمية الكبرى في ساحات الوغى . ان اغاني البحيرة قد اودعت في نفسي زهيرات الماضي . ومزجت بذاكرتي رائحة اشلاء الجثث البريئة يهب عليها نسيم حبيبتي الجميلة

تسلمت كتاب (فرناند ليبريت) المحتوي على طائفة من القصائد الشعرية عن ثلاث نواحٍ. بعضها عن شباب الشاعر. وبعضها عن ذكرياته في الحرب الكبرى . والبقية الاخيرة تصور عاطفة الشاعر في تأثره بالحياة المصرية وتعبيره عن هذه الحياة باسلوب جذاب وخيال متمرد

ولقد تمكن ليبريت بدقة تصويره ورقة عاطفته ان يجعلنا نحيا ساعات مضت كانت سماء مصر فيها وردية حائلة اللون. لا تستطيع ان نجد لها شبيهاً اليوم الاَّ لون خدود العذارى اللائي لا مسحة على سيمائهنَّ من الزينة

تقول وقد اضرَّ بها التنائي ... واقلق بالهـا صرفُ الزمان
تسمعْ ياظلومُ رجاء نفسي ... كفاني ما اعانيه كفاني
أعدْ لي بهجة العيش المولّي ... وايام الهناءة والتداني
فبين يديك كنت تركت امي ... وارابي واودعت الاماني
تصورك الخيال وكنت وسني ... فانساني خيالك ما دهاني
شعرت بكفه مسحت جبيني ... من الهم الملازم والهوان
لهي ان احلامي تناهت ... عساني بالغ املي عساني ؟

حشود الذكريات عليَّ تترى ومالي حين القاها يدانِ

لو قدرنا ان الموسيقى فن امتزاج الاصوات ليخرج منها مقطعات في مكنتها ان تنقلنا الى عالم آخر فيهِ نشوة ولذة يرتاح اليهما العقل وتسر بنوازع الشعور . ولو قدرنا ان المصور هو الذي تنعكس في عينيهِ الاشياء والمعالم والصور بطريقة ذاتية فتخرج برنين مؤثر جذاب . يمكننا ان نؤكد انهُ لم يوجد اليوم في مصر — وقد لا يوجد — مصور ابهراو موسيقار أقدر من هذا الرجل ذي الملامح الحادة وذي الابتسامة الهادئة . الذي يهزنا شعره هزًّا عنيفاً ويحز في القلوب حزًّا . . . وتكاد اغانيه الشعرية تقبل كلها كالقافلة . من صميم البيداء . تحفها التموجات الموسيقية الهادئة

احمد راسم

الفن في مصر

« المصورون والمثالون في مصر الحديثة » — تأليف الاستاذ موريك بران

لا يستطيع احد الاَّ ان يعترف بان مصر قد خطت في سبيل الحضارة والرقي خطوات واسعة شملت جميع نواحي الحياة فيها . ولكن ناحية منها لا يعرفها الجمهور معرفة حسنة مع انها ناحية مهدها وادي النيل ونشأتها على ضفافه ونعني بها فن التصوير وفن الحفر

ومن يتتبع حركة التطور الفكري والفني في مصر يمكنهُ ان يدرك المدى الذي بلغتهُ هذه الحركة فيها وتقدم ذوق الجمهور الفني . فقد كونت مصر لنفسها شخصية فنية يعتد بها ونجح المعهد الذي انشىء في القاهرة سنة ١٩٣٠ نجاحاً عظيماً حتى ان هيئة التعليم في مدرسة الفنون الجميلة المكونة من اعلام الفن المشهود لهم بطول الباع سواء في مصر او في ايطاليا او في فرنسا يعربون عن سرورهم بالنتائج التي يفوزون بها . وقد كثرت المعارض الفنية في القاهرة كثرة دلت على ما للمصورين المصريين من مواهب . وان مصر لتعقد عليهم الامل في ان يحيوا تراث اجدادهم وان يبرهنوا للعالم ان ارض الفراعنة لها مستقبل فني لا يقل عظمة عن عظمة ماضيها الفني المجيد

ان الطبيعة والشمس في وادي النيل لا تكتفيان فقط بالهام الشعراء والكتاب بل تتغلغل وتصل الى اعماق نفس كل فنان فتبعث فيهِ ما يحرك قلمهُ او ريشته فيخرج لنا هذه الآيات الفنية التي نشاهدها في معارض القاهرة او في معارض روما او باريس

ولا بد لنا من ان نعترف بجميل اولئك الذين عضدوا هذه الحركة وعاونوا على احيائها بتشجيعهم لها تشجيعاً ماديًّا ومعنويًّا وعلى رأسهم صاحب الجلالة الملك فؤاد الاول الذي يبذل كل مجهود في سبيل رقي بلاده . كذلك لا يمكننا ان نفي جمعية محبي الفنون حقها من الثناء على ما قامت به من تشجيع للفنانين وإمدادهم بالمال في ثبات ونظام . وان في عناية صاحب الجلالة الملك بافتتاح المعرض

السنوي الذي تقيمه الجمعية كل عام لاعترافاً لهذه الجمعية بأفضالها على الفنون

وقد اخرج لنا المسيو « موريك بران » المدرس بكلية الآداب والسكرتير العام لجمعية محبي الثقافة الفرنسية سفراً نفيساً في هذا الموضوع درس فيه المظاهر العديدة لتقدم الفنون في قطرنا وفي هذا السفر الجميل وعنوانه « المصورون والمثالون في مصر الحديثة » جمع المؤلف ثلاث دراسات ومقدمة بقلم المسيو « اندريه دي لوموي » رئيس تحرير جريدة البورص اجيبسيين كما الحق به اربعة وعشرين صورة لاشهر المصورين في مصر

***

وليست قيمة هذا السفر الذي وضعه المسيو « موريك بران » في استعراض الفنانين وما اخرجوا من آيات فنية وانتقادها انتقاداً صحيحاً بل هي في تحليله لها وبحثه عن مصادر الهام الفنان ووحيه اذ هو يشرح لنا شعور الفنان واحساسه ونظرته الى الفن وليس هذا بأيسر الامور

ولقد اثنى على هذا التحليل في مقدمة الكتاب المسيو « اندريه دي لوموي » فقال : ان المسيو « موريك بران » لم يفصل بين الفنان وما اخرج فهو قبل ان يشرع في انتقاد التحفة الفنية كان يدرس مصدرها ووحيها في شخصية الفنان ، في تكوينه وفي نماذجه او فيما يعجب به . وقد كلل عمله بالنجاح دائماً »

وفي الواقع اننا عند ما نقرأ صفحات هذا الكتاب الجليل نفهم البواعث التي حملت فنانين مثل « كاميو انوشتي » او « ناجي » او « محمود سعيد » او « مختار » او « آيمي نمر » او « افاديسيان » او « منصور » او « زكي خليل » او غيرهم على التصوير او الحفر

ودراسة المسيو موريك بران للمصور « نيروني » دراسة وافية تعطينا فكرة واضحة دقيقة عن التحف الفنية التي اخرجها هذا الفنان الذي يتأثر بالطبيعة وبجمالها المختلف تأثراً قوياً فينقلها الينا في صوره الرائعة

والمسيو « موريك بران » لا يعتبر الفن مجرد نقل عن الطبيعة او تقليد لها وانما هو خلق وتعبير . فالواقع ان صور الفنان « نيروني » تعبر من عوالم خيالية وبلاد جميلة لا تشاهد الا في الاحلام

كذلك اثنى المسيو موريك بران على المصور « فرج منصور » ثناء عظيماً فهو يعجب : كيف استطاع هذا الفنان ان يجمع بين التناسب في الخطوط والانسجام في الحجوم وبين العظمة والنبل والبساطة معاً . انهُ يمت الى طبقة الفنانين في عهد الفراعنة وقد تمكن بموهبة غريبة ان يجعل الاشكال الهندسية حيةً بل تخفق حياة »

وعلينا ان نثني على المسيو « موريك بران » وعلى كتابه هذا الجليل . فقد استطاع ان يبعث فينا الايمان بابدية مجد مصر الفني

صبري فهمي

عمر بن ابي ربيعة

عصره وحياته وشعره

بقلم جبرائيل سليمان جبور — الجزء الاول (عصر ابن أبي ربيعة) — ٢١٢ صفحة بحجم المقتطف — طبع بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت

اذا ذكر الشعر الغزلي في الادب العربي برز اسم عمر بن ابي ربيعة من خلال القرون البعيدة التي مرّت على وفاتهِ في مقدمة شعراء العربية قاطبة فهو حامل لواء هـذا النوع من الشعر ، وهو مؤسس المدرسة الواقعية في الادب العربي وإن سبقهُ امرؤ القيس والنابغة الذبياني بقليل من الشعر كان بمثابة الاساس الذي أقام عليهِ عمر دعائم مدرسته . ولقد كان عصر هذا الشاعر من العصور الحافلة بالحوادث الهامة في تاريخ الامة العربية . كان عصر انقلاب وثورات وتغيير في نظام الحكم الشوري وتحوله الى حكم ملكي متوارث ، وكان لهذه التغييرات اثرها في وطن الشاعر وفعلها في شاعريته

وقد عالج الاستاذ جبرائيل سليمان جبُّور أحد اساتذة الدائرة العربية في جامعة بيروت الاميركية هذه الشخصية بدراسة تحليلية تقع في ثلاثة اجزاء تبحث في عصره ، وحياته ، وشعره ، وأصدر منها الجزء الاول في عصر عمر بن أبي ربيعة في أسلوب بديع ينم على بصيرة نقّاده ونفّاذة وذهن منظم متمكن من موضوعه دارس له ملمٍّ بأطرافه

عرض المؤلف في هذا الجزء حالة العصر الذي عاش فيهِ هذا الشاعر من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والعلمية والادبية ، وأبان عن مظاهر كل حياة من هذه بتوسُّع وإحاطة ، وأظهر ما لكل منها من الاثر في الجوّ الذي عاش فيهِ عمر

واعطانا المؤلف في الحياة الاقتصادية صورة من أثر المال الذي أغدقه بنو امية على اشراف الحجاز ليصدّوا الشباب منهم عن إحداث الفتن ، وليلهوهم بهِ عن التطلع الى المناصب والاعمال ، وليمدّوا لهم سبل اللهو والهوى ، فكان أن تغيرت الحياة الاجتماعية تغييراً رفع بالمرأة العربية الى حياة جديدة ، إذ أخذت النساء تلبس القمص الاسكندرانية الرقيقة والثياب القوهية المعصفرة تكاد تشفُّ عن اجسادهنّ — كما يروي الاصبهاني وابن عبد ربه — وجعل لمجالسهنّ روحاً غريبة يظهر أثرها في شعر عمر كقوله يصف حديثاً بين صاحبته ورفيقة لها :

وأشِفّي البرد عنك له كي تَشوّقيه اذا نظرا

وقد توسع المؤلف في باب الحياة الاجتماعية فأظهر كل التطورات التي طرأت على الامة العربية ونقلتها الى دور جديد

ثم انتقل الى الحديث عن الحياة الدينية والعلمية فأبان ان التطور الاجتماعي بلهوه وانسه وعبثه وترفه لم يكن يمنع اهل الحجاز عن الالتفات الى الناحية الجدية من حياتهم والنظر في الانقلاب الديني العظيم نهض بجزيرتهم تلك النهضة القوية برسالة النبي (صلعم) فقاموا بتدوين القرآن والحديث

والبحث فيما كان يقضي به رسول الله في بعض الامور ، وما يمارسه في بعض الفروض . وكان لهذه الحركة الدينية أثرها الكبير في عادات القوم واخلاقهم فألانت من طباعهم ، وظهر هذا الأثر في ادبهم فتأثر بكثير من تعابير القرآن ومعانيه وتراكيبه ، وكان اثر هذه كلها ظاهراً في شعر عمر ، في حين لم يكن فيه أثر للحياة العلمية البحتة كالطب والفلسفة والمنطق وما شابه ذلك ، اذ كانت هذه الحركة بعيدة عن الحجاز

وأما عن الحياة الادبية في ذلك العصر فقد اوضح المؤلف الظواهر الاربع التي تبدو للباحث بعد التطورات الجديدة التي طرأت على هذه الامة . وهذه الظواهر كانت هي الصبغة الغالبة على لون تلك الحياة . فالظاهرة الاولى هي شيوع الشعر عن النثر وقوته على البقاء اكثر منه . والظاهرة الثانية هي رواج الادب وخاصة الشعر وشدة الصلة بينه وبين عامة الناس الى درجة لم يبلغ اليها في عصر غير هذا العصر ، فلقد كان بعض الخلفاء والأمراء والولاة رواة للشعر ، محبّين لأهله ، نقاداً له ، حكاماً بين قائليه . وكانت الظاهرة الثالثة الخصومة الأدبية التي قويت في هذا العصر فأنتجت أدباً خاصاً حتى طغت هذه الخصومة فكاد يقضي أصحابها على غيرهم من الشعراء ، وذكر المؤلف انواع هذه الخصومات وأثر الشعراء في الفتن

أما الظاهرة الأخيرة فكانت في إقليمية الأدب ، إذ كان يختلف أدب قطر عن قطر . وقد ضرب المؤلف الأمثلة على ذلك من أدب كل قطر حتى انتقل الى أدب الحجاز حيث كان يختلف هو الآخر باختلاف المدن ايضاً ، فكان في الطائف حيث الطبقة الارستقراطية المرحة العابثة المزوية عن أعين العمال والرقباء غير ما كان في المدينة مسرح المغنين الجواري حيث فشا المجون . وكان في مكة — مقام عمر — غيره في هاتين المدينتين ، إذ كانت حياة الدعابة والعبث واللهو في مكة مقرونة بشيء من التحفظ والحيطة فلم يقوَ العبث فيها ولم ينتشر المجون ، وكان شعرهم بالرغم من إباحيته يبدو وعليه مسحة من العفة ، وهناك تصدر الزعامة عمر بن أبي ربيعة . وكما كانت هذه هي ألوان الشعر في هذه المدن الثلاث كان في بادية الحجاز ذا لون آخر حيث مال الكثير من شعرائه الى التقوى والعفة والطهر وعُرفوا بالحب العذري كما يبدو في شعر جميل وإن تلوّن بعض شعرهم بألوان الآخرين للاشتراك معهم في مواسم لهوهم من ناحية ، ولشيء من اللهو يُسِّر لهم في موطنهم فبدت صورتهُ في اشعارهم

هذه كلمة سريعة عن هذا الكتاب تدل على الجهد الذي بذلهُ المؤلف والنجاح الذي اصابهُ . وكان بودنا أن يتنبه المؤلف الى الخطأ الذي وقع في عنواني الكتاب — الرئيسي والفرعي — حيث وضع الخطّاط ألِفاً (لابن) وهي بين اسمين ، وحرّك الكلمة نفسها في مكان آخر بالضم وهي في موضع الجر في جملة (عصر ابن ربيعة) حتى لا تصدم مثل هذه الاخطاء نظر القارىء في غلاف الكتاب

حسن كامل الصيرفي

خصائص اللغة العربية

تأليف حبيب بك غزالة — صفحاته ٣٢ من القطع الكبير — طبع بالمطبعة العصرية بمصر

رسالة نفيسة وفق حبيب بك غزالة في تصنيفها ووضعها كل التوفيق، وهي عبارة عن بحث في اللغة العربية الفصحى والعامية، وما يقابل خصائص الفصحى في غيرها من اللغات الأفرنجية: وتجلية ما امتازت بهِ هذه اللغة من غزارة المادة واساليب البلاغة والبيان، وأتى بخلاصة وافية لآراء بعض العلماء والائمة في اللغة مثل جلال الدين السيوطي والجواليقي وغيرهما، وابان ما امتازت بهِ اللغة من الخصائص فشرح المترادفات والجملة الاعتراضية والتصريف وغيره واظهر فضل الحروف الهجائية وخصائصها وما يقابلها في الحروف الأفرنجية

وختم رسالته بفصل ممتع عن اللغات العربية العامية واظهر ان اللغة العربية لم يصبها ما اصاب غيرها من اللغات من التغيير والتحويل، وما عراها من الشوائب لم يغيّر شيئاً من جوهرها، وحصر هذه الشوائب في ست نقط وشرحها باسهاب. فيجدر بجماعة المتأدبين وطلبة المدارس الثانوية ان يطلبوا هذه الرسالة التي تضم بين دفتيها فوائد جمة

مطبوعات جديدة

ضاق نطاق باب مكتبة المقتطف عن النظر في معظم الكتب التي وردتنا وفيما يلي بيان بالمطبوعات الحديثة التي سوف ننظر فيها في الشهر القادم وما يليهِ

الزراعة العلمية الحديثة — للامير مصطفى الشهابي
الاسلام الصحيح — لمحمد اسعاف النشاشيبي
تطور النثر العربي — للاستاذ انيس المقدسي
القاهرة الجزء الثاني — للملازم الاول عبد الرحمن زكي
السودان في ثلاثة مجلدات — لعبد الله حسين
المقدس: الجزء الاول — لنقولا الحداد
افلاطون الى ابن سينا: للدكتور جميل صليبا
المفصل: لاحمد عطية الابراشي

اوراق البردي العربية: للاستاذ ادولف جروهمان
النجوم الزاهرة الجزء الخامس للاتابكي
نهاية الأرب السفر الحادي عشر للنويري
الاغاني الجزء السادس والسابع للاصفهاني
وادي النطرون لسمو الامير عمر طوسون
الزبدية قديماً وحديثاً لاسماعيل بك جول
قصص جغرافية للاطفال — لكامل كيلاني
تاريخ اوربا والمسألة الشرقية لجورج حداد

باب الأخبار العلمية

مؤتمر المستشرقين لسنة ١٩٣٥

عقد مؤتمر المستشرقين هذه السنة في روما من يوم ٢٣ سبتمبر الى ٢٩ منهُ

والمعلوم أن هذا المؤتمر يأتي اليه العلماء المشتغلون بالمشرقيات ليتعارفوا ويتفاوضوا ويحاضروا ، والمشرقيات تعم الصين واليابان والهند وجميع المدنيات الشرقية قديمة وحديثة وكلامنا هنا عما يختص بالاسلام ذلك بأنَّا لم نستطع الآن مراقبة ما جرى في شأنه

الحق انَّ عدد المشتغلين بالاسلام الذين وفدوا الى المؤتمر لم يكن بالغفير ، ومما لاحظنا انهُ ما من انجليزي اتى من بلاده وان هولنديًّا واحداً جاء الى روما . وقد نسب الناس ذلك الى الخلاف الذي بين انجلترا وايطاليا ثم الى استعداد هذه للحرب . واما مصر فقد مثلها الدكتور طه حسين والاستاذ مصطفى عبد الرازق خير تمثيل

ان عدد الذين حاضروا يبلغ زهاء عشرين وقد وقعت طائفة من المحاضرات موقعاً حسناً نذكر منها محاضرة الاستاذ طه حسين باللغة الفرنسية في « بعض ملاحظات على كتاب البديع لابن المعتز » جاء فيها باستدراكات لبقة على ذلك الكتاب الذي طبعهُ المستشرق الروسي كراتشكوفسكي . ومحاضرة الاستاذ (الالماني) تيشنر Taeschner في « حظ الصوفية في تأليف جماعات الفتوّة » ، ومحاضرة الاستاذ (الانجليزي من اورشليم) فيشل Fischel في « الادارة المالية ايام العباسيين » ، ومحاضرة الاستاذ (الايطالي) جويدي Guidi في « اليزيدية » ، ومحاضرة الاستاذ (الفرنسي) ماسينون Massignon في « العناصر الاسماعيلية في شعر المتنبي » ، ومحاضرة الدكتور بشر فارس باللغة الفرنسية في « مكارم الاخلاق الاسلامية » ، ومحاضرة الاستاذ (الفرنسي) ماسيه Massé في « الشياطين والجن في معتقدات ايران الشعبية » ، ومحاضرة الاستاذ الايطالي نلينو في الطبعة الحديثة لتاريخ المسلمين للمستشرق اماري Amari ومحاضرة الاستاذ (الفرنسي) بيرس Pérès في « الحب الرقيق والحب العذري في الاندلس في القرن الحادي عشر »

وختمت المحاضرات بمناقشة كادت تكون حادةً دارت حول توحيد اسلوب رسم الحروف العربية بالحروف اللاتينية . وكان الاستاذ (الالماني) بروكلمان Brockelmann صاحب كتاب تاريخ الآداب العربية قد قدم اقتراحاً بهذا فاجتمع العلماء لبحثه وكانوا يناقشون الاستاذ بروكلمان في التفاصيل فيرد عليهم الرجل ردًّا سديداً مقنعاً تارة بالفرنسية واخرى بالانجليزية واخرى بالالمانية فدلَّ على براعته وقوة حجته

ومما نأخذ على مثل هذه المؤتمرات ان المستشرقين يلقون محاضراتهم بلغاتهم المختلفة اي بالانجليزية والالمانية والفرنسية والايطالية والاسبانية والحق ان المشتغل بالمشرقيات ينبغي

لهُ ان يعرف هذه اللغات . الأ ان معرفة لغة اي القدرة على فهمها قراءةً لا تستوجب القدرة على فهمها سماعاً ولا سيما ان المحاضرين يسرعون في الكلام اسراعاً وقلما اتفق لهم أن يخفضوا الصوت أو ان يحققوا مخارج الكلمات . فلِمَ لا تلقى المحاضرات باحدى هاتين اللغتين الشائعتين البيّنتين في آن اي الفرنسية والانجليزية ؟ وهنالك مأخذ آخر . ذلك ان معظم المحاضرين في هذا المؤتمر جاوزوا المدة التي ضُربت وهي عشرون دقيقة ، فترتب على هذا خلل في مواعيد المحاضرات الاخرى . ومما يذكر هنا ان الشرقيين اللذين حاضرا — وقد تقدم اسماهما — لم يجاوزا تلك المدة

وبعد انقضاء المؤتمر بما فيه من محاضرات ومناقشات ونزهات دبّرتها الحكومة الايطالية قرّر أن مؤتمر المستشرقين المقبل سيعقد بعد سنتين او ثلاث او اربع في بروكسيل عاصمة البلجيك . وكان اقترح بعضهم مصراً فأعرضت الآذان لاسباب نكره ان نذكرها م

هل حقن الاكسجين ينقذ حياة الغرقى

يؤخذ من مباحث طبيب هندي يدعى الدكتور سنج يقوم بمباحث علمية طبية في جامعة كمبردج احياناً وكلية رانغون الطبيعية احياناً اخرى ان حقن الاكسجين في العروق قد يكون السبيل لانقاذ حياة الغرقى او المصابين بنوع خاص من النزلة الشعبية او غيرها من الحالات التي يصعب فيها التنفس على المريض

فقد تمكن هذا الطبيب من الاحتفاظ بكلب حيًّا مدة ١٦ دقيقة بحقنه بهذه الحقن مع ان الكلب ظلَّ خلال هذه المدة لا يتنفس الاكسجين عن طريق الرئتين . وكان ضغط الاكسجين المحقون في العروق ثلاثة اجواء . ولولا خطأ في اسلوب الحقن لاستمرت التجربة اكثر من ١٦ دقيقة . وقد نشرت مجلة اللانست الطبية هذا النبأ وعلقت عليهِ بمقال افتتاحي . والخطوة التالية هي تطبيق هذه التجربة على الناس

﴿ تصحيح خطأ ﴾

في الصفحة الثانية من السطر ١٦ من محاضرة الدكتور شوشة بك عبارة : ومقدار الغاز يحسب بالمليغرامات في سنتمتر مكعب . وصحتها المتر المكعب . وفي خريطة افريقيا وتقسيمها السياسي التي صدَّرنا بها العدد اهمل المصور وضع العلم المصري الى جانب العلم البريطاني في السودان فاقتضى التنبيه

العناية بالصحة الشخصية

بقية المنشور على الصفحة ٤٠٨

٩ — ﴿ المأكل . الموائد . والمقاعد ﴾ : زيادة في النظافة ومحافظة على هندام الملبس وقوام الجسم ونشاطة ابتكر المصريون الموائد والمقاعد . كما انهم استعملوا الملاعق . وهذه الادوات مع الاطباق والكوبات تعتبر من اسس الصحة في المأكل والشرب لانها عامل مهم كفيل بمنع انتشار الامراض بين الآكلين . وبعد تناول الشراب اعتاد القوم ان يمسحوا افواههم بالفوطة الكثيرة الشبه بالحرمة الحديثة وان يتقدم الخادم بها قائلاً « شفاء وعافية »

١٠ — ﴿ الرياضة البدنية ﴾ عني بها المصريون القدماء عناية عظيمة . وقد فصلنا الموضوع في محاضرة سبق للمقتطف ان نشرها

١١ — ﴿ المظلات ﴾ كلنا نعرف شدة

حرارة الصيف في مصر وعظم الحاجة الى الوقاية من اخطارها . والى عهد قريب كان المعروف ان المظلات ابتكار حديث لكن الآثار اظهرت لنا انها مصرية قديمة كما يشاهد في الرسوم المرفقة . وهي على نوعين نوع بسيط فطري عبارة عن درع كبيرة يحمله تابع ونوع مستدير مرفوع على قائمة يثبت احياناً في المجلاب لوقاية الراكب من حرارة الشمس . وهذا الاخير كثير الشبه بالشمسية الحديثة . ومقبرة توت عنخ امون تحوي مظلة كبيرة من هذا الشكل كان جلالته يجلس تحتها وهي منصوبة الآن في دار تحف القاهرة

١٢ — ﴿ دورة المياه ﴾ استعمل القوم الماء البارد والدافىء للاستحمام . وفي عهد المملكة الحديثة (١٥٥٥ — ٧١٢ ق . م) كان كل منزل يحوي حجرة حمام وحجرة مرحاض . والاثنتان ملاصقتان لحجرة الزينة او مجاورتان لحجر النوم وارضهما وجدرانهما مكسوة بالبلاط الجيري المصقول . وتحوي حجرة الحمام حوضاً للاستحمام (ارمان ص ٢٠١ كتابه عن مصر) شبيهاً بما هو مستعمل الآن يقف فيه الشخص ويصب عليه الماء من اعلى بواسطة خادم مختبىء وراء حجاب . اما المرحاض فيتكون من مقعد مقعر قليلاً لراحة الجالس مصنوع من الحجر الجيري المصقول مفتوح فتحة مستطيلة كالمراحيض الحديثة . وهذا المقعد مرفوع على جدارين صغيرين وعلى جانبي المقعد مربعان صغيران مملوآن رملاً يرمى به بواسطة مغرفة على المواد البرازية لتغطيتها[1] وحجرة الزينة « التواليت » الملاصقة والحمام والمرحاض كلها مدهونة باللون الابيض الناصع اظهاراً لنظافتهما . وتخصيص امكنة لكل من الحمام والمرحاض وحجرات الزينة برهان كاف على مبلغ رقي القوم وقتئذ وخطوة كبيرة نحو تدبير صحة المنزل

***

اما الصابون فلم يكن مستعملاً عند قدماء المصريين . واقدم ما عثر عليه هو في مدينة بومباي (Pompei) . وروى اليوناني Aretaeus ان اليونان تعلموا صناعة الصابون من الرومان . ولا يبعد ان يكون المصريون استعملوا الدقاق (وهو مسحوق الترمس) لنظافة اجسامهم كما كان مستعملاً الى عهد قريب

١٣ — ﴿ حجرة النوم ﴾ المنازل الراقية تحوي حجرات خاصة للنوم . ولكل فرد منها سرير وورد على الآثار رسم لحجرة نوم تحوي سريراً لكبير وثلاثة اسرة لاطفال . وكل سرير يحوي وسادة و « منشة » ومسند للرأس كما هو واضح بالرسم . كل هذه الاجراءات تكفل الراحة في النوم لكل فرد وتمنع العدوى بين افراد العائلة (ارمان عن مصر)

١٤ — ﴿ الحشرات المنزلية ﴾ اهتم المصريون بابعاد هذه الحشرات عنهم محافظة على صحتهم وعلى مأكولاتهم فاوردوا الوصفات لابادة البراغيث برش ماء النطرون « ايبرس ٧٥٠ — ٨٤٠ » ووصفات لمنع لدغ النحل « ايبرس ٨٤٥ — ٨٤٦ » واخرى لابعاد الفيران « ايبرس ٨٤٧ » كما اهتموا ايضاً بتعطير منازلهم وملابسهم « ايبرس ٨٥٢ »

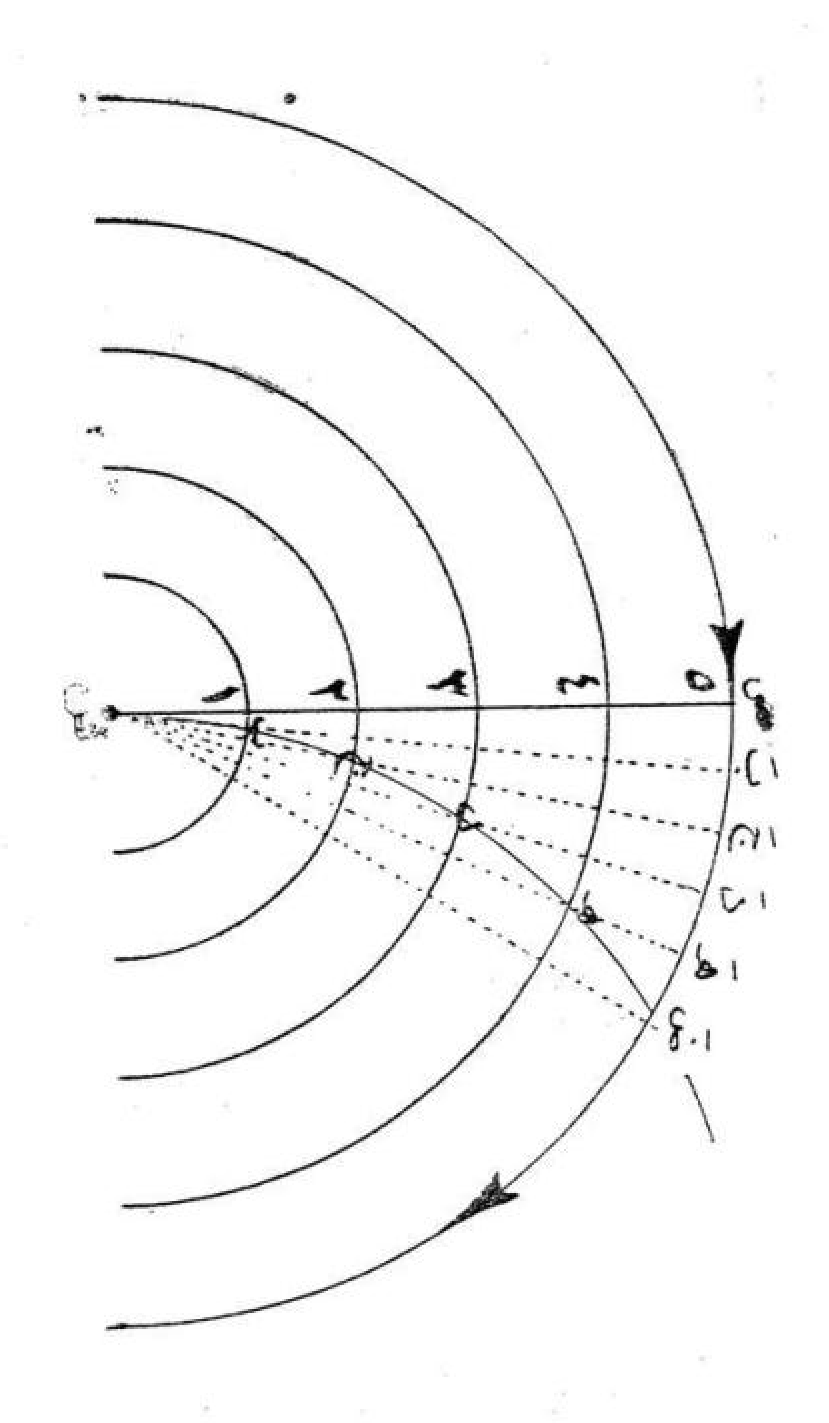
(١) مجلة العاديات المصرية سنة ١٩٢٣

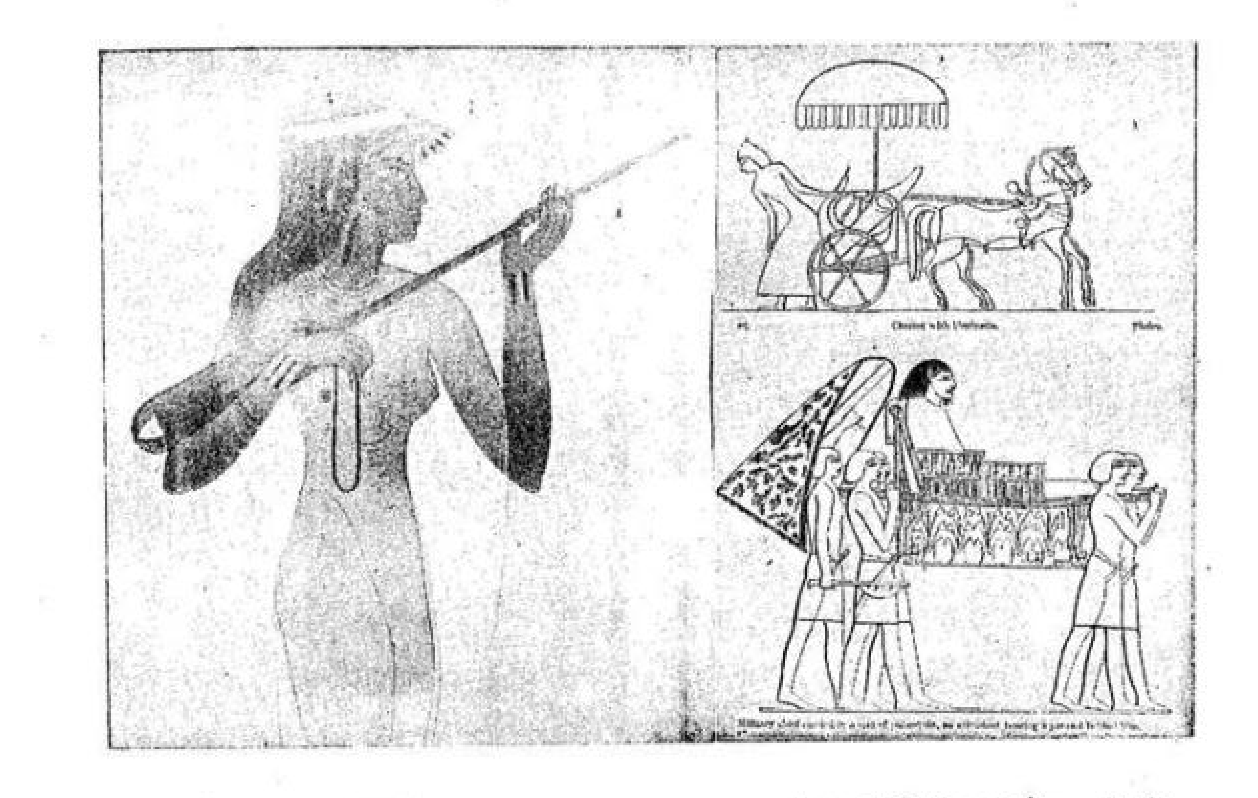




كمامات واقية من الغاز السام في الحرب

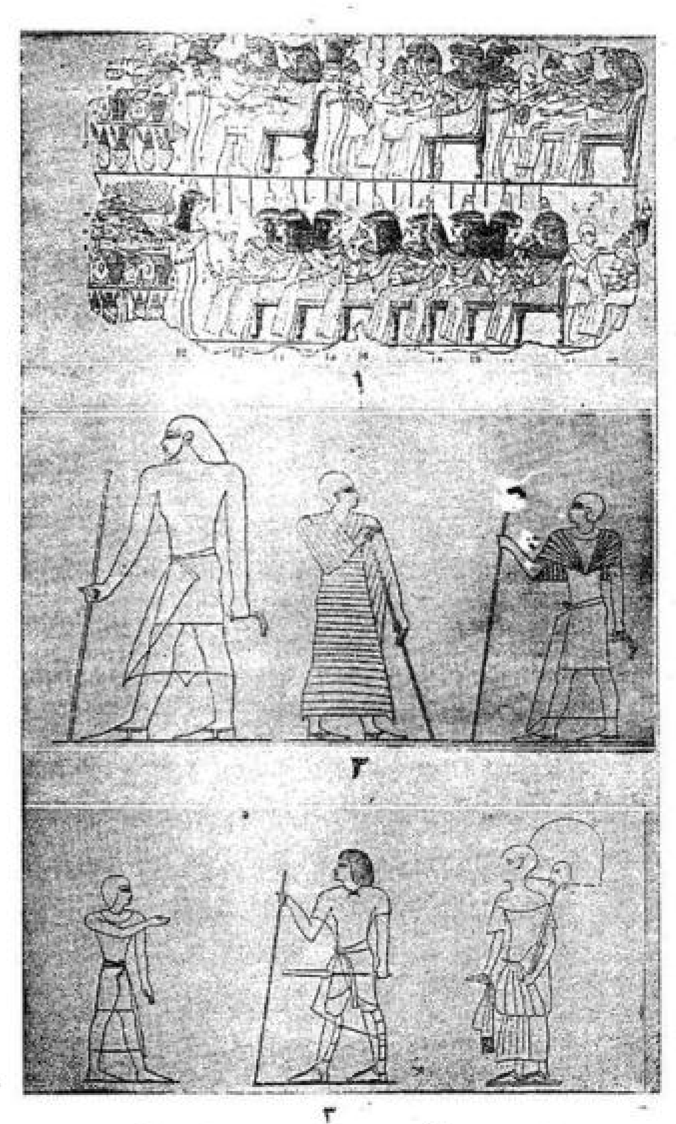




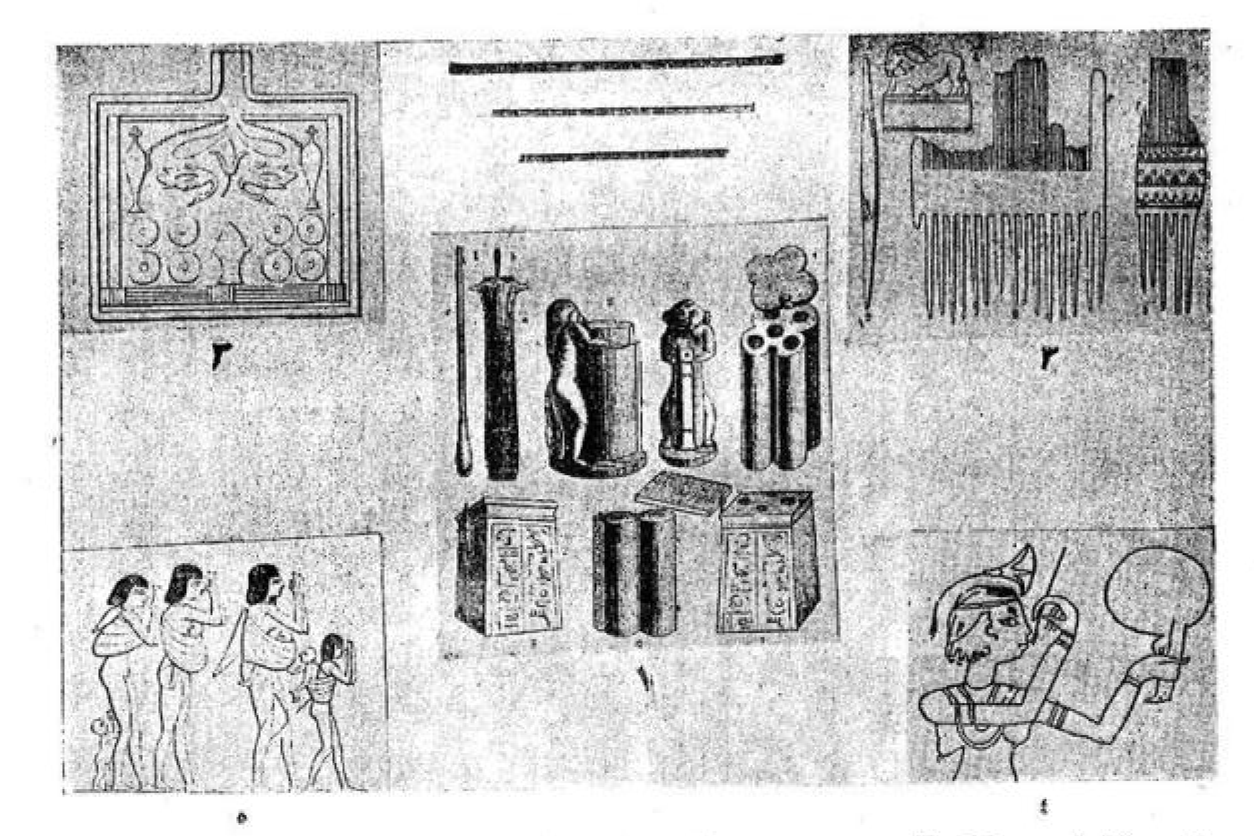


مظلتان من المظلات التي كان قدماء
المصريين يستعملونها والعليا منهما
شبيهة بالمظلات الحديثة

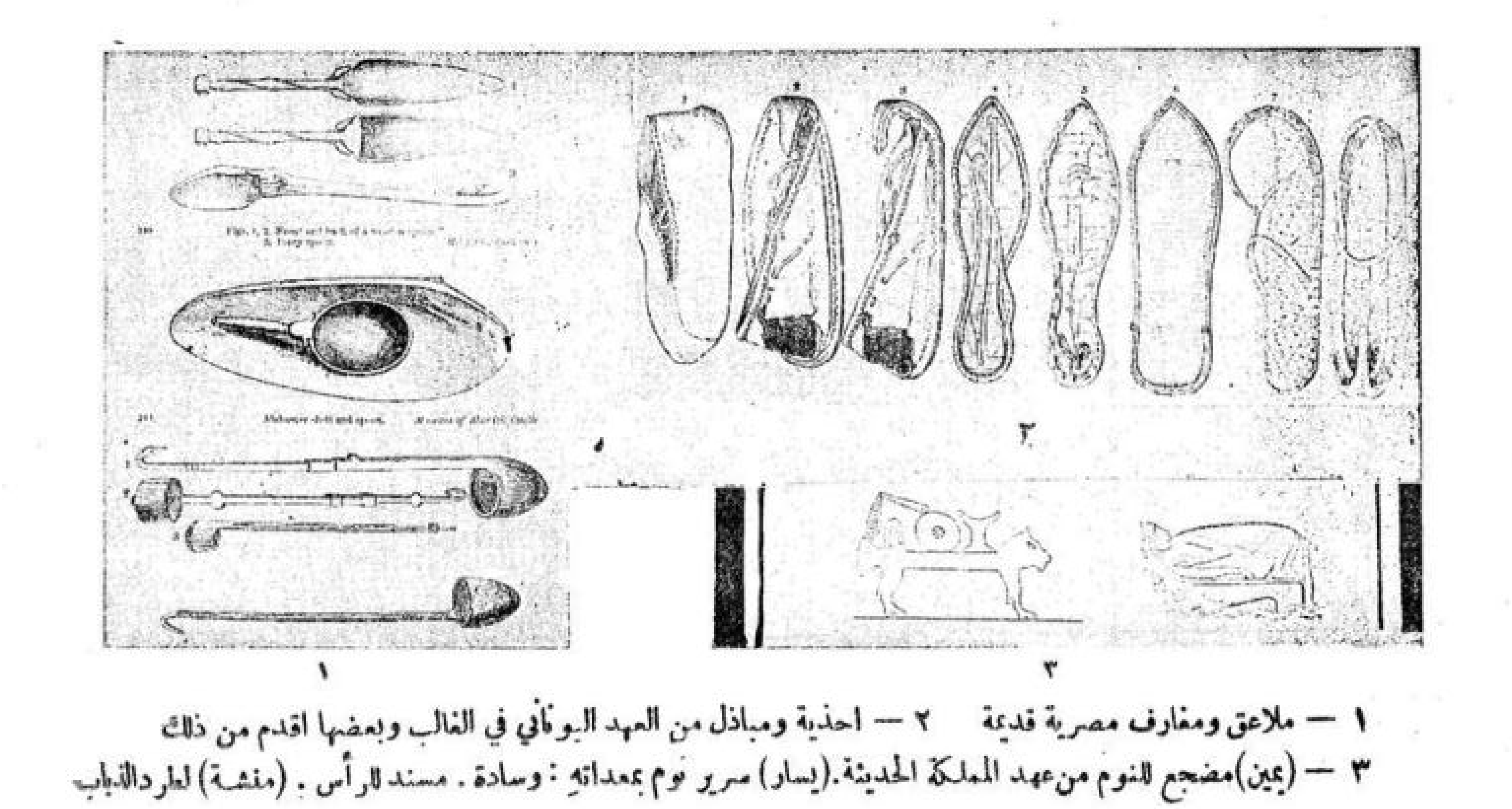
عازفة العود
رسم على جدار قبر في الاقصر
من عهد المملكة الحديثة



١ — وليمة تبين المأكل والمشرب واستعمال الكراسي ومرور الخدم والموائد ولبس السيدات وقص شعورهن ٢ — الرسمان الايمن والاوسط يمثلان ثوبين غير اعتياديين من عهد الدولة الوسطى والرسم الايسر يمثل الرداء المزدوج ٣ — ثلاثة نماذج الايمن من عهد اخناطون والاوسط من عهد امنحوتب الثالث ويشاهد فيهما الرداء الخارجي اطول من الداخلي . والايسر يمثل اللباس في عهد الاسرة ١٩



١ — مكاحل مصرية قديمة ومرود ٢ — مائدة قرابين عليها اطباق واوزتان وابريقان ٣ — امشاط مصرية قديمة ٤ — سيدة مصرية قديمة تتجمل مستعينة بالمرآة وترى وهي تخطط شفتيها ٥ — العناية بالاطفال وهي رسوم من طيبة



١ — ملاعق ومغارف مصرية قديمة ٢ — احذية ومباذل من العهد اليوناني في الغالب وبعضها اقدم من ذلك

٣ — (يمين) مضجع للنوم من عهد المملكة الحديثة. (يسار) سرير نوم بعداته : وسادة . مسند للرأس . (منشة) لطرد الذباب



قناة السويس

مكانتها من الناحية الاستريتجية

للملازم الاول عبد الرحمن زكي

طبيعة الحبشة الجغرافية

وصلتها بمنعتها الحربية

ملخص تاريخي

لصلة الحبشة باوربا

الدستور السوفياتى

القناة والترع
السكك الحديدية
البحر الأبيض المتوسط
بورسعيد
بحيرة المنزلة
خليج الطينة
محطة الطينة
٣١
محطة الكاب
العريش
بحيرات البلاح
القنطرة
الإسماعيلية
الجسر
بحيرة التمساح
طوسون
ترعة الإسماعيلية
سرابيوم
البحيرات المرة
جبل جنيفة
محطة جنيفة
الشلوفة
٣٠
السويس
بور توفيق
خليج السويس

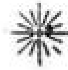
قناة السويس

التربية الاجتماعية والصحية

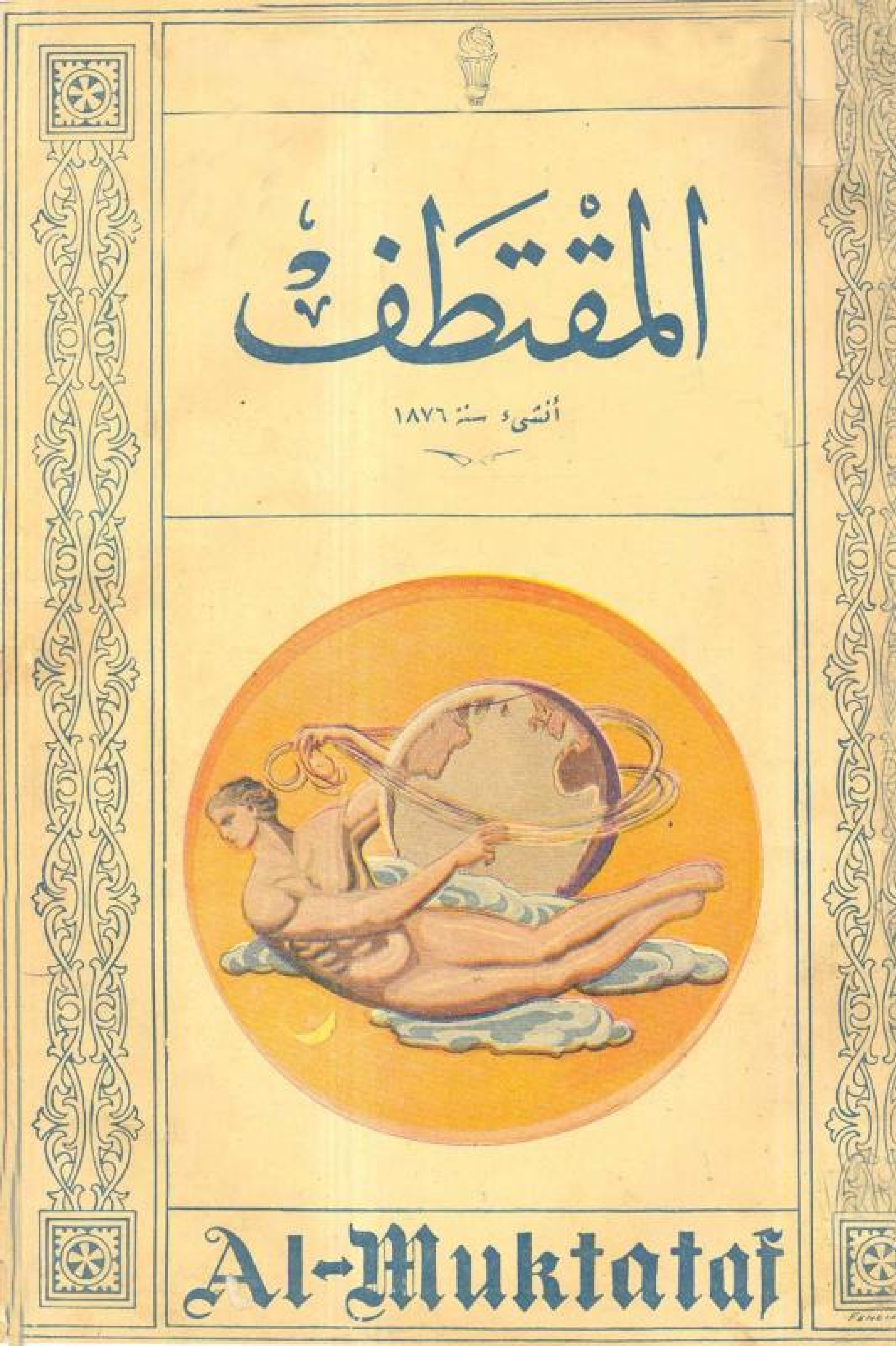
متى يغتفر الكذب
لشاكر الحنبلي

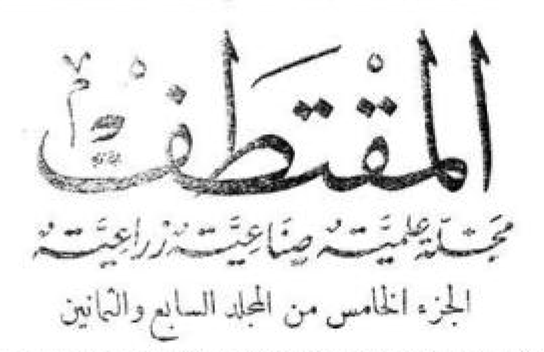
تحريم السرقة

الاستشارة الطبية الدورية
للدكتور حسن كمال



الجزء الرابع من المجلد السابع والثمانين


المقتطف
أنشئ سنة ١٨٧٦
Al-Muktataf



١ ديسمبر سنة ١٩٣٥ — ٥ رمضان سنة ١٣٥٤

ذَرْعُ الفضاء

والاعلام التي يعتمد عليها في القياس

اذا وقف قائدٌ على قمة اكمة وحدَّق بنظارته في اشباح متحركة عند السفح، استطاع ان يعلم بوجهٍ عام هل هذه الاشباح فرقة من المشاة او من الفرسان وهل جنودها مردة او اقزام . كذلك ربَّان السفينة التي ترود شواطىء معينة ، يتعلم بالمرانة ، ان يتبين المنائر المختلفة من شدة ضوئها ، او ما تتصف بهِ خاصة في فترات الاضاءة والظلمة . وعلى منوال القائد والربان نجد علماء الفلك المحدثين ، يحاولون النفوذ الى اسرار الفضاء، بالتحديق في تلك المنائر الكونية العجيبة — نعني النجوم المتغيرة

معظم النجوم في الفضاء تضيء ضوءًا لا تغير في قدره ، لان ما ينتاب النجوم من الاحداث بوجهٍ عام ، يستغرق عصوراً متطاولة قبل ان يبدو اثره في حجمها او كتلتها او ضوئها . ولكن العلماء اكتشفوا في العصور الحديثة ، نجوماً يتغير مقدار ما تطلقهُ من الضوء تغيُّراً ظاهراً في فترات منتظمة . فما كادت هذه الظاهرة تكشف وتحقق حتى اضطرب لها الفلكيون ، ثم لما تعلموا كيف يستندون اليها في حل بعض الالغاز الكونية ، رحَّبوا با كتشافها ايما ترحيب . ذلك انهم باعتمادهم على خصائص هذه النجوم المتغيرة ، تغلغلوا ايما تغلغل في رحاب الفضاء ، وتمكنوا من ان يعيدوا رسم الخريطة الكونية ، على وجه ادق وأوفى ، مما اتيح لها قبل اكتشافها

فالنجوم المتغيرة ، في عرف الفلكيين المحدثين والمعاصرين ، بمثابة ، المتر والذراع ، تمكنهم من ذَرْع الفضاء

يعرف هذا الضرب من النجوم ، باسم « المتغيرات القيفاوية » Cepheid Variables نسبةً الى النجم المعروف باسم « ذلتا قيفاوس » وهو اشد هذه النجوم اشراقاً مما يرى منها بالعين المجردة . ونجمة القطب متغيرة قيفاوية كذلك

هذه النجوم قد تكون حُمْراً او مبياضّة ، او صفراً : ولكنها على اختلاف الوانها ، تنبض نبضاً منتظماً كأن كلاًّ منها قلب كبير ينقبض وينبسط . او كأنها شعلة من الغاز ، تمدها حنفية تفتح وتقفل في فترات منتظمة ، فاذا فتحت كبرت الشعلة ، واذا اقفلت ضؤلت الشعلة حتى تكاد تنطفي. اما فترة التغير فتختلف باختلاف النجم ، او باختلاف صنفهِ ففترة النجم المعروف باسم « ذلتا قيفاوس » ، خمسة ايام ونصف يوم ، وهي خاصّة ثابتة من خصائصهِ ، وهو يتميَّز بها

ويؤخذ من مباحث الفلكيين ان اشراق النجم الحقيقي متصل بفترة تغيُّرهِ . فالنجم المتغير الذي فترة تغيُّرهِ ، ثماني ساعات ، يبلغ اشراقهُ مائة ضعف اشراق الشمس . اما النجم المتغير ، ذو الفترة الطويلة ، فيفوق اشراقهُ اشراق الشمس الوف الاضعاف . وقد يبلغ طول فترة التغيُّر في نجم ما مائة يوم ، فيفوق اشراقهُ اشراق الشمس ٣٠ الف ضعف . فاشراق النجم يزداد بازدياد فترة التغيُّر

فاذا عرفنا طول فترة التغيُّر ، في نجم من النجوم ، عرفنا مقدار اشراقهِ بالقياس الى غيرهِ من المتغيّرات القيفاوية . ثم ان بعض هذه النجوم ، قريب منا يمكن قياس بعدهِ عنا بطريقة اختلاف الزاوية . فاذا اتخذنا نجماً من هذا القبيل اساساً للقياس ، وعرفنا الصلة بين طول فترة التغيُّر ومقدار الاشراق ، استطعنا ، ان نعيّن بطريق غير مباشرة ، بُعد المتغيّرات القيفاوية المختلفة واشراقها بمعرفة فترات تغيُّرها

***

والظاهر ان النجم المتغيّر ، المعروف باسم « ميرا » كان اول نجم متغيّر عرفهُ الانسان ففي سنة ١٥٩٦ كان الفلكيُّ الهولندي داڤيد فابريكيوس ، يرصد السماء ، فدهش دهشاً عظيماً ، عند ما رأى في صورة قيطس (الحوت) نجماً ، آخذاً في التضاؤل ، حتى غاب عن بصرهِ ثم زاد دهشهُ واستفحل ، عندما رأى النجم نفسهُ ، في ليالٍ تالية وقد اخذ اشراقهُ يزداد حتى صار من اشد النجوم لمعاناً في رقعة الفضاء . والمسلَّم بهِ عند علماءِ الفلك الآن ، ان ميرا نجم متغيّر ، يكون من نجوم القدر الثاني ، اذا بلغ اقصى اشراقهِ ، ويضؤل حتى يصبح من نجوم القدر التاسع ، اذا بلغ ادنى اشراقهِ

وما اشرف القرن التاسع عشر على نهايتهِ ، حتى كان العلماءُ قد كشفوا عن عشرة نجوم او اثني عشر نجماً متغيراً . اما الآن ، وقد ادرك العلماءُ ، ما لهذه المتغيرات القيفاوية ، من المكانة في علم الفلك الحديث ، وما لها من الاثر في النفوذ الى بعض اسرار الفضاء ، فقد اصبح البحث عنها ، من اهم فروع الرصد الفلكي ، وقد بلغ عدد ما رصد منها حتى الآن نحو سبعة آلاف نجم ، كشف معظمها في مرصد جامعة هارفرد الاميركية

قد يكون اول سؤال يخطر للقارىء في صدد هذه النجوم ، عن الباعث على تصرفها هذا التصرف العجيب . فاذا كان القارىء يعلّق شأناً عظيماً بالردّ على هذا السؤال فانهُ ولا ريب ، منضيٌ عليهِ بخيبة الامل ، لانّ العلماء ما زالوا مختلفين في ذلك . فالعلاّمة ادنغتن ، يرى ان الباعث على ذلك ، كون النجوم في توازن غير مستقرّ . وشابلي الاميركي يذهب الى ان هذه النجوم قد تكون في حالة اهتزاز ، وان اهتزازها يصحبهُ تغيُّر في حرارتها وحجمها ولونها . اما جينز فيقول ان المتغيرات القيفاوية ، ليست الاَّ نجوماً ، في دور الانشطار ، على مثال ما تنشطر الخلية خليتين . ولكن ليكن تفسير حالتها هذه ما كان ، فان خاصتها الاساسية التي تمكننا من معرفة ابعادها ، بمعرفة اشراقها المستخلصة من قياس فترة تغيُّرها ، ظاهرة من اخطر الظواهر في علم الفلك الحديث

***

ادرك العلماء اولاً مكانة المتغيّرات القيفاوية في علم الفلك ، لما لاحظت المس لفِت Miss Leavitt سنة ١٩١٢ في مرصد هارفرد ، ان فترة التغيّر في ألمع النجوم المتغيّرة في «غيمة مجلاّن الصغرى» Lesser Magellanice Cloud اقصر من فترة التغيُّر في النجوم المتغيّرة الضئيلة . ولما كانت جميع النجوم في « غيمة مجلان » على بُعد واحد من الارض ، فالاختلاف في اشراق النجوم ، لا يمكن ان يسند الى الاختلاف في بُعدها عن الراصد ، ولا يمكن ان يفسر الاَّ بالتسليم ، بان بين النجوم اختلافاً حقيقيًّا في اشراقها . فافضى اكتشاف المس لفِت الى القول بان مدى فترة التغيُّر تختلف باختلاف مقدار الاشراق ، فالنجوم التي فترات تغيُّرها قصيرة ، اقل اشراقاً حقيقيًّا من النجوم التي فترات تغيُّرها طويلة

كان شابلي Shapley حينئذٍ شابًّا في العشرين من عمرهِ ، يشتغل بعد تخرجهِ في مرصد جبل ولسن ، فادرك في الحال قيمة هذا الاكتشاف ومقتضياتهِ . فقال في نفسهِ ، اذا كان لدينا نجمان متغيّران ، س و ص ، في ناحيتين مختلفتين من الفضاء ، وثبت من رصدها ، ان فترتي تغيرهما واحدة فلا بدَّ ان يكون اشراقهما الحقيقي واحدٌ كذلك . فاذا كان ثمة اي اختلاف بينهما في اشراقهما البادي لعين الراصد ، فسبب ذلك الاختلاف ، انما يكون الاختلاف بينهما في بعدهما عنا

ومع ان العلماء كانوا ميّالين ، في البدء ، الى السخرية من رأي ، الفلكيّ الناشىء ، تمكن شابلي ، بذكائهِ وصبرهِ ، من تأييد رأيهِ ، فأقنع علماء الفلك ، بان المتغيّرات القيفاوية ، بمثابة أعلامٍ منصوبة على طريق الكون نقيس بها أبعادهُ

فالمتغيّرات القيفاوية منثورة في رحاب الفضاء ، لا تؤثر ناحيةٌ منهُ على اخرى . وتبيّنها سهل على من أخذ نفسهُ بأسباب العلم والمرانة ، يعرفها كما يعرف الربّان كل منارة على الساحل الذي يجوبهُ . فاذا رأى الربّان نور منارةٍ ، وعرف المنارة ، رجع الى خريطتهِ ، فيعلم منها قوة ضوئها . كذلك الفلكي ، يسهل عليهِ ، ان يعرف ، مقدار الاشراق في احدى هذه المتغيرات ، من رصده فترة

دورانها . ثم بالقياس الى ابعاد المتغيرات التي قيست أبعادها بطريقة اختلاف الزاوية او غيرها من الطرق الفلكية ، يستطيع ان يعرف بعد المتغيرة القيفاوية الجديدة

وليس لدى الفلكي الآن ، وسيلة أخرى ، توازي هذه الوسيلة ، في تمكينهِ من قياس الابعاد في ارجاء الفضاء القاصية

***

وما مضى شابلي في بحثهِ حتى تبين لهُ ان هذه النجوم المتغيّرة بعيدة عنا بعداً ساحقاً يجعلها خارج الكون ، كما كان يتصوَّرهُ علماء الفلك في مطلع القرن العشرين فاقتضت النتائج التي بلغها ان يعاد النظر في تقدير حجم الكون وشكلهِ

فلما أُتقن الاسلوب الجديد في تقدير أبعاد النجوم ، رأى شابلي ان يطبقهُ على معرفة حجم المجرَّة . فحوَّل عنايتهُ الى العناقيد النجمية ، التي تحتوي على طوائف كبيرة من هذه المتغيرات القيفاوية . ومنها نحو مائة عنقود قائمة جميعاً عند اطراف المجرَّة

هذه العناقيد تكون منتشرة لا شكل لها اذا كانت داخل المجرة ، ولكنها ترى مركّزة ، كأنها عناقيد كثيفة غير مستطيلة من العنب اذا كانت خارجها . والواقع انها اذا اخترقت المجرَّة في خلال سيرها ، مزَّقها الجذب كل ممزّق فتبدو منتشرة وليس لها شكل معين . لذلك في وسع الباحث ان يقول ان العناقيد المركّزة ، بمثابة الحدود القصوى للمجرَّة

على ان النجوم المتغيرة في هذه العناقيد المركّزة بعيدة جدًّا ، فلما بحث شابلي في الابعاد التي قدرت لها في الماضي على ضوء العلم الحديث ، ظهر انها خطأ ومبنية على التخيل في الغالب . فثمة عنقود يعرف في الخرائط النجمية باسم مركب من حروف وارقام هي N. G. C. ٧٠٠٦ وهو يبعد عنا مائتي الف سنة ضوئية ، اي ان الضوء السائر بسرعة ١٨٦ الف ميل في الثانية لا يجتاز المسافة بيننا وبينهُ الآ في مائتي الف سنة !

فلما أتم شابلي بحثه في حدود المجرة على الاساس المتقدم ، رسم لنا صورة جديدة لها ، واضعاً كل عنقود من العناقيد النجمية التي تناولها بحثه في المكان الخاص به . واذا المجرة في رسمه هذا قرص من النجوم اشبه ما يكون بحبة من العدس او بساعة الجيب . ونظامنا الشمسي ، ليس في مركز المجرة كما ظن الفلكيون المتقدمون بل يبعد عنهُ نحو ٥٠ الف سنة ضوئية

واذاً فشمسنا ليست قلب المجرة ، بل هناك كتلة نجمية كبيرة في كوكبات الرامي والحواء والعقرب ، هي في الراجح هذا القلب . الآ ان مركز المجرة محجوب عن انظار مراقبنا لبعده من ناحية ولان حجاباً كثيفاً قاتماً من المادة يحول بيننا وبينه . فنحن لا نستطيع ان نرى ذلك المحور الذي تدور حوله شمسنا واربعون الف مليون شمس اخرى ، بسرعة ٢٠٠ ميل في الثانية ، ولا تتم دورتها حوله الآ في مائتي مليون سنة . وقد يكون المرقب الجديد ، الذي قطر مرآتهِ مائتا بوصة

(اي ضعف قطر المرآة في مرقب مرصد جبل ولسن) عوناً جديداً للعلماء على توسيع نطاق مايعرفونهُ عن مركز المجرّة . فالقوى الكونية ، والجاذبة منها بوجهٍ خاص ، تخترق الغيوم المادية السود ، وتفعل في حركات النجوم ، وقد يمكننا هذا المرقب الجديد ، من تبين حقائق جديدة عن هذا المركز ولو بقي محجوباً عن عيوننا

ومع ان الدكتور شابلي يرى ان المضيّ في البحث مدة اربع سنوات او خمس ، قد يميط اللثام قليلاً عن اسرار مركز الكون ، الاّ انهُ يتخيّل من الآن انهُ قد يكون في ذلك المركز شمس جبّارة ولا كالشموس ، تدور حولها المجرّة كما يدور النظام الشمسي حول الشمس . ولكن نظرية اينشتين تعيّن حدوداً للاجرام الفلكية لا يمكن ان تتعدّاها في ضخامتها . فنكب الجوزاء او يد الجوزاء Betelgeuse اضخم شمس عرفت مقاييسها حتى الآن ، ومادتها تكفي لنشوء ٢٥ مليون شمس من حجم شمسنا منها . فوجود شمس اكبر كثيراً من منكب الجوزاء في مركز الكون، من المستحيلات بحسب نظرية اينشتين . الاّ ان مجموعة الشموس المركزة في منطقة المركز ، تفعل كأنها شمس واحدة

***

ان المتغيرات القيفاوية التي مهّدت للعلماء السبيل الى قياس ابعاد المجرّة ، والنفوذ الى مقر مركزها ، فتحت عيونهم كذلك ، على مدى الخليقة الكونية . ففي السنوات الاخيرة ، رصد الفلاة ، بمرقب جبل ولسن ، السدم اللولبية التي خارج مجرتنا ، وقد كانت تحسب ، قبل عقد او عقدين من السنين ، غيوماً منتشرة من الغبار الكوني ، فثبت من رصدها ان فيها نجوماً متغيرة كذلك . فسديم المرأة المسلسلة ظهرت فيها نجوم متغيّرة لاشك فيها . فثبت من رصد هذه المتغيّرات ان السدم مجموعات ضخمة من النجوم التي لا تُرى لبعدها ، ثم ظهر من قياس فترات تغيُّرها ، ان السدم تبعد عن اطراف مجرتنا مئات الالوف بل الملايين من سني الضوء . فبالاستناد الى هذا الضرب من القياس تبين ان سديم المرأة المسلسلة يبعد عنا ٨٠٠ الف سنة ضوئية . فلما مضى العلماء في البحث ، ظهر ان المرأة المسلسلة اقرب ما عرف من هذه السدم ، وان السدم الاخرى ابعد منها عنا . نعم انهم لا يستطيعون ان يتبينوا نجوماً متغيرة او غير متغيرة في سائر السدم ولكنهم يعتمدون الآن على وسائل اخرى تختص بشكل السديم وضوئه تمكنهم من تقدير ابعادها . والامل هنا ، كالامل هناك ، معقود على المرقب الجديد . فانهُ ولاشك سوف يمكن العلماء من التدقيق في تعيين ابعاد المليوني السديم المعروفة الآن ، علاوة على كشف ملايين من السدم الاخرى ، لم يتح لعين مرقب ان تراها حتى الآن

***

ولعلنا نستطيع حينئذٍ ، ان نكشف الستار قليلاً عن القوى الهائلة المتفاعلة في رقعة هذا الكون العظيم !

معجم الاستاذ فِشر

للدكتور بشر فارس

إنّ لغتنا هيهات أن تعوزها المعاجم : ففي طليعة آثار العربية المطبوعة امثال « الجمهرة في اللغة » لابن دُرَيْد ، و « الصحاح » للجوهري و « اساس البلاغة » للزمخشري و « القاموس » للفيروزبادي و « لسان العرب » و « تاج العروس » ؛ اذا استثنيت المعجمات المرتبة على المعنى نحو « المخصَّص » لابن سِيدَة . وثمّة ما لا يزال مخطوطاً كجانب من « كتاب العين » للخليل [1] وجزءٍ من « المجمل في اللغة » لابن فارس [2] فضلاً عما عفا اثره مثل « العُباب » للصاغاني (او الصغاني) . وهذه المعاجم النفيسة تثبت الالفاظ والتراكيب الفصيحة ، وربما اتفق لطائفة منها ان تشير الى المصطلح والدخيل والعامي في مِعْرَاض الكلام . غير انها صعبة المتناوَل الاّ على المتفقه في اللغة البصير بأساليب البحث ، ذلك بأن مواد بعضها مرتبة على مخارج الحروف نحو « الجمهرة في اللغة » او بأن المادة الواحدة مدرجة على غير تنسيق نحو « لسان العرب »

***

وقد فطن اهل اللغة للقرن الماضي الى وعورة ملتمس هاتيك المعاجم فراحوا يصنفون ما هو ادنى منالاً ، فكان « محيط المحيط » للبستاني الكبير و « أقرب الموارد » للشرتوني وغيرهما على ما جرى في مطاويها جميعاً من الاوهام والسقطات

وهل اكتمك ان نفراً من المستشرقين نحوا ذلك النحو فسهلوا لابناء جلدتهم مطلب لغتنا ، فكان معجم (لِين) Lane الجزيل فائدة ومعجم (فْرَيْتَغ) Freytag وأصحابهم ؟

بيد ان ارتقاء فقه اللغة اخذ بأيدي المشتغلين باللغة الى غير هذا ، ذلك ان الامر آل بهم أن يعدّوا اللغة كياناً يموت ويحيا ويتحوّل ويبعث ، فأقبلوا ينظرون في نشوء اوضاعها وانقراضها على تعاقب الايام كما ينظر علماء الارض في ارتفاع نواحيها وانخفاضها على كرّ الزمان . فللغة تاريخ كما أنّ للامة الواحدة تاريخ

---

(١) نشر الاب انستاس الكرملي جزءا من « كتاب العين » عدد صفحاته ١٤٤ . فعسى ان يفي نيته على اتمام نشره (٢) طبع الجزء الاول من « المجمل في اللغة » في مصر (مطبعة السعادة) سنة ١٩١٤

وبهذا الحكم قد سلّم علماء العربية من عهد بعيد : افلا ترى كيف تكلموا على « نَقل » الالفاظ من معنى الى معنى وعلى « ذهاب » تراكيب و « هجران » أخرى ؟

الآن لغتنا لاتضمُّ بين كنوزها معجماً تاريخيّاً يرد اللفظة الواحدة الى اصلها في اللغات السامية أو يدفعها الى اخواتها فيهنَّ ، ثم ينحدر باللفظة من الجاهلية حتى عهدنا هذا ، ممهلاً حيث يتسع المعنى ، مسرعاً حيث يضيق ، وعكّازه في انحداره شواهد مستخرجة من أمّات التآليف والمراجع العُمَد

أما الفرنجة فما ابطأوا ان أخرجوا لاقوامهم معجمات تلك صفتها . وحسبي ان ادلّك على معجم (ليتريه) Littré الفرنسي والمصنَّف حجة بل بنيان !

ذلك عمل ضخم أقبل عليه المستشرق الالماني الاستاذ (فِشِر) A. Fischer وهو من أعضاء مجمع اللغة العربية الملكي . وقد سبق لي أن حدثتك عن ذلك العالم عند الكلام على مزايا الذهن الالماني [١] ولتجدنَّ في الاقبال على مثل ذلك العمل دليلاً آخر على ما سقته لك هنالك :

***

أخبر الاستاذ (فِشر) عالَمَ الاستشراق بعزمه على تصنيف معجم تاريخي اللغة العربية سنة ١٩٠٨ في مؤتمر المستشرقين المنعقد في (كوبنهاجن) ثم سنة ١٩١٢ في مؤتمر المستشرقين المنعقد في (أثينه)

ثم انهُ نشر سنة ١٩١٨ في مجلة « الجمعية الالمانيــة الشرقيــة » Zeitschrift der deutschen Margenlaendischen Gesellschaft (ج ٧٢ ، ص ١٩٩ وما يليها) مقالاً اثبت فيه مبلغ معجمهِ في ذلك العهد ورغب الى اصحابهِ من المشتغلين بالمشرقيات ان يمدوه بما تصل اليهِ ايديهم

***

وبعدُ فقد اتفق لي في الشهر الذي خلا ان اشخص الى مدينة لَيْبْتْسِش Leipzig حيث يقيم الاستاذ (فِشِر) . فلم يسعني الآ ان القى الرجل واطارحهُ الحديث في معجمه . فاذا به يخبرني انهُ أتمّه وان الجزازات التي بين يديهِ تبلغ الف الفٍ وخمسمائة الف . ثم سمح لي بالوقوف على جانب مما دوّنهُ تدويناً فاذا الذي أراه يهزّني : يأتي المصنّف باللفظ العربي ويذكر مفاده بالفرنسية والانجليزية ثم يردفهُ بما يجانسهُ في السريانية والأكدية والعبرية والحميرية وما اليها ، ثم يذكر المعاني المختلفة اذا كان اللفظ « مشتركاً » ، ثم يبسط دقائق كل معنى من حيث موقع اللفظ في سياق الكلام . وهيهات أن يرسل القول ارسالاً ، فهو يحتج في كل موطن بنصوص قبولها مبني على الضبط والوثوق . واستناده الى الشعر الجاهلي فالقرآن فالحديث فتآليف المؤرخين الأولين امثال

(١) انظر «المقتطف» اكتوبر ١٩٣٥، ص ٣١٠

الطبري والادباء السابقين كمثل ابن المقفع واشعار المخضرمين والاسلاميين والطبقة الأُولى من المولّدين . فانت ترى أن ما جمعه لا يعدو القرن الثالث للهجرة

هذا وقد انتفع المصنف بما عمله من قبل اضرابه من علماء اللغة أمن العرب كانوا أم من الاعاجم . الاَّ انهُ لا يعوّل عليهم من طريق مباشر ؛ وبيان ذلك أنهُ ان اصاب عند القوم معنى لم يظفر بهِ في المؤلفات التي استند اليها اشار اليهِ ونسبهُ الى صاحبه

***

بَقِيَ ان هنالك مُشكلتين اذنتُ لنفسي أن انصبهما للاستاذ (فِشِر) . اما الأُولى فتلحق بالاستشهاد ، واما الثانية فترجع الى التدوين نفسه . وقصّة الأُولى أنَّ المصنف يستدل بالحديث . ومما كاد يجمع عليهِ الائمة — وفيهم صاحب « الكتاب » والخليل والكسائي — ان اثبات اللغة بكلام النبي موضع نظر لأنَّ غالب الاحاديث مرويّ بالمعنى ولأنَّ الاعاجم والمولدين سلّطوا عليها ايديهم حتى أنَّ الحديث الواحد ليأتي على اوجه شتى من الرواية واللفظ . غير ان نفراً من النحويين واهل اللغة — وفيهم ابن خروف وصاحب « الألفيّة » جوّزوا ذلك ، ولهم حججهم . ولتجدن القضية مبسوطة في مقدمة « خزانة الأدب » للبغدادي . ثم ان المصنّف يقدّم الشعر الجاهلي على القرآن في الاستشهاد ؛ فان نظرنا الى التعاقب التاريخي ما وجدنا المصنف الاَّ على حق . ولكنّا اصبحنا نعدّ القرآن الحجة المقدّمة — جرياً على طريقة الاستاذ الدكتور طه حسين — فنبذنا ما ذهب اليهِ الأقدمون أنَّ لغة القرآن تصيب شواهدها في الشعر الجاهلي . وأما المشكلة الثانية فنقل الالفاظ السامية دون العربية والالفاظ الافرنجية الى لغتنا ، وهذا الفن معروف عند علماء الغرب بكلمة Transliteration ؛ وهو مجهول عندنا . الاَّ ان ابن خلدون عالجه بعض الشيء في « مقدمته » ثم جرى الشيخ ابراهيم اليازجي مجراه في مجلته « الضياء » . والحق اننا ما نزال نعاني نقل الالفاظ الاعجمية الى لغتنا على وجهها الصحيح اي دون ان نعمد الى « النحت »

كيفما كان الحال فانَّ تينك المشكلتين لاحقتان بالعَرَض ، ولا عُسْرَ في حلّهما . والتحقيق ان المعجم الذي يعالج الاستاذ (فِشر) تصنيفه في المحل الأَول من النفاسة . ولعلّ اعضاء مجمع اللغة العربية الملكي يفطنون الى قدره فيتعاونون على ابرازه ، وعسى ان يواصلوا العمل فاذا فرغوا من الفصيح انصرفوا الى المُصْطَلَح والعامي والدخيل ، والمصنفات في هذه الثلاثة الفنون الاخرى — قديمة كانت او حديثة — متداولة بين الناس [1]

(١) سألت الاستاذ (فشر) — وهو العالم باللغات الميتة والحية — قلت : « كيف ترى العربية ؟ » قال : « ما اعرف لغة اغنى منها ولا اسلس مقاداً ولا ارق حاشية »

المال عند الاقدمين وعندنا

تضخم الثروات وتوزيعها
في مختلف العصور والامم

لامين الريحاني

المال يعمر الممالك ويخربها ، يعمرها اذا قرن في استخدامه العلم وحب الانسانية ، ويخربها اذا انحصر استخدامه في حب الذات والمصالح الخاصة

المال رأس النعم في الحياة الدنيا ، ورأس المحن كلها . هو رأس النعم اذا توزع توزعاً عادلاً بموجب شرائع يسنها الانسانيون الصادقون من السياسيين ، وهو رأس المحن اذا تكتل وتضخم ، وكانت الشرائع تساعد في تضخمه وتكتله

المال في الحال الاولى كالنهر العديد الفروع ، الكثير الترع والاقنية ، عميم العدل ، عميم الفائدة وهو في الحال الثانية كالسد تتجمع فيه مياه الأنهر لتستخدم في احياء ارض محدودة دون سواها

كان المال خير وسيلة للانسان الاول في معاملاته المدنية الاولى؛ فصار شر وسيلة اذ اتسع نطاق تلك المدنية ، وتعددت المطامع البشرية . بيد انه في تطوره الحديث ، عائد الى وضعه الاول ، فيطلق اذ ذاك في توزعه ، من القيود الاقتصادية التي تسبب التضخم والتكتل ، وتقاس قيمته بمنافعه العامة لا الخاصة

المنافع الخاصة ! لقد كان اصحابها يتمتعون ، في المدنيات القديمة وفي مدنيتنا السابقة للحرب العظمى ، بكل اسباب الفلاح ، وبكل حقوق الاحتكار السياسية والاقتصادية . ما كان والحق يقال منافع تذكر غير المنافع الخاصة . وقد كانت في المدنيات الاولى تستعين حتى بالدين ، فتنزل الآيات من اجلها ، ويتكهن الكهان لتعزيزها

اما عامة الناس ، السواد ، العاملون المنتجون والمجاهدون ، فحسبهم التقوى ونعمة الآلهة . حسبهم رضى الكهان والاشراف ، اولئك الذين استغلوا الاديان ، واستغلوا ثمار جد الانسان ، واستمتعوا بخيرات الارض في كل مكان ، فكانوا القليل ، وما كانوا كراماً الاّ نادراً ، وكان السواد من الناس يدفعون الخراج ، و «يأكلون» الكرباج ، ويصلّون في الهيكل لرب العرش ورب التاج

اني محدثك بما يمليه العقل لا القلب عليّ ، وبما هو من وضح التاريخ لا من النظريات ، فلا اقول غير ما يوجبهُ الاثنان ، ويبته البرهان . فاستمع لي ، دام حلمك

ما تمتع بخير الارض في الزمان القديم غير الملوك والامراء ، والرؤساء المدنيين والدينيين ، وقليل غيرهم من المقربين . وما عُمِّر في الممالك عمارٌ يدوم طويلاً ويذكر ، غير ما كان للرؤساء والامراء والملوك ، او ما كان مؤيداً لسلطانهم ، ممززاً لنفوذهم ومصالحهم ، ما عُمِّر غير الهياكل والقصور ، والطرقات للقوافل والجنود ، والاقنية والترع في بعض الاماكن للري ، اول مصادر الثروة في العالم

وما كان المال يتوزّع توزّعاً واسع النطاق ، فترقّ حواشيه في الاقل ويزداد خيره ، بل كان يتجمّع فيتكتّل ، فيسوء لذلك مصير الامة والمُلك . وقد كانت الكتلة الكبرى للملك طبعاً ، والكتل الاخرى للامراء من البيت المالك ، ثم للكهان والاشراف

اما الباقي من الامة ، اي السواد ، فقد كانوا على الاجمال محرومين حق التملك ، مستعبَدين حقيقةً ان لم يكن اسماً كذلك . ومن كان منهم صاحب عقار ، كان ذلك العقار كوخاً في حي الفقراء ، او بيتاً حقيراً في ظل قصر من القصور

لقد أكثرت من البيان فوجب عليَّ البرهان . مهما كان من تجريح التاريخ ، ومهما قيل في شطط المؤرخين ، فالحقيقة التي ذكرت ظاهرة لا ريب فيها . قلت ظاهرة ، وما كانت كذلك قبل ان شرع الأثريون ينبشون مدنيات الماضي القديم ، فأظهروا تلك الحقيقة ، وأيدوها بالادلة المحسوسة

هي ذي في المعابد والقصور ، وفي قبور اصحاب القصور والمعابد . فقلما يعثر الأثريون على شيء غيرها . هي ذي آثار الملوك والاشراف والكهان . واين آثار السواد من الناس ؟ انهم حتى في قبورهم بائدون ، وليس في حفريات الأثريين ما يجدد لهم ذكراً ، غير ماعون مثلاً من النحاس ، أو قطعة من الفخار . وان سألت عن آثار البيوت بيوتهم والقبور ، دلوك على آثار القصور والمعابد

هذي هي مدنية الاقدمين ، مدنية الكهان والاعيان ، مدنية الاقلية الصالحة التي حملت الكرباج باحدى يديها ، والمبخرة بالاخرى ، فأشعلت في المعابد البخور ، وما ابقت للسواد من الناس غير القبور . بل حرمتهم حتى القبور التي تنجو من يد الدهر الهدّام ، فينبشها الأثري في هذا الزمان

تلك القبور الملأى بالجواهر والتحف وبرموز الخرافات ان هي الاَّ قبور من حملوا الكرباج و « أكلوا » الخراج . اما قبور من دفعوا الخراج و « أُكلوا » الكرباج فَسَلْ عنها الزمان

وسَلْني انا عن عدد من لا قبور لهم ، وعدد اصحاب القبور الحافلة بالكنوز . سلني اذا شئت عن النسبة ، نسبة الاسياد الى العبيد في قديم الزمان . ولا تعجبنَّ اذا قلت لك ان النسبة بين الفريقين لكنسبة الحبة الى القبة

***

واليك من التاريخ بالمثل والبرهان

عند ما اشتد دور الانحطاط الاخير في مصر ، ذلك الدور الذي بدأ في الدولة العشرين (١٢٠٠ — ١٠٩٠ ق . م .) كانت ثروة البلاد كلها بيد عدد من الناس لا يتجاوز اربعة بالمائة من عدد السكان. فافرض ان عدد السكان في عهد الفراعنة الرعمسيين كان خمسة ملايين ، فالذين ملكوا الارض ، واستمتعوا بخيرها ، لا يتجاوزون المائتي الف . هي الطبقة المالكة حقيقةً ومعنىً . وقد كانت مؤلفة من الملك والاشراف والكهان ، وقليل ممن دونهم من التجار والحكام ورؤساء الجيوش

على ان سيادة الكهان في دور الانحطاط تعاظمت بتعاظم ثروتهم . فقد كان الفراعنة يزيدون أوقاف الهياكل ليؤيد اربابُها سلطانهم . بل كانوا يقدمون الاموال للآلهة ، ويقفون عليهم ، سبحانهم وتعالوا ، الاوقاف الطائلة من مصانع ومزارع ومدن ، ليظل الآلهة راضين عنهم ، مؤيدين لعروشهم . وقد بلغت تلك الاوقاف في عهد رعمسيس الرابع خمسة عشر جزءاً من المائة جزء من ثروة مصر والبلدان التابعة لها (١)

وفي بابل ، خلال دور انحطاطها ، كانت النسبة بين اهل المال واهل الفاقة اقل مما كانت في مصر ، اقل قليلاً ، اي ثلاثة بالمائة . فلو قلنا فرضاً ان سكان مملكة بابل ثلاثة ملايين كان المستحوذون على ثروة البلاد تسعين الف غني . وقد كانوا هم المالكين حقيقةً ومعنىً ، باسم الآلهة ، مثل اخوانهم في مصر

اما في بلاد فارس فقد كانت الحالة الاقتصادية اشد وانكر . في بلاد فارس ، حتى في عهد دارا الكبير ، كان عدد القابضين على زمام الثروة في الامة اثنين بالمائة فقط ، اي نحو مائة الف بشر ثري. هذا اذا كان عدد السكان خمسة ملايين ، يوم كانت العجم تحارب الاغريق

وما كانت بلاد الاغريق ، على علو كعبها في التمدُّن ، تفضل بلادَ فارس في توزُّع ثروتها . بل كانت تلك الثروة منحصرة كذلك في القليل القليل من الناس ، نسبتهم الى السواد نسبة مخجلة . هي مخجلة حقًّا لانها من حقائق الحياة « الراقية » في بلد سقراط وبِرِقْليس

---

(١) في ما يلي بعض الارقام من احصاء في السجل البردي المعروف بسجل (هاري) ذكره الاستاذ برستد Breasted في كتابه تاريخ مصر صفحة ٤٩١ — فالآلهة او الهياكل ، او بالحري وكلاء الهياكل والآلهة ، اي الكهان ، كانوا يملكون في عهد رعمسيس الرابع :

١٠٧٫٠٠٠ رقيق (من كل خمسين نفساً من الاهالي نفس واحدة للهيكل)

٥٠٠٫٠٠٠ رأس من المواشي

٧٥٠٫٠٠٠ فدان من الارض (اي ١٥/١٠٠ من ارض مصر الصالحة للزرع)

٨٨ مركباً من مراكب النيل

١٦٥ مدينة في مصر وسورية (اي خراجها كله للهياكل)

أضف الى ذلك ما كان يقدم للآلهة من التحف والجواهر والمال ذهباً وفضة . فقد كان الدخل السنوي للاله عمون وحده ٢٦٫٠٠٠ قطعة من الذهب ، ماعدا نصيبه مما تقدم ذكره

اثينا ، ان عدد الاغنياء في دور انحطاط اثينة لمدهش ومخجل ، كيف لا ، وهو لم يبلغ الجزء الواحد بالمائة ? بل كان نحو نصف جزء الواحد. ومعنى ذلك ، ايها الفاضل ، انهُ لم يكن بين كل الف فقير غير خمسة من اصحاب الثروة ! فلو فرضنا ان عدد السكان يومئذٍ اربعة ملايين فعدد الذين احتكروا ثروة الامة الاغريقية يكون عشرين الف سيد اغريقي

اما العرب اجدادنا فقد كانوا في قديم الزمان ، وفي الجاهلية ، من الشعوب التي ما عرفت من المال — لا من خيره ولا من شره — شيئاً كثيراً بل كانوا ، الاَّ في اليمن ، وفي قريش من القبائل ، فقراء فقراء . . وقد كانت الثروات اليمانية ، واكثرها صغيرة ، منحصرة في الاذواء وذويهم ، والمقرَّبين منهم

ثم بعد الفتح اخذت تتسرَّب اموال الامم الى بيت المال في المدينة ، فأحسن استخدامها الخليفتان الاول والثاني ، وأساء استخدامها الخليفة الثالث ، فما ابقى لخلَفه غير القليل ، بُذل معظمهُ في حربٍ خاسرة

وبعد ذلك أخذت الثروة تتضخم في عهد الامويين ، ثم في عهد العباسيين . ولكننا لا نعلم حق العلم مقدار تكتُّلها — الاَّ في بيت المال طبعاً — ومقدار النسبة بين عددي الاغنياء والفقراء في سورية والعراق . لقد عظمت ارقام الخراج ، ولا غرو، فصارت تُعَدُّ بالوف الالوف . ولكنها كانت مطلقةً من قيود العدل ، الاَّ في ايدي الخلفاء العادلين ، وهم قليل . وكان الباقون يتصرفون في الخراج كيفما شاؤوا وشاءت اهواؤهم وملذاتهم

لا يجوز ، وانا في هذا الحقل القاحل من عالمنا العربي ، ان امرَّ ساكتاً بحالة اجتماعية جميلة خضَّرت حواشيه ، فأثمر فيها الاحسان ، وشرف الانسان . حدثنا عنها ابن بطوطة . وحسبي الآن ان اشير اليها، وادلك عليها . هي الاوقاف المتعددة التي شاهدها في دمشق وعدد منها ما يدعو الفخر والاعجاب . على انهُ يُستدَل من ذلك ان المال يومئذٍ كان متكتلاً ، ولكن اصحابه كانوا من المحسنين ، فبذلوا ما استطاعوا ، في أوقافهم العديدة ، لتخفيف وطأة الفقر عن السواد من الناس

***

اذا استثنينا هذا المظهر من مظاهر الغناء عند العرب كان في وسعنا ان نقول ان الحالة الاقتصادية المنكرة كانت في مصر اخف وطأة منها في سائر الممالك القديمة. فما السبب في ذلك ? لم تكن مدنية المصريين ارقى من مدنية الاغريق . ولكن وادي النيل اكثر خصباً من ارض اليونان . وخصب الارض وثروة الامة يتناسبان ، وقلما يفترقان . فوادي النيل ووادي الرافدين تشابها خصباً في قديم الزمان ، ونسبة الغناء الى الفقر فيهما كادت تكون واحدة

على ان الثروات تكتَّلت في تلك الممالك القديمة كلها ، وخصوصاً في ادوار انحطاطها . بل كان التكتُّل السبب الاول في انحطاطها ، فعُدَّ المتمولون بالمائة وبالالف ، وعُدَّ الفقراء بالملايين .

وقد كانت اكثر الامم تمدناً — مثل الاغريق — أكبر الامم بفقرائها ، واصغرهنّ — ليس بالغناء — اصغرهنّ بالاغنياء

لا ازيدك علماً بما كان من احوال الفريقين الاجتماعية والادبية . لا ازيدك علماً بترف الاغنياء وتلف الفقراء ، بالقصور والبساتين ، وا كواخ المساكين ، بالمنكرات العلنية ، والامراض السرية . بالاباحات المحللة المضمخة بالبخور ، المكللة بالزهور ، وبالبؤر الاخلاقية التي يولدها الزحام والظلام . عُد الى التاريخ تزدد تيقناً مما اقول

واني فوق ما قدمت اعطيك البرهان الاكبر من تاريخ الدولة العالمية الكبرى ، دولة الرومان ، وقد دانت لها شعوب الارض شرقاً وغرباً ، وتسرّبت الى خزائنها برومة اموال العالم فكانت رومة ، في ذلك الزمان ، كما هي لندن اليوم ، قطب السيادات السياسية والاقتصادية والمالية كلها

وماذا كانت نسبة العددَين ، عدد الاغنياء وعدد الفقراء ، في تلك الامة الرومانية العظيمة ؟ لقد كانت في مصر اربعة بالمائة ، وفي بابل ثلاثة بالمائة ، وفي ايران اثنين بالمائة ، وفي بلاد الاغريق نصف واحد بالمائة ، فماذا كانت في رومة ؟

ما كان في رومة ، ايها النجيب ، نسبة تذكر بالصورة الحسابية البسيطة . لا ½٪ ولا ¼٪ ولا ⅕٪ بالمائة ولا جزء واحد من الخمس . وذلك لان الشعوب التي كانت تدفع الضرائب للرومان كانت تربي على الخمسين مليون نفس (اذا كنت مخطئاً في هذا العدد فخطأي بالنقص لا بالزيادة) ولأن الرومان الذين ملكوا الارض لم يتجاوزوا في دور انحطاط رومة الالفين عداً

الفان من خمسين مليوناً ! فما هي النسبة ؟ احمل حسابك في مهل ، ودعني أوكّد الالفاظ المخجلة . الفان اثنان من الرومان يستمتعون بثروة العالم في تلك الايام ، وملايين من الشعوب الاوربية والاسيوية فقراء فقراء ، لا يملكون — كما يقال — شروى نقير

بئس الدولة التي يدير شؤونها ، ويستمتع بجميع خيرها ، الفان من سادة الناس
بئس الدولة التي تعظم فتتكتّل الثروة فيها ، وتصغر فتستعبَد الرجال

***

ان غناء اولئك الرومان لشبيهٌ نسبةً بغناء اصحاب الملايين في اميركا . فقد بلغت ثروة احدهم ، هو إزيدوروس ، بحسب وصيته ، ٤١١٦ رقيقاً ، و ٣٦٦٠ رأس من البقر، و ٢٧٥٠٠٠ رأس من مختلف المواشي ، ما عدا نصف مليون من المال ذهباً . وما كان إزيدوروس باغنى الرومان ، وما ثروته هذه الاّ ما تبقى عنده بعد خسارة جسيمة

اما ثروات عواهل الرومان فقد كان بعضها يدنو من الثروات الاميركية الكبرى . كثروة الامبراطور طيبيريوس مثلاً التي حسبت عند وفاته باثنين وعشرين مليون ليرة ذهباً

فاين منها ثروات ملوك هذا الزمان وحكامه ؟ لقد تقدمنا من هذا القبيل . فالملوك والسياسيون في زماننا قلما يثرون . انما الأثراء للتجار ، وارباب الصناعات والمهن

ومن هؤلاء ، في بلاد مثل انكلترا ، تتألف طبقة الاشراف . فصاحب معمل الصابون مثلاً ، او صاحب طائفة من الجرائد والمجلات ، وقد صار مليونيراً بفضل عصاميته ، يصير نبيلاً بفضل تقليد قديم لتخليد طبقة النبلاء . وكيف تخلَّد هذه الطبقة وتظل رفيعة الشأن ، عزيزة الجانب ، اذا كانت الحياة لاتتجدد فيها على الدوام ؟ انها لحكمة بليغة في المحافظة والتجدد

وهذه الطبقة الشريفة تملك قسطاً وافراً من ارض انكلترا . كل نبيل غني ، ولا يعكس

وفي انكلترا من اصحاب الملايين ٥٤٣ ثريًّا (احصاء سنة ١٩٢٩) اما اصحاب الثروات الصغيرة التي تتراوح بين العشرة آلاف والمائة الف جنيه ، فيبلغ عددهم ٤،٦٥٠،٠٠٠ اي نحو عدد سكان مصر في عهد الفراعنة الرعمسيين ونحو الثمن من عدد سكان بريطانية العظمى الآن

***

لانكر اذن ان نسبة الفقراء الى الاغنياء قد تغيرت تغيراً حسناً يذكر . ولكنها لا تزال دون الاحسن المنشود . فالهدف الاعلى للشعوب المحرَّرة هو قائم ، على ما ارى ، بين بلشفية روسية المركسية واشتراكية اميركا الدمقراطية . فان في البلادين تجري اليوم تجربات خطيرة مختلفة هي كلها ، في عدلها الانساني المنشود ، اكبر قصداً ، وأبعد مرمى ، مما تقدمها من الاصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في التاريخ القديم والحديث

وهناك فرق آخر بين غنائنا وغناء الاقدمين . فان مجموع الثروة عندنا ، في امة واحدة من الامم الغنية ، لأكبر جدًّا مما كان حتى في الدولة الرومانية العظمى . بل ان رجلاً مثل رُتشيلد او ركفلر او هنري فورد ليملك وحده ما يقدر بثمن ثروة رومة في ذلك الزمان

هذا وان التكتل المالي آخذ بالتفكك ، وقد اتسع ، خصوصاً بعد الحرب العظمى ، نطاق انتشاره وقلَّ نطاق خيره ، فتعددت الثروات في الدول الكبيرة في الافل ، وازداد عدد الميسورين . لقد اسلفت البيان عما في انكلترا من اصحاب الملايين وأصحاب الثروات الصغيرة . وان عدد هؤلاء في فرنسا لأزود ، الاّ أصحاب الملايين (بالليرات) فلا اظنهم كثيرين . على ان طبقة البورجوازي التي تحكم اليوم البلاد سياسيًّا وماليًّا هي اهم الطبقات هناك ، ان لم تكن أكبرها وأغناها

***

ومما يدل على اليسر المتسع النطاق في هذا الزمان عدد السيارات . فان في فرنسا ١٦٧ر٢٩٤ر١ سيارة[1] اي واحدة لكل ثلاثين من السكان . وهي مثل ذلك في انكلترا ، وأقل من ذلك في المانيا

---

(١) احصاء سنة ١٩٣٠

اما في اميركا فقد بلغ عدد السيارات من جميع الانواع في سنة ١٩٣٠ ثلاثة وعشرين مليون ومائة وعشرين الف سيارة، اي سيارة واحدة لكل خمسة اشخاص

وعدد اصحاب الملايين غير الكبار، اي الذين يملكون ما يتراوح بين الخمسة والعشرة ملايين من الدولارات، يفوق عدد ما في انكلترا. فان في مدينة نيويورك وحدها مائتين منهم. وفي الولايات المتحدة سبع مدن كبرى، بعضها اكبر من باريس، وخمس عشرة مدينة كالقاهرة. وفي كل مدينة اغنياؤها ذوو الثروات التي هي فوق المليون ودون الخمسة ملايين دولار، فضلاً عن اصحاب الثروات الصغيرة، ويقدَّر عددهم بثلاثة او اربعة ملايين، بناء على ضريبة الدخل التي بلغت في سنة ١٩٣٠ نحو بليونين واربعمائة مليون دولار، وهي بالتدقيق:

من الشركات	١ر٢٦٣ر٤١٤ر٤٦٦
من الافراد	١ر١٤٦ر٨٤٤ر٧٦٤
	٢ر٤١٠ر٢٥٩ر٢٣٠ دولاراً

اي الفين واربعمائة الف الف على طريقة العرب في العدّ

لا نكران اذن ان عدد الاغنياء والميسورين آخذ بالازدياد في العالم. ولكن ذلك لا يعني ان شرور الفقر قد زالت، او هي مسرعة في الزوال. ذلك لا يعني ان الجور والتعسف والاستئثار، وفساد الاخلاق والجرائم والامراض، الناشئة عن تكتُّل الثروات، وعن الفقر المقابل لها، قد أمست كلها في خبر كان. بل هناك ضروب من الجور، في المعاملات المالية الكبرى وفي المشروعات الاقتصادية العظيمة، لا تستطيع الحكومات، لا الجمهورية منها ولا الملكية الدستورية، ان تزيلها الاَّ اذا تغيرت نظمها اصلاً واساساً

ان الفرق اذن بيننا وبين الاقدمين في المسألتين، موضوع هذا المقال، اي في التكتُّل المالي وفي نسبة الفقراء الى الاغنياء، هو ان المال عندنا قد ازداد ازدياداً عجيباً، وقد تغيرت النسبة تغيُّراً حسناً ظاهراً. فمن ٤/١٠٠ في عهد الفراعنة، الى ما يتراوح بين ١٥ و ٢٠ بالمائة في زماننا، في الامم التي ذكرت، وهذا ما يصح ان يدعى ارتقاء. ولكننا لا نرضى بان نقف في الارتقاء عند هذا الحد

لا نقول ان عدد الاغنياء في العالم يجب ان يزداد ويستمر في الازدياد. كلاَّ. انما نقول يجب ان يقل عدد الفقراء في العالم، ثم يقل، فيزول الفقر تدريجاً، وتزول شروره كلها

هي ذي الحالة الاقتصادية الاجتماعية التي ينشدها ذوو الفكر الراقي النزيه، ذوو الفكر الدولي الانساني. هو ذا الهدف الاقصى! وستدركه في المستقبل الامم المتمدنة جمعاء

الفريكه — لبنان

هاتف النفس

لعبد الرحمن شكري

— ١ —

طلب السكينة

يا ليت قلبي غدا خلاءً كعالمٍ كلـه بِحَار
على انتفاء الحياة منها في خضرم ما له قرار
فلا مهود ولا قبور ولا سفين ولا منار
ولا حبيب ولا عدو ولا نمو ولا احتضار
ولا رخاء ولا شقاء ولا رجاء ولا ادكار
أو كان كالنجم في سراه الوادع السائر المُدَار
أو كان كالليل في هدوء يُخال في صمته حِوَار

— ٢ —

طلب القوة

يا ليت قلبي على أساه أقوى من الشر والشقاء
وليت نفسي على هواها أقوى من الحب والرجاء
وليت لُبِّي على حِجَاه أجلد من غفلة الغباء
لا يضطنيه عداء عادٍ وليس يغتر بالإخاء
يأخذ صفو الزمان عفواً ولا يُمَنَّى من القضاء
وليت صبري على بلاءٍ أشد من أروع البلاء
دواء داء الحياة فينا لو تُسعِد النفس بالدواء
بالصبر والسعي والمُنَى والحِلم والعزم والوفاء

التجارة الاسلامية

وأثرها في الحضارة [١]

قسطنطين زريق
احد اساتذة التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الاميركية

لم يعرف تاريخ العلم قوماً كانوا اقل انصافاً لفنهم واشدّ ظلماً لهُ من جماعة المؤرخين ، فكأني بهم قد افرغوا جهدهم في صدّ الناس عنهُ ومنعهم من ارتياد مناهله . كيف لا ، وقد جردوه من كل متعة وروا ، وامتصوا منهُ ماء الحياة ، ولم يبقوا فيهِ الاَّ هيكلاً عظمياً من اسماء وتواريخ ليس بينها وبين حياتنا الحاضرة علاقة وثيقة او سبب قويّ . فكانت نتيجة الجهود التي سكبوها في تلك المؤلفات الضخمة والكتب الجسيمة انهم ، عوضاً من تحبيب هذا الفن الى الناس وتشويقهم الى اقتطاف ثمراته اليانعة ، جعلوهم ينصرفون عنهُ ويصدفون عن مراتعه وحقوله ولا يرون في درسه كبير لذّة او عظيم غَناء . لكنّ التاريخ يأبى ان يظلّ اسيراً ضمن النطاق الجائر الذي قيّدوه بهِ ، فهو لا يكتسي رواءه ونضارته الاَّ اذا لامس الحياة واتصل بها اتصالاً وثيقاً ، اذ ليس هو ، في جوهره ، سوى تطور الحياة البشرية باختلاف نواحيها وتعدد الوانها ، يستمد روحه من حياة الطبقة العامة من الناس وطرق معيشتهم وأحوالهم الاقتصادية والاجتماعية والعقلية : فكم في البيوت الوضيعة والطرقات العامة ما هو اجدر بالحفظ في بطون التواريخ من اسماء الملوك والوقائع والحروب لانهُ اصدق منها تمثيلاً لحياة الامة ولون معيشتها وتطوّر احوالها

فاذا حاولت ان احدثكم في موضوع تاريخي ، فسوف ابتعد — ما استطعت — عن الخلفاء والامراء والحكام ، وسوف أصم أذنيّ وآذانكم عن سماع صليل السيوف وقرع الطبول ونفخ الابواق ، واسعى واياكم الى ناحية خصبة غنية من الحياة الاسلامية القديمة لم تنل من المؤرخين حقها من الدرس والاهتمام ، مع ما كان لها من الاثر القوي والصدى البعيد في تاريخ الشرق والغرب : اعني بها «التجارة الاسلامية وأثرها في الحضارة» . ليس قصدي ان اعود بكم الى الجذور القديمة التي نبتت منها حركة التجارة الاسلامية ، فاصوّر لكم الجزيرة العربية في الازمنة التي سبقت الاسلام ، واحدّد الطرق التجارية التي كانت تخترقها ، والدول والمدن الزاهرة التي قامت على اساس تجارتها — كمعين وسبأ وحمير وتدمر والبطراء ومكة ، واصف ما كان لهذه الدول والمدن من الشأن في وصل حضارة الهند وثقافته بمدنية بلدان الشرق الادنى والبحر الابيض المتوسط ، فالقول في ذلك — كما تعلمون — واسعٌ مستفيض لا مجال لاستيعابه في هذا المقام ، وكفى تلميحاً اليهِ ان نورد شهادة

(١) محاضرة القيت في كلية المقاصد الخيرية في بيروت

الجغرافي اليوناني استرابون (Strabo) الذي قال : « العرب جميعهم اهل تجارة » ، والقول المتداول عن اهل مكة قبل الاسلام : « من لم يكن تاجراً فليس عندهم بشيء »

دعونا اذن نمر بهذا الدور التحضيري الذي غرست فيه بذور التجارة الاسلامية ، ونجوز دور الفتوحات الذي عقبه والذي نُشرت به راية الاسلام من حدود الصين الى سواحل الاطلانتيك فوحدت الاقطار الشاسعة تحت حكم واحد وهدمت الحواجز التي كانت تفصل بينها ، ولننتقل رأساً الى قلب العصر العباسي (الى القرنين الثالث والرابع هـ . ، التاسع والعاشر م) حين وصلت المدنية الاسلامية الى اعلى قممها، ولنراقب تلك الحركة التجارية المفعمة بالقوة والنشاط التي كانت تتغلغل في قلب الامم الاسلامية وجوانبها ، وتربط بينها وبين الامم التي تجاورها وتنقل منها واليها بذور الحضارة والثقافة والمدنية

لو كنت يا اخي تاجراً في ذلك العهد لما سكنت بيروت لانها لم تكن قد اكتسبت بعد مكانة تجارية ، وانما كنت استوطنت بلداً غيرها على الساحل السوري كطرابلس او صور او عكة حيث تجتمع السفن « المنشآت في البحر كالاعلام » ويلتقي تجار المسلمين زملاءهم الغربيين ، ولكان لك في بلدك المستودعات الواسعة تخزن البضائع التي تستوردها من بلدان الشرق وتصدّرها الى الغرب ، فان وظيفتك كانت في ذلك العصر — كما لا تزال الى اليوم — ان تقومَ وسيطاً بين الشرق والغرب وتكون حلقة اتصال لطرق التجارة التي كانت في القرون الوسطى تسير من الشرق الى الغرب فانعكست اليوم ، بعد نهضة اوربا الحديثة ، وغدت تجري من الغرب الى الشرق

واذا اسعفك الدهر واتسعت تجارتك فلا بُدَّ ان تكون بينك وبين التجار الغربيين — واشهرهم سكان المدن الايطالية — اتفاقات ومقاولات تجارية تسعى الى القيام بها وتجني من ورائها الربح العظيم . ولكنك اذا احببت ان تلمس الحركة التجارية في صميمها وتشعر بقوتها وبالحياة التي كانت تدب فيها فلا بُدَّ لك من الاتصال بالطرق التجارية التي كانت تخترق المحيط الهندي وتصل بين الهند والصين من جهة وبين بلدان الشرق الادنى ومن ورائها اوربا من جهة اخرى . فالمحيط الهندي كان في ذلك العهد اعظم ميدان للاعمال والمشروعات التجارية ، وفي مياهه وشواطئه كانت تلتقي مراكب الامم المختلفة وتتبادل بضائعها ومحصولات بلادها . فلا غنى لنا اذن عن ان نأتي نظرة عجلى على الطريق الرئيسية للتجارة الواسعة التي كانت تدور اعمالها في ذلك الميدان الفسيح

كانت قاعدة هذه التجارة ومحط رحالها الموانىء الواقعة على شواطىء الخليج الفارسي كالبصرة والأُبلّة وسيراف : منها تخرج السفن الصينية الكبيرة والمراكب العربية السريعة ، بعد ان يكون التجار قد افرغوا بضائعهم التي حملوها من الصين والهند وابتاعوا حاجتهم من اللؤلؤ الذي يُغاص عليه في مياه الخليج الفارسي والذي كان ولا يزال اعظم ما تصدّره تلك البلاد . ثم تعبر السفن مضيق هرمز الى خليج عمان فترسو بصحارِ عمان ومسقط حيث تأخذ مؤونتها من الماء والطعام لسفرة طويلة قد تدوم شهراً او تزيد ، ثم تقلع الى الهند او بالاحرى الى القسم الغربي منهُ — وهو الذي

كان يدعوه العرب « السند » — وترسو في موانئه فينزل اليه التجار ويبتاعون تلك المحصولات الثمينة المتنوعة التي اشتهرت بها بلاد الهند منذ اقدم الأزمنة : وهي البهارات والعطور والعقاقير والاخشاب والعاج والحجارة الكريمة . وفي السند يقول الرحّالة المقدسي : « هذا اقليم الذهب والتجارات ، والعقاقير والآلات ، والفانيذ والخيرات » والارزاز والموز والاعجوبات ، به رُخص وسعة ونخيل وثمرات ، وعدل وانصاف وسياسات ، وبه خصائص وفوائد وبضاعات ، ومنافع ومفاخر ومتاجر وصناعات [١] . ويظل تجارنا يتنقلون بمراكبهم بين موانئه الى ان يصلوا الى ساحله الجنوبي المعروف ببلاد الملبار ثم يدورون حوله ويمرون في المضيق الفاصل بين شبه جزيرة الهند وجزيرة سيلان — او كما كان يدعوها العرب « سرنديب » — فترسو المراكب في بعض شواطئها ويشتري التجار من محصولاتها — واعظمها الياقوت والحجارة الكريمة — واذا كانت حركة الرياح غير موافقة وكان بين التجار من تستهويه الرحلة ومشاهدة الآثار نزلوا الى برّها وتسلقوا جبالها لزيارة « القدم » وهو — على ما يعتقدون — اثر بارز لموطىء قدم ابينا آدم عليه السلام

ومن سرنديب تقلع السفن قاصدة جزر الهند الشرقية (جاوه وسومطرة) — وقد كانت تعرف عند العرب ببلاد الزابج — وهي غنية باللبان والكافور والعود الهندي والقرنفل ، ومنها تسير رأساً الى الصين فتصل — بعد سفر طويل — الى مدينة خانفو وهي ، بشهادة التاجر سليمان الذي قطع هذه الطريق البحرية مراراً في منتصف القرن التاسع م . « مجتمع تجارات العرب واهل الصين » [٢] . واهل الصين مشهورون منذ اقدم الازمنة بدقة صناعاتهم واتقان فنونهم ، واشهر مصنوعاتهم التي كان التجار المسلمون ينقلونها الى الغرب : الحرير والفخّار . قال التاجر سليمان عن صناعاتهم : « واهل الصين من احذق خلق الله كفاً بنقش وصناعة وكل عمل لا يقدمهم فيه احد من سائر الامم » [٣] وذكر رقة حريرهم فوصفها بالقصة التالية : « وذكر رجل من وجوه التجار ومن لا يشك في خبره انهُ صار الى خصيٍّ كان الملك أنفذه الى مدينة خانفو لتخيّر ما يحتاج اليه من الامتعة الواردة من بلاد العرب فرأى على صدره خالاً يشف من تحت ثياب حرير كانت عليه فقدر انهُ قد ضاعف بين ثوبين منها فلما الحّ في النظر قال له الخصي اراك تديم النظر الى صدري فلمَ ذلك فقال له الرجل عجبت من خال يشف من تحت هذه الثياب فضحك الخصي ثم طرح كمّ قميصه الى الرجل وقال له اعدد ما عليّ منها فوجدها خمسة اقبية بعضها فوق بعض والخال يشف من تحتها والذي هذه صفته من الحرير خام غير مقصور والذي يلبسه ملوكهم ارفع من هذا واعجب » [٤]

واذا تقدمنا الى عصر ابن بطوطة (القرن الرابع عشر . ، الثامن هـ .) — والراجح عندنا ان

---

(١) احسن التقاسيم (طبعة دي غويه — ليدن) ص ٤٧٤

(٢) Reinaud, Relation des Voyages dans l'Inde et à la Chine (باريس ١٨٤٥) م ٢ ، ص ١٣

(٣) ص ٧٥ (٤) ص ٧٤ — ٧٥

ما يذكره هذا الرحالة ينطبق ايضاً على العصر الذي نصوره الآن لاشتداد حركة التجارة فيه — وجدنا ان السفن لا تلبث ان ترسو في ميناء خانفو حتى يصعد اليها عمال الجمرك ويفتقدوا رجالها واموالها : « وعادة اهل الصين اذا اراد جُنك من جنوكهم السفر صعد اليه صاحب البحر وكتّابه وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدم والبحرية وحينئذ يباح لهم السفر فاذا عاد الجنك الى الصين صعدوا اليه ايضاً وقابلوا ما كتبوه بأشخاص الناس فان فقدوا احداً ممن قيدوه طلبوا صاحب الجنك بهِ فأما ان يأتي ببرهان على موتهِ او فراره او غير ذلك مما يحدث عليهِ والاّ اخذ فيهِ فاذا فرغوا من ذلك امروا صاحب المركب ان يملي عليهم تفسيراً بجميع ما فيهِ من السلع قليلها وكثيرها ثم ينزل من فيهِ ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم فان عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد الجنك بجميع ما فيهِ مالاً للمخزن وذلك نوع من الظلم ما رأيتهُ ببلاد من بلاد الكفار ولا المسلمين الاّ بالصين اللهمَّ الاّ انهُ كان بالهند ما يقرب منهُ وهو ان من عثر على سلعة له قد غاب على مغرمها اغرم احد عشر مغرماً ثم رفع السلطان ذلك لما رفع المغارم » (١)

ولعلَّ أبلغ شاهد على توثّق العلاقات التجارية بين الصين والبلدان الاسلامية وجود جالية اسلامية في مدينة خانفو لها من العدد والنفوذ ما حمل امبراطور الصين على منحها استقلالها الديني والقضائي « وذكر سليمان التاجر ان بخانفو وهو مجتمع التجار رجلاً مسلماً يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون الى تلك الناحية بتوخي ملك الصين ذلك واذا كان في العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطان المسلمين وان التجار العراقيين لا ينكرون من ولايتهِ شيئاً في احكامهِ وعمله بالحق وبما في كتاب الله عز وجل واحكام الاسلام » (٢) . ولم تكن تجارة المسلمين لتقف عند حدود خانفو وامثالهـا من الموانىء الصينية بل كانت تتجاوزها الى داخل البلاد وتتصل بالمدن والمراكز الداخلية الهامة ، كما ان بعض تجار المسلمين وبحارتهم كانوا يخاطرون بمراكبهم التجارية الى البحور الشمالية ، وليس من المستبعد ان يكونوا قد وصلوا الى اليابان او شبه جزيرة كوريا

هذه ، هي اهم طريق كانت تمر بها التجارة الاسلامية لانها تصل بين بلدان الشرق الادنى وبين البلاد التي كانت في ذلك العهد منبع البضائع والتحف والمحصولات الزراعية والصناعية وقد كانت هنالك طرق بحرية اخرى لم تبلغ شأو هذه ومكانتها : منها الطريق الفرعية التي يصح ان نعدها تكملة للطريق الرئيسية الاولى وهي التي تسير من الخليج الفارسي وتدور حول بلاد العرب فتمر بموانىء عديدة على ساحل الجزيرة الجنوبي واشهرها ظفار وعدن ثم تصعد في البحر الاحمر حتى تصل الى جدة او ثغر عَيذاب على الشـاطىء المصري . وبهذه الطريق البحرية كان ينقل جانب من بضائع الشرق الى بلاد مصر والشام . ومن الخير ان نتوقف قليلاً في ميناء ظفار لنشاهد ضرباً من الدعاية التجارية التي كان يستخدمها اهل ذلك الزمان لاستجلاب التجار الى مرافئهم . « وهم [اهل

(١) رحلة ابن بطوطة (طبعة Defrémery et Sanguinetti ، باريس ١٨٧٤—٧٩) م ٤ ص ٢٦٤—٢٦٥ (٣) م ٢ ص ١٤

ظفار « اهل تجارة لا عيش لهم الا منها ومن عادتهم انهُ اذا وصل مركب من بلاد الهند او غيرها خرج عبيد السلطان الى الساحل وصعدوا في صنبوق الى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب او وكيله وللربان وهو الرئيس وللكيراني وهو كاتب المركب ويؤتى اليهم بثلاثة افراس فيركبونها وتضرب امامهم الاطبال والابواق من ساحل البحر الى دار السلطان فيسلمون على الوزير وامير جندار وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثاً وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان وهم يفعلون ذلك استجلاباً لاصحاب المراكب »[1] ومن الطرق البحرية الثانوية ايضاً تلك التي كانت قاعدتها مدينة عدن ، تسير منها الى زيلع على شاطىء الحبشة وتمتد الى بلاد سفالة المشهورة بالذهب والى جزيرة مدغسكر التي كانت تعرف عند العرب بجزيرة الواقواق ، ومنها ايضاً الطرق البحرية التي كانت تخترق البحر الابيض المتوسط والتي ازدهرت في العهد الصليبي خاصة عند ما تقارب الشرق والغرب واتصلت حياتهما السياسية والاقتصادية والاجتماعية اتصالاً قوياً

هذه هي الطرق البحرية للتجارة الاسلامية : على ان الشعوب الاسلامية التي اشتهرت منذ القدم بقوافلها البرية كانت تقطع ايضاً ببضائعها البوادي والجبال وتنقل محصولاتها مسافات شاسعة على ظهور الجمال . فقد كانت هناك طرق برية الى الهند والصين الا انها لم تبلغ من خطر الشأن مابلغته الطرق البحرية لما كان يعترض طريق الهند من الجبال الوعرة وطريق الصين من الشعوب التركية غير المتحضرة التي كثيراً ما كانت تغزو القبائل وتقطع السبل . ولعلنا لا نتعدى الحق اذا قررنا ان اهم الطرق البرية هي الطريق الاوروبية الممتدة من آسيا الوسطى الى روسيا وبلاد البلطيق عن طريق بلاد الخزر والتي يتفرع عنها طريق آخر الى امبراطورية الروم ، والطرق الافريقية التي كانت تخترق النصف الاعلى من تلك القارة من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب

اما الطريق الاوربية فليس ادل على مداها ومقامها من النقود الاسلامية الوافرة التي عُثر عليها في اماكن عديدة في روسيا وفنلندا وبلاد اسوج ونروج . ولا نخال ان التجار المسلمين انفسهم وصلوا الى تلك البلدان الشمالية التي وجدت فيها نقودهم ، بل نرجح انهم لم يتجاوزوا بلاد البلغار الواقعة في منتصف مجرى نهر الفولغا ، الا ان وجود النقود الاسلامية في تلك الاماكن القاصية يدل على مدى ما بلغتهُ التجارة الاسلامية من الاتساع ومن الاثر المادي والثقافي في حياة الشعوب القريبة والبعيدة . وكان اهم ما يبتاعه التجار المسلمون بتلك النقود : العبيد وجلود الحيوانات

اما الطرق الافريقية فاهمها ثلاث : اولاً الطريق الشمالية التي كانت تسير من مصر الى المغرب فالاندلس والتي كانت تنتقل عليها ، عدا البضائع والمصنوعات المادية ، بذور الثقافة والحضارة بين شرقي العالم الاسلامي وغربيه ، وثانياً الطريق الشرقية من مصر الى النوبة فبلاد البجة ، وثالثاً الطريق الغربية من المغرب عبر الصحراء الكبرى الى بلاد النيجر . وكان تجار مصر وشمالي افريقيا

(١) م ٢ ، ص ١٩٨

يقضون الشهور الطوال في هذه الرحلات الخطرة الى اواسط افريقيا حتى يعودوا منها وقد حمّلوا قوافلهم من منتوجاتها الثمينة وهي الذهب والعاج

تلك ايها السادة ، هي اهم الطرق التي كانت تجري بها التجارة الاسلامية في ابان زهوها وازدهارها ولا شك عندي انكم ترجعون الآن بمخيلتكم الى تلك القرون الماضية فتتصورون السفن الاسلامية تمخر عباب بحر الصين والهند ناقلة التحف والمنتوجات الثمينة الى بلادنا ومنها الى بلدان الغرب ، او تراقبون القوافل البرية وهي تجتاز البوادي والسهول من اقصى العالم المتمدن في ذلك العهد الى اقصاه ، ولكننا نخطىء كل الخطأ اذا نحن حسبنا ان التجارة الاسلامية كانت تقتصر على نقل منتوجات الصين والهند وافريقيا الى بلدان الغرب ، اذ انها كانت تتناول ايضاً المصنوعات التي تنتجها البلدان الاسلامية نفسها وكلنا يعلم مبلغ ما وصلتهُ الزراعة والصناعة الاسلامية من الرقي والدقة والاتقان. فجزيرة العرب كانت ، على قحطها ، تنتج محصولات ثمينة كالبخور والمرّ واللؤلؤ ، والعراق كان يصدّر التمور والخزف والزجاج ، ومن الشام كانت تحمل المحاصيل الزراعية الوافرة لاسيما الفواكه والثمار ، ومن مصر الثياب والستور الملوّنة المصنوعة من القطن والكتان ، ومن افريقيا الزيت والفستق والزعفران ، ومن خراسان وما وراء النهر الادهان والزيوت العطرية وطراز الوشي وثياب الحرير والشعر ، ومن بلاد الديلم وطبرستان المناديل والاكسية والطيالسة ، ومن خوزستان السكّر والفواكه والديباج ، وقد اشتهرت في هذا الاقليم مدينة تُستر خاصة فكان ديباجها يحمل الى الدنيا ومنهُ تصنع كسوة الكعبة في مكة.[١] ويضيق بنا المجال عن تعداد المحاصيل والمصنوعات الغزيرة التي كانت تفيض بها بلاد الاسلام ، وحسبنا بما ذكرنا تلميحاً الى اثر هذه الحياة الصناعية النشيطة في تعزيز التجارة الاسلامية الداخلية والخارجية واتساعها

ولعلّ افضل ما يظهر لنا هذا الاتساع القطعة التالية التي وردت في كتاب « حديقة الورد » — غولستان — لشاعر الفرس الشهير سعدي قال: وكنت اعرف تاجراً لهُ قافلة كبيرة من الجمال وحاشية من المماليك الخدام ، اضافني ذات ليلة في منزله في جزيرة كيش وظلّ طول الليل يتكلم عن تجارته واعماله الى ان قال: يا سعدي ، انني ارغب في القيام بسفرة تجارية اخيرة ، أتمها واعتزل التجارة ، قلت: « وما هي هذه السفرة » احمل كبريت فارس الى الصين ، واجلب فخار الصين الى بلاد الروم ، فاستبدل بهِ هناك اقمشة حريرية ، وانقلها من بلاد الروم الى الهند ، واعود بفولاذ الهند الى حلب ، فاحمل زجاج حلب الى اليمن ، وارجع اخيراً بثياب اليمن الى فارس . فاذا وصلت الى وطني بسلام ، اعتزلت التجارة الاجنبية والاسفار البعيدة »[٢] . والآن ، بعد هذه الصورة السريعة الخاطفة التي

---

(١) الاصطخري ، مسالك الممالك (طبعة دي غويه — ليدن ، ١٩٢٧) ص ٩٢ — ٩٣ . راجع عن هذه المنتوجات ما يذكره المقدسي عن «التجارات» (٢) بتصرف عن الترجمة المقتبسة في كتاب J. W. Thompson: Economic and Social History of the Middle Ages ص ٣٥٩

رسمناها للتجارة الاسلامية لابدّ ان نتساءل عن أثر هذه الحركة التجارية في حضارة الشرق والغرب وفي ذلك التفاعل القوي بينهما الذي كان محور التمدن في القرون الوسطى

ان أثر التجارة الاسلامية في الحضارة الشرقية والغربية متعدد الوجوه متشعب النواحي ، ولا يمكننا في هذا المقام ان نلمّ الاّ ببعض هذه الوجوه والنواحي البارزة . فنجد اولاً ان الحركة التجارية الاسلامية ، التي بلغت من المدى والاتساع ما وصفنا ، كان لها أثر كبير في تقدم فن الملاحة وفي اكتشاف مجاهل البحر والبر . فاولئك التجار الذين كانوا يجازفون بمراكبهم وقوافلهم في البحور المجهولة والبراري النائية يحتلون المركز الاول بين رحّالي العالم وروّاده ، والعالم مدين لهم بالمعلومات الجغرافية التي جمعوها في رحلاتهم البعيدة ، ولعلّ من ابرز الادلّة على ذلك ما يروى عن الرحّالة البورتغالي Vasco de Gama الذي دار حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ انهُ لما وصل الى شواطىء افريقيا الشرقية كان الذي دلّه الى طريق الهند بحّار مسلم يدعى احمد ابن ماجد. ومما يظهر ايضاً سيطرة المسلمين على البحار ويؤيد فضلهم في تكوين الملاحة الحديثة تلك الكلمات العربية العديدة التي نجدها بين المصطلحات البحرية: ف admiral مأخوذة عن امير البحر ، و Cable عن حبل ، و barge عن بارجة ، و avarie (eng., average) عن العواريات و chaloupe (eng., shallop) و barque عن بركة الى غير ذلك[1] وكما في البحر كذلك في البرّ : فان الغرب ظلّ الى اوائل نهضته الحديثة يعتمد على جغرافيي المسلمين ورحاليهم وتجارهم لمعرفة الاقطار النائية كاواسط آسيا ومجاهل افريقيا الوسطى والشرقية

وللتجارة الاسلامية أثر لا يستهان بهِ في الادب العربي . من منا لم يقرأ رحلات السندباد البحري التي ادمجها الكتبة في قصص « الف ليلة وليلة » ؟ اننا اذا نزعنا عن هذه الاخبار ما حبك حولها من الانسجة الخرافية وجدنا نواتها تتفق تماماً مع اخبار الرحلات التي دوّنها لنا بعض تجار المسلمين ورحاليهم كالتاجر سليمان والحسن ابي زيد والمسعودي. فهذه القصص وامثالها التي تحتل مركزاً هاماً في الادب العربي قد بنيت على اساس الرحلات البرية والبحرية التي كان يقوم بها التجار المسلمون

وأثر ثالث للتجارة الاسلامية هو في نشر الدين الاسلامي ودعوة شعوب الارض الى اعتناقهِ . فالامم الاسلامية لم تعرف ، حتى اوائل العصر الحديث جمعيات تبشيرية منظمة غايتها نشر الدين الاسلامي وتعميمه ، وانما ظلّ هذا الواجب ملقى على عاتق كل مسلم اينما كان في الارض يتبع في اتمامهِ قول القرآن الكريم : « أُدعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن» (١٦ ؛ ١٢٦) . فاذا راجعنا تاريخ انتشار الديانة الاسلامية وجدنا في صفوف العاملين في هذا الحقل رجالاً ونساء من مختلف طبقات المجتمع من الملك العظيم الى العامل الحقير، وشاهدنا التاجر في مقدمة هؤلاء العاملين يبشر بوحدانية الله العظيم ورسالة النبي الكريم بين الشعوب الوثنية النائية التي ينزل

(١) راجع مقالة Kramers, "Geography" and "Commerce" في كتاب The Legacy of Islam ص ٩٧ و Lamnens, Mots fransais dérivés de l'Arabe حيث اورد المؤلف هذه الكلمات بحسب ترتيبها الابجدي

في بلادها ويؤثر فيها بورعه وتقواه . ومما حبّب التجارة الى المسلمين انها كانت مهنة نبيهم في فترته وشبابه ، وقد جاء عنهُ في الحديث الشريف : « عليكم بالتجارة فان فيها تسعة اعشار الرزق »

وقد وضع المستشرق الانكليزي الشهير Sir T. W. Arnold مؤلفاً خاصّاً في تاريخ نشر الدين الاسلامي The Preaching of Islam فصل بهِ بأوضح اسلوب ما كان للتاجر المسلم من الشأن الكبير في نشر ديانته بين شعوب افريقية الغربية والوسطى والشرقية وامم الهند والجزر الشرقية وآسيا الوسطى حتى حدود سيبيريا

لكن ابرز اثر للتجارة الاسلامية هو فيما نقلته من ثقافة البلدان الاسلامية والهند والصين الى الغرب المسيحي وما كان لذلك من الفضل في تكوين الحضارة الحديثة . والثقافة — كما تعلمون — تتبع دائماً طريق التجارة وتنتقل مع المصنوعات والمنتوجات المادية وقد كان للتجارة في كل قطر وزمن اثر عظيم في نقل بذور الحضارة وشق طريق المدنية من الشعوب الراقية الى التي دونها رقيّاً وثقافة . وهنا ايضاً يمكننا ان نستدل على ذلك بالكلمات العديدة التي تسرّبت من العربية الى اللغات الاجنبية ، ويطول بنا المقام لو حاولنا ان نعدّد اسماء المنتوجات والمصنوعات المختلفة التي انتقلت الى اللغات الغربية والتي تظهر باجلى بيان الدين المادي والثقافي الذي تدين بهِ شعوب الغرب الحديثة للتجارة الاسلامية التي عرفتها بمصنوعات الشرق وحضارته . وحسبي ان اذكر بعض التعابير التجارية التي تدل ، بانتقالها الى لغات الغرب ، على سيطرة التجارة الاسلامية في القرون الوسطى . tarif من التعريفة ، و risque قد تكون من الرزق و calibre من القالب ، و tare من الطرحة ، و magasine من المخازن و cheque من الصك و douane من الديوان [١] . وفي الاساطير اليونانية التي خلدها لنا عبقرية هوميروس آلهة جبارة تجوب السماء بثلاث خطوات . ولقد تجرأت هذه الليلة على ان استعير اجنحة هذه الآلهة واطير بكم فوق ميدان التاريخ الاسلامي الفسيح ، مشيراً الى مجرى واسع غزير كان يروي الحياة الاسلامية ويمتد منها الى البلدان الدانية والنائية فيبعث فيها القوة والنشاط . فاذا كنت قد اسرعت في هذا الطيران ولم اتوقف بكم عند كل منظر من المناظر الخلابة ، فلأن المجال طويل والسفر بعيد ، وحسبي ان اكون لفتُّ انظاركم الى هذه الناحية المجهولة وأثرت اهتمامكم فيها

لقد فتح المسلمون العالم فتحاً مزدوجاً : فتحاً سياسيّاً تحت راية الحرب وبظلّ السيف والرمح وفتحاً تجاريّاً اقتصاديّاً على متن قوافل البر وسفن البحر . وقد نشأت حول الفتح الاول ضجة عظيمة استوقفت انظار الناس ، ولكنني ارى في هذا الفتح الثاني — وهو جهاد السلم — من اعمال الجد والشجاعة والاقدام ما قد يفوق جهاد الحرب . وإن الاهة التاريخ التي الهمت المؤرخين منذ اقدم العصور الى الآن لن تلبث ان تهب لتنصف الجميع فاذا بعثت روحها في مؤرخي المستقبل والهمتهم لكتابة التاريخ الاسلامي فصوروا قافلة المسلمين العظمى التي خرجت من الجزيرة العربية وسادت في البلاد وضموا بجانب الفاتح الباسل ، والعالم الحكيم ، والاداري الحازم التاجر المقدام الذي كان يرود المجاهل ويجوب الفيافي ، والذي ضرب بسهم كبير في نشر الاسلام وفي احياء العلم والمدنية والسلام

(١) مقالة Kramers ، المذكورة اعلاه ، ص ١٠٥ ، راجع ايضاً كتاب Lammens المشار اليه آنفاً

مطاط من غاز

المطاط الصناعي وابداع الكيمياء التركيبية

لو كان كولمبوس منصفاً ببعد النظر الذي يصفه به مؤرخو سيرته ، لمات عن اعظم ثروة جمعها رجل فردٌ في عصره . لان كولمبوس كان اولَ من نقل الى اوربا ، عندعودته الثانية من جزائر الهند الغربية ، قصصاً ونوادر عن شجرة غريبة تفرز لبناً عند جرح لحائها . فلم يدرك كولمبوس حينئذ ولا ادرك الرحالون الى العالم الجديد بعده ، عند ما رأوا اولاد الهنود الحمر يلعبون بكرات سود تقفز عند اصطدامها في الارض كأن بها شيطاناً ، ان هذه الكرات مصنوعة من ذلك اللبن ، وان صمغ شجرة الهيڤيا Hevea ، يعدل على الاقل في خطره ، خطر اكتشاف طريق جديدة الى الهند. والواقع ان احداً لم يدرك قيمة هذا الصمغ ، حتى كانت سنة ١٧٧٠ ، اذ رآه پريستلي مكتشف الاكسجين ، في حالته الجامدة ، فاستعمله لمحو آثار قلم الرصاص على صفحة من الورق ، فدعاه «الماحية الهندية» . ولا يزال يعرف في اللغة الانكليزية باسم rubber اي ماحية

***

في الطبيعة ناموس يسيطر على الاحياء ، والجوامد ، تستطيع ان تفرغه في قوالب مختلفة ، فقد تقول ان الانحدار من قمة الاكمة سهل وتوقلها صعب ، او قد تقول كما قال سبنسر انهُ انحلال الاجسام المتباينة المتناسقة الى جسم لا تباين فيهِ ولا تناسق . او قد تسميه مع عالِم الطبيعة الحديثة باسم « ناموس الترموديناميكس الثاني » . ومؤداهُ ان الهدم في الطبيعة والاجتماع سهل ، ولكن التعمير صعب ، يصحُّ هذا على الاطفال ولعبهم ، والبلاشفة وحضارتهم ، والكيماوي وموادّهِ . فالحلُّ في عرف الكيمياء سهلٌ ولكن التركيب صعب ان لم يكن متعذراً في بعض الاحيان

وهذا يفسّر لك عجز الكيماويين عن تركيب المطاط مع انهم عرفوا كيف يحلّونهُ من نحو ستين سنة . فحلّهُ عمل سهل وليس عليك الاَّ ان تتناول قليلاً من المطاط الخام وتضعهُ في حوجلة وتحميه على النار . فاذا استطعت ان تراقب ما يتم ، على الرغم من الرائحة القوية الكريهة ، رأيت المطاط ينحل ، وسائلاً شبيهاً بالبنزين يتكوّن فوقهُ . هذا السائل « البنزيني » الشكل يدعى « الايزوپرين » . احفظ هذه الكلمة ولا تنسها

فالمطاط وتركيبه الكيمائي (كربون ٦ ايدروجين ١٦) يتحول بالاحماء الى (٢ كربون ٥ ايدروجين ٨) اي ان جزيئاً من المطاط يتحوَّل الى جزيئين من سائل الايزوپرين . ومن السهل ان تكتب المعادلة الكيمائية في الاتجاه المقابل اي ان جزيئين من الايزوپرين يعدلان جزيئاً من المطاط . افلا يستطيع احد العلماء ان يكشف السبيل الى تحويل هذين الجزيئين الى ذاك ؟

ان تحويلهما مستطاع ، بل ان احد العلماء الانكليز كان قد حوَّلها اتفاقاً . ففي مايو ١٨٩٢ قرأ الاستاذ تلدن Tilden رسالة امام جمعية برمنغهام الفلسفية ، قال فيها انهُ دهش قبل بضعة اسابيع عندما رأى سائل الايزوپرين المستخرج من مادة التربنتين وقد تغيَّرت حالتهِ فتحوَّل السائل الصافي الشفاف الذي لا لون له الى شراب كثيف تطفو فيهِ قطع كبيرة صفر فلما فحصها وجدها قطعاً من المطاط

فلما حاول الاستاذ تلدن ان يعيد هذا التحويل ، عجز عنهُ ، ولا تزال مشكلة تحويل الايزوپرين الى مطاط تحويلاً تتوافر فيهِ الشروط الصناعية التجارية ، مشكلة من اكبر المشكلات التي يواجهها علم الكيمياء الصناعية

وقد كان هذا العجز مما يبعث على الغيظ . لان امم العالم كانت تنفق نحو ٤٠٠ مليون جنيه كل سنة على المطاط ، ولا ريب في ان جانباً كبيراً من هذا المال كان مصيرهُ الى جيب الكيماوي الذي يبدع طريقة لتركيب المطاط وخزائن الشركة التي تطبقها . لذلك كان التنافس بين العلماء ، في سبيل السبق الى هذا الهدف ، عنيفاً ، بل بدا في مظهر زحام دولي بين انكلترا والمانيا اولاً

كان الانكليز قد سبقوا الالمان الى ابتداع طريقة لصنع الاصباغ الكيمائية ، ولكن اهمالهم الطريقة وصاحبها ، ساعد الالمان على انتزاع التجارة العظيمة التي بنيت عليها من ايديهم . فجمع الاستاذ پركن — محفوزاً بذكرى والدهِ السر وليم مستنبط الصبغ الصناعي الاول وكيف خذلهُ الانكليز — حولهُ في جامعة منشستر ، طائفة من علماء الكيمياء للبحث في مشكلة المطاط وصنعهِ بالتركيب الكيمائي

اي فعل كيمائي ، يستطيع ان يقلب ذلك التفاعل فيدمج جزيئين من الايزوپرين منشئاً منهما جزيئاً من المطاط ؟

ففي يوليو سنة ١٩١٠ ، وضع الدكتور ماتيوز اتفاقاً ، مقداراً من الايزوپرين على قطعة من الصوديوم المعدني لتجفيفهِ ، وهي طريقة مألوفة في معامل الكيمياء تستعمل لاستلاب آخر قطرات الماء من مركب ما . وفي سبتمبر وجد ان الحوجلة المحتوية على الايزوپرين اصبحت تحتوي على كتلة جامدة من المطاط ، بدلاً من السائل الطيار الذي لا لون لهُ

ولو ان هذا الاكتشاف تمَّ قبل عشرين سنة ، لكان عديم الفائدة ، لان الصوديوم كان عنصراً نادراً غالي الثمن حينئذٍ . ولكن ابتداع الطريقة الكهربائية لتحضيرهِ جعلهُ كثيراً رخيص الثمن . فيجب ان لا تقف ندرة الصوديوم حائلاً دون استعمال طريقة ماتيوز في تركيب المطاط من الايزوپرين

الاَّ ان وجه الصعوبة في تحقيق هذا الحلم الاخاذ كان في غلاء ثمن الايزوبرين . اذ لا يكفي في الكيمياء الصناعية ان تثبت ان تفاعلاً ما مستطاع من الناحية العلمية ، بل يجب ان تتوافر فيهِ الشرائط التي تجعلهُ صالحاً كذلك من الناحية التجارية ، اي يجب ان يكون عملاً يدرُّ ربحاً معتدلاً على القائمين بهِ . فاذا فرضنا جدلاً ان عالماً اكتشف طريقة لتحويل الزئبق الى ذهب ، فطريقتهُ هذه من الناحية الصناعية لا تجدي نفعاً الاَّ اذا كان ما ينفق على تحضير سنتغرام واحد من الذهب اقل من قيمة السنتغرام نفسه

كان الايزوبرين يحضَّر من التربنتين . ولكن التربنتين قليل ويقتضي جزَّ حراج الصنوبر . وماذا يكون ربحنا اذا جززنا اشجار الصنوبر بدلاً من بذلنا اشجار المطاط؟ واخيراً استقرَّ الرأي على تحضيرهِ من النشاء . فالنشاء رخيص الثمن ويمكن استخلاصه من البطاطس والذرة وغيرها

ولكن الكيماوي عجز عن استخلاص النشاء من هذه المصادر الاَّ بعد ان استعان بالبكتريولوجي لان تجزئة جزيء النشاء عمل يعجز عنهُ الانسان ، ولا تستطيعهُ الاَّ بعض الحيوانات الدنيا — الخمائر — . فدعي الى منشستر عالمٌ بيولوجي فرنسي ، يدعى فرنباخ Fernbach ، وعهد اليهِ في هذه الناحية من البحث ، فقضى فيها سنةً ونصف سنة ، انجز في نهايتها طريقةً تمكنهُ من استخلاص مقدار من زيت الفوزيل من مادة نشوية . كان غرض محري النشاء قبلاً ان يكون مقدار زيت الفوزيل في النشاء المخمَّر اقل ما يمكن ان يكون لان هذا الزيت خليط من اصناف الكحول الثقيلة الوزن وهي جميعاً اكرهُ رائحة واشدُّ سماً من الكحول العادي . ولكن بعد تجارب بركن وصحبهِ تبيَّن ، كما يتبين عادة في تاريخ الصناعات العلمية ، ان النفاية ، اصبحت ذات قيمة عظيمة . ولذلك اتجه جهد الاستاذ فرنباخ الى استنباط طريقة يكثر بها مقدار زيت الفوزيل عند تخمير النشاء لكي يصنع منهُ الايزوبرين باستعمال غاز الكلور

وفي خلال عناية الانكليز والاستاذ فرنباخ الفرنسي ، بصنع المطاط على الطريقة المتقدمة كان علماء الالمان معنيين كذلك بالموضوع نفسهِ ، واجتازوا فيهِ خطوة كبيرة نحو تحقيق الغرض . ففي سنة ١٩٠٥ اكتشف الاستاذ كارل هريز Karl Harries في برلين تركيب جزيء المطَّاط . فكان اكتشافهُ هذا باعثاً قويًّا على تجديد العناية بالموضوع من ناحيتهِ الصناعية العلمية . وكذلك اتجهت اليهِ عناية مصانع باير المشهورة سنة ١٩٠٩ واستنبط الدكتور فرتز هوفمن Fritz Hoffman اسلوباً لتحويل الايزوبرين الى مطاط باستعمال الحرارة . وفي سنة ١٩١٠ اكتشف الاستاذ هريز طريقة استعمال الصوديوم لتحويل الايزوبرين الى مطاط ، وهي الطريقة التي كان ماتيوز الانكليزي قد اكتشفها في منشستر . ولكنهُ لما ذهب الى ادارة البانتنة لتسجيلها وجد ان الانكليزي قد سبقهُ الى ذلك قبل بضعة اسابيع

الاَّ ان المطَّاط الصناعي ، لم ينجح في منافسة المطَّاط الطبيعي في الثمن ولا في الحلول محلَّهُ عند

منع وارداتهِ عن المانيا خلال الحرب الكبرى ، لما كانت مسألة الثمن لا شأن كبيرلها في نظر الحكومة الالمانية وحاجتها الى مادة حيوية كالمطّاط لا تقاس بالمال . فقد قبضت السلطات الاميركية على ثلاثة بحّارة من الدنمارك يحاولون ان يهربوا المطّاط الخاص باطباء الاسنان الى المانيا فاعترفوا بانهم كانوا يبيعون الرطل منهُ بما قيمتهُ ٧٣ ريالاً ، وكان الالمان يستعملونهُ لاحكام وصل الاجزاء في الكمامات الواقية من الغاز . وهذا مثال واحد يدلُّ على ان مقدار ما صنع من المطّاط الصناعي في المانيا خلال الحرب بطريقة هوفمن او طريقة هريز لم يكن كبيراً

اما الانكليز فانفقوا نحو اربعين الف جنيه على طريقة بركن مدة سنتين ولكنهم لم يبلغوا فيها شأواً بعيداً . الاَّ ان حاجتهم الى المطاط لم تكن ماسة لان مصادر المطاط الطبيعي كانت تحت سيطرتهم

فاذا كان الالمان قد عجزوا في خلال الحرب عن صنع المطاط بطريقة التركيب الكيمائي ، وحاجتهم اليهِ اشدُّ ما تكون ، ومسألة الثمن ليست بذات بال ، فالراجح انهُ لا يحتمل منافسة المطاط الصناعي للمطاط الطبيعي في ابان السلم ، الاَّ اذا اكتشفت طريقة جديدة ، اسهل من الطرق التي تقدم ذكرها

واذن فمشكلة المطاط الصناعي قد حلَّت من الوجهة العلمية ، ولكنها لم تحلّ من الوجهة الصناعية . . . . . الا . . . !

***

ونقول . . الاَّ . . . لاننا اطلعنا في العدد الاخير من مجلة السينتفك اميركا على مقال لعالم اميركي يدعى الاب نيولند (Nieuwland) فيهِ وصف لطريقة استنبطها لصنع ضرب من المطاط ، يصلح لما لا يصلح له المطاط الطبيعي مع انهُ يفوقهُ ثمناً . وهذا المطّاط الصناعي الجديد يدعى « دوپرين » Dupreue

يقول الكاتب ان صناعة «الدوپرين» نشأت من بحث نظري في تفاعلات غاز الاستيلين . ذلك انهُ لاحظ سنة ١٩٠٦ ان تفاعلاً كيمائياً يحدث عندما يمرُّ غاز الاستيلين في كلوريد Chloride النحاس وكلوريدات الفلزات القلوية . لم يكن التفاعل عنيفاً ، فلم يتولَّد سائل جديد ولا جامد جديد . بل كان هناك رائحة جديدة . فظنَّ ان هناك غازاً جديداً وان هذه الرائحة رائحتهُ

وقضيت السنون الاربع عشرة التالية ، حتى سنة ١٩٢٠ ، في تجربة التجارب بغية زيادة التفاعل للحصول على الغاز الذي يولد هذه الرائحة ، اذا امكن ، ودراسة تركيبه وخواصهِ . وأخيراً وضع كلوريد الامونيا محل كلوريدات الفلزات القلوية ، فلما مرَّ غاز الاستيلين في محلول كلوريد النحاس (Cuprous Chloride) وكلوريد الامونيا ، ظهر ان التفاعل اسرع جداً مما كان في المحلول القديم واستنفد المحلول مقادير كبيرة من غاز الاستيلين في خلال التفاعل . وكانت دهشة الاب نيولند وصحبهِ عظيمة عند ما رأوا زيتاً جديداً قد تولَّد علاوة على الغاز ذي الرائحة المعروفة

وفي سنة ١٩٢١ ظهر ان هذا الزيت، مركّب جديد وان جزيئهُ مؤلف من اتحاد ثلاثة جزيئات من الاسيتيلين فدعي دايڤينيل اسيتلين (divinylacetylene) ومن خواصهِ شدة فعله، ومنها ان معالجته بدايكلوريد الكبريت (suphur dichloride) تسفر عن مادة مطاطة تشبه المطاط الطبيعي من بعض الوجوه ولكنها اكثر منها ميوعة مما يحول دون استعمالها

وفي سنة ١٩٢٥ حضر الأب نيولند مؤتمر الكيمياء العضوية في مدينة روتشستر بنيويورك فحدّث اعضاء المؤتمر بحديث هذه التفاعلات الجديدة التي كشفها فاهتم بالموضوع اصحاب شركة «دوبونت ده نمور» (وهي من اكبر شركات المواد المتفجرة والمفرقعة والسلاح في اميركا) فاشتروا امتياز هذا الاكتشاف من الناحية التجارية . ولكن البحث اثبت ان المطاط المصنوع من هذا الزيت لا يصلح لانهُ لا يحتفظ بليونتهِ الا مدة قصيرة ، وكل سعي لتصحيح هذا النقص فيهِ افضى الى الخيبة

الاَّ ان كيماويي الشركة لم يغفلوا في الوقت نفسهِ دراسة ذلك الغاز الذي استُدِلَّ عليهِ اولاً برائحتهِ.فبعد بحث قليل تبيَّنوا انهُ في الامكان توليد مقادير كبيرة منهُ وعند تحليله ثبت انهُ مركب من اندماج جزيئين من جزيئات الاسيتلين ودعي (مونوڤينيل اسيتلين)

وقد بلغ علماء هذه الشركة من سيطرتهم على التفاعل الكيمائي الذي يولد الزيت والغاز المذكورين انهم يستطيعون اذا شاؤوا ان يقللوا من توليد الزيت ويزيدوا من توليد الغاز . وهذا من محاسن الصدف او من بدائع الاستنباط ، لان الغاز دون الزيت يصلح لصنع المطاط المعروف باسم دوپرين

واذ كان علماء شركة دو پونت ماضين في دراسة الغاز تبين لهم انهُ يتفاعل بسهولة مع كلوريد الايدروجين اي الحامض الايدروكلوريك ، فيتولد سائل طيار (اسمه كلوروپرين او كلوروبوتادين) وان جزيئات هذا السائل تتحد بعضها ببعض ، فتزداد كثافة السائل ثم يصبح مادة مطاطة ، يمكن تقسيتها بالاحماء فتصبح مطاطاً صناعيًّا جيداً — وهذا المطاط الجديد هو الدوپرين Duprene

ان نفقة تحضير الدوپرين الآن تجعله اغلى من المطاط الطبيعي . ولكنهُ يصلح لوجوه من الاستعمال لا يصلح لها المطاط الطبيعي فهو شديد المقاومة للغازولين والكيروسين والزيوت والاوزون والهواء والحوامض ، فلا بدَّ ان يفتح استعماله سبلاً جديدة في صناعة المطاط . وهذه صناعة يمكن ان تترعرع في ابان السلم ثم تشجع ويوسع نطاقها في ابان الحرب في البلدان التي تخشى انقطاع الوارد من المطاط الطبيعي اليها . وجميع المواد الاساسية التي يحتاج اليها كوك Coke وجير لتوليد الاسيتلين وملح الطعام لتوليد الحامض الايدروكلوريك

فالكيمياء خلقت صناعة جديدة ومهدت لاميركا — ولمن يتبعها — سبيلاً جديداً للاستغناء عن بعض المصادر الطبيعية التي خارج بلادها

الدوامة الكونية

الدليل على ان المجرّة تدور كعجلة كبيرة

لعلّ اثبات دوران المجرّة اقوم دليل على وحدة الكون النجمي . وفكرة دوران المجرة ليست بالفكرة الجديدة . فقد سلّم بناة العوالم في الانظمة الكونية التي ابتدعوها بان الدوران يشمل المجرّات كما يشمل الذرّات . ولكن هذا الرأي النظري ، من حيث تطبيقه على المجرّة لم يفرغ في قالب علمي الاّ سنة ١٩٢٦ ولم يقم الدليل التام على صحته الاّ سنة ١٩٣٣

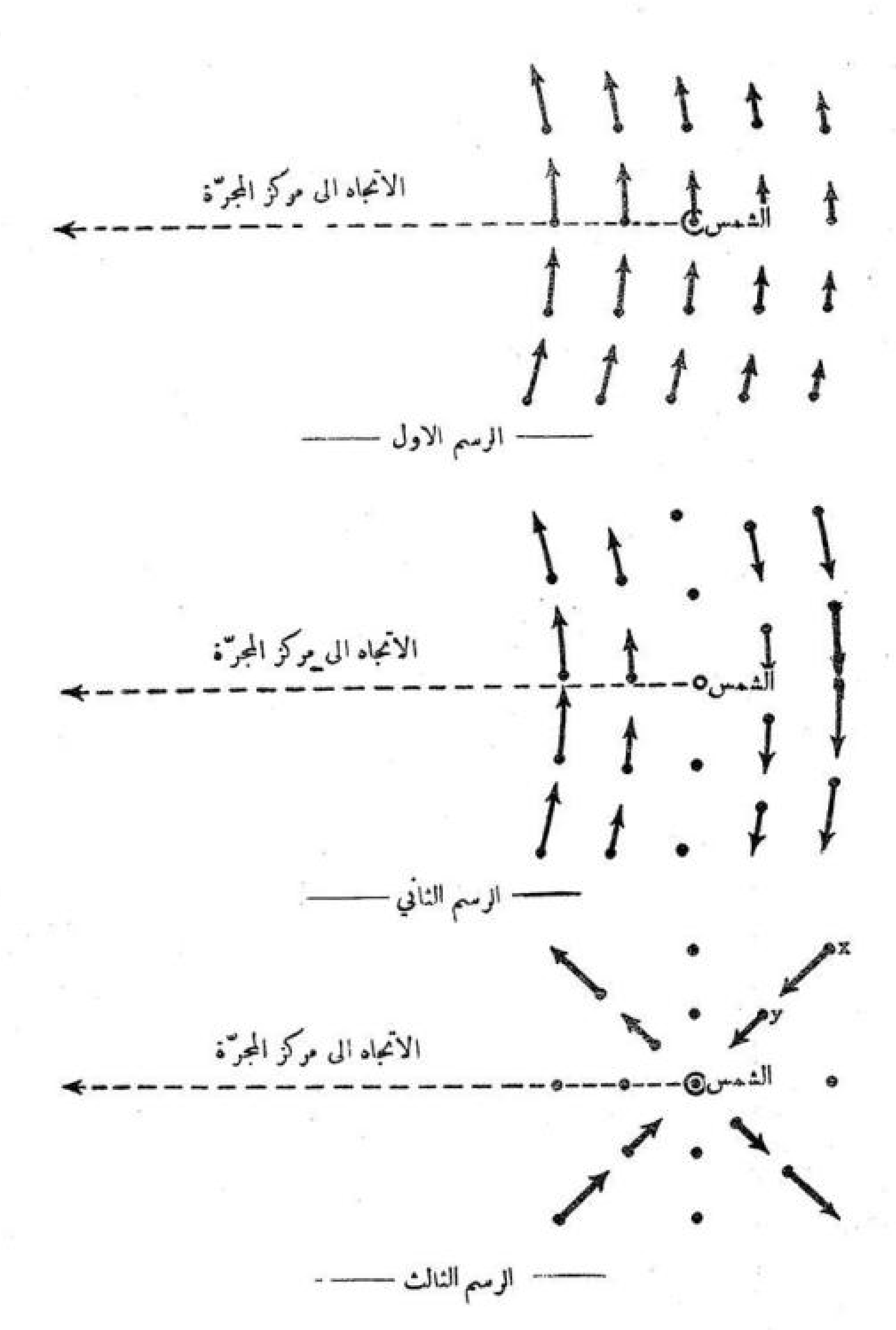
ففي سنة ١٩٢٦ قدم الفلكي السويدي لندبلاد Lindblad رسالة الى اكادمية العلوم السويدية ، بسط فيها نظرية حاول ان يعلّل فيها بعض اوصاف الحركة النجمية ، بفرضه انها نتائج لدوران المجرّة . وبعد بضعة اشهر ، وصف اورت Oort — وهو فلكي في مرصد ليدن لا يتجاوز السابعة والعشرين من العمر — وسائل الرصد التي يمكن الاعتماد عليها لامتحان نظرية لندبلاد وشرع في تطبيقها . وفي سنة ١٩٢٧ شرع الفلكي بلاسكت Plaskett — وهو احد علماء مرصد فكتوريا بولاية كولومبيا البريطانية بكندا — يطبق وسائل اورت على النجوم السحيقة التي سبق لهُ رصدها في مرصد فكتوريا. ثم توسع سنة ١٩٣٣ في تطبيقها على مئات من النجوم الاخرى

فأحدث صورة رسمها العلم لدوران المجرّة ، قائمة على المباحث التي اتمّها هؤلاء العلماء الثلاثة ، اي لندبلاد السويدي واورت الهولندي وبلاسكت الكندي !

ولكن . . . ولكن اذا صحّ القول بان المجرّة قاطبة تدور كعجلة ، فكيف يمكن ان يكون فيها تياران من النجوم يسيران في اتجاهين متقابلين ، وهما التياران اللذان اكتشفهما العلاّمة كابتين Kapteyn سنة ١٩٠٤ ؟ ثم ان سترومبرج Stromberg اكتشف سنة ١٩٢٤ ان النجوم السريعة — اي النجوم التي تزيد سرعتها على ٥٠ ميلاً في الثانية — متجهة جميعاً الى نصفٍ واحدٍ من القبة الفلكية دون الآخر وان حركتها عامودية تقريباً على مركز المجرّة في كوكبة الرامي فكيف يتفق كلّ هذا ودوران المجرّة ؟ وكيف يمكن تفسيره ؟

***

لنفرض ان دوران المجرّة حقيقة واقعة . فكيف يكون دوران النجوم في هذه الحالة ؟ كل ذلك يتوقف على توزيعها في الفضاء . فاذا كانت موزعة في المجرّة توزيعاً متساوياً اي اذا كانت ابعاد بعضها عن بعض متساوية ، فتأثير الجذب الى المركز ، يختلف بالنسبة الى بعدها عن المركز . وفي


الاتجاه الى مركز المجرّة
الشمس
الرسم الاول
الاتجاه الى مركز المجرّة
الشمس
الرسم الثاني
x
y
الاتجاه الى مركز المجرّة
الشمس
الرسم الثالث

هذه الحالة تدور المجرّة كأنها عجلة ، متماسكة الاجزاء اي انها تدور كأنها قطعة واحدة

ولكن النجوم غير موزّعة توزيعاً متساوياً في قبة الفلك ، بل هي اكثف تجمهراً قرب المركز منها عند الاطراف ، فقوة الجذب لا يمكن ان تعتمد على ابعاد النجوم فقط بل على مربّع الابعاد وفي هذه الحالة تكون النجوم القريبة من المركز اسرع دوراناً من البعيدة عنهُ . فأقربها اليهِ أسرعها. وأبعدها عنهُ أبطؤها . ولنا على ذلك مثال في النظام الشمسي . فعطارد وهو اقرب السيارات الى الشمس سرعتهُ ٢٩ ميلاً في الثانية . وتليه الزهرة وسرعتها ٢١ ميلاً في الثانية . فالارض وسرعتها ١٨ ميلاً في الثانية وهكذا الى بلوطون وسرعتهُ ميلان في الثانية . وهنالك مثال آخر في النظام الشمسي نفسهِ وهو حلقات زحل فالدقائق المنتظمة في هذه الحلقات اسرع دوراناً في الحلقة الداخلية منها في الحلقة الخارجية

والمجرّة مؤلفة من ملايين النجوم ، بل ان عددها اكبر من عدد الدقائق التي تتألف منها حلقات زحل . ففي هذه الحالة ، ألا يكون من المعقول ان يفرض ان النجوم المتجمعة حول المركز ، تدور حولهُ بسرعات مختلفة ، في اتجاهها الى كوكبة الرامي؟ وقد يمكن تبيُّن ذلك في الرسم الاول ، مع ان النسبة في الابعاد والسرعة غير محفوظة لتعذّر ذلك على صفحات مجلة عند التمثيل الكوني

ففيهِ يرى القارىء ان السهام في الخط المتوسط تمثل سرعة الشمس . وهي سرعة متوسطة . فالنجوم التي اقرب من الشمس الى مركز المجرّة اسرع منها ولذلك يرى السهام التي تمثل السرعة اطول من السهام التي تمثل سرعة الشمس . اما النجوم التي تفوق الشمس في بعدها عن مركز المجرّة فاصغر من سهام الشمس للدلالة على ان سرعتها اقل

هذه هي حركة النجوم كما تبدو لمراقب ينظر الى المجرة من نقطة في الكون خارجها . ولكننا نحن على سيار يدور حول شمس ، هي نفسها احدى شموس المجرة . فلا نستطيع ان نرى هذه الحركة البسيطة . وهذا يعني ان جميع النجوم التي اقرب منا الى مركز المجرة اسرع منا دوراناً حوله ، وهي لذلك تفوتنا في مسارها الكوني ، واما النجوم التي ابعد منا عنهُ فأبطأ منا حركة ، ولذلك تتأخر عنا في مسارها الكوني ، فتبدو كأنها تتحرك في اتجاه مناقض لاتجاه حركتها الحقيقية

ويمكن التمثيل على ذلك بالرسم الثاني

فهذا وهم بصري ، من قبيل الوهم البصري الذي يصيب رجلاً يطل من قطار سريع على قطار آخر بطيء السير ولكنه ماضٍ في اتجاه القطار الاول . فان المطل من نافذة القطار الاول يتوهم ان القطار الثاني يرجع الى الوراء

والواقع ان حركة اي نجم من النجوم هي خليط حركتين — عبور السماء وهي الحركة الحقيقية . وحركة التقدم او التباعد بالقياس الى المراقب على سطح الارض وتعرف بالحركة الشعاعية Radial Velocity ولما كانت النجوم اجساماً بعيدة عنا بعداً عظيماً فحركتها الحقيقية لا يمكن تبينها خلال عشرات

السنين التي رصدت فيها رصداً دقيقاً. واذاً فنحن نعلق املنا على معرفة حركتها التي تبدو فيها احياناً مقتربة منا او مبتعدة عنا

ومما يبعث على الاغتباط ان هذه حركة يمكن قياسها بصرف النظر عن بعد النجم عن الارض . وانما يشترط امكان الحصول على طيف واضح لضوء النجم الذي يراد قياس حركته . فاذا كان النجم مقترباً منا اتجه الحيود في خطوط الطيف الى اللون البنفسجي . واذا كان مبتعداً عنا كان الاتجاه الى اللون الاحمر . وبقياس مقدار الحيود ، تعرف سرعة حركة النجم . وعلى ذلك يبدو لمراقب على الارض ان النجوم طائفتان او تياران ، تيار يتجه الى الارض وتيار يبتعد عنها . ولكن هناك طائفة ثالثة من النجوم يبدو انها واقفة في مكانها لا حراك فيها . وهذا يفسَّر بأنها اما ان تكون نجومها واقعة على الخط الذي يصل بين الشمس وقلب المجرة واما ان تكون نجوماً موقعها عمودي على هذا الخط حيث تقطعهُ الشمس . والرسم الثالث يوضّح هذه الاقوال

***

فبعدما اتمَّ لندبلاد وضع نظريتهُ وضع اورت لها القواعد والعلاقات الرياضية ، وعمد الى امتحان النظرية بالرصد . فالنظرية مثلاً تقتضي ان يكون بعد النجم عنا ٢٠٠ سنة ضوئية ، حتى يحدث دورانهُ تغيُّراً في حركته الشعاعية مقدارهُ كيلو متر في الثانية . ولكن ادوات الرصد لا تستطيع ان تتبين تغيراً يسيراً كهذا . فقرَّر اورت ان يحصر بحثهُ في النجوم التي بعدها الف سنة ضوئية على الاقل ، حتى يكون مقدار التغير في حركتها نحو خمسة كيلو مترات في الثانية . فوجد نحو ٣٠٠ نجم يسهل رصدها من هذا القبيل فرصدها ، فأسفر الرصد عن النتائج التي تقتضيها النظرية ، اي وجد دورانها يتفق ومقتضيات نظرية لندبلاد

هذا اتفاق يستوقف النظر بين الحقيقة المشاهدة والنظرية العلمية . ولكن الحذر العلمي يقتضي دراسة عدد اكبر من النجوم قبل البت في صحة النظرية . ومن حسن الحظ ان العالم الكندي بلاسكت كان قد عني قبل بضع سنوات برصد طائفة من هذه النجوم لاغراض اخرى ، ودوَّن في خلال رصده لها سرعة حركتها الشعاعية . وكان عدد هذه النجوم ٥٥٣ نجماً وقد زادها بلاسكت ومعاونهُ بيرس Pearce الى ٨٤٩ نجماً سنة ١٩٣٣

فعندما نُظر في حركة هذه النجوم من ناحية نظرية لندبلاد ومعادلات اورت ، اتضح ان كلَّ ما تتطلبهُ النظرية محقَّق في ما دوِّن عنها . فجاءت دليلاً قاطعاً على دوران المجرَّة بحسب نظرية لندبلاد . ودوران المجرَّة الآن من اكثر الحقائق الفلكية ثبوتاً

الفيلسوف لوك

وأثره في تطور فن التربية

حسن كامل

مدرسة القبة الثانوية الاميرية

لوك قبل كل شيء عالم نفساني واستاذ ضليع من فن تحليل اصل الآراء وعناصر العقل. وهو على رأس تلك المدرسة التي تضم تحت علمها كونديّاك في فرنسا. وهرباراً في المانيا وهيوم ومعظم الفلاسفة المحدثين في انكلترا. ولكن المرحلة بين علم النفس وعلم التربية سهلة الاجتياز ولذلك لم يبذل لوك مجهوداً ضخماً ليبرّز في التربية بعد ان استوت له مكانته كفيلسوف كبير

﴿ بعض الآراء في التربية (١٦٩٣) ﴾ — هذا هو عنوان متواضع لكتاب نشره لوك في نهاية حياته واودعه ثمرة تجربته الطويلة. فقد كان طالباً نابغاً في كلية وستمنستر وشعر منذ نعومة اظفاره كما شعر ديكارت في كلية فليش — باشمئزاز من التعليم النموذجي الشكلي البحت. وكان مثلاً يحتذى للطلبة في جامعة اكسفورد. وفي عام ١٦٥٦ فاز بشهادة البكالوريا في الفنون وعين محاضراً في اللغة اليونانية فدرساً للبلاغة والفلسفة الخلقية

ويرجع الفضل في تكوين اغلب آرائه في التربية الى اقامته في اكسفورد. وقد دأب على تطبيق هذه الآراء وتمحيصها مستعيناً في ذلك بملاحظة الاطفال في أسر اصدقائه عن كثب حتى تمكن بدراسته اياهم وتتبعه تطور امزجتهم ونفوسهم من وضع نظرياته في التربية تلك النظريات المطبوعة بآثار تجربته العملية. فما لا ريب فيه ان كتابه « آراء في التربية » هو ثمرة اشتراكه مع اصدقائه في تربية ابنائهم. وقد فاز هذا المؤلّف بشهرة عالمية. وكان لما عرض فيه من نظريات اعمق الأثر فيما كتب روسو وهيلفيتيوس في موضوع التربية. وقد قال عنهُ احد اساتذة علم التربية الفرنسيين في اواخر القرن الثامن عشر « لو اعيد طبع هذا المؤلف الآن لاحرز نجاحاً عظيماً جدّاً »

﴿ تحليل كتاب « آراء في التربية » ﴾ — هذا الكتاب جدير بأن يقرأ من اوله لآخره. فقد درس فيه لوك جميع مسائل التربية دراسة عميقة في بعضها وسطحية في البعض الآخر. ولذلك فن العسير ان يستطيع المرء ان يقوم — في مقال قصير — بتحليل وافرٍ لاجزاء هذا السفر الجليل جميعاً. ولكننا سنحاول جهد الطاقة أن نستخلص منهُ اهم مبادئهِ الاساسية وهي: ١ — مبدأ

---

(١) يعنى الاستاذ حسن كامل بوضع كتاب في تاريخ المذاهب المختلفة في التربية وتطورها، وهذا المقال منتزع من فصل في « فلاسفة القرن السابع عشر واثرهم في تطور فن التربية »

التقشف في التربية الجسدية : ٢ً — مبدأ الفائدة العملية في التربية الفكرية : ٣ً — اما فيما يتعلق بالتربية الخلقية فلوك ينادي بالشرف كمبدأ يعتبره قاعدة حكم الانسان لنفسه بنفسه .

﴿ التربية البدنية ﴾ — مثَلُ التربية الأعلى في نظر لوك هو مبدأ « العقل السليم في الجسم السليم » . وقد كان لوك طبيباً ولذلك فهو اخصائي في مسائل تربية الجسم . ولكن كثيراً من المربين يعتقدون انهُ اساء الى آرائهِ بمبالغته في المطالبة بحرمان الجسد حرماناً متطرفاً . فهو يقول ان نظريته تتلخص في عدد قليل من القواعد سهلة التطبيق وهي : كثير من الهواء . والتمرينات . والنوم . ونظام في الأكل بسيط يجب ان نستبعد منهُ النبيذ والمشروبات القوية . وملابس ليست كثيرة الضيق ولا شديدة التدفئة . واخيراً وبشكل خاص ينبغي ان يتعوَّد الانسان ان يكون رأسه وقدماهُ باردة . وان يغسل قدميهِ كثيراً بالماء البارد وان يعرضهما للرطوبة

ولوك هو اول مربٍّ تكلم في اسهاب وانتظام عن غذاء الطفل وملابسه ونومه . وهو واضع هذا المبدأ الذي اخذه عنهُ روسو وهو : « فلنترك للطبيعة امر تكوين الجسم كما تريد » ولذلك فهو يشير بعدم استعمال الملابس الضيقة وبالحياة في الهواء الطلق والتعرض للشمس . وبأن يلعب الاطفال عراة الرؤوس والاقدام لا يؤثر فيهم الحر ولا البرد

اما فيما يتعلق بالتغذية فلوك يحرم على الاطفال حتى سن الرابعة السكر والنبيذ والتوابل واللحم وهو يبيح لهم التفاح والكمثرى ويمنعهم من اكل الخوخ والبرقوق والعنب . ولا يرى لوك انهُ من الحتم ان تحدد دائماً ساعة معينة لتناول الطعام . وهذا خطأ لا يقره عليهِ احد . ثم انهُ يطالب بأن يكون حذاء الطفل رفيعاً لدرجة تسمح للماء ان ينفذ الى قدميه اذا وضعتا فيه ! . . . .

والثابت ان لوك يريد معاملة الاطفال في قسوة كبيرة . وهذا غريب حقًّا لو عرفنا ان لوك نفسه كان رقيق المزاج . ولعل مدام دوسو ڤينييه كانت اكثر منهُ حكمة واقرب منهُ الى الصواب عند ما قالت : « اذا كان ابنك قوي البنية فالتربية الخشنة هي التربية المثلى لهُ . وان كان رقيقاً ففي محاولة جعله قويًّا قتلٌ لهُ »

واساس فكرة لوك انهُ يعتقد ان الجسم يتعوَّد كل شيء . ولإثبات خطأ هذه الفكرة يكفي ان نسرد قصة بطرس الاكبر الذي اعتقد يوماً انهُ ينبغي على جنود البحرية ان يعتادوا شرب الماء الملح واصدر فعلاً امره الى الصبية الذين كانوا لا يزالون في دور التمرين بألاَّ يشربوا الاَّ ماء البحر . فكانت النتيجة ان ماتوا عن آخرهم . ووقفت التجربة عند هذا الحد

وعلى الرغم من ان تعاليم لوك من هذه الجهة لم تجد محبذاً لها غير روسو الاَّ انهُ يجب علينا الاعتراف بأنها في مجموعها اثارت اعجاب كثير من المربين لانها قائمة على فكرة الرجولة في المعاملة والقناعة ولانها تقرب الطفل من الطبيعة بقدر الامكان مستبعدة بذلك كل رخاوة وافتعال للرقة

﴿ التربية الخلقية ﴾ في اعتقاد لوك ان التربية الخلقية تفوق التعليم الحقيقي شأناً وتأثيراً ويقول

في ذلك . ان ما يتمناه الرجل الكامل لابنه الى جانب ما يتركه لهُ من ثروة هو اولاً : الفضيلة . ثانياً : التبصر . ثالثاً : الاخلاق الحسنة . رابعاً : التعليم

والفضيلة والتبصر اي الصفات الخلقية والصفات العلمية هي في رأيه في المكان الاول . « اما التعليم فهو أتفه اجزاء التربية » وهو في كتابه « آراء التربية » يكثر من التكرار والعود الى ما عرض لهُ من مسائل . ولكنهُ اكثر ما يكون الحاحاً في ضرورة تذرُّع الانسان بالفضيلة وتمسكه بأهدابها

وليس من شك في ان لوك — ويشبهه في ذلك هربرت سبنسر — لم يلتفت الى التأثير الخلقي الذي يتركه نور العلم في قلب المرء وارادته . ولكنهُ عارض بفكرتهِ السابقة رأي البعض القائل بوجوب تجميل الذاكرة بالمعلومات وانماء الذكاء قبل كل شيء فلا ريب ان اهم مسائل التربية هي تكوين عادات خلقية طيبة وبذر بذور العواطف النبيلة وانشاء اخلاق فاضلة

﴿ الشرف مبدأ النظام الخلقي ﴾ ماذا اعدَّ لوك من وسائل لتحقيق ما يصبو اليه من تربية خلقية يضعها موضعها اي في المحل الاول ؟ لم يكن مبدؤه المنفعة قبل كل شيء كما نادى بذلك روسو فيما بعد . لانهُ وان كان نفعيًّا (utilitaire) في التعليم والتربية الفكرية كما سيظهر فيما بعد فانه لم يكن كذلك في التربية الخلقية . وكان يعارض معارضة شديدة في مبادىء الارهاب وسلطة المدرّس والآباء القائمة على الخوف من العقاب وعلى الشعور بالرعب الذي يبغضه لوك لما فيه من عبودية . وهو لذلك ينقم على نظام العقاب . ولم يتكلم لوك عن حنان الآباء ومحبتهم لانهُ كان لا يعتقد بامكان الحصول على نتيجة كبيرة من طريق حساسية الطفل (la sensiblité de l'enfant)

ولكنه كان يريد معاملة الطفل منذ نعومة اظفاره معاملة الرجال . ناسياً بذلك ضعف طبيعة الطفل . ولذلك تراه ينادي بتأصيل عاطفة الشرف في نفس الطفل من البدء وحثّهُ على الخوف من الخجل ولعلَّ هذا شعور نبيل اخشى ان يكون فوق مستوى مواهب الطفل . فالشرف وهي كلمة يعتبرها — المفكرون مرادفة لكلمة الواجب — يمكن ان يكون مرشداً لضمير مراهق تمَّ تكوينه او ما يقرب من ذلك . ولكن أليس من غير المعقول من الناحية العملية ، ان يشعر الطفل منذ سنواته الاولى بتقدير او باحتقار من حوله ؟ وقد قال في ذلك احد ناقدي لوك الانكليز : « اذا كان من المستطاع ان نوحي الى الطفل بالاهتمام بسمعته . اذن لاعترفت مع لوك بأن في مقدورنا ان نكوّن الطفل كما نريد وان نعلمه حب الفضيلة باشكالها المتباينة » . ويضيف هذا الناقد الى ذلك قوله « ولكنني اشك في ذلك كل الشك رغم كل تأكيدات لوك »

وقال (كانت) بحق « انه لجهد ضائع ذلك الذي نبذله في التحدث الى الاطفال عن الواجب . فهم يرونهُ شيئاً لو خولف لتبع مخالفته العقاب . لذلك لا يجب ان نحاول اثارة عاطفة الخجل عند الطفل . بل يجب الانتظار حتى يصبح شاباً لان هذه العاطفة لا يمكن ان تجد لها مجالاً في نفسه الاَّ اذا ثبتت فكرة الشرف فيها » . ولوك يخطىء عند توهمه ان للطفل من النشاط الخلقي ما يسمح

لنا بالاعتقاد بان مجرد الشعور بالشرف يمكن ان يكون رائده . وهو يخطيء ايضاً في اعتماده على قوى الطفل الفكرية التي يراها كافية للتباحث معه ابتداءً من اليوم الذي يتكلم فيه

ولأجل تزويد الطفل بالعادات الطيبة وتهيأته للفضيلة تضع الطبيعة تحت تصرف المربي حساسية الطفل نفسه ومنفعته ونور ذكائه . ولا يمكن الاّ مع انقضاء الزمن وتقدم السن ان يصبح مبدأ سام كالشعور بالشرف وبالواجب، قانوناً اعلى يسيطر على ارادة الطفل ويلزمهُ بضرب خاص من التصرّف

وخطأ لوك في طريقته في التربية الخلقية يرجع الى انهُ لا يريد الاستعانة بقلب الطفل ومقدرته الكبيرة على الحب . والى اسراعه في معاملة الطفل كمخلوق عاقل وتقوية مبدأ استقلال النفس عنده

ولعلّ من الصواب ان يقال انهُ ان كان من الخير ان نحترم حرية الرجل وكرامته عند الطفل فلا ينبغي بتاتاً ان ينقلب هذا الاحترام خرافة . وليس من المؤكد ان استبعاد الخوف والضغط هو من شروط تكوين الارادة الثابتة القوية

﴿ استبعاد العقوبات الجسمانية ﴾ — لم يتوسع لوك في شرح نظريته في النظام الخلقي (la discipline morale) . ولكنهُ بقدر نقص تفصيله في شرح الجزء الايجابي من نظريته اسهب في تفصيل ما لا يجب ان نعمله لتحقيق اغراضه . وتعد الفصول التي كتبها لوك عن العقاب الجسماني من أمتع ما كتب . وقد نقل روسو كثيراً منها . وثمة تشابه بين نظرية مونتيني في «الوداعة القاسية» وقاعدة لوك في التربية الخلقية . فكلاهما يقول بان نظام السوط نظام استبداد يجعل من الطفل عبداً . ولم يخرج لوك على آراء عصره الاّ في نقطة واحدة وهي انهُ اباح استعمال السوط في الاحوال الخطيرة ولاجل كبح جماح الطفل الثائر العنيد . ولا شك ان في هذا الرأي جرأة ممدوحة في وقت كانت فيه المعاهد العلمية في انكلترا تعتقد انها ملزمة بأن تذيع على الجمهور وتنشر في اعلانات الصحف ان تحريم العقاب الجسماني يعد بين مزايا التربية فيها

ومن العجيب ان نعرف ان المدرسين احتفظوا على الرغم من كل ذلك بعادتهم القديمة في تأديب التلاميذ بالسوط . والاغرب ان الطلبة انفسهم كانوا متمسكين به كل التمسك . فقد كتب احد الطلبة الانكليز القدماء يقول « في عام ١٨١٨ كان لناظر مدرستنا آراء خاصة جريئة . فاراد استبدال السوط بالغرامة المالية . ولكن الطلبة قاموا في وجه هذا الاصلاح . وذلك لان السوط كان لا يتعارض في نظرنا وكرامة الرجال . ولكن الغرامة اهانة لا يمكن ان تمحى ! . . . وصاح الطلبة فلتسقط الغرامة وليحيا السوط ! وانتصرت ثورة الطلبة وأعيد نظام السوط . وفرحنا لعودته فرحاً عظيماً . وفي صبيحة اليوم التالي لالغاء الغرامة وجدنا عند دخولنا قاعة الدرس غابة من الاسواط كبيرة . وقضى المدرسون وقتهم في استعمالها بأمانة تامة »

﴿ التربية الفكرية ﴾ ينتمي لوك الى عائلة المربين النفعيين (pédagogues utilitaires) قليلي العدد في ايامه . فهم لا يريدون تكوين رجال ادب وعلم بل رجالاً عمليين مسلحين للنضال في الحياة

مزودين بالمعارف التي هم في حاجة اليها لتسوية حسابهم وتسيير دفة شؤونهم المالية وارضاء مطالب حرفهم واخيراً للقيام بما عليهم كرجال ومواطنين

﴿ دراسات نفعية ﴾ (Etudes utilitaires) . من اهم ميزات لوك انهُ كافح التعليم الشكلي البحت الذي لايفوز الانسان فيهِ الاَّ بثقافة اسمية . وهو يزدري الدراسات التي تؤدي مباشرة للاستعداد للحياة. ولكنهُ بالغ في نقده ومدح التعليم الواقعي (réaliste) ناسياً بذلك ان الدراسات القديمة ان لم تكن نافعة بمعنى الكلمة الحقيقي وان لم تكن تكفي لسد الحاجات المادية للمعيشة فأن لها فائدة اسمى بمعنى انها تصبح اداة جيدة في التنظيم الفكري اذا استخدمت استخداماً حسناً. ولكن لوك كان يخاطب اناساً متعصبين متحذلقين يعتقدون ان دراسة اللغتين اللاتينية واليونانية هي كل التعليم وغاية الغايات لا وسيلة من وسائل التعليم

ولا يجب ان نفهم ان لوك كان نفعيًّا اعمى يرغب في استبعاد كل دراسة ليس من ورائها نفع محقق . وكل ما هنالك انهُ لايريد ان يضحي في سبيل هذا النوع الاخير من الدراسة تعليماً اعظم شأناً واكبر نفعاً

﴿ برنامج الدراسة ﴾ . يعتقد لوك انهُ ينبغي ان يتعلم الطفل الرسم منذ المامه بالقراءة والكتابة ولكنهُ يحتقر الفنون التي لم يسمح لهُ بروده الطبيعي بفهم اثرها العميق الوديع في نفس الطفل . وهو يحبّذ الرسم لما لهُ من فائدة عملية وهو لذلك يضعه في مستوى القراءة والكتابة

فاذا ألم الطفل بهذه العناصر وجب ان يمرن بلغة والديهِ على قراءة القصص الصغيرة وعلى الانشاء وكتابة الخطابات العائلية وما الى ذلك

ويتبع ذلك دراسة لغة اجنبية حية . وينصح لوك لمواطنيه بدراسة اللغة الفرنسية فاذا تمكن الطفل منها تعلَّم اللاتينية . وقد طبق ما يشبه هذا النظام في فرنسا في القرن العشرين واضيفت اليهِ العلوم

***

اما فيما يتعلق باللغة اللاتينية فلوك يريد ان يتعلمها الطفل بواسطة الاستعمال والمحادثة اذا امكن وجود استاذ لتعليمها فاذا كان ذلك مستحيلاً فبالقراءة . وينصح بالاقلال من قواعد النحو والصرف بقدر المستطاع (وهذا من آخر ما وصل اليهِ علماء التربية في تعليم اللغات في أيامنا هذه) والغاء المحفوظات وموضوعات الانشاء اللاتينية نظماً كانت او نثراً . ويحبذ التبكير في قراءة نصوص لاتينية سهلة . فهو لا يريد ان يتقن الطفل الكتابة باللغة اللاتينية بل يقول بان الغرض من دراسة هذه اللغة هو امكان فهم المؤلفين الذين كتبوا بها . ولكن المشايعين للقصائد الشعرية والخطب اللاتينية لم يسكتوا على احتجاج لوك على طريقتهم ومضوا يعذبون الطفل بارغامه على الكتابة بلغة لا يجيدها وفي موضوعات يكاد يجهلها . اما اللغة اليونانية فلوك يريد استبعادها تماماً ويقول انهُ يعرف تماماً ما لهذه اللغة من جمال ويعترف انها مصدر التحف الفنية التي تفخر بها علومنا وآدابنا

ولكنهُ يريد ان يقصر دراستها على المطلعين والادباء والعلماء الاخصائيين وينصح بالغائها من التعليم الثانوي الذي يجب ان يكون مدرسة الحياة

فاذا خفف نظام الدراسات القديمة اتسع المجال لدراسات ذات فائدة عملية مثل دراسة الجغرافيا التي يضعها لوك في المكان الاول لان فيها مرانة جيدة للذاكرة والنظر . والحساب لانهُ ذو فائدة كبيرة في جميع اعمال الحياة حتى انهُ لا يكاد يوجد عمل لا يلجىء فيهِ للاعمال الحسابية . وما يسميه هو علم الفلك وهو في الواقع دراسة مبدئية لسير الكواكب . واجزاء الهندسة اللازمة لرجل الاعمال « والتاريخ » وهو « اكثر الدراسات لذة وابعدها اثراً في تثقيف العقل » وعلم الاخلاق والقانون والتشريع العادي كثير الاستعمال والفلسفة الطبيعية اي العلوم الطبيعية واخيراً حرفة يدوية ومسك الدفاتر

﴿ دراسات جذابة ﴾ ولما كان لوك نفعيًّا في اغراضه فهو يود ان نستخدم في التربية الفكرية وسائل جذابة فهو بعد ان وجه نقداً مرًّا الى المربين الذين يبعثرون قوى الطفل في دراسات مجدبة اعلن كراهيته لما يراهُ من شدة التمسك والاخلاص للاساليب التعليمية البحتة تلك الشدة التي ادت الى وسائل تمجها النفس وطرق مضنية لا يظهر المدرّس بسببها الاّ بمثابة معكر لصفو حياة الطالب

وعلى الرغم من انه يبالغ في آرائه من هذه الناحية فان له كل الحق في المطالبة بتطبيق اساليب جذّابة ولقد ذهب في هذا الصدد الى حدّ القول بأنهُ يريد ألاَّ يجد الطالب فارقاً بين الدراسة واي نوع آخر من التسلية . وفي هذا ولا ريب شيء كثير من المبالغة . ولعله اراد ان يقول انهُ ينبغي علينا العمل على تذليل الصعاب الاولى في دراسة العلوم وعلى اغراء الطفل واسره دون الضغط عليه والابتعاد كل البعد عن الظهور بمظهر من يريد ان يلزم الطفل بالدراسة . وهو الامر الذي طالما اوحى الى الاطفال نوعاً من الاشمئزاز . وهو لذلك ينصح بالالعاب التي يمكن استخدامها في التعليم (jeux instructifs) لاجل تعليم الاطفال القراءة والاعمال الاولى ويقول في ذلك « يجب ان يتعلم الطفل القراءة وهو شاعر انهُ يتسلى »

ذلك ان الطفل في رأيه غيور على استقلاله ولسنا نعرف مربياً عرف قبل لوك حاجة الطفل الى النشاط والحرية . وانهما امران طبيعيان فيه . كما لا يعرف مربياً سبقه الى الالحاح في ضرورة احترام ذوق الطفل الشخصي وتعلقه باستقلاله

وقد قال بعده سلفه الانكليزي هربرت سبنسر « لا يحتفظ العقل الاَّ بالمعارف التي توحي اليه السرور والانتعاش . ولا يجد العقل سروراً وانتعاشاً الاَّ عندما تثير فيه نشاطاً عاديًّا يتناسب مع قواه الطبيعية . ولا يمكن ان يصح تعليم الاَّ في جو من النشاط »

﴿ الاستظهار ﴾ يقول لوك انه لا فائدة من الحفظ عن ظهر قلب . وذلك لان الذاكرة في رأيه ليست قابلة للتقدم وهو يقول ان النفس كفاءة فارغة جامدة وليست مجموعة من النشاط والقوى

الحية التي تفيدها المرانة وهو لا يعتقد ان المواهب على اختلاف انواعها يمكن ان تكبر او تنمو . وذلك لانهُ لا وجود لها بتاتاً في نظره ! . . . ولعلَّ من الخير ان نترك هنا لوك يتكلم عن نظرياته بنفسهِ : اعرف جيداً بوجود مربين يدعون انهُ يجب على الطفل ان يستظهر بعض الدروس لأن في ذلك مرانة لذاكرتهِ وانماء لها . ولكن هذا الادعاء لا يستند الى ملاحظات صحيحة بل الى مجرد وجود عادة قديمة . ولست اشك في ان قوة الذاكرة ترجع الى طريقة تكوينها لا الى تقدم تكتسبهُ بالمرانة والعادة . والواقع ان العقل لا يستطيع ان يعي الاَّ الاشياء التي يعيرها التفاته . وانه — لاجل ان يحتفظ بها — في حاجة الى التفكير فيها ليطبعها من جديد في ذاكرته . وهذا يجري بنسبة قوة الذاكرة الطبيعية . واذا نحن طبعنا الشمع او القصدير بطابع فان هذا الطابع يظل زمناً اقصر بكثير من طابع آخر على النحاس او الحديد . ولاشك ان التأثير في النفس يدوم زمناً اطول اذا داومنا على تجديده بالتفكير فيه . ولنعلم ان كل عمل من اعمال التفكير في تأثيرٍ ما هو بمثابة تأثير جديد . ولا يجب ان نفكر الاَّ في عدد هذه التأثيرات اذا اردنا ان نعرف الزمن الذي يمكن للعقل ان يحتفظ خلالهُ بهذا التأثير . ونحن اذا دفعنا الطفل الى استظهار بضع صفحات باللغة اللاتينية لا نؤهل ذاكرتهُ لان تعي شيئاً آخر غير هذه الصفحات الاَّ بقدر ما نهيء سلاحاً من القصدير لان يحتفظ بطوابع اخرى غير فكرة نكون قد حفرناها عليهِ ! ! . واذا صح كلام لوك أصبحت التربية بأسرها مستحيلة لانها تفرض مبدئيًّا وجود مواهب طبيعية يمكن ان نجعلها بالمرانة خصبة نامية

﴿ وجوب تعلُّم حرفة ﴾ واخيراً يريد لوك ان يتعلم تلميذه حرفة . ولكن الاسباب التي استند اليها في ذلك تختلف عما استند اليهِ روسو من اسباب . فلوك يقصد من وراء تعليم حرفة يدوية للرجل الكامل (the gentleman) ان يهيأ لعقله تسلية وفرصة للراحة من جهة ولجسمه تمرينات نافعة من جهة اخرى . ولكن روسو كان يود ان يتعلم تلميذه حرفة يدوية ليقي نفسه شر الحاجة اذا ما ثارت ثورة انتزعت منهُ ثروته . بل ان روسو كان متأثراً في رأيه هذا بهواجس اجتماعية يعتبرها البعض مخاوف اشتراكية فالعمل في نظره واجب يتحتم على كل فرد القيام بهِ « غنيًّا كان او فقيراً »

﴿ دور العمل ﴾ ومع ان لوك وجه كل اهتمامه الى الدراسات القديمة وتربية الرجل الكامل الاَّ انه لم يهمل تماماً مسائل التعليم الابتدائي . فقد كتب للحكومة الانكليزية تقريراً في عام ١٦٩٦ طالب فيهِ بتنظيم دور للعمل (Working schools) لاولاد الفقراء . وذكر في هذا التقرير ان كل طفل يزيد على الثالثة من عمره ويقل عن الرابعة عشرة يجب ان يجد في هذه الملاجىء عملاً وغذاءً

وفكرة لوك في ذلك هي ضرورة مكافحة فساد الاخلاق وذيوع الفاقة في طبقة خاصة من الشعب ومحاولة معالجة الكسل والتشرد وتخفيف رقابة الام المنصرفة الى عملها وتكوين رجال جد وعمال مجدين . وقد حاول بذلك تحقيق اصلاح اجتماعي واسع النطاق . واصبح مربي الرجل الكامل مهذبَ الفقراء

وقفة امام (ابي الهول)

لراجي الراعي

يا آله الصمت . ويا ملتقى الاسرار . ويا عقدة الالسنة . ويا مثال المتأملين . ايها العظيم الذي اتخذ عظمته من صمته . يا ربيب الرمال ويا رفيق « الاهرام » ويا عجيبة المصريين . . ايها الاسد الرائع المتحفز منذ القدم للوثوب على فريسته التي لم يجدها بعد . . يا مصيبة الثرثارين . . ويا محط رحال الحائرين . . ايها المتجبر العنيد الذي لم يخفض رأسه لاحد في الدنيا التي مرّت كلها من امامه . . . ايها الضاحك الباكي ، السعيد البائس ، الحائر المهتدي ، الثمل الصاحي ، القوي باهرامه ، الضعيف برماله ، الجريء بصدره ، الجبان بلسانه . . . ايها البحر الذي تلاطمت فيه الامواج ولم تنفث زبدها في فمه . . ايها الساحر المسحور ، سحَره غده الذي يزحف اليه فسحر بدوره يومه الذي يطل عليه . . . ايها الناسك الاكبر الذي لم يؤمن بالعالم فأقام في صومعة الرمال وانقطع الى ربه والى نفسه ، زعيم الناسكين تدق لهُ نواقيس الذكرى في اودية التاريخ التي تعاقبت عليه ومن يستطيع ان يحصيها . . . ايها الثمل بالذكريات غمرته بخمورها فلم يقو على العربدة وكيف يعربد الغريق ، وصرعته بجمالها وقبحها فجمد كالمجنون وتطأطأت عليه الخلائق . .

ايها البطل الضائع الذي ازدحمت في بطولته مشاهد القرون على مختلف صورها والوانها فضاقت بها ذرعاً ولبثت مكانها لا تبدي حراكاً !

ايها المبرَّد بوسادته الحجرية لظى المغرمين ، المخجل برباطة جأشه المذعورين الفارين ، المحطم بصخرة حيرته وشكه سفينة المهتدين ، المخرس بفصاحة عينيه زمرة المعربدين ، الهازىء بالعابرات والعابرين ، الضاحك على الاذلاّء الخانعين ، الباكي على الضاحكين الموقظ الراقدين المتفرس في المستيقظين

يا « ابا الهول » الذي هالته نفسه فلم يعرف اين يضعها وكيف يعبر عنها ، ويافتنة « النيل » ويا سمير الفراعنة ويا رب وادي الملوك ، ايها الامين الاكبر الذي يحمل مفاتيح

التاريخ ولم يخن يوماً واجب الامانة ، ايها المُبرم مع المجهول عهداً يحسده عليه المعلوم، ايها الغارق في لجج اللانهاية ولم يبلل ثوبه ، أيها المبسوط في حجره، المنكمش في تصلبه ، أيها الطليق بعينيه السجين بين احاجيه ، ايها الناظر الينا نظرته الغريبة بين صممه وبكمه كأنهُ يفتش في الارض عمن جاءه بالصمم وعقل لسانه ليصعقه ويضمه الى قلب رماله ! !

ايها الرجل العجيب الذي لم يتحرك بعد والكهرباء تشع في فمه وعينيه والطيارة تحلّق فوق رأسه ، ايها الصابر صبراً دهش له ايوب ، ودهشت له الارض التي تحمل موتاها ودهش له البحر الذي يحمل غرقاه والاثير الذي يحمل زفرات البائسين . .

ايها المتمرد الاكبر الذي لو استكشفت اسرار الخليقة كلها لظل وحده بنفسه سرّاً خفيّاً . . ايها الحاكي الذي يردد صدى الانسانية ، ايها العدّاد الاكبر الذي يحصي انوار الخليقة وظلماتها وساعات نعيمها وبؤسها . . .

يا ابا الهول ... اتيتك بعد تلك القرون التي توالت على رأسك ، اتيتك متأخراً . . . اتيتك في القرن العشرين وتفرست فيك فخطرت لي النعوت والاسماء التي كسوتك بها ، رأيتك بعيني ولم ادر بأي عين رآك اسلافي .. وحرت فيك كما حار الذين تفرسوا فيك من قبلي ورمتني تلك الحيرة بين امواج الخيال فغرقت في اوصافك وتخبطت في اسرارك ...

ما هي حقيقتك ؟ واين هي ؟ . . وهل تجهلني يا سيدي كما اجهلك . . . من انا ؟.. انظر اليّ جيداً . . أقويٌّ انا ام ضعيف ؟ اسعيدٌ انا ام بأس . . . انا كاتب يصيح ويعرض في القراطيس رسوم النفس والحياة فهل ازعجك صياحي وهل رأيت رسومي ؟ هل انت شاعرٌ بي أم انت تنظر اليّ وترى نفسك ؟؟

قل لي يا « ابا الهول » ألأمسي انا ام لغدي ، واين هو رقمي في جدول الانسانية . وهل في جبيني السطر الذي تفتش عنهُ منذ القدم ؟ امصيبٌ انا في عقيدتي ام مخطئ ؟ انا للشاعرية فهل في حجرك من شعري وهل الشعراء في نظرك هم الناس .. وهل في صدرك القاسي فؤادٌ رحيم ؟؟

اتينك لاسألك عن حقيقتك وحقيقتي فهل من جواب يخرج من فك فيريحني... اما تاقت نفسك يا صاحبي الى الكلام ولو مرة واحدة... ألم تسأم الصمت .... ولكن لا.. ابق صامتاً فانني اخاف اذا تكلمت . ان لا يقال بعد ذلك : هذا « ابو الهول » . . ان صمتك حديث الناس وقد لا يكون حديثك حديثهم فتكون الكلمة الاولى التي تنطق بها وبالاً عليك ودليلاً على انك لم تكن الاَّ حجراً ! ابق صامتاً ، ان قوتك في صمتك، انت ملك يجثم على عرش الصمت فلا تخلع ملكك بيدك . . .

ولعلك فقهت معنى الحياة فرأيت ان الصمت خير ما فيها ، فما الفائدة من الكلام وهل يصلح اللسان ، ذلك الثرثار الضعيف المزعج ليحلّ الاحاجي ويعبر عن اسرار النفس والطبيعة ؟ ! وهل يقوى على الثبات في ساحة النفس الكبيرة الحداسة ساعة يثور بركانها وتتطاير حممها ....

انظر الى الفيلسوف كيف يخرس ساعة يصطدم بالمجهول ويقف امامه صاغراً ! والى الجندي كيف يعقل لسانه ساعة يصطدم بالخطر ويقبل على الموت ! والى الفنان كيف يصمت صمته العميق ساعة يسحره الجمال وتحتلّ الشاعرية الحقيقية اعماق قلبه . . وانظر الى الفقير الذي شرب ثمالات الكؤوس كيف يعجز عن النطق وفي فمه كل دموعه، والى المؤمن الناسك كيف يقطع لسانه ليتصل بالخالق ، والى النسور والاسود كيف تأوي الى عزلتها وصمتها وتترفع عن الخلائق . . .

ابق صامتاً يا « ابا الهول » فقد يكون في صدرك كثير من الحسد والضغينة والرياء والضعف والكبرياء والطمع واللؤم وانا لست بحاجة الى نفث سمومها فيكفيني ما ينساب في طريقي من الافاعي ، يكفيني هذا الانسان الذي يوزع لسانه الشقاء في العالم ويكشف عما انطوى عليهِ صدره من تلك البضاعة النتنة ! . . .

ابق صامتاً فلا ادري ما وراء لسانك... ان كنت انساناً فزميلك يكفيني ، وان كنت من جماعة « الاولمب» فابق بين آلهتك . . .

ابق صامتاً ، فهذه الانسانية الثرثارة لا تخاف الاَّ الصامتين

موقعة نافارين البحرية

٢٧ صفر سنة ١٢٤٣ هـ ٢٠ اكتوبر ١٨٢٧ م

للدكتور علي مظهر

— ١ —

كانت بلاد اليونان جزءاً من بلاد السلطنة التركية العثمانية الى اوائل القرن التاسع عشر ترسل اليها الدولة من يحكمها من ولاة الاتراك . ثم بدت بها بوادر ثورة اهلية وألف أعيانها وشبانها جمعيات ثورية لتنفيذ الخطة التي رسموها من اشعال نيران الثورة في كل اليونان مع الاتصال بدول اوروبا حتى انهم جعلوا مركز هذه الجمعيات في الروسيا والنمسا لتتصل بحكوماتها وتتلقى امداداتها ومعونتها المادية والادبية ولتكون بعيدة عن يد حكام اليونان من الترك . ولقيت هذه الجمعيات من تأييد الدول الاخرى ما ساعدها على اعلان العصيان والثورة في ارجاء البلاد اليونانية . نذكر من ذلك جمعية (هيتريا) الكبيرة التي تألفت سنة ١٨١٥ . وقد انضم اليها ذوو المكانة في اليونان من شبان واعيان ورجال الدين ولقيت التعضيد من كثير من امراء اوروبا ووزرائها وسراتها وذوي الرأي منهم . وكان ذلك بالنفوذ وبالاموال حتى ان القيصر الروسي اسكندر الاول كان في مقدمة معضديها ومؤيدي مطالبها وأهمها استقلال بلاد اليونان عن الدولة العثمانية .

نشطت تلك الجمعية وغيرها على العمل سراً وسعت الى نشر دعايتها واذاعة اغراضها الثورية وانشاء فروع لها في بلاد اليونان وفي البلقان حتى زاد اعضاؤها على العشرين الفاً من الاعضاء حملة السلاح . ولما هبت ريح الثورة في بلاد المورة في ٢٥ مارس سنة ١٨٢١ كان في مقدمتهم رجل من رجال الدين اليوناني هو القس جرمانوس اسقف (باتراس) بشمال الموره ودعاهم للثورة فلبي اليونانيون الدعوة في البر والبحر . فكانت سفنهم المسلحة تقطع الطريق على السفن العثمانية في بحر الارخبيل وتأسر ما تأسر وتدمر ما يمكنها تدميره وتقتل ركابها وتأسرهم وتنهب ما معهم . واستولى الثوار على أهم مدن المورة حتى انهم احتلوا عاصمتها (تريبولتسا) ونكلوا بالاتراك المقيمين بها تنكيلاً كبيراً . وأعلنوا استقلال الامة اليونانية سنة ١٨٢٢ . ورأت الدولة العثمانية ان تستعين بمصر بعد ان استفحل أمر الثورة والثوار الذين أحيوا عهد القرصنة وأحرقوا كثيراً من السفن التركية وأفسدوا أيما افساد . فأرسل السلطان محمود الى محمد علي وعهد اليه بتجريد الاسطول المصري للقضاء على القرصنة سنة ١٨٢١ ولتأديب الثائرين وانقاذ الاسطول العثماني الذي أضحى كالاسير في مياه البانيا . وأطاع محمد علي امر الخليفة السلطان محمود ولبى نداءه فكتب الى صهره محرم بك محافظ الاسكندرية وامير البحر للاسطول المصري باعداد اسطوله . ونحن ننقل ترجمة الامر التركي المقيد في سجلات البحرية القديمة

بتاريخ ٢٤ رمضان سنة ١٢٣٦ وقد نقله اسمعيل سرهنك باشا في كتابه حقائق الاخبار (ج ٢ ص ٢٣٨) وهاك نصه :

قد علم لكم انه أحيل تأديب وتربية الاروام الثائرين على الدولة العلية على عهدتي . وبما ان السفن الحربية التي جرى استمدادها لغاية الآن قد بلغت اربع عشرة سفينة ولو ان قيادتها عائدة علي (يعني انه كان يعتبر نفسه (محمد علي) قائداً أعظم واميراً للبحر الاكبر للاسطول المصري) الا انه لكثرة اشغالي قد عينتكم بدلاً عني لقيادتها . فتوكلوا على الله تعالى وأسرعوا بالاقلاع بها للجهة المقصودة. وأدوا الخدمة اللازمة عليكم في هذه المأمورية بحسب ما تقضي عليكم حقوقها المقدسة . وقد تحرر صورة من هذا الامر الى مطوش قبودان الذي تعينت سفينته بمعيتكم . اه .

ونحن ننقل عن سرهنك باشا اسماء قباطين السفن التي ذكرها بعد ترجمة النص التركي لتولية محرم بك أمرة الاسطول المصري وهم :

فندقلي احمد قبودان وقوله لي مطوش قبودان واستانه لي نوري قبودان وارنبوط خليل قبودان وكريدلي حسن قبودان وبدروملي السيد علي قبودان وكريدلي اسمعيل قبودان واورهلي مصطفى قبودان المعروف بيشكاكي وچشمه لي مصطفى قبودان وبوزجه أطه لي حسين قبودان واسكندراني علي قبودان ولازلي عمر قبودان وازميرلي قره اوغلي قبودان وبدروملي علي محمد قبودان . اه

وذكر مسيو مانجان في كتابه تاريخ مصر في حكم محمد علي (ج ٢ ص ٢٤٠) ان الاسطول المصري اقلع من الاسكندرية في ١٠ يوليه سنة ١٨٢١ بقيادة الاميرال اسمعيل جبل طارق وانه كان مؤلفاً من ١٦ سفينة كاملة السلاح والعتاد وبها ٨٠٠ مقاتل بقيادة طبوز اوغلي

وقد كتب عبد الرحمن بك الرافعي في مؤلفه النفيس عصر محمد علي (ص ١٩٩) تعليقاً على ذلك ان بعض المراجع الفرنسية تذكر قائد الاسطول باسم اسمعيل جبل طارق وبعضها باسم اسمعيل الجبل الاخضر مما يجعلنا نشك في هذا اللقب الذي ليس من الاعلام المألوفة في ذلك العصر . فالاسم الموثوق به انه الاميرال (امير البحر) اسمعيل بك . ثم عاد عبد الرحمن بك في الصفحة التالية فقال : نقول وهذا لا يمنعنا ان نرجح رواية المسيو مانجان لانه عاصر الحوادث التي كتب عنها وروايته تؤيدها المراجع الفرنسية الاخرى . ويجوز ان محمد علي عهد الى امير البحر محرم بك بقيادة الاسطول نيابة عنه كما جاء في الامر لكن الذي سافر فعلاً وقاد الاسطول هو اسمعيل بك كما يقول مانجان .

ونحن نقول انه اقرب الى المعقول ان يكون مطوش قبودان هو الذي تولى القيادة فعلاً بالنيابة عن محرم بك اذا لم تصح قيادة محرم بك للاسطول الذي ابحر لسواحل بلاد اليونان لان محمد علي قد اشار اليه في خطابه الذي ارسله الى صهره محرم بك وخصه بالذكر في ذلك الامر الصادر منه دون سائر القباطين الآخرين

ويذكر مسيو مانجان ان الاسطول المذكور ذهب الى مياه رودس لمطاردة السفن اليونانية .

والتق بالاسطول التركي في الدردنيل . ثم عاد الى الاسكندرية في مارس سنة ١٨٢٢ ليتأهب لنقل الحملة الى جزيرة كريد

ويذكر الجبرتي في نهاية ما وصلنا من تاريخه وهو آخر ما دوّنه في كتابه من حوادث ذي القعدة سنة ١٢٣٦ (اغسطس سنة ١٨٢١) ما يأتي :—

وفي منتصفه (القعدة) سافر الباشا (محمد علي) الى الاسكندرية لداعي حركة الاروام وعصيانهم وخروجهم عن الذمة ووقوفهم بمراكب كثيرة العدد بالبحر وقطعهم الطريق على المسافرين واستئصالهم بالذبح والقتل ، حتى انهم اخذوا المراكب الخارجة من استامبول وفيها قاضي العسكر المتولي قضاء مصر ومن بها ايضاً من السفار والحجاج فقتلوهم ذبحاً عن آخرهم ومعهم القاضي وحريمه وبناته وجواريه وغير ذلك . وشاع ذلك بالنواحي وانقطعت السبل . فنزل الباشا الى الاسكندرية وشرع في تشهيل مراكب مساعدة للدونانمة (الاسطول) السلطانية . وسيأتي تتمة هذه الحادثة

ومما يؤسف له ان تاريخ الجبرتي ينتهي بحوادث ذي الحجة سنة ١٢٣٦هـ (سبتمبر سنة ١٨٢١م) وشبت الثورة في جزيرة اقريطش (كريد) سنة ١٨٢١ وعهد السلطان محمود الى محمد علي باخماد الثورة ففعل اذ ارسل اسطولاً مصريًّا يحمل خمسة آلاف جندي بقيادة حسن باشا ونزلت القوة في ارض الجزيرة في يونيه سنة ١٨٢٢ واستمرت الحرب بين الطرفين حتى سنة ١٨٢٣ وانقذ العسكر المصري الحاميات التركية التي كان الثوار قد حاصرتها في القلاع . ومات حسن باشا القائد خلال الفتح فخلفهُ حسين بك في القيادة . وظفر المصريون بالثوار وحصروهم في جهة من الساحل . وشتتوهم شذر مذر . واضطر كثير منهم الى الفرار الى الجزر اليونانية وسادت السكينة بكريد وامكن المصريون ان يخمدوا ثورة قبرص هي الاخرى

ولما اشتدت الثورة وطال امدها في موره عهد السلطان الى محمد علي في اخمادها وجعله والياً عليها

ومما يذكر ان محرم بك لما اعد اسطولاً مكوناً من اربع عشرة سفينة حربية وجهزها بما يلزمها من الجنود والقباطين وجعل شاكر افندي السابق الذكر مهندساً لهذا الاسطول كما جاء في سجلات الدونانمة (الاسطول) المصرية انهُ لم يبق بالاسكندرية حينئذٍ غير ثماني سفن حربية فقط للمحافظة بها على السواحل المصرية فاخذ محمد علي يهتم بتجهيز اسطول آخر من السفن الجديدة التي تأتي اليهِ تباعاً من بلاد اوربا . ووصل محرم بك باسطوله الى مياه كريد فوجد من الجهة الشمالية منها سبع عشرة سفينة تجارية رومية (يونانية) تهاجم سفينة تجارية عثمانية . فهجم على الاروام واستولى على ثلاث منها . وولى الباقي الادبار وتخلصت تلك السفينة العثمانية من هلاك محقق . ثم انهُ سار الى بحر الارخبيل بحسب الاوامر الصادرة اليهِ . وبعد ذلك بشهر ارسل محمد علي اسطولاً آخر من ثماني عشرة سفينة بقيادة طبوز اوغلي قبوجي باشى محمد اغا للالتحاق بالاسطول العثماني الذي كان

يقوده البطرونة مختار بك» وامره انهُ متى انضمت كل هذه السفن الى بعضها البعض ومعها اسطول محرم بك تذهب لتخليص الاسطول العثماني المحصور بجهة «روزه» وكان يقوده القبطان نصوح زاده علي بك . وقد تم ذلك ورفع الحصار عن الاسطول العثماني . واخذ الاسطول المصري باشتراكه مع الاسطول العثماني في مطاردة مراكب الاشقياء من اليونانيين . فأحرقت كثيراً منها (مرهنك باشا ج ٢ ص ٢٣٨). وعادت السفن الحربية المصرية الى الاسكندرية لاصلاح ما تلف منها سنة ١٢٣٨ هـ. وفي السنة التالية (٦ مارس ١٨٢٤ م) اصدر السلطان الى محمد علي بتعيين ولده ابرهيم باشا والياً على جزيرة كريد وموره وان يعمل ما يراه لحفظ النظام هناك . وارسل امراً بارسال نجدة مصرية لتساعد الجيش العثماني في بلاد اليونان . ويذكر لطفي افندي في تاريخه بأن الدولة العثمانية امرت خسرو باشا امير البحر للاسطول العثماني بمياه اليونان بان يذهب الى الاسكندرية لاصلاح سفنه فيها واخذ ما يلزم من الذخائر الحربية والمؤونة منها ولمساعدة محمد علي باشا على نقل الجيوش المصرية الى بلاد موره . وكان خسرو باشا قد طلب العودة الى استنبول لاصلاح ما تخرب من سفنه الحربية . فلما صدر الامر بالتوجه الى الاسكندرية سافر اليها في ٢٨ الحجة سنة ١٢٣٩ هـ . وقبل وصوله بأيام قليلة حضرت ثلاث سفن حراقات يونانية الى ميناء الاسكندرية ودخلت واحدة منها الميناء حتى وصلت امام طابية صالح وأشعلت نارها لحرق الاسطول المصري الراسي امامها . فأطلقت عليها قوة القلعة المدافع وارسلت المراكب المصرية بعض زوارقها بالمدافع فهجمت عليها وأطفأت نارها فهربت الحراقتان الاخريان بسرعة . وامر محمد علي محرم بك ووكيله بلال أغا بالخروج بخمس سفن حربية لاقتفاء اثر الحراقتين الهاربتين . وخرج بعدها محمد علي بنفسه في قرويت اسمه جناح بحري . وامكن الحراقتان الافلات من المراكب التي تعقبتهما . ثم وصل خسرو باشا العثماني وعلم بما وقع ولم يصادف السفن المصرية فاراد الاقلاع بنفسه للبحث عنها. فثمة موظفو الحكومة المصرية. وأسرعوا لاصلاح سفنه. وتزويد اسطوله بما يلزم من الادوات والذخائر . وارسل خسرو باشا مساعده في أمرة البحر بعشرين سفينة حربية عثمانية ذهب بها حتى سواحل الاناضول . ثم رجع فوجد محمد علي قد عاد الى الاسكندرية وشكر محمد علي لامير البحر خسرو باشا صنعه هذا . وأكرم وفادته وأمر باعطائه كل ما يطلبهُ قائلاً : اني بصفة كوني خادماً لولي نعمتي صاحب الشوكة السلطان المعظم اعلمك يا اخي الباشا انهُ ليس للدولة العلية فقط ان تطلب ذخائر وزاداً او اشياء اخرى مهمة للاسطول العثماني بل يمكنها ان تطلب جميع ما تريد . فاني مستعد للقيام به بحق الدين والملة . وان ذلك عندي من الامور المعتنى بها . واني لا اتأخر عن بذل نفسي في سبيل تقوية شأنها واعلاء كلمتها ورفع قدرها (من تاريخ لطفي افندي المذكور ونقله مرهنك باشا في تاريخه (ج ٢ ص ٢٣٩)

وابلغ خسرو باشا ذلك للباب العالي (الحكومة العثمانية) رسمياً فورد لهُ كتاب الشكر والثناء على محمد علي باشا لخدمته الجليلة التي اداها اولاً وثانياً ولقيامه باصلاح اسطولها وتجهيزه

الجيوش لمساعدتها وامره السلطان بتبليغ ذلك لمحمد علي باشا بالنيابة عنهُ

واعد محمد علي جيشه واسطوله الذي كان يستعد لتلبية نداء السلطان . اما الجيش المصري فكان مؤلفاً من ١٧٠٠٠ جندي مشاة وسبعمائة من الخيالة واربع بطاريات مدفعية ومدافع اخرى للقلاع والجبال وكان الجيش بقيادة ابنهُ الاكبر ابراهيم باشا البطل الشهير . اما الاسطول المصري فكان مكوناً من ٩٩ سفينة منها ٦٣ بين حربية ونقالات و ٣٦ تجارية استؤجرت لنقل العدد والذخائر . وكانت بقيادة امير البحر محرم بك على رواية سرهنك باشا (ج ٢ ص ٢٣٩) وبقيادة امير البحر اسمعيل جبل طارق على ما رواه عبد الرحمن بك الرافعي في تاريخه عصر محمد علي (ص ٢٠٢)

اما مسيو دروفتي قنصل فرنسا الذي رأى الاسطول المصري في الاسكندرية وكتب عنهُ بياناً الى وزير الخارجية الفرنسية في رسالته (وثائق موره الخ نشرتها الجمعية الجغرافية وثيقة رقم ١٤) فيذكر ان الاسطول كان مكوناً من ٥١ سفينة حربية و ١٤٦ سفينة نقل . قال المسيو دريو ان محمد علي اشترى من اوربا كثيراً من السفن حتى اصبحت عمارته البحرية تشبه الارمادا (وهي التي اعدها فيليب الثاني ملك اسبانيا لمحاربة انجلترا في القرن السادس عشر) . ويستمر مسيو دريو في حديثه عنها في كتابهِ (تاريخ اليونان السياسي ج ١ ص ٢٥٧) فقال : ولم ير الشرق حملة تدانيها في ضخامتها منذ حملة بونابرت . فكأن الشرق اراد ان يغزو الغرب جواباً على حملة اوربا عليهِ . وهكذا تتقلب الاطوار في سير التاريخ (نقلاً عن عصر محمد علي للرافعي بك ص ٢٠٣)

***

وابحر الاسطول العثماني الذي كان بالاسكندرية يوم ٣ ربيع الاول سنة ١٢٣٩ هـ (١٠ يولية سنة ١٨٢٤ م .) . ثم ابحر بعده الاسطول المصري . ومرت هذه الاساطيل على رودس ومنها الى خليج (ماكرى) على شاطيء الاناضول لتلتقي بالاسطول التركي العثماني . وقد عهد الى رجاله بمطاردة مراكب الاروام (اليونان) التي كانت في بحر الارخبيل والقضاء على القرصنة فيهِ واخماد ثورة الجزر . وانزل ابراهيم باشا جنوده في خليج (ماكرى) . واستعد للاقلاع بالاسطول المصري حتى يتقابل بالاسطول التركي . وقد عاد من الدردنيل حتى تقابلا في ميناء (بودروم) على شاطيء الاناضول . وكان ذلك في اواخر اغسطس . ومما لامراء فيهِ ان الاسطول المصري كان اتم نظاماً من الاسطول التركي لما لاقاه هذا من مهاجمة الثوار اليونانيين ولاسيا سفن الحراقات التي كانت تقذف بنفسها وسط الاسطول التركي فتحرق منهُ ما تحرق بنارها . ومن ذلك ان الحراقات اليونانية قابلت الاسطول التركي فاحرقت مركب امير البحر وسفينتين اخريين . وتراجع الاسطول التركي جنوباً حتى قابل الاسطول المصري في مياه (بودروم) . وحول اليونان معظم سفنهم التجارية الى سفن مسلحة ولاحاطة مياه البحار ببلادهم وكثرة عدد جزرهم عرفت عنهم المهارة الكبرى في ركوب البحر . ولذا لا تعجب اذا عرفت ان لليونان اليوم بحرية تجارية معدودة بالنسبة الى عددهم وصغر حجم بلادهم

وعلى مقربة من (بودروم) هاجمت السفن اليونانية الاسطولين . وكان قتال بين الفريقين . ففر الاسطول التركي من الميدان وترك للاسطول المصري يصمد امام الاعداء ويضطرهم للتقهقر والفرار. وكان ذلك في سبتمبر سنة ١٨٢٤

ثم عاد الاسطولان فاتصلا مرة ثانية . وسارا الى مياه جزيرة مدللي ثم تابع الاسطول التركي سيره شمالاً الى الدردنيل . ورجع الاسطول المصري جنوباً . فقابلتهُ مراكب اليونان في مياه جزيرة (ساقز) وكانت معركة شديدة غرق فيها مركبان مصريان في اكتوبر سنة ١٩٢٤ . ثم عاد ابرهيم باشا بالاسطول الى ميناء (بدروم)

***

ورأى ابرهيم باشا ان القضاء على الثورة في الاراضي الرومية في شبه جزيرة (موره) . فأقلع الى ميناء (مرمريس) جنوباً . ثم سار منها الى كريت في ديسمبر سنة ١٨٢٤ . ورسا بسفنه في خليج السودة ليتحين الوقت المناسب للسفر الى سواحل مورة . ولننقل هنا ما ذكره مسيو دوين في كتابه (فرقاطات محمد علي الاولى ص ١٢) الذي اشرنا اليهِ اذ يقول :

مضت خمسة اشهر على مغادرة الاسطول المصري الاسكندرية . خمسة اشهر مضت في جهود شاقة ومتاعب كثيرة ومخاطر كل يوم تتجدد . ولقد ابدى ابرهيم باشا في خلال ذلك من الثبات ورباطة الجأش ما يسترعي النظر ، اذ كان يقود اسطولاً مع سفن النقالات . وهي مهمة ليس من السهل الاضطلاع بها . وكان ابرهيم باشا في قيادته اسطولاً مكوناً من مائتي سفينة تقل نحو عشرين الف رجل من جنود وبحارة يضطلع بمهمة كما فعل بونابرت من قبل مع حفظ النسبة بين المرقفين حينما اجتاز البحر المتوسط في اواخر القرن الماضي (يقصد القرن الثامن عشر) بمارة مكونة من ٢٨٠ سفينة تقل ٣٨٫٠٠٠ مقاتل . واذا عرفنا ان مصر لم يكن لها في ذلك الحين اسطول منتظم ولا تقاليد بحرية ولا هيئة من الضباط البحريين الاكفاء ولا العدد الكافي من البحارة المدربين ، وكان على ابراهيم باشا أن يبتكر وينظم بسرعة كل ما يلزم الحملة البحرية من سفن حربية وسفن للنقل ورجال وعتاد وان يروّض نفسه على ركوب البحر والقتال بين امواجه واهواله — اذا تذكرنا كل ذلك فانهُ يحق لنا ان نعجب كيف ان الاسطول الذي حشده محمد علي امكنهُ ان يثبت امام الهجوم الشديد الذي استهدف لهُ واصابهُ من عدوٍّ لهُ حظ كبير من المهارة من دون ان يخسر سوى سفينتين حربيتين وبضع نقالات . ولاشك ان هذه الحقائق تدلنا على مضاء عزيمة ابراهيم باشا وعلو همته وتظهر ما كانت عليهِ نفسه من صفات العظمة ومزايا الرآسة والقيادة . كما ان مواقفه في ميادين القتال ورباطة جأشه في مغالبة المحن تدل على شجاعة كبرى لايسع اي انسان الاَّ ان يبادر بالاعجاب بها . اه

وتنازع زعماء الحكومة الثورية اليونانية فيما بينهم ولم تصرف اعطية بحارة مراكبهم فاضطربوا لذلك . وابوا الاستمرار في القتال وعلم ابراهيم باشا بذلك فانتهز الفرصة واقلع بأسطوله من (خانية) الى ميناء (مودون) في جنوب شبه جزيرة مورة وانزل الجنود الى البر في يناير سنة ١٨٢٥ وقد لاقى الجند التركي ما لاقى من المصاعب لتشديد الثوار عليهم براً وبحراً حتى لم يكن باقياً تحت يد الترك من المواقع سوى مودون التي انزل فيها ابراهيم باشا جنوده وميناء (كورون) التي كان يحاصرها اليونانيون

***

وللمواقع البرية التي حدثت بشبه جزيرة مورة مكانها في كتب التاريخ . ونرى ان يكون كلامنا هنا قاصراً على موقعة نافارين البحريه ونرى ان نشير الى استيلاء المصريين على نافارين نفسها في ١٨ مايو سنة ١٨٢٥ ودخولهم المدينة منتصرين اعظم انتصار مما جعل اليأس يدب في صفوف اليونانيين ووطد مركز الجيش المصري لان نافارين ومودون وكورون قواعد حربية هامة يهيمن بواسطتها الجيش على مورة كلها . وقد حدث اثناء حصار المصريين لنافارين ان اسر المصريون سفينتين يونانيتين وافلتت بقية سفنهم الى بحر الارخبيل ، وتمكن امير البحر اليوناني (ميوليس) من الاقتراب من ميناء (مودون) التي كان الاسطول المصري راسياً بها واستطاعت الحراقات اليونانية من اشعال النار في السفن المصرية الراسية خارج الميناء . واشتدت الريح فامتدت النيران الى بقية السفن فتعذر اطفاؤها ولم ينج بحارتها بأنفسهم الا بمشقة فائقة وحرق كثير من السفن لذلك . وامتدت النيران الى المدينة نفسها فالتهمت جزءاً منها وتناولت مخازن البارود فنسفتها وتهدم بنيانها وهدمت الاماكن المجاورة لها . كل ذلك حدث اثناء حصار نافارين فلم يثن ذلك ابرهيم باشا عن عزمه

واستمر على القتال حتى استولى على المدينة ثم استولى بعدئذ على ميناء (كلاماتا) بعد استبسال مقاتليها . ثم فتح (اركاديا) الواقعة على البحر غربي مورة . ثم فتح مدينة تريبولتسا Tripolitza عاصمة موره في يونية سنة ١٨٢٥ وكانت موقعاً منيعاً للثوار . ثم قهر جمعاً من الثوار في وادي ارجوس Argo وعلى معاقل الثوار بوادي (لكونيا) ثم احتل باتراس . وبذلك اصبح شبه جزيرة موره في قبضة الجيش المصري ماعدا مدينة (نوبلي) . واستنجد رشيد باشا قائد الجيش التركي بابرهيم باشا وكان الاول محاصراً لمدينة ميسولونجي وقد استعصت عليه . فسار اليها بحراً بعد ان وصله الامداد من مصر وحاصرها براً وبحراً . وكانت السفن المصرية بقيادة محرم بك فاحتل الجزر الواقعة في مدخل الميناء وحصنها لمنع ورود المدد بحراً الى ميسولونجي والذي تقدم لمهاجمة الاستحكامات المشيدة على الجزيرة الصغيرة الواقعة امام ميسولونجي هو سر چشمه حسين بك احد

رؤساء البحرية المصرية وبذلك سهل هجوم الجيش على تلك المدينة . ودافع الثوار عنها دفاعاً عنيداً وآثروا الموت على التسليم اخيراً فاشعلوا النيران بما كان عندهم من البارود فانفجر . وقتلوا جميعاً . وكانت خسارة الجيش المصري جسيمة . فقد بلغ عدد قتلاهم في الهجمة الاخيرة نحو الفي قتيل . ولكنهم استولوا على ميسولونجي في ٢٢ ابريل سنة ١٨٢٦ . ثم فتح الجيش التركي بمدئذٍ اثينا بعد حصار شديد فسلمت في يونية سنة ١٨٢٧

وعاد معظم الاسطول المصري الى مصر لاصلاح ما اصاب سفنه من عطب وجاءت السفن التركية لنفس السبب . وضم محمد علي الى ذلك ما كان قد اوصى عليه من سفن حربية جديدة في مرسيليا وليفورن وفينسيا (البندقية) واعدَّ مدداً من الجند مكوناً من عدة آلاف حشدهم في الاسكندرية . فكانت في شهر ابريل سنة ١٨٢٧ قاعدة لحملة كبيرة برية وبحرية واستعدت للاقلاع الى بلاد اليونان للقضاء الاخير على الثوار في جزيرة هيدرا واسبتزيا وميناء نوبلي

واستصرخت جماعات الثورة اليونانية دول اوربا لمناصرة اليونان . وتحرك انصار الثورة من رجال السيف والعلم في روسيا وانجلترا وفرنسا لدعوة الدول للتدخل من ذلك رجال امثال لورد بايرون وفيكتور هوجو وشاتوبريان . وغيرهم . فكانوا يستصرخون الرأي العام في اوربا ويضربون على الوتر الديني الحساس لنجدة اليونان . وقد تطوع لورد بايرون في صفوف الثوار ومات في ميسولونجي سنة ١٨٢٤

وفي ٦ يوليو سنة ١٨٢٧ ابرمت معاهدة لندن بين انجلترا وفرنسا وروسيا للتدخل بين تركيا واليونان على اساس استقلال اليونان الداخلي مع بقاء سيادة تركيا الاسمية عليها . وطلبت الدول وقف القتال بين الفريقين تمهيداً للوساطة بينهما واتفقت الدول فيما بينها على ان يعرض هذا على الباب العالي (حكومة تركيا باستنبول) فاذا لم يقبلها في مدى شهر لجأت تلك الدول الى تنفيذ ما ترى من استقلال اليونان وسلخها عن تركيا بالقوة

واتفقت الدول الثلاث على ارسال اساطيلها الى مياه اليونان لعلم تلك الدول باصرار تركيا على الرفض ولمنع السفن المصرية والعثمانية من الوصول الى شواطىء اليونان وارسال المدد الى الجيش المصري والتركي هناك . فأرسلت انجلترا الى بحر الارخبيل اسطولاً مؤلفاً من ١٢ سفينة حربية بقيادة امير البحر ادوارد كودرنجتون Codriugton . ثم ارسلت فرنسا سبع سفن بقيادة امير البحر كونتر اميرال ريني Riguy . ومن بعدها وصل اسطول روسي من بحر البلطيك متأخراً وكان مكوناً من ثماني سفن بقيادة امير البحر كونتر اميرال هيدن Heiden وانضمت الاساطيل الى بعضها البعض بقيادة امير البحر الانجليزي

« في العدد القادم وصف معركة نافارين البحرية »

«حياة عابر»

بيير لوتي

وصفحة من حياته على شواطىء البوسفور

ليوسف البعيني

قبلَ أنْ ينحدر بيير لوتي ، ذلك الكاتبُ الرقيق والشاعرُ الحسّاس ، إلى ظلمة قبره بأيام ، ويقف شبح الفنّ مكبراً لجبهةَ المثل الأعلى بسكوت يراعهِ وتلاشي أنفاسهِ . . انتشر في أندية باريس الأدبيّة كتابٌ اصفرُ اللون تبطّنتْ سطوره وحواشيه بأهواء هذا الفنّانِ العجيب وبذكريات لياليهِ الماضية

لقد كان بيير لوتي ضنيناً بهتكِ اسرارهِ واباحة تذكارات غرامهِ . وهكذا لم يودّعِ الحياة دون أن يُطلع هؤلاء المتقوّلينَ فيهِ شتّى الأخبار والاكاذيب عن مكنون قلبه ، ذلك القلب الرقيق الموشّح بكلِّ ما في الحياة من نزعات وحبّ وصبابة . . فنشر كتابةُ الأصفرَ اللون وأفعم كلّ كلمة من كلماته بحرارة روحهِ وضباب أحلامه

ولم تكنْ تلك الحرارة سوى عاطفة شجيّة محزنة تغلغلتْ في اعماق القلوب ولم تقوَ على محوها ظلماتُ القبور ونكباتُ الحياة !!

***

كلّما تصفّحتُ هذا الكتاب وتكشّفتْ أسرارهُ الراغية بلذّة الهوى ومعانيه المترعة بنشوة الغرام ، تعتريني رعشةٌ روحية مجهولة فأستغرق في سباتٍ عميق بعيد القرار مستعيداً للفكر احلامَ الماضي المبعثرة في وادي الحياة تبعثر الأوراق الواهية في فصل الخريف

وأروع ما في تلك الصفحات هو ذلك الوصف الساحر الفتّان والوجد الغامر المعصفر بصفرةِ الخيبة واليأسِ والحنين

فالشمسُ وقد آذنتْ بالرحيل فغابتْ وراءَ حُجُبِ الابدية تاركةً على ثغرِ الافق المتورّد قبلةَ الوداع ، كما تترك العابدة المفتونة لهاثَ صدرها على شفتيْ حبيبها

والمساءُ الصامت الحنون يحتضنُ الطبيعة ويسربلها بسكينة ساجية رائعة . .

والليلُ يمرُّ في الحقول والاودية منغّماً على مسامع الاشباح تذكارات الماضي الدفين . .

والنجوم تحدّق بلوعة وحزن وحيرة كأنها مواكبُ المأتم تبكي حولَ نعش الحبيب . .

وجداولُ الحسن والجمال تنساب بين الأودية والصخور موقّعةً على اوتار الدجى بلايا روعها المفجوع وصدرها المكلوم

نعم .. الشمس ، والمساء ، والليل والنجوم والجداول ، وكلُّ ما يلمس الروح بأنامل الشعور والاحساس .. يصفها بيير لوتي في كتابه اللطيف . وأنا عند ما أُصغي الى موسيقى تلك العبارات والسطور التي أبدعتها ريشة الكاتب الفنّان ، يغمرني ضبابٌ سحريٌّ غريب فأبيتُ في مخدعِ العاطفة كما تبيتُ الزهرةُ المقدّسة في ظلالِ الهياكلِ القديمة

***

وأَسْم الكتاب (حياة عابر) فما أَروع هذه اللّفظة وما أشجاها ! !

لقد صرفَ الكاتبُ المبدع اوقاتاً عذاباً مُسكرة في مسارح الشرق وتنسَّم من ربوعه ومروجه نسمةَ حبٍّ مهفّف استقرّت بينَ جوانح روحه . فكانَ كلما تنشّق عبيرهاً وهو في باريس ، تفيضُ على عينيه دمعةً أجيجة محرقة وتُغشي في روعٍ براعهِ اطيافَ الشوقِ والحنين

وإنَّ مَنْ كانَ لهُ ما كانَ للكاتبِ الشعريِّ الملول من صفحات غراميّة رقيقة لا تُمحى آثارُها ولا تتبعثر رسومها على ضفاف البوسفور ، استكثرَ من تذكّرِ الماضي الحبيب الذي مضى ولن يعود . واستزادَ في بكاء تلك الليالي التي مرّتْ في ضوءِ القمر راقصة على رنات المياه عند ما يداعبها نَسيمُ الليل بلثماتهِ ودغدغته

ولستُ أعلم كيفَ كان موقفُ البوسفور عندما عقل الموت ريشة بيير لوتي وعاث بنضرة فؤاده . فهل تألم الخليج الساحر الجميل لموت الصديق المخلص الوفي ، وتململ الماء ملتاعاً ينعى الى الصخور والربى وفاة الكاتب الرسام الذي أَحبّهُ حبّاً لا شكيكة فيهِ ؟ من يدري . لقد تسامرا في الماضي كثيراً . وكانت لهما ساعات شفّها الوجد بشكواه ، ومواقف أضناها الهوى بأنينهِ وبلواه

لم يبق كاتب من عشاق الشرق ومحبّيه إلاّ كتب عن البوسفور واصفاً تلك الزهرة العلوية التي تهيمن على الخليج الجبّار . أما بيير لوتي فقد أبدع وأجاد في ما كتب ووصف ، ثم ترك عنهُ تذكارات عذبة ترويها العاطفة ويغذيها الشعور والاحساس

ولذلك تمنّى وهو يختم انفاسه الاخيرة تحت سماء باريس ويُودع حياته في قبضة الردى ، لو مشى أبناء البوسفور جميعهم وراء نعشهِ . وأوصى أن يفرشوا في تربة قبرهِ زهرة من تلك الازاهير المتأرجة النابتة على ضفاف الخليج الذي كان يشكوا اليهِ امرار فؤاده وخبايا خياله

***

اما الصفحة التي أريد أن استشفها من حياة بيير لوتي على شواطىء البوسفور ولا استطيع لما

يسترقّني من لاعجة وصبابة ، فهي هذه المقاطع الرائقة في حلَل وضاءة من الجمال . وحسبك أن تقرأها فتنخضل عينكَ بالدموع وتبعث في الروح ذكرى الامس الدفين

الصيف جميلٌ في كلِّ مكان لكنّهُ في تركيا اكثر من جميل . هو حلمٌ مجهول ينبعث من صدر الطبيعة فيغمر النفس بالشوق والحنين . . وفي ليلة من تلك الليالي الصافية البيض خرج لوتي يمرح على شواطىء البوسفور وينعم بمرأى الماء يلونهُ القمر بضوئهِ الفضيِّ الخالب . وفيما هو يبثُّ خادمهُ الامين (جميل) شعورَ روحهِ واحساسها لامسته اشباحٌ خفيّة واحلام لذيذة

وظلَّ يتذوق هذه الكأس المسكرة ويمتع عينه بمنظر الامواج يزينها النور بأكاليل الفضة حتى ايقظه جميل قائلاً ان الاميرة النبيلة « د . . . » ترغب في ان يسامرها ويسكب في فمها خمرةَ الحبِّ والحياة . . وما هي الاَّ برهة حتى اقلعَ العاشقان يداعبان الحياة على ضوء القمر

مرَّ زمنٌ والاثنان يأتيان كلَّ مساء الى تلك الاماكن الشعرية الهادئة ويودعان في الخضمّ اسرار قلبيهما . وفي ذات يوم علمَ والد الاميرة بحبها لذلك الفرنسي الانيق فأنذر ابنته بالرحيل عن البوسفور

وهكذا قضت الاقدار العاتية ان يفترق ذانك العاشقان فلا يلتقيان ابداً . وقد آلم هذا الافتراق الكاتب العاطفي ألماً عميقاً وجرحه في صميم قلبه . ثم اشتدَّ عليهِ الغرام فكان يصرف ايامه ولياليه دائماً في تلك الربوع المحتفظة بآثارها والشاهدة على ايامها الماضية

اثرت هذه الحادثة في نفس الخادم جميل فمضى يبحث عن حبيبة سيده الكاتب . وفي ذات يوم عاد حاملاً منها كتاباً جاء فيه ما معناه : ايها الحبيب

لا تغضبْ عليَّ يا « بيير » ولا تنسبْ اليَّ الخيانة . لقد فارقتك مرغمة ، وكان بودي ان ابقى قربك لاقاسمك لذة العيش وخمرة الحياة . . ولكن ما العمل ! بهذا حكمت الاقدار

اني ابكي الآن ايها الحبيب ، وفي دموعي حرارة لاظية تحرق فؤادي وتؤلمه . . اريد ان ابوح لك بغرامي . . وان عاشقة مثلي موطنة تفارق الحياة لاجل حبيبها لتستطيع الاعتراف بغرامها . . لقد احببتك حتى آخر ساعة من حياتي . . ابعث لك بخصلة من شعري لتذكرك بي كلما لج بك التذكار والحنين ! !

ويقص لوتي هذه الرواية بغصة موجعة لا يمحوها الدهر . اما جميل فلم يكن خادماً بسيطاً لا شأن له ، بل كان اديباً ذكياً وافر العلم والتهذيب يدعى جميل بك [١] . وقد ركن الى هذه الحيلة ليقف على عبقرية الكاتب الحساس ويستلهم روحه المغمومة بالاسرار والتذكارات

وبقي امر جميل مكتوماً على بيير لوتي حتى اواخر ايامه . واعتقد ان من اطلعه على خبيئة جميل

---

(١) في مذكرات جبران خليل جبران حديث عن جميل بك . وقد كانا يتبادلان الرسائل . وهذه الرسائل تدل على ان جميل بك هو اديب لبناني متكتم ! (المقتطف : يقول احد اصدقاء جبران ان لا علم له بمذكرات لجبران ولا يظن ان له مذكرات فحبذا الحال لو جلا الكاتب هذا الامر)

بك هو شاعرنا الكبير جبران . وقد عثروا بين اوراق النابغة الفرنسي على كتاب لطيف . اليك بعضه:

«لقد عرفتكَ يا جميل خادماً وفيـاً وصديقاً مخلصاً تركتْ صداقتهُ في حواشي قلبي أثراً شيقاً. لكنكَ أسأتَ إليَّ كثيراً بما خلعتَ على شخصيتكَ من غموض واسرار . وعندما اذكر تلك الاوقات التي كنت آمركَ فيها تتملكني مرارة قاسية مفعمة بالخجل

امّا الاميرة الحبيبة التي عرفتها على شواطىء البوسفور فقد اذبل موتها ازاهير آمالي واحلامي وتراني الآن ابكيها بلوعة وكآبة . ارجوك يا جميل ان تكتب إليَّ وتخبرني هل كان ذلك الخليج يحنُّ إليَّ ويذكر ايامي الماضية ! !

انّ المنيّة ترفرف حولي يا جميل . وعن قريب يجرّدُ الموت أغصانَ احلامي المورقة ويمدّدني في ظلمة الضريح . فهل تبكيني يا جميل وتذكرني بكلمة عذبة رقيقة ؟ من يعلم . . . فالوداع يا صديق الامس . . »

***

فالدمعةُ البليلة التي تسكبها العين في ساعةِ اليأس والحنين . . والقُبلة المريرة الدامية التي يطبعها العاشق على ضريح من يُحبّ . . والسرير الذي يحتفظ بنفحات حبيبة محتها الاقدار من الوجود . . والحسناء الراقصة على انات الرباب في ضوء القمر . فالزفرة التي تطلقها الروح وقد فجعتْ بأعزّ امانيها . . فالأملُ الخائب والرجاء المتلاشي . . والابتسامة الجافّة على شفتين موردتين ! انلمسها كلها في كتابات بيير لوتي واقواله

اما اليوم فيرقد هذا الناسك الشعريُّ العجيب رقدتهُ الاخيرة في مقبرة من مقابر باريس . تكتنفهُ الاسرار بعد مماته كما اكتنفتهُ السآمة في حياتهِ . فهل تأسو الطبيعة جراح وحدته

فيكفنهُ المساء بردائه

ويفرحهُ النسيم عند ما يهبُّ في الصباح

وتنعشه الزنابق عند ما يفوح عطرها

وتساهره اطياف الليل بعد ان يعانق الكرى ابناء الحياة

وينبت الله في قلبهِ زهرةَ التعزية قبل مجيء الربيع وحلول ليالي الافراح ؟ من يدري . .

ان الشرق المتحفـز الآن لتلمّس المثل الاعلى في القلب والروح ، لفي حاجة عميقة الى أن يقرأ هذا الكاتب ويتفهـم اسراره وحواشيه . وهذه القافلة الادبية السائرة الى الموت بخطى متناسقة خليقٌ بها ان تطلب الحياة في كتب بيير لوتي ورواياته التي وهبها بحبّ الشرف وغذاها بجماله

البرازيل — يوسف البعيني

الإغراق في الثورات

مقابلات في فلسفة التاريخ والاجتماع

لسليم خياطة

عندما نقول « الثورات » يجب ان لا نقصد الفترة القصيرة التي احتدمت فيها معاركها الفاصلة، بل حقبة النضال الطويلة التي تقدمت تلك المعارك أو الحقبة الطويلة التي عقبتها وقبض فيها الثائرون على الحكم وحققوا افكارهم. كذلك يجب ان لا نحصر انفسنا في تلك الفكرة المبتذلة التي تسيء فهم الثورة ولا ترى فيها الا أنهاراً من الدماء المسفوكة وصوراً مروِّعة من الهيجان والفوضى وطوفان الكراهيات المدمرة، بدلاً من ان تتجلى لها فيها الانقلابات الاجتماعية العميقة، ومشاهد الصرح التاريخي الذي يتدرج عليه الانسان نحو تحقيق خيره وخير ابنائه، او التعبير عن مطالب جماهير بشرية معذبة قد تتحقق لها تلك المطالب في ثوراتها وقد لا تتحقق، وقد تتقدم بها نهائيًّا او تتوقف او تتأخر لوقت فحسب. غير اننا أيضاً يجب ان لا تفوتنا ملاحظة خاصّةٍ رافقت معظم الثورات، وهي خاصّة الاغراق. فان كل الثورات أغرقت في بعض ما قامت ضده. تعدَّت حدود النقمة على ما في عدوّها من شرور الى الوقوع في شرور تقابلها، والاصابة بالعمى او التعامي عن ما قد يكون في تلك العدوة من خير، مبتعدة في الجملة عن هذه الفلسفة اليونانية الرصينة، العاقلة التي كانت تعبر عنها لفظة « الاعتدال ». اقول كلها — مستثنياً فقط ثورة العمال والفلاحين في بلاد الروس. والآن خذ على هذا الكلام بعض الأمثلة:

تطرفت الحركة المسيحية في كره وثنيات العالم الروماني ورذائلها التَّرَفيَّة (من تَرَف) حتى مال بها تطرفها الى الناحية المقابلة. ولنسق كشاهد على هذا الادعاء مظهراً واحداً مما انطبعت به تلك الحركة، هو المظهر المختص بالعلاقة بين الرجل والمرأة. فقد كان حبل الطلاق والانفصال بينهما رخواً جدًّا عند الرومان، وجاءت المسيحية فانقلبت على هذه الرخاوة انقلاباً « طبويًّا »[1] مغرقاً، حتى جعلت الطلاق مستحيلاً او شبه مستحيل. كانت العلاقة بين الرجل والمرأة على انحلال عرفي وقانوني في « الأخلاقية » الوثنية[2]، فصارت على جمود وانحباس ديني مضنٍ في الأخلاق المسيحية.

---

(١) من « طبو » المقابلة لـ Taboo، وتعني « المقدس » او « المحرم » من الاشياء عند الهمج، وآثارها عند المتمدنين (٢) يستثنى من هذا علاقة الامة بسيدها والعبد بسيده، اذ انهما كانا مرتبطين بمولاهما ارتباط عبودية مطلقة، حتى اذا كانا يستعملان للاستيلاد او الالتذاذ الجنسي ولم يكن بوسعهما ان يمتنعا عملياً عن ذلك بطريق الانفصال لعدم الاعتراف بقدرتهما عليه

كان الشكل الوثني لهذه العلاقة رذيلةً وشرًّا ، بمعنى أنها مضرة ، فصارت الى ما يماثل هذا في شكلها الجديد في العهد المسيحي

ان الدفّة التي ساقت سفينة العلاقة الزوجية في الحالين معاً كانت دفة نظام الفردية والملكية الخاصة المطلقة في صورتها القديمة . وإذ قامت كل الثورات الناجحة في الماضي بدوافع مطامع الملكية الفردية (١) واخلاقها وغاياتها ، فقد ارتكبت كلها تطرفاً أهوج ينتج عن اعتبار حرية التنافس والتحارب من اجل استعلاء الفرد على الفرد واستغلاله ، ومن ثمّ طبقة الافراد المستعلين على طبقة المستضعفين واستغلالهم استغلالاً قانونيًّا ومقبولاً وطبيعيًّا . ذلك لان اعتبار هذا الاستبداد حلالاً لشيء دائماً يقترن في النفس بنزعات التطرف والاغراق في امداد الانانية بمطامعها ، في تحقيق هذه المطامع بكل وسيلة . وهذه الانانية الفردية ، الإباحية المطامع ، كانت تجعل الرجل مالكاً للمرأة عند الرومان يرميها عندما يحلو له ، الاّ اذا كانت غنية وذات اسرة قوية تشد ازرها فترميه وتتذلك ساعة يحلو لها هي . ثم ان نفس هذه الفردية الاباحية في الملكية المطلقة للقوي او للغني عادت عند المسيحيين فقيدت المرأة بالرجل تقييداً لا انفصام له

خذ مثلاً آخر :

كان تراخي العلاقة بين المرأة والرجل قبل الثورة الفرنسية من مميزات النبلاء الاقطاعيين ، الحائمين حول البلاط كالفراشات الزاهية ، حتى ان شاعرهم « لافونتين » كان يتهكم في اشعاره « اقاصيص واخبار (٢) » على « البون بورجوى » (اي البورجوازي الطيب) لتماسك اخلاقه الجنسية . كان هؤلاء النبلاء على هذه الحالة رغم القيود المسيحية التي صارت في بيئتهم الى وجود شكلي . ولكن بعد ان نشبت الثورة الفرنسية الكبرى ، وكانت نتيجتها ان فازت البورجوازية واستقرت (وهي طبقة من الاقلية استخدمت جماهير الشعب وطبعته بنزعتها الخلقية ، متوسلة به دائماً الى جعل نفسها اقطاعية جديدة مؤسسة على رؤوس الامو ال بدل الارض ، افلتت من قيود الزوجية المسيحية التي كانت تترابط بها نوعاً ما قبل الثورة ، وراحت تتخلّق برخاوة النبالة الاقطاعية ، ممعنة مغرقة في هذا التخلق ، متخلصة بعنف وسرعة وهوس من قيودها السابقة ، مرخية الحبل لاهوائها وغرائزها ارخاء كاد يكون جنونيًّا احياناً . كانت كأنما تنتقم بذلك مما كانت تجد في الاقطاعية ، وفي اخلاقها المسيحية الخاصة سابقاً ، من ضغط وكبح جماح فرديتها و « حق » تملكها وتحقيق مطامعها . وهكذا نجد عداوة القائمين بالثورة لسالفيهم قد حدت بهم الى الاغراق في التشبه بهم كما حدت بالمسيحية الاولى الى الاغراق في الابتعاد عمن سلفهم وهكذا ايضاً نجد نزعة الاغراق هذه من مميزات الثورات القديمة الناجحة التي كانت تدعو اليها

(١) يقول ماركس وانجلز في بيانهما (عام ١٨٤٨) : « كل الحركات التاريخية السابقة كانت حركات الاقليات ، او لمصلحة الاقليات » . (ص ٢٠ — طبعة « مارتن لورانس » — لندن)

(٢) الخبر لغة في الرواية ، ولذا ترجمنا اسم أشعار "Contes et nouvelles" كما ذكره

مصالح الطبقات الطالبة السيطرة ، وان هذه الثورات تشابهت ضمن نطاق نظام متشابه في صوره المتنقلة ، لما يقوم عليه من اسس ومبادىء اباحة التنافس الفردي والتملك الخاص ، من ارخاء العنان بالتالي للمطامع والشهوات في ميدان حرّ ربّهُ القوي او الغني

غير اننا اذ ندرس ثورة العمال والفلاحين ، التي تختلف بصراحة عن جميع الثورات القديمة الناجحة اختلافاً جوهريًا من حيث انها لم تقم بدافع من دوافع طلب السلطة على اساس التنافس الفردي ، أو دوافع نقمة مظلومين حائرين متمردين فحسب (كحالة الثورة السبارتاكوسية ضد اسياد روما او حرب الفلاحين في مفتتح عهد الاصلاح اللوثري في المانيا) ، بل اشتملت من اجل محو كل سلطة استبداد وتملك واحتكار فردي او طبقي — نعم ، اذ ندرس هذه الثورة بدقة وحياد علمي نجد ان ذلك الميل الى الاغراق في الهوى الاباحي الفردي لم يكن ليظهر الاَّ بصور عرضية ، وقتية زائلة ، لم تكن الاَّ من بقايا النزعة الخلقية في العهد القديم . وما ذلك الاَّ لانها كانت ثورة ترمي الى عقل المطامع الفردية — الاَّ لان هذه المطامع وثوراتها وحركاتها ونظمها هي التي تنساق معها انسياقاً دائماً غير وقتي وغير عارض ، كلَّ المظاهر الهوج والانحرافات المتطرفة والفيضانات الطغيانية المشوهة سواء كانت عقلية او مصلحية او عصبية او فنية او اخلاقية او حتى — علمية ! هذا الذي «كان» يدّعي البورجوازيون انهم يضعونه على الحياد قبل ان تجيء الفاشستية وتعلن الحقيقة !

***

لقد كان من جملة خواص ثورة العمال والفلاحين في بلاد قياصرة الروس انها لم تعمد الى الهجوم الحربي الايجابي والتعلق بالفتك الدموي . بل بادرتها بهما البورجوازية والاقطاعية الروسية والعالمية المتحدتان . انها لم تتطرف ، كحال الثورات السابقة ، في نبذ كل ما كان في النظام العتيق ، بل عملت على الاحتفاظ بخيره ونبذ شره ، متحذرة من الوقوع في الرذيلة الاجتماعية المضرة بدافع الكراهية او البغض الاعمى . انها لم تنتقم من اعدائها باصطناع نزعتها الخلقية ، كما فعل بورجوازيو الثورة الفرنسية او الابتعاد عنهم الى الطرف الآخر الثاني . بل تمسكت بوسط معقول

ولما كنا اخذنا العلاقة بين الرجل والمرأة مثلاً نتكلم عنه في الثورتين المسيحية والفرنسية ، فلنتكلم عنها الآن بصدد هذه الثورة الثالثة . فان العلاقة بينهما لم تتخذ في هذه ، بعد تسلُّم العمال والفلاحين السلطة ، لا صفة الانحلال الاقطاعي البورجوازي ولا صفة الارتباط « الطبوي » المسيحي الشديد . فلما قام بعض الشبان المتحمسين ، الذين كانوا لا يزالون متأثرين بشيء من النزعة العقلية في النظام الراحل ، بمظاهرات يدعون فيها الى خلع كل حائل يقوم في سبيل الاجتماع المطلق بين الجنسين ، وراحوا يزينون صدورهم بأشرطة كتبوا عليها عبارات مثل : « ليسقط الحياء » ، هبَّ لينين ورفاقه الى عقل هذه الموجة الهستيرية والى تنبيه اولئك الشبان الى خطأهم العظيم ، وتبيان الشرور الكامنة في الاغراق في الاهتمام بالاجتماع الجنسي

وان هذا ككل شيء آخر يجب ان يتبع نظاماً مفيداً ، نظيفاً ، جميلاً ، يجمع بين مطالب الثقافة وحاجات الحياة . وحاضر لنين وقتئذٍ محاضرات قوية بديعة في الموضوع ، وحدّث شيخة الثورة ، الرفيقة الالمانية « كلارا زتكين » حديثاً طويلاً جاء فيه ما معناه : « اي انسان عاقل لا يأنف من الشرب من كأس شرب منها اناس قبله »

ثم لما ظهرت في تلك الثورة ، من الناحية الاخرى ، دعوة الى نوع من الزهد « الرهبانية » المنحرف تقول بعدم وجوب وجود « الكومفور »[1] في حياة النظام الجديد ، أجاب ستالين على اولئك بالنيابة عن الحزب الشيوعي الدعاة في المؤتمر السابع عشر للحزب المذكور . بتسخيف نظرتهم هذه ، وبإفهامهم ان العمال والفلاحين وعلماءهم ينتجون بالاشتراك اكبر قدر ممكن من المستهلكات ووسائل الراحة ليوجدوا للانسانية مادة التمتع بما تنتج . وهكذا نرى التعقل الرصين الذي اخذت به ثورة العمال والفلاحين ، التي لا تميل مع مطامع فردٍ او طبقة من الافراد القليلين ، او تنطبع بطابع نظامهم الذي تسود فيه العقلية التي تقبل إشباع الشهوات والمطالب الاستبدادية المرخي لها العنان كشيء ، ليس فيه إدٌّ عظيم أوكثير ما يقال . بل تميل الى إراحة المجموع الاكبر ، ومن بعده المجموع كله ، وتنظيم علاقاته بعضه ببعض تنظيماً معتدلاً ، فضيلاً ، صحيّاً ، ونظيفاً

***

ومما يحضرني الآن من المقابلات مقابلة خطرت لي بين موقف كلٍّ من ثورة تركيا الوطنية والثورة الشيوعية الاجتماعية من اللغة . فان تركيا ، التي ما زال طابع البورجوازية على ثورتها الناهضة قوي الدمغة ، قد إنحرفت في مجال اصلاح لغتها الى ناحيةٍ في تفقيرها . الثورة التركية الوطنية على حقٍّ من الناحية القومية الوطنية في محاولتها قطع كل دابر للتأثير السيء الذي كان لهُ ان يفيض من بقايا الحياة العثمانية ، ومن استطراد العلاقات السابقة مع سائر اجزاء الدولة العثمانية . غير انها ، كما يبدو لي اغرقت في ذلك حيث مالت الى التخلص من الكلمات الفارسية والعربية التركية . فلَخيرٌ للغة ان يكون الاهتمام في ابداع كلمات جديدة وفي استعارتها من لغات حية ، اكبر مما يكون في إضاعة الوقت في العمل على قتل الكلمات التي تموت من نفسها اذا لم تعد مفيدةً أو ملائمة للحياة التركية الجديدة ، وتبقى حية اذا كانت تفيد او تلائم . ان الثورة ابدعت واستعارت ، ولكن كان عليها ان تبدع وتستعير دون ان تتحمس في القتل . ذلك لانهُ كلما كان في اللغة الفاظ حية مستعملة (ولا يكون التعمد في احياء الميت منها مفيداً ، كما تفعل الجماعات اللغوية في الغالب) مهما كان مصدرها ، أثرت اللغة وآلانت من نفارها وأسلست من قيادها وساعدت العلم والادب والفن والثقافة على الارتقاء ،

(١) اي التمتع بأسباب الراحة والطمأنينة الجسدية ، التي تهيؤها الوسائل والمخترعات والاتجاهات المتوافرة في الحضارة الصناعية والزراعية العظيمة في العصر الحديث

وسهلت العمل على أصحابها . ليس كل ما في الماضي مما يحسن بنا او مما نستطيع قذفه في سلة المهملات ، وليس كذلك ، كل ما فيه مما يحسن او يستطاع عدم قذفه في هذه السلة المباركة !

***

اللغة وآدابها اذن ما ننتزعه من الماضي لفائدة الحاضر ورفاهه . وكيفما كانت هذه اللغة ، فانها تبقى تراثاً موهوباً يحسن بنا ان يُترك تحسينه وتجميله من جهة تنقية ما لا يصلح استعماله فيها للتطور الاجتماعي ، الذي يغني عن جهود الدكتاتورية في ذلك ، بل ان قيام النظام الجديد يحتم وقوع هذا التطوُّر

وهذا خيرٌ من ان نعمد الى التقطيع والتشذيب تشذيباً او تقطيعاً اصطناعيًّا يفقر ذلك التراث اكثر مما يغنيه . ثم ان اللغة هي الشيء الذي يجب علينا ان نوسع فيه ما نستطيع ، مجال تنازع البقاء وبقاء الأنسب . لندخل الى اللغة كل ما يمكننا من الالفاظ ، حتى ما لا يلزم او ما لا يبدو لازماً ، ثم لنترك المجتمع ونظامه وحاجته تنتقي منها ما يلزمها . وكلما رقّينا المجتمع ورفهناهُ وحررناه ترقت اللغة وتقدّمت وتحررت من تلقاء ذاتها ، لانها أداة المجتمع في ارتقائه وتابعٌ يمشي معهُ

وما الضرر في ان يكون لكل معنىً مترادفات عدة ، واحدة من جذر عربي ، واخرى من اصل فرنسي ، وثالثة من سلالة طورانية ، مثلاً ؟ ان ذلك يعمق تربة اللغة ويسمّدها ، يسهل استعمالها على الشاعر والعالم والكاتب ، وعلى الشعب بأجمعه ايضاً . اما اللفظة الجافة ، غير الصالحة ، فتموت من نفسها . وما اكثر ما في العالم اليوم من اكاديميات ومجامع لغوية قد تكون اقل تماوتاً من جماعاتنا اللغوية ، ولكنها مع ذلك تحاول الوقوف احجار عثرة بحصر الالفاظ في مصدر واحد هو المصدر القديم «العرقي» او العنصري الصبغة (لاتيني ، عربي ، ايراني ، طوراني ، فرنسي ، الماني ، انكليزي ..) دون تطور اللغات و « تعرُّبها » من المصدر العامي الذي هو اغزر ينابيعها والخالق الاول لالفاظها ومن مصدر اللغات الاجنبية الذي تستفيد جميع اللغات فيه بعضها من بعض كانما هناك تعاون بينها على التقريب بين البشر ، او تعاون بين البشر على التقريب بينها ؟ لكن هل جمود هذه المجامع واختصاصها في التحجير والاصطناع المتكلس يحول دون تطور تلك اللغات تطورها الطبيعي الاجتماعي ؟ كلاَّ ! وهذا اقرب برهان على ما اقول تجده في اخفاق مجامع لغتنا العربية بوجهٍ عام ، كأن همها نشر الجهل وصد الشعب عن سبيل التعلم ، كأنها موكلة بقطع اقنية الاغتذاء عن لغتنا المحبوبة وفصم علائقها بالحياة . ان احداً لا يلتفت الى محاولات هذه المجامع التفاتاً جديًّا ، والالفاظ الثقيلة التي تخترعها لا يستعملها سوى نفر من اعضائها ولا يقرأها سواهم . اما في بقية العالم ، فمثل هذه المجامع موضوع للتفكهة عند المفكرين ، وموضوع « مرنخي » عند الشعب اذ لا يكاد يدري بوجودها

والآن ، وهذا هو امر اللغة ، نرى ان الثورة التركية الوطنية قد انحرفت ، وهي في سبيل القيام باصلاحاتها العظيمة ، عن جادة الصواب في شأن لغتها بمحاولة احياء الرميم واقصاء الحي . ولقد انحرفت في ذلك باغراق ينتج ضرراً للغة التركية . ولكن ما الباعث على هذا ؟ الباعث هو ان الثورة التركية كانت حتى وقت بورجوازية ، قائمة على اساس فتح السبيل للتملك الشخصي واباحة الميدان لنمو الثروة الفردية ، لنمو التجار وأصحاب الصناعات الناشئة ومن اليهم . ذلك انه لما كانت البورجوازية التركية قد وجدت نفسها في حالة حرب مع بورجوازيات اجنبية ضخمة تحاول سلبها ذلك السبيل والميدان ، فقد عمدت الى استخدام كل وسيلة لتأمين مصالحها الخاصة . ومن هذه السبل ، عدا الاصلاحات الانشائية الواسعة ، المفيدة للبلاد عموماً ولها خصوصاً ، كان ذلك « الاصلاح » اللغوي الذي لم يكن في الحقيقة اصلاحاً بل « وسيلة » . وسيلة لاثارة روح الوطنية في الشعب ضدّ الاجنبي الخطر المضر ، المعادي لنهضة الاتراك . والروح الوطنية حقة وفضيلة كانت كحالتها في تركيا او الحبشة مثلاً ، او ظالمة ورذيلة كانت كحالتها في المانيا وايطاليا مثلاً ، هي التي تعتمد عليها كل بورجوازية كأساس وقوة لتحقيق مطالبها او مطامعها

***

وقد يكون (وغالب الامر كذلك) أن مصلحة الطبقات العاملة في تركيا كانت في ان لا تعارض بورجوازيتها في غلوائها طالما انها لا تزال وطنية دفاعية مناهضة للاستعمار ، فتتقي هذه الطبقات بذلك غائلة البورجوازيات الاستعمارية التي ترمي الى التسلط على جميع الاتراك بالسواء . كذلك قد تكون في جانبها فائدة موقتة ، هي نتيجة لحالة سيادة النظام الاستعماري في معظم العالم (وهي سيادة تسير نحو الاندثار بسرعة لخروج الاستعمار عن مصلحة الجمعية عموماً وعدم استطاعته تأمين حق البقاء لها ، الامر الذي يعاكس ارادة الجمعية واعمق غرائزها ومقاصدها) ، فلا تأسف كثيراً لتطرف بورجوازيتها الفتية في قطع كل صلة بانظار اخرى لا تزال محنية الهام لاناس يحكمونها بالحراب واسم الاديان والتمدين

لكن عندما تقوم الطبقات العاملة في تركيا بثورتها الصافية ، الخالصة من كل ضرورة قاهرة تفرضها عليها طبيعة التحارب في النظام الذي لا يزال صاحب الصبغة الظاهرة في اغلب المجتمع — انها عندذاك تُعامِل لغتها بغير ما تُعامَل به اليوم من الاغراق في جزّها . انها عندئذٍ تسير السير المعقول ، المتئد المفيد الذي حتّم على ثورات الطبقات العاملة ان تمشي على صراطه بطبيعتها الانتاجية ، المناقضة لكل تخريب وغلوٍ في اهواء المصلحية الفردية

هنا نصل الى قمة المقارنة التي قصدناها ، لان هذا الصراط المستقيم عينه هو الذي سبقت الطبقات العاملة الروسية شقيقتها التركية الى السير عليه ، هو الدرب والخط الذي ابانه زعيمها ولسان

حالما ، لنين ، بوضوح ودقة ، في تعاليمه . ذلك ان فريقاً من الناشئة اغرق أيام الثورة الاولى في محاولة تجديد اللغة كما كان اغرق زملاؤهم الآخرون في مسألة علاقات الجنسين . لقد كان هؤلاء الشباب لا يزالون تحت تأثير شيات تتلاشى من عقلية التطوّح البورجوازي ، تلك النزعة العقلية التي تميل الى المغامرة والمغالاة في كل شيء من دون تدقيق الحساب تدقيقاً جامداً سلبياً لغير المصالح الفردية والطبقية الضيقة التي تملك قيادتها . لذا كانت هذه الناشئة يومذاك تتحمس في تمردها على القديم حتى حدود نكران كل شيء فيه ، حتى الحد المضر غير المعقول في نكران لغتها ، في الاستسلام الى النقمة العمياء على طائفة كبيرة من الفاظها واساليب تعبيرها وامثالها وقواعدها ، وبالايجاز : من كل هذه الذخيرة اللغوية العريقة ، التي يخلقها تطور عصور طويلة دع عنك اجيالاً متراكمة من الاختبارات والتحسينات وتكوّن النفسية والعقلية الشعبية ، التي خلقتها وهذبتها جمعية انسانية بأسرها والتي صفّاها تاريخ كامل لشعب كامل في غرباله المظيم

***

فلما رأى لنين هذه الميول الفوضوية ، المؤذية والسابقة لوقتها ، راح يخصص وقتاً ، وهو غارق مع رفاقه في بحر مُصطخبٍ من مهامّ الدولة الجديدة ومشكلاتها لدرس المسألة ودحض حجج ذلك التهور الذي وقع فيه الشباب الفائزون . وانني كثيراً ما اتذكر قول هذا الرجل في كتابه « الدولة والثورة » :

« لكن الحياة ترينا في كل خطوة من خطواتها ، في حيّز الطبيعة وحيّز المجتمع معاً ، أن آثاراً من الماضي تبقى في الحاضر . لذلك لم يكن ماركس متحكماً لما أدخل شيئاً من « الحقوق البورجوازية » في الشيوعية . بل انه لم يفعل سوى تقرير ما كان محتم الوقوع اقتصاديًّا وسياسيًّا في مجتمع يخرج من رحم الرأسمالية »

***

وهكذا نجد الاغراق منحصراً في الثورات التي تحركها دوافع المطامع الفردية ، مطامع طبقات الأقليات . ومن هذه النتائج المديدة واحدة يجدر عدم المرور بها مرّ الكرام . ان هذه الثورات هي التي خلقت في الدرجة الاولى تلك الفكرة المبتذلة الشوهاء ، التي لا ترى في الثورة إلاّ انهار دماء ، التي تحب ان لا تخلو من الدماء . ذلك لان جميع الثورات الناجحات والسابقات لثورة الطبقات العاملة غالَيْنَ في التقتيل والتدمير

لقد كانت البورجوازية الفرنسية في ثورتها الكبرى كثيراً ما لا تدري لماذا تقتل وكثيراً ما كان منظر المقصلة تحزّ الاعناق يلذها ويشعرها بالطمأنينة . ولم تقف عن استعمالها الاّ لما رأت بأنها اخذت تتقاذف رؤوس بعضها البعض

ألفاظ الآلات الزراعية

للامير مصطفى الشهابي

هذه جملة من الالفاظ العربية لأهم الآلات الحديثة المستعملة في الفلاحة اعرضها على ارباب الزراعة وعلى اساتذة المدارس الزراعية لعلهم يقتبسون منها ما فيه فائدة لهم ريثما يأتيهم المجمع اللغوي ومجلته بأصلح منها!

﴿ آلات تهيئة التراب ﴾ — أهم الآلات الزراعية المحراث . والمحراث الحديث اي الأوربي يتركب مما يلي : اولاً — أداة أصلية تحمل سائر الأدوات تسمى Age وبالعربية السِلْب والنِصاب والوَيْج . ثانياً — أداة تشق الأرض عمودياً وهي السكين Coutre. ثالثاً — أداة تفصل كتلة التراب أفقياً وتسمى المِقْطَع Soc . رابعاً — اداة تقلب كتلة التراب المفصولة اسمها المِقْلَب Versoir . خامساً — أداة يرتكز المحراث عليها فتزحف به فهي اذن المِزْحف Sep . ويكون للمزحف عقب يسمى عقب المزحف Talon du sep . سادساً — أداة يعين بها عمق الحرث وعرضهُ وهي الميزان Régulateur سابعاً — اداة يقبض الحرّاث عليها لتسيير محراثه وهي المِقْوم والمِقْبض والدَسْتَق Mancheron

والمحاريث الحديثة انواع يسهل ايجاد الفاظ عربية لها بترجمة الالفاظ الاعجمية كالمحراث العادي وذي العجلة وذي العجلتين وذي المقطعين وكثير المقاطع Polysoc وذي الصفائح او الأقراص ch. à disques ومحراث الكروم والمحراث المتقلّب ch. tourne-oreille ومحراث النَقْب او محراث الخَرْق ch. défonceuse ومحراث الجَثّ ch. déboiseuse ومحراث الجداول او محراث الفُلْجان ch. rigoleuse الخ

ومن الأدوات اليدوية للحرث الأداة المعروفة التي تسمى المَرّ Bêche وهو محراث صغار الأكارين والبستانيين . ويكون على اشكال منها العادي والشوكي والمثلث . ومن الأدوات التي تنفذ في الأرض بالضرب المِعول Houe . واستعرنا له ايضاً لفظة المِنكاش لأن الفلاحين في الشام وفي لبنان خاصةً يسمونهُ «المنكوش» . وبعد ان تحرث الأرض تمشط بآلة تسمى المشط Herse . والغاية من التمشيط تسوية سطح التراب وتجزئة الكتل الكبيرة منهُ وقلع بعض النباتات المضرة وغير ذلك. والمشط اشكال منها المشط الزاحف H. trainante والدائر H. rotative ومفتت المدر H. émotteuse والمفصلي H. articulée والمرن H. souple والكنديّ (نسبة الى كندا) وذو الصفائح H. à disques

ويستعملون في الأرض الصلبة المندمجة بدلاً من المشط آلة تسمى Scarificateur و Cultivateur وهي المِسْلَفة والكاربة والمِسْحَفة تحرث بها الأرض حرثاً سطحياً فتتبعثر ذرات التراب وتسوى ولا تقلب . ويكثر الأوربيون من استعمال المِمْلَسة او المَلاّسة Rouleau وهي اسطوانة تضغط التراب وتجمع ذراته وتسوي سطحه وتجزيء المدر وتغطي البزور الدقاق وتقتل بعض الحشرات . وهي على أشكال المملسة الراصّة R. plombeur ومفتّتة المَدَر R. brise-motte والمخطّطة R. marqueur والمتماوجة R. ondulé الخ

وبعد ان تزرع الأرض يداوم حرث سطحها وتسوية ترابها وتهويته وقتل الأعشاب المضرة وبعثرة ذرات التراب لمنع انطلاق ماء الأرض بخاراً . فالعمل الذي يضمن هذه الغايات يسمى العزق والأداة التي تستعمل فيه هي المِعزق Bineuse . وللمعازق اشكال منها اليدوية ومنها التي تجرها الدواب

﴿ الآلات السائرة ﴾ — قلما يبذر الاوربيون البذار نثراً باليد ولا سيما في الأرض المتسعة ، بل يبذرونها بواسطة المبذر Semoir وهو يوزّع الحبوب على خطوط منتظمة ويطمرها في اعماق متساوية . ومتى استحصد الزرع يحصدونهُ إما بالمِنجل Faucille واما بالمِقضب او الحاصدة (السيف) Faux واما بالمِحصد وهو آلة الحصاد Moissonneuse . والمحصد الجامع M. javeleuse هو الذي يجمع الحصائد كُدَراً او غُبُوطاً javelles ولا يربطها . اما المِحصد الرابط M. lieuse فهو يربطها . والآلة التي يُحش بها الكلأ في المروج تسمى المِحَشّ Faucheuse . ومتى حصد الزرع يبقى كثير من السنابل مبعثراً على الأرض وهو اللُقاط واللُقاط فيجمع بالمِلَمّ Rateau . وتنقل الحصائد الى البيدر او الجَرين فتدرس بالنورج المعروف أو بالمِدْرس Batteuse يدار بمحرك أو بساحب Tracteur . ومن المعروف ان الساحب او الجارّ (او المِسْحَب او المِجَرّ) يستعمل ايضاً في الحرث وفي اعمال اخرى . ومتى فصل الحب عن القش وجب غربلة الحبوب لتنقى . ويستعملون لهذه الغاية غرابيل مختلفة منها الغربال الهوائي Tarare وغربال الاصطفاء او المصطفية Trieur

ويفصل حب الذرة او القطن بالمِنْزع او المِنْفَض Egréneuse . ولتفريق هذه الآلات بعضها عن بعض تضاف الى النبات الذي تنفض بزوره فيقال مِنزع الذرة ومنزع القطن الخ . والمحالج معروفة

ويستعمل الأوربيّون خاصة آلة تسمى مِهشَماً او مِقطعاً تضاف الى ما تهشمه مثل مهشم الكلأ Hache-fourrage ومهشم البقل Hache-légume ومهشم القش Hache-paille ومهشم الذرة Hache-maïs وهي كلها تستعمل في تهيئة علف الخيل والأنعام . وكذا الجاروشة او المِجرش او المِرْضَخَة او المِرضاخ Concasseur والمِسْحَق Broyeur

﴿ آلات صناعة الألبان ﴾ يفرزون القشدة عن اللبن بآلة تدعى Ecrémeuse وبالعربية المِفْرَزة او الفَرّازة وأهم أجزائها الطَسّ Bol وأقداحه . ثم تؤخذ القشدة او الكثأة فتفرز الزبدة عن المخيض بآلة تسمى Baratte أي المِمْخَض والمِمخضة . وبعد ذلك تجرد الزبدة عما يكون عالقاً بها من سكر اللبن والأملاح والجبنين بأداة اسمها المِعجن Malaxeur . ومتى تمّ ذلك توضع الزبدة في القوالب المعروفة وتباع . ويستعملون في المحالب اي دور الحلابة المبرّدات Réfrigérants ومقاييس كثيرة لفحص اللبن مثل مقياس نظافة اللبن Lacto-sédimentateur ومقياس الحموضة Acidimètre ومقياس تخمر اللبن Lacto-fermentateur ومقياس كثافة اللبن Lacto-densimètre ومقياس القشدة Crémomètre ومقياس اللبن Pèse-lait ومقياس السمن Butyromètre . ولعلي اعود الى هذا البحث في مقال ثان فأذكر اسماء الآلات المستعملة في الأسقاء وبعض الصناعات الزراعية وغيرها

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الدمياطي

[اجتمع لي طائفة من اسماء المفردات النباتية وحررت ما يقابلها في بعض اللغات الاجنبية لترتيبها في معجم والآن عن لي أن أنشرها تباعاً في مجلة المقتطف الغراء في بيان موجز أذكر فيه المفرد ووصفه وموطنه واستعماله مشيراً الى بعض فوائده في الزراعة أو الصناعة أو التغذية أو الطب عسى أن يكون في ذلك بعض الفائدة — الدمياطي]

— ٦ —

خيار الشَّنْبَر

يطلق على شجر وثمر اما الشجر فتكون الواحدة منهُ كبيرة متوسطة الحجم تكاد تكون ملساء ذات منظر جميل ترتفع من ٢٠ — ٤٠ قدماً وذات اوراق ريشية كبيرة مركبة متبادلة على الاغصان طول الواحدة منها من ٣٠ — ٤٥ سنتيمتراً في كل ورقة من ٤ ازواج الى ٨ من الوريقات المتقابلة البيضية او البيضية المستطيلة الحادة القمة التي يتراوح طولها بين ٥ — ١٢ سنتيمتراً . أزهارها صفر فاقعة جميلة ذكية الرائحة في عناقيد كبيرة معلقة في آباط الاوراق العليا يتراوح طول العنقود بين قدم وقدمين . اما الثمار وهي التي يطلق عليها ايضاً (خِيَار شَنْبَر) فقرون خرنوبية الشكل لا تنفتح ملساء اسطوانية كل قرن منها مجزأ الى حواجز بينها مساكن البذور التي تكون كثيرة ووحيدة (اي منفصلة الواحدة عن الأخرى) في لب طري لزج اسمر قاتم ذي رائحة ضعيفة وطعم سكري ولون القرن يكون في البدء اخضر ثم يصير الى السمرة فالسواد عند النضج ويكون معلقاً بحامل خاص متجاور مع طائفة من القرون ويتراوح طول القرن بين ٥٠ — ٧٠ سنتيمتراً وثخنه قيراط . ولفظ شنبر معرب چنبر بالفارسية وهو (خرنوب الهند)

اسمهُ العلمي (Cathartocarpus fistula, Pers.) (قثارتوقاربوس فستولا) اشتقاقاً من اليونانية Kathairo يسهل و Karpos ثمرة او (Cassia fistula, L.) (قاسيا فستولا) وفصيلته الخيار الشنبرية او السنائية (Caesalpiniaceae) سيزالپينياسية

وبالانجليزية (Drumstick Tree; Pudding Pipe tree; Purging Cassia)

وبالفرنسية (Canéficier; Cassier; C. des pharmacieus; C. purgative)

ويقال إن موطنه بلاد الحبشة وانتقل منها الى الهند والصين ومصر واميركة وجزائر انتيلة والعراق وبلاد العرب التي كان يعرف فيها قبل اكتشاف اميركة . والمستعمل منهُ في الطب الثمار (القرون) لاشتمال لبها على (القثارتين) (Cathrtin) الذي يوجد في انواع السَّنى المختلفة . وهو خليط من العناصر الفعَّالة المسهلة. ويدخل اللب في عجينة الدخان الانجليزي المعروف. وفي الهند يستعمل قلف جذور الاشجار لاطلاق البطن الشديد. اما قلف الجذوع فيستعمل في الدباغة. ويحصل من الشجر على نوع من الصمغ . وخشبه مندمج ثقيل ابيض يضرب الى الحمرة اذا نشر الواحاً وعرض للشمس صار احمر داكناً كخشب البلوط ويكتسب صقلاً جيلاً

الحَنْظَل

ويقال له (الحَلْقَم) و(الشَّرْي) بفتح الشين وسكون الراء . نبات عشبي يخرج اغصاناً وورقاً يفترش الارض . ورقته شبيهة بورقة البطيخ خشنة الملمس من وجهيها ذات ثلاثة فصوص او سبعة ريشية . وأزهاره وحيدة الجنس في النبات الواحد (ذكر وانثى) برتقالية اللون تضرب الى الصفرة ناقوسية الشكل توجد فرادى . اما الثمرة وهي التي يطلق العرب على حبها (الهَبِيْد) فمستديرة شبيهة بكرة متوسطة في العظم او برتقالة تحوي لبًّا شديد المرارة يضرب به المثل

اسمه العلمي (Citrullus Colocynthis, Schrad.) (سيترولُّوس قولوسنثيس) وفصيلته اليقطينية او القرعية (Cucurbitaceae) (قوقوربيتاسية)

وبالانجليزية (The Wild gourd, Colocynth, Bitter Cucumber or Bitter Apple Plant)

وبالفرنسية (Coloquinte)

ويقال إن موطنه الشرق الاقصى باليابان وانتقل منها الى الهند فبلاد العرب ومنطقة البحر المتوسط والسودان ورأس الرجاء الصالح ويزرع باوربا . والمستعمل منهُ في الطب لب الثمار (Colocynth) يدخل في العقاقير لاطلاق البطن الشديد وكثيراً ما يحصل عليهِ من ازمير وتريستا وفرنسا واسبانيا . وفي رأس الرجاء الصالح يغتذي اهله بالبذور ويستخرجون منها زيتاً للاستصباح واهل السودان يحصلون من الثمار على نوع من القطران المرّ يطلون بهِ ادم القرب الممتلئة بماء الشرب اثناء الرحيل منعاً لتزيق الابل العطشى لها ويستعملون مسحوق لب الثمار منفرداً اومخلوطاً بالفلفل الاسود لصيانة ثيابهم الصوفية من فتك العُثَّة كما ذكر في كتاب برون ومامي

الخِرْوَع

كدرهم شجيرته في مقدار شجرة التين صغيرة جميلة المنظر سريعة النمو ترتفع من ٥ اقدام الى ٨ معمرة اذا تركت ولكنها تزرع سنويًا في الغالب للحصول على زيتها المشهور كمسهل في الطب من قديم الزمن . اوراقها كهيئة الكف شبيهة بورق الدلب خضر او حمر للواحدة سبعة فصوص غائرة. أزهارها مجتمعة في عناقيد غليظة قائمة وزهرات التذكير والتأنيث في الشجيرة الواحدة . ثمارها عبارة عن احقاق متوسطة الحجم خشنة شائكة اطرافها مستديرة . والحُقّ مركب من ثلاثة فصوص كل منها كالاسطوانة في كل فص بذرة واحدة على سطحها بقع وفي احد طرفيها زائدة لحمية. والبذور شبيهة بالقراد او بيض العصافير

اسمه العلمي (Ricinus Communis, L.) (ريسينوس قومونيس) وفصيلته الفربيونية (Euphorbiaceae) (اوفوربياسيه) وبالانجليزية (Castor Oil or Palma Christi Plant) وبالفرنسية (Ricin Commun)

موطنه الاصلي شمال إفريقية الشرقي ويزرع الآن في بلدان كثيرة بالمناطق الاستوائية والمجاورة لها بافريقية وآسيا وفي جنوب اوربا في النادر على انهُ يوجد بريًا في كثير من الاراضي البور من تلك المناطق . وقد عثروا على بذور منهُ في مقابر قدماء المصريين يرجع عهدها الى ٤٠٠٠ سنة مما يدل على معرفتهم بوجوه نفعه . كما وان قدماء اليونان والرومان استعملوا زيته مسهلاً واستضاؤوا بهِ في مصابيحهم كما يستضاء بهِ الآن في الهند بالسكك الحديدية لتفضيله على الزيوت الاخرى لبطء احتراقه وابيضاض ضوئه الشبيه بالضوء الكهربائي ولرخص ثمنه وامتناع خطره الى غير ذلك كما جاء في كتاب زراعة المنطقة الحارة تأليف المسير هـ . ا . نيكولز المطبوع في سنة ١٩٢٩

وينتفع بهِ ايضاً في تزييت الآلات الميكانيكية والساعات ويدخل في صناعة انواع من الصابون واخلاط بعض المراهم والزيوت العطرية . هذا وقد عرف من قديم ايضاً ان اوراق الخروع اذا غليت ووضعت على الثدي ساعدت على ادرار اللبن وانها اذا استعملت بحالتها الطبيعية ساعدت على انحدار الطمث (الحيض) واذا استعمل قلف الجذر كان مسهلاً . وفي بلاد البنغال من الهند تستعمل الاوراق لتغذية دود القز . واهل السودان يصنعون عجينة من اوراق الخروع يضعونها على رأس المريض بالصداع لشفائه

اللَّبَخ

جمع واحدته (لَبَخَة) وهو شجر كبار يرتفع الى ١٦ أو ١٨ متراً وقلف جذعه املس احمر اللون قاتم. اوراقه من نوع الورقة الريشية المركبة المضاعفة يكون في كل ورقة من زوجين الى اربعة

من الوريقات الريشية في كل واحدة من هذه من ٥ أزواج الى ٩ من وريقات ليست ريشية غير متساوية الجانبين الواحدة منها بيضية الشكل مستطيلة يتراوح طولها بين ٢٨ — ٣٠ ملّيمتراً مستديرة الطرفين . وأزهاره تضرب الى الصفرة والخضرة مجتمعة في رؤوس رائحتها ذكية ترغبها النحل وهي المعروفة في مصر (بذقن الباشا) وثماره قرون رقيقة تضرب الى الصفرة الفاتحة مستطيلة تبلغ ٣٠ سنتيمتراً طولاً و ٥ عرضاً

واسم الشجرة العلمي (Albizzia Lebbek, Benth.) (أَلْبِزْيَا لِبّكْ) وفصيلتها السنطية او المستحية (Mimosaceae) (ميموزاسية)

وبالانجليزية (The Siris—Acacia; Egyptian Acacia; "Woman's Tongue" of W. Indies)

وبالفرنسية (Acacie de Malabar; Bois à feu; Ebénier d'Orient)

ويقال إن اصل هذا اللبخ من بلاد الهند الشرقية وان كان ذائعاً الآن في جنوب آسيا ووسطها وشمال إفريقية ووسطها وامريقة واستراليا . وقد أُدخل الى مصر والسودان واستنبت فيهما كشجر للظل والزينة وكثر انتشاره وخاصة في القاهرة وضواحيها فقد كانت تزين بهِ الشوارع الى ما قبل الحرب العظمى ثم ازيل بسبب فتك آفة بق الهبسكوس الدقيقي وللانتفاع بخشبهِ اذ ذاك وخشبه ابيض يضرب الى الصفرة او السمرة مندمج قابل للصقل يستعمل في النجارة كثيراً وخاصة في صناعة المحاريث ومراكز العجلات المعدة لحمل الاثقال وانتفاعات اخرى . واهل السودان يستعملون قلفـه في الدباغة كما يستعملون بذوره قابضة ويحصلون من اشجاره على صمغ يشبه الصمـغ العربي

أما ما ورد في كتب اللغة والنبات والآثار كتاج العروس للزبيدي وكتاب الافادة والاعتبار للبغدادي ومفردات ابن البيطار وحاصلات بومباي الاقتصادية لبردود وبغية الطالبين لاحمد باشا كمال فيصف نوعاً آخر من اللبخ اختلف في اسمائه وصفاته . ففي التاج ان شجرتهُ عظيمة مثل الدلب ثمارها خضر كالتمر حلو جدّاً لكنهُ كريه ولا ينبت الاّ بانصنا من صعيد مصر وهذا رأي ابي حنيفة الدينوري وقيل إن شجرته عظيمة مثل الأَثْأَبة (نوع من التين البري) او اعظم ورقها شبيه بورق الجوز ولها جنى كجنى الخَماط (التين الجبلي) مرّ اذا أُكل اعطش واذا شرب عليه الماء نفخ البطن حكاه ابو حنيفة المذكور وانشد :

من يشرب الماء ويأكل اللبخ ترم عروق بطنه وينتفخ

قال : وهو من شجر الجبال . قال صاحب اللسان اخبرني العالم به انهُ رأى شجرة بانصنا وذكر انهُ جيد لوجع الاضراس واذا نشر خشبه أُرعف ناشره وينشر الواحاً فيبلغ اللوح منها خمسين ديناراً يحمله اصحاب المراكب في بناء السفن وزعم انه اذا ضم لوحان منهُ ضمّـاً شديداً صارا لوحاً واحداً والتحما

وفي المقريزي في كلامه عن مصر : وبها اللبخ وهو ثمر قدر اللوز الاخضر كان من محاسن مصر إلاَّ انهُ انقطع قبل سنة ٧٠٠ هجرية . قال دليل (Delile) إن ابحاث دي سامي (De Sacy) اوصلتني الى تقرير ان اللبخ الذي اطلق اسمه على جملة اشجار اخرى انما هو الهجليج في بلاد النوبة وبلاد العرب وهو نادر الوجود في مصر وقد اسميه (بالانيتس اجبتياكا) (Balanites Aegyptiaca, Delile) وانا لا اشك كذلك في مشابهته الى (پرسيا) (Persea) عند القدماء وانها ترجع الى (پرسيكا) (Persica) اي الخوخ في بعض الآراء . وفي بغية الطالبين ان اللبخ يسمى (ميموزوپس شمپري) (Mimusops Schimperi, Hochst.) وهو شجر كثير الوجود قديماً في ارض مصر وقد وجد في المقابر كثير من اثماره وأوراقه الشبيهة بورق الصفصاف كانت تنضد في اكاليل الموتى . وحقق (كُنْث) (Kunth) ان ثمر النبت المسمى (ميموزوپس إلنجي) (Mimusops Elengi) هو الذي ذكر ضمن الفاكهة المدونة في صحيفة ٤٥٤ من مجموعة بسالكا . ويخالفه (أنجر) ذاهباً الى انهُ ثمر المخاط (المخيط) الشهير بمصر (ويؤيد رأي أنجر ما قال بردود في كتابه ان المُخَيِّط اعتبر پرسيا القدماء التي تنسب الى بالانيتس اجبتياكا ومن المحتمل كثيراً انها المخيط والبرقوق المصري الذي ذكره پليني (Pliny) وكان يصنع من خشبها توابيت الموتى) . وظن شوينفورت ان الشجرة المسماة (ميموزوپس شمپري) التي لا وجود لها الآن الاَّ في بلاد الحبشة هي المعروفة عند قدماء المؤرخين باسم (پرسيا) وهي التي اسهبوا فيها الشرح واطالوا الكلام

ومما تقدم يتخلص ان اللبخ انواع : اولها اللبخ المسمى علمياً (البزيالبّك) وهو من الفصيلة السنطية وسبق وصفه وانه ذائع في جنوب آسيا ووسطها وشمال افريقية واستنبت في مصر والسودان . وثانيها ما ورد في كتب اللغة المختلف في اسمائه وصفاته وقيل إنه كان في صعيد مصر قديماً ويسمى الهجليج وسماه دليل (بالانيتس اجبتياكا) وقيل بمشابهته الى (پرسيا) وهو من الفصيلة السيماروبية (Simarubaceae) . وثالثها ما في بغية الطالبين من ان اللبخ يسمى (ميموزوپس شمپري) من فصيلة (Sapotaceae) (سابوتية) وعلق عليهِ (كُونْث) و(شوينفورت) الذي قال إنهُ لا وجود لهُ الآن الاَّ في بلاد الحبشة وانهُ هو (پرسيا) . ورابعها ما ذهب اليهِ (أنجر) مما يشعر بأن لبخ القدماء هو المُخَاط (المخيط) (Cordia Myxa) (كورديا مكسا) بدليل ان الثمر الذي وجد في مقابرهم هو ثمر المخيط والذي كانت تصنع من اخشابهِ توابيت الموتى . فاذا صح انهُ المخيط نسب الى الفصيلة الشنجارية اي فصيلة لسان الثور (Boraginaceae) (بوراجيناسية)

هذا ولا بدَّ من الاشارة الى ما وقع من الاختلاط في التسمية بكلمة لبخ فهي على ما افهم في كتب العرب اسم موضوع للنوع القديم . وقد اطلق اسم اللبخ على (البزيالبّك) لا على انهُ اللبخ القديم بل اخذاً من كلمة (لبّك) الموجودة في الاسم الحديث ومن ذلك حصل الاختلاط والاَّ فهما نوعان من فصيلتين مختلفتين

المتنبي

للشاعر القروي

نبيٌّ ولو ضجّتْ شيوخٌ ورهبانُ — وهل بعد إعجاز ابن كندة برهانُ ؟

وكلّ كلام يرفعُ النفسَ منزلٌ — وكل مقالٍ يُفسِدُ العقلَ بُهتانُ

***

تحيّيك يا نسر القريض بلابلٌ — يعيب عليها الشدوَ بومٌ وغربانُ !

اذا انت ارقصت النجوم ترنحت — ازاهيرٌ من تغريدهن وافنانُ

فيا لك من نسرٍ له زأر ضيغمٍ — زمازمهُ في مسمع الدهر ألحانُ

تخطّى سماء العبقريّين وانجلت — لهُ خلف اكوان الاناسيّ اكوانُ

***

لك الله تطوي شاسع البيد عاقداً — على (الزنج) (١) ما عيت به البيض (حمدان) ؟!

تراءى لك الآمال نُضراً دوانياً — ففي الصدر بُركانٌ وفي العين بستانُ

اذا غاض ماء الجِدّ فازرع مجدبٌ — ولو علّهُ نيلٌ وغذّته اطيانُ . . .

وان شئت امرأً شاء ربك ضدّه — تعجّبت من عصيانه وهو اذعانُ !

وكم رغب الانسان في ما يضرّه — وناح على فقدانهِ وهو وجدانُ

ولولا رجاء الفوز لم يغبُ مضجعٌ — بحرٍ ولم يطمح الى المجد فتيانُ

ولو هانت الدنيا على كل طالبٍ — لما شاقنا ربحٌ ولا شقّ خسرانُ

ولو حُزِرَ الممنوع قبل امتناعه — على الجهد لم يستوجب العذل كسلانُ

ولو أعلنَ التدبير من وزّع اللُّهى — على الناس لم يعتبْ على الحظ انسانُ

وفي الملأ الأعلى غناءٌ لشاعرٍ — وفي الوهم عن مُرّ الحقائق سلوانُ

رعى الله نجماً اسعدَ الشعرَ نحسُه — فذمّكه من دولة الشعر شكرانُ

رمِي بك في الصحراء عن مصر نابياً — وفي النفس عدّ الرمل همٌّ واشجانُ

تلفّتُ ايجاساً ومهرك منصت — وريحك مشتاقٌ وعضبك يقظانُ

وقُدّت قميص الفجر إلاّ غِلالةً — كما شفّ عن معناك للعمه تبيانُ

---

(١) يعني كافور الاخشيدي سلطان مصر

وفاضت شآبيب اللجين وفجّرت جداول من ماس الشعاع وغدرانُ
وعبّ عباب التبر في كل ساحلٍ من الافق حتى لا ضفافٌ وشطآنُ
فولّت سراعاً خيفة النوء واختفت اساطيل نجمٍ ما عليهنّ رُبّانُ
وعامت على المدّ الغيوم كأنها جزائر في بحر الضياء وخلجانُ
روائعُ تُنسي عاثر الجد همه واطيب ذكرى للمناكيد نسيانُ ! . .
نفذتَ الى ما خلفهنّ بناظرٍ لإنسانه خلف المحاجر إنسانُ
رأيت به ما لا يرى كل مبصرٍ كأنّ جميع الناس إلاّك عميانُ
كأنك في فُلك على الفجر سابحٍ وفيض شعاع الوحي حولك طوفانُ
أهبتَ بربّات الفنون فرتّلت مزاهر في احضانهنّ وعيدانُ
وفاضت مع الالحان من كل ربةٍ معانٍ من السحر الحلال وأوزانُ
همّت فتلقّاها يراعٌ مثقّفٌ خبير بتصريف الأماليّ فنّانُ
تُراضُ به شُمُسُ القوافي كأنهُ خزائم في اخطامهنّ وارسانُ
ونزّلتها للناس آيات حكمةٍ جواهرها في مفرق الشعر تيجانُ

***

ألا أي ينبوعٍ سقاك معينه فاني الى تلك المناهل ظمآنُ
اصاب «ابن أوسٍ» منه حسوة طائرٍ وبلّت لسان «البحتري» به الجانُ
وأنت مقيمٌ كارعٌ من دنانه يشعشعها بالكوثر العذب رضوانُ
تعاطيك اكوابَ الخلود ملائكٌ اذا لقّن الاشعار غيرك شيطانُ
وتسعى اليك الجنّ تسأل حكمةً فيزجرها زجر الغيور سليمانُ
يمنّ علينا الدهرُ فيك وانهُ على نفسه لو يعلم الدهر منّانُ
بك اشتهر العصر الذي انت فخرهُ وأنت له التاريخ والمجد والشانُ
عيالٌ على ذكراك ذكرى ملوكه واسماؤهم فيه على اسمك ضيفانُ
خلدت فخلّدت الزمان وهكذا تموت وتحيا بالنوابغ ازمانُ

***

ابا الطيّب استعصت على الطب علةٌ ويخشى لها في مهجة الشعر إزمانُ
فأزرى بقدر العبقري شويعرٌ وباء بألقاب الجناذيذ وزّانُ

أكنتَ طرحتَ البوق في الحي جانباً وقد نام آساد وروّع غزلانُ ؟
أحقاً اهاتيف الحماسة خِفّةً وابطالها الغُرُّ الميامين صبيانُ ؟
ألا افتِنا فالنقد ضاعت اصوله وشوّه وجه الرأي حبٌّ وعدوانُ !

***

«بُنَيّ» ذَرِ التاريخ يُنصفْ رجاله ففي كِفّةِ الميزان ان ضاع ميزانُ
أجدنا فَجُنّ الحاسدون وليتنا اسأنا ففي بعض الإساءة احسانُ
اغاروا على الفاظنا بمراقمٍ يُقرّهُا بالطعن . . . بيضٌ ومرّانُ
لَهَوا بانتقاد الثوب عما يضمّه وتنتخَبُ الحسناء والجسم عريانُ
وداوَوا بتذمام الغبار عيونهم اذا برّزَتْ في حلبة الشعر فرسانُ
فان تَلقَ منهم ما لقينا فانما هم الناس يا ابني لم يزالوا كما كانوا
بشاعرها فلتفتخر كل امةٍ يهددها بالموت والعار طغيانُ
اذا طويت اعلامها فهو بيرق وان اخمدت انفاسها فهو بركانُ
يهز رفات الغابرين صراخه فتنشقُّ ارماس وتنحلُّ اكفانُ
وتُبعثُ ابطالٌ وتُنضى صوارمٌ وتنشرُ اعلامٌ وتُنصَفُ اوطانُ
وقفتم على اطلال مجدٍ مُضَيَّعٍ فحظُّكُم منهُ شقاء وحرمانُ
وماذا يرجّي الشاعر الحرّ بينكم وما حولهُ الاّ اماء وعبدانُ
تصرّم عهد العزّ والبأس والندى وبدّل من اخلاق (يعرب) (طوران)
فخالت سيوف الدولة البيض اعظُماً ويا ليتهم فيكم « كوافير » سودانُ

***

ابا الشعر هذا محفلٌ من محافلٍ تهزُّ بها الدنيا بذكرك قحطانُ
صحا الدهر يستسقيك كأساً جديدةً قضى الف عام قبلها وهو سكرانُ
ألا نُهلةٌ أخرى ؟ أما من ثُمالةٍ يهشُّ لها صادٍ ونادٍ وندمانُ ؟
خلا العرش بعد (ابن الحسين[1]) على المدى وعطّل من كسرى البلاغة ايوانُ
تمرُّ البرايا موكباً إثر موكبٍ يقلُّ فحول الشعر والشعر سهرانُ
يفتش فيها عن خليفةِ « احمدٍ » فتمضي الليالي وهو حيران بأسانُ

(١) يعني المتنبي ابن الحسين

مصلحة الآثار المصرية

ودار الآثار المصرية وتاريخ انشائهما

للدكتور صبحي كمال

حدث في ربيع سنة ١٨٥٧ ميلادية ان الامير نابوليون ابن عم الامبراطور نابوليون الثالث امبراطور فرنسا وقتئذٍ وصل الى وطنهِ حديثاً من رحلة بالقطب الشمالي . وكان سموه كثير الحركة قليل القناعة فكان قلقهُ مدعاة لقلق عمهِ واحراجهِ كثيراً . وتاق سموه يوماً ما الى الذهاب في رحلة الى الشرق فقوبلت هذه الرغبة بكل وسائل التشجيع والتسهيل . وكان الارشيدوق ماكسيمليان قد سبقهُ في رحلة الى مصر واحضر معهُ آثاراً نالت اعجاب اهل وطنهِ . فصمّم سمو الامير نابوليون ان يقوم بعمل يفوق عمل الارشيدوق ماكسيمليان. فأرسلت افادة بذلك الى سمو والي مصر سعيد باشا الذي قرّر ان يقابل بكل وسائل الاكرام

عندئذٍ اشار (ديلسبس) على سمو الوالي ان يبعث في طلب انتداب الاستاذ (ماريت) من فرنسا لمدة ثمانية اشهر فقط وذلك في اكتوبر سنة ١٨٥٧ . فحضر (ماريت) الى مصر فسافر في النيل يبحث في الوادي عن الآثار ويدفن ما يعثر عليه بالتالي في محله حتى يجيء الامير نابوليون كي لا يتجشم هذا الاخير مشقة الحفر والتنقيب

بعد ذلك بقليل وصل الى القاهرة الاستاذ (هينريخ بروكش) الالماني . ورغبةً في عدم ضياع الوقت ذهب (ماريت باشا) وقابل الاستاذ (بروكش باشا) في محطة السكة الحديد وطلب منه إعداد نفسه بأسرع ما يمكن كي يشترك معهُ في الحفريات المطلوب القيام بها

وقد افاض علماء الآثار في شرح هذه القصة بعباراتهم المتباينة . نخصّ بالذكر منهم (ماسپرو) و (دي مرجان) و (دي روجيه) و (بروكش) وذلك في عدة مجلات اثرية ليس هذا مقام شرحها

وبدأت الحفريات في الجيزة وسقارة والعرابة وطيبة (الاقصر) وجزيرة الفيل باسوان وعثر على مقادير كبيرة من الآثار وقتئذٍ . واستمر العمل سائراً بنجاح من كل الوجوه الا وجه واحد وهو مجيء الامير نابوليون الذي اعتذر عن الحضور الى مصر «لاسباب هامة» . وفي ٨ يناير سنة ١٨٥٨ ورد نبأ الى (مريت) من فرنسا بطلب رجوعه اليها وتسلمه اعماله في متحف اللوفر

عندئذٍ صمم (ماريت) ان يؤسس لهُ مستقبلاً بمصر . فارسل الى الامير نابوليون انهُ يمكنه ان يحضر معهُ مجموعة اثرية لسموه اذا تفضل سموّه ومكّنه من تأخير عودته الى فرنسا . فأتى

اليهِ الردّ من سكرتير سموه المدعو (فرّ يزاني) بأن سموه يكون شديد الامتنان اذا تمكن (ماريت) من احضار « بعض حلي وتماثيل صغيرة وقطع من الفنون المصرية الجميلة مع بيانات بطريقة العثور عليها » فاخذ (ماريت) ما يعتبره موافقاً لذوق سموّ الامير نابوليون الملقّب وقتئذٍ بلقب (بلون بلون) . ولما وصلت الهدية الثمينة الى الامير المذكور رشّح (ماريت) مأموراً للآثار المصرية وذلك بعد مضي بضعة اشهر

هذه باختصار قصة انشاء مصلحة الآثار المصرية وظهورها في عالم الوجود. ومن اهم ما عثر عليهِ وقتئذٍ تابوت الملك (كامس) فقد اكتشفه (ماريت) و (بروكش) في ديسمبر سنة ١٨٥٧ في حفرة جهة (دراع ابي النجا) . فلما رآه (ماريت) ظنه لا يروق في عين الامير (نابوليون) فأبقاه في مصر حتى حفظ بدار تحف القاهرة . اما جثة الملك فكانت في حالة تحلل تام . حتى انها تفتّتت بمجرد فتح التابوت . ووُجِد مع الجثة باطة وتمثالان لاسدين وخانة ملكية ارسلت جميعها ضمن الهدية المقدمة الى الامير (نابوليون) . وهي الآن في دار تحف اللوفر بفرنسا

و (كامس) هذا حكم القطر المصري في القرن السادس عشر قبل الميلاد ولما توفي دفن باهرامه بالساحل الغربي بالاقصر . وقد كافح الهيكسوس كفاح المستميت وبعده اتت الاسرة الثامنة عشرة وحكمت القطر بصولتها وجبروتها ثم تلتها الاسرة التاسعة عشرة بعزها وجاهها . بعد ذلك اخذ القطر في الاضمحلال وبدأت ايدي اللصوص تعبث بمدافن فراعنة مصر الاقدمين قصد اقتناص الحلى والادوات الثمينة التي اعتاد القوم ان يدفنوها مع ملوكهم كما هي الحال مع (توت عنخ امون)

وورد بقرطاس (ابوت) التاريخي ان البوليس المصري القديم فتش قبر الملك (كامس) وقتئذٍ ووجده سليماً . لكن وقع على اثر ذلك ان ازداد اللصوص امعاناً في سرقة المقابر الملكية . فخاف القوم على جثث ملوكهم واخذوا ينقلونها من مقابرهم ذات المعالم الواضحة الى حفر مختبئة مطموسة الدلائل والقرائن . فكان من حظ الملك (كامس) المذكور ان نقل من قبره العظيم الى حفرة صغيرة اسفل (دراع ابي النجا) وهناك بقيت جثته مع تابوتها وبعض ممتلكاتها حتى ديسمبر ١٨٥٧ ميلادية لما اكتشفها (ماريت) و (بروكش) بالطريقة السابق شرحها

دار الآثار المصرية

والآن وقد ألمعنا سابقاً الى تاريخ انشاء مصلحة الآثار المصرية ننتقل بالقارىء الى تاريخ انشاء المتحف المصري فنقول ان (ماريت باشا) بدأ المتحف المصري عام ١٨٥٧ ميلادية (بديكر عن مصر) بحي بولاق . واول دليل وضع لهذا المتحف كتبه ماريت عام ١٨٦٤ تحت عنوان Les principaux monuments du musée de Boulacq . وفي سنة ١٨٨٣ وضع الاستاذ ماسبرو دليلاً ثانياً . وبعد الاحتلال الانكليزي للقطر بمدة يسيرة نقل المتحف من بولاق الى سراي الخديو اسماعيل باشا بالجيزة وبقي هناك حتى ٩ مارس سنة ١٩٠٢ لما بدىء في نقل محتوياته الى المتحف الحالي بقصر النيل

وتم نقل المتحف في ١٣ يوليه سنة ١٩٠٢ وكان كلما نُقل اثر وضع في المحل المعد له حتى اذا ما استهل شهر اغسطس صار متحف القاهرة الجديد مستعداً لدخول المتفرجين . الا ان اصلاح الانصاب والقواعد والحيطان عقب ما اصابها من التخديش الناشيء عن نقل الآثار كان مانعاً لذلك . فلما انتهى هذا الاصلاح فتح المتحف في ١٥ نوفبر سنة ١٩٠٢ (راجع مقدمة دليل متحف القاهرة سنة ١٩٠٣) واعدت أبهاؤه لمن اراد التفرج عليها

واول مدير (مأمور) لمصلحة الآثار كان بطبيعة الحال (اوجست ماريت) (١٨١٢—١٨٨١) . ثم اتى بعده (جريبو) و (دي مورجان) و (لوريه) و (ماسپرو) و (لاكو) . ويرجع الفضل في اكبر توسعة لمتحف هذه الدار الى عهد جاستون ماسپرو الذي توفي عام ١٩١٦ ميلادية . ولعل اهم كنز أثري عثر عليه في الآثار المصرية كلها بما في ذلك الحديث هو المومياَت الملكية — او جثث فراعنة مصر — الذين دوخوا العالم واعلوا منزلة مصر حتى بلغت عنان السماء . والى هذا الكنز يرجع الفضل الاكبر في تعرف العالم الحديث بالقديم . لان الروايات الاثرية والقصص التاريخية التي كانت معروفة عند هؤلاء القوم لم تقدر حق قدرها ولم تصبح لها منزلتها العالية الا بعد ما شاهد اهل هذا العصر وجوه حكام تلك الازمنة ولمسوها بأيديهم . فكان هذا الاكتشاف كوميض البرق في الدجى الحالك يكشف عن مئات من المعالم كانت مختبئة تحت جنح الظلام الدامس

والفضل في اكتشاف هذه المومياَت الملكية يرجع الى الاستاذين احمد افندي كمال [1] (وقد انعم عليه بالباشوية في اواخر حياته — وتوفي عام ١٩٢٣ م) واميل بروكش فانهما في يوم الاربعاء ٦ يوليو سنة ١٨٧٩ تمكنا بمعرفة محمد احمد عبد الرسول من الوصول الى ذلك الكنز في بئر عميقة بالقرب من الشيخ عبد القرنة بالاقصر . وهذه البئر تنتهي من اسفل بسرداب متعرّج وطويل ينتهي بحجرة واسعة يبلغ طولها حوالي ثمانية امتار تقريباً . واول ما وقع نظر الاستاذين كان على تابوت (نسي خونسو) ثم (سيتي الاول) ثم على كثير من اثاث المنازل وادوات الزينة وتماثيل المقابر على اختلاف انواعها ولكنها كانت بغير نظام . وتحت بصيص الشمعة تمكن العالمان من معرفة توابيت ومومياَت الملك (امنحوتب الاول) و (تحوتمس الثاني) و (احمس الاول) محرر مصر من الهيكسوس و (سكننرع) شهيد الثورة القومية ضد الهيكسوس و (تحوتمس الثالث) البطل الفاتح و (رمسيس الثاني) الامبراطور العظيم ! ! ! وغيرهم ممن حكموا العالم القديم . واستمر فحص هذا الكنز ساعتين (راجع (Historians History of the World) مجلد ١ ص ١٥٦)

وفي الحال اتيا بحوالي مائتين من الانفار بمعونة سعادة مدير المديرية . وبُدىء في نقل تلك الآثار . وبقي احمد افندي كمال واميل بروكش يتسلمان الآثار قطعة قطعة مدة ثماني واربعين ساعة من دون ادنى راحة حتى نقلا جميع التحف . ثم بدأت مهمّة نقل ذلك الكنز الى السفينة النيلية .

(١) المقتطف : والد الدكتور حسن كمال

وفي ١١ يوليو كانت هذه الآثار على شاطىء النيل بالاقصر . وكلنا نعرف مقدار التعب الذي حلَّ بالقائمين بهذا العمل في حرارة شمس يوليو المحرقة بالاقصر . وفي يوم ١٤ يوليو وصلت السفينة النيلية الى الاقصر لشحن مفردات الكنز ثم أقلعت الى بولاق . ومن ثمَّ نقلت محتوياتها الى المتحف المصري وكان في بولاق وقتئذٍ

ومن ظريف ما حدثنا به الوالد انهُ لما توجه الى الاقصر للقيام بهذا العمل اراد مقابلة سعادة مدير قنا . فنزل من السفينة هو والاستاذ اميل بروكش لهذا الغرض . وتعذَّر عليهما الحصول على عربة وكان وقت الظهيرة . فتراءى لهما السير على الاقدام فسارا هذه المسافة الطويلة من النيل الى ديوان المديرية في طيب شمس يوليو . وحدث في اثناء سيرهما ان الاستاذ (بروكش) اعترته نوبة مغص كلوي شديدة اضطر من جرائها الى الاستراحة هنيهة تحت شجرة . وكان كمال افندي وقتئذٍ بواديه. قال هذا الاخير ولما ذهب عن (بروكش) الالم تفقد احدنا حذاءه اللامع فوجد طبقته اللامعة قد سالت وخلفت قماشاً اسوداً من شدة الحرارة !! ولما وصلا الى ديوان المديرية لمقابلة سعادة المدير علما ان سعادته في الحمام يطفىء طيب الحر !! والقصد من سرد هذه الحكاية هنا اظهار بعض ما عاناه الاستاذان من التعب في انجاز ذلك العمل الشاق

ويتلخص السبب في تكديس موميات وأثاث مقابر هؤلاء الملوك بعضها فوق بعض في ذلك المكان المختبىء في ان المملكة المصرية لما ضعفت سلطتها بدأت اللصوص في نهب مقابر الحكام الاقدمين فخاف الكهنة على موميات ملوكهم وتمكنوا من حفر البئر التي تقدم ذكرها حيث واروا موميات حكامهم . فبقيت هذه في حرز امين الى ان تسلَّمها احمد افندي كمال و(اميل بروكش) وأودعاها بدار تحف بولاق . وكلنا نعرف دار التحف المصرية التي في قصر النيل الآن . اما دار التحف المصرية السابقة لها فكانت تعرف باسم دار تحف الجيزة وهي سراي المغفور له اسماعيل باشا الخديوي الاول حوَّلت هذه الدار الى دار تحف ونقلت اليها محتويات دار تحف بولاق . وكانت هذه السراي ذات طابقين ارضي وعلوي . وكل طابق مكوَّن من تسعين صالة تقريباً . ومنهُ يتضح للقارىء ان محتويات المتحف وقتئذٍ كانت كثيرة جدًّا — ولا غرابة فقد كانت حينذاك اغنى مجموعة من نوعها في العالم. وكانت تحفها مقسَّمة تقسيماً علميًّا بحسب العصور من اقدم الازمنة الى العهد القبطي . وقد جاء ذكر هذا المتحف في حديث عيسى بن هشام حيث يجد الباحث العبارة الآتية ضمن عباراته عن المتحف المذكور « ولو انك عرضت اهل مصر على هذه الآثار واحداً واحداً لما استفادوا منها شيئاً ولا افادوك منها شيئاً ولما وجدوا لها قيمة تذكر سوى النذر اليسير من المقلدين للغربيين ولم تجد بين عشرة الملايين اليوم سوى شخص واحد يفقه « لغة الهيرغليف » اعنى لغة آبائهم واجدادهم كما يزعم الزاعمون مع كثرة الخبيرين بها في الامم الغربية » وهو يعني بذلك المرحوم كمال باشا طبعاً. اما الآن فان تلاميذ الباشا المذكور اخذوا يتبوأون مكانهم تحت الشمس في علم الآثار وصار لهم منزلة محترمة بين ابناء وطنهم

رسالة "السيرة الفلسفية"

للطبيب الفيلسوف أبو بكر الرازي

بقلم محمد فؤاد الاهواني

هي رسالة صغيرة الحجم كبيرة الفائدة العلمية ، أخرجها من عالم المخطوطات إلى عالم المطبوعات مستشرق ألماني يشتغل الآن في باريس أستاذاً بمدرسة الدراسات العليا الملحقة بجامعة السوربون ، اسمهُ بول كراوس Paul Kraus . تقابلت وإياه في باريس في صيف هذا العام ، وأطلعني على هذه الرسالة التي نشرها في مجلة اوريانتاليا [1] التي تصدر في روما ، وأردفها بترجمة فرنسية للرسالة ، وتحليل لها ايضاً ، والاستاذ كراوس قد اختصَّ بدراسة الرازي ويعمل بالفعل على إخراج كثير من كتبهِ ، وقد اعجبتني هذه الرسالة الصغيرة عن السيرة الفلسفية التي وضعها الرازي فأحببت ان اقدم ملخصها للقراء لما فيها من نفع . ويترجم له صاحب أخبار الحكماء فيقول: [2]

محمد بن زكريا أبو بكر الرازي طبيب المسلمين غير مدافع ، وأحد المشهورين في علم المنطق والهندسة وغيرها من علوم الفلسفة . وكان في ابتداء أمره يضرب بالعود ثم ترك ذلك وأقبل على تعلم الفلسفة فنال منها كثيراً . وألَّف كتباً كثيرة يأتي ذكرها ان شاء الله تعالى أكثرها في صناعة الطب ، وسائرها في ضروب من المعارف الطبيعية والالهية ، الأَّ انهُ توغل في العلم الالهي وما فَهِم غرضهُ الاقصى فاضطرب لذلك رأيه وتقلد آراء سخيفة وانتحل مذاهب خبيثة وذمَّ أقواماً لم يفهم عنهم ولا هدى لسبيلهم . ودبر مارستان الري ثم مارستان بغداد زماناً ثم عمي في آخر عمرهِ وتوفي قريباً من سنة عشرين وثلثمائة . هذا قول القاضي صاعد بن الحسن الاندلسي . وذكر ابن شيراز في تاريخه انهُ توفي سنة اربع وستين وثلثمائة . وذكره ابن جلجل الاندلسي في كتابه فقال : ابو بكر الرازي مسلم النحلة اديب طبيب مارستاني ، دبر مارستان الري ثم مارستان بغداد طويلاً ، وكان في ابتداء أمره يضرب بالعود ثم نزع عن ذلك واكبَّ على النظر في الطب والفلسفة وبرع فيها براعة المتقدمين ، وألَّف في الطب كتباً كثيرة بديعة ... وعمي في آخر زمانه بماء نزل على عينيهِ فقيل له لو قدحت ؟ ! قال : لا ، قد أبصرت من الدنيا حتى مللت ، فلم يسمح لعينيهِ بالقدح ، وكان في زمن المكتفي ، قلت وفي بعض زمن المقتدر .

« وذكره محمد بن اسحاق بن النديم في كتابهِ فقال : أبو بكر محمد بن زكريا الرازي من اهل الري ، أوحد دهره ، وفريد عصره ، قد جمع المعرفة بعلوم القدماء لاسيما الطب . وكان ينتقل في البلدان ، وبينهُ وبين المنصور بن اسماعيل صداقة ، وله ألف كتاب المنصوري . قال ابو الحسن

---

(١) Revue Orientalia (٢) اخبار العلماء باخبار الحكماء للقفطي طبعة الخانجي في مصر ص ١٧٨

الوراق : قال لي رجل من اهل الري شيخ كبير سألتهُ عن الرازي فقال : كان شيخاً كبير الرأس مسفطه وكان يجلس في مجلسهِ ودونهُ التلاميذ ودونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ آخرون ، وكان يجيء الرجل فيصف ما يجد لاول من يلقاه منهم ، فان كان عنده علم والاّ تعداه الى غيره : فان اصابوا والاّ تكلم الرازي في ذلك . وكان كريماً متفضلاً باراً بالناس ، حسن الرأفة بالفقراء والاعلاّء ، حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم . قال ولم يكن يفارق النسخ إما يبيض وإما يسوّد . وكانت في بصره رطوبة لكثرة أكله الباقلاء ، وفي آخر عمره عمي . . . »

ويقول الاستاذ كراوس في تحقيق هذا المخطوط إن « السيرة الفلسفية » قد ذكرت ضمن الكتب المنسوبة الى الرازي. وقد ذكره « البيروني » في رسالتهِ تحت هذا العنوان « السيرة الفلسفية » وهو العنوان المرقوم في هذا المخطوط الوحيد . اما ابن ابي اصيبعة فيذكر عدة تآليف الأرجح — في نظر الاستاذ كراوس — انها ترجع الى كتاب واحد فنها كتاب « سيرة الحكماء » ، و« في السيرة الفاضلة » و« سيرة أهل المدينة الفاضلة » ، و« في سيرته » . أما القفطي فيذكر عن ابن النديم ضمن تآليف الرازي « كتاب في السيرة الفاضلة » . وتبدأ الرسالة على هذا النحو

« بسم الله الرحمن الرحيم . قال ابو بكر محمد ابن زكريا الرازي — ألحق الله روحه بالروح والراحة

إن ناساً من أهل النظر والتمييز والتحصيل ، لما رأونا نداخل الناس ونتصرف في وجوه من المعاش عابونا واستنقصونا وزعموا أنا حائدون عن سيرة الفلاسفة ولا سيما عن سيرة إمامنا سقراط المأثور عنهُ أنهُ كان لا يغشى الملوك ويستخف بهم إن هم غشوه ، ولا يأكل لذيذ الطعام ، ولا يلبس فاخر الثياب ، ولا يبني ولا يقتني ولا ينسل ولا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يشهد لهواً ، بل كان مقتصراً على أكل الحشيش ، والالتفاف في كساء خلق والايواء إلى جب في البرية ، وأنهُ ايضاً لم يكن يستعمل التقية للعوام ولا للسلطان بل يجبههم بما هو الحق عنده بأشرح الالفاظ وأبينها وأما نحن فعلى خلاف ذلك . ثم قالوا في مساوىء هذه السيرة التي سار بها إمامنا سقراط أنها مخالفة لما عليهِ مجرى الطبع ، وقوام الحرث والنسل ، وداعية إلى خراب العالم وبوار الناس وهلاكهم ، وسنجيبهم بما عندنا في ذلك إن شاء الله

فنقول : أما ما أثروهُ عن سقراط وذكروه فقد صدقوا وقد كان ذلك منهُ ، لكنهم جهلوا منهُ أشياء أخر وتركوا ذكرها تعمداً لوجوب موضع الحجة علينا . وذلك أن هذه الامور التي أثروها عن سقراط قد كانت منهُ في ابتداء أمره إلى مدة طويلة من عمره ثم انتقل عن كثير منها حتى انهُ مات عن بنات ، وحارب العدو ، وحضر مجالس اللهو ، وأكل الطيبات إلاّ من اللحم ، وشرب يسير المسكر ، وذلك معلوم مأثور عند من عني باستقصاء أخبار هذا الرجل . وإنما كان منهُ ما كان في بدأ أمره لشدة عجبه بالفلسفة وحبه لها ، وحرصه على صرف زمان الشهوات ، واشتغل باللذات إليها ومؤاتاة طبعه لهُ على ذلك واستخفافه واسترذاله لمن يلاحظ الفلسفة بالعين التي تستحق أن تلاحظ بها ، وآثر ماهو أخس منها عليها . ولا بدّ في أول الأمور المشوقة المعشوقة من فضل

ميل إليها وإفراط في حبها ولزومها وشنآن المخالفين فيها ، حتى إذا وغل فيها ، وقرّت الأمور به قرارها سقط الافراط فيها ، ورجع إلى الاعتدال كما يقال في المثل « لكل جديد لذة » . فهذه كانت حال سقراط في تلك المدة من عمره ، وصار ما أُروه عنهُ من هذه الامور أشهر وأكثر لأنها أطرف وأعجب وأبعد من أحوال الناس ، والناس مولعون باذاعة الطريف النادر ، والاضراب عن المألوف والمعتاد. فلسنا إذاً بمخالفين للأمر الأحمد من سيرة سقراط ، وإن كنا مقصرين عنهُ في ذلك تقصيراً كثيراً ومقرين بالنقص عن استعمال السيرة العادلة وقمع الهوى ومحبة العلم والحرص عليهِ . فخلافنا اذاً لسقراط ليس في كيفية السيرة بل في كميتها ، ولسنا بمنقصين إن اقررنا بالنقص عنهُ إذ كان ذلك هو الحق ، وكان الاقرار بالحق اكثر شرفاً وفضيلة .فهذا ما نقوله في هذا الموضوع

وأما ما عابوه من السيرة الاولى من سيرتي سقراط فانا نقول : إن المعيب منها بحق أيضاً كميتها لا كيفيتها ، إذ من البين انهُ ليس الانهماك في الشهوات وايثارها الأمر الأفضل الأشرف على ما بيّنا في كتابنا « الطب الروحاني » لكن الأخذ من كل حاجة بمقدار ما لابد منهُ او بمقدار ما لايجلب ألماً على اللذة المصابة منها . وقد رجع سقراط عن المفرط منها الذي هو المعيب بالحقيقة ، والداعي إلى خراب العالم وبوار الناس ، إذ قد عاد الى ان أنسل وحارب العدو وحضر مجالس اللهو. ومن فعل ذلك فقد خرج عن أن يكون ساعياً في خراب الدنيا وبوار الناس ، وليس يجب أن لا يكون كذلك حتى يكون مغرقاً في الشهوات ونحن وان كنا غير مستحقين لاسم الفلسفة بالاضافة الى سقراط ، فانا مستحقون لاسمها بالاضافة الى الناس غير المتفلسفين.....

« واذ قد بينا ما اردنا بيانه في هذا الموضع فنرجع ونبين ما عندنا ، ونذكر الطاعنين علينا ، ونذكر انا لم نسر بسيرة الى يومنا هذا — بتوفيق الله ومعونته — نستحق ان نخرج بها عن التسمية فيلسوفاً . وذلك ان المستحق لمحو اسم الفلسفة عنه ، مَن قصَّر في جزءي الفلسفة جميعاً ، اعني العلم والعمل بجهل ما للفيلسوف ان يعلمه ، او سار بما ليس للفيلسوف ان يسير بهِ . ونحن بحمد الله ومنّهِ وتوفيقه وارشاده فبرآء من ذلك . اما في باب العلم فن قِبَل انّا لو لم تكن عندنا منه الاّ القوة على تأليف مثل هذا الكتاب لكان ذلك مانعاً عن ان يمحى عنا اسم الفلسفة فضلاً عن مثل كتابنا في البرهان ، وفي العلم الالهي ، وفي الطب الروحاني ... والكتاب الموسوم بالجامع الذي لم يسبقني اليه احد من اهل المملكة ولا احتذى فيه احد بمد احتذائي وحذوي ... فان لم يكن مبلغي من العلم المبلغ الذي استحق ان اسمى فيلسوفاً ، فن هو ليت شعري ذلك في دهرنا هذا »

خصص الرازي هذه الرسالة في الرد على مهاجميه ومنتقديه ، وعرض للذين يخلعون عنه لقب الفيلسوف ، فرسم الطريق الذي يسلكه صاحب الفلسفة عامة ، وشرح حياة سقراط ليستخرج منها النهج السوي اذ كان سقراط المثل الاعلى الذي يحتذى في الاخلاق . وقد نعود في كلمة اخرى الى المبادىء الاخلاقية التي ذكرها الرازي في هذه الرسالة فهي طريفة حقًّا وجديرة بالبسط والتفكير . ولكني اريد ان اوجه انظر الى الطريقة التي عالج بها هذا الفيلسوف الدفاع عن نفسه ،

فان صفة الحكماء التواضع ، ولكن كثيراً من المفكرين خرجوا على هذا التقليد ، فكتبوا تاريخ حياتهم ، ذكروا فيه احوالهم الشخصية ، ورسموا طرائق معاشهم ، ولم يجدوا في مدح انفسهم نقصاً او عيباً ، وكل ادرى بنفسه . ولعل الرازي اذا لم يكن قد سلم من هجمات المعارضين ، ونقدات الناقدين ، فذلك لانهُ هو كان البادىء بمهاجة علماء زمانهِ والخط من قدرهم ، واذا كانت هذه المؤلفات قد ضاعت اصولها وفقدت متونها ، فان اسماءها تدل عليها ، وقد عددت مؤلفاته حسب ما ورد في « اخبار الحكماء » فكانت مائة وستة وثلاثين كتاباً ، « وبالجملة فقرابة مائتي كتاب ومقالة ورسالة خرجت عني الى وقت عملي هذه المقالة في فنون الفلسفة من العلم الطبيعي والالهي» كما ذكر هو عن نفسهِ في هذه الرسالة . ثم انظر الى كتبهِ مثل «الرد على الناشىء في نقضهِ الطب» . وكتاب « في الاسباب المميلة لقلوب الناس عن افاضل الاطباء الى اخسائهم » و « كتاب الرد على أبي قاسم البلخي في نقضهِ المقالة الثانية في العلم الالهي » و « كتاب الرد على الجاحظ في نقض الطب » و « كتاب مناقضة الجاحظ في كتابه في فضل الكلام » و « كتاب نقض النقض على البلخي في العلم الالهي » و « كتاب في ان بعض الناس ترك الطبيب » و « رسالة لم صار جهال الاطباء والنساء في المدن اكثر من النساء » .... فمن هذه الكتب ما ناقض به اعلاماً من الكتاب الذين سبقوه كالجاحظ ، ومنها ما عارض بها اهل زمانه ومعاصريه . ويخيل الينا ان هذه المعارضة كانت عنيفة بل بالغة في العنف ، يؤيدها ايمانه المتأصل بأنه وحيد عصره في العلم والفلسفة والطب كما ذكر عن نفسه حيث قال « فان لم يكن مبلغي من العلم المبلغ الذي استحق أن اسمى فيلسوفاً فمن هو ليت شعري ذلك في دهرنا هذا»

وقد سرد بعد ذلك طرفاً من سيرتهِ الخاصة ، يعتذر بها عن نفسهِ فقال : « فاني لم أصحب السلطان صحبة حامل السلاح ، ولا متولي أعماله ، بل صحبته صحبة متطبب ومنادم يتصرف بين امرين : أما في وقت مرضه فعلاجه وإصلاح أمر بدنه ، وأما في وقت صحة بدنه فإيناسه والمشورة عليه — يعلم الله ذلك مني — بجميع ما رجوت به عائدة صلاح عليه وعلى رعيته ولا ظُهر مني على شره في جمع مال وسرف فيه ، ولا على منازعات الناس ومخاصماتهم وظلمهم ، بل المعلوم مني ضد ذلك كله والتجافي عن كثير من حقوقي . وأما حالتي في مطعمي ومشربي ولهوي فقد يعلم من يكثر مشاهدة ذلك مني أني لم أتمد الى طرف الافراط ، وكذلك في سائر احوالي مما يشاهده هذا من ملبس أو مركوب أو خادم أو جارية . فاما محبتي للعلم وحرصي عليه واجتهادي فيه فمعلوم عند من صحبني وشاهد ذلك مني ، اني لم أزل منذ حداثتي ، وإلى وقتي هذا ، مكبّاً عليه حتى أني متى اتفق لي كتاب لم اقرأه ، او رجل لم ألقه لم التفت إلى شغل بتة — ولو كان في ذلك عليّ عظيم ضرر — دون أن آتي على الكتاب وأعرف ما عند الرجل . وإنهُ بلغ من صبري واجتهادي أني كتبت بمثل خط التعاويذ في علم واحد اكثر من عشرين الف ورقة ، وبقيت في عمل الجامع الكبير خمس عشرة سنة أعمله الليل والنهار حتى ضعف بصري وحدث عليّ فسخ في عضل يدي يمنعاني في وقتي هذا عن القراءة والكتابة ، وأنا على حالي لا أدعهما بمقدار جهدي ، وأستمين دائماً بمن يقرأ ويكتب لي »

الدين والنهضة
الاخلاقية الحديثة

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

﴿ التطور في العقائد والعادات ﴾ : ليس من شأن الاجتماعي اذا ذكر الاديان بصورة مجملة ان يحصر كلامه في الاديان كما نزلت على مؤسسيها لان الشعائر والعقائد والاعمال في الامة على كرّ الزمن قد لا تبقى على صيغتها الاصلية بل ربما ارتقت عن هذه الصيغة او انحطت بحسب العوامل والطوارىء وقلما كانت ثابتة من غير تعديل او تبديل. ويهمنا ان نقرر هنا ان قابلية التطور في العقائد وما يتبعها من العادات المتجلببة بجلباب التقديس قابلية عظمى حتى ان المتتبع ليرى انتقالاً يكاد يكون فجائياً من النقيض الى النقيض باسم العقيدة الواحدة نفسها ، وان « البدعة » التي تضطرب لها افئدة المؤمنين في الجيل الواحد قد تصبح قاعدة من قواعد الايمان في الجيل الآخر ولاسيما اذا قدّر لها رجل مبجل يفتي بان لها اصلاً في النصوص القديمة ، وقد لازم التعصب في المجتمع الازياء خصوصاً لباس الرأس واثار في البلدان الشرقية « حروباً » حامية الوطيس لا تزال لها بقية باقية ، ، وذكر لنا من تقدمنا ان تغيير الاحذية من القديمة الى الحديثة في عاصمة البلدان السورية احدث هياجاً عظيماً كاد ينتهي بفتنةٍ حمراء ، وفي اوائل القرن الحاضر ضمني ورجلاً من كبار الاعيان في بيروت مجلس ذكر المجتمعون فيهِ حديث الفتوى بلبس القبعة كما نقل لنا عن لسان الشيخ (محمد عبده) يومئذٍ فارتعش واضطرب وامتقع لونه واظهر من النفرة ما يظهره الترك الكماليون اليوم من رؤية الطربوش على رأس السوري او المصري او العراقي !

ولا يقتصر هذا التطور على الشؤون التي اصبحنا نعدها ثانوية لا يؤبه لها بعد مرور الزمن عليها، بل يتناول الشؤون التي نعدها اولية ، ولا ادل على ذلك في موضوع العقيدة الدينية من تولد مذهب (التوحيد) في لب البلدان البروتستنتية وتمتعه بالحرمة اللائقة بهِ مع كل ما احدثهُ من التغيير في العقائد التي اعتبرتها الاجيال السالفة جزءاً لا يتجزأ من التعاليم المسيحية ، ورأينا في اميركا من اتباع هذا المذهب الجديد والمؤمنين بهِ من لا يقلون شأناً عن زملائهم واخوانهم الموحدين السابقين امثال (لونجفلو) و (امرسون) و (هوثورن) و (جفرسون) و (لينكون) من الاموات وغيرهم ممن زينوا اسم الولايات المتحدة واعلوا مقامها ، ويقوم مذهبهم فيما يقوم عليهِ من نقد العقائد المتوارثة المعنعنة على وحدانية الخالق وحدانية منزهة وانكار التثليث ، وعلى اخوة البشر وان النجاة تكون بالاعمال لا بمجرد الايمان فقط وان الارتقاء البشري سنة ثابتة الى الابد

ونرى في الشرق تحت اعيننا تبدلاً اساسياً في وضع من الاوضاع المقدسة مثّل اخطر الادوار في حياتنا الاجتماعية وهذا الوضع هو الحجاب ، فالذين يتمسكون بهِ يغالون في شأنهِ مغالاة تجعله في

مصاف الاركان الجوهرية التي بني عليها الاسلام وقد لا يقل في نظرهم عن اقدس المقدسات ، واما اهل السفور فلم يخلعوا الحجاب فقط بل يدعون اليهِ علناً بقولهم انهُ مخالف للحياة الاسلامية الاولى مخالفة بدهية ! وكيفما كان الحال فرور المرأة المسلمة اليوم سافرةً في اهم شارع من شوارع القاهرة وعلى رأسها القبعة لا يستوقف نظر احد، ولو اقدمت على مثل هذا العمل قبل خمسين او ستين سنة مثلاً ما فازت بالسلامة . والذين يقرأون كتاب (تحرير المرأة) في ايامنا هذه لا يشعرون بشيءٍ من الهزة العنيفة التي احدثها يوم ظهوره، ذلك لانهم رأوا باعينهم من الافراط في العرى ما جعلهم يترحمون على اعتدال قاسم بك امين والسفور الذي دعى اليهِ

وفي النازية الالمانية اليوم نزعة اجمعت الكنيسة المحافظة على وسمها بالزندقة والوثنية وغير ذلك من الفاظ الاستنكار، ولكن عالماً خبيراً بالنشوء الاجتماعي قال لي ، من يدري ما عسى ان يكون تاريخها في المستقبل؟ وقد يكتب لها ان تنتشر من المانيا الى سائر العالم المسيحي كما انتشر مذهب (لوثر) في القرون الماضية ، ولكن من المحقق ان الصهيونيين واقفون اليوم في صف المدافعين عن قواعد الايمان الكنسي وهم اشد حرصاً على مقاومة (هتلر) « وبدعه » من رعاة الكنيسة الانجيلية نفسها

﴿ السخافات الباقية من العقائد الخالية ﴾ : من اعجب الظواهر الاجتماعية ان يبلغ البشر هذا المقام الرفيع في الارتقاء العقلي وتبقى بعض العقائد والشعائر الابتدائية السخيفة ملازمة له . واذا كان لها في احد الايام الغابرة ما يجوزها فليس لها في يوم الاستنارة العقلية مسوّغ ما . واعجب من ذلك ان يدأب بعض « المؤمنين » على التمسك بها وممارستها على رغم جميع المناهضات والمقاومات التي يبديها العقلاء الذين هم اقرب الى فهم الدين والاحاطة بروحه ونصوصه . وقد أثر اشد الاثر في استدامتها وتعلق الناس باهدابها ان بعض كبار الاخصائيين من اهل العلوم والفنون العملية الحسية وائمة الصناعات ممن لم يسبق لهم اي اشتراك في شيء من العلوم الاجتماعية والتاريخية والدينية ما برحوا يحفلون بها ويطأطئون رؤوسهم اجلالاً لها وتعظيماً، فتراهم وهم أئمة مبرزون في فروعهم كالاطفال في هذه العلوم . فلا غرو ان يكون لهم من نبوغهم في المنطقة التي اختصوا بها صوت مسموع لدى العامة في منطقة لما تطأها اقدامهم، ورأي مطاع في شأن لما يكن من شؤونهم ، لان العامة وياللاسف يظنون ان من اتقن شيئاً فقد اتقن كل شيء ، او من صنع آلةً ميكانيكية حافلة بالحيل الدقيقة مثلاً او اخترع دواءً ناجعاً لمرض عضال حار فيهِ الاطباء فان عمله مستمد من منبع عميق لا طاقة للبشر ان يغترفوا منهُ، فرأيه في السياسة او في الاجتماع او في الدين يجب ان يكون حجة يقارع بها الخصوم .

وقد طرأ هذا التحول السريع بتقدم العلوم الحسية وتمتع اصحابها بالمقام الرفيع في المجتمع، وكان هذا المقام عادة وقفاً على المشتغلين بالشؤون العقلية والروحية . وحضرت مرة مجلساً حاول فيهِ احد الذين يستغلّون اسماء الرجال الاخصائيين المشهورين في الفروع التي عانوها ان يبرهن عن سخافة كان يؤمن بها امير الماء (نلسن) — وهي انهُ سيموت في يوم معين حققتهُ الايام — على صحة الهواجس

« الاثيرية » او الروحية التي تخامر النفوس ، وكذلك استغل غيره اسم (باستور) لتأييد بعض الشعائر والعقائد البالية ؛ وانني افهم كل الفهم ان يكون كلام (نلسن) حجة في القيادة البحرية وكلام (باستور) حجة في الجراثيم ولكنني لا أفهم ابداً كيف يكون كلامهما حجة على صحة الهواجس النفسية والشعائر التقليدية ، ولأقرب الى المعقول ان يستشار (توماس اديسون) في قواعد اللغـة العربيـة ويهتدى برأي (رونتجن) في تاريخ حياة (توت عنخ امون) من ان يستشار (نلسن) او (باستور) في المشاعر الوجدانية والعقائد الدينية . على ان البلية كانت اعظم والطامة أشد وأحكم لما كان المنتسبون الى العلوم المعنوية يدّعون السيطرة على العلوم المادية والتحكم في اصحابها ، فلهم مثلاً ان يحزوا رقبـة العالم الفلكي الذي يجرؤ على القول بكروية الارض ودورانها !

على ان الذي سيبقى عثرة في سبيل الاقتناع بما حدثنا واقامة الدليل على ما بينا هو ان العلوم الاجتماعية اجمالاً ليست من الضبط والإحكام في المقام الذي تتمتع به العلوم الطبيعية فيجوز لكل ثرثار ان يدعي تلك الى اجل واما هذه فحجتها قريبة وحبل التدجيل فيها قصير

ثم ان العقبة الكأداء التي لمّا يعرف المجتمع كيف يتغلب عليها ويأمن الالتطام بها هي السلطة القاهرة التي تتمتع بها العادة المستحكمة ولا سيما متى كان لها اتصال بالحرمة والشرف واللياقة والمروءة والاباء وغير ذلك من معاني الاعتزاز والسمو، وقد تصبح مثل هذه العادة — على ما قد يكون فيها من الهمجية والفحش والظلم — مقياساً في الاخلاق وكمالاً في العقيدة . وانني لأضرب على ذلك مثلاً من الاقوام التي تعيش عيشة ابتدائية فان اوضاعها البسيطة الخالية من تعقيد الحضارة قد ترشدنا الى فهم الاوضاع الحاضرة في ارقى الاوساط المدنية . قال الاستاذ (هوبكنس) [1] عن علاقة الدين والعادة بالاخلاق إن قانص رؤوس من جزيرة (بورنيو) قص القصة الآتية التي تدل على تحكم عادات السلف في الخلف وكيف ان الاخلاق انما هي السنة التي درج عليها الآباء والجدود والتي اكتسبوها للفائدة التي استفادتها العشيرة من تطبيقها والسير عليها . قال الصياد : كنت شديد التعلق بمربيتي العجوز ، وقد حان الزمن الذي قال لي والدي فيه : يا ولدي لقد كبرت وباشرت سن الرجولة فهلمّ واقتل قتيلاً » كما هي العادة في تلك الاصقاع لاثبات الرجولة . قال الصياد « وحكم الشرع عندنا ان النساء العجائز اللاتي لم يعدن يصلحن لشيء ان يذبحن . فدلني والدي على مربيتي العجوز وكانت جالسة لوحدها وقال لي ، انني صغير السن فلا استطيع ان اقتل رجلاً ولكن يجب ان اتمرن عليها فأعطاني قوسي وسهامي وقال لي هلمّ وارمها . اما انا فلم ارد قتلها ولكنه اصر علي وقال لا بدّ من ذلك فرميتها بسهم ولكن طاش فلم يصبها فأدركت هي الموضوع وأخذت في البكاء وانا اخذت في العويل فاغتاظ والدي وامرني ان امتنع عن عويلي واكفكف دمعي واضبط الهدف وذكر لي انه من الشر المعيب ألّا اقتلها . حينئذٍ اخذت ارميها رمياً متواصلاً ومع انها اعولت فلم

Origin & Evolution of Religion, P. 246 (1).

التفت الى عويلها وما زلت ارميها حتى قتلتها . وكانت عندي في مقام والدتي ولكنني لم ابال . ثم ان والدي قال لي يا ولدي الآن اصبحت رجلاً صالحاً وقد عملت عمل الرجال وقمت بالحق »

﴿ الاخلاق الايجابية ﴾ حدث عند الاجتماعيين المتأخرين تطور في الاتجاه الاخلاقي لا بدّ من الاشارة اليه هنا ، وهذا التطور هو الاهتمام بما يسمى «الاخلاق الايجابية» لا الاكتفاء «بالاخلاق السلبية» — يعني اننا كنا في الماضي نعد الكمال في الرجل ان يمتنع فقط عن اتيان بعض الموبقات كالخمر والميسر والزنا وغير ذلك من المحرمات التي لا يشك احد في فضيلة الابتعاد عنها ، وان يسير في حياته سيرة المسكنة والخضوع «والدروشة» وكم رأينا في الحوانيت الابيات الآتية معلقة على الجدران وهي : —

اذا شئت ان تحيا سعيداً من الاذى وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرىء فكلك عورات وللناس السن
وعينك ان ابدت اليك معائباً فصنها وقل يا عين للناس اعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى وفارق ولكن بالتي هي احسن

لم تعد مثل هذه الاخلاق — على ما فيها من سحرٍ وانسانية — مقياساً للنشاط الاجتماعي ، فهو يتطلب الجرأة والاقدام والعمل لا الانزواء في الزوايا ولا وضع اليدين على الرأس وترديد كلمة « يا لطيف » . والمسكنة وما يتعلق بها من زهدٍ وانقياد وتمشية للحال تروق الامم المستعبدة التي لا ترى سبيلاً الى النجاة الاّ بالخضوع وعقد الآمال بظهور المهدي او عودة المسيح او يوم الحساب واما القاعدة الاجتماعية التي يرجى منها الخير العميم فهي الامر بالمعروف كما هي النهي عن المنكر وتلقين القواعد التي تبنى عليها الاستقامة كما هي النقد الصحيح لتقويم الاعوجاج وبث روح العدالة في الافراد كما هي الضرب على ايدي المعتدين حتى لا يتجرأوا على فساد المجتمع ، فترك الحبل على الغارب في مثل هذه الجرائم التي تجترم اجتثاث لاصلٍ من الاصول الجوهرية في الحياة الاجتماعية والسماح عن المعتدي يكاد يجعل المتسامح شريكاً في ارتكاب الجرم ، بل لا بدّ من مقابلة الظلاّم وجهاً لوجه . وحدث في بعض الحركات الوطنية ان أُرسل احد الزعماء الى السجن فجاء اليه بعض الاطفال يحملون باقة من الازهار اظهاراً لاعجابهم به فقال لهم من وراء قضبان الحديد « آه لو وصلت اليكم لقبلت ايديكم الصغيرة ولأخبرتكم اني الى الخناجر احوج مني الى الازهار»

ويعالج اساطين النهضة الاخلاقية في اوربا هذا الموضوع معالجة دقيقة ، ومن المفيد جداً ان يطلع ابناء العالم العربي على طريقتهم وعلى الغرض الذي يتوخونه من ذكر الاخلاق الايجابية في مقابل الاخلاق السلبية ، ومن خيرة الكتّاب في هذا الباب من الاجتماعيين الاستاذ (بايندر) فيجدر بنا ان ننقل لهم خلاصة منه ننهي بها سلسلتنا هذه [١] فقد قال بعنوان « الاخلاق المسيحية القديمة والحديثة » ما مؤداه : ولما كانت النصرانية في الاصل دين المظلومين

(١) Major Social Problems, p 165.

والمحرومين فقد وقفت بالضرورة موقف الخصم تجاه القويّ المتصف بالاقتدار ، وفي الاحوال والظروف الحافلة بالمتاعب والمشاق يكون الاستسلام وترك المقاومة في كثير من المواقف خير سياسة تنتهج ، ذلك لان الثورة محكوم عليها بالاخفاق ، والتفكير فيها خارج عن الموضوع . فلما اصبحت الكنيسة وضعاً في صميم الدولة اهمل اصحابها هذه الناحية من تعاليمها ، بيد ان هذا الطابع الاولي بقي ملازماً لها ولم ينمح اثره ، فكانت تُعدّل وتُوسّع بحيث تنطبق على جميع الناس بشكل تواضع وتذلل يتذلله المرء امام الله للذنوب التي ارتكبها . وربما كان هذا العمل ضرورة من الضرورات الملجئة في عصر ساد فيه العنف والشدة فكان من الواجب التوسل بالوسائل المرعبة لارهاب الاشرار كبيرهم وصغيرهم ، فكانت النتيجة ان الكنيسة اهتمت بالضعف والذل والمسكنة والعجز واعتبرت هذه الصفات السلبية وامثالها مطلوبة في المرء مرغوباً فيها وانها في كثير من الاحوال عنصر جوهري في السيرة المسيحية . قال (بايندر) ومع ما يجوز لهذه الشيم الكمالية من قيمة مقدرة فهي شيم لا تؤدي الى التقدم في الحياة الاّ بطريقة سلبية يعني انها تمنع الاحتكاك الاجتماعي ولكنها لا تؤدي الى تحسين الاحوال والظروف ، مع ان هذا التحسين هو الضالة المنشودة التي ينادي العالم في طلبها ويستغيث للحصول عليها

وتحسين الاحوال كما تعلم يتطلب البداءة والتشبث والهجوم والمخاطرة وغير ذلك من معاني الاقدام لا الاستسلام والخضوع . وقد غرس صدر النصرانية هذا الخلق السلبي في المؤمنين في جميع القرون ، وحينما ابيح انحراف عن هذه الخطة فالنتيجة كانت هلاكاً كما هو الحال في الفرسان الهيكليين وهم فرقة (الداوية) The Templars في ابّان الحروب الصليبية والمؤسسات الاخرى التي انتظمت انتظامهم فان التقوى اضمحلت عندهم وتغلبت عليهم الصفات العسكرية الهجومية

اما في الاعصر الحاضرة فالنتيجة مختلفة عن ذلك اختلافاً بيناً ، فاذا كان ثمت كثيرون لا يزالون يؤمنون بالدين فهم قد اغفلوا شأن الفضائل السلبية التي كانت تعد جوهرية في الاعصر السالفة ، وربّوا ما عندهم من تشبث وبداءة واقدام وعالجوا مشاكل الحياة واجبروا الطبيعة بقوة ارادتهم على التسليم بالكنوز المدفونة فيها ، فكانت النتيجة من الناحية الاجتماعية شيئاً طريفاً خليقاً باسترعاء الاسماع والانظار

﴿ عواقب الاخلاق الجديدة ﴾ قال (بايندر) : لقد صرف المجددون الهمم لاصلاح الدين بان نفثوا فيه روحاً هجومية وطالبوا الناس بمساهمة نشيطة في الحياة السياسية والصناعية الحاضرة ، وحينما تمّ شيء من النجاح في هذا الباب حمل المتمسكون بالطريقة الدينية على ما استجد حملة شعواء قائلين انها شرود عن النصرانية الصحيحة ان لم تكن مروقاً وضلالاً ، وكانت الكتب التي تقول بمثل هذه الاصلاحات الجوهرية موضوع اضطهادهم وحرمانهم

وكان من النتائج الاخرى ان انسلّ عدد كبير من الرجال من عضوية الكنيسة ممن لم يطيقوا البقاء على الخمول والتقاعس ، فقد ودّوا ان يعملوا شيئاً خليقاً بنشاطهم ولكنهم اجبروا ان تصدقوا

وعودوا المرضى ، وقد ترضي مثل هذه الطريقة الرجل الذي تقوم افكاره على الطريقة الجامدة ويعتقد بان الله راضٍ ان ينظم الشؤون على طريقة تحتفظ بالمرضى والفقراء دائماً . اما الرجل الحديث وطريقته في التفكير متحركة لا جامدة وعقيدته الثابتة التحسن المنتظر في الاشياء فيتساءل في نفسه لِمَ يا ترى يوجد بين ظهرانينا هؤلاء المساكين الذينهم في حاجة مستمرة الى مساعدتنا ؟ ومن المحقق عنده ان الخطأ لن يكون من الجانب الالهي ، اذن فهو من الجانب البشري ، من جانب المجتمع او من جانب الفرد ؛ فلا بد من عمل شيء لاصلاحه يعني يجب ان تلقي على الجاهل دروساً في الصحة والغذاء وان تنبه الجماعة الى التهيؤ والاستعداد اللازم للتفتيش العلمي والنظام الصحي ، اذ لا ضرورة ملجئة تقضي بان يكون ثمة مرضى او فقراء فتى اقيم نظام في التوزيع عادل فاهل الاسراف وفاقدو الحيلة وقليلو التدبير فقط يكونون وحدهم من الفقراء ، والواجب يقضي بان يلقنوا ضرورة العمل حتى اذا ما رفضوا السعي في مناكب الارض سيقوا الى المعاهد الخاصة حيث يعزلون عن الناس وتعطى لهم الادوية الناجعة

وكذلك من النتائج التي نتجت السعي لاستدرار الاكف من اتباع الكنيسة العاملين والحصول منهم على الهبات العظيمة لكل عمل يخطر بالبال ، ، فالذين يدافعون عن النظريات الدينية العتيقة يزعمون ان الرجل المتنازل عن جزء من ثروته لغاية خيرية هو رجل يعمل لخدمة الانسانية ، ولكنهم لا يدركون ان الهبات السمحة هي سبب عظيم في استمرار الشرور الاجتماعية الحاضرة . وقد يكون المرء حريصاً على التبرع بعشر ثروته على شرط ان ينال اذناً ربانيًّا يحلل له امتلاك الاعشار التسعة الباقية والتصرف فيها ، فلا عجب والحالة هذه ان يكثر التحدث كتابة وخطابة عن الصلاح في الهبات العظيمة وان يصير كثير من الناس صالحين بهذا المعنى

وما دامت الكنائس متعلقة بالنظرية الدينية العتيقة وهي من الاساس نظرية سلبية فلا امل باتخاذ الاجراآت الاصلاحية الجوهرية . لان هذه الكنائس متى تحولت الى ايجابية هجومية ووعظت عن الظلم الصناعي وما اشبهه من الشرور باهتمام خسرت تأييد الرجال الذينهم هدف سهامها وحملاتها ومعنى ذلك بالقلم العريض خسارة فادحة في الموارد التي تعيش منها واغلاق الكثير من المباني الكنسية . والناس قد تعودوا ان ينظروا الى السلبية انها النصرانية فهم يأنفون هذا الاتجاه الجديد الذي لم يألفوه

﴿الدين ودستور السبب والمسبب﴾ : وربما كان اصعب شيء على المرء تعلمه هو ادراك دستور السبب والمسبب ادراكاً علميًّا . فهذا الدستور معترف بهِ عند جميع الناس من الناحية النظرية فقط لا من الناحية العلمية ، وكان من الجائز تطبيقه تطبيقاً شاملاً اعم لولا الموقف الرسمي الذي تقفه العقيدة الدينية بحيث تجد المخرج من ورطته دائماً والحِيَلَ من مفعوله الثابت . واغرب منظر في جميع التاريخ مُحيِّر هو الخطط التي اختطها الناس لتجنب مفعول هذا الدستور والابتعاد عن منطقة عمله ، واهم ما يدعو الى الاطمئنان وتوقع التحسن في المستقبل هو ان الناس تعلموا — على اقل

تقدير — ان جزاء الوزر الذي يزره المرء لا يمكن تجنبه ولا تحميله على عاتق الآخرين ممن لم يرتكبوه (ولا تزر وازرة وزر اخرى) ، فدستور تحسين النسل مثلاً انما يعني هذا في دائرة التوالد لا اقل ولا اكثر — يعني ان القذارة الاجتماعية تنتهي بالوراثة الفاسدة حتماً وسريعاً ولا مخرج من هذه الورطة ولا حيل من مفعولها الثابت لا بالاوهام ولا بالخرافات . وكذلك دستور الاجور الناقصة او الرخيصة فهو يجري على هذا النمط — يعني ان محصولها يكون اضعف نوعاً واحط مقداراً من الاجور الوافية ، فالسبب والمسبب متصلان لا يحول بينهما حائل ، وربما كان اهتمام الناس بحوانيت النسج القذرة التي يقيم بها العمال المرهقون للمرض المتصق بالملابس المصنوعة فيها والخوف من عدواه اضعاف ما تحدثه فيهم تلك المجادلات العتيقة حول اخوة البشر وابوة العزة الالهية

﴿ حاجتنا الى التغيير ﴾ : قال (بايندر) ويتوقف الاثر الاجتماعي الذي يتركه الدين الرسمي في المستقبل على قبوله دستور السبب والمسبب ، فاذا ما اغفل الدين هذا الدستور طرد العناصر المفكرة من حظيرة الكنيسة وتفرها من الاشتراك في اعمالها ، كما دلت الحوادث في السنين الاخيرة

ومعظم الخلق هم في حاجة الى الدين وذلك لضعفهم ووهنهم ، واحدى غاياته المعروفة ان يزرع في قلوبهم القوة وفي نفوسهم السعادة ولن يتم ذلك بتعليمهم ان يحملوا تبعة ذنوبهم ونقائصهم على اعناق الآخرين . والطريقة المثلى للاعتبار والدرس الحكيم هي ان يتحمل الفرد وزر عمله . وهذا ينطبق على الفرد كما ينطبق على الجماعة . وتكون المحنة المغرية بارتكاب الشر المرة تلو المرة عظيمة فوق طاقة معظم الناس اذا ما قيل لهم ان هناك طريقة من الطرق لنجاتهم ورفع التبعة عن اعناقهم . وان بعض الناس لا يتعلمون حتى من الاختبار ولا يتعظون حتى من المصيبة فلا شيء يعمل لهم سوى تركهم في مراجل الالم : هذا هو دستور الطبيعة وهو دستور الروح . وما من رجل يختمر فيبلغ في الاخلاق المقام المحمود الا بالسعي وصرف الجهد فعلينا « ان ننشد السلامة بالخوف والرعشة » ويريدنا الله ان نتعاون معه على رفع المجتمع الى مستوى اعلى مما هو فيه وان يتم ذلك الا اذا عرفنا واجبنا وساهمنا في تحمل التبعة

اما الاصرار على ضعفنا وذلنا ولفت الانظار الى شرنا ووهننا فيجعلنا دون العمل الواجب علينا انجازه واقل اهلية للقيام به ، لاننا نحن في الاكثر كما نحن بما يقال لنا ، والاشادة بقابليتنا للعمل ، تساعدنا على انماء هذه القابلية فينا لان « من كان عنده فيعطى » واما من كان خلواً فلا حق له وليس هذا دستوراً كيفياً بل هو سنة كل ارتقاء . والنظر الصحيح الصائب في الالوهية هي انها عامل يعمل دائماً وابداً بنشاط مستمر لترقيتنا ورفاهيتنا ، ولا نستطيع ان نضع في ميزان التقدير والاعتبار من شأن الجهود التي تصرفها هذه القوة المعنوية من اجلنا الا على قدر ما نتمثله منها بجهودنا ومساعينا وماعدا ذلك فكلام هراء وثرثرة لاطائل تحتها . ولا ندري اننا عيال الله ما لم نقم بالعمل الذي اختصنا به ، والمسألة كلها هي مسألة ممارسة عملية واختبار ذاتي لا مسألة نظر وعقيدة

ويدلنا الاختبار في اعمالنا على دستور السبب والمسبب في جميع نواحي الحياة بل هو حقيقة الحياة نفسها والحقيقة وحدها هي التي تحررنا من رق العبودية . انتهى

﴿ منطقة الدين ﴾ : لا شيء أضرّ بالدين مثل اخراجه عن حدوده والسير بهِ في فيافٍ وقفار قاحلة لم تكن لهُ موطناً ولا لرحاله محطاً ، وقد يضيع فيها كما تضيع الصرخة في الوادي ، وليس من تمام الاخلاص في شيءٍ اننا اذا أحببنا زيداً من الناس مثلاً ان نقول انهُ مهندس وطبيب ومزارع ومحامٍ ورياضي وفلكي وجيولوجي وجغرافي وكيماوي وغير ذلك من النعوت الفنية وغير الفنية في آنٍ واحد علاوة على ما يتحلى بهِ من سمو الاخلاق ، فلمَ يا ترى نجوّز لانفسنا ان نكون اكثر كرماً وتسامحاً في مسائل الدين ؟ وفي الاسلام نصٌ صريح لمؤبري النحل ان يؤبروه كما دلهم الاختبار لأنهم أعلم بدنياهم ، ولان مثل هذه الفنون العملية ليست من الدين في شيء فلمَ نحاول حشرها وحشر غيرها فيهِ يا ترى ؟

ولم تخلُ اوربا نفسها من الافراط والغلوّ في توسيع منطقة الدين مما حمل كثيراً من الكتّاب الغربيين على التفريط ورد الفعل ، يدلنا على ذلك ان كاتباً اجتماعيًّا معتدلاً كالاستاذ (ديلي) يدرّس كتابه في بعض الجامعات الدينية والمعاهد الاخلاقية يقول في هذا الصدد [1] « ان ما اشتهر بهِ الوضع الديني من البقاء والاستمرار تاريخيًّا على رغم الحوادث يتجلى لنا متى نظرنا بعين الاعتبار الى المصالح المتعددة التي شملها ، فهو باعتبارهِ فلسفةً قد استحدث لنفسهِ نظرية كونية عالمية غرضها بيان وحدة جميع الاشياء في آلهٍ واحد او آلهة متعددين هم خلقوا الكائنات واداروا امورها وزرعوا فيها الحياة وارشدوها لبلوغ غاية معينة ، وباعتبارهِ علماً قال انهُ بواسطة الوحي قد حصل على الدساتير الجوهرية التي تسيطر على المعارف ، حتى انهُ طالب الناس في بعض الايام ان يطبقوا العلم على هذا الوحي الذي أتى بهِ ، واستنّ في الاخلاق سنناً ليسيروا عليها قائلاً انهُ بعمله هذا انما يعمل بسلطة الهية ، وأبدى حقهُ ايضاً في املاء القواعد العملية في الشؤون الاقتصادية والمنزلية والسياسية والتهذيبية وان لهُ ان يدير الطرائق التي نجري عليها . وبدهي ان مثل هذه الدعاوي العظيمة والسلطات الجسيمة لا تسلم بها العوامل الاخرى في المجتمع دائماً » ، ذلك لان الفلسفة والعلم يدافعان عن حقهما في اذاعة النتائج التي وصلا اليها حتى لو كانت هذه النتائج مناقضة للاصول اللاهوتية ، وكذلك علم الاخلاق الاجتماعي فقد اخذ يطبع الكنيسة بطابعهِ فيما يتناول السيرة الاجتماعية ، ولم تعد الاصول التهذيبية التعليمية ترضى الخضوع للقواعد الايمانية ، ونرى الكنيسة والحكومة تفترقان والقانون المدني يدير الاسرة ، واما الحركة الاقتصادية فهي كثيرة التشعب وشديدة التعقد بحيث لا تستطيع الكنيسة التسلط عليها . فالكنيسة مضطرة في مثل هذه الاحوال الملجئة اما ان تصبح مناقضة للعصر الذي تعيش فيهِ متأخرة عنهُ واما ان تعمل لغاية في النفس أسمى وأرفع بعيدة عن الصغائر والخطيئات المملة ساعية للقيام بالواجب مرةً ثانية باعتبارها هداية مُنزّلة تهدي المشاعر الكمالية العليا التي تغلي في صدر الانسان »

---

[1] Sociology, p. 145.

ولما حمل (برنارد شو) على «الكتاب المقدس» حمل على ما يدعيه اصحابه فيه من الدعاوي الطويلة العريضة الفنية وغير الفنية الخارجة عن منطقة الدين كما اسلفنا ولكنه قال وهو محق في قوله[1] « ان هذا الكتاب وان عُدّ بالمقاييس العلمية مهجوراً من سائر النواحي الاّ انه من ناحية واحدة يحتفظ بقيمته وذلك باعتباره سجلا لنشوء الفكرة الالهية» — فكرة اول سعي سعاه الانسان المتمدن لتعليل مصدر الكائنات والحكمة من وجودها

. وفي الحق ان هذه الفكرة هي مركز الثقل في جميع الثقافة التي مرّت عليها العصور وعليها يرتكز الدين في جهاده المتواصل الثابت وهي هي التي جعلت هذا البون الشاسع بين الانسان والحيوان، والفرد بالغاً ما بلغ من العلوم المادية واوسع ما احاط من سننها ودساتيرها لا يكون قد ازدان بالموهبة الانسانية الجوهرية اذا هو لم يتساءل في نفسه من اين اتى والى اين ذاهب ، وسيبقى هذا السؤال عاملاً من اقوى العوامل في الحث على التتبع والتدقيق وكشف المخبآت، وربما رجع اليه الفضل الاكبر من الناحية التاريخية في ايجاد العلوم واستحداث الفنون وتوجيه الانظار الى الحكمة . ويعلو الدين او ينحط بقدر التنزيه الذي تتحلى به تعاليمه . وما دام هذا السؤال موضوع الدين الاساسي فالدين طود ثابت ما زعزعته في الماضي الثورة الفرنسية ولا تزعزعه في الحاضر الثورة الكمالية ، وانما الخطر عليه كل الخطر هو الخروج به عن المنطقة التي خلق ليعمل فيها ، واستثمار النفعيين والجهلاء الاحتكاريين للنفوذ الذي يتمتع به . ثم اذا صدر مثل هذا السؤال عن قلب يلتهب شوقاً الى ادراك كنه الحقيقة والاحاطة بأسرارها فهو يدل على ان نفس صاحبه ليست حيوانية بهيمية بل هي نفس تزدان بالاخلاق والاخلاص ايضاً وهذا ما يجدُّ الاجتماعيون ليجعلوه من جوهر الدين ، ونحن لا ننكر ابداً ان اهل التتبع يميلون اليوم الى الفصل بين الاخلاق والدين من الوجهة العلمية ولكن العمليين من الاجتماعيين يستعينون بالدين لتقويم الاخلاق ، ذلك لان الاتصال بينهما اتصال وثيق ، وجميع الاديان الراقية الكبرى طافحة بالحث على مكارم الاخلاق ، والدين الذي لا يجعل الاخلاق الصحيحة غرضاً من اغراضه الجوهرية لا يهم الجمعية البشرية الاحتفاظ به

ودلنا تاريخ الاديان الراقية على ان الالوهية تجلت في النفوس من الناحية العقلية حكمة واستقصاء ، ومن الناحية الفنية جلالاً وجمالاً ، ومن الناحية الروحية طهارة واخلاقاً، فلا غرو ان يكون لها هذا السلطان الباهر وهذه القوة الساحرة، ولا يزال الاتقياء في كل عصر ومصر يشاطرون الكاهنة (بيثيا) لما قالت في مكهن (دلفي) في بلاد اليونان منذ عشرات القرون « ايها الغريب اذا كنت طاهر النفس فادخل معبد الله القدوس مكتفياً بلمس ماء التطهير ، فالتطهير سهل على الصالحين ولكن البحر المحيط جميعه بأنهاره عاجز عن غسل الادران من الرجل الشرير»

(1) The Adventure of the Black Girl in her Search for God, p. 69.

العقوبات الدولية

الادبية والمالية والاقتصادية

العقوبة اسم يطلقهُ رجال القانون ، على الذرائع التي يتذرَّع بها لقسر الناس والدول على الخضوع للقانون . وقد تفرغ في احد قالبين ، اولهما توقيع الجزاء على من انتهك حرمة القانون ، وثانيهما وسائل غرضها منع انتهاك مرتقب . ولتأثيرها وجهان ، احدهما سلبيٌّ ، ذلك ان معرفة الآثم او المعتدي ، ان النية معقودة على تطبيق العقوبات عليهِ ، وان تطبيقها مستطاع ، تردعهُ عن الاقدام على ما ينوي ، والآخر ايجابيٌّ ، وهو قائم على منع المعتدي من التمادي في اعتدائهِ ، وحرمانه من ثمرات الاعتداء ، وحملهِ على الخضوع للقانون

اما كيف نشأ نظام العقوبات في القانون الدولي ، فبحث فقهيٌّ لا يتسع له نطاق هذا المقال ، فنكتفي بالقول بان انشاء جامعة الامم بعيد الحرب الكبرى ، قام على قاعدتين ، احداهما احترام ما يعرف بالقانون الدولي ، المستمدّ من المعاهدات والاتفاقات الدولية وما قرّرتهُ المؤتمرات المختلفة في هذا الصدد ، والاخرى الاتفاق على فض كل نزاع دولي بالوسائل السلمية ، اما باتفاق الفريقين المختلفين واما بالتحكيم واما بعرض المشكلة على محكمة العدل الدولية

هذه القواعد مطوية في عهد جامعة الامم . ولكن عهد الجامعة لم يكتفِ بتقريرها ، بل نصّ في موادّهِ المختلفة على السبل ، التي يجب ان تطرق ، فضاً للنزاع بالوسائل السلمية ومنعاً للحرب . ففض النزاع بالوسائل السلمية منصوص عليهِ في المواد ١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٥ . ووسائل الاحتياط التي يجب ان تتخذ عند التهديد بنشوب حرب منصوص عليها في المادتين ١٠ و١١ . وفرض العقوبات على معتدٍ مرتقبٍ او معتدٍ فعالٍ منصوص عليها في المواد ١٠ و١١ و١٣ و١٥ و١٦ و١٧ . اما اعادة النظر في المعاهدات القائمة ، التي اصبح تطبيقها متعذّراً او مهدداً للسلام لتغيُّر الاحوال فمنصوص عليها في المادة ١٩ . وهذه المواد متماسكة البنيان ، يشدُّ بعضها بعضاً ، ولا يمكن ان ينظر فيها مفصولة بعضها عن بعض

العقوبات الادبية الدبلوماسية

الرأي العام في مختلف الامم ، وبوجهٍ خاص في البلدان الدمقراطية ، رادع قوي الأثر عن الاعتداء . وليس ادلّ على ذلك من ان الحكومات التي اشتركت في الحرب الكبرى ، حاولت كلٌّ منها ، ان تقنع شعبها بانها خاضت غمار الحرب مكرهةً ، دفعاً لاعتداء واقع عليها . فالنجاح في حرب ما من دون تأييد الرأي العام ، امر متعذّر

والرأي العام الدولي ، قد يعرب عن استنكارهِ لخطة دولة من الدول ، بأساليب مختلفة ، بامتناع

السيّاح عن زيارة تلك البلاد واعلامها ، وباجتناب الناس شراء ما تصنعهُ وتصدره الى الخارج ، او بكتابة المقالات في الصحف ، او بالاحتجاج عن طريق الممثلين الدبلوماسيين

فهذه الوسائل ، مفردة ومجتمعة ، تضعف الثقة في مالية البلاد ، علاوة على ما تتأثر به تجارتها بمقاطعة بضائعها . لانهُ اذا رميت نية دولة ما بالشك ، وحامت حول استقامتها في احترام عهودها الظنون ، ضعفت الثقة كذلك بتعهداتها المالية العامة ، فتعجز في الغالب عن فتح الاعتمادات الدولية او عقد القروض الدولية التي لا ندحة عنها في هذا العالم الذي تربطهُ بعضهُ ببعض اسلاك خفية من المال او ما يقوم مقامهُ

الاّ ان حكومة من هذا القبيل تملك سلاحاً في الغالب ، يمكنها من ان تخفف وقع هذه الوسائل الادبية . وهذا السلاح هو السيطرة على الرأي العام في بلادها او توجيهه في الوجهة التي تبغي ، بكمّ المعارضين وسدّ افواه النقدة . والحكومة العازمة على الاعتداء ، والمؤيدة من شعبها اما عن عقيدة واما عن سيطرة ، قد لا تعبأ في الغالب بالرأي العام الدولي الى حدٍّ ما

واذاً فالعقوبات الادبية لاتتعدّى حدّاً معيّناً في تأثيرها ، اي في مقدرتها على ردع المعتدي عن الاعتداء . ولا يخفى انصلات الامم بعضها ببعض ، تتم في ابان السلم بواسطة الممثلين الدبلوماسيين. ولكن الاحتجاج الدبلوماسي لا يعدو كونهُ كلاماً مفرغاً في قالب الاحتجاج او التحذير او الانذار

فابسط شكل تتخذهُ العقوبات الدبلوماسية هو اعتراض او احتجاج دولة ما على عمل دولة اخرى . ومكانة هذا الاحتجاج ، تختلف باختلاف الدولة المحتجة ، وقوتها ومكانتها في مجامع الامم ومدى اعتماد الاولى على الثانية . فاحتجاج الدول الكبرى اوقع في الغالب من احتجاج الدول الصغيرة ويستفحل وقعهُ اذا كان اعراباً حقيقيّاً عن شعور الامة التي يرفع باسمها

ان قيمة احتجاج من هذا القبيل ، لا تقوم في المقام الاول ، على استنكار الدول الاجنبية لعمل الدول المعتدية ، بل على توجيه نظر الشعوب الى عمل الاعتداء المستنكر والخطر الذي ينطوي عليه . ثم هو يُعبّىء الرأي العام في الدولة المحتجّة ، بل وفي غيرها ، باخراج المشكلة وحقائقها من مطاوي المفاوضات الدبلوماسية ، الى وضح المناقشات العلنية في الصحف وعلى المنابر . وفي هذه الناحية يكون الاحتجاج معواناً على الحيلولة دون عمل الاعتداء قبل ان تنظّم المقاومة الدولية المشتركة لمنعهِ . وغني عن البيان ان قيمة الاحتجاج الدبلوماسي تزداد اذا جاء من غير دولة واحدة بالغة تلك الدولة من المكانة والقوة ما بلغت . فاذا سنحت الفرصة لاحتجاج من هذا القبيل ، تبعث الدول المختلفة باحتجاجات مماثلة في معناها ، متقاربة في صيغها . وهذه الطريقة قد تفضل طريقة وضع احتجاج واحدٍ من قبل دولٍ مختلفة ، لما يقتضيه وضع صيغة احتجاج من هذا القبيل من المناقشة الطويلة قبل الاتفاق عليها . الاّ انهُ متى وضعت صيغة مشتركة لاحتجاج دولي ، يزيد شأنها في نظر الدولة المعتدية ، لدلالتها على اتفاق الدول المحتجّة

ولكن العقوبات الدبلوماسية ، لها اساليب اخرى للاعراب عن استنكار الدول لاعتداء دولة ما عدا الاحتجاج او التحذير شفاهاً او كتابةً . واحد هذه الاساليب ، سحب السفير او الوزير المفوّض من عاصمة الدولة المعتدية . وابقاء العمل الدبلوماسي في تلك العاصمة في يد قائم بأعمال السفارة او المفوضية . فعمل من هذا القبيل ، من شأنهِ ان يؤكد احتجاجاً قدّم كتابة او شفاهاً واهمل . ولكنهُ في الوقت نفسهِ ، يعترض عليهِ ، بانهُ في الازمات الدقيقة ، تحتاج كل دولة ، الى سفير او وزير مجرّب ، للقيام بمفاوضات دقيقة كل الدقة في الغالب

وهذا الاعترض نفسهُ ينطبق على قطع الصلات الدبلوماسية بسحب السفير او الوزير ورجال السفارة او المفوضية جميعاً من عاصمة الدولة المعتدية . فعندئذٍ يتعين على الصلات بين الدولتين ، ان تستأنف عن طريق ممثل دولة ثالثة ، او عن طريق احد القناصل ، وفي كلتا الحالتين ، لا يتم الاتصال بين الدولتين ، في شؤون حيوية ، على احسن ما يرام

فأساليب العقوبات الدبلوماسية التي تقدم ذكرها ، لا تعدو كونها اعراباً عن استنكار ادبي لعمل الدولة المعتدية . وقد تستعمل الطرق الدبلوماسية ، للاعراب عن تحذير او انذار ، ولكن قيمة التحذير او الانذار يتوقف اولاً واخيراً على استمداد الدولة المحذّرة او المنذرة لتأييد تحذيرها او انذارها بالقوة . وهذه الناحية من العقوبات الدبلوماسية ذات صلة وثيقة بالعقوبات الحربية . وهي خارجة عن موضوعنا الآن

العقوبات المالية

الفرق بين العقوبات المالية والاقتصادية ، فرق دقيق ، ولذلك جاء ذكر العقوبات المالية منفصلاً عن ذكر العقوبات الاقتصادية في المادة السادسة عشرة من عهد الجامعة

تحتاج الحكومات في هذا العصر ، الى نقد اجنبي ، او الى اعتمادات مالية اجنبية ، لشراء ما تحتاج اليه من العروض في الخارج . فالعقوبات المالية لا تؤثر تأثيراً كبيراً الاّ في دولة تعتمد الى مدى بعيد على ما تستورده ، وبوجه خاص من المواد الخام للصناعة ، والمواد اللازمة للحرب كالذخيرة والاسلحة على اختلافها ، او مواد الغذاء . ولعلّ ابلغ مثل على هذا ، حاجة بريطانيا الى استيراد مواد الغذاء ، وحاجة ايطاليا الى المعادن والوقود

فالعقوبات المالية ليست ببعيدة الأثر في ردع الدولة المعتدية اذا اعتمد عليها وحدها ، ولكنها تمتاز في سهولة تطبيقها وسرعته

فالمشكلة التي تتناولها الدول حين تعرض لتطبيق هذا الضرب من العقوبات ، هي الحيلولة دون تمكين الدولة المعتدية من الحصول على المال اللازم لابتياع ما تريده من اسواق العالم

فن الوسائل التي تعمد اليها الدول حين تحتاج الى مال تنفقه في الاسواق الاجنبية ان تطلب

الى جميع مواطنيها الذين يملكون سندات اجنبية في الخارج ان يضعوا هذه السندات تحت تصرفها فتبيعها او تعقد قروضاً بضمانتها ، وتنفق المال الذي يجمع من هذه الناحية في شراء ما تحتاج اليه. وقد سبق لبريطانيا ان عمدت الى هذه الوسيلة خلال الحرب الكبرى ، لما طلبت الى البريطانيين الذين يملكون سندات اميركية ان يحولوها الى حكومتهم لتمكينها من شراء الاسلحة والذخير اللازمة لها ولحلفائها لمواصلة الحرب

فالعقوبات المالية ترمي ، الى منع تحويل من هذا القبيل

ثم انها تحظر عقد قروض مالية للدولة المعتدية

الاّ ان الاقتراض السري من اصعب ما تتعرض له الدول في فرض العقوبات المالية . فقد تتفق الدولة المعاقَبة مع دولة اخرى ، غير مشتركة في العقوبات ، ان تعقد قرضاً باسمها الخاص في سوق بريطانيا المالية ، او في سوق اميركا المالية ، فاذا عقدت هذا القرض استطاعت الدولة المقترضة ان تحوله بغير طريقة واحدة الى الدولة المعاقَبة . ولولا النصُّ على تطبيق العقوبات الاقتصادية جنباً الى جنب مع العقوبات المالية ، لتعذر على الدول المتفقة على توقيع العقوبات المالية ، ان تمنع الدولة المعاقَبة من الفوز ببعض ما تحتاج اليهِ من المال على الاقل ، لشراء ما تحتاج اليهِ

ومما تتعرّض له العقوبات المالية ، ويجعلها سلاحاً ذا حدّين ، ان تلغي الدولة المعاقبة ما سبق لها وعقدتهُ من القروض في سوق دولة او اكثر من الدول المشتركة في فرض العقوبة المالية عليها ، كأن تنكر ايطاليا مثلاً ، ما عقدتهُ من القروض في بريطانيا ، انتقاماً من اشتراك بريطانيا في فرض العقوبات المالية عليها ، او انها تتوقف على الاقل عن دفع الفوائد على هذا القرض

ولما كانت الاعتمادات المالية مرتبطة اوثق ارتباط بالصادرات والواردات ، الظاهرة والخفية ، فتطبيق العقوبات المالية ، لا يمكن ان يكون دقيقاً الاّ اذا صحبهُ تطبيق العقوبات الاقتصادية ، او بالحري قطع الصلات التجارية بين الدولة المعاقبة والدول الاخرى

ومن العقوبات المالية إمداد الدولة المعتدى عليها، بعونٍ مالي . ففي مايو سنة ١٩١٦ وجّهت حكومة فنلندا نظر جامعة الامم الى ان الدول الصغيرة التي رضيت بنزع سلاحها ، قد تضطرُّ اذا اعتدي عليها ، ان تعمد الى شراء المواد اللازمة للحرب. فيجب ان يوضع نظام يمكن الدول الصغيرة المعتدى عليها ، من الفوز بعون مالي دولي . فنظرت لجان الجامعة المختلفة في الموضوع من جهاته المختلفة ، ووضعت مشروعاً ، عرض للتوقيع ابتداء من اكتوبر سنة ١٩٣٠

فهذا المشروع يسلم بان الدول الصغيرة المعتدى عليها ، او المهدَّدة بالاعتداء عليها ، تحتاج الى مالٍ يمكنها من تنظيم الدفاع عن حياتها . ولذلك يقترح ان لا يكون المدد المالي الذي تصيبهُ من الدول ، قروضاً تعقد لها ، بل ضماناً من هذه الحكومات للقروض التي تعقدها في اسواق العالم المالية الحرة . وهذا العمل في نظر واضعي المشروع ضرب من « السلامة الاجماعية » في الميدان المالي

هذا هو الاتفاق الذي طلبت الحبشة بمقتضاه عوناً مالياً من جامعة الامم . ولكن المشروع لم يبرم مع ان ثلاثين دولة وقعتهُ ، وسبب ذلك ان تنفيذه مربوط بتنفيذ مشروع لنزع السلاح او تحديده

العقوبات الاقتصادية

العقوبات الاقتصادية وسائل يتوسَّل بها لتضييق نطاق الاتجار مع الدولة المعتدية . وهذه الوسائل تكون في الغالب حظراً تامًّا او جزئيًّا على المواد الآتية :

١ — جميع الواردات من الدولة المعاقبة

٢ — الصادر اليها من مواد الحرب كالاسلحة والذخيرة

٣ — الصادر اليها من المواد الخام اللازمة للصناعات الحربية

٤ — جميع الصادرات الاخرى اليها

٥ — جميع الصادرات والواردات اي المقاطعة الدولية التامة

والعقوبات الاقتصادية يمكن ان تطبَّق على وجهين . فالوجهُ الاول يفرغ في قالب المقاطعة الاقتصادية ، فتمتنع كل دولة عن التوريد الى الدولة المقاطَعة . وهذه المقاطعة لا تصيب النجاح التام الاَّ على شرطين ، ان تشترك فيها جميع الدول التي تورّد الى تلك الدولة ، وان تكون الدولة عاجزة عن اكفاء نفسها بنفسها . فمدى النجاح في تطبيق العقوبات الاقتصادية من هذه الناحية مرهون بعدد الدول المشتركة فيها ، وبمدى ما تحتاج اليه الدولة المعاقَبة من الواردات الاجنبية

اما الوجه الثاني فهو ان تعمد الدول المعاقِبة الى ضرب نطاق بحري وبري حول شواطئ الدولة المعاقبة وحدودها منعاً لوصول اي بضاعة اليها . وهذا العمل يعرف بالحصر Blockade الاقتصادي والنجاح في هذا العمل يتوقف من ناحية على موافقة دول الصادر الكبرى والاستمداد لتأييد الحصر بالقوة الحربية والبحرية

فالفرق الاساسي بين المقاطعة الاقتصادية (اي الحظر السلبي) والحصر الاقتصادي (اي الحظر الفعَّال) هو ان الحظر السلبي يمكن ان تطبقهُ كلُّ دولة على حدة من دون ان تتعرَّض لخطر ما الاَّ خطر مقابلة عملها بمثله من قبل الدول المعاقَبة . حالة ان الحظر الفعال لا يمكن ان يتمَّ الاَّ مستنداً الى القوة . ومقاومة الدولة المعاقَبة لهذا الضرب من العقوبة لا بدَّ من ان يفضي الى حرب . ومما يضاف الى هذا ان الدول غير المنتظمة في الجامعة ، قد تعترض على الحصر البحري ، لعرقلتهِ اعمالها التجارية ، وقد يفضي الى مشكلات خطيرة بينها وبين دول الجامعة

حظر الواردات من الدولة المعاقَبة

المرتبة الاولى في تطبيق العقوبات الاقتصادية هي حظر دخول الوارد من الدولة المعاقبة الى الدول المشتركة في تطبيق العقوبات عليها . وتنفيذ هذا العمل خالٍ من الصعوبة . فهو من الناحية

الادارية سهل التطبيق ، لا يحتاج الى هيئة حكومية جديدة للقيام به ، بل يكتفى بالاعتماد على مصلحة الجمارك في ذلك . ثم انهُ يفضل على حظر الصادر ، لانهُ اسهل على تعيين مصدر الوارد الى بلاد ما من ان تعين المصير النهائي للصادر منها . ويضاف الى هذا وذاك انهُ لا يحتاج الى اي عمل خاص ، من قبيل الحصر البحري لمنع الصادرات من الوصول الى شواطىء الدولة المعاقبة . ولا ريب في انهُ اسهل على حكومة ما ان تقنع شعبها بالامتناع عن شراء بضائع معينة ، من ان تقنعهم بالامتناع عن بيع بضائعهم . فحظر الوارد من الدولة المعاقَبة الى الدول المعاقِبة اسهل من الناحية النفسية من حظر الصادر منها الى الدولة المعاقبة . وهذا الحظر يؤثر في اضعاف موارد الدولة المعاقَبة في الاسواق الخارجية ، لانها تعتمد على ثمن ما تبيعه في الخارج ، لشراء ما تحتاج اليه . فتطبيق هذا الحظر جنباً الى جنب مع تطبيق العقوبات المالية من شأنه ان يحد الى مدى بعيد من مقدرتها على شراء ما تحتاج اليه في الخارج ، الا اذا كانت تملك مقداراً فائضاً من الذهب تصدره لتوفي به ثمن ما تشتريه

والنجاح في هذا الضرب من العقوبات الاقتصادية يتوقف على عدد الدول المشتركة فيه ومقدار ما كانت تصدره في ابان السلم الى الدولة المعاقَبة

حظر تصدير مواد الحرب اليها

من العقوبات الاقتصادية التي تجدر توقيعها على دولة تستعد لحرب ، او تخوض حرباً منتهكة في عملها عهد جامعة الامم وعهدة باريس (كلوج بريان) الامتناع عن تجهيزها بالوسائل التي تمكنها من القيام بالحرب ، اي الاسلحة والذخائر

والنجاح في توقيع هذه العقوبة يتوقف على الجواب عن الاسئلة التالية : — ما مبلغ تقدم الصناعة في الدولة المعتدية وما مقدرتها على صنع السلاح ؟ هل تملك مصادر للمواد الخام اللازمة لصناعة الاسلحة ، في بلادها او بلاد خاضعة لها ؟ هل خزنت مقادير من هذه المواد استعداداً للحرب وما مقدار ما خزنته ؟ هل اتفقت اهم الدول التي تصنع الاسلحة على تطبيق هذه العقوبة ؟

ان صناعة الاسلحة ، صناعة واسعة النطاق ولكنها تكاد تكون محصورة في اثنتي عشرة دولة هي بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الاميركية وتشكوسلوفاكيا والسويد وايطاليا وهولندا والبلجيك والدنمارك واليابان واسبانيا وسويسرا ، وقد بلغ ما صدّرتهُ هذه الدول ٩٨ في المائة من مجموع تجارة السلاح الدولية سنة ١٩٣٢ ولكن ٦٩ في المائة من تجارة السلاح الدولية في تلك السنة خرج من ثلاث دول فقط هي بريطانيا وفرنسا والسويد . فالدول من هذا القبيل فريقان فريق يملك مصادر للمواد الحربية ومصانع لصنعها وفريق لا يملك هذه ولا تلك ، او قد يملك المصانع دون مصادر المواد اللازمة لها

لحظر تصدير السلاح والذخيرة الى الفريق الثاني ، يحول دون استمراره في حرب ما اكثر من مدة قصيرة ، اي حتى ينفد ما خزنهُ من الاسلحة والذخيرة قبل نشوبها او بعيده. ذلك ان ما تخزنهُ الامم من الاسلحة والذخائر الحربية في ايام السلم ، قليل لا يذكر ، اذا قيس بما يستنفد منها في ابان الحرب ، فالقنابل ورصاص البنادق والمفرقعات بوجهٍ عام تستهلك بسرعة عظيمة في الحرب . والمدافع تبرى فيجب ان تبدل بغيرها او ان يعاد تبطينها ، والطائرات تبلى اجزاؤها بمعدل مائة في المائة في الشهر خلال الحرب ، وقلّما تخزن دولة ما من الاسلحة والذخائر ما يكفيها اكثر من مدى الفترة الاولى من الحرب ، وهي الفترة التي تستنفد فيها الذخيرة ، وتصبح الاسلحة في حاجة الى التجديد . ولا ريب في ان المخزون من هذه المواد في البلدان التي لا تصنعها اكبر في المتوسط مما تخزنهُ الدول التي تملك المصادر والمصانع معاً . ولكنها مع ذلك لا تلبث ان تشرع في حرب ، وتفرض عليها العقوبات الاقتصادية ومنها حظر توريد الاسلحة والذخائر اليها حتى تدرك عجزها عن مواصلتها

وقد اعترفت لجنة عينتها جامعة الامم للبحث في النزاع القائم بين بوليفيا وباراغوي ، وقد دامت الحرب بينهما ثلاث سنوات (١٩٣٢ — ١٩٣٥) بانهُ لولا وارد الاسلحة الى الدولتين من الخارج لعجزت الدولتان عن مواصلة الحرب . ولا ريب في انهُ لو طبق حظر تصدير السلاح على الدولتين المتحاربتين معاً لانتهت الحرب في سنة ١٩٣٣ . بل لو ان الجامعة تحركت وفقاً لقواعد عهدها وعيّنت المعتدي من الدولتين المتحاربتين وفرضت العقوبات عليهِ وحدهُ ، لما طالت الحرب اكثر من بضعة اشهر

الاّ ان حظر تصدير السلاح والذخيرة الى بلاد تملك مصادر ومصانع كافية لصنعهما لا يؤثر وحده تأثيراً كبيراً في مقدرتها على مواصلة الحرب . ومع ذلك فقد رأينا بريطانيا وفرنسا ، في خلال الحرب الكبرى تبتاعان السلاح والذخيرة من الولايات المتحدة الاميركية اكفاء لحاجتهما منهما مع ان صناعة السلاح فيهما اوسع نطاقاً واوفى عدّة منها في غيرهما من الدول . فليس ثمة دولة من الدول في وسعها ان تنفي ، وهي مشتبكة في حرب كبيرة ، عن هذا الضرب من العقوبات الاقتصادية

ولا بدّ في تنفيذ هذا الحظر من جعلهِ تامّاً وعامّاً والاّ ضيّع الغرض المقصود وفي ذلك لا بدّ من الاتفاق بين الجامعة والدول المصدّرة للسلاح

والغالب ان لا يكون لتوقيع الحظر على مواد الحرب ، تأثير واسع النطاق في البلاد التي توقعهُ لانهُ ينحصر في خسارة بعض الشركات التي تصدر هذه المواد ، وعند ذلك لها ان تطلب تعويضاً من حكومتها ولكنها اذا كانت تجري على النظام الذي تجري عليهِ الحكومة البريطانية ، وهو وجوب استصدار رخصة من الحكومة لتصدير كل شحنة من الاسلحة والذخيرة ، فليس ثمة سبيل لطلب هذا التعويض لانهُ من حق الحكومة ان ترفض اصدار هذه الرخصة عندما ترى باعثاً على ذلك

ولكن اذا شاءت الدولة المعاقبة ان تثأر لنفسها من تحريم هذا الضرب من الصادر اليها ، كان

لعملها تأثير هام في تجارة البلاد التي وقعت المقوبة عليها. ففي سنة ١٩٣٤ ادعت حكومة بوليفيا ان الحظر الذي وقعتهُ حكومة انكلترا على تصدير الذخيرة والسلاح اليها ، مناقض للاتفاق الانكليزي البوليفي المعقود سنة ١٩١١ وانذرت الحكومة البريطانية بفرض ضرائب اضافية على الشركات البريطانية في بوليفيا ، وكانت هذه الشركات معفاة من هذه الضرائب بمقتضى المعاهدة المذكورة . فكان ردُّ الحكومة البريطانية ان عملها هذا ليس مناقضاً للاتفاق . ولكن الحادثة تدلُّ دلالة واضحة على ما تستطيعهُ دولة معاقَبة في هذه الناحية

فيتضح مما تقدَّم ان حظر تصدير الاسلحة والذخيرة ، عمل لا تعترضهُ صعاب كبيرة من الناحية الادارية ، ولا يؤثر تأثيراً هامًّا كبيراً في تجارة البلاد التي تفرضهُ . وان نجاحه مرهون باتفاق جميع البلدان المشهورة بصناعة الاسلحة والذخيرة على توقيعهِ ، وان فعله في الغالب لا يكون كبيراً الاَّ اذا وقع على بلدان لم ترتق فيها الصناعة ارتقاءً عظيماً ، بل انهُ لا يؤثر الاَّ تأثيراً يسيراً محصور النطاق اذا فرض على بلدان تملك المصانع الوافية . فاذا كان في الامكان تعيين المعتدي وفرض الحظر عليهِ دون المعتدَى عليهِ ، كان تأثيره اسرع ظهوراً منهُ اذا فرض على الفريقين المتحاربين معاً

وعلى كل حال لا يكفي حظر الاسلحة والذخيرة وحده في معاقبة دولة تنوي الاعتداء لانها تكون في هذه الحالة قد اعدَّت عدَّتها بخزن مقادير كبيرة من السلاح والذخيرة قبل شروعها فيهِ

حظر المواد الخام اللازمة للحرب

قلنا ان حظر الاسلحة والذخيرة ، لا يجدي نفعاً ، اذا كانت الدولة المعاقبة تكفي نفسها بنفسها من حيث صناعة الاسلحة في بلادها . ولكن هذه الكفاية لا تقوم على وجود المصانع الوافية في البلاد فقط بل تقوم كذلك على امتلاك البلاد لمصادر تستطيع ان تستمدَّ منها المواد الخام اللازمة لهذه الصناعة . والمواد الخام ليست موزعة توزيعاً متساوياً بين الامم ، او في مناطق الارض المختلفة . فيجدر بنا ان نلقي نظرة على هذه الناحية من الموضوع ، لنعلم ، هل مدُّ الحظر حتى يشمل المواد الخام اللازمة لصناعة الاسلحة والذخيرة الحربية ، من شأنهِ ان يضيق الخناق على المعتدي او لا

واول ما يتجهُ اليهِ النظر في هذا الصدد ، هو ان نعرف المواد التي تحتاج اليها الامم في هذه الصناعة ، وما تحتاج اليهِ الدول المختلفة منها

فردًّا على السؤال الاول نقول ان الامم العسكرية ، متجهة في هـذا العصر ، الى جعل الآلة الميكانيكية ، اساساً لتنظيم الجيش . فالجيش الحديث لا غنى لهُ عن السيارة والطائرة والمدافع على انواعها ، والدبابات الثقيلة والخفيفة ، وهذا علاوة على اصناف السفن الحربية من البوارج الضخمة الى الغواصات وباذرات الالغام . فالصناعات الاساسية التي تعتمد عليها الامم في الاستعداد للحرب ، هي صناعة المعادن ، والصناعات الكيمائية والكهربائية ، وصناعة استخراج النفط وتكريرهِ واعداد اصنافهِ المختلفة . وفي ما يلي قائمة باهم المواد التي لا غنى لهذه الصناعات المختلفة عنها ، وما تستعمل لهُ

الفحم والكوك — لا بدَّ منهما في صناعة الصلب وتوليد الطاقة لاسباب النقل الحديثة. ويستخرج منهما زيوت معيَّنة مثل الفينول والتولوين والكريزول وهي مما لا غنى عنهُ في صناعة المتفجرات

النفط — وهو الوقود الذي لا غنى عنهُ للسيارات والدبابات والطائرات والسفن الحربية ويستخرج منهُ كذلك الزيوت لتزييت جميع المحرّكات على اختلافها

القطن — لصناعة المتفجرات

الصوف — مادة لاغنى عنها لاغراض متعددة ومنوّعة

المطاط — يستعمل لاغراض منوّعة، أهمها في الصناعة الكهربائية، والنقل. ولا يخفى ان الالمان في خلال الحرب الكبرى اضطرّوا ان يجعلوا اطارات العجلات في سيارات النقل من الحديد، لان الحصر البحري حال دون وصول المطاط الى بلادهم

الغليسرين — لا غنى عنهُ في صناعة الديناميت

السلولوس — لا غنى عنهُ في صناعة اصناف البارود الذي لا دخان لهُ

تبر الحديد والحديد الزهر — لا غنى عنهما في صناعة اية آلة من الآلات او سلاح من الاسلحة

الرصاص — لا بدَّ منه في صناعة الذخيرة الحربية والاحماض والمتفجرات

النحاس والخارصيني والقصدير والكدميوم — يحتاج اليها في صناعة بعض الاسلحة ومدافع الميدان والذخيرة الحربية والمعدات الميكانيكية والكهربائية

النيكل — يستعمل في صناعة بعض اصناف الذخيرة، والصلب

الالومنيوم — في الطائرات وكل محرّك او آلة يحتاج الصانع فيها الى خفة الوزن

الزئبق — كثير الاستعمال في كبسات المتفجرات

البلاتين — يحتاج اليهِ في صناعة الاجهزة الكيمائية وخاصة في صناعة النترات

الانتيمون والمنغنيس والمولبدنوم والتنغستن والكروم وبعض مركباتها — لا بدَّ منها في صنع اصناف الصلب القاسي

ويجري هذا المجرى حجر الفتيلة (الاسبستوس) والغرانيت والميكا والحامض النتريك والكبريت والزرنيخ والبروم والكلور والفصفور. والاربعة الاخيرة لاغنى عنها في صناعة الغازات الحربية

هذا عن المواد الخام التي تحتاج اليها الامم المختلفة في صناعاتها. وليس من السهل معرفة ما تحتاج اليهِ الجيوش منها في المتوسط. ولكن اللجنة الاميركية للعقوبات الاقتصادية تناولت هذا الموضوع بالبحث الدقيق، فوصلت الى نتيجة تقريبية يصح اتخاذها مقياساً. فقد قالت في تقريرها ان الاعمال الحربية في الميدان تقتضي انفاق ما زنته ثلاثة اطنان من الصلب والسلاح والذخيرة والسكك الحديدية الخفيفة وواقيات الخنادق، للجندي الواحد في السنة. وان صنعها لا بد ان يكون قد اقتضى معالجة ستة اطنان من الفحم وستة اطنان الى ثمانية اطنان من الحديد. ويلي

ذلك ما يستنفد من النفط ويقدر بطنٍّ واحد للجندي الواحد في المتوسط في السنة . وتليه المواد الاخرى وهي اقل مما تقدم . فالجندي ينفق من مائة رطل الى مائتي رطل من كلٍّ من المواد الآتية وهي النترات والكبريت (البيريْت احد مركّباته) والسمنت والمنغنيس والنحاس والرصاص و٢٥ رطلاً من كل من المواد الآتية وهي القطن والصوف والمطاط والفلزات اللازمة للذخيرة الحربية اي القصدير والنيكل والانتيمون والالومنيوم والخارصيني (زنك) والزئبق . واذا صحَّ تقدير الخبراء فالمستهلك من النفط والوقود السائل والصلب في الحروب المقبلة ينتظر ان يفوق ما كان عليهِ في الحرب العالمية . فالمواد التي تستهلك في الحرب تفوق كثيراً ما يستهلك منها في ابان السلم ، حتى في الدول التي فيها مصانع كبيرة تصنع الاسلحة والاعتدة الحربية للتصدير . اما الدول التي لا تملك هذه المصانع فيبدو عجزها عن الفوز بمواد الحرب حال تطبيق هذه العقوبة عليها او بعيد تطبيقها

واذا رجع القارىء الى المقال الذي نشرناهُ في مقتطف نوفمبر الماضي بعنوان « المعادن والتبعات الدولية » (ص ٤٤٧) تبيّن ما تحتاج اليهِ الدول المختلفة من المعادن والفلزات اللازمة للصناعات الحربية فلا حاجة بنا الى تكراره هنا

وقد تعمد الدولة المعاقبة الى مصادر جديدة تستمدُّ منها المواد التي تحتاج اليها بعد حظر تصديرها اليها كما فعلت المانيا بنفط رومانيا في الحرب الكبرى ، او قد تعمد الى مناجم يتعذر استخراج المعادن منها استخراجاً رابحاً في ابان السلم ، فتستخرجها منها عند الاضطرار اذ يصبح الربح في المقام الثاني . او قد تجمع ما يطرح عادة من مادة معينة فتسبكها وتنقيها وتعيد استعمالها . او قد تحاول ان تستنبط بدلاً صناعيّاً يحلُّ محل المادة الطبيعية كما حاول الالمان ان يحلوا المطاط الصناعي محل المطاط الطبيعي فأخفقوا ، وكما حاولوا ان يصنعوا الاسمدة بتثبيت نتروجين الهواء لتحل محل الاسمدة الطبيعية فأصابوا نجاحاً عظيماً . او قد تبتدع وسائل جديدة لاستعمال مادة طبيعية متوافرة او في الوسع الحصول عليها ، بدلاً من اخرى لان الحصول عليها متعذر ، كما استعمل الالمان النيكل المستورد من كندا عن طريق البلدان السكندناوية بدلاً من المولبدنوم والتنغستن في تقسية الصلب

هذه العوامل تخفف من وقع الحظر على الدولة المعاقَبة ، ولكن تأثيرها ، بصرف النظر عن العامل الاول ، يسير جدًّا . يضاف الى هذا ان الاحداث الطبيعية قد تدمر ما تخزنه الدولة المنتوية الاعتداء من مواد الحرب . فالزلزلة التي اصابت اليابان سنة ١٩٢٣ دمرت احواض النفط ولو ان اليابان كانت مشتبكة في حرب حينئذ وتصدير النفط اليها محظور ، لاصيبت قوتها الحربية في اضعف مقاتلها

وكذلك يتبين للقارىء ان الدولة المعتدية تواجه مصاعب عظيمة الشأن في الاستمرار في اعتدائها اذا حظرت الدول بالاتفاق تصدير بعض المواد الخام اللازمة للصناعات الحربية . وحظر التصدير الى الفريق المعتدي يعني في الغالب اباحته الى الفريق المعتدى عليه . وكون هذه المواد الاساسية قليلة ، وخطرها ذريع التأثير ، يجعل الحظر ممكناً من دون ان تضطرب التجارة الدولية اضطراباً يبعث على القلق

المقاطعة الدولية

قد تكفي احدى العقوبات التي تقدَّم ذكرها لردع المعتدي عن الاعتداءِ، او لتقصير اجل اعتدائهِ، ولكن تأثيرها قد لايكون تامًّا لذلك قد يعمد الى عقوبات اخرى اعمّ وافعل في تحقيق الغرض المنشود، وفي مقدمتها « المقاطعة الدولية » بتطبيق جميع فقرات المادة السادسة عشرة من عهد الجامعة في وقت واحد . وتطبيقها هذا يقتضي من اعضاء الجامعة الامور التالية : —

١ — فصم جميع الصلات المالية والتجارية مع الدولة المعتدية

٢ — منع كل معاملة بين رعايا اعضاء الجامعة ورعايا الدولة المعتدية

٣ — منع كل معاملة تجارية ومالية بين رعايا الدولة المعتدية ورعايا الدول الاخرى سواءٌ كانت اعضاء في الجامعة ام لم تكن

ولا تعلم عقوبة اتمّ فعلاً من هذه العقوبة . فان فعلها لا بدَّ ان يكون سريعاً وتامًّا في ردع الامم التي لم تبلغ مبلغاً عالياً من التقدُّم الصناعي . اما تأثيرها في الامم الصناعية الكبيرة التي لا تتأثر عادة تأثراً كبيراً باحدى العقوبات المتقدمة ، فلا بدَّ ان يكون كبيراً كذلك ، ولكنهُ على كلّ حال يتوقف على مدى اعتمادها على تجارتها الخارجية . واقلُّ الامم اعتماداً على تجارتها الخارجية هي روسيا السوفيتية والولايات المتحدة الاميركية، وتليها بولونيا فاليابان فاسبانيا فايطاليا فالمانيا فتشكوسلوفاكيا ففرنسا فالسويد فالمملكة المتحدة (اي انكلترا واسكتلندا ويلز) فالبلجيك

اما منع توريد المواد الغذائية الى دولة من الدول فعقوبة لا تطبَّق الا عند الحاجة القصوى والمملكة المتحدة بين الدول الكبرى ، اشدُّها تأثراً بهذه العقوبة لانها تستورد ٥٠ في المائة من المواد الغذائية التي تحتاج اليها . ويقتضي فصم عرى المعاملة اقفال الحدود البرية ووقف تبادل رسائل البريد والتلغراف والتلفون والمحادثات اللاسلكية ومنع الطائرات والسفن من النزول في مطارات الدولة المعاقَبة والرسو في مرافئها وسحب جميع الممثلين الدبلوماسيين والقنصليين واعتقال جميع رعايا الدولة المعاقَبة المقيمين في بلاد الدول المعاقِبة او ارجاعهم الى بلادهم

***

وقد تطبق المقاطعة الدولية تطبيقاً سلميًّا ، او تطبيقاً فعَّالاً اي حربيًّا . فالتطبيق السلميّ ممكن اذا اجمعت الدول على الاشتراك في التطبيق . ولكن لما كان الاجماع متعذراً ، ولما كانت بعض الدول الكبرى خارج نطاق الجامعة وقد لا يأنس من نفسهِ ميلاً الى الاشتراك مع دول الجامعة في هذا العمل فقد تقتضي الحالة في نهاية الامر استعمال القوة . وهذا يعني الحصر البحري والبري (Blockade) وهو ينطوي على خطر الاصطدام بالدولة المعاقَبة وبالدول المحايدة لان هذه في الغالب لا تتنازل عن حقوقها في الاتجار الحرّ مع الدولة المعاقَبة

الحرب القادمة

كتبها اوزبرت ستول سنة ١٩١٥

كانت الحرب الطويلة قد وضعت اوزارها . وكانت اهوالها قد محيت ذكراها . واصبح من الارهاق ان تحدّث الصمّ . بل ان حديث الابطال عاد يضجرك

***

اولئك الكيماويون السحرة[1] الذين حوّلوا الدم الى ذهب ، كانوا قد هرموا ولكنهم عقدوا اجتماعاً وقالوا فيه : « لعلّهُ يجب علينا ان نبني مقابر او نشيد مذابح »
« لذكرى اولئك الاحداث الشجعان الذي تقدموا مختارين ، فاصيبوا بالعمى ، او »
« حُرقوا ، او شوّهوا ، ففقدوا كلّ شبهٍ بينهم وبين الاحياء ، او نثروا قطعاً دامية »
« في سبيلنا . ان ذلك عمل جدير بهم وبنا »
« او لعلنا نعلم اولادهم »

***

ولكن اغنى هؤلاء السحرة سعل سعالاً لطيفاً وقال : لقد كنت دائماً في الطليعة — في العمل الخاص — وانني لا اتأخر عن احد في محبتي لبلادي . وعندي ان رأيكم ، رأي حسن ، رأي بديع ، ثم انهُ ليس كبير النفقة

***

ولكن يبدو لي ان القضية التي حاربنا في سبيلها مهدّدة بالخطر . واي تذكار اجدر باولئك الساقطين ، من ان يسقط ابناؤهم في سبيل القضية نفسها

***

وخرج الشيوخ الدماث الى الشارع يصيحون في الشبان :
« اتضحّون ، ايها المتقاعسون ، بما مات آباؤكم لكسبهِ ؟
« يجب ان نجعل العالم سالماً للشباب »

***

وذهب الاولاد . . . !

---

(١) اشارة سخرية الى رجال المال والاعمال الذين جمعوا ثروات ضخمة في الحرب

من روائع الشاعر الانجليزي — جون كيتس الخالدة

القارورة اليونانية

في متحف لندن « زهرية يونانية » قديمة خطت عليها كف الناقش صورة سامية من صور الحياة ، صورة عاشقين يهم احدهما بالآخر . لم يترك لهما المصور مجالاً للاقتراب ، ولم يعتقهما من هذا الموقف المفجع . وقع عليها ناظر « كيتس » فاستفزت مشاعره فراح يعطينا هذه الفريدة الرائعة من فرائده . وهي مقطوعة ذات الحان خفيفة ، لا ترى هنالك الا الحب ولا تشعر بغير الجمال . تبارك الله وتبارك هذا القلب السقيم الذي يرتاح للالحان الشائعة ويطلب الى الالحان ألا تنقطع . تبارك الله وتباركت هذه الحقيقة التي لفتها برداء الجمال حتى جعل الجمال مظهراً من مظاهرها وجعل الحقيقة مظهراً من مظاهره

(المترجم)

ايتها الغادة المحرومة من الراحة !

يا ربيبة السكون الغالية ، وابنة الاعوام المتوانية

يا ابنة الغابات التي تعرف كيف تحدثنا احاديث يكتنفها زهر أريجه اضوع من اشعارنا !

أية خرافة حاكتها اوراق الآلهة او الأموات او كلاهما معاً تنتشر — محفوفة بالسر — من أحنائك ؟

ومن هم هؤلاء الآلهة وهؤلاء الناس وهؤلاء العذارى المستوحشات ؟

هؤلاء المجنونات النافرات

وما هي هذه الوقائع في سبيل الانعتاق والانطلاق ؟

وهذه الصنوج والشبّابات ؟ وما هذا الانجذاب والذهول ؟

***

أن الارانيم التي نسمعها هي جميلة ،

وأجمل منها اغانيهم لا نسمعها ،
ألا اعزفي ايتها الصنوج لا لآذاننا ،
اعزفي وليكن عزفك اشد وقعاً ،
اعزفي للروح ورددي اناشيدك الخرساء .
وانت ايها الفتى الآوي الى فيء الشجر
انت لن تستطيع ان تنجز انشودتك كلها .
وهذه الاشجار لن تستطيع ان تعرى من اوراقها .
وانت ايها العاشق المسرع لن تقدر على ان تُعطي قبلتك ، مهما احسستَ أنك أشرفت على الظفر .
ولكن لا تأس ولا تحزن !
انها لن تذوى نضرتها ، ولن تتذوق انت منها كل بهجتك ستظل محبًّا لها حتى النهاية وهي حتى النهاية ستظل جميلة

***

سعيدة انت ايتها الاشجار التي لا تقدرين على التجرد من اوراقك ، ولا تقولين للربيع وداعاً !
وسعيد انت ايها الموسيقي الذي يردد دائماً بلا ملل اغانيَّ جديدة

***

واكثر سعادة ذلك الحب الملتهب الرغبة ، الدائم ظمؤه ،
السرمدي خفوقه ، اللامعة فتوته .

يسمو فوق كل هوى بشري عنيف ،
ويترك قلوبنا محرومة يأساً وسأماً ،
وجباهنا مضطرمة ، وشفاهنا يابسة .

***

من هم هؤلاء الذين قدموا الى مذبح التضحية ؟

والى اي معبد نضر ايها الكاهن السرّي تقود هذه العجلة التي يتصاعد خوارها للسماء ، وقد زينت اعطافها بأكاليل الزهر .

اية مدينة صغيرة مشيدة على ساقية او شاطىء ، او مرفوعة على طود حول معبد التماثيل الهادىء ، قد اقفرت من اهلها هذا الصباح القدسي ؟

انتِ ايتها المدينة الصغيرة ستظل شوارعك صامتة ،

ولا روح تعود من ذلك العالم تنبئنا سبب اقفارك .

***

ايتها المواطن التي يغشاها اشكال من الناس والعذارى الرخاميات المؤتلفات مع فروع الاشجار والاعشاب الموطوءة !

ايها الشكل الصامت الذي يحير كنهه العقل كما تحير الأبدية !
ستبقى انت عند ما تبيد الشيخوخة هذا الجيل
ستبقى بين آلام كآلامنا صديقاً للانسان الذي تقول له :
« ان الجمال هو الحقيقة والحقيقة هي الجمال »
هذا كل شيء — هذا كل ما تعلمهُ على الارض
وهذا كل ما يجب ان تعلمهُ عليها»

(ترجمها خليل هنداوي)

باب الزراعة والاقتصاد

صوامع الغلال

عنيت مصر اخيراً بمسألة خزن الغلال بعد ان مضت السنون وهذه المسألة مهملة كلَّ الاهمال ومحصول البلاد المصرية يفقد سنويًا ما لا يقلّ عن عشرين في المائة — بحسب التقديرات الرسمية — لما يصيبهُ من التلف الناشيء عن تقلُّب احوال الجوّ وبعض الآفات الحشرية والطيور والفئران

ومع ان مصر كانت اول امة فكّرت ونظمت مخازن الغلال في عهد يوسف عليهِ السلام ولا تزال آثار اهراآتها في الفيوم ماثلة للعيان ، فانها في العهد الحاضر تأخرت عن غيرها من الدول في العناية بهذا الامر الذي يهمُّ الزارع والصانع والتاجر والمستهلك على السواء

كانت مصر اهراء العالم القديم في عهد الرومان للغلال والحبوب . ولكنها فقدت مكانتها في هذا الميدان لانحطاط نوع الغلال نفسها واهمال الوسائل الفنية لتصنيفها وحفظها وعرضها في الاسواق العامة

فالزارع يكتفي بالآلات القديمة في درس محصولهِ وهو لا يكاد ينتهي من عملية الدراسة حتى يبادر الى التخلّص من المحصول لحاجته الى النقود فتهبط الاسعار في اول المحصول عادةً لكثرة المعروض منهُ في السوق . وهو ان فكّر في ابقاء المحصول قليلاً في احدى شون البنوك انتظاراً لتحسّن الاسعار تعرّضت غلاله لجميع انواع الآفات . حتى اذا ما حان وقت العرض تبيّن لهُ ان ما قد يكسبهُ من تحسن الاسعار ، يفقدهُ بتلف جانب غير يسير من المحصول المخزون

وقد حدث من عامين في احد البنوك المصرية المعروفة ان الفول الذي كان مخزوناً في شونهِ ، وكانت مقاديره كبيرة جدًّا ، هطلت عليهِ الامطار فنبتت حبوبهُ واضطرّ البنك للتخلص منهُ ان يبيعهُ بابخس الاسعار

***

وقد فطن علماء الغرب المحدثون الى هذه الناحية من الثروة الزراعيـة فصمموا مخازن للغلال و الحبوب على انواعها تتوافر فيها جميع الشروط والوسائل لحفظ المحاصيل من التلف ، فيستطيع صاحبها ان يخزنها ما شاء وهو يعلم انهُ لا يعرضها في خزنهِ لها لضرر ما وانهُ لا يتعرض هو لخسارة ما علاوة على تأثير ذلك في تنظيم العرض والطلب ، وفقاً للاسعار السائدة في الاسواق العالمية

والقاعدة في هذه المخازن الاعتماد على الوسائل الآلية في جميع مراتب العمل . فثمة آلات عملها ان «تشفط» الغلال من المراكب اوعربات السكة الحديد او مركبات النقل ، وتنقلها نقلاً ميكانيكيًّا الى داخل المخزن ، حيث تنقّى وتنظف وتصنَّف بآلات مختلفة اوتوماتيكية (اي تعمل من تلقاء نفسها) ثم توزن وزناً ميكانيكيًّا ايضاً بآلات تبرز رقعاً وقد دوّن عليها الوزن الصحيح

ويمكن كذلك ان تعالج الغلال بجميع الوسائل العلمية من تبخير وغيره داخل هذه المخازن ، بحيث اذا خزنت لم يبق لاصقاً بها ما قد يولّد آفة تصيبها

***

وقد اصطلح العلماء على تسمية هذه المخازن باسم «سيلو» Silo واصل هذه الكلمة عربيٌّ بحسب اقوال الغربيين ويظهر انها استعملت اولاً في اسبانيا والمغرب الاقصى . فحبَّذا لو عني احد اللغويين بالبحث عن اصل اشتقاقها العربي . وقد اصطلح على تسميتها في القطر المصري بالصوامع لان الفلاح اعتاد ان يطلق اسم صومعة على المخزن المبني بالطين الذي يحفظ فيهِ غلالهُ . وكان الكاتب جلال حسين اول من اطلق عليها هذا الاسم في مقالات لهُ نشرت في المقطم

وقد عمَّ استعمال هذه الصوامع في البلدان الزراعية الكبيرة والصغيرة في العالم اجمع ، ولم يكتفَ في استعمالها بخزن الغلال فيها،بل استعملت ايضاً لخزن البن وبزر القطن وبزر الكتان وغيرها من الحاصيل الزراعية

وكان اقبال الممالك المختلفة عليها دافعاً للبيت الانكليزي الكبير الذي يتولى تعميم هذه الصوامع وهو بيت هنري سيمون المهندسين المعروفين في بلدة ستوكپورت على مقربة من منشستر — وقد زارها كاتب هذه السطور ،وهي مشهورة بمصانعها المختلفة لآلات ضرب الارز وطحن الغلال — على انشاء فروع لهُ في استراليا وزيلندا الجديدة والهند وفرنسا والبلجيك وهولندا والبلدان السكندناوية والارجنتين وشيلي والبرازيل واوروغواي والمكسيك والصين واليابان

***

ومن عهد قريب فكرت وزارة التجارة والصناعة بعد طول البحث والدرس ان تنشىء صوامع تتسع لثمانية وعشرين الف طن من الغلال المختلفة في ساحل اثر النبي بالقاهرة بين مصر القديمة والمعادي حيث تقع شون الغلال المختلفة

ومما لا شكَّ فيهِ ان هذه خطوة مفيدة اذ لا جدال في ان مصر تحتاج الى مخازن اخرى عديدة من هذا القبيل . ففي الريف تحتاج الى مخازن صغيرة مما يسميهِ المهندسون باسم « صوامع الريف » وهي صغيرة تتسع احداها لالف اردب فقط . فالبنوك الزراعية في القطر المصري والدوائر الكبرى في حاجة الى مثل هذه الصوامع للعناية بخزن محاصيلها . ويضاف الى هذا ان البلاد تحتاج الى بناء صوامع من هذا القبيل في الموانىء لحفظ الوارد من الغلال

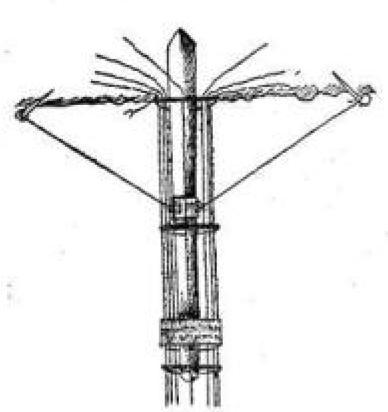
جهاز « الراليفان »

وتنمية النبات ومكافحة آفاته

يعلم قراء المقتطف ان الاشعة اللاسلكية القصيرة استعملت في تجارب منوعة في اوربا وأميركا لمكافحة بعض الآفات التي تصيب بعض الحبوب عند تخزينها ، وان بعض الباحثين مدَّ في الارض اسلاكاً كهربائية وأجرى فيها تياراً كهربائيًّا ، فزاد محصول المزروعات التي تأثرت بها . ومن شاء زيادة الاطلاع فعليه بمراجعة كتابنا فتوحات العلم الحديث (ص ٢٦٣ – ٢٦٥)

***

وقد اطلعنا من عهد قريب على تقرير وضعه المسيو جورج رالي Ralli في وصف جهاز استنبطه ودعاه « راليفان » وسجله في محكمة الاستئناف المختلطة في الاسكندرية في اول يونيو من هذه السنة . وهذا الجهاز مبنيٌّ على قاعدة تأثير الامواج الكهربائية القصيرة في النبات والآفات التي تصيبها . ومبدؤها التقاط الاشعة الكونية التي تخترق جو الارض بواسطة رؤوس معدنية دقيقة ثم نقلها بواسطة مكثّفات ومحوّلات فتجتمع بكهربائية الارض وتنشيء حقلاً كهربائيًّا مغنطيسيًّا حول المكان الذي توضع فيه وتولد أوزوناً في الجو



اما القاعدة الاخرى التي بني عليها هذا الجهاز فهو ان النبات يشبه الحيوان في تأثره بالعلاج بالامواج . وقد سبق للعلامة بوفون فبيّن ان هناك شبهاً اساسيًّا بين النبات والحيوان في تركيبهما الحيوي وافعالهما الفسيولوجية

فالعلاج بالامواج يقوي الجسم الانساني ويمنع بعض الامراض ويشفي البعض الآخر . وقد اثبتت التجارب المختلفة في بلدان متباعدة صحة هذا القول . فالتعرُّض للاشعة التي فوق البنفسجي الصادرة من مصباح القوس فعّالة في منع الكساح مثلاً . والاشعة المنطلقة من الراديوم فعّالة كذلك في معالجة بعض النواحي السرطانية . والتعرض لاشعة الشمس عامل فعّال في معالجة المصابين بالدرن . والاشعة اللاسلكية القصيرة تستعمل في اميركا الآن ، في نطاق محدود ، لاحداث الحمّى اللازمة لمعالجة شلل الحلق العام

والظاهر من تقرير المسيو رالي ومن تجارب سبق لنا فاطلعنا عليها في مجلات علمية منوّعة ،

ان العلاج بالاشعة يؤثر في النبات تأثيراً من قبيل تأثيره في جسم الانسان . وهو يقول انهُ يقوي بنية النباتات والاشجار المثمرة ويزيد محصولها ضعفين او ثلاثة اضعاف

ولما كانت التيارات الكهربائية تتجه ، وفقاً للنواميس الطبيعية ، الى القطب المغناطيسي الشمالي فيجب ان يوضع هذا الجهاز في الناحية الجنوبية من قطعة الارض المزروعة التي يراد معالجتها به فيمتد المجال الكهربائي المغنطيسي بالجذب من الجنوب الى الشمال ويشمل قطعة الارض كلها

ومن التجارب التي اشار اليها المسيو رالي ان فداناً كان يعطي محصولاً من القمح يقدر بنحو خمسة ارادب الى ستة ارادب فصار يعطي محصولاً يختلف من ١٢ اردبًّا الى ١٥ اردبًّا . وهو يقول ان سنابل القمح لا تزداد عدداً ولكن حجم حبوبها ووزنها يزدادان ضعفين او ثلاثة اضعاف ثم ان حبوب القمح نفسها تكون امنع على الآفات ، واغنى بمادة الغلوتين ، وقشّهُ اكبر واقوى

***

وقد عالج المستنبط في الجانب الثاني من تقريره فائدة هذا الجهاز في مكافحة بعض آفات النبات الطفيلية وابادة الديدان والحشرات

وقاعدة هذه الناحية من فائدة الجهاز ، المباحث التي قام بها دارسونفال وغيره من العلماء وخاصة دايفس الاميركي وقد وصفناها في كتاب فتوحات العلم الحديث . فقد اثبت دايفس ان الطاقة المشعة القصيرة الامواج تخترق حبوب القمح مثلاً وتحدث حرارة عالية مميتة في اجسام الحشرات التي قد تكون داخل الحبوب فتفتك بها (فتوحات العلم ص ٢٦٤)

وقد وصف المسيو رالي في تقريره تجربة قام بها اذ اخذ طائفة من النباتات (الجرناه — جرانيوم) في تسعة اصص وحقنها بما يحدث فيها نوامي مرضية من قبيل النوامي السرطانية في الانسان . فلما ظهرت هذه النوامي ، أخذ اصيصاً منها واحاطهُ باسلاك على طريقة معينة تكفل تأثر النبات بالامواج التي يولدها الجهاز وبعد ثلاثة اسابيع ذوت النباتات التي في الاصص الثمانية وهي التي لم تعرَّض للاشعة. اما النبتة التي في الاصيص التاسع ، وهي النبتة التي عولجت على المنوال المتقدم ، فبقيت حية ، بل ان النوامي المرضية تساقطت عنها ، بل ان ازهارها جاءت آية في نضارتها ورونقها وجمالها

وقد اشار لاكوسكي في كتابهِ « اسرار الحياة » الى تجارب من هذا القبيل اسفرت عن نتائج تؤيدها نتائج المسيو رالي

فهل تصلح هذه الآلة لمكافحة دودة القطن ؟ هذا ما يراهُ المسيو رالي

والخلاصة ان القواعد العلمية التي بني عليها هذا الجهاز قد ايدتها مباحث العلماء في اوربا واميركا فيجدر باولي الامر ان يجربوا تجارب محكمة واسعة النطاق، ليُعرف مدى فائدته العملية في مكافحة مصائب الزراعة المصرية وزيادة محاصيلها

باب المراسلة والمناظرة

في همزة ابن

سيدي مدير المقتطف الأغر

سلام واحترام وبعد فقد نشرتم في عدد نوفبر من مقتطفكم الاغر نقداً لكتابي عمر ابن ابي ربيعة بقلم الاستاذ حسن كامل الصيرفي وارجو ان تسمحوا لي في ان اغتنم هذه الفرصة لأشكر للاستاذ الكريم ثناءه عليَّ وحسن تقديره لعملي وتخيله الرائع لكتابي غير اني لا اوافق حضرة الاستاذ الكريم في مسألة كتابة همزة ابن فقد ذكر ان القاعدة في حذفها هي ان تقع لفظة ابن بين اسمين ولهذا يرى وجوب حذفها في عنوان كتابي الرئيسي والفرعي بحيث يكتبان هكذا :

«عمر بن ابي ربيعة» و«عصر بن ابي ربيعة» والمعروف في امر رسم همزة ابن غير هذا اذ ليست الاسمية قبل ابن وبعدها بكافية لاسقاط همزتها حتى ولا العلمية الا على شروط خاصة وقد امتنعت هذه الشروط في كلا العنوانين وكنت اودّ ذكرها لولا ان القدماء قد كفوني مؤونة هذا بذكرهم المواضع التي تثبت فيها همزة ابن بقصيدة اوردها الشيخ ناصيف اليازجي في «مجمع البحرين» هذا نصها:

قد أثبتوا ألِفَ ابنٍ في مواضع من ... كلامهم كابنةٍ خذها بتصويرِ
اذا أضيف لإضمارٍ رضى ابنك او ... لجدّه مثل عمّارٍ ابن منصورِ
او ذي مجازٍ كمقداد ابن الاسود اذ ... ابوه بالحقّ عمرٌو غير منكورِ
او امه نحو عيسى ابن البتول مما ... او كان في خبرٍ يحيى ابن مشهورِ
او كان مستفهماً عنه كقولك هل ... زيد ابن عمرو ام ابن القاسم الصوري
او كان تثنيةً كالمرتضى وأبو ... خديجة ابنا عليٍ مشرق النورِ
او عكس ذاك بأن قدمت تثنية ... كالخالدان ابن يسرٍ وابن ميسورِ
او جاء الابن بغير اسمٍ تقدمه ... نحو ابن موسى وزيدٌ وابن مذكورِ
او كان اول سطر او دعا سببٌ ... لقطع همزته في نظم منثورِ
كجاءنا خالد إبن الوليد وفي ... جمعٍ على ابنين في بعض المناكيرِ
زيدٌ وعمرٌو ويحيي ابنو ابي رجبٍ ... جاءوا وقد حفظوا هذا بتذكيرِ
او جاء لفظ ابيه بعده مثلاً ... كجعفر ابن ابيه صاحب الصورِ

او آخر اسم عن ابن نحو قولك قد جاء ابن زيدٍ عليٌّ خير مشكورِ
او حال بينهما وزن كجاء لنا ردٌ بنی كظِربی ابن موسی صاحب الطورِ
او كان نصبٌ باعني فيه مضمرةٌ كمثل اكرمني زيدٌ ابنَ مسرورِ
او بعد اما لشكٍّ جاءني حسنٌ إمَّا ابن سعدٍ وامَّا إبن منظورِ
او حال بينهما وصفٌ كاكرمنا يحيى الكريمُ ابن ميمون بن مجبورِ
او كان من بعد جمع كالعبادة ابن المرتضى وابنِ عمرٍو وابن معمور
او كان الابن مضافاً لابن او لاخٍ او عمّه كالمعلّى ابن ابن عصفور
أو كان الابن مناديً نحو حدّثنا موسى ابنَ مشكورِ يعني يا ابنَ مشكور
أو كان بينهما ضبطٌ كقال لنا سحبانُ بالضم ابن المرتضى الدوري (١)

ويجدر بي ان اشير الى ان هناك شرطين من هذه الشروط يمنعان حذف همزة ابن في العنوان الرئيسي — عمر ابن ابي ربيعة — اولهما في البيت الثاني وهو اضافة العلم الى جدّه وابن ابي ربيعة هو جدّ عمر لا والده والشرط الثاني وارد في البيت التاسع عشر وهو اضافة الابن الى كنية كزيد ابن اخي فلان او كعليّ ابن ابي طالب مع ان ابا طالب والده لاجدّه . اما في العنوان الفرعي وهو عصر ابن ابي ربيعة فيكفي ان تكون كلمة عصر غير علم لتثبت همزة ابن وعليه فنكتب ديوان ابن الفارض وعقد ابن عبدربّه باثبات همزة ابن

وكم كنت اود لو يصطلح علماء اللغة على رسم همزة ابن بالالف أنّى وقعت هذه اللفظة ولابدَّ لي في الختام من شكر حضرة الاستاذ الكريم لتنبيهه اياي الى الخطأ الذي ارتكبه الخطاط في تحريك نون ابن — بالعنوان الفرعي — بالضم حيث كان يجب ان تحرّك بالكسر

جامعة بيروت الاميركية كلية الآداب والعلوم جبرائيل جبّور

***

أشكر للاستاذ جبّور تنبيهه إياي الى المواضع التي يجوز فيها اثبات الالف في كلمة (ابن) على اني قد لاحظت ان الاستاذ المؤلف قد اسقط ألفها في كل موضع ذكر فيه اسم الشاعر عمر بن أبي ربيعة في متن الكتاب ولكنها اثبتت في العنوان . وأريد ان اذكر للاستاذ ايضاً اني لم انوّه في كلمتي عن هذه الالف في جملة (عصر ابن ابي ربيعة) لأن عصر ليست علماً ، وانما اردت الاشارة هناك الى رفع (ابن) وهي في موضع الجر

حسن كامل الصيرفي

(١) راجع مجمع البحرين للشيخ ناصيف اليازجي طبعة المطبعة الاميركانية ببيروت ١٩١٣ صفحة ٥٣ — ٥٤ على هامش المقامة البغدادية

كتاب الدكتور شهبندر

وردت علينا رسائل كثيرة من قرّاء المقتطف في مختلف الاقطار التي يقرأ فيها يسألوننا عن المقالات النفيسة التي ينشرها الدكتور عبد الرحمن شهبندر في « المشكلات الاجتماعية الكبرى في الشرق الادنى » وهل ينتظر ان تجمع في كتاب على حدة ، فرداً على هذه الرسائل يسرّنا ان نقول ان المؤلف الفاضل قد انجز هذه السلسلة النفيسة بمقال « الدين والنهضة الاخلاقية الحديثة » المنشور في هذا العدد ص ٦٠٥ . وادارة المقتطف تستعد الآن لتجليد الكتاب وقد لا يأتي شهر دسمبر على آخره حتى يكون ذلك قد تمّ

تصحيح خطأ

١ — قصيدة النشوء والارتقاء

وردت غلطة في قصيدة (النشوء والارتقاء) من المطبعة اضاعت معنى البيت بان كُتِب « وتبكيك » بدل « وتُبْلِيكَ » في البيت

(وتُبْلِيك الحياة كما يفت الجو صوانا)

وبين القراء تجد الاديب حقاً لا بد ان يفهم انها تُبليك فلا يضيع المعنى مع مثله من القراء ولكن الذين يأخذون غلطات المطبعة قضية مقدسة وحقيقة رائعة كثيرون ولا أزال اذكر ان بعض الفلاسفة قد بنى آراء وفلسفة كبيرة على اغلاط مطبعية وردت في طبع آراء باسكال الفرنسي وحدث مثل ذلك في اغلاط مطبعية وردت في طبعة شكسبير الاولى فقد كان الادباء في العصر الذي شاع فيه تقديسه قبل النقد الادبي يرقصون طرباً لمعانٍ لا وجود لها بل هي اغلاط مطبعية كشفت بعد ذلك ولو كنت واثقاً من ان القراء سيجدون مثل هذه الآراء الرائعة التي ليس لها وجود لما همني الامر

عبد الرحمن شكري

٢ — الجامع المختصر

جاءنا من الدكتور بشر فارس من برلين تنبيه الى خطإٍ مطبعي وقع في العبارة الاخيرة من مقاله عن « الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير : الجزء التاسع » الذي عني باخراجه الاستاذ مصطفى جواد . مقتطف اكتوبر ١٩٣٥ ص ٣٧٤ و٣٧٥ ، فقد ظهرت العبارة في المقتطف كما يلي : ومن المتعذر ان (تجد تصحيفاً او تحريفاً او اضطراباً او سوء فهمٍ للنص ومخرجِ الكتاب الى الناس مخرجه ؟) . والحقيقة ان القوسين وعلامة الاستفهام اقحمت على العبارة خطأً ولم ينتبه لها قارىء التجارب فقلب المعنى من الثناء الجم على المخرج ، وهو ما يستفاد من مجمل المقال ، الى التشكيك في قيمة ما فعل وهو ما لم يقصد اليهِ الكاتب البتة . فاقتضى التنبيه

تخليد ذكرى المتنبي

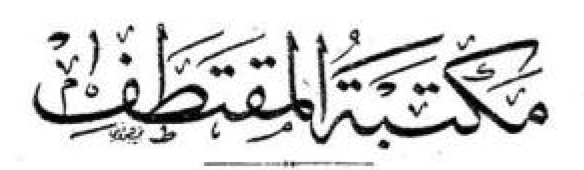
اجمعت الامة العربية في هذه السنة على تخليد ذكرى شاعر العرب الاكبر ابي الطيب المتنبي ، فاحتفلت محافل الادب بذكره ، في اكثر البلاد العربية ، واصدرت المجلات او أكثرها اعداداً خاصة بالمتنبي عرض فيها الادباء آراءهم فيه وفي شعره



ولما كان اقرب عدد يظهر من المقتطف الى تاريخ وفاة المتنبي في ٢٧ رمضان سنة ٣٥٤ هو عدد يناير الذي يصدر في يوم ٦ شوال سنة ١٣٥٤ فقد رأى المقتطف ان يؤدي الى الامة العربية حقها عليه في احياء الادب ، فندب احد الادباء ان يبذل من ذات نفسه في قراءة المتنبي وتحقيق ما قيل عنه وعن شعره ، ليخرج للامة العربية صورة قريبة من الحق لشاعرها الاكبر

وقد جهد هذا الاديب في تنقية تاريخ الشاعر مما وقع فيه من الروايات الغريبة عن نسبه ونشأته ونبوته ورحلاته في البلاد العربية عند الامراء الذين مدحهم او هجاهم او اقام بينهم ، وكشف في تاريخه عن جهات لم يلتفت اليها الباحثون من المتقدمين او المتأخرين على فضلهم وعنايتهم ، فخرج ما كتبه عنه ، ما يعدُّ كتاباً عن الشاعر العظيم يقدمه المقتطف لقراء العربية ، عسى ان يكون سبباً في توجيه دراسة الشاعر وشعره الى ناحية اخرى غير التي درج عليها البحث القديم والحديث

وفي هذا العدد كلمات اخرى لبعض كبار الادباء عن شعر المتنبي ، ومجموعة هامة من قصائده ، ثم مجموعة اخرى من بلاغات المتنبي وحكمه جمعت مرتبة على الترتيب التاريخي لشعره ، تبين عن تدرج منهج الشاعر او اختلافه على مرّ الايام والسنين



المختار

الجزء الاول — تأليف الشيخ عبد العزيز البشري — صفحاته ٢٣٨ ثمنه ١٥ قرشاً

الشيخ عبد العزيز البشري ، امير من امراء البيان العربي الصافي كالبلور، الوهاج كالذهب الابريز، يأخذك من بيانه الجزالة والوضوح . فالرأي يسوقهُ اليك لايعتوره غموض والعبارة يرسلها قلمهُ كأنها الحجاج . يفعل ذلك في الاقطاب الذين يترجم لهم (الباب الثالث من الكتاب) والمبتدعات الجديدة التي يصفها ، وخلجات النفس التي يحسُّها (الباب الثاني) ، ونفحات التاريخ العربي والادب العربي (الباب الاول) يقلّبها على وجوهها ثم لا يقبلها في معرض الرأي الاَّ وقد استقامت على اسس راسخة من عقلهِ وحسّهِ وذوقهِ . فالفصول التي يحتوي عليها هذا الكتاب من الآيات الادبية. فهي تمتُّ من ناحية الى اعرق الاصول في ادبنا العربي المجيد، ومن ناحية اخرى الى حياة الذهن المصري في هذا العصر الحافل بضروب المعاني المستحدثة والآراء الطريفة . وقد اشار خليل بك مطران في مقدمتهِ النفيسة الى اسلوب الشيخ الكريم فقال :

« ها هنا يمرّ المطالع بقلائد وفرائد من خطب وفصول في الأدب لا يخرج يتيمها ، ولا يحكم صوغها وتنظيمها الاَّ قلم البشري ولسان البشري تحركهما نفس كبيرة الهم بعيدة المرامي، قلقة في مهابّ الاهواء ومثارات المنازع ، فيّاضة بحب مصر ، وايثار العربية الفصحى لها لغة ، تتجنب التحقيقات العلمية ، والتعاريف المنطقية ، وان تبتغي الاَّ اقتناع المتأدبين من طريق الباعث الغريزي فيهم ، ومن طريق اخبارهم عما يجري عند الامم الغربية الراقية من مثل ماعندهم ، بأن البيان يجب أصلاً ان يكون عربيًّا سليماً في اللفظ والاسلوب والاصطلاح ، وأن يتكيَّف مع سلامته ومراعاته لتلك الأصول فينطبع بطابع الفطرة المصرية التي لها ما تتخيره خاصة من تلك اللغة وتلك الأصول . فإذا أحيط البيان بهذا النطاق وصين من تسرب العجمة اليه ، فلا مانع يمنع من كل ابتكار وتجديد ، على ألاَّ يعدو حدوده ولا يمسّ الخصيصة القومية في جوهرها »

المقدس

تأليف نقولا الحداد — صفحاته ٢٩٢ — ثمنه ١٥ قرشاً

سفر عجيب ، لا هو بالرواية ، ولا هو بالتاريخ ، ولا هو برسالة في الاجتماع والاخلاق ، بل هو مزيجٌ منها جميعاً، فيهِ علم، وفيهِ فلسفة، وفيهِ تحليل اجتماعي واقتصادي لمشكلات المدنية الحاضرة ومزايا المدنية المقبلة وهو الى ذلك مرسل في قالب القصة تقرأهُ فيذكرك بما طالعتهُ لولز من بدائع الخيال العلمي والاجتماعي ؛ ولكنهُ ليس ولز . وتتساق مع النضال الاجتماعي فيهِ ، تمجيداً للمبادىء الاشتراكية المثلى، فتتذكر الكتاب الذي ظهر من شهر فقط في اميركا لسنكاير لوِس حائز جائزة نوبل

الادبية ، وقد تصوّر فيه انقلاباً فاشستيًّا في نظام الحكم في اميركا ، ولكن عنوانهُ دليل على رأي المؤلف الخاص اذ جعلهُ « لا يمكن ان يقع هنا »

وهذا الضرب من الكتابة قد يبدو سهلاً لمن لم يتعمق في فهم مقتضياته ، اذ قد يُظَنُّ ان سحر الخيال فيه قد يغني عن ذهب الحقيقة . والواقع ان معاناة هذا النوع من الكتابة يحتاج في المقام الاول الى المام دقيق باتجاهات العلوم الطبيعية والاجتماعية الحديثة ، ومقدرة على التفلسف فيها — لا يمكن ان تنشأ الاَّ من الفهم الصحيح — لاستنباط ما قد يكون محتملاً ، في المستقبل القريب او البعيد . ثم براعة في سياق هذه الآراء في قالب يستهوي القارىء ،فلا يميل عنهُ كما يميل في الغالب عن كتب العلم والاقتصاد والاجتماع ، بالغة مقدرة اصحابها على البسط ما بلغت

وليس كلُّ هذا بمستغرب من المؤلف ، وله روايات تعدُّ بالعشرات ، ومؤلفات في الاجتماع والاقتصاد ورسائل في العلم ، تدلُّ جميعها على ذهن خصب ، وحياة قضاها صاحبها في التحصيل والتأمل ، وهذا الكتاب هو الاول من سلسلة، تندمج فيها جميع هذه العناصر على هذا النحو البديع

الاسلام الصحيح

بحث وتحقيق — الفه الاستاذ محمد اسعاف النشاشيبي — مطبعة العرب بالقدس سنة ١٣٥٤

الاستاذ النشاشيبي من افذاذ العربية ، والمتحققين بعلومها ، والمتثبتين في تقولها ، والمسحجين في تأويل كلامها وقد طفق من زمن يجمع لكتابه (الاسلام الصحيح) ،كثيراً من النصوص المنتشرة في الكتب على غير نظام فألَّف بينها وابان عن معانيها ، وردَّ مختلفها الى الائتلاف وصحح ما وقع من الخطأ في تأويلها ، واقام النهج على ما يرى من صحيح عقيدته

وكان الذي حفز الاستاذ الى كتابه هذا جهل كثير من الناس بأصول الاسلام وتقصيرهم في دراسته وقد روى في اول كتابه انهُ وهو بمصر كان في زيارة صديق ، وعنده جماعة من فضلاء المحامين والمدرسين وافضى بهم القول الى ذكر ما كان بين الامامين (ابن سعود والامام يحيى) ، وذكروا بعد في مجلسهم مذهب الزيدية والوهابية فخلطوا في امرها وزعموها من الاسماعيلية ثم يقول المؤلف :

«وقد رأينا ان ندفع ملتبساً، ونزيل اشكالاً ونجلي حقًّا ، بان نروي قولاً للشوكانيّ في الوهابية، فيه انصاف مجتزئين به ، ونملي فصلاً مقتضباً في الزيدية وامامها ، ليعرف ما في نجد واليمن جاهله ، ثم نجيء بأقوال في الامامة الاسلامية متبعيها بحثاً موجزاً عن آل البيت الذين ذكرهم الله في كتابه الكريم»

وقد توسع المؤلف في بحثهِ الاخير عن اهل البيت رضوان الله عليهم ، وجمع نصوصاً كثيرة فيما يتعلق بهم ، وباحكام الشرع لهم فيما يرون، وابان ان الاسلام لم يأت بعصبية قبلية او عزوة جاهلية بل جاء تسوية بين الناس ، يستوي على سبيله العالم والجاهل والامام والمأموم والشريف والمشروف والكبير والصغير وانما اكرمهم عند الله اتقاهم ولا فضل لعربي على عجميّ الاَّ بالتقوى . ولا شك ان الاستاذ النشاشيبي قد بلغ فيه ما اراد من الدقة والتحقيق وحسن العرض

وزارة الزراعة الفنية ومباحثها

كتاب الزراعة السنوي لسنة ١٩٣٣

اطلعت على كتاب الزراعة السنوي لسنة ١٩٣٣ الذي اظهرته وزارة الزراعة منذ اسابيع فأحسنت صنعاً اذ سهلت لمحبي الاطلاع الوقوف على بعض نتائج ابحاث فنييها وتجاربهم المتنوعة والاستفادة منها

وقد افتتح الاستاذ جلال بك فهيم وكيل الوزارة (السابق) — وهو من اخص كبرائنا وزراعنا الذين يعملون بتفوق وهدوء — الكتاب بمقدمة جامعة بعبارة وجيزة لاهم المسائل التي قامت ولا تزال تقوم بها الوزارة لترقية الزراعة ووسائلها يتخلل ذلك اشارات دقيقة وآراء مفيدة منها قوله (صفحة ع)

« وليست هناك مناطق معينة تغل محصولاً اكثر وفرة من غيرها بدرجة محسوسة . والحقول الجيدة منتشرة في كل مكان وتكاد لا تخلو قرية من وجود حقل او اكثر هي في الواقع حقول نموذجية بلغ فيها الانتاج اقصى ما يمكن التفكير فيه. وكان المنتظر ان يقتدي عامة الزراع بما اتبع فيها وأن يترسموا خطواتها في الخدمة وطرق الزراعة والري والتسميد وما الى ذلك » — الى ان يقول — « ولا تدخر الوزارة جهداً في اذاعة المعلومات الصحيحة رجاء كثرة عدد الزراع الذين يلبون نداءها ويأخذون بنصحها . ولا يخفى ان هناك من العوامل المضادة ما لا تقوى الوزارة على تخطيه بسهولة . وكلما زادت الثقافة بين الزراع وانتشر التعليم اثمرت النصائح ولا شك عندي في ان مجهود الوزارة في دراسة كثير من المسائل الزراعية قد جاوز مستوى الثقافة العامة الذي بلغه عامة الزراع والى هذا يرجع السبب في عدم الوصول الى الحد الذي نتمناه جميعاً »

لذلك كنت وما زلت أقول انهُ يمكن الاستغناء عن الغيطان النموذجية وتوفير الكلفة والمجهود اللذين تبذلهما الوزارة فيها الى ما هو الزم وانفع وانهُ لترقية الزراعة لا بد من تعليم الفلاح — راجع مقتطف يوليو سنة ١٩٣٢ ص ٢٣٣ ما كتبتهُ عن غيطان النماذج وص ٢٣٥ ما كتبته عن حالة الفلاح

ومن الحقائق والفوائد العملية التي اهتدى اليها قسم تربية النباتات وتهم جمهور الفلاحين : —

اولاً — الطريقة المعروفة بطريقة الزراعة الرمالية للقطن (ص ٢٠ — ٢٣) غير اني احسب ان هناك مبالغة في تصور فوائدها

ثانياً — عدم فائدة تطويش شجيرات القطن — ص ٤٩ — خلافاً لما كان يقوله البعض عن فائدتها للمحصول

ثالثاً — فائدة التبكير بمحاياة القطن باجرائه بعد ثلاثة اسابيع من زرعهِ لا ضعف ذلك واكثر كما كان يتبعه البعض (ص ٥٠) ولكني ارى انهُ يحسن دراسة هذا الموضوع — موضوع وقت المحاياة — من جهة علاقته بتكاثر دودة القطن اذ ربما يكون تأخير المحاياة وعزق القطن مرتين قبلها

وما يقتضيه ذلك من تجفيف الارض وابادة الحشائش مفيداً في تقليل تناسل هذه الدودة ومنع تكاثرها اكثر من فائدة التبكير بها خصوصاً في الارض المحشة (الكثيرة الحشائش) وبالاخص في الجهات البحرية لا سيما اذا زرع القطن زراعة بدرية حيث الجو قليل الحرارة

(رابعاً) فائدة تعقير القطن (ص ٥٢)

واحسب ان ما ورد في ص ٥٠ عن المسافات بين شجيرات القطن (ان يكون التخطيط ١١ خطاً في كل قصبتين و ٣٠ سم بين الجورة والجورة) خاص بالجهات الجنوبية وما شابهها حيث الارض فائقة الخصوبة لانا نعرف بالاختبار انه في الجهات البحرية حيث الارض اقل خصباً يفضل ان يكون التخطيط ١٢ خطاً او اكثر قليلاً بدلاً من ١١

واحسب ايضاً ان بعض ما ذكر عن نتائج الزراعة البكيرة للقطن (ص ٥١) ينطبق على الجهات الجنوبية خاصة اما في البراري فان الزراعة الى ٢٠ مارس تعد زراعة بكيرة

***

اما بحث النظام الجذري في القطن وعلاقته بتفريع شجيراته فمن البحوث الجديدة العظيمة الفائدة التي يجدر بكل زارع مستنير معرفتها وكذلك ما ذكر في بحث مستوى الماء الارضي وان كان بعضهما يحتاج الى زيادة بيان

هذا ما خطر لي وانا اقرأ بحوث قسم تربية النبات من الكتاب قراءة مستفيد يقدر جهود رجالنا الفنيين حق قدرها

وقد اعود الى باقي اقسام هذا الكتاب النفيس احمد الالفي

« هجاء »

بحث للدكتور بشر فارس — في ملحق دائرة المعارف الاسلامية

في العدد الاخير من ملحق دائرة المعارف الاسلامية بحث نفيس باللغة الفرنسية في « الهجاء » للدكتور بشر فارس . والبحث تاريخي اجتماعي دقيق ، يتناول مقام الهجاء في الشعر العربي ويردُّهُ الى اصولهِ الاجتماعية مما لهُ صلة بالعرض عند العرب ، وهو موضوع الرسالة النفيسة التي احرز بها الدكتور بشر رتبة الدكتوراه العلمية من السوربون. وقد كتبنا اليهِ راجين ان يتحف المقتطف بترجمة هذا الفصل ، اذا سمحت بذلك دائرة المعارف الاسلامية واتسع لها وقته

وبعد فانا يسرنا ان يحرز احد شباننا المتفوقين المولعين بالعلوم الشرقية هذا المقام في دوائر الاستشراق الاوربي ، فيعهد اليهِ في كتابة فصول في دائرة المعارف الاسلامية ، ويضاعف سرورنا ان المؤلف من نوابغ الكتّاب الذين يتحفون المقتطف بآثارهم النفيسة

١ — السهام

نظم الياس قنصل — ٨٧ صفحة حجم متوسط — طبع بالمطبعة السورية في عاصمة الارجنتين

« ان من تقيدت بلاده بالسلسلة والغل ليس حرًّا وهو بعض منها ، ومن لم يكن حرًّا فلن تتفتق نفسه عن شعر حر ، فسعينا لاستقلال بلادنا سعيٌ لحرية شعرنا ايضاً » . . . ذلك ما يقوله الشاعر الياس قنصل ناظم هذا الديوان الذي يضم مجموعة من شعره الوطني ، وان هذا الاحساس ليخالج نفس كل شرقي ، والشرق في حاجة الى هذا النوع من الشعر ليوقد فيه الجذوة الخابية وليثير في نفوس ابنائه الإباء والعزة ويشعرهم بما لهم من حقوق وما عليهم من تبعات نحوها . وليس احد أجدر من شعراء العاطفة بالنفخ في بوق الحرية ، ولذا رأينا الشاعر القرويّ يفلت من جو الهدوء مودعاً قيثاره الحنون الى جوٍّ صاخب مصطخباً فيه بوقاً عالي الصوت قويّ التأثير ، فأخرج ديوانه الاعاصير . واليوم نرى الياس قنصل يترك قيثارته العذبة وأنغامه الهادئة الشجية ليزأر ويصول ويثير النفوس ، ولهذا أقرأُ الآن ديوانه « السهام » معجباً بهذا الروح الذي يجب أن يسود في هذه الايام التي تلوح للشرق بفرص ذهبية قد لا تعوض . . .

وفي هذا الديوان مقطوعات بلغت من الاجادة في السبك والروح الشعرية مبلغاً طيباً كقصيدته « آمال تتجدد » التي رثى فيها الملك فيصل ، و« رسالة المهجر الى الوطن » وقصيدتهُ الى سلطان الاطرش وقصيدتهُ « معاذ الله ! » وغيرها من القصائد الاخرى التي يزخر بها هذا الديوان. على اني احسُّ ان روح الشاعرِ قد فترت حماستها في آخر قصيدة « معاذ الله ! » فانقلب وصّافاً يرسم دمشق بريشته الاولى ويتشوق اليها فتحس الصلة منقطعة بين الابيات الموجودة بالصفحة ٤٥ وبين ما سبقها في هذه القصيدة

فنتمنى ان تكون هذه السهام مصيبة الهدف الذي وجهها اليهِ وان تكون باكورة جهاد ففوز

٢ — ديوان الاسكندرية

أخرجه وكتب مقدمته علي محمد البحراوي — نشرته جماعة نشر الثقافة في ٢٠٨ صفحة من الحجم الصغير — طبع مطبعة المستقبل بالاسكندرية

ليس من ينكر ان في الاسكندرية حركة فكرية طيبة تعمل في سكون وهدوء . وكل من اتيحت له زيارة هذا الثغر الباسم في جلوتهِ الصيفية أدرك اثر هذه الحركة ولمسها باليد غير ان العامل القويّ الذي يجلل هذه الحركة بالسكون ويجعلها تتشح بثوب الصمت هو ما اشار اليهِ الاستاذ البحراوي في مقدمتهِ الرائعة وهو عدم توطد الحياة الصحفية في الاسكندرية ، والصحف هي التي تحتضن النهضات الادبية وتتعهدها بالنمو والازدهار ، ولذلك فان حركة النشر تضعف تبعاً لذلك وتأخذ سبيلها الى العزلة

ولقد أدى الاستاذ البحراوي الى الادب المصري أجلّ خدمة بإخراج هذه المجموعة من منظوم شعراء ذلك الثغر على اختلاف مناهجهم ، والكثير منهم ليس بالمجهول ، فلقد ضمت هذه المجموعة شعراء معروفين كالاساتذة خليل شيبوب وعبد الرحمن شكري وعبد اللطيف النشار وابراهيم زكي وعثمان حلمي وغيرهم ، وضمت الى جانب ذلك زهرات غضة من آدابهم

على أن الذي ألاحظه ويلاحظه الكثيرون هو خلوّ الديوان من صور للاسكندرية في أجمل أوقاتها حيث تتجلى آية من الفن جمالاً وفتنةً وسحراً وشعراً حيّاً وثّاباً ، ولعلّ أعباء الحياة ومشاغلها هي التي تشغلهم عن التمتع بهذه الفرصة التي ينتهزها أخوانهم القاهريون ويعودون منها محمّلين بأبدع وحي وأجمل ذكرى . نتمنى ان يكون حظ الجزء الثاني من هذا الديوان في مرتبة الجزء الاول قوة وإبداعاً

حسن كامل الصيرفي

القاهرة

الجزء الثاني — تأليف الملازم الاول — عبد الرحمن زكي صفحاته ٢٠٢ —

كثير الصور والرسوم — ثمنه ١٠ قروش

قدمنا الى قراء المقتطف في السنة الماضية الجزء الاول من هذا الكتاب التاريخي الأثري النفيس مغتبطين ان نرى بين ضباطنا الشبان من يُعنى بانفاق فراغه في الاشتغال بالمسائل العقلية بوجه عام وبناحية من تاريخنا القومي بوجه خاص . ولعلّ خير ما نسوقه الى القراء في تعريف الجزء الثاني من هذا الكتاب ، كلمة كتبها العالم بالآثار الاسلامية الدكتور زكي محمد حسن . قال :

ظهر الجزء الاول من هذا الكتاب في العام الماضي فكنت من اشد الناس اغتباطاً به وابتهاجاً بظهوره ولا غرو فقد سد في عالم التأليف العربي فراغاً كبيراً اذ كان من العار ان لا يوجد في اللغة العربية كتاب بل كتب حديثة عن عاصمة الديار المصرية وان نطرق ابواب الاجانب نستهديهم ما نحتاج اليه في دراسة تاريخها وآثارها

ويسرني اليوم ان اقدم الى القراء الجزء الثاني من كتاب القاهرة وأنا حريص الحرص كله على ان افي المؤلف حقه من المدح والثناء ليس فقط لانه احسن القيام بما اخذه على عاتقه فأفلحت محاولته ولم يضع جهده عبثاً بل لأني كنت اخشى ان يقعده عن اتمام هذا الجزء ما يحسه ويشعر به هو وغيره من المؤلفين في مصر من قصور في تشجيعهم وتقدير ما يبذلونه من جهود كبيرة ولا سيما حين ينهضون بعبء الكتابة في موضوعات لم يسبقهم كثيرون الى البحث فيها ولا تنعم دراستها الاّ بيئات خاصة بينما يقابلها سواد الناس بشيء من الوجوم والاستخفاف

وليس هذا الجزء من كتاب القاهرة بأقل طلاوة من الجزء الذي سبقه فمنهاج البحث فيهما واحد والعصر الذي يعرض لنا المؤلف صورته هنا ليس أقل شأناً من العصور التي سبقته بل ان

في هذه الصورة ما يبعث على تفكير أكثر لتعميق حقائقها وتعرف ما وراءها

وفي الواقع ان انحلال دولة المماليك وتفككها بينما كانت الدولة العثمانية تسير بخطى واسعة الى التوطد والنماء جعل مصر فريسة هينة لها وكان استيلاء العثمانيين على وادي النيل وانتزاعهم الخلافة الاسلامية ايذاناً بانتهاء مرحلة العصور الوسطى في مصر وابتداء العصور الحديثة بما فيهامن علاقات سياسية متصلة بالامبراطورية العثمانية والعالم الاوربي

وقد وفّق المؤلف كل التوفيق في شرح الحوادث التاريخية التي مرّت بمدينة القاهرة منذ استولى عليها السلطان سليم حتى أشرق نجم محمد علي باشا الكبير فنجح في وضع الحجر الأساسي لاستقلال مصر الحديث. وجاء خلفاؤه من بعده فعملوا على تدعيم هذا الاستقلال. وعرض المؤلف في هذا الجزء صورة بديعة للقاهرة ولتطور فن العمارة فيها وما أصابه وبقية الفنون من تعضيد أو غيره على يد الذين استولوا على أزمة الحكم في وادي النيل

وربَّ معجب بطريقة المؤلف لم يكن ذلك الاعجاب ليمنعهُ من مناقشته في امور قليلة ليكون كتابه اقرب ما كتب عن القاهرة الى الاتقان والكمال ولكن علينا ان نذكر ان الملازم الاول عبدالرحمن زكي عمل على ان يلائم بين كتابه وبين عقول سواد القراء وأخذ على عاتقه ان يلتزم الايجاز وان يترك التحليل والدقة والاستقصاء الى المفصّل من كتب التاريخ والفنون والآثار. ومهما يكن من شيء فان رجاءه على هذا الكتاب انما هو تمهيد السبيل ليستطيع غيره أن يصل الى حيث لم يصل

فعسى أن يحرص القراء على الانتفاع بما كتب وأن يبعث ذلك فيهم روح التزيد من البحث والانعام في دراسة كتب الفنون والآثار

المدرسة المستنصرية

هذه هي الرسالة الأولى من رسائل (نادي المثنى) ببغداد، وهي تكشِفُ عن الهمّة التي يقومُ بها اعضاء النادي في خدمة العربيّة، وإنقاذ مخلّفات مجدها من الضياع. وقد قدموا هذه الرسالة بعد سعيٍ عند دار الآثار العراقية في المحافظة على هذه المدرسة، والتفاهم معهم على ترميمها وإصلاحها. وباني هذه المدرسة هو المستنصر بالله أمير المؤمنين ولي الأمر سنة ٦٢٣ هويعدُّه كثير من المؤرخين من أعلى خلفاء بني العباس كعباً في خدمة الدولة، وإقامة السلطان، وبذل النصفة بين الناس بالعدل، وردّ الناس الى شريعتهم من الدين، وكان هو هازم التتر ورادّهم على أعقابهم حين قصدوا اول مرّة العراق، ولم تزل التتر في كربٍ منهُ ومن اخيه الخفاجيّ، ولم يظفروا في مدة ولايته بشيء وتوفي المستنصر بكرة الجمعة ١٠ جمادي الآخرة سنة ٦٤٠ هـ ودفن في الدار المثمنة بدار الخلافة على شاطىء دجلة، ثم نقل بعد الى مدفن كان أعدّه لنفسه. وذهب الخليفة وبقيت مدرسته التي بناها موئلاً للعلم والدين، ومناراً يهتدي بهِ المسلمون ويأوى اليهِ الأئمة، وأثراً جميلاً من اروع الآثار الاسلامية، وأدقها نظاماً ونقوشاً وفي هذه الرسالة صفة هذه المدرسة الجميلة

لباب الآداب

تأليف الامير اسامة بن منقذ — طبع بتحقيق الشيخ احمد محمد شاكر — مكتبة لويس سركيس بالفجالة

هذا الكتاب من تآليف الامير النبيل والفارس المغوار والشاعر الاديب والرحالة الصياد اسامة ابن منقذ (١٠٩٥—١١٨٨ م) الذي نشأ وترعرع في قلعتهِ المنيفة شيزر على العاصي في شمال سورية، وقضى سني حياتهِ الحافلة متنقلاً بين دمشق والقاهرة والموصل وسائر الحواضر الاسلامية ، يجاهد ضد الافرنج الصليبيين ، ويكافح الاسود الضواري ، ويعاشر زنكي ويصطاد مع نور الدين ويصاحب الخليفة الفاطمي ويتعرّف بزعماء الافرنج وينظم الشعر ويؤلف الكتب . فحياة اسامة تمثل الفروسية العربية على ما ازدهرت في ربوع الشام والتي بلغت قمة ازدهارها في صديقهِ وظهيره صلاح الدين. فالكتب التي الفها اسامة نافذة تشرف منها على المدنية العربية السورية بحد ذاتها وبالمقابلة مع المدنية الافرنجية

ومن خير الكتب التي صنفها هذا الامير الاديب، كتاب «لباب الآداب» . وهو « من اجود كتب الادب واحسنها ، فقارئهُ يتنقل فيهِ من روض الى روض ، فيجتني ازاهير الحكمة وروائع الادب ويقتبس مكارم الاخلاق . وفيهِ ميزة اخرى جليلة . ذلك ان فيه اقوالاً من نثر ونظم لم نجدها في كتاب غيره من الكتب المطبوعة . فقد وجدنا ابياتاً لعامر بن الطفيل لم تذكر في ديوانهِ المطبوع في اوربا مع أن المستشرق الذي طبعهُ جمع فيهِ كل ما وجد لعامر في الكتب الاخرى . ووجدنا ابياتاً لمالك ابن حريم الهمداني لم نجدها في غيره من الكتب وكذلك لابن المعتز ولابي العلاء المعري ولغيرهم » (فاتحة المحقق صفحة ٦)

وكان المرحوم الدكتور صرّوف يملك النسخة الاصلية من هذا الكتاب الفذّ . وهي نسخة المؤلف الخاصة ، اي نسخة أسامة نفسهِ كتبت في حياتهِ ثم أهداها الى ابنهِ مرهف بن أسامة

وقد أهدى الدكتور صرّوف نسخة فوتوغرافية من هذا الكتاب الى دار الكتب المصرية وعلى أساسها شرعت مكتبة لويس سركيس في طبعهِ ، بعد ان عهدت الى الشيخ احمد محمد شاكر في تحقيق الكلام ووضع الفهارس ، ولكنهُ ما كاد ينتهي من طبع ثلث الكتاب حتى دلّهُ الشيخ محمد عبد الرسول على نسخة أخرى من الكتاب وكانت مذكورة في الفهرس القديم في باب علم التصوّف . فاستعان بها في التصحيح . ويقول المحقق في هذه النسخة الثانية انها غير جيدة وفيها تحريف كثير ولكنها على كل حال أعانتهُ في غير موقع على التثبت مما غمض عليهِ في ألواح النسخة الصرّوفية ، مستعيناً بشقيقهِ محمود وبالشيخ محمد حامد الفقي

فلباب الآداب كما أخرجهُ الشيخ احمد محمد شاكر ، مخدوم بتحقيق قلما يتاح لكتاب قديم ، وبفهارس خمسة لابواب الكتاب وأعلامهِ وأماكنهِ وأيام العرب وقوافي الشعر

والحق أنهُ تحفة من تحف الادب العربي الجيد، ولا نخالنا الاّ مفيدين منهُ الادبين أدب النفس وأدب البيان اذا اكببنا على مطالعتهِ

كتاب الزراعة العملية الحديثة

تأليف الامير مصطفى الشهابي عضو في المجمع العلمي العربي ومدير وزارة الزراعة والتجارة بدمشق ومهندس زراعي (غرينيون) طبعة ثانية في ٥٠٠ صفحة ونيف تحتوي على ١٣٩ شكلا

موضوع الكتاب . يبحث هذا الكتاب المزيد الفائدة في تكون الاتربة الزراعية وتركيبها وخصائصها والاقاليم الزراعية السورية ونبذة في علم حياة النبات والاعمال الزراعية العامة والاسقاء وصرف المياه الزائدة والمصلحات والاسمدة ويصحبها بحث في جولوجية الشام الزراعية والدورة الزراعية وتعاقب الزروع . وهذه الابحاث كلها يطلقون عليها اسم الزراعة العامة . اما الابحاث التي يسمونها الزراعة الخاصة فقد تناول المؤلف منها زراعة اهم النباتات في ديار الشام منها ، اولاً الحبوب على انواعها كالحنطة والشعير والذرة والرز . ثانياً القرنيات كالفاصوليا والبسلى والعدس والفول . ثالثاً نباتات الكلأ والمروج كالبرسيم والفصفصة (القث او البرسيم الحجازي) . رابعاً النباتات العسقولية (الدرنية) كالبطاطس والبنجر او الشوندر واللفت . خامساً النباتات الصناعية المختلفة كالقطن والقنب والكتان والسمسم والخروع والحناء الخ . سادساً النباتات المختلفة كالتبغ وقصب السكر والكمون والسماق وغيرها . وقد اسهب الامير في كل ما لهُ علاقة ماسة بزراعة الديار الشامية كالحنطة والتبغ والسمسم والقنب والقطن الذي يزرع على المطر واوجز في النباتات الاخرى . وجميع الابحاث نتيجة دروسه الخاصة مدة عشرين سنة في المخابر او المزارع . ومما لم يسبقه اليه احد في الابحاث العلمية تحلية اصناف النباتات ورصد الجويات ١٨ سنة متتابعة وغير ذلك مما يجعل للكتاب قيمة علمية عملية ليست في غيره من الكتب الزراعية في ديار الشام خاصة

لغة الكتاب . اما لغة الكتاب فلا يختلف اثنان في ان الامير هو علاَّمة العربية الاوحد في المصطلحات الزراعية وانهُ فيها نسيج وحده لذلك جاءت هذه الطبعة في لغة ما كتبت الزراعة بأصلح منها منذ صدر الاسلام . ومن المصطلحات التي لفتت نظرنا اسماء الآلات الزراعية والاسماء التي وضعها [1] لنباتات الكلأ المختلفة واسماء بعض اعراض الزروع

منها الضجعان او القَمَل لما يسمى بالفرنسية Verse وتسمية الترقيداي ميل سوق الحنطة نحو الارض لقلة صلابتها . والبَشَق والرَّصَع لمرض اختناق جذور الحنطة . والشقران لمرض الصداء وهو بالفرنسية Rouille والسُّواد للمرض المسمى Charbon الخ الخ ومن الامثلة التي تدل على علو لغة الكتاب هذا المثال الصغير عن اصناف الفاصولياء قال (صفحة ٣٠٤)

« الفاصولياء العريضة . — سوقها متسلقة واوراقها كبار غلاظ خشنة وقرونها طوال عراض وبذورها بيض كبار مفلطحات . وهذا الصنف من اكثر الاصناف شيوعاً بدمشق »

ولم يأنف الامير من استعمال كلمة كيميائي نسبة الى كيمياء وقد ذكر لي انهُ راجع في ذلك شرح الشافي للرضي فثبت له اثبات الهمزة في مثل كيميائي بلا ادنى ريب

(١) انظر مقالاً في هذا الجزء من المقتطف ص ٥٨٧

ومما اذكره ان استاذنا الدكتور صرُّوف رحمهُ الله عند ما أُهديت اليهِ نسخة من طبعة هـذا الكتاب الاولى ذكر في المقتطف ان هذا الكتاب هو كتاب السنة . ولا ريب في انهُ لو اطلع على هذه الطبعة بعد ان سمت لغتها ونقحت ابحاثها وحوت اجود المصطلحات الزراعية لما تردد بان يجعلها « كتاب السنة » في يومنا هذا . فعسى ان يتحفنا الامير بكتب كثيرة من المؤلفات المفيدة

مصر الجديدة امين المعلوف

قصص جغرافية للاطفال

الجزءان الاول والثاني : لفنجستون وستانلي — لكامل كيلاني — نشرته المطبعة العصرية

لم نكد ننتهي من كتابة الكلمة التي نشرت في مقتطف اكتوبر الماضي عن جزئي كتاب القصص العلمية ، حتى انتهى إلينا جزءان آخران من كتاب جديد ، هو كتاب القصص الجغرافية ، إلا أننا لم نر في ذلك مفاجأة تستجلب الدهشة ، فقد ألفنا من المؤلف — كامل كيلاني — خصلتين : السرعة ، والتتابع فيها ، وقد يقاسمه الاولى كثيرون من المؤلفين ، أما الثانية فليس لها الاَّ امثال هذا المؤلف الجادّ ، وهم قليلون

وقد لاحظنا أن كتاب القصص العلمية كان من اخراج مطبعة المعارف ، أما كتاب القصص الجغرافية فأخرجته المطبعة العصرية ، فلعلَّ الاستاذ كاملاً يجد ان داراً واحدة من دور النشر يفوتها لحاقه ، ويتعذر عليها اسعافه ، فوزع مؤلفاته على دور شتى ، لكي تتمكن من مسايرتها له . او يعمل بقول يعقوب « يابني : لا تدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة » فهو ملتمس بذلك تعويذ مؤلفاته — حفظها الله — من العين ! . . . .

اشتمل هذان الجزءان من كتاب القصص الجغرافية على ترجمة حياة لفنجستون وستانلي يتخللها مجموعة من الاساطير الطريفة . وطريقة المؤلف في كتابه ان يعقد حواراً بين رجل وأبنائه ينتهي بالموافقة على سماع قصة الكشاف ، فاذا سُمِع فصل منها ، انعقد الحوار مرة ثانية ، ووفق فيهِ على سماع اسطورة ، فإذا انتهت تلك عاد الحوار مرة اخرى ، ثم سُمِع من القصة فصل آخر . وعلى هذا المنوال نُسِجَت فصول القصة كلها فجاءت الأساطير بمثابة الوشي والتطريز لهذا النسج الجميل

والحق ان ذلك المساق يضمن للاطفال دوام النشاط والانتباه في القراءة ، ومن البداهة ان نشاط الطفل وانتباهه امر ضروري يتوقف عليهِ استفادته مما بين يديهِ من الكتب . وإن إجادة المكاتب للاطفال لتختلف باختلاف ما في كتابته من التحيل لذهن الطفل الغضّ الذي تضره الشدة والصرامة ، وملاينة فكره المُدلَّل الذي يمنعهُ العنف ان يتأثر بما يقرأ

والكتاب في شكله فتنة أخَّاذة ، فقد بُذلت في صوره الموفورة عناية تشهد ببراعة الذوق ، وقد طبعت فيهِ المحاورات والاساطير بحروف حجمها غير حجم الحروف التي طبعت بها فصول القصة الجغرافية ، فاكتسب الكتاب بذلك رونقاً وطرافة تأخذ العين ، ثم تمعن في اخذها ! ***

يوبيل مجلة العرفان

لا يخفى على احد ما تقدمهُ الصحافة الرصينة للأمة من الفوائد فهي مرآة للروح القومية من شعور عام ومبادىء وأدب وهي مرقاة لليقظة الفكرية والنشاط الأدبي والوطني معاً . وقد اجمعت الشعوب على ان الصحافة هي عنوان رقي الامم . والصحافة ولا سيما الادبية والعلمية تواجه في الشرق عقاباً شتى أدبية ومادية تكاد تقضي عليها لولا جهود منشئيها الجبارة ولولا لذة الثبات في العمل

وفي طليعة صحفنا الأدبية مجلة « العرفان » تتبارى مع أرقى المجلات العربية مادة واسلوباً . فقد ثبتت في طريق كلها اشواك ومتاعب . ومتى عرفنا ان عشرات من الجرائد والمجلات في سورية ولبنان قد توارت في هذا الزحام الشديد اتضح مقدار الجهود الخطيرة التي يبذلها صاحب العرفان الكريم الشيخ احمد عارف الزين لحفظ كيان مجلته في هذا المعترك الادبي وهذا التنازع المستديم . والخدمات الادبية التي ادتها هذه المجلة المزيزة عديدة واسعة النطاق نكتفي ان نحصرها في نقاط ثلاثة :

فهي اولاً (مجلة جبل عامل) هذا الجبل الأشم صاحب التاريخ المجيد في السياسة والأدب والذي يحق له أن يدعى « برناس » لبنان حيث يولد الشعر الفطري مع كل فرد من ابنائه . فطالما افسحت هذه المجلة صدرها لنفحات أدبائه الذين قلما يتسنى لهم ان يتصلوا بصحف أُخرى لنشر ما تجود به قرائحهم . وقد كان لها فضل كبير في اثارة الرأي العام وتوسيع نطاق التفكير وبث روح النهضة في منطقة مهملة في كثير من حقوقها . ولا ننسى فضل مطبعتها في نشر مئات من المؤلفات التي لا يتمكن اصحابها من طبعها لولا تساهل صاحب العرفان ومؤازرته الفعالة لهم

ثانياً — هي مجلة (الشيعة الكبرى) في جميع انحاء العالم في العراق كما في سوريا ولبنان وهذه الميزة تكفي لإن تحفظ لها الاحترام والمرتبة التي هي اهل لها . فهي أداة تعارف بين الأوساط الشيعية من أدباء وعلماء على اختلاف بلدانهم . وحسبها فخراً أنها اول صحيفة عرفتنا بادباء العراق المجددين امثال الشبيبي والشرقي والجواهري وغيرهم من كبار ادبائهم وقد دعاها ادباء العراق « مجلة العراقيين » فلا عجب إذ رأينا كرام هذه الطائفة المزيزة في مختلف الاقطار مستعدين لتكريم العرفان

ثالثاً هي (مجلة العرب) فإن المجلات العربية محصورة في الغالب في القطر الذي تصدر فيه ماعدا مجلتي « المقتطف » و« الهلال » وهما في نظر المفكرين نواة وحدة الثقافة والآداب في العالم العربي وعلى هذا فإنا نرى ان « العرفان » المنتشرة ايضاً في كل قطر عربي وفي المهجر لها مع « الهلال » و« المقتطف » نصيب وافر في تكوين عناصر هذه الوحدة الأدبية المنشودة . ولا بدع إذاً إذاً رأينا انصار هذه المجلة في جميع الاقطار على أتم الاستعداد للاشتراك في الاحتفال « بيوبيلها الفضي » ومؤازرتها مادياً وأدبياً . وقد ترامى الينا انه فضلاً عن الحفلة الأدبية الكبرى التي ستقام لها في صيدا في الربيع القادم والتي سيشترك فيها أمراء البيان في الأدب العربي سيقام لها ثلاث حفلات في نيويورك والأرجنتين والعراق . وسوف يعين تاريخ موعد الحفلة في هذين الشهرين وستوضع الحفلة تحت رعاية الحكومة المحلية التي تقدر قدر الادب وذويه

« ملخص من بيان لجنة الاحتفال »

باب الأخبار العلمية

العين وطول العمر

مدى الحياة تعينه الوراثة

مباحث عالم الماني

لماذا يتقلص الجلد وينكمش ويضعف البصر ويسقط الشعر وتبطىء الخطى ويخف السمع ويشيخ الجسم بوجه عام ؟

وهل الشيوخة داء ؟

قبل ان يرتقي الطب فيحسب في عداد العلوم كانت هذه الاسئلة تقلق البال وتحمل على التفكير والبحث . فجعل كيماويو العصور المتوسطة همهم البحث عن اكسير الحياة وينبوع الشباب

وقد تضحك الآن من المعتقدات التي كانت تسيطر على عقول الناس حينئذٍ لاننا نظن ان بعض المعارف العلمية قد حررتنا من نيرها ولكننا مع ذلك لا نزال كما كانوا يقلقنا كل ما يتعلق بالهرم والشيخوخة ولا نزال نعنى بالبحث عن اسبابهما ووسائل اتقائهما

هل يضعف الجسم ويسير الى القبر لان الوسط الذي نعيش فيهِ يقوى عليهِ — يقوى بجراثيمه المنوعة واختلاف حرارته وبرده ورطوبتهِ ؟ واذا كنا نفسر الموت بانحطاط الجسم وحؤوله ، فكيف نفسر تعمير اقطاب من امثال غلادستون وبسمارك وكيف نعلل ايضاً وفاة عبقري كموزار في ما يكاد يكون في شرخ الشباب ؟

هذه خواطر تخطر للباحث بعد اطلاعه على مقال للعلامة الالماني الاستاذ فوغت . فقد عمد هذا البحاثة الى تبين اسرار الهرم والشيخوخة والتعمير في التوائم

فبحث ما استطاع عن توائم كل توأمين منها متشابهان تمام التشابه أي انهما اشتقا من بيضة واحدة فتشابه بناء جسميهما في كل تفصيل دقيق حتى ليتعذر في الغالب على والدتهما ان تفرق احدهما عن الآخر . فعثر بعد السهر والسعي على تسعة عشر زوجاً من التوائم التي من هذا القبيل وكانت اعمارها تختلف من ٥٥ الى ٨١

والاستاذ فوغت مدير عيادة العين في جامعة زوريخ . فكان من الطبيعي ان تتجه عنايته الى فحص عيون التوائم لتبين اثر السنين فيها — في بلورتها ومائيتها وقرنيتها وشبكيتها وسائر اجزائها

وكانت النتيجة التي اسفر عنها بحثه من اعجب ما يكون

فقد ثبت لهُ انهُ مهما يكن الاختلاف في نشأة التوأمين وسواء عاشا معاً في وسط واحد او فصل احدهما عن الآخر فعاشا في وسطين مختلفين فان حالة عينيهما كانت واحدة . اي ان

آثار تقدم العمر كانت واحدة في كل من التوائم التي تخصها فالانحطاط النسيجي في القرنية والشبكية والبلورة والمائية كان واحداً في كل زوج من من التوائم التي تخصها

ولكن التشابه لم يقتصر على العين

بل وجد ان شعر الفروة يسقط في كلا التوأمين في وقت واحد او يشيب في بقعة واحدة

بل انهُ وجد تشابهاً عجيباً في تجعد الجلد وانكماشه وغيره من بوادر الهرم

***

ولا يخفى ان علماء الوراثة قد انفقوا وقتاً طويلاً في درس آفات العين وانتقالها بالوراثة او عدمه فاجتمع لديهم من الادلة ما يدلُّ ان العيون يضعف بصرها في الاسر وفقاً لقاعدة معينة. وقد اثبتت مباحث فوغت صحة هذا الرأي

ويخلص الاستاذ فوغت من المباحث التي تقدم معنا ذكر طرف منها الى النتيجة التالية وهي ان الوسط لا أثر كبير له في موضوع التعمير والشيخوخة وعنده ان مدى حياة الانسان معين من قبل الولادة بعوامل وراثية خاصة وان كل عضوٍ من اعضاء الجسم له مدى خاص من الحياة. وهذا يعني ان التعرض للفواعل الطبيعية لا ينجم عنه امراض او عوارض تقصر مدى الحياة. ولكنه يعني انه اذا عني الانسان بمعيشته الصحية عناية معقولة فليس للوسط الذي يعيش فيه تأثير كبير في طول حياته أو قصرها وهذا يتفق من ناحية ما والى حد ما مع رأي الدكتور ستريتر مدير قسم البيولوجيا الحيوانية في معهد كرنيجي. فهو يقول ان المرض ليس نتيجة مباشرة للجراثيم الضارة فاجسامنا لا تستطيع ان تقاوم هذه الجراثيم مقاومة متساوية والخذال اجسامنا امام حملاتها او فوزها في رد شرورها يتوقف على نشاط الحملة وعلى قوة النسج الحيوية ونشاطها. وقوة النسج تتوقف على تركيبها وهذا يعود بنا الى البيضة التي نشأت منها. فالتعمير او الموت في شرخ الشباب اذا تساوت جميع العوامل الاخرى يتوقف على ما ترثه من والدينا

هل حقن الاكسجين

ينقذ حياة الغرق

يؤخذ من مباحث طبيب هندي يدعى الدكتور سنج يقوم بمباحث علمية طبية في جامعة كمبردج احياناً وكلية رانفون الطبيمة احياناً اخرى ان حقن الاكسجين في العروق قد يكون السبيل لانقاذ حياة الغرق أو المصابين بنوع خاص من النزلة الشعبية او غيرها من الحالات التي يصعب فيها التنفس على المريض

فقد تمكن هذا الطبيب من الاحتفاظ بكلب حيًّا مدة ١٦ دقيقة بحقنه بهذه الحقن مع ان الكلب ظل خلال هذه المدة لا يتنفس الاكسجين عن طريق الرئتين. وكان ضغط الاكسجين المحقون في العروق ثلاثة اجواء، ولولا خطأ في اسلوب الحقن لاستمرت التجربة اكثر من ١٦ دقيقة. وقد نشرت مجلة اللانسيت الطبية هذا النبأ وعلقت عليه بمقال افتتاحي

والخطوة التالية هي تطبيق هذه التجربة على الناس

جائزتا نوبل

في الطبيعة والكيمياء لسنة ١٩٣٥

حملت الينا الانباء البرقية ان جائزة نوبل في الطبيعة منحت للعالم الانكليزي الاستاذ شدك — وان جائزة نوبل في الكيمياء منحت للعالم الفرنسي الاستاذ جوليو وقرينته مدام ايرين كوري جوليو وهي ابنة الاستاذ كوري وزوجته اللذين اشتهرا باكتشاف البولونيوم والراديوم

والى القارىء طرفاً من المباحث التي قاموا بها جميعاً فاستحقوا الجائزتين عليها

في اوائل سنة ١٩٣٢ أذيع في انكلترا ان الاستاذ شدك كشف دقيقة مادية جديدة اطلق عليها اسم النوترون وهذا الاكتشاف اقوى دليل على عالمية العلم وشيوعيته . ذلك ان طوائف مختلفة من العلماء في بلدان مختلفة مهدوا بمباحثهم الطريق لكشف النوترون على يدي شدك الانكليزي

ففي سنة ١٩٣٠ كان العالمان الالمانيان بوث وبكر يطلقان دقائق الفا على لوحة من معدن البريليوم . فكانت الدقائق المسددة الى تلك اللوحة تصيب نوى ذرات البريليوم فتطلق هذه من تلقاء نفسها اشعة غريبة شديدة النفوذ فظن انها من قبيل اشعة غما التي تخرج من الراديوم وانما تفوقها طاقة وقدرة على نفاذ المواد . وفي سنة ١٩٣١ قام الاستاذ جوليو وزوجته كريمة مدام كوري بتجارب من هذا القبيل ولكنها اوسع نطاقاً واضبط احصاء وادق حساباً

واظهر ما ظهر في هذه التجارب ان الاشعة الخارجة من البريليوم — او ما يحل محله من المواد — اشد طاقة عشرة اضعاف من الاشعة الموجهة اليه . ففرض جوليو وزوجته ان هذه الاشعة امواج تقع بين اشعة غما التي تخرج من الراديوم والاشعة الكونية وهي اقصر الاشعة المعروفة امواجاً واقواها نفاذاً

واطلع شدك على هذه التجارب ونتائجها فاعادها ووجد ان فرض ان هذه الاشعة امواج لا يتفق والنتائج الرياضية ولكن اذا فرض انها تيارات من دقائق وزن كل منها واحد (اي كوزن ذرة الايدروجين) ومتعادلة الكهربائية (اي ان كهربائيتها السالبة تعادل كهربائيتها الموجبة) وتسير بعشر سرعة الضوء كفى ذلك لتفسير الحقائق المشاهدة . ودعا الدقيقة التي تتصف بهذه الاوصاف باسم « النوترون » اي المحايد (من محايدته الكهربائية)

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان مباحث جوليو وزوجته التي افضت الى اكتشاف النوترون افضت بهما كذلك الى استنباط طرق جديدة لتوليد اشعة اقوى من اشعة الراديوم وهو ما يعرف في علم الطبيعة الحديث باسم الاشعاع الصناعي Artificial Radio—Activity

علاج الانيميا الخبيثة

يفيد في الجدري

في اواخر السنة الماضية منحت مؤسسة نوبل العلمية جائزة نوبل الطبية لثلاثة اطباء اميركيين هم مينو وهوبل ومرفي لاستنباطهم طريقة معالجة الانيميا الخبيثة بالكبد . وقد فصلنا عملهم في المقتطف والكتاب الجديد الذي اهديناه الى المشتركين بعنوان « اساطين العلم الحديث »

وقد اطلعنا الآن في « رسالة العلم الاسبوعية »

على ان حقن خلاصة الكبد في العضلات يوقف سير الجدري ويقصر مدة المرض ويمنع حدوث نقط الجدري الذي يترك الوجه مشوهاً في بعض الاحيان بما يتركه من الندوب ويحسن حالة المريض بوجه عام

وقد اكتشف هذه الحقائق الدكتور غوفندان نير احد اساتذة كلية فيزغاباتام بمقاطعة مدراس في الهند . فقد جرب الدكتور نير بمساعدة الدكتور اديسو براماتيان احد اطباء مصلحة الصحة حقن خلاصة الكبد في ٢٨ مريضاً في خلال وباء حديث من الجدري تفشى في فيزغاباتام. وقد نشرت نتائج التجارب في المجلة الهندية الطبية. ولكن الدكتور نير صرح بالحذر الذي يتصف به العالم ان النتائج لا يجب ان تؤخذ على انها حقيقة راهنة لقلة عدد المرضى الذين اجريت التجربة عليهم . ويفسر قلة عددهم بان الجدري في الهند يحسب مرضاً مقدساً ولذلك يرفض الاهلون العلاج لانهم يظنون العلاج عقيماً. الاَّ ان النتائج التي اسفرت عنها التجارب تحمل على النشاط في موالاة البحث في هذه الناحية. وكانت الحقن تختلف مقداراً باختلاف عمر المريض ونوع الجدري الذي أُصيب بهِ

رسالة من داروين

الى الدكتور فانديك

قبل وفاة العلامة داروِنْ بستة عشر يوماً بعث برسالة الى الدكتور وليم فانديك نجل العلامة المرحوم الدكتور كرنيليوس فانديك احد الاساتذة الاول في جامعة بيروت الاميركية وصاحب المؤلفات العلمية النفسية باللغة العربية والدكتور وليم الآن استاذ شرف لعلم الحيوان في جامعة بيروت

اما رسالة داروِن الى الدكتور وليم فتاريخها ٣ ابريل سنة ١٨٨٢ وهي في صدد بحث في علم الحيوان كان الدكتور وليم قد بعث بهِ الى العلامة داروِن لاطلاعه عليهِ . وملخص الكتاب انهُ بعد اطلاعه على البحث رأى وجوب نشره وقد بعث بهِ الى مجلة المعهد العلمي مفضلاً نشره فيها على نشره في مجلة نايتشر. ولا يخفى ان طائفة من علماء الانكليز عنوا من سنوات بجعل بيت داروِن في دَوْن متحفاً لآثاره ومخلفاته ودعت جميع الذين يملكون شيئاً من هذه الآثار الى اهدائها الى المتحف. فبعث الدكتور فانديك بهذا الكتاب ليضاف الى غيره من رسائل علامة التطور وآثاره

نقل لاسلكي عجيب

لصورة ملكم كمبل

يعلم القراء ان السر ملكم كمبل بلغ من اشهر بسيارته « الطائر الازرق » سرعة متوسطها ٣٠١ ميل في الساعة على مسافة ميل واحد ذهاباً واياباً وكان ذلك في ولاية يوتاه الاميركية التي تبعد نحو الفي ميل عن مدينة نيويورك . وقد نقلت صورته وهو ماض بهذه السرعة باسلوب النقل اللاسلكي الى لندن عن طريق نيويورك ولكن جهازاً خاصًّا في نيويورك تمكن من التقاط الصورة وهي في طريقها الى لندن . فكأن نيويورك ولندن تلقتا هذه الصورة في وقت واحد من مصدر واحد وباشارات لاسلكية واحدة . وكانت الصورتان واضحتين كل الوضوح

الجزء الخامس من المجلد السابع والثمانين

فهرس المجلد السابع والثمانين



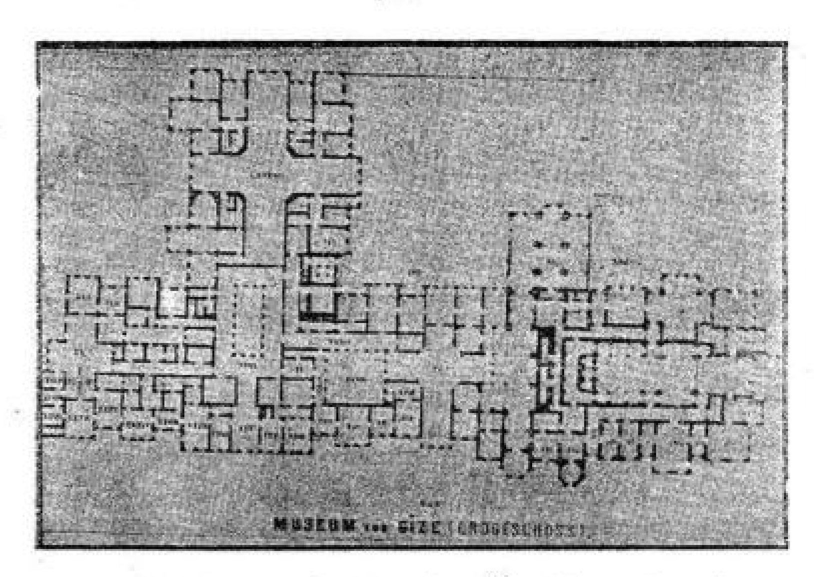
أبدع مثال للجمال المصرى القديم
— تمثال الملكة نفرتيتي —

دار الآثار المصرية في قصر النيل

الدور الارضي في دار الآثار المصرية



العالم الأثري المصري المغفور له
احمد كمال باشا



رسم الدور الارضي لدار الآثار المصرية في الجيزة وهي الدار التي تقدمت
دار الآثار المصرية الحديثة في قصر النيل



رأس مومياء رعمسيس الثاني



لوحة تمثل الملك اخناتون يعبد الشمس



الدين والنهضة

الاخلاقية الحديثة

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

العقوبات الدولية

الادبية والمالية والاقتصادية



حديقة المقتطف

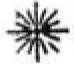
الحرب القادمة

كتبها اوزبرت ستول سنة ١٩١٥

القارورة اليونانية

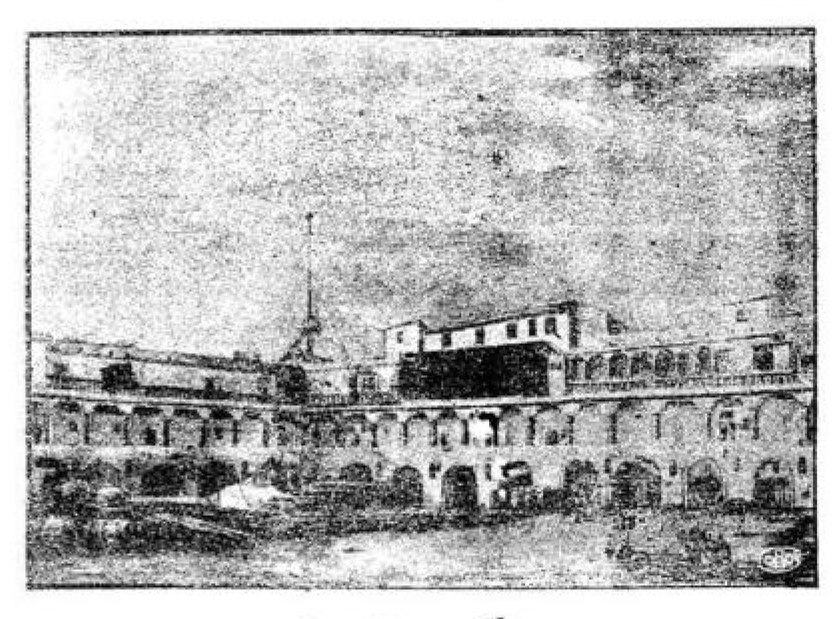
لجون كيتس

« نقلها خليل هنداوي »



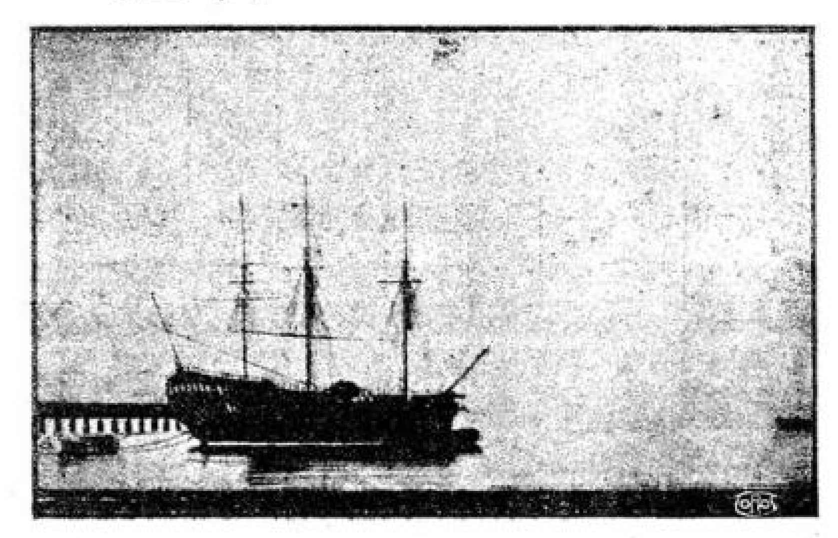
مشهد في داخل صومعة الغلال الحديثة وفيها النقالة « الاوتوماتيكية »

صومعة للغلال تتسع لثلاثين الف طن



مساكن ضباط الترسانة

رسم صبري بك



السفينة الحربية ابو قير

رسم صبري بك